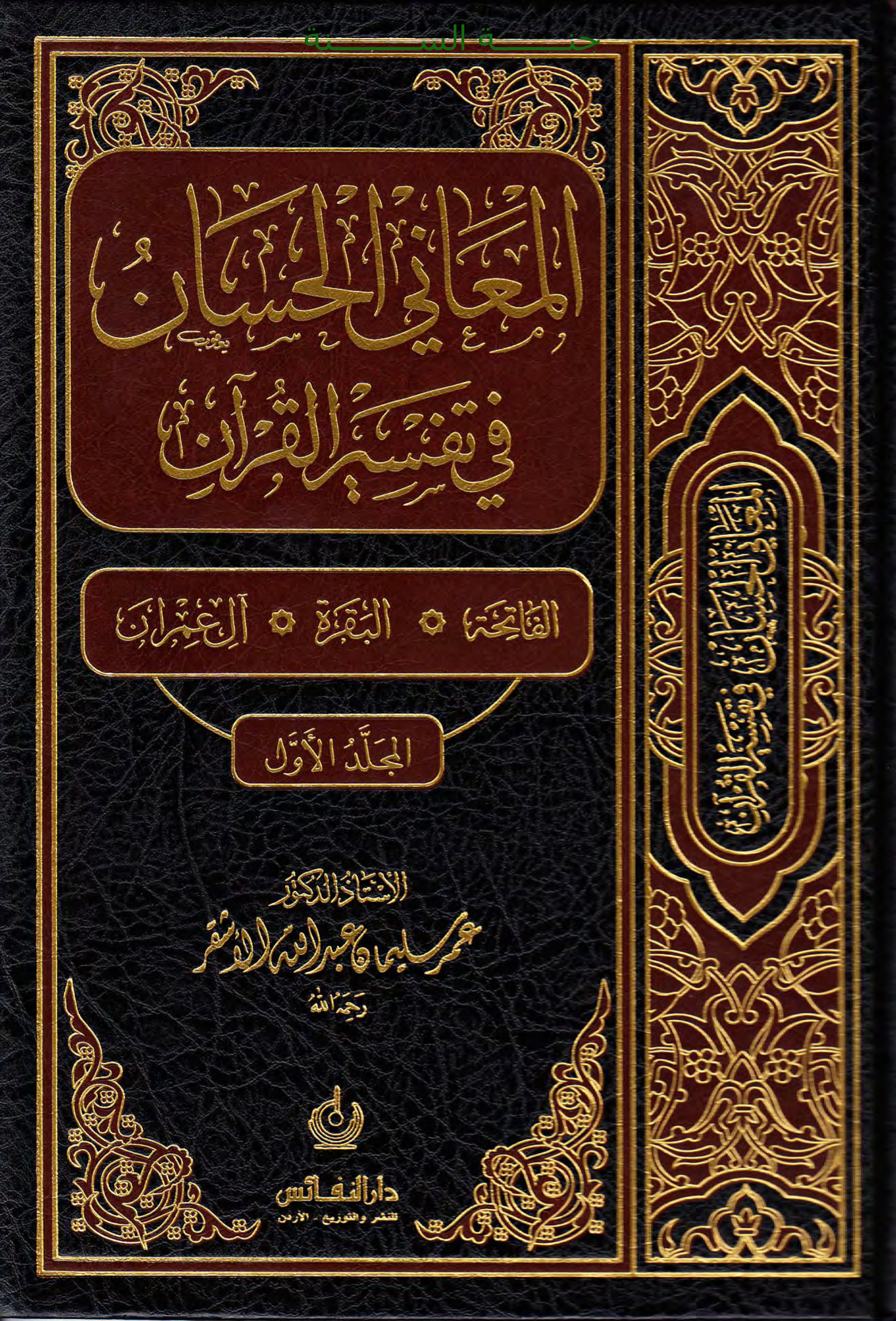
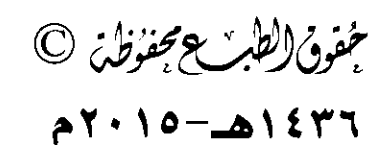

جنة السنة
المعاني الحسان في تفسير القرآن
الفاتحة
البقرة
آل عمران
المجلد الأول
الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبدالله الأشقر
رحمه الله
دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

المعاني الحسان في تفسير القرآن

١

جنة السنة

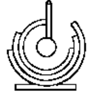


١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

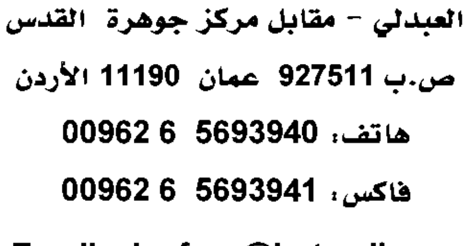
الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٣/٦/١٨٦٣

٢٢٢,٣
الأشقر، عمر سليمان
المعاني الحسان في تفسير القرآن/ عمر سليمان الأشقر.-عمان-دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
( ) ص.
ر. إ.:١٨٦٣/٦/ ٢٠١٣
الواصفات: / تفسير القرآن// سور القرآن// القرآن الكريم/



دار النفائس
للنشر والتوزيع-الأردن



العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن
هاتف: 5693940 6 00962
فاكس: 5693941 6 00962
Email: alnafaes@hotmail.com
www.al-nafaes.com



ISBN ردمك
9 789957 801496





المعاني الحسان في تفسير القرآن

الفاتحة ✿ البقرة ✿ آل عمران

المجلد الأول

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله



دار النفائس
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

اليوم يسرنا أن نقدم للقارئ الكريم تفسيراً معاصراً، هو:

(المعاني الحسان في تفسير القرآن)

للشيخ الدكتور: عمر بن سليمان الأشقر

رحمه الله

قد سعى المؤلف فيه لبيان معاني النصوص القرآنية،
وفقاً للمنهج الذي كان عليه الصحابة
ومن سار على طريقهم، وغالباً ما يذكر المعنى الراجح
لديه، ولا يتعرض للخلاف إلا قليلاً،
وقد أنهى الشيخ رحمه الله تفسير ثمانية عشر جزءاً
فبلغ إلى سورة النور، وحالت المنية دون إتمامه،
وتوفي في آخر يوم جمعه في رمضان ١٤٣٣هـ
رحمه الله تعالى
وأسكنه فسيح جنانه

الناشر

شكر وتقدير

الحمد لله وحده

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد،

فتشكر

دار النفائس للنشر والتوزيع - الأردن

جميع الأخوة الذين بمجهودهم في إتمام طباعة هذا التفسير من

العلماء وتلامذة المؤلف رحمه الله ،

والشكر موصول أيضاً

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

في دولة قطر

التي تبنت طباعته والمساهمة في أجر نشره وتوزيعه بين أدي طلبة

العلم والعلماء، خدمة لكتاب الله تعالى وإسهاماً منها في نشر

علومه والحمد لله على توفيقه وفضله.

الناشر

فَاتِحَةُ الكِتَابِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ ليكون هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان، ففتح الله به قلوباً غلفاً، وآذاناً صماً، وعيوناً عمياً، وهداهم به للتي هي أقوم، وأنار لهم الطريق، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور.

وأنزل الله هذا القرآن العظيم ليكون عصمة لهذه الأمة من الفتن، ما استمسكت به، فيه نبأ ما قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

وهو الذي لم تنته الجنُّ إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن:١-٢].

من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هَدَى إلى صراط مستقيم.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، الذي أنزل عليه آخر كتبه، فأصبح به من المرسلين إلى الناس أجمعين، وتخلق بأخلاقه، واتصف بصفاته، وبينه أحسن البيان، وبلَّغه إلى العالمين، وجاهد في سبيله أتمَّ الجهاد، فصلوات الله وسلامه عليه صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين.

والصلاة والسلام على آله الأبرار وصحبه الأخيار، الذين تلقوا هذا الكتاب من فم الرسول ﷺ غَضّاً طرياً، وفقهوا عن رسول الله ﷺ بيانه، فاستنارت به قلوبهم، وصلحت أعمالهم، وبلغوه إلى الناس، فصلوات الله عليهم أجمعين، وعلى من سلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الله تعالى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، ففرق به بين الحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي، والصدق والكذب، والعلم والجهل، والمعروف والمنكر، وطريق أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء، وبين ما عليه الناس من الاختلاف.

وجعل الله كتابه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:٢]. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ [النحل:٨٩] وهدى للناس أجمعين ﴿أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥] وجعله ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف:١١١] و﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] و﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:٩٧] وجعله روحاً للأرواح، ونوراً للقلوب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى:٥٢].

وهو آخر هدى أنزل من عند الله، من أخذ به فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عنه فإن له معيشة ضنكاً ويحشره الله يوم القيامة أعمى، فإن الله قال للأبوين عندما أهبطا من الجنة إلى الأرض ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه:١٢٣-١٢٦].

وحاجة الأمة رجالها ونسائها، وكبارها وصغارها حاجة ماسّة لهذا الكتاب، فهو مركب النجاة في الدنيا والآخرة، فهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هَدَى إلى صراط مستقيم، ومن تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة:١٥-١٦].

وتلاوة القرآن مثاب صاحبها مأجور، ولكن المقصود الأكبر للقرآن هو تدبر آياته، وفقه معانيه، واستخلاص فوائده وأحكامه، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٢٩﴾ [ص:٢٩].

ولو أن الذين يدرسون العلوم اكتفوا بترديد كلماتها وكتبها من غير فهم لها، لما أصبح عندنا أطباء، ولا مهندسون، ولا علماء باللغات، ولذلك لم تكن مهمة الرسول ﷺ متوقفة على تلقي القرآن وحفظه وإبلاغه للناس فحسب، بل كلفه الله بفقهه، وتفقيه الناس به،

وتبيينه للناس ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤].

وقد أقام الرسول ﷺ أصحابه على الفقه الصحيح للقرآن، فاستوعب الصحابة القرآن حفظاً وفهماً، وكان الصحابي إذا تعلم عشر آيات من القرآن لم يتجاوزها حتى يتعلم ما فيها من العلم والعمل، فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً.

وانظر إلى مجاهد، وهو من أجلّ أصحاب ابن عباس، ومن علماء عصر التابعين، فإنه عرض المصحف جميعه على ابن عباس، يوقفه على كل آية منه، ويسأله عنها، ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، ولهذا اعتمد تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم كالإمام أحمد.

وعندما ابتدأ عصر التدوين قام علماء أعلام، فدونوا تفسير القرآن، واعتمدوا في التفسير على تفسير القرآن بالقرآن، ثم القرآن بالسنّة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال علماء التابعين الذين أخذوا عن الصحابة، وخير من نهج هذا النهج من المفسرين ابن جرير الطبري، فقد نهج النهج الأصفى والأوفى في التفسير، وقد كانت وفاته عام (٣١٠هـ) وكتابه في التفسير هو: «جامع البيان عن تأويل القرآن» وقد حوى كتابه ما فسر به رسولنا ﷺ القرآن، وما فسر به صحابة الرسول ﷺ القرآن أمثال عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن عمر، وغيرهم، وكان المقدم في التفسير في عهد التابعين أهل مكة، ففيها كان ابن عباس، فبث علمه فيها، وتتلمذ عليه تلامذة نجباء، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «أعلم الناس بالتفسير أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وأبي الشعثاء، وسعيد ابن جبر وأمثالهم» [مجموعة الفتاوى: ٧/ ١٨٦].

ومن علماء التابعين المبرزين الذين عنوا بالتفسير سعيد بن جبر روى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما، وقد قتله الحجاج صبراً عام (٩٥هـ) عليه من الله ما يستحق.

ومنهم مجاهد بن جبير، المولود في عام (٢١هـ)، وكان حافظاً ثقة عرض القرآن على ابن عباس مرات كثيرة، توفي سنة (١٠٤هـ) في مكة وهو ساجد، ومنهم عكرمة مولى ابن عباس، توفي رحمه الله سنة (١٠٤هـ).

ومن علماء التابعين الذين أخذوا عن عدد كبير من الصحابة طاووس بن كيسان اليماني، أخذ عن العبادلة الأربعة، ونقل عنه أنه جالس خمسين من الصحابة توفي سنة (١٠٤هـ).

ومنهم عطاء بن أبي رباح المتوفى سنة (١١٤هـ) حدث عن نفسه أنه لقي مائتين من الصحابة.

وأخذ ابن جرير عن علماء مدرسة المدينة في التفسير ومنهم من الصحابة أبي بن كعب، ومن علماء التابعين في المدينة أبو العالية بن مهران الرياحي المتوفى سنة (٩٠هـ)، ومنهم محمد ابن كعب القرظي المتوفى سنة (١١٨هـ) ومنهم زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، المتوفى سنة (١٣٦هـ). وكان من علماء التابعين في العراق علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد وغيرهم.

وقد سار على هذا النهج الصحيح الصائب علماء كثيرون، فسروا القرآن في مختلف العصور، أمثال الإمام البغوي أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي الملقب بمحيي السنة، والمتوفى في سنة (٥١٦هـ) ألف كتابه في التفسير وسماه «معالم التنزيل» ويدعى بتفسير البغوي.

ومنهم العلامة أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى عام (٧٧٤هـ)، سمى كتابه بـ «تفسير القرآن العظيم».

ومنهم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي الأندلسي المتوفى عام (٧٩٢هـ). ألف كتاب «التسهيل لعلوم التنزيل»، ومنهم عبدالرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة (٩١١هـ) وسمى كتابه: «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» وغيرهم كثير.

وقد تولدت في العالم الإسلامي فِرَق كثيرة قعدت قواعد، وبنت أصولاً، واعتقدت عقائد خالفت فيها ما كان عليه الصحابة، وعلماء أهل السنّة من التابعين وأتباعهم، ومن هذه الفِرَق الخوارج والمعتزلة والشيعة والمرجئة وغيرهم، وقد نشأت بعض هذه الفِرَق في آخر عهد الصحابة كالخوارج والشيعة، وبعضها في عصر التابعين أمثال المعتزلة، وبعضها بعد ذلك.

وقام علماء كل فرقة من هذه الفِرَق بتفسير كتاب الله، وحشوه بقواعدهم وأصولهم وعقائدهم، ومن أمثال هذه التفاسير تفسير «الكشاف» لمحمود بن عمر الزمخشري المعتزلي، المتوفى سنة (٥٣٨هـ).

وهذا الكتاب ليس له نظير في بيان أسرار بلاغة القرآن، والكشف عن وجوه إعجازه، وقد أوضح لنا فيه عن دقة المعنى الذي يفقه من التركيب اللفظي، كل هذا في قالب أدبي رائع، وصوغ إنشائي بديع [التفسير والمفسرون: ١/ ٤٤٢].

ولكنه حشاه بعقائد المعتزلة وأصولهم وعقائدهم، فقرر فيه أنَّ القرآن مخلوق، وأن مرتكب الكبائر في منزلة بين المنزلتين في الدنيا، وهو في النار في الآخرة إن لم يتب من كبيرته

في الدنيا، ونفى رؤية الله في الآخرة، وتفنن في تحريف نصوص القرآن المقررة كذلك، ورد الأحاديث الصحيحة المصرحة برؤيته، وقرر أن صفات الله ليست شيئاً زائداً عن ذات الله، وقرر عقيدة المعتزلة التي تزعم أن أفعال العباد لم يخلقها الله، وأنها كائنة بغير مشيئته، كما قرر غير ذلك من أصول المعتزلة.

ومن كتب المعتزلة في التفسير كتاب «تنزيه القرآن عن المطاعن» للقاضي عبدالجبار، وكتاب أمالي المرتضي.

ومن كتب الشيعة التي فُقدت وبقي منها مقدمتها في دار الكتب المصرية كتاب «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار» للمولى عبداللطيف الكازراني وتفسير الحسن العسكري، وهو الإمام الحادي عشر عند الإمامية الاثني عشرية، والمعروف بالحسن العسكري، المتوفى عام ٢٣١هـ وكتاب «مجمع البيان لعلوم القرآن» للطبرسي، المتوفى عام ٨٣٥ هـ.

ومن المؤلفات في التفسير لعلماء الخوارج كتاب «هميان الزاد إلى دار المعاد» لمحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح أَطَّفَيِّش الوهبي، المتوفى في سنة (١٣٣٢هـ) وهو مطبوع في مجلد واحد.

وللعلماء من الصوفية والفلاسفة مؤلفات في التفسير كثيرة.

وقد قامت في نفسي رغبة قوية منذ سنوات كثيرة تدعوني إلى تفسير كتاب الله العظيم، وترددت في تلبية هذه الرغبة، وكنت أُقدِّم في هذا السبيل مرة، وأُحجِم أخرى، وعزمت أخيراً على المضي في تحقيق تلك الرغبة وأنا في خريف العمر، وأسأل الله الكريم، ربَّ العرش العظيم أن يعينني على تحقيق ما عزمت عليه، وأن يبارك لي فيما أنا مقدم عليه، وأن يحلَّ في نفسي بركات هذا الكتاب، وأن يكرمني بهداه، وأن يجعل من وراء ذلك خيراً لي ولذريتي من بعدي ولإخواني المسلمين الذين يصل إليهم هذا الكتاب.

إنني اليوم أعمل بجدّ في إظهار المعاني الحسان لآيات القرآن، وقد قاربت السبعين من العمر، والكتابة في تفسير آيات القرآن تجعل كاتبه يعايش هذا الكتاب، ويقضي وقته في تدبر كلماته وآياته ومقاطعه، وهو في تدبره يرجع إلى كتب المفسرين، وآثار الغابرين ويُجهِد نفسه في فقه النصّ القرآني على الوجه الذي يريده الله منه.

وقد هدفت في هذا التفسير إلى بيان معاني النصوص القرآنية، وفق المنهج الذي كان عليه الصحابة وتلامذتهم الأعلام من علماء التابعين، بعيداً عن الذين فسروا القرآن بأهوائهم وآرائهم، واعتمدت المراجع التي تلتزم بهذا النهج.

ولم أعنَ فيه بذكر الخلاف إلا قليلاً، وكل همي الكشف عن المعنى الصواب وبيانه بأجلى عبارة.

وقد قسمت في هذا التفسير السور الطوال إلى نصوص، بأرقام متسلسلة يحوي كل نص موضوعاً واحداً، أو موضوعات متقاربة، وكل نص يحوي أربع خطوات.

الأولى: مقدمة، أبرز فيها المعنى أو المعاني الرئيسة التي تحويها آيات النص.

الثانية: تُعنى بذكر آيات ذلك النص من القرآن.

الثالثة وعنوانها: المعاني الحسان في تفسير آيات ذلك النص من القرآن.

أما الخطوة الرابعة فتُعنى بإيراد فقه الآيات والفوائد المستخلصة من تلك الآيات، وقد قدمت لهذا التفسير بمقدمة ذكرت فيها: أولاً: تعريف القرآن في اللغة والاصطلاح، وأتبعت ذلك بذكر نبذة من النصوص القرآنية التي يعرف الله عباده بها بالقرآن العظيم.

وذكرت ثانياً الغاية التي تراد من إنزال القرآن.

وبينت ثالثاً فضائل القرآن الكريم.

أسأل الله العلي القدير أن يوفقني إلى فقه كتابه والعمل به، وأن يجنبني الزلل في القول والعمل، وأن يرزقني إخلاص النية له وحده، وأن يثيبني به يوم نلقاه في يوم الدين، وأن ينفع بهذا الكتاب عباده، إنه نِعْمَ المدعو، ونِعْمَ المجيب، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عمر سليمان عبدالله الأشقر
عمان - الأردن

١ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ
٢١ نيسان ٢٠٠٩م

مُقَدِّمَة

أولا: التعريف بالقرآن الكريم:

١- القرآن في لغة العرب: القرآن في لغة العرب مصدر نحو كفران ورجحان، تقول: قرأته قَرْءاً وقراءة وقرآناً بمعنى واحد، أي تلوته تلاوة، وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة:١٧-١٨]

[المفردات للراغب الأصفهاني: ص٤٠٢، النبأ العظيم لدراز: ص٧].

والقراءة في لغة العرب كما يقول الأصفهاني: «ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل» [المفردات للراغب الأصفهاني: ص٤٠٢].

٢- القرآن في الاصطلاح: بعد تنزل القرآن من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ أصبح القرآن علماً شخصياً على هذا الكتاب الكريم، ويمكن أن نعرفه بما يأتي:

أ- القرآن كلام رب العالمين المنزل من العلي الحكيم: الكلام ليس خلقاً من خلق الله، بل هو كلامه العظيم كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، والمراد بكلام الله الذي يسمعه المشرك: القرآن الكريم.

وهو منزل من الله العلي الحكيم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإنسان:٢٣]، وقال علماؤنا قديماً: «بدأ القرآن من الله، وإليه يعود».

ب- نزل جبريل بالقرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ: تلقى جبريل عليه السلام الذي هو الروح الأمين، القرآن الكريم من رب **العالمين**، ونزل به على قلب سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه، فأصبح بذلك من المنذرين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

ج- أنزله ربُّ العزة بلسان عربي مبين: أنزل ربّ العزة القرآن بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف:٢].

وقد مضت سنّة الله أن يرسل الرسل بلسان الأقوام الذين أرسلوا إليهم، وينزل عليهم الكتب بألسنة أقوامهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾

[إبراهيم:٤].

د- **القرآن معجز في بيانه:** مع أنَّ القرآن منزل بلغة العرب، إلا أنه مصاغ صياغة لا يطيق أحد من البشر أن يأتي بمثلها، وقد كان العرب يتبارون بالفصاحة والبلاغة، فتحداهم العليُّ العظيم أن يأتوا بمثل القرآن، فقال: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٤] أي: مثل القرآن.

ثم تحداهم أن يأتوا بمثل عشر سور منه، فعجزوا عن ذلك، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣].

فلما عجزوا عن ذلك تحداهم أن يأتوا بمثل سورة واحدة منه ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة:٢٣].

ومع أن أفصح الناس في لغة العرب هم العرب الذين أنزل الله القرآن عليهم، إلا أن الله تحدى بالقرآن الإنس والجن والعالمين جميعاً، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس:٣٨]. وقرر رب العزة أن الإنس والجن ولو اجتمعوا على صعيد واحد عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن العظيم ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨]. وقد مضى أكثر من ألف وأربعمائة عام على تنزل القرآن والبشر جميعاً عاجزون عن الإتيان بمثل سورة من القرآن الكريم.

هـ- **القرآن منقول إلينا نقلاً متواتراً:** جمع القرآنَ الخليفةُ أبو بكر الصديق بإشارة من الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ثم أمر عثمانُ بن عفان ﷺ في خلافته بنسخه في خمس أو سبع نسخ، وأبقى واحدة عنده في المدينة، ووزع النسخ الأخرى في الأقطار الكبار، وهذا القرآن حظي بإشراف أبي بكر وعمر أولاً، ثم حظي بإشراف عثمان وعلي ثانياً، بل حظي بموافقة الصحابة كلهم رضوان الله عليهم.

وقد كان الصحابة حريصين كل الحرص على تلقي القرآن من رسول الله ﷺ، وقد حفظ الصحابة كل نص من نصوصه حفظاً متواتراً، بل إن عدداً كبيراً منهم حفظه كله، ففي [صحيح البخاري: ٤٠٩٠] أن الذين قتلوا من قراء القرآن من الصحابة في غزوة بئر معونة كانوا سبعين.

وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يأخذوا القرآن عن أربعة، وهم: عبدالله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب [البخاري: ٤٩٩٩].

وأخبر أنس بن مالك أن الذين جمعوا القرآن في عهد الرسول ﷺ أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، أحد عمومة أنس بن مالك [البخاري: ٣٨١٠، ومسلم: ٢٤٦٥].

أما بعد الصحابة فقد حفظ القرآن ألوف في كلِّ عصر ومصر، ويحفظ القرآن في عصرنا أقوام لا يحصون عدداً.

و- **القرآن متعبد بتلاوته:** تعبد الله عباده المؤمنين بتلاوة القرآن في صلاتهم، ويجتمعون على تلاوته في مساجدهم وبيوتهم ومنتدياتهم، وليست هذه الخصوصية لغيره، وهذا مما يخالف به القرآن الأحاديث القدسية.

٣- **تعريف الله عباده بالقرآن:** لا يعرف القرآن أحد كما يعرفه المتكلم به، الذي صاغه كما يحب ويرضى، وأنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، وقد وصفه تبارك وتعالى وصفاً يعجز غيره عن مثله، فقد سماه الله قرآناً كريماً، ووصفه في آية أخرى بأنه مجيد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ [الواقعة:٧٧]، وقال: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١﴾ [البروج:٢١].

وجعله الله نوراً وروحاً ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى:٥٢]، وسماه نوراً لأننا نبصر به الخير والشر، ونعرف به الحلال والحرام، وسماه روحاً، لأنه يحيي به القلوب والنفوس كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وسماه الفرقان ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان:١] لأننا نفرق به بين الحق والباطل، وجعله الله شفاء ورحمة للمؤمنين ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢] وهو شفاء لأمراض القلوب ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:١٥٧] وهو شفاء لأمراض الأبدان. وهو ذكر مبارك ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ [الأنبياء:٥٠] سماه ذكراً لما فيه من المواعظ، والتذكير بالله وجنته وناره.

وجعله الله عزيزاً ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾ [فصلت:٤١] لأن من يريد معارضته لا يستطيع أن يأتي بمثله.

وجعله الله حكيماً ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس:١] لأن الله أحكم آياته فهي في القمة من الصدق والعدل والفصاحة والبلاغة، وجعله الله صراطاً مستقيماً ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣] لأن سالكه يقدم على رحمة الله وجنته، وينجو من غضبه وناره.

ثانيا: الغاية من إنزال القرآن الكريم:

١- أنزل الله القرآن ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور: أنزل الله هذا الكتاب ليخرج الناس من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإسلام والإيمان: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١]، وقد جعل الله آيات هذا الكتاب وسوره روحاً يحيي بها قلوب العباد، ونوراً تشرق به النفوس ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢].

٢- اعتصام الأمة الإسلامية بالقرآن يعصمها من الفتن والفرقة: تهب على الأمة الإسلامية عبر تاريخها فتن تعصف بها، وتذهب ريحها، وتفرق جمعها، فإذا اعتصمت بالقرآن، ولاذت به، حفظت من البلاء، وبقيت لها وحدتها، روى أبو شريح الخزاعيّ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا، أبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبداً» [خرجه الألباني في سلسلة الصحيحة: ١٣، وعزاه إلى عبد بن حميد في المنتخب المسند. والمصنَّف لابن أبي شيبة وغيرهم].

وروى الترمذي في سننه عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنةٌ، فقلتُ: ما المَخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتابُ الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكْم ما بينكم، وهو الفصْلُ ليس بالهزْل؛ من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغُ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنتهِ الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:١-٢] من قال به صُدِّقَ، ومن عَمِلَ به أُجِرَ، ومن حكم به عَدَلَ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».

(وقوله في الحديث: لا تزيغ: معناها لا تضل، وقوله: لا يخلق: أي لا يبلى ولا يزول).

[رواه الترمذي في سننه (٢٩٠٧) وضعفه قائلاً: هذا الحديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. والذي حققه ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١) أنه من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقال فيه: وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح].

٣- **تأثير القرآن على من يحسن الإنصات إليه:** القرآن ذو تأثير عظيم على القلوب الخاشعة والنفوس الزاكية، والأرواح الحية المستنيرة، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر:٢٣]، ولو أنَّ الله أنزل هذا القرآن على الجبال الصم الراسيات لتصدَّعت من خشية الله ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر:٢١].

وتأثير هذا القرآن ليس قَصْراً على الأحياء من البشر، بل هو قادر على أن تُسَيَّر به الجبال، وتقطع به الأرض، ويكلم به الموتى ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ [الرعد: ٣١] ومعنى الآية: لو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى، لكان هذا القرآن.

ثالثا: فضائل القرآن:

فضائل القرآن عظيمة يصعب حصرها وعدُّها، ومن ذلك:

١ - **أهل القرآن أهل الله:** أهل القرآن هم أهل الله كما في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله أهلين من الناس، قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: هم أهل القرآن أهل الله وخاصته» [ابن ماجه: ٢١٥، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه].

٢- **خير هذه الأمة من تعلم القرآن وعلمه:** أفضل هذه الأمة أولئك القائمون على تَعلُّم القرآن وتعليمه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» [البخاري: ٥٠٢٧].

٣- **فضل الذين يجتمعون في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله:** بشَّر الرسول ﷺ المسلمين الذين يجتمعون على كتاب الله في بيت من بيوت الله يتلونه ويتدارسونه بينهم، روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» [مسلم: ٢٦٩٩].

٤ - **الماهر بالقرآن تلاوةً وحفظاً مع السفرة الكرام البررة:** أعلمنا رسولنا ﷺ بفضل الماهر بالقرآن الذي أتقن حفظه وتلاوته أنه يبلغ درجة الملائكة السفرة الكرام البررة، فعن

عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويَتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليه شاق له أجران» [مسلم: ٧٩٨] ولفظ الحديث في البخاري: «مثل الذي يقرأ القرآن، وهو حافظ له، مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ وهو يتعاهده وهو عليه شديد، فله أجران» [البخاري: ٤٩٣٧].

٥- **يرفع الله بالقرآن أقواماً ويضع به آخرين:** أخبرنا رسولنا ﷺ أن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين، فعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين» [مسلم: ١٧].

٦- **الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب:** شبه الرسول ﷺ الذي ليس في جوفه شيء من القرآن بالبيت الخرب، وفي ذلك يقول: «الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب» [الترمذي: ٢٩١٣. وقال فيه: حديث حسن صحيح].

٧- **مثل المؤمن والمنافق اللذين يقرآن القرآن واللذين لا يقرآنه:** ضرب الرسول ﷺ لكل من المؤمن والمنافق مثلاً في حال قراءَتهم للقرآن أو عدم قراءَتهم له، فعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يقرأ القرآن، ويعمل به كالأترجة، طعمها طيب، وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة، طعمها طيب، ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة، ريحها طيب، وطعمها مر، ومثل القرآن الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة، طعمها مرٌّ أو خبيث، وريحها مرّ» [البخاري: ٥٠٥٩. مسلم: ٧٩٧].

٨- **من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به عشر حسنات:** لقارئ القرآن بكل حرف يقرؤه عشر حسنات، فعن عبدالله بن مسعود قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» [الترمذي: ٢٩١٠. وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه].

٩- **منزلة قارئ القرآن عند آخر آية قرأها:** ومنزلة قارئ القرآن عند آخر آية قرأ بها، فعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها» [الترمذي: ٢٩١٤، وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح].

١٠- **شفاعة القرآن لأهل القرآن:** أخبرنا رسولنا ﷺ عن شفاعة القرآن لأصحابه الذين كانوا يرتلونه، ويعملون به، ففي سنن الترمذي عن أبي هريرة ﷺ عن نبينا محمد ﷺ قال: «يجيء القرآن يوم القيامة، فيقول: يا رب حلّه، فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب

زده، فيلبس حلَّة الكرامة، ثم يقول: يا ربِّ ارض عنه، فيرضى عنه، فيقال له: اقرأ وارق، وتزاد بكل آية حسنة» [الترمذي: ٢٩١٥، وقال فيه: حسن صحيح].

١١ – **غبطة صاحب القرآن**: ولما كان للقرآن هذا الفضل، وفيه هذا الأجر، جاز لمن لا يحسنه أن يغبط من يحسنه، ففي الحديث عن عبدالله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا على اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالاً، فهو يتصدق به آناء الليل والنهار» [البخاري: ٥٠٢٥. مسلم: ٨١٥].

وليس المراد به الحسد المذموم الذي هو تمني زوال النعمة عن الغير، لتصير إليه، وإنما المراد به الغبطة، وهو تمني أن يعطى مثل الذي يغبطه، يوضحه حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له، فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل» [البخاري: ٥٠٢٦].

١٢ – **تنزل الملائكة لقراءة القرآن**: تتنزل الملائكة في بعض الأحيان لقراءة القرآن، وقد تنزلت لقراءة الصحابي الجليل أسيد بن حضير، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري، أن أُسَيد بن حُضَيْر، بينما هو ليلةً يقرأ في مِرْبَده، إذ جالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أيضاً.

قال أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى، فقمتُ إليها، فإذا مثل الظُّلة فوق رأسي فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها.

قال: فغدوتُ على رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله ! بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مِرْبَدي؛ إذ جالت فرسي.

فقال رسول الله ﷺ : «اقرأ ابنَ حُضَيْر!» قال: فقرأتُ، ثم جالت أيضاً. فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ابن حضير!» قال: فقرأتُ، ثم جالت أيضاً. فقال رسول الله ﷺ : «اقرأ ابنَ حضير!».

قال: فانصرفتُ، وكان يحيى قريباً منها، خشيتُ أن تطأهُ، فرأيتُ مثل الظُّلة، فيها أمثال السُّرُج، عرجت في الجو حتى ما أراها، فقال رسول الله ﷺ : «تلك الملائكة كانت تستمعُ لك، ولو قرأتَ لأصبحت يراها الناس، ما تستتر منهم» [مسلم: ٧٩٦]. والمربد للتمر في الحديث – كالبيدر للقمح، وجالت الفرس: وثبت. والمراد بيحيى هو ابن أسيد كان صغيراً نائماً قرب الفرس.

والظلة: ما يقي من الشمس كالسحاب، أو سقف المنزل.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «قرأ رجلٌ الكهف، وفي الدار دابةٌ فجعلت تنفرُ، فنظر فإذا ضبابةٌ أو سحابة قد غشيته، قال فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال: اقرأ. فلان! فإنها لسكينة تنزّلت عند القرآن، أو تنزلت للقرآن» [البخاري: ٣٦١٤. مسلم: ٧٩٥].

١٣- ثلاث آيات يقرأ بها القارئ في صلاته خير من ثلاث خلفات يحوزها المرء بغير عناء: عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ : «أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خَلِفاتٍ عظامٍ سمانٍ؟» قلنا: نعم. قال: «فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته، خير له من ثلاث خلفاتٍ عظام سمان» [مسلم: ٨٠٢]. والخلفة: الحامل من النوق.

عن عقبة بن عامر، قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة، فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بُطْحان، أو إلى عقيق، فيأتي منه بناقتين كوْماوَيْن، في غير إثم ولا قطع رحم؟» فقلنا: يا رسول الله! نحب ذلك، قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خيرٌ له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعْدادهن من الإبل؟» [مسلم: ٨٠٣].

و«الصفة»: موضع في المسجد كان يؤوي إليه فقراء الصحابة، و«يغدو» أي يذهب في الغدوة، والغدوة أول النهار. و«بطحان» موضع قرب المدينة، و«العقيق» وادٍ في المدينة. و«كوماوين» الكوماء من الإبل العظيمة السنام.

١٤- الشهر الذي أنزل فيه القرآن خير الشهور: جعل الله شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن خير الشهور، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

١٥- الليلة التي أنزل فيها القرآن خير الليالي: وجعل الله ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن خيراً من ألف شهر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:١-٥].

١٦- البلد الذي أنزل فيه القرآن خير البلاد: وجعل الله البلد الذي أنزل فيه القرآن وهو مكة خير البلاد، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة.

١٧- الرسول الذي أنزل عليه القرآن أفضل الرسل: وجعل الله الرسول الذي أنزل عليه القرآن، وهو محمد ﷺ أفضل الرسل، وخير الأولين والآخرين.

رابعا: خصائص القرآن الكريم:

القرآن له خصائص كثيرة، منها:

١- **أنه كلام الله منزل من عند الله:** أعظم خصائص القرآن كما سبق بيانه أنه كلام الله العظيم، منزل من عند العليم الحكيم، قال أبو البقاء الكفوي: «والأمة من السلف مجمعة على أن القرآن كلام الله تعالى، وهو منتظم من الحروف والأصوات، ومؤلف ومجموع من سورٍ وآيات، مقروء بألسنتنا، محفوظ في صدورنا، مسطور في مصاحفنا، ملموس بأيدينا، مسموع بآذاننا، منظور بأعيننا، ولذلك وجب احترام المصحف وتبجيله حتى لا يجوز للمحدث مسّه ولا القربان إليه، ولا يجوز للجنب تلاوته» [الكليات: ص٧٢٠].

٢- **أخبار القرآن صدقٌ كلُّها وأحكامه عدل كلها:** أحكم الله -تبارك وتعالى- آيات القرآن الكريم، ثم فصّلها، ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود:١]، ومن هذا الإحكام أنَّ أخباره صدق كلها، وأحكامه عدل كلها ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام:١١٥] ولذا فإن المنصف لا يجد في القرآن شيئاً من التناقض والاختلاف ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء:٨٢].

٣- **القرآن محفوظ بحفظ الله:** وقد تكفل الله بحفظه، فلا يتغير، ولا يتبدل، مهما طال الزمان، وتكاثرت الفتن، وتعاظم الكيد ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر:٩]، فهو باقٍ على حاله التي أنزلها على رسوله، غير قابل للتحريف والتغيير ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت:٤٢].

وقد حفظ الله القرآن بطريقين: الأولى: الحفظ في الصدور، والثانية: الحفظ في السطور، وقد أقبلت الأمة على حفظ القرآن حفظاً موافقاً للقرآن المسطور على الرسم الذي أجمع الصحابة عليه، فلا عبرة بحفظ حافظ حتى يوافق الهيئة التي وضع عليها.

وقد سمى الله كلامه المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ قرآناً وكتاباً إشارة منه تعالى إلى حفظه في الصدور والسطور [النبأ العظيم: ٨].

٤- **القرآن أعظم كتاب هداية:** القرآن أعظم كتاب هداية، يهدي إلى الله ويعرف به، ويقيم العباد على الصراط المستقيم، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة:٢]، وقال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ

وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة:١٨٥]، وهو يهدي للتي هي أقوم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

ومع أن القرآن كتاب الهداية الأقوم والأعظم، فهو كتاب شفاء ورحمة أيضاً ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢].

٥- **تيسير رب العباد القرآن للذكر**: مع أن القرآن في القمة من الفصاحة والبلاغة، إلا أن رب العباد يسره للذكر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القمر:٢٢]، ومن تيسير الله القرآن أنه يقرؤه العالم الكبير، ومن قلّ علمه، وتقرؤه العجوز الكبير، فيشدُّها وتبكي، ويقرؤه الصغير، بل يحفظه، وقد رأينا كثيراً من الأمم التي لا تعرف العربية تقرؤه بإتقان وتحفظه حفظ من لا يكاد يخطئ فيه.

خامسا: حاجة أهل العلم للقرآن:

تحدث السيوطي رحمه الله تعالى عن حاجة العلماء إلى القرآن على اختلاف علومهم، فقال:

«ترى كل ذي فنٍّ من القرآن يستمدّ، وعليه يعتمد، فالفقيهُ يستنبطُ منه الأحكام، ويستخرجُ علم الحلال والحرام، والنحويُّ يبني منه قواعدَ إعرابه، ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبيانيُّ يهتدي به إلى حُسْن النظام، ويعتبر مسالكَ البلاغة في صوغ الكلام، وفيه من القصص والأخبار ما يذكِّر أولي الأبصار، ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار، إلى غير ذلك من علوم لا يقدِّر قدْرَها إلا مَنْ علم حصرها، هذا مع فصاحة لفظ، وبلاغة أسلوب، تبهر العقول وتسلب القلوب، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علاّمُ الغيوب» [الإتقان في علوم القرآن: ١/ ١٦].

ونبغ البشر اليوم في الوصول إلى علم واسع في الكون أرضه وسمائه، وإنسه وحيوانه ونباته، وبحاره وأنهاره، وسهوله وجباله، ونجومه وكواكبه، وقد أذهلنا ما وجد في القرآن من حقائق كشف عنها العلم الحديث.

وليس العلماء وحدهم المحتاجين للقرآن، بل البشرية كلها بحاجة إلى هذا الكتاب ليدلهم على الله، ويعرفهم بالطريق التي توصلهم إليه.

سادسا: المدخل إلى القرآن الكريم:

ألف أهل العلم كتباً تعدُّ مدخلاً إلى القرآن الكريم، وهذه الكتب هي كتب علوم القرآن، بعضها ألف في علم واحد، كالناسخ والمنسوخ، وكتب التجويد، وأسباب النزول،

وبعضها كتب جامعة لكل هذه العلوم ولغيرها، مثل كتاب «الإتقان في علوم القرآن» لجلال الدين السيوطي، المتوفى سنة ٩١١هـ و«البرهان في علوم القرآن» لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ، وكتاب «الانتصار للقرآن» للقاضي أبي بكر ابن الطيب الباقلاني، المتوفى سنة ٤٠٣هـ، وكل هذه الكتب موجودة مطبوعة.

وعلوم القرآن الكريم التي تعرفك بالقرآن وتدلك عليه كثيرة، منها المكي والمدني، وأسباب النزول، وما نزل مفرقاً وما نزل جمعاً، ومعرفة أسماء القرآن وأسماء سوره، وجمع القرآن وترتيبه، وعدد سوره وآياته وكلماته، وحفاظ القرآن ورواته، وتلاوة القرآن وتجويده، وآداب تلاوته، ومعرفة غريبه، وإعراب القرآن، والقواعد التي يحتاج المفسر إلى معرفتها، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وخاصّ القرآن وعامه، ومطلقه ومقيده، وحقيقته ومجازه، وبدائع القرآن، وفواصل السور، وإعجاز القرآن، وفضائل القرآن وغير ذلك من العلوم، وقد ساق السيوطي منها ثمانين علماً [الإتقان: ١/ ١٨].



المجلد الأول

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله

الاستعاذة

أولاً: من الأدب مع الله الاستعاذة به عند قراءة القرآن

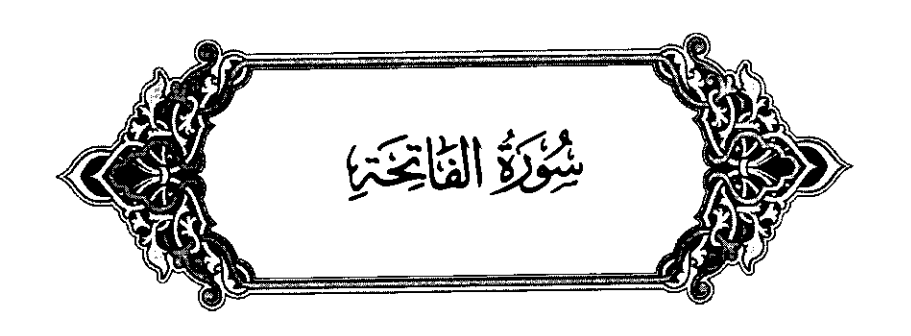
أدّبنا ربنا فأحسن تأديبنا إذ أمرنا بالاستعاذة به عندما نريد قراءة القرآن، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].

ويحقِّقُ العبد ما أمره الله به في هذه الآية بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» قبل قراءة القرآن، ومعنى هذه الكلمة: أحتمي بك يا ربنا من الشيطان الرجيم، حتى لا يخالط قلبي وعقلي عند قراءتي لكتابك، وتدبر آياتك، واستحضار عظمتك.

والشيطان هو أكبر عدوٍّ لنا، ولا يرضيه منا إلا أن يلقينا في النار، وغضب الجبار، وهو يعلم أنه لا يستطيع أن يتلاعب بقلوبنا وعقولنا إلا إذا قَطَعَ صلتنا بالقرآن الكريم قطعاً كلياً، فيحول بيننا وبينه، فلا نلتفت إليه من قريب ولا بعيد.

فإن لم يستطع مَنْعَنا من تلاوته حرص على أن يشغلنا بوساوسه عن التفكر فيه، والتأمل في معانيه، وطريقه إلى تحقيق مراده تذكيرنا بالأهل والولد، والتجارة والمال، ومتع الحياة ومنغصاتها، عندما نقرأ هذا الكتاب العظيم، وبذلك نقرأ ألفاظه، وتغيب عنا معانيه.

والله سبحانه يعلم أنه لا يدفع عنَّا الشيطان أثناء تلاوة القرآن إلا هو، فهو سبحانه القادر على الشيطان، والواقي والحامي منه، ومن هنا أمرنا بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].



أولاً: تقديم

يتناول هذا التقديم لسورة الفاتحة ثلاثة مباحث: **الأول**: التعريفُ بهذه السورة الكريمة. **والثاني**: الأسماءُ التي سميت بها، والأسباب التي أدت إلى هذه التسميات. **والثالث**: فضل هذه السورة الكريمة.

١- التعريف بهذه السورة الكريمة:

الفاتحة مكونة من سبع آيات، وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة عشر ومائة حرفٍ، وهي أولُ سور القرآن الكريم، وهي أفضل سوره، فهي أفضل من سورة البقرة، وأفضل من سورة آل عمران، بل هي أفضل ما نزل من السماء، وهي أساس القرآن وجامعة معانيه، وهي السبع المثاني والقرآن الذي آتاه الله رسوله محمداً ﷺ ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧].

وهذه الآية آية مكية باتفاق العلماء، ودلَّ على ذلك امتنانُ الله على رسوله ﷺ بإنزالها عليه في مكة بقوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧]، ويدلُّ لنزولها في مكة أيضاً أن الفاتحة مرتبطة بالصلاة، فلا تصحُّ الصلاة إلا بها، والصلاة فرضت في مكة.

٢- أسماء هذه السورة والسبب في تسميتها بهذه الأسماء:

تسمى هذه السورة بفاتحة الكتاب، وأُمِّ الكتاب، وأُمِّ القرآن، والحمد، والسبع المثاني، والقرآن العظيم.

١- وقد سماها الرسول ﷺ بفاتحة الكتاب في حديث عبادة بن الصامت، في قوله: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» [البخاري: ٧٥٦. مسلم: ٣٩٤] سميت بفاتحة الكتاب لافتتاح المصاحف بها، ولأن قارئ القرآن يفتتح التلاوة بها.

٢- وسماها الرسول ﷺ في حديث أبي سعيد بن المعلى بالسبع المثاني والقرآن العظيم، قال رسول الله ﷺ : «هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» [البخاري:٤٧٠٣]. وسماها الله بالسبع المثاني، لأنها تثنى في كل ركعة من ركعات الصلاة، أي: تكرر فيها.

٣- وسميت بأمِّ القرآن وأم الكتاب، لأنها تجمع علوم القرآن، وكلياته الأساسية في العقيدة والتصور والمشاعر والتوجهات، والعرب - كما يقول ابن جرير - تسمى «كلَّ جامعٍ أمراً، أو مقدماً لأمر أمًّا، إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع» [ابن جرير الطبري: ١/ ٤٨].

٤- وسماها رسولنا ﷺ بالحمد في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة، ونصه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني» [البخاري: ٤٧٠٤. الترمذي: ٣١٢٤] وسميت بالحمد، لأنها مفتتحة بهذه الكلمة.

وذكر السيوطي أن أسماءَها تزيد على عشرين اسماً، وذكر من أسمائها: الصلاة، والشفاء، والرقية، والأساس، والوافية، والكافية [قطف الأزهار: ص١٠٦].

والصواب الاقتصار في عَدِّ أسمائها على ما ورد في النصوص، والله أعلم.

٣- فضائل هذه السورة :

للفاتحة فضائل كثيرة، ثبتت في الكتاب والسنّة، فمِنْ ذلك:

١- الفاتحة هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر:٨٧].

وقد صرح الرسول ﷺ في حديث أبي سعيد بن المعلَّى، وحديث أُبيّ بن كعب بأن الفاتحة هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «أمُّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم» [البخاري: ٤٧٠٤].

وإنما كانت الفاتحة هي السبع المثاني، لأنها سبع آيات تُثنَّى في كلِّ ركعة من ركعات الصلاة فريضة كانت أو تطوعاً.

٢- الفاتحة أحد أعظم نورين أوتيهما الرسول ﷺ لم يؤتهما نبي من قبله، وقد أخبر الرسول ﷺ بذلك ملكٌ نزل من السماء، لم ينزل قبل ذلك اليوم، من باب لم يفتح قبل ذلك اليوم

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس، قال: «بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ، سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم، لم يُفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلّم وقال: أبشر بنورين أوتيتَهما، لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطيته» [صحيح مسلم: ٨٠٦].

وقد دلّ هذا الحديث على فضل نور سورة الفاتحة، ونور خواتيم سورة البقرة، وسيأتي أن نور سورة الفاتحة أفضل من نور خواتيم سورة البقرة.

٣- دلّ أكثر من حديث على أن سورة الفاتحة أفضل ما نزل من القرآن، فقد روى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى ﷺ، قال: مرّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آتِهِ حتى صليتُ، ثم أتيتُ، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي. فقال: «ألم يقل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤]» ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكَّرته، فقال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢] هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» [البخاري: ٤٧٠٣. وانظر رقم: ٤٦٤٧، ٥٠٠٦].

فهذا الحديث صريح في أن الفاتحة أعظم سورة في القرآن.

٤- وجاءت بعض النصوص دالة على أن الفاتحة أفضل ما أنزل من عند الله في الكتب كلها، ففي سنن الترمذي عن أبي هريرة ﷺ: أن الرسول ﷺ خرج على أبيّ بن كعب، فناداه الرسول ﷺ قائلاً: «يا أُبيّ، وهو يصلي، فالتفت أُبيّ ولم يُجِبْه، وصلّى أبي، فخفف، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وعليك السلام، ما منعك يا أُبيُّ أن تجيبني إذ دعوتك؟ فقال: يا رسول الله، إني كنت في الصلاة، قال: أفلم تجد فيما أوحى الله إليّ أن ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله.

قال: أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، قال: نعم يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: كيف تقرأ في الصلاة، قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما أُنزلتْ في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا

في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أُعطيته» [الترمذي: ٢٨٧٥، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح. وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي: ورقمه: ٢٣٠٧].

وهاتان واقعتان، جرى كل واحدة منهما مع صحابي، وقرر الرسول ﷺ في الأولى أن الفاتحة أفضل سور القرآن، وفي الثانية أنها أفضل ما أنزل في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، فهما فضيلتان، لا فضيلة واحدة.

٥- **القرآن كله شفاء، والفاتحة فيها من الشفاء ما ليس في غيرها**، فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: انطلق نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلُدِغَ سيدُ ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء.

فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لُدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله، إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيِّفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً. فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يَتفِلُ عليه ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فكأنما نُشِطَ من عِقال، فانطلق يمشي وما به قَلَبَة.

قال: فأوفوهم جُعلَهم الذي صالَحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسِموا. فقال الذي رَقَى: لا تفعلوا حتى نأتيَ النبي ﷺ، فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدِموا على رسول الله ﷺ فذكروا له، فقال: «وما يُدريك أنها رقية»، ثم قال: «قد أصبتم، اقسِموا، واضربوا لي معكم سهماً» فضحك النبي ﷺ. [البخاري: ٢٢٧٦. مسلم: ٢٢٠١].

والحديث واضح الدلالة على شفاء ذلك الرجل اللديغ بقراءة ذلك الصحابي الفاتحة عليه.

٦- **الفاتحة ركن الصلاة الأعظم**، فعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» [البخاري: ٧٥٦. مسلم: ٣٩٤]. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» (ثلاثاً)، غير تمام [مسلم: ٣٩٥].

٧- **شَرُفَتِ الفاتحةُ بموضوعها**: فالقرآن كله كلام الله تعالى، وكلامه أشرف الكلام، وكلام الله متساوٍ في الفضل، وإنما تتفاضل سور القرآن وآياته من جهة موضوعاتها، فالآيات

التي تتحدث عن مخلوقات الله من الجماد والنبات والحيوان لا تتساوى مع الآيات التي تتحدث عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولذلك كانت آية الكرسي أفضل آية، وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن.

ومن هنا كانت الفاتحة أعظم السور، لأن الله حمد فيها نفسه أعظم الحمد، وأثنى فيها على نفسه بأسمائه وصفاته أفضل الثناء، ومجَّد نفسه أعظم التمجيد، وبيَّن حقوقه أعظم البيان، ودلَّ العباد على طلب الهداية إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وسيأتي توضيح هذا الموضوع عندما نعرض لتفسير السورة.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سورة الفاتحة أفضل ما نزل من عند الله:

سورة الفاتحة أفضل ما نزل في الكتب الإلهية قاطبةً كما سبق بيانه، وهذا الفضل لما حوته من حقائق ومقاصد ومعانٍ وفوائد وتوجيهات، ولما في تلاوتها من تحميد وثناء وتمجيد لرب العزة ودعاء له، واستعانة به، وعلى القارئ لها أن يتنبه إلى أن هذا الفضل الذي حدثتنا النصوص عنه يهدف إلى استثارة قلوبنا وعقولنا لمعرفة ما حوته وإلى الإكثار من تلاوتها.

٢- التعريف بالبسملة وبيان شيء من فضلها:

أ- **التعريف بالبسملة**: البسملة هي قول: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهي أول آية في كتاب الله تبارك وتعالى، وافتتح الله كل سورة من سور القرآن بها سوى سورة براءة، وهي تعطي هذه السور جمالاً وحلية وزينة، ولذلك قال بعض العلماء: «البسملة تاج سور القرآن»

وقد أمر الله بها رسوله ﷺ في أول ما أنزل عليه وهو قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١] ونحن نقدّس ربنا تبارك وتعالى ونعظمه بالابتداء بها في أقوالنا وأعمالنا الطيبة، فنتلوها عندما نقرأ القرآن، ونكتُبها في أوائل الرسائل والعقود، ونقولُ باسم الله عندما نأكل، ونشرب، ونلبس، وعندما نخرج من المنزل، أو ندخله، وعندما نذبح ذبائحنا، وننحر أضاحينا، ونحو ذلك.

والبشر الضالون يقصدون آلهتهم التي يعبدونها في احتفالاتهم ومناسكهم وصلواتهم بذكر أسمائها في أول أعمالهم، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية، فقد كانوا يذبحون باسم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، والنصارى يذبحون باسم الأب والابن والروح القدس.

وقد أعلمنا ربنا أن البسملة من هدي الرسل والأنبياء قديماً، فنوح عندما أراد هو والذين آمنوا معه ركوب السفينة قال: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود:١١] ونبي الله سليمان توّج كتابه إلى ملكة سبأ بها ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النمل:٢٩-٣٠].

وأعلمنا ربنا تبارك وتعالى أنه جعل لكل أمة منسكاً، ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام حين يذبحونها ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج:٣٤].

ب- **معنى البسملة**: ومعنى البسملة يحدده العمل الذي قيلت في أوله، فالقارئ للقرآن يكون المعنى المناسب له: أقرأ مستعيناً بالله الرحمن الرحيم، والذابح لبهيمة الأنعام المعنى المناسب له: أذبح مستعيناً بسم الله، وكذلك يقال في المعنى المناسب للناطق بها في أول الطعام أو الشراب أو اللباس ونحو ذلك.

٣- الفقه والفوائد التي في البسملة:

أ- اشتملت **البسملة** على ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى: الله، الرحمن، الرحيم، وهي أسماء عظيمة جليلة كريمة.

والله الاسم الأعظم على الأرجح من الأقوال، وهو أول أسماء الله، وأعظمها، وأشهرها، وأعلاها في الذكر، ويدل على عظمته أنه لم يسمَّ به غيره، ولم يُدْعَ به سواه.

و(الرحمن والرحيم) اسمان من أسمائه تبارك وتعالى مشتقان من الرحمة، أحدهما أرفق من الآخر، كما يقول ابن عباس [فتح الباري: ١٣/ ٤٣٩].

ب- أرجح الأقوال أن البسملة في غير سورة الفاتحة آية من القرآن الكريم أُنزلت للفصل بين السور، وليست آية من السورة في أوائل السور، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان النبي ﷺ لا يعرف فَصْلَ السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم» [سنن أبي داود: ٧٨٨. وأورده الألباني في صحيح سنن أبي داود].

ويدلُّ لصحة هذا القول أن الصحابة لم يدخلوا مع القرآن غيره حين كتبوه، وقد كتبوا البسملة في أول كل سورة سوى سورة براءة [مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٢٢/ ٤٣٣].

ويدلُّ لصحة قول من ذهب إلى أنها ليست آية في أول السورة أن الرسول ﷺ لم يعدَّ البسملة آية في أول السورة كسورة تبارك.

وذكر الكاساني أن الفقهاء انعقد إجماعهم على أن سورة الكوثر ثلاث آيات، والإخلاص أربع، ولو عُدّت البسملة آية، لزادت كل سورة آية [بدائع الصنائع: ١/ ٢٠٤].

أما البسملة في الفاتحة، فإنها آية من آياتها، لأن الله تعالى جعل الفاتحة سبع آيات في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧] وهي من غير البسملة ست آيات ولأن الرسول ﷺ صرّح بأن البسملة إحدى آيات الفاتحة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأتم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فاقرؤوا ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبعُ المثاني، و ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إحدى آياتها» عزاه الألباني إلى الدارقطني والبيهقي والديلمي، وقال الألباني في إسناده: «هذا إسناد صحيح مرفوعاً وموقوفاً» [سلسلة الصحيحة: ١١٨٣].

ج- القول الراجح أنه يستحب قراءَة البسملة في الصلاة سرّاً، خلافاً لمن كره قراءتها فيها، وخلافاً لمن استحب أو أوجب قراءتها فيها، والقول باستحباب قراءتها سراً قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم من التابعين وفقهاء الأمصار [صحيح سنن الترمذي: ١/ ٧٨. المغني: ١/ ٥٢١. مجموع الفتاوى: ٢٢/ ٤٣٦. نصب الراية: ١/ ٢٠٣].

هـ- يستحب أن يبدأ المسلم الذبح بـ «بسم الله»، ويستحب البداءة بها في الأكل والشرب واللباس ودخول المنزل والخروج منه، وعند النوم ونحو ذلك، ولكن دون: الرحمن الرحيم.

٥ - التسمية حيث ذُكرت تُبارك المكان، وتطرد الشيطان، وتحفظ الإنسان، ولا يثقل مع اسم الله شيء في الأرض ولا في السماء.

٤- قسم الله الفاتحة نصفين:

على من يريد قراءة هذه السورة أن يكون على ذكر من الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة عن الرسول ﷺ، والذي يقول فيه: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي. (وقال مرة: فوّض إليّ عبدي).

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذه لعبدي، ولعبدي ما سأل» [مسلم:٣٩٥]، وهذا الحديث ينبه المصلي إلى أن الفاتحة هي الصلاة، ولذلك قال: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين».

فالقسم الأول: هو حمد لله، وثناء عليه، وتمجيد له، وإعطاؤه العهد على عبادته وحده لا شريك له.

والثاني: هو سؤال القارئ ربَّه العون على ما يهمه ويعْنيه، وأهمه إعانته على أعظم مهمٍّ، وأعلى مطلوب، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وسؤال الله هدايته إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم بعيداً عن طريق المغضوب عليهم والضالين.

٥- التعريف بالحمد:

والمراد بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الثناء التام الكامل على ربِّ العزة سبحانه، والألف واللام تدلّان على استغراق جنس المحامد لله الواحد الأحد، فالله - سبحانه - يستحقه على كماله في ذاته وصفاته، كما يستحقه على نعمه وآلائه، والله وحده هو الكامل في ذاته وصفاته، وكل النعم منه وحده ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ أبلغ صيغ الحمد كما قال البلقيني [الإكليل في استنباط التنزيل: ص٢٥].

وقد أكثر الله تبارك وتعالى من حمد نفسه في مواطن كثيرة في كتابه تعليماً لعباده أن يكثروا من حمده، كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف:١]، وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم:١٨].

وأمر رسوله ﷺ بحمده في قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء:١١١]، وقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ﴾ [النمل:٥٩].

وحَمْدُ الله هو دأب الملائكة والأنبياء والمرسلين وأتباعهم على طريقتهم ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر:٧] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ﴾ [إبراهيم:٣٩] وأخبرنا عن داود وسليمان عليهما السلام أنهما ﴿قَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل:١٥].

٦- التعريف برب العالمين:

والرب في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الخالق المالك المدبر المصرِّف. و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمع عالَم، والعالَم هو كل موجود من دون الله، وقد سأل فرعون موسى عن ربِّ العالمين، فأجابه بأنه ربُّ السموات والأرض ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٤] ومما يدلُّ على أن العالمين كلُّ مخلوق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام:١٦٤] وقد كثر في كتاب الله إضافة (رب) إلى بعض ما خلقه الله كقوله: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون:٨٦]، وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف:١٢٢] وقد يضاف الرب إلى العالمين، وهو كثير أيضاً في كتاب الله، كهذه الآية في أول الفاتحة.

وقد يطلق العالَمُ على الصنف من المخلوقات، فيقول: عالم الملائكة، عالم الإنس، عالم الجن، عالم الحيوان، عالم النبات، عالم الجماد.

٧- الرحمن الرحيم:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ اسمان كريمان رفيقان دالان على الرحمة، أحدهما أرفق من الآخر، وهما صفتان لاسم الله، وهما صيغتا مبالغة من الرحمة، وهما يفتحان باب الرجاء تجاه الرحمن الرحيم.

وذكر الراغب الأصفهاني أن معنى (الرحمن) الذي كثرت رحمته، وتكررت ووسعت كلَّ شيء، وذَكَرَ الفرقَ بين (الرحمن) و(الرحيم)، فالرحمن مختص بالله تعالى، لا يطلق على غيره، مثله في ذلك مثل لفظ الجلالة (الله)، ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]، أما الرحيم، فقد يوصف به غير الله إذا كان معناه: الذي كثرت رحمته [مقدمة جامع التفاسير: ص١١٥].

٨- مالك يوم الدين:

مجَّد الحقُّ نفسَه في هذه السورة بقوله: ﴿مالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وفي القراءة الصحيحة الأخرى ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [حجة القراءات: ص٧٧].

ويوم الدين هو اليوم الذي يَدين الله فيه العباد، أي: يحاسبهم، وهو يوم القيامة، وأفرد الله نفسه بالملك في ذلك اليوم، لأن ما ملكه الناس في الدنيا من مال ومتاع ولباس وطعام زال عنهم، فيأتون في ذلك اليوم حفاة عراة غُرْلاً، لا يملك أحد لأحد شيئاً ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار:١٩] وعند ذلك يدرك العباد أنه ليس لهم من الأمر شيء، وينادي رب العزة فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ [غافر:١٦] فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه بنفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٦].

٩- إياك نعبد وإياك نستعين :

وفي ختام ما خص الله به نفسه في هذه السورة علمنا أن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد إلا أنت، فأنت الإله الحقُّ المعبود المقصود، وغيرك مألوه مربوب، وهذه الآية تفيد كلمة التوحيد، وهي: (لا إله إلا الله).

وهذا الذي سبق بيانه هو ما اختص الله به نفسه في سورة الفاتحة.

تفسير آيات القسم الثاني الخاصة بالعبد:

بقية هذه السورة هي لعبد الله التالي لها، وهي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ وآيات القسم الثاني ترشدنا إلى أمرين:

الأول: أن نتوجه إلى الله ربنا سائلين إياه أن يعيننا على ما كلفنا به من أعمال وأقوال، وأن يبعدنا عما نهانا عنه من أعمال وأقوال، فإنه إذا لم يكن للعبد عون من مولاه، ضلّ وتاه، واعتماد المرء على نفسه أو غيره لا ينفعه، ولا يجعله يدرك غايته.

وفي مقدمة الأفعال والأقوال التي نحتاج فيها إلى عون ربنا عبادته، وإخلاص الدين له وحده، ولذلك قرن سبحانه بين العبادة والاستعانة في هذه الآية من هذه السورة.

الثاني: أن نتوجه إليه سبحانه بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو صراط ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:٦٩].

١٠- التعريف بالصراط المستقيم:

والصراط المستقيم هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران:٨٥] والإسلام هو طريق بين طرق كثيرة، بعضها دين سماوي، ولكنه محرف مُغيَّرٌ منسوخ، كاليهودية والنصرانية، وبعضها مخترع من قِبَل أئمة الضلال في القديم والحديث، كعبادة الأصنام والشمس والقمر والنجوم، ومنها طريق الشيوعية والعلمانية والبوذية، وهي طرق كثيرة متنوعة.

وقد ضرب الرسول ﷺ مثلاً للصراط المستقيم وللسبل المنحرفة عنه، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سبل - قال يزيد: متفرقة - على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٥٣] [مسند أحمد: ٤١٤٢. وإسناده حسن كما قال محقق المسند].

١١- التعريف بصراط المغضوب عليهم وطريق الضالين:

أخطر الطرق التي يجب اجتنابها طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ والمعنى: جنبنا يا ربنا طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين.

والمغضوب عليهم اليهود، والضالون النصارى، والمغضوب عليهم أشدُّ كفراً من الضالين، ولبُّ الدين الذي عليه اليهود قائم على معرفة الحق، ورفض اتباعه، فاليهود يعلمون أن محمداً مرسل من ربه، ولكنهم يعاندون، والنصارى ضالون، فهم يعبدون الله على جهل.

وقد حدثنا الله - تبارك وتعالى - عن اليهود في كتابنا، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة:٦٠]. كما حدثنا عن النصارى فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٧].

وقد قال الرسول ﷺ لعدي بن حاتم عندما جاءه مسلماً: «إن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضلال» [الترمذي: ٢٩٥٣، ٢٩٥٤. وانظره في صحيح سنن الترمذي].

ووجه وصف اليهود بالغضب أنَّهم يعرفون الحق، وينكرونه ويخالفونه، ويأتون الباطل عمداً، والنصارى يعبدون الله على جهل، أما المؤمنون أتباع الصراط المستقيم فيعلمون الحقَّ، وينصاعون له، فهم مهتدون.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات سورة الفاتحة من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذه السورة نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - تعرفنا هذه السورة بالله معبودنا، فهو الله الرحمن الرحيم رب العالمين مالك يوم الدين.

٢- أرشدنا الله تبارك وتعالى إلى أن نحمده ونثني عليه ونمجده بتلاوة قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾.

٣- الله وحده المستحق للحمد كله، لأنه ربنا ورب كلِّ الخلائق، ولأنه المتصف بصفات الرحمة وغيرها من جميل الصفات، ولأنه وحده الذي يحاسب الخلائق بعد أن يأتي بهم يوم الدين.

٤ - الله هو الربُّ الخالق الرازق المدبر، لا رب غيره ولا خالق سواه، ومن جعل من دون الله أرباباً فقد ضل ضلالاً عظيماً.

٥- الله يتصف بصفات الجلال والكمال، ليس كالآلهة المختلقة التي اخترعتها عقول كثير من الضالين من البشر الذين يصورون آلهتهم في صورة آلهة قاسية جامدة ليس فيها رحمة، وهي آلهة تتصارع على المكاسب والمغانم، وتزني وتلوط وتسرق وتفسد.

٦- الإقرار بيوم الدين، الذي يقوم فيه الناس لربِّ العالمين، ويحاسبهم فيه على ما قدموا، والله هو المالك وحده لذلك اليوم.

٧- قدَّم الله العبادة على الاستعانة في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وفي ذلك إرشاد إلى تقديم الخضوع لله قبل طلب الحاجة.

٨- الله وحده المستحق للعبادة، وكل إله غير الله فهو معبود باطل، لا يستحقُّ أن يدعى، ولا يستعان به، ولا يستغاث به من دون الله.

٩- على العبد أن يستعين بالله وحده على عبادته وطاعته وحاجات الدنيا والفوز بالجنة والنجاة من النار.

١٠- الذي يدلنا على الطريق الذي يوصلنا إلى رضوان الله في الدنيا والآخرة هو الله وحده، فمنه نسأل الهداية.

١١- الصراط المستقيم صراط الله الذي سلكه الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، وهو التوحيد، وهو الدين الذي لا يُقبلُ دين سواه.

١٢- اليهود يعرفون الحق ويرفضونه، فهم مغضوب عليهم، والنصارى يعبدون الله على جهل، فهم ضالون، والمسلمون يعبدون الله على علم، فهم مهتدون.

١٣- حَوَت هذه السورة أنواع التوحيد الثلاثة، وهي:

أ- **توحيد الألوهية**، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والذي لا يعبد إلا ربه، هو الذي يفرد الله بالعبادة.

ب- **توحيد الربوبية**، فالله تبارك وتعالى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، فكل ما سوى الله مخلوق مربوب، والله رب الخلائق جميعاً.

ج- **توحيد الأسماء الصفات**، وقد ذكر سبحانه من أسمائه في هذه السورة ستة أسماء، هي: الله، الرحمن، الرحيم، رب العالمين، المالك، والملك، وقد كان الصحابة والذين ساروا على إثرهم يثبتون لله ما أثبته لنفسه من أسماء وصفات وأفعال من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل على حدّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

١٤- على العبد أن يعلم أنه كلما قرأ الفاتحة أعطى ربه عهداً أن يعبده وحده لا شريك له، ويستعين به وحده دون سواه، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥].

خامساً: الأحكام التي تتعلق بسورة الفاتحة

هناك مجموعة من الأحكام تتعلق بهذه السورة دلت عليها الأحاديث الصحيحة، وهي:

١ - وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة، لا يغني عنها غيرها، وقد سبق ذكر الحديث الذي يقول فيه الرسول ﷺ : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» [البخاري: ٧٥. ومسلم: ٣٩٤] ويقول: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» غير تمام [مسلم: ٣٨٥].

والخداج: النقصان. والناقة الخداج: التي ألقت حملها قبل تمام مدته.

وكان الرسول ﷺ يداوم على قراءة الفاتحة في كل ركعة، ولم يؤثر عنه أنه صلى ركعةً من غير قراءة الفاتحة، وأمرنا ﷺ أن نصلي كما كان يصلي [البخاري: ٤٥١].

وثبت في الصحيحين أنه ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأولين بفاتحة الكتاب وسورتين [البخاري: ٧٥٩. مسلم: ٤٥١]. وانفرد مسلم بذكر قراءته ﷺ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب.

٢ - الراجح أن المأموم لا يقرأ الفاتحة في الصلاة الجهرية، فقد أمر سبحانه بالإنصات والاستماع في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

ويدلُّ له قوله ﷺ : «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» [عزاه الألباني لأبي داود ومسلم وأبي عوانة والروياني، صفة الصلاة: ص٨٠] ويدلُّ له قوله ﷺ : «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» [سنن ابن ماجه: ٨٥٠. وحسن الألباني إسناده]. وروى مالك في موطئه عن ابن عمر أنه قال: «إذا صلى أحدكم خلف الإمام فحسبه قراءة الإمام، وإذا صلى وحده فليقرأ» [الموطأ: ص ٧٥].

وروى الترمذي عن جابر موقوفاً عليه: «من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا وراء إمام» [الترمذي: ٣١٣. وقال فيه: حسن صحيح].

وروى ابن ماجه بإسناد صحيح عن جابر بن عبدالله قال: «كنا نقرأ في الظهر والعصر خلف الإمام في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب» [صحيح ابن ماجه: ٨٤٣].

ومن المعلوم أن المأمومين إذا قرؤوا خلف إمامهم فيما جهر به شوّش بعضهم على بعض، وقد نهى الرسول ﷺ المصلين أن يفعلوا ذلك [الموطأ: ١/ ٧٢].

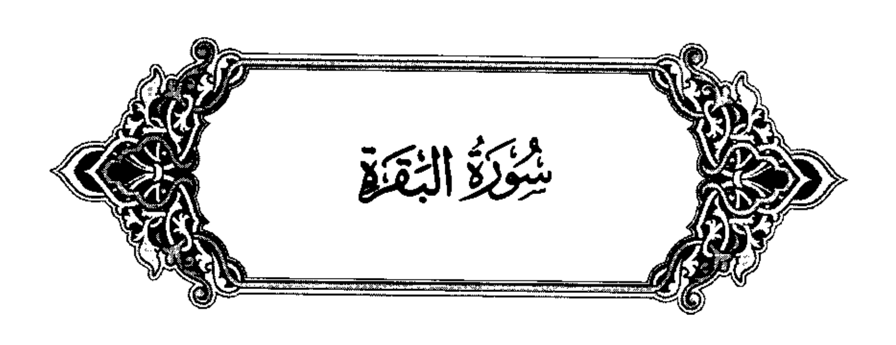
٣- إذا صلى المأموم خلف إمامه في الصلاة السرية، قرأ بالفاتحة سرّاً، كما دلت عليه الأحاديث السابقة، يقول الإمام مالك: «الأمر عندنا أن يقرأ الرجل وراء الإمام فيما لا يجهر فيه بالقراءة، ويترك القراءة فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة» [الموطأ: ص٧٥]. وهذا يوافق النص القرآني الآمر بالاستماع حين القراءة، وهذا لا يكون إلا عندما يجهر الإمام بالقراءة.

٤- يستحب لمن أتم قراءة الفاتحة في الصلاة أو في غيرها أن يقول: آمين، ويتأكد الاستحباب إذا قرئت في الصلاة، لا فرق في ذلك بين الإمام والمأموم.

والدليل على استحباب التأمين للإمام والمأموم ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أمَّن الإمام فأمنوا، فإنه من يوافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه». قال ابن شهاب: وكان رسول الله ﷺ يقول: «آمين» [البخاري: ٧٨٠. مسلم: ٤١٠].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم: آمين. وقالت الملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه» [البخاري: ٧٨١. مسلم: ٤١٠].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ «أن اليهود ما حسدتنا على شيء ما حسدتنا على السلام والتأمين» [صحيح ابن ماجه: ٨٥٦].



أولاً: تقديم

يتناول التقديم لهذه السورة التعريف بها، كما يتحدث عن الفضل الذي حازته.

١- التعريف بهذه السورة:

سورة البقرة أطول سور القرآن، «وهي مدنية، ولا نظير لها في عدد آيها، وكلمها ستة آلاف كلمة، ومائة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، وهي مئتا آية وثمانون وخمس آيات في المدنِيَّيْنِ والمكي والشامي، وسِتٌّ في الكوفي، وسبع في البصري» [البيان في عدّ آي القرآن: ص١٤٠]. وابتدأ نزولها في السنة الأولى من الهجرة، وامتد نزولها إلى أن كان فيها آخر ما نزل، وهي آيات الربا، وآخرها ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] وسميت هذه السورة باسم سورة البقرة، لأنَّ الحقَّ - تبارك وتعالى - ذكر فيها قصة بقرة بني إسرائيل وافية تامة، ولم تذكر هذه القصة في كتاب الله في غير هذا الموضع.

٢- فضائل سورة البقرة:

ورد عدد من الأحاديث تدلُّ على فضل هذه السورة العظيمة، منها:

أ- **البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان**: روى الترمذي في سننه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، وإن البيت الذي تُقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان» [الترمذي: ٢٨٧٧، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح].

وهو في صحيح مسلم عن أبي هريرة بلفظ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة» [مسلم: ٧٨٠].

ب- **سورة البقرة سنام القرآن**: عن عبدالله بن مسعود قال: «إن لكل شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تقرأ خرج من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» [الحاكم: ٢٠٦٠ وقال: هذا حديث صحيح، وقد روي مرفوعاً بمثل هذا الإسناد، وصححه الألباني في سلسلته الصحيحة: ٥٨٨].

ج- مجيء سورة البقرة يوم القيامة تُحاجُّ عمن كان يعمل بها: عن النواس بن سمعان الكلابي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة **البقرة** وآل عمران» وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظُلّتان سوداوان، بينهما شرق، أو كأنهما حِزْقان من طير صوافّ، تحاجّان عن صاحبهما» [مسلم: ٨٠٥] ومعنى تقدمه: تتقدمه. والشرق: الضياء، والحزقان مثنى حِزْق، والحزق: الجماعة من كل شيء.

وعن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، **تحاجّان** عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلَة» [مسلم: ٨٠٤]. والزهراوان: المنيران، والغياية: ما أظلك من فوقك، والفِرْق: القطعة من الشيء، والصواف: المصطفّة المتضامّة، ومعنى لا تستطيعها البطلة، أي: السحرة لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارئها. [ابن كثير: ١/ ١٤٤].

د- فضل آيات من سورة البقرة: وفي سورة **البقرة** آيات أخبر الرسول ﷺ أنهنّ أفضل ما نزل من آي القرآن، وهن آية الكرسي، والآيتان الأخيرتان من هذه السورة، وسيأتي ذكر فضل كل واحدة منهما عند تفسيرنا لهما، والله المستعان.

النص القرآني الأول من سورة البقرة
الناس ثلاثة أقسام: المؤمنون والكفار والمنافقون

أولاً: تقديم

هذا القرآن منزلٌ من عند الله تبارك وتعالى، وهذا أمر مستيقن لا شكّ فيه، وقد بيّن الله أقسام الناس ومواقفهم تجاه هذا الكتاب العظيم، **فالفريق الأول**: هم الذين قبلوه واهتدوا به، **والفريق الثاني**: الذين ردُّوه وكفروا به، **والفريق الثالث**: الذين أظهروا الإيمان به، وأبطنوا الكفر به، وهم المنافقون.

روى ابن جرير [١/ ١٨٦] بإسناده إلى مجاهد، قال: «أربع آيات من سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في نعت المنافقين».

ثانياً: آيات هذا النص من سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الحروف المقطعة في أوائل السور:

ابتدأ الله - تبارك وتعالى - هذه السورة بقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [البقرة:١] وهذه الحروف الثلاثة هي من الحروف التي تسمى الحروف المقطعة، وعدد السور التي ابتدأ الله بها بهذه الحروف تسع وعشرون سورة، وقد يبدأ الله السورة بحرف واحد، أو اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، كقوله: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص:١] وقوله: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الجاثية:١-٢] وقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [البقرة:١] وقوله: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١-٢] وقوله: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾ [مريم:١-٢] ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾

[الشورى:١-٢] ومجموع الحروف المقطعة التي ابتدأ الله بها بعض سور القرآن بعد حذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، يجمعها قولك: «نصٌّ حكيم قاطع له سر».

وقد اختلف العلماء في تحديد المعنى المراد بهذه الحروف في أول السور، وقد ذكر الطاهر ابن عاشور أن أقوال العلماء فيها بلغت تسعة وعشرين قولاً، وقد وحَّد الأقوال المتداخلة، وحذف الزائد، فبلغت واحداً وعشرين قولاً. [التحرير والتنوير: ١/ ٢٠٠].

والذي أرجحه أن هذه الأحرف من أحرف اللغة العربية، جاء الله بها في أوائل السور إرشاداً للعباد إلى أن هذا القرآن الذي أعجز الجنّ والإنس أن يأتوا بمثل سورة واحدة من سوره، حروف كلماته مكونة من حروف اللغة العربية، وكلماته وجمله وآياته مكونة من كلمات اللغة العربية، ويدلُّ على صحة هذا القول أمور:

الأول: أن الرسول ﷺ صرح بأن الحروف المفتتحة بها السور هي من الحروف العربية، فعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» [سنن الترمذي: ٢٩١٠، وقال فيه: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وصحيح الترمذي: ٢٣٢٧].

الثاني: يذكر الله بعد الحروف المقطعة في أوائل السور غالباً الانتصار للقرآن، وأنَّه معجز ونحو ذلك، فبعد الحروف المقطعة في البقرة، قال: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة:٢].

الثالث: هذا القول جاء على لغة العرب، والأقوال الأخرى كثير منها لا تعرفه العرب في كلامها. وقد رجّح هذا القول ابن كثير، وعزاه إلى المبرد والفراء وقطرب والزمخشري وابن تيمية، وأبي الحجاج المزي [ابن كثير: ١/ ١٥٠].

واختار هذا القول الراغب الأصفهاني [مقدمة جامع التفاسير: ص١٤٢].

٢- لم أشار للقرآن بـ (ذلك) وهو اسم إشارة موضوع للبعيد؟

القرآن منزل من عند الله لا شك في ذلك ولا ريب ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة:٢] وقوله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ اسم إشارة موضوع للبعيد، والمشار إليه هو ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ الذي هو القرآن روعي في تسميته كتاباً أنه مدون بالأقلام، كما روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن محفوظاً في الصدور.

وأشار إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ دون الاسم الموضوع للقريب، وهو (هذا) مع أن هذا القرآن حاضر قريب مشاهد، لإظهار رفعة شأن هذا القرآن، لجعله بعيد المنزلة عاليها، وقد شاع في الكلام البليغ تمثيل الأمر الشريف بالشيء المرفوع في عزة المنال، لأن الشيء النفيس عزيز على أهله، فمن العادة أن يجعلوه في المرتفعات صوناً له عن الدروس. [التحرير والتنوير: ١/ ٢٢٠].

وقوله: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢] أي: لا شك في إنزاله من عند الله، أي: على جهة الحقيقة، وإلا فالكافرون والمنافقون مرتابون فيه.

٣- أصناف الناس تجاه القرآن الكريم:

صنَّف الله - تبارك وتعالى - الناس تجاه القرآن إلى ثلاثة أصناف: المتقين، والكافرين، والمنافقين.

٤- الصنف الأول: المتقون:

الصنف الأول: هم المتقون الصالحون، الذين هداهم الله إليه وإلى دينه الحق الذي جاء به القرآن، وهداهم في الآخرة إلى جنته، ونكّر ﴿هُدًى﴾ في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تعظيماً لشأن الهدى، فهو ضَرْبٌ من الهدى عظيم، لا يقدر قدره إلا من وهبهم إياه، والتنكير يأتي في لغة العرب لِضَرْبٍ من التعظيم والتفخيم، هذا مع قلة من يحصِّله ويناله.

يقول ابن بدران في ذلك: «الهدى من الله كثير، ولا يبصره إلا بصير، ولا يعلم به إلا يسير، ألا ترى أن نجوم السماء يبصرها البُصَراء، ولا يهتدي بها إلا العلماء» [جواهر الأفكار: ص٥٨]، والمتقون الذين هداهم القرآن هم الذين جعلوا بينهم وبين غضب الله وناره وعذابه وقاية وحاجزاً، وهذا الحاجز هو الإيمان والأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، وقد صحّ في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة» [البخاري: ١٤١٧، مسلم: ١٠١٦].

وأصل التقوى في لغة العرب: التوقِّي مما يكره، كالمحارب الذي يتقي بدَرَقَتِهِ في ميدان الحرب والطعان ضربات الخصم، وبعض المحاربين يتقون بأس أعدائهم باللجوء إلى الحصون، أو بإعداد القوى الحربية التي تردّ بأس الأعداء وتفتك بهم.

٥- صفات المتقين والسبب في ذكرها:

ولما كان بعض الضالين قد يدّعي أنه من المتقين كذباً وزوراً، فإنَّ الله جلّى صفات المتقين التي تظهر حقيقتهم، وترسم علاماتهم حتى لا يختلط غيرهم بهم، وفي ذلك يقول الحق تعالى

فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [البقرة:٣-٤].

ومن تدبَّر هذه الآيات ظهر له أنها عرَّفت بالفئة المؤمنة وأبرزت خصائصها، فكل مؤمن لا يتصف بمجموع هذه الصفات فليس بمؤمن، ونقصان بعضها كافٍ للطرد من زمرة أهل الإيمان، فمن لم يؤمن بالغيب، أو لم يؤمن بما أنزل إلى محمد ﷺ، أو ما أنزل من قبله، أو لم يؤمن بيوم القيامة؛ فإنه ضال كافر ليس له في الإسلام نصيب، وهذه الصفات خمس هي:

الأولى: إيمانهم بالغيب: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة:٣] والغيب ما يغيب عن الحواس، والصادق منه ما أخبرنا الله عنه في كتابه، أو أخبرنا عنه رسولنا ﷺ في الأحاديث الصحيحة التي بلغتنا، وكل أركان الإيمان من الغيب، فالله غيب لا نراه بأعيننا في الدنيا، وكذلك ملائكته ورسله واليوم الآخر، ومن الغيب ما حدثنا الله به عن أخبار الماضين وأخبار الآتين، ومن الغيب القيامة والمحشر والجنة والنار.

التعريف بالإيمان:

والإيمان الذي مدح الله المتقين به هو في اللغة التصديق، وفي الشرع التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان، فيدخل في الإيمان ما نطلق عليه اسم العقيدة، وأركانها، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وإذا زالت العقيدة زال الإيمان.

ولكن الاعتقاد وحده لا يكفي لتحقيق الإيمان، فلا بد للعبد المؤمن من أن يقرّ بلسانه، فيشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويعلن أنه رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، ولا بد أن يصدِّق العملُ القول والاعتقاد، ويدخل في الإيمان كل ما أمر الله به من الطاعات، واجتناب ما نهى عنه من الذنوب والمعاصي.

الثانية: إقام الصلاة، والصلاة التي مدح الله المتقين بإقامتها في قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في لغة العرب الدعاء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة:١٠٣] فمعنى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: ادع لهم، فإن دعاءَك سكن لهم.

والمراد بالصلاة في مصطلح الشرع: الأعمال المعروفة بهذا الاسم، المفتتحة بالتكبير، المختتمة بالتسليم، بما فيها من تكبير وقيام وقراءة قرآن وركوع وسجود وتشهد، ونحو ذلك.

وتتحقق إقامة الصلاة بالإتيان بها على الوجه الذي يريده الله، ومن ذلك المداومة عليها في أوقاتها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣] ومن ذلك تحقيق شروطها وأركانها وفروضها، وكلما أتم سننها كان أتم في إقامتها.

الثالثة: إنفاقهم مما رزقهم الله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة:٣] والإنفاق في اللغة إخراج المرء ما يملكه إلى غيره، وفي الشرع بذل المال في المجالات التي أوجب الله علينا أو حبَّبَ إلينا بذله فيها، والنفقة أعم من الزكاة، فالزكاة مجال واحد من مجالات الإنفاق، ومن الإنفاق: الإنفاق على الزوجة والأولاد والوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الفقراء واليتامى والمساكين وابن السبيل ونحوهم.

وقد رغَّب الله في الإنفاق بإعلام المنفقين أن المال الذي ينفقون منه هو مما رزقهم الله إياه، فقبيح بالعبد أن يبخل بمال الله في المجالات التي أمر الله في الإنفاق فيها، فيبوء بغضب الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤]. وقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المنافقون:١٠].

الرابعة: وجوب الإيمان بكل ما أنزله الله على رسله وأنبيائه، كصحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، وقرآن محمد ﷺ . والإيمان بكل ما أنزل الله شرط في صحة الإيمان؛ ولذلك أمر الله به هذه الأمة وفي طليعتهم الصحابة، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦] وقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقد ذمّ الله بني إسرائيل الذين ادعوا أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم، ويكفرون بما وراءه، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:٩١].

الخامسة: الإيمان باليوم الآخر، وقد بلغ إيمانهم به درجة اليقين، ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة:٤]، وسميت الدار الثانية بالدار الآخرة، لأنه لا دار بعدها، أو لأنها تأتي بعد انقضاء هذه الدنيا الفانية القريبة.

والإيمان بالآخرة إيمان بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار وحديث ذلك في القرآن حديث طويل مسهب، فقد وصف الله القيامة وأهوالها، والنار وحرّها

وسمومها، والجنة ونعيمها بما لا مزيد عليه، وقوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾ «أي: يعلمون علماً متمكناً في نفوسهم، فاليقين أعلى درجات العلم، وهو الذي لا يمكن أن يدخله شك بوجه» [تفسير ابن عطية، ١/ ٤٩] واليقين في الإيمان هو الذي تحصل به الثقة، وتثلج به الصدور، وهو أبلغ ما يكتسبه الإنسان من العلم.

٦- هذا الفريق هو المهتدي الفائز:

بعد أن بيّن الله صفات المتقين حكم عليهم بأنهم على هدى من ربهم، وأنهم هم المفلحون، والمشار إليه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [البقرة:٥] هم المتقون المتصفون بالصفات التي وصفهم الله بها، والسبب في كون هؤلاء على هدى من الله، أنهم استمدّوا الهداية من كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ ، وابتعدوا عن كل ما يضادُّ ذلك من طرق ومناهج اخترعها شياطين الجن والإنس.

و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ هم الفائزون السعداء، فازوا في الدنيا بالهداية الإلهية الربانية، فكانوا أسعد الناس بما عرفوه وعملوا به من عبادته وطاعته والأنس به، واطمئنان قلوبهم بذكره، وفازوا بالآخرة بالنعيم المقيم في جنات النعيم.

٧- الصنف الثاني: الكفرة المشركون:

حدثنا الله - عز وجل - فيما مضى عن المتقين الذين اهتدوا بالقرآن العظيم، وحدثنا عن صفاتهم وفوزهم، ثم أتبع ذلك بذكر الفريق المقابل لهم، وهم الذين كفروا بالقرآن ورفضوه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة:٦-٧].

وهذان الفريقان متقابلان متضادان، فأولئك أهل الإيمان، وهؤلاء أهل الكفر والطغيان، والأول حزب الرحمن، والآخر حزب الشيطان، وبين الفريقين عداء وخصام، لا ينتهي ولا يتوقف حتى يحكم به الملك الديّان في الموقف العظيم.

«والكفر في اللغة: ستر الشيء، ووُصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزَّرّاع لستره البذر في الأرض، وليس ذلك باسم لهما» [المفردات: ص١٣٣] والكفر في الاصطلاح جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، والكفر مضادٌّ للإيمان في المصطلح الشرعي، فكل من كفر بالله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر، أو أنكر ما فرضه الله أو حرمه فهو كافر، كالذي ينكر وجوب الصلاة أو الزكاة أو الحج أو ينكر حرمة الخمر والميسر والخنزير ونحو ذلك.

عدم تأثير الإنذار في الكفار:

وقد أخبرنا الحقُّ - تبارك وتعالى - أن إنذار القرآن وتخويفه لا يؤثر في هؤلاء كما يؤثر في أهل الإيمان ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت:٤٤] ولذلك أيأس الله رسوله ﷺ من هدايتهم إلى الحق ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة:٦] والمعنى أن إنذارك لهم، وعدم إنذارك سواء، ولذلك فإنهم لا يؤمنون.

السبب في حكم الله على هؤلاء بالكفر الملازم الدائم:

بيّن الله السبب الذي من أجله حكم على هؤلاء بالكفر الملازم الدائم، فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة:٧]، والختم يكون على القلوب والأسماع، والغشاوة تكون على الأبصار، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية:٢٣] والغشاوة هي الغطاء على العيون، وقد يُطلِق عليه القرآن اسم الطبع الذي هو بمعنى الختم أيضاً، كما في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ﴾ [النحل:١٠٨] وقد تعارف الناس منذ القِدَم على الطبع بالخاتم ذي النقوش على المواضع التي يريدون الاستيثاقَ على ما فيها، حتى يتأكدوا أنه لم يخرج منها شيء، ولم يدخل فيها شيء، ومن أمثلة ذلك الخزائن التي تحفظ فيها الأموال، فإنه توضع عليها الأختام بعد قفلها، وكذلك الظروف التي توضع فيها الرسائل، تختم حتى يتأكد المرسل إليه أنها لم تفتح، ولم يتلاعب أحد بمحتوياتها.

وقد أخبر الحق - تبارك وتعالى - أنه ختم على قلوب هؤلاء الكفار، فهم لا يفقهون، كما ختم على أسماعهم فهم لا يسمعون الحق، وجعل على أبصارهم غطاء فهم لا يبصرون.

الختم والغشاوة هنا حقيقيان:

والختم والغشاوة المذكوران في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البقرة:٧] حقيقيان، فالله أضافهما إلى نفسه، والله على كل شيء قدير، ولا يليق بالعاقل أن يثبت الله لنفسه شيئاً، ثم ينفيه عنه، ولكننا لا ندري كيفية هذا الختم ولا حقيقته، وإن كنا ندرك معنى ذلك، ونتبين آثاره.

وقد أخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - أن القلوب تعمى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦]. فالختم على القلوب يصيبها بالعمه، والختم على الأسماع يمنعها من الاستجابة لداعي الهدى، والغشاوة على الأبصار غطاء على العيون يمنعها من إبصار الهدى.

الحكم على هذا الفريق وهم الكفار:

أخبرنا العزيز العليم سبحانه أن هذا الفريق لهم عذاب عظيم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة:٧] فقد يوقع الله بهم عذابه في الدنيا، وقد يسلط عليهم أولياءَه فيذلونهم، ويشمل العذاب الأليم العذابَ في القبر، والأهوال التي تصيبهم يوم القيامة، ثم السَّوْقَ إلى النار وغضب الجبار.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أشار العليُّ الحكيم بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة:١] إلى أن كلمات القرآن مكونة من الحروف العربية، وآياته مكونة من كلمات العرب، ومع أن العرب كلهم ينطقون بها، إلا أن الله عندما تكلم بها جاء بكتاب لا يستطيع الإنس والجن الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

٢- جاء الله سبحانه باسم الإشارة (ذلك) الموضوع في لغة العرب للبعيد، ليدلّ على أن القرآن الكريم في غاية الكمال والرفعة، كأنه لرفعته الكتاب الذي لا كتاب غيره.

٣- قرر الحقُّ أن هذا القرآن ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] أي: لا شك فيه، أما الريب الذي أورده الكفرة والمنافقون فهو في نفوسهم، لا في القرآن الكريم.

٤- المرتابون في القرآن لا يجدون برد اليقين، ولا يقرّ لهم قرار، ولا يهدأ لهم بال، وقد ذمّهم الله بقوله: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥﴾ [التوبة:٤٥] وفي يوم القيامة يوبخون ويؤنَّبون ويُقرَّعون، حيث يقال لهم: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ [الحديد:١٤].

٥- القرآن الكريم كالتوراة والإنجيل وكل ما نزل من عند الله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:٢] وقال تعالى في التوراة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤] وقال في الإنجيل: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٦] ومع أن الكتبَ السماوية كُلَّها كتبُ هداية، فإن القرآن حاز الدرجة العليا في هذا الباب، وقد حُرِّفت الكتب السماوية السابقة أو فُقِدت، فأصبح القرآن كتاب الهداية الوحيد الباقي الصافي الخالص.

٦- حدَّد هذا النصُّ والنصُّ التالي له مواقف الناس تجاه القرآن الكريم، وهم ثلاثة أصناف: الأتقياء المؤمنون الذين قبلوا به، وأخذوه وعملوا به، والكفرة المجرمون الذين رفضوه ونبذوه، والمنافقون الذين أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر به.

٧- أشار الحقُّ تبارك وتعالى إلى الصنف الثاني من أصناف البشر في موقفهم من القرآن بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة:٦] وهؤلاء هم الكفرة بكتاب الله، ومهما بُذل في سبيل إنذارهم لا يؤمنون كفرعون وهامان وقارون وأبي جهل وأبي لهب، ولكننا لا نعلم من أعيانهم إلا ما أخبرنا الله به عنهم، ولذلك فإن الواجب علينا أن ندعو الكافرين إلى الإسلام، فمن كتب الله له الهداية آمن، ومن كتب عليه الكفر فإنه لا يؤمن أبداً.

٨- على الدعاة إلى الله أن لا يألموا كثيراً إذا رفض بعض الناس دعوتهم، وقد وقع مثل هذا لرسولنا ﷺ عندما رفض كثير من الكفار ما جاءهم به، فكاد أن يهلك نفسه توجعاً على عدم إيمانهم بما جاءهم به ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف:٦].

٩- يختم الله على قلوب وأسماع الذين كتب عليهم الكفر، ويجعل على أبصارهم غطاء ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة:٧] ومع إيماننا بما أخبرنا الله به من وضعه الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، فإننا لا ندري كيف هي، وكيف يفعلها الله بهم.

١٠- النوع الأول من الناس الأتقياء هم الفائزون، وأعظم فوزهم حُلولهم في جنات النعيم، أما الفريق الثاني فـ ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة:٧] وهذا يشمل عذابهم في الدنيا، والبرزخ، والموقف في القيامة، وأخيراً سوقهم إلى النار، وقذفهم فيها.

النص القرآني الثاني من سورة البقرة
موقف المنافقين من القرآن

أولاً: تقديم

هذا النص الكريم يتحدث عن موقف الفريق الثالث من البشر تجاه القرآن الكريم، وهو فريق مختلف عن الفريقين السابقين، فالأول مؤمن واضح في إيمانه، والثاني كافر واضح في كفره، أما هذا الفريق فهو فريق مراوغ مخادع يدعي الإيمان، ويبطن الكفر، ويدعي الإصلاح وهو مفسد، ويرمي الصحابة الكرام بالسفه، وهو السفيه، وقد أطال القرآن في رسم معالمه، لأنه متلون ملتوٍ مخادع.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موقف الفريق الثالث من القرآن:

الفريق الثالث الذي يتحدث عنه هذا النص هم المنافقون، وهم الذين يدّعون الإيمان بألسنتهم، وقد يُصلُّون، ويصومون، ويقرؤون القرآن، ولكنَّهم كاذبون في دعواهم، فهم يبطنون الكفر في قلوبهم، كما قال تعالى فيهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١] وقال: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة:٨].

وهؤلاء هم المنافقون نفاقاً أكبر، وهو الذي يسميه العلماء بالنفاق الاعتقادي، وأصحابه في الدرك الأسفل من النار إن هم ماتوا عليه، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

٢- بداية ظهور النفاق في المجتمع الإسلامي الأول:

لم يكن لهذا الصنف وجود في مكة قبل الهجرة، لأن الكفر كان هو الظاهر آن ذاك، والمؤمنون مستضعفون، بعضهم كان يخفي إيمانه، مخافة أذى الكفار، وبقي الحال كذلك إلى أن هاجر الرسول ﷺ ، ووقعت غزوة بدر الكبرى، وأصبح المؤمنون قوة تُخاف وتُرهَب، عند ذلك أظهر الإيمانَ طوائفُ من الأوس والخزرج والأعراب حول المدينة وبعضُ اليهود وأبطنوا الكفر، كما قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ [التوبة:١٠١]. فعلوا ذلك خوفاً من بطش المسلمين، وأخذوا يبثون الفتنة بين المسلمين، ويكيدون للإسلام وأهله سرّاً، بعد أن كانوا يعلنون ذلك ويظهرونه، وكان هؤلاء عيوناً لخصوم الإسلام، يفشون إليهم أسرار المسلمين، ويكشفون لهم عوراتهم، ويدلّونهم على نقاط الضعف فيهم.

٣- التعريف بالمنافقين:

وقد حدَّثنا الله في مواضع من كتابه عن هذا الفريق الذي تلبس بلبوس الإسلام، وأبطن الشرك والكفر، وهتك أسرارهم، وكشف أحوالهم، وضرب لهم الأمثال، وهذا الصنف من الناس، صنف متعالم مغرور، يظنُّ في نفسه الفطنة والذكاء، مُدَّعياً أنه صاحب المنهج القويم، والصراط المستقيم، وهو في الحقيقة أخسُّ الناس، وأضلُّ الناس، وأسفه الناس، وأفسد الناس.

ولما كان هذا الفريق متلوناً تلون الحرباء، ملتوياً التواء الأفعوان، فقد أطال الله الحديث عنهم، وحدَّدت الآيات صفاتهم، وضربت لهم الأمثال، حتى لا ينخدع بهم المؤمنون، ولا يغترَّ بهم المتقون.

٤- صفات المنافقين التي حدّدها هذا النص:

أ- **ادعاؤهم الإيمان وهم كاذبون:** أول صفاتهم التي حددها النصُّ القرآني أنهم يدَّعون الإيمان، وهم كاذبون فيما ادعوه، قال تعالى في وصفهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة:٨] وقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المنافقون:١].

ب- **محاولة المنافقين خداع الله والذين آمنوا:** أعلمنا الله - تبارك وتعالى - أن المنافقين يقصدون خداع الله والذين آمنوا، والله لا يخفَى عليه مقاصدهم، وهو يُعلِمُ المؤمنين بمقاصد المنافقين وأحوالهم ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة:٩].

والمخادع هو الذي يحاول تضليل خصمه، وإبعاده عن الوصول إلى مبتغاه، بإخفاء الحقيقة التي يبطنها، وهم بذلك كفُّوا المؤمنين عن مجاهدتهم، وأحرزوا أموالهم وأنفسهم، واستمتعوا بالسكنى في المجتمع الإسلامي، والتواصل مع المسلمين.

وخداع هؤلاء خداع ساذج مكشوف، فهم يخادعون الله والذين آمنوا، والله لا يخفى عليه من خداعهم شيء، فهو العليم الذي لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وعلمه محيط بهم، بل هو أعلم بهم من أنفسهم، وعلمه ليس قصراً على ظاهرهم، بل يتغلغل في أعماق نفوسهم، ويصل إلى خطرات قلوبهم، وهم مكشوفون له سبحانه في ليلهم ونهارهم، في سرهم وعلانيتهم، والمؤمنون لا ينخدعون بباطل هؤلاء، فقد نبأنا الله عن أخبارهم، وكشف لنا أسرارهم، ودلنا على طرائق تفكيرهم، ووصفهم لنا وصفاً إذا علمناه أظهر لنا حقيقتهم، وأزال خداعهم.

ج- **خداع الله للمنافقين وهم لا يشعرون:** ولما كان الأمر كذلك فإن خداعهم ينقلب عليهم، فيصبح هؤلاء الخادعون مخدوعين، وبينما هم يظنون أنهم فائزون، إذا بهم يكتشفون أنهم خاسرون ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة:٩]. وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

ومن أعظم أنواع الخداع هذا النوع من الخداع، لأن وبال خداعهم عائد عليهم، لقد ضيعوا حياتهم الدنيا يحاربون الله ورسوله والذين آمنوا، فما نالهم إلا الخزي والعار وغضب الجبار، والله عالم بخداعهم وأعلم المؤمنين بذلك.

د- **محاولتهم خداع الله في يوم القيامة:** والمنافقون يحاولون في يوم القيامة خداع الله، ويظنون أن حلفهم له ينجيهم كما كان ينجيهم في الدنيا، وسرعان ما يكتشفون أنهم كاذبون، وأن الله لا يخفى عليه شيء من كذبهم ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة:١٨].

هـ- **من خداع الله للمنافقين في يوم الدين إطفاء أنوارهم وعزلهم عن المؤمنين:** يحشر الله المنافقين في زمرة المؤمنين في يوم الدين، وعندما يحاسب الناس، ويُعطي المؤمنين نورهم الذي يسيرون به إلى جنات النعيم، كما كانوا يسيرون في الدنيا بنور القرآن، تطفأ أنوار المنافقين، فيقومون لا يستطيعون المسير مع المؤمنين، جزاء عماهم في الدنيا عن أنوار القرآن، عند ذلك يمكر الله بهم، ويفعل بهم كما كانوا يفعلون في الدنيا، ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد:١٢-١٤].

وهذا الذي ذكرته الآيات لون من ألوان الخداع، إذ يقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، فيأخذون بالرجوع إلى الخلف، بينما المؤمنون يتقدمون إلى الأمام، فعندما يمتاز الفريقان، وينفصل أحدهما عن الآخر، يضرب بينهما بسور له باب، باطنه من جهة المؤمنين الرحمة، وظاهره حيث يكون المنافقون العذاب.

وعندما ينادي المنافقون المؤمنين قائلين: ألم نكن في الدنيا معكم؟ يردُّون عليهم أنهم كانوا معهم بأجسادهم، ولم تستقم قلوبهم على منهج الله الحق، عند ذلك ينكشف لهم أنهم خدعوا أنفسهم، وكان نتيجة الخداع هو النار وغضب الجبار، ويعلمون أن الله لا يُخدع، وأن المؤمنين لم يضرهم الخداع.

و- **قلوب المنافقين مريضة:** كشف الله ربنا لنا عن باطن هؤلاء في قوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠] وعرَّفنا بهذا المرض في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ [الحديد:١٤] فالمرض هو مرض الشك والارتياب والشبهات التي تفعل بالقلوب فعل الجراثيم والمكروبات بالأجساد، والمراد بمرض قلوبهم - كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى - خروج القلب عن الصحة والاعتدال في أمر الدين، فإن صحته أن يكون عارفاً بالحق محباً له، مؤثراً له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه، فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غي وشهوة، وقد سمَّى الله - سبحانه - كلاً منهما مرضاً، كقوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢] [بدائع التفسير: ١/ ٢٦٦].

وقوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠] إخبار من الحق - تبارك وتعالى - عنهم، أنهم لما أبطنوا الكفر والنفاق الذي أمرض قلوبهم، زادهم الله مرضاً، كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥] وهذه سنة من سنن الله في خلقه، فمن ارتضى الباطل، وعمي عن الحق، فإنَّ الأمر يتمادى به، ويتعمق الباطل لديه، حتى يصبح فيه رأساً، إلا أن يتداركه الله برحمته ولطفه.

ز- **إذا دعوا إلى عدم الإفساد في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون:** يخبر الحقُّ - تبارك وتعالى - عن هؤلاء المنافقين بأنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة:١١-١٢].

والفساد الذي ينهى أهلُ الحقِّ عنه هؤلاء نقيض الصلاح، والمراد به – كما يقول ابن كثير رحمه الله – إخراج الشيء عن حال استقامته، وكونه منتفعاً به. [ابن كثير: ١/ ١٩٨]. وقد حدَّد الحقُّ تبارك وتعالى سبيل الصلاح، وحذّر من الخروج عن هذا السبيل، فإنه فساد، وطرائق الفساد التي تحدث عنها القرآن كثيرة منها: اتخاذهم مع الله آلهة أخرى، وقد أخبر تبارك وتعالى أنه لو كان في السماء والأرض آلهة من دون الله لفسدتا ﴿ لَوْكَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ [الأنبياء:٢٢].

ومن الإفساد في الأرض القتل وسفك الدماء بغير حقٍّ، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة:٣٠]، وفرعون كان من المفسدين، ومن إفساده أنه كان يذبح أبناء بني إسرائيل، ويستحيي نساءَهم، ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص:٤].

واتباع أهواء البشر التي يجعلونها مناهج ومبادئ ونظماً تفسد السموات والأرض بقدر ما فيها من ضلال ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون:٧١]. وقطع الأشجار والنباتات لغير هدف، وقتل الحيوانات والقضاء على نسلها من الإفساد في الأرض ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٥] والحرث: الزرع، والنسل: ذرية الإنسان والحيوان.

وبالجملة فكلُّ ما يخالف الحق الذي جاءَنا من عند الله من الشرك والكفر وعبادة غير الله، وترك ما فرضه الله، وارتكاب محارم الله، كله من الفساد في الأرض، وقد ظهر الفساد في الأرض ظهوراً لا مزيد عليه في هذه الأيام ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم:٤١].

ويدّعي هؤلاء المنافقون عندما يطالبهم أهل الحق بترك الإفساد في الأرض أنهم مصلحون، وهي دعوى كاذبة، يدّعيها كثير من الزعماء والرؤساء والضالين من العلماء، والحقيقة أنها كما قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة:١٢].

والسبب في عدم شعورهم بفسادهم أن كلَّ من كان على دين يظن نفسه على الصلاح وغيره على الفساد ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام:١٠٨].

ح- المنافقون مغرورون بأنفسهم عندما يصفون الأخيار بالسفه: هؤلاء المنافقون مغرورون حيث يزعمون زوراً وكذباً أنهم أعلم وأفضل من الرسول ﷺ وأصحابه والأخيار من هذه الأمة، فعندما يُدْعَون إلى اتباع الرسول ﷺ وأصحابه في إيمانهم وأعمالهم، يستنكرون

هذه الدعوة قائلين أنؤمن كما آمن السفهاء، فيأتيهم الجواب سريعاً من الحقِّ تبارك وتعالى واصماً إياهم بالسفه، كأنَّهم وحدهم السفهاء دون غيرهم، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة:١٣]. والمراد بـ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ الرسول ﷺ وأصحابه.

والسفه خِفَّةٌ في العقل، وضلال في الرأي، وهذه الخفة وذلك الضلال تجعل أصحابها يتصرفون تصرفات حمقاء رعناء تؤدي بهم إلى الهلاك والبوار، وهل هناك أسفه ممن يردُّ على الله أمره، ويكذِّب قوله، ويصف الرسول ﷺ وصحبه بالضلال والسفه.

ط- لون من ألوان خداع المنافقين: يتجلى نفاق هؤلاء فيما حدثنا الله به عنهم أنَّهم ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة:١٤].

إنهم مذبذبون بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء:١٤٣] وهذا نوع من العذاب المعجّل في الدنيا لهؤلاء، فإنَّ هذا التلون والتغير والتناقض بين الظاهر والباطن يُعذِّب أصحابه، ويُضْنيهم، ويُذهِب منهم الطمأنينة وراحة النفس.

والمراد بشياطينهم الذين يكشفون لهم خبيئاتهم الكافرة الفاجرة هم رؤساؤهم من المنافقين واليهود والمشركين، الذين اتخذوهم مرجعاً يخططون لهم، ويقودونهم في مواجهة المسلمين والمكر بهم وتفريق صفوفهم، وإيقاع الفتنة بينهم.

وسماهم الله بالشياطين لما يتصفون به من المكر والدهاء، وقد استعملوا دهاءَهم وذكاءَهم في محاربة الله ورسوله ودين الإسلام، كفعل الشياطين، والعرب تطلق الشياطين على كل عاتٍ متمرد من الإنس والجن، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام:١١٢].

وقد عدَّ المنافقون هذا التلون والتذبذب منهم فطنة وذكاء عندما أعلموا شياطينهم أنّ إظهارهم الإيمان للمؤمنين حين لقائهم بهم إنما هو سخرية منهم بهم، فهؤلاء المؤمنون - في نظر المنافقين - سُذَّجٌ بسطاء، ليس لديهم ما يكشفون به أغوار النفوس، وتحايل الدهاة، وبذلك يسهل خداعهم، وتخفى عليهم نيات خصومهم وأهدافهم ومقاصدهم، ويبقون يعملون في داخل مجتمعهم وهم عنهم غافلون.

ولكن الحقيقة التي قررها ربُّ العزة غير ذلك، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٥]. فالحقيقة أنهم هم الأغبياء، وأنهم هم المستهزأ بهم، لا من قِبَل العباد فحسب، بل من قِبَل ربِّ العباد، فهو يسخر بهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنهم يقضون أعمارهم يسبحون في الضلال، والكيد للإسلام وأهله في الخفاء، فيفقدون خصائص الإنسانية السوية، كما يفقدون خصائص الإيمان، وعندما يأتيهم الموت، ويُكشَفُ عنهم الغطاء، يعلمون أنهم ضيعوا مسيرة الحياة فيما يعود عليهم بالحسرة والندامة والخسران، نعوذ بالله من الخذلان.

٥- حكم الله على المنافقين:

حكم الله على الفريق الأول بأنهم على هدى من ربهم، وأنهم هم المفلحون، وحكم على الفريق الثاني بأنهم لا يؤمنون، ويأتي حكم الله على هذا الفريق حكماً جلياً واضحاً في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة:١٦]

والمشار إليه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هم المنافقون الذين وصفهم الحقُّ - تبارك وتعالى - أتمَّ وصف، كما بيّن مقاصدهم وأهدافهم الخبيثة، وبيّن غرورهم وجهلهم وتعاليهم، وقد أخبر عنهم أنهم اشتروا الضلالة بالهدى، والمشتري هو دافع الثمن وآخذ السلعة، وهذا الصنف ترك الهدى وأخذ الضلالة، «والعرب تقول لكل من ترك شيئاً وتمسك بغيره قد اشتراه» [لسان العرب: ٢/٣٠٨]، وهؤلاء تركوا الإيمان والهدى، وأخذوا الكفر والضلال والباطل، كما قال تعالى فيهم في موضع آخر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [البقرة:١٧٥] وهم الذين ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ﴾ [البقرة:٨٦] وهم أيضاً ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران:١٧٧].

ويأتي في مقابل هؤلاء المؤمنون الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٠٧]. وقال فيهم: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

وإنما عبّر بقوله: ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾ بدل (استبدلوا)، وسمّى فعلهم تجارة، لأن هؤلاء المنافقين يحرصون على إعلاء الباطل الذي يخفونه، وإزهاق الدين الذي يكرهونه، كما يحرص التجار على ربح تجارتهم، فهم يسعون في ذلك سعي المجد، كما يسعى التاجر إلى تحقيق مبتغاه،

بمعاناة الأسفار، وقطع الفيافي والقفار، والبكور إلى العمل في الصباح، وسهر الليالي في التخطيط والتدبير.

وكذلك أهل الباطل من الكفرة والملحدين يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل نصرة مبادئهم، ويبذلون أقصى جهدهم في التخطيط والتدبير، والمكر والاحتيال، وإذا أنت تأملت فيما كان عليه الكفار في القديم والحديث وجدت صدق ما نقول، وانظر إلى الحروب التي أثارتها النصرانية المحرفة، وما بذله المجوس عبّاد النيران، والمشركون عبَّاد الأوثان، تجدهم فعلاً اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فهم يتصارعون فيما بينهم، كما يصارعون الحق وأهله، ولكن جهودهم هذه جهود ضالّة خاسرة، ولذلك حقَّ قول الله فيهم ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة:١٦].

رابعاً: ما تهدي إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - أطال القرآن في وصف الفريق الثالث في هذا النص، وهم المنافقون، أكثر مما تحدث به عن الفريق الأول أو الثاني، لأنه فريق متلون متذبذب، فيه كثير من الانحراف والالتواء، فيحتاج إلى مزيد وصف لتحديد معالمه.

٢- هذا الفريق موجود في كل عصر وزمان، ولا يزال هذا الفريق يُرَى في مجتمعات المسلمين اليوم، ومن يُحسن النظر في ما حدَّث الله به عن المنافقين، فإنَّه يرى نماذجهم مبثوثة هنا وهناك.

٣- هذا الفريق يبطن الكفر، ويُظهر الإسلام، ويدَّعي الفطنة والذكاء، وهم متعالمون، ويظنون أن بإمكانهم خديعة الله والمؤمنين، والحقيقة أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون.

٤ - هذا الفريق قلوبهم عليلة، ونفوسهم سقيمة، وكلما امتدَّت بهم الحياة ازدادوا مرضاً وسقماً، وجزاء هؤلاء وأضرابهم أن يحلَّ بهم العذاب الأليم.

٥- يدَّعي هؤلاء الصلاح عندما يُدْعَوْنَ إلى عدم الإفساد في الأرض، وقد حكم الله عليهم أنهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون.

٦- عندما يُطالَب المنافقون بأن يؤمنوا كما آمن الرسول وأصحابه والأخيار من هذه الأمة ينتفخون عجباً، ويستنكرون أن يُدْعَوا إلى الإيمان بمثل إيمان هؤلاء السفهاء، وقد حكم الله عليهم بأنهم هم السفهاء، ولكن لا يعلمون.

٧- ضرب الله مثلاً لهؤلاء في خداعهم ونفاقهم وتلوّنهم، فعندما يلتقون بالمؤمنين يزعمون أنهم مؤمنون، وعندما يلتقون بدهاتهم وزعمائهم من شياطين الإنس يزعمون أنّهم كانوا يسخرون بالذين آمنوا عندما يخبرونهم بأنّهم آمنوا بدينهم.

٨- هذا الفريق فريق ضالٌّ منحرف، وقد صَدَقَ قولُ الله فيهم أنهم اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.

٩- لقد كان الرسول ﷺ يرى المنافقين يعيشون وسط أصحابه، فصبر عليهم، وأغلظ لهم القول، وكشف سترهم، ولكنه لم يحاربهم، ولم يقاتلهم، وكفّ عن سفك دمائهم، وبيّن الرسول ﷺ الحكمة من وراء موقفه منهم، فقال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» [رواه أحمد: ١٥٢٢٣ عن جابر]، ومصير المنافقين يوم القيامة النار، وغضب الجبار.

النص القرآني الثالث من سورة البقرة
مثلان مضروبان للمنافقين

أولاً: تقديم

حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - في النصين السابقين عن أقسام الناس ومواقفهم تجاه القرآن الكريم، وقد أطال في النص السابق الحديث عن صفات المنافقين، وضرب في هذا النص مثلين لمزيد من التعريف بهم، أحدهما ناري، والثاني مائي.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - التعريف بالأمثال وبيان فوائدها:

ضرب الله في هذا النص مثلين للمنافقين، لمزيد من التعريف بهم «والمِثْل والمَثَل والمثيل: كالشِّبه والشَّبَه والشبيه لفظاً ومعنى، والجمع أمثال، والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر، بينهما وجه شبه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١]. وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣]» [بصائر ذوي التمييز: ٤/ ٤٨١، ٤٨٢].

وأمثال القرآن كثيرة، منها ما صرَّحَ الحقُّ - تبارك وتعالى - فيها بأنها أمثال مضروبة، كالمثلين اللذين نتحدث عنهما في هذه السورة، وهذه الأمثال المصرح بها تزيد على الأربعين، ومنها أمثال قرآنية مضروبة من غير تصريح بأنها أمثال، وهي كثيرة في القرآن.

«وضَرْبُ الأمثال في الكلام نوع عالٍ من أنواع البلاغة، وكلَّما كان المثل مطابقاً لمقتضى الحال، ارتقى الكلام رتبةً في درجات البلاغة، لأنَّ الأمثال تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، لما فيها من تشبيهه الخفيِّ بالجليِّ، والغائب بالشاهد» [جواهر الأفكار: ص٨٢].

٢- **المثل الناري:**

وضرب الله للمنافقين في هذا النص مثلين: أحدهما ناري، والثاني مائي، والمثل الناري الذي ضربه الله للمنافقين هو في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة:١٧-١٨]، «مثَّل تعالى حالة المنافقين في تحيّرهم وتلاعبهم، وما هم عليه من الأحوال العجيبة الشأن بحالة الذي استوقد ناراً، ولما كانوا بأجمعهم متفقين على حالة واحدة، ومسلك واحد من النفاق، وسالكين قانوناً واحداً لا يتجاوزونه، عُدَّ فعلهم كأنّه فعل رجل واحد منهم، فمثَّل بحالة شخص استوقد ناراً، وهو نوع من البلاغة يعدُّ في طبقة الإعجاز» [جواهر الأفكار: ص٨٢].

وتقرير هذا المثل - كما يقول ابن كثير -: «إن الله سبحانه شبَّههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنّس بها، فبينا هو كذلك إذ طُفِئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان قبل ذلك، كذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغيّ على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون:٣]».

وقال ابن كثير معقباً: «وقد حكى هذا الذي قلناه فخر الدين الرازي في تفسيره عن السدّي، ثم قال: والتشبيه ههنا في غاية الصحة، لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولاً نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، فوقفوا في حيرة عظيمة، فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين» [ابن كثير بشيء من الزيادة: ١/ ١٧٤].

وبيّن تبارك وتعالى في موضع آخر أن معنى صممهم وبكمهم وعماهم هو عدم انتفاعهم بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢٦].

٣- **المثل المائي:**

والمثل الثاني المضروب للمنافقين، هو المثال المائي، ضربه في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة:١٩-٢٠].

وهذا المثل مضروب للمنافقين الذين وصل إلى قلوبهم المملوءة بظلمات الشكوك والريب والضلال شيء من نور القرآن، فكانت تفزعهم قوارع القرآن، ووعده ووعيده، وتزلزل كيانهم، وقد شبَّه الله حال هؤلاء بحال قوم أصابهم في مسارهم ﴿صَيِّبٌ﴾ هاطل من السماء - والصَّيِّب: المطر - في ليلة ظلماء «أرخت سدولها، وتكاثفت ظلماتها، بما تراكم فيها من السحب، وصارت قطراتها منتسجة مع بعضها بعضاً، وتواترت فيها الرعود الهائلة، والبروق المخيفة، والصواعق المختلفة والمهلكة» [جواهر القرآن: ص٨٧].

وقد شبّه الحقُّ - تبارك وتعالى - في هذا المثل الدين الحق المنزل من عنده بالمطر الهاطل من السماء، والشبهات التي في قلوب المنافقين بالظلمات، والوعد والوعيد الذي يقرع أسماعهم، بالرعد القاصف، ونور القرآن بالبرق الذي وصفه في آية أخرى بقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٣﴾ [النور:٤٣].

ولشدة الرعد الذي تحول إلى صواعق تكاد تزهق أرواحهم أدخلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا تخرق منهم طبلة الآذان، وعندما يلمع البرق يسيرون خطوات كحال المنافقين عندما يصل إلى قلوبهم بصيص من نور، فإذا انقطع ذلك النور عادوا إلى الشكوك والريب والضلال، ولو شاء الله لذهب بأسماعهم وأبصارهم، فأصبح حالهم كالجماد، والله على كلِّ شيء قدير.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ضرب الله في هذا الموضع مثلين للمنافقين، وفي القرآن أمثلة كثيرة أخرى، يضربها ربنا لنا، وما يعقلها وينتفع بها إلا العالمون.

٢- الأمثال توضح المعنى المراد وتُجلِّيه، وتظهره وتعليه، ولكن هذا الإيضاح وتلك التجلية تحتاج إلى عقول تدرك النص وتعقله.

٣- ضرب الله مثلاً للمنافقين برجل أوقد ناراً في ظلمة الليل، وفجأة انطفأت النار، فعمَّ الظلام، فزال انتفاع الإنسان بناظريه، وهؤلاء المنافقون آمنوا فأبصروا، ثم كفروا فزال النور ووقعوا في الظلمات.

٤- شبَّه الله المنافقين في المثل الثاني بقوم سائرين أمطرتهم السماء مطراً فيه رعد وبرق شديدان، ولشدة الرعد يجعلون أصابعهم في آذانهم، ولشدة البرق يكاد يخطف أبصارهم؛ وهؤلاء المنافقون المضروب لهم المثل قد يتسلل شيء من نور القرآن إلى قلوبهم، فيهتدون به لفترة وجيزة، وإذا ذهب ذلك النور حلّت بهم الظلمات.

النص القرآني الرابع من سورة البقرة
دعوة الناس جميعاً إلى توحيد الله ونهيهم عن الشرك

أولاً: تقديم

أشار الحقُّ - تبارك وتعالى - إلى كتابه المنزل من عنده بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢] ثم قسَّم الناس جميعاً تجاه هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام: المتقين الأخيار، والكفرة الفجار، والمنافقين الضلال، وحكم على الفريق الأول بأنهم على الهدى والصلاح، وعلى الفريقين الآخرين بالخسران والبوار، ثم دعا الناس جميعاً في آيات هذا النص إلى أن يكونوا من الفريق الأول المفلح الفائز، وتحقيق ذلك بعبادة الله الواحد الأحد، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة:٢١] ليكونوا من الفريق الأول، وهم المتقون ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١] ونهاهم عن أن يكونوا مشركين ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢].

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - أول واجب على العباد عبادة الله الواحد:

نادى الحقُّ - تبارك وتعالى - الناس جميعاً آمراً إياهم بعبادته وحده لا شريك له، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة:٢١] والعبادة - كما يقول ابن جرير - [١/ ٢٥٣] «الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة».

والعبادة هي غاية وجود الجنِّ والإنس ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

ودعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، هي مهمة الرسل والأنبياء جميعاً، فموسى عليه السلام أوحى الله إليه ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [طه:١٤] والمسيح عليه السلام قال لقومه:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ ﴾ [المائدة:٧٢] ونوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام كل منهم قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

وكل الأنبياء والمرسلين دعوتهم واحدة، لا اختلاف بينها، فكل ما أوحى الله به إلى رسله يدخل في العبودية لله رب العالمين، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقد عهد إلينا ربنا باجتناب عبادة الشيطان، والاستقامة على عبادة الرحمن ﴿ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [يس:٦٠-٦١]، وأخذ الله عهداً موثقاً على بني إسرائيل بعبادته وحده، وترك عبادة أحدٍ من دونه ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [البقرة:٨٣].

وكلُّ مسلم هداه ربُّ العزة إلى إقامة الصلاة من هذه الأمة، فإنه يعطي ربَّه عهداً على عبادته وحده لا شريك له في كل ركعة من الركعات في قراءته لفاتحة الكتاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة:٥].

ولا يقبل الله عبادة العابدين إلا إذا كانوا في عبادتهم مخلصين، وهذا معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فالمعنى لا معبود يستحق العبادة إلا الله.

وعلى الدعاة أن يعنوا بالدعوة إلى عبادة الله، وتفقيه الناس بها، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الرسول ﷺ عندما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى» [البخاري: ٧٣٧٢، مسلم: ١٩]. وفي رواية عند البخاري أنه قال لمعاذ: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله» [البخاري: ١٣٩٥].

وجعل الرسول ﷺ عبادة الله وحده لا شريك له أول الصفات التي تُدخل الجنة، فعن أبي هريرة: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان» [البخاري: ١٣٩٧، مسلم: ١٤، واللفظ للبخاري].

والعبادة حقُّ الله على العباد، فقد قال الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل: «يا معاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً» [البخاري: ٧٣٧٣، مسلم: ٣٠، واللفظ للبخاري].

وعبادة غير الله من الأصنام والأوثان والنيران ونحوها من الشرك الذي لا يغفره الله إذا مات العبد عليه، وفي ذلك يقول رب العزة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

٢- الأدلة الدالة على استحقاق الله العبادة دون سواه:

هذا الكون وما فيه معبد ضخم هائل يدلُّ على أنَّ الله هو المستحقُّ للعبادة وحده لا شريك له، والدلائل الدالة على ذلك مبثوثة في الكون، وهي أدلة ميسَّرة، وأول هذه الآيات الإنسان نفسه بحاضره وماضيه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة:٢١] فهذا الإنسان السويُّ الخَلْقِ، المنتصب على قدمين، الذي أعطي العقل والسمع والبصر، القادر على اختيار الهدى والضلال آية من الآيات الدالة على استحقاق الله للعبادة.

وتلك الأرض المفروشة، والسماء المبنية المرفوعة، وذاك المطر النازل من السماء، فإذا شربته الأرض أخرج الله به الشجر والنبات، وتحدَّرت منها الأرزاق والأقوات، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢].

ومعنى جعل الله الأرض فراشاً، أي: جعلها ممهدة موطَّأة على النحو الذي نشاهده، ولو كانت الأرض كلها ماءً، أو كانت صخوراً كلها، أو جبالاً كلها، أو لو كانت حراراتها عالية جداً، أو منخفضة جداً لما أمكننا أن نعيش فوقها.

وبناء السماء على النحو الذي هي عليه آية عظيمة تدلُّ على عِظَم قوة من بناها وجبروته وحكمته، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات:٤٧].

وسميت السماء سماءً - كما يقول ابن جرير - [تفسير ابن جرير الطبري: ١/ ٢٥٥]: «لعلوِّها على الأرض، وعلى سكانها من خلقه، وكلّ شيء فوق شيء آخر فهو لما تحته سماء، ولذا قيل لسقف البيت: سماؤه، لأنه فوقه مرتفع عليه».

ومن آيات الله العظيمة الدالة على استحقاق الله العبادة وحده لا شريك له إنزال الله الماء من السماء، فأحيا به الأرض بالشجر والنبات، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢].

والمراد بالثمار، ثمار الأشجار التي تحيا بالماء، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [النحل:١٠-١١]، وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون:١٨-٢٠].

٣- غاية العبادة:

وقد أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أن الغاية المقصودة من عبادة الله هو تحقيق التقوى في القلوب، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١]. فالعبادات المفروضة على العباد تحقق التقوى، فمن ذلك الصيام فرضه الله علينا لنتقي ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣] ونحر الأضاحي ونحر الهدي في الحج يوجد التقوى في القلوب، ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧] والأتقياء هم الصنف الأقوم والأفضل، وهم الذين يرثون جنات النعيم: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم:٦٣].

وقد مضى تعريف التقوى عند تفسيرنا لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة:٢].

٤- النهي عن أعظم الذنوب وهو الشرك بالله تعالى:

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بأعظم الطاعات، وهو توحيد الله تعالى في الآية السابقة، نهى في هذه الآية عن أعظم الذنوب، وهو الشرك بالله، فقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢].

والنِّدُّ الذي نهانا ربنا عزَّ وجل عن اتخاذه هو الشريك الذي يعبد مع الله كالأصنام والأوثان، قال تعالى ذامّاً المشركين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [إبراهيم:٣٠] واتخاذ الأنداد مع الله كفر ليس بعده كفر، قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [فصلت:٢٩].

وقد قرَّر رسولنا ﷺ أن اتخاذ الأنداد أعظم الذنوب، ففي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يَطعم معك»، قلت: ثمَّ أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». وأنزل الله تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] [البخاري:٦٠٠١، مسلم: ٨٦].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أمر الحقُّ - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص بأعظم مأمور، وهو عبادته وحده لا شريك له، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] ونهاهم عن أعظم محظور، وهو أن يجعلوا له شركاء في عبادته، فقال: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة:٢٢].

٢- أورد الحقُّ - تبارك وتعالى - في هذه الآيات الأدلة الدالة على استحقاقه الألوهية دون سواه، فمن ذلك أنه الخالق لنا ولمن قبلنا، الذي جعل لنا الأرض فراشاً، والسماء بناءً، وأنزل من السماء ماءً، فأخرج به من الثمرات رزقاً لنا ولأنعامنا.

٣- استدلّ بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة:٢٢] على أنّ الأرض مُسطحة، وليست كروية، وقد اتخذ بعض الضالين هذه المقالة ذريعة إلى الطعن في القرآن، وأنه يخالف الحقائق العلمية الكونية، وقد ردّ الزمخشري هذا الاستدلال بقوله: «ليس في الآية إلا أن الناس يفترشونها، كما يفعلون بالمفارش، وسواء كانت على شكل السطح أو سطح لكرة، فالافتراض غير مستنكر ولا مدفوع لعِظَم حجمها، واتساع جرمها، وتباعد أطرافها» [الكشاف: ١/ ٢٣٤].

ودعوى من يدعي أن القرآن يخالف الحقائق العلمية قوله محض كذب وافتراء، فالكون خلق الله، والقرآن كلام الله، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف:٥٤] فأنى يناقض قولُه خَلْقَه ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور:١٥٦].

وقد استدلَّ علماء الأمة بدلائل قرآنية كثيرة على كروية الأرض، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الرسالة العرشية والبيضاوي في تفسيره وغيرهما.

٤- نقل ابن العربي - رحمه الله تعالى - عن أصحاب الشافعي: «أنه لو حلف رجل لا يبيت على فراش، ولا يستسرج سراجاً، فبات على الأرض، وجلس في الشمس لم يحنث، لأن اللفظ لا يرجع إليهما» [أحكام القرآن: ١/ ١٣].

وهذا صحيح لأن الأيمان تحمل على المعتاد المتعارف عليه من الأسماء، وليس في العادة إطلاق هذا الاسم على الأرض والشمس.

٥- الغاية المرجوة للعبادة: التقوى، كما صرح بها في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة:٢١] أي: لعلكم تتقون الله بعبادتكم إياه، فالعبادة تنشئ التقوى في القلوب.

و(لعل) في لغة العرب موضوعة للتَّرجي، وهو الطمع في حصول أمر محبوب ممكن الوقوع، والله عالم بمن يتقيه، ومن لا يتقيه، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولذا فإنَّ الترجي هنا هو الحاصل من العباد، كأنه قال لهم: إن تأملتم حالكم في عبادتكم لربكم رجوتم التقوى لأنفسكم.

النص القرآني الخامس من سورة البقرة
القرآن العظيم آية عظيمة دالة على صدق نفسه

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى - في مطلع هذه السورة العظيمة أن هذا الكتاب لا ريب فيه على وجه الحقيقة، فهو منزل من عند الله يقيناً، والمنزل من عند الله لا باطل فيه بحال، والريب إنما هو في قلوب المرتابين من الكفرة والمنافقين، وخاطب الله في آيات هذا النص هؤلاء المرتابين المتشككين مدللاً على صدق هذا الكتاب طالباً منهم أن يأتوا بمثل سورة من سورهِ إن كانوا صادقين فيما يزعمونه من بطلانه، فإن لم يستطيعوا فعل ذلك، فعليهم الإيمان بالله ومخافته واتقاء ناره.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- القرآن هو الآية العظيمة الدالة على صدق نفسه:

نادى ربُّ العزة الناس في آية سابقة آمراً إياهم بعبادته وحده لا شريك له، ثم نهاهم عن أن يتخذوا له الأنداد، ثم خاطب الله المرتابين في آيات هذا النص متحدياً إياهم بالإتيان بسورة من مثله ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣].

يقول لهم: إن كنتم متشككين فيما أنزلناه على رسولنا من هذا القرآن فأتوا بسورة من مثله، وهذا يقضي بأن يكون القرآن كذباً مفترى إن جاؤوا بمثل سورة واحدة قصيرة، لأنه لم يفرق بين القصير والطويل، بل جاءَ التحدي عامّاً مطلقاً، وإن عجزوا عن ذلك فيكون حقّاً وصدقاً، وأذن لهم في مجال التحدي أن يستعينوا بمن يريدون من الأعوان والأنصار ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة:٢٣].

ومعنى ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أعوانكم، وقال مجاهد: الذين يشهدون لكم، وقال بعض أهل العلم: معناه من يعتد بحضوره» [عمدة الحفاظ: ٢/ ٣٤٤] وهذه معاني بعضها قريب من بعض.

ولم ينتظر محاولتهم الإتيان بما تحدَّاهم به، بل سارع إلى الإعلان عن أنَّهم عاجزون عن ذلك في الحاضر والمستقبل كما عجزوا عنه في الماضي ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٤]، والحكم عليهم بالعجز فيه استثارة لحفيظتهم، إذ لو كان فيهم قدرة على تحقيق التحدي لسارعوا إلى الردِّ عليه، ليثبتوا بذلك ريبهم وشكهم.

وإذا كانوا عن المتحدَّى به عاجزين، فعليهم أن يبادروا إلى الإيمان، اتقاءً لغضب الرحمن وناره التي وقودها الناس والحجارة، والوَقود هو المادة التي تشعل بها النار كالحطب ونحوها من المواد القابلة للاشتعال، وقد أخبرنا الحق أن وقود النار الناس والحجارة، ومن هؤلاء الناس الذين يعبدون من دون الله آلهة أخرى، ومنها معبوداتهم من دون الله ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء:٩٨].

مراحل التحدي بالقرآن:

تحدَّى القرآنُ الكفارَ بالإتيان بمثل القرآن كلِّه في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨].

ثم نزل في التحدي إلى عشر سور من مثل هذا القرآن، لا فرق بين الطويل منها والقصير، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود:١٣].

وأخيراً تحداهم في هذه الآية ونظيراتها بالإتيان بمثل سورة واحدة منه، ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس:٣٨].

وها هو التحدي قائم إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة، وهو موجَّه للجنِّ والإنس على مرّ الأزمان، ومع كثرة خصوم الإسلام في القديم والحديث لم يستطع أحد أن يأتي بمثل سورة من سور هذا القرآن، وعلى المسلم أن يواجه من يدعوهم بهذه الحجة، فإن أبى الناس الإيمان، بعد إقامة هذا البرهان عليهم، فهم معاندون مستكبرون يستحقون النار وغضب الجبار.

٢- تبشير الذين آمنوا بالقرآن وعملوا به بجنات تجري من تحتها الأنهار:

بعد أن أنذر الله الكفرة بما أنذرهم به، أمر رسوله ﷺ أن يبشر المؤمنين بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾ [البقرة:٢٥].

والبشارة: الإخبار بما يسر، كما أن الإنذار: التخويف مما يخاف منه ويضر، وقد بشر الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الطاعات من الواجبات والمستحبات، بجنات تجري من تحتها الأنهار، «والجنة في الأصل البستان ذو الشجر الساتر بأشجاره الأرض، وقد يطلق على الأشجار نفسها جنّة، سمي بذلك لستره الأرض ومَنْ يدخل فيها» [عمدة الحفاظ: ١/ ٤٠٠].

وقد حدَّثنا - تبارك وتعالى - أن أنهار الجنة ليست مقصورة على الماء ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد:١٥]. والمراد بجريان الأنهار من تحتهم، أي: من تحت قصورهم وحدائقهم وأشجارهم، كما قال فرعون: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف:٥١] أي: من تحت قصوره وبساتينه.

٣- ثمار الجنة متشابهة في المنظر مختلفة في الطعم والمخبر:

يساق إلى أهل الجنة من ثمار الجنة رزق متصل، متشابه في المنظر، مختلف في الطعم والمخبر ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة:٢٥]، أي: أن الثمار اللاحقة تشبه الثمار السابقة في الشكل والمنظر، ولذلك قال: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة:٢٥]، أي: يشبه بعضه بعضاً في منظره، ولكن الطعوم مختلفة متنوعة.

٤- لأهل الجنة في الجنة أزواج من الحور العين المطهرات:

من نعيم الجنة الذي بشَّر الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾ [البقرة:٢٥]. وقد أطال الكتاب والسنّة في وصف أزواج المؤمنين في جنات النعيم، ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾ [الطور:٢٠]، ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾ [الواقعة:٢٢-٢٣]، ووصف نساء أهل الجنة هنا بالطهارة ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة:٢٥] أي: مطهرات من النجاسات الحسيّة والمعنوية، وليس هذا قصراً عليهن، بل كل أهل الجنة كذلك، فهم فيها لا يتبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يبصقون، وليس في نساء

أهل الجنة حسد، ولا كذب، ولا سباب، ولا شتائم، ومع أن أهل الجنة يأكلون ويشربون إلا أن طعامهم لا يبقى منه بول ولا غائط، بل جشاء ورشح كرشح المسك.

وقد حدَّثنا الرسول ﷺ عن أهل الجنة وأزواجهم وطعامهم وشرابهم، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصُقون فيها، ولا يمتخِطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامِرهم الألُوَّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرةً وعشياً» [البخاري: ٣٢٤٥، وانظره في مسلم: ٢٨٣٤]، وورد في رواية أخرى عند البخاري [٣٢٤٦] «لا يسقمون».

وفي صحيح مسلم عن جابر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون» قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جشاء ورشح كرشح المسك، يُلهَمون التسبيح والتحميد كما يُلهَمون النَّفَسَ» [مسلم: ٢٨٣٥].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- القرآن آية تدلُّ على صدق الرسالة والرسول، فقد تحدَّى الله به الجنَّ والإنس فعجزوا، وهذا التحدي باقٍ ومستمر إلى يوم الدين.

٢- من أنباء الغيب التي أعلمنا الله بها أن البشر لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولا بمثل سورة من سوره، وقد تحقق هذا، فلا يزال الناس عاجزين.

٣- الكفار الذين تحداهم القرآن فلم يؤمنوا مكابرون معاندون، ولذلك يستحقون النار وغضب الجبار.

٤- على الدعاة إلى الله استعمال الأسلوب القرآني في الإنذار والتبشير، والترغيب والترهيب، والكتاب والسنّة يفيضان بهذا النوع في مخاطبة الناس، وليحذر الداعية الإكثار من الترهيب وحده، فإنه يُيئِس الناس من رحمة الله، كما عليه أن يحذر من التبشير وحده، فإنه يطمعهم في المعاصي اعتماداً على رحمة الله وعفوه، ويجعلهم يتواكلون ويتكاسلون.

٥- الجنات التي بشَّر بها ربُّ العالمين المؤمنين جنات حقيقية، وما فيها من أشجار وأنهار وثمار كله حقيقة، وهم فيها يأكلون ويشربون وينكحون حقيقة، لا كما يقول أهل

الضلال: إن كل ذلك تمثيل وتخييل وأمثلة المقصود منها إصلاح الناس وتوجيههم لما يصلح أخلاقهم وأعمالهم، ولكن لا يوجد جنة ولا نار على الحقيقة، وأقوالهم هذه كذب وافتراء وبهتان، وتكذيب للرحمن، وطعن في القرآن.

٦- قوة النار وشدتها، فإنها تشتعل في الناس كما تشتعل في الحجارة على حدٍّ سواء، وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «نارُكم جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم» [البخاري: ٣٢٦٥. ومسلم: ٢٨٤٣] نعوذ بالله من نار جهنم.

النص القرآني السادس من سورة البقرة
أمثال القرآن حقٌّ وصدق

أولاً: تقديم

لما عجز أعداء الإسلام عن الإتيان بمثل أصغر سورة من سور هذا القرآن أثاروا الشبه للتشكيك بالقرآن، فقد زعم أعداء الله أنَّ الله أعزّ وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، كضرب المثل بالذي استوقد ناراً، وآخر بالصيب النازل من السماء، وفي مواضع أخرى ضرب الأمثال بالذباب، وبيت العنكبوت، فردَّ الله عليهم في ذلك كله بقوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٦].

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الله - سبحانه - لا يستحي من ضرب المثل بالصغير أو الكبير:

قرَّر مطلع هذا النص أن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، والبعوضة حشرة معروفة، لها جناحان تطير بهما، وهي من أصغر المخلوقات وأضعفها، وقوله: ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٦] أي ما هو أكبر منها، كالذباب، والنمل، والعنكبوت، ولا يعيب الكلام في لغة العرب أن تضرب الأمثال بأقلّ الأشياء، وقد ضرب العربُ الأمثال بالذرة والذباب، والقراد، فقالوا: «أجمع من ذرة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد».

وقد ضُربت الأمثال في التوراة والإنجيل الموجودَيْن بأيدي اليهود والنصارى اليوم بالأشياء المحقرة، «ففي التوراة ضرب المثل بالعوسج والأرز، والكرم والنسر، ومن أمثال الإنجيل الحنطة والزوان وحبة الخردل والخميرة والبذار والخروف الضال، وشجرة التين، وغيرها كثير» [راجع: قاموس الكتاب المقدس: ص٨٣٨].

وقد أجاد سيد قطب - رحمه الله تعالى - في بيان معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٦] فقال: «الله رب الصغير والكبير، وخالق

البعوضة والفيل، والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل، إنها معجزة الحياة، معجزة السر المغلق الذي لا يعلمه إلا الله..، على أن العبرة في المثل ليست في الحجم والشكل، إنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير، وليس في ضرب الأمثال ما يُعاب، وما من شأنه الاستحياء من ذكره، والله - جلّت حكمته - يريد بها اختبار القلوب، وامتحان النفوس: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:٢٦].

ذلك أن إيمانهم بالله يجعلهم يتلقون كلَّ ما يصدر عنه بما يليق بجلاله؛ وبما يعرفون من حكمته، وقد وهبهم الإيمان نوراً في قلوبهم، وحساسية في أرواحهم، وتفتحاً في مداركهم، واتصالاً بالحكمة الإلهية في كل أمر وفي كل قول يجيئهم من عند الله» [في ظلال القرآن: ١/ ٥٠].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ [البقرة:٢٦] يخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الذين كفروا يتساءلون قائلين: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ وهو قول فيه استغراب وتعجب عن الأمثلة التي نسبها محمد ﷺ إلى ربه، ويقول الله في الجواب: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة:٢٦].

٢- التعريف بالفاسقين الذين يضلون بالأمثال:

والضلال: العدول عن الصراط المستقيم الذي عرَّفنا به ربُّ العالمين، كالكفر والشرك، وترك ما أوجبه الله، والعمل بمعاصيه، والفسق في لغة العرب الخروج عن الشيء، وهو في استعمال الشرع الخروج عن طاعة الله، وقد يكون خروجَ كفرٍ، كالذين يكفرون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقد يكون خروجاً ليس بكفر كمن ارتكب بعض المحظورات، أو ترك بعض الواجبات، غير مستحل لها، وأراد بالفاسقين هنا الكفار، لأنَّه وصفهم بوصفهم، وقد وصف الفاسقين الذين يضلون بهذه الأمثال التي ضربها الله في كتابه بثلاث صفات:

الصفة الأولى: نقضهم عهد الله من بعد ميثاقه ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧]، وأصل العهد في لغة العرب حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال [المفردات: ٣٥٠].

وهو في الشرع ما عهد الله به إلى رسله وأنبيائه وأتباعهم، وقد ذكر من ذلك الكثير من عهوده للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه:١١٥] ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٥]. ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس:٦٠-٦١].

ونقض العهود إبطالها، وأصل النقض في لغة العرب أن يفسد المرء ما قام بفعله، كأن يهدم ما بنى، وينقض ما غزل ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل:٩٢].

والميثاق عهد مؤكد بيمين، ومنه الميثاق الذي أخذه يعقوب على أولاده، عندما أراد أن يرسل معهم أخاهم يوسف يرتع ويلعب ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ [يوسف:٦٦] ومنه الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل بعبادته وحده لا شريك له ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة:٨٣].

الصفة الثانية: قطعهم ما أمر الله به أن يوصل، من بر الوالدين وصلة الأرحام، وحقوق الإخوان، ونحو ذلك ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة:٢٧].

الصفة الثالثة: الإفساد في الأرض بفعل الذنوب والمعاصي، وأعظمها الكفر والشرك ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٧]، «والفساد في الأرض ألوان شتى، تنبع كلها من الفسق عن كلمة الله، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، ورأس الفساد في الأرض هو الحيدة عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها» [في ظلال القرآن: ١/ ٥٢].

والفاسقون الذين حدثنا الله عنهم خاسرون ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾ [البقرة:٢٧] خاسرون في الدنيا باتباعهم الباطل، وخاسرون في الآخرة، ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:١٥]، ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [سورة العصر].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- من صفات الله - تبارك وتعالى - أنه حيي كريم، كما في الحديث عن سلمان الفارسي، عن النبي ﷺ قال: «إن الله حيي كريم، يستحيي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صِفْراً خائبتين» [الترمذي في سننه: ٣٥٥٦، وقال فيه: حسن غريب. وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٣٨٠٩. وانظره في صحيح ابن ماجه: ٣٨٦٥].

ولكن الله لا يستحيي من الحق ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣] وفي الحديث: أن أم سلمة قالت: جاءَت أم سُلَيم إلى رسول الله ﷺ ، فقالت: إن الله لا يستحيي من الحقِّ، فهل على المرأة من غُسْل إذا احتلمت؟ قال النبي ﷺ : «نعم، إذا رأت الماء» [البخاري: ٢٨٢.

مسلم: ٣١٣]. ومن جملة ما أعلمنا الله به أنه لا يستحيي من ضرب الأمثال، فإن ما يضربه من الأمثال حق.

وفي هذه النصوص - كما يقول ابن جزي في [التسهيل: ١/ ٤٢] - ردّ على الذين يزعمون أن الحياء مستحيل على الله، لأن الحياء عندهم انكسار يمنع من الوقوع في أمر، وليس كذلك، فالحياء كرم وفضيلة، يمنع من الوقوع فيما يعاب، وحياء الله كرحمته وعلمه وقدرته وبقية صفاته يناسب كماله، ولا يشبه شيئاً من صفات خلقه.

٢- استحباب ضرب الأمثال في الدعوة إلى الله لبيان الحق وتوضيحه.

٣- كشف الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام والرد عليها، فقد ردَّ الحق - تبارك وتعالى - مقالة الذين استعظموا ضرب الأمثال بالنَّملة، والعنكبوت، والنار ونحوها.

٤- المؤمنون الصادقون يسارعون إلى الإيمان بما أنزل الرحمن، ويطردون وساوس الشيطان، عندما يبلغهم أمثال القرآن، أما الذين كفروا فيستنكرون ذلك ويستبعدونه.

٥- الشيء الواحد -كالأمثال المضروبة- يضلُّ الله بها الكافرين، ويهدي بها المؤمنين، والإقرار بإضلال الله من يشاء من عباده، وهداية من يشاء، هو من توحيد الله، فالله على كل شيء قدير، والذين يزعمون أن إضلال العباد غير مقدور لله، اتخذوا إلهين من دون الله، واتهموا الله بالعجز.

٦- وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق، وخاصة عهودنا ومواثيقنا مع الله تبارك وتعالى.

النص القرآني السابع من سورة البقرة
توبيخ الله الكافرين على كفرهم برب العالمين

أولاً: تقديم

قسّم الله الناس - فيما سبق - إلى ثلاثة أقسام: المؤمنين والكفار والمنافقين، ثم أمر الله الناس جميعاً أن يعبدوه وحده، ليكونوا من المؤمنين، ووجَّه اللهُ السؤال إلى الكفار في هذا النص موبخاً ومقرعاً إياهم على كفرهم بالله الذي أحياهم من عدم، ثم يميتهم، ثم يحييهم، ويوقفهم بين يديه في يوم الدين، والله الذي أوجدهم على هذا النحو هو الذي خلق الأرض لهم، لتكون سكنهم، وخلق لهم كلَّ ما فيها، هذا هو الله الذي به يكفرون، فهو كفر مستغرب متعجب منه.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- توبيخ الله الكافرين على كفرهم:

خاطب الله الكفرة المجرمين معجباً من حالهم مع رب العالمين، فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨] يقول لهم: كيف تكفرون بالله، وقد كنتم أمواتاً، أي: عدماً قبل أن يخلقكم ربكم، وينفخ الروح في أجسادكم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان:١] فالإنسان كان قبل خلقه مواتاً عَدَماً، ثم خلقنا الله في أرحام أمهاتنا، ونفخ الأرواح في أجسادنا، فأحيانا بقدرته، وأصبحنا على الحال التي نشاهدها في هذه الدنيا، أجساداً منتصبة، لنا قلوب عاقلة نفقه بها، وأسماع نسمع بها، وعيون نبصر بها، نذهب ونأتي، ونتنعم بأنواع النعيم، ثم يعقب ذلك موت وفناء، ونغيب في القبور ما شاء الله أن نغيب، وسيأتي يوم ينبت الله من الأرض أجسادنا، ويعيد أرواحنا إلى أجسادنا، فيوقفنا بين يديه، ثم المصير إلى الجنة أو النار.

أفيليق بهذا الإنسان أن يكفر بالرحمن، وهذا فعله به !!

٢- خلق الله لنا ما في الأرض جميعاً:

خلقنا ربنا على النحو الذي أخبرنا به في الآية السابقة، ثم أعلمنا في هذه الآية أنه خلق لنا الأرض وما فيها لتكون لنا داراً وسكناً ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

خلق الأرض بسهولها وجبالها، وعيونها وأنهارها وبحارها، وخلق لنا ما فيها من تراب وهواء وماء ومعادن، وما فيها من حيوانات وطيور وأسماك. وجعل الله الأرض مناسبة لحياتنا، وقد استطاع الإنسان الوصول إلى القمر، وصوَّر المريخ، فوجد أنهما لا يصلحان للإقامة فيهما، فلا ماء، ولا هواء كهواء الأرض، ولا نبات، والحرارة لا تطيقها أجسادنا، فقد تصل في علوها وانخفاضها إلى درجة تجعل أجسادنا عدماً.

٣- خلقه - تبارك وتعالى - السماء بعد خلقه الأرض:

بعد أن خلق الله الأرض قصد إلى السماء وكانت دخاناً ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] فسواهن سبع سموات ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩].

ومعنى ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩] أي: قصد إلى السماء، لأنه عدَّى التسوية بالحرف (إلى)، والسماء هنا اسم جنس، ولذا قال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة:٢٩]. وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩] أي: علمه محيط بجميع الخلق، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

وهذه الآية فيها إعلام لنا من ربِّ العباد بأنه خلق الأرض والسماء، ويوجد في آيات أخرى كثيرة مبثوثة في القرآن حديثٌ واسع فيه تفصيل عن خلق الأرض والسماء، ومن ذلك ما ذكره الله في سورة فصلت، قال تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت:٩-١٢].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل:

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كفر الكافرين بالله رب العالمين أمر متعجب منهم مستغرب، فالله الذي كفروا به هو خالقهم ومحييهم، وهو الذي يعيدهم إليه، فيحاسبهم على ما قدَّموا.

٢- من الدلائل الدالة على الله العظيم خلقه الإنسان، وخلق الأرض والسماء، ففيهما من الدلائل والآيات ما الله به عليم.

٣- خلق الله الأرض لتكون داراً للإنسان، وخلق الله له فيها ما يحتاج إليه، وسلَّط الله الإنسان على الأرض كي يسير فيها، ويستفيد من خيراتها.

٤- خَلْقُ الله الأرض للإنسان يدلُّ على أن الأصل في الأشياء الإباحة، فلا يحرم علينا إلا ما أخبرنا ربنا أنه محرم علينا.

٥- يجب على المسلمين أن يستعمروا الأرض، ويستغلوا خيراتها، فإن الله خلقها لهم، فإن قعدوا عن ذلك ضعفوا وذلُّوا وهانوا.

٦- خلق الله السماء بعد خلقه الأرض، وفي خلق الأرض والسماء تفصيل سيأتي بيانه في سور أخرى.

٧- خلق الله تبارك وتعالى السموات سبعاً، وهي طباق، بعضها فوق بعض، كما تدلُّ عليه نصوص أخرى.

النص القرآني الثامن من سورة البقرة
قصة الإنسان الأول

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى - في هذه الآيات عن الأصل الذي منه خلقنا، فالإنسان الأول الذي هو أبو البشر جميعاً، وهو آدم عليه السلام، خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، وهو أصل كريم، يحقُّ للإنسان أن يفاخر به.

وقد نشأت في الماضي القريب أساطير وخرافات تحاول أن تكشف أصل الإنسان، وباسم العلم نسب بعض الضالين من البشر الناس إلى أصل معيب، فقد زعموا أن الإنسان قد تطور من قرد أو فأر أو صرصور، وهذا النص المنزل من العليم الخبير فيه بيان واضح عن أصلنا الذي منه خلقنا، إنه آدم عليه السلام .

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إعلام الله ملائكته بخلق آدم قبل خلقه:

أعلم الله ملائكته بأنه سيخلق في مقبل الزمان خليفة في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾ [البقرة:٣٠]. وهذا المخلوق الذي نوّه لملائكته بخلقه قبل

أن يخلقه هو آدم عليه السلام، وذريته من بعده، ويدلُّ على دخول ذرية آدم في الخليفة الذي سيجعله الله في الأرض أن الإفساد في الأرض وسفك الدماء كان في ذرية آدم، ولم يقع من آدم شيء من الإفساد وسفك للدماء فيها.

٢- تحديد المعنى المراد بكون الإنسان خليفة في الأرض:

خلق الله آدم وبنيه ليكونوا خلفاء الأرض، فالأرض كما أعلمنا الله في آية سابقة مخلوقة كلُّها لآدم وبنيه ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩] وقد جعل الله الإنسان خليفة في الأرض بما أعطاه من خصائص الآمر الناهي فيها، وطلب منه أن يستعمرها وفق المنهج الإلهي الرباني.

وقد دلَّت نصوص كثيرة وافرة على أن البشر في الأرض هم خلفاء الأرض على مر العصور، ابتلاءً منه تعالى لبني آدم لينظر كيف يعملون، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وسيجمعهم يوم القيامة، ويوقفهم بين يديه، ويحاسبهم على ما قدَّموا، ومن هذه النصوص المصرحة بذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥] وقال لداود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦] وقال موسى لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:١٢٩]. وقال هود لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود:٥٧]، وقال في هذه الأمة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور:٥٥].

فهذه النصوص وغيرها في معناها كثير، تدلُّ بوضوح على أن الله خلق الأرض وما فيها للإنسان، وجعله السيد فيها، الآمر الناهي، وطلب منه أن يستعمرها وفق شرعه ومنهجه، فإن استقام وفق ما أنزله الله إليه أفلح، وإلا كان من الخاسرين، ووعد الذين يقيمون دين الله في الأرض بالعون والتمكين، وأوعد المخالفين بالبوار والخسران، وهذا هو المعنى المراد بكون الإنسان خليفة في الأرض.

٣- سؤال الملائكة ربّ العزة عن الحكمة من خلق الإنسان على الوجه الذي أخبرهم عنه:

بعد أن أخبر الله الملائكة بأنه يريد أن يخلق في الأرض خليفة سيكون منه الإفساد في الأرض وسفك الدماء، سأل الملائكة ربَّهم عن الحكمة من وراء خلق هذا المخلوق المفسد في الأرض السافك للدماء، منوهين في سؤالهم بمكانتهم، وأنه لا يقع منهم تجاه ربهم إلا

التسبيح والتقديس له، فأجابهم ربُّ العزة سبحانه وتعالى أنه يعلم أنه سيكون من وراء خلقه لهذا الخليفة حِكَمٌ عظيمة لا يعلمونها، ومن هذه الحكم التي ترتبت على خلق هذا المخلوق ما لا يعلمه الملائكة في ذلك الوقت، ومن ذلك أنه سيكون فيهم الأخيار الصالحون من المرسلين والأنبياء والصديقين والشهداء، وسيكون فيهم أهل الجهاد في سبيل الله، والزهاد والعباد والصابرون والمنفقون والمحبون لله الواحد الأحد، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠] ومراد الملائكة بقولهم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: نقول: سبحان الله وبحمده، ومعنى التسبيح: تنزيه الله عما لا يليق به تعالى وتقدس، ومعنى قولهم: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نطهر الأشياء ارتساماً لك، وقيل: نَصِفُكَ بالتقديس. [المفردات: ص٣٩٦].

٤- التعريف بالملائكة الذين أخبرهم الله بخلق آدم قبل خلقه:

الملائكة الذين أخبرهم الله بخلق آدم قبل أن يخلقه خلق كريم أبرار أطهار، يقومون على عبادة الله وتسبيحه وتقديسه، وتنفيذ أمره، وهم أولو قدرات فائقة على فعل ما يطلب منهم، وتنفيذه تنفيذاً صحيحاً كما يريد ربُّ العزة، وهم أصحاب أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء، وهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وهم لا يأكلون، ولا يشربون، ويقومون على شؤون الكون على النحو الذي كلفهم الله به، ومنهم الذين اختارهم سفراء إلى الرسل والأنبياء من بني آدم، والإيمان بهم أحد أركان الإيمان.

٥- التعريف بأبينا آدم عليه السلام:

وآدم عليه السلام أبو البشر جميعاً وهو الخليفة الأول الذي خلقه الله لعبادته في الأرض، واسمه مشتق من أدمة الأرض، وهو وجهها الذي خلق منه، وقد ذكر في أحاديث صحيحة أن آدم عليه السلام خلق من قبضة من تراب هذه الأرض، وآدم عليه السلام أبو البشر جميعاً.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن البشر في يوم القيامة يأتون آدم، فيذكرون فضله، ويطلبون منه أن يشفع لهم عند ربهم، ويقولون له: «أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء» [البخاري: ٤٤٧٦].

٦- تفضيل الله آدم عليه السلام بنوع من العلم لا يعلمه الملائكة:

بعد أن خلق الله آدم عليه السلام أحبَّ أن يظهر لملائكته شيئاً من خصائصه التي يمتاز بها عليهم، فقد علَّم الله آدم أسماء المخلوقات التي خلقها، ثم عرض هذه المخلوقات على

الملائكة طالباً منهم أن يضعوا لها الأسماء التي تناسبها، ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة:٣١]. فاعتذر الملائكة قائلين: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة:٣٢].

لقد وهب الله لآدم خاصية لا توجد عند الملائكة، وهي قدرته على تسمية كلِّ شيء باسمه المختص به المناسب له، وسيكون لهذه الخاصية أثر كبير في حياته في عالم الأرض.

٧- إظهار الله شرف آدم عليه السلام بإعلامه ما لم يعلمه الملائكة:

بعد أن اعتذر الملائكة إلى ربهم بأنَّهم لا يستطيعون أن يسمُّوا الأشياء بالأسماء المناسبة لها، لأنَّ الله لم يعلمهم هذا العلم طلب ربُّ العزة من آدم عليه السلام أن يقوم بهذه المهمة ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ ﴾ [البقرة:٣٣] فلما قام آدم بها طُلِب منه، وعرَّفهم بأسمائهم، قال الله للملائكته: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة:٣٣]. قال لهم: إني عالم بكل شيء، وعالم بالغيوب السماوية والأرضية، وعلمي محيط بكم، فأنا عالم بما أبديتموه، وما كتمتموه، أي: أخفيتموه، ومن الذي أظهروه سؤالهم عن الحكمة من وراء خلق آدم عليه السلام ، والذي كتموه أمران: الأول: ما كتمه إبليس في نفسه، ولم تكن الملائكة تعلمه. والثاني: ظن الملائكة أنهم في القمة في الفضل، وأنه لا أحد أفضل منهم، فهم يطيعون الله ولا يعصونه، وهم أهل تسبيح الله وتقديسه.

٨- تكريم الله لآدم بأمره ملائكته أن يسجدوا له بعد تمام خلقه:

أعلمنا ربنا تبارك وتعالى عن تكريمه لأبينا آدم عليه السلام في السماء بعد تمام خلقه، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة:٣٤].

سرت الروح في آدم عليه السلام ، فأصبح حيّاً سميعاً بصيراً متحركاً، قادراً على القيام والجلوس والانتقال من مكان لآخر، ونظر، فوجد أعظم تكريم يُقابَل به مخلوق، وجد الملائكة كلَّهم ساجدين له في منظر مهيب، ولكنه وجد واحداً يأبى السجود له، هو إبليس، وكان قبل ذلك مخلوقاً صالحاً يعبد الله مع ملائكة السماء، وأصله من الجنِّ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠]. لقد رفض إبليس السجود لآدم عناداً واستكباراً، وحجته الباطلة التي واجه بها الأمر الإلهي الرباني، أنه مخلوق من النار، وآدم من طين، والنار أفضل من الطين بزعمه ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف:١٢].

لقد واجه إبليس الأمر الإلهي الرباني الآمر له بالسجود لآدم بقياس عقلي فاسد، يحمل هذا القياس الباطل في طياته تخطئة ربّ العزة في أمره الذي أمره به، فقاده هذا إلى الكفر والضلال البعيد، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة:٣٤].

٩- إسكان الله آدم وزوجه جنة الخلد مبيحاً لهما أن يأكلا منها رغداً حيث شاءا إلا شجرة واحدة:

شاءت حكمة العليم الحكيم أن يسكن آدم وزوجه جنات النعيم قبل أن يهبطه إلى الأرض التي منها خلق، وأمره أن يسكن هذه الجنة هو وزوجه حواء، ويأكلا مما فيها من خيرات كما يشاءان رغداً، والرغد: الرزق الواسع الهنيء، والجنة مسكن طيب، وأرض صالحة، ينعم سكانها بطيب العيش ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه:١١٨-١١٩].

ومع الإباحة لآدم وزوجه أن يأكلا من حيث شاءا، حرّم الله عليهما شجرة بعينها، ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة:٣٥]. ولم يخبرنا الله تعالى عن اسم هذه الشجرة، ولم يخبرنا الرسول ﷺ باسمها، وليس بنا من حاجة إلى البحث عما لا نجده في الكتاب وصحيح السنّة من الغيوب.

١٠- غرَّر الشيطان بآدم وزوجه حواء فأكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عن الأكل منها:

عندما رفض الشيطان السجود لآدم، طرده الله من رحمته وجنته، فعزم على الوسوسة لآدم وبنيه، وتزيين الباطل لهم حتى يوقعهم في النار وغضب الجبار.

وقد جاء الشيطان إلى آدم وزوجه وزين لهما الأكل من الشجرة، وأقسم لهما أنه ناصح لهما فيما يأمرهما به، وأنّ أكلهما من الشجرة، سيعود عليهما بالنفع، فإما أن يصبحا ملكين أو يكونا من الخالدين ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف:٢٠-٢١].

ولكنهما عندما أكلا من الشجرة تبين لهما أنه كذب عليهما، في الخطيئة ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف:٢٢].

لقد فعل آدم وزوجه فعلاً أوجب إخراجهما من دار النعيم إلى دار الشقاء والبلاء، لقد أوقعهما الشيطان في الخطيئة فأخرجهما من جنات النعيم ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا

كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦)﴾ [البقرة:٣٦]، لقد كان أكل آدم وزوجه من تلكما الشجرة بأمر الشيطان، فأخرجهما من النعيم، وأمر الله بإخراج آدم وحواء من جهة، وإبليس من جهة أخرى إلى الأرض، وجعلها مستقراً لهم إلى يوم القيامة، أو مدة آجالهم فيها ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦)﴾ [البقرة:٣٦].

وقد جعل الله العداوة بين الشيطان وذريته وآدم وذريته قائمة في الأرض إلى يوم الدين.

١١- توبة آدم بعد اقترافه الخطيئة:

أخبرنا ربنا أن آدم عليه السلام تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم، ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة:٣٧] والكلمات التي تلقاها آدم وزوجه هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ [الأعراف:٢٣].

١٢- إهباط آدم وزوجه إلى دار الشقاء:

لقد كان ما وقع لآدم وزوجه عظة لهما ولذريتهما من بعدهما، وتوبتهما وابتهالهما إلى رب العباد لم يمنع من إهباطهما إلى هذه الأرض، فأمر الله بإهباطهما وإبليس إلى الأرض واعداً إياهم بأن يُلاحقهم بكتبه ورسله، يحملون إليهم الهدى، فمن اتبع الهدى المنزل فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، والذين كفروا بما أُنزل إلى الرسل، وجاءت به الكتب فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، وفي هذا يقول رب العزة: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة:٣٨-٣٩].

١٣- آدم في التوراة:

ذكرت التوراة آدم عليه السلام في مواضع منها، ولكن المعلومات التي فيها عن آدم وخلقه قليلة جداً بالنسبة لما جاء به في القرآن، وقد ذكرت التوراة أن الله خلق آدم وسلطه على «سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدبُّ على الأرض» وذكرت أن الله خلقه «ذكراً وأنثى، وباركهم الله، وقال لهم أثمروا وأكثروا، واملؤوا الأرض، وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر، وطير السماء، وعلى كل حيوان يدبّ على الأرض...» [سفر التكوين، الإصحاح الأول: ٢٧-٢٩].

وهذا موافق لما أخبر الله به ملائكته من أنه جاعل في الأرض خليفة، فالخليفة في الأرض لا بد أن يكون مسلطاً على الأرض وما فيها، وذكرت التوراة [الإصحاح الثاني من سفر التكوين: ٨] أن «الرب الإله جبل آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية» وهذا صحيح، ولكن تفصيل هذا الخلق وأطواره في خلق آدم واسع كما سيأتي معنا في القرآن في مواضع كثيرة، والذي ذكرته التوراة أن الجنة التي أسكن الله فيها آدم بعد خلقه ليست جنة الخلد؛ بل هي جنة في الأرض، [تكوين، الإصحاح الثاني: ٩-١٦]. والصواب ما دلَّ عليه القرآن وصحيح الأحاديث أنها جنة الخلد.

وذكرت التوراة أن «الرب الإله أوصى آدم قائلاً من جميع شجرة الجنة تأكل أكلاً، أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني: ١٧-١٨]، وكون الله أباح لآدم وزوجه جميع شجر الجنة إلا شجرة واحدة صحيح مذكور في أكثر من موضع في القرآن، أما تعيين الشجرة التي نهى الله آدم أن يأكل منها، وأنها شجرة معرفة الخير والشر فهذا غير صحيح، فالله خلق آدم ولديه كامل الاستعداد لمعرفة الخير والشر، وقوله لآدم: «إنك يوم تأكل تموت موتاً» غير صحيح، لأنه لو كان صحيحاً لأمات الله آدم وزوجه يوم أكلا من الشجرة.

وقد أخبرنا الله أن الشيطان زيّن لآدم وزوجه الأكل من الشجرة التي حرّم عليه أن يأكل منها بكذبه عليهما، فقد زعم لهما أنهما إن أكلا منها يكونان ملكين، أو يكونان من الخالدين، ولكن الذي نصت عليه التوراة أن الشيطان أو الحية كما تسميها التوراة قالت لهما: «الله علم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر» [سفر التكوين، الإصحاح الثالث: ٦]، وهذا كذب وتحريف للتوراة، وقد جعلت هذه المقالة الشيطان ناصحاً، والله كاذباً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدي إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الأصل الذي بثَّ الله منه البشر جميعاً هو آدم ﷺ، خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وهو أصل كريم، بخلاف الخرافة التي تدعي أن أصل الإنسان قرد أو فأر.

٢- يدلُّ النص على أنَّ الله يتكلم كيف يشاء، فقد دلَّ على أنه كلَّم الملائكة، ودلَّت نصوص كثيرة أخرى على أنه كلَّم موسى ﷺ، كما كلم نبينا محمداً ﷺ في ليلة المعراج.

٣- علم الملائكة أن ذرية آدم سيفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وهذا مما أعلم الله به ملائكته، فقد صرَّح الملائكة بأنه لا علم لهم إلا ما أعلمهم الله به.

٤- جعل الله الإنسان خليفة في الأرض، والخليفة الأول هو آدم عليه السلام، وذريته من بعده خلفاء الأرض، وكون الإنسان خليفة في الأرض يعني أنه السيد الذي يرسم ويحكم، وقد تكون خلافته خلافة خير وصلاح حينما يمضي على منهج الله، وقد تكون خلافة شر وفساد، حين يتبع الهوى ويضلّ عن الصراط المستقيم.

٥- أخبر الله ملائكته أن بني آدم سيقع منهم الإفساد في الأرض وسفك الدماء، ومن نظر في الماضي والحاضر وما سيأتي في مقبل الأيام يجد أن واقع الإنسان يصدق ذلك.

٦- أفضل الذكر ما اختاره الله لملائكته، وهو التسبيح، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠]. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الذكر أفضل؟ قال: «ما اصطفى لملائكته أو لعباده، سبحان الله وبحمده» [مسلم: ٢٧٣١].

٧- مع أن بني آدم يقع منهم الإفساد في الأرض وسفك الدماء إلا أن فيهم كثيراً من أهل الخير والصلاح، ففيهم المرسلون والأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، وفيهم الزهّاد والعباد، وفيهم الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، ولم يكن الملائكة يعلمون هذه الجوانب الخيرة عندما سألوا ربهم عن الحكمة من خلق آدم.

٨- أعلم الله تبارك وتعالى آدم بعلم خصَّه به دون ملائكته، وهو قدرته على تسمية المخلوقات بأسمائها.

٩- فُضِّل آدم عليه السلام على كثير من خلق الله، فقد أسجد الله له ملائكته، وخلقه بيده، وجعله خليفة في الأرض، وخلق له ما في الأرض جميعاً.

١٠- سعة علم الله تبارك وتعالى، فهو عالم غيب السموات والأرض، وهو يعلم بما يبديه المخلوقات وما يخفونه.

١١- أسجد الله ملائكته لآدم عند خلقه، وهذا سجود تكريم لا سجود عبادة، فهم عبدوا ربَّهم الذي أمرهم بالسجود، ولم يعبدوا الذي سجدوا له.

١٢- على العباد أن يتعظوا بسقوط إبليس، فبينما هو يعبد الله مع ملائكة السماء معززاً مكرماً، إذا به يستكبر على ربِّ العزة، ولا يطيع أمره، فيطرده الله من رحمته وجنته.

١٣- عصى إبليس، وأصرَّ على معصيته، فلعنه الله، وطرده من رحمته وجنته، وعصى آدم عليه السلام، فتاب وأناب وقَبِلَ الله توبته.

١٤- غفر الله لآدم معصيته وزلته، وأخرجه من الجنة، وأهبطه إلى الأرض، وجعلها له دار اختبار، فمن أطاع الله أعاده الله إلى الجنة، ومن عصى دخل النار.

١٥- على المسلم أن يحذر من الشيطان، فقد غرَّر بأبينا آدم وأمّنا حواء، وزيَّن لهما الأكل من الشجرة التي حرم الله عليهما الأكل منها، وهو دائم الوسوسة لبني آدم كي يزين لهم الشرك، وارتكاب المحرمات، وترك الواجبات.

١٦- أعلم الله أبا البشر آدم عليه السلام، وأبا الجن إبليس لعنه الله، بعد إهباطهما إلى الأرض بأنه سينزل الهدى إلى أهل الأرض، فمن قبل به واهتدى به فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بالمنزَّل إليهم أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

١٧- تجاوز بعض المؤرخين والمفسرين والمحدثين، فحدثوا عن أخبار في قصة آدم، ليس لها ذكر في الكتاب، ولا في صحيح السنّة.

١٨- عرضت التوراة لخلق آدم في سفر التكوين، وليس فيها شيء من هذا التفصيل المذكور في سورة البقرة وفي غيرها من السور الكريمة، وفيها مخالفات للحقائق التي جاء القرآن بها، ومن ذلك أن الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها شجرة الخير والشر، وهذا كذب بعيد عن الصواب.

١٩- في هذا النص وفي غيره من الآيات أخبار كثيرة عن آدم عليه السلام، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ «أن الله خلق آدم وطوله في السماء ستون ذراعاً، ثم قال له: اذهب فسلِّم على أولئك النفر من الملائكة، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك، وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله، فزادوه رحمة الله. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» [البخاري: ٣٣٢٦، مسلم: ٢٨٤١ عن أبي هريرة].

٢٠- خلق الله حواء زوج آدم من آدم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١] وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنَّ حواء خُلقت من ضلع آدم، ففي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء» [البخاري: ٥١٨٤، مسلم: ١٤٦٨]. وهذا يدل على بطلان قول من زعم من الكفار أن آدم تطور عن غيره من القردة أو غيرها.

٢١- بعض ما حدثت به التوراة عن آدم صحيح ذكره القرآن، وبعضه محرف مغيَّر مبدَّل صوَّبه القرآن.

النص القرآني التاسع من سورة البقرة
بداية الحديث عن بني إسرائيل

أولاً: تقديم

هذه الآيات الكريمات التي حواها هذا النص هي بداية الحديث عن بني إسرائيل، وبنو إسرائيل أمة عريقة، أنزل الله عليها التوراة والإنجيل والزبور، وأرسل فيها عدداً كثيراً من الرسل والأنبياء، كموسى وهارون وداود وسليمان وعيسى، وقد اختار الله بني إسرائيل على علم على عالمي زمانهم، وقد أخذ عليهم العهود باتباع الرسول الخاتم محمد ﷺ عندما يبعثه في آخر الزمان، وتصديق ما جاء به من عند الله، فكانوا يبشرون به على مدار تاريخهم، وهاجرت قبائل منهم إلى جزيرة العرب تنتظر مخرج هذا الرسول، فلما بُعث من غيرهم كفروا به إلا قليلاً منهم. وأنزل الله في كتابه الكثير من الآيات التي تتحدث عن بني إسرائيل، ورسلهم وأنبيائهم وكتبهم، وتبين ما في تاريخهم من سقطات وانحرافات، وتحدثت عن الحالة المزرية التي صاروا إليها، وأظهرت آيات الكتاب كثيراً مما أخفوه من الكتاب، ودعتهم إلى الهدى والاستقامة، وقد أقام اليهود اليوم دولة لهم في بلادنا فلسطين، ونحن محتاجون إلى العودة إلى القرآن في حربنا معهم، فقد أضل اليهود اليوم الكثير من الناس، وبقي في مواجهة اليهود المسلمون الذين فقَّهَهُم دينُهُم بهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لماذا أطال القرآن الحديث عن بني إسرائيل:

مَنْ عَلِمَ ما أنزله الله في كتابه القرآن وجده قد أطال كثيراً في حديثه عن بني إسرائيل، فقد ابتدأ الله الحديث عن بني إسرائيل في هذه السورة بهذا النص، وأول آية منه هي الآية

الأربعون، وقد امتدّ الحديث معهم متصلاً إلى الآية خمسين ومائة، ولم تخل بقية السورة عن ذكرهم، وذكرهم موجود في سور كثيرة بعد هذه السورة.

وفي مسيرة بني إسرائيل في العهد النبوي، وعبر تاريخهم قبل ذلك تجربة ثرية، فيها كثير من العبر والعظات، وهي صالحة لعرض الصواب والخطأ، وصالحة لعرض نماذج تصلح للتربية والتقويم، والنماذج المتقدمة من بني إسرائيل فيها خير كثير، وفيها مواطن ضعف، وهذه الأمة بحاجة إلى المواقف الراقية للتأسي والاقتداء، وتحتاج إلى معرفة مواطن الضعف كي لا تسقط سقوطهم، ولا تزل زللهم.

وبنو إسرائيل يحملون في بقايا كتبهم البشارات بالرسول ﷺ وكتابه وأصحابه وأمته، ولكنهم يكتمون ذلك كفراً وحسداً، ولذلك فقد أقاموا من أنفسهم أعداء للنبي وأمته، ونحن محتاجون إلى أن نعرف الخصم الذي نواجهه، وخير من يحدثنا عنهم، ويعرفنا بهم ربُّهم الذي كفروا به، وفي كتاب ربنا وسنّة نبينا حديث واسع عن اليهود، يؤدي بنا إلى معرفة جيدة بهم، وبأحوالهم وأخبارهم، فالذي يعرف خصمه يصرعه في مقام النزال، والذي يجهله يضلُّه ويغويه، ومن هنا فإن المسلمين اليوم بحاجة إلى العلم الذي حدَّثنا به عن اليهود المتعالين على ربِّ العالمين وعلى أمّة الإسلام.

إن المسلم الذي يعلم عن الله ما أعلمنا به عن اليهود لا يهون في مجال الصراع، فصفحة اليهود واضحة بيّنة عنده بكل أبعادها في حال استقامتهم على أمر الله، وفي حال ضلالهم وبُعدهم عن الله، وهو يستطيع مواجهة اليهود ومخاصمتهم وإسكاتهم بالحجة والبرهان.

إن المسلم في موقفه مع اليهود يقف موقف المعلِّم الذي يأمر وينهى، ويعلِّم ويسدد ويوجه، ويعرف في ذلك كله مواطن الضعف عند الخصم، ولذلك فإن أكثر الناس قد انحنى لليهود اليوم إلا أتباع محمد ﷺ الذين فقهوا عن الله دينه حق الفقه.

٢- التعريف بإسرائيل وبنيه وذكر نِعَم الله عليهم:

نادى الله بني إسرائيل آمراً إياهم أن يذكروا نعمته التي أنعم بها عليهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠] وإسرائيل الذي نادى ربُّ العزة أبناءه هو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن خليل الله إبراهيم عليهم جميعاً السلام، ومعنى إسرائيل: عبد الله، فـ (إسرا) عبد، و(إيل) الله.

ونِعَم الله على بني إسرائيل التي أمرهم القرآن أن يذكروها كثيرة، وقد ذكرها القرآن في مواضع كثيرة من سوره، فمنها ما أنزله على أنبيائه ورسله منهم، ومنها ذلك العدد الكبير من

الأنبياء والرسل الذين أرسلهم فيهم، ومنها إنجاؤهم من فرعون وملئه، وإهلاك عدوهم بإغراقهم في البحر، ومنها تظليلهم بالغمام عندما تاهوا في صحراء سيناء، وإنزال المنّ والسلوى عليهم إلى غير ذلك من النعم.

٣- مطالبة الله بني إسرائيل بالوفاء بعهودهم مع الله:

أمر الله بني إسرائيل في هذه الآيات أن يوفوا بعهدهم الذي عاهدهم الله عليه، ليفي لهم بعهده الذي وعدهم به، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠] وقد كثر في القرآن ذكر العهود التي أخذها الله على بني إسرائيل، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧] ومن ذلك قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣] وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة:٦٣].

٤- تذكير الله بني إسرائيل بعهد الله إليهم أن يؤمنوا بمحمد ويتابعوه:

ويدخل في العهود التي عهد الله بها إلى بني إسرائيل ما أمرهم به في كتابهم التوراة من الإيمان برسولنا الخاتم ﷺ ، وقد كانت قبائل من اليهود تسكن المدينة المنورة، فلما حلَّ بها رسولنا مهاجراً كفروا به وبكتابه، ولم يؤمن به إلا عدد قليل منهم، منهم عالمهم عبدالله بن سلام، ولا تزال البشارات برسولنا تلوح هنا وهناك في توراتهم، وقد أصابها بعض التحريف، وقد أخذ الله العهد والميثاق على كل نبي من أنبياء بني إسرائيل، كما أخذه على كل نبي من غيرهم أن يؤمن بنبينا إذا بُعث في عصره، ويتابعه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

وأخبرنا ربنا - عزّ وجلّ - أنه أخذ العهد على بني إسرائيل في عهد موسى بوجوب متابعة بني إسرائيل لمحمد ﷺ عند بعثته، فقد حدثنا ربنا تبارك وتعالى في سورة الأعراف أن موسى اختار من قومه سبعين رجلاً لحضور ميثاقه، ووصف حالهم عند أخذ الميثاق عليهم، ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

هذا ما قاله الله لهم، وفيهم موسى وهارون وسبعون من خيار قومه، ولا تزال بقايا هذا العهد مكتوباً في التوراة الموجودة اليوم، مع ما أصابها من تحريف.

٥- أمر الله بني إسرائيل بأن يرهبوه:

أمر الله - تبارك وتعالى - بني إسرائيل أن يرهبوه وحده ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة:٤٠] أي: خافوني وحدي، والرهبة خوف مع تحرّز واضطراب، وهي دون التقوى، وإن شئت فقل: الرهبة هي مبادئ التقوى، وأصل الكلمة: فارهبوني، وحُذفت منها الياء، لأنها فاصلة، ومعنى الفاصلة رأس آية، ليكون النظم على لفظ منسق، ويسمِّي أهل اللغة رؤوس الآي الفواصل [معاني القرآن للزجاج: ١/ ١٢٢].

٦- لِمَ أمر الله بني إسرائيل بما أمرهم به:

أمر الله بني إسرائيل بذكر نعمه عليهم، وأن يذكروا عهده معهم، وأن يرهبوه وحده كي ترقَّ قلوبهم، ويكونوا أقرب إلى الإيمان والهدى والصلاح، والمسارعة إلى اتباع الرسول الكريم ﷺ.

٧- أمر الله بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن المنزّل على محمد ﷺ:

أمر الله بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله الخاتم ﷺ مصدقاً لما أنزله الله في التوراة والإنجيل، ونهاهم عن المسارعة إلى الكفر به ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة:٤١].

ورسولنا مرسل للناس جميعاً، ومنهم اليهود والنصارى، وكان الواجب على اليهود أن يسارعوا إلى الإيمان برسولنا، لأنه مصدق للتوراة، ولو لم يبعث الله رسولنا على النحو الذي بعثه الله به لكانت التوراة كاذبة، والقرآن يصدق التوراة في كثير مما تحدثت به، ويصحح ما وقع فيها من تحريف.

٨- نهي الله بني إسرائيل عن أن يكونوا أول كافر بالقرآن:

نهى الله - تبارك وتعالى - بني إسرائيل الذين كانوا بالمدينة أن يكونوا أول كافر بالقرآن، ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة:٤١].

ومعنى ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: من اليهود، فالخطاب ليهود المدينة.

٩- نهي الله بني إسرائيل أن يشتروا بالقرآن ثمناً قليلاً:

نهى ربُّ العزة بني إسرائيل أن يشتروا بالقرآن ثمناً قليلاً ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة:٤١] نهاهم ربُّ العزة عن استبدال الخسيس بالنفيس، كما قال عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة:١٦].

والثمن القليل الذي نهاهم الله عن استبداله بالقرآن متع الحياة الدنيا، من الأموال والبنين والنساء والمناصب، فمهما عظم ما يناله الكافرون من متع الدنيا، فإنه عرض زائل، وعارية مسترجعة، وأمر الله بني إسرائيل في ختام الآية بتقواه وحده لا شريك له ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)﴾ [البقرة:٤١] فالتقوى تقود إلى الفلاح والإيمان.

١٠- نهي الله بني إسرائيل عن لبس الحق بالباطل وكتمان الحق:

نهى الله بني إسرائيل عن لبس الحق بالباطل، وعن كتمان الحقِّ عن علم ومعرفة ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [البقرة:٤٢].

لقد قام اليهود تجاه النصوص المبشِّرة برسولنا ﷺ وبكتابه بأمرين، **الأول**: لبس الحق بالباطل، أي: خلطه به، حتى لا يكاد يهتدي إليه الحذاق. **والثاني**: كتمان الحق الذي جاء صريحاً في التعريف برسولنا ﷺ وبكتابه، فهم يكتمونه عن علم.

١١- أمر الله بني إسرائيل بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والركوع مع الراكعين:

أمر الله بني إسرائيل بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والركوع مع الراكعين ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [البقرة:٤٣]، والمراد بها صلاة المسلمين، وزكاتهم، وركوعهم في صلاتهم، وهذه العبادات لا تُقبل منهم إلا إذا دخلوا في الإسلام، فالكفار مطالبون بكل فروع الشريعة، ويوم القيامة يحاسبون على تركهم إياها، ولكن لا تُقبل منهم في الدنيا إلا إذا آمنوا وأسلموا.

والصلاة التي أُمروا بإقامتها هي صلاة المسلمين المعروفة، وكذلك المراد بالزكاة، فهي الزكاة المفروضة علينا، وأمرهم بالركوع مع الراكعين، واليهود ليس في صلاتهم في دينهم ركوع، وهذا يدلُّ على أن المراد أن يركعوا مع الراكعين من المسلمين في صلاتهم.

١٢- التعريف بالركوع الشرعي الذي فرضه الله علينا في الصلاة:

والركوع الشرعي في ديننا أن يحني الرجل صُلْبه، ويمدَّ ظهره وعنقه، ويفتح أصابع يديه، ويقبض بهما على ركبتيه، ثم يطمئن راكعاً ويقول: «سبحان ربي العظيم» ثلاثاً، وذلك أدناه. روى مسلم عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة

بالحمد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوبه، ولكن بين ذلك» [مسلم: ٤٩٨]، وروى البخاري عن أبي حميد الساعدي، قال: «رأيت رسول الله ﷺ إذا كبر جعل يديه حذو منكبيه، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه، ثم هَصَرَ ظهره» [البخاري: ٨٢٨] الحديث [القرطبي: ١/ ٣٤٥]. فهذه صفة الركوع المأمور به شرعاً.

١٣- توبيخ الله بني إسرائيل الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم:

خاطب الله بني إسرائيل موبِّخاً إياهم في أمرهم الناس بالبر ونسيانهم أنفسهم، فلا يعملون بها أمروا الناس به ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة:٤٤]. يقول ربُّ العزة مخاطباً بني إسرائيل: كيف يليق بكم أن تأمروا الناس بالبرِّ، والبر: الخير، ومجالاته كثيرة، ذكرها الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

وهذا الخطاب موجه لمن فعل هذا الفعل من هذه الأمة، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ في الحديث الذي يرويه أسامة بن زيد، قال: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتندلق به أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيُطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما لك؟ ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فقال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه» [مسند أحمد: ٣٦/ ١١٧، ورقمه: ٢١٧٨٣، وإسناده صحيح على شرط الشيخين. والحديث في البخاري برقم: ٣٢٦٧، ومسلم: ٢٩٨٩] والأقتاب: الأمعاء.

ووجه مخاطبة اليهود بهذا الخطاب، أنَّ بعض يهود المدينة كانوا ينصحون أصهارهم وأقرباءهم ومن بينهم وبينه صلة أن يثبتوا على الإسلام مع الرسول ﷺ فإنه حق، ولا يفعلونه [القرطبي: ١/ ٣٦٥، وعزا هذا القول لابن عباس].

وصدق أبو الأسود الدؤلي حيث يقول:

لا تنـــه عـــن خلـــق وتـــأتي مثلـــه	عـــار عليـــك إذا فعلـــت عظـــيم
وابـــدأ بنفســـك فانههـــا عـــن غيهـــا	فـــإذا انتهـــت فأنـــت حكـــيم
فهنـــاك يُقبَـــل إن وعظـــت ويُقتـــدَى	بـــالقول منـــك وينفـــع التعلـــيم

وقد عظَّم الله شأن الذين يقولون ما لا يفعلون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف:٢-٣] وقال العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ ﴾ [هود:٨٨].

١٤- أمر الله بني إسرائيل أن يستعينوا بالصبر والصلاة:

أمر الله بني إسرائيل أن يستعينوا بالصبر والصلاة على علاج ما يخالط نفوسهم من آثام تحول بينهم وبين إظهار الحق، والاستقامة على المنهج والطريق ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥] فالصلاة تُقرِّب العبد من ربه، وتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وتدفع سيل الشهوات التي ترد على قلبه، والصبر فيه عملية جهاد داخلية، تجعل المرء يقاوم وساوس الشيطان، وهوى النفس الأمارة بالسوء، والصبر المأمور به يشمل الصبر بأنواعه، فهو يشمل الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

والاستعانة بالصبر والصلاة منهج قويم، لا يطيقه إلا الخاشعون، والخشوع مخافة الله تتسلل إلى القلب، فتخضعه وتسكّنه، فيسري ذلك من قلبه إلى بصره وسمعه وصوته وجوارحه كلها، والخاشعون الذين خفَّ عليهم أمر الصبر والصلاة، هم ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٦]. والظن في لغة العرب: الشك مع الميل لأحد الطرفين [فتح القدير: ١/ ١٨٢]، والظن في هذا النص في معنى اليقين، إذ لو كانوا شاكين لكانوا ضلالاً كافرين، والظن يأتي بمعنى اليقين في لغة العرب [معاني القرآن للزجاج: ١/ ١٢٦]. والمراد بملاقاة الله في الآية، أي: في يوم القيامة، فالذين يعتقدون أنهم سيلاقون ربهم، ويقفون بين يدي الله، يوفقهم ربهم إلى الخشوع، ويسهل عليهم الاستعانة بالصبر والصلاة.

١٥- تكرار أمر الله بني إسرائيل بذكر نعمه عليهم:

نادى الله بني إسرائيل آمراً إياهم للمرة الثانية أن يذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليهم، وأنه فضّلهم على عالمي زمانهم ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة:٤٧].

١٦- أمر الله بني إسرائيل أن يتقوا يوم القيامة:

وأمر الله بني إسرائيل أن يتقوا يوماً، هو يوم القيامة، ففي ذلك اليوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، أي: لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى، ولا يدفع أحد عن أحد شيئاً، فكلٌّ مجزي بعمله ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٤٨].

وفي الحديث في صحيح البخاري أن الرسول ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله، فإنه ليس ثَمَّ دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه، فطُرحت عليه» [البخاري: ٦٥٣٤].

١٧- يوم القيامة الذي أمر الله بني إسرائيل بتقواه لا شفاعة فيه للكافرين:

أخبرنا الله -تبارك وتعالى- أنه لا أحد يشفع في يوم القيامة للكافرين ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٤٨]. والشفاعة في الدنيا هي التوسط للغير في جلب مصلحة أو دفع مضرة، وأصلها من الشفع الذي هو ضد الوتر، لأن صاحب الحاجة كان فرداً في حاجته، فلما جاءه الشفيع صار شفعاً [العذب النمير: ١/ ٧٠-٧٢].

والشفاعة في الدنيا إن كانت في خير كانت خيراً، وإن كانت في شر فهي حرام ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء:٨٥]. وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه بالشفاعة عنده، فعن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل، أو طلبت إليه الحاجة قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء» [البخاري: ١٤٣٢، مسلم: ٢٦٢٧].

والشفاعة الدنيوية قد يُدِلُّ فيها الشافع على المشفوع عنده بنسبه أو مكانته أو قوته، وقد يقبل المشفوع عنده الشفاعة في الدنيا كارهاً، وهذه ليس لها وجود في الآخرة، فالكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨]. وفي ذلك اليوم يقول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١].

وقد خصّ الله من الشفاعة للكفار في يوم الدين شفاعة الرسول ﷺ في عمه أبي طالب، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ وذكر عنده عمه، فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه» [البخاري: ٣٨٨٥، مسلم: ٢١٠].

والشفاعة المرضية التي دلت عليها النصوص هي الشفاعة لعصاة المؤمنين بإذن رب العالمين ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨] ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ﴾ [سبأ:٢٣].

وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة:٤٨] أي: لا يقبل منها فداء، قال تعالى مخاطباً المنافقين: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ [الحديد:١٥].

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة:٤٨] أصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم، والمعنى في الآية: ليس لهم معين يدفع عنهم عذاب الله [العذب النمير: ١/ ٧٤].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- رسولنا ﷺ مرسل للناس جميعاً، ولذلك طالب الناس كلهم بالإيمان به واتباعه، ومنهم بنو إسرائيل.

٢- أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله التي أنعم بها على آبائهم، وأمرهم بأن يفوا بالعهود التي أخذها على الرعيل الأول منهم، ومنها وجوب إيمانهم بالرسول الخاتم ﷺ، ووجوب متابعته، وأمرهم بالخوف منه وخشيته.

٣- نهى الله بني إسرائيل عن خلط الحق بالباطل، وكتمان الحقِّ الذي في كتابهم، وخاصة تلك المبشرات التي تتعلق برسولنا ﷺ وكتابنا.

٤- أمر الله بني إسرائيل بالقيام بشرائع الدين المنزل على رسولنا محمد ﷺ، ومن ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والركوع مع الراكعين، وأمرهم أن يستعينوا بالصبر والصلاة، وأعلمهم أن الاستعانة بهما أمر عظيم إلا على الخاشعين.

٥- وبَّخ الله بني إسرائيل على أمرهم الناس بفعل الخير، وتركهم فعله في حق أنفسهم.

٦- أخبرنا الله تبارك وتعالى أموراً كثيرة تتعلق ببني إسرائيل، لم يكن لنا بها علم، ولم يكن لرسولنا ﷺ بها علم، وهذا من دلائل صدق رسولنا ﷺ.

٧- علينا في صراعنا مع اليهود أن نفقه ما حدثنا الله به عن بني إسرائيل، كي لا نضل في مجال النزاع والصراع مع هذا العدو الماكر الخبيث.

٨- نحن أولى بأنبياء بني إسرائيل ورسلهم والصالحين منهم، والذين كفروا من بني إسرائيل بنبينا وكتابنا، ليسوا سائرين على نهج الصالحين من بني إسرائيل.

٩- احتج الحنفية بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة:٤١] على منع الإجارة على تعليم القرآن [التسهيل: ١/ ٤٦].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣] «إرشاد إلى شهود الجماعة والخروج إلى المساجد، وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم، على خلاف بينهم في كون ذلك عيناً أو كفاية، وذهب الجمهور إلى أن ذلك سنّة مؤكدة مرغب فيها، وليس بواجب» [إرشاد الفحول: ١/ ١٧٩].

١١ - الشفاعة الواقعة في يوم القيامة لا تكون إلا فيمن رضي الله شفاعته، ورضي عمن يشفع فيه، وهذه تكون للأنبياء والمرسلين والملائكة وصالحي المؤمنين، والمشفوع فيهم هم عصاة الموحدين، وقد أنكرت المعتزلة الشفاعة في يوم القيامة والنصوص المثبتة للشفاعة في الكتاب والسنّة التي ترد مقالهم كثيرة وافرة.

أما الشفاعة المرفوضة الممنوعة، فهي الشفاعة يوم القيامة فيمن لا يرضى الله الشفاعة فيه، كالشفاعة في الكافرين، أو الشفاعة ممن لا يرضى منه رب العالمين.

النص القرآني العاشر من سورة البقرة
إنجاء الله بني إسرائيل وإغراق فرعون وملئه

أولاً: تقديم

يحدثنا الله في هذا النصِّ الكريم عن أمرين عظيمين وقعا في ماضي بني إسرائيل.

الأول منهما: تسلط فرعون مصر على بني إسرائيل، فأذلهم وأهانهم، حتى خلَّصهم الله على يدي موسى ﷺ، فأهلك فرعون وقومه بالغرق، ونجَّى موسى ومن معه.

الثاني: اتخاذ بني إسرائيل العجل إلهاً بعد غياب موسى عنهم عندما ذهب لمقابلة ربِّه في الطور، فأمرهم الله أن يقتل بعضهم بعضاً، فتقبل منهم توبتهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- فرعون مصر يسوم بني إسرائيل سوء العذاب:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما امتنَّ الله به على أسلافهم من إنجائهم من فرعون وآله، وهم أتباعه وأشياعه، فقد أذاق آل فرعون بني إسرائيل أشدَّ العذاب وأفظعه، وأعظم ذلك أنهم كانوا يذبحون أبناءهم الذكور، ويستحيون بناتهم الإناث، ليكلفوا النساء بالأعمال الشاقة، وهذا نوع عظيم من البلاء، ابتلى الله به بني إسرائيل في ذلك الزمان، ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة:٤٩] وفرعون لقب لمن كان يحكم مصر في ذلك الزمان، كما كان يلقب حاكم الفرس قديماً بـ (كسرى)، وحاكم الروم بـ (قيصر)، وحاكم الحبشة بـ (النجاشي).

والسبب الذي لأجله فعل فرعون ببني إسرائيل ما فعله هو ما بلغه من أن بني إسرائيل سيكون لهم نبيٌّ، وأن هلاك الملك الفرعون سيكون على يديه، وكان أهل مصر في ذلك الوقت يُسخِّرون بني إسرائيل في أعمالهم الدنيوية من الحرث والزرع، والبناء والخدمة.

٢- إهلاك الله فرعون وآله وإنجائه بني إسرائيل:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما فعله الله بأسلافهم، حيث أنجاهم من فرعون وملئه، وأغرق فرعون وقومه، وهم ينظرون ويشاهدون ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة:٥٠] أخبرنا الله في مواضع من كتابه أنه عندما أذن بخلاص بني إسرائيل من فرعون وقومه أمر موسى عليه السلام وقومه أن يخرجوا من ديار مصر متجهين إلى فلسطين، وفي الصباح وجدوا البحر أمامهم، والتفتوا فوجدوا فرعون وجيشه خلفهم، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه فانشق، وأصبح طرقاً، فدخلها بنو إسرائيل، وعبروا إلى الجانب الآخر من البر، فسلموا، ودخلها فرعون وجنده، فانطبق عليهم البحر فغرقوا ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء:٦٠-٦٦] لقد كان هذا الذي فعله الله بموسى ومن معه، وإهلاك بني إسرائيل آية من آيات الله العظيمة، ولقد عقب الله على هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء:٦٧-٦٨].

ولا شك أن رؤية بني إسرائيل لهلاك فرعون ومن معه في البحر قد شفى صدورهم، وأبهج قلوبهم ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة:٥٠].

وقد كان إهلاك فرعون وقومه، وإنجاء موسى وبني إسرائيل في يوم العاشر من محرم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسئلوا عن ذلك، فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيماً له، فقال رسول الله ﷺ «نحن أولى بموسى منكم» ثم أمر بصومه» [البخاري: ٣٩٤٣، مسلم: ١١٣٠].

٣- اتخاذ بني إسرائيل العجل إلهاً من دون الله:

أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يذكروا ما كان من أسلافهم بعد أن أنجاهم من عدوهم، وغاب عنهم نبيهم أربعين ليلة ذهب فيها لمقابلة الله تبارك وتعالى، فنكسوا على رؤوسهم،

واتخذوا العجل الذي صنعه لهم السامري إلهاً عبدوه من دون الله، وكان هذا ظلماً منهم لأنفسهم، ثم عفا عنهم ربهم بعد ذلك لعلهم يشكرون، ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾ [البقرة:٥١-٥٢] وقد قرأ جمهور القراء ﴿وَٰعَدْنَا﴾ بصيغة المفاعلة، وقرأه أبو عمرو وحده من السبعة (وَعَدنا)، وقراءة أبي عمرو للتعظيم، فقد وعد الله نبيه موسى أن ينزل عليه كتاباً فيه الحلال والحرام، وكل ما يحتاجون إليه بعد أربعين ليلة، والمراد بقراءة الجمهور ﴿وَٰعَدْنَا﴾ أن الله وعد موسى بوحي يبين له فيه الأمور، وموسى وعد ربه بالإتيان لميقاته المعين له، لتلقي ذلك الوحي [العذب النمير: ١/ ٧٨].

وقد بيّن الله في سورة الأعراف أن هذا الوعد بأربعين ليلة كان مفرقاً، فقد وعده ثلاثين أولاً، ثم أتمها بعشر ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢]. فلما انتهى هذا الميعاد أنزل الله التوراة على نبيه موسى عليه السلام، وكتبها له في الألواح.

٤- اتخاذهم العجل إلهاً من دون الله كان ظلماً وكفراً:

وقوله ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾ [البقرة:٥١] الظلم هنا ظلم شرك وكفر، لأنه كان بسبب عبادتهم العجل، وأصل الظلم في لغة العرب وضع الشيء في غير موضعه، وهؤلاء رفعوا العجل إلى مرتبة الألوهية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦﴾ [يونس:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان:١٣]، وقد لا يكون الظلم شركاً، كالذي يظلم نفسه بالمعاصي التي لا تبلغ درجة الكفر، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢] فقد وعد الله هؤلاء ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر:٣٣].

وأخبر الله - تبارك وتعالى - أنه غفر لعابدي العجل ذنبهم العظيم، لعلهم يشكرون الله بعبادته وحده، والعفو يكون بعد العقوبة وقبلها، بخلاف الغفران فإنه لا عقوبة معه.

٥- إيتاء موسى التوراة لهداية بني إسرائيل:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا نعمته عليهم في إنزاله التوراة على نبيهم موسى عليه السلام لتكون كتاب هداية لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾ [الفرقان:٥٣]. والفرقان المذكور في الآية هو التوراة، سميت التوراة فرقاناً، لأنه يُفرق بها بين

الحق والباطل، والهدى والضلال، وقد صرح في سورة الأنبياء بأن الفرقان كتاب موسى في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٨] وقد تقرر في العربية أن الشيء الواحد إذا وصف بصفات مختلفة يجوز عطفه على نفسه نظراً لاختلاف صفاته، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الأعلى:١-٤].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة:٥٣] أي: لأجل أن تهتدوا، ومعنى ﴿تَهْتَدُونَ﴾ تسلكون طريق الهدى، بامتثال أمر الله، واجتناب نواهيه، والكتب السماوية كلها نزلت لتكون كتب هداية، كما قال الله في القرآن فيما مضى من هذه السورة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة:٢].

٦- أمر الله بني إسرائيل أن يقتل بعضهم بعضاً ليقبل توبتهم:

وأمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما قاله موسى لقومه في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة:٥٤].

أخبرنا الله عزَّ وجلَّ أن بني إسرائيل كانوا قد ندموا على ما صدر منهم من فعل قبيح، ودعوا ربهم أن يغفر لهم ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف:١٤٩] هنا قال موسى لهم: إن ندم قلوبهم على ما فعلوه، ودعاءهم ربهم ليغفر لهم، لا يكفي في توبتهم، فقد ظلموا أنفسهم ظلماً كبيراً، وعليهم لتقبل توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً، فقام بعضهم إلى بعض يقتل الواحد أخاه، أو ابنه، أو أباه، أو من لقيه، فتاب الله على الأحياء، واختار القتلى شهداء.

وقوله عز وجل: ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] أي: خالقكم، وهو المُبْرِزُ لعباده من العدم إلى الوجود، وفي الآية إشارة إلى أن الله الخالق البارئ الذي أظهرنا من العدم إلى الوجود هو المستحق للعبادة دون سواه، ومن لا يخلق لا يستحق أن يُعبد، كما قال عز وجل: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل:١٧]، وقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد:١٦]. وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] القتل في لغة العرب: إزهاق الروح بشرط أن يكون مِنْ فِعْل فاعلٍ كالطعن، والضرب، والخنق.

والمراد بالنفس التي أُمروا بقتلها الإخوة في الدين، فالإخوة في الدين أنفسهم كنفس واحدة، وأخبر الحق - تبارك وتعالى - أنه قَبِلَ منهم توبتهم بعد أن قاموا بما أُمروا به، فتاب عليهم إنه التواب، أي: كثير التوب والمغفرة، وهو الرحيم، أي: كثير الرحمة سبحانه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- قد يبتلي الله عباده ببلاء عظيم، كما ابتلى الله بني إسرائيل بما فعله بهم آل فرعون من قتل للأولاد الذكور، واستحياء للبنات عند الولادة.

٢- من الآيات العِظام التي أوقعها الله لبني إسرائيل أن شقَّ لموسى البحر، فجاوزه هو وبنو إسرائيل، ودخله فرعون وقومه فانطبق عليهم وأهلكهم، وكان بنو إسرائيل على الضفة التي عبروا إليها ينظرون إلى ما يفعله ربهم بالمعذبين.

٣- لم تكد تجفُّ أقدام بني إسرائيل من البحر الذي قطعوه، والذي أهلك الله فيه عدوهم، حتى اتخذوا العجل إلهاً في غيبة نبيهم عنهم، حيث ذهب لمقابلة الله الذي أنزل عليه التوراة بعد أن غاب عن قومه أربعين ليلة.

٤- كان من توبة الله على عابدي العجل أن أمر بني إسرائيل بقتل بعضهم بعضاً، فقاموا بذلك، فغفر للأحياء، واختار القتلى شهداء، ولم يكلفنا بمثل هذا في ديننا، فلو كفر بعض من أمة محمد ﷺ ، ثم تاب، فإن الله يتوب عليه، كما وقع في حروب الردة في زمن أبي بكر الصديق.

٥- كتاب الله التوراة، كتاب عظيم، جعله كتاب هداية لبني إسرائيل، وجعله لهم فرقاناً، يفرقون به بين الهدى والضلال والخير والشر، وكذلك كل الكتب السماوية هي كتب هداية.

٦- أخبر الرسول ﷺ بما لم يطلع عليه العرب من أخبار أهل الكتاب، وهذا من دلائل نبوة الرسول ﷺ .

النص القرآني الحادي عشر من سورة البقرة
اشتراط بني إسرائيل لإيمانهم رؤية ربهم بأعينهم

أولاً: تقديم

آيات هذا النص تتحدث عن ثلاث قضايا جرت للرعيل الأول من بني إسرائيل في عهد موسى، **الأولى**: اشتراط طائفة من بني إسرائيل لإيمانهم أن يروا ربهم عياناً، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، ثم بعثهم الله من بعد موتهم لعلهم يشكرون. **والثانية**: تظليل الله الغمام عليهم، وهم في التيه في الصحراء، وإنزال المنّ والسلوى عليهم وهم في ذلك المكان. **والثالثة**: أمرهم بدخول قرية من القرى التي افتتحوها، وأباح لهم أن يأكلوا منها حيث شاؤوا رغداً، وأمرهم أن يدخلوها ساجدين، وأن يقولوا: حطة، فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، فأنزل الله عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اشتراط بني إسرائيل لإيمانهم أن يروا ربهم عياناً:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا مقالة أسلافهم لنبيهم موسى عليه السلام أنهم لن يؤمنوا حتى يروا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٥٥].

والذين قالوا لموسى عليه السلام هذه المقالة الشنيعة هم السبعون الذين اختارهم لميقات الله المذكور في قوله: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ [الأعراف:١٥٥].

والمراد بالجهرة: المعاينة، وأصلها الظهور، والصاعقة: النار المحرقة المصحوبة بصوت مزعج، وسماها في الأعراف الرجفة ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف:١٥٥].

وقد تعاظم بنو إسرائيل أكثر مما ينبغي حيث رفضوا الإيمان لموسى ﷺ ولما جاء به حتى يروا الله جهرة، فرؤية العباد ربهم في الدنيا غير ممكنة، ولا تطيقها أجسادنا، وقد طلب موسى ﷺ من ربه أن يريه نفسه، فأخبره الله أن ذلك غير ممكن، وطلب منه أن ينظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف يراه، فلما تجلى ربنا للجبل جعله دكاً، وخرَّ موسى صعقاً ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾ [الأعراف:١٤٣].

وقد يقال: لِمَ أحلَّ الله الصعقة ببني إسرائيل دون نبيهم، والجواب: أن طلب موسى الرؤية إنما هو شوق إلى ربِّ العزة يحمل كل معاني الحب والتوقير، بينما كان طالبوها من بني إسرائيل متعنتين، لأنهم جعلوا الإيمان مشروطاً برؤيتهم الله جهرة، وإذا كانت رؤية المؤمنين ربهم في الدنيا غير ممكنة فإنها في الآخرة ممكنة، لأن الله يخلقهم خلقاً غير قابل للفناء والزوال، وقد صحت أحاديث كثيرة بلغت مبلغ التواتر برؤية المؤمنين الموحدين ربهم في الآخرة.

وقد أخذت الصاعقة بني إسرائيل فماتوا، بدلالة الآية بعدها التي تخبر بأن الله بعثهم بعد موتهم لعلهم يشكرون ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٦] والسبب في بعث الله الذين صعقوا بعد موتهم من بني إسرائيل أن موسى توسل إلى ربه واستغاثه، فأجاب الله دعاءه ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ﴾ [الأعراف:١٥٥] والرجفة في هذه الآية هي الصعقة المذكورة في آية البقرة.

وإحياء الأموات في الدنيا آية من آيات الله، وقد ذكرها الله في مواضع من كتابه، فمن ذلك إحياء قتيل بني إسرائيل الذي أمرهم الله أن يضربوه ببعض أجزاء البقرة التي أُمروا بذبحها، وإحياء الطيور التي صَرَّها نبي الله إبراهيم ﷺ ، وسيأتي ذكر ذلك مفصلاً في مواضعه إن شاء الله.

٢- تظليل الله الغمام على بني إسرائيل وإنزال المن والسلوى عليهم:

وأخبرنا ربنا بما أنعم به على بني إسرائيل، وهم في التيه أربعون سنة، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة:٥٧]. والغمام الذي ظلَّله عليهم واحدته غمامة، وهو غمام أبيض

رقيق كان يظلهم من حرّ الشمس اللافح الشديد، أظله عليهم عندما اشتكوا حرَّ الشمس، فدعا موسى ربّه، فأظلهم الله به.

ومع تظليلهم بالغمام أنزل عليهم في ذلك المقام المنَّ والسلوى، طعاماً لهم، والمن مادة حلوة كالعسل، كانوا يجدونها بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس في ديارهم، وأعطاهم معها طائر السماني يجدونه قرب منازلهم، وسيأتي قريباً إن شاء الله ذكر الماء الذي أمدهم به في منازلهم حيث نزلوا أو رحلوا، فقد كان موسى يضرب الحجر، فتنساب منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط من أسباط بني إسرائيل عين من تلك العيون.

وقد نقل ابن كثير عن قتادة قوله في الآية: «كان المن ينزل عليهم في محلَّتهم سقوط الثلج، أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منه ما يكفيه يومه ذلك» [ابن كثير: ١/ ٢٤١].

وقال ابن كثير: «فالمن المشهور إن أُكل وحده كان طعاماً وحلاوةً، وإن مزج معه الماء صار شراباً طيباً، وإن رُكِّب مع غيره صار نوعاً آخر» [ابن كثير: ١/ ٢٤٢]، وقد أخبرنا نبينا ﷺ أن «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين» [البخاري: ٤٤٧٨، مسلم: ٢٠٤٩] (١).

وقد أمر الله بني إسرائيل بعدما أخبر به من إنزال المن والسلوى عليهم أن يأكلوا من تلك الطيبات التي أنزلها الله عليهم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:٥٧] ومن تلك الطيبات المن والسلوى.

وكان الواجب على بني إسرائيل أن يكثروا من شكر الله لما امتنّ به عليهم، ولكنهم قابلوا تلك النعم بارتكاب الذنوب والمعاصي، فظلموا أنفسهم بذلك، ولم يظلموا ربهم تبارك وتعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة:٥٧] وظلمهم لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقابه، فالضرر عائد عليهم، والله لا تضره معاصي خلقه، كما قال تعالى: ﴿إن

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه في ثلاثة مواضع: ٤٤٧٨، ٤٦٣٩، ٥٧٠٨. وأطال ابن حجر في شرحه في كتاب الطب في فتح الباري: (١٠/ ٢٠١)، وقال في الكمأة: «نبات لا ورق لها ولا ساق، توجد في الأرض من غير أن تزرع» أقول: وهو يُعرف اليوم باسم: الفقع، وله وجود في الجزيرة العربية ومصر والشام، وهل مراده بالمن الذي أُنزل على بني إسرائيل، فيه ثلاثة أقوال ذكرها ابن حجر في فتح الباري (٢/ ٢٠٢).

﴿تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم:٨] وقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

وقد أخبرنا بذلك ربنا في الحديث القدسيِّ الذي يرويه عنه رسولنا ﷺ، وهو قوله عزَّ وجلَّ: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» [مسلم:٢٥٧٧].

٣- أمرهم بدخول القرية ساجدين وأن يأكلوا منها رغداً حيث شاؤوا:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما أمر الله به أسلافهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [البقرة:٥٨].

لقد كانت القرية التي أمروا بدخولها قريبة منهم، ولذلك أشار إليها باسم الإشارة الدال على القريب ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة:٥٨].

وأرجح أقوال المفسرين أنها بيت المقدس، وهي التي أمرهم الله بدخولها قبل أربعين سنة، فأبوا أن يدخلوها، لأن فيها قوماً جبارين، وهم غير مستعدِّين لدخولها لخوفهم ورهبتهم منهم، وطلبوا من موسى عليه السلام وأخيه هارون أن يذهبا مع ربهما، فيقاتلا حتى يخرجوا الجبارين منها، فعندما تصبح خالية، فعند ذلك يكون لديهم استعداد لدخولها، والدليل على أنها كانت بيت المقدس قوله تعالى حاكياً قول موسى لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة:٢١-٢٢]، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤] فالأرض المقدسة التي كتب الله لهم القدس.

عند ذلك حرّم الله عليهم دخولها أربعين سنة، وكتب عليهم التيه في الأرض مدَّةَ هذه السنوات ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [المائدة:٢٦] ففي هذه السنوات الأربعين ذهب الجيل الذي تربى في مصر على الذلِّ والمهانة، ونشأ جيل جديد، تحلى بالعزة والشموخ، واستطاع دخول الأرض المقدسة بقيادة نبي الله يوشع بن نون.

وأمرهم تبارك وتعالى أن يدخلوا تلك القرية، ويأكلوا منها حيث شاؤوا رغداً، ومعنى ﴿رَغَدًا﴾ أي: أكلاً واسعاً لذيذاً لا عناء فيه ولا تعب، ويدخل فيه ما طلبوه أيام التيه من البقول والفوم والعدس والبصل كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقد دلَّت هذه الآية على أن ما كان يغنمه بنو إسرائيل في حروبهم من الطعام والشراب مباح أكله، بخلاف الذهب والفضة فقد كانت تنزل نار من السماء تحرقه وأمرهم ربنا - تبارك وتعالى - بأن يدخلوا تلك القرية ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [البقرة:٥٨] وأن يقولوا: حطة ليغفر لهم خطاياهم ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ [البقرة:٥٨] ووعد الذين يستقيمون على ما أمرهم به أن يزيدهم من فضله ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ [البقرة:٥٨].

والمراد بدخولهم القرية ساجدين، أي: متواضعين لرب العزة، مخبتين لله الواحد الأحد، كما فعل الرسول ﷺ عندما دخل مكة فاتحاً، فقد دخلها من الثنية العليا مطَأْطِئاً رأسه، حتى ليكاد رأسه يمس واسطة رحله، وبعد دخوله صلى في المسجد الحرام ثماني ركعات، وهي صلاة الفتح، وكذلك فعل سعد بن أبي وقاص عندما دخل المدائن، فإنه صلى ثماني ركعات في إيوان كسرى هو والمقاتلون معه [الروض الأنف: ٧/ ٢٨، السيرة النبوية، لابن كثير: ٣/ ٥٦٩]، وقد أمرنا الله عند الفتح أن نكون كذلك ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [سورة النصر].

وقد أمرهم وهم يدخلون لله ساجدين أن يقولوا: ﴿حِطَّةٞ﴾ أي: يا ربنا حطَّ عنا ذنوبنا وخطايانا، ووعدهم إن قالوا ذلك أن يغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم.

(والخطايا) في قوله: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ [البقرة:٥٨] الذنوب العظيمة، والمراد بالمحسنين في قوله: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ [البقرة:٥٨] هم المراقبون لله، وعدهم أن يزيدهم خيراً وإحساناً، وقد عرف الرسول ﷺ الإحسان بقوله: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك» [البخاري: ٥٠، مسلم: ٩].

فالعابد لله كأنه يراه يتقن عمله غاية الإتقان.

٤- تبديل طائفة من بني إسرائيل قولاً غير الذي قيل لهم:

حدَّثنا ربُّنا عن الحال الذي أراد الله من بني إسرائيل أن يكونوا عليها عندما يدخلون القرية التي أمرهم بدخولها، وهي دخولهم إليها ساجدين، فبدَّلوا وغيَّروا، ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩﴾ [البقرة:٥٩].

أمرهم الله أن يدخلوها خاضعين متذللين لرب العالمين، فدخلوها على صورة مستنكرة، توحي بالظلم والعدوان، قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨] فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبَّة في شعرة» [البخاري: ٣٤٠٣، مسلم: ٣٠١٥].

لقد بدلوا الفعل الذي أمروا أن يفعلوه في حال دخولهم القرية، أمروا أن يدخلوها خاضعين متذللين، فدخلوها يزحفون على أستاههم، وأمرهم أن يدعوا ربهم في دخلوهم ليحطَّ عنهم خطاياهم، فكانوا يقولون: حبة في شعرة، وقد ظلم هذا الفريق نفسه في الدنيا قبل الآخرة، فقد أُنزل على هذا الفريق الظالم رجز بسبب ظلمهم، والرجز: العذاب، وهو الطاعون الذي سلطه على بني إسرائيل، ففي حديث أسامة بن زيد أن الرسول ﷺ قال: «إن هذا الطاعون رجز سُلِّط على من كان قبلكم، أو على بني إسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها» [مسلم: ٢٢١٨].

وقوله في ختام الآية: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة:٨٩] الفسق هو الخروج عن طاعة الله، وهو أوسع من الكفر، فقد يكون خروجاً عن طاعة الله بالذنوب والمعاصي، وقد يكون خروجاً بالكفر والشرك، وهذا ما قرره أهل السنّة والجماعة في هذه المسألة.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- رؤية الله في الدنيا غير ممكنة، واشتراط بني إسرائيل عدم الإيمان لموسى إلا إذا رأوا ربهم عياناً سوأة كبيرة من سوءاتهم، أما رؤية المؤمنين ربهم في الجنة فهو أمر متواتر في الأحاديث، وفي القرآن تصريح به لمن عقل.

٢- أحيا الله الذين أماتهم بالصعقة من بني إسرائيل، وقد ذكر الله في كتابه في مواضع عدة أنه أحيا عدداً من عباده في الدنيا بعد أن أماتهم.

٣- ذكر الله جملةً من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل في زمن موسى، فمن ذلك تظليل الغمام عليهم ليقيهم حرَّ الشمس، ومن ذلك إنزال المنّ والسلوى عليهم، ينالونه بغير جهد.

٤- الطعام الطيب مباح للمؤمنين، وعليهم أن يتناولوه ويشكروا ربهم على ما أنعم به عليهم.

٥- الإنسان الذي يرتكب الذنوب والمعاصي يظلم نفسه، إذ يناله من عقاب الله ما الله به عليم، والله لا يضيره ظلم عباده أنفسهم.

٦- أباح الله لبني إسرائيل أن يأكلوا مما غنموه من الطعام بخلاف الذهب والفضة، فقد كانوا يجمعون ما غنموه من الذهب والفضة، فتنزل نار من السماء فتحرقه، وقد أباح الله لنا ما حرمه على بني إسرائيل من الغنائم.

٧- المؤمنون في حال انتصارهم على أعدائهم يخضعون لربهم، فيدخلون المدن المفتوحة خاضعين متذللين لله، داعين الله أن يغفر ذنوبهم وزلاتهم، بخلاف الكفرة المشركين الذين يدخلون المدن المفتوحة معربدين متجبرين.

٨- منع بعض أهل العلم من رواية حديث رسول الله ﷺ بالمعنى محتجاً على ذلك بأن الله ذمَّ الظالمين من بني إسرائيل الذين قالوا قولاً غير الذي قيل لهم، وجمهور أهل العلم على جواز رواية الحديث بالمعنى، إذا كان راويه عالماً بما يرويه.

٩- معاقبة رب العزة من تمرد على أمره به، فقد أنزل على الظالمين من بني إسرائيل رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون.

النص القرآني الثاني عشر من سورة البقرة
فجَّر الله لبني إسرائيل الماء في الصحراء من الصخر الأصم

أولاً: تقديم

عصى بنو إسرائيل ربَّهم برفضهم دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، فكتب عليهم أن يتيهوا في صحراء سيناء مدة أربعين عاماً، وأنعم عليهم في تيههم ذاك في الصحراء بنعم كثيرة، فقد أظلهم من حرّ الشمس اللافح بالغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فكانوا يجدون الطعام قرب منازلهم من غير جهد، وفي الصحراء يحتاج الناس إلى الماء الذي يروي عطشهم، ويزيل غلتهم، فحدثنا في هذه الآيات كيف حصل موسى على الماء، حدثنا أنه كان يضرب بعصاه الحجر الصلد القاسي، فتتفجر منه العيون.

وحدثنا ربنا أن بني إسرائيل لم يصبروا على الطعام الفاخر الذي كان ينزله إليهم في ديارهم، فطلبوا أعداس الأرض وأبصالها وثومها وبقلها وقثائها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة البقرة

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير هذا النص من القرآن

١- استسقى موسى عليه السلام ربه، فأمره أن يضرب بعصاه الحجر فتتدفق منه العيون:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما كان من استسقاء موسى لربه حين طلب منه قومه ذلك، وهم في الصحراء ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾ [البقرة:٦٠].

أمر الله موسى عندما استسقاه قومه أن يضرب الحجر، فكان ينفجر عن اثنتي عشرة عيناً بعدد أسباط بني إسرائيل، لكل سبط منهم عين، والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب.

والألف واللام في ﴿ٱلْحَجَرَ﴾ قد تكون للعهد، فيكون الحجر المضروب حجراً مُعيَّناً، يحمله بنو إسرائيل معهم حيث ساروا، ويضعوه حيث حلُّوا، وقد تكون الألف واللام للجنس، فلا يكون حجراً بعينه، وفي قوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة:٦٠] محذوف، تقديره: فضربه، فانفجرت.

لقد حصل بنو إسرائيل على السقيا بطريقة سهلة ميسرة، فلم ينزل عليهم المطر من السماء، ولم تسل به الوديان والشعاب، بل كان يضرب موسى بعصاه الحجر، فتتدفق منه العيون، ويعرف كلُّ سِبْطٍ العينَ التي منها يشربون ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠] وبعد أن أنزل الله الطعام الذي منه يأكلون، وأجرى لهم العيون التي منها يشربون، قال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة:٦٠] كلوا ما أنزلت لكم من المن والسلوى، واشربوا من ذلك الماء العذب الزلال المتدفق، ونهاهم عن أن يعثوا في الأرض مفسدين، ومعنى قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ [البقرة:٦٠] أي: لا تسعوا مفسدين في الأرض.

٢- طلب بنو إسرائيل الأدنى من الطعام وزهدوا في الذي هو خير:

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما قاله أسلافهم لنبيهم موسى عليه السلام وهم في التيه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة:٦١].

يقول لهم الحكيم العليم الكريم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦٠] الذي هو في غاية الجودة والفضل، وإذا بهم ينادون نبيهم متبرمين مما أنزله الله عليهم من الطعام، إنه طعام واحد، وهم يريدون نبات الأرض، يريدون البقل، وهو ما لا ساق له من النبات، ويريدون الثوم والعدس والبصل، قال ابن زيد، فيما نقله عنه ابن جرير: «كان طعام بني إسرائيل في التيه واحداً، وشرابهم واحداً، كان شرابهم عسلاً ينزل من السماء يقال له: المن، وطعامهم طير يقال له: السلوى، يأكلون الطير، ويشربون العسل، ولم يكونوا يعرفون خبزاً ولا غيره، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٦١]» [ابن جرير الطبري: ١/ ٣١٠].

فخاطبهم نبيهم عليه السلام مقرِّعاً وموبخاً ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة:٦١].

نعم، إنهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، يريدون البقل والعدس والبصل، ويفضلونها على المنِّ والسلوى، يريدون هذه الأطعمة الدنيّة، بدل تلك الأطعمة الفاخرة الهنيّة، وما طلبوه موجود في القرى والأرياف، وهو مبذول لجميع الناس في تلك البلاد، وما عليكم إذا أردتموه إلا أن تسيروا إلى بعض الأمصار، فتجدونه كثيراً وافراً، و(مصراً) مصروف، والمراد به مصر من الأمصار، لا مصراً بعينه، ولم يجز ابن جرير القراءة بغير (مصراً) لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين عليه، واتفاق القراء عليه [ابن جرير: ١/ ٣١٥].

إن ما طلبه بنو إسرائيل من نبيهم يدل على أنهم لم يكونوا يقدِّرون المهمة التي يُعَدُّون لها، يقول سيد قطب - رحمه الله - «لقد أخرج الله بني إسرائيل على يدي نبيهم موسى عليه السلام من الذلِّ والهوان، ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعة، وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية، ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية، حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهنية، حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيفوا ظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزة والكرامة والحرية، إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر، يريدون العدس والبصل والقثاء، وما إليها» [في ظلال القرآن: ١/ ٧٤].

٣- ضرب الله على بني إسرائيل الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله:

لقد كان نتيجة هذه التصرفات من بني إسرائيل، وتلك الحماقات أن ضرب الله عليهم الذلة، ضربها الله عليهم قدراً وشرعاً، وضرب عليهم المسكنة، وهي الصَّغار، فهم أذلاء في أنفسهم، مهانون محتقرون، واستحقوا غضب الله عليهم، وقد كانت أعمالهم تؤهلهم لهذا المصير ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة:٦١].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائد إلى الذلة والمسكنة التي ضربت عليهم، وإحلال غضب الله بهم، يقول ابن كثير في تفسير الآية: «هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب عليهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم» [ابن كثير: ١/ ٢٥٣].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذِكْرُ ما أجرى الله على يد كليمه موسى عليه السلام من تفجير عيون الماء من الصخر الأصم في الصحراء، طيلة مكث بني إسرائيل في التيه هو من آيات الله العِظام.

٢- على العباد أن يأكلوا من الطعام الطيب الذي رزقهم الله تبارك وتعالى، ويكفُّوا أنفسهم عن الإفساد في الأرض، وقد ضلَّ قوم حرموا الطيبات على أنفسهم.

٣- أجرى الله على يدي نبيه موسى كثيراً من المعجزات، فيها تكثير للطعام والشراب، وقد فجَّر الله - تبارك وتعالى - لرسولنا ﷺ الماء من بين أصابعه، وكان أصحابه يغترفون من ذلك الماء، فيشربون، ويتوضؤون.

٤- كان الله يُعِدُّ بني إسرائيل في التيه إلى الارتقاء إلى مراتب عالية، ليحقق بهم قدره في أن يصبحوا الأمة الفاضلة التي تحقق الخلافة في الأرض، وقد أنزل لهم المن والسلوى وهما من أفخر الطعام، وأخرج لهم الماء من الأرض بأسهل طريق، فلما لم يصبروا على ما أنعم الله به عليهم، وطلبوا ما يطلبه أصحاب المزارع من الأبصال والبقول، فلم يرض الله منهم ذلك، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، ورجعوا بغضب الله، وقد انتهى بهم المصير إلى الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

النص القرآني الثالث عشر من سورة البقرة
المؤمنون الذين يعملون الصالحات هم الأخيار الفائزون

أولاً: تقديم

ذكر الله بعضاً من عظائم الأمور التي واجه بها بنو إسرائيل ربهم سبحانه وتعالى، مع أنه أنعم عليهم بعظائم النعم، وهم مع ذلك كله يزعمون أنهم الأفضل والأكمل، فأبان الله في الآية الأولى من هذا النص أن الكمال والصلاح والأفضلية في حكم الله وقضائه إنما هو للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، ثم ذم الله بني إسرائيل لتوليهم بعد أخذ الميثاق عليهم، وذكرهم بما كان من أسلافهم في اشتغالهم بالصيد في يوم السبت، فمسخهم قردة وخنازير، وكانت تلك الواقعة موضع عبرة للقرى حولها في زمانها وبعده.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المؤمنون الذين يعملون الصالحات هم الفريق الصالح الفائز:

سبق أن أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - عما أساء به بنو إسرائيل إلى ربهم، حتى إنه - تبارك وتعالى - ضرب عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من ربِّ العزة، وهم مع ذلك كله - كما سيأتي - يدَّعون أنهم الأفضل والأكمل، فبيّن الله تبارك وتعالى أن الأفضل من جميع الأمم هم المؤمنون بالله واليوم الآخر الذين يعملون الصالحات، وفي ذلك يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة:٦٢].

٢- التعريف بالذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين:

والمراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أتباع محمد ﷺ، قال ابن جرير: «أما الذين آمنوا فهم المصدقون رسول الله ﷺ فيما أتاهم به من الحق من عند الله» [ابن جرير الطبري: ١/٣١٧]

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الذين تدينوا بدين اليهود، وهم أتباع موسى ﷺ، سموا بذلك لقول موسى ﷺ في دعائه ربه: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: تبنا إليك.

﴿وَالنَّصَارَى﴾ أتباع عيسى ﷺ، وواحد النصارى نصراني، وهذا مستفيض في لغة العرب، كما يقول ابن جرير [ابن جرير: ١/ ٣١٨] سُمُّوا بذلك، لأن عيسى ﷺ سأل الحواريين عن أنصاره إلى الله، فقالوا: نحن أنصار الله ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران:٥٢] والصابئون كما يقول الشوكاني: «من خرج من دين على دين، ولهذا كانت تقول العرب لمن أسلم: قد صبأ» [فتح القدير: ١/ ٢٠٥] ونقل ابن جرير عن ابن زيد أن «الصابئين دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل، ولا كتاب، ولا نبي» [ابن جرير: ١/ ٣١٩].

وقد أخبر تعالى أن مَن آمن مِن أصحاب هذه المِلل الأربعة بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فإنه مقبول عند الله مرضي عنه، وله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون. ومن هؤلاء الذين سماهم القرآن بـ ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ العرب أهل الجاهلية، ومنهم البوذيون.

٣- الإيمان بجميع الرسل أصل لا يقوم الإيمان إلا به:

وهذه الملل يجب أن تؤمن بالرسل الذين عرفوهم في زمانهم، فاليهود كانوا مطالبين بالإيمان بموسى وهارون ومن قبلهم من الرسل والأنبياء الذين أخبرهم الله عنهم، والنصارى مطالبون بالإيمان بعيسى، بالإضافة إلى من قبله، فلما بعث محمد ﷺ كان الإيمان به شرطاً في الإيمان، فمن لم يؤمن به، ولم يتبعه، فإنه كافر مطرود من رحمة الله، وهذا الأصل معلوم من الدين بالضرورة.

٤- رفع الله الجبل فوق بني إسرائيل عندما رفضوا الأخذ بالتوراة:

وأمر الله بني إسرائيل أن يذكروا ما أخذه الله عليهم حال رفع الطور فوقهم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)﴾ [البقرة:٦٣] أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بعد أن رفضوا أن يأخذوا التوراة ويلتزموا بها، فلما أبوا أن يعطوا الميثاق رفع فوقهم الطور، وهو الجبل الذي كلم عليه موسى، وأصبح فوقهم كأنه ظلة، أي: غمامة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف:١٧١] وواضح من النص أنهم لما رأوا الجبل فوقهم كالغمامة يكاد أن ينطبق فوق رؤوسهم، سجدوا، وأعطوا ذلك الميثاق، ومعنى: نتقنا الجبل: رفعناه.

وقوله ﴿مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ [البقرة:٦٣] أي: التوراة، وهو كتاب الله المنزل هداية لهم، ومراده ﴿بِقُوَّةٖ﴾ أي بجدٍّ وصدق وعزيمة.

٥- لولا توبة الله على بني إسرائيل بعد توليهم لأصبحوا من الخاسرين:

ثم ذم الله بني إسرائيل لتوليهم بعد ذلك ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤﴾ [البقرة:٦٤] والتولي: «الإدبار عن الشيء، والإعراض بالجسم عنه، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعاً ومجازاً» [فتح القدير: ١/ ٢٠٦].

وقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ﴾ [البقرة:٦٤] أي: من بعد تلك الآية العظيمة وهي رفع الجبل فوقهم، وقوله: ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤﴾ [البقرة:٦٤] أي: فلولا توبته – سبحانه – عليكم وإنزاله الكتب، وإرساله الرسل لكنتم من الخاسرين.

٦- ذكر القرية التي احتالت على الصيد يوم السبت فمسخ الله أهلها قردة:

ثم خاطب الله – تبارك وتعالى – بني إسرائيل مذكراً إياهم بما فعله بعض آبائهم، وهم طائفة من اليهود كانوا يسكنون مدينة (أيلة)، وهي إحدى مدائن بلاد الشام، وكانت في موضع مدينة العقبة، وكان من شأنهم أن الله تبارك وتعالى ابتلاهم، فكانت تأتيهم الحيتان في يوم السبت ظاهرة بارزة، فإذا كانت الأيام الأخرى ذهبت، فلم يظهر منها شيء، فلما طال بهم الأمد احتال بعضهم، فنصبوا الشباك وحفروا الحفائر قبل السبت، ثم كانوا يأخذون ما علق فيها من صيد في يوم الأحد ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾ [البقرة:٦٥].

لقد أمرهم الله تبارك وتعالى أن يكونوا قردة صاغرين أذلة، ولا يستطيع أحد أن يأمره الله بأن يكون قردة، فلا يصبح كذلك.

وقد حدَّثنا الله عن هذه الواقعة في قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ [الأعراف:١٦٣].

وأخبرنا الله في سورة الأعراف أن الذين أنكروا عليهم نجوا، وأن الذين أكلوا هلكوا، وسكت عن الذين خالفوهم، ولم يفعلوا فعلهم، وأصبحت تلك الواقعة عبرة للذين يحتالون

على أمر الله تبارك وتعالى كما قال الله عزَّ وجلَّ في هذه الآيات ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [البقرة:٦٦]. ونكالاً: عذاباً، أخبر تعالى أنه جعلهم عبرة لمن بحضرتها من أهل القرى الذين شاهدوها وعاينوها، ولمن جاء بعدها وبلغهم خبرها، فمثل هذه الأخبار تنقل وتروى، ويتعظ بها السامعون إن رزقوا الإيمان.

وفيها عظة لهذه الأمة حتى لا يحتالوا كما احتال بنو إسرائيل، وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» [رواه ابن بَطَّه في جزء إبطال الحيل، ص٤٦، وصححه ابن كثير في (تفسيره): ١/ ٢٦١].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أصحاب الملل يتنازعون الفضل فيما بينهم، وقد حكم الحقُّ - تبارك وتعالى - بأن المؤمنين بالله واليوم الآخر من هذه الملل هم الجماعة الفاضلة، لا فرق في ذلك بين أمة وأخرى.

٢- من آيات الله العظيمة التي أخبرنا بها رَفْعُهُ الجبلَ فوق بني إسرائيل في عهد موسى، حتى أصبح كأنه غمامة.

٣- ذمّ الله بني إسرائيل في رفضهم أخذ التوراة والعمل بها، فرفع فوقهم الطور، فامتلأت قلوبهم رعباً، وخروا ساجدين.

٤- ما فعله بنو إسرائيل من الاحتيال بصيد السمك في يوم السبت، فيه اجتراء واستخفاف بالأمر الإلهي، «وفي ذلك دليل على أنَّ الله لا يرضى بالحيل على تجاوز أوامره ونواهيه، فإن شرائع الله مشروعة لمصالح وحكم، فالتحيل على خرق تلك الحكم بإجراء الأفعال على صور مشروعة، مع تحقق تعطل الحكمة منها جراءَة على الله تعالى» [التحرير والتنوير: ١/ ٥٤٥].

٥- إن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فبكلمة واحدة، أصبح المحتالون على صيد السمك في السبت قردة خاسئين.

٦- على المسلمين أن يأخذوا العبرة من بني إسرائيل، فيبتعدوا عن الطرائق التي اتبعوها، وعليهم أن ينقادوا للشرع الإلهي، حتى لا يوقع الله بهم مثل العقوبة التي أوقعها ببني إسرائيل.

٧- قصة مسخ مصطادي السمك من بني إسرائيل ليس لها ذكر في التوراة، ومع ذلك فهي معلومة لليهود، وهذا يدلُّ على أن عندهم علماً غير ما في التوراة، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ [البقرة:٦٥] أي: عرفتم.

النص القرآني الرابع عشر من سورة البقرة
قصة بقرة بني إسرائيل

أولاً: تقديم

حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص عن سؤال بني إسرائيل نبيهم موسى عليه السلام عن واقعة قتيل منهم وجدت جثته بين حيين من أحيائهم، كل واحدٍ منهما يتهم الآخر بقتله، فأمرهم أن يذبحوا بقرة، فظنوه يهزأ بهم، فقال لهم: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

فاشتغلوا بإيراد الأسئلة التي تبين صفات البقرة المقصودة، وكان الواجب عليهم أن ينفذوا ما أمروا به، وكل البقر لديهم موضع للتنفيذ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، ولم يجدوا إلا بقرة واحدة تتصف بتلك الصفات، فلما ذبحوا البقرة أمرهم نبيهم أن يضربوا القتيل ببعض منها، فأحياه الله، ودلَّ على قاتله.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةًۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى عليه السلام يأمر قومه أن يذبحوا بقرة:

أمر الله - تبارك وتبارك - بني إسرائيل أن يذكروا ما كان من أمر نبي الله موسى قومه أن يذبحوا بقرة، فعجبوا من هذا الأمر الذي أصدره إليهم، وظنوه يسخر بهم، فسألوه عن ذلك، فبادر بالإجابة قائلاً: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة:٦٧] أي: أحتمي

بالله أن أكون جاهلاً، فالأمر الذي ينسب إلى الله لا يجوز فيه الهزل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة:٦٧].

إنَّ موسى ﷺ جادٌّ كل الجدِّ في أمره إياهم، وما كان له ولا لأحد من المؤمنين أن يسخر بأمر منسوب لرب العالمين، وكان الواجب على بني إسرائيل أن ينفِّذوا الأمر من غير تأخير ولا تسويف، فأي بقرة من جنس البقر أخذوها وذبحوها يكونون قد حقَّقوا ما أمروا به، ولكنهم سوّفوا وأخّروا زاعمين أنهم يريدون من رب العالمين أن يصف لهم البقرة المطلوب ذبحها وصفاً دقيقاً، وقد كانوا في ذلك مخطئين، فكان الواجب عليهم ذبح ما تيسر لهم من البقر، من غير وصف لها بصفات، ومن غير تمييز لها بمميزات لم تحدد لهم عند الأمر.

٢- شدَّد بنو إسرائيل على أنفسهم بالسؤال فشدد الله عليهم بالجواب:

طلب بنو إسرائيل من موسى أن يسأل ربه عن هذه البقرة ما هي ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ [البقرة:٦٨] شددوا في الطلب، فشدَّد الله عليهم في الجواب، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة:٦٨] قال ابن عباس: «لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، ولكنهم شدَّدوا، فشدَّد الله عليهم» [تفسير ابن كثير: ١/ ٢٦٥، وحكم على إسناده بالصحة].

وقد جاء الجواب من الله: إنها بقرة شابّة، ليست بالفارض، وهي المسنّة الكبيرة، ولا بالبكر الصغيرة، والشابة هي العوان التي بين هذين السنين، وهي كما يقول ابن عباس: «أقوى ما يكون من الدواب والبقر، وأحسن ما يكون» [ابن كثير: ١/ ٢٦٥].

وأتبع موسى تحديد السن بقوله: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة:٦٨] أي: سارعوا بتنفيذ ما أمرتم به، ولا تُسَوِّفوا بالإكثار من السؤال.

ولكنَّهم لم يفعلوا وعادوا يسألون: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة:٦٩]، قال الله - عزَّ وجلَّ - في الجواب: إنها بقرة صفراء، وصفارها خالص، لا يشوبه لون آخر، لا بياض، ولا سواد، ولا حمرة، والعرب إذا أرادت الصفار خالصاً نعتته بكونه فاقعاً ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ [البقرة:٦٩] وهي تقول: أصفر فاقع، وأسود حالك، وأحمر قانٍ، وأبيض ناصع، وأخضر ناضر.

وليست بصفرة خالصة فحسب، ولكنها مع ذلك تسرُّ الناظرين، أي: تبهج نفوسهم، قال وهب بن منبه: «إذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها» [تفسير ابن جرير الطبري: ١/ ٣٤٦].

ولم يقف بنو إسرائيل عند ذلك، بل تمادوا في السؤال لمزيد من التحديد، ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة:٧٠]. قالوا: يا موسى ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟ وهذه هي المرة الثالثة التي يسألون فيها عن ماهية البقرة، إنهم يريدون تحديدها تحديداً دقيقاً، بحيث يعرفونها عندما ينظرون إليها، ولا تختلط عليهم بغيرها، فالبقر الذي تنطبق عليه الصفات المذكورة كثير، وإنا إن شاء الله لمهتدون لذبح البقرة التي طُلِب منا ذبحها، فأجاب موسى عليه السلام قائلاً: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة:٧١].

قال لهم: إن البقرة التي أمرتم بذبحها مدللة، غير مذللة بالعمل، فهي لم توضع قيد العمل، فلا تحرث الأرض، ولا يُسْقى عليها الماء، وهي مع ذلك كله سالمة من العيوب، وليس فيها أي لون آخر يخالط الصفرة، وهذا معنى لاشية فيها.

عند ذلك ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ وبحثوا عن هذه البقرة فوجدوها ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ما أمروا به، لكثرة تعنتهم، ولكثرة تسويفهم بالسؤال، ولقلة الأبقار التي تنطبق عليها تلك الصفات الكثيرة، ويذكر المفسرون أن بني إسرائيل لم يجدوا إلا بقرة واحدة تنطبق عليها جميع الصفات، فاشتط صاحبها في ثمنها، ولذلك كادوا أن يعدلوا عن الذبح لولا هداية الله لهم.

٣- أمر الله بني إسرائيل بضرب القتيل ببعض من البقرة:

لما أتمَّ بنو إسرائيل ذبح البقرة جاءَهم الأمر من الله بضرب القتيل الذي سألوا موسى عنه ببعض منها، فأحياه الله، ودلَّ على قاتله ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة:٧٢-٧٣] وعقَّب الله على إحياء الميت بهذه الطريقة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة:٧٣]. والتدارؤ المذكور في الآية النزاع والاختصام والتدافع، كل طائفة تدعي أن الأخرى هي القاتلة، وقد أبهم الله البعض الذي أمروا أن يضربوا به الميت من البقرة، فلا نبحث عنه، وإحياء الميت بهذه الطريقة آية من آيات الله العظيمة، الدالة على قدرته سبحانه على البعث والنشور، وقد ذكر الله لنا جملة من الآيات الدالة على إحيائه الموتى في الدنيا، وسيأتي ذكر بعضها في هذه السورة.

٤- **قسوة قلوب بني إسرائيل من بعد ما رأوا آية إحياء الله الموتى:**

رأى بنو إسرائيل آية عظيمة، رأوا الميت تعود إليه الحياة، وسألوه عن قاتله فدلَّ عليه، وكان ينبغي للقلوب القاسية أن تخشع وتلين، ولكن الذي وقع منهم كان خلاف ذلك ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤].

هذه الآية مساقة لتوبيخ بني إسرائيل وتقريعهم على ما كان من قساوة قلوبهم، والقلوب القاسية هي القلوب الصلبة الشديدة اليابسة، وتكون القلوب كذلك إذا خلت من الإنابة لله والإذعان إليه، وقد شبهها في قساوتها بالحجارة، ثم جعل قسوتها أشد من قسوة الحجارة، فإن بعض الحجارة يتفجَّرُ منها الأنهار، وبعضها يتشقق فيخرج منه الماء، وبعضها يهبط من خشية الله، وختم الآية بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤] فالله لا يغفل عن شيء فعله العباد، وهو عالم بما سيفعلونه قبل أن يفعلوه، وهو مكتوب عنده في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- في هذه الآيات ذكر آية عظيمة أوقعها الله ببني إسرائيل في زمن موسى ﷺ، فقد أمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة، ثم يضربوا ببعضها قتيلاً منهم تنازعوا في قاتله، فأحياه الله، ودلَّ على قاتله.

٢- ذمَّ الله بني إسرائيل لكثرة مسائلهم، وقد كان الواجب عليهم عندما أمرهم نبيهم بذبح بقرة أن يأخذوا من البقر الكثير الذي حولهم أي بقرة، فيذبحونها من غير هذا التشديد الذي شددوا به على أنفسهم.

٣- كان السلف الأول من الصحابة والتابعين يرون أن حكم الله فيما أمر ونهى في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، على العموم الظاهر، دون الخصوص الباطن، إلا أن يخص بعض ما عمّه ظاهر التنزيل [ابن جرير: ١/٣٤٨] ولم يكونوا يتوقفون فيما أنزل إليهم من ربهم حتى يسألوا عنه سؤال اليهود.

٤- سميت هذه السورة العظيمة باسم سورة البقرة، لذكر قصة البقرة المذكورة في هذا النص فيها.

٥- لا يجوز أن يسخر المسلم أو يلعب بأمر يتعلق بالله - تبارك وتعالى - ومن فعل ذلك فإنه يكون من الجاهلين، نعوذ بالله أن نكون منهم.

٦- قرَّرتْ آيات هذا النص أن القلوب قد تصبح قاسية، وقد تزيد قساوتها على قساوة الحجارة الصم الصلدة، فمن الحجارة ما يتفجر منه الأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، ومنها الذي يهبط من خشية الله، وإذا كانت القلوب تقسو بسبب الغفلة عن الله والبُعد عنه، فإن قلوب الصالحين تكون لينة مخبتة.

٧- فيما حدّثنا الله عنه من قصص بني إسرائيل وأخبارهم عظات وعبر استفاد منها المسلمون عبر تاريخهم، ولا يزالون.

٨- ما ذكره الله في هذا النص هو القصة الصحيحة في موضوع البقرة، وقد أشاع اليهود في هذه الأيام أنه ولد عندهم بقرة صفراء، وأن وجود هذه البقرة ضروري لقيام دولتهم، وأنهم سيذبحونها ويحرقونها ويذرونها للخلاص من ذنوبهم، وكل هذا من الخرافات التي اخترعوها.

النص القرآني الخامس عشر من سورة البقرة
لوم الله المؤمنين على طمعهم في إيمان اليهود

أولاً: تقديم

أنكر الله - تبارك وتعالى - على المؤمنين في المدينة طمعهم في إيمان اليهود، فاليهود فسدت فطرهم، وتدنست طبائعهم، وقد بلغ بهم السوء إلى تحريف كتاب الله عن قصد بعد أن فقهوه وفهموه، وامتهنوا النفاق، فقد كان بعضهم يزعمون الإيمان عندما يقابلون المؤمنين، ثم يلوم بعضهم بعضاً على فعلهم ذلك، والدين عند عوام اليهود تخرصات وظنون، أما الأحبار والعلماء فإنهم يحرفون الكتاب الذي بأيديهم، وهم يدَّعون دعاوى كاذبة، فيزعمون أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، وهم في ذلك يكذبون على ربِّ العزة، فكيف تطمعون أيها المؤمنون بإيمان من كانت فيه كل هذه المصائب والبلايا!!!

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنكار الله على المؤمنين طمعهم في إيمان اليهود:

أنكر الله على المؤمنين طمعهم في إيمان اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة، وحال اليهود في غير المدينة كحالهم فيها، وها قد مرَّ على نزول القرآن أكثر من ألف وأربعمائة عام، ولم يستجب اليهود لنداء الإيمان الذي جاء به القرآن، قال تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ [البقرة:٧٥] (والطمع) كما يقول الراغب الأصفهاني: «نزوع النفس إلى الشيء شهوة له» [المفردات: ٣٠٧] والمراد بالإيمان لهم: انقياد اليهود لهم.

٢- ما يحول بين اليهود وبين الإيمان:

ليس كل إنسان بصالح للإيمان، فبعض الناس تقذَّرت فطرهم وتلطخت بالقاذورات التي تحول بينهم وبين الإيمان، وقد ذكر الله في هذا النص ثلاثة أمور تحول بين اليهود وبين الإيمان.

أولها: تحريف اليهود كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون: قال تعالى في هؤلاء: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة:٧٥].

والمراد باليهود الذين يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون هم بعض أحبارهم وسادتهم، والمحرَّف هو التوراة التي أنزلها الله على نبيهم موسى عليه السلام، فالقرآن لا سبيل إلى تحريفه، فهو محفوظ بحفظ الله، وتوراة اليهود تحمل - اليوم - الكثير من التحريف، وسيأتي ذكر نماذج من هذا التحريف. ومعنى ﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾ يغيرونه بتبديل ألفاظه، أو بصرفه وتأويله إلى غير معناه الصحيح عن علم وقصد، ولذلك قال: ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة:٧٥]، والذين بلغ بهم الأمر إلى تحريف كلام الله عن قصد وعلم يكون الفساد قد بلغ فيهم منتهاه وغايته.

ثانياً: ادعاء اليهود الإيمان إذا لقوا المؤمنين، فإذا خلا بعضهم إلى بعض تلاوموا فيما بينهم: كان بعض اليهود في المدينة يدَّعون الإيمان عندما يقابلون المؤمنين، فإذا خلا بعضهم إلى بعض بعيداً عن المؤمنين تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض ناسين أن الله سامع لما يقولونه: أتحدثون المؤمنين بصفات محمد ﷺ التي حوتها التوراة، وهذا هو الحديث الذي فتحه الله عليهم، وكانوا فيما مضى يظهرونها، ويتوقعون متابعتهم له، ومقاتلة المشركين معه، فلما بُعث من غيرهم تنكروا له، وكفروا به، وحاربوه ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة:٧٦].

ومحاجة المؤمنين لهم، أنهم يقولون لليهود: أنتم كنتم تحدثوننا عن هذا النبي قبل بعثته، وتتوعدوننا بالإيمان به، ومقاتلتنا معه، فكيف تكفرون بالنبي الذي كنتم تتوعدوننا به، وقد ذكَّرهم الله تبارك وتعالى بأنه عالم بما يسرونه من صفات الرسول ﷺ، وما يعلنونه من الكفر به، ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة:٧٧].

الصنف المحرف للتوراة من يهود:

أخبرنا الله أن كثيراً من اليهود أميون عوام لا يحسنون الكتابة والقراءة ولا يعلمون التوراة وما فيها وما عندهم من ذلك إلا ما يتمنونه وتشتهيه أنفسهم وما لفَّق لهم أحبارهم من أكاذيب منمقة من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، وأنهم أبناء الله وأحباؤه وغير ذلك. وهؤلاء لا أثر لهم ولا فعل في مسيرة اليهود، وكل ما في عقولهم ظنون وتخرصات، أما الفريق الذي يستحق أن يوجه إليه الويل فهم الأحبار والزعماء والرؤساء الذين يقومون بتحريف كتابهم، فهم يكتبون الكتاب بأيديهم، ويقولون: هو من عند الله، فيحصلون من وراء ذلك على ثمن قليل، يتمثل في الزعامة والرئاسة والأموال الزائلة ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة:٧٨-٧٩].

وقد تهدد الله هؤلاء بسبب ما كتبوه بأيديهم، وتهددهم بسبب ما يكسبونه من عرض الدنيا، ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة:٧٩].

والويل: العذاب الشديد الذي ينكل به بمن وجه إليهم، وهذا الويل موجه لهؤلاء الذين اخترعوا هذه الكتب، ونسبوها إلى الله كذباً وافتراءً عليه، وويل لهؤلاء الذين قصدوا من وراء فعلهم عرض الدنيا الزائل.

وإذا كان هذا هو حال اليهود عوامهم وعلماؤهم، فهم لا يصلحون أن يكونوا مصدراً للهداية ولا موضعاً للتأسي بهم، وقد حذر حبر هذه الأمة عبدالله بن عباس المسلمين من اللجوء إلى أهل الكتاب، وسؤالهم عما أشكل عليهم، فقال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء؟ وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله، تقرؤونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط، سألكم عن الذي أنزل إليكم» [البخاري: ٢٦٨٥، ٧٣٦٣، ٧٥٢٣].

ثالثاً: دعواهم زوراً وكذباً أن نار الآخرة لا تمسهم إلا أياماً معدودة: ومما غيره اليهود وبدلوه ما زعموه أنهم يدخلون النار أياماً معدودة، ثم نخلفهم فيها، ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة:٨٠] إن هذا الذي ادعاه اليهود قول باطل مفترى، وقد سأل الرسول

ﷺ طائفة من اليهود بعد تسميمهم شاة أهدوها إليه مصلية في خيبر، فقال لهم: «من أهل النار؟» قال: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً» [البخاري: ٣١٦٩].

وقد أمر الله رسوله ﷺ في تكذيبه إياهم بهذه الدعوى أن يقول لهم: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة:٨٠] فكأنه قال لهم: أنتم بين أمرين: **الأول**: أنكم اتخذتم عند الله عهداً بأن لا تصيبكم النار إلا أياماً معدودات، فإن كان الأمر كذلك، فأين هذا العهد؟ فإن لم يكن هناك عهد، فالأمر شقشقة لسان، وواقع الأمر أنكم تكذبون على الله، وتقولون عليه ما لا تعلمون.

٣- تحديد أصحاب الجنة وأصحاب النار:

بعد أن أكذب الله تعالى اليهود في دعواهم أن النار لا تمسُّهم إلا أياماً معدودة، حدد كلاً من أصحاب النار وأصحاب الجنة في قوله: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة:٨١-٨٢].

فأصحاب النار هم الذين سعوا إلى اكتساب السيئات، فالسيئة عندهم مغنم، فلذلك تراهم يبحثون عنها ويحوزونها، ومن ذلك تحصيل الأموال والمناصب بكل الطرق، ويعدُّون ما حصلوه منها مكاسب وأرباحاً، وهم في سعيهم إلى اكتساب السيئات يَغرَقون فيها حتى تحيط بهم الخطايا من كل جانب، فهؤلاء هم أصحاب النار الخالدون فيها أحقاباً. وأصحاب الجنة الخالدون فيها هم الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، وعملوا الصالحات من الواجبات والمستحبات المأمور بها في الكتاب والسنّة.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أنكر الله على طائفة من الصحابة طمعهم في إدخال اليهود في الإيمان، فاليهود فيهم من الفساد ما يصدُّهم عن دخول الإسلام، وقد مضى وقت طويل على نزول القرآن، وكان اليهود ولا يزالون أقل الناس إيماناً.

٢- حرّف بعض علماء اليهود ورؤسائهم كتابهم التوراة عن علم وعقل وتعمد، ومن أعظم ما حرفوه أو غيروه ما بشّر الله به من بعثة رسوله محمد ﷺ.

٣- بعض اليهود في عهد الرسالة أظهروا الإيمان برسولنا ﷺ ، وذكروا أن كتابهم التوراة فيه البشارات به، وكانوا إذا خلا بعضهم ببعض يتلاومون على تحديثهم المؤمنين بما في التوراة من مبشرات بالرسول ﷺ ، خشية أن يتخذها المؤمنون حجة على اليهود في دعوتهم للإيمان.

٤- الله عالم السر والعلن، ومن ذلك علمه بما يتناجى به اليهود في تلاومهم فيما بينهم إذا خلوا على النحو الذي أخبرنا الله به.

٥- بعض اليهود أميون عوام، لا علم لهم بحقيقة دينهم، وكل علمهم بدينهم ما هو إلا أكاذيب وظنون وأماني كاذبة منّاهم بها أحبارهم، أما الذي يستحقون اللوم والتوبيخ فهم أحبارهم وزعماؤهم المبدلون لدينهم، الذين غيروا من دينهم ما يبقي لهم الزعامة والرئاسة، وكل ذلك عرض قليل ومتاع زائل.

٦- يزعم اليهود أنهم أصحاب الجنة، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودات، وهذا كذب منهم على الله عزَّ وجلَّ، ودليل كذبهم أنه لا يوجد عندهم ما يدلُّ على أن الله أعطاهم عهداً بهذا القول الذي افتروه.

٧- أصحاب النار يَسعَوْن وراء اكتساب السيئات، وقد أكثروا من الخطايا حتى أحاطت بهم، وهم في النار خالدون، وأصحاب الجنة الخالدون فيها هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات.

النص القرآني السادس عشر من سورة البقرة
نقض بني إسرائيل عهودهم مع ربهم

أولاً: تقديم

حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص عن الميثاق الذي أخذه على بني إسرائيل، فقد أخذ الله عليهم ميثاقه بأن يعبدوه وحده لا شريك له، كما أخذ عليهم العهد بالإحسان إلى الوالدين وإلى ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأن يقولوا للناس حسناً، ويقيموا الصلاة ويُؤْتوا الزكاة، فلم يثبتوا على هذا الميثاق، وتولوا وهم معرضون، وأخذ عليهم الميثاق أن لا يؤذي بعضهم بعضاً، فسفك بعضهم دم بعض، وحارب بعضهم بعضاً، والتزموا بفداء أسراهم، فآمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعض.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ما أخذه الله على بني إسرائيل من مواثيق فرضها عليهم في أنفسهم:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - ببعض ما أخذه الله على اليهود من مواثيق، والميثاق كما يقول الراغب الأصفهاني: «عقد مؤكد بيمين وعهد» [المفردات: ص٥١٢].

والعهود التي ذكر الله أنه أخذها عليهم منها واجبات فرضها الله عليهم نحو ربهم تبارك وتعالى، وتتمثل هذه الواجبات في عبادته وحده لا شريك له، ومنها الإحسان إلى الوالدين، وإلى ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأن يقولوا للناس حسناً، وفرض عليهم تجاه ربهم أيضاً إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ

إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة:٨٣].

وأعظم هذه المواثيق هو عبادة الله وحده لا شريك له، وقد أخذ الله هذا الميثاق على كل رسول بعثه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. وأخذ عليهم الميثاق بأن يحسن كل إنسان إلى والديه، فحقُّ الوالدين يأتي بعد حق الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

وأخذ عليهم الميثاق بأن يحسنوا إلى ذوي قرباهم، واليتامى، واليتيم من مات والده وهو صغير، وأخذ عليهم الميثاق بأن يحسنوا إلى الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه، أو لا يكفي كسبهم لسدّ حاجتهم، وكل هذا الذي أمروا به هو من الإحسان الفعلي، وأمَرهم بعد ذلك بالإحسان القولي: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] أي: قولوا للناس أطيب الكلام، وبذلك يأخذون الإحسان من طرفيه: الفعلي والقولي.

وأعلمنا ربنا أنه فرض عليهم إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فالصلاة حق البدن، والزكاة حقُّ المال، ولا ندري كيف فرضت عليهم الصلاة، ولا مقدار المال الذي فرض عليهم إخراجه في الزكاة.

٢- عدم وفائهم بهذا الميثاق:

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن كثيراً من اليهود لم يفوا بهذه العهود التي أخذها ربهم عليهم في أنفسهم، فأعرضوا عنها إلا قليلاً منهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة:٨٣] وتوليهم إنما كان بإعراضهم عما أخذه عليهم من مواثيق، قال القرطبي: «الإعراض والتولي بمعنى واحد، مخالف بينهما في اللفظ» [تفسير القرطبي: ١/ ٤٤٢] والذين تولوا وأعرضوا هم أوائل اليهود الذين أخذ عليهم العهد، والمخاطبون في العهد النبوي هم سائرون على ما سار عليه المعرضون.

٣- أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بأن لا يسفك بعضهم دم بعض ولا يخرجون أنفسهم من ديارهم:

وأخذ الله على بني إسرائيل نوعاً آخر من الميثاق، وهذا الميثاق يحدد علاقة بني إسرائيل فيما بينهم، فقد أخذ عليهم أن لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يخرج أحد منهم إخوانه من ديارهم

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة:٨٤].

وإقرارهم يعني اعتراف يهود المدينة بأن هذا أخذ على آبائهم، وأنه لازم لهم كما هو لازم لآبائهم.

٤- نقضهم عهدهم مع الله تبارك وتعالى:

خاطب الله اليهود في العصر النبوي الذين نقضوا الميثاق الذي أخذه على آبائهم، فقد اقتتلوا فيما بينهم، كما فعلت بنو قريظة وبنو النضير، وعنى بأنفسهم إخوانهم في الدين، فإن الأخوة في الدين تجعل المجموع كنفس واحدة، وقد وصف رسولنا ﷺ المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد، فقال: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى» [البخاري: ٦٠١١، مسلم: ٢٥٨٦].

ومن نظر في تاريخ اليهود في المدينة المنورة علم مدى نقضهم للميثاق الذي أخذه الله عليهم، فقد قسموا أنفسهم فيما بينهم إلى قسمين، **الأول**: كانوا مع الأوس، وهم بنو قريظة، والفريق الثاني كانوا مع الخزرج، وهم بنو قينقاع وبنو النضير، فإذا قامت الحرب بين الأوس والخزرج انضم إلى كل فريق حلفاؤه من اليهود، وبذلك يقتتل اليهود في حومة الوَغى فيما بينهم، ويسفك بعضهم دم بعض، وإذا أخرج المنتصر المهزوم من دياره، أخرج اليهودَ حلفاءَ المهزومِ من ديارهم، فإذا كان فيهم أسرى، فإنهم يفتدون أسراهم، ويطلقون سراحهم، بدعوى أن الله أوجب عليهم ذلك، وبذلك وقعوا في تناقض بيِّن، ونقضوا الميثاق الذي أخذه الله عليهم، وقد عاب الله عليهم هذا في قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة:٨٥].

وقد وبَّخهم رب العزة على فعلهم هذا، وعدَّه إيماناً ببعض الكتاب وكفراً ببعض آخر، وما جزاء من يفعل هذا الفعل إلا خزي في الحياة الدنيا، وفي الآخرة يردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة:٨٥].

هذا الفريق فعل ما فعل إيثاراً للدنيا على الآخرة، فما فعل ما فعله مخالفاً ما فرض الله عليهم إلا رجاء تحصيل متع الدنيا وأهوائها وشهواتها وأموالها، ولذلك فإن مصيرهم إلى النار

وغضب الجبار، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦)﴾ [البقرة:٨٦].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل، ومن المواثيق التي أخذها الله عليهم ما ذكره الله في هذه الآيات، وهي عبادتهم الله وحده، والإحسان إلى الوالدين وأولي القربى واليتامى والمساكين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأخذ عليهم الميثاق بأن لا يؤذي بعضهم بعضاً.

٢- كل هذا الذي أخذه الله على بني إسرائيل فرضه الله على الأمة الإسلامية، وقد نصّ على هذه الفرائض مع زيادة في قوله: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦)﴾ [النساء:٣٦].

٣- نقض بنو إسرائيل عهودهم مع ربهم تبارك وتعالى، فتركوا كثيراً مما أُمروا به، وإذا كانت فيهم بقية تأخذ بعض الأحكام التي فرضت عليهم، فإنهم مذمومون لإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض.

٤- بعض هذه الأمة فَعَلَ فعل اليهود، فترك ما فرضه الله عليه، وقتل بعضهم بعضاً، وأخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، ولذلك ذلُّوا واستعلى عليهم أعداؤهم، وأخذوا ديارهم، وهضموا حقوقهم.

النص القرآني السابع عشر من سورة البقرة
كلما جاء بني إسرائيل رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا

أولاً: تقديم

كشف لنا ربنا في آيات هذا النص الكريم أن وراء تصرفات بني إسرائيل الحمقاء الرعناء هوى النفوس الجامح، والحسد الفاضح، وهذا الهوى هو الذي قادهم إلى الاستكبار، وقتل الأنبياء والصالحين، والكفر بالرسول الخاتم ﷺ، والكتاب المنزل عليه من عند الله، وقد أعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أن البغي والحسد للمسلمين هو الذي جعلهم يكفرون برسولنا وكتابنا، لأن هذا الرسول جاء من غيرهم.

فالقضية عندهم ليست قضية حقٍّ وعدل وصواب، بل قضية هوى متجذر متعمق، وهذا الصنف لا ينفع معه الحجاج، ومصير هؤلاء النار وغضب الجبار.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - إيتاء الله موسى الكتاب والتقفية عليه بالرسل:

أعلمنا ربنا في الآية الأولى من آيات هذا النص أنه آتى موسى عليه السلام الكتاب، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [البقرة:٨٧] والكتاب الذي آتاه إياه التوراة، وهو كتاب عظيم، جعله كتاب هداية لبني إسرائيل.

وقفا على موسى عليه السلام بالرسل ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ [البقرة:٨٧] والتقفية الإتباع والإرداف، مأخوذة من القفا، وهو مؤخر العنق، والرسل الذين قفا بهم كثيرون مثل: هارون، وداود وسليمان وغيرهم.

٢- إيتاء الله عيسى ابن مريم البينات وتأييده بروح القدس:

وأخبرنا ربنا - سبحانه وتعالى - أنه آتى عيسى ابن مريم البينات، والبينات هي المعجزات التي أيده بها، وأجراها على يديه، ومنها ما ذكره في سورة آل عمران ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩)﴾ [آل عمران:٤٩].

ومنها ما ذكره الله في سورة المائدة في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠)﴾ [المائدة:١١٠].

وأيد الله عيسى بروح القدس ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧] وروح القدس الذي أيد الله به عيسى هو جبريل عليه السلام، وهو الذي تمثل لمريم بشراً سوياً، وقال لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩)﴾ [مريم:١٩] وهو الذي نزل على قلب الرسول ﷺ بالقرآن ليكون من المنذرين، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

وهو الذي دعا رسولُ الله ﷺ ربَّه أن يؤيد به حسان بن ثابت في هجائه المشركين، فقد قال الرسول ﷺ: «يا حسان، أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس» [البخاري: ٤٥٣، مسلم: ٢٤٨٥].

وقال حسان بن ثابت ذاكراً أن جبريل روح القدس [فتح القدير للشوكاني: ١/ ٢٢٨]:

وجبريـــل أمـــين الله فينـــا وروح القـــدس لـــيس بـــه خفـــاء

٣- توبيخ الله بني إسرائيل على اتباعهم الهوى:

وبَّخ الله بني إسرائيل في قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

وأخبرنا ربنا – عزَّ وجلَّ – في هذه الآية أن من دَأْب اليهود اتباع أهواء نفوسهم، وقد أدَّى بهم الهوى إلى الاستكبار عن الحقِّ، وقوله: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ [البقرة:٨٧] أي: على خلاف ما تشتهيه أنفسكم.

والهوى المتبع على ما قاله الكلبي ونقله عنه ابن القيم: «اتباع مسافِل الأمور، وترك معاليها، وقال آخر: اختار الدنيا على الآخرة، وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه» [أعلام الموقعين: ١/ ٢٩٤] وهذه المعاني قريب بعضها من بعض، وبلغ بهم اتباع الهوى والاستكبار عن الحق إلى تكذيبهم الأنبياء كعيسى ومحمد عليهما السلام، وقتلهم طائفة أخرى كزكريا ويحيى عليهما السلام.

وقد حفظت لنا كتب السنّة وقائع عدة حاول فيها اليهود قتل رسولنا ﷺ في المدينة، وفي خيبر، فقد حاولوا أن يلقوا عليه حجراً عندما جاءَهم إلى ديارهم في المدينة مرة، وسحروه أخرى، وأهدوا له شاة مصلية مسمومة في خيبر، فأكل منها أحد أصحابه فمات، وأكل منها لقمة، فحفظه الله حتى أدى الرسالة، وما زالت تلك الأكلة تعاوده حتى قطعت أحد عروق قلبه، وهو الأبهر.

وقوله تعالى: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧] عبر بصيغة المضارع ﴿تَقْتُلُونَ﴾ لأن محاولتهم قتل الأنبياء لم تتوقف، وبقي هذا دأبهم مع رسولنا ﷺ، وهذه الآية فضحت اليهود، وهتكت سترهم، فلم يكن رفضهم الإيمان برسولنا ﷺ بسبب استمساكهم بدينهم، واتباعهم لأنبيائهم، وإنما هو بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، ذلك أن توراتهم وكذلك أنبياؤهم يأمرونهم بمتابعة محمد ﷺ.

٤- دعوى بني إسرائيل أن الإيمان لا يصل إلى قلوبهم لكونها مغشاة:

ادعى اليهود أن قلوبهم مغشاة فلا يصل إليها نور القرآن ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة:٨٨] وهذه الآية كقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء:١٥٥].

والقلوب الغلفاء: القلوب المغشاة، التي لا ينفذ نور القرآن إليها، والسبب في عدم وصول نور القرآن إليها طبع الله عليها، ولعن الله أصحابها، ولذلك قلَّ أن يدخل أحد منهم في الإيمان، وسُمِّي القلب قلباً لكثرة تقلبه.

٥- السبب في عدم إيمانهم بالقرآن المنزل على محمد ﷺ:

كان المتوقع من بني إسرائيل أن يؤمنوا بالكتاب المنزل على رسولنا محمد ﷺ، لأنَّ الله تبارك وتعالى حدَّث بني إسرائيل في كتابهم التوراة عن هذا الكتاب، ولأن القرآن مصدق للتوراة، وقد كان اليهود يستنصرون على العرب قبل الإسلام بهذا الكتاب وبالرسول المنزل عليه، ويزعمون أنهم سيتبعونه بعد تنزله، فكفروا به بعد مجيئه، فكان هذا منهم عجباً ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة:٨٩].

قال ابن كثير: «كان اليهود من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب، يستنصرون بمجيئه على أعدائهم المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، كما قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم، قال: قالوا: فينا - والله - وفيهم، يعني: في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٨٩] قالوا: كنا علوناهم دهراً في الجاهلية، ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبياً يبعث الآن نتبعه، قد أظلَّ زمانه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله من قريش كفروا به، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة:٨٩]» [تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٨].

٦- كفر بني إسرائيل بالنبي الخاتم حسداً منهم للمسلمين:

ذمَّ اللهُ بني إسرائيل، لأنهم باعوا نصيبهم من الآخرة بعرض قريب من الدنيا، قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة:٩٠].

و(بئس) فعلٌ مُستوفي جميع الذم في لغة العرب، كما أن (نِعْمَ) فعل مستوفي جميع المدح، والاشتراء في الآية بمعنى البيع، والمعنى بئس ما باعوا به حظَّ أنفسهم حين اختاروا الكفر بما أنزل الله، وقوله: ﴿بَغْيًا﴾ أي: حسداً أن ينزل من فضله على من يشاء من عباده.

٧- المعنى المراد بقوله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن اليهود ﴿بَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة:٩٠] ومعنى ﴿بَآءُو﴾: رجعوا، وهذا الغضب هو من عند الله، وهو غضب مضاعف، غضب الله عليهم أولاً لكفرهم بعيسى وبالإنجيل الذي أنزل عليه، ثم كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزل عليه.

وقوله: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [البقرة:٩٠] أخبر الله أن للكافرين عذاباً مهيناً، وهو الخلود الأبدي السرمدي في دار البوار، بخلاف عذاب عصاة المؤمنين في النار، فإنه عقاب يطهرهم به، ثم يدخلهم الجنة. وقد أخبرنا رسول ﷺ عن شيء من العذاب المهين الذي يجريه الله على أمثال هؤلاء من بني إسرائيل، فقال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصَّغَار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم، يقال له: بُولَسُ، فتعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخَبال، عصارةِ أهلِ النار» [مسند أحمد: ١١/ ٢٦٠، ورقمه: ٦٦٧٧، وإسناده حسن].

٨- دعوى بني إسرائيل أنهم مؤمنون بكتابهم كافرون بما وراءه:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن بني إسرائيل عندما يؤمرون بأن يؤمنوا بما أنزل الله، يزعمون أنم يؤمنون بما أنزل الله عليهم، ويكفرون بغيره، استمساكاً منهم بالمنزل عليهم، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:٩١].

والمنزل إليهم التوراة، والذي وراء التوراة الإنجيل والقرآن، ودعواهم كاذبة مضللة، فالتوراة تأمر بالإيمان بالقرآن، والقرآن نزل من عند الله حقاً، وهو مصدق لما معهم.

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم دعواهم الكاذبة، ويقول لهم: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة:٩١] يقول لهم: إذا كنتم صادقين في دعواكم، فلِمَ قتلتم أنبياء الله كزكريا ويحيى، وقد حاولوا قتل عيسى ومحمد ﷺ، فحفظهما الله، ونجاهما.

٩- تأنيب الله بني إسرائيل لاتخاذهم العجل بعدما جاءهم موسى بالبينات:

جاء موسى عليه السلام قومه بالبينات، أي: الآيات البينات، والدلائل الواضحات، ومن هذه الآيات الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف:١٣٣] ومن تلك الآيات إنزال التوراة والعصا التي تتحول إلى ثعبان مبين، واليد التي تصبح بيضاء للناظرين، وبعد تلك الآيات كلها اتخذوا العجل إلهاً من دون الله، اتخذوه وكانوا ظالمين، ﴿ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [البقرة:٩٢]. والظلم في الآية هو الكفر والشرك.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يدَّعي بنو إسرائيل عندما يدعون إلى الإيمان بمحمد ﷺ وما أنزل عليه أن لهم ديناً يستمسكون به، فأكذبهم الله في دعواهم هذه، وأعلمنا بأنَّ الذي حملهم على الكفر بديننا هو اتباعهم الهوى واستكبارهم عن الحق، فهذا هو الذي جعلهم يقتلون بعض الأنبياء، ويكذبون آخرين.

٢- ادَّعى بنو إسرائيل أن قلوبهم مغشاة، فلا يصل إليها الهدى والنور، ومراده من هذه الدعوى تيئيس المسلمين من إيمانهم.

٣- صبَّ اللهُ على بني إسرائيل غضبه مضاعفاً، لتعدد الكفر الذي أحدثوه، فقد كفروا بعيسى أولاً، وبمحمد ﷺ ثانياً.

٤- كفر اليهود بالقرآن كفر مستغرب متعجب منه، لأنَّ القرآن مذكور في كتابهم التوراة، موصوف فيه، ولأنَّ القرآن مصدق لما معهم، وقد كانوا يستفتحون على العرب في الجاهلية بالقرآن، ويزعمون أنه سينزل، وسيتبعوه، وسيقاتلون العرب به، فلما نزل كفروا به، فكان أمرهم عجباً.

٥- آتى الله موسى عليه السلام آيات بينات مثل العصا، والجراد والقمل والضفادع والدم، وتظليل بني إسرائيل بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم في الصحراء، إلى غير ذلك من الآيات.

وكذلك آتى عيسى عليه السلام آيات بينات كثيرة ذكرتُ بعضها في تفسير الآيات.

٦- تمجيد روح القدس وهو جبريل عليه السلام، فقد أيَّد الله به عيسى عليه السلام، ونزل بالقرآن على قلب محمد ﷺ، وهو الذي نفخ الروح في آدم عليه السلام فأصبح حيّاً سميعاً بصيراً، ونفخ في مريم فحملت بعيسى عليه السلام.

٧- حسد اليهود للعرب أن جعل الله الرسالة الأخيرة فيهم، ومنهم اختار خاتم الرسل والأنبياء.

٨- من الجرائم الكبار التي ارتكبها بنو إسرائيل بعدما أنزل إليهم التوراة هدى ونور اتخاذهم العجل إلهاً من دون الله.

النص القرآني الثامن عشر من سورة البقرة
كذب دعوى بني إسرائيل أن الدار الآخرة لهم من دون الناس

أولاً: تقديم

تكشف آيات هذا النص النفسية اليهودية المريضة، فقد أخذ الله على بني إسرائيل الميثاق فرفضوه، فرفع فوقهم الطور آمراً إياهم بأخذ الميثاق، فسمعوا بآذانهم وعصت قلوبهم، وأُشرِبت قلوبهم حبَّ العجل الذي عبدوه من دون الله.

وكشف الله كذب دعواهم أنهم أهل الآخرة دون الناس، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وطالبهم إن كانوا صادقين فيما يدَّعونه، أن يتمنوا الموت، وأخبر أنهم لن يتمنوه، فظهر كذبهم، وأخبر عنهم أنهم حريصون على الحياة أعظم الحرص، وأن الواحد منهم يتمنى أن يعيش ألف سنة، ومع ذلك فإن طول عمره لا ينجيه من العذاب، وكشف الله نفسيتهم المريضة بدعواهم أن عدم إيمانهم سببه أن الذي يأتي بالوحي إلى رسولنا هو جبريل، وهو عدوهم، فلو جاء به ميكائيل لقبلوه، وتلك فرية كبيرة أرادوا بها ستر عيوبهم، وكذبهم واضح ليس به خفاء.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة البقرة

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير هذا النص من القرآن

١- رفض بنو إسرائيل الميثاق فرفع الله الطور فوقهم كأنه غمامة:

أمر الله بني إسرائيل أن يأخذوا الميثاق فأبوا، فرفع الله الطور وهو الجبل فوقهم كأنه غمامة، وأمرهم أن يأخذوا التوراة التي أنزلها على نبيه موسى عليه السلام، فيعملوا بما أمرهم به،

وينتهوا عما نهاهم عنه، وأن يطيعوا ربهم في ذلك، وإلا سقط الطور فوق رؤوسهم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ [البقرة:٩٣].

وقوله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة:٩٣] أمرهم أن يأخذوا شريعة التوراة بقوة، والقوة تتمثل في العزم على فعل المأمور به، والنشاط والجد في التنفيذ، والمراد بالسماع في قوله: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ [البقرة:٩٣] أي: سماع القبول، مع الفقه والتنفيذ، فاستمعوا بآذانهم، وعصت قلوبهم ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣] والآية صريحة في الدلالة على أنهم سمعوا ما شَرَع لهم ربُّهم بآذانهم، وأبت قلوبهم قبوله وتنفيذه.

وقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣] أي: أشربوا حبَّ العجل، وموضع المحبة القلب، وكان ذلك في القوم الذين عبدوا العجل، وقت عبادتهم إياه، وهذا يدلُّ على مدى محبة أولئك الأقوام للعجل المصنوع من الذهب، والفقيه بدينه يعلم أن أفعال الشرك والكفر والذنوب والمعاصي تنغرس في قلوب القائمين بها، وتترك آثارها فيها، ففي الحديث عن حذيفة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «تُعرَض الفتنُ على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيُّ قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مُرْباداً، كالكوز مُجَخِّياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أُشرِب من هواه» [مسلم: ١٤٤] [مُرْباداً من الرُّبْدَة: لون بين السواد والغبرة، والمُجَخِّي: المائل عن الاستقامة والاعتدال].

ففي الحديث أن القلوب تشرب الفتن، وأنها تؤثر فيها، وينكت فيها بالبياض والسواد، حتى تصبح القلوب بيضاء كالصفا، أو أسود مِرْباداً، كالكوز مجخيا.

٢- ذمَّ الله إيمان اليهود الذي أمرهم بعبادة العجل وقتل الأنبياء:

وأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يوبخ اليهود قائلاً لهم: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٣] أي: بئس الشيء الذي يأمركم به إيمانكم من عبادة العجل، وقتل الأنبياء، وتكذيب الرسل، وكتمان الحق، ونحو ذلك، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٣] أي: بما زعمتم أنه أنزل عليكم.

٣- إظهار كذب بني إسرائيل في دعواهم أنهم أصحاب الجنة وأنهم أبناء الله وأحباؤه:

وناقش الحقُّ - تبارك وتعالى - اليهود فيما زعموه زوراً وبهتاناً أنهم أصحاب مكانة عالية عند ربهم، فقد زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ

وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨] وزعموا أنهم أصحاب الجنة دون الناس: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١٢].

وهذه المقالة المفتراة من اليهود كانت ولا تزال تبلبل الأذهان، وتوقع الناس في الحيرة، فكان لا بد من فضح القائلين بها، وإظهار حقيقتهم، وتكذيب مقالتهم، فأمر الله نبيه ﷺ أن يطلب من هذا الفريق الضال الذي يدعي أنه الأكمل والأفضل، أن يتمنى الموت وقال لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة:٩٤-٩٥].

طلب من الرسول ﷺ أن يطلب منهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين، وقبل أن يفعلوا أخبر أنهم لن يفعلوا، ولن يتمنوا الموت، فهم يعلمون أن محمداً وصحبه صادقون، وأنهم ضالون كاذبون مفترون، فكيف يتمنون الموت، وفي الموت وما بعده هلاكهم ودمارهم، ولكن هذا الطلب فضحهم، وكشف عوارهم وفريتهم، وبيّن أنهم كاذبون فيما ادعوه، وأن غايتهم من مقالتهم هو إيجاد العذر الذي يحفظ لهم ماء الوجه عند الناس، ولكن الله لا تخفى عليه خافية، فهو عليم بمدى ظلمهم وتعنتهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة:٩٥].

وقد صح عن ابن عباس ﷺ أن اليهود عندما قال الله لهم: تمنوا الموت أنّهم «لو تمنوه لماتوا» [تفسير عبدالرزاق: ١/ ٢٨١، الحديث رقم (٩١)، مسند أحمد: ٤/ ٩٨ الحديث رقم (٢٢٢٥)، وقال محققوه: صحيح].

٤- السبب في عدم تمني اليهود الموت:

كشف الله - تبارك وتعالى - لنا عن طبيعة النفس اليهودية التي تمنعهم من تمني الموت في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة:٩٦].

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه يمنع اليهود من تمني الموت شدةُ حرصهم على الحياة، فهم أحرص الناس على حياة، وهم في ذلك أحرص من الذين أشركوا، وقد كان المشركون من الفرس يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة أو عشرة آلاف سنة، وهو إن عُمِّرَ هذا العمر الطويل فلن يزحزحه من العذاب الأخروي، وإنما كان حرص اليهود على الدنيا أشد من حرص المشركين، لأن المشرك لا يعتقد أن بعد الموت حساباً وجزاءً بخلاف اليهود الذين يعلمون ذلك ويعتقدونه.

وقوله في ختام الآية: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [البقرة:٩٦] البصير: العالم بالشيء الخبير به.

٥- دعوى اليهود أن الذي يمنعهم من الإيمان أن الملك الذي يأتي محمداً هو جبريل:

أمر الله - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ أن يخاطب اليهود بقوله: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٩٧ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾ [البقرة:٩٧-٩٨]. قال الشوكاني رحمه الله: «أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت في اليهود، قال ابن جرير: وأجمع أهل التأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً على اليهود إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم» [فتح القدير: ١/ ٢٣٧].

وخلاصة ما قيل في تفسير الآيتين: أن اليهود تذرعوا لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ أن الذي يأتيه بالوحي هو جبريل، وهو الملك الذي يأتي بالشدة والغلظة وسفك الدماء، وفي صحيح البخاري عن أنس أن الرسول ﷺ قدم المدينة، فسمع به عبدالله بن سلام، فجاءه، وسأله عن ثلاث، فقال له: «أخبرني بهن جبريل آنفاً» قال عبدالله: جبريل، قال: «نعم» قال: ذلك عدو اليهود من الملائكة. فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٩٧] [البخاري: ٤٤٨٠].

وقد قالت اليهود لعمر بن الخطاب: إن لهم عدواً من الملائكة وسلماً من الملائكة، فعدوهم جبريل وسِلْمُهم ميكائيل، فقال لهم عمر: «وفيم عاديتم جبريل؟ وفيم سالمتم ميكائيل؟» قالوا: «إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا. وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفف، ونحو هذا» [ابن كثير: ١/ ٢٩٩].

إن هذا الذي اعتذر به اليهود فرية سخيفة يدارون بها كفرهم، فجبريل لا يتحرك، ولا ينزل، ولا يتصرف إلا بأمر الله ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ۝٦٤﴾ [مريم:٦٤].

٦- مكانة جبريل عليه السلام وفضله:

إن دعوى اليهود أنهم يعادون جبريل، ويوالون ميكائيل وإسرافيل دعوى باطلة، فالتفريق بين الملائكة برضاهم ببعضهم ومعاداة بعضهم، والتفريق بين الرسل بإيمانهم ببعضهم، وكفرهم بآخرين، نظرية باطلة، بعيدة عن الصواب ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة:٩٧-٩٨].

إن التفريق بين الملائكة بموالاة بعضهم ومعاداة بعض ضلال، فمن عادى جبريل فقد عادى الله وميكائيل وإسرافيل والأنبياء جميعاً، ومن كفر بواحد من الرسل، فقد كذب الأنبياء جميعاً.

وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٩٧] هو كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] وقوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [البقرة:٩٧] أي: القرآن مصدق لما أنزل من الكتب وخاصة التوراة والإنجيل، وصرَّح الحقُّ - تبارك وتعالى - أن من عادى الله أو ملكاً أو نبياً فإنه كافر، والله يعادي الكافرين.

وقد كان الرسول ﷺ يفتتح صلاته من الليل إذا قام بقوله: «اللهمَّ رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» [مسلم: ٧٧٠]. وحكى البخاري عن عكرمة أنه قال: «جبر، وميك، وسَرافِ: عبد، وإيل الله» [البخاري تعليقاً قبل الحديث: ٤٤٨٠].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذم الله بني إسرائيل بنقضهم ميثاقهم مع ربهم، وعصيانهم لما أخذه عليهم فيما أمرهم به ونهاهم عنه، ومن ذلك كفرهم بالنبي الخاتم.

٢- ذمّ الله اليهود الذين عبدوا العجل من دون الله، وبلغ بهم الحال إلى أن أشربوا محبته في قلوبهم عندما عبدوه.

٣- فضح الله اليهود الذين كانوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن لهم الجنة خالصة من دون الناس، وطالبهم إن كانوا صادقين فيما أخبروا به أن يتمنوا الموت، فظهر كذبهم، ولم يفعلوا ما طالبهم به رسولنا ﷺ .

٤- من آيات الله الدالة على صدق الرسول ﷺ أن الله أخبر أن اليهود لن يتمنوا الموت، وكان الأمر على النحو الذي أخبر به، فلم يتمنوا الموت الذي تحداهم به.

٥- كشف الله لنا عن طبيعة اليهود الخفية، فهؤلاء القوم أحرص الناس على حياة، مهما كان لونها، وحبهم للحياة يفوق حب المشركين لها، ولذلك فإنهم لا يستطيعون تمني الموت.

٦- قضى الحقُّ - تبارك وتعالى - على الفرية اليهودية التي تزعم أن السبب في عدم متابعتهم لمحمد ﷺ أن الذي يأتيه من الملائكة هو جبرائيل، وهو عدو اليهود من الملائكة، وهي فرية عظيمة، فجبريل هو الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام ، وعلى كل الأنبياء والمرسلين، ولا فرق بين جبريل وميكائيل وإسرافيل وبقية الملائكة، فمن عادى واحداً من الملائكة، فقد عادى كل الملائكة والرسل.

النص القرآني التاسع عشر من سورة البقرة
نبذ بني إسرائيل الكتاب وأخذهم السحر

أولاً: تقديم

لا يزال الحديث في هذا النص مستمراً مع بني إسرائيل الذين كفروا بالشريعة الخاتمة المنزلة، ونقضوا عهودهم مع ربهم التي أخذها عليهم، وكفروا بالرسول الخاتم الذي جاءَهم بالقرآن الذي يصدق التوراة، فنبذ اليهود هذا الكتاب الكريم وراء ظهورهم نبذهم للنواة، حالهم في ذلك حال الجهلاء الذين لا يعلمون، واستبدلوا الخير الطيب الذي جاءهم من عند الله باتباع السحر، وعكفوا على دراسة ما كانت تتلوه الشياطين على عهد ملك سليمان، وما أنزل على الملكين بمدينة بابل العراقية، ولو أنهم آمنوا بالله واتقوه لكان خيراً لهم وأفضل من متابعة السحر الذي يُعبِّدُهم للشيطان.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنزال الله آياته البينات على عبده ورسوله محمد ﷺ:

خاطب ربّ العزة - تبارك وتعالى - عبده ورسوله محمداً ﷺ ممتناً عليه بما أنزله عليه من آيات بينات، أي: واضحات، وبيّن أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون، أي: الخارجون عن طاعة الله ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [البقرة:٩٩].

«ومن تلك الآيات ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنون سرائرهم وأخبارهم، وأخبار أوائلهم، والنبأ عما تضمنته كتبتهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم» [تفسير ابن جرير: ١/ ٤٤٠].

والفاسقون: الخارجون عن طاعة الله وشرعه في كتابهم الذي أنزله عليهم، وهو التوراة، وفي كتابنا المنزل على نبينا وهو القرآن.

٢- نقض بني إسرائيل عهودهم التي أبرموها مع الله ومع عباد الله:

ذم الله بني إسرائيل في نقضهم عهودهم التي أبرموها مع الله ومع الناس ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة:١٠٠].

وقد شاهدنا في هذه الأيام أن اليهود في فلسطين أسرع الناس نقضاً للعهود، فكلما أجروا اتفاقاً بادروا إلى نقضه، بحيث أصبح هذا ديدنهم ودأبهم.

والواو في قوله: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ في أول الآية للعطف، دخلت عليها همزة الاستفهام، وقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة:١٠٠] وأصل النبذ الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط منبوذاً، لأنه مطروح ملقى به، وسمي النبيذ نبيذاً، لأنه زبيب أو تمر مطروح في إناء.

٣- كفر بني إسرائيل بالرسول الخاتم وكفرهم بالكتاب الذي أنزل عليه:

أخبرنا الله تبارك وتعالى أن بني إسرائيل لما جاءهم الرسول الخاتم من عند الله مصدق لما معهم كفروا به، وكفروا بالكتاب الذي أنزل عليه، وهو القرآن ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة:١٠١].

وفائدة تنكير ﴿رَسُولٌ﴾ في الآية التفخيم والتعظيم، أي: لما جاءهم رسول عظيم كريم، وهو رسولنا محمد ﷺ.

وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لرسول، أي: رسول كائن من عند الله، وقوله: ﴿مُصَدِّقٌ﴾ صفة أخرى للرسول.

ووجه كونه مصدقاً لما معهم أنه أخبر بصدق التوراة، وأنها منزلة من عند الله، وصَدَّق ما فيها من التوحيد وأصول الدين، وأخبار الأمم والمواعظ والحكم، وأظهر ما سألوه عن

غوامضها، وقيل: إن تصديقه للتوراة تحقق ببعثته على النعت الذي وصفته التوراة، فقد كان وجوده ونعته مطابقاً للأوصاف التي أخبرت التوراة بها، ولو لم يأت الرسول ﷺ على هذا النحو لكانت التوراة كاذبة، والصحيح أن كلا المعنيين صحيح مراد.

والمراد بـ «النبذ» في الآية الإعراض عما أمرهم به كتابهم من متابعة الرسول ﷺ والإيمان به، والعمل بالكتاب الذي جاء به، قال السدي: «نبذوا التوراة، وأخذوا بكتب آصف وسحر هاروت وماروت. وقال الشعبي: هو بين أيديهم يقرؤونه، ولكن نبذوا العمل به. وقال سفيان بن عيينة: أدرجوه في الحرير والديباج، وحَلَّوه بالذهب والفضة، ولم يُحِلِّوا حلاله، ولم يحرِّموا حرامه، ذلك النبذ» [القرطبي: ٢/ ٤١].

وقد شبّه الحقُّ - تبارك وتعالى - تركهم لكتابه وإعراضهم عنه بحال من يرمي الشيء الذي يُستخفُّ به وراء ظهره، يقول القرطبي: «وهذا مثل يضرب لمن استخف بالشيء فلا يعمل به، تقول العرب: اجعل هذا خلف ظهرك، ودبراً منك، وتحت قدمك، أي: اتركه وأعرض عنه، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود:٩٢]».

وفي هذه الآية ذم لليهود، وتقريع لهم، بسبب كفرهم بالرسول الخاتم المرسل من عند الله، المصدق لما معهم الذي يجدونه مكتوباً باسمه وصفاته، وكان المأمول أن يسارعوا إلى الإيمان به، ولكن الذي وقع خلاف ذلك، فقد سارعوا إلى التكذيب به.

٤- نبذ بنو إسرائيل القرآن وتعاطوا السحر:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن بني إسرائيل بعد نبذهم لما جاءهم من عند الله على رسول الله ﷺ اتبعوا السحر الذي كانت الشياطين تقصه على عهد ملك سليمان ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:١٠٢] وأتى بالفعل المضارع ﴿تَتْلُوا﴾ حكاية لما مضى، أي: ما تلته.

وقد بَرَّأ الله عبده ونبيه سليمان مما رمته به اليهود، فقد زعم اليهود أن سليمان كان ساحراً، وبالسحر دانت له الجن والإنس والطير، وسُخِّرت له الريح، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة:١٠٢].

٥- تعريف السحر وبيان أنواعه:

والسحر في لغة العرب «كل ما لطف مأخذه ودق» [القاموس المحيط: ص٥١٩] وجاء تعريفه في [المعجم الوسيط: ١/ ٤١٩]: «السحر كل أمر يخفى سببه، ويتخيل على غير حقيقته،

ويجري مجرى التمويه والخداع»، والصواب أن السحر في معناه الاصطلاحي يختلف تعريفه باختلاف أنواعه، وهي أربعة أنواع:

الأول: «سحر الخداع والتخييلات التي لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله بخفة يد» [المفردات للراغب الأصفهاني: ص٢٢٦] وقال القرطبي: «السحر أصله التمويه بالحيل والتخاييل» [القرطبي: ٢/ ٤٣].

الثاني: «استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه» [المفردات: ٢٢٦، لسان العرب: ٢/ ١٠٦] فالشيطان: يحمل الساحر، ويحلق به في الفضاء، ويقضي له حاجات يظنها الناس من المعجزات، ويضع في فمه أو يده ما يريده ويطلبه، ويُمرِض له من يريد إمراضه، ونحو ذلك.

الثالث: «اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع، فيجعل الإنسان حماراً» [المفردات: ص٢٢٦].

وهذا النوع وَهْمٌ لا حقيقة له، فالساحر وكذلك الشيطان لا يستطيع الواحد منهما أن يؤثر في الكواكب والنجوم، ولا يستطيع أن يغير طبيعة الإنسان أو الحيوان، وإن وقع مثل ذلك أمام الناس، فهو من فعل الشيطان فإنه يضع الإنسان بسرعة لا تدركها عين الإنسان في موضع الحيوان، أو الحيوان في موضع الإنسان.

الرابع: علم من شأنه أن يُكرِّه الزوجَ إلى زوجه، وقد يمرض الإنسان، وهو يتم من خلال تمتمات الساحر، ونفخه في العقد، واستعانته بالشيطان.

٦- للسحر الذي أخذ به اليهود مصدران:

بعد أن برّأ الله عبده ونبيه سليمان عليه السلام مما رمته به يهود، قرر أن للسحر الذي اتبعه اليهود مصدرين: **الأول**: ما تلته الشياطين على عهد ملك سليمان. **والثاني**: ما أنزله الله على الملكين هاروت وماروت بمدينة بابل. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢]. ومدينة (بابل) مدينة لا تزال بقاياها وآثارها وقصورها قائمة إلى اليوم في العراق، قرب نهر الفرات، وكانت قديماً على شاطئه، وكانت من أعظم مدن العالم في وقتها، وقد وصفها (هيروتس)[1] شيخ المؤرخين في عصره باتساعها، وكثرة علومها وفنونها، ومن هذه العلوم علم السحر والفلك.

(١) رحالة يوناني، عاش ما بين (٤٨٤-٤٢٥) قبل الميلاد.

ولا يزال للسحر وجود واضح في العراق على مر التاريخ، فقد ذكر بدر الدين الشبلي أن الإمام مالكاً بلغه أن عمر بن الخطاب أراد الخروج إلى العراق، فقال له كعب الأحبار: «لا تخرج يا أمير المؤمنين، فإن بها تسعة أعشار السحر والشر» وعزا بدر الدين هذا الخبر إلى مالك في موطئه [الموطأ، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في المشرق: ٢/ ٩٧٥، الحديث رقم: ٣٠]، وقد ذكر المؤرخون في بابل حكايات وأساطير وأخباراً مغرقة في الخيال [معجم البلدان لياقوت: ١/ ٣٠٩].

و(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢] موصولة، على ما قرره ابن جرير الطبري، وهي معطوفة على (ما) في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: اتبع اليهود ما تتلوا الشياطين على عهد ملك سليمان، واتبعوا ما أنزل على الملكين، ويصحُّ أيضاً أن تكون معطوفة على السحر، والمعنى: الشياطين يعلمون الناس السحر، ويعلمونهم ما أنزل على الملكين [راجع: ابن جرير: ١/ ٤٥٩].

وهذا النص، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢] وفق ما ذهب إليه ابن جرير الطبري وكثير من المفسرين يدل صراحة على أن الله أنزل السحر على ملكين بمدينة بابل فتنةً وابتلاءً واختباراً للناس.

٧- الدليل على أن هاروت وماروت كانا ملكين:

والدليل على أن هاروت وماروت كانا ملكين أنهما كانا إذا جاءهم بعض الناس يريد تعلم السحر ينصحانه بعدم تعلمه، ويخبرانه أن تعلمه كفر، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢] فلو كانا شيطانين لما نصحا العباد، فالشيطان لا يكون ناصحاً أبداً.

٨- الحكمة من وراء تكليف الله الملكين بتعليم الناس السحر:

لعل الحكمة من وراء تعليم الملكين الناس السحر في ذلك الزمان تنبيه الناس إلى أن السحر ليس بالشيء العظيم الذي لا يناله إلا الخاصة وأصحاب العقول، كما كان كثير من الناس يظن، فقد أقام الله الملكين يعلمان الناس السحر ويقولان لهم: كلٌ واحد يستطيع أن يكون ساحراً، ولكننا نحذركم من السحر، فإن السحر كفر، يجلب غضب الله.

فإن قيل: وكيف نزل الكفر على الملكين؟ وهم يفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، فأنى يصحُّ أن يتكلموا بالكفر ويعلّموه؟

والجواب أن الملكين ليسا بعاصيين في حال تعليمهما الناس السحر، بل هما مطيعان الله، ذلك أنهما مكلفان بهذا من الله تعالى ابتلاءً واختباراً من الله لعباده.

والفتنة: الابتلاء والاختبار، ومنه قولهم: فتنت الذهب بالنار، إذا امتحنته لتعرف جودته من رداءته.

٩- لا يجوز لأحد أن يتعلم السحر ويعلمه مدعياً أنه يقتدي بالملكين:

ولا يجوز لأحد أن يتعلم السحر ويعلمه مدعياً أنه يقتدي بالملكين في ذلك، فإن الله كلّف الملكين بما يقومان به من التعليم، ونهى عباده عن تعلمه، وبهذا نكشف عن الزور الذي يقوم به بعض الدجالين من السحرة، الذين يوهمون الناس أنهم روحانيون مقتدون بهاروت وماروت حيث يقولون للناس الذين يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض: نوصيك بألا تكتب هذا لجلب امرأة متزوجة إلى حب رجل غير زوجها؟ وألا تكتب لأحد الزوجين بأن يبغض الآخر؟ وبأن تخصّ هذه الفوائد بالمصلحة كالحب بين الزوجين المتباغضين، والتفريق بين العاشقين الفاسقين، وإنما يقولون هذا ليوهموا الناس أن علومهم إلهية، وأن صناعتهم روحانية، وأنهم صحيحو النية [مختصر تفسير المنار: ١/ ٨٣].

١٠- عدم صحة ما ورد في كتب التفسير من إسرائيليات في هاروت وماروت:

وقد ورد في قصة هاروت وماروت كثير من الأحاديث[١] والآثار محصلها أن هاروت وماروت ملكان أهبطا إلى الأرض، وسبب ذلك أن الله تعالى لما أطلع الملائكة على معاصي بني آدم عجبوا من معصيتهم له مع كثرة أنعمه عليهم، فقال الله تعالى لهم: أما إنكم لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم.

فقالوا: سبحانك ما ينبغي لنا.

فأمرهم الله أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض، وأحلّ لهما كل شيء، على أن لا يشركا بالله شيئاً، ولا يسرقا ولا يزنيا، ولا يشربا الخمر، ولا يقتلا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فعرضت لهما امرأة - وكانا يحكمان بين الناس - تخاصم زوجها، واسمها بالعربية الزهرة، وبالفارسية فندرخت، فوقعت في أنفسهما، فطلباها، فامتنعت عليهما إلا أن يعبدا صنماً، ويشربا الخمر، فشربا الخمر، وعبدا الصنم، وواقعاها، وقتلا سابلاً مرَّ بهما خافا أن يشهر أمرهما، وعلماها الكلام الذي إذا تكلم به المتكلم عرج به إلى السماء، فتكلمت وعرجت، ثم نسيت ما إذا تكلمت به نزلت، فمُسخت كوكباً.

(١) منها ما رواه أحمد في مسنده: (٦١٧٨) وهو حديث ضعيف السند باطل المتن.

قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي هبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه، فتعجب الملائكة من ذلك، ثم لم يقدر هاروت وماروت على الصعود إلى السماء، فكانا يعلمان السحر [تفسير الماوردي: ١/ ١٤٢].

وهذه القصة التي يذكرها المفسرون عند هذه الآية غير صحيحة، يقول القاضي عياض: «وإن ما ذكره أهل الأخبار، ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت، وما روي عن علي وابن عباس - رضي الله عنهما - في تأويلها فاعلم - أكرمك الله - أن هذه الأخبار لم يرو منها سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو شيئاً يؤخذ بالقياس، والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف، وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم، كما نصه الله تعالى أول الآيات» [تعليق محقق زاد المسير: ١/ ١٢٥].

ولله در ابن كثير حيث قال بعد سياقه للأحاديث والآثار الواردة في قصة هاروت وماروت: «وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال» [ابن كثير: ١/ ٢٤٨].

وقال أيضاً: «وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراودها عن نفسها فأبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلماها فقالت، فرُفعت كوكباً إلى السماء، فهذا من وضع الإسرائيليين، وإن كان أخرجه كعب الأحبار، وتلقاه عنه طائفة من السلف، فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل» [البداية والنهاية: ١/ ٣٧].

١١- معالجة المسحور:

حَلُّ السحر عن المسحور تسمى (النُّشْرَة)، **وهي نوعان**: حل سحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، فإنّ السحر مِن عَمَلِه، فيتقرب إليه الناشر والمنتشر بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور، ويحمل على هذا قول الحسن، «لا يحل السحر إلا ساحر»، وهذا النوع مذموم.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة، فهذا جائز، بل مستحب [أعلام الموقعين: ٦/ ٥٥٨].

والرقى كثيرة، فالقرآن كله رقية، وأفضله الفاتحة، وأوائل البقرة، وآية الكرسي، وخاتمة البقرة، وقل هو الله أحد، والمعوذتان، وفي الأحاديث النبوية الصحيحة رقى كثيرة.

١٢- السحرة لا يستطيعون إيقاع الضرر بالعباد إلا بإذن الله:

أخبرنا الحقُّ تبارك وتعالى أن الضرر الواقع من السحرة محدود مقيد بقيود، فهو داخل في مشيئة الله وقدرته ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:١٠٢]، فالسحرة قد يريدون إيقاع الضرر ببعض العباد، فلا يستطيعون.

١٣- تعلم السحر وتعليمه والعمل به حرام:

وتعلم السحر وتعليمه حرام، وكله ضرر ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ﴾ [البقرة:١٠٢] وهذا خبر صادق، ولا يجوز القول بما يقتضي مخالفته، فبعض الناس يقول: تعلموا السحر، ولا تعملوا به، وهذا قول باطل، فتعلمه وتعليمه كله حرام.

وأعلمنا ربنا في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة:١٠٢] أعلمنا أن بني إسرائيل يَعْلمونَ بما عندهم في كتابهم أن من اشترى السحر، أي: تعلمه وعلَّمه وأخذ به تاركاً الهدي الإلهي الرباني المنزل من عند الله ما له في الآخرة من خلاق، والخلاق: النصيب، وأكَّد هذا المعنى عندما ذم الذين شروا أنفسهم بالسحر لو كان عندهم عقل لردعهم وجلب لهم المصالح ودفع عنهم المفاسد.

ويدل على حرمة تعلم السحر وتعليمه أن الساحر لا يصبح ساحراً إلا إذا باع نفسه للشيطان، وتخلى عن هدي الرحمن.

١٤- الفرق بين السحر والمعجزة:

والسحر يخالف المعجزة ويضادها، فالمعجزة هبة إلهية ربانية، ليس للتعليم فيها دور، والسحر صنعة شيطانية فاسدة، يفرق الساحر بالسحر الذي تعلمه بين المرء وزوجه، وهو علم باطل مكتسب، يظهر على يد الفساق.

وتحدَّث الله عن السحرة من بني إسرائيل فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة:١٠٣] أي: لو أنهم آمنوا بالله ورسله، واتقوا محارم الله، لحصلوا الثواب العظيم والأجر الجزيل.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أنزل الله على عبده ورسوله ﷺ الآيات البينات، وأعظمها القرآن الكريم، ومن كفر بها فهو فاسق خارج عن طاعة الله.

٢- ذم الله بني إسرائيل لكثرة نقضهم عهودهم مع ربهم، ونقضهم عهودهم مع عباده.

٣- الرسول الخاتم ﷺ مرسل إلى بني إسرائيل كما هو مرسل إلى الناس جميعاً، وقد جاءَهم بما يُصدِّقُ التوراة، فكفروا به ورفضوا اتباعه، واتبعوا الشياطين.

٤- ذمَّ الله بني إسرائيل لتركهم ما أنزل من عند الله واتباعهم للسحر الذي جاءَتهم به الشياطين.

٥- تبرئة نبي الله سليمان ﷺ مما رمته به اليهود، فقد زعموا أنَّ سليمان إنما سخرت له الريح، وسخر له الإنس والجن بالسحر، والذي قرره ربُّ العزة أن هذا التسخير تسخير إلهي رباني، ولذلك قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة:١٠٢].

٦- أصل السحر ومصدره أصل خبيث، وأخبرنا ربنا أن سحر اليهود له أصلان: **الأول**: ما قصته الشياطين على عهد ملك سليمان. **والثاني**: ما أنزل على الملكين ببابل، وكان الملكان يقولان لمن أراد تعلم السحر: لا تكفر بتعلمه.

٧- كان للسحرة قديماً مكانة عظيمة، فأنزل الله ملكين وأنزل معهما السحر، وطلب منهما تعليمه للناس، بعد أن يبينا لهم بأن تعلمه كفر، فالذي يصرُّ على تعلمه يعلمانه إياه، ليدلَّ الناس على أن كل واحد يستطيع تعلّمه، وليس هو قصراً على الأذكياء.

٨- وردت روايات إسرائيلية خلطت الحق بالباطل، رواها المؤرخون والمفسرون، وكان الواجب اجتنابها وعدم تفسير القرآن بها، فليس لها سند صحيح.

٩- السحر نوعان: نوع حيل وخزعبلات وخفة يد، ونوع حقيقي، قد يفرق الساحر به بين المرء وزوجه، وقد يمرض الذي سُحر، وقد يشوش عليه قلبه وعقله، وقد نصّ الله على أن الساحر قد يستطيع التفريق بين المرء وزوجه، وصرح بأن السحرة يضرون المسحور إذا شاء الله لهم ذلك، وأمرنا في موضع آخر بالاستعاذة من النفاثات في العقد، ولو لم يكن له حقيقة لما أمرنا بذلك.

١٠- السحر وإن كان له حقيقة، فإنه محدود مقيد بقيود، فهو لا يستطيع أن يجعل الحمار قرداً، أو الإنسان دجاجة، فقد تحدى الله آلهة المشركين بأن يخلقوا ذباباً، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك، ولو اجتمعوا له.

١١ - السحر صنعة يمكن للبشر تعلُّمها، وهو مخالف للمعجزة، فعصا موسى كانت آية تتحول إلى أفعى من لحم ودم، والقرآن آية من عند الله لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها، والمعجزات للأنبياء والرسل، أما السحر فيمكن للأذكياء والأغبياء حيازته.

١٢ - العمل بالسحر حرام لا خلاف في تحريمه، وكذلك تعلُّم السحر وتعليمه حرام، ودليل ذلك من وجوه، **الأول**: إخبار الله أن الشياطين كفروا بتعليمهم الناس السحر. **الثاني**: قول الملكين لمن أراد تعلم السحر منهما: إنما نحن فتنة فلا تكفر بتعلمه. **الثالث**: إخبار الله تعالى أنهم يتعلمون ما يضرهم، ولا ينفعهم. **الرابع**: إخبار الله - عز وجل - أن الذي يصبح ساحراً ليس له في الآخرة من نصيب. **الخامس**: ذم الله الذين شَرَوْا أنفسهم بالسحر.

١٣ - الساحر الحقيقي لا يستطيع أن يرتقي في سحره ما لم يُعَبِّدْ نفسه للشيطان، فكلما ارتقى في العبودية للشيطان ارتقى في السحر، ولذلك فإن الساحر تتدنس نفسه الخبيثة بالفساد، وتتعاظم عنده الرغبة في الإيذاء.

١٤ - ذهب الإمام مالك إلى أن الساحر الذي يسحر بنفسه بكلام كفر، يُقتَلُ ولا يستتاب، ولا تقبل توبته، وهذا قول أحمد وأبي ثور وإسحاق والشافعي وأبي حنيفة، وروي قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى [القرطبي: ٢/ ٤٧] وخالف بعض أهل العلم في جواز قتله.

١٥ - الوقاية من السحر والشفاء منه تكون بالآيات القرآنية، والرقى الشرعية الثابتة في الأحاديث النبوية، ومن أنفع ذلك قراءة الفاتحة وآية الكرسي، والآيتان من آخر البقرة، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١] والمعوذتان، وكل القرآن نافع في دفع السحر، وإزالة أثره.

النص القرآني المتمم للعشرين من سورة البقرة
كيد بني إسرائيل للرسول ﷺ وأصحابه

أولاً: تقديم

كشف الله - تبارك وتعالى - عن النفسية اليهودية التي تغلغل فيها الشر، فإذا قلوبها تفيض كراهية وبغضاً للرسول ﷺ وأصحابه، وبلغ بهم الحقد إلى تحريف بعض ما يخاطبون به الرسول ﷺ ليكون سبّاً وشتماً، وأكل الحقد قلوبهم لما أنزله الله من خير على هذه الأمة، وادَّعوا - كاذبين - أن شريعتهم غير قابلة للنسخ، فردّ الله شبهتهم وبيّن عوار مقالتهم.

وأعلمنا الله أن بني إسرائيل يَوَدُّون أن يردونا بعد إيماننا كافرين حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وقد أمرنا ربنا أن نعفو ونصفح تجاه ما يقومون به من تصرفات حمقاء، ونشتغل بالصلاة والزكاة وأعمال الخير، والتي سنجد بركتها عندما نلقى الله في يوم الدين.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٠﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - النداء الأول في القرآن بلفظ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾:

كثر في القرآن نداء الله صحابة الرسول ﷺ ، والذين دخلوا في الإسلام من بعدهم بلفظ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة:١٠٤].

والآية الأولى من هذا النص ابتدأها الله - تبارك وتعالى - بهذا النداء، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة:١٠٤].

وأول نداء نادى به ربُّ العزة في هذه السورة، هو نداؤه الناس عامة في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة:٢١] وقد أمر الله فيه الناس جميعاً بالقيام بالواجب الذي خلقهم له، وهو عبادة الله وحده.

والنداء الثاني نادى به بني إسرائيل في قوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة:٤٠] وقد ذكَّرهم الله بالنعم الجزيلة التي أنعم بها عليهم، وأمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم.

والنداء الثالث هو هذا النداء، الذي ينادي به المؤمنين معلماً إياهم أن يلتزموا الأدب في مخاطبة رسوله، بأن يقولوا: ﴿ٱنظُرْنَا ﴾ بدلاً من قولهم: ﴿رَٰعِنَا ﴾.

وقد نصح ابن مسعود ﷺ سامع هذه الكلمة أن يرعها سمعه حين يسمعها، فقال: «إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة:١٠٤] فارعها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تُنهى عنه» رواه البيهقي [قطف الأزهار: ١/ ٣٠٠].

٢- نهي الله صحابة رسوله أن يقولوا راعنا:

نهى الله عزَّ وجلَّ صحابة رسوله ﷺ أن يقولوا: ﴿رَٰعِنَا ﴾ للرسول ﷺ والمراد بهذه الكلمة في لغة العرب: راقبنا، وانتظرنا، وتأنَّ بنا، حتى نحفظ القرآن الذي تلوته علينا ونفقهه، وكانت هذه الكلمة سبّاً في لسان اليهود، فلما سمع اليهود المسلمين يقولونها للرسول ﷺ انتهزوا الفرصة، فخاطبوا بها الرسول يريدون شتمه ومسبّته.

قال القرطبي: «قال ابن عباس: كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ : راعنا، على جهة الطلب والرغبة، من المراعاة، أي: التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سبّاً، أي: اسمع لا سمعت، فاغتنموها، وقالوا: كنّا نسبه سرّاً، فالآن نسبه جهراً، فكانوا يخاطبون بها النبي ﷺ ، ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ، وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: عليكم لعنة الله، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه، فقالوا: أَوَلستم تقولونها؟! فنزلت الآية» [القرطبي: ١/ ٥٧].

٣- صفة الكلام الذي يصلح لمخاطبة الرسول ﷺ :

بعد أن نهى الله الصحابة عن مخاطبة الرسول ﷺ عن الكلام الذي دخل منه اليهود إلى سبّ الرسول ﷺ علّم الله صحابة رسوله أن يقولوا له: ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ [البقرة:١٠٤] ومعنى: ﴿ٱنظُرْنَا ﴾: أمهلنا، وانتظرنا، حتى نحفظ. ومعنى قوله: ﴿وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ أي: أحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله ﷺ ، ولا يكن سماعكم كسماع اليهود، حيث قالوا: سمعنا وعصينا.

وقوله في ختام الآية: ﴿ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة:١٠٤] أي: مؤلم موجع، فالله يعذب عذاباً لا يُعذِّبُ أحدٌ مثله، وهو عذاب النار.

ونظير هذه الآية ما ذكره الله في سورة النساء بشيء من التوسع في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء:٤٦] فأخبر أنهم يقولون: راعنا، يلوون ألسنتهم بها لتوافق مقاصدهم الخبيثة.

٤- كراهية اليهود والمشركين للخير الذي أنزله الله علينا:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الكفرة من اليهود والنصارى والمشركين يكرهون ما أنزل الله إلينا، والمراد به القرآن، وما أنزله الله على رسوله ﷺ في سنته، لأن هذا الذي أنزله الله علينا هو الذي جعل الله لنا به عزاً وذكراً، وبه جعلنا خير أمة أخرجت للناس، وبه أخرجنا به من الظلمات إلى النور ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ ﴾ [البقرة:١٠٥].

وأعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [البقرة:١٠٥] وقد خصّ الله بني إسرائيل فيما مضى برحمات كثيرة، وكذلك خصّ هذه الأمة برحمته العظمى المتمثلة بالقرآن المنزل، وأرسل إلينا خير رسله وأنبيائه، فهو الرحمة المهداة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧] وقوله - عزَّ وجلَّ - في خاتمة الآية: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [البقرة:١٠٥] أي: صاحب الفضل الذي لا يحصر بحدّ، ولا يدخل تحت عدّ، ففضله - سبحانه - واسع عظيم.

٥- ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها:

قرّر اللهُ - تبارك وتعالى - في قوله: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [البقرة:١٠٦] قرّر أنه ينسخ ما يشاء أن ينسخه من الشرائع التي أنزلها على عبده ورسوله محمد ﷺ، كما هو قادر على أن ينسيه ما يشاء إنساءَه إياه، وهو قادر على أن يأتي بخير مما نسخه أو أنساه إياه، أو يأتي بمثله، فمن المنسوخ الذي جاء الله بأفضل منه نسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان، ومثال الذي هو مثله نسخ الصلاة إلى بيت المقدس بالصلاة إلى المسجد الحرام.

والنسخ هو: «رفع الحكم بدليل شرعي متأخر» [ابن كثير: ١/ ٣٢٩].

وقوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ فيها قراءتان متواترتان، الأولى: (نَنْسَأْها) أي: نؤخرها، فلا ننسخها، والثانية: (نُنْسِها) من النسيان [راجع: ابن كثير: ١/ ٣٣٠].

وقد صحّ أن الرسول ﷺ كان ينزل عليه القرآن، ثم ينسيه الله إياه، قال ابن عباس: «كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة:١٠٦]» [ابن كثير: ١/ ٣٣٠].

وروى البخاري عن ابن عباس قال: قال عمر رضي الله عنه: «أقرؤنا أُبيّ، وأقضانا علي، وإنّا لندع من قول أُبيّ، وذلك أن أُبيّاً يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة:١٠٦]» [البخاري: ٤٨١ و٥٠٠٥].

٦- هذه الآية ردّ على اليهود في أن شريعتهم غير قابلة للنسخ:

وهذه الآية، وهي ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ [البقرة:١٠٦] ردٌّ على اليهود الذين زعموا كذباً وزوراً أن لا نسخ في الشرائع، فأكذبهم الله فيما ادعوه، وقرر الحقُّ سبحانه في هذه المسألة تقريراً ليس به خفاء.

والنسخ واقع بين الشرائع، فشريعة التوراة نسخت الشرائع من قبلها، والإنجيل نسخ بعض ما في التوراة من أحكام، والقرآن نسخ الله به شريعة التوراة وشريعة الإنجيل، وفي التوراة ذكر لما انتسخ من أحكام الشرائع السابقة، فآدم عليه السلام كان يزوج أولاده من بنيه، ثم نسخ ذلك، وأباح الله لرسوله نوح عليه السلام بعد خروجه من السفينة أكل كل الحيوانات، ثم نسخ حلَّ بعضها، وكان نكاح أخت الزوجة مباحاً لإسرائيل وبنيه، والعمل في يوم السبت كان جائزاً قبل نزول التوراة، ثم حرم الله في التوراة نكاح الأخت، وحرم العمل في يوم السبت،

وأمر الله بني إسرائيل بعد عبادتهم العجل أن يقتل بعضهم بعضاً، ثم رفع القتل عنهم، وأمر الله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، ثم نسخه قبل الفعل، ومواضع النسخ في شريعتنا كثيرة.

٧- وجه الرد على اليهود في إنكارهم النسخ:

والرد على اليهود في الآية أن النسخ داخل في قدرة الله سبحانه، والله يتصرف فينا وفي خلقه في السموات والأرض كما يشاء، فالجميع في ملكه، وتحت تصرفه، والذي يمنع الله من النسخ يحجر على رب العزة، وهذا جهل من العباد بخالقهم وفاطرهم، فهو - سبحانه - خالقنا والمتصرف فينا كما يشاء، يسعدنا ويشقينا، ويمرضنا ويشفينا، ويميتنا ثم يحيينا، ويحكم فينا بما شاء، فيحلّ ويحرم، ويأمر وينهى، فنحن في ملكه، وتحت تصرفه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة:١٠٦-١٠٧].

٨- أنكر اليهود النسخ ليحتجوا بذلك على عدم وجوب متابعتهم لرسولنا ﷺ:

واليهود إنما أنكروا النسخ ليجدوا لهم حجة في عدم متابعة الرسول ﷺ، وهذه دعوى باطلة، فالله نسخ بشريعة القرآن شريعة التوراة والإنجيل. وقد زعم اليهود أن النسخ باطل، لأنه يستلزم البداء، وهو الظهور بعد الخفاء، يقولون: لو وجد النسخ، فإن الله يكون خفي عليه الأمر، فشرع حكماً، ثم ظهر لهم أن هذا الحكم باطل، فيغيره، ويبدله.

وهذا غير صحيح، فالله منذ شرع الحكم الأول، كان يعلم أنه سيغيره ويبدله بخلاف البشر الذين يخفى عليهم الحكم، فيشرعونه، ثم يظهر لهم أنه باطل، فيغيرونه.

٩- نهي الله المؤمنين عن سؤال رسولهم كما سئل موسى من قبل:

خاطب الله صحابة رسوله ﷺ منكراً عليهم أن يسألوا رسولهم كما سئل موسى من قبل ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة:١٠٨].

وفي القرآن عدد كبير من الآيات المتحدثة عن الأسئلة غير المرضية، منها قوله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] ومنها قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ [النساء:١٥٣] وفي صحيحي البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته» [البخاري: ١١٧٩،

مسلم: ١٨٣١] وفي صحيح مسلم: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم» [مسلم: ١٣٣٧].

وقد ذكر ابن كثير نقلاً عن ابن جرير عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حريملة، ووهب بن زيد: «يا محمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا الأنهار نتبعك ونصدّقك، فأنزل الله قوله: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [البقرة:١٠٨]» [ابن كثير: ١/ ٣٣٤].

وقال ابن كثير معقباً على ما سبق نقله: «والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى تعنتاً وتكذيباً وعناداً» [ابن كثير: ١/ ٣٣٤].

ومعنى ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ [البقرة:١٠٨] بل أتريدون، فـ (أم) هذه هي المنقطعة، ومعناها: بل، وهمزة الاستفهام، وهذا سؤال إنكاري، وهو موجه للمؤمنين وللكافرين.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة:١٠٨] أي: من يستبدل بالإيمان بالله ورسوله الكفر، فيرتد عن دينه، فقد ضلّ وحاد عن الصراط المستقيم.

١٠ - رغبة اليهود الشديدة في ردتنا عن ديننا حسداً لنا على ما أعطانا ربنا:

قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة:١٠٩].

حذرنا ربنا في هذه الآية من أهل الكتاب الذين يعملون على ردتنا عن ديننا، ومن هؤلاء الذين ظهرت عداوتهم في العهد النبوي، حيي بن أخطب، وأبو ياسر ابن أخطب، وكعب بن الأشرف، وأمثالهم كثير، فقد كانوا من أشد اليهود حسداً للعرب، وكانوا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام، وهم يفعلون ذلك بعد أن تبين لهم أن محمداً مبعوث من ربه، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ ﴾ [البقرة:١٠٩] ولكنه الحسد الذي زلزل قلوبهم، ومزّق نفوسهم، فقد كانوا يريدون أن يكون هذا الرسول منهم، وهاجروا إلى أرض العرب، ينتظرون خروجه، واتباعه، ومقاتلة العرب معه، فلما خرج من العرب كفروا به، وعادَوْه عالمين أنه رسول ربِّ العالمين، وقد أورد ابن حجر العسقلاني ما أخرجه الواحدي بإسناد صحيح أن الآية نزلت في المشركين واليهود من أهل المدينة، كانوا يؤذون النبي وأصحابه أشد الأذى، فأمرهم الله بالصبر والعفو [العجاب في بيان الأسباب: ص١٧١].

١١- أمر الله الرسول ﷺ وأصحابه بالعفو والصفح عن اليهود:

أمر الله الرسول ﷺ وأصحابه بالعفو والصفح عن اليهود إلى أن يحين الوقت الذي يأمرهم الله فيه بقتالهم ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٠٩].

وفي مرحلة تالية نسخ الله هذه الآية، وأمر المؤمنين بقتال اليهود، فقاتلوهم وأخرجوهم من المدينة، ومن النصوص الآمرة بقتالهم قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩] وقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥]. ومعنى القدير في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة:١٠٩] القوي، القادر على الانتقام منهم أو هدايتهم.

١٢- أمر الله الرسول ﷺ وأصحابه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات:

أمر الله الرسول ﷺ وأصحابه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة:١١٠].

قال السيوطي: «لما أمر الله في الآية السابقة بالعفو والصفح عن اليهود عقّبه بالأمر بالصلاة والزكاة والحث على فعل الخير، تنبيهاً على أنه كما لزمهم صلاح غيرهم بالعفو والصفح، لزمهم صلاح أنفسهم بفعل الخير» [قطف الأزهار: ١/٣٠٦] وقوله: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٠] أي: تجدون أجره وثوابه، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة:١١٠] أي: بصير بأعمالكم، لا يخفى عليه كثيرها ولا قليلها.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كان اليهود يتقصدون إيذاء الرسول ﷺ وهم يعلمون أنه رسول الله، ومن ذلك مخاطبته بما لا يليق به من الكلام، وقد نهى الله صحابة رسوله ﷺ عن قولهم لرسولهم ﷺ ما يفتح الباب لليهود أن يقولوا ما قالوه.

٢- أمر الله صحابة رسوله ﷺ أن يسمعوا سماع قبول، وذلك بأن يسمعوا بآذانهم، فتفقه قلوبهم، وتنقاد جوارحهم للعمل، ولا يكونوا كاليهود الذين كانوا يسمعون بآذانهم وتأبى قلوبهم، ولا تنقاد جوارحهم.

٣- كان اليهود يمتلئون غيظاً وهم يرون ما ينزل الله من خير على رسولنا ﷺ وصحابته، والله سبحانه يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

٤- نسخ الله بالقرآن شريعة التوراة والإنجيل، ونسخ في الشرائع السابقة وفي شريعتنا بعض الأحكام ببعض.

٥- أنكر اليهود النسخ زعماً منهم أن شريعة التوراة لا تقبل النسخ، وزعماً منهم أن النسخ يلزم منه البداء، وهو ظهور الأمر بعد الخفاء، والله يتنزه عن ذلك، وهذا زعم كاذب، فالنسخ لا يستلزم البداء في حق الله، فالله عالم بأنه سينسخ هذه الأحكام.

٦- دلت هذه الآية على صحة قاعدة سدّ الذرائع، والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع في نفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع، ووجه الاستدلال بالآية أن قول: (راعنا) سب في لغة اليهود، فلما علم الله ذلك منهم منع المؤمنين من إطلاق هذا اللفظ، ومما يستدلُّ لهذه القاعدة به قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] فمنع من سبّ آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك.

ومن النصوص الدالة على صحة هذه القاعدة نهي الرسول ﷺ الرجل أن يسبَّ أبا الرجل، خشية أن يسب ذلك الرجل أباه، ففي الحديث أن الرسول ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم، يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسبُّ أمه، فيسب أمه [البخاري: ٥٩٧٣. ومسلم: ٩٠ واللفظ لمسلم] فجعل التعرض لسبّ الآباء كسبِّ الآباء، وقد أطال القرطبي في تقرير هذه القاعدة والاستدلال لها [القرطبي: ٢/ ٥٧-٦٠].

٧- بيّن الله تبارك وتعالى أن الرسول ﷺ قد ينسى ما أنزله الله إليه إذا شاء الله إنساءه ذلك ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] ولا خلاف بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى:٦] فقد تكفل لرسوله ﷺ في هذه الآية عدم نسيانه ما أنزله عليه إذا لم يرد الله إنساءه ذلك، وقد يعرض للرسول ﷺ شيء من النسيان البشري إذا كان الصحابة حفظوا ما بلغهم إياه، وقد روى أحمد في مسنده عن عبدالرحمن بن أبزى أن النبي ﷺ صلَّى في الفجر، فترك آية، فلما صلَّى قال: «أفي القوم أُبيُّ بنُ كعبٍ؟» قال أُبيٌّ: يا رسول الله نُسِخَتْ آيةُ كذا وكذا أو نَسِيتَها؟ قال: «نُسِّيتُها» [مسند أحمد: ١٥٣٦٥، وانظر أيضاً: ٢١١٤].

النص القرآني الحادي والعشرون من سورة البقرة
دعوى كل من اليهود والنصارى وعباد الأوثان أنه الأفضل

أولاً: تقديم

ادَّعى كلٌّ من اليهود والنصارى أنه الأفضل والأكمل، وادَّعى كل فريق أنه الذي يستحق جنة الله في الآخرة، وانتقص كلٌّ واحد من الفريقين الفريق الآخر، وادعى أن الفريق الآخر ليس على شيء، ومع أن الذين لا يعلمون وهم مشركو العرب لم يكونوا مؤمنين بالآخرة فإنهم كانوا يدعون مثل دعوى اليهود والنصارى، يعني أنهم الأكمل والأفضل.

وقد أكذب الله الفرقاء الثلاثة فيما ادعاه كلٌّ فريق منهم، وهي أماني باطلة ليس لها دليل قويم تقوم عليه، والصواب من القول: أن أهل الفضل الذين يستحقون الجنة هم الذين أسلموا وجوههم لله وحده لا شريك له، وسيحكم الله يوم القيامة بين الفرقاء المتنازعين، فيما ادعوه، وتنازعوا فيه.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- دعوى كل من اليهود والنصارى أنه صاحب الجنة دون غيره:

أخبرنا الله تبارك وتعالى أن كلاً من اليهود والنصارى ادعى أنه صاحب الجنة دون غيره ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة:١١١] والمعنى أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، وأخبرنا ربنا في سورة المائدة أن كل واحد من الفريقين ادَّعى أنهم أبناء الله وأحباؤه ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ﴾ [المائدة:١٨].

وقد أكذبهم الله جميعاً فيما ادعوه، فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة:١١١] أي: هذا الذي يدَّعونه أماني كاذبة يتمنونها على الله سبحانه، وليس عندهم على ما يزعمونه حجة ولا برهان، ولذلك فإنه طالبهم أن يأتوا ببرهان على ما ادعوه ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾ [البقرة:١١١]. والبرهان: الحجة والدليل، أي: هاتوا الدليل الدال على صدق ما تدعونه، ولا زلنا ننتظر منهم أن يأتوا بالدليل ولا دليل.

وأكذبهم الله مرة أخرى في سورة المائدة في دعوى كلٍّ منهم أنهم أبناء الله وأحباؤه فقال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾ [المائدة:١٨].

٢- أصحاب الجنة في حكم الله:

ثم بيّن الحقُّ - تبارك وتعالى - من يستحق الجنة فقال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾ [البقرة:١١٢] أي: الأمر ليس كما يدعيه هؤلاء كذباً وزوراً، فالمستحقُّ للجنة هو الذي أسلم وجهه لله - تبارك وتعالى - وهو محسن، وإسلام الوجه لله، توجيهه إليه سبحانه، وإذا انقاد الوجه لله انقاد الجسد كله، وخصّ الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان، ولأنه موضع الحواس.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: باتباعه ما جاءه من عند رسول الله ﷺ، والمراد به إخلاص الدين لله الواحد الأحد، وقد قرر أهل العلم أن العمل لا يقبل عند الله إلا بشرطين، **أحدهما**: أن يكون خالصاً لله وحده، **والثاني**: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل.

وعلى ذلك فالذين يعبدون الله بعد بعثة الرسول ﷺ على غير منهجه يجعل اللهُ أعمالَهم يوم القيامة هباءً منثوراً ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان:٢٣]، وجاء في الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم قول الرسول ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» [البخاري: ٢٦٩٧، مسلم: ١٧١٨] والذي يأتي بالعمل موافقاً للشريعة، ولكنه ليس بخالص لله فعمله أيضاً مردود، فإن الله أغنى الأغنياء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معه فيه غيره، تركه الله وشركه.

٣- دعوى كلٍّ من اليهود والنصارى ومشركي العرب أنه الأفضل:

تنازع كل من اليهود والنصارى الفضل فيما بينهم، فادعى كل منهم أنه الأفضل، ومع أن مشركي العرب ليس لهم كتاب، ولا يؤمنون باليوم الآخر، فإنهم ادعوا الدعوى نفسها،

وزعموا أنهم أصحاب الفضل والمنزلة العالية، وقد سمّاهم الله بالذين لا يعلمون في الآية التالية، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة:١١٣].

لقد اشتط كل فريق في رفض الطرف المقابل، فكلٌّ واحد من اليهود والنصارى يدعي أن الآخر ليس على شيء يعتدُّ به، بل إن هذه المقولة سرت إلى الطوائف المتنازعة من النصارى فيما بينهم، والطوائف المتنازعة من اليهود فيما بينهم، وادعى هذه الدعوى المشركون من العرب، وهم الذين لا يعلمون.

٤- قضاء الله وحكمه بين الفرقاء المتخاصمين في يوم القيامة:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه سيقضي يوم القيامة بين هؤلاء فيما اختلفوا فيه في دنياهم﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة:١١٣]. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج:١٧].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يدعي كل من اليهود والنصارى أن الجنة لهم دون غيرهم من الناس، وأعلمنا ربنا أن ذلك ظنون وتخرصات، وأمرنا أن نطالبهم بالدليل الدال على صدق دعواهم.

٢- عرّفنا ربنا - تبارك وتعالى - أن أصحاب الجنة هم الذين أسلموا وجوههم لله، وأتقنوا أعمالهم، فهؤلاء أهل الجنة المثابون عند ربهم الذين لا يخافون من الآتي، ولا يحزنون على الأهل والذرية.

٣- يدَّعي اليهود أنهم الأفضل دون غيرهم من الناس، ويدعي النصارى أيضاً أنهم هم الأفضل دون غيرهم، ويدعي الذين لا يعلمون وهم مشركو العرب أنهم هم الأفضل دون غيرهم، وكلهم ليسوا كذلك، فكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ وكتابه فهو كافر في نار جهنم، وقد أعلمنا ربنا أنه سيفصل يوم القيامة في هذه القضية التي اختلف فيها العباد، ويظهر الفريق الأفضل.

النص القرآني الثاني والعشرون من سورة البقرة
لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه

أولاً: تقديم

هذا النص حوى آيتين، قرر الله - تبارك وتعالى - في الأولى منهما أنه لا أحد أظلم ممن منع ذكر الله في مساجد الله، وسعى في خراب تلك المساجد، وهؤلاء يجب أن يحاربوا ويمنعوا من دخلوها إلا خائفين، ولهم في يوم القيامة عذاب عظيم.

وفي الآية الثانية أجاز الله للمسلمين أن يصلُّوا إلى أي جهة من الجهات في بعض الحالات، كصلاة النافلة في السفر على الدابة، والصلاة في القمر الصناعي، أو عندما يحط الإنسان رحاله على القمر، فالله له الجهات كلها، وهو واسع عليم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - مدى ظلم الذين يمنعون الناس من ذكر الله في مساجد الله:

قرَّر الله - تبارك وتعالى - أنه لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعى في خرابها ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ [البقرة:١١٤] ومنع الذِّكْر في المساجد، وتخريبها يمثل طغيان البشر تجاه الله ومساجده والعباد الذين يعبدونه فيها، وهذا الطغيان من البشر على هذا النحو ظلم عظيم، وقد وقع في الماضي، وهو واقع في الحاضر، وسيقع في المستقبل.

لقد خرّب نبوخذ نصّر المسجد الأقصى، وشرّد أهله وأَسَرهم، ومنع العبادة فيه، وأخرج كفارُ قريش الرسولَ ﷺ وأصحابه من مكة والمسجد الحرام، وقذّروا المسجد بالأصنام والكفر والشرك ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [التوبة:١٧]. وعندما توجه الرسول ﷺ وصحبه إلى مكة في عام الحديبية لأداء العمرة صدّهم الكفار، ومنعوهم من المسجد الحرام، وما كان

أحد يمنع منه ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ [الفتح:٢٥].

واستولى النصارى على بيت المقدس وعلى الديار التي حوله، فسفكوا دماء المسلمين في المسجد الأقصى، ومنعوا المسلمين من إعماره، وبقوا في القدس على هذه الحال قرابة مائة عام، حتى أخرجهم صلاح الدين، وحرَّر الأقصى والقدس من رجسهم.

واليوم يحتل اليهود الأقصى المبارك والقدس الشريف وما حوله من المدن والقرى في فلسطين، وهم يبذلون جهدهم في منع المسلمين من الصلاة في المسجد الأقصى، ويسعون إلى تدميره وتخريبه، وقد دمروا كثيراً من المساجد، وهدموها، وعطلوا كثيراً غيرها، وهجّروا أهلها، فأصبحت قفراً يباباً، وصيروا بعض المساجد مطاعم، أو مخازن، أو ملاعب، وقد اجتاحوا بعض المساجد، ومزقوا ما فيها من المصاحف، وضربوا المصلين، وأقاموا مذابح للمصلين في بعض المساجد، والمسلمون وحكامهم غافلون في ديار الإسلام عما يجري في أرض الإسراء، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

٢- على المسلمين أن يأخذوا على أيدي الظالمين المخربين لبيوت الله:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - كيف نعامل هؤلاء الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، ويسعون في تخريبها، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾ [البقرة:١١٤].

أرشد الله تبارك وتعالى المسلمين أن يأخذوا على أيدي هؤلاء الظالمين، وذلك بحربهم وقتالهم، وقمعهم وإذلالهم، فلا يطمعون بعد ذلك في دخول المساجد إلا أذلاء حقراء، كما فعل الرسول ﷺ وأصحابه بأهل مكة، فإنه لم يزل يحاربهم ويقاتلهم حتى أذلهم، وأخذ منهم المسجد الحرام، وأخذ منهم مكة، وطهَّرهما مما فيهما من الأوثان والأصنام.

وكذلك فعل صلاح الدين بالصليبيين، فإنه لم يزل يقاتلهم ويلاحقهم حتى أخذ منهم الأقصى، وحرّر القدس، فكانوا لا يدخلون الأقصى بعد ذلك إلا خائفين.

وعلى المسلمين اليوم أن يقاتلوا اليهود الذين يدنسون الأقصى، ويمنعون المسلمين من ذكر الله فيه، وهم جادون في تخريبه والإطاحة به، وعلينا أن نقاتلهم حتى نزيلهم عن الأرض المقدسة، ونطهر أرضها منهم، وإن ذلك لكائن بحول الله وقوته.

وقد توعد الله هؤلاء الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويخربونها بالعذاب العظيم في الآخرة، فهم أذلاء حقراء في الدنيا والآخرة.

٣- أينما تولوا فثمّ وجه الله:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:١١٥] أن الأرض كلها له سبحانه، له المشرق والمغرب وما بينهما، والله تبارك وتعالى فوق سماواته محيط بها سبحانه، فحيثما توجه المسلمون في صلاتهم فهناك وجه الله، وقد وجّه الله المسلمين إلى المسجد الأقصى في صلاتهم، ثم نسخ ذلك ووجههم إلى المسجد الحرام، وأباح لهم أن يصلوا النافلة على رواحلهم في السفر، لا يضرهم حيث توجهت بهم، وكذلك في الأحوال التي لا يعرفون فيها القبلة، أو لا يستطيعون التوجه إليها كالمريض الذي لا يستطيع التوجه إلى القبلة، والذي يركب القمر الصناعي محلقاً في الفضاء، أو يحط رحاله على القمر، فكل هؤلاء لا حرج عليهم أن يصلّوا إلى أي جهة من الجهات.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:١١٥] يقرر سبحانه أنه واسع، يوسع على عباده في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم، وقد وسع علم ربنا كل شيء ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨]. وقال الفراء: «الواسع: الجواد الذي يسع عطاؤه كلَّ شيء» [فتح القدير: ١/ ٢٥٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- المسجد كل بناء رُفع ليُعبد فيه الله - تبارك وتعالى - بالصلاة والذكر والاعتكاف وقراءة القرآن، وسمي مسجداً لأنه يُسجَد فيه لله تعالى.

٢- يجب تعظيم المساجد التي رفعت للعبادة وتوقيرها وتطهيرها، والذين يسعون في تخريب المساجد بإزالتها وتدميرها أو بمنع العبادة فيها هم أظلم الناس، وهؤلاء يجب أن يؤخذ على أيديهم في الدنيا، ولهم عذاب عظيم في الآخرة.

٣- خرَّب النصارى في الماضي مساجد الله، ومنها المسجد الأقصى عندما احتلوا ديارنا، واليهود يقومون بالدور نفسه اليوم، فقد هدموا وخربوا المئات من المساجد في فلسطين، وهم يحاولون هدم الأقصى وتدميره، ومنع العبادة فيه.

وهذه الآية عامة في كل من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعى في خرابها، كما ذهب إليه ابن العربي والقرطبي [أحكام القرآن لابن العربي: ١/ ٣٣، تفسير القرطبي: ٢/ ٧٧] خلافاً لمن جعلها خاصة بالنصارى أو مشركي العرب [ابن جرير الطبري: ١/ ٤٩٨].

٤- إضافة المساجد لله يقضي أنها للمسلمين جميعاً، فإذا بنى شخص مسجداً فإنه يخرج عن ملكيته، إلا إذا بناه في داره ومنع الناس من الصلاة فيه.

٥- أخذ بعض أهل العلم من الآية جواز حج المرأة الفريضة، إذا لم يكن معها محرم، وهذا ليس بصحيح، لأن الرسول ﷺ منعها من السفر فوق يوم وليلة من غير محرم.

٦- استدلّ الإمام مالك بهذه الآية على منع الكفار من دخول مساجد الله، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى جوازه في حال دخولهم إياها خائفين، وذهب الشافعي - وهو الأرجح - إلى منعهم من دخول المسجد الحرام دون غيره من المساجد.

٧- يجب على المسلم أن يتجه بصلاته إلى المسجد الحرام إذا استطاع التوجه إليه، فإذا لم يستطع التوجه إليه كالذي خفيت عليه القبلة لشدة الغيم، أو المأسور المقيد إلى غير القبلة، أو الذي يركب الطائرة لمسافات طويلة، أو الذي يركب القمر الصناعي، أو الذي يصلي فوق سطح القمر، أو الذي يصلي النافلة على دابته أو في سيارته، فهؤلاء جميعاً يصلون إلى أي جهة شاؤوا، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥].

وقد روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ كان يصلي سبحته حيثما توجهت به ناقته [مسلم: ٧٠٠ ومعنى سبحته: نافلته] وفي رواية عنه: «أن النبي ﷺ كان يصلي على راحلته حيث توجهت به» [مسلم: ٧٠٠].

وفي رواية ثالثة عنه: «كان رسول الله ﷺ يصلي، وهو مقبل من مكة إلى المدينة، على راحلته حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]» [مسلم: ٧٠٠]. والراحلة: الناقة التي كان يركبها.

وروى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبدالله: «أن النبي ﷺ كان يصلي على راحلته نحو المشرق، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل فاستقبل القبلة» [البخاري: ١٠٩٩].

وعن عامر بن ربيعة قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة، فصلى كلُّ رجل حيالَه، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزل ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]» [رواه الترمذي: ٣٤٥، ٢٩٥٧، ولابن ماجه نحوه: ١٠٢٠، ورواه ابن جرير والطيالسي في مسنده والبيهقي].

وقد ضعفه بعض العلماء، والذي حققه الشيخ ناصر الدين الألباني أنه يرقى إلى درجة الحسن بمجموع طرقه [إرواء الغليل: ١/ ٣٢٣].

النص القرآني الثالث والعشرون من سورة البقرة
تكذيب الله الذين ادعوا أنه اتخذ ولداً

أولاً: تقديم

أكذب الله في هذا النص الذين زعموا أن الله اتخذ ولداً، وساق الدليل الدال على كذبهم، وأخبرنا ربنا في الآية الأخيرة من هذا النص عن تعنت الكفرة المشركين من العرب فيما طلبوه من الآيات والدلائل، فتشابهت قلوبهم فيما اقترحوه مع قلوب الذين كفروا من قبل.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إبطال الله قول الذين زعموا أن الله اتخذ ولداً:

زعم كثير من الناس في القديم والحديث أن الله اتخذ ولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ﴾ [البقرة:١١٦] ومن هؤلاء اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، ومشركو العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله.

وقد نزّه الباري - عز وجل - نفسه عن هذه النقيصة الشنيعة، فقال: ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ ﴾ [البقرة:١١٦] والتسبيح: التنزيه لله عن كل النقائص والعيوب، وقد ورد في الحديث الصحيح أن نسبة الولد إلى الله مسبَّة للباري تبارك وتعالى، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إياي، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً» [البخاري: ٤٤٨٢].

وقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - بعظم جريمة الذين ادعوا هذه الدعوى فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ

﴿ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ [مريم:٨٨-٩١]. وجاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس أحد، أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولداً، وإنه ليعافيهم ويرزقهم» [البخاري: ٦٠٩٩، مسلم: ٢٨٠٤، واللفظ للبخاري].

٢- الدليل الدال على عدم صحة قول هؤلاء:

ردّ الله تبارك وتعالى على هذا الزعم الكاذب من الأمم السابقة والمعاصرة، قائلاً: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝١١٦﴾ [البقرة:١١٦].

أخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - في ردّه على من افترى هذه الفرية أنه سبحانه السيد العظيم الذي خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهما ملكه يصرفهما كيف يشاء، ومن جملة ما فيهما العزير وعيسى ابن مريم والملائكة وغيرهم مما نسبه الكفار إلى الله، وكلُّ السماوات والأرض وما فيهما قانت لله، أي: طائع خاضع لله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝٢٦﴾ [الروم:٢٦].

إن نسبة الولد إلى الله تنافي وحدانية الله تبارك وتعالى، فالله واحد في ذاته، وواحد في صفاته وأسمائه وأفعاله، ليس له مثيل، ولا شبيه، ولا نظير، ودعواهم أنّ الله اتخذ ولداً، تعني أن له صاحبة، ولو اتخذ ولداً لكان الولد جزءاً من أبيه، أي: لأصبح إلهاً معبوداً، وكلّ ذلك كذب وباطل من القول، وقد أنزل الله سورة عظيمة قررت الوحدانية والصمدية لله، ونفت عنه أن يكون له والد أو ولد، كما نفت عنه النظير والمثيل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص].

إن هذه الدعوى التي يدعيها الظالمون دعوى هزيلة، تجعل المخلوق المربوب المألوه جزءاً من الخالق العظيم، وسيظهر لهؤلاء كذبهم في يوم الدين عندما يسوق الله العباد جميعاً للحساب ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم:٩٣-٩٥] ومما يدلُّ على كذب من ادعى هذه الدعوى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ۝١٥﴾ [الرعد:١٥].

وأخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - في ردِّه على من ادعى هذه الفرية العظيمة أنه سبحانه وتعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ [البقرة:١١٧] والمراد بـ ﴿بَدِيعُ﴾ في قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧] أي: مكونها على غير

مثال سابق، ومن جملة ما كوَّنه وأبدعه ما جعلوه - كذباً وزوراً - ابناً لله تعالى، مثل العزير والمسيح والملائكة.

وأخبرنا تبارك وتعالى أن هؤلاء الذين نسبوهم إلى القهار الجبار خُلقوا كما خلق غيرهم، ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة:١١٧]، فالله إذا أراد إيجاد شيء فإنه يقول له كلمة واحدة، وهي ﴿كُن﴾ فيكون كما يريده الله رب العالمين.

فالله لا يعجزه شيء، ولا يستعصي عليه شيء، وكلُّ شيء أمره الله أن يكون، فإنه يكون كلمح البصر ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢] وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل:٤٠]. وقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر:٥٠] وقال مبيناً كيف خلق الله عيسى وآدم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران:٥٩].

٣- تعنتِ مشركي العرب فيما اشترطوه لإيمانهم:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - بما طلبه مشركو العرب كي يؤمنوا ويستجيبوا للرسول ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة:١١٨]. والذين لا يعلمون هم مشركو العرب، سموا بذلك لأنه ليس لهم كتاب مثل كتاب اليهود والنصارى، وقوله: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١١٨] أي: هلاّ يكلمنا الله، فـ (لولا) حرف تحضيض.

وقد أخبرنا الله - تبارك وتعالى - في مواضع أخرى عن آيات طلبوها، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

وهذه الآيات ونظائرها تدلُّ على عظيم كفر مشركي العرب، ومدى عُتوهم وعنادهم، وسؤالهم عما لا حاجة لهم به، وقد سأل اليهود الرسول ﷺ مثل هذه الأسئلة، كما قال: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] وقوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨] أي: تشابهت في التعنت والاقتراح، وفي الاتفاق على الكفر على هذا النحو.

وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝١١٨﴾ [البقرة:١١٨] يقول الله تعالى: وضَّحنا صدق رسولنا بما أنزلناه عليه من الآيات الصادقة كانشقاق القمر، وآيات القرآن، وفيها كفاية لمن اعترف بالحق، وأنصف في القول، وأذعن لأمر الله تعالى، وهذا هو الصنف الذي رزقه الله اليقين، وهداه إلى الحق.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- افترى اليهود والنصارى وعرب الجاهلية أعظم الكذب على الله تعالى عندما نسبوا الولد إلى الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

٢- الردُّ على هؤلاء الكذبة المفترين في غاية الوضوح لمن عقل، ورزق حسن التفكر في خلق الله تعالى، فالموجودات غير الله من السموات والأرض وما فيهما وما بينهما كلُّها مخلوقة لله الواحد الأحد، وكون الأشياء مخلوقة ينفي أن يكون منها شيء هو ولد لله سبحانه.

٣- تعنت مشركو العرب فيما يطلبونه كي يؤمنوا، فقد طلبوا أن يخاطبهم الله تعالى مكلماً إياهم، وطلب بعضهم أن ينزل الله عليه من السماء آية عظيمة، وهذه الطلبات التي طلبوها تشبه ما طلبه الذين من قبلهم، وخاصة بني إسرائيل، وهذا يدلُّ على تشابه قلوبهم، وقد كان يكفيهم ما أجراه الله على يدي رسوله من آيات.

٤- على المسلمين أن يُعرِّفوا أبناءَهم وإخوانهم بشبهات الخصوم وكيفية الردّ عليها.

٥- أخذ بعض أهل العلم من مثل هذه الآيات أن الرجل المسلم إذا ملك ابنه عبداً عتق عليه في الحال، لأن الآيات منعت اجتماع الولادة والملك.

النص القرآني الرابع والعشرون من سورة البقرة
لن يرضى عنا اليهود ولا النصارى حتى نتبع ملتهم

أولاً: تقديم

هذا النصُّ يصوّب مسار الأمة الإسلامية وبخاصة العلماء والدعاة منهم في عدة أمور:

الأول: أنَّ الدين الذي جاءنا من عند الله على يدي نبيّنا محمد بن عبدالله ﷺ وهو الإسلام، كلُّه حقٌّ وصدق، وعلينا إبلاغه للناس عن طريق التبشير والإنذار، فإن كفر الناس بعد ذلك فلا نسأل عن كفرهم.

الثاني: أن لا نهتم كثيراً لما يطلبه اليهود منا، فإنهم لن يرضوا عنا مهما قدَّمنا لهم، ولن يرضيهم عنا إلا كفرنا بديننا وردتنا عنه.

الثالث: الهدى هو من عند الله، وهو موجود في القرآن والسنّة النبوية، فالذين يطلبون الهدى من عند الكفار كاليهود والنصارى ضالون.

الرابع: ثناء ربِّ العزة على المؤمنين بالقرآن لأنهم يحكِّمونه في حياتهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مهمة الرسول ﷺ التبشير والإنذار بهذا الدين:

أخبر الله - تبارك وتعالى - عبده ورسوله محمداً ﷺ في الآية الأولى من هذا النص أنه أرسله بالحق، وهو دين الإسلام الذي لا يقبل من أحد ديناً سواه ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [البقرة:١١٩]، وأخبره أنه أرسله بشيراً، أي: مبشراً برحمة الله وجنته، ونذيراً، أي: مخوفاً الكفار بالنار وغضب الجبار، فإذا قام بالمهمة، وألزم الناس الحجة، فلا يسأل عن أصحاب الجحيم في يوم الدين.

٢- لن ترضى عنا اليهود ولا النصارى حتى نتبع ملتهم:

أيأس الله عبده ورسوله محمداً ﷺ وأمته من بعده بأن يطمعوا بإيمان اليهود والنصارى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

والنفي بـ ﴿لَن﴾ هو من المبالغة في التيئيس، لأنها لنفي المستقبل وتأبيده، والمراد بملتهم، أي: الشريعة التي يتبعونها، بما فيها من عقائد وأحكام وأعمال وأخلاق، وهي شريعة منسوخة محرفة مبدلة.

وها قد مضى على نزول هذا النص أكثر من ألف وأربعمائة عام، وبقي اليهود والنصارى على دينهم، ولم يؤمنوا بديننا، وإن آمن طوائف منهم.

٣- أثر هذا التوجيه الرباني في هداية الأمة الإسلامية:

إذا فقهنا هذا النص الكريم فإننا نوقف هدر الطاقات في غير مسارها، وسأنبه هنا إلى ثلاثة أمور:

الأول: أن الجهود الإسلامية التي تُبذل في المجتمعات اليهودية والنصرانية لتغيير الرأي العام في تلك الديار جهود ضائعة، فاليهود والنصارى ليس لديهم قابلية للتحول إلى هدي القرآن، والكف عن ظلمنا وتدميرنا، وقد قذفتنا أوروبا بالملايين من المقاتلين قديماً وحديثاً، وأقاموا أخيراً لليهود دولة في ديارنا.

الثاني: اليهود والنصارى فاقدون للهداية، والهدى الخالص في قرآننا وسنّة نبينا، فشريعتهم بُدِّلَت وحُرِّفت ونُسِخت، فهي لا تصلح لتكون منهج حياة، وصدق الله حيث يقول: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٢٠].

وطلب الهداية من اليهود والنصارى، وهم الذين يتبعون أهواءَهم ضلال عظيم ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة:١٢٠].

الثالث: الواجب علينا أن نبلِّغ اليهود والنصارى الدينَ الحقَّ الذي جاءَنا من عند الله، ونقيم عليهم الحجة، حتى لا يكون لهم حجة في يوم الدين.

واللام في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ﴾ موطئة للقسم، ليؤكد الخبر الذي تضمنته، وفي هذه الآية وعيد شديد ترجف له قلوب الصالحين، وتتصدع له قلوب الذين يخشون الله رب العالمين، فالمتبع لأهواء اليهود والنصارى ما له من الله من ولي ولا نصير، يعني «ليس لك يا محمد من ولي يلي أمرك، وقيِّم يقوم به، ولا نصيرٍ ينصرك من دون الله، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته» [فتح القدير: ١/ ٦٧٤].

٤- اليهود والنصارى ينصبون أنفسهم هداة:

نصَّبَ كثير من اليهود والنصارى أنفسهم هداة للمسلمين، وقد درسوا ديننا، ورحلوا إلينا في بلادنا الإسلامية مبشرين بالنصرانية، وقدموها لنا مغموسة بلقمة الغذاء، وحبة الدواء، والمعسول من القول، وجاءت جيوش المبشرين مصاحبة للجيوش التي غزت ديارنا لتدخلنا في دينهم.

وفئة أخرى أقاموا الاحتفالات وعقدوا المؤتمرات والندوات والاجتماعات، ودعوا رجالنا ونساءَنا ليقفوا بين أيديهم متعالمين داعين إلى التوفيق بين دينهم والإسلام، وهم في الحقيقة يقصدون هدم الإسلام في نفوسنا، فعجباً لبني ديني يطلبون الهدى من المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى.

٥- ثناء الله على المؤمنين الذين يتلون كتاب الله ويهتدون بهداه:

بعد أن ذمّ الله الذين يتبعون أهواء اليهود أثنى على الذين يأخذون كتاب الله، ويتلونه حقَّ تلاوته، ويهتدون بهداه، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة:١٢١].

عنى بالذين آتاهم الكتاب كلَّ من آمن بهذا الكتاب من اليهود والنصارى والعرب وغيرهم، وتلاوة هذا الكتاب تكون بترتيله ترتيلاً مقترناً بالفقه لآياته، وبذلك يلقي القرآن خيراته وبركاته في النفوس، كما قال أبو موسى الأشعري ﷺ: «من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة»، وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها» [القرطبي: ٢/ ٩٥].

وقد يكون المراد بقوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ [البقرة:١٢١] أي: يتبعونه، وهذا ما ذهب إليه ابن عباس وعكرمة وأبو العالية [ابن جرير: ١/ ٥١٩]، واتباعهم إياه يكون بإحلال حلاله، وتحريم حرامه، والاهتداء بهداه، مع عدم التحريف له. والدليل على أن معنى يتلونه يتبعونه مجيئها في بعض الآيات على هذا النحو، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾ [الشمس:١-٢].

٦- حثّ بني إسرائيل على تذكر نعمة الله عليهم لتلين قلوبهم:

ختم الله هذا النص بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة:١٢٢-١٢٣].

وهاتان الآيتان تقدم ذكرهما بنصِّها في الآية السابعة والأربعين والثامنة والأربعين من هذه السورة، وقد أعيدت هاتان الآيتان بالألفاظ التي ذكرت هناك، ولم يخالف بين الآيتين إلا في الترتيب بين (العدل والشفاعة) فهناك قدَّم ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ وأخَّر ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة:٤٨] وهنا قدَّم ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة:١٢٣] وأخَّر لفظ الشفاعة.

وتكرار هاتين الآيتين بنصهما إنما هو لحث بني إسرائيل على تذكُّر نعمه عليهم لتلين قلوبهم، وتتابع النبيَّ الأميّ الذي أُمروا باتباعه، ولتخويفهم وتحذيرهم مما سيقدمون عليه في يوم القيامة.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الواجب على دعاة الأمة وعلمائها أن يعلموا أن دين الله حق، وعليهم أن يبلغوه للعالمين، ولا يضيرهم بعد ذلك كفر من كفر، فالواجب إقامة الحجة على الناس.

٢- أعلمنا ربنا أن اليهود والنصارى لن يرضوا عنا إلا إذا دخلنا في ملتهم، ودينهم باطل، والهدَى عندنا في كتابنا، فمن اتبع أهواءَهم فليس له من الله ناصر ينصره، وليس له ولي يتولى أمره.

٣- الفئة الخيرة الطيبة التي يرضى الله عنها هم الذين آمنوا بالقرآن، وتلوه حقَّ تلاوته، وعملوا به، أما الفئة الضالة الخاسرة فهم الذين كفروا بالقرآن.

٤- الذين يطلبون الهداية من اليهود أو النصارى أو البوذيين أو المجوس أو الشيوعيين أو غيرهم ضالون، مهددون من الله تبارك وتعالى، ولن يحول بينهم وبين عذاب الله ولي ولا نصير.

٥- ذهب جمع من أهل العلم إلى أن الكفر ملة واحدة، لقوله تعالى: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠] ولذلك فإنهم يتوارثون فيما بينهم سواءً كانوا يهوداً أو نصارى أو بوذيين إذا كانوا أقارب، وهذا قول أبي حنيفة والشافعي وداود وأحمد.

وذهب آخرون منهم الإمام مالك إلى أن الكفر ملل شتى، فلا يرث اليهودي النصراني، ولا النصراني اليهودي، لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون:٦] والأول أصوب.

٦- في آيات هذا النص من أنباء الغيب أن اليهود والنصارى لن يدخلوا بمجموعهم في ديننا، وإن دخل بعضهم فيه.

النص القرآني الخامس والعشرون من سورة البقرة
إبراهيم عليه السلام إمام الناس

أولاً: تقديم

هذا النص الكريم والنصوص الأربعة التالية له تتحدث عن النبي الكريم إبراهيم خليل الرحمن الذي ابتلاه الله بجملة من الشرائع فأتى بها وافية، فجعله الله إماماً للناس، كما تتحدث هذه الآيات عن الرعيل الأول من ذريته الأخيار الأطهار، ومنهم نبيا الله إسماعيل وإسحاق، وهما من أولاده، ومنهم نبي الله يعقوب، وهو حفيده من ابنه إسحاق، ويعقوب هو إسرائيل، ومنهم أبناء يعقوب، وهم اثنا عشر ولداً، وهم المذكورون في القرآن باسم الأسباط، وقد أصبح كل سبط بمنزلة القبيلة عند العرب.

واليهود والعرب يعتز كل منهم بالانتساب إلى نبي الله إبراهيم، ويفاخرون بذلك، لكن لم يكن واحد من القبيلين عند البعثة النبوية على دينه ومنهجه، فقد غيروا وبدّلوا، فجاءَت هذه النصوص الخمسة لتبرز مكانة إبراهيم والرعيل الأول من ذريته، وتظهر المنهج الذي كانوا عليه، وتبرز مكانة البيت العتيق الذي بناه نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل، وتبرز الدين والملة التي كانت عليها تلك الأمة، وهم إبراهيم وأولاده وأحفاده، وتطالب ذريته الذين ينتسبون إليه في عهد تنزل القرآن ومن بعدهم أن يقيموا أنفسهم على دينه، بعيداً عن الترهات والأباطيل التي اخترعوها، وهذه النصوص تأصيل للأمة الناشئة الوليدة، التي دعا بها إبراهيم وابنه إسماعيل، وهما يرفعان القواعد من البيت، فهذه الأمة، وهي الأمة الإسلامية، ورسولها، وهو خاتم الرسل، هم الذين أحيوا ملة إبراهيم، وأقاموا الإسلام الذي كان عليه إبراهيم، فهم وإن كانوا متأخرين في الزمان، فإن جذورهم تضرب في أعماق التاريخ لتتصل بالنبع الصافي الذي كان عليه الأخيار: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، ولتقوم على ميراث إبراهيم وابنه إسماعيل، وهو البيت العتيق، أول بيت وضع للناس، فتعمره بالحج والعمرة، والصلاة إليه وعنده، وتحييه بالاعتكاف والطواف.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ

هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في آيات هذا النص من القرآن

١- ابتلى الله نبيّه وخليله إبراهيم عليه السلام بجملة من التكاليف فقام بها:

أمر الله - تبارك وتعالى - رسوله محمداً ﷺ والذين آمنوا معه أن يذكروا ما كان من ابتلاء الله لأبيهم إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة:١٢٤].

والمراد بالابتلاء في هذه الآية الاختبار، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ﴾ [الأنبياء:٣٥].

وسمى الله الشرائع التي كلَّف الله بها إبراهيم ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ لأنه اقترن بها أوامر ونواه، هي كلمات.

وكلمات الله نوعان: **الأولى**: شرعية دينية، وهي مرضية محبوبة لله، ومنها ما كلف الله به إبراهيم عليه السلام، وما أنزله على محمد ﷺ ونوح وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل والأنبياء.

الثانية: قدرية، وهي التي خلق بها الخلق، وصرَّف بها الكون، كخلق الجن والإنسان، وغير ذلك، مما يرضاه الله ومما لا يرضاه.

٢- تحديد التكاليف التي ابتلى الله إبراهيم بها:

اختلف أهل العلم في تحديد التكاليف التي ابتلى الله إبراهيم بها، وساق ابن جرير وابن كثير والشوكاني وغيرهم كثيراً مما ورد في ذلك، ومن ذلك قول بعضهم: هي ما شرعه من المناسك، وقيل: هي ما شرع الله له من الطهارة في جسده، وقيل: الختان، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، والذي ذهب إليه ابن كثير أنها شاملة لكل الأقوال التي أوردها.

والذي في التوراة أن العهد الذي أعطاه لإبراهيم ونسله من بعده ختان الذكور [سفر التكوين، الإصحاح السابع: ١٠-١٤].

وجمع السيوطي في [الدر المنثور: ١/ ٢٧٣-٢٨٨] كل ما قيل في ذلك، وأورد كل الأحاديث الواردة فيه، وما ذكره نوعان: **الأول**: أحاديث ضعيفة لا تُقبل بحال. **والثاني**: أحاديث صحيحة، ولكنه لا يوجد ما يدل على دخولها في النص بحال.

ولم يرتض ابن جرير الطبري والشوكاني وعبدالقادر بدران وغيرهم ما ذكر فيها من أقوال، لأنه لا دليل يدلّ على صحة ذلك [راجع: ابن جرير: ١/ ٥٢٧، فتح القدير: ١/ ٢٧٠، جواهر الأفكار: ١/ ٣٣٦].

٣- لا يزال هذا العهد الذي ابتلى الله به إبراهيم مسطوراً في التوراة:

ولا يزال هذا العهد الذي أعطاه الله لإبراهيم موجوداً في التوراة إلى اليوم، ففي [الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين] «ظهر الرب لإبرام – أي: إبراهيم – وقال له: أنا الله القدير سر أمامي، وكن كاملاً فأجعل عهدي بيني وبينك وأُكثِّرُكَ كثيراً جداً».

٤- قيام إبراهيم عليه السلام بالتكاليف التي كلفه الله بها:

وقد أثنى الله على عبده ورسوله إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤]، والمعنى: أنه قام بهنَّ وعمل بهن على الوجه الذي أراده ربُّ العزة سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم:٣٧] أي: عمل ما طلب منه، فجاء به وافياً.

٥- التعريف بنبي الله إبراهيم عليه السلام:

نبي الله إبراهيم من أهل العراق، ومعنى إبراهيم في العربية والسريانية أب رحيم، وكثيراً ما يقع الاتفاق في اللفظ بين هاتين اللغتين [القرطبي: ٢/ ٩٦].

ووالد إبراهيم عليه السلام اسمه (آزر) قال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام:٧٤]. وقد دعا إبراهيم أباه وقومه إلى التوحيد، وحطَّم أصنامهم، فقذفوه في النار، فنجاه الله منها، وهاجر إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الأرض المقدسة في فلسطين.

٦- جعل الله إبراهيم عليه السلام إماماً للناس:

جعل الله نبيه إبراهيم عليه السلام إماماً للناس، ولذلك فإنَّ اليهود والنصارى والعرب، كلُّهم يفخر في الانتساب إلى نبي الله إبراهيم.

وإبراهيم عليه السلام هو والد إسماعيل أبو العرب المستعربة، فالعرب أحفاد إسماعيل، وهم من نسله وذريته، وقد كانت العرب تفخر بانتسابها إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وكان بنو إسرائيل يفعلون مثل ذلك لأنهم من ذرية إبراهيم من حفيده يعقوب بن إسحاق، وكذلك النصارى، فالأمم جميعاً تفاخر بنسبتها إلى إبراهيم، بل ادعى كل من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، فأكذبهم ربُّ العزة فيما ادعوه، فقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة:١٤٠].

وقال في موضع آخر نافياً ما ادعاه اليهود والنصارى ومشركو العرب في إبراهيم ﷺ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران:٦٧].

لقد كان إبراهيم سابقاً في الزمن على اليهودية والنصرانية وما عليه مشركو العرب من الضلال، فقد ولد إبراهيم ﷺ قبل ميلاد المسيح بألفي عام، وموسى ﷺ من ذريته، فما ادعاه اليهود والنصارى والعرب أنه كان منهم فهو باطل، حملهم عليه الدعاوى الباطلة، والمفاخرات الكاذبة.

وقد جعل اليهود والنصارى والعرب إبراهيم إماماً لهم، وصدقوا بفعلهم هذا قول الله عز وجل: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤].

ولم يشذ المسلمون من هذه الأمة عن جعلهم إبراهيم قدوة لهم، بل هم أحق به وأتباعه من اليهود والنصارى ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [آل عمران:٦٨] ذلك أنهم قائمون على ملته، مقتدون به على الوجه الأتم الأكمل.

٧- لا يشمل عهد الله لإبراهيم الكفار من ذريته، بل هو قصر على الصالحين:

عندما قال الله لإبراهيم: إني جاعلك للناس إماماً، سأل إبراهيم ربه عن مدى شمول هذا العهد لذريته من بعده، فأخبره أن من ذريته كفرة ظالمين، وعهد الله لا يشمل أمثال هذا الصنف الضال، والنصُّ يدلُّ بمفهومه على شمول العهد للصالحين من ذريته، أمثال إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وسليمان وداود وعيسى ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وبعد بعثة الرسول ﷺ الخاتم فإن كل اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا به وبما جاء به كفرة، غير داخلين في عهد الله، وهم مبعدون مطرودون من رحمة الله، وكل العهود التي أعطاها الله لأنبيائهم أمثال إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى والمسيح لا تنالهم بحال، فدعواهم اليوم أن هذه البلاد المقدسة بلادهم، ودعواهم أن معهم عهوداً من رب العزة بذلك، كل ذلك كذب وضلال، فعهود الله لا تشملهم، وهم كاذبون فيما يدَّعونه، ونحن أحق بإبراهيم ﷺ وأنبياء بني إسرائيل منهم ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [آل عمران:٦٨].

٨- جعل الله البيت مثابة للناس وأمناً:

أمرنا ربنا - عز وجل - أن نذكر جعله سبحانه البيت الذي بناه إبراهيم وإسماعيل مثابة للناس، أي: مرجعاً لهم، أي: يعودون إليه مرة بعد مرة، مما يدلُّ على أن في قلوب المؤمنين حنيناً دائماً لزيارة هذا البيت والطواف به، والاعتكاف والصلاة عنده.

وكما جعله الله مثابة للناس جعله الله أمناً أيضاً، ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة:١٢٥]. فقد جعله رب العزة حرماً آمناً، فهو في الجزيرة العربية كالواحة في الصحراء، الناس يقتلون ويغتالون فيها، أما الحرم فهو آمن، لا يعتدي أحد فيه على أحد، يلقى الرجل فيه قاتل أبيه، فلا يهيجه ما دام في الحرم، بل تعدى الأمن البشر إلى الحيوان والنبات.

٩- أمرنا ربنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى:

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] أصحُّ ما قيل في المقام أنه الحجر الذي وقف عليه إبراهيم ﷺ حين طالت عليه جدران الكعبة في بنائها، فوقف عليه ليستطيع أن يزيد في البناء، وقد جعل الله قدمي إبراهيم تؤثر في صخرة ذلك المقام، ثم زال هذا الأثر لأن الناس كانوا يتمسحون به، وقد كان المقام لاصقاً بجدار الكعبة إلى عهد عمر ابن الخطاب، فأبعد عنها، وفي عصرنا هذا قاموا بإبعاده أكثر وأكثر، حتى يمكن الصلاة عنده ولا يضير الطائفين.

وقد عقد البخاري في صحيحه باباً عنون له بقوله: «بابٌ: قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]» وأورد فيه حديث عمر بن الخطاب ﷺ الذي يقول فيه: «وافقت ربي في ثلاث» وإحدى هذه الثلاث قوله: «يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى» [البخاري: ٤٤٨٣].

وقال ابن جرير: «أولى الأقوال بالصواب عندنا ما قاله القائلون: إن مقام إبراهيم هو المقام المعروف بهذا الاسم، الذي هو في المسجد الحرام، لما روينا آنفاً عن عمر بن الخطاب»، وأورد حديث جابر، وفيه: «استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين» [ابن جرير: ١/ ٥٣٧].

وهذا الذي أورده ابن جرير رواه مسلم من حديث جابر الطويل، وفيه: «ثم نفذ إلى مقام إبراهيم ﷺ، فقرأ ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] فجعل المقام بينه وبين البيت» [مسلم: ١٢١٨] وذكر فيه أنه قرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١] و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]» وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: «قدم النبي ﷺ فطاف بالبيت سبعاً، وصلَّى خلف المقام ركعتين ثم خرج إلى الصفا» [البخاري: ١٦٢٧].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]: المراد بالمقام هو الحجر الذي كان إبراهيم ﷺ يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه

إسماعيل به ليقوم فوقه، ويناوله الحجارة، فيضعها بيده لرفع الجدار، كلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها هكذا، حتى أتمَّ جدران الكعبة، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة باللامية:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

ونقل ابن كثير عن أنس بن مالك قال: «رأيت المقام فيه أثر أصابعه عليه السلام، وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم» [ابن كثير: ١/ ٣٦٤].

١٠- عهد الله - تعالى - إلى إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه عهد إلى خليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٥].

فالبيت مبني للطائفين الذين يطوفون به للحج والعمرة ولغيرهما. والعاكفون فيه الذين يلازمونه بنية التعبد، والمصلون الذين دلَّ عليهم قوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾، والركوع والسجود من أخص خصائص الصلاة.

«وخصّ الله الركوع والسجود بالذكر من جميع أحوال المصلين، لأنهما أقرب أحواله إلى الله، وقدم الركوع على السجود، لتقدمه في الزمان» [قطف الأزهار: ص٣٢٢]. والعهد: أصله الوعد المؤكد وقوعه، وهو هنا بمعنى الوصية، لأنه عُدِّيَ بـ (إلى). وأصل العكوف في لغة العرب: اللزوم للشيء والإقامة عليه.

١١- دعاء إبراهيم عليه السلام لمكة وأهلها:

أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نذكر دعاء إبراهيم عليه السلام لمكة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦]. وقد دعا إبراهيم عليه السلام لأهل مكة بأمرين: **الأول**: أن يجعلها بلداً آمناً. **والثاني**: أن يرزق من آمن من أهلها من الثمرات.

وقد أصبحت مكة بدعوة إبراهيم حرماً آمناً كما في صحيحي البخاري ومسلم عن عبدالله بن زيد، عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم حرَّم مكة، ودعا لها، وحرَّمتُ المدينة كما حرَّم

إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة» [البخاري: ٢١٢٩، مسلم: ١٣٦٠].

وقد وردت أحاديث عدة كلها مصرحة بأن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: «لا هجرة، ولكن جهادٌ ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حَرَّم الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلّ لي إلا ساعةً من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَد شوكُه، ولا يُنفَّر صيدُه، ولا يَلتقِط لُقَطَته إلا مَن عرّفها، ولا يُختلى خلاها». قال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخِر، فإنه لِقَيْنِهم ولبيوتهم، قال: قال: «إلا الإذخر» [البخاري: ١٨٣٤، مسلم: ١٣٥٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: إن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث، عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه، فأُخبِر بذلك رسولُ الله ﷺ، فركب راحلته فخطب، فقال: «إن الله عز وجل حبس عن مكة الفيل، وسلّط عليها رسوله والمؤمنين، ألا وإنها لم تَحِلَّ لأحد قبلي، ولن تحلّ لأحد بعدي، ألا وإنها أُحِلّت لي ساعة من النهار، ألا وإنها ساعتي هذه، حرام، لا يُخبط شوكها، ولا يُعضَد شجرُها، ولا يلتقِط ساقطتها إلا مُنشد، ومن قُتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يُعطَى (يعني الدية)، وإما أن يُقاد (أهل القتيل)». قال: فجاء رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه، فقال: اكتب لي، يا رسول الله! فقال: «اكتبوا لأبي شاه». فقال رجل من قريش: إلا الإذخر، فإنا نجعله في بيوتنا وقبورنا، فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإذخِر» [مسلم: ١٣٥٥].

وعن أبي سعيد المقبري، عن أبي شُريح العدوي: أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذنْ لي أيها الأمير أحدِّثْك قولاً، قام به رسول الله ﷺ للغد من يوم الفتح، فسمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرَّمها الله، ولم يُحرِّمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضُد بها شجرة، فإن أحد ترخّص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ﷺ ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي ساعة من نهار، وقد عادت حُرمتُها اليومَ كحُرمتها بالأمس، وليُبلِّغ الشاهد الغائب» [البخاري: ١٨٣٢، مسلم: ١٣٥٤].

والصواب من القول: أن الله حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، ولكن هذه الأحكام لم تظهر، لأن أرضها بقيت خالية لا يسكنها أحد، لعدم وجود الماء فيها، فلما أسكن

إبراهيم فيها ذريته، وأظهر الله فيها زمزم، أظهر الله حرمتها بدعاء إبراهيم ربّه بأن يجعلها حرماً آمناً.

ودعا إبراهيم ربه تبارك وتعالى أن يرزق المؤمنين من أهل مكة الثمرات، فاستجاب الله، ولكنه لم يجعلها قصراً على المؤمنين، فرزقُه في الدنيا ينال المؤمن والكافر، أما في الآخرة فيلجِئ الله الكافر إلى عذاب النار وبئس المصير.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- جعل الله - سبحانه - إبراهيم عليه السلام إماماً للناس، وذلك بعد أن قام بما ابتلاه الله به من التكاليف، ولذا فإن جميع الملل التي لها كتاب سماوي من بعد إبراهيم تفخر بالانتساب إليه.

٢- عهد الله لإبراهيم الذي أصبح به إماماً لا يشمل الظالمين الكفرة من ذريته، بل هو قصر على إبراهيم والصالحين من ذريته، فالذين كفروا بعيسى بعد بعثته، وكذلك الذين كفروا بمحمد ﷺ بعد بعثته خارجون عن عهد الله الذي أعطاه لإبراهيم.

٣- تجمع اليهود اليوم واحتلوا أرض فلسطين وأعانتهم الدول الغربية، وقد ادعى اليهود أن لهم وعداً إلهياً أعطاه لآبائهم في تلك الديار المقدسة، وقولهم هذا قول باطل مفترى، لأنهم كفرة خارجون عن عهد الله ووعده.

٤- عظم مكانة البيت العتيق الذي بناه نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، فقد جعله مسجداً يجب على الناس أن يحجوا ويعتمروا إليه، ويعمروه بالصلاة فيه، والاعتكاف عنده.

٥- جعل الله بدعاء نبيه إبراهيم عليه السلام مكة حرماً آمناً، لا يجوز الاعتداء فيه على أحد، وكانت قريش والعرب تلتزم بذلك في جاهليتها، وبعد أن فتح الرسول ﷺ مكة، عادت حرمة مكة إلى ما كانت عليه.

٦- يجب على المسلمين أن يُعْنَوْا بتطهير المساجد المخصصة لعبادة الله من النجاسة، فلا يصح الصلاة في موضع نجس.

٧- يستحب اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، خاصة بعد الطواف بالبيت في الحج والعمرة.

٨- استدلَّ أبو حنيفة وطائفة من فقهاء الأمصار على ترك الجلد على المحصن والسارق إذا لجأ إليه، وعضدوا ذلك بقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آل عمران:٩٧] والصواب من القول: أنه يجب إقامة الحد على من لجأ إليه، وعدم إقامة الحد فيه منسوخ.

٩- لا حرج على من صلى داخل الكعبة، لأنه سيستقبل جزءاً منها أثناء صلاته، وقد صلى الرسول ﷺ ركعتين في داخل الكعبة [البخاري عن ابن عمر: ٥٠٥].

النص القرآني السادس والعشرون من سورة البقرة
نبيا الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يرفعان القواعد من البيت

أولاً: تقديم

هذا النص الكريم يظهر لنا نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وهما يبنيان البيت العتيق، ويدعوان الله أن يتقبل منهما عملهما، ويجعلهما مسلمين له، ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة له، وأن يدلهما على مناسك الحج والعمرة، ويتوب عليهما، ويبعث في تلك الأمة المسلمة رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

إن هذا النص يرتقي بالأمة المسلمة إلى درجات عالية، فالمؤمنون بمحمد ﷺ هم الأمة التي عناها إبراهيم وإسماعيل في دعائهما، والرسول محمد ﷺ هو دعوة إبراهيم في الواقع المشهود، وقد حدد الله لتلك الأمة المهمات الملقاة على الرسول الخاتم، فهو يتلو عليهم آيات الله المنزلة عليه، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويطهرهم على النحو الذي يريده الحكيم العليم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إبراهيم واسماعيل يبنيان البيت الحرام:

أمر الله - جل وعلا - رسول الله ﷺ والمؤمنين معه أن يذكروا نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل وهما يبنيان البيت العتيق، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧].

والقواعد: جمع قاعدة، وهي الأساس والأصل لما فوقه، ورفع القواعد يكون بالبناء عليها، والنص ببيانه البديع يرد المشهد الغائب إلى حاضر ندركه ونسمعه ونراه، فكأننا نشاهد إبراهيم وإسماعيل يقومان ببناء البيت شاخصة قامتاهما، وهما يدعوان الله أن يتقبل منهما عملهما ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة:١٢٧] و﴿رَبَّنَا﴾ منادى حذف منه

حرف النداء (يا)، أي: يقولان: يا ربنا، تقبل منا أعمالنا، فقد كانا يبنيان بيت الله، ويخشيان أن لا يتقبل منهما، وهذا شأن المؤمنين الصالحين الأخيار، كما قال الله في حقهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] وهؤلاء هم الذين يصلون ويصومون ويزكون ويحجون، ويفعلون أفعال الخير، وقلوبهم وجلة، فهي تخاف أن لا يتقبل الله عملها، وقد روى ابن كثير عن وهب بن الورد أنه كان يقرأ هذه الآية، ثم يبكي ويقول: «يا خليل الرحمن: ترفع قوائم بيت الرحمن، وأنت مشفق أن لا يتقبل منك» [ابن كثير: ١/ ٣٧٢].

وقوله في ختام الآية ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧] أي: السميع لأقوالنا، العليم بنياتنا.

٢- دعاء إبراهيم وإسماعيل ربهما أن يجعلهما مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة له:

أخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - أنه كان من دعاء نبي الله إبراهيم وابنه نبي الله إسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت أن يجعلهما مسلمين له، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨].

والإسلام الذي دعوا الله أن يجعلهما عليه، ويجعل من ذريتهما أمة تقوم عليه يتحقق بالخضوع والطاعة والاستسلام لله رب العالمين، بفعل ما أمر، وترك ما نهى عنه وزجر، وقد استجاب لهما، ولما دعوا به لذريتهما، فكانا من سادات المسلمين، وأقام الله رب العالمين على يد رسول الله محمد ﷺ أمة مسلمة، هي خير أمة أخرجت للناس.

وقال إبراهيم وإسماعيل في دعائهما: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا﴾ [البقرة:١٢٨] لأن الله تعالى أخبر إبراهيم فيما سبق أن بعضاً من ذريته سيكون ظالماً، فلا يصحُّ لهما أن يدعوا لجميع الذرية.

٣- دعوة إبراهيم وإسماعيل أن يريهما مناسكهما:

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنهما دعوا الله ربهما فقالا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة:١٢٨] دعوا ربهما أن يريهما المناسك التي فرضها عليهما وعلى المؤمنين من بعدهما، من الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والإفاضة منها إلى مزدلفة، والدعاء هناك عند المشعر الحرام، ورمي الجمار، وما أشبه ذلك.

وختما هذا المقطع من الدعاء بقولهما: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة:١٢٨] قالا: يا ربنا تب علينا بعفوك عنا، وصفحك عن زلاتنا، وغفران ذنوبنا، والتجاوز عن خطايانا، فأنت كثير التوب والمغفرة، وأنت رحيم، كثير الرحمة.

٤- دعا نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل الله ربهما أن يبعث في ذريتهما رسولاً منهم:

دعا نبيا الله إبراهيم وإسماعيل الله ربهما أن يبعث في الأمة التي من ذريتهما رسولاً منهم يتلو عليهم آياته، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة:١٢٩] وقد استجاب الله دعاءَهما، فبعث في العرب رسولاً منهم، كان يتلو عليهم آياته التي أنزلها عليه، ويعلمهم الكتاب الذي هو القرآن، كما يعلمهم الحكمة التي آتاه الله إياها.

وختما هذا المقطع من الدعاء بقولهما: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٢٩﴾ [البقرة:١٢٩] والعزيز: القوي الغالب، الذي لا يعجزه شيء أراده، والحكيم: الذي لا يدخل تدبيره خلل، ولا زلل.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ثناء الله تبارك وتعالى على رسوليه إبراهيم وإسماعيل في بنائهما البيت العتيق في مكة، وهو أول بيت وضع في الأرض، ليكون معبداً لله تبارك وتعالى، وقد سأل أبو ذر الرسول ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض، قال: «المسجد الحرام» قال: ثم أي؟ قال: «مسجد بيت المقدس» قال: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» [البخاري: ٣٣٦٦، مسلم: ٥٢٠].

٢- يستحب لمن عمل عملاً يريد به وجه الله تعالى أن يدعو ربه أن يتقبل منه ذلك العمل، كما دعا نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل ربهما أن يتقبل منهما عملهما في بناء البيت الحرام.

٣- يستحب لمن رزقه الله مالاً أن يشيّد المساجد، وقد عمل المسلمون على بناء المساجد في شتى الديار التي سكنوها.

٤- على المسلم أن يدعو لنفسه أن يهديه الله إلى الإسلام، ويدعو لذريته أن يهديهم للإسلام، فالله هو الهادي إلى الصراط المستقيم.

٥- كانت مناسك الحج معروفة منذ عهد إبراهيم، وحصل كثير من الخلل في هذه المناسك في الجاهلية، وقد جاءَنا رسولنا ﷺ، فعرفنا بمناسك الحج والعمرة، وعلى المسلم أن يتعرف إلى هذه المناسك، ويؤديها وفق العلم الذي علمه.

٦- وجود الرسول ﷺ كان تحقيقاً لدعوة إبراهيم وإسماعيل في دعائهما ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٩] وجاء في الحديث: «إني عند الله في أم الكتاب خاتم النبيين، وإن

آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي» [الطبري: ١/ ٥٥٦ وهو في مسند الإمام أحمد: ١٧١٦٣] والمراد أن أول من نَوَّه بذكر رسولنا ﷺ وشهره إبراهيم عليه السلام.

٧- هدمت الكعبة في الجاهلية بفعل السيول، فلما بنت قريش الكعبة اشترطت أن لا تضع في البناء إلا مالاً حلالاً، فقصرت النفقة، فلم تكف لبنائها كلِّها، فبقي جزء منها، وهو المعروف بحجر إسماعيل، وجعلوا للكعبة باباً واحداً مرتفعاً، بعد أن كان لها بابان لاصقان في الأرض، وقد منع الرسول ﷺ من هدمها وإعادة بنائها أن قريشاً كانت قريبة عهد بجاهلية، وقد دلَّ الرسول ﷺ على الطريقة الصحيحة في بنائها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجَدْرِ، أمن البيت هو؟ قال: «نعم».

قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت، قال: «إنَّ قومك قصرت بهم النفقة».

قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: «فعل ذلك قومك، ليدخلوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا، ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية، فأخاف أن تنكر قلوبهم، أن أدخل الجدر في البيت، وأن ألصق بابه بالأرض» [البخاري: ١٥٨٤، مسلم: ١٣٣٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال لها: «يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً، فبلغت به أساس إبراهيم» [البخاري:١٥٨٦].

وهذان الحديثان يدلان على أن قريشاً بعد أن هدمت الكعبة، لم تعد بناءَها كما كانت مبنية على عهد نبي الله إبراهيم، لأن النفقة التي جمعت لبنائها، لم تكف لذلك، وقد أرشد الرسول ﷺ أمته كيف تعيد بناءَها على قواعد إبراهيم عليه السلام.

وقد هدمت الكعبة في عهد ابن الزبير، فأعاد بناءَها على النحو الذي ذكره النبي ﷺ، قال يزيد: «شهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه، وأدخل فيه من الحجر، وقد رأيت أساس إبراهيم حجارة كأسنمة الإبل.

قال جرير بن حازم: فقلت له: أين موضعه؟ قال: أريكه الآن، فدخلت معه الحجر، فأشار إلى مكان، فقال: هاهنا، قال جرير فحزرت من الحجر ستة أذرع أو نحوها» [البخاري: ١٥٨٦، مسلم: ١٣٣٣].

ولكن عبدالملك بن مروان هدم الكعبة وأعاد بناءها كما كانت عليه أولاً، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وقد استدلّ عبدالله بن عمر بن الخطاب بحديث عائشة على السبب الذي منع الرسول ﷺ من استلام الركنين اللذين يليان الحجر أنهما لم يقوما على قواعد إبراهيم، قال عبدالله بن عمر: «لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم» [البخاري: ٤٤٨٤].

٨- بنى نبيُّ الله إبراهيم وابنه إسماعيل أول بيت وُضع للناس وهو الكعبة.

٩- يستحبُّ لمن قامَ بعمل خير أن يدعو ربه أن يتقبله الله منه، فقد كان نبيّا الله إبراهيم وإسماعيل يبنيان البيت، ويدعوان الله أن يتقبل منهما عملها.

١٠- كان نبيّا الله إبراهيم وإسماعيل على دين الإسلام، وكل الرسل كانوا على ذلك.

١١- أُمتنا الإسلامية هي دعوة نبيّا الله إبراهيم وابنه إسماعيل، فقد استجاب الله لهما، في إنشاء أمة مسلمة من ذريتهما.

١٢- نبينا محمد ﷺ هو دعوة أبينا إبراهيم وابنه إسماعيل، فقد دعوا الله عز وجل أن يبعثه في الأمة المسلمة التي تنشأ من ذريتهما.

١٣- ذكر نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل بعض ما اختص الله نبيه محمداً ﷺ ، ومن ذلك أنه يعلم أمته الكتاب والحكمة ويزكيهم.

النص القرآني السابع والعشرون من سورة البقرة
لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه

أولاً: تقديم

حدثنا ربنا عزَّ وجلَّ في النصِّ السابق عن بناء إبراهيم وابنه إسماعيل للبيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس في حجهم وعمرتهم، وأخبرنا في هذا النص أن ملة إبراهيم خير الملل، ومن أعرض عنها فإنه يوقع نفسه في السفه والضلال.

لقد أقام إبراهيم ﷺ وأبناؤه من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط هذه الملة، والتزموا بها، ووصَّى بها الآباء الأبناء، وهي الملة التي هديت لها هذه الأمة، وجاءها بها نبيها ﷺ، بعيداً عن أباطيل اليهود والنصارى وترهاتهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ملة إبراهيم ﷺ خير الملل:

أخبرنا ربنا العليم الحكيم أنه لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، فقال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠].

وصدر الآية سؤال يحمل معنى التقرير والتوبيخ، والمعنى لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، والملة السنّة والمذهب، والملة لا تضاف إلا إلى النبي، كما هو في هذه الآية، «وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران:٩٥] وقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ [يوسف:٣٨]. ولا تكاد توجد الملة مضافة إلى الله، أو إلى آحاد أمة النبي ﷺ، ولا تستعمل إلا في حملة الشرائع دون آحادها» [المفردات: ٤٧١].

ومعنى سفه نفسه: أهلكها، وأوبقها، وعنى رب العزة - عزَّ وجلَّ - بالراغبين عن ملة إبراهيم اليهود والنصارى ومشركي العرب، الذين أشركوا بالله وكفروا به، وهذا يدلُّ على كذبهم في دعواهم أن إبراهيم وأبناءَه كانوا يهوداً كما يدعي اليهود، أو نصارى كما يدعي النصارى، أو مشركين كما يدعي المشركون ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران:٦٧].

٢- التعريف بملة إبراهيم عليه السلام:

وملة إبراهيم عليه السلام هي الاستقامة على التوحيد، واجتناب عبادة الأوثان والأصنام وكلِّ ما يعبد من دون الله، وكان إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، وقد واجه أباه وقومه، وأعلن لهم أنه بريء مما يعبدون ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧]. وقال لقومه متبرئاً من الشرك، معتصماً بالتوحيد ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام:٧٨-٧٩].

وقد كان إبراهيم قد استغفر لأبيه، رجاء إيمانه، فلما رأى أنه عدو لله تبرأ منه ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤] وقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه اصطفى عبده ورسوله إبراهيم في الدنيا، وأنه سيكون في الآخرة من الصالحين ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة:١٣٠].

٣- مسارعة إبراهيم إلى الإسلام عندما أمره ربه به:

دعا الله - عزَّ وجلَّ - نبيه إبراهيم عليه السلام إلى الإسلام، فسارع إلى الإجابة من غير تأخير قائلاً: أسلمت لرب العالمين، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة:١٣١] والإسلام الذي أمر الله به إبراهيم: الاستسلام والخضوع والطاعة والانقياد لله، بفعله ما أمره به، واجتناب ما نهى عنه، وحذَّر منه.

ولا شك أن هذا مما يمدح به نبي الله إبراهيم عليه السلام في مسارعته للاستجابة لربه العظيم، دون أي تأخير.

٤- وصية كل من إبراهيم ويعقوب أولادهما بالتوحيد وعبادة الله وحده:

أعلمنا ربنا - سبحانه وتعالى - أنَّ إبراهيم عليه السلام أوصى أولاده من بعده بالالتزام بملته، وكذلك فَعَلَ حفيده يعقوب من ابنه إسحاق مثل فعله في التوصية لهم بالاستقامة على دين

الإسلام، وعبادة الملك الديان - سبحانه - فكل واحد منهما، أي: إبراهيم ويعقوب وصّى أولاده قائلاً: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٣٢﴾ [البقرة:١٣٢].

لقد نادى كلُّ واحد منهما بنيه، وهو على فراش الموت، وأولاده يحيطون به قائلاً لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة:١٣٢] أي: دين الإسلام، اختاره لكم، فاثبتوا عليه في كل ساعات حياتكم، حتى إذا جاءكم الموت في أي لحظة من اللحظات تكونون مستعدين للقاء الله وأنتم مسلمون ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٣٢﴾ [البقرة:١٣٢].

وصور النص القرآني مشهد يعقوب عليه السلام وهو متمدد على فراش الموت، وهو يسأل أبناءه عن الإله الذي يعبدونه بعد وفاته ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي﴾ [البقرة:١٣٣] هذه هي القضية الكبرى التي شغلت بال نبي الله يعقوب، وهو يغادر الدنيا إلى الدار الآخرة، سألهم عن المعبود الذي يعبدونه.

ويعقوب كان يعرف أن أبناءه مخلصون في دينهم لله، ولكنه في هذا الموقف الذي يمحض فيه المقدم على ربّه النصح لأبنائه الذين يخلفهم وراءه، عليه أن يتأكد أن هذا الأمر هو أعظم المهمات، فيجيب أبناؤه جميعاً بصريح العبارة: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝١٣٣﴾ [البقرة:١٣٣].

إنه إله واحد، هو إله الكائنات، ورب الأرض والسماوات، الذي عبدته أنت، وعبده والد هذه الذرية الطيبة، إبراهيم عليه السلام ، وعبده أبونا إسماعيل، وإسماعيل عمٌّ لهم، والعرب تجعل العم أباً، والخالة أماً، وإسحاق هو والد يعقوب، فنحن نعبد الإله الذي عبدته، وعبده آباؤنا، وهو إله واحد، ونحن له مستسلمون خاضعون.

هذه هي الأمة الكريمة التي تضم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وهي أمة واحدة مستسلمة لله، خاضعة له، وقد أثنى الله عليها قائلاً: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٣٤﴾ [البقرة:١٣٤].

إن هذه الأمة قد خلت، وانتساب اليهود والنصارى والعرب إلى إبراهيم لا ينفع أحداً منهم ما لم يكونوا على مثل تلك الملة التي كان عليها، ولكل واحد كسبه، فالأمة السابقة الموحدة لها كسبها الخير الطيب، وأنتم أيها الكفرة من اليهود والنصارى والعرب لكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون، بل تسألون عن كسبكم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- عظم مكانة نبي الله إبراهيم عليه السلام، فهو باني البيت العتيق، وملته خير الملل، وكل من أعرض عن ملته فإنه يوقع نفسه في السفه، وإبراهيم عليه السلام بشهادة الواحد الأحد من المصطفين الأخيار في الدنيا، ومن الصالحين الأطهار في الآخرة.

٢- كان إبراهيم على الدين الإسلامي الخالص، أمره ربّه بالإسلام فاستجاب سريعاً من غير تردد.

٣- يستحب أن يوصي الرجل أبناءَه وذويه عند الموت، بأن يأخذوا الدين القويم الذي اصطفاه لعباده، ويقوموا على عبادة الله وحده، بعيداً عن الشرك والكفر.

٤- جوهر وصية كل من إبراهيم ويعقوب أولادهما من بعدهما أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن يحافظوا على ذلك، في كل لحظات حياتهم، حتى يأتيهم الموت وهم مستعدون له.

٥- استدلَّ بقوله تعالى: ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ [البقرة:١٣٣] من جعل الجد أباً، وحجب به الإخوة، وهو قول الصديق أبي بكر رضي الله عنه، حكاه البخاري عنه، وهو قول عائشة والحسن البصري وطاووس وعطاء، وهو مذهب أبي حنيفة، وغير واحد من علماء السلف والخلف، وقال مالك والشافعي وأحمد في قول: إنه يقاسم الإخوة، والقول الأول أجود [ابن كثير: ١/ ٣٨٩].

٦- على الدعاة والعلماء أن يهتموا برعاية أبنائهم وبني قومهم والمسلمين، فيحرصوا على إقرار التوحيد فيهم بعيداً عن الكفر المتفشي في العالم اليوم، ومن ذلك العلمانية، والاشتراكية، والقومية، والبعثية، إلى جانب ملل الكفر القديمة كاليهودية والنصرانية، والبوذية، ونحوها.

النص القرآني الثامن والعشرون من سورة البقرة
فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا

أولاً: تقديم

يدَّعي كل من اليهود والنصارى أنه الأهدى سبيلاً، والأقوم قيلاً، وبلغت الوقاحة بكل واحد من الفريقين أن يدعو رسول الله ﷺ وأصحابه إلى دينه الذي يدين به، فقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس، قال: «قال عبدالله بن صوريا الأعور للنبي ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله فيهم ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة:١٣٥]» [الدر المنثور: ١/ ١٣٠].

وفي آيات هذا النص ردٌّ عليهم، وبيان وتعريف بأصحاب المنهج الصواب الذين أثنى الله عليهم وامتدحهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اليهود والنصارى يطالبون المسلمين أن يكونوا هوداً أو نصارى:

كان اليهود والنصارى ولا يزالون مغرورين بأنفسهم، ويدَّعي كلُّ فريق منهم أنه الأفضل والأكمل، وقد بلغ بهم الغرور والاستعلاء أن يطالبوا المؤمنين، وفيهم رسول الله ﷺ وأصحابه بالدخول في يهوديتهم أو نصرانيتهم، لينقذوا أنفسهم من الضلال ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة:١٣٥] وهذا مبني على دعواهم أنهم الأفضل والأكمل،

فقد ادعوا أنهم ﴿أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة:١٨] وادّعى كل فريق منهم أن الجنة قصر عليه دون سواه ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة:١١١].

وادّعى كلُّ فريق منهم أن الفريق الآخر ليس على شيء ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ﴾ [البقرة:١١٣].

وهذه الدعوى ليس لها نصيب من الحقيقة، فقد غير اليهود والنصارى والعرب ما كان عليه الآباء والأجداد، غيروا دين التوحيد، وأصبحوا مشركين، ضالين ينتسبون إلى الأخيار من الآباء، وهذا لا ينفعهم، ولا يجعلهم أخياراً مهتدين.

٢- اليهود والنصارى ليسوا بالأنموذج الذي يصلح للمتابعة والاقتداء:

ردّ الله - تبارك وتعالى - على اليهود والنصارى الذين دعا كل منهم الناس، وفيهم المسلمون إلى السير على دينهم، وقال لهم: ليس الأمر كما تقولون، بل الذي يستحق المتابعة هو إبراهيم ﷺ في ملته ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة:١٣٥] يقول لهم: لا، ليس الأمر كما تدَّعُونه وتزعمونه من أنكم الأفضل، وعلى الناس أن يدخلوا في دينكم، فأنتم لستم على الهدى، والهدى ضاع منكم، وأصبحتم كافرين مرتدين بعد أن كفرتم بعيسى ثم بمحمد ﷺ، والهدى في ملة إبراهيم ﷺ، وملة إبراهيم تدعو إلى القيام بالعبودية لله الواحد الأحد، والحنيف: «المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، وهو في أصل اللغة الذي تميل قدماه كل واحدة إلى أختها، قال الزجاج: وهو منصوب على الحال، أي: نتبع ملة إبراهيم حال كونه حنيفاً» [فتح القدير: ١/ ٢٧٩].

إن اليهود والنصارى والعرب يفخرون بالانتساب إلى إبراهيم وأبنائه وأحفاده من بعده، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى قبول هذه الدعوة، وهي دعوة محرجة لهم، فإبراهيم ومن معه كان على الحنيفية السمحة، بعيداً عن الشرك والكفر، بينما هؤلاء غارقون في شركهم وباطلهم إلى آذانهم.

٣- وجوب الإيمان بكل ما أنزل الله على رسله جميعاً:

أوجب الله علينا أن نؤمن بالله ربنا، ونؤمن بما أنزل إلينا، وما أنزل إلى رسل الله وأنبيائه ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة:١٣٦].

إن هذا النهج الذي ألزمنا الله به لازم للرسل والأنبياء جميعاً، ولأتباعهم الذين ساروا على إثرهم، فالرسل والأنبياء على مدار التاريخ الإنساني يبشر السابق منهم بمن يأتي بعده، ويصدق المتأخر منهم السابق، وكل رسول أو نبي يؤمن بالآخرين من الأنبياء والرسل، وقد أمرنا الله بأن نعلن هذا النهج ونرتضيه، فأمرنا أن نقول بصراحة ووضوح: إننا نؤمن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى رسول الله ونبيه وخليله إبراهيم، وإلى رسوليه إسماعيل وإسحاق، وهما ابنا إبراهيم عليهما السلام، ونؤمن بما أنزل إلى رسول الله يعقوب، وهو إسرائيل، وهو حفيد إبراهيم من ابنه إسحاق، وما أنزل إلى الأسباط، وهم أبناء يعقوب والمراد بهم الرسل والأنبياء الذين كانوا من ذرية هؤلاء الأسباط، وكانوا اثني عشر ولداً، منهم رسول الله يوسف.

وأمرنا أن نؤمن بما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام، وموسى أوتي التوراة، وعيسى أوتي الإنجيل، وأمرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نؤمن بما أوتي الأنبياء الذين بعثهم الله جميعاً، ونهانا أن نفعل فعل اليهود والنصارى بالتفريق بين الرسل، والإيمان ببعضهم والكفر ببعض، وأمرنا في خاتمة الآية أن نعلن إسلامنا، ونقول: نحن مسلمون.

٤- فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا:

بعد أن بين لنا ربنا تبارك وتعالى المنهج الأمثل الذي ينبغي أن نكون عليه في موقفنا من الرسل والأنبياء، أعلمنا أن اليهود والنصارى إن آمنوا بمثل ما آمنا به، فقد أصبحوا مهتدين، وإن تولوا فإنما هم في شقاق، ووعدنا بأن يكفينا إياهم، ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة:١٣٧].

يقول: إن آمن اليهود والنصارى والذين لا يعلمون، وهم مشركو العرب بمثل ما آمنتم به، أي: على النحو الذي ذكر الله في الآية السابقة فقد اهتدوا، وانضموا إلى ركب الأخيار المفلحين، وإن تولوا، أي: أعرضوا عن هذا الهدى الذي أنزلته عليكم، وأعلمتكم به، فإنما هم في شقاق، أي: في نزاع وخصام، وسيكفيكهم الله، وقد كفى الله رسوله ﷺ اليهود، فسلطه على بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، وهم اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة المنورة، فحاربهم المسلمون، وأخرجوهم من مدينتهم، وقتلوا بعضاً منهم، وسبوا ذرية ونساء بعض، ولاحقوهم إلى خيبر، وأذلوهم، ثم أخرجوهم منها مدحورين.

وقال عزَّ وجلَّ في خاتمة الآية ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة:١٣٧]، أي: سميع لأقوال هؤلاء، عليم بما يدبرونه، ويخططون له، وإذا كان سمع الله وعلمه محيطاً بهم، فإنه في غاية القدرة على دحرهم وملاحقتهم.

ولا يزال أوار المعركة بيننا وبين اليهود والنصارى مشتعلاً حتى اليوم، ولا يزالون يقاتلوننا ويجمعون الجيوش والأموال لحربنا، وتبقى آيات القرآن تحدد أبعاد المعركة، وتوضح معالمها، وتهدي للتي هي أقوم.

٥- صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة:

يدَّعي كلٌّ من اليهود والنصارى ومشركي العرب أن الصبغة التي يصبغ كل فريق أتباعهم بها هي خير الصبغ، فأكذبهم الله تعالى في دعواهم، وقرر الحقُّ تبارك وتعالى أن صبغة الله خير الصبغ، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة:١٣٨] قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بالصبغة صبغة الإسلام، وذلك أن النصارى إذا أرادت أن تنصِّر أطفالهم جعلتهم في ماء لهم، تزعم أن ذلك لها تقديس، بمنزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية، فقال الله - تعالى ذكره - إذ قالوا لنبيه محمد ﷺ وأصحابه المؤمنين به: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة:١٣٥] قُلْ لهم يا محمد: أيها اليهود والنصارى: بل، اتبعوا ملة إبراهيم، صبغة الله التي هي أحسن الصبغ، فإنها هي الحنيفية المسلمة، ودَعوا الشرك بالله والضلال عن محجة هداه» [تفسير الطبري: ١/ ٧٣٢].

وإنما سمى الله دينه بالصبغة: «لأنه يظهر أثر الدين على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، وقيل: لأن المتدين يلزمه، ولا يفارقه، كالصبغ يلزم الثوب» [البغوي ١/ ١٥٧]. وكانت كل قبيلة من قبائل العرب تفخر بأن صبغها لأبنائها في الجاهلية خير الصبغ، قال بعض شعراء ملوك همدان [القرطبي: ٢/ ١٤٤]:

وكـــلُّ أنـــاس لهـــم صـــبغة ... وصـــبغة همـــدان خـــير الصـــبغ
صـــبغنا عـــلى ذلـــك أبناءَنـــا ... فـــأكرم بصـــبغتنا في الصـــبغ

لقد صدق هذا الشاعر الملك في دعواه أن لكل أناس صبغة، ولكنه كذب في زعمه أن صبغة همدان خير الصبغ، والصواب ما قرره رب العزة ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:١٣٨].

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة:١٣٨] أي: مستكينون خاضعون له، في حال كوننا متبعين ملة إبراهيم، مقرين بالخضوع لرب العالمين.

٦- الله ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم:

أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين من صحابة رسول الله ﷺ فمن بعدهم أن يردوا على اليهود الذين يخاصمونهم ويجادلونهم في الله ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ

﴿أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة:١٣٩] والحِجَاجُ الجدال والمخاصمة، ووجه مخاصمة اليهود لنا في الله أنهم يدَّعون أن الله ربٌّ لهم دون غيرهم، فأمرهم الله أن يقولوا لليهود: الله ربنا وربكم، ودعواكم أنه مختص بكم دون غيركم كذب وافتراء، وقد أكذبهم فيما سبق في دعواهم أنهم أصحاب الجنة، وأمرهم أن يقولوا لهم: لنا أعمالنا القائمة على التوحيد والإيمان، ولكم أعمالكم المتصفة بالشرك والكفران، ونحن له مخلصون، أي: موحِّدون، قال سعيد بن جبير: «الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله، فلا يشرك به في دينه، ولا يرائي بعمله» [البغوي: ١/ ١٥٧].

٧- **أمرنا الله أن نحاج اليهود قائلين لهم: أأنتم أعلم أم الله:**

والمسألة الثانية التي أمر الله المؤمنين أن يردوا على اليهود فيها دعواهم أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة:١٤٠].

وقد أمر الله المؤمنين أن يقولوا للمخاصمين في هذه المسألة: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة:١٤٠].

يقول الله لرسوله ﷺ: قل لهؤلاء المجادلين المخاصمين: أأنتم أعلم بواقع هؤلاء وحقيقته أم الله؟ وهذا سؤال يكشف المخاصم ويخزيه، فلا يملك أحد أن يقول: إنه أعلم من الله، فإذا كان الله هو الأعلم، فإنه - سبحانه - يقرر أن هؤلاء الذين خاصموا فيهم وهم إبراهيم والمذكورون معه لم يكونوا يهوداً ولا نصارى.

٨- **كتمان اليهود شهادة الله:**

قَرَّعَ اللهُ اليهودَ ووبَّخهم ووصفهم بأنهم أظلم الناس، لأنهم كتموا ما شهد الله به في كتابهم أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا مسلمين، ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة:١٤٠].

قال الحسن البصري بعد أن تلا هذه الآية: «والله لقد كان عند القوم من الله شهادة أن أنبياءه بُرآءُ من اليهودية والنصرانية». وعن الربيع في هذه الآية: «أهل الكتاب كتموا الإسلام، وهم يعلمون أنه دين الله، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل: أنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وكانت اليهودية والنصرانية بعد هؤلاء بزمان» [الطبري: ١/ ٥٧٤].

والشهادة التي كتمها اليهود موجودة في التوراة، ففي [سفر التكوين، الإصحاح السابع عشر: ٧] «وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك». وذكرت التوراة في [سفر التكوين، الإصحاح الثامن عشر: ١٨-١٩] أن «إبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية، ويتبارك به جميع أمم الأرض، لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برّاً وعدلاً لكي يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به». وختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾ [البقرة:١٤٠] ليدل على أنه أحصى عليهم أعمالهم وافتراءَهم وكتمانهم، وسيحاسبهم على ذلك في يوم القيامة.

٩- تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم:

ختمت الآيات في هذا النص بقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤١﴾ [البقرة:١٤١] عنى بالأمة التي خلت إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وهذه الأمة لها أعمالها، ولكم أنتم أيها اليهود والنصارى أعمالكم، ولا تسألون عما كانت تعمله تلك الأمة، وهذه الآية قد سبقت بنصها في الآية أربع وثلاثين ومائة، كررها ربُّ العزة تهديداً ووعيداً لليهود والنصارى.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل:

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- منذ أن قامت دولة الإسلام والمؤمنون يخوضون مع اليهود والنصارى معركة يدَّعون فيها أنهم هم الأفضل والأكمل، وقد طالبوا رسولنا ﷺ وأصحابه وأتباعه باتباعهم في دينهم، وقد أكذبهم رب العزة فيما ادعوه، وبيّن أن خير الملل ملة إبراهيم عليه السلام.

٢- لقّن الله - تبارك وتعالى - عباده المؤمنين الموحدين حججهم التي ينتصرون بها على الضُلاّل من أهل الكتاب وغيرهم، ويجب على المؤمنين أن يتعلموا هذه الحجج، لينتصروا بها على أعدائهم.

٣- أهل الكتاب يحاجُّون بغير علم، ويكذبون في خصامهم، ويتعالمون على ربِّ العزة سبحانه، ويكتمون شهادة الحق الموجودة في كتبهم.

٤- من الحجج العِظام الدالَّة على ضلال اليهود والنصارى أن إبراهيم والمذكورين معه، كانوا قبل اليهودية والنصرانية، فكيف يدَّعي اليهود والنصارى أنهم منهم.

٥- وعد اللهُ رسولَه ﷺ أن يكفيه اليهود والنصارى، وقد نصر الله رسوله ﷺ على اليهود، فأخرجهم من المدينة المنورة، ثم أخرجوا من الجزيرة العربية، واجتاح النصارى العالم الإسلامي في الحروب الصليبية، فكفاهم ربُّ العزة النصارى، ولم يزل المسلمون يحاربونهم حتى أخرجوهم من فلسطين ومما حولها، وهاهم اليهود يحتلون فلسطين اليوم، وقد تأخر النصر بسبب بُعد المسلمين عن دينهم، وسيكون النصر بحول الله عندما يستقيم المسلمون على دينهم.

٦- الإسلام صبغة الله تعالى، وليس مثله صبغة، وعلينا أن نتمثل الإسلام، ونصبغ به أنفسنا، فنكون بذلك الأكمل والأفضل.

٧- لا يجوز اتخاذ التوراة والإنجيل مصدر هداية بعد نسخهما وتحريفهما، وقد قال أبو هريرة: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال الرسول ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة:١٣٦]» [البخاري: ٤٤٨٥].

٨- يستحب لمن صلى ركعتين قبل صلاة الفجر أن يقرأ في الأولى منهما إحدى آيات هذا النص، وهو قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة:١٣٦]، روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر، في الأولى منهما ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة:١٣٦] التي في البقرة، وفي الآخرة منهما ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران:٥٢]»، وفي رواية عند مسلم عن ابن عباس أن الآية في الركعة الثانية: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران:٦٤] [مسلم:٧٢٧]. وهذا ليس دائماً، فقد روى أبو هريرة أن الرسول ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ١﴾ [الكافرون:١] و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الصمد:١] [مسلم:٧٢٦].

النص التاسع والعشرون من سورة البقرة
تحويل القبلة إلى المسجد الحرام

أولاً: تقديم

أثار اليهود عاصفة هوجاء عندما أمر الله - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ وأصحابه بالتوجه في صلاتهم إلى المسجد الحرام بعد أن كانوا يصلون إلى بيت المقدس، فكان الردُّ الإلهي على هذه العاصفة قويّاً مدويّاً، ووصم كل من اعترض على تحويل القبلة بأنه سفيه، فالله هو إله الكون وخالقه، والعباد ملكه، ومن حقه أن يوجه العباد الوجهة التي يريد.

إن مقتضى جعل الله الأمة الإسلامية خير الأمم أن يخصها بقبلة خاصة بها، لا تكون فيها تابعة لغيرها، وإنما وجّه الله المؤمنين إلى بيت المقدس أولاً اختباراً منه لهم، فقد كانوا معظمين للمسجد الحرام، وكان يشقّ عليهم التوجه إلى غيره، فاختبرهم بالتوجه أولاً إلى المسجد الأقصى.

لقد وجد عند الرسول ﷺ رغبة قوية في أن يحوله ربه إلى المسجد الحرام، فكان الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء منتظراً أن يأتيه الوحي بهذا التحويل، فاستجاب الله له، فولاه القبلة التي يحب، وأمر أصحابه وأمته بقصد المسجد الحرام في صلاتهم في أي مكان كانوا، وأخبرنا أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا التحويل حقٌّ وصدق.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- السفهاء يثيرون عاصفة هوجاء على تحويل القبلة:

كان الرسول ﷺ في فاتحة أمره يصلي نحو بيت المقدس، وكان يجعل الكعبة عند صلاته بين يديه - وهو في مكة - ، فلما هاجر إلى المدينة كان يصلي إلى جهة الشمال جاعلاً الكعبة

خلفه، واستمر الحال على ذلك ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وقام في نفس الرسول ﷺ رغبة قوية في أن يوجهه الله في صلاته إلى المسجد الحرام، أول بيت وُضع للناس، وهو الذي في مكة، فلما وجهه الله إليه، أثار السفهاء من اليهود ومشركي العرب والمنافقين عاصفة من الشبهات حول هذا التحويل، وقد سمّى الله كل من شارك في هذه العاصفة بالسفهاء، ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ [البقرة:١٤٢].

والسفه: خفة في العقل، يؤدي بصاحبه إلى تصرفات حمقاء، بعيدة عن الصواب والاتزان، وهل هناك سفه فوق سفه الذين اعترضوا على أوامر الله ونواهيه، فيما شرعه الله لعباده، قال ابن عطية: «السفهاء هم خفاف الأحلام والعقول، والسفه: الخفة والهلهلة، ثوب سفيه غير متقن النسج» [ابن عطية: ٢/ ١].

وقال ابن جرير: «أعلم الله - جلّ ثناؤه - نبيه محمداً ﷺ ما اليهود والمنافقون قائلون من القول عند تحويل قبلته وقبلة أصحابه من الشام إلى المسجد الحرام، وعلمه ما ينبغي أن يكون من ردِّه عليهم من الجواب» [تفسير ابن جرير: ١/ ٧٤٠].

٢- ردّ الله العليم الحليم على السفهاء الذين اعترضوا على تحويل القبلة:

وقد ردَّ الله على هؤلاء السفهاء المعترضين على تحويل القبلة قائلاً: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ [البقرة:١٤٢].

يقول الحقُّ - تبارك وتعالى - في ردّه عليهم: ماذا أنكرتم من تحويل القبلة، الجهات كلها لله - تبارك وتعالى - هو خالقها ومالكها، ويتصرف فيها كما يشاء ويريد، وليس لعباده أن ينكروا عليه تصرفه فيهم على النحو الذي يريده.

روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ صلَّى نحو بيت المقدس ستة عشر - أو سبعة عشر - شهراً، وكان رسول الله ﷺ يُحب أن يُوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [البقرة:١٤٤] فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - : ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ [البقرة:١٤٢] فصلى مع النبي ﷺ رجل، ثم خرج بعد ما صلى، فمرّ على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ ، وأنه توجه نحو الكعبة، فتحرّف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة» [البخاري: ٣٩٩].

وقد رد الله تبارك وتعالى على اليهود فيما قالوه في مواضع من كتابه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة:١٧٧]. فالله - سبحانه - صاحب الأمر والشأن، فحيثما وجهنا توجهنا، فنحن عبيده وتحت تصرفه، وقد أكرمنا - تبارك وتعالى - بهدايتنا إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وقبلته أشرف قبلة، وهي أول بيت وضع للناس في الأرض.

ومع كون اليهود اعترضوا على تحويل القبلة إلى المسجد الحرام، إلا أنهم في قرارة نفوسهم حسدونا على هداية الله لنا إليها، فعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إنهم - أي: أهل الكتاب - لم يحسدونا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله إليها، وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله إليها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين» [مسند أحمد: ٢٥٠٢٩].

٣- الأمة الوسط لا بد لها من قبلة خاصة بها:

جعل الله الأمة الإسلامية أمة وسطاً، والوسط: الأفضل والأكمل والخيار، لأنه مركز الاتزان، فالوسط هو النقطة المتوسطة بين طرفين بدرجة متساوية، والتطرف مذموم، والاتزان والتوسط محمود.

والأمة الفاضلة لا بد أن تخص بقبلة لا تتبع فيها غيرها، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣] أي: مثلما جعلنا لكم قبلة خاصة بكم لا تتبعون فيها غيركم جعلناكم أمة وسطاً.

وكانت هذه الأمة أمة وسطاً لتوسطها في الدين بين الغلو والتقصير وبين الإفراط والتفريط، وقد صرح القرآن في موضع آخر بخيرية هذه الأمة، وأنها أفضل الأمم في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

٤- من ثمار الأمة الوسط أنها تشهد للرسل في يوم القيامة بأنهم بلغوا أممهم:

من ثمار وسطية هذه الأمة أن تكون شهداء على الناس في يوم القيامة، كما قال في هذه الآية: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

وقد أورد البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوحٌ وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلّغت؟ فيقول: نعم أي ربّ، فيقول لأمته: هل بلّغكم؟

فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول محمد ﷺ وأمته، فتشهد أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذكره: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣] والوسط: العدل» [البخاري: ٣٣٣٩].

٥- المؤمنون شهداء الله في الأرض:

ويدخل في الشهادة على الناس شهادة الأخيار من هذه الأمة على غيرهم، فعن أنس ﷺ قال: «مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة، فأثنوا عليها خيراً، فقال: وَجَبت، ثم مُرَّ بأخرى، فأثنوا عليها شراً - أو قال: غير ذلك - فقال: وَجَبت، فقيل: يا رسول الله، قلت لهذا: وجبت، ولهذا وجبت. قال: شهادة القوم، المؤمنون شهداء الله في الأرض» [البخاري: ٢٦٤٢].

وعن أبي الأسود قال: أتيتُ المدينة وقد وقع بها مرض، وهم يموتون موتاً ذريعاً، فجلستُ إلى عمر ﷺ ، فمرّت جنازة فأُثنيَ خيراً، فقال عمر: وجبت، ثم مُرَّ بأخرى فأُثني خيراً، فقال عمر: وجبت. ثم مُرَّ بالثالثة فأُثني شراً، فقال: وجبت. فقلتُ: وما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلتُ كما قال النبي ﷺ : «أيُّما مسلم شهد له أربعة بخير، أدخله الله الجنة، قلنا: وثلاثة؟ قال: وثلاثة، قلنا: واثنان؟ قال: واثنان، ثم لم نسأله عن الواحد» [البخاري: ٢٦٤٣].

٦- الحكمة من توجيه المسلمين أولاً إلى بيت المقدس:

أعلمنا الله - تبارك وتعالى - أنه لم يجعل القبلة التي كنا عليها أولاً، وهي بيت المقدس إلا ليعلم من يتبع الرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة:١٤٣] فالمؤمن الصادق من أتباع محمد ﷺ عندما يأمره الرسول ﷺ بالتحول عن قبلته إلى قبلة أخرى، يكون كلُّ همه هو التوجه إلى حيث أمره الله، ولا يخطر بباله تلك الوسوسات التي تدلُّ على الشك والريب وضعف الإيمان.

انظر إلى الصحابي الجليل سعيد بن المعلى، عندما حضر الرسول ﷺ في مسجده، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ [البقرة:١٤٤] قال لصاحبه: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ، فنكون أول من صلَّى، فتوارينا، فصليناها، ثم نزل الرسول ﷺ فصلى للناس الظهر يومئذ [الناسخ والمنسوخ في القرآن، لأبي عبيد القاسم ابن سلام: ١/ ٢٠، الحديث (٢٣)، السنن الكبرى للنسائي: ١٠/ ١٧، الحديث (١٠٩٣٧) وفي إسناده ضعف].

وبعض الصحابة لم يعلموا بتحول القبلة إلى المسجد الحرام إلا في صلاة الصبح من اليوم التالي، أخبرهم من مر بهم أنه صلاها مع الرسول ﷺ بالأمس إلى المسجد الحرام،

فداروا وهم في الصلاة راكعين، فتحول الإمام إلى جهة الجنوب بعد أن كان في جهة الشمال، وتوجه الرجال إلى المكان الذي كان يقف فيه النساء، وكذلك النساء تحولن إلى الجهة الأخرى، ولم يخطر ببال الواحد منهم غير الاستجابة لما أمر الله به.

وروى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمر قال: «بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمِر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة» [البخاري: ٤٠٣].

٧- المراد بعلم الله من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه:

الله عالم بكل شيء منذ الأزل، فما وجه قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ [البقرة:١٤٣] والجواب: أن المراد بهذا العلم علم الظهور، أي: علم الله بالفاعلين حال كونهم متلبسين بالفعل، وليس المراد به علم الله بهم قبل فعلهم، فالعلم قبل التلبس بالفعل مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما صحّ في الأحاديث.

٨- التحول في الصلاة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام أمر عظيم شاق إلا على الذين هداهم الله:

الصحابة الكرام الذين بادروا بالتحول إلى القبلة التي أمر الله بها هم الذين عناهم الله بقوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة:١٤٣] فالصحابة ومن سار مسارهم هم الذين هداهم الله، فسهل عليهم التحول إلى المسجد الحرام من غير عناء، وكذلك أهل الإسلام الذين جاؤوا من بعدهم.

وأما غيرهم فالأمر عليه شاق وكبير، وليس من السهل استيعابه وفقهه، وقد عظم أمر تحويل القبلة على اليهود، وعباد الأصنام من العرب، والمنافقين.

٩- الله لا يضيع صلاة من صلّى إلى بيت المقدس:

تساءل الصحابة عن صلاة الأحياء والأموات منهم إلى بيت المقدس، فأخبرهم ربنا - تبارك وتعالى - أنه لا يضيع من تلك الصلاة شيئاً، وسمى الصلاة إيماناً، لأنها داخلة فيه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾ [البقرة:١٤٣] روى الترمذي في سننه عن البراء بن عازب قال: «مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا، فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة:١٤٣]» [البخاري:٤٠].

١٠- سعة رحمة الله بعباده:

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣] أخبرنا الله عز وجل أنه رؤوف رحيم بنا، والرأفة أشد الرحمة، وقد بيّن الرسول ﷺ لأصحابه وأمته سعة رحمة الله بعباده، ففي البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلَّبَ ثديُها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها» [البخاري: ٥٩٩٩. ومسلم: ٢٧٥٤].

١١- ترديد الرسول ﷺ وجهه إلى السماء:

أعلم الله رسوله ﷺ في هذه الآية أنه رأى ترديد وجهه في السماء، منتظراً أن يأتيه الوحي بتوجيهه إلى المسجد الحرام، فوجَّهه الله إلى القبلة التي طلبها من ربه تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:١٤٤] وهذا النص يدل على أن الرسول ﷺ كان يتطلع إلى أن يحول الله قبلته إلى المسجد الحرام، وكان يردد بصره في السماء مرة بعد مرة، آملاً أن يأتيه الوحي بذلك، فاستجاب الله له، وولاّه قبلة يرضاها، وأمره بأن يولي وجهه ناحية المسجد الحرام.

وأخبر الله رسوله ﷺ أن أهل الكتاب يعلمون يقيناً أن هذا التوجه إلى البيت العتيق هو حقٌّ من عند الله، وسيحاسبهم في يوم القيامة على كتمانهم لهذا الحق ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة:١٤٤] وكون أهل الكتاب يعلمون ذلك، فيه دليل على أن ذلك موجود في كتبهم وعن أنبيائهم.

رابعاً: ما يهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر آيات هذا النص الكريم نجدها تهدينا وترشدنا إلى ما يأتي:

١- الذين يعترضون على شرع الله وأحكامه سفهاء، لا فرق في ذلك بين الأحبار والرهبان وأساتذة الجامعات، والعاملين في مراكز الأبحاث، ومن هؤلاء الذين اعترضوا على تحويل القبلة في القديم والحديث.

٢- ينبغي أن يُعرَّف أبناء الإسلام بما يطرحه أعداء الإسلام من شبهات، ويبين لهم وجه الرد عليها، اهتداءً بهدي الله الذي عرّف المسلمين بما سيقوله السفهاء بخصوص تحويل القبلة، وردّ عليهم الباطل الذي قالوه.

٣- ردّ الله على الذين اعترضوا على تحويل القبلة بأن الجهات كلها لله تعالى، والله هو الإله المعبود الملك، ومن حقه أن يوجه العباد الوجهة التي يريد.

٤- الأمة الإسلامية هي الأمة الوسط، وتظهر وسطيتها وفضلها في يوم القيامة عندما تشهد للرسل أنهم بلَّغوا أممهم، عندما تزعم تلك الأمم أنهم لم يبلغوهم.

٥- الرسول ﷺ يشهد على أمته في يوم القيامة أنه بلغهم رسالة الله.

٦- الحكمة من وراء تحويل القبلة اختبار الله عباده ليظهر من ينقاد للرسول ﷺ ويتبعه ممن يرفض ذلك، ويرتد على عقبيه.

٧- تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام أمر عظيم شاق على النفوس، إلا على النفوس المؤمنة المهتدية.

٨- الأعمال الصالحة داخلة في الإيمان، فقد أدخل الله الصلاة في مسمى الإيمان في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣].

٩- الأمة الفاضلة لا بد أن تنفرد بقبلة خاصة بها، حتى لا يكون للناس عليهم حجة في أنهم تبع لغيرهم في قبلتهم.

١٠- الأحياء والأموات الذين صلوا إلى قبلة بيت المقدس قبل تحويلهم إلى المسجد الحرام مأجورون مثابون في صلاتهم تلك، وسنّة الله أن لا يضيع أجور من فعل ذلك.

١١- القبلة التي وجه الله المسلمين إليها أفضل قبلة، فهي أول بيت وضع للناس في الأرض، بناها نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل، وفرض الله على الناس الحج إليها، والصلاة عندها بمائة ألف صلاة.

١٢- يجب على المصلي الذي يطيق التوجه إلى المسجد الحرام التوجه إليه في أي بقعة من الأرض كان، فإن كان يراها وجب أن يصيب عينها، وإلا وجب إصابة جهتها.

١٣- تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام دليل قوي على جواز النسخ ووقوعه.

١٤- بعض الصحابة لم يبلغهم تحويل القبلة إلا بعد صلاة أو أكثر، وهذا يدل على صحة عمل من عمل بالمنسوخ حتى يبلغه الناسخ.

١٥- يجب العمل بخبر الواحد الثقة، فقد تحوَّل المصلون في مسجد قباء في صلاة الفجر عندما أخبرهم من صلى مع رسول الله ﷺ أن القبلة حُوِّلت إلى المسجد الحرام في صلاة الظهر من اليوم السابق [البخاري: ٤٤٨٨، مسلم: ٥٢٦].

١٦- أهل الكتاب يعلمون بأن قبلة محمد ﷺ ستكون إلى المسجد الحرام، ولكنهم كانوا يخفون ذلك.

١٧- ذهب مالك أن المصلي ينظر في قيامه أمامه، لقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤]، والصحيح ما ذهب إليه أبو حنيفة والشافعي وأحمد أنه ينظر إلى موضع سجوده، لفعل الرسول ﷺ ذلك، ولأنه أبلغ في الخشوع، وآكد في الخضوع.

١٨- ذهب قلة من أهل العلم إلى أنه يجب على المصلي الذي غابت الكعبة عنه إصابة عينها، وهذا غير صحيح، لأنه تكليف بما لا يطاق.

١٩- قبلة اليهود إلى المسجد الأقصى بعد أن نسخها الله أصبحت قبلة باطلة منسوخة.

النص المتمم للثلاثين من سورة البقرة
استمساك أصحاب كل دين بقبلتهم

أولاً: تقديم

لا يزال الحديث مستمراً في آيات هذا النص في شأن تحويل القبلة، وقد أطال الله الحديث عن ذلك، لأن أهل الكتاب لا يزالون إلى اليوم يثيرون حوله الشبهات، ويحاولون أن يجدوا فيه ثغرة ينفذون منها إلى إضلال المؤمنين، وقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الصراع والحجاج حول القبلة لن يحسم القضية، فمهما بذلنا من جهد فلن نُحوِّلَ اليهود والنصارى إلى قبلتنا، ومهما بذلوا من عناء، فلن يحولونا إلى قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، وقد حذرنا الله تحذيراً شديداً عندما وجه الخطاب إلى الرسول ﷺ محذراً إياه من اتباع أهواء اليهود والنصارى، من بعد ما أنزل الله إليه العلم، فإن فعل ذلك فإنه من الظالمين.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة البقرة

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اختلاف أهل الأديان في شأن القبلة لن يوقف الحجاج والخصام:

أعلم الله نبيه محمداً ﷺ أنه مهما جاء به اليهود من آيات بينات دالة على صحة قبلته، وعدم صحة قبلتهم، فلن يتابعوه في قبلته ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ﴾ [البقرة:١٤٥]. وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه مهما بذل اليهود من عناء فلن يتبع الرسول ﷺ وأصحابه وأمته قبلة اليهود ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾ [البقرة:١٤٥].

كما أخبرنا أن اليهود والنصارى لن يتبع بعضهم قبلة بعض ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة:١٤٥] فاليهود يصلُّون إلى بيت المقدس، والسامريون منهم يصلون إلى جبل قرب مدينة نابلس، والنصارى يتجهون إلى جهة الشرق في صلاتهم، وخبر الله خبر صادق، فقد مضى على هذا الخبر أكثر من ألف وأربعمائة عام، وكل أصحاب دين مستمسكون بقبلتهم لم يفارقوها.

٢- تحذير الله رسوله من اتباع أهواء اليهود:

حذر الله - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ أن يتبع أهواء اليهود والنصارى ويترك الحق الذي أنزل إليه، فإن فعل فإنه من الظالمين، والرسول ﷺ لن يتابع اليهود أو النصارى بحال، وحاشاه أن يفعل ذلك، ولكن هذا التحذير إنما هو تحذير للأمة الإسلامية، وتوجيهه للرسول ﷺ أبلغ في تحذير الأمة، من توجيهه إليها مباشرة.

وكلُّ من يتابع اليهود يكون ظالماً، لأنه يترك الحق المنزل عليه من عند الله، ويأخذ الباطل المفترى، وبئس حال من فعل ذلك.

٣- السبب في عدم متابعة اليهود والنصارى لنا في قبلتنا:

بيَّن الله لنا أن اليهود لا يتبعون قبلتنا؛ لأنهم يعلمون في قرارة نفوسهم أنَّ محمداً ﷺ مرسل من ربه، يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم، فالتوراة والإنجيل بشَّرا به، وأعلما اليهود بصفاته وأسمائه، وأمروا فيهما بالإيمان به ومتابعته، ولكنهم يكتمون الحقَّ ويخفونه متعمدين هذا الإخفاء، فكفرهم كفر عناد واستعلاء ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة:١٤٦].

وأخبر - تعالى - رسوله والمؤمنين معه أنهم لن يتبعوا قبلة اليهود والنصارى، لأن المؤمنين لا يقبلون بغير ما جاءهم الله به، ويعتقدون جازمين أن الهدى فيه، وأن ما عليه اليهود والنصارى ضلال، فكيف يتابعونهم على ضلالهم ويتركون هداهم، قال تعالى مقرراً أن الحق هو المنزل من عنده على رسوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة:١٤٧]، والمعنى: فلا تكونن من الشاكِّين.

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن أهل الأديان الباطلة لن يتبع بعضهم بعضاً، ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة:١٤٥] ذلك أن أهل هذه الأديان مختلفون في أهوائهم، فبعد بعثة محمد ﷺ وتحويل القبلة أصبحت القبلة الصحيحة قبلته، وقبلة اليهود هوىً متبعاً، وكذلك قبلة النصارى، فما هم عليه إنما هو أهواء تتصارع فيما بينها.

٤- تقرير الله - عز وجل - أن لكل أصحاب دين وجهة هو موليها:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة:١٤٨].

يقول الحقُّ - سبحانه وتعالى -: ولكلٍّ ملة من الملل وجهة يستقبلونها في صلاتهم، قال ابن كثير: «قال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليها، وللنصراني وجهة هو موليها، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة، وروي عن مجاهد، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، نحو هذا» [ابن كثير: ١/ ٤٣١].

وأمرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نستبق الخيرات، أي: أمرنا أن نسارع إلى استقبال القبلة التي وجهنا الله إليها، وهي الكعبة، وقد فعل الصحابة ذلك كما مرَّ معنا، فمنهم من صلى ركعتين بعد أن قرأ الرسول ﷺ آيات تحويل القبلة، والذين بلغهم تحويل القبلة وهم في الصلاة، استداروا إلى القبلة الجديدة وهم في صلاتهم، ولم ينتظروا إلى الصلاة التالية.

ويبقى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨] أعمُّ وأوسع من أن تقصر المسابقة على القبلة، فالمراد المسارعة بفعل الخيرات من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها من الأعمال الخيِّرة.

وقد استثار ربنا عباده للمسارعة إلى فعل الخيرات بإخباره إياهم أنهم أينما كانوا وحيثما حلُّوا سيجمعهم بين يديه، وسيحاسبهم على ما قدَّموه، وسيجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي الذين أساؤوا بما عملوا، وهو على ذلك سبحانه قادر، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة:١٤٨].

٥- كرر الله الأمر بتولية الوجه إلى المسجد الحرام ثلاث مرات:

أمرنا الله بأن نولي وجوهنا إلى المسجد الحرام في الآية الرابعة والأربعين ومائة في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة:١٤٤]. وكرر الله الأمر بالتوجه في الآية التاسعة والأربعين ومائة وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [البقرة:١٤٩]. ثم كرره في الآية التالية لها، وهذا من باب التأكيد، حتى لا يختلف عليه المسلمون بعد ذلك.

إن استقبال القبلة وإن كان حكماً جزئياً، ولكنه حكم كبير عظيم، له أثر كبير في وحدة الأمة في التوجه إلى ربها، فتوجُّه المسلمين إلى قبلة واحدة خمس مرات في اليوم والليلة يقارب

بين القلوب، ويسدد المسار، ويهدي للتي هي أقوم، وهذا التوجه لا يجوز أن يقبل فيه خصام اليهود ولا نزاع النصارى، فقد أثاروا النزاع والخصام عندما تنزلت آيات تحويل القبلة، ولم يتوقفوا عن إثارة الشبهات، فهم لا يزالون يرددون مفترياتهم حتى اليوم، ولذلك فإن الله أمر بالتوجه إلى الكعبة في ثلاث آيات، كلُّها في موضع واحد.

٦- وجهنا ربنا إلى قبلة خاصة بنا كي لا يكون للناس علينا حجة:

أمر الله رسوله ﷺ وأمرنا معه أن نولي وجوهنا إلى المسجد الحرام حيثما كنا من الأرض، فالذين في شرق المسجد الحرام قبلتهم جهة الغرب، والذين في جهة الغرب قبلتهم جهة الشرق، وهكذا الذين في الشمال أو الجنوب، قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:١٥٠]، وأخبرنا سبحانه وتعالى أن هذا الذي أمرنا به يوقف شبهات خصومنا، فاليهود استطالوا على المسلمين عندما كانوا يتجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس، فخصَّ الله المسلمين بقبلة لهم دون غيرهم، فالأمة الفاضلة الخيِّرة لا يجوز أن تبقى تابعة لغيرها في قبلتها، ويقول هؤلاء لها: أنتم تبع لنا في القبلة، ولولانا لما عرفتم قبلتكم. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة:١٥٠].

والذين سيكررون الشبهات، ويحملون راية الخصام والعناد من الكفرة هم الظلمة، وهؤلاء لا يجوز أن نلقي لهم بالاً، وعلينا أن لا نخشاهم، وعلينا أن نخاف الله وحده، وقد وعدنا ربنا - تبارك وتعالى - بأن يتمَّ نعمته علينا، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة:١٥٠] وقد أتم ربنا علينا نعمته سبحانه ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة:٣] نزلت قبل وفاة الرسول ﷺ بزمن قصير.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر في آيات هذا النص الكريم نجدها تهدينا إلى ما يأتي:

١- لا يجوز أن يختلف المسلمون في القبلة التي يتوجهون إليها من أجل ذلك أمرنا الله في ثلاث آيات أن نتوجه في صلاتنا إلى المسجد الحرام، فإن كان المصلي يرى عين الكعبة وجب عليه إصابة عينها، وإن صلى بعيداً عنها وجب عليه إصابة جهتها.

٢- كل أصحاب ملَّة يدَّعون أن قبلتهم هي الصحيحة، ويدْعون الآخرين إلى متابعتهم، والحق الذي دلَّ عليه القرآن وصحيح الأحاديث أن القبلة الصحيحة هي الكعبة، فعلى من يريد الحق أن يتوجه إلى الكعبة في صلاته.

٣- الخصام والنزاع بين الأديان في تحديد القبلة لن يؤدي إلى اتفاق بينهم، وسيبقى كل فريق مستمسكاً بما هو عليه إلى يوم الدين.

٤- على المسلمين أن يحذروا من متابعة اليهود والنصارى في شرائعهم وأعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم، فالحقُّ ما أنزله على رسوله في كتاب الله وفي سنّة رسوله ﷺ .

٥- للقبلة أثر عظيم في وحدة الأمة الإسلامية، والقبلة التي وجّه الله المسلمين إليها معلم أصيل لازم لأفضلية الأمة، فهي قبلة خاصة بنا، ولسنا فيها تبعاً لغيرنا.

٦- ذمَّ الله اليهود الذين يعلمون أن قبلة محمد ﷺ وأمته المسجد الحرام، ولكنهم كتموا الحق الذي ائتمنهم الله عليه، وهم يعلمون بذلك الحق.

النص الحادي والثلاثون من سورة البقرة
فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون

أولاً: تقديم

امتنَّ الله - تبارك وتعالى - على هذه الأمة، وخاصة الرعيل الأول منها بإرساله إليها رسولاً من أنفسها، جعلهم الله به خير الناس، فقد تلا عليهم آيات الله التي أنزلت عليه، وزكَّاهم، فأصلح منهم القلوب والأرواح، وعلَّمهم ما حواه الكتاب المنزل من إيمان وأحكام وأخلاق وقيم، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه، وهذا يوجب عليهم الإكثار من ذكر الله وشكره، ويوجب عليهم أن يداوموا على ذلك مستعينين بالصبر والصلاة.

ومن الأعمال العظيمة التي ناطها الله بهذه الأمة الجهاد في سبيل الله، والجهاد يقضي بأن ينفق المسلمون أموالهم في إعداد العدة والإنفاق على الحرب، وإعداد المقاتلين، وسيسقط في الميدان صرعى، يستحقون مرتبة الشهادة، وهؤلاء ليسوا بأموات بل أحياء عند ربهم يرزقون.

وأخبرنا ربنا ونحن نقوم بما كلَّفنا به أننا سنواجه المصاعب والمشاق، فكلٌّ من حمل الرسالة الإلهية، سيبتلى بشيء من الجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشَّر الله الصابرين على البلاء، القائلين عندما تصيبهم اللأْواءُ: إنّا لله وإنا إليه راجعون، ويطلبوا العون من الله بالصبر والصلاة، أولئك الصابرون يحل الله عليهم رضوانه ورحماته، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة البقرة

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- امتنان الله على هذه الأمة ببعثه فيهم رسولاً منهم:

امتنَّ الله سبحانه على صحابة رسوله ﷺ، والذين جاؤوا من بعدهم بالنعمة العظمى التي جعلهم بها خير أمة أخرجت للناس، وهي بعثة محمد فيهم، فكان رسولاً منهم، يلقي

عليهم آيات القرآن، ويزكي نفوسهم، ويطهرها، ويعلمهم ما حواه كتابهم من الإيمان والإسلام والأحكام والأخلاق والقصص، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه، فعرفهم بربهم وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة:١٥١].

وعلينا أن نستحضر ونحن نفسر هذه الآية الكريمة دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان القواعد من البيت العتيق، ويقولان: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة:١٢٩]. وبتدبر الآية المتأخرة، وهي قوله ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ ...﴾ [البقرة:١٥١] نجدها تردد ما دعا به نبي الله إبراهيم للنبي الخاتم بالألفاظ نفسها، مما يدلُّ على أن محمداً ﷺ كان هو دعوة إبراهيم.

وقد تضمنت هذه الآية الواجبات التي ناطها الله برسوله ﷺ تجاه أمته، وتحقيق الأمة هذه الواجبات يجعل منها الأمة الخيرة الفاضلة، وأنت إذا دققت النظر فيما يكتسبه المؤمنون من رسولهم، تجد أن هذه الأمة أصبحت أمة رسالية، لدى علمائها فيض من العلم الإلهي الرباني، وهي زاكية النفوس، تموج حياتها بعلوم الكتاب، وتتدفق فيها ينابيع الحكمة.

لقد جاءَها رسولها بما لم تكن تعلمه وتعرفه، لقد كان العرب أصحاب القصائد الشعرية الرائعة، والخطب الرنانة، يتفاخرون بالجود والكرم، فإذا بالرسول ﷺ يرفعهم إلى مصافِّ الأولياء الصالحين الأخيار بما جاءَهم به من علم وهدى.

٢- وعد الله المؤمنين بذكرهم إذا هم ذكروه:

وعد الله المؤمنين بذكرهم إذا هم ذكروه، فقال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة:١٥٢]. وقد بيّن لنا القرآن والسنّة النبوية المطهرة الطريقة التي نذكر الله بها بعيداً عن البدع والخرافات.

وقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي، وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرَّب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» [البخاري: ٧٤٠٥، ومسلم: ٢٦٧٥].

٣- استعانة المسلم بالصبر والصلاة:

وذكر الله وشكره يرقق القلوب، ويزكي النفوس، ويصل العباد بالله الواحد الأحد، وقد يضعف عزم المسلم وهمُّه وهو يؤدي الدور الذي ناطه الله به، وهنا عليه أن يستعين بالصبر والصلاة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣]. أمر الله في هذه الآية المؤمنين وهم يحملون أعباء الرسالة، ويصوغون بها حياتهم، وحياة إخوانهم، وهم يذكرون الله ويشكرونه أن يستعينوا بالصبر والصلاة، وقد سبق أن خاطب الله بني إسرائيل بمثل هذا الخطاب فيما سبق من السورة، فقال: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥].

يقول الأستاذ سيد قطب عند هذه الآية في ظلاله: «يتكرر ذكر الصبر كثيراً في القرآن، ذلك أن الله يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات، والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، مجندة القوى، يقظة للداخل والخارج، ولا بد من الصبر في هذا كله، لا بد من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على جهاد المشاقين لله، والصبر على الكيد وصنوفه، والصبر على بطء النصر، والصبر على بُعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقلة العناد، ومضاضة الإعراض» [في ظلال القرآن: ١/ ١٤١].

ومع الاستعانة بالصبر، لا بد من الاستعانة بالصلاة، فوقوف المصلي بين يدي الله، يقرأ القرآن، ويسبح بحمد ربه، ويقدسه ويمجده، يسكب الرضا في قلبه، ويصله بالله خالقه ومبدعه، ويعينه على حمل الأمانة والقول الثقيل، وقد وجّه الله رسوله ﷺ بالقيام إلى الصلاة ليلاً طويلاً، ليعدّه لتحمل القول الثقيل الذي يُلقى عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل:١-٤].

وكان الرسول ﷺ وأصحابه، والصالحون من هذه الأمة يفزعون إلى الصلاة إذا حزبهم أمر، فيذهب الله غمهم، ويزيل ما بهم من بأس، ويجدون بها الراحة والسكينة.

وقد وعد الله - تبارك وتعالى - الصابرين بأن يكون معهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:١٥٣].

٤- أجر المجاهدين في سبيل الله:

من التكاليف العِظام التي كلف الله بها أمة الإسلام الجهاد في سبيل الله، والجهاد له مقتضياته، ففي ميدان العراك والنزال تستنزف الأموال، وتزهق الأرواح، ولا أعزَّ على الإنسان من نفسه وماله، ولذلك أعظم الله الأجر للمجاهدين، فعندما يسقطون في ميدان النزال، توهب لهم حياة عظيمة أعظم من هذه الحياة، وقد نهانا ربنا عن القول بأن هؤلاء الشهداء أموات، بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة:١٥٤]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩].

وقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق قال: سألنا عبدالله (هو ابن مسعود) عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩] قال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خُضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا رب! نريد أن تُردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا» [مسلم: ١٨٨٧].

ومن أثر الحياة العظيمة التي توهب للشهداء أن تحفظ أجسادهم بعضهم في قبورهم بعد وفاتهم مُدَداً الله أعلم بمداها، وقد تواتر ذكر هذه الخاصية للشهداء منذ عهد الصحابة وإلى اليوم، وحياة الشهداء ليست كحياتنا في هذه الدنيا، ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة:١٥٤] أي: لا تشعرون بأنهم أحياء، بل حياتهم أمر غيبي عرفناه بإعلام الله لنا به، لا بالمعرفة بالحواس.

٥- أنواع البلاء التي ابتلى الله بها عباده من هذه الأمة:

إن ابتلاء الله -تبارك وتعالى- لهذه الأمة لا يقف عند حدود الاستشهاد في ميدان القتال، فقد ذكر الله -تبارك وتعالى- شيئاً كثيراً مما يبتلي الله به هذه الأمة، وهي تواجه خصومها: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة:١٥٥].

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه سيبتلينا ويختبرنا بشيء من الخوف والجوع، فقد تذهب الأموال، وقد يموت الأبناء أو الآباء أو الإخوة، وقد يصيبنا المَحْل، وكل ذلك ألوان من البلاء، وإذا أردت أن تنظر إلى صورة هذه الآية في الواقع، فانظر إلى حياة الرسول ﷺ وأصحابه، فقد ابتلوا بذلك كله، فصبروا، وقد بشر الله الصابرين بما أعدَّ لهم من الأجر والثواب ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر:١٠] ثم عرَّفنا ربنا تبارك وتعالى أن الصابرين هم الذين إذا أصابتهم مصيبة ملكوا زمام أنفسهم، واسترجعوا ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة:١٥٦].

إن علامة الصابرين الذين بشَّرهم ربنا بالأجر العظيم هم الذين يتسلون عما أصابهم بقولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة:١٥٦]، فهم يقرون بأنهم ملك له، يتصرف فيهم كما يشاء، وكما يريد، وسيحشرون إليه سبحانه، فيجزيهم على صبرهم أحسن الجزاء.

وقد أثنى سبحانه وتعالى على هذا النمط الخيِّر من هذه الأمة بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ﴾ [البقرة:١٥٧]. فهؤلاء عليهم صلوات من ربهم، لا صلاة واحدة، وهذه الصلوات تصب عليهم صبّاً، فيجدون أثرها في قلوبهم وفي حواسهم، ومع الصلوات التي تصب عليهم توهب لهم رحمة الله، وهؤلاء هم المهتدون، الذين وفَّقهم ربهم إلى الطريق الأقوم في مثل هذه الأحوال.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن الصبر المرضي عنه عند الله يكون عند الصدمة الأولى، ففي الحديث الذي يرويه أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» [البخاري: ١٢٨٣. ومسلم: ٩٢٦]. أما الذين تطيش أحلامهم، وينتفون شعورهم، ويمزقون ملابسهم، ويصرخون بأعلى أصواتهم مستنكرين ما يحلُّ بهم، فهؤلاء بعيدون عن الصبر.

ومن أصابته مصيبة وصبر كما أراد الله له أن يصبر، وقال ما يحسن به أن يقول، عوَّضه الله خيراً مما أخذ منه، فعن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها».

قالت: «فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ » [مسلم: ٩١٨].

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن الصبر على المصائب يرفع الدرجات، ويمحو الخطايا والسيئات، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقه، إلا كتبت له بها درجة، ومحيت بها عنه خطيئة» [البخاري: ٥٦٤٠، مسلم: ٢٥٧٢].

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه» [البخاري: ٥٦٤١، مسلم: ٢٥٧٣].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من العلم والعمل

عندما نتدبر في آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من العلم والعمل:

١- خصَّ الله - سبحانه وتعالى - أمة الإسلام بأمرين عظيمين: **الأول**: التوجه في صلاتها إلى المسجد الحرام، وهذه القبلة أفضل قبلة وأعظمها، وهي أول بيت وضع للناس في الأرض، بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. **والثاني**: بعث فيها خير رسله وأنبيائه وهو محمد ﷺ.

٢- حوَّل الله الأمة العربية من أمة تسيح في الجزيرة العربية وراء إبلها، ويغير بعضها على بعض، وتتفاخر بالخطب والأشعار إلى أمة هي خير أمة أخرجت للناس، تحمل آيات الله في قلوبها، وتزكي نفوسها بهذا الدين الذي جاءَها به نبيها، وتعلم علم الكتاب الذي جاءَها من ربِّها، وتهتدي بالحكمة التي جاءَها بها رسولها، وتعلم ما لم تكن تعلمه مما جاءَها به رسولنا.

٣- هذه الأمة أمة ربانية، تديم ذكر الله وشكره، وتبتعد عن الكفر والشرك والذنوب والمعاصي.

٤- هذه الأمة وهي تحمل رسالة ربها في نفوسها، وتحملها إلى العالمين، تعاني معاناة كبيرة، وهي فيما تعانيه من صعاب ومشاق تتحلى بالصبر، وتقيم الصلاة، وبذلك يكون الله معها، يسدِّدها ويصوبها ويعينها.

٥- قد تصل مواجهة الأمة لخصومها إلى الحرب والقتال، فتجاهد بالمال والنفس وقد يسقط منها في ميدان النزال شهداء، وهؤلاء أحياء عند ربهم يرزقون.

٦- القتل في سبيل الله ليس هو البلاء الوحيد الذي يبتلى به المؤمنون، فقد يبتلون وهم يجاهدون في سبيل الله بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وهؤلاء يواجهون هذا البلاء بالصبر، فلا تطيش أحلامهم، ولا تزلزل قلوبهم، ويلجؤون إلى الركن الركين إلى الله رب العالمين، ويدعون قائلين: إنا لله وإنا إليه راجعون.

٧- وعد الله هؤلاء الأخيار أن يحل بهم صلواته ورحماته، ويهديهم السبيل الأقوم.

النص الثاني والثلاثون من سورة البقرة
مشروعية السعي بين الصفا والمروة

أولاً: تقديم

قرر الله - سبحانه وتعالى - في هذا النص الكريم أمرين مهمين: **الأول**: أن الصفا والمروة شعيرتان من شعائر الله، فلا حرج على من سعى بينهما إذا حج أو اعتمر، وبذلك رفع ما قام في نفوس الصحابة من التحرج من السعي بينهما.

والثاني: تقريع أحبار اليهود وعلماء النصارى الذين كتموا الحق الذي في التوراة والإنجيل بخصوص ما بشّر الله به بشأن نبيه محمد ﷺ وصفاته وأخلاقه ودينه وأمته.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الصفا والمروة شعيرتان من شعائر الله:

الصفا والمروة جبلان صغيران، شرع الله لمن حجَّ أو اعتمر أن يطوَّف بهما، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة:١٥٨].

«والصفا في اللغة الحجارة الصلبة الصلدة التي لا تنبت شيئاً، وهو جمع واحدته صفاة وصفا، مثل حصاة وحصى، والمروة والمرو: الحجارة اللينة، وهذان الموضعان من شعائر الله، أي: من أعلام متعبداته، وواحدة الشعائر شعيرة» [معاني القرآن للزجاج: ١/ ٢٣٣].

والشعائر: المعالم التي يُعبد الله بها أو عندها، كالجمال التي تنحر في الحج والأعياد ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج:٣٦]، فالبدن من الشعائر التي يُعبد الله بها في الحج، والصفا والمروة والمشعر الحرام وعرفات معالم يُعبد الله عندها في الحج.

والسعي بين الصفا والمروة من مناسك الحج التي عرَّفها الله لنبيه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، فقد دعوا الله تبارك وتعالى أن يريهما مناسك الحج، فقالا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة:١٢٨] وقد استجاب الله دعاءَهما، فأراهما مناسكهما، ومن جملة ذلك السعي بين الصفا والمروة.

٢- أول من سعى بين الصفا والمروة، وصفة ذلك السعي:

أول من سعى بين الصفا والمروة أُمُّنا هاجر أمّ إسماعيل، فقد جاء بها خليل الرحمن هي وابنها إسماعيل، ووضعهما هناك في وادٍ غير ذي زرع قرب المكان الذي سيبنى فيه بيت الله المحرم، ووضع عندهما قربة ماء وتمراً، فلما نفد الماء وعطش الغلام أخذت في طلب الماء له، وأخذت في السعي بين الصفا والمروة، حتى جاء جبريل عليه السلام، وأخرج لهما ماء زمزم.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس، قال: «أول ما اتخذ النساء المِنْطَقَ من قِبَل أُمِّ إسماعيل، اتخذت مِنْطقاً لتُعفِّيَ أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِراباً فيه تمر وسِقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتترُكنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يُضيِّعنا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم:٣٧].

وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدَ ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى - أو قال: يتلبَّط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف دِرعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس قال النبي: فذلك سعي الناس بينهما.

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صَهٍ تريدُ نفسَها، ثم تسمَّعت أيضاً، فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غِواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه

- أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس قال النبي ﷺ : يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً مَعيناً. قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضَّيعة، فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله» [البخاري: ٣٣٦٤].

وقد أورد ابن كثير طرفاً من قصة هاجر، ثم عقَّب على ذلك قائلاً: «لما نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم ﷺ هنالك، وليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك، ونفد ما عندهما، قامت تطلب الغوث من الله عز وجل، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة، متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز وجل، حتى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرج شدّتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها (طعام طعم، وشفاء سقم) فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذلَّه وحاجته إلى الله، في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله عزَّ وجلَّ، لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبته عليه إلى مماته، وأن يحوِّله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام» [ابن كثير: ١/ ٤١١].

٣- التعريف بالحج والعمرة في اللغة والاصطلاح:

والحج في اللغة: القصد، وفي الشرع: الإتيان بالمناسك التي شرعها الله لعباده، والعمرة في اللغة: الزيارة، وفي الشرع: الإحرام من الميقات، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، وقصّ الشعر أو حلقه.

٤- لا حرج على من حجّ أو اعتمر أن يطوّف بالصفا والمروة:

دلّ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨] أنه لا حرج ولا مأثم على الحاج والمعتمر من أن يسعى بين الصفا والمروة، والجناح: الإثم، أُخِذ من جنح إذا مالَ، وعدل عن القصد، وأصل يطوَّف: يتطوف، أدغمت التاء في الطاء لقرب المخرجين [معاني القرآن للزجاج: ١/ ٢٣٤] ويطوَّف، أي: يتردد ويسعى.

وهذه الآية تقرر بوضوح أن الله جعل السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج والعمرة، وما فعلته قريش من وضع الصنم إساف فوق الصفا، والصنم نائلة فوق المروة،

فكانوا إذا طافوا بينهما تمسحوا بهذين الصنمين، فلما فتح الرسول ﷺ مكة، وحطَّم الأصنام، وأزالها من حول الكعبة ومن الصفا والمروة رجعت مشروعية السعي بينهما من غير نكير.

٥- السبب في تحرج الصحابة من السعي بين الصفا والمروة في أول الأمر:

السبب في نزول هذه الآية أن بعض الصحابة تحرج من السعي بين الصفا والمروة، وهذا التحرج عائد لأحد أمرين:

الأول: أن الأنصار أهل المدينة في الجاهلية كانوا يُهِلُّون للصنم مناة الذي كان منصوباً على شاطئ البحر الأحمر عند منطقة تدعى المشلَّل، وكان من أَهَلَّ له يتحرج من السعي بين الصفا والمروة، فسألوا الرسول ﷺ عن تحرجهم ذاك، فأنزل هذه الآية.

قالت عائشة فيما يرويه عنها ابن أختها عروة بن الزبير: «أنزلت - أي: الآية التي تذكر الصفا والمروة - في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلُّون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان من أهلَّ يتحرج أن يطوَّف بين الصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [البقرة:١٥٨]» [البخاري: ١٦٤٣، مسلم: ١٢٧٧].

وروى عروة عن عائشة أيضاً: «أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا، هم وغسان يهلُّون لمناة، فتحرَّجوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة، وكان ذلك سنَّة في آبائهم، ومن أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة، وإنهم سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك حين أسلموا، فأنزل الله عز وجل في ذلك ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة:١٥٨]» [مسلم: ١٢٧٧].

الثاني: أن فريقاً من الصحابة الذين كانوا يطوفون بالبيت في الجاهلية، تحرجوا من الطواف بينهما ظانين أن الطواف بينهما من شأن أهل الجاهلية، فأنزل الله فيهم الآية، ذكر الزهري عن عروة بن الزبير أنه حدَّث أبا بكر بن عبدالرحمن بما حدثته عائشة، فقال: «إن هذا لعلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أن الناس - إلا من ذكرتْ عائشة ممن كان يهلُّ بمناة - كانوا يطوفون بين الصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن، قالوا: يا رسول الله كنا نطوَّف بين الصفا والمروة، وإن الله أنزل الطواف بالبيت، فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حرج أن نطوَّف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [البقرة:١٥٨]» [البخاري: ١٦٤٣، مسلم: ١٢٧٧].

والصواب من القول أن الآية نزلت في المتحرجين كلِّهم، قال أبو بكر بن عبدالرحمن: «فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما: في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون، ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام، من أجل أن الله أمر بالطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا، حتى ذكر ذلك، بعدما ذكر الطواف بالبيت» [البخاري: ١٦٤٣].

٦- لعن الله كاتمي الحق الذي أنزله:

بعد أن قرر سبحانه وتعالى أمر السعي بين الصفا والمروة، وأنه من شعائر الله توعد أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى في كتمانهم الحق الذي أنزله إليهم في التوراة والإنجيل، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة:١٥٩] والحقُّ الذي كتمه اليهود والنصارى هو ما يتعلق بشأن محمد ﷺ ودينه وأمته، ففي التوراة والإنجيل كثير في هذا الشأن، فاستكبر اليهود والنصارى عن إعلان هذا الحق والتصديق به، ومتابعته.

واللعن في لغة العرب: الطرد من رحمة الله، فالله عز وجل يطردهم من رحمته وجنته، والملائكة والناس يدعون الله أن يفعل بهم ذلك.

واستثنى رب العزة من الذين لعنهم الذين تابوا وأنابوا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة:١٦٠] استثنى ربُّ العزة من الملعونين المطرودين من رحمة الله وجنته الذين تابوا، أي: اعترفوا بما كان منهم من جريمة، وندموا واستغفروا، وأصلحوا الخلل الذي وقعوا فيه، ثم بينوا الحقَّ الذي كتموه، فهؤلاء يتوب الله عليهم، ويغفر لهم، ويتجاوز عن خطاياهم.

ثم بيّن الله - تبارك وتعالى - مصير الكفار على وجه العموم الذين يموتون على كفرهم، فأخبر أن لعنة الله تحيط بهم، وكذلك لعنة الملائكة والناس أجمعين، وهم خالدون في هذه اللعنة، وتتمثل هذه اللعنة في الآخرة بإدخالهم النار خالدين في عذابها، لا يخفف عنهم، ولا هم ينظرون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ [البقرة:١٦١-١٦٢].

ومعنى ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ أي: لا يمهلون عن العذاب، ولا يؤخر عنهم ساعة؛ بل هو دائم متواصل.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر في آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة من شعائر الله تبارك وتعالى، ولذا فإنه يجب على الحاج والمعتمر أن يسعى بينهما، على النحو الثابت عن رسول الله ﷺ وأصحابه، وذهب بعض أهل العلم إلى أن السعي بين الصفا والمروة مستحب في الحج والعمرة، وليس بواجب، ودليلهم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨] وقد احتج عروة ابن الزبير أمام خالته عائشة بالآية على ذلك، إذ قال بعد أن ذكر هذه الآية: فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة. فقالت له: «بئس ما قلت يا ابن أختي، إنَّ هذه لو كانت كما أوَّلتها عليه كانت: لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما».

وقالت له عائشة في ختام كلامها: «وقد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما» [البخاري: ١٦٤٣].

وقد سنّ الرسول ﷺ السعي بينهما بفعله، ففي البخاري عن ابن عمر قال: «قدم النبي مكة، فطاف بالبيت، ثم صلى ركعتين، ثم سعى بين الصفا والمروة، ثم تلا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]» [البخاري: ١٦٤٧، مسلم: ١٢٣٤].

وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه وأمته بالسعي، فعن حبيبة بنت أبي تجراة قالت: «دخلت على دار أبي الحسين في نسوة من قريش، ورسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، وهو يسعى، يدور به إزاره من شدة السعي، وهو يقول لأصحابه: اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» [عزاه الألباني في إرواء الغليل: (٤/ ٢٦٩) إلى أحمد: ٢٧٣٦٧، والحاكم: ٤/ ٧٩ الحديث (٦٩٤٤)، والطبراني: ٢٤/ ٢٢٦ الحديث (٥٧٣) وغيرهم، وذكر أن الذهبي ضعّفه، ولم يرتض الألباني تضعيفه له، وذكر أن له طريقاً إسنادها جيد عند الدارقطني والبيهقي، ونقل تصحيحه عن الحافظين المزي وابن عبدالهادي].

«ومذهب مالك والشافعي أن السعي بين الصفا والمروة فرض ركن في الحج، لا يجزي تاركه أو ناسيه إلا العودة، ومذهب الثوري وأصحاب الرأي أن الدم يجزي تاركه، وإن عاد فحسن، فهو عندهم ندب» [المحرر الوجيز لابن عطية: ٢/ ٤٠] والقول بالوجوب أظهر لما سبق من الأدلة، والله أعلم.

٢- لا يشرع التطوع بالسعي بين الصفا والمروة وحده، ولا يكون إلا في الحج والعمرة. ودليله الآية ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة:١٥٨] بخلاف الطواف بالكعبة، فإنه يكون في الحج والعمرة وفي غيرهما.

٣- كتمان العلم الذي أنزله الله جريمة يستحق صاحبها اللعن من الله، واللعن من الملائكة ومن الناس، ومن الذين كتموا العلم أحبار اليهود ورهبان النصارى، ومن العلم الذي كتموه ما أخبر به الله في التوراة والإنجيل عن نبينا وصفاته، وكتابه، ومهاجره ودينه، وأمته.

٤- الذين يتوبون عن كتمان العلم، ويعلنون العلم الذي كتموه، ويبينونه، يتوب الله عليهم، ويغفر لهم.

٥- يجوز لعن الكفار على وجه العموم كما صرَّح اللهُ بذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [البقرة:١٦١] ولا يجوز تخصيص الكافر المعين باللعن إلا المنصوص على كفره، كفرعون وهامان وقارون وأبي جهل وأمية بن خلف ونحوهم.

٦- استدلّ الرسول ﷺ على بدء الله بذكر الصفا قبل ذكر المروة على البدء بها حين يسعى بينهما، روى جابر أن النبي ﷺ حين قدم مكة طاف بالبيت سبعاً، وأتى المقام فقرأ ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة:١٢٥] فصلى خلف المقام، ثم أتى الحجر فاستلمه، ثم قال: «نبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا»، وقرأ: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة:١٥٨] قال أبو عيسى الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم، أنه يبدأ بالصفا قبل المروة، فإن بدأ بالمروة قبل الصفا لم يجزه، وبدأ بالصفا» [الترمذي: ٨٦٢ والحديث رواه مسلم: ١٢١٨].

النص الثالث والثلاثون من سورة البقرة
وحدانية الله وأدلة وحدانيته

أولاً: تقديم

هذا النص يتحدث عن أعظم قضية حواها هذا الدين، وهي وحدانية الله تبارك وتعالى، فهو الإله الواحد الذي لا إله إلا هو، وقد أورد هذا النص في الآية الثانية منه الدلائل الدالة على وحدانية الإله العظيم، ومن ذلك خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وغيرها من الآيات النافعة للعقلاء من الجن والإنس.

وفي الآية الثالثة من هذا النص ذمّ للناس الذين يتخذون من دون الله آلهة يحبونها كحبّ الله، والذين آمنوا أشد حباً لله، وقد تهدد الله المشركين بالله بالحديث عن مدى ضعفهم حينما ينزل بهم عذاب ربهم، وتحدث عن تبرُّؤ السادة المتبوعين يوم القيامة من الأتباع الضالين، الذين يريهم الله يوم القيامة أعمالهم حسرات عليهم، فيدخلون النار، ولا يخرجون منها.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إلهنا هو المعبود بحقٍّ الذي لا يستحق العبادة أحد سواه:

قرَّر الله في مطلع هذا النص أعظم قضية، وهي وحدانيته - سبحانه - ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣] أي: معبودكم الحقُّ معبود واحد، وهو الله سبحانه، والإله في لغة العرب المعبود، سواء أكان معبوداً بحق أو بباطل، والمعبود الحق الذي لا يستحقُّ العبادة غيره هو الله تبارك وتعالى، وكلُّ ما عبد من دون الله فهو معبودات باطلة.

والله سبحانه يستحق العبادة لاتصافه بصفات الجلال والكمال، فهو واحد في ذاته، واحد في صفاته وأسمائه وأفعاله، ومع كونه تبارك وتعالى جباراً قهاراً لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فهو رحمن رحيم، وهذان اسمان عظيمان دالان على صفة الرحمة.

وهذه الآية العظيمة حَوَت اسم الله الأعظم، روى الترمذي عن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣] وفاتحة آل عمران: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران:١-٢]» [الترمذي: ٣٤٧٨، وقال أبو عيسى الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح].

٢- الأدلة الدالة على وحدانية الله تبارك وتعالى:

وقد أورد سبحانه وتعالى ثمانية أدلة تدل على وحدانيته واستحقاقه العبادة وحده دون سواه، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

وأوّل الآيات وثانيها: خلق الله السماوات والأرض، وقد حدثنا ربنا سبحانه وتعالى في كتابه عن خلق السموات والأرض، فأخبرنا أنه خلقهما تبارك وتعالى بالحق ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ﴾ [الحجر:٨٥] أي: ليُعبد ويُطاع، ولم يخلقهما لعباً ولهواً ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء:١٦] وخلق السماء سبعاً طباقاً ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ﴾ [الطلاق:١٢] وقد أمرنا - تبارك وتعالى - أن ننظر إلى السماء فوقنا ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق:٦] وقد بني السماء بقوة وأوسع بناءها ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

وأخبرنا سبحانه أن السموات والأرض تسبح بحمد الله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ [الإسراء:٤٤]، وحدثنا ربنا عن الأرض طويلاً وكثيراً في كتابه، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ [الرعد:٣]، وقال: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر:١٩]، وقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ﴾ [النمل:٦١].

وفي حديث الله عن السماوات والأرض كثير من الأسرار التي لا يعلمها البشر مع كل هذا التقدم العلمي اليوم.

والآية الثالثة الدالة على وحدانيته وبديع صنعه: اختلاف الليل والنهار، كما قال عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢] واختلاف الليل والنهار تعاقبهما، فالليل يعقبه النهار، والنهار يعقبه الليل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان:٦٢]، وقال: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور:٤٤] وقد جعل الليل لننام فيه، والنهار لننطلق فيه لأعمالنا ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم:٢٣]، والليل شرعاً يبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، والنهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس كما دلت على ذلك آيات الصيام.

والآية الرابعة من آيات الله العظيمة الدالة على وحدانية الله: ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤] والفلك السفن التي تحمل الناس وأثقالهم ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون:٢٢] وقد توسَّع البشر في صناعة السفن اليوم، فهي تحمل الناس وبضائعهم، وتشقُّ البحار مشرقة ومغربة ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النحل:١٤].

وقد أنجى اللهُ - تبارك وتعالى - نوحاً والمؤمنين معه في الفلك المشحون، وأغرق الكفرة المجرمين ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون:٢٨].

والآية الخامسة من الآيات العظيمة: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:١٦٤] كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩٩] وقال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه:٥٣]. وإحياء الأرض بماء السماء آية ظاهرة مشهودة ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٢٤].

والآية السادسة من الآيات الدالة على وحدانية الله: ما بثه الله في الأرض من دواب ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة:١٦٤] والدابة كلُّ إنسان أو حيوان يدبّ فوق ظهر هذه الأرض، والدواب التي خلقها في الأرض كثيرة متنوعة ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية:٤] ودواب الأرض أمم أمثالنا ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨]. وجميع دواب الأرض مخلوقة من ماء ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ [النور:٤٥].

والآية السابعة من آيات الله الدالة على وحدانية الله: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة:١٦٤]، فهو يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧] ومنها إرساله إياها لتلقيح الأزهار ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر:٢٢] ومنها إرساله الرياح فتثير السحاب ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الروم:٤٨].

ويرسل الله الرياح فيها برد شديد، فتهلك الحرث والنسل ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُ﴾ [آل عمران:١١٧] وتسوق الرياح الطيبة السفن في البحار، ثم تأتي هذه السفن ريح عاصفة شديد فتغرقها وأهلها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ [يونس:٢٢].

وأرسل الله على عاد الريح العقيم فأهلكتهم: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذاريات:٦١]، ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦﴾ [الحاقة:٦].

والآية الأخيرة من آيات الله العظيمة الدالة على وحدانية الله: ﴿ٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة:١٦٤] والسحاب الذي يخلقه رب العباد بين السماء والأرض حاملاً كميات هائلة من المطر، وتسوقه الرياح إلى المواقع التي يريد الله أن يفرغ فيه حمولتها ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٧] وقال في موضع آخر: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور:٤٣] وهذا الذي ذكره الله في هذه الآية الكريمة فيه آيات لقوم يعقلون ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة:١٦٤] وآيات الله التي يرسلها دالة على توحيده، لا يستفيد منها إلا أولو الألباب أصحاب العقول، ذلك أنها تدلهم على ربهم، فيسارعون إلى الإيمان به.

٣- ذم الله المشركين الذين يحبون آلهتهم كحبّ الله:

بعد أن قرر الحقُّ - تبارك وتعالى - أنه واحد أحد لا شريك له ولا مثيل ولا نظير، وأورد جملة من الأدلة العظيمة الدالة على وحدانيته سبحانه، ذكر أن بعض الناس يشركون بالله في عبادته، وتهددهم وتوعدهم، وذكر حالهم ومصيرهم في الآخرة، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة:١٦٥] أي: يتخذونهم آلهة يعبدونها مع الله، كالأصنام

والأوثان، والقادة والزعماء الذين رفعوا إلى مرتبة الألوهية كفرعون ونمرود، وقد أشربت قلوب هذه الطائفة من الناس حب هذه الأنداد، فهم ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] كما قال عزَّ وجلَّ في عبدة العجل ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣].

وحبُّ هؤلاء لله اختلط بحبِّ الأصنام والأوثان، فليس هو بصافٍ ولا خالص، ولذا فإن حُبَّ المؤمنين الموحدين لربهم أعظم وأشد من حب المشركين لله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، لأن المؤمنين يحبون الله حباً خالصاً.

وتهدد ربُّ العزة هؤلاء الظلمة الذين أشركوا به الأصنام والأوثان والأنداد فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة:١٦٥] أخبرنا الله عن حال المشركين الظلمة عندما يشاهدون أهوال الموقف العظيم، وأهوال النيران، فيعلمون يقيناً أن القوة لله جميعاً، وأن الله شديد العذاب، أما آلهتهم التي عبدوها وأحبوها من دون الله، فلا تملك لهم شيئاً، وستكون وقوداً للنيران.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار». وقال عبدالله راوي الحديث: «وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو لله نداً دخل الجنة» [البخاري: ٤٤٩٧].

٤- تبرأ الأتباع في يوم القيامة ممن اتبعهم:

أخبرنا العزيز العليم تبارك وتعالى أن السادة والمتنفذين في الدنيا الذين كانوا يقودون الناس إلى الشر سيتبرؤون من أتباعهم في ذلك اليوم، فيكون ذلك غصّة وألماً في نفوس الأتباع ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٦]. وهؤلاء الذين يتبرؤون من أتباعهم هم الجبابرة والقادة ورؤوس أهل الشرك الذين كان الناس يتبعونهم ويطيعونهم فيما أمروهم به، ويعصون بذلك ربهم في طاعتهم إياهم، ويدخل في القادة الذين يتبرؤون من الأتباع زعيم الكفر الأعظم، وهو الشيطان، ويقف يوم القيامة خطيباً في أتباعه ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢].

واستمع إلى هذا الحوار الذي سيقع بين السادة المتبوعين وبين أتباعهم في يوم الدين ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ

صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ:٣١-٣٣].

٥- تقطع الأسباب بين السادة والأتباع:

ومع تبرؤ السادة والقادة ممن اتبعوهم على كفرهم وضلالهم، ورؤية هؤلاء وهؤلاء لعذاب الله، تتقطع الأسباب التي كانوا يتواصلون بها في الحياة الدنيا، فصلة القربى، وصلة الجيرة، وصلة الروابط الحزبية، وسائر ما كان يجمع الناس ويؤلف بينهم في الدنيا، كلّه تتقطع ويتلاشى في الآخرة، ويحُلُّ محلَّه العداوة والكره والبغضاء، ويحلُّ محل التعظيم والتبجيل الذي كان في الحياة الدنيا اللعنُ والسبُّ والكراهيةُ، كما قال تعالى في آية هذا النص: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٦] وقال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥]، وقال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف:٦٧].

والأسباب جمع سبب، وهو الشيء الذي يتعلق به، فالحبل سبب، والمصاهرة سبب، والمحبة والمودة سبب، ويتمنى الأتباع في يوم الدين حين يتبرأ منهم سادتهم وقادتهم أن يعودوا إلى الدنيا كي يتبرؤوا من تلك القيادات التي أضلتهم، ولكن الله قضى أن الرجعة إلى الدنيا غير ممكنة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ﴾ [البقرة:١٦٧] والكرة: الرجعة إلى الدنيا، كما قال عز وجل في هؤلاء في موضع آخر: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام:٢٧].

وقد أخبرنا ربنا تبارك وتعالى بما استقرّ في علمه الواسع الذي لا يخفى عليه شيء أن هؤلاء كاذبون فيما يدّعونه من أنهم لو عادوا إلى الدنيا لاستقاموا على أمر الله، وأخبر أنهم لو عادوا إلى الدنيا لعادوا لمثل ما كانوا عليه أولاً ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٨] إنَّ النجاسة الشركية متغلغلة في أعماق قلوبهم، مجبولة بها نفوسهم.

وكما يريهم الله - تبارك وتعالى - العذاب في يوم القيامة، فإنه يريهم في ذلك اليوم أعمالهم حسرات عليهم، النار تحيط بهم من كل مكان، وهم في سجنها الكبير، والحسرة والندم تحيط بالقلوب، ولا أمل لهم في الخروج مما هم فيه بحال ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٧].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر في آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الله - سبحانه - هو المعبود بحق، لا يستحق العبادة إلا هو.

٢- الدلائل الدالة على استحقاق الله العبادة وحده كثيرة، منها خلق الله السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، والسفن التي تخوض عباب البحر محققة منافع الناس، وإنزال الله الماء من السماء، فيحيي به الأرض بعد موتها، وغير ذلك.

٣- كثير من المشركين يعرفون الله عزَّ وجلَّ، ولكنهم لا يخلصون دينهم له، بل يعبدون معه غيره، وهؤلاء لا ينفعهم إيمانهم بالله، لأنه إيمان كدر مخلوط.

٤- الذين أخلصوا دينهم لله - تبارك وتعالى - حبهم لله أعظم من حبِّ الذين اتخذوا من دون الله أنداداً، لأن المؤمنين حبهم لله خالص، وحب متخذي الأنداد مخلوط مغشوش.

٥- يظهر للكفار والمشركين في يوم القيامة أن الله وحده هو المتفرد بالحول والقوة، وأن آلهتهم التي عبدوها من دون الله لا تملك من الحول والقوة شيئاً.

٦- يتبرأ السادة والمتبوعون يوم القيامة ممن عبدوهم وقادوهم إلى الضلال، ويتمنى الأتباع الضالون لو كان لهم مجال في العودة إلى الدنيا، ليتبرَّؤوا من أندادهم وسادتهم، ولا ينفعهم ذلك التمني شيئاً.

٧- يرى بعض أهل العلم كراهية أو تحريم ركوب البحر، وهذا غير صحيح، فقد امتنّ الله على عباده بالفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وامتنّ الله علينا بالفلك التي حملت أبانا نوحاً والمؤمنين معه في الطوفان العظيم، وقد رأى رسول الله ﷺ في منامه طائفة من أمته يركبون السفن ملوكاً على أسرّة أو مثل الملوك على الأسرة [راجع: البخاري: ٢٧٩٩، ٢٨٠٠. ومسلم: ١٩١٢. وأحمد: ٢٧٠٣٢]، واتخذ المسلمون الأساطيل الحربية من السفن، كما اتخذوا السفن التجارية، وركبوها من غير نكير، وكل ذلك يدل على مشروعية ركوب السفن من غير نكير.

النص الرابع والثلاثون من سورة البقرة
يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً

أولاً: تقديم

الله وحده الذي له الحق في التحليل والتحريم، وقد أمر الله - تبارك وتعالى - الناس جميعاً أن يأكلوا من طيبات الأرض التي أحلَّها لهم، ونهاهم عن متابعة الشيطان فيما يدعوهم إليه من التحليل والتحريم، فهو يأمر بالسوء والفحشاء وأن نقول على الله ما لا نعلمه.

وكثير من العباد يصدُّهم عما جاءهم من عند الله إرثُ الآباء والأجداد، وقد يكون الآباء والأجداد لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، فلا يصلحون للتأسي والاتباع، وقد أمر الله المؤمنين بالأكل من الطيبات التي رزقهم إياها وأمرهم بشكره، وهيجهم إلى ذلك بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة:١٧٢].

وحدد الله المحرمات التي حرمها على عباده، وأجاز لهم الأكل منها في حال الاضطرار.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- التحليل والتحريم حق الله وحده:

نادى ربُّ العزة الناس جميعاً آمراً إياهم أن يأكلوا مما أحله لهم من الطيبات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨].

وقد عاش الكفرة الفجرة قديماً وحديثاً في فوضى تشريعية فيما يتناولونه من الأطعمة والأشربة، فتراهم يحرمون ما أحله الله، ويحلون ما حرمه بأهوائهم، فقد كانت العرب في

الجاهلية يُحلّون لأنفسهم الميتة والدم ولحم الخنزير، ويحلون المسكرات، ويحرّمون على أنفسهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وقد أكذبهم الله فيما أحلّوه وحرّموه، وجعله مما افتروه عليه ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة:١٠٣].

ولا تزال هذه الفوضى في التشريع تضرب بأطنابها حتى اليوم، فهناك من يستحل اليوم أكل الكلاب والحيوانات المفترسة والطيور الجارحة بالإضافة إلى استحلال الميتة والدم ولحم الخنزير.

والتحليل والتحريم من شأن الله وحده لا يشرك فيه أحداً غيره ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ [النحل:١١٦] وذمّ الله المحرِّمين والمحلِّلين بأهوائهم ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾ [يونس:٥٩] وقد كان الله حرم على الذين هادوا بعض الطيبات بسبب ظلمهم، ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء:١٦٠] وقد نسخ الله هذا التحريم، وأحلَّ الله لهذه الأمة الطيبات كلها «وأصل الطيب - كما يقول الأصفهاني - ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفوس» [المفردات:٣٠٨].

٢- الشيطان وراء الفتنة التشريعية في التحليل والتحريم:

ووراء الفتنة التشريعية في حلال الأطعمة وحرامها الشيطان، ولذلك حذّرنا الله منه ومن خطواته: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البقرة:١٦٨] ففي هذه الآية نهي عن اتباع الشيطان في خطواته، أي: في آثاره وأعماله، وكل الذنوب والمعاصي من خطواته، وأصل الخَطْوة: بُعْدُ ما بين قدمي الماشي.

والشيطان عدوٌّ مبين لنا مغرق في هذه العداوة ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر:٦] وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ﴾ [الكهف:٥٠]. وقد أعلمنا رسولنا ﷺ أن الشياطين وراء الفوضى في تشريع الحلال والحرام، ففي صحيح مسلم عن عياض بن حمار المُجاشِعِيِّ، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبة: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كلُّ مالٍ نحلتُه عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحْلَلْتُ لهم» [مسلم: ٢٨٦٥].

وقد ضرب ابن كثير أمثلة لما أخبر العلماء أنه من خطوات الشيطان، فمن ذلك قول الشعبي: نذر رجل أن ينحر ابنه، فأفتاه مسروق بذبح كبش، وقال: هذا من خطوات الشيطان، وقال ابن مسعود للذي قال له: حرمت أن لا آكل ضرعاً أبداً: هذا من خطوات الشيطان، فاطْعَمْ وكفِّر عن يمينك. وعن أبي رافع أنه غاضب يوماً امرأته، فقالت: هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حرٌّ إن لم تُطلّق امرأتك، فأتيت عبدالله بن عمر، فقال: إنما هذه من خطوات الشيطان، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذٍ أفقه امرأة في المدينة. [ابن كثير: ١/ ٢٧٩].

٣- الشيطان يأمرنا بالسوء والفحشاء وأن نقول على الله ما لا نعلمه:

أعلمنا ربنا - وهو العليم الذي لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء - أن الشيطان اللعين لا يأمرنا إلا بالسوء والفحشاء، وأن نقول على الله ما لا نعلمه ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٩]. والسوء: الإثم، لأن عاقبته تسوء صاحبه، والفحشاء ما بلغ الغاية التي ليس بعدها غاية في الفحش، وأكثر ما يطلق على الزنا، والقول على الله ما لا نعلمه من أعظم الضلال، فالله غيب، ولا يجوز أن نقول في الله أو في شرعه ما لا نعلمه، ولقد وصف بعض الضالين الله بما لا يجوز وصفه من الصفات، وحرموا ما لم يحرمه، وأحلوا ما حرمه.

٤- رفض هؤلاء ما نزل من عند الله ومتابعتهم ما كان عليه الآباء:

وهؤلاء الضالون إذا طالبناهم باتباع الحقِّ الذي أنزله الله رفضوا، وزعموا أنَّهم إنما يتبعون ما كان عليه آباؤُهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠].

إن المؤمنين يطالبون الناس جميعاً وفيهم العرب والعجم واليهود والنصارى بأن يتبعوا ما أنزله الله تعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه، فيقول الضالون: لا نتبع ما أنزله الله، بل نتبع ما كان عليه الآباء والأجداد، فيقول الله لهم مبطلاً حجتهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠]. يقول لهم: كيف تتركون الحق النازل إليكم من الله، وتتبعون الآباء والأجداد، وهم خالون من العقل السديد، والرشد والهداية، فهؤلاء لا يجوز متابعتهم في ضلالهم الذي كانوا عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة:١٠٤].

٥- مثل هؤلاء مع الدعاة كمثل الذي ينعق بما لا يسمع:

ضرب الله مثلاً للذين كفروا بالدواب والحيوانات التي تُنادَى، فتسمع الصوت الذي تُنادى به، ولكنها لا تفقه ما تُخاطَب به، وكذلك الدعاة الذين ينادون الكفار، يسمع الكفار نداءَهم، ولا يعقلون ما يُنادون به، قال ابن عطية: «المراد تشبيه واعظ الكافرين وداعيهم، والكافرين الموعوظين بالراعي الذي ينعق بالغنم أو الإبل، فلا تسمع إلا دعاءَه ونداءَه، ولا تفقه ما يقول، هكذا فسر ابن عباس وعكرمة والسدي وسيبويه» [ابن عطية: ٢/ ٦٤] ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة:١٧١] وقوله: ينعق، أي: يصيح، كقولهم: نعق الراعي بصوته.

وقد وصف الله الكفار الذين ينعق بهم الداعي فلا يفقهون قوله بأنهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة:١٧١] أي: صمٌّ عن الحقِّ فهم لا يسمعون، وبكم يعني خُرْساً عن قول الحق والصواب والإقرار بما أمرهم أن يقروا به، فهم لا ينطقون به، وعمي عن طريق الهدى وطريق الحقِّ فلا يبصرونه، وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة:١٧١] لما تقرَّر فقدهم لهذه الحواس قضى بأنهم لا يعقلون، إذ العقل علوم ضرورية تعطيها هذه الحواس.

٦- أمر الله المؤمنين بأكل الطيبات وشكر الله:

أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يأكلوا من الطيبات التي رزقهم إياها، ويشكروا له نعماءه إن كانوا إياه يعبدون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة:١٧٢].

وقد أكَّد الحقُّ - تبارك وتعالى - ما أمر به الناس في الآية السابقة من أكل الحلال الطيب في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨] يقول الله للمؤمنين الذين ناداهم في هذه الآية: كلوا من الأطعمة الطيبة التي رزقتكم إياها، واشكروا الله على ما أنعم به عليكم، وهيجهم على الشكر بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

وفي هذا الأمر الذي أمرهم به دعوة لهم إلى البُعد عن منهج الضالين الذين يُحِلُّون ما حرّم الله من الميتة والدم ولحم الخنزير، أو يحرمون ما أحل الله من البحيرة والوصيلة والسائبة والحوامي ونحو ذلك.

وقد هيّج الله المؤمنين على فعل ما أمرهم به بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة:١٧٢].

٧- بيان ما حرّمه الله علينا:

بيّن الله لعباده ما حرَّمه عليهم ليجتنبوه ويحذروه ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٧٣] و﴿إِنَّمَا﴾ كلمة واحدة تفيد حصر الحكم في المذكورات دون ما سواهن، والمحرمات المذكورات في هذه الآية أربع: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهلّ لغير الله به.

وقد فصّل الله - تبارك وتعالى - في ذكر هذه المحرمات في مواضع أخرى، كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣] والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، من أنواع الميتة.

أثر أكل الطيبات في إجابة الدعاء:

كان أكل الطيب الحلال معلماً مهماً في حياة المسلمين، وكانوا ولا يزالون يتوقون الحرام ويجتنبونه، وقد أعلمنا رسولنا ﷺ أن الله طيب لا يقبل الحرام إن تصدّق به، وأن الله لا يستجيب دعوة آكل الحرام، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون:٥١] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعثَ أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك» [مسلم: ١٠١٥].

التعريف بالمحرمات المنصوص عليها في الآية:

أ- التعريف بالميتة التي حرمها الله تعالى: والميتة: ما فارقها الروح من غير ذكاة، ومن الميتة المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، وقد خص أهل العلم من عموم هذه الآية ميتة الأسماك والحيوانات التي لا تعيش إلا في البحر ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [المائدة:٩٦] وقال الرسول ﷺ في ميتة البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» [الترمذي: ٦٩. وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح].

وقد خُصَّت هذه الآية بقوله ﷺ: «أحلت لكم ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال» [مسند أحمد: ٥٧٢٣، صحيح ابن ماجه للألباني ورقمه: ٢٦٧٩، وذكر أنه خرجه في الصحيحة: ١١١٨].

ب- **التعريف بالدم الذي حرمه الله علينا:** والدم الذي حرمه الله تعالى في هذه الآية هو الدم المسفوح المنصوص عليه في سورة الأنعام ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام:١٤٥] أما الدم الذي خالط اللحم فغير محرم بالإجماع.

ج- **لحم الخنزير حرام ذُكّي أو لم يُذَكَّ:** وقوله: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [البقرة:١٧٣] فيه دلالة بيّنة على أن لحمه حرام، ذبح أو لم يذبح، وقد أجمعت الأمة على تحريم شحمه، لأن الشحم داخل في اللحم.

د- **التعريف بالذي أُهِلَّ لغير الله به:** والذي أُهِلَّ به لغير الله هو الذي ذُبح لغير الله، كالذي ذُبح للأصنام والأوثان، وأصل الإهلال رفع الصوت، ومنه إهلال الصبي عند ولادته، أي: بكاؤه حين الولادة، وقد جرت عادة العرب على ذكر اسم الإله المقصود بالذبيحة عند ذبحها، فكانوا يذكرون اسم اللات والعزى أو هبل أو غيرها من أصنامهم على ما ذبحوه.

٨- أباح الله للمضطر أن يأكل مما حرّم عليه:

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣] أي: فمن حلَّت به ضرورة بأن أصابته مجاعة، ولم يجد إلا ما حرَّم الله عليه من المذكورات، وهن الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهلَّ به لغير الله، جاز له الأكل منها. قال مجاهد: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، لا قاطعاً للسبيل ولا مفارقاً للأئمة، ولا خارجاً في معصية الله، فله الرخصة، ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله، فلا رخصة له، وإن اضطر إليه» [ابن جرير الطبري: ١/ ٨٣٧].

وختم الله الآية بما يناسبها من صفاته تعالى ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة:١٧٣] فمن مقتضى رحمته وغفرانه سبحانه إباحة المحرمات في حال الاضطرار.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الله وحده له حق التشريع والتحليل والتحريم، والذين يُحلُّون ويُحرِّمون بأهوائهم ظَلَمَةٌ اعتدوا على حق الله وسلطانه.

٢- الشياطين وراء الفوضى التشريعية في تحريم ما أحله الله، وإحلال ما حرّمه، وعلى المسلم الحق أن يقف عند حدود الله في الحلال والحرام.

٣- أعلمنا ربنا أن الشيطان يأمرنا بثلاثة أمور في غاية الفحش والشناعة، فهو يأمر بالأفعال ذات العاقبة السيئة، ويأمرنا بالذنوب والمعاصي الفاحشة كالربا والزنا، ويأمرنا بالقول على الله ما لا نعلم صوابه، كتحليل ما حرمه من الميتة والدم ولحم الخنزير.

٤- اتباع الآباء والأسلاف من أعظم ما صدَّ الناس عن الهدى واتباع الرسل، فالآباء قد يكونون جاهلين ضالين، يعبدون الأوثان، ويسفكون الدم بغير حق.

٥- في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠] إبطال للتقليد، فهؤلاء الذين تابعوا الآباء من غير حجة ولا برهان مُقلِّدون، والتقليد عند العلماء قبول قول بلا حجة، وقد أذن الله للعامي الذي لا أهلية عنده لاستنباط الأحكام أن يسأل أهل العلم عما ينوبه ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:٤٣].

٦- مثل الكفار الذين أحاطت بهم ذنوبهم مثل الأنعام التي يدعوها الراعي فلا تجيب، فالدعاة يدعونهم إلى الحق، فلا يفقه المدعوون ما في النداء من الهدى والعلم والخير.

٧- أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، وهو أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله تعالى، وأمرهم أن يشكروه على ما أنعم به عليهم.

٨- حرَّم الله على المسلمين أن يأكلوا الميتة، وهي ما فارقته الروح من غير ذكاة مما يذبح، وخصَّ من الميتة الحرام ميتةَ البحر والجراد، وفي الحديث عن عبدالله ابن أبي أوفى قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد معه» [البخاري: ٥٤٩٥، مسلم: ١٩٥٢ واللفظ لمسلم].

٩- يجوز الانتفاع بجلد الشاة الميتة إذا دبغ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مرّ النبي ﷺ بعنز ميتة، فقال: ما على أهلها لو انتفعوا بإهابها» [البخاري: ٥٥٣٢] وفي البخاري ومسلم عن ابن عباس أيضاً قال: «تُصُدِّقَ على مولاة لميمونة بشاة فماتت، فمرّ بها رسول الله ﷺ ، فقال: هلاّ أخذتم إهابها، فدبغتموه، فانتفعتم به. فقالوا: إنها ميتة، فقال: إنما حرّم أكلها» [البخاري: ٥٥٣١، مسلم: ٣٦٣]. وإذا كان جلد الميتة يطهر بالدباغ، فشعرها حلال من غير دباغ، لأنه طاهر لو أخذ منها أثناء الحياة.

١٠- إذا نحرت ناقة أو ذبحت شاة، وكان في بطن إحداهما جنين ميت، جاز أكله من غير تذكية له في نفسه، إلا أن يكون خرج حياً، فيُذكَّى، لأن الجنين يجري مع أمه مجرى العضو من أعضائها، وفي سنن أبي داود عن أبي سعيد، قال: سألت رسول الله ﷺ عن الجنين، فقال: «كلوه إن شئتم» وقال مسدد: قلنا: يا رسول الله، ننحر الناقة، ونذبح البقرة والشاة، فنجد في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ قال: «كلوه إن شئتم، فإن ذكاتَهُ ذكاةُ أُمِّهِ»، وعن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ قال: «ذكاةُ الجنين ذكاة أمه» [أبو داود: ٢٨٢٧، ٢٨٢٨. وأورده الألباني في صحيح أبي داود، ٢٤٥١، ٢٤٥٢].

١١- اتفق العلماء على أنَّ الدم المسفوح حرام نجس لا يؤكل، ولا ينتفع به. [القرطبي: ١/ ٦١٥]، وأما بقايا الدم الذي يكون في اللحم، فلا حرج فيه، ويؤكل اللحم، وليس بنجس.

١٢- الدم المسفوح حرام، وقد أحل لنا دمان، هما الكبد والطحال، وقد سقنا الحديث الذي صرح بذلك فيما سبق من هذا النص.

١٣- نص الله على حرمة أكل لحم الخنزير، وإنما جاء التصريح بحرمة اللحم لأمرين: **الأول**: أن لحمه حرام ذُبح الخنزير أو لم يُذبَح، فهو حرام نجس ولو تمَّ ذبحه، فالذبح لا أثر له في تحليله. **الثاني**: ليدل على تحريم شحمه، فالشحم المخالط للحم داخل في اللحم، أما إذا دخل اللحم في الشحم فلا يجوز تسميته شحماً.

١٤- يجوز استعمال شعر الخنزير في الخرازة به، لأن الخرازة به كانت على عهد رسول الله ﷺ، وكانت بعده موجودة ظاهرة، لا نعلم أن رسول الله ﷺ أنكرها، ولا أحد من الأئمة بعده. [القرطبي: ١/ ٦١٦].

١٥- لا يجوز أكل ذبائح المجوس وعباد الأصنام والملحدين الذين لا دين لهم، فإنها جميعاً مما أُهلّ لغير الله به.

١٦- المضطر إلى المحرمات، كالذي يجوع جوعاً شديداً ولا طعام عنده، يجوز أن يأكل الميتة ولحم الخنزير وما أهلَّ به لغير الله، والذي غُصَّ بلقمة ولا ماء عنده، ووجد خمراً في المكان الذي هو فيه، يجوز له أن يسيغها بشرب شيء من الخمر.

١٧- الباغي والعادي هو الذي يأكل فوق حاجته، أو يجد عن هذه المحرمات مندوحة ثم يأكل المحرم، وقيل: غير باغٍ ولا عادٍ على المسلمين، فيدخل في الباغي والعادي قطّاع الطريق، والخارجون على السلطان، والمسافرون في قطع الرحم والغارة على المسلمين [القرطبي: ١/ ٦٢٣].

النص الخامس والثلاثون من سورة البقرة
عظم جريمة الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب

أولاً: تقديم

في آيات هذا النص تهديد شديد لليهود والنصارى الذين كتموا ما أنزل الله من الكتاب يريد به التوراة والإنجيل، فقد بشَّر الله فيهما برسوله الخاتم ﷺ، فكتموا تلك البشارات، وحرفوها عن وجهها، ابتغاء عرض الدنيا، وهو ثمن قليل زائل، وقد تهددهم رب العزة بأنهم سيأكلون نار جهنم يوم القيامة، ولن يكلمهم الله في ذلك اليوم احتقاراً لهم، ولن يُطهِّرهم من ذنوبهم، ولهم عذاب أليم موجع.

وقد ذمهم الله تبارك وتعالى، فأخبر أنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، ثم قال معجباً منهم: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾ [البقرة:١٧٥].

لقد أنزل الله - تبارك وتعالى - الكتاب بالحق، وإن الذي اختلفوا فيه لفي شقاق بعيد.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذم الله اليهود بكتمانهم ما أنزل الله:

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البقرة:١٧٤] يعني: اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم، وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتَّبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاءً على ما كان يحصل لهم من ذلك، وهو نزرٌ يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صِدْقَ رسوله، بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباؤوا بغضب على غضب، وذمّهم الله في كتابه في غير موضع، فمن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة:١٧٤] وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُولَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة:١٧٤] أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠]، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة، إنما يُجرجر في بطنه نار جهنم» [البخاري: ٥٦٣٤، مسلم: ٢٠٦٥]. [تفسير ابن كثير: ١/ ٢٣٩].

٢- يعاقب الله كاتمي الحق الذي أنزله بإهمالهم وترك تكليمهم في يوم القيامة:

أخبر جلَّ وعلا أن هذا الصنف من البشر من سَقَطِ الناس في يوم القيامة، فالله يهملهم في ذلك اليوم، ولا يكلمهم، ولا يزكيهم، ولهم في ذلك اليوم عذاب أليم ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة:١٧٤].

ففي يوم القيامة يقول لهم مقرعاً وموبخاً: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون:١٠٨] وإذا كان الله - تبارك وتعالى - لا يكلم هؤلاء الضلال، فإنه يكلم الصالحين الأخيار. والتزكية: التطهير، فالله لا يطهرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم، ولهم عذاب أليم، أي: موجع.

٣- كاتمو الحق اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة:

أخبر الله عن هؤلاء بقوله: ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة:١٧٥] واشتراؤهم الضلالة بالهدى يتحقق بأخذهم الضلالة وتركهم الهدى، وهم بذلك أخذوا ما يوجب لهم العذاب يوم القيامة، وتركوا ما يوجب لهم غفرانه ورضوانه، وقوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة:١٧٥] أي: فما أجرؤهم على العمل الذي يدخلهم النار.

٤- تنزيل الله الكتاب بالحق ليحق الحق ويبطل الباطل:

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٦] أي: أن كاتمي الحق الذين تحدث عنهم في الآيات السابقة استحقوا العذاب الشديد، لأن الله - تبارك وتعالى - أنزل الكتاب على رسله لإحقاق الحق وإبطال

ـص. وهؤلاء اتخذوا كتاب الله هزواً يظهرون منه ما شاؤوا، ويكتمون منه ما شاؤوا، ومن كتمان اليهود والنصارى للحقِّ الذي أنزله الله في كتبهم من أمر رسولنا محمد ﷺ وأمر دينه وأمته والحق الذي أنزل معه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾ [البقرة: ١٧٦] أراد بالذين اختلفوا في الكتاب اليهود والنصارى الذين اختلفوا في التوراة، فادعى النصارى أن فيها صفة عيسى، وأنكر اليهود أن تكون فيها صفته، ومعنى الشقاق الخلاف الواقع بينهم، وكونه بعيداً، أي: كثير البُعد، فهو خلاف كبير مستحكم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي:

١- ذمَّ اللهُ كاتمي الحقّ الذي في كتابهم من اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ وأمته.

٢- هذه الآية وإن كانت في اليهود والنصارى، ولكنها عامة في كل من كتم الحق المنزل من عند الله، ويدخل فيها كاتمو الحق المنزل من هذه الأمة الذين يلبسون على الناس دينهم في أمر الخمر والربا والميسر ونحو ذلك.

٣- كلُّ من كتم شيئاً من الحق الذي أنزله الله مهما كان الثمن الذي حصله من ورائه عظيماً، فإنه ثمن قليل في ميزان الله وحكمه، ويمكنك أن تعلم تفاهة هذا الثمن بالنظر إلى العذاب العظيم الذي سيحل بالكاتمين.

٤- كاتمو الحق يطعمهم الله النار في يوم القيامة، يأكلونها بأفواههم، وتستقر في بطونهم والجزاء من جنس العمل.

٥- من عذاب كاتمي الحقّ أن الله لا يكلمهم في يوم القيامة، ولا يطهرهم، ولهم عذاب أليم.

٦- ذمّ الله كاتمي الحق باستبدالهم الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، ومصير هؤلاء وأمثالهم النار وغضب الجبار.

٧- اختلف اليهود والنصارى في الحق الذي أنزله الله إليهم خلافاً كبيراً، فلا لقاء بينهم، والاختلاف بينهم واسع وعريض.

النص السادس والثلاثون من سورة البقرة
سعة دائرة البر

أولاً: تقديم

نفى الله - تبارك وتعالى - أن يكون البرُّ، وهو فعل الخير، محصوراً في جوانب شكلية كتولية الوجه جهة المشرق أو المغرب، ثم عدَّد الله - تبارك وتعالى - أعمال البر التي ينبغي على العباد التنافس في تحصيلها، ودوائر أعمال الخير التي عرضتها الآية ثلاث، **الأولى: أصول الإيمان. والثانية: الأعمال الظاهرة سواء أكانت بدنية أو مالية. والثالثة: الأخلاق الكريمة.**

وهذه الآية فيها ردٌّ على اليهود الذين كان حوارهم شكلياً في موضوع القبلة في الصلاة، فلو عقلوا لأدركوا أن الجهات كلها لله رب العالمين، فلا فضل لإحداها على الأخرى، وتصبح للجهة قيمة عندما يأمر الله بالتوجه نحوها دون غيرها.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- البر ليس قصراً على تولية الوجه قِبَل المشرق والمغرب:

قرَّر الله - سبحانه وتعالى - أن البر ليس قصراً على تولية الوجه في الصلاة إلى جهة المشرق أو جهة المغرب ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة:١٧٧].

والبر - كما يقول القرطبي - : «اسم جامع للخير» [القرطبي: ١/ ٦٢٩] وقال البغوي: «البر كل عمل خير يفضي بصاحبه إلى الجنة» [البغوي: ٢/ ١٨٥].

وهذه الآية متصلة بآيات تحويل القبلة، فعندما أمر الله المؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام أينما كانوا، وحيثما حلُّوا، أثار اليهود عاصفة من الشبهات، وقد ردّ الله على اليهود مقالتهم، وسفّه رأيهم، وقرر هنا أن تولية الوجه قِبَل المشرق كما تفعل النصارى في صلاتها أو جهة الأقصى كما تفعل اليهود ليس هو البر، فالبر هو ما أمر الله بفعله من الأعمال الخيِّرة، فإذا

انبتر العمل عن الله، فإنه يصبح مجرد تقولات ليس لها في مجال الخير نصيب، وبعد أن أمر الله بالتوجه في الصلاة إلى المسجد الحرام دون سواه، تصبح مجادلة اليهود والنصارى في توجههم خارجة عن دائرة البر، وداخلة في دائرة الهوى البعيد عن الحق.

٢- مجالات الخير التي يشملها البر:

بيّن الحق - تبارك وتعالى - الدوائر التي يشملها البر، وهي ثلاث دوائر كبار: **الأولى: أصول الإيمان الخمس** التي لا قوام للإيمان إلا بها، وهي: الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

والثانية: الشرائع الظاهرة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وإعطاء النفقات الواجبة، وقد ذكر الله مجالاتها، وهي إيتاء المال الطيب الذي يحبُّه منفقه لنفاسته، لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب.

والثالثة: الأعمال القلبية كالوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وهذه الدوائر الثلاث المعنون لها باسم البر تناولت الدين كله، تناولت الإيمان الذي استقرّ في القلب، كما تناولت الأعمال الظاهرة، والأعمال القولية، والأخلاق الفاضلة.

قال ابن كثير: «قال الثوري: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ...﴾ [البقرة:١٧٧] قال: هذه أنواع البر كلها، وصدق رحمه الله، فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلِّها، وأخذ بمجامع الخير كله» [ابن كثير: ١/ ٢٤٠].

مجالات البر: البر كثيرة، منها:

أ- **الإيمان**: أعظم مجالات البر هو الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧] وقد ذكر الله تعالى في هذا الجزء من الآية أصول الإيمان الخمسة التي لا يتم الإيمان إلا بها.

ب- **إيتاء المال على حبه ذوي القربى**: أعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أنّ من أعمال البر العظيمة إيتاء المال على حبه ذوي القربى، ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة:١٧٧]. والمراد أن يعطي المال النفيس، ولا يقصد المال الحقير فينفق منه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧].

ويكون الإنسان منفقاً للمال، وهو يحبُّه أيضاً إذا أنفقه في حال صحته، ففي الصحيحين عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيُّ الصدقة أعظم أجراً؟

قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان» [البخاري: ١٤١٩، مسلم: ١٠٣٢].

وذوو القربى الأقارب من النسب كالآباء والأبناء والأعمام وأبنائهم، وهم أحق الناس بمال المنفق، فعن سلمان بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إن الصدقة على المسكين صدقه، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة» [النسائي: ٢٥٨٢]. وقد قال الرسول ﷺ لزينب امرأة عبدالله ابن مسعود وامرأة أخرى أنصارية جاءتا تسألانه عن الصدقة على الزوج وعلى بني أخ أيتام، قال ﷺ لهما: «نعم لهما أجران، أجر القرابة، وأجر الصدقة» [البخاري: ١٤٦٦، النسائي: ٢٥٨٣].

ج- الإنفاق على اليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب: من أعمال البر العظيمة إيتاء المال لليتامى، واليتامى جمع يتيم، وهو من مات والده، وهو صغير، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ الذين لا يأتيهم من المال ما يكفيهم هم ومن يعولونهم، مع بذلهم قصارى جهدهم في العمل، ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر الذي ضاعت نفقته أو نفدت، سمي بابن **السبيل**، لملازمته للسبيل، و**السبيل**: الطريق، ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ المحتاجون الذين يطلبون منك العون على حاجتهم، ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ هم العبيد الأرقاء يشترون، ثم يعتقون، ويدخل فيهم من طالبك بإعطائه المال لتحرير رقبته من سيده، ويسمى بالمكاتب، كما يدخل فيهم بذل المال لتحرير الأسرى.

د- إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:١٧٧] وإقام الصلاة يتحقق بالإتيان بها بشروطها وأركانها والمداومة عليها في أوقاتها، وإيتاء الزكاة يكون ببذلها إلى من يستحقها في الوقت الذي شرعه الله لها.

هـ- الوفاء بالعهد: وقوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة:١٧٧] قال البغوي في هؤلاء: «إذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا ونذروا أوفوا، وإذا عاهدوا أوفوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا اؤتمنوا أدّوا» [البغوي: ١/ ١٨٨] وعكس هذه الصفة ما أخبر به الرسول ﷺ في صفة أهل النفاق: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» [البخاري: ٣٣، مسلم: ٥٩] وجاء في الحديث الآخر: «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» [البخاري: ٣٤، مسلم: ٥٨].

و- الصبر في مجالاته كلها: ومدح الله الصابرين وأثنى عليهم بقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة:١٧٧] والبأساء: الفقر، والضراء: الأمراض والأسقام، وحين البأس، أي: في الحرب والقتال.

ز- **الملتزمون بما ذكره الله من أعمال البر هم الصادقون المتقون:** قال الله تعالى في ختام الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧] أي: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات المذكورة في هذه الآية الكريمة، هم الصادقون، وهم المتقون، وأنْعِم بهذه الشهادة التي شهد لهم بها ربُّ السموات والأرض ربُّ العالمين.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل:

عندما نتدبر آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من عمل وعمل:

١- ذكرت هذه الآية مجالات الخير العِظام التي أثنى الله - سبحانه - على من اتصف بها، وحكم عليهم بالصدق والتقوى، وهذه المجالات ثلاثة، هي: الإيمان، والأعمال الظاهرة، والأعمال القلبية.

٢- الأعمال التي يجادل فيها العباد بأهوائهم كالتوجه إلى جهة المشرق في الصلاة، وهذا فعل النصارى، أو جهة الأقصى، وهذا توجه اليهود، ليست داخلة في مسمى البر، لأنها غير داخلة فيما أذن الله به وشرعه.

٣- أصول الإيمان التي شرعها الله لعباده خمسة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين.

٤- في المال حق سوى الزكاة، دلّ عليه تعداد الله تبارك وتعالى للمجالات التي يكون فيها الإنفاق، وهي: اليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلون، وفي الرقاب، ثم ذكر بعد ذلك الزكاة في الآية نفسها، فلو كانت المجالات السابقة داخلة في الزكاة، فإنه لا يذكرها بعد ذلك.

٥- استحباب إنفاق المال في المجالات التي عدَّدها ربُّ العزة في هذه الآية الكريمة في حال كون المنفق سليماً صحيحاً، والنفقة في هذه الحال أفضل من التوصية بالمال بعد الموت.

٦- من صفات المؤمنين الصادقين المتقين الوفاء بالعهد، ومن صفات المنافقين إخلاف الوعد.

٧- الثناء على الصابرين الذين يحققون الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

٨- الفئة الأخيرة التي تتصف بالصدق والتقوى بشهادة الله العليم الخبير، هي التي تتصف بالصفات الفاضلة التي أخبرت بها الآية الكريمة.

٩- إقامة الصفات التي ذكرها الله - تبارك وتعالى - في الآية الكريمة تقيم الفرد وتصلحه، كما تقيم المجتمع المسلم على منهج سواء، تقيمه على العقيدة السليمة الصحيحة، والأعمال الخيرة الطيبة، وبذل المال الذي يسدُّ ما فيه من ثغرات.

النص القرآني السابع والثلاثون من سورة البقرة
القصاص في القتلى

أولاً: تقديم

أعلم الله عباده المؤمنين في آيات هذا النصِّ أنه أوجب عليهم أمرين:

الأول: القصاص في القتلى، بأن يقتص لكلِّ قتيل من قاتله، وبذلك قضى على الفوضى التي كانت تضرب بأطنابها في العصر الجاهلي، فقد كان أهل العزة والمنعة يتجاوزون القاتل، فيفتكون بقومه وعشيرته، وكان بعضهم لا يرضى إلا إذا قتل بالعبد حرّاً، وبالحر أحراراً، وبالمرأة رجلاً.

والثاني: إيجاب الوصية على من ترك مالاً، يوصي به للوالدين والأقربين، ثم نسخ الله هذا الحكم بآيات الميراث في سورة النساء، وحجَّم الوصية بما لا يزيد على الثلث، وجعلها في غير الأقارب.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أوجب الله على هذه الأمة أن يقتص للقتيل من قاتله:

نادى الله عباده المؤمنين في مطلع هذا النص مخبراً إياهم أنه كتب عليهم القصاص في القتلى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة:١٧٨] وأصل الكتابة الخط الذي يقرأ به، والمراد به هنا الفرض واللزوم، كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ [البقرة:٢١٦].

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة [فتح القدير: ١/ ٣٢١]:

كُتِبَ القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرُّ الذيولِ

والمعنى المراد: فرض عليكم القصاص في القتلى، أي: أن يفعل بالقاتل مثل ما فعل القاتل بالقتيل.

وهذا النص جاء ليعالج الفوضى في تشريع القصاص في الجاهلية، فقد كان بعض من قتل له قتيل من أهل العزة والغلبة يقتل بالعبد منهم الحرَّ من غيرهم، وإذا قتلت منهم امرأة لم يقبل إلا بقتل الرجل من غيرهم، فإذا قتل منهم الرئيس والزعيم لم يرضهم إلا أن يستأصلوا غيرهم، كما فعل المهلهل عندما قُتل أخوه كليب وائل، وكان سيد قومه، فقاتل قاتليه دهراً طويلاً حتى كاد أن يفنيهم.

٢- وجوب العدل في القصاص:

وقوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [البقرة:١٧٨] قال ابن كثير: «يقول تعالى: كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، حرّكم بحرِّكم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم، وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة وبنو النضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم، فكان إذا قتل النضريُّ القرظيَّ لا يقتل به، بل يفادي بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرظيُّ النضريَّ قُتل به، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية قريظة، فأمر الله بالعدل في القصاص» [ابن كثير: ١/ ٢٤٢].

٣- يستحب لولي القتيل عمداً أن يعفو عن القاتل إلى الدية أو يعفو من غير دية:

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة:١٧٨] المعنى: أنَّ ولي القتيل إن عفا عن القصاص وقَبِل الدية، وهذا في القتل العمد، فعلى هذا الولي أن يطالب بالدِّية بالمعروف، أي: في المقدار والزمان، فلا يشتط في المطالبة بدية غير متعارف على مقدارها، ولا يطلبها كلَّها في الحال، وإنما يكون ذلك بالمعروف، أي: الذي جرى عليه الأمر فيما بين المسلمين، وعلى القاتل أن يحسن في أداء الدية، فلا يماطل ولا يؤخر في دفعها، ولا يبخس الثمن المقدَّر لها. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨] أي: تخفيف من الله.

٤- أوجب الله القصاص في شريعة التوراة ولم يشرع الدية:

أوجب الله على اليهود القصاص ولم يكن عليهم دية، وأوجب على النصارى الدية، ولم يكن عندهم قصاص، وأجاز الله في شرعنا لولي القتيل القصاص، وليس للحاكم منعه منه، وشرع للولي أن يعفو عن القصاص إلى الدية، وشرع له أن يعفو من غير دية.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة:١٧٨] فالعفو أن يقبل الدية في العمد ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:١٧٨] ويتبع بالمعروف ويؤدي بإحسان ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨] مما كتب على من كان قبلكم، ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾ [البقرة:١٧٨] أي: قَتَلَ بعد قبول الدية» [البخاري: ٤٤٩٨ وانظره في: ٦٨٨١].

وهذا الذي ذكره ابن عباس منصوص عليه في سورة المائدة، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ الآية [المائدة:٤٣] ثم قال في الآية التالية: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ...﴾ الآية [المائدة:٤٤] وقال بعد ذلك: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ...﴾ الآية [المائدة:٤٥].

وهذا الحكم لا يزال على حاله موجوداً في التوراة كما هو إلى يومنا هذا، ففي [سفر العدد، الإصحاح الخامس والثلاثون: ١٦-٢١] «إن ضربه بأداة حديد فمات فهو قاتل، إن القاتل يقتل، وإن ضربه بحجر يَدٍ مما يقتل به فمات فهو قاتل، إن القاتل يقتل، أو ضربه بأداة يد من خشب مما يقتل به فهو قاتل، إن القاتل يقتل، وَلِيُّ الدم يقتل القاتل، حين يصادفه يقتله، وإن دفعه ببُغضة أو ألقى عليه شيئاً بتعمد فمات، أو ضربه بيده بعداوة فمات، فإنه يقتل الضارب، لأنه قاتل، ولي الدم يقتل القاتل حين يصادفه».

وجاء في [سفر الخروج، الإصحاح الحادي والعشرون: ١٤] «وإذا بغى إنسان على صاحبه ليقتله بغدر، فمن عند مذبحي تأخذه للموت» فالمذبح لا يعيذ القاتل إن احتمى به.

٥- إذا عفا ولي الدم عن القاتل ثم قتله بعد ذلك:

قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)﴾ [البقرة:١٧٨].

والمراد بالاعتداء بعد ذلك، أي: قتل الولي القاتل بعد عفوه عنه، وأخذ الدية منه، والعذاب الأليم عذاب الآخرة الذي سيوقعه الله به، أو هو عذاب الدنيا الذي يتحقق بقتله، والله أعلم بالصواب.

٦- للأمة في القصاص حياة عظيمة:

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾ [البقرة:١٧٩].

قال الشيخ عبدالقادر بدران: «في هذه الآية حكمة بالغة في التعبير يقصر دونها الوصف،

فسبحان من هذا كلامه، قال في (الكشاف): كلام فصيح لما فيه من الغرابة، وهو أن القصاص قتل وتفويتٌ للحياة، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة مَحَزِّ البلاغة بتعريف القصاص، وتنكير الحياة، لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب، حتى كاد يفني بكر ابن وائل، وكان يُقتَلُ بالمقتول غير قاتله، فتثور الفتنة، ويقع بينهم التناحر.

فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة، أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع من القتل، لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل، لأنه إذا همَّ بالقتل، فعلم أنه يقتص منه فارتدع، سلم صاحبه من القتل، وسلم هو من القود، فكان القصاص سبباً لحياة نفسين» [جواهر الأفكار: ١/ ٤٧٨].

وقال الزجاج: «معنى الحياة في القصاص - إذا عَلَمَ أنه يُقتلُ إن قَتَل - أمسك عن القتل، ففي إمساكه عن القتل، حياة الذي هَمَّ هو بقتله، وحياة له، لأنه من أجل القصاص أمسك عن القتل فسلم أن يُقتَل» [معاني القرآن: ١/ ٢٤٩].

وقوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة:١٧٩] أي: يا أصحاب العقول والبصائر، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة:١٧٩] أي: لعلكم تنزجرون، وتَدعونَ محارمَ الله، والتقوى: اسم جامع لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

٧- وجوب الوصية للوالدين والأقربين عندما يحضر الموت:

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ [البقرة:١٨٠]. أوجب الله في هذه الآية على من حضره الموت إن ترك مالاً أن يوصي لوالديه وأقاربه بعد موته، وقد نسخ الله هذا الحكم بعد ذلك بما أنزله في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ٧﴾ [النساء:٧] وبعد نزول آيات الفرائض في سورة النساء صارت المواريث المقدَّرةُ فريضة من الله يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية، وقد روى الترمذي عن عمرو بن خارجة: أن النبي ﷺ خطب على ناقته، وأنا تحت جرانها، وهي تَقْصَعُ بجُرَّتها، وإن لعابها يسيل بين كتفي، فسمعته يقول: «إن الله قد أعطى كل ذي حقٍّ حقه، ولا وصية لوارث» [الترمذي: ٢١٢١. وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح][١].

(١) وقال الشيخ أحمد شاكر في حكمه على هذا الحديث: صحيح بالأسانيد التي أشرنا إليها آنفاً، لا شك في صحته، وإن تكلم بعض أهل العلم في أسانيده، فإن بعض هذه الأسانيد يشدُّ بعضها بعضاً، لا يشك في ذلك من شدا شيئاً من العلم بالعلم والأسانيد، والإمام الشافعي لم يصل إليه بإسناد صحيح متصل.

وهذا الحديث ليس بالناسخ لآية الوصية هذه، ولكنه دلّ على الناسخ، فقول الرسول ﷺ فيه: «إن الله قد أعطى كل ذي حقٍّ حقه» أي: في آيات المواريث في سورة النساء.

٨- إذا بدَّل السامع الوصية بعد سماعه إياها فالإثم على المبدل دون الموصي:

قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾ [البقرة:١٨١] أي: فمن بدّل الوصية وحرفها وغيّرها بعدما سمعها فالإثم واقع على ذلك المغيّر المبدِّل، والموصي بريء من ذلك التغيير، وختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾ [البقرة:١٨١] فيه ترهيب وتخويف للذين يغيّرون ويبدِّلون الوصايا بإخبارهم بأن الله سميع لما كتموه، عليهم بما غيروه، وسيجزيهم على فعلتهم النكراء في اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين.

٩- لا حرج على من حضر الوصية أن يسدد الموصي إذا وقع منه خطأ أو انحراف في الوصية:

وقوله: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾ [البقرة:١٨٢]، الجنف: الميل في الأمور، وأصله عدم الاستواء، والفرق بين الجَنَفِ والإثم أن الجَنَفَ هو الخطأ الذي لا يعلم الموصي بأنه خطأ، والإثم تعمده الخطأ وهو يعلمه، والظاهر أن المصلح المذكور في الآية هو الموصَى إليه، ويدخل فيه الشاهد على الوصية، فإذا رأى من حضر وصية الموصي، ورأى فيها ميلاً وانحرافاً عن سواء السبيل، فلا بأس عليه أن يسدد الموصي ويأمره بالصواب.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أوجب الله على هذه الأمة أن يُقتَصَّ لكل قتيل من قاتله إذا تعمد قتله، فيُقتَل الحرُّ بالحرِّ، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، وبذلك أبطل الحق - تبارك وتعالى - ما كان عليه بعض أهل الجاهلية، مِنْ قتل من كانت فيهم عزةٌ وَمَنَعَةٌ بعبدهم حراً، وبالحر أحراراً، وبالأنثى رجلاً.

٢- الذي يقيم القصاص ولي أمر المسلمين، فالله خاطب المؤمنين جميعاً بإقامة القصاص في القتلى، ولا يمكن أن يجتمع المسلمون جميعاً على فعل ذلك، فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص والحدود.

٣- بيَّنت الآية حكم النوع إذا قتل نوعه، فأوجبت قتل الحر إذا قتل حراً، والعبد إذا قتل عبداً، والأنثى إذا قتلت أنثى، فإذا قتل العبد حراً فإنه يقتل به، وإذا قتلت المرأة حراً قتلت به، وهذا متفق عليه بين أهل العلم.

٤- اختلف أهل العلم في الحر إذا قتل عبداً هل يُقتل به، والمسلم إذا قتل ذمياً هل يُقتل به، وجمهور أهل العلم على أن المسلم لا يُقتل بالكافر، لقوله ﷺ : «لا يقتل مسلم بكافر» [البخاري: ١١١] ولا يصح حديث يخالف هذا الحديث.

ولا يقتل الحرُّ بالعبد عند جمهور أهل العلم، لأنه سلعة يشترى ويباع، ولو قتله خطأ لم تجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته، ولأنه لا يقاد بطرفه، ففي النفس بطريق الأولى.

٥- جمهور أهل العلم على أن الرجل يقتص منه إذا قتل امرأة، لقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة:٤٥] ولقوله ﷺ في الحديث الذي يرويه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال:

قال رسول الله ﷺ : «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم» [أبو داود: ٢٧٥١. وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ٢٣٩٠ وقال فيه: حسن صحيح].

٦- المسلم القاتل لا يخرج من دائرة الإيمان بقتله مؤمناً، ففي الآية الكريمة ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ [البقرة:١٧٨] فالآية صريحة في أن القاتل أخ لولي الدم، وفي هذا ومثله يقال: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته.

٧- القصاص حق لولي الدم في قتل العمد، فله أن يقتص ممن قتل قريبه، وله أن يعفو عن القصاص إلى الدية، وله أن يعفو مطلقاً، ولم يكن عند اليهود إلا القصاص أو العفو، وعند النصارى الدية.

٨- في حال عفو الولي عن القصاص إلى الدية عليه أن لا يشتط في رفع الدية ولا يغالي في المطالبة، وعلى القاتل أن لا يسوِّف في أدائها.

٩- إذا عفا ولي الدم عن القصاص إلى الدية، ثم قتل القاتل بعد ذلك، فذهب بعض أهل العلم إلى قتله، وذهب آخرون إلى أن عقوبته عقوبة أخروية، والله أعلم بالصواب.

١٠- إذا قتلت جماعة واحداً، قتلوا به جميعاً إذا لم يعف ولي القتيل عنهم، وعقد البخاري في صحيحه باباً عنون له بقوله: «باب إذا أصاب قوم من رجل، هل يعاقب أو يقتص منهم كلهم» وأورد تحته حديثاً قال فيه: «وقال ابن بشَّار: حدثنا يحيى عن عبيدالله، عن

نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن غلاماً قُتِلَ غِيلَةً، فقال عمر: «لو اشترك فيها أهل صنعاء لقتلتهم». وقال مغيرة بن حكيم، عن أبيه: إن أربعة قتلوا صبياً، فقال عمر مِثْله» [البخاري: ٦٨٩٦].

١١- أخبر الحقُّ - تبارك وتعالى - أن في القصاص حياة، وعندما كانت الأمة الإسلامية تقوم بالقصاص، كان الأمن يحلُّ في ربوعها، والبلاد التي تركت القصاص عربدت الجريمة في مدنها وقراها، لقد كان الذين يشاهدون تنفيذ حكم القصاص تتزلزل قلوبهم، وترجف نفوسهم، وكان من يريد قتلاً يكف ويرتدع عن الجريمة التي يريد الإقدام عليها، وبذلك يحيي نفسه، ويحيي من يريد قتله، وإيجاب قتل القاتل دون غيره إحياء للذين كانوا يقتلون من الأقارب والعشيرة.

١٢- أوجب الله على من حضره الموت أن يوصي لأبويه وأقاربه من بعده إذا كان لديه مال، ثم نسخ الله ذلك بآيات المواريث، وأصبحت الوصية غير جائزة للوارث، لقوله ﷺ: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، ولا وصية لوارث» [الترمذي: ٢١٢١، وقال: حسن صحيح].

وكان يجب على كل من لديه مال أن يكتب وصيته، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما حقُّ امرئ مسلم، له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين، إلا ووصيته مكتوبة عنده» [البخاري: ٢٧٣٨، ومسلم: ١٦٢٧].

وبعد فرض المواريث بقيت الوصية مشروعة بما لا يزيد على الثلث، وقد قال الرسول ﷺ لسعد بن أبي وقاص لما كان مريضاً بمكة وكان استأذنه أن يوصي بما له كله: «الثلث، والثلث كثير، إنك أن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم» [البخاري: ٢٧٤٢، مسلم: ١٦٢٨].

١٣- كان لا يجوز لمن تحمل الوصية أن يغيِّر ويبدِّل فيها، فإن رأى الموصي قد انحرف في وصيته فلا حرج عليه أن يسدده ويصوبه.

النص الثامن والثلاثون من سورة البقرة
الأحكام المتعلقة بالصيام في رمضان

أولاً: تقديم

بيّن الله - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص والنص الذي يليه أحكام إحدى الفرائض العِظام، وهي فريضة الصيام، وهذه الفريضة فريضة عظيمة جليلة، لها أثر كبير في إصلاح النفوس وتطهيرها وتزكيتها، وستبقى هذه الآيات منارة تهدي الصالحين إلى أحكام الصيام على مرّ الزمان.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- فرض الله الصيام على هذه الأمة:

نادى الله عباده المؤمنين مخبراً إياهم بأنه فرض عليهم الصيام فرضاً مماثلاً لصيام الذين من قبلهم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:١٨٣].

والصيام في لغة العرب: الإمساك، وترك التنقل من حال إلى حال، ومنه الصيام عن الكلام ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ [مريم:٢٦] أي: صوماً عن الكلام، ومنه قول النابغة:

خَيْـلٌ صـيام وخَيْـلٌ غـير صـائمةٍ تحت العَجاج وخَيْـلٌ تَعلِـكُ اللُّجـما

فالخيل الصيام الثابتة التي لا تتحرك، والخيل غير الصائمة هي الخيل التي تجول في ميدان القتال.

والصيام في الشرع: الإمساك عن الطعام والشراب والنكاح بنية خالصة لله من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وقد أخبرنا الله عزَّ وجلَّ أن صيامنا الذي كتبه علينا مماثل للصوم الذي كتبه على الذين من قبلنا، وكان الصوم في أول الإسلام فيه امتناع عن الطعام والشراب والوقاع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فإذا غربت الشمس حلّ للصائم ما حرم عليه إلى طلوع الفجر، ما لم ينم، فإذا نام قبل الفجر حرم عليه الطعام والشراب والوقاع إلى غروب الشمس من اليوم التالي، فهكذا كان صوم من قبلنا، ثم نسخ ذلك كما سيأتي بيانه.

٢- الحكمة من وراء الصيام:

وقد أخبرنا ربنا أنه كتب الصيام على من قبلنا حتى يسهل علينا الصيام، ولنتأسى بالصالحين الذين شرع لهم الصيام، قال الحسن البصري: «نعم والله، لقد كتب الله الصيام على كل أمة قد خلت، كما كتبه علينا شهراً كاملاً وأياماً معدودات، عدداً معلوماً. ورُوي عن السدي نحوه» [ابن كثير: ١/ ٢٤٧].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣] فيه بيان لحكمة الصيام، فالمراد من شرع الصيام تحقيق التقوى في القلوب، وهذه الغاية هي الغاية من كل عبادة فرضها الله علينا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١] والتقوى مخافة الله المستقرة في القلب التي تدفع إلى العمل بطاعة الله واجتناب معصيته.

٣- مدة الصيام وحكم صيام المريض والمسافر:

بيّن الله تبارك وتعالى مقدار الصوم، وأنه ليس واجباً إلا مدة محدودة في أيام معدودات، فإنه لو كان واجباً مدة طويلة لشقّ على النفوس، وضعفت عن حمله، ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ﴾ [البقرة:١٨٤] أي: الصيام الواجب عليكم هو في أيام معدودات، ومع كونه أياماً معدودات، فإن المريض والمسافر يباح لهما الفطر في السفر والمرض، لما في الصوم من المشقة على من كان في مثل حالهما، وفي الآية محذوف تقديره: فأفطر فعليه عدة من أيام أخر.

٤- كان يجوز في أول فرض الصيام للمقيم الصحيح أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً:

كان يجوز للمقيم الصحيح أن يصوم، ويجوز له أن يفطر، ويطعم مكان كل يوم مسكيناً، فمن تطوع بإطعام أكثر من مسكين فهو خير له، وبيّن الله سبحانه أن الصوم خير من الإطعام ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة:١٨٤].

ومعنى ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يقدرون على صيامه، والفدية تكون بإطعام المسكين.

٥- شرع الصيام على ثلاثة أحوال:

أخبرنا صحابة رسولنا ﷺ أن الصيام أحيل ثلاثة أحوال، ففي السنن لأبي داود، عن عمرو بن مرزوق: «قال: حدثنا أصحابنا أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة أمرهم بصيام ثلاثة أيام، ثم أنزل رمضان، وكانوا قوماً لم يتعودوا الصيام، وكان الصوم عليهم شديداً، فكان من لم يصم أطعم مسكيناً، فنزلت هذه الآية ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥] فكانت الرخصة للمريض والمسافر فأمروا بالصيام.

قال: وحدثنا أصحابنا قالوا: وكان الرجل إذا أفطر فنام قبل أن يأكل، لم يأكل حتى يصبح، قال: فجاء عمر بن الخطاب، فأراد امرأته، فقالت: إني قد نمت، فظنّ أنها تعتلّ، فأتاها، فجاء رجل من الأنصار فأراد الطعام، فقالوا: حتى نُسخِّنَ لك شيئاً، فنام، فلما أصبحوا أنزلت عليه هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]» [سنن أبي داود: ٥٠٦. وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ٤٧٨].

وصام الرسول ﷺ عاشوراء، وأمر بصيامه قبل فرض رمضان، روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمر قال: «صام النبي ﷺ عاشوراء وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك، وكان عبدالله لا يصومه إلا أن يوافق صومه» [البخاري: ١٨٩٢، مسلم: ١١٢٦].

وعن عائشة: أن قريشاً كانت تصوم عاشوراء في الجاهلية، ثم أمر رسول الله ﷺ بصيامه حتى فرض رمضان، وقال رسول ﷺ: «من شاء فليصمه، ومن شاء أفطر» [البخاري: ١٨٩٣، مسلم: ١١٢٥].

٦- فضل شهر رمضان:

ثم مدح الله شهر رمضان، وأثنى عليه من بين الشهور مخبراً أنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥].

أعلمنا الله في هذه الآية أن القرآن العظيم أُنزل في شهر رمضان هدىً للناس، ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: دلائل وحجج بينة واضحة جليلة لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المنافي للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام.

وقد صحّ عن الرسول ﷺ أن شهر رمضان خصَّ بإنزال الكتب السماوية كلِّها فيه، ففي مسند الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان» [مسند أحمد: ١٦٩٨٤، ابن كثير: ١/ ٢٤٩ وضعفه محقق المسند].

وقد نسخ الله تعالى بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥] ما كان أباحه لمطيق الصيام المقيم أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً، وبذلك أصبح الصوم واجباً حتماً على المقيم الصحيح، وأباح للمريض والمسافر الفطر على أن يصوما عدة ما أفطراه بعد رمضان ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٥] وإنما كرَّر سبحانه النص على هذا الحكم خشية أن يظن السامع أن إباحة الفطر للمريض والمسافر منسوخ أيضاً.

٧- أباح الله الفطر للمريض والمسافر لأنه يريد بنا اليسر:

وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] أي: أنه – سبحانه وتعالى – رخَّص لنا في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حقِّ المقيم الصحيح تيسيراً علينا ورحمةً بنا.

وقد أصبح اليسر مَعْلَماً من معالم هذا الدين، وصفة التزمها الرسول ﷺ في حياته، ومن اليسر أنه خفَّف علينا الواجبات عند وجود الحرج، فأباح الفطر للمريض والمسافر، وشرع لنا التيمم إذا لم نجد ماءً، وأباح لنا أكل الميتة في حال الاضطرار، وأباح لنا الطيبات كلها، وحرم علينا الخبائث كلها، وكانت حياة الرسول ﷺ يسراً كلها ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الأعلى:٨].

وكان الرسول ﷺ يرقب أصحابه، فإذا رأى منهم عسراً ردّهم إلى التيسير، وفي الصحيحين أن الرسول ﷺ قال لأصحابه: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» [البخاري: ٦٩، مسلم: ١٧٣٤].

٨- يجب على المريض والمسافر قضاء عدة ما أفطراه:

وإنما أمر الله المفطر بسبب المرض أو السفر بقضاء عدة ما أفطره، ليكمل عدة الأيام التي فرضها الله عليه ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [البقرة:١٨٥] أي: عدة ما أوجبه علينا في رمضان،

وقد شرع لنا ربنا - سبحانه - بعد أن نتم شهر الصيام أن نكبره على ما هدانا، ويكون التكبير في عيد الفطر من صلاة الفجر يوم العيد إلى أن يبدأ الإمام صلاة العيد ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة:١٨٥] أي: رجاء شكركم لله ربكم على هدايته لكم، ونعمه التي حباكم إياها.

٩- فضل الدعاء في صيام رمضان:

أنزل الله قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦] في أثناء آيات الصيام، ليحثَّ الصائمين على دعاء ربهم في صيامهم، فالصائم الملتزم بآداب الصيام الشرعية قريب من الله تعالى، وكلما كان العبد قريباً من الله عزَّ وجلَّ كان دعاؤه مقبولاً أكثر.

وهذه الآية تدلُّ على أن بعض الصحابة سألوا عن الله تعالى، فقالوا: أبعيد ربنا فنناديه، أم قريب فنناجيه؟ فجاء الجواب من رب العزة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ﴾ [البقرة:١٨٦] وما دام الله قريباً منا، فإنه يسمع دعاء الداعي، ويجيب ذلك الدعاء، وطلب الله من عباده أن يدعوه ويسألوه، ويؤمنوا به، لعلهم يرشدون، أي: ليكونوا من الراشدين.

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هلَّلنا وكبرنا، وارتفعت أصواتنا، فقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنه معكم سميع قريب، تبارك اسمه، وتعالى جدّه» [البخاري: ٢٩٩٢، مسلم: ٢٧٠٤].

وقوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة:١٨٦] يدلُّ على أنَّ الله يجيب دعوة العبد، ولا بدَّ، ولكن تختلف صور الإجابة، كما في الحديث الصحيح الذي يرويه الإمام أحمد: عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعةُ رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يُعجِّلَ له دعوته، وإما أن يَدَّخِرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» قالوا: إذاً نكثر، قال: «الله أكثر» [مسند أحمد: ١١١٣٣].

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل، قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أرَ يستجيبُ لي، فيستحسرُ عند ذلك، ويدع الدعاء» [مسلم: ٢٧٣٥].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- فرض اللهُ علينا الصيام طيلة أيام شهر رمضان، والصيام الامتناع عن الشراب والطعام والوقاع بقصد التقرب إلى الله من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

٢- كان الصوم مفروضاً على الأمم من قبلنا، وكان صومهم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ثم يحل لهم الطعام والشراب والوقاع إلى طلوع الفجر ما لم يناموا، فإن ناموا قبل طلوع الفجر حرمت عليهم المفطرات إلى غروب الشمس من اليوم التالي، وكان الصيام الواجب على الصحابة في أول الأمر مماثلاً لصوم من قبلنا، ثم نسخ هذا التشريع في الآية الواردة في أول النص التالي.

٣- ذكر الله الحكمة من تشريع الصيام، وهي إيجاد التقوى في القلوب، وإيجاد التقوى في القلوب هي غاية تشريع العبادات كلِّها.

٤- أباح الله في أول الأمر للصائم المقيم الصحيح أن يفطر في رمضان بشرط أن يُطعم عن كل يوم مسكيناً، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾ [البقرة:١٨٤] ثم نسخ هذا التشريع بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة:١٨٥].

٥- يجوز للمريض والمسافر في رمضان أن يفطرا، وعليهما الصيام بعد انقضاء رمضان، وذلك بعد شفاء المريض وإقامة المسافر، وعليهما أن يصوما عدة الأيام التي أفطرها كلٌّ واحد منهما.

٦- إذا شهد الصائم شهر رمضان مقيماً، ثم سافر بعد ذلك في أثناء الصيام، فله أن يصوم، وله أن يفطر، وفي صحيح البخاري «أن الرسول ﷺ خرج إلى مكة في رمضان فصام، حتى بلغ الكديد فأفطر، فأفطر الناس» [البخاري: ١٩٤٤، مسلم: ١١١٣]. وقد خالف بعض أهل العلم في ذلك، ولم يجيزوا الفطر لمن شهد شهر رمضان مقيماً إذا سافر، وكأن الحديث لم يبلغهم، فقالوا بغير ما دلَّ عليه.

٧- ذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجوز الصيام في السفر، وهذا اجتهاد غير صائب، وقد سبق ذكر الحديث الذي في الصحيحين أن الرسول ﷺ وأصحابه خرجوا في رمضان إلى فتح مكة، فصاموا، حتى إذا بلغوا الكديد أفطروا، وفي الحديث الآخر عن أبي سعيد الخدري، قال: «كنا نغزو مع رسول الله في رمضان، فمنَّا الصائم، ومنّا المفطر، فلا يجد الصائم على

المفطر، ولا المفطر على الصائم، يرون أنَّ من وجد قوة فصام، فإن ذلك حسن، ويرون أن من وجد ضعفاً فأفطر، فإن ذلك حسن» [مسلم: ١١١٦].

٨- لا ينبغي للمسافر أن يصوم في الحر الشديد، أو عندما يكون السفر شاقاً متعباً، فعن أنس، قال: كنا مع النبي ﷺ في السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الرِّكاب، فقال الرسول ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر» [البخاري: ٢٨٩٠، مسلم: ١١١٩] وهذا يدل على أن الفطر أفضل في مثل تلك الحالة.

٨- إذا التقى المسلمون بالكفار في الحرب والقتال، فعلى المسلمين أن يفطروا، وقد قال الرسول ﷺ لصحبه في غزوة فتح مكة، وكانت في رمضان: «إنكم مُصَبِّحو عدوِّكم، والفطر أقوى لكم، فأفطِروا» [مسلم: ١١٢٠].

أما في غير المشقة الشديدة، وفي غير الجهاد، فالأمر متروك للإنسان إن شاء صام، وإن شاء أفطر، سواء في الفريضة أو النافلة، وقد قال الرسول ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمي: «صم إن شئت، وأفطر إن شئت» [مسلم: ١١٢١].

فإذا كان الرجل قوياً جلداً، لا ترهقه المصاعب، ولا تحط من قواه، فلا حرج عليه أن يصوم في السفر الصعب، وقد روى أبو الدرداء قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد، حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه لشدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة» [البخاري: ١٩٤٥، مسلم: ١١٢٢].

١٠- لا يجوز لمن يريد السفر في نهار رمضان أن يفطر فيه حين يعزِمُ على السفر، وإنما يفطر عندما يبدأ بالسفر فعلاً، لقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة:١٨٥]، ولا يكون على سفر إلا إذا بدأ السفر فعلاً.

١١- إذا أفطر في نهار رمضان ناسياً، فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه، كما صحَّ في الحديث، فإذا أفطر متعمداً بغير جماع فهو آثم، وليس عليه غير قضاء ذلك اليوم، وعليه أن يتوب، ويستغفر ويتصدق، لعلَّ الله يتوب عليه، أما إذا أفطر بجماع فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً.

١٢- الكبير الهرم، والمريض الذي يئس من الشفاء على كلِّ منهما أن يُطعم عن كلِّ يوم أفطره مسكيناً، احتجاجاً بقول ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ

مِسْكِينٍۖ﴾ [البقرة:١٨٤] «كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يطيقان الصوم أن يفطرا عن كل يوم مسكيناً» [أورده القرطبي، وعزاه لأبي داود: ٢٣١٨، وصحح إسناده القرطبي: ١/ ٦٧٠ ورواه البخاري في صحيحه: ٤٥٠٥].

١٣- حال الحامل والمرضع حال المريض والمسافر تفطران وتصوم كلٌّ واحدة منهما عِدَّة ما أفطرتا، ولا إطعام عليهما، قال بذلك الحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك، والنخعي، والزهري، وربيعة، والأوزاعي، وأصحاب الرأي [القرطبي: ١/ ٦٧١].

وقد رواه البخاري عن الحسن وإبراهيم [البخاري بعد الحديث رقم: ٤٥٠٤].

١٤- يجوز أن يقال: جاء رمضان، وصمت رمضان خلافاً لمن كره ذلك، ففي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة» [البخاري: ١٨٩٨، مسلم: ١٠٧٩].

وعن أبي هريرة أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقدَّموا رمضان بصوم يوم أو يومين، إلا رجلاً كان يصوم صوماً، فليصمه» [مسلم: ١٠٨٢] فالرسول ﷺ قال: رمضان، ولم يقل شهر رمضان.

١٥- يستحب الإكثار في شهر رمضان من قراءة القرآن، لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾ [البقرة:١٨٥]. فبيْنَ القرآن ورمضان تناسب واتصال.

١٦- يستحب الإكثار من الدعاء في أثناء صيام رمضان، لقوله تعالى في أثناء آيات الصيام: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ الآية [البقرة:١٨٦].

النص التاسع والثلاثون من سورة البقرة
إحلال الله المفطرات طيلة ليلة الصيام

أولاً: تقديم

حوى هذا النص آية واحدة كريمة، أبان الله فيها بقية أحكام الصيام، وقد نسخ الله بها ما كان حرمه على الصائمين من الوقاع والأكل والشرب إذا هم ناموا في الليل قبل الفجر، فأحل الله لهم المفطرات ناموا أو لم يناموا ما دام الليل باقياً، والفجر لم يطلع.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إباحة الله المفطرات في ليلة الصيام للصائم نام قبل الفجر أو لم ينم:

كان الصائم في شهر رمضان إذا غابت الشمس يباح له الطعام والشراب والنكاح إلى طلوع الفجر، فإذا نام قبل طلوع الفجر حرمت عليه المفطرات إلى غروب الشمس من اليوم التالي، فأباح الله في هذه الآية الطعام والشراب والوقاع طيلة ليلة الصيام نام أو لم ينم، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ﴾ [البقرة:١٨٧].

صرَّح الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية بأنه أحلّ لهم ما كان محرماً عليهم، والذي حرَّمه عليهم الوقاع والأكل والشرب بعد نومهم في ليلة الصيام، والرَّفَثُ الذي أحله لهم هو وقاع الزوجة، وقد روى البخاري عن البراء بن عازب قال: «كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يُفطِر، لم يأكل ليلته ولا يومه، حتى يمسي، وإنَّ قيس بن صِرْمَةَ الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومَه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءَته امرأته، فلما رأته

قالت: خيبةً لك، فلما انتصف النهارُ غُشِي عليه، فذُكِر ذلك للنبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] ففرحوا بها فرحاً شديداً، ونزلت: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧]» [البخاري: ١٩١٥، أبو داود: ٢٣١٤].

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] فيها دلالة واضحة أن بعض الصحابة كان يأتي زوجته بعد أن ينام، أو بعد أن تنام زوجته، وقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧] جعل الله المرأة لباساً لزوجها، والزوج لباساً لزوجته، لامتزاج كلٍّ واحد من الزوجين بالآخر عند الجماع، كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولابسه.

وقوله: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] أي: تخونوها بمباشرتكم أزواجكم في ليالي الصيام بعد نومكم، وأصل الخيانة: أن يؤتمن الرجل على شيء، فلا يؤدي الأمانة فيه، وإنما سماهم خائنين لأنفسهم، لأن ضرر ذلك عائد عليهم، [فتح القدير: ١/ ٣٣٩].

وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] أي: قَبِلَ توبتكم من خيانتكم لأنفسكم، وغفر لكم ذنوبكم، وقوله: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] المراد بكلمة ﴿فَٱلْـَٰٔنَ﴾ الوقت الذي أنت فيه، أي: اللحظة الحاضرة، والمراد بها في الآية الوقت التي نزلت فيه الآية، وقوله: ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾ أصل المباشرة وضع البشرة على البشرة، كنَّى به عن الجماع والمعاشرة، وقوله: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] أي: ما كتبه لكم من الولد، فهو المقصود الأعلى في النكاح، قال الراغب: «قوله: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] إشارة في تحرِّي النكاح إلى لطيفة، وهي أن الله جعل لنا شهوة النكاح لنتحرى طلب النسل الذي يكون سبباً لبقاء نوع الإنسان إلى غاية قدَّرها، فيجب للإنسان أن يتحرَّى بالنكاح ما جعل الله له على حسب مقتضى العقل والديانة، ومن تحرَّى بالنكاح حفظ النسل وحصانة النفس على الوجه المشروع فقد ابتغى ما كتب الله له» [المفردات: ص٤٢٤].

٢- تحديد مدة الصيام اليومي:

وقوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧] أباح الله لنا الأكل والشرب مع ما تقدم من الجماع في أي وقت من ليل الصائم إلى أن يطلع الفجر، وعندما نزلت الآية لم يكن فيها من الفجر، فكان بعض الصحابة إذا أرادوا الصوم ربط في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فأنزل الله بعد ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧].

روى البخاري عن سهل بن سعد قال: «نزلت ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة:١٨٧] ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧] فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار» [البخاري: ١٩١٧، مسلم: ١٩٠١].

ومن هؤلاء عدي بن حاتم الطائي، فعن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة:١٨٧] عَمَدْتُ إلى عقالٍ أسود وإلى عقالٍ أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر في الليل، فلا يستبينُ لي، فغدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار» [البخاري: ١٩١٦، مسلم: ١٠٩٠]، وفي رواية أخرى قال له: «إنَّ وسادك إذاً لعريض، أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك» [البخاري: ٤٥٠٩، مسلم: ١٠٩٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧] أي: إلى غروب الشمس، فإذا غربت الشمس فقد أفطر الصائم، جاء عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ها هنا، وأدبر النهار من ها هنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم» [البخاري: ١٩٥٤، مسلم: ١١٠٠].

وحدَّث عبدالله بن أبي أوفى قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر وهو صائم، فلما غربت الشمس، قال لبعض القوم: «يا فلان قم فاجْدَحْ لنا» فقال: يا رسول الله، لو أمسيت؟ قال: «انزل فاجدح لنا» قال: يا رسول الله لو أمسيتَ؟ قال: «انزل فاجْدَحْ لنا» قال: إنَّ عليك نهاراً، قال: «انزل فاجْدَحْ لنا» فنزل فجدح لهم، فشرب النبي ﷺ، ثم قال: «إذا رأيتم الليل قد أقبل من ها هنا، فقد أفطر الصائم» [البخاري: ١٩٥٥، مسلم: ١١٠١]. والجَدْحُ: خلط السويق بالماء، وتحريكه حتى يستوي، وقوله: إنَّ عليك نهاراً، أي: النهار لا يزال باقياً، لرؤيته آثار الضياء والحمرة التي بعد الغروب، وقوله: لو أمسيت، أي: تأخرت حتى يدخل المساء.

٣- لا يجوز للمعتكف أن يباشر زوجته أثناء مدة الاعتكاف:

وقوله: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرَّم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه» [ابن كثير: ١/ ٢٥٩] والمراد بالمباشرة: الجماع ودواعيه من التقبيل والمعانقة.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة:١٨٧] المعنى: أن ما بيّنه الله من أحكام الصيام، وما أباح فيه وحرم، وما ذكره من

رخصه وعزائمه، وما ذكره من تحريم مباشرة الزوجة في الاعتكاف هو من حدود الله التي لا يجوز للعبد المؤمن أن يقربها، ومثل هذا البيان يبين اللهُ ما شرعه للناس في كتابه وعلى لسان رسوله، ليتقوا الله ويعملوا بطاعته على الوجه الذي أراده.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- فرض الله الصيام على رسوله ﷺ وأصحابه فرضاً مماثلاً لما فرضه على من قبلنا، وكان الصائم إذا غربت الشمس وأفطر، أبيح له الطعام والشراب والوقاع إلى أن يطلع الفجر، فإذا نام قبل الفجر حرمت عليه المفطرات إلى غروب الشمس من اليوم التالي، ثم نسخ الله - تبارك وتعالى - هذا الحكم، وأبيحت المفطرات من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، لا فرق بين من نام أو لم ينم في ليلة الصيام.

٢- هذا الذي شَرَعَهُ الله ناسخاً الحكم الذي ذكرته، فيه يسر من الله على عباده المؤمنين، وقد شقَّ الحكم المنسوخ قبل نسخه على الصحابة، فبعضهم نام قبل أن يفطر، فغشي عليه في اليوم التالي، وبعضهم عاشر زوجته بعد أن نام أو نامت.

٣- على المسلم إذا واقع زوجته أن يبتغي ما شرع الله من النكاح، وهو الولد، وإعفاف نفسه عن الزنا والفساد.

٤- أباح الله الأكل والشرب حتى طلوع الفجر، وهذا يدلُّ على مشروعية الطعام إلى وقت متأخر في ليل الصيام، وقد رغَّب الرسول ﷺ في ذلك، وهو السحور، ففي صحيح البخاري وصحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : «تسحروا فإن في السحور بركة» [البخاري: ١٩٢٣، مسلم: ١٠٩٥]. وأصبحت أكلة السحور فارقاً بين صومنا وصوم أهل الكتاب، فكان أهل الكتاب يحرم عليهم الطعام والشراب بعد نومهم في ليلة الصيام، أما نحن فقد حُبِّبَ لنا أكلةُ السحور، روى عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور» [مسلم:١٠٩٦].

٥- يجب أن يتوقف الصائم عن الطعام إذا طلع الفجر لقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧].

وقد أخبرنا أنس، عن زيد بن ثابت ﷺ قال: «تسحرنا مع النبي ﷺ ، ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية» [البخاري: ١٩٢١، مسلم: ١٠٩٧].

ولا يجوز الالتفات إلى قول من يجيز الأكل والشرب إلى ما بعد طلوع الفجر، فإنه مخالف لنص الآيات، ولجملة من الأحاديث الصحيحة، منها ما روته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها قالت: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم» [البخاري: ٦٢٣] وهذا يقضي بأن يتوقف الصائم عن الطعام إذا سمع الأذان الثاني، وفي حديث عبدالله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «لا يمنعنَّ أحدكم، أو أحداً منكم، أذان بلال من سحوره، فإنه يؤذن أو ينادي بليل، ليرجع قائمكم، وليُنبه نائمكم» [البخاري: ٦٢١، مسلم: ١٠٩٣].

وعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يمنعنكم من سحوركم أذان بلال، ولا الفجر المستطيل، ولكن الفجر المستطير في الأفق» [مسلم: ١٠٩٤، والترمذي: ٧٠٥ واللفظ له، وأورده الألباني في صحيح الترمذي] وهذا يدل على أن الفجر المنتشر شرقاً وغرباً يُحرِّم الطعام، أما الفجر الذي يأخذ شكل ذنب السرحان، ويكون عمودياً، فلا يُحرِّم الطعام.

٦- كان الرسول ﷺ يواصل الصيام، أي: يصل اليوم السابق باليوم اللاحق من غير أن يتناول طعاماً أو شراباً في ليل الصيام، وكان ينهى أصحابه عن الوصال مما يدلُّ على أن الوصال كان إحدى خصوصياته.

روى أبو هريرة قال: قال النبي ﷺ : «لا تواصلوا» قالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست مثلكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» فلم ينتهوا عن الوصال، قال: فواصل بهم النبي ﷺ، يومين أو ليلتين، ثم رأوا الهلال، فقال النبي ﷺ : «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالمنكل لهم [البخاري: ٧٢٩٩، مسلم: ١١٠٣].

وقد أذن الرسول ﷺ بالوصال إلى السحر، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل، فليواصل حتى السحر» [البخاري: ١٩٦٧].

وإذا كان الرسول ﷺ نهى أصحابه، وهم خير الأمة عن الوصال، فغيرهم أولى أن يتناوله النهي.

٧- شرع الله لهذه الأمة ملازمة المساجد بقصد التقرب إلى الله تعالى، وقد دلت آية هذا النص على أنه يحرم على المعتكف مباشرة النساء مدة اعتكافه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧] وقد تكلم الفقهاء عن الأحكام المتعلقة بالاعتكاف، في الباب الذي عقدوه بهذا الاسم في مدوناتهم الفقهية.

النص القرآني المتمم للأربعين من سورة البقرة
نهي الله المؤمنين عن أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل

أولاً: تقديم

بعد أن بيّن الله - تعالى - أحكام الصيام التي تهذب النفوس، وتصلح القلوب، وتُقرِّبُ العبد إلى ربه، نهى عباده عن أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وأعلمهم أن حكم الحاكم وقضاء القاضي لا يُحِلُّ لهم الحرام، وأبان الله في الآية الثانية من هذا النصِّ الحكمة من وراء خلق الهلال وتغير أحواله، فقد جعله الله كذلك ليعرف العباد مواقيت الحج والصيام، ويعلموا عدد السنين والحساب، وأبطل في ختام الآية عادة جاهلية، تتمثل في إتيان بيوتهم من ظهورها إذا رجعوا من السفر عامة، أو من سفر الحج والعمرة خاصة.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهى الله المؤمنين عن أكل بعضهم مال بعض بالباطل:

نهى الله - تبارك وتعالى - المؤمنين في المجتمع الإسلامي قاطبةً عن أكل بعضهم مال بعض بالباطل ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة:١٨٨]. وقوله: ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ أي: أموال إخوانكم، جعل النص مال الأخ في الإسلام كمال نفسه، لأن الأخ كالنفس، وقد عرفنا الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ بمسالك المال الحرام، ومنه الربا، وأثمان المحرمات كالخمر والخنزير والميتة، ومهر البغي، ومنه أن يقتطع المسلم مال أخيه، وهو يعلم أنه عليه حرام، ثم يخاصمه به عند الحاكم أو القاضي، فيحكم له به، لأنه لا دليل لخصمه عليه، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة:١٨٨].

قال ابن عباس في الآية: «هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال، فيخاصمهم فيه إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثمٌ آكلٌ حراماً» [القرطبي: ٢/ ٩٥٤].

٢- حكم القاضي لا يحلّ المال الحرام:

قال قتادة في هذه الآية: «كان يقال: من مشى مع خصمه، وهو له ظالم، فهو آثم، حتى يرجع إلى الحق، واعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً، ولا يحق لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى، ويشهد به الشهود، والقاضي بَشَرٌ يخطئ ويصيب، واعلموا أنه من قُضِيَ له بالباطل، فإن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للمحقِّ، بأجود مما قُضِي به للمبطل على المحق في الدنيا» [الطبري: ٢/ ٩٥٤].

ومصداق هذا الذي ذكره ابن عباس وقتادة ما رواه البخاري عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ: أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها، أو فليتركها» [البخاري: ٢٤٥٨، مسلم: ١٧١٣].

وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حقَّ امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة»، فقال له رجل: «وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك» [مسلم: ١٣٧].

وفي حديث الأشعث بن قيس: أن رسول الله ﷺ قال: «مَن حلف على يمين صبر، يقتطع بها مال امرئ مسلم، هو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان» [البخاري: ٢٣٥٦، ومسلم: ١٣٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ﴾ ليس المراد منه الأكل خاصة، لأن غير الأكل من التصرفات كالأكل، وإنما خصَّه بالذكر، لأن الأكل هو المقصود الأعظم من المال.

وقوله: ﴿وَتُدْلُواْ﴾ أصل الإدلاء إرسال الدلو في البئر للاستقاء، ثم استعير لكل إلقاء، قولاً كان أو فعلاً، توصلاً إلى شيء، يقال: أدلى الرجل بحجته. و﴿فَرِيقًا﴾ أي: جزءاً وقطعة. وقوله: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: بالحرام الذي يوجب الإثم. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أي: تعلمون أنكم على الباطل فيما أخذتموه من المال.

٣- الحكمة من خلق الله الأهلة على ما تبدو عليه في السماء:

وقوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩] ما يذكره المفسرون من أحاديث في سبب نزول الآية لم يصحّ منها شيء، والآية صريحة في أن بعض الصحابة سألوا الرسول ﷺ عن حكمة ظهور الأهلة في أول كلِّ شهر، فأجاب ربُّ

العزة سبحانه أنه جعلها مواقيتَ للناس، أي: جعلها لتوقيت حج الناس وصومهم وإفطارهم وعدة نسائهم، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس:٥]. وقال سبحانه: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [الإسراء:١٢].

وهذه الآيات تدلُّ دلالة صريحة على الغاية المقصودة من جعل الله الأهلة على ما هي عليه، وهي معرفة المواقيت بيسر وسهولة، من غير حاجة إلى منجم أو حاسب، و﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال، سمي بهذا الاسم، لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه، وجمع الهلال على أهلة لأنه يريد به هلال كل شهر أو هلال كل ليلة.

٤- إتيان البيوت من ظهورها عادة جاهلية باطلة:

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩] نفى الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية أن يكون إتيانهم البيوت من ظهورها برّاً، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك في حال عودتهم إلى ديارهم من الحج أو العمرة أو عودتهم من السفر، وقد عظمت هذه العادة عند بعضهم فرفعوها إلى مرتبة الدين الذي يُثْنى على من التزم بها، ويذمُّ من حاد عنها، فأنزل هذه الآية مبطلاً هذه العادة، معلناً أن الملتزم بها ليس بممدوح، وأن تاركها ليس بمذموم، روى البراء قال: «كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره» فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة:١٨٩] [البخاري: ٤٥١٢، مسلم: ٣٠٢٦]، وروى أبو داود الطيالسي عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء، قال: «كانت الأنصار إذا قدموا من سفرٍ، لم يَدْخل الرَّجُلُ من قِبَل بابه، فنزلت هذه الآية» [مسند أبي داود الطيالسي: ٢/ ٩٠ الحديث ٧٥٢] وقد أمر الله - تبارك وتعالى - عباده أن يتقوه، بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩] أي: تفوزون عند الله في يوم لقياه، والوقوف بين يديه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - حرَّم الله على عباده أن يأكل بعضهم مال بعض بالباطل، وقد عرَّفنا الله في كتابه وعلى لسان رسوله طرائق أكل المال بالباطل.

٢- حُكْم الحاكم بالأمر لغير صاحبه لا يحلُّه لمن حكم له به إن كان يعلم أنه مبطل فيما أخذه، فحكم الحاكم لا يحلُّ الحرام، ولا يحرِّم الحلال، لا في الأموال ولا الفروج ولا غيرها.

٣- أبطل الله عادةً جاهلية تتمثل في إتيان البيوت من ظهورها بعد عودة أصحابها إليها من حج أو عمرة، وقد كان أهل الجاهلية يفعلونها ظانين أنها قربة تقربهم إلى الله، فأمرهم الله أن يأتوا البيوت من أبوابها.

٤- بيان الحكمة من خلق الهلال وتغيّر أحواله على الصفة التي نراه عليها في كل يوم، وهي أن نعلم عدد السنين والحساب، ونتعرف إلى مواقيت الصيام والحج ونحوها.

٥- على أهل العلم أن يقوِّموا أخطاء العباد التي يتلبسون بها في أمر دينهم، ومن ذلك ما يظنونه قربة إلى الله، وهو ليس كذلك، ومن ذلك كتابة التمائم وبيعها، وأخذ الأجرة على قراءة القرآن للأموات، ونحو ذلك.

النص القرآني الحادي والأربعون من سورة البقرة
القتال في سبيل الله

أولاً: تقديم

فرض الله القتال على المؤمنين، وأمرهم أن يقاتلوا من يقاتلهم، ونهى عن العدوان في القتال، وذلك بقتال مَن لا يقاتل، وكرر الله الأمر بمقاتلة المشركين حيث وجدناهم، وطالبنا بأن نخرجهم من ديارهم كما أخرجونا من ديارنا، ونهانا عن قتالهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلونا فيه.

وبيّن الله لنا أن قتال أعداء الله ماضٍ حتى لا يُفتَن أحدٌ في دينه، وحتى يظهر الإسلام على الأديان كلها، وأعلمنا ربُّنا - عزَّ وجلَّ - أنه لا يجوز أن نقاتل في الأشهر الحرم حتى يقاتلنا المشركون فيها، ولا يجوز لنا أن نرتكب ما حرمه الله علينا في القتال كالتمثيل بالقتلى، وقطع الأشجار، وهدم البيوت إلا إذا فعل المشركون ذلك بنا.

ونهانا في الآية الأخيرة من النص عن التوقف عن القتال، فنلقي بأيدينا إلى الهلاك.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أوجب الله على هذه الأمة القتال بعد أن نهاهم عنه:

أمر الله تبارك وتعالى في الآية الأولى من هذا النص أصحاب رسوله ﷺ بقتال الذين يقاتلونهم من المشركين، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٠].

وقد جرى تشريع القتال على أربع مراتب:

الأولى: كان أصحاب الرسول ﷺ منهيين عن القتال في مكة، وكانوا مطالبين بأن يكفوا أيديهم عن القتال ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وفعل الخيرات، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء:٧٧].

الثانية: بعد الهجرة أذن الله لهم بالقتال من غير إيجاب ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)﴾ [الحج:٣٩].

الثالثة: أوجب الله على الصحابة في الآية الأولى من هذا النص قتال من يقاتلهم ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة:١٩٠] فهذه الآية أول آية أمر فيها بالقتال.

الرابعة: أوجب الله قتال المشركين كافة كما يقاتلوننا كافة ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة:٣٦]. والمسلمون في كل عصر يكونون بحسب الحالة التي هم عليها، فقد يكونون كحال الصحابة في مكة قبل الهجرة، فيكفون أيديهم، ويشتغلون بفعل الخيرات، وقد يكونون أقوياء، فيقاتلون من يقاتلهم، وقد يكونون في الغاية من القوة، فيقاتلون المشركين كافة.

٢- غاية القتال في الإسلام:

حدَّد الله الغاية التي يجب أن يضعها المسلم في قلبه، وأمام ناظريه، وهي أن يقاتل في سبيل الله، كما قال الله في هذه الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة:١٩٠]. وقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)﴾ [البقرة:٢٤٤] ولا يجوز للمسلم أن يقاتل عصبية، ناصراً قومه، أو حاكمه، أو حزبه.

٣- نهى الله - تبارك وتعالى - عن الاعتداء في القتال:

أمرنا الله - تبارك وتعالى - بقتال من قاتلنا، ونهانا عن الاعتداء في القتال، فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾ [البقرة:١٩٠].

والاعتداء الذي نهانا الله عنه في هذه الآية يكون بقتال من لا يقاتل من النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم، ولا قتال فيهم، وكذلك الرهبان وأصحاب الصوامع، ومن العدوان الذي نهينا عنه الغلول، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، ففي حديث بريدة عند مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه بخاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً» [مسلم: ١٧٣١].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، «أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان» [البخاري: ٣٠١٤، ٣٠١٥، مسلم: ١٧٤٤].

وعقَّب - تبارك وتعالى - على نهيه إيانا عن العدوان بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠﴾ [البقرة:١٩٠] وفي هذا تهييج للمؤمنين على ترك العدوان الذي يبغضه الله ويكرهه.

٤- أمرنا الله بقتال الكفار الذين يقاتلوننا حيث وجدناهم:

أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بقتال الكفار الذين يقاتلوننا حيث ثقفناهم، قال: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ﴾ [البقرة:١٩١].

وأصل الثَّقَف الحِذْقُ والبَصَرُ في الأمور، ومعناه: واقتلوهم حيث بصرتم مقاتليهم، وتمكنتم من قتلهم، والمكان الذي أخرجوا منه المسلمين هو مكة، يقول لهم: أخرجوا الكفار من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم، والمراد بالفتنة التي عدَّها الله أشدّ من القتل هي تعذيب الكفار للمسلمين في مكة، أي: فتنتهم إياكم في الحرم عن دينكم، فقد عذَّب الكفارُ المؤمنين وأخرجوهم من وطنهم، واستولوا على ديارهم، والفتنة أشدّ من القتل، إذ لا بلاء على الإنسان أشد من إيذائه بسبب اعتقاده الذي تمكن من عقله وقلبه.

٥- لا يجوز للمسلمين مقاتلة المشركين عند المسجد الحرام حتى يقاتلونا فيه:

نهانا ربنا - تبارك وتعالى - عن مقاتلة المشركين عند المسجد الحرام حتى يقاتلونا فيه، فإن قاتلونا فيه، فعند ذلك أمرنا الله بقتالهم فيه كذلك جزاء الكافرين المقاتلين في المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩١﴾ [البقرة:١٩١].

٦- أذن الله لرسوله ﷺ أن يقاتل المشركين عند المسجد الحرام عام الفتح ساعة من نهار:

وقد أذن الله لرسوله ﷺ بالقتال في الحرم يوم فتح مكة، ثم عادت الحرمة بعد ذلك إلى يوم القيامة، ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلَّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا

ينفَّر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرَّفها، ولا يختلى خلاها» قال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لِقَيْنِهِمْ وبيوتهم، قال: «إلا الإذخر» [البخاري: ١٨٣٤، مسلم: ١٣٥٣].

وكان الرسول ﷺ بايع في غزوة الحديبية أصحابه، وكانوا ألفاً وأربع مائة مقاتل، وكانت قريش قد تألبت عليهم ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش، ثم كفَّ الله القتال بينهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:٢٤]. وقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح:٢٥].

٧- إذا توقف المشركون عن القتال فإن الله غفور رحيم:

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة:١٩٢] أي: إن تركوا القتال في الحرم، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله يغفر ذنوبهم، ولو كانوا قتلوا المسلمين في حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، لمن تاب منه إلى الله. [ابن كثير: ١/ ٣١٤].

٨- الغاية العظمى للقتال:

أمر الله - تبارك وتعالى - بقتال الكفار حتى لا يُفتن أحد في دينه ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة:١٩٣] ومعنى ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ حتى يعبد الله وحده، ويظهر دين الإسلام على سائر الأديان، كما ورد في البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله» [البخاري: ٢٥، مسلم: ٢٢].

وعندما دعي عبدالله بن عمر للخروج والقتال في الفتنة قال: «قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله» [البخاري: ٤٥١٣].

٩- إذا انتهى الكفار عن كفرهم فلا يجوز قتالهم ومن قاتلهم فهو ظالم:

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة:١٩٣] أي: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين وفتنتهم، فكفُّوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، والمراد بالعدوان هنا: المعاقبة والمقاتلة، كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤] وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦].

١٠- الحرمات قصاص:

وقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة:١٩٤] نزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، وكانت الحديبية في شهر ذي القعدة في السنة السادسة من الهجرة، فمنع الكفار الرسول وصحبه من العمرة في ذلك العام، وصالحوهم على أن يعودوا العام المقبل، فيدخل الرسول ﷺ مكة، ويقيم بها ثلاثاً، فلما كان العام المقبل، وذلك في شهر ذي القعدة سنة سبع من هجرته، خرج معتمراً وأصحابه، وأخلى له أهل مكة البلد، حتى دخلها رسول الله ﷺ، فأقام هو وأصحابه ثلاثاً، ثم انصرفوا إلى المدينة.

وقد جاء في مسند أحمد عن جابر بن عبدالله قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزى، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ» [مسند أحمد: ١٤٥٨٣، وصححه ابن كثير: ١/ ٣١٥].

وقد كان الرسول ﷺ أرسل عثمان لمفاوضة قريش في الحديبية، فلما بلغ الرسول ﷺ أن عثمان قد قُتل، بايع أصحابه تحت الشجرة، فلما بلغه أن عثمان لم يُقتل، كفَّ عن ذلك، وجنح إلى المسالمة والمصالحة.

وقوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة:١٩٤] قال قتادة: «فخرت قريش على النبي ﷺ حين ردوه في الحديبية، فأقصَّه الله منهم، فأدخله الله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردُّوه في ذي القعدة، فأنزل الله هذه الآية» [الطبري: ٢/ ٩٧٠].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة:١٩٤] اتقوا الله أيها المؤمنون في حدوده وحرماته أن تعتدوا، فتتجاوزوا فيها ما بيَّنه وحدَّه لكم، واعلموا أن الله يحب المتقين الذين يتقون الله باجتناب فرائضه، وتجنب محارمه.

١١- الجهاد بالمال في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة:١٩٥] أمر الله عباده المؤمنين بالإنفاق في سبيل الله، أي: الجهاد، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، فالذين يتركون الجهاد يتسلط عليهم عدوهم، ويذلهم، روى أبو داود عن أسلم أبي عمران قال: «غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبدالرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مَهْ، مَهْ، لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة».

فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه، وأظهر الإسلام، قلنا: هلمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا، ونصلحها، وندع الجهاد، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله، حتى دفن بالقسطنطينية.

[أبو داود: ٢٥١٢، صحيح سنن أبي داود: ٢١٩٣، الترمذي: ٢٩٧٢، وقال فيه: حديث حسن صحيح غريب].

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الجهاد، وقوله: ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ أي: بأنفسكم، و﴿ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ ما يهلككم، وهو ترك الجهاد، و﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ أي: ائتوا بالأعمال التي أمركم الله بها على أفضل وجه، ويتحقق ذلك بمراقبة الله عزَّ وجلَّ، وقد فسَّر الرسول ﷺ الإحسان بعبادة الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة:١٩٥] فيه تهييج للمؤمنين على أن يجاهدوا ليكون عملهم على الوجه الأحسن، فالله يحب المحسنين.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الآية الأولى من هذا النص أول آية أوجب الله فيها القتال على المؤمنين، وكان القتال منهياً عنه في أول الأمر، ثم أذن الله فيه من غير إيجاب، ثم أوجبه الله في هذه الآية.

٢- لا يجوز أن نقاتل إلا من يقاتلنا، أما الذين لا يُقاتِلون كالصبيان والنساء والكبار العاجزين عن القتال والرهبان فلا يُقاتَلون، فإن قاتل بعض هؤلاء قتلوا، وفي هذا العصر الذي يقاتَل فيه بالآلات الحربية المتطورة، والذي دخلت المرأة فيه الجيوش، فإنه يجوز قتل من قاتل منهن.

٣- نهى الله عن العدوان في الحرب والقتال، وذلك بالتمثيل بالقتلى، وقتل الذين لا يُقاتِلون، وإهلاك الحرث والنسل، ونحو ذلك.

٤- لا يجوز القتال عند المسجد الحرام، وقد أُبيح القتال للرسول ﷺ في المسجد الحرام ساعة من نهار، ثم عادت حرمته كما كانت إلى يوم القيامة.

٥- يجوز أن نعامل الكفار بمثل ما يعاملونا به، فيجوز لنا أن نُمثِّل بهم إن هم مثَّلوا بقتلانا، ويجوز أن نقاتلهم عند المسجد الحرام إن قاتلونا فيه، ويجوز أن نقاتلهم في الأشهر الحرم إن قاتلونا فيها.

٦- فتنة الكفار للمؤمنين بتعذيبهم لهم أشد من القتل، وفي هذا دفع للمؤمنين لخَضْدِّ شوكةِ الكفار بتدميرهم وقتلهم.

٧- غاية القتال أن لا يبقى امتحان للناس بسبب عقائدهم، وحتى يعلو منار الإسلام، ويرتفع لواؤه.

٨- لا يجوز القتال في الأشهر الحرم، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، إلا إذا قاتلنا الكفار في هذه الأشهر، فعند ذلك يجوز قتالهم.

٩- ترك الإنفاق في سبيل الله، وترك الجهاد يقوض بنيان الأمة، ويديل أعداءَها عليها، وبذلك تذل وتهون، كما هو الحال في هذا الزمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١٠-الإحسان علامة فارقة، وصفة بارزة للمؤمن في حياته، ولا يتحقق الإحسان إلا بمراقبة الله وخشيته.

النص الثاني والأربعون من سورة البقرة
أحكام الحج والعمرة

أولاً: تقديم

حدثنا ربنا تبارك وتعالى فيما سبق عن رفع نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل القواعد من البيت، وحدثنا عن تحويله قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وأخبرنا ربنا في موضع ثالث أن إبراهيم عليه السلام عندما أتمَّ بناء البيت أمره ربُّه أن ينادي في الناس قائلاً: إنَّ الله كتب عليكم الحجَّ فحجوا، فأوجب الحجّ على الناس جميعاً، ولا يزال الناس من ذلك الزمان وإلى اليوم يَقْدُمون إلى البيت العتيق ملبين نداء إبراهيم قائلين: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، لا شريك لك.

وجاء الرسول الخاتم ﷺ فأحيا الله به الحج والعمرة، وأبان الله عن صفة الحج والعمرة، وعن الأحكام المتعلقة بهما في هذا النص والنص الذي يليه.

ثانياً: آيات هذا النص

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يجب على من شرع في الحج والعمرة أن يتمهما:

أمر الله تبارك وتعالى من ابتدأ الحج والعمرة أن يتمهما، ولا يجوز له بعد أن بدأ فيهما أو في واحد منهما أن يدعهما، قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦] وبيّن الله الهدف الذي ينبغي أن يضعه الحاج أو المعتمر في قلبه، وهو أن يقصد بحجه وعمرته الله وحده دون سواه.

٢- حكم المحصر بالحج والعمرة:

فإذا أحصر الحاج أو المعتمر، بأن منعه عدو أو مرض من إتمام حَجَّتِهِ أو عمرته، فعليه أن يحلّ حيث مُنِع، وعليه أن يذبح ما يتيسر له، وهو الذي سماه الله بالهَدْيِ، والهدي جمع

واحده هديَّة، وهو ما يهدى إلى الحرم من النعم، سواءً كان إبلاً أو بقراً أو غنماً، فإن لم يستطع أن يرسل الهدي إلى الحرم، نحره حيث أُحصِر ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ [البقرة:١٩٦].

ويبلغ الهدي محله بنحر الحاج هديه في اليوم العاشر أو في أيام التشريق في منى أو مكة، وإن كان معتمراً بنحره بعد وصوله إلى مكة، فإن لم يستطع إبلاغه الحرم نحره حيث هو.

٣- محذورات الإحرام:

نهى الله - تبارك وتعالى - الحاجَّ والمعتمر عن حلق رأسيهما حتى يبلغ الهدي الذي ساقوه معهم إلى الحرم ويُنحَر ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [البقرة:١٩٦].

فإن كان الحاج أو المعتمر مريضاً، واحتاج إلى أن يحلق رأسه للتخلص من مرضه، فعليه فدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ﴾ [البقرة:١٩٦]. وأراد بالأذى الذي في الرأس القمل، والفدية ما ذكره الله من الصيام أو الصدقة أو النسك، أي: فليأت فدية، أو يعطي فدية.

ومحذورات الإحرام ليست قصراً على المنع من حلق شعر الرأس، بل هي أكثر من ذلك، ومنها تغطية الرأس، ولبس المخيط، ومعاشرة النساء، والصيد.

وقد نَزَلَ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ﴾ [البقرة:١٩٦] في كعب بن عجرة ﷺ، وقد سئل كعب بن عجرة عن الفدية المذكورة في هذه الآية، فقال: نزلت فيَّ خاصة، وهي لكم عامة، حُمِلتُ إلى رسول الله ﷺ، والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «ما كنت أُرَى الوجع بلغ بك ما أَرَى، أو ما كنت أُرَى الجَهْدَ بلغ بك ما أَرَى، تجد شاة؟» فقلت: لا، قال: «فصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصفَ صاع» [البخاري: ١٨١٦، مسلم: ١٢٠١].

وكان ذلك في الحديبية، قبل أن يتبين لهم أنَّهم يحلُّون بها، وهم على طمع أن يدخلوا مكة، فأنزل الله الفدية [البخاري: ١٨١٧، مسلم: ١٢٠١ (٨٣)].

وهذا الحديث يدلُّ على أن الذي يحلق رأسه في الحج والعمرة لمرض أصابه أو لأذى حلَّ في شعره مخير بين الثلاثة، يفعل أيَّ واحد منها من غير حرج، وقد رتبها ربّ العزة ترتيباً متصاعداً، فأمر بصيام ثلاثة أيام، وأفضل منه إطعام ستة مساكين، وأعلاها ذبح ذبيحة، وهو النسك، والنسيكة في اللغة: الذبيحة.

٤- وجوب الهدي على من تمتع بالعمرة إلى الحج:

أوجب الله الهدي على من تمتع بالعمرة إلى الحج، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾ [البقرة:١٩٦]. والذي يجب عليه الهدي لكونه متمتعاً بالعمرة إلى الحج نوعان:

الأول: الذي يعتمر في أشهر الحج، ثم يحلُّ من إحرامه باقياً في الحرم إلى أن يحرم بالحج، وهذا هو الذي يسمى في الشرع بالمتمتع.

الثاني: القارن، وهو الذي يعتمر في أشهر الحج، ويبقى محرماً إلى أن يأتي بالحج، أما الذي يأتي بالحج وحده من غيره عمرة، ويسمى المفرد، فليس عليه هدي.

ويجب على الذي ساق الهدي من بلده أن يقرن بين العمرة والحج، فالرسول ﷺ أمر أصحابه بالتمتع، وامتنع هو والذين ساقوا الهدي من ذلك، وبقوا قارنين.

٥- كيف حج الرسول ﷺ وأصحابه:

«خرج الناس مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع، فمنهم من أهلّ بعمرة، ومنهم من أهلّ بحج وعمرة، ومنهم من أهل بالحج» [البخاري: ١٥٦٢، مسلم: ١٢١١ عن عائشة].

ثم أمر الرسول ﷺ من ساق الهدي بالبقاء على إحرامه إلى أن يتم حجّه، وينحر هديه، ويحلق شعره، وأمر كلَّ من لم يسق الهدي أن يتحلل من إحرامه، بعد طوافه بالبيت، وسعيه بين الصفا والمروة، قال ابن عمر رضي الله عنهما: فلما قدم النبي ﷺ مكة، قال للناس: «من كان منكم أهدى، فإنه لا يحِلُّ لشيء حرم منه، حتى يقضي حجّه، ومن لم يكن منكم أهدى، فليطف بالبيت، وبالصفا والمروة، وليُقَصِّر، وليحلل، ثم ليهلَّ بالحج، فمن لم يجد هدياً، فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله» [البخاري: ١٦٩١، مسلم: ١٢٢٧].

وقد كان أهل الجاهلية يهلّون بالحج، ويقيمون على إحرامهم حتى يتموا حجهم، وقد أثّر في الصحابة ما اعتادوه فيما مضى، فاستعظموا أن يخرج أحدهم إلى منى وذكره يَقْطُرُ، فلما قالوا ذلك للرسول ﷺ أخبرهم أن فعلهم في حجهم أفضل من فعله، ولو استقبل من أمره ما استدبر، ما ساق الهدي، ولكان أحلَّ كما أحلُّوا، وفي ذلك يقول لأصحابه: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت» [البخاري: ١٦٥١].

٦- الهدي الواجب على المتمتع:

يجب على المتمتع بالعمرة إلى الحج والقارنِ أن يُقَدِّم كلٌّ منهما ما استيسر من الهدي، أي: يذبح شاة، أو يشترك سبعةٌ في ذبح ناقة أو بقرة، فمن لم يجد مالاً يشتري به هدياً، أو لم يجد

هدياً يهديه وإن كان معه المال، فيجب عليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة أيام إذا رجع إلى أهله ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ [البقرة:١٩٦].

والأيام الثلاثة التي يجب على من لم يجد هدياً أن يصومها، يجب أن تكون بعد الإحرام بالعمرة في التمتع والقرآن، ولو كان حالاً من عمرته، وذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنه يصوم يوم عرفة، ويومين قبله، قال ابن عباس: «غير أنه إن لم يتيسر له فعليه ثلاثة أيام في الحج، وذلك قبل يوم عرفة، فإن كان آخرُ يوم من الأيام الثلاثة يومَ عرفةَ فلا جناح عليه» [البخاري: ٤٥٢١].

وروى البخاري عن عائشة وابن عمر قالا: «لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لم يجد الهدي» [البخاري: ١٩٩٧، ١٩٩٨]. ونقل ابن كثير عن علي أنه كان يقول: «من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهنَّ أيام التشريق» [ابن كثير: ١/ ٢٧٠]. أما صوم الأيام السبعة فيكون عندما يرجع الحاج إلى أهله وموطنه، كما صرح الرسول ﷺ في حديث ابن عمر وقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ [البقرة:١٩٦] تأكيد جارٍ على طريقة العرب في كلامها، فإنها تقول: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي.

٧- لا يجوز لأهل الحرم التمتع بالحج:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة:١٩٦] أي: هذا التمتع الذي يجب معه الهدي هو للقادمين من الآفاق، أما أهل الحرم الذين يسكنون الحرم، فلا متعة لهم، وقد كان ابن عباس يقول لأهل الحرم: «يا أهل مكة، لا متعة لكم، أحلت لأهل الآفاق، وحرمت عليكم، إنما يقطع أحدكم وادياً» أو قال: «يجعل بينه وبين الحرم وادياً، ثم يحلّ بعمرة!!».

وما فائدة العمرة لأهل مكة، والطواف بالبيت متيسر لهم كلما أرادوه، وهم في طوافهم وصلاتهم عند الكعبة لهم أجر عظيم.

وإذا كان أهل الحرم لا متعة لهم، فالأرجح أن من يسكن خارج الحرم ودون المواقيت يجوز لهم أن يحرموا من ديارهم، فهم ليسوا بحاضري المسجد الحرام. وأمر الله - تبارك وتعالى - في خاتمة الآية عباده بتقواه، وذلك بالمبادرة إلى عمل ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، وأمرهم أن يعلموا أنه شديد العقاب، أي: لمن خالف أمره وعصاه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة:١٩٦].

٨- الحج أشهر معلومات:

أخبرنا الله في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة:١٩٧] أن للحج وقتاً حدَّده، فلا يجوز إيقاع الحج إلا في وقته، وأشهر الحج ثلاثة، هي: شوال وذو القعدة وذو الحجة، وقال بعضهم: شوال وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة.

٩- لا يجوز الرفث ولا الفسوق ولا الجدال في الحج:

قوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧] أي: من ألزم نفسه بالحج بإحرامه في هذه الأشهر، فلا يجوز له الرفث في الحج ولا الفسوق ولا الجدال.

والرَّفث هو الجماع، وكل ما يدعو إليه من الأقوال والأعمال، والفسوق: المعاصي والذنوب على اختلاف أنواعها، والجدال: المماراة على وجه المخاصمة والمغالبة، وكثيراً ما يتحول الجدال إلى خصام ونزاع وسباب. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧] أخبر الحق - تبارك وتعالى - أن كل ما نفعله من أعمال البر والطاعة يعلمه تبارك وتعالى، وفي هذا تهييج للسامع كي يندفع إلى الإكثار من فعل الخير.

١٠- وجوب التزود للحج والعمرة:

وقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧] عن ابن عباس قال: «كان أناس يخرجون من أهليهم ليس معهم أزودة، يقولون: نحج بيت الله ولا يطعمنا!!! فقال الله: تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس» [ابن كثير: ١/ ٢٧٥]. وروى البخاري عن ابن عباس، قال: «كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]» [البخاري: ١٥٢٣].

ولما أمرهم - تبارك وتعالى - بالزاد في سفرهم إلى الحج أرشدهم إلى زاد الآخرة ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧] وفي هذا حثّ لهم على التزود للدار الآخرة، وخير زاد لها التقوى، والتقوى العمل بطاعة الله على الكيفية التي أرادها، ثم أمر الله أولي الألباب، وهم أصحاب العقول أن يتقوه ويخافوه ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧] أي: اتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني، ولم يأتمر بأمري، يا ذوي العقول والأفهام.

قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]: «أمر الحجيج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو

التقوى، فكما أنه لا يصل إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين» [بدائع التفسير: ١/ ٣٨٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - يجب على من بدأ بأعمال الحج أو العمرة، وأول أعمالهما الإحرام من الميقات أن يتمّ حجَّه وعمرته، ولا يجوز له بعد الدخول فيهما أن ينكص على عقبيه، فيبطل ما شرع فيه.

٢ - قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ يدل على وجوب الإخلاص في أداء الحج والعمرة، فإن دخل الحج أو العمرة الشركُ بطلت العبادة، كما كان يفعل العرب في الجاهلية، يقولون في حجهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وكذلك من حج رياءً وسمعة كمن يحج لينال لقب الحاج، أو ليفاخر الناس بحجه وعمرته.

٣ - ذهب بعض أهل العلم إلى أن العمرة واجبة كالحج، ويرى آخرون عدم وجوبها، وقد روى الترمذي عن جابر: أن النبي ﷺ سئل عن العمرة، أواجبة هي؟ قال: «لا، وأن تعتمروا هو أفضل» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

والذي يظهر لي أن هذا الحكم في العمرة المفردة المنفصلة عن الحج، وإلا فقد بيّنت في شرح الآيات أن الرسول ﷺ أمر من لم يسق الهدي أن يعتمر ثم يحل، ثم يحرم بالحج في موعده، ولم يأذن بالخروج عن ذلك إلا لمن ساق الهدي، فيبقى محرماً بعد عمرته حتى يقضي حجه، وعلى ذلك فإن كل من التزم هذا النهج سيعتمر كلما حجَّ، والله أعلم.

٤ - إذا منع العدوُّ الحاجَّ أو المعتمرَ من إتمام حجَّه أو عمرته وجب عليه أن يذبح ما تيسر له من الهدي، والهدي جمع هديَّة، وهو ما أهدى إلى مكة من النَّعم، لينحر تقرباً إلى الله عزَّ وجلّ، ويسمى هذا المنع الإحصار، ولا فرق بين من أُحصِر قبل بلوغ البيت أو قبل بلوغ عرفة.

٥ - يرى جمع من أهل العلم أن من أحصر بمرض عليه أن ينحر ما تيسر له من الهدي، كحال المحصر من العدو، واستدلوا على صحة ذلك أن الرسول ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير فقال لها: «لعلك أردت الحج» قالت: والله لا أجدني إلا وجعة، قال لها: «حُجِّي واشترطي، قولي: اللهمَّ محَلِّي حيث حبستني» [البخاري: ٥٠٨٩، مسلم: ١٢٠٧]، فدلَّ الحديث على أن اشتراطها يجيز لها أن تحلَّ عند حبس المرض لها، ولا يجب عليها هديٌ في هذه الحال.

أما الذي حبسه المرض، ولم يكن قد اشترط، فيجوز له أن يحلَّ من إحرامه، وعليه أن يأتي بالحج في العام المقبل، وليس عليه هدي بعد الإحلال من إحرامه، ففي الحديث عن

الحجاج بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «من كُسِرَ أو عرج، فقد حلَّ، وعليه الحج من قابل» قال عكرمة: سألت ابن عباس وأبا هريرة عن ذلك قالا: صدق. [أبو داود: ١٨٦١، ابن ماجة: ٣٠٧٧، وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ١٨٦١ وصحيح ابن ماجة: ٢٤٩٧].

٦- إذا أحرم الحاجُّ أو المعتمرُ، لم يجز له أن يحلق شعر رأسه، فإذا احتاج لحلق شعره لمرض أصابه، أو أذى حلَّ به كالقمل الذي ملأ رأس كعب بن عجرة فعليه أن يقدم فدية، وهي صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة.

٧- دلت السنّة النبوية على أنّ محذورات الإحرام ليست قصراً على حلق شعر الرأس، بل هي أكثر من ذلك، كقص الأظافر، ولبس المخيط، وتغطية الرأس، ومس الطيب، والصيد، والجماع. فإن احتاج إلى قص الأظافر ولبس المخيط وتغطية الرأس، فعليه مثل فدية الذي حلق شعر رأسه، أما الجماع في الحج أو العمرة فإنه يبطلهما.

٨- يجب على كلٍّ من المتمتع أو القارن أن يذبح ما يسَّر الله له من الهدي، وأقلّه شاة، وأوسطه بقرة، وأعلاه بدنة، ويجوز اشتراك السبعة في البقرة أو البدنة، فمن لم يجد ما يشتري به الهدي، أو وجده ولم يجد الهدي، فيجب عليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله، فهذه عشرة كاملة.

٩- أهل الحرم الذين يسكنون في الحرم لا يجوز لهم أن يعتمروا من ديارهم التي في الحرم، وليس عليهم الهدي الذي على القادمين من الآفاق.

١٠- أفضل أنواع النسك هو التمتع، فقد أمر الرسول ﷺ من لم يسق الهدي من أصحابه به، وتأسف على أنه لم يفعله.

١١- للحج أشهر معلومة لا يجوز قصد الحج في غيرها، وهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة، وعلى ذلك فإن من أحرم بالحج قبل دخوله في أشهره كان كمن صلى الصلاة قبل دخول وقتها، وقد روى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس قال: «لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج» قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح [ابن كثير: ٢/ ٢٧١].

١٢- لا يلزم الحاجَّ دمٌ إذا هو أخَّر بعض أعمال الحج على قول من قال: إن ذا الحجة كله من أشهر الحج، لأن هذه الأعمال واقعة في أشهره، أما الذين قالوا بأن العشر من ذي الحجة آخر وقته فيلزمون مَن أخَّر بعض أعماله بدم، والله أعلم بالصواب [راجع تفسير ابن عطية: ٢/ ١٦٤].

١٣- على من ابتدأ الحج أو العمرة أن يلتزم بما أمر الله بالالتزام به، ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧] والرفث: الجماع وما يؤدي إليه، والفسوق: الذنوب

والمعاصي، ومنها محظورات الإحرام، والجدال: المخاصمة والمنازعة والمماراة في وقت الحج الذي أحرم به فيه.

١٤- أمر الله الحاجَّ أو المعتمرَ بالتزود لحجّه وعمرته، وقد كان بعض العرب في الجاهلية يزعمون أن الحج بغير زاد هو اللائق بأهل التقى، وكما أمر بالتزود للحج أمر بالتزود للآخرة بالإقبال على أعمال الخير، وترك أعمال الشر، وما أحسن قول الشاعر:

إذا أنـــت لم ترحـــل بـــزادٍ مـــن التقـــى ... ولاقيـــت بعـــد المـــوت مَـــن قـــد تَـــزَوَّدَا

نـــدمت عـــلى أن لا تكـــون كمثلـــه ... وأنـــك لم ترصـــد كـــما كـــان أرصـــدا

النص الثالث والأربعون من سورة البقرة
بقية أحكام الحج

أولاً: تقديم

ذكر الله - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص جملة من الأحكام التي تتعلق بالحج، ففيه تكملة لأحكام الحج المذكورة في النص السابق.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يجوز للحجيج التجارة في مواسم الحج:

أباح الله - تعالى - للحجاج أن يبتغوا فضلاً من ربهم في مواسم الحج ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٨] ومعنى تبتغوا فضلاً من ربِّكم: التجارة في مواسم الحج، وقد كانت العرب في الجاهلية تقيم الأسواق في موسم الحج، فتحرَّج المسلمون من تعاطي التجارة في تلك المواسم، فأنزل الله هذه الآية لرفع الحرج الذي قام في نفوسهم في هذا الأمر، روى البخاري عن ابن عباس قال: «كانت عكاظ ومجَنَّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم، فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾» [البخاري: ٤٥١٩].

وقال ابن عطية: «قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعطاء: إنَّ الآية نزلت لأنَّ العرب تحرَّجتْ لما جاء الإسلام أن يحضروا أسواق الجاهلية كعكاظ وذي المجاز ومجنّة، فأباح لها

ذلك» [تفسير ابن عطية: ٢/ ١٧٢]. والجناح في الآية الإثم، سمي الإثم المائل بالإنسان عن الحق جناحاً، ثمّ سمى كل إثم جناحاً [المفردات: ص١٠٠].

٢- الإفاضة من عرفات وذكر الله عند المشعر الحرام في مزدلفة:

أمرنا الله - تبارك وتعالى - أن نذكر ربنا عند المشعر الحرام في مزدلفة، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة:١٩٨].

وعرفات اسم للبقعة التي يقف فيها الحجاج في اليوم التاسع من ذي الحجة. والوقوف بعرفة هو الركن الأعظم في الحج، فمن فاته الوقوف فيه، فقد فاته الحج، وقد دلَّ على وجوب الوقوف بعرفة قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ [البقرة:١٩٨]. ومعنى: ﴿أَفَضۡتُم﴾ دفعتم بكثرة، ويقال: أفاض الناس في الحديث، إذا اندفعوا فيه [معاني القرآن للزجاج: ٢/ ٢٧٢].

وروى عبدا لرحمن بن يعمر أنَّ ناساً من أهل نجد أتوا رسول الله ﷺ وهو بعرفة، فسألوه، فأمر منادياً، فنادى: «الحج عرفة، من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر، فقد أدرك الحج» [الترمذي: ٨٨٩، أبو داود: ١٩٤٩، النسائي: ٣٠٤، واللفظ للترمذي، وإسناده صحيح].

وقال الرسول ﷺ لعروة بن مُضَرِّسٍ وقد جاءَه بمزدلفة: «من أدرك معنا هذه الصلاة، وأتى عرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد تمَّ حجّه، وقضى تفثه» [الترمذي: ١٩٥٠، وقال: حسن صحيح].

وسميت عرفات بهذا الاسم، لأنهم يتعرفون فيها إلى ربهم، وفيها يعرف بعضهم بعضاً، ووقت الوقوف بعرفة من الزوال في اليوم التاسع إلى طلوع الفجر الثاني من اليوم العاشر، وهو يوم النحر.

وكان أهل الجاهلية يفيضون من عرفات قبل غروب الشمس، قال ابن عباس: «كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا، فأخّر رسول الله ﷺ الدفع من عرفة حتى غروب الشمس» [عزاه ابن كثير: ١/ ٢٧٩ إلى ابن أبي حاتم، وهو حديث حسن].

وأمر الله - تبارك وتعالى - بالإكثار من ذكره بعد الإفاضة من عرفات عند المشعر الحرام، والمشعر الحرام هو مزدلفة، وذِكْرُ الله عند المشعر الحرام يكون بصلاة المغرب والعشاء فيها جمعاً وقصراً، كما يكون بالدعاء والتلبية والتكبير، وسمي المشعر مشعراً من الشعار، وهو

العلامة، والدعاء عنده من شعائر الحج، ووصف بالحرام لحرمته، ومزدلفة فيها جبل قزح الذي يقف عليه إمام المسلمين.

٣- صفة إفاضة الرسول ﷺ من عرفات:

وصف لنا جابر بن عبدالله في حديثه الطويل عن حجة رسول الله ﷺ صفة دفعه من عرفات، وفيه: «فلم يزل (أي: الرسول ﷺ) واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ، وقد شنق للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِك رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس، السكينة السكينة»، كلما أتى حبلاً من الحبال[1] أرخى لها قليلاً، حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع رسول الله حتى طلع الفجر، وصلَّى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه وكبَّره وهلَّله ووحَّده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس» [مسلم: ١٢١٨].

٤- أمرنا ربنا أن نكثر من ذكره على هدايته لنا:

وأمر الله الحجاج بذكره مرة أخرى ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨] أي: اذكروه لهدايته لكم لما فيه صلاحكم وخيركم، وبخاصة هدايته لكم إلى مناسك الحج على الوجه الأتم الأكمل، ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة:١٩٨] فقد كانوا مشركين عابدين للأصنام، يقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، ويئدون البنات، ويأكلون الميتة والدم ولحم الخنزير، وكل هذا ضلال مبين.

٥- أوجب الله على قريش الوقوف على عرفات والإفاضة منها:

كانت قريش تقف في مزدلفة، ولا يجاوزونها إلى عرفات، وكانت بقية العرب تقف في عرفات، وكانت قريش تدَّعي أنها أهل الحرم، فلا يجاوزونه إلى غيره من الحل في حجهم، مع علمهم بأنَّ أباهم إبراهيم عليه السلام كان يقف بعرفات، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة:١٩٩] أمر الله في هذه الآية أن يقفوا في

(١) الحبال جمع حَبَل، وهو التَّل اللطيف من الرمل الضخم. وفي (النهاية): قيل: الحبال في الرمل كالجبال في غير الرمل.

عرفات، ويفيضوا منها كما يفيض بقية الناس، ويتركوا ما ابتدعوه بأهوائهم في عدم الوقوف بعرفة.

روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «كانت قريش ومن دانَ دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمَّون الحُمْسَ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام، أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة:١٩٩]» [البخاري: ٤٥٢٠، مسلم: ١٢١٩].

٦- كان العرب غير قريش يطوفون عراة إلا إذا أعارتهم قريش من ثيابها:

كانت قريش في الجاهلية يخصون أنفسهم بأحكام يفخرون بها على غيرهم من العرب، ومن ذلك طوافهم بالكعبة في ثيابهم، وإلزام غيرهم بالطواف عراة، إلا من أعطوه من ثيابهم، قال عروة بن الزبير: «كان العرب يطوفون بالبيت عراة إلا الحُمْسُ، والحُمْسُ قريش وما ولدت، وكان الحُمْسُ يحتسبون على الناس، يعطي الرجلُ الرجلَ الثيابَ يطوف فيها، وتعطي المرأةُ المرأةَ الثيابَ تطوف فيها، فمن لم يعطه الحمس طاف عرياناً، وكان يفيض جماعة الناس من عرفات، ويفيض الحُمْسُ من جمع» [البخاري: ١٦٦٥، مسلم: ١٢١٩]، وقد أبطل الإسلام هذه الامتيازات التي خَصَّتْ قريش نفسها بها، وهي امتيازات ما أنزل الله بها من سلطان.

٨- أمرنا الله بالاستغفار بعد تمام الحج:

أمر الله الحجيج أن يستغفروا ربَّهم في ختام حجِّهم، فهو الغفور الرحيم لمن استغفره وطلب رحمته ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة:١٩٩].

والاستغفار في خاتمة العبادة منهج إلهي رباني، مأمور به في كثير من المواضع، ففي صحيح مسلم عن ثوبان قال: «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام» قال الوليد: فقلت للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله» [مسلم: ٥٩١].

وسيد الاستغفار الذي علمناه الرسول ﷺ أن نقول: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفره لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، قال: «ومن قالها من النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة» [البخاري: ٦٣٠٦ من حديث شداد بن أوس].

وعلَّم الرسول ﷺ أبا بكر أنْ يقولَ في صلاته: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم» [البخاري: ٨٣٤، مسلم: ٢٧٠٥ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص].

٨- أرشد الله المؤمنين بعد تمام حجهم أن يذكروا الله كثيراً:

أمر الله عباده الحجاج إذا هم فرغوا من مناسك الحج أن يكثروا من ذكر الله، فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة:٢٠٠]، وقد كان أهل الجاهلية من العرب يفخرون بمآثر الآباء، فيقفون في المواسم، ويتغنون بما كان عليه الآباء من المآثر، فأمر الله المؤمنين أن يكثروا من ذكر الله بعد فراغهم من مناسك الحج كما كانوا يذكرون آباءَهم، أو أشدَّ مما كانوا يذكرونهم، ومناسك الحج أعماله وأقواله التي شرعها الله لعباده.

قال الزجاج عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ [البقرة:٢٠٠]: «كانت العرب إذا قضت مناسكها، وقفت بين المسجد بمنى، وبين الجبل، فتعدد فضائل آبائها، وتذكر محاسن أيامها، فأمرهم تعالى أن يجعلوا ذلك الذكر له، وأن يزيدوا على ذلك الذكر، فيذكروا الله بتوحيده، وتعديد نعمه، لأنه إن كانت لآبائهم نعم، فهي من الله، وهو المشكور عليها» [معاني القرآن:١/ ٢٧٤].

٩- أهل الجاهلية كانوا يدعون ربهم بحسنة الدنيا والمؤمنون يدعون الله بحسنة الدنيا وحسنة الآخرة:

وأخبرنا ربنا – عزَّ وجلَّ – أنَّ بعض الناس يدعون ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة:٢٠٠] وهؤلاء هم مشركو العرب وأمثالهم يسألون الله أن يوسع عليهم في أرزاقهم، ويفتح عليهم في أعمالهم في الدنيا، ولا يسألون الله لآخرتهم، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فهؤلاء ليس لهم في الآخرة من خلاق، والخلاق: الحظ والنصيب.

وأخبرنا ربنا عن المؤمنين الأخيار أنَّهم يدعون ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

فهذه دعوة جامعة لكل خير دنيوي، فهي تشمل طلب الصحة والعافية، والدار الرحبة، والزوجة الحسنة، والرزق الواسع، والعلم النافع، والعمل الصالح، والمركب الهني، والثناء الجميل، كما تشمل حسنات الآخرة من الإظلال بعرش الرحمن، ويسير الحساب، وأخذ الكتاب باليمين، والنجاة من النار، ودخول الجنة، وهذا الفريق أثنى الله عليه ومدحه

بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة:٢٠٢] أي: أن دعاءهم مستجاب، وقوله: ﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: مما عملوا، وقد ضَمِنَ اللهُ الإجابة لمن دعاه إذا كان مؤمناً، أما الكفار فإن الله يحبط أعمالهم، ودعاؤهم من أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة:٢٠٢] هذا كقوله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام:٦٢] وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران:١٩] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام:١٦٥] والآيات المثبتة لهذه الصفة لله كثيرة، وتظهر هذه الصفة في يوم الجزاء والحساب عندما يحاسب الله عباده في يوم الدين.

١٠- أمر اللهُ الحجاجَ الإكثار من ذكر الله تعالى في أيام التشريق:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة:٢٠٣].

أمر الله الحجاج أن يكثروا من ذكره في أيام معدودات، وهي اليوم الحادي عشر، واليوم الثاني عشر، واليوم الثالث عشر من شهر ذي الحجة، وتسمى هذه الأيام بأيام التشريق، وهي التي يقيم فيها الحجاج في منى يرمون الجمرات، وقد قال الرسول ﷺ في هذه الأيام: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله» [مسلم: ١١٤١]، ويوم النحر وهو اليوم العاشر والأيام الثلاثة بعده هي الأيام التي ينحر فيه الحجاج هديهم.

وقد أعلمنا الله تبارك وتعالى أنه من عجّل من الحجاج عودته إلى بلده في اليوم الثاني من أيام التشريق أو أخّره إلى اليوم الثالث فلا حرج عليه، إذا ما اتقى ربّه، والتزم طاعته، وأمرنا - سبحانه - بتقواه وأن نعلم أننا سنُحشر إليه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتدبر آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- رخَّص الله بالتجارة في موسم الحج، وقد كانت العرب تقيم الأسواق في المواسم، كسوق عكاظ ومجنة وذي المجاز، فتحرَّج بعض المسلمين من الاتجار في موسم الحج ظناً منهم أن ذلك من أعمال الجاهلية، فأعلمهم الله أن ذلك مشروع.

٢- يجب الوقوف بعرفة في يوم الحج الأكبر، وهو اليوم التاسع من شهر ذي الحجة، فمن لم يقف فيه في ذلك اليوم فلا حجَّ له، وعلى الحاج أن يفيض منه إلى مزدلفة ليذكر الله عند

٣- المشعر الحرام، والوقوف بعرفة يستمرُّ من زوال الشمس في اليوم التاسع إلى طلوع الفجر من اليوم العاشر.

٤- المبيت بمزدلفة ليلة يوم النحر واجب، ويبقى الحاج فيه إلى أن يُسفر جدّاً، ثم يفيض قبل أن تطلع الشمس، ويجوز للنساء والضعفاء الإفاضة بعد منتصف الليل.

٥- على من أدّى نسكه أن يذكر الله كما كانت العرب تذكر آباءَها أو أشدّ ذكراً، ويدعو ربه أن يُؤْتيه في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وأن يقيه عذاب النار، ولا يكونوا كالذين يدعون ربهم لييسر له أمور الدنيا، من غير التفات إلى أمور الآخرة.

٦- أيام التشريق، وهي الأيام الثلاثة التالية ليوم النحر أيام ذكر لله عز وجل وأيام أكل وشرب، «وكان ابن عمر يكبر بمنى تلك الأيام، وخلف الصلوات، وعلى فراشه، وفي فسطاطه، وفي مجلسه، وفي ممشاه، وكان عمر ﷺ يكبر في قبته بمنى، فيسمعه أهل المسجد، فيكبرون، ويكبر أهل الأسواق، حتى ترتج منى تكبيراً، وكانت ميمونة تكبر يوم النحر، وكانت النساء يكبرن خلف أبان بن عثمان وعمر بن عبدالعزيز ليالي التشريق مع الرجال في المسجد» [البخاري، كتاب العيدين باب رقم ١٢، باب التكبير أيام منى].

٧- أرجح الأقوال أن التكبير يبدأ بعد صلاة الصبح في يوم عرفة، إلى عصر آخر أيام التشريق، وهذا ما ذهب إليه عمرُ بن الخطاب، وعليُّ بن أبي طالب، وابن عباس، وفي المسألة أقوال أخرى. [راجع تفسير ابن عطية: ٢/ ١٨٣].

٨- يجب أن يبقى الحاج في أيام التشريق بمنى يومين على الأقل، ولا حرج على من انطلق بعد رميه الجمرات في اليوم الثاني، ومن تأخر إلى اليوم الثالث فلا حرج عليه.

٩- قضى الله - تبارك وتعالى - على كثير مما كان يقع من النزاع في الحج في الجاهلية، فقد كانوا يتنازعون في وقت الحج، فتقول طائفة الحج اليوم، وتقول أخرى: الحج غداً، وكانوا ربما نقلوا الحج بالنسيء إلى غير وقته، فجاءَهم الرسول ﷺ بما قطع دابر النزاع والخلاف في هذه الأمور.

النص الرابع والأربعون من سورة البقرة
مثلان ضربهما الله لفريقين من الناس

أولاً: تقديم

حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - في هذه الآيات عن صنفين من الناس، **الأول منهما**: هم المنافقون الذين يدَّعون الصلاح، وهم في غاية الفساد، وقد روى محمد بن كعب القرظي أنه يوجد في بعض الكتب السماوية: «إنَّ لله عباداً، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصبر، لبسوا لباس مسوك الضأن من اللين، يجترون الدنيا بالدين» [الدر المنثور: ١/ ٥٧٢]. وهذا كلام حسن وجميل، والله أعلم بمدى صحته عن أهل الكتاب.

وقد قال ابن كثير في وصف هذا الصنف من الناس: «هو أعوج المقال، سيئ الفعال، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة» [ابن كثير: ١/ ٢٨٣].

والصنف الثاني: المجاهدون في سبيل الله، الذين باعوا أنفسهم لله، لتحصيل مرضاته والذين جاهدوا أنفسهم في العمل بالإسلام كله، مبعدون عن وساوس الشيطان وطرائقه.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

حدثنا الله - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص عن صنفين من الناس، وإذا أنت أمعنت النظر في هذه الآيات، وأُعطيت بصيرة في فقهها، فإنَّك تشاهد هذين الفريقين فيما حولك من الناس، فالآيات ترسم في ذهنك صورة كلِّ فريق، حتى إنَّك لتقول: هذا هو الذي عناه الله - تبارك وتعالى - فيما حدثنا عنه في هذه الآيات.

الأول: مثل المنافقين:

الفريق الأول هم المنافقون، وإليك المعالم التي أبرزتها الآيات لهذا الفريق:

١ - هذا الصنف إذا أنت استمعت إليه يعجبك قوله إذا حدَّث، فكلامه حلو وجميل، فهو يدعي أنه محبٌّ لله ورسوله، محبٌّ للمؤمنين، ملتزم بشرائع الإسلام ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [البقرة:٢٠٤] وقد تحدث الله عن هذا المعلم في هذا الفريق في مواضع من كتابه، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة:٨]، وقال: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون:٤].

٢ - يدَّعي هذا الصنف أنَّ ما أعلنه بقوله متغلغل في أعماق قلبه، ويزعم كاذباً أنَّ الله شاهد عليه ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٠٤] أي يقول: أشهد الله على صدقي فيما أقول، ويعلم الله أني أحبكم، كما قال تعالى في هذا الصنف: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المنافقون:١].

٣- وصف الله هذا الفريق بأنه ألدّ الخصام ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٤]، «والألد: الشديد الخصومة والجدل، واشتقاقه من لُدَيْدَي العنق، وهما صفحتا العنق، ومعناه: أن خصمه في أيّ وجه أخذ من أبواب الخصومة غلبه في ذلك» [زاد المسير: ١/ ٢٢١. وانظر: معاني القرآن للزجاج: ١/ ٢٧٧].

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت: قال رسول الله ﷺ : «إنَّ أبغض الرجال إلى الله تعالى الألدُّ الخصم» [البخاري: ٢٤٧٥، مسلم: ٢٦٦٨]، وحدَّثنا الرسول ﷺ عن آيات المنافق، فذكر منها: «إذا خاصم فجر» [البخاري: ٣٣، مسلم: ٥٩، كلاهما من حديث أبي هريرة].

٤ - إذا ابتعد هذا الصنف من البشر عن مقامه بين يدي الرسول ﷺ أو مقامه بين يدي المؤمنين يكون همّه الإفساد في الأرض، فيقلع الأشجار، ويحرقها، ويقتل نسل الحيوانات ونسل الإنسان، وهذه أعمال فاسدة، والله لا يحبُّ الفساد ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٥].

٥ - إذا قيل للواحد من هذا الفريق اتقِّ الله، طغا وبغى وأرغى وأزبد، وكل ذلك من آثار الحمية والأنفة الباطلة المذمومة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ ﴾ [البقرة:٢٠٦]

أي: حملته العزة على الإثم، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [ص:٢]. قال ابن كثير: «إذا وُعِظَ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له: اتق الله، وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحقِّ، امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أي: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٢﴾ [الحج:٧٢]».

وقد قال الله في هذا الصنف من الناس: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾ [البقرة:٢٠٦] أي: يكفي هذا الصنف من الناس الذي يطغى ويبغي عندما تأخذه العزة بالإثم- النار، تذلهم، وتهينهم، وبئس المصير مصيرهم.

الفريق الثاني: مثل المؤمنين:

نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٧﴾ [البقرة:٢٠٧] في المؤمنين الصالحين أو في طائفة منهم، وهم المجاهدون في سبيل الله، فهؤلاء باعوا أنفسهم لتحصيل مرضات الله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١١﴾ [التوبة:١١١].

ونادى الله المؤمنين آمراً إياهم أن يأخذوا بجميع شرائع الإسلام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٠٨﴾ [البقرة:٢٠٨] والسلم هنا: الإسلام، أُمروا أن يأخذوا بالإسلام كله، فيعملوا بأوامره، ويجتنبوا نواهيه.

وبعد أن أمر الله بالأخذ بالإسلام كله، نهى عما يناقضه ويضاده، والذي يناقضه خطوات الشيطان، أي: مسالكه وطرائقه، والشيطان أعظم أعدائنا، لا يرضيه منا إلا أن يوقعنا في النار وغضب الجبار.

وقد حذّر الله هذا الفريق عن الوقوع في الزلل ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩﴾ [البقرة:٢٠٩]، ومعنى زللتم: عدلتم عن الحق بعدما

قامت عليكم الحجج البينة، فاعلموا أنه عزيز حكيم، والعزيز الغالب الذي لا يعجزه الوصول إليكم ومعاقبتكم، والحكيم الذي يضع كل شيء موضعه، فلا ينتقم إلا بحقٍّ.

وتهدد الله الذين لا يدخلون في السلم كافة بإيقافهم بين يديه، عندما يجيء سبحانه لمحاسبة العباد في يوم القيامة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة:٢١٠].

والمعنى هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله - تبارك وتعالى - في يوم القيامة في ظلل، والظلل ما يظلل، و(الغمام) السحاب الأبيض الرقيق، سمي غماماً لأنه يستر، وقد حدثنا - تبارك وتعالى - عن هذا المشهد في غير آية، فقال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر:٢]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان:٢٥]، وقوله: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ﴾ [البقرة:٢١٠] أي: فرغ الله من محاسبة الناس في يوم الدين، وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة:٢١٠] أي: ترد الأمور كلها.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

عندما نتأمل آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذمَّ الله فريقاً من الناس إذا استمعت إليه أعجبك حديثه، ويدَّعي أنَّ ما في قلبه موافق لحديثه الظاهر، ويُشهد الله على ذلك، وقد أعلمنا ربنا أنه كاذب فيما يدَّعيه، وأنَّه أشدّ الناس خصومة، وأن عمله يناقض قوله.

٢- مدح الله الذين يبيعون أنفسهم لله، ويطلبون بذلك رضوان الله وجنته.

٣- أوجب الله علينا أن نأخذ بالإسلام كلِّه، وذلك بالاستجابة لأوامره، وترك نواهيه، والالتزام بشرائعه، والابتعاد عن خطوات الشيطان.

٤- حذَّر الله الذين بلغتهم آيات الله الواضحات، فتركوها وابتعدوا عنها، وهذا هو الزلل في القول والعمل.

٥- حدثتنا الآية الأخيرة من آيات هذا النص عن مشهد من مشاهد القيامة، وهو مجيء الربّ تبارك وتعالى في ظلل من الغمام الأبيض الرقيق، وتأتي الملائكة في ذلك اليوم في تلك الظلل، فيقضي ربُّ العزة بين العباد، ويكون مردّ الأمور كلها إلى ربّ العزة.

٦- على المؤمن أن يحذر من العدو الذي حدثنا الله عنه في الآيات، وهم المنافقون، وعليه أن يحرص على أن يكون من الفريق الثاني الذي يبيع نفسه لله.

النص الخامس والأربعون من سورة البقرة
المؤمنون الصادقون من هذه الأمة هم الفريق الأسمى على مدار التاريخ

أولاً: تقديم

المؤمنون الصادقون من هذه الأمة هم الفريق الأسمى بين الأمم كلها، فبنو إسرائيل كتموا كثيراً من الحق الذي أنزله الله، وكفار العرب شغلتهم الدنيا وزينتها، وسخروا بسبب ما يملكونه منها بالأخيار الفقراء من الصحابة الكرام، واتبع المؤمنون الصادقون من هذه الأمة المسار السديد الذي حادت عنه الأمم وضلَّت، وتحمَّل الأخيار من هذه الأمة التبعات العظام للتكاليف التي كُلِّفوا بها، تحملوا البأساء والضراء وزلزلوا حتى قالوا: متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمر الله - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ أن يسأل بني إسرائيل عن الآيات التي آتاهم الله إياها:

أمر الله - عزَّ وجلَّ - رسوله ﷺ أن يسأل الكافرين موبخاً إياهم عن الآيات التي آتاهم الله إياها على أيدي رسلهم وأنبيائهم، كالآيات التي أنزلها على موسى، ومنها العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وإنزاله المنَّ والسلوى عليهم في التيه، وفلق البحر لهم، وإنجاؤهم من فرعون وملئه، وإغراق فرعون وقومه، وغير ذلك من الآيات.

ومن الآيات العظيمة التي أنزلها على أنبيائهم ورسلهم ما حدَّثوا به عن محمد ﷺ، وصفاته وأسمائه وكتابه وأمته، ومبعثه، ومهاجره، فأخفوا بعض هذه الآيات، وحرفوا بعضها، وسيحاسبهم ربّ العزة على ما بدّلوه وغيّروه مما جاءهم من الآيات، وعقابه سبحانه أليم شديد ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة:٢١١].

وقد تهدَّد الذين بدلوا نعمة الله كفراً، أي: استبدلوا الإيمان بالكفر، وشدة عقاب الله تكون في الدنيا والآخرة.

٢- حال الكفار في تزيين الدنيا لهم وطلبهم إيَّاها وسخريتهم من الذين آمنوا:

ذمَّ الله الكفار في انشغالهم بالدنيا وزينتها، وفي افتخارهم على المؤمنين بما حازوه من الدنيا، وبسخريتهم بهم لفقرهم وحاجتهم، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٢١٢].

وقد زيَّن الله الدنيا للناس كلِّهم، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [آل عمران:١٤].

ولكن المؤمنين لا تشغلهم دنياهم عن أُخراهم، فهم يطلبون حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، ويقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١] أما الكفار فلا يطلبون إلا حسنة الدنيا، ويقولون ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة:٢٠٠].

إن زينة الدنيا ابتلاء واختبار، فمن آمن، وشكر الله على نعمائه، فقد أفلح، وإلا خاب وخسر ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف:٧].

وقد ذمَّ الله الكفار في استعلائهم على المؤمنين وافتخارهم عليهم بسبب زينة الدنيا التي حازوها، فهم يسخرون بهم، وغفل هؤلاء عما سيعطيه الله لعباده المؤمنين في جنات النعيم، وما سيرزقهم إياه من الرزق الواسع بغير حساب ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة:٢١٢] وقوله: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ لأنهم يكونون في جنات النعيم والكفار في النار في أسفل سافلين.

٣- كان الناس على دين واحد فاختلفوا فبعث الله النبيين وأنزل عليهم الكتب:

أخبرنا ربنا - جلَّ وعلا - أن الناس كانوا على دين الإسلام، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين برحمة الله وجنته، ومنذرين غضبه وناره، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس:١٩].

قال السيوطي: أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس، قال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة:٢١٣] قال: «على الإسلام كلُّهم» [الدر المنثور: ١/ ٥٨٢].

وكان الناس كلُّهم على الإسلام عبر تاريخهم مرتين، **الأولى**: في عهد آدم عليه السلام، **والثانية**: بعد أن أهلك الله الكافرين من قوم نوح عليه السلام بالطوفان، وبقي في الأرض نوح ومن معه، وفي الآية محذوف تقديره (فاختلفوا) دلَّ عليه قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، وصرَّح بهذا المحذوف في سورة يونس ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس:١٩] واختلافهم كان بإيمان بعضهم، وكفر بعض، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٣].

فلما اختلفوا بعث الله أنبياءه، وأنزل عليهم الكتب ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون:٤٤].

وقد أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أنه أنزل كتبه بالحق، ليس فيها شيء من الباطل، والغاية من إنزالها ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] فالرسل جميعاً يُعرِّفون بالله الواحد الأحد، ويدلُّون العباد على الكيفية التي يعبدون بها الله الواحد.

وقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:٢١٣] والذين اختلفوا فيه هم أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩]. وقوله: ﴿بَغْيًۢا﴾ أي: حسداً من اليهود لهذه الأمة.

وقد هدى الله - تبارك وتعالى - هذه الأمة لما اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنه، هداهم إلى التوحيد، وهداهم إلى الإيمان بالرسول الخاتم، وهداهم إلى الصلاة والزكاة والقبلة، وغير

ذلك ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾ [البقرة:٢١٣].

٤- لا بد لمن يدخل الجنة أن يعاني الأهوال:

أنكر الله - تبارك وتعالى - على من ظنَّ أنه سيدخل الجنة قبل أن يُبتلَى ويُختبَر ويُمتحَن، كما وقع للأمم السابقة، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [البقرة:٢١٤] وقوله: ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة، بمعنى: بل، والمعنى، بل أحسبتم، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ﴾ [البقرة:٢١٤] هم الرسل وأتباعهم الذين سبقونا، مستهم البأساء والضراء، وهي الأمراض، والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب.

وقد أصاب الصحابة كثير من البأساء والضراء، وهم في مكة، وقد تسلط عليهم الكفار فيها، وفي المدينة، وهم يجاهدون الكفار، وقد طلب الصحابة من الرسول ﷺ في مكة أن يدعو الله لهم فقالوا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، فقال: «إنَّ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه، فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال: «والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون» [البخاري عن خبَّاب: ٦٩٤٣].

وحدثنا عن البأساء والضراء التي أصابت الرسول ﷺ وأصحابه في الخندق، فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)﴾ [الأحزاب:١٠-١١].

٥- مصارف النفقة:

سأل الصحابة الرسول عمّا ينفقونه، فأجابهم ببيان مصارف النفقة المرضية لله، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾ [البقرة:٢١٥]. بيَّن الله لنا المصارف التي نصرف إليها أموالنا، وهي الوالدان، والأقربون من جهة الأب والأم، كالأجداد والجدات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وأولادهم، واليتامى، وهم الفقراء الذين مات آباؤهم وهم صغار، والمساكين، وهم الفقراء الذي لا يملكون مالاً، أو الذين يملكون من المال ما لا يكفي

نفقاتهم الضرورية، وابن السبيل، وهو المسافر المنقطع به، الذي نفدت نفقته، أو ضاعت، وحثهم الله على الإنفاق بإخبارهم بأنه عليم بكل ما يفعلونه من خير، وإذا كان الأمر كذلك فإنه سيجزيهم ويثيبهم على بذلهم وإنفاقهم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- آتى الله بني إسرائيل كثيراً من الآيات العظيمة، وبدل أن يشكروا نعم الله التي أنزلت عليهم كفروها، فاستحقوا عقوبة الله.

٢- ملأت محبة الدنيا قلوب الكفار، فاشتغلوا بها عن الآخرة، وترفعوا عن المؤمنين ساخرين بهم، مع أن المؤمنين في جنات النعيم في يوم الدين، والكفار في العذاب الأليم، وقبيح بالمرء أن يسخر ممن هو فوقه.

٣- كان الناس أمة واحدة على الإسلام، فلما اختلفوا بإيمان بعضهم وكفر بعض، بعث النبيين وأنزل عليهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وهذا يدلُّ على وجوب تحكيم كتاب الله بيننا فيما اختلفنا فيه.

٤- الذين اختلفوا في الكتاب هم اليهود، بعدما أنزل إليهم من عند الله، والذين آمنوا به واهتدوا به هم المؤمنون من هذه الأمة.

٥- لا بد لمن أراد دخول الجنة أن يعاني في سبيل ذلك اللأواء والضراء ويصاب بشيء من الخوف والجوع ونقص من الثمرات، ويصل به الحال إلى أن يتساءل عن السبب في تأخر نصر الله، ونصر الله قريب.

٦- من مجالات الإنفاق التي حدَّدها الله: الإنفاق على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل.

النص السادس والأربعون من سورة البقرة
الحكمة من فرض القتال على الأمة الإسلامية

أولاً: تقديم

أعلمنا الله - تبارك وتعالى - في الآية الأولى من هذا النص أنه أوجب علينا القتال مع أن نفوسنا تكرهه، وأعلمنا - سبحانه - بقاعدة عظيمة، وهي أنه أوجب علينا ما يعلم أنه خير لنا، ولو كانت نفوسنا تكرهه، وحرَّم علينا ما فيه شر لنا ولو كانت نفوسنا تحبه، ولذلك علينا أن نتبع ما شرع الله موقنين بالعواقب.

وفي الآية الثانية من هذا النص نهى اللهُ عن القتال في الشهر الحرام، وفيه هجوم على الكفرة المشركين الذين ارتكبوا من الحرمات ما هو أشد من القتال في الشهر الحرام، من الصد عن سبيل الله، والكفر بالله ورسوله، وإخراج رسول الله والمؤمنين معه من البلد الحرام، وفتنة الأخيار عن دينهم.

ثانياً: آيات هذا النص

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨)﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - أوجب الله في الآية الأولى من هذا النص القتال على صحابة رسوله ﷺ ومن جاء من بعدهم، وكان القتال ممنوعاً في أول الأمر، ثم أذن فيه، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة:٢١٦] ومعنى ﴿كُتِبَ﴾: فرض. والمراد بـ ﴿الْقِتَالُ﴾ قتال الأعداء من الكفار.

ووصف الله القتال بأنه كُرْه لمن فرض عليهم، ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] والكُرْه: المشقَّة، والكَرْه: ما أكرهت عليه، «وإنما كان الجهاد كُرْهاً، لأن فيه إخراج المال، ومفارقة الوطن والأهل، والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف، وذهاب النفس، فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله عليهم» [القرطبي: ٢/ ٣٨].

وقد أخبرنا ربنا - تقدَّس وتعالى - أنَّ ما تكرهه النفوس كالقتال إذا فرض علينا يأتي بالمحبوب، فبالقتال يكون الاستشهاد، وهو باب عظيم لنيل الحياة الأخروية عند الله، وبالجهاد تكون حماية الدين ورفعته، وبه يكون الحفاظ على الديار، وبترك الجهاد يتقوى علينا أعداؤنا فيغلبونا، ويذلُّونا، ويأخذون أموالنا، ويطبقون علينا قوانينهم ونظمهم، كما حدث في ديار الأندلس، فقد ضاعت تلك البلاد لما ترك المسلمون الجهاد، يقول القرطبي، وكان في الأندلس في آخر العهد بها [القرطبي ٢/ ٣٨]: «كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد، وجبنوا عن القتال، وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟! وأَسَرَ وقَتَلَ وسَبَى واستَرَقَّ، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته»، وقال الحسن في معنى الآية: «لا تكرهوا المُلِمَّاتِ الواقعة، فلَرُبَّ أمر تكرهه فيه نجاتُك، ولربّ أمر تحبُّه فيه عطبك، وأنشد أبو سعيد الضرير:

رُبّ أمـــــر تتقيـــــــه   جـــــرّ أمـــــراً ترتضـــــيه

خفـــــي المحبـــــوب منـــــه   وبـــــدا المكـــــروه فيـــــه»

وقد وقع لنا في أيامنا هذه مثل ما وقع لأهل الأندلس، أو ما هو أعظم، فقد احتل أعداء الإسلام ديار المسلمين، وجزَّؤوها، وأذلوا رجالها، وسلبوا خيراتها، وأعطوا فلسطين لليهود، فأقاموا فيها دولة لهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

٢- القتال في الأشهر الحرم:

أعلمنا ربنا تبارك وتعالى أنه قضى في كتابه الذي سجله عند خلقه السموات والأرض أن السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، لا يجوز القتال فيهن ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٣٦].

وكان العرب قبل الإسلام يلتزمون بترك القتال في هذه الأشهر الأربعة، فلم يكونوا يسفكون الدم فيها، ولا يُغيرون على عدو، والأشهر الحرم هي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، ثلاثة سرد، وواحد فرد.

وقد وقع بعد الهجرة أن سرية أرسلها الرسول ﷺ جهة مكة تستطلع أخبار المشركين، فالتقت بقافلة لقريش، وظَنَّ الصحابة أن الوقت هو اليوم الأخير من شهر جمادى الآخرة، فهاجموا القافلة، واستولوا عليها، واستاقوها إلى المدينة، وتبين أن الوقت كان أول الشهر

الحرام رجب، فعيَّر المشركون الرسول ﷺ وصحبه أنهم انتهكوا حرمة الشهر الحرام، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾ [البقرة:٢١٧].

وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ ﴾ [البقرة:٢١٧] يسألونك عن حكم القتال في الشهر الحرام؟ فقوله: ﴿قِتَالٍ فِيهِ ﴾ بدل اشتمال.

وقد أجاب الله - تبارك وتعالى - وقرر أن القتال في الشهر الحرام أمر كبير، وحرمته في درجة الكبائر، ولكنه لم يقف عند ذلك، بل هاجم الكفرة الذين أثاروا عاصفة من جراء خطأ وقع فيه المجاهدون من غير تعمد، فقال لهؤلاء الذين أثاروا العاصفة: «إنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلونه أنتم من الصدِّ عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن كفركم بالله، وإخراجكم أهل المسجد منه، كما فعلتم برسول الله وأصحابه أكبر جرماً عند الله» [القرطبي: ٢/ ٤٤].

لقنت هذه الآيات المسلمين حُجَّتهم التي واجهوا بها المشركين، وصاغ معناها بعض شعراء المسلمين شعراً، وهو عبدالله بن جحش، وردَّ بها على المشركين فقال:

تعـــدون قـــتلاً في الحـــرام عظيمـــة وأعظـم منـه لـو يـرى الرشـد راشـد

صــــدودكم عــــما يقـــول محمـــد وكفـــر بـــه والله راء وشـــاهد

وإخـــراجكم مـــن مســـجد الله أهلـــه لـــئلا يُـــرى لله في البيـــت ســـاجد

والمراد بقوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾ [البقرة:٢١٧] أي: فتنة الكفار المؤمنين في مكة عن دينهم حتى يهلكوا، فإنها أعظم من القتل.

٣- غاية الكفار التي يريدونها من وراء قتالهم المسلمين:

أخبرنا الله عزَّ وجلَّ أن الكفار عازمون على قتال المسلمين أبداً، وأن غايتهم من وراء القتال هو إرجاع المسلمين عن دينهم إن استطاعوا ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ ﴾ [البقرة:٢١٧]، وإعلام الله الصحابة والمؤمنين كلهم بحال المشركين معهم فيه استثارة للمؤمنين كي يواجهوا المشركين بقوة، ويقوموا لهم، ولا يأخذونهم بمعسول القول الذي قد يواجهون به لإضعاف حميتهم في مواجهة الكفار.

٤- حكم المرتد:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - بأن الذي يستجيب للكفار فيما عزموا عليه، وقاتلوا من أجله، فيرتد عن دينه، فقد أوبق نفسه وأهلكها، ذلك أن الله يحبط عمل المرتدين، أي: يبطله

في الدنيا والآخرة إن ماتوا على ردَّتهم، ويصبح المرتدون الذين ماتوا وهم كذلك أصحاب النار خالدين فيها أبداً ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة:٢١٧].

٥- ثناء الله على المؤمنين المهاجرين المجاهدين:

أثنى الله – تبارك وتعالى – على العصبة التي بعثها الرسول ﷺ في السرية التي أرسلها قبل مكة تستطلع أخبار المشركين، فأحاطت بقافلة قريش، وأسرت من أسرت، وقتلت من قتلت، وكان أصحاب تلك السرية يتصفون بثلاث صفات كريمات، وهي: الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، وأخبر سبحانه أن هؤلاء يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة:٢١٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أوجب الله القتال على الأمة الإسلامية بعد أن كان ممنوعاً منهياً عنه.

٢- القتال مكروه للنفوس، لأن فيه إذهاب النفس والمال، ومع أن النفوس تكرهه ففيه خير كثير لنا في الدنيا والآخرة، والله العليم الخبير، يعلم بالأمور التي عاقبتها إلى شرٍّ أو خير، وعلم البشر في ذلك ناقص أو معدوم.

٣- على المسلمين أن يلتزموا بأحكام الشريعة الإلهية الربانية، فإنها تقودهم إلى الخير دائماً وأبداً، وعليهم أن يحذروا متابعة أهواء النفوس في مواجهة أحكام الشريعة.

٤- لا يجوز القتال في الأشهر الحرم، وهي أربعة، واحد فرد، وهو: رجب الذي بين جمادى الآخرة وشعبان، وثلاثة سرد، أي: متتابعة، وهي: وذو القعدة، وذو الحجة، وشهر الله المحرم، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن تحريم القتال فيها منسوخ، وهذا ليس بصواب، بل الصواب استمرار حرمة القتال فيها أبداً.

٥- أثار أعداء الإسلام عاصفة من الشكوك حول خطأ وقع فيه المسلمون بقتالهم في الشهر الحرام من غير قصد، وقد قرر الحقُّ – تبارك وتعالى – بأن القتال في الأشهر الحرم كبيرة من الكبائر، ولكنه وجَّه إلى الكفرة المعترضين سيلاً من الردود، فهم فعلوا كثيراً من الأخطاء التي تجعل ذنب المؤمنين صغيراً بالنسبة لما ارتكبوه من الصدِّ عن دين الله، والكفر بالله،

والاعتداء على المؤمنين في المسجد الحرام، وإخراجهم المؤمنين من ديارهم، وفتنتهم لهم عن دينهم، ثم قتالهم للمؤمنين بعد أن أخرجوهم من ديارهم.

وهذا يعلمنا كيف نرد على خصومنا، ونقهرهم في مجال الحجاج.

٦- شدة عداء الكفار للمسلمين، فقد وطّنوا أنفسهم على قتالنا حتى يردونا عن ديننا إن استطاعوا، ولذلك وجب علينا أن لا ننخدع بمعسول قولهم، وعلينا أن نبذل جهدنا في قتالهم.

٧- عاقبة المرتد الذي يموت على ردَّته عاقبة وخيمة أبداً، فقد أخبر الله أن أعماله تحبط في الدنيا والآخرة، وأن مصيره إلى النار خالداً فيها أبداً.

٨- ثناء الله تبارك وتعالى على المؤمنين الذين حازوا إلى الإيمان الهجرةَ والجهادَ، فهؤلاء يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم.

النص السابع والأربعون من سورة البقرة
الإثم الكبير الذي في الخمر والميسر

أولاً: تقديم

هذا النصُّ فيه تسديد وتصويب للمجتمع الإسلامي الناشئ في المدينة المنورة، فقد بيّن لهم فيه أن الخمر والميسر فيهما إثم كبير، يفوق ما فيهما من منافع، وقد غيرت هذه الآية نظرة المسلمين إلى شرب الخمر ولعب الميسر، وأصبحا محل حرج بعد أن كانا موضع تفاخر. وبيّن الله للمسلمين في هذا النص أن الإنفاق يكون فيما زاد عن الحاجة، فلا يجوز أن ينفق المرء ما يحتاج إليه هو وأهله وولده، لأنه بذلك يصبح فقيراً محتاجاً إلى نفقة غيره. وبيّن في آخر النص التصرف السديد الذي يجب أن يلتزمه ولي اليتيم مع اليتيم، فأجاز الله مخالطتهم بالمال والطعام في حال كون الولي مريداً الإصلاح.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة البقرة

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - دلالة الأسئلة التي أجابت عليها آيات هذا النص:

حوى هذا النص من القرآن ثلاثة أسئلة وجهها الصحابة إلى الرسول ﷺ، وحوى النص السابق سؤالاً واحداً، كما حوى النص التالي سؤالاً خامساً، فهذه خمسة أسئلة وردت في آيات قريب بعضها من بعض، مع أن كل الأسئلة التي أجاب عليها الله في القرآن ثلاثة عشر سؤالاً لا غير.

وتوجيه هذه الأسئلة من الصحابة للرسول ﷺ يدلُّ على مدى تفاعل الصحابة مع الدين الذي أنزل عليهم، وطرح الإشكالات التي قامت في نفوسهم على رسولهم ﷺ، ليسيروا وفق ما تمليه عليهم النصوص المنزلة من عند الله أو التي يقولها رسول الله ﷺ.

٢- التعريف بالخمر:

السؤال الأول في هذا النص الذي طرحه الصحابة على الرسول ﷺ يتعلق بحكم شرب الخمر ولعب الميسر، والخمر في اللغة: كل ما ستر الشيء وغطاه، ومنه خمار المرأة الذي يغطي رأسها، والخمر في الشرع كل ما يصنع من التمر وغيره، فيؤدي إلى ضياع العقل وفقده.

٣- ولع أهل الجاهلية بالخمر:

كان لأهل الجاهلية ولع شديد بالخمر، فكانوا يشترونها، ويخزنون منها الكثير، ويتفاخرون بشربها، ويمتدحون الخمر المُعَتَّقَة، ويتبارون في إظهار محاسنها وصفاتها، وما تحدثه فيهم إذا هم شربوها، قال حسان في جاهليته يثني على نفسه إذا شرب الخمر:

ونشـــــربها فتتركنـــــا ملوكـــــاً وأســـــداً لا ينهنهنـــــا اللقـــــاء

وقال المنخل اليشكري يصف نفسه إذا هو شرب الخمر، وإذا أفاق من سكرته:

وإذا شربـــــت فـــــإنني ربّ الخورنـــــق والســـــدير
وإذا صـــــحوت فـــــإنني ربُّ الشـــــويهة والبعـــــير

وقال طرفة بن العبد في معلقته مقرراً أن إحدى الخصال التي يطلب الفتيان الحياة لأجلها شرب الخمر، ويصف لون الخمر التي يشربها بأنها كُمَيْتٌ، إذا صُبَّ عليها الماء ظهر على وجهها الزبد:

ولـولا ثـلاث هـنَّ مـن عيشـة الفتـى وجَـدِّك لم أَحْفِـل متـى قـام عُـوَّدي
فمـنهن سـبقي العـاذلات بشـربة كُميـت متـى مـا تُعْـلَ بالمـاءِ تُزْبِـدِ

ويفتتح عمر بن كلثوم قصيدته التي كانت إحدى المعلقات طالباً من محبوبته أو ساقيته أن تسقيه في الصباح خمور قرى الأَنْدَرِين، وهي خمور مشعشة أي: ممزوجة بالماء، كأنها من شدة حمرتها بعد امتزاجها بالماء ألقي فيها نُوارُ الحُصِّ، وَوَرْدَتُه ذات لون أحمر قانٍ، ويتحدث عن أثرها في شاربها، حين يشربها، فإنها تدفعه وتحركه إلى السخاء بالأموال والجود بها، وتنسيه همومه وحوائجه وأحزانه، وحتى الشحيح البخيل عندما يشربها تجعله جواداً باذلاً لماله، وفي ذلك يقول:

ألا هُبـــي بِصَـــحْنِك فاصـــبحينا ولا تُبقِـــي خمـــورَ الأَنْـــدَرِينا
مُشَعْشَـــعةً كـــأنَّ الحُـــصَّ فيهـــا إذا مـــا المـــاء خالطهـــا سَـــخِينا
تَجُـــورُ بِـــذِي اللَّبانَـــةِ عـــن هـــواه إذا مـــا ذاقهـــا حتـــى يَلِيْنـــا

تـــرى اللَّحِــزَ الشــحيحَ إذا أُمِــرَّتْ عليـــه لمالـــه فيهـــا مهينـــا

صَـــبَنْتِ الكـــأس عنـــا أمَّ عمـــرو وكـــان الكـــأسُ مجراهـــا اليمينـــا

ومـــا شرُّ الثلاثـــة أم عمـــرو بصـــاحِبك الـــذي لا تَصْـــبحينا

وكـــأس قـــد شربـــتُ بِبَعْلَبَـــكٍّ وأخـــرى في دمشـــقَ وقاصِرينـــا

[شرح المعلقات للزوزني: ص١٦٥]

٤- كيف عالج الإسلام هذا المرض العضال:

لقد وصل الحال بالعرب في جاهليتها إلى درجة يصعب معها العلاج والدواء، كما هو الحال في المجتمعات الغربية اليوم، فإن الذي تغلغلت الجريمة في أعماقه وهو يعدّها فضيلة وتقدماً وحضارة لا يفيد معه النصح والعلاج، إن النصح والعلاج ينفع مع رجل يرى أنه عندما يزني ويرتكب الشذوذ ويتعاطى الخمر والمخدرات يرتكب جريمة، وأن فعله انحراف، أما عندما يفعل ذلك، وقد وقر في أعماق نفسه أن هذه الأفعال فضائل يستحق المدح بها يصبح العلاج عزيزاً بعيد المنال.

لقد طالب قوم لوط بإخراج لوط وأهله من ديارهم، لأنهم لا يرضون باللواط ولا يتعاطونه، فكانت تلك جريمتهم التي تستحق الإخراج ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النمل:٥٦]، والمجتمع الغربي اليوم حاله كحال المجتمع الجاهلي يعدّ تعاطي الخمر والزنا والميسر من الفضائل، ولذا فإن الإسلام عالج في بداية الأمر النفوس المنحرفة، والموازين المختلة، والأحكام الجائرة، فما لم يقم ذلك كله فإن العلاج سيفشل، لقد حرمت أمريكا الخمر ثلاثة عشر عاماً في الثلث الأول من القرن الماضي، وفشلت في معالجته ومقاومته، ووجدت أن متعاطيه أصبحوا بعد المنع أكثر، وأن التجارة فيه وتصنيعه قد ازدادت، وأن نوعية المواد التي راجت من الخمور نوعية سيئة، فاضطرت إلى العودة إلى إباحته، وها هي الأصوات ترتفع في عالم الغرب اليوم تدعو إلى إباحة المخدرات بدعوى أن ملاحقة الذين يصنعونها ويروجونها ويتعاطونها لم تحد من الاتجار فيها وتعاطيها، ونخشى أن تتكرر مأساة إباحة الخمر كما حدث في أمريكا.

٥- مراحل تشريع الخمر:

مَرَّ تشريع الخمر بأربع مراحل:

الأولى: أشار القرآن لأهل الإيمان في بداية الأمر أن الخمر غير مرضي عنها، وهي إشارة لا يكاد يدركها إلا النبيه البصير ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ [النحل:٦٧]، فلم يدخل السكر في الرزق الحسن.

الثانية: في فترة لاحقة صوَّب موازينهم في الحكم على الخمر، وقوّم انحراف مثلهم وتصوراتهم، فأنزل قوله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة:٢١٩].

لقد أنهت هذه الآية تمدح المؤمنين وافتخارهم بشرب الخمر، فكيف يفخر بشربها وتعاطيها من أصبحت عقيدته أنّ ما فيها من الإثم والمضار أعظم مما فيها من المنافع.

لقد كانت هذه الخطوة ضرورية في العلاج، بل إنّ العلاج لن يتحقق من غيرها.

الثالثة: حرمها الإسلام تحريماً جزئياً، كي يعتاد المدمنون تركها إلى حين، ليسهل بعد ذلك عليهم تركها تركاً كلياً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣].

الرابعة: ثم جاءت الآية الفاضحة للخمر الدالة على ما فيها من المفاسد والشرور والآثام، المُعرِّفة بالآثار الخبيثة التي تتركها في المجتمعات الإنسانية، وهي آثار مدمرة، تفرح الشيطان، وتغضب الرحمن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾ [المائدة:٩٠-٩١].

وسنتناول دلالة هذه الآية على تحريم الخمر عندما نعرض لتفسيرها في سورة المائدة إن شاء الله.

٦- التعريف بالميسر:

الميسر: القمار، وقد فشى القمار في أهل الجاهلية، حتى بلغ فيهم كما يقول ابن عباس إلى أن يخاطر الرجل على أهله وماله، فأيهما قمر صاحبه ذهب بماله وأهله [القرطبي: ٢/ ٤٩].

والميسر يورث العداوة والبغضاء، فإنّ مال الإنسان يصير إلى غيره بغير جزاء يؤخذ عليه [معاني القرآن للزجاج: ١/ ٢٩٢].

وقد فشى القمار اليوم بين المسلمين، وأصبحت جوائز القمار تساوي مبالغ كبيرة، وأصبح بعض الذين يعملون في الخير يغررون بالناس، ويزعمون أن ريع القمار يذهب إلى العمل الخيري، وقد كان أهل الجاهلية يوزعون الجزور الذي قامروا عليه على الفقراء، ولم ينجهم ذلك من غضب الله ولعنته.

وقد تطورت وسائل القمار اليوم، وأصبح له أندية خاصة به، يقصدها الأثرياء، وقامت بعض البنوك بدور المقامر، وأصبح في بعض الدول مقامرات على مستوى الدولة، والقمار كله سواء، ولا يرقى في الإسلام إلى مرتبة الحلال أبداً.

٧- حكم شرب الخمر ولعب الميسر:

عندما أنزلت هذه الآية لم تحرم الخمر ولا الميسر، ولكنها حولت النفوس التي كانت تعدُّ شرب الخمر ولعب الميسر من الشرف الذي يتفاخر به، فخبا ذلك في النفوس، وحلَّ محلَّه ما تضمنته الآية في قوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].

٨- المنافع التي في الخمر والميسر:

لا شك أن في الخمر والميسر منافع، ولكنها منافع قليلة مرجوحة، فالتجار يكسبون من وراء التجارة في الخمر، وبعض العلماء عددوا منافع الخمر والميسر فأخطؤوا إذ أدخلوا فيها ما ليس منها، فقد أدخل بعض أهل العلم في منافع الخمر «أنها تهضم الطعام، وتقوي الضعف، وتعين على الباه، وتسخي البخيل، وتشجع الجبان، وتصفي اللون، إلى غير ذلك» [القرطبي: ٢/ ٥٣]. وكل هذا الذي ذكروه غير صحيح، وقد توصل البحث العلمي اليوم إلى خطأ من ظنَّ أن هذه منافع تجتلب، بل هي مضار تجتنب.

وقد أدرك بعض أهل الجاهلية مضار الخمر وهم في الجاهلية، منهم قيس بن عاصم المنقري وكان شراباً لها في الجاهلية، فشربها يوماً، فجاء في شربه بما يلام عليه، فحرمها على نفسه وقال:

رأيـــت الخمـــر صــالحة وفيهـــا ... خصـــال تفســد الرجـــل الحلـــيما
فـــلا والله أشربهـــا صــــحيحاً ... ولا أُشـــفَى بهـــا أبــــداً ســـقيما
ولا أعطـــي بهـــا ثمنـــاً حيـــاتي ... ولا أدعـــو لهـــا أبــــداً نـــديما

٩- دعوة عمر بن الخطاب ربَّه أن يبين لهم في الخمر بياناً شافياً:

ورد في كتب السنّة أن عمر بن الخطاب دعا ربه تبارك وتعالى أن يبين لهم حكم الخمر بياناً شافياً، وكان يدعو بهذا الدعاء كلما أنزلت آية في الخمر، حتى إذا نزلت الآية المحرمة، قال: انتهينا، انتهينا.

ففي سنن الترمذي عن عمر بن شرحبيل أبي ميسرة، عن عمر بن الخطاب، أنه قال: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانَ شفاء، فنزلت التي في البقرة: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ

﴿وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية [البقرة:٢١٩]، فدُعيَ عمر فقُرِئت عليه فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء:٤٣] فدُعي عمر فقُرِئت عليه، ثم قال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾ [المائدة:٩١] فدُعي عمر فقرئت عليه فقال: انتهينا انتهينا» [الترمذي: ٣٠٤٩، صحيح سنن الترمذي: ٢٤٤٢].

١٠- سؤال الصحابة عن المقدار الذي ينفقونه من أموالهم:

سأل الصحابة رضوان الله عليهم رسولهم ﷺ عن المقدار الذي ينفقونه من أموالهم، فقال لهم ربهم - تبارك وتعالى -: أنفقوا العفو ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة:٢١٩] والعفو ما فضل عن النفس والعيال، وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول» [البخاري: ١٤٢٦].

وهذه الآية في نفقات التطوع، وقد حددت آية الزكاة المصارف الواجب إخراجها فيها، والصواب أن في المال حقّاً سوى الزكاة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٩-٢٢٠] أي: بيَّن الله لنا الآيات المتعلقة بأمر النفقة، لنتفكر في أمر الدنيا والآخرة، فنحبس من أموالنا ما يصلح نفوسنا وأهلنا وأولادنا، وننفق منها فيما ينفعنا في الآخرة، فالدنيا زائلة فانية، والآخرة باقية خالدة.

١١- على ولي اليتيم أن يتصرف في أمر اليتيم بما يصلحه:

شدَّد الله على المؤمنين في أمر اليتامى، وهذه الآية في هذا النصِّ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠]. فعزل الصحابة أموال اليتامى عن أموالهم، وطعامهم عن طعامهم، فشقَّ ذلك على ولي اليتيم، كما شقَّ على اليتامى، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية مبيناً أن الواجب هو التصرف بما يصلح مال اليتيم، وفي ضوء منهج الإصلاح تكون مخالطتهم خير، والله يعلم المفسد من المصلح، والله عزيز حكيم ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾ [البقرة:٢٢٠].

ومثَّل ابن عباس للمخالطة بقوله لولي اليتيم: أن يشرب من لبنك، وتشرب من لبنه، ويأكل من قصعتك وتأكل من قصعته، ويأكل من ثمرتك، وتأكل من ثمرته. [فتح القدير: ١/ ٣٩٢].

والمراد بقوله: ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: لأحرجكم وضيق عليكم، ولكنه وسَّع ويسَّر عليكم فيما شرعه لكم في مخالطة الأيتام.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- شرب الخمر، ولعب الميسر أمران مذمومان مستقذران، إثمهما كبير، ونفعهما قليل.

٢- غيَّرت هذه الآية موقف المؤمنين تجاه الخمر والميسر، فقد كانوا يعدُّون شرب الخمر ولعب الميسر من الشرف والسؤدد، فلما تنزلت هذه الآية امتنع كثير من المسلمين عنهما، والذي بقي على حاله منهم لامته نفسه على اقترافهما.

٣- تم تحريم الخمر والميسر على مراحل، كل مرحلة كانت تنسخ ما قبلها، حتى أنزل الله في الخاتمة تحريم الخمر والميسر تحريماً قاطعاً.

٤- على المسلم أن ينفق ما زاد عن حاجته وحاجة من يعوله، ولا يجوز له أن ينفق ماله كلَّه، أو ما يضير بنفسه أو من يعوله، بحيث يحتاجون إلى غيرهم فيما يحتاجون إليه من النفقة.

٥- وسَّع الله في تعامل القائمين على اليتامى، فقد أباح الله للأولياء أن يخالطوا اليتامى، بشرط أن يكونوا في ذلك قاصدين الإصلاح، والله يعلم المفسد من المصلح.

٦- كان الصحابة مهتمين في المرحلة التي أنزلت فيها هذه الآيات بالتعرف على تفاصيل المنهجية التي يريدها الله منهم، فكانوا يتوجهون إلى الرسول ﷺ، ليبين لهم ما ينوبهم، فكان الرسول ﷺ يوضح بعضاً مما سئل عنه، وكان القرآن يتنزل بتوضيح بعض آخر.

النص القرآني الثامن والأربعون من سورة البقرة
حكم النكاح بين المسلمين والمشركين

أولاً: تقديم

ابتداءً من هذا النص، وأوله الآية إحدى وعشرون ومائتان وحتى الآية اثنتين وأربعين ومائتين كلها في بيان أحكام كثيرة متعلقة بالأسرة، وللبشر في الأحكام المتعلقة بالأسرة طرائق كثيرة مختلفة، والأمة الفاضلة تحتاج إلى بيان المنهج الأقوم لتقيم أسرها عليه.

وقد بينت آيات هذا النص حكم تزوج المؤمنين من الكافرات، وحكم تزويج المؤمنات من الكفار، وحكم إتيان النساء في المحيض، ودلت المؤمنين على الطريقة التي يأتون أزواجهم بها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة البقرة

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تحريم نكاح المسلمين من الكافرات والمشركات:

نهى الله - تبارك وتعالى - المؤمنين عن نكاح المشركات ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ [البقرة:٢٢١] وقرر الله سبحانه أن زواج المؤمن من أمة مؤمنة، خير عند الله وفي شرعة من الزواج من امرأة مشركة، ولو أعجبت من يريد الزواج بها، لكونها ذات حسب أو نسب أو جمال أو مال.

٢- جواز نكاح الكتابيات:

الكتابيات وهن اليهوديات والنصرانيات داخلات في المشركات، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن

يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ﴾ [المائدة:١٧] وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣].

ومع كونهن مشركات فإن الله خصهنَّ بأحكام خاصة بهن من دون المشركات، وأجاز للمؤمنين نكاحهن، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥]. ومع كون نكاحهنَّ مشروعاً، إلا نكاح المؤمنات أولى وأفضل، فقد أمرنا الرسول ﷺ أن ننكح ذوات الدين من المسلمات، فذات الدين أولى من غيرها ممن قلَّ دينها، وعلى ذلك فالمسلمة أفضل من اليهودية والنصرانية، وقد كره عمر بن الخطاب الزواج من الكتابية، فعن أبي وائل،قال: «تزوج حذيفة يهودية، فكتب عمر إليه أن خلِّ سبيلها، فكتب إليه إن كان حراماً خليت سبيلها، فكتب إليه: إني لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات» [صححه الألباني في إرواء الغليل: ٦/ ٣٠١، ورقمه: ١٨٨٩، وعزاه إلى ابن أبي شيبة، والبيهقي].

ويشترط في الكتابية أن تكون محصنة، لا تتعاطى الزنا، ولا تستحله، كما يشترط أن يجري العقد على النهج الإسلامي.

٣- تحريم تزويج المسلمة من مشرك:

حرم الله تزويج المرأة المسلمة من المشرك، لا فرق في ذلك بين وثني، وبين يهودي أو نصراني، قال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

وقد نفَّر الله من تزويج المشركين ورغَّب في تزويج المؤمنين بإخبارنا أن تزويج العبد المؤمن أفضل من تزويج الحر الكافر، وإن كان حسيباً نسيباً ثرياً غنياً قوياً.

٤- الحكمة من وراء تحريم الله تزويج المسلمين من المشركين:

بيَّن الله الحكمة من وراء تحريم تزويج المؤمنات من المشركين، وتزوج المسلمين من المشركات بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة:٢٢١].

والإشارة بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ للمشركين والمشركات الذين نهي عن تزويجهم والزواج منهم، لأنهم يدعون إلى الاشتغال بالدنيا بعيداً عن أحكام الشريعة، فتقودهم تصرفاتهم إلى النار، والله يدعو إلى أن يشغل العبد نفسه بالأعمال الموصلة إلى الجنة، فالخلطة لها أثر كبير في توجهات الإنسان وأعماله، وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بإرادته وعلمه وشرعه.

وقوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾ [البقرة:٢٢١] أي: يبين حججه الدالة على طريق الجنة، وطريق النار، لعلهم يتذكرون ما يوصلهم إلى الله، وينجيهم من عذابه.

٥- لزوم الولي في النكاح:

عندما نهى الله المؤمنين عن نكاح المشركات قال: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾ [البقرة:٢٢١] فنسب الفعل إلى الأزواج، وعندما نهى عن تزويج المؤمنات المشركين قال: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ﴾ [البقرة:٢٢١] وهذا خطاب للأولياء، واستدلّ أهل العلم بهذا على أن الولي لا بد منه لتزويج المرأة، وقد جاءت أحاديث كثيرة مصرحة باشتراط الولي في النكاح منها حديث أبي موسى الأشعري أن الرسول ﷺ قال: «لا نكاح إلا بولي» [صححه الألباني، وعزاه إلى أبي داود والترمذي والدارمي وغيرهم، إرواء الغليل: ٦/ ٢٣٥، ورقمه: ١٨٣٩]. ومنها حديث عائشة مرفوعاً «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل» [صححه الألباني في إرواء الغليل: ٦/ ٢٤٣، ورقمه: ١٨٤٠، وعزاه إلى أبي داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم]، وهناك أحاديث أخرى صحيحة أوردها في إرواء الغليل.

٦- وجوب اعتزال النساء في المحيض:

كان اليهود إذا حاضت المرأة قاطعوها، فلم يآكلوها، ولم يشاربوها، ولم يساكنوها، وقد تأثر العرب بهذا السلوك في الجاهلية، قال ابن جرير: «كان المسلمون قبل بيان الله لهم ما يتبيَّنون أمره، لا يساكنون حائضاً في بيت، ولا يؤاكلونهن في إناء، ولا يشاربونهن» [تفسير الطبري: ٢/ ١١٨٤]. وروى مسلم عن أنس قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهنَّ في البيوت» [مسلم: ٣٠٢].

وقد أخبرتنا الآية الثانية من هذا النص أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا رسولهم ﷺ عن المدى الذي يحل لهم من المرأة الحائض، فجاء الجواب بالبيان من رب العزة ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة:٢٢٢] أخبر الله - تبارك وتعالى - أن المحيض أذى، أي: هو قذارة ونجاسة، وهو أذى للمرأة الحائض وأذى لمن يجامعها ويعاشرها، ولذلك نهى الله تبارك وتعالى عن معاشرة النساء في مدة المحيض، وفي مكان المحيض وهو الفرج.

وبيّن لنا رسولنا ﷺ الهدي الصواب الذي دلَّ عليه القرآن، فقد حرَّم علينا وطأ النساء في المحيض لا غير، وأحلّ لنا مؤاكلة الحائض ومشاربتها، ومخالطتها في المنزل، ومباشرتها في

غير الوطء، ففي صحيح مسلم عن أنس، أن الرسول ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهنَّ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ ، حتى ظننا أنه وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أنه لم يجد عليهما. [مسلم: ٣٠٢].

وبلغ الحال بالرسول ﷺ أن يضع فمه على موضع فم عائشة في الإناء الذي شربت منهن وهي حائض، ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت: «كنت أشرب وأنا حائض، فيضع فاه في موضع فيَّ، فيشرب، وأتعرق العِرْق، وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ ، فيضع فاه على موضع فيَّ» [مسلم: ٣٠٠].

وحدثتنا كتب السنّة أن أم سلمة كانت مضطجعة في الخميلة مع الرسول ﷺ فحاضت، فانسلت، فأخذت ثياب حيضتها، فقال لها رسول الله ﷺ : «أنفست» فقالت: نعم، قالت: فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة. [البخاري: ٢٩٨، مسلم: ٢٩٦].

وقالت عائشة: «كان إحدانا إذا كانت حائضاً، أمرها رسول الله ﷺ أن تأتزر في فور حيضتها، ثم يباشرها». [البخاري: ٣٠٢، ومسلم: ٢٩٣ واللفظ له].

وقالت ميمونة «كان رسول الله ﷺ يباشر نساءَه فوق الإزار، وهنَّ حيض». [البخاري: ٣٠٣، مسلم: ٢٩٤].

وكان ﷺ يتكئ في حجر عائشة وهي حائض، فيقرأ القرآن. [البخاري: ٢٩٧، مسلم: ٣٠١].

هذا هو الاعتزال الذي أمر الله به في الآية، وليس هو اعتزال اليهود، وأهل الجاهلية، وكان النصارى يعاشرون النساء في المحيض ويجامعونهن، فالإسلام وسط بين اليهود والنصارى.

وتحريم جماع المرأة الحائض مستمرٌّ حتى ينقطع حيضها، وتتطهر منه بالاغتسال، عند ذلك يحل لزوجها أن يطأها، فقوله: ﴿يَطْهُرْنَ﴾ أي: ينقطع حيضهن، وقوله: ﴿تَطَهَّرْنَ﴾ أي: يغتسلن.

وقوله ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٢٢] أي: في الفرج، وختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢] أي: يحب الذين يطهرون أنفسهم بالتوبة إلى الله تعالى، فالتوبة الصادقة تغسل أدران الذنوب، ويحب المتطهرين، أي: من النجاسات المعنوية كالشرك والكفر والمعاصي، ومن النجاسات الحسية، كالحيض والدم والبول، ونحوها.

٧- حرمة إتيان النساء في أدبارهن:

أمر الله الأزواج أن يأتوا نساءهم بعد أن يتطهرن من الحيض في الموضع الذي يكون فيه الحيض، وهو الفرج، وأخبر تبارك وتعالى في الآية التالية أن نساءَنا حرث لنا، وأمرنا أن نأتي حرثنا أنى شئنا ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣].

وقد جعل الله نساءَنا حرثاً لنا، والحرث هو الموضع الذي يكون فيه الزرع، ومكان الزرع هو الذي يكون فيه الولد وهو الرحم، والطريق إليه هو القُبُل، وقد أخطأ خطأً عظيماً من ظنَّ أنه يجوز له أن يأتي زوجته في دبرها، فالدبر ليس مكاناً للزرع، وإتيان الأدبار هو اللواط الذي عذّب الله بسببه قوم لوط.

وقد روى خزيمة بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن». [صححه الألباني في: إرواء الغليل: ٧/ ٦٥، ورقمه: ٢٠٠٥، وعزاه إلى ابن ماجه وأحمد والبيهقي والنسائي وغيرهم، وذكر أن أسانيد النسائي والشافعي والبيهقي صحيحة].

وروى أبو هريرة مرفوعاً أنَّ الرسول ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ». [صححه الألباني في الإرواء: ٧/ ٦٨ ورقمه: ٢٠٠٦، وعزاه إلى أبي داود والنسائي والترمذي وغيرهم].

٨- جواز إتيان الزوجة على الحالة التي يريدها الزوج:

كان اليهود إذا أتوا نساءَهم في الجماع يأتيها وهي مستلقية على ظهرها، وكانوا يزعمون أنه إذا جاءَها من دبرها في قبلها أو على جنبها فحملت، فإن الولد يأتي أحولَ، قال جابر بن عبدالله: «كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها، كان الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]» [البخاري: ٤٥٢٨، مسلم: ١٤٣٥].

وقد تأثر أهل المدينة باليهود، فكانوا يأتون نساءَهم على النحو الذي يفعله اليهود، أما أهل مكة فإنهم كانوا كما يقول الطبري، نقلاً عن ابن عباس يشرحون النساء، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات، فلما قدموا المدينة تزوجوا في الأنصار، فذهبوا ليفعلوا بهن كما كانوا يفعلون بالنساء بمكة، فأنكرن ذلك، فأنزل الله الآية. [تفسير الطبري: ٢/ ١٢٠٢].

وبعد أن أذن الله للمؤمنين أن يأتوا نساءَهنَّ كيف شاؤوا قال: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣] وقد دلّنا رسولنا ﷺ على التقديم الذي يأتيه من أراد جماع أهله، فقال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنِّبنا الشيطان، وجنِّب الشيطانَ ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد لم يضره». [البخاري: ١٤١، مسلم: ١٤٣٤]. وقوله في ختام الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا

أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة:٢٢٣] أي: خافوا الله وانتهوا عما نهاكم عنه، واعلموا أنكم ملاقوه يوم القيامة، فيحاسبكم على أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، وبشر المؤمنين، الذين أطاعوا الله فيما أمرهم به، وانتهوا عما نهاهم عنه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- لا يجوز للمسلم أن يتزوج امرأة مشركة، ولا يجوز تزويج المرأة المسلمة من مشرك، واستثنى الله من المشركات المحصنات من اليهوديات والنصرانيات.

٢- المرأة المسلمة ولو كانت أمة أفضل من المرأة المشركة، ولو كانت غنية حسيبة جميلة، والرجل المسلم ولو كان عبداً أفضل من المشرك ولو كان حرّاً حسيباً نسيباً ذا مال، فالمؤمنون يدعون إلى الله وإلى جنته ومغفرته، والكفار يدعون إلى النار وغضب الجبار.

٣- لا يجوز إتيان النساء في وقت المحيض، ولا في موضع المحيض وهو الفرج، وعلل الله ذلك بأن المحيض أذى، وهناك أحكام أخرى تتعلق بالحائض، فالحائض تترك الصلاة والصوم أيام حيضها، ويجب عليها قضاء الصوم دون الصلاة، ولا يجوز للحائض أن تطوف بالبيت، ولا تمكث في المسجد.

٤- يجب على الحائض أن تغتسل من حيضها، ولا يجوز لزوجها أن يعاشرها إلا بعد أن تغتسل، وكذلك الطواف والمكث في المسجد لا يجوز لها إلا إذا اغتسلت.

٥- لا يجوز للرجال أن يأتوا النساء في أعجازهن، فإن الموضع الذي أباح الله للرجال جماعهن فيه هو مكان الحرث والزرع، والطريق إليه هو القبل.

٦- كَذَبَ اليهود فيما زعموه أن الولد يأتي أحول في حال جاء الرجل زوجته في قبلها من جهة دبرها، أو أتاها على جنب، وقد أجاز الله ذلك كله إذا كانت المعاشرة في الفرج.

٧- تستحب التسمية عند الجماع، وهو من التقديم الذي أمر الله به.

٨- دعوة المؤمنين إلى التطهر من الكفر والشرك والذنوب، والتخلص من النجاسات كالحيض والبول والغائط، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

النص القرآني التاسع والأربعون من سورة البقرة
لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم

أولاً: تقديم

بيّن الله في آيات هذا النص أن المرء إذا حلف يميناً، وكان الحنث أولى من المضي في اليمين، فعليه أن يكفر عن يمينه، ويأتي الذي هو خير، ولا يجوز له أن يجعل اليمين حائلاً يحول بينه وبين فعل الخير.

وبيّن الله في هذه الآيات حكم اليمين اللغو، وحكم إيلاء الرجل من زوجته.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا تجعلوا أيمانكم مانعة لكم من البر:

نهانا ربنا - تبارك وتعالى - عن أن نجعل أيماننا مانعة لنا من البر والتقوى، ففي الحديث: «والله لأن يَلِجَّ أحدُكم بيمينه في أهله آثَمُ له عند الله من أنْ يعطيَ كفارته التي افترض الله عليه» [البخاري: ٦٦٢٥، مسلم: ١٦٥٥]. قال تعالى في الآية الأولى من هذا النص: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)﴾ [البقرة:٢٢٤].

وقوله: ﴿عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٤] قال: «لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك، واصنع الخير» [ابن كثير: ١/ ٥٣٥]. وقد قال الرسول ﷺ لأبي موسى الأشعري والأشعريين: «وإني والله، إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا كفرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير» [البخاري: ٦٢٢٣، مسلم: ١٦٤٩].

وقال رسول الله ﷺ لعبدالرحمن بن سمرة: «وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فكفر عن يمينك، وائت الذي هو خير» [البخاري: ١٦٥٢].

وعن عدي بن حاتم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف على يمين، ثم رأى أتقى لله منها، فليأت التقوى» [مسلم: ١٦٥١].

وقوله: ﴿ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ البر هو فعل الخير كله، والتقوى فعل أوامر الله وترك نواهيه، وقوله: ﴿ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ هو في الإصلاح بين الناس بالمعروف فيما لا مأثم فيه، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لما يقوله الحالف منكم إذا حلف، ﴿عَلِيمٞ﴾ بما تقصدونه وتبغونه بحلفكم.

٢- عدم مؤاخذة الله لنا في اللغو في الإيمان:

من رحمة الله بنا أنه لا يؤاخذنا باللغو في أيماننا، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾ [البقرة:٢٢٥] أي: لا يؤاخذنا الله بما جرى على ألسنتنا من غير قصد، كقول المتكلم: لا والله، وبلى والله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل في بيته، كلا والله، وبلى والله» [سنن أبي داود: ٣٢٥٤، وصحيح سنن أبي داود: ٢٧٨٩] ومن يمين اللغو أن يحلف المرء اليمين على أمر يظنه صواباً، ويكون غير ذلك، كم حلف أنه جاء مكة، ثم تبين له أنه أخطأ فيما حلف عليه، فهذا لغو يمين.

واليمين التي كسبتها قلوبنا، أي: التي قصدتها، وانعقدت القلوب عليها، وهي التي قال الله فيها: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ ﴾ [المائدة:٨٩].

وبيّن الله وجه المؤاخذة في سورة المائدة، وذلك بإلزام الحالف القاصد في حلفه بالكفارة ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة:٨٩].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾ [البقرة:٢٢٥] أي: للذين يحلفون وكان يمينهم لغواً، وهو بهم رحيم، ولذلك لم يجعل في أيمانهم كفارة.

٣- حكم الذين يؤلون من نسائهم:

الإيلاء: حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة، ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢٦ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٧﴾ [البقرة:٢٢٦-٢٢٧]. والآية تدلُّ على أنّ الذين يؤلون من نسائهم مدة تقل عن أربعة أشهر فلا حرج عليهم في ذلك، ولا يجبرون على ترك الإيلاء، فإن زادت عن الأربعة أشهر، أوقفوا عند الأربعة أشهر، وطلب منهم أن يعودوا إلى معاشرة زوجاتهم، فإن رفضوا طلب منهم أن يطلقوهن.

ومعنى ﴿تَرَبُّصُ﴾: الانتظار، والفيئة: الرجوع لمعاشرة الزوجة، وقوله: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ ﴾ يدلُّ على أن الطلاق لا يقع بمضي المدة، كما يقول به بعض أهل العلم، بل لا بد أن يوقعه المولي إن أصر على الاستمرار في الإيلاء، وهذا قول عبدالله بن عمر، فإنه قال: «إذا مضت أربعة أشهر يوقف حتى يطلق، ولا يقع عليه الطلاق حتى يطلق» وقال البخاري بعد سياق كلام ابن عمر: «ويذكر ذلك عن عثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة واثني عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وعن أبي صالح قال: سألت اثني عشر من أصحاب رسول الله ﷺ عن الرجل يؤلي؟ قالوا: ليس عليه شيء، حتى تمضي أربعة أشهر فيوقف، فإن فاء وإلا طلق» [قال الألباني: وإسناده صحيح على شرط مسلم، وعزاه إلى الدارقطني، وعنه البيهقي، إرواء الغليل: ٧/ ١٧٢].

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ [البقرة:٢٢٦] أي: غفور رحيم للمؤلي في تقصيره في حقهن بسبب اليمين، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٢٧] أي: سميع لطلاقه، عليم به.

وقد ثبت في السنّة عن أنس بن مالك: أن الرسول ﷺ آلى من نسائه شهراً، فمكث تسعة وعشرين يوماً، ثم دخل على نسائه. [البخاري: ٥٢٨٩].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - إذا حلف المسلم يميناً، وكان الحنث في يمينه أولى من المضي فيها، فعليه أن يكفر عن يمينه، ويأتي الذي هو خير، ولا يجوز له أن يجعل اليمين مانعة له من فعل الخير.

٢- لا يؤاخذ الله عباده بلغو اليمين، وهي التي تجري على ألسنتهم من غير قصد، واليمين التي توجب الكفارة إذا حنث فيها هي اليمين المقصودة التي انعقدت عليها القلوب.

٣- الذي يحلف على أن لا يعاشر زوجته إن كان حلف على أربعة أشهر فأقل فلا حرج عليه، وإن آلى على أكثر من أربعة أشهر، فإن القاضي يلزمه عند الأربعة بمعاشرتها، أو يطلقها.

النص القرآني المتمم للخمسين من سورة البقرة
المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء

أولاً: تقديم

بيّن الله - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص مدة عدة المطلقات ذوات الأقراء، كما بيّن عدد الطلقات التي يمكن للزوج بعدها أن يعيد زوجته إليه من غير عقد، وعدد هذه الطلقات طلقتان، فإن طلقها الطلقة الثالثة فلا يمكنه أن يعيدها إلى عصمته إلا إذا تزوجت رجلاً غير زوجها زواجاً صحيحاً ووطأها، ثم طلقها طلاقاً صحيحاً أو مات عنها.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- صلة الآية بما قبلها:

ذكر الله - تعالى - في آيات سابقة حكم الذين يؤلون من نسائهم، وذكر فيها أن المؤلي قد يقع منه الطلاق في قوله: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٧] فناسب أن يذكر بعد ذلك وجوب عدة المطلقة، وشيئاً من أحكام الطلاق.

٢- المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء:

أوجب الله على المرأة المطلقة إذا كانت مدخولاً بها، وكانت تحيض أن تتربص بنفسها ثلاثة قروء، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ ﴾ [البقرة:٢٢٨] والتربص: الانتظار، أراد به في الآية العدة، وهي فترة زمنية لا يحلّ لها فيها الزواج، وتبقى في هذه المدة في بيت الزوج، ومن حقّ الزوج أن يراجعها فيها من غير مهر ولا عقد، ولا يشترط في الرجعة رضاها، هذا بعد الطلقة الأولى أو الثانية.

أما المطلقة التي لم يدخل بها فليس لها عدة، وعدة الحامل أن تضع حملها، وعدة التي لا تحيض ثلاثة أشهر، وسيأتي أحكام كل نوع من المعتدات عند تفسير الآيات المتعلقة بهنّ، والقروء جمعٌ واحدُه قُرء، والقُرء في لغة العرب يطلق على كل من الحيض والطهر، ومن إطلاقه على الحيض قوله ﷺ لأم حبيبة: «إذا أتى قرؤك فتطهري» [صحيح أبي داود للألباني: ٢٥٠] وفي رواية: «تدع الصلاة أيام أقرائها ثم تغتسل وتصلي» [صحيح أبي داود للألباني: ٢٥٢، وقال فيه: صحيح بما قبله] وفي رواية ثالثة عزاها الألباني لأبي داود ومسلم عن عائشة: «تدع الصلاة أيام أقرائها» [صحيح أبي داود للألباني: ٢٥٤، راجع: القرطبي: ٢/ ١٠٠، وأضواء البيان: ١/ ١٧٦].

وقد اختلف الصحابة والتابعون والأئمة في القروء الواردة في الآية، وسبب الاختلاف اشتراك القرء بين الحيض والطهر.

وقد ذهب الخلفاء الراشدون الأربعة إلى أن القرء في الآية الحيض، وذهب إليه ابن مسعود وأبو موسى، وعبادة بن الصامت، وابن عباس، وغيرهم، وهو الرواية الصحيحة عن أحمد.

وذهب إلى أنه الطهر عائشة، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمر، وفقهاء المدينة السبعة، ومالك، والشافعي وغيرهم [أضواء البيان: ١/ ١٧٦].

والقول الراجح أن القرء هو الطهر، لقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، فالعدة المأمور بطلاقهن لها هي الطهر، وجاء في حديث ابن عمر «فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة كما أمر الله» [البخاري: ٤٩٠٨، مسلم: ١٤٧١].

وهذا الحديث صريح بأن الطهر هو العدة التي أمر الله أن يطلق النساء لها، قال الشيخ الشنقيطي: «الذي يظهر لي أن دليل هؤلاء هذا، فصل في محل النزاع، لأن مدار الخلاف هل القروء الحيضات أو الأطهار، وهذه الآية، وهذا الحديث دلاً على أنه الأطهار، ولا يوجد في كتاب الله، ولا سنّة نبيه شيء يقاوم هذا الدليل، لا من جهة الصحة، ولا من جهة الصراحة في النزاع» [أضواء البيان: ١/ ١٧٦].

٣- لا يحلُّ للمطلقات أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن:

حرم الله على المطلقات أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة:٢٢٨]، والذي يكون في الرحم ويمكن أن تكتمه المرأة هو الولد، أو الحيض، والآية تدلُّ على أنهن مؤتمنات على ما في أرحامهن، وقولهن في ذلك مقبول، ولسنا بحاجة إلى أن نكشف حالهنّ، وكتمان المرأة لما في رحمها يترتب عليه إضرار بالزوج، فكتمانها

للولد قد يسارع بخروجها من العدة، ويحرم الزوج من إرجاعها إذا كان يرغب في ذلك، ودعواها أنها لا تزال حائضاً أو أنها حامل قد يطيل عدَّتها، ويلزمه بالنفقة عليها، فعليها أن تصرح بالأمر على حقيقته من غير تبديل ولا تغيير.

وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة:٢٢٨] فيه تهييج على ترك الكتمان، أي: إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن.

٤- حق الزوج في مراجعة الزوجة ما دامت في عدتها:

قرّر الحقُّ - تبارك وتعالى - أن من حَقِّ الزوج أن يراجع زوجته ما دامت في عدتها من غير عقد ولا مهر، وسواء قبلت أو رفضت هي أو وليها ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ [البقرة:٢٢٨].

والبعولة جمعٌ واحدُه بعل، وهو الزوج، وقوله: ﴿فِي ذَلِكَ ﴾ أي: في مدة العدة، وقوله: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ [البقرة:٢٢٨] إرشاد للزوج بأن مراجعته لزوجته التي طلقها يكون في حالة كونه يريد الإصلاح، أما إذا أراد أن يرجعها ليوقع الضرر بها، وذلك بتطويل عدتها، فهذا ليس من الإصلاح.

٥- ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف:

قرر العليم الحكيم - سبحانه - أن للزوجات على أزواجهن مثل ما لأزواجهن عليهن، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:٢٢٨] والذي للزوج على زوجته قد يكون واجباً، وقد يكون من باب المستحبات ومكارم الأخلاق.

فمن الواجبات على المرأة أن تجيب زوجها إذا دعاها إلى الفراش، وعلى الزوج أن لا يدع معاشرة زوجته، وذلك لاشتغاله بالصلاة والصيام وقراءة القرآن ونحو ذلك، وقد أنكر الرسول ﷺ على عبدالله بن عمرو بن العاص مبالغته في الصلاة والصيام، وقال له: «لا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقّاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً» [البخاري: ١٩٧٥، مسلم: ١١٥٩].

وأنكر الرسول ﷺ على عثمان بن مظعون تبتله، وأخبره أنه هو ينام ويصلي، ويصوم ويفطر، وينكح النساء [الحديث في سنن أبي داود: ١٣٦٩، وهو في صحيح أبي داود: ١٣٦٩].

وأخذ ابن عباس من الآية أنه يجب على الزوج أن يتزين للمرأة كما يجبُّ أن تتزين المرأة له، لأن الله يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:٢٢٨] [عزاه إلى ابن جرير وابن أبي حاتم].

ويجب على الرجل إن كان له أكثر من زوجة أن يعدل بينهن في المبيت والنفقة، ويجب على الزوج أن ينفق على زوجته في مسكنها ومأكلها ومشربها وملبسها ونحو ذلك.

وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ «المعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه» [المفردات للراغب: ص٣٣١]، فتحدد النفقة والمعاشرة والزينة بما يدلُّ عليه الشرع، ويستحسنه العقل.

٦- الدرجة التي للرجال على النساء:

جعل الله للرجال على النساء درجة، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨]، والدرجة: المنزلة والرتبة، وقد بيَّن الله أن هذه الدرجة تتمثل في القوامة، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤] والقوامة تقضي بأن يكون الزوج هو الرئيس في المنزل، ولفضل الرجال جعل النبوة فيهم، وجعل الخلافة فيهم لقوله ﷺ: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» [البخاري: ٤٤٢٥ عن أبي بكرة].

ولأنَّ الرجل قَوَّامٌ على المرأة أمرت بطاعته، روى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرّتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤].

وقد سرى إلى المسلمين اليوم ما درج عليه الغربيون من إنكار هذه الدرجة، والصواب ما قرره العليم الخبير الذي خلق الرجال والنساء، وهو أعلم بخصائص كل منهم.

وإذا كانت الزوجة غير مبغضة لزوجها، فلا يجوز لها أن تطلب منه أن يطلقها، أو يخالعها، ففي الحديث عن ثوبان ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة» [الترمذي: ١١٨٧، وقال فيه: حديث حسن، وذكره الألباني في صحيح الترمذي: ٩٤٨، وصحيح ابن ماجه: ٢٠٥٥].

٧- الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان:

كان الزوج في الجاهلية يطلق زوجته ويعيدها إلى عصمته من غير عدد، واستمرَّ الحال على ذلك في الإسلام إلى نزول قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة:٢٢٩] أي: الطلاق الذي يحقّ للرجل أن يعيد فيه زوجته إلى عصمته مرتان، وهو الذي يسمى بالطلاق الرجعي فيجوز للزوج أن يعيد زوجة إلى عصمته بشرط أن يريد الإصلاح بمراجعته لها، وهذا هو الإمساك بالمعروف، فإن كان لا يريدها، فعليه أن يسرحها بإحسان، أي بالكلمة الطيبة، والفعلة الحسنة.

٨- لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً مما آتاه زوجته إلا إذا خافا ألا يقيما حدود الله:

إذا شاء الرجل تطليق زوجته لرغبته عنها، فلا يجوز أن يضيرها ليأخذ منها ما آتاها كلّه أو بعضه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٢٢٩] أي: سواءٌ كان الذي آتاها قليلاً أو كثيراً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٢٠].

وقد استثنى الله - تبارك وتعالى - حالة واحدة أجاز فيها للزوج أن يأخذ فيها ما آتاه زوجته، وهي التي قال الله فيها: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢٩].

وواضح من الآية أن الحالة التي يجوز للزوجة أن تفتدي فيها نفسها من زوجها هي الحالة التي تكون الرغبة في الفراق ناشئة منها، لكونها مبغضة لزوجها، وكارهة له، ونسب الخوف إلى الزوجين كليهما، لأن الزوجة تكون كارهة لزوجها، فتخاف أن لا تقيم حدود الله التي ألزمها الله بها تجاه زوجها، فإذا لم تقم بواجبها تجاه زوجها، فيؤدي ذلك إلى تقصير الزوج في حق زوجته.

وقد وقعت المخالعة في عهد الرسول ﷺ ، فقد تزوج ثابت بن قيس بن شماس صحابية، فأبغضته، وكان قد أمهرها حديقة له، روى ابن عباس قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى رسول الله ﷺ ، فقالت: إني لا أعتب على ثابت في دين ولا خلق، ولكني لا أطيقه، فقال رسول الله ﷺ : «فتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم [البخاري: ٥٢٧٥]، وفي رواية أن الرسول ﷺ قال لزوجها: «اقبل الحديقة، وطلقها تطليقة» [البخاري: ٥٢٧٣].

٩- لا يجوز تعدي حدود الله:

نهى الله عن تعدي حدوده بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩] والمشار إليه بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ ما بيّنه الله في آيات هذا النص، وآيات سابقة عليه، ومن ذلك نهيه عن نكاح المشركات، ونهيه عن إنكاح المؤمنات المشركين، ووجوب اعتزال النساء في المحيض، ونهيهم أن يجعلوا الله عرضة لأيمانهم، ومؤاخذتهم بالأيمان التي كسبتها قلوبهم، ونحو ذلك.

والحدود قسمان: حدود يجب امتثالها، ولا يجوز تعدّيها كالذي ذكره الله في هذه الآيات، ومنها حدود يجب اجتنابها، وهي التي قال الله فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧] ومن ذلك مباشرة النساء من قِبَل العاكفين في المساجد.

وقد ثبت في الحديث الصحيح: «إن الله حدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرَّم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان، فلا تسألوا عنها» [ابن كثير: ١/ ٥٥٥ وعزاه محققه إلى البخاري ومسلم، وهذا وَهم فالحديث رواه الدارقطني والحاكم والبيهقي وغيرهم، وهو حَسَنٌ بشواهده - الطحاوية - (٢/ ٦٣) وحسَّنه النووي في رياض الصالحين مع أنّ سنده منقطع، لكن له شاهد].

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٢٩] فيه تهديد ووعيد للذين يعتدون حدود الله، فقد حكم عليهم بالظلم، وسيقتص منهم.

١٠- إذا طلق الزوج امرأته طلقة ثالثة فإنها لا تحلُّ له حتى تنكح زوجاً غيره:

إذا طلق الزوج امرأته طلقة ثالثة فإنها تحرم عليه، ولا يجوز له إعادتها إلى عصمته حتى تنكح زوجاً غيره، فإن نكحت زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً، لم يرد به التحايل على تحليلها لزوجها الأول، وعاشر الرجل زوجته بعد نكاحه إياها، ثم توفي عنها، أو طلقها لعدم رغبته فيها، فعند ذلك يجوز لزوجها الأول أن ينكحها بعقد جديد ومهر جديد إن ظنّا أنهما يستطيعان إقامة حدود الله، ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة:٢٣٠].

وما ذكره الله في هذه الآيات هو من حدود الله التي بيّنها الله لعلماء الأمة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة:٢٣٠].

١١- إذا طلق الرجل زوجته ثلاثاً دفعة واحدة:

كثر في ديار الإسلام طلاق الناس أزواجهم ثلاثاً، وقد يطلقها مائة وألفاً، وقد كان طلاق الثلاث في عهد الرسول ﷺ وعهد أبي بكر وصدر خلافة عمر واحدة، ثم إن عمر أراد معاقبة الذين يطلقون ثلاثاً، فأمضاه عليهم، لعلهم يتوقفون عن طلاق الثلاث، ولكنهم لم يرتدعوا، ومضوا يطلقون ثلاثاً، وتتابع العلماء يفتون بقول عمر، وأصاب الناس حرج شديد بسبب ذلك، ولجأ كثير منهم إلى اتخاذ المحلِّل الملعون فاعله، حتى إذا كان عهد شيخ الإسلام ابن تيمية أفتى بأن الطلاق الثلاث يعدُّ طلقة، فأوذي بسبب ذلك، وسُجن، حتى إذا جاء هذا العصر، أفتى كثير من أهل العلم بأن طلاق الثلاث يعدُّ واحدة، وأصبح هذا القول هو القول الشائع المنتشر.

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: «كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وسنتين من خلافة عمر، طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إنَّ الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم».

وفي صحيح مسلم أن أبا الصهباء قال لابن عباس: «أتعلم أنما كانت الثلاث تجعل واحدة على عهد النبي ﷺ وأبي بكر، وثلاثاً من إمارة عمر؟ فقال ابن عباس: نعم».

وفي رواية أن أبا الصهباء قال لابن عباس: «هات من هناتك، ألم يكن الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر واحدة؟ فقال: قد كان ذلك، فلما كان على عهد عمر، تتايع الناس في الطلاق، فأجازه عليهم» [مسلم: ١٤٧٢]. وعلى ذلك فإن جعل من طلق ثلاثاً دفعة واحدة طلقة واحدة له مستند قوي.

١٢- لا يجوز لرجل أن يتزوج المطلقة ثلاثاً ليحلَّها لزوجها الأول:

لا يجوز لرجل أن يتزوج امرأة يقصد إحلالها للزوج الأول، وهو الذي يسمى بالمُحَلِّلِ، فإذا تمالأ هو والزوج الأول على زواجه منها ليحلَّها له، فإنهما ملعونان.

روى الترمذي في سننه بإسناد قال فيه: حسن صحيح عن عبدالله بن مسعود قال: «لعن رسول الله ﷺ المحلِّل والمحلَّل له» [الترمذي: ١١٢٠]، وقد ساق ابن كثير جملة من الأحاديث التي تحرم التحليل. [ابن كثير: ١/ ٥٦٥].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- المطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء عدتهن ثلاثة قروء، والأصحُّ أن المراد بالقروء الأطهار لا الحيض.

٢- يجب على الزوجة المطلقة إن كانت تخاف الله أن تخبر عن عدَّتها على الوجه الصحيح، ولا يجوز لها أن تخفي حالها الذي هي عليه من كونها حاملاً أو حائضاً.

٣- للزوج بعد الطلقة الأولى أو الطلقة الثانية أن يراجع زوجته أثناء عدَّتها من غير عقد ولا مهر إلى عصمته، ولو لم تكن راضية بذلك.

٤- على الزوج إذا أرجع زوجته إلى عصمته أن يكون قاصداً الإصلاح بذلك، وسيحاسب ربُّ العزة الذي يعيد زوجته ليضيرها بتطويل عدَّتها.

٥- للزوجة على زوجها حقوق، كما أن لزوجها عليها حقوقاً.

٦- الطلاق الذي تصحُّ فيه الرجعة طلقتان، وبعد كلٍّ واحدة من الطلقتين على الزوج أن يعيدها إليه بمعروف أو يفارقها بإحسان.

٧- لا يجوز للزوج أن يضير زوجته ليلجئها إلى أن تفتدي منه بما أعطاها من مال، إلا في حال واحدة، وهي أن تكون الزوجة هي الراغبة في فراقه لبغضها إياه.

٨- إذا طلق الرجل زوجته الطلقة الثالثة وجب عليها أن تنتقل من بيت الزوجية، وحرم عليه إعادتها إلى عصمته، حتى تنكح زوجاً غيره، فإن طلقها الثاني جاز رجوعها إلى الأول في حال ظنهما صلاح الحياة الزوجية بينهما.

٩- يشترط لجواز إعادة الزوج الأول مطلقته إلى عصمته بعقد ومهر جديدين أن يكون الزواج الثاني صحيحاً، وأن يطأها فيه، فإن كان تزوجها ليحللها للأول، أو لم يطأها فيه، فلا تحل للأول.

١٠- إذا طلق الرجل زوجته ثلاثاً دفعة واحدة، فالصواب من القول أنها طلقة واحدة.

النص القرآني الحادي والخمسون من سورة البقرة
إذا قاربت المطلقة بلوغ أجلها فعلى زوجها إمساكها بمعروف أو تسريحها بمعروف

أولاً: تقديم

أمر الله الزوج إذا قاربت زوجته بلوغ نهاية عدتها أن يمسكها بمعروف أو يسرحها بمعروف، ولا يجوز له أن يمسكها ليضرها، ونهى الله الوليَّ إذا خرجت موليته من عدتها أن يمنعها من الرجوع إلى الزوج إذا جاء المطلق خاطباً، ورضيت به المرأة.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة البقرة

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يجب على الزوج المطلق إذا قاربت عدة المطلقة على الانتهاء أن يمسكها بمعروف أو يسرحها بمعروف:

أوجب الله على الزوج الذي طلق زوجته، إذا قاربت عدة زوجته على الانتهاء أن يمسكها بمعروف، أو يفارقها بمعروف، ولا يجوز له أن يمسكها ليضرها بتطويل عدتها، وذلك بتطليقها مرة أخرى ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة:٢٣١] والمراد بقوله: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣١] مقاربتهن بلوغ الأجل، أي: الوقت الذي تنتهي فيه العدة، لأنه إذا انتهت العدة فلا يجوز له إمساكها.

والإمساك بمعروف، يكون بإمساكها ومراجعتها وإصلاح ما بينه وبينها، ويكون التسريح بمعروف بأن يدعها حتى تنقضي عدتها، ثم تمضي لحالها، مشيعاً إياها بالكلمة الحسنة، والفعلة الطيبة، وأصل التسريح يكون بإطلاق الراعي الماشية لترعى في الحقل.

ونهى الله الزوج المطلق أن يمسك زوجته التي قاربت بلوغ العدة للإضرار بها، أي: ليطيل عليها عدَّتها، وذلك بمراجعته إياها، ثم يطلقها في طهر قادم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ﴾ [البقرة:٢٣١].

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن من فعل ذلك فقد ظلم نفسه، لأنه عصى ربه، وحمَّل نفسه عقوبته.

وهذا الذي ضرّ زوجته بإعادتها إلى عصمته ليطلقها من جديد قد اتخذ آيات الله هزواً، أي: لعباً، وآيات الله وأوامره ونواهيه ينبغي أن تكون موضع احترام وتوقير وتقدير، ولذلك قال ربُّ العزَّة: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة:٢٣١]، وهذا النص نهي عن كل تلاعب بآيات الكتاب، ولذلك فإن من زوَّج أو طلق أو أرجع، وادعى أنه كان لاعباً، فإن المذكورات تلزمه، أخرج أبو داود والترمذي وحسّنه وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدُّهن جدّ، وهزلهنَّ جدّ: النكاح، والطلاق، والرجعة» [تفسير الشوكاني: ١/ ٤٢٣].

وأمر الله المؤمنين أن يذكروا نعمة الله عليهم، وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة، قال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٣١] ومقتضى النعمة أن يعملوا وفقها وبمقتضاها، ولا يتخذوها هزواً، وما أنزل علينا من الكتاب والحكمة وهو السنّة ينبغي أن تصلح منا القلوب والنفوس، هذا معنى كونها عظة.

وأمرنا الله بتقواه ومخافته، كما أمرنا أن نعلم أنه بكل شيء عليم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٣١﴾ [البقرة:٢٣١].

ومن اتقى الله وخافه، وعلم أنه بكل شيء عليم فإنه يراقبه، ويعلم أنه موقوف بين يديه، فيحاسبه على ما كان منه.

٢- لا يجوز للولي أن يمنع موليته من العودة إلى زوجها الذي طلقها إذا خطبها راغباً في زواجها:

إذا طلق الرجل زوجته طلاقاً رجعياً، ثم خرجت من عدتها، ثم جاء الزوج إلى الولي خاطباً المرأة التي طلقها، فلا يجوز للولي أن يمنع موليته من العودة إلى زوجها إذا كانت راغبة فيه ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ [البقرة:٢٣٢].

وهذه الآية نزلت في معقل بن يسار حين منع أخته من الرجوع إلى زوجها الذي طلقها، ثم خطبها بعد انقضاء عدتها، قال الحسن: حدثني معقل أن هذه الآية نزلت فيه، قال: «زوّجت أختاً لي، من رجل فطلقها، حتى إذا انقضت عدَّتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك، وفرشتك، وأكرمتك، فطلقتها، ثم جئت تخطبها؟! لا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا

بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢]، فقلت: الآن أفعلُ يا رسول الله، قال: فزوجها إياه» [البخاري: ٥١٣٠].

وقد مضى القول بوجوب الولي في نكاح المرأة عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ﴾ [البقرة:٢٢١]. وفي آية هذا النص ما يدلُّ على وجوب الولي فيه، فلو كان للمرأة إنكاح نفسها بغير إذن وليها، أو كان لها تولية من أرادت توليته في إنكاحها، لم يكن لنهي وليها عن عضلها معنى مفهوم، وقد رفع سبب النزول الاستدلال بالآية إلى درجة النص الذي لا يصح العدول عنه، ولا تجاوزه، ولذا قال الشافعي بعد إيراده حديث معقل: «لا أعلم أن الآية تحتمل غيره، لأنه إنما يؤمر بأن لا يعضل المرأة من له سبب إلى العضل، بأن يكون يتم به نكاحها من الأولياء» [الأم، للشافعي: ٥/ ١].

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ [البقرة:٢٣٢] يدلُّ على أن الزواج لا يُقبل إلا إذا كانت المرأة راضية به.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ [البقرة:٢٣٢] المشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما فصَّله الله من الأحكام في الآيات السابقة، وقوله: ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ «الوعظ» زجر مقرون بالتخويف، وقال الخليل: «هو التذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب» [المفردات، للراغب: ص٥٢٧].

والذي ينتفع بالوعظ هم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويخافون وقوفهم بين يدي الله، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾ [البقرة:٢٣٢] أي ردّ أولياء المطلقات اللاتي انقضت عدتهن إلى الأزواج إذا خطبوهن بعد انقضاء عدتهن، والله يعلم ما في ذلك من المصالح، وأنتم لا تعلمون، فعلمنا ناقص قليل بالنسبة إلى علم العزيز الحكيم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يجب على من طلق زوجته، وقاربت عدتها على بلوغ نهايتها أن يمسكها بمعروف، أو يفارقها بإحسان، ولا يجوز له أن يعيدها إلى عصمته ليطلقها إضراراً بها، وذلك بإطالة عدتها.

٢- الذي يعيد زوجته إلى عصمته إضراراً بها ظالم لنفسه، وهو متخذٌ آيات الله هزواً، وهؤلاء يجب أن نعظهم، ونقول لهم في أنفسهم قولاً بليغاً.

٣- لا يجوز للولي أن يمنع موليته من العودة إلى الزوج الذي طلقها، وانقضت عدتها منه إذا تراضوا بينهم بالمعروف، وهذه الآية تدلُّ على وجوب الولي في النكاح.

٤- من زوَّج أو طلَّق أو أرجع لاعباً هازلاً، لزمه الزواج والطلاق والرجعة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة:٢٣١] وللحديث الصحيح الدال على ذلك، وقد ذكرناه في التفسير.

النص القرآني الثاني والخمسون من سورة البقرة
إرضاع الوالدات المطلقات أولادهن

أولاً: تقديم

بيّنت آية هذا النص الأحكام المتعلقة برضاع الطفل الذي أثمره الزواج الذي انتهى بالطلاق، والآية تقرر العلاقة التي تحكم الزوجين في هذه الحال في مدة الرضاع وما تستحقه الأم المرضعة من نفقة على الزواج، كما بينت كيف يتصرف الأبوان عند الاختلاف.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة البقرة

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آية هذا النص من القرآن

١- الوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين:

بيّن الله – تعالى – في قوله: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ ﴾ [البقرة:٢٣٣] مدة الرضاعة الكاملة للمولود من حين ولادته، ومدتها حولان كاملان، والحول: السنة، فهما سنتان كاملتان لا ينقص منهما شيء.

وإرضاع الحولين الكاملين ليس واجباً ولا لازماً، ولذلك قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾ [البقرة:٢٣٣].

ومدة الرضاع للرضيع ليست خاصة بابن المطلقة التي بانت عن زوجها، بل هي عامة في كل رضيع، وقوله: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ ﴾ [البقرة:٢٣٣] خبر معناه الأمر.

٢- على والد الطفل أن ينفق على مطلقته إذا أرضعت ابنه:

أوجب الله على والد الطفل أن ينفق على مطلقته إذا أرضعت ابنه بالمعروف ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٣٣] أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا

تقتير، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وعُسْره، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق:٧].

والوالد مكلف برزق مرضعة ولده بعد تطليقها، لأن الولد له، وينسب إلى أبيه، لا إلى أمه.

٣- لا يجوز لأي من الوالدين أن يضارَّ الآخر في ولده:

ولا يجوز لأيٍّ من الوالدين أن يتصرف تجاه الطفل بما يضارُّ الآخر، قال تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣٣] فلا يجوز للوالدة أن تضار الأب برفضها إرضاعه، كما لا يجوز للأب أن ينزع الولد من الأم المرضعة إضراراً بها، ومع ذلك فإنهما إذا تعاسرا فيجوز أن يدفع الأب الطفل لأخرى ترضعه ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الطلاق:٦].

٤- في حال عدم وجود الوالد أو فقره أو موته يقوم الوارث بالإنفاق:

فإذا توفي الوالد، فيجب على وارثه أن يقوم بالدور المناط به، وهو نفقة المرضعة، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٣٣] أي: على الوارث مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها.

٥- فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه يجوز للوالدين أن يفطما ولدهما إذا اتفق رأيهما على أن ذلك في صالحه، وهذا في حال كون الطفل أصبح قوياً شديداً قبل بلوغه العامين وبعد اعتماده على أكل الطعام ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

والفصال: الفطام، ويكون هذا جائزاً في حالة رضا الوالدين بذلك، فإن اختلفا في تقدير وقت فطامه، فإن أمه ترضعه إلى تمام الحولين.

فإن اتفق رأي الوالدين على أن تترك الأم إرضاع الطفل، ويعهد به الأب إلى امرأة أخرى ترضعه، فلا جناح عليهما في ذلك، بشرط أن يسلم الوالد المرضعة أجرها لنهاية مدة إرضاعها ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة:٢٣٣] أمر الله تعالى في هذه الآية بتقواه، وهذا يدعونا إلى العمل بأوامره، واجتناب نواهيه، وأمرنا بأن نَعْلَمَ أنه بصير بما نعمله، وهذا يدلنا على أنه سيحاسبنا على ما قدمناه.

رابعاً: ما تهدي إليه آية هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آية هذا النص وجدناها تهدي إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يكون الرضاع كاملاً إذا رضع الطفل حولين، وهذا حقّه إذا احتاج إليه، وقال: ﴿كَامِلَيْنِ﴾ لئلا يظن أنّ التمام ليس مقصوداً.

٢- الرضاع المُحَرِّمُ هو ما كان في الحولين، فإذا كان بعد ذلك فلا يؤثر في التحريم، وسيأتي بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء:٢٣].

٣- يجب على والد الطفل أن يرزق الأم المرضعة ويكسوها بمقدار ما تعارف عليه الناس في البلد التي هي فيه، ويراعى في النفقة حال الوالد يسراً وعسراً.

٤- يجوز للوالدين أن يفطما ابنهما عن الرضاع إذا اتفقا على ذلك، فإن اختلفا مضت أمه في إرضاعه إلى نهاية الحولين.

٥- يجوز للوالد أن يعهد بإرضاع طفله إلى غير أمّه، بشرط أن يسلم أمه أجرة إرضاعه عن المدة السابقة.

النص القرآني الثالث والخمسون من سورة البقرة
عدة المرأة المتوفى عنها زوجها

أولاً: تقديم

البشر عندما يبتعدون عن هدي الله - تبارك وتعالى - يظلمون أنفسهم، ومن ذلك عدة المرأة التي توفي عنها زوجها، فبعض الأمم والشعوب لا يوجد عندهم عدة وفاة، وبعض النساء في بعض المجتمعات يغرقن في الالتزام بعدة طويلة، وقد يكون في العدة مبالغات في التصرفات تؤذي المعتدات أذىً كثيراً.

ومن العدة التي كانت تسوم النساء الخسف عدة نساء الجاهلية، وقد أشار الرسول ﷺ إلى نوعية تلك العدة بقوله: «كانت إحداكن ترمي بالبعرة على رأس الحول» [البخاري: ٥٣٣٦، مسلم: ١٤٨٨].

وقد فسَّرتْ زينب بنت أم سلمة مراد الرسول ﷺ من كلمته هذه بقولها: «كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها، دخلت حِفْشاً، ولبست شرَّ ثيابها، ولم تمسَّ طيباً حتى تمرَّ بها سنة، ثم تؤتى بدابة، حمار أو شاة أو طائر، فَتَفْتَضُّ به، فقلما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتعطى بعرة، فترمي به، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب وغيره» [البخاري: ٥٣٣٧، مسلم: ١٤٨٩].

هذا الذي ذكرته زينب صورة جاهلية حقًّا، حولت العدة إلى فترة عذاب طويلة للمرأة المعتدة، فعدة النساء في الجاهلية سَنَةٌ كاملة، تلبس فيها المعتدة شرّ ثيابها، ثم تدخل حِفْشاً - بكسر الحاء - وهو البيت الصغير الذليل الضيق [راجع النهاية، لابن الأثر: ١/ ٤٠٧] وكانت الأوساخ والأقذار تتراكم عليها في تلك الفترة الطويلة، لأنها لم تكن تغتسل بالماء، ولا تقص أظافرها، ولا تمشط شعرها، ولا تزيل أوساخها.

وكان من التعليمات الجاهلية لهذه المرأة المسكينة أن تفتض، أي: تتمسح بحيوان عندما تنقضي عدتها، وكان يؤتى لها بحمار أو طائر أو شاة، فتعذب هذا الحيوان بتمسحها به، وكانت قلما تمسحت بحيوان إلا مات، لكثرة ما تلقيه عليه من الأوساخ.

إن العدة في الإسلام هي حقٌّ للزوج، وبراءَة للرحم، وحفظ لمشاعر الزوجة وأهل الزوج، تمتنع المرأة في العدة عن أن تخطب أو تتزوج، كما تمتنع عن الزينة والحلي، ولكنها تبقى في منزلها، تلبس الملابس النظيفة، وتغتسل، وتتوضأ، وتمشط شعرها، وتقص أظفارها، فأين الثرى من الثريا.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عدة المرأة التي توفي عنها زوجها:

بيّن الله - تبارك وتعالى - فيما سبق عدة المرأة المطلقة المدخول بها من ذوات الحيض، ثم بيّن الله أحكام رضاع المولود، فناسب أن يذكر عدة المرأة المتوفى عنها زوجها، فقال عزّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ﴾ [البقرة:٢٣٤].

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية أن الذين يقبض الله أرواحهم، ويتركون وراءهم أزواجاً يجب على هؤلاء الزوجات أن يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرة أيام، والتربص: الانتظار، وعنى بالتربص في هذه المدة عدة الزوجة التي توفى عنها زوجها.

وقال: ﴿وَعَشْرًا﴾ مع أن المعدود مذكر، وهو الأيام، فكان حقُّ ذلك أن يقال: (عشرة)، «لأن العرب - كما يقول الفراء - إذا أبهمت العدد من الليالي والأيام، غلبوا عليه الليالي، حتى إنهم ليقولون: قد صمنا عشراً من رمضان، لكثرة تغليبهم الليالي على الأيام» [معاني القرآن: ١/ ١٥١].

وقد جاءت السنّة موافقة لما صرح به القرآن، فعن أم سلمة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدَّ على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج فإنها تحدُّ عليه أربعة أشهر وعشراً» [البخاري: ١٢٨٠، مسلم: ١٤٨٦].

٢- عدة الحامل المتوفى عنها زوجها:

ظاهر الآية أن كل معتدة من وفاة تعتدُّ بأربعة أشهر وعشرة أيام، ولكن الله خص عموم هذه الآية بقوله في المعتدات الحوامل اللاتي توفي عنهن أزواجهن: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ [الطلاق:٤].

وقد ذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن المعتدة من وفاة إذا كانت حاملاً، تعتد بأبعد الأجلين، فإن كان وضع الحمل هو الأبعد اعتدت به، وإن كانت الأربعة أشهر وعشراً هو الأبعد اعتدت به، قال بذلك جمعاً بين الآيتين، ولكن هذا الاجتهاد مردود، ففي صحيح البخاري وغيره أن سبيعة الأسلمية، توفي عنها زوجها وهي حامل، فخطبها أبو السنابك بن بعكك، فأبت أن تنكحه، فقال لها: والله ما يصلح أن تنكحيه حتى تعتدي آخر الأجلين، ثم جاءت إلى الرسول ﷺ فاستفتته، فقال لها: «انكحي» [البخاري: ٥٣١٨].

والظن بابن عباس أنه رجع عن فتواه باعتدادها بأبعد الأجلين، فقد أفتى ابن عباس بهذه الفتوى وأبو هريرة جالس عنده، فخالف راوي الحديث وهو أبو سلمة ابن عباس فيما أفتى محتجاً بالآية ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق:٤] ووافق أبو هريرة على ما قاله أبو سلمة فأرسل ابنُ عباس غلاماً له إلى أم سلمة يسألها، فذكرت أم سلمة الخبر الذي أفتى فيه الرسول ﷺ سبيعة بأنها خرجت من عدتها، وأمرها بأن تنكح [البخاري: ٤٩٠٩].

٣- عدة الأمة المتوفى عنها زوجها:

ذهب جمهور أهل العلم إلى استثناء الأمة المتوفى عنها زوجها، وحكموا بأن عدتها على النصف من عدة الحرة، أي: شهران وخمسة أيام، وذهب قليل من أهل العلم إلى التسوية بين الحرة والأمة في عدة الوفاة [ابن كثير: ١/ ٥٧٠].

٤- عدة غير المدخول بها المتوفى عنها زوجها:

اختلف أهل العلم في من توفي عنها زوجها ولم يدخل بها، فالجمهور أن عليها العدة، وقد روى الترمذي أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة، ولم يفرض لها صداقاً، ولم يدخل بها حتى مات، فقال ابن مسعود: «لها مثل نسائها، لا وكس ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث» فقام معقل بن سنان الأشجعي، فقال: «قضى رسول الله ﷺ في بَرْوَع بنت واشق امرأة منا، مثل الذي قضيته، ففرح بها ابن مسعود» [سنن الترمذي: ٦٤٥، صحيح الترمذي: ٩١٤، وقال الترمذي فيه: حسن صحيح] وقوله: «لا وكس ولا شطط» أي لا زيادة ولا نقصان. وقال الترمذي بعد سياقه للحديث: «والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيره، وبه يقول الثوري وأحمد وإسحاق».

ونقل الترمذي عن بعض الصحابة وعن الشافعي أن لها الميراث ولا صداق لها وعليها العدة، ونقل عن الشافعي أنه رجع عن قوله هذا إلى ما يقتضيه حديث بَرْوع بنت واشق.

٥- إذا أنهت المعتدة عدتها جاز لها أن تتزين وتتزوج:

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ [البقرة:٢٣٤] المخاطب بنفي الجناح عنهم أولياء المرأة، فلا يجوز لهم أن ينكروا على من تزينت

وخطبت وتزوجت بعد إكمال عدتها، وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ يدلُّ على أن الأولياء يتدخلون في أمر المتوفى عنها زوجها إذا تصرفت تصرفاً مخالفاً للشرع، كالتي تتبرج وتُظهر زينتها وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة:٢٣٤] والخبير اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، وهو العالم بأعمالنا، الذي لا تخفى عليه خافية، وسيجازينا على ما يعلمه منا.

٦- صفة عدة المرأة التي توفي عنها زوجها:

المرأة المعتدة من وفاة لا يجوز لها أن تتزوج، كما لا يجوز لها أن تُخطَب خطبة صريحة، ولا يجوز لها أن تتزين، فلا تلبس الملابس التي هي زينة في نفسها، ولا تلبس الحلي، ولا تتعطر، ولا تكتحل، وتبقى طيلة العدة في منزل الزوجية الذي توفي فيه عنها زوجها، ويجوز أن تخرج من بيتها لمراجعة الطبيب، أو شراء حاجاتها، أو لزيارة أمها أو أبيها أو إخوانها، ولكن لا يجوز أن تبيت خارج منزلها.

وقد جاءت أحاديث عدة تبين ذلك كله:

١- روت أم سلمة زوج النبي ﷺ، أن الرسول ﷺ قال: «المتوفى عنها زوجها لا تلبس المعصفر من الثياب، ولا الممشقة، ولا الحلي، ولا تختضب، ولا تكتحل» [سنن أبي داود: ٢٣٠٤، صحيح أبي داود: ٢٠٢٠].

٢- عن أم عطية أن رسول الله ﷺ قال: «لا تلبس المعتدة ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصب، ولا تكتحل، ولا تمس طيباً إلا إذا طهرت بنبذة من قسط أو أظفار» [البخاري: ٣١٣، مسلم بعد الحديث: ١٤٩١، وأبو داود: ٢٠١٨].

وثوب العصب: هو من برود اليمن، يعصب غزله، أي: يجمع، ثم يصبغ، ثم ينسج، والنبذة: القطعة، والقسط ويقال: الكست، وهو والأظفار نوعان معروفان من البخور وليسا من مقصود الطيب، رُخِّص فيه للمغتسلة من الحيض لإزالة الرائحة الكريهة، تتبع به أثر الدم، لا للتطيب.

٣- عن أم سلمة أن امرأة جاءت إلى الرسول ﷺ، قالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها، وقد اشتكت عينها، أفنكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا» (مرتين أو ثلاثاً)، كل ذلك يقول: «لا» [البخاري: ٥٣٣٦، مسلم: ١٤٨٨].

٤- في سنن الترمذي أن الفُرَيعة بنت مالك بن سنان، وهي أخت أبي سعيد الخدري جاءت الرسول ﷺ طالبة منه أن يأذن لها أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة، وكانت معتدة من وفاة، ولم يترك لها زوجها مسكناً يملكه، ولا نفقة.

فأذن لها أولاً، ثم ردَّها، واستمع لها مرة أخرى، وقال لها: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً [سنن الترمذي: ١٢٠٤، وقال الترمذي فيه بعد سياقه له: هذا حديث حسن صحيح].

وقال الترمذي بعد ذلك: «والعمل على هذا الحديث عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم لم يروا للمعتدة أن تنتقل من بيت زوجها حتى تنقضي عدتها، وهو قول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم: للمرأة أن تعتد حيث شاءت وإن لم تعتد في بيت زوجها. قال أبو عيسى: والقول الأول أصح» [سنن الترمذي: ص٢١٤].

٥- **خروج المعتدة من وفاة في عدتها لقضاء حاجتها:** أما أنه يجوز لها الخروج من المنزل لقضاء **حاجتها** أو لزيارة أقاربها أو جيرانها أو صديقاتها فدلّ عليه حديث جابر بن عبدالله قال: طُلِّقت خالتي، فأرادت أن تجدَّ نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي ﷺ ، فقال: «بلى، فجدّي نخلك، فإنك عسى أن تصدَّقي، أو تفعلي معروفاً» [مسلم: ١٤٨٣].

وقد بوّب مسلم على هذا الحديث بقوله: «باب جواز خروج المعتدة البائن والمتوفى عنها زوجها في النهار لحاجتها».

٦- وورد في صحيح مسلم أن فاطمة بنت قيس طلقها زوجها ثلاثاً، وهو غائب، فأرسل إليها وكيله بشعير، فسخطته، فقال: والله ما لك علينا من شيء، فشدَّت عليها ثيابها وأتت رسول الله ﷺ فسألته [مسلم: ١٤٨٠] فلو لم يكن مأذوناً لها أن تخرج من بيتها، وتأتي رسول الله ﷺ لأنكر عليها الرسول ﷺ ذلك.

٧- **حكم خطبة المعتدة إذا توفي عنها زوجها:** لا يجوز التصريح بخطبة المرأة المعتدة في طلاق رجعي، قال الشافعي: «لا يجوز لأحد أن يعرض بالخطبة لامرأة يملك زوجها رجعتها، لأنها في كثير من معاني الأزواج، وقد يخاف إذا عرض لها من ترغب فيه أن تدعي أن عدتها حلت، ولم تحل» [الأم: ٥/ ٣٢].

أما المعتدة من وفاة فيجوز خطبتها تعريضاً لا تصريحاً، قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٥].

وهذا الخطاب موجه للرجال الذين يرغبون في النساء المعتدات عدة وفاة، فقد أجاز لهم أن يُعرِّضوا بخطبتهن، والخطبة الصريحة طلب يد المرأة للزواج، كأن يقول لها: إني أريد

الزواج منك، والتعريض: أن يقول: إنك لجميلة أو حسنة، أو يقول: مثلك يرغب فيه، ونحو ذلك، فليس في هذا كلام صريح في طلب يدها، ولكنها فقهت من كلامه أنه يريدها.

وقوله: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٥] أي: أضمرتم في قلوبكم، فقد يخفي الراغب في نكاحها هذا الأمر في قلبه.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [البقرة:٢٣٥] أي: علم الله أنكم ستذكرون المعتدات في نفوسكم، والله عفا لنا عما حدثتنا به أنفسنا، ولا يجوز لمن يرغب في الزواج من معتدة أن يصرح لها بذلك، كما لا يجوز أن يبرم اتفاقاً صريحاً بينه وبينها في الخفاء، وأسوأ من ذلك كله أن يتزوجها في عدتها سرًّا، وهو زواج باطل، والقول المعروف الذي أجاز الله قوله للمعتدة، هو التعريض الذي سبق ذكره.

ونهى الله الراغبين في زواج المعتدات من وفاة عن إبرام عقد الزواج حتى يبلغ الكتاب أجله، أي: حتى تخرج المعتدة من عدتها ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٥].

ويبلغ الكتاب أجله بانقضاء العدة، وأصل العقد الشدُّ والربط، وسميت العقود عقوداً، لأنها تعقد كما تعقد الحبال.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- المرأة التي يتوفى عنها زوجها، وهي غير حامل عليها أن تعتدّ أربعة أشهر وعشراً، ويدخل في هذا المتوفى عنها زوجها قبل دخوله بها، أما الحامل فأجلها أن تضع حملها، وعدة الأمة نصف عدة الحرة، أي: شهران وخمسة أيام.

٢- دلّ قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٤] على أنهن ممنوعات قبل بلوغ الأجل من أشياء منها ما نصت عليه الآية، وهو الخطبة الصريحة، والزواج.

ومنه ما بيّنه الرسول ﷺ من لبس ملابس الزينة، ولبس الحلي، والكحل، ووجوب لزوم بيت الزوجية حتى تنقضي العدة.

٣- إذا انقضت عدة المتوفى عنها زوجها جاز لها أن تتزين، وتنكح، وتنتقل من الدار التي تسكنها، ولا يجوز لوليها منعها من ذلك، إذا فعلته بالمعروف.

٤- لا يجوز للمطلقة الرجعية أن تخطب لا تصريحاً ولا تعريضاً، ويجوز خطبة المعتدة من وفاة تعريضاً لا تصريحاً، أما المطلقة ثلاثاً فذهب المالكية والحنابلة إلى جواز خطبتها تعريضاً، قياساً على المتوفى عنها زوجها، وهذا القول الأظهر عند الشافعية، والأظهر عند الحنفية عدم جواز ذلك، والأول أرجح [راجع: جواهر الإكليل: ١/ ٢٧٦، المغني لابن قدامة: ٧/ ٥٢٥، مغني المحتاج: ٣/ ١٣٧].

٥- لا يجوز للمتوفى عنها زوجها أن يعقد عليها عقد النكاح حتى تخرج من عدتها.

٦- على كل مسلم ومسلمة الالتزام بشرع الله، فهو يعلم بما في نفوسنا وسيحاسبنا ويجازينا.

النص القرآني الرابع والخمسون من سورة البقرة
الحقوق المالية الواجبة للمطلقة قبل الدخول

أولاً: تقديم

بيّن الله في الآيتين اللتين حواهما هذا النص الحقوق المالية التي تستحقها الزوجة المطلقة على زوجها إذا لم يدخل بها.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المطلقة قبل الدخول التي لم يحدد لها مهر لها متعة:

أعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه لا إثْمَ على الأزواج إذا طلقوا زوجاتهم قبل أن يمسوهن أو يفرضوا لهن فريضة، وأوجب عليهم أن يمتعوا زوجاتهم المطلقات بحسب حال الزوج يسراً أو عسراً، قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣٦] والجناح المنفي هو الإثم، وقوله: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: ما لم تجامعوهن، وقوله: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ المراد بالفريضة هنا المهر والصداق، وأخبر أن هذه المتعة ليس لها حدٌّ محدود لا يجوز تجاوزه، فهي تختلف باختلاف العصور والبلاد، وباختلاف يسر الزوج وعسره، وتحديد مقدار العدة فيه مجال واسع للعلماء والقضاة، وقد جعل ابن عباس هذه المتعة على ثلاثة مستويات: فأعلاها خادم، وأوسطها الوَرِق، وهو الفضة، وأدناها الكسوة [ابن جرير: ٢/ ١٣٦٠] وللمجتهدين في ذلك تقديرات أخرى غير ما قدره ابن عباس. وقد أمتع رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، وكان قد فارقها قبل دخوله بها، ولم يكن سمى لها مهراً بثوبين رَازِقِيَّيْنِ [البخاري: ٢٥٥٧].

وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: ما تعارف عليه الناس في البلد الذي وقع فيه الطلاق، وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣٦] أي: المتعة حق واجب على المحسنين، والإحسان درجة عالية، لا يبلغها إلا من عبد الله على حال يكون فيها كأنه يراه.

٢- المطلقات قبل الدخول اللواتي فرض لهن فريضة:

وأخبرنا الله - تبارك وتعالى - في الآية الثانية من هذا النص، أن الأزواج إذا طلقوا زوجاتهم قبل الدخول، وقد فرضوا لهن فريضة، فيجب عليهم نصف الصداق المفروض، إلا إذا عفت المرأة عما تستحقه من صداق، أو عفا الذي بيده عقدة النكاح، وهو الزوج، بأن يعطي مطلقته كامل المهر، والعفو من كل واحد من الزوجين يجعله أقرب إلى الله، وأمر عباده بأن لا ينسوا أن يتعاملوا فيما بينهم بالفضل، والفضل هنا العطية غير اللازمة، والله مطلع على أعمال عباده، بصير بها ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة:٢٣٧] وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي: الزوجات المطلقات على الحال التي ذكرتها الآية، وعفوها يكون بمسامحتها الزوج بنصف المهر المستحق لها و﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ هو الزوج الذي أبرم العقد، وبيده أن ينهيه بإيقاع الطلاق، و﴿ٱلْفَضْلَ﴾ في الآية العطية غير اللازمة.

٣- عدة المطلقات قبل الدخول:

بينت هاتان الآيتان الحقوق المالية الواجبة للمطلقة قبل الدخول، ولم تبين عدتها، وقد بيّن الله في سورة الأحزاب أن المطلقات قبل الدخول لا عدة عليهن، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب:٤٩] وسيأتي بيان ذلك عند بلوغ هذه الآية إن شاء الله تعالى.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- المطلقة المدخول بها تستحق المهر كاملاً لما استحلَّ زوجها من فرجها.

٢- المطلقة قبل الدخول التي لم يحدد لها مهر يجب لها متعة، ويختلف مقدار هذه المتعة باختلاف البلاد والعصور، وباختلاف حال الزوج عسراً أو يسراً، وعلى كل الأحوال لا تزيد المتعة عن نصف المهر.

٣- المطلقة قبل الدخول التي سمي لها مهر، تستحق نصف المهر المسمى، ورغَّب الله كل واحد من الزوجين أن يعفو عما يستحقه، فالزوجة مرغبة بإسقاط النصف المدفوع لها، والزوج مرغب في دفع كامل المهر.

٤- إذا عُقِد عَقْدُ الزواج من غير ذكر للمهر فالعقد صحيح، ويحدد فيما بعد مقداره، فإن اتفقا على تحديده، وإلا كان تقديره بمهر المثل.

٥- ليس للمطلقة قبل الدخول عدة، ويجوز أن تنكح بعد طلاقها مباشرة.

النص القرآني الخامس والخمسون من سورة البقرة
حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى

أولاً: تقديم

يأتي هذا النص في خاتمة الآيات المتحدثة عن الأسرة، وقد أمرنا الله فيها بالمحافظة على الصلوات الخمس المفروضة، وخصَّ الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر بمزيد من العناية، وأمرنا أن نقوم في صلاتنا خاشعين.

وبيَّن لنا كيف نصلي في حالة الحرب والقتال، وهي التي تسمى بصلاة الخوف، وعاد بعد ذلك إلى بيان بعض الأحكام التي تتعلق بالأسرة، وهما حكمان، طلب في الأول منهما ممن حضرته الوفاة من الأزواج أن يوصي لزوجته أن تبقى في بيت الزوجية لمدة عام إن رغبت في ذلك، والثاني: الأمر بتمتيع المطلقات.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة البقرة

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها وخاصة الصلاة الوسطى:

أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها، وحفظ حدودها، والإتيان بها وفق ما بيَّن لنا رسولنا ﷺ ، وخصَّ الله الوسطى بمزيد من العناية، فالوسطى التي أمر الله بها مؤنث الأوسط، وأوسط الشيء ووسطه خياره، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨] وقد اختلف الصحابة فمن بعدهم في تحديد الصلاة الوسطى إلى أقوال كثيرة أوردها ابن كثير في تفسيره، فما من صلاة إلا وقيل: إنها الصلاة الوسطى، ومنهن كل صلاة من الصلوات الخمس، ومنها صلاة الجمعة، وصلاة

العيد، وصلاة الخوف، وصلاة الجماعة، وصلاة الوتر، والضحى، وقد عدَّ الشوكاني الأقوال فبلغت ثمانية عشر قولاً.

ومن عجب أن يبلغ الخلاف هذا المبلغ وفي السنّة ما يحسم الخلاف، ويقضي عليه، فقد صحّ عن الرسول ﷺ أنها صلاة العصر، روى عليّ بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنه قال في يوم الخندق: «ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس» [البخاري: ٤١١١، مسلم: ٦٢٧].

وعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الوسطى صلاة العصر» [سنن الترمذي: ١٨٢، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح]. وقال الشوكاني: «وأما حجج بقية الأقوال، فليس فيها شيء مما ينبغي الاشتغال به، لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ» [الشوكاني: ١/ ٤٤٥].

٢- أوجب الله على المصلين القيام لله قانتين:

وأمرنا الله - تبارك وتعالى - أن نقوم لله في صلاتنا قانتين، قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة:٢٣٨] أي قاموا لله ساكنين خاشعين طائعين، فلا يجوز الكلام في الصلاة، فعن زيد بن أرقم قال: «كنا نتكلم في الصلاة، يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة، حتى نزلت ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة:٢٣٨] فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام» [البخاري: ٤٥٣٤، مسلم: ٥٣٩].

وعن عبدالله قال: كنا نسلم على النبي ﷺ، وهو في الصلاة، فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يردَّ علينا، وقال: «إنَّ في الصلاة شغلاً» [البخاري: ١١٩٩، مسلم: ٥٣٨].

وعن معاوية بن الحكم السلمي: أن رسول الله ﷺ قال له بعد أن تكلم في صلاته: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» [مسلم: ٥٣٧].

فهذه الأحاديث تدل على ما ينبغي أن يكون المصلي عليه في صلاته من القنوت، وهو السكون، والخشوع، وعدم الكلام، وقراءة القرآن، والتسبيح والتكبير.

٣- الصلاة في حالة الخوف:

بعد أن أمرنا الله - تبارك وتعالى - أن نأتي في حالة الأمن والطمأنينة بالصلاة على الوجه الأكمل بيّن لنا أن الصلاة لا تسقط عنا في حالة الخوف، وعلينا أن نأتي منها بما نطيقه ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٩] أي: صلوا على أي حال كنتم، لا فرق بين أن تكونوا راكبين أو ماشين، وسواءٌ أصليتم إلى القبلة أو إلى غيرها، وهذا في حال الالتحام في ميدان القتال.

فإذا زال الخوف، وعاد الخائفون إلى حالة الأمن فعليهم أن يأتوا بالصلاة على وجهها الذي أمرنا به، وذلك بالصلاة إلى القبلة، وإتمام القيام والركوع والسجود ونحو ذلك ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة:٢٣٩]. أي: كما علمكم الله ما لم تكونوا تعلمونه من الشرائع، وهذه الآية كقوله تعالى بعد ذكره لصلاة الخوف: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣].

وسيأتي بيان الأحكام الواردة في صلاة الخوف عند الآية الثانية بعد المائة في سورة النساء إن شاء الله.

٤- والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج:

ذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية جعلت عدة المرأة مدة عام كامل، ونسختها الآية المتقدمة عليها، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، فتكون هذه الآية متقدمة في التلاوة، متأخرة في النزول. والصواب من القول أن الآية غير منسوخة، فالعدة اللازمة للمتوفى عنها زوجها هي أربعة أشهر وعشر، أما الآية التي تطلب من الأزواج أن يوصوا لنسائهم بأن يبقين في منزل الزوجية لمدة سنة كاملة من غير إخراج، فإذا خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف، فهذا من باب الوصية للأزواج بالأمر بذلك، فتكون العدة أربعة أشهر وعشراً في بيت الزوجية، ولا يجوز لأولياء الزوج وورثته إخراجهن، وليس لهن أن يخرجن، ويكون بقية العام ومقدارها سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت، وإن شاءت خرجت.

وهذا الذي بيّنته ذكره البخاري عن مجاهد قال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، قال: كانت هذه العدة، تعتد عند أهل زوجها واجباً، فأنزل الله ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة:٢٤٠].

قال: «جعل لها تمام السنة، سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قوله الله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة:٢٤٠] فالعدة كما هي واجب عليها» [البخاري: ٥٣٤٤].

وقوله تعالى في خاتمة الآية: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ [البقرة:٢٤٠] فالله - سبحانه - عزيز، أي: لا يقهر، حكيم، أي: محكم لما يأمر الله به عباده، وفي هذا تهديد ووعيد لمن أخرج المرأة، وهي لا تريد الخروج.

٥- **للمطلقات متاع بالمعروف حقًّا على المتقين:**

استدلَّ بهذه الآية جمع من أهل العلم على وجوب المتعة لكل مطلقة، وقد سبق ذكر قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣٦]، ولا تعارض بين هذين النصين، فالآية الآمرة بالمتعة للمطلقة قبل الدخول التي لم يفرض لها مهر، هي أحد أفراد العموم في قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة:٢٤١].

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة:٢٤١] أي: واجب على المتقين الذين يُنفِّذون ما أوجبه الله على عباده.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة:٢٤٢] أي: مثل هذا البيان الذي بيّناه لكم هنا، يبين الله لكم آياته في التشريعات المختلفة، كالحلال والحرام، والفرائض وغيرها، لعلكم تعقلون عن الله قوله، أي: تفهمونه، وتتدبرونه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أوجب الله علينا المحافظة على الصلاة في أوقاتها، والإتيان بها كاملة على الوجه التي بينتها آيات القرآن والأحاديث الصحيحة عن الرسول ﷺ.

٢- خصَّ الله صلاة العصر بالذكر، فهي الصلاة الوسطى، ويجب على المسلم أن يُعنَى بها عناية خاصة.

٣- يجب على المصلي أن يقوم في صلاته عند قراءة القرآن، ويقوم ساكناً خاشعاً متفكراً فيما يقرؤه ويذكره.

٤- إذا انعدم الأمن بسبب العدو أو غيره، فلا يجوز أن يدع المسلم الصلاة، ولكنه يأتي منها ما يمكنه سواءً كان راكباً أو ماشياً، فيصلي بحسب حاله، مستقبل القبلة، أو غير مستقبل لها، فإذا أَمِن المصلي فيجب عليه أن يأتي بالصلاة على وجهها الأكمل.

٥- عدة المرأة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، وعلى الأزواج أن يُوصُوا بتمام السنة لأزواجهن، لا يخرجن من البيوت، فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف.

٦- تجب المتعة لكل مطلقة، لا فرق بين المدخول بها وغير المدخول بها.

النص القرآني السادس والخمسون من سورة البقرة
قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت

أولاً: تقديم

قصَّ الله علينا في طليعة آيات هذا النص قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ثم أحياهم بعد ذلك، وإنما قصَّهم الله علينا لنعلم أن الموت يأتي الذين يهربون منه، ويحتاطون له، كما يأتي الذين يعيشون في ديارهم، فكم من أقوام خاضوا غمار الحروب، وطلبوا الموت باقتحامهم مواطنه، ثم ماتوا على فُرُشهم، وإيمان المسلم بهذه الحقيقة يجعله يخوض غمار الحروب غير هيَّاب ولا وجل.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت:

حدثنا ربنا في الآية الأولى من هذا النص عن قوم بلغ تعدادهم ألوفاً، خرجوا من ديارهم خشية أن يأتيهم الموت، فقال الله لهم بعد خروجهم: موتوا، فماتوا جميعاً، ثم أحياهم، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر، فالله أحياهم في الدنيا قبل الآخرة، ليدلَّ الناس أنه قادر على إحياء الناس في يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٣].

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة ناهية عن الخروج من أرض وقع فيها الطاعون، أو الدخول إلى تلك الديار، ففي صحيحي البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب لما ذهب ليدخل إلى الشام وجد الطاعون وقع بها، فاستشار الصحابة في دخوله إليها، ثم عزم على الرجوع، فجاء عبدالرحمن بن عوف، وكان متغيباً في بعض حاجته، فقال: «إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». قال: فحمد الله عمر، ثم انصرف» [البخاري: ٥٧٢٩، مسلم: ٢٢١٩].

وما أخبرنا الله به عن هذه القصة كافٍ شافٍ، لا يحتاج إلى غيره، فما ذكره بعض المفسرين عن بني إسرائيل لا نحتاج إليه، فقد أخبرنا الله أنهم ألوف، وأنه أماتهم، ثم أحياهم، وهذا يكفينا، والعبرة تتحقق بإحياء الواحد فمن فوقه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة:٢٤٣] لقد تفضل الله على الذين أحياهم بعد موتهم، وتفضل علينا سبحانه بإخبارنا عنهم، ففي ذلك دلالة على الآيات العظيمة الباهرة التي تدل على قدرة الله سبحانه في إحياء الموتى، وذم الله أكثر الناس في عدم شكرهم لله تبارك وتعالى على ما أراهم وعرفهم به من نعمه.

٢- الأمر بالقتال في سبيل الله:

بعد أن أخبرنا ربنا خبر الذين خرجوا من ديارهم فارين من الموت، أمرنا أن نقاتل في سبيله غير خائفين، ولا فارين منه ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة:٢٤٤].

فالفرار عن ميدان الحرب والقتال لا ينجي من الموت، ولا يبعد الآجال، فالآجال موقتة، ولا يزاد فيها، ولا ينقص منها كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران:١٦٨]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ [النساء:٧٨]، وقد حرص خالد بن الوليد ﷺ على نيل الشهادة في كل مشهد حضره، فما بقي في جسده عضو إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، ثم مات على فراشه كما يموت العَيْر.

٣- الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله:

بعد أن أمرنا الله بالقتال في سبيله، أمرنا بالنوع الآخر من الجهاد وهو جهاد المال، فأمرنا بالإنفاق في سبيله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة:٢٤٥] حَثَّ الله على الإنفاق في سبيل الله، ورغَّب فيه بإخبارنا أنه يجزي المقرضين أضعافاً مضاعفة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة:٢٦١] والله غني كريم، يضيق على من يشاء، ويوسع على من يشاء، وإليه مرجعنا، فيحاسبنا على ما قدمنا.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - الله قادر على إحياء الناس في يوم القيامة، وقد أحيا العباد في الحياة الدنيا، ليدلهم على قدرته على ذلك الإحياء.

٢- على العباد أن لا يفروا من الطاعون إذا حلّ بأرضهم، وعليهم البقاء فيها، وعلى غيرهم ممن ليس في أرضهم أن لا يدخلوا الديار الموبوءة بالطاعون.

٣- ذكر الله من أخبار الغيب الماضية قصة الذين خرجوا من ديارهم خائفين من الموت أن ينزل بهم، فأماتهم بعد خروجهم، ثم أحياهم.

٤ - أمر الله بمجاهدة أعدائه، وهذا هو القتال في سبيل الله، والمجاهدون في سبيل الله يسمع الله أقوالهم، ويعلم أحوالهم، وسيثيبهم، ويجزيهم خير الجزاء.

٥ - رغب الله في الإنفاق في سبيل الله، ووعد عليه بأن يجزي المنفقين أضعافاً مضاعفة.

النص القرآني السابع والخمسون من سورة البقرة
بنو إسرائيل يطلبون من نبي لهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله

أولاً: تقديم

قصّ الله علينا في آيات هذا النص قصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبي من أنبيائهم من بعد موسى أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، وهي قصة كاملة وافية، لا تحتاج إلى مزيد بيان، ولم يرد في السنّة النبوية بيان لها إلا حديث واحد، ذكر فيه الرسول ﷺ عدة الذين اجتازوا النهر مع طالوت، وأنهم كانوا عدة أصحاب بدر، ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً.

ومع عدم حاجة الآيات التي وردت في هذه القصة إلى مزيد بيان إلا أن كثيراً من المفسرين أغرموا بنقل القصص التي صدَّرها بنو إسرائيل إلينا، وكثير منها إنما هو حديث خرافة، وبعضها يناقض ما قصّه الله علينا، فمن ذلك أن النبي الذي طلب منه بنو إسرائيل أن يبعثه الله لهم هو نبي الله يوشع الذي خلف موسى عليه السلام، مع أن الله أخبرنا في هذه القصة أن أحد الجنود الذي كان في جيش طالوت هو نبي الله داود عليه السلام ، وهو الذي قتل جالوت رئيس جيش الأعداء، ولم يكن داود آن ذاك قد أوتي الحكم والنبوة، وداود كان بعد موسى بزمن طويل.

لقد أطال جمع من المفسرين في سرد قصص بعيدة عن الصواب، وجعلوا ما ورد في تلك القصص الواهية تفسيراً لآيات هذه القصة، فأذهبوا بهاء هذه القصة القرآنية، ومن عجب أن هذه القصة التي جاءَت بها آيات هذا النص موجودة في التوراة بشكل واضح، ولكن المفسرين لم يقتربوا من القصة التوراتية القريبة في محتواها من القرآن، وذهبوا يوردون قصصاً واهية ضعيفة.

ذكرت التوراة هذه القصة في الإصحاح السابع عشر من سفر صموئيل الأول، ولكن القصة في التوراة ليست واضحة وضوحها في القرآن، ففي التوراة أن اسم ملك اليهود شاول، وسماه في القرآن طالوت، واسم ملك الأعداء وقائد جيوشهم جُلْيات، وتتفق التوراة والقرآن على أن داود هو الذي قتل جالوت، وبذلك انتصر اليهود على جالوت وقومه، وفي التوراة تفصيلات كثيرة، ولكنها مع كثرتها لا تعطي البينات النيرة التي جاء بها القرآن.

وقد ردّ بعض المفسرين هذه القصص، فالشوكاني صرح بأن اليهود أقْمَأَهم الله جاؤوا بهذه القصص للتلاعب بالمسلمين والتشكيك عليهم، وذَكَرَ ما في ذلك من التناقضات [فتح القدير: ١/ ٤٥٨].

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- بنو إسرائيل يطلبون من أحد أنبيائهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله:

يخبرنا الله - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص أن الملأ من بني إسرائيل وهم أشراف القوم ووجوههم توجهوا إلى نبي من أنبيائهم، فطلبوا منه أن يختار لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٦] وحدد الله لنا الفترة الزمنية التي كانت فيها هذه الواقعة، فقد كانت

من بعد موسى ﷺ، أي: بعد موته، وزادها تحديداً، عندما أخبرنا أن الذي قتل قائد جيش الأعداء هو داود ﷺ، وهذا يعني أنها كانت بعد نبي الله موسى بزمن طويل.

ولم يستجِبْ نبيُّهم لطلبهم مباشرة، وإنما ناقشهم فيما طلبوه، وقال لهم: هل عسيتم إن فرض عليكم القتال ألا تقاتلوا، فأجابوه قائلين: كيف لنا ألا نقاتل في سبيل الله، وقد أخرجنا عدوُّنا من ديارنا، وسبى أبناءنا، وأخبرنا الله أنهم عندما فرض عليهم القتال لم يفوا بما فرضه عليهم، وسيأتي تفصيل هذا التولي في بقية آيات النص ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة:٢٤٦].

وقوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عما أوجب الله عليهم، ولم يفوا بما وعدوا، وقوله: ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ يدخل فيه هؤلاء الذين تولوا عن القتال الذي فُرض عليهم.

٢- اختار الله طالوت ملكاً:

وأخبرهم نبيهم بالملك الذي اختاره الله لهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٧] هكذا قال رسولهم لهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، وقد أكد الله هذا الخبر بحرف التأكيد: ﴿إِنَّ﴾. وما دام الله قد اختاره، فالواجب عليهم السمع والطاعة، وعدم الحوار والمناقشة والاعتراض ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور:٥١].

ولكنهم حاوروا واعترضوا و﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة:٢٤٧] قالوا لنبيهم: كيف يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه، ويبدو أن هذا المَلِكَ لم يكن من البيوت التي ملك أصحابها من قبل، ولذلك قالوا: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة:٢٤٧] والأمر الثاني الذي يمنعه من استحقاق الملك في نظرهم أنه ﴿لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

فردّ عليهم نبيهم مبيناً وجه استحقاق طالوت للملك قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧] فطالوت يستحق الملك لأمور: **أولاً**: لأن الله اصطفاه واختاره عليهم جميعاً، والله عليم بمن يختاره، فلولا صلاحيته لهذه المهمة ما اختاره الله، واختيار الله يقطع خيار الناس، وقد قال المشركون المعترضون على بعثة محمد ﷺ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ

عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف:٣١] يريد بالقريتين مكة أو الطائف، فرد الله عليهم قائلاً: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ ﴾ [الزخرف:٣٢].

وثانياً: أن الله أهَّله ليكون ملكاً، فوهبه بسطة في العلم والجسم، فهو لم يؤت العلم والقوة البدنية فحسب، ولكنه زاده بسطة في كل واحد منهما، والملك يحتاج إلى العلم الذي يسوس به الناس، ويقودهم به في الحروب، ويحتاج إلى القوة البدنية التي تؤهله للقيام بشؤون الحكم، ومصارعة الأعداء في ميدان الحرب والقتال.

وقال لهم نبيهم: إن الملك لله، يؤتيه من يشاء من عباده، ولا يجوز للبشر أن يناقشوا الله في التصرف فيما هو حقٌّ له، وختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٧] أي: واسع الفضل، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

٣- آية الملك طالوت:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٨].

قال لهم نبيهم: إن آية ملك طالوت أن يأتيهم التابوت، وهو صندوق مستطيل الشكل يحوي السكينة، والسكينة الهدوء والطمأنينة ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ ﴾ [الفتح:٤]، وقال: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:٢٦]، والمراد: أن وجود التابوت معهم يجلب لهم السكينة في قلوبهم ويثبتهم، وكان فيه بعض ما تركه آل موسى وآل هارون، ولا ندري شيئاً عن هذا الذي في التابوت، هل هو التوراة، أو هو عصا موسى، وهل فيها شيء من ثياب موسى وهارون، أو فيه كل ذلك، الله أعلم بذلك.

وقد جاءهم الله بالتابوت تحمله الملائكة، ولم يخبرنا الله أين كان التابوت قبل مجيء الملائكة به، وقوله في ختام الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٨] أي: إن في مجيء الملائكة بالتابوت على هذا النحو الذي وصفه الله تعالى آية، أي: علامة تدلكم على اختيار الله لطالوت، وصلاحيته لهذا الملك.

٤- طالوت ينطلق بالجيش لمقاتلة العدو:

حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - عن انطلاق طالوت بجيش بني إسرائيل لمواجهة العدو الذي أخرجهم من ديارهم، وسبى أبناءهم، وفي طريقه إلى المعركة مرّ طالوت وجيشه بنهر،

ولعله نهر الأردن الواقع بين الأردن وفلسطين، فاختبر طالوت أفراد ذلك الجيش، ليبين الذين يصلحون للقتال من الذين لا يصلحون له، قال طالوت لهم: إن الله مبتليكم ومختبركم بنهر، فمن شرب من ذلك النهر، فليس مني، ولا يتبعني، ومن لم يشرب منه ولم يذقه فإنه مني، إلا من اغترف غرفة بيده، لقد أذن لهم بغرفة واحدة فقط، وكانت نتيجة الامتحان موجعة مؤلمة، لقد شربوا منه إلا قليلاً منه، وقد بيّن لنا رسولنا ﷺ أن هذا العدد القليل وهم الذين لم يشربوا منه إلا غرفة واحدة والذين جاوزوا معه النهر كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وهم الذين خاض بهم طالوت المعركة، وانتصر فيها، روى البخاري في صحيحه عن البراء، قال: حدثني أصحاب محمد ممن شهد بدراً، أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت، الذين جازوا معه النهر، بضعة عشر وثلاثمئة، قال البراء: «لا والله، ما جاوز معه النهر إلا مؤمن» [البخاري: ٣٩٥٧-٣٩٥٩].

وقد دلَّ هذا الحديث على ثلاثة أمور: **الأول**: أن عدة أصحاب طالوت كانوا بضعة عشر وثلاثمائة. **الثاني**: أن الذين اجتازوا معه النهر وحاربوا معه هم الذين شربوا من النهر غرفة واحدة، والباقي رجعوا ولم يصحبوه، خلافاً لما قرره بعض المفسرين. **الثالث**: أن عدة أصحاب طالوت كانوا عدة المسلمين في غزوة بدر الكبرى.

وقال تعالى في وصف انطلاق طالوت بالجنود ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٤٩].

ومع أن القسم الأكبر من الجيش لم ينجح في الاختبار، ورجع إلى الديار، وبقي عدد قليل، فقد تسرب إلى نفوس بعض هؤلاء الأخيار شيء من الخوف بسبب قلتهم، وكثرة عدوهم، وقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩].

قال بعض الذين نجحوا في الاختبار: لا قدرة لنا – بسبب قلة عددنا – على مواجهة طالوت وجنوده، عند ذلك برز الصوت المؤمن الواثق بلقاء الله المؤمن بنصره قائلاً في مواجهة ذلك الصوت الضعيف: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩] ابتغاء وجه الله في ميدان الحروب.

ولقد فقه المسلمون من هذه الأمة أن النصر من عند الله، وأنه لا يتحقق بكثرة الجند ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران:١٢٦]، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ﴾ [آل عمران:١٢٣] وقد أوجب الله على الرعيل الأول من هذه الأمة أن يواجه المؤمنون

عشرة أضعافهم ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال:٦٥] ثم خفف الله عنهم فأوجب عليهم أن يصبروا لضعف عددهم.

٥- **الانتصار في المعركة:**

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن طالوت والعدد القليل ممن كان معه عندما برزوا لجالوت ومن معه من الأعداء دعوا الله ربهم أن يفرغ عليهم صبراً، ويثبت أقدامهم، وينصرهم على القوم الكافرين ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة:٢٥٠].

و(البروز): الظهور في ميدان الحرب والقتال، و﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة:٢٥٠] أي: صبّ علينا الصبر صباً، وثبت أقدامنا، أي عند مواجهة الأعداء.

وقد أخبرنا ربنا - عز وجل - أن الفئة المؤمنة التي صفيت من الخليط الفاسد، والتي ابتهلت إلى ربها طالبة منه النصر، هزمت أعداءَها في ميدان الحرب والقتال، وقتل أحد أفراد جيش طالوت - وهو داود - قائدَ الأعداءِ ورئيسَهم، وهو جالوت، وأخبرنا تعالى أنه بعد ذلك الانتصار آتى داود الملك والحكمة، وعلمه مما يشاء سبحانه، فمن ذلك تعليمه سياسة الأمة، وقيادة المعارك، وصناعة الدروع، وغير ذلك مما شاء تعليمه له.

٦- **لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض:**

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة:٢٥١] «أي: لولا أن الله يدفع أهل الباطل بأهل الحق، لغلب أهل الباطل في الأرض، وبغوا على الصالحين، وأوقعوا بهم، حتى يكون لهم السلطان وحدهم، فتفسد الأرض بفسادهم، فكان من فضل الله على العالمين، وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن الله لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض، بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين» [تفسير المنار: ٢/ ٣٩٥].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج:٤٠].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة:٢٥١] بيّن الله -سبحانه- أنه يدفع بالمؤمنين شر الكافرين فضلاً منه ونعمة.

وختم الله هذا النص بقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢﴾ [البقرة:٢٥٢] الإشارة بقوله: ﴿تِلۡكَ﴾ إلى ما حدثنا الله به في هذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه قصَّ علينا هذه القصص بالحق، أي: أخبرنا به وفق ما وقع، ليس فيه تغيير ولا تبديل، وقال في خاتمة الآية: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢﴾ [البقرة:٢٥٢] ولذلك أنزل الله عليه ما أنزل، وبيّن له ما بيّنه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- قصَّ الله علينا قصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، وهذه القصة كما حدث الله بها هي الحق الذي يصوب ما عند اليهود من خلل وتحريف.

٢- إذا ضيمت الأمة خسفاً، واستعلى عليها أعداؤها، فيجب على أشرافها وأهل الرأي فيها أن يبحثوا عن الذي يقودها إلى العزة والمجد، كما فعل الملأ من بني إسرائيل في بحثهم عمن يقودهم إلى رفع الذل عنهم.

٣- أصحاب الرأي الحصيف ينبهون الأمة إلى التروي وعدم الاستعجال والنظر في العواقب، فنبيُّ بني إسرائيل قال لهم منبهاً ومحذراً: هل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألا تقاتلوا.

٤- هناك دواعٍ تدعو الأمة إلى أن تصبح دولة مقاتلة، فاليهود أُخرجوا من ديارهم، وسبيت أبناؤهم، وصحابة رسولنا ﷺ أخرجوا من ديارهم، وأهل فلسطين اليوم احتُلت ديارهم من قِبَل اليهود، وأُخرجوا من بلادهم.

٥- قوة بصيرة نبي بني إسرائيل، وصدق فراسته في قومه، فبعد أن كتب القتال عليهم، نكصوا وأعرضوا عن الجهاد.

٦- كان الجهاد في سبيل الله مفروضاً على بعض الأمم من قبلنا، كما فُرض علينا.

٧- اعتراض بني إسرائيل على نبيهم فيما أخبرهم به من ابتعاث الله طالوت ملكاً عليهم.

٨- يشترط في الملك الذي يقود أمته إلى العزة والمجد أن يؤتى العلم والقوة المتصفة بالحكمة، فإن خلا منهما أو من واحد منهما وقع خلل في تصريف الدولة، وإدارة المعارك والحروب.

٩- أرسل الله لبني إسرائيل آية تدل على استحقاق طالوت الملك، فقد جاءت الملائكة بني إسرائيل بالتابوت، وكان فيه السكينة، محتوياً على بقايا مما تركه آل موسى وآل هارون.

١٠- لا بد لاستقامة أمر الدولة أن يطاع الحاكم المدبر لتلك الدولة، ومن هنا كان الواجب على بني إسرائيل أن لا يشربوا من النهر الذي نهوا عن الشرب منه إلا غرفة باليد.

١١- النصر من عند الله، والكثرة ليست ميزان النصر، وقد هزم المسلمون في أول معركة حنين عندما أعجبتهم كثرتهم.

١٢- لجأت القلة التي كانت مع طالوت إلى الله، فاستنصرت به، فنصرها، وأعزها، وهزم القوة الكبيرة الهائلة التي كانت تقف في وجهها.

١٣- إنعام الله على داود ﷺ، فقد أقدره على قتل جالوت، ثم بعد ذلك آتاه الله النبوة والملك.

١٤- وجود قوة تحمل الحق وتتبناه، وتصارع الباطل، وتقف في وجهه أمرٌ ضروري، يقي الأرض من حلول الفساد فيها.

١٥- هذه القصة وأمثالها آية من آيات الله تعالى، فالإتيان بالخبر على الوجه الذي وقع عليه من غير تبديل ولا تغيير، هو من شأن العليم الخبير.

١٦- المجاهد في سبيل الله لا يضيره أن يقصد رفع الظلم عن أهله وذويه، ويقصد هزيمة من أذلُّوه، واسترداد أرضه وبلاده، كما فعل بنو إسرائيل في هذه الواقعة.

النص القرآني الثامن والخمسون من سورة البقرة
تفضيل الله بعض رسله على بعض

أولاً: تقديم

أشار الله - تبارك وتعالى - إلى رسله الذين سبق الحديث عنهم في هذه السورة باسم الإشارة الموضوع للبعيد ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ ﴾ [البقرة:٢٥٣] ليدلّ على مدى علوِّهم ورفعة شأنهم، وأعلمنا ربنا - سبحانه - أنه فضَّل بعض النبيين على بعض، فمنهم إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً، ومنهم موسى الذي اتخذه كليماً، ومنهم عيسى الذي آتاه البينات، وأيده بروح القدس، ومنهم محمد ﷺ الذي أعطاه منزلة في الجنة ليست لأحد غيره.

وأعلمنا الله عن سنّة من سننه في أتْباع كلِّ رسول من رسله، في اقتتالهم فيما بينهم، لحكمة يعلمها ربنا عز وجل، وأمر الله بالمسارعة بالإنفاق في الدنيا، قبل أن نصير إلى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تفضيل الله بعض الرسل على بعض:

أشار الله تعالى باسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ الموضوع للبعيد، للدلالة على المكانة العالية التي يحظى الرسل بها عند ربهم، والرسل المشار إليهم في هذه الآية، هم الذين سبق ذكرهم في هذه السورة كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد عليهم السلام، أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الرسل متفاوتون فيما بينهم، ولكل واحد منهم خصوصية فضَّله الله بها، فمنهم الذي كلمه الله تكليماً، ومنهم الذي اتخذه خليلاً، ومنهم الذي جعله في أعلى درجة في الجنة، ومنهم عيسى ابن مريم الذي آتاه الآيات البينات، وأيّده بروح القدس ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا

بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

ودلّ على تفاضل الرسل فيما بينهم أن الرسول ﷺ عندما أُسري به وجد في كل سماء بعضاً من الرسل، فوجد في السماء الأولى آدم، ووجد في السابعة إبراهيم، وكان موسى في السادسة، وهارون في الخامسة، ويحيى وعيسى في الثانية، وأفضل الرسل أولو العزم، وهم الخمسة المذكورون في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب:٧].

وقد نهى الرسول ﷺ عن تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض، فقال: «لا تفضلوا بعض الأنبياء على بعض» [البخاري: ٣٤١٤، مسلم: ٢٣٧٣]. وهذا المنهي عنه هو التفضيل على وجه العصبية، التي ينتقص فيها الرجل رسولاً، ويرفع رسولاً، فإن الرسول ﷺ قال ذلك لمن ضرب اليهودي لقوله: والذي اصطفى موسى على البشر، ومن المعلوم أنَّ أفضل الرسل والأنبياء محمد ﷺ.

والبينات التي آتاها الله عيسى عليه السلام ذكرها الله تعالى في موضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران:٤٩].

والبينات: الحجج الواضحات، والمعجزات الظاهرة، وروح القدس الذي أيد الله به عيسى عليه السلام هو جبريل عليه السلام.

٢- اختلاف أتباع الأنبياء واقتتالهم فيما بينهم:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن أتباع النبيين اختلفوا فيما بينهم، فآمن بعضهم، وكفر آخرون، وكان عاقبة الاختلاف الاقتتال، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة:٢٥٣].

ومن نظر في تاريخ الأمم السابقة وتاريخ هذه الأمة، وجد أنهم اقتتلوا فيما بينهم بعد أنبيائهم، اليهود اقتتلوا فيما بينهم، والنصارى اقتتلوا فيما بينهم، وهذه الأمة اقتتلت فيما بينها، وأول اقتتال وقع فيها قتال المرتدين ومانعي الزكاة في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق.

وهذا الاقتتال شاءَه الله وقضاه، ووقع كما شاء الله وقضاه.

٣- أمر الله - تبارك وتعالى - المؤمنين في الآية الأخيرة من هذا النص بالإنفاق مما رزقهم الله، من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه، ولا خلة، ولا شفاعة، وهذا اليوم هو يوم القيامة، ففي ذلك اليوم، لا يشترى ولا يباع، وتنقطع الخلة بين الناس، أي: المحبة والمصادقة، إلا ما كان لله وفي الله، وليس في ذلك اليوم شفاعة، إلا لمن رضي الله عنه، والكافرون في يوم القيامة هم الظالمون، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٤].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الرسل أفضل الناس جميعاً، وهم متفاضلون فيما بينهم، ومراتبهم عند الله متفاوتة.

٢- لكل رسول فضيلة خصَّه الله بها، فإبراهيم خليل الرحمن، وموسى كليمه، وعيسى خلقه الله من غير أب وأيده بالبينات، ومحمد ﷺ مرسل إلى الناس كافة.

٣- وقع الخلاف في كل أمة بعد موت رسولها، واقتتل الكفار والمؤمنون فيما بينهم.

٤- دعا الله المؤمنين من هذه الأمة إلى الإنفاق مما رزقهم الله من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا ينفع فيه أحداً إلا ما قدَّمه في حياته.

٥- الكافرون هم الذين ظلموا أنفسهم الظلم الأكبر، وهو الشرك.

النص القرآني التاسع والخمسون من سورة البقرة
آية الكرسي أعظم آيات القرآن

أولاً: تقديم

أول آيات هذا النص آية الكرسي، وهي أعظم آية في كتاب الله تبارك وتعالى، ففي صحيح مسلم عن أبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر، أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله، ورسوله أعلم، قال: «يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]. قال: فضرب في صدري، وقال: «والله، ليهنك العلم أبا المنذر» [مسلم: ٨١٠].

وروى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلتُ: والله لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة. قال: فخلَّيتُ عنه. فأصبحتُ، فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرُك البارحة؟» قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجةً شديدةً وعيالاً، فرحمته فخلّيت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود».

فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: إنه سيعود، فرصدته، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال، لا أعود. فرحمته فخليت سبيله، فأصبحتُ، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرُك؟» قلت: يا رسول الله شكا حاجةً شديدةً وعيالاً، فرحمته فخليت سبيله.

قال: «أما إنه قد كذبك، وسيعود». فرصدته الثالثة، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات، أنك تزعم لا تعود ثم تعود. قال: دعني أُعلِّمْك كلماتٍ ينفعُك الله بها. قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تُصبح، فخلّيت سبيله.

فأصبحتُ فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرُك البارحة؟» قلتُ: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلماتٍ ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: «ما هي؟» قلت: قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء

على الخير. فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلمُ من تخاطب مذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟» قال: لا. قال: «ذاك شيطان» [رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم: ٢٣١١، ووصله النسائي في (الكبرى): ١٠٧٢٩].

ومن فضل هذه الآية أن فيها اسم الله الأعظم، فعن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣] وفاتحة آل عمران: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران:١-٢]» [رواه الترمذي: ٣٤٧٨، وقال: هذا حديث حسن صحيح].

وهذه الآية إنما كان لها هذا الفضل، لأنها عرفتنا بربنا - تبارك وتعالى - تعريفاً كاملاً وافياً، لا مزيد عليه، كما سنبينه في تفسيرنا للآيات.

وقد وقع بين يديّ أثناء كتابة هذا النص كتيب من تأليف جلال الدين السيوطي بعنوان: «فتح الجليل للعبد الذليل» أودع فيه مائة وعشرين نوعاً بلاغياً أخذها من الآية الثالثة في هذا النص، وهي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقد قصد السيوطي ومن سار مساره من العلماء إلى بيان وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فوجد من خلال التدبر والتأمل في آية واحدة هذا الحشد الهائل من وجوه البلاغة.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- التعريف بالله رب العالمين:

هذه الآية أعظم آيات القرآن الكريم، لأنها تُعرِّف بالله العظيم، وسنتناول في هذا الموضع ما عرفتنا به عن الله ربنا تبارك وتعالى.

أ- **الله هو المعبود الذي لا يستحق العبادة أحد إلا إياه:** أول ما عرفنا الله به عن نفسه أنه الإله الذي لا يستحق العبادة أحد سواه، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:٢٥٥] والإله: في لغة العرب المعبود، وكلُّ من عُبِد فهو إله، وقد عبد الناس البشر والشجر والحجر والشمس والقمر، وعبدوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وكلُّ هذا الذي عبدوه آلهة باطلة، والإله الحقُّ الذي يستحق العبادة هو الله، وهذا هو توحيد الألوهية، وكان المشركون ينكرونه، ويجادلون في استحقاقه العبادة وحده.

ب- **الله هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم:** الله تبارك وتعالى هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والله - تبارك وتعالى - حيّ، وحياته تامة كاملة، وهو قيوم، أي: قائم بنفسه، لا يحتاج إلى غيره، وهو مقيم لغيره، وحياته وقيوميته أبديتان سرمديتان - سبحانه وتعالى - فهو حيٌّ أبداً وسرمداً، وهو قيوم كذلك ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥].

والله - تبارك وتعالى - لكمال حياته وقيوميته لا تأخذه سِنَة، وهو النعاس، كما لا يأخذه النوم، بخلاف الإنسان الذي جاء عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أحياه الله فجعله سميعاً بصيراً، ولكن حياته ناقصة لها بداية، ولها نهاية بالموت، وهو ينعس وينام.

ج- **الله له ملك السماوات والأرض:** الله تبارك وتعالى هو خالق السماوات والأرض، وهو: مالكهما، وهما تحت قهره وتصرفه، يأمرهما فتطيعان ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقد قال لهما: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١].

د- **لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه:** لا يشفع في يوم القيامة أحد عند الله إلا بإذنه، فحتى تقبل الشفاعة لا بد أن يرضى الله عن الذي يشفع، ولا بد أن يرضى عن المشفوع له، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن نبي الله إبراهيم عليه السلام يشفع عند الله في أبيه عندما يلقاه في عرصات القيامة، فلا تقبل شفاعته فيه، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك.

فيقول إبراهيم: يا ربّ إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرَّمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت

رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ مُلتطخٍ، فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار» [البخاري: ٣٣٥٠] والذيخ: الضبع الذكر الملتطخ بالنتْن.

فالله لا يقبل شفاعة إبراهيم في أبيه الكافر في يوم القيامة، ويمسخه الله في ذلك اليوم ضبعاً، حتى لا يخزى به إبراهيم، فيؤخذ من قوائمه، ويلقى به في النار.

هـ- يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم: الله يعلم ما بين أيدي مخلوقاته وما خلفهم، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥] أي: يعلم ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ومن هؤلاء الملائكة الذين قالوا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم:٦٤].

ومع أن علم الله محيط بجميع الكائنات، فإن الجن والإنس والملائكة لا يحيطون بشيء من علم الله إلا بمقدار ما يشاء الله أن يحيطوا به، وهو قليل، لا يساوي قطرة من بحر، أو ذرة في صحراء.

و- وسع كرسيه السماوات والأرض: يدلُّ قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥] على أن لله كرسيًّا، والكرسي كما قال ابن عباس: «موضع القدمين» أي، موضع قدمي الرب تبارك وتعالى [وحديث ابن عباس صحيح موقوف عليه، أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد»، والدارمي في «الرد على المريسي» وعبدالله بن أحمد في «السنّة» وقال الألباني فيه: «هذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات» مختصر العلوم للذهبي تحقيق الألباني، ص:١٠٢].

وقد أخبرنا ربنا عز وجل أن الكرسي أعظم من السماوات والأرض، ولذلك قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقد ساق الشيخ ناصر الدين الألباني حديثاً رواه أبو ذر الغفاري، قال فيه الرسول ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة» وقد ذكر الألباني طرقه في كتب السنّة [وأصح طرقه الطريق التي ساقها ابن جرير الطبري، ثم قال الألباني: الحديث بهذه الطرق صحيح. سلسلة الصحيحة: حديث رقم: ١٠٩]. فدلّ هذا الحديث على أن الكرسي غير العرش، وأن الكرسي أعظم من السموات والأرض، والعرش أعظم من الكرسي.

ز- الله لا يثقله حفظ السموات والأرض: أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه لا يثقله حفظ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، بل ذلك سهل ويسير عليه، فالله بكل شيء

عليم، وهو على كل شيء قدير، وهو ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة:٢٥٥] فالله له العلو كله، أي: الحسيّ والمعنوي، وهو العظيم الكامل في عظمته سبحانه.

٢- لا إكراه في الدين:

قرّر اللهُ - تبارك وتعالى - أنه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦] والمعنى: لا تكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام، لأن الله يريد أن يتحمل كلُّ إنسان مسؤولية نفسه بنفسه، وكل ما يجب علينا هو إقامة الحجة على الناس، بإبلاغهم هذا الدين وتعريفهم به، فإذا قامت عليهم الحجة، فعليهم أن يتحملوا النار، وغضب الجبار إن لم يؤمنوا.

وقد ذكر أبو داود في سبب نزول الآية عن ابن عباس، قال: «كانت المرأة تكون مقلاتاً، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]» [سنن أبي داود: ٢٦٨٢، وقد أورده الألباني في الصحيحة والمقلات التي لا يعيش لها ولد].

وقوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] والرشد: الإيمان، والغي: الكفر، وما دام قد ظهر الإسلام وتبين، فعلى المرء أن يختار لنفسه، وعليه أن يتحمل نتائج قبوله بالإسلام أو رفضه له، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦﴾ [البقرة:٢٥٦] قال الله تعالى: الذي يكفر بالطاغوت، والطاغوت هو الذي تجاوز حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع، وفي مقدمة هؤلاء الشيطان، وفيهم فرعون والزعماء والرؤساء الذين نصبوا أنفسهم مشرعين وسدنة وشركاء، فالذي يكفر بهم، ويؤمن بالله تبارك وتعالى، فقد استمسك بالعروة الوثقى، والعروة الوثقى: هي الحلقة القوية التي لا تنفصم ولا تنكسر، وأراد بها: الإسلام والإيمان والقرآن. وقوله: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦] أي: لا انكسار لها، وقد فسر الرسول ﷺ لعبدالله بن سلام العروة الوثقى في رؤيا رآها بالإسلام، وقال له: «أنت على الإسلام حتى تموت» [البخاري: ٣٨١٣، مسلم: ٢٤٨٤].

٣- الله ولي الذين آمنوا والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه ولي الذين آمنوا، أي: ناصرهم ومعينهم وحافظهم، ومن آثار ولايته لهم أنه يخرجهم بما أنزله إليهم على عبده ورسوله محمد ﷺ من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإسلام، أما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوت، وهم الجبابرة الذين طغوا وبغوا، ورفعوا أنفسهم إلى مرتبة الألوهية، فهؤلاء يخرجونهم من النور إلى الظلمات، وبذلك

يصيرون إلى نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٧].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الله هو المعبود الحقّ الذي لا يستحق العبادة أحد غيره.

٢- الله يستحقّ العبادة دون غيره، لأنه حيٌّ دائم الحياة، قيوم، أي: قائم بنفسه مقيم لغيره، ولتمام حياته وقيوميته لا تأخذه سِنَة ولا نوم.

٣- الله له ملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما.

٤- لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه.

٥- علم الله محيط بالعباد لا يخفى على الله منهم شيء.

٦- لا يعلم العباد عن الله إلا ما أراد إعلامهم إياه.

٧- من مخلوقات الله العظيمة الكرسي، وهو أعظم من السموات والأرض، وهو موضع قدمي الرب.

٨- الله حافظ للسموات والأرض، ولا يشقُّ عليه حفظهما.

٩- لا يجوز أن يُكْرَهَ أحد على الدخول في دين لا يرضاه.

١٠- الذي كفر بالطواغيت وهي الآلهة التي تُعبَد من دون الله، وآمن بالله وحده فهو على الدين الحق.

١١- الله ولي المؤمنين يخرجهم من الظلمات إلى النور، والكفار أولياؤهم الشيطان يخرجهم من النور إلى الظلمات، وهؤلاء أصحاب النار.

النص القرآني المتمم للستين من سورة البقرة
الله يحيي ويميت

أولاً: تقديم

ساق الله - تبارك وتعالى - في آيات هذا النص ثلاث قصص يجمعها جامع واحد، وهو قدرة الله على إحياء الموتى، فقد احتج إبراهيم عليه السلام في القصة الأولى على ملك زمانه الملحد بأن ربه يحيي ويميت، وفي الثانية أمات الله الرجل الذي مرَّ على قرية خربة مهدمة، فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ﴾ [البقرة:٢٥٩]، وفي الثالثة سأل نبي الله إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فأراه ذلك عياناً.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الذي حاج إبراهيم في ربه:

حدثنا ربنا مذكراً إيانا بالمَلِك الذي حاجَّ نبيه إبراهيم عليه السلام في ربه، فقد كان هذا الملك منكراً لوجود الله، فقال له نبي الله إبراهيم عليه السلام محتجًّا عليه: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾ [البقرة:٢٥٨].

قال له إبراهيم: ربي الذي أؤمن به يحيي النفوس بإدخال الروح فيها، فتصبح عاقلة مدركة، تذهب وتأتي، وتسمع وتبصر، فسارع ذلك الطاغية بالرد قائلاً: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾،

وعنى بذلك أنه يأتي برجلين من أحد سجونه، فيطلق أحدهما، ويقتل الآخر، سمَّى ذلك إحياءً للأول منهما، وإماتة للثاني منهما.

لقد كان همُّ ذلك الطاغية أن يجيب، ولو كان في إجابته خلل واضح، إن مراد إبراهيم بإحياء الله وإماتته أمر مخالف لما يفعله ذلك الطاغية، وتوضيح الأمر من قِبَل إبراهيم لذلك الملك سيدخله في جدال معه، فساق إبراهيم دليلاً آخر بهت الخصم وحيَّره وأسكته، ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

قال له إبراهيم: إن الله ربي يأتي بالشمس من جهة المشرق، فإذا كنت ربّاً كما تدعي، فأت بها من جهة المغرب، وبذلك تكون قد غَلَبْت وقَهرت.

لقد جاءه إبراهيم بجواب أعجزه وأسكته، وكشف حقيقة أمره، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨] أي: لا يهديهم إلى الإجابة الحقة، ولكنه يهدي إلى الإجابة الصواب رسله وأنبياءه ومن سار على طريقهم، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام:٨٣].

٢- قصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها:

وقصَّ علينا ربنا قصة الذي مرَّ على قرية، فوجدها خاوية على عروشها، ومعنى: خاوية، أي: ساقطة، والعروش: السقوف، أي: ساقطة على سقوفها، سقطت السقوف، ثم وقعت عليها الحيطان، يشير إلى خرابها علواً وسفلاً [عمدة الحفاظ: ٣/٦٥]. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [الحج:٤٥] وقال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ [النمل:٥٢] فالقرية التي مرّ عليها ذلك الرجل كانت محطمة مهدمة خالية من الناس، فهي على ذلك ميتة، وهذه القصة معطوفة في المعنى على قصة إبراهيم التي سبق ذكرها بحرف العطف (أو) قال تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة:٢٥٩].

وكان عند هذا الرجل الذي مرّ على تلك القرية المهدمة الخاوية على عروشها علم بأن الله سيحيي هذه القرية بعد موتها، أي: بعد خرابها وتدميرها، فلما رآها على تلك الصفة قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ ﴾ [البقرة:٢٥٩] أي: قال ذلك مستغرباً متعجباً لشدة ما أصابها من الدمار والخراب.

عند ذلك أماته الله بقبض روحه مائة عام، وبعد تمام المائة أحياه، فسأله كم لبثت؟ فقال: لبثت يوماً أو بعض يوم، وكذلك قال أصحاب الكهف بعد أن ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩].

فلما قال ذلك، قال الله له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة:٢٥٩] وقد تلاشى في هذه المدة لحمه، وفنيت عظامه، وتقطعت أوصاله، أما الطعام الذي كان معه والذي يفسد في العادة في يوم أو في عدة أيام، فقد حفظه فلم يفسد، ولم يتغير، ولم يتبدل، وأما العظام فقد بليت.

وقد كان معه عند موته حماره أماته الله بموته، فأحياه هو أولاً، ثم أحيا حماره، وأراه كيف ينشئ عظامه ويكوّنها، ثم يصل ما بينها، ثم يكسوها لحماً، ثم ينفخ فيها الروح وتدب فيها الحياة، عند ذلك قال وقد امتلأ قلبه خوفاً وخشية من الله: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٩]، وأنه لا يعجزه شيء أراده وقال الله له: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٩].

٣- إحياء الله الموتى لنبيه إبراهيم عليه السلام:

قصَّ علينا ربنا في آيات هذا النص قصة ثالثة طلب فيها إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ﴾ [البقرة:٢٦٠] فسأله ربُّه قائلاً له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ﴾ [البقرة:٢٦٠] فأجاب قائلاً: بلى آمنت، ولكنني أريد مزيداً في طمأنينة قلبي ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة:٢٦٠] عند ذلك أمره ربُّه أن يأخذ أربعة من الطير، ثم يصرهن إليه، أي: يقطعهن بعد أن يذبحهن، ثم يجعل على كل جبل منهن جزءاً، أي: يفرق أجزاءَهن على عدة جبال، ثم أمره أن ينادي عليهن طالباً منهن أن يجتمعن، فتجمعت الأجزاء المقطعة، وتواصلت وتلاحمت، ونفخت فيها الحياة ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة:٢٦٠] والعزيز: المنيع الذي لا يغلب، ولا يعجزه شيء، وهو ﴿حَكِيمٌ﴾ سبحانه فيما يدبره.

٤- هذه قصص وافية كاملة:

هذه الأخبار والقصص التي حدثنا الله عنها قصص وافية، إذا قرأها الذي يفقه العربية أدرك منها الغرض المسوقة من أجله، وهي لا تحتاج إلى قصص اليهود وأخبارهم لتوضيحها، فلا تحتاج إلى معرفة اسم الملك الذي حاجّه إبراهيم، ولا نحتاج إلى معرفة الموضع الذي وقع

فيه الحجاج، المهم أن إبراهيم ﷺ استطاع أن يوقف هذا الطاغوت، وينتصر عليه في موضع الخصام.

ولسنا بحاجة إلى معرفة اسم الشخص الذي مرَّ على القرية، ولا نحتاج إلى معرفة اسم القرية، فالقصة كاملة واضحة من غير معرفة اسم الشخص واسم القرية، وهي تعطي مقاصدها بكل وضوح من غير معرفة ذلك.

وهل معرفتنا بأسماء الطيور التي اختارها إبراهيم ﷺ ، فذبحها وقطعها، يفيدنا في إدراك حقائق القصة ومقاصدها، هل هناك من فرق بين إحياء الله العصفور أو الطاووس، أو الحمامة، أو الدجاجة، إن إحياء الله لأيٍّ من الطيور هو الإعجاز، لا فرق بين طير وطير.

لقد أتعب كثير من المفسرين أنفسهم وهم يبحثون في بقايا كتب أهل الكتاب المحرفة المغيرة، وهم عنها أغنياء، وكان الواجب عوضاً عن ذلك أن يبحثوا في دلالة الآيات، وبيان المقصود منها.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناه تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يحسن بأهل العلم من هذه الأمة أن يتصدَّوْا لخصوم الإسلام، فيظهروا عوار قولهم، ويبينوا ما في أقوالهم من ضلال وباطل كما فعل إبراهيم عندما احتج على الملك في زمانه، فأسكته وبهته.

٢- الأدلة تتفاوت فيما بينها في القوة، فالدليل الأول الذي جاء به إبراهيم كان للملك فيه بعض الجدال والمخاصمة، أما الدليل الثاني فقد أسكت المحاور وخصمه.

٣- آيات الله في الكون كثيرة متعددة، ومن فقه عن الله كتابه المنزل فإنه يستطيع أن يحتج على خصوم الإسلام بأسهل الطرق وأوضحها.

٤- قدرة الله تعالى على إحياء الناس بعد موتهم في الحياة الدنيا، فقد أحيا الله قتيل بني إسرائيل فدلَّ على قاتله، وأمات الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ثم أحياهم، وذبح إبراهيم ﷺ الطيور الأربعة التي اختارها، ثم قطعها، وفرقها على رؤوس الجبال، فأمرها أن تجتمع فاجتمعت.

٥- الله يُظْهر في كل عصر من الآيات ما يدلُّ عليه، ويحق الحق، ويبطل الباطل.

النص الحادي والستون من سورة البقرة
مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله

أولاً: تقديم

هذا النصُّ والنصان بعده في الإنفاق، وقد رغَّب الله بالإنفاق في سبيل الله ببيان الأجر العظيم الذي يجنيه المنفقون من وراء نفقتهم، واشترط الله لتحصيل المؤمنين ذلك الأجر العظيم أن لا يُتْبِعوا نفقتهم شيئاً من المنّ والأذى، وبيّن أن القول المعروف للسائلين والمحتاجين أفضل عند الله من الصدقة التي يعقبها أذى، وضرب الله المثل للمتصدِّقين الذين يمنُّون ويؤذون وينافقون بصدقاتهم بالحجر الصلد يكون عليه القليل من التراب، فيسقط عليه المطر الشديد، فيعريه من التراب، فلا ينفع بعد ذلك للزرع، ولا للإنبات.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله:

سبق أن دعا الله - تبارك وتعالى - عباده إلى أن يقرضوه قرضاً حسناً في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥] وبيَّن الله تبارك وتعالى في الآية الأولى من آيات هذا النص مقدار الأضعاف إذا كانت النفقة في سبيل الله، أي: في الجهاد ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

ضرب الله في هذه الآية مثلاً للنفقة التي يبذلها المنفق في سبيل الله بحبة غرسها زارعها في الأرض، فانبثق منها سبع سنابل، في كل سنبلة منها مائة حبة، والمشبه به أمر متعدد،

يلاحقه العاقل بتصوره، إنها حبة تلقى في أرض طيبة، فيخرج منها سبع سنابل، في كل سنبلة منها مائة حبة، وعندما يعمل العقل النظر يجد أن الحبَّة أعطت سبعمائة حبة.

وقد يضاعف الله الحسنة بأكثر من ذلك ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦١] أي قد تتجاوز المضاعفة السبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وختم الله الآية باسمين من أسمائه، هما الواسع والعليم، فالله - سبحانه - واسع العطاء، وهو عليم بمن يستحق هذه المضاعفة، وقد صرَّحت الأحاديث بمثل ما صرّحت به الآية، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنةُ عَشْرُ أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به» [مسلم: ١١٥١] وعن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة، كلها مخطومة» [مسلم: ١٨٩٢].

٢- النفقة المقبولة هي النفقة التي لا يُتبِعها صاحبُها منّاً ولا أذى:

النفقة المقبولة عند الله تبارك وتعالى هي النفقة التي يبذلها صاحبها، ثم لا يتبعها بالمنّ والأذى، فهؤلاء هم الذين ينالون الأجر الذي ذكره الله في الآية السابقة، ولا خوف عليهم فيما يأتي عليهم في مقبل الأيام، لا عند الموت، ولا في القبر، ولا عند البعث والنشور، ولا في الموقف، ولا يحزنون على ما خلفوه من ذرية وأولاد، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة:٢٦٢].

والمنُّ الذي نهى الله عنه المنفقَ، يكون بالتحدث عما أنعم به على من أنفق عليه وجاد به، والأذى يكون بتقريع المحسن لمن أحسن إليه وتوبيخه، وهذا الذي ينفق، ويمنُّ، لم يستحضر نعمة الله عليه، وأن المال الذي أنفقه، هو هبة من الله تحتاج إلى الشكر، ولذا فإنه يحسن بالمنفق أن يستحضر نعمة الله عليه، فهو سبحانه الذي أعطاه المال وأقدره على الإنفاق، وبذلك لا تجمح نفسه إلى إيذاء عباد الله بالمن عليهم.

وذكر أهل العلم أنه يحسن ذكر النعمة عندما يكفرها المُحْسَنُ عليه، ولذلك قيل: «إذا كُفِرَت النعمةُ حَسُنَت المِنَّةُ» [المفردات: ٤٧٤].

٣- قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى:

بيَّن الله - تبارك وتعالى - لنا أن القول الحسن والمغفرة التي يواجه بها المسؤول من سأله خير من الصدقة التي يتبعها أذى، قال تعالى: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة:٢٦٣].

وإنما كان القول المعروف والمغفرة، خيراً من الصدقة التي يتبعها المنُّ، لأنَّ القول المعروف والمغفرة نوعان من الإحسان، والصدقة التي يتبعها أذى صدقة باطلة، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «الكلمة الطيبة صدقة» [مسلم: ١٠٠٩].

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة:٢٦٣] أي: غنيٌّ عنكم، لا يناله شيء من صدقاتكم، ونفع هذه الصدقات عائد لكم، فلماذا تمنُّون بصدقاتكم مع غنى الله عنها، وهو سبحانه حليم، لا يعاجل المنَّان بالعقوبة، وهذا فيه شيء من الوعيد والتهديد.

٤- المنُّ بالصدقة والمراءاة بها يبطلها:

المنُّ بالصدقة يبطلها، ويصيب صاحبها بعذاب عظيم في يوم القيامة، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم»، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرارٍ، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» [مسلم: ١٠٦]. والمسبل الذي يطيل إزاره أسفل الكعبين. وقد حذَّر الله عباده عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، وشبَّه الذين يمنُّون بصدقاتهم، ويؤذون المتصدَّق عليهم بالذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، وهؤلاء هم الذين يريدون من وراء صدقاتهم مديح الناس وثناءَهم ونيل الحظوة عندهم، ولا يريدون بها وجه الله، ونيل الأجر والثواب في يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [البقرة:٢٦٤].

وقد ضرب الله مثلاً للمرائي بصدقته، فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤].

شبَّه الله المرائي بصدقته بحجر صلد أملس عليه تراب، فنزل على ذلك الحجر وابل، وهو المطر الشديد، فأذهب التراب الذي عليه، وبقي الحجر أجرد، لا يصلح لأن يزرع عليه، ولا يستفاد منه.

وقوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ [البقرة:٢٦٤] أي: لا ينتفع هؤلاء المراؤون بما فعلوه رياءً، ولا يجدون له ثواباً في يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤] أي: لا يهديهم في كفرهم، لأن كفرهم ضلال، ولا يهديهم في صدقاتهم وأعمالهم وهم على الكفر.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، أي: في الجهاد بالإخبار بما في الإنفاق من الأجر الجزيل، فالمنفق في سبيل الله له بكل نفقة سبعمائة حسنة.

٢- روعة التشبيه، فقد شبه الحسنة المنفقة بالحبة تلقى في الأرض، فينبثق منها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فإذا جمعت ما في السنابل من حبٍّ وجدته سبعمائة حبة.

٣- الصدقة المُتَقَبَّلَة هي الصدقة التي يُبتغَى بها وجه الله، وهي بعيدة عن المن والأذى، والرياء، ووجود واحد من هذه الثلاثة في الصدقة يبطلها.

٤- القول المعروف والمغفرة التي يواجه بها السائل والمحتاج خير من الصدقة التي يتبعها أذى.

٥- المن والأذى والرياء يبطل الصدقات.

٦- روعة التشبيه، فقد شبَّه المرائي بالحجر الصلد الأملس الذي عليه القليل من التراب، فهطل عليه المطر من السماء، فعرّاه، فأصبح لا يصلح للزرع والإنبات.

النص القرآني الثاني والستون من سورة البقرة
مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله

أولاً: تقديم

هذا النص كسابقه يتحدث عن المنفقين، وقد ضرب الله لهم في هذا النص مثلين:

الأول: الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم فمثلهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل، أي: مطر شديد، فآتت أكلها ضعفين.

والثاني: الذين يراؤون أو يمنون بنفقتهم، فهم كصاحب جنة عظيمة أصابها إعصار فيه نار فاحترقت.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله:

ضرب الله تعالى مثلاً للذين ينفقون أموالهم يطلبون بها رضوان الله تعالى، وتقوية معاني الخير في أنفسهم، كمثل جنة، أي: بستان واقع بربوة، وهي المكان المرتفع من الأرض، أصابها وابل، والوابل: المطر الغزير الذي يروي الأرض، فآتت أكلها ضعفين، والأُكُل ما يؤكل منها، والمراد به الثمار، والمراد بالضعفين أنها آتت حصادها مضاعفاً، أي: مرتين، فإن لم يصب تلك الجنة مطر قويٌّ أصابها الطلُّ، وهو الندى، وهو كافٍ في إحيائها، وجعلها تثمر ثمراً

جيداً، ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٦٥]، فهو بصير بعملكم، ويعلم من يستحق الجزاء الوافي الطيب ممن لا يستحقه ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٦٥].

٢- مثل الذين أوبقتهم الذنوب فأذهبت صالح أعمالهم:

ضرب الله تعالى مثلاً للمؤمنين الذين لهم أعمال صالحة كثيرة، فأذهبوا تلك الأعمال وأبطلوها بما اقترفوه من الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ [البقرة:٢٦٦].

خاطب الله – تبارك وتعالى – المؤمنين في هذه الآية، وقال لهم: أيحبُّ الواحد منكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب، وهي عند العرب خير الجنان، وثمارها خير الثمار، وهذه الجنة تجري من تحتها الأنهار، وثمار هذه الجنة ليس مقصوراً على ثمار النخيل والأعناب، ففي الجنة من كل الثمار، وذكر الله لنا أن صاحب هذه الجنة كَبِرت سِنُّه، وشاخ، وضعُفت قواه، فهو يعتمد على تلك الجنة فيما يحتاج إليه، ولهذا الشيخ العجوز ذرية ضعفاء، إما لصغرهم أو مرضهم أو لغير ذلك، فأصابها إعصار، أي: ريح شديدة عاصفة تحمل في طياتها ناراً محرقة، فيبست أشجارها، وغارت أنهارها، وبادت ثمارها، فيالحسرة صاحبها العجوز، ويالضياع ذريته الضعفاء.

روى البخاري عن عبيد بن عمير قال: قال عمر يوماً لأصحاب النبي ﷺ : فيم ترون هذه الآية نزلت ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ [البقرة:٢٦٦] قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم.

فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي، قل، ولا تحقِّر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أيُّ عمل؟ قال ابن عباس: لعمل.

قال عمر: «لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله» [البخاري: ٤٥٣٨].

وقد ضرب الله تبارك وتعالى في سورة الكهف مثلاً قريباً مما ضربه هنا في قوله: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾ [الكهف:٣٢-٣٤]. وذكر الله فيها كيف أحرق الله جنتيه، فأصبحت مدمرة خاوية على عروشها، ولذلك قال الله في خاتمة آية هذا النص: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢٦٦﴾ [البقرة:٢٦٦] ضرب الله المثل للعمل بطاعة الله الذي تتبعه الذنوب والمعاصي، فتدمره وتهلكه، وفي ذلك آية للمتفكر المعتبر.

٣- أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض:

نادى الله الذين آمنوا آمراً إياهم أن ينفقوا من طيبات ما كسبوه من التجارة، ومما كسبوه مما أخرجه الله لهم بطريق الزراعة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٦٧] وقد كانت أموال المهاجرين أغلبها من التجارة، وأموال الأنصار أغلبها من الزراعة، فالأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، وغير هذين النوعين من المال يعتمد عليهما، كالذي يرثه الإنسان من مورثه.

والمال المكتسب فعل الإنسان، أما الزرع فأسنده الله سبحانه إليه، لأنه فعله، لا فعلهم، فهو الذي ينبته، ويخرج ثمره.

ونهى ربُّ العزة - تبارك وتعالى - عن قصد إخراج الرديء مما يتصدق به، فقد اعتاد بعض الناس أن يمسكوا الجيد، ويخرجوا الرديء، أما الذي يخرج الرديء، لأن كل ثمره كذلك، فلا حرج عليه، قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢٦٧] أي: لو كنتم أنتم المنفق عليكم، وتُصُدِّق عليكم بالخبيث، أي: الرديء من التمر والعنب أو الملابس والأمتعة، ما كنتم لتأخذوه إلا أن تغمضوا فيه، أي: إلا أن تتسامحوا في أخذه، والإغماض هنا من إغماض الجفن، فكان الآخذ الرائي لكراهته لما أوتيه لم يملأ عينه منه [راجع: بدائع التفسير: ١/ ٤٢٨].

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٢٦٧﴾ [البقرة:٢٦٧] فالله - تبارك وتعالى - لكمال غناه وحمده يأبى قبول الرديء، والذي يقبل الرديء من المنفق عليهم يقبله لشدة حاجته إليه، أو لعدم كمال شرفه.

٤- سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾:

روى الترمذي في سننه عن البراء بن عازب، قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧] قال: «نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله

على قدر كثرته وقلّته، وكان الرجل يأتي بالقِنْوِ[١] والقِنْوَيْن فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصُّفَّة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القِنْوَ فضربه بعصاه، فيسقط من البُسْرِ والتمرِ فيأكل، وكان ناسٌ ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجلُ بالقِنْوِ فيه الشِّيص والحشفُ[٢]، وبالقِنْو قد انكسر، فيعلقه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة:٢٦٧] قالوا: لو أن أحدكم أُهديَ إليه مِثْلُ ما أعطاه لم يأخذه إلا على إغماض وحياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده» [الترمذي: ٢٩٨٧، وقال فيه: هذا حديث حسن غريب صحيح، وأورده الألباني في صحيح الجامع: ٢٣٨٩، وقال فيه: صحيح، وهو في صحيح ابن ماجه: ١٨٢٢].

٥- الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء:

أخبرنا العليم الخبير أن الشيطان يعدنا بالفقر، ويخوفنا منه، ويدعونا إلى البخل والشح، ويأمرنا بالفحشاء، والفحشاء في هذا الموضع البخل بإجماع المفسرين، فإذا أراد الإنسان الإنفاق، حذّره الشيطان من الفقر، وأمره بالإمساك، كي يسيء ظنه بالله تعالى، ولا ينفق مما أمره به، فيغضب ربُّه عليه، وأما الله - تبارك وتعالى - فإنه يعد عبده بالتوسعة عليه في الدنيا والآخرة، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة:٢٦٨].

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾﴾ فهو واسع العطاء، عليم بمن يستحق فضله، ومن يستحق عدله، فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وهو عليم بهذا وهذا.

٦- إيتاء الله الحكمة من يشاء:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه يؤتي الحكمة من يشاء، ومن آتاه الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة:٢٦٩] والحكمة: العلم والفهم والإصابة بالقول، وقال مالك: «إنه ليقع في قلبي أن الحكمة الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله» [ابن كثير: ١/ ٣٦٥]. ولا تختص الحكمة

---

(١) القنو: العذق بما فيه من الرطب.

(٢) الشيص: التمر الرديء الذي لم يتم نضجه، والحشف: أردأ التمر وهو الذي يجف من غير نضج ولا إدراك فلا يكون له نوى ولا لحاء ولا حلاوة ولا لحم.

بالنبوة، كما ذهب إليه بعض أهل العلم، فلقمان أوتي الحكمة، ولم يكن نبياً، ولكن الأنبياء لهم الحظ الأعلى من الحكمة.

ومما يدلُّ على أن الحكمة الفقه في الدين ما رواه ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها» [البخاري: ٧٣، مسلم: ٨١٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة:٢٦٩] ثناء من رب العزة على الذين تتلى عليهم آيات الله، فيفقهونها، ويتذكرون ما فيها من عبر وعظات، وهؤلاء هم أولو الألباب، أي: أصحاب العقول الوافية الزاكية.

رابعاً، ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ضرب الله المثل للذين ينفقون أموالهم طالبين مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، كمثل جنة تقع بربوة، وهي المكان العالي المرتفع، أصابها من المطر ما أروى أشجارها، فآتت أكلها ضعفين، أي: كان الناتج مضاعفاً، فإن لم يصبها الوابل من المطر، فيكفيها الندى الذي يبلل الأشجار، ويسقط على الأغصان ففيه خير كثير، وهذا مثل لما يحصّله المنفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، فلهم الأجر الجزيل والثواب العظيم.

٢- وضربت الآيات المثل بالذي يهلك أعماله الصالحة بالذنوب والمعاصي بالذي له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار في حال كبره وله ذرية ضعفاء، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت.

٣- على المسلم أن ينفق من مصادر كسبه الطيبة ومما أخرجه الله له من الأرض.

٤- على المسلم أن يُخرِجَ من طيب ماله، ولا يقصد المال الخبيث من الثمار والملابس ونحوها.

٥- الشيطان يحاول منعنا من الإنفاق والبذل في سبيل الله، والله يدعونا إلى البذل والعطاء، ويعدنا بالمغفرة والسعة على ما نقدمه لآخرتنا.

٦- الله يؤتي بعض عباده الفقه في الدين، وهي الحكمة.

النص القرآني الثالث والستون من سورة البقرة
وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر

أولاً: تقديم

هذا النص يقوِّم المنفقين، ويصحِّح نياتهم، ويرشدهم إلى الطريقة المثلى في الإنفاق، ففي هذا النص إخبار من ربنا أنه عليم بالمنفقين، ومطلع على أحوالهم، وفيها ترغيب بإخفاء الصدقات وإيتائها الفقراء، وفيها إعلام بأن الصدقة يعود نفعها على صاحبها، وفيها دعوة إلى معالجة المنفق قصده ونيته، بابتغاء وجه الله في إنفاقه، وفيها إعلام بأن المنفق سينال الأجر عند الله في يوم لقياه، وفيها توجيه للمنفقين أن يبحثوا عن الفقراء الذين يستحقون النفقة، ومدح في ختامها الذين يديمون الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانية.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة البقرة

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه:

رغبنا الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية بالإنفاق في مرضاته، والوفاء بما نذرناه من نذور، فالله عالم بما ننفقه وننذره، وسيجزينا على ما فعلناه من ذلك، ومع ما في هذه الآية من ترغيب ففيها ترهيب في الوقت نفسه، فالذي ينفق فيؤذي ويمنُّ، أو يرائي بنفقته ونذره، فإن الله عالم به، مطلع عليه، وصدقته مردودة غير مقبولة.

وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة:٢٧٠] أي: أن الذين ظلموا أنفسهم بالمنِّ والأذى على من أنفقوا عليهم، أو راءوا بنفقتهم، فليس لهؤلاء من أنصار، وسيبطل الله أعمالهم، وفي هذا ترهيب للظالمين.

وقد جاءت النصوص في القرآن وافرة كثيرة ترغب في الصدقة والإنفاق وعمل الخير ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة:٧] وقال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة:١٢١] وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

٢- صدقة السر أفضل من صدقة العلانية:

أخبرنا ربُّنا أن الذي يظهر صدقته يريد بها وجه الله فصدقته نعم الصدقة، والله يتقبلها، كما أخبرنا أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٧١].

وقد جاء في الصحيحين في حديث أبي هريرة في الذين يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» [البخاري: ٦٦٠، ١٤٢٣، ومسلم: ١٠٣١]. فهذا أحد الأصناف السبعة الذين يظلهم الله بظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظِلُّه.

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - في هذه الآية أن الصدقات تكفِّر السيئات، وتحطُّ الخطايا، وأعلمنا في ختام الآية أنه خبير بما نعمله، أي: لا يخفى عليه خافية من أعمالنا، وسيجزينا بما عملناه ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة:٢٧١].

٣- ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء:

قرر الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية أنه ليس من مهمة رسوله ﷺ والدعاة من بعده إدخال الهدى في قلوب العباد، فهذا لله وحده ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة:٢٧٢] وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [القصص:٥٦].

ولكنه لا رابط بين هذه الحقيقة وقصر النفقة على المؤمنين دون غيرهم، فيجوز لنا في غير الزكاة أن ننفق على غير المؤمنين من اليهود والنصارى وغيرهم، وبيَّن الله في سورة الممتحنة أنه لا حرج علينا أن ننفق على غير المحاربين، والممنوع هو إنفاقنا على المحاربين، قال سبحانه:

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾ [الممتحنة:٨-٩].

وأعلمنا الله تبارك وتعالى أن نفع النفقة يعود على المنفق ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٧٢]. والواجب على المنفق أن يخلص دينه لله، بأن يبغي، أي: يطلب بنفقته وجه الله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة:٢٧٢] ترغيب في الإنفاق، فأجر الذي تنفقونه سيعود إليكم وافياً، بل سيرجع إليكم أضعافاً مضاعفة.

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة ما يدلُّ على أن النفقة التي أخرجها صاحبها يريد بها وجه الله تعالى مقبولة، وإن وقعت في يد زانية، أو يد غني، أو سارق، وسيأتي قريباً ذكر الحديث الدال على ذلك.

٤- للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله:

حدَّد الله - تعالى - الذين يستحقون الصدقة بقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ﴾ [البقرة:٢٧٣] وقد وصف تبارك وتعالى الذين يستحقون الصدقة الواجبة بست صفات:

الأولى: أنهم فقراء.

الثانية: حبسهم أنفسهم على الجهاد في سبيل الله.

الثالثة: عدم استطاعتهم السفر والتقلب في الأرض، لكونهم قصروا أنفسهم على الجهاد، وقد استعمل القرآن الضرب في الأرض بمعنى السفر في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ﴾ [المزمل:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء:١١٠].

الرابعة: شدة تعففهم، وإظهارهم الغنى، حتى إن الجاهل بأحوال الناس يظنهم أغنياء.

الخامسة: أنهم يُعرَفون بسيماهم، وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها، وإذا كان الجاهل بأحوال الناس يظنهم أغنياء، فإن صاحب الفراسة يستدلُّ على فقرهم بسيماهم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر:٧٥].

السادسة: تركهم مسألة الناس، فلا يسألون الناس إلحافاً، والإلحاف هو الإلحاح، وهذا يدلّ على أن المذموم هو الإلحاف في السؤال، أما السؤال بقدر الحاجة فلا بأس به.

وقد بيَّن الله صفات الذين يستحقون الصدقة كي يوجه الصالحين من الأثرياء إلى البحث عمن تتحقق فيه الحاجة، بعيداً عمن يدعيها، وليس من أهلها.

وقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، واقرؤوا إن شئتم، يعني قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣]» [البخاري: ١٤٧٦] وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطوّافِ الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان»، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يُفطَن له، فيُتَصَدَّق عليه، ولا يسأل الناسَ شيئاً» [البخاري: ١٤٧٩، مسلم: ١٠٣٩].

٥- إذا تصدق على من يظنه من أهل الصدقة فبان أنه ليس من أهلها:

قد يتصدق المسلم على من يظن أنه من أهل الصدقة، فيظهر أنه ليس من أهلها، فهذا صدقته مقبولة، روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ على سارقٍ. فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ الليلة على زانية.

فقال: اللهم لك الحمد، على زانية، لأتصدقن بصدقة. فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ على غني. فقال: اللهم لك الحمد، على سارقٍ، وعلى زانية، وعلى غني، فأُتِيَ، فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يَسْتَعِفَّ عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زِناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر، فيُنفق مما أعطاه الله» [البخاري: ١٤٢١، مسلم: ١٠٢٢].

وهذه القصة في رجل صالح ممن كان قبلنا.

٦- تحذير الرسول ﷺ من لا يستحقُّ من السؤال:

حذَّر الرسول ﷺ عن المسألة إلا أن يسأل سلطاناً، أو فيما لا بد له منه، ففي الترمذي عن سمرة بن جندب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المسألة كَدٌّ يكدُّ بها الرجل وجهه، إلا أن

يسأل الرجل سلطاناً، أو في أمر لا بد منه» [سنن الترمذي: ٦٨١، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح، وأورده الألباني في صحيح الترمذي: ٥٤٨].

وفي الترمذي أيضاً عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : «من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة، ومسألته في وجهه خموش، أو خدوش، أو كدوح» قيل: يا رسول الله: وما يغنيه؟ قال: «خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب» [صحيح الترمذي: ٥٢٦، وخرجه الألباني في صحيح أبي داود: ١٤٣٨].

٧- ثناء الله تبارك وتعالى على الذين يديمون الإنفاق:

أثنى الله تبارك وتعالى على الذين يديمون الإنفاق من أموالهم بالليل والنهار، سرًّا وعلانية، ووعدهم بالثواب الجزيل والأجر العظيم، وطمأنهم على الآتي عليهم عند الموت وفي القبر وعند البعث والنشور، كما طمأنهم على ما خلفوه من الأهل والولد، فالله وليهم، وهو حسبهم ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة:٢٧٤].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- رغَّبنا ربنا - تبارك وتعالى - في الإنفاق ابتغاء وجه الله، وبالوفاء بالنذور، وأخبرنا بأنه عالمٍ بأعمالنا، وسيجزينا على ما عملناه.

٢- الذين ظلموا أنفسهم، وأبطلوا أعمالهم هم الذين يقبضون أيديهم عن الإنفاق، ولا يوفون بما نذروه، أو الذين ينفقون، ولا يبتغون وجه الله فيما ينفقونه، أو يؤذون المنفقين أو يراؤون.

٣- إذا أخلص المنفق وأظهر صدقته فهي صدقة مقبولة، ونعم الصدقة هي، وتبقى صدقة السر أفضل وأكثر أجراً.

٤- الإنفاق ابتغاء مرضاة الله يكفِّر الله بها الذنوب ويحطُّ الخطايا.

٥- يجوز الإنفاق في غير الصدقة الواجبة على الفقراء غير المسلمين.

٦- الإنفاق المقبول عند الله هو الذي يقصد به المنفق وجه الله تبارك وتعالى.

٧- وصف الله الفقراء الذين يستحقون الصدقة، وعلى المنفق أن يتعرف عليهم، ويوصلها إليهم.

٨- أثنى رب العزة على الذين يديمون الإنفاق من أموالهم بالليل والنهار في السر والعلانية، ووعدهم بالأجر الوافي، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

النص القرآني الرابع والستون من سورة البقرة
يمحق الله الربا ويربي الصدقات

أولاً: تقديم

كان الربا ولا يزال مرضاً عضالاً فتّاكاً، يدمر نفوس المرابين كما يدمر الأموال والمجتمعات الإنسانية، ويفتك باقتصاد الدول، وقد حدثنا ربنا في هذا النص عن جريمة الربا، فأخبرنا أن المرابين لا يقومون في يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، وأخبرنا أن المُصِرِّين على التعاطي بالربا هم أصحاب النار وهم فيها خالدون.

وأخبرنا - تبارك وتعالى - أنه يمحق الربا، ويربي الصدقات، وأخبرنا أن آكل الربا كفَّار أثيم، وتهدد المرابين أكلة الربا، وأمرهم أن يَدَعوا الربا، فإن أصرُّوا على التعامل به فأعلمهم بأنه سيشنُّ هو ورسوله عليهم حرباً عظيمة، وقد كان المجتمع الجاهلي غارقاً في الربا إلى أذنيه.

روى مالك عن زيد بن أسلم قال: «كان الربا في الجاهلية أن يكون للرجل على الرجل حقٌّ إلى أجل، فإذا حلَّ قال: أتقضي أم تربي؟ فإن قضاه أخذ، وإلا زاده في حقِّه، وزاده الآخر في الأجل» وروى الطبراني بإسناده إلى قتادة قال: «ربا أهل الجاهلية يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى، فإذا حلَّ الأجل، ولم يكن عند صاحبه قضاء زاد، وأخَّر عنه» [فتح الباري: ٤/ ٣٩٥].

وكانت الدول النصرانية تحارب الربا، ولم يزل اليهود يفتلون في الذروة والغارب حتى أقروا الربا في تلك الدول والمجتمعات، وقامت البنوك والمؤسسات المالية بالإقراض بالربا، وعجن الربا في تلك الديار بالمعاملات الاقتصادية كلها، وانتقل هذا المرض العضال إلى المجتمعات الإسلامية، وقامت المؤسسات المالية بعملية إقراض الربا، وأسرت المجتمع بأسره في بوتقتها.

ووصل بنا الحال إلى أن غرقت مجتمعاتنا بالربا ووصلنا إلى الزمن الذي قال فيه الرسول ﷺ: «فليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ أمن الحلال أم من الحرام» [البخاري: ٢٠٨٣].

لقد زاد التعامل بالربا في مجتمعاتنا اليوم عما كان عليه الحال في الجاهلية، واستشرى الربا في هذه المجتمعات، لقد دمر الربا المرابين، فولد عندهم الجشع، كما ولد فيهم الحرص والبخل، وهما مرضان ما اعتورا نفساً إلا أفسدا صاحبها، ومع الحرص والبخل يكون الجبن والهلع، فالانتظار صنعة المرابي، والمرابي جبان يكره الإقدام.

وأفسد الربا مجتمعاتنا، فقد نشر فيها العداوة والبغضاء والمشاحنات والخصومات، وقلَّ فيها التراحم والتعاطف.

لقد شقيت المجتمعات المعاصرة اليوم بسبب توزيع الثروة، ولم تظهر عيوب الربا كما ظهرت في العام الماضي (٢٠٠٨م) فقد انهار الاقتصاد العالمي كله، وتصدعت أركانه، واهتزّ بنيانه، وأخذ يموج ويتهاوى، لا في البلاد العربية، بل في الدول الكبرى، كأمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وغيرها.

وتنادى أصحاب هذه الدول مذعورين، وهم يرون مؤسساتهم المالية العملاقة وهي تهوي، وأصبح ملايين العاملين مشردين مسرَّحين من أعمالهم، وأخذت هذه الدول تضخ المال بكميات هائلة في الجسد المريض العليل، ولكن أنى يكون الشفاء!! لقد محق الله المال القائم على الربا، فكانت عاقبته إلى قلة واضمحلال، ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة:٢٧٦] لقد تبين أن تلك الأرقام الفلكية من الأموال ليس فيها بركة، وليست لها حقيقة، لقد ترنحت الدول الكبرى طويلاً بسبب داء الربا الذي أصابها، ومضت في ترنحها، حتى هوت في العام الماضي، ولم ينج من هذا المصاب إلا الذين ابتعدوا عن هذا المرض الفتاك، وهو الربا.

لقد أصابت العالم مصيبة كبرى ما بين عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٣٣ وقد دمرت تلك الهزة الاقتصادية أسواق المال، ولكن الهزة التي وقعت في عام ٢٠٠٨م أشد فتكاً، وأعظم هولاً.

لقد آن لنا أن نرفع أصواتنا نحن المسلمين مبينين منهج الإسلام في تحريمه للربا، وأن نعلن بوضوح أحكام شريعتنا المنزلة من عند العليم الخبير، بعيداً عن المضبوعين بالنظريات الغربية الضالة الفاسدة، وبعيداً عن الذين يَدْعون إلى تحليل الربا من قبل الشيوخ الذين ينسبون إلى العلم زوراً وكذباً، فالله حسيبهم، فقد أضلوا بضلالهم كثيراً من العباد.

وسنتناول في هذا النص الآيات التي حاربت الربا حرباً لا هوادة فيها، وهي آخر ما نزل من القرآن.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ

أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

ذكر الله فيما سبق مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وبيّن ما أعدَّ لهم عنده في جنات النعيم، وهؤلاء أخيار صالحون، ينفقون أموالهم في سبيل الله، ولا يُتْبِعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى، ثم أتبع الحديث عن ذلك الصنف الخيِّر الطيب بالحديث عن الفريق البخيل الجبان الجشع الذي يأكل الربا، فيدمر نفسه، كما يدمر المجتمع الذي يعيش فيه.

التعريف بالربا:

لم يواجه القرآن أصحاب كبيرة من الكبائر بمثل ما واجه به الذين يأكلون الربا، والربا في اللغة الزيادة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ﴾ [فصلت:٣٩] والمراد بربوها: ارتفاعها بسبب نزول الماء عليها، وتحرك النبات في جوفها.

والربا في الاصطلاح: «الزيادة المشروطة التي يتقاضها صاحب المال من المدين على رأس ماله نظير أجل معلوم يتفقان على تحديده» [راجع أحكام الجصاص: ١/ ٤٦٧].

٢- الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس:

رهَّب الله أكلة الربا والمتعاملين به بإخبارهم بالحال الذي يبعثون عليها في يوم القيامة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ﴾ [البقرة:٢٧٥] فالمرابون يبعثون من قبورهم في يوم القيامة حالهم حال الذي يتخبطه الشيطان من المس، وصورة الذي يتخبطه الشيطان من المس معروفة للمخاطبين، الشيطان إذا خالط الإنسان سلب منه عقله، وأصيب باضطرابات في جسده، فأخذ يخبط خبط عشواء، ويتصرف تصرفات خرقاء، والخبط الضرب على غير استواء.

وقد رأى الرسول ﷺ رؤيا، ورؤيا الأنبياء حق، وفيها ما يفعل بأكلة الربا، فعن سمرة ابن جندب ﷺ ، قال: قال النبي ﷺ : «رأيتُ الليلة رجلين أتياني، فأخرجاني إلى أرض

مقدسة، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد الرجل أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه، فردَّه حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر، فيرجع كما كان، فقلتُ: ما هذا؟ فقال: الذي رأيته في النهر آكل الربا» [البخاري: ٢٠٨٥. مسلم: ٢٢٧٥].

٣- تخبط الشيطان الإنسان من المس:

شبه الله تبارك وتعالى قيام أكلة الربا في يوم القيامة من قبورهم بالذي يتخبطه الشيطان من المس، وقد ساق الله هذه الحقيقة مخبراً بها، فلا وجه لإنكارها، لأن أخباره صدق لا كذب فيها.

وقد زعم المعتزلة أن القرآن حكى أساطير العرب وخرافاتهم، يقول الزمخشري: «تخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان، فيصرع» [الكشاف: ١/ ٣٩٨].

وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري خطأ كبير، فالقرآن أجلُّ وأعظم من أن يحكي خرافات العرب وأساطيرهم من غير بيان لكونها أسطورة أو خرافة، فالله ساق هذه الحقيقة وأخبر بها، وأخبار القرآن صدق كلها.

وأقوى الأدلة الدالة على وجود المس وقوعه، فوقوع الشيء أقوى الأدلة على وجود ذلك الشيء، ودعوى بعض الأطباء أن ذلك مرض ليس صواباً على إطلاقه، فمنه مرض، ومنه مسُّ الشيطان، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة دالة على مثل ما صرَّح به القرآن، ففي الحديث عن صفية أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم» [البخاري: ٢٠٣٨، مسلم: ٢١٧٥].

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: «ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ، فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: إن شئت صبرتِ، ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله أن لا أكشف، فدعا لها» [البخاري: ٥٦٥٢، مسلم: ٢٥٧٦].

وقد حكى ابن القيم رحمه الله تعالى أنه شاهد شيخه ابن تيمية وهو يعالج المصروعين، وكان يخاطب الجنيّ الذي يصرع الإنسان، ويأمره بالخروج، وقد يضربه، وقد يقرأ عليه آية الكرسي، أو يقرأ عليه المعوذتين، وقد يرسل إلى المصروع من يقول للجني: إن الشيخ يأمرك بالخروج [زاد المعاد لابن القيم: ص٦٧٨].

فالذي يرى أن لا صرع، وأن علاج الصرع باطل، فإنه يكذب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وأمثالهما، ويدعي أنهم كانوا كذابين يدجِّلون على الناس، وحاشاهم أن يكونوا كذلك.

٤- ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا:

بيَّن الله تبارك وتعالى في هذا الجزء من الآية أن المرابين جعلوا البيع والربا شيئاً واحداً، وشبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلاً والبيع فرعاً، فردَّ الله عليهم قائلاً: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥] والله تبارك وتعالى يحكم لا رادَّ لحكمه، وعلى العباد طاعته فيما حكم وقضى فيه، ولذلك قال: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة:٢٧٥].

أي من بلغه نهي الله - تبارك وتعالى - عن الربا فانتهى فله ما سلف، أي له ما أكله من الربا في الجاهلية قبل بلوغ النهي إليه، ومن عاد إلى أكله بعد بلوغه النهي حال كونه رافضاً ما جاء به الشرع من تحريم، فهذا من أصحاب النار الذين هم فيها خالدون.

٥- يمحق الله الربا ويربي الصدقات:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه يُذهِب أموال الربا، ويجعلها تقلُّ وتضمحل، وفي مقابل ذلك يربي الصدقات ويباركها، وينميها، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة:٢٧٦].

ومال الربا مال خبيث، وقد قال الله في المال الخبيث ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠]، وقال: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال:٣٧]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٩].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة:٢٧٦] يدل على عظم جريمة الكَفّارِ الذي يأكل الربا، فكفَّارٌ صيغة مبالغة من الكفر، وأثيم صيغة مبالغة من الإثم، فأكلة الربا كثير كفرهم عظيم إثمهم.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ كيف يقبل ربنا الصدقات الخالصة لوجهه، ويستثمرها لصاحبها، حتى تصبح الصدقة القليلة كالجبل العظيم، روى أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يُربِّي أحدكم فُلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل» [البخاري: ١٤١٠، مسلم: ١٠١٤].

وقد دلَّ على أن الربا عاقبته إلى اضمحلال وفي حديث جابر قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه وقال: هم سواء» [مسلم: ١٥٩٨].

٦- سعة أبواب الربا وكثرتها:

أبواب الربا واسعة كثيرة، ففي سنن ابن ماجه عن عبدالله، عن النبي ﷺ ، قال: «الربا ثلاثة وسبعون باباً» [سنن ابن ماجه، ٢٢٧٥، صحيح ابن ماجه: ١٨٤٤]. وفي سنن ابن ماجه أيضاً: «الربا سبعون حوباً، أيسرها أن ينكح الرجل أمَّه» [سنن ابن ماجه:٢٢٧٤، وصحيح ابن ماجه: ١٨٤٤]، ومن أنواع الربا ما يأتي:

أ- الفائدة التي تستحق على المال المقترض، فيدفع صاحب المال للمصرف أو لرجل مالاً، ويأخذ عليه فائدة، كأن تكون ثمانية أو عشرة في المائة، وقد يكون المصرف هو المقرض الذي يستحق الفائدة.

ب- بيع العينة، وهو أن يشتري المرء سلعة في الذمة إلى أجل، ثم يبيعها بنقد حالاً بسعر أقل، وقد باعت أم مُحِبَّة وهي أم ولد لزيد بن أرقم عبداً لزيد بن أرقم بثمانمائة درهم إلى العطاء، فاحتاج إلى ثمنه، فاشترته منه قبل أن يحلَّ الأجل بستمائة درهم، فاستفتت عائشة، فقالت لها: «بئس ما شريت، وبئس ما اشتريت، أخبري زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ ، قد بطل إن لم يتب، فقلت: أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة، قالت: نعم، ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة:٢٧٥]» [ابن كثير: ١/ ٦٤٤ وعزاه إلى ابن أبي حاتم، وقال ابن كثير: وهذا الأثر مشهور، وهو دليل لمن حرم مسألة العينة].

ج- ربا الفضل، وهو أن يبيع الرجل ذهباً أو فضة أو تمراً أو زبيباً أو قمحاً كل صنف بمثله بزيادة عليه، وقد ساق البخاري عدة أحاديث تبين حرمة هذه البيوع إلا بشرطين، الأول: التقابض في مجلس العقد، والثاني: التساوي، ومن هذه الأحاديث حديث عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ : «الذهب بالذهب رباً إلا هاءَ وهاءَ، والبُرُّ بالبر رباً إلا هاء وهاء، والشعير بالشعير رباً إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر رباً إلا هاء هاء» [البخاري: ٢١٧٤، مسلم: ١٥٨٦].

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : «الذهب بالذهب مثلاً بمثل، والورق بالورق مثلاً بمثل» [البخاري: ٢١٧٦]. والمراد بهاء وهاء: خذ وهات، وهي المقايضة في مجلس العقد، فإذا اختلفت هذه الأصناف كبيع الذهب بالفضة، أو القمح بالتمر، جاز التفاضل، ولزم التقابض.

٧- الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

أورد الله في أثناء آيات الربا قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة:٢٧٧].

وقد يعجب المتدبر لهذا النص، ويصعب عليه إيجاد المناسبة بين هذه الآية وآيات الربا التي وقعت الآية في أثنائها، وقد بلغ الأمر بالمفسِّرين الشهيرين ابن كثير والشوكاني أنهما لم يذكرا كلمة واحدة عن هذه المناسبة في تفسير هذه الآية.

والمناسبة فيما يبدو لي - والله أعلم - أن الله - سبحانه - ذكر حال المجتمع الإسلامي القائم على الإيمان والأعمال الصالحة، ومن هذه الأعمال إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهذا المجتمع المؤمن الخيِّر بعيد عن الربا، فهو مجتمع متراحم، يجود فيه الأغنياء على الفقراء، ويعين القويُّ الضعيف، بخلاف المجتمع الربوي الذي يمصُّ فيه الأغنياء دماء الفقراء، ويبطش فيه الأقوياء بالضعفاء، فهما مجتمعان: المجتمع المؤمن الذي يتعاطى بالنفقة لله، ويعطي ويبذل من غير منٍّ ولا أذى ولا رياء، والمجتمع المرابي الذي يقهر فيه المرابون الضعفاء ويذلونهم.

وأصحاب المجتمع الخيِّر لهم أجرهم عند ربهم، وهو يتولاهم، ولا خوف عليهم فيما يأتي من الزمان في القبر والبعث والنشور، ولا يحزنون على ما خلَّفوه من الأهل والذرية.

٨- تهديد أكلة الربا وتوعُّدهم:

تهدد الله - تبارك وتعالى - أكلة الربا وتوعَّدهم، وطالب المؤمنين أن يخافوا الله ويخشوه، ويتركوا ما بقي من الربا إن كانوا مؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة:٢٧٨]، فإن لم يفعلوا واستمروا على استحلالهم للربا وأكلهم له، فإنَّ الله سيحاربهم، وكذلك رسوله ﷺ، فإن تابوا عن الربا فإنهم يستحقون رؤوس أموالهم، ولا يجوز لهم المطالبة بالمزيد من المال، وإن لم يُعْطُوا رأس المال الذي لهم كانوا مظلومين ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٩].

وقد وضع رسول الله ﷺ ربا الجاهلية، وكان مما قاله في خطبته في حجة الوداع: «وربا الجاهلية موضوع، وأوّل ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبدالمطلب، فإنه موضوع كلُّه» [مسلم:١٢١٨].

وهذه الآية حددت الربا تحديداً دقيقاً، حيث جعلت كلَّ زيادة يأخذها ربّ المال على المقترض رباً، قَلَّت تلك الفائدة أو كثرت.

٩- إذا كان المدين معسراً وجب إنظاره إلى ميسرة:

إذا كان المدين معسراً وجب إنظاره إلى حين يسره، والأفضل من ذلك مسامحته بما عليه من مال، وهذه المسامحة تعدُّ صدقة عظيمة عند ربِّ العزة ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة:٢٨٠].

وقد ورد في فضل إنظار المعسر أحاديث تدلُّ على فضل عظيم، وأجر كثير، ففي صحيح البخاري ومسلم عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، قالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قال: كنت آمر فتياني أن ينظروا ويتجاوزوا عن المعسر، قال: فتجاوزوا عنه» [البخاري: ٢٠٧، مسلم: ١٥٦٠].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه» [البخاري: ٢٠٧٧، مسلم: ١٥٦٢].

وعن أبي قتادة أنه طلب غريماً له، فتوارى عنه، ثم وجده، فقال: إني معسر، فقال: آلله؟ قال: آلله، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سَرَّهُ أن ينجيه من كُرَبِ يوم القيامة، فلينفس عن معسر، أو يضع عنه» [مسلم: ١٥٦٣]. وفي رواية مسلم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظلَّه الله في ظلّه» [مسلم: ٣٠٠٦]. فإذا كان الغريم موسراً، فعدم سداده ما عليه من دَيْن ظلم، ويجيز هذا للدائن ملاحقته، ومقاضاته، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مطل الغني ظلم» [البخاري: ٢٢٨٧، مسلم: ١٥٦٤].

وقد امتنع الرسول ﷺ عن الصلاة على جنازة كان على صاحبها ثلاثة دنانير، فتحملها أبو قتادة، فصلى عليه الرسول ﷺ [البخاري: ٢٢٨٩].

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن الشهيد تغفر له جميع ذنوبه باستشهاده إذا قُتل في سبيل الله وهو صابر محتسب، مقبل غير مدبر إلا الدين [مسلم: ١٨٨٥].

١٠- واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله:

آخر ما نزله الله من كتابه على رسوله ﷺ آيات الربا من سورة البقرة، وآخر هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١]، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا» [البخاري: ٤٥٤٤]. وفي سنن ابن ماجه بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب قال: «إن آخر ما نزلت آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قُبض، ولم يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة» [ابن ماجه: ٢٢٧٦ وهو في صحيح ابن ماجه: ١٨٤٦]. ويبدو أن آيات الربا كلها وآخرها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] نزلت مرة واحدة.

وقد أمرنا الله - تبارك وتعالى - في هذه الآية أن نتقي ذلك اليوم الذي نرجع فيه إلى الله، وهو يوم القيامة، وفي ذلك اليوم توفى كل نفس ما كسبته من خير أو شر، وهم لا يظلمون، فالله الذي يحاسب عباده، يحاسبهم بالعدل الذي لا عدل يشبهه أو يدانيه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - حرّم الله الربا الذي كان سائداً في الجاهلية تحريماً قاطعاً، لا شبهة فيه.

٢- عظم جرم الذين يموتون غير تائبين من الربا، فإنهم يُبعثون يوم القيامة كالمصروعين الذين مسَّهم الشيطان، فأصابهم بالجنون.

٣- جعل المرابون في الجاهلية الربا أكثر حلاً من البيع، فقد شبهوا البيع بالربا، على وجه المبالغة، فردّ الله عليهم بأنّه أحل البيع وحرّم الربا.

٤- الذين بلغتهم النصوص المحرمة للربا فاتعظوا بها، وتركوا الربا لا يجوز مطالبتهم بالربا الذي أخذوه قبل ذلك، أما الذين يستمرون على استحلال الربا والتعامل به فهم أصحاب النار الذين يخلدون فيها.

٥- احتجّ المعتزلة على خلود أصحاب الكبائر في النار بهذه الآية التي تخبر عن خلود أكلة الربا في النار، واستدلالهم غير صحيح، لأن خلودهم في النار بسبب استحلالهم للربا الذي حرمه الله واستمرار تعاملهم به.

٦- في الآية الأولى ردٌّ على الذين يُنكرون أن يكون الصرع من الشيطان، فقد أخبر الله - تبارك وتعالى - أن المرابين يقومون يوم القيامة من قبورهم كالذي يتخبطه الشيطان من المس.

٧- المال المستفاد من الربا عاقبته إلى قلّ، فالله لا يبارك فيه، ويمحقه في الدنيا والآخرة، بخلاف الصدقات، فإن الله يربيها، ويباركها.

٨- المجتمع الربوي مجتمع فيه الكثير من الفساد والظلم والطغيان، بخلاف المجتمع المؤمن الذي تقام فيه الصلاة، وتؤتى الزكاة، فهذا مجتمع خيِّر مرحوم، وأصحابه لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

٩- تهدد الله أكلة الربا بالحرب يشنها الله عليهم، ويشنَّها عليهم رسوله ﷺ، وعلى خلفاء رسول الله ﷺ من بعده أن يأخذوا على أيدي المرابين ويحاربوهم.

١٠- الربا هو الفائدة على رأس المال، لا فرق في ذلك بين الكثير والقليل، لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [البقرة:٢٧٩] فكل زيادة على رأس المال فهي رباً.

١١- إذا عجز المدين فيجب على الدائن إنظاره لحين يسره، والأفضل والأطيب أن يتصدق الدائن بما له عليه من دَيْن.

١٢- الذين يزعمون أن الفائدة القليلة ليست رباً، والفائدة الكبيرة هي الربا، بعيدون عن فقه شرع الله تبارك وتعالى.

النص القرآني الخامس والستون من سورة البقرة
كتابة الدَّيْن والإشهاد عليه

أولاً: تقديم

أطال القرآن فيما سبق الحديث عن المجتمع الإسلامي المنفق في سبيل الله، وأتبع ذلك بالترهيب العظيم من الربا والمرابين، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويدمرون أنفسهم والمجتمع من حولهم، ثم أتبع الله ذلك في آيات هذا النص الأمر بتوثيق الدين بكتابته والإشهاد عليه، حفظاً لأموال الناس من الضياع، فإن لم نجد كاتباً، أو لم نستطع التوثيق فرهان مقبوضة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة البقرة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأمر بكتابة الدَّيْن:

نادى الله المؤمنين آمراً إياهم إذا تداينوا فيما بينهم بدَيْن إلى أجل مسمى أن يكتبوه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ﴾ [البقرة:٢٨٢]. «والدين – كما يقول الشوكاني – عبارة عن كلِّ معاملة كان أحد العوضين فيها نقداً، والآخر في الذمة نسيئة، فإنَّ العين ما كان حاضراً، والدَّيْن ما كان غائباً» [فتح القدير: ١/ ٥٠٦].

وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [البقرة:٢٨٢] دلَّ على أن الدَّيْن ينبغي أن يكون إلى أجل محدد معلوم، ولا يجوز أن يكون إلى أجل مجهول، وعن ابن عباس قال: قدم الرسول ﷺ المدينة، والناس يسلفون في الثمر العام والعامين - أو قال: عامين أو ثلاثة، شك إسماعيل - فقال: «من سَلَّف في تمر، فَلْيُسْلِفْ في كيل معلوم، ووزن معلوم» [البخاري: ٢٢٣٩، مسلم: ١٦٠٤]. وفي رواية: «من أسلف في شيء، ففي كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم» [البخاري: ٢٢٤٠، مسلم: ١٦٠٤].

وأمر الله بكتابة الدَّيْن، لأن في الكتابة حفظاً للأموال، وقطعاً للاختلاف، وقد رأيت الذين لا يكتبون يقع بينهم النزاع في مدة الأجل ومقدار الدَّيْن.

وظاهر النص يدلُّ على الوجوب، لأنه أمر بذلك عباده أمراً صريحاً لا خفاء فيه، وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأمر للإرشاد والاستحباب.

٢- وليكتب بينكم كاتب بالعدل:

أمر الله الدائن والمدين أن يعهدا بكتابة الدَّيْن إلى شخص يحسن الكتابة ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢]، والعدل متعلق بمحذوف صفة لكاتب، أي: كاتب متصف بالعدل، فإذا كتب فيجب عليه أن يتحرى الحق، ولا يزيد، ولا ينقص، ولا يميل إلى أحد الطرفين، ونهى الله الكاتب الذي يحسن الكتابة عن الامتناع عن الكتابة، ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ [البقرة:٢٨٢]، والمعنى: لا يمتنع القادر على الكتابة عن الكتابة، فالكتابة نعمة من نِعَم الله - تبارك وتعالى - ومن شكر النعمة أن يقوم بها في حال القدرة عليها، ومِن كُفْرِ النعمة عدمُ الكتابة في حال طلبها منه.

٣- وليملل الذي عليه الحق:

أمر الله - تبارك وتعالى - الذي عليه الحقُّ وهو المدين، أن يملي على الكاتب ما في ذمته من دَيْن من غير زيادة ولا نقصان، وعلى المدين المملي أن يتقي الله ربه، بحيث لا يبخس من الدَّيْن شيئاً، أي: لا ينقص منه شيئاً، ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٢٨٢].

فإن تعذر على المدين أن يملي لوجود حائل يحول دون ذلك، كأن يكون المدين سفيهاً، أي: محجوراً عليه، أو ضعيفاً كالصغير، أو ضعيف العقل، أو كان أبكم لا يتكلم، ونحو ذلك، فيحلُّ محلَّه وليُّه بالعدل ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢].

٤- واستشهدوا شهيدين من رجالكم:

لم يكتف الله - تبارك وتعالى - بكتابة الدَّيْن فحسب، ولكنه مع ذلك أمر باستشهاد شهيدين، فإن لم نجد رجلين فرجل وامرأتان ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ﴾ [البقرة:٢٨٢].

أمر الله باستشهاد رجلين من رجالنا، أي: من المسلمين، فلا يجوز استشهاد الكفار، فإذا لم نجد رجلين، فنستشهد رجلاً وامرأتين، وينبغي أن يكون الشهود عدولاً، ولذلك قال: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ فغير العدل ليس مرضياً في شهادته.

وبيَّن الحكمة من وراء استشهاد رجل وامرأتين إن لم نجد رجلين، وهي أن تذكِّر إحداهما الأخرى إن هي نسيت.

ونهى الله - سبحانه - الشهود عن الامتناع عن أداء الشهادة، وهذا يكون في حال تحملهم لها، أما إذا دعوا للشهادة فلا يجب عليهم تحملها، وإنما يستحب لهم ذلك فحسب، وقد روى زيد بن خالد الجهني أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء، الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسْأَلها» [مسلم:١٧١٩] والأحاديث الصحيحة التي ذمت الشهود الذين يسارعون في أداء الشهادة من غير أن يُسْأَلوها، هؤلاء شهود الزور.

٥- ذلكم أقسط عند الله:

مما يدلُّ على وجوب الكتابة التي أمر الله بها في أول الآية أن الله تعالى نهى المتداينين عن السأم من كتابة الحقِّ، سواءً كان الدَّيْن صغيراً أو كبيراً ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة:٢٨٢] وقوله: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟﴾ أي: لا تملُّوا أن تكتبوا الدَّيْن، ثم بيَّن الله تبارك وتعالى الحكمة من وراء الكتابة، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ [البقرة:٢٨٢].

والمشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الكتابة للحق المؤجل، و﴿أَقْسَطُ﴾: أعدل، وقوله: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: أثبت للشاهد، فالشاهد إذا شهد، ووضع خطَّه على وثيقة الشهادة، ثم رآه بعد ذلك تذكر شهادته، بينما لو لم يكتب الدَّيْن، فإن الشاهد قد ينسى أو يخطئ، وقوله: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ [البقرة:٢٨٢] أي: أقرب إلى عدم الريبة، فإن الكتاب الذي كتبوه ينفي عنهم الريبة، أي: الشك.

٦- لا يجب كتابة التجارة الحاضرة:

إذا كانت التجارة حاضرة يداً بيد، أي: إذا كانت السلعة حاضرة والثمن حاضراً، فلا داعي للكتابة، قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة:٢٨٢] والتجارة الحاضرة هي الناجزة الذي يستلم فيه المشتري السلعة، ويستلم البائع القيمة يداً بيد، وقوله: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي: تتداولونها وتتعاطونها من غير تأجيل، وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة:٢٨٢] والجناح هنا الإثم، وهذا يدلُّ على أن الكتابة واجبة إن لم تكن التجارة حاضرة.

٧- الإشهاد على البيع الناجز:

أمر الله بكتابة الدَّيْن إلى أجل والإشهاد عليه، وبيَّن أن التجارة الحاضرة لا تحتاج إلى كتابة، ولكنه أمر بالإشهاد عليها، فقال: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢].

والحكمة من وراء ذلك أن الإشهاد يقطع دابر الخلاف في فترة التسليم، فالمتبايعان قد يقع بينهما خلاف في هذه الفترة الوجيزة، وقد وقع هذا مع الرسول ﷺ، «فعن عمارة بن خزيمة أن عمَّه حدَّثه، وهو من أصحاب النبي ﷺ، أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي، فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابيُّ رسولَ الله ﷺ فقال: إن كنتَ مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعتُه، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، فقال: أو ليس قد ابتعتُه منك؟ فقال الأعرابي: لا، والله ما بعتُكَهُ، فقال النبي ﷺ: بلى، قد ابتعتُه منك، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً، فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة، فقال: بِمَ تشهد؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين» [سنن أبي داود: ٣٦٠٧، وأورده الألباني في صحيح أبي داود].

٨- لا تجوز مضارة الكاتب أو الشهيد:

نهى الله - تبارك وتعالى - عن مضارَّة الكاتب أو الشهيد ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢] وأعدل الأقوال في معنى الآية ما قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء، قالوا: «يُمْنَعُ الكاتب أن يكتب، ويُمْنَعُ الشاهد أن يشهد» [تفسير الماوردي: ١/٢٩٦]، والآية أوسع وأعمّ، فلا يجوز لأحد أن يضرَّ الكاتب أو الشهيد، كأن يمنع أحد المتعاقدين الكاتب أن يكتب، أو يلزمه بكتابةٍ مخالفة للحقّ، أو يمنع أحد المتعاقدين الشاهد أن يأتي بالشهادة على وجهها، ومن فعل شيئاً من ذلك استحق اسم الفسق، وقد أخبر الله

تبارك وتعالى أن الإضرار بالكاتب أو الشهيد يوقع الفسق في القوم الذين جرى فيهم هذا الأمر، أي يصبح المجتمع فاسقاً مختلاً، بعيداً عن الصواب.

وأمر الله – تبارك وتعالى – في ختام الآية عباده المؤمنين أن يتقوه، ووعدهم على التزامهم بالتقوى أن يعلِّمهم، وهو بكل شيء عليم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة:٢٨٢].

ولهذه الآية نظائر في كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨].

٩- إذا لم نجد في السفر كاتباً فرهان مقبوضة:

إذا تداين المسلمان في السفر ولم يجدا كاتباً يكتب الدَّيْن على النحو الذي شرعه الله في الآية السابقة، أو وجدا الكاتب، ولم يجدا أدوات الكتابة، فعلى المدين أن يسلم الدائن رهاناً مقبوضة، والرهان جمع رهن، والرهن ما يوضع وثيقة للدين [المفردات: ص٢٠٤]. قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة:٢٨٣] ومعنى ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي: فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة، أي: في يد الدائن، وهذا يدلُّ على أن الرهن لا بد أن يكون في يد الدائن. وقد ذهب بعض أهل العلم أن الرهن لا يكون إلا في السفر، وهذا ليس بصحيح، فقد صحَّ «أن رسول الله ﷺ اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل، ورهنه درعاً من حديد» [البخاري: ٢٠٦٨، مسلم: ١٦٠٣ من حديث عائشة].

١٠- فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدِّ الذي اؤتمن أمانته:

قد يتداين المسافران في سفرهما، ولا يوجد كاتب يكتب ذلك الدَّيْن المؤجل، ويكون الدائن واثقاً من المدين في دينه وخلقه، فلا حاجة في هذه الحال إلى الرهن، وعلى المدين عندما يحلُّ الأجل أن يؤدي المال الذي اؤتمن عليه من غير وثيقة، وليتق الله تبارك وتعالى في رعايته لحقوق الأمانة ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٣].

١١- جريمة كتمان الشهادة:

نهى الله – تبارك وتعالى – الشهود عن كتمان الشهادة، وأخبر أن كاتم الشهادة آثم قلبه، فالفساد والفجور تغلغلا في قلبه، وحذر الله الكاتم للشهادة، فأعلمه بأنه عليم بكتمانه، وسيوقفه بين يديه، ويحاسبه على ما كان منه من الكتمان ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا

﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾ [البقرة:٢٨٣] ونسب الإثم إلى القلب، لأن كاتم الشهادة يضمر الكتمان في قلبه، والقلب رئيس الأعضاء والمؤثر فيها.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أوجب الله كتابة الديون التي تكون إلى أجل مسمى.

٢- على المتعاقدين في دَيْن إلى أجل مسمى أن يختارا كاتباً عدلاً يحسن كتابة الدَّيْن، ويبين فيه مقداره والأجل الذي يحلّ فيه الدين.

٣- أمر الله المدين أن يملي على كاتب الدَّيْن، وعليه أن يتقي الله بذكر مقدار الدَّيْن وأجله من غير زيادة ولا نقصان.

٤- إذا كان المدين لا يستطيع أن يملي لصغره، أو خرفه، أو ضعف عقله، أو لكونه أبكم، فإن وليه يحُلُّ محله في الإملاء.

٥- أمر الله مع كتابة الدَّيْن بإشهاد رجلين من المسلمين، فإن لم نجد رجلين فنُشهد رجلاً وامرأتين، ويجب أن يكون الشهود عدولاً، فلا يرضى بشهادة فاسق، فإنه لا يأتي بالشهادة على وجهها.

٦- بيّن الله الحكمة من استشهاد شاهدتين اثنتين إذا لم نجد إلا شاهداً واحداً، وهو أن تذكِّر التي حفظت الشهادة من نسيتها.

٧- لا يجوز للشاهد الذي تحمل الشهادة أن يكتم الحق الذي تحمله إذا دعي للشهادة.

٨- دعا الله إلى كتابة الدَّيْن، لا فرق في ذلك بين الكبير والصغير.

٩- بيَّن الله - تبارك وتعالى - وجه الحكمة من إيجابه لكتابة الدَّيْن، فالكتابة فيها تقييد للعلم الذي قد ينسى، ويذهب الريب، وهو الشك الذي يخالط عقول الشهود في بعض الأحيان، ويجعل الشاهد يأتي بالشهادة على وجهها الصحيح.

١٠- لا داعي لكتابة التجارة الحاضرة، التي يدفع فيها الشاري الثمن ويقبض السلعة حالاً من غير تأخير، ولكنه أمر بالإشهاد على التجارة الحاضرة حتى لا يقع النزاع والاختلاف.

١١- لا يجوز إيقاع الضرر بالكاتب أو الشهيد، ومن أوقع الضرر بأي منهما فقد أفسد نفسه، وحلَّ به الفسق.

١٢- التقوى باب لتحصيل العلم الشرعي، فالذي يتّقي ربَّه يعلمه الله عز وجل، وهو بكل شيء عليم.

١٣- إذا كان المتداينان مسافرين، ولم يجدا كاتباً يكتب لهما، أو لم يجدا أدوات الكتابة فعلى المدين أن يدفع للدائن رهناً يقبضه، وثيقة لدَيْنه، ولا بأس بتوثيق الدَّيْن برهن في حال الإقامة كما ورد في الأحاديث.

١٤- لا حاجة إلى الرهن إذا وثق الدائن في سفره في دِيْن المدين وخُلُقِه.

١٥- رهَّب الله الذين يكتمون الشهادة بإخبارهم بأن قلوبهم آثمة بسبب ذلك الكتمان، وبأنه سيحاسبهم في يوم القيامة عن كتمانهم.

النص القرآني السادس والستون من سورة البقرة
خاتمة سورة البقرة

أولاً: تقديم

هذا النص الكريم يحوي ثلاث آيات هي خاتمة هذه السورة العظيمة، سورة البقرة، والآيتان الأخيرتان من هذه الخاتمة هما من أفضل آيات القرآن كما سيأتي بيانه، وهما منزلتان من كتاب كتبه ربُّ العزة قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بألفي عام [الترمذي، وقال فيه: حسن غريب، الترمذي: ٢٨٨٢، صحيح الترمذي: ٢٣١١].

وأخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - في الآية قبل الأخيرة من هذا النص أن رسولنا ﷺ آمن بما أنزل إليه من ربه، وكذلك المؤمنون آمنوا بمثل ما آمن به رسولهم، وأنهم جميعاً آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، والتفريق بين الرسل يكون بالإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض، وهم مع إيمانهم بما ذكره الله يقولون: سمعنا وأطعنا، ويستغفرون ربهم، ويؤمنون بأن المرجع والمصير إلى الله، أي: يؤمنون بيوم الدين.

وفي الآية الأخيرة بيان لطبيعة هذا الدين، فهو تكاليف إلهية ربانية، مراعى فيها طاقة الإنسان ووسعه، لا يؤاخذ فيها على الخطأ ولا النسيان، بعيداً عن التكاليف الشاقة والآصار التي حملتها بعض الأمم السابقة.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لله ما في السموات والأرض:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - في آيات كثيرة أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف فيهما كيف يشاء، والخالق المتصرف هو المالك لهما وحده لا شريك له، وهذا يبطل

قول كلِّ من يدَّعي أن في الوجود إلهاً غير الله يستحق العبادة ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [البقرة:٢٨٤].

٢- وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله:

أعلمنا الله - عز وجل - في هذه الآية أنه يحاسبنا على ما أظهرناه من أمورنا كإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك، كما يحاسبنا على ما أخفيناه، وهو الذي أضمرناه في قلوبنا، كالنيات، والهم بالحسنات والسيئات، فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، والله - تبارك وتعالى - قادر على كل شيء، ومن ذلك محاسبة العباد على ما أظهروه أو أخفوه ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة:٢٨٤].

٣- شدة هذه الآية على صحابة رسول الله ﷺ عند نزولها ونسخها بعد ذلك:

عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [البقرة:٢٨٤] ثقلت على الصحابة، واشتدت عليهم، وجاؤوا يشكون إلى رسول الله ﷺ.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة:٢٨٤] قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الرُّكَب، فقالوا: أي رسول الله! كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها.

قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥]» قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾. فلما اقترأها القومُ ذلَّت بها ألسنتُهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾، «قال: نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا

﴿تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ «قال: نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ «قال: نعم» ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ «قال: نعم» [البقرة:٢٨٦]» [مسلم: ١٢٥].

وروى مسلم أيضاً في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة:٢٨٤] قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلَّمنا» قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ قال: «قد فَعَلْتُ» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ «قال: قد فعلتُ» ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ «قال: قد فعلتُ» [البقرة:٢٨٦]» [مسلم: ١٢٦].

٤- فضل الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة:

أنزل الله - تبارك وتعالى - قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ [البقرة:٢٨٥] والآية التالية لها، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن في هاتين الآيتين فضلاً عظيماً، وثواباً جزيلاً، فمن ذلك:

أ- أخبرنا رسولنا ﷺ أن نورهما أحد نورين أوتيهما رسولنا ﷺ لم يؤتهما نبي قبله، فعن ابن عباس قال: «بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم، لم يُفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قطُّ إلا اليوم، فسلَّم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌّ من قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته» [مسلم: ٨٠٦].

ب- أخبرنا رسولنا ﷺ أن من قرأ بالآيتين الأخيرتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه، فعن أبي مسعود قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» [البخاري: ٥٠٠٩، مسلم: ٨٠٧، ٨٠٨].

ج- هاتان الآيتان أنزلهما الله من كتاب كتبه قبل خلقه السماوات والأرض بألفي عام، فعن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها الشيطان» [الترمذي: ٢٨٨٢، وقال فيه: هذا حديث حسن غريب، صحيح الترمذي للألباني: ٢٣١١].

٥- آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - مثنياً على رسوله محمد ﷺ وأصحابه الكرام أنهم آمنوا بما أنزل عليهم من ربهم، وآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، والتفريق بينهم يكون بالإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض، كاليهود الذين آمنوا بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم وكفروا بعيسى ومحمد ﷺ ، والنصارى الذين آمنوا بالأنبياء وبعيسى، وكفروا بمحمد ﷺ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقد ذكرت هذه الآية أصول الاعتقاد التي لا يكون مؤمناً من كفر بواحد منها، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعاً، غير مفرقين بينهم، أما الأصل الخامس وهو الإيمان باليوم الآخر، فقد ذكره الله في خاتمة الآية في قوله: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥]. والمصير: الجزاء والحساب في يوم القيامة.

ومعنى قوله: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة:٢٨٥] أي: سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه، وامتثلناه، وعملنا بمقتضاه.

٦- لا يكلف الله نفساً إلا وسعها:

هذه الآية هي الآية الناسخة لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة:٢٨٤]، وقد أعلمنا الله - تبارك وتعالى - أنه لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من رحمته سبحانه بعباده، ولطفه بهم، وقرر - سبحانه - في هذه الآية أن لكل نفس ما كسبته من خير، وعليها ما اكتسبته من شر، وهذا في الأعمال الظاهرة التي يطيق العباد التحكم بها كالصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ فيه ترغيب بفعل الخير، ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ ترهيب من فعل الشر.

وأعلمنا ربنا أنهم يقولون في دعائهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾ [البقرة:٢٨٦].

يقولون: يا ربنا لا تؤاخذ إن نسينا شيئاً مما فرضته علينا، كالذي ينسى صلاة، أو ركعة من الصلاة، أو طوافاً بالبيت أو شوطاً في السعي، أو نحو ذلك ولا تؤاخذنا إن أخطأنا، كالذي لا يهتدي إلى وجه الصواب فيما كلف به من أعمال، دعا الرسول ﷺ وأصحابه بهذا الدعاء فقال الله: «نعم» أي: لا أُؤَخِذُكم بذلك. ومن دعائهم قولهم: ﴿وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ [البقرة:٢٨٦] أي: «لا تحمل علينا إصراً يثقل علينا كما حملته على الذين من قبلنا، نحو أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم، أي: لا تمتحنا بما يثقل» [معاني القرآن، للزجاج: ١/ ٣٧١] والإصر: الأثقال التي تثبط عن الخيرات.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن ربنا استجاب دعاء رسوله ﷺ ودعاء أصحابه، فلم يحمل علينا الآصار والأغلال التي حملها على الذين من قبلنا، ودعوا ربهم أن لا يحملهم ما لا طاقة لهم به، ودعوه أن يعفوا عنهم ويغفر لهم، وقالوا في ختام هذا الدعاء الطيب المبارك: ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة:٢٨٦] أي: ناصرنا، ومتولي أمورنا، فانصرنا على الكفرة المشركين الذين رفضوا دينك، وأعرضوا عن كتابك، وحاربوا رسولك.

وقد جاءت أحاديث كثيرة تدل على ما تضمنته هاتان الآيتان الكريمتان، من صفة التكاليف التي كلف الله بها عباده:

أ- فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به» [مسلم: ١٢٧].

ب- وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة، فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف» [البخاري: ٧٥٠١، مسلم: ١٢٨].

ج- عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذلك صريح الإيمان» [مسلم: ١٣٢].

د- وعن عبدالله قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، قال: «تلك محض الإيمان» [مسلم: ١٣٣].

هـ- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته» [البخاري: ٣٢٧٦، مسلم: ١٣٤].

دلت هذه الأحاديث على عدم مؤاخذة الله إيانا بما حدثتنا به أنفسنا ما لم نتكلم أو نعمل، وأنه لا يؤاخذ المؤمنين بما وسوست به الشياطين، وسمَّى دفع هذه الوسوسة: صريح الإيمان ومحض الإيمان.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الله -تبارك وتعالى- هو خالق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو مالكهما، وكل ما فيهما مخلوق مربوب خاضع لله رب العالمين، وهذا ينفي وجود آلهة مع الله، وينفي وجود الولد لله.

٢- أخبر الله - تبارك وتعالى - أنه يحاسبنا على كل ما نبديه ونخفيه من أعمالنا، ثم نسخ ذلك، وقرر أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها.

٣- الله قادر على كل شيء، ومن ذلك محاسبة عباده جميعاً، فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء.

٤- أصول الإيمان التي لا يتمُّ الإيمان إلا باعتقادها وتقريرها والعمل بمقتضاها خمسة، وهي - كما ورد في الآية - الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٥- يجب الإيمان برسل الله جميعاً، ومن كفر بواحد من الرسل فهو كافر بهم جميعاً، وهو من أهل النار، ومن الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض الذين كفروا بنبينا محمد ﷺ من اليهود والنصارى.

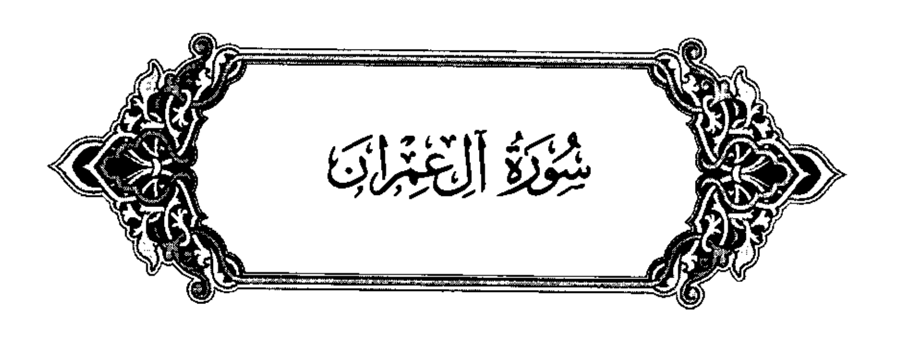
٦- يجب على المؤمن أن يفقه وحي الله إليه، ثم بعد ذلك يعمل بمقتضى ما فقهه من الكتاب والسنّة، ويدعو الله أن يغفر له ما يقع فيه من تقصير.

٧- الله رحيم بعباده، شفيق بهم، لا يكلفهم فوق ما يطيقون، ولا يحاسبهم إلا على ما عملوه، من خير أو شر.

٨- هذا الدين الذي أنزله الله على محمد ﷺ ليس فيه شيء من الآصار والأغلال التي حملها اليهود من قبلنا، فقاعدة الحلال والحرام في ديننا: إحلال الطيبات وتحريم الخبائث.

٩- فضل هاتين الآيتين اللتين ختم الله بهما سورة البقرة، وعلى المسلم أن يكثر من تلاوتهما، والتأمل في معناهما، والإكثار من الدعاء بما جاء فيهما من دعاء.

١٠- الله مولانا وناصرنا ومؤيدنا، وهو وحده القادر على نصرنا على القوم الكافرين.



أولاً: التعريف بهذه السورة

قال أبو عمرو الداني: «سورة آل عمران مدنية، ولا نظير لها في عددها، وكَلِمُها ثلاثة آلاف كلمة وأربعمائة وثمانون كلمة، وحروفها أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرون حرفاً، وهي مئتا آيةٍ في جميع العدد» [البيان في عد آي القرآن: ١٤٣].

وسميت هذه السورة بآل عمران، لأنها تحدثت عن آل عمران، وبينت فضلهم، وعمران والد مريم التي هي أم عيسى عليهما السلام.

وسمى الرسول ﷺ البقرة وآل عمران بالزهراوين.

ونزلت الثمانون آية من أول سورة آل عمران في وفد نصارى نجران الذين قدموا على الرسول ﷺ ، قال ابن تيمية: «سبب نزول هذه الآية كان قدوم نصارى نجران ومناظرتهم للنبي ﷺ في أمر المسيح، كما ذكر ذلك أهل التفسير وأهل السيرة، وهو من المشهور، بل من المتواتر أن نصارى نجران قدموا على النبي ﷺ ، ودعاهم إلى المباهلة المذكورة في سورة آل عمران. «المباهلة: الملاعنة، ومعناها أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء، فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا» فأقروا بالجزية ولم يباهلوه. وصدر آل عمران نزل بسبب ما جرى، ولهذا عامتها في أمر المسيح» [مجموعة فتاوى شيخ الإسلام: ١٧/ ٢٠٤].

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن حذيفة، قال: جاء العاقب والسيد، صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً، فلاعنَّا، لا نفلح نحن ولا عقبُنا من بعدنا، قالا: إنّا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين» فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام قال رسول الله ﷺ : «هذا أمين هذه الأمة» [البخاري: ٤٣٨٠، مسلم: ٢٤٢٠ مختصراً].

ثانياً: فضل هذه السورة

سبق ذكر الأحاديث الواردة في فضل سورة البقرة وسورة آل عمران، ومنها:

١- ما رواه أبو أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقانِ من طير صوافَّ. تحاجان عن أصحابهما» [مسلم: ٨٠٤] وقوله في الحديث: «الزهراوين» سميتا بذلك لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما. وقوله: «كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان» أي: ثوابهما يأتي كأنه غمامتان أو غيايتان، والغمامة أو الغياية كلُّ شيء أظلَّ الإنسان فوق رأسه، سحابة أو غيرها.

٢- وعن النواس بن سمعان الكلابي قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهلِه الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران» وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال، ما نسيتهن بعد. قال: «كأنهما غمامتان أو ظُلَّتان سوداوان، بينهما شَرْقٌ، أو كأنهما حِزْقان من طير صوافّ. تُحاجّان عن صاحبهما» [مسلم: ٨٠٥] وقوله: «شَرْقٌ» أي ضياء ونور. و«حِزْقان» و«فرقان» بمعنى واحد.

النص القرآني الأول من سورة آل عمران
التعريف بالله الحي القيوم

أولاً: تقديم

حدثنا الله في طليعة هذه السورة عن نفسه سبحانه وتعالى، فهو الله الواحد الذي لا يستحقُّ العبادة أحدٌ سواه، وهو الحي القيوم، القائم بنفسه المقيم لغيره، وهو الذي أنزل الكتب على رسله هداية للناس، وهو القوي الغالب الذي يضع كل شيء موضعه، المنتقم من أعدائه، المطلع على جميع المخلوقات، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الذي خلقنا وصورنا في أرحام أمهاتنا كيف أراد، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الله هو المعبود بحق لا إله إلا هو الحي القيوم:

افتتح الله هذه السورة بمثل ما افتتح به سورة البقرة من الحروف المقطعة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [آل عمران:١] وقد قلنا هناك: إن أصح الأقوال في تفسيرها: أن هذا القرآن الذي أعجز الجن والإنس أن يأتوا بمثل سورة واحدة من سوره، حروف كلماته مكونة من هذه الحروف وأمثالها من حروف اللغة العربية.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران:٢] المعنى: أن الله هو المعبود الحق الذي لا يستحق العبادة أحد إلا إياه و﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ أي: الذي حياته تامة كاملة، فهو حي دائماً وأبداً، وهو قيوم، أي: قائم بنفسه مقيم لغيره، وقد سبق بيان هذا المعنى في آية الكرسي في سورة البقرة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

٢- الله الذي أنزل كتبه على رسله وأنبيائه:

امتنّ الله على عبده ورسوله محمد ﷺ أنه نزَّل عليه كتابه وهو القرآن، إنزالاً كائناً بالحق مصدقاً لما أنزله من قبله من الكتب، كما أنزل من قبله التوراة التي أنزلت على موسى والإنجيل الذي أنزله على عيسى ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾ [آل عمران:٣]، والغاية من إنزال الكتب هو هداية الناس إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، وأخبر الله أنه أنزل الفرقان، والفرقان يطلق على كل كتاب أنزله الله فقال في الكتاب الذي أنزل على موسى وهارون ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء:٤٨]. وقال في الكتاب الذي نزله على رسولنا ﷺ : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان:١] سمى المنزل فرقاناً، لأنه يفرق به بين الحق والباطل، والخير والشر، والصلاح والفساد. قال تعالى في هاتين الآيتين اللتين بيّنا معناهما: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:٣-٤].

وقد تهدَّد ربُّ العزة الكفرة الذين يجحدون هذه الكتب وينكرونها، وأخبر أن لهم عذاباً شديداً في يوم القيامة، وأنه عزيز، أي: منيع الجناب عظيم السلطان، وهو منتقم ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام، وأنبياءه العظام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران:٤].

٣- الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء:

عرَّف الله عباده بنفسه، فأخبر في خاتمة الآية السابقة أنه عزيز ذو انتقام، وذكر في الآية التالية أن علمه محيط بجميع خلقه، لا يخفى على الله منهم شيء، لا في الأرض ولا في السماء، فهو يعلم كل أحوالنا، ويرانا ويشاهد الكبير منا والصغير، وأعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه هو الذي يصورنا في الأرحام كيف يشاء، وقد توصل العلم البشري اليوم إلى معرفة بعضاً من العمليات الهائلة التي تجري في الرحم منذ أن تتحد بويضة المرأة بالحيوان المنوي إلى أن يصبح الجنين طفلاً كاملاً، فسبحانه الواحد الأحد، الذي يستحقُّ العبادة دون سواه، وهو العزيز، أي: القويُّ الغالب، الحكيم الذي يضع كلَّ شيء موضعه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران:٥-٦]. وقد حدَّثنا الله تبارك وتعالى عما يجريه في الأرحام في غير موضع من كتابه، كقوله

تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)﴾ [الزمر:٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الله هو المعبود الواحد الذي لا يستحق العبادة أحدٌ سواه، فهو الذي يملك صفات الألوهية والربوبية، ومن ذلك أنه حيٌّ قيوم.

٢- الله هو الذي أنزل كتبه على رسله هداية للناس للتي هي أقوم، وأعظم هذه الكتب ما أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، وعلى موسى وهو التوراة، وعلى عيسى وهو الإنجيل.

٣- جميع الكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى تسمى فرقاناً، لأن المنزل عليهم يفرقون بها بين الخير والشر، والهدى والضلال، والصلاح والفساد.

٤- الذين كفروا بآيات الله المنزلة من الأولين والآخرين، لهم عذاب شديد في يوم القيامة، وقد يوقع الله بهم العذاب في الدنيا.

٥- الله عالم بخلقه، مطلع عليهم، لا يخفى عليه من أمورهم شيء، لا في الأرض ولا في السماء.

٦- الله الذي يخلق عباده في الأرحام، ويصورهم فيها كما يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

٧- عيسى عليه السلام عبد مخلوق، خلقه الله في رحم أمه مريم كما يشاء، وأجرى عليه السنن التي أجراها على عباده، وإن كانت أمه قد حملت به من غير زوج.

النص القرآني الثاني من سورة آل عمران
بعض آيات القرآن محكمات وأخر متشابهات

أولاً: تقديم

بيَّن الله لنا في آيات هذا النص شيئاً من طبيعة هذا القرآن، فالقرآن الذي أنزله الله تعالى قسمان: **الأول**: الآيات المحكمات الواضحة في دلالتها على المقصود منها، وهذه الآيات هن أم الكتاب، أي: أصله الذي يرد إليه المتشابه. **والثاني**: الآيات المتشابهات، وهي التي تحتمل أكثر من معنى، وقد اتخذها أهل البدع من الباطنية والخوارج والمعتزلة وغيرهم سبيلاً لإثارة الفتن، بخلاف الراسخين في العلم الذين يؤمنون بها، فإن علموها وإلا وكلوا علمها إلى الله تبارك وتعالى.

وهذا النص أصل كبير في فقه القرآن وتفسيره.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الآيات المحكمات والآيات المتشابهات:

الإحكام والتشابه في القرآن نوعان: الأول: الإحكام العام، والتشابه العام. والثاني: الإحكام الخاص، والتشابه الخاص.

الأول: الإحكام العام والتشابه العام: أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن آيات القرآن كلها محكمات، قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود:١]، والمراد بالإحكام هنا في النظم والرصف، وأنها حقٌّ كلُّها، وصدق كلها، وهذا هو الإحكام العام، أي: الشامل لجميع آيات القرآن.

وكما أن آيات القرآن كلها محكمة، فهي أيضاً متشابهة كلُّها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر:٢٣]. أي: يشبه بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، وهذا هو التشابه العام.

الثاني: الإحكام الخاص والتشابه الخاص: وهذا نوع آخر من المحكم والمتشابه، وهو الذي تحدَّث الله عنه في قوله في آيات هذا النص: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧].

والمراد بالآيات المحكمات في هذه الآية اللاتي هنَّ أم الكتاب الآيات البينات الواضحات الدلالة، التي يستوي في فهمها من يعلم العربية، لوضوح مفرداتها، وإتقان تركيبها، قال الراغب: «المحكم ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى» [المفردات: ص١٢٨].

وقد وصف الله – تعالى – الآيات المحكمات بأنهن أمُّ الكتاب، أي: أصل الكتاب الذي يرجع إليه عند الاشتباه.

وأما الآيات المتشابهات فقال الراغب الأصفهاني في بيان المراد منها: «المتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى» [المفردات: ٢٥٤].

٢- هل يُعرف معنى الآيات المتشابهات:

سبق أن بينت أن الآيات المحكمات هي الآيات المصاغة صياغة تدل على معنى واضح ظاهر بيِّن لا يختلف أهل العلم في فقه معناه، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [البقرة:١٦٣]، وقوله: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾ [طه:١٤]، وقوله: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون:٩١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ [الفرقان:٢] وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:٣-٤]. ومن الآيات المحكمات قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام:١٥١] والنصوص المحكمات في القرآن كثيرة.

وقد جعل الله الآيات المحكمات أمَّ الكتاب، والمراد بالكتاب القرآن، أي جعلها أصله المعتمد عليه، وعلى ذلك فيجب ردّ المتشابه إليها.

والآيات المتشابهات هي التي تحتمل أكثر من معنى، وليست هي التي لا يعلمها أحد إلا الله تبارك وتعالى، فالقرآن كلُّه نزل بلغة العرب، وكلُّه معروف المعنى، وقد أمرنا الله تبارك وتعالى بتدبره كلِّه، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤]،

وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

فالآيات المحكمات والمشابهات كلها لها معانٍ، ومطلوب من العباد تدبر معانيها، وقد كان الصحابة يفقهون القرآن كلَّه، وكانوا يعلِّمونه لمن بعدهم، لا فرق في ذلك بين المحكم والمتشابه.

قال ابن تيمية: «فسَّر الصحابة للتابعين القرآن كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أقف عند كل آية منه، وأسأله عنها. ولهذا قال سفيان الثوري: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به» وكان ابن مسعود يقول: «لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته» وكل واحد من أصحاب ابن مسعود وابن عباس نقل عنه من التفسير ما لا يحصيه إلا الله» [مجموعة فتاوى شيخ الإسلام: ٥/ ١٠١].

٣- موقف العباد من المحكم والمتشابه:

ذمَّ الله الذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون المتشابه، ويعرضون عن المحكم، ويجعلون المتشابه هو الأصل، ويفسرونه وفق ما يشتهونه، فيحرفونه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلونه عليها ابتغاء الفتنة، أي: لإضلال أتباعهم، وإيهامهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:٧].

وهؤلاء الذين في قلوبهم زيغ الذين يتبعون المتشابه هم أصحاب البدع والضلال من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم، وأهل العلم إذا نظروا في هؤلاء عرفوهم باتباعهم للمتشابه بعيداً عن المحكم، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧] قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم» [البخاري: ٤٥٤٧، مسلم: ٢٦٦٥] والذين خاطبهم الرسول ﷺ آمراً إياهم أن يحذروا هؤلاء، هم أهل العلم.

وهؤلاء الذين يتبعون المتشابه علمهم قليل، وجهلهم كثير، ومنهم الخوارج، وقد قال أولهم للرسول ﷺ وهو ذو الخويصرة اليماني عندما قدم على الرسول ﷺ وهو يقسم غنائم

حنين: «يا رسول الله، اعدل» فقال له: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أكن أعدل».

لقد تعالم هذا الجاهل على رسول الله ﷺ، واتهمه في قسمة الغنائم، وعندما طلب عمر من الرسول ﷺ أن يأذن له بضرب عنقه، أمره أن يتركه، وأخبره أن لهذا الرجل أصحاباً جهلاء، وقال في وصفهم: «دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة» [البخاري: ٣٦١٠، مسلم: ١٠٦٤].

وقد وصفهم الرسول ﷺ في حديث عليّ بن أبي طالب فقال: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة» [البخاري: ٣٦١١، مسلم: ١٠٦٦].

٤- موقف الراسخين في العلم من المتشابه:

بيّن الله في آيات هذا النص موقف الراسخين في العلم من المتشابهة، فهم يؤمنون بالمتشابه كما آمنوا بالمحكم، لأن مصدرهما واحد وهو الله، وهم يتدبرون آيات المتشابه كما يتدبرون آيات المحكم اهتداءً بما أمرهم الله من تدبره، فآيات القرآن كلها أنزلت بلغة العرب، وتُفْقَهُ وفق هذه اللغة، والله يحب مَنْ تدبر آيات كتابه، توصلاً إلى فقه معناها، وعليه أن يرد المشكل من هذه الآيات إلى المحكم، فإن لم يجد ما يزيل إشكاله آمن به ووكل علمه إلى الله.

وقد كان الصحابة إذا أشكل عليهم من القرآن آية سألوا عنها رسول الله ﷺ، فبينها لهم، فزال الإشكال، وعادت محكمة، وكذلك كان الناس بعد ذلك يسألون الراسخين في العلم عن المشكل من الآيات، فيزيلون الإشكال الذي فيها.

فمن ذلك، أن الرسول ﷺ قال: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك»، فأشكل ذلك على عائشة رضي الله عنها، فقالت: «يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق:٧-٨]» فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب» [البخاري: ٦٥٣٧، مسلم: ٢٨٧٦].

وعندما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] قلنا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٣] بشرك: أوَلم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾

[لقمان:١٣]» [البخاري: ٣٣٦٠، مسلم: ١٢٤]، فبيّن لهم أن المراد بالظلم في آية الأنعام هو الظلم الأكبر وهو الشرك، وليس هو ظلم الإنسان نفسه ببعض الذنوب.

٥- المراد بالتأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى:

سبق أن بينت أن جميع آيات القرآن لها معنى لا فرق في ذلك بين المحكم والمتشابه، والمتشابه مع البيان والتوضيح يصبح محكماً، ولا توجد آية لا معنى لها، والمجهول الذي لا نعرف كيفية هو الآتي من المغيبات، وكذا ذات الله وأسمائه وصفاته.

وقد ذكر أهل العلم أن المراد بالتأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى هو حقيقة الشيء التي يؤول إليها الكلام، فقد حدثنا الله عن الأخبار الغيبية الآتية وأشراط الساعة، كخروج الدجال، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وأخبرنا عن قيام الساعة، وأخبرنا عن الحشر، وقيام الناس لرب العالمين، وسوق الكفار إلى النار، وسوق المؤمنين إلى الجنة، وحدثنا عما في النار من أهوال، وعما في الجنة من نعيم، فحدثنا عن أشجارها وثمارها وعيونها وأنهارها وقصورها وحورها، وكل ذلك نعلم معناه، ولكننا لا نعرف تأويله، أي: حقيقة ما يكون عليه.

وعلى ذلك فتأويل هذه الأخبار المغيبة التي ذكرها الله تعالى هو نفس ما أخبرنا الله عنها إذا جاءت تلك الأخبار، فنحن نعرف معنى ما حدثنا الله عنه اليوم، ولكننا لا نعرف كنهه وحقيقته حتى يكون يوم القيامة، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة:١٧]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» [البخاري: ٧٤٩٨، مسلم: ٢٨٢٤].

ومن التأويل الذي لا يعلمه إلا الله كيفية صفاته سبحانه وتعالى كاستوائه على عرشه، وسمعه، وبصره، وقوته، وعلمه، وقدرته، ونحو ذلك، فإن لصفاته معانيَ واضحة بيّنة في لغة العرب، أما كيفيتها وكنهها فلا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، وقد قال الإمام مالك في تعريف الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول» ومما يدلُّ على أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام قول يوسف عليه السلام : ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:١٠٠] فجعل سجود أبويه له وسجود إخوانه الأحد عشر له هو تأويل رؤياه التي رآها قبل ذلك، وهو صغير.

ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣] فتأويله هو وقوعه يوم القيامة على النحو الذي أخبر الله به في كتابه.

هذا معنى التأويل في القرآن، وقد كان الأوائل من هذه الأمة يطلقون التأويل ويريدون به التفسير، فابن جرير الطبري عندما يريد تفسير الآية يقول: القول في تأويل هذه الآية من القرآن.

٦- دعاء الراسخين في العلم ربهم أن لا يزيغ قلوبهم:

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الراسخين في العلم الذين يؤمنون بالمحكم والمتشابه الذي أنزل إليهم من عند الله يَدْعون ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران:٨] أي: لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، فلا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، وهب لنا من عندك رحمة تثبت بها قلوبنا، وتزيدنا بها إيماناً ويقيناً.

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الراسخين في العلم يقولون في دعائهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران:٩] أي: يا ربنا إنك ستجمع الناس ليوم ليس فيه ريب ولا شك، وذلك اليوم هو يوم القيامة، وسيجزي الله الذين في قلوبهم زيغ الذين ضَلّوا وأضَلّوا، وسيجزي الراسخين في العلم بإيمانهم واستقامتهم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ منه آيات محكمات هن أم الكتاب، أي: آيات واضح معناها، ليس بها خفاء، ومنه آيات متشابهات، قد يخفى معناها، ويلتبس على بعض الناس.

٢- الذين في قلوبهم ميل عن الهدى يتركون المحكم، ويعملون رأيهم في المتشابه بغية إضلال عباد الله وفتنتهم، أما الراسخون في العلم فيؤمنون بالمحكم والمتشابه، ويردُّون المتشابه إلى المحكم.

٣- الآيات المتشابهات لها معنى في لغة العرب، ومطلوب تدبرها وفقهها، وأخطأ الذين ادعوا أن الرسول ﷺ والراسخين في العلم من الصحابة فمن بعدهم لا يعلمونها.

٤- التأويل في اصطلاح القرآن هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، كالذي حدثنا الله عنه في القيامة والجنة والنار، فحقيقة تلك الأخبار لا نعلمها إلا عندما يصير العباد إلى القيامة والجنة والنار.

٥- كان الصحابة يسألون الرسول ﷺ عن المتشابه من آيات القرآن، فيبينه لهم، ويرفع عنهم المشكل من الآيات، ولا يزال الراسخون في العلم يُسألون عن المتشابه، فيظهرونه ويبينونه.

٦- على الراسخين في العلم أن يدعوا ربهم أن لا يزيغ قلوبهم كما أزاغ قلوب الضالين، ويطلبوا الهداية من رب العباد.

٧- سيجمع الله الذين في قلوبهم زيغ والراسخين في العلم يوم القيامة، ويجزي كل فريق بعمله.

النص القرآني الثالث من سورة آل عمران
سيُغلب الكفار ويحشرون إلى جهنم وبئس المهاد

أولاً: تقديم

كان الصراع محتدماً بين المؤمنين والكفار في العصر النبوي بعد الهجرة إلى المدينة، وكانت رحى الحرب دائرة بينهم، وقد كانت آيات القرآن تتنزل مهوِّنة من شأن الكفار، مثبتة لأنفس المؤمنين، فالكفار سيغلبون ويقهرون في الدنيا والآخرة، ولن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، وسيكونون وقود جهنم في يوم القيامة، وحالهم حال فرعون وقومه الذين دمرهم الله وأهلكهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لن تغني عن الكفار أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً:

كانت رحى الحرب دائرة بين المسلمين والكفار عندما كانت هذه الآيات تتنزل من عند الله تبارك وتعالى، وقد قرر الله - تبارك وتعالى - في الآية الأولى من هذا النص أن قوة الكفار إلى زوال واضمحلال، فما يملكه الكفار ويعتزون به من الأموال والأولاد لا يغني عنهم شيئاً، والله تبارك وتعالى قوي قاهر غالب، له جنود السموات والأرض ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٠].

وعدم إغناء الأموال والأولاد عن الكفار شيئاً هو في الدنيا والآخرة، قال تعالى مبيناً عدم إغناء الأموال والأولاد عن الكفار شيئاً في الدنيا: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:٨٥]، وما عند الكفار من مال وأولاد متاع قليل فانٍ زائل ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧].

وفي الآخرة يكونون هم وأولادهم الذين ساروا مسارهم وقود النار ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ [آل عمران:١٠] أي: يكون الكفار حطباً ووقوداً الذي تشعل فيه النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء:٩٨].

ويدلُّ على عدم انتفاع الكفار بأموالهم وأولادهم وسلطانهم يوم القيامة قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [المسد:٢]، وقوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة:٢٨-٢٩].

٢- حال الكفار حال واحد في الماضي والحاضر والمستقبل:

حال الكفار الذين قاتلهم المؤمنون في العهد النبوي حال فرعون وآله، وحال الذين من قبلهم من الكفار، كلهم كذَّبوا بالله ورسله وكتبه، فأخذهم الله بذنوبهم، فأهلكهم في الدنيا، كما أغرق فرعون وآله في اليم ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران:١١]، والدأب: الحال والشأن، وأَخْذ الله لهم بذنوبهم: إهلاكهم وتدميرهم، والله شديد العقاب، أي: عذابه شديد أليم موجع.

وضرب الله المثل بآل فرعون، لأن الخطاب مع اليهود، واليهود يعلمون ما حدَّثهم الله به في كتابهم عن إغراقه فرعون وقومه في البحر، وإنجائه موسى ومن معه من بني إسرائيل، وقد أصبح حال بني إسرائيل في العهد النبوي كحال فرعون وقومه في عهد موسى، فقد كفر بنو إسرائيل بمحمد ﷺ وكتابه كما كفر فرعون وآله بموسى وكتابه.

٣- أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للكفار: ستغلبون وتحشرون إلى جهنم:

أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يقول للكفار الذين اغتروا بأنفسهم وقُوَّتهم وأموالهم وأولادهم: ﴿سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران:١٢]، قال ابن كثير: «ذكر محمد بن إسحاق بن يسار، عن عاصم بن عمر بن قتادة: أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال: «يا معشر اليهود: أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً»، فقالوا: يا محمد، لا يغرنَّك من نفسك أن قاتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً [الأغمار: جمع غُمْر، وهو الجاهل الذي لم يجرب الأمور، ولم تحنكه التجارب] لا يعرفون القتال، إنك - والله - لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلقَ مثلنا، فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران:١٢]». [ابن كثير: ٢/ ١٥، والحديث فيه ضعف].

وقد خاض الرسول ﷺ وأصحابه القتال مع اليهود، فأخرج بعضاً منهم من ديارهم، وقتل بعضاً منهم في ديارهم، وفتح ديار آخرين منهم، وفرض عليهم الجزية، وكان ذلك مصداق قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران:١٢].

٤- ما جرى في بدر آية لمن يحسن التدبر والاعتبار:

لقد كان في النصر الذي أنزله الله على المسلمين في بدر عظة وعبرة لمن يحسن الاتعاظ والاعتبار بالوقائع والأحداث، ولكن اليهود تعالوْا واغتروا بأنفسهم، ولم يتعظوا بالواقعة التي وقعت ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:١٣].

والمعنى: لقد كان لكم يا كفار بني إسرائيل آية عظيمة في واقعة بدر، فهناك التقى فئتان إحداهما تقاتل في سبيل الله، وهم محمد وأصحابه، والأخرى كافرة وهم مشركو قريش، وعندما التحم الفريقان رأى الكفار المؤمنين مثليهم، ولم يكن ذلك تخيلاً ولا تخرصاً، بل هو رأي العين، فقد أنزل الله ألوفاً من ملائكته يقاتلون مع المؤمنين، وكان الكفار يرون الملائكة يقاتلون مع المؤمنين على صورة رجال ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:١٣] لقد أيد الله رسوله والمؤمنين معه بملائكته، وأحلَّ بهم نصره، وفي ذلك عبرة لمن رزقه الله البصيرة والفهم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الله - تبارك وتعالى - هو القوي الغالب، وسيغلب أعداءه من الكفرة والمشركين، ولن يستطيع الكفار بأموالهم وأولادهم أن يهزموا جند الله من المسلمين، ولذلك عندما كان المسلمون يحاربون في سبيل الله متوكلين على الله كان النصر حليفهم.

٢- الكفرة والمشركون مهزومون في الدنيا والآخرة، وسيجعلهم الله وقود النار في يوم الدين.

٣- مثل الكفار من اليهود والصليبيين والمشركين اليوم مثل فرعون وآله، كذبوا برسولي الله: موسى وهارون، وكذبوا بالتوراة المنزلة عليهما، فأهلكهم الله، وأغرقهم في البحر، ومصير الكفرة اليوم مصير فرعون وقومه.

٤ - على المؤمنين أن يواجهوا الكفار بقوة وشدة، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لكفار زمانه: ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد.

٥- ضرب الله المثل بالفريقين اللذين التقيا في حومة الوغى وميدان القتال، وهم الرسول ﷺ وأصحابه وكفار قريش في غزوة بدر، فأيد الله المؤمنين بنصره وأذلّ المشركين، وفي ذلك عبرة لأصحاب العقول.

٦- كان الكفار بعد التحام الفريقين في غزوة بدر يرون المؤمنين ضعف عددهم، ذلك أنهم كانوا يشاهدون الملائكة مع المؤمنين، فأوقع ذلك الرعب في قلوبهم.

النص القرآني الرابع من سورة آل عمران
متاع الحياة الدنيا

أولاً: تقديم

عدَّد الله في آيات هذا النص الشهوات التي غرسها في قلوب عباده، وهي متاع قليل بالنسبة لنعيم الآخرة الدائم الخالد، الذي أعدَّه للأتقياء الذين آمنوا وكانوا من الصابرين الصادقين القانتين المنفقين الذين يتهجدون بالليل، ويستغفرون بالأسحار.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تزيين الله الشهوات للناس:

أخبرنا ربنا - جلّ وعلا - أنه زيَّن للناس حبَّ الشهوات، والمزين في هذه الآية هو الله تبارك وتعالى، لأنه هو الذي جَبَل العباد على حب هذه الشهوات، وغرسها في أعماق قلوبهم، لأن صلاح نفوسهم ومجتمعاتهم قائم على تحصيل العباد لهذه الشهوات، ولذلك ذمَّ سبحانه الذي حرّم هذه الزينة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف:٣٢].

وقد حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - حديثاً صريحاً أنه هو الذي خلق لنا هذه الزينة، وحدَّثنا عما فيها من المصالح والمنافع، فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل:٥-٨].

٢- لماذا خلق الله هذه الزينة في أعماق النفوس البشرية:

حدثنا الله عما زينه لعباده في أعماق نفوسهم، لأن في ذلك صلاحهم وصلاح مجتمعاتهم، ولو فقدت هذه الزينة التي حدَّثنا الله عنها فلن يقوم وجود للبشر فوق ظهر هذه الأرض، فلو خلق الله الرجال، ولم يخلق النساء، أو لم يخلق الذهب والفضة، أو لم يخلق الخيل المسومة والأنعام والحرث، فأنى تقوم حياة الإنسان، إن قيام حياة الإنسان فوق ظهر هذه الأرض على النحو الذي نراه ونشاهده لا تتأتى بدون هذه الزينة التي يندفع الإنسان إلى تحصيلها كي يمتد وجوده في ذريته، وتتم حياته بالمراكب من الخيل والإبل، ويوجد طعامه من الحيوان والنبات.

٣- كيف تدفع هذه الرغائب إلى تحقيق مطلوبها في الإنسان:

يجد الرجل في أعماق نفسه باعثاً قوياً للاقتران بالمرأة، فتنشأ عن ذلك الأسرة، التي تثمر الذرية من الأولاد والبنات، ويجد في نفسه الدافع لتحصيل الذهب والفضة كي يحقق بهما المصالح والمنافع، ويحصل على المراكب من الخيول والجِمال، ويحصل على الطعام من الحيوان والنبات والأشجار، ولو لم يغرس الله له حبَّ ذلك كله في أعماق نفسه، لم تسر حياته على النحو الذي خلقه الله عليه، ولكن يجب أن يأخذ المرء هذه الشهوات وفق ما شرعه الله وأباحه، بعيداً عن الزنا والربا والسرقة والغصب.

٤- أنواع الشهوات التي هي زينة الدنيا:

فصَّل الله القول فيما زينه لنا في الدنيا من شهوات، فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [آل عمران: ١٤].

والنص صريح في أن هذه الزينة هي للمؤمنين والكافرين على حدٍّ سواء، وأعظم الشهوات التي تهم القطاع الأعظم من الناس النساء، ولولا النساء، وما يأتي من الاتصال بهن من الذرية لخلت الأرض من سكانها، والذين يدعون إلى ترك الزواج يَدْعون إلى فناء الجنس البشري، والذين يدعون إلى الإباحية، وتواصل الرجال بالنساء بغير حدود ولا قيود يفسدون المجتمعات الإنسانية إفساداً يكاد يدمرها، والطريق الأمثل هو الزواج الذي يعفُّ به المرء نفسه وزوجه، وبه يتحقق إشباع الغريزة والفطرة، وتحصيل السكون النفسي.

ويأتي بعد شهوة النساء شهوة البنين، وهي شهوة قوية عارمة، وهي ثمرة الزواج الصحيح، فإذا وقع الاتصال بين الرجال والنساء من غير زواج، كان الأبناء الحصاد المرّ الذي تشقى به الأم، كما تشقى به الأمة.

والشهوة الثالثة التي زيَّنها الله للناس القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والقنطار المال الكثير، والقنطار عند العرب اسم لأعظم المعايير التي يوزن بها، وتقول العرب: قنطر الرجل إذا بلغ ماله أن يوزن بالقنطار، وأصحُّ الأقوال في القنطار أنه ألف ومئتا أوقية [المحرر الوجيز، لابن عطية: ٢/ ١٧١].

وقوله: **المقنطرة**، أي: المضعَّفة، فالقناطير جمع، وهي ثلاثة، والمقنطرة تسع، وفي الحديث عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» [البخاري: ٦٤٣٦، مسلم: ١٠٤٩].

والشهوة الرابعة: التي **زينها للناس الخيل المسومة**، وسمي الفرس بالخيل، لأنه يختال في مشيه، والمسوَّمة: الراعية في المروج والمسارح، وقال مجاهد: «المسوَّمة: المطهَّمة الحسان» [تفسير القرطبي: ٢/ ٤٠٧].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال لها في مرج،... ورجل ربطها تغنياً وستراً وتعففاً، لم ينس حقَّ الله في رقابها وظهورها، فهي له كذلك ستر، ورجل ربطها فخراً ورياءً ونِوَاء لأهل الإسلام، فهي وزر» [البخاري: ٣٦٤٦، وأخرجه مسلم مطولاً: ٩٨٧].

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ في الحديث الذي رواه عنه عبدالله بن عمر قال: «الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» [البخاري: ٢٨٤٩، مسلم: ١٨٧]. وفسَّر الرسول ﷺ الخير «بالأجر والمغنم» [البخاري: ٢٨٥٢، مسلم: ١٨٧٣].

وقد قلّت حاجة الناس إلى الخيل بعد اختراع السيارات والدبابات اليوم، ولكن لا يزال للناس بها حاجة، وهذا مصداق حديث رسولنا ﷺ أن فيها الخير إلى يوم القيامة.

والشهوة الخامسة التي زينها الله للناس هي: الأنعام، وهي: الإبل، والبقر، والغنم، والإبل عزٌّ لأهلها، والغنم بركة، ففي الحديث عن عروة البارقي يرفعه: «الإبل عزٌّ لأهلها، والغنم بركة» [سنن ابن ماجه: ٢٣٠٥، صحيح ابن ماجه: ١٨٦٦]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الشاةُ من دوابِّ الجنة» [سنن ابن ماجة: ٢٣٠٦، صحيح ابن ماجه: ١٨٦٧].

والشهوة السادسة والأخيرة التي زينها لعباده هي الحرث، والحرث اسم لكلِّ ما يحرث، والناس يحرثون الأرض الخالية لزراعة الحبوب والنبات، كما يحرثونها ليزرعوها بالأشجار، لأجل الثمار.

وهذه الشهوات الستة ذكر العلماء أنها تصير إلى أربعة أصناف من المال، كل نوع يتمول به صنف من الناس، فالذهب والفضة يتمول بها التجار، والخيل المسومة يتمول بها الملوك، والأنعام يتمول بها أهل البوادي، والحرث يتمول بها أهل السواد والقرى، وأما النساء والبنون ففتنة للجميع [تفسير القرطبي: ٢/ ٤٠٩].

٥- هذه الشهوات هي متاع الحياة الدنيا:

هذه الشهوات الستة التي زينها الله للناس هي متاع الحياة الدنيا، أي: يتمتع بها، ويستلذ بها، ثم تزول، وتفنى، والله عنده حسن المآب، أي: حسن المرجع في جنات النعيم في يوم الدين ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران:١٤].

٦- نعيم الآخرة أفضل من زينة الدنيا:

أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للناس: ﴿ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران:١٥] وتوجيه السؤال مسلك تربوي، يثير السامعين لما يريد المعلم تعليمهم إياه، ويُذْهب عنهم الغفلة، ويدعوهم إلى حسن التفكر والاستماع.

قال لهم: هل أخبركم بخير من الشهوات التي زينتها لكم، وهذا يدلُّ على أن شهوات الدنيا هي من تزيين الله، لا من تزيين الشيطان، لأنه جعل نعيم الآخرة خير من متاع الدنيا، فلو كانت من الشيطان لما كان فيها خير، وهي خير للذين اتقوا عند الله، أي: الذين خافوا منه، وعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: في الآخرة في جنات النعيم، فالأشجار وارفة الظلال، والأنهار تجري في تلك الجنات، ﴿أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمد:١٥].

وهؤلاء الأتقياء خالدون في تلك الجنات، لا يرحلون عنها، ولا يتحولون منها، ولهم فيها أزواج مطهرة، أي: مطهرة من الأدناس والأرجاس، فلا حيض، ولا نفاس، ولا بصاق، ولا مخاط، ولا أمراض ولا أقذار.

وفوق ذلك كله، وأعظم منه رضوان الله تعالى، روى أبو سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ : «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربّ، وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً

من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربّ، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً» [البخاري: ٧٥١٨، مسلم: ٢٨٢٩]. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران:١٥] أي: عالم بهم، ويعطي كل واحد منهم ما يستحقه.

٧- الذين يستحقون نعيم الآخرة:

عرَّف الله - تبارك وتعالى - بالأتقياء الذين يستحقون نعيم الآخرة الذي حدثنا عنه ربنا - تبارك وتعالى - فيما سبق، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران:١٦-١٧].

هؤلاء الأتقياء الذين يستحقون تلك الجنات هم الذين يؤمنون بربهم تبارك وتعالى، فيقولون في دعائهم لربهم: ربنا إننا آمنا، ولا حرج أن يصرحوا بإيمانهم في مخاطبتهم لله عز وجل، طالبين رضاه، والذي لا يجوز هو إخبارهم العباد بإيمانهم لنيل الحظوة عندهم، وقد توسلوا إلى الله تعالى بإيمانهم ليغفر لهم ذنوبهم، فالذي يقول: اللهم اغفر لي ذنبي بإيماني بك، وإيماني برسلك وكتبك، وبطاعتي لك، ومحبتي لك، ونحو ذلك يكون محسناً، كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم صخرة في الغار، فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم، فانفرجت الصخرة عن فم الغار وخرجوا يمشون [الحديث رواه البخاري: ٢٢١٥، مسلم: ٢٧٤٣].

وقد وصف الله هؤلاء الأتقياء الذين يستحقون جنات النعيم بأنهم صابرون، أي: في السراء والضراء وحين البأس، وصادقون في أعمالهم وأقوالهم، وقانتون، أي: مطيعون لله تبارك وتعالى، والمنفقون أموالهم في الوجوه التي شرع الإنفاق فيها، وهم يقومون الليل في الأسحار، والسحر آخر الليل، فيصلون، ويدعون ربهم، ويستغفرونه، ووقت السحر وقت حَرِيٌّ بالإجابة، روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» [البخاري: ١١٤٥، مسلم: ٧٥٨].

وقد أثنى ربنا تبارك وتعالى على الأتقياء الذين يقومون بالليل متهجدين مستغفرين بالأسحار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٥-١٧].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - زين الله للعباد حبَّ الشهوات، وذلك بأن خلقها في أعماق قلوبهم، وليس لهم غنى عنها.

٢- فصَّل الله القول في ذكر الشهوات التي زينها لهم، وهي ستة: النساء، والبنون، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث.

٣- هذه الست التي ذكرها الله - تبارك وتعالى - هي المتاع الذي تقوم به حياة الإنسان في دنياه، وهي متاع قليل زائل، والله عنده حسن المآب، أي: المرجع في جنات النعيم.

٤- نعيم الآخرة أفضل من متاع الدنيا، فالأتقياء ينالون من الجنات والأنهار في الآخرة ما هو أفضل من نعيم الدنيا، فالدنيا متاعها قليل زائل، والآخرة نعيمها طيب كثير دائم.

٥- يحلُّ الله بأهل الجنة رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

٦- يستحبُّ أن يتوسل العبد إلى ربه بإيمانه وعمله الصالح كما توسل الذين مدحهم الله في هذه الآيات بإيمانهم طالبين أن يغفر الله لهم ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران:١٦].

٧- الصفات الطيبة التي يتحلى بها الأتقياء المؤمنون هي من الإيمان، كالصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار.

٨- على المؤمن الصادق أن يعتدل في طلب الدنيا، ولا يغرق في تطلابها، وليكن طلبه لها على حد قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠١].

النص القرآني الخامس من سورة آل عمران
شهادة الله وملائكته وأولي العلم على التوحيد

أولاً: تقديم

شهد الله تبارك وتعالى لنفسه في آيات هذا النص بالوحدانية، وشهد له بذلك ملائكته وأولو العلم، وهذا الذي شهد الله لنفسه به وملائكته وأولو العلم أعظم قضية على الإطلاق وهو توحيد الله، وقرر سبحانه أن الدين الحق الذي لا يقبل ديناً سواه هو الإسلام، وعلينا أن نلتزم به، وندعو الناس إليه، فإن قبلوه فقد اهتدوا، وإلا فقد أقمنا الحجة عليهم، والله حسيبهم.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة آل عمران

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- شهادة الله لنفسه بالوحدانية وشهادة ملائكته وأولي العلم له بذلك:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه شهد لنفسه بالوحدانية، وأنه هو المعبود الذي لا يستحقُّ العبادة أحد غيره، والشهادة تقوم على العلم، وهو سبحانه هو الأعلم بنفسه، فلا أحد أعلم منه بذاته ولا بأفعاله وصفاته، وقرن الله بشهادته لنفسه بالوحدانية بشهادة ملائكته وشهادة أولي العلم ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨].

والملائكة أعلم الخلق بالله تعالى، فهم أعظم اطلاعاً على آيات الله من البشر، وإيمانهم بالله أعظم من إيمان كثير من الناس، والراسخون في العلم الذين يعلمون آيات الله عندهم من المعرفة والعلم ما استحقُّوا به أن يقرن الله شهادتهم بشهادته، وتلك منقبة عظيمة وميزة فاضلة.

وقد شهد الله لنفسه بالتوحيد في حال قيامه بالقسط، أي: بالعدل، والقسط وضع الشيء موضعه، وأعظم العدل التوحيد، كما أن أعظم الظلم الشرك، ﴿قَآبِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨].

وقد أكد التوحيدَ الذي شهد لنفسه به بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:١٨]، أي: لا معبود يستحق العبادة إلا هو، وختم الآية باسمين عظيمين هما: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:١٨] والعزيز: القوي الغالب، والحكيم، أي: في أقواله وأفعاله سبحانه.

٢- الدِّين الحق عند الله سبحانه هو الإسلام:

شهد الله تعالى لنفسه في الآية السابقة بأعظم حقيقة، وهي الوحدانية التي تفرد بها الله ربُّ العزة، وقرر لنا في هذه الآية حقيقة أخرى لها أثر عظيم في هداية الناس، فقرر أن الدين الصحيح عنده هو الإسلام، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩] وقرر الله سبحانه في موضع آخر أن كل من تدين بدين غير الإسلام، فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥].

فإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء كان مسلماً ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة:١٣١] وأنبياء بني إسرائيل كانوا مسلمين يحكمون بالتوراة للذين هادوا ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة:٤٤].

وهذه الأمة أمة مسلمة، سماها إبراهيم عليه السلام بهذا الاسم ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨] وسمانا إبراهيم عليه السلام بهذا الاسم وهو يرفع وابنه إسماعيل القواعد من البيت وهما يدعوان الله قائلين: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾ [البقرة:١٢٨].

وقد جاء موسى عليه السلام بني إسرائيل بالإسلام، ثم جاء عيسى النصارى بالإسلام، ثم جاء محمد ﷺ البشر كلهم بما فيهم اليهود والنصارى بالإسلام، فاختلف اليهود والنصارى فيما بينهم في الحق لتحاسدهم وتباغضهم، وحملهم التحاسد والتباغض على مخالفة الحق الذي جاءهم من عند الله ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩].

والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، والبغي: الظلم، أي: اختلفوا لأجل بغي بعضهم على بعض.

وقد تهدد الله اليهود والنصارى الذين اختلفوا في العلم الذي جاءهم من عند الله، فتركوه، وخالفوه بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران:١٩] لقد كفروا بالحق الذي جاءهم من عند الله، وكفروا بآياته المنزلة على عبده ورسوله محمد ﷺ، وسيحاسبهم الله على هذا الكفر، وهو سريع الحساب، وسيسألهم عن ذلك في قبورهم، ثم سيحاسبهم على ذلك عندما يقوم الناس لرب العالمين.

٣- إقامة الحجة على الناس:

بيَّن الله لنا الموقف الذي علينا أن نقفه من اليهود والنصارى ومشركي العرب والناس كافة، فعلينا أن نعلن للناس الذين يحاجوننا في الدين، ويخاصموننا فيه أننا مسلمون ملتزمون بالإسلام ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران:٢٠] أي: فإن حاجَّك اليهود والنصارى في الدين، فقل لهم: إنني أسلمت وجهي لله ومن اتبعني.

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لليهود والنصارى ومشركي العرب: أأسلمتم، وهذا القول هو دعوة لهم إلى الإسلام، فرسولنا ﷺ رسول عالمي مرسل إلى الناس جميعاً، وكما هو مرسل إلى العرب فهو مرسل إلى اليهود والنصارى، والناس جميعاً، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان:١]. وفي كتب السنّة في البخاري ومسلم وكتب السنن وغيرها أن رسولنا دعا الناس جميعاً إلى الإسلام، وأرسل الوفود والرسل إلى كسرى وقيصر وغيرهم من ملوك الأرض، فدعاهم إلى الإسلام، وفي الحديث عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموت، ولم يؤمن بي إلا كان من أصحاب النار» [مسلم: ١٥٣]، وعن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى كل أحمر وأسود» [مسلم: ٥٢١].

وعن أنس قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلم» فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» [البخاري:٥٦٥٧].

وكما خاطب الرسول ﷺ هذا اليهودي آمراً إياه بالإسلام، فأسلم، فإنه خاطب الناس جميعاً آمراً إياهم بالإسلام، فإن هم أسلموا فقد اهتدوا، وإن هم رفضوا وكفروا فقد أقام عليهم الحجة، والرسول ﷺ وأتباعه من بعده مطالبين بتبليغ هذا الدين للعالمين، والله بصير بالعباد الذين يستحقون الهداية، والذين لا يستحقونها ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠].

٤- مصير الكفار النار وغضب الجبار وإحباط الأعمال:

لا تقف المواجهة بين المسلمين والكفار على الحجاج بالكلام، ولكن تصل المواجهة إلى درجة القتال وإزهاق النفوس، فكثير من بني إسرائيل كفروا بالله، وقتلوا أنبياء الله، ومنهم زكريا ويحيى، وحاولوا قتل عيسى عليه السلام فنجاه الله منهم، وقتلوا العلماء الذين يأمرونهم بالقسط، أي: بالعدل من التوحيد والأعمال الصالحة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران:٢١] ومع التبشير بالعذاب الأليم في القبر والمحشر ثم النار يكون إحباط الأعمال، أي: بطلانها وفسادها في الدنيا والآخرة، ولن يكون لهم ناصر ينصرهم من عذاب الله وناره ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [آل عمران:٢٢].

وقد حاول الكفار من بني إسرائيل ومشركي العرب أن يقتلوا رسولنا ﷺ، تآمروا على قتله في الخفاء، فسحروه، وقدموا له شاة مسمومة، وأرادوا أن يلقوا عليه حجراً وهو جالس بجانب جدار بيت عندهم، وجيَّشوا له الجيوش، ولكن الله عصمه منهم، ونصره عليهم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠] وقال - تبارك وتعالى -: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - إقامة أعظم دليل على أعظم قضية، فقد شهد الله كما شهد ملائكته وأولو العلم على أنه هو المعبود الذي لا يستحق العبادة إلا هو.

٢ - الدين الصحيح الذي يتعبد الله به الأولين والآخرين هو الإسلام، وذلك بأن يسلم المرء وجهه لله تبارك وتعالى.

٣- اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم بعد ما جاءَتهم الآيات المعرِّفة بالدين الحق، فضلُّوا وأضلُّوا.

٤- عرَّفنا الله بالموقف الحق الذي نقفه من اليهود والنصارى ومشركي العرب والناس جميعاً، فعلينا أن نعلن إسلامنا بلا خفاء، ثم ندعو غيرنا إلى الإسلام الذي نؤمن به.

٥- الذين ندعوهم إلى الإيمان إن آمنوا فقد اهتدوا، وإن كفروا فقد أقيمت عليهم الحجة، وسيحاسبهم رب العزة في يوم الدين.

٦- رسولنا ﷺ رسول للناس جميعاً، وهو يدعو الناس جميعاً للإسلام.

٧- يبلغ طغيان البشر إلى الكفر بالله، وقتل دعاة الله من الأنبياء وأهل العلم الذين يدعون إلى الله، وهؤلاء يستحقون عذاب الله، وعلى المؤمنين أن يبشروهم بهذا العذاب، ويخبروهم ببطلان أعمالهم.

٨- ليس للكفار من ناصر يحميهم من الله وعذابه وناره.

النص القرآني السادس من سورة آل عمران
إعراض أهل الكتاب عن تحكيم كتاب الله الذي أنزل إليهم

أولاً: تقديم

عجّب الله رسوله ﷺ من حال فريق من أهل الكتاب في دعواهم أنهم من أتباع التوراة والإنجيل، ولكنهم إذا دعوا إلى تحكيم كتابهم فيما أوجبه عليهم، تولوا وأعرضوا، ووراء هذا الإعراض عن كتاب الله فرية افتروها في دينهم، فقد زعموا كاذبين أنهم يدخلون النار أياماً، ثم يخرجون منها، ويدخلون جنات النعيم، وقد قرر الحق تبارك وتعالى أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يحاسبون كما يحاسب غيرهم على أعمالهم.

وزعم اليهود كاذبين أن الملك باقٍ فيهم إلى يوم الدين، لا ينزعه منهم أحد، وقد علّم الله رسوله ﷺ دعاء يدعو به ربه، يخبر الله في هذا الدعاء أنه هو مالك الملك، يهب الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وأخبر أنه كما يصرِّف الملك في عباده، فإنه يصرف شؤون الكون، فهو يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحيَّ من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويرزق من يشاء بغير حساب.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تعجيب الله رسوله ﷺ من حال أهل الكتاب الرافضين لتحكيم كتاب الله:

لا تزال بقايا التوراة في أيدي اليهود، ولا تزال بقايا الإنجيل في أيدي النصارى، وقد عجّب الله رسوله محمداً ﷺ من حال الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، وهم اليهود والنصارى، والحظ الذي أوتوه من الكتاب بقايا التوراة والإنجيل التي لا تزال عندهم، وفي تعجيب الله رسوله ﷺ من الذين أوتوا نصيباً من الكتاب تعجيب لأتباع هذا الرسول ﷺ.

والأمر الذي عجَّب الله رسوله ﷺ منه أن اليهود يُدْعون إلى تحكيم التوراة فيرفضون، والنصارى يُدْعون إلى تحكيم التوراة والإنجيل فيأبون ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران:٢٣] وإنما كان أمرهم عجباً، لأن الله أنزل الكتب من عنده ليتعبد الله عباده بها، وليطاع ما فيها من أوامر، ويجتنب ما فيها من نواهٍ، أما أنْ يدَّعوا أنها منزلة من عند الله، ويرفضون تحكيمها والعمل بها فإنه أمر عجب.

وقد كان اليهود والنصارى لا يقيمون حد الزنى لمن وجب عليه، وهو الرجم حتى الموت، وحفلت التوراة والإنجيل بالنصوص المبشرة برسولنا ﷺ، مطالبة من يؤمن بالتوراة والإنجيل باتباعه وطاعته، ولكنهم نكصوا وأعرضوا ورفضوا.

٢- السبب في عدم تحكيم اليهود والنصارى للكتاب المنزل إليهم:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - بالسبب الذي من أجله جفا كل من اليهود والنصارى كتابهم، فقد ادَّعى كلٌّ منهم أنهم أهل الجنة من دون الناس ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١]، وزاد اليهود في الفرية، فزعموا أنهم يدخلون النار أياماً، ثم يخرجون منها، وغرَّتهم هذه الفرية التي اخترعوها وافتروها، إذ جعلتهم يتهاونون في الالتزام بأحكام الكتاب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران:٢٤].

٣- يجمع الله أهل الكتاب في يوم القيامة ثم يحاسبون على أعمالهم:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أن حال اليهود والنصارى كحال غيرهم في يوم الدين، فالله - تبارك وتعالى - يجمعهم في ذلك اليوم، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران:٢٥].

وقوله في أول الآية: ﴿فَكَيْفَ﴾ يدلُّ على أن الذين قالوا هذه المقالة غطت هذه الفرية على عقولهم، وسيظهر لهم يوم القيامة عندما يحاسبهم ربهم على أعمالهم أنهم كانوا كاذبين، وأن كفرهم سيخلدهم في النار.

٤- الله هو مالك الملك يصرفه في عباده كيف يشاء:

كان اليهود يظنون أن الملك باقٍ دائم فيهم، فأمر الله رسوله ﷺ أن يدعو ربه قائلاً: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦] وقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ معناها: يا الله، قال الزجاج: «قال

الخليل وسيبويه وجميع النحويين الموثوق بعلمهم: إن ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ بمعنى يا الله، وأن الميم المشددة عوض من (يا) لأنهم لم يجدوا ياءً مع هذه الميم في كلمة» [معاني القرآن: ١/ ٣٩٤].

وقوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ أي: أن الملك بيده سبحانه في الدنيا، يصرِّفه في عباده كيف يشاء، فيؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، ومن تصفح كتب التاريخ في القديم والحديث رأى مصداق ما حدثنا الله به في هذه الآية، فالدول كالأفراد، تنشأ وليدة، ثم ترتقي شيئاً فشيئاً، ثم تصبح في غاية القوة والعنفوان، ثم تتلاشى وتزول، وقد جاء الله بالإسلام، فأزال المسلمون عروش الأكاسرة والقياصرة، وامتدت الدولة الإسلامية، وانهارت عروش كثيرة، وحكم الخلفاء الراشدون، ثم جاء الأمويون والعباسيون، وأخيراً جاء العثمانيون، وزال العثمانيون، وجرت بعد ذلك خطوب وأهوال، وقدر الله ماض في عباده.

وكما يصرف الله الملك في عباده، فهو وحده مصرِّف الأمر في كونه، ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران:٢٧].

ومن تصريف الله كونه بإرادته أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، فهما من جهة متعاقبان، ومن جهة أخرى يأخذ الليل من النهار، ثم يأخذ النهار من الليل، وقد يتعادلان.

وهو سبحانه يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، فهو سبحانه ينزل الماء من السماء، فيحيي الأرض بعد موتها ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ [فاطر:٩] ونحن نشاهد الماء ينزل على الحبّ والنوى في باطن الأرض فتتشقق الأرض، وينبت الحبُّ، ويورق، ويخضر ويثمر ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام:٩٥] وهذا النبات الحي يخرج من الحب الميت، وصور الإحياء والإماتة في الأرض كثيرة، فمن النطفة والبويضة يخلق الإنسان، ومن البيضة الميتة تتكون الطيور، ومن الطيور الحية تكون البيضة.

ومن ألوان التصريف في الخلق أنه سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب، فيمدُّ بعض عباده بالمال الكثير، الذي لا يعدُّ، ولا يحصى، وقد يضيق على آخرين، كل ذلك وفق مشيئته وحكمته وتقديره.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - ذم الله أهل الكتاب الذين يرفضون تحكيم كتابهم، وهذا يشمل أهل الإسلام الذين حكَّموا القوانين الوضعية معرضين عن الشريعة الإسلامية.

٢ - السبب الذي جعل كثيراً من أهل الكتاب يعرضون عن تحكيم كتابهم هو دعواهم كاذبين أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودات.

٣- يجري الله عدله على الناس جميعاً على حدٍّ سواء في يوم الدين حيث يحاسب الناس على أعمالهم خيراً كانت أو شراً، والكفار خالدون في النار.

٤ - الله يصرف الملك في الناس، فيعطي ويمنع، ويرفع ويضع، وهو الذي يصرِّف مراده في الكون، فيدخل الليل في النهار، والنهار في الليل، وهو الذي يخرج الحي من الميت، والميت من الحي.

٥ - الرزق بيد الله، ومنه يُطلَب، فيعطي الله من يشاء، ويقتر على من يشاء، وله في ذلك الحكمة البالغة، والتقدير العظيم.

النص القرآني السابع من سورة آل عمران
لا يجوز اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين

أولاً: تقديم

المؤمنون الصادقون لا يتخذون الكفار أولياء وأنصاراً وأحباباً، فمن اتخذهم أولياء فقد أغضب الله، وتخلى الله عنه، والله عالم بالذين يتولون الكفار ويحبونهم، وسيحاسبهم في يوم القيامة، ومحبة الله لها طريق واحد هو التأسي والاقتداء برسول الله ﷺ، والمؤمنون المحبون لله يطيعون الله ورسوله ﷺ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهى الله المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين:

حدثنا الله تبارك وتعالى في آيات النص السابق عن الذين كفروا من أهل الكتاب الذين يرفضون تحكيم كتاب الله عندما يُدْعون إلى ذلك، وفي هذا النص «نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم، إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم، فيداريهم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان، دفعاً عن نفسه من غير أن يستحلّ دماً حراماً أو مالاً حراماً، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل وسلامة النية» [تفسير البغوي: ٢/ ٢٦]، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران:٢٨].

وتكون التقية المشروعة عندما يكون في المسلمين ضعف، فإذا أعزّ الله الإسلام والمسلمين فلا يجوز أن يستعمل المسلمون التقية، وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨] أي:

يخوفكم عقوبته على موالاة الكفار، وارتكاب المنهي عنه ومخالفة المأمور، وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران:٢٨] أي: المرجع والمآب إلى ربِّ العباد في يوم المعاد، فيحاسب الناس على ما قدَّموه، ومن ذلك موالاة الكافرين.

ونهي الله المؤمنين عن موالاة الكفار أصل عظيم، جاءت نصوص كثيرة مرهبة منه، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:٥١] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء:١٤٤].

وإنما نهى الله المؤمنين عن موالاة الكافرين، لأن الموالاة تفضي إلى حب المشركين ومباطنتهم، والإفضاء لهم بأسرار المسلمين، ولا يجوز موالاة الكفار، لأن الكفار أعداء الله، والمؤمن يحبُّ الله، ويكره أعداءه ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ ﴾ [المجادلة:٢٢].

٢- علم الله بما نخفيه وما نعلنه:

لما كانت موالاة المؤمنين الكفار قائمة على حبٍّ قلبي منغرس في أعماق القلوب، فقد رهَّب الله الذين يوالون الكافرين بإعلامهم بأنه يعلم ما يخفونه في قلوبهم، كما يعلم ما يبدونه ويظهرونه، وعلمه واسع محيط بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما، وهو على كل شيء قدير ﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران:٢٩].

ومتى استقر هذا المعنى في قلوب العباد، فإن نفوسهم ستنفر من موالاة الكافرين الذين نهى الله عن موالاتهم.

٣- يوم تجد كل نفس ما عملت من خير أو شر محضراً:

ذكَّر الله عباده المؤمنين بأنهم سيجدون ما عملوه من خير أو شر حاضراً في يوم الدِّين، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة:١٣] فإذا رأى الإنسان عمله الصالح في ذلك اليوم سرّ وابتهج، وإذا رأى أعماله السيئة تمنى لو أنه لم يعملها، وودّ لو أن بينه وبينها أمداً بعيداً ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ ﴾ [آل عمران:٣٠]، وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل

عمران:٣٠] أي: يخوفكم عقابه، ومن رأفته بهم حذَّرهم نفسه، ومن رأفته سبحانه بعباده محبته أن يستقيموا على صراطه وطاعته، ويتبعوا رسوله ﷺ.

٤- علامة محبة الله أن نتبع رسول الله ﷺ :

قد يدَّعي كثير من الناس محبة الله تبارك وتعالى، وقد وضع لنا ربنا علامة تُظهر الصادق من الكاذب في دعواه أنه يحب الله، فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران:٣١].

أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لأصحابه وأتباعه من أمته: إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم تحبون الله، فاتبعوني يحببكم الله، أي اقتدوا بي، وتأسوا بي، عند ذلك يكون حبكم صادقاً، ويحبكم الله تبارك وتعالى، أما الذين يدَّعون محبة الله من غير عمل ولا متابعة للرسول ﷺ فإن حبهم لله دعوى لا يقوم عليها دليل.

والذين يحبون الله، ويتبعون رسول الله ﷺ، يحبهم الله - تبارك وتعالى - ويحظون بمغفرته لذنوبهم، والله غفور رحيم.

وختم الله آيات هذا النص بأمره عباده بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران:٣٢]، وتهدد الذين لا يطيعون الله ولا يطيعون الرسول ﷺ بأنهم يصبحون في زمرة الكافرين، والله لا يحب الكافرين ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران:٣٢]، وإذا كان الله يكرههم فسيهلكهم في الدنيا والآخرة.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- حرّم الله على المؤمنين موالاة الكافرين، وتجوز موالاتهم تقية باللسان في حال كون القلوب مطمئنة بالإيمان إذا كان الكافرون غالبين ظاهرين.

٢- تهدد الله الذين يوالون الكافرين بإعلامهم أنه يحذرهم نفسه، وأنه سيحاسبهم في يوم الدين، وأنه يعلم ما يخفونه وما يعلنونه.

٣- الذي يدَّعي أنه يحبُّ الله، عليه أن يتابع النبي محمداً ﷺ، فيحبُّه الله، وإلا كانت دعواه دعوى باطلة.

٤- يجب علينا طاعة الله وطاعة رسوله، باتباع ما جاءَنا من عند الله، وترك ما نهينا عنه، ومن أبى طاعة الله وطاعة رسوله، فإنه يدخل في زمرة الكافرين المكروهين من رب العالمين.

النص القرآني الثامن من سورة آل عمران
قصة مريم ابنة عمران أم عيسى عليه السلام

أولاً: تقديم

لقد ضلَّ النصارى ضلالاً عظيماً عندما زعموا أن عيسى ابن الله، وقد حدثنا الله في آيات هذا النص عن الأسرة التي أنجبت عيسى عليه السلام، فجدُّ عيسى لأمِّه هو عمران، وقد نذرت امرأة عمران عندما حملت بمريم أن تجعل حملها متفرغاً لعبادة الله، قائماً على بيت الله، فلما وضعتها وجدتها أنثى، والأنثى يصعب عليها أن تقوم على المسجد، وقد سمتها مريم، وطلبت من ربها أن يحميها وذريتها من الشيطان الرجيم، فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً، وكان عمران والد مريم قد مات وأمُّها حاملٌ بها، فكفلها نبيُّ الله زكريا، وكان زوجَ خالتها، وقد نشأها الله تنشئةً صالحة، وكان الله يمدُّها بالرزق من عنده في غير أوانه، وعندما سأل زكريا مريم عن مصدر الرزق الذي يجده عندها، قالت: هو من عند الله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اصطفاء الله آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أنه ﴿ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣] والله تبارك وتعالى يصطفي من الملائكة والناس ما يشاء، كما قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج:٧٥] وقد ذكر الله في (سورة ص) أنبياءه أيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم قال فيهم: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص:٤٧]. والرسل والأنبياء جميعاً من

المصطفين الأخيار، وليس الاصطفاء قصراً عليهم، فالله اصطفى من بني إسرائيل طالوت ملكاً، وقال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وفي آية هذا النص أخبرنا الله أنه اصطفى آدم وهو نبي مكلم، ونوحاً وهو نبي مرسل، وأخبرنا أنه اصطفى آل إبراهيم وآل عمران، وإبراهيم نبي مرسل، وهو أفضل الأنبياء والمرسلين بعد نبينا محمد ﷺ ، ويدخل في المصطفين الأنبياء والمرسلون من أولاده وأحفاده، وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف، ومن جملتهم خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ ، كما يدخل في المصطفين من آل إبراهيم زوجات إبراهيم وأحفاده، ومنهم الأسباط وهم يوسفُ وإخوته.

وأخبرنا تبارك وتعالى أنه اختار آل عمران ومنهم عمران والد مريم، وزوجته أم مريم، كما يدخل فيهم مريم أم عيسى، وهؤلاء جميعاً ليسوا بأنبياء، ويدخل فيهم أيضاً عيسى ابن مريم وهو نبي مرسل.

ولا شك أن هذا الاصطفاء ليس اعتباطاً، بل لخصائص وجدت في كل واحد من المصطفين الأخيار، كما قال تعالى في مريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران:٤٢] وكما قال في طالوت: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

ولا شك أن الله حبا كل واحد من هؤلاء المصطفين الأخيار بمزايا وخصائص، كما قال الله لموسى عليه السلام : ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤] وكل الذين اصطفاهم الله - تبارك وتعالى - أخذوا هذا الدين، وقبلوه، وإن وقع منهم بعض الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر:٣٢].

فالذين اصطفاهم الله منهم الذين ظلموا أنفسهم بالذنوب، ومنهم الذين اقتصروا على فعل الصالحات وترك السيئات، ومنهم السابقون بالخيرات.

والمصطفون الذين ذكرهم الله في آية هذا النص وهم آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران اصطفاهم الله على عالمي زمانهم، أما الرسل والأنبياء فأفضلهم أولو العزم من الرسل، وهم: محمد وإبراهيم ونوح وموسى وعيسى، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧].

٢- المصطفون المذكورون في الآية ذرية بعضها من بعض:

أثنى الله - تبارك وتعالى - على هؤلاء المصطفين بأنهم ذريةٌ بعضها من بعض ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:٣٤] فعمران وآله من ذرية إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم وآله من ذرية نوح عليه السلام، ونوح من ذرية آدم عليه السلام، وختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:٣٤] أي: سميع بأقوال العباد في هؤلاء المصطفين، وعليم بأفعالهم.

٣- امرأة عمران تُنذِر ما في بطنها لله:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن امرأة عمران نذرت ما في بطنها لله - تبارك وتعالى - ودعت ربها أن يتقبل منها ما نذرته ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [آل عمران:٣٥] وعمران كان من أخيار بني إسرائيل في عصره، وهو العصر الذي كان فيه نبي الله زكريا، وبعد موت عمران جاء نبيّا الله يحيى بن زكريا، وعيسى ابن مريم، وكان عمران جدّ عيسى من قِبَل أمه.

وقد حملت زوجة عمران، ثم توفي عنها زوجها بعد حملها، وأخبرنا ربنا أن امرأة عمران نذرت لله ما في بطنها محرراً، أي: نذرته خالصاً لأمر الله، لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، ونذرته ليقوم على أمر بيت المقدس، ويتفرغ لذلك، والذي يخلص دينه لله - تبارك وتعالى - هو الحر على وجه الحقيقة، أما الذين يعبدون أنفسهم لغير الله عز وجل، فهؤلاء عبيد المخلوقات من الأصنام والأوثان والبشر وغيرهم، وطلبت من رب العزة أن يتقبل منها نذرها، قائلة ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [آل عمران:٣٥]. وهكذا الصالحون يعملون ويطلبون من الله أن يقبل عملهم، كما كان إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت ويدعوان ربهما أن يتقبل منهما ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة:١٢٧].

والدعاة الصادقون يعلمون أن الله يسمع دعاءَهم، وهو عليم بأفعالهم ونياتهم.

٤- امرأة عمران تضع أنثى:

أخبرنا الله - عز وجل - أن امرأة عمران وضعت حملها، فوجدتها أنثى ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران:٣٦] وأخبر تعالى أنه: ﴿أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ ﴾ [آل عمران:٣٦] فالفوارق التي تفرق بين الذكر والأنثى بيِّنة لا تخفى على أحد، وقالت في دعائها لربها: ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [آل عمران:٣٦].

إنها سمتها مريم، وطلبت من ربها أن يعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم، «والشيطان الرجيم: المطرود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى» [المفردات: ص١٩٠].

وقد استجاب الله دعاء امرأة عمران، فإن الشيطان ينخس جميع ولد آدم عند ولادتهم، حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وابنها، روى أبو هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من بني آدم مولود إلا يمسُّه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان، غيرَ مريمَ وابنِها» ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران:٣٦]، [البخاري: ٣٤٣١، مسلم: ٢٣٦٦].

٥- تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أنه تقبل مريم ابنة عمران بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً، وهذا يدلُّ على أنها كانت جميلة الشكل مليحة المنظر، ووراء ذلك نفس طيبة صالحة ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧]. ويوضح هذا القبول الحسن والإنبات الحسن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران:٤٢-٤٣].

وقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه كفَّلها نبي الله زكريا، وكان زوج خالتها، ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك في حديث الرسول ﷺ عن إسرائه إلى بيت المقدس، ثم العروج به إلى السماء، قال عندما فُتح له باب السماء الثانية: «فإذا أنا بابنيّ الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحَّبا بي، ودعوا لي بخير» [مسلم: ١٦٢]، قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٧] وإنما كفلها زكريا، لأنَّ والدها كان قد توفي قبل ولادتها، فوُلدت يتيمة.

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، فكان يتعجب، ويسألها من أين لها هذا الرزق، فتقول له: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:٣٧]. والمحراب: أشرف موضع في المجلس، وهذا يدلُّ على أنها كانت تسكن سكناً طيباً شريفاً، «وقال مجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعي وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفي في الرزق الذي كان يجده زكريا عند مريم: فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف» [ابن كثير: ٢/ ٣٢]، وهذا الرزق الذي كان يصل إلى مريم على هذا النحو هو من كرامات الأولياء.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اختار الله واصطفى الأنبياء والرسل، وأخبر في الآية الأولى من هذا النص أنه اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين.

٢- هؤلاء المصطفون الأخيار تناسل بعضهم من بعض، فآل عمران من ذرية إبراهيم، وآل إبراهيم من ذرية نوح، ونوح من ذرية آدم.

٣- كانت مريم من أسرة طيبة صالحة، فوالدها عمران من خيار بني إسرائيل، وأمها امرأة صالحة، نذرت حملها لله، وقد تقبل الله نذرها وأنبتها نباتاً حسناً.

٤- ولدت مريم يتيمة، فكفلها زوج خالتها نبي الله زكريا، فكان يرعاها ويقوم على شؤونها.

٥- أجرى الله على مريم بعضاً من كراماته، فمن ذلك أنه كان يأتيها بفاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.

٦- يجوز تسمية الولد في اليوم الأول الذي وُلد فيه، فقد سمت أم مريم مولودتها عندما وضعتها، وقد جاء في السنّة ما يدلُّ على ذلك، ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : «ولد لي الليلة غلام، فسميته باسم أبي إبراهيم» [مسلم: ٢٣١٥].

وفي الصحيحين أنه وُلد لأبي طلحة ولد، فأرسله أبو طلحة مع أنس بن مالك إلى رسول الله ﷺ في اليوم التالي، فحنَّكه وسماه عبدالله [البخاري: ٥٤٧٠، ومسلم: ٢١٤٤].

ومن أراد أن يعقَّ عن مولوده فلا حرج عليه أن يؤخر التسمية إلى اليوم السابع، ففي سنن الترمذي بإسناد صحيح عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ : «الغلام مرتهن بعقيقته يذبح يوم السابع، ويسمى ويحلق رأسه» [الترمذي: ١٥٢٢، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح].

النص القرآني التاسع من سورة آل عمران
زكريا يطلب من ربه أن يهبه ذرية طيبة

أولاً: تقديم

كان نبي الله زكريا ﷺ إذا دخل على مريم عليها السلام أيام كفالته إياها يجد عندها الرزق في غير أوانه، فيجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فلفت هذا نظره وفكره إلى أن القادر على إعطاء الرزق في غير أوانه، قادر على أن يهب له الولد بعد أن وهن عظمه، واشتعل رأسه شيباً، وقادر أن يأتي بالولد من الزوجة العاقر التي كبر سنّها، فتوجه في الحال داعياً ربَّه أن يرزقه الذرية الصالحة، فاستجاب الله دعاءَه، وقَبِلَ رجاءَه، وبشّره بيحيى ﷺ، ولم يجعل له من قبل سمياً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في معاني آيات هذا النص من القرآن

١- زكريا يبتهل إلى ربه أن يرزقه ذرية طيبة:

سبق أن بيّن الله تعالى في الآية السابقة أنّه كفّل نبي الله زكريا مريم، وأنه كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، فلما سألها قائلاً: أنّى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

فأهاج هذا زكريا إلى أن يتوجه إلى الله طالباً منه أن يهبه من عنده ذرية طيبة ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران:٣٨] وقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الزمان وذلك المكان اللذين كان فيهما عند مريم من غير تقديم ولا تأخير، وكان زكريا قد كبرت سنُّه، ووهن عظمه، واشتعل رأسه شيباً، وكانت امرأته عاقراً، فنادى ربه بأن يهبه الذرية الطيبة، قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ

نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم:٢-٦].

٢- استجابة الله دعاء نبيه زكريا:

أخبرنا ربنا - سبحانه وتعالى - أن الملائكة نادت زكريا وهو قائم يصلي في المحراب يدعو الله عز وجل، مخبرة إياه بأن الله استجاب دعاءه، وسيرزقه بغلام اسمه يحيى، وأخبرنا في سورة مريم أن هذا الاسم لم يُسَمَّ به أحد من قبله، وحددت الملائكة المنادية في هذا النص الصفات التي اختصّ الله بها يحيى ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران:٣٩] وقال في سورة مريم: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم:٧].

والكلمة التي يصدِّق بها يحيى هي عيسى عليه السلام، فإن الله خلق عيسى من مريم بأمره إياه أن يكون، فكان كما أراد الله من غير أن يكون له أب، والمراد أن يحيى صدَّق بعيسى، وآمن به، ولعله كان أول المؤمنين به.

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه جعل يحيى سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين، والسيد الذي يسود قومه بما وهبه الله من المزايا، ومن ذلك عفته وتقاه وصلاحه وعلمه وحلمه، قال ابن عطية: «خصَّه الله بذكر السؤدد الذي هو الاعتمال في رضا الناس على أشرف الوجوه دون أن يقع في باطل، وهذا اللفظ يعم السؤدد، وتفصيله أن يقال: بذل الندى، وكفُّ الأذى، واحتمال العظائم» [المحرر الوجيز: ٢/ ٢١٠ بشيء من الاختصار].

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: لم يجعل الله له ما يدعوه إلى وطء النساء في الحرام، فهو محصور ومعصوم عن الفواحش والقاذورات، ولكنه ليس ممنوعاً عن النساء في الحلال، وأخبرته الملائكة في بشراها له أنه سيكون نبياً من الصالحين، وهذا يدل على عظم ما بشَّرت به الملائكة زكريا، فهي بشرى بولد يكون نبياً.

٣- زكريا يتعجب من رزق الله له الولد وهو وزوجته على تلك الحال:

تعجب زكريا من رزق الله له الولد، وهو على تلك الحال، فسأل ربه قائلاً: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران:٤٠]

وقال في سورة مريم: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم:٨]. فالمعتاد أن الإنسان ينقطع نسله في الكبر، والزوجة العاقر في شبابها تزداد عقراً في شيخوختها، والمرأة العاقر: هي التي لا يولد لها، ويقال ذلك للرجل والمرأة، فكان الجواب أنه قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إذا أراد شيئاً كان كما يريد، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران:٤٠] وقال في سورة مريم: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم:٩].

٤- زكريا يطلب من ربه آية تدلُّ على وقوع الحمل:

بعد أن جاءت زكريا البشرى بيحيى طلب من ربه أن يرزقه آية، والآية: العلامة ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران:٤١]. وقال في سورة مريم: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم:١٠-١١]. جعل الله لزكريا آية، وهي حبسه عن كلام الناس، فلا يقدر عليه مدة ثلاثة أيام، لا لعيب وُجد فيه، فقد كان قادراً على التسبيح وذكر الله وقراءة التوراة، ولكنه إذا شاء تكليم الناس لم يقدر عليه.

وقوله: ﴿رَمْزًا﴾ فسَّرها في آية مريم بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ [مريم:١١] والرمز في اللغة: حركة تُعْلِمُ بها في نفس الرامز، سواء أكانت الحركة باليد أو الرأس أو العين أو غيرها، وأوحى إليهم أشار إليهم بحركة يده.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يستحب لمن منع من إنجاب الأولاد أن يلجأ إلى الله يدعوه أن يرزقه الذرية الطيبة كما فعل نبيا الله إبراهيم وزكريا عليهما السلام.

٢- الله قادر على أن يرزق الشيء في غير أوانه، فقد رزق الله مريم فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، ورزق زكريا الولد وهو شيخ كبير من زوجته الكبيرة، وقد كانت عاقراً في شبابها، ورزق مريم الولد من غير زوج، والله قادر على كل شيء، إذا أراد شيئاً كان.

٣- إكرام الله لزكريا، فقد وهبه الولد في شيخوخته من زوجه الكبيرة العاقر، وكان الولد الذي وهبه إياه سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين.

٤ - استجاب الله لزكريا مرة أخرى، فجعل له علامة تدلُّه على أنه سيهبه الولد من زوجه العاقر، والآية تتمثل في منعه عن كلام الناس ثلاث ليالٍ سوياً، أي: من غير آفة، بينما هو قادر على ذكر الله وتسبيحه والثناء عليه.

النص القرآني العاشر من سورة آل عمران
تبشير الله مريم بعيسى عليه السلام

أولاً: تقديم

بعد أن حدثنا ربنا - تبارك وتعالى - عن دعوة زكريا ربه أن يهبه الولد عندما رأى رزق الله لمريم الفاكهة في غير أوانها، عاد النص إلى مريم سليلة آل عمران التي أعاذها ربها وذريتها من الشيطان الرجيم، فحدَّثنا ربنا عن صفاتها الكريمة، وعما رزقه لها من الولد بكلمة منه من غير أب.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة آل عمران

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- فضل الصدِّيقة مريم ابنة عمران عليها السلام:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن ملائكته نادت مريم مبشرة إياها بأن الله اصطفاها، أي: اختارها، وطهَّرها، أي: من الشرك والكفر والذنوب والمعاصي، واختارها على نساء العالمين من الأولين والآخرين ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:٤٢].

وقد وردت عدة أحاديث تتحدث عن أفضل النساء المؤمنات في الأولين والآخرين، ومريم من هؤلاء، إن لم تكن أفضلهن، ففي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال النبي ﷺ : «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون» [البخاري: ٣٤٣٣، واللفظ له، ومسلم: ٢٤٣١].

وعن علي بن أبي طالب، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة» [البخاري: ٣٤٣٢، مسلم: ٢٤٣٠].

وفي الترمذي عن أنس قال: «حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسيا امرأة فرعون» [الترمذي: ٣٨٧٨، وقال: هذا حديث صحيح].

وهذه الأحاديث ذكر في مجموعها أن أفضل نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمد ﷺ، والأظهر أن أفضلهن على الإطلاق مريم ابنة عمران، كما دلت عليه الآيات، والله أعلم.

٢- أمر الملائكة لمريم بالقنوت والسجود والركوع:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الملائكة بعد أن بشَّرت مريم باصطفاء الله لها أمرتها بالقنوت لربها، والقنوت: طاعة الله عموماً، وطول القيام في الصلاة مع الخشوع خصوصاً، كما أمرتها بالإكثار من السجود والركوع ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران:٤٣]. والعلماء يقولون: إنه لم يكن في صلاة بني إسرائيل ركوع، فإن كان هذا صحيحاً، فإنَّ الركوع مما خص الله به مريم عليها السلام دون غيرها في ذلك الزمان، وهذه الأوامر التي أمرت الملائكة بها مريم تدلُّ على أنَّ التشريف يلازمه الاجتهاد في القيام بالتكاليف التي ترفع مقام العبد، وترضي عنه ربّه، وقد كان رسولنا ﷺ يطيل القيام من الليل، فتسأله عائشة عن إطالته القيام مع أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه، فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [البخاري: ٤٨٣٧. ومسلم: ٢٨٢٠].

٣- ما أخبر الله به رسوله ﷺ هو من الغيب الذي أوحاه الله إليه:

المشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران:٤٤] إشارة إلى ما أوحاه إلى رسوله ﷺ فيما سبق من نذر امرأة عمران، ووضعها الأنثى، وتقبلها ربها بقبول حسن، وتكفيلها زكريا، وما كان يجده عندها من الرزق، ودعاء زكريا ربه، وما وهبه الله من الولد، كل ذلك من أنباء الغيب الصادق، وأنباء الغيب التي من عند الله هي من الإيمان بالغيب الذي أوحى به إلى رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٢-٣] ومن كذَّب بالغيب الصادق الذي أوحى الله به في كتابه فقد كفر بالله.

والوحي المذكور في قوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ﴾ [آل عمران:٤٤] هو الإعلام الخفي الذي كان يأتي به جبريل عليه السلام إلى رسولنا ﷺ، أو يلقيه في قلبه من غير أن يشعر به.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران:٤٤] إشارة إلى ما أعلم الله رسوله ﷺ به من التنافس بين الأخيار من بني إسرائيل، وفيهم زكريا، فقد تنافسوا فيما بينهم، كل منهم يريد أن يكون هو الكافل لمريم، حتى أدى بهم خصامهم إلى الاقتراع على ذلك، فألقوا سهامهم، فقرعهم زكريا عليه السلام، ففاز سهمه على سهامهم، وكانت خالة مريم هي زوج زكريا، فهو أولى بكفالتها منهم.

٤- **بشارة الملائكة برزق الله لها ولداً من غير أب:**

أخبرنا ربنا - عز وجل - أن الملائكة بشَّرت مريم ابنة عمران قائلة: يا مريم، إن الله يبشِّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وسمى عيسى بالكلمة، لأن الله خلقه بكلمة ﴿كُن﴾ كما قال عز وجل: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران:٤٧].

وأخبرتها الملائكة أن هذا الولد الذي سترزقه ولد عظيم، له شأن عظيم، فهو وجيه عند الناس في الدنيا بما أعطاه الله من علم وحلم وفضل، وهو وجيه عند الله في الآخرة، وهو من المقربين عند الله في يوم الدين ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران:٤٥].

والمسح في لغة العرب: إمرار اليد على الشيء وإزالة الأثر عنه، ومسح الأرض ذرعها، وعبّر عن السير بالمسح كما عبر عنه بالزرع، وسمي عيسى عليه السلام بالمسيح لكونه مسح الأرض لأنه مشاها، أو لكونه يمسح ذا العاهة فيبرأ [المفردات: ٤٦٨].

والمسيح لقب لعيسى عليه السلام، وعيسى هو اسمه.

وقد أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الملائكة أخبرت مريم عليها السلام بأن الولد الذي بشرتها به المسمى بالمسيح عيسى ابن مريم له خاصية أنه يكلم الناس في المهد، أي: وهو صبي صغير، والمهد: المضجع الذي ينام فيه الطفل الصغير، وقال: ﴿وَكَهْلًا﴾ كي لا يظن ظان أنه يكلم الناس في الصغر، ولا يستطيعه في الكبر، فأخبرت الملائكة أنه يكلم الناس في المهد، كما يكلمهم في كبره، والكهل مرتبة في العمر تأتي بعد مرحلة الشباب وقبل الشيخوخة، وهي ما بين ثلاثة وثلاثين عاماً إلى الثانية والخمسين، وفي الآية أن عيسى بقي في الأرض إلى أن أدرك مرحلة الكهولة، ولم يدرك سن الشيخوخة ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران:٤٦].

وقد بيّن الله في سورة مريم الكلام الذي تكلم به عيسى في المهد، فبعد أن وضعته أمه، جاءت به قومها تحمله فقالوا لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ

ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم:٢٧-٢٩] عند ذلك تصدى عيسى لتبرئة أمه، والكشف عن حقيقة نفسه ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:٣٠-٣٢].

٥- مريم تدعو ربها سائلة إياه عن كيفية إعطائها الولد:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن مريم سألت ربها عن كيفية إعطائها الولد، مع أنها كانت غير ذات زوج، ولم يَمَسَّها بشر، أي: لم يعاشرها أحد من الرجال ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران:٤٧].

وقد أجابها ربُّ العزة أنه أراد أن يخلق منها الولد وهي على هذه الحال، أي: من غير أن يكون لها زوج، فالله لا يعجزه شيء أراده، و﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران:٤٧]. وإذا شاء شيئاً، وقال له: كن، فإنه يتشكل على النحو الذي أراده أسرع من لمح البصر ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر:٥٠].

وقال - عز وجل - في سورة مريم: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم:٢٠-٢١].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- مريم ابنة عمران أفضل نساء العالمين من الأولين والآخرين، ويدانيها في الفضل آسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمد ﷺ.

٢- أمرت الملائكة مريم بعد تبشيرها باصطفاء الله لها بالقنوت وهو طاعة الله، والقيام في الصلاة والسجود والركوع، وهذا مقتضى التكريم والتفضيل.

٣- ما حدثنا الله به عن أخبار امرأة عمران وزكريا ومريم هو من الغيب الصادق الدال على صدق الرسول ﷺ فيما جاء به.

٤- عندما ولدت مريم اقترع خيار بني إسرائيل أيهم يكفلها، والاقتراع منهج سليم جاءَت به الشريعة الإسلامية عند التنافس المشروع.

٥- بشَّرت الملائكة مريم بأن الله سيُخرج منها ولداً عظيماً من غير أب.

٦- سمَّى الله الولد الذي ستلده مريم المسيح ابن مريم، وسيكون وجيها في الدنيا والآخرة، وسيكون من المقربين، وسيكلم الناس في المهد وهو رضيع، ولن ينقطع عن الكلام وهو كبير.

٧- عندما استغربت مريم أن يأتيها ولد مع أنها ليس لها زوج، ولم يمسسها بشر، أخبرها الله أنه قادر على ذلك، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون.

النص القرآني الحادي عشر من سورة آل عمران
المواهب والآيات التي أنعم الله بها على عيسى عليه السلام

أولاً: تقديم

حدّثنا الله تبارك وتعالى عن النِّعم والآيات التي أكرم بها عبده ورسوله عيسى عليه وعلى أمه السلام، فمن ذلك إيتائه الكتاب والحكمة، وتعليمه التوراة والإنجيل، وإقداره على أن يصنع من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وإبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله، وغير ذلك مما ذكر الله تعالى في هذا النص، وكلُّ ذلك من الآيات المعجزات الدالات على أن الله أرسله للناس رسولاً، فهو عبد رسول، وليس بإله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تعليم الله عيسى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل:

أخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - أنه علَّم عيسى عليه السلام الكتاب والحكمة، والكتاب هنا الكتابة، أي: الخطُّ باليد، ولا يجوز حمله على التوراة والإنجيل، لأنه نصّ عليهما في الآية، والحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل، وعلَّمه مع الكتابة وإصابة الحق التوراة والإنجيل، والتوراة الكتاب الذي أنزله على موسى عليه السلام، والإنجيل الكتاب الذي أنزله على عيسى عليه السلام ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران:٤٨].

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه أرسل عيسى رسولاً إلى بني إسرائيل، وكان أول رسل بني إسرائيل يوسف بن يعقوب، وآخرهم عيسى ابن مريم.

٢- الآيات التي أجراها على يديه:

أخبرنا ربنا - عزَّ وجلَّ - أن عيسى عليه السلام قال متحدثاً عن الآيات التي وهبه الله إياها، وأجراها على يديه، فمن ذلك أنه كان يصنع من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه بشفتيه، فيصبح بإرادة الله ومشيئته طائراً من لحم ودم، ويحلق في الهواء كبقية الطيور بإذن الله ومشيئته.

ومن ذلك أن الله كان يشفي على يديه الأعمى والأبرص، وكان يحيي الموتى بإذن الله تبارك وتعالى، وكان يخبر الناس بما يأكلونه، وما يدَّخرونه في بيوتهم، أي: يخزنونه في منازلهم، وكلُّ هذا آيات دالة على صدق نبوته ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران:٤٩].

٣- تصديق عيسى لما بين يديه من التوراة:

أخبر عيسى عليه السلام قومه أنه بُعث مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة، وجاءهم بإحلال بعض ما حرَّمته التوراة، وأخبرهم أنه جاءَهم بآية عظيمة من عند الله دالة على صدقه، وهذا يوجب عليهم مخافة الله وتقواه وإطاعته فيما جاءَهم به، وقال لهم: إن الله هو ربي وربكم، وهذا يوجب عليهم عبادته وحده لا شريك له، وأعلمهم أن هذا هو الصراط المستقيم الذي يوصلهم إلى رضوان الله وجنته ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران:٥٠-٥١].

وهذا الذي ذكره الله عن عيسى عليه السلام يدلُّ على أنه عبد مأمور، وليس بإله - كما يزعم النصارى.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- علَّم الله عيسى عليه السلام الكتابة وإصابة الحق بالقول والفعل، كما علَّمه التوراة والإنجيل.

٢- أرسل الله عيسى رسولاً إلى بني إسرائيل، وأجرى على يديه كثيراً من الآيات المعجزات التي لا يستطيع البشر الإتيان بمثلها، وهي توجب على الناس الإيمان برسالته ونبوته.

٣- كان عيسى عليه السلام وكتابه الإنجيل مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة.

٤- أحلَّ الله لبني إسرائيل في شريعة عيسى بعض ما حرّم عليهم في التوراة، وبقي بعض ما في التوراة محرماً، كالزنا والربا والخنزير.

٥- عيسى عبد رسول، وليس بإله ولا ابن الله، وما أجراه على يديه من إحياء الموتى، وشفاء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك بإذن من الله، فالله هو المحيي، وهو الشافي على يدي عيسى عليه السلام .

٦- كانت التوراة موجودة كاملة من غير تغيير ولا تحريف ولا نقصان في عهد عيسى عليه السلام ، فقد أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الله علَّمه التوراة وأنزل عليه الإنجيل.

النص القرآني الثاني عشر من سورة آل عمران
رفع الله عيسى عليه السلام إلى السماء وتطهيره من الذين كفروا

أولاً: تقديم

يتضمن هذا النص بيان أمرين عظيمين: **الأول**: الإخبار عن الحواريين الذين حملوا رسالة عيسى إلى بني إسرائيل، وهم الأنصار الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسول الله، ودعوا بني إسرائيل إلى هذه الرسالة الطيبة.

والثاني: أن الله رفع عيسى إلى السماء عندما تعاظم كفر الكافرين به من بني إسرائيل، فعزموا على قتله والفتك به، وقد طهَّره الله برفعه من الكافرين، وسينزل عيسى في آخر الزمان، فيبيد الكافرين به، حتى لا يبقى إلا دين الله الإسلام.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حواريو عيسى ينصرون الله ورسوله:

دعا عيسى قومه، وبلَّغهم رسالة ربه على النحو الذي سبق، فآمنت به طائفة من بني إسرائيل، وكفرت طائفة أخرى، وتمالأت الطائفة الكافرة على قتله والفتك به، وأدرك عيسى عليه السلام تصميمهم على ما تمالؤوا عليه، عند ذلك قال لأتباعه: من أنصاري إلى الله؟ ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٥٢]. أي: من أنصاري إلى الله في حمل الدعوة ، كما كان رسولنا ﷺ يبحث عمن يؤويه حتى يبلّغ دين الله إلى الناس بعد أن كفر به

قومه في مكة، فآمن به الأنصار، فهاجر إليهم فآووه ونصروه، ومنعوه من الأبيض والأسود والأحمر.

وهكذا فعل عيسى عليه السلام دعا بني إسرائيل إلى نصرته، فآمن به الحواريون، وحملوا الدين معه، وآزروه ونصروه، وقد سمى رسولنا ﷺ ابن عمته الزبير حواريه عندما انتدب الصحابة في غزوة الأحزاب أن يأتوه بخبر القوم، فقال: «من يأتيني بخبر القوم» قال: الزبير: أنا. ثم قال: «من يأتيني بخبر القوم» قال الزبير: أنا. فقال رسولنا ﷺ : «إن لكل نبيٍّ حوارياً، وحواريّ الزبير» [البخاري: ٢٨٤٦، مسلم: ٢٤٥١، واللفظ للبخاري].

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران:٥٢-٥٣] أخبر الله أن بعضاً من أتباع عيسى وهم الحواريون أعلنوا أنهم أنصار الله، آمنوا بالله وشهدوا له بالوحدانية، ولعيسى بالرسالة، وهم عازمون على حمل رسالته إلى بني إسرائيل، وطلبوا من عيسى عليه السلام أن يشهد عليهم أو لهم بأنهم مسلمون، والإسلام دين الرسل جميعاً كما سبق بيانه.

وتوجهوا إلى ربهم قائلين: ربنا آمنا بما أنزلت من الحق، يريدون التوراة والإنجيل، واتبعنا الرسول، يريدون به عيسى عليه السلام ، وقولهم: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران:٥٣] أي: من الشاهدين لك بالوحدانية، ولنبيك بالرسالة.

٢- إنجاء الله عبده ورسوله عيسى من كفار قومه الذين أرادوا قتله:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أن الذين كفروا من بني إسرائيل مكروا بعيسى عليه السلام ، ليقتلوه، وأصل المكر في اللغة: الاحتيال والخداع، ومكر الله باليهود الكفرة، فلم يمكّنهم من قتله، ومكر الله بهم تحقّق برفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وألقى شبهه على غيره، فقتلوا الشبيه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧].

وبيّن الله - تعالى - أنه مكر باليهود الذين أرادوا قتله فقال: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران:٥٤] وإنما كان الله خير الماكرين، لأنه أقواهم مكراً، وأنفذهم كيداً، وأقواهم على إيصال الضرر إلى من يريد إيصاله إليه من حيث لا يحتسب.

وقد ذكر الله لعيسى عليه السلام قبل رفعه إلى السماء ما يريد فعله به، فقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران:٥٥].

حدثنا الله عزَّ وجلَّ أنه نادى عيسى عليه السلام مخبراً إياه أنه قال له: يا عيسى إني متوفيك، ورافعك إليّ، ومطهرك من الذين كفروا، والصواب من القول: أن المراد بالوفاة هنا النوم، فالوفاة في الاصطلاح القرآني تكون بالموت كما تكون بالنوم، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام:٦٠]، وقال: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر:٤٢].

ولا يمكن حمل الوفاة في الآية على الموت لأمرين:

الأول: أن الله أكذب اليهود الذين زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم، وقرر أنهم لم يقتلوه، ولم يصلبوه، ولكن شبّه لهم، قال سبحانه: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨].

الثاني: أن عيسى ابن مريم سينزل آخر الزمان، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويقتل الدجال، ويُؤَذِّن بالصلاة، ويحكم بالقرآن، وعند ذلك يؤمن به النصارى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء:١٥٩] فدلت الآية أنه سيموت في الأرض بعد نزوله، وعلى ذلك فلو أنه أماته عندما رفعه إلى السماء، لكان كتب عليه الموت مرتين، وعلى ذلك فإن عيسى عليه السلام مرفوع إلى السماوات العلى، وهو حي فيها، وسيبقى حيّاً إلى أن يهبط إلى الأرض في آخر الزمان، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «والله لينزلنَّ ابن مريم حكماً عادلاً، فليكْسِرنَّ الصليب، وليقتلنَّ الخنزير، وليضعنَّ الجزية» [مسلم:١٥٥] وعن جابر بن عبدالله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله لهذه الأمة» [مسلم:١٥٦].

وقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران:٥٥] أي: إلى السماء، وقوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [آل عمران:٥٥] أي: مطهرك من الأدناس والأوساخ التي تَلَبَّس بها الذين كفروا وأخبره أنه سيجعل أتباعه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ولا يصلح أن تكون الآية في النصارى الذين جعلوا عيسى ثالث ثلاثة، أو جعلوا عيسى هو الله أو ابن الله، لأن هؤلاء

كفار، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧].

والصواب من القول: أن المراد بالذين اتبعوه على الدين الحق، وقالوا في عيسى ما قاله الله فيه هم المسلمون من أمة محمد ﷺ الذين يقولون فيه: هو كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وهو عبد الله ورسوله ونبيه، وما جاء به من آيات من نفخه في الطين الذي يصنعه فيصبح طيراً، وإحيائه الموتى، وشفائه الأعمى والأبرص هي آيات معجزات أجراها الله على يديه، وهي من صنع الله، وبديع قدرته.

وقد ظهر دين الإسلام الذي كان عليه عيسى وجميع الرسل فوق كل دين، وحطمت الجيوش الإسلامية عروش الأكاسرة والقياصرة، وزالت الدول القديمة، وعلا منار الإسلام.

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه سيجمع الأولين والآخرين إلى يوم الدين، فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ومن ذلك اختلافهم في عيسى عليه السلام، فاليهود يقولون فيه: هو ابن زنا، والنصارى يقولون فيه: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، ونحن المسلمين نقول فيه: إنه عبد الله ورسوله.

٣- مصير الكافرين ومصير المؤمنين:

بيّن الله في الآية السابقة أن مصير العباد إليه، فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، والناس فريقان: الكافرون والمؤمنون ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران:٥٦-٥٧].

أخبر الله - تبارك وتعالى - أن الذين كفروا بعيسى من اليهود والنصارى سيعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا، ومن ذلك تسليط عباده المؤمنين على الكافرين، ويكون عذابهم بالأسر والقتل والجزية والإهانة، وهذا ما وقع فعلاً من المؤمنين بهؤلاء الكافرين، ويعذبهم في الآخرة بأهوال المنشر والمحشر، والخلود في النار.

وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم في الدنيا بالنصر والتمكين، وفي الآخرة بالظفر بالجنات العاليات، خالدين فيها أبد الآبدين، وقرر في ختام الآية أن الله لا يحب الظالمين، والمراد بهم الكفار المجرمون.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران:٥٨] أي: هذا الذي قصصناه عليك من أخبار عيسى، وكيف أنشأه الله تبارك وتعالى وخلقه، وما أعطاه الله من آيات، وما جرى له مع قومه، ورَفْعُ الله له إلى السماء، وتطهيره من الذين كفروا، كل ذلك مما تلاه الله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات والذكر الحكيم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- عندما أحس عيسى عليه السلام كفر قومه به، وأنهم يريدون قتله دعا أتباعه إلى مناصرته في الدعوة إلى الله، فاستجاب له الحواريون، وآمنوا به، واتبعوه.

٢- أراد الكفرة من بني إسرائيل قتل عيسى عليه السلام، فتوفاه الله بالنوم ورفعه إلى السماء، وطهَّره من الذين كفروا، وسينزله في آخر الزمان، فيقضي على الملة النصرانية الباطلة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويقتل الدجال، ويحكم بالإسلام.

٣- أخبر الله أنه سيجعل المؤمنين القائمين بالحق فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وهؤلاء هم أتباع عيسى على الحق من دينه، والمؤمنون من الأمة الإسلامية.

٤- سيحكم الله بين الذين كفروا بعيسى من اليهود والنصارى وبين الذين آمنوا به، فالذين كفروا يعذبهم في الدنيا والآخرة، والذين آمنوا وعملوا الصالحات يأجرهم في الدنيا والآخرة.

٥- امتنّ الله على رسوله بما تلاه عليه من الآيات التي حدثنا فيها عن عيسى عليه السلام وما جرى له فيما سبق.

النص القرآني الثالث عشر من سورة آل عمران
مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب

أولاً: تقديم

قرر الله - تبارك وتعالى - في أول هذا النص أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم عليه السلام، فآدم عبد مربوب مخلوق، مع أنه لا أب له ولا أم، خلقه الله بيده من تراب، ثم قال له: كن، فكان كما يريده الله أن يكون.

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يدعو زعماء وَفْدِ نَجْران الذين زعموا أن المسيح عيسى ابن الله إلى المباهلة، وصورتها أن يأتي رسولنا ﷺ بأبنائه ونسائه ويأتي زعماء الوفد بنسائهم وأولادهم، ويقفوا في مكان واحد، ثم يدعون الله طالبين منه أن ينزل لعنته على الكاذبين في أمر عيسى.

ولكن زعماء الوفد النجراني نكصوا وتراجعوا، ودفعوا الجزية، وأمر الله رسوله ﷺ في ختام هذا النص أن يدعو وفد نجران إلى التوحيد الخالص، وعبادة الله وحده، وهجران الكفر والشرك.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مثل عيسى عند الله كمثل آدم:

احتج النصارى على قولهم الباطل بأن عيسى عليه السلام هو ابن الله - تعالى الله عما يقولونه علواً كبيراً - بأنه ليس له أب، وقد بيّن الله لهم بطلان هذا القول بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران:٥٩] فعيسى عليه السلام خلق من

أنثى من غير أب، وآدم عليه السلام خلق من تراب من غير أب ولا أم، وكلاهما مخلوق لله عز وجل، خُلق كما يريده الله تبارك وتعالى.

فإذا كان عيسى ابن الله لكونه خلق من غير أب، فآدم عليه السلام أولى بأن يكون إلهاً أو ابن الله، لكونه لا أب له ولا أم، والنصارى يعتقدون في آدم أنه عبد مخلوق، فأولى بهم أن يعتقدوا بأن عيسى عبد رسول.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [آل عمران:٦٠] أي: هذا هو القول الحق الكائن من عند الله في أمر عيسى عليه السلام ، فلا تكونن من الشاكين في أمره.

٢- دعوة النصارى إلى المباهلة:

جاء وفد نصارى نجران إلى المدينة المنورة وحاجُّوا الرسول ﷺ في شأن عيسى مدَّعين أنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، فأقام الرسول ﷺ عليهم الحجة، وضرب لهم المثل بآدم عليه السلام ، وهو يقول فيه: إنه عبد نبي، مع أنه خلق من غير أب ولا أم.

فلما ازداد ذلك الوفد حجاجاً وخصاماً بعد أن أقام الرسول ﷺ الحجة عليهم دعاهم الرسول ﷺ إلى المباهلة كما أمره الله في هذه الآية قائلاً: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾ [آل عمران:٦١].

وقد جاء رسولنا ﷺ معه بحفيديه من فاطمة، وهما الحسن والحسين، وجاء بعلي وفاطمة تمشي خلفهم، وروى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ [آل عمران:٦١] دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي» [مسلم: ٢٤٠٤].

وطلب الرسول ﷺ من زعماء النصارى أن يبرزوا للمباهلة، فتراجعوا خوفاً أن تصيبهم دعوة الرسول ﷺ ، وتصيب عقبهم، ففي صحيح البخاري عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله يريدان أن يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعنّا، لا نفلح نحن، ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول الله، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح»، فلما قام، قال رسول الله : «هذا أمين هذه الأمة» [البخاري:٤٣٨٠].

ونجران التي دعا رسول الله ﷺ وفدها إلى المباهلة، فنكصوا، «بلد كبير على سبع مراحل من مكة المكرمة إلى جهة اليمن، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية، مسير يوم للراكب السريع» [فتح الباري: ٨/ ١٨].

والقارئ النبيه يعلم أن هؤلاء الذين نكصوا عن المباهلة، إنما فعلوا ذلك لعلمهم بأن محمداً رسول حقاً، فخافوا على أنفسهم وذراريهم أن تصيبهم دعوته. «وخصَّ الأبناء والنساء، لأنهم أعزُّ الأهل، وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه، وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب، لتمنعهم من الهرب، ويُسمون الذادة عنهم بأرواحهم حماة الحقائق، وقدَّمهم في الذكر على الأنفس، لينبه على لطف مكانهم، وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها» [الكشاف: ١/ ٤٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران:٦١] بيان لما يقال في المباهلة.

٣- ما قصَّه الله في أمر عيسى عليه السلام هو القصص الحق:

أخبرنا الله تعالى أن ما قصَّه علينا في شأن عيسى هو القصص الحق ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾**﴾ [آل عمران:٦٢-٦٣].

فعيسى عليه السلام هو عبدالله ورسوله، خلقه كما خلق آدم، فليس هو كما يقول اليهود ابن زنا، وليس هو كما يقول النصارى ابن الله، أو هو الله أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولونه علواً كبيراً.

والقصص جمع واحده قصَّة، والقصة في لغة العرب الأخبار المروية، والأنباء المحكية، وقد سمى الله ما حدثنا به عن أنباء الغابرين قصصاً، وأصل القصص عند العرب تتبع الأثر، فالعليم بالآثار يسير وراء ما يريد معرفة خبره، ويتتبع أثره، حتى ينتهي إلى موضعه الذي حلَّ فيه، سميت حكاية الأخبار قصصاً، لأن القاص يتتبع أحداث القصة كما وقعت، ويتتبع ألفاظها ومعانيها، ولذا لا يكون المرء قاصّاً حقاً إلا إذا جاء بأحداث ما يرويه على وجهه الذي وقع عليه، ويرى أهل العلم والأدب أن القصة لون خاص من الأخبار ذو طبيعة خاصة، وعلى ذلك فكل قصة خبر، وليس كل خَبَرٍ قصة، وعرَّفوا القصة بقولهم: «فن حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب لغوي ينتهي إلى غرض مقصود» [صحيح القصص النبوي، ص١١ بشيء من الاختصار].

وما قصَّه ورسوله ﷺ الله علينا كلُّه حق، بخلاف قصص البشر، فقد يكون حقاً وقد يكون باطلاً، وقد يكون مخلوطاً، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران:٦٢] معناه: لا يوجد معبود يستحقُّ العبادة إلا الله تبارك وتعالى، وغيره من الآلهة المعبودة كالشمس والقمر والنجوم والأصنام معبودات باطلة، ومن الآلهة الباطلة ما ادعاه النصارى في عيسى عليه السلام أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، وعيسى عليه السلام لا يرضى بهذا التأليه ويكفر به.

وقوله في ختام الآية: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [آل عمران:٦٢] العزيز: القويُّ الغالب الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والحكيم، أي: في قوله وعمله، فهو أحكم الحاكمين سبحانه.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران:٦٣] أي: إن أعرضوا عن الحق الذي قررناه، وهو وحدانية الله سبحانه، فهؤلاء مفسدون بأقوالهم وأعمالهم ولا أفسد من الذين زعموا أن عيسى هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، ولفساد قولهم وعظمه تكاد السموات والأرض أن ينفطرن ويتشققن ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم:٨٨-٩٢].

٤- دعوة مشركي أهل الكتاب إلى توحيد الله تعالى:

أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء بينه وبينهم، تؤدي هذه الكلمة إلى عبادة الله وحده، والانتهاء عن الشرك بالله تعالى، والانتهاء عن عبادة العباد ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤].

والكلمة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يدعو إليها وفد نجران هي كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله، وهي أعظم كلمة، والقضية التي تحملها أعظم قضية، ولذلك وصفها بأنها ﴿سَوَاءٍ﴾ أي: عدل، فالإيمان بوحدانية الله أعدل شيء في الوجود كلِّه، وهذه الكلمة تجعل الناس كلهم متساوين، أي: كلهم عبيد الله الواحد الأحد.

والدعوة إلى هذه الكلمة هي دعوة جميع الرسل الذين أرسلهم الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

ومع أن هذه الآيات من سورة آل عمران نزلت في وفد نصارى نجران الذين وردوا المدينة، إلا أن الخطاب في الآية موجه إلى جميع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقد أرسل رسول الله ﷺ خطاباً إلى قيصر الروم يدعوه إلى الإسلام، وفيه هذه الآية، وهي: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...﴾ الآية [آل عمران:٦٤] [البخاري: ٧، ٤٥٥٣، مسلم: ١٧٧٣].

وقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:٦٤] هذا تفسير للكلمة السواء، التي تقضي بتوحيد الله بعبادته وحده لا شريك، ورفض عبادة الأوثان والأصنام والصلبان والنجوم والنيران.

وقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٦٤] وقد كان النصارى ولا يزالون يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فقد عبدوا المسيح عيسى إلهاً من دون الله، وكانوا ولا يزالون يتخذون رهبانهم أرباباً يحلون ويحرمون ويشرعون لهم خلاف ما شرع الله.

وقوله في ختام الآية: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤] أي: إن رفضوا ما دعوتهم إليه، فقولوا لهم موبخين لهم ومهددين: اشهدوا بأنا مسلمون، وسنصير وإياكم إلى الله، فترون عاقبة توليكم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- استحباب مناظرة الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، كما ناظر رسولنا ﷺ وفد نصارى نجران، وناظر اليهود، وغيرهم، وهذه المناظرات لإقامة الحجة عليهم، ودعوتهم إلى الإسلام.

٢- رفع النصارى عيسى من مرتبة العبودية إلى مرتبة الألوهية، فأشركوا بالله تعالى ما لم ينزل به سلطاناً.

٣- أعظم ما ندعو الناس إليه توحيد الله تبارك وتعالى، وعبادة الله وحده، وترك الأصنام والأوثان والنيران كما نصت الآية الأخيرة على ذلك في هذا النص.

٤- جواز مباهلة الكفار الذين يفترون على الله الكذب، كما أمر الله رسوله ﷺ زعماء وفد نجران إلى مباهلته، فنكصوا، وقد بقي أهل العلم من هذه الأمة على استعداد دائماً وأبداً للمباهلة.

النص القرآني الرابع عشر من سورة آل عمران
ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً

أولاً: تقديم

خاصم اليهود والنصارى نبينا محمداً ﷺ بالباطل في شأن إبراهيم عليه السلام ، فادَّعت كل طائفة منهم أن إبراهيم على دينه وطريقته، وادعى هذه الدعوى مشركو العرب، فأكذبهم الله تعالى، وقرر أن إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمۡ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده:

نادى الله تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى منكراً عليهم دعوى كلٍّ منهم أن نبي الله إبراهيم عليه السلام كان على دينه ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [آل عمران:٦٥].

والرد على شبهتهم التي أوردوها أن التوراة المنزلة إلى اليهود، والإنجيل الذي أُنزل إلى النصارى منزلان بعد إبراهيم عليه السلام بعصورٍ طويلة، فليس فيهما ما يدلُّ على دعواهما، ولذلك خاطبهم منكراً عليهم قائلاً: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [آل عمران:٦٥].

وقد أنكر الله عليهم هذه الدعوى الباطلة في سورة البقرة في قوله: ﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ ﴾ [البقرة:١٤٠].

٢- إنكار الله على اليهود والنصارى محاجتهم فيما ليس لهم به علم:

قال الله لليهود والنصارى: هاأنتم حاججتم فيما لكم به علم من أمر دين كل منكم، مما تضمنته التوراة والإنجيل، فلم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم من أمر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، والله تبارك وتعالى هو العالم بحال هؤلاء، وما كانوا عليه من دين، وأنتم لا تعلمون، قال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [آل عمران:٦٦].

٣- كان إبراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً:

نفى الله - تبارك وتعالى - أن يكون إبراهيم عليه السلام يهودياً أو نصرانياً، وأخبرنا أنه كان حنيفاً مسلماً، والحنيف المائل عن الأديان الباطلة، المستقيم على الدين الحق وهو الإسلام، بعيداً عن الشرك وعبادة غير الله من الأوثان والأصنام والنيران، وعبادة الشمس والقمر والنجوم ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران:٦٧]، وقال الله سبحانه في سورة البقرة مقرراً ملة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [البقرة:١٣٥]، وقال في سورة النحل: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ ﴾ [النحل:١٢٣].

٤- أولى الناس بإبراهيم عليه السلام:

أعلمنا ربنا - تبارك وتعالى - أن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه في حياته أو بعد مماته، فقد اتبعه في حياته نبي الله لوط ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ ﴾ [العنكبوت:٢٦] وزوجته سارة، ومملوكته هاجر، وأولاده إسماعيل وإسحاق، ويعقوب بن إسحاق، وأولاد يعقوب وهم اثنا عشر ولداً، وهم الأسباط، وكلٌّ من جاءَ بعدهم من ذرية إسماعيل، ويدخل في زمرة الذين هم أولى به نبينا محمد ﷺ، والذين آمنوا به ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران:٦٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من عمل وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- دعوى اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان على دين كل واحد منهم دعوى باطلة كاذبة.

٢- نبي الله إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين.

٣- محاجة اليهود والنصارى في شأن إبراهيم عليه السلام محاجة قائمة على الجهل، فليس عندهم علم بأنه كان يهوديًّا أو نصرانيًّا.

٤- أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه، في حياته، وبعد موته، وهم الذين اتبعوه على طريقته حنفاء مسلمين، وهذا النبي الذي هو محمد ﷺ، والذين آمنوا معه.

٥- لا يجوز لمن كان يتقي الله - تبارك وتعالى - أن يجادل في أمر من الأمور المتعلقة بالدين إن لم يكن عنده حجّة من الله أو من رسول الله ﷺ.

النص القرآني الخامس عشر من سورة آل عمران
جهود زعماء وعلماء اليهود والنصارى في إضلال المسلمين

أولاً: تقديم

في آيات هذا النص بيان لما انغرس في قلوب اليهود والنصارى من رغبة عارمة في إضلال المسلمين، ومع أن علماءَهم يعلمون في قرارة نفوسهم أن الإسلام حقٌّ، ومحمداً حقٌّ، إلا أنهم يكتمون هذا الحقَّ، ويكفرون به، وقد فصَّل لنا هذا النص بعضاً من مكر اليهود في إضلال عباد الله المؤمنين.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن من سورة آل عمران

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أنه قام في نفوس طائفة من أهل الكتاب رغبة عارمة في إضلال المسلمين ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران:٦٩]. وقد أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أن الحامل لهم على إضلالنا هو حسدهم إيانا على ما أتانا من فضله ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء:٨٩]. وهذه الرغبة قائمة عند اليهود والنصارى منذ عهد الرسالة إلى اليوم، وقد أقاموا في العصور الأخيرة مراكز البحوث، والجامعات، والمعاهد، ودرسوا ديننا، وأقاموا المؤسسات التبشيرية التي تضم عشرات الألوف من المبشرين، وأمدُّوها بالرجال والنساء والأموال، وعقدوا المؤتمرات، وجاسوا خلال ديار المسلمين، وبرز منهم رجال ادعوا أنهم علماء بديننا، وأخذوا يدسُّون فيه، ليخربوا تعاليم الإسلام وعقيدته وشرائعه.

وقد أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أن هذه الطائفة من أهل الكتاب التي تودُّ إضلالنا وتسعى فيه إنما يضلُّون أنفسهم وما يشعرون بذلك ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران:٦٩] لأن الذي يودُّ الإفساد، ويسعى فيه، هو ضالٌّ فاسد في نفسه، فهم ضالُّون، وهم يحسبون أنهم مصلحون.

٢- تبكيت الله أهل الكتاب وتوبيخهم:

نادى الله - عزَّ وجلَّ - أهل الكتاب مرتين نداء توبيخ، فقال: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران:٧٠-٧١].

نادى الله أهل الكتاب أولاً موبخاً إياهم على كفرهم بآيات الله، مع أنهم يشهدون أنها حق، فاليهود في قرارة أنفسهم يعلمون أن محمداً مرسل من ربه، وأن آيات القرآن منزلة من عند الله العزيز الحكيم، فهم يجدون هذا في كتابهم، فالتوراة والإنجيل تزخران بالتبشير بمحمد ﷺ وكتابه وأصحابه، والتعريف بموضع بعثته ومهاجره وغير ذلك، ولكنهم كفروا بذلك حسداً للعرب على ما أتاهم الله من فضله، وقد كانوا في الجاهلية يحدِّثون العرب عن ذلك كله، ويقول لهم: سيُبعث نبي نتبعه ونقتلكم معه، فلما بُعث من العرب كفروا به ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩]، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة:١٠١].

ونادى الله - تبارك وتعالى - أهل الكتاب موبخاً إياهم على لبسهم الحق بالباطل وكتمانهم الحق، وهم يعلمون أنه حق، فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران:٧١].

ومن يرجع إلى كتابات المستشرقين من اليهود والنصارى يجد هذا الخلط بين الحق والباطل ظاهراً جلياً، ويجد أنهم يكتمون الحق ويسترونه حال كونهم عالمين بذلك.

فترى الواحد منهم يقرّ بشيء من الحق، ثم يدسُّ في كلامه باطلاً كثيراً، ثم يأتي غيره ليبطل ما أقرَّ به السابق، ويقر ببعض الباطل الذي نفاه السابق، وكلامهم في نفي الحق والإقرار بالباطل شبيه بالأساطير والخرافات التي يتحدث بها العوام، فمثلاً «راف لنتون» مؤلف «شجرة الحضارة» يصور في هذا الكتاب [٢/ ٣٤٠] أن الرسول ﷺ كان في صغره

متشرداً، كل يوم يأوي إلى بيت، وكل يوم تحنو عليه مرضعة، ويدَّعي - زوراً وباطلاً - أنه خاض غمار حرب دينية عندما سافر مع عمه في تجارة إلى الشام.

و«هنري ماسيه» يدَّعي كاذباً في كتابه «الإسلام» [ص٤٣] أن زوجة الرسول ﷺ خديجة كانت تدير بيتاً تجارياً مخصصاً للفسق والرذيلة، ويدعي المؤرخ الإنجليزي «ويلز» في كتابه «معالم تاريخ الإنسانية» [٣/٧٧٦] أن الرسول ﷺ وُلد له ولد من خديجة اسمه عبد مناف، ومناف - كما يزعم كاذباً - اسم للرب المكي - ، ويدَّعي هذا المؤرخ الكذاب أن نبينا محمداً ﷺ كانت تلم به أدوار صرع روحي عظيم، وأنه كان يخرج إلى الصحراء في آلام مبرحة من الشك والرغبة القدسية، وإذا شئت أن تتطلع على شيء من ترهات المستشرقين من اليهود والنصارى والعلمانيين، فارجع إلى كتابنا «محاضرات إسلامية هادفة» [ص١٠٤-١٠٨].

٣- زعماء اليهود والنصارى يقولون لأتباعهم آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا أول النهار واكفروا آخره:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - عن مخطط اخترعه شياطين اليهود والنصارى منذ تنزل القرآن، ولا يزال هذا المخطط معمولاً به من قِبَل المستشرقين وأساتذة الجامعات والعاملين في مراكز البحوث في عالم الغرب وفي ديارنا، ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران:٧٢] أمر السادة أتباعهم أن يؤمنوا أول النهار، ويكفروا آخره، فإن عوام الناس، ومن لا علم عندهم، إذا رأوا كفر هؤلاء بعد إيمانهم، قالوا: لا بد أن في هذا الدين ما يعيبه حتى رجعوا عنه.

وقد رأيت هؤلاء المستشرقين يمدحون رسول الإسلام، وما جاء به من دين، ثم ينسبون إليه الطامات والعظائم، ولو كان كلامهم كلُّه ذماً وقدحاً في الرسول ودينه، فإنه لا يقرأ كتابهم أحد، ولا يلتفت إليه أحد، وقد رأيت كثيراً من الذين ذكروا محاسن الإسلام ورسول الإسلام جاؤوا بطامات، تكفي واحدة منها لإبطال كل ما ذكروه من محاسن، وتغطي عليه، ولا يسلم من هؤلاء إلا القليل، ومنهم أولئك الذين أسر الإسلام نفوسهم فأسلموا.

٤- زعماء اليهود والنصارى يوصون أتباعهم أن لا يؤمنوا إلا لمن تبع دينهم:

أعلمنا الله - عز وجل - أن الزعماء والعلماء والمنظرين من اليهود والنصارى يوصي بعضهم بعضاً، كما يوصون أتباعهم أن لا يؤمنوا إلا لمن تبع دينهم، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقول في مواجهة هذه المقالة الباطلة: إن الهدى هدى الله ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ

ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٣] ودعوتهم إلى عدم إيمانهم إلا لمن تبع دينهم دعوة لأتباعهم أن لا يطمئنوا ولا يظهروا سرَّهم وما عندهم إلا لمن تبع دينهم، حتى لا يحتج عليهم المسلمون بما لديهم في كتابهم من آيات. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٣] أي: إن الهدى هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى الإيمان على الوجه الأكمل، وهذا الهدى هو الذي أنزله الله على عبده ورسوله من الآيات والدلائل والحجج، فالمؤمنون ليسوا بحاجة إلى ما كتمه اليهود من شأن رسولنا ﷺ وديننا.

وقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ [آل عمران:٧٣] المعنى أن أولئك الزعماء والرؤساء نَهَوْا أتباعهم عن الإيمان إلا لمن تبع دينهم، حتى لا يعلم المسلمون بما كتموه من الحق، فيحاجُّونهم بما أخفوه عن الناس، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء الضالين: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران:٧٣].

أمر الله رسوله أن يقرَّ الحقَّ في نصابه، فالفضل بيد الله، وليس بأيديهم، فإذا كتموا الحق وأخفوه عن المؤمنين، ومنه ما بشر الله به في التوراة والإنجيل عن رسولنا ﷺ وديننا وأمتنا، فإن علم ذلك كلّه عند الله، والله يبارك من يشاء، إذا شاء، كيف يشاء، ولا يحتاج إلى ما عند هؤلاء الْمُخْفين الكاتمين للحق، وقد ختم الله الآية بصفتين من صفات الله تبارك وتعالى فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران:٧٣]، والله سبحانه واسع، أي: كثير العطاء، وهو عليم بالمستحقِّ لهذا الفضل، وذلك العطاء.

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [آل عمران:٧٤]. وقد اختص الله رسله وأنبياءه ومن اتبعهم على إثرهم، وآخرهم رسولنا ﷺ وأمته برحمته وفضله.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- على المسلمين أن يحذروا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فإنهم يريدون إضلال المسلمين، ويسعون في ذلك.

٢- كثير من الأحبار والرهبان يعلمون في قلوبهم أن محمداً مرسل من ربه، وأن دينه حقٌّ يجب اتباعه، ومع ذلك فإنهم يكفرون بما يعلمون أنه حق.

٣- علماء اليهود والنصارى يلبسون الحق بالباطل، وقد أدخلوا في أحاديث رسولنا، وتفسير القرآن، وتاريخنا شيئاً كثيراً ألبسوا فيه علينا ديننا، وكتموا كثيراً من الحق.

٤- من تخطيط علماء اليهود والنصارى أن يؤمنوا بديننا ثم يكفروا به، ويظهروا بعض الحقِّ، ويكتموا كثيراً منه، ليوقعوا ضعاف النفوس في البلبلة والشك.

٥- يتواصى اليهود فيما بينهم، وكذلك النصارى أن يكتموا ما عندهم في كتبهم من بشارات تزخر بها هذه الكتب، حتى لا يتخذها المسلمون حجة يحاجُّون بها، وحتى لا نحاججهم بها عند الله، ونسي هؤلاء أن الفضل والهداية بيد الله لا بأيديهم.

النص القرآني السادس عشر من سورة آل عمران
من أهل الكتاب أمناء ومنهم خونة

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربنا - عزَّ وجلَّ - في هذا النص عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يجادلوننا في ديننا، ويريدون فتنتنا عما أنزل الله علينا، فأخبرنا أنهم فقدوا الخصائص التي تؤهلهم لقيادة البشرية، فمع أن فيهم أمناء إلا أن فيهم خونة أكلة لأموال الناس بالباطل، ومصابهم الأكبر أنهم يزعمون أن دينهم هو الذي أباح لهم أموال غيرهم كذباً وزوراً.

إن دين الله يقوم على الوفاء بالعهد وتقوى الله سبحانه، ومن اتصف بهذه الصفات لا يمكن أن تمتد يداه إلى الحرام.

وبينت آيات النص المصير المؤلم للذين يشترون الدين بالدنيا في يوم القيامة، كما بيَّن أن أهل الكتاب فقدوا الكتاب الحق الذي كان يقيم أمرهم على الصراط المستقيم، لأنهم حرفوا ما أُنزل إليهم من ربهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن من سورة آل عمران

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك:

أخبرنا الله - تبارك وتعالى - أن بعضاً من أهل الكتاب أمناء، إذا ائتمنت الواحد منهم على المال الكثير أداه إليك وإن كان قنطاراً، ومنهم خونة فجرة إذا ائتمنت الواحد منهم على المال القليل، لم يؤده إليك وإن كان ديناراً، إلا إذا أزعجته بكثرة مطالبتك له ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ

ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران:٧٥].

وقد حدَّثنا رسولنا ﷺ عن واحدٍ من بني إسرائيل في عصورهم الخيرة كان أميناً فاضلاً، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ «أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسْلفه ألف دينار فقال: ائتني بالشهداء أُشهِدُهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقتَ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى.

فخرج في البحر، فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبُها يَقْدَمُ عليه للأجل الذي أجَّله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخلَ فيها ألف دينار وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثم زجَّج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني كنتُ تسلّفتُ فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً، فقلتُ: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلتُ: كفى بالله شهيداً، فرضي بذلك، وأني جهدتُ أن أجد مركباً أبعثُ إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعُكَها.

فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة.

ثم قدِمَ الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلتُ جاهداً في طلب مركبٍ لآتيك بمالك فما وجدتُ مركباً قبل الذي أتيتُ فيه. قال: هل كنتَ بعثتَ إليّ بشيء؟ قال: أُخبرك أني لم أجد مركباً قبلَ الذي جئتُ فيه. قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثتَ في الخشبة، فانصرفْ بالألف الدينار راشداً» [البخاري: ٢٢٩١].

٢- ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل:

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن عدم تأدية أهل الكتاب المال الذي ائتمنهم الناس عليه كان بسبب دعواهم أن الله أحلّ لهم أموال الأميين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥]، والأميون: العرب، لأنهم لا يحسنون الكتابة، وقد أطلق اليهود كلمة «الأميين» على غيرهم من الأمم والشعوب.

وقد أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى - أن اليهود في دعواهم أن الله شرَّع لهم أكل أموال غيرهم بالباطل يقولون عليه الكذب، وهم يعلمون أنهم كاذبون ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران:٧٥].

٣- تحذير ابن عباس رضي الله عنهما الأمة الإسلامية أن يفعلوا فعل اليهود:

حذَّر ابن عباس ﷺ هذه الأمة أن يفعلوا فعل اليهود من قبلهم، فقد سأله رجل، وقال له: إنَّا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة؟ قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك من بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥] إنهم إذا أدَّوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم [تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٤].

٤- ثناء الله - تبارك وتعالى - على الذين أوفوا بعهودهم واتقوا:

أثنى ربُّ العزة - سبحانه - على الذين أوفوا بعهودهم واتقوا من أهل الكتاب، فقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران:٧٦].

ومعنى قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: لكن من أوفى بعهده الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد إذا بُعث، وطاعته، واتباع أمره، واتقى هؤلاء ربهم، فإن هؤلاء موضع محبة الله وتقديره، ومن أحبّه الله سعد في الدنيا والآخرة.

٥- الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً:

ذكر الله في الآية السابقة أن الذين يفون بعهودهم التي أخذها عليهم في التوراة ويتقون الله يحبّهم الله تبارك وتعالى، وذكر في الآية التالية أن الله يغضب على الفريق الذي يشتري بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران:٧٧].

قال عكرمة: نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ...﴾ الآية [آل عمران:٧٧] في رؤوس اليهود، كتموا ما عهد الله إليهم في شأن محمد ﷺ، وبدَّلوه، وكتبوا بأيديهم غيره، لئلا يفوتهم المآكل والرشا التي كانت لهم من أتباعهم [تفسير البغوي: ٢/ ٥٧].

وقوله: ﴿يَشْتَرُونَ﴾ أي: يستبدلون بعهد الله وأيمانهم، أي: ما عاهدوا الله عليه، وما أعطوه من أيمان باتباع محمد ﷺ واعتناق الدين الذي أنزل عليه، معتاضين عن ذلك بالأثمان القليلة الزائلة الفانية، وهي عروض هذه الحياة ومتعها التي سرعان ما تفنى وتبيد.

وقد بيَّن الله مصير هذا الفريق في يوم القيامة، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران:٧٧].

والخلاق: الحظُّ والنصيب، ولا يكلمهم الله يوم القيامة، أي: كلام تكريم، ولا ينظر إليهم نظر رحمة، ولا يزكيهم من الذنوب والمعاصي والأدناس، ولهم عذاب أليم، وهو عذاب الموقف يوم القيامة، ثم يساقون إلى النار.

وروى البخاري عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين، وهو فيها فاجر، ليقتطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان».

وقال الأشعث: «فيَّ - والله - كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فجحدني، فقدَّمته إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: «ألك بينة؟» قلت: لا، قال: فقال لليهود: «احلف» قال: قلت: يا رسول الله، إذاً يحلف، ويذهب بمالي، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية [آل عمران:٧٧]» [البخاري: ٢٤١٦، ٢٤٧٧، مسلم: ١٣٨، واللفظ للبخاري].

٦- تحريف اليهود والنصارى ما أنزل الله إليهم من الكتاب:

حدَّثنا الله - عز وجل - أنَّ اليهود والنصارى حرَّفوا ما أُنزل إليهم من كتاب، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران:٧٨].

وأصل اللوي: فتل الحبل، وَلَوَى الرجل يده أو رأسه: حركه وأماله بشكل دائري، وليُّهم ألسنتهم بالكتاب كناية عن كذبهم على الله تعالى، وتحريفهم لكتابه، وقد زعم وهب بن منبه وطائفة من أهل العلم أن التوراة والإنجيل بقيا كما أنزلهما الله، ولم يتغير منهما شيء، وإنما كان تحريفهم بالتفسير والتأويل، وبكتب كتبوها من عند أنفسهم، وادعوا أنها من عند الله، وهم كاذبون في دعواهم [راجع تفسير القاسمي: ٢/ ٣٣٩]. وهذا الذي ادعاه وهب ليس بصحيح على إطلاقه، نعم أوّل اليهود والنصارى بعض النصوص على غير وجهها، ولكنهم حرفوا التوراة والإنجيل، فحذفوا بعض النصوص، وزادوا بعض النصوص، وخلطوا كلامهم بكلام الله - تبارك وتعالى - فمن الذي افتروه على الله تبارك وتعالى دعواهم أن الله بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام تعب واستراح في اليوم السابع، ففي [سفر التكوين، الإصحاح الثاني: ٢] «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل» وفي [سفر الخروج، الإصحاح العشرون: ١١] «لأن في ستة أيام صنع الربّ السماء والأرض والبحر وكلَّ ما فيها، واستراح في اليوم السابع».

وقد أكذب الله اليهود في دعواهم أنه تعب فاستراح، وأخبر أنه لم يمسَّه شيء من التعب ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨]. واللغوب: التعب.

ومن كذبهم في التوراة زعمهم أن رسول الله نوحاً ﷺ شرب الخمر، فسكر وتعرَّى ودخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، فلما علم أبوه بها فعله لعنه [سفر التكوين، الإصحاح التاسع: ٢١-٢٥].

ومن تحريفهم للتوراة كذبهم على نبي الله لوط، إذ زعموا أن لوطاً لما جاءَه الضيوف، وجاء قومه يريدون فعل الفاحشة بهم، قال لهم: «هو ذا لي بنتان لم تعرفا رجلاً، أُخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم» [سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: ٨]. بل كذبوا على لوط أعظم من ذلك، فقد نسبوا إليه أنه زنى بكل واحدة من ابنتيه، تقول الفرية التي سُطِّرت في التوراة كذباً على الله: «سقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، ونسقيه الليلة خمراً، فادخلي فاضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما» [سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: ٣٣-٣٦].

ومن كذبهم على نبي الله إبراهيم أنه تزوج بسارة، وكانت أخته من أبيه، ففي [سفر التكوين، الإصحاح العشرون: ١٢] أن إبراهيم قال لأبي مالك عن زوجته سارة: «وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجة».

ومن كذبهم على إبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام أن الله قال لإبراهيم: «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريّا وأصعده هناك محرقة» [سفر التكوين، الإصحاح الثاني والعشرون: ٢] وقد كذب اليهود، فأدخلوا إسحاق في النص، فأصبحت التوراة متناقضة، لأن إسماعيل وُلِدَ لإبراهيم، وعمر إبراهيم ستة وثمانون عاماً، وولد إسحاق وكان عمر إبراهيم مائة عام، وهذا ما نصت عليه التوراة في سفر التكوين، فالذي كان وحيد إبراهيم مدة ستة عشر عاماً هو إسماعيل ﷺ .

هذا غيض من فيض مما نجده في التوراة من تحريف وكذب، ولكن يوجد في التوراة أمور صحيحة، صرَّح القرآن بوجودها فيها، وسيأتي ذكر شيء منها.

وفي الإنجيل من التحريف والكذب الشيء الكثير، فمن ذلك دعواهم في تلك الأناجيل أن عيسى ﷺ هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، ومن ذلك أن الله أنزل إنجيلاً

واحداً، فجعلوه أربعة أناجيل، وهذا هو العدد الذي اعترفوا به في مجامعهم، وإلا فالأناجيل أكثر من ذلك بكثير.

والأناجيل متناقضة فيما بينها، وكل إنجيل متناقض في نفسه، وإصحاحات الأناجيل تتفاوت فيما بينها قلة وكثرة، فإصحاحات إنجيل متى ثمانية وعشرون إصحاحاً، وإصحاحات إنجيل مرقص ستة عشر إصحاحاً، وإصحاحات إنجيل لوقا أربعة وعشرون إصحاحاً، أما إنجيل يوحنا فعدد إصحاحات إنجيله واحد وعشرون إصحاحاً.

وقد ذكر الآلوسي «أن كل إنجيل تضمن من الحكايات والقصص ما أغفله الآخر، واشتمل على أمور وأشياء قد اشتمل الآخر على نقيضها أو ما يخالفها، وفيها ما تحكم الضرورة بأنه ليس من كلام الله أصلاً، فمن ذلك أن متَّى ذكر أن المسيح صُلب ومعه لصان، أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، وأنهما جميعاً كانا يهزآن بالمسيح مع اليهود ويعيِّرانه، وذكر لوقا خلاف ذلك، فقال: إن أحدهما كان يهزأ به، والآخر يقول له: أما تتقي الله تعالى، أما نحن فقد جوزينا، وأما هذا فلم يعمل قبيحاً، ثم قال للمسيح: يا سيدي، اذكرني في ملكوتك، فقال: حقّاً إنك تكون معي اليوم في الفردوس، ولا يخفى أن هذا يؤول إلى التناقض، فإن اللصين عند متَّى كافران، وعند لوقا أحدهما مؤمن والآخر كافر، وأغفل هذه القصة مرقص ويوحنا» [روح المعاني: ٣/ ٢٠٦ وللنص بقية فإن شئت المزيد فارجع إليه].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم أو عمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم أو عمل:

١- من أهل الكتاب أقوام أمناء إن ائتمنتهم على المال الكثير أدوه إليك، وإن كان قنطاراً، ومنهم خونة إن ائتمنتهم على المال القليل لم يؤدوه إليك وإن كان ديناراً.

٢- الخونة من أهل الكتاب يزعمون كاذبين أن الله أباح لهم أكل أموال الناس بالباطل، وقد قرر الحق سبحانه أنهم يكذبون على الله في دعواهم هذه وهم يعلمون.

٣- الله يحب الذين يفون بعهودهم مع ربهم، ومنهم اليهود الذين آمنوا بالرسول الخاتم محمد ﷺ آخذين بعهد الله إليهم أن يؤمنوا به ويتابعوه إذا بُعث.

٤- الذين رفضوا الالتزام بالعهود التي أخذها الله عليهم بالإيمان برسولنا ﷺ عندما يُبعث ليحصلوا على متاع الدنيا القليل الزائل لا خلاق لهم في الآخرة، ومصيرهم فيها إلى الهلاك والبوار.

٥- التعرف على أنواع العذاب التي تحيق بالظالمين في يوم الدين، فمن ذلك امتناع الله - تبارك وتعالى - من تكليم الظالمين، وعدم نظره إليهم، وعدم تزكيتهم، ومسهم العذاب في الموقف، ودخولهم النار.

٦- ذمَّ الله أهل الكتاب الذين حرفوا التوراة والإنجيل، فقد زادوا فيهما ما لم يكن موجوداً، وأنقصوا منهما ما كان منصوصاً عليه، وأدخلوا في بعض النصوص ما ليس فيها، وأوَّلوا بعض النصوص على غير وجهها.

٧- اليهود والنصارى يقولون على الله الكذب وهم يعلمون أنه كذب.

٨- على الأمة الإسلامية أن تحذر من الوقوع في مثل ما وقع فيه اليهود، ومن ذلك أكل أموال الناس بالباطل بدعوى أن الله أباح لهم ذلك.

النص القرآني السابع عشر من سورة آل عمران
لا يمكن للرسل والأنبياء دعوة الناس إلى عبادتهم من دون الله

أولاً: تقديم

هذا النص الكريم يقرر قاعدة عظيمة، وهي أن الأنبياء والمرسلين لا يمكنهم دعوة الناس إلى عبادة أنفسهم، ولا يمكن أن يأمر الله الناس إلى عبادة الملائكة والنبيين، وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه أخذ على كل نبي أرسله أنه إذا بُعث محمد ﷺ وهو حي فإنه يجب عليه الإيمان به واتباعه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ما كان لنبي أن يقول للناس اعبدوني من دون الله:

يزعم النصارى أن عيسى عليه السلام أمر قومه أن يعبدوه من دون الله، وقد قرّر الله - سبحانه - في الآية الأولى من هذا النصِّ قاعدة عظيمة مفادها أنه لا يمكن لبَشَرٍ آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله، فما آتاه الله إياه فيما أوحاه إليه يصقل نفسه ليصبح عبداً له، ثم يدعو الناس بعد ذلك إلى أن يُعبِّدوا أنفسهم لله الواحد الأحد، إن الذين يدَّعون أن أحداً من الرسل والأنبياء يمكن أن يكون دعا الناس إلى عبادة شخصه لا يعرفون طبيعة النبوة والرسالة، إن الله - تبارك وتعالى - يختار نوعية خاصة للنبوة والرسالة، تستطيع أن تستوعب ما أوحى الله إليها، وتستطيع أن تحقق العبودية لربها في أجْلى صورها ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٩].

إن الرسل والأنبياء يأمرون الناس بأن يكونوا ربانيين بما كانوا يعلِّمون الكتاب وبما كانوا يدرسونه ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران:٧٩].

ومعنى ربانيين، «أي: علماء حكماء فقهاء، والرباني الذي يجمع إلى العلم الإلهي الشرعي البصر بالسياسية، وتربية الناس، وهو مأخوذ من قول العرب: رَبَّ أمرَ الناس يربُّه، إذا أصلحه وقام به، فهو رابّ ورباني على التكثير» [تفسير القرطبي: ٢/ ٤٨٢].

وفي يوم القيامة يُظهِر الله كذب الذين زعموا أن عيسى عليه السلام أمر قومه بعبادته من دون الله، ففي ذلك اليوم يسأل الله عيسى على رؤوس الأشهاد عن مدى صحة ما افتراه عليه قومه ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦]، فيجيب عيسى عليه السلام مبرئاً نفسه مما كَذَبه النصارى عليه: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة:١١٦].

هذه الآية تعلمنا بأن عيسى عليه السلام ينفي ما افتراه عليه الكفار، ويقول: إنه ما كان له أن يقول ما ليس له بحق، فكيف يأمر الناس بعبادته، وهو عبد مخلوق مربوب، واحتج على كذب قومه عليه بعلم الله له، فلو كان قال هذه المقالة لعلمها الله العليم الحكيم الخبير، ثم أخبر عيسى عليه السلام بالذي قاله، فهو ما قال لهم إلا ما أمره الله، فقد دعاهم إلى عبادة الله وحده، الذي هو ربُّه وربهم، وبقي شهيداً عليهم ما دام فيهم، فلما توفاه الله تعالى بالنوم، ورفعه إلى السماء أصبح الله تعالى هو الرقيب المطَّلع عليهم، والله على كلِّ شيء شهيد ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة:١١٧].

٢- الله لا يمكن له أن يأمر الناس بعبادة الملائكة والنبيين:

أعلمنا الله فيما سبق أن الأنبياء والمرسلين لا يمكن أن يدعوا الناس إلى عبادتهم من دون الله، وبيَّن الله أيضاً أنه لا يمكن أن يأمر العباد أن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله، فالله يأمر بالإيمان به وبطاعته وعبادته، ولا يمكن أن يأمر عباده بالكفر والشرك ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران:٨٠] وإذا كان الأمر بعبادة غير الله لا يمكن أن يتأتى لا من الله، ولا من رسل الله وأنبيائه، فإن دعوى

النصارى ومن سار مسارهم في أن عيسى أمرهم بأن يعبدوه من دون الله باطل من القول وكذب.

٣- أخذ الله العهد على كل نبي بعثه الله أن يتَّبع محمداً ﷺ إذا بُعث في زمانه:

أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه أخذ الميثاق على جميع أنبيائه كل واحد في عصره بأن يتّبع محمداً ﷺ إذا بُعث في زمانه ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

والميثاق الذي أخذه الله على النبيين هو عقد مؤكد بيمين وعهد، وقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ...﴾ [آل عمران:٨١] أي مهما آتى الله الأنبياء من كتاب وحكمة وعلم، ومهما كان لهم من فضل، فإنه يجب على كل واحد منهم اتباع محمد ﷺ إذا بُعث في عصره، وأخبر الله تعالى أن محمداً مصدق لكل رسول بعثه الله تعالى، وقد أوجب الله على كل رسول أن يعزم على نصرة هذا الرسول والإيمان به واتباعه، وقد غلَّظ الله عليهم الميثاق، فقررهم وأخذ عليهم إصره، والإصر: العهد المؤكد، وقد أقرّ كل الأنبياء بما أخذ الله عليهم، فلما أقروا قال لهم: ﴿فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

روى الطبري بإسناده عن علي بن أبي طالب، قال: «لم يبعث الله نبيّاً آدم، فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد، لئن بُعث وهو حيٌّ ليؤمن به، ولينصرنَّه، ويأمره، فيأخذ العهد على قومه، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ...﴾ الآية [آل عمران:٨١]» [الطبري: ٣/ ١٨٥٣].

وروى الطبري أيضاً عن ابن عباس قال: «ذكر الله ما أخذه عليهم، يعني أهل الكتاب، وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه، يعني محمداً إذا جاءَهم، وإقراره به على أنفسهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ...﴾ إلى آخر الآية [آل عمران:٨١]» [الطبري: ٣/ ١٨٥٣].

وقال ابن كثير: «الرسول محمد خاتم الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم، الذي لو وجد في أي عصر لكان هو الواجب طاعته، المقدم على الأنبياء كلِّهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب جلَّ جلاله لفصل القضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الذي لا

يليق إلا له، وهو الذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النبوة إليه، فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه» [ابن كثير: ٢/ ٦٠].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- طبيعة النبوة والرسالة تأبى أن يأمر الرسول أو النبي ﷺ الناس بعبادته من دون الله.

٢- الرسل والأنبياء يأمرون الناس بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء فقهاء لما علموه من دين الله الذي أنزله الله على رسوله، ولدراستهم لهذا الدين.

٣- الله يكره الشرك ويبغضه، ولذلك فلا يمكنه أن يدعو الناس إلى عبادة غيره من الملائكة والأنبياء والصالحين.

٤- أخذ الله العهد على كل الأنبياء، وفيهم أنبياء بني إسرائيل أن يتابعوا محمداً ﷺ إذا بُعث في عصر الواحد منهم.

النص القرآني الثامن عشر من سورة آل عمران
الإسلام الدين الوحيد الذي لا يقبل الله من أحد إلا الدينونة به

أولاً: تقديم

ذمَّ الله الذين يدينون بدين غير دين الإسلام، وهو الدين الذي تدين به السموات والأرض ومن فيهما طوعاً أو كرهاً، وهذا الدين هو الذي جاءت به الرسل جميعاً، ولذلك فإننا نؤمن بهم جميعاً، ونحن نعلن بأننا مسلمون، وقد أعلمنا الله - تعالى - أن من يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبله الله منه، وسيكون في الآخرة من الخاسرين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنكار الله على الذين يطلبون ديناً غير الدين الذي دانت به السماوات والأرض ومن فيهما:

أنكر الله - تبارك وتعالى - على الذين يطلبون ديناً غير الإسلام، وهو الدين الذي دانت به السموات والأرض ومن فيهما طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران:٨٣].

إن الذين يطلبون ديناً غير الإسلام أمرهم نشاز، فهم يريدون الدينونة لغير الله، والسموات والأرض ومن فيهما وما بينهما كلّها يدين لله الواحد الأحد، ويستسلم له، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١].

فالسموات والأرض ومن فيهما وما بينهما خاضعة لله مستسلمة لأمره، وكذلك الملائكة، والذين استجابوا للرسل من الجن والإنس مسلمون كذلك، والكفرة من الجن والإنس وإن رفضوا الإسلام بقلوبهم وأقوالهم، إلا أنهم خاضعون لما يريده الله فيهم، فهم

مسلمون بهذا المعنى، قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران:٨٣] وقوله: «﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ أي: استسلم وانقاد وخضع وذلَّ، وكلُّ مخلوق فهو منقاد مستسلم، لأنه مجبور على ما لا يقدر أن يخرج عنه» [القرطبي: ٢/ ٤٩١]، وقال أيضاً: «وقيل: المعنى أن الله خلق الخلق على ما أراد منهم، فمنهم الحسن والقبيح، والطويل والقصير، والصحيح والمريض، وكلُّهم منقادون إليه اضطراراً، فالصحيح منقاد طائع محبٌّ لذلك، والمريض منقاد خاضع، وإن كان كارهاً، والطوع: الانقياد والاتباع بسهولة، والكره: ما كان بمشقَّة وإباء نفس» [القرطبي: ٢/ ٤٩١].

وعلى ذلك فمن رضي بالإسلام عن قناعة، فقد دانَ لله عن رضاً وطواعية، ومن رفض الإسلام فهو خاضع للسنن والقوانين التي يجريها الله عليه، ولا يستطيع الخروج عنها، فالله خلقه خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، والله قدَّر يوم ولادته، وهو الذي أعطاه خلقه، وهو الذي خلق له دورته الدموية، وهو الذي خلق له جهازه التنفسي، وجهازه الهضمي والعصبي، وأعطاه الطول والقصر، والجمال والقبح، فهو محكوم بسنن الله التي تجري عليه، وهو خاضع لها مستسلم لها، وعندما تنتهي أيامه في هذه الدنيا، يأتيه الموت، ويؤوب إلى الله.

٢- وجوب الإيمان بما أنزله على جميع رسله وأنبيائه:

أمر الله رسوله ﷺ وأصحابه وأمته أن يعلنوا إيمانهم بالله تعالى، وبما أنزله عليهم، وبما أنزل على أنبيائه ورسله ومنهم أبو الأنبياء إبراهيم، وما أنزل على ولديه إسماعيل وإسحاق، وهما نبيان رسولان، وإلى ما أنزل إلى حفيد إبراهيم رسول الله يعقوب، وما أنزل إلى ذرية يعقوب، وهم الأسباط ومنهم رسول الله يوسف، وما أوتي موسى وعيسى، وقد آتى الله موسى التوراة، وآتى عيسى الإنجيل، ثم أجمل جميع الأنبياء بقوله: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [آل عمران:٨٤] أي: ما أنزل إلى النبيين جميعاً، ومعنى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [آل عمران:٨٤] أي: لا نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، وإنما نؤمن بهم جميعاً، قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران:٨٤]. وقوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ أي: خاضعون مستسلمون.

٣- الإسلام الدين الوحيد الذي يقبل الله من دان بغيره:

أمر الله - تبارك وتعالى - في الآية السابقة رسولَه وأصحابه وأمته أن يقولوا: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران:٨٤] وقرر الله في قوله: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ

﴿وَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥] قرر الله - عزَّ وجلَّ - أن الذي يدين بدين غير الإسلام كاليهودية والنصرانية والبوذية والصابئة، والمجوسية، والشيوعية، وعباد الأصنام، لن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين، ومصيره إلى النار، وبئس القرار.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كفر الكافرين وشرك المشركين دين نشاز في هذا الكون الواسع المستسلم لله الواحد الأحد.

٢- الأرض والسماء والجماد والنبات والملائكة ومؤمنو الإنس والجن مستسلمون لله طوعاً، أما الكفرة من الجن والإنس فإنهم مستسلمون لله تعالى اضطراراً.

٣- يجب الإيمان بكل ما أنزل على رسل الله، ومن آمن ببعضهم، وكفر ببعض فهو كافر بالله.

٤- الإسلام الدين الوحيد المرضي عند الله، والذي يدين بدين غير الإسلام فلن يقبله الله منه، وهو في الآخرة من الخاسرين.

النص القرآني التاسع عشر من سورة آل عمران
كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم

أولاً: تقديم

هذا النص يتحدث عن اليهود والنصارى الذين حفلت كتبهم بذكر رسول الله ﷺ، فكانوا يبشرون به قبل بعثته، ويدَّعون أنهم سيتبعونه بعد خروجه، فلما بُعث من غيرهم كفروا به، وكذَّبوه، وعادَوْه، وقاتلوه، فهؤلاء ملعونون من الله والملائكة والناس أجمعين، وهم خالدون في عذابه يوم الدين، إلا الذين تابوا وأنابوا واتبعوا الإسلام، وأعلنوا ما عندهم من بشارات تتعلق بالرسول ﷺ.

وقد بيَّن في الآيتين الأخيرتين المصير الرهيب الذي ينتظر هؤلاء في الدنيا والآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم:

أعلمنا ربنا تبارك وتعالى أنه لا يهدي قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقٌّ، وبلغتهم الآيات البينات فكفروا بها ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)﴾ [آل عمران:٨٦].

وقد قرّر الله هذه الحقيقة مورداً إياها بصيغة سؤال ليعجِّب السامعين من حال هؤلاء، والمتحدَّث عنهم في هذه الآية هم اليهود والنصارى، فقد كانوا في الجاهلية قبل بعثة رسولنا ﷺ يتحدثون عن قرب مبعثه، ويحدِّثون الناس بصفاته وكتابه، ويتحدثون عن مكان بعثته وموضع مهاجره، ويخبرون الناس بأنهم سيتبعونه عندما يُبعث، ويقاتلون العرب معه، فلما بُعث من العرب كفروا به، وعادَوْه وقاتلوه، فكان حالهم عجباً، فبينما هم يبشرون به،

ويتحدثون عنه، ويقصدون الجزيرة العربية لمتابعته عندما يُبعث، إذا بهم يعادونه أشدَّ العداء بعد بعثته، فيتحول إيمانهم كفراً، وبعد أن عرفوه من خلال كتبهم التي تحدثت عنه أنكروه وكذَّبوه، ورفضوا الآيات البينات الواضحات التي جاءَتهم من عند الله، وقد أدخلهم هذا الذي فعلوه في زمرة الظالمين الذين حرمهم الله من الهداية.

٢- أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين:

أعلمنا الله - تبارك وتعالى - عن اليهود والنصارى الذين وصف حالهم في الآية السابقة أن لعنة الله حلَّت بهم، وكذلك لعنة الملائكة والناس أجمعين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [آل عمران:٨٧].

«واللعن - كما يقول الراغب - الطرد والإبعاد على سبيل السَّخَطِ، وذلك من الله في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه» [المفردات:٤٥١] واللعن من الملائكة والناس دعاؤهم ربَّهم أن يلعن هؤلاء.

قد يقال: كيف يَلْعَنُ الناسُ كلُّهم هؤلاء، واليهود والنصارى من الناس، والجواب: أن هؤلاء جميعاً سيلعن بعضهم بعضاً في يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [العنكبوت:٢٥] وأخبرنا ربنا أنه كلما دخلت أمةٌ النارَ في يوم القيامة لعنت أختها ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨].

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن لعنة الله ستصحبهم حتى تدخلهم النار دخولاً أبديًّا سرمدياً ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ [آل عمران:٨٨]، وسيبقى هذا العذاب شديداً، فلا يخفف عنهم منه شيء، وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: لا يؤخرون عن العذاب.

٣- الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا:

استثنى ربُّ العزة - سبحانه وتعالى - من الذين تحيط بهم لعنته في الدنيا والآخرة والذين يدخلون النار خالدين فيها الذين تابوا وأصلحوا ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [آل عمران:٨٩].

ولا يكفي من هؤلاء الذين كتموا الحق أن يندموا على ما كان منهم من كتمان الحق، بل يجب عليهم مع الندم والاستغفار أن يصلحوا، والإصلاح يكون بإظهارهم الحقِّ الذي كتموه، فإن فعلوا فإن الله غفور رحيم.

روي عن عكرمة عن ابن عباس، قال: «كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتدّ، ولحق بالشرك، ثم تندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة، فجاء قومه إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إن فلاناً قد ندم، وأمرنا أن نسألك: هل له من توبة، فنزلت: ﴿كَيْفَ

يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران:٨٦-٨٩] فأرسل إليه فأسلم» [النسائي في سننه: ٤٠٦٨ وأورده الألباني في صحيح سنن النسائي: ٣٧٩٢].

٤- الذين لا تُقبل توبتهم من الكفار في الحياة الدنيا:

أخبرنا الله في الآية السابقة أن من تاب من الكفار فإنه يتوب عليه مهما كان كفره، وعظم ذنبه، والنصوص المتحدثة عن توبة التائبين كثيرة وافرة، فقد أخبر سبحانه أنه تاب على آدم بعد أكله من الشجرة هو وزوجه، وأخبر الله سبحانه أن ﴿ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]، وفتح باب التوبة للذين ارتكبوا أكبر جريمة بادعائهم أن الله اتخذ ولداً وقال لهم: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة:٧٤] ونادى الله عباده قائلاً: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

أما الذين كفروا بعد إيمانهم، ثم ازدادوا كفراً حتى إذا حضرهم الموت قال الواحد منهم: إني تبت الآن فهذه توبة غير مقبولة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ [آل عمران:٩٠].

والحالة التي لا تقبل فيها التوبة هي بلوغ الإنسان في موته مرحلة الغرغرة، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨].

٥- قتل الذي يرتدُّ عن دينه:

وقد جاءت النصوص مقررة قتل من ارتد عن الإسلام، ولم يقبل العودة إليه، ففي البخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من بدَّل دينه فاقتلوه» [البخاري: ٦٩٢٢].

وفي البخاري أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن، فلما قدم ألقى إليه أبو موسى الأشعري وسادة ليجلس، قال: اجلس، وإذا رجل موثق، قال: ما هذا؟ قال: كان يهوديًّا، فأسلم، ثم تهوَّد، قال: اجلس، قال: لا أجلس، حتى يقتل، قضاء الله ورسوله، ثلاث مرات، فأمر به، فقُتل. [البخاري: ٦٩٢٣].

أما الذي يؤمن ثم يرتد، ثم يؤمن ثم يرتد، فهذا زنديق اتخذ دين الله لعباً، ولا يستتاب.

٦- الذين ماتوا على الكفر لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً:

الذين يموتون وهم كفار أولئك أهل النار خالدون فيها أبداً، والله لا يقبل من الواحد منهم في يوم القيامة ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران:٩١].

والكفار بعد أن يموتوا لا ذهب عندهم ولا مال ليفتدوا به، ولكن النص يصوِّر مدى جرمهم وخسرانهم بما تعارف عليه الناس أنه ينفعهم وينجيهم مما يحيق بهم من آفات وبلايا، فلو أن هؤلاء يملكون المال العظيم الذي يملأ الأرض كلها بسهولها وجبالها ووديانها وصحاريها وبحرها ذهباً ليفتدوا به من عذاب الله، فلن يقبل الله منهم ذلك، وعذاب الله محيط بهم، وليس لهم ناصر ينصرهم من عذابه.

وفي حديث أنس يرفعه: «إن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنتَ تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي، فأبيتَ إلا الشرك» [البخاري: ٣٣٣٤، مسلم: ١٦٧٧، واللفظ للبخاري].

٧- لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون:

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى في خاتمة هذا النص أننا لن ننال البر حتى ننفق مما نحبه ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عمران:٩٢].

قال بعض السلف منهم ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد والسدي: «المعنى لن تصلوا إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون، وقيل: البر: العمل الصالح»، وفي الحديث الصحيح: «عليك بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة» [مسلم: ٢٦٠٧] قال عطاء: «لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء، تأملون العيش، وتخافون الفقر» [القرطبي بشيء من الاختصار: ٢/ ٤٩٦].

وبعد أن قرر الله هذه الحقيقة دعا المؤمنين إلى الإنفاق في وجوه البر ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران:٩٢] وإذا كان الله عليم بما ننفقه فإنه سيجزينا به ويثيبنا عليه، وقد كانت هذه الآية وأمثالها دافعة الصحابة إلى الإنفاق في وجوه البر، والتنافس في عمل الخير، فعن طلحة أنه سمع أنس بن مالك ﷺ يقول: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرُحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها،

ويشرب من ماءٍ فيها طيب. قال أنس: فلما أُنزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليّ بيرُحاء، وإنها صدقةٌ لله أرجو برّها وذُخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله ﷺ : بخ، ذلك مالٌ رابح، ذلك مالٌ رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه» [البخاري: ١٤٦١، مسلم: ٩٩٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - اليهود والنصارى كانوا يؤمنون بالرسول ﷺ قبل بعثته، وعندما بُعث كفروا به عامدين عالمين مع قيام الأدلة على صدقه عندهم.

٢- عاقبة الكفرة المجرمين الذين كفروا بالرسول ﷺ ، أن يلعنهم الله، والملائكة والناس أجمعين، ويوم القيامة مصيرهم إلى النار.

٣- يجوز لعن الكفار الذين أعلمنا الله أنهم ماتوا كافرين، كفرعون وهامان وقارون، وأبي لهب وأبي جهل، وأضرابهم، كما يجوز أن نلعن الكافرين مطلقاً من غير تعيين واحد منهم.

٤- من كفر بعد إيمانه فإنه يُقتل إذا أصَرَّ على كفره إلا إذا تاب وأناب.

٥- الذي تكررت ردَّته يُقتل، وإن ادعى أنه تاب وأناب.

٦- عظم جريمة من ارتدَّ عن دينه ومات على ردَّته، فهذا لن يقبل منه الله ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به.

٧- عظم ثواب المؤمنين الذين ينفقون ما يحبونه من المال يرجون به ثواب الله.

النصُّ القرآني المتمم للعشرين مِنْ سورةِ آل عمرانَ
الطعام الذي حرَّمهُ اللهُ على بني إسرائيل قبل نزول التوراة

أولاً: تقديم

أخبرنا الله -تعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن الطعامِ الذي حرَّمه على بني إسرائيل قبل نزول التوراةِ، وكان هذا العلم مما يكتمه اليهودُ، وهو مسطورٌ في كتابهم، وأخبرنا تعالى عن الملة المرضيّة عنده، وهي ملَّةُ إبراهيمَ، وأخبرنا أنَّ أوَّلَ بيتٍ أقيم معبداً لله في الأرض البيتُ الحرامُ الذي بناه إبراهيمُ وابنهُ إسماعيلُ بمكّة، وأعلمنا بأنّه مبارك وهدى للعالمين، وأنَّ فيه آيات بينات، وأنّه أوجب على النَّاسِ الحجَّ إليه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران:٩٣-٩٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- كُلُّ الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حَرَّم إسرائيل على نفسه من قبل نزول التوراة:

أخبرنا ربُّنا – تبارك وتعالى – أنَّ الطعامَ كُلَّه كان حِلاً لبني إسرائيل إلا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسه قبل نزول التوراة، ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ [آل عمران:٩٣] و(الحِلُّ) الحلال. والذي حَرَّمَهُ إسرائيل على نفسه مِنْ قبل أنْ تنزَّل التوراةُ لحومُ الإبلِ وألبانها، وروى الترمذي بإسناد قال فيه: هذا حديث حسن غريب (٣١١٧) وصَحَّحه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٤٩٢) عن ابن عباس أنَّ اليهود قالوا للرسول ﷺ : «أخبرنا عمّا حرَّم إسرائيلُ على نفسه؟ فقال: اشتكى عِرْقَ النَّسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحومَ الإبلِ وألبانها، فلذلك حرَّمها. قالوا: صدقت».

والجِمالُ لحومها طيِّبةٌ، وألبانُها طيِّبةٌ، ولكنَّها حُرِّمت على بني إسرائيل في التوراة بسبب ظُلْمِهِم ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠] ولذلك أُبيحَ لنا أكْلُ لحومها، وشُرْبُ ألبانها، لأنها مِنَ الطيبات.

٢- الدليل على حرمة الإبل على بني إسرائيل:

أمر اللهُ - تبارك وتعالى - الرسول ﷺ في محاجَجَتِهِ لبني إسرائيل أن يأمرهم أن يَأْتوا بالتوراة، ويتلوها إن كذَّبوه فيما أخبر به ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝﴾ [آل عمران:٩٣].

وما أمر الله تعالى اليهود به من إحضارِ التوراةِ وتلاوتها إلا لبيان صِدْقِ الرسول ﷺ فيما أخبر به، وإظهارِ كذب اليهود فيما أخبروا به، ولا أعظم من أن يكون الحكمُ الذي كَذَّبوا به موجوداً في كتابهم المقدس، وهو التوراة، ولا يزال النصُّ على تحريم الإبل مكتوباً في التوراة إلى اليوم، ففي سفر اللاوين، الإصحاح الحادي عشر، فقرة (٤): «إلا هذه فلا تأْكُلوها مما يَجْتَرُّ ومما يشقُّ الظِّلْفَ، الجَمَلُ، لأنَّه يَجْتَرُّ، لكنَّه لا يَشُقُّ ظِلْفاً، فهو نجس لكم» وجاء في سفر التَّثْنِيَةِ، الإصحاح الرابع عشر، الفقرة (٧): «إلا هذه فلا تأكلوها مما يَجْتَرُّ، ومما يشقّ الظِّلْفَ المنقسم، الجمل والأرنب والوَبْرِ، لأنها تَجْتَرُّ، لكنها لا تَشُقُّ ظلفاً، فهي نجسة لكم».

٣- عِظَمُ جرمِ الذين افتروا الكَذِبَ على الله :

أعلمنا اللهُ تعالى أنَّ اليهودَ الذين افْتَرُوا على الله الكذبَ ظالمون: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝﴾. وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝﴾ [آل عمران:٩٤] أي: المفرطون في الظُّلْمِ، المبالغون فيه، فإنَّه لا أظلم ممن حُوكم إلى كتابه، وما يعتقده شرعاً صحيحاً، ثم جادل بعد ذلك مفترياً على الله الكذب.

٤- أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يدعو أهلَ الكتابِ خصوصاً والناسَ عموماً إلى اتِّباعِ مِلَّةِ إبراهيم عليه السلام :

أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن ينادي في الناس قائلاً: صَدَقَ اللهُ فيما أخبر به مِنْ تحريم الإبلِ على بني إسرائيلَ، وفيما أخبر بِهِ مِنْ أنَّ ذلك موجودٌ في التوراة، وكَذَّبَ المنكرين لذلك مِنْ بني إسرائيل، ثم أمره أنْ ينادي بالنَّاس مطالباً إياهم باتباع ملَّة إبراهيم عليه السلام، ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝﴾ [آل عمران:٩٥]، وقد جاءَ رسولنا ﷺ بهذه المِلَّة، وبَيَّنَها أعظم البيانِ، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ

إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ [الأنعام:١٦١]. وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل:١٢٣].

٥- الكعبةُ أوَّلُ بيْتٍ وُضِعَ لعبادةِ اللهِ في الأرض:

أخبرنا الله -تبارك وتعالى- أنَّ أوَّل بيتَ أُقيم في الأرضِ لعبادةِ الله هو البيتُ الذي ببكَّة، وبكَّة هي مكة ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران:٩٦] وقد أُبدِلَتْ الميمُ في مِكَّةَ بالباء، فصارتْ بَكَّة، ولهذا نظائر في اللُّغَةِ العربية، فقالوا في لازبٍ: لازم، وقالوا في أرْبَد: أرْمَد.

و﴿ٱلْبَيْتِ﴾: هو البناءُ الذي يَأْوي الناسُ إليْه للسُّكْنَى أو الاجتماعِ أو العبادةِ، ومعنى ﴿وُضِعَ﴾: بُني وأُثْبِتَ، وهو مَبنيٌّ ليكون معبداً للناسِ جميعاً، ولذلك قال: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:٩٦].

ولا شك أنَّ النَّاسَ بَنوا بيوتاً كثيرة قبل بناءِ الكعبةِ لسكناهم ولحيواناتهم، فقد بَنَتْ عادٌ مدينة إرمٍ، وبني قوم لوط مدينة سَدُوم وعَمُّوريَّةَ، وكانت المدنُ عامرةً بأهلها قبل بناءِ الكعبة في العراقِ والشامِ ومصرَ وغيرها، والأوَّلية التي حازَتْها الكعبة، أنها أَوَّلُ بيتٍ أقيم في الأرضِ لعبادةِ الله.

وكما أنَّ هذا البيتَ أَوَّلُ البيوتِ المقامةِ لعبادةِ الله، فإنَّه أفضلُ البيوتِ المقامةِ لهذا الغرض في الأرضِ، ولذلك وَصَفَهُ اللهُ تبارك وتعالى بوصفين كريمين، هما: مبارك، وهدىً للعالمين.

والمباركُ الكثيرُ البركةِ، فالصَّلاةُ فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه، كما صحَّت بذلك الأحاديث، وهو قبلةُ المسلمين، والدعاءُ حَرِيٌّ بالإجابة عنده، وهو هدىً للعالمين، فمن جعله قبلته في الصلاةِ، وحجَّ إليه، واعْتَمَرَ، وطافَ به، فإنَّه يكون قد هُدِي إلى صراط مستقيم.

وقد اختصَّ هذا البيت بأنَّ بانيه رسولُ الله وخليلُه أبو الأنبياء إبراهيمُ وابنه نبيُّ الله إسماعيل، وهذه الميزة لا توجد لغيره مِنْ بيوت الله المقدَّسَة، وقد سبق بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة:١٢٧].

وقد ذهب جمعٌ من العلماء إلى أنَّ البيت بُنِيَ قبل إبراهيم، وزعموا أنَّ الملائكةَ بنته أو آدم، وهذا لا دليل يدلُّ على صِحَّتِهِ، فقد كان موضِعُ البيتِ عِنْدَ بنائه أرْضاً خاليةً، ليس فيها

ماءٌ، ولا بناءٌ، ولا سكَّان، ولا يوجَدُ فيها ما يدلُّ على أنها سكنت مِنْ قَبْلُ كما دَلَّت على ذلك الآياتُ والأحاديثُ الصحيحةُ.

ومما يَدُلُّ على أنَّ الكعبة هي أوَّلُ بيت وضع لعبادة الله في الأرض ما رواه البخاري ومسلم عن أبي ذَرٍّ ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأرضِ أولاً، قال: «المَسْجِدُ الحرامُ» قال: قلت: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «المسجدُ الأقصى» قلت: كَمْ كان بينهما؟ قال: «أربعون سَنَةً» [البخاري: ٣٣٦٦. ومسلم: ٥٢٠].

ويبعد أن يكون باني الأقصى أوّلاً هو نبيُّ الله إبراهيم ﷺ ، فإبراهيم ﷺ بنى الكعبةَ بعد أن كان إسماعيل رجلاً، فيكون عمر إبراهيم ﷺ بلغ مائة وخمس سنةً ، والأقصى بني بعد ذلك بأربعين سنة، وإبراهيمُ توفاه اللهُ قبلَ ذلك، فالذي بنى الأقصى أولاً هو إسحاق أو يعقوبُ عليهما السلام.

٦- الآياتُ البيناتُ التي في المسجدِ الحرامِ:

أخبرنا اللهُ - تبارك وتعالى - في الآيةِ السابقةِ أنَّ الكعبةَ التي بناها نَبِيَّا الله إبراهيمُ وإسماعيلُ هي أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ في الأرض، وأنَّها مباركةٌ وهدىً للعالمين، وأخبرنا - عَزَّ وجَلَّ - أنَّ فيه آياتٍ بَيِّناتٍ، ومَنْ دخله كان آمناً ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ [آل عمران:٩٧].

وقد ذكر اللهُ أنَّ الآياتِ البيناتِ التي في البيت مقامُ إبراهيمَ ﷺ ، وهو الحَجَرُ الذي كان يقفُ عليه إبراهيمُ عندما ارتفعَ بناءُ البيت، وكان إسماعيل يرفعُ إليه لوازمَ البناءِ من الحجارةِ وغيرها، وكان المقامُ لاصِقاً بالكعبة ثم أُبعد عنها، لأنَّ الصلاة عنده مع طوافَ الناس حولَ الكعبة فيها مشقة، وقد أمرنا اللهُ أنْ نتخذ مِنْ مقام إبراهيمَ مُصَلًّى في قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة:١٢٥].

وقد أَثَّرت رِجْلا إبراهيم بقدرةِ الله ومشيئته في الصخر عندما وقف عليه ليُعْلِيَ بناءَ الكعبةِ، قال أبو طالب في أثرِ رجل إبراهيمَ في المقامِ:

ومَـــوْطئ إبـــراهيمَ في الصَّـــخْرِ رَطْبَـــةٌ   عَـــلَى قَدَمَيْـــهِ حافيـــاً غـــيرَ نَاعـــلِ

وأخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنَّ من خصائص البيت أنَّ مَنْ دخله كان آمناً، وهذا الأمْنُ لداخله كان موجوداً مِنْ زمنٍ طويلٍ في الجاهليَّةِ، فالحرمُ كان في الجاهلية مَفْزَعَ كلِّ خائفٍ، وملجأ كلِّ جانٍ، وكان الرجلُ يلقى في الحرم قاتلَ أبيه أو ابنه، فلا يَعْرِض له بسوء،

وكان النّاسُ يُتَخطّفُون مِنْ حوْلِهِ، ولا يمسُّ أهلَهُ وساكنيه واللائذينَ بِهِ سوءٌ، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٦٧].

وقد بَقِيتْ حرمةُ الحرمِ على ما كانتْ عليه بعد الإسلامِ أو أشدَّ، فقد أُبيحَ للرسول ﷺ القتالُ في الحرم ساعةً مِنْ نهار، ثمَّ عادتْ حرمتُه بعد ذلك إلى ما كانت عليه إلى يوم القيامة.

فعن أبي هُرَيرةَ أنَّ خُزاعة قتَلوا رَجُلاً من بني لَيثٍ عامَ فتْحِ مكةَ بقَتيلٍ منهم قَتلوه، فأُخْبِرَ بذلكَ النبيُّ ﷺ ، فرَكِبَ راحلتَه فخطَب، فقال: «إنَّ اللهَ حَبَسَ عن مَكَّةَ القَتْلَ -أو الفِيلَ، شَكَّ أبو عبدِالله- وسَلَّطَ عليهم رسولَ الله ﷺ والمؤمنينَ، ألا وإنَّها لم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبلي، ولم تَحِلَّ لأحَد بَعدي، ألا وإنَّها حَلَّتْ لي ساعةً مِن نهار، ألا وإنَّها ساعتي هذه، حَرامٌ: لا يُختَلى شَوْكُها، ولا يُعْضَدُ شَجَرُها، ولا تُلْتَقَطُ ساقِطَتُها إلا لِـمُنْشِد، فَمَنْ قُتِلَ فهوَ بخَيرِ النَّظَرَينِ: إمَّا أنْ يُعْقَلَ، وإمّا أنْ يُقادَ أهلُ القَتيلِ».

فقال رجلٌ من قُرَيشٍ: إلاَّ الإذْخِرَ يا رسولَ الله، فإنَّا نَجعلُهُ في بيوتِنا وقبورِنا، فقال النبيُّ ﷺ : «إلاّ الإذْخِرَ» [البخاري: ١١٢. ومسلم: ١٣٥٥].

وعن أبي شُرَيح أنَّه قالَ لعَمرِو بنِ سَعيدٍ - وهُو يَبعثُ البُعوثَ إلى مَكةَ - : ائذَنْ لي أيُّها الأميرُ أُحَدِّثْك قولاً قامَ بِهِ النبيُّ ﷺ الغَدَ مِنْ يوم الفَتْحِ، سَمِعَتْهُ أُذُنايَ ووعاهُ قلبي، وأبْصَرَتْه عيناي حِينَ تكلَّمَ بِهِ: حَمِدَ اللهَ، وأثنى عليهِ، ثمَّ قال: «إنَّ مَكةَ حَرَّمَها الله، ولمْ يُحَرِّمْها الناسُ، فلا يَحِلُّ لامرئٍ يُؤمنُ بالله واليومِ الآخِرِ أن يَسْفِكَ بها دَماً، ولا يعْضِدَ بها شَجَرةً، فإنْ أحدٌ تَرَخَّصَ لِقتالِ رسولِ الله ﷺ فيها فقولوا: إنَّ اللهَ قد أذِنَ لِرَسولِه، ولم يَأْذَن لكم، وإنَّما أذِنَ لي فيها ساعةً مِنْ نهار، ثمَّ عادَتْ حُرْمتُها اليومَ كحُرمَتِها بالأمسِ، ولْيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ» [البخاري: ١٠٤، ومسلم: ١٣٥٤].

«وقد ذَهَبَ جَمْعٌ مِنْ أهلِ العلم منهم الحسنُ وقتادةُ وعطاءٌ ومجاهدٌ وغيرُهم إلى أنَّ هذا الوصف كان في الجاهليةِ، فَمَنْ ارتكب جرماً ثم دخل في الحرم، لا يقتصُّ منه، فأمَّا في الإسلام، فإنَّ الحَرَمَ لا يمنع حدّاً من حدود الله، فيقامُ الحد فيه على السارق والزاني والقاتلِ، واستحسنَ بعضُ مَنْ قال بهذا القولِ أن يُخْرج مَنْ وَجَبَ عليه الحدُّ إلى الحِلِّ، فيقامُ عليه هناك.

ويرى ابنُ عباس أنَّ الذي يعوذُ بالبيت بعد أن يرتكبَ جرماً فهو آمن، وأنَّ الأمر في الإسلام كما كان في الجاهلية، والإسلامُ زاد البيت شرفاً وتوقيراً، فلا يجوز لأحد أن يعرض في

الحرم لقاتل وليِّه، ولكنْ يجب على المسلمين أنْ لا يبايعوا ذلك الجاني ولا يُكَلِّموه وَلا يُؤْوُوه، حتى يُضيَّقَ عليه الحال، فيخرج مِنَ الحرم، فيقامُ عليه الحدُّ» [المحرر الوجيز بتصرف يسير: ٢/ ٢٩٢] والله تعالى أعلم بالصواب.

٧- وُجوبُ الحجِّ على النَّاسِ جميعاً:

أوْجَبَ اللهُ الحجَّ على النَّاسِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧] «واللاَّمُ في قوله: ﴿لله﴾ لامُ الإيجابِ والإلزامِ، وأكَّد اللهُ الوجوبَ بقوله: ﴿عَلَى﴾ التي هي مِنْ أوْكدِ ألفاظِ الوجوبِ عندَ العربِ، فإذا قالَ العربيُّ: لفلانٍ عليَّ كذا، فقد وَكَّدَه وأَوْجَبَهُ، فذكر اللهُ تعالى الحجَّ بأبلغِ ألفاظِ الوجوبِ، تأكيداً لحقِّه، وتعظيماً لحرمته، ولا خلافَ في فَريضَتِه، وهو أحَدُ قواعد الإسلامِ، وليسَ يجبُ إلاَّ مرةً في العمر» [تفسير القرطبي: ٢/ ٥٠٣].

وقد دلَّت على وَجُوبِهِ أحاديثُ كثيرة منها ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ ، فقالَ: «يا أيُّها الناسُ، قد فرضَ اللهُ عليكم الحجَّ فحجُّوا».

فقالَ رجَل: أكُلَّ عام يا رسولَ الله، فسَكَتَ، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ : «لَوْ لقُلْتُ: نَعَمْ، لوجَبَتْ، ولما اسْتَطَعْتُمْ» ثم قال: «ذَرُوني مَا تركْتُكُمْ، فإنَّما هَلَكَ مَنْ كان قَبْلَكُمْ بِكَثْرةِ سُؤَالِهِمْ، واختلافِهِمْ على أنْبيائِهم، فإذا أمرتُكُم بشيءٍ، فائتوا مِنْهِ ما اسْتَطَعْتُمْ، وإذا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شيءٍ فدَعُوهُ» [مسلم: ١٣٣٧].

والذي يَجِبُ عليه الحجُّ هو الذي يكونُ قادراً على الحجِّ بنفسه، ويَجِدُ النفقة التي تكفيه لذهابِهِ وإيابِهِ، وقد يكونُ الحاجُّ مِنْ أهل مكَّة، أو يسكنُ في مكانٍ قريبٍ منها، ولا يحتاجُ إلا إلى القليل مِنَ النفقة.

وقد يحتاجُ إلى الجملِ أوْ الفَرَسِ أو الحمارِ أو السيارةِ للوصول إلى الحرم، وقد يأتي مِنْ بلادٍ بعيدة، فهو يحتاجُ إلى ركوبِ السفينةِ أو الطائرةِ وقد أمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه إبراهيمَ بَعْدَ بنائِه البيتَ العتيقَ أنْ ينادي النَّاس بالحجِّ، ووعده أنْ يُسْمِعَ الخلائقَ نداءَه، فيأتونه ماشين وراكبين، قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج:٢٧] ومعنى ﴿ رِجَالًا ﴾ أيْ: ماشين، و﴿ ضَامِرٍ﴾ أي: على كل فرسٍ ضامرٍ، أي: راكبين، وقد قلَّ استعمالُ الخيلِ والبغالِ والحميرِ والجِمالِ في هذه الأيام، وحلَّ محلها السياراتُ والطائراتُ والسفن.

فإذا كان الإنسانُ مريضاً لا يستطيعُ ركوبَ وسائلِ النَّقْلِ، أو فقيراً لا يملك دفع تكاليف الحجِّ سَقَطَ عنه وجوبُ الحج.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧] يدلُّ على كُفْرِ جاحِدِ الحج، فكلُّ مَنْ أنكر أنَّ الله كتب الحجَّ على النّاس، فاللهُ غنيٌّ عنه، وهو كافرٌ كفراً أكبر، والله غنيٌّ عن حَجِّهِ وعبادته.

رابعاً: ما تَهْدِي إليه آياتُ هذا النص مِنْ علمٍ وعمل

عندما نَتَدبَّرُ آياتِ هذا النصِّ نجدها تهدينا إلى ما يأتي من عِلْمٍ وعملٍ:

١- أخبرنا اللهُ - تبارك وتعالى - أنَّ الطعام كلَّه كان حَلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرَّمه أبوهم إسرائيلُ على نَفْسِهِ مِنْ قبل نزولِ التوراةِ.

٢- أخْبَرَنا رسولُنا ﷺ أنَّ الذي حرَّمه إسرائيلُ على نفسه قَبْلَ نزول التوراةِ هو لحومُ الإبلِ وألبانها.

٣- تحريمُ لحوم الإبل لا يزالُ مسطوراً في التوراة إلى اليوم، وقد أمَرَ اللهُ اليهودُ عندما كذَّبوا بهذا الحكم أنْ يأتوا بالتوراةِ فيتلوها، ليظهر كَذِبُهم.

٤- في هذه الآية دلالة على مدى علم رسولنا ﷺ وعلم أمته من بَعْدِهِ بما كان يُخْفيهِ اليهودُ مِنْ كتابهم وعلمهم.

٥- تهديدُ الله اليهودَ الذين أخفوا ما عندهم مِنْ علمٍ مسطورٍ في كتابهم، وأخْبَرَ أنَّهم يفترون على الله الكذبَ، وأنَّهم ظالمون.

٦- أوْجَبَ اللهُ - تعالى - على النَّاس جميعاً بعد إبراهيم أن يتبعوا ملته عليه السلام، ومِلَّتُه التوحيدُ الخالص الذي لا شِرْكَ فيه، وقد كان رسولنا ﷺ على ملةِ أبيه إبراهيم.

٧- الكعبةُ التي بناها نبيُّ الله إبراهيمُ وابنهُ نبيُّ الله إسماعيلُ أول بيتٍ وأعظم بيتٍ بني لله في الأرضِ كلها، وما يدَّعيه بعض أهل العلم أنَّ الكعبةَ بنيت قبلَ إبراهيم فلا يوجد دليل يدلُّ على صحته.

٨- الكعبةُ هدىً للعالمين، فهي قبلة الصلاةِ، وإليها يكون الحجُّ والعمرةُ، والطوافُ بها والصلاة عندها فيه أجر عظيم.

٩- في الكعبةِ آياتٌ بيِّناتٌ وعلاماتٌ ودلائلُ واضحاتٍ، ومِنْ هذه الآياتُ البيناتُ أثرُ رِجْل نبيِّ الله إبراهيمَ ﷺ مطبوعة على صخرة المقام، وهي صخرةٌ قاسية.

١٠- وجوبُ الحجِّ إلى البيتِ العتيق على كلِّ مسلم ومسلمةٍ إذا كان مستطيعاً للسفر واجداً للنفقة.

١١- الذي يَجْحَدُ وجوبَ الحج فهو كافرٌ، والله غنيٌّ عنه وعَنْ عمله.

النصُّ الحادي والعشرونَ مِنْ سورةِ آل عمرانَ
فَضْح الله ضَلالَ اليهودِ والنصارى

أولاً: تقديم

فَضَحَ اللهُ في هذه الآياتِ سِتْرَ اليهودِ والنصارى، وأبان ما تُضْمِرُهُ قلوبُهم مِنْ كفرٍ وضلالٍ وأظْهَرَ تعمُّدَهْم كتمانَ الحقِّ الذي أوْدَعَه اللهُ في كتبهم مما أخبر بِهِ عن رسولنا ﷺ وكتابنا، ليَصُدُّوا الناسَ عن الإيمانِ بِهِ واتِّباعِهِ، وهذا يجعلنا نَنْتَبِهُ، فلا نُخدَع بما يقولونَهُ لنا مِنْ معسولِ القولِ، ولا نُناصرهم، ولا نَتَوَّلاهُمْ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران:٩٨-١٠١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- توبيخُ أهْلِ الكتابِ عَلَى كُفْرِهِمْ وصَدِّهم عن سبيلِ الله:

أَمَرَ اللهُ - تبارك وتعالى - رسولَهُ محمداً ﷺ أنْ ينادي اليهودَ والنصارى مِنْ أهلِ الكتابِ موبخاً ومؤنباً إياهم على كفرهم بما تحدثتْ به آياتِ التوراةِ والإنجيلِ عن محمد ﷺ ودينه وكتابِهِ، وأَخْبَرَهُمْ بأنَّ اللهَ تعالى شاهِدٌ على كُفْرِهِمْ وعملهم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ مِنَ أحوالهم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران:٩٨]. قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: «﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٩٨] لِمَ تَجْحَدُونَ حُجَجَ الله التي آتاها محمداً في كُتُبِكُم وغيرها، التي قد ثَبَتَتْ عليكم بصدقِهِ ونُبُوَّتِه وحُجَّتِهِ، لِمَ تَجحدونَ أَمْرَهُ، وأنتم تعلمونَ صِدْقَهُ؟ فأَخبر جلَّ ثناؤه عنهم أنَّهم مُتعمِّدون الكفر بالله وبرسوله، على عِلْمٍ منهم ومَعْرِفَةٍ بكفرهم» [تفسير الطبري: ٣/ ١٨٩٤].

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:٩٩] وهذا مما أمر الله به رسولَهُ ﷺ أنْ يُوَبِّخَ بِهِ اليهودَ والنصارى، فيقولُ لهم لائماً إياهم: لِمَ تصدُّون المسلمينَ عِنْ سبيلِ الله، وهو دينُ الله عزَّ وجلَّ بادعائكم أنَّ صفات رسولِ الله ﷺ ليست في كتبكم، فأنتم بذلك تردُّونَ النَّاس إلى الضَّلالِ والباطلِ والكفرِ، وأنتم شهداءُ، أي: تعلمون أنَّ الدِّينَ الحقَّ هو ما عليه رسولُ الله محمد ﷺ ، واللهُ تبارك وتعالى غيرُ غافلٍ عَنْ أعمالكم التي تعملونها، وسيجيزكم بها، و﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ والعِوَج يقال فيما يُدْرَكُ بالفكرِ والبَصيرةِ، أخبرنا ربنا أنهم يجتهدون في طلب العِوَجِ والفسادِ لها، قال ابن جرير: «﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ عن دين الله مَنْ صَدَّق اللهَ ورسولَه، تَبْغُونَ دينَ الله اعْوَجاجاً عن سُنَنِهِ واستقامته، وقوله ﴿عِوَجًا﴾: ضلالاً عن الحقِّ وزيغاً عن الاستقامة على الهدى والمحجّة» [تفسير الطبري ٣/ ١٨٩٥].

٢- دورُ اليهودِ والنصارى في إفسادِ دين المسلمين:

نَزَلَتْ الآيتانِ السابقتانِ في اليهودِ والنصارى الذين كانوا يُنصِّبونَ أنفسهم مصلحين هداةً، فكشفت الآياتُ باطنَهُمْ، وفضحتْهُمْ، فهم كفرةٌ يَصُدُّون الناس عن سبيلِ الله، وقد وردت رواياتٌ كثيرةٌ تدلُّ على سبب نزول هذه الآيات، الله أعلم بمدى صحتها، منها ما رواه السيوطي، قال: «أخرج ابن إسحاق وابن جريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم، قال: مرَّ شاس بن قيس، وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية، عظيمَ الكُفْرِ، شَديدَ الضِّغن على المسلمين، شديدَ الحسدِ لهم، على نَفَرٍ مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ مِنَ الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يَتَحدَّثُونَ فيه، فغاظه ما رأى من أُلْفتِهم، وجماعتهم وصلاحِ ذاتِ بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم مِنْ العداوةِ في الجاهلية.

فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَةَ بهذه البلادِ، والله ما لنا معهم إذا اجتمع مَلَؤُهُمْ بها مِنْ قَرارٍ، فأمرَ فتًى شاباً معه مِنْ يهود، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم ذَكِّرهم يومَ بُعاثٍ وما كان قبله، وأَنْشِدْهُمْ بعضَ ما كانوا تقاولوا فيه مِنَ الأشعار.

وكان يَومُ بُعاثٍ يوماً اقتتلت فيه الأوسُ والخزرجُ، وكان الظفرُ فيه للأوس على الخزرج، ففعلَ، فتكلم القومُ عند ذلك، وتنازَعُوا، وتفاخروا حتى تواثب رجلان مِنَ الحيَّيْنِ على الركب، أَوسُ بن قَيْظي أَحَدُ بني حارثة مِنْ الأوسِ وجَبَّارُ بنُ صَخْرٍ أحد بني سَلِمَةَ مِنَ الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رَدَدْناها الآن جَذَعَةً، وغضبَ الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، السلاحَ السلاحَ...، موعدكم الظاهرةُ، والظاهرةُ: الحرة.

فخرجوا إليها، وانضمت الأوسُ بعضها إلى بعضٍ، والخزرج بعضُها إلى بعضٍ على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية.

فَبَلغَ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرج إليهم في مَن معه مِن المهاجرين مِنْ أصْحابه، حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين اللهَ اللهَ...، أبدعوى الجاهليةِ وأنا بينَ أظهركم بعد إذْ هداكم اللهُ إلى الإسلامِ، وأكرمكم به، وقَطَعَ بِهِ عنكم أمرَ الجاهلية، واستنقذكم به مِنَ الكفر، وألَّف به بينكم! تَرجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟! فعرَف القومُ أنَّها نزغةٌ مِنَ الشيطان، وكيدٌ مِنْ عدوّهم لهم، فألقوا السلاح، وبَكَوْا وعانقَ الرجالُ بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيدَ عدّوِّ الله شاس.

وأنزل اللهُ في شأنِ شأسِ بن قيس وما صنع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران:٩٨] إلى قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:٩٩] وأنزل في أوس بن قَيْظِي، وجَبَّارِ بن صخر، ومَنْ كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران:١٠٠] إلى قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥]» [الدر المنثور: ٢/ ٢٧٩].

٣- تحذيرُ الله المؤمنينَ مِنْ فِتْنَةِ أهْلِ الكتاب:

نادى اللهُ المؤمنين مُحذِّراً إياهم مِنْ طاعةِ الكفرةِ مِنْ أهْلِ الكتابِ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران:١٠٠] وهذا يقضي أنْ نَحْذَرهم، ولا نَجْعَلَهُمْ مرجعاً لنا في الهدايةِ، ولا نعتمدَ أقوالَهُمْ في التاريخ والاجتماع والاقتصاد وغيرها، فهم كفرةٌ ضالُّون يريدونَ إضلالَ المؤمنين، قال قتادة: «تقدَّم اللهُ إليكم فيهم كما تسمعون، وحذّركموهم، وأنبأكم بضلالتهم، فلا تأمنوهم على دينكم، ولا تنصحوهم على أنفسكم، فإنَّهم الأعداءُ الحَسَدة، الضُّلاَّل، كيفَ تأمنون قوماً كفروا بكتابهم، وقتلوا رُسُلَهُمْ، وتحيَّروا في دينهم، وعَجَزوا عَنْ أنْفِسِهِمْ، أولئك - والله - أهلُ التهمةِ والعداوةِ» [الدر المنثور: ٢/ ٢٨٠].

وقد وردتْ نصوص قرآنية كثيرة في المعنى الموجود في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩].

٤- كيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آياتُ الله وفيكم رسولُهُ:

أخبرنا الله -تبارك وتعالى- في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران:١٠١] أخبرنا أنَّ الكفْرَ بعيدٌ مِنْ صحابة رسولِهِ ﷺ ، لأنَّ فيهم أمرين يثبتانهم على الإيمانِ، ويحُولانِ دون كفرهم. الأوَّلُ: آياتُ الله التي تتنزَّلُ عليهم. والثاني: وجودُ الرسولِ ﷺ فيهم.

ومع وجود هذين الأمرين يكونُ كفرُهُمْ مُسْتَغْرَباً ومتعجباً منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد:٨-٩].

وكتابُ الله لا يزالُ موجوداً محفوظاً كما أُنزلَ على محمدٍ ﷺ ، ورسولُهُ ﷺ توفَّاه اللهُ، وذهبَ إلى ربِّه تبارك وتعالى، ولكنَّ سنته محفوظةٌ موجودةٌ، وكتابُ الله وسنّةُ رسولِهِ ﷺ لا تزال عصمةً للمؤمنين، ومناراً للسالكين، وهدىً للمتقين، وما أحسن ما قاله أبو العالية: «إنَّ الله قضى على نفسه أنَّه من آمَن بِهِ هَداه، ومَنْ توكَّل عَلَيْه كَفاه، ومَنْ أقْرضه جَزاه، ومَنْ وَثِق بِهِ أنجاه، ومَنْ دعاه استجابَ له بعد أن يستجيبَ لله» [الدر المنثور: ٢/ ٢٨١].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعملٍ

عندما نَتَدَبَّرُ آياتِ هذا النصِّ نجدُها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعملٍ:

١- فَضَحَ الله أمرَ اليهودِ والنصارى، وهَتَكَ سِتْرَهُمْ، وأخبرنا أنَّهم يكفرون بما تَضَمَّنَتْهُ كتبُهم مِنْ آيات تُعرِّف برسولنا ﷺ ودينِهِ وكتابِهِ وأمته.

٢- الكفارُ مِنَ اليهود والنصارى بكتمانهم للحقِّ في كتابهم المتعلِّقِ برسولنا ﷺ يصدُّون الناسَ عَنْ دينِ الله تبارك وتعالى.

٣- تهدَّد اللهُ تعالى اليهودَ والنصارى الكاتمينَ للحقِّ الصادِّينَ عن سبيلِ الله تعالى بأنَّه ليس غافلاً عنهم، بل علمُهُ بهم محيطٌ، وسيجزيهم ويحاسبهم.

٤- لا يجوزُ للمؤمنين الذين أعلمهم اللهُ بشأنِ اليهودِ والنصارى أن يطيعوهم ويناصروهم، فهم أعداء، وليسوا بأولياء.

٥- بيَّنَ الله - تبارك وتعالى - لنا ما يعصمنا مِنَ الضلالِ والكُفْرِ، وهو الإيمانُ بكتابِهِ وسنَّةِ رسوله ﷺ ، والعملِ بهما.

٦- على الأُمَّةِ الإسلامية أن تحْذَر اليهودَ والنصارى، فلا هدايةَ عندهم، وعلينا أنْ نعتَصم بالله، فنهتدي إلى صراطٍ مستقيمٍ.

النصُّ القرآنيُّ الثاني والعشرون مِنْ سورةِ آل عمرانَ
اتَّقوا اللهَ حقَّ تقاتِهِ ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمونَ

أولاً: تقديم

نادانا رَبُّنا -تبارك وتعالى- آمراً إيَّانا أن نَتَّقيه حَقَّ التقوى، ونَهانا عَنِ الموت إلاَّ على الإسلام، وأمَرَنا أن نعتصمَ بحبله، وهو كتابُهُ، ونَهانا عَنْ الفُرْقَةِ، وأمَرَنا أن نذكر نعمته علينا، فقد كُنَّا أعداءً، فألَّف بَيْنَ قلوبنا، فأصبحنا إخوةً بدينه المنزل، وكُنَّا في الجاهلية على شَفَا حفرةٍ مِنَ النَّارِ، فأنقذنا منها بالإيمان، وأمَرَ هذه الأمَّة أن تكون مِنَ المفلحين، بالدعوة إلى الله، والأمْرِ بالمعروفِ، والنهيِ عِنْ المنكر.

ونَهانا عَنْ الاختلاف والفُرْقَةِ كما وقَعَ للذين مِنْ قبلنا عندما اختلفوا مِنْ بعد ما جاءتهم البيناتُ، فكان مصيرهم العذابَ الأليمَ، ووَصَفَ اللهُ حالَ الناس يومَ القيامةِ عندما تبيضُّ وجوه المؤمنين، وتسودُّ وجوه الكافرينَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ [آل عمران:١٠٢-١٠٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- نداء الله المؤمنين آمراً إياهم بتقواه حَقَّ التقوى:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين آمراً إيَّاهم باتِّقائه حَقَّ التقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢]، وقد فَسَّر عبدالله بن مسعود

قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢] بقوله: «أن يُطاعَ فلا يُعْصَى، وأنْ يُذْكَرَ فلا يُنْسَى، وأنْ يُشْكَرَ فلا يُكْفَرُ» [قال ابن كثير ١/ ٤٣٥: هذا إسنادٌ صحيحٌ موقوفٌ].

وأَمَرَ اللهُ تبارك وتعالى الإنسانَ بملازَمَةِ التقوى ما دامَ حيّاً، حتى إذا جاءَه الموتُ خُتِمَ لَهُ بالخاتمةِ الطيِّبَةِ، وهي الوفاةُ على الإسلام ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

والتقوى أن يجعل العبد بينه وبين عذابِ الله وقايَةً، وقد أخبرنا ابنُ عباس أنَّ رسولَنا ﷺ قرأ قولَهُ تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢] فقال: «لو أنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُوم قَطَرَتْ في دارِ الدُّنْيا، لأفْسَدَتْ على أهْلِ الدُّنْيا مَعَايِشَهُمْ، فكيف بمن يكونُ طعامُهُ» [الترمذي: ٢٥٨٥، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح].

وفي الحديث إشارةٌ إلى أنَّه لا خَلاصَ مِنْ عذابِ الله العظيمِ الشَّديدِ، ومنه الزَّقوم الذي إذا وَقَعَتْ قطرةٌ منه في دار الدنيا أفْسَدَتْ على أهلِ الدنيا دنياهُمْ إلا بالتقوى، وعلى العَبْدِ أنْ يقتدي بنبيِّ الله يوسف عليه السلام في دعائه ربَّه أنْ يتوفَّاهُ عَلَى الإسلامِ ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١] والوفاةُ على الإسلامِ تكونُ بحرص العبدِ على طاعةِ الله والاستقامةِ دائماً وأبداً عليهِ، حتى إذا جاءَه الموتُ وجدَهُ مسلماً.

وقد أرْشَدَنا رسولُنا ﷺ إلى أنْ نحسنَ الظنَّ بربِّنا إذا حَضَرنا الموتُ، فعن جابر بن عبدالله قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قبلَ وفاته بثلاثٍ يقولُ: «لا يموتَنَّ أحَدُكُم إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله تعالى» [مسلم: ٢٨٧٧].

وفي الحديث عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ: «يقولُ اللهُ تعالى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي» [البخاري: ٧٤٠٥. ومسلم: ٢٦٧٥].

فإذا جاءَ الموتُ، فعلى العبد أن يعتقدَ جازماً أنَّه قادِمٌ على ربٍّ كريم، رحمنٍ رحيم، كثيرِ التَّوبِ، واسعِ العطاءِ، لا يستعظمه شيءٌ أعطاه، وليكثر مِنْ قولِ: «لا إلهَ إلا الله»، فمَن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخل الجنّة.

٢- اللهُ يَدْعونا إلى الاعتصامِ جميعاً بحبله:

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران:١٠٣]. أمَرَنا اللهُ تبارك وتعالى أنْ نستمسك بحبلِ الله، وحَبْلُ الله هو القرآنُ الذي يوصلنا إلى رضوان الله وجنته، وأصْلُ الحبلِ: السَّببُ الذي

يَتَوصَّل بِهِ المرءُ إلى ما يَبْتَغِيهِ، وسُمِّي الإيمانُ أوْ القرآن حبلاً، لأنَّه يتوصل به إلى رضوانِ الله وجَنَّتِهِ.

وإذا اعتصمَ المسلمونُ بحبلِ الله، وَهُوَ القرآن أصْبَحوا أُمَّةً واحدةً، وأصبحوا على اختلافِ أجناسِهِمْ وألوانِهِمْ ولغاتِهِمْ إخوةً فيما بينهم، وقد كان العربُ في الجزيرةِ العربية مع كونهم مِنْ جنس واحدٍ متباغضينَ متدابرينَ، يُغير بعضُهم على بعضٍ، ويقتلُ بعضهُم بعضاً، ويأْسِرُ بعضُهم بعضاً، وينهبُ بعضُهم مالَ بعضٍ، فجاءَهم اللهُ بالإسلامِ، فألَّف بينَ قلوبهم، فأصبحوا بنعمةِ الله إخواناً، يُحِبُّ بَعْضُهم بعضاً، ويصونُ بعضُهم أموال الآخرين، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٣﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣].

وقد قال الرسولُ ﷺ للأنْصارِ بعد معركةِ حُنَين: «يا مَعْشَرَ الأنصارِ، ألَمْ أجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَداكُم اللهُ بي، وكُنْتُمْ متفرقين فألَّفكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي».

وبعد أنِ انفرط عقدُ الخلافةِ العثمانيةِ، تفرَّقَتْ الولاياتُ التي كانت تحتَ لوائها، وثارَتِ العصبياتُ، ولم يتمكن المسلمون من الاجتماعِ على كلمةٍ سواء، ولا يوحِّدُ المسلمين إلا الإسلامُ، والله المستعان.

وتحدَّثَ ابنُ القيم رحمهُ اللهُ تعالى عن أَثَرِ اعتصامِ العَبْدِ بالله وبحبلِهِ، فقال: «ومدارُ السعادةِ الدنيويةِ والأُخْرويةِ على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبْلِهِ، ولا نجاةَ إلا لمنْ تمسَّكَ بهاتينِ العِصمتينِ، فأمَّا الاعتصامُ بحبْلِهِ فإنَّهُ يَعصِمُ مِنَ الضَلالَةِ، والاعتصامُ بِهِ يَعْصِمُ مِنَ الهَلَكة، فإنَّ السائرَ إلى الله كالسائر على طريقٍ نحو مَقْصِدِهِ، فهو محتاجٌ إلى هدايةِ الطريقِ والسلامةِ فيها، فلا يَصلُ إلى مقصدِهِ إلا بعد حصولِ هذين الأمرين لَهُ، فالدليلُ كفيلٌ بعِصْمتِهِ مِنَ الضلالة، وأن يهديه إلى الطريقِ، والعُدَّةِ والقوَّةِ والسلاحِ التي بها تَحصُلُ له السلامةُ مِنْ قُطَّاع الطريقِ وآفاتها.

فالاعتصامُ بحَبْلِ الله يوجبُ له الهدايةَ واتباعَ الدليلِ، والاعتصامُ بالله يوجِب له القوةَ والعدَّةَ والسلاحَ والمادةَ التي يَسْتَلئِمُ بِهَا في طريقه» [مدارج السالكين: ١/ ٤٥٨].

وقد أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ المسلمين قبل إسْلامهم كانوا على شَفَا حفرةٍ مِنَ النَّار، أيْ: على طرفِ النَّار يوشِكُ أنْ يقعوا فيها، فأنقذهم اللهُ منها ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:١٠٣]. لقد كانوا كُفَّاراً ظَلَمَةً فَسَقَةً، يستحقُّونَ النَّار، وغضبَ الجبَّارِ، فأنقذهم اللهُ مِنَ النَّار بإيمانهم واتِّباعِهِم الرسولَ ﷺ.

وبيّن اللهُ تعالى في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣] أنَّ مثل هذا البيانِ الذي بيّنه في هذا الموضعِ، يُبيِّن لنا آياتِهِ لعلَّنا نهتدي، فالقرآنُ كتابُ هدايةٍ، يهدي بِهِ اللهُ قلوبَ مَنْ شاءَ هدايتَهُ.

٣- أمرَ اللهُ الأمةَ الإسلاميةَ أنْ يكونوا دعاةَ خيرٍ آمرين بالمعروف ناهين عَنِ المنكر:

أمر اللهُ هذه الأمةَ أن تكونَ داعيةً إلى الخير، آمرةً بالمعروفِ، ناهيةً عن المنكر، فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:١٠٤].

وهذا الذي أمَرَنا اللهُ به أخصُّ خصائِصِ هذه الأمةِ، وهو الذي رَفَع منارها، وأعْلَى لواءَها، وجعلَها خيرَ أُمةٍ، كما قالَ بعد هذه الآيةِ بآياتٍ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران:١١٠].

والخَيْرُ الذي دعانا اللهُ إلى القيام به يتمثَّل في الأعمال الصالحةِ التي أمَرَنا اللهُ بها، كالعدْلِ والفَضْلِ والصِّدْقِ والصلاةِ والإنفاقِ، ونحو ذلك، والمعروفُ: اسم لكلِّ فِعْلٍ يُعْرَفُ بالشَّرْعِ حسنه، والمنكر ما ينكره الشرعُ، والقائمون بما أمَرَ اللهُ بِهِ في هذه الآيةَ هم المفلحونَ الفائزونَ.

ومع أنَّ أفرادَ الأُمة متفاوتون فيما يَقْدِرون عليه مِنَ الدَّعْوَةِ إلى الخير والأمرِ بالمعروف، والنهي عَنِ المنكر، فهم متفاوتون فيما يَجِبُ عليهم من الدعوةِ إليه، فكلٌّ منهم يدعو إلى الخيرِ، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر بمقدارِ عِلْمِهِ وما يُطيقُه، ويقولُ الرسول ﷺ في الحديثِ الذي يرويه أبو سعيدٍ الخُدرِيُّ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فليغيِّره بِيَدِهِ، فإنْ لم يَسْتَطِعْ فبلسانِهِ، فإنْ لَمْ يستَطِعْ فبِقَلْبِهِ، وذلك أضْعَفُ الإيمانِ» [مسلم:٤٩].

وعن حذيفةَ بنِ اليمانِ عن النبيِّ ﷺ قال: «والذي نَفْسي بيدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بالمعروفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المنكرِ، أو ليوشِكُنَّ اللهُ أنْ يبعثَ عليكم عقاباً منه، ثمَّ تدعونَه فلا يَسْتَجيبُ لكم» [الترمذي: ٢١٦٩. وقال فيه: هذا حديث حسن].

٤- النهيُ عَنِ الفرقةِ والاختلافِ:

نهى اللهُ - تبارك وتعالى - هذه الأُمةَ عَنِ الفُرقةِ والاختلاف الذي أصاب الأممَ مِنْ قبلنا ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٥].

لقد اختلفَ اليهودُ فيما بينهم إلى فِرَقٍ كثيرةٍ، واختلفَ النصارى أيضاً فيما بينهم إلى فِرَقٍ كثيرةٍ، وقال بعض النصارى: إنَّ عيسى ابنُ الله، وقال آخرون: هو الله، وقال فريق ثالث: هو ثالث ثلاثةٍ، وقال أهلُ الحقِّ منهم: هو عبدُ الله ورسولِهِ، وجاءهم محمدٌ ﷺ بالقولِ الحقِّ، فآمنَ قليلٌ منهم، وبقيَ كثيرٌ منهم على كُفْرِهِمْ وتنازُعِهِمْ حتى اليوم.

وقد أنْبأنا رسولُنا ﷺ بكثرةِ اختلافِ الأمم مِنْ قبلنا، وأخبرنا أنَّ اختلافَنا سيكونُ أكثَر مِن اختلافِهِمْ، فعن معاويةَ بن أبي سفيانٍ قال: ألاَ إنَّ رسولَ الله ﷺ قامَ فينا فقال: «ألاَ إنَّ مَنْ قبْلَكُمْ مِنْ أهْلِ الكتابِ افترقوا على ثِنْتَيْنِ وسبعين مِلَّةً، وإنَّ هذه الأمَّةَ ستفترقُ على ثلاثٍ وسبعين، ثنتان وسبعونَ في النَّار، وواحدةٌ في الجنَّة وهي الجماعة» [أبو داود: ٤٥٩٧. وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ٣٨٤٣. وذكر أنه خَرَّجَهُ في الصحيحة: ٢٠٤].

٥- ابيضاضُ وجوهِ المؤمنين واسودادُ وجوهِ الكافرين في يومِ الدين:

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين تفرقوا واختلفوا لهم عذابٌ عظيم، ففي يوم القيامة تبيضُّ وجوهُ المؤمنين وتسودُّ وجوهُ الكفرةِ المجرمين، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٧].

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ اعتقادَ النَّاس وأعمالهم تظهر في يوم القيامة على وُجُوهِهِمْ، فالكفَّارُ تَسودُّ وُجوهُهُم كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ﴾ [يونس:٢٧]، وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس:٤٠-٤٢].

ويقالُ للكَفَرةِ الذين اسودَّت وجوههم في يوم الدِّينِ: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٦] وهذا خِطابُ تأنيبٍ وتوبيخٍ، واسودادُ وجوههم يكون بسبب كُفْرِهِمْ وذنوبهم.

وأمَّا أهلُ الإيمان والأعمال الصالحة، فيبيِّضُ اللهُ وجوهَهمْ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٧] وقد أشارَ اللهُ بقولِهِ: ﴿تِلْكَ﴾ في قولِهِ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران:١٠٨] إلى الآياتِ السابقةِ

هذه الآيات، أيْ: تلك آياتُ الله التي حَوَتْ حُجَجَه وبيِّناتِهِ نتلوها عليك يا محمدُ، وهذا الذي ذكره من تعذيب الذين اسودَّت وجوههم في النَّارِ ليس ظلماً للعبادِ، بل هو الحكم العدلُ الذي لا ظُلْمَ فيه.

وقال تعالى في خاتمة هذا النص: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ [آل عمران:١٠٩] فاللهُ -سبحانه- هو المالكُ للسماواتِ والأرضِ ما فيهما وما بينهما، ونحن نعيشُ فوقَ هذه الأرض، والله يتصرَّفُ في السمٰواتِ والأرضِ، ويتصرف فينا كما يشاءُ ويريدُ، وكلّ الأمور ترجعُ إليه.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعملٍ

عندما نَتَدَبَّرُ آياتِ هذا النصِّ نجِدُها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ علمٍ وعملٍ:

١- دعانا ربُّنا -تبارك وتعالى- إلى أنْ نَتَّقِيهُ حقَّ التقوى، وتحقيقُ ذلك يكونُ بأنْ يُطاعَ فلا يُعْصَى، ويُذكرَ فلا يُنسى، ويُشْكَرَ فلا يكفر، وعلينا أنْ نديم تقواه، حتى يأتينا الموتُ ونحن على ذلك.

٢- أمَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنْ نعتصمَ بكتابِهِ، فنصبحَ أمةً واحدةً، ونهانا عن الفرقَةِ والاختلافِ، وأمرنا أن نديمَ تذكُّر نعمةِ الله علينا إذ أصبحنا بعد العداوةِ إخوةً في الله، وكنّا على شَفَا حفرةٍ مِنَ النَّار فأنقذنا منها.

٣- الإنقاذُ مِنَ النَّار يكون بالإيمان والعملِ الصالحِ، والاستمساكِ بالشريعةِ المباركةِ.

٤- الهدايةُ الحقيقيةُ تتحقق بما بَيَّنَهُ اللهُ وشرعَهُ لنا.

٥- أخصُّ خصائصِ الأمَّةِ الإسلامية، التي تجعلها خير أمَّة: الدعوةُ إلى الله وإلى دين الله، والأمرُ بالمعروفِ، والنهي عن المنكرِ، ومن كان كذلك كان مِنَ المفلحين.

٦- نهى الله هذه الأُمة أن تختلف فيما بينها كما اختلفتِ الأمم السابقةُ في دينها بعدما جاءَتها البيناتُ مِنْ ربِّ الأرضِ والسماواتِ.

٧- رَغَّبنا اللهُ وَرَهَّبَنا بإخبارنا أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات تَبْيَضُّ وجوههم، ويكونون في رحمة الله هم فيها خالدون، أمَّا الكفارُ فتسودُّ وجوهُهم يومَ القيمةِ، ويُبَكَّتون، ويدخُلون النَّار.

٨- الله -تعالى- هو مالكُ السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينها، وهو يتصرف في ملكه تعالى كما يشاء.

النصُّ القرآنيُّ الثالثُ والعشرونَ مِنْ سورةِ آل عمرانَ
الأُمَّةُ الإسلاميةُ خيرُ أُمةٍ أُخرجتْ للناسِ

أولاً: تقديمٌ

أخبرنا اللهُ -تعالى- في هذا النصِّ أنَّ الأمة الإسلامية خيرُ أُمَّةٍ أُخرجت للنَّاس، لما اتصفتْ به مِنْ خصائصَ، وأنَّ أهلَ الكتابِ اليوم فقدوا الخيريَّةَ التي كانت فيهم، وأنَّهم أصبحوا كَفرةً فَسَقَةً، وأنَّ ضررَهم لا يتعدَّى الأذى، وإنْ قاتلونا فسنهزمهم، وأخبرنا أنَّ بني إسرائيل ضُرِبتْ عليهم الذلَّةُ والمسكنةُ وباؤوا بغضبٍ مِنَ الله، وأخبرنا تعالى في هذه الآياتِ أنَّ الذلَّةَ ستُرْفَعُ عنهم فترةً مِنْ الزمان، ثم تزولُ، وقد رُفِعتْ الذلَّةُ عنهم في أيامنا، ويوشك أن يزول هذا الاستثناء.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة آل عمران

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾ [آل عمران:١١٠-١١٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- الأُمَّةُ الإسلاميةُ خيرُ أُمَّةٍ أُخرجتْ للنَّاسِ:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ أُمَّةَ محمدٍ ﷺ خيرُ أُمةٍ أخرجها اللهُ للناس، وقد دلَّ على صِحَّة هذا القول أمور:

أ- تصريح الله -تبارك وتعالى- بهذه الحقيقةِ في الآيةِ الأولى مِنْ هذا النصِّ في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، قال ابن كثير: «الصحيح أنَّ هذه الآيةَ عامةٌ في جميعِ الأُمَّةِ، كلُّ قَرْنٍ بحسَبِهِ، وخيرُ قرونهم الذي بعث فيه رسولُ الله ﷺ، ثم الذين يَلونَهم، ثم الذين يَلونَهم» [ابن كثير: ١/ ٤٣٨].

وقال الشوكاني: «فيه دليلٌ على أنَّ هذه الأمة الإسلامية خيرُ الأُمَمِ على الإطلاقِ، وأنّ هذه الخيرية مشتركةٌ ما بين أوّلِ هذه الأمةِ وآخرها بالنسبة إلى غيرها مِنَ الأُممِ، وإن كانت متفاضلة في ذاتها» [فتح القدير: ٢/ ٦٠٨].

ب- قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]، والوسطُ: الأفضلُ والأكملُ والأعدلُ، والوَسَطُ - وهو مركز الاتزان في الشيء - ممدوح، والأطرافُ مذمومةٌ، وقد دلَّ على أفضليةِ هذه الأمة أنّها تشهدُ للرُّسُلِ يوم القيامة، فنوحٌ ومَنْ بعده عندما تكذِّبهم أُممهم، تشهدُ لهم هذه الأمةُ أنّهم بَلَّغوا دينَ الله إلى أقوامهم.

ج- تصريحُ الرسولِ ﷺ أنَّ أمته خيرُ الأمم، ففي سنن الترمذي عن مَعْمَرٍ، عن بَهْزِ بنِ حكيم، عن أبيه، عن جَدِّه، أنَّه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠] قال: «أنتُم تُتِمُّونَ سبعينَ أُمَّةً أنْتُمْ خيرُها وأكرمُها على الله» [الترمذي:٣٠٠١، وقال فيه: حديث حسن، وأورده الألباني في صحيح الترمذي: ٢٣٩٩، وقال: حسن].

د- أنَّ رسولَ هذه الأمة محمداً ﷺ خيرُ الرسلِ وأفضلُهُمْ، ودينُ هذه الأُمَّةِ خيرُ دينٍ، وأُعْطِيَ رسولُها ما لم يُعْطَهُ أحدٌ مِنْ الأنبياءِ، وفي مسند أحمد عن عليٍّ بن أبي طالب قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ : «أُعْطِيتُ ما لم يُعْطَ أحدٌ مِنَ الأنبياء، فقلنا: يا رسول الله ما هُوَ؟ قال: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ، وأعطيتُ مفاتيحَ الأرض، وسُمِّيت أحمدَ، وجُعل الترابُ لي طَهوراً، وجُعلتْ أُمتي خيرَ الأمم» [ابن كثير: ١/ ٤٣٩. وقال فيه: تفَرَّدَ بِهِ أحمدُ مِنْ هذا الوجه، وإسناده حسن]. ومن الفضائل التي حازها رسولُنا ﷺ أنّه أُرْسِلَ إلى النَّاس كافةً، وكلُّ نبيٍّ قبله بُعث إلى قَوْمِهِ خاصةً.

هـ- أُمّةُ محمدٍ ﷺ أكثرُ الأمَمُ دخولاً الجنة، ففي البخاريِّ ومسلمٍ عن عبدِالله قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ في قُبَّةٍ، فقالَ: «أَتَرْضَونَ أن تكونوا ربعَ أهلِ الجنّة؟» قلنا: نَعَمْ. قال: «أترضون أنْ تكونوا ثُلثَ أهْلِ الجنةِ؟» قلنا: نعم، قال: «أترضون أنْ تكونوا شَطْرَ أهلِ الجنَّة؟» قلنا: نعم، قال: «والذي نفسي بيدِهِ إنِّي لأرجو أنْ تكونوا نصفَ أهلَ الجنَّةِ، وذلك أنَّ الجنةَ لا يَدْخُلُها إلا نفسٌ مُسْلمةٌ، وما أنتم في أهلِ الشركِ إلا كالشَّعرةِ البيضاءِ في جِلْدِ الثورِ الأسود، أو كالشَّعرةِ السوداءِ في جِلْدِ الثورِ الأبيض» [البخاري: ٦٥٢٨. ومسلم: ٢٢١].

٢- خصائصُ هذهِ الأُمَّةِ:

ذَكَرَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذه الأُمَّةَ خيرُ أمَّةٍ أُخرجتْ للناس، وذكر لها ثلاث خصائص فُضِّلت بها على غيرها، أولاها: أمرُها بالمعروفِ. والثانية: نهيُها عن المنكر. والثالثة: إيمانها بالله

تعالى. وقد سَبَقَ ذكرُ النصوصِ الدالَّةِ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

٣- لِمَ أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بفَضْلِنا:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- بفضْلِنا على بقيَّةِ الناس حتى لا ينحرف بنا المسارُ، ولا ننخدعَ بدعوى الضالِّينَ مِنَ البشر مِنَ اليهودِ والنصارى والمشركين وغيرهم، الذين يدَّعون أنَّهم الأفضلُ والأكملُ والأحسنُ، وحتى نقوم بالدورِ المناطِ بنا في هداية البشر إلى دينِ الله الذي جاءَنا مِنْ عندِ الله.

ونحن اليوم في معترك صِراع ضَخْم، يريدُ اليهودُ والنصارى أن يَغْرسوا في قلوبنا أنَّنا قومٌ متخلِّفُونَ ضالون ضائعون، وأنَّهم أهلُ الحضارةِ والمدنيةِ والتقدُّم والرِّفعةِ، ولذلك علينا أنْ نَفْقَهَ هذا الدين، ونصوغَ حياتنا وَفْقَ تعاليمه، ونغسلَ قلوبنا وأعمالنا ومجتمعنا مِنْ أدناسِ جاهليةِ الغربِ وقاذوراتِها، وبذلك نعودُ إلى الأصالةِ والفَضْلِ.

إنَّ الأصالَة والفضل ليست بالقصورِ العالية، والحدائقِ الغنّاءِ، والطعام الطيِّبِ، والملابسِ الزاهيةِ، فقد كان صحابةُ رسول الله ﷺ الذين مثَّلوا الإسلامَ في واقعِ الحياةِ تمثيلاً عمليًّا مشهوداً، كانوا لا يملكون الكثيرَ ممَّا تملكه الحضارةُ الغربيةُ، ولكنَّهم كانوا خيرَ النَّاسِ وأفضلَ الناسِ، وسمَّى الرسولُ ﷺ (طيبة) البلد التي كانوا يسكنونها بـ (المدينة) لأنَّها تضمُّ المجتمعَ المتحضر الراقي، مع أنَّ بيوتها كانت صغيرة مبنية من الطين، وشوارعها ضيقة، وأهلها فقراءَ.

٤- لو آمن أهلُ الكتابِ لكان خيراً لهم:

آمنتْ فئةٌ قليلةٌ مِنَ اليهودِ والنصارى، وكفرتْ فئةٌ عظيمة، ولو آمنوا كُلُّهم لكانَ خيراً لهم ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

ودخولُ أهلِ الكتاب في الإيمانِ خيرٌ لهم، لأنهم عندما يدْخُلُون في هذا الدِّين يصبحون مِنْ جُملَةِ الأُمَّةِ التي هي خيرُ أُمةٍ أُخرجتْ للنَّاس، فعبدُ الله بنُ سلام عندما دخل في الإسلام وكان حَبْراً من أحبارِ اليهود، أصبح مِنْ صحابةِ رسولِ الله ﷺ ، وأصبحَ مِنَ الرعيلِ الأول مِنْ هذه الأمةِ، وكذلك كلُّ مَنْ آمنَ من اليهودِ والنصارى في مختلفِ العصورِ يصبحُ من هذه الأُمَّةِ التي هي خيرُ أُمَّةٍ أُخرجتْ للناس على مدارِ التاريخِ الإسلامي.

وقد وصفَ الله الكفرةَ من أهلِ الكتابِ بالفسق، أي: الخروج عَنْ طاعةِ الله ﴿بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١١].

٥- لا يستطيع اليهود الإضرار بالمؤمنين:

أخْبرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ محمداً ﷺ أنَّ اليهودَ والنصارى لن يَضُرّونا إلاّ أذى، ومن ذلك ما قاموا بِهِ مِن كتمانِ النصوصِ التي في كتبتهم التي تبشِّرُ بمحمدٍ ﷺ وكتابه، وادَّعوا أنَّه لا ذِكْر لرسولنا ﷺ في كُتُبِهِمْ، ومِنْ ذلك دعواهم كاذبين أنَّهم الأفضلُ والأكملُ، وأنّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا هوداً أو نصارى، ودعواهُمْ أنَّهم أهلُ الجنةُ، وأننا أهلُ النارِ.

وكان المسلمون يُؤْذَوْنَ، وهم يسمعونَ هذه الأكاذيبَ والافتراءاتِ، ولم يكن يتعدى ضرر بني إسرائيل الأذى، وأخبرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه وأصحابَهُ أنَّ اليهود والنصارى إذا قاتلوا المسلمين، فسيولُّون الأدبارَ، ويهزمون في ميدانِ القتالِ، ولن يكتب لهم النَّصرُ علينا ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١)﴾ [آل عمران:١١١].

وقد وقع الأمرُ وفق ما أخبرَ اللهُ تعالى به، فقد قاتلَ المسلمون اليهود، في المدينة فهُزِمَ اليهودُ في كلِّ المعارك التي خاضوها في مواجهة المسلمين، فمنهم مَنْ أخرجَهُمْ المسلمون بعد انتصارِهِم عليهم مِنَ المدينة، ومنهم الذين قُتِلَت مقاتِلَتُهُمْ وسُبِيَت ذريَّتهُمْ ونساؤُهم، وقاتل المسلمون يهودَ خيبرٍ فانتصروا عليهم نصراً مؤزراً.

٦- ستُهزمُ يهودُ اليوم الذين احتلوا بلادنا فلسطين إن شاء الله:

القاعدةُ العامة في مسيرةِ بني إسرائيل عَبْرَ تاريخهم بعد فسادِهِمْ أنَّ اللهَ ضربَ عليهم الذلَّةَ والمسكنةَ، وأنّهم باؤوا بغضبٍ من الله تعالى، قالَ سبحانه فيهم: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١].

وقَضَى ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- أنّه سَيَبْعَثُ عليهم مِنْ يسومهم سوءَ العذابِ إلى يوم القيامةِ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧].

ومَنْ يقرأُ تاريخَ اليهود يرى صِدْقَ ما أَخْبَرَ اللهُ به عنهم، ويجدُ أنَّ اللهَ سامَهُمْ سوءَ العذاب طيلةَ الفترةِ الماضية، وقد عَرَضْتُ شيئاً مِنْ العذابِ الذي سامتهم به الدول الأوروبية في كتابي الذي أسميته: «وليتبروا ما عَلَوْا تتبيراً».

وقد أعلمنا اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنَّ لهذه القاعدةِ استثناءً، وقد وَقَعَ هذا الاستثناءُ في أيامنا هذه، ولم أجْد أحداً من المعاصرين، فضلاً عن السابقينَ مَنْ نَبَّهَ إلى وقوع هذا الاستثناء في أيامنا. وهذا الاستثناء هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران:١١٢].

أخبرنا ربنا -عزَّ وجلَّ- في هذه الآيةِ أنَّه ضربَ على بني إسرائيلَ الذلَّةَ أينما حَلُّوا وفي أيِّ بلدٍ عاشوا، وكان المفسرون ولا يزالونَ يفسِّرونَ رفعَ الذلَّةِ عن بني إسرائيل بحبلِ الله وحبلِ الناسِ الذين هم أمةُ محمدٍ، وهذا الحبلُ هو عَقْدُ الذِّمَّةِ الذي يأمنون به إذا دخلوا ديارَ الإسلامِ على أموالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ وأبنائهم ونسائهم، وقد عاش اليهودُ في ظلِّ الدولةِ الإسلامية في اليمن والعراق وفلسطين ومصرَ وغيرها، كما عاشَ جمعٌ كبيرٌ منهم في الأندلسِ، فلما طُرِدَ المسلمونَ منها طُرِدَ منها اليهودُ، ولم يجدُوا بلداً يأوون إليه إلا الدولة العثمانية، والآيةُ تحتمل هذا المعنى.

ولكنَّ وراءَ هذا المعنى معنىً آخر، فقد ذكر الله أنَّه ضرب الذلَّةَ على اليهودِ إلا بحبلٍ مِنَ الله وحبلٍ مِنَ الناس، أي: أنَّ الذلَّة سترفعُ عنهم بحبلٍ مِنَ الله وحَبْلٍ مِنَ الناسِ، وقد رُفِعتِ الذلة عن اليهود اليوم، فقد احتلُّوا فلسطينَ وأقاموا لهم فيها دولةً، وأقاموا جيشاً قوياً، وزوَّدُه بأنواع السلاحِ، وأصبح لديهم قدرةٌ على مقاومةِ الدولِ العربيةِ كلِّها في الميدانِ، ومع أنَّ الله غضبانٌ على اليهودِ، ويكرهُهُمْ أشدَّ الكُرْهِ، فإنّه قضى بِرَفْعِ الذلَّة عنهم عقوبةً للأمَّةِ الإسلاميةِ بسبب بُعْدِها عنْ دينها، وتَرْكِها لتحكيم كتابِها، وقضاؤُه -سبحانه- برفعِ الذلَّةِ عن اليهودِ قضاءٌ قدريٌّ، وليس بقضاءٍ شرعيٍّ.

وحبلُ النَّاسِ الذي رَفَعَ الذلَّةَ عن اليهودِ تمثَّلَ في تسخيرِ بريطانيا لهم، فقد احْتَلَّتْ فلسطينَ، وحاربتْ أهلَها، حتى سلَّمتْها لليهودِ في عام ١٩٤٨م، وقامت الدولُ العظمى بأعْظَمِ ظُلْمٍ عندما اعترفتْ بدولةِ اليهودِ، وأمدَّت تلكَ الدولةَ الظالمةَ بالمالِ والرجالِ والسلاحِ، وامتدَّ حَبْلُ النَّاسِ إلى الدولِ العربيةِ والإسلاميةِ، فقد أقامتْ بعضُ هذه الدولِ علاقاتٍ دبلوماسيةً مع دولةِ اليهودِ، فزادوا مِنْ غضب الله علينا.

وقد وقعَ مثلُ هذه الواقعة لليهود أيامَ كان فيهم نبيٌّ، وفيهم بعض الخير، فقد قتَلَ منهم نبُوخذُ نَصَّرَ مَنْ قتَلَ، وسبى مَنْ سبى، وقد ساقَ ذلك السبي وفيهم ذلك النبيُّ إلى ديارِهِ في بابلِ العراق.

وهذه الآيةُ التي تخبر بهذه الوقعة تُبَشِّرُنا في الوقتِ نفسِهِ أنَّ هذا الاستثناءَ لن يدومَ طويلاً، وأنّ النصرَ آتٍ آت، فبعد أن أخبر الله برفعِ الذلَّة عنهم بحبلٍ مِنْ الله وحَبْلٍ مِنَ

الناسَ، أخبرنا أنَّ غضبَ الله عليهم باقٍ لا يشمله الاستثناءُ، وأنَّ المسكنةَ مضروبة عليهم لا تُرْفَعُ، فإذا عاد المسلمون إلى دينهم الذي بسببه سلَّط اللهُ عليهم اليهودَ انقطع حبلُ الله الذي رَفَعَ بِهِ الذلَّة عنهم، وعادت الذِّلةُ تتلبسهم، مع استمرارِ غضبِ الله عليهم، واستمرارِ المسكنةِ التي لا تفارقهم، ومَنْ نَظَرَ في موقفِ اليهودِ مِنْ رَبِّهم رأى هذا الغضب واقعاً بهم، ورأى المسكنةَ تتلبَّسهم في موقفهم مِنَ الدول الكبرى، فلولا حمايةُ أمريكا وبريطانيا وفرنسا وروسيا وغيرها لليهود لزالوا من الوجودِ سريعاً، وسيزولُ هذا العلوُّ قريباً إنْ شاء الله، وسأفصِّل القولَ في هذه المسألة إن شاء الله في تفسير الآيات الأولى من سورة الإسراء، عندما نتحدث عن المرتين التي يُفْسد فيها بنو إسرائيل في الأرض، ويَعْلُونَ علواً كبيراً، ونبيِّن هناك أنَّ هاتين الإفسادتين هما الواقعتان الآن، وقد بينتُ هذا في كتابي: «وليتبروا ما علوا تتبيراً».

٧- السببُ في ضَرْب الله الذلّةَ والمسكنةَ على بني إسرائيل، وإحاطة غضب الله بهم:

بَيَّن اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنَّ ضَرْبَ الذلَّةِ والمسكنةِ على اليهودِ وإحاطةَ غضبِ الله بهم كان بسبب كفرهم بآياتِ الله، وقتلهم الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ، وكان أيضاً بسبب عصيانِهِمْ وعُدْوانِهِمْ، قالَ سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران:١١٢].

لقد كَفَرَ كثيرٌ مِنَ بني إسرائيل بآياتِ الله التي في كتابِهِمْ التي تُحدِّثهم عَنْ محمدٍ ﷺ وبعثتِهِ وكتابِهِ وأُمَّتِهِ، وكفروا بآيات الله التي أنزلتْ إليه، وهي القرآن، وقتلَ بنو إسرائيل بعضَ أنبيائهم، وحاولوا قتلَ عيسى عليه السلام، كما حاولوا قَتْل رسولِنا ﷺ، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط مِنَ الناس، وكثرتْ ذنوبهم ومعاصيهم، وكثر عدوانهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النصِّ مِنَ علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعملٍ:

١- هذه الأُمَّةُ هي أفضلُ الأمم على مدارِ التاريخ الإنساني بتفضيلِ الله لها، وبما حازَتْهُ مِن الصفاتِ والخصائصِ.

٢- ذكر اللهُ خصائصَ الأمَّةِ الإسلاميةِ التي جعلتْها أفضلَ أمة، وهي أمرها بالمعروفِ، ونهيها عن المنكرِ، وإيمانُها بالله، وهذا يجعل الأمةَ الإسلاميةَ هي الأفضلُ بمقدار ما تحوزه من هذه الخصائص.

٣- أهلُ الكتابِ الذين رفضوا الدخولَ في دينِ الله قومٌ كفرة فَجَرَةٌ، لا يجوزُ أخذ الهدى والحقِّ منهم، ولا تجوز متابعتهم في كفرهم وضلالِهِمْ.

٤- إذا استقامَ المسلمونُ على دينهم أعزَّهم اللهُ ونصرهم على عَدُوِّهِمْ، كما نصرهم الله على بني إسرائيل في زَمَنِ رسولِنا محمد ﷺ وفي زمن الصحابة رضوان الله عليهم.

٥- اليهودُ مضروبٌ عليهم الذلة والمسكنةُ، وقد بَعَثَ اللهُ عليهم مَنْ يسومُهُمْ سوءَ العذابِ إلى يومِ القيامةِ.

٦- استثنى اللهُ فترةً زمنيةً، ترفع فيه الذِلَّةُ عن بني إسرائيلَ، وهذه الفترة واقعة اليوم، ومع أنَّ الذِلَّةَ مرفوعةٌ عنهم في أيامنا، لكنَّ المسكنة لا تزالُ تحيطُ بهم، وغضبُ الله لم يُرفعْ عنهم، وهذا مؤذنٌ بأنّ الذلة ستعودُ إليهم، وسيهزمون في ميدانِ الحربِ والقتالِ بإذن الله، كما هَزَمَ المسلمون الصليبيين مِنْ قبل.

النصُّ الرابعُ والعشرون من سورة آل عمران
الذين آمنوا والذين كفروا من أهل الكتاب

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ أنَّ أهلَ الكتابِ فريقان: الأولُ: الذين آمنوا منهم، واتصفوا بصفاتِ المؤمنين، فهؤلاء أخيارٌ صالحون، لهم أجرُهمْ وثوابُهُمْ عند رَبِّهم.

والفريقُ الثاني: الكفارُ منهم، وهؤلاءُ سيحيطُ بهم عذابُ الله تعالى في يوم الدِّين، ولن تغني عنهم أموالُهُمْ ولا أولادهم شيئاً مِنْ عذابِ الله، وهم أصحابُ النَّارِ لملازمتهم لها، وما ينفقوه مِنْ مال لا ينفعهم شيئاً يومَ القيامة، ومثله كمثل ريحٍ باردةٍ أصابتْ حرثَ الظالمين فأهلكته.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة آل عمران

﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [آل عمران:١١٣-١١٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- المؤمنون من أهل الكتاب:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ أهلَ الكتابِ ليسوا سواءً، ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [آل عمران:١١٣] وقد دلت الآية على أنهم فريقان: فريقٌ آمن، وفريقٌ كفر، فقد آمن مِن اليهودِ عبدُالله بن سلامٍ وزوجته وأولاده وعمته، وآمنَ منهم أَسَدُ بنُ عُبيدٍ، وثَعلَبَةُ بنُ سَعْيَة، وأُسَيْدُ بنُ سَعْيَة وغيرهم، وآمنَ النجاشيُّ وطائفةٌ مِنْ قومه في الحبشة، وآمنتْ طائفةٌ من نصارى نجران، وآمنت طوائفُ من اليهود والنصارى بعد ذلك في كلِّ عصر ومصر.

وهؤلاء الذين دخلوا في الإيمانِ صادقين كانوا يقومون الليل يتهجدون، ويتلون في صلاتهم آياتِ القرآنِ وقوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يصلّون. وهؤلاء الذين آمنوا مِنْ أهلِ الكتابِ دخلوا في هذه الأمة التي هي خيرُ أُمةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس، واتصفوا بالصفاتِ التي أهَّلَتْهم للخيريَّة التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقد ذكر اللهُ صفاتِ المؤمنينِ من أهلِ الكتاب في هذه الآية فقال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)﴾ [آل عمران:١١٤].

وأوَّل هذه الصفات التي وصف اللهُ الذين دخلوا في الإسلام مِنْ أهلِ الكتابِ بها هي: إيمانهم بالله واليوم الآخر، والصفة الثانية: أمرُهُم بالمعروفِ ونهيهم عن المنكر، والصفة الثالثة: مُسارَعَتُهُمْ في الخيراتِ، أي: المسابقةُ والتنافس في الخيرات، وهي الأعمالُ الصالحةُ. وقد حَكَمَ اللهُ على من اتَّصَفَ بهذه الصفاتِ بأنَّهم مِنَ الصالحين. وقد وَعَدَ ربُّ العزَّةِ أهلَ الكتابِ الذين آمنوا واتصفوا بهذه الصفات العظيمة بأنْ يثيبهم على ما فعلُوه من خيراتٍ، وأنَّه لَنْ يُضيِّعَ هؤلاءِ من المتقين، واللهُ عليمٌ بالمتقين، وسيجزيهم الجزاءَ الأوفى ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾ [آل عمران:١١٥].

وقد وَصَفَ اللهُ تعالى هذا الصنف مِنْ أهل الكتاب في موضع آخر فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)﴾ [آل عمران:١٩٩].

٢- الفريق الثاني من أهل الكتاب وهم الكفار:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الفريقَ الثاني مِنْ أهلِ الكتاب، وهم الكفَّار لن تُغْنِيَ عنهم أموالهم ولا أولادُهم مِنَ الله شيئاً، وأنَّهم أصحاب النَّارِ هم فيها خالدون، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦)﴾ [آل عمران:١١٦].

وهذه الآيةُ الكريمةُ جاءتْ بصيغةٍ شملت الكفارَ جميعاً مِنْ أهْلِ الكتاب وغيرهم، فالكفارُ جميعاً على اختلاف فرقهم لنْ تُغْنِيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهُمْ مِنَ الله شيئاً، وهم جميعاً أصحابُ النَّارِ هم فيها خالدون، ولا فرقَ بين أهلِ الكتابِ وغيرهم في ذلك.

قال ابن جريرٍ الطبريُّ في تفسيره لهذه الآية: «هذا وَعيدٌ مِنَ الله للأمَّةِ الأخْرى الفاسقةِ مِنْ أهلِ الكتاب، الذين أخْبَرَ عنهم بأنَّهم فاسقون، وأنهم قد باؤُوا بغضبٍ منه، ولمن كان مِنْ نظرائهم مِنْ أهل الكفر بالله ورسولِهِ» [تفسير الطبري: ٣/ ١٩٣٠].

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: الذين أشركوا بالله تعالى، وكفروا بالرسول الخاتم ﷺ وبما أنزلَ اللهُ عليه، وقوله: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [آل عمران:١١٦]، أي: لا تَدْفعُ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم شيئاً مِنْ عذابِ الله، ذلك أنَّ عذابَ الله ساحقٌ ماحقٌ، لا يقف في وجْهِهِ شيءٌ، وسمَّى اللهُ الكفرةَ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، لأنهم بعد دخولهم النار يلازمونها، ولا يفارقونها، ولا يخرجون منها، وهي صحبةٌ دائمة، لا انقطاع لها.

٣- مَثَلُ ما يُنْفِقُهُ الكفارُ:

ذكر اللهُ - عزَّ وجلَّ - أنَّ ما ينفقه الكفارُ مِنْ مالٍ سواء أحاربوا به الإسلام والمسلمين، أو أنفقوه يريدونَ بِهِ وجهَ الله، فإنَّه إلى اضمحلالٍ وفناءٍ وخسران، ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾ [آل عمران:١١٧]. أخبرنا اللهُ أنَ ما ينفقه الكفرةُ مِنَ المالِ في هذه الحياة، فإنَّه إلى بوارٍ وخسران، ومَثَلُه كمثل ريح فيها صِرٌّ أصابتْ بستاناً أو حديقةً لقومٍ ظلموا أنفسهم فأهلكَتْهُ، وقال ابن عطيةُ: «الصِّرُّ: البردُ الشديدُ المحرقُ لكلِّ ما يهبّ عليه، وهو معروفٌ، قال ابن عباسٍ وجمهور المفسرين: الصِّرُّ: البرد، وتسميه العرب: الضَّريب، وذهب الزجَّاجُ وغيرُه إلى أنَّ اللفظة من التصويتِ، من قولهم: صَرَّ الشيءُ، ومنه الريحُ الصَّرْصَرُ، قال الزجَّاج: فالصِرُّ، صوت النَّار التي في الريح» [المحرر الوجيز: ٢/ ٣٢٨].

والحرثُ في الآية شاملٌ للزَّرْعِ والثمار، ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: بالذنوب والمعاصي، ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُ﴾ أي: هبتْ به فدُمِّرَ واحترق، وما ظلمهم اللهُ بفعله هذا بهم، وإنما جازاهم بأفعالهم الخبيثة.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ علمٍ وعملٍ:

١- بعضُ أهلِ الكتابِ على مدارِ العصورِ آمنوا بالله واليوم الآخر، واتصفوا بصفاتِ المؤمنينِ، وهؤلاءِ مِنَ الصالحين ولن يُضيعَ ربُّ العزَّة شيئاً مِنْ أعمالهم.

٢- الكفارُ مِنْ أهلِ الكتاب وغيرُهُمْ لَنْ تُغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهُمْ يومَ القيامةِ مِنْ عذابِ الله شيئاً، فاللهُ سبحانه قويٌّ غالبٌ، ولا يستطيعُ أَحَدٌ أن يقفَ في وجهِ عذابِهِ في يومِ الدِّينِ.

٣- يُشْتَرَطُ الإيمانُ لصحَّةِ قبولِ الأعمالِ الصالحةِ، ولذا فإنَّ إنفاقَ الكفارِ أموالَهُمْ في الدنيا لا يقبله اللهُ، وقد ضَرَبَ اللهُ له مثلاً بالريح الباردةِ التي أصابتْ حرثَ قومٍ فأَهْلَكتْهُ.

النصُّ القرآنيُّ الخامسُ والعشرونَ مِنْ سورةِ آل عمرانَ
الموقفُ الذي يجب أنْ يَقِفَهُ المسلمونَ مِنَ اليهودِ والنصارى

أولاً: تقديم

أَعْلَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين مِنْ صحابةِ الرسولِ ﷺ فَمَنْ بعدهم إلى يوم الدِّينِ بالموقفِ الذي يقفه اليهودُ منَّا، وأعلمنا بالموقفِ الذي يجبُ أنْ نقفه منهم، وما أحْرانا بأنْ نقفَ عندِ آياتِ هذا النصّ طويلاً، فقد عادَ اليهودُ اليومَ لمواجهةِ الأمَّةِ الإسلاميَة، فقد احتلُّوا ديارنا، وعَرْبدوا في مقدساتِنا، وأخرجونا مِنْ أوطاننا، وقتلوا رجالَنا ونساءَنا وأطفالنا، ولا نستطيعُ أنْ نُوقِف مكرَهُمْ وكيدَهُمْ إلا إذا فقهنا عن ربِّنا كيفَ تكونَ معاملتنا لهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران:١١٨-١٢٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- نهي الله -تعالى- المؤمنين أنْ يتخذوا اليهودَ والنصارى بطانةً مِنْ دون المؤمنين:

نهانا اللهُ -عزَّ وجلَّ- عن اتخاذ اليهودِ والنصارى بطانةً مِنْ دونِ المؤمنين، وبطانةُ الرجلِ أصدقاؤُه وخُلاَّنُهُ الذين يستبطنون أمْرَهُ، وأصْلُهُ من البَطْنِ الذي هو خِلافُ الظهر، شَبَّه الأصدقاءَ والأخلاءَ بما يلي بطنَ الإنسانِ من ثوبه، وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: مِنْ غيركم مِنَ اليهودِ والنصارى.

وإنما نهانا اللهُ -تعالى- عن اتخاذِهِمْ بطانةً، لأنهم كما أخبر اللهُ عز وجلَّ لا يألونَنا خبالاً، والخبالُ: الفَسادُ، وهم يحبُّون في أعماق قلوبهم أن يصيبنا العنتُ والشرُّ في ديننا ودنيانا، والعنَتُ: المشقَّةُ والمكروه.

روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: «كان رجالٌ مِنَ المسلمين يواصلون رجالاً مِنَ اليهودِ لما كان بينهم مِنَ الجوار والحِلْفِ في الجاهليةِ، فأنزل اللهُ فيهم يَنْهاهم عن مُباطَنَتِهم، وتَخَوُّفَ الفتنةِ عليهم منهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران:١١٨-١١٩]» [تفسير ابن جرير الطبري: ٣ / ١٩٣٥].

وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّ البغضاءَ بدتْ مِنْ أفواهِ هؤلاءِ، أي: بَدَتْ مِنْ فلتات ألسنتهم، فالألسنةُ قد تَشي بما تُكِنُّه النفوسُ مِنْ بغضاء، كما قد يبدو ذلك في نظراتِ الأعين، وحركاتِ اليديْن، وقسماتِ الوجه، وأخبرنا رَبُّنا أنَّ ما يخفونه في صدورهم مِنَ البغضاءِ والكراهيةِ لكم أكبرُ مما تحدثت به ألسنتُهم.

وقد استثارَ اللهُ المؤمنين لمواجهةِ اليهودِ والوقوف الموقفَ الصحيح منهم بقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران:١١٨] أي: قَدْ بيَّنا لكم مِنْ أمرِ اليهودِ الذينَ نهيناكم أن تتخذوهم بطانةً مِنْ دون المؤمنين ما تعتبرون به وتتعظون بعظات الله في أَمْرِهِ ونَهْيِهِ.

٢- لوم الله المؤمنينَ في محبَّةِ بعضهم لليهودِ مَعَ كون اليهودِ يكرهونَ المؤمنين:

وجَّه الله -تبارك وتعالى- اللوْمَ لمن يحبُّ اليهودَ مِنَ المؤمنين، وذلك أمرٌ غيرُ مقبولٍ، بينما أنتم تحبُّونَهُمْ، فإنَّهم لا يبادلونكم الحبَّ، بَلْ هُمْ يَكْرَهونكُمْ ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران:١١٩].

وأمْرٌ آخر تناقضَ فيه الموقفانِ، فالمؤمنون يؤمنونَ بالكتابِ كلِّه، فهم يؤمنون بصحف إبراهيم وبالتوراةِ والزبورِ والإنجيلِ والقرآنِ، بينما اليهودُ يكفرون بالإنجيلِ والقرآنِ، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران:١١٩].

٣- موقف اليهودِ مِنَ المؤمنين:

أَخْبَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ في العهدِ النبويِّ كانوا يَدَّعون عندما يُقابلون المؤمنين أنَّهم مؤمنون، فإذا خَلا بعضُهم إلى بعضٍ بعيداً عَنْ أعينِ المؤمنين عَضُّوا أصابِعَهُمْ لِعِظَمِ غَيْظِهم على المؤمنين قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران:١١٩].

والأناملُ: أطرافُ الأصابع، وعضُّهم لها لشدَّة الغيظِ الذي في قلوبهم، والغيظُ -كما يقول الراغب: «أشدُّ الغضبِ، وهو الحرارَةُ التي يجدها الإنسان مِنْ فوران دَم قَلْبه» [المفردات: ص٣٦٨].

وقد أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أن نقول لهؤلاء: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران:١١٩]. وعلى المؤمنين أن يأْتمروا بما أمر اللهُ رسولَه ﷺ، فيقولوا لليهودِ المنافقين الغادرين: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران:١١٩].

٤- **اليهودُ يسُوؤهم ما يصيبنا مِنْ حسناتٍ ويُفْرِحُهُم ما يصيبُنا مِنْ سيئاتٍ:**

أَخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ قلوبَ اليهودِ مملوءةٌ حقداً على هذه الأمة، فتراهم يستاؤون إذا أصابنا اللهُ تعالى بالنِّعمِ والحسناتِ، ويفرحون إذا حلَّت بنا النقمُ والسيئاتُ، قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠].

قال قتادةُ: «إذا رأوا مِنْ أهلِ الإسلامِ أُلْفَةً وجماعةً وظهوراً على عدوِّهم غاظَهُمْ ذلك وساءَهم، وإذا رأوا من أهْلِ الإسلامِ فرقةً واختلافاً أو أصيبَ طرفٌ مِنْ أطرافِ المسلمين سرَّهم ذلك وأُعجبوا به، وابتهجوا به» [تفسير الطبري: ٣/ ١٩٤٢].

وقد بيَّن الله -تبارك وتعالى- الموقفَ الذي يجبُ أن نَقِفَه تجاه يهود الذين يريدون بنا القوارع والنوازل، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠].

يقولُ الله لعبادِهِ المؤمنين: إن تصبروا على طاعة الله، واتباعِ أوامره، وترك نواهيه، وترْكِ اتخاذِ اليهودِ أخلاء وأولياء لا يضرُّكم كيدُ هؤلاءِ اليهود، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠] أيْ: إنَّ علمَ الله محيطٌ بما يعمله اليهودُ مِنَ الفسادِ، وإثارةِ الحروبِ، وقدرةُ الله فوقَ قوةِ اليهودِ، وهو قادرٌ على جعل تدميرهم في تدبيرهم، وإيقاف كيدهم، وإنزال العذاب بهم.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- نهى اللهُ تعالى المؤمنينَ أن يتخذوا اليهودَ والكفارَ جميعاً بطانةً يودُّونهم.

٢- اليهودُ يُجْهِدُونَ أنفسَهُمْ بكلِّ سبيل لإفساد حياةِ الأسرِ والأفرادِ والمجتمعِ، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.

٣- اليهودُ يَسْعَوْنَ في جَلْب العَنَتِ والشرِّ لنا في ديننا ودنيانا، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾.

٤- اليهودُ لا يكتمون البغضاءَ التي طفحت بها قلوبُهمْ تجاهَ المؤمنين، فترى أَلْسِنَتَهم تسيلُ شرّاً وارْتياباً، وفي قلوبهم مَزيدٌ من الشرّ ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ .

٥- الذي يحبُّ اليهودَ مِنَ المؤمنين يتوجَّهُ إليه اللَّوْمُ والتوبيخُ مِنْ ربِّ العزة، ويزداد اللَّومُ والتوبيخُ لأنهم لا يُقابلُون هذا الحبَّ بمثله، ولكنَّهم يقابلونه بالكراهةِ والبغضاءِ ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾.

٦- اليهودُ منافقون، فتراهم إذا لقونا قالوا لنا: آمَنَّا بدينكم، فإذا فارقونا، وخَلا بعضُهم إلى بعضٍ أظهروا غيظهم في صورةٍ منكرةٍ، فتراهم يعضُّون أصابعهم مِنْ شدةِ ما يعانون من الكراهية والغيظِ.

٧- اليهودُ يسوؤهم ما يصيبنا اللهُ بِهِ من حسناتٍ، ويفرحهم ما يحلُّ بنا من السيئات.

٨- بيَّن اللهُ تعالى لنا الموقفَ الذي يجب أنْ نَقِفَهُ مِنَ هذه المِلَّةِ الضالَّة، وذلك بالصبر على أذاهم، وتقوى الله تعالى، ثمَّ أمرنا بعد ذلك بقتالهم.

٩- علينا في مواجهتنا لليهودِ أن نلجأ إلى ربِّنا، ليحمينا من كيدهم، فهو عليم بهم، وعلمه بهم محيط، وهو قادرٌ على نَصْرِنا وإدالتنا عليهم.

النص السادس والعشرون من سورة آل عمران
غُدُوُّ الرسولِ ﷺ من أهلِهِ يُبوِّئُ المؤمنين مقاعدَ للقتال

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النصِّ وما بعدها تتحدَّثُ عَنْ غزوةِ أُحُدٍ، وأُحُدٌ جَبَلٌ قريبٌ من المدينة، بينه وبينها فرسخٌ واحد، وهو الذي قال الرسولُ ﷺ فيه: «هذا جبلٌ يحبُّنا، ونُحِبّه» [البخاري: ٤٠٨٤. مسلم: ١٣٦٥].

والغَزْوةُ هي المعركةُ الحربيةُ التي تكونُ في عهدِ الرسول ﷺ ، ويكونُ الرسول قائداً لها، والسريةُ هي المعركةُ الحربيةُ التي يُؤَمِّر الرسولُ ﷺ عليها أحد أصحابه.

وغزوةُ أحدٍ كانت في شهر شوَّالٍ سنة ثلاثٍ من الهجرةِ باتفاق العلماء، وأرجحُ الأقوالِ أنها كانت لإحدى عشرة ليلة خلتْ منه [راجع فتح الباري: ٧/ ٤٣٢].

وكان سببُ المعركةِ أنَّ قريشاً وحلفاءَها جاؤوا المدينةَ بجيشٍ تعدادُه ثلاثةُ آلافٍ يريدونَ الثأرَ لمن قُتل منهم في غَزْوَةِ بدرٍ.

واستشار الرسول ﷺ أصحابَهُ في الخروج إلى أُحُد، أو البقاء في المدينةِ ومقاتلة المشركين في شوارعها، ووجد الرسولُ ﷺ أكثرَ أصحابِهِ يميلون إلى الخروج، فلما لَبِسَ لأمةَ حَرْبِهِ، طلب منه الذين حَبَّذوا له الخروج البقاءَ إنْ شاء، فأبى، لأنه لبس لأمَةَ حربه[1]، وما كان له أن يضعها حتى يَحْكُمَ اللهُ بينَهُ وبين عدوِّه، مع أنه كان يرغبُ أن يبقى في المدينة.

وجَرَتْ في هذه المعركةِ التي هُزم فيها المسلمونُ وقائعُ كثيرةٌ، عَقَّب عليها القرآنُ مبيناً سننه التي أجراها في عِباده، وبيَّنَ فيها كثيراً من العِبَرِ والدروسِ والعظاتِ.

الآياتُ والأحاديثُ الواردةُ في غزوةِ أحد:

والآياتُ القرآنيةُ التي تناولت المعركةَ تبلغُ قرابة ستينَ آيةٍ، وهي تحملُ ثروةً عظيمة في مجالِ البناءِ والتربيةِ والتوجيهِ والسياسةِ، وقبل أنْ نتناولَ هذه الآياتِ بالتفسير، نوردُ بعض الأحاديثِ النبوية التي تتحدثُ عن وقائع هذه الغزوة.

١ - رؤيا رسولِ الله ﷺ التي رآها قبل معركة أُحُدٍ: رأى رسولُ الله ﷺ قبل غزوة أُحُدٍ رؤيا تدلُّ على ما ستكون عليه الحالُ في هذه الغزوة، فعن بُرَيدِ بن عبدالله بن أبي بُردةَ، عن

---

(١) أي عدة الحرب.

جدِّه أبي بردة، عن أبي موسى ﷺ -أُرَى عن النبي ﷺ- قال: «رأيتُ في رؤيايَ أنّي هَزَزتُ سيفاً فانقطعَ صَدرُه، فإذا هوَ ما أُصيبَ من المؤمنين يومَ أُحُد، ثم هززتهُ أخرى فعاد أحسنَ ما كان، فإذا هو ما جاءَ به اللهُ مِنَ الفتحِ واجتماعِ المؤمنين، ورأيتُ فيها بقراً، والله خيرٌ، فإذا همُ المؤمنون يومَ أُحد» [البخاري: ٤٠٨١. ومسلم: ٢٢٧٢].

٢- **استعدادُ الرسول ﷺ للغزوة:** استعدَّ الرسول ﷺ للمعركة، وبالغ في ذلك، فقد لَبِسَ دِرْعَيْنِ قبيل المعركة فعن السائب بن يزيد، عن رجلٍ سمَّاه، «أنَّ رسول الله ﷺ ظاهَرَ يومَ أُحدٍ بَيْنَ دِرْعيْنِ، أوْ لَبِسَ دِرْعَيْنِ» [أبو داود: ٢٥٩٠، وأوردَهُ الألباني في صحيح أبي داود: ٢٢٥٧، وقال: صحيح].

٣- **رجوع رأسِ المنافقين عبدالله بن أُبَيٍّ ابن سلول بثلثِ الجيش:** وخرج الرسولُ ﷺ بجيش المسلمينَ إلى أُحُدٍ، وفي الطريقِ رجَعَ عبدالله بن أُبيٍّ ابن سلول بثلاثِ مائةِ مقاتلٍ مظهراً غضبهُ لعدم أخْذ الرسول ﷺ برأيه في البقاءِ في المدينةِ، وعدم الخروج إلى أُحُدٍ.

فعن زيد بن ثابت ﷺ قال: لما خرج النبيُّ ﷺ إلى غزوةِ أُحُد، رَجَعَ ناسٌ ممن خرج معه، وكان أصحاب النبيّ ﷺ فِرْقَتينِ: فِرقةٌ تقول: نُقاتِلُهُمْ، وفرقةٌ تقولُ: لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [النساء:٨٨] وقال: «إنها طَيْبَةُ تنفي الذُّنوبَ، كما تنفي النارُ خَبَثَ الفِضَّة» [البخاري: ٤٠٥٠. ومسلم: ١٣٨٤ و ٢٧٧٦].

٤- **شهودُ الملائكةِ غزوةَ أُحُدٍ:** أخبرنا رسولُنا ﷺ بشهود بعض الملائكة أُحُداً:

أ- فعن ابن عباسٍ قال: قالَ النبيُّ ﷺ يومَ أُحُد: «ها جبريلُ آخِذٌ برأسِ فرسِهِ عليه أداةُ الحربِ» [البخاري: ٤٠٤١].

ب- وعن سعد بن أبي وقاصٍ قال: «رأيتُ عن يمينِ رسول الله ﷺ وعن شمالِهِ يوم أُحُدٍ رجُلَيْنِ، عليهما ثيابُ بياضٍ، ما رأيتُهما قبلُ ولا بعدُ، يعني جبريلَ وميكائيلَ عليهما السلام» [البخاري: ٤٠٥٤. ومسلم: ٢٣٠٦ واللفظ لمسلم].

٥- **تبشيرُ الرسول ﷺ من قُتِلَ في أُحُدٍ بالجنة:** عن جابرِ بن عبدالله رضي الله عنهما، قالَ: قال رجلٌ للنبي ﷺ يوم أُحُدٍ: أرأيتَ إن قُتلتُ، فأين أنا؟ قال: «في الجنة» فألقى تمراتٍ في يديهِ، ثم قاتلَ حتى قُتل. [البخاري: ٤٠٤٦. ومسلم: ١٨٩٩].

٦- **تخطيط الرسول ﷺ للمعركة وانتصار المسلمون في أوّلها:** خطَّط الرسول ﷺ للمعركة، ووضع الرمَّاة على الجبل، وانتصر المسلمون في أوَّلِها، وهُزم المشركون، ثم انهزم

المسلمون لما تركَ الرُّماةُ مواقعهم، فعن البراء ﷺ قال: «لقينا المشركين يومئذٍ، وأجلسَ النبيُّ ﷺ جيشاً من الرُّماةِ، وَأَمَّر عليهم عبدَالله، وقال: لا تبرَحوا، إنْ رأيتمونا ظَهَرْنا عليهم، فلا تبرَحُوا، وإنْ رأيتموهم ظَهَرُوا علينا فلا تُعينونا، فلمَّا لَقينا هَرَبوا، حتى رأيتُ النساء يشتَدِدْن في الجبل، رَفعنَ عن سُوقهنَّ، قد بَدَت خَلاخِلُهُنَّ، فأخذوا يقولونَ: الغنيمةَ الغنيمة.

فقال عبدالله: عَهِدَ إليَّ النبيُّ ﷺ أن لا تبرَحوا، فأبَوْا، فلمَّا أبوْا صُرِفَ وجُوهُهم، فأُصيبَ سبعون قتيلاً، وأشرفَ أبو سفيانَ فقال: أفي القوم محمدٌ؟ فقالَ: لا تُجيبوه، فقال: أفي القوم ابنُ أبي قُحافةَ؟ قال: لا تُجيبوه. فقالَ: أفي القوم ابنُ الخطّاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا، فلم يَملكْ عمرُ نفسه، فقال: كذَبتَ يا عدوَّ الله، أبقى اللهُ عليكَ ما يخزيك.

قال أبو سفيان: اعلُ هُبَل، فقال النبيُّ ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقولُ؟ قال: قولوا: اللهُ أعلى وأجلُّ، قال أبو سفيان: لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم، فقال النبيُّ ﷺ أجيبوه. قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: اللهُ مولانا ولا مَولى لكم، قال أبو سفيانَ: يومٌ بيوم بدرٍ، والحربُ سِجالٌ، وتجدون مُثْلةً لَمْ آمُرْ بها، ولم تَسُؤْني» [البخاري:٤٠٤٣].

٧- اختلالُ أمرِ المسلمين عندما تركَ الرُّماةُ مواقِعَهُمْ وقتْل المسلمين بعضِهم بعضاً: عندما تركَ الرُّماةُ مواقِعَهُم اختلَّ نظام المسلمين، وعند ذلكَ صرخ إبليسُ لعنةُ الله عليه: «أيْ عبادَ الله أُخْراكُمْ» فرجعتْ أُولاهم، فاجْتَلَدَتْ هي وأُخراهُمْ، فبَصُرَ حذيفةُ فإذا هو بأبيه اليمانِ، فقالَ: أيْ عبادَ الله، أبي أبي، قال: قالتْ: فوالله ما احْتَجَزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفِرُ اللهُ لكم» [البخاري: ٤٠٦٥].

٨- ما أصاب الرسول ﷺ في يوم أُحُدٍ: أُصيبَ رسولُ الله ﷺ في هذه الغزوة، وأحاط به المشركون، وجرحوه في رأْسه وكسروا رباعيته، فعن سهل بن سعدٍ قال: «جُرِحَ وَجْهُ رسولِ الله ﷺ، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وهُشِمَتِ البَيْضَةُ على رأْسِه، فكانت فاطِمَةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ تغْسِلُ الدَّمَ، وكانَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ يَسْكُبُ عليها بالمِجَنِّ، فلما رأتْ فاطمةُ أنَّ الماءَ لا يزيدُ الدَّمَ إلاَّ كَثْرَةً، أخذَتْ قِطْعَةَ حصيرٍ، فأحْرَقَتْهُ، حتى صارَ رماداً، ثم ألْصَقَتْهُ بالجُرح، فاستَمْسَكَ الدَّمُ» [البخاري: ٢٤٣. ومسلم: ١٧٩٠. واللفظ لمسلم].

وعن أنسٍ أن رسولَ الله ﷺ كُسِرَت رباعيتُهُ يوم أُحُدٍ، وشُجَّ في رَأْسِهِ، فجعل يَسْلُتُ الدَّمَ عنه، ويقولُ: «كيفَ يُفْلِحُ قومٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وكسروا رَباعِيَتَهُ، وهو يدْعُوهمْ إلى الله؟» فأنزل اللهُ عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] [مسلم:١٧٩١].

وعن أبي هريرة قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «اشتدَّ غَضَبُ الله على قومٍ فعلوا بنبيِّه، يشير إلى رَبَاعِيَته، اشتدَّ غضبُ الله على رجلٍ يقتلُهُ رسولُ الله في سبيل الله» [البخاري: ٤٠٧٣].

وعن عبدالله قال: «كأني أنظرُ إلى رسولِ الله ﷺ، يحكي نبيّاً من الأنبياءِ ضَرَبَهُ قومُهُ، وهو يمْسَحُ الدَّمَ عن وجهه» ويقول: «رَبِّ اغْفِرْ لقومي فإنهُمْ لا يعلمون» [البخاري: ٣٤٧٧. ومسلم: ١٧٩٢].

٩- بروزُ أبطالِ الإسلامِ في غزوة أُحُدٍ: برز جمعٌ من الأبطال الكبار في معركةِ أُحُدٍ، وقاموا ببطولاتٍ تسجَّل بماء الذَّهَبِ، فمن هؤلاءِ:

أ- **أبو طلحَةَ الأنصاريُّ**، عن أنسٍ ﷺ قال: «لَمَّا كانَ يومُ أُحُدٍ انهزمَ الناسُ عن النبي ﷺ، وأبو طَلْحَةَ بينَ يدي النبيِّ ﷺ مُجَوِّبٌ عليه بحَجَفَةٍ له، وكان أبو طلحةَ رجلاً رامياً شديدَ النزع، كَسَرَ يومئذٍ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجلُ يمرُّ معه بجَعْبَةٍ من النَّبلِ فيقولُ: انْثُرْها لأبي طلحةَ، قال: ويُشرفُ النبيُّ ﷺ يَنظرُ إلى القوم، فيقولُ أبو طلحة: بأبي أنتَ وأمي، لا تُشرفْ يُصبْكَ سهمٌ مِنْ سِهامِ القومِ، نَحرِي دُونَ نحرِكَ» [البخاري: ٤٠٦٤. ومسلم: ١٨١١].

ب- **أنسُ بن النَّضرِ**، روى أنسُ بن مالك ﷺ «أن عمَّهُ أنسَ بن النضْرِ غابَ عن بَدرٍ فقال: غِبتُ عن أوّلِ قتالِ النبيِّ ﷺ، لئن أشهدَني اللهُ مَعَ النبيِّ ﷺ ليَرَيَنَّ اللهُ ما أُجِدُّ، فلقِيَ يومَ أُحُد، فهُزِمَ الناسُ، فقال: اللهمَّ إنِّي أعتذِرُ إليك مما صَنعَ هؤلاء، يعني المسلمين، وأبْرَأُ إليكَ مما جاءَ بِهِ المشركون، فتقدَّم بسيفِهِ، فلقِيَ سعدَ بن مُعاذٍ فقال: أينَ يا سَعْدُ؟ إنِّي أجِدُ ريحَ الجنَّةِ دونَ أُحُد، فمضى فقُتلَ، فما عُرفَ، حتى عَرَفَتْهُ أختهُ بِشَامَةٍ - أو بِبَنَانهِ- وبه بضْعٌ وثمانون: منْ طعنةٍ وضربة، ورَمية بسهم» [البخاري: ٤٠٤٨. ومسلم بزيادة: ١٩٠٣].

ج- **طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ الله**، وسبعةٌ من الأنصار، عن جابرِ بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: لما كان يومُ أُحُدٍ ولَّى الناسُ، كان رسولُ الله ﷺ في ناحيةٍ في اثنيْ عَشَرَ رجلاً مِنَ الأَنْصارِ، فيهم طلحةُ بن عُبَيْدِ الله، فأدْرَكَهُمْ المشركون، فالتفتَ رسولُ الله ﷺ، فقال: مَنْ للقوم؟ فقال طلحةُ: أنا، فقال رسولُ الله ﷺ: كما أنت، فقالَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ: أنا يا رسولَ الله، فقال: أنتَ، فقاتل حتى قُتل، ثم التفتَ فإذا المشركون، فقال: مَنْ للقوم، فقال طلحةُ: أنا، قال: كما أنتَ، فقال رجلٌ من الأنصار: أنا يا رسولَ الله، فقال أنتَ، فقاتل حتى قُتل، ثم لم يَزَلْ يقول ذلك، ويخرج إليهم رجلٌ مِنَ الأنصار، فيقاتل قتال من قَبْله، حتى بقي رسول الله ﷺ، وطلحةُ بن عبيد الله، فقالَ رسولُ الله ﷺ: مَنْ للقوم؟ فقال طلحةُ: أنا، فقاتَلَ طلحةُ قِتالَ الأحَدَ عَشر، حتى ضُرِبت يدُهُ، فقُطعت أصابعُهُ، فقال: حَسِّ، فقال رسولُ الله ﷺ: لو

قُلْتَ: بسم الله لَرَفَعَتْكَ الملائكةُ، والناسُ ينظرونَ، ثم ردَّ اللهُ المشركين. [أورده ابن الأثير في جامع الأصول: ٨/ ٢٤٣. ورقمه: ٦٠٦٨ وعزاه إلى النسائي، وذكر محقِّقُهُ أنَّ الحافظَ ابنَ حجرٍ العسقلاني جوَّدَ إسناده في فتح الباري].

وعن أنس بن مالكٍ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ أُفْرِدَ يومَ أُحُدٍ في سبعةٍ من الأنصارِ ورجُلينِ من قريشٍ، فلما رَهِقُوهُ قالَ: «مَنْ يَرُدُّهُم عَنَّا ولَهُ الجَنَّةُ، أوْ هُوَ رَفيقي في الجَنَّةِ؟» فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ، مِنَ الأنْصارِ، فقاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أيضاً، فقالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عنَّا ولَهُ الجَنَّة، أو هُوَ رفيقي في الجَنَّةِ»؟ فتقَدَّمَ رَجُلٌ، من الأنْصارِ، فقاتل حتى قُتِلَ. فلم يزلْ كذلك حتى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ لصاحِبَيْهِ: «ما أنْصَفْنا أصْحابَنا» [مسلم: ١٧٨٩].

د- **أبو دُجانة سِماكُ بن خَرَشَةَ**: عن أنس أنَ رسولَ الله ﷺ أخَذَ سيفاً يومَ أُحُدٍ، فقالَ: مَنْ يأْخُذُ هذا مِنِّي؟ فَبَسَطوا أيديهم، كلُّ إنسانٍ يقول: أنا أنا، قال: «من يأْخذه بحقِّه؟» قال: فأحْجَمَ القومُ، فقالَ سِماكُ بنُ خَرَشَةَ (أبو دُجانَةَ): أنا آخذُه بحقِّهِ، قالَ: فأخذَهُ ففَلَقَ به هامَ المشركين. [مسلم: ٢٤٧٠].

هـ- **حمزةُ بنُ عبدالمطلب**: روى وَحْشِيٌّ كيفية قتْلِه حمزة فقال: «إنَّ حمزةَ قتلَ طُعَيْمَةَ ابنَ عديِّ بن الخيارِ ببدْرٍ، فقالَ لي مولايَ جُبَيْرُ بنُ مُطْعَمٍ: إنْ قتلتَ حمزةَ بعمِّي فأنتَ حرٌّ، قال: فلما أنْ خرجَ الناسُ: عام عَيْنَيْن، وعَيْنَيْنُ: جبلٌ بحيالِ أُحُدٍ، بينَه وبينه وادٍ، خرجتُ مع الناسِ إلى القتالِ، فلما اصطَفُّوا للقِتال، خرجَ سِباعٌ فقالَ: هل مِنْ مُبارِزٍ؟ قالَ: فخرجَ إليه حمزةُ بنُ عبدِالمطلبِ، فكان كأمْسِ الذاهبِ، قال: وكَمَنْتُ لحمزةَ تحتَ صخرةٍ، فلَما دَنا مني رمَيْتُه بحَرْبتي، فأضعُها في ثُنَّتِهِ حتى خرَجَتْ مِن بينِ وَرِكَيْهِ، قالَ: فكانَ ذاكَ العهدَ به.

فلما رجَعَ الناسُ رجَعتُ معَهم، فأقمتُ بمكَّةَ حتى فَشا فيها الإسلامُ، ثم خرَجتُ إلى الطائفِ، فأرسَلوا إلى رسولِ الله ﷺ رُسلاً فقيلَ لي: إنَّه لا يهيجُ الرُّسلَ، قال: فخرجتُ معهم حتى قدِمتُ على رسولِ الله ﷺ، فلما رآني قال: آنتَ وحشيّ، قلتُ: نَعَمْ. قالَ: أنْتَ قتلتَ حمزةَ؟ قلتُ: قد كان مِنَ الأمر ما بَلَغك، قالَ: فهَلْ تستطيع أن تُغيِّبَ وجهَكَ عني؟ قال: فخرجتُ.

فلما قُبِض رسولُ الله ﷺ، فخرَجَ مُسَيلمةُ الكذّابُ، قلت: لأَخرُجَنَّ إلى مُسَيلمةَ لعلِّي أقتُله، فأُكافِئَ به حمزةَ، قال: فخرَجتُ مع النَّاس فكان من أمرِهِ ما كان، قال: فإذا رجلٌ قائمٌ في ثَلمةِ جدارٍ كأنهُ جملٌ أوْرَقُ ثائرُ الرأسِ، قال: فرمَيتُه بحربتي، فأضَعها بين ثَدييهِ حتى خرَجت مِنْ بين كَتفَيه. قال: ووَثَبَ رجلٌ من الأنصار، فضرَبه بالسيف على هامَتِه».

قال: قال عبدُالله بن الفضل: فأخبرَني سليمانُ بن يَسارٍ أنَّه سمعَ عبدَالله بن عُمَرَ يقولُ: «فقالت جاريةٌ على ظهرِ بيتٍ: وا أميرَ المؤمنين، قتلَه العبدُ الأسود» [البخاري: ٤٠٧٢].

و- سَعْدُ بنُ أبي وقَّاصٍ: كانَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ يجيدُ الرِّماية، وكانَ رسولُ الله ﷺ يقولُ له في أُحدٍ: «ارم فداكَ أبي وأُمِّي» [البخاري: ٢٩٠٥. مسلم: ٢٤١١] وعن سعد قال: جَمَعَ لي رسول الله أبوَيْهِ يومَ أُحُدٍ، قالَ: كانَ رجلٌ مِنَ المشركين قد أحْرَقَ المسلمينَ، فقالَ له النبيُّ ﷺ: «ارم فداكَ أبي وأُمي» قال فنَزَعْتُ له بِسَهْمٍ ليسَ لَهُ نَصْلٌ، فأَصَبْتُ جَنْبَهُ فسَقَطَ، فانكشفتْ عورتُهُ، فضَحِكَ رسولُ الله ﷺ، حتى نظرتُ إلى نواجِذِه. [مسلم: ٢٤١٢].

١٠- **الذين تَغَشَّاهُمُ النُّعاسُ في أُحُدٍ**: عَنْ أنسٍ، عَنْ أبي طَلْحَةَ قال: «كُنتُ فيمن تغشَّاه النُّعاسُ في يومِ أُحُدٍ، حتى سَقَطَ سَيْفِي من يديَ مِراراً، يسْقُط وآخُذُه، ويَسْقُطُ فآخذه» [البخاري: ٤٠٦٨].

ورواه الترمذيُّ عن أبي طلحةَ قال: «رَفَعْتُ رأْسِي يومَ أُحُدٍ، فجعلتُ أنْظُرُ، وما مِنْهُمْ يومئذٍ أَحَدٌ إلا يَميدُ تحتَ حَجَفَتِهِ من النُّعاسِ» [الترمذي: ٣٠٠٧. وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح].

١١- **ذكْرُ بعضِ شُهداءِ أُحُدٍ**: سَقَطَ في حَوْمَةِ الوَغَى في غزوةِ أُحُدٍ سبعونَ شهيداً، منهم:

أ- مصعب بن عمير، وحمزة بن عبدالمطلب وعبدالله بن حرام وجابر بن عبدالله، فعن سعد بن إبراهيمَ عن أبيه إبراهيم أنَّ عبدالرحمن بن عوف أُتِيَ بطعام وكان صائماً، فقال: «قُتل مصعبُ بنُ عُميرٍ، وهو خيرٌ مني، كُفِّنَ في بُردةٍ إنْ غُطِّيَ رأسُه بَدَت رجلاه، وإن غُطِّيَ رِجلاه بدا رأسه، وأُراهُ قال: وقُتِلَ حمزةُ، وهو خيرٌ مني، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِطَ، أو قال: أُعطينا مِنَ الدنيا ما أُعطينا، وقد خَشينا أن تكونَ حسناتُنا قد عُجِّلَت لنا، ثم جعلَ يبكي حتى تَرَكَ الطعام» [البخاري: ٤٠٤٥].

وعن خباب بن الأرَتِّ ﷺ قال: «هاجرنا مع رسولِ الله ﷺ نبتغي وجهَ الله، فوَجبَ أجرُنا على الله، ومنَّا مَن مضَى أو ذهبَ لم يأكلْ مِنْ أجرِهِ شيئاً، كان منهم مُصعبُ بن عُمَير، قُتِلَ يوم أُحدٍ، لم يَترُكْ إلاَّ نَمِرَةً، كنَّا إذا غطَّينا بها رأسَهُ خَرَجَت رِجلاه، وإذا غُطِّيَ بها رِجلاه خرجَ رأسُه، فقال لنا النبيُّ ﷺ: غطُّوا بها رأسَه، واجعَلوا على رِجلِهِ الإذْخِرَ، أو قال: أَلْقوا على رِجلهِ منَ الإذخِر، ومنَّا مَنْ أينَعَت له ثمرَته، فهو يَهدِبُها» [البخاري: ٤٠٤٧، مسلم: ٩٤٠].

ب- عن جابر بن عبدالله قالَ: «لما قُتِلَ أبي جَعَلْتُ أبْكي، وأَكْشِفُ الثوبَ عن وجْهِهِ، فجعلَ أصحابُ النبيِّ يَنْهُونَني، والنبيُّ لم يَنْهَ»، وقالَ النبيُّ ﷺ: «لا تَبْكِهِ، ما زالتِ الملائكةُ تُظِلُّه بأجْنِحَتِها حتى رُفِع» [البخاري: ٤٠٨٠. ومسلم: ٢٤٧١].

١٢- الصحابياتُ اللاتي كانتْ لهنَّ جهودٌ مشكورةٌ في أُحُدٍ: كان مجموعةٌ من النساء يقُمْنَ بدور مهم في غزوة أُحُدٍ، منهنَّ عائشةُ بنتُ أبي بكر أم المؤمنين وأمُّ سُلَيم، يقول أنسُ بنُ مالكٍ: «رأيتُ عائشةَ بنتَ أبي بكر وأُمَّ سُلَيم، وإنهما لمشمِّرتان، أرى خَدَمَ سُوقِهِما، تُنْقِزانِ القِرَبَ على متونهما، تفرغانِهِ في أفْواهِ القومِ، ثم ترجعانِ فتملآنها، ثم تجيئانِ، فتفرغانِهِ في أفْواهِ القوْمِ» [البخاري: ٤٠٦٤. ومسلم: ١٨١١].

ومنهنَّ فاطمةُ رضي الله عنها، كانت في موقع المعركة، وشاركتْ عليّاً في علاج رسول الله ﷺ، فعن سَهْل بن سَعْد، قال: «كانتْ فاطمةُ عليها السلام بنتُ رسول الله ﷺ تغْسِلُ جرحَ رسولَ الله، وعليٌّ يسكُبُ الماء بالمجنِّ، فلما رأتْ فاطمةُ أنَّ الماءَ لا يزيدُ الدَّمَ إلا كثرةً، أخَذَتْ قطعةً من حَصيرٍ، فأحرقتْها، وألصقتها، فاستمسَكَ الدَّم» [البخاري: ٤٠٧٥. ومسلم: ١٧٠٩].

١٣- كثرة شهداء الأنصار في يوم أحد: عن قتادةَ قال: «ما نعلمُ حيّاً مِنْ أحياءِ العربِ أكثر شهيداً أعَزَّ يومَ القيامةِ مِنَ الأنصارِ، قال قتادةُ: وحَدَّثَنا أنسُ بنُ مالكٍ أنَّه قُتِلَ منهم يومَ أُحدٍ سبعونَ، ويومَ بئرِ مَعُونَةَ سبعونَ، ويوم اليمامةِ سبعونَ، وكانَ بئرُ مَعُونةٍ على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ، ويومَ اليمامةِ على عَهْدِ أبي بكر، يومَ مُسَيْلَمَةَ الكذَّابِ» [البخاري: ٤٠٧٨].

١٤- الذين استجابوا لله والرسولِ مِنْ بعدما أصابهم القرح: بعدَ انتهاءِ المعركةِ أرْسَلَ الرسولُ ﷺ سبعينَ في إثْرِ المشركينَ، فلمْ يتخلَّفْ واحدٌ منهم عن الاستجابةِ لأمرِ رسولِ الله ﷺ، وكانَ منهم أبو بكر الصديق، والزبيرُ بنُ العوامِ، قالتْ عائشة لابن أُختها عروةَ بن الزبير: «يا ابن أُختي، كانَ أبواكَ منهم: الزبيرُ وأبو بكر، لما أصاب رسولَ الله ﷺ ما أصابَ يومَ أُحُدٍ، وانصرفَ عنه المشركون، خافَ أنْ يرجعوا، قال: مَنْ يذْهَبُ في إثْرِهم؟ فانتدبَ منهم سبعونَ رجلاً. قال: كان فيهم أبو بكرٍ والزُّبير». [البخاري: ٤٠٧٧. ومسلم: ٢٤١٨].

١٥- كيفَ دَفَنَ الرسولُ ﷺ شهداءَ أُحُدٍ: كان عددُ شهداءِ أُحُدٍ سبعينَ شهيداً، فكانَ رسولُ الله ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرجلينِ منهم في قبرٍ واحدٍ، فعن جابرِ بن عبدالله رضي الله عنهما: «أنَ رسول الله ﷺ كان يجمعُ بينَ الرجلينِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ في ثوبٍ واحدٍ، ثم يقول: «أيُّهم أكثرُ أخذاً للقرآن؟» فإذا أُشيرَ له إلى أَحَدٍ قدَّمَهُ في اللَّحدِ، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامةِ»، وأمر بدفْنِهِمْ بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم، ولم يُغسَّلوا» [البخاري: ٤٠٧٩].

١٦- عفْوُ الله -تبارك وتعالى- عن الذينَ فَرُّوا في أُحُدٍ: قال رجلٌ لعبدالله بن عمرَ: «أَنْشُدُكَ بحرمةِ هذا البيت، أتعْلَمَ أنَّ عثمانَ فرَّ يومَ أُحُدٍ؟ قال: نعم»، وقد قال له ابنُ عمر «أما فِرارُه يومَ أُحُدٍ فأشهدُ أنّ الله عفا عنه» [البخاري: ٤٠٦٦].

١٧- توديع الرسول ﷺ شهداءَ أُحُدٍ بعد ثماني سنواتٍ من استشهادهم: عن عقبةَ: «أنَّ النبي ﷺ خرج يوماً فصلَّى على أهْلِ أُحُدٍ صلاتَهُ على الميِّت، ثم انصرَفَ إلى المنبرِ، فقال: إني فَرَطٌ لَكُمْ، وأنا شهيدٌ عليكم، وإنِّي لأنظرُ إلى حوضي الآنَ، وإني أُعطيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرضِ، أو مفاتيحَ الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أنْ تُشْرِكوا بعدي، ولكني أخافُ عليكم أن تَنافَسوا فيها» [البخاري: ٤٠٨٥. ومسلم: ٢٢٩٦].

وفي روايةٍ عن عقبةَ بن عامرٍ قال: «صلَّى رسولُ الله ﷺ على قَتْلَى أُحُدٍ بعد ثماني سنينَ كالمودِّع للأحياءِ والأمواتِ، ثم طَلَعَ المنبرَ فقالَ: إنِّي بينَ أيديكم فَرَط، وأنا عليكم شهيدٌ، وإنَّ موعِدَكم الحوضُ، وإنِّي لأنظرُ إليهِ مِنْ مَقامي هذا، وإني لستُ أخشَى عليكم أن تُشركوا، ولكني أخشى عيكمُ الدُّنيا أن تَنافَسوها، قال: فكانت آخرَ نظرةٍ نظرتُها إلى رسول الله ﷺ» [البخاري: ٤٠٤٢. ومسلم: ٢٢٩٦].

ثانياً: آيات هذا النصّ من سورة آل عمران

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

[آل عمران: ١٢١-١٢٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- غُدُوُّ الرسولِ ﷺ من أهله إلى أُحدٍ يُبَوِّئُ المؤمنينَ مقاعدَ للقتالِ:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى عن خروجِ الرسولِ ﷺ مِنْ أهلِهِ إلى أُحُدٍ، يُهَيِّئُ المقاتلين للحرب والقتال، والغُدْوَةُ السَّير في الصَّباحِ، و﴿تُبَوِّئُ﴾ أي توطِّن وتُنزِّل ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ﴾ [آل عمران:١٢١] وقولُه في خِتامِ الآية: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ أي: سميعٌ لأقوالكم، وعليم بأعمالكم، أي: أنّه حاضِرٌ لما يجري في المعركةِ، وما يَجْري مِنْ التخطيطِ لها.

ثُمَّ أخبرنا -تبارك وتعالى- عَنِ الطائفتين اللَّتين كادَتا أنْ تَفْشَلا قبيل المعركةِ ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران:١٢٢] والطائفةُ مِنَ النَّاسِ الجماعةُ منهم، والفشلُ ضَعْفٌ مع جُبْنٍ، والطائفتان اللتان كادتا أن تفشلا وترجعا عنِ القتالِ والمواجهةِ هما: بنو حارثة مِنَ الأوس، وبنو سَلِمَة من الخزرج، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن جابرِ بنِ عبدالله قال: «فِينا نَزَلَتْ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾ [آل عمران:١٢٢] قالَ: نحنُ الطائفتان: بنو حارِثةَ وبنو سَلِمَة» [البخاري: ٤٥٥٨. ومسلم: ٢٥٠٥].

وقولُه تعالى في ختام الآية: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران:١٢٢] فيه توجيهٌ لعبادِهِ المؤمنين إلى المضيِّ فيما عَزَمُوا عليه مما أُمروا بِهِ إذا خالَجهم الخوفُ والجزعُ، وهذا هو التوكّلُ على الله، وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾ [آل عمران:١٢٢] أي: هو الذين يتولَّى أمْرَهُما، يحفظُهما، ويُسَدِّدُهما، وفي هذا فضيلةٌ لهاتين الطائفتين حُقَّ لهما أن يفخرا بها، ولذلك فإنَّ جابرَ بنَ عبدالله قال في ختام الحديث السابق، وكان واحداً من الطائفتين: «وما يسُرُّني أنَّ الآية لم تَنْزِلْ، لقولِ الله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾».

٢- تذكيرُ المؤمنينَ بالنصرِ العظيمِ في غزْوةِ بَدْرٍ:

ذكَّر اللهُ -تبارك وتعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ بالنَّصْرِ العظيمِ الذي أنْزلَهُ عليهم في غزوةِ بَدْرٍ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران:١٢٣]، وكانت غزوة بدر في يوم الجمعةِ السابعَ عَشَرَ مِنْ رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وقد أَنْزَلَ الله على رسولِهِ والمؤمنين مَعَهُ النَّصْر في تلك المعركةِ، وأذَلَّ فيها المشركينَ، وقُتِل زعماؤهم ورؤساؤهم، وشاركتْ الملائكةُ في قتال المشركين، وكان عددُ الصحابةِ قليلاً، فعَدَدُهم ثلاثمائةٍ وبِضْعَةَ عشر، بينما كان عدد المشركين بين التسعمائة والألفِ، وكانت أسلحةُ الكفارِ وخيولهمْ وافيةً كثيرة، بينما لم يكنْ مع الصحابةِ إلا فرسٌ أو اثنان، وأسلحتُهُمْ قليلةٌ، وبدرٌ موضع معروفٌ بين مكة والمدينة.

والمرادُ بقولِهِ: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ﴾ أي: ضعفاء قليلون، وقد رَفَعَ اللهُ بنصرِ الصحابةِ في بَدْرٍ اسمَهم، وأعلى ذِكْرَهُمْ، وأوقعَ لهم الهيبةَ في جزيرةِ العربِ كلِّها، وأجْبَرَ الآخرين على احترامِهِمْ وتوقيرهم، وهذا النَّصْرُ يُوجِبُ على المؤمنين مزيداً من تقوَى الله تعالى بالعملِ بطاعته واجتنابِ مَعْصِيَتِهِ، وشُكْرِهِ تبارك وتعالى على ذلك النَّصرِ العظيم.

٣- إمدادُ اللهِ تعالى أهلَ بدرٍ بالملائكةِ:

يُذكِّرنا اللهُ -تبارك وتعالى- بما قالَهُ رسولُ الله ﷺ لأصحابِهِ في بداية غَزْوَةِ بدرٍ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران:١٢٤-١٢٥].

وقَدْ وَعَدَ اللهُ الصحابةَ في بدرٍ عندما استغاثوا بِهِ طالبينَ منه نَصْرَهُ بأنْ يُمِدَّهم بألفٍ مِنَ الملائكةِ، يُرْدِفُهُم بغيرهم بَعْدَ ذلك ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٩] ومعنى مُرْدِفين، أي: يَرْدَفُهم غيرُهُمْ ويَتْبَعُهم أُلوفٌ أخرى، وقد بيَّن اللهُ في آيات هذا النص أنَّه أَرْدَفَهُمْ بغيرهم حَتَّى أصبحوا ثلاثَةَ آلافٍ، ثم خمسة آلاف.

وذكَّرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بما قالَه الرسولُ ﷺ لأصْحابِهِ قبيلَ معركة بدرٍ، ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [آل عمران:١٢٤] وعقَّب اللهُ -تعالى- على ما قالَهُ رسولُهُ ﷺ لأصحابِهِ بقولِهِ: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران:١٢٥] فقد اشترطَ عليهم لإمْدادِهم بالملائكة أن يصبروا في ميدان القتالِ، ويُعلِّقوا قُلوبَهُمْ بالله، وقوله: ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾ أي مِنْ وجههم، وقد استعير اللفظ للسرعة. وقوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: مُعَلَّمين، أعلمنا أنَّ الملائكةَ كانوا مُعَلَّمين، ولم يصحَّ نصّ يدلُّ على الكيفية التي كان تسويمهم عليها.

٤- الغايةُ من إنزال الملائكة على المؤمنين في معركة بدرٍ:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى عن الحكمة من إنزال الملائكة على المؤمنين في معركة بدرٍ، ومثلها كلُّ المعارك التي تنزّلت فيها الملائكةُ، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران:١٢٦-١٢٧].

أعلمنا الله عز وجل أن إنزاله الملائكة على رسوله وعلى المؤمنين كان يُبَشِّرهُمْ بنصر الله، وليثبت قلوبَهم في ميدانِ القتالِ، فالذي يكون في الميدان خائفاً وجِلاً فَزِعاً لا يستطيعُ أن يحقق النصر، والنصرُ يأتي من عندِ الله العزيزِ، أي: القويِّ الغالبِ، الحكيم في قَدَرِهِ وما يشْرَعُهُ ويصرِّفُه سبحانه.

وأخبرنا -عزَّ وجلّ- أنَّه يريدُ مِنْ وراءِ انتصارِ المؤمنين أنْ يَقْطَع طرفاً من الذين كفروا، ويتحققُ قطعُ الطرفِ مِنَ المشركين بقتلهم في ميدانِ القتال انتقاماً منهم لكفرهم بالله ورسوله، وقوله: ﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾ أي: يهْزِمَهُمْ، ويصْرَعهم ويخزيهم، ﴿فَيَنقَلِبُواْ﴾ أي: يَرْجِعُوا خائبين، لم ينالوا شيئاً مما كانوا يُؤَمِّلونَهُ.

٥- ليس لك من الأمر شيءٌ:

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- أن الأمر كلَّه له، وليس للرسولِ ولا للصحابة منه شيء ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران:١٢٨]، ومعنى ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] أي: ليس لك من الحكم شيءٌ في عبادي إلا ما أمرتُكَ به فيهم، روى أنسٌ أنَّ رسولَ الله ﷺ: «كُسِرتْ رَبَاعِيَتُهُ يومَ أُحد، وشُجَّ في رأْسِهِ، فجعلَ يسلتُ الدم عَنْهُ»، ويقول: «كيف يُفلِحُ قومٌ شجُّوا نَبِيَّهُمْ، وكسروا رَباعِيَتَه وهو يدعوهم إلى الله!» فأنزل اللهُ ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]. وعن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ فعلوا بنبيِّه، يشير إلى رباعيته» [البخاري:٤٠٧٣. مسلم:١٧٩٣].

ووردَ في بعض الأحاديث أنها نزلتْ لما دعا رسولُ الله ﷺ على بعضِ المشركينَ، بعد الركوعِ في صلاته، بقوله: «اللهم العَنْ فلاناً وفلاناً وفلاناً» بعد قوله: سمع الله لمن حَمِدَهُ، فأنْزَلَ الله ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران:١٢٨] [البخاري:٤٥٥٩، ٤٥٦٠. مسلم: ٦٧٥].

والمعنى - كما يقول ابنُ جرير -: «ليس إليكَ يا محمدُ من أمرِ خَلْقي، إلا أن تنفذَ فيهم أمري، وتنتَهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمْرُهُمْ إليَّ، والقضاءُ فيهم بيدي، دون غيري، أقضي فيهم، وأحكمُ بالذي أشاءُ من التَّوْبةِ على مَنْ كَفَرَ بي وعصاني، وخالفَ أمري، أو العذابِ، في عاجلِ الدنيا بالقتل والنِّقَمِ المُبِيْرةِ، وأما في آجلِ الآخرة بما أعددتُ لأهل الكفر بي» [تفسير الطبري: ٣/ ١٩٦٢].

٦- اللهُ هو المصرِّفُ أمورَ العبادِ وأمْرَ السمواتِ والأرضِ:

ذكَرَ اللهُ -تعالى- فيما سبق أنَّ رسولَنا ﷺ ليس له من الأمر شيءٌ، واللهُ وحدَه مُصرِّفُ أمورِ العباد، وهو مصرِّف أمورِ السموات والأرض، وأمورِ خلقه، يغفرُ لمن يشاءُ أن يغفرَ له، ويعذِّبُ من يشاء تعذيبَهُ، وأنه تعالى هو المتَّصِفُ بصفتي المغفرة والرحمة سبحانه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ [آل عمران:١٢٩].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعملٍ

عندما نتدَّبرُ آياتِ هذا النصِّ نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- كان رسولُنا ﷺ قائداً عسكريّاً فذّا، خَطَّطَ لمعركةِ أُحُدٍ، فأحسنَ التخطيط، ونفَّذ فأحسنَ التنفيذ.

٢- مرَّتْ على الذين خرجوا إلى أُحُدٍ أحداثٌ كبارٌ قبيلَ المعركةِ فلم تفتَّ في عَضُدِهِمْ، ومن ذلك رجوعُ عبدالله بنِ أُبيٍّ رأس المنافقين بثلثِ الجيش إلى المدينةِ.

٣- رحمةُ الله بالمؤمنينَ في أُحُدٍ، فقد كادتْ طائفتانِ من الأنصار أن تَفْشَلا برجوعهما عن القتالِ إلى المدينة فثَبَّتَهُما، ولم ترْجِعا.

٤- تذكيرُ الله للمؤمنين بما أنعمَ عليهم مِنَ النَّصرِ في غزوةِ بَدْرٍ قبل عام مِنْ معركةِ أُحُدٍ، وكانَ عَدَدُهمْ قليلاً، وسَلاحهم فيهِ ضَعْفٌ.

٥- أنْزَلَ اللهُ الملائكةَ في بَدْرٍ يقاتلون مع المؤمنين، فقد أمَدَّهم بألْفٍ أوّلاً، ثمَّ أكملَ الذين أمَدَّهُمْ بهم إلى ثلاثةِ آلافٍ، ثم إلى خمسة آلافٍ.

٦- إمدادُ الله المقاتلين بالملائكةِ ليس قَصْراً على الصحابةِ، فكلُّ مَنْ صَبَرَ في ميدانِ القتال مِنَ المؤمنين، واتَّقى اللهَ عزَّ وجَلَّ استحقَّ أنْ يُمِدَّهُ اللهُ بالملائكة.

٧- اللهُ قادرٌ على كلِّ شيءٍ، ومِنْ ذلك قُدْرَتُهُ على نصر المؤمنين من غير إنزالِ الملائكة، ولكنَّه أنْزَلَهُمْ ليطمئن قلوبَ المجاهدين.

٨- من مقاصدِ الله تبارك وتعالى أن يَقْطَعَ بمحاربةِ المؤمنين الكافرين طرفاً من الكافرين، وذلك بقَتْلِهِمْ وهزيمتهم.

٩- الأمورُ كلُّها بيدِ الله تعالى، وأمورُ العبادِ وأمورُ السماواتِ والأرضِ كُلُّها بيدِهِ، يُصَرِّفُها كيف يشاء، سبحانه.

النص القرآني السابع والعشرون من سورة آل عمران
سارعوا إلى مغفرة من ربِّكم وجنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرض

أولاً: تقديم

النُّصوص السابقةُ لهذه الآياتِ والنصوصُ اللاحِقَةُ لها تتحدَّثُ عنْ وقائع معركة أُحُدٍ، وهذه الآياتُ في هذا النص تأتي معترضةً تَنْهى عن أكْلِ الربا أضعافاً مضاعَفَةً، وتدعو المؤمنين إلى المسارعةِ إلى مغفرةِ الله وجنَّتِهِ، ثم تمتدُّ لتبين صفاتِ المؤمنينَ الأتقياء، وهذه الآياتُ وإنْ كان موْضوعُها مختلفاً عَنْ موضوع الآياتِ السابقةِ واللاحقةِ، لكنَّها تَتَّفِقُ معها في تقريرِ أنَّ المقاتلين يهزمون في الميدانِ إذا ارتكبوا جريمةَ الرِّبا، ولم يكونوا على المستوى الراقي مِنَ الإيمانِ.

ثانياً: آيات هذا النصِّ من سورة آل عمران

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النصِّ من القرآن

١- النهيُ عن أكْلِ الرِّبا أضعافاً مضاعفةً:

سبق الحديث عن الرِّبا في سورةِ البقرةِ، ونَهى اللهُ عنه في هذا النصِّ بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ [آل عمران:١٣٠] والرِّبا أن تدفعَ فائدةً لمن يُقْرِضُكَ مالَهُ، أو تبيعَ السلعةَ إلى أجلٍ، فإذا حلَّ الأجلُ ولم يسْتَطِعِ المشتري دَفْعَ القيمةِ لك زِدتَهُ في الأجلِ، وزادكَ المشتري في المالِ الذي في ذمته.

هذا هو ربا الجاهلية، وهو الرِّبا نفسُه الذي يجري التعاملُ به في المصارفِ والأسواقِ المالية اليوم، ويريدُ بعضُ الناسِ اليومَ إباحةَ الرِّبا بتحميل هذه الآية ما لا تَحْتَمِلُه، فيدَّعون أنَّ

الرِّبا المحرم هو الرِّبا الفاحشُ، أما الفائدةُ التي تبلغ خمسةً في المائة أو ستَّةً أو سبعةً ليس بمحرَّمة، وقد أخْطؤُوا في فِقْهِ الآية وحمَّلوُها ما لا تحْتَمِلُه، ولو كان قولُهُمْ صحيحاً فإن معنى الآية على قولهم يكونُ إذا بَلَغَ الرِّبا تسعمائة في المائة، فالأضعافُ على قولهم تبلغُ ثلاثمائة في المئةِ، والمضاعفة تكونُ ثلاثة أضعافٍ على الأقلِّ، فتصبحُ تسعمائةٍ في المائة، وهذا لا يقول به عاقل ألبتَّة.

والمرادُ بالآية أن مصيرَ الفائدةِ مَعَ طولِ الزمنِ وكثرةِ السنواتِ يصبحُ أضعافاً مضاعفة.

وقد عقَّب اللهُ على نهيه عن أكْلِ الربا بأمْرِه المؤمنين بتقوى الله، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران:١٣٠] وتحقيقُ هذا الأمْرِ يكون بالعملِ بطاعة الله رجاءَ رحمتهِ، وخوفَ نارِه وعِقابِهِ.

وأمَرَنا ربُّنا تبارك وتعالى أنْ نتقي النَّارَ التي أُعدت للكافرين ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران:١٣١] أمَرَنا أنْ نجعلَ بيننا وبينَ نار الله وقاية، فالرسولُ ﷺ أمَرَنا أن نتقي الله ولو بشقِّ تمرةٍ، وفِعْلُ الطاعات وتركُ المنكرات كلُّ ذلك يقي مِنَ النَّار، وقد رَهَّبَ اللهُ المؤمنين مِنَ النار المعدَّة للكافرين. وأمرنا ثالثاً بطاعةِ الله وطاعةِ رسولِهِ لعل الله يرحمنا ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٢] ومن جملة ذلك تَرْكُ التعاملِ بالربا.

٢- **أمَرَ اللهُ المؤمنينَ بالمسارعَةِ إلى مغفرةِ الله وجنَّتِهِ:**

أمَرَنا اللهُ -تعالى- بالمسارعةِ إلى تحصيلِ مغفرةِ الله وجنتهِ، فقال: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٣] والآية تتحدَّثُ عن سَعَةِ جنَّة الله التي دَعانا إليها، فعَرْضُ الجنةِ كعرض السمواتِ والأرضِ، قال ابنُ عباسٍ: «تُقْرنُ السمواتُ السَّبْعُ، والأرَضُونَ السَّبْعُ، كما تُقْرنُ الثِّيابُ بَعْضُها إلى بعضٍ، فذاكَ عَرْضُ الجَنَّة» [تفسير الطبري: ٣/ ١٩٦٨].

وذكر ابنُ كثيرٍ أنَّ عَرْضَ الجنةِ كطولها، لأنَّها قُبَّةٌ تحت العرشِ، والشيءُ المُقبَّب والمستديرُ عَرْضُهُ كطوله، واستدلَّ على ذلك بالحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فإذا سأَلْتُمُ الله فاسْأَلُوهُ الفرْدَوْسَ، فإنَّه أوْسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنةِ -أُراه- فوقَهُ عرشُ الرحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّة» [البخاري:٢٧٩٠].

٣- ثناءُ اللهِ على المُتَّقينَ:

أخبرنا اللهُ -سبحانُهُ وتعالى- في الآية السابقة أنَّ الجنةَ التي عَرْضُها السمواتُ والأرضُ أُعدِّتْ للمتقين، ثم أخبرنا سبحانه بعد ذلك عَنْ المتَّقين، ووصفهم بعدَّة صفات، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٤-١٣٥].

وأوَّلُ صفاتِ المتقينَ إنفاقُهم المالَ ابتغاءَ مرضاتِ الله في جميعِ الأحوالِ، في السرَّاءِ والضراءِ، أي في الشدَّة والرخاءِ، والصحَّةِ والمرض. وثاني هذه الصفات وثالثها أنَّهم يكتمونَ غيظهم ويعفون عن الناس. «والغيظُ -كما يقولُ الراغبُ- أشدُّ الغضبِ، وهُوَ الحرارةُ التي يجدُها الإنسانُ مِنْ فورانِ دم قَلْبِه» [المفردات: ص٣٦٨]. ويرى ابنُ عطيةَ أنَّ الغيظ أخصُّ مِنَ الغضبِ «فالغيظُ فعلُ النَّفْسِ، لا يظهر على الجوارحِ، والغضبُ حالٌ لها معه ظهورٌ في الجوارحِ» [المحرر: ٢/ ٣٥٨].

وقد جاءت عدة أحاديث تُثْني على الذّينَ يملكون أنفسَهُمْ عِنْدَ الغضبِ، فعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «ليسَ الشديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّديدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عندَ الغَضَبِ» [البخاري: ٦١١٤. ومسلم: ٢٦٠٩].

وفي سنن أبي داود عن سَهْلِ بنِ معاذٍ عن أبيه أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظاً، وهو قادرٌ على أنْ ينفذَهُ، دعاه اللهُ على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ، حتَّى يخيِّره اللهُ مِنَ الحورِ العينِ ما شاءَ» [أبو داود: ٤٧٧٧. وأورده الألبانيُّ في صحيح أبي داود: ٣٩٩٧ وعزاه إلى صحيح ابن ماجه: ٤١٨٦]. وقد وَرَدَ في الأحاديث كيفَ يُذْهِبَ المرءُ غضبه بالاستعاذة بالله مِنْ الشيطانِ، وبتحوله من الحال التي يكون فيها إلى حالٍ أخرى، كأنْ يكونَ قائماً فيجلسَ، أو جالساً فيَضَّطجعَ.

وأثْنى اللهُ -تباركَ وتعالى- على عبادِهِ الذين إذا مَلأَ الغيظُ قلوبَهُمْ لم يتَّبعوه، وكَتَمُوه، وعَفَوْا عمن أساءَ إليهم، وقد امتلأ قلبُ نبيِّ الله يعقوب عليه السلام غيظاً عهداً طويلاً لما غابَ عنه ابنهُ يوسفُ عليه السلام بفعل إخوانِه، حتى ابيضت عيناه مِنَ الحُزْنِ، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف:٨٤] حتى فرَّجَ اللهُ عنه بمجيء البشيرِ بقميصِ يوسف عليه السلام، ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٦].

وأخْبَرَ اللهُ - سبحانه في ختامِ الآيةِ- أنَّه ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٤]. ولا شكَّ أنَّ الإنفاقَ في السراءِ والضراءِ: وكظم الغيظ، والعفوَ عن الناسِ مِنْ مقامات الإحسان.

ورابعُ صفاتِ المتقين أنَّهم ﴿إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥].

مَدَحَ اللهُ -تبارك وتعالى- المتقينَ بأنَّهم إذا وَقَعَ منهم الذنبُ أو المعصيةُ تابوا إلى الله وأنابوا واستغفروا الله، فهؤلاءِ ليسوا بمعصومين مِنَ الزللِ، وليسوا ملائكةً، وقد تَقَعُ منهم الفاحشةُ، وهي الفعلةُ القبيحةُ الخارجةُ عما أذن اللهُ بِهِ، وقد وقع الزِّنا من بعض الصحابة والصحابيات، وجاؤوا إلى الرسولِ ﷺ واعترفوا بذنبهم، فأقامَ الرسولُ ﷺ عليهم الحدّ، وأخْبَرَ الرسول ﷺ عن تلك الزانيةِ التائبةِ أنَّها تابتْ توبةً لو تابها أهْلُ المدينةِ لوسعتهم، وذَكَرَ اللهُ أنَّ هؤلاءِ المتقين إذا وقعت منهم المعصية لم يدوموا عليها، ولكنَّهم سريعاً ما يؤوبونَ إلى الله عزَّ وجلَّ ويذكرونُ الله، فتمتلئ قلوبهم مِنْ خوفِ الله، ويسارعونَ إلى التوبةِ إلى الله واستغفاره، والله واسعُ المغفرةِ، وهو وَحْدَهُ الذي يملكُ غفرانَ الذنوب، فلا يملكُ ذلك نبيٌّ مرسلٌ، ولا مَلَكٌ مقربٌ، بخلافِ ما عليه النصارى، فقد نصَّبُوا رجالَ الدين فيهم آلهة يغفرونَ الذنوب، ويزيلونَ الخطايا، وفعلُهُمْ هذا جريمةٌ نكراءُ تستحقُّ العقابَ.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥] والإصرارُ الإقامةُ على الذَّنب عامدينَ، قال قتادةُ: «إيَّاكم والإصْرار، فإنَّما هَلَكَ المُصرُّون الماضونَ قُدُماً، لا تنْهاهُمُ مخافةُ الله عن حرامٍ حرَّمَهُ اللهُ عليهم، ولا يتوبونَ مِنْ ذنبٍ أصابوه، حتى أتاهم الموت وهُمْ على ذلك» [تفسير ابن جرير الطبري: ٣/ ١٩٧٥].

وقد ضرب لنا الرسولُ ﷺ مثلاً لعبادِهِ التائبين الذين لا يصرُّون على ما اقترفُوه مِنَ الذنوبِ، روى أبو هريرة ﷺ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ عبداً أصابَ ذنباً -وربما قال: أذنب ذنباً- فقال: ربِّ أذْنَبْتُ -وربما قال: أصبتُ- فاغفرْ لي، فقال ربُّه: أعَلِمَ عبدي أنَّ لهُ ربّاً يغفرُ الذَّنبَ، ويأخذ به؟ غفرتُ لعبدي. ثم مكث ما شاء اللهُ؛ ثم أصابَ ذنباً، أو أذنب ذنباً، فقال: ربِّ أذنبتُ -أوْ أصبتُ- آخرَ فاغفرهُ، فقال: أَعَلِمَ عبدي أنَّ له ربّاً يغفر الذنب، ويأخذُ به؟ غفرتُ لعبدي، ثم مكثَ ما شاءَ اللهُ، ثم أذنب ذنباً، وربَّما قال: أصاب ذنباً، قال: فقال: ربِّ أصبتُ -أو أذنبتُ- آخرَ، فاغفره لي، فقال: أعَلمَ عبدي أن له رَبّاً يغفرُ الذنبَ، ويأخذ به؟ غفرتُ لعبدي -ثلاثاً- فليعملْ ما شاء» [البخاري: ٧٥٧٠. ومسلم: ٢٧٥٨].

إنَّ البشرَ لا يستطيعون أن يبقوا على حالٍ راقيةٍ مِنَ السموِّ الروحاني، فقد شكى الصحابةُ للرسولِ ﷺ كيفَ يَرْتقونَ في إيمانهم، ثم يتراجعونَ عندما يشتغلونَ بالدنيا، فقالَ لهم: «لو أنَّكم تكونونَ على كلِّ حالٍ، على الحالِ التي أنْتُمْ عليها عِنْدِي، لصافحتكُمُ الملائكة بأكُفِّهم، ولزارتكم في بيوتِكُمْ، ولو لم تُذْنِبُوا لجاء الله بقومٍ يُذْنِبون، كي يغفِرَ لهم» [عزاه ابن كثير: ١/ ٣٤٤ للترمذيِّ وأحمد واللفظ له].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ المحافظةَ على العباداتِ ومنها الوضوءُ والصلاةُ تُكَفِّر ذنوبَ العبد، فعن عُقْبَةَ بن عامرٍ أنَّه أدْرَكَ رسولَ الله ﷺ قائماً يحدِّث النّاسَ، فأدركَ من قولِهِ: «ما مِنْ مُسْلِمٍ يتوضَّأُ، فيحسنُ وضوءَهُ، ثمَّ يقومُ فيُصلِّي ركعتين، مقبلٌ عليهما بقَلْبِهِ ووجْهِهِ، إلا وَجَبتْ له الجنةُ» [مسلم: ٢٣٤].

وعن عثمان بن عفَّان أنَّ الرسولَ ﷺ توضَّأَ، ثم قال: «من توضَّأ نحو وُضوئي هذا، ثم قامَ فركع ركعتين، لا يُحدِّثُ فيهما نفسه، غُفِرَ له ما تقدَّم مِن ذنبه» [البخاري: ١٥٩. ومسلم: ٢٢٦].

٤- جزاءُ المتقين:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن جزاءِ المتقين الذين أَعَدَّ لهم جناتِ النعيم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٦] وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الذين وصفهم اللهُ بما وصفهم به جزاؤُهم غفرانُ الله ذنوبَهُمْ، ويَهَبُ اللهُ لهم جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ خالدين فيها، لا يفنون فيها، ولا يَفْنَى نعيمهم، ونِعْمَ الثوابُ الذي يحلُّ فيه المتقون في ذلك المقامِ الأمين.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من العلم والعمل:

١- الرِّبا جريمةٌ نكراءُ حرَّمها الإسلامُ تحريماً كلِّياً، ولا تُفلحُ الأمَّةُ الإسلاميةُ، ولا تنتصرُ على أعدائِها وهِيَ تَلِغُ في هذه الجريمةِ النكراءِ.

٢- الرِّبا بابٌ ينفذُ منه آكلوه للاستيلاءِ على أموالِ غيرهم، حتى يصبح أضعافاً مضاعفةً.

٣- أمَرَ اللهُ تعالى بتقواه، كما أمَرَنا باتِّقاءِ النَّارِ، كما أمَرَ بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ﷺ، وبذلك ننالُ الفلاحَ، وننجو مِنَ النَّارِ، وندخُل في رحمة الله.

٤- أمَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- إلى المسارعةِ إلى جنّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ، أعدَّها اللهُ للذين يتقونَهُ، ويعملونَ بطاعته.

٥- عدَّدَ اللهُ -تبارك وتعالى- صفاتِ المتقينَ الذين يَسْتَحِقُّونَ الجنَّةَ التي عرضُها السمواتُ والأرضُ، ومِنْ هذه الصفاتِ الإنفاقُ في العسرِ واليسرِ، وكَظْمُ الغيظِ، فلا يثورُونَ لأتفه الأسبابِ، والذين يكثرونَ العفوَ عَن الناسِ، والذين يديمون الاستغفار لذنوبهم، ولا يصرُّون على ما ارتكبوه من الذنوب.

٦- اللهُ وَحْدَهُ الذي يغفرُ الذنوبَ، وليسَ ذلك لأحدٍ غيرِهُ، لا مَلَكٍ مقربٍ، ولا نبيٍّ مرسلٍ، وقد افترى رهبانُ النصارى على الله افتراءً عظيماً عندما نصبوا أنْفُسَهُمْ مرجعاً يَسْمَعونَ مِنَ النَّاس شَكْواهم، ويغفرون لهم ذنوبهم.

٧- مصيرُ المتقين مصيرٌ طيِّب، فاللهُ يغفرُ لهم ذنوبهم، ويدخلهم جنَّاتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ، وهم في هذه الجنَّاتِ خالدون، ونعم أجْرُ العاملين.

٨- اللهُ تعالى يحبُّ المحسنينَ الذين يقومون بالأعمال التي كلَّفهم بها على الوجهِ الأكملِ، ويتحقق ذلك بمراقبةِ العبدِ ربَّه تمام المراقبة.

النص القرآني الثامن والعشرون من سورة آل عمران

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ -تعالى- لنا في هذه الآياتِ أنَّ هزيمةَ المسلمين في أُحُدٍ تدخلُ تحتَ سُنَّةٍ مِنَ سُنَنِ الله في خلْقِهِ، فالحربُ بين المؤمنين والكفار سجالٌ، ثم تكونُ العاقبةُ للمؤمنين، فإذا فَقِه المؤمنون هذه السنَّة، فإنهم لا يهنونَ ولا يحزنون، ويعلمونَ أنَّهم مع هزيمتهم هم الأعلى والأرقى والأطيبُ، وستكونُ العاقبةُ لهم في الدنيا والآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٧-١٤٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- على المسلمين أنْ يفقهوا سُنَنَ الله في النصرِ والهزيمة:

أعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه قد خَلَتْ مِنْ قبلنا سُنَنٌ إلهيةٌ ربانيةٌ في الأمم السالفةِ، وأمَرَنا أن نسيرَ في الأرضِ ونعاينَ كيف كان عاقبةُ المكذبين ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧] ومعنى خَلَتْ: مَضَتْ وسَلَفَتْ، والسُّنَنُ جمعُ سُنَّةٍ، والسنَّةُ الطريقةُ المتَّبَعَةُ، وقد كانت سُنَّة الله أنْ يديلَ المؤمنين على الكافرين، ويديلَ الكافرين على المؤمنين ثم تكونُ العاقبةُ للمؤمنين الموحدين، وقدْ حدَّثنا اللهُ عن المؤمنين في أقوامهم، قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقوم فرعونَ وقوم لوط وقوم شعيبٍ وغيرهم، وقد قضت سنَّةُ الله فيهم بتدمير الكافرين ومَحْقِهِم والقضاء عليهم، ولا تزالُ بعضُ

ديارِ المعذبين قائمةً إلى اليوم، ومنها ديارُ ثمودَ التي نحتوها في الجبالِ، وقد مرَّ بها الرسولُ ﷺ وأصحابُه، وعرَّفهم الرسولُ ﷺ بالبئرِ الذي كانت تَشْربُ منه الناقةُ، والطريقِ التي كانت تسيرُ فيه، ومنها ديارُ قومِ لوطٍ التي جعل اللهُ عاليها سافلها. إنَّ سنَّة الله قضتْ في ختامِ الأمرِ بإهلاك قومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وقومِ صالحٍ، وفرعون وقومه، ولا تزالُ هذه السُّنَّةُ باقيةً لا تتخلف، وقد أمرَ اللهُ المؤمنين أن يسيروا في أرضِ الله الواسعةِ، وينظروا في آثارِ المكذبين مِنَ الكفرةِ المشركين.

قد تقعُ الهزيمةُ للمسلمين كما وقعتْ للرسول ﷺ وأصحابِهِ في أحدٍ، ولن تكون العاقبةُ للمشركين بحالٍ، وهذا ما وقع للمسلمين في نهاية المطافِ، فقد هَزَمَ المسلمون اليهود عدة مرات في المدينة ثم في خيبر، وهزموا المشركين في مكَّة، ثم في جزيرةِ العربِ، ثم حطَّموا دولة الأكاسرة ودولة القياصرة، وفتحوا اليمنَ، والحبشةَ، بل أكثرَ إفريقيا، وهذا كلُّه يصدِّق سنَّةَ الله التي خلت في عباده.

٢- هذا بيانٌ للناسِ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- فيما حدَّثنا عنه في الآيةِ السابقةِ من أنَّ سنته في عبادِهِ أنَّ يديل المؤمنين على الكافرين، ويديلَ الكافرين على المؤمنين، ثم تكون العقبةُ دائماً وأبداً للمؤمنين.

وأخبرنا -سبحانه وتعالى- أنَّ في سنَّتِهِ التي خَلَتْ في عباده بياناً للناس، متى فقهه المؤمنون اهْتَدَوْا بهديِ الله، واتعظوا بمواعِظِهِ، ولم يَعْظُمْ عليهم أن يُهزَموا في بعض الأحيان، كما هُزِموا في أُحُدٍ، فإنِّ العاقبةَ لهم عند ربِّهم.

٣- تعزيةُ الله المؤمنين فيما أصابهم في غزوة أُحُدٍ:

لا يجوز للذي يُهزَمُ مَرَّةً في ميدانِ الحربِ والقتالِ أن تُحطِّمَ الهزيمةُ نفسَهُ، ولا يجوز أن تُذِلَّه لخَصْمِهِ، وتجزعه، وتفزعه، وتَشُلُّ حركتَهَ وتقديرَه وتدبيرَه، فهذه الهزيمةُ يوم في الطريق إلى النَّصرِ الكبير الذي لا تقومُ بعده للكافرين قائمة، ولذلك نهى اللهُ تباركَ وتعالى صحابةَ رسوله ﷺ عن أنْ يهنوا ويحزنوا، وقرَّر اللهُ بصورة جازمة أنهم الأعلونَ إن كانوا مؤمنين ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩]. قال ابنُ جريرٍ الطبريُّ: «هذا مِنَ الله تعزيةٌ لأصحابِ رسول الله ﷺ على ما أصابهم مِنَ الجراحِ والقتلِ بأحد» [تفسير ابن جرير الطبري: ١٩٧٩/٣] نهاهُمُ اللهُ عنِ الضعفِ والحزنِ بسبب ما أصابهم، فالهزيمةُ أمْرٌ عارضٌ في الطريقِ إلى النَّصر، وأنتُمْ أيُّها المسلمونَ الأعلونَ في دينكمْ وإيمانكمْ وعقيدتكمْ

وانتسابكمْ إلى الله ربِّ العالمين، إذا أنتم حققتم الإيمان في حياتكم. فما دُمْتُمْ أنتم الأعلونَ، فلن تضيركم الهزيمة، فما أصابكم مِنْ ضعفٍ يمكنُ أن تستدركوهُ في مقبلِ الأيام.

٤- إن يمسسكم قَرْحٌ فقد مسَّ القوم قرْحٌ مثله:

قال اللهُ -سبحانه- مخاطباً رسولَهُ ﷺ وأصحابَهُ الذين كانوا معه: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١].

يقولُ اللهُ تعالى للمؤمنين: إنَّ الذي أصابكم في أُحُدٍ أصابَ قريشاً في بدر أولاً، وفي أُحُدٍ ثانياً، فالمسلمونَ أثخنوا في المشركين قتلاً وأسراً في بدر، وقتلوا وجرحوا طائفةً مِنَ المشركينَ في بدايةِ المعركة في أُحد، فلا يجوزُ أنْ يكون المشركونَ أصْبَرَ منكم على ما أصابكم، والقَرْحُ الذي أصاب المؤمنين القتلُ والجراحُ.

وقرَّر اللهُ -عزَّ وجلَّ- في قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] على أنَّ الأيام دولٌ، مرةً ينتصرُ المسلمون، ومرةً يهزمون، ومرة ينتصر المشركون، ومرة يهزمون، وقد سألَ قيصرُ الرومِ أبا سفيان عندما جاءَه خطابُ رسولِ الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام عن الحرب بينهم وبين الرسولِ ﷺ، فقالَ أبو سفيان: «تكونُ الحربُ بيننا وبينه سِجالاً، يصيبُ منَّا ونصيبُ منه». وقال قيصر الروم معقباً على مقالة أبي سفيان: «وكذلك الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثم تكون العاقبة لهم» [البخاري: ٤٥٥٣. ومسلم: ١٧٧٣].

وقولُهُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤٠] أي: ليعلمَ اللهُ الذين آمنوا، أي: عِلْماً لما يجري في الواقعِ المشهودِ، فهذا عِلْمٌ غيرُ علمِ الله الذي علِمه في الأزل، وهو علم للأحداث إذا وقعت.

والبلايا التي يَخْتبرُ اللهُ بها عبادَهُ تكشف عن معادنِ الرجالِ، فالرجلُ المؤمنُ الصادق الإيمان هو الذي يظهر صِدْقُه إذا نزلت بِهِ المصائبُ والرزايا.

وقد ظَهَر في المعركةِ كثيرٌ مِنَ النفوسِ المؤمنة الأبية بصبرها وجهادِها وحسن تصرفها.

وقولُهُ: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] أي: يصطفي ويختارُ منكم شهداءَ، وهم الذين يجاهدون في سبيل الله، مُقَدِّمين أنفسَهُمْ وأموالَهم لإعلاءِ كلمةِ الله تعالى، فالشهادةُ

كرامةٌ مِنَ الله لعبادِهِ الذين قصدوها ونالوها، والشهادةُ أثمن ما يحصلُ عليه العبدُ، فلَهُ عندَ الله المقامُ الأرفعُ والدرجةُ العليا، وقرَّر في ختامِ الآية أنَّه لا يحبُّ أهلَ الكفرِ والشركِ الظالمين.

وأخبرنا -تبارك وتعالى- أنَّه يريدُ بهذه الهزيمةِ التي وقعت للمؤمنين أنْ يمحِّصَ المؤمنين، ويَمْحَقَ الكافرينَ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران:١٤١]، والتمحيصُ التنقيةُ مِنَ العيوبِ والشوائبِ التي تَعْلق بنفسِ الإنسان وقلبِهِ، فالله يُنَقِّي المؤمنين من ذنوبهم إذا هم جاهدوا، ويُصَفِّي نفوسَهم، وتتأكد معاني الخير في قلوبهم، وإذا انتصرَ الكفارُ والمشركون طَغَوْا وبَغَوْا، وازدادُوا كِبْراً وفساداً، فأسرع اللهُ في قَصْمِهم وأخْذهم وتدميرهم، والمَحْقُ يكون بأخذهم شيئاً فشيئاً، ومنه مُحاقُ القمرِ، فإنَّه ينقصُ ضوؤه شيئاً فشيئاً حتى يُمْحى ويزولُ، وكذلك أهلُ الشركِ لا يزالون ينقصون، شيئا فشيئاً، حتى يَذْهَبَ الشركُ كلُّه، ويَحِلَّ الإسلام محَلَّهُ.

٥- لا يدخلُ الجنَّةَ إلا مَنْ بذلَ النَّفسَ والمالَ في سبيلها:

خاطبَ اللهُ -تبارك وتعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ منكراً عليهم طَمَعَهُمْ بدخولِ الجنَّةِ مِنْ غير القيامِ بتقديم ثمنها مِنَ الجهادِ والصبرِ في الملمَّات ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٢] والمعنى: أنَّه لا يحصلُ لكم دخولُ الجنةِ حتى تُبْتَلوا، ويعلمَ اللهُ منكم المجاهدين والصابرين الذين قَدَّموا أنفسَهم وأموالَهم في سبيل الله تعالى، وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤]، وقال: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت:١-٣].

٦- تَمَنِّي الصحابةِ بَعْدَ بَدْرٍ الموتَ في سبيلِ الله:

أَنَّبَ اللهُ صحابةَ رسولِهِ ﷺ ، لأنَّ الذين لم يُقَدَّر لهم أن يشهدوا بدراً، كانوا يتحرقون شوقاً لخوضِ معركة أخرى يواجهون فيها المشركين، ويوقعون فيهم القتلَ والجرحَ والأسر، فلما أقْدرهم على مواجهة المشركين، وكان منهم الذين أشاروا على الرسولِ ﷺ بالخروج مِنَ المدينةِ خلافاً لما كان يراه بعضهم من المكثِ فيها، فلَمَّا واجهوا العَدُوَّ ثبتَ بعضهم في الميدانِ، وفرَّ بعضهم مِنَ المعركةِ ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران:١٤٣]، وقوله: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران:١٤٣]، أي رأوا الموت

عندما اضطربتْ صفوفُهُمْ، وأحاطَ بهم أعداؤُهم، وأُشيع أنَّ رسول الله ﷺ قد قُتل، نعم رأوا الموتَ في الميدان، فقد كانت السيوف تبرقُ فوقَ رؤوسهم، والرماحُ تنوشهم، والحرابُ تمتدُّ إليهم، وهم مَدْهُوشُون مضطربون، ولّى بعضُهم، وبعضُهم قاتلَ الكفرةَ قتالَ الراغبِ في الله وفي جنَّته، وقد ثَبَتَ في الصحيحين أنَّ الرسول ﷺ نهى عن تَمَنّي لقاء العدو، فإذا لقيناهم فعلينا أن نصبر، فعن عبدالله بن أبي أوْفى أنَّ رسولَ الله ﷺ قامَ خطيباً فقال: «أيُّها الناسُ، لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، وسَلُوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيْتُمُوهُمْ فاصْبِروا، واعْلَمُوا أنَّ الجنَّةَ تحتَ ظلالِ السيوف» [البخاري: ٢٩٦٦. ومسلم: ١٧٤٢].

٧- أين نحن من سُنَنِ الله اليوم؟

يحقُّ لنا أن نتساءَل اليوم أينَ نحنُ مِنْ سننِ الله التي أجْراها في عبادِه؟ لقد مضى زمانٌ طويلٌ علينا، تسنَّم أعداءُ الإسلام فيه ظهورنا، وآذونا وأهانونا، وسلبونا أموالنا، واستولوا على أرضنا المقدَّسة فلسطين.

والجواب: إنَّ موازين النصرِ لا تعمل في جانبنا، فقد تخلَّى كثيرٌ مِنَ المسلمين عن دينهم، ووالَوْا عَدُوَّهم، بل قاتلتْ بعضُ الدولِ التي تسمَّى بالإسلاميةِ مَنْ يريدُ تحكيمَ كتابِ الله مِنْ شَعْبِها، فهناكَ موانعُ تمنع مِنَ النَّصرِ والغلبِ على الأعداء.

ومع ذلك فإنَّ الأمةَ الإسلاميةَ ستعودُ إلى أصالتها وإلى دينها، وستتغير موازينُ القوى، وسيكون للمسلمينَ دَوْلة، وسيكونُ لها نَصْرٌ وعِزَّة وغَلَبٌ بحولِ الله وقوته، واللهُ غالبٌ على أمره.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعملٍ

إذا تأمَّلنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لا يجوزُ للمسلمين إذا هم هُزِموا في ميدانِ القتالِ أنْ يقعدهم الهمُّ والحُزْنُ عن الجهاد، ولا يجوزُ أنْ يخضعوا ويذلُّوا لأعدائهم، ويتخلوا عن دينهم، فالمهزوم في الميدانِ ينفضُ عنه غبارَ الغفلةِ، ويتخلَّصُ مِنْ همِّه وحُزْنِهِ، ويستعيدُ عافيته، وينتصرُ في المعركةِ التالية.

٢- المسلمون هم الأعلون دائماً بإيمانِهِمْ وعقيدتِهِمْ، واستجابتِهِمْ لربِّهم تبارك وتعالى.

٣- الأيامُ بَيْنَ المؤمنين وخصومهم دُوَلٌ، مرةً ينتصرونَ علينا ومرةً ننتصر عليهم، وهذه سنَّةٌ مِنْ سنن الله التي يجريها في عباده، لكنَّ العاقبةَ للمتقين، ففي بدرٍ انتصرَ المسلمون، ومسَّ المشركينَ القَرْحُ، وفي أُحُدٍ هُزِمَ المسلمون ومسَّهم القرحُ.

٤- المسلمونَ أحقُّ بالصَّبْرِ على ما أصابهم مِنْ القتلِ والجراحِ مِنَ المشركين، فالمسلمون هم أصحابُ الدِّين الحقِّ، يرجونَ مِنَ الله ما لا يرجوه الكفار.

٥- الشدائدُ والهزائمُ تكشفُ عن حقيقةِ المؤمنين الصابرين، وتظهر نفاقَ المنافقين، وتدلُّ على الضعفِ الذي يتلبَّسُ بِهِ بعضُ المقاتلين.؟

٦- الشهداءُ الذين يسقطون في حَوْمَةِ الوغى لا يجوز أن يعدَّ اسْتِشْهَادُهُمْ خسارة، فقد اختارهم اللهُ واصطفاهم، وحازوا في جناتِ النعيمِ ما لم يَحُزْهُ غيرهم.

٧- الهزيمةُ تمحِّصُ المؤمنينَ وتصفيهم، وتصلحُ نفوسَهُمْ، وتبطرُ الكافرين، وتنفخُ فيهم الكِبْرَ والاستعلاءَ، فتورثهم مزيداً مِنْ غَضَبِ الله وكرهه لهم، فيقْصِمهُمْ، ويأخذهم أَخْذَ عزيزٍ مقتدر.

٨- الجنة لها ثمن، وثمنها يكون بالجهاد والصبر حتى ننالَ الاستشهادَ.

النص القرآني التاسع والعشرون من سورة آل عمران
أثرُ فَقْدِ القائدِ في حياةِ الجماعةِ المسلمةِ

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ أنّه لا يجوزُ للجماعةِ المسلمةِ إذا فَقَدَتْ قائدَها ومُوجِّهها أنْ تخورَ قواها، وتضعف عزيمتها، وتُسْلم قيادَها لأعدائها، فهذا الدِّينُ الذي جاءَنا مِنْ عِنْدِ الله يدعونا إلى الله، واللهُ حيٌّ لا يموت.

والموتُ حقٌّ لا ينجو منه أحدٌ، ويأتي في مَوْعده الذي حدَّده اللهُ، وقد كانَ الأنبياءُ مِنْ قبْلنا ومَنْ معهم مِنَ الربانيين يقاتلونَ في سبيله، فلا يَضيرهم ما وَقَعَ بهم من هزائم، ويُصْلِحونَ بعد الهزيمةِ أمْرَهم، ويحققون النصرَ على عَدُوِّهِمْ، وكانوا يستنصرون بالله، فينصرهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران:١٤٤-١٤٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- كيف يتصرَّفُ الأتباعُ عندما يفقدون قائدهم:

بَيَّنَتْ لنا الآيةُ الأُولى في هذا النَّصِّ كيف ينبغي للأتباع أن يتصرَّفوا في حالِ فَقْدِهِمْ رئيسهم وقائِدهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٤].

أعدَّ الرسولُ ﷺ لمعركةِ أُحُدٍ أحْسن ما يكونُ الإعدادُ، ووضع الرماةَ على أعلى الجبلِ المعروفِ اليوم بجبلِ الرماةِ، ونبَّه الرماةَ وقائدَهُمْ إلى خُطورَةِ مَوْقِفِهِمْ، وطلبَ منهم طلباً جازماً أنْ لا يغادِرُوا موقِعَهُمْ لا في حالِ هزيمةِ المسلمين ولا في حالِ نصرهم، وحقَّقَ المسلمونُ النَّصْرَ في بداية المعركةِ، وركب جيشُ المسلمينَ جيشَ الكفرِ، وفرَّ الكفَّارُ في الميدانِ، وهربتْ نساءُ المشركين يحتمين بالجبلِ، وهنا وقعَ عند المسلمين خَلَلٌ كبيرٌ غيَّر ميزانَ المعركةِ، فقد تَرَكَ أكثرُ الرُّماةِ الذين على الجبلِ مواقِعَهُمْ، مريدينَ أنْ يجمعوا غنائمَ المعركةِ، تاركينَ توجيهَ رسولهم خَلْفَ ظُهورِهِمْ، واغْتَنَم خالدُ بنُ الوليدِ خُلُوَّ الجبلِ من أكثر الرماةِ، فاهتبلَ الفرصةَ، واجتاحَ سريعاً الموقعَ، قاتلاً القلَّة الباقيةَ من الرُّماة، وعادَ المقاتلون الذين فرُّوا مِنَ الميدان، وأصبح العدو محيطاً بالمسلمين مِنْ كلِّ جانب، واختلَّ الميزانُ عند المسلمين، وصَرَخَ الشيطانُ عند ذلك في المسلمين كما تقولُ عائشةُ فقال: «أيْ عبادَ الله أُخْراكم» فرَجَعَ المسلمونَ، فقتلَ بعضُهم بَعْضاً، وممّن قتله المسلمون «اليمان» والد حذيفة [البخاري: ٤٠٦٥].

وأصابَتِ المفاجأةُ المسلمينَ بالذهولِ، فاختلّ ميزانُهم، وفرَّ بعضُ المقاتلين مِن الميدانِ، منهم مَنْ وصل المدينةَ، ومنهُمْ من صعد الجبلَ، وركز المشركون على الرسولِ ﷺ، فشُجَّ في رأسه، وكُسِرَتْ رُباعِيَتُهُ، ودخلت حلقتان من حلق المغفرِ في وَجْنَتِهِ، وسال الدمُّ على وجهه، وأشاعَ المشركون أنَّهم قتلوا رسولَ الله ﷺ، وهَزَّ النبأ نفوسَ المقاتلين مِنَ المسلمين، وأثَّر فيهم تأثيراً عظيماً، وجاءَ التوجيهُ القرآنيُّ والتعقيبُ على هذه الواقعةِ لتكونَ درساً وعبرةً على مَدارِ التاريخِ، فعلى المسلمين ألاّ يُغْفِلوا الثغراتِ التي تُؤَدِّي إلى الهزيمةِ كما فَعَلَ الرماةُ حينَ تركوا مواقِعهم، وعَلَيْهِمْ أنْ لا يهتموا بأمر الغنيمة، فلو صَبَرَ الرماةُ حتى انتهت المعركةُ لحصلوا على الغنائمَ مَعَ النَّصرِ.

ثمَّ ماذا؟ ماذا لو قُتلَ الرسولُ ﷺ في المعركةِ أينتهي الدين الذي جاء به، والرسالةُ التي حملَها مِنْ عند الله إلى عبادِهِ، اللهُ حَيٌّ لا يموتُ، ودينُه دينٌ خالدٌ، أمَّا حملةُ دينه فإنَّهم يموتون ويذهبون، ومحمدٌ له خصوصيةٌ لا يبلغها أَحَدٌ مِنْ بعده، ولكنَّه بشرٌ رسول، وكلّ البشر يموتون، والرسلُ مِنْ قبله حملوا الرسالةَ ثم ماتوا، فماذا لو ماتَ الرسولُ أو قُتِلَ؟ هل ينقلب أتباعه عن دينهم، وهل يسلمون قيادَهُمْ للمشركين الذين يقاتلونهم، إنَّ الذي ينقلبُ على عقبيه لنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً، وسَيَضُرّ نفسَهُ، أما الذين يثبتون على الدِّين، ويبقونَ مستمسكين بهِ، وقائمين عليه حتى يلقوا ربَّهم، فالله سيجزيهم أحسن الجزاء، ويتفضَّلُ عليهم بمنِّه وكَرَمِهِ.

٢- الموتُ كتابٌ مؤجَّلٌ:

الموتُ مكتوبٌ على العبادِ ولكلِّ عبدٍ مِنَ عبادِ الله موعدٌ لن يَعْدُوه، لا فرقَ في ذلك بين المؤمنين الكافرين ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران:١٤٥]

وقد أشارَ اللهُ إلى هذه الحقيقةِ في أكثرِ من موضعٍ في كتابِهِ، فقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ [فاطر:١١] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام٢]. والأُمَّةُ الإسلاميةُ عندما تدركُ هذه الحقيقةَ لا تخافُ الموتَ ولا ترهبه، ولذلك كان المقاتلون في ميدانِ القتالِ يعرضون للمواقعِ التي يلحظونَ فيها الموت ولا يموتون، كما وقع مع خالدِ بن الوليدِ في حروبه الإسلامية، وكما وقع لطلحة بن عبيد الله وَصَل إلى جَسده في معركة أحد بضعٌ وسبعونَ ضربةً، ولم تُكْتَب له الشهادةُ.

وأخبرنا ربُّنا عزّ وجلّ أنَّ الذين يريدون الدنيا بقتالهم قد يحصلون على ما قصدوه وأرادوه، ومن يريدُ الآخرةَ يعطيهم اللهُ الآخرة، وقد يحصلونَ على شيء من الدنيا.

٣- وكأيِّن مِنْ نبيٍّ قاتلَ مَعَهُ ربيونَ كثير:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ كثيراً مِنَ الأنبياءِ قاتلَ مع كلّ واحد منهم ربيُّون كثيرٌ، والربيُّون: الجموعُ الكثيرةُ مِنَ العلماءِ والفقهاءِ، والصالحين، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران:١٤٦].

أخبرنا اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنَّ هؤلاءِ الأخيارَ الذينَ قاتلوا مَعَ الأنبياءِ أصابهم القتلُ والجرحُ والأذى، فتحمَّلُوا ذلك كلَّه، ولم يهنوا لما أصابهم في ميدان الحربِ والقتالِ، والوهنُ: الضعفُ والخورُ، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّهم لم يَضْعُفُوا، ولم يستكينوا، والاستكانة: الذلَّة والصغارُ. لقد امتدحَهُمْ ربُّهم، بأنَّهم صبروا، واللهُ تعالى يحبُّ الصابرين.

٤- لجوءُ المقاتلين إلى ربِّهم واستغاثتهم به:

حدَّثنا اللهُ -تباركَ وتعالى- عنِ المقاتلينَ أتباعِ الأنبياءِ أنَّهم كانوا أبطالاً شجعاناً في ميدانِ الحربِ والقتالِ، وأنَّهم صبروا على ما أصابهم في إخوانهم وأنْفسِهِمْ، وحدَّثنا في الآيةِ التاليةِ عن لجوئِهم إلى ربِّهم واستغاثتِهم به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران:١٤٧] وأوَّلُ

ما طلبوه من ربِّهم غفرانَه لما ارتكبوه مِنَ الذنوبِ، فالذنوبُ التي ارتكبوها قد تكونُ السببَ في هزيمتهم، ولذلك يطلبونَ من الله غفرانها، ويَدْعون أن يغفرَ لَهُمْ إسرافَهم في أمرِهم، والإسرافُ تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فِعْلٍ يفعله الإنسانُ، وإن كان ذلك في الإنفاقِ أشهرَ.

وأعلمنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ هؤلاءِ الربانيين الأخيار، دَعَوْا ربَّهم أنْ يُثَبِّتَ أقدامهم في ميدانِ القتالِ، وينصرهم على القومِ الكافرين، وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه استجابَ لهم دعاءَهم، وآتاهم ثوابَ الدنيا والآخرةِ ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران:١٤٨].

رابعاً ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من العلم والعمل

إذا تدَبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- محمدٌ ﷺ رسولٌ كبقية الرسل، يموتُ كما يموتون، لا يجوز أن يرتدَّ الناسُ على أعقابهم إن هو مات، فالدينُ لله، وهو حيٌّ لا يموت.

٢- أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنّ العربَ سترتدُّ بعدَ وفاةِ الرسول ﷺ ، وقد وقعَ الأمر كما أخبر اللهُ تعالى به.

٣- عندما توفِّي الرسولُ ﷺ حصلَ لغط شديدٌ بين الصحابةِ، وخَطَبَ عمرُ الناسَ، فلم يُغْنِ عنهم شيئاً، «وأقبل أبو بكر على فرسٍ مِنْ مَسْكنه بالسُّنْح، حتى نزلَ فدخلَ المسجدَ، فلم يُكَلِّمِ النّاسَ حتى دخل على عائشةَ، فتيمَّمَ رسولَ الله ﷺ وهو مُغَشًّى بثوبِ حِبَرَةٍ، فكشفَ عن وجهِهِ، ثم أكبَّ عليه فَقَبَّلَهُ وبكى، ثم قال: بأبي أنتَ وأمي، والله لا يجمعُ اللهُ عليك موتتين، أما المَوْتَةُ التي كُتِبَتْ عليكَ فقد مُتَّها» [البخاري: ٤٤٥٢، ٤٤٥٣] وكلامُ أبي بكر هذا ردٌّ على مَنْ نفى موْتَهُ ﷺ في ذلك اليوم.

«ثم خرج أبو بكر وعمر بن الخطاب يكلمُ الناسَ، فقال: اجْلِسْ يا عُمَرُ، فأبى عُمَرُ أنْ يجلسَ، فأقبلَ الناسُ إليه، وتركوا عُمَرَ، فقالَ أبو بكر: أمَّا بعدُ: فَمَنْ كان منكم يَعْبُدُ محمداً فإنَّ محمداً قد ماتَ، ومَنْ كان يعبدُ الله، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٤]». قال ابن عباس راوي هذا الحديث: «والله لكأنَّ الناس لم يَعْلَمُوا أنَّ اللهَ أنزلَ هذهِ الآيَةَ حتى تلاها أبو بكر، فتلقَّاها منه النَّاسُ كلُّهُمْ، فما أسمع بشراً مِنَ النَّاسِ إلا يتلوها» [البخاري: ٤٤٥٤].

لقد وَضَعَ أبو بكرٍ الصحابةَ بخطبتهِ القصيرةِ، وبالآيةِ التي استدلَّ بها الناسَ في ضوء الحقيقةِ، واستبانَ للنَّاسِ أنَّ رسولَ الله ﷺ ماتَ حقّاً، انظر إلى أثرِ هذه الخطبة في عمر حيث قال: «والله ما هوَ إلا أنْ سمعت أبا بكر تلاها فعَقِرْتُ، حتى ما تُقِلُّني رجلايَ، وحتى أهْوَيْتُ إلى الأرضِ حين سَمِعْتُه تلاها، عَلِمتُ أنَّ النبيَّ قد ماتَ» [البخاري: ٤٤٥٤، وانظر أحاديث البخاري: ١٢٤١، ١٢٤٢، ٣٦٦٧، ٣٦٦٩].

٤- الذينَ يرتدُّونَ عَنْ دينهم لَنْ يَضُرُّوا اللهَ، فاللهُ غنيٌّ عنهم، ولكنَّهم يضرُّون أنفسَهُمْ، ويوقعونها في نارِ الله وغَضَبِه.

٥- لكلِّ إنسان أجلٌ تنتهي حياته إليهِ، فلا يموتُ الإنسانُ قبل أجَلِهِ، ولا يتأخرُ عنه، وقد أعطى هذا الفقه المسلمينَ قوةً هائلةً على خوضِ المعاركِ والحروبِ.

٦- قاتلَ الأنبياءُ وأتباعُهُمْ مِنْ أهْلِ العلمِ والفضلِ في سبيلِ الله، فلم يكونوا يَضْعُفُوا حين ينزلُ البلاءُ والهزيمة بهم، بل كانوا يصبرونَ على الآلامِ والأوجاعِ، ويضمِّدون الجراحَ، ويعودونُ إلى النَّصر.

٧- كان الأنبياءُ والربانيون يلجؤون إلى ربِّهم قبلَ أنْ يخوضوا غمارَ الحروب، يستغفرونَه لذنوبهم، ويدعونَهُ، ويستنصرونَ بِهِ على القومِ الظالمين.

٨- الذنوب التي يتلبس بها العبادُ قد تكونُ سبباً للهزيمة، وحارمةً من النَّصر، ولذا فإنَّ التوبةَ مِنَ الذنوبِ قد تكونُ مفتاحاً للنصر.

٩- الجهادُ قد يجلبُ النَّصرَ والعلوَّ والرفعةَ للمقاتلين، كما يجلب النعيمَ المقيمَ والحياةَ الأبديةَ.

النصُّ القرآنيُّ المتممُ للثلاثين من سورةِ آل عمران
هزيمةُ المؤمنين في أُحد بَعْدَ انتصارهم

أولاً: تقديم

حذَّر اللهُ -تعالى- المؤمنينَ مِنَ الاغترارِ بباطلِ ما دعاهم إليه المشركون، فإنَّ طاعتنا لهم تردُّنا على أعقابِنا، فنصبح خاسرينَ، وعلينا أنْ ننصرفَ عن الكافرين، ونلجأ إلى الله مولانا، فهو خيرُ النَّاصرين. ووعدنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنْ يُلْقِيَ في قلوبِ أعدائِنا الرُّعْبَ بسبب شركهم بالله تعالى ما لم ينزلْ بِهِ سلطاناً، وأعلمنا أنَّ مأوى هؤلاءِ الكفرةِ النَّارُ.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- كيف تحوَّلَ النصرُ إلى هزيمةٍ في أُحُدٍ بسبب مخالفة الرماةِ لما أمرهم بِهِ الرسولُ ﷺ، وصوَّرَ لنا مشهدَ الهزيمةِ في أُحدٍ تصويراً تكاد الكلماتُ ترسمه في قلوبنا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٤٩-١٥٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تحذيرُ الله المؤمنين من طاعة الكافرين فيرُدُّوهم على أعقابهم كافرين:

انتصرَ المسلمونُ في معركةِ بدرٍ، فحازوا بهذا النَّصر التوقيرَ والتقديرَ من خصومهم، وسكَتت الألسنةُ التي كانت تتناوشهم مِنْ اليهود والمنافقينَ، فلما وقعتْ الهزيمةُ في أُحُدٍ، انطلقت الألسنةُ من عقالها، انطلقتْ ألسنةُ المنافقين الذين شهدوا المعركة والذين لم

يشهدوها، وانطلقتْ وساوسُ الشيطانِ تعملُ في القلوب، وانبعثتْ وساوسُ النفسِ الإنسانية تتلاعبُ بالعقولِ والنفوسِ، وكلُّ ذلك أدى ببعض هؤلاء إلى مقتِ مسيرَتِهِمْ، وتطلعتْ إلى الرجوعِ إلى خُصومِهِمْ في مكَّةَ وغيرها، وجاءَ التحذيرُ الإلهيُّ الربَّانيُّ من ربِّ العالمين للمؤمنين مخوِّفاً إياهم من طاعةِ الكافرين، فيردُّوهم على أعقابهم كافرين، وينقلبوا خاسرين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران:١٤٩].

وحذَّر اللهُ المؤمنين من أن يرضوا بالتفاهات التي تنطقُ بها ألْسنةُ أعدائهم وخصومهم، ونهى نهياً قاطعاً عن طاعةِ الكفار، فموازينُ ومقاييسُ الكفار مختلَّةٌ ضالّةٌ منحرفةٌ، فلا يأمروننا بخير، ولا يُشيرونَ علينا بصلاحٍ، وليس لديهم هدايةٌ، ولن تقودُنا أقوالُهم وتوجيهاتهم إلا إلى الكفر والانحرافِ، ولو أطعناهم حقّاً إلى ما يدعوننا إليه، فسنتركُ ديننا وننحرفُ عنه، وهذه هي الردّةُ عن الإسلامِ، وهي الردّةُ على الأعقاب، وهي رجوعٌ إلى الوراءِ، وعودةٌ إلى الجاهليةِ، وانقلابٌ إلى الخسرانِ، عياذاً بالله ربِّ العالمين.

لقد علا منارُ أعداء الإسلامِ اليومَ، فأقاموا المعاهدَ والمراكزَ والجامعاتِ التي تُدَرِّس إسلامَنا وتاريخنا وعلومَنا، وأقاموا علماءَ يعملونَ على إفسادِ هذا الدِّين، وسُمُّوا بالمستشرقين، وصدّروا ما سطَّروه إلينا لإفسادنا، وليلبسوا علينا الحقَّ مِنْ هذا الدين، وعلينا أن نلقي بزبالةِ المستشرقين وراءَ ظهورنا، ونعتصم بما جاءَنا بِهِ هذا الدينُ.

٢- **طاعةُ الرحمنِ تُحقِّقُ النَّصْرَ:**

نهانا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن طاعةِ الكفارِ فيما يأمرونَنَا بِهِ، ويدعونَنا إليهِ، ودعانا ربُّنا- تباركَ وتعالى- إلى توَلِّيه، والأخذ بما جاءَنا به في كتابه، وعلى لسانِ رسولِهِ ﷺ ، وبذلك يتحقَّقُ نصْرُنا وعِزُّنا وكرامَتُنا، ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران:١٥٠].

٣- **إلقاءُ ربِّ العزَّةِ الرُّعْبَ في قلوبِ المشركين:**

وَعَدَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ يُلْقِيَ الرُّعْبَ في قلوبِ أعدائِنا، والرعب أشدُّ الخوفِ، ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران:١٥١].

وإلقاءُ الله الرعبَ في قلوبِ أعدائِنا إحدى الخصالِ التي خَصَّ الله بها هذه الأمَّةَ، ففي الحديثِ الصحيحِ أنَّ اللهَ أعْطَى رسولَهُ ﷺ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ مِنْ قبله، وإحدى هذه الخمسُ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرةَ شهرٍ» [البخاري: ٣٣٥. ومسلم: ٥٢١].

وهذا الرّعْبُ الذي يلقيه ربُّ العزةِ في قلوبِ الكفارِ أَحَدُ العواملِ الرئيسةِ التي تهزمُ الكفارَ في الميدانِ، ومِنْ أمثلة ذلك أنَّ بني النضير كانوا مغترِّينَ بأنفسهم وقُوّتهم في المدينة، وكان المسلمون يظنون أنّهم لا يستطيعون الانتصارَ عليهم، وكان بنو النضير يظنون أنَّ حصونَهُمْ وقلاعَهُمْ تقيهم بأسَ الله، فقذفَ الله الرعبَ في قلوبهم، فانخذلوا واستسلموا وهزموا ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) ﴾ [الحشر:٢].

والسببُ الذي أوقعَ اللهُ بِهِ الرعبَ في قلوبهم هُو كُفْرهُم وشركُهم بالله تعالى، وهذا الكفرُ والشركُ باطلٌ، فلا يوجدَ دليلٌ يقوم عليه أو يُؤَيِّدُه، وإذا كان اللهُ يلقي في قلوبِ أعدائِهِ الرُّعْبَ في الدنيا، فإنَّه يُدْخِلُهم في يومِ القيامة النَّارَ، وبئسَ المثوى في ذلك اليوم مثواهم، والمثوى في لغة العرب: الإقامةُ مَعَ الاستقرارِ، قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) ﴾ [الزمر:٦٠].

ولا تزالُ عقدةُ الخوفِ عندَ الغربيين من المؤمنين مغروسةً في نفوسِهِمْ، مَعَ ضعفِ المسلمينَ في هذه الأيام، وقد أفردها الغربيونَ بالتأليف، ولكنَّهم لم يهتدوا إلى الحقيقة التي أخبرنا اللهُ بها في كتابِهِ.

٤- انتصارُ المؤمنين في أولِ المعركةِ في أُحُدٍ:

خطَّطَ الرسولُ ﷺ للمعركةِ، ونظَّم جنودَهُ في أرض المعركةِ وَفْقَ الترتيبِ الذي تقضيهُ الخطّةُ، وخاضَ المسلمون المعركةَ وَفْقَ الخطةِ المرسومةِ، وصَدَقَ اللهُ المؤمنين وَعْدَهُ، فأخذَ المجاهدونَ يحصدونَ الكفارَ حصْداً، وسقط حاملُ لواءِ المشركين في المعركةِ، وطائفةٌ مِمَّنْ حوْلهُ بلغُوا سبعةً أو تسعةً، وسقطَ اللواءُ على الأرضِ وفرَّت المشركاتُ اللاتي حَضَرْنَ المعركةَ هارباتٍ إلى الجبلِ، وكان المسلمونَ قاب قوسين أو أدنى مِنْ النصر.

لكن وَقَعَ في المسلمين ما عَكَسَ ميزانَ المعركةِ، وقلبَ مسارَها، فغَلَبَ المشركونَ، وهُزِمَ المسلمون، لقد ترك الرماة مواقعهم في أعلى الجبل الذي كانوا عليه، وكان الرسول ﷺ أمَرَهم أنْ لا يبْرَحُوهُ سواءً انتصر المسلمون أو هُزِمُوا، وقد طَلَبوا مِنْ رئيسهم عبدالله بنِ جبير أن يأذن لهم في النزول لجمع الغنائم، وانتهابِ الأموالِ، فلم يأذنْ لهم، واختلفوا وتنازعوا فبقيت فئةٌ قليلةٌ بقيادة قائدهم على الجبل، ملتزمين بما أوْصاهُم الرسولُ ﷺ بِهِ، والفئةُ الكبرى ترَكُوا مواقِعَهُمْ ظانِّينَ أنَّ المعركةَ قد انتهتْ لصالحِ المسلمين ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ

ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

لقد صَدَقَ اللهُ المؤمنين وعْدَهُ بنصرهم في أوّلِ المعركةِ، ومعنى ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتلونهم، وتوقعون بهم الجراحَ وتزلزلونهم، وفَشَلُهُمْ وتنازعهم هو ما فَعَلَهُ الرماةُ عندما تمَرَّدُوا على قائدهم، وعَصَوْا أمْرَ رسولهم، وأفسدوا الخطَّةَ التي وضعها رسولهم ﷺ، وقولُهُ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران:١٥٢] أي: النصرَ الذي امتدَّ إلى نزولِ رماةِ المسلمين عن الجبلِ.

وقوله: ﴿مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [آل عمران:١٥٢] أي: الغنائمَ والأموالَ، وقوله: ﴿مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران:١٥٢] أي: أجر الآخرة وثوابها.

لقد فَشِلَ الصحابةُ وتنازعوا في أُحُدٍ، فذهَبَتْ ريحُهُمْ، وتبدَّدَت قوَّتُهم، وانتصرَ عليهم أعداؤُهم، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال:٤٦]. وقد بقيَ هذا التوجيهُ الإلهي الرباني الذي أنْزَلَهُ اللهُ تعالى في كتابِهِ هادياً ومرشداً على مرِّ الزمانِ كيْ لا يقع المسلمونَ في مثل ما وَقَعَ فيه الأخيارُ في أُحُدٍ.

إنَّ سنَّةَ الله لا تحابي أحداً، فعندما استقام المسلمونَ على الخطَّةِ التي خَطَّها الرسولُ ﷺ انتصروا، وعندما أصبحَ في الخطَّةِ ثغرةٌ هُزموا، وكم هي المعاركُ التي تَسَبَّبَ المسلمونَ فيها بالهزيمةِ بمخالفتهم لخطة القائدِ، لقد صرفَ اللهُ المؤمنينَ عَنِ النصر، فاختلت صفوفُهم واضطربَتْ، وسَقَطَ منهم الشهداءُ، وتناثروا في أرضِ المعركةِ، وكان ذلك ابتلاءً عظيماً، ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢] وصَرَفَ اللهُ المؤمنينَ عن المشركين، فبينَما كانوا منصورين، أصبحوا مهزومين، وكان ذلكَ ابتلاءً واختباراً عظيماً، وقد غَفَرَ اللهُ للمؤمنين ما وَقَع منهم مِنْ خللٍ ومعصيةٍ، واللهُ ذو فضلٍ عظيم.

٥- الآياتُ ترْسِمُ صورةَ هزيمةِ المجاهدين في الميدان:

عندما نُمْعِنُ النَّظَرَ في الآيةِ الأخيرة من هذا النصِّ نجدُها تصوِّرُ بعبارتِها الرائعةِ المحكمةِ السبكِ مشهداً لهزيمةِ المجاهدينِ في ميدانِ القتال ﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا

تَحْـزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٥٣] كأننا نشاهِدُ ونحن نقرأ الآيةَ على بعدِ الزمان والمكانِ الصورةَ بوضوحٍ، فالمقاتلون المسلمون الذينَ كانوا يقاتلون الكفارَ متفاهمينَ مترابطين انفرطَ عقدُهُمْ، واختلَّ صفُّهم، وذهبتْ ريحُهمْ، وانتشروا في ميدانِ القتالِ على غيرِ هُدى، لا يهتمُّ أَحَدٌ منهم بأحَدٍ، ولا يلتفتُ أحَدُهم إلى حالِ أخيه، بعضهم وَصَل في فِراره إلى المدنية، وبعضُهم جَرَى في الوديان والشعابِ، وبعضُهم صَعِدَ الجبلَ، والرسولُ ﷺ لا يزالُ هناك في أرْضِ المعركة، يناديهم، محاولاً تثبيتهم وتجميعهم، فأصابَهم هذا الذي وَقَعَ بهم بالغمِّ مضاعفاً، لقد هُزِموا، وظنُّوا أنَّ الرسولَ ﷺ قُتِلَ، وذهبتْ رِيحُهُمْ، وظنُّوا أنَّ الكفارَ سيطبقونَ عليهم، وقال تعالى في ختام الآية: ﴿لِّكَيْلَا تَحْـزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران:١٥٣] أي: هذا الذي بيَّناهُ لكم يَدُلُّكم على أنّ ما جرى لكم كان بِفِعْلِكُمْ، وما كَسَبَتْهُ أَيْدِيكُمْ، فلا تَحْزَنُوا على ما فاتكم مِنَ النَّصْرِ والغنيمة، ولا ما أصابكم مِنَ الهزيمةِ، واللهُ خبيرٌ بما وقعَ منكم مِنْ أعمال.

رابعاً: ما تهدي إليه هذه الآياتُ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- حذَّرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- ناهياً إيانا أنْ نطيعَ الكافرين، ونقبلَ مشورتهم، فيردُّونا على أعقابنا خاسرين، فالكفارُ لا هدايةَ عندهم، وكلُّ ما عندهم خسارٌ وبوار.

٢- علينا ونحنُ نحْذَرُ الكافرين وهَدْيَهُمْ، أنْ نأْخُذَ بهدي الله تعالى، فهو ناصرُنا ومولانا، ولا يدُلُّنا على ما فيه صلاحنا إلاَّ هو سبحانه.

٣- من خصائصِ هذه الأمةِ أنَّ اللهَ نَصَرَها بالرُّعْبِ مسيرةَ شَهْرٍ، ولا تزالُ هذه الخصيصةُ تعملُ عملَها في قلوبِ أعداء الإسلام إلى اليومِ.

٤- يُلْقي اللهُ الرعبَ في قلوبِ أعداءِ الإسلام لما في أنفسهم مِنَ الضَّلالِ والشِّرْكِ، فالشركُ باطلٌ، والباطلُ يُزَعْزِعُ النفوسَ، ويوقِعُها في الرَّيْبِ والشكِّ.

٥- انتصرَ المسلمون في أُحدٍ في أوَّلِ المعركةِ عندما استقاموا على الخطَّة التي اختطها لهم الرسولُ ﷺ، حتى إذا خالفوا الخطَّة ونزَلَ الرماةُ عن الموقعِ الذي حُدِّدَ لهم هُزِموا.

٦- مع فَضْلِ الصحابة وعُلُوِّ مكانتهم فإنَّ بعضهم طلب الدنيا، كما فَعَلَ الرماةُ الذين تركُوا مَواقِعَهم لأجلِ جمعِ الغنائم.

٧- اللهُ -تبارك وتعالى- لا يحابي أحداً، فيَهْزِمُ ربُّ العزَّةِ الأخيارَ أصحابَ رسولِ الله، ويديلُ عليهم أعداءَه الكفارَ إنْ لم يلتزموا بالخطَّة الصالحة، واختلفوا فيما بينهم.

٨- كانَ في هزيمةِ المسلمين في أُحدٍ بلاءٌ عظيمٌ، ودروسٌ كثيرةٌ، يحتاجُها المسلمون دائماً في مواجهتهم لأعدائِهم عَبْرَ تاريخهم.

٩- عَفا اللهُ -تبارك وتعالى- عن الذينَ فَرُّوا في أُحُدٍ، فلا يجوزُ أنْ يُوَجَّهَ اللومُ إلى واحد منهم.

١٠- رَوْعَةُ الوصفِ القرآني في تصوير مَشْهَدِ المعركةِ في أُحُدٍ، وهُمْ منهزمونَ، حالَ كونهم مخلفين رسولَ الله ﷺ وراءَهم في الميدان.

١١- هُزِمَ المسلمون في أُحُدٍ وأصابهم القرحُ، ولكنَّهم لمْ يفقدوا خيريتهم وأفضليتهم على الذين هزموهم، وعلى المسلمين أن يحذروا وساوس أعدائهم أن تعمل فيهم مصورةً لهم أنَّهم الأدنى بسبب هزيمتهم، كما هو واقع في أيامنا هذه.

النصُّ القرآنيُّ الحادي والثلاثونَ من سورةِ آل عمرانَ
الذينَ غشَّاهم الله النعاسَ والذين أهمتهُمْ أنفسهم

أولاً: تقديم

حَدَّثنا اللهُ -تعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن طائفتين مِنَ المجاهدين في أُحُد، إحداهما: غَشَّاها اللهُ النعاسَ، فحلَّ في نفوسها الأمنُ بعدَ الغمِّ الذي نَزَلَ بها. وطائفةٌ أخرى أَهَمَّتْها أنْفسُها، فهي تظنُّ بالله غير الحقِّ، كما هو حالُ أهْلِ الجاهليةِ، وقد فَصَّل ربُّنا القولَ في هذه الطائفة كما سيأتي في تفسيرها.

ثانياً: الآيات القرآنية في هذا النص من سورة آل عمران

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران:١٥٤-١٥٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- الطائفةُ التي تَغشَّاها النعاسُ أمنةً من الله والطائفةُ التي أهمتها أنْفسُها:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أنْزَلَ على المقاتلينَ المجاهدينَ في أُحُدٍ بعدما أصابَهم الغمُّ أمنة نعاساً، غشَّى طائفةً منه، وطائفةٌ أخرى لم يَغْشاهُم النعاسُ، أهمَّتْهم أنْفُسُهم، والذين غشّاهُم النعاسُ هم الأكثرُ والأفضلُ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ﴾ [آل عمران:١٥٤] والأَمَنَةُ التي أنزلها اللهُ عليهم هي الأمْنُ، وفسَّر اللهُ هذا الأمْنَ بالنُّعاسِ الذي غَشِيَهُمْ، فالمقاتلُ المُجْهَدُ المتعبُ الواثقُ بالله ورعايته وتأييده يُسلِّمُ أمْرَه لله، وهو يَبْذُلُ أقصى ما يستطيعُهُ من جُهْدٍ، وهذه اللحظاتُ التي تخفقُ فيها رؤوسُ المجاهدين، وهُم على خيولهم، أو وَهُمْ واقفون على أرجلهم في الميدانِ لها أَثَرٌ عظيمٌ في هدوءِ النفوسِ واسْتِقْرارِها، وإزالةِ التعبِ الذي يُرْهِقُ صاحِبَهُ.

وقد حدَّثنا الصحابيُّ الجليلُ أبو طلحة عن نَفْسِهِ وعن الصحابةِ مِنْ حوله في أُحُدٍ عندما تَغَشَّاهُمْ النومُ، فقال: «كنت فيمن تَغَشَّاه النعاسُ يومَ أُحُدٍ، حتى سقطَ سَيْفي مِنْ يَدي مراراً، يَسْقُطُ وآخذه، ويسقطُ فآخذه» [البخاري: ٤٠٦٨].

وقال أيضاً: «رَفَعْتُ رأْسي يومَ أُحُدٍ، فجعلتُ أنْظُرُ، وما منهم يومئذ أَحَدٌ إلا يميدُ تحت حَجَفَتِهِ مِن النُّعاس» [الترمذيُّ: ٣٠٠٧. وقال: هذا حديث حسن صحيح]. ولم يكن كلّ الذين شهدوا أُحُداً على هذا المستوى الراقي مِنَ الإيمانِ والوثوقِ بالرحمن، فبعضُ الذين شَهِدُوا أُحداً قال الله فيهم: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران:١٥٤].

وهذه الطائفة التي أهمتها أنفسها قد تكون مِنَ المنافقين الذين شهدوا المعركة طلباً لحيازةِ المغنم، وقد يكونون مِنَ المؤمنين الذين فيهم ضعف، فقالوا ما قالوهُ مما أنْكَرَهُ الله عليهم، وهذه الطائفةُ طائفةٌ قلقةٌ لم يستقرّ فيها التوكلُ على الله والتسليمُ لَهُ، أَهَمَّتْها أنفسها، فهي تُعْمِلُ الفكرَ فيما ينبغي أنْ تفعله، أترجعُ إلى المشركين، أو تفرُّ إلى الصحراءِ والجبالِ والوديانِ، ولو سَلَّمَتْ أمرها لله تعالى لما أهمتها أنْفُسُها.

وقد كَشَفَ اللهُ المكنونَ في قلوبِهِمْ، فهم يظنونَ في أنْفُسِهِمْ غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية، لقد ظنَّ هؤلاءِ أنَّ هذه المعركةَ هي النهايةُ، وأنَّه لنْ تقوم للمسلمين قائمةٌ بعدها، وأنَّ المشركينَ سيكونونُ هم أسيادَ الموقفِ، وهذا الظنُّ الذي خالطَ نفوسَهَمْ ظنٌّ خاطئٌ، وهو ظنُّ الجاهليةِ. وقال هذا الفريقُ الذي لم يتشبع بالإيمانِ، ولم تستقرَّ عنده تعاليم الإسلامِ: هل لنا مِنَ الأمرِ مِنْ شيءٍ، ويأتي الجوابُ واضحاً بيِّناً: قُلْ إنَّ الأمر كلَّه لله، وأخبرَ اللهُ سبحانُه أنَّهم يخفون في أنْفُسِهِمْ ما لا يبدونَ لكَ، وهذا الذي يخفونه في أنْفُسِهِم هو قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

هذه النفوسُ تدورُ حولَ ذاتها من غيرِ بصيرةٍ ولا استقرارٍ، حُرِمَتْ نعمةَ الأمنِ، ولم تَفْقَه كيف تُسَلِّمُ أمْرَها لله، وقد غاب عنها أنَّ تدبيرَ الأمورِ إلى الله، وغاب عنها أنَّ الموتَ والحياةَ بيدِ الله سبحانه، فلا يموتُ أَحَدٌ قبلَ وقْتِهِ، ولا يبقى أحد بعد الأجل المحدَّدِ، وإذا شاءَ اللهُ شيئاً كان، فلو كَتَبَ اللهُ على واحدٍ أنْ يموتَ بموضعٍ، فإنّ الله يجعلُ له حاجةً إلى ذلك

المكانِ الذي سيموتُ فيه، ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] أيْ: لو كُنْتُمْ قاعدين في بيوتكم لم يَكُنْ بُدٌّ مِن خروج من كُتِبَ عليه القَتْلُ إلى المكان الذي يُصْرَعُ فيه.

وقد أخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّه شاءَ ابتلاءَ أصحاب رسوله بما ابتلاهم به في أُحُد، ليختبرهم بتلك المحنةِ، ويظهر ما تكنُّه القلوبُ، فتظهر على حقيقتها، ويمحِّص ما في النفوسِ، أي: يصفيه مما خالَطَه مِنَ الدَّخن، واللهُ عليم بها في القلوبِ من أسرارٍ ومقاصدَ ونيات، وسيجزي كلَّ واحد بعمله.

٢- الذين اسْتَزَلَّهُمُ الشيطانُ ببعضِ ما كسبوا:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية الأخيرة من هذا النصِّ أنَّ الذين تَوَلَّوْا يومَ التقى الجمعان، أي: فرُّوا، إنَّما استزَّهُمُ الشيطانُ ببعضِ ما كسبوا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران:١٥٥].

ومعنى ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أيْ: سَبَّبَ لهم الزللُ، وهي المعصيةُ التي تَمَثَّلتْ في هربهم من ميدان القتال، وقوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ أيْ: ببعض ذنوبهم التي ارتكبوها من قبل، وأَخْبَرَ سبحانه أنه عفا عن الفارِّين، فلا يجوزُ لومُ أحدٍ منهم على فرارِهِ، وختم الآية بصفتين دالتين على عفوه، وهما صفتا: المغفرةِ، والرحمةِ.

رابعاً: ما تهدي إليه الآياتُ من عِلْمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدي إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- امتنَّ اللهُ -تعالى- على المجاهدين في أُحُدٍ بإنزاله عليهم النعاس مِنْ بعدِ ما أصابَهُمْ الغَمُّ أمنةً منه، فطَمْأنَ بذلك قلوبَهُمْ، وهَدَّأ نفوسَهُمْ.

٢- بعضُ الذين شاركوا في القتالِ في أُحُدٍ لم يغشاهُمُ النعاسُ، ولم يسلِّموا أمْرَهُمْ لله تعالى، وكان مدارُ اهتمامهم هو المصيرُ الذي سيصيرونُ إليه.

٣- المؤمنُ الصادقُ يعلمُ أنَّ الأمورَ كلَّها بيد الله، تباركَ وتعالى، ومِنْ ذلك الحياةُ والموتُ، فللنفوس آجالها، لا تتقدمُ ولا تتأخرُ.

٤- عفا اللهُ تعالى عن الذين فرُّوا في أُحُدٍ وغَفَر لهم، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يلومَ أحداً منهم فرَّ من القتالِ.

٥- لا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ، فإذا شاءَ اللهُ أن يقبضَ أحداً في موضع قدَّر موتَهُ فيه، وجعل اللهُ له حاجةً إلى ذلك المكان.

٦- قد تكونُ الذنوبُ التي ارتكبها العبادُ سبباً في الهزيمةِ، ولذا علينا أن نكثر من التوبة والاستغفار قبل القتالِ.

النصُّ القرآنيُّ الثاني والثلاثون من سورة آل عمران

الردُّ على الكفار الذين زعموا أنَّ إخوانهم الذين سافروا للتجارة أو الغزو لو لم يسافروا ما ماتوا

أولاً: تقديم

أبطل اللهُ تعالى في آياتِ هذا النص دعوى الكافرين الذين زعموا أنَّ الذين قُتلوا من أقربائهم وأصدقائهم في خروجهم للتجارة أو الغزو لو بَقُوا معهم، ولم يخرجوا من ديارهم، ما ماتوا وما قُتِلوا، فالحياةُ والموتُ بيد الله تعالى، وبيَّن الله فضيلةَ الذين قتلوا في الجهاد، وسيجزي المجاهدين أجرهم.

وبيَّن اللهُ تعالى ما اتَّصفَ به رسولُهُ ﷺ مِنَ الرحمةِ واللين، فاجتمعت القلوبُ عليه، ولو كان فظّاً غليظَ القلب لانفضُّوا من حوله، وقد بيَّن اللهُ لرسولِه ﷺ كيف يعاملُ أصحابه.

وبيَّنَ اللهُ للمؤمنين أنَّ النصر والهزيمةَ من عنده، ولذلك فعلينا أنْ نطلبَ النصر من عنده، وعظَّم اللهُ شأن الغلولِ، ونفاهُ عن رسولِهِ الكريم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٦-١٦٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- نهى اللهُ المؤمنين أنْ يذهبوا مَذْهَبَ الكافرين:

نهى اللهُ تعالى المؤمنين مِنْ صحابةِ الرسولِ ﷺ فمن بعدهم أنْ يذهبوا مذهبَ الكافرين الذين قالوا لإخوانهم الذين خرجوا للتجارة أو الغزو في سبيل الله، فسقطوا موْتى أو قتلى: لو كانوا عندنا ولم يخرجوا ما ماتوا وما قتلوا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ [آل عمران:١٥٦]، ومعنى ﴿ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي سافروا بقصدِ التجارة، و﴿غُزًّى﴾ جمع، مفردها غاز، وهو الذي يخرجُ للقتالِ في سبيلِ الله. وهذا التصور الخطأ لا يزال يحمله كثير من الذين ينسبون إلى الإسلام حتى اليوم، وهذا التصور الخطأُ يصيبُ قائليه بالحزن، فيصبح حسرةً في قلوبهم، ولو أيقنوا بما أيقن به المسلمون من أن وقائع الحياة من الموت أو القتل أو الجرح وغيرها من المصائب هي أقدار إلهية لا بد من وقوعها لارتاحت قلوبهم، وهدأت نفوسهم ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٥٦﴾ [آل عمران:١٥٦] والحسرةُ: الغمُّ الذي يُصيب المرْءَ عما فاته أو على ما فات أقاربه وأصدقاءه، ومما يدلُّ على بطلانِ هذا الاعتقاد قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ٢٣﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ﴾ فالموتُ والحياةُ أقدارٌ إلهية لها وقتٌ محددٌ مكتوبٌ، لا يزيدُ، ولا ينقصُ.

٢- الذين يقتلون أو يموتون في سبيل الله لهم رحمةُ الله ومغفرته وهي خير مما يجمعون:

أخْبرَ اللهُ -تعالى- المؤمنينَ أنَّ الذين يُقْتَلُونَ في سبيل الله أو يموتون يحصلون على مغفرةِ الله ورحمته، وهو خيرٌ مما يجمعونَهُ من حطامِ الدنيا الزائلةِ الفانية، ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ١٥٧﴾ [آل عمران:١٥٧] وأخبرنا تبارك وتعالى أن الذين يموتون أو يقتلون سيحشرون إلى الله تعالى، لا يضيع منهم أحد،ولا يُنسى أحدٌ، ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ١٥٨﴾ [آل عمران:١٥٨].

٣- فبما رحمة مِنَ الله لِنْتَ لهم:

حدثنا اللهُ -تبارك وتعالى- عن صفات رسولنا ﷺ وشخصيته، وهو الأسوةُ والقدوةُ، فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٩] أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ رسولنا ﷺ ممتلئٌ بالرحمة التي رحمه بها، ولذلك وَصَفَ الرسولُ نفسه ﷺ بأنه الرحمةُ المهداةُ، ووصفه ربّه في موضع آخر بأنه رؤوف رحيم بالمؤمنين، فقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة:١٢٨] وهذه الرحمةُ العظيمةُ التي اتَّصف بها الرسولُ ﷺ كانت تلقي بظلالها في تعامله مع أصحابه، فكانت معاملته لهم تتصف باللين والودِّ والحبِّ، ولذلك اجتَمعت عليه قلوبهم، ولو لم يكن الرسولُ ﷺ كذلك، أيْ: لو كان فظّاً غليظَ القلبِ في تعامله معهم، لانْفَرَطَ عقدهم، وتفرَّقوا عنه، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩] وقد أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ بمزيدٍ مِنْ حسن التعاملِ مع أصحابه، فقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

ولا شكَّ أنَّ الرسولَ ﷺ قد التزم بما أَمَرَهُ بِهِ ربُّه، فعفا عنهم، واستغفرَ لهم، واستمرَّ على ما كان عليه مِنْ مشاورتهم فيما يعرض له من أمرِ الحروبِ وغيرها، فقد شاورهم في مقاتلةِ الكفار في بدر، وشاورهم في البقاء في المدينة أو الخروج إلى أُحُد، وشاور الأنصار في مصالحة غطفان على ثلث ثمارِ المدينة كي يرجعوا عنهم في الخندق، فأبى الأنصارُ، وعندما رُميتْ عائشةُ بما رُميتْ به استشارَ أصحابَهُ، وفي الجملة كان الرسولُ ﷺ كثيرَ الاستشارةِ لأصحابِهِ، ولم يكن خروجه إلى أُحُدٍ الذي ارتآه أكثرُ أصحابِهِ هو سبب الهزيمةِ، فالهزيمةُ كانت بسبب عصيان الرماة أمْرَهُ.

وقوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٩]. يدلُّ على أنَّ الرسول ﷺ كان بعدَ أن يسمع مشورةَ أصحابِهِ، ينعقدُ قلبه على أمرٍ مِنَ الأمورِ، فإذا عَزَمَ على فِعْلِ أمْرٍ مما أشير عليه به، فعليه أن يتوكل على الله، ويفعل ما عزم عليه، متوكلاً على ربِّ العالمين، واللهُ يحبُّ المتوكلين.

٤- إنْ ينصركُمُ اللهُ فلا غالبَ لكم:

أعلمنا الله -عزَّ وجلَّ- أنه إنْ نَصَرَنا فلا غالبَ لنا، وإنْ خَذَلَنا فلا يستطيعُ أَحَدٌ أن يمنحنا النصرَ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٦٠].

وإذا كان النصرُ مِنَ الله وحْدَهُ، ولا يستطيعُ أَحَدٌ منحنا النصرَ إذا خذَلنا الله، فعلينا أن نطلبَ النصرَ مِنَ الله الواحدِ الأحدِ، ولذا قال في خاتمة الآية آمراً المؤمنين بالتوكل عليه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٠] وهذا يُظهِر إلى أيِّ مدى ضلَّ المسلمون اليوم في اعتمادِهِمْ على الدولِ الكافرة، وعلى مجلس الأمن والأمم المتحدة في مواجهة عدوهم، والواجب عليهم أن يرتقوا بأنْفسِهِمْ وقوتِهِمْ وجيوشِهِمْ، ويتكلوا على ربِّهم، فمنه النصرُ، وعليه التكلانُ.

٥- عِظَمُ جريمةِ الغلول:

أعلمنا اللهُ ربَّنا -تبارك وتعالى- أنه لا يجوزُ أنْ يُنْسَبَ الأنبياءُ إلى الغلولِ، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران:١٦١] والغلولُ في الشرع أَخْذُ شيءٍ مِنَ الغنيمةِ على جهةِ الخفاءِ، وإذا كان هذا لا يليقُ بالأنبياء، فإنَّ نبينا محمداً ﷺ في غاية البُعْدِ عن الغلولِ، فطبيعةُ الرسول ﷺ وما تحلَّى به مِنَ السموِّ والتقوى والصلاحِ والقربِ مِنَ الله تعالى تجعله يمتنع عليه أن يأتي الغلولَ.

وقد رَهَّبَ اللهُ تعالى المؤمنين مِنَ الغلولِ، فقد أعلمنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أنَّ ﴿مَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٦١] أيْ: يأتي بما أَخَذَهُ مِنَ الغنيمةِ مخفياً إياه، يحمله على رقبته علانيةً يومَ القيامةِ، وقد كان الصحابةُ في الأمانة في القمةِ، ووردتْ عنهم الأخبارُ بأدائهم الأموال العظيمة في حروبهم وغزواتهم.

وجاءت الأحاديث النبويةُ مرهبةً مِنْ الغلولِ بما لا مزيدَ عليه، فقد جاءت الأخبارُ أنَّ الرسولَ ﷺ امتنع مِنَ الصلاةِ على الغالِّ، وورد عن أبي هريرة قالَ: قامَ فينا النبيّ ﷺ فذكرَ الغلولَ فعظَّمه، وعظَّم أمره، قال: «لا أُلفينَّ أحدكم يومَ القيامةِ على رقبتِهِ شاةٌ لها ثغاءٌ، على رَقَبَتِهِ فرس له حمحمةٌ، يقول: يا رسولَ الله، أغِثْني، فأقولُ: لا أمْلِكُ لك شيئاً، قد أبْلَغْتُكَ، وعلى رقبتهِ بعيرٌ له رُغاء، يقولُ: يا رسولَ الله، أغثني، فأقولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شيئاً، قد أبْلَغْتُكَ، وعلى رقبتهِ صامتٌ، فيقول: يا رسولَ الله، أغِثْني، فأقولُ: لا أمْلِكُ لَكَ شيئاً، قد أبْلَغْتُكَ، أو على رَقَبَتِهِ رِقاعٌ تَخفِقُ، فيقولُ: يا رسولَ الله، أغثْني، فأقولُ: لا أملِكُ لَكَ مِنَ الله شيئاً، قد أبْلَغْتُكَ» [البخاري: ٣٠٧٣. ومسلم: ١٨٣١].

وعن عبدالله بنِ عمرٍو قال: «كان على ثِقَلِ النبيِّ ﷺ رَجُلٌ يقالُ له: كِرْكِرَةُ، فماتَ، فقال رسولُ الله ﷺ : هو في النارِ، فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عباءَةً قد غلَّها» [البخاري: ٣٠٧٤].

وعن عمر بن الخطاب قال: لما كان يومُ خيبر أقبل نَفَرٌ مِن صحابةِ النبي، فقالوا: فلانٌ شهيد، فلانٌ شهيد، حتى مَرُّوا على رجل، فقالوا: فلان شهيدٌ، فقالَ رسول الله ﷺ: «كَلاَّ إنِّي رأيتُه في النَّار في بُرْدَةٍ غلَّها - أو عباءَةٍ» [مسلم: ١١٤].

وعن أبي هريرةَ قالَ: انصرَفْنا مع رسولِ الله ﷺ إلى وادي القُرَىٰ ومعه عَبْدٌ لهُ يقالُ له: مِدْعَم، أهْداه لهُ أَحَدُ بني الضِّبابِ، فبينما هو يَحُطُّ رَحْلَ رسولِ الله ﷺ إذْ جاءَه سَهْمٌ عائرٌ، حتى أصابَ ذلك العبدَ، فقال الناس: هنيئاً له الشهادةُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «بل، والذي نفسي بيده، إنَّ الشملة التي أصابَها يومَ خَيْبَرَ مِنَ المَغانِمِ، لم تصبْها المقاسِمُ، لتشتعلُ عليه ناراً» [البخاري: ٤٢٣٤. ومسلم: ١١٥].

وقد رَهَّبَ اللهُ ورَهبَ رسولُهُ ﷺ مِنَ الغلولِ، لأنَّ الغلولَ يحوِّل الجيش الإسلامي المجاهد في سبيل الله إلى قوم هَمُّهُمْ المتاعُ الماديُّ، وإذا كان المقاتلُ قدْ أخفى المالَ فإنَّه يَشْغَلُ نفسَهُ بإخفائِه ورعايته، ولا يصبحُ هَمُّهُ مجاهدةَ أعداء الله ومقاتَلَتهم.

ومَثَلُ الذي يَغُلُّ من الغنيمة موظفو الدولة الذين يُهْدِي لهم الناس مالاً، فيأخذونَه، فإنَّه غلولٌ، فعن أبي حميد الساعدي، قال: استعملَ الرسولُ ﷺ رجلاً مِنْ الأزدِ، يقال له: ابنُ اللُّتْبِيَّةِ على الصَّدَقَةِ، فلما قَدِمَ قالَ: هذا لكم، وهذا أُهْدِيَ لي، قال: فهلا جَلَسَ في بَيْتِ أبيه، أو بيت أُمِّه، فينظرَ أيهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لا يأْخُذُ أحدٌ منه شيئاً إلا جاءَ به يومَ القيامةِ يحملُه على رَقَبَتِهِ، إنْ كان بعيراً له رغاء، أو بقرةً لها خوار، أو شاةً تَيْعَرُ، ثم رفع بيده حتى رأينا عُفْرَةَ إبطيه، «اللهمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللهمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» ثلاثاً [البخاري: ٢٥٩٧. ومسلم: ١٨٣٢].

وبعد أن يأتي كلُّ غالٍّ بما غلَّه يومَ القيامةِ، توفي كلُّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران: ١٦١].

٦- لا يستوي عند الله مَنِ اتَّبعَ رضوانَ الله والذي باءَ بسخطِ الله:

سألنا اللهُ -تعالى- سؤالَ إنكارٍ نافياً أن يستوي عندَهُ حالُ الذين اتبعوا رضوانَ الله، وحال مَنْ باءَ بسخطِ مِنَ الله ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ [آل عمران: ١٦٢] إنَّ هذين الفريقين بينهما بَوْنٌ عظيمٌ، فالذين اتَّبعوا رضوانَ الله في جناتِ النعيم، والذين باؤوا بسخط الله مأواهم جهنّمُ وبئسَ المصيرِ، ولكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقين درجاتٌ، فأهلُ الجنة لهم فيها درجات بعضُها فوقَ بعضٍ، وأهْلُ النَّارِ في دركاتٍ بعضُها تحتَ بعضٍ ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٣].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١ - دعوى الكفار والمنافقين أنَّ خروجَ الذين خرجوا للتجارة أو الغزو هو سبب قَتْلِ مَنْ قُتِلَ منهم أو موته غيرُ صحيح، فالحياةُ والموتُ بيدِ الله تبارك وتعالى لهما أجلٌ محددٌ.

٢- الموتُ أوْ القتلُ في سبيل الله -تبارك وتعالى- خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها.

٣- الموتى والقتلى سيَرْجِعُون إلى الله، ويحاسبهم على ما قدموا.

٤- أثْنَى الله تعالى على رسوله ﷺ بأنَّه رحيمٌ، يحسنُ التعاملَ مع أصحابه، ولذلك اجتمعتْ عليه قلوبُهُم، ولو كانَ فظّاً غليظَ القلبِ لتَفَرَّقوا، وانْفَضُّوا عنه.

٥- بيَّن اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ كيف يعاملُ أصحابَه، فقدْ أمره بأنْ يعفوَ عنهم إذا أخطؤوا، ويستغفرَ لهم إذا عَصَوْا، ويشاورهم فيما يعرضُ لهُ مِنْ أُمورِ الحربِ والسلم.

٦- أمر اللهُ عَزَّ وجلَّ رسولَهُ ﷺ بعد أن يشاورَ أصْحابَهُ أن يمضي إلى ما عَزَمَ عليه متوكِّلاً على الله تعالى.

٧- النَّصْرُ مِنَ الله هو الذي يمنحه، والهزيمةُ مِنْ الله لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يوقِفَها، وإذا كان الأمْرُ كَذلِك فعلى المؤمنينَ أنْ يطلبوا النَّصْر مِنَ الله لا مِن أعدائه.

٨- طبيعةُ الرسولِ ﷺ تنافي اتصافَهُ بالغلولِ مِنَ الغنيمة، ورَهَّب الله الذين يَغُلُّون مِنَ الغنيمةَ بأنهم سيأتون يومَ القيامةِ يحملونَ ما غلُّوه على رقابهم.

٩- الذين اتبعوا رضوان الله في جناتِ النعيم، والذين باؤوا بسخط مِنَ الله مأْواهم النَّارُ، والفرقُ بين الفريقين كبيرٌ.

١٠- للمؤمنين في الجناتِ درجاتٌ بعضها فوقَ بعضٍ، وللكافرين في النارِ دركاتٌ بعضها تحت بعضٍ.

النصُّ القرآنيُّ الثالث والثلاثون من سورةِ آل عمران
هزيمةُ المسلمين كانت بسبب عصيانهم ربَّهم

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- ما في بعثةِ رسولنا الكريم ﷺ مِنْ خيرٍ على أصحابِهِ وأُمَّتِه من بعده، وأبانَ للصحابة أنَّ هزيمتهم في أُحُدٍ كانت بسببِ عصيانِ مَنْ عصَى من الرماةِ الذين غادروا مواقعهم، ومع ذلك فإن الهزيمةَ كانت بقَدَرِ الله تبارك وتعالى.

وقد كَشَفَتْ هذه الهزيمةُ عن معادنِ الرِّجالِ، فأظهرتِ المؤمنين، وكشفت المنافقين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران:١٦٤-١٦٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- امتنانُ اللهِ على المؤمنينَ ببعْثَتِهِ فيهم رسولاً من أنفسهم:

في أثناء الآياتِ التي تتحدَّثُ عن الدروسِ والعبرِ في هزيمةِ غزوةِ أحدٍ يُذكِّر اللهُ المؤمنين بالنعمةِ الكبرى التي منَّ اللهُ عليهم بها، وهي بعثةُ رسولِ الله ﷺ فيهم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤]. لقد أنْعَمَ اللهُ وتفضَّل على عبادِهِ المؤمنين إذ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم، أي: مِنَ العربِ، يتلو عليهم آياتِ الله المنزلةَ عليه، وهي آياتُ القرآنِ الكريم، ويزكِّيهم، أيْ: يطهرُّهم مِنَ الشِّركِ والذنوبِ والمعاصي، ويطهرُهُمْ من هذه الأدناس التي كانت تقذِّرُ أرواحَهُمْ، وتفسدُ قلوبَهُمْ ونفوسَهُمْ،

ويعلمهم الكتابَ وهو القرآن، فلم يكتفِ بتلاوةِ القرآنِ عليهم، بل كان يبيِّنُ لهم آياتِهِ ويوضِّحها، ويدلُّهم على معانيه وأحكامه، وكان يبينُ لهم الحكمةَ، وهي إصابةُ الحقِّ، والحكمةُ موجودةٌ في القرآنِ، وكان الرسول ﷺ ينطقُ بها، ويعلمها أصحابه.

هذا ما فعله الرسولُ ﷺ بأصحابِهِ وأمته، فبعد أنْ كانوا ضالين جهلاءَ، لا عِلْمَ عندهم ولا هدى ولا نورٌ، يعبدون الأوثانَ، ويقطعونَ الأرحامَ، ويأكُلُ القويُّ منهم الضعيفَ، ويتصارعونَ فيما بينهم على الباطلِ، ويأكلونَ الميتةِ، ويشربون الدَّمَ، ويتفاخرونَ بالأحساب، إذا بهذا الرسولِ الكريم يقيمُهُمْ على المِلَّةِ المستقيمةِ، ويغرسُ فيهم العقيدةَ السويةَ، والقيمَ الصالحةَ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤].

٢- الهزيمةُ في أُحُدٍ كانت مِنْ عندِ أنفسهم:

تساءَل الصحابةُ عن السبب الذي أدى بهم إلى الهزيمةِ في أُحُدٍ، قالوا: كيف نهزمُ، ونحن المؤمنون، نقاتلُ في سبيل الله من كَفَر بالله، وفينا رسولُ الله ﷺ؟ فأخبرهم الله أنَّ سببَ الهزيمةِ يعودُ إليهم ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:١٦٥] أخبرهم ربُّهُمْ وهم يتساءَلونَ عَنِ سببِ المصيبةِ التي حلَّت بهم في أُحُد أن السببَ يعود إليهم، فهم الذين سَبَّبوا الهزيمةَ وصنعوها، فالرسولُ ﷺ أعدَّ الخطةَ العسكريةَ، وأقامَ المقاتلين عليها، وشدَّد على الرماةِ الذين وضعَهُمْ على الجبلِ الذي عُرِفَ بعد ذلك باسم جَبَلُ الرماةِ، وفَقِهَ المقاتلون كيف يواجهون الأعداء، وصدقَ اللهُ المؤمنين وعده، فانتصروا في بدايةِ المعركةِ، حتى إنَّ الرماةَ ظنُّوا أنَّ المعركةَ قَدْ تمَّت، فغادروا مواقِعَهُمْ عاصينَ رسولَهُم، مختلفين مع قائِدِهم، فأوجدوا ثغرةً استغلها العَدوُّ، فحوَّل الأعداءُ المعركةَ لصالحهم، وهزَموا المؤمنين، وهذا هو الشأْنُ في أكثرِ المعاركِ التي يُهْزَمُ فيها المسلمون، وكلُّ المصائب التي تصيبُهُمْ، يكونُ السببُ عائداً لهمْ ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠]، وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء:٧٩].

وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ [آل عمران:١٦٥] المصيبةُ التي أصابتهم قتل سبعين منهم في أُحُدٍ، وأصابوا مثلها في بدرٍ، فقتلوا مِنَ المشركين سبعينَ، وأسروا سبعين، هذا بالإضافة إلى من قتلوه في أُحُدٍ.

وقوله في ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:١٦٥] أي: يفعلُ ما يشاءُ، ويحكمُ ما يريدُ، لا رادَّ لحكمِهِ، ولا مُعقِّبَ لقضائه.

٣- ما أصابَ المسلمينَ في أُحُدٍ هو بإذن الله وقَدَرِهِ:

مع أنَّ الهزيمةَ في أُحُدٍ كانت بسبب المسلمين أنفسِهم، فإنها كانت بإذن الله تعالى وقدَرِه ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [آل عمران:١٦٦].

إنَّ سبب هذا المصاب الجلل هو عصيانُ الرماة، ولكنَّ الهزيمةَ كانت بإذن الله، أي: بإذنه القدريِّ الكونيِّ، فكلُّ الأمور تجري بإذن الله، والإذنُ الكونيُّ القدريُّ شاملٌ لما يحبُّه الله كنصرِ المؤمنين في بَدْرٍ، ولما يكرهُهُ، كهزيمةِ المسلمين في أُحُدٍ، وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران:١٦٦] عنى بالجمعين: جَمْع المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ، وجَمْعِ الكافرين بقيادةِ أبي سفيان.

٤- أذِنَ اللهُ بهزيمةِ المؤمنين ليظهرَ كُلاً مِنَ المؤمنين والمنافقين:

إحدى النتائج الكبيرةُ التي أبرزتها غزوة أحد أنها أظهرت المؤمنين الذين قاموا بتكاليف المعركةِ، وصبروا على ما فيها من آلامٍ، وما جلبتْهُ من قروحٍ، ومن ثمارها أنها أبرزتِ المنافقين وأظهرتهم، فالشدائدُ تبرزُ الأخيارَ والأشرارَ، وتظهرُ الصالحين والفجّارَ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران:١٦٧] خرج الرسولُ ﷺ بالجيش إلى أُحُدٍ، وكان تعدادُه ألفَ مقاتلٍ، وفي الطريق رَجَعَ عبدالله بنُ أُبَيٍّ، وكانَ رأسَ المنافقين، بثلاثمائةِ مقاتلٍ، وعلَّل رجوعَهُ بأنَّ الرسولَ ﷺ قدّم رأي مخالفيه الذين دَعَوْهُ إلى الخروجِ إلى أُحُدٍ، على رأيه الداعي إلى البقاءِ في المدينةِ، وقد لحقَ بهم بعضُ صحابة رسولِ الله ﷺ، يدعونَهُمْ إلى القتالِ مَعَ رسولِ الله، والدفعِ عن بلادهم وأموالهم ونسائِهم، فأبَوْا، وتعلَّلُوا بعللٍ كاذبةٍ، قائلين: لو كنا نعلم أنَّه سيكون قتالٌ لاتبعناكم، وسِرْنا مَعَكُمْ، وقد حَكَمَ اللهُ عليهم أنَّهم في ذلك الوقت كانوا للكفر أقربَ منهم للإيمانِ، قال ابن كثير: «استدلُّوا بالآية ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ﴾ [آل عمران:١٦٧] على أنَّ الشخصَ قد تتقلبُ به الأحوالُ، فيكونُ في حالٍ أقْربَ للكفر، وفي حال أقرب للإيمان» [ابن كثير: ١/ ٤٧٦].

وقد أخبرنا اللهُ أنَّ المنافقينَ كانوا كاذبين فيما قالوه، فهذا قولُهُم بأفواههم، وقلوبهم منه خالية ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران:١٦٧] أي والله أعلم بما يخفونه في قلوبهمْ.

٥- الذين قعدوا عن القتال وقالوا لإخوانهم الذين قتلوا: لو أطاعونا ما قتلوا:

أخبرنا اللهُ -سبحانه وتعالى- أنَّ المنافقين نَصَحُوا أقرباءَهم وأصدقاءَهم الذين عزموا على الخروج إلى أُحُدٍ بعدم الخروجِ، وقالوا لمن استشهدَ منهم: لو أطاعونا في عَدَمِ الخروج ما قتلوا ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران:١٦٨]. وقد رَدَّ الله عليهم مقالَتهم مبيناً جهلَهُمْ وضَلالَهُمْ فيما ادَّعوه وما زَعَمُوه، فقال: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران:١٦٨] أمر رسولَهُ أنْ يقول لهؤلاء الذين قالوا ما قالوه: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [آل عمران:١٦٨] أي: امنعوا الموت عن أنفسكم، وهذا الجوابُ يُظْهِرُ فسادَ قولِ هؤلاء، فإذا هم لم يموتوا اليومَ، فإنهم سيموتون غداً، أو بعد غد، وقد ماتَ هؤلاء الذين قالوا هذا القول في أحد كما ماتَ المجاهدونَ من عهد طويل، والله غالبٌ على أمْرِهِ.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدي إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- امتنانُ الله على صحابةِ رسولِهِ ﷺ ببعثةِ رسولِه فيهم، فقد استطاع رسولنا ﷺ بما آتاه الله من علم وحكمة بناءَ هذه الأمةِ على نحو مُحكمٍ فريدٍ.

٢- بيان ما امتازَ به رسولنا ﷺ من خصائصَ وفضائلَ، فهو من جنسِ العرب المرسل إليهم، بَنى هذه الأمةَ بالقرآنِ الذي أنْزَلَهُ اللهُ عليه، وزكَّى نفوسَهُمْ وجعلهم علماءَ حكماء.

٣- الهزيمةُ في أُحُد ترجعُ إلى المجاهدين الذين خالفوا الخطَّةَ العسكريةَ التي اختطَّها الرسولُ ﷺ، فأوجدوا ثغرةً اهتبلها العدوُّ، ودخلَ عليهم من خلالها.

٤- عزَّى الله المؤمنين بأنهم أصابوا المشركينَ في بَدْرٍ ضعفَ ما أصيبوا به في أُحُدٍ.

٥- مع أن هزيمةَ المؤمنين في أُحُدٍ كانت بسبب المؤمنين فإنها كانت بقدرِ الله تعالى ومشيئته، فكل شيءٍ بتقديرِ الله سبحانه.

٦- تحققتْ حكم كثيرة شاءَها اللهُ من وراءِ هزيمةِ المؤمنينَ في أُحُدٍ، منها ظهورُ المؤمنين المجاهدين في الميدانِ، وظهورُ المنافقين الذين كانوا يَخْفَوْنَ في وقت الأمنِ والأمانِ.

٧- من المعالم الكبارِ في أُحُدٍ رجوعُ عبدالله بنِ أُبَيٍّ رئيسِ المنافقين بثلاثمائة من الجيش، وعندما سارَ إليهم بعضُ الصحابة، ودعوهم إلى الجهادِ والثبات، تعلَّلُوا بما ليسَ بصحيحٍ،

فزعموا أنَّه لن يكونَ قتالٌ، وكان ذلك عُذْراً أرادوا به سَتْرَ فعْلتهم، وحكم اللهُ عليهم بأنَّهم كانوا في حال رجوعهم أقربُ للكفر منهم للإيمانِ.

٨- ذمَّ اللهُ الكافرين والمنافقين الذين قعدوا عن القتالِ مَدَّعينَ أنَّ الذين قُتِلوا لو أطاعوهم لما قتلوا، وقد طالبهم -لبيان كذبهم- بأنْ يدفعوا الموت عن أنفسهم، فهو آتٍ لا بدَّ منه.

فزعموا أنَّه لن يكونَ قتالٌ، وكان ذلك عُذْراً أرادوا به سَتْرَ فعْلتهم، وحكم اللهُ عليهم بأنَّهم كانوا في حال رجوعهم أقربُ للكفر منهم للإيمانِ.

٨- ذمَّ اللهُ الكافرين والمنافقين الذين قعدوا عن القتالِ مَدَّعينَ أنَّ الذين قُتِلوا لو أطاعوهم لما قتلوا، وقد طالبهم -لبيان كذبهم- بأنْ يدفعوا الموت عن أنفسهم، فهو آتٍ لا بدَّ منه.

النصُّ القرآنيُّ الرابعُ والثلاثون من سورة آل عمران
رسالةٌ من الذين قُتلوا في سبيل الله

أولاً: تقديم

ضمَّن الله تعالى آياتِ هذا النصِّ رسالةً مِنَ الذين قُتلوا في سبيل الله، تتحدَّثُ عن النعيمِ المقيمِ الذي وجدوه عندما أحلَّهم اللهُ في جنَّاتِ النعيم، وجَعَلَ أرواحَهُمْ في حواصلِ طيرٍ خُضْرٍ، تتجوَّلُ في الجنَّةِ، تأكُلُ مِنْ ثمارِها، وتشربُ من أنهارها، وتأوي إلى قناديلَ معلَّقةٍ في ظِلِّ عرشِ الرحمن، وقد تَلَقَّى رسولُنا ﷺ وأصحابُه الكرامُ رضوانُ الله عليهم، والمؤمنونَ من هذه الأمةِ هذه الرسالة، وفقهوها، فكانتْ حادياً يناديهم إلى الشهادةِ والجنةِ ونعيمها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في معاني آيات هذا النص من القرآن

١- الشهداءُ أحياءٌ عند ربِّهم يرزقون:

يسقُطُ في المعاركِ التي تخوضُها الجيوشُ الإسلاميةُ رجالٌ يقاتلون في سبيل الله، ومِنْ هؤلاء الشهداءُ الذين سقطوا في غزوتيْ بدرٍ وأُحُد، وقد أمَرَ الله -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ، وفي ذلك أمرٌ لأصحابه وأمته، أن لا يظنوا أنَّ الذين سقطوا في حَوْمَةِ الوغى مِنَ المقاتلين في سبيل الله أمواتاً، بل هم أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقون، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

قال ابنُ جريرٍ: «لا تحسبنَّهم يا محمدُ أمواتاً، لا يحسُّونَ شيئاً، ولا يتلذَّذونَ، ولا يتنَعَّمونَ، فإنَّهم أحياءٌ عندي، مُتنَعِّمونَ في رِزْقي، فرحونَ مسرورونَ بما آتيتهم من كرامَتي وفضْلي، وحبوتُهم بهِ من جزيل ثوابي وعطائي» [تفسير الطبري: ٣/ ٢٠٥٥].

وقد سأل الصحابةُ رضوانُ الله عليهم رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية فأفادَهُمْ بالمعنى المرادِ منها، قال مسروقٌ: سألْنا عبدالله -هو ابن مسعود- عَنْ هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩] قال: أما إنَّا قد سَألْنا عَنْ ذلك، فقالَ: «أرْواحُهُمْ في جَوْفِ طيْرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ معلقةٌ بالعرشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجنَّةِ حيثُ شاءَتْ، ثم تأْوِي إلى تلكِ القناديلِ» [مسلم: ٨٨٨٧].

وفي سنن أبي داود عن ابنِ عباسٍ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ : «لَمَّا أُصيبَ إخوانُكم بأُحُدٍ، جعلَ اللهُ أرواحَهُمْ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أنهارَ الجنّة، تأكُلُ مِنْ ثمارِها، وتأوي إلى قناديل مَنْ ذهبٍ معلّقةٍ في ظلِّ العرش، فلما وَجَدُوا طيبَ مأكلهم ومشْرَبِهِمْ ومَقيلِهِمْ، قالوا: مَنْ يُبْلِّغُ إخواننا عنَّا، أنّا أحياء في الجنَّة نرزقُ، لئلاَّ يَزْهَدُوا في الجهادِ، ولا يَنْكُلوا عَنْ الحربِ، فقال اللهُ سبحانه: أنا أُبلِّغهم عنكم، قالَ: فأنزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ [آل عمران:١٦٩]» [صحيح أبي داود: ٢١٩٩].

٢- الشهداء فرحون بما آتاهم اللهُ مِنْ فضله:

أخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآيةِ السابقة أنَّ الشهداء أحياءٌ عندَ ربهم يرزقون، وأخبرنا في الآيةِ التالية أنّهم ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران:١٧٠] والفَرَحُ: السرورُ والغبطةُ، ومن الفضل الذي آتاهم اللهُ إياهُ أنه جَعَلَ أرواحَهُمْ في حواصلِ طيرٍ خضرٍ تطير في الجنة، وتأكل مِنْ ثمارِها، وتشربُ مِنْ أنهارِها، وتأْوي إلى قناديلَ من ذهب في ظلِّ عرشِ الرحمنِ كما بينه الرسولُ ﷺ في الحديث السابقِ.

وأخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ الشهداءَ في مقامهم ذاك يستبشرون بأمرين قال تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران:١٧٠-١٧١].

والأمرُ الأوَّلُ الذي يستبشر به الشهداءُ: هُمْ إخوانهم الذين تركوهم في الحياة الدنيا سائرين على دينهم ومنهاجهم، يقاتلون أعداءَ الله، ولم يلْحَقُوا بهم بعدُ، فهؤلاءِ إذا ما قتلوا في سبيلِ الله صارُوا إلى مثلِ مصيرِهم، ولا خوفٌ عليهم مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءَهم.

والأمْرُ الثاني الذي يستبشرون بِهِ: نعمةُ الله وفضلُه، فنعمُ الله عليهم دائمةٌ متجددةٌ لا تنقطعُ عنهم في أنفسهم ولا في الدار التي هم فيها.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران:١٧١] أيْ: لا يُبْطِلُ جزاءَ أعمالِ مَنْ صدَّقَ رسولَهُ واتَّبعه وعملَ بما جاءَه مِنْ عندِ الله.

٣- الذينَ استجابوا لله والرسولِ مِنْ بعد ما أصابهم القرحُ لهم أجْرٌ عظيمٌ:

أثْنَى اللهُ -تباركَ وتعالى- على صحابةِ رسوله ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران:١٧٢].

والذينَ استجابوا لله والرسولِ هم الذين خاضُوا غِمارَ غَزْوَةِ أُحُدٍ، وسَقَطَ منهم مَنْ سَقَطَ شهيداً، وجُرحَ من جُرِحَ، وأصابهم الرَّهَقُ والتَّعَبُ، فدعاهم الله ورسولُه وهم على تلكِ الحالِ التي أصابهم فيها القَرْحُ إلى الخروج في إثر المشركين، فقد خَشِيَ الرسولُ ﷺ أنْ ينطلقَ المشركون إلى المدينةِ، أو يُفكِّروا بالعودةِ إليها وهُمْ في طريقِهِمْ إلى مَكَّةَ.

وقد انتدَبَ الرسولُ ﷺ طائفةً مِنْ أصحابِهِ للخروج في إثْرِ المشركين فخرجَ منهم سبعونَ منهم أبو بكر الصديقُ والزبيرُ بنُ العوامِ، فعن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران:١٧٢]، قالتْ لعروةَ: يا ابنَ أُختي: كان أبواكَ منهم: الزبيرُ وأبو بكر، لما أصابَ رسولَ الله ﷺ ما أصابَ يومَ أُحُدٍ، وانصرَف عنه المشركونَ خافَ أن يَرْجعوا، قال: «مَنْ يذهبُ في إثْرِهِم» فانتدبَ منهم سبعونَ رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكرٍ والزبيرُ [البخاري: ٤٠٧٧. ومسلم: ٢٤١٨ مختصراً].

وفي اليوم التالي أمَرَ الرسولُ ﷺ الجيشَ كلَّه أنْ يخرجَ في إثر المشركين، ولَمْ يأْذَنْ لأحَدٍ أنْ يخرجَ معه إلا الذين حَضُروا القتالَ في أُحُدٍ باستثناءِ جابر بنِ عبدالله، وسارَ الرسولُ ﷺ بأصحابِهِ حتى بلغَ حمراءَ الأسدِ على بُعد ثماني مراحلَ مِنَ المدينةِ.

وقد حَدَثَ ما توقَّعَهُ الرسولُ ﷺ ، فإنَ أبا سفيان ومَنْ معه تلاوموا في عَدَمِ استئصالِ المسلمين بعد هزيمتهم لهم وتشاوروا في الرجوع إليهم والقضاء عليهم، فلما عَلِمُوا بأنَّ المسلمين قد خرجوا في إثرهم، وأنهم صاروا قريباً منهم فتَّ ذلك في عَضُدِهِمْ، وخافوا أن يتحوَّل نصرهم إلى هزيمة، فأسرعوا عائدين إلى مكة.

و﴿ ٱلْقَرْحُ ﴾ الذي أصابَ المؤمنينَ: الجراحةُ والتعبُ التي كانتْ بالمجاهدين بعد المعركة، وقولُه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ أحْسَنُوا بصبرهم على ما أصابَهُمْ، واستجابوا لما دعاهم إليه مِنَ الخروجِ مع ما بهم من تَعَبٍ وآلامٍ وجَرْحٍ، وقد وَعَدَهُمْ اللهُ بالأجْرِ العظيمِ.

٤- ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾:

عندما عَلِمَ أبو سفيانَ بخروجِ الرسولِ ﷺ وأصحابِهِ في إثْرِهِم هَزَّه الخبرُ، وخَشِيَ مِنَ الرجوعِ إليهم، ولعلَّه خَشِيَ أنْ يَتحوَّلَ نصرُهُ إلى هزيمةٍ، فسارَ راجعاً إلى مكَّةَ، واستعملَ ما يُسمَّى بالحربِ النفسيةِ العسكريةِ مع المسلمينَ، فقد حَمَّلَ قوماً من التّجارِ كانوا منطلقينَ إلى المدينة للتجارةِ أنْ يقولوا للرسولِ ﷺ وأصحابِهِ مقابلَ جُعْلٍ جَعَلَه لهم: إننا راجعونَ إليهم لنستأصلهم، فلما أخبروا الرسولَ ﷺ وأصحابه بذلك ازدادَ المؤمنون إيماناً لتوكلهم واعتمادهم على الله تعالى ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ قال ابن عباسٍ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣] قالها إبراهيمُ حينَ أُلقيَ في النارِ، وقالها محمدٌ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣] [البخاري:٤٥٦٣].

والآيةُ تدلُّ على مدى ثباتِ الرسولِ ﷺ وأصحابِهِ، واعتمادِهِم على ربِّهم تباركَ وتعالى، ومعنى حَسْبُنا اللهُ، أيْ: اللهُ كافينا، واللهُ نِعْمَ الوكيلُ الذي يُتَوَكَّلُ عليه، ويُعْتَمَدُ عليه.

٥- **انقلابُ الرسول ﷺ وأصحابِهِ بنعمةٍ مِنَ اللهِ وفضْلٍ:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَ خروجَ المؤمنين في إثْرِ عدُوِّهم بعد أُحُدٍ كان سَفَرَ خيرٍ وبركةٍ، فقد ألقى خروجُهُم الرُّعْبَ في قلوبِ أعدائهم، وانقلبَ المؤمنونَ عائدين إلى المدينة سالمِينَ غانمينَ، لم يَمْسَسْهُم سوءٌ، وهُمْ في ذلك كلِّه متبعون ما يرضي ربَّه تبارك وتعالى فيما أمرهم به، واللهُ ذو الفضلِ العظيم، ومَنْ فضلِهِ على رسوله وأصحابِهِ صَرْفُ الكفارِ عنهم، وإعادتُهم سالمين، وورد في بعض الروايات أنهم تاجروا وربحوا ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران:١٧٤].

قال ابنُ جرير: «﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٧٤] فانصرفَ الذين استجابوا لله والرسولِ مِنْ بعدِ ما أصابَهُمُ القرح مِنْ وجههم الذي توجَّهُوا فيه -وهو سَيْرُهُم في إثْرِ عَدُوِّهِمْ- إلى حمراءِ الأسَدِ ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٧٤] يعني: بعافيةٍ مِنْ ربِّهم لم يلقوا بها

عدوًّا، ﴿وَفَضۡلٍ﴾ يعني: أصابُوا فيها من الأرباحِ بتجارتهم التي اتَّجروا بها، والأجْرُ الذي اكتسبوه، ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران:١٧٤] يعني: لم يَنَلْهُمْ بها مكروهٌ من عدوِّهم ولا أذى، ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران:١٧٤] يعني بذلك أنهم أرْضوا الله بفعلهم ذلك، واتباعِهم رسولَه إلى ما دَعاهم إليه من اتِّباعِ أثر العدوِّ وطاعتهم ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران:١٧٤] يعني: والله ذو إحسانٍ وطَوْلٍ عليهم -بصَرْفِ عدوهم الذي كانوا قد هَمُّوا بالكرَّةِ إليهم، وغيرِ ذلك مِنْ أياديه عندهم، وعلى غيرهم- بنِعَمِهِ، ﴿عَظِيمٍ﴾ عندَ من أنْعَمَ به عليه من خَلْقِهِ» [تفسير الطبري: ٣/ ٢٠٦٨].

٦- **تخويفُ الشيطان المؤمنينَ أولياءه:**

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ تلكم المقالةَ التي حَمَّلَها أبو سفيان لأولئكِ النَّفرِ مِنَ التّجارِ مرسلاً بها إلى محمدٍ ﷺ وأصحابه ليرعبهم ويُخَوِّفهم هي مِنْ الشيطانِ يخوِّفُ بها المؤمنين من أوليائِه الكافرين، وقد نَهى اللهُ في هذه الآية المؤمنين أنْ يخافوا المشركينَ، وطالبهم بأنْ يخافوه وَحْدَهُ، فإنْ هم أطاعُوه واتَّبعُوا أمْرَهُ، تَكَفَّلَ لهم بالنَّصرِ والظَّفر ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران:١٧٥].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- الذين قُتلوا في سبيلِ الله تعالى أحياءٌ عند رَبِّهم يأكلون ويشربونَ في الجنةِ.

٢- تضمنتْ هذه الآياتُ رسالةً منْ الشهداءِ الذين أدْخَلَهم اللهُ جنتهُ حَمَلَها اللهُ -تباركَ وتعالى- وضمّنها كتابَهُ، وأنزلها على رسولِهِ، تُحَدِّثُنا عن النعيمِ العظيمِ الذي حازَهُ الشهداءُ بعد موتهم.

٣- الشهداءُ في الجنة فَرِحُونَ بما أعْطاهم في ذلك المقامِ العظيمِ.

٤- الشهداءُ في جناتِ النعيم يتشوَّقون إلى لحاق إخوانهم بهم، والمرادُ بإخوانهم الذين تركوهم وراءَهم سائرينَ على دَرْبِهم، فينالون ما نالوه من النعيم.

٥- الشهداءُ والصالحونَ لا خوفٌ عليهم عندما يَقْدُمونَ على الله ربِّهم، ولا يحزنونَ على ما خَلَّفوه مِنَ ذريةٍ، فاللهُ يتولاهم في ذريتهم.

٦- الله -تبارك وتعالى- لا يُضيعُ أجْرَ المجاهدين المؤمنين، بل يحفظُهُ، ويبارِكُهُ.

٧- ثناءُ الله -تبارك وتعالى- على صحابةِ رسولِهِ الذين دعاهم رسولهم إلى الخروج وراءَ المشركين، فاستجابوا مَعَ شدَّة ما بهم مِنْ رَهَقٍ وآلامٍ وأوجاعٍ، فأثابهم ربّهم ثواباً عظيماً على استجابتهم ومسيرهم.

٨- أثْنَى اللهُ على الرسولِ ﷺ وصحابته الذين قالَ لهم الناسُ إنَّ أبا سفيان ومَنْ معه عائدون إليكم ليستأصلوكم، فما كان منهم إلا أنْ ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ .

٩- بيانُ مدى ما أنْعَم اللهُ بِهِ على عباده، فقد أوْقَعَ اللهُ الرُّعْبَ في قلب أبي سفيان وجيشه، فمضوا إلى مكَّةَ، وعادَ الرسولُ ﷺ وأصحابُهُ إلى المدينةِ سالمينَ غانمين.

النصُّ القرآنيُّ الخامسُ والثلاثونَ من سورةِ آل عمرانَ
لا يَحْزُنْكَ الذين يسارعونَ في الكُفْر

أولاً: تقديم

قد يسوء المؤمنَ الصادقَ الإيمانِ امتلاكُ الكفارِ القُوَّةَ والمنعَةَ والسلاحَ الحربي والجيوشَ الجرارة التي يحاربون اللهَ ورسولَهُ والمؤمنين بها، وقد أمَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنْ لا يُحْزِنُنا مسارعةُ هؤلاءِ في كفرهم وضلالهم، فهم في النهايةِ مقهورونَ مغلوبونَ، ولنْ يَضُرُّوا اللهَ شيئاً، وما أُعطي هؤلاءِ مِنَ رفاهيةٍ ونعيمٍ سببٌ في زيادةِ عذابهم في الآخِرَةِ.

وميَّز اللهُ -تبارك وتعالى- بالوقائع كأُحُدٍ والخندقِ بَيْنَ الأخيارِ والفجّارِ، وتهدَّدَ الذين لا يُخْرِجون ما فرضَهُ الله في أموالهم، وأخْبَرَ أنَّه سيعذِّبهم بهذا المالِ المكنوزِ يومَ القيامةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن من سورة آل عمران

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران:١٧٦-١٨٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾ :

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ أنْ يَحْزُنَهُ مسارعةُ طائفةٍ مِنَ الناسِ في الكُفْرِ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾ [آل عمران:١٧٦].

وكان في طليعةِ الذين يسارعون في الكفرِ في العهد الذي تنزلتْ فيه الآياتُ الكفارُ الذين جاؤوا مِنْ مكة يُقاتلونَ المسلمين في أُحُد، جاؤوا بجنودِهِمْ وقواتِهِمْ، ينفقونَ أموالهم

في شراءِ السِلاحِ والإنفاقِ على الجيشِ، فكانَ فعلهم هذا مسارعةً في الكفرِ، فكأنّما هم في سباقٍ فيما بينهم لتأييد الكفرِ والباطلِ.

ونهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ عن الحزنِ لمسارعَة الذين كَفَروا في كُفْرِهم، لأنَّهم لا يضرُّون اللهَ شيئاً، فالله أعْظُم وأجَلُّ مِنَ أن يضرُّوه، والمؤمنون الذين يقاتِلُهم الذين يسارعونَ في الكفر هم في حفظِ الله ورعايَتِهِ ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٧٦] واللهُ -تبارك وتعالى- يريدُ أن لا يجعلَ للذين يسارعونَ في الكفْرِ حظّاً في الآخرة، والحظُّ: النصيبُ، فلا يُسْتَقْبَلونَ في ذلك اليومِ استقبالَ إكرامٍ، ولا يُظَلُّونَ بظلِّ العرشِ، ولا ينجونَ مِن النار، ولا يدخلونَ الجنَّة، بل هُمْ في العذابِ المقيمِ، والمصائبِ والبلايا والأوجاعِ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران:١٧٦].

وهؤلاء الذين يسارعونَ في الكفرِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦] وهذا العذابُ واقعٌ بهم في الدنيا والآخرةِ، واقعُ بهم في الدنيا بما يوقعه بهم المسلمون مِنْ عذابٍ، وما يبتليهم اللهُ به من مصائبِ ورزايا، وما يوقعه الله عندما ينزلُ بهم الموتُ، وما يحلُّ بهم في القَبْرِ، ولهم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ عندما يقومون لربِّ العالمين، ويوقفهم بين يديه، ويحاسبهم على كفرهم.

٢- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ :

أخْبَرَنا ربُّنا -تبارَك وتعالى- أنَّ الذين اشتروا الكفرَ بالإيمانِ، والمرادُ باشترائِهم الكفرَ بالإيمان استبدالُهُمْ الكفرَ بالإيمان، وهو استبدالُ الحريصِ على الكُفْر الكارِهِ للإيمانِ، فقد بذلُوا أنْفُسَهُمْ وأموالهم في سبيل نَصْرِ الكُفْرِ كما قال أبو سفيان بعد معركة أُحد: «أُعْلُ هُبَلُ» وقالَ: «لَنَا العزَّى ولا عُزّى لكُم» فأجابَهُ المسلمونَ: «اللهُ أعلى وأجَلّ» و«اللهُ مولانا ولا مولى لكم».

وقرَّر الحقُّ -تبارك وتعالى- أنَّ الذين اشْتَرَوا الكفرَ بالإيمانِ لَنْ يضرُّوا الله شيئاً، ولكنَّهم ضرّوا أنْفُسَهُم، فجهودُهُمْ مبذولةٌ في ضلالٍ، تتحوَّلُ إلى أوْزارٍ، تُثْقِلُ ظهورَهُم، ولهم عذابٌ أليم، أي: مُؤْلم موجعٌ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ [آل عمران:١٧٧].

٣- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ :

انتصرَ المشركونَ في أُحُدٍ، وقتَلُوا مَنْ قتَلوا مِنَ المؤمنينَ، وجَرَحوا مَنْ جَرَحُوا منهم، وانتفشَ الكفارُ، وظَنُّوا أنَّهم فازُوا وسَعِدوا، ونالوا الخيرَ والحُظْوَة، وقالَ شعراؤُهم ما قالوه،

وخطبَ خطباؤُهُم بما خطبوا به، وجاءَ قولُهُ تعالى في الآيةِ التاليةِ مبيناً لهم أنَّ الذي حَصَّلوه ليس بخيرٍ لهم لا في الدنيا، ولا في الآخرةِ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨].

ويقولُ اللهُ -تباركَ وتعالى- لا تظنُّوا أيُّها الكفارُ الذين قاتلتم في أُحُدٍ وانتصرتم بها أنَّ ما أعطيناكم إياهُ من نصرٍ وغلبةٍ هو خير لكم، بل هو شرٌّ لكم، فما أعطيناكم إياه مِنْ نصرٍ زاد آثامكم، وخَبَّث نفوسكم، وأبعدكم عن ربكم، وقولُهُ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ﴾ أي: نملي لهم بطولِ العمرِ ورَغدِ العيش، وما أصابوه مِنْ الظفرِ في معركةِ أُحُدٍ. وقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ أي إنما نطيلُ في أعمارِهِمْ، وننسَأُ في آجالهم، لتزدادَ ذنوبُهم، وتكثر آثامهم، وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ أيْ في يوم الدين، يذلُّهم فيه، ويضع عنهم كبرياءَهم.

٤- إرادةُ اللهِ -تبارك وتعالى- إظهارَ الطَّيب مِنَ الخبيثِ:

كان المنافقونَ يعيشون في المدينةِ المنورة في العهدِ النبويِّ، وكانَ كثيرٌ مِنَ المؤمنين لا يعلمون بالمنافقين الذين يسكنونَ في ديارِهم، ويظنونَهم مِنَ المؤمنين، فلما كانَتْ غزوةُ أُحدٍ جاهر المنافقون بكفرهم، وأظهروا مكنونَ قلوبِهِمْ، فقد رَجَعْ عبدُالله بن أُبَيٍّ رئيس المنافقين بثلث الجيش مغضباً، لكونِ الرسولِ ﷺ لم يرْجِعْ إلى قوله في البقاءِ في المدينة، وقال هو وأصحابه: لو نعلم قتالاً لاتَّبعناكم، ولكنَّا لا نراكم تقاتلونَ اليومَ.

لقد أخْبَرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أجْرى في معْرَكَةِ أُحُدٍ سنَّةً من سننه في عبادِهِ، وهو تمييز المنافقينَ مِنَ المؤمنينَ، فقد أظْهَرَ المنافقونَ كفرهم، وظهر إيمانُ المؤمنين ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران:١٧٩] أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ما كانَ ليذرَ، أيْ: يتركَ المؤمنين على ما هم عليه مِنْ اختلاطِ المنافقين بهم، حتى يميزَ بعضهم من بعضٍ، وقد ميَّز اللهُ في هذه الغزوةِ المنافقين مِنَ المؤمنينَ، وأظهرَ المنافقونَ كفرهم الذي كانوا يخفونَهُ.

وبيَّنَ لنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أنَّه لَيْسَ مِنْ سنتِهِ أنْ يطلعَ عبادَه المؤمنين على الغيبِ، والمرادُ بالغيبِ الأمورُ التي قضَى اللهُ بوقوعها في مقبلِ الأيام مما يعلمُ الله أنَّه سيقعُ، ولكنَّ العبادَ يعلمون بوقوعِهِ عندما يَقعُ، فقد عَلِمَ المؤمنون بالمنافقين عندما أظهروا نفاقَهم في أُحُدٍ، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ مِنْ طرقِ معرفةِ الغيبِ الآتي وَحْيَ الله إلى رسله وأنبيائه بما سيوقعه في مقبل الزمان، ومِنْ ذلك تعريف رسولنا ﷺ بأسماءِ المنافقينَ، وقد ذكرهم الرسولُ

ﷺ للصحابي الجليل حذيفة بن اليمان فإنه صاحب السر الذي كان لا يعلمه غيره، وكان رسول الله ﷺ أعلمه بالمنافقين وأحوالهم وأطلعه على ما يجري لهذه الأمة بعده وجعل ذلك سراً بينه وبينه [انظر شرح الحديث رقم (٧٠٨٤) من فتح الباري، ودلائل النبوة لأبي نعيم: (٢/٥٢٨) رقم (٤٥٦) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦١)]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران:١٧٩] والاجتباءُ: الاختيارُ والاصطفاءُ.

وأمَرَ اللهُ في ختامِ الآية عبادَهُ بالإيمان بالله ورسلِهِ، ووعدهم إنْ هم صَدَّقوا بالله ورسله، واتَّقوا اللهَ بالعمل بطاعته أنْ يعطيهم الأجر العظيم ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران:١٧٩].

٥- جزاءُ الذين يبخلون بما آتاهم اللهُ مِنْ فضله:

أوْجَبَ اللهُ -تبارك وتعالى- على أصحابِ الأموال حقّاً في أموالهم، وأهَمُّ هذه الحقوق الزكاةُ وقد أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ بعضَ المسلمين يبخلونَ بإخراجِ ما فُرِضَ عليهم مِن حقوقٍ في أموالهم ظانين أنَ في بخلهم هذا حفظاً لأموالهم، وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّهم أخْطَؤُوا فيما ذَهبوا إليه، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ﴾ [آل عمران:١٨٠].

وإنما كان هذا المالُ المجموعُ شَرًّا لهم في الدنيا، لأنهم لم يستخدموه فيما خلقه اللهُ مِن أجله، ولم ينفقوه في السبلِ التي أمرهم اللهُ بإنفاقه فيها، وعندما ماتوا تركوه وراءَهم لم يقدِّموا منه شيئاً لآخرتهم.

وفي يومِ القيامة يعذِّبهم اللهُ بذلك المالِ المجموعِ المبخول بِهِ ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [آل عمران:١٨٠] وقد بَيَّن لنا رسولنا ﷺ كيف يعذِّب هؤلاءِ الذين بَخِلُوا بالمالِ، ولم يؤدوا منه حقَّه، فعن أبي هريرة ﷺ قالَ: قالَ رسول الله ﷺ : «مَنْ آتاهُ اللهُ مالاً فلَمْ يؤدّ زَكاتَهُ مُثِّلَ له يومَ القيامةِ شجاعاً أقْرَعَ، له زبيبَتانِ، يُطَوَّقونَه يومَ القيامةِ، يأْخُذَ بلهْزِمتيه -يعني بشَدْقَيْه- يقول: أنا مالُك، أنا كنزكُ. ثم تلا هذه الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى آخر الآية» [البخاري: ٤٥٦٥].

وقد جاءت أحاديثُ صحيحةٌ مبينةٌ كيف يُعَذِّبُ الله بالماشية التي لا يؤدون زكاتها من البقرِ والغنمِ في يوم القيامة، حيث يبطح لها بقاعٍ قرْقَر، كلَّما مرَّ عليه أُخراها أُعيدَ عليه أولاها في يوم كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة.

وختم اللهُ هذه الآية بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران:١٨٠] والذي يَفْقَهُ ما أخبر اللهُ بِهِ في هذه الآية يبادرُ بالإنفاقِ مِنَ المالِ الذي وَهَبَهُ اللهُ إياه، فإنَّه عارية مسترجعة، وهبة مستردَّة، فالمالُ سيزولُ عنه، أو يزولُ هو عَنِ المالِ، والمالكُ الحقيقيُّ لكلِّ ما في السموات والأرض هو اللهُ تبارك وتعالى. وأخبر اللهُ -تبارك وتعالى- أنّه بصير بما نعمله، وسنُجْزَى به خيراً أو شراً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعملٍ:

١- نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يُحْزِنَهُ مسارعةُ أَهْلِ الكفرِ في كفرهم، ونَهْيُ الله لرسوله ﷺ نَهْيٌ لأُمَّتِهِ.

٢- الذين يعملونَ بالكفرِ، ويحاربونَ الإسلامَ وأهْلَه لن يضرُّوا الله شيئاً، فاللهُ أعْلى وأجلُّ مِنْ أنْ يضرَّه هؤلاءِ الضعفاءُ الأذلاَّءُ.

٣- الكفَّارُ الذين يسارعون في الكُفْرِ ليسَ لهم نصيبٌ مِنَ الأجْرِ والثوابِ في الآخرةِ، ولهم في ذلك اليوم عذابٌ عظيمٌ.

٤- الكفار الذين متَّعَهُم اللهُ بطولِ العُمرِ، وكثرةِ الأموالِ والأزواجِ والأولادِ، كان ذلك كُلُّه إملاءً لهم، فكثرتْ ذُنوبهم، وازدادتْ آثامهم، ولهم عذابٌ مهين.

٥- مِنْ سُنَنِ الله الجاريةِ في عبادِهِ أن يوقعَ مِنَ الوقائعِ والحادثاتِ ما يظهر نفاقَ المنافقين وإيمانَ المؤمنينَ كما وقع في غزوةِ أُحدٍ.

٦- ليس لدى العباد القدرةُ على معرفةِ الغيبِ الآتي، وقد يُطْلِعُ اللهُ رُسُلَهُ وأنبياءَه على شيءٍ من الغيبِ المكتومِ.

٧- الأغنياءُ الذين يُخْرِجُونَ مِنْ أموالِهِم الزكاةَ والحقوقَ التي أوجبها الله عليهم ينجون ويفوزونَ.

٨- الأغنياءُ الذين يَبْخَلُونَ، فلا يُخْرِجُونَ مِنْ أموالِهِمْ ما كَتَبَهُ اللهُ عليهم فيها سيُعَذَّبونَ بهذه الأموالِ في يوم القيامة، فيُمثَّلُ لهُ المالُ أفْعى عظيمةً، تطوِّقُ صاحبها، وتأخذُ بشِدْقَيْه، وتقولُ له: أنا مالُك، أنا كنزكُ.

٩- اللهُ -تبارك وتعالى- غنيٌّ عنَّا وعَنْ أموالنا، لهُ ميراثُ السمواتِ والأرضِ سبحانه.

النصُّ القرآنيُّ السادس والثلاثون من سورة آل عمران
لقد سمع اللهُ قولَ الذين قالوا إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحن أغنياء

أولاً: تقديمٌ

أنزلَ اللهُ -تباركَ وتعالى- فيما سَبَقَ قولُهُ تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]. فإذا بعضُ سفهاءِ يهودٍ يقولُ: اللهُ يَطْلُبُ القَرْضَ مِنَّا فهو فقيرٌ، ونحنُ أغنياءُ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآياتِ يسجِّل عليهم جَريمتَهم ويتهدَّدُهم، ويَتَوَعَّدُهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن من سورة آل عمران

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

[آل عمران:١٨١-١٨٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- جريمةُ الذين قالوا: إنَّ الله فقيرٌ ونحن أغنياءُ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه سَمِعَ مقالةَ الذين سَبُّوه مِنَ اليهود، وقالوا: إنَّه فقيرٌ، وهم أغْنياءُ ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]. وهذا القولُ المفترى قالَهُ اليهودُ عِنْدَما دَعا اللهُ عبادَهُ إلى أنْ يقرضوه قرضاً حسناً فقالَ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ [البقرة:٢٤٥].

والمعنى أنَّهم قالوا: «نَرَى أنَّ إلَهَ محمدٍ يستقرِضُ مِنَّا، فنحنُ إذنْ أغنياءُ، وهو فقيرٌ، وقالوا هذا تلبيساً على ضَعَفَتِهم، وهم يعلمون أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَسْتَقْرِضُ مِنْ عَوَزٍ، ولكنّه يَبْلُو الأخيارَ، فهم يعلمون أنَّ الله سَمَّى الإعطاء والصدقةَ قرضاً، يؤكد بِهِ أنَّ أضعافَهُ تَرْجِعُ إلى أهْلِهِ، وهُوَ عَزَّ وجَلَّ يَقْبِضُ ويبسطُ، أي: يُوَسِّعُ ويُقَتِّرُ» [معاني القرآن للزجاج: ١/ ٤٩٤].

وقد سمع الله تعالى قول الذين قالوا هذه المقالَةَ المفتراةَ العظيمةَ وسَيَكْتُبُ ما قالُوهُ، كما سيَكْتُبُ ما كانَ مِنْ آبائهم الذين ارتضى الأحفادُ أفعالهم مِنْ قتلهم الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ، فقد قتلوا يحيى وزكريا، وحاولوا قَتْلَ عيسى، كما حاولوا قتْلَ نبينا محمدٍ ﷺ ، وسيحاسبُهُمْ ربُّ العزّةِ على ذلك كلِّه، ويدخلهم النار ويقولُ لهم: ذُوقوا عَذابَ الحريقِ ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران:١٨١].

وأخبرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ إذاقةَ الله اليهودَ عذابَ الحريقِ إنَّما هو بسبب ما قَدَّمَته أَيْدِيهِمْ في الحياةِ الدنيا، مِنْ كَذِبِهِمْ على الله، وقتلِهِمْ الرسلَ والصالحين، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران:١٨٢]، وهذا هو العَدْلُ الذي يُجْرِيه اللهُ فيهم، وهو لَيْسَ بظلّامٍ للعبيد.

٢- دعواهم أنَّ اللهَ عَهِدَ إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأْتِيَهمْ بقربانٍ تأكله النارُ:

حكى الله تبارك وتعالى مقالةَ اليهود التي زعموا فيها أنَّ الله عَهِدَ إليهم أنْ لا يؤمنوا لرسولٍ حتى يأتيهم بقربانٍ تأكله النّار، فهم يطلبونَ مِن محمدٍ ﷺ أنْ يأتيهم بهذا القربانِ حتى يَتَّبِعُوهُ، ويؤمنوا به ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران:١٨٣] والقربانُ: ما يُتَقَرَّبُ بِهِ إلى الله تعالى، والمعنى أنَّ اللهَ وصَانا وتقدَّم إلينا في كُتُبِهِ وعلى ألسنة أنبيائِه أن لا نصدِّق رسولاً حتى يأتينا بقربانٍ تَنْزِلُ نارٌ مِنَ السَّماءِ فتحرقه.

وقد أبان اللهُ ما في قولهم هذا مِنَ العَوارِ، فأمَرَ رسولَهُ ﷺ أنْ يردَّ عليهم قائلاً لهم لقد جاءكم رسلٌ عظامٌ بالحجج الدالَّةِ على صِدْقِ نبوتهم، وبالذي قُلْتُمْ، أيْ: بالقربانِ الذي تأكله النَّار، ثم قتلتموهم، ولَمْ تؤمنوا بهم ولم تتابعوهم، ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران:١٨٣].

وقدْ واسَى اللهُ رسولَهُ ﷺ ، وقالَ لَهُ: فإن كذَّبوك بما حَدَّثْتُكَ بِهِ عنهم، فقد كَذَّب آباؤهم مِنْ قبلهم الرسلَ العظامَ الذينَ جاؤوا بالبيناتِ والزُّبُرِ، وَهْيَ الكتبُ التي أنزلها اللهُ تعالى، والكتابُ المنيرُ وَهُوَ التوراةُ، يقولُ لرسولِهِ ﷺ : لا تَحْزَنْ، فهذا شأنُ الرُّسُلِ مِنْ قبلك، في تكذيب أقْوامِهِم لهم ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران:١٨٤].

رابعاً : ما تهدي إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١ - من جرائم اليهود أنَّهم يَنْسِبونَ السوءَ والنَّقْصَ إلى الله العليمِ الخبيرِ، فقد زعموا أنَّ اللهَ فقيرٌ وهم أغنياءُ، ومِنْ جرائمهم قَتْلُهُمْ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ.

٢ - مصيرُ الذين افتروا على الله الكذبَ وقَتَلوا رسلَ الله النَّارُ في يوم الدينِ بسببِ ذنوبهم جزاءً وفاقاً لما ارتكبوه مِنَ الذنوبِ.

٣ - اعتلَّ اليهودُ لعدم إيمانِهِمْ بدعوى واهيةٍ، فقد زَعَمُوا أنَّ اللهَ عَهِدَ إليهم بأنْ لا يؤمنوا لرسولٍ حتى يأتيهم بقُرْبانٍ تأكله النارُ، فردّ اللهُ عليهم فِرْيَتَهُمْ بأنَّه قَدْ جاءهم رُسُلٌ مِنْ قبل رسولنا ﷺ بالحُجَجِ الواضحاتِ، وجاؤوهم بقربانٍ تأْكله النارُ، فعَصَوْهُم وقَتَلُوهُمْ.

٤ - تعزيةُ الله رسولَهُ ﷺ بأنَّ الأُمَمَ مِنْ قبله كَذَّبوا رُسُلَهُمْ كما كَذَّبه اليهودُ.

النصُّ القرآنيُّ السابعُ والثلاثون من سورةِ آل عمران
كلُّ نفسٍ ذائقة الموت

أولاً: تقديمٌ

أَنْزَلَ اللهُ آياتِ هذا النص على رسولنا ﷺ وأصحابِهِ الكرام، وهم يقيمونَ أَنْفُسَهُمْ على الدِّين الحقِّ، ويواجهونَ بِهِ القوى الطاغيةَ في عَصْرِهِمْ، وقد جاءَتْ آياتُ النصّ تُقَرِّرُ في نفوسهم حقائق كثيرةً، وبذلك يرْتَقُونَ وهم يعملون بهذا الدين إلى معارجِ الكمالِ، فقد أعْلمهم اللهُ أنَّ كلَّ الأحياءِ يموتون، وسيَصيرونَ إلى الله تعالى، وفي يوم القيامةِ يُوَفَّون أُجورَهُم، والحُظْوةُ العظمى ينالُها الذين يُزَحْزَحُونَ عن النارُ، ويدخلونَ الجَنَّة، وأعلمهم أن نعيمَ الدنيا قليلٌ، وهو عَرَضٌ زائلٌ.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الحياةَ لا تَصْفُو لأصحابِها، فالإنسانُ يبتلَى في نَفْسِهِ وأَهْلِهِ ومالِهِ، ويؤذى مِنْ أعدائه، وعليه أنْ يواجِه الابتلاءَ بالصبرِ، ويستعينَ على الصبر بالتقوى.

وذمَّ الله أهلَ الكتابِ الذين كتموا ما ضَمَّنه اللهُ كتابَهُم فيما يخصُّ رسولَنا ﷺ ، وفي ذلك تحْذيرٌ لهذه الأُمةِ مِنْ كتم العلم وإخفائه، وخَتَمَ اللهُ الآياتِ بالحديث عن الذين يفرحون بما أَتَوْا، ويحبُّونَ أنْ يُحمَدوا بما لم يفعلوا، فهؤلاء لا ينجون مِنَ العذاب، وأخبر عزَّ وجلَّ أنَّه مالكُ كلِّ شيءٍ، والقادرُ على كلِّ شيءٍ.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٥-١٨٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ كلَّ نفسٍ ستذوقُ الموتَ، لا فَرْقَ في ذلك بينَ الإنسِ والجنِّ والملائكةِ، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧] وهذا القانونُ الإلهيُّ الربانيُّ ماضٍ في عبادِ الله كُلِّهم، الأخيارِ والفجارِ، والصالحين والطالحين ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠].

وإذا كان الموتُ حقّاً واجباً يذوقه العبادُ جميعاً، لا فرقَ في ذلك بين الأخيار والفجّار، فإنَّ الفارقَ يتحقق في يوم القيامةِ، عندما يوفَّى الأخيارُ أجورَهُمْ ثواباً ونعيماً، ويوفَّى الأشرارُ أجورَهُم عذاباً وجحيماً، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ [آل عمران:١٨٥].

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلّ- أنَّ الذي يُزَحْزَحُ عن النَّار، ويدخلُ الجنَّة يوم القيامةَ فقدْ فازَ، أي: نَجا ونالَ الحُظْوَةَ والكرامةَ، وقرَّر الحقُّ -تبارك وتعالى- أنَّ الحياةَ الدنيا متاعُ الغرورِ، والمتاعُ ما يُتَمَتَّعُ به، وينتفعُ به، ثمَّ يضمحل ويزولُ، وإنَّما قرَّر اللهُ هذه الحقيقةَ، لأنَّ النَّاسَ يتمنَّوْنَ في الدنيا طولَ البقاءِ، والتمتعَ باللذاتِ والشهواتِ، والزينةِ والزخارفِ، فأخبرهم -سبحانه- أنْ نعيمَها إلى زوالٍ، ومتاعَها إلى اضمحلالٍ، وهي غرورٌ، تُدَلِّس على الإنسان وتُغْوِيه، وتَخدعُهُ وتلهيه، ونهايتُها الفجيعة بالموتِ، ثم الرحيلُ إلى الدارِ الآخرة.

روى أبو هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «لَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ في الجنّةِ خيرٌ مما طَلَعَتْ عليه الشمسُ أو تَغْرُبُ». وقال: «لَغَدْوةٌ أوْ رَوْحَةٌ في سبيلِ الله خيرٌ مما تَطْلُعُ عليه الشَّمْسُ وتغرب» [البخاري: ٢٧٩٣].

وعن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ: «لَرَوْحَةٌ في سبيلِ الله أو غَدْوَةٌ، خَيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها، ولقابُ قوْسِ أحدكم مِنَ الجنّةِ، أو موضعُ قيدٍ - يعني سَوْطَه- خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها، ولو أنَّ امرأةً مِنْ أهْلِ الجنَّةِ اطَّلعتْ إلى أهل الأرضِ لأضاءَتْ ما بينهما، ولملأتْهُ رِيحاً، ولنَصِيفُها على رأْسِها خيرٌ من الدنيا وما فيها» [البخاري: ٢٧٩٦].

وقد دلَّنا رسولُنا ﷺ على الطريق الذي يُزَحْزَحُ فيهِ العبدُ عن النَّار ويدخلُ الجنّة، فقال: «فَمَنْ أحبَّ أنْ يُزَحْزَحَ عن النَّار، ويُدْخَلَ الجنَّة، فلتأتِهِ مَنِيَّتُهُ وهو يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، وليأتِ إلى الناسِ الذي يُحبُّ أن يُؤْتَى إليه» [رواه مسلم مطولاً: ١٨٤٤].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ بقلَّةِ متاعِ الدنيا، فقالَ: «واللهِ ما الدنيا في الآخرةِ إلا مِثْلَ ما يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هذِهِ -وأشارَ يحيى بالسبَّابَةِ- في اليَمِّ، فلينظرْ بِمَ تَرْجِعُ» [مسلم: ٢٨٥٨].

٢- **لتبلونَّ في أموالِكُمْ وأنفسِكُمْ:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن سُنَّةٍ من سُنَنِ اللهِ في عبادِهِ المؤمنين، وهي أنَّه يبتليهم في أموالِهِمْ وأنفسِهِمْ، فقد يُصابُ المؤمنُ بالقتلِ أو الجرحِ أو الأسْرِ، وقد يصابُ في ولده أو زوجه، وقد يذهبُ مالُهُ، وتتغيرُ أحوالُهُ، قال تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٨٦] وقال في موضعٍ آخر: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٥٥].

ومِنَ البلاءِ الذي يصيبُ المؤمنينَ ما يُؤْذيهم بِهِ أهلُ الكتابِ والمشركون، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ [آل عمران:١٨٦].

وقد ساقَ ابنُ كثير عند تفسيرِ هذه الآية مثلاً للأذى الذي آذى به المشركون واليهودُ الرسولَ ﷺ ، وهو ما رواه البخاريُّ عند تفسيرِ هذه الآية عن أُسامة بنِ زيدٍ «أنَ رسولَ الله ﷺ ركبَ على حمارٍ على قَطيفةٍ فَدَكية، وأردَفَ أُسامَةَ بنَ زيدٍ وراءَهُ، يعودُ سَعْدَ ابنَ عُبادَةَ في بني الحارثِ بن الخزرج قبلَ وَقعةِ بدر، قال: حتى مرَّ بمجلسٍ فيه عبدُالله بن أُبيٍّ بنُ سَلولَ، وذلك قبلَ أن يُسْلمَ عبدُالله بنُ أُبيٍّ، فإذا في المجلِس أخلاطٌ مِنَ المسلمين والمشركين عَبَدَةِ الأوثانِ واليهود والمسلمين، وفي المجلسِ عبدُالله بن رَواحة، فلما غَشِيَتِ المجلسَ عَجاجةُ الدابة، خمَّرَ عبدُالله بنُ أُبيٍّ أنْفَهُ بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا، فسلَّم رسول الله ﷺ عليهم، ثم وقفَ فنزلَ، فدَعاهم إلى الله، وقرأ عليهمُ القرآن.

فقال عبدُالله بن أبيّ ابنُ سلولَ: أيُّها المرءُ، إنَّه لا أحسنَ مما تقولُ، إن كان حقّاً فلا تُؤذِنا بِهِ في مَجلسنا، ارجعْ إلى رَحلِكَ فمن جاءَك فاقصُصْ عليه.

فقال عبدُالله بن رَواحة: بلى يا رسول الله، فاغْشَنا بِهِ في مجالِسِنا، فإنا نحبُّ ذلك، فاستبَّ المسلمونَ والمشركون واليهودُ، حتى كادوا يتثاورون، فلم يَزَلِ النبيُّ ﷺ يُخَفِّضُهم حتى سَكنوا، ثم رِكِبَ النبيُّ ﷺ دابَّته، فسارَ حتى دَخَلَ على سعدِ بنِ عُبادةَ.

فقال له النبيُّ ﷺ : يا سعدُ ألم تَسمَعْ ما قال أبو حُبابٍ -يُريد عبدالله بنَ أُبيّ- قال كذا وكذا. قال سَعدُ بن عُبادةَ: يا رسولَ الله، اعْفُ عنه، واصفَح عنه، فوالذي أَنزَلَ عليك الكتابَ، لقد جاءَ اللهُ بالحقِّ الذي أنزلَ عليك، ولقد اصطلحَ أهلُ هذه البُحَيْرَةِ على أن

يُتوِّجوهُ، فيُعَصِّبوهُ بالعِصابَةِ، فلما أبى اللهُ ذلك بالحقِّ الذي أعطاكَ اللهُ شَرِقَ بذلك، فذلكَ فَعَلَ بِهِ ما رأيتَ، فعفا عنه رسولُ الله ﷺ .

وكان النبيُّ ﷺ وأصحابُه يَعْفُونَ عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرَهُم الله، ويَصْبِرونَ على الأذى، قال اللهُ عزَّ وجل: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ﴾ الآية [آل عمران:١٨٦]. وقال الله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ إلى آخر الآية [البقرة:١٠٩]. وكان النبيُّ ﷺ يتأوَّلُ العفوَ ما أمرَهُ الله به، حتى أَذِنَ الله فيهم، فلما غزا رسولُ الله ﷺ بدراً، فقتَلَ اللهُ به صَناديدَ كفَّار قريش قال ابنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولَ ومن معهُ مِنَ المشركينَ وعَبَدَةِ الأوثانِ: هذا أمرٌ قد تَوَجَّه، فبايَعوا الرسولَ ﷺ على الإسلام، فأسلموا» [البخاري: ٤٥٦٦. ومسلم: ١٧٩٨].

وقد رغَّب اللهُ رسولَهُ ﷺ وأصحابَه بالصبرِ على ما ينالهم مِنْ أذى أهل الكتابِ والمشركين، كما رَغَّبَهم بالاشتغالِ بالتقوى مِنَ الصلاةِ والصيامِ والذكرِ والدعاءِ، وأخبرهم أنَّ التزامهم بذلك مِنْ عزمِ الأُمور، أي: مما عَزم الله عليه وأمرَ بِهِ، وإذا كان الله عَزَمَ عليه وأمَرَ به، فإنه يجب على المؤمنينَ في ذلك الوقتِ الالتزامُ بِهِ، وتنفيذُهُ.

٣- كتمانُ أهلِ الكتابِ العلمَ الذي أمَرَهم اللهُ بإظهارِهِ وبيانِهِ:

أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أن نَذْكُرَ ما أَخَذَهُ على أهلِ الكتابِ من عهد وميثاقٍ في كتبهم التي أنزلها إليهم، فَقَدْ أخبرهم في تلكِ الكتبِ بصفاتِ نبينا محمدٍ ﷺ ، وأمرهم أن يُشيعوا خبره بينَ الناس، ويبشِّروا به، ونَهاهُم عَنْ كتمانِ الحقِّ الذي ائتمنهم عَلَيْهِ، فإذا بُعِثَ وَجَب على الأحياءِ منهم الإيمانُ بِهِ ومتابعتُهُ، وقد كان علماءُ اليهودِ والنصارى يُبَشِّرون به قبل بعثته، ويدَّعون أنَّهم سيتبعونه، حتى إذا بُعِثَ نبذوا ما أمرهم اللهُ بِهِ، ورَمَوْا بتلكَ الأوامرِ وراءَ ظهورِهِمْ، واشترى علماؤُهم بتلك الأوامِرِ ثمناً قليلاً، والثمنُ القليلُ هو الرئاسةُ والزعامةُ وما كانوا يُحَصِّلونه من متاعٍ، وكلُّ متاعِ الدُّنيا فهو قليل، فإنه عَرَضٌ زائلٌ، وعاريةٌ مستودعةٌ، وبئسَ ما اشتروه، فإنَّه أدَّى بهم إلى النَّارِ وغضبِ الجبار ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧].

وهذا الذي رهَّب اللهُ بِهِ أهلَ الكتابِ من كتمانِ العلمِ، يَعُمُّ كلَّ عالمٍ بكتابِ الله وكلَّ حقٍّ أُنزِلَ مِنْ عند الله فكتمه عالمه وأخفاه، في العقيدة أو الشريعة أو القصصِ والأخلاق، فقد

وَرَدَ حديثٌ بطرقٍ متعدِّدةٍ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «من سُئِلَ عن علمٍ فكتمه، أُلجِمَ يومَ القيمةِ بلجامٍ مِنْ نارٍ» [قال محقق ابن كثير: حديث قوي بشواهده. تفسير ابن كثير: ٢/ ١٦٢]. ويدلُّ لهذا النهي عن كتمانِ العلم قولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة:١٥٩].

٤- ذمَّ الله الذين يُحِبونَ أن يُحمدوا بما لم يفعلوا:

نهى اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يَظُنَّ أنَّ الذين يفرحون بما أَتوه مِنْ أعمال، ويحبُّون أن يَمْدَحهُمْ الناس ويثنوا عليهم بما لم يفعلوه، نهاه أن يظنَّ أنَّهم ناجون مِنَ العذابِ، وقرَّر سبحانه أنَّ لهم عذاباً أليماً ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٨] وهذا صنفٌ مِنَ النَّاسِ تهمُّه نفسُهُ، فهو يدورُ حَوْلَها، ويتحدَّثُ دائماً عَنْها، ويحبُّ ثناءَ النَّاسِ عليه، وتمجيدُهُمْ له، فيما عمله، وفيما يفعله، ويكثر هذا الصنف في المنافقين وأهلِ الكتابِ، ويقلُّ في المؤمنين، وكلَّما ازدادَ المرءُ إيماناً، قلَّتْ هذه الخصْلَةُ الذميمةُ فيه.

وقد تحدَّث الصحابةُ رضوانُ الله عنهم عن هذا الصنفِ مِنَ النَّاسَ في العهد النبويِّ، فعن أبي سعيد الخدريِّ ﷺ، «أنَّ رجالاً مِنَ المنافقين على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ، كان إذا خَرَجَ رسولُ الله ﷺ إلى الغَزْوِ تخلفوا عنه، وفَرِحُوا بمقعدهم خلافَ رسولِ الله ﷺ، فإذا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ اعتذرُوا إليهِ وحَلَفُوا، وأحبُّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلتْ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٨]» [البخاري: ٤٥٦٧. ومسلم: ٢٧٧٧].

وقد رأى ابن عباس أن الآية خاصَّةٌ باليهودِ دون غيرهم، فقد أمر مروانُ [أي ابن الحكم] بَوَّابه قائلاً: له: «اذهبْ يا رافعُ إلى ابن عباسٍ فقلْ: لئن كان كلُّ امرئٍ فَرِحَ بما أُوتي، وأحبَّ أن يُحْمدَ بما لم يفعلْ مُعَذَّباً، لنعذَّبنَّ أجمعون. فقال ابن عباس: وما لكمْ ولهذه، إنما دعا النبيُّ يهود، فسألهم عن شيءٍ فكتموه إيَّاه، وأخبروه بغيره، فأرَوْه أن قَدْ اسْتَحْمَدُوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألَهم، وفرحوا بما أُوتُوا مِنْ كتمانهم، ثمَّ قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ حتى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾ [آل عمران:١٨٧-١٨٨]» [البخاري: ٤٥٦٨. ومسلم: ٢٧٧٨].

٥- **لله مُلْكُ السموات والأرض:**

اللهُ -تبارك وتعالى- له مُلْكُ السمواتِ والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو قَديرٌ على كلِّ شيءٍ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماءِ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران:١٨٩] وفي هذه الآيةِ ردٌّ على اليهودِ الذين قالوا: إنَّ اللهَ فقير ونحن أغنياء، فاللهُ مالكُ كلِّ شيءٍ وغيره مملوك.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرْنا في آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- الموتُ حَتْمٌ لازمٌ لكلِّ حيٍّ مخلوقٍ، لا ينجو منه أحدٌ، لا فرقَ في ذلك بين الأخيارِ والفجار.

٢- يحاسِبُ اللهُ العبادَ في يومِ القيامةِ، فالأخيارُ يوفَّون أُجورهم، والفجارُ يَحْمِلُونَ في ذلك اليوم أوزارهم، ومصيرهم النَّار، وبئسَ القرارُ.

٣- الفوزُ العظيمُ يناله المؤمنون الذين زُحزِحوا عن النار، ودَخَلُوا الجنَّةَ.

٤- متاعُ الحياةِ الدنيا وأموالُها ونعيمُها متاعٌ زائلٌ، وعاريةٌ مسترجعةٌ، وهي تغرُّ أصحابَها، فبينما هُم في النعيم إذ بالمنادى ينادي بهم إلى الرحيل.

٥- يبتلي اللهُ عبادَهُ المؤمنينَ في الدنيا في أنفسِهِمْ وأموالهم، فتصيبهم المصائبُ والبلايا في النفسِّ والأهلِ والولدِ والمالِ، ومِنْ ذلك ما يصيبهم مِنَ أذى أهلِ الكتابِ والمشركين.

٦- على المؤمنينَ أن يصبروا على ما أصابهم مِنَ المصائبِ والبلايا، ويعملوا بطاعةِ الله متقين اللهَ، وهذا مِنْ عزْمِ الأمور.

٧- ذمَّ اللهُ -تعالى- أهلَ الكتابِ الذين حملوا الأمانةَ التي تُعَرِّفُهُمْ برسولِ الله محمدٍ ﷺ، وأمرهم بتعريفِ النَّاسِ بِهِ، كما أمرهم بالإيمانِ به إذا بُعِثَ، فكتموا هذا العلم الذي جاءَت به كتبهم، ونبذوا أمْرَ الله الذي أمرهم به، واستبدَلوا بذلك كلِّه ثمناً قليلاً مِنَ الرئاسةِ والمالِ.

٨- ذمَّ اللهُ الذين يدورون حولَ أنفسهم، وكلُّ همِّهم تحصيلُ ثناءِ النَّاسِ عليهم ومديحهم لهم، فيما عملوه، وفيما لم يفعلوه، وهؤلاءِ لا ينجون مِن العذابِ.

٩- الله مالك كلِّ شيءٍ، والقادرُ على كلِّ شيءٍ، ومنْ ملكه ما في السموات والأرض وما بينهما.

النصُّ القرآنيُّ الثامنُ والثلاثونَ من سورةِ آل عمرانَ

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النصِّ والآياتُ التي تليها عشرُ آياتٍ خَتَمَ اللهُ بها سورةَ آل عمران، وقد كان رسولُنا ﷺ إذا قامَ من الليلِ لتهجُّدِهِ مسحَ وجهه من النومِ، ثم قرأ بها، ثم توضأ، وصلى.

وقد باتَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه ليلةً عند رسولِ الله ﷺ ليَعْلَم صلاتَهُ، فأخبرنا أنَّه ﷺ عندما قامَ من النوم في تلك الليلةِ قرأ بالآيات من آخر آل عمران، ففي الصحيحين عنه قالَ: «بِتُّ عندَ خالَتي ميمونَةَ، فقلتُ: لأنظرنَّ إلى صلاةِ رسولِ الله ﷺ، فطُرِحَتْ لرسولِ الله ﷺ وِسادَةٌ، فنامَ رسولُ الله ﷺ في طُوْلِها، فجعلَ يمسحُ النَّومَ عَنْ وَجْهِهِ، ثمَّ قرأَ الآياتِ العشرَ الأواخرَ مِنْ آل عمران، حتى خَتَمَ» ثم ذكر بقيةَ ما قام به الرسولُ ﷺ من وضوئِه وصلاته [البخاري: ٤٥٧٠. ومسلم: ٧٦٣].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة آل عمران

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- ما جَعَلَهُ اللهُ في السمواتِ والأرضِ من آياتٍ:

أخبرنا ربُّنا العزيز العليمُ سبحانه وتعالى أنَّه أبدعَ السماواتِ والأرضَ على غير مثالٍ سابقٍ، وأحكم خلقهما، وخَلَقَ ما فيهما على نحوٍ لا مثيلَ له، انظرْ إلى ما حَدَّثنا اللهُ به عن

السماوات في قوتها وارتفاعِها واتساعِها، وجَعَلَها سَبْعاً طباقاً، وزيَّنَها بالنجومِ النيِّراتِ، وانظر إلى ما حدَّثنا به عن الأرضِ، سهولِها وجبالها، وبحارِها وأنهارِها، وحيواناتها وأشجارِها ونباتها، وانظر كيف يتعاورُ عليها الليلُ والنَّهارُ، وكيف يأخذُ كلُّ واحدٍ منهما مِنَ الآخر، فهما يتعاقبان، ويتقارضان ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة:١٩٠].

وما من شيءٍ تقعُ عليه العينُ في هذا الوجود إلا وفيه آيةٌ تشهدُ لخالقه بالإبداع، وفي كلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ تدلُّ على أنّه واحدٌ.

وقد أخبرنا أنَّ الذي يدركُ هذه الآياتِ الدالةِ على بديعِ صنعِ الله هم أولو الألباب، أي: أصحابُ العقولِ الزاكية الوافيةِ، أمَّا الكفرةُ الفجرةُ فإنَّهم يمرُّون على هذه الآياتِ، ولا يعتبرون بها، ولا يتَّعِظُونَ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥].

٢- الذين يذكرون اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّ أولي الألباب هُمْ ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويقولونَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٩١].

فأصحابُ العقولِ الزاكيةِ الوافيةِ يدركونَ آياتِ الله التي بثَّها في الكونِ، ويشغلون ألسنتهم بذكرِ الله مِنَ التسبيح والتحميدِ والتهليلِ والتكبير في كلِ أحوالهم، فالإنسانُ في دنياه إمَّا أنْ يكونَ قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً، وهم يذكرون اللهَ في هذه الأحوال الثلاثِ، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣].

ومع إدراكِ أولي الألباب لآياتِ الكونِ، وذكرهم الله بألسنتهم، يتفكرون في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ، فينظرونَ ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:١٧-٢٠]. وانظر إلى ما أمرنا اللهُ سبحانه بالنظر إليه في السموات والأرض في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق:٦-١٠].

وهذا التفكيرُ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ الذي هَدَى اللهُ إليه أُولي الألباب، أوْصَلَهُمْ إلى نتيجةٍ عظيمةٍ، فهذا الخلقُ للسمواتِ والأرضِ المبدع المحكَم لا بدَّ أنْ يكونَ لغايةٍ محمودةٍ، ولا يمكن أنْ يكونَ اللهُ قدْ خلقهما عبثاً، ولهواً ولعباً، وقدْ أبانَ اللهُ في أكثرِ مِنْ آيةٍ أنَّه خلقهما لتكونَ الأرضُ معبداً لله وَحْدَه، فإياه نعبدُ، وله نُصَلِّي ونسجدُ، ولذلك فإنَّ أولي الألباب يقولون: سبحانَكَ، أيْ: ننزهك، ونقدِّسك عن كلِّ سوء يا ربَّنا، فقنا عذاب النار، أي: جنِّبنا عذابَ النار، وإنَّما يكون ذلك بعبادةِ الله وطاعته.

٣- ربنا إنك مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فقد أخزيتَه:

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى - أنَّ أُولي الألباب يُدْرِكونَ ويعلمون أنَّ مَنْ أدخله الله النَّارَ فقد أخزاه ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝١٩٢﴾ [آل عمران:١٩٢]. والمراد بالخزيِ في الآية ما يَلْحَقُ الذين يدخلونَ النَّارَ من انكسارٍ وذلَّةٍ وهوانٍ، والخزيُ الذي يصيبُ الكفارَ بسببِ دخولهم النارَ لا يوجد أحَدٌ في ذلك اليوم يحميهم ويمنعهم وينصرهم منه.

٤- توسل أُولي الألباب إلى ربِّهم بإيمانهم:

أعلمنا رَبُّنا تبارك وتعالى أنَّ أُولي الألبابِ يتوسلون ويتقربونَ إلى ربِّهم بإيمانهم، فهم يقولون في دعائهم اللهَ ربَّهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ۝١٩٣﴾ [آل عمران:١٩٣] والمنادي الذي سمعوه ينادي للإيمانِ بالله هو رسولُ الله ﷺ، فاستجابوا له، وطلبوا من ربِّهم أنْ يغفرَ لهم بإيمانهم، ويكفر عنهم سيئاتِهم، ويتوفَّاهم مع الأبرارِ، والأبرار: الصالحون مِنَ المؤمنين.

٥- وآتِنا ما وَعدَّتَنا على رُسُلِك:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ أولي الألباب يختمونَ دعاءَهم بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝١٩٤﴾ [آل عمران:١٩٤] أي: يطلبونَ مِنَ الله أنْ يعطيهم ما وَعَدَهُمْ به على ألسنةِ رسله مِنَ الأجر والثوابِ في يوم القيامةِ بإظلالهم في ظلِّ عرشِه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه، وإنجائِهم مِنَ النَّار، وإدخالهم جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ، ويطلبونَ مِنْ ربِّهم -سبحانه- أنْ لا يُخْزِيَهم في يوم القيامةِ، أيْ: لا يهينهم، ولا يذلَّهم بما يحيقُ بأهلِ الضَّلالِ في الآخرةِ مِنْ عذاب، وأعظمه إدخالهم النارَ، وقالوا في ختامِ الدعاء: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝١٩٤﴾ [آل عمران:١٩٤] فاللهُ صادقٌ في وَعْدِهِ، وإذا وَعَدَ وَفَى.

٦- إجابةُ الله دعاءَ أولي الألبابِ:

أعلمنا ربُّنا -سبحانَهُ وتعالى- أنَّه سَمِعَ دعاءَ أولي الألبابِ، واستجابَ لهمْ، وأخبرنا أنَّه -سبحانه- لا يضيعُ عملَ عاملٍ مِنْ عبادِهِ المؤمنين، لا فرقَ في ذلك بينَ الذكرِ والأُنثى، وقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥]، أي: «في الدين والنصرةِ والموالاةِ، وقيل: كُلُّكُمْ مِنْ آدمَ وحواءَ» [تفسير البغوي: ٢/ ١٥٤]، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥] ثم فصَّل اللهُ القولَ فيما أجْمَله في قولِهِ: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:١٩٥] بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران:١٩٥].

يقولُ رَبُّ العِزَّةِ -سبحانه-: الذين هاجروا من ديارهم، وأُخرجوا من بلادهم وآذاهم قومُهُمْ لإيمانِهم بالله ورسوله، ثم قاتلوا أهلَ الكفرِ، وسقطَ بعضهُم شهداءَ في سبيلِ الله، لَيُكَفِّرَنَّ اللهُ عنهم ذنوبَهُمْ وخطاياهم، وقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ جوابَ قَسَم محذوفٍ، وليدخلنَّهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارِ، ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: جزاءً من عندِ الله على إيمانهم وأعمالهم وجهادهم، وهذا الثوابُ كائن مِنَ الله سبحانه، واللهُ عنده حُسْنُ الثوابِ، أي: حُسْنُ الجزاءِ.

وقد نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ الآية [آل عمران:١٩٥] عندما قالتْ أُمُّ سلمةَ للرسولِ ﷺ: «يا رسولَ الله، لا نسمعُ الله ذكرَ النِّساءَ في الهجرةِ بشيءٍ، فأنزلَ الله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ إلى آخر الآية [آل عمران:١٩٥]» [قال محقق ابن كثير: أخرجه الحاكمُ، وصحَّحَهُ على شرطِ البخاريِّ، ووافقهُ الذهبيُّ، وإسنادُه لَيِّنٌ، فيه سَلَمَةُ، وهو مقبولٌ، وأخرجه الترمذيُّ ٣٠٢٣. انظر ابن كثير: ٢/ ١٧٠].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصّ وجدناها تهدي إلى ما يأْتي من علمٍ وعملٍ:

١- آياتُ الله الدالةُ على وحدانيةِ الله وبديعِ صُنْعِهِ كثيرةٌ مبثوثةٌ فيما خلقه اللهُ في السمواتِ والأرضِ.

٢- الذين يدركون آياتِ الله في الكون، ويهتدونَ بها، هم أولو الألباب، وهم المؤمنون المُوَحِّدون الذاكرون لله المتفكرون في خَلْقِ الله.

٣- أصحابُ العقولِ الزاكيةِ الوافيةِ يديمونُ ذِكْرَ الله على كلِّ أحوالهم، أي في قيامهم وقعودهم، واضجاعهم.

٤ - المؤمنونَ الصادقونَ يتفكرون في خلقِ السمواتِ والأرضِ، وقد عَرَضَ القرآنُ هذا الخلق عرضاً كشف لنا به عن الآيات المبثوثة في الخلق، فندركها بيسرٍ وسهولة.

٥ - اللهُ تبارك وتعالى خَلَقَ السماواتِ والأرضَ بالحقِّ، أيْ: ليكون الكون معبداً، يَعبُدَ فيه الإنسُ والجنُّ والملائكةُ ربَّهم، ولم يخلقه عبثاً وباطلاً.

٦- أولو الألبابِ يَدْعونَ ربَّهم وَحْدَه، مخلصينَ له الدِّينَ سبحانه.

٧- على المؤمنين الموحدين أن يحفظوا هذا الدعاءَ، ويدعوا ربَّهم بِهِ، فقد أثنى اللهُ على الداعين به، وأخبرَ أنَّه استجابَ لهم دعاؤهم.

٨- تضمَّنَ هذا الدعاءُ أُموراً في غايةِ الأهميةِ، فَقَد طلبَ أولو الألبابِ مِنَ الله أنْ يقيهم عذابَ النار، وسألوا اللهَ أن يغفر لهم ذنوبهم ويكفِّر عنهم سيئاتهم، ويتوفاهم مع الأبرار، وطلبوا من الله أن يؤتيهم ما وعدهم به على ألسنةِ رسلهِ مِنَ الوقايةِ مِنَ النَّار ودخولِ الجنةِ.

٩- استجابَ الله دعاءَ الداعين العاملين مِنَ الرجالِ والنساءِ، وهم نموذجٌ فريد، حملوا الإيمان في قلوبهم، وحققوه في واقعهم، وتحملوا تكاليفه، فأُخرجوا مِنْ ديارهم وقاتلوا وقُتِلُوا وأُوذوا، واستجابة الله لهم تتحقق بتكْفيرِ السيئاتِ، ودخولِ الجنات.

النص القرآنيُّ التاسع والثلاثون من سورة آل عمران
لا يغرنَّك تَقلُّبُ الذين كفروا في البلاد

أولاً: تقديم

نهى اللهُ عبادَهُ المؤمنينَ في آيات هذا النصِّ عن الاغترار بما يرفلُ فيه أعداؤُهم مِنَ النعيم الدنيوي، فهو عَرَضٌ زائل، لا يلْبثُ أنْ يفنى ويضمحلَّ، ويحلّ محلَّه العذابُ في لجج النَّار، أما المؤمنونَ فإنهم وإنْ قلَّ متاعُ الدنيا في أيديهم، فهم في جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ في الآخرة، وأثنى اللهُ في آيات هذا النصِّ على المؤمنين بالله، المستجيبين لرسول الله ﷺ، وأَمَرَ في الختامِ عبادَه المؤمنين بالصبرِ والمصابرةِ والمرابطةِ في الثغورِ وتقوى الله ليكونوا مِنَ المفلحين.

ثانياً: آيات هذا النص القرآني من سورة آل عمران

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ١٩٨ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران:١٩٦-٢٠٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- نهى اللهُ المؤمنين أن يَغُرَّهم تمتعُ الكفارِ بدنياهم:

نهى اللهُ رسولَه ﷺ أن يَغُرَّه تقلبُ الذين كفروا في البلاد ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧]. والتقلُّبُ المنهيُّ عنه «التصرف في التجارات والأرباحِ والحروبِ وسائرِ الآمالِ» [المحرر الوجيز لابن عطية: ٢/ ٤٥٤] وفي نهيِ الله -تعالى- لرسوله في هذه الآيةِ نهيٌ لأصحابه ولأُمَّتِهِ، وقد يغرُّ المؤمنَ ما يرفلُ فيه أعداءُ الإسلام مِنْ مالٍ وجاهٍ ونعيمٍ وقصورٍ، وقد أخبرنا ربُّنا أنَّ هذا النعيمَ الدنيويَّ الذي يتقلَّبُ فيه الكفارُ متاعٌ قليلٌ، لأنَّه متاعٌ زائلٌ، ثم يصيرون إلى النَّار وبئسَ القرارِ.

٢- نعيم المؤمنينَ في الآخرةِ هو النعيمُ العظيمُ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن تَقَلُّبَ الذين كفروا في البلادِ متاعٌ قليلٌ، أما المؤمنون الأتقياءُ فهم الذين ينالون النعيمَ الخالدَ الباقي الدائمَ عندما ينزلون في رحابِ الله، فيدخلهم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، وهذا الذي حَلُّوا فيه نزلاً من عند الله، أيْ: ضيافة مِنْ ربِّ العبادِ، وما عندَ الله خيرٌ مما يَتَقَلَّبُ فيه الكفارُ، ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٨].

٣- فَضْلُ أهلِ الكتابِ الذين دخلوا في الإيمان:

حَدَّثنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ بعضاً من أهلِ الكتاب مِنَ اليهود والنصارى يدخلون في الإسلام، ويؤمنون بالله تبارك وتعالى، ويؤمنون بما أنزل اللهُ إليهم مِنَ الكتب، ويؤمنون بما أنزله على رسولنا ﷺ، وهم في ذلك كلِّه خاشعون لله، أيْ: يخافون ربَّهم، ويرهبونَهُ، وأخبر أنَّهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، كما فعل كثيرٌ مِنَ الأحبارِ والرهبان عندما أخفوا ما في كتبهم مِنْ صفاتِ رسولنا ﷺ المبشَّرَةِ به، حتى لا يزولَ عنهم سلطانُهُمْ، وما يصلُ إليهم من متاعِ الدنيا، وقد أثنى اللهُ تعالى على هذا الفريق، وأخبر أنَّ لهم الأجْرَ العظيمَ يوم القيامة ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٩].

وهذا الصِّنفُ الذي أثنى اللهُ عليه من أهل الكتابِ وُجِدَ في عَهْدِ النبيِّ، فقد آمنَ برسولنا ﷺ بعضُ اليهود كعبدالله بن سلام، وكان حَبْرُ اليهودِ وعالمهم في المدينة، ودخَلَ النجاشيُّ أصْحَمَةُ حاكم الحبشة وطائفةٌ من الرهبانِ الذين عنده في هذا الدين، ودَخَلَ كثيرٌ من النصارى في الإسلامِ عند فتح الصحابةِ لبلاد الشامِ ومصرَ وشمالِ إفريقيا والأندلسِ، ولا يزال اليهودُ والنصارى يدخلون في هذا الدين في كل عصرٍ ومصرٍ حتى يومنا هذا.

وقد تحدَّث اللهُ كثيراً في كتابه عن المؤمنين الصادقين من أهلِ الكتاب كقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [القصص:٥٢-٥٤] وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ ﴾ [البقرة:١٢١].

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنَّ مَنْ آمَنَ بنبيِّه، وآمن به يُؤْتى أجرَه مرتين [البخاري: ٣٠١١. ومسلم: ١٥٤].

٤- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ ﴾:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآيةِ التي هي خاتمةُ هذه السورةِ الكريمةِ المؤمنين أنْ يصبروا، ويصابِروا، ويرابِطوا، ويتَّقوا اللهَ لعلهم يفلحون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بالصبرِ على الطاعات، والصبرِ عن المعاصي، والصبرِ في مواجهةِ أعداءِ الله، ثم أمر بالمصابرةِ، فقد يمرُّ المسلمون بأحوال عصيبةٍ، وصعبةٍ كما وقع لهم في أُحُدٍ، فيحتاجون إلى مرتبة عاليةٍ في الصبر، وهي التي سمَّاها بالمصابرة.

والرباطُ: هو في الأصلِ ملازمة القتالِ في سبيلِ الله تعالى، وحفظُ ثغور الإسلام، وصيانتها عن دخولِ الأعداء إلى حوزةِ بلاد المسلمين، وهي من رَبْطِ الخيلِ، ثم سمَّى كلَّ ملازم لثغرٍ من ثغورِ الإسلامِ مرابطاً، فارساً كان أو راجلاً، وقد شَبَّه رسولنا ﷺ انتظارَ الصلاةِ بعد الصلاةِ بالرِّباطِ في سبيلِ الله [المحرر: ٢/ ٤٥٧] روى أبو هريرة أنَ رسولَ الله ﷺ قالَ: «ألا أدُلُكُم على ما يَمْحُو اللهُ به الخطايا، ويرفعُ به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسولَ الله، قالَ: «إسباغُ الوضوءِ على المكارهِ، وكثرةُ الخطا إلى المساجدِ، وانتظارُ الصلاةِ بعد الصلاةِ، فذلكم الرِّباطُ» [مسلم: ٢٥١].

والرباطُ في الحربِ والقتالِ فيه أجْرٌ عظيمٌ وثوابٌ جزيلٌ، روى سهلُ بن سعدٍ الساعدي رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «رِباطُ يوم في سبيلِ الله خيرٌ مِنَ الدنيا وما عليها، ومَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجنةِ خير مِنَ الدنيا وما عليها، والروحةُ يَروحُها العبدُ في سبيلِ الله أو الغدوةُ خيرٌ مِنَ الدنيا وما عليها» [البخاري: ٢٨٩٢. ومسلم: ١٨٨١].

وعن أبي هريرةَ عن رسولِ الله ﷺ قال: «مَنْ ماتَ مرابطاً في سبيلِ الله، أُجْرِيَ عليه عَمَلُه الصالحُ الذي كان يَعْمَلُ، وأُجْرِيَ عليه رِزْقُهُ، وأَمِنَ من الفَتَّانِ، وبعثه اللهُ يومَ القيامةِ آمناً مِنَ الفَزَعِ» [قال محقق ابن كثير (٢/ ١٧٨): جيدٌ، أخْرجه ابن ماجه (٢٧٦٧) وصحَّحَ إسنادَه المنذريُّ في «الترغيب» والبوصيري في «الزوائد»].

وعن سلمانَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «رِباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامِهِ، وإنْ ماتَ جَرَى عليه عَمَلُه الذي كانَ يعملُهُ، وأُجريَ عليه رِزْقُه، وأَمِنَ الفَتَّانَ» [مسلم: ١٩١٣].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

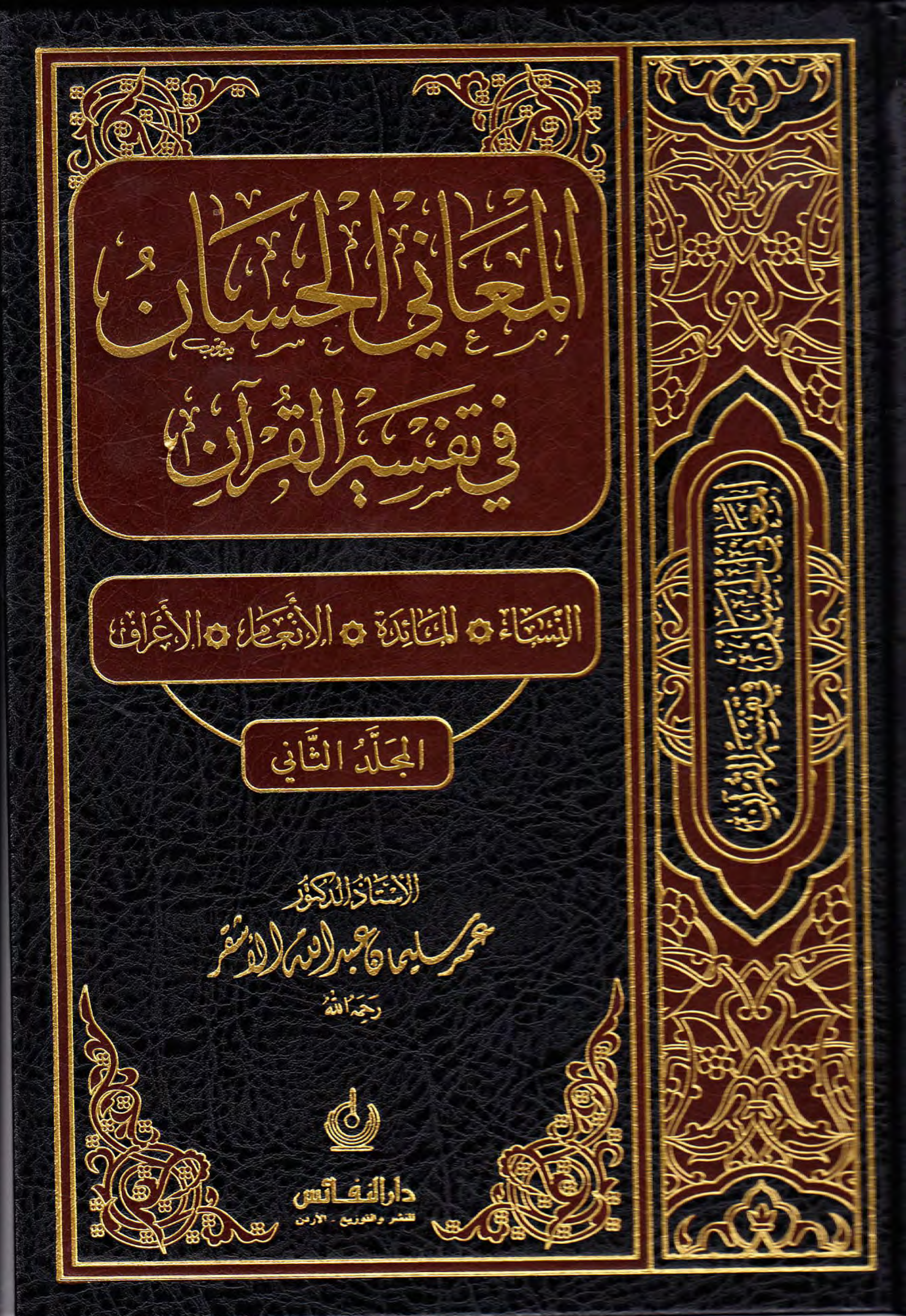
١- نهى ربُّ العبادِ عبادَه المؤمنين أنْ يغتروا بما يَرْفُلُ فيه الكفارُ من متاعِ الدنيا، فالذي هم فيه متاعٌ قليلٌ زائلٌ، وفي يوم القيامةِ مأواهُمْ جهنَّم، وبئسَ المصير مصيرُهُمْ.

٢- المؤمنونَ الصادقونَ وإن كان حَظُّهم في الدنيا قليلاً، لكنَّ حظَّهم في الآخرةِ عظيمٌ، فهم في ذلك اليوم يدخلونَ جناتٍ تجري من تحتها أنهارُ اللبن، وأنهارُ الخمرِ، وأنهارُ العسلِ المصفى، وأنهارُ الماء غير الآسنِ، إكراماً مِنَ الله، وضيافةً لعباده.

٣- امتدحَ اللهُ الذين آمنوا بمحمدٍ ﷺ مِنْ أهل الكتاب الذين آمنوا بكتابه وكتبهم، وأثنى على هؤلاء بخشوعهم ومخافتهم لربهم، وأخبر أنَّهم بيَّنوا الحقَّ الذي ائتمنهم اللهُ عليه الذي بشَّر بِهِ برسولِهِ محمد ﷺ وأظهروهُ ونشروهُ.

٤- أمر اللهُ المؤمنينَ في ختامِ هذه السورةِ العظيمةِ بالصبر على حَمْلِ هذا الدينِ، والصبرِ على مقارعَةِ خصومِ الإسلام، وأمرهم أن يرتفعوا إلى مستوى المصابرةِ والمرابطةِ في الثغورِ لحفظ ديارِ الإسلام، وأمَرهُمْ في الختامِ بتقوى الله ليكونوا مِنَ المفلحين.

فهرس


المعاني الحسان
في تفسير القرآن
النساء ● المائدة ● الأنعام ● الأعراف
المجلد الثاني
الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله
دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن


المعاني الحسان
في تفسير القرآن
٢

جنـــــة الســــــنة

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٣/٦/١٨٦٣

٢٢٢,٣
الأشقر، عمر سليمان
المعاني الحسان في تفسير القرآن/ عمر سليمان الأشقر.-عمان-دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
( ) ص.
ر.إ.:١٨٦٣/٦/ ٢٠١٣
الواصفات: / تفسير القرآن// سور القرآن// القرآن الكريم/

دار النفائس
للنشر والتوزيع-الأردن


العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن
هاتف: 5693940 6 00962
فاكس: 5693941 6 00962
Email: alnafaes@hotmail.com
www.al-nafaes.com

ISBN ردمك
9 789957 801496



المعاني الحسان في تفسير القرآن

النساء ٭ المائدة ٭ الأنعام ٭ الأعراف

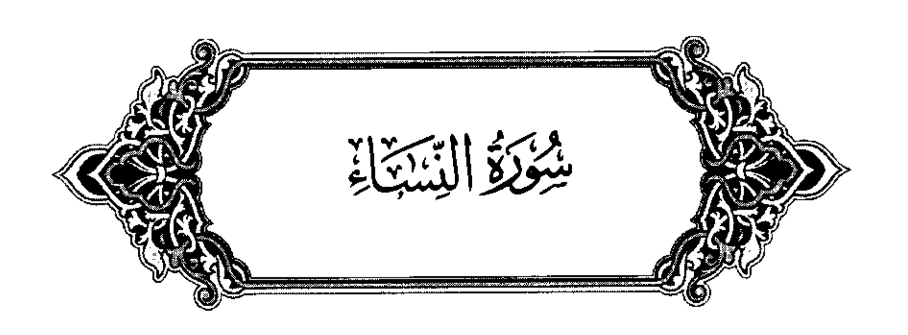
المجلد الثاني

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله



دار النفائس
للنشر والتوزيع





التعريف بسورة النساء

قال أبو عمرو الدانيُّ في تعريفِ هذه السورة: «سورةُ النساءِ مَدَنِيَةٌ، ولا نظيرَ لها في عَدَدِها، وكَلِمُها ثلاثةُ آلافٍ وتسعُ مائةٍ وخمسٌ وأربعونَ كَلِمةً، وحروفها ستة عشَرَ ألفِ حرفٍ وثلاثونَ حرفاً، وهي مائةٌ وسبعونَ وخمسُ آياتٍ في المَدنِيَّيْنِ والمكيِّ والبصريِّ، وسِتٌّ في الكوفي، وسَبْعٌ في الشاميِّ» [البيان في عدّ آي القرآن: ص١٤٦].

النص القرآنيُّ الأول من سورة النساء
الله تعالى خلقنا جَميعاً من أصلٍ واحدٍ هو آدمُ عليه السلام

أولاً: تقديمٌ

افتتح اللهُ -تبارك وتعالى- هذه السورةَ الكريمةَ بمناداةِ الناسِ جميعاً طالباً منهم أن يَتَّقُوا ربَّهم الذي خلقهم مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ هي نفسُ آدمَ عليه السلام، ثم خَلَقَ منها زوجَهُ حواء، ثم مِنْ آدم وزوجه حواء بَثَّ الناسَ جميعاً رجالاً ونساءً، ثم أمرهُم أنْ يتقوا اللهَ الذي يتساءَلون بِهِ والأرحامَ إنَّ اللهَ كان علينا رقيباً.

وأمرنا ربنا بإيتاءِ اليتامى أموالهم، ونهانا عَنْ أكْلِ أموالهم ظلماً وعدواناً، ونهانا عن الزواجِ مِنَ اليتيماتِ إلا إذا عَدَلْنا بينهنّ، وأباحَ للرجالِ أن يتزوّجَ الواحدُ منهم بأربعٍ، فإن كان لا يستطيعُ العَدْلَ بينهنَّ، فعليه أن يكتفي بواحدةٍ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾﴾ [النساء:١-٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النص من القرآن

١- نادى ربُّ العزةِ النَّاسَ آمراً إيَّاهم بتقواه:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- النَّاسَ جميعاً على اختلافِ أجناسِهِمْ وألوانِهِمْ ولغاتِهِم آمراً إيَاهُم بتقواه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١] وتقواه تكونُ بعبادته وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، وإنَّما نادى اللهُ النَّاسَ جميعاً، لأنَّ رسالةَ محمدٍ ﷺ للنَّاس كلِّهم، وليسَ للعرب خاصَّة.

٢- تعريفُ اللهِ العبادَ بنفسِهِ سبحانَهُ:

عرَّف اللهُ -سبحانه- عبادَه بنفسِهِ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١] قالَ اللهُ تباركَ وتعالى: الربّ الذي أمرتكم بعبادتِهِ هو الذي خلقكم مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ، هي آدم ﷺ، وخلق من آدم زوجَه حواءَ، وبثَّ من آدمَ وحواءَ كلَّ البشر الذين خلقهم.

وقد بيَّنَ لنا رسولُنا ﷺ كيفَ خُلِقَتْ حواءُ مِنْ آدمَ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «اسْتَوْصُوا بالنساءِ خيراً، فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهبتَ تقيمُهُ كَسَرْتَه، وإنْ تركتَه لم يَزَلْ أعْوَجَ، فاستوصوا بالنِّساء» [البخاري: ٣٣٣١. ومسلم: ١٤٦٨].

وقولُه تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ أعلمنا اللهُ تعالى في هذه الآية أنَّ جميعَ مَنْ خلقهم مِنَ الرجالِ والنساءِ المبثوثين في هذه الأرضِ هم من آدم وحواء.

٣- واتقوا اللهَ الذي تساءَلونَ بهِ والأرحامَ:

أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- بتقواه مرةً ثانيةً فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء:١] وأصلُ تساءَلونَ: تتساءَلون، حُذِفَتْ التاءُ الثانيةُ تخفيفاً، والناسُ يتساءَلون بالله بأنْ يقولَ الواحدُ لصاحِبه: أسألُكَ بالله.

والأرحامُ: اسم لجميعِ الأقاربِ مِنْ غيرِ فَرْقٍ بينَ المُحْرمِ وغيرِهِ، والمعنى: اتَّقُوا الأرْحامَ أنْ تقطعوها.

وقد جاءت آياتٌ كثيرةٌ وأحاديثُ صحيحةٌ عديدةٌ آمرةٌ بصلةِ الأرحامِ، وناهيةٌ عن قطيعةِ الرحم، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد:٢٢] وفي الحديثِ عن أبي هريرةَ ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَنْ سَرَّه أنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، وأنْ يُنْسأَ له في أثرِهِ، فليصِلْ رَحِمَهُ» [البخاري: ٥٩٨٦. ومسلم: ٢٥٥٧] وعن جبير بن مُطْعَم أنَّه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لا يدخلُ الجنَّةَ قاطعٌ» [البخاري: ٥٩٨٤. ومسلم: ٢٥٥٦]. وعن أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ الرحمَ شَجْنَةٌ من الرحمنِ، فقال اللهُ: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ» [البخاري: ٥٩٨٨. ومسلم: ٢٥٥٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١] أيْ: مراقبٌ لقلوبكم وأقوالكم وأعمالكم.

وقد كانَ رسولُنا ﷺ يفتتحُ بعضَ خطبِهِ بعدَ حَمْدِ الله والثناءِ عليه بهذه الآيةِ، ففي صحيح مسلم أنَّ رسولَ الله ﷺ وَفَدَ عليه وفد من مُضَرَ فقراءُ مجتابي النِّمارِ، فخطبَ أصحابَهُ، ودعاهُمْ إلى الصَّدَقَةِ، وقرأ في فاتحة خطبته هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١] إلى آخرها [مسلم: ١٠١٧].

٤- ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾:

أمرَ اللهُ -تعالى- في الآية الثانية من هذا النصِّ الأولياءَ والأوصياءَ الذين يتولَّون أموالَ اليتامى أنْ يدفعوا إليهم أموالَهُمْ، كاملةً غيرَ منقوصةٍ ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النساء:٢] واليتيمُ هو الذي تُوُفِّي والدُه وهو صغيرٌ لم يبلغ الحلمَ.

ويكون الدفعُ لليتيمِ عندما يبلغُ الحلمَ راشداً، ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النساء:٦].

ونهى اللهُ -تبارك وتعالى- من بيدِهِ مالُ اليتيمِ أنْ يتبدَّلَ الخبيثَ بالطيِّب، كما نهاهُمْ أنْ يأكلوا أموالَ اليتامى إلى أموالِهِمْ ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ [النساء:٢]. أيْ: تستبدِلوا الحرامَ وهو مالُ اليتامى بالحلالِ وهو مالُكم، ولا تضُمُّوا أموالَهم إلى أموالكم، وقولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢﴾ [النساء:١] أي: أكلكم أموالَ اليتامى، واعتداؤكم عليها كان حوباً، أي: إثماً عظيماً.

٥- ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

سأل عروةُ بنُ الزبير خالَته عائشةَ رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء:٣] فقالتْ: «يا ابنَ أُختي، هذه اليتيمةُ تكون في حِجْرِ وليها، تَشْرَكُهُ في مالِهِ، ويعجبُهُ مالُها وجمالُها، فيريدُ وليُّها أن يتزوَّجَها بغير أن يُقسِط في صَداقِها، فيعطيها مثلَ ما يُعْطِيها غيْرُه، فنهوا عن أن ينكحوهنَّ إلا أنْ يُقسِطوا لهنَّ، ويبلُغوا لَهُنَّ أعلى سُنَّتِهِنَّ في الصَّداقِ، فأُمروا أنْ يَنْكِحوا ما طابَ لهم من النساء سواهُنَّ» [البخاري: ٤٥٧٤ ومسلم: ٣٠١٨].

وقد ذكرتْ أمُّ المؤمنين عائشةُ في حديثٍ آخر أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في رَجُلٍ تزوَّجَ يتيمةً لها عِذْق، وكانَ يُمْسِكها عَلَيْهِ ولمْ يكنْ لها من نفسه شيءٌ، فنزلتْ فيه ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء:٣] أحْسَبُه قال: «كانتْ شريكَتُهُ في ذلك العِذْقِ وفي مالِهِ» [البخاري: ٤٥٧٣ ومسلم: ٣٠١٨].

٦- لا يجوزُ للرَّجلِ أنْ ينكح من النساءِ أكثرَ مِنْ أربع:

شَرَعَ اللهُ تعالى في قولِهِ: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء:٣]. للرجلِ أن ينكحَ زوجتين أو ثلاثاً أو أربعاً، ولا يجوز له أنْ يتعدَّى هذا العددَ، وقد نَقَلَ القرطبيُّ الإجماعَ على عَدَمِ جواز تَعَدِّي الرجلِ الأربعَ من النساءِ في زواجِهِ، فقال في الذين قالوا بجوازِ نكاح التسع أو أكثرَ من ذلك مِنْ الشيعةِ والظاهرية: «هذا كلُّه جَهْلٌ باللسانِ والسنَّة، ومخالفة لإجماعِ الأمّةِ، إذ لم يُسْمَعْ عَنْ أحدٍ مِنَ الصحابةِ ولا التابعينِ أنّه جمعَ في عصمته أكثرَ مِنْ أربعٍ» [تفسير القرطبي: ٣/ ٢٠] وقَدْ ساقَ القرطبيُّ بعدَ إيرادِه هذا النصَّ الأحاديثَ التي تنصُّ على تطليقِ الصحابةِ ما زادَ عَنْ الأربعِ بعد نزولِ هذه الآية.

٧- وجوبُ العدلِ بين الزوجاتِ فمن خشي أن لا يعدلَ فعليه أنْ يكتفي بواحدةٍ:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- الذين يظنونَ أنّهم لا يستطيعونَ العدْلَ بينَ زوجاتِهم إذا تَزَوَّجُوا بأكثرَ مِنْ واحدةٍ أن يقتصروا في النكاحِ على واحدة ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣﴾ [النساء:٣] والعدلُ الذي يجبُ أنْ يُجْريه الرجلُ بين زوجاتِه هو في القَسْمِ والنفقة، فإذا خافَ الرجلُ عدم العدلِ بين زوجاتِهِ، فعليه أن يكتفيَ بالزواجِ بواحدةٍ، ذلك أدنى ألاَّ تعدلوا، أي ذلك أقرب ألا تجوروا ولا تظلموا.

أما ميلُ القلب إلى بعض زوجاتِهِ أكثر من بعضٍ، فهذا لا يدخلُ في العدلِ الذي لا بدَّ منه، فإنَّ هذا إلى الله، ولا يمكنُ للعبد أن يتحكم فيه.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ من علمٍ وعملٍ:

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١ - أمَرَ اللهُ -تباركَ وتعالى- عبادَه أنْ يعبدُوه وَحْدَه لا شريك له.

٢ - اللهُ وَحْدَهُ الذي يستحقُّ العبادَة، لأنَّه الذي خلقنا وخَلَقَ مَنْ قبلنا.

٣- أصلُ البشر جميعاً واحدٌ، فاللهُ خَلَقَ آدمَ من ترابٍ، وخَلَقَ منه زوجَهُ حواء، وخلقَ بقية الناس بطريقِ التناسل من ذكرٍ وأنثى، إلا عيسى عليه السلام، فقد خَلَقَهُ مِنْ امرأةٍ من غير زوجٍ.

٤ - أمَرَ اللهُ -تعالى- بصلةِ الأرحامِ، وحرَّم على عبادِهِ قطيعةَ الرَّحمِ.

٥- حرَّمَ اللهُ على الأولياءِ والأوصياءِ أكْلَ أموالِ اليتامى بالباطلِ.

٦- لا يجوزُ لوليِّ اليتيمةِ أنْ ينكحها إنْ لم يؤدِّ لها مهرَها وافياً، ولمْ يَقْسِمْ لها حقَّها في المبيتِ والنفقةِ.

٧- لا يجوزُ للرجلِ أنْ ينكح أكثر من أربعِ نساءٍ، أيْ: لا يجوزُ أنْ يجتمعَ في عصمته أكثر من أربع في وقتٍ واحدٍ، وقدْ أجازَ لرسولِهِ ﷺ الزيادة عن ذلك خصوصيةً له.

٨- لا يجوزُ للرجلِ أن يتزوجَ أكثَرَ من زوجةٍ إذا كانَ لا يستطيعُ العدلَ بينَ نسائه في القسمةِ والنفقةِ، وعليه في هذه الحالةِ أن يكتفي بواحدةٍ، ويجوز له أن يتسرَّى بالعددِ الذي يشاؤه.

النصُّ القرآنيُّ الثاني من سورةِ النساء
إيتاءُ النساء صدقاتِهِنَّ نِحْلَةً

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النصِ تأمرُ الرجالَ بأنْ يُؤْتُوا نساءَهُنَّ صدقاتِهِنَّ، أيْ: مهورهنَّ نِحْلَةً، أيْ: عَطِيَّةً، وهبةً غيرَ مستردَّةٍ، وفيها بيانُ كيفَ نتصرفُ في مالِ السفهاءِ، وكيف يتصرفُ الوليُّ أو الوصيُّ في مال اليتيم إذا بلغَ رشدَهُ، كما بينتِ الحالَ الذي لا يجوزُ للولي أوْ الوصيّ أن يأكلَ فيها من مالِ اليتيمِ، والحالَ التي يجوزُ له فيها ذلك.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء:٤-٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يجبُ على الأزواج إيتاءُ زوجاتهم مهورهُنَّ نِحْلَةً

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- الأزواجَ أنْ يُؤْتِيَ الواحدُ منهم زوجتَه مهرَها نِحْلةً، أي: عن رضاً وطيبِ نفسٍ، والنحلةُ: العطيةُ الواجبةُ اللازمةُ ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةٗۚ ﴾ [النساء:٤] والصدقاتُ: المهور، ولا يجوز للزوج أن يأخذَ مِنْ زوجته شيئاً مما أعطاها بغيرِ رضاها، فإنْ أعطته شيئاً من مالها طيبةً بذلك نفسُها، فلا حرجَ عليه فيما أخذه منها، وجازَ له أن يأكله هنيئاً مريئاً ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء:٤] فإن أظهرت الرضا بسبب إكراهه لها، أو لكثرةِ مطالبتِهِ إيّاها أن تعطيهُ مِنْ مالها، فلا يحلُّ له ما أخذ منها.

٢- نهي الله لنا أنْ نُؤتي السفهاءَ أموالنا:

نهانا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ نُؤتي السفهاءَ أموالنا التي جعلها اللهُ لنا قياماً ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا ﴾ [النساء:٥] وأصلُ السَّفَهِ خِفَّةٌ في العقلِ، يؤدي بصاحبه إلى

تصرفاتٍ حمقاءَ، بعيدةٍ عن الصوابِ والاتزانِ، والسفهاءُ الذين نهانا اللهُ أنْ نعطيهم أموالنا الصغارُ والمجانين، والذين يسيئون التصرَّفَ بالمالِ إنْ هم ملكوه، فترى الواحدَ منهم يشتري الشيءَ الحقيرَ بالمالِ الكثيرِ، ويبيعُ الشيءَ الثمين بالمال القليل، وهؤلاء يُحْجَرُ عليهم أن يتصرفوا في أموالهم، ويُقامُ عليهم أوصياءُ يتصرفون في أموالهم حسبَ ما تقتضيه المصلحةُ، وعلى الأوصياء أن ينفقوا على السفهاءِ بمقدار حاجتهم إلى الطعامِ واللباس والسكنِ والتعليم ونحو ذلك، فإن طالبوا بأكثرَ من ذلك فعلى الأولياء أن يقولوا لهم قولاً معروفاً، كأن يقولوا لهم: هذا مالكم نحفظُه لكم، وغداً عندما تكبرون نعطيكم إياه، ونحو ذلك. والمال وإن كان السفيهُ يملكه، لكنَّه مالُ الأُمَّة التي بها قوامُ عيشها، فلا يجوزُ صرفه فيما ليس فيه مصلحةٌ.

٣- على وليِّ اليتيمِ أو الوصيِّ أن يختبرَ اليتيمَ إذا بلغَ سنَّ الرشد:

قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦].

أَمَرَ اللهُ الأولياءَ والأوصياءَ أن يختبر الواحدُ منهم يتيمه، ليعلموا مدى رُشدِهِ في التصرفِ إذا بلغَ سنَّ النكاحِ، فإن علمنا أنَّه أصبحَ راشِداً في تصرُّفِهِ، فيجبُ علينا أن ندفعَ إليه مالَهُ، ولا يجوزُ للوليِّ أو الوصيِّ أن يسارعَ إلى أكلِ مالِ اليتيم على وجه الإسرافِ أو المبادرة قبل بلوغ اليتيم سن النكاحِ، وقد نهى الله الأولياءَ والأوصياءَ على مال اليتيمِ أنْ يأخذوا منه شيئاً إن كانوا أغنياء، فإن كانوا فقراءَ أكلوا منه بالمعروف، أي: بمقدار أجرتهم أو قَدْرِ حاجتهم، وقد سأَلَ رجلٌ رسولَ الله ﷺ، فقالَ: ليسَ لي مالٌ، ولي يتيمٌ، فقالَ: «كلْ مِنْ مالِ يتيمكِ غيرَ مُسْرِفٍ ولا مُبَذِّرٍ، ولا متأثلٍ مالاً، ومن غيرِ أن تقي مالكَ - أو قال: تفدي مالَكَ بمالِه» [قال فيه محقق ابن كثير: (١/ ١٩٤): جيد: أخرجه أحمد (٢/ ١٨٦. ورقمه: ٦٧٠٨) وهو حديث حسن، وله شواهد].

وقد أَمَرَ اللهُ مَنْ كان عنده مالُ اليتيم إذا دفعَ إليه مالَهُ أن يُشْهِدَ عليه، وقال في ختامِ الآية ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦] «أي: وكفى بالله محاسباً وشهيداً ورقيباً على الأولياءِ في حالِ نظرهم للأيتامِ، وحال تسليمهم للأموالِ، هل هي كاملةٌ موفَّرة، أو منقوصة مبخوسةٌ، أيْ: اللهُ عالمٌ بذلك كله» [ابن كثير: ٢/ ١٩٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآياتُ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا هذه الآياتِ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١ - يجبُ على من تزوج امرأةً أنْ يفرضَ لها مهراً، فإن لم يسمِّ لها مهراً وجبَ لها مهرُ المثلِ إذا دخَلَ بها.

٢ - لا يجوزُ للزوجِ أن يأخذَ من زوجته شيئاً مما أعطاها إياه إلا إذا بذلته له عن طيبِ نفسٍ منها.

٣ - يجب أن يقومَ على أموالِ اليتامى والمجانين والذين لا يحسنون التصرفَ في أموالهم أولياءُ أو أوصياءُ يتصرفون فيها تصرفاً صحيحاً راشداً.

٤ - يجبُ على الوليِّ أن ينفقَ على السَّفيهِ فيما يحتاجُ إليه من كسوةٍ وطعامٍ وسكن وتعليمٍ ومعالجةٍ للأمراض ونحو ذلك.

٥ - يجبُ على وليِّ اليتيم أنْ يدفعَ لليتيم مالَهُ إذا بلغ سِنَّ النكاحِ، وكان تصرفه في المالِ تصرفاً راشداً.

٦ - إذا كانَ وليُّ اليتيم غنياً، فليستعفف عن أخذ شيءٍ من مالِ اليتيم، فإن كان الوليُّ فقيراً أخذ من ذلك المال بالمعروف.

٧- إذا دفعَ وليُّ اليتيم إلى اليتيم مالَهُ وَجَبَ أن يُشْهِدَ عليه.

٨- رهَّب اللهُ وليَّ اليتيمِ من بخس اليتيمِ حقَّه، ورهَّب اليتيمَ أنْ ينكر ما أعطاه وليُّهُ من مالٍ.

النصُّ القرآنيُّ الثالثُ من سورة النساء
للرجالِ والنساءِ نصيبٌ مما تركَ الوالدانِ والأقربونَ

أولاً: تقديمٌ

أعلمنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- في آيات هذا النصّ أنَّ للرجالِ نصيباً مما تركهُ الوالدان والأقربون، وكذلك النساءُ، قليلاً كان ذلك المالُ أو كثيراً، وستأتي الآياتُ التي تبيِّنُ هذا النصيبَ لكلِّ وارثٍ، وأمَرَ اللهُ تعالى الورثةَ إذا هم قَسَمُوا التركةَ، وحَضَرَ القسمةَ بعضُ الأقاربِ أو اليتامى أو المساكين أن يرزقوهم من ذلك الميراث بما تطيبُ به أنفسهم، وأمرنا اللهُ -تعالى- إذا حَضَرْنا ميتاً أوصى بوصيةٍ تضرُّ الورثةَ أن نسدِّدَهُ ونُصَوِّبَهُ، وفي الآيةِ الأخيرةِ تهدَّدَ ربُّ العزَّةِ الذين يأْكُلون أموالَ اليتامى ظلماً أنْ يطعِمهم النارَ يومَ القيامةِ، ويصليهم السعيرَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:٧-١٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- للرجال نصيبٌ مما تركَ الوالدان والأقربونَ

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أحكم قسمةَ المواريثِ بقاعدةٍ ضابطةٍ، فقد جعل سببَ الميراثِ هو القرابة، وهذه القرابةُ تشملُ الرجالَ والنساءَ، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء:٧]. وقد كان أهلُ الجاهليةِ لا يورِّثون النساءَ ولا الصغارَ، وإن كانوا ذكوراً، ويقولون: «لا يُعْطَى إلا مَنْ قاتلَ على ظهورِ الخيلِ، وطاعَنَ بالرُّمْحِ، وضاربَ بالسيفِ، وحازَ الغنيمةَ» [تفسير القرطبي: ٣/ ٤٥].

فأبطلَ اللهُ ما كان عليه أهلُ الجاهليةِ، وجعلَ القرابةَ هي السببَ الحاكم في الميراثِ، فالأبناءُ والبناتُ يرثونَ من آبائِهم، وكذلك الإخوةُ والأخواتُ، والآباءُ والأجدادُ،

والأمهاتُ والجداتُ، والأعمامُ وأبناؤهم لهم نصيبٌ في الميراث على تفصيلٍ ذكره ربُّ العزَّةِ -تبارك وتعالى- في هذه السورة، وبيَّنَتْهُ الأحاديثُ الصحيحةُ.

قال ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٧] «الجميعُ في الميراثِ سواءٌ في حكم الله تعالى، يستوون في أصلِ القرابةِ، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض اللهُ لكلٍّ منهم، بما يدلي بهِ إلى الميِّتِ من قرابةٍ، أو زوجية، أو وَلاءٍ» [ابن كثير: ٣/ ١٩٦]. والنصيبُ المفروضُ: الحظُّ المقدَّرُ المعلومُ.

٢- إذا حَضَرَ قسمةَ الميراثِ بعضُ الأقاربِ واليتامى والمساكين فيعطوا من ذلك المال:

أَمَرَ الحقُّ -تبارك وتعالى- الورثةَ إذا حَضَرَهم بعضُ الأقاربِ الذين لا يرثون، أو حضرهم بعضُ الفقراء أو المساكين وهم يقسمون مالَ الميراث، أن يجودوا لهم ببعض المال مِنْ تلكَ التركةِ، وأنْ يقولوا لهم قولاً طيباً حسناً ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء:٨].

وهذه الآيةُ محكمةٌ غير منسوخةٍ كما قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنه [البخاري: ٤٥٧٦]، وهذا الرزقُ لمن ذكرهم اللهُ في الآية إذا حضروا قسمةَ الميراثِ هو على الندب والترغيب في فعل الخير، والشكر لله عزَّ وجل، لأنه لو كان فرضاً لكان استحقاقاً في التركةِ ومشاركةً في الميراث [تفسير القرطبي: ٣/ ٤٨].

٣- كيف يتصرفُ الرجل الذي حضر رجلاً -حَضَرَهُ الموتُ- يوصي بوصية تضرُّ الورثة:

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء:٩] قال ابن كثيرٍ: «قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يَحْضُرُه الموتُ، فيسمعه رجلٌ يوصي بوصيةٍ تضرُّ بوَرَثَتِهِ، فأَمَرَ اللهُ الذي يسمعُه أنْ يتقيَ اللهَ، ويُوَفِّقَه ويُسَدِّده للصوابِ، فينظر لورثتِهِ كما كان يحبُّ أن يُصنَع بورثته إذا خشِيَ عليهم الضَّيْعَةَ، وهكذا قال مجاهدٌ وغير واحدٍ» [ابن كثير: ٢/ ١٩٨]. وقد فعلَ الرسولُ ﷺ مثلَ هذا الذي ذكره ابنُ عباسٍ، عندما حضر سَعَد بن أبي وقاص وهو يريد أن يوصي بمعظم مالِه، قال سعد: «مرضتُ بمكَّةَ مرضاً، فأشْفَيْت منه على الموتِ، فأتاني النبيُّ يعودُني، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّ لي مالاً كثيراً، وليسَ يرثني إلا ابنتي، أفأتَصدَّقُ بثُلُثَيْ مالي؟ قال: لا، قلت: فالشَّطْرُ؟ قال: لا، قلتُ: فالثلث؟ قال: الثلثُ كبير، إنَّك إن تَرَكْتَ وَلَدَكَ أغنياءَ خيرٌ من أن تتركَهم عالةً يتكففون الناسَ» [البخاري: ٦٧٣٣. ومسلم: ١٦٢٨].

وقد استحبَّ ابن عباس أنَّ يغضَّ الناسُ من الثلثِ إلى الرُّبُع، لأن رسولَ الله ﷺ قال: «الثلثُ، والثلثُ كثير، أو كبير» [البخاري: ٢٧٤٣. مسلم: ١٦٢٩]. ونقَلَ ابن كثيرٍ عن جمعٍ من الفقهاء أنَّهم قالوا: «إنْ كان ورثةُ الميِّتِ أغنياء، استحبّ للميت أن يستوفي في وصيته الثلث، وإنْ كانوا فقراءَ، استحبَّ أن ينقص الثلثَ» [ابن كثير: ٢/ ١٩٩].

وقد أمَرَ اللهُ مَنْ حَضَرَ إنساناً في مرضِ موتِهِ أنْ يقولَ له قولاً سديداً، يُذكِّرُ فيه هذا الرجلَ بعدم الغلوِّ في الوصيةِ، فيأمرُهُ أنْ يوصي بشيء من ماله، ويدع من ذلك المالِ لورثته.

٤- **عِظَمُ جريمةِ الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً:**

بيَّن اللهُ - تبارك وتعالى- عِظَمَ جريمةِ الذين يَعْتَدونَ على أموالِ الأيتامِ، فيأكُلونها ظلماً، فيطعمهُمْ اللهُ يومَ القيامةِ النَّارَ، ثم يكونُ مصيرهم إلى السعير، يقاسون لظاها وحرَّها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

ولا فرقَ في هذا التهديدِ والوعيدِ بين الذي حَرَمَ اليتامى من الميراثِ، وبيْن الذين غَصبوه إياه من الأولياءِ والأوصياءِ وغيرهم، وقد عَدَّ الرسولُ ﷺ أكلَ مال اليتيم إحدى الموبقاتِ السبعِ التي علينا أن نجتنبها ونحذر منها [البخاري: ٢٧٦٦. ومسلم: ٨٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعملٍ:

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- جَعَلَ اللهُ الميراثَ حقّاً لأقرباءِ الميت مِنَ الأولادِ والأزواج والأقاربِ لا فرقَ في ذلك بين الرجالِ والنساءِ، فهم شركاءُ فيه، قليلاً كان أو كثيراً.

٢- إذا حَضَرَ قسمةَ الميراثِ الأقاربُ الذين لا يرثون واليتامى والمساكين فيستحبُّ أنْ يعطوا شيئاً من مال الميراثِ.

٣- على مَنْ حضرَ مَنْ نزل به الموتُ أنْ ينصَح لَهُ بأن يقدِّم لآخرتِهِ، ويبقي لورثته، ولا يغالي في دعوته إلى تعظيم الوصيةِ بحيث يضرُّ بالورثةِ.

٤- عَظَّم اللهُ جريمةَ الذينَ يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً، ففي يومِ القيامةِ يأكلونَ النَّارَ ويصلونَ السعير.

٥- الذين يأكلونَ أموالَ اليتامى ظلماً يعذَّبون في النار، ولكنَّهم لا يخلدون كما يخلد فيها الكفار إذا كانوا من أهل التوحيد.

النصُّ القرآنيُّ الرابعُ من سورة النساء

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ ﴾

أولاً: تقديمٌ

هذه الآيةُ الكريمةُ التي ضمَّها هذا النصُّ، والآيةُ التالية لها، والآيةُ الأخيرةُ من هذه السورة، بيَّنَتِ الأحكامَ التي تتعلقُ بالميراثِ، وجاءت بعضُ الأحاديث الصحيحة مكملةً لهذه الأحكام وشارحةً وموضحةً لما جاءت به الآياتُ الثلاثُ.

وكان أهلُ الجاهلية لا يورِّثون الأقرباءَ الرجالَ إلاَّ إذا كانوا أقوياءَ، ولا يورثونَ النساءَ، كما لا يورثون الصغارَ ذكوراً كانوا أو إناثاً.

وكان الميراثُ في الجاهلية وابتداءِ الإسلام بالمحالفةِ، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ﴾ [النساء:٣٣] ثم صارتِ الوراثة بالهجرةِ، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ﴾ [الأنفال:٧٢] [تفسير البغوي: ٢/ ١٧٢]. قال ابنُ عبَّاسٍ: «كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرثُ المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رَحِمِهُ، للأُخُوَّةِ التي آخى النبيُّ ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ ﴾ [النساء:٣٣] نُسِخَتْ» [البخاري: ٤٥٨٠].

وحدَّثنا ابنُ عباسٍ أنَّ اللهَ جعلَ المالَ للولدِ في أول الأمر، وأمَرَ مَن حضره الموتُ بأنْ يوصي للوالدينِ، عن ابنِ عباسٍ قالَ: «كان المالُ للولدِ، وكانتْ الوصيةُ للوالدينَ، فنسخ اللهُ مِنْ ذلك ما أحبَّ، وجَعلَ للذَّكَرِ مثلَ حظِّ الأنثيين، وجعلَ للأبوين لكلِّ واحدٍ منهما السدسَ والثلثَ، وجعل للمرأةِ الثمنَ والربعَ، وللزوجِ الشطرَ والربعَ» [البخاري: ٤٥٧٨].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾ [النساء:١١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المقدارُ الذي يستحقُّه الأولادُ مِنَ الميراث:

أوْصى ربُّ العزَّةِ -سبحانه- أنْ يُعْطَى الأولادُ الذكورُ في حالِ اجتماعهم مع الإناثِ ضعفَ ما تأخذُه الأنثى ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ [النساء:١١].

فإن كان للمتوفى وَلَدٌ واحدٌ، وليس له غيره من أصحابِ الفروض حاز الثروةَ كلَّها، فإن كانوا أكثر من واحدٍ، اقتسموا الميراث فيما بينهم، فإن كانوا رجالاً ونساء، كان للذكرِ مثلُ حظِّ الأنثيين.

فإنْ كان للمتوفى بنتان فما فوق ليس معهن ذكرٌ، فلهنَّ ثلثا ما ترك الأبُ، فإن كانتْ واحدةً فلها النصفُ، ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ ﴾ [النساء:١١].

والصوابُ مِنَ القولِ أنْ البنتين لهما ثلثا التركةِ حالهنَّ حالُ الثلاثةِ والأربعةِ، ويدلُّ لصحةِ هذا القولِ أن الرسولَ ﷺ أعْطى ابنتيْ سعدِ بن الربيع ثلثي التركةِ عندما نزلتِ الآية، مما يدلُّ على أن هذا هو الفقه الصحيح للآية.

روى جابرُ بنُ عبدالله قالَ: جاءَت امرأة سعدِ بن الربيعِ بابنتيها من سَعْد إلى رسول الله ﷺ، فقالتْ: يا رسولَ الله، هاتان ابنتا سَعْد بنِ الربيعِ، قُتِلَ أبوهما مَعَكَ يوم أُحدٍ شهيداً، وإنَّ عمَّهما أخذَ مالهما، فلم يَدَعْ لهما مالاً، ولا تُنْكَحانِ إلا ولهما مالٌ، قالَ: «يقضي اللهُ في ذلك» فنزلتْ آيةُ الميراثِ، فبعثَ رسول الله ﷺ إلى عَمِّهما، فقال: «أعط ابنتي سَعْدٍ الثلثين، وأَعطِ أمهما الثُّمُنَ، وما بقي فهو لك» [الترمذي: ٢٠٩٢. وقال فيه: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح. وأوردَه الألباني في صحيح الترمذيِّ: ١٧٠١. وقال: حسن. وعزاه إلى صحيح ابن ماجه: ٢٧٢٠. وهو في سنن أبي داود: ٢٨٩١. وحسَّنَه الألباني في صحيح أبي داود: ٢٥١٤].

٢- ميراثُ الأبِ والأمِّ:

الأبُ والأمُّ لا يَسقُطانِ في الميراثِ بحالٍ من الأحوالِ، وقد دلَّ الكتابُ والسنَّةُ على أنَ لهما في الميراث ثلاثة أحوالٍ:

الأولى: أن يكون لكلِّ واحدٍ من الأبوين السدسُ، قال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ ﴾ [النساء:١١] فإذا كان للميتِ ولدٌ أو أولادٌ من الذكورِ والإناثِ، فلكلِّ واحد من الأبوين السدسُ، فإنْ كان له بنتٌ واحدةٌ، وليس للميت ورثةٌ

غيرها إلا أبويه، أخذ كلُّ واحد من الأبوين السدس، وأخذتْ البنت النصفَ، وردَّ الباقي على الأبِ تعصيباً.

الثانية: أنْ لا يكونَ للميتِ وارث غيرُ أبويه، فترثُ الأمُّ الثلثَ، ويُعْطَى الأبُ الباقي تعصيباً، ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء:١١]. فإذا كان مع الأبوين زوجٌ أو زوجةٌ، فيُعْطَى الزوجُ النصفَ، وتعطى الزوجةُ الربعَ، وتعطى الأمُّ ثلثَ الباقي، ويعطى الأبُ الباقي، وهذا هو القولُ الصحيحُ، قال بِهِ عمرُ وعثمانُ وابنُ مسعودٍ وزيدُ بن ثابت، وفقهاءُ المدينةِ السبعة، والأئمةُ الأربعة، وهو قول جمهورِ العلماءِ [ابن كثير: ٢/ ٢٠٣].

الثالثة: أن يكون مع الأبوين إخوة لا فرق في ذلك أن يكون الإخوةُ لأبوين أو لأبٍ أو لأمٍّ، فلا يرثُ الإخوةُ مع الأبِ شيئاً، ولكنَّهم يُنْقِصون نصيبَ الأم، فترثُ السدسَ، ويأخذُ الأبُ الباقي، قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١١]. والعددُ من الإخوة الذي يحجبُ الأم من الثلثِ إلى السدس الاثنانُ فما فوقهما على الصحيح من أقوال أهل العلم، لا فرق في ذلك بين الإخوة لأبوين، أو لأبٍ، أو لأمٍّ.

٣- يُوَزَّعُ الميراثُ بعد وصيةٍ يوصى بها أو دَيْنٌ:

أولُ ما يؤخذُ من تركةِ الميتِ ما يفي بتجهيز جنازة الميتِ من الكفن وأجرة غسله وحَمْلِهِ وثمنِ قبره ونحو ذلك، ثم يُقْضى عنه دَيْنُهُ بالغاً ما بلغ، ثم تخرجُ وصيته وَفْقَ ما أوصى، بحيث لا تزيدُ عن الثلثِ، ثم توزَّعُ التركةُ على الورثةِ وفق ما بينه اللهُ تعالى لكلِّ واحدٍ منهم.

وسَدادُ الدَّينِ مقدَّم على الوصية، فإذا استغرقَ الدَّيْنُ التركةَ بطلتِ الوصيةُ، وليسَ للورثة من التركة شيءٌ.

قال ابن كثيرٍ: «أجمع العلماءُ سَلَفاً وخلفاً أنَّ الدَّيْنَ مقدمٌ على الوصيةِ» [ابن كثير: ٢/ ٢٠٤]. وعن عليٍّ أن النبي ﷺ : «قَضَى بالدَّين قبل الوصيةِ، وأنتم تُقِرُّون الوصيةَ قبل الدين» [رواه الترمذي بإسناد حسن: ٢١٢٢] وقال الترمذيُّ فيه: «والعملُ على هذا عند أهل العلم، أنه يبدأ بالدين قبل الوصية».

٤- ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ :

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ البَشَر لا يستطيعون أنْ يُحَدِّدُوا الأقربَ لهم نفعاً الآباءَ أو الأبناءَ، فبعضُ الناس يظنُّ أنَّ آباءَهُم أنفعُ إليهم من أبنائهم، وبعضهم يظنُّ أنَّ أبناءَهم أنفعُ إليهم من آبائهم، ولذلك تولَّى اللهُ تعالى قسمة ما يستحقه الآباء والأبناءُ مِنَ التركة بنفسه

سبحانه، وجعله تبارك وتعالى فرضاً لازماً لا يجوزُ تغييرُه، ولا تبديلُه ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء:١١].

وختم اللهُ الآيةَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء:١١]، ليدلَّ على أنَّ الله تعالى قَسَمَ المواريثَ بين الورثة وفق علمه وحكمته، فلا مجالَ للخطأ ولا للضلال.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ من علمٍ وعملٍ:

إذا تدبرنا آيات هذا النصّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- تولّى اللهُ تبارك وتعالى قسمةَ الميراثِ بنفسه وَفْقَ علمِهِ وحكمته سبحانه، ولا أحد أظلمُ ممن طَعَنَ في هذه القسمةِ، وظنَّ أنه سيأتي بأعدلَ وأحكمَ مما جاءَ اللهُ بهِ.

٢- يدَّعي الغربيون ومن شَرِبَ وتغذَّى بضلالهم أنَّ العدل يقضي بأن يسَوَّى بينَ الأبناءِ والبناتِ في الميراثِ، وقد ضلُّوا ضلالاً بعيداً.

٣- الرجالُ لهم نصيبٌ مضاعفٌ على أخواتهم من النساءِ، فاللهُ عَهِدَ إلى الرجالِ أن يقوموا على نسائهم، سواءً كانت زوجةً أو أُختاً أو أُمّاً، ومن القوامة الإنفاقُ عليهن.

٤- إذا لم يكنْ للمتوفَّ إلا بنت واحدةٌ، فلها نصفُ التركةِ، فإن كانتا اثنتين فصاعداً فلهنَّ الثلثانِ، فإن كانوا رجالاً ونساءً فللذكر مثلُ حظِّ الأنثيين.

٥- يستحقُّ كلُّ واحدٍ من الأبوين سُدُسَ التركة إنْ كان للميتِ ذريةٌ من الأولاد أو البناتِ، فإن لم يكن له ذريةٌ ولم يكنْ له وارثٌ غيرهما استحقْت الأمُّ ثلثَ التركةِ والأبُ الباقي، فإن كان للميت زوجٌ أو زوجةٌ استحقتِ الأمُّ ثلثَ ما يبقى من التركة، والأبُ باقي التركة تعصيباً.

٦- إنْ كان للمتوفى أخوانِ فأكثر، سواءً أكانوا إخوةً لأب أو لأُمٍّ أو لأبوين، فإنَّ الأمَّ تستحقُّ السدسَ، والباقي للأب، ولا يرثُ الإخوةُ مع وجودِ الأب شيئاً.

٧- لا يأخذُ الورثةُ من التركة شيءٌ، حتى يُجهَّزَ المتوفى من تركته، ثم يُقْضَى دينُهُ منها، ثم تنفذُ وصيته بما لا يزيد على الثلث، ثم توزَّع التركةُ بعد ذلك وفقَ ما قسمها اللهُ عليه.

٨- الله وحده هو الذي يستحقُّ أنْ يتولى قسمةَ التركةِ، فهو العليمُ الحكيمُ سبحانه، ونحن لا نستطيعُ أنْ نَعْلَمَ علماً مستيقناً من أقربُ لنا نفعاً الآباءُ أو الأبناء.

النص القرآني الخامس من سورة النساء
ميراثُ كلٍّ واحدٍ من الزوجين والإخوة لأُمّ

أولاً: تقديم

بيَّن لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية الأولى من هذا النص ما يستحقُّه كلُّ واحدٍ من الزوجين ميراثاً من زوجِهِ، ثم بيَّن لنا ما يستحقُّه الأخُ لأمٍّ أو الإخوةُ لأمٍّ ميراثاً في حال عدم وجودِ الأصل الوارث والفرع الوارث، وهي المسألة المعروفة باسم الكَلالَةِ.

وفي الآيتين الأخيرتين بيَّنَ الله تعالى عِظَمَ ثواب من التزمَ حدودَ الله في الميراثِ، وأطاع اللهَ فيما شرعَه فيها، وبيَّن جزاءَ من عصى الله ورسولَهُ في أحكامِ الميراثِ.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء:١٢-١٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النص من القرآن

١- ميراثُ كلّ واحدٍ من الزوجين:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ لكل واحدٍ من الزوجينِ ميراثاً من زوجه، فلا يسقطُ حقُّ كلِّ واحدٍ منهما بحالٍ، وميراثُ الزوج يتردّدُ بين حالين: إما أن يكون النصفَ أو الربعَ، فإنْ لم يكنْ للزوجة ولدٌ حازَ الزوجُ نصفَ الميراث، وإنْ كان لها ولدٌ فنصيبُهُ الربُعُ، ونصيبه في كلِّ حالٍ من الحالين يكونُ بعد أداءِ ما على المتوفاة من وصيةٍ أو دَيْنٍ ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا

تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ﴾ [النساء:١٢].

وميراثُ الزوجةِ من زوجها ربعُ التركةِ إنْ لم يكن له وَلَدٌ، فإنْ كان له ولدٌ فلها الثُّمنُ مما تركه، من بعدِ أداء الدَّيْن الذي على الزَّوْجِ، وتنفيذ وصيته بها لا يزيدُ على الثلث ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ﴾ [النساء:١٢] فإن كان للزوجِ المتوفى أكثرُ من زوجةٍ، فهُنَّ شركاءُ في الرُّبعِ أو الثُّمنِ من تركَةِ الزوجِ.

٢- الكلالةُ (ميراثُ الإخوةِ لأم):

الكلالَةُ في اللغةِ: مشتقةٌ من الإكليلِ، وهو الذي يحيطُ بالرأس من جوانبه، والمرادُ بها في الشرع مَن يرثهُ من حواشيه وهم إخوانه وأخواته من أمِّه، إذا لم يكن للمتوفى أصلٌ وارثٌ، ولا فرعٌ وارثٌ. ونقل ابنُ كثير عن أبي بكرٍ الصديق وعمرَ أنَّ الكَلالَةَ مَنْ لا وَلَدَ له ولا والدَ، وعزى ابن كثيرٍ هذا القولَ إلى عليٍّ وابنِ مسعودٍ وابن عباسٍ وزيدِ بن ثابتٍ، ونقله عن الشعبيِّ والنخعيِّ والحسن وقتادةَ، وبه يقول أهلُ المدينةِ، وأهلُ الكوفةِ والبصرةِ، وهو قولُ الفقهاءِ السبعةِ والأئمةِ الأربعةِ، وجمهورِ السَّلفِ والخلفِ، بل جميعهم، وقد حكى الإجماعَ عليه غيرُ واحدٍ [ابن كثير: ٢/ ٢٠٥].

وعلى ذلك فالكلالةُ الإخوةُ مِنَ الأُمِّ إذا لم يكن للمتوفى أبٌ ولا جدٌّ، ولم يكن له وَلَدٌ أو بِنْتٌ، فإن كان للميتِ أخٌ واحدٌ من الأمِّ أو أُختٌ واحدةٌ منها، فَلَهُ أي الأخُ أو الأختُ السُّدسُ، فإنْ كان للمتوفى اثنانِ فأكثرُ فهم شركاءُ في الثلثِ ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء:١٢] ويلاحظُ أنَّ الإخوةَ من الأمِّ يتساوون في الميراثِ، لا فرق بين الذكرِ والأنثى منهم.

٣- مشاركةُ أولادِ الأبوين لأولادِ الأمِّ في الثلث (المسألةُ المشتركةُ):

إذا تُوُفِّي الميتُ عن زوجٍ، وأُمٍّ أو جدَّةٍ، واثنين من ولدِ الأُمِّ، وواحدٍ أو أكثر من ولد الأبوين، فذهب جمهورُ أهلِ العلم أنَّ للزوج النصفَ، وللأمِّ أو الجدةِ السدسَ، وللإخوة لأم الثلثَ، ويُشاركهم في الثلثِ وَلَدُ الأبوين، لأنَّ أمَّهم واحدةٌ.

وتسمَّى هذه المسألةُ المشتركةَ، لمشاركةِ أولادِ الأبوين الإخوة لأمّ في الثلث، وتسمَّى الحمارِيةَ، لأنَّ أولادَ الأبوينِ قالوا لعمرَ بن الخطابِ، عندما حرمهم من الميراثِ، وأعطى أولادَ الأمِّ الثلثَ: «هَبْ أنَّ أبانا كان حماراً، أَلَسْنا من أُمٍّ واحدة؟» فشرَّك بينهم. [ابن كثير: ٢/٢٠٦].

٤- لا يجوزُ للموصي أنْ يضير بالورثةِ في وصيته:

لا يجوزُ للموصي أن يضير الورثة في وصيته، كأن يحْرِمَ في وصيتِهِ بعض الورثة، أو ينقصَ من ميراث بعضهم، أو يوصي بالمال الكثير الذي يزيدُ على الثلثِ، ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ﴾ [النساء:١٢]. وقد قال ابنُ عباسٍ: «الإضرارُ بالوصية من الكبائر» [قال محقق ابن كثير: (٢/٢٠٧) الصحيحُ موقوفٌ، رواه الدارقطني: (٤/١٥١) والعقيلي (٣/١٨٩) والطبري: (٨٧٨٩)].

والصحيحُ من القولِ أنه لا يجوزُ الوصيةُ للوارثِ، لقولِ الرسولِ ﷺ: «إنَّ اللهَ أعطى كلَّ ذي حَقٍّ حقَّه، فلا وصيَّةَ لوارثٍ».

٥- تلكَ حدودُ الله فلا تعتدوها:

أشارَ اللهُ -تبارك وتعالى- بقولِهِ: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ إلى الفرائضِ والمقاديرِ التي جعلها اللهُ للورثةِ في الآيتين السابقتين، فلا يجوزُ تجاوز هذه الحدود، ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة:٢٢٩].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه من يطع اللهَ ورسولَهُ، بقبوله ما شرعَه اللهُ ورسولُه، وتنفيذِه له، ومن ذلك تطبيقُ الحدودِ التي حدَّها اللهُ ورسولُه في الميراثِ، فإنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يُدْخِلُهُ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، خالدين في تلك الجنَّاتِ، وهذا هو الفوزُ العظيمُ، الذي تهدأ فيه النفوسُ ويَرْضَى به القلبُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣﴾ [النساء:١٣].

أما الذين يعصونَ اللهَ ورسولَه بعدم قبولهم ما شرعه الله، وتعدِّيهم للحدود التي شَرَعها في الميراثِ، فتراهم يُغيِّرونَ فيها، ويبدِّلونَ، ويزيدونَ ويُنْقِصونَ، ويضربونَ بقولِ الله وقولِ رسولِهِ عرْض الحائط، وقد ارتفعتْ هذه النغمةُ النشازُ الظالمةُ التي تدَّعي أنَّ الأحكامَ الشرعيةَ في المواريثِ ظالمة، وهؤلاءِ عصَوُا اللهَ ورسولَهُ، وتعدَّوْا حدودَهُ، وسيدخلُهُم ربُّ

العزَّةِ ناراً خالدين فيها أبداً، ولهم عذابٌ مهين ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٤].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- إذا توفيتِ الزوجةُ كان لزوجها منها نصفُ ميراثها إنْ لم يكن لها ولدٌ، فإنْ كان لها ولدٌ فميراثه منها الرُّبُعُ، من بعد وصيةٍ يوصَى بها أو دينٍ.

٢- إذا تُوُفِّيَ الزوجُ كان لزوجته منه ربع تركته إن لم يكن له ولد، فإن كان له ولدٌ فميراثها منه الثمن، من بعد وصيةٍ يوصَى بها أو دينٍ.

٣- إذا كان للرجل أكثرُ من زوجةٍ فإنهن شركاءُ في الرُّبُعِ، أو الثُّمُنِ الذي يرثنه من الزوج.

٤- الكلالةُ أنْ يكونَ للميتِ أخٌ أو أختٌ لأم أو أكثرُ، ولا يكونُ له ولدٌ، ولا أبٌ ولا جدٌّ.

٥- إذا لم يكن للميتِ ولدٌ ولا أبٌ ولا جدٌّ، وكان له أخ أو أُخت من أمِّه فلكلٍّ واحد منهما سدسُ التركةِ، فإنْ كانوا اثنين فأكثرَ فهمْ شركاءُ في الثلثِ، من بعد وصيةٍ يوصى بها أو دينٍ.

٦- إذا توفي رجلٌ أو امرأةٌ وتركَ خلْفَهُ زوجاً، وأُمّاً أو جدَّةً، وإخواناً لأمٍّ، وأخاً لأبوين أو أكثر، فللزوج النصفُ، وللأُمِّ أو الجدة السدسُ، وللإخوةِ لأمٍّ الثلثُ، ويشركُ الإخوةُ لأبوين الإخوةَ لأمٍّ في الثلث، لأن أمَّهم واحدةٌ.

٧- لا يجوزُ أن يضيرَ الموصي الورثةَ بوصيتِهِ، كأن يوصي لوارثٍ، أو يمنعَهُ أو يُنْقِصَهُ من الميراثِ.

٨- ما شرعَهُ الله في الميراثِ فرْضٌ لازمٌ، فمن التزم به رضي الله عنه وأدْخَلَهُ الجنّةَ، ومن نقضَه وغيَّره وبدَّله غضبَ اللهُ عليه وأدخله النَّار.

النصُّ القرآنيُّ السادس من سورة النساء
الأمرُ بحبسِ الزانية وإيذاء الزاني

أولاً: التقديم

أَوْجَبَ اللهُ -تعالى- على المسلمينَ في هذه الآياتِ حَبْسَ مَنْ زَنَتْ من النساء إذا ثبت زناها بأربعةِ شهودٍ، وتُحبَسُ في بيتها حتى الموتِ، أو حتى يُنزلَ اللهُ حكماً آخرَ غير هذا الحكم، أما الزناةُ من الرجال فأوجبَ إيذاءَهم بالتوبيخ والتأنيبِ حتى يتوبوا ويُصلِحُوا، ثم نُسِخَ هذا الحكمُ برجمِ الزاني إذا كان محصناً رجلاً أو امرأةً، وجلد غير المحصن.

بيَّنَ الله -تبارك وتعالى- في الآيتين الأخيرتين من هذا النص التوبة التي يقبلها، والتوبة التي لا تُقبل.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾﴾ [النساء:١٥-١٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حبسُ النساءِ اللاتي يأتينَ الفاحشةِ في البيوت:

أَمَرنا العزيزُ العليمُ -سبحانه- بحبسِ النساء اللاتي يأتين الفاحشةَ في البيوت حتى يتوفاهنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً، ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾﴾ [النساء:١٥].

وأصلُ الفاحشةِ ما عظمُ قبحُهُ مِنَ الأفعالِ والأقوالِ كالكُفرِ والزنا والقتلِ، والمرادُ بها هنا الزنا، وقولُه: ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ أي: المسلمات، ولا يُحْبَسْنَ في البيوتِ حتى تثبت عليهنَّ جريمةُ الزنا، وإنما يثبتُ ذلك عليهنَّ بشهودٍ أربعةٍ من الرجال العدولِ أنَّهم رأوْهُنَّ يرتكبنَ هذه الجريمةَ، وقد جعلَ اللهُ الشهودَ أربعةً تغليظاً على المدَّعي وستراً على العباد.

فإن شهدوا، فيُحْبَسْنَ في البيوت إلى أنْ يتوفاهُنَّ الموتُ، أو يجعلَ اللهُ لهن سبيلاً، أي إلى أن تقبضَ أرواحهنَّ، أو يُنزلَ اللهُ فيهنَّ حكماً آخر غير هذا الحكم.

٢- **حُكْمُ اللذين يأتيان الفاحشةَ من الرجالِ:**

بيَّنَ اللهُ -تعالى- في الآية الثانية من آياتِ هذا النصِّ حكمَ الرجالِ المسلمين الذين يأتون الزنا، فالواجبُ علينا تعزيرُهُمْ وتبكيتُهُمْ بالقولِ والفعلِ، بالسبّ والضربِ بالأيدي أو النعالِ ونحو ذلك، وقد أمرنا اللهُ بأنْ نُعْرِضَ عنهم في حالِ صلاحِ حالهم، واستقامةِ أمرهم ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ [النساء:١٦].

وأرادَ بقوله: ﴿ وَٱلَّذَانِ ﴾ صنفين من الرجالِ الزناةِ: المُحْصَنِ، وغيرِ المحصنِ، فالآيةُ السابقةُ في النساءِ محصناتٍ وغير محصناتٍ، وهذه الآية في الرجال مُحْصَنين وغير مُحْصَنين.

وقد أمرنا اللهُ بإيذاءِ الزناةِ بالقولِ أو الفعل حتى يتوبا إلى الله ويصلحا أمرهما، عند ذلك ننتهي عن إيذائهما، واللهُ تبارك وتعالى توابٌ رحيم.

٣- **نسخُ الله -تبارك وتعالى- هذا الحكْمَ:**

نسخ الله -تبارك وتعالى- هذا الحكمَ الذي تضمنتهُ الآيتان في حقِّ الزناةِ من النساءِ والرجالِ، ففي سورة النور بيَّن اللهُ حُكْم الزاني غير المحصن من الرجال والنساء، فقال: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ ﴾ [النور:٢].

وبينتِ الأحاديثُ الصحيحةُ حكمَ المحصنين من الرجال والنساء، فعن عبادةَ بن الصامت قالَ: قال رسولُ الله ﷺ : «خُذُوا عنِّي، خُذُوا عنِّي، قد جَعَلَ اللهُ لهن سبيلاً، البكرُ بالبكرِ جلدُ مائةٍ، ونفيُ سَنَةٍ، والثيبُ بالثيبِ جلد مائةٍ والرجمُ» [مسلم: ١٦٩٠].

وقد أمر الرسولُ ﷺ برجْمِ الزناةِ الذين أُحصنوا أكثرَ من مرَّةٍ، فقد اعترفَ عند الرسولِ ﷺ ماعزٌ بالزنا، فأمرَ برجمِه، فرُجِمَ [البخاري: ٥٢٧١، ٦٨١٥، ٦٨٢٥. ومسلم: ١٦٩١، ١٦٩٢، ١٦٩٣، ١٦٩٤].

واعترفتْ عندهُ الغامديةُ، فأمر برجْمها بعدَ أنْ وضعتْ حملها، ثم أرضعته [مسلم: ١٦٩٥، ١٦٩٦] وأمر بجلدِ رجلٍ كان حارساً لبستانٍ فزنى بامرأةِ صاحبِ البستانِ، وأمر أُنيساً الأسلميَّ أن يذهبَ إلى امرأةِ صاحبِ البستانِ، فإن اعترفتْ فأمر برجْمها، فاعترفتْ بزناها فرجمها [البخاري: ٢٣١٤، ٢٣١٥، ٢٦٩٦، ٢٧٢٤. ومسلم: ١٦٩٧، ١٦٩٨] وأمر الرسولُ ﷺ برجْمِ

الزانيين اليهوديين اللذينَ رفع اليهودُ إليه أمرهما، فأمر بهما فرجما [البخاري: ١٣٢٩، ٤٥٥٦، ٦٨٤١. ومسلم: ١٦٩٩].

ولم يُذكرْ في الأحاديثِ التي أمرَ الرسولُ ﷺ أصحابَه فيها بالرجم، أنْ يجلدوا من أُمروا برجمه، فالحديث الذي أمرَ بالجلد قبل الرجم منسوخٌ على الصحيح.

والأحاديثُ الدالةُ على أمرِ الرسولِ ﷺ بالرجم، وقيامُ الصحابةِ بالذي أمرهم الرسول ﷺ به، يدلُّ على شناعةِ خطأ الذين يردُّون الرجم ويقصرونه على الجلد.

٤- التوبة الصادقة:

إذا ارتكبَ العبدُ ذنباً وجبَ عليه أن يتوبَ إلى الله -تبارك وتعالى- قالَ تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [النور:٣١]. وإذا تابَ العبدُ بصدقٍ قَبِلَ اللهُ توبتَهُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

وقد أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ أنَّ التوبةَ المقبولَةَ عند الله تعالى هي للذين يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثم يتوبونَ من قريب ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾ [النساء:١٧].

وقال قتادةُ مبيناً معنى قوله: ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النساء:١٧]: «اجتمع أصحابُ رسولِ الله ﷺ فرأوا أنَّ كلَّ شيءٍ عصي به فهو بجهالةٍ، عمداً كان أو غيره» وقال مجاهد: «كلُّ من عصى ربَّه فهو جاهلٌ، حتى ينزعَ عن معصيته» [تفسير الطبري: ٣/ ٢١٩٦].

ومعنى ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء:١٧] أيْ في حالِ الصحةِ والعافية قبل أن ينزل بهم الموتُ، كما يقولُ ابنُ عباس [الطبري:٣/ ٢١٩٨] وروى ابنُ عمر عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ الله يقبلُ توبةَ العبد ما لم يغرغر» [قال فيه محقق ابن كثيرٍ (٢/ ٢١٢): حَسَنٌ أخرجه الترمذيُّ وابنُ ماجه وأحمدُ وابنُ حبانٍ وصححه الحاكمُ ووافقه الذهبيُّ وحسَّنه الترمذيُّ].

وقد أخبرنا العليمُ الحكيمُ -تبارك وتعالى- أنَّ الذين يعملون السوء بجهالةٍ، ثم يتوبونَ من قريبٍ فإن اللهَ يتوبُ عليهم، وكان الله عليماً حكيماً.

٥- التوبة غير المقبولة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن التوبة غير المقبولة، فقال: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء:١٨].

أعْلمنا اللهُ في هذه الآية أنَّ الذين يعملون السيئات مصرِّين عليها، ثم يتوبون حين يحضرهم الموتُ، ويعاينون الملائكة الذين حضروا لقبضِ أرواحِهم، فهؤلاء توبتهم غير مقبولة، ولا ينجون من عذاب الله، كما وقع لفرعون، فإنَّ اللهَ لم يقبل إيمانه عندما نزل به الغرق ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس:٩٠-٩١].

رابعاً: ما تهدي إليه الآياتُ من علمٍ وعمل

تهدينا آياتُ هذا النص إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - كان الحكمُ في أوَّلِ الأمر أنَّ النساء المسلماتِ اللاتي ثبت زناهُنَّ بأربعةِ شهودٍ أن يحبسنَ في البيوتِ حتى يتوفاهُنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً.

٢- وكان الحكم في الرجال المحصنين وغير المحصنين إذا زنوا أن يُؤذَوْا بالقول والفعل حتى يتوبوا ويستقيمَ أمرهم.

٣- نُسِخَ هذا الحكمُ الذي يتعلقُ بالزناة من النساء والرجال فيما بعد، فالرجل الزاني وكذلك المرأة الزانية يجلد كلٌّ منهم مائة جلدةٍ إذا لم يكن محصناً، فإن كان محصناً رُجم حتى الموت.

٤ - يقبلُ الله توبةَ عبده إذا تابَ توبةً نصوحاً قبل أن ينزلَ به الموتُ، وقبل أن يصل إلى درجةِ الغرغرة، أما الذين يتوبون عندما يصل بهم الحالُ إلى الغرغرةِ، فلا تقبلُ توبتُهم، ومثلُهم الكفارُ الذين يؤمنون عند نزول الموت أو العذاب بهم.

النصُّ القرآنيُّ السابعُ من سورة النساء
حرَّمَ اللهُ -تعالى- على الرجالِ ظلمَ النساء

أولاً: تقديمٌ

كان أهلُ الجاهلية يظلمون النساءَ، فمن ذلك قَتْلُهُمْ الصغيرات من البنات، ومن ذلك ما أخبرنا اللهُ عنه في آياتِ هذا النص، فقد كان أولياءُ المتوفى يرثونَ زوجتَه كما يرثونَ مالَهُ، ويتصرفون فيها كما يشتهونَ، وكانَ الأزواجُ يضيِّقون على زوجاتِهم ليأخذوا منهنَّ بعض ما آتوهن، وبعضهم يطلِّقها، ويأخذُ منها ما أعطاها، وقدْ أبطلَ اللهُ كل هذا الظلم الذي كان يحيقُ بالمرأة في الجاهلية، ونهى عنه.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النساء:١٩-٢١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يحلُّ للرجالِ أن يرثوا النساء كَرْهاً:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- الرجال أن يتخذوا زوجات آبائهم ميراثاً، يرثونهن كما يرثون المتاعَ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ ﴾ [النساء:١٩]. قال ابنُ عباسٍ في تفسير هذه الآية: «كانوا إذا ماتَ الرَّجُلُ كانَ أولياؤه أحقَّ بامرأتِهِ، إن شاءَ بعضُهم تزوَّجَها، وإن شاؤوا زوَّجوها، وإنْ شاؤوا لم يزوجوها، فهُمْ أحقُّ بها من أهلها، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك» [البخاري: ٤٥٧٩، ٦٩٤٨. وصحيح أبي داود: ١٨٣٩]. وعن ابن عباس أيضاً قال: «كانَ الرجلُ يرثُ امرأةَ ذي قرابتِهِ، فيعْضُلُها حتى تموتَ، أو تَرُدَّ إليه صَداقَها، فأحْكَمَ اللهُ عن ذلك، ونهى عن ذلك» [صحيح أبي داود: ١٨٤٠].

٢- حرَّم اللهُ على الزوج أن يَعْضُلَ زوجته ليأخذ منها بعض ما آتاها:

نهى الحقُّ -تبارك وتعالى- الأزواجَ عن عضل أزواجهم بالتضييق عليهنَّ، كي يفتدينَ منهم ببعضِ المالِ الذي دفعوهُ لهنَّ مهراً أو غيره ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء:١٩] قال ابنُ جريرٍ في هذه الآية: «نهى اللهُ -جلَّ ثناؤُه- زوجَ المرأةِ عن التضييقِ عليها والإضرار بها، وهو لصُحْبَتِها كارِهٌ، ولفِراقِها محبٌّ، لتفتديَ منه ببعض ما آتاها من الصَّداق» [الطبري: ٣/ ٢٢٠٧].

أما إذا كانتْ الزوجةُ هي الكارهةَ لزوجها، فيجوز لزوجها أن يأخذ منها ما آتاها أو بعضه كما سيأتي بيانه.

٣- يجوزُ للزوجِ أن يأخذ من زوجته بعض ما آتاها إذا جاءت بفاحشةٍ مبيِّنةٍ:

أحلَّ اللهُ تعالى للأزواج أن يأخذوا ما آتوه للزوجات أو بعضَه إذا جاءت المرأةُ بفاحشةٍ مبينة، ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء:١٩] وقد ذهبَ كثيرٌ من أهل العلم إلى أنَّ المرادَ بالفاحشة في الآية الزنا، وذهب آخرون إلى أنها النشوزُ والبَذاءُ وسوءُ العشرة، والذي رَجَّحه ابنُ جريرٍ أن الآية شاملة لذلك كلِّه [الطبري: ٣/ ٢٢١١]، وهو الصحيح.

٤- يجبُ على الأزواجِ معاشرةُ زوجاتهم بالمعروف:

أمرَ اللهُ -تبارك وتعالى- الأزواجَ أن يُعامِلَ الواحدُ منهم زوجته بالمعروف ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء:١٩]. والمعروفُ المأمورُ به في الآية: الصحبةُ الطيبةُ، ومن أراد أن يعرف كيف تكون الصحبةُ الطيبةُ للزوجة، فلينظرْ إلى صحبة الرسول ﷺ لزوجاتِهِ، وقد قال رسولُ الله ﷺ : «خيرُكُمْ خيرُكُمْ لأهلِهِ، وأنا خيرُكُمْ لأهلي» [الترمذي (٣٨٩٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح].

وقد كان الرسولُ ﷺ يحادثُ أزواجَهُ، ويضاحِكُهُنَّ، ويستمعُ إليهن، وقد صحَّ في الحديثِ أنه سابقَ عائشةَ فسبقتْهُ، فلما أثْقَلها الشحْمُ، سابقَها فسبقَها، فقال: هذه بتلكَ، وقد كان يصْبِرُ على ما يكونُ من أذاهنَّ في بعضِ الأحيانِ، كما كان يجيب على أسْئلتهن، ويُعلِّمُهُنَّ ما جهلن.

٥- صبرُ الزوجِ على زوجتِهِ إذا كَرِهَ منها خلقاً:

دعا اللهُ -سبحانه وتعالى- الأزواجَ إلى الصبرِ على زوجاتِهم إنْ كرهوا منهن أمراً، وقد رغَّب اللهُ الأزواجَ بإمساك الزوجات مع وجود ما يكرهونه فيهنَّ من دمامةٍ أو خلُقٍ، فقد يجعلُ اللهُ

فيهنَّ خيراً كثيراً، فالمرأةُ لا تخلو من عيبٍ، ولكن قد يكونُ مع ذلك العيبِ حسناتٌ كثيرات، قال الرسولُ ﷺ في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة ﷺ: «اسْتَوْصُوا بالنساءِ، فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهبْتَ تُقيمُهُ كسرتَهُ، وإنْ تركتَهُ لم يَزَلْ أعوج، فاستوصوا بالنساءِ خيراً» [البخاري: ٣٣٣١، ٥١٨٦. ومسلم: ١٤٦٨]. والخيرُ الذي قد يكونُ في المرأةِ ما فيها من الصفات الحسنة الطيبة، وما قد تأتي به من أولاد وبنات من أهل الصلاح.

٦- لا يجوزُ لمن أرادَ فراقَ زوجته أن يأخذ مما آتاها شيئاً:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- الزوجَ الذي يريدُ أنْ يفارقَ زوجتَهُ، ويستبدلَ مكانها غيرها أن يأخذ من مهرها الذي آتاها إياهُ شيئاً، ولو بلغ ذلك المهرُ قنطاراً ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء:٢٠].

وقولُهُ: ﴿بُهْتَـٰنًا﴾ أي: ظُلْماً بغير حقٍّ، وقد وصف الإثم بأنه مبين، أيْ: ظاهرٌ واضحٌ بيِّنٌ. وقولُهُ: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء:٢٠] استفهامٌ للتقريعِ والإنكارِ والتوبيخ.

وقد أتْبَع التوبيخَ السابقَ بتوبيخٍ لاحقٍ، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء:٢١] أنْكَرَ اللهُ في هذه الآية مرَّةً أخرى على الأزواجِ أن يأخذوا من أزواجهنَّ شيئاً من المهر بعدما أفضى بعضُهم إلى بعضٍ، ويكونُ الإفضاءُ بالمعاشرة، وكذلك بالخلوةِ التي تكون بين الزوجين، ولو لم يكن معها جماعٌ، قال عمر بن الخطاب: «إذا أغْلَقَ باباً وأرخى ستراً، ورأى عورةً فقد وَجَبَ الصَّداقُ» وقال عليٌّ مثل ذلك [القرطبي:٣/ ٩٥].

والميثاقُ الغليظُ الذي أخذَتْهُ الزوجاتُ على الأزواجِ بيَّنَه الرسولُ ﷺ في الحديث الذي رواه عنه جابرُ بنُ عبدالله ﷺ، وفيه: «فاتَّقوا اللهَ في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانِ الله، واسْتَحْلَلْتُمُ فروجَهُنَّ بكلمةِ الله» [مسلم: ١٢١٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا هذه الآياتِ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١ - أبطلَ اللهُ ما كان عليهِ أهلُ الجاهلية من جَعْلِ المرأةِ التي توفى عنها زوجها ميراثاً، فقد كانوا يتحكمون بها تحكمهم بالمال الذي يرثونه من أبيهم.

٢- حرَّم اللهُ على الأزواج ظُلْمَ النساءِ بالحبسِ والتضييقِ عليهن في النفقةِ ليفتدينَ منهم ببعضِ المالِ الذي أخذنه منهم مهراً.

٣- إذا جاءَت المرأةُ بفاحشةٍ بيِّنة، وهي الزنا أو سوءُ الخلق والنشوزُ وسلاطةُ اللسانِ، فيجوز لزوجها أن يضيِّقَ عليها لتفتديَ منه ببعض مما أعطاها ليطلِّقها.

٤- أمر اللهُ الأزواجَ أن يُحْسِنوا معاشرتَهُمْ لزوجاتِهِمْ، ونبَّه ربُّ العزة إلى عَدم المسارعةِ بالفراقِ إن كَرِهَ الزوجُ خلقاً، فقد يجعل اللهُ فيها خيراً كثيراً.

٥- لا يجوزُ للزوج أن يأخذَ من زوجته شيئاً مما أعطاها إيَّاهُ من مهرٍ أو غيره، إذا شاءَ طلاقَها والزواج بأخرى.

٦- بيَّنَ اللهُ أنَّ أخْذَ الأزواجِ شيئاً من مهور الزوجات إذا طلقوهنَّ مستنكرٌ، ووصفه بالبهتان والإثم المبين، وأنكر أخْذَ الأزواج له بعد معاشرتهم لزوجاتهم، وبعد الميثاق الغليظ الذي أخذْنَه عليهم بالعقد.

٧- المهرُ قد يكونُ قليلاً، وقد يكونُ كثيراً، فالله قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء:٢٠] والقنطارُ مالٌ عظيمٌ جزيلٌ، ولكن ينبغي أن يتوسَّطَ في المهر، ويعتدلَ فيه، فعن عمر بن الخطاب قال: «ألاَ لا تغالوا في صَدَقَةِ النساءِ، فإنَّها لو كانت مكرمةً في الدنيا، أو تقوى عند الله، لكان أولاكم بها نبيَّ الله ﷺ، ما علمت رسولَ الله ﷺ نكَحَ شيئاً من نِسائه، ولا أنكح من بناته على أكثر من ثنتي عشرة أوقيَّةً» [الترمذي: ١١١٤. وقال فيه: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، والأوقيةُ عند أهل العلم أربعونَ درهماً، وثنتا عشرةَ أوقية: أربعمائة وثمانون درهماً].

النص القرآني الثامن من سورة النساء
المحرماتُ من النساء

أولاً: تقديم

بيّن اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ النساءَ اللاتي يحرمُ الزواجُ منهنَّ، وقد ضَلَّ البشرُ في هذا ضَلالاً عظيماً في القديمِ والحديثِ، فالمجوسُ يتزوجون من بناتِهم، والعربُ في الجاهلية كانوا يجمعون بين الأختين في الزواجِ، وكانَ الرجلُ ينكحُ زوجَةَ أبيه إن لم تكن أمّاً له.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [النساء:٢٢-٢٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النص من القرآن:

١- حرَّم اللهُ على الأبناء الزواجَ ممن نَكَحَهُ الآباءُ من النساء:

حرَّم اللهُ تبارك وتعالى على الأبناء نكاحَ النساءِ اللاتي نكحهنَّ الآباءُ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [النساء:٢٢]. قال عطاءٌ: «كانَ الأبناءُ ينكحون نساءَ آبائهم في الجاهلية». وقال ابنُ عباس: «كلُّ امرأةٍ تزوَّجها أبوكَ أو ابنُك دخل أو لم يدْخل فهي عليك حرامٌ» [الطبري: ٣/٢٢١٨].

والمرادُ بالأب كلُّ رجلٍ له عليك ولادةٌ، فيشملُ الأبَ والجدَّ لأبٍ، والجدَّ لأم، وآباءَهم، وقولُه: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ ﴾ [النساء:٢٢] أي «لكن ما قد سَلَفَ، فهو مَعْفُوٌّ عنه لمن كانَ واقعه» [المحرر الوجيز: ٢/٥٠٦].

والفاحشةُ: ما عَظُمَ قُبْحُهُ من الأفعالِ والأقوالِ، «والمقتُ: البغضُ الشديدُ لمن تراه تعاطى القبيحَ، وكان يسمَّى تزوُّجُ الرجلِ امرأةَ أبيه المَقْتَ» [المفردات: ص٤٧٠] وقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٢٢﴾ أي: بئسَ طريقاً لمن سَلَكَهُ من الناسِ.

وقد أمر رسولُ الله ﷺ بضرب عنق رجُلٍ تزوَّج امرأةَ أبيه بعد وفاتِهِ، فعن البراء بن عازب، قال: «بيْنا أنا أطوفُ على إبلٍ لي ضَلَّتْ، إذ أقبلَ ركْبٌ أو فوارسُ معهم لِواءٌ، فجعلَ الأعرابُ يطيفون بي لمنزلتي من النبي ﷺ، إذ أتوْا قُبَّة، فاستخرجوا منها رجلاً، فضربوا عُنُقَه، فسألتُ عنه، فذكروا أنه أعْرَسَ بامرأةِ أبيه» [سنن أبي داود: ٤٤٥٦، وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ٣٧٤٣. وقال فيه: صحيحٌ. وانظر الإرواء: ٨/ ١٢١].

وعن البراءِ أيضاً قال: «لقيتُ عَمِّي ومعه رايةٌ، فقلتُ: أين تريدُ؟ قال: بعثني رسولُ الله ﷺ إلى رجُلٍ نكح امرأةَ أبيه، فأمرني أن أضْرِب عنقَهُ، وآخذ مالَهُ» [سنن أبي داود: ٤٤٥٧. وأورده الألباني في صحيح أبي داود: ٣٧٤٤].

٢- المحرماتُ مِنَ النساءِ من النسب:

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- في الآية الثانية من آيات هذا النص المحرمات من النساء، وهنَّ سبعٌ من النسب، واثنتان من الرِّضاع، وأربعٌ من المصاهرةِ، أما المحرمات من النسب فهنَّ: الأمهاتُ، والبناتُ، والأخواتُ، والعماتُ، والخالاتُ، وبناتُ الأخِ، وبناتُ الأختِ. قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء:٢٣] ويدخلُ في الأمهاتِ: الأمُّ الوالدةُ، والجداتُ من قِبَلِ الأب ومن قِبَلِ الأم، والأمهات كلُّ امرأة لها عليك ولادة. والبنات بناتُكَ، وبناتُ أولادِك، وبناتُ بناتِكِ، وإنْ نَزَلْنَ، وقالوا في الضابط المُعرِّفِ بالبناتِ: كلُّ امرأةٍ لك عليها وِلادةٌ فهي ابنتُكَ، ويدخلُ في الأخواتِ الأخواتُ لأبوين، والأخواتُ لأبٍ، والأخوات لأمٍّ، ويدخل في العمّات أخْتُ الأب وأخواتُ الأجداد، ويدخُلُ في الخالاتِ أُختُ الأُمِّ، وخالةُ الأبِّ، وخالةُ الجدّ، ويدخلُ في بناتِ الأخِ وبناتِ الأختِ ما كان أختاً لأبوين، أو لأبٍ، أو لأمٍّ.

٣- المحرمات من الرضاع:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّه حَرَّمَ علينا من الرضاعِ الأُمَّ التي أرْضَعَتْنا وأخواتِنا من الرضاعة: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء:٢٣] وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ الرضاعةَ تُحرِّم ما تحرمُه الولادةُ، فعن عائشة أنها سمعتْ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ الرضاعَةَ تُحَرِّمُ ما يَحْرَمُ من الولادة» [البخاري: ٢٦٤٦. ومسلم: ١٤٤٤] وفي روايةٍ عند

مسلم عن عروة أنَّ عائشةَ كانت تقولُ: «حرِّموا من الرضاعة ما تحرمونَ من النَّسَبِ» وعلى ذلك فإنه إذا أرضعتِ امرأةٌ طفلاً، أصبحتْ هي أُمَّهُ من الرَّضاعِ، وكلُّ من أرضعتهُ من بناتها أو غيرهن أخواتُه من الرضاع، وأُمُّ الأمِّ المرضعةُ جَدَّتُه، وزوجها والدُهُ، وأُختها خالته، وأختُ زوجها عمَّتهُ.

والصواب من القولِ أنَّ الرضاعةَ لا تُحَرِّمُ حتى يبلغَ عددُ الرضعاتِ خمسٌ، لما قالته عائشةُ: «كان فيما أُنزل من القرآن: عشْرُ رضعاتٍ معلوماتٍ يُحَرِّمْنَ، ثم نسخن: بخمسٍ معلوماتٍ» [مسلم: ١٤٥٢].

ولا يُحَرِّمُ الرضاعُ إلا إذا كان في مُدَّةِ الحولين لما روتْهُ أُمُّ سلمةَ قالتْ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لا يَحْرُمُ من الرِّضاعةِ إلا ما فَتَقَ الأمعاءَ في الثَّدْيِ، وكانَ قبل الفِطامِ» [الترمذي (١١٥٢)، وقالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح]، وقال الترمذي بعد إيراده الحديث: «والعملُ على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرِهم: أنَّ الرضاعةَ لا تحرِّمُ إلا ما كان دونَ الحولين، وما كان بعد الحولين، فإنَّه لا يحرم شيئاً».

وكانت عائشة رضي الله عنها ترى أنَّ رضاعَ الكبير يؤثِّر في الرَّضاع، وقد خالفها جميعُ أزواجِ الرسولِ ﷺ، وخالفها الأكابرُ من الصحابة، وجمهور أهلِ العلم، وفيهم فقهاءُ المدينةِ السبعة، والأئمةُ الأربعة، وما وردَ أنَّ الرسولَ ﷺ أمر امرأة أبي حذيفة أن ترضع سالماً مَوْلى أبي حذيفة، هو خاص بأبي حذيفةَ وزوجِهِ.

٤- المحرماتُ من المصاهرة:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه حرَّم على الرجال الزواجَ بأربعٍ من النساء عن طريق المصاهرة، قال تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء:٣٢].

والأُولَى من هذه المحرماتِ: أمهاتُ نسائنا، فإنَّ الرجل إذا عقد على امرأةٍ حَرمَتْ عليه أُمُّها دخل بها أو لم يَدْخُلْ بها، وهذا هو الصحيح، وهو مذهبُ عدد من الصحابة وقولُ الفقهاء السبعة، ومذهبُ الأئمة الأربعة، وذهبَ بعضُ أهل العلم أنَّ أمَّ الزوجة لا تحرم إلا إذا دخَلَ ببنتها، وهذا غير صحيح، والصوابُ القولُ بالتحريمِ [ابن كثير: ٢/ ٢٢٤].

والثانية من المحرمات: ربائبنا اللاتي في حُجورِنا، والربيبةُ هي بنتُ الزوجة، فهذه تحرمُ على الزوج إذا دخل بأمها، فإنْ فارقَ الأُمَّ قبل الدخولِ جازَ له أن يتزوج من بنتها، وجمهورُ أهلِ العلم على أنَّ الربيبةَ حرامٌ سواءً كانت في حِجْرِ الرجل أوْ لم تكن في حِجْره، فالخطابُ في الآيةِ خَرَجَ مخرجَ الغالبِ، فلا مفهومَ له. وهذا القولُ كما يقولُ ابنُ كثيرٍ، وهو أنها حرامٌ سواءً كانت في حجرِهِ أو لم تكن، هو قولُ جمهورِ السلف والخلف، وفيهم الفقهاءُ السبعةُ والأئمة الأربعة [ابن كثير: ٢/ ٢٢٥].

والصنف الثالث الذي يَحْرُمُ بطريقِ المصاهرةِ زوجاتُ أبنائِنا الذين من أصلابنا، فلا يَحْرُمُ علينا زوجاتُ الأبناء الذين ليسوا من الأصلاب، وقد كان أهل الجاهلية يتبنَّونَ أولاداً ليسوا من أصلابهم، ويُحَرِّمون عليهم نساءَهم، فأبطلَ اللهُ ذلك كلّه، قالَ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤] وطلّق زيدُ بنُ حارثة زوجتَهُ، وهي زينبُ بنت جحشٍ فزوَّجها اللهُ رسولَه ﷺ ، وقد كانَ الرسولُ ﷺ تبنى زيداً في الجاهلية، وكان يُدْعَى زيدَ بن محمدٍ.

والصنف الرابع الذي حرَّمه علينا بطريقِ المصاهرةِ: الجمعُ بينَ الأختين، أي في النكاح، لا فرق في ذلك بين الزواجِ ومِلْكِ اليمين، وقولُه: ﴿إِلَّا مَاقَدْ سَلَفَۗ﴾ أي إلا ما وقع منكم من نكاحِ الأختين في الجاهليةِ، فإنّ اللهَ يغفره، واللهُ سبحانه غفورٌ رحيمٌ، أي واسعُ المغفرةِ، كثيرُ الرحمة.

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علمٍ وعملٍ:

إذا تدبَّرْنا هذه الآيات وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١ - حرَّم اللهُ على الأبناءِ نكاحَ النساءِ اللاتي نَكَحَهُنَّ الآباءُ، وهذا النوعُ من النكاح كان ولا يزال فاحشةً ومقتاً وساءَ سبيلاً.

٢ - يحرُمُ على الرجال أنْ ينكحوا سبعاً من النساء عن طريق النسب، وهُنَّ: الأمهاتُ، والبناتُ، والأخواتُ، والعماتُ، والخالاتُ، وبناتُ الأخِ، وبناتُ الأختِ.

٣- حرَّم اللهُ **علينا** نكاح النساءِ اللاتي أَرْضَعْنَنا، وأخواتِنا من الرَّضاعةِ، وبيَّن لنا رسولُنا ﷺ أنَّه يحرُمُ علينا من الرضاعة ما يحرُمُ من النسب.

٤- حرَّم اللهُ علينا أربعاً من النساءِ بطريقِ المصاهرة، وهُنَّ أمهاتُ نسائنا، وربائبُنا اللاتي في حجورنا، وزوجاتُ أولادنا الذين من أصلابنا، والجمعُ بين الأختين بطريق الزواج أو مُلْكِ اليمين.

٥- وحَرَّمت علينا السنَّةُ النبوية صنفاً خامساً بطريق المصاهرة، وهو الجمعُ بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها.

٦- الصوابُ من القولِ: أن بنت الزنا تحرْمُ على الأبِ الزاني، خلافاً لمن أجازَ ذلك.

٧- الصوابُ من القولِ: أنَّ الرضاعَ المحرِّم هو الرضاعُ في الحولين إذا بلغ خمس رضعاتٍ، خلافاً لمن حرَّم برضاعِ الكبيرِ، وخلافاً لمن حرَّم برضعةٍ أو اثنتين أو ثلاث.

النص القرآني التاسع من سورة النساء
حرمةُ الزواجِ من أيِّ امرأةٍ متزوجة

أولاً: تقديم

آية هذا النص مُكمِّلةٌ للآيات في النص السابق المتحدِّثة عن المحرمات من النساء، فقد أعلمنا اللهُ في هذه الآية أنه حرَّم علينا الزواج من كل امرأةٍ متزوجة، ومثلها أيضاً المعتدَّةُ، واستثنى من المتزوجات المسبياتُ من النساء، فإنَّ سبيهنَّ يقطع العلاقة بينهنَّ وبين أزواجهنَّ، ويجوزُ لمن ملكهن معاشرتهن بملك اليمين، وأحلَّ اللهُ لنا الزواج من غير المحرمات المذكورات بشرط أن نتزوجهنَّ محصنين غير مسافحين، ونؤتيهن أجورهن، أي مهورهن فريضة، ولا جناح علينا فيما تراضينا به من بعد الفريضة.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [النساء:٢٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حرمة نكاح المتزوجات من النساء:

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- في آيتين سابقتين في النص السابق جملةً من النساء اللاتي يحرم الزواج منهنَّ، وعَطَفَ عليهن في آية هذا النص نكاح المتزوجات من النساء في قوله: ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ ﴾ [النساء:٢٤].

وجاءت المُحْصَنَةُ في القرآنِ على أربعة معانٍ، الأول: المتزوجة: وهذا هو المعنى المراد في هذه الآية. والثاني: الحرّة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ ﴾ [النساء:٢٥]. والثالثُ: العفيفةُ: ومنه قوله تعالى في الآية التالية: ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ﴾ [النساء:٢٥]. والرابعة: المسلمة.

٢- استثنى ربُّ العزة المسبيات:

واستثنى ربُّ العزَّة من ذواتِ الأزواج اللاتي يحرم الزواجُ منهن: المسبياتِ، ولهنَّ أزواجٌ في دار الحربِ، فيحلُّ لمالكيهنَّ وطْؤُهُنَّ بعد اسْتِبْرائهن بحيضة، لأنَّ السبيَ يرفعُ النكاحَ بين المسبية وزوجها، وهذا هو المعنى المرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ [النساء:٢٤].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشاً إلى أوطاسٍ، فلقوا عدواً، فقاتلوهم فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأنَّ ناساً من أصحابِ رَسُولِ الله ﷺ تحرَّجوا من غِشْيانِهِنَّ من أجلِ أزْواجِهِمْ من المشركينَ، فأَنْزَلَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- في ذلك ﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ [النساء:٢٤] أي: فهُنَّ لكم حلال إذا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ [مسلم: ١٤٥٦].

وذهب بعضُ أهلِ العلمِ أنَّ الأمةَ المتزوجةَ من عَبدٍ مسلم إذا بِيعتْ فُسِخ نكاحُها، والصوابُ أنَّه لا ينفسخ نكاحُها، والدليلُ على ذلك أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة اشترت بَرِيْرَةَ، وكانت متزوجةً بمُغيثٍ، جاء في الحديث: «وأَعْتَقَتْ بَريرَةَ، فخُيِّرتْ في أن تُقَرَّ تَحْتَ زَوْجِها أوْ تُفارِقَه» [البخاري: ٥٤٣٠] وجاء في صحيح مسلم في حديث جابر: «وكان زوجُها عبداً، فخيَّرَها رَسولُ الله ﷺ ، فاختارتْ نفسَها، ولو كان حُرّاً لم يُخَيِّرْها» [مسلم: ١٥٠٤] وواضحٌ أنَّ التخيير، لأنَّ الزوج كان عبداً، ولو كان حرّاً لم يخيرها.

٣- محرمات لم يذكرهنَّ الله في هذا النص:

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النساء:٢٤] أي هذا التحريم الذي ذكره اللهُ في هذه الآياتِ كتابٌ كتبه الله عليكم، أيْ أنه فرضه علينا بتحريمه علينا، ولذا فيجب علينا التزامه.

وهذه الآياتُ التي ذَكَرَ اللهُ فيها المحرماتِ مِنَ النِّساء من العامِّ المخصوص، فقد حرَّم في مواقع من كتابه وفي سنة رسوله ﷺ محرماتٍ أخرى، فمن ذلك:

أ- حُرْمَةُ الزوجةِ التي لاعنها زوجُها.

ب- حرمةُ الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها.

ج- تزوج الخامسة لمن عنده أربع من النساء.

د- المطلقة ثلاثاً حتى تنكح زوجاً غيره.

٤- أحلّ لكم ما وراء ذلكم:

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء:٢٤] أي: ما عدا ذلك من المحرمات، هُنَّ لكم حلال. وقوله: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤] أي تطلبوا بأموالكم الزواجَ الذي شرعه اللهُ لكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾، أي: تريدون العِفَّة بالزواجِ، غير مسافحينَ، والسفاحُ الزنا والفجورُ، وقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء:٢٤] والمرادُ بالأجور هنا المهور، يقولُ: فما استمتعتم به منهنَّ بالمعاشرة، فآتوهنَّ أُجورهنَّ، أي: مهورهنَّ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء:٤] وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٢٢٩].

٥- ليس في الآية دلالة على مشروعية نكاح المتعة:

وقد استدلَّ بعض أهل العلم بهذه الآية على إباحة نكاحِ المتعة، والصواب من القول: أن الآية ليست في زواج المتعة، وإنما هي في الزواج الشرعي، والمراد بالأجورِ المهور.

وقد دلَّت الأحاديثُ الصحيحةُ على أنَّ نكاح المتعة أُبيح، ثم نهى عنه الرسول ﷺ وحرَّمه، فعن علي بن أبي طالب «أنَّ رسولَ الله ﷺ نَهَى عن مُتْعَةِ النِّساءِ يومَ خيْبَرٍ، وعن أكل لحوم الحُمُرِ الإنسيةِ» [البخاري: ٤٢١٦. ومسلم: ١٤٠٧] وفي صحيح مسلم عن سَبْرَةَ أنه كان مع رسول الله ﷺ قال: «يا أيُّها النَّاسِ، إنِّي قد كُنْتُ أذِنْتُ لكُمْ في الاسْتِمْتَاعِ من النِّساءِ، وإنَّ اللهَ قد حرَّم ذلك إلى يومْ القيامةِ، فمَنْ كانَ عِنْدَهُ منهنَّ شيءٌ، فلْيُخَلِّ سَبيلَهُ، ولا تأْخُذُوا مما آتَيْتُموهُنَّ شيئاً» [مسلم: (١٤٠٦)(٢١)].

٦- لا حرج على الزوجين إذا تراضَوْا بالزيادة أو النقصان من المهر:

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ [النساء:٢٤] أي: لا جناح على الزوجة أن تسقط شيئاً مما تستحقُّه من المهر، فتسامحَ زوجَها بالمهر كلِّه أو بشيء منه، ولا جناح على الزوج إن هو زادَ زوجته على المهر الذي فرضَ لها، وختم ربُّنا جَلَّ وعلا الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء:٢٤] ليدلَّ على أنَّه يشرِعُ التشريعَ الأوفى والأكملَ المبني على علمه وحكمته سبحانه.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعملٍ

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- لا يجوزُ خطبةُ النساءِ المتزوجاتِ، فإنَّه عدوان على الزوجة المخطوبة وعلى زوجها.

٢- استثنى اللهُ من النساءِ المتزوجاتِ اللاتي لا يجوز الزواج منهنَّ المسبيات، فيجوز وطؤهن بملك اليمين بعد اسْتِبْرائهن بحيضة.

٣- يجوز للرجال أن يتزوجوا غير ما حرَّمَهُ الله من النساء وهذه الآية من العام المخصوص، فهناك أربع من النساء محرمات لم يذكرن في هذا النصّ ولا في النصِّ الذي قبله.

٤- يجب على الزوجِ أنْ يُقَدِّم مهراً لمن تزوج بها، فإذا لم يُسَمِّ لها مهراً عند العقد وجب لها مهر المثل الدخول.

٥- لا بأْس على الرجل في أن يزيد في مهر من تزوَّج بها، كما لا حرج على المرأة أن تنقصَ من المهر الذي حدَّده لها الزوج.

النصُّ القرآنيُّ العاشر من سورة النساء
جوازُ نكاحِ الأَمَةِ لمن لا يملك مهر الحُرَّة

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ لنا في آياتِ هذا النصِّ أنه شرع لمن لا يجدُ مهرَ الحرة أن ينكح الأمة بشروط بينتها آيات هذا النص الكريم، واسْتَطْرَدَ النصُّ إلى بيان حكم الإماءِ اللاتي أُحصنَّ إنْ هنَّ ارتكبن جريمة الزنا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾ [النساء:٢٥-٢٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- إذا لم يَقْدر الرجلُ على مَهْرِ الحرَّة جازَ له أن ينكح أمَةً مُؤْمِنَةً:

شرع الله للرجال الأحرار إن لم يقدر الواحد منهم على مهر الحرَّة المؤمنةِ أن ينكح أمة مؤمنة ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ ﴾ [النساء:٢٥] والمراد بالطَّول: القُدْرَةُ على مهر الحرَّةِ. والمراد بالمحصنات في هذه الآية: الحرائر من المؤمنات، والمراد بالفتيات المؤمناتِ: الإماءُ المؤمناتُ.

والمراد بإيمان الفتياتِ المؤمناتِ الإيمانُ الظاهرُ، أما الباطن فالله أعلم به، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ ﴾ [النساء:٢٥] أي أنَّ اللهَ تعالى هو العالم بإيمانكم

على وجهِ الحقيقةِ، فهو يعلمُ بواطنَ الأُمورِ على ما هي عليه، لا يخفى عليه سبحانه شيء، أما نحن فنعلم الظاهر مِنَ الأمور.

٢- يشترط لجواز نكاح الأمة موافقةُ أهلها وإعطاؤُها مَهْرَها:

لا يجوزُ نكاحُ الأمةِ إلا بشرطين: الأول: موافقة ولي أمرها الذي يملكها. والثاني: إعطاؤها مهرها. قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء:٢٥]، والمراد بأهل الأمة الذين يُشترَط إذنُهم سيِّدُها ووليُّها، وهذا ليس قصراً على الإماء، بل يشترط في صحة زواج العبد أن يأذن له سيِّدُه، ويدلُّ لصحة هذا الشرط حديث جابر بن عبدالله، عن النبي ﷺ قال: «أيُّما عَبْدٍ تَزَوَّجَ بغيرِ إذْنِ سيِّدِهِ فهو عاهِرٌ» [الترمذي: ١١١١، وقال فيه: حديث جابر حديث حسن. ورواه الترمذي بلفظه. بإسناد آخر، (١١١٢) وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح] وقال الترمذيُّ: «العملُ على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبيِّ وغيرهم أنَّ نكاح العبد بغير إذن سيِّده لا يجوز، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما بلا اختلاف».

والمرادُ بالأجورِ التي أمر اللهُ إيتاءَها الإماء المهورُ، والذي يستحقُّ المهر هو سيِّدُها، لأنَّ الوليَّ ناله بسبب الأمة. وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي أنَّ مقدار المهر يكون بمقدار ما تعارف الناس عليه فيما بينهم في المجتمع الذي تعيش فيه الأمة.

٣- يُشترطُ أن تكون الأَمَةُ التي يجوزُ أن ينكحها الحرُّ عفيفةً:

اشترط اللهُ -عزَّ وجلَّ- في الأمة التي يجوز للحرِّ نكاحها أن تكون عفيفة، قال تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥]، والمرادُ بالمحصناتِ العفيفات اللاتي لا يتعاطين الزنا، ومعنى ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ أي: غير زانيات، والمسافحة أن لا تمنع الزانية أحداً أرادها بفاحشة، والمراد بالأخْدانِ في قوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: الأخلاءُ والأصدقاء.

٤- حدُّ الأمة إذا زنت:

إذا زنت الأمةُ التي تزوَّجَتْ حُرّاً وكذلك العبد الذي تَزَوَّجَ حُرَّةً، فعلى الزاني منهما نصفُ ما على المحصنةِ أو المحصن من العذاب، والحدُّ الذي يكون فيه التنصيف هو الجلدُ، أما الرجمُ فلا تنصيف فيه، فيقام عليها الحدُّ بجلدها خمسين جلدة ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء:٢٥] وقد جاءَت الأحاديث الصحيحة مفسِّرة هذه الآية، ومُبيِّنَةً أنَّ الأمة تحدُّ خمسين جلدة إن هي زنت سواء أكانت

متزوجة أو غير متزوجة، ومنطوقُ الأحاديث الدالُّ على ذلك أولى بالإعمال من مفهوم الآية الدالِّ على قصر الحدّ على المتزوجة.

ويدلُّ لصحةِ ما ذكرتُهُ ما ورد عن أبي عبدالرحمن السُّلَمِيِّ، قال: خَطَبَنا عليٌّ فقال: «يا أيها الناسُ، أقيموا على أرِقَّائكُم الحَدَّ، من أُحْصِنَ منهم، ومَنْ لم يُحْصِنْ، فإنَّ أَمَةً لرسولِ الله ﷺ زَنَتْ، فأمَرني أن أجْلِدَها، فإذا هي حَديثُ عَهْدٍ بنفاسٍ، فخشيتُ إنْ أنا جَلَدْتُها أن أقْتُلَها، فذكَرْتُ ذلك للنبي ﷺ فقال: «أحسنتَ»» [مسلم: ١٧٠٥] والحديث رواه عبدالله بن أحمد عن غير أبيه، وفيه: «فإذا تعالَتْ من نِفاسِها فاجْلِدْها خَمْسين» [زوائد المسند: ١/ ١٣٦، ورقمه: ١١٤٦].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا زَنَتْ الأَمَةُ فتَبَيَّن زِناها، فلْيَجْلِدْها، ولا يُثرِّبْ، ثم إنْ زَنَتْ فلْيَجْلِدْها، ولا يُثرِّبْ، ثم إنْ زَنَتْ الثالثة، فلْيَبِعْها ولو بحَبْلٍ من شَعْرٍ» [البخاري: ٢١٥٢. ومسلم: ١٧٠٣]. ولمسلم: «إذا زَنَتْ ثلاثاً، فلْيَبِعْها في الرابعةِ» [مسلم: ١٧٠٣] والنهي عن التثريب: نهي عن التعنيف والتعيير.

٥- يباحُ زواجِ الحرِّ بالأمة لمن خاف العنت:

أباحَ اللهُ للحرِّ أن يتزوج الأمَةَ بالشرط الذي ذُكر في الآية، وهو خوف العنت، وهو أن تكون شهوتُه عارمةً، وخاف الوقوع في الزنا، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء:٢٥] والعَنَتُ: الهلاك والمشقَّة العظيمة، فإنْ جاهد المرءُ نفسَهُ في الكفِّ عن الزنا، فهو خير له لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء:٢٥] وإنما كان الصبر عن نكاح الأمة أفضل، لأنَّ من رُزِقَ بالأولاد مِنَ الأمة، فإنَّ أولادَهُ يكونون أرِقَّاء لمالك الأمَةِ، ولأنَّ الأمَة تبقى في خدمةِ مالكِ رقبتها، وهي تتعرض أثناء ذلك لما لا يليق في بعض الأحيان.

وختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء:٢٥] أي: لمن رُخِّص له بنكاح الإماء.

٦- الغاية من هذه التشريعات الإلهية الربَّانية:

أخبرنا ربُّنا سبحانه وتعالى أنَّ ما بيَّنه لنا في هذه التشريعات يريدُ أن يعرِّفنا فيه سنن الذين من قبلنا، يعني طرائقَهم الحميدةَ في اتباع شرائعه التي يحبُّها ويرضاها، ويريد سبحانه أن يتوبَ علينا من الإثم والمحارم، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء:٢٦] أي: عليم حكيم في ما يشرعه ويقدِّره، كما هو عليم حكيم في أقواله وأفعاله.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يريدُ أن يتوب علينا، أما الذين يتبعون الشهواتِ فيريدون إضلالنا، وحَرْفَنا عن الصواب ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء:٢٧] ومن طالع صحف ومجلات وإذاعات و(تلفزيونات) الذين يتبعون الشهوات في مشارق الأرض ومغاربها علم مدى الميل والانحراف والضلال الذي يريدون إيقاع البشرية به.

والآيةُ الأخيرةُ في هذا النص تبين لنا أنَّ اللهَ أرادَ بإذنه لمن لم يجد مهر الحرة أنْ ينكحَ الأمةَ بالشروطِ التي ذكرها أن يخفف عنا في أمرِ النساءِ حتى لا نقعَ في الفاحشةِ. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء:٢٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- شرعَ اللهُ لمن لا يقدرُ على مهر الحرَّة المؤمنة أن ينكح الأَمَةَ بشرط أن تكون مؤمنة، وأنْ يعطيها مهرها، وأن يأذن لها وليُّها بالنكاحِ، وأن تكون عفيفة لا تتعاطى الزنا، كما اشترط أن يخاف الناكح على نفسه العنت، وهو الوقوع في الزنا إنْ لم يتزوج الأمة.

٢- الإيمان المشترط في الأمة المنكوحة هو الإيمان الظَّاهر، أمَّا الإيمان الخفيُّ الباطن فعلمه إلى الله تعالى.

٣- لا يجوز لأمة أن تنكح بغير إذن وليها وكذلك العبد.

٤- الصبر على عدم نكاح الأمة أولى من نكاحها.

٥- إذا زنت الأمة فعليها نصف ما على المحصنات من العذاب، لا فرق في ذلك بين المتزوجة وغير المتزوجة، لأنَّ الرجم لا يمكن تنصيفه في حال العقاب به.

٦- يريد الله من وراء هذه التشريعات أن يبين لنا ما يجب اتقاؤه والعمل به، وهو في ذلك يريد أن يبين لنا طرائق الأمم الصالحة من قبلنا.

٧- فَضَحَ اللهُ الذين يتبعون الشهواتِ، فهم ضالُّون منحرفون يعملون على إضلال العباد وحرف مسيرتهم.

٨- شَرَعَ لنا من التشريعات التي خَفَّفَ الله بها عن عباده، ومن ذلك تشريعه لنا نكاح الإماء المؤمنات، أي: حال عدم قدرتنا على مهر الحرائر.

النصُّ القرآني الحادي عشر من سورة النساء

تحريم الله على المؤمنين أكل أموالهم بينهم بالباطل

أولاً: تقديم

نهى اللهُ المؤمنين في آياتِ هذا النص عن أنْ يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، كأكل المال بالسَّرقة والرَّشوةِ والرِّبا، وأباح الله التجارة بالحلال، وأكْلَ ربح التجارة، بشرط أن تكون التجارةُ عن تراضٍ، ونهى اللهُ فيها عن الانتحار بأن يقتل المرءُ نفسه، وتوعَّد من فعل ذلك بالنَّار وغضب الجبّار، ووعد اللهُ الذين يجتنبون كبائر الذنوب بأن يُكَفِّرَ عنهم سيئاتهم ويدخلهم مُدْخَلاً كريماً في جنات النعيم.

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة النساء

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنٗا وَظُلْمٗا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء:٢٩-٣١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حرمَ الله على المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل:

حرَّم اللهُ على المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطلِ، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمْۚ ﴾ [النساء:٢٩] والباطلُ الذي نهى اللهُ عن أكْلِ المالِ به الحرامُ الذي حرَّم الله أكْلَ المالِ به كالربا والقمارِ والغصبِ والسَّرقةِ والخيانةِ والتجارةِ في المحرماتِ كالتجارةِ في الخمر والخنزير والمخدِّرات، وقوله: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمْۚ ﴾ [النساء:٢٩] أي: إلاَّ أن تكون الأموالُ تجارةً، والمراد بالتجارة التجارةُ المشروعةُ التي تكون عن تراضٍ بين البائع والمشتري.

ومن التراضي ما ثبت في الشَّرع من خيارِ المجلس وخيار الشرط، فعن ابن عمر ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ المتبايعين بالخيار في بيعهما ما لم يتفرقا، أو يكون البيعُ خياراً» وكان ابن عمر إذا اشترى شيئاً يعجبه فارق صاحبه. [البخاري: ٢١٠٧. ومسلم: ١٥٣١].

٢- حرَّم اللهُ على المؤمن أنْ يقتل نفسه:

حرَّم اللهُ على المؤمن أن يقتل نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء:٢٩]. ونَهْيُ الله تعالى العبادَ أنْ يقتلوا أنفسهم من رحمة الله بعباده، وتهدَّد اللهُ الذين يقتلون أنفسهم بأن يصليهم النارَ، وهذا أمر يسير سهل على ربِّ العباد ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء:٣٠]، والمرادُ بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ [النساء:٣٠] أي من يفعل ما نهى الله عنه من قبل، وهو قتلُ النفس.

وقد جاءت الأحاديث مبينة ما تهَدَدَتنا الآية به، فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فقَتَلَ نَفْسَهُ، فهو في نارِ جهَنَّمَ يَتَرَدَّى فيه خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تَحَسَّى سُمّاً فقتَلَ نفسَهُ، فسُمُّه في يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ في نارِ جَهَنَّمَ خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قَتَلَ نَفْسَه بحَدِيْدَةٍ، فحَدِيدَتُه في يَدِه يجَأُ بها في بَطْنِهِ في نارِ جهنَّم خالداً مخلداً فيها أبداً» [البخاري: ٥٧٧٨. ومسلم: ١٠٩].

وعن ثابتِ بن الضحَّاك ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بحَديدَةٍ عُذِّب به في نار جَهَنَّم» [البخاري: ١٣٦٣. ومسلم: ١١٠].

وعن جندب ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: كانَ برجلٍ جراحٌ، فقَتَلَ نفسَه، فقالَ اللهُ تعالى: «بَدَرَني عَبْدِي بِنَفْسِه، حَرَّمْتُ عليهِ الجنّةَ» [البخاري: ١٣٦٤. ومسلم: ١١٣ مطولاً].

وقد احتجَّ بهذه الآية جمعٌ من أهل العلم على حُرْمَةِ فعل الإنسان ما يؤدي إلى إهلاك نفسه، ومن هؤلاء عمرو بن العاص، فقد احتلم في ليلةٍ باردةٍ شديدةِ البرد، فأشْفَقَ على نفسه أن يهلك إن اغتسل، فصلَّى بأصحابه بعد أن تيمم، ولما سأله الرسول ﷺ عن ذلك، احتج بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء:٢٩]. فضحك رسول الله ﷺ، ولم يقل له شيئاً. [حَكَمَ مُحَقِّقُ تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٠) على الحديث بأنه حسن صحيح. وعزاه إلى أبي داود (٣٣٤) وأحمد (٤/ ٢٠٣) وغيرهما. وذكر أنَّ ابن حجر في الفتح قال: إسناده قويٌّ، وعلَّقه البخاري بصيغة التمريض، وذكره مختصراً].

٣- وَعَدَ اللهُ الذين يجتنبون الكبائر أن يُكَفِّرَ عنهم سيئاتهم:

وَعَدَ اللهُ المؤمنين الذين يجتنبون كبائر ما نهى الله عنه أن يكفِّر عنهم ذنوبهم ويدخلهم مدخلاً كريماً، ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم

﴿مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ [النساء:٣١] ففي هذه الآية حثٌّ على التعرف على الكبائر، وحثٌّ على الابتعاد عنها.

وأصَحُّ الأقوالِ في تعريف الكبائر: أنها كلُّ ذنبٍ فيه حدٌّ في الدنيا، كالزنى والقتل وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، أو وعيد في الآخرة كأكلِ مالِ اليتيم وأكلِ الربا، وعقوقِ الوالدين، واليمينِ الغموس، وشهادة الزور، وأمثال ذلك [شرح العقيدة الطحاوية: ص٤١٨].

وقد أثنى الله تعالى على الذين يجتنبون الكبائر، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الشورى:٣٧].

وقد ذكر رسولُنا ﷺ عدداً كبيراً من الكبائر محذِّراً منها، وجعل بعض الذنوب أكبر الكبائر، فمن ذلك ما رواه عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنبِّئُكُمْ بأكبر الكبائر» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشْراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين» وكان مُتَّكِئاً فجلسَ، فقال: «ألا وقولُ الزُّورِ، وشهادةُ الزُّورِ، ألا وقولُ الزورِ، وشهادَةُ الزور» فما زال يقولها، حتى قلت: لا يسكت [البخاري: ٥٩٧٦. ومسلم: ٨٧].

ومنها ما رواه أنس بن مالك ﷺ قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، أو سُئل عن الكبائر، فقال: «الشِّركُ بالله، وقَتْلُ النَّفس، وعُقوق الوالدينِ، قال: ألا أُنبِأُكُمْ بأكْبَرِ الكبائر؟ قال: قولُ الزُّورِ، أو قال: شهادة الزور» [البخاري: ٥٩٧٧. ومسلم: ٨٨].

وعن عبدالله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «الكَبائِرُ: الإشراكُ بالله، وعُقوقُ الوالدينِ، وقَتْلُ النَّفسِ، واليَمينُ الغَمُوسُ» [البخاري: ٦٦٧٥].

وعن النبي ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الموبِقاتِ» قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ، قال: «الشِّركُ بالله، والسحرُ، وقتل النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبا، وأَكْلُ مالِ اليَتيمِ والتَّوَلِّي يومَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ» [البخاري: ٢٧٦٦. ومسلم: ٨٩ عن أبي هريرة].

٤- حكم مرتكب الكبيرة:

ذهب الخوارجُ إلى أنَّ مرتكبَ الكبيرةِ إذا لم يتبْ منها كان كافراً يجوز قتله، وذهب المعتزلة إلى أنّه في الدنيا ليس كافراً، وليس بمؤمن، وإنما هو في منزلةٍ في الدنيا بين المنزلتين وهو في الآخرة في النّار، وأحكم أهلُ السنَّةِ كلّ نصوص الوعيد الواردة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:١١٦] فكلُّ الذنوب دون الشرك

مردُّها إلى الله تعالى: إن شاء غفر لصاحبها، وإن شاء عذَّبه، ولا يخلد أَحد في النَّار إذا كان مُوَحِّداً، بل لا بدَّ أن يخرج مِنَ النَّار، ومع ذلك فأهل السنة لا يَعْرِضون لنصوص الوعيد بالنقض والتأويل، هذا مذهب أهل السنّة من سلفنا الصالح.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعملٍ

عندما نتدبر آياتِ هذا النصِّ نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ أو عملٍ:

١- لا يحلُّ للمؤمن أنْ يأكلَ أموالَ الناس بالباطل، أيْ: بالطرقِ التي حرَّمها الله تعالى: كالربا والسرقة والتجارة بالمحرمات ونحو ذلك.

٢- يجوز العمل في التجارة التي أحلَّ اللهُ الاتجار فيها، مثل الاتجار بالحلال من الأطعمة والأشربة والمواشي والعقار ونحو ذلك.

٣- يَحْرُمُ على المؤمن قتل نفسه، وقد رَهَّب القرآن من قتل الإنسانِ نَفْسَهُ، وأخبرَ الرسولُ ﷺ أنَّ من قتل نفسه، فإنَّه يُعَذَّبُ في النَّار يوم القيامة نَفْسَهُ بمثل ما قتل نفسه بِهِ.

٤- وعد اللهُ الذين يجتنبون كبائر الذنوب بأن يُكَفِّر عنهم سيئاتهم في الآخرة، ويدخلهم مُدْخَلاً كريماً في جناتِ النعيم.

٥- الكبائرُ كلُّ ذنب جعل اللهُ له عقوبةً في الدنيا، أو توعَّدَ اللهُ عليه بالعذابِ أو اللعن أو النَّار في الآخرة.

٦- أجمع علماءُ أهل السنة على أنَّ مرتكب الكبيرة الذي لم يتب في مشيئة الله، إنْ شاءَ غفر له، وإن شاءَ عذَّبه، وأجمعوا على أنَّ أهل التوحيد مصيرهم إلى الجنّة.

النصُّ القرآني الثاني عشر من سورة النساء
مشكلاتُ الأسرة في ضوء النصوص القرآنية

أولاً: تقديم

أقام اللهُ بناءَ الأسرةِ الإنسانية على قواعد من العدلِ، تحفظ توازنها، وتقيم بناءَها على أُصولٍ صحيحةٍ، وقد نهى اللهُ في هذه الآياتِ أن يتمنى النساءُ ما خصَّ اللهُ به الرجال من فضل. كما نهى الرجال أن يتمنوا ما خصَّ به النساء، وأبانَ الله القاعدةَ التي استقرَّ عليها الميراث، وهي قاعدةُ القرابةِ.

وقد ضَلَّ كثير من الرجال والنساء اليوم في مناداتهم بالمساواة بين الرجال والنساء من غير مراعاةٍ لخصائص كل واحدٍ منهما.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء:٣٢-٣٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في آيات هذا النص من القرآن

١- لا يجوز للرجال أو النساء أن يتمنى بعضهم ما خصَّ اللهُ به الآخر مِنْ فضل:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- في الآية الأولى من هذا النص أن تتمنى النساء ما خصَّ اللهُ به الرجالَ مِنْ فضلٍ، وكذلك لا يجوزُ للرجال أيضاً أن يتمنوا ما خصَّ الله به النساءَ، وفي ذلك يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾ [النساء:٣٢].

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآية أن يتشهى النساء الخصائص التي خَصَّ اللهُ بها الرجالَ، وكذلك يقال في تشهي الرجالِ ما خصَّ الله به النساءَ، فاللهُ تبارك وتعالى خصَّ الرجالَ كما خصَّ النساء بمنازل يقتضيها وجود المجتمع الإنساني المتوازن، واللهُ تعالى حكيمٌ عليمٌ، لا تخفى عليه خافية، وأحكامه قائمة على العدلِ والصدقِ، فتَمَنِّي أَحَدِ الطرفين مِنَ

الرجالِ أو النساءِ ما خصَّ اللهُ بِهِ الآخر هو من الاعتراض على حكم الله ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١]، والواجب على كلِّ مؤمن ومؤمنة أن يقف عند حدود شرع الله لا يتعدّاه، ولا يجوز أن يتمنى خلاف حكم الله، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

لقد جعل اللهُ القاعدةَ في الميراثِ أن يكون نصيب الولد ضعفَ حَظِّ الأُنثى ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١] وفرَضَ الجهادَ على الرجال دون النساء، وفرض الله على الرجل أن يقدِّم المهر لزوجته، وإن كانت غنيَّةً، وعليه أيضاً نفقة والديه وإخوانه، إلى غير ذلك من الفرائض التي لا تلزم المرأة، ولكن الإسلام سوَّى بين الرجل والمرأة في الثواب والعقاب، وقد دلَّت على ذلك نصوص كثيرة.

ومع أن تمني أحد الفريقين مِنَ الرجالِ أو النساءِ منازلَ الآخر فيه اعتراض على حكم الله، فإنَّ في تحقيق هذه الأماني خللاً كبيراً يحرف مسار الأسرة والمجتمع، لقد ضلَّ أهلُ الجاهليةِ عندما حَرَمُوا الزوجةَ مِنَ الميراثِ كما حَرَمُوا أولادَ الرجلِ وبناتِهِ أيضاً مِنَ الميراثِ إذا كانوا صغاراً.

وضربت الجاهليةُ المعاصرة بعيداً في التيه عندما أجازت لصاحب المال أن يخصَّ بعض أقاربه بماله بعد موته، كما أجازوا له أنْ يوصي بماله لكلبه أو غير ورثته. وقرَّر اللهُ الحقَّ والعدلَ الذي يجب أن يأخذ به النَّاسُ أنْفُسهم ويلتزموا به. وقد راود بعض العقول في عهد الصحابة التطلعُ إلى ما خصَّ اللهُ بِهِ الرجالَ أو النساء من مكانة، وكان ذلك خَلَلاً في التصور والتفكير وخطلاً في القصدِ والإرادة.

ورد في سبب نزول الآية عن مجاهد قال: قالت أمُّ سلمة: يا رسول الله، لا نُعْطَى الميراثَ، ولا نغزو في سبيل الله، فنقتل، فنزلت. وفي روايةٍ أنها قالت: تغْزو الرجالُ، ولا نغزو، وإنَّما لنا نصفُ الميراثِ [الطبري: ٣/ ٢٢٧٥، وعزاه محقق زاد المسير: ٢/ ٦٨ إلى أحمد والترمذي والحاكم وقال: على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد من أُمِّ سلمة، ووافقه الذهبي، وذكر المحقق أن الشيخ أحمد شاكر لم يرتض حكمَ الترمذيِّ عليه بالإرسال، لأنَّ مجاهداً ولد سنة ٢١ وأمُّ سلمة ماتت بعد سنة ٦٠ فمجاهد عاصر أمَّ سلمة، والمعاصرة من الراوي الثقة تحمل على الاتصال].

وذكر الطبريُّ أنَّ السُّديَّ قال في تفسير الآية: «قال الرجالُ: نريد أن يكون لنا مِنَ الأجرِ الضِّعْفُ على أجرِ النساء، كما لنا في السهام سهمان، فنريد أن يكون لنا في الأجرِ أجرانِ.

وقالت النساء: نريدُ أن يكون لنا أجرٌ مِثْلُ الرجالِ، فإنَّا لا نستطيع أن نقاتلَ، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا، فأنزل الله تعالى الآية» [الطبري: ٣/ ٢٢٧٦].

وقال الطبريُّ في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢] «للرجالِ نصيبٌ مما اكتسبوا من الثواب على الطاعة، والعقابِ على المعصية، وللنساءِ نصيب من ذلك مثل ذلك».

وأورد الطبريُّ عن قتادة قوله في الآية: «كان أهل الجاهلية لا يورثون المرأة شيئاً، ولا الصبيَّ شيئاً، وإنما يجعلون الميراث لمن يَحْتَرِفُ، ويَنْفَعُ ويَدْفَعُ، فلما لَحِقَ للمرأةِ نصيبُها وللصبي نصيبُه، وجُعِلَ للذكر مثلُ حظِّ الأنثيين، قالت النساءُ: لو كان جَعَلَ أنصباءَنا في الميراث كأنصباءِ الرجالِ، وقال الرجالُ: إنَّا لنرجو أن نُفَضَّلَ على النساء بحسناتنا في الآخرة، كما فُضِّلنا عليهنَّ في الميراث، فأنزل الله ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢] يقول: المرأة تجزى بحسنتها عشر أمثالها كما يجزى الرجل» [الطبري: ٣/ ٢٢٧٧].

وقد دلَّ اللهُ - عز وجل - عباده على الطريق الذي يسلكونه، وهو أن يسألوه من فضله بدل أن يتمنى الواحد ما فضَّلَ الله به غيره ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢] قال ابن كثير: «أي، لا تَتَمَنَّوا ما فضلنا بِهِ بعضكم على بعض، فإنَّ هذا أمر محتوم، والتمني لا يجدي شيئاً، ولكن سَلُوني مِنْ فضلي أُعطكم، فإني كريم وهَّاب» [ابن كثير: ٢/ ٢٥٦].

وختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء:٣٢] أي إن الله عليم بما يستحقُّه الرجال دون النساء، وعليم بما يستحقُّه النساء، فيعطي كلَّ فريق ما يخصُّه ويناسبه.

٢- الميراث للأقارب:

أَخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه جعل لكلِّ واحدٍ مِنَّا موالي، أي: ورثةً مما تركَ الوالدان والأقربون، وأرادَ بالموالي الذين يرثونَهُ أولادَه وإخوانه وبني عمه، والعرب تسمي ابنَ العمِّ مولى، ومنه قولُ الفضلِ بن العباسِ:

مَهْـلاً بنـي عَمِّنـا مَهْـلاً موالينـا ... لا يظهـرنْ بيننـا مـا كـان مـدفونا

قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [النساء:٣٣] المرادُ بالذين عَقَدَتْ أيمانُنا الذين عاقدناهم بالحلف بالأيمانِ والعهودِ والمواثيق. قال قتادةُ مفسِّراً الآية: «كان الرجلُ يعاقدُ الرجلَ في الجاهلية، فيقول: دَمِي دَمُكَ، وَهَدْمِي هَدْمُك، وتَرِثُني وأرثك، وتطْلُبُ بي، وأطلب بك، فجعل له السدس من جميع المال في الإسلام، ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم، فنسخ ذلك بعد في سورة الأنفال، فقال اللهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال:٧٥].

وقد أمرنا رسولنا ﷺ بحفظ العقد الذي نشأ في الجاهلية، ولكنه لا يجوز إنشاء مثل هذه العقود في الإسلام، فعن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ﷺ : «لا حِلْفَ في الإسلامِ، وأيُّما حِلْفٍ كان في الجاهِلِيَّةِ لم يَزِدْهُ الإسلامُ إلا شِدّةً» [مسلم: ٢٥٣٠].

وإلى ما دَلَّ عليه الحديثُ مِنْ عدم جواز التحالف في الإسلام، وعدم التوارث عليه ذهب جمهور العلماء، وفيهم مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه، خلافاً لمن أجاز التوارثَ بالحلفِ في الإسلام، وفيهم أبو حنيفة وأصحابه ورواية عن أحمد» [ابن كثير: ٢/ ٢٥٩].

ويدلُّ لصحة ما ذهب إليه جمهورُ أهلِ العلمِ ما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ ، قال: «أَلْحِقُوا الفَرائِضَ بأهْلِها، فما بَقِيَ فلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ» [البخاري: ٦٧٣٢. مسلم: ١٦١٥].

وقد آخى الرسولُ ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة، ثم نَسَخَ التوارثَ بها، وجعل الميراثَ للأقاربِ، وقد صحَّ عن ابن عباس ﷺ أنّه حمل الآية على هذا التوارث، روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: «﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ [النساء:٣٣] قال: ورثة، ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [النساء:٣٣] كان المهاجرون لما قَدِمُوا المدينة يرث المهاجريُّ الأنصاريَّ، دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبيُّ ﷺ بينهم، فلما نزلت ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ﴾ [النساء:٣٣] نُسِختْ، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء:٣٣] أي مِنَ النصرِ والرفادة والنصيحة، وذهب الميراث» [البخاري: ٤٥٨٠].

وقوله تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٣٣﴾ [النساء:٣٣] أي: شاهداً على ما تفعلون مما أمركم به أو نهاكم عنه، وسيجزيكم على ذلك، فالمحسن له الحسنى، والمسيء له السُّوء.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعملٍ

عندما نتدبرُ آياتِ هذا النصِّ نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ و عملٍ:

١- لا يجوز للنساء أن يتمنَّين ما خصَّ اللهُ به الرجالَ، ولا يجوز للرجالِ أن يتمنوا ما خصَّ الله به النساءَ، فإنَّ في ذلك اعتراضاً على حكمِ الله وشرعه.

٢- سعيُ كلٍّ واحدٍ مِنَ الرجالِ والنساءِ للحصولِ على خصائصِ الطرف الآخر يحدثُ خللاً في بنية المجتمع الإنساني.

٣- سيجازي اللهُ الرجالَ بما عملوا من خيرٍ وشرٍّ في يوم القيامة، وكذلك النساء.

٤- ينبغي للرجال والنساء أن ينشغلوا بالاستغاثة بالله أن يرزقهم من فضله، بدل أن يشغل كلٌّ واحد نفسه بتمني فضائل غيره.

٥- القاعدة التي يقوم عليها الإرث هي القرابة، وعلى أساسها وزَّع الله الإرثَ بين الأقارب، وقد توارث المسلمون في أول الإسلام بغير القرابة، كالإرث بالحلف والمؤاخاة، وقد نسخ اللهُ ذلك كلَّه.

النص القرآني الثالث عشر من سورة النساء

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾

أولاً: تقديم

آيات هذا النص كآيات النص السابق تتحدثُ عن بناءِ الأسرةِ الإنسانية على قواعدَ مِنَ العدلِ، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ أنَّ الرجالَ لهم حقُّ القِوَامةِ على زوجاتهم لأمرين: الأولُ: لما خصَّ اللهُ بِهِ الرجالَ مِنْ فَضْلٍ. والثاني: لما أنفقوه على زوجاتهم مهراً، ثم إنفاقهم بعد ذلك على زوجاتهم أثناء الحياة الزوجية.

وأبان الحقُّ -سبحانه- أنَّ النساءَ الفضليات هن الطائعاتُ لأزواجهنَّ بالمعروفِ، وبيَّن الطريقَ الذي ينبغي أن يسلكه الأزواجُ في حالِ نشوزِ الزوجاتِ وتعاليهنَّ على أزْواجِهنَّ، كما بيَّن الطريقَ الذي ينبغي سلوكه في حال وقوع النزاعِ والشقاقِ بين الزوجين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء:٣٤-٣٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الرجالُ قوَّامون على النساء:

قرَّرَ الحقُّ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ قِوامةَ الرجالِ على النساءِ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ﴾ [النساء:٣٤] و﴿قَوَّٰمُونَ﴾ جَمْعٌ، واحده قوَّام، وقوَّام صيغةُ مبالغةٍ تدلُّ على كثرة قيام الزوج على زوجته، وذكر اللهُ أنَّه أعطى الرجال القوامة على النساءِ لأمرين: الأول: لما فَضَّل الله به الرجالَ مِنْ مزايا. والثاني: لإنفاقِ الرجالِ على النساءِ من أموالهم، فمن ذلك ما يدفَعُهُ الزوجُ لزوجته

مهراً، ومِنْ ذلك نفقتُهُ عليها في سكنِها ولباسِها وطعامِها وشرابِها وعلاجِها، وإنفاقُهُ على أولاده منها، وكلُّ ذلك واجب على الزوج، حتى لو كانت الزوجة غنية.

ومن لوازم القِوامَةِ أن يحفظ الرجلُ زوجته ممن يريدُ الأذى والشرَّ بها.

وإذا كان الرجل قوَّاماً على المرأةِ، فإنه يجبُ على المرأة أن تطيعَ زوجها فيما أمرها به فيما لا معصيةَ فيهِ لله ورسولِهِ، ولذلك أثنى اللهُ تعالى على النساءِ الصالحاتِ المطيعاتِ لله فيما أمَرَهُنَّ به مِنْ طاعةِ أزواجهنَّ ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٣٤] والمرأة الصالحةُ هي المستقيمةُ على أمرِ الله، وقُنوتُها طاعتُها لزوجها فيما لا معصيةَ فيه، والحافظاتُ للغيبِ: أن تحفظ المرأة نفسَها ومالَ زوجها وبيتَهُ وأولادَه في حال غيبته، وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٣٤] أي: يحفظن غيبة أزواجهن بسبب حفظ الله لهنَّ، وعلى ذلك فحفظهنَّ لما كُلِّفن بحفظه بسبب رعايتهن حقَّ الله لا لرياءٍ وتصنع منهنَّ.

٢- كيف يتصرَّفُ الزوجُ حين تنشزُ زوجتُه عليه:

أثنى اللهُ -تعالى- فيما سبق على الزوجةِ الصالحةِ التي تطيع زوجَها، وتحفظُ غيبتَهُ، وأبان بعد ذلك كيف يتصرف الزوجُ إذا ما استعلتْ زوجتُهُ عليه، وأَبَتْ طاعته ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء:٣٤].

والنُّشوزُ مأْخوذٌ مِنَ النَّشَزِ، وهو ما ارتفعَ مِنَ الأرضِ، يقال: نَشَزَ الرجلُ يَنْشُزُ إذا كان قاعداً، فنهض قائماً [تفسير القرطبي: ٣/ ١٥٤].

فإذا نَشَزَتْ زوجةُ الرجلِ عليه وأبتْ طاعته، فلا يجوزُ له المسارعةُ بطلاقِها، ولا ضَرْبِها، وإنما عليه أنْ يعظَها أوَّلاً بأنْ يُبَيِّنَ لها حقَّهُ عليها الذي فَرَضَهُ اللهُ له، ويبيِّن لها ما يَحِلُّ بها مِنْ غضب الله بسبب معصيتها له، فيذكر لها حديث عائشة أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «لوْ أمَرْتُ أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لأحد، لأمَرْتُ المَرْأةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِها» [ذكره الألباني في صحيح ابن ماجه (١٥٠٢) وصحيح أبي داود (١٨٥٧) وخرجه في الإرواء (١٩٩٨)].

ويَقُصُّ عليها حديثَ معاذ الذي قال فيه رسولُ الله ﷺ: «فإنِّي لو كُنْتُ آمراً أحداً أنْ يسجُدَ لغيرِ الله، لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِها، والذي نَفْسُ مُحمدٍ بيده، لا تُؤَدِّي المرأةُ حَقَّ رَبِّها، حتى تُؤَدِّي حَقَّ زوجها، ولو سألَها نَفْسَها، وهي على قَتَبٍ لم تَمْنَعْه» [صحيح ابن ماجه: (١٥٠٣) وقال فيه الألباني: حسن صحيح، وذكر أنه خرجه في الإرواء (٧/ ٥٥) والصحيحة (١٢٠٣)].

ويذكر لها في وعِظه إياها حديثَ أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا دَعا الرَّجُلُ امْرَأَتَه إلى فِراشِهِ، فأبت أنْ تجيءَ، لَعَنَتْها الملائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» [البخاري: ٥١٩٣. ومسلم: ١٤٣٦].

فإن أطاعته إذا وعظها فبها ونعمت، وإلا زاد عليها الأمْرَ فهجرها، لقوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [النساء:٣٤].

والهجرانُ: يعني تَرْكَهُ حديثَها، وتَرْكَ المبيتِ معها في المَضْجَعِ، وتَرْكَ معاشرتِها، وعن ابن عباس: «الهُجْرانُ: هو أنْ لا يُجامِعَها، ويضاجِعَها على فراشِها، ويولِّيها ظَهْرَهُ، وكذا قالَ غيرُ واحِدٍ» [ابن كثير: ٢/ ٢٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [النساء:٣٤] يدلُّ على أنَّه لا يخْرُج مِنَ البيتِ في هجرانه لها، وإنما يهجرها في المضْجَعِ، وقد أخبرنا الرسولُ ﷺ أنَّه لا يجوز أنْ يكونَ الضَّرْبُ مبرِّحاً، ففي حديث جابر بن عبدالله أنَّ الرسول ﷺ قال في خطبة حجَّة الوداع في عرفة: «فاتَّقُوا اللهَ في النساءِ، فإنَّكُمْ أخَذْتُموهُنَّ بأمانِ الله، واسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بكَلِمَةِ الله، ولَكُمْ عَلَيْهِنَّ أنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحَداً تَكْرَهُونَه، فإنْ فعَلْنَ فاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غيرَ مُبَرِّحٍ، ولَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بالمَعْروفِ» [مسلم: ١٢١٨].

وأخبرنا أنَّ الهجران لا يكون إلا في البيتِ، فعن بَهْزِ بن حكيم عن أبيه عن جدِّه أنه قال: يا رسول الله، نساؤنا ما نأتي منها، وما نَذَرُ؟ قال: «حَرْثُكَ، ائْتِ حَرْثَكَ أنَّى شِئْتَ، غيرَ أنْ لا تَضْرِبِ الوَجْهَ، ولا تُقَبِّحْ، ولا تَهْجُرْ إلا في البيتِ» [أورده ابن كثير (٢/ ٥٢٣) وعزاه لأحمد وأهل السنن، وقال محققه: حسن. وعزاه لأبي داود وأحمد والنسائي في الكبرى بهذا اللفظ].

ومع إجازة الرسولِ ﷺ للزوج أنْ يضرب زوجته، إلا أنه قال فيمن ضربوا أزواجهن «لقد طافَ بآلِ محمدٍ نساءٌ كثيرٌ، يشْكُونَ أزواجَهُنَّ، ليس أولئك بخيارِكُمْ» [أبو داود: ٢١٤٦. وإسناده صحيح].

فإذا أطاعتْ المرأةُ زوجَها فيما يريده منها مما شرعَهُ اللهُ تعالى، فلا سبيلَ له عليها بهجرانٍ ولا ضربٍ ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ [النساء:٣٤] وقد تهدَّد الله الرجالَ في خاتمة الآية إذا بغوا عليهن من غير سبب بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء:٣٤] يقولُ اللهُ للرجال الذين نهاهم أن يبغوا على نسائهم إذا أطعنهم: إنَّ اللهَ -عزّ وجل- ذو عُلُوٍّ، وهو أعلى منكم عليهن، فإيَّاكم أن تظلموهن فينتقم منكم.

٣- إذا وقع الشِّقاق والنزاع بين الزوجين:

بيَّن اللهُ لنا في الآية الأخيرة مِنْ هذا النصِّ كيف يكون حلّ النزاع والشقاق إذا وقع بين الزوجين، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء:٣٥]. أمر الله المسلمين الذين حول الزوجين أو الحكام إذا رفع لهم أمر الزوجين المتنازعين أن يختاروا حكماً من أهل الزوج وحكماً من أهل الزوجة، فينظرا في أمر الزوجين، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء:٣٥] فيه إرشادٌ للحكمين أن يريدا الإصلاح بين الزوجين، وقد سمَّى اللهُ الرجلين المختارين للإصلاح حكمين، ومِنْ شأن الحكم أنْ يحكم بما يُؤَدي إليه اجتهاده، فإنْ شاءا وجَّها اللَّوم إلى المخطئِ مِنَ الزوجين وعنَّفاه وأغلظا له في القول، وإن شاءَا حكما بالتفريق بينهما، وإن شاءا ألْزما الزوجة بأن تخالع زوجها.

وليس بصواب قول مَنْ قال بأنَّه لا يجوز لهما أن يحكما بالتفريق بين الزوجين، فقد سمَّاهُما الله حكمين، ومن شأن الحَكَمِ أن يحكم بين المتنازعين رضيا أو غضبا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء:٣٥] أي: عليم خبير بما انطوت عليه قلوب الحكمين من إرادة الإصلاح أو غيره، وسيجيزهم بحسب نياتهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعملٍ:

١- للرجالِ على النساء درجةُ القِوامَةِ، لما خصَّهم الله به من فضلٍ، ولإنفاقهم على أزواجهم.

٢- يجب على الزوجة المسلمة أن تطيعَ زوجها فيما لا معصية فيه، كما يجب عليها أن تقوم بحفظ بيتِهِ ومالِهِ وولده في غيبته.

٣- المرأةُ التي تتعالى على زوجها، ولا تطيعه فيما يأمرها به، فيجب عليه أن يحسن وعظها، فإن لم يؤثر وعظه فيها هجرها في المنزل، فإن لم يؤثر فيها ضربها ضرباً غير مبرح، فإن أطاعته، فلا يجوز له أن يضربها.

٤- إذا وقع الشقاقُ بين الزوجين، وجب على من يحيط بالزوجين أو القاضي الذي رفع إليه أمر نزاعهما أن يقيم عليهما حكماً من أهله وحكماً من أهلها، وعليهما أن يقضيا بينهما بما يظنَّانه صواباً.

٥- إذا أحسن الحكمان التصرف، فإنَّ الله يوفق بينهما في الحكم إن أرادا الإصلاح.

النص الرابع عشر من سورة النساء
مجالات الإحسان

أولاً: تقديم

بيّن اللهُ تبارك وتعالى في آيات هذا النص مجالات الإحسان التي أمر اللهُ عبادَهُ أن يقوموا بها، وأعظمها عبادةُ الله، والإحسانُ إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين والجيران والأصحابِ وابن السبيل وما ملكت أيماننا، وذمَّ اللهُ الذين يبخلون بأموالهم فيقبضون أيديهم عن الإنفاق في هذه المجالات، كما ذمَّ الكفرة الذين ينفقون أموالهم يراؤون بها الناس، ودعا ربُّ العبادِ عبادَه إلى الإيمانِ بالله واليوم الآخر والإنفاقِ مما رزقهم اللهُ في مرضاته، وبيَّن قاعدة الحسابِ التي يجزي بها العباد.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء:٣٦-٤٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأمر بعبادة الله وحده:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- في الآية الأولى من هذا النصِّ بعبادتِهِ وحده، ونهانا عن أنْ نشركَ به شيئاً ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء:٣٦] وعبادةُ الله تكون بالتذلُّلِ له والإخلاص له، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]، وقال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر:٣]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥].

وتوحيدُ الله بعبادتِهِ وإخلاصِ الدين له أعظم ما أمَرَ اللهُ به، والشركُ بالله أعظمُ ما نهى عنه، ففي الصحيحين عن ابن مسعود، قالَ: سألت رسولَ الله ﷺ: أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قال: «أنْ تَجْعَلَ لله نِدّاً وهُوَ خَلَقَكَ» [البخاري: ٤٤٧٧. مسلم: ٨٦].

وقد سألَ الرسولُ ﷺ معاذَ بن جبلٍ، وكان رديفَ رسولِ الله ﷺ على حمار يُدْعى عُفَيْراً فقال: «يا مُعاذُ، أتَدْرِي ما حقُّ الله على عِبادِه، وما حَقُّ العبادِ على الله؟» فقال معاذٌ: اللهُ ورسولُهُ أعلم، قال: «فإنَّ حَقَّ العبادِ على الله أنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكوا بِهِ شيئاً، وحَقُّ العِبادِ على الله أنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً» [البخاري: ٢٨٥٦. ومسلم: ٣٠].

واللهُ خلقَ الخلقَ لعبادتِهِ وحدَه لا شريك له، وأرسلَ بذلك جميعَ رسلِهِ وأنبيائه، وأنزل ذلك في جميع كتبه، ومدارُ جميع كتبِ الله على الأمر بعبادَةِ الله وتوحيدِهِ، ومَنْ جاء يومَ القيامة مخلصاً دينَه لله دخل الجنةَ، ومن جاء مشركاً بالله دخل النَّار، والله تعالى لا يغفرُ أن يشركَ به، ويغفر سبحانه ما دون ذلك إن شاء. واللهُ وحده المستحقُّ للعبادةِ، فهو الخالق الرازق المنعم المتفضل سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

٢- الأمرُ بالإحسان للوالدين:

بعد أن أمر الله بعبادتِهِ وحده لا شريك له، ثنَّى بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، فهما السبب الذي أخرجنا اللهُ به مِنَ العدم إلى الوجودِ، وكثيراً ما يَقْرِنُ اللهُ سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] وقال: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣].

٣- الأمرُ بالإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين:

أمَرَ اللهُ -تعالى- بالإحسان إلى الوالدين، ثم أمَرَ بالإحسانِ إلى ذوي القربى، كالإخوةِ والأعمامِ والأخوالِ ونحوهم، وأمر بالإحسانِ إلى اليتامى، وهم الذين ماتَ آباؤُهم وهم صغارٌ، فأصبحوا في غايةِ الحاجةِ مع فَقْدِ العائلِ، وأمر بالإحسانِ إلى المساكين، وهم الذين ليس لهم دَخْلٌ، أو لهم دَخْلٌ لا يكفي حاجاتهم ومتطلباتهم، قال تعالى: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

٤- الوصية بالجار:

أوْصَى اللهُ -تعالى- بمن سبقَ ذكرهم، ثم أوصى بالجار، فقال: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء:٣٦].

وأمْرُ الله بالإحسانِ إلى الجارِ لا فرقَ فيه بين الجار الذي هو من ذوي القربى، والجار الذي ليس من ذوي القربى، سواءً أكان مسلماً أو كافراً، ولم تحدِّدِ الشريعةُ ولا اللغةُ حدّاً لمن يدخل في الجوارِ، فمرجع ذلك إلى العرف، فما تعارف عليه النَّاس أنَّه جار، فهو داخل في الجوار، وما تعارفوا عليه أنَّه غير داخل في الجوار، فهو ليس بجارٍ.

والإحسانُ إلى الجار يكون بكفِّ الأذى عنه، ومشاركتِه أفراحَهُ وأتراحَهُ، والإهداء إليه، وكلَّما كان الجارُ أقربَ إليك كان أحقَّ بإحسانك، ففي الحديث عن عائشة قالت: يا رسول الله، إنَّ لي جارين، فإلى أيهما أُهدي؟ قال: «إلى أقْرَبِهما مِنْكِ باباً» [البخاري: ٢٢٥٩].

وقد أكثر جبريلُ ﷺ مِنَ التوصيةِ بالجارِ، حتى ظنَّ رسولنا ﷺ أنَّه سيجعلُ له نصيباً في الميراث، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زالَ جِبْرِيلُ يُوصِيني بالجارِ، حتَّى ظَنَنْتُ أنَّهُ سيُورِّثُه» [البخاري: ٦٠١٤. ومسلم: ٢٦٢٤].

وقد رغَّبَ رسولنا ﷺ النساءَ المسلماتِ بالإهداء إلى جاراتهن، ولو كان بالقليلِ مِنَ الطعام، فعن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقول: «يا نساءَ المُسْلماتِ، لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لجارَتِها ولوْ فِرْسِنَ شاةٍ» [البخاري: ٦٠١٧. ومسلم: ١٠٣٠]. ونَهى رسولُنا ﷺ عن إيذاء الجارِ، فقال: «مَنْ كان يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَهُ» [البخاري: ٦٠١٨. ومسلم: ٤٧. عن أبي هريرة].

وفي الحديث الآخر عن أبي شريحٍ العَدَوِيِّ؛ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ جارَه» [البخاري: ٦٠١٩. ومسلم: ٤٨].

٥- توصيةُ اللهِ بالإحسان إلى الصاحب بالجنبِ وابنِ السبيلِ وما ملكت أيماننا:

وجاءَ في ختامِ هذه الوصايا الصادرةِ عن الله التوصيةُ بـ ﴿الصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣٦]. والصاحبُ بالجنبِ رفيقُكَ الذي يصاحِبُكَ، ويكون إلى جنبك، ويدخلُ فيه رفيقُ السَّفر، والمنقطعُ إليك الذي يلازمك رَجاءَ نفعك، ومثله صاحبك الذي يصاحبك في الوظيفة. والسبيلُ الطريقُ، وابنُ السبيلِ: المسافرُ الذي يجتاز بك، وإن كان في الأصل غنيّاً، فلَهُ عليك حقُّ الضيافةِ، وأنْ تمدَّهُ بشيء من المال إن ذهب مالُهُ. وما ملكتْ أيماننا هم الذين وصانا بهم ربُّنا من العبيدِ والإماءِ، فهؤلاءُ قوتُهُمْ على مالكهم، فيجبُ

وتوحيدُ الله بعبادتِهِ وإخلاصِ الدين له أعظم ما أمَرَ اللهُ به، والشركُ بالله أعظمُ ما نهى عنه، ففي الصحيحين عن ابن مسعود، قال: سألت رسولَ الله ﷺ : أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قال: «أنْ تَجْعَلَ لله نِدّاً وهُوَ خَلَقَكَ» [البخاري: ٤٤٧٧. مسلم: ٨٦].

وقد سألَ الرسولُ ﷺ معاذَ بن جبلٍ، وكان رديفَ رسولِ الله ﷺ على حمار يُدْعى عُفَيْراً فقال: «يا مُعاذُ، أتَدْرِي ما حقُّ الله على عِبادِه، وما حَقُّ العبادِ على الله؟» فقال معاذٌ: اللهُ ورسولُهُ أعلم، قال: «فإنَّ حَقَّ العبادِ على الله أنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكوا بِهِ شيئاً، وحَقُّ العِبادِ على الله أنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً» [البخاري: ٢٨٥٦. ومسلم: ٣٠].

واللهُ خلقَ الخلقَ لعبادتِهِ وحدَه لا شريك له، وأرسلَ بذلك جميعَ رسلِهِ وأنبيائه، وأنزل ذلك في جميع كتبه، ومدارُ جميع كتبِ الله على الأمر بعبادَةِ الله وتوحيدِهِ، ومَنْ جاء يومَ القيامة مخلصاً دينَه لله دخل الجنةَ، ومن جاء مشركاً بالله دخل النَّار، والله تعالى لا يغفرُ أن يشركَ به، ويغفر سبحانه ما دون ذلك إن شاء. واللهُ وحده المستحقُّ للعبادةِ، فهو الخالق الرازق المنعم المتفضل سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

٢- الأمرُ بالإحسان للوالدين:

بعد أن أمر الله بعبادتِهِ وحده لا شريك له، ثنَّى بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، فهما السبب الذي أخرجنا اللهُ به مِنَ العدم إلى الوجودِ، وكثيراً ما يَقْرِنُ اللهُ سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] وقال: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣].

٣- الأمرُ بالإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين:

أمَرَ اللهُ -تعالى- بالإحسان إلى الوالدين، ثم أمَرَ بالإحسانِ إلى ذوي القربى، كالإخوةِ والأعمامِ والأخوالِ ونحوهم، وأمر بالإحسانِ إلى اليتامى، وهم الذين ماتَ آباؤُهم وهم صغارٌ، فأصبحوا في غايةِ الحاجةِ مع فَقْدِ العائلِ، وأمر بالإحسانِ إلى المساكين، وهم الذين ليس لهم دَخْلٌ، أو لهم دَخْلٌ لا يكفي حاجاتهم ومتطلباتهم، قال تعالى: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

٤- الوصية بالجار:

أوْصَى اللهُ -تعالى- بمن سبقَ ذكرهم، ثم أوصى بالجار، فقال: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء:٣٦].

وأمْرُ الله بالإحسانِ إلى الجارِ لا فرقَ فيه بين الجار الذي هو من ذوي القربى، والجار الذي ليس من ذوي القربى، سواءً أكان مسلماً أو كافراً، ولم تحدِّدِ الشريعةُ ولا اللغةُ حدّاً لمن يدخل في الجوارِ، فمرجع ذلك إلى العرف، فما تعارف عليه النَّاس أنَّه جار، فهو داخل في الجوار، وما تعارفوا عليه أنَّه غير داخل في الجوار، فهو ليس بجارٍ.

والإحسانُ إلى الجار يكون بكفِّ الأذى عنه، ومشاركتِه أفراحَهُ وأتراحَهُ، والإهداء إليه، وكلَّما كان الجارُ أقربَ إليك كان أحقَّ بإحسانك، ففي الحديث عن عائشة قالت: يا رسول الله، إنَّ لي جارين، فإلى أيها أُهدي؟ قال: «إلى أقْرَبِها مِنْكِ باباً» [البخاري: ٢٢٥٩].

وقد أكثر جبريلُ عليه السلام مِنَ التوصيةِ بالجارِ، حتى ظَنَّ رسولنا ﷺ أنَّه سيجعلُ له نصيباً في الميراث، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «ما زالَ جِبْرِيلُ يُوصِيني بالجارِ، حتَّى ظَنَنْتُ أنَّهُ سيُورِّثُه» [البخاري: ٦٠١٤. ومسلم: ٢٦٢٤].

وقد رغَّبَ رسولنا ﷺ النساءَ المسلماتِ بالإهداء إلى جاراتهن، ولو كان بالقليلِ مِنَ الطعام، فعن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقول: «يا نساءَ المُسْلِماتِ، لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لِجارَتِها ولوْ فِرْسِنَ شاةٍ» [البخاري: ٦٠١٧. ومسلم: ١٠٣٠]. ونَهى رسولُنا ﷺ عن إيذاء الجارِ، فقال: «مَنْ كان يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَهُ» [البخاري: ٦٠١٨. ومسلم: ٤٧. عن أبي هريرة].

وفي الحديث الآخر عن أبي شريحٍ العَدَوِيِّ؛ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ جارَه» [البخاري: ٦٠١٩. ومسلم: ٤٨].

٥- توصيةُ الله بالإحسان إلى الصاحب بالجنبِ وابنِ السبيلِ وما ملكت أيماننا:

وجاءَ في ختامِ هذه الوصايا الصادرةِ عن الله التوصيةُ بـ ﴿ٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣٦]. والصاحبُ بالجنبِ رفيقُكَ الذي يصاحِبُكَ، ويكون إلى جنبك، ويدخلُ فيه رفيقُ السَّفر، والمنقطعُ إليك الذي يلازمك رَجاءَ نفعك، ومثله صاحبك الذي يصاحبك في الوظيفة. والسبيلُ الطريقُ، وابنُ السبيلِ: المسافرُ الذي يجتاز بك، وإن كان في الأصل غنيّاً، فلَهُ عليك حقُّ الضيافةِ، وأنْ تمدَّهُ بشيء من المال إن ذهب مالُهُ. وما ملكتْ أيماننا هم الذين وصانا بهم ربُّنا من العبيدِ والإماءِ، فهؤلاءُ قوتُهُمْ على مالكهم، فيجبُ

عليه أن يرعاهم ويحسنَ إليهم، وقد قالَ الرسولُ ﷺ في هؤلاء لأبي ذرٍّ: «إخْوانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمْ اللهُ تحتَ أيْدِيكُمْ، فمَنْ كانَ أخُوه تَحْتَ يَدِهِ، فلْيُطْعِمْه مما يأكُلُ، ولْيُلْبِسْهُ مما يَلْبَسُ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فإنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فأعينُوهُمْ» [البخاري: ٣٠. ومسلم: ١٦٦١].

وعن خيثمة قال: كنا جلوساً مع عبدالله بنِ عمرٍو، إذ جاء قهرمانٌ له، فدخل، فقال له: أعطيتَ الرقيقَ قوتَهم؟ قال: لا، قال: فانطلِقْ فأعطِهم، قال: قال رسول الله ﷺ : «كَفَى بالمَرْءِ إثْماً أن يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قوتَهُ» [مسلم: ٩٩٦].

وروى مُسْلِمٌ أيضاً عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «للمَمْلوكِ طَعامُه وكِسْوتُه، ولا يُكَلَّفُ مِنَ العَمَلِ إلاَّ ما يُطيقُ» [مسلم: ١٦٦٢].

٦- عدم محبَّة الله للمختال الفخور:

ختم اللهُ الآيةَ السابقةَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦] والمختال: الصَّلِفُ التيَّاهُ الجهولُ، ذو الخيلاء في مشيته وقوله، والفخور: المتكبِّرُ.

فاللهُ -تبارك وتعالى- يبغضُ مَنْ اتَّصف بهاتين الصفتين اللتين تفرزانِ العُجْبَ والزَّهْوَ، وتعوقان مَنْ اتصف بهما عن عبادةِ الله والإحسانِ إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين، قال عبدالله بنُ واقد أبو رجاء الهرويُّ: «لا تَجِدُ سيئَ المَلَكَةِ إلا وجدْتَه مختالاً فخوراً، وتلا: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦] ولا عاقّاً إلا وجدْتَه جبَّاراً شَقيّاً، وتلا: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم:٣٢]» [تفسير الطبري: ٣/ ٢٣١٩].

٧- ذمَّ اللهُ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل:

ذمَّ اللهُ - عزَّ وجلَّ - البخلاءَ الذين يأمرون الناسَ بالبخل، وتهدَّدهم وتوعَّدهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء:٣٧].

والبخلاءُ الذين ذمَّهم اللهُ -تعالى- في هذه الآية هم الذين يمتنعون مِنْ إنفاقِ ما آتاهم اللهُ مِنَ المالِ على مَنْ أمرهم بالإنفاق عليه كالوالدين وذوي القربى والجيران، والصاحبِ بالجنب وابنِ السبيلِ وما ملكت أيمانهم، وهم في ذلك يكتمون المال، الذي آتاهم اللهُ مِنْ فضله، والمرادُ به الرزق والمالُ الذي أعطاهم الله إياه، وهم لا يكتفون بأنْ يَبْخَلُوا بأموالِهِمْ، ولكنهم يسعون إلى تبخيل غيرهم، فيقصدون مُنْفِقي المالِ الذين أَمَرهم اللهُ بالإنفاقِ، فيأمرونهم بالبخلِ، وتركِ الإنفاق في تلك المجالاتِ، فيزدادُ غضبُ الله عليهم وعقابه لهم.

وقد حذَّرنا رسولُنا ﷺ من الشُّحِّ وهو البخلُ، فقال: «إيَّاكُمْ والشُّحَّ، فإنَّه أهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، أمَرَهُمْ بالقَطيعَةِ، فقَطَعُوا، وأمَرَهُمْ بالفُجورِ ففَجَرُوا» [أورده ابنُ كثير: (٢/ ٢٧١) وقال فيه محققه: صحيحٌ، وعزاه لأحمد، وابن حبان والحاكم].

وختم الحقُّ -سبحانه- الآية بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء:٣٧]. والمرادُ بـ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أعْدَدْنا وأحْضَرْنا للكافرين الذين يسترون نعمة الله عليهم، ويكتمونها ويجحدونها عذاباً مهيناً، أي: يذلُّهم ويقهرهم يومَ القيامة، جزاء كبرهم واستعلائهم على عبادِ الله.

٨- ذمَّ اللهُ الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس:

ذمَّ اللهُ فيما مضى الذين يبخلون بأموالهمْ ويأمرون النَّاس بالبخل، وذمَّ سبحانه في هذه الآية نوعاً آخر مِنَ النَّاس، وهم الذين ينفقون أموالهم رئاءَ الناسِ، ولا يؤمنون بالله واليومِ الآخرِ، وهؤلاء قد استجابوا لوساوس القرين الشيطاني، فقد جعلوه وليّاً من دون الله، وبئس القرين الذي استجابوا له ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ [النساء:٣٨].

وكلُّ المنفقين من الكفار يدخلون في هذا الصنف من الناس، فحاتمٌ الطائيّ الجوادُ المشهور في الجاهلية كان من هذا الصنف، ومنهم الجواد المشهور في الجاهلية عبدُالله بن جدعان، كان باذلاً لماله منفقاً له، وقد سألت عائشة رضي الله عنها وعن أبيها الرسولَ ﷺ عن إنفاقه، فقالت: «يا رسولَ الله، ابنُ جدعانَ، كان في الجاهليةِ يصلُ الرحمَ، ويطعمُ المسكين، فهل ذاك نافعه؟» قال: «لا يَنْفَعُهُ، إنَّه لم يَقُلْ يوماً: ربِّ اغْفِرْ لي خَطيئَتي يومَ الدين» [مسلم: ٢١٤]. ومثل هؤلاء المنافقون الذين كانوا ينفقون مِنْ أموالهم في عهد الرسول ﷺ والعصور التالية له، ومثلهم الكفار الذين يجودون بأموالهم اليوم، فشَرْطُ قبولِ الله الإنفاق أن يكون المنفقُ مؤمناً، وأن يبتغي بإنْفاقِهِ وجه الله. أما المؤمن فإنَّه إذا أنفق مالَهُ يريدُ به الرياءَ والسمعةَ فإنَّ الله لا يَقْبَلُ إنْفاقَهُ، وإنفاقه موزور غير مأجور، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن أحد الثلاثة الذين يقضى عليهم يوم القيامة «رَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عليهِ، وأعْطاهُ من أصْنافِ المالِ كلِّه، فأُتِيَ به، فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فعَرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تَرَكْتُ من سبيلٍ يُحبُّ أنْ يُنْفَق فيها إلاَّ أنْفَقْتُ فيها لَكَ. قال: كَذَبْتَ، ولكنكَ فَعَلْتَ ليُقال: هو جوادٌ، فقد قيلَ، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وَجْهِهِ، ثم أُلْقِيَ في النَّار» [مسلم: ١٩٠٥].

٩- ترغيبُ الله في الإيمان والإنفاق:

رغَّب اللهُ الكفرة الذين يبخلون ويأمرون الناسَ بالبخلِ، والذين ينفقون أموالهم رئاء النَّاس، رَغَّبهم بالإيمان بالله واليومِ الآخرِ، وإنفاقِ المالِ الذي رزقهم اللهُ إياهُ في المجالات التي يحبّها الله، وأخبر اللهُ عبادَه بأنَّه عليمٌ بهم، وسيجازيهم وفق علمه ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [النساء:٣٩].

١٠- إنَّ اللهَ لا يظلم مثقالَ ذرَّةٍ:

أعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه لا يظلمُ أحداً مثقالَ ذرَّةٍ، وإذا عملَ الإنسانُ حسنةً فإنه يُضاعفها له أضعافاً كثيرة، ويؤْتِي عبادَه في يوم الدين مِنْ عنده أجراً عظيماً، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء:٤٠].

فنحن العبادُ خَلْقُ الله ومِلْكُهُ، ولله أن يتصرف فينا كما يشاءُ، وكما يريدُ، ولو تصرف فينا فأدخلنا النَّارَ لا يكون ظالماً، ولكنَّه سبحانه وتعالى حرّم الظلم على نفسه، ويجزينا بالسيئةِ سيئةً واحدةً، وأقلُّ ما يجزي به المؤمنين أن تكونَ الحسنةُ بعشرِ أمثالها إلى سبعين ضعفاً إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرةٍ.

وقد قرَّر هذه القاعدة في مواضع كثيرة فقال: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٧] وحكى مقالة لقمان في مخاطبته لابنه ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان:١٦]. وقال: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٠].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١ - أعظم ما أمرنا به ربُّنا عبادتُه وحدَه لا شريك له، وأعظمُ ما نهانا عنه الشركُ به.

٢ - عِظَمُ حقِّ الوالدين، فبعدَ الأمرِ بعبادةِ الله يُثنِّي ربُّنا بالأمر بالإحسان إلى الوالدين.

٣- أمَرنا ربُّنا تبارك وتعالى بالإحسانِ إلى ذوي قربانا وإلى اليتامى والمساكين والجارِ ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيماننا.

٤- من صفاتِ الله التي أثْبَتَها لنفسه الحبُّ والبغضُ، فهو لا يحبُّ من كان مختالاً فخوراً، ويحبُّ المؤمنين، ويحبُّ المجاهدين.

٥- ذمَّ اللهُ تبارك وتعالى المختالين الذين يفخرون على عبادِ الله تعالى، وهم مع ذلك بخلاءُ يأمْرون الناسَ بالبخل، ويكتمون الحقَّ الذي أنزله اللهُ إليهم، وهؤلاء هم اليهودُ، وقد أعدَّ الله لهم عذاباً مهيناً.

٦- ذمَّ اللهُ -تعالى- الذين ينفقون أموالَهم يطلبون حمدَ الناسِ، وهم كفَّار بالله وباليوم الآخر، وقد جعل اللهُ لهؤلاءِ الكفرةِ الشيطانَ ولياً مِنْ دون المؤمنين.

٧- رَغَّب اللهَ الكفرةَ والمنافقين بالإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق مما رزقهم اللهُ.

٨- اللهُ -تبارك وتعالى- يُوَفِّي الناسَ أجرهم يومَ القيامةِ، ولا يظلم الناسَ مثقالَ ذرةٍ، وهو يضاعفُ ما عملوه من حسنات.

النص الخامس عشر من سورة النساء

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه سيأتي في يوم القيامة من كلِّ أُمةٍ بشاهد يشهدُ عليها، وهو رَسُولُها الذي أرسله إليها في الدنيا، وسيأتي بمحمدٍ ﷺ شاهداً على هذه الأمة في ذلك اليوم. وأخبرنا -سبحانه وتعالى- أنه يتمنى الذين كفروا عندما يُؤْتَى بالرسول شاهداً عليهم أن يُدَمَّروا، ويُهْلكوا، وعَبَّرَ عن ذلك بقوله: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ وبيَّن أنهم لا يستطيعون كتمانَ الله كفرهم وضلالهم.

وبيَّن الله تعالى حالتين لا يجوز فيهما للمسلم أن يقرب الصلاة فيهما، وهما حالة السكر وحالة الجنابة، وبيَّن الحالات التي يُشْرَعُ فيها التيممُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء:٤١-٤٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حال الكفارِ عندما يُؤْتَى بالشهداءِ يومَ القيامةِ:

يخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الهولِ العظيم الذي يصيبُ الكافرين الذين عَصَوُا الرسولَ ﷺ عندما يأتي الله بالشهداءِ من الرسلِ والأنبياءِ، فيشهدون أنَّهم بلغوا أُمَمَهُمْ بما أرسلهم اللهُ به، فعند ذلك يتمنى الكفرة العصاة لو انشقَّت الأرضُ وابتلعتهم لما يرونَ من أهوالِ الموقفِ، وما يحلُّ بهم من الخزي والفضيحةِ، ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء:٤١-٤٢].

و(كيف) حرفُ استفهامٍ، ومعناه التوبيخُ، والمعنى: كيف يكونُ حالُ هؤلاءِ الكفرةِ عندما نأْتي بالشهداء؟ والشهيدُ الذي يأْتي الله بِهِ مِنْ كلِّ أُمةٍ هو رسولها الذي أرسلَهُ اللهُ إليها، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر:٦٩]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾ [النحل:٨٩].

وعنى اللهُ بقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١] نبينا محمداً ﷺ، يأْتي به يومَ القيامةِ شهيداً على الذين كفروا به وعَصَوْه.

وقد بكى رسولنا ﷺ عندما قرأَ عليه عبدالله بن مسعود هذه الآية، ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: «اقْرأ عليَّ» قلتُ: يا رسولَ الله، أقْرَأُ عليكَ، وعليكَ أُنْزِل؟ قال: «نعم» فقرأتُ عليه سورةَ النساءِ، حتى إذا أتَيْتُ إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء:٤١] قال: «حَسْبُكَ الآنَ» فالتفت إليه، فإذا عيْناهُ تذْرِفان [البخاري: ٥٠٥٠. ومسلم: ٨٠٠. بدون لفظ حسبك].

وقوله: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [النساء:٤٢] أي: يموتون، ويصبحون تراباً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ:٤٠].

وقد أوْرَدَ بعض أهلِ العلم على ابن عباس إشكالاً فقالوا: أخبرنا اللهُ تعالى عن المشركين أنّهم يقولون في يوم القيامة: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام:٢٣] وأخبرنا ربنا أنَّ المشركين في يومِ القيامة ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء:٤١] فأخبره ابنُ عباسٍ أنَّه لا تعارضَ بينَ الآيتين، فالمشركون يوم القيامة لما رأوا أنَّ اللهَ يغفرُ لأهلِ الإسلام، ويغفر الذنوب، ولا يغفر شِرْكاً، ولا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره جحدوا، وادَّعَوْا أنَّهم ليسوا بمشركين، فختم اللهُ على أفواههم، وتكلمتْ أيديهم وأرجلهم، فلا يكتمون الله حديثاً. [تفسير الطبري: ٣/ ٢٣٢٩].

٢- لا يجوز للمصلي أن يقرب الصلاة وهو سكران:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- الذي أسْكَرَهُ شربُه الخمرَ حتى لا يدري ما يقولُ عن قربانِ الصلاةِ إذا كان قد سَكِرَ، حتى يفيقَ من سكره، وقد كان الخمرُ مباحاً في أوّلِ الأمرِ، ثم تدرَّجَ الشارع في تحريمِهِ، وكان من مراتب التحريم أن منع الله من شربه عند الصلاة، فامتنعوا عن

شُرْبِهِ إلا بعد العشاءِ والفجرِ، لأنَّ السكر كان يزولُ قبل حلولِ الصلاةِ التاليةِ، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ ﴾ [النساء:٤٣].

وسببُ نزولِ هذه الآية كما روى علي بن أبي طالب قال: «صَنَعَ لنا عبدُالرحمنِ بن عوفٍ طعاماً، فدعانا وسقانا مِنَ الخمر، فأخذت الخمرُ مِنَّا، وحضرت الصلاةُ، فقَدَّمُوني، فقرأتُ: «قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون». قال: فأنزل الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾» [الترمذي: ٣٠٢٦، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح].

٣- لا يجوزُ للمسلمِ أن يصلّيَ وأن يمكث في المسجد وهو جنب:

نهى اللهُ تعالى المسلمَ أن يقربَ الصلاةَ وهو سكرانُ عندما كانَ السُّكْرُ مباحاً لما بيناه فيما سبق، ونهاه أيضاً عن قربان الصلاة وهو جنب، قال تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ [النساء:٤٣].

والجنابةُ: خروجُ المنيِّ متدفقاً بلَذَّةٍ، فإذا أصابتِ الجنابةُ رجلاً أو امرأةً فلا يجوزُ له أن يصلي، كما لا يجوز له أن يمكث في المسجدِ حتى يغتسلَ، ويجوزُ للجنب أنْ يمرَّ بالمسجدِ إذا كان عابرَ سبيلٍ، أيْ: يمرُّ به من غير جلوس فيه، وقد كان لبعضِ الصحابةِ بيوتٌ أبوابُها إلى المسجدِ، فكانوا يحتاجون أن يمُرُّوا بالمسجدِ وهم جنب، وقد أمرَ الرسولُ ﷺ بسدّ كلِّ الأبوابِ المُشْرَعَةِ إلى المسجد إلا بابَ أبي بكر، قالَ رسولُ الله ﷺ: «سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ في هذا المسجِدِ إلا خَوْخَةَ أبي بَكْرٍ» [البخاري: ٤٦٧].

ومِثْلُ الجنبِ الحائضُ والنفساءُ، فإنَّهم يجوزُ لهما المرورُ بالمسجد إذا أَمِنا تلْويثه، وقد صحَّ في صحيح مسلم عن عائشة أن رسولَ الله ﷺ قال لها: «ناوِليني الخُمْرةَ من المسجِدِ» قالت: إني حائضٌ، فقال: «إنَّ حَيْضَتَك ليستْ في يَدِكِ» [مسلم: ٢٩٨]. والأحاديثُ الدالةُ على تحريم مرورها مطلقاً غير صحيحة.

٤- الحالاتُ التي يجوزُ فيها التيممُ:

عدَّدَ ربُّ العزةِ الحالاتِ التي يشرعُ فيها التيممُ لمن يريدُ الصلاةَ إذا لم يجد ماءً أو لم يقدر على استعماله، وهي أربع حالات: الأولى: حالةُ المريضِ الذي لا يستطيع استعمالَ الماءِ. والثانيةُ: المسافرُ الذي فَقَدَ الماءَ. والثالثةُ: إذا أصابَ من يريدُ الصلاةَ حدثٌ أصغر ولم يجد ماءً، وسَبَبُهُ هو الغائط، وأصلُ الغائطِ المكانُ المنخفضُ من الأرض، كانوا يأتونه لقضاءِ حاجتهم، لأنه أسْتَرُ للمرءِ من غيره، فسُمِّي الخارجُ من المرء، وهو النَّجْوُ أو البولُ بالغائط.

والرابعةُ: ملامسةُ النساءِ لمن لم يجد ماءً، والصوابُ مِنَ القولِ: أنَّ المرادَ بملامسةِ النساءِ مجامَعَتُهُنَّ، لقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾ [الأحزاب:٤٩]، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ [النساء:٤٣] وروى عُرْوَةُ بن الزبير عن عائشة: «أن النبي ﷺ قَبَّلَ بعضَ نِسائِه، ثم خَرَجَ إلى الصَّلاةِ، ولم يَتوضَّأ» [صحيح سنن الترمذيّ: ٧٥ وهو في الترمذي: ٨٦، وضعَّفه] وقد ذهب بعضُ أهلِ العلمِ إلى أنَّ المرادَ بالملامسةِ في الآية الجَسُّ، والأوَّل هو الصحيح.

٥- كيفيةُ التيمم:

أمَرَنا ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- بالتيمم في الحالاتِ الأربعِ السابقةِ إذا لم نجدْ ماءً ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ [النساء:٤٣]. والتيمُّمُ في اللغة: القصدُ. وفي الاصطلاح: ضَرْبُ -من لم يجد الماءَ أو لم يمكنه استعماله- وَجْهَ الأرضِ بيدَيْهِ، ثم يمسح بهما وجهه وكفَّيْهِ، والمراد بالصعيد وجه الأرض، والتيمم من خصوصيات هذه الأمة، فقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أننا فُضِّلنا على الناس بثلاثٍ، وإحدى هذه الثلاث: «أنَّه جُعِلَتْ لنا تُرْبَةُ الأرْضِ طَهُوراً إذا لم نَجِد الماء» [مسلم: ٥٢٢].

وقد صلَّى رسولُ الله ﷺ في السَّفر، فلما انفتلَ من صلاته، إذا هو برجلٍ معتزلٍ لم يُصَلِّ مع القوم، قال: «ما مَنَعَكَ يا فُلانُ أنْ تُصَليَ مع القومِ؟ قال: أصابَتْني جنابةٌ ولا ماءَ، قال: عليكَ بالصَّعيدِ، فإنَّه يكفيكَ» [البخاري: ٣٤٤. ومسلم: ٦٨٢]. وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ «الصَّعيدِ الطَّيِّب طَهُورُ المسلمِ، وإنْ لم يَجِدْ الماءَ عَشْرَ حِجَجٍ، فإذا وجَدَه فلْيُمِسَّه بَشَرَتَه، فإنَّ ذلك خيرٌ» [عزاه ابن كثير: (٢/ ٢٨٨) إلى الترمذي، وقال الترمذي فيه: حسن صحيح].

وذكر ابنُ كثيرٍ [٢/ ٢٨٨] جملةً من الأحاديث تدلُّ على أنَّ المتيممَ يضربُ في تيممه ضربتين: ضربةٌ يمسحُ بها وَجْهَهُ، والأخرى يمسحُ بها يديه، وضَعَّفَ جميعَ هذه الأحاديث، ثم ذكر حديثَ البخاريِّ الذي عَلَّم فيه الرسول ﷺ عمارَ بن ياسر وعمرَ بنَ الخطاب، أنَّ التيممَ ضربةٌ واحدةٌ للوجه والكفين، ففي ذلك الحديث أنَّ الرسول ﷺ قال: «إنَّما يَكْفِيكَ هكَذا» فضَرَبَ النبيُّ ﷺ بكَفَّيْهِ الأرْضَ، ونَفَخَ فيهما، ثم مَسَحَ بهما وَجْهَه وكَفَّيه [البخاري: ٣٣٨. ومسلم: ٣٦٨].

وختم اللهُ -تبارك وتعالى- الآيةَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾ [النساء:٤٣] أي إنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- واسعُ العفوِ والمغفرةِ، ولسعة عفوه ومغفرته شرع لنا التيمم إذا لم نستطع استعمال الماء، أو لم نجده.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم أو عمل:

١ - في يوم القيامة يبعثُ اللهُ في كلِّ أمةٍ عليها شهيداً من أنفسها، وهو رسولُها الذي يشهدُ عليها أنَّه بَلَّغها ما أرسله اللهُ به، وأقام عليها الحجةَّ وسيأتي اللهُ برسولِهِ محمدٍ ﷺ شهيداً على هذه الأمة.

٢ - حالُ الكفارِ الذين عَصَوُا الرسولَ ﷺ في يومِ الدين حالٌ صعبةٌ، حتى يتمنوا في ذلكِ اليومِ أن يصبحوا تراباً، وهم في ذلك اليوم يبوحون بكلِّ جرائمهم.

٣ - حَرَّم اللهُ على المؤمنينَ عندما كانت الخمرُ مباحةً أن يصلُّوا وهم سكارى حتى يفيقوا من سُكْرهم.

٤ - حَرَّم اللهُ على مَنْ أصابته جنابةٌ أن يصليَ وهو جنبٌ حتى يغتسلَ.

٥ - لا يجوزُ للجنبِ والحائضِ والنفساءِ المكثُ في المسجدِ، ويجوز لهم المرور فيه.

٦ - إذا كان الإنسانُ لا يستطيع استعمالَ الماءِ لمرضِهِ، أو كان لا يجدُ الماءَ وهو يريدُ الصلاةَ وعليه حدثٌ أصغر أو أكبرُ فعليه أن يتيمم.

٧ - الراجحُ مِنْ القولِ أنَّ المرادَ بملامسةِ النساءِ في الآية الجماع، أمَّا الجسُّ باليد فلا ينقضُ الوضوءَ، لأنَّ الرسولَ ﷺ كان يُقَبِّلُ بعضَ نسائه، ويصلّي، ولا يتوضأ.

٨ - إذا لم يَجِدِ المرءُ الماءَ لغُسْله أو وضوئه، عليه أن يبحثَ عنه فيما حوله، لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ فالآيةُ تدلُّ على أنّه بَحَثَ فلم يَجِدْ.

٩ - دَلَّ القرآنُ على أنَّ المتيمم يضربُ الأرضَ، فيمسحُ بيديه وَجْهَهُ وكَفَّيه، ودَلَّ صحيحُ السنةِ أنَّ المتيمم يضرب الأرضَ بيده مرةً واحدةً، فيمسح وجهه وكفيه، فحَسْبَ.

النص القرآني السادس عشر من سورة النساء
﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾

أولاً: تقديم

يُعَرِّفنا ربُّنا في آياتِ هذا النصِّ بأعدائِنا من اليهودِ الضالِّين المضلِّينَ، واللهُ أعلم بأعدائنا، فعندما يُعَرِّفُنا بهم فإنَّه يكشف لنا حقيقتَهمْ وطبيعتَهُمْ بما لا مزيد عليه، وعندما نمعنُ النظر فيما حَدَّثنا به عن يهود، نجدُ شخصيةً ملتويةً منحرفةً رعناءَ، وقد وَصَلَ بهم البعدُ في الضلالِ إلى تحريفِ كلامِ الله، وكان كلامُ الله يصلُ إلى آذانهم، وتعزم قلوبهم على عصيانِهِ، وكانوا يقفون من رسولِ الله المرسلِ إليهم موقفاً سيئاً، يؤذونه بالقولِ والفعلِ، وقد وجَّهَ اللهُ توبيخاً شديداً قاسياً يليقُ بما يكنونه في قلوبهم وما تموج به صدورُهُمْ، فقد تهدَّدهم بالمسخِ واللعنِ والطردِ من رحمته، وهم يستحقُّونَ ذلك، فإنَّهم مشركون، ورحمة الله لا تقبل المشركين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾ [النساء:٤٤-٤٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أهل الكتاب ضالُّون مُضِلُّون:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ بعضَ أهل الكتاب ضالُّون في أنفسهم، مُضِلُّون غيرهم، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤)﴾ [النساء:٤٤].

ومطلعُ الآيةِ فيه سؤالٌ موجَّهٌ للرسولِ ﷺ لتعْجِيبِهِ من حالِ الذين أُوتوا نصيباً من الكتابِ، وهمُ اليهودُ والنصارى الذين لديهم التوراة والإنجيل وهما منزلان عليهم من ربِّهم،

وقوله: ﴿ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: حَظّاً منه، وهي البقيةُ الباقيةُ من الحقّ التي لم ينلها التحريفُ والتبديلُ، وكان مقتضى وجودِ هذا الحقّ في أيديهم، وفيه البشاراتُ بمحمدٍ ﷺ ودينِهِ وكتابِهِ وأُمتِهِ أن يسارعوا إلى الإيمان به، ولكنَّهم بَدَلَ ذلك اشْتَرَوُا الضلالةَ، والتعبير بقوله: ﴿يَشْتَرُونَ﴾ يدلُّ على الجهدِ والعناءِ الذي قاموا به في الكُفْرِ بالإسلام، ومقاومةِ هذا الدين، لتحصيل مغانم دنيوية تافهةٍ، وهم في ذلك لا يقتصرون على إضلالِ أنفسهم، ولكنَّهم يبذلون كل جهدهم في محاولتهم إضلال المسلمين، سواء بما يوردونه مِنْ شبهاتٍ، أو ما يبذلونه من كيدٍ ومؤامراتٍ.

وفي مواجهة هذا الكيد اليهوديِّ المتنامي على مدارِ التاريخ يعلمنا اللهُ أنّه أعْلَمُ بأعدائنا، ولذلك علينا أن نُقْبِلَ على كتابِ ربِّنا، ونتعرفَ عبرَ كلامِهِ على أعدائنا، ونلوذَ به، ونحتمي به، فكفى به وليّاً، وكفى به نصيراً وحامياً لهذه الأمة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء:٤٥] وفي هذا التوجيه الإلهي الرباني تحذير لهذه الأُمة أن تتخذ أعداءَها الذين عرفنا بهم أحبَّاءَ وأولياءَ.

٢- صورة الشخصية اليهودية المريضة الملتوية:

عرَّفنا ربُّنا بالشخصيةِ اليهوديةِ التي تعادينا، وهي شخصيةٌ ملتويةٌ مريضةٌ، تحاولُ أن تُلْبِس علينا ديننا، وتوقعَنا في العفَنِ والمصائبِ والإحنِ، وهي شخصيةٌ مخادعةٌ ذلقةُ اللسانِ، تعمل في تحريف الحقِّ، والانسلاخِ منه، وتبذلُ جهدَها في الإضلالِ وتعكيرِ الأجواءِ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء:٤٦].

إن هذه الآية ترسمُ صورةً واضحةَ المعالمِ للشخصية اليهوديةِ المريضةِ الضالَّةِ المضلَّة التي تَعْرِفُ الحقَّ وتتنكَّبُه، والتي تحاورُ الخصومَ بلسان ذَلِقٍ، والآية ترسمُ الشخصيةَ اليهوديةَ في حالِ ضلالها، ثم تدعو إلى الصورةِ المثلى التي ينبغي أن تكون عليها.

يخبرنا اللهُ ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ بعضاً من يهودٍ، يُحَرِّفون الكلِمَ عن مواضعه، وقد قامَ اليهودُ بكلِّ ألوانِ التحريفِ في التوراةِ، فزادُوا فيها، وأنقصوا منها، وجعلوا بعضاً منها على حَرْفٍ من الاحتمالِ يمكن حملهُ على وجهين، والكَلِمُ: جمع كَلِمَةٍ، والمراد به كلام الله في التوراةِ، بحذفِهِ أو الزيادةِ فيه، أو تغيير معناه وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾

[النساء:٤٦] أي: سمعنا قولَكَ، وعصينا أمْرَكَ. وهذا يدلُّ على شناعَةِ ما كان منهم، إذ هم يُعْرِضون عن كتابِ الله بعد ما عقلوه.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّهم يقولونَ ساخرين مستهزئين: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء:٤٦] أي: اسْمَعْ ما نقولُ، لا سمعت.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّهم يَلْوُونَ ألسنتهم بالكتاب قائلين: ﴿وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء:٤٦] ومعنى راعنا، أي: احفظنا، وانتبه إلينا، ولكنَّهم كانوا يميلون بهذه الكلمة ألسنَتَهُمْ، قاصدين بها الرُّعونةَ، سخريةً وتهكماً واستهزاءً بالرسولِ ﷺ و﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ وأصل الطعن الرمي بالرمح أو السَّهْمِ، ثم استعير لما يَرْمِي به اللسانُ.

وقد نهى اللهُ صحابةَ رسولِهِ ﷺ أنْ يقولوا هذه الكلمة، لإغلاقِ البابِ على اليهودِ أن ينْطِقُوا بها على وجه التهكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤].

ثمَّ بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- الصورةَ الصحيحةَ السويّةَ المرضيةَ التي كان يجبُ أنْ يكونوا عليها، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء:٤٦] فلو أنَّهم قالوا: سمعنا وأطعنا، بدلَ قولهم سمعنا وعصينا، وقالوا: واسمع وانظرنا بدل قولهم: واسمع غير مسمع وراعنا، لكان خيراً لهم وأقوم، ولكنَّ اللهَ لم يردْ بهم الخيرَ، ولعنهم بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً.

٣- أمَرَ اللهُ اليهودَ بالإيمان بما أنْزِلَ على رسوله محمد ﷺ وتَهَدَّدهم إن لم يفعلوا:

نادى اللهُ -تعالى- اليهودَ والنَّصارى وهم أهلُ الكتابِ، آمراً إيَّاهم بالإيمانِ بما أنزله على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ وهو القرآنُ، وهو مُصدِّقٌ للحقِّ الذي بقيَ بينَ أيدي اليهود والنصارى في التوراةِ والإنجيل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء:٤٧].

وقد تهدَّد اللهُ أهلَ الكتابِ إن هم استمرُّوا على تكذيبهم وكفرهم بأن يَطْمِسَ وجوهَهُمْ، وطَمْسُ الوجوهِ يكونُ بإزالةِ أسماعِهِمْ وأبصارهم وَرَدِّ الوجوهِ إلى الأدبار، كما تهدَّدَهُمْ بأن يفعلَ بهم فعله بأسلافهم الذين اعتدوا في السَّبت في مدينة أيْلَةَ، فمسخهم قِرَدَةً، ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف:١٦٦] قال اللهُ لهم في تهديدِهِمْ

في هذه الآية: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء:٤٧].

٤- إذا ماتَ المرءُ مشركاً فلن يغفرَ اللهُ لهُ، والذنوبُ غير الشركِ أمرها إلى الله:

ذهبتِ الخوارجُ وبعضُ الفِرَقِ الإسلامية إلى القولِ بكفرِ من ارتكب كبيرةً كالزنا والرِّبا وشرب الخمر، وحَكَموا بحلِّ دماءِ من ارتكبوا مثلَ هذه الكبائرِ، وزعم المعتزلةُ أنَّ مرتكبَ الكبيرة في الدنيا ليس بمؤمنٍ، ولا كافرٍ، ولكنه مُخَلَّدٌ في الآخرة في نار جهنَّم، وذهبَ أهلُ السنّةِ والجماعةِ إلى أنَّ الذنبَ الوحيدَ الذي لا يغفر اللهُ لصاحبه هو الشركُ الأكبرُ والكفرُ، أما الكبائر غير الشرك فأمرها إلى الله عزَّ وجلّ، فإنَّه إن شاءَ عذَّبَ أصحابها وإن شاءَ غفر لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨].

والشركُ أن يعتقدَ وجودَ آلهةٍ أُخرى تستحقُّ العبادةَ مع الله، كالذين يعبدون الشمسَ والقمرَ والنجومَ، أو يعبدون معه الأصنامَ والأوثانَ، أو يعبدون القبورَ من دونِ الله، أو الذين عَبَدُوا عيسى أو العزيرَ، كلُّ هؤلاءِ ضالُّون مشركون، فالعبادة لله وحده، لا يستحقُّها أحدٌ من دونِ الله، وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ تدلُّ على أنَّ مصيرَ مَنْ ماتَ على التوحيدِ الجنَّة، وإن لم يتب من الكبائر التي ارتكبها، فمن ذلك:

١- ما رواه أبو ذرٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ قالَ: لا إله إلا اللهُ، ثمَّ ماتَ على ذلك إلاَّ دَخَل الجنَّة» قال أبو ذرٍ: وإنْ زنى وإنْ سَرَق؟ قال: «وإنْ زَنَى وإنْ سَرَقَ» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإنْ زَنَى وإنْ سَرَقَ»، قلت: وإن زنى وإنْ سَرَق؟ قال: «وإن زَنَى وإنْ سَرَقَ على رغم أنْفِ أبي ذرٍّ» [البخاري: ٥٨٢٧. ومسلم: ٩٤].

٢- وعن أبي ذرٍّ أيضاً قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: أتاني جبريلُ، فقال: «من ماتَ من أُمتِك لا يُشْرِكُ بالله شيئاً دَخَلَ الجَنَّةَ» [البخاري: ٢٣٨٨. مسلم: ٩٤].

٣- وفي رواية عن أبي ذَرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «ذلك جبريلُ عليه السلام عَرَضَ لي في جانِبِ الحَرَّة، قال: بَشِّر أُمَّتَكَ أنَّهُ من ماتَ لا يُشركُ بالله شيئاً دَخَلَ الجنَّةَ. قلتُ: يا جبريل، وإنْ سَرَقَ، وإن زَنَى؟ قال: نعم. قال: قلتُ: وإنْ سَرَقَ وإن زنَى؟ قال: نعم، وإن شرب الخمر» [البخاري: ٦٤٤٣. ومسلم: ٩٤].

٤- وعن جابرِ بن عبدالله، قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، فقال: يا رسولَ الله، ما الموجبتان؟ قال: «من ماتَ لا يُشْرِكُ بالله شيئاً دَخَلَ الجنَّةَ، ومن ماتَ يُشْرِكُ بالله شيئاً دَخَلَ النار» [مسلم: ٩٣].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل:

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - أهلُ الكتابِ مِنَ اليهود والنصارى الذين كفروا برسولنا ﷺ ضالُّون مضلٌّون.

٢ - الله -تبارك وتعالى- عالم بأعدائِنا لا يخفى عليه منهم شيء، وقد عرَّفنا بهم.

٣- علينا أن نتعرف إلى أعدائنا من خلال ما عرَّفنا به ربُّنا، ونحذرهم أشدَّ الحذرِ.

٤ - اللهُ -عزَّ وجلَّ- هو وَلِيُّنا وناصرنا، فإليه نتوجَّهُ، وبه نستنصرُ.

٥ - عمل اليهودُ على تحريفِ التوراةِ، فزادوا فيها، ونقصوا منها.

٦ - اليهودُ خبثاءُ يتلاعبون بالألفاظِ في مخاطبتهم للرسولِ ﷺ والمؤمنين، ويخاطبون الرسولَ ﷺ والمؤمنين بما لا يليقُ بهم.

٧-دعا اللهُ اليهودَ للاستقامةِ على أمْرِ الله تعالى وإحسانِ القولِ والعملِ.

٨- لَعَنَ اللهُ -تبارك وتعالى- اليهودَ، فأظلمتْ قلوبُهم، فلا يؤمنُ منهم إلا القليل، ومن أحصى عَدَدَ المؤمنين من اليهود علم صحة هذا الذي أخبرنا الله به عنهم.

٩- تهدَّد الله اليهودَ وتوعَّدهم إن لم يؤمنوا بالكتاب الذي أنزله على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ ، وهو القرآنُ أن يفعلَ بهم الأفاعيل، كأن يطمس وجوههم، ويردَّها على أدبارها، أو يمسخهم قردةً، كما مسخ الذين اعتدوا منهم في السبت.

١٠ - الذي يموتُ مشركاً خالدٌ في نارِ جهنَّم، وجرمه غير قابلٍ للغفران.

١١ - الكبائر غيرُ الشركِ إن تاب منها صاحبها توبةً صادقةً، غفر له ذنبه، فإن مات غير تائب منها فأمره إلى الله تعالى إنْ شاءَ غفر له، وإن شاءَ عذَّبه.

١٢ - نصوصُ الوعيدِ الواردةُ على الذنوبِ كُلُّها تُحْكَمُ بهذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

١٣ - الشركُ بالله تعالى أعظمُ الذنوبِ، وهو كذبٌ وافتراء عظيم على ربِّ العزة.

النص القرآني السابع عشر من سورة النساء

تعريف الله لنا بأعدائنا من اليهود

أولاً: تقديم

هذه الآياتُ الكريمةُ تزيدُ في وضوحِ الصورةِ التي رَسَمَتْها الآياتُ السابقةُ لليهودِ، حتى إنَّنا عندما نُمْعِنُ النَّظَرَ والتدبُّرَ في الآياتِ نراهم رؤْيةً واضحةً جليَّةً، نراهم وهم يمتدحون أنْفُسَهُمْ، ويزكُّون مسارهم، نراهم وهم يفترون على الله الكذب، فيرجعونَ آثمين مأزورين، نراهم وقد انشغلوا بالسِّحْرِ، وذلَّلوا أنفسهم للطواغيت، نراهم وهم يميلون مع أهلِ الشركِ والكفرِ حاكمينِ عليهم بأنَّهم أهدى مِنَ الذين آمنوا سبيلاً، نراهم وقد غَرِقوا بالكفر والشركِ فحلَّتْ بهم لعنةُ الله تعالى، فأُغْلِقَتْ عليهم منافذُ الخَلاصِ.

وتمضي الآياتُ تكشف لنا خبثهم، فهم بخلاءُ لا يُؤْتُونَ الناسَ نقيراً، حسدةٌ يحسدونَ الناس على ما آتاهم اللهُ منْ فضله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [النساء:٤٩-٥٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النصِّ من القرآن

١ – ذَمَّ اللهُ اليهودَ الذين يُزكُّون أنْفُسَهُمْ:

عَجَّبَ اللهُ رسولَهُ ﷺ مِنْ حالِ اليهودِ الذين يُزَكُّون أنْفُسَهُمْ، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ ﴾ [النساء:٤٩] والذين يزكُّونَ أنفسهم هم الذين يَمْدَحونها، ويثنون عليها، وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى كيف زَكَّى اليهودُ أنْفُسَهُمْ في مواضعَ منْ كتابه، فأخبرنا أنهم قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ ﴾ [المائدة:١٨]. وقالوا: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ ﴾

[البقرة:٨٠]. وقالوا: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة:١١١]. وقد نهى اللهُ تعالى عن تزكية المرءِ نفسه فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم:٣٢]. وكما نهى ربُّنا الناسَ عن تزكية أنفسهم، فإن رسولنا ﷺ نهى الواحِدَ منا أنْ يزكي غيره، فعن أبي موسى الأشعري قالَ: سَمِعَ النبيُّ رَجُلاً يُثْني على رَجُلٍ ويُطْرِيه في المِدْحَةِ، فقال: «أهْلَكْتُمْ، أو قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ» [البخاري: ٦٠٦٠. ومسلم: ٣٠٠١].

وعن أبي بَكْرَةَ أنَّ رَجُلاً ذُكِرَ عند النبيِّ ﷺ، فأثنى عليه رجلٌ خيراً، فقال النبي ﷺ: «وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِكَ -يقوله مراراً- إنْ كان أحَدُكُمْ مادِحاً لا مَحالَةَ، فلْيَقُلْ: أحْسِبُ كذا وكذا، إنْ كان يَرَى أنَّه كَذلِكَ، وحَسِيبُهُ الله، ولا يُزكِّي على الله أحَداً» [البخاري: ٦٠٦١. ومسلم: ٣٠٠٠].

وعن همَّام بنِ الحارثِ أنَّ رَجلاً جَعَلَ يَمْدَحُ عُثمانَ، فعمد المقدادُ فجثا على ركبتيه، وكان رجلاً ضخماً، فجعلَ يحثو في وَجْهِهِ الحصباءَ، فقاله له عثمانُ: ما شأْنك؟ فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إذا رَأَيْتُمُ المدَّاحينَ، فاحْثُوا في وُجُوهِهِمُ التُّرابَ» [مسلم: ٣٠٠٢].

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٩] أخْبرَ اللهُ -سبحانه- أنَّ التزكيةَ إليه سبحانه، لأنَّه العالمُ بحقائقِ الأمورِ وغوامِضِها، وختمَ الحقُّ -سبحانه- الآية بقوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ [النساء:٤٩] وهنا محذوف تقديره: فيَجْزِي اللهُ العبادَ بأعمالهم، ومعنى ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ أي: لا ينقصون من أعمالهم شيئاً، والمرادُ بالفتيلِ أقلّ الأشياءِ وأصغرُها، والفتيلُ: ما تفتله بين أصابعك مِنَ الوسخ، وقيل: هو ما كان في باطنِ النواةِ من لحائِها، وقيل: هو ما كان في ظَهْرِها، وهو الذي تنبت منه النخلة [معاني القرآن، للزجاج: ٢/ ٦٠].

٢- ترك اليهود الاشتغالَ بالكتابِ المنزلِ من عند الله واشتغالهم بالجبت والطاغوت:

أمَرَ اللهُ رسولَه محمداً ﷺ أنْ ينظرَ ويتأمَّلَ في كيفية افتراءِ اليهودِ على الله الكذبَ في ما ادَّعوه وزعموه من دعاوى ومزاعم زكُّوا بها أنفسهم، ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [النساء:٥٠] وقوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ٥٠﴾ [النساء:٥٠] أي: وكفى بصنيعهم هذا إثماً بيِّناً واضحاً.

وقد عجَّب اللهُ رسولَه ﷺ مَرَّةً أُخرى مِنْ حالِ هؤلاءِ اليهودِ الذين تركوا الهدى الذي أُنزِلَ إليهم مِنْ عِنْد الله، وصاروا إلى الإيمان بالجِبْتِ والطاغوتِ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٥١] والذين يؤمنون بالجبتِ

والطاغوتِ اليهودُ، والجبتُ: السِّحرُ، الذي يُعَبِّدون به أنفسهم للشيطانِ، والطاغوتُ: كلُّ مَنْ تجاوزَ حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ، فيدخلُ فيه الشيطانُ والكهانُ والأوثانُ والأصنامُ وأئمة الضلال كفرعون ونمرود وأبي جهل ونحوهم.

٣- دعوى اليهود أن كفار قريش أهدى من الذين آمنوا سبيلاً:

ومن جرائم اليهود التي ذمَّهم اللهُ بها أنهم كانوا يكذبون ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء:٥١] وعنى بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كفارَ قريش، وقوله: ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: مِنَ الرسولِ ﷺ وأصحابه.

وأورد الطبريُّ عن ابن عباس، قال: «لما قَدِمَ كعبُ بنُ الأشرف مكةَ، قالت له قريش: أنت حَبْرُ أهْلِ المدينةِ وسَيِّدُهُم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى هذا الصُّنْبور المُنْبَتِرَ من قومِه، يزعم أنَّه خيرٌ منَّا ونحن أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير منه، فأُنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر:٣] وأنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية» [تفسير الطبري: ٣/ ٢٣٧٥].

٤- لعن اللهُ اليهودَ الكفرة:

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّ اليهودَ الذين يؤمنون بالجبت والطاغوتِ ويفضِّلون عبَّادَ الأصنامِ على المؤمنين الأطهارِ ملعونين عند الله، ومَنْ يلعنِ اللهُ فإنه يطرده من رحمته، فلن تجد له ناصراً ينصره، ولا حامٍ يحميه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء:٥٢].

وهذه الآية تذمُّ اليهودَ أيَّما ذمٍّ بسبب موالاتِهم للمشركين، واستنصارهم بهم، وتزكيتهم لهم، ومحالفتهم لهم في القتالِ في غزوةِ الخندقِ، فردَّ اللهُ المشركين واليهودَ بغيظهم لم ينالوا خيراً.

٥- بُخْلُ اليهودِ وحسدُهُمْ للناس:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ فيهم صفتان قبيحتانِ: البخلُ والحسدُ، ولذلك قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [النساء:٥٣] وهذا استفهام إنكاريٌّ، أيْ ولو كان لهم حظٌّ مِنَ الملك لما أعْطَوُا النَّاسَ شيئاً مما يملكونه، حتى لو كان ﴿نَقِيرًا﴾، والنقيرُ: أقلُّ الأشياءِ، وقد فَسَّرَها ابن عباسٍ بالنقطة التي تكون في ظَهْرِ النواةِ [تفسير الطبري: ٣/ ٢٣٧٨] ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ﴾ [النساء:٥٤] والحَسَدُ مرضٌ نفسيٌّ

خبيثٌ يضيرُ صاحبه، فإنَّ الحاسد لا يرضى بما أنعم اللهُ عليه مِنْ فضله، ولا يلجأُ إلى الله طالباً منه أن يوسِّع عليه، وكلُّ ما يهمُّهُ تلك النعم التي أنعمَ اللهُ بها على الآخرين، فإنَّه يريد أنْ تصيرَ إليه وتزولَ عن الآخرين، فقد حَسدوا رسولَنا ﷺ على ما آتاه اللهُ مِنَ النُّبوةِ والرسالةِ، والكتابِ المنزل عليه، وحَسَدُوا الأُمَّة الإسلامية على ما أنعم اللهُ عليها من فضله، ومما تفضَّل اللهُ به فيما مضى على عبادِهِ ما آتاه اللهُ آلَ إبراهيمَ ﷺ، فقد جَعَلَ اللهُ في ذريته الكتابَ والحكمةَ، وآتاهم ملكاً عظيماً، ومن ذلك ما آتاه اللهُ موسى وعيسى مِنَ الكتاب وما آتاه داودَ وسليمانَ مِنَ الملك ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء:٥٤] وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ طائفةً من بني إسرائيلَ آمنوا بالكتابِ والحكمةِ التي أنزلت على أنبياءِ بني إسرائيل، ومنهم مَنْ رفضها، وحارب من رضي بها، وهؤلاءِ الرافضونَ الصادُّون هم من بني إسرائيلَ، ولذا فإنَّهم قد حسدوا قَوْمَهُمْ وبني جنسهم، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء:٥٥] وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ اللهَ سيحاسبهم، ويجازيهم على ما قاموا به يومَ القيامة، وكفى بالكافرين منهم أنْ يدخلهم النارَ وبئس القرارُ.

و﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم لنار الله الموقدة. و﴿سَعِيرًا﴾ أي: ناراً اشتدَّ حرّها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- انحرفَ بنو إسرائيل عن الطريقِ الذي كان عليه الصالحون من آبائهم، ومع ذلك فإنَّهم يدَّعون الفضائلَ التي كانت في آبائهم، ويزكُّونَ أنفسهم، ويمدحونها بما ليس فيها.

٢- تزكيةُ الله -تبارك وتعالى- لعباده هي التزكيةُ المقبولةُ السديدةُ، فقد زكَّى اللهُ رسلَه وأنبياءَه، وزكَّى صحابَةَ رسولِهِ ﷺ.

٣- سيجزي ربُّ العبادِ العبادَ بأعمالهم، وبخاصةِ الذين زكُّوا أنفسهم، ولا يظلمون فتيلاً.

٤- الذين يُزَكُّونَ أَنْفُسهم من اليهودِ كاذبون، افتروا على الله الكذب.

٥- الذين يفخرونَ مِنْ هذه الأمة بما كان عليه الرعيلُ الأول من غيرِ أن يعملوا بمثل عملهم حالهم حالُ اليهود.

٦- ذمَّ اللهُ اليهودَ الذين في أيديهم شيءٌ من الكتاب، لاشتغالهم بالسِّحر، وانقيادهم للطواغيتِ، وكذَّبهم في دعواهم أنَّ كفارَ قريش أهْدى من الذين آمنوا سبيلاً.

٧- لعنَ اللهُ اليهودَ فأعمى قلوبَهُمْ، فلا يدخلُ الإسلامَ منهم إلا القليل.

٨- اليهودُ بخلاءُ، فلا يجودون على غيرهم بشيءٍ مهما كان قليلاً.

٩- اليهودُ ذوو حسد، يحسدونَ الناس على ما آتاهم اللهُ من فضله، ومن ذلك حَسَدُهم لرسولنا ﷺ وأُمتنا، ومِنْ حسدهم أنْ يمني بعضُهم بعضاً بما أنعم اللهُ على بعض، فقد جَعَلَ اللهُ في ذريةِ إبراهيم الكتاب والحكمة وآتى بعضهم ملكاً عظيماً.

١٠- كان اليهودُ قديماً يحسدُ بعضُهم بعضاً على ما آتاهم اللهُ من فضله.

النص القرآني الثامن عشر من سورة النساء

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾

أولاً: تقديم

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ أنَّ مصيرَ الكفَّارِ في يوم القيامةِ النَّارُ، ومصيرَ المؤمنين الجنَّةُ، وأمر اللهُ المؤمنين وفي مقدمتهم الحكامُ أن يؤدوا الأماناتِ إلى أهلها، وإذا حكمنا بينَ الناس أن نحكم بالعدلِ، وأمرنا بطاعةِ الله وطاعةِ رسوله ﷺ ، كما أمرنا بطاعة أولي الأمر إذا أطاعوا اللهَ ورسولَه، فإنْ تنازعنا في شيءٍ فعلينا أنْ نردَّ المتنازعَ فيه إلى الله ورسولِه ﷺ .

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء:٥٦-٥٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير هذه الآيات من القرآن

١- مصيرُ الكفارِ والمؤمنين في يومِ الدين:

بيّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا في الآيتين الأوليين من هذا النص مصيرَ البشرِ جميعاً في يوم الدين، فالنَّاس من أولهم إلى آخرهم يقسمون إلى فريقين: الكفارُ، والمؤمنون، ولا يشذُّ عن هذين القسمين أحد.

قال تعالى في مصير الكفار: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء:٥٦].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآية أنَّه سيدخلُ الكفارَ في يوم الدين ناراً يصْلُون حرَّها، وأخبرنا أنَّ هذه النَّارَ ستُنْضِجُ جلودهم، فإذا احترقت جلودُهم بدَّلَهم اللهُ جلوداً

غيرها ليذوقوا العذاب، وقد اكتشف العلمُ الحديثُ أنَّ الإحساسَ بألم الحرقِ والقطعِ بالسكين إنما يكون في الجلد، فإذا اخترقت السكينُ الجلدَ فلا يشعرُ الإنسانُ بالألم، ولذا فإنَّ اللهَ يبدِّلهم جلوداً غيرَ جلودهم ليستمرَّ إحساسهم بالعذاب، ولو لم يُبَدِّلِ اللهُ جلودَهم بجلودٍ غيرها فإنَّهم لا يشعرون بالعذابِ.

وختم اللهُ الآيةَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء:٥٦] والعزيز: القويُّ الغالب، الذي لا يمتنع أحدٌ عن عذابه، وهو حكيم في تدبيره وقضائه. ثم بيَّن ربُّنا -تبارك وتعالى- مصير المؤمنين في يومِ الدين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء:٥٧].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في هذه الآية أنَّه سيدخلُ المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ في يوم الدِّين جَنَّاتٍ، وهي البساتينُ ذات الأشجارِ، تجري من تحتها أنْهارُ الماءِ والعسلِ واللبنِ والخمرِ، وأخبرنا أنَّهم بعد دخولهم فيها يصبحون خالدين فيها أبداً، وأخبرنا أنه سيجعلُ لهم في تلك الجنَّاتِ أزواجاً مُطَهَّرةً، أنفسهنَّ طيبةٌ خاليةٌ من الشركِ والذنوبِ والمعاصي والأخلاقِ الفاسدة مِنَ الكذبِ والحسدِ والعجبِ وغيرها، وأجسادهنَّ خالية من قاذوراتِ الدنيا، كالبولِ والحيضِ والنخامِ والبزاق والمني.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في خاتمة الآية أنه سيُدْخِلُ المؤمنين ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء:٥٧] قال الزمخشري: «ظَليلاً: صفة مشتقة من لفظ الظلِّ، لتأكيد معناه، كما يقال: ليلٌ أَلْيَل، ويوم أَيْوَم، وما أشبه ذلك، وهو ما كان فَيْناناً لا جَوْبَ فيه، ودائماً لا تَنْسَخُهُ الشمسُ، وسِجسجاً[1] لا حرَّ فيه ولا بَرْدَ، وليس ذلك إلا ظلّ الجنةِ، رزقنا اللهُ بتوفيقهِ لما يزلف إليه التفيؤ تحت ذلك الظلِّ» [الكشاف: ١/ ٥٣٥].

٢- وجوبُ أداءِ الأماناتِ إلى أهلها:

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ بأن يؤدوا الأماناتِ إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعَدْلِ، فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء:٥٨].

(١) قوله: فيناناً، أي: منبسطاً طويلاً ممتداً. والجَوْبُ: الخرق والفرجة. والسجسج: المتوسط.

وهذا -كما يقولُ ابنُ كثير- «يعمُّ جميعَ الأماناتِ الواجبةِ على الإنسان، من حقوقِ الله عزَّ وجل على عباده من الصلواتِ والزكواتِ والصيامِ والكفاراتِ والنذورِ وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه، ولا يطّلعُ عليه العبادُ، ومِنْ حقوقِ العبادِ بعضِهم على بعضٍ كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضَهم على بعضٍ من غير اطّلاعِ بيِّنَةٍ على ذلك، فأمر اللهُ عزّ وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أُخِذَ منه ذلك يومَ القيامة» [ابن كثير: ٢/ ٣٠٦].

ويدخلُ في الذين أمرهم اللهُ بأداءِ الأماناتِ إلى أهلها والحكم بين النَّاس بالعدل الحكامُ الذين يَلُونَ أمرَ المسلمين، فيجبُ على الحكامِ أن يؤدوا ما ائتمنهم اللهُ عليه من الولاياتِ، فيختاروا للمناصب التي تحت أيديهم الأقوياءَ الأمناءَ، وهذان اللذان أمرت بهما الآية، وهما أداءُ الأمانات إلى أهلها، والحكمُ بين الناس بالعدلِ جماعُ السياسة العادلة والولايةِ الصالحةِ، ومما يدلُّ على دخولِ الحكامِ في الآيةِ سبب نزولها، فقد ذكر ابن كثير ما رواه محمد بن إسحاق بإسناده عن صفية بنت شيبةَ، وفيه أنَّ الرسولَ ﷺ عندما دخلَ المسجدَ في فتح مكةَ أخذ مفتاحَ الكعبةِ من عثمانَ بن طلحةَ، ودخل الكعبةَ، ثم خرجَ وجلسَ في المسجد، وطلب منه عليُّ بن أبي طالب المفتاح، وكان مفتاحُ الكعبةِ في يده، فقال: يا رسولَ الله، اجمعْ لنا الحِجابَةَ مع السِّقايةِ، فقال رسول الله ﷺ: «أينَ عُثمانُ بن طَلْحَةَ؟» فدُعِيَ له، فقال: «هاكَ مِفْتاحَكَ يا عُثمانُ، اليومُ يومُ وفاءٍ وبِر» [ابن كثير: ٢/ ٣٠٧. وقال محققُ ابنِ كثيرٍ: «ذكره ابن هشام في السيرة ٤/ ٤٢. عن ابن إسحاق، ورجالُهُ ثقات مشاهير، وابن إسحاق صرَّح بالتحديث، فحديثه حسن، وعَجَزُ الحديث مرسلٌ، ومرسله مجهول، ولكن له شواهد»].

وقد وردتْ أحاديثُ كثيرةٌ دالَّةٌ على ما أمرت به الآية، فمن ذلك حديث أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لَتُؤَدُّنَّ الحُقوقَ إلى أهْلِها يومَ القيامةِ، حتَّى يُقاد للشَّاةِ الجَلْحاءِ من الشاةِ القَرْناءِ» [مسلم: ٢٥٨٢].

وعن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ المُقْسطينَ عندَ الله على منابرَ من نُورٍ عن يمين الرحمنِ عزَّ وجلَّ، وكِلْتا يديهِ يمينٌ، الذين يعدِلُون في حُكْمِهِمْ وأهْليهِمْ وما وَلُوا» [مسلم: ١٨٢٧].

وقد دلَّت أحاديثُ صحيحةٌ على أنَّ الولايةَ أمانةٌ يجب أداؤها على الوجه الأكمل، ولذا نهى الضعيفَ عن طلبها، ففي مسلم عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني، قال: فضربَ بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذرٍّ، إنَّكَ ضعيفٌ، وإنَّها أمانةٌ، وإنَّها يومَ القيامةِ خِزْيٌ وندامةٌ، إلا من أخَذَها بحَقِّها، وأدَّى الذي عليه فيها» [مسلم: ١٨٢٥].

وقال الرسولُ ﷺ للأعرابي الذي سأل عن وقتِ وقوع الساعة: «إذا ضُيِّعت الأمانةُ فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمْرُ إلى غيرِ أهْلِهِ فانْتَظِرِ الساعَةَ» [البخاري: ٥٩].

وقوله: ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨] أي: نِعْمَ الشيءُ الذي يعظكم به، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾ [النساء:٥٨] أي: سميعٌ لأقوالكم بصير بأعمالكم.

٣- وجوبُ طاعةِ الله ورسولِه وأولي الأمر منا:

أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية الأخيرة من هذا النص بطاعةِ الله وطاعةِ رسوله، وأولي الأمر منا، وأمرنا بأن نَرُدَّ أمرنا في حال التنازعِ إلى الله ورسولِهِ إن كنا نؤمن بالله واليومِ الآخر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء:٥٩].

وطاعةُ الله تكون بالإيمان به، والعمل بما أمر به، وترك ما نهى عنه وزَجَرَ، وطاعةُ رسولنا ﷺ تكون بالاستجابة له في حياتِهِ، وتحكيم سنته بعد وفاته، ومَنْ أطاعَ الرسولَ ﷺ فقد أطاع اللهَ، «وقد أعاد اللهُ الفعل ﴿أَطِيعُواْ﴾ في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩] إشارة إلى استقلالِ الرسولِ بالطاعة، ولم يُعِدْهُ في ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ إشارة إلى أنه يوجد فيهم مَنْ لا تجب طاعته، ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ [النساء:٥٩] كأنه قيل: فإن لم يعملوا بالحقّ فلا تطيعوهم، وردُّوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله» [عزاه القاسمي في تفسيره (٣/ ١٨٦) إلى الطيبي].

وقد جاءت الأحاديثُ دالةً على أنَّ الحكامَ لا يُطاعون إنْ هم أمروا بالمعصية، فعن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «السَّمْعُ والطاعَةُ حَقٌّ ما لم يُؤْمَرْ بمعْصِيَةٍ، فإذا أُمِرَ بمعْصِيَةٍ فلا سَمْعَ ولا طاعَةَ» [البخاري: ٢٩٥٥. ومسلم: ١٨٣٩ واللفظ للبخاري].

وعن عليٍّ ﷺ قال: بعثَ النبيُّ ﷺ سَرِيَّةً، فاستعملَ رجلاً من الأنصارِ، وأمرهم أنْ يطيعوه، فغضبَ، فقال: أليسَ أمركم النبيُّ ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهمُّوا، وجعلَ بعضهم يمسك بعضاً ويقولونَ: فَرَرْنا إلى النبيِّ ﷺ من النَّار، فما زالوا حتى خمدت النَّار، فسكن غضبُهُ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ ، فقال: «لو دَخَلُوها ما خَرَجُوا منها إلى يوم القيامةِ، الطَّاعةُ في المعروفِ» [البخاري: ١٤٤٠. ومسلم: ١٨٤٠].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء:٥٩] في هذا تهييجٌ على ردِّ الخصوماتِ والنزاعات والجهالات إلى كتاب الله وسنّة رسوله، ومن لم يفعل ذلك فليس مؤمناً بالله واليوم الآخر ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء:٥٩] أي: التحاكمُ إلى كتابِ الله وسنّة رسوله ﷺ والرجوع إليهما في فصل النزاع خير وأحسن تأويلاً، أي: أحسن عاقبة ومآلاً.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- النَّاسُ جميعاً في يوم القيامة فريقان: الكفار الذين يصليهم اللهُ ناراً تحرق جلودهم، فيبدِّلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، والمؤمنون الذين يدخلهم اللهُ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ويهبهم زوجاتٍ طاهرات، ويدخلهم ظِلاًّ ظَليلاً.

٢- ذكرت الآيةُ الأولى حقيقةً علميَّة تَعَرَّفْنا عليها اليوم، وهي أنَّ الجلود هي مكان الإحساسِ بالحرقِ والجرحِ، فإذا احْتَرَقَ الجلدُ فلا يشعر الإنسان بالألم.

٣- أمرَ اللهُ كلَّ مؤمنٍ أن يؤدي الأمانات إلى أهلها، وإذا حكم أن يحكم بين الناس بالعدل، وفي طليعة المؤمنين الذين أُمروا بهذين الأمرين الحكامُ، فعليهم اختيارُ الأصلح للولاياتِ والمناصبِ، وعليهم أن يعطوا ما ائتمنهم اللهُ عليه من الأموال للمستحقين.

٤- قال السُّيوطيُّ: «استدلَّ المالكيةُ بعموم قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] على أنَّ الحربيَّ إذا دخلَ دارنا بأمانٍ فأوْدع وديعةً، ثم ماتَ أو قُتل أنه يجب ردُّ وديعته إلى أهله، وأنَّ المسلمَ إذا استدان من الحربي بدارِ الحربِ، ثم خرج يجب وفاؤه، وأن الأسيرَ إذا ائتمنه الحربيُّ على شيءٍ لا يجوز أنْ يخونه، وعلى أنَّ من أودعَ مالاً، وكان المودِعُ خانَه قبل ذلك، فليس له أن يجحده كما جحده» [الإكليل، ص٩٤].

٥- يجب علينا طاعةُ الله وطاعةُ رسولِهِ ﷺ فيما أمرنا كلُّ واحد منهما به، وعلينا طاعة الحكامِ والعلماءِ إذا أمرونا بالمعروف، فإن أمرونا بمعصيةٍ فلا طاعةَ لهم علينا.

٦- أمرنا اللهُ بردِّ ما اختلفنا فيه إلى الله والرسولِ ﷺ ، والمراد بذلك كتاب الله، وصحيح سنّة رسول الله ﷺ .

النص القرآني التاسع عشر من سورة النساء
الذين يدَّعونَ الإيمانَ ويريدونَ التحاكم إلى الطاغوت

أولاً: تقديم

خاطبَ اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآياتِ رَسُولَه ﷺ مُعَجِّباً إيّاه مِنْ حال المنافقينَ الذين يزعمونَ أنّهم يؤمنون بما أُنْزِلَ إليه، وما أُنزلَ من قبله، ثم يناقضون دعواهم بالإعراض عن التحاكم إليه، ويطلبون التحاكم إلى الطواغيتِ التي تعبدُ من دونِ الله، ولا يتمُّ الإيمانُ إلا بالكفرِ بها، وعندما يُدْعى هؤلاء إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى ما جاء به الرسول ﷺ تراهم يصدون عنه صدوداً، وهؤلاء الذين هذه حالهم أهلٌ لأنْ يصيبهم اللهُ بالمصائبِ تنزلُ من عنده، وعند ذلك يأتون معتذرين زاعمين أنهم لم يريدوا إلا إحساناً وتوفيقاً، وقد أمر اللهُ رسوله ﷺ أن يعرضَ عن هؤلاء الضالين وأن يعظهم ويقولَ لهم في أنفسهم قولاً بليغاً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء:٦٠-٦٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذمَّ اللهُ -تعالى- الذين يريدونَ التحاكم إلى الطاغوتِ:

عجَّب الله -تعالى- رسولَه ﷺ من حال الذين يزعمون الإيمانَ بما أنزلَ اللهُ على رسولِهِ ﷺ وبما أنزلَ مِن قبله على رُسُلِهِ السابقين، ثمَّ يناقضون أنفسهم بطلبهم التحاكمَ إلى الطاغوتِ الذي أمر اللهُ -تعالى- بالكفر به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء:٦٠].

وأكثر ما يستعملُ (الزَّعم) في قولِ ما لا تتحقَّقُ صِحَّتُهُ، وقد قيل: «بئسَ مَطِيَّة الرجلِ زَعموا» وقال الشاعرُ:

زَعَمَتْني شيخاً ولَسْتُ بشيخٍ إنَّما الشيخُ مَنْ يَدِبُّ دبيباً

ذمَّ اللهُ في هذه الآية قوماً زعموا أنهم آمنوا بما أُنزلَ إلى رسولِنا ﷺ وآمنوا بما أُنزلَ على الرسلِ من قبله، ولكنَّهم ناقضوا هذه الدعوى عندما اختاروا التحاكم إلى الطاغوت، والطاغوتُ هو الذي تعدَّى حَدَّه بحكمه بغير ما أنزل اللهُ ورسولُه، وقد أمرنا اللهُ تعالى بالكفرِ بالطاغوتِ، ومِنَ الطواغيتِ الكُهَّان الذين كانوا يحكمون بين العرب عندما يلجؤون إليهم فيما يثور بينهم من نزاع، وسببُ نزولِ الآية أنَّ نفراً مِنَ المسلمين نَفَرُوا إلى أحدِ طواغيتِ الجاهليةِ ليحكم بينهم، وهو أبو بردة الكاهن الأسلمي، رواه عكرمة عن ابن عباس [قال محقق «زاد المسير» [٢/ ٦٠] نقل الخبر الهيثميُّ في «المجمع» (٦/٧) وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجالُ الصحيح، وذكره السيوطي في «الدرِّ المنثور» (٢/ ١٧٨) عن ابن أبي حاتم والطبري بسند صحيح].

وقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء:٦٠] أي: يضلُّهم بإعراضهم عن حكم الله وحكم رسولِهِ، وتحاكمهم إلى الطاغوت.

٢- صُدودُ المنافقين عما أنزله اللهُ تعالى على رسوله ﷺ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه إذا قيل للفريقِ السابقِ: تعالَوْا إلى ما أنزله اللهُ في كتابه من أحكامٍ، وإلى ما حكم به الرسولُ ﷺ رأيتَ هذا الفريقَ المنافقَ يَصُدُّون عنك صدوداً، ويعرضون عن حكم الله وحكمِ رسوله، وينطلقون إلى الطواغيت لتحكم بينهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء:٦١].

٣- تهديدُ الله المنافقين بالقوارع التي يمكن أن تنزل وتحلَّ بهم:

وقد عَجَّبَ اللهُ -تعالى وتقدَّس- من حالِ هؤلاءِ عندما تنزلُ بهم المصائبُ والقوارعُ بما قَدَّمت أيديهم، ومنها إعراضُهم عن حُكْمِ الله وحكم رسولِهِ والتجاؤُهم إلى الطواغيت، ثم تضطرُّهم المصائبُ إلى الرسولِ ﷺ فيأتونه معتذرين حالفين بالله بأنهم لم يريدوا إلا الإحسانَ والتوفيق بينَ شرعِ الله المنزلِ وما عليه الطواغيتُ من كفرٍ وضلال ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء:٦٢].

٤- الموقف الذي يجب أن يقفه الرسول ﷺ تجاه هذا الفريق الضال:

أخبر اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنَّه يعلم ما في قلوبِ هؤلاءِ من الكفرِ والشركِ والضلالِ، وأمره أن يعْرض عنهم بعدم تعنيفهم، وأمره بأن يَعِظَهمْ بتذكيرهم بالله، وبوقوفهم بين يديه في يوم الدِّين، وأمره أن يقولَ لهم قولاً يَبْلُغُ كُنْهَ ما في قلوبهم، والبلاغَةُ: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورةٍ مِن اللفظِ، وقيلَ: البلاغةُ حسن العبارةِ مع صحة المعنى [زاد المسير: ٢/ ١٢٢]. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ [النساء:٦٣].

وقد كان رسولنا ﷺ يجَبَهُ المنافقين ويُوَبِّخهم، ويقول لهم قولاً يبلغُ الغايةَ في نفوسهم، وقد كان يتلو عليهم في مواجهتهم كتابَ الله كقوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١﴾ [الأحزاب:٦٠-٦١].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- المؤمنُ بالله كافرٌ بالطاغوتِ، فمن ادَّعى الإيمان بالله وأصرَّ على التحاكم إلى الطاغوتِ فهذا ضالٌّ، وإن ادَّعى الإيمانَ، وأمره متعجَّبٌ منه، مستغرب.

٢- هؤلاء المنافقون الذين يدَّعون الإيمانَ، ويطلبون التحاكمَ إلى الطاغوتِ إذا طُلِبَ منهم التحاكمُ إلى كتابِ الله وسنَّةِ رسوله ﷺ يرفضون ذلك.

٣- تهدَّد اللهُ هذا الفريقَ الضالَّ المنافقَ بأن يصيبهم اللهُ بالمصائب والجوائح في الدُّنيا، فيُضَطرون إلى الاعتذارِ إلى الرسولِ ﷺ في حياتِه، وإلى المؤمنين معه.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى بالتجاوز عن أهل النفاقِ وعدم قتالهم، ولكن عليه أن يعظهم ويقول لهم قولاً يزلزلُ قلوبهم.

٥- أخبرنا اللهُ تعالى أنَّ أهلَ النفاقِ يدَّعُونَ أنَّهم يريدون التوفيقَ بين دينِ الله وما عليه طواغيتهم، وهذه ضلالةٌ بيِّنة، فدينُ الله دينٌ قويمٌ كامل لا يحتاج إلى غيره، ولا يجوز التوفيقُ بينه وبين الأديانِ والمذاهب الضالة، وقد أغرق بعضُ المسلمين في هذا النوع من الضلالِ،

فكُتِبت المؤلفات التي يراد بها أن تُقَرِّبَ بين الإسلامِ والفلسفةِ وعلم الكلام، واليوم تعقد المؤتمرات التي يراد لها أن تُقَرِّب بين الإسلام القائم على التوحيد، والنصرانية القائمة على الشرك، وقد أعلمنا ربُّنا كيف نحاورُ أهلَ الأديانِ المخالفةِ للإسلام إذا التقينا بهم، وذلك بدعوتنا لهم إلى الله وحده وإلى دينه وشرعِهِ ورسولِهِ.

النص القرآني المتمم للعشرين من سورة النساء
لا يؤمنُ العبادُ حتى يُحَكِّموا الرسول ﷺ فيما شجر بينهم

أولاً: تقديم

أوْجَبَ اللهُ -تعالى- على عبادِه أن يطيعوا الرسولَ الذي بعثه إليهم، كما أوجب اللهُ تعالى على العبادِ المرسلِ إليهم أن يُحكِّموه فيما تنازعوا فيه، ثم القبولُ بحكمه من غير اعتراضٍ، وكما يجبُ على العبادِ طاعةُ الرسولِ والرضا بحكمه، فإنَّه يجب عليهم الالتزامُ بشرعِ الله ودينِه، ومَنْ التزم ذلك فإنَّ الله يعطيه الأجر العظيمَ، ويهديه الصراطَ المستقيم، وختم اللهُ الآيات بتعريفنا بأهلِ الصراط المستقيم الذين يدخلهم الله به جناتِ النعيم، وهم الأنبياءُ والصديقون والشهداءُ والصالحون وحسن أولئك رفيقاً.

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة النساء

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [النساء:٦٤-٧٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- **وجوبُ طاعة الرسول ﷺ:**

كانَ كُلُّ رسولٍ قبل نبينا محمد ﷺ يبعثُ إلى قومِهِ خاصةً، وكان يجبُ على كلِّ قومٍ طاعةُ رسولِهِمُ الذي أُرسلَ إليهمِ، وأرسلَ اللهُ رسولَنا محمداً ﷺ للناسِ كلِّهم، فيجبُ على الناس جميعاً من العربِ والفرسِ والرومِ والبربرِ والتركِ وغيرهم طاعتُه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [النساء:٦٤].

فإذا قُدِّرَ لبعض العباد أن يظلموا أنفسهم بكفرهم أو عصيانهم لله ورسوله، فالواجب عليهم أن يأتوا الرسولَ ﷺ، فيستغفروا اللهَ، ويطلبوا مِنَ الرسولِ أن يستغفر لهم، فإنَّهم يجدون اللهَ تواباً رحيماً ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء:٦٤].

وفي الآيةِ دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ المنافقين والعصاةَ لا يظلمون ربَّهم بعصيانهم، وإنما يظلمون أنفسهم، وفي الآية دلالةٌ على انتفاع العصاةِ بدعاء الرسولِ ﷺ واستغفارِهِ في حياتِهِ، وكذلك ينتفعون بدعوة الصالحين الأحياءِ واستغفارهم.

٢- **إقسامُ ربِّ العزةِ بنفسه على عدم إيمانِ الناسِ حتى يُحكِّموا الرسولَ فيما شجر بينهم:**

أقْسَمَ ربُّ العزة -تبارك وتعالى- بنفسِهِ العظيمة المقدَّسةِ على أنَّ البشر لا يدخلون في الإيمانِ، ولا يكونونَ مؤمنينَ حتى يُحكِّموا الرسولَ ﷺ فيما وقعَ بينهم من منازعات، وليس ذلك فقط، بل يجبُ عليهم مع تحكيمه في الخصوماتِ أنْ يرضَوْا بحكمه، ولا يجدوا في نفوسهم حَرَجاً مما قضى، ويُسلِّموا تسليماً، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان قبولهم بالحكم تامّاً وافياً من غير ممانعةٍ، ولا مدافعة، ولا منازعة ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

وسبب نزولِ هذه الآية أنَّ رَجُلاً من الأنصارِ خاصمَ الزبيرَ بنَ العوام عند النبيّ ﷺ في شِراجِ الحرَّة التي يَسْقُون بها النَّخلَ، فقال الأنصاريُّ للزبير: سَرِّحِ الماءَ يَمُرُّ، فأبى عليه، فقالَ الرسولُ ﷺ للزبير عندما اختصما إليه: «اسْقِ يا زُبَيْرُ، ثمَّ أرْسِلِ الماءَ إلى جارِكَ» فغضب الأنصاريُّ، فقال: أن كان ابنَ عَمَّتِكَ؟ فتَلَوَّنَ وجهُ الرسولِ ﷺ، ثم قالَ: «اسْقِ يا زُبَيْرُ، ثم احْبِسِ الماءَ حتى يرجِعَ إلى الجَدْرِ» فقال الزبير: إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥][البخاري: ٢٣٥٩. مسلم: ٢٣٥٧].

٣- **الأمَّةُ الصالحة هي الأمة التي تقف عند حدودِ ما أمرَ اللهُ به ونهى عنه:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لو كتب على عباده أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من ديارهم ما فعله منهم إلا القليلُ، واللهُ لم يكلفنا بما يكون شاقّاً وصَعْباً إلى هذه الدرجة التي لا يصلُ إلى مستواها إلا القليلُ، ثم أخبر سبحانه وتعالى أنَّ العبادَ لو استقاموا على أمرِ الله، ففعلوا ما يوعظون به بالقيام بالفرائضِ والمستحباتِ، وترك المحارمِ والمكروهاتِ، لكان خيراً

لهم، أي: مِنْ تركِ المأموراتِ وفعلِ المحرمات ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ أي: أشدُّ تصديقاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء:٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٧-٦٨]. يُخبرنا -تبارك وتعالى- أنَّ العبادَ لو استقاموا على أمرِ الله لكان خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً، ولأعطاهم ربُّنا أجراً عظيماً، أي في الدنيا والآخرةِ، ويتمثل هذا الأجر في الآخرة في النعيم المقيم في جناتِ النعيم، ولهداهم اللهُ إليه صراطاً مستقيماً، والصراطُ المستقيمُ هو الطريقُ الحقُّ الذي يهدي إلى الله ويوصلُ إلى جنته، وهو الدينُ الحقُّ الذي أنزله الله على رسله وأنبيائه، وآخرهم محمد ﷺ الذي أنزلَ اللهُ عليه الصراطَ المستقيمَ، وبينه أعظم بيان وأتمه.

٤- أصحاب الصراط المستقيم:

أعلمنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنه من يُطِعِ اللهَ والرسولَ ﷺ فإنه يحشرُ في يوم القيامة في زمرةِ النبيين والصديقين والشهداءِ والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩].

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- في هذه الآية أنَّ الذي يطيعُ اللهَ ورسولَهُ، وإنما تكون الطاعة في فعل ما أمر اللهُ ورسوله، وترك ما نهى كلٌّ منهما عنه، فهؤلاءِ المطيعون لله وللرسولِ سيكونون مع الذين أنعم الله عليهم، والذين أنعم الله عليهم همُ الأنبياءُ، الذين اختارهم لوحيه، والصديقون الذين بلغوا الغايةَ في الإيمان والعمل الصالح، ولذلك قيل في تعريفهم: الكثيرو الصدق، أو المبالغون في الصدق. والشهداءُ الذين سقطوا صرعى وهم يقاتلون في سبيل الله، والصالحونَ: الذين صلحت سريرتُهم وعلانيتهُم، وقوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩] ثناءٌ من ربِّ العزة على هؤلاء الرفقاء في جناتِ النعيم في يوم الدين، نسألُ اللهَ -تعالى- أنْ يجعلنا منهم.

وأخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ دخولَ الجنةِ في زمرةِ هؤلاء الأخيار إنما هو بفضلِ الله ورحمته، وليس بالعملِ، فالإيمانُ والعملُ ليسا ثمناً للجنة ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء:٧٠] وقوله: ﴿عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ أي: عليم بمن يستحقُّ الهدايةَ والتوفيق.

وقد أخبرتنا عائشة رضي الله عنها وعن أبيها أنّ قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء:٦٩] كانت آخر ما نطق به رسولنا ﷺ. عندَ نزع روحِهِ، قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولَ: «ما من نبيٍّ يمْرَضُ إلاّ خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيا والآخِرَةِ». وكان في شكواهُ الذي قُبِضَ فيه، أخذته بُحَّةٌ شديدةٌ، فسمعته يقولُ: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء:٦٩] فعلمتُ أنّه. خُيِّرَ [البخاري: ٤٥٨٦. ومسلم: ٢٤٤٤].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ المَرْءَ في يوم القيامةِ مع من أحبَّ، فإن أحبَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فهو في الجنَّة، وإنْ أحبَّ الكافرين والظلمة والفاسقين فهو في النار، عن أنس أنَّ رجلاً من أهل البادية أتى النبيَّ ﷺ ، فقال: يا رسولَ الله متى الساعةُ قائمةٌ؟ قال: «وَيْلَكَ، وما أعْدَدْتَ لها؟» قال: ما أعددتُ لها إلا أني أُحِبُّ اللهَ ورسولَه، قال: «أنْتَ مع من أحْبَبْتَ» فقلنا: ونحن كذلك، قال: «نعم» ففرحنا ذلك اليوم فرحاً شديداً [البخاري: ٦١٦٧. ومسلم: ٢٦٣٩].

وقال أنسٌ بعد روايته للحديث: «فأنا أُحِبُّ النبيَّ ﷺ ، وأبا بكرٍ وعمرَ، وأرجو أن أكون معهم بِحُبي إياهُمْ، وإنْ لم أعمل بمثل أعمالهم» [البخاري: ٣٦٨٨. ومسلم: ٢٦٣٩]. وأنا أقول كما قال أنس رحمه الله: وأنا أُحبُّ الرسولَ ﷺ وأصحابَه، وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وأسألُ اللهَ أن أكونَ معهم، فالمرءُ مع مَنْ أحبَّ.

ومع أن الأنبياءَ والصديقين والشهداءَ والصالحين جميعاً في جناتِ النعيم، إلا أنهم متفاوتون في درجاتهم في الجنَّة، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أهْلَ الجنَّة يتراءَوْنَ أهْلَ الغُرَفِ من فَوْقِهِمْ، كما يتراءَوْنَ الكوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ في الأُفُقِ من المَشْرِقِ أو المَغْرِبِ، لتفاضُلِ ما بَيْنَهُمْ». قالوا: يا رسولَ الله تلكَ منازلُ الأنبياءِ لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفْسِي بيدِهِ، رجالٌ آمنُوا بالله، وصدَّقُوا المُرْسَلِينَ» [البخاري: ٣٢٥٥. ومسلم: ٢٨٣١].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كلُّ رسولٍ أرسله اللهُ تعالى فإنه يجب على من أرسل إليهم طاعتُهُ.

٢- يجبُ على الذين عَصَوُا اللهَ وعَصَوُا الرسولَ ﷺ أن يبادروا إلى التوبةِ الصادقةِ.

٣- لا حرجَ على العصاة إذا هم تابوا أن يلجؤوا إلى الرسولِ ﷺ ليستغفرَ لهم إن كان حيّاً، ويلجؤوا إلى الأخيارِ والصالحينَ الأحياء ليستغفروا لهم.

٤- التوبةُ الصادقةُ يقبلها اللهُ من عباده، واللهُ تبارك وتعالى توابٌ رحيم.

٥- لا يؤمن العبادُ إلا إذا حَكَّموا الرسولَ ﷺ فيما ثارَ بينهم من نزاعاتٍ وخصومات، واستسلموا لحكمِ الله عزَّ جل من غير حرج.

٦- الفئة الخَيِّرةُ الصالحةُ التي تستجيب لأمر الله تعالى، وتنتهي عن نهيه، وتلتزم بما أراده اللهُ تعالى منها، وهؤلاءِ هم الأخيارُ الذين يرضى الله عنهم ويدخلهم جنته.

٧- أصْحابُ الصراطِ المستقيمِ الذين هداهم اللهُ إلى دينه، ويدخِلُهُمْ يومَ القيامة جنته هم: الأنبياءُ، والصديقون، والشهداءُ، والصالحون.

٨- الناسُ يدخلون الجنَّةَ بفضلِ الله ورحمته، فالجنَّةُ أعظم من أن تكون ثمناً لعملٍ مهما عَظُمَ، والإيمانُ والعملُ الصالحُ سببٌ لدخولِ الجنَّة، وليس ثمناً لها.

٩- الله -تبارك وتعالى- عالم بالذي يستحق الهدايةَ والتوفيق إلى الصراط المستقيم.

النص القرآني الحادي والعشرون من سورة النساء

﴿ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النص تدور حول قضيةٍ واحدة، هي القتالُ في سبيلِ الله، وهذه الآياتُ تطالب الأُمَّةَ الإسلامية بالحذر من أعدائها، وإعدادِ القوة التي تواجه بها خصومها، وتطالبُ المجاهدين بالنفير الجزئي أو الكلي لمواجهة الأعداءِ، وتدلُّنا على مَكْمَنِ الضعفِ في الأُمَّةِ الإسلامية، والمتمثلِ في ضعافِ الإيمانِ، الذين لم تَخْلُصْ نفوسُهُمْ للقتالِ في سبيل الله، فهم يتخلفون عن النفيرِ للقتالِ ويفرحهم عدمُ إصابتهم في المواقع التي يصابُ فيها المسلمون، ويحزنهم تخلُّفُهم عن المواقعِ التي ينتصر فيها المسلمون. وتأمر الآياتُ المؤمنين بالقتال في سبيل الله، وفي سبيلِ تخليصِ المستضعفين مِنَ الجبارين الذين يذلُّونهم، ويأمرنا اللهُ في الختام بمقاتلة أولياء الطاغوت وعلى رأسهم الطاغوتُ الأكبر، وهو الشيطان.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء:٧١-٧٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين أن يأخذوا حِذْرَهُمْ من عدوهم:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين آمراً إياهم أن يأخذوا حذرهم مِنْ عَدُوِّهم، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾ [النساء:٧١] وأَخْذُ

الحِذْرِ يكونُ باليقظةِ، وإعدادِ العدّةِ العسكرية، وتدريبِ المقاتلين، ثمَّ أمَرَهم بالنفيرِ، ويكونُ بالخروجِ لمقاتلةِ الأعداء، والنفيرُ له وجهان، الأول: أن يكون في جماعاتٍ متواليةٍ، وسرايا متعددةٍ، سريةً بعد سريةٍ، وهذا معنى (ثُباتٍ)، فثُبات جمع ثبةٍ، أي: جماعات.

والوجه الثاني: أن يخرج المسلمون في جيش واحدٍ كبير، وهو المراد بقوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء:٧١].

وقد كان الرسول ﷺ يخرجُ مع بعضِ أصحابه لمقاتلةِ الأعداءِ كما فعل في غزوة بدر، أو يرسل بعضَ المجاهدين في مجموعات وهي السرايا، وكان في بعض الأحيان يخرج في المؤمنين في جيش ضخم كبير، كخروجه في غزوةِ أُحُدٍ والخندق وفتح مكة.

٢- ذَمَّ اللهُ الذين يتباطؤون عن الخروجِ للقتال في سبيل الله تعالى:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- عن وجود طائفة من المقاتلين مع الرسول ﷺ كانوا يتباطؤون في الخروج إلى الجهادِ، أي: يتخلفون أو يتثاقلون عن الخروجِ، وهؤلاءِ هم المنافقون، أو هم طائفة كان إيمانهم ضعيفاً في ذلك الوقت، وقد رجع عبدُ الله بن أبيّ قبيل غزوة أحد بثلث الجيش الخارجِ مع رسولِ الله ﷺ ، قال تعالى في هذا الفريق: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء:٧٢].

وقد أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- عن هذا الفريق أنَّه كان إذا تخلَّفَ عن الغزو مع الغزاةِ، فأصابتِ المؤمنين مصيبةٌ في تلك الغزوةِ كما وقع في معركة أُحد، أو سَرِيَّةِ بئر معونة، قال: قد أنعم اللهُ عليَّ لعدم شهوده تلك الغزوة أو تلك السرية، ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ [النساء:٧٢] وإذا خرج المؤمنون للحرب والقتالِ، ففتح اللهُ عليهم، ورزقهم الغنائم تمنى ذاكَ الفريق لو كان مع المقاتلين لينالَ من الغنائم التي غنموها وكسِبُوها ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء:٧٣].

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ [النساء:٧٣] جملة معترضة بين القول، وهو ﴿لَيَقُولَنَّ ﴾، وبين مقوله، وهو ﴿يَٰلَيْتَنِي ﴾. والمرادُ بالجملة المعترضةِ إظهارُ قبح فعلهم وشناعَتِه، فالقُعودُ عندهم هو للهروبِ من تكاليف الجهادِ، والخروجُ للحصولِ على الغنيمةِ، فهم يوادُّون المؤمنين في الظاهِرِ، أما أن يقاتلوا طاعةً لله، فهذا ليس له مكان في قلوبهم.

٣- أوجب اللهُ القتالَ على الذين يشْرُون الحياةَ الدنيا بالآخرة:

أَمَرَ الله -تبارك وتعالى- المؤمنين الذين يشرون الحياةَ الدنيا بالآخرة، ومعنى يشرون، أي: يبيعون الحياةَ الدنيا بالآخرة، أمرهم بالقتال في سبيل الله، أي: في سبيل إعلاء دينه، ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾ [النساء:٧٤].

والقتالُ في الإسلامِ لا يكون إلا في سبيل الله، ولا يكونُ لملكٍ أو عصبيةٍ، أو للحصولِ على الأمجادِ والغنائمِ، أو لتسودَ أمةٌ على أمةٍ، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنَّ مَنْ قاتلَ لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو سبيل الله. وقد وَعَدَ اللهُ -تبارك وتعالى- المقاتلين في سبيل الله إن هم خَرُّوا صرعى في ميدان الحرب والقتال أو غلبوا خصومهم وقهروهم، فسوف يؤتيهم اللهُ -تعالى- في الحالين أجراً عظيماً، قال تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء:٧٤].

وقد جاءَت أحاديث كثيرةٌ صحيحةٌ تتحدث عن أجْرِ الغزاة المجاهدين في سبيل الله، منها: حديثُ أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ : «تضمَّنَ اللهُ لمن خَرَجَ في سَبيله، لا يُخْرِجُهُ إلا جهاداً في سَبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برُسُلي، فهو عليَّ ضامنٌ أنْ أدْخلَهُ الجَنَّةَ، أو أرْجِعَهُ إلى مسْكَنه الذي خَرَجَ منهُ، نائِلاً ما نالَ من أجرٍ أو غنيمة، والذي نَفْسُ محمدٍ بيده ما من كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيلِ الله، إلا جاءَ يومَ القيامةَ كهَيْئَته حينَ كُلِمَ، لونُهُ لَوْنُ دَمٍ، وريحُهُ مِسْكٌ، والذي نفسُ محمدٍ بيده! لولا أن يشُقَّ على المسلمينَ، ما قَعَدْتُ خلافَ سَرِيَّةٍ تغزُو في سَبيلِ الله أبداً، ولكنْ لا أجدُ سَعَةً فأحْمِلَهُمْ، ولا يَجِدُونَ سَعَةً، ويَشُقُّ عليهِمْ أنْ يتَخَلَّفُوا عَنِّي، والذي نفسُ محمدٍ بيِدِه! لوَدِدْتُ أنِّي أغْزو في سبيلِ الله فأُقْتَلُ، ثمَّ أغْزُو فأُقْتَلُ، ثم أغْزُوا فأُقْتَلُ» [أخرجه البخاري: ٣٦، ٥٥٣٣، ٢٧٨٧، ٢٧٩٧، ٧٢٢٦. ومسلم: ١٨٧٦ واللفظ لمسلم].

٤- حثُّ الله -تعالى- المؤمنين على القتالِ لتخليصِ المستضعفين:

خاطب اللهُ -عزَّ وجلَّ- المؤمنين منكراً عليهم عَدَمَ قتالهم في سبيلِ الله وفي سبيل نصرة المستضعفين، والمستضعفون هم المؤمنون الذين استطال عليهم الكفارُ في مكَّةَ، فعذَّبوهم وأهانوهم، وكانوا مِنَ الرجالِ والنساءِ والولدان، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء:٧٥] وكان هؤلاءِ المستضعفون إذا مسَّهم عذابُ الظالمين مِنْ أهلِ مكة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء:٧٥] أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنهم كانوا يَدْعون ربَّهم أن يخرجهم مِنْ

مكة الظالم أهلها، فنسبوا الظلم إلى أهل مكة، لا إلى مكة، وطلبوا مِنَ الله أن يجعل لهم وليّاً يلي أمورهم، وناصراً يحميهم، ويذود عنهم.

وقد كان رسولنا ﷺ وهو في المدينة يدعو للمستضعفين في مكّةَ، بعد أن يرفع رأسه من الركوع قائلاً: سمع اللهُ لمن حمده: «اللهم أنجِ الوليدَ بنَ الوليدِ، وسَلَمَةَ بنَ هشامٍ، وعياشَ بنَ أبي ربيعةَ، والمستضعفين مِنَ المؤمنين، اللهمَّ اشْدُدْ وطْأَتَكَ على مُضَرَ، واجعلها عليهم سنينَ كَسِني يوسف» [البخاري: ٨٠٤. ومسلم: ٦٧٥].

وقد حدَّث ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما قال: «كنتُ أنا وأُمِّيَ مِنَ المستضعفين» [البخاري: ٤٥٨٧].

وقد خَرَجَ طائفةٌ من المستضعفين من مكةَ قبل غزوةِ الفتحِ، وكشف اللهُ الغُمَّةَ عن بقيةِ المستضعفين بعد فتحِ مكةَ، وجعل لهم وليّاً، وجعل لهم نصيراً.

٥- الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المؤمنين يقاتلون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، والطاغوتُ كلُّ معبودٍ عُبِدَ من دون الله، ومن الطواغيتِ التي عبدها البشرُ قديماً الأصنامُ وفرعونُ ونمرودُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٧٦] وأعظمُ الطواغيتِ الشيطانُ، ولذلك أمرنا اللهُ -تعالى- بقتالِ أوليائه، وأخبرنا بأنَّ كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً، لتجرئنا على مقاتلة أوليائه ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء:٧٦].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنَّا النظر في آياتِ هذا النصِّ نجدها تدلُّ على ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- يجب على المسلمين أن يأخذوا حِذْرَهُم من أعدائِهم بإعداد ما يستطيعون مِنَ العدَّةِ الحربيةِ، وتدريب الجند، وتحسس أخبارِ أعدائهم.

٢- إعداد الأمةِ القوةَ الحربية بأقصى ما تستطيعه لا ينافي التوكل على الله والاعتمادَ عليه.

٣- يجبُ إنفاذُ الجيوشِ لمواجهة الأعداءِ، ويكون النفير بحسب الحاجة قلةً وكثرة.

٤- تعريفنا بحال المنافقين وضعافِ الإيمان الذين لا يهمهم إلا أنفسهم وما يحصلون عليه من المغنم، ولا يقاتلون لإعلاءِ كلمة الله.

٥ - أمَرَ اللهُ المؤمنين الذين يَشْرونَ الحياةَ الدنيا بالآخرة بالقتالِ في سبيلِ الله.

٦ - المقاتلُ في سبيلِ الله بين حالين: إمَّا أن يسقط في الميدان شهيداً، وإمَّا أن ينتصرَ على أعدائِه، وليس في قاموس هؤلاء الفرارُ من الميدان.

٧- المؤمنُ يسعى لتحقيق الأهداف التي أمر اللهُ بتحقيقها، ومِنْ ذلك أن يقاتلَ في سبيل تخليصِ المستضعفين من أعدائهم الذين يسومونهم سوءَ العذاب.

٨- كلُّ الذين يعارضون الشريعةَ الإسلامية فإنَّهم أولياء الطاغوت، وعلى المؤمنين أن يقاتلوا أولياءَ الطاغوتِ على اختلاف مشاربهم.

٩ - الطاغوتُ الأكبرُ الشيطان، ومع ما يحوزه الشيطان من قوى، فإنَّ كيده بجانب قُوَّةِ الله وقدرته ضعيفٌ، فلا يجوز للمؤمنين أن يرهبوا كيده، ويذلوا في مواجهة أوليائه.

النص القرآني الثاني والعشرون من سورة النساء

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ -تعالى- لنا في آيات هذا النص أن الموت له أجلٌ محدَّدٌ، فالنكوصُ في ميدانِ القتال لا ينجي من الموت، وخوضُ الحروبِ لا يقصِّرُ الأعمار، والقعودُ عن القتالِ مِنْ أجلِ الدنيا الفانية متاعٌ قليلٌ في جنب متاعِ الآخرة الدائم الباقي.

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن الموتَ يُدْرك العبادَ، ولو اعتصموا بأعظم الحصون والقلاع، وأخبرنا أن النِّعَم والمصائبَ كلَّها من عند الله تعالى، وقد ضلَّ الذين زعموا أنَّ المصائبَ التي أصابتهم كانت بسبب الرسولِ ﷺ، ومع أنَّ النعم والمصائب كلّها من عند الله، أي: بقدرِه ومشيئته، فإنَّ المصائب التي تصيب العبد تكون بسبب خطاياه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ۗ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [النساء:٧٧-٧٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تعجيب الله رسولَهُ ﷺ مِنْ حالِ الذين تكصوا عن الجهاد بعد أنْ كانوا يطالبون به:

عَجَّبَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ مِن الذين طُلب منهم أن يكُفُّوا أيديهم عن القتالِ في مكة، وخلال فترةٍ وجيزةٍ بعد الهجرةِ، وأُمروا بأنْ يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فلما كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ من هؤلاء يخافونَ الكفارَ الذين طُلب منهم قِتَالُهُمْ، كخوفهم

من الله أو أشدَّ من خشيتهم له، وقال هذا الفريق الذي شقَّ عليه القتالُ مخاطباً ربَّه تبارك وتعالى: يا ربَّنا لم كتبت علينا القتال؟ هلاَّ أخَّرْتَ كتابته علينا مدةً من الزمانِ، أي حتى يكثر عددُنا، ونحوز القوةَ التي تمكننا من التغلُّبِ على عدُوِّنا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء:٧٧].

وقد أجابَ اللهُ تعالى على سؤالِ هؤلاء بقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)﴾ [النساء:٧٧].

فقال الله تعالى لهم: الدُّنيا في الآخرة عَرَضٌ زائلٌ، ومتاعٌ قليلٌ، يتمتَّعُ بها، ثم تزولُ، قال رسولُنا ﷺ: «والله ما الدُّنْيا في الآخرةِ إلاّ مثْلَ ما يجْعَلُ أحَدُكم أصبعَه هذه (وأشار يحيى إلى السبابة)، في اليَمِّ، فلْيَنْظُرْ بم تَرْجِعُ؟» [مسلم: ٢٨٥٨].

وقال الحسن: «ما الدنيا كلُّها أوَّلُها وآخِرُها إلا كرجلٍ نام نَوْمَةً، فرأى في منامه بعض ما يحبُّ، ثم انتبه» [ابن كثير: ٢/ ٣٢٦]. وقال الشاعر:

فــإنْ تُعْجِــبُ الــدُّنيا رجــالاً فإنَّهــا   متــاعٌ قليــلٌ والــزوالُ قريــبُ

وأخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ الآخرةَ خيرٌ للمتقين، الذين يدخلهم اللهُ تعالى جناتِ النعيمِ، فإنها جناتٌ لا تزولُ ولا تحولُ، أُكلها دائمٌ وظلُّها، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى أنَّه يفي عبادَه أُجورَهُم، ولا يُنْقِصُ أحداً منهم من أجرِهِ شيئاً حتى لو كان فَتيلاً، والفَتيلُ الأمر اليسير الحقير، وهو ما في شقِّ النواة طُولاً.

٢- الموتُ حَتْمٌ لازمٌ لا ينجو منهُ أحدٌ:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ الموتَ حتمٌ لازمٌ للعبادِ، أينما كانوا وحيثما حلُّوا، فالقلاعُ والحصونُ قد تقي من العدوِّ الإنْسِيِّ، أما ملائكة الموتِ فإنهم يصلونَ إليك، ولو كُنْتَ في أقْوى الحصونِ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]. والبروجُ المشيدة: القلاعُ والحصونُ، التي يبنيها البشر فوق ظهر الأرض، والمشيدة: المبنية بالشيد وهو الجص.

وقد أطالَ القرآنُ في ذكر الموتِ وأنه لا ينجو منه أحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر:٣٠]، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

فَانٍ ﴿٢٦﴾ [الرحمن:٢٦]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء:٣٤].

وإدراكُ حقيقةِ الموتِ جعلت المجاهدين مِنَ الصحابةِ فمن بعدهم يهجمون على الموتِ غير هيّابين، ولا وجلين، وكان شعارُهم: اطلبِ الموت توهْب لكَ الحياةُ.

وعندما أدركت الأمةُ الإسلاميةُ حقيقةَ الموتِ أصبحتْ أمَّةً مقاتلةً من الطراز الأول، يهزُم الجمعُ القليلُ منها الجيوش الجرارة، وقد تفكَّر الناسُ في الموتِ وحقيقتِهِ، فاستفادوا منه عِبَراً، وسطَّروا فيه الكتبَ والأشعارَ في كل عصرٍ ومصرٍ.

ومن الذين تفكروا في الموتِ وغوائِله، وما يفعلُهُ بالملوكِ والطواغيتِ، عديُّ بنُ زيدٍ العبادي، فإنه رأى الموت يُفني الأجساد، ويخرِّب البيوت، ويودي بالناس إلى القبور وفي ذلك يقول:

أَيُّهــا الشَّــامِتُ المُعَــيِّرُ بالدَّهْــ ... ــرِ أأنْـتَ المُـبَرَّأُ المَوْفُـورُ

أمْ لَـدَيْكَ العهـدُ الوثيـقُ مِـنَ الأيـ ... ـامِ بَـلْ أنـتَ جاهـلٌ مغـرورُ

مَـنْ رأيـتَ المنـونَ خَلَّـدْنَ أمْ مَـنْ ... ذا عَلَيْـهِ مِـنْ أنْ يُضَـامَ خَفـيرُ

أيْـنَ كِسْـرَى كِسْـرَى الملـوكِ أنُـوشِرْ ... وَانَ أمْ أيْـنَ قَبْلَـهُ سـابُورُ

وبنـو الأصْـفَرِ الكـرامِ ملـوكُ الـ ... ـرومِ لَمْ يبْـقَ مِـنهمُ مـذكورُ

وأخـو الحَضْـرِ إذ بنـاه وإذ دِجْـ ... ـلَةُ تُجْبَـى إليْـهِ والخـابُورُ

شـادهُ مرمـراً وجلَّلَـهُ كِلْـ ... ـساً فلِلطَّـيْرِ في ذراهُ وكـورُ

لم يَهَبْـهُ ريـبُ المنـونِ فبـادَ الْـ ... ـمُلكُ عنـه فبابُـه مهجـورُ

وتَـذَكَّرْ ربَّ الخَوَرْنَـقِ إذ أشْـ ... ـرَفَ يَوْمـاً ولِلْهُـدى تَفْكـيرُ

سَرَّه مالُـهُ وكَثْـرةُ مـا يَمْـ ... ـلِكُ والبحـرُ مُعْرِضـاً والسَّـديرُ

فـارعوى قَلْبُـهُ وقـالَ فـما غبـ ... ـطَةُ حَـيٍّ إلى المـماتِ يَصـيرُ

ثـم أضْـحَوا كـأنَّهم وَرَقٌ جَفْـ ... ـفَ فـألْوتْ بِـهِ الصَّـبا والـدَّبورُ

ثـم بعـدَ الفـلاحِ والمُلْـكِ والإمَّـ ... ـةِ وارتْهـمُ هُنـاكَ القُبُـورُ

وهذا الذي ذكره القرآن فيه ردٌّ على الذين يخافون المواجهة في ميدان القتال، فقد أخبرهم بأنَّ الموت له أجلٌ محدودٌ، لا يعجلُهُ الهربُ مِنَ الحربِ، ولا القتالُ، فقد تطول أعمارُ المقاتلين، وتَقْصُرُ أعمارُ النائمين في بيوتهم.

٣- النِّعَمُ والمصائبُ كلُّها مِنْ عندِ الله:

ذمَّ اللهُ -تعالى- أقواماً من المنافقينَ واليهودِ والمشركينَ إذا أصابتهم حَسَنةٌ، وهي النعمةُ، قالوا: هذه مِنْ عندِ الله، وإن أصابتهم سيئةٌ، وهي النقمةُ قالوا: هذه من عندك، فأمر اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يردَّ على هؤلاء، ويقول لهم: النِّعَمُ والمصائبُ كلُّها مِنْ عند الله، أي: بقضاءِ الله وقدرِهِ، ثم ذمَّ اللهُ -تعالى- هذه الطائفةَ التي قالتْ هذا القولَ، ووصفهم تعالى بالجهل، وأخبر تعالى أنَّهم لا يكادون يفقهونَ حديثاً ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء:٧٨].

واللهُ -تبارك وتعالى- قرَّرَ في هذه الآيةِ قاعدةً كُلِّية عظيمة، وهي أنَّ جميعَ الأمور بيد الله تبارك وتعالى وبإرادتِهِ، الخيرُ والشرُّ كلُّه من عندِ الله في الدنيا والآخرة، فالخيراتُ والنعمُ من الخلقِ والإيجادِ، والطعامِ والشراب، والصحة والعافية، والنصر والغنيمة، والسلامة والأمن، وراحةِ النفس، وهدوءِ البال، والاستقامة على دين الله، والسلامة في الآخرة، والنَّجاة من النار، ودخول الجنة كلُّها من الله تعالى.

وكذلك المصائبُ والنقمُ، والبلايا والرزايا، كلُّها من الله، أي: بقَدَرِ الله، ومن ذلك الفقرُ والجوعُ، والمرضُ والهزيمةُ، وذهابُ الأموالِ، وموتُ الأولادِ والأزواجِ، ونحو ذلك كلُّها من الله تعالى، لا يشذُّ عن ذلك شيءٌ.

وهؤلاء الذين نسبوا النقم إلى الرسولِ ﷺ ضلُّوا ضلالاً بعيداً، فقد جعل الله رُسله جميعاً مباركين، ورسولُنا ﷺ أعظمهم بركةً، فهو مباركٌ في نفسه، ومباركٌ في فِعْلِهِ، كان يبارك الطعامَ والشراب، فيكفي القليلُ العددَ الكثير، وحلّ بالمدينة فباركها، وبارك مسجدَها، فالصلاةُ فيه بألفِ صلاةٍ، وكان يدعو بالنصرِ فيستجابُ له، ويدعو بالمطر فينهمر غزيراً كثيراً، وفي الآية ردٌّ على القدرية الذين يزعمونَ أنَّ السيئات من العباد، لا مِنْ ربِّ العباد، وهؤلاء أثبتوا خالقين من دون الله تعالى.

٤- ما أصاب العبدَ من النعم فمن الله تعالى وما أصابَهُ من النقم فبسبب معاصيه:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه ما أصاب الواحدَ منا من حسنة، أي: مِنْ نعمة، فهو مِنْ ربِّنا تبارك وتعالى، وما أصابنا مِنْ نقم وبلايا فهو بسبب أنفسنا، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء:٧٩].

وهذه لا تخالفُ الآيةَ السابقةَ، فالنقمُ قدَّرها اللهُ على العباد بسبب ذنوبِهِمْ، وإصابةُ العبدِ المؤمن بالمصائبِ يُكَفِّرُ اللهُ بها الزلاَّت، روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد وأبي هريرة أنّهما سمعا رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ما يصيبُ المؤمنَ مِن وَصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ، حتى الهَمَّ يُهَمُّهُ إلا كفَّرَ به مِنْ سيئاته» [مسلم: ٢٥٧٣].

٥- أرْسلَ اللهُ محمداً ﷺ رسولاً، وشهدَ له بذلك:

خَتَمَ الله تعالى هذا النصَّ بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء:٧٩] أخبرنا ربُّنا عز وجل أنه أرْسَلَ إلينا عَبْدَهُ ورسولَه محمداً ﷺ مبلغاً عن ربِّنا ما يريده منَّا من شرائعَ، فأخبرنا بمحابِّه ومكروهاتِهِ، وهو شاهدٌ على أنه عبدُهُ ورسولُهُ، وقد أظهر هذه الشهادةَ بألوانٍ كثيرةٍ تدُلُّ على ذلك، فمنها نصْرُهُ وتأييدُهُ في حياته، ونصرةُ دينه وأتباعِهِ بعد مماته، وعقابُ أعدائه ومَنْ أراده بسوء، وفضحهم، وآتى أتباعه الحجةَ والبرهانَ، وأظهر لهم الآياتِ الدالةَ على صدقه دائماً وأبداً.

رابعاً: ما تهدي إليه هذه الآيات من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي:

١- مَنَعَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ وصحابته في مكة قبل الهجرة مِنَ القتالِ، وأمرهم في تلك الفترة بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفي ذلك حِكَمٌ كثيرةٌ، منها قلةُ عددهم وكثرةُ عدوهم، ومنها اختلاطُ الفريقين حتى في المنزلِ الواحدِ، فلا يقرُّ للناسِ قرارٌ في المجتمع المكي لو كتب القتال على المؤمنين.

٢- تعجيبُ الله رسولَهُ ﷺ مِنْ حال بعض المؤمنين الذي طلبوا مِنَ الرسول ﷺ أن يأذن لهم بالقتال في مكة، فلما فُرِض عليهم القتالُ في المدينة فزع فريقٌ منهم وجزع.

٣- الذين فزعوا وجزعوا عندما فُرِضَ عليهم القتالُ لم يدركوا حقيقةَ الدنيا بالنسبة للآخرة، فالدنيا متاع قليلٌ، والآخرةُ خيرٌ للذين يتقون اللهَ تعالى.

٤- الموت له أجلٌ محدَّدٌ، فإذا حضرَ الأجلُ جاءَ الموت، ولو كان الإنسان متحصناً في أقوى القلاعِ والحصون، وكم مِنْ أقوام طالت أعمارهم، وقد قضوا أوقاتهم في الحرب والقتال، وآخرون قلَّت أعمارهم وقد عاشوها مرفهين في النعيم.

٥- إدراكُ الحقيقةِ السابقةِ جعل الأمةَ المسلمةَ أمةً مقاتلة، تطلب الموت، فتوهب لها الحياةُ.

٦- ظنَّ بعضُ الجاهلين أنَّ النِّعَمَ من عندِ الله والنقمَ من عندِ الرسول ﷺ ، فردَّ الله عليهم، وأكذبهم، وأخبر أنَّ النعم والنقم كلها من عند الله.

٧- مع أنَّ النعم والنقم كلَّها بقضاء الله وقدره، لا يشذُّ عن ذلك شيءٌ، إلا أنَّ المصائبَ قدَّرها اللهُ على العباد بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

٨- محمد ﷺ مرسلٌ من عند الله ليبلغنا عن الله دينَه وشرعَهُ، وقد شهد الله لرسوله ﷺ بالصدقِ في حياتِه وبعد مماته، وذلك بتأييده وتأييد أتباعه.

النص القرآني الثالث والعشرون من سورة النساء

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾

أولاً: تقديم

يجبُ على كلِّ مؤمنٍ أن يطيعَ الرسولَ ﷺ، ومن يُطِعِ الرسولَ ﷺ فقد أطاعَ الله، وقد ذمَّ اللهُ المنافقين الذين يعلنون بينَ يدي الرسولِ ﷺ طاعتهُم له، فإذا خرجُوا من عندِهِ أعمل قادتُهُمْ وأصحابُ الرأي فيهم عقولهم في التخطيطِ لعصيانِهِ، ومخالفةِ أمره، فهؤلاءِ عِلْمُ الله محيط بهم، وهو يكتب ما يخططون له، وسيحاسبهم على جرمهم الذي ارتكبوه، وعلى الرسول ﷺ والمؤمنين معه أن يتوكلوا على الله، ويتخذوه ناصراً ومعيناً، وقد أمر اللهُ المؤمنين في المجتمع الإسلامي بعدم إذاعةِ الأخبارِ ذاتِ الأهميةِ التي تتعلق بالأمن أو الخوفِ، وعليهم أن يردُّوها إلى القادةِ وأولي الأمر، وسيعلم أصحابُ العلم والرأي حقيقةَ هذه الأخبار على الوجهِ الصحيحِ، وسيطلعون الأمة على حقيقة ما وقع منها

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء:٨٠-٨٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الذي يطيعُ الرسولَ ﷺ فقد أطاعَ الله:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] ذلك أنَّ الرسولَ ﷺ لا يأمر إلا بما أمر اللهُ به، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه، وفي إخبار ربِّنا لنا بأن طاعة الرسولِ ﷺ طاعةٌ لله بيانٌ لعظم مكانة الرسولِ ﷺ وعلوِّ شأنه، وارتفاع منزلته.

٢- الذين تولَّوْا عن طاعةِ الرسولِ ﷺ اللهُ حسيبُهُمْ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ مَنْ تولَّى عن طاعةِ الرسولِ ﷺ فأمرُهُ إلى الله، هو الذي يُحْصِي عليه عمله، وهو الذي يحاسبُهُ ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ [النساء:٨٠] واللهُ -تبارك وتعالى- لم يُرْسِلْ رسولَهُ حفيظاً يحاسبُ الناس على أعمالهم، ويعاقبهم عليها، قال الزجاج: «لستَ حفيظاً عليهم تعْلَمُ ما يغيبُ عنك مِنْ شأْنهم، وهذا ونظائرُهُ في كتابِ الله من أبْيَنِ آياتِ النبيِّ ﷺ، لأنَّهم ما كانوا يخفون عنه أمراً إلا أظهره اللهُ عليه» [معاني القرآن: ٢/ ٨١].

٣- تبْييتُ المنافقين عصيانَ الرسول ﷺ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن موقف المنافقين مِنَ الرسولِ ﷺ، فإنَّهم إذا كانوا بين يديه، أظهروا استعدادهم للطاعةِ له فيما يأمُرُ به، وينهى عنه، فإذا خرجوا منْ عندِهِ، وبرزوا إلى بيوتهم ومنازلهم بيَّتَ زعماؤُهم ورؤُساؤهم أمراً مخالفاً لما قالوه للرسول ﷺ، ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾ [النساء:٨١].

ومعنى (طاعة): أي يقولونَ أمْرُنا طاعةٌ لك، نسمعُ ونطيعُ لأمرك ونهيك، فإذا خرجوا من بين يديك، وصاروا إلى منازلهم بيَّتَ طائفة منهم غير الذي قالوه للرسول ﷺ، قال الزجَّاجُ: «يقال: لكلِّ أمرٍ قد قُضِيَ بليلٍ قد بُيِّت» [معاني القرآن: ٢/ ٨١] فهؤلاء كاذبون في دعْواهم أنَّهم يطيعون الرسولَ ﷺ، فعندما يغادرون المجلس يعملُ زعماؤهم ورؤساؤُهم ومنظِّرُوهم الرأيَ في عصيانه، والله تعالى عالمٌ بما يقولونَهُ، ويبيتونَهُ، وليس عالماً به فحسب، بل يكتبه عليهم، وسيحاسبُهم عليه، وأَمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يُعْرِضَ عنهم، ولا ينشغلَ بهم، ويتوكَّل على الله الواحد الأحد، أي: يفوض أمره إلى الله، ويعتمدُ عليه، وكفى بالله وكيلاً، أي: كفى به ناصراً وحافظاً.

٤- وجوب تدبُّر المؤمنين القرآن:

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ وفيهم المنافقون الذين أعْرَضَتْ قلوبُهُم عن القرآن الكريم أن يتدبروا هذا القرآن، وذلك بالتأمل فيه، والنظر في معانيه، فالقرآن أُنزل ليتلى، ولتعرف معانيه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء:٨٢].

وقال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد:٢٤].

ومن نتائج التدبُّر الطيبة أن يعْلَمَ المتدبِّر فيه أن هذا القرآنَ سالمٌ من الاختلافِ والتناقض والتعارض، لأنه من عند الله العليم الخبير الحكيم، ولو كان من عند غير الله لحَفَلَ بالتناقضِ والاختلاف.

٥- الموقفُ الذي يجب أنْ يقفه المؤمنون في المجتمع الإسلامي من الوقائعِ الكبار:

ذمَّ اللهُ فريقاً من المجتمع الإسلامي الأول، وأوَّلُ ما يدخلُ في هذا الفريق المنافقون، إذا جاءَهم أمر يتعلق بالأمن أو الخوف، لم ينتظروا حتى يتفحصوه، ويتبينوا حقيقته، ولكنَّهم يتحدثون به في مجالسهم ومنتدياتهم، ويشيعونه، ويذيعون به، ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ [النساء:٨٣].

والواجب على الذين لا يملكون القدرة على استيعاب الأخبار، والتبين من مدى صدقها أن يرُدُّوا هذه الأخبار إلى الرسولِ ﷺ في حياته، وإلى ولاة الأمر من بعده، وسيتبينُ أهلُ العلم والرأي الذين لديهم القدرة على الاستنباطِ حقيقة تلك الأمور، ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣].

وخَتَمَ اللهُ تعالى الآية بقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء:٨٣] أي: لولا فضلُ الله علينا ورحمتُه بإنزالِ القرآنِ علينا، وإرسالِ محمدٍ ﷺ فينا، لاتبعنا الشيطانَ إلا قليلاً منا، ولكنه تفضَّل علينا بإنزالِ القرآنِ وإرسالِ رسولِهِ ﷺ، وهدانا للإيمان، وأنقذنا من الشيطانِ.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من العلم والعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من العلم والعمل:

١- الذي يطيع الرسول ﷺ فيما أمر وترك ما نهى عنه وزجر، فقد أطاع الله سبحانه.

٢- الذين يعصون الله تعالى ورسوله ﷺ أمرهم إلى الله تعالى، هو الذي سيحاسبهم ويعاقبهم، ولم يرسل الله رسوله حفيظاً ومحاسباً لهؤلاء.

٣- المنافقون كذبةٌ يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، يقولون للرسول ﷺ: سنطيعك فيما تأمرنا به، وننتهي عما تنهانا عنه، فإذا خرجوا من عنده أعملوا عقولهم في التخطيط والتدبير لمخالفته.

٤ - أَمْرُ المنافقين إلى الله تعالى، أما الرسول ﷺ والمؤمنون به فعليهم أن يعرضوا عنهم، ويتوكلوا على الله وحده، وكفى بالله وكيلاً.

٥ - أَمَرَ اللهُ المؤمنين بتدبر القرآن، لتظهر لهم معانيه، وتتضح لهم أسراره، ويظهر ما حواه من تناسق واتفاق، لأنه من العليم الخبير.

٦- إذا بلغ المؤمنين في المجتمع الإسلامي أمْرٌ له علاقة بأمن المجتمع، فعليهم أن يرُدُّوه إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر منهم، وسيعلم حقيقته أصحاب العقول الراجحة القادرون على التحليل والتعليل والاستنباط.

٧- يوجد في كل عصر قِلَّةٌ من أصحاب العلم والرأي يؤتيهم الله القدرة على الاستنباط والاجتهاد.

٨- الأخذ بالقرآن واتباع الرسول ﷺ عصمة للأمة من الشيطان.

النص القرآني الرابع والعشرون من سورة النساء

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾

أولاً: تقديم

أَمَرَ الله -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ بأن يقاتل في سبيل الله ولو بقي في الميدان وحَدَه، وأمرَهُ بأن يحثَّ المؤمنين على القتالِ، ووَعَدَ اللهُ المقاتلين في سبيلِهِ أن ينصرهم، ويكفَّ عنهم بأسَ الذين كفروا، ووَعَدَ اللهُ الذين يشفعون في سبل الخيرِ بالأجر والمثوبةِ، كما وعد الذين يشفعون في سُبُلِ الشرِّ بالإثمِ والعقوبةِ، وأمرنا ربُّنا إذا حُيِّينا بتحيةٍ بأن نردَّها بأحسن منها أو مثلها، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه المعبودُ الواحدُ الذي يستحقُّ العبادة، وأقسم سبحانه وتعالى على أنَّه سيجمعنا إلى يومِ القيامةِ، وذلك بإقامتنا من قبورنا أحياء، ليحاسبنا ويجازينا.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٤-٨٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أوجبَ اللهُ على رسولِهِ ﷺ القتالَ في سبيلِهِ لا يكلف إلا نفسه:

أمر اللهُ - تبارك وتعالى - عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ بالقتال في سبيل الله، ولو بقيَ وَحْدَهُ، وأمره بتحريضِ المؤمنين على القتالِ، وذلك بحثِّهم عليه، وترغيبهم فيه، قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النساء:٨٤].

وهذه الآية تكلف الرسول ﷺ بالقتال ولو بقي وحده في الميدانِ، وهي كقول موسى عليه السلام عندما امتنع قومُهُ من قتال الجبارين، فقال مخاطباً ربّه تبارك وتعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ [المائدة:٢٥]، فحرَّمَ اللهُ عليهم دخولَ الأرضِ المقدسة أربعين سنة، وتاهوا في

الأرض طيلة تلك المدة ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:٢٦]. ولكنَّ الصحابةَ لم يفعلوا فعلَ اليهودِ، فقد أطاعوا الرسولَ ﷺ فيما أمر به مِنَ الجهاد، وقد قامَ الرسولُ ﷺ بتحريضِ المؤمنين على القتالِ كما أمره ربُّهُ، ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال في معركةِ بدرٍ لأصحابه: «قوموا إلى جنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرض» [مسلم: ١٩٠١].

وسَمِعَ أبو موسى الأشعري الرسولَ ﷺ يقولُ: «أبوابُ الجنَّةِ تحت ظِلالِ السيوف» [مسلم: ١٩٠٤].

وعن سلمانَ، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ: «رِباطُ يوم وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامِهِ، وإنْ ماتَ، جرى عليه عملُه الذي كان يعملُهُ، وأُجْرِيَ عليه رزقُهُ، وأمِنَ الفَتَّان» [مسلم: ١٩١٣].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ : «إنَّ في الجنة مائةَ درجةٍ، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيلِ الله، ما بين الدرجتين كما بينَ السماء والأرض، فإذا سألْتُم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسطُ الجنة، وأعلى الجنة -أراه- فوقَه عرشُ الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ» [البخاري: ٢٧٩٠] والأحاديث التي حرض الرسول ﷺ فيها على القتال كثيرة.

وقد وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا بالغلبة على الكافرين بقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء:٨٤] أي: بتحريضكَ إياهم على القتالِ تنبعثُ هِمَمُهم على مناجزةِ الأعداءِ، و﴿عَسَى﴾ من الله تعالى واجبةٌ، فهو وعد من الله تعالى، ووعدُه كائن لا محالةَ، وقد قوَّى اللهُ طمعَ المؤمنين بالنصر بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء:٨٤] أي: أشدُّ صَوْلةً، وأعظمُ سلطاناً، والتنكيلُ: العذابُ، قال القاسمي: قال أبو السعود: «﴿عَسَى﴾ عِدَةٌ منه سبحانه وتعالى محقَّقَةُ الإنجازِ بكفِّ شدةِ الكفرةِ ومكرِهِمْ، فإنَّ ما صُدِّرَ بـ(لعلَّ، وعسى) مقرَّرُ الوقوعِ من جهته عزَّ وجل» [محاسن التأويل: ٣/ ٢٣٩].

٢- الشفاعةُ الحسنةُ والشفاعةُ السيئةُ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه مَنْ يشفعْ شفاعةً حسنةً أو سيئةً فإنَّ له نصيباً من أجر الشفاعة الحسنة، وعليه شيئاً من وِزْر الشفاعةِ السيئة، قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء:٨٥]. والشفاعةُ الحسنةُ: أن يتوسط أحَدُنا في أمر يترتب عليه خيرٌ أو دَفْعُ ضيرٍ،

والشفاعةُ السيئةُ أنْ يتوسط أحدنا في أمر يترتبُ عليه ضَيْرٌ، أو دَفْعُ خير، والشفاعةُ الحسنةُ هي مِنْ بابِ التعاونِ على البرِّ والتقوى، والشفاعةُ السيئة هي مِنْ بابِ التعاونِ على الإثمِ والعدوانِ، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة:٢].

وقد رغَّب الرسولُ ﷺ في الشفاعة الحسنة، فعن أبي موسى الأشعري قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا جاءَه السائلُ، أو طُلِبَتْ إليه الحاجةُ قالَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، ويقضي اللهُ على لسانِ نبيِّهِ ما شاء» [البخاري: ١٤٣٢. ومسلم: ٢٦٢٧]. وقد شَفَعَ رسولُ الله ﷺ عند بريرة كي ترجَعَ إلى زوجها مغيثٍ بعد أن أُعتقت فقالت: «لا حاجةَ لي بِهِ» [البخاري: ٥٢٨٣].

وقولُهُ تعالى في ختامِ الآيةِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء:٨٥] قال ابن عباسُ ومجاهدُ: «المقيتُ: الحفيظ والشهيد» [المحرر الوجيز: ٣/ ٦١٧].

٣- وجوبُ ردِّ التحيةِ بأحسنَ منها أو مثلها:

أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- إن نحن حُيِّينا بتحيةٍ أن نردَّها بأحسنَ منها أو بمثلها، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء:٨٦].

وتحيةُ الإسلام السلامُ، بأنْ نقولَ: السلامُ عليكم، وأفضلُ منه أن نقولَ: السلامُ عليكم ورحمةُ الله، والسلامُ الكاملُ هو قولُنا: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُهُ، وقد جَعَلَ اللهُ هذه التحيةَ تحية آدمَ عليه السلام، وتحيةَ ذريته من بعده، ففي سنن الترمذيِّ عن أبي هريرةَ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إن اللهَ قالَ لآدمَ بعد خَلْقِهِ في الجنة: اذْهَبْ إلى أولئك الملائكةِ - إلى مَلأ منهم جلوسٌ - فقلْ: السلامُ عليكم، قالوا: وعليْكَ السلامُ ورحمةُ الله، ثم رَجَعَ إلى ربِّه، فقال: إنَّ هذه تحيَّتُكَ، وتحيةُ بَنِيْك بَيْنَهُمْ» [وقال الترمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ مِنْ هذا الوجه، وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ من رواية زيد بن أسلم، عن أبي صالح عن أبي هريرة، وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذيِّ، ورقمه: ٣٦٠٧].

ونحن مخيَّرون في إجابة التحية بين أمريْنِ: أن نردَّ التحية بمثلها أو بأفضل منها، فنقولُ لمن قالَ لنا: السلامُ عليكم: وعليكُمْ السَّلام، أو نقول: وعليكم السلام ورحمة الله، أو نقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وهذا يدلُّ على أنَّه لا يجوزُ أن نُنْقِصَ التحية، فمن قالَ لنا: السلام عليكم ورحمة الله لا يجوزُ أن نقولَ له: وعليكم السلامُ.

هذا في السَّلام بين المؤمنين، أمَّا اليهودُ والنصارى، فلا يجوزُ لنا أن نبدأهم بالسلامِ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تَبْدَؤُوا اليهودَ ولا النصارى بالسَّلام، فإذا لقيتُمْ أحدهم في الطريق، فاضطروه إلى أضيقه» [مسلم: ٢١٦٧].

فإذا سلَّم علينا اليهوديُّ أو النصرانيُّ، فإننا لا نجيبُهُ إلا بتحية ناقِصَةٍ، بأن نقول: وعليكم، فحسبْ، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إذا سلَّمَ عليكُم اليهودُ، فإنما يقولُ أحدهم: السَّامُ عليكَ، فقُلْ: وعليكَ» [البخاري: ٦٢٥٧، ومسلم: ٢١٦٤ بلفظ: السَّام عليكم].

وعن أنس بن مالكٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ : «إذا سلَّم عليكُمْ أهلُ الكتابِ فقولوا: وعليكم» [البخاري: ٦٢٥٨. ومسلم: ٢١٦٣].

وقد حثَّنا الرسولُ ﷺ على إفشاءِ السَّلام بيننا، وأخبرنا أنَّ إفشاءَ السلام بيننا يورِّثنا التحابُبَ فيما بيننا، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «لا تَدْخُلُونَ الجنةَ حتى تُؤْمِنوا، ولا تؤْمِنوا حتى تحابُّوا، أَوَلاَ أَدُلكُمْ على شيءٍ إذا فعلْتُموه تحابَبْتُم، أَفْشُوا السلامَ بيْنَكُمْ» [مسلم:٥٤].

وأخبرنا عبدُالله بن سلام ﷺ أنه سمع الرسولَ ﷺ أولَ ما قدم المدينةَ يقولُ للناسِ، وقد انجفلوا إليه: «أيها الناس، أفْشُوا السَّلام، وأطْعِمُوا الطَّعامَ، وصَلُّوا والناسُ نِيامٌ، تدْخُلُوا الجنَّة بسلامٍ» [الترمذي (٢٤٥٨)، وقال: هذا حديث صحيح].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنه كُلَّما كانتْ تحيتُنا أوْفى كلما زادَ أجرُنا وثوابنا، فعن عمرانَ ابن حصينٍ ﷺ أنَّ رجلاً جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: السلامُ عليكُم، قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ : «عَشْرٌ»، ثم جاء آخرُ، فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ الله، فقال النبي ﷺ : «عشرون»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاتُه، فقال النبي ﷺ : «ثلاثون» [رواه الترمذيُّ (٢٦٨٩)، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه].

وقوله تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾ [النساء:٨٦] أي: محاسباً لنا على كل شيءٍ، ومنه ردّ السلام بمثله أو بأحسن منه.

٤- اللّهُ هو المعبودُ الحقُّ وسيجمعنا إلى يوم القيامة لا ريب فيه:

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى - أنه هو المعبود الذي يستحقُّ العبادةَ، وأنَّه سيجمعُنا إلى يومِ القيامة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ﴾ [النساء:٨٧] واللامُ في قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ لام القسم، أي: والله ليجمعنكم، وسميت القيامةُ قيامةً، لأنَّ الناسَ يقومون فيها من قبورهم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج:٤٣] أي: يقومون للجزاء والحساب ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين:٦].

وقال ربُّ العزة في ختام الآية: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٧] أي: لا شك في يوم القيامة، ولا أحدَ أصدقُ من ربِّ العزة في حديثِهِ وخبرِهِ ووعْدِهِ ووعيدِهِ.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ – أمَرَ الله –تبارك وتعالى– رسوله ﷺ بالقتال في سبيل الله، ولو بقيَ وحده، وأمرَهُ أن يُحَرِّضَ المؤمنين على القتال، أي: يحثُّهم عليه، ويرغبهم فيه.

٢ – وَعَدَ الله عبادَهُ بأن ينصرهم على أعدائهم، فهو القادرُ على ردِّ بأسِ الكفار، وهو أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً.

٣– مَدَحَ اللهُ الذين يشفعونَ لجلبِ الخيرِ لغيرهم، ودفْعِ الشرِّ عنهم، وذَمَّ الذين يشفعون لجلب الشرِّ لغيرهم، ودفع الخير عنهم.

٤– مشروعيةُ السلامِ على من نلقاهم، ووجوبُ ردّ التحية بأحسنَ منها أو بمثلها.

٥– لا يجوز أن نبدأ الكافرَ بالتحية، وإذا سلَّم علينا نكتفي بالقول: وعليكم.

٦– اللهُ –تبارك وتعالى– هو المعبودُ الحقُّ الذي يستحقّ العبادةَ دون غيره.

٧– اللهُ –تبارك وتعالى– هو الذي يقيمنا مِنْ قبورنا يومَ القيامة، وقد أقْسَم اللهُ على ذلك، وأخبرنا أنَّ القيامة كائنةٌ لا شكَّ ولا ريبَ فيها، وقرَّرَ سبحانه وتعالى أنّه لا أحد أصدقُ منه حديثاً.

النص القرآني الخامس والعشرون من سورة النساء
الموقف الذي يجب أن نقفه من المنافقين والكفار

أولاً: تقديم

ذمَّ اللهُ تعالى موقفَ بعض المؤمنين الذين أحْسَنوا الظنَّ بالمنخذلين من المنافقين في غزوة أُحُدٍ، فقد كانَ الواجبُ أن يكونَ الموقفُ منهم واحداً، فهم ضالُّون كفرةٌ.

وبيَّن لنا موقف الكفارِ منا، فهم يودُّون أن نكْفُر، وأوجَبَ علينا أنْ لا نتخذَ منهم وليّاً ولا نصيراً، حتى يؤمنوا، ويهاجروا إلى دار الإسلام. ثم بيَّن الذين يجبُ أن نتوقفَ عن قتالِهِمْ من الكفار، والذين يجب أن نقاتلهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾ [النساء:٨٨-٩١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لومُ الله -تعالى- المؤمنين في اختلافهم في شأن المنافقين:

أظهر اللهُ -تبارك وتعالى- كُفْرَ المنافقين الذين رَجَعُوا عن رسول الله ﷺ في غزوة أُحُد، وكانوا قريباً من ثلث الجيش، وهم الذين قالَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ ﴾ [آل عمران:١٦٧].

وقد اختلفَ الصحابةُ ﷺ في شأن هؤلاء، فبعضهم رأى أنهم منافقون يُؤخذون ويُقتَلُون، وبعضُهم رأى أنهم مسلمون، يعفى عنهم، ولا يقاتلونَ، فأنزلَ الله في شأن

المختلفين فيهم منكراً عليهم اختلافَهُم، ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا (٨٨) ﴾ [النساء:٨٨].

وقوله: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ أي: طائفتين، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ قال ابن القيم: «قال الفراءُ: ﴿أَرْكَسَهُم ﴾: رَدَّهم إلى الكفر، وقال أبو عبيدة: أرْكَسْتُ الشيءَ ورَكَسْتُه - لغتان - إذا رَدَدْتَه.

والرِّكسُ: قلبُ الشيءِ على رأسِهِ، أو رَدُّ أوَّلِهِ على آخرِهِ، والارتكاسُ: الارتدادُ، ومن هذا يقال للروَّثِ: الركْسُ، لأنه رُدَّ إلى حالِ النجاسةِ، ولهذا المعنى سُمي رجيعاً، والرِّكْس والنَّكْسُ، والمرْكُوس والمنْكُوس بمعنى واحد» [بدائع التفسير: ٢/ ٦٥].

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ أي: من الكفر والشرك وتكذيب الله وتكذيب رسوله ﷺ، وقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ فيه إنكارٌ على الذين يحسنون الظنَّ بالمنافقين، ويدَّعون أنهم مؤمنون، والاستفهامُ للإنكار، وفي الآية بيانُ أنَّ المنافقين ضالون، وقولُهُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا (٨٨) ﴾ فيه بيانٌ لحالِ من يضلُّه اللهُ -تبارك وتعالى- فالذي يضلُّه الله -تعالى- فلن تجدَ لَهُ سبيلاً، أي: إلى الهدى والخيرِ والصلاح.

وقد وَرَدَ في صحيح البخاري ما يدلُّ دلالةً صريحةً على أنَّ هذه الآية نزلتْ في شأن اختلافِ الصحابةِ في المنخذلين من المنافقين عن رسول الله ﷺ في أُحدٍ، فعن زيد بن ثابتٍ قال: «لما خَرَجَ النبيُّ ﷺ إلى أُحُدٍ، رَجَعَ ناسٌ ممن خَرَجَ معه، وكان أصحابُ النبيِّ ﷺ فرقتين: فرقةٌ تقولُ: نقاتلهم، وفرقةٌ تقول: لا نقاتِلُهُمْ»، فنزلتْ ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [النساء:٨٨] وقال: «إنَّها طَيْبَةُ تَنْفِي الذُّنُوبَ كما تَنْفِي النارُ خَبَثَ الفضَّة» [البخاري: ٤٠٥٠. وراجع: ١٨٨٤، ٤٥٨٩].

الموقفُ الذي يجبُ أن نقفه من الكفار:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى-عما تُكِنّهُ قلوبُ الكافرين، فقد كانَ كفَّارُ جزيرةِ العرب يحبونَ أن يرتد المؤمنون عن الإسلام إلى الكفر، فيصبحَ المؤمنونَ والكفارُ على دينِ الكفرِ سواء ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء:٨٩].

وقد نهى اللهُ تعالى المؤمنين أنْ يتخذوا هؤلاء الكفار أولياءَ، أي: أصحاباً وأنصاراً حتى يؤمنوا، ويهاجروا من ديار الكفر، إلى دار الإسلام، ودار الإسلام في ذلك الوقت هي المدينة

المنورةُ دونَ غيرها ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٨٩]، فإذا تَوَلَّوْا، أي: أعرضوا عن الإيمانِ والهجرةِ فقد أمر اللهُ الرسولَ ﷺ وأصحابَهُ أنْ يحاربوا هؤلاءِ، ويأخذوهُمْ، أسراً وقتلاً في أي مكانٍ وجدوهم فيه، ونهاهم ربُّ العزةِ أنْ يتخذوا منهم حالَ كفرهم وليّاً أو نصيراً، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء:٨٩].

٣- عدم مقاتلة المعاهدين والمسالمين:

يظهرُ من تدبِّر آياتِ هذا النص أنَّ المؤمنين أصبحوا في الوقت الذي نزلتْ فيه آياتُ هذا النص قوةً ظاهرةً غالبةً، بل أصبحوا قوةً مؤثرة فيما حولها، وقد استثنى ربُّ العزةِ من الكفار الذين أمرَ الله المؤمنين بقتالهم طائفتين: الأولى: الذين قالَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [النساء:٩٠] وهؤلاء هم الذين دخلوا في قوم عاهدهم المسلمون وصالحوهم، فيأخذون حكم المعاهدين. والثانية: هم الذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء:٩٠] وهؤلاء قومٌ حصرتْ صدورهم، أي: ضاقتْ أن يقاتلوا المسلمين، كما حصرت صدورُهم أن يقاتلوا قومَهُمْ، فهم يريدونَ اعتزالَ الحربِ، فلا يقاتلون المسلمين، ولا يقاتلون قوْمَهُمْ. وقد امتنَّ الله على المؤمنينَ بعدم تسليط هؤلاء الذين اعتزلوهم في الحرب عليهم، فلو شاءَ الله لسلَّط هؤلاء على المؤمنين فقاتلوهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ [النساء:٩٠].

وقد أمَرَ اللهُ -تعالى- المؤمنين في حال اعتزالِ هاتين الفرقتين الحربَ والقتالَ وإلقائهم السَّلَم للمؤمنين، أمرهم بأن يسالموهم، ويوقفوا الحربَ ضِدَّهم، ولم يجعلِ اللهُ للمؤمنين سبيلاً لحرب هؤلاء وقتلهم وغنم أموالهم وسبي نسائِهم وأولادهم ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء:٩٠].

٤- موقفُ المؤمنين من المذبذبين المخادعين:

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الموقف الذي يجبُ على المؤمنين أنْ يقفوه من العدوِّ الذي يريد أنْ يأْمن المسلمينَ ويأمنَ قومَهُ، ولكنَّه لا يستطيع أن يحْسِمَ أمره، ولا يلتزمُ بمهادنة المؤمنين، فتراه إذا ثارت الحروبُ أعانَ قومَهَ، ولم يَكُفَّ يَدَه عن الحربِ والقتالِ، وهؤلاء أمر اللهُ بقتالهم، وحرْبِهم ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ

أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾ [النساء:٩١].

والفرقُ بين هذا الفريق والفريق الذي قبله أنَّ الفريقَ السابق ملتزمٌ بعدم قتال المؤمنين فهم معتزلون للحربِ والقتالِ، تماماً، وهم سالموا المؤمنين وصَدَقُوا في ذلك. أما الفريقُ الثاني فهم يشاركونَ القومَ السابقين في رغبتهم في مسالمةِ المسلمين ومسالمةِ قومهم، ولكنهم لا يلتزمون بذلك، وعبَّر اللهُ عن هذه الحالةِ من الذبذبةِ التي يعيش فيها هؤلاء بقوله: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ ﴾ أي: كلما حاولوا اعتزال الحربِ ارتكسوا وعادوا إلى حربِ المسلمين، ومعاونة قومهم عليهم، وهؤلاء إن بقوا مذبذبين غير ملتزمين باعتزال الحرب، ولم يحافظوا على السَّلْمِ مع المسلمين، ولم يَكُفوا أيديَهُمْ فعلى المسلمين أن يعملوا سيوفهم فيهم أينما وجدوهم، وقد جعل الله للمؤمنين على هؤلاء سلطاناً مبيناً، أي: حجةً على مقاتلتهم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص الكريم وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - ذمَّ اللهُ تعالى موقفَ المؤمنين الذين أحْسَنُوا الظنَّ بالمنافقين الذين انخذلوا عن جيش المسلمين في أُحُدٍ، وكان الواجبُ أن يقف المسلمون من هؤلاء المنافقين الضالين موقفاً واحداً.

٢- ليسَ كلُّ اجتهادٍ ممدوحاً، فقد لامَ اللهَ تعالى الفريقَ المؤمن الذي أحسنَ الظنَّ بالمنافقين، وبيَّنَ خطأهم فيما ذهبوا إليه.

٣- بعضُ النَّاسِ لا يمكنُ هدايتهم إلى الإيمانِ بحالٍ، وهم الذين حَكَمَ ربُّ العبادِ بكفرهم.

٤- كفارُ جزيرةِ العرب كانوا يوَدُّون أن يعودَ المؤمنون كفاراً، فيكونُ حالُ المؤمنين والكفارِ حالاً واحداً.

٥- نهى اللهُ تعالى المؤمنين أن يتخذوا الكفارَ أولياء حتى يؤمنوا ويهاجروا إلى المدينةِ، فإن رفضوا وَجَبَ عليهم حربُهُمْ وقتالُهُمْ.

٦- نهانا الله عن قتال طائفتين: الأولى: الذين دخلوا في حِلْفِ قومٍ بيننا وبينهم ميثاق. والثانيةُ: الذين اعتزلوا حربنا وحربَ قومهم.

٧- علينا أن نقاتل الذين يزعمون أنهم يجتنبون حربنا وحربَ قومِهِمْ، ولكن إذا ثارت الحربُ أعانوا قومَهم علينا.

النص القرآني السادس والعشرون من سورة النساء
حكم المؤمن الذي يقتل مؤمناً خطأً أو عمداً

أولاً: تقديم

بيّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ النصِّ السابق الموقف الحقّ الذي يجب أن نقفه من المنافقين والكافرين، وبيّن الله تعالى في آيات هذا النص أنه لا يجوز للمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً، وبيّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا ماذا يجبُ على من قتل مؤمناً خطأً، سواءٌ أكان أهله مؤمنين أو محاربين أو معاهدين.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم من سورة النساء

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء:٩٢-٩٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يجوز للمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً:

حرّم اللهُ تعالى على المؤمنِ أن يقتلَ مؤمناً إلا إذا وقع القتلُ منه على وجهِ الخطأ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ﴾ [النساء:٩٢] وقوله: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا ۚ﴾ استثناءٌ منقطع، معناه: لكنْ خطأً.

٢- حكم الذي يقتل مؤمناً خطأً:

بيّن اللهُ -تبارك وتعالى- حكم من قتلَ مؤمناً خطأً، وقد يكون أهل القتيل المؤمن مؤمنين، وقد يكونون محاربين، وقد يكونون معاهدين. وقد بيّن الله لنا حكمَ من قتل مؤمناً خطأً أهلُه مؤمنون، فقال سبحانه: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ

﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ [النساء:٩٢] أوجب الله على من قتل مؤمناً خطأً أمرين: الأول: أن يعتق رقبةً مؤمنةً، والرقبةُ المؤمنة كلُّ مؤمن صحَّ عتقه سواء كان صغيراً أو كبيراً، وقد صحح ابن كثير إسنادَ حديثٍ رواه أحمدُ عن رجلٍ من الأنصار أنه جاء رسول الله ﷺ بأَمَةٍ سوداء، فقال: يا رسولَ الله، إنَّ عليَّ عتقَ رقبةٍ مؤمنةٍ، فإنْ ترى هذه مؤمنةً أُعتقها، فقال لها رسول الله ﷺ: «أتشهدين أنْ لا إله إلا الله؟» قالت: نعم، قال: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟» قالت: نعم. قال: «أعتقها» [ابن كثير: ٢/ ٣٤٠].

وقد جاء معاوية بن الحكم السُّلمي بجارية، وقال له: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: ائْتِني بها، فأتيتُهُ بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسولُ الله، قال: «أعْتِقها فإنها مؤمنةٌ» [مسلم: ٥٣٧].

والواجب الثاني ديةٌ مسلَّمَةٌ إلى أهل القتيل، قال تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾، وهذه الديةُ لا يدفَعُها القاتلُ، إنما تدفعها عاقلتُه، قال ابن كثير: قال الشافعي رحمه الله تعالى: «لم أعْلَمْ مخالفاً أنَّ رسولَ الله ﷺ قضى بالديةِ على العاقلةِ» [ابن كثير: ٢/ ٣٤١].

ويدلُّ لصحة ما ذكره الشافعيُّ رحمه الله تعالى ما رواه صاحبا الصحيحين عن أبي هريرة قال: «اقْتتلت امرأتان من هذيل، فرمتْ إحداهما الأخرى بحجرٍ، فقتلتها، وما في بطنها، فقضى أنَّ دية جنينها غُرَّةٌ، عبدٌ أو وليدةٌ، وقضى أن ديَّةَ المرأة على عاقلتها» [البخاري: ٦٩١٠. ومسلم: ١٦٨١].

والغُرَّةُ في الحديث: ما بلغ ثمنُهُ نصفَ عشرِ الديةِ من العبيد والإماء، أي: خمْسٌ من الإبل.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ رغَّبَ اللهُ تعالى أولياءَ القتيل بالعفو عن الديةِ، ولهم في هذا العفو أجْرٌ وثوابٌ، ولذا سمَّاه تبارك وتعالى صَدَقَةً.

٣- حكمُ من قَتَلَ مؤمناً أهله كفّارٌ من أهلِ الحربِ:

فإنْ كان قتيلُ الخطأ مؤمناً، وأهلُه من أهل الحربِ، فالواجبُ على القاتلِ تحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾ [النساء:٩٢] ولا تجبُ الديةُ في هذه الحال، لأنَّ إعطاءَ الكفار المحارَبين ديةَ القتيلِ، فيها إعانةٌ لهم على حربِ المؤمنين وقتالهم.

٤- حكم من قتلَ رجلاً بيننا وبين أهله عهدٌ:

أعلَمنا ربُّنا تباركَ وتعالى أنَّه يجبُ على مَنْ قتلَ رجلاً مؤمناً مِنْ أهلِ العهد دية يسلمها إلى أهل القتيلِ، كما يجب على القاتلِ أنْ يعتق رقبةً مؤمنةً، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢].

٥- إذا لم يجدِ القاتلُ رقبةً مؤمنة:

أوْجَبَ اللهُ تعالى على القاتلِ في أكثر من صورةٍ عتقَ رقبةٍ مؤمنةٍ، فإذا لم يجدِ القاتلُ رقبةً مؤمنةً لعدم وجودِ الرقيقِ كما هو الحالُ في أيامنا هذه، أو لعدم وجودِ المال، كأن يكون القاتل محتاجاً فقيراً، فيجبُ على القاتلِ في هذه الحال أن يصوم شهرين متتابعين ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء:٩٢].

ويدلُّ النصُّ على بطلانِ الصيام إذا قطعه الصائم من غير عذرٍ، فإن كان بعذر الحيضِ أو النفاس أو المرض فإنه لا ينقطعُ، وإن كان بعذر السفر، ففيه قولان، الله أعلم بالأصح منهما.

٦- تحريرُ الرقبة توبةٌ من الله:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أن تحريرَ القاتلِ الرقبةَ بسبب قتله هو من بابِ التوبةِ التي شرعَها، ليتوبَ على عبده القاتل ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وأخبر سبحانه أنَّه تباركَ وتعالى عالمٌ حكيمٌ بما يصلحُ عبادَهُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء:٩٢].

٧- عِظَم جريمةِ الذي يتعمَّد القتلَ من غير سبب شرعي:

رهَّبَ الله -تبارك وتعالى- الذي يقتلُ غيره متعمداً من غير سبب شرعي، فقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء:٩٣].

وقد رهَّب الله -تبارك وتعالى- عبادَه من القتل العمد بإخباره بما يحلُّ بالقاتل في يوم القيامة، فقد أخبر اللهُ تعالى بأنَّ القاتلَ المتعمِّدَ جزاؤه جهنمُ خالداً فيها، وأنَّ الله في ذلك اليوم يغضبُ عليه، ويلعنُهُ، وأعدَّ له عذاباً عظيماً.

والنصوص المحذِّرة من قتل المؤمن مؤمناً كثيرةٌ في الكتاب والسنَّة، كقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١].

وفي الحديث عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ يشهدُ أن لا إله إلا الله وأنِّي رسولُ الله إلا بإحدى ثلاثٍ: النفسُ بالنفسِ، والثيبُ الزاني، والمارقُ من الدين التاركُ للجماعة» [البخاري: ٦٨٧٨. ومسلم: ١٦٧٦].

فإذا تاب القاتلُ في الدُّنيا توبةً صادقةً تابَ اللهُ عليه، فقد أخبرنا رسولنا ﷺ عن توبةِ الله على عبدٍ من عبادِهِ قتل مائة نفس عندما تاب توبةً صادقةً، وخرج من بلده مهاجراً إلى بلدةٍ أهلُها صالحون، فقبضته ملائكةُ الرحمة [الحديث صحيح أخرجه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦)].

وقد أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- عن قبولِهِ توبةَ المشركين وقاتلي النفس التي حرم اللهُ -تعالى- قتلها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الذنب الوحيد الذي لا يقبل المغفرة في يوم القيامة الشرك بالله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - عظم جريمة من قتل مؤمناً لم يأذن الله بقتله.

٢- الذي يقتل مؤمناً خطأً عليه أن يعتق رقبة مؤمنة، فإن كان أهل القتيل مؤمنين فيجب على القاتل أن يدفعَ إليهم ديةً تؤخذ من العاقلةِ.

٣- إذا عفى أهلُ القتيل عن الدية فلهم أجرُ الصدقةِ.

٤- إذا قتلَ رجلٌ رجلاً مؤمناً أهلُهُ كفارٌ محاربون، فيجبُ عليه تحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ، ولا تجبُ عليه الديةُ لأهلِ القتيلِ.

٥- فإن كان القتيلُ من أهلِ العهدِ، فيجبُ على القاتلِ تحريرُ الرقبةِ المؤمنةِ، ويجبُ عليه الديةُ لأهلِ القتيلِ.

٦- الذي لا يجدُ رقبةً لعدم وجودِ الرقيق، أو لكونه فقيراً، فعليه أن يصومَ شهرينِ متتابعين.

٧- عِظمُ جريمةِ الذي يقتلُ مؤمناً متعمداً، ففي يوم القيامة جزاء القاتل جهنَّم خالداً فيها، وغضبَ الله عليه، ولعنه، وأعدَّ له عذاباً عظيماً.

٨- إذا تابَ القاتلُ في الدنيا توبةً صادقة، فإنَّ الله يتوبُ عليه.

٩- عِظمُ جرمِ الذين خرجوا على المسلمين اليوم، يسفكون دماءَهم، ويقتلون رجالَهُمْ ونساءَهم وأطفالَهُمْ، بدعوى أنَّهم كُفَّار، وقد بينت الآياتُ عِظَمَ جرمِ من قتل مؤمناً متعمداً، ويدخل في المؤمنين العصاةُ منهم.

النص القرآني السابع والعشرون من سورة النساء
وجوب التثبت في أمر الذي أظهر الإسلام من الكفار

أولاً: تقديم

أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى - إذا كنَّا مجاهدين أن نتبين في أمر الذي أظهر لنا الإسلامَ من أهل الكفر، ولا يجوزُ أن نبادر بقتل من أظهر الإسلام من هؤلاء بدعوى أنه إنما فعل ذلك لينجوَ من القتل، وبيَّن اللهُ بعد ذلك الأجرَ العظيم الذي يحوزه المجاهدون في جناتِ النعيم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النساء:٩٤-٩٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- وجوبُ التثبت في الحربِ والقتالِ:

أوْجَبَ اللهُ -تبارك وتعالى- على المؤمنين إذا غزوْا في سبيلِ الله أن يتبينوا، ويتثبتوا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ [النساء:٩٤] والضَرْبُ في سبيل الله: السفر للغزوِ والقتالِ في سبيل الله، والتبيّنُ: التَّثَبتُ، فإذا ظهرَ ممن يرادُ قتلُهُ ما يدلُّ على إسلامه، فلا يجوزُ قتلُهُ، ولذلك قال ربُّ العزة: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء:٩٤].

وهذه الآية نزلتْ في شخصٍ ألقى السلامَ على المجاهدينَ في سبيلِ الله، فظنُّوا أنه غير صادقٍ في إيمانِهِ، وأنه ألقى عليهم السلامَ ليُحْرِزَ دَمَهُ، فقتلوه، فأنزلَ اللهُ -تعالى- هذه الآية

منكراً على من قتله، وأمر المؤمنين المجاهدين أن يتحققوا من إسلام مثل هذا الشخص قبل قتله.

ففي صحيح البخاري عن ابن عباسٍ قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:٩٤] «كان رجلٌ في غُنَيْمَةٍ له، فلَحِقهُ المسلمونَ، فقالَ: السلامُ عليكم، فقتلوه، وأخذوا غنيمَتَهُ، فأنزل اللهُ في ذلك إلى قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء:٩٤]» [البخاري: ٤٥٩١. ومسلم: ٣٠٢٥].

وعن ابن عباس قال: «مرَّ رجلٌ من بني سُلَيْم بنفرٍ من أصحابِ النبيِّ ﷺ وهو يسوقُ غنماً له، فسلَّم عليهم، فقالوا: ما سلَّم علينا إلا ليتعوَّذَ منا، فعمدوا إليه، فقتلوه، وأتوْا بغنمهِ النبيَّ ﷺ ، فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٩٤]» [عزاه ابن كثير (٢/ ٣٤٨) إلى أحمد والترمذي، ونقل عن الترمذي أنه قال: هذا حديث حسن صحيح].

وقوله تعالى: ﴿أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ أي: قال لكم: السلام عليكم، وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: الغنيمةَ، وعَرَض الدنيا: منافعُها، ومتاعُها، وسمي متاعُ الدنيا عَرَضاً، لأنه عارضٌ زائل، وقد علَّل اللهُ -تبارك وتعالى- للنهي عن القتلِ لأجلِ متاع الدنيا بقوله: ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ وهي مغانمُ المعارك التي أحلَّها الله لهم، وغنائمُ الآخرةِ، أي: أجْرُها وثوابُها في جناتِ النعيم.

وقد ذكَّر اللهُ المسلمين بحالهم في أول إسلامهم حيث كانوا يُخفونَ إسلامهم عن أقوامِهِمْ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء:٩٤]. أي: تَسْتَخْفونَ بإيمانكم كما استخفى هذا الذي قتلتموه بإيمانِهِ، فمنَّ اللهُ عليكم بنصركُم وإظهارِ دينكم، وفي البخاريّ قال: قال حبيب بن أبي عَمْرَة، عن سعيدٍ، عن ابن عباسٍ، قال النبيُّ ﷺ للمقداد: «إذا كان رجلٌ مؤمنٌ يُخْفي إيمانَه مع قوم كُفَّارٍ، فأظْهَرَ إيمانَهُ فقَتَلْتَهُ، فكذلك كنتَ أنت تُخْفِي إيمانَكَ بمكة من قبلُ» [البخاري: ٦٨٦٦].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء:٩٤] أي: خبير بما أضمرتموه من طلب عَرَضِ دنيا مَنْ قتلتموه.

٢- فَضْلُ المجاهدين على القاعدين:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى - عن عَدَم استواءِ القاعدين من المؤمنين غير أصحابِ الضَّرَرِ، والمجاهدين بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وأعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنه فضَّلَ

منكراً على من قتله، وأمر المؤمنين المجاهدين أن يتحققوا من إسلام مثل هذا الشخص قبل قتله.

ففي صحيح البخاري عن ابن عباسٍ قال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:٩٤] «كان رجلٌ في غُنَيْمَةٍ له، فلَحِقهُ المسلمونَ، فقالَ: السلامُ عليكم، فقتلوه، وأخذوا غنيمَتَهُ، فأنزل اللهُ في ذلك إلى قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النساء:٩٤]» [البخاري: ٤٥٩١. ومسلم: ٣٠٢٥].

وعن ابن عباس قال: «مرَّ رجلٌ من بني سُلَيْم بنفرٍ من أصحابِ النبيِّ ﷺ وهو يسوقُ غنماً له، فسلَّم عليهم، فقالوا: ما سلَّم علينا إلا ليتعوَّذَ منا، فعمدوا إليه، فقتلوه، وأتوْا بغنمهِ النبيَّ ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٩٤]» [عزاه ابن كثير (٢/ ٣٤٨) إلى أحمد والترمذي، ونقل عن الترمذي أنه قال: هذا حديث حسن صحيح].

وقوله تعالى: ﴿أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ أي: قال لكم: السلام عليكم، وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: الغنيمةَ، وعَرَض الدنيا: منافعُها، ومتاعُها، وسمي متاعُ الدنيا عَرَضاً، لأنه عارضٌ زائل، وقد علَّل اللهُ -تبارك وتعالى- للنهي عن القتلِ لأجلِ متاع الدنيا بقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ وهي مغانمُ المعارك التي أحلَّها الله لهم، وغنائمُ الآخرةِ، أي: أجْرُها وثوابُها في جناتِ النعيم.

وقد ذكَّر اللهُ المسلمين بحالهم في أول إسلامهم حيث كانوا يُخفونَ إسلامهم عن أقوامِهِمْ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [النساء:٩٤]. أي: تَسْتَخْفونَ بإيمانكم كما استخفى هذا الذي قتلتموه بإيمانِهِ، فمنَّ اللهُ عليكم بنصركُم وإظهارِ دينكم، وفي البخاريّ قال: قال حبيب بن أبي عَمْرَة، عن سعيدٍ، عن ابن عباسٍ، قال النبيُّ ﷺ للمقداد: «إذا كان رجلٌ مؤمنٌ يُخْفي إيمانَه مع قومٍ كُفَّارٍ، فأظْهَرَ إيمانَهُ فقَتَلْتَهُ، فكذلك كنتَ أنت تُخْفِي إيمانَكَ بمكة من قبلُ» [البخاري: ٦٨٦٦].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء:٩٤] أي: خبير بما أضمرتموه من طلب عَرَضِ دنيا مَنْ قتلتموه.

٢- فَضْلُ المجاهدين على القاعدين:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى - عن عَدَم استواءِ القاعدين من المؤمنين غير أصحابِ الضَّرَرِ، والمجاهدين بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وأعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنه فضَّلَ

المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً، أي: درجةً عظيمةً، ومع هذا التفضيل فالقاعدون والمجاهدون وعدهم اللهُ الحسنى، ثم أخبرنا أنَّه سبحانه فضَّل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً، ويتمثل هذا الأجرُ بالدرجات العالية التي يعطيها اللهُ للمجاهدين في جنَّاتِ النعيم، وغفران ذنوبهم، ورحمةِ الله الواسعة التي تحلُّ بهم، واللهُ سبحانه كثيرُ الغفرانِ والرحمة ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ الدرجات التي أعدَّها اللهُ للمجاهدين مائةُ درجةٍ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ففي مسلم عن أبي سعيد الخدريّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبيّاً، وَجَبَتْ له الجنَّة» فعجبَ لها أبو سعيدٍ، فقال: أعِدْها عليَّ يا رسول الله، ففعلَ، ثم قال: «وأخرى يرْفَعُ بها العبدَ مائة درجةٍ في الجنةِ، ما بينَ كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله، الجهادُ في سبيلِ الله» [مسلم: ١٨٨٤].

وقد نزلتْ الآيةُ في أول الأمر هكذا «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم» فقال ابن أُمِّ مكتومٍ: لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ، وكان أعمى، فأنزل اللهُ: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾.

روى البخاريُّ عن زيدِ بن ثابتٍ أن رسولَ الله ﷺ أمْلَى عليه: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» فجاءَه ابنُ أُمّ مكتوم وهو يمليها عليَّ، قال: يا رسولَ الله، والله لو أستطيع الجهادَ لجاهدتُ، وكان أعمى، فأنزل اللهُ على رسوله ﷺ، وفَخْذُه على فخذي، فثقلتْ عليَّ، حتى خِفْتُ أن ترضَّ فَخِذي، ثم سُرِّيَ عنه، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [البخاري: ٤٥٩٢].

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنَّ القاعدين عن الجهاد الذين أصابهم الضرر كانوا يَشرَكُون المجاهدين في الأجر، ففي صحيح مسلم عن جابر قال: كنا مع النبي في غزاةٍ، فقالَ: «إنَّ بالمدينة لرجالاً ما سِرْتُمْ مَسيراً، ولا قَطَعْتُمْ وادِياً، إلا كانوا معكم، حَبَسُهم المرض» وفي حديث وكيع: «إلا شَرَكوكم في الأجْر» [مسلم: ١٩١١].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - لا يجوزُ المسارعة إلى قتل من أظهر الإسلام بدعوى أنه أسلم ليحفظ دمه، بل يجب التثبتُ في الأمر قبل المبادرة إلى القتل.

٢ - لامَ اللهُ -تبارك وتعالى- الصحابةَ الذين قتلوا من ألْقى عليهم السلام، فلم يرضَوْا بإيمانِهِ، وقتلوه، وساقوا غنيمته.

٣- نهى اللهُ عن قتل الذي ألقى إليهم السلام لأجلِ عرضِ الدنيا ومتاعِها الزائل، ورغَّبَ اللهُ تعالى عن عرض الدنيا الزائل بما عنده تعالى من المغانم الكثيرة في الدنيا والآخرة.

٤ - وَعَظَ اللهُ المؤمنين الذين قتلوا الرجل الذي ألقى إليهم السلام بأنهم كانوا من قبل كاتمين إسلامَهُمْ عن قومِهِمْ مثلما كان هذا الرجل كاتماً إسلامه.

٥- الجهادُ فرضُ كفايةٍ إذا قامَ به من يكفي سقطَ عن الباقين، ويصبحُ فرضَ عين إذا اجتاحَ العدوُّ ديارَهُمْ، فإن لم يكف عددُ المقاتلين لدفعِ الكفار المهاجمين وجب الجهاد على من يليهم، وهكذا.

٦- فضلُ المجاهدين على القاعدين، فقد أعدَّ اللهُ للمجاهدين في الجنة مائةَ درجةٍ، بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض.

٧- الذين يطمعون في الجهاد من أصحاب الأضرار كالمرضى والذين أمرهم الخليفة بالبقاءِ في الديار يَشرَكُون المجاهدين في الأجر والثواب.

٨- الكافر الذي أظهر الإسلامَ يحكمُ لهُ بالإسلامِ، والمرتدُّ الذي أظهر التوبة والإسلام يحكم له بالإسلام حتى يأتي ما يناقض ذلك.

النص القرآني الثامن والعشرون من سورة النساء

﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾

أولاً: تقديم

أوجَبَ الله على المؤمنين أن يهاجروا إلى المدينة، ويفارقوا المشركين، وينصروا المؤمنين، وقد ذمَّ اللهُ أقواماً كانوا قادرين على الهجرة فتقاعسوا، ولم يهاجروا، أما الذين لا يستطيعون الهجرة مِنَ الرجال والنساء والولدان فأولئك عفا اللهُ عنهم، وقد وَعَدَ اللهُ -تعالى- المهاجرينَ بالتوسعة عليهم في الدنيا، والأجر العظيم في الآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:٩٧-١٠٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ظُلْمُ الذين لم يهاجروا إلى المدينة أنفسَهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين كانوا قادرين على الهجرة من مكة إلى المدينة، فلم يهاجروا كانوا ظالمين لأنفسهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء:٩٧].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآية عن الذين توفَّتْهُمْ الملائكةُ، أي: قبضتْ أرواحَهُمْ، وهم ظالمون لأنفسهم، أي: بتركهم الهجرةَ من مكةَ إلى المدينة، وأخبرنا ربُّنا عزَّ وجل أنَّ الملائكةَ سألتهم منكرةً عليهم موبخةً لهم، وهي تقبضُ أرواحَهُمْ: فيم كنتم؟ أي: سألتهم عن السببِ في تركهم الهجرةَ، فأجابوا قائلين: كنا مستضعفين في الأرضِ، أي: كنا لا نستطيع الخروجَ من أرضنا، فمرادهم بالأرض التي استضعفوا فيها مكة. فأكذبتهم الملائكةُ

في دعواهم أنهم كانوا مستضعفين في الأرضِ، فقالوا لهم سائلين إيَّاهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ فإذا كانوا مستضعفين في مكة، فإنَّهم قادرون على الخروج من مكَّةَ، والخلاصِ من مشركي مكة بالخروج إلى المدينة.

وقد حَكَمَ اللهُ على هؤلاء الذين آثروا المقامَ في مكَّة لإحراز أموالهم وأولادهم، وقد تُوفِّيَ بعضٌ منهم في مكة، وخرجَ آخرون منهم للقتالِ مع المشركين، فقتل بعضٌ منهم في ميدان المعركة، وأُسر آخرون منهم، منهم العباسُ بنُ عبدالمطلب، وأحدُ أبناء أخيه، وقد حكمَ اللهُ تعالى على الذين قتلوا في مكةَ أو في معركة بدرٍ بأنَّ ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

روى البخاريُّ عن ابن عباس، قال: «إنَّ ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سواد المشركين على عهدِ رسول الله ﷺ، يأتي السهم، فيرمى به، فيصيب أحَدَهُمْ فيقتلُه، أو يُضْربُ فيُقتلُ، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية» [البخاري: ٤٥٩٦، ٧٠٨٥].

وعن ابن عباسٍ قال: «كان قومٌ من أهلِ مكة أسْلَموا، وكانوا يستخفونَ بالإسلامِ، فأخرَجَهُمْ المشركون يوم بدرٍ معهم، فأُصيب بعضُهُمْ فقال المسلمون: كان أصحابنا مسلمين وأُكْرِهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية قال: فكُتِبَ إلى مَنْ بقي بمكة مِنَ المسلمين بهذه الآية، وأنه لا عذر لهم. قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنةَ، فنزلتْ فيهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠] إلى آخر الآية، فكتب إليهم المسلمونَ بذلك، فحزنوا وأيسوا من كلِّ خير، ثم نزلت فيهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل:١١٠]، فكتبوا إليهم بذلك: إنَّ الله قَدْ جعلَ لكم مخرجاً، فخرجوا، فأدركهم المشركون، فقاتلوهم، حتى نجا من نجا، وقتل من قتل» [الطبري ٣/ ٢٤٥. وحكم محقق ابن كثير على إسناده بالصحة، وقال رجاله ثقات، ابن كثير: ٢/ ٣٥٥] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ والسعةُ في الأرضِ تعني السعةَ في الرِّزْقِ، وكثرة المعاقلِ، وبذلك يخلصُ المرءُ ممن يجبره على الكفر والظلم والفسادِ.

٢- عفوُ الله تعالى عَنْ المستضعفينَ الذين لا يقدرونَ على الهجرةِ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه عفا عن المسلمينَ غيرِ القادرين على الهجرةِ من الرجالِ والنساءِ والولدانِ، لضعفِهِمْ وقلَّةِ حيلتهم ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا

يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [النساء:٩٨-٩٩].

وكان مِنَ المستضعفين بمكةَ عبدُالله بن عباسٍ وأُمُّه، ومنهم عياشُ بنُ ربيعة، وسلمةُ ابن هشامٍ، والوليدُ بن الوليدِ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كنتُ أناً وأمي من المستضعفين، أنا من الولدان، وأمي من النساء» [البخاري: ١٣٥٧].

وقد كان الرسولُ ﷺ يدعو ربَّه أن يُنْجِيَ المستضعفين من المسلمين في مكَّة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: بينما رسولُ الله ﷺ يصلي العشاء، إذ قالَ: «سمعَ اللهُ لمن حَمِدَهُ». ثم قالَ قبل أن يسجد: «اللهمَّ نجِّ عياشَ بن ربيعةَ، اللهمَّ نجِّ سلمةَ بنَ هشامٍ، اللهمَّ نجِّ الوليدَ بنَ الوليدِ، اللهم نجِّ المستضعفين من المؤمنين، اللهمَّ اشْدُدْ وطْأَتَكَ على مُضَرَ، اللهم اجْعَلها عليهِمْ سِنين كَسِني يوسُفَ» [البخاري: ٤٥٩٨. مسلم: ٦٧٥].

وقوله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ والحيلة ما يتوصل به المرءُ إلى مبتغاه في خُفْيَة، وأكثر ما تكون في الشرِّ والفسادِ، وقد تكون فيما فيه خيرٌ وصلاحٌ، كالذي يتخلص من الكفار بأن يجد طريقةً يهاجر فيها إلى ديار الإسلام، ومن ذلك احتيالُ نعيمِ بن مسعود للتفريق بين مشركي قريش واليهود، وكما فعل الحجاجُ بن عِلاط بالكذبِ على زوجتِهِ وأهلِ مكةَ حتى استخلصَ منهم مالَهُ، وكما احتالَ بعضُ الصحابةِ لقتلِ كعبِ بن الأشرف وابن أبي الحقيق، وأبي رافعٍ مِنَ اليهود وغيرهم، فهذه حيلٌ محمودة.

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ هؤلاء المستضعفين الذين لا يجدون حيلةً للخلاص من الكفار ولا يهتدون سبيلاً، فإنَّه تعالى عسى أن يعفو عنهم، و﴿عَسَى﴾ من الله تعالى واجبةٌ، لأنها للإطماعِ، واللهُ تعالى إذا أطمع عَبْدَه وَصَلَهُ إليه.

وختم اللهُ الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: كثيرُ المغفرةِ والرحمة سبحانه.

٣- وجوبُ الهجرة إلى المدينة:

حرَّض اللهُ تعالى المؤمنين على الهجرة في سبيلِ الله تعالى، ووَعَدَ المهاجرينَ برزقهم والتوسعةِ عليهم في الدنيا، وبالأجر العظيم في الآخرة ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:١٠٠].

«والمراغم: السَّعَةُ والمضْطَرَبُ، وقيلَ: المَذْهَبُ والمَهْربُ في الأرض وقال أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾ المعنى: يجد في الأرض مهاجَراً، لأن المهاجِرَ لقومه والمراغم بمنزلة واحدة، وإن اختلف اللفْظانِ» [لسان العرب: ١/ ١١٩٣].

وأخبرنا ربُّنا عز وجل أن الذي يهاجرُ في سبيل الله فإنه يراغمُ عدوَّ الله وعدوَّه، وقيامُ العبدِ بالأعمال التي تغيظ الكفار، ومنها الهجرة في سبيل الله فيها أجرٌ عظيمٌ، وثوابٌ جزيلٌ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠].

ووَعَدَ اللهُ المهاجرَ بأن يوسِّعَ عليه في رزقِهِ، ووَعَدَ الذي يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم يُدْرِكهُ الموتُ، أي: يموتُ في طريقِهِ إلى البلدِ الطيب الذي هاجر إليه، فقد ثبت أجره، وإن لم يصل إلى البلد الذي هاجر إليه.

وقد أخبرنا رسولُ الله ﷺ في الحديث الذي يرويه عمرُ بنُ الخطاب أنَّ: «الأعمال بالنية، ولامرئ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسولِهِ، فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانتْ هجرتُه لدنيا يصيبُها، أو امرأةٍ يتزوَّجُها، فهجرتُه إلى ما هاجر إليه» [البخاري: ٢٥٢٩. مسلم: ١٩٠٧]. ومعنى هجرته إلى الله ورسوله، أي: هجرته مقبولةٌ عند الله.

وأخبرنا رسولُنا ﷺ عن ذلك الذي قَتَلَ تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فسأله: أله توبة؟ فقال: لا، فقتلَهُ، فأتمَّ بقتلِهِ المائةَ، ثم سأل عن أعلمِ أهلِ الأَرض، فأخبره أنَّ له توبة، وأرشده أنْ يهاجرَ من البلدة الخبيثةِ إلى أرضٍ طيبة، أهلها صالحونَ، وأخبر الرسولُ ﷺ أن الله تاب عليه [الحديث في البخاري: ٣٤٧٠. ومسلم: ٢٥٥٠].

رابعاً: ما تهدي إليه الآياتُ من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - عِظَمُ جُرْم الذين يجبُ عليهم الهجرةُ في سبيل الله، ثم يتقاعسون عنها، مع قدرتهم عليها.

٢ - الذين لا يستطيعونَ الهجرةَ من الرجالِ والنساءِ والولدانِ داخلون في عفو الله.

٣ - رغَّبَ اللهُ المؤمنين الراغبين بالهجرةِ بأن يوسِّعَ عليهم في الرِّزْقِ في الدنيا، وبالأجر العظيم في الآخرة.

٤ - يجوزُ للمؤمن أنْ يلجأ إلى حيلة يخلصُ بها من الكفار، أو يُفرِّقُ فيها بيْنَ الأعداءِ في الحربِ والقتالِ، أو يخلِّصُ مالَهُ من أعدائه.

٥ - الذي يخرجُ مهاجراً أو غازياً، فيدركهُ الموتُ قبل أنْ يصلَ إلى دارِ هجرته، أو قبلَ أن يقاتلَ عدوَّه، فقد وقع أجرُهُ على الله.

النص القرآني التاسع والعشرون من سورة النساء
قَصْرُ الصلاة في الخوف والسفر

أولاً: تقديم

شَرَعَ اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ صلاةَ الخوفِ، وبيَّن لنا كيفَ نُصَلِّيها، وأمرنا بأن نأخذ أسلحتنا ونحن نصلي لربِّنا، خشية أن ينتهز العدو الفرصةَ، فيميلَ علينا، ويستأصلنا ونحن نصلِّي، وأذِنَ لنا بوضع السِّلاح إذا أصابنا أذى، كأن ينزل بنا مَطَر، أو يحلَّ بنا مَرَضٌ، ومع إذنه تبارك وتعالى لنا بذلك، فقد أمرنا أن نكون دائمي الحذر من العدوِّ، فإذا أمِنَّا وَجَبَ علينا أن نأتي بالصلاةِ تامَّةً كاملةً في أوقاتِها التي حَدَّدَها لنا ربُّنا.

ونهانا ربُّنا عن أن نَضْعُفَ في طلبِ خصومنا، فإننا وإن كنا وإياهم سواءً فيما يصيبنا من جراحٍ وألم، فإننا نرجو من الله ما لا يرجونه مِنَ النصرِ في الدنيا وثواب الآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص الكريم

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء:١٠١-١٠٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أباحَ اللهُ للمسافرِ أنْ يقصرَ الصلاةَ:

أباحَ اللهُ -تعالى- للمسافر أن يصلي كلاًّ من صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين ركعتين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [النساء:١٠١].

والضَّرْبُ في الأرض: السفر في الأرض، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠] أي: مسافرون للتجارة.

وذهب أكثرُ أهلِ العلم إلى جوازِ قصْرِ الصلاة في السفر، لقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أنَّ الرسول ﷺ كان يقصر الرباعية، فيصليها ركعتين من حين يخرُجُ مسافراً إلى أن يرجعَ إلى المدينةِ، ولم يثبتْ عنه أنَّه أتمَّ الرباعية في سفره ألبتة، وأما حديث عائشة أنَّ النبي ﷺ كان يقصر في السفر ويتمُّ، فلا يصحّ، وسمع شيخه شيخَ الإسلام ابن تيمية يقول: «هو كذب على رسول الله ﷺ» [زاد المعاد: ١٦٨] وما ذهبَ إليه ابن القيم هو القولُ الراجحُ.

والصوابُ مِنَ القولِ أنّ السفرَ الذي تُقصَرُ فيه الصلاةُ هو سفرُ الطاعةِ والسفرُ المباح، كالسفر للجهادِ والحجِّ والعمرة وصلةِ الرحمِ وسفرِ التجارة ونحو ذلك، ولا يجوز القصرُ في سَفَرِ المعصية، كالسَّفر لقطعِ الطريق، وإعانةِ الظالِم.

وقد ذهب قِلَّةٌ من أهلِ العلم إلى أنَّ السَّفَر الذي يباحُ فيه القصرُ هو السَّفر الذي نخشى فيه على أنفسنا من أعدائنا، لقوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ .

والصواب أنَّ القصرَ مباحٌ في حالِ الأمنِ وحالِ الخوفِ، لأن قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ خَرَجَ مخرجَ الغالبِ في الوقت الذي نزلت الآية فيه فجلُّ أسفارِهم إن لم تكن كلّها في ذلك الوقت مخوفةً، والمنطوقُ إذا خَرَجَ مخرجَ الغالب، فلا مفهومَ له، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣].

ويدلُّ لصحة هذا القول ما رواه مسلمٌ عن يَعلَى بن أُميَّةَ، قال: قلتُ لعمرَ بن الخطاب: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فقد أمِنَ النَّاس؟ فقال: عَجِبْتُ مما عَجِبْتَ منه، فسألتُ رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بها عليكُمْ، فاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ» [مسلم: ٦٨٦].

وهذا الحديثُ نصٌّ صريحٌ دالٌّ على جوازِ القصر في السفر في حالِ الأمن وحالِ الخوف. وقد جاءت الأحاديث كثيرةً طيبةً تصرِّح بأنَّ الرسول ﷺ كان يصلي قَصْراً وهو مسافر آمن، فعن أنس قال: «خَرَجْنا مع النبيِّ ﷺ مِنَ المدينة إلى مكّة، فكان يصلي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة، قلت: أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عَشْراً» [البخاري: ١٠٨١. ومسلم: ٦٩٣].

وعن ابن عباس «أن النبي ﷺ خَرَجَ مِنَ المدينةِ إلى مكةَ لا يخافُ إلا ربَّ العالمين فصلَّى ركعتين» [الترمذي: ٥٤٧، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح].

وعن حارثةَ بن وهبٍ الخزاعيّ ﷺ قال: «صلى بنا النبيُّ ﷺ ونحن أكثر ما كنا قَطُّ وآمَنُهُ، بمنى ركعتين» [البخاري: ١٦٥٦. ومسلم: ٦٩٦].

وروى ابن مسعودٍ «أنَّه صلى مع رسول الله ﷺ ، ثم مع أبي بكر، ثم مع عمر، ركعتين ركعتين» [البخاري: ١٠٨٤. ومسلم: ٦٩٥].

فهذه الأحاديثُ وغيرها كثيرةٌ صريحةٌ في القصر في السَّفر، وليس من شَرْطِهِ وجودُ الخوفِ، وهي صريحةٌ في أنَّ القصر قصرُ الرباعيةِ ركعتين.

وقوله تعالى: ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: يدخلَكم الكفارُ في الفتنة، أي: في البلاءِ والعذاب لتتركوا دينكم، وتكفروا بربكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ بَيّنَ الله تعالى في هذا الجزء من الآية السببَ الذي يدعو الكفارَ إلى فتنة المؤمنين، فالكفارُ أعداءٌ للمؤمنين، وعداوتهم بيِّنةٌ واضحةٌ ومن أجْلِ ذلك هم يودُّون أن يغلبوا المؤمنين، ويقهروهم، ويفتنوهم.

٢- مشروعية صلاة الخوف:

شرعَ اللهُ للمؤمنين أن يصلُّوا صلاةَ الخوفِ إذ حَضَرهم الخوفُ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢].

وقد وَرَدَ في سنن أبي داود ذكرُ سببِ نزولِ هذه الآية، فعن أبي عيَّاشٍ الزُّرَقيِّ، قالَ: كنا مع رسولِ الله ﷺ بعُسْفانَ، وعَلَى المشركينَ خالدُ بنُ الوليدِ، فصلَّيْنا الظُّهْرَ، فقال المشركونَ: لقد أصبنا غِرَّةً، لقد أصبنا غفلةً، لو كنا حَمَلْنا عليهم، وهُمْ في الصلاةِ، فنزلتْ آيةُ القَصْرِ بين الظُّهْرِ والعصر.

فلما حَضَرَت العصرُ قامَ رسولُ الله ﷺ مُسْتَقْبِلَ القبلة والمشركون أمامَهُ، فصفَّ خلفَ رسولِ الله ﷺ صَفٌّ، وصَفَّ بعد ذلك الصَّفِّ صَفٌّ آخرُ، فركَعَ رسولُ الله ﷺ ، وركَعُوا جميعاً، ثم سَجَدَ وسَجَدَ الصفُّ الذين يَلونَهُ، وقام الآخرون يَحْرُسُونَهُمْ، فلما صلَّى هؤلاءِ السَّجْدَتَيْنِ، وقاموا، سَجَدَ الآخرونَ الذين كانوا خَلْفَهُم، ثم تأخَّرَ الصفُّ الذي يليه إلى مقامِ

الآخرينَ، وتقدَّمَ الصفُّ الأخيرُ إلى مقامِ الصفِّ الأول، ثم رَكَعَ رسولُ الله ﷺ وركَعُوا جميعاً، ثم سَجَدَ وسَجَدَ الصفُّ الذي يَليهِ، وقام الآخرونَ يَحْرُسُونَهُمْ، فلما جَلَسَ رسولُ الله ﷺ والصفُّ الذي يَليه سَجَدَ الآخرونَ، ثم جَلَسوا جميعاً، فسلَّمَ عليهم جميعاً فصلاَّها بعُسْفانَ، وصلاَّها يومَ بني سُلَيْمٍ.

وقد ذكر أبو داود أن هذا الحديث رواه أيضاً بأسانيد صحيحة عن جابر وابن عباس وأُبَيٍّ [أبو داود: ١٢٣٦. وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود: ١٠٩٦].

وهذه الصفة المذكورة في الحديث السابق، هي التي ذكرت في هذه الآية.

وقد صحّ عن رسولِ الله ﷺ أنه صلَّى صلاةَ الخوفِ بأكثر من صفةٍ، ففي صحيح مسلم عن جابر أنَّهم كانوا مع رسول الله ﷺ بذات الرِّقاع، فنُودِيَ بالصلاةِ، فصلَّى بطائفةٍ ركعتين، ثم تأخروا، وصلَّى بالطائفة الأخرى ركعتين. قال: «فكانت لرسولِ الله ﷺ أربعُ ركعاتٍ، وللقومِ ركعتان» [مسلم: ٨٤٣].

وعن صالح بن خَوَّاتٍ، عمَّنْ شَهِدَ رسولَ الله ﷺ يومَ ذاتِ الرقاعِ أنه صلَّى صلاةَ الخوف، فصَفَّتْ طائفةٌ معه، وطائفةٌ وِجاهَ العدوِّ، فصلى بالتي معه ركعةً، ثم ثَبَتَ قائماً، وأتَمُّوا لأنفسهم، ثم انصرفوا، فصفُّوا وِجاهَ العدوِّ، وجاءت الطائفة الأخرى، فصلَّى بهم الركعةَ التي بقيتْ من صلاتِهِ، ثم ثبت جالساً، ثم سلَّم بهم [البخاري: ٤١٢٩. مسلم: ٨٤٢].

والأحاديثُ التي وصفت لنا صلاةَ الرسول ﷺ في الخوف كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أردتَ إقامةَ الصلاةِ، والطائفةُ: الفرقةُ، وقد أمرهم الله تعالى أن يصحبوا معهم سلاحَهُمْ إذا هم قاموا إلى الصلاة، حتى يتمكنوا من مقاتلةِ الأعداء إن هم شَنُّوا عليهم الغارةَ، وهم في الصلاة، وأمَرَ الله المؤمنين أن يكونوا دائماً حذرينَ يقظين، وأن يصحبوا معهم أسلحتهم دائماً.

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفار يودُّون ويتمنَّوْن أن نغفلَ عن أسلحتنا وأمتعتنا، فيميلون علينا ميلةً واحدةً، أي: يحملونَ عليكم حملةً واحدةً، فيستأصلونكم، ويذهبون بكم ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء:١٠٢].

٣- أباحَ اللهُ للمقاتلين أنْ يضعوا أسلحتَهُمْ في حالِ المرضِ والمطر:

رخَّصَ اللهُ تعالى للمقاتلين أن يضعوا أسلحتهم في حال وجودِ أذى يلحقُ بهم، كأن يصيبهم المطر، أو يكونوا مرضى، ومع ترخيصه لهم بوضعِ أسلحتهم أمرهم بأنْ يحذروا

عدُوَّهم ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ﴾ [النساء:١٠٢] وختم الله تعالى هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء:١٠٢].

وفي ذلك تقوية لقلوب المؤمنين لأنه أخبرنا أنه أعدَّ للكافرين عذاباً مهيناً، يقهرهم، ويذلُّهم، ولا يستطيعون منه خلاصاً ولا فكاكاً.

٤- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ﴾ :

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المجاهدين بعد أنْ يتمُّوا صلاةَ الخوفِ بأن يذكروا اللهَ في حال قيامهم وقعودهم وعلى جنوبهم، أي: على كلِّ أحوالهم ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ﴾ [النساء:١٠٣].

ثم أمرنا ربّنا -تبارك وتعالى- إذا اطمأننا، أي: إذا أمِنَّا، وزال الخوف عنَّا أن نقيم الصلاةَ بأن نأتي بها تامَّةً كاملةً، بخشوعها وركوعها وسجودها وجميع صفاتِها ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣].

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ الصلاةَ مكتوبةٌ على المؤمنين، أي: مفروضةٌ، و﴿مَّوْقُوتًا﴾ لها وقتٌ تبدأ فيه، لا يجوزُ أنْ تُصلَّى قبل دخوله، ولها وقتٌ تنتهي إليه، لا يجوز تأخيرها عنه، فالصبحُ من طلوعِ الفجرِ إلى طلوع الشمس، والظهرُ من الزوال إلى أن يصير ظلُّ الشيءِ مثله، والعصرُ من مصيرِ ظلِّ الشيء مثله إلى اصفرار الشمس، وفي الضرورة إلى غروب الشمس، والمغربُ من مغيبِ الشمس إلى غياب الشفق الأحمر، والعشاءُ من مغيب الشفق الأحمر إلى طلوع الفجر.

٥- **تحريضُ المؤمنين على القتال:**

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين في الآية الأخيرة من هذا النصِّ عن أن يهنوا في طلب أعدائهم وقتالهم ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ﴾ [النساء:١٠٤] والوَهَنُ: الضَّعْفُ، ومن ذلك قولُ زكريا ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ [مريم:٤]، والمراد بالقومِ: أعداء المؤمنين مِنَ الكفارِ، وقوله: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء:١٠٤] أي: إن كنتم تتوجعون لما أصابكم من السفر والقتالِ والقتلِ والجرح، فإنَّ أعداءَكم يصيبهم مثلُ ما أصابكم، فأنتم وإياهم في هذا سواءٌ، ولكنكم تفضلونهم بأنكم

ترجونَ من الله ما لا يرجونَه، فأنتم تجاهدون في سبيلِ الله، وترجون مِنَ الله النصرَ، وترجون في الآخرة الأجرَ المتمثل فيما يهبه اللهُ للمجاهدين من الخلود في جنات النعيم، وختم اللهُ تعالى الآية بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء:١٠٤] والعليمُ الحكيمُ لا يأمركم إلا بما فيه خيركم وصلاحكم في العاجلِ والآجلِ.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- شرع اللهُ تبارك وتعالى لنا أن نَقْصُرَ الصلاةَ في حالِ السفر، وذلك بأن نصلي الرباعية ركعتين.

٢- الشرط في قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لا مفهومَ له، فقدْ دلَّت جملةٌ مِنَ الأحاديث على مشروعية القصر في صلاةِ السفر خفنا أو لم نخف، وهذا الشرط خرج مخرجَ الغالب، فلا مفهوم له.

٣- يبدأ المسافرُ بالقصرِ إذا غادر ديارَ بلده، لأنه لا يكون ضارباً في الأرض إلا بذلك، ولا يكونُ ضارباً في الأرضِ بنيتِهِ السفر.

٤- القصرُ في الصلاةِ فيه عونٌ على سفرِ الطاعةِ والسفرِ المباح، أما سفرُ المعصيةِ فلا يجوزُ أن يستعانَ عليه بالقصر.

٥- علينا أن نحذَرَ من الكفار، فإنهم أعداءٌ لنا عداوتهم بيِّنة.

٦- صلاةُ الخوفِ تصلَّى في السفر والحَضَر، أما القصرُ من غيرِ خوفٍ فلا يكون إلا في السفر.

٧- بيَّنَ القرآنُ الكريمُ كما بيَّنت السُّنَّةُ النبويةُ أنَّ صلاةَ الخوفِ لها أكثر من كيفية، ويأخذُ المقاتلون منها الكيفية الأنسبَ لحالهم، وقد بيَّنَت هذه الآية واحدة من حالات صلاة الخوف، وصورُ صلاةِ الخوف التي وردتْ قديماً قد لا تناسبُ الحالَ في عصر الصواريخ والقنابل، لأن تجمعَ الجيش كُلِّه في مكانٍ واحد، قد يزيل وجودهم إذا انصبت عليهم الصواريخُ والقنابلُ، فيلزم أن يصلُّوا فرادى في بعض الأحيان، أو يصلي كلُّ اثنين أو ثلاثةٍ أو أربعةٍ معاً.

٨- على المجاهدين ألاَّ يغفلوا عن أسلحتهم، بل عليهم أن يأخذوها معهم في صلاتهم، خشية أن ينتهز الكفار الفرصة، فيقضون عليهم، وهم في صلاتهم.

٩- إذا أصابَ المجاهدينَ أذى من مطرٍ أو مرضٍ حلَّ لهم وضعُ أسلحتهم، ومع ذلك عليهم الحذرُ من عدوهم.

١٠- على المؤمنِ أن لا ترهبه قوَّةُ عَدُوِّه، فاللهُ هو القويُّ الغالبُ، وقد أعدَّ للكافرين عذاباً مهيناً.

١١- حثَّ اللهُ -تبارك وتعالى- المجاهدين على ذِكْرِه في كلِّ أحوالهم بعد أن يتموا صلاةَ الخوفِ.

١٢- يجبُ على المؤمنين إذا زال عنهم الخوفُ، وأصبحوا آمنين أن يأتوا بالصلاةِ على الوجهِ التامِّ الكاملِ، فالصلاةُ واجبةٌ على المؤمنين في أوقاتها التي حدَّدها ربُّنا لنا.

١٣- حرَّضَ اللهُ المؤمنين على قتالِ أعدائهم وليدركَ المؤمنون معنى ما أمرهم به أخبرهم أنهم يسْتوون مع أعدائهم فيما يصيبهم في القتالِ والنزالِ، ولكنهم يرجون من الله النصر والغلبَ، وفي الآخرة الأجر والثوابَ.

النص القرآني المتمم للثلاثين من سورة النساء
لا يجوز للمسلم أن يجادل عن الذين يختانون أنفسهم

أولاً: تقديم

وضَعَتْ آياتُ هذا النص للرسولِ ﷺ ولأصحابِهِ وللذين اتبعوه من أُمته بإحسانٍ الموقفَ الحقَّ الذي يجبُ عليهم أنْ يَقِفوهُ من الذين يختانون أنفسهم، فقد وقعت في العهدِ النبويِّ واقعةٌ دافعَ فيها بعضُ الصحابةِ عن الذين اختانوا أنفسهم، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيات، تبيِّنُ الموقفَ السديد الذي يجب أن يلتزمه المؤمنون في هذه الحال وأمثالها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النساء:١٠٥-١٠٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- وجوبُ الحكم بما أنزلَ الله في كتابه وما أراه الله لنبيِّه:

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- نبيَّه ﷺ أنَّه أنزل عليه كتابه، وهو القرآن العظيمُ، ليحكم بين الناس بما أراه اللهُ، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [النساء:١٠٥] فإن كان الحكم منصوصاً عليه في كتاب الله حكَّمَ ذلك النصّ، وإلا فإنّه يجتهدُ فيما عرض عليه، وفي النصِّ وَعْدٌ من ربِّ العباد لرسولِهِ ﷺ بأن يريَهُ ما ينبغي أن يحكمَ فيه إن لم يكن الحكم منصوصاً عليه.

وقد جاءت أحاديثُ كثيرة تدلُّ على أنَّ رسول الله ﷺ كان يجتهد في الحكم، فعن أمِّ سلمة رضي الله عنها، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنكم تَخْتَصِمونَ إليَّ، ولعلَّ بعضَكُمْ ألحَنُ بحُجَّتِهِ من بعضٍ، فمن قضَيْتُ له بحقِّ أخيهِ شيئاً بقولِهِ، فإنَّما أقْطَعُ له قِطْعَةً من النارِ، فلا يأْخُذْها» [البخاري: ٢٦٨٠. مسلم: ١٧١٣. وسنن أبي داود: ٣٥٨٣].

وخَتَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- الآيَةَ بنهي الرسولِ ﷺ أنْ يكونَ خصيماً للخائنين ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:١٠٥] أي: لا تكن معيناً لهم، ومدافعاً عنهم.

٢- سببُ نزولِ هذه الآيات:

روى الترمذيُّ عن قتادةَ بن النُّعْمان، قال: كان أهلُ بيت منَّا يُقالُ لهم بنو أُبَيْرق: بِشْرٌ، وبُشَيْرٌ، ومُبَشِّرٌ، وكان بُشَيْرٌ رجلاً منافقاً يقولُ الشِّعْرَ يهجو به أصحابَ رسولِ الله ﷺ، ثم يَنْحَلُهُ بعضَ العربِ، ثم يقولُ: قال فُلانٌ: كذا وكذا، قال فُلانٌ: كذا وكذا، فإذا سَمِعَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ ذلك الشِّعْر، قالوا: والله، ما يقولُ هذا الشِّعْرَ إلا هذا الخبيثُ، أو كما قالَ الرَّجُلُ. وقالوا: ابْنُ الأُبَيْرِقِ قالَهَا، قال: وكانوا أهلَ بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناسُ إنما طعامُهُمْ بالمدينة التَّمْرُ والشَّعيرُ، وكان الرجلُ إذا كان له يَسارٌ فقدِمَتْ ضافِطَةٌ من الشام من الدَّرْمَك[1] ابتاعَ الرجلُ منها فَخَصَّ بها نفسَهُ، وأما العيالُ فإنما طعامُهُمُ التمرُ والشعيرُ.

فقدِمَتْ ضافِطَةٌ من الشام، فابتاع عميِّ رِفاعةُ بنُ زيد حِمْلاً مِنَ الدَّرْمَك، فجعله في مَشْرَبَة له، وفي المَشْرَبَةِ سلاحٌ ودِرْعٌ وسيفٌ، فعُدِيَ عليه من تحت البيت، فنُقِبَتِ المشربَةُ، وأُخذ الطعامُ والسلاحُ.

فلما أصبحَ أتاني عمِّي رِفاعةُ، فقال: يا ابنَ أخي، إنَّه قد عُدِيَ علينا في ليلتنا هذه، فنُقِبَتْ مشرَبَتُنا، وذُهِبَ بطعامنا وسلاحنا. قال: فتحسَّسْنا في الدارِ، وسألنا، فقيلَ لنا: قد رأينا بني أُبَيْرِقٍ استوْقَدُوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلاّ على بعضِ طعامكُمْ. قالَ: وكانَ بنو أُبَيْرِق، قالوا: ونحنُ نسألُ في الدارِ، والله ما نُرَى صاحبَكُمْ إلا لَبِيدَ بنَ سهلٍ، رجُلٌ منا له صلاحٌ وإسلام، فلما سَمِعَ لبيدٌ اخترَطَ سيفَهُ، وقال: أنا أسْرق، فوالله ليُخالِطَنَّكُمْ هذا السَّيْفُ أو لتُبَيِّنُنَّ هذه السرقةَ، قالوا: إليكَ عنَّا أيُّها الرجلُ، فما أنتَ بصاحِبها، فسألْنا في الدار حتى لم نَشُكَّ أنهم أصحابُها.

فقالَ لي عمِّي: يا ابنَ أخي، لو أتيتَ رسولَ الله ﷺ، فذكرتَ ذلك له، قال قتادةُ: فأتيتُ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: إنَّ أهلَ بيت منَّا أهْلُ جَفاءٍ عَمَدُوا إلى عمِّي رِفاعةَ بنِ زيدٍ، فنَقَبُوا مَشْرَبَةً له، وأخذوا سلاحَهُ وطعامَهُ فلْيَرُدُّوا علينا سلاحَنا، فأما الطعامُ فلا حاجةَ لنا

(١) الضافطة: القوم الذين يجلبون الطعام إلى المدن. والدرمك: الدقيق الأبيض.

فيه. فقال النبيُّ ﷺ : «سآمُرُ في ذلك»، فلما سَمِعَ بنو أُبَيْرِق أتوا رجلاً منهم، يقالُ له أُسَيْرُ بنُ عُرْوةَ، فكلَّموهُ في ذلك، فاجتمَعَ في ذلك أُناسٌ من أهلِ الدار، فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّ قتادةَ ابن النُّعمانِ وعمَّهُ عَمَدا إلى أهل بيت منَّا أهلِ إسلامٍ وصلاح يَرْمُونَهُمْ بالسرقة من غير بيِّنَةٍ ولا ثَبَتٍ.

قال قتادةُ: فأتيتُ رسولَ الله ﷺ ، فكلَّمْتُهُ فقال: عَمَدْتَ إلى أهل بيت ذُكِرَ منهم إسلامٌ وصلاحٌ ترْميهِمْ بالسرقةِ على غير ثَبَت ولا بيِّنةٍ، قال: فرجعتُ، ولوَدِدْتُ أني خرجتُ من بعض مالي، ولم أُكَلِّمْ رسولَ الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمِّي رِفاعةُ، فقال: يا ابنَ أخي ما صَنَعْتَ؟ فأخبرتُهُ بما قالَ لي رسولُ الله ﷺ فقالَ: اللهُ المستعانُ.

فلم يَلْبَثْ أن نزل القرآنُ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء:١٠٥] بني أُبَيْرِق ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:١٠٦] أي مما قلتَ لقتادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [النساء:١٠٦-١٠٨] إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء:١١٠] أي: لو استغفروا اللهَ لغفَرَ لهم ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ ﴾ [النساء:١١١] إلى قوله: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [النساء:١١٢] قولهُم للبيدِ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ إلى قوله: ﴿نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء:١١٣-١١٤].

فلما نزل القرآنُ أتى رسولَ الله ﷺ بالسلاحِ فرَدَّهُ إلى رِفاعةَ، فقال قتادةُ: لَمَّا أتيتُ عَمِّي بالسلاحِ، وكان شيخاً قد عَشا أوْ عَسَا في الجاهلية، وكنتُ أُرَى إسلامَهُ مَدْخولاً، فلما أتيتُهُ بالسلاح، قال: يا ابنَ أخي هو في سبيلِ الله، فعرَفْتُ أنَّ إسلامَهُ كان صحيحاً، فلما نَزَلَ القرآنُ لَحِقَ بُشَيْرٌ بالمشركين، فنزلَ على سُلافةَ بنتِ سَعْدِ بنِ شُهَيدٍ، فأنزلَ اللهُ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء:١١٥-١١٦]، فلما نزل على سُلافة رَماها حسَّانُ بن ثابتٍ بأبياتٍ من شِعْرِه، فأخذتْ رَحْلَهُ، فوضعتْهُ على رأسِها، ثم خَرَجَتْ بِهِ، فرَمَتْ به في الأبْطَحِ، ثم قالتْ: أهْدَيْتَ لي شِعْرَ حسانٍ، ما كُنْتَ تأتيني بخير» [رواه الترمذي: ٣٠٣٦. وقال: هذا حديث غريب. وأورده الألباني في صحيح الترمذي: ٢٤٣٢. وحكم عليه بالحسن. وذكر محقق ابن كثير (٢/ ٣٧١) أنَّ الحاكم صححه، ووافقه الذهبي، وقال محقق ابن كثير: وله طرق وشواهد. وانظر القصة في الطبري: ٣/ ٢٥٢٢].

٣- أمْرُ الله تعالى رسولَهُ ﷺ بالاستغفار ونهْيُه عن مجادلة الذين يختانونَ أنفسهم:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ بالاستغفارِ ونهاه عن المجادلة عن الذين يختانون أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء:١٠٦-١٠٧].

قال الطبري: «﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي: يا محمد، سَلِ اللهَ أن يصْفَحَ لكَ عن عقوبةِ ذنبكِ في مخاصمتك من خانَ مالاً لغيره. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ يقولُ: إنَّ الله لم يزلْ يصفحُ عن ذنوبِ عباده المؤمنين بتركهِ عقوبتهم عليها، إذا استغفروه منها، والله رحيم بهم، فافعلْ أنت يا محمدُ، يغفرْ لكَ ما سلفَ من خصومتك عن هذا الخائن، وقدْ قيل: إنَّ النبيَّ ﷺ لم يكنْ خاصَمَ عن الخائنين، ولكنَّه همَّ بذلك، فأمره الله بالاستغفار مما همَّ به مِنْ ذلك» [الطبري: ٣/ ٢٥٢٢].

والجدالُ الذي نهى اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ: الخصامُ، وأراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: الذين يظلمون أنفسهم بالخيانةِ والسرقةِ، والخوَّانُ: الكثير الخيانةِ، والأثيم: الكثيرُ الإثمِ، وعدمُ محبَّةِ الله للخوان الأثيم يعني أنَّه يكرهُهُ، ويبغضُهُ.

٤- ذمَّ اللهُ -تعالى- الذين يستخفون مِنَ الناس ولا يستخفون مِنَ الله:

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- الذين يستسرُّون في أعمالهم السيئةِ مِنَ النَّاس، ولكنَّهم لا يستخفون من الله، أي: لا يراقبون اللهَ فيما يفعلونه، فهو يراهم، ويطلعُ عليهم عندما يُبيِّتون ما لا يرضى مِنَ القول، وسمَّاه تَبْييتاً، لأنَّ الغالبَ أنْ تكونَ إدارةُ الرأي بالليل ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨].

إنَّ ما تضمنته هذه الآيةُ هو العاصم الذي يعصمُ مِنَ الزلَلِ والفتنِ، ويجعلنا نستقيمُ على أمْر الله، ألا وهو العلمُ بأنَّ اللهَ مطَّلعٌ علينا وعلى أقوالنا وأعمالنا وقلوبنا وخواطرنا.

وقد خَتَم اللهُ -تعالى- الآية بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء:١٠٨] يقولُ الله لهؤلاء: إنَّ اللهَ محيطٌ بما تعملون، وهو قادر على كَبْتكمْ، وردِّ شَرِّكُمْ.

٥- لومُ الله -تعالى- الذين جادلُوا عن هؤلاء في الدنيا:

خاطبَ اللهُ -تبارك وتعالى- الطائفة المؤمنةَ الذين جادلوا عن بني أُبَيْرِقٍ في هذه الحياة الدنيا، والمجادلةُ أشدُّ المخاصمة، ثم قال لهم: إذا كنتم جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن الذي

يخاصمُ اللهَ عنهم في يومِ القيامة، أم من يكونُ وكيلاً عنهم، أي: من يكون حافظاً ومحامياً يحميهم من بأس الله وانتقامه ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النساء:١٠٩].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- وجوبُ تحكيم كتابِ الله تعالى فيما شَجَرَ بين النَّاسِ في المجتمع الإسلامي.

٢- يجوز للرسولِ ﷺ أن يحكم بين النَّاس بالاجتهاد فيما لا نصَّ فيه.

٣- لا يجوز لغير العالم أن يجتهدَ فيما لا نصَّ فيه، لأنَّ مَنْ لا علم عنده كيف يجتهد؟

٤- اجتهادُ الرسولِ ﷺ حقٌّ، لأنه لو كان خطأً فإنَّ اللهَ ينبهه عليه، أما اجتهادُ غيره من أهل العلم فإنه قابلٌ للصواب والخطأ.

٥- بيَّن اللهُ -تعالى- للأمَّةِ المنهجَ الذي يجبُ سلوكُه في مثلِ الواقعة التي وقعت من بني أُبيرق.

٦- لومُ الله تعالى للذين يُسِرُّون أفعالهم عن الناس، ولكنَّهم لا يخفون ذنوبهم عن الله تعالى، فهو مطلعٌ على أعمالهم عالمٌ بها، لا يخفى عليه منهم خافيةٌ.

٧- تهديدُ الذين ناصروا الذين سَرَقوا، أو رَمَوْا غيرهم بالسرقةِ، بأنه سيوقفهم بين يديهِ، ولن يجدوا ناصراً ينْصُرهم، ولا حامياً يحميهم، ويدافعُ عنهم في يوم القيامةِ.

٨- يجبُ على المؤمن الحقِّ أنْ لا يحابي في الحكم صديقاً ولا قريباً، ولا يجوز المجادلةُ عن الخائن، ولا التعصبُ له.

النص الحادي والثلاثون من سورة النساء
فتحُ الله بابَ التوبةِ للعصاةِ المذنبين

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- في الآيات السابقة عن الذين فعلوا السيئات، ورموْا بها غيرهم، وعن المجادلينَ عنهم، وجاءَت هذه الآياتُ لتفتح البابَ للعصاةِ الذين ارتكبوا السيئات، فبابُ التوبة مفتوحٌ على مصراعيه، واللهُ لا يتعاظمه ذنبٌ مهما عَظُمَ، فالمشركونَ والقتلةُ والزناةُ والسارقون وغيرهم بابُ التوبةِ مفتوحٌ لهم، فإن صَدَقَ المذنبُ، فإنَّ اللهَ يتوبُ عليه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٠-١١٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- دعوةُ الله الذين ارتكبوا السيئات إلى التوبة:

دَعى اللهُ -تباركَ وتعالى- عبادَهُ الذين ارتكبوا السيئات، وظلموا أنفسَهُمْ بما فعلوه من الذنوب إلى التوبةِ والاستغفار، فإنْ هم تابوا واستغفروا، فسيجدوا اللهَ تعالى غفوراً رحيماً، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء:١١٠].

«والسوءُ كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ من الأمورِ الدنيويةِ والأُخرويةِ» [المفردات: ص٢٥٢] والمراد بها في الآية الذنبُ والمعصيةُ التي تسوءُ صاحبها في يومِ القيامة، وظلمُ العبدِ نفسَهَ بالمعصية لمعاقبةِ الله العبدَ إن لم يَتُب من معصيته.

وهذه الآية وإن كانت واردةً على السارقين والمجادلين عنهم الذين تحدَّثتْ الآياتُ السابقةُ عنهم، فإنَّها شاملةٌ لكل من ارتكب ذنباً أو معصيةً.

٢- من ارتكبَ ذنباً فوِزْرُهُ على نفسه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذي يرتكبُ ذنباً، فوِزْرُهُ على نفسِهِ، فلا يؤاخذُ غيره به، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ [النساء:١١١].

وهذا يدلُّ على بطلان ما تقرَّرَ عند النصارى من أنَّ عيسى عليه السلام جاء ليخلِّص البشر مِنَ الخطيئة التي ورثوها من أبيهم آدم عليه السلام ، والصوابُ ما قرَّره الحقُّ تبارك وتعالى أنَّ كلَّ من كَسَبَ خطيئةً، فإنَّ وِزْرَها واقعٌ عليه دون غيره، واللهُ عليمٌ بالذين ارتكبوا السيئاتِ، وحكيمٌ فيما يقرِّرهُ من أحكام، وآدم عليه السلام عصى ربَّه ثمَّ تاب، فتاب الله عليه.

٣- عِظَمَ جُرْمِ الذين يرتكبونَ السيئات ثم يرمونَ بها مَنْ لم يرتكبها:

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- لنا عِظَمُ جُرْمِ الذين يرتكبون السيئاتِ، كالذين يسرقونَ أو يزنونَ أو يقتلونَ، ثم يرمونَ غيرهم بما اقترفوه، فهؤلاءِ إثمهم مضاعَفٌ، وجرمهم أكبرُ ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء:١١٢]، والبهتانُ الذي احتملوه الكذبُ العظيمُ الذي يبهتُ سامِعَهُ لفظاعته، والإثمُ العذابُ الذي يجزون به في يوم الدين إنْ لم يتوبوا ويستغفروا، واكتسابهم للإثم، لأنَّهم يتحملون هذا الإثم حتى يجزوا به في يوم القيامة.

٤- فَضْلُ الله على رسولِه ﷺ في عِصْمَتِهِ من الضَّلالِ:

امتنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ في عصمته من الذين يريدون إضلالَه، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [النساء:١١٣].

والبشرُ يحاولون جهدَهُمْ لإقناعك بما يرونه، وقد يكونُ ضلالاً وباطلاً، وقد عصمَ اللهُ رسولَهُ ﷺ بالتزامِهِ بما أوحاه إليه، فنجَّاهُ مِنَ الضلالِ، ولذلك فإنَّ الذين كانوا يُجْهِدُون أنْفُسَهُمْ في إضلالِ الرسولِ ﷺ ، لا يُضِلُّون إلا أنفسَهُمْ، ولا يَضُرُّون رسولَ الله ﷺ شيئاً.

وقد امتنَّ اللهُ على رسولِهِ ﷺ بإنزالِ الكتابِ والحكمةِ عليه، وتعليمه ما لم يكنْ يعلم، وهذا هو الذي يعصمُهُ من الضلالِ، وهو أيضاً عصمةٌ لأُمته، وهذا فَضْلٌ عظيم مِنَ الله حَبا به رسولَهُ ﷺ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣].

والحكمةُ: إصابةُ الحكم في القولِ والعمل، وقد آتاها اللهُ لقمانَ عليه السلام ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان:١٢] وآتاها اللهُ الأنبياءَ والرسلَ ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:٢٥١]، وقال في عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:٤٨] وحظُّ رسولنا ﷺ من الحكمةِ أكملُ من حظِّ غيره، فقد أنزلَ عليه ديناً كاملاً، ووهبه عقلاً وافراً.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - باب التوبة مفتوح، فكلُّ من اقترفَ ذنباً، ثم توجَّه إلى الله بصدقٍ غفر له ذنبه.

٢ - كلُّ مَنْ ارتكبَ ذنباً فوزره على نفسِهِ، ولا يضيرُ غيره بما اقترفه في يوم الدين.

٣ - الذي يرتكبُ جرماً، ثم يرمي بجرمه بريئاً، فجريمتُهُ عظيمة ووزرُه كبير.

٤ - عَصَمَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ من إضلال العبادِ له، والذين يحاولون إضلالَه لا يستطيعونَ، وإثمهم على أنفسهم، ولا يضرونَهُ شيئاً.

٥ - عصم اللهُ رسولَهُ ﷺ بما أوحاه إليه مِنَ الكتابِ والحكمةِ، وتعليمه ما لم يكن يعلم، وهذا مِنْ فضلِ الله العظيمِ على رسوله ﷺ.

٦ - بمقدارِ ما يَفْقَهُ المسلمُ كتابَ الله وسنّةَ رسولِ الله ﷺ يخلص مِنَ الضلال، فلا تزال العصمةُ مِنَ الضلال يزخر بها الكتابُ والسنّةُ.

النص القرآني الثاني والثلاثون من سورة النساء
النجوى التي لا خير فيها

أولاً: تقديمٌ

كان المنافقون يُكْثِرون مِنَ التناجي سِراً في المجتمع الإسلاميِّ، وأكثر هذه النجوى التي يسارُّون فيها لا خير فيها، فالتناجي في شؤونِ الدولة وقضايا الناس العامة بعيداً عن موطن اتخاذ القرار تؤدي إلى التنازع والاختلافِ، واستثنى اللهُ مِنَ النجوى ما كان موضوعُهُ الصدقَةَ والمعروفَ والإصلاحَ بينَ الناسِ، فهؤلاءِ الذين يبتغون بنجواهم رضوانَ الله أجرهم عظيمٌ وثوابُهُمْ جزيلٌ.

وتهدَّدَ اللهُ في هذه الآيات الذين يعادون رسولَ الله ﷺ بعد أن تحققوا من صِدْقِ رسالتِهِ، فرفضوها عن عِلْمٍ، وقد تهدَّدَهُمْ بأن يصليهم النار، وفي الآية الأخيرة إظهار لعظم جريمة الشرك، وأنها أعظمُ الذنوب.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾

[النساء:١١٤-١١٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا خيرَ في كثير من نجواهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه لا خيرَ في كثيرٍ من نجوى الناسِ، والنَّجوى: حديث السرِّ بين اثنين أو أكثر من ذلك ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ [النساء:١١٤] واستثنى من النجوى التي لا خير فيها النجوى التي فيها الأمرُ بالصدقةِ أو المعروف أو الإصلاح بين الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [النساء:١١٤] استثنى النَّجوى التي يتداول المتناجون فيها تقديم العونِ للفقراء والمساكين، ويأتمرون بالمعروف وهو ما أمر

اللهُ به من واجبات أو مستحباتٍ، أو يتداولون في إصلاح ما وقعَ بين المسلمين من خلافٍ وتنازعٍ وتخاصمٍ، فالذين يتناجون في هذه الأمور يطلبون رضوانَ الله تعالى ومرضاتِهِ وسوفَ يعطيهم اللهُ الأجرَ العظيمَ، والثوابَ الجزيلَ في يومِ لقياه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٤].

وقد أخبرنا الرسولُ ﷺ بعظم درجةِ الذي يسعى بالصلح بين الناس، ففي الحديث عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقة؟» قالوا: بلى، قال: «صلاحُ ذاتِ البَيْنِ، فإنَّ فسادَ ذاتِ البَيْنِ هي الحالِقَةُ» [الترمذي: ٢٥٠٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح].

٢- عظمُ جريمة الذين يشاقون الرسولَ ﷺ:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنه ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥] ومشاقَّةُ الرسول ﷺ تكونُ بمخالفتِهِ ومعاداتِهِ والكفر بهِ، من بعد ما تبين لهذا المشاقّ أنه رسولُ الله، مرسلٌ من عند الله بالهدى ودين الحق، وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو الدين الذي هم عليه، وهو الإسلامُ، فإنَّ اللهَ يوليه ما تولّى، فمن تولَّى الأصنام وكله الله إليها، ومَنْ تولى الجبابرة كفرعون وهامانَ ونمرودَ وكله إليهم، وهؤلاء لا يغنون عنه من الله شيئاً، وسوف يصليهم اللهُ في يوم القيامةِ النارَ، وساءَتْ النارُ مصيراً لهم.

٣- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنه لا يغفرُ أن يُشرَكَ به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاءُ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء:١١٦] وهذا النصُّ من هذه الآية وَرَدَ بمثل ورودِهِ في الآية رقم (٤٨) من هذه السور.

وبينتُ هناك أن في الآية ردًّا على الخوارجِ الذين يكفّرون مرتكبَ الذنب إنْ لم يتب عنه، وعلى المعتزلةِ الذي يجعلونه في الدنيا ليس مؤمناً ولا كافراً، ويحكمون عليه بالخلودِ في النار في الآخرة، والآياتُ صريحة في أنَّ الذي لا يقبل الغفرانَ هو الشركُ، أما ما دونه من الزنا والسرقة والربا إن لم يستحلَّها فهي إلى الله تعالى إنْ شاءَ عفا عن الذنب، وإنْ شاءَ عذبَ به، ثم أخرجه من النار.

وقد أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- في خاتمة هذه الآية أنَّ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء:١١٦] وإنما كان ضلالُ المشركِ بعيداً، لأنَّ الشرْكَ أعظم أنواعِ الضلالِ، وأبعدُها عن الاستقامةِ والصلاحِ.

وختم اللهُ -تعالى- الآية رقم (٤٨) بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ أي: من أشرك بالله تعالى فقدْ افترى على الله إثماً عظيماً، والافتراءُ أعظمُ الكذبِ، ولا أعظم كذباً على الله مِنْ دعوى من ادَّعى أنَّ لله -سبحانه- شريكاً.

وأحبُّ أن أنبه هنا إلى أن بعضَ من يقترفُ الشرك، يظنُّ أنه ناجٍ في يوم القيامةِ، لأنه لا يعرفُ الشركَ، فبعضُ الذين يدْعُونَ غيرَ الله، ويستغيثونَ بغيرِ ٱلله، ويذبحونَ الذبائحَ للأنصابِ والجنِّ، هؤلاء مشركون، ووقوفهم بين يدي الله عظيم يوم الدين.

رابعاً: ما تهدي إليه الآيات من علم وعمل

إذا أمعنَّا النظرَ في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- نهى اللهُ -تبارك وتعالى- عن كثير من النجوى في المجتمع الإسلامي، فقد كان بعضُ المسلمين، وكثير مِنَ المنافقين والفاسقين يتناجون سِرّاً بعيداً عن الرسولِ ﷺ والجماعةِ المسلمة وهذا يُسَبِّبُ النزاعَ والخلافَ والبعدَ عن توجيهات القيادة المسلمة.

٢- أذنتِ الآياتُ في التناجي إذا كان الموضوعُ الذي يتناجى فيه هو أعمالَ الخير، من الصدقة أو المعروف والإصلاح بين الناس.

٣- يستفادُ من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ...﴾ أنَّ العملَ الصالح، لا يتمُّ، ولا يكونُ مقبولاً عند الله حتى يبتغي به صاحبُهُ وجْهَ الله تعالى.

٤- عظمُ جريمةِ الذي يُشاقّ الرسولَ ويعاديه ويكفر به، ومصير هذا الصنف النَّار.

٥- لا يكون المرءُ مذموماً إذا شاقَّ الرسول ﷺ حتى يعلمَ أنَّ محمداً رسولُ الله، جاءَ من عندِ الله.

٦- أعظمُ الذنوبِ الشركُ بالله تعالى، والذي يموتُ مشركاً لا يغفرُ اللهُ له شِرْكَهُ.

٧- في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ردٌّ على الخوارجِ الذين يُكَفِّرون مرتكبَ الكبائر في الدنيا؛ وردّ على المعتزلة الذين يقولون: إنَّ مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً في الدنيا، بل هو في منزلةٍ بين المنزلتين، ويحكمون عليه بالخلود في النار يوم القيامة.

٨- استدلَّ الإمامُ الشافعيُّ -رحمه الله تعالى- بقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على حجِّيةِ الإجماعِ، وحرمةِ مخالفتِهِ.

النص القرآني الثالث والثلاثون من سورة النساء

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ العربَ كانوا في الجاهلية يعتقدون أنَّ آلهتهم إناثٌ، وكانوا يعبدون مع تلك الآلهة الإناث الشيطان، وقد أطالت الآياتُ في الحديث عن هذا الشيطان، وأخبرتْ أن اللهَ لعنه، وأخبرنا ربُّنا بما قاله الشيطان له عندما طردَه من رحمته، وبيَّن لنا خطواتِه، وأخبرنا عن مدى الخسارة التي تحيق بمن يتخذ الشيطان وليّاً، وأخبرنا ربُّنا عن مصير أولياء الشيطان، ومصيرِ أولياءِ الرحمن.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النساء:١١٧-١٢٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كان العربُ يسمونَ الآلهةَ التي يعبدونها من دون الله باسم الإناث:

كان العربُ في الجاهلية يُسَمُّون الآلهةَ التي يعبدونها مِنْ دون الله باسم الإناثِ، ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾ [النساء:١١٧] ومن هذا زَعْمُ أهل الجاهلية أن الملائكة التي يعبدها بعضُهم كانت إناثاً ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف:١٩-٢٠].

وسموا أصنامَهُمْ التي عبدوها من دونِ الله بأسماء الإناث، ومنها العزَّى، وهي مؤنث العزيز، ومنها مناةُ الثالثةُ الأخرى ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم:١٩-٢٢].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية السابقة أنَّهم مع عبادَتهم الأصنامَ التي سمّوها باسم الإناثِ يعبدون الشيطانَ، ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾. والشيطانُ المريدُ الذي عبدوه من دون الله هو إبليس، والمريد: المتعرِّي من الخير، المغموس بالشرِّ، والشيطان أصلُ كلِّ بلاء وشرٍّ، فكلُّ شرٍّ هو من اختراعه، وهو الذي دعا إليه.

٢- التعريف بالشيطان الذي يعبده المشركون:

وصف اللهُ الشيطانَ الذي يعبدُه المشركونَ من دون الله بأنه (مريدٌ)، والمريدُ العاري من الخير وصفات الصلاح، وهو إبليسُ الذي كان يعبدُ الله مع ملائكةِ السماءِ، فلما أمر اللهُ الملائكةَ بالسجود لآدم، رفضَ طاعة أمْرِ ربِّه تبارك وتعالى، فلَعَنَه اللهُ تعالى، أي: طرده من رحمته وجنَّته ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ وقال لربِّه في جملة ما قال له: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾ [النساء:١١٨] والنصيب المفروض، أي: المقدار المعلوم، وهم حزبه وأتباعه من بني آدم.

٣- خطوات الشيطان التي يتبعها في إضلال بني آدم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن خطواتِ الشيطانِ التي يتبعها في إضلالِ عبادِ الله، وقد صرَّح الشيطان لربِّه بها عندما رفض السجود لآدم، فلعنه وطرده من رحمته، وتتمثل في الآتي:

أ- **إضلالُ العباد وتَمْنِيَتُهُ لهم:** قال الشيطانُ لربِّ العزة: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ [النساء:١١٩] أي: لأضلَّنهم، بإبعادِهِمْ عن الهدى، والحقِّ المنزلِ من عند الله تعالى.

وقوله: ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ والتمني: تقدير الشيء في النَّفْس وتصويره فيها، وأكثرُ التمني يكونُ عن تخْمينٍ وكذبٍ، فأكثر التمني يكون بتصورهم ما لا حقيقة له، والأمنيةُ: الصورُ الحاصلةُ في النفس عن تمني الشيء [راجع: المفردات: ص٤٧٥].

والشيطانُ يمنِّي **العبادَ** بوساوسِه، وبها يقذفُهُ في قلوبهم من حُبِّ الدنيا، والأملِ بطولِ البقاءِ فيها، حتى يؤْثِرها الناسُ على الآخرةِ، وقد يمنيهم بركوبِ الأهواءِ الداعيةِ إلى الشركِ والبدعِ والذنوبِ والمعاصي.

ب- **أَمْرُه العبادَ بتبتيكِ آذان الأنعام**: أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الشيطانَ قال لربِّه تعالى: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [النساء:١١٩].

يعني لآمرنّهم بتَبْتِيكِ آذانِ الأنعام، أي: بتشقيقها، وكلُّ المفسرين يذهبون إلى أنَّ هذا الجزء من الآيةِ يتحدَّثُ عما كان يفعله أهلُ الجاهلية، فقد كانوا يَشُقُّون أذن الناقة إذا ولدت خمسةَ أبطنٍ، وكان المولودُ الخامسُ ذكراً، ثم تُسَيَّبُ، وكانوا يُحرِّمون على أنفسهم وغيرهم الانتفاع بها، فلا يركبونَ ظهرها، ولا يَحْمِلُون عليها، ولا يذبحونها، ولا يَرُدُّونها عن ماءٍ ولا مرعى، وهي البحيرةُ، يقالُ: بَحَرَ الناقةَ والشاةَ: شقّ أُذنها نصفين.

ج- **أمره الناس بتغيير خلقِ الله**: وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الشيطانَ قالَ له: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:١١٩] وتغيير خَلْقِ الله الذي يأمر الشيطان العبادَ بفعله يحوي أمرين:

الأول: تغيير فطرةِ الله التي فطر الله العباد عليها، وهي التوحيد.

والثاني: تغيير خَلْقِ الله الذي خلَقَ الإنسان عليه بالوَشْمِ، والنَّمصِ، والفَلَجِ، والتجميل، ونحو ذلك.

وقد جاءت الآياتُ والأحاديثُ الصحيحةُ مفصِّلة لما أُجمل في هذه الآية، قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم:٣٠]. وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولَدُ على الفِطرة، فأبواه يهوِّدانِه، أو يُنَصِّرانِه، أو يُمجِّسانِه، كما تُنْتِجُ البَهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعاء» ثم يقول: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠] [البخاري: ٤٧٧٥. ومسلم: ٢٦٥٨].

وفي صحيح مسلم عن عياضِ بن حمارٍ المُجاشعي، أنَّ رسولَ الله ﷺ، قال ذات يومٍ في خطبته: «ألا إنَّ ربِّي أمَرَني أنْ أُعَلِّمكُمْ ما جَهِلْتُمْ مما عَلَّمَني يومي هذا، كلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عَبْداً حَلالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عبادي حُنَفاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أتَتْهُمُ الشياطينُ فاجْتالَتْهُمْ عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهمْ ما أحْلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهُمْ أن يُشركوا بي ما لم أُنزِلْ به سلطاناً» [مسلم:٢٨٦٥].

وعن عبدالله بن مسعود قال: «لَعَنَ اللهُ الواشِماتِ، والمتوَشِّماتِ، والمتنمِّصات، والمتفلِّجات للحُسْنِ، المُغيِّراتِ خلقَ الله» [البخاري: ٤٨٨٦. ومسلم: ٢١٢٥]، وأخبر ابن مسعود في بقية الحديث أن رسول الله ﷺ لعن هؤلاء.

وقد توسَّعَ الناسُ اليومَ في تغيير خلقِ الله، فلم يبقَ قاصراً على الصور الجاهلية البسيطة، كالوشم، والنَّمص، والفَلْج، بل زادوا عليه بما يُعرف بعمليات التجميل التي تصغِّر الأنف وتكبِّرُهُ، وتكبِّرُ العين، وتتلاعبُ بتقاسيم الوجه، وتصل إلى تصغير الثديين أو تكبيرهما، وغير ذلك، كلُّ هذا من تلاعب الشيطانِ بعباد الله، وقد حذَّرهم ربُّ العزة تبارك وتعالى من تغيير خلقِ الله تعالى.

٤- مدى خُسْران العباد الذين يتخذونَ الشيطانَ وليّاً من دون الله:

حذَّرَ اللهُ عبادَه من اتخاذِ الشيطان وليّاً من دون الله، وأخبر أنَّه من اتخذه وليّاً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء:١١٩].

٥- أماني الشيطان ووعوده باطلةٌ كاذبة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن الشيطان يَعِدُ أولياءَه ويمنِّيهم، وهي وعودٌ كاذبةٌ وأماني باطلةٌ، ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء:١٢٠].

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: «﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ﴾: فوعدُه، يصلُ إلى قلب الإنسان، نحو: سيطولُ عمركَ، وتنالُ من الدنيا لذَّتَكَ، وستعلو على أقرانِكَ، وتظفرُ بأعدائك، والدنيا دولٌ، وستكون لك كما كانت لغيرك، ويُطوِّلُ أمَلَهُ، ويعدُهُ بالحسنى على شِرْكِه ومعاصيه، ويمنِّيه الأماني الكاذبة على اختلافِ وجوهها، والفرقُ بينَ وعدِهِ وتمنيتِهِ أنه يعدُ الباطلَ ويمني المحالَ، والنفسُ المَهينَةُ التي لا قَدْر لها تَغْتَذِي بوعده وتمنيتِهِ» [بدائع التفسير: ٢/ ٨٠].

٦- مصيرُ أولياءِ الشيطان ومصيرُ أولياءِ الرحمن:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى عن مصير أولياءِ الشيطان، فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء:١٢١] والمشارُ إليه في قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ هم الذين عبَّدَهُمْ الشيطانُ لنفسِهِ وأضلَّهم، وقوله: ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مسكنهم النار. فليس لهم دارٌ غيرها بعد دخولهم إياها في يوم الدين، وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾، أي: لا يجدون عنها مَعْدَلاً ولا مَهْرَباً.

أما أولياءُ الرحمن، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقد وعدهم ربُّهم -تبارك وتعالى- بأن يدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، خالدين في تلك الجنات أبد الآبدين، لا

يزولون عنها ولا يحولون وهو وعدٌ حقٌّ صادقٌ، فلا أحَدَ أصدقُ من الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كان أهلُ الجاهلية يعبدون الملائكة مدَّعين كذباً وزوراً أنهنَّ بنات الله، وكانوا يسمُّون كثيراً من آلهتهم بأسماءِ الإناث كالعزى ومناة الثالثة الأخرى.

٢- كان أهلُ الجاهلية يعبدون أعدى أعدائهم الذي يريدُ إدخالهم النارَ وغضبَ الجبار، وهو الشيطانُ الذي عَرِيَ عن كلِّ خير، واتصف بكلِّ شرٍ.

٣- الدعاءُ من أعظم ما يُعبَدُ اللهُ به، فلا يجوز أن يُدْعَى غيرُ الله تبارك وتعالى، ومَنْ دعا غيرَ الله تعالى كان مشركاً شركاً أكبر.

٤- أصابتْ لعنةُ الله تعالى إبليسَ، فطردَهُ من رحمتِهِ وجنتِه.

٥- الشيطانُ يسعى لتعبيد بني آدم لنفسِهِ، وقد بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- ما أخبر به الشيطانُ أنَّه سيفعله بنا، فهو يريد إضلالنا، وتزيين الأماني لنا، ويأمرنا بتشقيقِ آذان الأنعامِ، وتغيير خلق الله تعالى.

٦- حذَّرنا اللهُ -تبارك وتعالى- مِنَ اتخاذِ الشيطانِ وليّاً من دونِ الله تعالى، الذي يتخذُ الشيطانَ وليّاً من دون الله قد خسر خسراناً مبيناً.

٧- كلُّ ما يعطينا إيَّاه الشيطانُ وعودٌ كذابةٌ وأمانيُّ باطلةٌ في الدنيا، وفي الآخرة مصيرُ الذين رضوا بوعودِ الشيطانِ وأمانيه النَّار.

٨- الذين والوْا اللهَ تعالى، ورضوا بوعودِه، وعادَوْا الشيطان، وعملوا الصالحاتِ، سيدخلُهُمْ ربُّ العزَّةِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ.

النص القرآني الرابع والثلاثون من سورة النساء

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾

أولاً: تقديم

أعلمنا ربنا تبارك وتعالى أنَّ الناس لا ينالون رضاه وجنته بالأماني الكاذبة، التي يدعي أصحابها أنهم أهل الله وأصحاب جنته، وهم مفارقون للإيمان، غارقون في الشرك والذنوب والمعاصي، فالعباد في يوم الدين مجزيون بأعمالهم، وليس لهم في ذلك اليوم من يدافع عنهم وينصرهم.

أما الذين يعملون الصالحات من المؤمنين والمؤمنات فهم أصحاب الجنات الذين لا ينقصون شيئاً من أعمالهم مهما كان قليلاً، وأعلمنا ربنا عن أحسن الناس ديناً عنده الذين أسلموا وجوههم لله، وكانوا محسنين، متبعين ملة إبراهيم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء:١٢٣-١٢٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - من يعمل سوءً يجزَ به:

أخبرنا ربُّنا عز وجل أن اليهودَ والنصارى يدَّعي كلٌّ منهم أنهم أهلُ الجنةِ ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة:١١١] وأخبرنا أيضاً عن الدعوى العظيمة الكاذبة التي ادَّعاها اليهودُ والنصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة:١٨]. ويدَّعي بعضُ الذين ينسبون إلى الإسلامِ من هذه الأمة أنهم الأفضل والأكملُ، وهم معرضون عن الإيمانِ والعمل الصالحِ، ودعوى هؤلاء من الأولين والآخرين دعاوى

باطلةٌ، وأمانيُّ فاجرةٌ، ليس عليها دليل، ولا يقومُ عليها برهانٌ والقاعدةُ التي يجريها اللهُ في عباده أنه من يعمل سوءاً يجزَ به، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣].

فمن كفر بالله، وأشرك به، واقترفَ الذنوبَ والمعاصي جوزي بعمله، ومن آمنَ وعمل الصالحات جوزي بذلك.

وعندما نزلت هذه الآية كان لها وقعٌ شديدٌ في قلوب المؤمنين من الصحابةِ، فعن أبي هريرة ﷺ قالَ: لما نزلت ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ بلغتْ من المسلمين مبلغاً شديداً، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «قاربوا وسَدِّدوا، ففي ما يُصابُ به المسلمُ كفَّارَةٌ، حتى النَّكْبَةِ يُنْكَبُها، أو الشوكةِ يُشاكُها» [مسلم: ٢٥٧٤].

وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ الذي لا يغفره هو الشركُ فحسب، وغير الشرك من الذنوب متروكٌ لمشيئةِ الله، إن شاءَ غفر له، وإن شاءَ عذَّبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء:١٢٣] أي: ليس للذي يعمل السوءَ من دونِ الله وليّاً يواليه، ولا ناصراً ينصرُهُ ويحامي عنه.

٢- أصحابُ الجنة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية السابقة أنَّ الذين يريدون الحصولَ على رضوانِ الله والنجاةِ من نارِه ودخولِ جنته بالأماني والتخرصاتِ، وهم معرضون عن الإيمان والعمل الصالح، وغارقون في الكفر والمعاصي، كاذبونَ، ضالُّونَ، وأخبرنا في الآية التالية أنَّ الذين يعملون الصالحاتِ من الرجالِ والنساء المعتنقين للإيمان فإنَّ اللهَ تعالى يدخلهم جنَّتَهُ ولا يظلمُهُمْ مثقالَ نقيرٍ، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤]. والنقيرُ الأمْرُ الصغيرُ الذي لا يُؤْبَهُ له، وأصل النقير نقطةٌ صغيرةٌ تكونُ في ظهر نواة التمرة، ومنها تنبتُ النخلةُ عندما تُغْرَسُ النواةُ في الأرضِ.

٣- أحسنُ الناس ديناً عند الله:

يتفاوتُ الناسُ في الدين والفضل عند الله تعالى، وقد أخبرنا العليمُ الحكيمُ في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٥] أخبرنا أن أحسن الناس ديناً من جَمعَ بين ثلاثِ خلالٍ:

الأولى: أن يسلم المرءُ وجهه لله تعالى، وذلك بالانقياد إلى الله تعالى، والعمل بطاعته، واجتنابِ معصيته، وهذا كقولِهِ تعالى في سورة البقرة: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [البقرة:١١٢].

الثانية: أن يكونَ محسناً في عملِهِ، ويكونُ الإحسانُ ببلوغِ درجةِ الإتقانِ، وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أننا نبلغُ درجةَ الإحسانِ بأن نعبد الله كأننا نراه، فإن لم نستطع ذلك، فنستحضرُ أنَّ الله يرانا ويطَّلعُ علينا «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

الثالثة: أن يتَّبعَ ملة إبراهيم عليه السلام ، حالَ كونه حنيفاً، ورسولُنا محمد ﷺ وأتباعه كلُّهم على ملَّةِ إبراهيم، وهي توحيدُ الله تعالى، قالَ اللهُ آمراً رسولَهُ ﷺ آمراً إيَّاه باتباع ملة إبراهيم ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [آل عمران:٦٨].

والحنيفُ: المائلُ عن الشرك، المستقيمُ على الإسلام.

وقد أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على إبراهيم بإعلامنا أنه اتخذه خليلاً، وفي هذا ترغيبٌ من الله تعالى في اتِّباعِهِ، فقد بلَغَ مرتبةَ الخلَّة، وهي أعلى درجاتِ المحبة لله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء:١٢٥].

٤- لله ما في السموات والأرض:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ له جميعَ ما في السموات وما في الأرض، كي لا يظنَّ ظانٌّ أنَّه اتخذَ إبراهيمَ خليلاً لحاجته إليه، وإذا كان اللهُ له ما في السموات والأرض، فنحن بنو آدم مملوكون لله رب العالمين، وكذلك ما عبده البشرُ من الشمس والقمر والنجوم والجبال والدوابِ والأنهار والأصنام كلِّها مخلوقةٌ مربوبةٌ، لا تستحقُّ أن تُعْبَدَ من دون الله، ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [النساء:١٢٦]. وقوله تعالى في خاتمة الآية السابقة: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾ أي: عِلْمه تعالى نافذٌ في جميع خلقِهِ، لا يخفى عنه تبارك وتعالى شيءٌ منهم.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كلُّ فريقٍ من المسلمين واليهودِ والنصارى والمشركين يدَّعي أنه الأفضلُ والأحسنُ، وقاعدةُ الثوابِ والفضلِ عند الله أنه من يعمل سوءاً يجزَ به، وهي قاعدةٌ عادلةٌ، بعيدة عن الأهواء والتمنيات الكاذبة.

٢- ما يصيبُ اللهُ به المؤمنين من الأمراضِ والأوجاعِ يكفِّر اللهُ بها ذنوبهم.

٣- الذي يعملُ السيئاتِ ليس له من دون الله وليٌّ يحميه، ولا نصيرٌ يدفعُ عنه.

٤- المؤمنونَ الذين يعملونَ الصالحات يدخلُهم اللهُ الجنة، ولا يُنْقِصُهم شيئاً من أعمالهم.

٥- أحسنُ الناسِ ديناً الذين أخلصوا دينهم لله، والتزموا بالعمل الذي شَرَعَهُ، واتبعوا ملة إبراهيم.

٦- ثناءُ اللهُ تعالى على إبراهيم، فقد أمرنا باتباع ملته، وأخبرنا أنه اتخذه خليلاً.

٧- السمواتُ والأرضُ وما فيهما وما بينهما كلُّها مخلوقة لله تعالى، وليس فيهما ما يستحقُّ أن يكونَ إلهاً ومعبوداً.

٨- علمُ الله محيطٌ بخلقه، لا يخفى على الله منهم خافيةٌ.

النص القرآني الخامس والثلاثون من سورة النساء
أحكام شرعية خاصة بالنساء

أولاً: تقديم

في هذه الآيات الكريمات تقويمٌ لعلاقة الرجال بالنساء فقد كان أهل الجاهلية يظلمون المرأةَ، فيحرمونها من الإرث، كما يحرمون الصغار، وكان الرجلُ يتولَّى المرأةَ، ولا يجدُ له رغبةً في الزواج منها، فيمنعها من الزواج خشيةَ أنْ تتزوج رجلاً يشركه في ماله، إذا كان لها مالٌ هو شريك فيه.

وبينت هذه الآياتُ للزوجة كيف تتصرف إنْ هي خافتْ من بعلها نشوزاً أو إعراضاً، وأعلمنا ربُّنا في خاتمة الآيات أن الزوجَ لا يستطيع أن يعدلَ بين زوجاته في المحبة القلبية، وكلُّ المطلوب من الزوج أن لا يميل إلى واحدةٍ من زوجاته كلَّ الميل، فيذرُ الأخرى كالمعلقةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

[النساء:١٢٧-١٣٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن:

١- إفتاءُ الله -تبارك وتعالى- صحابة رسولِهِ ﷺ فيما سألوا عنه في شأن النساء:

بيّن اللهُ تعالى لنا في أول هذه السورة أحكاماً تتعلقُ بالنساء وميراثهنَّ، وبقي أمور لم تتبيَّن للصحابة، فسألوا الرسولَ ﷺ عنها، فأجابَ اللهُ عنها بنفسه، قال سبحانه: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ [النساء:١٢٧]، أي: يُبيِّن لكم حكمَ ما سألتم عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء:١٢٧] معطوف على لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، والمعنى: أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يفتيكم في النساء، والقرآنُ الذي يتلى عليكم يفتيكم فيهنَّ، وقد أنزلَ في أول هذه السورة آياتٍ تتعلق بالنساء، فمن ذلك ما يتعلقُ باليتامى في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، وقوله: ﴿وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء:٤]، وقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١]، فقد بيَّن فيها ميراثَ النساءِ.

٢- حُكْمُ نكاحِ النساء اليتامى:

بيَّنَ اللهُ تبارك وتعالى في الآية الأولى من هذا النص أن اليتيمة تكونُ في حجْرِ وليِّها، ويكونُ هو وارثَها، ولها مالٌ، ولا يرغبُ في نكاحها، ويخشى أن يزوجها غيره، فيشْرَكُهُ في ماله، فيعْضُلُها، ويمنعها من الزواج، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء:١٢٧]. قالتْ: هو الرجل تكون عنده اليتيمةُ، هو وليُّها ووارِثُها، فأشْرَكَتْه في مالِهِ حتى في العِذْقِ، فيرغبُ أنْ ينكحَها، ويَكْرَهُ أن يُزَوِّجَها رجلاً، فيشركُه في ماله بما شركته، فيعضُلُها، فنزلتْ هذه الآية [البخاري: ٤٦٠٠. ومسلم: ٣٠١٨].

وقوله: ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء:١٢٧] أي: ما فُرِضَ لهنَّ من الميراثِ، وهذا ما كان عليه الأمر في الجاهلية، وفي أول الإسلام.

وقد سألَ عروةُ بن الزبير خالته عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَرُبَٰعَ﴾ [النساء:٣].

فقالت: «يا ابن أختي، هي اليتيمةُ تكونُ في حَجْرِ وليِّها، تشاركه في مالِهِ، فيُعجِبُهُ مالُها وجمالُها، فيريد وليُّها أن يتزوَّجها، بغير أن يُقسط في صَداقِها، فيُعْطيها مثلما يُعطيها غيرُهُ، فنُهُوا أنْ يَنْكِحوهنَّ إلا أن يُقسِطوا لهنَّ، ويبلُغُوا بهنَّ أعلى سُنَّتِهِنَّ من الصَّدَاقِ، وأمِروا أن ينكحوا ما طابَ لهم من النساء سواهُنَّ».

قال عروة: قالت عائشة: ثم إنَّ الناس استفْتوا رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء:١٢٧]. والذي ذكر

اللهُ أنه يُتلَى عليكم في الكتاب الآيةُ الأولى، التي قال فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ قالت عائشةُ: «وقولُ الله في الآية الأخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء:١٢٧]. يعْني هي رغبةُ أحدكُمْ ليتيمتِهِ التي تكونُ في حَجْرِهِ، حين تكونُ قليلةَ المالِ والجمالِ، فنُهوا أنْ ينكحوا ما رغِبُوا في مالِها وجمالِها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهن عنهن» [البخاري: ٢٤٩٤. ومسلم: ٣٠١٨].

وهذا يدل على أن الآية التي في أول النساء نزلت في اليتيمة إذا كانت غنيَّةً، فأوجب على الوليِّ إن رَغِبَ في الزواج منها أنْ يقسط إليها في مهرها، وإلا فليترك زواجها، وليتزوجْ ما طابَ له من النساء.

والآيةُ التي في هذا النص في اليتيمة تكونُ دميمةً، ولا يرغبُ في الزواج منها، فنهاه اللهُ تعالى أنْ يعضلَها خشية أن يشركوه في مالِهِ الذي بينه وبينها.

٣- وجوبُ إعطاء الصغار ما فَرَضَ اللهُ لهنَّ من الميراث:

كان أهلُ الجاهلية لا يورِّثونَ الصغار كما لا يورثون النساء، ولهم في ذلك فلسفةٌ قائمةٌ على أن الذي يستحقُّ الميراثَ هو الذي يقاتلُ، ويردُّ العدوانَ، قال ابنُ عطيةَ: «كانت العربُ لا تورِّث الصبيَّةَ، ولا الصبي الصغيرَ، وكان الكبيرُ ينفردُ بالمالِ، وكانوا يقولون: إنما يرثُ المال من يحمي الحَوْزَةَ، ويردُّ الغنيمةَ، ويقاتل عن الحريمِ، ففرضَ اللهُ لكل واحدٍ حقَّهُ» [المحرر الوجيز: ٣/ ٣٤].

قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء:١٢٧] وقد أوجب اللهُ على عباده المؤمنين أن يقوموا لليتامى بالقسط، أي: بالعدل، أي: يعطوهم ما فرض اللهُ لهم من الميراث، وهَيَّجَ رَبُّ العزة المؤمنين على فعل الخيراتِ وامتثالِ الأوامر بقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء:١٢٧] وإذا كان عليماً بما نفعله، فسيجزينا به.

٤- كيف تتصرفُ المرأةُ إذا خافتْ من بعلها نشوزاً أو إعراضاً:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المرأة إن خافت من بعلها، وهو زوجها أن ينْفِرَ منها، أو يُعْرِضَ عنها، فلا جناحَ عليها أن تصالحهُ، بأن تُسْقِطَ عنه حقَّها أو بعضَهُ من نفقةٍ أو كسوةٍ أو مبيتٍ، ولا حرجَ على زوجها أن يقبلَ ذلك منها، وهذا الذي يمكنُ أن يتصالحَ عليه الزوجانُ خيرٌ من الفراق والطلاق ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨].

وقد فعلتْ ذلك سَوْدَةُ بنتُ زمعةَ زوجُ الرسولِ ﷺ عندما كبرت، فجعلتْ يومَها لعائشةَ، وقَبِلَ ذلك رسولُ الله ﷺ منها، فعن عائشة قالت: «لما كَبِرَتْ سودة، جعلَتْ يومَها من رسول الله ﷺ لعائشة، قالت: يا رسول الله، قد جعلتُ يومي منك لعائشة، فكان رسول الله ﷺ، يقسم لعائشة يومين، يومَها ويوم سودة»[1] [مسلم: ١٤٦٣. وانظر البخاري: ٢٥٩٣].

وروى عروةُ عن خالته عائشة رضي الله عنها: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ [النساء:١٢٨] قالت: «الرجلُ تكون عنده المرأةُ، ليس بمستكثر منها، يريدُ أن يفارقَها، فتقولُ: أجعلك من شأني في حِلٍّ، فنزلتْ هذه الآية في ذلك» [البخاري: ٢٤٥٠. ومسلم: ٣٠٢١].

وقولُه تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء:١٢٨] إخبارٌ من الله تعالى أنَّ الشحَّ موجودٌ في كلِّ واحد من الزوجين، بل هو موجودٌ في النفوس البشرية كلِّها، لا يكاد يغيبُ عنها بحال إلا من رَحِمَ اللهُ، هذا طَبْعٌ في العبادِ بحكم الخلقةِ التي خلق اللهُ الناسَ عليها.

والشحُّ: بخلٌ مع حِرْصٍ، وذلك فيما كان عادةً، ومن تخلَّص من شُحِّ نفسِهِ أفلحَ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٩].

وختم ربُّ العزة الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٢٨﴾ [النساء:١٢٨] أي: أن تحسنوا عشرة النساء، وتتقوا ما لا يجوز من النشوز والإعراض ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٢٨﴾ فيجازيكم يا معشر المؤمنين بما تستحقونه.

٥- عدم استطاعة من له أكثر من زوجة أن يعدل بينهن في المحبة القلبية:

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى أن من له أكثر من زوجة فإنه لا يستطيع أن يعدل بينهنَّ في المحبة القلبية ولو حرص على ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ [النساء:١٢٩]، أي: لا تستطيعون أن تعدلوا بين الزوجات ولو حرصْتُمْ، ولذلك علينا أن نقاومَ أنفسنا حتى لا تميل كلَّ الميْل.

وهذا العدل غير المستطاع هو العدلُ القلبي، أما العدلُ في المبيتِ والنفقة فذلك عدل مقدور عليه، وهو واجب ومستطاع.

---

(١) يذكر بعض المفسرين أن سودة فعلت ذلك عندما أراد الرسول ﷺ طلاقها، وليس هذا بصحيح، فلم يرد أن الرسول ﷺ أراد طلاقها.

قال الشوكاني: «أخبر سبحانه بنفي استطاعتهم للعدل بين النساء على الوجه الذي لا ميلَ فيه ألبتة، لما جبلت عليه الطباعُ البشريةُ من ميلِ النفس إلى هذه دون هذه، وزيادة هذه في المحبة ونقصان هذه، وذلك بحكم الخلقة بحيث لا يملكون قلوبهم، ولا يستطيعون توقيفَ أنفسهم على التسوية، ولهذا كان يقول الصادق المصدوق ﷺ : «اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك»[1]. ولما كانوا لا يستطيعون ذلك، ولو حرصوا عليه، وبالغوا فيه، نهاهم عز وجل عن أن يميلوا كل الميل، لأن ترك ذلك، وتجنُّبَ الجورِ كلّ الجورِ في وُسْعِهِم، وداخل تحت طاقتهم، فلا يجوز لهم أن يميلوا عن إحداهن إلى الأخرى كلَّ الميلِ حتى يذروا الأخرى كالمعلقة التي ليست ذات زوج ولا مطلقة، تشبيهاً بالشيء الذي هو معلق غير مستقر على شيء. وقوله: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ﴾ : أي ما أفسدتم من الأمور التي تركتم ما يجب عليكم فيها من عشرة النساء والعدل بينهن ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ كل الميل الذي نهيتم عنه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ لا يؤاخذكم بما فرط منكم» [فتح القدير: ١/ ٥٢٨].

٦- إن يتفرق الزوجان يُغْنِ الله كلّ واحدٍ منهما من سعته:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنه إذا تفرق الزوجان، فإنَّ اللهَ يغني كلَّ واحدٍ منهما من سَعَتِه، فهو قادرٌ أن يعوّض الزوجَ عن زوجته، كما هو قادرٌ أن يعوضها عنه بمن هو خير لها منه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء:١٣٠] وختم ربُّ العزة الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء:١٣٠] أي: واسعُ الفضلِ، عظيمُ المنِّ، حكيمٌ في جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآياتُ من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا هذه الآيات وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- عظمُ منصبِ الإفتاءِ، حتى إنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- تولاَّه بنفسه.

٢- إذا كان الوليُّ تحت يده يتيمةٌ لها مالٌ، وهو لا يرغبُ في نكاحها، فعليه أن لا يمنعها من الزواج ممن رضيتْهُ زوجاً.

(١) عزاه محقق ابن كثير إلى أحمد وابن أبي شيبة والدارمي وأبي داود والنسائي والترمذي وغيرهم (ابن كثير ٢/ ٣٩٢ وهو مرسل صحيح).

٣- يجبُ على من ولي أيتاماً صغاراً أن يعطيهم نصيبهم من الإرث الذي فرضه اللهُ تعالى لهم، وهذا هو العدلُ الذي أمر اللهُ به.

٤- خلَّص اللهُ المجتمعَ الإسلاميَّ من الظلم الاجتماعيِّ الذي كان يسودُ أهل الجاهلية، فقد كانوا يحرمون النساءَ والصغارَ من الميراث.

٥- لا حرجَ على الزوجة إن خافت من زوجها نشوزاً أو إعراضاً أن تصالحه، بأن تسقط عنه شيئاً من المهر أو النفقة أو المبيت، والصلحُ في شرع الله خيرٌ من الفراقِ والطلاق.

٦- أمر اللهُ بالعدلِ بين النساءِ في المبيتِ والنفقةِ ونحوهما، وأعلمنا أن العدلَ في المحبَّة القلبيةِ، والمعاشرةِ، لا يقدرُ عليه العبادُ، ولذا أمرنا بأن لا نميل كلَّ الميلِ.

٧- وعد اللهُ تعالى الزوجين إن هما افترقا أن يُغنيَ كلَّ واحدٍ من سَعَتِهِ.

النص القرآني السادس والثلاثون من سورة النساء

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

أولاً: تقديم

كرَّر اللهُ تبارك وتعالى قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النساء:١٣١] ثلاث مراتٍ في الآيتين الأوليين من هذا النص، وأخبرنا أنه وصَّانا ووصَّى الأممَ من قبلنا بتقواه، فإن كفرنا فإنَّه غنيٌّ عنا، وتهدَّد الكفرةَ المجرمينَ بأنه قادرٌ على أن يذهب بهم ويدمِّرَهُمْ، بل يذهبُ بالناسِ جميعاً، وأعلمنا في الآية الأخيرةِ من هذا النصِّ أنَّ من يريدُ ثوابَ الدنيا، فعند الله ثوابُ الدنيا والآخرة، وهو سميعٌ بصيرٌ سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء:١٣١-١٣٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾:

كرَّرَ ربُّنا في الآيتين الأوليين هذا النص ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ثلاثَ مراتٍ، وهذا التكرارُ فيه دلائلُ موحية تدلُّ على ما يأتي:

أ- ملكُهُ سبحانه وتعالى للسمواتِ والأرض يدلُّ على عظيمِ غناه، والغنيُّ لا يحتاجُ إلينا، ولا إلى أعمالِنا وعبادتِنا، قال تعالى مبيناً مدى غناه عن عباده ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

ب- وإذا كان اللهُ تبارك وتعالى هو الغنيَّ، فإننا فقراءُ إليه، نحتاجُ إليه في صلاح أنفسنا وتقويمها، ونحتاجُ إليه في شربةِ الماءِ، ولقمةِ الطعام ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر:١٥].

وهذا يدلُّ على عظم جريمة اليهودِ الذين زعموا أنَّ اللهَ تعالى عندما طلب القرض من عبادِهِ فقيرٌ، وهم أغنياء: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران:١٨١].

ج- إذا كان اللهُ -تبارك وتعالى- هو خالقَ السموات والأرضِ ومالكها، فإنَّ ذلك دالٌّ على أنَّ كلَّ ما عبده البشر من شمس وقمر ونجوم وملائكة وجبال وحيوان وأصنام وبشر وغيرها كلّه باطلٌ، لأن هذه المعبودات هي جزء من السماوات والأرض، وهي مخلوقةٌ مربوبةٌ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الحج:١٨].

د- السماواتُ والأرضُ وما فيهما وما بينهما محتاجةٌ إلى ربِّ العزَّة، لا تستغني عنه لحظةً ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ [فاطر:٤١].

٢- توصية الله تعالى أهل الكتاب وإيانا بتقوى الله:

أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى أنه وصَّى الذين من قبلنا من أهل الكتاب وهم اليهودُ والنصارى كما وصَّانا بتقواه سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء:١٣١] وتوصيةُ الله عبادَهُ تدلُّ على وجوب ما أوصى به، كقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء:١١].

ومحلُّ التقوى القلبُ، فقد صحَّ من حديث أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «التقوى ها هنا» ويشيرُ إلى صدرِهِ ثلاثَ مراتٍ [مسلم: ٢٥٦٤]. ولذلك كانَ القلبُ موضعَ نظر ربِّ العزة، ففي الحديث: «إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى أجسادكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم» [مسلم: ٢٥٦٤]. وتتحقق التقوى بخشية الله ومخافته وتعظيمه وتوقيره ومحبته، والتقوى تنبتُ العمل الصالح من الصلاة والزكاة والصوم وذكر الله ونحو ذلك، وتَرْدَعُ عن الأعمال السيئة من الشرك والمعاصي والذنوب.

٣- اللهُ غنيٌّ عن الكافرين:

خاطبَ اللهُ تعالى عبادَهُ مبيناً أنه غنيٌّ عنهم إن هم كفروا: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ﴿١٣١﴾ ﴾ [النساء:١٣١] يقولُ العزيزُ الحكيمُ لعباده: إن

أنتم كفرتم بي وأعرضْتُمْ عنِّي، فأنا لي ما في السموات والأرض، وأنا غنيٌّ عنكم، وأنا المحمودُ في السموات والأرض، فلا يضرني كفركم بي، والمتضرر من الكفر هم الكفرةُ الضالون.

وفي الآية التالية كرَّر النصَّ على أن له ما في السموات والأرض: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ [النساء:١٣٢] فهو سبحانه مالك السموات والأرض الغنيّ عن عباده، وكفى به كفيلاً على من توكَّل عليه، واعتمد عليه سبحانه.

٤- قدرةُ الله على الذهاب بنا والإتيان بآخرين:

قال ربُّ العزةِ متهدداً الكفرةَ المجرمين ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء:١٣٣] يخاطبُ اللهُ الناسَ ومرادُهُ الكفرةُ منهم، ويقول لهم: إنه قادرٌ على إهلاكِهِمْ وتدميرِهِم، والإتيان بآخرين يوحِّدونه ويعبدونَه، كما أهلك قومَ نوحٍ وقومَ هودٍ وقومَ صالحٍ، وفرعونَ وقومَهُ، وأنشأ بعدَهُمْ أُمماً لتوحيده وعبادتِهِ، فاللهُ قادرٌ على كُلِّ شيءٍ، لا يعجزه شيءٌ في الأرض، ولا في السماءِ. ولهذه الآية نظائر في كتابِ الله تعالى، كقولِهِ سبحانه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم:١٩-٢٠]، وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٨].

٥- اللهُ -تبارك وتعالى- عنده ثوابُ الدنيا والآخرة:

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- أقواماً من البشر لا يتطلعون من وراء أعمالهم إلى غير الدنيا، وكانوا قادرين على أن يحْصُلُوا على ثواب الدنيا والآخرة، فاللهُ عنده ثوابُ الدنيا والآخرة ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء:١٣٤].

وقد حدَّثنا الله -تبارك وتعالى- في سورة البقرة عن فريقين من الناس: فريق يطلبُ الدنيا، وليسَ له في الآخرة من خلاق، وفريق يطلبُ الدنيا والآخرة، قالَ تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة:٢٠٠-٢٠١].

وفي الآية حثٌّ للمؤمنين على أن يطلبوا ثوابَ الدنيا وثوابَ الآخرة من مالكهما ربِّ العالمين سبحانه، واللهُ -تعالى- عالمٌ من يستحقُّ ثوابَ الآخرة ممن لا يستحقُّه، ولذلك قال -سبحانه- في ختام الآية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

٦- ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ :

أمرنا ربنا - تبارك وتعالى- في الآية الأخيرة من هذا النص الكريم أن نكون قوامين بالقسط شهداء لله، فقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾ [النساء:١٣٥].

ونكونُ ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالحرص على العدل في كل أمورنا وأحكامنا، ونكون شهداءَ لله تعالى، بالإتيان بالشهادة على وجهها، من غير نقصانٍ، ولا تزيُّدٍ.

وقد فسَّر هذه الآية أحدُ أئمة التفسير الكبار، وهو قتادةُ، فقال: «هذا في الشهادة، فأقِم يا ابن آدم الشهادةَ على نفسِكَ، أو الوالدين، أو على ذوي قرابتك، أو أشرافِ قومِكَ، فإنَّ الشهادةَ لله، وليستْ للناس، وإنَّ اللهَ رضي العدلَ لنفسه، والإقساطُ والعدلُ ميزانُ الله في الأرض، به يرُدُّ اللهُ من الشديد على الضعيفِ، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحقّ، وبالعدل يُصَدِّقُ الصادق، ويُكَذِّبُ الكاذب، ويُرَدُّ المعتدي، ويُوَبِّخُهُ، تعالى ربنا وتبارك، وبالعدل يصلحُ الناسُ، ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ يقولُ: أولى بغنيكم وفقيركم» [رواه ابن جرير الطبري: ٤/ ٢٥٩١، وعزاه محققه إلى ابن أبي حاتم في تفسيره. وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر. الدر المنثور: ٢/ ٧١٥].

ويقيم المرءُ الشهادةَ على نفسِهِ باعترافه بما عليه من حقٍّ وعدم كتمانه له، وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ نهى الله -تبارك وتعالى- عن اتباع الهوى فإنه يصدُّ الناسَ عن العدلِ، وقوله: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾ [النساء:١٣٥] نهى اللهُ تبارك وتعالى عن السببين الموجبين لكتمانِ الحقِّ، محذراً منهما، ومتوعداً عليهما، أحدهما: اللّيُّ. والآخر الإعراض. وأصلُ اللّيِّ: الفَتْلُ، وهو التحريفُ وتعمد الكذب، سواءٌ كان في لفظه أو معناه. والإعراضُ يكون بكتمانِ الشهادةِ وتركها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ تبارك وتعالى غنيٌّ عن عبادِهِ، فله ما في السمواتِ وما في الأرض.

٢- اللهُ وحدَهُ المعبودُ، وغيرهُ مِنَ المعبوداتِ باطلةٌ، فكلُّ المعبوداتِ من دون الله هي في السماواتِ والأرضِ، وكلُّ ما فيهما فهو مخلوقٌ مربوبٌ مصنوعٌ.

٣- اللهُ لا يحتاجُ إلى أحدٍ من خلقِهِ، فهو غنيٌّ عنهم، وعن عبادتهم.

٤- تقوى الله وصية الله تبارك وتعالى للبشرية من قبلنا، ولنا من بعدهم.

٥- البشرُ ضعافٌ، فلو شاءَ اللهُ لأهلكهم جميعاً، وجاء بغيرهم.

٦- على المؤمنين أنْ يطلبوا من الله ثوابَ الدنيا والآخرة، ولا يجوز أن يقتصروا على طلب الدنيا وحدها، أو الآخرة وحدَها.

٧- يجبُ على المؤمنِ أن يأتي بالشهادة على وجهها، أي من غيرتزيُّدٍ فيها، ولا نقصٍ منها.

٨- يجب على المؤمن أن يشهد بالعدل، ولو كان على نفسه، أو والدَيه وأقاربه.

٩- حذَّرنا اللهُ -تبارك وتعالى- عن اتباع الهوى الذي يصرِفُنا عن الحقِّ والعدلِ.

١٠- استدلَّ أهلُ العلم بقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ على أنَّ العبدَ لا مدخلَ له في الشهادةِ، إذ ليس قوَّاماً بذلك، لكونه ممنوعاً من الخروج إلى القاضي.

١١- استُدِلَّ بقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ على قبول شهادة الرجل على والديه وأقاربِهِ، ووجوب العدلِ في الشهادة بين القريب والبعيد، والغني والفقير.

النص السابع والثلاثون من سورة النساء
وجوبُ الإيمانِ بجميع الكتب التي أنزلها اللهُ والرسلُ الذي أرسلهم

أولاً: تقديم

أمرنا اللهُ تعالى في آيات هذا النص بالإيمان بالله ورسولِهِ وما أنزله من كُتُبٍ، وأعلمنا أن الذي يكفرُ بالإيمان فهو ضالٌ أعظمَ الضلال، وبيّن لنا أن الذين يترددون بين الإيمانِ والكفر، ويموتون على الكفر، فلن يغفرَ اللهُ لهم، وبشَّر المنافقين بالعذاب الأليم، الذين يوالون الكفارَ مبتغين عندهم العزَّة، جاهلين أن العزة كلَّها لله تعالى، ونهى اللهُ المؤمنين عن مجالسةِ الذين يكفرون بآياتِ الله، ويستهزئون بها، حتى يخوضوا في حديثٍ غيره، وإلا كانوا مثلهم، وأخبرنا في الختامِ أن اللهَ سيجمعُ المنافقين والكافرين في جهنَّم جميعاً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء:١٣٦-١٤٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمر اللهُ -تعالى- المؤمنين أن يؤمنوا به وبرسوله وبالكتاب الذي أنزله:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنينَ، وأمرهُمْ أن يؤمنوا به، وبرسولِهِ محمدٍ ﷺ، وبالكتابِ الذي نزَّلَ على رسولِهِ ﷺ، وهو القرآنُ الكريم، وبالكتابِ الذي أنزله من قبل، وهذا شاملٌ لجميع الكتب التي أنزلها اللهُ تعالى من قبلُ، ومنها صحفُ إبراهيمَ والتوراةُ والزبورُ والإنجيلُ، لأن (أل) في قوله: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ للجنس، فهي شاملةٌ لكل كتابٍ أنزله اللهُ تعالى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء:١٣٦].

والمرادُ بالمؤمنين الذين ناداهم اللهُ عزَّ وجل المؤمنون من هذه الأمة، فإنَّ الإيمانَ والإسلامَ لقبٌ لهم، أَمْرُهُم بالإيمانِ، أمر لهم بالتعرّف عليه، والازدياد منه، والثبات عليه.

وأمْرُه تعالى المؤمنينَ بالإيمان بالكتابِ الذي نَزَّل على رسوله والكتاب الذي أنزله على الأنبياء من قبلنا، قاعدةٌ إلهية ربّانيةٌ، وهي الإيمانُ بكلّ ما أنزله الله، ولكننا في الاتباع والتنفيذ، نلتزمُ بما شَرَعُه اللهُ في كتابنا وسنّة نبينا ﷺ.

وقال اللهُ في كتابنا ﴿نَزَّلَ﴾ لأنه نزل منجماً على مدارِ ثلاثة وعشرين عاماً، أما الكتبُ السابقة، فكان كلُّ كتابٍ ينزل مرَّةً واحدةً، ولذلك قال: ﴿أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾.

٢- الكفار بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر ضلُّوا ضلالاً بعيداً:

بعد أن أمرنا اللهُ ربُّنا -تبارك وتعالى- بالإيمانِ، أخبرنا سبحانه وتعالى أنَّ الذين يكفرون بِهِ وبملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخر ضلُّوا ضلالاً بعيداً، أي: ضلُّوا ضلالاً لا أعظم منه، ولا أشدَّ منه ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء:١٣٦]. وقد ساقَ ربُّنا في هذا الجزء من الآية أركانَ الإيمان، فيجبُ الإيمانُ بها كلِّها، ومن كفر بواحدٍ منها فقد كفر بها كلِّها، لأنها وِحْدَةٌ واحدةٌ لا يجوزُ الإيمانُ ببعضها والكفر ببعضٍ آخر.

٣- الذين تردّدوا بين الكفر والإيمان ثم ماتوا على الكفر لا يغفر اللهُ لهم ولا يهديهم:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ الذين يتردَّدُون بين الإيمان والكفر، فيؤمنون مرةً، ويكفرونُ أخرى، ثم يُصَمِّمون على الكفر ويموتونَ عليه، فإنه لا توبةَ لهم بعد الموتِ، ولا يغفرُ اللهُ لهم، ولا يجعلُ لهم فرجاً ومخرجاً، ولا طريقاً إلى الهدى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء:١٣٧].

وهذه الحالةُ، وهي التردُّدُ بين الكفر والإيمان، يمرُّ بها كثير من المنافقين، فمن فعلَ ذلك، ثم كانت العاقبةُ أن يزداد كفرُهُ، ويموتَ عليه، هؤلاء تندثرُ حسناتُهم يومَ القيامة، فالكفرُ الذي يموتُ عليه المرءُ يمحو الإيمانَ والعملَ الصالح، وفي الحديث عن عبدالله قال: قال أناسٌ لرسولِ الله ﷺ : يا رسولَ الله، أنؤاخذُ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «أما من أحسنَ منكم في الإسلام، فلا يؤاخذ بها، ومن أساءَ أُخِذ بعمله في الجاهلية والإسلام» [مسلم: ١٢٠].

٤- **أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يُبشِّرَ المنافقين بالعذاب الأليم:**

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ أن يبشِّر المنافقين بالعذاب الأليم ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ [النساء:١٣٨]. والبشارة في الأصل إنما تكون في الأمرِ المفرحِ الذي يجلبُ السرورَ، وبشَّر اللهُ المنافقينَ بالعذاب على جهةِ الاستهزاءِ والتهكم بهم.

وعذابُ الآخرة مؤلمٌ موجعٌ لشدَّته وقوتِهِ، فنارُ الآخرةِ أشَدُّ من نارِ الدنيا بسبعين مرة.

٥- **حرمةُ اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياءَ:**

جاءت النصوصُ القرآنيةُ كثيرةً طيبةً تنهى المؤمنين عن موالاةِ الكفارِ، وقد ذمَّ اللهُ تبارك وتعالى في آيات هذا النص المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٣٩]. فقد كان المنافقون يتخذون زعماءَ الكفار من اليهود وغيرهم أولياء، فيذهبون إليهم، ويذيعون عندهم أخبارَ المؤمنين، ويستمعون إلى ما يُلْقُونَه إليهم، ويُسِرُّون إليهم بالمودَّة، ويقولون: نحن معكم.

وقد سأل اللهُ -تبارك وتعالى- هؤلاء المنافقين سؤالَ توبيخ قائلاً: أتبتغون بموالاتكم الكفارَ العزةَ؟، ثم بيَّن لهم فسادَ ما استقرَّ في قلوبهم، وأخبرهم أنَّ العزة كلَّها له وحده ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٩] والذي يحظى بالعزة هو الذي يتولى اللهَ تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨]، والعزَّةُ: الغلبة والقوة.

٦- **كيف يكونُ حالُ المسلم في المجالسِ التي يُكْفَرُ فيها بآياتِ الله:**

كثُرَ في أيامنا هذه إعلانُ طوائفَ من الكفار الكُفْرَ بآياتِ القرآنِ والاستهزاءَ بالقرآن والرسول ﷺ، والاستهزاء بشعائر الإسلام، والمسلمون اليوم فيهم ضَعْفٌ، فيصعبُ عليهم أن يردُّوا عليهم الردَّ المناسب في كثير من الأحوال. وقد كان علماؤُنا وحكامنا أيامَ سيادةِ الإسلام وقوتِهِ يصيحون بأمثالِ هؤلاء، ويؤدِّبُونهم، ويأخذونَ على أيديهم، وقد مرَّ الصحابةُ في أول الأمر بفترات ضعفٍ، وكان المنافقون والكفار يجهرون بالكفرِ بآياتِ الله ويستهزئون بها، وقد أمَرَ اللهُ تبارك وتعالى المؤمنين أن لا يجلسوا في تلك المجالس إن لم يستطيعوا أن يكبتوا أعداءَ الله المستهزئين بآياتِ الله ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء:١٤٠].

والذي نزلَّه على رسولِهِ ﷺ وصحابتِهِ الكرامِ هو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء:١٤٠] أي: إذا جلستم في المجالس التي يُكْفَرُ ويستهزأ فيها بآياتِ الله، وسَكَتُّم، فقد شاركتموهم فيما خاضوا فيه.

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجلّ- أنَّ اللهَ جامعُ المنافقين والكافرين كلِّهم في النار، ذلك أنَّ المنافقين يعصمون أنفسهم وأموالهم بإظهارهم الإيمان، أما في يوم القيامة فإنَّ الكفرَ الذي أخفوه في الدنيا يصبح ظاهراً بيِّناً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء:١٤٠].

رابعاً: ما تهدي إليه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الإيمانُ الصحيح الذي لا يقبلُ اللهُ من أحدٍ سواه ديناً أن نؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسلِهِ واليوم الآخر، فمن كفر بهذه الأصول أو بأصل منها فهو كافر عند الله تعالى.

٢- يجبُ الإيمانُ بالكتبِ كلِّها، والإيمانُ بالرسل جميعاً، فمن آمنَ ببعض الكتب أو بعض الرسل، وكفر ببعضٍ لم يصحَّ إيمانه.

٣- المنافقون مذبذبون في إيمانهم، فتراهُم يؤمنونَ ثم يكفرون، ويكون خاتمةُ بعضِهم الموتَ على الكفرِ، فهؤلاء لا يغفرُ اللهُ لهم، ومصيرُهم النار.

٤- بشَّرَ اللهُ المنافقين بالعذابِ الأليم، وهم الذين يتخذونَ الكفارَ أولياءَ من دون المؤمنين، والمنافقون يطلبون من الكفار العزَّةَ، وهم جهلاءُ، فالعزةُ لله وحدَه.

٥- لا يجوزُ للمؤمن أن يجلسَ في المجالسِ التي يُكْفَرُ ويُستَهزأ فيها بآيات الله، ويجوزُ مجالسة الكفار في حال عدم كفرهم بآيات الله وعدم استهزائهم بهذه الآيات.

٦- إذا كان لا يجوز مجالسةُ الكفار الذين يستهزئون بآيات الله، فكذلك لا يجوزُ مجالسةُ المبتدعة وأهل الأهواءِ حالَ ممارستهم بدَعَهُمْ وأهواءَهم.

٧- مصيرُ المنافقين يوم الدين النار، ففي يوم القيامة يفضحهم اللهُ، ويهتكُ سِتْرَهُمْ، ويدخلُهُمْ أشدَّ العذاب.

٨- لا يجوزُ للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياءَ من دون الله والمؤمنين.

٩- الذين يشاركون أهلَ الكفر وأصحابَ الأهواءِ في مجالسهم، ويخوضون في الباطلِ الذي يخوضون فيه، يكونون شركاءَهم في الإثم.

١٠- اتخذ المؤلفون من هذه الآية أصْلاً، وهي الآية الناهية عن مجالسة الكفرة حال استهزائهم بآيات الله، فترى المؤلفين يحيلون في مؤلفاتهم على موضعٍ آخر، كما أحالت الآية على ما سبق إنزاله من قبل.

النص القرآني الثامن والثلاثون من سورة النساء
المنافقون مذبذبون بين الإيمان والكفر

أولاً: تقديم

في آيات هذا النص مزيدُ بيانٍ لما تحدثتْ عنه آياتُ النصِّ السابق من أحوال المنافقين، فقد كَشَفَتْ حالَهُمْ، وأبرزتْ سماتِهِمْ، وأخصُّ خصائصهم تذبذبهم بين الإيمان والكفر.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [النساء:١٤١-١٤٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المنافقون يتربصون بالمؤمنين الدوائر:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن المنافقين كانوا يُضْمِرون الشَّرَّ للمؤمنين، وينتظرون أن تدورَ عليهم الدوائر، فيذهبَ مُلْكُهُمْ، وتَفْنَى قوتُهم، وتزولَ دوْلَتُهُمْ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ [النساء:١٤١] والتَّربُّص: الانتظارُ بالشيء، كأن ينتظرَ زوالَ الشيء أو حصولَهُ، والمرادُ أن المنافقين يتربصون بالمؤمنين الدوائر.

٢- امتنانُ المنافقين على المؤمنين والكافرين:

المنافقون لم تَخْلُص قلوبُهم للمؤمنين، ولا للكافرين، وكلُّ ما يُهِمُّهُمْ أنفسُهُمْ، فإذا غَلَبَ المؤمنونَ ورزقهم اللهُ فتحاً، قال لهم المنافقون متوددين طالبين المَغْنَمَ: ألم نكن معكم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء:١٤١]، فإذا كانت الغلبةُ للكافرين، كما وَقَعَ في غزوة أُحُدٍ قالوا للكفار: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤١]، يعنون أنهم ناصروهم، وحَمَوْا ظهورهم، وخذَّلوا عنهم، وخَلْخَلوا صفوف المؤمنين.

المنافقون يريدون نيلَ الحظوةِ عند هؤلاء وعند هؤلاء، ويريدون أن يأمنوا مكرَ هؤلاءِ وهؤلاءِ.

٣- حكم الله تعالى بين العباد في يوم القيامة:

وقد أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه سيحكمُ بين المؤمنين والمنافقين في يوم الدين، ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [النساء:١٤١]، ففي ذلك اليوم يُكْشَف حالُ المنافقين، ويظهر منهم ما كانوا يكنُّونه، ويسترونَه من كُفْرهم، ولا يستطيعون أن يكتُموا الله شيئاً من أخبارهم.

٤- ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء:١٤١] أما أنه لن يجعل لهم عليهم سبيلاً في الآخرة، فهذا أمر في غاية الوضوحِ والبيانِ، وكلُّ مؤمنٍ يوقنُ بذلك، أما في الدنيا فقد يُظَنُّ أنَّ الكفارَ قد يُدالونَ على المؤمنين، كما وقعَ للكفارِ في أُحُدٍ، وكما وَقَعَ للكفار في حنينٍ في أول المعركة، والصوابُ مِنَ القولِ أنَّ الآيةَ على عمومِها وظاهِرِها، فاللهُ -تبارك وتعالى- لن يجعلَ للشيطانِ ولا للكفارِ سبيلاً على المؤمنين، إلا إذا جعلَ المؤمنون السبيلَ على أنفسِهِمْ بمخالفتهم لما أمرَ الله به أو أمَرَ به رسولُهُ ﷺ ، ففي أُحُدٍ نَصَرَ اللهُ المؤمنين حتى اختلفَ المؤمنونَ وتنازعوا وتركوا أمر الرسولِ ﷺ ، وفي يوم حنين أعجبتِ المؤمنين أنفسُهُمْ وكثرتُهُمْ، وهكذا كلُّ معركة هُزم فيها المؤمنون، أما إذا كان المسلمونَ على المستوى الإيمانيِّ المطلوب، فلن يجعلَ اللهُ للكافرين سبيلاً عليهم بحالٍ.

٥- المنافقون يخادعونَ اللهَ وهو خادِعُهُمْ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن المنافقين يظنُّون أنَّهم قادرون على خداع الله تعالى، ذلك أنهم أظهروا الإيمانَ وأبطنوا الكفر، فعصموا دماءَهم وأموالَهم في الدنيا، فأمر اللهُ تعالى أن تُجرَى أحكامُ الشريعةِ في ظاهِرِ أمْرِهم، فإذا جاؤوا يومَ القيامةِ ظَنُّوا أنَّهم يستيطعونَ النجاةَ من عذابِ الله في ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾ [المجادلة:١٨].

ولا شكَّ أنَّ اللهَ -تعالى- لا يخدعُ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، فاللهُ -تبارك وتعالى- عالمٌ بمكنون ضمائر المنافقين، وأجرى عليهم أحكامه في الدنيا لحكمةٍ يعلمها، وفي يوم القيامة عندما ينكرون كُفْرَهُمْ وضلالَهُمْ يختمُ على أفواههم، وتشهدُ عليهم أيديهم وأرجلُهم

وجلودُهم بما كانوا يعملونَ، فيظهر لهم في ذلك اليوم أنَّه هم المخدوعون ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

٦- إذا قامَ المنافقون إلى الصّلاةِ قاموا كسالى:

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى- عن حالِ المنافقين في صلاتِهِمْ، فقال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢]. وقد أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقينَ لا إيمانَ في قلوبهم، ولذلك فإنهم لا يُصلُّون إذا كانوا في خِفْيةٍ من الناس، فإذا كانوا ظاهرين صَلَّوْا مراءاةً للناس، ومن كان هذا حاله فإنَّ همته لا تنبعثُ قويةً إلى الصلاةِ، بل يقومون كسالى فاترين، ليس لهم في الصلاة همٌّ ولا عَزْمٌ.

وقد حدَّثنا رسولُنا ﷺ عن صلاةِ المنافقين، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ : «ليس صلاةٌ أثْقَلَ على المنافقين من الفجرِ والعشاءِ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً» [البخاري: ٦٥٧. ومسلم: ٦٥١].

وعن أنس بن مالكٍ قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «تلكَ صلاةُ المنافق، يجلسُ يَرْقُبُ الشمسَ، حتى إذا كانت بين قرْني شيطانٍ، قام فنقرها أربعاً، لا يذكرُ اللهَ فيها إلا قليلاً» [مسلم: ٦٢٢].

وتكون الصلاةُ بين قرني شيطان في طلوعها وفي غروبها، حيثُ ينصِّب نفسَهُ في ذلك الوقت في جهة الشروقِ أو الغروبِ، ليكون من سجَد من الكفار في تلك الجهة ساجداً له.

٧- المنافقون مُحَيَّرونَ بين الإيمان والكفر:

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين مُحَيَّرون بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكفارِ ظاهراً وباطناً، بل ظواهِرهُمْ مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين قال الراغب الأصفهاني: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مضطربين مائلين تارةً إلى المؤمنين، وتارةً إلى الكافرين [المفردات: ص١٧٧]، قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء:١٤٣].

وهذه الآية تصوِّرُ حال المنافقين بأوضح صورةٍ، فهم متأرجحون متذبذبون بين الصف المؤمن والصفِّ الكافر، ومن كان كذلك كان حاله يَشِي بالضعف والخلل وهو بذلك موضعُ احتقارٍ من نفسِهِ ومن غيره، وهذا الصنفُ يستحقُّ أن يقول ربُّ العزة فيه: ﴿وَمَن

يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [النساء:١٤٣] أي: من يصرفه ربنا عن الهدى فلا هاديَ يهْديهِ، ولا منقذَ له من الضلال.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- المنافقونَ ينتظرونَ أن تحلَّ الدوائر بالمؤمنين، فيذهبُ عِزُّهم، ويزولُ ملكهم.

٢- المنافقون يحاولون أن يكْسبوا وُدّ المؤمنين وودَّ الكافرين، فإذا انتصرَ المؤمنون قالوا لهم: كنا معكم، وإذا كانت الدولة للكفار زعموا أنه كان لهم دورٌ في نصرِهم.

٣- اللهُ تبارك وتعالى يحكمُ بين عبادِهِ في يوم الدين، ويفضحُ في ذلك اليومِ المنافقينَ.

٤- إذا استقام المؤمنون على الإيمان حقَّ الاستقامة لم يجعل اللهُ للكافرين عليهم سبيلاً، وإنما يكونُ لهم سبيلٌ على المؤمنين إذا وُجد في إيمانهم وطاعتهم ثغرةٌ.

٥- لا يجوزُ أن يملكَ الكافرُ عبداً مؤمناً لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [النساء:١٤١].

٦- المنافقون يظنون في أنفسهم الذكاء والنباهةَ، إذْ يظنونَ أنهم قادرون على خداع الله والذين آمنوا، وفي يوم القيامة يعلمون أنَّهم مخدوعون أغبياءُ.

٧- من علامة المنافقين أنهم يقومون إلى الصلاة كسالى، أما المؤمنون فيقومون نشطين مبتهجين.

٨- أدقُّ وصفٍ للمنافقين أنهم مذبذبون متأرجحون بين الصفِّ الإسلامي والصفِّ الكافرِ، لا يقرُّ لهم قرارٌ، ولا يهدأُ لهم بالٌ.

النص القرآني التاسع والثلاثون من سورة النساء

﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أولاً: تقديم

نادى اللهُ تعالى المؤمنينَ ناهياً إياهُمْ عن تولِّي الكافرين، مخبراً إياهم أنَّ اتخاذَهُمْ أولياءَ من دونِ المؤمنين يجعلُ لله حجةً عليهم بتعذيبهم، وأخبرنا عن عظم جريمةِ النفاقِ الأكبرِ، فالمنافقون في الدركِ الأسفلِ من النار، وأخبرنا سبحانه أنه يقبلُ توبة المنافقين الصادقين في توبتهم، فهو ليس بحاجةٍ إلى عذابهم إنْ هم تابوا، وأنابوا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء:١٤٤-١٤٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهى اللهُ المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين:

نهى الله تبارك وتعالى المؤمنينَ أن يكونوا كالمنافقين باتخاذِهِمْ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤٤] قال ابنُ كثيرٍ رحمهُ الله تعالى: «يَنْهَى اللهُ عبادَهُ المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، يعني مصاحبتَهم ومصادقتهم، ومناصَحَتَهُمْ وإسرارَ المودة إليهم، وإفشاءَ أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران:٢٨]» [ابن كثير: ٢/ ٤٠٢].

وقوله تعالى في خاتمة الآية ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤)﴾ [النساء:١٤٤] الاستفهامُ في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ للتقريع والتوبيخ، أي: أتريدون أن تجعلوا لله

عليكم حُجَّةً بيِّنةً يُعذِّبكم بها بسبب ارتكابكم لما نهاكم عنه من موالاةِ الكافرين، وقد نَقَلَ ابنُ كثير عن ابن عباسٍ بإسناد حكمَ عليه بالصحة أنه قال: «كلُّ سلطانٍ في القرآن حجةٌ» ونقل ذلك عن أئمة التفسير، كمجاهدٍ، وعكرمة، وسعيد بن جبيرٍ، وغيرهم [ابن كثير: ٢/ ٤٠٢].

٢- المنافقون في الدركِ الأسفل من النار:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥] والنار سبعُ دركاتٍ، بعضُها تحت بعضٍ، وكلما نزلتْ دركاتُ النار ازداد أهلها عذاباً وشقاءً، والمنافقون في المنزلة السابعة من دركاتِ النار، وهذا يدلُّ على عِظَم جريمَتِهم، وعِظَم شقاوَتِهِمْ، وكما أنَّ النارَ دركاتٌ، فإنَّ الجنةَ درجاتٌ بعضها فوق بعضٍ، وكلما ارتفعَ الناسُ في الجنة ازدادَ نعيمهم.

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين في الدَّركِ الأسفل من النار، لا يجدون من ينصرهم، ولا من يحميهم، ويدافعُ عنهم في ذلك اليوم، نعوذُ بالله من حالهم ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

٣- التائبون من النفاق:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ طائفةً من المنافقين تابوا إلى الله تعالى وأنابوا إليه، وصلُحَ حالُهم، فهؤلاء مع المؤمنينَ في جناتِ النعيم، وقد قال تعالى في هؤلاءِ التائبين.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء:١٤٦] لقد وقع تغيير حقيقي في حياة هؤلاء المنافقين، وقد أعلمنا ربُّنا أن هؤلاء انصلح حالُهُمْ، وتغيَّر ضَلالُهُمْ، وانحازوا لأهل الإيمان، فنجوْا في يوم الدين، وكانوا من الصالحين، وقد وُجِدَتْ فيهم أربعة أمور أوجبت نجاتهم في يوم الدين:

الأول: أنهم تابوا عما كان في قلوبهم من الشك والريب والخيانة لله ورسوله.

الثاني: أصلحوا ما أفسدوه من قبل من كتمانهم الحق، واتهامهم الإسلام وأهله.

الثالث: اعتصامُهُمْ بالله وَحْدَهُ، وإعراضُهُمْ عن زعماء الكفرِ والنفاق.

الرابع: إخلاصُ دينهم لله تعالى بعبادته وَحْدَهُ لا شريكَ له.

إنَّ التغيير الذي وقع في نفوس هؤلاء تغيير كليٌّ حقيقيٌّ، فقد انسلخَ هؤلاء عما كانوا فيه من مبادئ ضالة، وعقائدَ فاسدة، وقد تحوَّلوا من فئة المنافقين إلى زُمْرَةِ المؤمنين، ولذلك فإنَّهم يستحقون الأجر العظيم في يوم الدين.

٤- ما يفعلُ اللهُ بعذابكم إنْ شكَرْتُم وآمنتم:

خاطبَ اللهُ تعالى المنافقينَ مبيناً لهم أنه لا حاجةَ له إلى تعذيبهم إنْ هم آمنوا وشكروا اللهَ عز وجل، فقال: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء:١٤٧].

يقول ابن جرير رحمه الله تعالى مفسِّراً هذه الآية: «ما يصنعُ اللهُ أيها المنافقون بعذابكم، إن أنتم تُبْتُمْ إلى الله، ورجعتُم إلى الحق الواجب لله عليكم، فشكرتُموهُ على ما أنعم عليكم من نعمِهِ في أنفسكم وأهاليكم وأولادِكُمْ، بالإنابة إلى توحيده، والاعتصام بِهِ، وإخلاصِكُمْ أعمالَكم لوجهه، وتَرْكِ رِياءِ الناس بها، وآمنتم برسولِهِ محمدٍ ﷺ ، فصدَّقْتُموهُ، وأقْرَرْتُم بما جاءَكم به من عنده، فعملتم به» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٦١٠].

وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ أي: شاكرٌ لعبادِهِ الذين أطاعوه وعبَدُوه بإثابتهم على الإيمان والعبادة، وهو عليمٌ بالصالح والطالحِ من عباده، وسيجزيهم على ما كان منهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- حرَّم اللهُ على المؤمنين أنْ يتخذوا الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين.

٢- اتخاذُ المؤمنين الكافرينَ أولياءَ سببٌ يؤدِّي إلى تعذيب الذين توَلَّوْا الكفارَ.

٣- النفاقُ الأكبرُ الذي يكونُ بإظهار الإيمانِ واستبطانِ الكفر جريمةٌ كبرى، يستحقُّ أصحابُها أن يجعلهم اللهُ في الدركِ الأسفل من النار.

٤- النار سبع دركاتٍ بعضُها تحت بعضٍ، والجنةُ درجاتٌ بعضها فوق بعض.

٥- اللهُ يقبلُ توبةَ التائبين من المنافقين والكفار إذا كانت صادقةً، وذلك برجوعهم عن الكفر الذي تلبَّسوا به، وإصلاحِ أعمالهم الفاسدة، واعتصامِهِمْ بالله وحده منخلعين عما كانوا يعبدونه من دون الله، دينهم لله الواحدِ الأحد.

٦- الله -سبحانه- ليس به حاجة إلى تعذيب المؤمنينَ الذين تابوا من النفاق والشرك.

النص القرآني المتمم للأربعين من سورة النساء

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النص ترمي إلى رفع المؤمنين إلى مستوىً راقٍ في أقوالهم وتصرفاتهم، فقد أخبر اللهُ تعالى المؤمنين أنه لا يحبُّ الجهرَ بالسوء من القول إلا إذا كان المجاهرُ مظلوماً، ولا شكَّ أن المؤمنين سينتهون عن الجهر بالسوء، لأنهم يحبون ما يحبُّهُ اللهُ، ويكرهونَ ما يَكْرَهُهُ الله تعالى، ومع إباحة الله للمظلوم الجهرَ بالسوء من القول إلا أن عَفْو المظلوم عمَّن ظلمه أفضلُ وأكثرُ أجراً وثواباً.

وقد ذمَّ اللهُ أهل الكتابِ الذين يؤمنون ببعض الرسل، ويكفرون ببعضٍ، وحكم عليهم بالكفر، وأثنى على المؤمنين من هذه الأمة الذين يؤمنون بالرسل كلِّهم، ووعدهم بالأجر العظيم، والثواب الجزيل.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ [النساء:١٤٨-١٥٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾:

أعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنه يكره لأحدٍ من المؤمنين أن يجهَرَ بالسوءِ لغيره إلا إذا ظُلِمَ، قال تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء:١٤٨]. وصُوَرُ الظلم التي تبيحُ للمظلوم أن يجْهَرَ بمعاناته من ظالِمِهِ كثيرةٌ، فمن ذلك ما ذكره ابنُ عباسٍ قال:

إنَّ التغيير الذي وقع في نفوس هؤلاء تغيير كليٌّ حقيقيٌّ، فقد انسلخَ هؤلاء عما كانوا فيه من مبادئ ضالة، وعقائدَ فاسدة، وقد تحوَّلوا من فئة المنافقين إلى زُمْرَةِ المؤمنين، ولذلك فإنَّهم يستحقون الأجر العظيم في يوم الدين.

٤- ما يفعلُ اللهُ بعذابِكم إنْ شَكَرْتم وآمنتم:

خاطبَ اللهُ تعالى المنافقينَ مبيناً لهم أنه لا حاجةَ له إلى تعذيبهم إنْ هم آمنوا وشكروا اللهَ عز وجل، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧].

يقول ابن جرير رحمه الله تعالى مفسِّراً هذه الآية: «ما يصنعُ اللهُ أيها المنافقون بعذابكم، إن أنتم تُبْتُمْ إلى الله، ورجعتُم إلى الحق الواجب لله عليكم، فشكرتُموهُ على ما أنعم عليكم من نعمِهِ في أنفسكم وأهاليكم وأولادِكُمْ، بالإنابة إلى توحيده، والاعتصام بِهِ، وإخلاصِكُمْ أعمالَكم لوجهه، وتَرْكِ رِياءِ الناس بها، وآمنتم برسولِهِ محمدٍ ﷺ، فصدَّقْتُموهُ، وأقْرَرْتُم بما جاءَكم به من عنده، فعملتم به» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٦١٠].

وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ أي: شاكرٌ لعبادِهِ الذين أطاعوه وعبَدُوه بإثابتهم على الإيمان والعبادة، وهو عليمٌ بالصالح والطالحِ من عباده، وسيجزيهم على ما كان منهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- حرَّم اللهُ على المؤمنين أنْ يتخذوا الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين.

٢- اتخاذُ المؤمنين الكافرينَ أولياءَ سببٌ يؤدِّي إلى تعذيب الذين توَلَّوْا الكفارَ.

٣- النفاقُ الأكبرُ الذي يكونُ بإظهار الإيمانِ واستبطانِ الكفر جريمةٌ كبرى، يستحقُّ أصحابُها أن يجعلهم اللهُ في الدركِ الأسفل من النار.

٤- النار سبع دركاتٍ بعضُها تحت بعضٍ، والجنةُ درجاتٌ بعضها فوق بعض.

٥- اللهُ يقبلُ توبةَ التائبين من المنافقين والكفار إذا كانت صادقةً، وذلك برجوعهم عن الكفر الذي تلبَّسوا به، وإصلاحِ أعمالهم الفاسدة، واعتصامِهِمْ بالله وحده منخلعين عما كانوا يعبدونه من دون الله، دينهم لله الواحدِ الأحد.

٦- الله -سبحانه- ليس به حاجة إلى تعذيب المؤمنينَ الذين تابوا من النفاق والشرك.

«لا يحبُّ اللهُ أن يدعو أحدٌ على أحدٍ إلا أن يكونَ مظلوماً، فإنَّ الله أرْخَصَ له أنْ يدعوَ على من ظَلَمَهُ» [الطبري: ٤/ ٢٦١٠].

وقال مجاهدٌ: «هو الرجل ينزلُ بالرَّجُلِ، فلا يُحْسِنُ ضيافته، فيخرجُ من عنده فيقولُ: أساءَ ضيافتي» [الطبري: ٤/ ٢٦١١]. وقال السُّدِّيُّ: «إنَّ اللهَ لا يحبُّ الجهرَ بالسوءِ من أحدٍ من الخلقِ، ولكنْ من ظُلم فانتصرَ بمثل ما ظُلِمَ، فليس عليه جناحٌ» [الطبري: ٤/ ٢٦١٢]. وقال عبدالكريم بن مالكٍ الجزريُّ: «هو الرَّجُلُ يشتمكُ فتشتُمُهُ، ولكن إن افترى عليكَ فلا تَفْتَرِي عليه» [ابن كثير: ٢/ ٤٠٤]. وقد جاءت جملةٌ من الأحاديث توضِّحُ الآية وتُبيِّنُها، فمن ذلك ما رواه أبو هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «المُستبَّان ما قالا، فعَلَى البادئ، ما لم يعتدِ المظلومُ» [مسلم: ٢٥٨٧].

وعن عقبة بن عامرٍ قال: قلنا للنبي ﷺ: إنك تبعثُنا، فننزلُ بالقوم لا يُقْرُوننا، فما ترى فيه؟ فقال لنا: «إنْ نزَلْتُمْ بقومٍ، فأُمِرَ لكم بما ينبغي للضيف، فاقْبَلوا، فإنْ لم يفعلوا، فخُذوا منهم حقَّ الضيفِ» [البخاري: ٢٤٦١. ومسلم: ١٧٢٧].

وعن أبي كريمة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليلةُ الضيفِ حقٌّ على كلِّ مسلمٍ، فمن أصبح بفنائه فهو عليه دينٌ، إن شاء اقتضاه وإن شاء تَرَكَ» [سنن أبي داود: (٣٧٥٠) وأورده الألباني في صحيح أبي داود (٣١٩٠)، وحكم عليه بالصحة. وعزاه لصحيح ابن ماجه (٣٦٧٧)].

وختم اللهُ -تبارك وتعالى- الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء:١٤٨] أي: سميعاً لأقوالكم عليماً بأفعالكم، وسيُحاسبُكُم وفق ما سمعه وعلِمه منكم.

٢- الذي يعفو عمن أساء إليه أفضل ممن يقتصُّ منه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أننا إن أظْهرنا الخيرَ الذي نفعلُهُ أو أخفيناه كالذي يُظهر الصدقة أو يُخفيها، أو عفونا عمن ظلمنا وأساءَ إلينا، فإنَّ الله كانَ عفواً قديراً، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء:١٤٩]. والمعنى المرادُ أن هذه الأعمالَ تقرِّبنا إلى ربنا -تبارك وتعالى- وتُجْزِلُ ثوابنا عنده، فإنَّ من صفاتِهِ -سبحانه- أن يعفو عن عبادِهِ مع قدرته على عِقابهم.

وهذا يدلُّ على أنَّ العفوَ عمن ظلمنا أفضلُ عند الله تعالى من الجهرِ له بالسوءِ، وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «وما زادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلا عِزّاً» [مسلم: ٢٥٨٨].

٣- كفر الذين يؤمنون ببعض الرُّسُلِ ويكفرونَ ببعضٍ:

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يدَّعون أنَّهم مؤمنون، وحكَمَ عليم بأنهم كفارٌ حقاً وصِدْقاً، لأنهم وإن آمنوا ببعض الرسل كموسى ونوحٍ وإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاق، فإنهم كفروا بآخرين، فاليهودُ لا يؤمنون بأن عيسى ومحمداً أنبياءُ، والنصارى لا يؤمنون بنبوةِ محمدٍ ﷺ، واليهودُ السامريون لا يؤمنون بنبيٍّ بعد يوشَعَ، وقد حكم اللهُ تعالى بكفر كلِّ من كفر بنبيٍّ من الأنبياء الذين أوحى اللهُ إليهم، وقالَ فيمن كذَّبَ الرسولَ الذي أرْسَلُه إليه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء:١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء:١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء:١٤١]، وإنما كذَّبتْ كلُّ أُمةٍ الرسلَ جميعاً بتكذيبهم الرسولَ الذي أُرسل إليهم، قال تعالى في آية هذا النص: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

وقد حكم اللهُ -تبارك وتعالى- على هؤلاء بأنهم كُفَّارٌ بالله ورُسُلِهِ، لأنهم فرّقوا بين الله ورُسله، وبيَّن اللهُ تبارك وتعالى أن المرادَ بتفريقهم بين الله ورسله هو إيمانهم بالله وكفرهم ببعض الرُّسُل، وإنما كانوا كافرين، لأن الرسلَ جميعاً حملةُ دينٍ واحدٍ، وقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ أي طريقاً ومسلكاً غير الطريق الذي شَرَعُه الله تعالى.

وقد حكم اللهُ على هؤلاء بأنهم كفارٌ، وأخبرنا أنه هيأ وأعدَّ للكافرين عذاباً يهينُ كبرياءَهم.

٤- الذين آمنوا بالرسل كلِّهم هم المؤمنون حقاً:

أثنى اللهُ على المؤمنين من هذه الأمة والذين دخلوا فيهم من اليهود والنصارى، فهؤلاء مؤمنون بالله وجميع رسله، وليسوا كاليهود والنصارى الذين فرَّقوا بين الله ورسله، ووعدهم ربُّ العزة -تبارك وتعالى- أنْ يُؤْتيهمْ أجورَهُم في يوم الدين، فلهم في ذلك اليوم الجزاءُ الجزيلُ، والثوابُ الجليلُ، والعطاءُ الجميلُ، واللهُ تبارك وتعالى غفورٌ رحيمٌ بالمؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء:١٥٢].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ -تبارك وتعالى- يكرَهُ كل من جَهَرَ بالقول السيئ، ومن ذلك السبابُ والشتائمُ، والتنابزُ بالألقاب، والغيبةُ والنميمةُ، وقد أجازَ اللهُ لمن ظُلِمَ أن يُظهِرَ جُرْمَ من أساءَ إليه وظلمه.

٢- الذي يعمل العمل الصالحَ يقبَلُهُ اللهُ منه أظْهرَه أو أخْفاه إذا عَمِلَه خالصاً لوجه الله.

٣- الإيمانُ الذي يفقدُ أصلاً من أصوله لا يقبله الله تعالى، فالذي يزعُمُ أنه مؤمنٌ بالله، وهو كافرٌ بالرُّسُلِ أو بعض منهم، فهو كافرٌ خارجٌ من دين الله حتى يؤمنَ بالله وجميع الرُّسُلِ الذين أخبرنا اللهُ أنه أرْسَلَهم.

٤- اليهودُ كفارٌ لأنهم لا يؤمنونَ بعيسى وبمحمدٍ عليهما السلامَ، والنصارى كُفّار، لأنهم لا يؤمنون بمحمدٍ ﷺ.

٥- هذه الأمة تحمل في صدورها الإيمانَ الكامل المرضيَّ عندَ الله تعالى، القائمَ على الإيمانِ بالله وملائكتِهِ وكتبه ورسله واليومِ الآخر.

٦- لا يكفي في وَصْفِ الإنسان، بالإيمان أنه صدَّق بوجودِ الله، من غير أن يَعْبُدَهُ وحْدَهُ لا شريكَ له، ومن غيرِ أن يؤمنَ ببقية أصولِ الإيمانِ.

٧- الله تباركَ وتعالى يتّصفُ بصفاتِ الكمالِ، ومن صفاته التي أخبرنا بها أنه يحبُّ، وأنه لا يحبُّ.

النص القرآني الحادي والأربعون من سورة النساء
طَلَبَ بنو إسرائيل من نبينا محمد ﷺ أنْ يُنزِلَ عليهم كتاباً من السماء ليؤمنوا

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ بني إسرائيلَ سألوا رسولَنا ﷺ أن يُنزِلَ عليهم كتاباً من السماء ليؤمنوا به، وقد واسى ربُّنا رسولَنا ﷺ بإعلامه أنهم سألوا موسى أعظمَ من ذلك، فقد اشترطوا لإيمانهم لموسى أن يريهم الله جهرةً، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم.

وأخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنهم بعد أن طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرةً، اتخذوا العجلَ الذي صَنَعَهُ لهم السامريُّ من الذهب، فعفا اللهُ عنهم، وأخبرنا عن عُتُوِّهم واستكبارهم عندما أمرهم أن يدخلوا بابَ المدينة التي أُمروا بدخولِها خاضعين، وعن اعتدائهم في السبت.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾ [النساء:١٥٣-١٥٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سؤال اليهود رسولَنا ﷺ أن ينزلَ عليهم كتاباً من السماء:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ أهلَ الكتابِ سألوا رسولَنا ﷺ أنْ يُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ [النساء:١٥٣].

سأل بنو إسرائيل رسولَنا ﷺ أن يُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء مكتوباً، كما جاء موسى بني إسرائيلَ بالتوراة مكتوبةً من عند الله، كي يكون هذا الكتابُ معجزةً للخلق، وشاهداً لرسولِ الله ﷺ بالصدقِ.

وقد سألَ كفارُ قريشٍ مثلَ هذا السؤالِ، وقد حكاه اللهُ عنه في قولِه: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء:٩٣] وبنو إسرائيلَ ومشركو العرب سألوا هذا السؤال على سبيل التعنُّتِ والعنادِ والكفرِ والإلحاد، وقد واسى اللهُ رسولَه ﷺ فأخبره أنَّ بني إسرائيل في عهد موسى ﷺ ﴿سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء:١٥٣].

وقد طلب بنو إسرائيل من موسى أن يروْا الله عياناً حتى ينظروا إليه بأبصارهم، فأخذتْهُم الصاعقةُ بظلمهم، والصاعقة الصوتُ الشديد يأتي من الجوِّ الذي يكون معه نارٌ، وقد ذكر اللهُ تعالى طلبهُم هذا، وأخبرَ عن حلول الصعقةِ بهم في مواضعَ من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

وما كان لليهود ولا لغيرهم أن يسألوا رسولَ الله ﷺ أن يُنزِّلَ عليهم كتاباً من السماء مكتوباً بعد أن أنزلَ الله عليهم أعظمَ الكتبِ وهو القرآنُ الذي قال الله تعالى فيه ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨].

٢- اتخاذ بني إسرائيل العجلَ إلهاً عبدوه من دون الله تعالى:

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- في أكثر من موضع في كتابه اتخاذَ بني إسرائيل العجلَ الذهبي الذي صَنَعَه لهم السامريُّ من الحليِّ الذي أخذه بنو إسرائيل من أهل مصر، فقال في هذه الآيات: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء:١٥٣].

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: بعد ما سألوا موسى أن يُرِيَهُمُ اللهَ جهرةً وصَعْقِهِمْ ثم بعثهم، وقد مضى الحديثُ عن اتخاذ بني إسرائيل العجل في سورة البقرة، وسيأتي مزيدُ بيانٍ لتلك الواقعة في الأعراف وطه إن شاء الله تعالى.

وقولُهُ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الحجج الظاهراتُ، ومنها العصا التي كانَ موسى يلقيها فتصبحُ ثعباناً مبيناً، واليدُ التي يُدْخِلَها في جيبه فتصبحُ بيضاءَ للناظرين، وما

أرْسَله إلى فرعونَ وقومِهِ من الآيات، ومنها الجرادُ والقُمَّلُ والضفادعُ والدمُ، ومنها إهلاكُ فرعونَ وقومِه في البحرِ.

وعفو الله عن ذنب بني إسرائيل المذكور في قوله تعالى: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أخبرنا ربنا في سورة البقرة أنه كان بعد أن أمر الذين لم يعبدوا العجل بقتل عابديه. والسلطانُ المبينُ الذي آتاه اللهُ موسى ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء:١٥٣] التوراةُ المنزلةُ على موسى، فهي الحجَّةُ التي أنْزَلها اللهُ عليه.

٣- رفعُ الله الطورَ فوقَ رؤوس بني إسرائيل:

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ بني إسرائيل رفضوا الالتزام بأحكام التوراة، فرفع اللهُ الجبلَ فوقَ رؤوسهم كأنه غمامةٌ، فلما رأوه خرّوا ساجدين، والتزموا، وجعلوا ينظرونه فوقَ رؤوسهم خائفين أن يسقُطَ عليهم ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ [النساء:١٥٤].

وقد ذَكَرَ اللهُ -تعالى- هذه الواقعةَ العظيمةَ في أكثر من موضع، ومن ذلك ما ذكره في الأعراف، فقال: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧١].

وقولُهُ: ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أي: كان رفعُ الطورِ وهو الجبلُ فوقَ رؤوسهم ليُعْطُوا الميثاقَ ويلتزموا به.

وأشارت هذه الآياتُ إلى واقعتين جَرَى بيانُهما في مواضعَ أخرى، الأولى: أمرهم بدخول باب المدينة التي أمروا بدخولها وهم خاضعون، فدخلوه على غير الوصف الذي أمرهم الله به، والثانية: نهيُ الله لهم عن الاعتداء يوم السبت ففعلوا ما نهاهم الله عنه ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء:١٥٤] والأولى مضى بيانُها في الآية رقم (٥٨) من سورة البقرة، والثانية سيأتي ذكرها في الآيات (١٦٣-١٦٧) من سورة الأعراف.

والميثاقُ الغليظ الذي أخذه اللهُ على بني إسرائيلَ والذي ذكره اللهُ في قوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء:١٥٤] هو العهدُ الموثَّقُ المؤَكَّدُ الشديدُ، الذي التزموا فيه بالعمل بما أمَرَهم اللهُ به، والانتهاءِ عما نهاهم عنه مما أنزله عليهم في التوراة.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - سألَ اليهودُ رسولَنا ﷺ على وجه التعنت أن يُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء كما أنزلَ اللهُ التوراةَ على موسى فأخبر اللهُ رسولَهُ ﷺ أنَّ بني إسرائيلَ سألوا موسى أكثر من ذلك عندما طلبوا منه أن يُرِيهم اللهَ عياناً.

٢ -من جرائم بني إسرائيل عبادتُهم العجلَ الذهبيَّ الذي صنعه لهم السامريُّ.

٣- رفعَ اللهُ الجبلَ فوق بني إسرائيل عندما رفضوا الالتزامَ بالعهد الذي يلزمهم اللهُ فيه بشريعة موسى.

٤ - أمَرَ اللهُ بني إسرائيلَ بدخولِ أبوابِ مدينة القدسِ خاضعينَ متواضعينَ، فدخلوها متعالين مستكبرينَ.

٥- حرَّم اللهُ على بني إسرائيل العملَ يوم السبت، فخالفوا أمْرَ الله تعالى، واحتالوا لصيدِ الحيتانِ فيه.

٦- أخذ اللهُ من بني إسرائيل ميثاقاً غليظاً، تعهدوا فيه بالالتزام بشريعة موسى، فلم يلتزموا بما عاهدوا اللهَ عليه.

النص القرآني الثاني والأربعون من سورة النساء
الجرائم التي ارتكبها اليهود عبر العصور

أولاً: تقديم

في الآية الأخيرة من النص السابق أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أخذ من بني إسرائيل ميثاقاً غليظاً، وفي هذا النص أخبرنا اللهُ تعالى أن بني إسرائيل نقضوا ميثاقهم مع ربِّهم، وعدَّدَ جملةً من الذنوب الكبار التي أوجبتْ غضبَ الله عليهم، ومن ذلك محاولَتهمْ قتل عيسى، ولكن اللهَ رفعَهُ إلى السماءِ، ولم يمكِّنهم من قتله، وسينزُله في آخِرِ الزمان، فيقتلُ الدجال، ويحكمُ بشريعة القرآنِ.

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة النساء

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء:١٥٥-١٥٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تعدادُ الله جرائمَ اليهود عبر القرون:

عدَّدَ اللهُ -تعالى- جرائم اليهود عبر العصور التي استحقُّوا بها مَقْتَ الله وغضبَه ولعنتَه، فمن ذلك نَقْضُهم مواثيقَهُم التي أعْطَوْها لربهم بأن يعبدُوه ويوحِّدوه ويطيعوه، وكُفرُهمْ بالآيات التي أنزلها اللهُ تعالى إليهم، وقَتْلُهم جملةً من الأنبياء والرسل، فقد قتلوا بعض أنبيائهم، وحاولوا قتل عيسى ومحمداً عليهما السلام، ودعواهم أنَّ قلوبَهم غُلْفٌ، أي: في أغْطيةٍ، فلا تفقه ما أوحى اللهُ به إلى عبْدِهِ ورسولِه محمدٍ ﷺ، وقد رَدَّ اللهُ عليهم فِريتهم هذه، وأخبرنا أنَّ الله تعالى طَبَعَ على قلوبهم، أي: خَتَم عليها بسبب كفرِهم، فلا يؤمنون إلا قليلاً، قال تعالى في ذكر ما عدَّدَهُ من جرائمهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾

[النساء:١٥٥]. قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: «لما ادَّعَوْا أنَّ قُلوبَهُمْ في أغْطيةٍ وأغْشيةٍ لا تفقهُ قولَه، عرفَّهم أنَّ كُفْرَهم ونَقْضَهم ميثاقَه وقَتْلَهُمْ الأنبياءَ كان سبباً لأن طبعَ على قلوبهم» [بدائع التفسير: ٢/ ٨٨].

٢- جريمةُ اليهودِ فيما رموْا به عيسى عليه السلام وأمَّه:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنّ من جرائم اليهود التي استحقّوا بها غضبَ الله ومقتَهُ ولعنتَهُ موقفَهُمْ من نبيِّه عيسى وأُمِّه عليهما السلام، فجمْعٌ كبير من اليهود رَمَوْا الصدِّيقة العذراءَ البتولَ أمَّ عيسى عليها السلام بالبهتان العظيم وهو الزنا ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء:١٥٦] والبهتانُ أعْظَمُ الكَذِب، سُمِّيَ بهتاناً لأنه يَبْهَتُ سامِعَهُ لفظاعَتِهِ.

ومن جرائمهم محاولَتُهمْ قَتْلَ عيسى عليه السلام، وقد ادَّعَوْا أنّهم قتلوه، وصدَّقهم النصارى فيما زعموه، وقد أكذب اللهُ اليهودَ في دعواهم قَتْلَهُ، وقرَّر ربُّ العزةِ سبحانه أنهم لم يقتلوه، ولم يَصْلُبُوه، ولكن شُبِّه لهم، فقد ألْقى اللهُ شَبَهَهُ على غيره، فقتلوا الشبيهَ، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين اختلفوا فيه، وهم الذين أحاطوا به ليقتلوه ليسوا بمستيْقنين بأنهم قتلوه، بل هم في ذلك شاكون، وليسَ عندهم علم على وَجْهِ الحقيقة، بل عندهم ظنونٌ وتخرصاتٌ، والحقُّ الذي جزم به الحقُّ -تبارك وتعالى- أنهم لم يقتلوه، وهذا أمرٌ مستيقنٌ لا شك فيه، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء:١٥٧].

٣- رَفَعَ اللهُ -تعالى- عيسى عليه السلام وسينزل إلى الأرض آخر الزمان:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه بعد أن ألْقى شَبَهَ عيسى على غيره، رفع اللهُ عيسى إليه، واللهُ قادرٌ على أن يفعل ما يريدُ، وهو يفعلُ ذلك لحكمةٍ يريدُها، ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء:١٥٨].

وسينزلُ عيسى في آخر الزمان بعد خروج الدجال، فيقضي على الدجال، ويحكمُ بالشريعة المحمدية المتمثلة بالكتاب والسنّة، وتُرفَعُ الجزيةُ في عصرِهِ، فلا يُقبَلُ من أحدٍ غير الإسلام، وتهلكُ الأديانُ في عصره إلا دينَ الإسلامِ، ويدخلُ اليهودُ والنصارى في الإسلام، ومن أبى قُتِلَ، ولذلك قالَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء:١٥٩] والمرادُ بأهل الكتاب الذين سيؤمنون به قبل موته اليهود والنصارى الذين يكونون أحياءَ عند نزوله، لأنه لا يرضى منهم إلا بدخول الإسلام

أو القتل، وسيكون في يوم القيامة شاهداً عليهم أنه أَبْلَغَهُمْ ما أوحى اللهُ به إليه، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ عيسى عليه السلام يقولُ لربِّ العزة تبارك وتعالى في يوم القيامة: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة:١١٧].

٤- الأحاديث الدالة على نزول عيسى عليه السلام:

أخبرنا رسولُنا ﷺ في أحاديث كثيرة صحيحة طيبة عن نزولِ عيسى عليه السلام، فمن ذلك:

أ- عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قال رسولَ الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليوشِكَنَّ أن ينزلَ فيكُمُ ابنُ مريمَ حَكَماً مُقْسِطاً، فيكْسِرَ الصَّليبَ، ويقتُلَ الخنزيرَ، ويضَعَ الجزيةَ، ويفيضَ المالُ حتى لا يقْبَلَهُ أحدٌ» [البخاري: ٢٢٢٢. ومسلم: ١٥٥].

ب- وقالَ الرسولُ ﷺ في حديثِ النواسِ بن سمعانَ: «فبينما هو (أي الدجال) كذلك إذ بعثَ اللهُ المسيحَ ابنَ مريمَ، فينزلُ عند المنارَةِ البيضاءِ شرقيَّ دمشق، بين مَهْرُودَتَيْنِ، واضِعاً كفَّيْهِ على أجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إذا طَأْطأَ رأسَهُ قَطَرَ، وإذا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ منه جُمانٌ كاللُّؤْلُؤِ، فلا يحِلُّ لكافرٍ يجِدُ ريح نفسِهِ إلاّ ماتَ، ونَفَسُهُ ينتهي حيثُ ينتهي طَرْفُهُ، فيَطْلُبُهُ حتى يُدْرِكَهُ ببابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثم يأتي عيسى ابنَ مريمَ قومٌ قد عَصَمَهُمُ الله منه، فيمْسَحُ عن وُجوههم، ويُحَدِّثهم بدرجاتهم في الجنة» [مسلم: ٢٩٣٧].

ج- عن أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «والله، لَيَنْزِلَنَّ ابنُ مريم حَكَماً عادلاً، فليكسرنَّ الصليبَ، وليقتلنَّ الخنزير، وليَضَعنَّ الجزيةَ، ولتتركَنَّ القلاصُ فلا يسعى عليها، ولتَذْهَبَنَّ الشحناءُ والتباغضُ والتحاسدُ، وليَدْعُوَنَّ إلى المالِ فلا يَقْبَلُهُ أحدٌ» [مسلم:١٥٥].

د- عن أبي هريرة مرفوعاً: «يوشِكُ من عاشَ منكُم أن يلقى عيسى ابنَ مريمَ إماماً مهديّاً، وحكماً عَدْلاً، فيَكْسِرُ الصَّليب، ويقتلُ الخنزيرَ، ويضعُ الجزيةَ، وتضعُ الحربُ أوزارها» [قال الألباني: أخرجَهُ أحمدُ، وإسنادُه صحيحٌ، على شرط الشيخين: قصة المسيح: ص٩٨] وكسْره للصليبِ إبطالٌ للدين المحرَّفِ الذي عليه النصارى، وقَتْلُهُ الخنزير، التزامٌ بالشريعة الإسلامية التي تحرّمه، ووضْعُهُ الجزيةَ إعلانٌ لعدم قبولِهِ من الكفار إلا الإسلامَ، وعند ذلك تضعُ الحربُ أوزارها لدخولِ الناس جميعاً في الإسلام.

هـ- جاء في حديث أبي هُريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ينزلُ عيسى ابنُ مريمَ، فيَقْتُلُ الخنزيرَ، ويمْحُو الصليبَ، وتُجمعُ له الصلاةُ، ويعطي المالَ حتى لا يُقْبلَ، ويَضَعُ الخراجَ، وينزلُ الرَّوْحاء، فيحجُّ منها أوْ يَعْتَمِرُ أو يجمعهما». قال: وتَلا أبو هريرة ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء:١٥٩] [قال الألباني في تخريجه: أخرجه أحمد، وإسنادُه صحيحٌ على شرط مسلمٍ، وقد أخرج منه نزولَه بـ (الرَّوْحاءِ) والإهلالِ، وكذلك رواه عبدالرزاق، قصة المسيح: ص٩٩].

و- جاءَ في حديث أبي هريرةَ أيضاً يَرْفَعُه: «ليس بيني وبينَهُ نبيٌّ (يعني: عيسى)، وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعْرِفُوه، رجلٌ مربوعٌ إلى الحمرةِ والبياضِ بين مُمَصَّرَتيْنِ، كأنَّ رأسَهُ يقطِرُ، وإنْ لم يُصِبْهُ بَلَلٌ، فيقاتِلُ الناسَ على الإسلام، فيَدُقُّ الصليب، ويقتلُ الخنزير، ويضعُ الجزيةَ، ويُهْلِكُ اللهُ في زمانه المِلَلَ كلها إلا الإسلامَ، ويُهلِك (الله في زمانه) المسيحَ (الكذاب) الدجالَ، وتقع الأَمَنَةُ على الأرضِ؛ حتى ترْتَعَ الأسودُ مع الإبل، والنمارُ مع البقرِ، والذئابُ مع الغنم، ويلعبُ الصبيانُ بالحياتِ لا تَضُرُّهُمْ، فيمكثُ في الأرضِ أربعينَ سنةً، ثم يتوفَّى، فيُصَلِّي عليه المسلمونَ (ويدفنونه)» [قال الألباني في تخريجه: أخرجه أبو داود، والسياقُ له، وابنُ حبان، وأحمد، وابنُ جرير في «التفسير» والآجريّ، وعبدالرزاق وزاد: «وتكون الدعوةُ واحدة لرب العالمين». وقال فيه: إسنادُهُ صحيحٌ، وصحَّحَه الحافظُ، وهو مُخَرَّجٌ في «سلسلةِ الأحاديث الصحيحة» قصة المسيح: ١٠٠].

وقد ذكرتُ بعضاً من هذه الأحاديث عند تفسيري لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذَكَرَ اللهُ -تعالى- جملةً من جرائم اليهود التي ارتكبوها عبر العصور، واستحقُّوا بسببها غضبَ الله ومقتَه ولعْنَتَهُ، فمن ذلك نَقْضُهم عهودَهُ التي عاهدوه بها، وكُفْرُهم بآياتِ الله، وقَتْلُهم الأنبياءَ بغير حقٍّ، ودعواهم أنَّ قلوبَهم غُلْفٌ، وافتراؤُهُمْ الكذبَ العظيمَ على الصدِّيقةِ مريم برميهم إياها بالفاحشةِ، ومحاوَلَتهم قتلَ عيسى ﷺ، وادعاؤُهم أنهم قتلوهُ.

٢- حاول اليهودُ قتلَ عيسى ابن مريمَ، فلم يُمكِّنهم اللهُ من ذلك، ورفَعَهُ الله إليه، وألقى شَبَهَهُ على غيره، فقتلوا الشّبيه وصلبوه.

٣- رفع اللهُ تعالى عيسى ﷺ إلى السماء فهو حيٌّ هناك.

٤- سينزلُ عيسى ﷺ آخرَ الزمانِ بعد خُروجِ الدجالِ، فيقتلُ الدجالَ، ويتَّبعُ محمداً ﷺ، ويُصلِّي صلاةَ المسلمين، وتُرفَعُ الجزيةُ في عَهْدِه، ولا يُقْبَلُ من أحد إلا الإسلامُ أو القتلُ.

٥- سيُؤْمِنُ الناسُ جميعاً بعيسى، ولا يبقى على الأرض دينٌ إلا الإسلامُ، ويؤمنُ به اليهودُ والنصارى، ويتبعونَ الإسلامَ.

النص القرآني الثالث والأربعون من سورة النساء
حرّم اللهُ على اليهود طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنه حرَّم على اليهودِ طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم، لأربعةِ أمور، هي: ظُلْمُهُمْ، وصَدُّهُمْ الناسَ عَنْ دينِ الله، وأخْذُهُمْ الرِّبا الذي حرّمه عليهم، وأكْلُهمْ أموالَ الناسِ بالباطلِ. وقد أثْنى اللهُ -تعالى- في الآية الأخيرة من هذا النصِّ على الصالحين من بني إسرائيلَ الذين آمنوا وأسْلَموا ووعدهم بالجزاء العظيم، وهم قسمان: الراسخون في العلم، والمؤمنون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ [النساء:١٦٠-١٦٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عاقب اللهُ -تعالى- الذين هادوا فحرَّم عليهم طيباتٍ أُحلتْ لهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه حرَّم على اليهود طيبات أُحِلَّت لهم بسبب ظلمهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ [النساء:١٦٠] وقد حدَّثنا ربُّنا -عز وجل- عن المحرمات التي حرَّمها على اليهود بسبب ظلمهم في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٦].

وقولُه: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ أي: صدُّوا الناسَ عن الإيمان بالله تعالى.

٢- أكلُ اليهودِ الربا وهم يعلمون أنّ اللهَ حرَّمه عليهم:

أخبرنا ربُّنا أنَّ اليهودَ أكلوا الربا مع علمهم أنَّ اللهَ حرَّمه عليهم في التوراةِ ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [النساء:١٦١] وقد سبق الحديث عن الربا في البقرة وآل عمران.

واليهودُ في هذا العصر عَجَنُوا الاقتصادَ في العالم كلِّه بالربا، واتخذوه مصيدةً سيطروا بها على العالم كلِّه.

وذمَّ اللهُ اليهودَ لأكلهم أموال الناس بالباطل ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء:١٦١]. أخبرنا ربُّنا أنَّ اليهود يَنْفُذونَ إلى أموالِ الناس، فيستولون عليها بطرقٍ باطلة.

٣- أعدَّ اللهُ للكافرين من اليهود عذاباً أليماً:

كان اليهودُ ولا يزالون يَتَبَجَّحونَ بأنَّ اللهَ أباحَ لهم أموالَ غيرهم بالربا وبغيرِهِ من الطرقِ الباطلةِ، وهم في ذلك كاذبون، وقد أخْبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنه أعدَّ للكافرين من اليهود عذاباً مؤلماً موجعاً في النارِ يومَ القيامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء:١٦١].

٤- ثناءُ اللهِ تعالى على المؤمنين من اليهود:

أثنى اللهُ تعالى على القلة القليلة من اليهود الذين دخلوا في الإسلام، وهم قسمان: الراسخون في العلم، والمؤمنون منهم من غير رسوخ في العلم، فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء:١٦٢].

آمن عددٌ قليلٌ من اليهود في عهد الرسول ﷺ، منهم حَبْرُ اليهود الأعظم عبدالله بنُ سلامٍ، وزوجتُهُ وأولادُه وعمتُه خالدة، كما آمن ثعلبةُ بنُ سعيةَ، وأسدُ بنُ سَعْيَة، وأسدُ بن عُبَيْدٍ، وفي كلِّ عصرٍ يؤمن أعدادٌ قليلة من اليهود، وقد أثنى اللهُ على من آمن منهم في العهد النبوي، ووصفهم بالرسوخ في العلم ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، أي: الثابتون في العلم وهم الذين لا تعْرِضُ لهم شبهة، والمؤمنون منهم، أيْ الذين لم يبْلُغُوا درجةَ الراسخينَ، وهؤلاء يؤمنونُ بالكتابِ كلِّه الذي أنْزَلَهُ اللهُ -تعالى- غير مُفَرِّقينَ بين ما أنْزَلَ اللهُ على رسولِهِ محمد ﷺ، وما أنْزَلَ على الرسلِ من قبله، الذين يقيمون الصلاةَ، ويؤتون الزكاةَ، ويؤمنونَ بالله واليوم الآخر، وسيأتيهم اللهُ أجراً عظيماً في يومِ الدين.

وقوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ منصوبٌ على المدح، كما جاءَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة:١٧٧]. فنصبَ الصابرينَ على المدح.

وقد قرأ جميعُ القراءِ العشرة بهذه القراءة المتواترة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فلا يحلُّ أن يُقرأَ بغيرها.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - حرَّم اللهُ على بني إسرائيل أطعمةً طيبةً حلالاً بسبب ظُلْمِهِمْ وصدِّهم عن سبيل الله كثيراً، أما هذه الأمةُ فإنَّ اللهَ أحلَّ لهم الطيباتِ وحرَّم عليهم الخبائث.

٢ - استحلَّ اليهودُ ما حرَّم اللهُ عليهم من الربا، واستباحوا أموال الناس بالباطل، وقد ظهر في هذه الأيام مدى استباحة اليهود لذلك كلِّه، فأصبحوا أباطرة الربا.

٣- تهدَّد اللهُ -تعالى- اليهودَ بسبب كُفْرِهم وظُلْمِهم بالعذابِ الأليم في يوم القيامة.

٤ - أثْنى اللهُ على اليهود الذين دخلوا في دين الإسلام، ومنهم الراسخون في العلم، ومنهم المؤمنون من غير رسوخٍ في العلم، وسيؤْتي الله هؤلاء جميعاً أجراً عظيماً.

النص القرآني الرابع والأربعون من سورة النساء
قصَّ اللهُ علينا قصصَ بعضِ الرسل وأخفى قصصَ آخرين منهم

أولاً: تقديم

أعلمنا الله تعالى في آيات هذا النص أنه أوحى إلى عبدِه ورسولِه محمدٍ ﷺ، كما أوحى إلى نوحٍ وجملةٍ من النبيين من بعده سمَّاهم، وأخبرنا أنه قصَّ علينا قصص بعض الرسل، وأخفى قصص آخرين. وبيَّنَ لنا وجْه الحكمة من وراء إرسال الرسل، فاللهُ أرسلَ الرسلَ لإقامة الحجّة على العباد، وختم الآيات بإخبارنا بشهادتِه وشهادة ملائكتِهِ بصدقِ ما أنزله اللهُ إلى رسولنا محمدٍ ﷺ، فقد أنزله بعلمه، وكفى بالله شهيداً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء:١٦٣-١٦٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أوْحَى اللهُ -تعالى- إلى رسولِهِ كما أوْحى إلى النبيين من قبله:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أوحى إلى عبْدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ كما أوْحى إلى النبيينَ والرسل من قبله، ومن هؤلاء الذين ذكرَ اللهُ أنَّه أوحى إليهم: نوحٌ وإبراهيمُ وإسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ والأسباط وعيسى وأيوبُ ويونسُ وهارونُ وسليمانُ وداودُ وموسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء:١٦٣].

وأصلُ الوحي في اللغة: الإشارةُ السريعةُ على وَجْهِ الخفاءِ، وفي الشرع ما ينزله اللهُ على رسلِهِ وأنبيائه من شرعِهِ وكلماتِهِ، وقد يكونُ بتكليمه من شاء تَكْليمَهُ، كما كلَّم رسولَه موسى، وقد يُنْزِلُ اللهُ جبريلَ على رسلِه وأنبيائه بوحيه وكلماته، وقد يَقْذِفُ جبريلُ في رَوْعِ الرسولِ ﷺ ما يريدُ إبلاغَه إيَّاهُ. ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ هم أولادُ نبيِّ الله يعقوب، وإخوةُ نبيِّ الله يوسفَ، وقد تناسل مِنْ كلِّ واحدٍ منهم فرعٌ هو بمثابة القبيلة عند العرب، والمرادُ بالأسباطِ الذين أَوْحَى إليهم هُمُ الرُّسُلُ والأنبياءُ الذين بَعَثَهُمْ اللهُ من ذريةِ أولئك الأسباطِ، والمرادُ بالزبورِ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ الكتابُ الذي أنزله اللهُ على عبدِهِ ونبيِّهِ داودَ عليه السلام، والذي يُسَّمى بالمزامير.

٢- قصَّ اللهُ -تبارك وتعالى- علينا بعضاً من قصص المرسلين ولم يَقُصَّ علينا قصص آخرين:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه قصَّ على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ في الآيات التي سبق إنزالُها عليه أخبارَ بعض رسلِهِ وأنبيائِهِ، وأخفى قصص آخرين من رسلِهِ وأنبيائه ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾ [النساء:١٦٤] ومن الرسل الذين قصَّهم علينا الذين ذكرهم الله في الآية السابقة.

٣- كلَّم اللهُ تعالى موسى تكليماً:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه كلَّم عبدَهُ ورسولَه موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء:١٦٤]. وقد جاءت النصوص وافرةً بتقرير هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣] وقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف:١٤٤].

وقد كلَّم اللهُ -تعالى- نبينا محمداً ﷺ عندما عُرِجَ به إلى السموات العُلَى، والقرآنُ الذي أنزله اللهُ على رسولِنا محمدٍ ﷺ كلامُ الله تعالى، أوحى به إلى جبريلَ، وجبريلُ أَوْحى به إلى محمدٍ ﷺ، ومحمدٌ ﷺ تلاه على أصحابِهِ، وأمر كُتَّاب الوحي بكتابتِهِ في الرقاعِ واللِّخافِ.

وعقيدةُ سلفِ الأمة الإسلامية وأهلِ السنّة والجماعة أنَّ القرآنَ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، منه بدأ وإليه يعودُ، واللهُ تكلَّم بالقرآنِ بصوته فأسمع جبريلَ عليه السلام، والقرآنُ الذي هو كلامُ الله مدوَّنٌ في المصاحف، وهو الذي يقْرؤُه قارئُ القرآنِ، فالصوتُ الذي نسمعه صوتُ القارئ، والكلامُ كلامُ الباري تبارك وتعالى، وقد ضَلَّ الذين زعموا أن القرآن مخلوق.

٤- أرسلَ اللهُ -تعالى- الرسلَ مبشرين ومنذرين لئلا يكونَ للناس على الله حِجّة بعد الرسلِ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أرسل رسلَه مبشرين برحمةِ الله وجنته، ومنذرين غضبَهُ ونارَه وانتقامَهُ، كي لا يكونَ للناس على الله حجّةٌ بعد الرسل ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء:١٦٥]. أي: أرْسَلَ اللهُ الرسلَ إلى عبادِه لئلا يبقى لمعتذرٍ عُذْرٌ يوم القيامة، فلا يقولونَ لرب العزة سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه:١٣٤] وقال: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥] وفي الحديث عن المغيرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا أحَدَ أحبُّ إليه العذرُ من الله ومن أجلِ ذلك بعثَ الرسلَ مبشرين ومنذرين» [البخاري: ٧٤١٦. ومسلم: ١٤٩٩].

وقولُهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء:١٦٥] أي: اللهُ تعالى ذو عِزَّةٍ في انتقامِهِ ممن انتقم منه من خَلْقِهِ بسبب كفره ومعصيتِهِ، و﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره في خلقه.

٥- اللهُ يشهدُ بما أنزَلَه إلى رسولِه:

تضمنتِ الآيةُ الأولى من هذا النص، وهي قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ إثباتَ نبوة عَبْدِه ورسولِهِ محمدٍ ﷺ وفي ذلك ردٌّ على مكذبيه من المشركين وأهل الكتابِ، وأعلمنا في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [النساء:١٦٦] أعلمنا اللهُ أنَّه يشهدُ لرسوله محمدٍ ﷺ بالنبوة والرسالة، وفي ذلك ردّ على مكذبيه من الكفار، وقد شهد اللهُ لعبده ونبيه بما أنزله إليه من الوحي، أنْزَلَهُ عالماً به، والملائكةُ جميعاً يشهدون بصدقِ الوحي الذي أُنزل عليه من عند الله، وكفى بشهادة الله على صحة نبوته، وصحة ما أنزل إليه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ -تبارك وتعالى- هو الذي أوحى إلى عبده ورسولِه محمدٍ ﷺ ما أوحاه، وأوْحى إلى جميع الأنبياء والمرسلين، وفي ذلك ردٌّ على الكفرة من أهل الكتاب والمشركين الذين كذَّبوا برسالَتِهِ.

٢- قصّ اللهُ -تبارك وتعالى- قصَصَ بعض رسلِهِ وأنبيائه، ولم يخبرنا بقصص آخرين منهم.

٣- الله يتكلَّمُ كما يشاءُ ويريدُ، فمن ذلك تكليمه لرسولِه موسى ﵇ ، ومن ذلك إنزالُه القرآنَ الذي هو كلامُه على محمدٍ ﷺ .

٤- البشرُ محتاجونَ إلى الرُّسلِ، ليسَ لهم غِنىً عنهم، وقد أرسلهم تعالى لكيلا يكونَ للناس حجةٌ على الله يوم القيامة.

٥- لا أعظم من شهادةِ الله تبارك وتعالى، ولا أعظم بعد شهادةِ الله من شهادةِ ملائكته، وقد شهد الله لرسولِهِ محمدٍ ﷺ بأنَّه صادقٌ في نبوَّته، وكذلك الملائكةُ يشهدون لهُ بالرسالة.

النص القرآني الخامس والأربعون من سورة النساء
الكفارُ مُغرِقون في الضلال خالدون في نارَ جهنَّم

أولاً: تقديم

أعلمنا اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ الصادِّين عن سبيل الله ضالون ضلالاً بعيداً، وأنَّ كفرهم غير قابلٍ للغفران إذا ماتوا عليه، وأخبرنا ربُّنا أنهم محرومون من الجنة، خالدون في النار، وطالبَ اللهُ الناس جميعاً بالإيمانِ بالرسولِ ﷺ وبما جاءَنا به، وأعلمنا أنه إن كفرنا فهو غنيٌّ عنا وعن أعمالنا، فله ما في السموات والأرضِ سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾ [النساء:١٦٧-١٧٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ضلالُ الذين كفروا بالله وصدُّوا الناسَ عن الإيمان:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين حلَّ الكفرُ في قلوبهم، وسَعَوْا في صَدِّ الناس عن الإيمان قد ضَلُّوا ضلالاً بعيداً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾ [النساء:١٦٧] وأول ما يدخل في هؤلاء اليهودُ، الذين رفضوا الإيمانَ، وأعْرَضوا عنه، وعملوا على إبعاد الناس عن الإيمان برسولنا ﷺ وعن الدين الذي أنزل عليه، وذلك بدعواهم أنه لا ذكر له في كتبهم، وزعمهم أنَّ أهل الجاهلية أهدى من المؤمنين، وقد حَكَم ربُّ العزة على هؤلاء بالضلال، ووصفَ هذا الضلال بالبعيد، والضلالُ: العدولُ عن الطريق المستقيم، ويضادّه الهداية، ويكونُ الضلالُ بعيداً إذا أغْرَقَ صاحبُه في الضلالِ، وتعمَّقَ فيه، وصَعُبَ عليه الرجوعُ إلى الهدى والصوابِ.

٢- الذين كفروا وظلموا لا يغفرُ اللهُ لهم ولا يهديهم طريقاً:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]. والآياتُ وإنْ كانت في اليهود فإنها شاملةٌ للكفار كلِّهم، فالذين كفروا بالله بسبب كفرهم بمحمدٍ ﷺ وبالدين الذي أُنزل عليه، وهم في ذلك ظالمون ظلماً لا ظلمَ فوقه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣] وهؤلاء لم يكن اللهُ ليغفر لهم إن هم ماتوا على الكفر من غير توبةٍ، ولا ليهديهم طريقاً، أي: لا يهديهم يومَ القيامةِ طريقَ الخير التي توصلهم إلى الجنة، ولكنه يهديهم الطريقَ التي توصلُهم إلى النارِ، فيدخلونها خالدين فيها أبداً، وهذا أمر سهل يسيرٌ على الله تعالى.

٣- مطالبةُ الناس كلِّهم بالإيمان بالرسولِ ﷺ:

رسولُنا ﷺ مُرْسَل إلى الناسِ كافةً، ولذلك نادى اللهُ -تعالى- الناسَ كلَّهم مخبراً إياهم أنَّ هذا الرسولَ جاءَهم بالدين الحقِ من عند الله، وأمرهم بالإيمان به، فإن آمنوا فهو خير لهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ [النساء:١٧٠]. أي: آمنوا إيماناً صادقاً، فهو خير لكم، وأعلمهم أنهم إن كفروا لن يَضُرُّوا الله شيئاً، فهو غنيٌّ عنهم وعن أعمالهم، وله السموات والأرض ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء:١٧٠]، أي: ﴿عَلِيمًا﴾ بمن يستحق الهداية فيهديَه، وبمن يستحقُّ الغوايَة فيغويَهُ و﴿حَكِيمًا﴾ أي: في أقوالِهِ وأفعالِهِ وشرعِهِ وقَدَرِه.

رابع: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - الذين يعتقدونَ الكفرَ ويعملونَ به، وينَفِّرون غيرهم عن الإيمان كفارٌ مغرقون في الضلال.

٢- الكافرُ الذي يموتُ على كُفْره ذَنْبُهُ غير قابلٍ للمغفرة.

٣- الكافرون يومَ القيامة محرومونَ من الجنة خالدون في النارِ.

٤- يجبُ على الناسِ جميعاً أن يتبعوا الدين الذي جاءَهم به رسولنا ﷺ.

٥- اللهُ غنيٌّ عنا وعن إيماننا وأعمالِنا، ومِنْ غِناهُ -سبحانه- أنَّ له مُلْكَ السمواتِ والأرضِ.

النص القرآني السادس والأربعون من سورة النساء
نهى اللهُ أهلَ الكتابِ عن الغلوِّ في دينهم

أولاً: تقديم

نهى اللهُ تعالى أهلَ الكتابِ عن الغُلُوِّ في الدين، ونهاهم أنْ يقولوا على الله إلاَّ الحقَّ، ونهى النصارى عن الغُلُوِّ في عيسى ﷺ، والزَّعْم بأنَّه اللهُ أو ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثةٍ، وقد بيَّن اللهُ حقيقة عيسى ﷺ ومنزلته، وأمَرَهُمْ بالإيمانِ، ونهاهم عن الكفرِ والطغيان، وبيَّن أنَّ الله هو المعبودُ الواحدُ الأحدُ، وكلُّ الآلهة غيره معبودةٌ مربوبةٌ.

وقرَّر سبحانه أنَّ العبادَ الكرامَ والملائكةَ المقربينَ لا يأْنفون من الإقرارِ بالعبودية لله، والذي يستكبرُ عن عبادةِ الله فسيحشرهم إليه جميعاً، وفي يوم القيامة يُوفِّي المؤمنين أجورَهُمْ، ويُعذِّبُ المستنكفينَ المستكبرينَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء:١٧١-١٧٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نَهَى اللهُ تعالى أهلَ الكتابِ عن الغُلُوِّ في دينهم:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- أهل الكتاب عن الغلوِّ في دينهم فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١] وهذه الآيةُ نزلتْ في النصارى، قال بذلك جمهورُ المفسرين، والغُلُوُّ في الدين الذي نهى اللهُ النصارى عنه الإفراطُ ومجاوزةُ الحدِّ، ومنه غَلا السِّعْرُ، وقد غَلا النصارى في عيسى ﷺ، فقالوا: هو اللهُ، أو ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثةٍ، وقد كفَّرهم اللهُ

بغلوهم، وعدَّهم من المشركين، فقال: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:٧٢] وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة:٧٣]. وغلوْا في أحبارهم ورهبانِهم، فاتخذوهم أرباباً من دون الله ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٢١]. وقد نهى رسولُنا ﷺ أُمَّتَه أن تغلوا فيه فتُطْريه كما أطْرَتِ النصارى عيسى ابنَ مريم، فعن عمرَ ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «لا تُطْرُوني كما أطْرَتِ النصارى ابنَ مريمَ، فإنَّما أنا عَبْدُهُ، فقولوا: عَبْدُ الله ورسولُه» [البخاري: ٣٤٤٥].

٢- نَهْيُ الله للنصارى عن أنْ يقولوا على الله إلا الحقَّ:

نهى ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- النصارى أنْ يقولوا على الله إلا الحقَّ، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [النساء:١٧١]، ولا يستطيعُ البشر أنْ يقولوا على الله إلا الحقَّ إلا إذا تعرَّفوا على الله تعالى عن طريقِ كتابِهِ وسنَّةِ رسولِهِ ﷺ ، وبذلك يتعرَّفون إلى ذاته وأسمائه وصفاتِهِ، ويثبتون له الوحدانية، ولا يشركون به شيئاً، وقد قال النصارى في الله غيرَ الحقِّ، عندما جعلوا له شركاءَ وأنداداً، وجعلوا له صاحبةً وولداً، جعلوا عيسى ابنَ مريمَ هو اللهَ أو ابنَ الله أو ثالثَ ثلاثةٍ، تعالى اللهُ عما يقولون علواً كبيراً.

٣- حقيقةُ عيسى ابنِ مريمَ عليه السلام :

غَلاَ النصارى في عيسى غُلوّاً عظيماً، وقد بيَّنَ اللهُ في هذه الآيات القولَ الحقَّ في عيسى عليه السلام ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء:١٧١] فالمسيحُ عيسى عليه السلام هو ابنُ مريم عليها السلام، وليسَ بابنِ الله، وليسَ له أبٌ من البشر، وهو رسولٌ إلى بني إسرائيل، وهو كلمةُ الله، لأنه خُلق بكلمةِ الله، وهي: ﴿كُن﴾، وهو روحٌ من الأرواح التي خَلَقَها اللهُ تعالى، كبقية أرواحِ بني آدمَ من الأنبياءِ والمرسلين وغيرهم.

وقد أطالَ اللهُ في بيانِ قصة عيسى وأمِّه في سورةِ آل عمرانِ وسورةِ مريمَ، وغيرهما، ومما ذكره اللهُ في عيسى وأُمِّه قوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة:٧٥]، وقال في عيسى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:٥٩]، وحَكَى لنا ربُّنا ما قاله عيسى في المهدِ، وهو صبيٌّ رضيع: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم:٣٠-٣٣].

٤- أَمَرَ اللّهُ تعالى النصارى بالإيمان به ونهاهم أن يشركوا به أحداً:

أَمَرَ اللهُ تعالى النَّصارى بالإيمان به وبرسله، ونهاهم عن الشركِ، ونهاهم أنْ يقولوا إنَّ معبودَهم ثلاثةٌ، وهم الأبُ والابنُ والروحُ القدسُ، وطالبهم بالانتهاءِ عن هذا القولِ والتراجعِ عنه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ [النساء:١٧١].

وقرَّرَ اللهُ -سبحانه وتعالى- أنه هو المعبودُ الواحدُ الذي لا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ سواه، وسبَّح نفسَهُ عن الشريكِ والمثيلِ والنظيرِ، وسبَّحَ نفسَه عن أن يكونَ لهُ ولدٌ، وقرَّرَ أنَ لَهُ كلَّ ما في السمواتِ وكلَّ ما في الأرضِ، وكفى بِهِ -سبحانه- وَكيلاً ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء:١٧١].

وإذا كانتْ السمواتُ والأرضُ مخلوقتين مملوكتين لله سبحانه، وكلُّ ما فيهما فهو مخلوقٌ مربوبٌ، فيكونُ عيسى الذي اتَّخَذَهُ النصارى إلهاً، وكلُّ الآلهةِ التي عَبَدَها البشرُ من دون الله كالشمس والقمر والنجومِ والجبالِ والشجرِ والدوابِ مربوبةٌ مخلوقةٌ، لا يستحقُّ شيءٌ منها أنْ يكونَ إلهاً.

٥- لن يسْتَنكِفَ عيسى عليه السلام ولا الملائكةُ المقربون أن يُقروا بالعبودية لله:

أخبرنا ربُّنا -تعالى وتقدَّسَ- أنَّ المسيح لنْ يَستَنْكِفَ أنْ يُقِرَّ بالعبودةِ لله، وكذلك الملائكةُ المقربونَ، والذي يستنكفُ عن عبادة الله ويستكبر، فسيحشُرُهُمْ إليه جميعاً يومَ القيام، ويقتصُّ منهم، ويعذِّبهم بكفرهم ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء:١٧٢].

والاستنكافُ -كما يقولُ ابن عطيةَ- : «إبايَةٌ بأَنَفَةٍ» [المحرر الوجيز: ٣/ ٧٤]. وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يوقِف عيسى بين يديه يوم القيامة، ويقولُ له: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧].

٦- سيُحشَرُ الناسُ يومَ القيامة فيُوَفَّى المؤمنون أجورَهُمْ ويُعذَّب الكافرون:

أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أنه سيحشُرُ الناس إليه يوَم القيامة، فيُوَفِّي المؤمنين الذين عملوا الصالحات أجورَهُم، الحسنةُ بعشر أمثالها، إلى سبعين ضعفاً إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى ما لا يعلم مقداره إلا اللهُ تعالى، أما الذين أنفوا عن عبادته، وامتنعوا، واستكبروا، فيعذِّبهم عذاباً

أليماً، ولا يجد هؤلاء في ذلك اليوم من يتولاهم وينصرهم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء:١٧٣].

قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: بتضعيف الحسنات أضعافاً مضاعفةً.

رابعاً: ما تدعو إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا دقَّقنا النظرَ في هذه الآيات وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- نهى اللهُ عن الغلوِّ في الدين، كما فعل النصارى عندما رفعوا المسيحَ إلى مرتبة الألوهية.

٢- نهى اللهُ تعالى الناسَ أن يقولوا عليه إلا الحق، وذلك بوصفه بما لا يليقُ به، وجَعْلهم له شريكاً يعبدونه معه.

٣- بيان حقيقة عيسى ﷺ، وأنه ابنُ مريمَ المُحْصَنَةِ العفيفةِ، وليس ابنُ الله، وليس له أبٌ، بل خَلَقَه اللهُ بقوله: ﴿كُن﴾.

٤- أمر الله عبادَهُ بالإيمان به وبجميعِ رسلِهِ، وفي هذا دعوةٌ لأهل الكتاب إلى الإيمان بعبده ورسوله محمدٍ ﷺ، فإنه واحدٌ من رسلِ الله الذين أمر الله بالإيمان بهم.

٥- كلُّ ما في السموات والأرض مخلوقٌ مربوبٌ مملوكٌ لله تبارك وتعالى، ومنه ما يدَّعيه البشر مما عبدوه من دون الله كعيسى والعزير، والشمسِ والقمر.

٦- لا يستكبرُ أحَدٌ من الصالحين عن عبادة الله.

٧- سيحشُرُ الله الناس جميعاً يومَ القيامة، فيوفي المؤمنينَ أجْرهم، ويعذبُ الكافرين بذنوبهم.

النص القرآني السابع والأربعون من سورة النساء
يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة

أولاً: تقديم

نادى ربُّ العزة الناسَ أجمعين مُعَلِماً إياهم ببعثةِ الرسول ﷺ إليهم، وإنزالِ القرآن الكريم إليهم، وأبانَ ما يحصلُ عليه المؤمنون بالله المعتصمون به من رحمةٍ وهدايةٍ، وأفتانا ربنا في الكلالةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النساء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء:١٧٤-١٧٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- امتنانُ الله على الناسِ ببعثة رسوله ﷺ وإنزالِ كتابه:

نادى ربُّ العِزَّة - تبارك وتعالى- الناسَ مخبراً إياهم أنه قد جاءَهم برهانٌ من ربِّهم، وهو الكتابُ العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم محمدٍ ﷺ، فهو حُجَّةُ الله على خلقه، ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء:١٧٤]، قال ابن عطية: «البرهانُ: الحجةُ النيِّرةُ الواضحةُ التي تُعْطِي اليقينَ التامَّ، والمعنى: قد جاءكم مقترناً بمحمدٍ برهانٌ من الله تعالى يدلُّ على صحة ما يدعوكم إليه، وفسادِ ما أنتم عليه من النِّحَل. وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء:١٧٤] يعني القرآنَ» [المحرر الوجيز: ٣/٧٦] وسمَّى اللهُ القرآنَ نوراً، لأننا نعرفُ في نورِه الخيرَ والشرّ، والهدى والضلالَ.

٢- المؤمنون المعتصمون بالله يُدْخلهم ربُّ العزة الجنة:

أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى أن الذين آمنوا بالله واعتصموا به سبحانه، سيدخِلُهُمْ في رحمته، أي: في جنَّتِه، ويزيدُهم من فضلِهِ، وأعلى ما يزيدُهُمْ به هو رُؤْيَتُه في جناتِ النعيم،

ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، أي: يهديهم طريقاً واضحاً لا اعوجاجَ فيه، وهذا حالُ المؤمنين في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يهديهم إلى الإسلام، وفي الآخرة يمرُّون على الصراطِ الذي يوصلُهم إلى جناتِ النعيم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء:١٧٥].

٣- **إفتاءُ الله صحابةَ رسولِهِ ﷺ في الكلالة:**

المرادُ بالكلالة الذي يتوفاه اللهُ من المسلمين وليس له أبٌ ولا جَدٌّ، ولا ابنٌ ولا بنتٌ، ولا ابنُ ابنٍ، وله أخٌ أو أختٌ، أو إخوةٌ وأخواتٌ، وقد بيَّنَ الله تعالى في الآية الثانية عشرةَ من هذه السورة الحُكمَ فيها إذا كان الوارثُ في حالة عدم وجود الأب أو الابن هو الأخَ من الأم أو أخت واحدة منها، فإنه يكونُ لكلِّ واحدٍ منهما سدسُ التركة، فإنْ كانا اثنين فأكثر فهما شركاءُ في الثلث، قال تعالى في تلك الآية: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ﴾ [النساء:١٢]

وبيَّنَ اللهُ تعالى في الآية الأخيرة من سورة النساء الصور الأخرى للكلالة، فقال: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء:١٧٦].

ومعنى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يسألونَكَ عما أشْكَلَ عليهم من أمْرِ الكلالة، ومعنى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ أي: مات، ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: ولا والد، فإنَّ الوالدَ والولدَ يحجبُ كلٌّ منهما الأخَ، فإن كان المتوفى الذي لا والد له ولا ولد له أختاً، فلها نصف الميراث ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ﴾، فإن ترك الميتُ الذي لا والدَ له ولا وَلَدَ أخاً، فله الميراثُ كله ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ﴾ فإن كان للميت أختان فلهما الثلثان ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ﴾ وإن كان له إخوةٌ من الرجال والنساء فللذكر مثل حظِّ الأنثيين ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ﴾ أي: يبين لكم فرائضَهُ التي فَرَضَها عليكم لئلا تضلوا عن الحق الذي قرَّره ربُّ العزةِ. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ أي: اللهُ تعالى عالمٌ بعواقب الأمور، ويعلم ما فيها من الخير، وما يستحقّه كلُّ واحدٍ من القَرابات بحسب قربه من المتوفى [ابن كثير: ٢/ ٤٤٢].

٤- سبب نزول آيةِ الكلالة:

عن جابر بن عبدالله قال: «جاءَ رسولُ الله ﷺ يعودُني، وأنا مريضٌ لا أعْقِلُ، فتوضَّأ، وصَبَّ عليَّ من وَضُوئه، فعَقَلْتُ، فقلتُ: يا رسولَ الله، لمن الميراث؟ إنما يَرِثُني كلالةٌ، فنزلتْ آيةُ الميراث» [البخاري: ١٩٤. ومسلم: ١٦١٦].

٥- أشكل فقه آية الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

وقد أشْكَلَ فقهُ المراد بالكلالةِ على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وخَطَبَ في ذلك على المنبر، وقال: «وددتُ أنَّ رسولَ الله ﷺ لم يفارقنا حتى يعهد إلينا عَهْداً: الجَدُّ، والكلالَةُ، وأبوابٌ من أبوابِ الربا» [البخاري: ٥٥٨٨. ومسلم: ٣٠٣٢].

وفي صحيح مسلمٍ عن مَعْدانَ بنِ أبي طَلْحَةَ أنَّ عمر بن الخطاب خَطَبَ يوم الجمعة، وكان مما قاله في خطبته: «ثم إني لا أَدَع بعدي شيئاً أهمَّ عندي من الكلالة، ما راجعتُ رسولَ الله ﷺ في شيء ما راجعتُهُ في الكلالة، وما أغْلظَ لي في شيء ما أغْلَظَ لي فيه، حتى طَعَنَ بإصبعه في صدري. فقال: يا عمر! ألا تكفيك آيةُ الصيف التي في آخر سورة النساء؟ وإني إن أعشْ أقضِ فيها بقضيةٍ، يقضي بها من يقرأ القرآنَ ومن لا يقرأ القرآن» [مسلم: ٥٦٧].

والمراد بآية الصيف الآية الأخيرة في سورة النساء، سماها الرسولُ ﷺ بآية الصيف، لأنها نزلت في فصل الصيف.

وكان أبوبكر ؓ يقولُ: «الكلالةُ ما عدا الولد والوالد» وهذا الذي قالَه الصديقُ عليه جمهورُ الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه، وهو مذهبُ الأئمةِ الأربعةِ والفقهاءِ السبعةِ وقولُ علماءِ الأمصارِ قاطبةً، وهو الذي يدلُّ عليه القرآنُ [ابن كثير: ٢/ ٤٤٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أنزلَ اللهُ القرآنَ الكريمَ ليكونَ دليلاً يدلُّ على صِدْقِ رسولنا ﷺ في رسالتِهِ، وجعلهُ نوراً مبيناً، يهدي إلى الرشادِ والصواب.

٢- وَعَدَ اللهُ المؤمنين بالله الذين اعتصموا به أنْ يُدْخِلَهم في رحمته، ويهديهم إلى صراطه المستقيم.

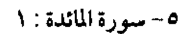
٣- استفتى الصحابةُ رسولَ الله ﷺ في الكلالة، فأجاب اللهُ بنفسه فَتْواهم.

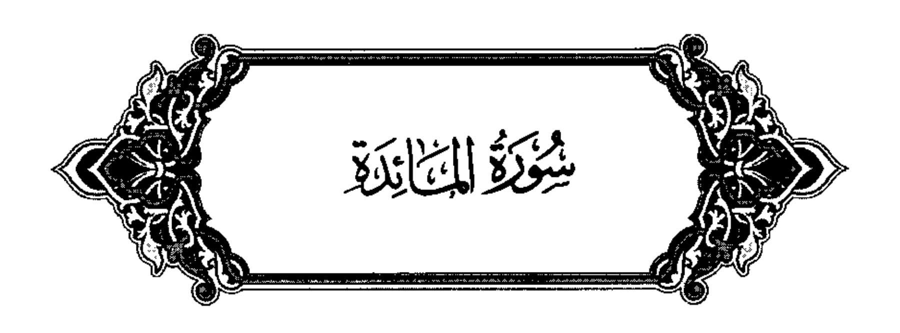
٤- الصوابُ من القول أن الكلالة الميتُ الذي ليس له أصلٌ وارثٌ من الرجال، ولا فرعٌ وارثٌ من الأبناء والبنات، وله واحدٌ أو أكثر من الإخوة والأخوات.

٥- إن كان للميت الذي لا وارثَ له من الآباء والأبناء أخٌ أو أختٌ لأمّ، فلكل واحدٍ منهما السدس، فإنْ كانوا أكثر من ذلك فهم شركاءُ في الثلث.

٦- إنْ كان للمتوفى الذي لا وارثَ له من الآباء والأبناء أختٌ واحدةٌ فلها نصفُ ما تَرَكَ، فإن كان للمتوفى أخٌ واحدٌ، فله الميراثُ كلُّه، فإنْ كان له أختان فلهما الثلثان، فإن كان له أكثرمن واحدٍ من الإخوة والأخوات، فلهم الميراث، للذكر مثل حظِّ الأنثيين.

٧- يُبيِّنُ اللهُ -تعالى- لنا أحكامَ الميراثِ في الكلالة وفي غيرها، حتى نهتديَ ونحكم بالحق، ولا نضلَّ.





التعريف بهذه السورة

هذه السورة الكريمة مدنية، أُنزلتْ كُلُّها بعد الهجرة النبوية، قال أبو عمرو الداني: «حروفها أحد عشر ألفاً وسبعُ مائةٍ وثلاثةٌ وثلاثون حرفاً، وهي مائة وعشرون آية في الكوفيِّ، ومائةٌ وعشرون وآيتان في المدنيين والمكيِّ والشاميِّ، ومائةٌ وعشرونَ وثلاثٌ في البصري» [البيانُ في عدِّ آيِ القرآنِ: ١٤٩].

النص القرآني الأول من سورة المائدة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾

أولاً: تقديم

أَمَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- بالوفاء بالعقود، وهي أَوْثَقُ العهودِ، وهذه العقودُ قد تكونُ بيننا وبين ربِّنا تبارك وتعالى، وقد تكونُ بين الخلقِ فيما بينهم، وقد ذكر لنا ربُّنا جملةً مما يدخل في العقود التي شَرَعَها لنا في آيات هذا النص والنصوص الأخرى في هذه السورة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة:١-٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أوجب الله علينا الوفاء بالعقود:

قال الزَّجاجُ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١]: «خاطبَ الله جل وعز جميعَ المؤمنين بالوفاءِ بالعقودِ التي عَقَدَها اللهُ عليهم، والعقودُ التي يعْقِدُها بعضُهُمْ على بعضٍ على ما يوجبه الدينُ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يا أيها الذين صدَّقوا النبيَّ ﷺ أوْفوا بالعقود، والعقودُ: العهودُ، يقالُ: وفيتُ بالعهدِ وأوفيتُ. والعقودُ واحدُها عَقْد، وهي أوكَدُ العهودِ يقال: عهدتُ إلى فلانٍ في كذا وكذا، تأويله ألزمتُه ذلكَ، فإنما قلتُ عاقدتُهُ أو عَقَدتُ عليه، فتأويله أنك ألْزمْته ذلك باستيثاق» [معاني القرآن: ٢/ ١٣٩].

٢- ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾:

أحلَّ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا بهيمةَ الأنعام، وهي الإبلُ والبقرُ والغنمُ، وقد أبطَلَ بذلك ما حرَّمَهُ أهل الجاهلية على أنفسهم من الأنعام، وهي البحيرةُ، والسائبةُ، والوصيلةُ، والحام.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:١] والذي استثناه الله هنا ذكره في الآية الثالثة من هذه السورة في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣].

٣- ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾:

ومعنى الآية «أُحِلّتْ لكم بهيمةُ الأنعام كلها، إلا ما كان منها وحْشياً، فإنه صيد، لا يحِلُّ لكم في حال الإحرام» [تفسير البغوي: ٣/ ٧].

و﴿حُرُمٌ﴾: جمعُ حرامٍ، وهو المُحرِمُ بالحجِّ أو العمرة.

والصيدُ المُحَرَّمُ هو صيدُ البر، أما صيدُ البحر فإنه حلالٌ للمُحْرِم ولغيره كما سيأتي بيانه.

٤- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾:

قال ابنُ جريرٍ: «إنَّ اللهَ يقضي في خَلْقِهِ ما يشاءُ، من تحليلِ ما أرادَ تحليلَه، وتحريمِ ما أراد تحريمَهُ، وإيجابِ ما شاء إيجابَهُ، وغير ذلك من أحكامه وقضاياه» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٦٦٩].

وفي هذه الآية تقوية للأحكام الشرعية المخالفة لمعهود العرب، وليس ذلك بعجبٍ، فإنَّ الله -تعالى- هو الذي شرعها، وهو يحكُمُ ما يريدُ، لا رادَّ لحكمه، ولا مُعَقِّبَ لقضائه.

٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين عن أن يُحِلُّوا شعائر الله، والشعائرُ: جمع شعيرةٍ، على وزن فعيلة، والشعائرُ ما أُشْعِرَ من الحيوانات لتُهْدَى إلى بيتِ الله تعالى، وذهبَ ابنُ عباس إلى أن شعائرَ الله مناسك الحجِّ، وجاءَ عنه: «كان المشركون يحُجُّونَ البيتَ الحرام، ويُهْدُونَ الهدايا، ويُعظِّمونَ حرمةَ المشاعِرِ، ويتَّجرون في حجِّهم، فأرادَ المسلمون أن يُغِيروا عليهم، فقال الله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٦٧٠].

ولعل الصواب أن شعائر الله نوعان: الأول: شعائر يتعبَّدُ الله عندها، كالصفا والمروة، وعرَفة، ومزدلفة، والجمرات، ومنه قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٥٨]، وشعائر يتعبَّدُ اللهُ تعالى بها، ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ اسمٌ مفردٌ يدلُّ على الجنسِ في جميعِ الأشهرِ الحرمِ، وهي أربعةٌ، واحدٌ فردٌ، وهو رجبٌ الذي بين جمادى وشعبان، وثلاثةٌ سَرْد، وهي ذو القعدةِ، وذو الحجةِ، وشهرُ الله المحرمُ، والمعنى: لا تَسْتَحِلُّوها للقتالِ، ولا للغارةِ، ولا تُبَدِّلوها، فإنَّ استبدالَها استحلالٌ، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة:٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ والهديُ: ما أُهدي إلى بيتِ الله -تعالى- من ناقةٍ، أو بقرةٍ، أو شاةٍ، الواحدةُ هَدِيَّةٌ، و﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ هي الهديُ المقلَّدُ، الذي يُهْدَى إلى بيتِ الله الحرامِ بقصدِ القربةِ.

وقد ساقَ رسولُ الله ﷺ في حجَّةِ الوداعِ مائةَ ناقةٍ، وأشْعَرَ هَدْيَهُ وقَلَّده.

٦- ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾:

نهى اللهُ تعالى في هذه الآية رسولَه ﷺ وأصحابَه عن قتال الذين يقصدون البيتَ الحرام بالتجارة في مواسم الحج والعمرة، ويزعمون أنهم يعبدون الله، ويتقربون له بالحجِّ والعمرة.

يقال: أَمَمْتُ البيتَ، أي: قصدتُه، وقولُه: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: يطلبون التجارة في مواسم الحج، وقوله: ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: يزعمونَ أنهم يعبُدون اللهَ بحجِّهم وعمرتهم.

وهذه الآية قد نُسخت، نسخها قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة:٢٨]، وقال: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥].

٧- ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾:

أي إذا فَرَغْتُم من إحرامِكُمْ للحج والعمرة، وأَحْلَلْتُم منه، فقد أبحنا لكم ما كان محرَّماً عليكم في حال الإحرام من الصيد.

وأمرُ اللهُ بالاصطياد بعد أنْ نهى اللهُ عنه، هو أمرٌ بعدَ حظْرٍ، وقد ذهب جمهورُ الأصوليين والفقهاء إلى أن الأمر بعد الحَظْرِ للإباحة، وهذا وإن كان صحيحاً في هذا الموضع،

أي أن الأمر بالصيد بعد النهي عنه يفيدُ الإباحة، لكنه لا يفيدُ هذا الحكم دائماً، والصوابُ: أنَّ الأمْرَ بعد الحظر يردُّ الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً ردَّه واجباً، وإن كان مستحبّاً فمستحبٌّ، أو مباحاً فمباح.

٨- ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ :

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يَحْمِلَنكم، ولا يُدْخِلَنَّكُمْ في الجرم و(الشنآن): البُغْضُ، يقال: شَنَأْتُهُ، أَشْنَؤُه: إذا أَبْغَضْتَه، و﴿صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: منعوكم من الوصول إليه في عُمْرَتِكُمْ، ومعنى الآية: «لا يَحْمِلَنَّكم بغضُ قومٍ، قد كانوا صدُّوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية، على أن تعتدوا فيَّ حُكْمِ الله فيهم، فتقتصُّوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في كلِّ أحدٍ. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة:٨] أي: لا يحملنكم بُغْضُ أقوامٍ على تركِ العدل، فإن العدل واجب على كل أحدٍ في كل أحدٍ، في كل حالٍ.

وقال بعض السلف: ما عاملتَ من عصى اللهَ فيك بمثلِ أن تطيعَ اللهَ فيه، والعدلُ به قامت السموات والأرضُ» [ابن كثير: ٢/ ٤٥٢].

٩- أمرنا اللهُ بالتعاون على البر والتقوى ونهانا عن التعاون على الإثم والعدوان:

أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالتعاون على البر والتقوى، ونهانا عن التعاون على الإثم والعدوان، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة:٢].

أمرنا اللهُ -عز وجل- في هذه الآية بالبر والتقوى، والبرُّ والتقوى يدخلُ كلُّ واحدٍ منهما في الآخر إذا ذكر كلٌّ منهما مفرداً، فإن اجتمعا في آيةٍ أو حديث كان لكل منهما معنى يخصُّه، مثلهما في ذلك مثلُ: الإيمان والإسلام، والفقير والمسكين، والفسوق والعصيان، والمنكر والفاحشة. فالبرُّ إذا ذكر وحده كان كلمةً جامعةً لأعمال الخير كلِّها المطلوبة من العبد، ويقالُ في مقابل البر: الإثمُ.

وقد جمع اللهُ تعالى خصالَ البرِّ في قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧٧].

فجعل الله من البر الإيمانَ بالأصول الخمسة التي ذكرها الله في الآية، وجعل منه إنفاقَ المال على من ذكرهم اللهُ في الآية، ومما ذكر اللهُ -تعالى- أنه داخلٌ في البر الشرائع الظاهرة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويدخل في البر أيضاً الأعمال القلبية من الوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، فاشتمل البرُّ على جميع أقسام الدين، وجميع حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب، وأصول الإيمان الخمس.

وعلى ذلك فتدخلُ التقوى في البر إذا أُفرد بالذكر.

والتقوى -كما يقول التابعي طلقُ بنُ حبيبٍ- : «أنْ تعملَ بطاعة الله على نورٍ من الله، ترجو ثوابَ الله، وأن تترَكَ معصيةَ الله على نورٍ من الله، تخافُ عقابَ الله».

فالأعمال الصالحةُ لا تُقبَلُ حتى يكونَ الباعثُ عليها الإيمانَ، لا العادةَ والهوى وطلبَ المحمدةِ، وهذا الذي قَصَدَهُ طَلْقُ بن حبيبٍ من قوله: أن تعمل بطاعةِ الله على نورٍ من الله، ولا بد للعامل أن تكون غايتُهُ رجاء ثواب الله حتى يكونَ عملُه براً، فإذا ذُكِرَتِ التقوى منفردةً عن البر كان البرُّ داخلاً فيها.

فإذا اجتمعَ البرُّ والتقوى في آيةٍ واحدةٍ كهذه الآية: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة:٢] فالفرقُ بينهما فرقٌ بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها، فإنَّ البر مطلوبٌ لذاته، إذ هو كمالُ العبد وصلاحُه الذي لا صلاحَ له بدونِهِ، وأما التقوى فهيَ الطريقُ الموصلُ إلى البرِّ والوسيلةُ إليه، ولفظها يدلُّ أنها من الوقاية، فإن المُتَقِي قد جَعَلَ بينه وبين النارِ وقايةً، فالوقايةُ من باب دفعِ الضرر، والتقوى والبر كالعافية الصحة.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢] (الإثم والعدوان) في جانب النهي نظيرُ (البر والتقوى) في جانبِ الأمر.

فالإثمُ: كلمةٌ جامعةٌ للشرور والعيوب التي يُذَمُّ العبدُ عليها، وإذا اجتمع (الإثم والعدوان) خُصَّ الإثمُ بما كان حراماً لجنسه كالزنا والخمر والميسر، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ تعدِّي حدود الله، وذلك بأن يتعدَّى ما أُبيحَ له إلى القدر المحرم، كأن يعتدي على امرئٍ في بدنه أو ماله أو عِرْضِه، فيعتدي الشخصُ الذي وَقَعَ عيه العدوانُ أولاً بأشدَّ مما وقعَ عليه، فإذا ضربَه بالعصا وجَرَحَهُ، ضربه بالسيفِ وقطعَ يده، وإذا قطع له فرعاً من شجرةٍ أحرقَ له بستانه، وإذا غَصَبَهُ خشبةً هَدَم له دارَه [راجع في هذه المسألة: بدائع التفسير: ٢/ ٩٤-٩٩].

وأمر اللهُ عبادَه أن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً، فإنه سبحانه شديدُ العقاب: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة:٢].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أوجب اللهُ على المؤمنين أن يَفُوا بما فرضه عليه من عقود وعهود، بأن يقوموا بالواجبات، ويتركوا المحرمات، ويُحِلُّوا ما أحلَّ الله، ويُحَرِّموا ما حرَّمه، وأن يَفُوا بالعهود التي بينهم وبين العباد في البيع والشراء، والزواج، والإجارة ونحو ذلك.

٢- أباحَ لنا بهيمةَ الأنعامِ من الإبل والبقر والغنم إلا ما حرَّمَهُ الله في الآية التالية، وأبْطَلَ في هذه الآية ما حرَّمَهُ أهلُ الجاهلية على أنفسِهم من الأنعام.

٣- حرَّم على الحُجَّاجِ والمعتمرين إذا هُمْ أحْرَموا صيدَ البر دون صيدِ البحر.

٤- نهى اللهُ تعالى الذين آمنوا عن إحلالِ شعائرِ الله، وهو ما حرَّمه الله تعالى على الحاجِّ والمعتمر إذا أحْرَمَ.

٥- لا يجوزُ للمسلمين أن يبدؤوا القتالَ في الأشهر الحُرُمِ، فإن قاتَلَهُمْ الأعداءُ في الشهر الحرام، جاز لنا أن نقاتل في مثل هذه الحال.

٦- يجبُ أنْ لا نعتدي على ما أُرسِل إلى البيت الحرام من الهدايا مُقَلَّدةً كانت أو غير مقلَّدةٍ.

٧- نهى اللهُ رسولَه ﷺ وأصحابَهُ عند نزول الآية عن الاعتداء على من قصد البيت الحرام للحج والعمرة والتجارة في مواسمها، ثم نَسَخَ اللهُ ذلك بما أنزلَهُ بعد ذلك.

٨- أباحَ اللهُ لنا إذا حَلَلْنا من إحرامنا أن نستبيحَ ما حرَّمه علينا من الصيد.

٩- كان لا يجوزُ للمؤمنين أنْ يمنعوا المشركين من الوصول إلى المسجد الحرام كما فعل المشركون بالمسلمين في غزوة الحديبية، ثم نَسخ اللهُ ذلك عندما أمر اللهُ بقتال المشركين، ومنعهم من الحجِّ والعمرة.

١٠- أمر اللهُ تعالى بالبر والتقوى، وهو أمرٌ شاملٌ للإتيان بالخير كله، ونهى عن ﴿الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، و﴿الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ اسمانِ جامعان للشر كلِّه.

النص القرآني الثاني من سورة المائدة
المحرَّم علينا من بهيمة الأنعام

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ -تعالى- في هذا النص المحرمات من بهيمة الأنعام، وقد تحدثنا عن هذه المحرمات في سورة البقرة، وفي هذه الآيات مزيدُ بيان لما ذكره الله هناك، وبهذا البيان أكملَ اللهُ لنا ديننا، وأتمَّ علينا نعمَهُ، ورضي لنا الإسلامَ دينا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) ﴾ [المائدة:٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المحرماتُ من الأطعمة:

سبقَ أن تحدَّثنا عن المحرمات من الأطعمة في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣)﴾ [البقرة:١٧٣].

وذكر اللهُ في هذه الآية من سورة المائدة المحرمات الأربع التي ذكرها في البقرة، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة:٣].

ثم زاد في هذه الآية خمسةً من المحرمات، فقال: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة:٣] وهذه الخمسة داخلةٌ في الميتة، ولكنَّ لكل واحد منها سبباً في موته.

وزاد في هذه الآية على ما في البقرة ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة٣]. والميتةُ من الحيوان ما مات حَتْفَ أنفه من غير ذكاةٍ ولا اصطيادٍ، وقد كان أهلُ الجاهلية يستحلّون أكْلَها، وقد

استثنى اللهُ من الميتة طعامَ البحر الذي لا يعيشُ إلا في البحر، كما استثنى رسولُنا ﷺ الجرادَ كما سبق بيانه. و﴿وَٱلدَّمُ﴾ الذي حرَّمَهُ اللهُ هو الدم المسفوحُ، أما الدم الذي خالطَ اللحم في القِدْرِ فلا بأس به، قال تعالى: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ [الأنعام:١٤٥]. وقال رب العزة: ﴿وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ ولم يقل: الخنزيرَ، ليدلَّ على حُرمةِ ذلك اللحم، ذُبح أو لم يُذْبَح، ولحمُ الخنزير يشملُ شحْمَهُ، وقد صرح ربُّ العزة -تبارك وتعالى- بأن لحم الخنزير رجْسٌ ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ [الأنعام:١٤٥] و﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة:٣] الذي ذُبح باسم الآلهة المعبودة من دون الله، كالذي ذُبح للأصنام، أو باسم الآب والابن وروح القدس، والإهلالُ رفعُ الصوت عند الذبحِ.

والخمسةُ التي ذكرها اللهُ في هذه الآية زيادة عما ذكره في آية البقرة، كلُّها داخلةٌ في الميتة، وإنما تعددَّتْ لتعدُّدِ أسباب موتها، ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ﴾ هي التي ماتت بسبب الخنق، سواءٌ أكان الخنقُ بفعل الإنسان، أو فعلها. ﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾ هي التي تُضربُ بالعصا حتى تموتَ، وكانوا في الجاهلية يضربونها بالخشب حتى تموت ويأكلونها، ومن الحيوان الوقيذِ الذي يحرُمُ أكْلُه أن يرمي الصائدُ صيدَه برمحٍ أو سهمٍ فيقتلَهُ بعَرْضِهِ، ولا يجْرَحُهُ، وقد سأل عدي بنُ حاتمٍ الرسولَ ﷺ عن المِعْراضِ، فقال: «إذا أصبتَ بحدِّة فكُلْ، فإذا أصاب بعَرْضِه فقتل فإنه وقيذٌ، فلا تأكل» [البخاري: ٥٤٧٦. ومسلم: ١٩٢٩]. ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي التي تسقُطُ من شاهقٍ فتموتُ، لا فرق بين التي تتردَّى بنفسها أو يُردِّيها غيرُها. ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ التي ماتتْ بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام، ولا تحلُّ بحالٍ، ولو كانت التي نطَحَتْها ذاتَ قَرْنٍ، وخزقتْ المنطوحَة وأدْمَتْها، فلا يحلُّ أكْلُها.

وقوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي ما عدا عليه السبعُ، كالأسد والنمر والذئب والثعلب فإنها حرام، ولو سالتْ منها الدماءُ، وقد كان أهلُ الجاهلية يأكلون ما بقي مما عدا عليه السبعُ.

٢- استثناءُ الله من الخمسِ السابقة ما ذُكّي:

استثنى اللهُ -تبارك وتعالى - من المحرمات الخمس السابقة ما أدركناه حيّاً حياة مستقرةً، فذبحناه، فيجوزُ أكْلُه، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ قالَ عليُّ بنُ أبي طالب: «إنْ مَصَعَتْ بذَنَبها أو رَكَضَتْ برجلها، أو طَرَفَتْ بعينها فكُلْ» [ابن كثير: ٢/ ٤٦٢] أي إن أدْرَكْتَها وفيها هذا الذي ذَكَرَه، فذَبَحْتَها، فهي حلالٌ، أما إذا أدْرَكْتَها وقد زالتْ الحياةُ منها فهي ميتةٌ.

٣- وما ذبحَ على النصب:

النُّصُبُ حجارةٌ كانت منصوبةً حول الكعبة، وهي غيرُ منقوشةٍ ولا تُشْبِهُ الأصنام، وكان أهل الجاهلية يذبحون عندَها، وينْضَحُون بدمائها الكعبة، ويُشَرِّحُونَ اللحم على تلك الأنصاب، فحرَّم الله تلك الذبائح ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.

ولا تزالُ النصبُ قائمةً في كثيرٍ من دول العالم، كنُصْبِ الجنديِّ المجهول، والنصبِ التي تقامُ للرياضة، أو لمعنى آخر، وتُعَظَّم هذه النصبُ، وتقدَّمُ لها الهدايا من الورود والرياحين، وكلُّ ذلك حرامٌ، لا يجوزُ.

٤- تحريمُ الله الاستقسام بالأزلام:

حرَّم اللهُ -تعالى- علينا أن نستقسم بالأزلام، كما كان يفعلُ أهلُ الجاهلية، فقد كان أهلُ الجاهلية إذا أرادَ الواحدُ منهم أن يفعل أمراً لا يتوجَّهُ إلى عالم الغيب والشهادة، فيدعوه، ويستغيث به، كي يهديهُ إلى الخير والصواب، وإنما يلجأ إلى ثلاثة أزْلام، وهي ثلاثةُ سِهام، مكتوبٌ على أحدها: «أمَرني رَبِّي» وعلى الثاني: «نهاني ربي» والثالث: ليسَ مكتوباً عليه شيءٌ، فيضعها في مكانٍ يخفيها، ثم يُخرج واحداً منها، فإن خرج الذي فيه: أمرني ربي، فَعَلَ ما استخارَ فيه من سفر أو زواجٍ أو بيعٍ، وإن خرج السهمُ المكتوبُ فيه: نهاني ربي، تركَ ما استخارَ فيه، وإن خرج السهمُ الذي لم يُكتب عليه شيء، كان بالخيار.

ومن الاستقسام بالأزلام ما فعله سراقةُ بنُ مالكٍ عندما تَبعَ الرسولَ ﷺ وأبا بكر عندما خرجا من مكة مهاجرين، فلما دَنا منهما استخرج أزْلامَهُ فاستقسمَ بها، فخرج السهمُ الذي يَكْرَهُهُ، ولكنه لم يُطِعِ الأزلامَ، ومضى لمقصدِهِ [البخاري: ٣٩٠٦].

ولقد دخل الرسولُ ﷺ الكعبة، فوجَدَ أهلَ الجاهلية صوَّروا إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام في أيديهما الأزلامُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «قاتلهم اللهُ، أما والله، لقد عَلِمُوا أنهم لم يسْتَقْسِما بها قط» [البخاري: ١٦٠١].

وكان أهل الجاهلية يستقسمون في القضايا العظيمة بسبعة أزلام كانت داخل الكعبة عند صنم من أعظم أصنامهم، هو هُبَلُ، كان منصوباً داخل الكعبة على بئرٍ، توضعُ فيه الهدايا والأموال التي يهدونَها للكعبة ويخصُّونها بها، وكانوا يتحاكمون إلى تلك الأقداح، ويرضون بحكمها.

وقد عدَّ اللهُ الاستقسام بالأزلام رِجْساً من عمل الشيطان، وأمرنا باجتنابه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾

[المائدة:٩٠] وأخبرنا ربُّنا في هذه الآية أن الاستقسام بالأزلام فِسْقٌ ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: خروجٌ عن طاعة الله عز وجل.

وقد أبدلنا الله -تبارك وتعالى- بهذه الخرافة الجاهلية التي كان يلجأ إليها أهل الجاهلية بدعاء الاستخارة، ففي حديث جابر بن عبدالله، قال: كان رسولُ الله ﷺ يعلِّمُنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا همَّ أحدُكم بالأمر، فليركَعْ ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرُك بعِلْمِكَ، وأسْتَقْدِرُكَ بقُدْرَتِكَ، وأسألُكَ من فضلكَ العظيم، فإنكَ تقدرُ ولا أقدرُ، وتعلمُ ولا أعلمُ، وأنتَ علاَّمُ الغيوبِ.

اللهم إن كنت تعلمُ أن هذا الأمرَ خيرٌ لي، في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري، أو قالَ: عاجِلِ أمري وآجِلِه، فاقدُرْهُ لي، ويسِّره لي، ثم بارِكْ لي فيه، وإن كنت تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي، في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: في عاجلِ أمري وآجلِه، فاصْرِفْهُ عني واصْرِفْني عنه، واقْدُرْ لِيَ الخيرَ حيثُ كان، ثم أرْضِني به. قال: ويُسَمِّي حاجَتَهُ» [البخاري: ١١٦٢].

٥- ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ :

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى - رسولَه ﷺ وأصحابَه في اليوم الذي أُنزلتْ فيه هذه الآية أنَّ الكفارَ في ذلك اليوم يئسوا من رجوع المسلمين عن دينهم، ونهى اللهُ رسولَه والمؤمنين عن أن يخافوا الكافرين، وأمَرَهُم بخشيته سبحانه، وأخبرَ سبحانه أنه في ذلك اليوم الذي أُنزلتْ فيه هذه الآية أنه أكمل للمؤمنين دينهم وهو الإسلامُ، فلا يحتاجونَ إلى دينٍ غيره، وأتمَّ عليهم نِعْمَتَه، فلا يحتاجون إلى غيرها، ورضيَ لنا الإسلام ديناً، فإذا كان اللهُ رضي لنا الإسلامَ ديناً، فعلينا أن نرضى لأنفسنا ما رضي الله لنا ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة:٣].

لقد نزلتْ هذه الآية في حجة الوداع في يوم الجمعة في عَرَفَة، وقد حجَّ مع الرسول ﷺ ما يزيدُ على مائة ألفٍ، وقد بلغَ المسلمون الغايةَ في القوة والمنعة والسلطان، وأصبحوا مرْهوبين من بقايا الكافرين في الجزيرة العربية، بل من الكفار في خارج الجزيرة العربية، وقد بلغ الحالُ بالشيطان في ذلك الوقت أنه أيس من أن يعبدَه المصلونُ في جزيرة العرب، فعن جابرٍ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «إن الشيطانَ قدْ أيِسَ أن يعبُدَه المصلُّون في جزيرة العرب، ولكن في التحْريشِ بينهم» [مسلم:٢٨١٢].

والدليلُ على أن هذه الآية نزلت في حجةِ الوداع في يوم الجمعة يومَ عرفة، ما رواه طارقُ بن شهاب عن عمر بن الخطاب، أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آيةٌ في

كتابكُم تقرؤونها، لو علينا معشرَ اليهودِ نزلتْ، لاتخذنا ذلك اليومَ عيداً. قال: أيُّ آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] قال عمرُ: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة [البخاري:٤٥. ومسلم: ٣٠١٧].

٦- ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾:

قال ابنُ كثير: «فمن احتاجَ إلى تناول شيءٍ من هذه المحرمات التي ذكرها اللهُ تعالى لضرورةٍ ألجأته إلى ذلك، فله تناوله واللهُ غفورٌ رحيم، لأنه تعالى يعْلَمُ حاجةَ عبْدِهِ المُضطَّرِ، وافتقارَه إلى ذلك، فيتجاوزُ عنه، ويغفرُ له».

وفي المسند وصحيح ابن حبانَ عن ابن عمرَ قال: «إنَّ اللهَ يحبُّ أن تُؤْتَى رُخَصُهُ كما يكرهُ أن تُؤْتَى معصيتُه» [ابن كثير: ٢/ ٤٦٩. والحديثُ قال فيه محقق ابنِ كثيرٍ: جيدٌ، أخرجه أحمد وابن حبانَ، وإسنادهُ جيد].

وقد سبقَ ذكرُ الله تعالى لهذه الحالة في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:١٧٣] فذكر هناك أن المضطر إذا لم يكن باغياً ولا عادياً، أي: غيرَ قاطعٍ للسبيل، ولا مفارقاً للأئمة، ولا خارجاً في معصيةٍ، فلا إثم عليه، وهنا قال: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي: غير مائلٍ للإثم، والإثم: المعصيةُ.

رابعاً: ما تهدينا إليه الآياتُ من علمٍ وعمل:

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أبانَ اللهُ -تعالى- لعباده المؤمنين ما حرَّم عليهم من الأطعمة، وهي الميتةُ والدمُ، والحرامُ منه المسفوحُ، ولحم الخنزير، وما ذُكر عليه عند ذبحه أسماءُ آلهة الكفار، والمنخنقة، والموقوذةُ، والنطيحةُ، وما أكل السبعُ، وما ذبحَ على النصب.

٢- أحلّ اللهُ -تعالى- أكْلَ المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع من المحرمات إذا أدْرَكها الإنسانُ حية حياةً مستقرةً، وقام بتذكيتها.

٣- تحريمُ إقامة النُّصُبِ التي تُعَظَّم لمعنى من المعاني، كنُصُبِ الجنديِّ المجهولِ، والنصب التي تقامُ للرياضة، وكما تحرم إقامَتُها، يَحْرُم تقديمُ الهدايا لها.

٤- يحْرُم علينا ما كان عليه أهلُ الجاهلية من الاستقسام بالأزلام، وهو اللجوء إلى السِّهام المكتوب على أحدها افعلْ، وعلى الثاني لا تفعل، ويتركُ الثالثُ خالياً من الكتابة، وقد أبْدَلنا اللهُ بدعاء الاستخارة.

٥- عند نزول هذه الآيات يئس الكفار عن رجوع المسلمين عن دينهم، فقد عَظُمَ الإسلام واكتمل، وأمر اللهُ المؤمنين بأن لا يخشوا الكافرين، ويخشوه وحده.

٦- امتنَّ الله -تعالى- على المؤمنين عندما نزلتْ هذه الآياتُ بأنه أكْملَ لهم دينه، وأتمَّ عليهم نعْمَته، ورضي لهم الإسلامَ ديناً.

٧- إذا اضطّر المسلمُ إلى تناول شيءٍ من المحرمات المذكورات في أول هذا النص، فلا حَرَجَ عليه أن يتناولَ منها ما يحتاجُ إليه، بشرط أن يكون غير مُتلبِّسٍ بمعصيةٍ.

النص القرآني الثالث من سورة المائدة
أحل اللهُ لنا الطيبات

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا في آية النص السابق ما حرَّمه علينا من الأطعمة، وفي هذه الآيات بيَّن لنا ما أحلَّه لنا من الطيبات والصيد وطعامِ الذين أوتوا الكتاب، والزواج من نساء أهل الكتاب العفيفات.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة:٤-٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أحلَّ الله لنا الطيبات:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ صحابةَ رسولِه ﷺ سألوهُ عما أحَلَّهُ اللهُ -عز وجل- لهم، وأمَرَه -سبحانه- أنْ يقولَ لهم: أُحلَّ لكم الطيباتُ، وأُحِلَّ لكم ما علَّمْتم من الجوارح مكلِّبين ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ [المائدة:٤]. قال ابنُ الجوزيّ: «قال الزَّجَّاجُ: ومعنى الكلام يسألونَك أي شيءٍ أُحِلَّ لهم؟ قل أُحِلَّ لكم الطيباتُ، وأُحِلَ لكم صيدُ ما علَّمتُم من الجوارح، والتأويلُ: أنهم سألوا عنه، ولكن حَذَفَ ذكر «صيد ما عَلَّمْتُم»، لأنَّ في الكلامِ دليلاً عليه» [زاد المسير: ٢/ ٢٩٠].

وقد بيَّنتْ هذه الآيةُ قاعدةَ الحلالِ من الأطعمة والأشربة، فقد أباحَ اللهُ لنا الطيبَ منها، وحرَّمَ علينا الخبيثَ، وقد حرَّم اللهُ على بني إسرائيلَ بعض الطيبات، وأخبرَ أنَّ النبيَّ الأميَّ سيحلُّ لبني إسرائيل ما حُرِّم عليهم من الطيبات، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ

﴿ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]. «والطيبُ -كما يقول الفيروزُ آبادي- ما تَسْتَلِذُّه الحواسُ من الأطعمة والأشربةِ وغيرِها، قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨] أي من المباحات المأكولة والمشروبة، ونحوه ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:٥٧]» [بصائر ذوي التمييز: ٣/ ٥٣١].

«وفي الصحاح: الطيبُ خلافُ الخبيثِ. وقال ابن سِيْدَه: طابَ الشيءُ طِيباً لذَّ وزكا. وقال ابنُ بَرِيّ: وطعْمَةٌ طيبةٌ إذا كانتْ حلالاً» [لسان العرب: ٢/ ٦٣٢] ولا يكونُ الطعامُ ولا الشرابُ طيباً إلا إذا كان حلالاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨].

أخبرنا اللهُ تعالى فيما سبق أنه أحل لنا الطيبات، وأخبرنا بعد ذلك أنه أحل لنا صيد الكلاب والصقور ونحوها التي علَّمناها أن تصطادَ لنا، وسماها ربنا الجوارحَ، والجوارحُ الكواسبُ من سباعِ البهائم والطيرِ، سُمِّيَت جوارحَ، لجَرْحِها لأربابها، أي: كَسْبها لهم من الصيد، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة:٤]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ أي: صيد ما علمتم من البهائم والطيور كالكلب أو الفهد أو الصقر أو البازيِّ والعقاب ونحوها. وقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ المُكَلِّبُ الذي يُغْرِي الكلابَ على الصيد، ويقال للذي يُعَلِّمُ الكلابَ أيضاً مُكَلِّب.

وقولُه تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤] «التعليمُ هو أن يوجد فيها ثلاثةُ أشياء: إذا أُشيلَتْ اسْتَشْلَت، وإذا زُجِرتْ انْزَجَرَت، وإذا أَخذَت الصيدَ أمْسَكتْ، ولم تأكلْ، وإذا وُجد ذلك منه مراراً، وأقلُّهُ ثلاثَ مراتٍ كانت مُعَلَّمَةً يَحِلُّ ما قتَلَتْهُ إذا خرجتْ بإرسالِ صاحبها» [البغوي: ٣/ ١٦].

فإن صادَ الرجلُ بكلبه غير المعلَّم فأدْرَكَ فيه حياةً فذكَّاهُ جازَ أكْلُه، ففي حديث عدي ابن حاتم، قال الرسول ﷺ : «وما صِدْتَ بكلبِكَ غيرِ مُعَلَّمٍ فأدْرَكْتَ ذَكاتَهُ فكُلْ» [البخاري: ٥٤٧٨. ومسلم: ١٩٣٠].

وقد ذهب جمهورُ أهل العلم وهو الصحيح من مذهب الشافعي إلى أنه إذا أكل الكلبُ من الصيد فإنه يحرُمُ المُصادُ مطلقاً للآية ولما ورد في الأحاديث [ابن كثير: ٢/ ٤٧٤].

٣- يُشترطُ في الحيوان الصائد أن يُمسِكَ على صاحبِهِ:

قولُه تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٤].

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أننا إذا صِدْنا بكلابِنا التي علَّمْناها، فيجوزُ لنا أن نأكل منها إذا لم يأْكلِ الكلبُ الصائدُ منها شيئاً، وقد سأل عديُّ بن حاتم الطائي رسولَ الله ﷺ عن

كلبِهِ الذي أرسله للصيد إن هو أكَلَ من الصيدِ الذي أمْسَكه، فقالَ ﷺ: «فلا تأكُلْ، فإنه لم يُمْسِك عليكَ، إنما أمْسَكَ على نفسه» [البخاري: ٥٤٧٦. ومسلم: ١٩٢٩]. وأمرنا ربنا -عزَّ وجلَّ- أن نذكر اسمَ الله تعالى عندما نُطلقُ الكلبَ للصيد ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤].

وقد أمر الرسولُ ﷺ في حديث أبي ثعْلَبَةَ الخُشَني بذكر اسمِ الله على ما نصيدُه بأقواسِنا وكلابِنا، ففي الحديث: «وما صِدْتَ بقَوْسِكَ، فذكرْتَ اسمَ الله فكُلْ، وما صِدْتَ بكَلْبِكَ المُعَلَّم، فذكرتْ اسمَ الله فكلْ» [البخاري: ٥٤٧٨. ومسلم: ١٩٣٠].

ونهى رسولُ الله ﷺ عن أكل ما صادَهُ الكلبُ إنْ وَجَدَ مع كلْبِهِ كلباً آخرَ قال: «وإن وَجَدْتُ مع كلبِكَ أو كِلابِكَ كلباً غيرَهُ، فخشيتَ أن يكونَ أخَذَه معه، وقد قَتَلَهُ فلا تأكُلْ، فإنما ذكرتَ اسْمَ الله على كَلْبِكَ، ولم تَذْكُرْه على غيرِه» [البخاري: ٥٤٧٥. ومسلم: ١٩٢٩].

٥- أوْجَبَ اللهُ علينا العملَ بما أمرنا به وتركَ ما نهينا عنه:

وخَتَمَ ربُّ العزة الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة:٤].

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَه بتقواهُ بفعلِ ما أمرهم به، وترْكِ ما نهاهم عنه، وذلك بأكْلِهم من الطيباتِ التي أحلَّها لهم، وأكْلهم من الصيد الذي أمْسَكَتْه عليهم كلابُهم المُعَلَّمةُ إذا ذكروا اسمَ الله عليها، واللهُ سريعُ الحساب، وسيظهرُ ذلك عندما يحاسبُ اللهُ عبادَه يوم القيامةِ.

٦- أحلَّ الله لنا طعام أهل الكتاب:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- مرةً أخرى أنه أحلَّ لنا الطيباتِ، من باب التأكيد على إحْلالها، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة:٥]. وأخبرنا ربّنا -تبارك وتعالى- أنه أحلَّ لنا طعام أهل الكتاب من قبلنا، وهم اليهودُ والنصارى، كما أحلَّ لنا الزواجَ من النساء المؤمنات ونساءِ أهل الكتاب إذا كنَّ محصناتٍ، والمحصنة هنا العفيفةُ التي لا تتعاطى الزنا ولا تستبيحُهُ ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:٥].

وقد أكَلَ رسولُنا ﷺ من طعام اليهود، فقد ثبت في الصحيح أن يهودَ خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ شاةً مَصْلِيَّةً، ووضعوا فيها سُمّاً، فأكل رسول الله ﷺ منها وأكل القوم، فمات بِشْرُ بن البراءِ بن معْرورٍ [انظر سنن أبي داود (٤٥١٢) قال الألباني: حسن صحيح].

والمرادُ بطعامِ أهل الكتاب ذبائحُهم، فأما غير الذبائح كالفواكه والحبوب من القمح والشعير والأرز ونحوها، فهي حلالٌ مطلقاً، لا فرق في ذلك بين ما كان للمسلمين أو لأهل الكتاب أو غيرهم.

٧- أحلَّ اللهُ لنا نكاحَ نساء أهل الكتاب بشروطٍ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أحَلَّ لنا أن نتزوج من نساء أهل الكتاب، ويُشترطُ لجواز نكاح المؤمن من نساء أهل الكتاب ما يأتي:

أ- أن تكون مؤمنةً بدينها، فإنْ كانت كافرةً به، فلا تحلُّ لنا، وكثيرٌ من النصرانيات في عالم الغرب اليومَ كافراتٌ بدينهنّ، فلا يحلُّ الزواجُ منهنَ.

ب- أن يكنَّ عفيفاتٍ لا يتعاطينَ الزنا، ولا يسْتَحْلِلْنَه، وهذا النوعُ من النساء قليلٌ في النصرانيات في عالم الغرب اليوم، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: العفيفاتُ، وقال أيضا: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [المائدة:٥] أي: متزوجين يريدون الاستعفاف، المسافحُ: الزاني، والمسافحاتُ: الزانياتُ، وقولُه: ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥] أي: ولا متخذات أصدقاءَ، فلا تضاجعُ إلا صديقاً واحداً.

ج- أن يُعطي الرجلُ المتزوجُ المرأة التي تزوَّجها أجْرَها، أي: مَهْرَها ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة:٥] أي: مهورَهُنَّ، فإذا دَخَلَ بها ولم يُسَمِّ لها مهرها وَجَبَ لها مهرُ المثلِ بدخولِهِ بها.

د- أن يجريَ الزواجَ على الطريقة الإسلامية، وأن تسير الحياة الزوجية وفق النهج الإسلامي، فلا يجوزُ للزوجة أن تشترط أن يُعقد الزواج في الكنيسة، ولا يجوز لها أن تشترط أن تجري الحياةُ الزوجية وفق المنهج النصراني.

وختم اللهُ -تبارك وتعالى- الآية بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة:٥].

خَتَمَ اللهُ هذه الآية لينفيَ ما قد يتَوهَّمُهُ بعضُ المؤمنين أو أهلُ الكتاب من أن للكتابيات خصوصيةً في إباحة الزواج منهنَّ، فالكتابياتُ كافراتٌ مشركاتٌ، وعملهُنَّ في الآخرة باطلٌ، وهنَّ خاسراتٌ في يوم الدين، فالذي يتزوجُ منهن ينبغي أن يعلم ذلك ويعرفَهُ.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - قاعدةُ الحلال والحرام في شَرْعنا أنَّ اللهَ -تعالى- أحلَّ لنا الطيبات، فما من طيِّب إلا وقد أحَلَّه، وما من خبيثٍ إلا وقد حرَّمه.

٢- لحم الخنزيرِ والميتةُ وكلُّ المحرمات من الأطعمة خبيثةٌ.

٣- يجوزُ أكْلُ ما اصْطَدْناه بوساطة الكلاب والعقاب ونحوها من الحيوانات والطيور المفترسة إذا كانت معلَّمة، وأمْسَكْن على أصحابِها، وذكر مُرْسِلوها اسمَ الله عليها عندَ إرسالها.

٤- أَحَلَّ اللهُ ذبائحَ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، كما أحلَّ لنا أنْ نطعمهم من ذبائِحنا.

٥- يجوزُ للمؤمنِ أن يتزوجَ من الكتابية إذا كانت مؤمنةً بدينها، وكانتْ عفيفةً لا تتعاطى الزنا، وأعْطاها زوجُها مهرَها.

٦- لا يجوزُ الزواج من الكتابية إذا كانت ممن تتعاطى الزنا أو تستحلُّهُ.

٧- الزوجةُ الكتابيةُ لا يُخْرِجُها الزواجُ بها عن كونها كافرةً، وعملُها باطلٌ بسبب كُفْرِها، وهي في الآخرة من الخاسرين.

٨- إذا وجدْنا طعاماً أو شرابا جديداً، فعلينا أن نبحث في مكوناته وخصائصه، فإن كان طيباً فهو حلالٌ، وإن كان ضاراً فهو حرامٌ، مثل الدُّخانِ.

النص القرآني الرابع من سورة المائدة
وجوبُ الوضوء لمن أرادَ الصلاةَ

أولاً: تقديمٌ

علمنا ربُّنا في آية هذا النص كيفَ نتوضأُ حين نُريدُ الصلاةَ إذا كنَّا محدثين، وأمرَنا بالغسل من الجنابة إذا حَضرتِ الصلاةُ، فإذا كُنَّا مرضى لا نستطيعُ استعمالَ الماء، أو لا نجدُ الماء، وجب علينا التيممُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأمرُ بالوضوءِ عند القيام إلى الصلاة:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين آمراً إياهم بالوضوء عند إرادتِهم القيامَ إلى الصلاة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة:٦] وقد دلَّتْ السّنةُ النبويةُ على أنَّ الذي يجبُ عليه الوضوءُ عند إقامة الصلاة هو المُحْدِثُ، فأما غيرُ المحدثِ فلا يجب عليه الوضوءُ، بل يستحبُّ له، عن سليمانَ بن بُرَيْدَةَ عن أبيه أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى الصلواتِ يومَ الفتح بوضوءٍ واحدٍ، ومَسَحَ على خُفَّيْهِ، فقالَ له عُمَرُ: لقدْ صَنَعْتَ اليومَ شيئاً لم تكنْ تصْنَعُهُ، قال: «عَمْداً صَنَعْتُه يا عُمَرُ» [مسلم: ٢٧٧].

وعن أنس بن مالك قال: «كان النبي ﷺ يتوضَّأ عند كُلِّ صلاةٍ، قلتُ: كيفَ كنتم تصْنَعونَ؟ قال: يُجْزِي أحدَنا الوضوءُ ما لم يُحْدِثْ» [البخاري: ٢١٤].

والوجهُ الذي أمَرَنا بغَسْلِهِ ما واجَهَ الناظرَ وقابَلَهُ، وحَدُّهُ من منابتِ شعرِ الرأسِ فوقَ الجبهة إلى آخرِ الذقْنِ طولاً، ومن الأُذنِ إلى الأُذنِ عَرْضاً.

٢- وجوبُ غسل اليدين إلى المرفقين:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بغَسْلِ اليدين إلى المرفقين بعد غَسْلِ الوجْهِ ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ وقوله: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ أي: مع المرافق.

٣- وجوب مَسْحِ الرأسِ في الوضوء:

أمَرَ اللهُ المتوضئ أنْ يمسحَ برأسِه فقال: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ وقد ذهب طائفةٌ من أهل العلم إلى أنَّ الواجبَ مَسْحُ بعض الرأسِ، والصوابُ أنَّ الواجبَ مَسْحُه كُلِّه، وقد نَقَل لنا الصحابةُ الذين وَصَفُوا لنا وضوءَ رسولِ الله ﷺ أنَّ الرسولَ ﷺ كانَ يمسحُ رأسَه كلَّه، ففي حديثِ عبدالله بن زيدٍ ثم مسح رأسَه بيديه، فأقبل بهما وأدْبَرَ، بدأ بمُقدَّم رأسه حتى ذهب بهما إلى قَفاهُ، ثم رَدَّهُما إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غَسَلَ رجليه [البخاري: ١٨٥. ومسلم: ٢٣٥].

ويجوزُ مسحُ الناصية إذا كان لابساً عمامةً، ففي حديث المغيرة بن شعبةَ يصفُ وضوء رسولِ الله ﷺ: «فغَسَلَ ذِراعيْهِ، ومَسَحَ بناصيتِهِ، وعلى العمامةِ، وعلى خُفَّيْهِ» [مسلم: ٢٧٤].

٤- غَسْلُ الرجلين إلى الكعبين:

وأمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- إذا نحنُ توضَّأْنا أنْ نغسِلَ أرْجلنا إلى الكعبين ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ وقد ذهب الشيعةُ إلى جواز مسحِ الرجلين، وهو قولٌ مردودٌ، دلَّتْ الأحاديثُ الصحيحةُ على بطلانِهِ، ومن الأحاديث الدالة على بطلانِهِ حديثُ عبدالله بن عمرٍو قال: «تخلَّفَ النبيُّ ﷺ عنَّا في سَفْرَة سافرْناها، فأدْرَكَنا وقد أرْهَقْنا العصرَ، فجعلنا نتوضأ ونمْسَحُ على أرْجُلنا، فنادى بأعلى صوته: «وَيْلٌ للأعقاب من النار». مرتين أو ثلاثاً» [البخاري: ١٦٣. ومسلم: ٢٤١].

وعن محمد بن زيادٍ قال: سمعتُ أبا هريرةَ، وكان يمرُّ بنا والناس يتوضَّؤُونَ من المِطْهَرَةِ، قال: أسْبِغوا الوضوءَ، فإن أبا القاسم ﷺ، قال: «ويلٌ للأعقابِ من النار» [البخاري: ١٦٥. ومسلم: ٢٤٢].

وعن جابر قال: أخبرني عمر بن الخطاب أنَّ رجُلاً توضَّأ، فترك موضعَ ظُفُر على قَدَمِهِ، فأبْصرهُ النبيُّ، فقال: «ارْجِعْ، فأَحْسِنْ وُضُوءَكَ» فرَجَعَ، ثم صلَّى [مسلم: ٢٤٣].

ووجْهُ الدلالة من هذه الأحاديث أنه لو كان الواجبُ في الرجلين، هو مَسْحَهُما دونَ غَسْلِهما لما توعَّدَ الرسولُ ﷺ على تركِ بقعةٍ، لأنَّ المسحَ لا يستوعبُ جميعَ الرجل، بل يجري فيه ما يجري في مسحِ الخفِّ. والكعبانِ: هما العظمانِ الناتئان في جنبي الرجل.

٥- وجوب اغتسال الجنب إذا حضرتِ الصلاةُ:

أوجب الله على من كان جنباً أن يغتسلَ إذا حضرتِ الصلاةُ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة:٦].

٦- إذا لم يجد من يريد الصلاة الماءَ أو لم يستطع استعمالَه وَجَبَ التيمم:

إذا كان الذي يريدُ الصلاة مريضاً أو مسافراً ولا ماءَ معه، أو كان مُحْدِثاً حدثاً أصغَرَ، كالذي يخرجُ منه البول أو الغائط أو الريح، أو لامسَ زوجتَهُ، أي: عاشرها فعليه أن يتيمَّمَ صعيداً طيباً ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦] وقد سَبَقَ أنْ بينتُ تفسير هذه الآية في سورة النساء، عند تفسير الآية الثالثة والأربعين، فهذه الآية كتلك، لم تزد عنها إلا حرف ﴿مِّنْهُ﴾ في آخِرها.

سبب نزول هذه الآية:

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «خرجنا مع رسولِ الله ﷺ في بعض أسْفارِهِ، حتى إذا كنا بالبَيْداءِ، أو بذات الجيش، انقطَعَ عِقْد لي، فأقام رسولُ الله ﷺ على التماسِهِ، وأقام الناسُ معه، وليسوا على ماءٍ.

فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق، فقالوا: ألا ترى ما صَنَعتْ عائشةُ؟ أقامت برسولِ الله ﷺ والناسِ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فجاءَ أبو بكر، ورسولُ الله ﷺ واضعٌ رأسَه على فخذي قد نامَ، فقال: حَبَسْت رسولَ الله ﷺ والناسَ، وليسوا على ماء، وليس معهم ماءٌ.

فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء اللهُ أن يقولَ، وجعلَ يطعنُني بيده في خاصرَتي، فلا يمنعني من التحرُّك إلا مكانُ رسولِ الله ﷺ على فخذي، فقام رسولُ الله ﷺ حين أصبحَ على غير ماءٍ، فأنزلَ اللهُ آيَةَ التيمُّم فتيمَّموا، فقال أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ: ما هي بأوَّل برَكَتِكُمْ يا آلَ أبي بكر، قالت: فبعثنا البعيرَ الذي كنتُ عليه، فأصَبْنا العِقْدَ تحتَهُ» [البخاري: ٣٣٤. مسلم: ٣٦٧].

٧- توسعةُ الله تعالى على هذه الأمة فيما شرع لها:

سَهَّلَ اللهُ -تبارك وتعالى- ويسَّرَ فيما شَرَعَهُ لنا، إذ أباحَ لنا التيمم عند المرض أو عند فقدِ الماء، توسعةً ورحمةً بنا ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦] والحرجُ: الضيقُ، والحَرْجَة: الشجرُ الملتفُّ المتضايقُ.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي: من الأحداث والجنابات والذنوب، وقوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بما شَرَعَه اللهُ تبارك وتعالى من أحكامِ الوضوءِ والتيمم.

٨- الحثّ على الدعاء عقبَ الوضوء:

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة:٦] أي لعلكم تشركونَ نعمةَ الله عليكم فيما شَرَعَه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة، وقد جاءت الأحاديث مرغبةً في الدعاء عقبَ الوضوء، فعن عقبة بن عامر، قال: كانت علينا رعايةُ الإبل، فجاءت نوْبَتي، فروَّحْتُها بعشيٍّ، فأدركتُ رسولَ الله ﷺ قائماً يُحدِّثُ الناسَ، فأدركتُ من قوله: «ما من مسلمٍ يتوضأ فيُحسنُ وُضُوءَه، ثم يقومُ فيُصلّي ركعتين، مقبلٌ عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة».

قال: فقلتُ: ما أجودَ هذه! فإذا قائلٌ بين يدي يقول: التي قبلها أجودُ. فنظرتُ فإذا عمرُ، قال: إني قد رأيتُكَ جئتَ آنفاً، قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيُبلِغُ (أو فيُسْبِغُ) الوَضوءَ ثم يقولُ: أشهدُ أن لا إله إلا اللهُ، وأن محمداً عبدُ الله ورسولُه، إلا فُتحت له أبوابُ الجنة الثمانيةُ، يدخلُ من أيِّها شاء» [مسلم: ٢٣٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- إذا أرادَ المؤمنُ الذي أصابَهُ حَدَثٌ أن يُصَلِّيَ وَجَبَ عليه أن يتوضأ.

٢- علَّمنا ربُّنا صفةَ الوُضُوءِ الذي يجب علينا إذا أردْنا الصلاة وكنا محدثينَ أن نفعله فقد أمرنا بغسل وجوهنا، وغسل أيدينا إلى المرافق، ومسح رؤوسنا، وغسْل أرجلنا إلى الكعبين وهذه الأربعُ داخلةٌ في فروض الوضوء.

٣- الصوابُ من القول أنه يجب الوضوء لمن أرادَ الصلاة إذا كان مُحْدِثاً، ويستحبُّ له الوضوءُ إن كان على طهارةٍ.

٤- يظنُّ كثيرٌ ممن ينسبُ إلى الإسلام أن من الفضائل أن يصلي أكثر من صلاة بوضوءٍ واحد، ويقولون: فلانٌ يصلي الفجر بوضوء العشاء، والصحيح أنه يستحبُّ الوضوءُ لكلِّ صلاةٍ.

٥- الصواب من القول أنه يجبُ الوُضُوءُ على الصفة التي ذكرتها الآيةُ، فالآيةُ ذكرتها مرتبةً، ولم يُؤْثَرُ عن الرسولِ ﷺ ولا أحدٍ من أصحابِهِ أنه خالفَ هذا الترتيب.

٦- الصوابُ من القول أنَّ المرافقَ داخلةٌ في الأيدي التي يجبُ غسْلُها، والكعبان داخلان في الأرجل التي أمرَ اللهُ بغسْلها.

٧- يجبُ على الجنب أنْ يغتسلَ إذا حَضَرَتْهُ الصلاةُ.

٨- المريضُ الذي لا يستطيعُ استعمالَ الماءِ، وكذلك الذي فقدَ الماءَ يجبُ عليهما التيممُ للصلاةِ.

٩- التيممُ يكونُ بضربِ المتيمم يديه بالترابِ الطاهر، ثم يمسحُ بهما وجْهَهُ وكفَّيهِ، كما سبقَ بيانه.

١٠- يُستحبُّ الدعاءُ عقبَ الوضوءِ بالدعاء المأثورِ الذي سبقَ ذكره في شرح الآيات.

١١- الوُضُوءُ ومثْلُه التيمم كلاهما عبادَةٌ، وكلُّ عبادةٍ لا بد لها من النيَّة، لقوله ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنياتِ».

١٢- يستحبُّ لمن أرادَ وضوءاً أن يغسلَ كفيه قبل أن يُدْخِلهما في الإناء، ويتأكدُ ذلك عند القيام من نوم الليل، فعن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدُكم من نومه، فليغسِلْ يدهُ قبل أن يُدْخِلها في وضوئه، فإن أحدَكُم لا يدري أين باتت يدُهُ» [البخاري: ١٦٢. ومسلم: ٢٣٧].

١٣- الصوابُ من القول أن الفم والأنف من الوجه، ولذلك يجب على المتوضئ أن يتمضمض ويستنشق ويستنثر، ويدلُّ لصحة هذا القول أنه لم يُؤْثر عن الرسول ﷺ أنه ترك واحداً منها، وصحَّ عنه أنه أمر بهما، ففي حديث عثمان الذي توضأ فيه وضوءَ الرسول ﷺ «فمَضْمَضَ واسْتَنْشَقَ» [البخاري :١٥٩. ومسلم: ٢٢٦]. وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من توضَّأ فليستنثر» [البخاري: ١٦١. ومسلم: ٢٣٧].

١٤- الصوابُ من القول أنه يجبُ أن يعُمَّ المتوضئُ رأسَهُ كلَّه بالمسح، وقد صحَّ أنَّ الرسولَ ﷺ كان يفعلُ ذلك، إلا إذا كان لابساً عمامةً، فيمسَحُ على مقدمةِ الرأس، ويتمُّ المسحَ على العمامة.

١٥- إذا كان المتوضئُ لابساً خُفّاً أو نعلين على طهارةٍ، فيجوزُ له أن يمسحَ على خُفَّيْهِ أو نَعْليه يوماً وليلةً في الحضرِ، وثلاثةَ أيامٍ بلياليها في السفر.

١٦- الوضوءُ فيه أجر عظيم، وثوابٌ كثيرٌ، فمن ذلك أنَّ عمرَو بن عبسة السُّلَمي، قال: قلت: يا نبيَّ الله! فالوُضُوءَ؟ حدِّثني عنه. قال: «ما منكم رجلٌ يُقرِّبُ وَضُوءَهُ

فيتمضمضُ ويستنشقُ فينتثرُ، إلا خرَّتْ خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره اللهُ إلا خرَّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسلُ يديه على المرفقين إلا خرَّت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسحُ رأسه إلا خرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسلُ قدميه إلى الكعبين إلا خرَّت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلَّى، فحَمِدَ الله وأثنى عليه، ومجَّدَهُ بالذي هو له أهْلٌ، وفرَّغَ قلبه لله، إلا انصرفَ من خطيئتِهِ كهيئته يومَ ولدته أمُّهُ» [مسلم: ٨٣١].

١٧- **صفةُ وضوء رسولِ الله ﷺ** : ذكر لنا أكثر من صحابي صفة وضوء رسولِ الله ﷺ ، قال البخاريُّ حدَّثنا عبدالله بن يوسفَ قال: أخبرنا مالِكٌ، عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه: أن رجلاً قال لعبدالله بن زيدٍ، وهو جدُّ عمرو بن يحيى: أتستطيعُ أن تُريني كيف كان رسولُ الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبدالله بن زيد: «نعم، فدعا بماء، فأفرغَ على يديه فغسل مرتين، ثم مضمض واستنثر ثلاثاً، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمُقدَّم رأسه حتى ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردَّهما إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه» [البخاري:١٨٥. ومسلم: ٢٣٥].

وعن حُمْرانَ مولَى عثمان أنه رأى عثمان بن عفان: دعا بإناء، فأفرغ على كفَّيه ثلاثَ مِرار فغسلهما، ثم أدخل يمينه في الإناء، فمضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ويديهَ إلى المرفقين ثلاث مرار، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه ثلاث مرار إلى الكعبين، ثم قال: قال رسولُ الله ﷺ : «من توضأ نحو وُضُوئي هذا، ثم صلَّى ركعتين لا يُحدِّثُ فيهما نفسَه، غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنْبِهِ» [البخاري: ١٥٩. ومسلم: ٢٢٦].

النص القرآني الخامس من سورة المائدة

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾

أولاً: تقديم

أمَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- بذكر نِعَمِه علينا، والالتزام بما أخذه علينا من مواثيق، وأمر بالعدل والإنصاف في الحكم والشهادة، لا فرق في ذلك بين الأعداء والأولياء، ووعد المؤمنين بجنات النعيم، وأوْعَد الكفارَ النار، وأخبرنا أننا إن حَفِظْنا دينه وشَرْعَه حفظنا وحمانا من خُصومنا وأعدائنا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة:٧-١١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير هذه الآيات من القرآن

١- أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بذكر نعمته علينا وميثاقِهِ الذي واثَقَنا به:

أمرنا ربُّنا -عز وجل- أنْ نذكُر نِعَمَهُ التي أنعمَ به علينا، وميثاقَه الذي واثقنا به، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧].

ونِعَمُ الله التي أنْعم بها علينا كثيرةٌ، فأعلاها إنزالُهُ القرآنَ علينا، وإرسالُ رسوله الخاتم ﷺ فينا، ومن نِعَمه العظيمة الدينُ الذي جاءَنا به رسولُنا ﷺ مِنْ عند الله، ونعمُ الله لا تعدُّ ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨].

وأمرنا -تبارك وتعالى- أن نكونَ على ذِكْرٍ من المواثيق التي أُخذتْ علينا وعلى السابقين منا، ويدخلُ في المواثيقِ التي أمرَنا اللهُ بذكرها كلُّ ما أمرنا اللهُ به أو نهانا عنه، وقلنا فيه لربِّنا: سمعنا وأطعنا، ومن ذلك ما رواه عبادةُ بن الصامت، قال: فقال فيما أَخَذَ علينا: أن بايَعَنا على السمعِ والطاعة، في مَنْشَطِنا ومَكْرَهنا، وعُسْرِنا ويُسْرِنا وأثَرَةٍ علينا، وأن لا نُنازعَ الأمرَ أهْلَهُ: «إلا أَن ترَوْا كُفْراً بَواحاً، عِنْدَكُمْ من الله فيه بُرْهانٌ» [البخاري: ٧٠٥٥،٧٠٥٦. ومسلم: ١٧٠٩].

وروى عبادةُ بن الصامت أيضاً وكان شَهِدَ بدراً، وهو أحد النُّقَباء ليلةَ العقبة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال، وحوْلَهُ عِصابةٌ من أصحابِهِ: «بايِعُوني على أن لا تُشْرِكوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببُهْتان تفْتَرونَه بين أيديكم وأرجُلِكُمْ، ولا تعصُوا في معروف، فمن وَفَى منكم فأجرُهُ على الله، ومن أصابَ من ذلك شيئاً فعُوقِبَ في الدنيا فهو كفَّارَةٌ له، ومن أصابَ من ذلك شيئاً ثم سَتَرَهُ اللهُ فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاءَ عاقبَهُ». فبايعْناهُ على ذلك [البخاري: ١٨. ومسلم: ١٧٠٩].

وخَتَمَ ربُّ العزَّةِ الآية بقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة:٧] أمَرَنا ربنا في خاتمة الآية بتقواه، وحذَّرَنا بأنه عالمٌ بما في قلوبنا، ومحلُّ التقوى القلبُ، كما أخبرنا رسولُنا ﷺ، فهو عالِمٌ بمنْ حلَّت التقوى في قَلْبِهِ، ومَلَكَتْ عليه نفْسَهُ، وهو عالمٌ بمن كانت تقواه شِقْشِقَةَ لسانٍ، ودعوى ليس لها مضمونٌ، والله المستعان.

٢- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين أنْ يكونوا قوامين لله شهداءَ بالقسط:

نادى ربُّ العِزَّة عبادَه المؤمنين آمراً إياهم أنْ يقوموا لله، وأن يشهدوا بالقِسْطِ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [المائدة:٨] وقوَّامُ: صيغةُ مبالغة تدلُّ على الإكثار من القيام، وقد أمَرَ سبحانه بأنْ يكونَ القيامُ لله، ولا يكونَ للعبادِ، أي: لا يكونُ رياءً وسمعةً، فيشهدُ بالعدلِ، يطلب رضوانَ الله، ويحكمُ بالعدل يريدُ رضوانَ الله تعالى. و﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي: العدلُ.

ويجبُ على المؤمن أن يقومَ لله، ويشهدَ بالقسط، أي: بالعدل حتى مع الأعداء، ولذلك قال ربُّ العزة: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٨]، ومعنى ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ أي: لا يحملنكم بغضُ قومٍ على تركِ العدل وكتم الشهادة، فالمؤمنُ يقومُ لله، ويحكمُ بالعدلِ ويشهدُ به، ولو كان الشخْصُ يهودياً أو نصرانياً أو بوذِياً، وقد بلغ المسلمون القمةَ في إجراءِ العدل في محاكمهم ودور القضاء.

وقوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ أمرنا سبحانه بالعدل، وأخبرنا أنَّ الذين يقيمونَ العدل أقربُ لتقوى الله وطاعَتِهِ، ومن كان ظالماً في حُكْمِهِ وشهادتِهِ، كان قريباً إلى الجور ومعصية الله.

وختمَ ربُّ العزة الآيةَ بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة:٨] أي: اتقوا اللهَ عز وجل وخافوه، في الشهادة على عبادِ الله، واللهُ خبيرٌ بما تعملون، وسيجازيكم على جَوْرِكُم وظلمكم يوم الدين.

٣- جزاءُ المؤمنين وجزاءُ الكافرين في يوم الدين

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- جزاءَ المؤمنين وجزاء الكافرين في يوم الدين، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾ [المائدة:٩-١٠].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه وَعَدَ المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمغفرة لذنوبهم وخطاياهُم وبالأجر العظيم. ويكونُ الأجرُ العظيم بإدخالهم في جنات النعيم في يوم الدين.

أما الذين كفروا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، والذين عبدوا مع الله آلهةً أخرى، وكذبوا بآيات الله فإنَّ مصيرهم إلى النارِ، يلازمونها، وتلازمهم، بحيث يصبحون أصحابَ الجحيم، والجحيمُ: النارُ.

٤- أمَرَ الله تعالى المؤمنين أنْ يذكروا نعمته عليهم في تخليصِهِمْ من شرِّ الكفارِ وعدوانهم:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين آمراً إياهم أنْ يذكروا نعمةَ الله عليهم، إذْ حفظهم ونجَّاهم من الأعداءِ الذين أرادوا السوءَ بهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [المائدة:١١].

وقد حفظتْ لنا كتبُ السنّة النبوية كيف هَمَّ كثيرٌ من المشركين واليهود بالفتك بالرسول ﷺ وأصحابه، فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أخبره: أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ فلما قَفَلَ رسولُ الله ﷺ قَفَلَ معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العِضاه، فنزل رسولُ الله ﷺ وتفرَّقَ الناس في العِضاهِ يستظلُّون بالشجر،

ونزل رسولُ الله ﷺ تحت سَمُرَة، فعلَّقَ بها سيفَه. قال جابرٌ: فنمْنا نومة، ثم إذا رسولُ الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابيٌّ جالسٌ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ هذا اخترَطَ سيفي وأنا نائمٌ فاستيقظتُ وهو في يده صَلْتاً، فقال لي: مَن يمْنَعُكَ مني؟ قلتُ: اللهُ، فها هو ذا جالسٌ» ثم لم يعاقبه رسولُ الله ﷺ [البخاري: ٤١٣٥. ومسلم: ٨٤٣] واسم الأعرابي الذي وقعتْ له هذه الواقعة: غَوْرَثُ بنُ الحارث [البخاري: ٤١٣٦].

وقد حاولَ اليهودُ في المدينة وفي خيبرَ أن يفتِكوا برسولِنا ﷺ أكثر من مرةٍ، فكان اللهُ ينجيه من كيدِهِمْ، وحاولَ مثلَ ذلك المنافقون فلم يُمكِّنْهُمُ اللهُ منه والمرادُ ببسط أيديهم أيْ بالقتلِ والجرح والسُّمِّ، وكفّ الله أيديهم عنهم، أي: بحفظ الله رسولَه ﷺ وأصحابَه، وأمَرَ اللهُ المؤمنين بتقواه، وأمَرَهُمْ بالتوكل عليه سبحانه، فالمتوكلُ على الله سبحانه يحصلُ له بتوكُّله جَلْبُ الخيرات، ودفعُ المضَرَّات، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٢-٣] والحسبُ الكافي.

رابعاً: ما تهدينا إليه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بذكر نعمه علينا، فذِكْرُ النِّعمِ يغري العبادَ بشكره وعبادَتِهِ.

٢- أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى أن نذكر ميثاق الله الذي أخذه علينا، وكلُّ ما فَرَضَه اللهُ علينا، وقبلناه، فهو داخلٌ في الميثاق.

٣- يجب على المؤمن أن يكونَ قائماً بالعدلِ في القضاء والشهادة، وأن يفعل ذلك ابتغاءَ مرضاةِ الله.

٤- أوْجَبَ اللهُ علينا أن نحْكُم بالعدل، وأنْ نقيمَ الشهادة بالقسطِ، فهذا واجبٌ حتى مع الخصم، وإذا كانَ العدلُ واجباً مع الخصم، فإنه أعظمُ وجوباً مع أهل الإسلام.

٥- اللهُ يحكمُ بين العبادِ في يومِ المعاد فيجزي المحسنين جناتِ النعيم، ويدخلُ الكفار النار.

٦- إذا أحسن المؤمنون التوكلَ على الله، فإن الله يكفُّ عنهم بأسَ عَدُوِّهم.

النص القرآني السادس من سورة المائدة
الميثاقُ الذي أخذه اللهُ على بني إسرائيلَ ونقضهم له

أولاً: تقديم

بعد أنْ أمَر اللهُ المؤمنين بإقامةِ ما أخَذَهُ اللهُ عليهم من عهدٍ وميثاقٍ، أطْلعنا على الميثاقِ الذي أخَذَهُ على بني إسرائيل، وكيف نقضوه، فلعنهم اللهُ -تعالى- من جراء ذلك، وخَبُثَ نفوسَهم وأعمالهم، ومن ظُلْمِهم كُفْرهم بالرسول الذي أُمروا بالإيمان به واتباعه، وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ للمؤمنين كيلا يفعلَ بهم مثل فِعْلِه ببني إسرائيلَ، إنْ هم نقضوا عهودَهُم مع ربهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المائدة:١٢-١٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أخْذُ الله تعالى ميثاقَ بني إسرائيل:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أخَذَ ميثاقَ بني إسرائيل، وبعثَ فيهم اثني عشرَ نقيباً، والنقيبُ كما يقول الأصفهانيُّ: «الباحثُ عن القوم وعن أحوالهم» [المفردات: ٥٠٣].

وأصلُ النَّقْبِ: الطريقُ في الجبل، هذا أصْلُه، وسمي به نقيبُ القومِ، لأنه طريقٌ إلى معرفةِ أمورِهم، والنقيبُ أعْلى مكاناً من العريفِ.

وكان عددُ النقباء على عدد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، أخَذَ من كلِّ سبطٍ نقيباً، وقال اللهُ -تعالى- عند أخذِه الميثاقَ من بني إسرائيل: ﴿إِنِّي مَعَكُمْۖ﴾ أي: مؤيِّدُكم وناصِرُكُمْ ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ ﴾ [المائدة:١٢].

وأعْلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالعهد الذي أخَذَه عليهم، وهو يَضُمُّ خمسةَ أمور، ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة:١٢] الأول: إقامةُ الصلاة وتكون بالإتيان بها وِفْقَ ما شَرَعَه الله عليهم بشروطها وفرائضها في أوقاتها. والثاني: إخراجُ المقدار الذي أوْجَبَ اللهُ على الأغنياء إخراجه من أموالهم. والثالثُ: الإيمان بالرسل الذين أرْسَلهم ربُّ العزة إليهم، والرابع: تعزيرهُمُ، أي تعظيمهم، وتوقيرهم، ونصْرُهم، والخامس: إقراضُ الله قرضاً حسناً وذلك بإخراج بعض من أموالهم في مجالات الخير التي حدَّدها ربُّ العزة.

٢- جزاءُ الذين وفوا بميثاق الله تعالى والذين كفروا به:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه عرَّف بني إسرائيل بأن الذين يفون بما أخذ عليهم من الميثاق، سيُكفِّر عنهم سيئاتهم، والسيئات: المعاصي والذنوبُ، وسيدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ومن كفر بعد ذلك منهم، فقد ضلَّ وحادَ عن سواء السبيل، أي: عن الطريق المستقيم ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة:١٢].

٣- ذمَّ اللهُ بني إسرائيل بسبب نَقْضِهم عهودَهُم مع ربِّهم:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- في الآيات السابقة المؤمنين من هذه الأمة بأن يفوا بعهودِهِم مع ربهم، وحدَّثنا في هذه الآية بالجزاء الرهيب الذي أحلَّه بالذين نَقضوا عهودَهم مع ربِّهم من بني إسرائيل، ليكون موعظةً للمؤمنين من هذه الأمة.

وقوله تعالى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة:١٣] أي: فبسبب نقضِهم ميثاقهم الذي أخذه عليهم ربُّهم لعنهم اللهُ تعالى، أي: طرَدهم من رحمتِهِ وجنتِهِ وجعل قلوبَهم قاسيةً، والقسوةُ: الشدِّةُ والصلابةُ، والقلبُ القاسي: الذي لا يقبلُ الحق، ولا يلينُ إذا سَمِعَ آيات الله تُتْلى عليه، وقد حدَّثنا اللهُ تبارك وتعالى عن شدة وقسوة قلوبهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤].

وأخبرنا ربُّنا أن بني إسرائيل الذين أخذ عليهم الميثاق ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة:١٣].

وتحريفُهم الكلمَ عن مواضعه وقع عندما غيَّروا نصوص التوراة، وغيروا معانيها وأحْكامَها، وقولُه: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: تركوا العمل بما ألْزمهم اللهُ به من الشرائع، فكانَ كثيرٌ منهم لا يقيمُ الصلاةَ، ولا يؤْتي الزكاة، ولا يوقِّر رسل الله، ولا ينصرهم، وامتدَّ بهم الحالُ حتى بُعِثَ رسولُنا محمدٌ ﷺ . وكانوا أُمِرُوا في التوراة والإنجيل بالإيمان به، فكفروا به، وحاولوا قَتْلَه، وخانوا عهودَهم التي أخذها الله عليهم فيه، ولم يزل رسولُنا ﷺ يطَّلع على خائنةٍ منهم، فلم يفِ له إلا القليلُ منهم، وقد أمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ في وقت نزولِ هذه الآيات بأن يعفو عنهم، ويصفحَ عن جرائمهم وزلاَّتِهِمْ، وختمَ الآيةَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ .

ثم نسخ هذا الحكم، وأمرَ الله رسولَه ﷺ بقتالِهِمْ، فقاتلهم في المدينة وخيبرَ، فقتلَ فريقاً منهم، وفريقاً أخْرجهم من جزيرةِ العربِ.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أخَذَ اللهُ على بني إسرائيلَ أنْ يقيموا الصلاةَ ويؤتوا الزكاةَ ويؤمنوا بالرسل.

٢- وَعَدَ اللهُ بني إسرائيلَ إن هم أقاموا الميثاقَ أن يُعِزَّهُمْ ويَنْصُرَهُم في الدنيا، ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار في الآخرةِ، ومن كفر بما أُخِذَ عليهم فقد ضلَّ سواءَ السبيل في الدنيا والآخرة.

٣- أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ بني إسرائيل نقضوا ميثاقَهُمْ مع ربهم -تبارك وتعالى- فطَرَدَهُمْ من رحمته، وحَرَمَهُمْ من جنتِهِ، وجعل قلوبهم قاسيةً فلا تتأثرُ بما يَعِظُهُمْ به، ووصل بهم الحال إلى تحريف التوراةِ، وتركِ الأحكامِ التي أمرهم بها.

٤- كفر بنو إسرائيلَ برسولنا محمد ﷺ وقد أُمِروا في التوراة والإنجيل بالإيمان به واتِّباعه، وكان رسولُ الله ﷺ يكتشفُ دائماً ما يُدَبِّرونَه من خيانةٍ له ولأصحابِهِ، ولم يَخْلُصْ منهم من الخيانة إلا طائفة قليلة.

٥- أمر الله رسولَه ﷺ أن يَعْفُوَ عن بني إسرائيل في أول الأمر، ويصْفَح عنهم، ثم أُمِرَ بعد ذلك بحربهم وقتالِهِمْ، فقتلَ طائفةً منهم، وأخرج أخرى من جزيرة العرب.

النص القرآني السابع من سورة المائدة
نقضُ النصارى عهودَهُم مع ربِّهم

أولاً: تقديم

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه أخَذَ ميثاقَه على المؤمنين من هذه الأمة، وعلى اليهود من قبلنا، وأخبرنا في هذه الآيات أنه أخذ الميثاقَ أيضاً على النصارى، فنقضوا عهدَهُم مع الله كما فعلَ اليهودُ، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ رسولَنا ﷺ بيَّن لليهود والنصارى كثيراً مما كان يُخْفيهِ أحبارُهم ورهبانُهم مما أنزلَه اللهُ عليهم في كتبهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة:١٤-١٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نقضُ النصارى عُهودَهم مع ربهم تبارك وتعالى:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أخذ من الذين سموا أنفسهم بالنصارى ميثاقَهمْ، والميثاق الذي أخَذَهُ عليهم أن يعبدوه وحده لا شريك له، ومتابعةُ نبيِّه محمدٍ ﷺ عندما يُبْعَثُ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ [المائدة:١٤].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنهم ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٤] أي: تركوا ما عَهِدَ اللهُ به إليهم، فقد تركوا التوحيد، وألَّهوا عيسى، وكذَّبوا محمداً ﷺ، فأغرى اللهُ بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة، أي: أوْقَعَها فيما بينهم، ولذا اختلفوا، وتفرَّقُوا، ووقع

بينهم العداوةُ والبغضاءُ، وقامتِ الحروبُ فيما بينهم ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ [المائدة:١٤]. وأخبرنا ربُّنا أنه سيفْصِل بينهم يومَ القيامة، ويُقرِّر الحق الذي كانوا يختلفون فيه ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة:١٤]، ومعنى: ﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾ أي: يُخْبِرُهم، فإذا أنبأهم حاسَبَهم.

٢- بيَّنَ رسولُنا ﷺ لأهل الكتاب كثيراً مما كانوا يخفونَه من كتابهم:

نادى اللهُ -تعالى- أهْلَ الكتاب من اليهود والنصارى مخبراً إياهم أن رسولَه الخاتِمَ محمداً ﷺ جاءَهم ليبين لهم كثيراً مما أخْفوه من كتابهم، أرادَ به ما أخفوه من التوراة والإنجيل، وترك اللهُ بعض الذي أخْفوْه فلم يُبيِّنْه ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ﴾ [المائدة:١٥]. ومما أخْفَوْه وبيَّنَه رسولُنا ﷺ حُكْمُ الزانية والزاني وأنه الرجمُ، ومما حرَّمه اللهُ على بني إسرائيلَ من قبل أن تنزل التوراة وما حوَتْهُ كُتُبُهم من الأخبار عن محمدٍ ﷺ وبعْثَتِهِ ومبْعَثِهِ ومهاجَره وكتابِهِ وأمَّتِهِ وغير ذلك ويدلُّ على أنه لم يبين كل ما أخفوه قولُه: ﴿كَثِيرًا﴾ فلو كان بيَّنَهُ كلَّه لقالَ: يبيِّن لكم ما تخفون، ويدلُّ لذلك قولُه: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ﴾. وختم اللهُ تعالى الآيةَ بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥] والنورُ الذي جاءَنا من عندِ الله هو محمدٌ ﷺ، والكتابُ القرآنُ الكريمُ.

٣- هدايةُ الله تعالى بالنور والكتاب المنير من اتَّبَعَ رضوانَه سبلَ السلام:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه يهدي بالنور الذي جاءَنا من عندِهِ وهو نورُ نبيِّه محمدٍ ﷺ ونورُ الكتابِ المبين، وهو القرآنُ الكريمُ - يهدي الذينَ اتبعوا رضوانَ الله تعالى سبلَ السلامِ، وهو الدينُ الإسلاميُّ الحنيفُ، الذي يجلب السلامَ للفرد والأسرةِ والمجتمعِ والعالمِ كله، ويُخرِجُ الناسَ من ظلماتِ الشركِ والباطلِ والذنوبِ والمعاصي إلى النور، والمرادُ به التوحيدُ، والأعمالُ الصالحةُ ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة:١٦].

وخَتَمَ اللهُ تعالى الآية بقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٦] والصراطُ المستقيمُ الذي يهدينا الله تعالى إليه الدينُ الإسلاميُّ الحنيفُ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - أَخَذَ اللهُ من النصارى ميثاقَهم كما أخذَه من مؤمني هذه الأمة ومن بني إسرائيل، وأعظمُ ما أَخَذَه عليهم التوحيدُ، فجعلوا أصْل دينهم الشرك، وادَّعوا أنَّ عيسى ابنُ الله، تعالى اللهُ عما يقولونَه علوّاً كبيراً.

٢ - يزعمُ النصارى اليومَ أنهم أنصارُ دينِ الله تعالى، ولقد كذبوا فيما ادَّعَوْه.

٣ - تَرَكَ النصارى كثيراً من الشرائع التي أَنْزَلَها إليهم، فألقى اللهُ بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

٤ - في يوم القيامة يحْكم الله بين الناس فيما كانوا يتنازعون فيه في الدنيا.

٥ - يدُلُّ على صحة رسالةِ رسولنا ﷺ وهو الرسولُ النبيُّ الأميّ لليهود والنصارى ما أَخْفَوْهُ من الكتاب الذي أنزله الله إليهم.

٦ - أرسل الله إلينا رسولَه ﷺ نوراً مبيناً، وأنزلَ إلينا قرآناً كريماً، ليهديَ الناسَ الذين اتَّبَعُوا رضوانَهُ إلى الدين القويم، ويخرجَهُمْ من الظلمات إلى النور.

٧ - رسولُنا ﷺ مُرْسَلٌ إلى الناس كافةً، وفيهم اليهودُ والنصارى، وقد أَمَرَتْهُمْ كُتُبُهمْ المنزلة من قبل بمتابعَتِهِ.

النص القرآني الثامن من سورة المائدة

حكم الله -تبارك وتعالى- بكفر الذين زعموا أنّ الله هو المسيح ابن مريم

أولاً: تقديم

ردَّ اللهُ على النصارى الذين زعموا كاذبين أنَّ عيسى ابنَ مريمَ هو اللهُ، وردَّ على اليهودِ والنصارى الذين زَعَموا أنّهم أبناءُ الله وأحباؤه، وأرسل اللهُ رسوله محمداً ﷺ ليقيم الحُجَّةَ على اليهود والنصارى وبقية البشر إلى يوم الدين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة:١٧-١٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابنُ مريم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين زعموا أنَّ اللهَ هو المسيح ابنَ مريمُ كفارٌ ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ ﴾ [المائدة:١٧]. وقد ردَّ اللهُ -تبارك وتعالى- عليهم ما ادَّعُوه وافْتَروهُ، فالمسيحُ ابنُ مريمَ عبدٌ مخلوقٌ مربوبٌ ضعيفٌ، لو شاء ربُّ العزة -سبحانه- أنْ يُهْلِكَ المسيحَ ابنَ مريمَ وجميعَ من في الأرض لفعلَ، والذي لا يستطيعُ أن يدفع الهلاك عن نفسه لا يصلح أن يكون إلهاً ومعبوداً ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ ﴾ [المائدة:١٧].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن لَهُ ملكَ السمواتِ والأرض وما بينهما، يخلقُ ما يشاءُ، وكلُّ ما يزعمُ البَشَرُ أنه آلهة من دون الله، هو جزءٌ من السموات والأرض أو هو جزءٌ مما بين السماوات والأرض، فمن ذلك تلك الآلهةُ المزعومةُ المخلوقة المربوبةُ كعيسى والعزير والشمس والقمر والنجوم والجبال وغير ذلك ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [المائدة:١٧] فالله هو الخالقُ لهذه الآلهة المزعومة المربوبة، وهو القادرُ على الذهاب بها وتدميرِها وإزالتها، وختمَ اللهُ تعالى هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ۝١٧﴾ [المائدة:١٧] فلا يُعْجِزُه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء سبحانه.

٢- دعوى اليهود والنصارى أنهم أبناءُ الله وأحباؤُه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ والنصارى زَعَمُوا كاذبين مُفْتَرين أنَّ لهم مكانةً عظيمةً عند الله، فهم أبناءُ الله وأحباؤه ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة:١٨].

وقد أكذبهم ربُّنا -تبارك وتعالى- في دعواهم، والدليلُ على كذبهم فيما افْتَروهُ وزعَموهُ أنه يُعَذِّبهم بذنوبهم كما يُعَذِّب غيرهم من البشر، والقاعدةُ التي يُجريها اللهُ على البشر كلهم أنه يغفرُ لمن يشاءُ، ويعذِّبُ من يشاءُ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة:١٨] وخَتَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- الآية بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾ [المائدة:١٨] وهؤلاء الذين ادَّعوا أنهم أبناءُ الله تعالى هم جزءٌ من خلق الله في أرض الله، وهم صائرون إلى الله تعالى، فيجزيهم بما قدَّموا، حالُهم حالُ غيرهم من البشر.

٣- محمد ﷺ مرسلٌ إلى اليهود والنصارى كما هو مرسلٌ إلى غيرهم:

نادى اللهُ اليهودَ والنصارى مخبراً إياهم أنَّ خاتمَ رُسُلِهِ وأنبيائه مرسلٌ إليهم بعد فترةٍ زمنية انقطع فيها الوحيُ، حتى يقيمَ الحجةَ على العباد، فلا يدَّعي مدع، ولا يقولُ قائلٌ: ما جاءَنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ، فقد جاءَهم البشير النذيرُ ببعثةِ المصطفى المختار، واللهُ على كل شيءٍ قدير ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ۝١٩﴾ [المائدة:١٩].

وآخرُ الرسل قبل محمد ﷺ هو عيسى ﵇، فعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أنا أَوْلَى الناسِ بابن مريمَ، والأنبياءُ أولادُ عَلاّتٍ، ليس بيني وبينه نبيٌّ» [البخاري:

٣٤٤٢. ومسلم: ٢٣٦٥]. وأولادُ العلاّتِ أولادُ الأب الواحد من أمهاتٍ شتى، وكان الأنبياءُ أولاد عَلاّتٍ، لأن دينهم واحدٌ، وشرائعهم متعددةٌ.

والمدةُ الزمنيةُ بين عيسى ﷺ وبين محمدٍ ﷺ قرابة ستمائة سنة وما ورد من أحاديث تدلُّ على وجود نبي أو أنبياء بين عيسى ومحمد ﷺ غيرُ صحيحة.

وكانت الفترة التي بين عيسى ﷺ ومحمدٍ ﷺ فترةً مظلمةً، وأصْدقُ ما وُصفتْ به أنها جاهلية، قال ابنُ كثيرٍ: «بعثَ اللهُ محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطُموسٍ من السُّبل، وتغيُّر الأديانِ، وكثرة عبادةِ الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمةُ به أتمَّ نعمةٍ، والحاجةُ إليه أمْرٌ عَمَمٌ، فإن الفسادَ كان قد عَمَّ جميعَ البلاد، والطغيانُ والجهلُ قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود، وعباد النصارى والصابئين» [ابن كثير: ٢/ ٥٠٨].

وجاءَ في الحديث الذي يرويه عياضُ بنُ حمارٍ الذي قال فيه الرسولُ ﷺ : «وإنَّ اللهَ نظرَ إلى أهْلِ الأرضِ فمقتهم عَرَبَهُمْ وعَجَمَهُم إلا بقايا من أهل الكتاب» [مسلم: ٢٨٦٥].

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنَّا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - الذين زعموا أنَّ عيسى ابنَ مريمَ هو اللهُ كفَّارٌ، ومِثْلُهُم الذين زعموا أنه ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثةٍ.

٢ - الردّ على الذين زعموا أنَّ عيسى هو اللهُ أنَّ اللهَ قادرٌ على إهلاكِ عيسى وإهلاكِ أمِّه وإهلاكِ من في الأرض، ولا يستطيعُ عيسى أن يردَّ عذابَ الله إنْ وَقَعَ به.

٣- كذِبُ اليهودِ والنصارى في دَعْواهم أنهم أبناءُ الله وأحباؤُه، والدليلُ على كذبهم فيما ادَّعوه أنه يُعَذِّبهم بذنوبهم.

٤ - القاعدةُ التي يُجْريها اللهُ في خلقِه جميعاً أنه يُعَذِّبُ من يشاءُ، ويغفرُ لمن يشاء فهم جميعاً خلْقُه ومُلْكُه، ويجري عليهم قَهْرُه وتصريفُه كما يشاءُ سبحانه.

٥- الله له ملكُ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، والآلهةُ التي يعبدُها البشرُ جميعها جزءٌ مما في السمواتِ والأرضِ، فهي مخلوقة لا تستحق العبادة.

٦ - محمد ﷺ مرسلٌ إلى اليهودِ والنصارى كما هو مرسلٌ للناس كافة.

٧- جاءَ رسولُنا ﷺ بعدَ انقطاع الوحي فترةً من الزمانِ، فآخرُ الرسلِ قبلَ رسولنا ﷺ هو عيسى ﷺ .

النص القرآني التاسع من سورة المائدة

ما جرى بين نبي الله موسى وقومه

أولاً: تقديم

قصَّ اللهُ علينا في هذه الآيات قصة الذين رفضوا دخول الأرض المقدسة من بني إسرائيل، فحرَّم اللهُ عليهم دخولَ تلك الديار أربعينَ سنة، تاهوا فيها في صحراء سيناء.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى يَعِظُ قومَه بتذكيرهم بنعم الله عليهم:

أمر اللهُ تعالى في الآية الأولى من هذا النص رسولَه محمداً ﷺ أن يَذْكُر ما قالَهُ نبيُّ الله موسى عليه السلام لبني إسرائيلَ عندما وَقَفَ بهم على أبواب الديار المقدسة بعد خروجهم من مصر، آمراً إياهم أن يذكروا نِعَمَ الله التي أنْعَمَ بها عليهم ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المائدة: ٢٠].

أمر موسى قومَهُ أن يذكروا نِعَمَ الله عليهم، ونِعَمُ الله عليهم كثيرةٌ، وأَعْظَمها ما بعثَ فيهم من الرسل والأنبياء، فقد كان أبوهم يعقوبُ رسولاً نبيًّا، وكذلك ابنُهُ يوسفُ عليه السلام، كذلك موسى وهارون كانا رسولين، وجعلهم ملوكاً، ومن الذين آتاهم اللهُ المُلْكَ نبيُّ الله

يوسف ، وأعْطَى اللهُ موسى الآيةَ الكبرى، وهي العصا التي تتحوَّلُ إلى ثعبانٍ مبين من لحمٍ ودم، وإذا أدخَل يده في جيْبِهِ تصبحُ بيضاء للناظرينَ، ومن آياتِهِ التي أرْسَلَ بها موسى إلى فرعونَ وقومِهِ الجرادُ والقُمَّلُ والضفادِعُ والدمُ، وأهْلَكَ فرعونَ وجُنْدَهُ في البحرِ وهم ينظرونَ، وآتاهم ما لم يُؤْتِ أحداً من عالمي زمانهم. ذَكَّرهم موسى بذلك كُلِّه قبل أنْ يأمُرهم بجهادِ أعدائهم، ودخولِ الأرضِ المقدسةِ التي كتبها اللهُ لهم، لترقَّ قلوبُهُم، ويسارعوا إلى الاستجابةِ لأمرِ الله بدخولهم تلكَ الديارِ، ولا يرتَدُّوا على أعْقابِهِمْ.

٢- دعوةُ موسى قومَهُ إلى دخولِ الأرضِ المقدسة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ كليمَهُ موسى نادى قومَه آمراً إيَّاهم بدخولِ الأرضِ المقدَّسةِ التي كتبها لهم، أي: فَرَضَها لهم، ونهاهم أن يرتدُّوا على أدْبارِهِم، أي: نهاهُمْ عن النكوصِ عن الجهاد، فينقلبوا خاسرين، فكُلُّ من لم يستجبْ لحكم الله تعالى، فهو خاسر ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة:٢١].

والأرضُ المقدسةُ هي بيتُ المقدس وما حولها، وهي التي أُسْرِي برسولنا إليها ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء:١]. والمقدسة: المطهَّرة، التي تُخْرِجُ العبدَ من ذنوبه إذا قَصَدَها لعبادةِ الله تعالى، وقد وَعَد اللهُ بها نبيَّهُ وخليلَهُ إبراهيمَ والرُّسُلَ والأنبياءَ من بَعْدِه من ذريته، وقد أعطاها لآخر الرسلِ من أبناء إبراهيمَ، وهو نبيُّنا محمد .

وقد أبْعَدَ كُتَّابٌ وباحثون في زماننا لم يهتدوا بما أخبر اللهُ به في قرآنِنا عندما زعموا أنَّ بني إسرائيل كانوا في اليمن أو الجزيرة العربية أو إفريقيا، وليس في الأرض المقدسة فلسطين.

٣- رفض بنو إسرائيل الاستجابةَ لربِّهم ورسولهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن بني إسرائيل ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المائدة:٢٢].

لقد رفض بنو إسرائيل أمْرَ ربِّهم ورسولهم الذي أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي منحهم اللهُ إيَّاها، وعلَّلُوا رفْضَهم دخولَها بأنَّ فيها قوماً جبَّارين، والجبارُ من البشر الطاغي العاتي، الذي يجْبِرُ الناسَ ويكرههم على ما يريدُ، وقالوا في رَدِّهم على نبيِّهمْ: إنّا لنْ ندخلَ هذه الأرض حتى يخرجَ الجبَّارُون منها، فإذا خَرَجُوا منها، فإنَّا عند ذاك داخلون فيها.

وقد ذَمَّ اللهُ القومَ الذين كانوا يسكنون الأرضَ المقدسةَ قبل بني إسرائيل بتسميتهم بالجبارين، وقد دَنْدَنَ بعضُ البارزين اليوم بالفخر بانتسابهم إلى الجبارين، مُدَّعينَ أنهم أبناءُ الجبارين، ويا لسوء ما انتسبوا إليه، فنحن أبناء الفاتحين من الصحابة الكرام الذين أثنى الله عليهم ومَدَحَهُمْ، ولسنا أبناءَ الجبارين.

٤- موقفُ الذين يخافون الله تعالى:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ رجلين من بني إسرائيل من الذين يخافون اللهَ تعالى ويخشونَهُ أنْعم عليهما بنعمةِ الإيمانِ، وطاعةِ الرحمن قالا لقومهما: ادخلوا على هؤلاء الجبارين باب مدينتهم، فإذا دَخَلْتُمُوه عليهم فإنكم تغلبونهم، وقالوا لهم: توكلوا على الله تعالى، أي: اعتمدوا عليه إن كنتم مؤمنين، وفي هذا تهييج لهم على الطاعة. ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة:٢٣].

وقد جعلت الآية التوكُّلَ شرْطاً في الإيمانِ، فدلَّ على انتفاءِ الإيمان عند انتفاء التوكل.

٥- قُبْح ما أجابَ به بنو إسرائيل نبيَّهُمْ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ بني إسرائيل ردُّوا على نبيهم ردّاً قبيحاً، زاد في قُبْحِهِ على الردِّ السابق، فقالوا مخاطبينَ نبيَّهُمْ باسمه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾، ولم يقولوا: يا رسول الله، أو يا نبيَّ الله، وقرَّرُوا جازمينَ أنهم لنْ يدخلوا تلك الديارَ ما دامَ الجبارون فيها، وقالوا لرَسُولهم، ويا لقبحِ ما قالوه: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون، وقالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤] وقد أحْسَنَ ابن القيم رحمه الله تعالى في تفسيره للآيات السابقة من هذا النص بقوله: «تأمل: تَلَطُّفَ نبيِّ الله تعالى موسى عليه السلام بهم، وحُسْنَ خطابِهِ لهم، وتذكيرَهُم بنعمِ الله عليهم، وبشارَتَهُمْ بوعْدِ الله لهم: بأنَّ القريةَ مكتوبةٌ لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أدبارهم، وأنهم إن عَصوا أمره، ولم يمتثلوا: انقلبوا خاسرينَ، فجمَعَ لهم بين الأمر والنهي، والبشارَةِ والنذارةِ، والترغيب والترهيب والتذكير بالنعم السالفة، فقابلوه أقبحَ المقابلة، فعارضوا أمرَ الله تعالى بقولهم: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ فلم يُوَقِّروا رسولَ الله وكليمَه، حتى نادَوْهُ باسمه، ولم يقولوا: يا نبيَّ الله، وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ ونَسَوْا قدرةَ جَبَّارِ السمواتِ الأرضِ الذي يُذِلُّ الجبابرة لأهل طاعته، وكان خوفهم من أولئك الجبارينَ -الذين نَواصِيهم بيدِ الله- أعظمَ من خوفهم من الجبَّارِ الأعْلى سبحانه، وكانوا أشدَّ رهبةً في صدورِهِمْ منه.

ثم صرَّحوا بالمعصية والامتناع عن الطاعة، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ فأكَّدوا معصيتَهُمْ بأنواعٍ من التأكيد:

أحدها: تمهيدُ عذر العصيان بقولهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.

والثاني: تصريحُهم بأنهم غير مطيعين، وصدَّروا الجملةَ بحرفِ تأكيد، وهو ﴿إِنَّ﴾ ثم حقَّقوا النفيَ بأداة ﴿لَن﴾ الدالة على نفي المستقبل، أي: لا ندخلها الآن، ولا في المستقبل.

ثم علَّقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها فـ ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بطاعته والانقياد إلى أمره، من الذين يخافونَ الله، هذا قولُ الأكثرين، وهو الصحيحُ.

وقولُه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي: بابَ القرية، فاهجموا عليهم، فإنهم قد مُلِئوا منكم رُعْباً ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ ثم أرشدهم إلى ما يحقق النصرَ والغلبةَ لهم وهو التوكُّل.

فكان جوابُ القومِ أن ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾. فسبحانَ من عَظُمَ حِلْمُهُ حيث يُقابلُ أمرُهُ بمثل هذه المقابلة، ويواجَهُ رسولُه بمثلِ هذا الخطابِ، وهو يَحْلُمُ عنهم، ولا يعاجِلُهُم بالعقوبة، بل وَسِعَهُمْ حِلْمُهُ وكَرَمُهُ، وكان أقصى ما عاقبهم به أن ردهم في بِرِّيَّةِ التِّيهِ أربعين عاماً، يُظَلِّلُ عليهم الغمامَ من الحرِّ، وينزلُ عليهم المنَّ والسلوى» [بدائع التفسير: ٢/١٠٧].

وفي الصحيحين: عن عبدالله بن مسعودٍ ﷺ قال: «شهِدْتُ من المِقْدادِ بن الأسود مشهداً لأن أكونَ صاحِبَهُ أحبُّ إليَّ مما عُدِلَ به، أَتَى النبيَّ ﷺ وهو يدْعُو على المشركينَ، فقال: لا نقولُ كما قال قومُ موسى: اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا، ولكِنَّا نُقاتِلُ عن يَمينِكَ وشِمالِكَ، وبين يديكَ وخلْفَك».

فرأيتُ رسولَ الله ﷺ أشْرَقَ وجْهُهُ وسَرَّه، يعني قولَه [البخاري: ٣٩٥٢].

٦- موقفُ موسى عليه السلام مما واجهه به قومُهُ:

لما سَمِعَ موسى هذا الردَّ القبيحَ من قومِهِ، قال مخاطباً ربَّه -تبارك وتعالى: ﴿إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة:٢٥] أي: ليس أحدٌ

يطيعني منهم، فلا أمْلِكُ إلا نفسي ونفسَ أخي، وطلبَ من الله تعالى أن يقضي بينه وبين هؤلاء الفاسقين، أي: الخارجين عن طاعة الله.

٧- حرَّم اللهُ على بني إسرائيل دخولَ الأرضِ المقدسة وحكم عليهم بأن يتيهوا في صحراء سيناء أربعين سنة:

لما قالَ موسى ما قالَه لربِّه، قال الله له: إنَّه حرَّمَ عليهم دخول الأرض المقدسة أربعينَ سنةً، وفي هذه المدة سيتيهون في الأرضِ، وقد تاهوا هذه الأربعين في برية سيناء، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة:٢٦].

لقد ذهب في الأربعين سنة الجيلُ الذي تربَّى على الذل تحتَ طغيانِ فرعونَ، ونشأ جيلٌ جديدٌ تربَّى على العِزَّةِ، وشظفِ العيشِ، وبهذه القوة الجديدة فتحَ نبيُّهم يوشعُ بنُ نون الأرضَ المقدسةَ التي كتب اللهُ لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ فيه مواساة لنبيِّه موسى ﷺ، فقد نهاه أن يأسى، أي: يحزن، على القومِ الفاسقين، أي: الخارجين عن طاعةِ الله.

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا هذه الآيات وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- هذه الآيات تحدثنا عن وقائع جرتْ لبني إسرائيل، وما عند بني إسرائيل في هذه الفترة فيه خَلَلٌ وانحرافٌ، فالله أوحى لنا بالحقِّ عن بني إسرائيل.

٢- أحسنَ نبيُّ الله موسى ﷺ في استجاشة قومه إلى فِعْل ما أمرهم به، من دخول الأرض المقدسة، وذلك بتذكيرهم بنعم الله عليهم، وإيتائهم ما لم يؤْتِه أحداً من العالمين.

٣- رفض بنو إسرائيل الاستجابة لما أمَرَهم به نبيُّهم، وردُّوا على نبيِّهم أقْبَحَ ردٍّ، وأصَرُّوا على عدَم دخولهم الأرض المقدسةَ التي كتب الله لهم حتى يُخْرِجَ اللهُ الجبارين من تلك الأرض.

٤- موسى يشكو عَجْزَه لربه، ويدْعوه أنْ يحكم بينه وبين القوم الفاسقين.

٥- حرَّم الله على بني إسرائيل دخولَ الأرض المقدسة أربعين عاماً، وحكم عليهم أن يتيهوا في الأرض، فذهب فيها الجيلُ الذي تربَّى على الذلَّةِ، ونشأ جيلٌ جديدٌ تربّى على العزَّة، وفتحَ الله بهم الأرض المقدسة.

٦- كثير من الأمة الإسلامية تربى على الذلة، فلا يصلُحُ لمقاومةِ الأعداء.

النص القرآني العاشر من سورة المائدة
قصة ابنيْ آدمَ الذي قتَلَ أحدهما الآخر

أولاً: تقديم

قصَّ اللهُ -تبارك وتعالى- علينا في هذه الآيات قصة ابنيْ آدمَ لصُلْبه، عندما قتل أحدهما الآخر، لأن الله تَقَبَّلَ قربانَ أخيه ولم يتقبَّلْ قربانَهُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة:٢٧-٣٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يَقُصَّ على الناس قصةَ ابني آدم:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه محمداً ﷺ أنْ يقصَّ على بني إسرائيل أو على الناس قصة ابنيْ آدم، وهما وَلَداه لصُلْبِهِ، وهذا من أخبار الغيب الماضية، وعند بني إسرائيل منها علمٌ مدخولٌ ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة:٢٧].

ومعنى ﴿وَٱتْلُ﴾ أي: قُصَّ وأخْبِرْ. و﴿نَبَأَ﴾ أي: خَبَرَ. والدليلُ على أنَّ المرادَ بابني آدمَ وَلَداه من صُلْبِهِ أنَّ القاتلَ جهل كيف يواري جثةَ أخيهِ، حتى رأى الغرابَ يواري غراباً ميتاً، فقال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ﴾ [المائدة:٣١] فلو كان هذا القاتلُ من بني إسرائيلَ لما جَهِلَ كيفَ يواري سوأةَ أخيه بدَفْنِهِ.

ويدلُّ لصحة هذا القول ما رواه عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ : «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إلا كانَ على ابن آدَمَ الأول كِفْلٌ من دَمِها، لأنه أوَّلُ من سَنَّ القَتْلَ» [البخاري: ٣٣٣٥. ومسلم: ١٦٧٧].

ووجهُ الدلالة في الحديث أنَّ الرسولَ ﷺ وَصَفَ القاتل بأنَّه الأول، ولأنه قال: «لأنَّه أولُ من سنَّ القَتْلَ».

وقولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: تلاوةً كائنةً بالحق، أي: الصِّدْقِ، ليسَ فيه زيادةٌ أو نَقْصٌ، وهي بذلك تُصَوِّبُ وتصححُ ما ورد في القصة من خللٍ عند بني إسرائيل. ولذلك فعلينا أن نقتصرَ في فِقْهنا لهذه القصة على ما وردَ في القرآنِ، ولا نَخْلِطُه بما في التوراة، فخبرُ التوراةِ فيه تغييرٌ وتحريفٌ.

٢- خبرُ هذه الواقعة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالواقعة التي جرتْ بين ابني آدم، والتي أدَّتْ إلى قتلِ أحدهما أخاه ، أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ ابنيْ آدم اللذين جَرَتْ لهما هذه الواقعةُ قَرَّبا قرباناً لِربِّهما، وكان هَدْيُ الله أن يتخيَّرَ الرجلُ شيئاً من مالِهِ، ثم يسجدَ لله، فإن قَبِلَ اللهُ قربانَهُ نزلَتْ نارٌ من السماء فأكَلَتْهُ، فلما قَرَّبَ كلٌّ منهما قرباناً، نزلتْ نارٌ من السماء فأكلتْ قربانَ أحدِهما، ولم تمسَّ قربانَ الآخر، فحَسَدَ الذي لم تأكلِ النارُ قربانَه أخاه، فقالَ له: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال الذي قُبِلَ قُرْبانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: إنما يتقبلُ اللهُ عملَ من اتَّقاه في ذلك العمل، قال تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧].

٣- موقفُ الذي قُبِلَ قربانُه من تهديد أخيه:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ ابنَ آدمَ الصالحَ عندما سمعَ تهديدَ أخيه له بالقتل، قال له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة:٢٨-٢٩].

قال له: إذا مَدَدْتَ يَدَكَ إليَّ لتبطشَ بي، فما أنا بباسطٍ يديَ إليك لأقتلكَ، وعَلَّلَ ذلك بكونه يخافُ اللهَ ربَّ العالمين وقد قرَّر أنَّ الذين يؤمنون بالله ويخافونه يَكُفُّونَ أيديهم عن إيذاء الناس وقتلِهِمْ، أما الذين يكفرون بالله ولا يخافونَه، فيُفْسِدون في الأرض، ويؤذون العبادَ.

وقال ابنُ آدمَ الصالحُ لأخيهِ: إني أُريد أن تبوءَ، أي: تَرْجِعَ بإثْمي وإثْمِكَ، أي: إثم قتلي، وما حَمَلْتَهُ أنت من آثام، وبذلك تكونُ من أصحابِ النار، وهذا هو جزاءُ الظالمين المعتدين، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ في حديث المُفْلِسِ أنَّ المعتدي يُؤخَذُ من حسناتِهِ يومَ القيامةِ، فتُعْطَى لمن اعتدى عليه، فإذا أفْلَسَ، أخذ من سيئاتهم، فوضعتْ فوقَ ظهره.

وقد أمرنا رسولُنا ﷺ في الفتنِ بالاعتزالِ والصبر على القتلِ كصبرِ ابنِ آدَم، فعن سعد ابن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشْهدُ أنَّ رسولَ ﷺ قال: «إنَّها ستكونُ فتْنَةٌ، القاعِدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائم خيرٌ من الماشي، والماشي خيرٌ من الساعي». قال: أفريتَ إنْ دخلَ عليَّ بيتي، فبَسَطَ يده إليَّ ليَقْتُلَني، قال: كن كابن آدم. [صحَّحَ محققُ ابن كثير: ٢/ ٥٢٠) سنده وعزاه لأحمد، والترمذي].

وروى أبو ذرٍّ قال: «رَكِبَ النبيُّ ﷺ حماراً وأردفني خَلْفَه، وقالَ: يا أبا ذَرٍّ، أرأيتَ إنْ أصابَ الناسَ جوعٌ شديدٌ لا تستطيع أن تقومَ من فراشِكَ إلى مسجدك، كيف تصنَع؟ قال: قال: الله ورسولُه أعلم. قال: تعفَّفْ. قال: يا أبا ذَرٍّ، أرأيتَ إنْ أصابَ الناسَ موتٌ شديد، يكون البيتُ فيه بالعبْدِ -يعني القبر- كيف تَصْنَعُ؟ قلتُ: الله ورسولُه أعلم. قال: اصبر. قال: يا أبا ذرٍّ، أرأيت إنْ قَتَلَ الناسُ بعضُهم بعضاً، يعني حتى تَغْرقَ حجارةُ الزيتِ مِنَ الدماء، كيف تصنعُ؟ قال: الله ورسوله أعلمُ. قال: اقعُد في بيتك، وأغلِقْ عليكَ بابكَ. قال: فإن لم أُتْرَك؟ قال: فائتِ مَنْ أنت منهم، فكُنْ فيهم، قال: فآخذ سلاحي؟ قال: إذاً تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خَشِيتَ أنْ يروعَكَ شعاعُ السيفِ، فألقِ طرفَ ردائك على وَجْهِكَ حتى يبوءَ بإثمه وإثمِك» [حكم عليه محقق ابنُ كثيرٍ بالصحة (٢/ ٥٢١) وعزاه لأحمد وابن حبان وأبي داود وابن ماجه والحاكم والبيهقي].

٤- ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾:

أخبرنا العزيزُ العليم -سبحانه- أنّ ابنَ آدم الظالم زينت له نفسه قتل أخيه فقتله ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة:٣٠] أي: سَهَّلَتْ له نفْسُهُ عليه قتلَ أخيه، وشجَّعَت عليه، قتله، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي: من الخاسرين عند ربِّه، وذلك بحرمانِه من الجنة، ودخولِهِ النارَ، وكان من الخاسرينَ لأنه أوَّلُ من سَنَّ القتلَ، فلا يُقتَلُ قتيلٌ بعد ذلك إلا كان عليه كِفْلٌ من دمِهِ.

٥- تعليم الغراب للقاتل كيفَ يواري سوأةَ أخيه:

كان قَتْلُ ابن آدمَ لأخيهِ أوَّلَ واقعة قتلٍ وقعتْ في الأرض، فاحتارَ القاتلُ كيف يتصرَّفُ في جثَّة أخيهِ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة:٣١].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أرْسَلَ غراباً قتلَ غراباً آخر، أو وجد غراباً ميتاً، فنَقَّبَ بمنقارِهِ الأرضَ حتى أحدثَ فيها فَجوَةً، فألقى الغرابُ أخاه القتيل أو الميتَ، فدفنه فيها، فقالَ القاتلُ عند ذلك، ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ وهي كلمةُ تَفَجُّعٍ وتحسُّر، والوَيْلَةُ: الهلكة، والكلامُ خرج مَخرَجَ التعجُّبِ منه، لعدم اهتدائه لمواراةِ أخيه كما اهتدى الغرابُ إلى ذلك.

٦- ما الذي كتبَه اللهُ على بني إسرائيل بخصوص القتل؟

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه مِنْ أجلِ قتل ابنِ آدمَ أخاه ظلماً وعدواناً كتبَ على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير سببٍ من قصاصٍ، أو فساد في الأرض، واستحلَّ قَتْلَها بلا سببٍ ولا جنايةٍ، فكأنما قتلَ الناسَ جميعاً، لأنه لا فرقَ عنده بين نفسٍ ونفس، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: حرَّم قتْلَها، وعملَ على إحيائها كالذي ينقذُ غيرَهُ من الحَرْقِ أو الغرقِ أو الأسْر أو من الظَّلَمَةِ الذين أرادوا قَتْله ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾ وفي هذه الآية تعظيم لقتل الناس، وتعظيمٌ للعمل على إحيائهم.

وقد قيل للحسن في هذه الآية: «أهيَ لنا يا أبا سعيدٍ كما كانتْ لبني إسرائيل، فقال: إيْ، والذي لا إله غيره، كما كانتْ لبني إسرائيل، وما جعلَ اللهُ دماءَ بني إسرائيل أكرمَ على الله من دمائِنا» [الطبري: ٤/ ٢٨٤٠] وخَتَمَ اللهُ تعالى الآية بقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة:٣٢].

أقْسَمَ ربُّ العزة -سبحانه- بنفسِهِ أنَّ رُسَلَهُ قد جاءت بني إسرائيل بالبينات، أي: بالآيات الواضحات، والحجج الظاهرة الدالة على صحة ما دَعَوْهُم إليه من الإيمان والفرائض، ثم إنَّ كثيراً من بني إسرائيل بعد ما جاءَتهم البيناتُ لمسرفونَ في الأرض بما اقترفوه من الشركِ والذنوبِ والمعاصي.

٧- هذه القصةُ في التوراة:

هذه القصةُ لا تزالُ موجودةً في التوراة، وقد صوَّبَ القرآنُ ما فيها من خلل، وهي موجودةٌ في سفر التكوين، الإصحاح الرابع، فقرة (١-٢٤).

وقصة التوراة تحدثنا عن ابنيْ آدم هابيلَ وقايينَ، وكان هابيلُ راعياً للغنم، وقايينُ فلاحاً يعملُ في الأرض.

وتذكرُ التوراةُ أنَّ الأخوين قرَّبَ كلُّ واحدٍ منهما لربِّه قرباناً، الفلاحُ قدَّمَ من ثمارِ الأرض، والآخر قدَّم من سمان غنمه، فتقبَّل اللهُ قربانَ هابيل، ولم يقبلْ قربانَ قايينَ، فاغتاظَ قايين، وقتلَ أخاه هابيلَ، وقرَّع الربُّ سبحانه الأخَ القاتل بسبب قَتْلِهِ أخاه، فاعترفَ بما كان منه، وقال للرب: «ذنبي أعظمُ من أن يُحْتَمل، وقال لله: إنَّك قد طَرَدْتني من الأرض، ومن وجْهِك أختفي، وأكونُ تائهاً في الأرض، ويكونُ كلُّ من وجدني يقتلني».

فأخبره اللهُ أنه لم يوجبْ قتلَهُ، ومن قتله فيكونُ عقابُه سبعةَ أضعافٍ، وينتقمُ منه، وأخبرت التوراةُ أن قايين سَكَنَ في أرضِ «نود» شرقيّ عَدْن.

وأخبرتنا التوراةُ أن قايين عاشرَ زوجته، وولدتْ له ابنَهُ حَنُّوك، وبنى مدينةً سماها باسم ابنه حَنُّوك، وذكرتِ التوراةُ الذرية التي تناسلتْ من ابنه حَنُّوك.

وقد صَدَّق القرآنُ خبرَ التوراةِ في أن الأخوين المتحدَّثَ عنهما هما ابنا آدمَ، وقد سمَّتْ التوراة اسمي الأخوين، فهما هابيلُ وقايينُ، وحدَّدَتْ عمل كلِّ واحدٍ منهما، فالأولُ كان راعياً، والثاني كان فلاحاً يعمل في الأرض، ولم يلتفت القرآن لشيء من هذا الذي ذكرته التوراةُ.

وكثيرٌ من المفسرين يسمون الأخوين هابيلَ وقابيلَ، مع أنه لم يرد خبر لا في القرآن، ولا في صحيح السنّة يحددُ اسميهما.

وصدَّق القرآنُ ما أخبرتْ به التوراةُ من أن كلَّ واحد منهما قربَ قرباناً، فتُقُبِّلَ من أحدهما، ولم يتقبلْ من الآخر، ولم يعرض لماهية القربان الذي قدَّمه كلُّ واحد منهما كما فعلت التوراةُ. وذكر القرآنُ أن الذي لم يُتَقَبَّلْ قربانُه تهدَّد أخاه الذي تُقُبِّل قربانُهُ بالقتل، فقال له: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧] وصرّح له بأنه إذا هاجمه واعتدى عليه، فإنه لن يتعرض له ولن يدافعَ عن نفسه، وهو في هذا يريدُ أن يبوءَ أخوه بإثمهما، فيكونَ من أصحابِ النار، وذلك جزاءُ الظالمين.

وصرَّحَ النصُّ القرآني بأنه قتل أخاه، فأصبح من الخاسرين.

وصدَّقَ النصُّ التوراةَ في أنَ أحدَهما قتل أخاه، ولم يذكر النص القرآني ذلك الحوار الذي جرى بين القاتل وبين الرب، ولم يذكرْ أن الله قضى أنَّ من يقتل قايين، فإنه يعاقبُ بسبعةِ

أضعاف من العقوبة، ولم يذكرْ ما ذكرتْه التوراة من معاشرة قايين لزوجته، كما لم يذكر ما رزق قايين من الذرية، وإعماره مدينة حنوك.

وأظهر النص القرآني عظم جريمة القتل العمد، فابنُ آدم الصالحُ عندما تهدَّده أخوهُ بالقتل، قال له: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [المائدة:٢٩].

واللهُ سبحانه عقَّب على هذه الجريمة مبيناً عظمها قائلاً: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة:٣٢].

ورسولُنا ﷺ حَذَّر من الاقتتال وبيَّن عِظَم جرْم المتقاتلين، فعن أبي بكرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتلُ والمقتولُ في النار» فقلتُ: يا رسولَ الله، هذا القاتلُ، فما بالُ المقتولِ؟ قال: «إنَّه كانَ حريصاً على قتل صاحبه» [البخاري: ٣١. ومسلم: ٢٨٨٨].

وعن عبدالله قالَ: قال رسولُ الله ﷺ : «لا تُقْتل نَفْسٌ ظُلْماً، إلا كان على ابنِ آدم الأولِ كِفْلٌ من دَمِها، لأنه أوَّلُ من سَنَّ القتل» [البخاري: ٣٣٣٥. ومسلم: ١٦٧٧].

والمتأملُ في خاتمةِ هذه القصة في التوراة، يجد أنَّ الجزاءَ الذي ذكرته التوراةُ لا يتناسبُ مع الجريمة التي ارتكبها قايين، فقد أخبرتِ التوراةُ أنَّ الله حفظ حياةَ قايين، وأثمرت ذريته، وتكاثرت، وعمَّر الأرضَ، هذا الذي ذكرته التوراة لا يردع الذين يرتكبون مثل هذا الجرم الفظيع، وانظر إلى هذا التعقيب الإلهي الرباني الذي عَقَّب به القرآن على تلك الواقعة الشنيعة ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة:٣٢].

إن هذا التعقيبَ القرآنيَّ ليخلع قلوبَ الذين يريدونُ ارتكابَ هذا الجرمِ الشنيعِ، فالذي يقتلُ نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض حالُهُ حالُ الذي قتلَ الناسَ جميعاً، والذي يحييها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

وقد انفردَ القرآنُ عن التوراة بذكره أنَّ القاتلَ لم يَدْرِ كيف يواري سوأةَ أخيه، وتحيَّرَ في هذا الأمر، فبعث اللهُ غراباً، فوارى غراباً ميتاً، بأن حَفَرَ في الأرض، فوارى سوأة أخيه، فقال القاتل متندماً متحسراً: يا ويلتا أعجزْتُ أن أكونَ مثل هذا الغراب، فأواري سوأة أخي [راجع كتابي: قصص التوراة والإنجيل في ضوء الكتاب والسنّة: ص٣١].

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن واقعة من علم الغيب جرتْ في الماضي الغابر، وفي هذا آيةٌ دالة على صِدْقِ رسولِنا ﷺ.

٢- أعلمنا ربُّنا أنَّ أوَّلَ واقعةِ قَتْلٍ كانت من أحد ابني آدمَ لصُلْبِهِ لأخيه، وكانت حسداً منه، لأن الله قَبِلَ قربانَ أخيه، ولم يقبل قربانه.

٣- سوءُ موقف القاتلِ، وحُسْنُ موقفِ الأخِ الذي امتنع عن مقاتلةِ أخيه، لأنَّ الله حَرَّمَ ذلك، فهو يخافُ اللهَ أن يقتلَ أخاه.

٤- كان أبناءُ آدم يعرفون الحلالَ والحرام، ويعرفون أن عاقبةَ القتلِ النارُ.

٥- البشرُ يتعلمون من الحيوانات والطيور أحياناً، ومن جملةِ ذلك ما تعلَّمه الأخ القاتلُ من الغراب، فقد تعلم منه كيف يدفن أخاه.

٦- كان الغرابُ من الطيور الموجودة في الأرض عندما أهْبَطَ اللهُ آدمَ إلى الأرض.

٧- عِظَمُ جريمة القتل، فمن قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناسَ جميعاً، ومن عمل على إحيائها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

٨- لقد جاءتِ الرسلُ بني إسرائيلَ بالآياتِ البينات، فعصى بنو إسرائيل وطغوا وأفسدوا.

النص القرآني الحادي عشر من سورة المائدة
جزاءُ الذين يحاربونَ الله ورسوله

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ -تعالى- في آياتِ هذا النص جزاءَ المحاربين الذين يخرجون على الإمام المقيم لشرع الله في المجتمع المسلم، وبيَّنَ لنا أنَّ الذين يتوبون من المحاربين قبل أن نقْدِرَ عليهم، يغفرُ لهم، ولا يقامُ عليهم الحدُّ، وأمرنا ربُّنا بسلوكِ طريق المفلحين، وهم المتقونَ الذين يتقربون إلى الله بالعمل الصالح، ويجاهدونَ في سبيله، وأخبرنا بأنَّ أهل النار خالدون فيها، ولشدةِ عذابهم في النار لو كانت لهم الدنيا ومثلها معها لافتدوا بها من عذابها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة:٣٣-٣٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الذين يحاربون اللهَ ورسولَه:

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- حكمَ الذين يحاربون اللهَ ورسولَهُ، ويسعون في الأرض فساداً، فقال: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائدة:٣٣].

والمحاربونَ لله ورسولِهِ ﷺ هم عصابةٌ خَرَجُوا على الخليفةِ المسلمِ الذي يحكم بشريعةِ الله، فيُرَوِّعونَ أهلَ الإسلام في مدنهم وقراهم، ويقتلونَ الأنْفُسَ، وينهبون الأموالَ، ويقطعون الطرقات، وهم الذين يسمَّوْنَ اليومَ بقطَّاعِ الطُّرقِ والمحاربين.

٢- **حُكْمُ المحاربين:**

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- حكمَ المحاربين الذين يخرجون على الإمام المسلم في المجتمع الإسلامي، فيُرَوِّعونَ الآمنين، ويقطعونَ السبيلَ، ويفسدونَ في الأرض، فقال: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:٣٣].

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما، والحسنُ، وأبو مِجْلزٍ، وقتادةُ، وغيرهم من العلماء: «من أخافَ الطريقَ فقط، فعقوبتُهُ النفيُ، ومن أخذ المالَ ولم يقتلْ، فعقوبتُهُ القطعُ من خلافٍ، بأن تُقْطَعَ يدُهُ اليمنى ورجلُه اليسرى، ومن قتل دون أخْذِ المال فعقوبتُه القتلُ، ومن جمعَ الكلَّ قُتِلَ وصُلِب» [المحرر الوجيز: ٣/ ١٥٥]. وقوله: ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك بإرسال الجيوش في إثرهم، حتى يتشتتوا في بقاع الأرض، أو يخرجوا من ديار الإسلام.

٣- **سبب نزول هذه الآية:**

روى البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحيهما عن أنسٍ قال: «قَدِمَ أناسٌ من عُكْلٍ أو عُرَيْنَةٍ، فاجْتَوَوْا المدينةَ، فأمَرَهم النبيُّ ﷺ بلقاحٍ، وأن يشربوا من أبوالِها وألبانِها، فانطلقوا، فلما صَحُّوا، قَتَلُوا راعِيَ النبيِّ ﷺ، واسْتاقوا النَّعَمَ، فجاءَ الخبرُ في أول النهارِ، فبَعَثَ في آثارِهِمْ، فلما ارتفعَ النهارُ جيءَ بهم، فأمَرَ فقَطَعَ أيديهم وأرجُلَهُمْ، وسُمِرَتْ أعْيُنُهُمْ، وألقوا في الحَرَّةِ، يستَسْقُون فلا يُسْقَوْنَ. قال: أبو قِلابَةَ: فهؤلاءِ سَرَقُوا وقَتَلُوا، وكَفَرُوا بعد إيمانِهِمْ، وحاربوا اللهَ ورسولَه» [البخاري: ٢٣٣. ومسلم: ١٦٧١].

وفي البخاري عن أنس «فأرسَلَ رسولُ الله ﷺ، فأُتِيَ بهم، فقَطَّعَ أيديهم وأرجلَهُمْ، وسَمَرَ أعْيُنَهُمْ، وتركهم بالحَرَّة يَعُضُّونَ الحِجارة» [البخاري: ١٥٠١].

وفي البخاري ومسلمٍ عن أنس بن مالك أيضاً: «أنَّ رَهْطاً من عُكْلٍ، ثمانيةً، قدِموا على النبي ﷺ، فاجتووا المدينة، فقالوا: يا رسولَ الله ابْغِنا رِسْلاً، قال: «ما أجِدُ لكم إلا أن تَلْحقوا بالذَّوْدِ». فانطلقوا فشربوا من أبوالها وألبانها، حتى صَحُّوا وسَمِنوا، وقتلوا الراعي واسْتاقوا الذَّوْدَ، وكفروا بعد إسلامهم، فأتى الصَّريخُ النبيَّ ﷺ، فبعث الطلبَ، فما ترجَّلَ النهارُ حتى أُتِيَ بهم، فقطَّعَ أيديهم وأرجلهم، ثم أمر بمسامير فأُحْمِيَتْ فكَحَلَهُمْ بها، وطرحهم بالحَرَّة، يستسقون فما يُسْقَوْنَ، حتى ماتوا».

قال أبو قِلابَةَ: «قتلوا وسرقوا وحاربوا الله ورسوله ﷺ، وسعوا في الأرض فساداً» [البخاري: ٣٠١٨. ومسلم: ١٦٧١].

٤- **عقوبة المحاربين في الدنيا لا تُسقِطُ عقوبةَ الآخرة:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ العقوبةَ التي تنزل بالمحاربين في الدنيا لا تُسقِطُ عقوبة الآخرة إلا إذا تابوا ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائدة:٣٣]. فجمع اللهُ لهم بين العقوبتين: عقوبة الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة، وقد أخْبَرَ اللهُ -تعالى- أن عقوبةَ الدنيا، توقعُ بهم الخِزْيَ، وهو الذلُّ والهوانُ والانكسارُ.

وذهبَ ابنُ كثيرٍ إلى أن هذه العقوبة في الكافرين دونَ عصاة المؤمنين، لأنه صحَّ في صحيح مسلم أن رسولَ الله ﷺ قالَ: «من أصابَ من ذلك شيئاً فعُوقِبَ، فهو كَفَّارةٌ له» [ابن كثير: ٢/ ٥٣٤] أي: من أصاب شيئاً من المعاصي كالزنا والقتل.

٥- **سقوطُ عقوبة المحاربين الدنيوية إذا تابوا قبل أن نقدرَ عليهم:**

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ المحاربين إذا تابوا قبل أن نقدرَ عليهم فلا عقوبة عليهم ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المائدة:٣٤].

وذهب بعَضُ أهلِ العلم إلى أن حُكْمَ القصاصِ لا يَسقُطُ، وكذا لا تَسقُطُ عقوبةُ قطع اليدِ عن المحاربين، إنما يَسقُطُ قطعُ الرجلِ والصلبُ فحسبُ، والصواب من القولِ أن العقوبةَ المنصوص عليها في الآية تَسقطُ كلُّها لنصِّ الآية عليها من غير تفصيلٍ.

٦- **أمرنا اللهُ -تعالى- بتقواهُ وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد في سبيله:**

نادى اللهُ -تعالى- عبادَهُ المؤمنينَ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المائدة:٣٥] وأمرهُمْ بتقواه، وابتغاء الوسيلة إليه، والجهاد في سبيله، وعلَّلَ ذلك بقوله: لعلكم تفلحون ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المائدة:٣٥] وتقوى الله تكون بفعل ما أمَرَ به، وترْكِ ما نهى عنه، وابتغاءِ الوسيلةِ إليه، أي: بطلب القربِ منه.

والطرقُ التي تحقق الوسيلةَ إلى ربِّ العزة سبحانه أربع طرقٍ:

الأول: الإيمانُ، فالإيمانُ أعظم طريقٍ يوصلنا إلى ربِّنا سبحانه وتعالى، ولذلك علَّمنا ربُّنا سبحانه أنْ ندعوه طالبين القرب منه قائلين: ﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٣].

فقد توسَّلَ الداعون إلى الله بإيمانهم ليغفرَ لهم ذنوبَهُمْ ويكفِّر عنهم سيئاتهم ويتوفاهم مع الأبرار.

الثاني: ابتغاءُ الوسيلة إلى الله بالأعمال الصالحة، كما توسَّل الذين انطبقت صخرةٌ على باب الغار الذي كانوا فيه، فدعا كلُّ واحدٍ منهم اللهَ عز وجل بعملٍ صالحٍ عمله مخلصاً لله، فانزاحتْ الصخرةُ، وخرجوا يَمْشُون.

الثالث: التوسُّلُ إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

الرابعُ: التوسلُ إلى الله تعالى بدعاء الصالحين الأحياء، كما علمنا اللهُ أن ندعوا لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠].

فهذه أربعُ طرق تحقق لنا الوسيلة عند الله، لا خامسَ لها.

وأمرنا الله في الآية بالجهاد في سبيله، لنكون من المفلحين ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ والجهاد في سبيل الله يكون بقتال أعدائه، والالتزام بما أمرنا الله تعالى به في الآية يحقق لنا الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

٧- شدة عقوبة الكافرين في يوم الدين:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لو كان للواحد من الكافرين في يوم الدين ما في الأرض جميعاً ومِثْلَه معه لافتدى به من عذابِ يوم القيامة، وأخبرنا اللهُ -عز وجل- أنه لو كان لهم مثلُ ذلك، وافتدَوْا به، ما تُقُبِّلَ منهم، ولهم عذابٌ أليم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة:٣٦].

ونظيرُ هذه الآية ما سبق في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران:٩١].

وقد روى أنس بن مالكٍ يرفعه: «إنَّ اللهَ يقولُ لأهْوَنِ أهلِ النارِ عذاباً: لو أنَّ لكَ ما في الأرض من شيءٍ كنتَ تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألْتُكَ ما هو أهونُ من هذا وأنتَ في صُلْبِ آدمَ: أن لا تُشْرِكَ بي، فأبَيْتَ إلا الشرك» [البخاري: ٣٣٣٤. ومسلم: ٢٨٠٥].

٨- أهلُ النار محاصرون في النار لا يستطيعون الخروجَ منها:

أخبرنا اللهُ -تعالى- أنَّ أهلَ النار محاصرون في النار، يريدون الخروج منها، ولكنهم مَغْلوبونَ مقهورونَ لا يستطيعونَ الخروجَ منها، ولهم فيها عذابٌ مقيم، أي: دائمٌ لا ينقطعُ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة:٣٧].

وقد أرادَ بعضُ المعتزلة حملَ الآية على خلود عصاةِ المؤمنين في النار، وغفلَ هؤلاءِ عن أنَّ الآيةَ صريحة في أنها في الكفارِ، لا في عصاةِ المؤمنين

رابعاً: ما تهدينا إليه الآياتُ من علم وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- بيَّنَ اللهُ في هذه الآيات حكمَ الذي يخرج على إمام المسلمين المقيم لشرع الله في المجتمع الإسلامي، فحكمهم أن يُقتَّلوا أو يُصَلَّبُوا أو تقطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو يُنْفَوْا من الأرض.

٢- المحاربون الذين أقيم عليهم الحدُّ في الدنيا لا تسقط عنهم العقوبةُ يومَ القيامة، ما لم يتوبوا.

٣- العقوبةُ الدنيويةُ التي تنزلُ بالمحاربينَ توقعُ بهم الخزيَ، وهو الذلُّ والخسار والهوانُ.

٤- المحاربون الذين يتوبون عن محاربتهم لله ورسولِه قبل أن نُمْسِكَ بهم يسقطُ حدُّ العقوبةِ عنهم.

٥- المفلحون هم الذين اتقوا الله، وابتغوا إليه الوسيلة، أي: القربةَ، بفعل الواجبات والمستحبات وترك المحرمات، وجاهدوا أعداءَه.

٦- عِظَمُ عذابِ يوم القيامة، فالكافرون لو كان لهم ما في الأرض كلِّها ومثلها معها لافتدوا به من عذابها، ولكنَّ اللهَ لا يقبل منهم.

٧- الكفارُ خالدونَ في النار، لا يستطيعونَ الخروجَ منها مهما حاولوا، وعذابُهم فيها أبَدِيٌّ سرمديٌّ.

النص القرآني الثاني عشر من سورة المائدة
وجوب قطع يد السارق والسارقة

أولاً: تقديم

بيَّنَتْ آياتُ هذا النص حُكْمَ السارق والسارقة، فأوجب اللهُ قطْعَ يد من سَرَقَ منهما «وقد قُطِعَ السارقُ في الجاهلية، وأولُ من حكم بقطعه في الجاهلية الوليد بن المغيرة، فأمر اللهُ بقطع يد السارق في الإسلام، فكان أوَّلَ سارقٍ قَطَعَهُ رسولُ ﷺ في الإسلام الخيارُ بن عديّ ابن نوفلٍ بن عبد منافٍ، ومن النساء مُرَّةُ بنتُ سفيانَ بن عبد الأسد من بني مخزوم» [تفسير الماوردي: ١/ ٤٦٤].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المائدة:٣٨-٤٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حكم السارق والسارقة:

السرقةُ: أَخْذُ المرءِ مالَ غيرِهِ خفيةً من حِرْزٍ، والحرز هو الموضع الذي تُحْفَظُ فيه الأموالُ كلٌّ بحسبِهِ.

وقد حكم العزيز الحكيم بقطع يد من سرق من الرجال والنساء، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة:٣٨].

٢- مقدارُ المال الذي يجبُ فيه القَطْعُ:

لا بدَّ أنْ يكونَ المالُ المسروقُ ذا قيمة حتى تُقْطَعَ فيه اليدُ، وقد حَدَّد الرسول ﷺ المالَ المسروقَ الذي تقطع فيه اليد برُبْعِ دينارٍ، فعن عائشةَ قالت: قال النبيُّ ﷺ : «تُقْطَعُ اليدُ في رُبْعِ دينارٍ فصاعداً» [البخاري: ٦٧٨٩. ومسلم: ١٦٨٤].

والدينارُ بوزن اليوم يساوي أربعةَ غراماتٍ وربعاً تقريباً، فإذا سرق السارقُ ذهباً مقدارُه ربع دينار، أو سرق فضةً أو بضاعة قيمتها رُبع دينار وجب قطع يده، فإن كان الذهبُ أو قيمةُ ما سرقَهُ أقلَّ من ربع دينارٍ لم تقطع، وقد ذهبَ بعضُ أهل العلم إلى تقدير المسروقِ بثلاثة دراهم، واحتجوا بحديث ابن عمر رضي الله عنهما «أنَّ رسولَ الله ﷺ قَطَعَ في مِجَنٍّ قيمتُهُ ثلاثة دراهم» [البخاري: ٦٧٩٥. ومسلم: ١٦٨٦].

والثلاثةُ دراهم كانتْ تساوي في عهد الرسول ﷺ رُبْعَ دينارٍ.

وقد اختلَّت العلاقةُ اليومَ بين الذهب والفضة اختلالاً كبيراً، فأصبحت الثلاثةُ دراهم لا تساوي ربعَ دينار من الذهب، فيجب تقديرُ المال المسروق من الفضة بربع دينار مهما بلغ خلافاً لمن جعل الفضة أصْلاً مستقلاً بذاته.

٣- مذهبُ الذين يوجبون القطع في القليل والكثير:

ذهب الظاهريةُ إلى أن السارق تُقْطَعُ يده، لا فرق في ذلك بين أن يكون المسروق قليلاً أو كثيراً، واحتجُّوا بعموم الآية، فإنها لم تفرِّق بين القليل والكثير، كما احتجوا بما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَعَنَ اللهُ السارقَ، يسرِقُ البيضةَ فتُقْطَعُ يدُهُ، ويسرق الحَبْلَ فتقطع يده» [البخاري: ٦٧٩٩. ومسلم: ١٦٨٦].

والصوابُ من القول أن قيمةَ المسروق تُحَدَّدُ بربع دينار، أو ما قيمته ربع دينار من الفضة أو البضاعة، للأحاديث الناصَّة على ذلك، فإنها خصَّتْ عمومَ الآية، أما الحديث الذي فيه سرقة البيضة أو الحبل، فقد قال الأعمش: «كانوا يرونَ أنها بيضةُ الحديد، والحَبْلُ كانوا يرون أنه منها ما يساوي الدراهم» [انظره في البخاري بعد الحديث: ٦٧٨٣. وفي مسلم بعد حديث ١٦٨٧].

٤- لا يكونُ القطع إلا إذا سَرَقَ السارقُ من حِرْزٍ:

لا يكونُ القطعُ إلا إذا سَرَقَ المالَ من موضعٍ تُحْفَظُ فيه الأموال، وموضعُ حفظ الذهب والفضة والنقود الخزائنُ في البيوت، وموضعُ حفظِ الأثاثِ البيوتُ، وموضعُ حفظ البقر والغنم الحظائر، وموضع حفظ الحبوب صوامعُ الغِلال، وهكذا، فلا يُقْطَعُ من وَجَد مالاً ملقىً على الأرضِ، أو وجد بهيمةً في الطريق، أو أخذ رُطَباً من نخلةٍ لا حائطَ لها، ولا حارسَ يحرُسُها.

٥- قطعُ يد جاحد العارية:

ذهب كثير من أهل العلم إلى عدم قطع يد جاحد العارية، وذهب الحنابلة والليث بنُ سعدٍ، وسعيدُ بن المسيَّبِ إلى وجوبِ قطع يده [زاد المسير: ٢/ ٣٥٢]. ودليلُ من ذهب إلى وجوب

قطع يد الذي يجْحَدُها ما رَوَتْه عائشةُ قالت: «كانت امرأةٌ من مَخْزومٍ تسْتَعيرُ المتاعَ وتَجْحَدُه، فأمرَ النبيُّ أن تُقطعَ يَدُها» [مسلم: ١٦٨٨].

وعن عروة بن الزبير أنَّ امرأةً سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيدٍ يستشفِعونَهُ.

قال عروةُ: فلما كلَّمَهُ أسامةُ فيها تلوَّن وجهُ رسولِ الله ﷺ، فقال: «أتُكلِّمُني في حدٍّ من حدود الله». قال أسامةُ: استغْفِر لي يا رسولَ الله، فلما كان العشيُّ قام رسولُ الله خطيباً، فأثْنى على الله بما هو أهلُهُ، ثم قال: «أما بعدُ، فإنما أهْلَكَ الناسَ قبلَكُمْ: أنَّهُمْ كانوا إذا سرق فيهمُ الشريفُ تركوهُ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحد، والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطعتُ يدها. ثم أمر رسولُ الله ﷺ بتلك المرأة فقُطعتْ يدُها، فحَسُنت توْبَتُها بعد ذلك وتزوَّجتْ، قالت عائشة: فكانت تأتي بعد ذلك، فأرْفَعُ حاجتَها إلى رسولِ الله ﷺ» [البخاري: ٤٣٠٤. ومسلم: ١٦٨٨].

٦- إذا سرق رجلٌ مالاً له فيه شبهةٌ فلا قطع فيه:

إذا سرق امرؤٌ مالاً له فيه شبهةٌ فلا قطعَ فيه، كالعبد يسرقُ من مالِ سيِّده، والولدُ يسرقُ من مالِ والده، والوالدُ يسرقُ من مال ولده، أو أحدُ الشريكين يسرق من المال المشترك شيئاً، ومن اضطرَّهُ الجوع إلى السرقة لم يُقْطعْ عند مالكٍ لتحليل الميتةِ له، وكذا من سرق من غير حرز، أو سرق أقلَّ من النصاب.

٧- الحكمةُ من وراء قطع يد السارق:

قال ربُّ العزة مبيناً الحكمة من وراء قطع يد السارق ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة:٣٨] أي: مجازاةً على صنيعهما السيئ في أخْذ أموال الناس بأيديهم، فناسبَ أن يُقْطَعَ العُضْوُ الذي استعانا على السرقة به، وقولُهُ: ﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: قويٌّ غالبٌ منتقم، و﴿حَكِيمٞ﴾ في أمْرِه ونهيِهِ وشرعِهِ وقدَرِهِ.

قال الأصمعي: «قرأتُ هذه الآية، وإلى جنبي أعرابيٌّ، فقلت: والله غفور رحيم، سهواً، فقال الأعرابيُّ: كلام من هذا؟ قلتُ: كلام الله، قال: أعِدْ، فأعَدْتُ: واللهُ غفورٌ رحيم، فقال: ليس هذا كلامَ الله، فتنبهت، فقلت: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ فقال: أصبتَ، هذا كلامُ الله، فقلتُ له: أتقرأُ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أينَ علمتَ أني أخطأتُ. فقال: يا هذا عَزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحِم لما قطع» [زاد المسير: ٢/ ٣٥٤].

وقد اعترضَ الذين ضَلَّتْ عقولهم على هذا التشريع الإلهي الرباني، فمن هؤلاء في القديم أبو العلاء المعري أعْمى البصر والبصيرة الذي قال:

يَـدٌ بِخَمْسِ مِئينٍ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... ما بالُها قُطِعَتْ في رُبعِ دينارِ

وقد أجابه من فقه الحكمةَ من وراءِ هذا التشريع فقال:

عِزُّ الأمانةِ أغلاها وأرخصها ... ذلُّ الخيانةِ فافقه حكمةَ الباري

وقال القاضي عبدالوهاب المالكي رحمه الله تعالى: «لما كانتْ أمينةً كانت ثمينةً، فلما خانت هانت» [ابن كثير: ٢/ ٥٤٢].

وقد استبدلت القوانينُ الوضعيةُ عقوبةَ القطع في السرقة بالحبسِ، وزعموا أنَّ القطعَ لا يناسبُ الحضارةَ والمدنيةَ، وأنَّ فيه قسْوةً وهمجيةً، وها هي عقوبةُ الحبس لم تُجْدِ شيئاً، ولم تقطع دابرَ الجريمة، لا في المجتمعات الغربية، ولا في المجتمعات الإسلامية، فما فائدةُ هذه العقوبة التي ساعدت على نشر الجريمة، أما العقوبة الإلهية الربانية فقد أوجدت الوازعَ للقضاء على الجريمة، وكادت أن تقضي على جريمة السرقة، وتزيلها. فأيُّ العقوبتين أولى بالتطبيق والرعاية والتنفيذ!!

٨- توبةُ السارق:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ من تابَ من السرقة، فإنَّ اللهَ يتوبُ عليه، إنَّ اللهَ غفور رحيم ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة:٣٩]. قال ابن جُزَيٍّ الكلبي: «توبةُ السارق هو أن يندمَ على ما مضى، ويُقلعَ عما يُستَقْبَلُ، ويردَّ ما سرق إلى من يستحقه، واختلفَ فيه إذا تابَ قبل أن يصل إلى الحاكم، هل يسقطُ عنه القطعُ، وهو مذهبُ الشافعي لظاهر الآية، أو لا يسقط عنه، وهو مذهب مالكٍ، لأن الحدود عندَه لا تسقطُ بالتوبة إلا عن المحارب للنصِّ عليه» [كتاب التسهيل: ٢/ ١٧٦].

والصوابُ من القول أنَّ صاحب المال إذا عفا عن السارق قبل أن ترفعَ القضيةُ إلى الحاكم، فلا قطعَ عليه، فقد أمر رسولُ الله ﷺ بقطع يد سارقٍ سرقَ خميصةً لصفوان بن أُميَّةَ، فعفا عنه صفوانُ، فقال له الرسولُ ﷺ : «هلاَّ قَبْلَ أن تأْتِيَني به» [قال فيه المجد ابن تيمية في المنتقى: (٦٥٢) رواه الخمسة إلا الترمذي].

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: صَلُح عمله، واستقامَ على طاعة الله.

٩- اللهُ له مُلْكُ السموات والأرض:

أخبرنا العزيزُ العليم سبحانه وتعالى أنَّ له ما في السموات والأرض، يتصرفُ فيهما بما يشاءُ، كيف يشاءُ، فيعذِّبُ من يشاءُ تعذيبه، ويغفرُ لمن يشاء، واللهُ تبارك وتعالى قادرٌ على كل شيء، لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة:٤٠] وهذا التعقيبُ من ربِّ العزة سبحانه لمناسبة ما حكمَ به من قطعِ يد السارقِ والسارقةِ، فهو يحكمُ فيما يملكه من عبادِهِ بما شاءَ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أوجبَ العزيزُ الحكيم قطع يد السارق ويد السارقة.

٢- خَصَّتِ السنَّةُ النبويةُ هذه الآية بأن يكون المسروقُ مالاً لا تقل قيمته عن ربع دينار، وأن يكون مسروقاً من موضع تحفظُ فيه الأموالُ، وهو المسمى بالحِرْز.

٣- الحكمةُ من وراء عقوبة السرقة أنَّ قطْعَ يد السارق يوجدُ دافعاً قويًّا لدى السارق أو من يريدُ السرقة لتركِ السرقة والبعد عنها، أما عقوبةُ الحبس التي جرتْ عليها القوانينُ الوضعية فإنها نشرت هذه الجريمة.

٤- إذا رفعتْ قضية السرقة إلى القاضي فلا يجوز له العفوُ عن السارق، فإذا عفا المسروقُ عن السارقِ قبل أن يرفَعَ القضية إلى القاضي جازَ له العفو عنه.

٥- العبادُ الذين حَكَمَ اللهُ بقطعِ أيديهم إذا سرقوا مملوكون لله رب العالمين، وهو يتصرفُ فيهم كما يشاءُ، ولذلك فلا أظلمَ من الذين اتَّهموا حكم قطع يد السارق بالوحشية والهمجية.

٦- جاحدُ العارية كالسارق تقطعُ يده.

٧- لا تقطعُ يدُ من أخَذَ مالاً له فيه شُبهةٌ، كمن أخذ مالاً من ولده أو والده أو شريكه.

٨- يجبُ قطعُ يد السارق ولو أظهر أنه قد تابَ، وتوبةُ السارق مقبولةٌ إذا كانت صادقةً.

النص القرآني الثالث عشر من سورة المائدة
نهي الله -تعالى- رسولَه ﷺ عن الحزن على الذين يسارعون في الكفر

أولاً: تقديم

نهى اللهُ رسولَه ﷺ -مواسياً له- عن الحزن على الذين يسارعون في الكفر من المنافقين واليهود، وقد وَصَفَ الله تعالى هؤلاء الخبثاء وبيّنَ ضلالَهُمْ، وخيَّر رسولَه ﷺ إذا ما تحاكم هؤلاء إليه بين الإعراض عنهم أو الحكم بينهم بالعدل.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المائدة:٤١-٤٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مواساةُ الله لرسولِهِ ﷺ في نهيِهِ له عن الحزن على الذين يسارعون في الكفر:

واسى اللهُ تعالى رسولَهُ محمداً ﷺ ناهياً إيَّاهُ عن الحزنِ على الذين يسارعون في الكفر ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ [المائدة:٤١].

والمسارعةُ في الكفر تكونُ بالتعجُّلِ في السعي بما يقتضيه الكفرُ، فالكفارُ من اليهود والنصارى والمشركين يستمسكون بدينهم، ويفخرون بالانتساب إليه، ويبذلون أموالهم لنصرته وعِزَّته، ويحاربونَ المؤمنين لنشره وإقامته.

٢- التعريفُ بالذين يسارعون في الكفر:

وعرَّفنا الله تعالى بالذين يسارعون في الكفر الذين نَهى اللهُ رسولَه عن الحزنِ عليهم، فقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة:٤١]. وقد أخبرنا اللهُ تعالى أنَّ مراده بالذين يسارعون في الكفر طائفتان: الأولى: المنافقون الذين ادَّعوا الإيمان بأفواهِهِمْ، ولم تؤمن قلوبهم. والثانية: اليهودُ الذين اعتادوا سماعَ الكذب، وهو الباطلُ، وهم في الوقت نفسه سمّاعون، أي: كثيرو السَّماعِ لقومٍ آخرينَ، والقومُ الآخرون لا يأتون مجالسَ الرسول ﷺ، وهؤلاء بعضُ زعماء اليهود من أحبارهم وسادتِهم، لأنه قال فيهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة:٤١] أي: يُحرِّفون كلام الله تعالى، من بعد أنْ وضَعه اللهُ مواضِعه، كما سيأتي بيان ما فعلوه بشأن حكم الزانية والزاني المنصوص عليه في التوراةِ.

٣- سبب نزول هذه الآية:

نزلت هذه الآية في اليهوديين اللذين زنيا، فرفع اليهودُ أمرهُما إلى النبي ﷺ، وقالَ لهم أحبارُهُم وسادَتُهم: إن حكم فيكم محمدٌ بمثل ما تحكمون فيهم، فاقلبوه، وخُذُوا به، وإنْ حكم فيهم بغير ذلك، كأن يحكم فيهم بالرجم، فاحذروا ما حكم به، ولا تقبلوه ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ [المائدة:٤١].

روى نافعٌ عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أنَّ اليهودَ جاؤوا إلى النبي ﷺ برجلٍ منهم وامرأةٍ قد زنيا، فقالَ لهم: «كيف تفعلونَ بمن زنَى منكم؟». قالوا: نُحَمِّمُها ونَضْرِبُهُما، فقال: «لا تجدون في التوراة الرجم؟». فقالوا: لا نجد فيها شيئاً، فقال لهم عبدالله بن سلامٍ: كذبتُمْ، فائتوا بالتوراة فاتْلُوها إن كنتم صادقين، فوضع مِدْراسُها الذي يُدرِّسُها منهم كَفَّهُ على آية الرجم، فطفِقَ يقرأُ ما دون يده وما وراءَها، ولا يقرأُ آيَةَ الرجم، فنزع يدَهُ عن آية الرجم، فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آيةُ الرجم، فأمر بهما فرُجِما قريباً من حيثُ موضعُ الجنائز عند المسجد، فرأيتُ صاحبها يَحْني عليها، يَقيها الحجارة [البخاري: ٤٥٥٦. ومسلم: ١٦٩٩ بدون ذكر موضع الجنائز].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أيضاً قال: أُتِيَ النبيُّ برجلٍ وامرأةٍ من اليهود قد زَنَيا، فقال لليهود: «ما تصنعون بهما؟». قالوا: نُسَخِّم وجوههما ونخزيهما، قال: « فائتوا بالتوراة، فاتلوها إن كنتم صادقين » فجاؤوا، فقالوا لرجل ممن يرضون يا أعْوَرُ: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه؛ قال: «ارفع يَدَكَ» فرفع يده فإذا فيه آية الرجم

تلوحُ، فقال: يا محمدُ، إنَّ عليهما الرَّجمَ، ولكنا نُكاتِمُهُ بيننا، فأمر بهما فرُجما، فرأيته يُجانئ عليها الحجارة [البخاري: ٧٥٤٣].

وعن نافع أن عبدالله بن عمر أخبره، أن رسولَ الله ﷺ أُتِيَ بيهوديٍّ ويهودية قد زنيا، فانطلق رسولُ الله ﷺ حتى جاء يهودَ، فقال: «ما تجدون في التوراة على من زنى؟»، قالوا: نسوِّدُ وجوهَهُما ونُحمِّلُهُما، ونُخالِفُ بين وجوههما، ويُطافُ بهما، قال: «فائتوا بالتوراة، إن كنتم صادقين»، فجاؤوا بها فقرؤوها، حتى إذا مرُّوا بآية الرجم، وضع الفتى، الذي يقرأ، يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبدالله بن سلام، وهو مع رسول الله ﷺ: مُرْهُ فليرفعَ يده، فرفعها، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسولُ الله ﷺ، فرُجما.

قال عبدالله بن عمر: «كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيتُهُ يقيها من الحجارة بنفسه» [مسلم: ١٦٩٩].

وعن البراء بن عازب، قال: مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّماً مجْلوداً، فدعاهم ﷺ فقال: «هكذا تجدون حَدَّ الزاني في كتابكم؟». قالوا: نعم، فدعا رجلاً من عُلمائهم، فقال: «أنشدُكَ بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟». قال: لا، ولولا أنك نشدْتني بهذا، لم أخبركَ، نجدُهُ الرجم، ولكنه كَثُرَ في أشرافِنا، فكُنّا، إذا أخذنا الشريف تركناهُ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم! إني أولُ من أحيا أمرك إذ أماتوه». فأمر به، فرُجم، فأنزلَ الله عز وجل: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ ﴾ [المائدة:٤١] يقول: ائتوا محمداً ﷺ، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفْتاكم بالرجم فاحذروا. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة:٤٧]. في الكفار كلها [مسلم: ١٧٠٠].

٤- ومن يرد الله إضلاله فلا تستطيع أن تستنقذه من الكفر والضلال:

قال اللهُ -تعالى- لرسوله ﷺ: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ ﴾ [المائدة:٤١]، أي: إضلاله، ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة:٤١] لا تقدرُ على استنقاذه من الكفر والضلال.

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه لم يُرِدْ أن يُطهِّر قلوبَ هؤلاء المنافقين واليهود من قاذورات الشرك والكفر والذنوب والمعاصي التي حلّت فيها وخالطتها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة:٤١] وأعلمنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ هؤلاء المنافقين واليهود ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة:٤١] وقد أخزى المنافقين في الدنيا، ففضح أسرارهم، وأطلع النبي ﷺ وصحابته على كُفرهم الذي أضْمَروه وأخْفَوْه، وأخزى اليهود، وأظهر ما كتموه من الدين الذي أنزله الله إليهم، ثم بعد ذلك أخزاهم بقتال الرسول ﷺ وأصحابه لهم، وهزيمتهم، وإخْراجهم من ديارهم، وقَتَلَ المقاتلةِ من اليهود منهم، وسبى نساءَهم وأبناءهم.

وأخبرنا ربُّنا -العلي الأعلى سبحانه- أن هؤلاء المنافقين لهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾﴾ في يوم الدين، فيزيدهم في ذلك اليوم خزياً على خزيهم.

٥- ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أن اليهود ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ [المائدة:٤٢] وسمَّاع صيغةُ مبالغةٍ، يعني أنهم يُكثرون من الحديث بالكذب، ويكثرون من الاستماع للأحاديث الباطلة المكذوبة، و﴿أَكَّٰلُونَ﴾ صيغةُ مبالغةٍ، يدلُّ على كثرة أكْلِهم لما حرَّمه اللهُ عليهم. ومن الكذب الذي يدور فيهم، ويكثرون من الاستماع إليه أنّ محمداً كاذبٌ، وليس بنبيٍّ، وكتمانهم الآيات المبشِّرة برسولِنا ﷺ في توراتهم، وكتمانُهُمْ للأحكام الشرعية التي ألزمهم اللهُ تعالى بها كحكم الزنا وحكم القصاص، ومع كثرة دوران الكذب عليهم بينهم فإنهم أكَّالون للسُّحْت، أي: يكثرون من أكل السُّحْتِ، والسُّحْتُ: كلُّ ما لا يحِلُّ كَسْبُه من المال، سمَّى الله تعالى المالَ الحرام سُحْتاً، لأنه يُذهبُ المالَ، ويهلكه، ويَفْنيه. قال مكيٌّ: «سُمِّي المالُ الحرامُ سحتاً، لأنه يَذْهَبُ من حيث يُسْحِتُ الطاعات، أي يذهبُ بها قليلاً قليلاً» [المحرر الوجيز: ٣/ ١٧١].

وقد فسَّر كثير من المفسرين السحتَ بضرب الأمثلة له، فقال بعضهم: هو الرشوةُ، وقال آخرون: هو مهرُ البغيِّ، وقال بعضهم: هو الخمر، وكلُّ ذلك ضربٌ للأمثال، والسحتُ أوْسَعُ من ذلك، وهو كلُّ ما لا يحِلُّ كَسْبُه.

٦- خَيِّر الرسولُ ﷺ إذا تحاكم إليه اليهودُ أنْ يحكُم فيهم أو يُعْرِض عنهم:

أمر اللهُ رسولَه ﷺ مُخَيِّراً له أنه إذا تحاكم إليه اليهودُ في أمْر خاصٍّ بهم كما تحاكموا إليه في الرجلِ والمرأة اللذين زنيا أنْ يحكُمَ بينهم بالعدل أو يُعْرِض عنهم ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة:٤٢].

وأخبر اللهُ رسولَه ﷺ أنه إنْ أعرضَ عنهم، فلم يحكم بينهم، فلن يضُرُّوه شيئاً، وإن حكم بينهم فيجبُ عليه أن يحكُم بينهم بالقسط، أي: بالعدل، ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ [المائدة:٤٢] وحكم الرسول ﷺ في اللذين زنيا وأمَرَ برجمهما، فرُجِما، وحثَّ الله تعالى على الحكم بالعدل بإخباره سبحانه أنه ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة:٤٢].

وقد ذهب جمعٌ من أهل العلم إلى أنَّ التخييرَ الموجودَ في الآية منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة:٤٨] والصوابُ من القول أنه لا نسخ، وأنَّ المأمورَ به هنا هو حالةُ اختيارِ الرسولِ ﷺ الحكم بينهم، فإنه يجبُ عليه أن يحكم بينهم في هذه الحالة بالعدل.

٧- تعجيبُ الله رسولَه ﷺ من تحكيم اليهود له وعندهُمُ التوراة فيها حُكْم الله:

وجَّه اللهُ -تعالى- السؤالَ إلى رسولِهِ ﷺ قائلاً له: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة:٤٣] قال ابنُ الجوزي: «هذا تعجيبٌ من الله -عز وجلّ- لنبيه من تحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما في التوراة من حكم ما تحاكموا إليه فيه، وتقريعُ اليهود إذ يتحاكمون إلى من يجحدون نبوتَه، ويتركون حكمَ التوراة التي يعتقدون صحتها» [زاد المسير: ٢/ ٣٦٢].

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي: حُكْمُ الله فيما تحاكموا فيه إلى رسولِنا ﷺ، وقولُه سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ﴾ أي: من بعد تحكيمك. وقوله: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: لتحريفهم التوراة، وعدم رضاهم بحكم الله فيها.

٨- حكم الله بالرجم لا يزال مسطوراً في التوراة:

لا يزالُ حكمُ الله الذي حكم فيه برجم الزانية والزاني موجوداً في التوراة إلى اليوم، جاء في (سفر التثنية) فقرة: (٢٢-٢٧): «٢٢ إذا وُجِدَ رجلٌ مضطجعاً مع امرأةٍ زوجةِ بعلٍ

يُقتَل الاثنان، الرجلُ المضطجعُ مع المرأة والمرأة، فتنزعَ الشرَّ من إسرائيل. ٢٣ إذا كانتْ فتاةٌ عذراءُ مخطوبةً لرجلٍ فوجدها رجلٌ في المدينة واضطجع معها. ٢٤ فأخرجوهما كليهما إلى باب تِلْكَ المدينةِ، وارجموهما بالحجارةِ حتى يموتا، الفتاة مِنْ أجلِ أنها لم تصرخْ في المدينة، والرجلُ من أجل أنه أذلَّ امرأةَ صاحبِهِ، فتُنزع الشرَّ من وسطك. ٢٥ ولكن إن وَجَدَ الرجلُ الفتاةَ المخطوبة في الحقل، وأمسكها الرجلُ واضطجعَ معها يموتُ الرجلُ الذي اضطجع معها وحدهُ، ٢٦ وأما الفتاة فلا تفعل بها شيئاً، ليس على الفتاة خطيةٌ للموت بل كما يقوم رجل على صاحبِهِ ويقتلهُ قتلاً هكذا هذا الأمر، ٢٧ إنه في الحقلِ وجدَها فصَرَختِ الفتاةُ المخطوبة، فلم يكن من يُخَلِّصها».

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تأملنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- واسَى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ بنهيِهِ عن الحُزْنِ على الذين يسارعون في الكفر من المنافقين واليهود.

٢- أراد اللهُ بالذين يسارعونَ في الكفرِ في الآية المنافقين نفاقاً أكبر بإظهارهم الإيمانَ، وإبطانِهم الكفرَ، واليهودَ الذين هم أخْبَثُ خلقِ الله تعالى.

٣- اليهودُ الذين يسارعونَ في الكفر خبثاءُ، وأهمُّ معالِمِ شخصيتهم أنَّ الكذبَ يدورُ في مجالسهم كثيراً، ويحرفون كلامَ الله عن المواضع التي وضعها اللهُ فيها، ولا يأخذون من الرسول ﷺ إلا ما وافق أهواءَهم.

٤- الذي يضلُّه اللهُ تعالى لا يستطيعُ أحدٌ هدايتَه.

٥- هذا الصنفُ من الناس قلوبُهُم مريضةٌ مليئةٌ بالشرك والذنوبِ والمعاصي وقد أخزاهم الله في الدنيا، وأعدَّ لهم العذابَ الأليم في الآخرة.

٦- هذا الفريقُ من البشر يُكْثِرون من الاستماع إلى الكذبِ، ويكثرون من أكْلِ السحتِ وهو الحرام.

٧- إذا ترافعَ اليهودُ ومثلهم النصارى إلى الدولة الإسلامية كان الخليفةُ أو القاضي مخيّراً بين أمرين: أن يعرض عنهم، ولا يحكُمُ فيهم فيما رفعوه إليه. والثاني: أن يحكمَ بينهم بالعدلِ.

٨- كان تحاكمُ اليهود إلى رسولنا ﷺ أمراً يُسْتَحقُّ التعجّبُ منه، فإنهم تحاكموا برغبتهم إلى الشخص الذي يعادُونَهُ، والحكمُ الذي تحاكموا فيه موجود في توراتِهم، وهم عنه مُعْرِضونَ.

٩- بعض ما أَنْزَلَهُ اللهُ في التوراة لا يزالُ على حاله لم يتغير، ولم يُحَرَّف، ومنه حُكْمُ الله في الزاني والزانية، وأنه الرجْمُ.

النص القرآني الرابع عشر من سورة المائدة
أنزل الله التوراة فيها هدى ونور

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ -تعالى- على التوراة، وهي الكتابُ السماويُّ الذي أنْزَلَه على رسولَيْه موسى وهارون، وكانت آياتُها تهدي إلى الصواب، وتنيرُ للعباد قلوبَهُم، وتدلُّهُمْ على الحقِّ، وكان يحكم بها أنبياءُ بني إسرائيل للذين هادوا، كما كان يحكمُ بها الربانيون والأحبار، وأعلمنا اللهُ -تعالى- في الآية الثانية من هذا النص ما كتبه اللهُ على بني إسرائيل من القصاص في التوراة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:٤٤-٤٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ثناءُ الله عز وجل على التوراة:

أثنى ربُّنا -عز وجل- على كتابه: «التوراة» التي أنزلها على الرسولين الكريمين موسى وهارون عليهما السلامُ فقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة:٤٤] فقد أنزل اللهُ -تعالى- التوراة فيها هُدىً ونور، والهدى والنورُ، ما أنزلَه اللهُ تعالى في التوراة من النصوص المعرِّفة به، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والمعرفة بدينه وشريعته.

٢- وجوبُ تحاكم اليهود إلى شريعة التوراة قبل بعثة رسولنا ﷺ:

أخبرنا ربُّنا -وهو العليمُ الحكيم- أنه كان يحكم بالتوراة النبيون من بني إسرائيل والربانيون والأحبار ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة:٤٤] والنبيون الذين أسلموا هم جميعُ أنبياء بني إسرائيل من

موسى إلى نبي الله عيسى عليهما السلام، وقولُهُ: ﴿أَسْلَمُواْ﴾ يدلُّ أنَّ جميعَ أنبياءِ ورسلِ بني إسرائيل كانوا على دين الإسلام، فإبراهيمُ ﷺ قال له ربُّه: ﴿أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٣١﴾ [البقرة:١٣١] وقال إبراهيمُ وإسماعيل عليهما السلام وهما يدعوان اللهَ حالَ بنائهما الكعبة ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨] وليس عند الله دينٌ غير الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩]، ومن طلب ديناً غير الإسلام فلن يقبل اللهُ منه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

وكما كلَّفَ اللهُ النبيين بالحكم في اليهود بشريعة التوراة، كذلك كَلَّف بذلك علماءَهم وهم الربانيون والأحبارُ، قال ابن عطية: «ويَحْكُم بها الربانيون، وهم العلماءُ، وفي البخاريِّ قال: الربانيُّ: الذي يُرَبِّي الناس بصغارِ العلم قبلَ كبارِه، وقيلَ الربانيُّ: منسوبٌ إلى الربِّ، أي: عنده العلمُ به وبدينه، والأحبارُ: العلماءُ أيضاً، واحدُهم حِبْر» [المحرر الوجيز: ٣/ ١٧٥].

٣- عهدُ الله للربانيين والأحبار بحفظ التوراة:

أخبرنا مولانا سبحانه وتعالى أنه عهِدَ إلى الربانيين والأحبار بالحكم بكتابه التوراة، كما عهد إليهم بحفظ ذلك الكتاب ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٤٤] أي: استودَعهُمْ اللهُ كتابَهَ، وأمرهُمْ بحفظه، فضيَّعُوه، وغيَّروهُ، وبدَّلوه وحرَّفوه، بخلافِ القرآن الكريم، فإن اللهَ تعالى تولَّى حِفْظَه بنفسه، فبقي محفوظاً لم يضع منه شيء ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجرات:٩]. وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ﴾ أي: كان الربانيونُ والأحبارُ شهداءَ على ما في التوراةِ من الهدى والشرائع والأحكام.

وإنما وَكَلَ الله حفظه إلى الربانيين والأحبار، لأنه أُنْزِل لأمَّةٍ بعينها، ولأجل محدودٍ، أما القرآنُ فهو للبشر كلِّهم إلى أنْ تقومَ الساعةُ، فلا بدَّ أن يبقى محفوظاً، كي تبقى الحجةُ قائمةً به إلى آخر الوقت.

٤- أمر اللهُ تعالى الربانيينَ والأحبار بعدم خشية الناس وأمَرَهم بخشيته هو:

أَمَرَ اللهُ الربانيين والأحبارَ من اليهود الذين استحفظهُمْ كتابَهُ التوراةَ أنْ يتَّبِعُوا الحق الذي أَنْزَلَهُ الله إليهم، ونهاهم أنْ يخشوا الناسَ، كما نهاهم عن أن يشتروا بآياته ثمناً قليلاً، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾ [المائدة:٤٤] وهذه الآية تدلُّ على أنَّ الذي يحولُ بين العلماء وبين الحكم بالحق الذي أَنْزَلَهَ اللهُ إليهم أمْرانِ: الأول: مخافةُ أصحابِ السلطان وأصحاب المال، والثاني: أَخْذُهم الرِّشا من أصحاب السلطان

وأصحاب المال، ليحكموا لهم بالباطل، فإذا خاف العالِمُ ربَّه، وخاف وقوفَه بين يديه، حكَمَ بالحق غير مبالٍ بالمال أو السلطان، واللهُ المستعان.

٥- الذي يحكمُ بغير ما أنزل اللهُ فهو كافر:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ الذي يحكُمُ بغير ما أنْزَله اللهُ من القوانين الوضعية، والشرائع الباطلة، وأهواءِ البشر فإنه كافر ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤] ووصف اللهُ تعالى الذين يحكمون بغير ما أنزلَهُ في الآيات التالية بأنَّهم ظالمون، وفاسقون. والصوابُ من القول أنَّ هذه الآية عامةٌ في اليهودِ والنصارى وغيرهم من الأمم، فاللهُ تعالى كفَّر كلَّ من أنزلَ إليهم شريعةً فتركوها إلى غيرها مما وضعوه واخترعوه، فإذا كان الحاكمُ بغير شريعةِ الله -عز وجل- كارِهٌ لهذه الشريعة، يرى أنها شريعةٌ همجيةٌ، لا تصلحُ لحكمِ الحياةِ، ويرى أنَّ ما قَنَّنَهُ البشرُ ووضعوه هو الذي يجبُ أن يَحْكُمَ ويسودَ، فهذا كافرٌ كفراً أكبرَ، وهو خالدٌ في نارِ جهنَّم.

أما إذا كان يرى أنَّ الشريعةَ الإسلامية هي الشريعةُ الصالحةُ لحكمِ الحياةِ، ولكنه حكَمَ بغير حُكْم الله اتباعاً للهوى، فهذا لا شكَّ أنَّه آثِمٌ وجُرْمُهُ عظيمٌ، ولكنه لا يصلُ إلى الشركِ الأكبرِ.

٦- أقوالُ أهلِ العلم المحقِّقةُ لهذه المسألة:

قال الطبريُّ: قال ابن عباس: «من جَحَدَ ما أنزلَ الله فقدْ كَفَرَ، ومن أقرَّ به ولم يَحْكُم، فهو ظالمٌ فاسق» وقال الطبري: «من لم يحكم بما أنزلَ اللهُ جاحداً به فهو بالله كافرٌ، كما قال ابن عباس، لأنه بجحوده حُكْمَ الله بعدَ علمه أنَّه أنزله في كتابه نظير جُحُودِهِ نبوة نبيِّهِ بعد علمه أنَّه نبيٌّ» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٩٠٠].

وقال ابنُ الجوزيِّ: «وفَصْلُ الخطاب: أنَّ من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً له، وهو يعلم أنَّ الله أنزلَهُ، كما فعلتِ اليهودُ فهو كافر، ومن لم يحكم به مَيْلاً إلى الهوى من غير جحودٍ فهو ظالمٌ فاسقٌ» [زاد المسير: ٢/ ٣٦٦].

وقال ابن القيمِ: «والصحيحُ أنَّ الحكمَ بغير ما أنزلَ اللهُ يتناولَ الكُفْرَيْنِ: الأصغرَ والأكبرَ، بحسبِ حالِ الحاكمِ، فإنه إن اعتقدَ وجوبَ الحكم بما أنزلَ الله في هذه الواقعة، وعَدَلَ عنها عصياناً، مع اعترافِهِ بأنَّه مستحقٌّ للعقوبة، فهذا كفرٌ أصغْر، وإن اعتقد أنَّه غيرُ واجبٍ، وأنَّه مُخَيَّرٌ فيه، مع تيقنه حكمَ الله، فهذا كفرٌ أكبرُ، وإن جَهِلَهُ وأخطأه، فهذا مخطئٌ، له حكم المخطئين» [بدائع التفسير: ٢/ ١١٢].

وخلاصةُ القول أن الذي يرفض حكم الله ويكرهه وينكره كافر لا شكَّ في كفره، ومن آمن به، وتركه اتباعاً للهوى، فهو ظالمٌ فاسقٌ، وليس كافراً.

٧- كتبَ اللهُ على اليهود في التوراة القصاصَ في النَّفْسِ والأعضاءِ والجروح:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بما كتبَهُ على بني إسرائيل في القصاص بالنفس فما دونه، فقال: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:٤٥].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه كتبَ على بني إسرائيلَ في التوراة، أنَّ النفسَ التي قتلتْ نفساً، فإنها تُقتَلُ بها، ثم ذكَرَ سبحانه أنّ الذي يعتدي على آخر بإذهاب عُضْوٍ من أعضائه، فإنَّه يُقْتَصُّ منه بإذهاب ذلك العُضْوِ، فقدْ ذكرَ سبحانَه وتعالى أنَّ العينَ بالعينِ، والأنفَ بالأنفِ، والأذنَ بالأذنِ، والسنَّ بالسنِّ، والجروح قصاصٌ، وأعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى في خاتمة النصِّ، أنَّ من لم يَحْكُمْ بما أنزلَ الله فأولئك هم الظالمون.

وهذا الحكم الذي تضمنتْه الآيةُ مقَرَّرٌ في شريعتنا جرى عليه العملُ منذُ العهد النبوي، ففي الصحيحين عن أنس بن مالكٍ أنَّ الرُّبَيِّعَ، وهي ابنةُ النَّضْر كَسَرتْ ثنيَّةَ جاريةٍ، فطلبوا الأرْشَ، وطلبوا العفو فأبَوْا، فأتوا النبي ﷺ فأمرهم بالقصاص، فقال أنسُ بنُ النَّضْرِ: أتُكسَرُ ثنيةُ الرُّبَيِّعِ يا رسولَ الله؟ لا، والذي بَعَثَكَ بالحق لا تُكْسَر ثنيَّتُها، فقال: «يا أنسُ، كتابُ الله القصاصُ». فرضي القومُ وعفوا، فقال النبي ﷺ: «إنَّ من عبادِ الله، من لو أقسَم على الله لأبَرَّهُ».

زادَ الفزاريُّ: عن حميدٍ، عن أنس: «فرِضي القومُ، وقَبِلُوا الأرْشَ» [البخاري: ٢٧٠٣. ومسلم: ١٦٧٥ باختلاف].

ووجهُ الاستدلالِ بالحديث أنَّ الرسولَ ﷺ قال لأنسِ بن النُّضْرِ: «يا أنسُ، كتابُ الله القصاصُ».

وقوله: ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ ﴾ [المائدة:٤٥] أي: فمن عفا عن القصاص، أي: عفا عمَّنْ قَلَع عينَه، أو قطعَ أنْفَهُ أو أُذنَهُ، أو قلعَ سِنَّهُ، أو جَرَحَهُ، فإنَّه يحطُّ من ذنوبِهِ وخطاياه بمقدارِ ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:٤٥] الظلمُ أوْسَعُ من الكفرِ، فقد يكونُ الظلمُ كفراً، وقد يكونُ معصيةً أو ذنباً دونَ الكُفرِ.

٨- هذا الحكم لا يزالُ موجوداً في التوراة إلى اليوم:

لا يزال هذا الحكم باقياً في التوراة حتى اليوم، ففي سفر الخروج، الإصحاح الحادي والعشرين فقرة (٢٣-٢٥): «وإنْ حَصَلَتْ أَذِيَّةٌ تُعْطِي نَفْساً بِنَفْسٍ، ٢٤ وعَيْناً بعَيْنٍ، وسِنّاً بسِنٍّ، ويَداً بيَدٍ، ورِجْلاً برِجْلٍ، ٢٥ وكَيّاً بِكَيٍّ، ورضّاً بِرَضٍّ».

وجاءَ في سِفْر اللاويين، الإصحاحُ الرابعُ والعشرين: «١٧ وإذا أمات أحدٌ إنساناً فإنّه يُقْتَل»، «١٩ وإذا أَحْدَث إنْسانٌ في قَريبِهِ عَيْباً فكَما فَعَلَ يُفْعَلُ بِهِ، ٢٠ كَسْرٌ بكَسْرٍ، وعَيْنٌ بعَيْنٍ، وسِنٌّ بِسِنٍّ، كما حَدَثَ عَيْبٌ في الإنْسانِ، كَذلكَ يُحْدَثُ فيهِ».

وجاء في سفر التَّثْنِيةِ، الإصحاح التاسع عشرَ، فقرة (٢١): «لا تُشْفِقْ عَيْنُك، نَفْسٌ بِنَفْسٍ، عَيْنٌ بعَيْنٍ، سِنٌّ بِسِنٍّ، يَدٌ بيَدٍ، رِجْلٌ برِجْلٍ».

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنَّا النظرَ في آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- التوراةُ كتابٌ عظيمٌ أَنْزَلَه اللهُ من عنده على رسولِه موسى ﷺ يهدِي بني إسرائيلَ إلى ربِّه، ويدُلُّهم على شريعَتِهِمْ.

٢- كان الأنبياءُ جميعاً من موسى إلى عيسى عليهم السلامُ يحكمونَ بينَ بني إسرائيلَ بشريعةِ التوراة، وكذلك علماءُ بني إسرائيلَ الذين ائْتَمَنَهُمْ اللهُ على التوراةِ كانوا يحكمون بها.

٣- كلُّ أنبياءِ بني إسرائيلَ ورسلِهِمْ وأتباعِهِم الذين اتَّبعُوهم بصِدْقٍ كانوا مسلمين.

٤- وَكَّلَ اللهُ تعالى حفظَ التوراةِ إلى الربانيين والأحبارِ فأضاعُوها، وتولَّى اللهُ حفظَ القرآنِ، فبقيَ سالماً محفوظاً.

٥- وَقَعَ الخَلَلُ في تحكيمِ الشريعةِ لدى اليهودِ بسببِ مخافةِ علمائِهم من سادَتِهِمْ وأثريائِهم، ولقبولِهِم الرشوة في الحكم بغيرِ الشريعة.

٦- الذين يحكمونَ بغير ما أنزل الله جاحدينَ شريعةَ الله كفارٌ، أما الذين يقرُّون بالشريعة، ويحْكُمون بغيرها اتباعاً للهوى، فقد ارتكبوا إثماً عظيماً، ولكنّهم لا يبلغون مبلغَ الشركِ الأكْبَرِ.

٧- حَكَم اللهُ على بني إسرائيلَ بالقصاصِ في القتلى، وإتلافِ مثلِ العضوِ المُتْلَفِ، وكان الواجبُ على بني إسرائيلَ القصاصَ أو العفوَ، وليسَ هناك ديةٌ.

٨- هذا الحكمُ بقي في شريعَتِنا، ولكنَّه خُصَّ، فلا يُقْتَلُ مُسْلمٌ بكافر، ولا حُرٌّ بعبدٍ، جاءَ في شريعتنا القصاصُ، أو العفوُ إلى الدِّيةِ، والعفوُ مطلقاً من غير قصاص، ولا دية.

النص القرآني الخامس عشر من سورة المائدة
أنزل الله الإنجيلَ فيه هدى ونور

أولاً: تقديم

أخْبَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- فيما سبق أنَّه ألزَمَ اليهودَ بالحكم بالتوراةِ التي أنزلها على موسى، وبيَّن لنا في هذه الآيات أنه ألْزَمَ النصارى بالحكم بالإنجيل الذي أنزله على عيسى، وسيأتي أمْرُه لرسولِنا ﷺ بأنْ يحكم بما نَزَّلَهُ عليه فيما شَجر بيننا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٤٧)﴾ [المائدة:٤٦-٤٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- تقفيةُ الله على آثارِ أنبياءِ بني إسرائيل بعيسى عليه السلام:

أعْلَمَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه قَفَّى على آثارِ بني إسرائيلَ برسولِهِ عيسى ابن مريم، عليه وعلى أُمِّه الصلاةُ والسلامُ، ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:٤٦]، والمرادُ بتَقْفِيَةِ الله بعيسى إتْباعُهُ سبحانَهُ بعيسى ليكونَ آخِرَ رسولٍ أُرسلَ إلى بني إسرائيلَ، وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّه لَيْسَ بَيْنَه وبينَ عيسى نَبِيٌّ، ومِنَ التَّقْفِيَةِ مجيءُ الله بأنبياءِ بني إسرائيلَ بعد موسى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ [البقرة:٨٧]، أي: أتْبَعْناه بالرسل من بعده.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ عيسى عليه السلام كان مُصَدِّقاً لما بين يَدَيْهِ من التوراةِ، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة:٤٦]. وسيأتي أيضاً إخبارُ الله لنا أنَّ الإنجيلَ الذي أنزله على عيسى كان مصدِّقاً لما بين يديه من التوراةِ، فعيسى كان مُصَدِّقاً بالتوراةِ، والإنجيلُ الذي جاءَ به كان مصدِّقاً بها أيضاً.

وأعلمنا العزيزُ العليمُ -سبحانه- أنَّهُ آتى عبدَه ورسولَه عيسى عليه السلام كتابَهُ العظيمَ الإنجيلَ ليكونَ هدىً ونوراً لبني إسرائيلَ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة٤٦].

وأعْلمنا مولانا -سبحانه- أنّه جعلَ الإنجيلَ مصدِّقاً للتوراةِ التي أُنزلت قبلهُ على رسولِهِ موسى ﷺ، وجعله هدى وموعِظَةً للمتقين ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة:٤٦].

فالإنجيلُ أنزله هدى للمتقين، وواعظاً لهم، والمتقون: الذين يخافون الله تعالى، فيعملون بطاعته، ويَنْزَجِرُون عن معاصيه ومحارِمِهِ.

٢- أوْجَبَ اللهُ تعالى على أهل الإنجيل أنْ يحكموا بما أنزل اللهُ فيه:

أمر اللهُ بني إسرائيلَ الذين أرسل إليهم عيسى ﷺ أن يحكموا بما أنزل اللهُ فيه: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة:٤٧].

وهذا يدلُّ على أنَّ شريعةَ الإنجيلِ خاصةً بقومٍ معينين هم بنو إسرائيل، وليست عامةً للبشريةِ كُلِّها، وقد بقيتْ لازمةً لبني إسرائيل حتى بُعِثَ نبيُّنا محمدٌ ﷺ للناسِ كافةً، فأصبحَ اليهودُ والنصارى ملزمين بمتابعته، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة:٤٧]، والفاسق: الخارجُ عن طاعةِ الله تبارك وتعالى، المائلِ إلى الباطلِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- عيسى ﷺ رسولٌ أرسله إلى بني إسرائيلَ، وهو آخرُ رسولٍ أُرسل إليهم.

٢- عيسى ﷺ مُصَدِّقٌ للكتابِ الذي أنْزِلَ من قبله وهو التوراةُ.

٣- امتنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- على عيسى ومن أرسل إليهم بإيتائهم الإنجيلَ فيه هدى ونورٌ ومصدقاً لما بين يديه من التوراة، وهدىً وموعظةً للمتقين.

٤- عندما أنْزَلَ اللهُ الإنجيلَ أوجب الله تعالى على بني إسرائيلَ أن يتحاكموا إلى شريعته، وبقي ذلك مستمراً إلى أن بُعِثَ محمدٌ ﷺ، فنَسَخَ اللهُ بالقرآنِ التوراةَ والإنجيلَ.

٥- الذين رفضوا التحاكمَ إلى شريعةِ الإنجيلِ من بني إسرائيل فسقة خارجون على أمْرِ الله تعالى.

النص القرآني السادس عشر من سورة المائدة
وجوبُ تحاكم المسلمين إلى ما أنْزله الله على رسوله ﷺ

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ تعالى اليهودَ والنصارى أن يحكم كلُّ فريقٍ بما أنْزَلَ اللهُ إليه من الكتاب، وقد أنْزَل الله لكلِّ فريقٍ كتاباً خاصّاً به، وأمَرَ اللهُ رسوله محمداً ﷺ وخلفاءَه من بعده أنْ يحْكُمُوا بما أنْزَلَهُ على رسولِهِ، وحذَّرَهم من التحاكم إلى أهواء البَشَر، حُكْم الجاهلية، وهي تعني كلَّ حكمٍ خالفَ شريعةَ الله تعالى، وقد نَسَخَ اللهُ بالقرآنِ كلَّ الشرائعِ السماويةِ السابقةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة:٤٨-٥٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أنْزَلَ اللهُ -تعالى- القرآنَ على عبدِهِ ورسولِهِ محمد ﷺ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه:

أخبرنا اللهُ تبارك وتعالى فيما سبق أنَّه أنْزَلَ التوراةَ على موسى، والإنجيلَ على عيسى عليهما السلام، ثم خاطبَ اللهُ عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ قائلاً له: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [المائدة:٤٨] والكتاب المنزل عليه هو القرآن الكريم، أنْزَلَهُ اللهُ عليه -سبحانه- إنزالاً كائناً بالحقّ، ومصدِّقاً لما بين يديه من الكتابِ، أي من جنس الكتابِ الذي أنزله اللهُ من قبل، فيدخل في الكتاب صحفُ إبراهيمَ، وتوراةُ موسى، وزبورُ داود، وإنجيلُ عيسى عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨] قال العلاَّمةُ الشوكانيُّ رحمه الله تعالى في هذا الجزء من الآية: «المعنى على قراءة الجمهورِ: أنَّ القرآنَ صارَ شاهداً بصحةِ الكتب المنزلةِ، ومقرِّراً لما فيها، مما لم ينسخ، وناسخاً لما خالفَهُ فيها، ورقيباً عليها، وحافظاً لما فيها من أُصول الشرائعِ، وغالباً لها لكونه المرجعُ في المُحْكَمِ منها، ومُؤْتَمناً عليها، لكونهِ مشتملاً على ما هو معمولٌ به منها، وما هو متروك» [فتح القدير: ٢/ ٦٨].

٢- وجوبُ تحكيمِ الرسولِ ﷺ وخلفائِه من بعده بما أنْزَلَ اللهُ:

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه محمداً ﷺ أن يحكم بين المؤمنين بما أنْزَلَ اللهُ إليه من القرآن العظيم، وما أوحاه اللهُ إليه في سنّته، ونهاه أن يتّبع أهواءَ البشر من اليهود والنصارى ومشركي العرب وغيرهم، وكلُّ حُكْمٍ شَرَعهُ البشرُ فإنه مخالفٌ لحكمِ الله تعالى، وهو مُتَّبعٌ لأهواءِ البشر الباطلةِ التي تَصْرِفُ عن الحقِّ الذي أنْزَلَه العليمُ الخبيرُ، ومن ذلك ما حكم به الناسُ من عادات، وما وضعوه من قوانينَ وتشريعات ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨].

٣- جعل اللهُ -تبارك وتعالى- لكلِّ أمةٍ شِرْعةً ومنهاجاً:

أعلمنا ربُّنا ومولانا أنه جَعَلَ لكل أُمّةٍ شِرْعَةً ومنهاجاً ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

«والشِّرْعَةُ -كما يقول الشوكانيُّ- الطريقةُ الظاهرةُ التي يتوصل بها إلى الماء، ثم استعملتْ فيما شَرَعَهُ لعبادِهِ من الدين، والمنهاجُ الطريقةُ الواضحةُ البيِّنَةُ» [فتح القدير: ٢/ ٦٨] وقد جعل اللهُ لكل أُمّةٍ شِرْعةً ومنهاجاً، فاليهودُ لهم شريعةُ التوراةِ، والنصارى لهم شريعةُ الإنجيلِ، أما القرآنُ فهو شريعةٌ للبشرِ كلِّهم، وقد نسخ اللهُ به الشرائعَ السابقةِ.

٤- لو شاءَ ربُّ العزَّةِ لجعلنا أُمّةً واحدةً:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لو شاءَ لجعلنا أُمةً واحدةً ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة:٤٨] أي: لو شاء لجعلكم أُمَّةً واحدةً، بشريعةٍ واحدةٍ، وكتابٍ واحد، ورسولٍ واحدٍ، ولكنه -تبارك وتعالى- لمْ يشأْ ذلك، بل شاءَ أن يبتلينا باختلافِ الشرائعِ، أي: يختبرُنا بالشرائعِ المتعددةِ المختلفةِ التي تتنزَّلُ على الرسلِ باختلافِ الأزمنةِ.

٥- أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- باستباقِ الخيرات:

أمرنا اللهُ -تعالى- باستباق الخيراتِ فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة:٤٨] والمراد به التنافسُ في فِعْلِ الأعمالِ الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة:١٠-١١] أي: المُتقدِّمون إلى ثوابِ الله وجنتِهِ بالأعمالِ الصالحة، وقال تعالى: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران:١١٤].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- سبحانه أننا سنرجعُ إليه، ونعودُ إليه سبحانه في يوم القيامة، فيخبرنا بما كنا مختلفين فيه، وسيقضي بيننا سبحانه، ويجزي كلاً بما يستحقُّه ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة:٤٨].

٦- أمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يحكم بينَ الناسِ بما أنزله إليه:

أَمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ مرةً أُخرى أن يحكم بين المتنازعين بما أَنْزَلَهُ إليه، وهو شاملٌ للكتابِ الذي أَنْزَلَه، وهو القرآنُ، وما أَوْحاهُ إليه في سنّته ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩].

ونهاه أن يحكم بينهم بأهواء البشر: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة:٤٩] وأهواءُ البشر شاملةٌ لكل العادات والتقاليد والتشريعات المخالِفة لما أَنْزَلَ اللهُ تعالى، وقد وقع اليهودُ فيما حَذَّرَ اللهُ منه، فتركوا حُكْمَ الله في جريمة الزنا، والقصاص، وقَتَلَ بعضُهم بعضاً، وغير ذلك مما تركوه من شرع الله.

وكثيرٌ من هذه الأمة استباحتِ الخمرَ، وأباحت الزنا، وتركوا القصاص، وشرَّعوا بأهوائهم تشريعاتٍ مخالفةً لما أَنْزَلَهُ اللهُ تعالى.

وقد حَذَّرَ اللهُ رسولَه ﷺ أن يفْتِنَهُ الضالون من البشر عن بعض ما أَنْزَلَهُ اللهُ تعالى إليه ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩]. وقد أخبر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنَّ هؤلاء الذين يحاولون أنْ يفتنوه عن بعضِ ما أَنْزَلُه إليه إن ﴿تَوَلَّوْا﴾ عما أنزله اللهُ إليه، أي: أعرضوا عنه، وتركوه إلى أهواء البشر، فإنَّ اللهَ لا يرضى عنهم، وسينزلُ بهم المصائبَ بسبب ما ارتكبوه من الذنوب ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩].

وختَمَ اللهُ -تعالى- هذه الآيات بقولِهِ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة:٤٩] وهذا حال كثير من المسلمين اليوم، فقد تولّى كثيرٌ منهم عمّا أنزله اللهُ تعالى إليهم، وحكَّموا القوانين الوضعيَّةَ، فعَضَّهُمُ الفقرُ بنابِهِ، وألقى اللهُ بينهم العداوةَ والبغضاءَ.

٧- ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾:

قال الله تعالى منكراً على اليهود والنصارى والمسلمين الذين تركوا الحكم بكتابِ الله تعالى، وعملوا بأهوائِهم، وسياسات زعمائهم، وما وضعه لهم رجالُ القانونِ، وكلُّ هذا من حُكْمِ الجاهلية، وقد أساءَ هؤلاء جميعاً عندما تركوا حُكْمَ خالقِ الأرض والسموات، وأخذوا حكم حثالاتِ البشر ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾ [المائدة: ٥٠].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص فإننا نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أنزل اللهُ العظيم كتابَه الكريم، على خيرِ رسلِهِ وأنبيائِهِ مصدِّقاً لما بين يديه من الكتب كلِّها، فوجب علينا تعظيمُهُ، وتكريمُهُ، والعملُ به.

٢- القرآنُ الكريمُ مهيمنٌ على جميعِ الكتب من قبله، فهو مصدِّقٌ للحقائقِ التي حَوَتْها، ومصححٌ لما وقعَ فيها من تحريفٍ، وناسخٌ لبعض ما تضمنته من أحكام، ومقرِّرٌ لأحكامٍ أخرى، وحافظٌ لأصول الشرائع.

٣- يجبُ على المسلمين تحكيمُ كتاب الله تعالى فيما شَجَرَ بينهم، وعليهم أنْ يتركوا ما تركَهُ الآباءُ من عاداتٍ، وما قرَّرَهُ أهلُ الرأي من تشريعاتٍ، إذا خالفت ما أنزلَهُ الله.

٤- الأنبياءُ إخوةٌ لعلاّتٍ، دينهم واحدٌ، وهو الإسلام، وشرائعهم مختلفةٌ، حالهم حالُ أبناءِ الرجل الواحد من أمهاتٍ شتَّى.

٥- لله الحكمةُ البالغةُ في تعدُّدِ شرائع الرُّسُل، فقد غايرَ بين الشرائعِ في بعض ما تضمَّنتْه، وجاءت به.

٦- وجَّهَ اللهُ عبادَه إلى التنافسِ في أعمال الخير، التي توصِلُ إلى رضوانِ الله تعالى، وتدخِلُ جناتِ النعيم.

٧- حذَّرَ اللهُ رسولَه ﷺ -وفي ذلك تحذيرٌ لأُمته- من اتباع شيءٍ من تشريعاتِ البشرِ المضادَّةِ والمحادَّةِ لما أنْزَلَه اللهُ تعالى.

٨- الذين يتركونَ شرعَ الله ويتعدُّونَ حدودَهُ، يُوقِعُ اللهُ بهم المصائبَ بسبب ما ارتكبوه من ذنوبٍ، وما اقترفوه من آثامٍ.

٩- حذَّرنا ربُّنا من الصيرورةِ إلى حكم الجاهلية القائم على اتباع الأهواءِ، وترْكِ حكم العزيزِ العليم الخبير الحكيم سبحانه.

النص القرآني السابع عشر من سورة المائدة
النهي عن اتخاذ اليهودِ والنصارى أولياءَ

أولاً: تقديم

نادى اللهُ تعالى المؤمنينَ ناهياً إياهم عن اتخاذ اليهودِ والنصارى أولياءَ، مخبراً إياهم أنَّ اليهودَ والنصارى بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ، ومحذِّراً لهم بأنَّ الذي يتولاهم من المؤمنين فإنه يصبحُ منهم، ويصبحُ من الظالمين، واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين، وأخْبَرَ أنَّ الذين يتولَّوْنهم، يريدون أن يتخذوا يداً عندهم، فيحفظون أنْفُسَهم وأموالهم وأولادهم عندما تنزل الدوائر بالمسلمين، ولكنَّ هؤلاء سيندمون عندما ينزل اللهُ نصره بالمؤمنين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة:٥١-٥٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهيُ الله -تعالى- المؤمنين أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء:

نادى اللهُ -تعالى- المؤمنين ناهياً إيّاهم عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياءَ، مخبراً أنَّ بعضهم أولياءُ بعضٍ، مرَهِّباً إياهم بأنَّ من تولاَّهم فإنه منهم، وحكم ربُّ العزة أنه لا يهدي القومَ الظالمين، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة:٥١].

قال ابن جريرٍ الطبريُّ: «إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاءَ على أهل الإيمان بالله ورسولِه وغيرهم، وأخْبَرَ أنه من اتَّخَذَهم

نصيراً وحليفاً ووليًّا من دون الله ورسولِهِ والمؤمنين، فإنه منهم في التحزُّبِ على الله ورسولِهِ والمؤمنين، وأن الله ورسولَه منه بريئان» [الطبري: ٤/ ٢٩٢١].

وقولُه: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١] أخبر اللهُ تعالى أنَّ اليهودَ والنصارى بعضُهُم أولياءُ بعضٍ، فإنْ قيل: كيف يكونُ بعضهُم وليّاً لبعضٍ مع ما بينهم من النِّزاعِ والاختلافِ والاقتتالِ، والجوابُ: أنَّهم يتولى بعضُهم بعضاً في حَرْبِهم للمؤمنين، وإنْ كانوا متعادين فيما بينهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١] أي: من يتولاهم بالنُّصْرَةِ والتحالفِ والمودَّةِ والمحبَّةِ، فإنه منهم، وفي هذا وعيدٌ شديدٌ للمنافقين ولضعافِ الإيمان من المؤمنين الذين يتولَّونَ اليهود والنصارى، وقد حكم ربُّ العزِ في ختامِ الآية بأنه لا يهدي القومَ الظالمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة:٥١].

وعنى بالقوم الظالمين الذين تولَّوا اليهودَ والنصارى، فكانوا سلماً لهم، وحرباً على المؤمنين، وهذا ظُلْمٌ وضلالٌ.

٢- مسارعة الذين في قلوبهم مرضٌ في موالاةِ ومصانعةِ اليهود والنصارى:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الذين في قلوبِهِمْ مرضٌ، أي: مرضُ النفاقِ والشكِّ في الدين، يسارعون في موالاةِ ومصانعةِ اليهودِ والنصارى، وأخْبرنا أنَّ هؤلاء الذين يسارعون في موالاةِ اليهودِ والنصارى يقولونَ معَلِّلين للسبب الذي دعاهم لموالاتهم: إنما نسارعُ في موالاةِ هؤلاء خوفاً من دائرةٍ تدورُ علينا من عدُوِّنا، والدائرة الحوادثُ والنكباتُ التي قد تُحوِجُهُمْ لليهودِ والنصارى ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢] وقد أمَرَ الله -تعالى- رسوله ﷺ أنْ يقولَ لهؤلاء: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة:٥٢].

وفي هذا ردٌّ على الذين في قلوبِهِمْ مرضُ الذين قالوا ذلكَ القولِ، وعلَّلوا ذلكَ التعليل، وقوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ ، و(عسى) من الله وَعْدٌ صادقٌ لا يتخلَّفُ، و(الفتح) ما أنْزَلَه اللهُ على رسولِهِ ﷺ في حروبهم من انتصاراتٍ، فقد انتصرَ الرسولُ ﷺ على يهودِ المدينةِ مرة بعد مرة، حتى طهَّرها منهم، ثم انتصر على يهودِ خيبرَ، ولم يزلْ يحاربُ المشركين حتى فتح مكَّةَ، ثم فتحتْ أُمَّتُهُ من بعده الجزيرةَ العربية كلها، وحاربوا فارسَ والرومَ وفتحوهما، وأخْبَرَ

أنْ هؤلاءِ الذين حلَّ مَرَضُ النفاقِ في قلوبِهِمْ يصبحون على ما أصرُّوا في أنفسهم نادمين، أي: يصبحون نادمينَ على ما كانوا قدَّرُوه وعلَّلُوه في أنفسهم، ويتبيَّنُ لهم أنَّهم كانوا مخطئين.

٣- تعجب المؤمنين من أمر المنافقين عندما ينكشف لهم حالهم:

أخبرنا عالمُ الغيبِ والشهادةِ العليمُ الحكيمُ بما سيقوله المؤمنون عندما ينكشفُ لهم حالُ المنافقين الذين أضْمَرُوا في صدورِهم موالاة اليهود والنصارى في حالِ دعواهم للمؤمنين كاذبين أنَّهم معهم، وحَلَفُوا لهم أنَّهم صادقون فيما يدَّعُونَه، فأعلمنا ربُّنا بما قاله المؤمنون في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة:٥٣].

أي: يقولُ المؤمنون متعجبين من حال المنافقين عندما زعموا كاذبين أنهم مع المؤمنين، وحلفوا لهم الأيمان المغلظة بالله على صِدْقِهم فيما زعموه، وكانت العاقبة في الآخرة أن حبطت أعمالهم، أي: بطلت، وبذلك أصبحوا خاسرين.

٤- إذا ارتدّ قومٌ عن الإسلام فلن يضُرُّوا الله شيئاً والله قادرٌ على أن يبدِّلهم بآخرين صالحين:

إنَّ هذا الدينَ لله ربِّ العالمين، وقد تكفَّلَ اللهُ بحفظه، فلا يستطيعُ أَحَدٌ تغييرَهُ، وتكفَّلَ بأن يهدي إليه من يقيمُهُ ويحفظُهُ ويحافظُ عليه، وقد نادى اللهُ المؤمنين مُحَذِّراً إياهم أنهم إنْ تركوا دينَهُم فسيأتي اللهُ بأقوامٍ غيرهم، يحبُّهُمْ ويحبونه، أذِلَّةٍ على المؤمنين، أعِزَّةٍ على الكافرين، يجاهدون في سبيلِ الله، ولا يخافونَ لومةَ لائم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة:٥٤].

إنَّ هذا الدينَ باقٍ إلى يوم القيامةِ، فإنِ ارتدَّ بعضُ معتنقيه في فترةٍ من الفترات، فقد تكفَّلَ اللهُ تعالى أنْ يأتي بقومٍ يحملونه، يتَّصِفُونَ بصفاتِ المؤمنين الصادقين، وقد ارتدَّ بعضُ العربِ بعد وفاةِ الرسولِ، فجاءَ اللهُ بغيرهم من العربِ، ودخلَ غيرُ العربِ في الإسلامِ من الفرس والروم والقبط وغيرهم.

وجاءَ الله بآل زنكي فقاوموا الصليبيين، ثم جاءَ بصلاحِ الدين الأيوبي الكرديِّ، فوقفَ في وجههم واسترجعَ القُدْس منهم، وجاءَ بالمماليك في مصر، ووقفوا في وجه التَّتارِ، وهزموهم في «عين جالوت». وأخيراً قامت الدولةُ العثمانية وحمتْ حمى الإسلامِ أكثر من أربعمائة سنة، فنصرةُ هذا الدين ليستْ وقفاً على العربِ دون غيرهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لا يجوزُ للمؤمنين أن يوالوا اليهودَ والنصارى وغيرَهُمْ من المشركينَ، أي: لا تجوزُ محبَّتُهُمْ ونصرتُهُمْ وإحسانُ الظنِّ بهم.

٢- مقتضى تحريم الموالاةِ بين المؤمنين والكافرين، أنه لا توارث بين المؤمنين والكافرين، ولا عَقْلَ، ولاَ ولاية نكاحٍ.

٣- اليهودُ والنصارى يوالي بعضُهم بعضاً، ويناصرُ بعضُهم بعضاً.

٤- إذا والى المؤمنُ اليهودَ والنصارى، فأحبَّهم، وتمنى لهم النصرَ، فإنَّه منهم، وحُكْمُهُ حكمُهُمْ في الكفر.

٥- المنافقونُ الذين أعْلَنوا الإيمانَ، وأبطنوا الكفرَ، يتولَّوْنَ الكفارَ، ويبغضون المؤمنين.

٦- علَّل الذين يتولَّوْنَ الكفارَ بأنهم يتولَّوْنَهُمْ خشيةَ أن تصيبهم المصائبُ والكوارثُ، فيريدون أن تكونَ لهم يدٌ عند اليهودِ والنصارى حتى ينالوا حُظْوَةً عندهم.

٧- اللهُ تعالى أبْطَلَ ظنَّ المنافقين، فكبتَ اليهودَ والنصارى والمشركين، وأنزلَ نصره بالمؤمنين.

٨- انكشف باطنُ المنافقين وأعْلَم اللهُ المؤمنين، بما كان يُكِنَّه هؤلاءِ، ففضح اللهَ المنافقين في الدنيا والآخرة.

٩- إذا ارتدّ بعضُ الذين ينسبون إلى هذا الدين، فاللهُ قادرٌ على أن يأتي بغيرهم ينصرونه ويؤيدونه.

النص القرآني الثامن عشر من سورة المائدة
وليُّ المؤمنينَ اللهُ ورسولُه والذين آمنوا

أولاً: تقديم

نهانا ربُّنا تبارك وتعالى في النص السابق عن تولِّي اليهود والنصارى، وبيَّنَ لنا في آيات هذا النص أنَّ ولينا على وجه الحقيقة اللهُ ورسولُه والذين آمنوا، فلا يجوزُ لنا أن نتولى أعداءَنا الذين اتخذوا ديننا هزواً ولعباً من أهل الكتابِ والكفارِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [المائدة:٥٥-٥٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- على المؤمنين تولّي الله ورسولهُ والذين آمنوا:

نهانا ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- في آياتِ النصِّ السابق عن تولِّي اليهودِ والنصارى، وبيَّن لنا في آيات هذا النص الوَليَّ الحقيقيَّ للمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة:٥٥]. فالمؤمنُ وليُّه على وجْهِ الحقيقةِ ربّه تبارك وتعالى، ورسولُهُ محمدٌ ﷺ ، والذين آمنوا، وبيَّنَ اللهُ نوعيةَ المؤمنين الذين يسْتَحِقُّونَ التولِّي، وهم الذين يقيمونَ الصلاةَ أي: يأتون بها على وجهها كما شرعها اللهُ تعالى، بشروطِها وأركانها وهيئاتها، ويؤتون الزكاةَ التي فرضها اللهُ عليهم، وينفقونها في الوجوهِ التي حدَّدها اللهُ تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة:٥٥].

وقوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ عنى بالركوعِ هنا الخشوعَ والخضوعَ لله تعالى، وقد أوردَ كثير من المفسرين أنَّ الآية عَنَتْ عليَّ بن أبي طالبٍ عندما تصدَّقَ وهو راكعٌ، ولم يصحَّ حديث في ذلك، ودَفْعُ الزكاة في الصلاةِ فعلٌ ينافي السكونَ الذي أُمِرْنا به في الصلاةِ، فلا يليقُ بعليٍّ أن يفعله.

٢- الذين يتولَّوْنَ اللهَ ورسولَهُ والمؤمنين هم حِزْبُ الله وهم الغالبون:

الناسُ حِزْبانِ: حزبُ الله، وحزبُ الشيطانِ، وحزبُ الله تعالى هم الذين يتولَّونَ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة٥٦] فإنهم حِزْبُ الله الغالبُ ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٦].

وقد ظهر عَبْرَ التاريخ الإسلاميِّ أنَّ حِزْبَ الله تعالى هم أنصارُهُ وأحبابُهُ وهم الفئة الغالبةُ المنتصرةُ، وهم الذين هزموا اليهودَ في العهد النبويِّ، وفتحوا أكثر الجزيرة العربية، وفتحوا في عهد الخلفاء الراشدين، بقية الجزيرة العربية، وحاربوا المرتدين كما فتحوا فارس والروم، ووصلوا إلى أوروبا، وفتحوا أكثر دول العالم.

٣- نهى اللهُ المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى والكفار أولياء:

نادى اللهُ -تعالى- المؤمنين ناهياً إيَّاهم عن اتخاذ الذين اتخذوا ديننا هزءاً ولعباً من اليهود والنصارى والكفارِ أولياء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة:٥٧].

وقبيحٌ بنا أن نحبَّ ونناصرَ الذين لم يحترمونا، ولم يحترموا ديننا، واتخذوا ديننا موضع هزءٍ وسخريةٍ، وقد كان اليهودُ يسخَرون برسولِنا ﷺ كلَّما سنحتْ لهم الفرصةُ، وكان الكفار يُكَذِّبون رسولَنا، ويزعمون أنَّه ساحرٌ، أو كاهنٌ، وقد تفنَّنَ العالمُ الغربيُّ اليومَ بالسخريةِ والاستهزاءِ برسولِنا ﷺ ، وقد كتبوا لا إله إلا الله محمد رسول الله على أسْفلِ النعالِ المعدّة للبيع، وكتبوها على الملابس الداخلية التي تلامس العورةَ، وكرَّم بعضُ رؤساء الدول الغربية هؤلاء الساخرين المستهزئين، ووضعوا اسم «مكة» على الأماكن المعدّة للفسقِ والفجورِ، وبنى بعضهم في الحدائق العامةِ مسجداً أطلقوا عليه اسم: «بيت الساحر» وحَشَوْهُ بكل ما هو مخيف ومرعبٌ، ليُكرِّهوا بني قومِهِمْ بالمساجِدِ.

وقد خَتَم اللهُ تعالى الآية آمراً إيانا بتقواه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة:٥٧] أي: أمرنا بخشيته ومخافتِهِ، ومعاداة هؤلاء الضالين الذين اتَّخَذُوا ديننا هزواً ولعباً.

٤- اتخاذُ الكفار الصلاةَ هزواً ولعباً عندما ينادى إليها:

أخْبرنا ربُّنا -عز وجل- في الآية السابقة أنَّ أهلَ الكتابِ والكفارَ اتخذوا ديننا هزواً ولعباً، وبيَّنَ في الآيةِ التالية بعض ما اتخذوه هزواً ولعباً وهو الصلاةُ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة:٥٨].

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أننا عندما نرفعُ الأذانَ، فإنهم يتخذون الأذانَ الذي نُؤَذِّنُ به، والصلاة التي نادي إليها موضعَ هزءٍ وسخريةٍ ولعبٍ، وقد حَكَمَ ربُّ العزةِ على هؤلاءِ الساخرينَ اللاعبين بصلاتنا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة:٥٨].

وحقٌّ على المؤمنين أن يتخذوا هؤلاء الذين اتخذوا صلاتنا هُزُواً ولعباً أعداءً، ولا نتخذُهُمْ أحباباً وأولياءَ.

٥- ما ينقمه أهل الكتاب منا:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يخاطب أهلَ الكتاب قائلاً: هل تنقمون مِنَّا، أي: هل تكرهون مِنَّا، وتنكرون علينا إلا إيماننا بالله، أي: توحيدنا له، وعبادتنا له مخلصين له الدين، وإيماننا بما أنزلَ اللهُ إلينا، وبكلِّ ما أنزلَهُ اللهُ على من قبلنا، وأننا نصِمُكم بالكفر، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة:٥٩].

وقد كان أهلُ الكتابِ منذ عهدِ الرسول ﷺ ولا يزالون إلى اليوم يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض، فاليهودُ يكفرون بعيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام، والنصارى يكفرون بمحمدٍ ﷺ ، وتلك جريمة نكراءُ، جرَّت عليهم الكفرَ والبلاءَ، فالكفرُ ببعضِ الرسل كفرٌ بالرسلِ كلهم، ودعواهم أنهم أصحابُ التقى والصلاحِ، كذبٌ وفجورٌ، وواقعُ حالهم أنَّ أكثرهم فاسقون خارجون عن طاعةِ الله.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- نهانا ربُّنا فيما سبق عن تولي اليهود والنصارى والكفار، وقرر في آيات هذا النص أن وليَّنا حقاً وصدقاً اللهُ ورسولُه والذين آمنوا.

٢- المؤمنون الذين يجبُ تولِّيهم هم الصادقون الذين يقيمون الصلاةَ ويؤتونَ الزكاةَ، ويخشون الله، ويتواضعون لجلالِهِ، وليسوا الذين يدَّعون الإيمان من غير عمل.

٣- المؤمنون الذين يتولَّوْنَ اللهَ ورسولَهُ والذين آمنوا هم حزبُ الله، وحزبُ الله دائماً هم الغالبون.

٤- قبيحٌ بالمسلمين أن يتولوا اليهودَ والنصارى الذين اتخذوا دينَنا هُزُواً ولعباً، فلهؤلاء منا الحربُ والعداءُ، لا الصحبةُ والولاءُ.

٥- من صورِ استهزاءِ الكفارِ بديننا أنهم يتخذون صلاتَنا موضعَ سخريةٍ، وهؤلاء وصمهمُ القرآنُ بعدم العقلِ.

٦- بيَّنَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ سببَ كراهيةِ أهلِ الكتابِ تتمثل في إيماننا بالله تعالى، وإيماننا بجميع رسلِ الله، ووَصْمِنا لأهل الكتاب بأنهم فاسقون.

النص القرآني التاسع عشر من سورة المائدة

أولاً: تقديم

شنَّ ربُّ العزة حملةً عنيفةً شديدةً على اليهود الذين يقفون موقفَ الساخرِ بديننا وصلاتِنا، وأظهَرَ ربُّنا ما تلطَّخوا به من عيوبٍ وقاذورات وصفات دنسة، وأبان كُفرَهُم ونفاقَهُم، ومسارعَتهم في الإثم والعدوان وأكلهم الحرام.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾ [المائدة:٦٠-٦٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذمَّ اللهُ اليهودَ بإظهارِ الصفات المذمومة الكامنة فيهم:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يواجِهَ اليهودَ الذين اتخذوا ديننا هزواً ولعباً، ويقولَ لهم: أيُّها اليهودُ: أنتم شرٌّ مثوبةً عند الله، والمثوبةُ الثوابُ، لا فرقَ في ذلك بين مثوبةِ الخير ومثوبة الشر، والمرادُ بها هنا مثوبة الشر، ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ﴾ [المائدة:٦٠].

ثم بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الذين هم أشرُّ مثوبةً عنده الذين لعنهم وغَضِبَ عليهم، وجَعَلَ منهم القردةَ والخنازير وعبَدَ الطاغوتِ ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ﴾ [المائدة:٦٠].

ولعْنُ الله تعالى لهم طرْدُه لهم من رحمته، وإحلالُ سخطه بهم، وغضبه عليهم، ومَنْ غَضِبَ الله عليه أذلَّه وأهانَهُ، والقرآنُ حافلٌ بذكر اللعْنِ والغضبِ الذي أحَلَّهُ تعالى باليهودِ، فمن ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ﴾ [البقرة:٦١] وقوله فيهم: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ﴾ [النساء:٤٧] وأخبرنا أنهم لُعِنوا على لسانِ

نبيِّه: داود وعيسى ابنِ مريم ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ﴾ [المائدة:٧٨].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بأنه مسخَ طوائفَ منهم قردةً وخنازيرَ، وجعل منهم عبَّادَ الطاغوت: ﴿ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ ﴾ [المائدة:٦٠] ومن الذين مَسخَهم اللهُ قردةً الذين اعتدوا بالصيد في يوم السبت ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [البقرة:٦٥]. وسيأتي الحديثُ عن هذه الواقعة في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى.

وجعل اللهُ من بني إسرائيلَ عبدَ الطاغوتِ، أي: عُبَّادَ الطاغوت، والطاغوت الذي نَصَبَهُ البشرُ إلهاً يعبدونَهُ من دون الله، كالأصنام والأوثان والشمسِ والقمرِ والنجومِ والبقر والشجر، وأعظمُ الطواغيتِ الشيطانُ.

وقوله تعالى في خاتمة الآية: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المائدة:٦٠] أي: هؤلاء الذين تحدَّث عنهم من اليهود شرٌّ مكاناً فيه إثباتُ الشر للمكان، والمرادُ أهلُهُ من اليهود، وقوله: ﴿ وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾، أي: أكثر ضلالاً عن الصراط المستقيم.

٢- دعواهم الإيمانَ وهم كافرون:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ طائفةً من اليهود كانوا منافقين، يزعمون عندما يدخلون على المؤمنين أنهم مؤمنون، وأعلمنا العليمُ الخبيرُ أنهم كاذبون فيما يزعمونه، فهم عندما دخلوا على المؤمنين دخلوا مصاحبين الكفرَ، وعندما خرجوا خرجوا مصاحبين له، واللهُ تعالى عليمٌ بما كتموه وأخْفَوْه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المائدة:٦١].

قال قتادةُ: «هؤلاء أناسٌ من اليهود كانوا يدخلون على النبيِّ فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاء به، وهم مستمسكون بضلالتهم وكفرِهم، وكانوا يدخلون بذلك، ويخرجون به من عند نبيِّ الله ﷺ» [تفسير الطبري: ٤/ ٤٩٤٣].

٣- مسارعةُ اليهود في الإثم والعدوان وأكلهم السحتَ:

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أنه يرى كثيراً من اليهود يسارعونَ في الإثم والعدوان وأكْلِ السحتِ، والإثمُ الكفرُ والذنوبُ والمعاصي، والعدوان مجاوزة الحدِّ الذي حدَّه اللهُ لهم، ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ ﴾ [المائدة:٦٢] وقد ذمَّهُم

اللهُ تعالى بقولِه تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ و(بئس) كلمةُ ذمٍّ، أقْسَم الله تعالى أنه بئسَ العملُ ما كان يعمله هؤلاء اليهود الذين كانوا يسارعون في الإثم والعدوان وأكلِ السحتِ.

٤- حَضَّ اللهُ الربانيين والأحبارَ على الإنكار على قومهم قولَ الإثمِ وأكلَ السحتِ:

حَضَّ اللهُ -تبارك وتعالى- الربانيين والأحبارَ، وهم علماءُ اليهودِ على نَهْيِ قومهم من اليهود عن قولهم الإثمَ، وأكلهم السحتَ ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة:٦٣].

وقد ذمَّ اللهُ الربانيين والأحبارَ بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة:٦٣]. وفي هذا توبيخٌ شديدٌ للربانيين والأحبارِ، وقد نقل ابنُ جريرٍ الطبريِّ عن ابن عباسٍ قولَهُ: «ما في القرآن آية أشدُّ توبيخاً من هذه الآية» [تفسير الطبري: ٤/ ٢٩٤٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اليهودُ الذين يواجهوننا ويحاربوننا فيهم صفاتُ الضلال والنقص، فقد لعنهم اللهُ، ولعنَتْهُمُ الأنبياءُ، وغضِبَ اللهُ عليهم، ومسخَ بعضَهم قردةً وخنازيرَ، وعبدوا الطاغوتَ، ومن اجتمعتْ فيهم هذه البلايا كانوا من أشرِّ خلق الله.

٢- كثيرٌ من الذين ادَّعَوْا الإيمانَ من اليهود في العهد النبوي كانوا كاذبين منافقين.

٣- ذمَّ اللهُ اليهودَ لمسارعتهم في الكفرِ، وتجاوزهم الحدَّ فيما شرعَهُ اللهُ لهم، وأكلِهِمْ ما حرَّم اللهُ عليهم من الرشا وغيره.

٤- أنكرَ اللهُ على علماء اليهود ووبَّخَهم لعدم نهيهم قومَهُمْ عن قولِ الإثم وأكلِ السحتِ.

النص القرآني المتمم للعشرين من سورة المائدة
دعوى اليهود الضالين أن يد الله مغلولة

أولاً: تقديم

لم يقف الفسقُ والضلال باليهود عند رَمْيهم الرسولَ ﷺ والمؤمنين بما رموهم به، بل تعداه إلى وصف الله بما لا يليقُ، وشتمهم رب العزة، وزعمهم كاذبين أن يد الله مغلولةٌ، وأنه فقيرٌ وهم أغنياءُ، فكان جزاؤُهم أن يحكم اللهُ عليهم بأن تُغَلّ أيديهم، فيصبحوا أكثرَ شعوب الأرض بخلاً، ولعنهم، وأكذبهم فيما زعموه، فيداه مبسوطتان ينفقُ كيف يشاء.

ومع كذب اليهود على رب العزة وافترائهم عليه، فإنه دعاهم إلى الإيمان به، ورغَّبَهم فيه، وبيَّن لهم ما سيجنونَه من خيراتٍ في الدنيا والآخرة، وتعهَّدَ اللهُ لرسولِه ﷺ بعصمته ممن يريد به شرًّا، وأمره أن يبلِّغ ما أوحاه الله إليه، فلا يكتم منه شيئاً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة:٦٤-٦٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- دعوى اليهود أن يد الله مغلولةٌ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن اليهودَ ادَّعوْا كاذبين أنَّ يد الله مغلولة ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤] ومرادُهم بالمغلولة: البخيلةُ التي لا تُنفق، ولليهود مقالاتٌ شنيعةٌ في حق الله تعالى غير هذه المقولة لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]. وقد ردّ اللهُ عليهم فيما قالوه، وقابلَ قولَهُمْ المفترى المختلقَ بالحكمِ عليهم بالبُخلِ واللَّعن، وأعلمنا أن

يديه سبحانه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤].

ولا شك أنَّ اليهودَ الذين قالوا هذه المقالة الخبيثة يستحقُّون ما وصَمَهُمْ به رب العزة، فقد قال فيهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:٦٤] وقد لبستهم هذه الصفة، فهم أبخل الناس، قال الشوكاني: «البخلُ لَزِمَ اليهود لزوم الظل للشمس، فلا ترى يهوديًّا، وإن كان مالُه في غاية الكثرة، إلا وهو أبخل خلق الله» [فتح القدير: ٢/ ٨١].

وقوله: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة:٦٤] أي: طرَدَهم الله من رحمته وجنته، وأفسد قلوبهم وخبَّثها، بسبب كذبهم على ربِّهم وافترائهم عليه.

٢- يدا ربِّنا -تبارك وتعالى- مبسوطتان ينفقُ كيف يشاء:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- في ردِّه على اليهود أنَّ ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال البغوي: «يدُ الله صفةٌ من صفاته، كالسمع والبصر والوجه، وقال جلّ ذكره: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] وقال النبي ﷺ: «كلْتا يديه يمينٌ» [مسلم: ١٨٢٧] واللهُ أعلم بصفاته، فعلى العباد الإيمانُ والتسليم» [تفسير البغوي: ٣/ ٧٦].

وقد حدّثنا رسولُنا ﷺ في الحديث الذي يرويه أبو هريرة، قال: «إنَّ يمينَ الله ملأى، لا يغيضُها نفقةٌ، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم ينقص ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض، أو القبض يرفع ويخفض» [البخاري:٧٤١٩. ومسلم: ٩٩٣].

٣- ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾:

أخبر اللهُ وهو العليم الحكيم رسولَه محمداً ﷺ أن ما أنزله اللهُ عليه، وهو هدىً ورحمةٌ للمؤمنين، سيزيدُ اليهودُ طغياناً وكفراً، والطغيانُ: المبالغةُ والمجاوزةُ للحد، والكفرُ التكذيبُ ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:٦٤].

وقد وردت كثيرٌ من الآيات تبين هذا المعنى وتؤكِّده، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤]. وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا

خَسَارًا ﴿٨٢﴾ [الإسراء:٨٢]. ومن نظر في حال اليهود قديماً وحديثاً وجد فيهم مصداقَ ما جاء في هذا النص، فهم في طغيانٍ مستمرٍ، وفي كفرٍ مضاعفٍ.

٤- ألقى اللهُ العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى:

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنه ألقى العداوة بين اليهود والنصارى، فاليهودُ متعادون فيما بينهم، والنصارى متعادون فيما بينهم، واليهودُ والنصارى متعادون فيما بينهم ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة:٦٤].

وهذه العداوةُ التي ألقاها الله فيما بينهم، لأنهم حرّفوا الحق الذي بين أيديهم، وخالفوهُ وكذّبوه، واختصموا فيما بينهم في الدين.

٥- اليهودُ موقدو نيران الحروب:

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ موقدو نيران الحروب بين الناس، وهم في ذلك يريدون الإفسادَ في الأرض، وكلُّ ذلك ليرضوا أهواءَهم، ويحققوا رغبات نفوسهم ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

واليهودُ قديماً وحديثاً يقومون على مصانع السلاح، ويوقدون نيران الحروب، ويوجدون الأسباب التي تؤدي إلى ثورانها، كي تتدفق أسلحتهم إلى الخصوم المتقاتلين، وتنسابُ أموال المتقاتلين إلى خزائنهم، والله -تبارك وتعالى- يطفئُ نيرانَ الحروب التي يشعلونها، وأخبرنا اللهُ -عز وجل- أن اليهودَ يسعون إلى إفساد الأرض على المستوى العالمي، ولذلك ترى آثار إفساد اليهود في مختلف أقطار العالم، واللهُ لا يحبُّ المفسدين.

٦- ترغيب أهل الكتاب بالإيمان:

رغَّب اللهُ -تبارك وتعالى- أهل الكتاب بالإيمان وتقوى الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ [المائدة:٦٥]

يقولُ ربُّ العزة: لو أن اليهودَ والنصارى آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واتبعوا رسولَنا محمداً ﷺ، واتَّقوا اللهَ بفعلهم الطاعات، وتركِهِمُ المنكرات، لكفَّرنا عنهم ذنوبهم التي اقترفوها، ولأدخلناهم جنات النعيم في الآخرة.

وزادهم ترغيباً بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة:٦٦].

وإقامة اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وإقامتهم لما أنزل إليهم من الدين الذي أنزلَه على رسولنا ﷺ توجِبُ عليهم الإيمانَ برسولنا ﷺ واتباع ما جاءَ به، فالتوراة والإنجيل والقرآنُ كلُّها تأمر اليهودَ والنصارى باتباع محمدٍ ﷺ واتباع ما جاء به ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وأخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنهم لو أقاموا التوراة والإنجيلَ على النحو الذي ذكرناه، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، عنى بالذي من فوقهم المطر النازل من السماء، وبالذي من تحت أرجلهم الرزق النابت من الأرض، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦] ومنه قولُ نوحٍ لقومه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح:١٠-١٢] وقوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ ﴾ أي: مؤمنةٌ، وهم الذين دخلوا في الإسلام ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ وهم الكفارُ من اليهود والنصارى.

٧- أمرُ الله رسوله ﷺ أن يبلِّغ جميع ما أوحاه الله إليه:

نادى ربُّ العزة رسولَه ﷺ آمراً إياه أن يبلِّغ جميع ما أوحاه اللهُ إليه ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾ [المائدة:٦٧] وأعلمه سبحانه أنه إنْ كتم شيئاً مما أنزله إليه فما بلَّغ رسالته ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴾ [المائدة:٦٧] وتعهَّد له بأن يعصمه من الناس، أي: يمنعَهُ ممن أراد به سوءاً ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة:٦٧] وأعلمنا ربنا -تبارك وتعالى- أنه لا يهدي القومَ الكافرين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة:٦٧] أي: لا يوفِّقُهُم، ولا يدُلُّهم على طريق الخير.

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ رسولَنا ﷺ بلَّغ جميعَ ما أوْحاه اللهُ إليه، ولم يكتم منه شيئاً، فمن زعم أن رسولَنا كتم شيئاً من الوحي، فقد كذَّب الله فيما أخبر -تعالى- به، تقولُ عائشة رضي الله عنها: «من حدَّثَك أن محمداً كتَمَ شيئاً مما أنْزَلَ اللهُ إليه، فقد كذب، والله يقولُ ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾» [البخاري: ٤٦١٢. ومسلم: ١٧٧ مطولاً]. وعنها أيضاً قالت:

«من زعَمَ أن رسولَ الله كَتَمَ شيئاً من كتابِ الله فقد أعظم على الله الفِرْية» [البخاري: ٤٦١٢. ومسلم: ١٧٧ واللفظ لمسلم].

وقد تكفَّل اللهُ لرسوله ﷺ أن يحفظه من الناس، فلا يصل إليه أحد يريد قتله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧]، وقد كان الصحابةُ يحرسون الرسولَ ﷺ قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت أمرهم بالانصراف عنه، وأخبرهم أن الله عصمه.

روى عبدالله بن عامر بن ربيعة قال: سمعتُ عائشة رضي الله عنها تقولُ: كان النبي ﷺ سَهِرَ، فلما قَدِمَ المدينة، قال: «ليتَ رجلاً من أصحابي صالحاً يحرُسُني الليلة». إذ سمعنا صوتَ سلاحٍ، فقال: «من هذا». فقال: أنا سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ جئتُ لأحرُسَكَ ونامَ النبيُّ ﷺ [البخاري: ٢٨٨٥. ومسلم: ٢٤١٠].

فلما أنْزَلَ اللهُ هذه الآية أمَرَ الذين كانوا يحرسونَهُ بترك الحراسة، وقد حاولَ اليهودُ قتلَه أكثر من مرَّة، وحاول بعضُ العرب من قريشٍ وغيرها أن يفْتُكُوا به، فحماه ربُّ العزة، وحفظه، وأذهبَ كيْدَهُمْ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- تجرأ اليهودُ على ربِّ العزة، ووصفوه بقبيح الصفات، فقالوا: يدُ الله مغلولةً، وقالوا: إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحن أغنياءُ، وقالوا: إنه تعبَ عندما خَلَقَ السموات والأرض، فاستراحَ في اليوم السابع، تعالى الله عما يقولونهُ علواً كبيراً.

٢- أعْلمنا اللهُ ربُّنا أن اليهودَ بخلاءُ، وهم ملعونونُ بسبب ما وصفوا اللهَ به.

٣- اللهُ جوادٌ كريمٌ، كثيرُ العطايا والهباتِ، لا يعجزُه شيء من البذل والعطاء.

٤- اللهُ -تبارك وتعالى- له يدان، كما له ذاتٌ ووجهٌ، وهو لا يشبه أحداً من خلقِهِ، وصفاتُه لا تشبه شيئاً من صفات خلقه.

٥- اليهودُ والنصارى يكفُرون بما أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فيزدادون طغياناً وكفراً.

٦- كثرةُ النزاع والاختلاف بين طوائف اليهود، وبين طوائف النصارى، وبين اليهود والنصارى.

٧- دعا اللهُ أهل الكتاب إلى الإيمان به وبرسوله، وأخبر أنهم لو آمنوا واتقوا لكفَّر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم الجناتِ في الآخرة، ولأنزلَ اللهُ لهم الخير من السماء، وأنبت لهم نباتَ الأرض في الدنيا.

٨- أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يُبَلِّغَ جميعَ ما أنزله الله إليه، وتكفَّلَ له بحفظه، فلا يستطيع أحدٌ أن يُهْلِكَه قبل إبلاغِهِ الرسالة.

٩- الرسولُ ﷺ لم يكتم شيئاً مما أوحاه الله إليه، كما يدّعي بعضُ الذين ينسبونَ إلى الإسلام.

النص القرآني الحادي والعشرون من سورة المائدة
لا قيمة لليهود والنصارى عند الله حتى يقيموا ما أُنزل من عند الله

أولاً: تقديم

لا يزالُ الخِطابُ في آياتِ هذا النص جارياً مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقد أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ أنْ يخاطبَ أهْلَ الكتاب، ويعلمهم أنه لا قيمةَ لهم ولا وزنَ عند الله تعالى، حتى يقيموا التوراة التي أُنزلتْ على موسى، والإنجيل الذي أُنزلَ على عيسى عليهما السلام، ويقيموا ما أُنزل إليهم من ربهم، والمرادُ بالذي أنزل إليهم من ربهم القرآن الذي أنزل على محمدٍ ﷺ، فإنه منزلٌ للعرب واليهود والنصارى والناس جميعاً.

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ القرآن المنزلَ على عبده ورسوله محمد لا يزيدُ أكثرهم إلا طغياناً وكفراً، بسبب رفضهم له، وتكذيبهم ومحاربتهم للرسول الذي جاء به، وللصحابة الذين آمنوا.

وأشادَ اللهُ بالفئة المؤمنة الخيرة الفاضلة، وفي ذلك ردٌّ على بني إسرائيل الذين يدَّعون أنهم الأفضلُ والأكملُ، وذمَّ الله بني إسرائيل لنقضهم ميثاقهم مع ربهم واعتدائهم على رسله بالتكذيب والقتل، ورسوبهم فيما امتحنهم الله -تعالى- به.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

[المائدة:٦٨-٧١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اليهودُ والنصارى ليسوا على شيءٍ حتى يقيموا التوراة والإنجيل والمنزل إليهم من ربهم:

أمَرَ الله -تعالى- رسولَه محمداً ﷺ أنْ ينادي اليهودَ والنصارى قائلاً لهم: لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨].

وقوله: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: ليس لكم وزنٌ ولا مكانةٌ عند الله تعالى، وإقامَتهم للتوراة والإنجيل تكونُ بأخْذِهم ما فيهما، وقد أمرهم فيهما بالإيمان برسولنا ﷺ عندَ بعثتِهِ، واتباعِهِ، واتباع ما جاء به.

وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ المرادُ به ما أنزله على عبده ورسوله محمدٍ ﷺ ، فإنه منزلٌ للناس جميعاً، لا فرق بين العرب واليهود والنصارى وغيرهم، وهو يأمرهم باتباع هذا الدين، وتحقيقه في حياتهم.

وأخبر اللهُ -تعالى- رسوله محمداً ﷺ أنَّ المنزلَ إليه من ربِّه سيزيدُ اليهودَ طغياناً وكفراً ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:٦٨] والطغيانُ تجاوزُ الحدّ في العصيان، والكفرُ هنا الإغراقُ بتكذيب الله ورسوله ﷺ ، وإنما زادهم المنزلُ من عندِ الله طغياناً وكفراً، لأنه يزيدُهم تكذيباً للحق، ويزيدهم إغراقاً في مقاومته وردِّه ودفعه، ومحاربة أهله، وقد واسى اللهُ رسولُه ﷺ ناهياً إياه أن يأسى على القوم الكافرين، ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة:٦٨].

والأسى الذي نهى اللهُ رسولَه ﷺ عنه الحزن، وحقيقته: اتباع الفائت بالغمِّ.

٢- الطائفة الخيِّرةُ من الناس:

ادَّعى كلُّ طائفةٍ من الناس بأنهم الأفضل والأكمل، وقد ادَّعى هذه الدعوى كلٌّ من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين، وقد حكى اللهُ فيما سبق أن اليهود والنصارى ادَّعوا أنهم أبناءُ الله وأحباؤه، وأنَّ كلَّ فريقٍ منهم أصحابُ الجنة دون غيرهم، وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أن الطائفة الخيِّرة الفضلى هي التي تتصف بأمرين: الأول: الإيمانُ بالله واليوم الآخر، ومن آمن بالله آمن بكل ما أخبر به، ومن ذلك الإيمانُ بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر. والثاني: عملُ الصالحاتِ من الواجبات والمستحبات التي شرعها اللهُ، كالصلاة

والزكاة والصوم والحج وغيرها. فكلُّ الطوائف من المؤمنين والذين هادوا والنصارى والصابئين وغيرهم إذا آمنوا وعملوا الصالحات، فهم من الفئة الخيرة الصالحة، وهؤلاء في حفظ الله تعالى، فلا خوفٌ عليهم في الدنيا، ولا هم يحزنون في الآخرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة:٦٩].

﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ محمولٌ على التأخير، مرفوعٌ بالابتداء، والمعنى: أنَّ الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فلا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك أيضاً [زاد المسير: ٢/ ٣٩٩].

وقد سبق تفسيرُ نظير هذه الآية في سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة:٦٢] وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما خلَّفوه من الذرية، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على من سيأتي عليهم بعد الموت.

٣- موقفُ بني إسرائيل من الميثاق الذي أخذه عليهم والرسل الذين أرسلهم إليهم:

أخبرنا العليم الخبير -سبحانه وتعالى- عن الموقف الذي وقفَهُ اليهود من الميثاق الذي أخذه اللهُ عليهم، والرسل الذي أرسلهم إليهم ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة:٧٠].

والميثاقُ: «عَقْدٌ مُؤَكَّد بيمينٍ وعَهْدٍ» [المفردات: ص٥١٢]. وقد أخذ الله على بني إسرائيل جملةً من المواثيق، أعظمُها أن يعبدوه وحده لا شريك له، ويدخل في هذه المواثيق كل التكاليف التي كلفهم اللهُ تعالى بها، وأرسل إليهم رُسُلَهُ، يحملون إليهم دينَه وشريعتَهُ، فنقضوا عَهْدهم مع ربِّهم، وكلما جاءَهم رسولٌ مخالفاً لأهواءِ نفوسهم، ردُّوا عليه ما جاءَهم به، فكذَّبوه، بل جاوزوا ذلك إلى سفك دماء الرسل، وإزهاق أرواحهم.

٤- عمى بني إسرائيلَ وصَمَمُهمْ مرةً بعد مرة:

أخبرنا ربُّنا العليمُ الحكيمُ- سبحانه وتعالى- أنَّ بني إسرائيل ظنوا أنَّ الله -تعالى- لن يبتليهم، ولن يختبرهم بالشدائد والعقوبات، فعموا عن الحق الذي أنزله إليهم، وصمُّوا عن

سماع الوحي الذي جاءَهم من عنده، فأصابهم اللهُ بالمصائب والنكبات، وسلَّط عليهم نبوخذ نصر وجندَه، فقاتلوهم، وهزموهم، وهَدَمُوا دولَتهمُ، وسبوا رجالهم ونساءَهم، ثم تابَ الله عليهم، وأعادهم إلى ديارهم، وأعادَ لهم دولتهم، ثم عَمُوا وصمُّوا كثيرٌ منهم مرةً أخرى، فسلَّط اللهُ عليهم عدوهم بعد رفع المسيح، فدمَّرهم وأبادَهم، وطُردوا من أرضهم، وأخذ الرومان مدينتهم، وهدموا هيكلهم، وحلَّت نقمةُ الله بهم ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المائدة:٧١].

والمراد بقوله: ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ أي: عميتْ بصائرهم عن الحق، ورفضوا الدين المنزلَ إليهم من ربِّهم، فأصبح حالهم حالُ الذي فقد حاسَّة السمعِ فهو لا يسمع.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- قيمةُ كل قومٍ عند ربِّهم بحسب إقامتهم للكتب التي أنزلها اللهُ تعالى إليهم، واليهودُ والنصارى ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراةَ والإنجيل علماً وعملاً.

٢- بعد بعثة محمدٍ ﷺ أوجبَ على اليهود والنصارى الإيمانَ به ومتابعته، أمَرَهم بذلك في التوراة والإنجيل، ورسولُنا مرسلٌ إلى الناس كُلِّهم وفيهم أهلُ الكتاب.

٣- أرسلَ اللهُ رسولَهُ محمداً، وأنزلَ اللهُ عليه القرآنَ، لهداية الناس وصلاحِهم، فأعرضَ عنه أهلُ الكتاب ورفضوه، فزادهم ذلك طغياناً وكفراً وضلالاً.

٤- الفئة الخيِّرةُ المقبولة عند الله هم المؤمنون بالله واليوم الآخر لا فرق في أن يكون هؤلاء من الأمة الإسلامية أو اليهود أو النصارى أو الصابئين.

٥- يشترطُ في الفئة الخيرة أن يكونوا مؤمنين بالله، والمؤمنُ بالله مؤمنٌ بكل ما جاء من عنده فيلْزَمُ أن يؤمنَ برسلِ الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه من الله تعالى.

٦- المؤمنون بالله واليوم الآخر الذين يعملون الصالحات هم الفئة الخيرةُ، واللهُ حافظٌ لهم في الدنيا، وليس عليهم حُزْنٌ في الآخرة.

٧- ذمَّ الله بني إسرائيل لنقضهم عهودَهم مع ربهم، وكُفرهم برسله، فقد كذَّب بنو إسرائيل طائفةً من الرسل، وقتلوا آخرين منهم.

٨- اختبر اللهُ بني إسرائيل بأنواعٍ من الاختبارات، فعموا عن الحق، وأصمُّوا آذانهم عما جاءَهم من عند الله، ثم تابَ الله عليهم، ثم عادوا إلى عماهم وصمَمِهِمْ، والله بصيرٌ بهم، عالمٌ بما يعملونه.

النص القرآني الثاني والعشرون من سورة المائدة
الذين يزعمون أن عيسى ابن الله كُفَّارٌ

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين ادَّعوا أنَّ عيسى ابنَ مريم هو ابنُ الله كفارٌ، وهم مخالفون لما جاء به المسيحُ ﷺ، فالمسيحُ أمرهم بعبادة الله وحدَهُ، وأخبرهم أنَّ من أشركَ بالله فقد حرَّمَ اللهُ عليه الجنةُ، ومأواهُ النارُ، وهو من الظالمين، وليس للظالمين من أنصارٍ.

وأخبرنا سبحانه بكفر الذين قالوا: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة، وأعلمنا ربنا أنّ اللهَ إلهٌ واحدٌ، وتهدَّدَ الذين يشركون به، وبين حقيقة عيسى وحقيقة أمِّه، وأنَّهما كانا من البشر يأكلان الطعام.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كُفْرُ الذين قالوا إنَّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريمَ والذين قالوا إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ:

أخبرنا الحقُّ -تبارك وتعالى- أنَّ الذين يزعمونَ من النصارى أنَّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريمَ كفار، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن المسيح ابن مريم ﷺ تبرأ من هذه الفرية التي افتراها عليه أتباعُهُ، فقد قال في حياته لبني إسرائيل: اعبدوا اللهَ ربي وربكم، وقال لهم: إنَّه من

يشركْ بالله فقد حرَّمَ اللهُ عليه الجنةَ ومأواه النارُ، وما للظالمين من أنصار ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:٧٢].

وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن كُفْرِ الذين قالوا: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة:٧٣] يريدون بالآلهة الثلاثة: الله، وعيسى، ومريم، وقد ردَّ اللهُ على ضَلالهم وبهتانهم فيما ادَّعوه وزعموه فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [المائدة:٧٣] فليس هناك ثلاثةٌ من الآلهة، والإلهُ الحق هو إلهٌ واحدٌ، وهو اللهُ سبحانه، وتهدَّد الذين قالوا هذه المقالةَ الشركية ورهَّبهم فقال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [المائدة:٧٣] أي إن لم يتركوا هذا الكذب الذي يفترونه ويقولونه فإنه سيمسُّ هؤلاء الكفارَ عذابٌ أليمٌ.

٢- سعةُ مغفرةِ الله عز وجل:

يغفرُ اللهُ تبارك وتعالى الذنوبَ مهما عظمتْ وكبرتْ، فقد أخبرنا أنَّ الشركَ أعظمُ الذنوب، ومن الشرك الأعظم نسبةُ الولد إلى الواحد الأحد، فلعظم هذاالذنب تكادُ السموات تتفطرُ، وتكادُ الأرض أن تنشقُّ، وتكادُ الجبالُ أن تدكَّ وتزولَ ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ [مريم:٨٨-٩١].

ومع عظم جريمة هؤلاء فإنَّ اللهَ تعالى دعا هؤلاءِ الذين ارتكبوا هذه الجريمة النكراءَ إلى التوبة والاستغفار، ولم يَدْعُهم ربُّ العزة إلى ذلك إلا وهو يريدُ أن يغفر لهم إذا تابوا، فهو الغفورُ الرحيم سبحانه، ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة:٧٤].

٣- حقيقةُ عيسى ابن مريمَ عليه السلام :

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآيات حقيقة عيسى عليه السلام وحقيقةَ أمِّه مريمَ، فقال: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة:٧٥] فالمسيحُ عيسى عليه السلام خَلْقٌ مِن خَلْقِ الله، مخلوقٌ لعبادةِ الله، وحاله كحال

الرسل الذين خَلَوْا من قبله، أي: الذين مَضوا من قبله، فهو ليس كما يقولُ اليهودُ: إنه ابن زنى، وإنه كاذبٌ في دعواه الرسالة، وليس كما يزْعُمُ النصارى أَنَّه اللهُ أو ابنُ الله، وأمُّه مريمُ عليها السلام صدِّيقَةٌ، والصديقُ مرتبةٌ تأتي بعد النبوَّة، ومن الصديقين أبو بكر ﷺ، وهذا يردُّ على ابن حزم في دعواه أن مريمَ نبيَّة، ومثلها عنده سارةُ أمِّ إسحاق، وكذلك أمُّ موسى، واحتجَّ على ذلك بمخاطبة الملائكة لهنَّ، وهذا غيرُ صحيح، فقد خاطبت الملائكةُ الأقرعَ والأبرصَ والأعمى والمذكورين في الحديث، وقد كفر الأقرع والأبرصُ، ويدلُّ على عدم صحة القول بنبوتهم قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ [يوسف:١٠٩].

وقد أخبر اللهُ تعالى أنَّ عيسى وأُمَّه مريمَ ﴿ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ﴾ [المائدة:٧٥]. وهذا يدلُّ على أنهما لا يصلحان للألوهية من وجهين: الأولُ: أن المحتاجَ إلى الطعام والغذاء لا يصلح أن يكون إلهاً لأنه فقير محتاج إلى غيره. والثاني: أن الذي يأكلُ الطعامَ ويشربُ الشرابَ يخرجُ منه الفضلاتُ والقاذوراتُ، ومن كان كذلك لا يصلح أن يكون إلهاً.

وقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ ﴾ [المائدة:٧٥] أي: انظر وتأمل كيف نبيِّنُ الآيات الواضحات الظاهرات الدالة على الحقِّ، ثم انظر كيف يؤفك هؤلاء، أي: يصرفون عن هذا الحقِّ.

٤- الذي لا ملك لغيره نفعاً ولا ضرًّا لا يصلحُ أن يكون إلهاً:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يخاطبَ الذين يعبدون من دون الله آلهةً باطلةً، وفيهم الذين يعبدون عيسى ﷺ، فيقولُ لهم: أتعبدون من دون الله ما لا يملكُ لكم ضرّاً ولا نفعاً، فالأصنامُ والأوثانُ والأمواتُ التي يعبدها بعضُ الجهلة لا تملك لنا ضرّاً ولا نفعاً، والذي لا يملك لنا ضرّاً ولا نفعاً لا يصلحُ أن يكون إلهاً، وألوهيتُهُ باطلةٌ ﴿ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦ ﴾ [المائدة:٧٦] أي: السميع لأقوال عباده، العليمُ بأعمالهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الذين يقولونَ: إن الله تعالى هو المسيح ابنُ مريم كفار، وهم مخالفون لما جاء به المسيح، فقد أمرهم المسيحُ عندما كان بينهم بأن يعبدوا اللهَ وحده، ولا يشركوا به شيئاً.

٢- المشركُ بالله حرَّم الله عليه الجنة، ومصيرُهُ النار، ولا ناصرَ له يومَ القيامة.

٣- الذين زَعموا أنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ كفَّار، فاللهُ هو المعبودُ الذي يستحقُّ العبادةَ دون غيره.

٤- الله واسعُ الرحمةِ والمغفرة، وقد دعا ربُّ العزة الذين نسبوا الولدَ إليه إلى التوبة والاستغفار، فالله تعالى لا يعجزهُ أن يتوبَ على أحدٍ مهما عظُم ذنبه.

٥- عيسى من بني آدم، خَلَقه اللهُ، وأرسله إلى بني إسرائيل، وكان وأمُّه يأكلان الطعامَ، ومن احتاجَ إلى الطعام لا يصلحُ لأن يكون إلهاً، فآكلُ الطعام فقير محتاجٌ إلى غيره، ومن أكل الطعام خرجَ منه البولُ والعذرةُ، فكيفَ يكون إلهاً.

٦- الآلهةُ المزعومةُ، وهي كلُّ ما عُبِد من دون الله لا تملكُ لغيرها نفعاً ولا ضرّاً، والذي لا يملكُ لغيره نفعاً ولا ضرّاً لا يصلح أن يكون إلهاً.

النص القرآني الثالث والعشرون من سورة المائدة
نهى اللهُ أهلَ الكتابِ عن الغلوِّ في الدين

أولاً: تقديم

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- أهَلَ الكتابِ عن الغلوِّ في الدين، ونهاهم عن اتباعِ الأمم الضالة من قبلهم، وأخبرنا ربُّنا بلعن نبييه داود وعيسى عليهما السلامُ للذين كفروا من بني إسرائيلَ، وعدَّد ربُّ العزة جملة من الجرائم التي ارتكبها أهل الكتاب، فاستحقوا بها اللعن.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة:٧٧-٨١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ ينهى أهلَ الكتاب عن الغلو في دينهم:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أن ينادي أهلَ الكتابِ من اليهود والنصارى، وينهاهم عن الغلوِّ في دينهم غلوًّا يبعدهم عن الحق، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧].

والغلوُّ: تجاوزُ الحد، وقد غلا اليهودُ في دينهم فقالوا: عزيرٌ ابنُ الله، وقالوا: نحنُ أبناءُ الله وأحباؤُه، وغلا النصارى في دينهم، فقالوا: اللهُ هو عيسى ابن مريم، وقالوا: اللهُ ثالثُ ثلاثةٍ، تعالى اللهُ عما يقولونه علوّاً كبيراً.

ونهى اللهُ أهلَ الكتابِ عن اتباع أهواءِ القومِ الضالين من قبلهم، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة:٧٧].

«والأهواء: جمعُ هوى، وهو ما تدعو إليه شهوةُ النَّفْسِ» [فتح الرحمن: ٢/ ٣٢٨] والمرادُ بالقوم الذين نهى اللهُ أهلَ الكتاب عن اتباعهم الأممُ الضالةُ من قبل اليهود والنصارى الذين نسبوا إلى الله الولدَ فهؤلاء قد ضلُّوا وانحرفوا في أنفسهم، وأضلوا غيرهم، وضلوا عن سواء السبيل، أي: عن الطريق المستقيم، وهو الدينُ الذي أنزله اللهُ تعالى.

٢- لعنُ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفرة من بني إسرائيل لُعِنُوا على لسان نبيِّ الله داود ونبيه عيسى ابن مريم، وذلك بسبب عصيانِهم وعدوانهم ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨].

«واللَّعْنُ: الطردُ والإبعادُ على سبيل السَّخَطِ، وذلك من الله تعالى عقوبةٌ، وفي الدنيا انقطاعٌ من قبولِ رحمتِهِ وتوفيقه» [المفردات: ٤٥١].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ داودَ وعيسى دعا كلٌّ منهما ربَّه أنْ يلعنَ الكفار من يهود زمانِهِمْ، بسبب كثرةِ معاصيهم لربِّهم، وبسبب عدوانهم، والعدوانُ: مجاوزةُ الحقِّ.

٣- من جرائم اليهود والنصارى عدم تناهيهم عن المنكر:

أَعْلَمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن من جرائم اليهود والنصارى التي لُعِنوا بها عدم تناهيهم عما يفعلونه من المنكرات ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة:٧٩].

والمنكر: ما أعلمَ اللهُ عبادَه بقبحِهِ ووجوبِ الابتعاد عنه وتَرْكِهِ، كالشركِ والربا والزنى، وقد جعل الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوامَ الأمة الصالحة، فإذا تركت الأُمَّةُ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر ضلَّت وغوَتْ، وكَثُرَ فيها الفسادُ والضلالُ، قال الشوكاني: «الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية، وأجلّ الفرائض الشرعية، ولهذا كان تاركُهُ شريكاً لفاعل المعصية، ومستحقاً لغضب الله وانتقامِهِ» [فتح القدير: ٢/ ٩٤].

وأوجب رسولُنا ﷺ على من رأى منكراً أن يغيِّره بيده إن كان مستطيعاً، فإنْ لم يستطعْ فبلسانِهِ، فإن لم يستطعْ فبقلبه، أما الذي لا ينكرُ قلبه المنكر، فاللهُ أعلمُ بإيمانِهِ، قال أبو سعيد الخدري: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «من رأى منكم منكراً فلْيغيِّرْه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [مسلم:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ذمَهم اللهُ تعالى لعدم نهيهم عن المنكر.

٤- **ذمَّ الله أهل الكتاب لتوليهم الذين كفروا:**

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- أكثر أهل الكتاب لتوَلِّيهم الذين كفروا ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [المائدة:٨٠].

ذمَّ الله تعالى أهل الكتاب الذين كانوا يتولَّوْنَ الذين كفروا، كما فعلَ اليهودُ عندما تحالفوا مع قريش لقتال المؤمنين في غزوة الخندق، وقد أقْسَمَ الله تبارك وتعالى في قوله ﴿لَبِئْسَ ﴾ فاللامُ هنا واقعة في جواب قسم مقدر.

يقولُ ربُّ العزة، أُقْسِمُ لبئس الشيء الذي قدَّمَتْ لهم أنفسهم أمامهم إلى معادِهِم في الآخرة ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [المائدة:٨٠]. والذي قدَّمتْهُ أنفسُهُمْ لهم سخط الله عليهم ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وحَكَمَ اللهُ عليهم بأنهم خالدون في عذابه يوم القيامة ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [المائدة:٨٠]. وأخبرنا العزيز العليمُ -سبحانه- أنَّ الذين تولَّوْا أهلَ الشركِ من اليهود والنصارى لو كانوا يؤمنون بالله والنبي ﷺ وما أُنزلَ إليه ما اتخذوهم أولياءَ، أي ما اتخذوهم أصحاباً وأنصاراً من دون المؤمنين ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة:٨١] وختمَ اللهُ الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله إلى معصيته والكفر به.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا أمعنَّا النظر في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- نهى اللهُ تعالى أهل الكتاب عن الغلو في دينهم، فمن ذلك دعوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، ودعوى اليهود أن عزيراً ابنُ الله، ودعوى النصارى أنَّ المسيحَ ابنُ الله، تعالى اللهُ عما يقولونه علوًّا كبيراً.

٢- نهى اللهُ أهلَ الكتاب أن يتَّبعوا أهل الضلال من قبلهم، فقد نسبت بعض الأمم من قبلهم الولدَ إلى الله، واتخذوا الرهبانية ديناً.

٣- لَعَنَ بعضُ أنبياءِ بني إسرائيل الذين كفروا من بني إسرائيل، ومن هؤلاء الأنبياء داودُ وعيسى عليهما السلام، ولعنهما لهم طلبٌ من الله أن يطردهم من رحمته وجنته.

٤- ارتكب الذين لعنهم داود وعيسى عليهما السلام جملةً من الجرائم استحقوا بها اللعن، منها عصيانهم ربهم وعدوانهم وظلمهم لغيرهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر، وتولِّيهم الذين كفروا، وكفرهم بالله، وتكذيبهم لرسوله الخاتم.

٥- لو آمن أهل الكتاب برسولنا ﷺ وما أنزل الله عليه ما اتخذوا الكفار أولياء.

٦- على المسلمين أن يحذروا فعل الجرائم التي ارتكبها أهلُ الكتاب حتى لا يصيبهم ما أصابهم.

٧- عيسى عليه السلام مرسلٌ إلى بني إسرائيل.

النص القرآني الرابع والعشرون من سورة المائدة
أشدُّ الناس عداوةً للمؤمنين وأقربهم مودة لهم

أولاً: تقديم

خاطبَ اللهُ رسولَه ﷺ مُعلماً إياه أنه إن تفكَّر في نفسه، فإنه سيجد أن أشد الناس عداوةً للمؤمنين اليهودَ والمشركين، وتقديم اليهود على المشركين في الآية يدلُّ على أن عداوتهم أشدُّ من عداوة المشركين، وأعْلمه أنَّ أقربَ الناس مودةً للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى، وبيَّنَ السبب في ذلك، ووصفَ لنا ربُّنا في الآيات حالَ بعض النصارى عندما اجتذبَ الإسلامُ قلوبَهُمْ، فآمنوا، وعيونُهُمْ تفيضُ من الدمعِ، وبيَّن لنا ما قالوه، وحدَّثنا عن مصيرهم الطيبِ في يوم الدين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾ [المائدة:٨٢-٨٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تفاوتُ عداء الكفار للمؤمنين:

بيَّنَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ أن عَداء أعدائنا لنا متفاوتٌ قوةً وضعفاً، فأشدُّ العداء عداءُ اليهود والمشركين للمؤمنين، وأقربُ الأعداء مودةً للمؤمنين الذين قالوا إنَّا نصارى، وبيَّنَ السببَ في كونهم أقربَ الناس مودةً إلينا أنَّ فيهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة:٨٢].

والمراد بالمشركين في العهد النبوي مشركو العرب، والفرس، ويدخلُ فيهم اليوم الشيوعيون، والبوذيونَ ونحوهم.

وقد ذهب بعضُ المفسرين إلى أن المرادَ بالنصارى في النص القرآني الذين دخلوا منهم في الإسلام، لأنه قال فيهم ربُّ العزة في الآية الثانية من هذا النص ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة:٨٣]. وممن ذهب هذا المذهب سيدُ قطبٍ رحمه الله تعالى، وأطالَ في الاستدلال له، وهذا غير صحيح لأمرين: الأول: أنه لا يقال للذين دخلوا في ديننا من النصارى أنهم أقرب إلينا في المودة من غيرهم، لأنهم إذا دخلوا في ديننا أصبحوا مسلمين مؤمنين، ويَدُلُّكَ على هذا أنه إذا أسلم بعضُ المشركين وبعض النصارى وبعض اليهود، فلا يجوزُ لنا أن نفاضل بينهم في مودَّتهم لنا، إلا بمقدار إيمانهم وتقاهم وحسْبُنا أن نعلم أن بلالاً الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيبَ الرومي، وعبدالله بنَ سلام اليهودي، كانوا في المودة للمؤمنين سواءً، لا فرق بينهم في ذلك إلا بالتقوى، لأنهم جميعاً مسلمون.

وعلى ذلك فإن اللهَ تعالى يفاضلُ بين عداء اليهود والذين أشركوا وبين عداءِ النصارى لنا، وهم على دينهم، يقول الفاضلُ بنُ عاشور: «المراد بالنصارى هم الباقون على النصرانية لا محالة، لقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾» [التحرير والتنوير: ج٧، ص٦].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عنادٌ وجحودٌ ومباهتةٌ للحق، وغَمْطٌ للناس، وتنقُّصٌ بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى همُّوا بقتل الرسول ﷺ غير مرَّةٍ، وسحروه، وألَّبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائنُ الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

«وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾، أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودةٌ للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح، من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧]، وفي كتابهم: من ضربك على خدِّك الأيمن فأدِرْ له خدَّكَ الأيسر، وليس القتالُ مشروعاً في مِلَّتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾، أي: يوجد فيهم

القسيسون -وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحِدُهم: قِسِّيسٌ وقسٌّ أيضاً، وقد يجمَع على قُسوس- والرهبانُ: جمع راهبٍ، وهو: العابدُ. مشتقٌّ من الرهبة، وهي الخوفُ، كراكب ورُكبان، وفارس وفرسان» [ابن كثير: ٢/ ٥٩١].

ثانياً: ليس المرادُ مما بيَّنه اللهُ -تعالى- في هذه الآية أن يوجِد علاقة الأُخوة والمحبة بيننا وبين النصارى، فقد حدَّثنا اللهُ تعالى في هذه السورة وفي غيرها من السور عن حال النصارى وما تلبسوا به من باطل، وحدَّثنا عن كُفْرِهم وضلالهم وشرْكِهم، ومن ذلك قوله تعالى فيما سبق من هذه السورة ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة:١٤]. وقال فيهم أيضاً: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾ [المائدة:١٧] ونهانا ربُّنا -عز وجل- عن اتخاذ النصارى أولياء كما نهانا عن اتخاذ اليهود أولياء، وأخبرنا أن بعضهم أولياءُ بعض ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة:٥١].

لقد عرَّفنا اللهُ تعالى بالنصارى، وكشف لنا كفرهم وضلالهم، ولكنه أعلمنا أن عداوتهم لنا أخفُّ من عداوة اليهود، نعم، قد يقاتلوننا، ويحاربوننا، ويأخذون خيرات بلادنا، ويقتلون رجالنا، ومع ذلك ففي رجال الدين منهم من القسيسين والرهبان بقية خيرٍ لا توجد في أحبار اليهود، ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحديد:٢٧].

لقد تألَّم المسلمونَ عندما انتصر الفرسُ المشركون على النصارى من الروم، وأخبر اللهُ تعالى أن الرومَ سيغلبون الفرس في بضع سنين، وأن المؤمنين سيفرحون في ذلك اليوم بنصر الله، ويقالُ: إن الرومَ انتصروا على الفرس في اليوم الذي انتصرَ فيه المسلمون في بدرٍ.

ومن نظر في تاريخنا الغابر، وفي واقعنا المعاصر، علم أنه ما آمن من اليهود عبر التاريخ إلا فئةٌ هي أقل من القليل، بينما آمن من النصارى عددٌ كبير، ولا يزال يدخل في الإسلام أعداد كبيرة منهم في كل وقتٍ وحين.

٢- حالُ الذين آمنوا من النصارى في عهد الرسول ﷺ:

بعد أن أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ النصارى أقرب الناس مودةً إلينا، أخبرنا عمن آمن منهم في عهد الرسول ﷺ ، وهم طائفةٌ من القسيسين والرهبان من الحبشة جاؤوا إلى

المدينة، وقرأ عليهم رسولنا ﷺ القرآن فآمنوا، فقالَ اللهُ فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة:٨٣].

لقد تلا عليهم رسولُنا ﷺ القرآنَ، واستمع القسيسون والرهبان إلى ما أنزل اللهُ على رسوله ﷺ، فآمنوا، وعرفوا أن الذي تُلي عليهم هو من عند الله، وأنه الذي حدَّثهم الله عنه في التوراة والإنجيل، ففاضتْ أعينهم بالدموع، لاستيقانهم من أن هذا الذي تلي عليهم هو الحق المنزل من عند الله، ومع الدموع التي فاضتْ بها عيونهم، وأخضلوا بها لحاهم انطلقت ألسنتهم بالدعاء لربهم قائلين ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ يريدون بالشاهدين المؤمنين من أمة محمد، لأنهم يشهدون في يوم القيامة للرسل السابقين الذين حدَّثنا في القرآن أنهم بلَّغوا أقوامهم ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

وعندما أنكر بعضُ كفار قريشٍ على المؤمنين من النصارى إيمانهم، وسَفَّهوهُم بسبب مسارعتهم إلى الإيمان قالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة:٨٤] أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أن هؤلاء المؤمنين من النصارى ردوا على من أنكر عليهم إيمانهم وقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾، يريدون به الحق الذي أُنزل من عند الله على رسولِ الله ﷺ، وهم يطمعون أن يُدخِلَهم اللهُ -عز وجل مع المؤمنين الصالحين في جنات النعيم.

٣- **جزاءُ المؤمنين من النصارى الذين سبق ذكرُهم:**

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- بجزاء المؤمنين من النصارى فقال: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة:٨٥]. أما الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، فقال الله تعالى مخبراً بمصيرهم في يوم الدين: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المائدة:٨٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أشد الناس عداوةً للمؤمنين اليهودُ والذين أشركوا، وأقرب الأعداء مودةً للمؤمنين الذين قالوا إنّا نصارى.

٢- السببُ في كون النصارى أقربُ لنا من اليهود والذين أشركوا وجودُ القسيسين والرهبان فيهم، وفيهم شيءٌ من التسامح، وليس فيهم كبرُ اليهود والمشركين.

٣- آمن كثيرٌ من النصارى في عهد الرسول ﷺ وبعد عهده، بخلافِ اليهود فلم يؤمن منهم إلا قليلٌ.

٤- وصف اللهُ حال الذين دخلوا في الإيمان من النصارى، وهو وصفٌ يدلُّ على صدق إيمانهم، كما بيَّنَ عظم تأثرهم عندما آمنوا.

٥- جزاءُ المؤمنين يومَ الدين جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، والذين كفروا وكذبوا بآيات الله أولئك أصحابُ الجحيم، أي: النار.

٦- أوجب اللهُ -تعالى- علينا أن نبغض أعداءَه من اليهود والنصارى، ولذا فإن زعماء الكفر الذين يدعوننا إلى مودتهم ومحبتهم مخطئون ضالون.

النص القرآني الخامس والعشرون من سورة المائدة
النهي عن تحريم الطيبات والأمرُ بأكل الحلال

أولاً: تقديم

نادى اللهُ تعالى المؤمنين في آيات هذا النص ناهياً إياهم أن يُحرِّموا شيئاً مما أحلَّه لهم من الطيبات، فإن ذلك من العدوان، والله لا يحبُّ المعتدين، وهذا التوجيهُ الإلهيُّ الرباني يعالجُ الفوضى التشريعية التي كان يعيشُ فيها أهلُ الجاهلية، ولا يزالُ يعيشُ فيها الكفارُ في مختلف البلاد والأزمان.

وبيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- لنا في هذه الآيات الأيمانَ التي لا يؤاخِذُنا بها، والأيمانَ التي يؤاخِذُنا بها، وبيَّنَ لنا كفارة الأيمانِ المنعقدة إذا نحن حَنِثْنا بها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة:٨٧-٨٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين أن يُحرِّموا على أنفسهم شيئاً مما أحلَّه لهم:

نادى ربُّ العزة المؤمنين ناهياً إياهم أن يحرِّموا على أنفسهم شيئاً مما أحلَّه لهم، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة:٨٨].

قال ابن جرير: ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ يعني: الطيباتِ اللذيذاتِ التي تشتهيها النفوسُ، وتميلُ إليها القلوبُ، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبانُ، فحرَّموا على أنفسهم النساءَ والمطاعمَ الطيبةِ، والمشاربَ اللذيذة، وحبسَ في الصوامع بعضُهُم أنفسَهُمْ، وساحَ في الأرض بعضُهم، يقول تعالى ذكره: فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل

أولئك، ولا تعتدوا حدَّ الله الذي حدَّ لكم فيما أحلَّ لكم، وفيما حرَّم عليكم، فتُجاوِزوا حدَّه الذي حدَّه، فتُخالفوا بذلك طاعته [تفسير الطبري: ٤/ ٢٩٧٧].

وهذه الآية تُصوِّبُ الخطأ الذي وقع فيه بعضُ الصحابة، عندما أرادوا أن يغلو في التعبد، ويحرِّموا على أنفسهم بعض الطيبات المستلذات، فنهاهم اللهُ عن ذلك، وقوَّم الرسولُ ﷺ هذا الانحراف، فأقامهم على الجادَّة، روى أنس بن مالك قال: «جاء ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأينَ نحنُ من النبي ﷺ؟ قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، قال أحدُهُم: أما أنا فإني أُصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطِر. وقال آخر: أنا أعتزلُ النساء فلا أتزوجُ أبداً. فجاء رسولُ الله ﷺ، فقال: أنتُم الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأُفطِر، وأُصلي وأرقُدُ، وأتزوج النساء، فمن رغِبَ عن سنَّتي فليس مني» [البخاري: ٥٠٦٣].

وقد أراد بعضُ الصحابة أن يختصي حتى لا تبقى له شهوةٌ للنساء، فنهاهم الرسولُ ﷺ عن ذلك [البخاري: ٤٦١٥].

٢- تحريم ما أحلَّ اللهُ عدوانٌ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ تحريمَ ما أحلَّ لنا عدوانٌ ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٨٧]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ أي: لا تُحرِّموا ما أباحَ اللهُ من الطيبات، فإنه عدوانٌ، والله لا يحبُّ المعتدين، وقد ذهب جمهورُ أهلِ العلم إلى أنَّ من حرَّم على نفسِهِ شيئاً مما أحلَّه اللهُ فلا يحْرُمُ عليه، وقد أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أن نأكل مما رزقنا حلالاً طيباً، فإنَّ التحريمَ حقُّ الله وحده، وقد أمرنا الله بتقواه، ومن تقواه تحليلُ ما أحلَّه، وتحريم ما حرَّمه ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٨].

٣- الأيمان اللغو والأيمان المنعقدة:

سبق الحديثُ عن الأيمانِ اللغوِ والأيمانِ المنعقدة عند قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ﴾ [البقرة: ٢٢٥] والمرادُ باليمينِ اللغوِ: اليمينُ التي يتلفَّظ بها المرءُ من غير قصد، كقولك: لا والله، وبلى والله، واليمينُ التي يؤاخذ اللهُ بها هي اليمينُ التي انعقد عليها قلبُ صاحِبها، وهي اليمينُ المتعمَّدةُ المقصودةُ، قال ربُّ العزة تبارك وتعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: ولكن يؤاخذكم بأيمانكم المنعقدة بالقصد والنيَّة إذا حَنَثْتُمْ بها.

٤- **كفارة الذي يحنثُ في يمينه:**

إذا حَلَفَ المرءُ على فعل شيءٍ أو تركه، ثم ترك ما حَلَفَ عليه، فعليه أن يُكفِّر عن يمينه الذي حَنَثَ فيه، قال تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيۡمَـٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩].

خيَّرنا اللهُ تبارك وتعالى في كفارة اليمين بين ثلاثة أمور: إطعامُ عشرةِ مساكين، أو كِسْوَتُهم، أو تحريرُ رقبةٍ، فإن لم نستطعْ واحداً من الثلاثة كان علينا صيامُ ثلاثةِ أيام، وقد أطالَ أئمةُ التفسير في تحديد مقدار الإطعام أو الكسوة، وهذا الذي تعبوا في تحديده هو طعامُ زمانهم وكسوةُ زمانهم، ومقدارُ الطعام يتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، والواجب الذي دلَّ عليه النصُّ أن يطعم عشرة مساكين أَكْلَةً واحدةً من أوسط ما نطعمُ أهلنا، فلا نطعمهم من أعلاه وأجوده، ولا نطعمهم من أدناه وأردئه، وكذلك يقال في الكسوة، ليست بالأجود، ولا بالأردأ.

ومقدارُ الكسوة ما يكسو بَدَنَ المسكين أو المسكينة، والمرادُ بتحرير الرقبة عتقُ المملوك، والتحريرُ: الإخراجُ من الرقِّ، والأصحُّ أن الرقبة التي تجزئُ في الكفارة الرقبةُ المؤمنةُ، حملاً على الرقبة في كفارة القتل.

والصوابُ أيضاً أن الأيامَ الثلاثة التي يجب صيامها لا يجبُ أن تكون متتابعة، بل يصحُّ أن تكون متفرقة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيۡمَـٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ أشار بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذكره ربُّ العز من كفارة الأيمان، وأمَرَ اللهُ تعالى بحفظ الأيمان. وعدم المسارعة إلى الحنث بها، فإنْ حنث فعليه المبادرةُ إلى التكفير قبل أن تُنْسى.

وقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٨٩﴾ [المائدة:٨٩] أي: مثل هذا البيان الذي بيناه في هذا الموضع، نبين لكم آياته لعلكم تشكرون ما أنعم اللهُ به عليكم من شرائعه وأحكامه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لا يجوزُ لأحدٍ أن يُحرِّم شيئاً مما أحلَّه الله تعالى لعباده.

٢- من الجرائم الكبار ما غيَّرَتْهُ القوانين الوضعية من أحكام ديننا وشريعتنا، فأحلَّت، وحرَّمتْ، عدواناً وجهلاً.

٣- هذه الآية نهتْ عن أفضل ما عند الصوفية، وهو تحريمهم المتاعَ الدنيويَّ من الطعام والشراب واللباس، والمغالاة في العبادة.

٤- قوَّم الرسولُ ﷺ بهذه الآية أصحابه وأمَّتَه عندما نهاهم عن أن يحرموا على أنفسهم ما أحلَّ اللهُ لهم.

٥- هذه الآية نهت عن رهبانية النصارى، وبيَّنَتْ أنها ليست بصوابٍ.

٦- من حرَّم على نفسه طعاماً، أو شراباً، أو لباساً مما أحلَّه تعالى، فإنه لا يحرُمُ عليه، وعليه أن يرجع عما حرَّمه اللهُ على نفسِه.

٧- لغو اليمين الذي يتلفظُ به المؤمنُ من غير قصدٍ لا تجب فيه الكفارةُ، أما اليمينُ المتعمدةُ المقصودةُ، وهي اليمينُ المعقودة، فيجب فيها الكفارةُ إذا حنث صاحبها فيها.

٨- إذا حَنَثَ المرءُ في يمينه المنعقدة، فعليه إطعامُ عشرة مساكين وجبةً واحدة، من أوسط ما يأكله، أو يكسوهم كسوة تسترُ أبدانهم، أو يعتقُ رقبةً مؤمنةً، فإذا كانَ لا يجدوا واحداً من الثلاث وَجَبَ عليه صيامُ ثلاثةِ أيامٍ، لا فرقَ بين أن يكنَّ متتابعاتٍ أو غير متتابعات.

٩- يجب على المرء أن يحفظ يمينه، فإن حنث في يمينه، فعليه أن يكفر عنها وفق ما بيَّنَه اللهُ تعالى.

١٠- الأفضل لمن أراد أن يخرج كفارة عن يمينه أن لا يخرجَها نقداً، ولكن طعاماً، فإن عَسُر عليه إخراجها طعاماً، فعليه أن يحدِّدَ قيمةَ الطعام الوسط الذي يطعمُهُ أهل بيته، ثم يخرجُ قيمتَه نقداً للفقراءِ.

النص السادس والعشرون من سورة المائدة
الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عمل الشيطان

أولاً: تقديم

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- في آيات هذا النص أنه حرَّم علينا أربعاً من كبائرِ الذنوبِ، هي الخمرُ والميسر والأنصابُ والأزلامُ، وأخبرنا أنَّها رجسٌ، وأمرنا باجتنابها، وحدَّثنا عما في الخمر والميسر من آفاتٍ، وأمرنا اللهُ بطاعته وطاعة رسولِهِ، وأعلمنا أن الذين ماتوا وهم يشربون الخمر من قبل أن تحرَّم عليهم، لا إثم عليهم لأنهم شربوا ما لم يكن محرماً عليهم في ذلك الوقت.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة:٩٠-٩٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تحريمُ الخمرِ والميسرِ تحريماً قاطعاً:

الخمرُ: ما خامَرَ العقلَ وغطَّاه وأضاعَهُ، لا فرق بين ما صنع من العنب وغيره، وقد تحدَّثتُ عن الخمرِ طويلاً عند قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [البقرة:٢١٩] وعرَّفتُ هناك الخمرَ والميسرَ، وتحدثت هناك عن مدى ولع أهل الجاهلية بالخمر والميسر، كما تحدثت عن مراحل تحريم الخمر، وقد جاء في آيات هذا النص تحريمُ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام تحريماً قاطعاً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة:٩٠-٩١].

والميسرُ: القمار، قال سفيان: «كلُّ شيءٍ من القِمار فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز» [ابن كثير: ٢/ ٦٠١].

والأنصاب: حجارةٌ كان أهل الجاهلية ينصبونها، ويذبحونَ ذبائحهم عندها، وينشرونَ لحوم الذبائح عليها، ولم تكن منقوشةً على شكْل الأصنام، وذهب ابنُ القيم رحمه الله تعالى إلى أنَّ الأنصاب: «كلّ ما نُصِبَ ليعبدَ من دون الله من حجرٍ، أو شجرٍ، أو وثن، أو قبرٍ» [بدائع التفسير: ٢/ ١١٨].

والأزلام: قداح كانوا يستشيرونها عندما يريدون أن يفعلوا فعلاً كالزواج والسفر، مكتوبٌ على أحدها افعل، والآخر لا تفعل، والثالث غُفْلٌ لم يكتب عليه شيء، والرِّجسُ في اللغة اسمُ ما اسْتُقْذِرَ من عمل، فبالغَ اللهُ في ذمِّ هذه الأربعة وسمَّاها رجساً، وأخبر أنها من عمل الشيطان وتزيينه، وقد أمرنا ربُّنا باجتنابها، ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠﴾ أي: لا تقربوا هذا الرجس الذي سُمِّيتْ هذه الأشياء به.

٢- وجه دلالة هاتين الآيتين على تحريم الخمر والميسر:

هاتان الآيتان بينتا حكم الخمرِ والميسر بياناً شافياً، وقد جاءت هاتان الآيتان بفيضٍ من الأدلة الدالة على التحريم، وهي:

١- حَكَمَ اللهُ تعالى أنَّ الخمرَ والميسرَ والأنصاب والأزلام رجْسٌ، وما سماها رجساً إلا لأنها مستقذرةٌ.

٢- أخبرنا اللهُ تعالى أنَّ الخمر والميسرَ من عمل الشيطان، وعملُ الشيطان خبيثٌ سيءٌ.

٣- أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- باجتناب الخمر والميسر، والمأمورُ باجتنابه محرَّمٌ.

٤- علَّق ربُّ العزة الفلاحَ على اجتناب الخمر والميسر ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠﴾.

٥- أعلمنا الله تعالى أن الشيطانَ يريدُ أن يوقعَ العداوةَ والبغضاءَ بين شاربي الخمر ولاعبي الميسر، فمن شرب الخمر فَقَدَ عقلَه، وآذى جليسَهُ ونديمَهُ، ولاعبو الميسر يرى الواحدُ منهم مالَهُ مع من قامره، فتقعُ العداوةُ والبغضاءُ في قلبه بسبب ذلك.

٦- الخمرُ والميسر يصُدّان عن الصلاة، ويصدان عن ذِكْر الله تعالى.

٧- قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ سؤال المراد به تهييجُ العباد على ترك الخمر والميسر.

٣- الأحاديثُ المُرَهِّبةُ من شرب الخمر:

جاءت أحاديثُ كثيرة ناهيةٌ عن شرب الخمر ولعب الميسر، منها:

١- عن جابرٍ ﷺ أنَّ رجلاً سأل الرسول ﷺ عن شرابٍ يشربونَهُ بأرضهم من الذُّرةِ، يقال له المِزْر؟ فقال النبيُّ ﷺ: «أوَ مُسْكرٌ هو؟» قال: نعم. قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مسكرٍ حرامٌ. إنَّ على الله -عز وجل- عهداً، لمن شَرِبَ المسكر أنْ يَسْقِيَهُ من طينةِ الخَبالِ» قالوا: يا رسولَ الله وما طينة الخبالِ؟ قال: «عَرَقُ أهلِ النارِ، أو عُصارَةُ أهل النار» [مسلم: ٢٠٠٢].

٢- عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قالَ: «من شَرِبَ الخمرَ في الدنيا لم يشربْها في الآخرة إلا أن يتوبَ» [مسلم: ٢٠٣].

٣- عن أبي هريرة ﷺ قال: قالَ النبي ﷺ: «ولا يزْني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُ وهو مؤمن، ولا يسرقُ حين يسرقُ، وهو مؤمن» [البخاري: ٢٤٧٥. ومسلم: ٥٧].

٤- عن عبدالله بن عمرَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا ينظُرُ اللهُ إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، والمدْمِنُ الخمرَ، والمَنانُ بما أعْطى» [قال محقق ابنُ كثير: (٢/ ٦١١) أخرجه النسائي، وأحمد، والبيهقي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وإسناده صحيح، رجاله ثقات].

٥- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: قام عمر على المنبر، فقال: «أما بَعْدُ، نَزَلَ تحريمُ الخمر، وهي من خمسةٍ: العنب، والتمر، والعسل، والحِنْطة، والشعير، والخمرُ ما خامر العقلَ» [البخاري: ٥٥٨١. ومسلم: ٣٠٢٢].

٤- الخمر ما خامرَ العقلَ:

ذهب بعضُ الذين ينسبونَ إلى العلم إلى أن الذي يسكِرُ من غير العنب يجوزُ شربُ القليل منه إنْ لم يُسْكِرْ، أما المسكرُ من العنبِ، فيحرمُ كثيرهُ وقليلُهُ، وهذا غيرُ صحيحٍ، فالخمرُ هو المُسْكِر، لا فرق في ذلك بين ما صنع من العنب أو من غيره، وقد جاءت الأحاديث كثيرةٌ طيبةٌ دالةٌ على ذلك، فمن ذلك الحديثُ الذي رواه مسلمٌ عن جابرٍ، وأوردتُهُ في الفقرة السابقة، قال الرسولُ ﷺ في الشراب المسكر المصنوع من الذرة: «كلُّ مُسْكرٍ حرامٌ»، وقال ﷺ: «كلُّ شرابٍ أسْكَرَ فهو حرامٌ» [البخاريُّ: ٢٤٢. ومسلمٌ: ٢٠٠١].

وقد سأل أبو موسى الأشعري رسولَ الله ﷺ عن شرابٍ يصنعُ في اليمنِ من الشعير، يقال له: المِزْرُ، وشرابٍ يقال له: البِتْعُ من العسل، فقال: «كلُّ مسكرٍ حرام» [البخاري: ٣٠٢٨.

ومسلم: ١٧٣٣]. وفي حديث عمر بن الخطاب ﷺ الذي سبق ذكره أنه نزل تحريمُ الخمر، وكانت تصنع من خمسة موادّ: العنبِ، والتمرِ، والعسل، والحنطة والشعير.

٥- لا يجوزُ بيع الخمر، ولا التداوي بها، ولا تحويلُها خلاً:

حرَّم اللهُ -تعالى- شربَ الخمر، وأوجب إراقتها، وحرَّم بيعها، والتداوي بها، وحرَّم الله تعالى تحويلها إلى خلٍّ، فعن أبي سعيد الخدري، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطبُ بالمدينة قال: «يا أيها الناس! إنَّ الله تعالى يُعرِّضُ بالخمر، ولعل اللهَ سيُنزِلُ فيها أمراً، فمن كان عندَه منها شيءٌ فليبِعْهُ، ولينتفع به». قال: فما لبِثْنا إلا يسيراً حتى قال النبي ﷺ : «إن الله تعالى حرَّمَ الخمر، فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيءٌ، فلا يشربْ، ولا يبعْ» قال: فاستقبل الناسُ بما كان عنده منها، في طريق المدينة، فسفكوها [مسلم: ١٥٧٨] وقوله: فسفكوها: أي: أراقوها.

وعن عبدالرحمن بن وَعْلَةَ السَّبَئِيِّ (من أهل مصر)؛ أنه سأل عبدالله بن عباسٍ عما يُعْصَرُ من العنب؟ فقال ابنُ عباس: إن رجلاً أهدى لرسول الله ﷺ راويةَ خمرٍ. فقال له رسول الله ﷺ : «هل علمتَ أنَّ اللهَ قد حرَّمها؟» قال: لا، فسارَّ إنساناً، فقال له رسول الله ﷺ: «بِمَ سارَرْتَهُ؟» فقال: أمَرْتُهُ ببيعِها، فقال: «إن الذي حرَّمَ شُربَها حرَّم بيعَها» قال: ففتح المزاد حتى ذهب ما فيها [مسلم: ١٥٧٩] وراوية الخمر: قربةٌ ممتلئة خمراً. والمزاد أو المزادة: هي الراوية.

وعن جابر بن عبدالله، أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: «إنَّ اللهَ ورسولَه حرَّمَ بيعَ الخمرِ والميتة والخنزير والأصنام» فقيل: يا رسولَ الله! أرأيتَ شحومَ الميتة فإنه يُطلى بها السفنُ ويُدْهَنُ بها الجلودُ ويستصْبِحُ بها الناسُ؟ فقال: «لا. هو حرامٌ» ثم قال رسولُ الله ﷺ عند ذلك: «قاتَلَ اللهُ اليهودَ. إنَّ اللهَ عز وجل لَمَّا حرَّم عليهم شحومَها أجْمَلُوهُ ثم باعوهُ فأكلوا ثَمَنَهُ» [البخاري: ٢٢٣٦، ٤٦٣٣، ٤٢٩٦. ومسلم: ١٥٨١] وقوله: أجملوه: أذابوه.

وعن أنس أن النبي ﷺ سئل عن الخمر تُتخَذُ خلاً؟ فقال: «لا» [مسلم: ١٩٨٣].

وسأل طارقُ بن سويدٍ الجُعْفِيُّ النبيَّ ﷺ عن الخمر؟ فنهاهُ أو كره أن يصنعها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: «إنَّه ليس بدواء، ولكنه داء» [مسلم: ١٩٨٤].

٥- الأمر بطاعة الله وطاعة رسولِه ﷺ :

بعد أن نهانا ربُّنا عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام أمرنا بطاعتِهِ وطاعة رسولِهِ ﷺ ، وحذَّرنا من معصية الله ورسوله، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٩٢] وأولُ

ما يدخلُ فيها أمرنا بالتزامه ما نهانا اللهُ عنه من المحذورات الأربعة التي نهانا الله تعالى عنها، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة:٩٢] أي: فإن تولَّيْتُم، أي: أعْرَضْتُمْ عما نهيتم عنه، فاعلموا أنكم لن تضروا رسولَنا شيئاً، فالرسولُ عليه البلاغُ، وقد بلغكم ما أنزلُ إليكم من ربِّكم بلاغاً مبيناً، أي: في غاية الظهور والوضوحِ.

٦- ليسَ على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا:

اختلفَ المفسرون كثيراً في المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة:٩٣].

ويدلُّ على المعنى المراد بالآية سبب نزولها، فعن البراء قال: ماتَ رجالٌ من أصحاب النبي ﷺ قبل أن تُحرَّم الخمر، فلما حُرِّمت الخمرُ قال رجالٌ: كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة:٩٣] [الترمذي: ٣٠٥٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح].

وقال البراءُ: مات ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر، فلما نزل تحريمها، قال ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة:٩٣] [الترمذي: ٣٠٥١، وقال: حديث حسن صحيح].

وعن ابن عباس قال: قالوا: يا رسولَ الله، أرأيتَ الذين ماتوا وهم يشربون الخمرَ لَمَّا نَزَلَ تحريمُ الخمر، فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة:٩٣] [الترمذي: ٣٠٥٢، وقال: حديث حسن صحيح].

وعلى ذلك، فالمعنى المرادُ بالآية أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وماتوا قبل أن يُحرِّمَ اللهُ عليهم الخمرَ والميسرَ، فكانوا يشربون الخمرَ، ويلعبونَ الميسر، ليس عليهم جناحٌ، ولا إثمٌ، لأنَّ الخمرَ والميسرَ لم تُحرَّما في ذلك الوقت، «والذمُّ والجناح إنما يَلْحَقُ من جهة المعاصي، وأولئك الذين ماتوا قبل التحريم، لم يَعْصُوا في ارتكاب مُحرَّم بعدُ، بل كانت هذه الأشياءُ مكروهةً لم ينصّ عليها بالتحريم، والشرعُ هو الذي قَبَّحَها، وحَسَّنَ تجنبها، والجناحُ: الإثمُ والحَرَجُ، وهو كلُّه الحكم الذي يتَّصَفُ به فاعلُ المعصية» [المحرر الوجيز: ٣/ ٢٥٠].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [المائدة:٩٣] أي: ليس على الذين ماتوا من المؤمنين الذين عملوا الصالحات جناح فيما طعموه، ولو كانوا شربوا الخمر، إذا كانوا قد اتَّقوا ربهم، أي: خافوه، وآمنوا به، وعملوا الصالحات، ولا يدخل شرب الخمر فيما يُذَمُّونَ به، لأن اللهَ -تعالى- لم يُحرِّمه في ذلك الوقت.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٣﴾ [المائدة:٩٣] كرَّرَ اللهُ تعالى الثناء على هذه الطائفة الذين ماتوا وهم يشربون الخمرَ ويلعبون الميسر، لأنها لم تكن حُرِّمت، وأخبر عن أولئك الأخيار بأنهم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، وأَخْبَرَ سبحانه أنه يحبُّ المحسنين ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٣﴾ وبذلك أبانَ أن الذين ماتوا وهم يشربون الخمر قبل أن تُحرَّمَ عليهم الخمرُ هم في الدرجات العَلى، ولا يضيرُهُمْ شُرْبها لعدم حرمتها عليهم قبل موتهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذ تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- هذه الآيات آخرُ ما نزلَ في الخمر والميسر، وقد حرَّمها الله تحريماً لا رجعة فيه.

٢- شُرْبُ الخمر ولعبُ الميسر واتخاذُ الأنصاب والأزلام تأخُّرٌ وضَلالٌ، وليس بحضارةٍ ومدنية، وقد غرق الغربيون اليوم في تعاطي الخمر والاحتفال بالميسر.

٣- الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ وقذارةٌ، تنجِّسُ نفسَ صاحبها، وتقذِّرُه، وهي من عمل الشيطان التي يضيرُ بها الإنسانَ ويوبقُهُ ويهلكه.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى باجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلامِ، وعلَّق الفلاحَ باجتنابها.

٥- جاءَ في الأحاديث أنَّ الخمرَ ما خامَرَ العقلَ، لا فرقَ بين ما صُنِعَ من العنب وغيره، يحرُمُ مما أسكرَ القليلُ والكثيرُ.

٦- شربُ الخمر، ولعبُ الميسر، يفسدان العلاقات بين الناس في المجتمع الإسلامي، فبهما يوقعُ الشيطانُ العداوةَ والبغضاءَ بين المسلمين، ويصدُّ المؤمنينَ عن ذكر الله وعن الصلاة.

٧- على العلماء والدعاة أن يُحذِّروا المسلمين من الآفات التي نهى الله عنها في هذه الآيات.

٨- على المؤمنين أن يحذروا تعاطيَ الخمر ولعبَ الميسرِ، ولا ينْخدِعوا بما عليه الغربيون، فما هم بأسوةٍ ولا قدوة.

٩- لا إثمَ على الذين ماتوا من المؤمنين قبل أن تُحرَّمَ الخمرُ والميسرُ، ولا عقابَ عليهم، فإنَّ اللهَ -تعالى- لا يُعذِّبُ العباد حتى يُبيِّنَ لهم ما يتَّقون.

١٠- لعبُ الميسرِ حرامٌ قطعاً، وقد ضلَّ فريقٌ من المسلمين، تعاملوا بالميسر زاعمين أنهم يجمعون المالَ ليفعلوا به الخيرَ، وهذا من الضلال الذي أضلَّ به الشيطان بعضَ العباد.

١١- ضلَّ بعضُ المسلمين الذين أقاموا نصباً، كنُصُب الجنديِّ المجهولِ، وتراهم يقدِّمون لهذه الأنصاب الهدايا، ويحتفلون بها، وهذا من بقية الضلال الذي يجبُ أن يحذر منه العبادُ.

النص السابع والعشرون من سورة المائدة

تحريم صيد البر على من أحرم بالحج والعمرة

أولاً: تقديم

ابتلى اللهُ -تعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ فمن بَعْدَهُم، بالصيد يقتحم عليهم المنزلَ الذي نزلوا فيه في أثناء إحرامِهِمْ بالعمرة، ليعلم مدى مخافَتِهِمْ لرِّبهم، فما امتدَّتْ أيديهم ولا رِماحُهُمْ إلى الصيد الذي عرض لهم، مع شدة ولَعِهِمْ بالصيد. وبيّنَ اللهُ لنا في آيات هذا النص كيف يفعلُ الذي قتلَ الصيد وهو مُحْرِمٌ، كما بيَّنَ لنا أن الذي حرَّمه علينا هو صيدُ البرِّ، أما صيد البحر، فلا يحرم على المحرم بالحجِّ والعمرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المائدة: ٩٤-٩٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن:

١- اختبار الله الحجاجَ بالصيد:

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين، وكان المؤمنون الذينَ ناداهم اللهُ تعالى في العهد النبويِّ يمثِّلون الصحابةَ دون غيرهم، وأخبرهم أنه سيبْتَليهم بشيءٍ من الصيد تنالُه أيديهم ورماحُهُمْ، والصيدُ الذي تنالُه أيدينا صغارُ الحيواناتِ كالأرنب، والذي تنالُه رماحُنا الغزلانُ وبقرُ الوحشِ والحُمر الأهليةُ ونحوها، فيرميه الصائد برُمْحِهِ وقد يلاحِقُه مَنْ على فَرَسِهِ، ويطعنُه برمحه، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ [المائدة: ٩٤].

ونقل ابنُ كثير عن مقاتلِ بنِ حيانَ أنَّ هذه الآية نزلتْ في عمرةِ الحديبية، فكانت الوحشُ والطير والصيدُ تَغْشى الصحابةَ في رحالهم، لم يروْا مثلَهُ فيها خَلا، فنهاهم اللهُ عن قتْلِهِ وهم مُحْرِمون [ابن كثير: ٢/ ٦١٣].

والابتلاءُ: الاختبارُ والامتحانُ، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ (من) هنا للتبعيض، وهو صيدُ البر، أما صيدُ البحر فهو حلالٌ للمحرم، ولغير المحرم.

واختبارُ الله الصحابة فمن بعدهم بالصيد شبيهٌ بما اختبر اللهُ به بني إسرائيل في قريتهم التي كانت حاضرةَ البحر، فكانت الحيتانُ تأتيهم شُرَّعاً في يومِ السبتِ حيث كان العمل، ومنه الصيدُ محرَّماً عليهم، أي: ظاهرةً لا تختفي منهم، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم، فاحتالوا على صيدِها في يوم السبت، فمسخَ الله الذين احتالوا على الصيد في ذلك اليوم قردةً خاسئين [انظر قصتهم في الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

أما الصحابةُ، وكان لهم ولعٌ شديدٌ بالصيد، فلم تمتدَّ أيديهم ورماحُهُمْ إلى شيءٍ من الصيد الذي غَشِيَهم في المنازلِ التي نزلوا فيها وهم محرمون.

٢- **الحكمةُ من وراء هذا الابتلاء:**

أخبرنا اللهُ -تعالى- عن الحكمة من وراء هذا الابتلاء، فقال: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤﴾ [المائدة: ٩٤].

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه ابتلانا بالصيد يغشانا في رحالنا، حالَ كونِنا قادرين على أَخْذِه بأيدينا ورماحنا لِيُظْهِرَ طاعةَ من يطيعُ اللهَ ويخشاه بالغيب، وتوعَّدَ الذين اعتدوا في صيدهم وهم محرمون، فلهم عذابٌ أليم.

٣- **جزاءُ من قتل الصيدَ وهو محرمٌ:**

نهى اللهُ -تعالى- الحجّاجَ والعمّار عن قتل ما يصادُ مما يباحُ أكْلُهُ، وحكَمَ على من قتل صيداً متعمِّداً أن يذبح مثلِ ما قتل من بهيمة الأنعام، ويُحدِّدُ مثل الصيد الذي يجب ذبحه اثنان من المسلمين يتَّصِفان بصفة العدالة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: ٩٥].

وقد نصَّت الآيةُ على أن الذي يجبُ عليه جزاءُ المثل هو العامدُ لقتلِ الصيد الذاكرِ لإحرامه، «وذهبَ جمهورُ العلماء إلى أنَّ العامدَ والناسي سواءٌ في وجوب الجزاء عليه»، وقال الزهريُّ: «دلَّ الكتابُ على العامِدِ، وجَرَت السنَّة على الناسي» [ابن كثير: ٢/ ٦١٥].

٤- **الحيوانات التي يجوزُ للمحرم قتلها:**

الصيدُ الذي لا يجوز للمحرم قتله هو المباحُ الأكلِ، وقد جاءت عدَّةُ أحاديث تبيحُ للمحرم أن يقتل الحيوانات الفواسقَ، فعن عائشةَ رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال:

«خَمْسٌ فواسِقُ يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَمِ: الحيَّةُ، والغرابُ الأبْقَعُ، والفأْرَةُ، والكَلْبُ العَقورُ، والحُدَيَّا» [مسلم: ١١٩٨].

وعنها قالتْ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أربعٌ كُلُّهنَّ فواسِقُ، يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحرمِ: الحَدأةُ، والغرابُ، والفأرةُ، والكَلْبُ العقورُ» [مسلم: ١١٩٨].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «خَمْسٌ من الدوابِّ من قتلهنَّ وهو مُحْرِمٌ فلا جناحَ عليه: العَقْرَبُ، والفأْرَةُ والكَلْبُ العَقورُ، والغرابُ، والحَدَأةُ» [البخاري: ٣٣١٥. ومسلم: ١١٩٩].

والمرادُ بالغراب الأبْقَعُ: الذي في بطْنِهِ وظهْرِهِ بياضٌ، دونَ الغرابِ الأدْرَعِ ، وهو الأسْوَدُ، والأعْصَمُ: وهو الأبيضُ الرِّجْلَين.

وألحق الإمام مالكٌ وأحمدُ بالكلب العقور الذِّئْبَ، والسبعَ، والنَّمِرَ، والفَهْدَ، لأنها أشدُّ ضرراً منه، وقال الشافعي: «يجوزُ للمحرم قتلُ كلِّ ما لا يؤكل لحمه، ولا فرقَ بين صغارِهِ وكباره، وجَعَلَ العِلَّةَ الجامعةَ كونها لا تؤكل»، وقال أبو حنيفة: «يقتلُ الكلبُ العقورُ والذئب، لأنه كلبٌ بريٌّ، فإن قتلَ غيرهما فداه، إلا أن يصولَ عليه سبعٌ غيرهما، فيقتله فلا فداءَ عليه» [ابن كثير: ٢/ ٦١٤].

٥- كيف يتصرَّفُ بالحيوان الذي حَكَمَ به ذوا عدل:

إذا حَكَمَ ذوا عدل على من قتل صيداً بحيوانٍ مماثلٍ لما قتله من الصيد، فعلى المُحْرِمِ أن يرسلَ ذلك الحيوان هدياً إلى الكعبة ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ [المائدة:٩٥] والمرادُ ببلوغه الكعبة، وصولُه الحرم، فيُذْبَحُ هناك، ويفرَّقُ لحمه على مساكين الحرم، وإذا اشترى المحرمُ الحيوانَ الذي حكم به عليه من مكة وذبحه هناك أجزأه.

فإذا لم يجد المحرم مثلَ ما قتلَ من النعم، أوْ لم يكن الصيدُ المقتول من ذواتِ الأمثال، أو أحبّ قاتلُ الصيد أن يُخرِجَ بَدَلَ الحيوان طعاماً أو يصوم عَدْلَ ذلك صياماً جاز له ذلك ﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾ [المائدة:٩٥]. وقد ذهب جمعٌ من أهل العلم إلى أن قاتلَ الصيد مخيَّرٌ بين الذبح أو إطعام مساكين، أو الصيام، وممن ذهب إلى ذلك مالكٌ وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وهو أحدُ قولي الشافعي والمشهور عند أحمد، واستدلوا بظاهر الآية فـ ﴿أَوۡ﴾ للتخيير [ابن كثير: ٢/ ٦١٧].

وكان ابنُ عباسٍ يرى أنَّ الإطعام أو الصيامَ يكون عند عدم وجود حيوانِ المثل، وقد قال في تفسير الآية: «إنْ قَتَلَ ظَبْياً أو نحوه، فعليه شاةٌ تذبحُ بمكةَ، فإنْ لم يجدْ فإطعامُ ستةِ

مساكين، فإن لم يجدْ فصيامُ سِتَّة أيام، فإن قتل أيِّلاً عليه بقرةٌ، فإن لم يجدها أطعم عشرين مسكينا، فإن لم يجد صامَ عشرين يوماً، وإنْ قتل نعامةً أو حمارَ وحشٍ أو نحوه، فعليه بَدَنَة من الإبل، فإن لم يجد فعليه إطعامُ ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجدْ صام ثلاثينَ يوماً» [ابن كثير: ٢/ ٦١٨].

٦- أكْلُ المُحْرِم من الصيد الذي صاده غيرُ المحرم:

قال البغويَّ: «ذهبَ أكثرُ أهل العلم إلى أنه يجوزُ للمحرم أكْلُ الصيدِ إذا لم يصدْهُ بنفسه، ولا صِيدَ لأجْلِهِ، أو بإشارَتِهِ، وهو قولُ عمرَ وعثمانَ وأبي هريرة، وبه قال عطاءٌ ومجاهدٌ وسعيدُ بنُ جبير، وهو مذهبُ مالكٍ والشافعيِّ وأحمدَ وإسحاق وأصحاب الرأي» [تفسير البغوي: ٣/ ٩٩].

وقد ردَّ الرسولُ ﷺ على الصَّعْبِ بنِ جَثَّامَةَ الليثيِّ هديَّته له من صيد صادَه، ففي صحيحي البخاري ومسلم أنَّ الصَّعْب أَهْدى لرسولِ الله حماراً وحشياً، وهو بالأبواء أو بوَدَّان، فردَّهُ عليه، فلما رأى ما بوجهه قال: «إنَّا لم نَرُدَّهُ عليكَ إلا أنَّا حُرُمٌ» [البخاري: ١٨٢٥. ومسلم: ١١٩٣]، وإنما ردَّه الرسول ﷺ على الصَّعْب، لأنه صادَهُ من أجلِ الرسول ﷺ .

والدليل على جواز أكلِ المُحْرم من الصيد الذي صادَهُ غيرُهُ، إذا لم يصِدْهُ للمحرمِ، ولم يُعِنِ المحرمُ على صيده، ما رواه البخاري ومسلم عن أبي قتادة الأنصاريِّ، حدثنا عثمان، هو ابن مَوْهَب، قال: أخبرني عبدالله بنُ أبي قتادة: أن أباهُ أخبره: أن رسولَ الله ﷺ خرج حاجّاً، فخرجوا معه، فصرف طائفةً منهم فيهم أبو قتادة، فقال: «خُذُوا ساحِلَ البحر حتَّى نلتقيَ». فأخذوا ساحل البحر، فلما انصرفوا، أحْرَموا كُلُّهُمْ إلا أبو قتادة لم يُحرِم، فبينما هم يسيرون إذ رأوا حُمُرَ وحشٍ، فحمل أبو قتادة على الحُمُر فعقَرَ منها أتاناً، فنزلوا فأكلوا من لحمها، وقالوا: أنأكُلُ لحم صيد ونحن محرمون؟ فحملنا ما بقي من لحمِ الأتانِ، فلما أتوا رسولَ الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنا كنا أحرمنا، وقد كان أبو قتادة لم يُحرِم، فرأينا حُمُرَ وحشٍ، فحمل عليها أبو قتادة، فعقر منها أتاناً، فنزلنا فأكلنا من لحمها، ثم قُلْنا: أنأكُلُ لحم صيد ونحن محرمون؟ فحملنا ما بقي من لحمها. قال: «أمنكم أحدٌ أمَرَهُ أن يحمِلَ عليها أو أشار إليها». قالوا: لا، قال: «فكلوا ما بقي من لحمها» [البخاري: ١٨٢٤. ومسلم: ١١٩٦].

٧- عقوبة الذي صادَ مرةً ثانية:

وقوله تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ [المائدة:٩٥] أي: أوجَبْنا عليه الكفارةَ ليذوقَ وبالَ أمْرِهِ، أي: ليذوقَ عقوبةَ فِعْله الذي ارتكب فيه المخالفةَ: وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي في زمانِ الجاهلية، ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة:٩٥] أي: ومن صادَ بعد بلوغِه التحريمَ فينتقمُ

الله بفرضِ العقوبةِ عليه مرةً أخرى، وذهَبَ جمهورُ العلماء إلى أنَّ من قتل الصيد مرةً ثانيةً وثالثةً فعليه جزاءُ مثل ما قتله في المرة الأولى، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة:٩٥] أي أنه -تبارك وتعالى- قويٌّ غالبٌ منيعٌ في سلطانِهِ، لا يقهرهُ قاهرٌ، وقوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ يعني: أنه ذو معاقبةٍ لمن عصاه على معصيته إياه.

٨- أحلّ اللهُ لنا صيد البحر وطعامَهُ:

أحلَّ اللهُ تعالى للمحرم ولغير المحرم صيد الحيوان البحري، الذي لا يعيش إلا في البحر، والمرادُ بقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾: الحيوانُ الذي لفظهُ البحر، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [المائدة:٩٦].

وقد أرسل الرسولُ ﷺ جيشاً يتلقَّوْن عيراً لقريشٍ، وزوَّدهم جِراباً من تمْرٍ، فجاعوا جوعاً شديداً، فلفظ البحرُ حوتاً عظيماً، فأكلوا منه شهراً، وأخذوا منه معهم إلى المدينة، وأكل منه الرسولُ ﷺ فعن جابرٍ قال: «بعثنا رسولُ الله ﷺ وأمَّرَ علينا أبا عبيدة، نتلقى عيراً لقريشٍ، وزوَّدنا جِراباً من تمرٍ لم يجد لنا غيرَهُ، فكان أبو عبيدةَ يُعطينا تمرةً تمرةً، قال: فقلتُ: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصُّها كما يمصُّ الصبيُّ، ثم نشربُ عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضربُ بعصيِّنا الخَبَطَ، ثم نَبُلُّهُ بالماء فنأكُلُهُ.

قال: وانطلقنا على ساحل البحر، فرُفِعَ لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابةٌ تُدْعى العَنْبَرَ، قال: قال أبو عبيدة: ميتَةٌ، ثم قال: لا بل نحن رُسُلُ رسولِ الله ﷺ، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكُلوا، قال: فأقمنا عليه شهراً، ونحن ثلاثُ مائةٍ حتى سمنّا.

قال: ولقد رأيتُنا نغْتَرِفُ من وقْب عَيْنه، بالقلالِ الدُّهْنَ، ونقْتَطِعُ منه الفِدَرَ كالثَّوْرِ (أو كَقَدْرِ الثورِ) فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثةَ عشرَ رجلاً، فأقْعَدَهُمْ في وَقْبِ عيْنِهِ، وأخذ ضِلعاً من أضلاعه، فأقامها، ثم رحل أعظمَ بعيرٍ معنا، فمرَّ من تحتها، وتزودّنا من لحمه وشائق.

فلما قدمنا المدينة أتينا رسولَ الله ﷺ، فذكرْنا ذلك له، فقال: «هو رزقٌ أخرجه اللهُ لكم، فهل معكم من لحمه شيءٌ فتطعِمونا؟»، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه، فأكله» [مسلم: ١٩٣٥].

وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾ [المائدة:٩٦]، أي: أحلَّه اللهُ -تعالى- لكم تستمعون بأكل ذلك الصيد، كما يستمتع بأكله السيارةُ، وهم المسافرون، أي: الناس كلُّهم.

وأكَّد اللهُ -تعالى- بقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦] تحريمُ صيد البر على المحرم بالحج والعمرة، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة:٩٦]. أمَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- بتقواه، أي: بفعل ما أمرنا به، وترْكِ ما نهانا عنه، وقوله: ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: في يوم الدين الذي يحاسبنا فيه على أعمالنا.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اختبر ربُّ العباد المحرمين بالحج والعمرة، فحرَّم عليهم الصيد ما داموا حرماً، كما اختبر بني إسرائيل بتحريم صيد البحر والبر عليهم في يوم السبت.

٢- الحكمةُ من وراء تحريم الصيد على المحرمين إيجادُ الخوف من الله ومهابته، فمن اعتدى بمخالفة أمر الله فلَهُ عذابٌ أليم.

٣- إذا قتل المحرمُ صيداً، فيجبُ عليه أن يذبحَ في الحرم حيواناً من الأنعام، وهي الجِمالُ أو البقرُ أو الغنمُ وعليه أن يحكِّم رجلين عدلين، فيحكمان بالحيوان المماثل الذي يكون جزاءً للحيوان الذي صادَهُ.

٤- على من صادَ الحيوانَ أن يذبحَ الحيوانَ المماثَلَ الذي حكم به ذوا عدلٍ، في الحرم، وله أن يُخْرِجَ بَدَلَ الحيوان الذي حَكَمَ به طعاماً يوزعه على المساكين، أو يصومَ عدةَ الأيام التي يساويها ذلك الحيوان.

٥- إذا عاد المحرم الذي صادَ حيواناً إلى صيد آخر مرةً أخرى، وَجَبَ عليه أن يفعلَ في المرة الثانية كفعله في الأولى.

٦- الذي حرَّمهُ الله تعالى علينا هو صيدُ البرِّ، فأما صيدُ البحر فهو حلالٌ للمحرم، ولغير المحرم.

٧- الذي لا يجوز للمحرم قتلُه هو الحيوانُ البريُّ الذي يجوزُ أكلُه، أما الحيوانات الفواسق التي لا يجوز أكلُها كالحية، والعقرب، والغراب الأبقع، والحُديَّا، والكلب العقور، فلا حَرَجَ على من قتلها.

٨- يجوزُ للمحرم أن يأكل من لحم صيْدٍ لم يُصَدْ له بشرط أن لا يعينَ على الصيد، ولا يدُلَّ عليه.

النص القرآني الثامن والعشرون من سورة المائدة
جعل الله الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قياماً للناس

أولاً: تقديم

لم يكن للعرب في الجاهلية في الجزيرة العربية مَلِكٌ يحْكُمُهُمْ، ويمنعُ عدوانَ بعضِهِمْ على بعضٍ، وكانوا قبائلَ متفرقةً، يغيرُ بعضُهُمْ على بعضٍ، ويسلبُ بعضُهم بعضاً، وقد شَرَعَ اللهُ -تباركَ وتعالى- منذ عهد إبراهيم تشريعاتٍ تحفظُ لهم الأمن في الحرم المكيِّ، وعلى مدى أربعة أشهرٍ من كُلِّ عامٍ، وقد التزمَ العربُ بهذه التشريعات، فحفظتْ لهم بعض الأمن، وقامتْ مقامَ المَلِكِ الذي يجلبُ الأمنَ للناسِ، ويمنعُ العدوانَ فيما بينهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [المائدة:٩٧-١٠٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- جَعَلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ والشهرَ الحرامَ والهديَ والقلائِدَ قياماً للناس:

أعلمنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنه ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ [المائدة:٩٧] وسميتِ الكعبة بهذا الاسم، لأنها مربَّعةٌ، فكلُّ بيتٍ مربَّعٍ فهو كعبةٌ، وسماها بيتاً، لأن لها سَقْفاً وجُدراً، والمرادُ بالكعبة هنا الحرمُ، وجعل اللهُ الكعبةَ حراماً، لأنه حرَّم أن يعتديَ الإنسانُ أو يقْتَصَّ من غيره في الحرم، وحرَّم أن تصادَ الطيورُ والحيواناتُ في الحرم، وحرَّم أنْ يُخْتَلَى خَلاهُ، أو يُعْضَدَ شوْكُهُ.

﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ المرادُ به جنسُ الشهر الحرام، والأشهرُ الحرم أربعةٌ، وهي: رجبٌ، الذي بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجة، وشهر الله المحرم، واحد فرد وثلاثة سَرْدٌ، وهذه الأشهرُ الأربعةُ لا يجوزُ أن يبدأ المسلمون فيها الحربَ والقتالَ.

﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾ ما يُهدي للحرم من بهيمةِ الأنعام، وهي الإبلُ، والبقرُ، والغنمُ، ﴿وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾ جمْعُ قلادةٍ، والمراد بها ما كان يتقلده العمار والحجاج من قلائد مصنوعة من وَرَق الشجر.

وقد جعل اللهُ تعالى الأربعَ المذكورة في الآية، وهي البيتُ الحرام، والشهرُ الحرامُ، والهَدْيُ، والقلائدُ، قياماً للناس، أي: جعلها مصالحَ تقيمُ لهم أمورَهُمُ الدنيويةَ في الجزيرة العربية منذ عهدِ إبراهيمَ عليه السلام حتى مجيء رسولنا ﷺ ، فأبقى الأمْرَ على ما كان مشروعاً من عهدِ إبراهيم. ووجْهُ كونها قياماً للناس أنَّ العربَ في الجزيرة العربية لم يكن لديها ملكٌ أو حاكمٌ يحجُز قويَّهم عن ضعيفهم ومسيئهم عن مُحْسِنِهم، وظالِـمَهم عن مظلومهم، فصيَّر اللهُ الكعبةَ، والشهرَ الحرامَ، والهديَ والقلائدَ بمثابة الحاكم أو الملك الذي يطيعُهُ الناس، ويلتزمونَ بأمره، فالعربُ في جاهليتها كانت تعظِّمُ الحرم، ومن ذلك أنَّ الرجلَ كان يلقى قاتلَ أبيه في الحرم، فلا يُهيِّجُهُ، ولا يؤذيه، قال الطبري بعد أن نقل كلامَ أهل العلم في تفسير الآية الكريمة: «وهذه الأقوالُ وإن اختلفتْ من قائليها ألفاظها، فإنَّ معانيها آيلة إلى ما قلنا في ذلك من أنَّ القوامَ للشيء هو الذي به صلاحه، كما الملكُ الأعظمُ قوام رعيته ومن في سلطاته، لأنه مدبِّر أمرهم، وحاجز ظالمهم عن مظلومهم، والدافع عنهم مكروه من بغاهم وعاداهم».

وكذلك كانت الكعبةُ والشهرُ الحرامُ والهديُ والقلائدُ قوامُ أمرِ العرب الذي كان به صلاحهم في الجاهلية، وهي في الإسلام لأهله معالمُ حجهم ومناسِكِهمْ ومتوجَّهِهمْ لصلاتِهِمْ وقبلتهم التي باستقبالها يتم فرضهم.

ونقل عن قتادة أنه قال: «﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾ حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية: فكان الرجل لو جَرَّ كلَّ جريرةٍ ثم لجأ إلى الحرم لم يُتَناول ولم يُقرب، وكان الرجلُ لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يَعرِض له ولم يقربه، وكان الرجل إذا أراد البيتَ تقلد قلادةً من شعر، فأحمته ومنعته من الناس، وكان إذا نفر تقلد قلادةً من الإذخر أو من لحاء السمر فمنعته من الناس حتى يأتي أهله، حواجزُ أبقاها الله بين الناس في الجاهلية».

ونقل عن ابن زيد في قوله: «﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ قال: كان الناس كلهم فيهم ملوكٌ تدفعُ بعضَهم عن بعضٍ، قال: ولم يكنْ في العربِ ملوكٌ تدفعُ بعضَهم عن بعضٍ، فجعل الله تعالى ذكره لهم البيتَ الحرامَ قياماً يدفع بعضَهم عن بعضٍ به، والشهرَ الحرام كذلك يدفع الله بعضَهم عن بعض بالأشهر الحُرُمِ والقلائد. قال: ويلقى الرجلُ قاتلَ أخيه أو ابن عمه فلا يعرض له. وهذا كله قد نسخ» [الطبري: ٤/ ٣٠٥٦] والصواب أنه لم ينسخ.

٢- اللهُ عالمٌ بكل ما في السموات والأرض:

يخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه تعالى إنما شرَّع هذه الشريعة في جعْلِهِ هذه الأربعة قواماً للناس ليعلمَ الناسُ أن الله تعالى يعلمُ ما في السموات وما في الأرض، وأنه بكل شيءٍ عليم.

إن الذين ينظرون في أسرار التشريع، ويعلمون بدائعه وحِكَمَهُ، يعلمون موقنين أن الذي شَرَعَ هذه التشريعات عليم بكل شيءٍ، ولو لم يكن علياً لم يستطع أن يُشرِّع مثلَ هذا التشريع.

٣- عقابُ الله تعالى شديدٌ وهو غفور رحيم:

قال ابن جرير الطبريُّ في قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المائدة:٩٨] «اعلموا أيها الناسُ أنَّ ربكم يعلمُ ما في السمواتِ وما في الأرض، ولا يخفَى عليه شيءٌ من سرائِر أعمالِكُمْ وعلانيتها، وهو يحصيها عليكم ليجازيكم بها، شديدٌ عقابُهِ من عَصَاهُ، وتمرَّدَ عليه، على معْصَيتِهِ إياه.

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المائدة:٩٨] وهو غفورٌ لذنوب من أطاعَهُ وأنابَ إليه، فساتِرٌ عليه، وتاركٌ فضيحَتَهُ بها، رحيمٌ به أن يعاقِبَهُ على ما سَلَفَ من ذنوبه بعد إنابته وتوبتِهِ منها» [الطبري:٤/ ٣٠٥٧].

٤- الرسولُ ليسَ عليه إلا البلاغُ:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [المائدة:٩٩].

فالرسول ﷺ يجب عليه إبلاغُ ما أنزله اللهُ إليه، وليس عليه إجبارُ الناسِ على الإيمان، وليسَ عليه حسابُهُمْ، واللهُ -سبحانه- هو الذي يعلمُ ما نبديهِ، أي: ما نظهِرُهُ، وما نكْتُمُهُ، أي: ما نخفيه، وسيحاسبنا على ذلك كلِّه.

٥- لا يستوي الخبيث والطيب:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى أنه لا يستوي الخبيثُ والطيبُ ولو أعجبنا كثرةُ الخبيث ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠] وهذه الآيةُ تدلُّ على قاعدةٍ عظيمةٍ، وهي عَدَمُ استواءِ الخبيثِ والطيب في كلِّ شيءٍ، في الاعتقاد والأقوال والأفعال والأطعمة والأشربة.

والخبيث: هو الرديءُ، وهو يتناولُ الباطلَ في الاعتقاد، والكذبَ في المقال، والقبيحَ في الفعال، والمحرمَ من الطعام والشراب، ويدخُل في الخبيثِ الكافرُ والمنافقُ، والطيب: الحسنُ والجيدُ، ويدخلُ فيه المؤمنُ، كما يدخلُ فيه ما أحلَّهُ اللهُ من الطعام والشراب، وقد يكونُ البلدُ طيباً، وقد يكونُ خبيثاً.

وقد دلَّنا اللهُ -تبارك وتعالى- على الطيبِ والخبيثِ، وعلينا دائماً أنْ نأخذَ بالطيب ونرتضيه، ونبعدَ عن الخبيثِ، وننأى عنه، ولذلك قال ربنا -تبارك وتعالى-: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠٠﴾ [المائدة:١٠٠] أي: اتقوا الله تعالى في لزوم الطيب في المعتقدِ والعمل والمأكل والمشرب، واجتنبوا الخبيثَ من ذلك كلِّه، وقال: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأن أصحابَ العقول الراجحة هم الذين يميِّزون بينَ الطيبِ والخبيثِ، ويلتزمون الطيبَ، ويجتبون الخبيثَ.

٦- المسائل التي نهينا عنها:

هنا مسائل نهانا ربُّنا -عز وجل- عن السؤال عنها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١﴾ [المائدة:١٠١]. وليس كلُّ سؤالٍ مذموماً، فالذي يسألُ عن الإيمان والإسلام، أو يسألُ ليعرفَ كيف يُصلِّي ويزكي ويحجُّ ونحو ذلك، سؤاله ممدوحٌ مثنى عليه. وإنما ينهى عن السؤال في أحوالٍ منها:

الأول: الأسئلة التي تسوءُ صاحِبها إذا ظهر الجواب:

وقد قال اللهُ تعالى في هذا النوع: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] أي: إذا ظهر المسؤول عنه ساءَ السائلَ، وقد وقع مثلُ هذا في أسئلة وُجِّهتْ للرسولِ ﷺ، فمن ذلك ما رواه أنسُ بنُ مالكٍ: أن النبي ﷺ خرج حين زاغَتِ الشمسُ فصلَّى الظهر، فلما سلَّمَ قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن بين يديها أموراً عِظاماً.

ثم قال: «من أحبَّ أن يسألَ عن شيء فليسأَلْ عنه، فوالله لا تسألوني عن شيءٍ إلا أخبرتُكُم به ما دُمْتُ في مقامي هذا».

قال أنسٌ: فأكثر الناسُ البكاءَ، وأكثر رسولُ الله أن يقولَ: «سَلُونِي».

فقال أنسٌ: فقام إليه رجلٌ فقال: أين مدخلي يا رسولَ الله؟ قال: «النارُ». فقام عبدالله ابن حذافة، فقالَ: من أبي يا رسول الله؟ قال: «أبوكَ حُذافة». قال: ثم أكثر أن يقولَ: «سَلوني، سَلوني». فبَرَكَ عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، قال: فسَكَتَ رسولُ الله ﷺ حين قال عمرُ ذلك. ثم قال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لقد عُرِضَتْ عليَّ الجنةُ والنارُ آنفاً في عُرْضِ هذا الحائط، وأنا أصلي، فلم أرَ كاليومِ في الخير والشر» [البخاري: ٧٢٩٤، ومسلم: ٢٣٥٩].

وعن أنس بن مالك قال: قال رجلٌ: يا نبي الله، من أبي؟ قال: «أبوكَ فُلانٌ». ونزلتْ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾ الآية [المائدة:١٠١] [رواه البخاري: ٧٢٩٥. ومسلم: ٢٣٥٩].

وجاء في بعض روايات الحديثِ أنه قام آخرُ، فقال: مَن أبي يا رسول الله؟ قال: «أبوك سالمٌ مولَى شَيْبَةَ» [مسلم: ٢٣٦٠].

فأحد هؤلاء الثلاثة فضحَ نفسَه أمامَ الملأ عندما أخبرَه الرسولُ ﷺ أنَّ مدخلَه النارُ يومَ القيامة، والاثنان الآخرانِ كانا سيفضحانِ نفسَيْهما لو كان أبُ كلٍّ منهما غيرَ الأبِ المعروف، ولذلك قالتْ أمُّ عبدالله بن حُذافَة لابْنِها: «ما سمعتُ بابنٍ قطُّ أعقَّ منكَ، أَأَمِنْتَ أن تكونَ أمُّكَ قد قارَفَت بعضَ ما تُقارِفُ نساءُ أهل الجاهلية فتفضَحَها على أعينِ الناس» [مسلم: ٢٣٥٩].

ثانياً: الأسئلة التي كانت تُسأل على وجه السخرية:

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قومٌ يسألون رسولَ الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجلُ: مَن أبي؟ ويقول الرجلُ تَضِلُّ ناقَتُه: أينَ ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ حتى فَرَغَ من الآية كلها [البخاري: ٤٦٢٢].

ثالثاً: من سئل عن شيءٍ فحُرِّم من أجل مسألته:

فرضَ اللهُ تعالى علينا أموراً، وحرَّم علينا أموراً أخرى، وسكتَ عن أشياء رحمةً بنا من غير نسيان، فيجبُ أن لا نسألَ عما سكتَ اللهُ تعالى عنه، خشيةَ أن يُحرَّمَ علينا، ومن ذلك ما

فعله بنو إسرائيل عندما أَمَرَهم موسى ﷺ بذبح البقرة، فلو أنهم أخذوا بقرةً ما فذبحوها لأجزأ عنهم، ولكنهم طفقوا يسألون عن صفاتها، حتى ضاقَ عليهم الأمرُ، فكادوا أن لا يذبحوها.

وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى فرض فرائضَ فلا تُضيِّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياءَ فلا تنتهكوها، وسكتْ عن أشياء رحمةً بكم غيرَ نِسيانٍ فلا تَسألوا عنها» [انظر جامع العلوم والحِكَم: الحديث الثلاثون].

وقال أبو ثعلبة الخشني: «إنَّ اللهَ فرض فرائضَ فلا تُضيِّعوها، ونهى عن أشياءَ فلا تنتهكوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وعَفا من غير نسيانٍ عن أشياءَ فلا تبحثوا عنها» [المحرر الوجيز: ٣/ ٢٧٣].

وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن الأسئلة التي هي من باب العفو، فعن سعد بن أبي وقاصٍ أن النبي ﷺ قالَ: «إنَّ أعظمَ المسلمين جُرْماً من سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّمْ، فحُرِّمَ من أجل مسألَتِهِ» [البخاري: ٧٢٨٩. ومسلم: ٢٣٥٨].

وقد استجابَ الصحابةُ رضوانُ الله تعالى عليهم للتوجيهات القرآنية والنبوية، فكانوا يُقِلُّون من الأسئلة، وكانوا يُسَرُّون عندما يأتيَ الرجلُ العاقلُ من أهل البادية فيحسنُ السؤالَ، فعن أنس بن مالك، قال: نُهينا أن نَسألَ رسولَ الله ﷺ عن شيءٍ، فكان يُعجِبُنا أن يجيءَ الرجلُ من أهل البادية العاقلُ، فيسألُه، ونحن نسمع [مسلم:١٢].

ومما عابَهُ رسولُنا ﷺ على بعضِ أصحابه سؤالَهم عن وجوب الحجّ أفي كلِّ عام؟ فعن أبي هريرة ﷺ قال: خَطَبنا رسولُ الله ﷺ فقال: «أيها الناسُ! قد فرض اللهُ عليكُمُ الحجَّ فحُجُّوا». فقال رجلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «لو قلتُ: نعم، لوجبتْ ولما استطعتُمْ». ثم قال: «ذَروني ما تركْتُكُمْ، فإنَّما هَلَكَ من كان قبلَكُمْ بكَثْرَةِ سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمَرْتُكُمْ بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم، عن شيء فدعوهُ» [مسلم: ١٣٣٧].

٧- السؤال عما أشْكَلَ من القرآن:

بعد أن نهى اللهُ -تعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ عن السؤال عن أشياء إن تُبْدَ لهم تسؤْهُمْ، قال سبحانه: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [المائدة:١٠١].

المرادُ إن تسألوا عنها حين ينزلُ القرآن بفرضٍ أو إيجابٍ أو تحريم، فتسألون عما أشْكَلَ عليكم، تُبيَّنُ لكم، أي بنزولِ آية أخرى، أو ببيانٍ من الرسول ﷺ يوضِّحُ المشكلَ، ويفسِّر الخفيَّ.

وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ أي: عفا الله -تعالى- عن مسألَتِكُم عن الأشياء التي سألتم عنها رسولَ الله ﷺ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي والله ساترٌ ذنوب من تابَ منها ﴿حَلِيمٌ﴾ ولسعة حلمه تبارك وتعالى فإنه لا يعاقبُ من سأل، لتغمده التائب منها برحمته وعفوه.

٨- ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أن الأُمم السابقة سألوا رُسُلَهم أموراً، فلما استجابَ الله تعالى لهم فيما سألوه كفروا، فقومُ صالحٍ سألوا نبيَّهم أن يأتيهم بناقةٍ، فبعث اللهُ تعالى لهم ناقةً هائلة على النحو الذي سألوه، فقتلوها، وأرادوا قتلَ ابنها، وسأل بنو إسرائيل موسى أن يريهم الله جهرةً، وسأل النصارى عيسى أن ينزلَ عليهم مائدة من السماء، ثم كفر بعضُهم بما أنزل اللهُ إلى عيسى، وهذه الآية تشير إلى ما كان من الأمم السابقة من طلبهم الآيات، ثم كفر الذين سألوها ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾ [المائدة:١٠٢].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- شرع اللهُ تعالى على عهد نبيه إبراهيمَ تشريعاتٍ تحفظُ الأمن للناس، فقد جعل الكعبة والشهر الحرام والهدْيَ والقلائد قياماً للناس، فقد التزمتِ العربُ بهذا التشريع إلى أن بُعِثَ محمدٌ ﷺ، فجاءَ الإسلامُ مقرِّراً هذا التشريع.

٢- إذا قَبِلَتِ الدولُ الكافرةُ بعدم القتالِ في الأشهرِ الحرمِ، فإنَّ هذا التشريعُ يصبحُ عالمياً، وتزدهرُ التجارةُ والسياحةُ في هذه الأشهرِ من كلِّ عامٍ.

٣- ما شَرَعَهُ اللهُ في المسجد الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد يدلُّ على مدى علمِ الله الذي يُشرِّعُ للعباد ما فيه صلاحهم، واللهُ عالمٌ بكلِّ ما في السمواتِ والأرض.

٤- أمرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن نعلم أنه شديدُ العقابِ، وأنه غفورٌ رحيم، وقد أمرنا اللهُ في مواضع كثيرٍ أن نعلمَ صفاتِهِ وأسماءَه وأفعاله.

٥- مهمةُ الرسول ﷺ الأولى أن يتلقى الوحي من ربه، ثم يبلغُ الناسَ ما جاءَهم به، مقيماً الحُجَّةَ عليهم، وليس عليه أن يُدْخِلَ الإيمانَ في قلوبهم، ولا أنْ يحاسِبَهُمْ على أعمالِهِمْ.

٦- أعلمنا ربُّنا -عز وجل- أنه لا يستوي الخبيثُ والطيبُ، لا في المعتقدات، ولا الأقوالِ، والأفعالِ، والمخلوقاتِ، فعلينا قبولُ الطيب، ورفضُ الخبيثِ.

٧- أوجَبَ اللهُ علينا أن ننتهي عن توجيه بعض الأسئلة إلى الرسول ﷺ ، وقد بينت فيما مضى بعض أنواع الأسئلة التي حرَّمها الله علينا.

النص القرآني التاسع والعشرون من سورة المائدة
تشريعُ البشر لأنفسهم ما يخالفُ شريعةَ الله ضلالٌ وباطل

أولاً: تقديم

ذمَّ الله -تعالى- ما كانَ عليه أهلُ الجاهلية من تشريع شَرَعَهُ لهم زعماؤُهُم وأهلُ الرأي فيه، كتحريمهم البحيرة والسائبة والوسيلة والحامي، وأخبرنا أن أولئك الكفرة افتروا الكذب على الله تعالى، وأخبرنا عنهم أنهم كانوا يلتزمون ما عليه الآباءُ، ويعرضون عما جاءَنا من الله ورسوله، وأمرنا بأن نعني بصلاح أنفسنا، فلا يضرُّنا ضلالُ من ضلَّ من عباد الله إذا نحنُ اهتدينا إلى الله، واللهُ يجمعُ الناسَ في يوم القيامة، ويخبرُهم بما كانوا يعملون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المائدة:١٠٣-١٠٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- بطلانُ ما شَرَعَه أهلُ الجاهلية في تحريم بعض الأنعام:

كان بعضُ سادةِ أهل الجاهلية قد شرَّعوا لأقوامِهم ما يخالفُ دينَ الله الذي ورثوهُ عن أبيهم نبي الله إسماعيل ، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «رأيتُ عمرو بن عامرٍ الخُزاعيَّ يجُرُّ قُصْبَه في النار، كان أول من سيَّبَ السوائبَ» [البخاري: ٤٦٢٣].

وعن عائشة رضي اللهُ عنها قالتْ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «رأيتُ جهنَّمَ يحطِمُ بعضُها بعضاً، ورأيت عمراً يجُرُّ قُصْبَهُ، وهو أول من سَيَّبَ السوائب» [البخاري: ٤٦٢٤ ومسلم: ٩٠١].
وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لأكْثَمَ بن الجَوْنِ: «يا أكْثَمُ، رأيتُ عمرَو ابنَ لُحَيِّ بن قَمَعَةَ بنِ خِنْدِفٍ يجُرُّ قُصْبَهُ في النار، فما رأيتُ أشْبَهَ برجلٍ منك به، ولا به منك» فقال أكثمُ: أخشى أن يضُرَّني شبهُهُ يا رسول الله؟ فقال الرسولُ ﷺ: «لا، إنك مؤمنٌ، وهو

كافر، إنه أولُ مَن غيَّر دينَ إسماعيلَ، وبَحَر البحيرةَ، وسيَّبَ السائبة، وحَمَى الحامي» [الطبري: ٤/ ٣٠٦٦، وقد حكم محقق ابن كثير عليه بالصحة (٢/ ٦٣٣)].

وقد عرَّف العلماء البحيرةَ والسائبةَ والوصيلةَ والحامي بتعريفات متقاربةٍ، وأقرب ما عُرِّفتْ به ما عزاه البخاري إلى سعيد بن المسيب، قال:

البحيرةُ: التي يُمنَع دَرُّها للطواغيتِ، فلا يَحْلِبُها أحدٌ من الناس.

والسائبةُ: كانوا يُسَيِّبونَها لآلهتهم، ولا يُحْمَلُ عليها شيءٌ.

والوصيلة الناقة البِكْرُ، تُبَكِّرُ، في أول نِتاجِ الإبلِ، ثم تُثَنِّي بعدُ بأُنثَى، وكانوا يُسَيِّبونَها لطواغيتِهم، إن وَصَلَت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكرٌ.

والحام: فَحْلُ الإبل يَضرِبُ الضِّرابَ المعدودَ، فإذا قَضَى ضِرابه، وَدَعُوهُ للطواغيت، وأعْفَوْهُ من الحَمْلِ، فلم يُحْمَلْ عليه شيءٌ، وسمَّوْهُ الحامِيَ.

وقال لي أبو اليَمان: أخبرنا شُعيبٌ، عن الزُّهرِيِّ، سمعتُ سعيداً قال: يُخْبِرُهُ بهذا [البخاري: ٤٦٢٣].

وقال الرازي الجصاص: «كان أهلُ الجاهلية يحرِّمون البحيرةَ، وهي أن تُنْتِجَ خمسة أبطنٍ يكونُ آخرُها ذكراً، بحَروا أُذُنَها، وحرَّموها، وامْتَنعوا من ركوبِها ونحْرِها، ولم تُطْرَدْ عن ماءٍ، ولم تمنعْ عن مرعًى، وإذا لَقِيَها المُعْيي لم يرْكَبها.

والسائبة: المِخْلاةُ، وهي المُسَيَّبةُ، وكانوا في الجاهلية إذا نَذَرَ الرجلُ لقدومٍ من سفرٍ أو بُرْءٍ من مَرَضٍ، أو ما أشبه ذلك قال: ناقتي سائبةٌ، فكانت كالبحيرة في التحريم والتخلية، وكان الرجلُ إذ أعتقَ عبداً، فقال: هو سائبةٌ، لم يكن بينهما عَقْل، ولا ولاءٌ، ولا ميراثٌ. أما الوصيلةُ، فإنَّ بعضَ أهل اللغة ذكر أنها الأنثى من الغنم، إذا وُلِدَتْ مع ذكرٍ، قالوا: وصلتْ أخاها، فلم يذْبحوها، وقال بعضهم: كانت الشاةُ إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإذا وَلَدَتْ ذكراً ذبحوه لآلهتهم في زعْمِهِم، وإذا وَلَدت ذكراً وأنثى قالوا: وَصَلَتْ أخاها، فلم يذبحوه لآلهتهم، وقالوا: الحامي: الفَحْلُ من الإبل إذا نَتَجتْ من صُلْبِهِ عشرةُ أبْطنٍ، قالوا: حَمَى ظهْرَهُ، فلا يُحْمَلُ عليه، ولا يُمْنَعُ من ماءٍ ولا مرْعًى» [أحكام القرآن: (٤/ ٤٨٥). وانظر: أحكام القرآن للشافعي: (١/ ١٤٢) ففيه تفصيلٌ جيدٌ].

٢- استمساكُ الكفار بما كان عليه الآباءُ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ إذا دُعُوا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ تعالى وإلى ما جاء به رسولُنا الكريم ﷺ قالوا: حَسْبنا، أي: يكفينا ما وجدنا عليه آباءَنا، فجعلوا تراثَ الآباء

وسيرتهم صادَّةً لهم عما جاءَهُمْ من عند الله وعند رسوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة:١٠٤]. ومن ذلك ما أخبرنا ربُّنا أن آباءَهم حرَّمُوهُ على أنفسهم في الآية السابقة، وهو تحريمُ البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي. وقد ردّ ربُّ العزة عليهم قائلاً: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة:١٠٤] أي: أتتبعون ما كان عليه الآباءُ من العقائد والسير والقيم والأخلاق، ولو كان آباؤُهم جهلةً، ليس عندهم شيءٌ من الهداية والصلاح؟!

٣- ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ :

نادى اللهُ -تباركَ وتعالى- عبادَهُ المؤمنينَ آمراً إياهم بإصلاحِ أنفسهم، مقرِّراً أنه لا يضرنا من ضل عن الإيمان وشريعةِ الرحمن إذا كنا ملتزمين بالهدى المتمثل بالكتاب والسنّة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥] وأخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أننا سنرجعُ جميعاً إلى ربِّنا -تبارك وتعالى- في يوم القيامة، فيجازي كلَّ عاملٍ بعمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشر.

وليس في الآية ما يظنُّه بعضُ الناس أنَّ الآية تدلُّ على تركِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّ ما أمرت به الآيةُ ممكن فعلُه مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد يقالُ: إنَّ ذلك، وهو الاقتصارُ بالاعتناء على أنفسنا يكون عندما تأتي فتنٌ عمياءُ، لا يكادُ المرءُ فيها يملكُ زمامَ نفسِهِ، ففي سنن الترمذيِّ عن أبي أمية الشعْباني، قال: أتيتُ أبا ثعلبة الخُشَنِيَّ فقلتُ له: كيفَ تصنعُ بهذه الآية؟ قال آيةُ آية؟ قلتُ: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، قال: أما والله لقد سألتَ عنها خبيراً، سألتُ عنها رسولَ الله ﷺ، فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتَ شُحّاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مُؤْثَرَةً، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه، فعليكَ بخاصَّة نفسِك، ودَعِ العوامَّ فإنَّ من ورائِكُمْ أياماً الصبرُ فيهنَّ مثلُ القبضِ على الجَمْر، للعامِلِ فيهنَّ مثلُ أجرِ خمسين رجلاً يعملون مثلَ عملكم». قال عبدالله بن المبارك: وزادني غير عُتْبَةَ: قيل: يا رسول الله: أجرُ خمسين منا أو منهم؟ قال: «بل أجرُ خمسين منكم» [الترمذي: ٣٠٥٨. وقال: هذا حديث حسن غريب].

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- التشريعات التي يُحَرِّمُ البشرُ فيها ما أحلّه اللهُ تعالى، ويحلوا ما حرَّمَهُ تشريعاتٌ جاهليةٌ باطلةٌ، كالذي حرَّمه أهْلُ الجاهليةِ من الأنعامِ.

٢- ذَهَبَ بعضُ أهلِ العلم إلى عَدمِ جوازِ الوَقْفِ، ظانِّين أن الوقفَ كالبحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ والحامِ، وهذا غير صحيح، فقد وقف رسولُ الله ﷺ، ووقفَ أصحابُه من بعده، وإنما يكون الوقفُ غير جائزٍ إذا وقف الرجل أرضاً، ومَنَعَ مِن جَنْي ثمرها، وزرْعِ أرْضِها، ونحو ذلك.

٣- ذكر الشافعيُّ أن أهْلَ الجاهلية كانوا يرْجُون بأداء هذه الأربع وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، البركةَ في أموالهم، وينالونَ به عندهم مَكْرَمةً في الأخلاقِ مع التَّبَرُّرِ بما صنعوا فيه [أحكام القرآن: ١/ ١٤٤] وهذا الذي رجوه باطلٌ وزورٌ.

٤- المشركونَ الذين جعلوا البحيرةَ والسائبةَ والوصيلةَ والحامي افتروا على الله الكذب في شرْعِهِم لها، وأكثرُ هؤلاء لا يعقلون في تحريمهم ما أحلَّه اللهُ تعالى.

٥- تعظُم عند كثيرٍ من الناس العاداتُ والتقاليدُ، فتصبحُ بمثابة الدين الذي لا ينازَعُ فيه، فتراهم عندما يُدْعَوْنَ إلى الله ورسولِهِ، يُعْرِضونَ، ويتمسكون بما كان عليه آباؤُهم، وقد يكونُ آباؤُهم ضالين.

٦- ضلالُ كلِّ إنسانٍ على نفسه، ولا يصيبكَ من ضلالِ غيرك شيءٌ إذا كنتَ مهتدياً، ومصيرُ العباد إلى الله تعالى، فينبئ اللهُ كلَّ عبدٍ بعمله ويحاسبه.

٧- القاعدةُ السابقةُ لا تمنع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

النص القرآني المتمم للثلاثين من سورة المائدة
إشهادُ من حضرهُ الموتُ في السفر على وصيَّته

أولاً: تقديم

بيَّنَتْ لنا هذه الآياتُ كيف يتصرَّفُ مَن حضرهُ الموتُ في سفره بعيداً عن أهله، وأنه يجبُ عليه إشهاد اثنين من المسلمين، فمن لم يجدْ أشهدَ غيرَهما من الكفار، وأبانَتْ الآياتُ كيف يُتصرَّف ورثة الميت في حال ارتيابهم في شهادة الشهود.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة:١٠٦-١٠٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إشهادُ من نَزَلَ به الموتُ في سفره اثنين على ما تركه من مال:

نادى اللهُ تعالى في الآية الأولى من هذا النص عبادهُ المؤمنين مبيناً لهم كيف يتصرَّفُ الواحدُ منهم إذا حضرَهُ الموتُ وهو مسافرٌ، ومعه مالٌ، فعليه أنْ يوصي إلى اثنين عدْلين من المسلمين، ويكونُ هذان الاثنان وصيَّيْنِ على المال، وهما في الوقت نفسه شاهدان على ما تحمَّلاه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة:١٠٦] فإن لم يجدْ من نزلت به مصيبةُ الموت مُسْلِمَيْنِ يوصي إليهما ويُشهدهما، فآخرانِ من غير المسلمين ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ ﴾ [المائدة:١٠٦].

ولا يجوزُ الإيصاءُ إلى الكفار إلا بالشرطين اللذين ذكرَتْهُما الآية: الأول: أنْ يكون هذا في السفر. والثاني: أن يكونَ في وصيةٍ على ما معه من مالٍ.

فإذا كان الذي حَضَرَهُ الموتُ في دارِ إقامةٍ، ولديه من يعهد إليه من المسلمين، فلا يجوز أن يوصي إلى الكفار، ويشهدهم.

فإذا سلَّم الوصيَّان الشاهدان ما تحمَّلاهُ من مالٍ إلى ورثةِ الرجل الذي أوصاهما، وقبل ورثتهُ ما استلموه من الشاهدين، انتهت القضيةُ، وذهب كلٌّ واحدٍ في طريقه.

فإن ارتابَ الورثةُ لعلمها أنَّ المالَ الذي كان مع مورثهم أعظمُ مما حمله الموصيان الشاهدان، فإنَّ الحاكم يحبسها في المسجد بعد إحدى الصلوات، ويحضر المصلون في المسجد الواقعة، فيقسمان بالله أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غلاَّ، ولا اشتريا بأيمانهما ثمناً قليلاً، ولا كتَما شهادة الله، وقد أضافَ ربُّنا -تبارك وتعالى- الشهادة إلى نفسِهِ، تشريفاً للشهادة، وتعظيماً لها، ثم يقولان: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾ أي: إن فعلنا ذلك، قال تعالى: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾ [المائدة:١٠٦].

٢- إذا ظهرتْ الخيانةُ من الشاهدين:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه إذا اطَّلع أهلُ الميت على أن الشاهدين استحقَّا إثماً، أي: كَذِباً في شهادتها، أو خانا فيها، فيقومُ آخرانِ مقامَها، أي: يقومُ رجلانِ من أهل الموصي المتوفى مقام الشاهدين فيقسمان بالله -تعالى- لشهادتُنا أحقُّ من شهادتِهما، ومعنى: أحقُّ، أي: أصحُّ، وأثبتُ من شهادتها التي تقدَّمَتْ، وما اعتدينا عليهما في تخويننا لهما ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ [المائدة:١٠٧]، وقوله: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧﴾ [المائدة:١٠٧] أي: إن كنا كذبنا عليهما، فنحن ظالمونَ فيما رميناهما به، وحِلْفانُ اثنين من أهل الميِّتِ شبيهٌ بما يجري في (القسامة) حيث يحلفُ أهلُ القتيل خمسين يميناً على من يدعى عليه أنه قتل صاحبَهُمْ، فيُدفَعُ إليهم، فيقتلونه به.

٣- سبب نزول الآية:

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباسٍ، قال: «خَرَجَ رجلٌ من بني سهمٍ مع تميمٍ الداريِّ وعديِّ بن بَدَّاءٍ، فمات السهميُّ بأرضٍ ليس بها مسلمٌ، فلما قَدِما بتَرِكَته، فقدوا جاماً

من فضة مخوَّصاً من ذهب، فأحلفهما رسولُ الله ﷺ ثم وُجد الجامُ بمكة، فقالوا: ابتعْناهُ من تميمٍ وعديٍّ، فقام رجلان من أوليائه، فحلفا لشهادتنا أحقُّ من شهادتهما، وإنَّ الجامَ لصاحِبِهم، قال: وفيهم نزلتْ هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [المائدة:١٠٦]» [البخاري: ٢٧٨٠].

وقد وقع مثل هذه الواقعة في عهد الخلفاء الراشدين، وكان أبو موسى الأشعري والياً على الكوفة، قال ابن كثير: «ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً ما رواه أبو جعفر بن جرير، قال: حدثني يعقوبُ، حدثنا هُشيم، أخبرنا زكريا، عن الشعبي: أنَّ رجلاً من المسلمين حضَرْته الوفاةُ بدَقوقا[1]، قال: فحضَرَتْهُ الوفاة، ولم يجدْ أحداً من المسلمين يُشْهِدُه على وصيَّته، فأشهد رجُلين من أهل الكتاب، قال: فقَدِما الكوفةَ، فأتيا الأشعريَّ -يعني أبا موسى الأشعريَّ ﷺ- فأخبراه، وقَدِما بترِكَته ووصيَّته، فقال الأشعريُّ: هذا أمرٌ لم يكن بعدَ الذي كان في عهد النبي ﷺ . قال: فأحلفهما بعد العصر: بالله ما خانا ولا كَذَبا ولا بدَّلا ولا كتما ولا غيَّرا، وإنها لوصيَّةُ الرجلِ وتَرِكَتُه، قال: فأمضى شهادتهما. ثم رواه عن عمرو بن عليٍّ الفلاس، عن أبي داود الطيالسي، عن شعبة، عن مغيرةَ الأزرق، عن الشعبي أن أبا موسى قضى به بدَقوقا. وهذان إسنادان صحيحانِ إلى الشعبي، عن أبي موسى الأشعري. فقوله: هذا أمْرٌ لم يكن بعد الذي كان على عهدِ رسول الله ﷺ ، الظاهر -والله أعلم- أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعديّ بن بَدَّاء» [ابن كثير: ٢/ ٦٤٢].

وقد كَشَفَ سبب النزول كثيراً من الأمور وحقَّقَها، فقد بيَّنَ أن المرادَ بقوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾، أي: من غير دينكم، فقد كان الشاهدان اللذان تحمَّلا ميراث السهميِّ وهما تميمٌ وعديٌّ نصرانيين، وقد دلَّ الحديث على أنَّ الشاهدين يحلفان، ولو كانا كافرين، ففي الحديث أنَّ الرسولَ ﷺ أحْلَفَ تميماً وعديّاً.

٤- الحكمة من وراء هذا التشريع:

بيَّن الله -تبارك وتعالى- الحكمةَ من وراء هذا التشريع بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [المائدة:١٠٨].

(١) مدينةٌ في العراق بين بغداد وإربل.

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ تحليفَ الشاهدين اللذين شهدا بما كان منهما بعدَ الصلاة أقربُ على أنْ يأتوا بالشهادة على وجهِها، تعظيماً لله ربِّ العالمين الذي أقسما به، وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: يكونَ الحاملُ لهم بالإتيان بالشهادة على وجْهِها خوفهم من الفضيحة بين الناس إذا رُدَّت اليمينُ على الورثة فحلفوا، واستحقُّوا ما ادَّعوه.

وأمر اللهُ -تعالى- في ختام الآية بتقواه، أي: بالعمل بطاعته، وأمرهم بالسمعِ، أي: سَمْعِ الطاعةِ، وأخبر أنه لا يهدي القومَ الفاسقين، أي: الخارجين عن طاعة الله تعالى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من عمل وعمل:

١- يجب على من غاب عن أهله، فحضرَتْهُ الوفاةُ أن يوصي بما معه من مال إلى رجلين مسلمين عَدْلين، فإنْ لن يجد مسلمَيْنِ، فعليه تحميلُ الوصية إلى من كان كافراً.

٢- لا يكفي الشخصُ الواحد في تحمل الشهادة، بل لا بد من شاهدين.

٣- يجب أن يتَّصفَ الشاهدان بالعدالة، أما غير المسلمين، فلا تلزم العدالةُ، لأن كفرهما ينفي عدالتهما.

٤- إذا رضي أهلُ المتوفى بشهادةِ الشاهدينِ كفى ذلك ووفَّى، فإن ارتابَ أهلُ المتوفى حلَّفا الشاهدين بعد إحدى الصلواتِ المفروضة على أنهما لم يخونا شيئاً اؤتمنا عليه.

٥- إذا ظهرتْ أدلةٌ بعد حِلف الشاهدين تدلّ على عدم صدقهما وخيانتهما قامَ اثنانِ من أهل المتوفى فحلفا على خيانةِ الشاهدينِ، وحَلَفا على أن شهادتهما أولى وأحْرى من شهادة الشاهدين الموصَى إليهما، وعند ذلك يلزم الشاهدين أن يدفعا ما عليهما.

٦- بيَّنَ اللهُ تعالى وَجْهَ الحكمةِ من هذا التشريع الإلهي الرباني، فهذا التشريعُ يجعلُ الشاهدين أقرب إلى الإتيان بالشهادةِ على وجهها.

٧- جواز شهادةِ كافرين في حالة الوصية المذكورة في هذه الآيات، بشرط أن يكون ذلك في السفر، ولا يوجد أحدٌ من المسلمين.

٨- هذه الآيات لست مشكلة في الفهم كما ذهب إليه بعضُ علمائنا، فهي بذكر سبب النزول في غاية الظهور والبيان، والله أعلم.

النص القرآني الحادي والثلاثون من سورة المائدة

بعض أنباء الغيب التي ستكون يوم القيامة

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا في آيات هذا النص عن أمرين غيبيَّيْن سيكونان يومَ القيامة، الأولُ منهما: أنَّ اللهَ -تعالى- سيجمعُ الرسل الذين أرسلهم إلى البشر، فيسألُهُم قائلاً: ماذا أُجِبتُمْ، فيقولون: لا علم لنا إنك أنت علَّامُ الغيوب.

والأمرُ الثاني: أن الله تعالى يُذكِّر عبْدَه ورسولَه عيسى عليه السلام بما أنعم الله به عليه وعلى والدته، وقد أعلمنا ربُّنا في هذه الآية بالنِّعَمِ التي سيذكرها له.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المائدة:١٠٩-١١١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يجمعُ اللّه -تعالى- الرسلَ في يوم الدين ويسألهم عما أجابتهم به أممهم:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه تعالى يجمعُ الرسلَ يوم القيامة، فيسألُهم عما أجابتهم به أُمَمُهم التي أرسلوا إليها ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ ﴾ [المائدة:١٠٩] وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعراف:٦].

وأخبرنا ربُّنا -تباك وتعالى- أنَّ الرُّسُلَ يقولون عندما يسألون: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة:١٠٩] أي: يقولون على وجه التأدُّب مع الله تعالى في ذلك اليوم الذي

يُجعَلُ الولدان شيباً، لا علم لنا، فعِلْمُنا بجانب عِلْمُكَ لا يعدُّ شيئاً، فأنت علاَّمُ الغيوبِ، و﴿عَلَّمُ﴾ صيغَةُ مبالغةٍ دالَّةٍ على سعةِ علم الله تعالى، والغيوبُ ما غاب عن البشر، وفي هذه إشارة إلى أن عِلْمَ الرسل مهما كان واسعاً، فإن هناك ما لا يعلمونَه عن أممهم، وقد أحاط اللهُ به علماً.

٢- تذكير الله عيسى عليه السلام بنعم الله عليه وعلى والدته:

أخبرنا اللهُ -تعالى- في آيات هذا النص أنه سينادي عيسى عليه السلام، وسيذكِّره بنعمه التي أنعم بها عليه وعلى والدته ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة:١١٠].

وقد عدَّد اللهُ على عيسى بعضَ نِعَمِهِ عليه بقوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ﴾ [المائدة:١١٠].

وقد ذكَّر اللهُ تعالى كثيراً من نعمه التي أنعم بها على مريمَ والدة عيسى في سورة آل عمران، وذكر هنا من نِعَمِهِ على عيسى أنه أيَّدَهُ بروح القدس، وروح القدس الذي أيّد اللهُ به عيسى عليه السلام هو جبريل عليه السلام.

ويذكِّرُ الله عيسى يوم القيامة بإقداره على تكليم الناس وهو في المهد، أي: وهو طفلٌ صغير، لا يُحْسِنُ مثلُهُ الكلام، واستمرَّ على إقدارِه على الكلام حتى بلغَ مرحلةَ الكهولة، فعيسى رفع إلى السماء وهو كَهْلٌ، والكهلُ: من وخَطَهُ الشيبُ، ومما سيذكُرُه لعيسى عليه السلام في يوم القيامة مما أنعم عليه في الدنيا أنه علَّمه الكتابَ والحكمةَ، علَّمه أن يخطَّ بالقلم، وعلَّمه الحكمة، وهي فقه الخطاب على أحسنِ وجهٍ، وعلَّمه التوراة التي أنزلها تعالى على موسى عليه السلام، والإنجيلَ الذي أنزله عليه.

وذكَّره أنه أنعم عليه بإقدارِهِ على أنْ يصنعَ بيده من الطين كهيئة الطير بإذن الله تعالى، فينفخُ فيها، فتصبحُ طيراً بإذنه سبحانه، وأعطاه ربُّ العباد القدرةَ على شفاء المرضِ العضال بإذن الله تعالى، فكان يبرئ الأكْمَهَ، وهو الذي ولد أعمى، أو زال بصره بعد أن وُلد، ويشفي الأبرص، وهو مرض يصعب شفاؤه، وذكّره بأنه أعطاهُ القدرة على إخراج الموتى وإحيائهم بإذنه تبارك وتعالى.

ومما أعلمنا اللهُ تعالى أنه سيقولُه لعيسى في يوم الدين ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة:١١٠] يذكِّر اللهُ عيسى عليه السلام بما كان منه سبحانه من عِصمة عيسى عليه السلام عندما أراد بنو إسرائيل إهلاكَهُ وقتْلَهُ بعد أن جاءَهم بالآيات البينات من عند الله، فقالَ الذين كفروا من بني إسرائيل: ما هذا الذي جئتَ به يا عيسى إلا سحرٌ مبين، أي: سحرٌ ظاهرٌ معروفٌ.

وآخر النعم التي سيُذكِّرُ الله تعالى بها رسولَه عيسى عليه السلام ما أوحى الله به إلى الحواريين، فقد قَذَفَ في قلوبِهِمْ، أو أوحى إليهم بالرؤيا الصادقة آمراً إياهم أن يؤمنوا به سبحانه، وبرسوله عيسى عليه السلام ، فاستجابوا لما أوحى اللهُ به إليهم، فآمنوا بالله تعالى، وطلبوا ممن سمعوهم أن يشهدوا بأنهم مسلمون ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة:١١١] وقال عز وجل في سورة الصف: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف:١٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- من أنباء الغيب التي ستقع في يوم القيامة جَمْعُ الله -تعالى- الرسل، ويسألهم عما أجابهم به أقوامهم، فيقولون: لا علم لنا إنك أنت علاّم الغيوب.

٢- يُذكِّرُ الله -تعالى- يومَ القيامة بما أنعمه اللهُ على عيسى ابن مريم عليهما السلام وعلى والدته في الحياة الدنيا.

٣- أمَرَ اللهُ -تعالى- الحواريين أنْ يؤمنوا به وبرسوله عيسى عليه السلام، فآمنوا واستجابوا.

النص القرآني الثاني والثلاثون من سورة المائدة
إنزال الله تعالى على عيسى وأتباعه مائدةً من السماء

أولاً: تقديم

تتضمن آيات هذا النص الكريم قصةَ المائدة التي أنزلها الله تعالى من السماء بطلب من الحواريين، فدعا اللهُ عيسى ربَّه، فأنزلها الله تعالى عليهم لتكون عيداً لأوّلهم وآخرهم وآيةً منه سبحانه.

وقصةُ نزولِ المائدة لم تذكر في القرآن إلا في هذا الموضع، وبها سميت هذه السورة الكريمةُ، وليس عند النصارى خبرٌ عن نزول المائدة إلا ما أخبر به القرآن في هذا الموضع.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المائدة:١١٢-١١٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

أنزل اللهُ تعالى على عيسى وحوارييه مائدةً من السماء:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يذكرَ ما قاله الحواريون لعيسى عليه السلام وهم في صحبته، ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ ﴾ [المائدة:١١٢] وقصةُ نزولِ المائدة لم تُذكرْ في الإنجيل، ولم تُذكر في القرآن إلا في هذا الموضع، وسميت هذه السورة باسم المائدة التي ذُكِرَتْ فيها قصتها.

وقد وجَّهَ الحواريون -وهم الأخيارُ الخُلَّصُ من الذين آمنوا بعيسى- سؤلاً إلى رسولهم عيسى ابن مريم، قائلين له: هل يستطيعُ ربُّك أن يُنزِّل علينا مائدةً من السماء؟ وصيغةُ السؤال فيها كثيرٌ من الاستغراب، فما كان لمثل الحواريين أن يسألوا بهذه الصيغة الموهِمَةِ، ولذلك بادرَ عيسى عليه السلام إلى أمْرِهِمْ بتقوى الله ومخافتِهِ، وقال لهم بعد ذلك: ﴿إن

﴿كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ وهي عبارة مناسبةٌ للكيفية التي سألوا بها ﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة:١١٢].

عند ذلك توسَّعَ الحواريون في بيان الأمر الذي طلبوه، وكشفوا عن مقاصدهم وأغراضهم من وراء طلبهم ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة:١١٣].

بيَّنَ الحواريون مقْصِدَهُمْ من وراء طلبهم إنزال الله عليهم مائدة من السماء، فكانت أربع مقاصد:

الأول: أنهم كانوا بحاجة إلى الطعام، فأرادوا من وراء إنزالها أن يأكلوا من هذه المائدة المنزلة من عند الله ما يشبعُ جوعَهُمْ.

الثاني: يريدون بإنزالها أن تطمئن قلوبهم إلى الحق الذي جاءَهم من عند الله، وطلبهم هذا شبيه بطلب خليل الرحمن إبراهيم عندما طلب من ربه أن يريَهُ كيف يحيي الموتى، فقال له: أَوَلَمْ تؤمنْ؟ فقال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، وهذا مقصودٌ مشروعٌ مقبول، وتتحقق طمأنينة القلب، عندما يرى الحواريون المائدة، وهي هابطة من السماء، مستقرة بين أيديهم.

الثالث: أنهم يريدون أن يعلموا أن رسولَهم عيسى عليه السلام قد صدَقَهم، ويتحققُ هذا عندما يستجيب عيسى عليه السلام ، فيدعو ربَّه بإنزال الله المائدة، فينزلُها عليهم على النحو الذي طلبوه.

المقصد الرابع: أن يكونوا عليها من الشاهدين، فيتخذونها دليلاً يقدِّمونه للناس دالاً على صدق ما يدعون إليه، وذلك بإخبارهم الناس بأنهم رأوا نزول المائدة على النحو الذي نزلت عليه.

ويبدو أن عيسى عليه السلام قد اقتنع بما بيَّنوه من أهدافٍ ومقاصدَ، فتوجَّهِ إلى ربِّه تبارك وتعالى داعياً إياه أن ينزل عليهم مائدةً من السماء، وقد أعلمنا الله تعالى بما دعا به عيسى ربه، قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة:١١٤].

ابتدأ عيسى عليه السلام بدعاء الله بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ الدالِّ على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته، ثم قال: ﴿رَبَّنَآ﴾ فدعا الله تعالى بألوهيته وربوبيته، وهكذا يسأل العبدُ ربَّه عند دعائه له.

وطلب من الله تعالى أن يُنزِل عليه وعلى حوارييه مائدةً من السماء، والمائدة: كل خوَّانٌ عليه طعام، فإنْ لم يكن عليه طعامٌ، فليس بمائدة، وقال عيسى ﵇ في وصفه للمائدة التي دعا اللهُ بها ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ﴾ [المائدة:١١٤].

ومعنى: ﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي: تكفينا كُلَّنا، فيأكل منها أوَّلُنا وآخرُنا، قال ابنُ عباس: «أكَلَ منها -يعني المائدة- حين وضعتْ بين أيديهم آخرُ الناسِ كما أكل منها أوَّلُهُمْ» [الطبري: ٤/ ٣١١٤].

والمراد بكونها عيداً، أي: يكونُ نزولها موضعَ فرحٍ وبهجةٍ وسرور، وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ معناه: وحجة منك على عبادِك، تدل على وحدانيتك، وتدلُ على صدقي فيما أدعو إليه، وما أرسلتني به. وقوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ طَلَبَ من الله تعالى أن يرزقَهُم بإنزالها ما يحتاجونه من طعام، وأنت يا رب خير الرازقين.

واستجاب اللهُ دعاء عيسى ﵇ ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة:١١٥] وفي هذه الآية ردٌّ على الذين زعموا أن الله تعالى لم ينزل المائدة، فاللهُ قال: إني منزلُها عليكم، وتهدَّد اللهُ الذين يكفرون بهذه الآية العظيمة، ووعد بأن يعذِّبَهُ عذاباً لا يعذِّبُ مثلَه أحداً من العالمين، فقد جَرَتْ سنَّةُ الله في الذين يطلبون الآيات، ثم لا يؤمنون بها بأنْ يعذِّبَهم عذاباً شديداً، كما فعل بقومِ صالحٍ الذين طلبوا الناقة، ثم كفروا بها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل

١- الحواريون، وهم الخُلَّص من أتباع عيسى ﵇، يطلبون منه آيةً من عند الله، تكونُ متمثلة في مائدة منزلةٍ من السماء.

٢- عيسى ﵇ يُنكرُ على حواريه طلبهم، ويطلب منهم أن يتقوا الله، ويتركوا ما طلبوه.

٣- الحواريون يُبيِّنون لعيسى ﵇ وجه طلبهم الآية المتمثلة في المائدة، وقد حدَّدوا لطلبهم المائدة أربعة أمور ذكرتها الآية.

٤- دعا عيسى عليه السلام ربَّه طالباً مائدة تنزلُ عليهم من السماء، تكون كافيةً لهم جميعاً، وتكون آية من الله تعالى.

٥- استجابَ اللهُ دعاءَ نبيِّه عيسى عليه السلام ، فأنزلَ لهم مائدةً من السماء، وكانت متصفة بالصفات التي حدَّدها عيسى عليه السلام .

٦- أعلم اللهُ عيسى وحوارييه أنَّ الذي يكفر بالآية التي ينزلها، فإنه يوقع به عذابه، هكذا فعل الله بالمكذبين بآياته من أقوام الرسل فيما سبق

النص القرآن الثالث والثلاثون من سورة المائدة
ما أمر عيسى الناس إلا أن يعبدوا الله ربَّه وربهم

أولاً: تقديم

كانت النعم التي ذكَّر الله تعالى بها عيسى عليه السلام في النص السابق بمثابة التمهيد لما سأل اللهُ تعالى عيسى عنه في هذا النص القرآني الذي قال له فيه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦] وذكر اللهُ تعالى في آيات هذا النص الإجابة السديدة التي سيجيبُ بها عيسى عليه السلام في الموقف العظيم، وهي إجابةٌ مسدَّدةٌ موفَّقةٌ، استحقَتْ من الله أن يشيدَ بها، ويُذكِّر جزاءَ صاحبِها في ذلك الموقف العظيم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المائدة

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:١١٦-١٢٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سؤال الله -تعالى- عيسى عن مدى أمرِهِ الناس بتأليهه وأمه:

بعد أن ذكَّر الله تعالى عيسى عليه وعلى أمِّه السلام بما أنعم اللهُ عليه وعلى أمِّه من فضل ونِعَم، وجَّه إليه السؤال عن مدى أمره للناس باتخاذه وأُمِّه إلهين من دون الله ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦].

٢- جواب عيسى عليه السلام:

وقد أخبرنا ربُّنا -العليم الحكيم سبحانه- أن عيسى عليه السلام يقول في جوابه: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ

أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٦-١١٨].

وقد نزَّه عيسى ربَّه في إجابته له فقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: أُنزِّهُكَ وأُعظِّمُكَ عن كلِّ نقصٍ أو عيبٍ، وقال لربه: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ فعيسى عبدٌ مربوبٌ مخلوقٌ، لا يستحقُّ أنْ يكون إلهاً، ولا يستحقُّ أنْ يدعو الناسَ إلى عبادَتِهِ وعبادةِ أُمِّه، وقال عيسى لربه -تبارك وتعالى- إن كنتُ قلتُ هذا الذي سألتني عنه، فقد علِمْتَهُ، وقرَّر أنَّ اللهَ سبحانه يعلم ما نفسه، وهو لا يعلمُ ما في نفس الله، وقال لربه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فأنت العليم بالغيوب كلها، ولو قلتُ للناس هذا القول لعلِمْتَهُ، فعِلْمُكَ محيطٌ بكل شيءٍ، لا يخفى عنك شيءٌ في الأرض، ولا في السماء.

وقال عيسى في جوابه لربه تبارك وتعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾، والذي أمَرَهُ اللهُ أن يقولَه لقومه أن يعبدوا الله تعالى وحده، وهو ربُّه تعالى وربُّهم، وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى في سورة مريم أن عيسى عليه السلام عندما جاءَت به أمّه صبيًّا بعد ولادتِهِ ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم:٣٠] وقال لهم أيضاً: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم:٣٦].

وقالَ عيسى عليه السلام في إجابته لربِّه: وكنتُ عليهم شهيداً طيلةَ المدة التي كنت حيًّا فيهم، فلما رَفَعَ اللهُ عيسى عليه السلام إليه، انقطعَ عِلْمُهُ بما كان عليه قومُهُ، وبقي اللهُ وحدَهُ هو الرقيبُ على قومه سبحانه، واللهُ سبحانه على كل شيءٍ شهيد، لا يخفى عليه شيءٌ من أمور العباد.

وقال لربه -تبارك وتعالى- في ذلك اليوم العظيم: إن تعذِّبْ هؤلاء الذين أُرسلتُ إليهم، فإنهم عبادك، وأنت سيِّدُهُم ومالِكُهُمْ، وإن تغفر لهم ذنوبهم، وإسرافهم في أمرهم، فإنك أنت العزيز، أي: المنيعُ الغالبُ، الحكيم الذي يجري أمره في عباده وفق حكمته سبحانه وتعالى.

ولا شك أن هذا السؤال وما حواه جوابُ عيسى أظهر مدى ضلال الذين ألَّهُوا عيسى وأمَّه من دون الله، وأظهر أنهم كاذبون في دعْواهم أنَّ عيسى هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، وهذا الذي يدَّعيه النصارى ليس منزلاً من عند الله، ولا أمر به عيسى عليه السلام ، وإنما هو كلامٌ مخترعٌ مكذوبٌ على الله وعلى رسول الله.

٣- ثناءُ الله على جواب عيسى وتصديقه له:

وقد أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على جواب عيسى، ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة:١١٩] صدَّقَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- ما قاله عيسى عليه السلام، فقال: هذا يومُ ينفعُ الصادقين صِدْقُهُمْ، وأعْلَمنا أن عيسى عليه السلام ومن اتَّبعُوه على منهجه لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار، وهم خالدون في تلك الجنات خلوداً أبديًّا دائماً لا ينقطع أجرُها وثوابُها، وأعْلمنا عن هؤلاء المؤمنين الموحدين بأنَّ الله سبحانه راضٍ عنهم، وهم راضون عن ربِّهم تبارك وتعالى، وهذا هو الفوزُ العظيم.

٤- من أعظم الأدلة على وحدانية الله أنَّ كل ما عبده البشر مخلوق مربوبٌ

وخَتَمَ اللهُ تبارك وتعالى هذه السورة العظيمة بقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:١٢٠] فاللهُ تعالى مالكُ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو على كل شيءٍ قدير سبحانه، وفي هذا ردٌّ على النصارى الذين ألَّهوا عيسى ابنَ مريمَ وأُمَّه، فعيسى وأمُّه عليهما السلام هما جزءٌ مما في هذه الأرض، والله تعالى يملكهما كما يملكُ غيرها مما في السمواتِ والأرض، وفي الآية ردٌّ على المشركينَ جميعاً، فكل ما عَبَدَهُ المشركون في السماء والأرض من الملائكة والجنِّ والشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال والبحار والأوثان والأصنامِ كلها مملوكة لله مخلوقةٌ له، لا تصحُّ أن تُعْبَدَ من دون الله.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - سيسألُ اللهُ -تعالى- عبدَه ورسولَه عيسى عليه السلام يومَ القيامة هل أمَرَ الناسَ بعبادتِهِ وعبادةِ أُمِّه، فيتبرأُ من ذلك، ويخبرُ أنه لم يكن له أن يقولَ ما ليس له بحقٍّ، ولو كانَ قال ذلك، لعلمه ربه، فهو عالمٌ به، وعالم بالغيوب كلِّها.

٢- أخْبرَ عيسى في جوابه على سؤال ربِّه أنه لم يقُلْ للناس إلا ما أمره به ربُّه، فقد قال لهم: اعبدوا اللهَ ربي وربكم.

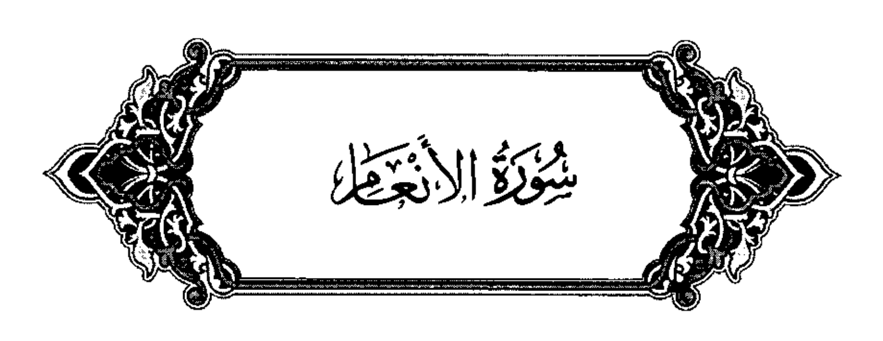
٣- أثبت عيسى عليه السلام النفسَ لله تعالى في قوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ﴾.

٤ - كان عيسى شهيداً على قومه عندما كان مصاحباً لهم، فلما توفَّاه الله، ورفعه إلى السماء كان اللهُ وحْدَهُ الرقيبَ على قومه، وهو سبحانه شهيدٌ على كل شيء.

٥- ردَّ عيسى ﷺ الأمرَ في قومه إلى ربّ العزة، فهو إن شاء عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم.

٦- صدَّق اللهُ -تعالى- عيسى فيما أخبر به، وأخبر أنَّ الصادقين سينتفعون بصدقهم في ذلك اليوم، وعاقبةُ الصدِّقِ الجنةُ.

٧- اللهُ له ملكُ السموات والأرض، وكل ما عبده الكفارُ، ومنهم عيسى هم جزء من ملكوت السموات والأرض، فهم مخلوقون مربوبون.



التعريف بهذه السورة

ذكر كثير من المفسرين أن هذه السورة الكريمة مكية في الجملة، وذكر بعضُ المفسرين أن هذه السورة اختصت من بين سور القرآن بنزولها من أولها إلى آخرها مرةً واحدةً ليلاً، وقد أورد ابنُ كثيرٍ كثيراً من الأحاديث الدالة على ذلك، وقد بيَّنَ محقِّقُ ابن كثيرٍ أن هذه الأحاديث ضعيفة [ابن كثير: ٣/ ٥].

وقال أبو عمر الداني في هذه السورة: «كَلِم هذه السورة ثلاثةُ آلافٍ واثنتان وخمسون كلمةً، وحروفها اثنا عشر ألفاً وأربعمائة واثنان وعشرون حرفاً، وهي مائةٌ وخمسةٌ وستون آية بالكوفيِّ، وستٌّ في البصريِّ والشاميِّ، وسبعٌ في المدنيين والمكي» [البيان في عدِّ آي القرآن: ١٥١].

وقال القرطبي: «قال العلماء: هذه السورة أصلٌ في محاجَّةِ المشركين، وغيرهم من المبتدعين، ومن كذَّبَ بالبعث والنشور، وهذا يقضي إنزالها جملةً واحدةً، لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تَصَرَّفَ ذلك بوجوهٍ كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين» [القرطبي: ٣/ ٧٠٣].

النص القرآني الأول من سورة الأنعام

حمدُ الله تعالى نفسَهُ تعليماً لعباده على خلقه السموات والأرض

أولاً: تقديم

حَمِدَ ربُّنا -تبارك وتعالى- نفسَهُ على خلقِهِ السماوات والأرض، وجعْلِهِ الظلماتِ والنور، وذمَّ الكفارَ الذين عدلوا آلهتهم بالله ربِّ العالمين، ومعنى يعدلون، أي: يُسَوُّونَ.

وأعلمنا ربُّنا بالأصل الأول الذي خلقنا سبحانه وتعالى منه، فقد خلقنا بخلق أبينا آدم عليه السلام من طين، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه جَعَلَ لنا أجلاً تنتهي حياتُنا بانقضائه، وجعلَ لنا أجلاً آخر ينتهي فيه بقاؤُنا في الأرض التي غيبنا فيها، ونقومُ بعد الأجل الثاني المسمى عند الله ربِّ العالمين، وأخبرنا ربُّنا -عز وجل- في آيات هذا النص أنه المعبود الحقُّ لأهل السماوات وأهل الأرض، وأعلمنا أنه يعلم بأسرارِنا التي نخفيها، وأعمالِنا التي نُبْدِيها، ويعلمُ كلَّ ما نقومُ به.

وذمّ الحقُّ -تبارك وتعالى- الذين يعرضون عن آيات الله التي جاءَتهم من عنده، وتهدَّد هؤلاء بأنه سيأتيهم ما كانوا يستهزئون به.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن من سورة الأنعام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾

[الأنعام:١-٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- **الحمد لله خالق السموات والأرض وجاعل الظلمات والنور:**

حَمِدَ العليُّ الأعلى -تبارك وتعالى- نفسَه على خلْقِه السموات والأرض، وجعْلِهِ الظلمات والنور، والسماواتُ والأرضُ مخلوقان عظيمان، والأرضُ موطننا الذي نعيش فيه، وقد جعل

الله تعالى فيها الآيات البينات والحجج الظاهرات، ففيها الجبالُ والسهولُ والأنهارُ والبحارُ، وجعل الله فيها الحيوان والطيور والنبات، والسماء مخلوقٌ أعظمُ من الأرض، ونحن نشاهدُ شمسَها وقمرَها ونجومَها، وحدَّثنا ربُّنا أنها سبعٌ، وهي مسْكَنُ الملائكة، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام:١].

وذهب أكثرُ المفسرين إلى أن المراد بالظلمات ظلمات الليل والمرادُ بالنور نورُ النهار، وذهب الشوكاني إلى أن المرادَ بالظلمات كلُّ ما يطلقُ عليه اسمُ الظلمة، ويدخل فيها ظلمةُ الليل، وظلمةُ الشرك والكفر، وأدخل في النور نورَ النهار، ونورَ الإيمان [فتح القدير: ٢/ ١٣٩] وقول الجمهور أوْلى وأصوب.

وقد ذمَّ اللهُ تبارك وتعالى في خاتمة الآية الأولى الكفارَ بكونهم يعْدِلون أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم بالله ربِّ العالمين، ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾.

وهؤلاء الكفرة ضالون جاهلون إذ يُسَوُّون آلهَتَهُم المخلوقة المربوبة الآفلة الضعيفة بالله ربِّ العالمين الذي خلق السموات والأرضينَ، وجعل الظلمات والنور ومعنى ﴿يَعْدِلُونَ﴾ أي: يسَوُّون آلهتهم بالله تعالى.

وقد نبهنا الإمامُ مجاهدٌ رحمه الله تعالى إلى أن الآية الأولى من سورة الأنعام تردُّ على ثلاثةِ أديانٍ، فقد أخرج أبو الشيخ من طرق عن مجاهد، قال: «في هذه الآية ردٌّ على ثلاثة أديان: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فيها ردٌّ على الدهرية، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ ردٌّ على المجوس الذين زعموا أن النورَ والظلمة هما المُدَبِّران، ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ فيه ردٌّ على مشركي العرب ومن دعا من دون الله إلهاً» [الإكليل، للسيوطي: ص١١٧].

٢- خلقنا ربُّنا تبارك وتعالى من طين:

بعد أن أخبرنا تباركَ وتعالى بأنه وحده الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، أتبع ذلك بإخبارنا بالأصل الذي منه خُلقنا، فاللهُ خلقنا بخلق أبينا آدم عليه السلام من طين ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام:٢] وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ في الحديث الذي رواه عنه أبو موسى الأشعري قال: «إنَّ اللهَ خلق آدم من قَبْضَةٍ قَبَضَها من جميع الأرض، فجاءَ بنو آدمَ على قَدْرِ الأرض، فجاءَ منهم الأحمرُ، والأبيض، والأسودُ، وبين ذلك، والسهلُ، والحَزْنُ، والخبيثُ، والطيبُ» [صحيح سنن الترمذي: ٢٣٥٥. وخرجه الألباني في المشكاة: ١٠٠، وسلسلة الصحيحة: ١٦٣٠].

وإذا علمنا أن الله خلقنا من طين، فإنه يجبُ علينا أن نعبُدَ الله ونوحده ونثني عليه، ونمجِّدَهُ سبحانه على ما أنْعَم به علينا في خلقه السموات والأرض، وخلقِنا من طينٍ، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ﴾ [الأنعام:٢] فالأجلُ الأول يتحقق بموت الواحد منا في الحياة الدنيا، أو يكونُ بموت الجميع عندما تقومُ الساعةُ، والأجلُ الثاني يتحقق بالبعث والنشور، وقيام الناس لله ربِّ العالمين.

وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ﴾ أي: مخْفِيٌّ عنده، لا يُطْلِعُ عليه نبيّاً مرسلاً، ولا ملكاً مقَرَّباً، فإن الله تعالى قال في الساعة: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٧] وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات:٤٢-٤٤].

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام:٢] أي: تشُكُّون، وفي هذا توبيخٌ للكفرة الذين يشُكُّون فيما أخبرنا به العليمُ الحكيمُ من وقوع الساعة، وأنَّ ذلك حتم لازم لا شك فيه.

٣- اللهُ -تعالى- هو المعبودُ الواحدُ في السموات والأرض:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنه هو المعبودُ وحدَهُ في السماوات وفي الأرض ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الأنعام:٣] أي: هو معبودُ أهل السماءِ ومعبودُ أهل الأرض، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ﴾ [الزخرف:٨٤] وهو كقولنا: كان عمر بن عبدالعزيز حاكم بلادِ الشام، وحاكم الجزيرة العربية، وحاكمَ مصر، وحاكم العراق.

ومع أن الله سبحانه هو معبودُ أهل السماء ومعبود أهل الأرض فهو يعلم سِرَّنا وجهْرنا، لا يخفى عليه خافيةٌ من أمرنا، ويعلم سعينا وكسبنا ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام:٣] وإذا أيقنا أن اللهَ يعلمُ سِرَّنا وجهرنا، ويعلم كسْبَنا راقبناه، وأطعناه، بفعل ما أمرنا به، وترْكِ ما نهينا عنه.

٤- ذم اللهُ تعالى الذين يُعْرِضون عن آيات الله عز وجل:

ذمَّ اللهُ -تعالى- الكفارَ الذين يُعْرِضون عن الآيات التي تأتيهم من عند الله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام:٤] ومن الآيات التي جاءت بها الرسلُ، وأعرضَ عنها الناسُ، ناقةُ صالح، وعصا موسى، وإبراءُ عيسى الأكْمَهَ والأبرص وإحياؤه الموتى، ومنها القرآنُ المنزلُ على نبينا محمدٍ ﷺ، وإعراضُ الناسِ عن

الآيات التي جاءتهم من عند الله تكون بكفرهم بها، وتكذيبهم لها، قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾ [الأنعام:٥] وعنى اللهُ بالذين كذبوا بالحقِّ جميعَ الذين كفروا برسولنا ﷺ وبما جاءَ به، وهو القرآنُ، وقد تهدَّدَ اللهُ هؤلاء الذين كذَّبوا الحق، واستهزؤوا به، وأخبرَ أنه سيأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزئون، فقد استهزأ المنافقونُ بما أخبرهم به الرسولُ ﷺ من فتوحاتٍ لبلاد الشام واليمن والعراق وفارسَ وغيرها، وقد تحقَّق صِدْقُ ما أخبر به الرسولُ ﷺ، وفي يوم القيامةِ سيعلمُ الكفارُ أنَّ الرسولَ الذي كانوا يسخرون منه، والقرآنَ الذي اتخذوه هُزواً، والدينَ الذي اتخذوه لعباً، ليس بموضعِ سخريةٍ واستهزاءٍ ولعبٍ، بل كُلُّه حقٌّ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- حَمِدَ اللهُ -تبارك وتعالى- نفْسَهُ لخلقه السموات والأرض، وجعله الظلمات والنور، وفي ذلك تعليمٌ لخلقه أن يحمدوه دائماً وأبداً على نعمه التي لا تعدُّ، ولا تحصى.

٢- اللهُ له المحامدُ كُلُّها، فهو اللهُ الذي يستحقُّ الحمدَ والثناءَ والتمجيدَ والتعظيم.

٣- في الآية الأولى من سورة الأنعام ردٌّ على الذين يزعمون أنَّ السماوات والأرض أزليتان أبديتان، وفيها ردٌّ على الذين قالوا بألوهية الظلام والنار، وفيها ردٌّ على المشركين الذين سوَّوْا آلهتهم المكذوبة المفتراة بالله ربِّ العالمين.

٤- سوَّى الكفارُ آلهتهم بالله رب العالمين، وآلهتُهُمْ مربوبةٌ مخلوقةٌ، وتسويةُ الخالق بالمخلوق في العبادة والتعظيم والمحبة ظلمٌ وافتراء وشركٌ.

٥- نحنُ البشر جميعاً مخلوقون من طينٍ بخلق أبينا آدم ﷺ، ثم خلقنا من سلالةٍ من ماءٍ مهين، وفي هذا ردّ على الذين زعموا كاذبين أن أصل الإنسان قردٌ أو فأر.

٦- لكل مخلوقٍ في هذه الدنيا أجَلٌ قضاهُ الله وحدَّده، ولكل واحدٍ أجلٌ يقومُ فيه لربِّ العالمين لا يعلمُ موْعِدَهُ إلا ربُّ العالمين.

٧- الكفارُ يشكُّون في قيام الساعة، وهم يكذبون بما أخبرنا به الله، وما أخبرنا به رسلُهُ.

٨- اللهُ هو معبودُ أهل السماء ومعبود أهل الأرض، ولا يستحقُّ غيره أن يُعْبَدَ، ولا أنْ يستعانَ، ولا يستغاث بغيره.

٩- اللهُ -تبارك وتعالى- عليم بأسرارنا وأخبارنا وأحوالنا وأعمالنا وسيحاسبنا على ذلك كله.

١٠- الكفارُ يرون آيات الله التي جاءَت بها الرسل، ثم يعرضونَ عنها، ويكفرونَ بها.

١١- الكفارُ كذَّبوا بالحق الذي جاءَهم من عند الله، وسيريهم اللهُ -تبارك وتعالى- في مقبلِ الزمانِ في الدنيا والآخرة أنباء ما كانوا به يستهزئون.

النص القرآني الثاني من سورة الأنعام

الله -تعالى- يدعو الكفارَ إلى الاعتبار بالهالكين السابقين

أولاً: تقديم

حثَّ اللهُ تعالى في آيات هذا النص المكذِّبينَ على النظرِ في مصارع الغابرين الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم وضلالهم، وأمرهم بالسير والنظر في مصارع الغابرين، وأخبر أن الآيات البينات لا تهدي دائماً المكذبين، فكثيراً من الذين عاصروا موسى وعيسى عليهما السلام لم ينتفعوا بما أنزل عليهما من آيات.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام:٦-١١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حَثَّ اللهُ الكفارَ على الاعتبار بغيرهم:

حَثَّ اللهُ -تعالى- المكذِّبين برسولِنا ﷺ أن ينظروا في القرون التي أهلكها اللهُ تعالى من قبلهم كي يعتبروا بما وقع لهم، فقد مكَّن اللهُ تعالى لأهل تلك القرون في الأرض، فتلك ديار ثمود قائمة تدلُّ على مدى قوتهمْ وجبروتهم، وتَكَشَّفتْ في أيامنا مدينة إرَمَ ذاتِ العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وتلكَ آثارُ قوم لوطٍ التي جعلَ اللهُ عاليها سافِلَها ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ [الأنعام:٦].

وقد أكثرَ اللهُ تعالى في كتابِهِ من الحثِّ على النظر في أحوال القرون الماضية، وهي الأممُ التي أرسل إليها الله رسله، فدمَّرهم عندما كفروا وكذَّبوا ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ [ق:٣٦]. وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء١٧]. وقال:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٢-٤٣]، والآياتُ في ذلك كثيرة.

وقد حدَّثنا ربنا -عزَّ وجلَّ- عما منحه للقرون الماضية من خيرات وما أحلَّ بهم من نكباتٍ لما كفروا وكذبوا، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام:٦] قال ابنُ جريرٍ الطبريُّ: «أمطرت فأخرجتْ لهم الأشجارُ ثمارَها، وأعْطَتْهُم الأرضُ ريعَ نباتِها، وجابوا صخورَ جبالها، ودَرَّت عليهم السماءُ بأمطارها، وتفجَّرتْ من تحتهم عيونُ المياه بينابيعها بإذني، فغَمَطُوا نعمةَ ربِّهم، وعصوْا رسولَ خالِقهم، وخالفوا أمْرَ بارئهم، وبغوا حتى حقَّ عليهم قولي عليهم، فأخذتهم بما اجترحوا من ذنوبهم، وعاقبتُهُمْ بما اكْتَسَبَتْ أيديهم، وأهلكتُ بعضهم بالرَّجْفَةِ، وبعضَهم بالصيْحَةِ، وغير ذلك من أنواع العذاب» [جامع البيان للطبري: ٤/ ٣١٣٣].

٢- تكذيبُ الكفار بما أنزل اللهُ عليهم مِنَ الآيات:

أخبرنا ربَّنا -عزَّ وجلّ- بأن الآيات التي يُنزلُها على الكفار قد لا تهديهم، ولا تدخلُ الإيمانَ في قلوبِهمْ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام:٧] أخبرنا العليمُ الخبيرُ أنه لو أنزلَ على الكفرة المكذبين لرسولنا كتاباً من السماءِ مكتوباً في صُحُفٍ، وعاينوا تلك الصحف، ولمسوها بأيديهم، لقالَ الكُفّارُ هذا الذي أنزلَ علينا من السماء سحرٌ مبين، ليس له حقيقةٌ، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن المدى الذي وَصَلَ إليه الكفارُ في تعنّتِهِمْ ومطالبهم في قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

٣- طلب الكفارُ من رسولنا ﷺ أن يؤيدَه اللهُ بملَكٍ ينزلُهُ معه:

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أن المشركينَ الذين كفروا بنبينا محمدٍ ﷺ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨] وقال في موضع آخر عنهم: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾ [هود:١٢]، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان:٧].

وهذا الطلبُ من الكفار يدلُّ على مدى جَهْلِهِمْ وقلَّة علمهم، فلو أنَّه أنزلَ عليهم ملكاً في صورتِهِ الحقيقية التي خلقَهُ اللهُ عليها فإنهم يهلكون لأنهم لا يطيقون رؤيته.﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحجر:٧-٨] ومعنى ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ أي: إذا أنْزَلَ ملكاً أو ملائكةً على قوم في صورِهم الحقيقية، فإنَّ ذلك يؤذن بنزول العذاب بالذين نزل الملائكةُ عليهم، ولذا قال ربُّ العزة في هذه السورة: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام:٨].

وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- في الآية التالية أنه لو أرسل ملكاً يدعو البشرَ إلى الله تعالى، فإنه سيجعلُه في صورة البشر، ليُمْكنه التواصل مع الناس، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام:٩] وفي هذه الحالة، أي: في إنزاله في صورة رجلٍ يلتبسُ الأمْرُ على المدعوينَ، لأنهم لا يدْرَوْنَ أمَلَك هو أو إنسي.

قال ابنُ جريرٍ الطبريّ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ «ولو أنْزَلنا ملكاً من السماء مُصدِّقاً لك يا محمدُ، شاهداً لك عند هؤلاء العادلينَ بي، الجاحدينَ آياتِكَ على حقيقة نُبُوَّتِكَ، فجعلناه في صورة رجلٍ من بني آدمَ إذ كانوا لا يطيقون رؤية الملك بصورته التي خلقتُه بها، التبسَ عليهم أمْرُه فلم يدْرُوا أمَلَكٌ هو أم إنسي! فلم يُوقِنوا به أنه ملكٌ ولم يصدقوا به، وقالوا: ليس هذا مَلَكاً، وللبسنا عليهم ما يَلْبِسُونه على أنفسهم مِن حقيقة أمركَ وصحةِ بُرهانكَ، وشاهدكَ على نُبُوَّتِك. يقال منه: لَبَسْتُ عليهم الأمرَ أَلْبِسُه لَبْساً: إذا خَلَطْتُه عليهم، ولَبِسْتُ الثوبَ أَلْبَسُه لُبْساً، واللَّبُوس: اسمُ الثياب» [جامع البيان: ٤/ ٣١٣٧].

وإنما يرسلُ اللهُ رسولَه من الملائكة على صورته الملائكية، لو كان المرسل إليهم في الأرض هم الملائكة، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء:٩٥].

٤- تهديدُ الله الكفارَ بأن يفعل بهم كما فعله بالذين من قبلهم:

أخبر اللهُ -تعالى- أنَّ كل أمة من الأمم الماضية استهزأتْ برسولِها، فحاقَ بالذين سَخِروا برسولِهِمْ ما كانوا يستهزئون به. ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام:١٠].

ومن المستهزئين برسلهم قومُ نوحٍ، فإنه كان وهو يصْنَعُ الفُلكَ كلما مرَّ عليه ملأ من قومه سَخِروا منه ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ [هود:٣٨] ويومَ

القيامة يقولُ اللهُ عز وجل للكفار أهل النار: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١٠].

ومعنى: ﴿فَحَاقَ﴾ فأحاط بالساخرين منهم ما كانوا به يستهزئون، كما قال نوحٌ عليه السلام لقومه: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩)﴾ [هود:٣٩].

٥- أمر اللهُ تعالى المكذبين بالسير في الأرض والنظر في حال المكذبين:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- الناس بالسير في الأرض، والنظر في عاقبة الذين كذَّبوا اللهَ ورسلَه ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾ [الأنعام:١١] وقد أكثر ربُّ العزةِ في كتابِهِ من أمرِ الناس مؤمنهم وكافرهم أن يسيروا في الأرض، وينظروا كيف كان عاقبةُ الذين كذَّبوا رُسُلَ الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف:١٠٩]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج:٤٦]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم:٩]. والآياتُ الآمرةُ بالسيرِ والنظر في عاقبة المكذبين كثيرةٌ في كتاب الله، والغربيون اليوم مولَعون بالسير والنظر في أحوال الغابرين، ولكنهم لا يعتبرون بمصارعهم، وما جرى لهم، فسيْرُهُم فيه خَلَلٌ، ولا يستفيدون منه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص الكريم وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- حثَّ اللهُ الذين كفروا برسولنا ﷺ أنْ ينظروا نظرةَ تبصُّرٍ واعتبارٍ في القرون التي أهلكها الله من قبلهم، فإنهم إن لم يؤمنوا فإنَّ مصيرهم كمصير الغابرين، فالهالكون من القرون أعطاهم اللهُ أعظم مما أعطى الكفارَ برسولنا ﷺ.

٢- الآياتُ التي يُنْزِلُها على مكذِّبي الرسل، قد لا تقودُ إلى الإيمان، ولا تهدي إلى الرشاد، وتكون موضع تكذيب، ففرعون وقومُه لم تهدهم الآيات التي أنزلها على موسى، ولو نزَّل على الكفارِ برسولنا ﷺ كتاباً مكتوباً من السماء، لما آمنوا، ولقالوا: هذا سحر مبين.

٣- اقترحَ بعضُ الكفارِ على نبينا محمد ﷺ أنْ ينزلَ اللهُ عليه مَلَكٌ يعاينُه الناسُ، ويشهدُ لرسولنا ﷺ بأنه رسولٌ صادقٌ، ولو أنزل اللهُ تعالى ملكاً في صورتِهِ الملائكية لهَلَكَ الذين يَرَوْنَهُ، لأنهم لا يطيقون رؤيتَه، ولو جَعَلَهُ في صورة رجلٍ لالتبس الأمرُ على الكفار، لأنهم لا يدرون أنه مَلَكٌ.

٤- أرسل اللهُ رُسُلَهُ من البشر كي يُمْكِنَهم التواصلُ مع الناسُ، ويتمكنَ البشرُ من الأخذ منهم.

٥- الذين يستهزئون بالرسل يحيط بهم العذاب الذي سخروا به.

٦- أمَرَ اللهُ عبادَه بالسير في الأرض، والنظر في مصارع الغابرين.

النص القرآني الثالث من سورة الأنعام
الله له ما في السموات والأرض

أولاً: تقديم

عرَّفنا العليُّ العظيمُ -سبحانه وتعالى- في هذه الآيات بنفسه، فهو المالكُ للسموات والأرض، ورحمتُه سبقت غضَبَهُ، وسيجمعُ العبادَ في يوم الدين، وله -سبحانه- ما سكن في الليل والنهار، وهو فاطرُ السموات والأرض، أي: خالقهما على غير مثالٍ سابقٍ، وهو الذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ، وهو -سبحانه- الضارُّ النافعُ، وهو القاهرُ فوق عبادِهِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٢-١٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ -تعالى- له ما في السموات والأرض:

أَمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يُوَجِّه السؤالَ إلى المشركين الذين يعبدون الأوثانَ والأصنامَ قائلاً لهم: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:١٢]، ثم أجاب سبحانه نفسَه بنفسِه قائلاً: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام:١٢].

والعربُ الذين كانوا يعبدونَ الأوثانَ كانوا يقرُّون بأنَّ الله تعالى هو وحدَهُ الخالقُ للسموات والأرض دون غيره، قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ

عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩] والكفارُ عندما يُقرُّونَ بأنَّ اللهَ هو الخالقُ للسموات والأرضِ ومالكها يتناقضون عندما يعبدونَ غيره، ولا يُفْردونه بالعبادة.

٢- اللهُ -تعالى- كَتَبَ على نفسِهِ الرحمة:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنه كتب على نفسه الرحمة، ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:١٢] أي: أوجبَ وفرض على نفسِهِ -سبحانه- الرحمة، وروى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قَضَى اللهُ الخَلْقَ كتبَ في كتابِهِ، فهو عنْدَهُ فوق العرشِ: إنَّ رحمتي غَلَبَتْ غضبي» [البخاري: ٣١٩٤. ومسلم: ٢٧٥١]. وعن أبي هريرة أيضاً، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ: «جَعَلَ اللهُ الرحمةَ مائةَ جزءٍ، فأمْسَكَ عنده تسعةً وتسعين جزءاً، وأنزَلَ في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحمُ الخلقُ، حتى ترفَعَ الفَرَسُ حافرَها عن ولدها، خشية أن تُصيبَهُ» [البخاري: ٦٠٠٠. ومسلم: ٢٧٥٢].

٣- سيجمعُ اللهُ -تعالى- عبادَه في يوم القيامة:

أقْسَمَ ربُّ العزة -تبارك وتعالى- بنفسه الكريمة أنه سيجمعُ عبادَهُ يوم القيامة، لا يتخلَّفُ منهم أحَدٌ، ولا يُفْلتُ منهم أحد ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنعام:١٢] وهذا اليومُ أمْرٌ مستيقنٌ لا ريبَ فيه، ولا شكَّ فيه، والمؤمنون يُصَدِّقون بذلك من غير شكٍّ، ولذلك فإن ربَّ العزة قال: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الأنعام:١٢] أما الذين يخسرون أنفسهم في ذلك اليوم بإدخال الله لهم النارَ فهؤلاء لا يؤمنون ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢]، وهذا الخسرانُ هو الخسرانُ الأعظم.

٤- اللهُ -تعالى- له ما سَكَنَ في الليل والنهار:

أخبرنا ربُّنا -سبحانَه وتعالى- أنَّ ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام:١٣]، أي: ما استقرَّ في الليل والنهار، وأصْلُ السكونِ: ثبوتُ الشيء بعد تحرُّكِهِ.

وختم سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٣] فاللهُ -تبارك وتعالى- سميعٌ لأقوالِ عبادِهِ، لا يخفى عليه منها خافيةٌ، وعليم بأعمالهم وحركاتهم وما انطوت عليه قلوبهم.

٥- اللهُ -تعالى- وحدَهُ المعبودُ الذي يستحقُّ العبادة:

أَمَرَ ربُّ العزة -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أنْ يوجِّهَ للمشركين سؤال إنكار، فيقولُ لهم: أغيرَ الله أتَّخِذُ إلهاً ومعبوداً، وهو فاطرُ السماوات والأرض، أيْ: خالقُها وفاطرُهُما على

غير مثالٍ سابق، وهو سبحانه الذي يُطعِمُ ولا يُطْعَمُ، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤].

والمرادُ بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: هو الذي يرزقُ عبادَه، ولا يحتاجُ إلى من يرزُقُهُ ويطعمُهُ، وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، وقوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧]. وقد كان رسولنا ﷺ يثني على ربه تعالى بأنه يُطعِمُ ولا يُطعَمُ، فعن أبي هريرة قال: دعا رجلٌ من الأنصار من أهل قُباء النبي ﷺ قال: فانطلقنا معه، فلما طَعِمَ النبي ﷺ وغَسَل يديه قال: «الحمدُ له الذي يُطعِم ولا يُطعَمُ، ومنَّ علينا فهدانا، وأطعَمَنا وسَقانا، وكُلَّ بلاءٍ حَسنٍ أبلانا، الحمدُ لله غير مُوَدَّع ربي ولا مكافأً ولا مكفورٍ ولا مُستَغنىً عنه، الحمدُ لله الذي أطعَمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العُرْي، وهدانا من الضلال، وبصَّرنا من العمى، وفضَّلنا على كثير ممن خَلَق تفضيلاً، الحمدُ لله ربِّ العالمين» [قال فيه محقق ابن كثير: صحيح (١٠١٣)، أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (ص٣١٥)، وابن أبي الدنيا في الشكر (ص١٥)، وابن السني (ص٤٨٥)، وصححه ابن حبان (٥٢١٩)، والحاكم: ١/ ٥٤٦ على شرط مسلم، ووافقه الذهبي].

والمعنى المرادُ بـ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنه سبحانُه خالقها ومبْدِعُها، روى ابن جرير عن مجاهد، قال: سمعت ابنَ عباس يقولُ: «كنت ما أدري ما فاطرُ السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئرٍ، فقال أحدهما لصاحبِهِ: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها» [جامع البيان: ٤/ ٤١٤٣].

٦- الموقفُ الذي يجبُ على رسولنا ﷺ أنْ يقفه من ربّه:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولنا ﷺ أنْ يقولَ للناس: أمَرني ربِّي أنْ أكونَ أول من أسلَم لله ربِّ العالمين، ونهاه عن أن يكونَ من المشركين ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٤﴾ [الأنعام:١٤].

وأمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أنْ يقولَ للناس: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾ [الأنعام:١٥] فرسولُنا ﷺ عَبْدٌ مربوبٌ يخافُ اللهَ، ويخشى إن عصاه أن يوقعَ به عذابَهُ في يومٍ عظيم، هو يومُ الدين.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه من يُصْرَفُ عنه العذابُ في ذلك اليوم، فقد رَحِمَهُ -سبحانه- وفازَ فوزاً عظيماً ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام:١٦].

وقد أخبر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنه إن يمسسه بضُرّ فلا كاشفَ له إلا هو، وإن يمسسهُ بخيرٍ فهو على كل شيءٍ قدير: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام:١٧] قال مكيُّ بنُ أبي طالب: «المعنى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ فلا يكشفُه إلا هو، والضرُّ هنا الشدَّةُ في العيش والضيق، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾، أي: برخاءٍ في عيشٍ وسعةٍ، فهو على ذلك وغيره قدير» [الهداية إلى بلوغ النهاية: ٣/ ١٩٧٦].

٧- اللهُ -تباركَ وتعالى- القاهرُ فوقَ عبادِهِ:

أخبرنا ربُّنا العليُّ الأعلى سبحانَهُ أنه القاهرُ فوق عبادِهِ وأنه الحكيمُ الخبير، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨].

قال العلامةُ ابنُ كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾، أي: هو الذي خضعتْ له الرقاب، وذَلَّتْ له الجبابرة، وعَنَتْ له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلالِهِ وكبريائِهِ وعَظَمته وعُلُوِّه وقُدْرَتِهِ الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: في جميع ما يفعله، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالِّها، فلا يُعطي إلا لمن يستحقُّ، ولا يمنعُ إلا من لا يستحقُّ» [ابن كثير: ٣/ ١١].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ -تعالى- له ما في السموات والأرض، فكلُّ ما فيهما وما بينهما مخلوقٌ لله مملوك له، وكلُّ آلهة المشركين من الأصنام والأوثان والأشجار والأحجار مخلوقون لله، مملوكون له سبحانه.

٢- كتبَ اللهُ تعالى على نفسِهِ الرحمة، وأخبرنا سبحانُه أن رحمته تسْبِقُ غَضَبَهُ.

٣- يومَ القيامة كائن لا بد من وقوعِهِ، وسيجمع اللهُ فيه الأولينَ والآخرينَ، والذين يخسرون أنفسَهم في ذلك اليوم، ويهلكونها في النار هم الذين لا يؤمنون.

٤- اللهُ -تبارك وتعالى- له ما سَكَنَ في الليل والنهار.

٥- الرسولُ ﷺ اتخذ الله تعالى إلهاً معبوداً، فإنه سبحانه فاطرُ السموات والأرض، وهو الذي يرزق العباد، ولا يحتاج إلى من يرزُقُه ويطعُمُه.

٦- رسولُنا ﷺ أول المسارعين إلى الإسلام من هذه الأمة، وهو بعيد عن الشرك والكفر.

٧- المسلم الحقُّ يخشى إن عَصَى ربَّهُ أنْ يحلَّ اللهُ بِهِ العذابَ العظيم.

٨- المؤمنُ الصالحُ هو الذي يصرِفُ اللهُ عنه عذابَهُ في يوم الدين، وهو بذلك يكونُ من الفائزين في ذلك اليوم.

٩- الله هو الذي يتصرف بعباده، فهو قادرٌ على ضُرِّهم ونفعهم.

١٠- اللهُ تعالى هو العظيمُ الجليل، القاهرُ فوقَ عبادِهِ، فهو الذي خضعتْ له الرقاب، وعَنَتْ له الوجوه، ودانتْ له الخلائق سبحانه.

١١- اللهُ -تعالى- له نَفْسٌ، لا تشبه نفوس المخلوقات، لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ﴾ [الأنعام:١٢].

١٢- الله -تعالى- عالٍ على عبادِهِ لقوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٨].

النص القرآني الرابع من سورة الأنعام
شهادةُ الله تعالى لرسوله ﷺ أعظم شهادة

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ شهادته لرسوله ﷺ بأنه مرسل من ربه أعظمُ شهادةٍ، فلا أعظمَ وأكرمَ منها، وأعلمنا أنَّ القرآنَ حجةٌ على من بَلَغَه، وأخبرنا أن الآلهة التي تُعْبَدُ من دون الله آلهةٌ باطلةٌ، فلا يوجد دليلٌ يدلُّ على جواز عبادَتها. وأخبرنا أن أهل الكتاب يعلمون بما أنزل الله في كتبهم أن محمداً مرسلٌ من ربه، يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءَهم، ومن لم يؤمن به منهم فهو من الخاسرين، وأخبرنا أنه سيسأل المشركين عن شركهم يوم القيامة، فيحلفون كاذبين أنهم ما كانوا مشركين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام:١٩-٢٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- شهادةُ الله تعالى لرسوله ﷺ أعظم شهادة:

كذَّبت العربُ واليهودُ والنصارى بنبوَّةِ محمدٍ ﷺ، وطلبوا منه أن يأتي بمن يشهدُ له، فأمرَ الله -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يوجِّهُ السؤال إلى المشركين قائلاً لهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ﴾ [الأنعام:١٩].

وأمرَ اللهُ تعالى رسولَه أن يقولَ في الجواب: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الأنعام:١٩]. قال ابنُ جرير في تفسيره لهذه الآية: «قلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين الذين يكذبون ويجحدون نبوتك من قومِك: أيُّ شيء أعظمُ شهادةً وأكبرُ، ثم أَخبِرْهُم بأن أكبرَ الأشياء شهادةُ الله الذي لا

يجوزُ أن يقعَ في شهادته ما يجوزُ أن يقع في شهادة غيره من خلقِهِ من السهو والخطأ والغلط والكذب، ثم قلْ لهم: إن الذي هو أكبرُ الأشياء شهادةُ شهيدٍ بيني وبينكم» [جامع البيان: ٣١٤٦/٤].

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجل- في موضع آخر أن الله تعالى شَهِدَ لرسوله، وشَهِدَ له ملائكته، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾ [النساء:١٦٦].

فإنْ قيلِ: إن شهادةَ الله تعالى غيبٌ، فما فائدة شهادته لرسوله ﷺ، وهي غيب بالنسبة إلى البشر؟ والجوابُ: أنَّ اللهَ صدَّق رسولَه ﷺ في كتابِهِ، وصرَّح بصحة نبوته، وقال له: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾ [الرعد:٤٣].

دلَّل اللهُ تعالى على صدق رسولِهِ ﷺ بنصره وتأييده، ونصر أمته، والتمكين لها في الأرض، ومن قَصَدَ إهانة رسوله، فإن الله -تعالى- يهينه وينكِّل به.

٢- أنزل اللهُ تعالى القرآنَ ليقيم به الحجة على العباد:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يُخْبِرَ قومَه ومن دعاهم إلى الله تعالى أنه أُوحِيَ إليه القرآنُ لينذرَهم به، وينذر به من بَلَغَه من الناس في الحياة الدنيا في عصره وبعد عصره ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام:١٩]. فكلُّ من بلغه القرآنُ، وفَقِهَهُ فقد قامت الحجةُ عليه به.

وهذا يدلُّ على خطأ الذين يزعمون أن حُجَجَ القرآن غيرُ كافيةٍ في دعوةِ الناس إلى الله تعالى، ويذهبون إلى إيراد الأدلة العقلية بعيداً عن هدي القرآن الكريم.

٣- لا توجد آلهةٌ تستحقُ العبادةَ مع ربِّ العزة:

أمرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يخاطبَ المشركينَ سائلاً إياهم ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾ [الأنعام:١٩].

وهذا الذي أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يخاطبَ به المشركين، فيه توبيخٌ لهم، وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ، أن لا يشهَدَ معهم، فشهادتُهُمْ باطلةٌ، وأمَرَهُ أن يقرِّر الحقّ بقوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أيْ: هو معبودٌ واحدٌ، وغيره معبوداتٌ باطلة، وأمَرَهُ أن يتبرأ مما يشركون الله به من الأوثان والأصنام.

٤- أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون رسولَنا ﷺ كما يعرفون أبناءَهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ والنصارى الذين آتاهم اللهُ الكتابَ، والمرادُ به التوراةُ والإنجيلُ يعرفون أنَّ محمداً ﷺ مرسلٌ من ربه كما يعرفون أبناءَهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾ [الأنعام:٢٠]. وإنما يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم، لأن الله تعالى عرَّفهم به في التوراة والإنجيل، وأمَرَهُمْ بالإيمان به، واتباعه.

«وقد قال بعضُ من أسْلَم من أهل الكتاب، واللهُ لنحنُ أعرَفُ به من أبنائِنا، لأن صفته ونعتَهُ في الكتاب، وأما أبناؤنا فلسنا ندري ما أحدث النساءُ فيهم» [الهداية إلى بلوغ النهاية: ٣/ ١٩٨١].

وأخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام:٢٠] والذين خسروا أنفُسَهُمْ اليهودُ والنصارى الذين يعلمون أنَّ محمداً رسولُ الله ﷺ ، عِلِمُوهُ من كتبهم المنزلة من عند الله، ولكنهم كفروا به، فخسروا أنفسَهم في الدنيا والآخرة، فهم لا يؤمنون، والخسرانُ يكونُ بغضب الله عليهم، وإدخالِهم النار.

٥- أظلمُ الناس الذين افْتَرَوْا الكذب على الله تعالى:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لا أحَدَ أظْلمُ من الذي افترى على الله الكذبَ أو كَذَّبَ بآياتِ الله تعالى، والذين اختلقوا الكذب على الله تعالى كثيرون، منهم المشركون الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، واليهودُ الذين قالوا: عزير ابنُ الله، والنصارى الذين قالوا: المسيحُ ابنُ الله، أو هو اللهُ أو ثالثُ ثلاثةٍ تعالى الله عما يقولونه علوًّا كبيراً ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام:٢١]. والذين كذَّبوا بآياته هم الذين كذَّبوا بحججه وأدلته التي أعطاها رُسُلَه الدالة على صحة نبوتهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ أي: لا يُفْلِحُ القائلونَ على الله الباطلَ، والجاحدونَ بنبوةِ أنبيائِه.

٦- سؤالُ الله تعالى المشركينَ عن شِرْكهم في يوم الدين:

أخبرنا ربُّنا تقدَّسَتْ أسماؤُه أنه سيحشُر الناسَ إليه جميعاً في يوم القيامة، ثم يقولُ للمشركين منهم: أينَ شركاؤُكم الذين كنتم تدعونهم في الدنيا ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٢٢﴾ [الأنعام:٢٢]. والشركاءُ الذين اتخذوهم أنداداً هُمُ الأصنامُ والأوثانُ التي كانوا يعبدونها في الحياة الدنيا.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن هؤلاء الضُلاَّل المشركين لم تكن فِتْنَتُهم في يوم الدين ولا مَعْذِرتهم إلا أن قالوا: والله ربِّنا ما كنا مشركين، ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام:٢٣]. وهؤلاء زعموا كاذبين أنهم كانوا في الحياة الدنيا غير مشركين، لأنهم رأوا أنه لا ينجو في الآخرة إلا الموحدون، العابدون لله ربِّ العالمين، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنهم كذبوا على أنفسهم، وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام:٢٤]. واللهُ تعالى يُظهِرُ كذبهم عندما يختمُ على أفواههم ويُشهِدُ عليهم أيديهم وأرجُلَهم بما كانوا يفعلونه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- شهادةُ الله -تعالى- أعظمُ شهادةٍ، فالله تعالى لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فمن شهد الله له كما شهد لرسوله بالرسالة، فشهادتُهُ أعظمُ شهادةٍ.

٢- كلُّ من يفقه اللغة العربية، ويبلغُهُ القرآنُ، فإن الحجة تقومُ عليه.

٣- اللهُ تعالى إلهٌ واحد، وليسَ هناك من حجةٍ تدلُّ على صحة آلهة المشركين.

٤- أهلُ الكتابِ من اليهود والنصارى عندهم في كتبهم ما يدُلُّهم على أنَّ محمداً مرسلٌ من ربه، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم.

٥- الذين يكفرون بمحمدٍ ﷺ في النار وغضب الجبار فهم خَسِروا أنفسهم، وهذا أعظمُ الخسران.

٦- أعظمُ الناس ظلماً هم الذين افتروا على الله الكذبَ أو الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى، إنه لا يفلحُ الظالمون.

٧- يسألُ الله يوم القيامة المشركين عن الآلهة التي كانوا يعبدونَها، فيحلفون زاعمين أنهم لم يكونوا مشركين، وهم في ذلك كذبوا على أنفسهم، وغابت عنهم الآلهة التي كانوا يعبدونها.

٨- سمَّى اللهُ -تبارك وتعالى- نفسَه شيئاً في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الأنعام:١٩] ولكنه تبارك وتعالى شيءٌ لا يشبهُهُ شيء من الأشياء، و﴿شَيْءٍ﴾ ليس اسماً من أسماءِ الله تعالى، فلا يقالُ فلان عبدُ الشيء، ولا يصحَّ أنْ ندعوَا الله، فنقول: يا شيءُ.

النص القرآني الخامس من سورة الأنعام
حالُ الكفار في الدنيا والآخرة

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن حال الكفار عندما كانوا يستمعونَ القرآنَ من فم الرسول ﷺ ، فقد كانوا يستمعون إليه، وقلوبُهم مغَشَّاة، عليها أكنَّةٌ، فلا يفقهون ما يتلى عليهم، وفي آذانهم وَقْرٌ، أي: ثِقَلٌ، وعندما يُشاهدونَ الآيات التي أيَّد اللهُ بها رسولَه ﷺ فلا تأثّر فيهم، ولا يؤمنون بها، وهم في مجادلتهم للرسول ﷺ يحكمون على القرآن بأنه أساطيرُ الأولين.

وأخبرنا ربُّنا أن هؤلاء ينهونَ الناس عن اتباع القرآن ويبعدون أنفسَهم عنه، وبذلك يُهْلِكونَ أنفسَهُم، ولا يشعرون.

ووصف لنا ربُّنا حالَ الكفارِ عندما يقفون بين يدي الله في يوم الدين، فيُبكِّتُهمْ قائلاً لهم: ﴿هُوَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ فيقرون قرارَ المغلوبِ المقهور، فيقول لهم ربَّ العزة: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾ .

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾ [الأنعام:٢٥-٣٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كان الكفار يستمعون تلاوةَ الرسولِ ﷺ القرآن ولا يفقهون ما يسمعون:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أن كفَّارَ قريشٍ كانوا يأتونَ الرسولَ ﷺ ، فيستمعون تلاوتَه القرآن، وأخبر سبحانه أنه جعل على قلوبهم أكنَّة، فلا يفقهونَه، وجعل في آذانِهِمْ وقْراً،

فلا يحسنونَ سماعَه ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام:٢٥].

والأكِنَّة: جمع كِنان، كأسنَّة وسنان، والأكنّة: الأغْطِيَةُ، واللهُ أعلم بحقيقة هذه الأكنَّةِ، وينشأُ عن الأكنَّة التي على القلوب والوِقر الذي في الأسماع شدة بغضهم لرسول ﷺ وبُغْضِ ما جاء به، ومع البغض النفرةُ منه، والإعراض عنه، ويلزمُ من ذلك كلِّه عدمُ استطاعتِهم فقه ما تلاه عليهم.

وأخبرنا العليمُ الحكيمُ سبحانَهُ عن هؤلاء الكفار الذين على قلوبهم أكنةٌ وفي آذانهم وقر أنهم إن يروا كلَّ آيةٍ من الآيات المنزلة على عبده ورسوله ﷺ مهما كان فيها من الدلالات والحجج الواضحات، فإنهم لا يؤمنون بها، أي: لا يصدقون بها، ولا يقرُّون بدلالتها على ما دلَّتْ عليه ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأنعام:٢٥]، ومن ذلك أن الله تعالى شقّ لهم القمر فلم يؤمنوا، وقالوا: هذا سحرٌ. وأخبرنا -تبارك وتعالى- أن هؤلاء الكفارَ الذين حُرِموا الفقهَ والإنصافَ يأتون يجادلون الرسولَ ﷺ واصفين الكتابَ الذي جاءَ به أنّه أساطيرُ الأولين ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام:٢٥].

قال الشوكاني: «أساطيرُ الأولين: ما سطَّرَهُ الأولونَ في الكتب من القصص والأحاديث، قال الجوهري: الأساطيرُ: الأباطيلُ والترهاتُ» [فتح القدير: ٢/ ١٥٣].

٢- حالُ كفار قريشٍ مع رسولِنا ﷺ :

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ كفار قريشٍ ينهون الناس عن مجالسة الرسول ﷺ ، وينهونهم عن اتباع الحقِّ الذي جاءَ به، و﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يبتعدون عنه، ولا يجالسونَه، فجمعوا بين عدم انتفاعهم بما جاءهم به، ونهْيِهم الناسَ عن الانتفاع به ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام:٢٦] وهم بذلك يُهْلِكون أنفسهم، لأنهم كفروا بالله تعالى، وصَدُّوا الناس عن سبيل الله تعالى وأسخطوا الله عليهم، وهم لا يشعرون بما أوْقَعُوا أنفسهم فيه ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام:٢٦].

٣- حالُ الكفارِ حين يوقَفون على النار في يوم القيامة:

صوّر الله -تبارك وتعالى- لنا حالَ الكفار عندما يقفون على النار في يوم القيامة، فيرونَها يحطِمُ بعضُها بعضاً، ويشاهدون نيرانها السوداء الشديدة، وما فيها من السلاسل

والأغلال، أعلمنا بما يقولونه في تلك الأحوال الصعبة الشديدة؛ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام:٢٧] يقولُ هؤلاءِ الكفار عندما يُحْبَسون على شفير جهنَّم، فيرون أهوالَها: يا ليتنا نردُّ إلى الدنيا، فنعودُ عما اقترفناه من تكذيبٍ بآيات الله، ونؤمنُ بربنا وبرسوله وبما جاءَ به. وقوله تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ﴾ فعلان ماضيان، وقد أجرى الله تعالى كل ما هو كائنٌ بمنزلةِ ما كان، لأنه سيقع كما أخبر سبحانه.

وقد ردَّ اللهُ -تباركَ وتعالى- عليهم قائلاً: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٨] أخبرَ اللهُ -تعالى- في ردِّه على الكافرين الذين تمنَّوا الرجعةَ إلى الدنيا ليؤمنوا ولا يكذِّبوا أنه ليس في طبائع هؤلاء وسجاياهم الإيمانُ، بل سجيتهم الكفرُ والشركُ والتكذيبُ، وأنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا فيه من الضلال والتكذيب، أخبر أنهم كاذبونَ في دعواهُم أنهم لو رُدُّوا لأنابوا وآمنوا.

وهؤلاء الكفارُ كانوا يعلمونَ أنهم كانوا في الدنيا على باطل، وأن الرسل صَدَقُوهم فيما بلَّغُوه عن الله، فتيقنوه وتحققوه، ولكنهم أَخْفَوْه، ولم يُظْهِروهُ بينهم، بل تواصوْا بكتمانه، فلم يكن الحاملُ لهم على تمني الرجوع والإيمانِ معرفةَ ما لم يكن يعرفونَه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، وظهرَ لهم يومَ القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطلٍ، وأنَّ الرسلَ على حقٍّ، فعاينوا ذلك عياناً بعد أنْ كانوا يكتمونه، ويُخْفونَه، ولو ردُّوا لعادوا إلى كفرهم، وتمنوا العودة لا لعلمهم أنه الحق، بل لأنهم عاينوا العذابَ الذي لا طاقةَ لهم باحتمالِهِ [بدائع التفسير: ٢/ ١٤٦].

٤- **إنكارُ الكفار أنَّ الله تعالى يحيي الناسَ بعد موتهم:**

أخبرَ العليمُ الحكيمُ سبحانَهُ أنَّ الكفارَ يُكذِّبون ربَّ العزة فيما أخبرَ به أنه يحيي الناسَ بعد أن يميتَهُمْ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام:٢٩].

فالدنيا عندهم نهايةُ المطاف، وليس بعد هذه الحياة حياةٌ، ولا جنةٌ ولا نارٌ، ولذلك تراهم يعُبُّونَ من الدنيا عبّاً غير آبهين بعذابٍ ولا عقاب.

وقد أخبرنا العزيزُ العليم بحال هؤلاء عندما يقفون بين يديه في يوم القيامة، وقد بعثوا إلى الدار التي كذَّبوا بها، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يُبكِّتُ هؤلاء، ويقولُ لهم: أليس هذا بالحق، فيجيبون صاغرين حالِفينَ قائلين: بلى، وربِّنا، فيقولُ لهم: فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام:٣٠].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- جَعَلَ اللهُ -سبحانه- أكنَّةً على قلوب الكفار تمنعهم من فقه القرآن، وجعلَ في آذانهم ثِقَلاً وصمماً، فلا يسمعونَه على الوجه الحقِّ.

٢- الكفارُ لا يستفيدون من الآيات التي أنزلها اللهُ على رسله، ولا يؤمنون بها.

٣- ادَّعى الكفارُ كاذبين أن القرآن أساطيرُ الأولين، وهذا يدلّ على مدى جهْلِهِمْ.

٤- الكفارُ ينهونَ الناسَ عن الإيمان، في الوقت الذي يكفرون به، وهم بذلك يُهْلِكونَ أنفسهم في الدنيا والآخرة.

٥- يتمنَّى الكفارُ المكذبونَ بيوم الدين عندما يقفون على شفير جهنم العودة إلى الحياة ليؤمنوا.

٦- كان الكفارُ يعلمون أنّ الرسولَ حقٌّ، وما جاء به حق، ولكنهم يكتمونَه فيما بينهم، وفي يوم القيامة يظهر هذا الذي يكتمونَهُ، ويتمنّوا العودة إلى الدنيا ليؤمنوا.

٧- الكفارُ يكذبون الله تعالى فيما أخبر به من البعث بعد الموت، وسيُقِرُّونَ في يوم القيامة فيما كذَّبوا به من قبل، ويذوقوا العذابَ بسبب كفرهم.

النص القرآني السادس من سورة الأنعام

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾

أولاً: تقديم

حدَّثَنا اللهُ تعالى في آيات هذا النص عن الذين خسِروا أنفسَهُمْ في النار يوم القيامة، وهم المكذبون بالآخرة، وأخبرنا عن حالِهِمْ وحسْرَتهم في ذلك اليوم، وأنهم يحملون فيه آثامَهم على ظهورهم، وقلَّلَ اللهُ تعالى من شأن الدنيا التي غرَّت الذين كذبوا بالآخرة.

وبصَّر اللهُ تعالى رسولَهُ بالموقف الذي يجبُ أن يقِفَهُ من المكذبين، فنهاه عن الحزن عليهم، فإنهم يعلمون أنه رسولَ الله حقّاً، ولكنهم يجحدونَ، وأمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أن يصبرَ على مشقَّاتِ الطريق، ويتحمل اللأواء، كما فعل الرسلُ من قبله، فالنصرُ آتٍ آتٍ، ولا مبدِّل لكلمات الله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنعام:٣١-٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- خسرانُ الذين كذَّبوا بلقاء الله تعالى:

أخبرنا العليم الخبير -سبحانه- أن الذين كذَّبوا بلقاء الله خاسرون، والمرادُ بلقاء الله اليوم الذي يلقوْنَ فيه ربَّهم، وهو يوم القيامة، الذي يقومُ فيه الناس لربِّ العالمين ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:٣١].

وأخبر ربُّنا سبحانه أنَّ هؤلاء المكذبين بالبعث والنشور عندما تأتيهم الساعةُ بغتةً أي: فجأةً، يقولون: يا حسْرَتنا على ما فرَّطنا فيها ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام:٣١]. والساعةُ: القيامةُ، سُمِّيتْ بهذا الاسم لسرعة الحسابِ فيها، وبغتةً: فجأةً، وقوله: ﴿ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ أوْقعُوا النداء على الحسرة، وليست بمنادى في الحقيقة، ليدلَّ ذلك على كثرة تحسُّرهم، والعربُ إذا اجتهدتْ في المبالغة في الإخبار عن عظيم ما تقعُ فيه، جعلته نداءً، فتدخل عليه (يا) للتنبيه [زاد المسير: ٣/ ٢٥]، وهذا كقولهم: يا للعجب، ويا للرجل.

وقولهم: ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ أي: على تفريطنا في الساعة، أي: في عدم الاعتدادِ لها، والاحتفالِ بشأنها، والتصديق بها، فقد ضيَّعوا في الدنيا عمل الآخرة.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١ ﴾ [الأنعام:٣١] أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أن أولئك الخاسرين المتحسرين يقولون ما قالوه، وهم يحملون أوْزارَهم، أي: آثامهم، وأصلُ الوزر: الحملُ على الظهر، فإذا حملوا أوْزارَهُم على ظهورِهِمْ، فضحهم اللهُ تعالى في يوم الدين على رؤوسِ الأشهادِ وأخزاهم.

٢- الحياة الدنيا لعبٌ ولهو:

ضربَ اللهُ -تعالى- لنا مَثَلَ الحياةِ الدنيا في سرعة انقضائها، وقِصَرِ عمرِها بالشيء الذي يُلعَبُ به، ويُلْهي، فإنه سريعاً ما يذهبُ ويزولُ، والدارُ الآخرة، وهي يوم القيامة، خيرٌ للذين يتَّقون الله عز وجل، أي: يتقونَ الله بابتعادهم عن الشرك والذنوب والمعاصي ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢ ﴾ [الأنعام:٣٢]، وقوله: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢ ﴾ أي: أفلا تعقلون أن الآخرة خير من الدنيا.

٣- اللهُ يعلمُ ما يحزنُ رسولَه:

أخبر اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ مواسياً له أنه يعلم أنه يحزنه ما يقولُه قومُه له، وأعلمه أنهم لا يكذِّبونه، ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣ ﴾ [الأنعام:٣٣] فالكفار يصدِّقونَ الرسولَ ﷺ في قرارة أنفسهم، ويعلمون أنه مرسلٌ من عند ربه، وإن كانوا يُعْلِنون أنه كاذبٌ، كما قال موسى عليه السلام لفرعونَ وآله: ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ ﴾

[الإسراء:١٠٢] وقال تعالى في فرعون وآله: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ [النمل:١٤] وكذلك قريش كانت تعلم أنَّ محمداً ﷺ صادقٌ، ولم يُجرِّبوا عليه كذباً قط، ولكنهم يكفرون مكابرين جاحدين، وقد لقي أبو جهل الرسولَ ﷺ ، فقال له: إنا لا نكذِّبكَ، ولكن نُكذِّبُ الذي جئت به، فنزلتْ هذه الآية [قال محقق زاد المسير ما خلاصَتُه: رواه الطبري عن ناجية مرسلاً، ورواه الترمذي أيضاً مرسلاً، ورواه الحاكم بإسنادٍ موصولٍ غير إسناد الترمذي وصححه على شرط الشيخين، وكونه على شرطهما غير صحيح، فإنهما لم يخرجا لناجيةَ بن كعبٍ، وهو وإن لم يكن على شرط الشيخين فإنه صحيح، لأنَّ ناجية تابعيٌّ ثقةٌ، كما قال الشيخ أحمد شاكر].

٤- واسى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ بإخبارهِ بتكذيبِ الأمم لرسلهم فصبروا:

أخبر العزيز العليم -سبحانه- رسولَه مواسياً له أن الرسلَ الذين أرسلَهم اللهُ تعالى من قبله كُذِّبوا كما كُذِّبَ هو، فصبروا على ما كُذِّبوا به، وأوذوا فيه، حتى جاءَهم نصرُ الله تعالى، فعليه أن يصبر كصبرهم فيما كُذِّبَ وأُذي فيه حتى ينزلَ اللهُ عليه نصره ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ ﴾ [الأنعام:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الأنعام:٣٤] وكلماتُ الله تعالى لا يمكنُ تبديلها وهي الكلماتُ التي حكم فيها بنصرِهِ لرسله، ومنها قولُه تعالى: ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ ﴾ [المجادلة:٢١] فلا أحد يستطيع أن يغيِّر كلماتِ الله أو يبطلها، فإنها قانونٌ نافذٌ. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام:٣٤]. فقد قَصَّ اللهُ -تعالى- على رسولِهِ ﷺ في كتابِهِ قصص المرسلين وأخبارهم، كيف أرسلوا، فكذَّبَهُمْ أقوامُهُم، وآذوهم، وكيف نصرهُمْ الله، وأذلَّ الكافرين بهم، ومن هؤلاء الرسل نوحٌ وهودٌ وصالحٌ وإبراهيمُ وموسى وغيرهم عليهم الصلاةُ والسلام.

٥- عاتَبَ اللهُ رسولَه ﷺ عندما كَبُرَ عليه إعراض قومهُ عنه:

محمدٌ ﷺ عَبْدٌ رسولٌ، وكان يَشُقُّ عليه إعراضُ قومِهِ عنه، وكُفْرِهم برسالته، وقد خاطبَ اللهُ رسولَه ﷺ قائلاً له: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ ﴾ [الأنعام:٣٥]. يقولُ لرسولِه: إن كان كَبُرَ عليك إعراضُهم عنك وكُفْرِهم بك، ومناوأتهم إيَّاكَ، فإن كنتَ تستطيعُ أن تبتغي نفقاً في الأرض، أو سُلَّماً في السماء، فتأتيهم بآيةٍ تشدُّهم إلى الإيمان، وتدخلهم فيه، فافعل.

والنفَقُ: الطريقُ النافذُ في الأرض، وهو السَّرب، والسُّلّم: الدرجُ الذي يرتقي به إلى السماء، مشتقٌّ من السلامة، وهو المِرْقاةُ.

والرسولُ ﷺ لا يملِكُ نفقاً في الأرض، ولا سُلَّماً يرقاه إلى السماء، ليأتي بآيةٍ، ولذلك فعليه أن لا يكبُر عليه إعراضُهُمْ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام:٣٥] أي: لو شاء الله -سبحانه- أن يجمع عبادَه على الهدى لفعل، ولكنه لم يشأْ، وله في ذلك الحكمةُ البالغة سبحانه وتعالى، ونهى الله رسولَه ﷺ أن يكون من الجاهلين، أي: لا تَجْهَل أنَّ الله سبحانه لو شاءَ لجمعهم على الهدى.

وأعْلَم اللهُ رسولَه ﷺ أنَّ الذي يستجيبُ للرسول ﷺ الذين يسْتَمعونَ، أي يستمعونَ سماعَ قبولٍ، وهم المؤمنون، أما الكفار وقد سمَّاهم ربُّ العزة بالموتى، فيبعثهم اللهُ تعالى كما يبعث المؤمنين، ومرجعُ الجميع إلى الله تعالى، فيحاسبهم ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام:٣٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الذين كذبوا بالبعث والنشور خاسرون، ويظهرُ خسرانهم عندما تقوم الساعة، فتأخذُهم الحسرة على ما فرطوا فيها حال كونهم يحملون أوزارهم على ظهورهم.

٢- الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهو، وهي إلى انقطاعٍ وزوالٍ، والدار الآخرة خيرٌ للذين يتقون ربَّهم، فهي الدارُ الباقية الدائمة.

٣- واسى اللهُ تعالى رسوله ﷺ في حزنه على تكذيب الكفار له، وأخبر اللهُ رسولَه ﷺ أن الكفار يعلمونَ أنه صادقٌ، ولكنهم يجحدون نبوتَه عالمين بصدقه.

٤- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ بالصبر على مشقات الطريق كما صبر الرسل من قبله، ووعده الله تعالى أن يُحِلَّ به نصرَه، كما نصر الرسل من قبله.

٥- قاعدةُ نصر الرسل بعد تكذيبهم قاعدةٌ ثابتة، وهي سُنَّةٌ إلهيةٌ، لا تقبلُ التغيير والتبديل، وقصص الرسل في القرآن تدلُّ على صحة هذه القاعدة العظيمة.

٦- تكذيبُ مكذبي الرسل أمْرٌ قدَّرَهُ اللهُ تعالى وقضاه، وعلى الرسل والدعاة أن يصبروا لأمر الله تعالى.

٧- الذين يستجيبون لله ورسوله ﷺ هم الذين وفَّقَهُم لاستماع القرآنِ أما الموتى الذين ماتت قلوبهم وعميتْ، اللهُ يبعثهم يوم القيامة.

النص القرآني السابع من سورة الأنعام
اللهُ قادرٌ على أنْ ينزل الآياتِ على عباده

أولاً: تقديم

أخبرنا ربنا -عز وجل- أن المشركين طلبوا آيةً تدلُّ على صدقِ الرسول ﷺ، وأعلمنا أنه قادرٌ على أن يُنْزِلَ آيةً باهرةً، ولكنه لا يفعل لحكمةٍ يعلمها، ووجَّه أنظار الكفرة إلى ما في الأرض من الدواب والطيور، فإنها أُمَمٌ أمثالنا، وذمَّ اللهُ -عز وجل- المكذبين بآياته، فهم صُمٌّ بُكْمٌ أحاطت بهم الظلماتُ، فهم لا يهتدون، وأعلمنا أنَّ المشركين كانوا عندما تحلُّ بهم الأهوالُ، يلجؤون إلى الله وحْدَهُ، ويضلُّ عنهم ما كانوا به يشركون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام:٣٧-٤١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المشركون يطلُبون أن يُنزِّل اللهُ على رسولِهِ آيةً تدلُّ على صِدْقه:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أن المشركين يطلبون أن يُنزِّل الله تعالى آيةً تدل على صِدْقِ رسولِهِ ﷺ وصِدْقِ ما جاء به ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴾ [الأنعام:٣٧].

والذين قالوا هذا القول هُمُ المشركون، وقوله: ﴿ لَوْلَا ﴾ بمعنى: هلاَّ، والآيةُ التي يطلبون إنزالها: المُعْجِزُ الخارقُ الذي يُلْجِئُهم إلى الإيمانِ، وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى بأنه قادرٌ على أن يُنزِّل آيةً ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً ﴾ [الأنعام:٣٧]. وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء:٤] أي: إن نشأ ننزِّلْ عليهم من السماء آيةً عظيمةً، تَبْهُرُ أبصارَهم، فتظلُّ أعناقهم ملويَّةً، تنظرُ إلى تلك الآية العظيمة.

وقولُه سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام:٣٧]، أي: لا يعلمون أن الله قادرٌ على إنزالها، ولا يعلمون ما يترتب على إنزالها من البلاء وقد بيَّن اللهُ تعالى المانعَ له من إنزالها، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء:٥٩]

٢- دوابُّ الأرضِ والطيورُ أُمَمٌ أمثالنا:

طَلَبَ الكفار آيةً عظيمةً ينزلُها اللهُ على رسولِه ﷺ، فأخبرنا ربُّنا عما بثَّه في الأرضِ مِنَ الدوابِّ والطيورِ، فكُلُّها أُمَمٌ أمثالُنا ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨].

والدابةُ: ما يَدِبُّ على الأرضِ، أي: يمشي عليها، وذَكَرَ اللهُ أنَّ الطائر يطيرُ بجناحيه للتأكيد، كما تقولُ نظرتُ بعينيَّ، وسمعتُ بأُذُنَيَّ، وضربتُ بيديَّ، ونحو ذلك، وقوله: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي: أمثالُنا في الخَلْقِ والرزْقِ والأكلِ والتخاطبِ، ونحو ذلك، ومن تأمَّلَ في عالمِ الحيوانِ والطيورِ رأى في خَلْقِها كثيراً مِنَ الآياتِ الباهرة، وقال ربُّ العزةِ في الدوابِّ ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦] وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت:٦٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨] أي: ما غَفَلْنا عنهُ، ولا ضيَّعْنا فيه من شيءٍ، والمرادُ بالكتابِ القرآنُ، فإن الله تعالى ما تَرَكَ من شيءٍ يحتاجُ الناسُ إلى ذكره إلا ذَكَرَهُ اللهُ تعالى فيه، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقال بعضُ المفسرين: المرادُ بالكتابِ اللوحُ المحفوظُ.

٣- الدوابُّ والطيورُ تُحشَرُ إلى ربِّها يومَ القيامة:

قال تعالى في خاتمة الآية: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨]. وحَشْرُ الدوابِّ والطيورِ يكونُ بموتها في الدنيا، ثم بعثها في يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير:٥].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنه في يوم القيامة: «يقادُ للشاةِ الجَلْحاءِ مِنَ الشاةِ القَرْناءِ» [رواه مسلم: ٢٥٨٢ من حديث أبي هريرة]. والجَلْحاء: التي لا قرون لها، والقَرْناء: ذاتُ القرونِ.

٤- **الذين كذَّبوا بآيات الله صمٌّ وبُكْمٌ في الظلمات:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين كذَّبوا بآيات الله، وهي آياتُ القرآن صُمٌّ وبُكْمٌ في الظلمات ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:٣٩] وإنما كان هؤلاء صُمٌّ، أي: لا يسمعون، وبُكْمٌ، أي: لا يتكلمون، لأنهم فَقَدوا نورَ القرآنِ وهدايَته، فالمؤمنون يُبْصِرونَ في ضوء القرآنِ طريقَهم الحقَّ، ويعرفون ربَّهم كما يعرفونَ رسولَهُم، ويعلمونَ الحلالَ والحرامَ، ويعلمونَ كيف يعبدُون الله تعالى، أما الذين كَذَّبوا بالقرآنِ، فإنَّهم يعيشون في الظلماتِ، ظلماتِ الجهلِ والكفرِ والشركِ، والذي تُظْلِمُ عليه الدنيا، بسبب غيبةِ الشمس، ولعدمِ وجودِ نورٍ يضيءُ له المكانَ، فإنَّه لا ينتفِعُ بناظرَيْهِ، والذي يغيبُ عنه نورُ القرآنِ لا ينتفعُ بعقله حقَّ الانتفاعِ.

وأخبرَ ربُّنا عن نفاذ مشيئته في عبادِه، فإنها نافذة لا تتخلَّفُ، فمن شاءَ اللهُ أن يضلَّه ضَلَّ، ومن شاءَ هدايتَهُ استقامَ على أمرِ الله وطاعَتِهِ ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام:٣٩].

٥- **كان المشركون عندما تحلُّ بهم المصائبُ العظامُ يخلصون الدعاءَ لربِّهم:**

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يوجِّهَ سؤالاً للمشركين قائلاً لهم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام:٤٠-٤١].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للمشركينَ: أرأيتم إنْ نَزَلَ بكم عذابُ الله، أو نزلتْ بكم الساعةُ، أتدْعُونَ غيرَ الله إن كنتم صادقين؟

وقد قرَّرَ ربُّ العزة في الآيةِ التاليةِ أنَّهم في هاتين الحالتين يدْعُونه وَحْدَه، وينسونَ الآلهةَ التي كانوا يعبدونها مِنْ دونه.

وقد أخبرنا ربنا -عز وجل- في غير هذا الموضع كيفَ يُخْلِصُ المشركون دينَهم لله، ويدعونه وَحْدَه، عندما يكونون في السفن، فتأتيها الريحُ العاصفُ، ويأتيهم الموجُ من كلِّ مكانٍ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢] وقالَ سبحانه في آيةٍ أخرى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧].

وأخبرنا ربُّنا سبحانه وتعالى في آيات هذا النص أنه إذا دَعَوْهُ على النحو الذي حدَّثنا به سبحانه، فإنه قادرٌ على أن يكشفَ العذابَ الذي أحاطَ بهم، وإنْ شاءَ لم يُجِبْ دعوتَهُمْ، وترَكَ العذابَ يحلُّ بهم، وأخبرنا أنَّه في حال نزولِ العذاب العظيم بهم يَنْسَونَ الآلهةَ التي كانوا يعبدونها ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)﴾.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كان المشركونُ يطالِبُونَ بأن ينزلَ اللهُ لهم آيةً تدلُّ على صدقِ الرسولِ ﷺ، فكان اللهُ يستجيبُ لطلبهم في بعضِ الأحيانِ، ومِنْ ذلك شقُّ الله القمرَ لهم، وأحياناً لا يستجيبُ.

٢- الدوابُّ والطيورُ أُمَمٌ أمثالنا في الخلقِ والرزقِ والتخاطبِ، وفيها آياتٌ عظيمةٌ لمن أحسنَ النظرَ والتدبُّرَ.

٣- الدوابُّ والطيورُ تُحْشَرُ إلى يوم القيامةِ، ثم يقتصُّ لبعضِها من بعضٍ، ثم تصيرُ تراباً.

٤- الذين كذَّبُوا بآيات الله، لا يفقهونَ الحقَّ، ولا يعقلونَهُ.

٥- مشيئةُ الله نافذةٌ في عبادِه، فمن شاءَ أضلَّهُ، ومن شاء هَداه.

٦- إذا أحاطَتِ الأهوالُ العظامُ بالمشركين دَعَوا الله وَحْدَه، وتركوا دعاءَ آلهتهم وأصْنامِهِمْ.

٧- إذا دَعا المشركونَ ربَّهم حينَ تحلُّ بهم الأهوال فإنَّه إنْ شاءَ كَشَفَ عنهم ما أحاطَ بهم، وإن شاءَ دمَّرهم.

النص القرآني الثامن من سورة الأنعام

سنّةُ الله تعالى في أخْذِهِ الكفرةَ بالبأساءِ والضراءِ لعلهم يتضرَّعونَ

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- كيفَ أخَذَ الأُمَم التي أرسَلَ إليها رُسُلَهُ بالبأساءِ والضراءِ، لعلهم يؤوبونَ إلى الله، ويرجِعونَ إليه، فإذا استمرُّوا على ضلالهم فتحَ الله عليهم الدنيا، حتى إذا فَرِحُوا بها آتاهم أخذهم العذاب بغتةً، فإذا هُمْ يائِسون من رحمة الله. وقد أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يُوجِّه للمشركينَ من الأسئلةِ ما يُظْهِرُ قدرةَ الله عليهم، وقدرتَهُ على إيقاعِ العذابِ بهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنعام:٤٢-٤٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النص من القرآن

١- سنَّةُ الله في الأُمَمِ المُكذِّبَةِ لرُسُلِها:

حدَّثنا اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن سُنَّتِهِ التي أخذَ اللهُ بها الذين كَذَّبوا رُسُلَه من الأُمم السابقة، فإنَّ تلكَ الأُمم كان يأخذها بالبأساءِ الضراءِ إذا هم كَذَّبوا، ليَؤوبُوا إلى الله، ويتَضَرَّعوا لَهُ، فإنْ لم يفعلوا فتحَ اللهُ عليهم أبوابَ المسرَّاتِ والخيرات، ثم أهْلَكَهُمْ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنعام:٤٢].

يقولُ اللهُ لرسولِهِ ﷺ: ولقدْ أرْسَلْنا إلى الأُمَمِ التي خَلَتْ مِنْ قبلكم رُسُلاً، فكَذَّبوا رُسُلَنا، فأخذناهم بالبأساءِ والضرَّاءِ لعلهم يتضرَّعون، والبأساءُ: الفقرُ والضيقُ في العيش، والضَّراءُ: الأمراضُ، والأسقامُ والآلامُ.

وقولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢)﴾ أي: لعلَّهم يَدْعون اللهَ متضرعينَ، أي: خاشعينَ، ومعنى (لعل) تَرَجٍّ، وهذا الترجِّي للعبادِ، أخذهم اللهُ بذلكَ ليكونَ ما يَرْجُوهُ العبادُ مِنْه التَّضَرُّعُ.

وقالَ تعالى مخبراً عما كان مِنَ المكذبين للرُّسُلِ من إعراضٍ، وتَرْكِهِمُ التضرعَ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأنعام:٤٣].

ومعنى (لولا) هنا: هَلاَّ، أي: فهلاّ إذا ابتليناهم بالبأساء والضراءِ تضرَّعوا لربِّهم، ولكنهم لم يفعلوا، وقَسَتْ قلوبُهُم، أي: صَلُبت، واشتدَّت على باطلهم وكفرِهمْ وتكذيبهم، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ أي: حَسَّن لهم الشيطانُ ما هم عليه من كفرٍ وشِرْكٍ وذنوبٍ ومعاصٍ.

وبعد أنِ ابتلاهُمُ اللهُ بالشدائِدِ، فلم يُنيبوا، ولم يُخْبِتُوا، ولم يتضرَّعوا، ابتلاهُمْ اللهُ تعالى بالسرّاءِ والنعم ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٥)﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥].

أخْبَرَنا العزيزُ العليمُ سبحانُه أنَّ المكذبين بالرسلِ بعد قساوةِ قلوبِهِم، واشتدادِ كُفْرِهِم، وعَدَم تضَرُّعهم ونسيانِهم ما أمُرُوا بِهِ، فتحَ اللهُ عليهم زهرةَ الدنيا، فجاءَتهم الأموالُ والأرزاقُ، وكثرتْ عندهم الخيراتُ، وبدَّل اللهُ بأْساءَهم رخاءً وسعةً في العيشِ وهذا استدراجٌ مِنَ الله -تعالى- لهم، فلَمّا لم يَشْكُرُوا اللهَ تعالى في الرخاءِ، كما لم يَتَضَرَّعوا في البأساءِ، أخذَهُم الله بَغْتَةً، أي: فجأةً على غفلةٍ منهم، فإذا هم ﴿مُّبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كلِّ خيرٍ، وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥].

قال الحسنُ: «مَكَرَ بالقومِ وربِّ الكعبة، أُعْطوا حاجَتَهُمْ، ثم أُخِذُوا» [رواه ابنُ أبي حاتم].
وقال قتادةُ: «بَغَتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ اللهُ قوماً قط إلا عند سَكْرَتِهِمْ وغِرَّتهم ونعمتهم، فلا تَغْتَرّوا بالله، إنَّه لا يغترُّ بالله إلا القومُ الفاسقون» [رواه ابن أبي حاتم. أيضاً: ابن كثير: ٣/ ٢٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ومعنى ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ﴾ أي: اسْتُؤْصِلوا جميعاً، فلم يبقَ منهم أَحدٌ، «وحَمِدَ ربُّنا -تعالى- نَفْسَهُ في ختامِ الآيةِ على أنْ قَطَعَ دابِرَهُمْ، واستأصَلَ شأفتَهم، لأنه جَلّ وعزّ أرْسَلَ إليهم الرُّسلَ، وأَنظرهم بعدَ كفرهم، وأخَذَهم بالبأساءِ والضراءِ، فبالغَ -جَلَّ وعَزَّ- في إنذارهم وإمهالهم، فحمدَ نفسَه، لأنَّه محمودٌ في إمهالِهِ مَنْ كَفَر بِهِ وانتظارِه توبَتَهُ» [معاني القرآن للزجاج: ٢/ ٢٤٩].

٢- الاحتجاجُ على الكفرةِ المشركين:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يَحْتَجَّ على المشركين فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: ٤٦].

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يقولَ للمشركينَ محتجًّا عليهم مُهَدِّداً لهم: أرأيتم إن سَلَبَكُم اللهُ النِّعَمَ التي أعْطاكُمْ إيَّاها، مِنَ السَّمْعِ والأبصارِ، وختمَ على قلوبكم، فلا ينفُذ الحقُّ إليها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقولُه تعالى: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ﴾ أي: مَنْ الذي يردُّ عليكم ما أخَذَهُ اللهُ منكم مِنَ الأسماعِ والأبصارِ والأفهام، وهذا الذي ذكَرَهُ اللهُ تعالى حجّةٌ على المشركينِ بالله، فالآلهةُ التي يعبدونَها لا تملكُ لهم ضرّاً، ولا نفعاً، والذي يستحقُّ العبادَةَ النافعُ الضارُّ القابضُ الباسطُ القادرُ الذي لا يُعْجِزُه شيءٌ.

ثم قالَ اللهُ لرسولِهِ ﷺ في خاتمةِ الآيةِ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ انظرْ كيف نُتابع عليهم الحجَج، ونضربُ لهم الأمثالَ والعبرَ، ليَعْتَبِروا ويتَذَكَّروا فيُنيبُوا، وقولُه: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: يُعْرِضونَ ويَعْدِلُون عنِ الحقِّ.

٣- تهديدُ المشركينَ بإنزالِ عذابِ الله بهم:

أَمَرَ اللهُ -تباركَ وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للمشركينَ مُهَدِّداً إياهم: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: ٤٧]، أي: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين المكذِّبين: أرأيتم إنْ جاءَكم عذابُ الله وعقابُهُ على ما تشركون به مِنَ الأصنامِ والأوثانِ، ولا فرقَ بين أن يأتي هذا العذابُ ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، فيأخذهم على غِرَّةٍ، وهم لا يشعرونَ، أو يأتيهم ﴿جَهْرَةً﴾ أي: ظاهراً عياناً، وقوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

﴿ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا يُهْلِكُ اللهُ بعَذابِهِ النازلِ إلاَّ القومَ الظالمين، وهم الذين كانوا يعبدونَ مع الله غيرَهُ.

٤- الغايةُ من إرسالِ الرُّسُل:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنه لا يرسلُ المرسلينَ إلا مبشرين ومنذرين ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: يُبَشِّرون عبادَ الله المؤمنين بالخيراتِ والنعيم في الجناتِ، ومنذرينَ الكفرةَ المشركين بالنقمِ والعقوبات، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام:٤٨]. وأخبرنا تعالى أنَّ الذي آمنَ بالله، وما أوجب علينا ربُّنا الإيمانَ به، وأصْلَح قلْبَهُ ونفْسَهُ وعمَلَهُ، فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونَه مِنْ أمر الآخرة، ولا يحزنون على ما تركوه مِنَ الأهل والذريَّةِ في الدنيا، أما الذين رَفَضوا البشارةَ وكفروا وكذَّبوا، فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام:٤٩] أي: أنَّ الذينَ كذَّبوا آياتِ الله، وكذَّبوا الرُّسُلَ، ورفضوا حجَّة الله تعالى، فهؤلاءِ يحلُّ بهم العذابُ بسبب خروجِهم عن شرعِ الله ووحْيِهِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- سنَّةُ الله في المكذبين أنْ يرسلَ إليهم الرسلَ، فيأْخذ المكذبين بهم بالبأساءِ والضراءِ، فإنْ لم يؤمنوا فتحَ اللهُ عليهم الدنيا، فإن لم يؤمنوا أوْقَع بهم العذابَ.

٢- لا تقومُ الحجَّةُ على العبادِ إلا بإرسالِ الله الرسلَ إليهم.

٣- التضرُّع إلى ربِّ العبادِ يرفُعُ الشدَّةَ والعذابَ عن العبادِ.

٤- فَتْحُ الدنيا على عَبْدٍ من عبادِ الله أو أُمَّةٍ مِنَ الأُمم قد يكونُ استدراجاً لهم، ليبيدَ اللهُ خضراءَهم، وليسَ محبةً فيهم.

٥- قد يعاقبُ اللهُ المكذبين في الدنيا بعدمِ انتفاعهم بأبْصارِهِمْ وأسماعِهِمْ وقلوبِهِمْ، ولا يستطيعُ أحدٌ غيرُه أنْ يعيدَ لهم ما أخذه منهم.

٦- على الدُّعاةِ أنْ يقيموا الحجَّةَ على مَنْ يدعونَهُمْ، ويُبَصِّرونَهُمْ بقدرةِ الله، وضَعْفِ آلهتهم، وعدمِ قدرتِها على شيءٍ.

٧- يجبُ على الدُّعاةِ والعلماءِ أن يُرَهِّبُوا المدعوينَ ويُخَوِّفونَهم غضبَ الله وبأْسَهُ وانتقامَهُ.

٨- حُسْنُ خاتمةِ المؤمنين، وسوءُ خاتمةِ المكذبينَ.

النصُّ القرآني التاسع من سورة الأنعام

محمدٌ ﷺ بَشَرٌ رسول ليس فيه شيءٌ من خصائصِ الألوهية أو الربوبية

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يُعْلِنَ للناس، ويقولَ لهم: ليسَ عندي خزائنُ ربِّ العزة، ولا أعلمُ الغيب، ولا أقولُ لكم إنِّي مَلَكٌ، وهذا يعني أنَّه بَشَرٌ، فيه خصائصُ البشر، وليس فيه شيءٌ من خصائصِ الأُلوهية أو الربوبية، ولا من خصائص الملائكة، وكُلُّ الذي اختصَّه اللهُ به ما أوْحاهُ اللهُ تعالى إليه في كتابِهِ الكريم وسُنَّتِه المطَّهرةِ، ليعمل بِهِ.

وأمره تعالى أن يُنْذِرَ بالقرآنِ الذين يخافون أنْ يُحْشَروا إلى الله تعالى، لَعلَّهمْ يتَّقونَ اللهَ، ويرهبونَه، ونهاهُ أن يطردَ ضعفاءَ المؤمنين من مجالِسِه، كما أمَرَه سادةُ قريشٍ، وأمَرَهُ أنْ يُرَحِّبَ بالمستَضْعَفينَ من المؤمنين، ويُبَشِّرُهُمْ برحمة الله الواسعةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنعام:٥٠-٥٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- طبيعةُ النبيِّ وحُدودُ صَلاحياته:

أمرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَنا ﷺ أنْ يُعْلِنَ للناسِ حقيقةَ أمْرِه، وحُدودَ ما يملكه من مزايا وخصائص، فهو بشرٌ رسول، ليسَ عندَهُ خزائنُ الله مِنَ الأموالِ يُصَرِّفها كيف يَشاءُ، ولا يَعْلَمُ مِنَ الغيب إلا ما علَّمه اللهُ، فاللهُ وَحْدَهُ له خزائنُ السماواتِ والأرضِ، والله وَحْدَه له غيبُ السماواتِ والأرضِ، ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ [الأنعام:٥٠].

ومع نفي الرسولِ لكلِّ ما يُشْعِرُ بأنَّ له شيئاً من الأُلوهيةِ، فإنَّ اللهَ أَمَرَهُ أن يُعْلِنَ أنّه ليسَ مَلَكاً، يتصرَّفُ تصرُّفَ الملائكة ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ [الأنعام:٥٠].

ثم أمَرَه أن يقولَ للناس: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام:٥٠] فهو نبيٌّ رسولٌ، أنزَلَ اللهُ تعالى عليه وَحْيَه، مِنَ القرآنِ والسنَّةِ، فهو يتَّبعُ المنزلَ عليه، فيفعلُ ما أمره بِهِ، وينتهي عما نهاه عنه.

وأمَرَهُ تعالى أن يقولَ للناسِ: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾ [الأنعام:٥٠] أيْ هل يستوي المؤمنُ والكافرُ، والمهتدي والضالُّ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد:١٩].

وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ [الأنعام:٥٠] في خاتمةِ الآية، دعوةُ الكفارِ ليتفكروا فيما يتْلوهُ عليهم رسولُنا ﷺ من آياتٍ.

٢- إنذارُ الرسولِ ﷺ الذين يخافونَ الحشر إلى الله تعالى:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يُذكِّر بالقرآنِ الذي أُوحي إليه بِهِ المؤمنينَ الذين يخافون أنْ يحشروا إلى ربِّهم ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنعام:٥١]. قال الزجَّاجُ: «إنَّما ذكَّر الذين يخافون الحشْرَ دونَ غيرهم، وهو منذرٌ لجميعِ الخلقِ، لأنَّ الذين يخافونَ الحَشْرَ الحُجَّةُ عليهم أوْجَبُ، لأنَّهم أفْهَمُ بالميعادِ» [معاني القرآن: ٢/ ٢٥١].

وقوله تعالى في ختامِ الآيةِ: ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١﴾ [الأنعام:٥١] أيْ: ليسَ لهم في يوم القيامة وليٌّ يتولى أمْرَهُمْ ويدافعُ عنهم، ولا شفيعٌ يشفعُ لهم، ويُخلِّصُهُمْ مِنْ عذابِ الله، لعلَّهم يتَّقون اللهَ بفعلِ الصالحاتِ وتركِ المنكراتِ، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١﴾ أي: يتَّقونَ عذابَه بفعلِ ما أَمَرَهُمْ بِهِ، وتركِ ما نهاهم عنه.

٣- نهى اللهُ رسولَه ﷺ عن طَرْدِ ضعفاءِ المؤمنين عن مجالِسه:

أنِفَ الملأُ من قريش من مجالسةِ الضعفاءِ من المؤمنين أمثال صهيبٍ وعمارٍ وبلالٍ وخبَّابٍ، فطلبوا مِنَ الرسولِ ﷺ أنْ يخصَّهم بمجلسٍ بعيداً عن هؤلاءِ الضعفاءِ، فنهى اللهُ رسولَه ﷺ عن طَرْدِهم، ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾ [الأنعام:٥٢].

وقد روى مسلمٌ في سبب نزولِ هذه الآية: عن سعدٍ، قال: «كنا مع النبيِّ ﷺ ستَّةَ نَفَرٍ، فقالَ المشركون للنبيِّ ﷺ: اطْرُدْ هؤلاءِ لا يَجْتَرِئونَ علينا.

قال: وكُنت أنا وابنُ مسعودٍ، ورجلٌ من هُذَيْل، وبلالٌ، ورجُلان لستُ أُسَمِّيهما، فوَقَعَ في نَفْسِ رَسول الله ﷺ ما شاءَ اللهُ أنْ يَقعَ، فحَدَّثَ نَفْسَهُ، فأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢]» [مسلم: ٢٤١٣].

وقد نَهى اللهُ تعالى في هذه الآية رَسُولَه ﷺ عن طَرْدِ هؤلاءِ الضعفاءِ الأخيارِ الذين يدْعُونَ رَبَّهم بالغداةِ، وهي أولُ النهارِ، والعَشِيِّ، وهو آخرُ النهارِ، يريدونَ وَجْهَ الله تعالى بدعائِهم، واللهُ تعالى لا يعبأ بالظالمين المستكبرين، وهو غَنِيٌّ عنهم، وهو يُحِبُّ هؤلاءِ المؤمنينَ المخبتينَ، وقد بيَّنَ اللهُ لرسولِهِ ﷺ أنَّ كلَّ إنسان يحاسبُ عن نفسه.

فحسابُ هؤلاء الذين طَلَبَ الكفارُ منه طَرْدَهُم هو على أنْفُسِهم ما عليه منه شيءٌ، وحسابُهُ هو على نَفْسِهِ ما عليهم منه شيءٌ، وقولُهُ في خاتمةِ الآية: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ أي: إن طَرَدْتَهُمْ كنتَ مِنَ الظالمين.

٤- جَعَلَ اللهُ الناسَ بعضَهم لبعضٍ فتنةً:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه جَعَلَ المؤمنين فتنةً للكافرين، كما جَعَل الكافرين فتنةً للمؤمنين ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام:٥٣].

والفتنةُ: الاختبارُ، وقد اختبرَ اللهُ المؤمنين بالكفار الذين عَذَّبُوهم وسَفَّهُوهم، والاختبارُ هو في مَدَى صَبْرِهم عمَّا حَلَّ بهم مِنَ العذابِ والإيذاءِ، وابتلى اللهُ الكفارَ بالمؤمنين، ومِنْ ذلكَ ما ذَكَرَهُ اللهُ عنهم أنَّهم قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ بالهُدى والرُّشْدِ، وهم فقراءُ ضعفاءُ أذلاَّءُ ونحنُ أغنياء أقْوياء.

وقال ربُّ العزةِ راداً مقالةَ هؤلاءِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ فاللهُ تعالى أعْلَمُ بالذينَ يشكرونَهُ، ويحبُّونَهُ من عبادِه، وهُمْ الذين يستحقُّونَ كرامةَ الله تعالى وفضْلَهُ ونِعَمَهُ.

٥- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ بالترحيب بالضعفاءِ مِنَ المؤمنين:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ إذا جاءَهُ المؤمنون بآيات الله أنْ يُرَحِّبَ بهم، ويُبَلِّغَهم السَّلامَ مِنْ ربهم -تبارك وتعالى- ويبشِّرَهُمْ برحمةِ الله تعالى الواسعة، ويخبرَهم أنّه مَنْ عمل منهم

سوءاً بجهالةٍ، وكُلُّ مَنْ عملَ سوءاً فقد عَمِلَهُ بجهالةٍ، لا فرقَ بين المُتَعمِّدِ وغيره، ثم إنه إذا تابَ مِنْ ذنبِهِ الذي اقْتَرفَه، وأصلَحَ عمله، فالله غفورٌ رحيم ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾ [الأنعام: ٥٤].

تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [illegible]

وقد بيّن لنا رسول الله ﷺ [illegible] من قوله تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فقد رَوَى أبو هريرةَ عن الرسولِ ﷺ أنه قال: «[illegible] خلقَ كتبَ في كتابِهِ، فهو عِنْدَهُ

فوقَ العرشِ: إنَّ رحمتي سبقَتْ غضبي [illegible]

فوقَ العرشِ: إنَّ رحمتي سَبقَتْ غَضَبي» [البخاري: ٣١٩٤. ومسلم: ٢٧٥١].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ خلقَ الرحمةَ يومَ خَلَقها مائةَ رحمةٍ، فأمْسَكَ عندَهُ تسعاً وتسعينَ رحمةً، وأرْسَلَ في خلْقِهِ كُلِّهِمْ رحمةً واحدةً، فلو يَعْلَم الكافِرُ بكلِّ الذي عندَ اللهِ مِنَ الرحمةِ لم يَيْأَسْ مِنَ الجنَّةِ، ولو يَعْلَمُ المؤمنُ بكُلِّ الذين عندَ الله مِنَ العذابِ لم يأمَنْ مِنَ النار» [البخاري: ٦٤٦٩].

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [illegible] كما فصَّلنا وبيَّنا لك حُجَجنا على المشركين في هذه السورة، [illegible] الكفارُ. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [illegible] بطردِ المؤمنين.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

[illegible] آيات هذا النص [illegible] تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

[illegible] ﷺ [illegible] من صفاتِ الألوهية، فليس عندَهُ خزائنُ الله، ولا يعلمُ

سوءاً بجهالةٍ، وكُلُّ مَنْ عملَ سوءاً فقد عَمِلَهُ بجهالةٍ، لا فرقَ بين المُتعمِّدِ وغيره، ثم إنه إذا تابَ مِنْ ذنبِهِ الذي اقْتَرفَه، وأصلَحَ عمله، فالله غفورٌ رحيم ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام:٥٤].

وقد بيَّنَ لنا رَسولنا ﷺ المعنى المرادَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فقد رَوَى أبو هريرةَ عن الرسولِ ﷺ أنّه قالَ: «لما قَضَى اللهُ الخلقَ كتبَ في كتابِهِ، فهو عِنْدَهُ فوقَ العرشِ؛ إنَّ رحمتي سَبقَتْ غَضَبي» [البخاري: ٣١٩٤. ومسلم: ٢٧٥١].

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ خلقَ الرحمةَ يومَ خَلَقَها مائةَ رحمةٍ، فأمْسَكَ عندَهُ تسعاً وتسعينَ رحمةً، وأرْسَلَ في خلْقِهِ كُلِّهِمْ رحمةً واحدةً، فلو يَعْلَم الكافِرُ بكلِّ الذي عندَ الله مِنَ الرحمةِ لم يَيْأَسْ مِنَ الجنَّةِ، ولو يَعْلَمُ المؤمنُ بكُلِّ الذين عندَ الله مِنَ العذابِ لم يأمَنْ مِنَ النار» [البخاري: ٦٤٦٩].

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام:٥٥] أيْ: كما فصَّلنا وبيَّنا لك حُجَجنا على المشركين في هذه السورة، كذلك نفصِّلُ لك في كلِّ حقٍّ ينكرُه الكفارُ، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: طريقهم، ومنها سبيلُ أولئك الذين أمَروكَ بطردِ المؤمنين.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الرسولُ ﷺ ليس فيه شيءٌ من صفاتِ الأُلوهية، فليس عندَهُ خزائنُ الله، ولا يعلمُ الغيبَ، وليسَ هو بمَلَك.

٢- أعظمُ خصائصِ الرسولِ ﷺ الوحيُ الذي أنزله اللهُ عليه وأمَرَه باتباعه.

٣- الذينَ يستفيدونَ مِنَ الوحي الإلهيِّ هم الذين يخافون حَشْرَهُم إلى الله ووقوفهم بين يديه.

٤- على العلماء والدعاةِ أن يُسَوُّوا بين الناس في مجالِسهم، فلا يجوزُ أنْ يُخَصَّ الزعماءُ والرؤساءُ بمجلسٍ يُطردُ منه الضعفاءُ.

٥- اختبرَ اللهُ الأغنياءَ والوجهاءَ بسبقِ الضعفاءِ لهم إلى الإيمانِ، فعَظُم عليهم أن يتَّبِعوا الحقَّ الذي اتبعُوه.

٦- يجبُ على العلماءِ أن يُرَحِّبوا بطلبة العلم وإنْ كانوا ضعفاءَ، وعليهم أن يُسَلِّموا عليهم، ويبشِّروهم بما أعدَّ اللهُ لهم مِنَ الرحمةِ.

٧- هذا القرآن يُفَصِّل القولَ ويُبَيِّنُه فيما نحتاجُ إليه، وفي بيان ما أورَدَه الخصومُ من شبهاتٍ.

النص القرآني العاشر من سورة الأنعام
موقف الرسول ﷺ مما دعاه إليه المشركون

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ في آيات هذا النصِّ أنْ يُبيِّنَ موقفَهُ مما دَعاه إليه المشركونَ، فبيَّنَ لهم أنَّه على التوحيدِ، وهو لا يعْبُدُ الآلهة التي يعبدونَها، وبيَّن لهم أنه لا يتَّبعُ أهواءَهم فيما يعبدونَهُ، ويُشَرِّعونَهُ، وصرَّحَ لهم بأنَّه موقِنٌ بالحقِّ الذي جاءَه من عندِ الله، وهم يكذِّبون بِهِ، وبيَّن لهم أنَّه بَشَرٌ، ولا يملكُ أن يُنْزِلَ بهم العذابَ الذي يستعجلون بنزولِهِ، ولو كانَ يملك إنزالَ العذابِ لأوقعه بهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام:٥٦-٥٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يجوز عبادةُ غيرِ الله تعالى:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ محمداً ﷺ أن يقولَ للمشركين: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:٥٦]. والمعنى: «إنَّ اللهَ نهاني أنْ أعبدَ الذين تَدْعُونَ منْ دونِهِ، فلنْ أتَّبِعَ ما تدعونني إليه من ذلك، ولا أُوافقكم عليه» [الطبري: ٤/ ٣١٩٦]. وهذا النهيُ شاملٌ لما يعبدُه الكفارُ مِنَ الأصنامِ وغيرِها، ومعنى ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبدون.

وأمره تعالى أنْ يقولَ لهم: ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام:٥٦] والهَوَى: اتباعُ كُلِّ ما خالفَ دينَ الله المنزلَ، وقد اتَّخذَ الذين رَفَضُوا دينَ الله تعالى الهوى إلهاً ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:٤٣] ومِنْ ذلك ما يُشَرِّعه أعضاءُ المجالسِ النيابيةِ مِنْ تحليلٍ لما حَرَّمَهُ اللهُ، وتحريمٍ لما أحلَّه تعالى، ومِنْ ذلكَ اتباعُ قولِ القضاةِ والحكَّامِ المخالفونَ للشَّرع.

وقوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: إن اتَّبعتُ أهواءَكُم فيما تَدْعُونَني إليه قد ضَلَلْتُ عن الحقِّ الذي جاءَني من ربِّي، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: مِنَ الذين سلكوْا سبلَ الهدى.

٢- المتبعونَ لدينِ الله تعالى على بصيرةٍ:

وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للمشركين: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام:٥٧]. أي: قلْ لهم: إني على بيِّنة من ربي، والبيِّنة: الحجةُ والبرهانُ، والبيِّنةُ التي هو عليها القرآنُ الكريم، قالَ تعالى: ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٧]، وقد أعْطى اللهُ رسلَهُ الآياتِ البيِّنات ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف:١٠١].

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآنِ، الذي جاءَهم الرسولُ ﷺ به.

٣- الرسولُ ﷺ لا يستطيعُ إيقاعَ العذاب بمن يطلُبُهُ:

وقوله: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ والذي استعجَلوا به هو العذابُ الذي تَهَدَّدَهم اللهُ تعالى به، ومِن ذلك ما حكاه اللهُ عنهم في قولِهِ: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢].

وقولُه تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: إنما يرجعُ أمْرُ الذي استعْجَلْتُم بِهِ إلى الله تعالى، إنْ شاءَ عجَّله، وإن شاءَ أخَّره، ولَهُ في ذلك كلِّه حكمةٌ بالغةٌ، وقولُهُ سبحانه: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: يقصُّ القَصَصَ الحقَّ، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

واللهُ خيرُ الفاصلين سبحانه، أي: بيَّنَ الحقَّ والباطلَ بما يقضي بِهِ سبحانه بينَ عبادِه، وينزلُهُ في كتابه.

وقد دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام:٥٨].

على أنَّ العذابَ الذي طلبوه مستعجلين وقوعَهُ قبل وقته، لو كان أمْره إلى الرسولِ ﷺ لأوْقَعَهُ وأنزلَهُ بهم.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- على المسلم أنْ يوضِّحَ موقفَهُ مما يَدْعُوه إليه أعداؤُه ومخالفوه، وقد أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه أن يَرُدَّ على الكفارِ بما علَّمه إياه في هذه الآيات.

٢- على المسلمِ أن يستَوْعِبَ ما كان المشركونَ يَدْعُون الرسولَ ﷺ إليه، وعليه أن يستوعِبَ الأجوبةَ القرآنية التي هَدَى اللهُ رسولَهُ ﷺ إليها، فكثيرٌ مِنَ شبهاتِ أعداءِ الإسلام متشابهةٌ فيما بينها وإنْ اختلفت العصور والأمكنة.

٣- لا يجوزُ للمسلمِ أنْ يستجيبَ لدعوةِ المشركين له بعبادةِ آلهتهم، واتِّباعِ شَريعَتِهِمْ، وعليه أن يعبدَ اللهَ وَحْدَه لا شريكَ له.

٤- لا يجوزُ للمسلم أن يتَّبعَ أهواءَ المشركين فيما يعبدُونَه ويشرِّعونه.

٥- نحنُ على يقينٍ مما جاءَنا من عندِ ربِّنا، ولا يضيرُنا تكذيبُ الكفارِ لما جاءَنا منْ عندِ الله.

٦- الرسولُ ﷺ بَشَرٌ، ولا يستطيعُ أن يُنْزِلَ بالمشركينَ العذابَ الذي يطلبونَ منه إيقاعَهُ بهم، والأمرُ كُلُّه بيدِ الله سبحانَهُ.

٧- اللهُ حليمٌ يتأنَّى بعبادِهِ، ولو كان الأمْرُ بيدنا لأوقعنا العذابَ بأعدائِنا، ولم نتأنَّ بهم.

النص القرآني الحادي عشر من سورة الأنعام
تعريفُ الله -تعالى- لنا بنفسِه سبحانه

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ تعالى لنا في آياتِ هذا النصِّ ما اختصَّ به نفْسَهُ، فعندَهُ مفاتحُ الغيبِ لا يعلمها غيرُهُ، وهو العالمُ بما في البرِّ والبحر، وهو الذي يتوفانا بالليل ويعلم ما جَرَحْنا بالنهارِ، وهو القاهرُ فوقنا، ويرْسِلُ علينا مِنَ الملائكة مَنْ يحفظنا، ويحفظُ أعمالنا، وغير ذلك مما سيأْتي بيانَه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩-٦٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سعةُ علمِ الله تعالى وما اختصَّ بعلمه سبحانه:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى ما اختصَّ بعلمه دونَ سائر خَلْقِهِ، فقال: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ [الأنعام:٥٩].

ومفاتحُ الغيبِ خمسةٌ، تضمَّنتها آية سورة لقمان، ففي الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ: «مفاتحُ الغيبِ خَمْسٌ، ثم قرأ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان:٣٤]» [البخاري: ٤٧٧٨]. وسيأتي بيانُها بحولِ الله وقوَّتِهِ في سورةِ لقمانَ.

والمفاتحُ: جمع مِفْتح، وهو المِفتاحُ، أو مخازنُ الغيبِ.

واللهُ سبحانَهُ علمهُ واسعٌ لا يخفَى عليه شيءٌ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٥٩] أي: علمُهُ محيطٌ بجميعِ الكائنات برِّيها وبَحْرِيِّها.

فـــلا يَخْفَـــى عليـــهِ الـــذَّرُّ إمَّـــا تَـــرَاءَى للنَّـــوَاظِرِ أو تَـــوَارَى

وأعلمنا ربُّنا بأنه لا يخفى عليه شيءٌ، ولا يغيب عنه شيءٌ فقال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام:٥٩]، أي: ما تسقط من ورقةٍ في الصحارى والبراري والأمصارِ والقرى إلا ويعلمها الله، وانظر إلى الأرض كم فيها من أشجارٍ، وكم على كلّ شجرةٍ من أوراقٍ، وما من ورقةٍ في البراري والقفار، والحقول والحدائق والجبال تسقط إلا وعِلْمُ الله تعالى محيطٌ بها، وما من حبَّةٍ تَنْدَثرُ في ترابِ الأرض فتنبتُ، أو نبتة تصْفَرُّ وتَذْوي وتموتُ إلا وعلمُ الله محيطٌ بها، وكلُّ ذلك مَدَوَّنٌ في كتابٍ مبينٍ، وهو اللوحُ المحفوظُ.

٢- **اللّه تعالى يتوفانا بالليل ويعلمُ ما جرحنا في النهار:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يتوفانا بالليلِ، ويعلمُ ما جَرَحْنا في النَّهار، قال سبحانَه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠] وتوفِّيه لنا في الليلِ، أيْ: بالنوم، لأنَّه يقبضُ سبحانه أرْواحنا عن التصرفِ بالنوم، وهذا التوفي هو التوفي الأصغرُ، قالَ تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أيْ: ما كَسَبْتُموهُ بجوارِحكُمْ مِنَ الخيرِ والشرِّ. وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠] أي: يوقِظُكُمْ في النهارِ مِنْ منامكم وقولُه: ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام:٦٠] أي: ليقضي اللهُ الأجلَ الذي سمَّاه لحياتِكُمْ، وذلك بالموتِ. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام:٦٠] أيْ: إلى الله مصيرُكُمْ ومعادُكم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)﴾ [الأنعام:٦٠] أي: يخبرُكُمْ في يوم الدين بما عَمِلْتُموهُ في الحياةِ الدنيا، ثم يحاسِبُكُم، ويَجْزيكُم عما عَمِلْتُموهُ.

وهذا الذي تضمنتْه الآيةُ وإن كان خبراً من الله عن قُدْرَتِهِ وعلمِهِ، إلا أنَّ فيه احتجاجاً على المشركين، الذين كانوا ينكرون قُدْرَتَهُ على إحيائِهم بعدَ مماتِهم وبعثهم بعد فنائهم فالذي

يقبضُ أرواحهم بالليل، ويبعثُهُمْ في النهار، ليبلُغُوا أجلاً مسمى، قادرٌ على إحيائهم بعد الموت [الطبري: ٤/ ٣٢٠٢].

٣- اللّهُ هو القاهرُ فوقَ عبادِهِ:

أعلمنا ربُّنا -عز وجلَّ- أنه القاهرُ فوقَ عبادِهِ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:٦١] أيْ: هو الغالبُ خَلْقَه، العالي عليهم بذاته وقُدْرَتِهِ، ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام:٦١]. والحفظةُ الذين يرسلهم اللهُ علينا الملائكةُ الذين يحفظون أجْسادَنا وأعمالَنا، قالَ السُّدي في الحفظةِ: «هي المعقباتُ مِنَ الملائكة، يحفظونه، ويحفظونَ عمَلَهُ» [الطبري: ٤/ ٣٢٠٤].

وقد ذكر الله تعالى الملائكةَ الذين يحفظونَ العباد في قوله: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١١]. وفي قولِهِ: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار:١٠-١٢] وفي قوله: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٧-١٨].

«وقولُهُ تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ [الأنعام:٦١] أي: إذا احتَضَرَ وحانَ أجلُهُ ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام:٦١] أي: ملائكةٌ موكلونَ بذلك، قال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ: لملكِ الموت أعوانٌ مِنَ الملائكةِ، يُخرِجونَ الروح مِنَ الجسدِ، فيقبضها مَلَكُ الموتِ إذا انتهتْ إلى الحلقوم. ﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ أي: في حفظ روحِ الموتى، بل يحفظونَها وينزلونها حيث شاءَ اللهُ -عزَّ جلَّ- إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان مِنَ الفجّارِ ففي سِجِّين عياذاً بالله من ذلك» [ابن كثير: ٣/ ٢٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:٦٢]. أي: رَدَّ اللهُ الخلائقَ مِنَ الملائكةِ والجنِّ والإنس بالموت إليه، فاللهُ موْلاهُم الذي يملكهم ويتوَّلى أُمورَهُم سبحانَه، وهو أسْرَعُ الحاسبينَ، فيحكمُ فيه -سبحانه- بعَدْلِهِ.

٤- اللهُ -تعالى- الذي يُنْجي عبادَهُ من ظلمات البرِّ والبحر:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقولَ للمشركين سائلاً إياهم عن الذي يُنْجيهم من ظلمات البر والبحر إذا أحاطتْ بهم ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:٦٣].

والمرادُ بالظلماتِ في الآية الشدائدُ والأهوالُ والكرباتُ التي تحيقُ بالإنسانِ في البرِّ والبحر، والعربُ تقولُ: عامٌ أسودُ، ويومٌ مظلِمٌ، وقد اعتادَ الإنسانُ حتى لو كان مشركاً إذا أحاطت به ظلماتُ البرِّ والبحرِ أن يدعوَ ربَّه تضرّعاً وخُفْيَةً، أي: يدْعوهُ مظهراً الضَّراعَةَ، وهي شدةُ الفقرِ والحاجةِ إلى ربه، ويدعوه خُفْيَةً، أي: سِرّاً، وأعْلَمنا ربُّنا أنّه يقولُ في مناجاتِهِ ربَّهُ: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

والإنسانُ عندما تحيطُ به المصائبُ العِظامُ والكوارثُ التي لا يستطيعُ لها دفعاً يتوجَّهُ إلى ربِّه مخلصاً له الدينَ، لأنه في حالةِ الاضطرارِ يعلمُ أنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه لا يُنْجِيَهُ مما حَلَّ به إلا الحيُّ القيومُ، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس:٢٢-٢٣].

وقد تحدَّثَ بعضُ رُكَّابِ الطائراتِ عن حالِ الركابِ عندما وقع خللٌ في طائرتهم، وهي تطيرُ بهم في الفضاءِ، وتكادُ تسقطُ بهم، وبيَّن كيف تضرَّعوا إلى رَبِّهم مخلصينَ له الدين، لا فرقَ بين الفاسِقِ والعالِمِ بالله.

وأخبرنا ربُّنا -سبحانَهُ- أنّه وحْدَهُ القادرُ على إنجاءِ عبادِه مِنَ الكوارثِ والكروبِ التي تحيطُ بهم، ولكنّ هؤلاءِ بعد أن ينجيهم ربُّهُمْ مما أصابهم يعودون إلى شِرْكِهم وكفرهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٥- الله تعالى قادرٌ على أنْ يأخُذَ عبادَه بعذابٍ يحيطُ بهم:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يُخَوِّف الناسَ عذابَهُ وانتقامَهُ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام:٦٥].

والعذابُ الذي تَهَدَّدَ اللهُ بِهِ عبادَه قد يكونُ آتياً مِنْ فوقِهم كعذابِ قوم لوط، وعذاب أصحابِ الفيل وقد يكون بالصيحة أو الغرق أو الريح أو الحجارة، وقد يكونُ مِنْ تحتهم كالخَسْفِ والزلازلِ، وقد يكونُ بتسليطِ بعضِهِمْ على بعضٍ. قال الربيع بن أنس: «﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾: يعني: يثبت فيكم الأهواء المختلفة، فتصيرون فرقاً، يقاتِلُ بعضكم بعضاً، ويخالف بعضكم بعضاً» [التفسير البسيط: ٨/ ٢٠٤].

ومن يقرأ التاريخَ بعد عَهْدِ الرسولِ ﷺ إلى اليومِ يجدُ سِجِلاً حافلاً بما أصابَ البشريةَ من خسفٍ وزلازلَ وبراكين وصواعقَ، وما ثارَ بين الناسِ من حروبٍ ذاقَ فيها بعضُهم بأسَ بعضٍ، وقد وَقَعَ في هذه الأيام التي أكتب فيها تفسيرَ هذه الآية [يوم الجمعة، الثامن من ربيع الأول عام ١٤٣٢هـ الذي يوافقه الحادي عشر من شباط (مارس) ٢٠١١] زِلْزالٌ عظيم في اليابان، لم تُصَبْ بمثله تلك الديار منذ مائةٍ وخمسينَ عاماً، وقد امتدتْ آثارُه إلى دولٍ كثيرة مجاورةٍ، وارتفعتْ أمواجُ البحرِ في بعض مُدُنِ اليابان إلى عشرة أمتار، ودخلتْ مياهُ البحر إلى العمرانِ، وسقط ألوف القتلى، وانهارَتِ العماراتُ، وخربتِ الأسواقُ، وثارت الحرائقُ، وأصبحتْ بعضُ المحطاتِ الكهربائية النووية في خطر.

وقد دعا رسولُ الله ﷺ لأُمته أن لا يصيبَها بالعذابِ، فأعطاه اثنتين، ومنعه واحدة، ففي صحيح مسلم عن عامر بن سعد، عن أبيه، أنَّ الرسولَ ﷺ أقبلَ ذاتَ يوم من العاليةِ، حتى إذا مَرَّ بمسجدِ بني معاويةَ، دخلَ فركعَ فيه ركعتين، وصلَّيْنا معه، ودعا ربَّه طويلاً، ثم انصرفَ إلينا، فقال: «سألتُ ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومَنَعَني واحدةً، سألتُ ربي أن لا يهلك أُمتي بالسَّنَةِ، فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهْلِكَ أُمتي بالغرقِ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم، فمنعنيها» [مسلم: ٢٨٩٠].

والذي أعطاه اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ أنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتَه بعذابٍ عامٍّ أو بغرقٍ عامٍّ، أمّا أن يعذبَ طائفةً منهم بالقحط، أو يهلك بعضَهَمْ بالغرقِ، فهذا قد وقع، ولا يزال مستمراً.

وعن ثوبان، قال: قال رسولُ الله ﷺ : «إنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأرضَ، فرأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وإنَّ أمتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيتُ الكنزينِ الأحمرَ والأبيضَ، وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يُهْلِكَها بسَنَةٍ عامةٍ، وأن لا يُسلِّطَ عليهم عدواً من سِوَى أنفسهم، فيستبيحَ بيضَتَهُمْ، وإنَّ ربي قال: يا محمدُ! إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدُّ، وإني أعطيتُكَ لأُمتكَ أنْ لا أهلِكَهُمْ بسَنَةٍ عامةٍ، وأن لا أُسَلِّطَ عليهم عدوًّا من سِوَى أنفُسِهم، يستبيحُ بيضَتَهُمْ، ولو اجتمعَ عليهم من بأقطارِها -أو قال من بين أقطارها- حتى يكونَ بعضُهُمْ يُهلِكُ بعضاً، ويسْبي بعضُهُمْ بعضاً» [مسلم: ٢٨٨٩].

وعن جابر بن عبدالله قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] قال النبيُّ ﷺ : «أعوذُ بوجْهِكَ» فقال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقالَ النبي ﷺ : «أعوذُ بوجْهِكَ» قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال النبيُّ ﷺ : «هذا أيْسَرُ» [البخاري: ٧٤٠٦ وانظر الحديث رقم: ٤٦٢٨].

وقولُه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ۝٦٥﴾ [الأنعام:٦٥] أي: كيف نُبيِّنُ لهم آيات القرآن ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ۝٦٥﴾ أيْ: يعلمون.

٦- **تكذيبُ العربِ بالقرآن:**

قالَ اللهُ -تعالى- مخاطباً رسولَهُ ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ۝٦٦﴾ [الأنعام:٦٦]. قالَ له ربُّه: لقد كَذَّبَ قومُكَ بالقرآنِ الذي جاءَكَ مِنْ عندِ الله تعالى، وهو - أي: القرآنُ- حقٌّ وصِدْق، لا باطلَ فيه، وأمرَهُ تعالى أنْ يقولَ لقومِهِ المشركين من قريشٍ والعرب: ﴿لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ۝٦٦﴾ أي: «لَسْتَ عليكم بحافظٍ حتى أُجازيكم على تَكْذيبِكُمْ وأعمالِكُمْ، إنما أنا مُنْذِرٌ، واللهُ المجازي لكم بأعمالِكُمْ» وعزاه الواحِدِيُّ إلى الحسن، [التفسير البسيط: ٨/ ٢٠٥].

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنّ الضميرَ في قولِهِ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ عائدٌ إلى العذابِ الذي أُنْذِرُوا بهِ، وهذا صحيحٌ، لأنَّ القرآنَ هو الذي أَنْذَرَ بهذا العذابِ، فتكذيبُهُم بالعذابِ تكذيبٌ بالقرآنِ الذي أُنْذِرُوا بِهِ.

٧- **لكلِّ خبرٍ أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- به وَقْتٌ ينتهي إليه:**

أعْلمنا ربُّنا - عزَّ وجلَّ- أنَّ كلَّ نبأ أخبرنا اللهُ بأنه سيقع في الأيام الآتية سيكونُ له مكانٌ يقعُ فيه، ووقتٌ ينتهي إليه ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٦٧﴾ [الأنعام:٦٧] فقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ بأنّ الرومَ سيغلبون في بضع سنين من بعد غلب الفرس لهم، وجاءَ الوقتُ الذي وقعَ فيه ما أخبرنا اللهُ به، وأخبرنا ربُّنا عن خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ ووقوع الساعةِ، وسيأتي الوقتُ الذي يقعُ ما أخبرنا اللهُ -سبحانه- به.

ونقلَ الواحديُّ عن الكلبيِّ أنه قالَ في تفسير الآية: «لكُلِّ قولٍ حقيقة ما كانَ منه في الدنيا، فستعرفونَهُ، وما كانَ في الآخرةِ فسوفَ يبدو لكم» [التفسير البسيط: ٨/ ٢٠٨].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ -تبارك وتعالى- وحدَهُ يعلمُ مفاتحَ الغيبِ، وهي خزائنُهُ، وهي المذكورةُ في آخر سورةِ لقمان.

٢- علمُ الله تعالى واسعٌ شاسعٌ، لا يخفى عليه خافيةٌ لا في البرِّ ولا البحر.

والمرادُ بالظلماتِ في الآية الشدائدُ والأهوالُ والكرباتُ التي تحيقُ بالإنسانِ في البرِّ والبحر، والعربُ تقولُ: عامٌ أسودُ، ويومٌ مظلِمٌ، وقد اعتادَ الإنسانُ حتى لو كان مشركاً إذا أحاطت به ظلماتُ البرِّ والبحرِ أن يدعوَ ربَّه تضرّعاً وخُفيةً، أي: يدْعوهُ مظهراً الضَّراعَةَ، وهي شدةُ الفقرِ والحاجةِ إلى ربِه، ويدعوه خُفْيةً، أي: سِرّاً، وأعْلَمنا ربُّنا أنَّه يقولُ في مناجاتِهِ ربَّهُ: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ .

والإنسانُ عندما تحيطُ به المصائبُ العِظامُ والكوارثُ التي لا يستطيعُ لها دفعاً يتوجَّهُ إلى ربِّه مخلصاً له الدينَ، لأنه في حالةِ الاضطرارِ يعلمُ أنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه لا يُنْجِيَهُ مما حَلَّ به إلا الحيُّ القيومُ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [يونس:٢٢-٢٣].

وقد تحدَّثَ بعضُ رُكَّابِ الطائراتِ عن حالِ الركابِ عندما وقع خللٌ في طائرتهم، وهي تطيرُ بهم في الفضاءِ، وتكادُ تسقطُ بهم، وبيَّن كيف تضرَّعوا إلى رَبِّهم مخلصينَ له الدين، لا فرقَ بين الفاسِقِ والعالمِ بالله.

وأخبرنا ربُّنا -سبحانَهُ- أنَّه وحْدَهُ القادرُ على إنجاءِ عبادِهِ مِنَ الكوارثِ والكروبِ التي تحيطُ بهم، ولكنّ هؤلاءِ بعد أن ينجيهم ربُّهُمْ مما أصابهم يعودون إلى شِرْكِهم وكفرهم ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ .

٥- الله تعالى قادرٌ على أنْ يأخُذَ عبادَه بعذابٍ يحيطُ بهم:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يُخوِّف الناسَ عذابَهُ وانتقامَهُ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام:٦٥].

والعذابُ الذي تَهَدَّدَ اللهُ بِهِ عبادَه قد يكونُ آتياً مِنْ فوقهم كعذابِ قومِ لوط، وعذاب أصحابِ الفيل وقد يكون بالصيحة أو الغرق أو الريح أو الحجارة، وقد يكونُ مِنْ تحتهم كالخَسْفِ والزلازلِ، وقد يكونُ بتسليطِ بعضِهِمْ على بعضٍ. قال الربيع بن أنس: «﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾: يعني: يثبت فيكم الأهواء المختلفة، فتصيرون فرقاً، يقاتِلُ بعضكم بعضاً، ويخالف بعضكم بعضاً» [التفسير البسيط: ٨/ ٢٠٤].

ومن يقرأ التاريخَ بعد عَهْدِ الرسولِ ﷺ إلى اليومِ يجدُ سِجِلاً حافلاً بما أصابَ البشريةَ من خسفٍ وزلازلَ وبراكين وصواعقَ، وما ثارَ بين الناسِ من حروبٍ ذاقَ فيها بعضُهم بأسَ بعضٍ، وقد وَقَع في هذه الأيام التي أكتب فيها تفسيرَ هذه الآية [يوم الجمعة، الثامن من ربيع الأول عام ١٤٣٢هـ الذي يوافقه الحادي عشر من شباط (مارس) ٢٠١١] زِلْزالٌ عظيم في اليابان، لم تُصَبْ بمثله تلك الديار منذ مائةٍ وخمسينَ عاماً، وقد امتدتْ آثارُه إلى دولٍ كثيرة مجاورةٍ، وارتفعتْ أمواجُ البحرِ في بعض مُدُنِ اليابان إلى عشرة أمتار، ودخلتْ مياهُ البحر إلى العمرانِ، وسقط ألوف القتلى، وانهارَتِ العماراتُ، وخربتِ الأسواقُ، وثارت الحرائقُ، وأصبحتْ بعضُ المحطاتِ الكهربائية النووية في خطر.

وقد دعا رسولُ الله ﷺ لأُمته أن لا يصيبَها بالعذابِ، فأعطاه اثنتين، ومنعه واحدة، ففي صحيح مسلم عن عامر بن سعد، عن أبيه، أنَّ الرسولَ ﷺ أقبلَ ذاتَ يوم من العاليةِ، حتى إذا مَرَّ بمسجدِ بني معاويةَ، دخلَ فركعَ فيه ركعتين، وصلَّيْنا معه، ودعا ربَّه طويلاً، ثم انصرفَ إلينا، فقال: «سألتُ ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومَنَعَني واحدةً، سألتُ ربي أن لا يهلك أُمتي بالسَّنَةِ، فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهْلِكَ أُمتي بالغرقِ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم، فمنعنيها» [مسلم: ٢٨٩٠].

والذي أعطاه اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ أنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتَه بعذابٍ عامٍّ أو بغرقٍ عامٍّ، أمّا أن يعذبَ طائفةً منهم بالقحط، أو يهلك بعضَهَمْ بالغرقِ، فهذا قد وقع، ولا يزال مستمراً.

وعن ثوبان، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأرضَ، فرأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وإنَّ أمتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيتُ الكنزينِ الأحمرَ والأبيضَ، وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يُهْلِكَها بسَنَةٍ عامةٍ، وأن لا يُسلِّطَ عليهم عدواً من سِوَى أنفسهم، فيستبيحَ بيضَتَهُمْ، وإنَّ ربي قال: يا محمدُ! إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدُّ، وإني أعطيتُكَ لأُمتكَ أنْ لا أهلِكَهُمْ بسَنَةٍ عامةٍ، وأن لا أُسَلِّطَ عليهم عدوًّا من سِوَى أنفُسِهم، يستبيحُ بيضَتَهُمْ، ولو اجتمعَ عليهم من بأقطارِها -أو قال من بين أقطارها- حتى يكونَ بعضُهُمْ يُهْلِكُ بعضاً، ويسْبي بعضُهُمْ بعضاً» [مسلم: ٢٨٨٩].

وعن جابر بن عبدالله قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] قال النبيُّ ﷺ: «أعوذُ بوجْهِكَ» فقال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقالَ النبي ﷺ: «أعوذُ بوجْهِكَ» قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال النبيُّ ﷺ: «هذا أيْسَرُ» [البخاري: ٧٤٠٦ وانظر الحديث رقم: ٤٦٢٨].

وقولُه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾ [الأنعام:٦٥] أي: كيف نُبيِّنُ لهم آيات القرآن ﴿لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾ أيْ: يعلمون.

٦- تكذيبُ العربِ بالقرآن:

قالَ اللهُ -تعالى- مخاطباً رسولَهُ ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦﴾ [الأنعام:٦٦]. قالَ له ربُّه: لقد كَذَّبَ قومُكَ بالقرآنِ الذي جاءَك مِنْ عندِ الله تعالى، وهو - أي: القرآنُ- حقٌّ وصِدْق، لا باطلَ فيه، وأمرَهُ تعالى أنْ يقولَ لقومِهِ المشركين من قريشٍ والعرب: ﴿لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦﴾ أي: «لَسْتَ عليكم بحافظٍ حتى أُجازيكم على تَكْذيبِكُمْ وأعمالِكُمْ، إنما أنا مُنْذِرٌ، واللهُ المجازي لكم بأعمالِكُمْ» وعزاه الواحِديُّ إلى الحسن، [التفسير البسيط: ٨/ ٢٠٥].

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنّ الضميرَ في قولِهِ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ عائدٌ إلى العذابِ الذي أُنْذِرُوا بهِ، وهذا صحيحٌ، لأنَّ القرآنَ هو الذي أَنْذَرَ بهذا العذابِ، فتكذيبُهُم بالعذابِ تكذيبٌ بالقرآنِ الذي أُنْذِرُوا بِهِ.

٧- لكلِّ خبرٍ أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- به وَقْتٌ ينتهي إليه:

أعْلمنا ربُّنا - عزَّ وجلَّ- أنَّ كلَّ نبأ أخبرنا اللهُ بأنه سيقع في الأيام الآتية سيكونُ له مكانٌ يقعُ فيه، ووقتٌ ينتهي إليه ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧﴾ [الأنعام:٦٧] فقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ بأنّ الرومَ سيغلبون في بضع سنين من بعد غلب الفرس لهم، وجاءَ الوقتُ الذي وقعَ فيه ما أخبرنا اللهُ به، وأخبرنا ربُّنا عن خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ ووقوع الساعةِ، وسيأتي الوقتُ الذي يقعُ ما أخبرنا اللهُ -سبحانه- به.

ونقلَ الواحديُّ عن الكلبيِّ أنه قالَ في تفسير الآية: «لِكُلِّ قولٍ حقيقة ما كانَ منه في الدنيا، فستعرفونَهُ، وما كانَ في الآخرةِ فسوفَ يبدو لكم» [التفسير البسيط: ٨/ ٢٠٨].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ -تبارك وتعالى- وحدَهُ يعلمُ مفاتحَ الغيبِ، وهي خزائنُهُ، وهي المذكورةُ في آخر سورةِ لقمان.

٢- علمُ الله تعالى واسعٌ شاسعٌ، لا يخفى عليه خافيةٌ لا في البرِّ ولا البحر.

٣- تَرِدُّ هذه الآيةُ على الذين يزعمونَ أنَّ أئمتهم يعلمونَ ما في السماوات والأرض، فمفاتحُ الغيبِ لا يعلمها إلا اللهُ.

٤- حياةُ العبادِ ومماتُهُمْ بيدِ الله تعالى، فهو يتوفَّى أرْواحَنا بالليلِ، ويعلمُ ما جَرَحْنا بالنهارِ، ثم يبعثنا فيه، حتى تنقضي آجالُنا، وهو القاهرُ فوقنا، ويُرْسلُ علينا ملائكةً تحفظنا وتحفظُ أعمالنا، حتى إذا انْقَضَتْ آجالُنا قبضت الملائكةُ أرواحَنا.

٥- كُلُّنا سنؤوبُ إلى الله تعالى يومَ القيامةِ، ويحاسبُنا على ما قَدَّمْنا.

٦- اللهُ تعالى وحده هو الذي ينجينا من الكوارثِ والمصائبِ في البرِّ والبحرِ إذا شاءَ عندما نَدْعُوه مخلصينَ له الدين.

٧- اللهُ قادرٌ على أنْ ينزلَ عذابَهُ بنا، فقد ينْزِلُ عذابَهُ مِنْ فوقنا، وقد يخْسفُ الأرضَ من تحتنا، وقد يذيقَ بعضَنا بأسَ بعضٍ.

٨- كذَّبَ الكفارُ بما تَوَعَّدَ اللهُ بِهِ المشركينَ، وتهَدَّدهم بما يَحِلُّ بهم فيما يأتي مِنَ الزمانِ.

٩- كلُّ خبرٍ أخْبَرَنا ربُّنا بوقوعِهِ في مقبلِ الأيام، فإنَّ له وقتاً يقعُ فيه كما أخبرَنا ربُّنا عزَّ وجلَّ في الدنيا أو في الآخرةِ.

النص الثاني عشر من سورة الأنعام
نهيُ المؤمنينَ عن قتالِ المشركينَ في مكة قبل الهجرة

أولاً: تقديم

أَعلمَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنَّ قوْمَهُ، وهم قريشٌ والعربُ كذَّبوا بهذا القرآن، وهو الحقُّ، وأعْلَمَهُ أنَّ كُلَّ خبرٍ أعْلَمَ الله به عبادَه له وقت لا بدَّ أن يحلَّ فيه، ونهاهُ عن مجالسةِ المشركين في حالِ استهزائهم بآياتِ القرآنِ أو بالرسولِ ﷺ أو الدِّينِ حتى يخوضوا في حديثٍ غيره، وأمَرَهُم بعدم قتالِ الكفارِ في الفترة المكيّة، وأخبرنا عن المشركين أنَّهم اتخذوا دينَهُمْ لعباً ولهواً وغرَّتْهم الحياةُ الدنيا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنعام:٦٨-٧٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهي الله -تعالى- رَسُولَه ﷺ عن مجالسةِ المشركين إذا هم خاضوا في آيات الله:

كان المشركونُ إذا جالَسوا المؤمنينَ آذوهم باستهزائهم بآيات القرآنِ ورسولِ الإسلام ﷺ، فنهاه اللهُ -تعالى- عن مجالَسَتِهِمْ حتى يخوضوا في حديثٍ غيره، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام:٦٨].

قال الشوكانيُّ -رحمه الله تعالى- في تفسيرِ هذه الآية: «قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام:٦٨] الخطابُ للنبيِّ ﷺ، أو لكلِّ من يَصْلُحُ له، والخوضُ: أصلُهُ في الماءِ، ثمَّ استعملَ في غَمَراتِ الأشياء التي هي مجاهلُ تشبيهاً بغمرات الماء، فاستعير من

المحسوسِ للمعقولِ. والمعنى: إذا رأيتَ الذين يخوضون في آياتِنا بالتكذيبِ والردِّ والاستهزاءِ، فدَعْهُمْ ولا تقْعُدْ معهم لسماعِ مثل هذا المنكر العظيم، حتى يخوضوا في حديثٍ مغايرٍ له، أمَرَهُ اللهُ سبحانه بالإعراض عن أهلِ المجالس التي يستهانُ فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوضُ في غيرِ ذلك.

وفي هذه الآية موعظةٌ عظيمةٌ لمن يتسَمَّحُ بمجالسةِ المبتدعة، الذين يُحرِّفون كلامَ الله، ويتلاعبون بكتابِهِ وسُنَّةِ رسوله، ويَرُدُّون ذلك إلى أهوائهم المضلَّةِ وبِدَعِهِمُ الفاسدةِ، فإنه إذا لم يُنْكِرْ عليهم، ويغيِّرْ ما هم فيه، فأقلُّ الأحوالِ أن يتركَ مجالَسَتَهُمْ، وذلك يَسير عليه غيرَ عسيرٍ، وقد يجعلون حُضُورَهُ معهم مع تَنَزُّهِهِ عما يَتَلَبَّسونَ به شبهةً يُشَبِّهونَ بها على العامة، فيكون في حضورِهِ مَفْسَدَةٌ زائدةٌ، على مجردِ سماعِ المنكر، وقد شاهدنا مِنْ هذه المجالسِ الملعونةِ ما لا يأتي عليه الحَصْرُ، وقمنا في نُصْرة الحق ودفع الباطل بما قَدِرْنا عليه وبَلَغَتْ إليه طاقَتُنا، ومن عَرَفَ هذه الشريعةَ المُطَهَّرةَ حَقّ معرفَتِها علمَ أنَّ مجالسةَ أهلِ البدعِ المضِلَّةِ فيها مِنْ المَفْسَدَةِ أضعافُ أضعافِ ما في مجالسةِ مَنْ يعصى اللهَ بفعلِ شيءٍ من المحرماتِ، ولا سيما بمن كانَ غيرَ راسخِ القدمِ في علم الكتابِ والسنّةِ، فإنه ربما يَنْفُقُ عليهِ مِنْ كذباتِهِمْ وهذيانِهِمْ، ما هو من البطلانِ بأوضحِ مكانٍ، فيَنْقَدِحُ في قلْبِهِ ما يصعبُ عِلاجُه، ويَعْسُرُ دفعه، فيعلمُ بذلك مدةَ عمره، ويَلْقَى اللهَ به معتقداً أنه مِنَ الحقِّ، وهو مِنَ أبطل الباطلِ، وأنكر المُنْكَرِ.

قوله: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الأنعام:٦٨] (إما) هذه هي الشرطية، وتلزمها غالباً نون التأكيد.

والمعنى: إنْ أنْساك الشيطانُ أن تقومَ عنهم، فلا تقعد بعد الذكرى إذ ذكرتَ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨] أي: الذين ظَلَمُوا أنفسهم بالاستهزاءِ بالآياتِ والتكذيبِ بها، قيل: وهذا الخطاب وإن كان ظاهره للنبيِّ ﷺ ؛ فالمرادُ التعريضُ لأُمَّتِهِ لتنزهه عن أن ينْسِيَهُ الشيطانُ، وقيل: لا وجه لهذا، فالنسيانُ جائزٌ عليه كما نطقت بذلك الأحاديثُ الصحيحةُ: (إنما أنا بشر أنسى كما تَنْسَوْنَ، فإذا نسيتُ فذكِّروني)» [قال محقق الشوكاني: جزء من حديث رواه عبدالله ابن مسعود، وهو عند: أحمد ١/ ٣٧٩، ٤٢٤، ٤٢٨، وأبو داود في الصلاة (١٠٢٢) والنسائيُّ في السهو ٣/ ٢٨، ٢٩، ٣٣، وابنُ ماجه في إقامة الصلاة والسنّة فيها (١٢٠٣)] [فتح القدير: ٢/ ١٨١].

٢- ليسَ على المؤمنينَ شيءٌ من وِزْرِ المستهزئين:

أخبرنا العزيزُ العليم -سبحانه- أنَّ الذين يتقون اللهَ في أوامِرِه ونواهيه ليس عليهم من حسابِ الكفار فيما فعَلوه من الاستهزاءِ والتكذيبِ مآثم يؤاخذون بها، ولكنْ عليهم أنْ

يذكِّروهم بالله وآياتِهِ لعلهم يتقون ما هم عليه من الاستهزاءِ والتكذيب [تفسير الماوردي: ١/ ٥٣٥] قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام:٦٩].

وقد ظَنَّ بعضُ أهلِ العلم أنَّ هذه الآية تفيد أنَّ النهيَ عن مخالطةِ المشركين في حالِ خوضهم في آياتِ الله خاصٌّ بالرسولِ ﷺ دونَ بقيةِ أصحابِهِ، وهذا غيرُ صحيحٍ، قال تعالى مشيراً إلى هذه الآية ناهياً أصحاب رسوله ﷺ عن القعود مع الخائضين في آيات الله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء:١٤٠].

٣- نهيُ الرسولِ ﷺ عن قتالِ المشركين في مكةَ:

أَمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يَذَرَ الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرَّتهم الحياةُ الدنيا، فلا يقاتلهم: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٧٠].

والمشركونَ واليهودُ والنصارى وغيرهم مِنَ الكفار اتخذوا -كما قال ربُّ العِزّةِ- دينهم هُزُواً ولعباً، وغرَّتْهم الحياةُ الدنيا، فتجدُهُمْ في أعيادِهِمْ الدينية في مُدُنِهِمْ ومجامِعِهِمْ يُعَلِّقون أبصارَهم بالساعةِ، فإذا دقّت عند منتصف الليل من عيد الميلاد إذا هم يبادرون إلى عبِّ الخمر الذي جَلَبُوه معهم لهذه المناسبة، وإذا دَخَلْتَ الكنائسَ تجدْ صلاتَهُمْ غناءً وموسيقى، بخلافِ صلاةِ المسلمين التي هي صلاةٌ وذكرٌ وقراءة قرآنٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الأنعام:٧٠] أَمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يُذكِّر بالقرآن قبل أن تُبْسَلَ كلُّ نفس بما كسبتْ، أي: قبل أن تُرْتَهَنَ وتُؤخَذَ بما كَسَبَتْهُ من الكفر والذنوب والمعاصي التي ارتكبتْها، وليس لها في ذلك اليوم الذي تُبْسَلُ وتُرْتَهَنُ فيه من دونِ الله وليٌّ يلي أمْرَها، ولا شفيعٌ يشفعُ لها، ويحامي عنها، ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي: وإن بذلت النفسُ التي أُخذتْ وارتهنتْ المالَ العظيمَ لا يُقبل منها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩١] وقد تهدَّدَ اللهُ تعالى الذين ارتُهنوا بما كَسَبوا من المجرمين بالعذابِ الأليم في يوم الدين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام:٧٠].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات النص من علم وعمل

إذا ما تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - استدلَ السيوطيُّ رحمه الله تعالى، بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام:٦٨] على وجوبِ اجتناب مجالسِ الملحدين وأهل اللغو [الإكليل: ص١١٨].

٢ - واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الأنعام:٦٨] «على أنَّ الناسي غير مُكَلَّفٍ، وأنه إذا ذُكِّرَ عاد إليه التكليفُ، فيقلعُ عما ارتكبه في حالِ نسيانِهِ» [الإكليل: ص١١٨].

٣- نَقَلَ القاسميُّ عن بعض مفسري الزيديَّةِ أنَّه يجوزُ مجالسةُ الكفار مع عَدِمِ الخوضِ، لأنه إنما أُمِرْنا بالإعراضِ مع الخوضِ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٦٨].

٤- لا يَتَحمَّلُ الأتقياءُ شيئاً من وزْرِ الذين يخوضون في آيات الله، ولكن عليهم أن يُذَكِّروا العبادَ بالله ويُذكِّروهم بوقوفِهِمْ بين يديه.

٥- منعَ اللهُ رسولَه ﷺ وأصحابه من قتالِ المشركين في مكة، وأَمَرَهُ بتبليغِ الناسِ وتذكيرهم بالله تعالى.

٦- كلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينة في يوم الدين، وكلٌّ يحاسبُ بما عمله، ومصيرُ الكفارِ في يوم الدين إلى النار.

النص الثالث عشر من سورة الأنعام
لا أحَدَ يستحقُّ العبادةَ إلا اللهُ وحده

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ -سبحانه- لنا في آياتِ هذا النصِّ أنه هو الذي يستحقُّ العبادةَ وَحْدَه، فهو النافعُ الضارُّ، والآلهةُ غيره آلهةٌ باطلةٌ، لا تَضُرُّ ولا تَنْفَع، وقد أَمَرَنا اللهُ تعالى بأن نُصَلِّيَ له، ونَتَّقِيَهُ، وعرَّفَنا -سبحانه- بنفسه، فهو خالقُ السمواتِ والأرضِ بالحقِّ، وهو الذي يقيمُ القيامةَ بقوله: كن، فيكون كما أراد، ويظهر في ذلك اليومِ مُلْكُه، وهو عالمُ الغيبِ والشهادةِ، وهو الحكيم الخبير.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنعام:٧١-٧٣].

ثانياً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كيفَ نَرُدُّ على الذين يدعوننا لعبادةِ غيرِ الله:

أَمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يقولَ للمشركين الذين يدْعونه لعبادةِ أصنامهم وأوثانهم: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ ﴾ [الأنعام:٧١].

أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يخاطِبَ المشركين الذين يدْعُونه لعبادة أصنامهم منكراً عليهم، قائلاً: لهم: أندعو من دونِ الله آلهتكمُ المصنوعةَ مِنَ الشجر والحجرِ والتمرِ والخشب؟ فهي لا تنفعُنا، ولا تَضُرُّنا، ولا تسمعُ، ولا تَفْقَهُ، ولا تتحرك، ولا تجيبُ عابديها، فإن فَعَلْنا، فقد رُدِدْنا على أعقابِنا، أي: كَفَرْنا وأشْرَكْنا بعدَ أن رَزَقَنا اللهُ الهدى.

وضَرَبَ اللهُ -تعالى- المثَلَ للكافرِ المشركِ الذي يدْعُو الأصنامَ والأوثان، بحالِ رجلٍ أَضَلَّتْه الشياطينُ عن الطريقِ، فهو حَيْرانٌ، لا يدري أين يتوجَّه، وله أصحابٌ قائمون على الطريقِ الحقِّ، ينادونه: هَلُمَّ إلينا، هَلُمَّ إلى الطريقِ الحقّ، فإن أقام على حاله في الاستجابةِ إلى الشياطينِ ضَلَّ في أوْديةِ الهلاكِ، وإنْ أجابَ أصحابَه المهتدين اهتدى.

وعَقَّبَ رَبُّ العِزَّةِ على هذا المثال الذي ضَرَبَهُ بأمره للرسولِ ﷺ أنْ يقولَ للمشركين: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام:٧١] أي: قُلْ لهم: إنَّ هدى الله هو الهدى، وهو الصوابُ الذي لا ضلالَ مَعَهُ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة:٣٣].

وقوله: ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام:٧١] وأُمرنا لنُخْلِصَ ديننا لله وحده، بعبادته وَحْدَه لا شريك له، والآمرُ لنا هو رَبُّنا، فكيف نخالفُ أمْرَه، ونتبْع آلهتكم من دونِه.

٢- أمَرَ اللهُ عبادَه -تعالى- بإقامِ الصلاةِ والتقوى:

وأمَرَنا ربُّنا تعالى في الآية التالية أن نقيمَ الصلاةَ ونتَّقيَهُ ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنعام:٧٢] وإقامُ الصلاةِ الركنُ الأعظمُ في الإسلام بعدَ الشهادتين، وتتحقق إقامتُها بالإتيانِ بها على وَجْهِها بأركانها وفرائضها في أوقاتها، وأمَرنا بتقواه سبحانه، أي: بتعظيمه، وتوقيرِه، وخوْفِه، وخشيتِه، والإتيان بما أمَرنا به، وتَرْك ما نهانا عنه وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه الذي يستحقُّ وَحْدَه أن نصليَ لَهُ، ونتَّقيَهُ، دونَ غيرِه، فهو الذي نُحْشَر إليه، أي: نجمعُ إليه في يومِ الدين، فيُثيبُنا إن عبدناه، ويعاقبنا إن كفرنا به.

٣- تعريف ربِّ العبادِ العبادَ بنفسه سبحانه:

عرَّفنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- بنفسِهِ، فأخبرنا أنه هو الذي خَلَقَ السموات والأرضَ بالحق ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ ﴾ [الأنعام:٧٣]، والسمواتُ والأرضُ مخلوقان عظيمان، مِنْ أعظم مخلوقاتِ الله، ومتى أقرَّ العبدُ بأنهما مخلوقان، انْتَفى أنْ يكون شيءٌ مما فيهما إلهاً فالأصنامُ والأوثانُ والأشجارُ والأحجارُ والأنعامُ والبحارُ والشمسُ والقمرُ والنجوم ونحوها كلُّها أجزاءٌ من السماوات والأرض، وهي كُلُّها مخلوقةٌ مربوبةٌ لله ربِّ العالمين.

وقد خَلَقَ اللهُ الأرضَ والسماءَ بالحقّ، أيْ: خلقهما لغايةٍ، ولم يخلقهما باطلاً وعَبَثاً، فكلُّ ما في السمواتِ والأرضِ عابدٌ لله مسبحٌ له ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ ﴾

[الإسراء:٤٤] ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحشر:١]. وخَلَقَ اللهُ الأرضَ لتكون مسكناً لبني آدمَ ليعْبدُوه ويوحِّدوه ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩] ولو خَلَقَ الله السمواتِ والأرضَ لغير غايةٍ، لكان خلقهما لعباً وعبثاً ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾ [الأنبياء:١٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام:٧٣] يقولُ اللهُ لرسولِهِ ﷺ: واذكرْ يومَ يقولُ اللهُ عز وجل: كُنْ، فيكونُ، وهذا اليومُ يومُ القيامةِ، ويومُ القيامةِ يكونُ بأمْرِ الله كما يريدُ الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام:٧٣]. ولما كانَ قولُه سبحانه حقّاً، فإنَّ يومَ القيامةِ يكونُ كما يريدُه اللهُ تعالى، وفي يوم القيامةِ يكونُ المُلْكُ كُلُّهُ لله وَحْدَه، فالعبادُ -كما صحَّ في الحديث- يحشرونَ حُفاةً عُراةً غُرْلاً، أما في الدنيا فالعباد يملكون ملكاً عارضاً، لا يلبثُ أنْ يزولَ، قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام:٧٣] والصورُ هو البوقُ الذي ينفخُ فيه النفخةُ الأولى فيُدَمَّرُ الكون، ثم ينفخُ فيه النفخةُ الثانيةُ، فيقومُ الناسُ لربِّ العلمين، وعرَّفنا ربنا في خاتمةِ الآية بأنه سبحانه العالمُ بما غابَ عنَّا وبما نشاهده، وأنه هو الحكيم الخبير ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٧٣﴾ [الأنعام:٧٣].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- لا يجوزُ دعاءُ ما يعبدُ من دون الله تعالى، فهي آلهةٌ باطلةٌ، لا تضرُّ، ولا تنفعُ.

٢- الدعاءُ من العبادات التي لا يجوزُ صَرْفُها إلى غيرِ الله تعالى.

٣- الذي يدْعو رَبّاً غير الله كافرٌ مُشْرِكٌ.

٤- ضرب الله مثلاً للمشركين المعرضينَ عن الصراط المستقيم بالذي أضَلَّتْه الشياطينُ عن الطريقِ، فهو حيرانٌ، لا يدري أين يسيرُ، وأصحابُه يدعونَه إلى الهُدى.

٥- المؤمنون الصادقونَ، يقيمونَ الصلاةَ، ويتَّقونَ الله، رجاءَ ثوابِ الله.

٦- اللهُ تباركَ وتعالى خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما لتكونَ معبداً لله ربِّ العالمين.

٧- يومَ القيامةِ كائنٌ بأمرِ الله، ويكونُ الملكُ في ذلك اليوم لله وحده.

٨- يُدَمَّرُ الكونُ في نهاية العالم بنفخِ إسرافيلَ في الصورِ، وعندما ينفخ فيه أخرى يقومُ الناسُ لرب العالمين.

٩- اللهُ وحْدَهُ عالمُ الغيبِ والشهادةِ وهو الحكيمُ الخبيرُ.

النص القرآني الرابع عشر من سورة الأنعام

طرفٌ من قصةِ إبراهيم عليه السلام

أولاً: تقديم

يقصُّ اللهُ -تبارك وتعالى- في آيات هذا النص طرفاً من قصة نبيِّه وخليله إبراهيم عليه السلام، وهذا القصصُ فيه بيانٌ واضحٌ للغرض الذي سيقتْ من أجله القصة، فلا يحتاج هذا القصصُ إلى مزيدِ بيانٍ لتتضح معانيهِ ومقاصِدُهُ. وقد سوَّد كثير من المفسرين صفحاتٍ لبيان أُمورٍ خارجةٍ عن القصةِ، بعضُها أقربُ إلى الأسْطورَةِ أو الخرافةِ، وبعضها يصادمُ القرآن وينافيه فيما أخبر به، وكلُّ الذي جاؤوا به ليس فيه نصٌّ صحيح لا من الكتاب ولا السنّة النبوية.

فقد أنْكرَ بعضُهم أن يكونَ اسمُ والد إبراهيم آزرَ، ورجَّحَ ما أخبرت به التوراةُ من أنَّ اسمه (تارح)، وبعضُهُمْ رجَّح غير ذلك، وذكر بعضُهُم أنَّ إبراهيمَ انفرجتْ له السمواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ حتى عَرَفَ أسرارَها، وذكرَ بعضُهم أنَّ السمواتِ والأرضَ التي أراها اللهُ إبراهيمَ كانت قائمةً على صخرةٍ، والصخرةُ قائمة على حوتٍ، والحوتُ قائمٌ على خاتمِ ربِّ العالمين، وبعضُ هذه الأخبار ذَكَرَتْ أنَّ إبراهيم رأي في حالِ اطِلاعِه على ما في السمواتِ والأرضِ رجالاً يزنون، فدعا عليهم الواحد بعدَ الآخرِ، فأهلكهم اللهُ تعالى، فأنْكرَ اللهُ عليه، وبيَن له أنَّ معالجةِ العبادِ بالهلاكِ السريعِ لا يصْلَحُ.

وذكر بعضُهم أنَّ والدةَ إبراهيمَ بعدما ولَدَتْهُ أخْفَتْه، في غارٍ خوفاً عليه من الجبابرةِ، الذين أخبرُهم الكهانُ بأنَّ ولداً سيولد في ذلك العام، سيكون هلاك طاغيةِ ذلك العصر على يَدِه، وكانت أصابعُ إبراهيمُ تُدِرُّ له عندما يضعها في فمه عَسَلاً ولبناً وماءً، وأنَّ نَظَرَ إبراهيم في السمواتِ والأرضِ كان وعمرهُ خمسةَ عشرَ شهراً [راجع: تفسير الطبري: ٤/ ٣٢٣٢-٣٢٣٨. وتفسير ابن عطية: ٣/ ٣٩٨، ٤٠٢. وتفسير البغوي: ٣/ ١٥٩-١٦١].

وقد شوَّهت هذه الأخبارُ التي ليس عليها دليلٌ ولا برهانٌ القصة القرآنية، وأوجدتْ فيها تناقضاً، وكان ينبغي أن لا تذكر بحال، وينزه القرآن، عن أن يُفسَّرَ بها، والله أعلم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا

كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام:٧٤-٩٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إبراهيمُ عليه السلام ينكرُ على أبيه وقومِهِ عبادتَهم الأصنام:

أخبرنا ربُّنا العليمُ الخبيرُ أنَّ نبيَّهُ وخليلَهُ إبراهيم عليه السلام أنكرَ على أبيه (آزر) اتخاذَهُ الأصنامَ آلهةً يعبدُها من دون الله تعالى، وصرَّحَ له أنَّه يراهُ وقومَهُ الذين يفعلون فِعْلَهُ في ضلالٍ مبين ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام:٧٤].

وقد أعلمنا ربُّنا في هذه الآية أنّ اسمَ والدَ إبراهيم (آزر)، فلا يجوز لأحدٍ من الناس مهما بلغَ عِلْمُهُ أن يقول: هذا ليس اسمه، أو أنَّ اسمه تارح، غَفَرَ اللهُ لمن قالَ ذلك مِنَ المفسرين.

٢- اللهُ يُرِي نبيَّهُ إبراهيمَ عليه السلام ملكوتَ السموات والأرض:

أَعْلَمنا ربُّنا العليمُ الخبيرُ سبحانَهُ أنّه أرى عبدَهُ ورسولَهُ إبراهيمَ عليه السلام ملكوتَ السماواتِ والأرضِ، ليكونَ من الموقنين ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام:٧٥].

و﴿ مَلَكُوتَ ﴾ بمنزلةِ المُلْكِ، إلا أن المَلَكوتَ أبلغُ في اللغةِ، لأنَّ الواوَ والتاءَ يزادانِ للمبالغةِ، ومثلَ الملكوتِ: الرَّغَبُوتُ والرَّهَبُوتُ.

وملكوت السماواتِ والأرضِ الذي أراه اللهُ لإبراهيم ﷺ، يعني بِهِ الشَّمْسَ والقمرَ والنجومَ والجبالَ والبحارَ والحيوانَ والأشجارَ ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي: ليبلغَ درجةَ اليقين، فالنَّظَرُ في السمواتِ والأرضِ وما فيهما من شمسٍ وقمرٍ ونجوم، وجبالٍ وسهولٍ وبحارٍ وأنهارٍ، يغرسُ الإيمانَ في القلوبِ، وقد سَبَقَ أن بَيَّنْتُ أنَّ اليقينَ يتحقق بورودِ المعاني والدلائل الكثيرة المتنوعة على القلبِ، فتنغرسُ فيه، وتصبحُ لازمةً له، وهذا يتحقَّقُ عَبْرَ تدبرِ آياتِ الله المنزلةِ في القرآنِ، وآياتِ الله المشهودةِ في الكونِ.

٣- إبراهيم يحتجُّ على قومِهِ:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ إبراهيمَ احتجَّ على قومِهِ، وبيَّنَ لهم ضَلالَهُمْ فيما عَبَدُوه من النجومِ والقمرِ والشمس، وأخبرنا أنَّ إبراهيمَ ﷺ لما جَنَّ عليه الليل أي: أظْلَمَ عليه وتغشَّاهُ وسَتَرَه، رأى كوكباً، فقال: هذا ربي الذي يصلُحُ للعبادة، فلما غابَ ذلك النجمُ قال: لا أحبُّ الآفلين، فاللهُ لا يجوزُ له أن يظهر على خَلْقِهِ، ثم يختفي عنهم ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنعام:٧٦].

فلما رأى إبراهيمُ ﷺ القمر بازغاً، أي طالعاً، قال: هذا ربي، فلما أفَلَ، قال لقومِهِ: لئن لم يهْدِني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنعام:٧٧] «لقد اعْتبَرَ إبراهيمُ ﷺ في القمر مثل ما اعتبر في النجم، وكانت حُجَّتُهُ على قومِهِ كالحجَّة في النجم، وقولُ إبراهيم ﷺ : ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ لا يدلُّ على أنه لم يكن مهتدياً، لأن معناه: لئن لم يُثَبِّتْني ربي على الهدى، والأنبياءِ لم تزلْ تسألُ الله ذلك، وتعلمُ أنه لولا هداية الله ما اهتدتْ» [التفسير البسيط للواحدي: ٨/ ٢٤٩].

وأخبرنا العزيزُ العليم أنّ إبراهيمَ لما رأى الشمسَ بازغةً قال: هذا ربي، هذا أكبرُ، لما غابَتْ قال: يا قوم إنني بريءٌ مما تشركون. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنعام:٧٨].

لقد احتجَّ إبراهيمُ على قومه بأن النجومَ والقمر والشمس جميعها لا تَصْلَحُ أنْ تكونَ ربّاً ولا إلهاً، وقد بيَّن ابنُ كثيرٍ رحمه الله تعالى كيفَ احتجَّ إبراهيم على قومه، فقال: «والحقُّ أنَّ إبراهيمَ ﷺ كان في هذا المقام مناظراً لقومِهِ، مبيِّناً لهم بطلانَ ما كانوا عليه من عبادة الهياكلِ والأصنام، فبيَّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادةِ الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنْفُسِهِمْ أحقَرُ من أن يعبُدُوه، وإنما يتوسَّلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وبيَّن في هذا المقام خطأهم وضلالَهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكبُ السيارة السبعةُ المتحيِّرة، وهي: القمرُ، وعُطارِدُ، والزُّهرةُ، والشمسُ، والمريخ، والمشتري، وزُحَلَ. وأشدُّهن إضاءةً وأشرقهن عندهم الشمسُ، ثم القمرُ، ثم الزهرة.

فبيَّن أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرةَ لا تصلُحُ للإلهية، لأنها مسخرة مقدَّرة بسيرٍ معيَّنٍ، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملِكُ لنفسها تصرُّفاً، بل هي جُرْمٌ مِنَ الأجرام خلقها اللهُ منيرة، لما له في ذلك من الحِكَم العظيمة، وهي تطلعُ مِنَ المشرقِ، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيبَ عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثلُ هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبيَّن فيه مثل ما تقدَّم في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفتِ الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنورُ ما تقع عليه الأبصارُ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾، أي: أنا بريءٌ من عبادتِهِنَّ وموالاتهنَّ، فإن كانت آلهةً فكيدوني بها جميعاً ثم لا تُنظرون، ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾، أي: إنما أعبدُ خالقَ الأشياء ومخترِعَها ومُسَخِّرها ومقدِّرها ومدبِّرها، الذي بيده ملكوتُ كل شيءٍ، وخالقُ كل شيءٍ وربُّه ومليكُه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]» [ابن كثير: ٣/ ٥٠].

٤- تخويفُ قوم إبراهيم له بآلهتهم:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ قومَ إبراهيمَ خاصَموه فيما قرَّرَهُ من وحدانية الله، وخوَّفوه آلهتَهُمُ التي تبرأ منها، وأعلمنا بما أجابَهُمْ، وبيَّن لهم، فقال: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا

تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:٨٠-٨٢].

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ نبيَّهُ إبراهيم عليه السلام قال لقومِهِ: أَتُحاجُّوني في الله، أي: تجادلوني في وحدانية الله، وتزعمون أنَّ له أنداداً وشركاء، وقد هداني ربِّي إلى الحقِّ، وبصَّرني به، فأنا على بينةٍ من أمري، وأعْلَنَ لهم غيرَ خوَّافٍ ولا وَجِلٍ أنَّ آلهتهم التي خوَّفوه بها زاعمين أنَّها ستُنْزَلُ به العقابَ والعذابَ لا تخيفه، ولا تُفْزِعه، فإنها لا تَضُرُّ ولا تنفعُ، ولكنْ إذا حلَّ به أمْر فهو من الله وحْدَهُ، وهذا الذي تهَدَّدَ به إبراهيمَ قومُهُ، فَعَلَهُ قومُ هودٍ، فلم يُفزعْهُ تهديدُهم، وجابَهَهُمْ وواجَهَهُم معلناً لهم أنَّ آلهتهم لا تخيفهُ ولا تفزعه ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾ [هود:٥٣-٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ﴾ أي: أحاطَ علمُ ربي بكل شيءٍ، وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: أفلا تعتبرون وتعلمون أنَّ آلهتكم حجارة منحوتةٌ، وأخشابٌ منصوبةٌ، لا تضرُّ، ولا تنفع.

وعندما خوَّفوه بآلهتهم أنْ تُخْبِلَه أو تمرضَهُ، قالَ لهم: كيف أخاف الآلهةَ التي جعلتموها شركاءَ لله تعالى، وهي لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تتكلمُ ولا تسمعُ، أنتم لا تخافونَ اللهَ الواحدَ الأحدَ القويَّ القاهرَ، الذي أشركتم به أصنامَكُمْ وأوْثانكم، وقولُه: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ﴾ أي: لم ينزلْ حجّةً ولا برهاناً، يُقِرُّ لكم بألوهية معبوداتِكُم.

وقد سأل إبراهيمُ عليه السلام قومَهُ في خاتمةِ خطابِهِ موبخاً إياهم، قائلاً لهم: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ عنى بالفريق الأول نفسَهُ، وعنى بالفريق الثاني قومَهُ المشركين، ثم قرر الحقَّ في هذه المسألة، وقال لهم: الذين آمنوا بالله وحده، ولم يَخْلِطوا إيمانَهُمْ بظلم، أي: بشركٍ لهم الأمْنُ في يوم القيامة، وهم المهتدون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢]، عن عبدالله قال: «لما نَزَلَتْ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] قال أصحابُ رسولِ الله ﷺ: «أَيُّنا لم يَظْلِمْ نفسَه؟»

فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]» [البخاري: ٣٢. ومسلم: ١٢٤ بزيادة].

وعن عبدالله أيضاً قال: «لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] قلنا: يا رسول الله، أيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون، ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] بشِرْكٍ، أو لم تسمعوا إلى قولِ لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]» [البخاري: ٣٣٦٠. ومسلم: ١٢٤].

٥- إيتاءُ الله -تبارك وتعالى- رسولَهُ إبراهيم حُجتَهُ على قومِهِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام:٨٣].

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنه آتى إبراهيم حجَّتَهُ على قومِهِ في مُحاجَّتهم له، والمشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ﴾ [الأنعام:٨١].

وقد خَصَمَ بها قومَهُ، وانتصرَ عليهم في مجالِ الحجاج، وقوله: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ وأول من يدخل في الذين رفع درجتهم نبيُّه إبراهيم ﷺ، فقد رفع اللهُ درجتَه في الدنيا فيما آتاهُ الله من حجةٍ انتصر بها على قومه، ورفعه بالنبوة وبالرسالة، وله في الآخرة الدرجاتُ الرفيعة العالية.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾﴾ أي: حكيم في أفعاله وأقواله، وعليم بمن يهديه ويُضلّه.

٦- الرسل والأنبياء من ذرية إبراهيم ﷺ:

كلُّ الرسل والأنبياء الذين ابتعثهم اللهُ -عز وجلَّ- بعد إبراهيم هم من ذرية إبراهيم ﷺ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

وقد ذَكَرَ اللهُ -تعالى- في هذا الموضع خمسةَ عشر رسولاً ونبياً والرسلُ والأنبياءُ الذين أعلمنا اللهُ -تعالى- أنَّهم من ذريةِ إبراهيمَ في مواضع أخرى أكثر من هذا العدد.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام:٨٤] أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه وَهَبَ لعبدِهِ إبراهيمَ ﷺ ولَدَهُ إسحاق، وهو رسولٌ

نبيٌّ، كما وَهَبَه من إسحاقَ حفيدَه يعقوب، وهو أيضاً نبيٌّ رسولٌ، ويعقوبُ هو إسرائيلُ، الذي هو والدُ بني إسرائيل، وأثنى اللهُ تعالى على إسحاقَ وابنِهِ يعقوبَ بقوله: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾، ثم أثْنى سبحانه على عبدِه ورسوله نوحٌ عليه السلام بقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾، ونوحٌ من آباءِ إبراهيم عليهما السلام، فكلُّ الرسلِ والأنبياءِ بعد نوحٍ كانوا من ذرية نوحٍ.

ثم ذكر اللهُ تعالى جملةً من الرسل والأنبياء كُلِّهم من ذرية إبراهيم، وهم داودُ وسليمانُ، وهما نبيان ملكان، وداودُ والد سليمانَ، وأيوبُ ويوسفُ، وموسى وهارون، وأثنى اللهَ عليهم جميعاً بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾. والمحسنونَ الذين بلغوا الغايةَ في عبادَةِ ربهم.

وذكر اللهُ تعالى أن من ذرية إبراهيم عليه السلام: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام:٨٥] والصالحون الذين بلغوا القمة في الصلاح. وذكر من ذرية إبراهيم أيضاً: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٦].

وهذه الآية صريحة في أنه فضَّل أنبياءه ورسُلَهُ على العالمين وقد أخطأت بعض الفرق التي تُنْسَبُ إلى الإسلام عندما فضَّلت أئمتها على بعض الأنبياءِ والرسلِ، كما أخطأ بعضُ الذين فضَّلوا خاتمَ الأولياء على خاتم الرسل والأنبياءِ، وكلُّ هؤلاء ضَلُّوا ضلالاً عظيماً، فقد خالفوا ربَّ العزة فيما صرَّح به في الآية.

وقد ذَهَبَ بعضُ المفسرين إلى أن الرُّسُلَ والأنبياء المذكورين من بعد داود وسليمان هم من ذرية نوحٍ، لا من ذرية إبراهيمَ، لأن لوطاً عليه السلام كان من ذرية نوح، ولم يكن من ذرية إبراهيم.

وما قالوه من أنَّ لوطاً لم يكن من ذرية إبراهيم عليه السلام صحيح، ولكنه ذكره في ذريته من باب التوسع، فقد كان لوطٌ ابن أخي إبراهيم، وهذا شبيه بما حكاه الله عن أولاد يعقوب عندما سألهم يعقوبُ وهو يموتُ عن الإله الذي يعْبُدونه من بعده، قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:١٣٣].

فذكروا إسماعيل في آباء إسرائيل، وهو عمُّه، ذكروه في آبائه من باب التوسع، فإنَّ العمَّ بمثابة الأب.

وعندما يتأملُ القارئ للآياتِ يجد الآيات مسوقةً للحديثِ عن إبراهيم، لا عن نوحٍ، فحملَ ما ذكره الله عن الذرية أنها ذرية نوحٍ بعيد، لأنها غير مسوقة للحديث عنه.

وما ذكره بعض المفسرين أن بعض الأنبياء المذكورين في هذا النص ليسوا من ذرية إبراهيم كيونسَ وإلياسَ ليس عليه دليلٌ، بل ينبغي أن يُستدلَّ بالآية أنَّ كل هؤلاء الأنبياء من ذرية إبراهيمَ باستثناء لوط عليهم جميعاً السلام.

٧- ثناء الله -تعالى- على المؤمنين من آباء الرسل والأنبياء وذرياتهم وإخوانهم:

أثنى اللهُ تعالى على المؤمنين من آباء الرسل والأنبياء الذين ذكرهم وذرِّياتهم وإخوانهم وأخبر أنه اصطفاهم وهداهم إلى صراطه المستقيم، وهو دينُ الله المتمثلُ في عبادة الله وَحْدَه ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام:٨٧].

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ ما حَصَلَ لمن ذكرهم اللهُ تعالى من التوفيق والهداية إلى الدين الحق، حصل لهم بتوفيق الله وهدايته ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٨] وأخبر أنهم لو أشركوا لحبطت أعمالهم، أي: بطلت ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام:٨٨].

٨- ثناءُ الله تعالى على رسله وأنبيائه بما آتاهم من الكتاب والحُكْم والنبوة:

أثنى اللهُ على أنبيائه ورسلِهِ الذين آتاهم الكتابَ والحكم والنبوة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام:٨٩] والأنبياءُ والرسل جميعاً آتاهم الله تعالى الحكم والنبوة، أما الكتاب، فقد آتاه بعضهم دون بعضٍ، فممن آتاه -تعالى- الكتابَ إبراهيمُ عليه السلام، فقد آتاه صحف إبراهيم، وأنزل على موسى صحف موسى، وهي التوراةُ، وآتى داود الزبور، وأنزل على عيسى الإنجيل، وآخر كتبه وأعظمها القرآنُ الذي أنزله على عبده ورسولِهِ محمدٍ ﷺ.

وأعلم اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنه ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام:٨٩] وأرادَ بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كفارَ قريشٍ ومشركي العرب، والمرادُ بالذين وكلَّهم اللهُ بها المهاجرونُ والأنصارُ، وإذا تخلَّى المسلمون عن الإسلام في أي عصرٍ من العصور، فإنَّ اللهَ تعالى يهدي إلى الإسلام من يَحْمِلُهُ، وينصرُهُ، ويجاهدُ في سبيله، فقد دخلَ في الإسلام ونصرهُ الأتراكُ العثمانيون، والأكرادُ، وغيرهم.

٩- أمَرَ الله تعالى نبيَّهُ محمداً ﷺ أن يقتديَ بهديِ الرسل والأنبياء من قبله:

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على رسله وأنبيائه، وهم المشارُ إليهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩٠] وأمر اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يقتدي بهداهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾

[الأنعام:٩٠] وأمَرَهُ أن يقولَ للناس: لا أسألكم على ما أُبلِّغكُمْ به أجراً، وأنْ يُعْلِمَهم أنَّ ما يُبَلِّغُهم إياهُ إنما هو ذكرى للعالمين، يُذكِّرهُمْ بالله ربِّهم، ويدُلُّهم عليه، ويرشدهم إليه ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٠﴾ [الأنعام:٩٠] يريدُ أنَّ القرآنَ موعظةٌ للخلقِ أجمعين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يجب على العلماء والدعاةِ أن يبدؤوا بالإنكار على ضلال آبائهم وأقربائهم، فقد سارعَ إبراهيمُ في الإنكارِ على أبيهِ في عبادتِهِ الأصنامَ، وأخبره أنه يراه هو وقومه في ضلالٍ مبين.

٢- أعظمُ الضلالِ والفسادِ هو الشركُ بالله تعالى، وعلى المسلم أن لا يتهاونَ في إنكاره، وبيان ضلال الذين يفعلونَهُ، كما فعل ذلك نبيُّ الله إبراهيمُ.

٣- الهدايةُ تأتي من طريقين: الأول: النظرُ في آيات الله المسطورة، والثاني: النظرُ في آيات الله المنظورة، وقد امتنَّ اللهُ تعالى على نبيه إبراهيم ﷺ، فقد أراه آياتِهِ المنظورة المبثوثة في ملكوتِ السموات والأرض.

٤- الإكثارُ من النظر الصحيح في آيات الله المبثوثة في السموات والأرض فإنه يجْلبُ اليقين لصاحبها، فاللهُ -تعالى- أرى إبراهيمَ ملكوتَ السموات والأرض، ليكونَ من الموقنين.

٥- ناظرَ إبراهيمُ ﷺ قومَهُ، واستدلَّ على أنَّ ما يعبدونه من النجوم والقمر والشمس وغيرها آلهة باطلة، لأنها تأفلُ وتغيبُ، والإلهُ الذي يأفلُ أو يغيبُ ليس بإله، أو هو إلهٌ باطلٌ.

٦- أعلنَ إبراهيمُ في نهاية مناظرتِهِ لقومه أنه بريءٌ من الآلهة التي يعبدونَها من دون الله تعالى، وكذلك يجبُ أن يفعلَ العلماءُ والدعاة.

٧- المؤمن الحقُّ هو الذي يُخلِصُ دينَهُ لله عز وجل كما فعلَ نبيُّ الله إبراهيمُ في إعلانِهِ أنه وَجَّهَ وَجْهَهُ للذي فطرَ السمواتِ والأرضِ، أي: خلقهما على غير مثالٍ سابق.

٨- أحْسَنَ نبيُّ الله إبراهيمُ حيثَ ساقَ من الحجج والبيناتِ ما أبْطَلَ حُججَ قومِهِ، وانتصرَ عليهم في الحجاجِ.

٩- خَوَّفَ قومُ إبراهيمَ إبراهيمَ ﷺ عندما هاجَمَهُمْ، فحذَّروهُ مما ستوقِعُه آلهتُهُم به من العذابِ والهوانِ، فأعلنَ لقومِهِ أنَّه لا يخافُ آلهتهم التي يُخوِّفونه بها، إلا أن يشاءَ اللهُ شيئاً.

١٠- عَكَسَ إبراهيم الحجةَ على قومِهِ، فالآلهةُ التي يعبدونَها لا تَضُرُّ، ولا تَنْفَعُ، والإلهُ الذي يستحقُّ أنْ يُخافَ هو اللهُ الذي أشركوا به ما لم ينزلْ به عليهم سلطاناً.

١١- الذي يُحَقِّقُ التوحيدَ في الدنيا له الأمْنُ التامُّ في يوم القيامة، والمشركونَ في الآخرة هم الذين يحلُّ بهم الخوفُ في ذلك اليوم.

١٢- رَفَعَ اللهُ -تعالى- مقامَ إبراهيمَ ﷺ في الدنيا بنصره في الحجاج على قومه، وسيرْفَعُ اللهُ -تعالى- درَجَتَهُ في يوم الدين.

١٣- جَعَلَ اللهُ -تعالى- في ذريةِ إبراهيمَ النبوةَ والكتابَ، فما من نبيٍّ من الأنبياء، ولا رسولٍ من الرسل، بعد إبراهيم إلا وهو من ذريته.

١٤- ذكر اللهُ من الأنبياء والرسل -في هذا الموضع- خمسة عشر رسولاً، كُلُّهم من ذريته إلا لوطاً، فإنه ابنُ أخيهِ.

١٥- كلُّ الأنبياء والرسلِ من المحسنين الصالحين، وكُلُّهم فضَّلَهُمُ اللهُ على غيرهم من الصديقين والشهداء والصالحينَ، وقد ضلَّ من فضَّل بعضَ الذين يُظَنُّ أنه من الصالحين على الأنبياءِ والمرسلين.

١٦- أثنى الله تعالى على آباءِ الرسل وذرياتهم وإخوانهم إذا كانوا من المؤمنين وأخبرنا أنه اجتباهم وهداهم إلى صراطٍ مستقيم.

١٧- المشركُ يُحْبَطُ عمَلُهُ يوم القيامة بسبب شركه.

١٨- أثنى اللهُ على الرسلِ الذين ذَكَرَهُم، بأنه آتاهُمُ الكتابَ والحكم والنبوة.

١٩- أثنى اللهُ تعالى على المؤمنين من هذه الأمة، وفي مقدِّمتهم المهاجرون والأنصار، لإيمانهم بالأنبياء والرسل وما جاؤوا به.

٢٠- حَكَمَ اللهُ على الرسل والأنبياء الذين ذكرهُم بأنه هداهُمْ، وأمر رسولَنا ﷺ أن يقتدي بهم.

٢١- لا يجوزُ أخذُ الأجر على تعليم العلم والدعوة إلى الله ربِّ العالمين.

النص الخامس عشر من سورة الأنعام
الردُّ على الذين زعموا أنَّ اللهَ لم يُنَزِّل كتاباً على واحدٍ من البشر

أولاً: تقديم

ردَّ اللهُ -تعالى- على الذين يُنْكِرون أنْ يكونَ اللهُ -تعالى- أنْزَلَ على واحدٍ من البشر كتاباً من عنده، وقد سألهم اللهُ عن الكتاب الذي جاءَ به نبيه موسى عليه السلام وهو التوراة، وذمَّ اليهودَ بإخفائهم لبعض ما جاءَهم من هذا الكتاب. وذَكَرَ اللهُ تعالى في ردِّه على المكذبين بالكتب كتاباً آخر أنزله مباركاً لينذرَ بِهِ، وهو القرآنُ، وبيَّن -سبحانه- أنَّه لا أحد أظلم مِنَ الذين يفْتَرونَ ويكذبون على الله، وبيَّنَ حالهم عندما تقبضُ أرواحُهُم، وكيفَ يكونُ مصيرهم يوم القيامة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام:٩١-٩٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لم يُعَظِّمِ اليهودُ اللهَ حقَّ تعظيمِه عندما أنكروا إنزالَ الكتب على الرسل:

أخبرنا ربُّنا عز وجل أنَّ اليهودَ لم يُعَظِّموا اللهَ حقَّ تعظيمِهِ، عندما زَعَموا كاذبين أنَّ اللهَ تعالى وتقدَّس ما أنزل على بشر من شيءٍ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ [الأنعام:٩١]. وهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة لم يعرفوا اللهَ حقَّ معرفته، فاللهُ الحكيمُ الخبيرُ خلقَ

البشرَ، وأرْسل إليهم رسله، وأنزلَ عليهم كُتُبَهُ، ليعبدُوه، ويوحِّدُوه، وذلك مقتضى فضْلِهِ ورحمتِهِ وحكمتِهِ سبحانه.

وقد أمَرَ اللهُ تعالى أن يجيبَ هؤلاءِ بما يعرفونَهُ من دينهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام:٩١].

أمَرَ الله تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لهؤلاءِ: من الذي أنزلَ الكتابَ الذي جاء بِهِ موسى ليكونَ نوراً وهدى، وليكشفَ الضلالَ، ويبينَ الحقَّ للناس، والكتابُ كتابُهُمْ، والرسولُ الذي أُنزل عليه رسولُهم، وقد ذمَّ اللهُ أحْبارَهم لأنهم كَتَبوهُ في قراطيسَ، فأظهروا بعضَه، وأخْفوا كثيراً منه، وقد جاء رسولُنا ﷺ فأظهر كثيراً مما أخفاه اليهودُ من الكتاب ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ﴾ [المائدة:١٥].

وقد أخبر اللهُ تعالى يهودَ المدينة بأنهم علِمُوا ما لم يكونوا يعلمونه هم وآباؤهم ومصدرُ هذا العلم هو ما جاءَهم به نبينا ورسولنا من عند ربِّنا ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾ [الأنعام:٩١]، ثم أمَرَ اللهُ تعالى رَسُوله ﷺ أنْ يقولَ لهم مجيباً على السؤالِ الذي سألهم إياه: اللهُ، أي: اللهُ هو الذي أنْزَلَهُ على موسى.

وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام:٩١] أي: قُلْ لهم: اللهُ أنزله، ثم دعْهُمْ في جهْلِهِمْ وضلالتِهِمْ.

٢- ثناءُ الله -تعالى- على كتابه الذي أنْزَلَه على رسولِهِ ﷺ:

بعد أن أثنى اللهُ -سبحانه- على الكتابِ الذي أنْزَلَهُ اللهُ تعالى على نبيِّه موسى عليه السلام، ثنى بذكر الكتابِ الذي أنْزَلَهُ على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ وهو القرآنُ، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام:٩٢].

وقولُهُ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ هو القرآنُ، أنْزَلَه مباركاً، والمبارك الذي بارك اللهُ فيه، وأصْلُ البركة: الزيادةُ والنماءُ، ومن بركةِ هذا الكتاب أنه نورٌ، لعقولنا، وحياةٌ لقلوبنا، وبه تُغْفَرُ الذنوبُ، خيرُهُ كثيرٌ، ومنفعَتُه دائمةٌ، يبشرُ بالمغفرة والثوابِ، ويزجُرُ عن المعصية والقبيح، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢].

وكما جَعَلَهُ اللهُ تعالى مباركاً جعله مصدِّقَ الذي بين يديه، فهو يُصدِّقُ ما جاءت به الرسل والأنبياءُ من قبلِهِ، ويصدِّقُ الكتب السماوية، ومنها التوراةُ والزبُورُ والإنجيلُ، قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [آل عمران:٣] وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ [النساء:٤٧].

وقد أنْزَلَ اللهُ تعالى القرآنَ ليُنذِرَ به الرسولُ ﷺ وأصحابُهُ من بعده وعلماءُ أُمَّتِهِ أُمَّ القرى، وهي مكةُ، وما حولها من القرى والأمصارِ، ودائرةُ الإنذار تتسع بمقدار ما يطيقُهُ المسلمون حتى تشمل العالمَ كُلَّه.

وسُمِّيت مكةُ أمَّ القرى، لأن المسلمين يؤمونها في صلاتِهِمْ حيثما كانوا، وأينما وُجدوا، وهي أعظم مدن العالم.

وأخبرنا ربُّنا أنَّ الذين يؤمنون باليوم الآخر يؤمنون بهذا الكتاب العظيم، وهؤلاء هُمُ الذين يحافظون على صلاتِهِمْ، أي: يقومون بما افترَضَ اللهُ عليهم مِنَ الصلاة في أوقاتها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)﴾ .

٣- أشدُّ الناس ظلماً الذين يدَّعون النبوة والرسالة كاذبين:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنه لا أحد أظْلَمُ ممن افترى على الله الكَذِبِ، أو قال: أوحي إليَّ عن طريقِ الملائكة، وهو لم يُوْحَ إليه شيءٌ، أو قالَ: سأُنزلُ مثل ما أنزل الله على رسولِهِ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام:٩٣].

ويدخُلُ في هذه الأصناف طوائفُ كثيرةٌ، فمنهم النصارى الذين زعموا أنَّ عيسى ابنُ الله، والعربُ الذين زعموا أنَّ الملائكة بناتُ الله، وكلُّ من زعم مثل هذا الزَّعم من الذين كذبوا على الله دخلَ في الآية.

ويدخلُ في الذين قالوا: أوحيَ إلينا ولم يُوحَ إليهم شيء الأنبياءُ الدجالون المفترون كمُسيْلمة والأسودِ العنسي وسَجاحَ، وكلُّ من ادَّعى مثلَ هذه الدعوى على مرِّ العصور وفي مختلف الأمكنة.

ويدخُلُ في الذين قالوا: سأُنزلُ مثلَ ما أنْزَلَ الله، كلُّ الذين يسخرون هازئين زاعمينَ أن لديهم القدرة على أن يُنزِلوا مثلَ ما أنزلَ الله، جاهلين أنّ إنْزال الوحي منحةٌ ربانيةٌ.

٤- حالُ الظالمين عندما تأْخُذُهم سكراتُ الموتِ:

بيَّنَ لنا ربُّنا بكلماتِهِ حالَ الظالمين عندما ينزلُ بهم الموتُ وتحلُّ بهم سَكَراتُهُ، قالَ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام:٩٣].

وهذه الآيةُ حديثٌ عن خَبَرٍ من أخبارِ الغيب، فنحنُ نحْضُرُ الميتَ عندما ينزلُ به الموتُ، ولا نرى الملائكةَ التي تَنْزِلُ لنزعِ روحِه، وقد أخبرنا ربُّنا في هذه الآية بما يحلُّ بالكفرة الظالمينَ عندما تنزلُ بهم غمراتُ الموت، وغمراتُ الموت شدائِدُهُ وسكراتُه، وهؤلاءِ تحْضُرُهُمْ الملائكةُ لنزع أرواحِهِمْ، وتبسطُ لهم أيديهم يضربونَهُمْ ويعذِّبونَهُمْ، وتقولُ لهم: أَخْرجوا أنْفُسَكُم، فَتَفَرَّقُ في أجسادِهم، فينزعونَها كما يُنْزَعُ الصوفُ مِنَ السفُّود.

وتقولُ لهم الملائكةُ: اليومَ تُجْزَون عذابَ الهونِ، أي: العذابَ الذي يوقع بكم الهوانَ والخزيَ، قال ابنُ كثير: «الكافرُ إذا احْتُضِرَ بشَّرَتْه الملائكةُ بالعذابِ والنكالِ، والأغلالِ والسلاسلِ، والجحيم والحميم، وغضبِ الرحمن الرحيم، فتَتَفَرَّقُ روحُه في جَسَدِه، وتَعْصَى وتأبى الخروجَ فتَضْرِبُهم الملائكةُ، حتى تخرجَ أرواحُهُمْ من أجسادِهِم، قائلينَ لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: اليومَ تهانونَ غايةَ الإهانةِ، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياتِه، والانقيادِ لرسُلِهِ» [ابن كثير: ٤/٥٩].

٥- استقبالُ الظالمين في يوم الدين:

أخبرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- كيفَ يُسْتَقْبَلُ الظلمةُ الكفرةُ في يوم الدين، فأخبرنا سبحانه أنَّه يقالُ لهم في ذلك اليوم: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام:٩٤].

أيْ: يقالُ لهم: لقد جئتمونا في هذا اليوم فُرادى، أيْ: واحداً واحداً، ليس معكم أهلٌ، ولا مالٌ، ولا أثاثٌ، ولا ولدٌ، ولا حُرّاسٌ، ولا أعوانٌ، ويأتونَ كما خَلَقَهُمُ الله أول مرةٍ، فالعبادُ يأتون في يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً ويقالُ لهم: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: تركتم ما وَهَبَكُمُ اللهُ إياه في الدنيا من المتاعِ والمال والمواشي وراءَكم، ويقالُ لهم أيضاً:

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أي: لم يأت معكم الآلهةُ التي جعلتموها شفعاءَ، زاعمين أنَّها شفعاءُ تشْفَعُ لكم في الدنيا والآخرة، ففي ذلك اليوم يظهر كَذِبُهُمْ فيما زعموه، فلا تجيءُ تلك الآلهةُ المزعومة لنصرهم والشفاعة لهم، وقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: لقد تقطَّع ما بينكم من الوُصْلاتِ والأسبابِ والوسائل، ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي: غابَ ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: ما كنتم تدَّعونه في الدنيا من أنَّ الآلهةَ التي تعبدونها تنصرُكُمْ وتعينكم وتقرب بينكم، وقريبٌ من هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الذين زعموا أن اللهَ عز وجل لم يُنزِلْ شيئاً من الكتب على رسلِهِ لم يقدُروا اللهَ حقَّ قدْره ولم يُعظِّمُونَه حقَّ تعظيمه.

٢- ردَّ اللهُ على اليهودِ الذين زعموا أنَّ الله لم ينزلْ كتاباً على رسولٍ من رُسُلِهِ بسؤالهم عن مصدرِ الكتابِ الذي أُنزلَ على موسى ﷺ، وهو ردٌّ قويٌّ مُفْحِمٌ.

٣- من جرائم اليهودِ إخفاءُ بعضِ ما أنزلَهُ من الحقِّ في التوراة.

٤- ثناءُ الله تعالى على التوراةِ، ففيها الهدى والنور، وثناؤُه على القرآن.

٥- أنزلَ اللهُ تعالى القرآنَ ليصدِّقَ ما أنْزَلَه على رسلِهِ، ولينذرَ به العالمين.

٦- لا بدَّ للذين يؤمنون بالآخرة، ويقيمونَ الصلاةَ من الإيمان بالقرآنِ.

٧- أعْظمِ الناسِ جُرْماً الذين يفْتَرونَ الكذبَ على الله كالذين قالوا: اتخذَ الله ولداً، والذين زعموا أَنَّ اللهَ أوحى إليهم، وهو لم يوحِ إليهم شيئاً، والذين زعموا أنهم سينزلونَ قرآناً كالقرآنِ الذي أُوحي الله به.

٨- تعريفُ ربِّ العباد إيانا بالعذابِ والنكالِ الذي يَحِلُّ بالظالمين عندما ينزلُ بهم الموتُ.

٩- تعريفُ الله لنا بما يقالُ للظالمين عندما يقومونَ من قبورهم في يوم البعث والنشورِ.

١٠- يأتي الكفارُ في يوم القيامةِ فرادى قد غابت عنهم آلهتهمُ التي كانوا يعبدونَها، ويكونون في ذلك اليومِ متفرقين لا ينصرُ بعْضُهم بعضاً.

النص السادس عشر من سورة الأنعام
ذلكم الله فأنَّى تؤفكون

أولاً: تقديم

وجدت أن خير ما يُقدَّم له في آيات هذا النص ما قاله سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسيرها في ظِلالِه، قال: «نحن -في هذا الدرس - أمام كتاب الكون المفتوح، الذي يمرُّ به الغافلون في كلِّ لحظةٍ، فلا يقفون أمام خوارقِهِ وآياتِه، ويمرُّ به المطموسون، فلا تتفتَّحُ عيونُهم على عجائبِهِ وبدائعِه..، وها هو ذا النسق القرآنيُّ العجيبُ يرتادُ بنا هذا الوجودَ، كأنما نهبط إليه اللحظة، فيقفنا أمامَ معالِمِه العجيبةِ، ويفتحُ أعينَنا على مشاهده الباهرةِ، ويثيرُ تطلعنا إلى بدائعِهِ التي يمرُّ علها الغافلونَ غافلين!

ها هو ذا يقِفُنا أمامَ الخارقةِ المعجزةِ التي تقعُ في كلِّ لحظةٍ مِنَ الليل والنهار..، خارقةُ انبثاقِ الحياة النابضةِ من هذا الموتِ الهامدِ، لا ندري كيفَ انبثقتْ، ولا ندري مَنْ أينَ جاءتَ - إلا أنها جاءت من عندِ الله، وانبثقتْ بقدرٍ مِنَ الله، لا يقدرُ بشرٌ على إدراكِ كُنْهِها بَلْهَ ابتداعِها!

وها هو ذا يقفُ بنا أمامَ دورة الفلك العجيبةِ..، الدورةُ الهائلة الدائبةُ الدقيقةُ..، وهي خارقةٌ لا يعدلها شيء مما يطلبه الناسُ من الخوارقِ..، وهي تتم في كل يومٍ وليلةٍ، بل تتم في كل ثانيةٍ ولحظةٍ..

وها هو ذا يقف بنا أمام نشأةِ الحياةِ البشرية...، من نفس واحدة، وأمام تكاثرها بتلك الطريقة. وهاهو ذا يَقِفُ بنا أمام نشأة الحياةِ في النبات..، وأمامَ مشاهدِ الأمطارِ الهاطلةِ، والزروع الناميةِ، والثمار اليانعةِ، وهي حشدٌ من الحيويات والمشاهدِ، ومجالٌ للتأمل والزيادة، لو نشاهدُها بالحسِّ المتوفز والقلب المتفتح.

وها هو ذا الوجود كلُّه، جديداً كأنما نراه أوّلَ مرةٍ، حياً يعاطِفُنا ونعاطِفُه، متحركاً تدبُّ الحركةُ في أوصالِهِ، عجيباً يَشْدَهُ الحواسَ والمشاعرَ، ناطقاً بذاتِه عن خالقِهِ، دالاً بآياتِهِ على تفرُّدِهِ وقدرته..

وعندئذ يبدو الشركُ بالله -والسياقُ يواجه الشركَ والمشركين بهذا الاستعراض- غريباً غريباً على فطرة هذا الوجودِ وطبيعته، وشائهاً شائهاً في ضمير مَنْ يشاهد هذا الوجودَ الحافلَ بدلائلِ الهدى ويتأمله. وتسقط حجةُ الشركِ والمشركين، في مواجهةِ هذا الإيمانِ الغامرِ في مجالي الوجودِ العجيب...» [في ظلال القرآن: ٧/ ١١٥٢-١١٥٣].

ثانيا: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:٩٥-١٠٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ -سبحانه- فالقُ الحبِّ والنوى:

أخبرنا اللهُ -تعالى- عن نفسه أنه ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأنعام:٩٥] أعلمنا -عز وجل- أنَّه يَفْلِقُ حَبَّ القمحِ والشعير والذرة ونحوها، ويفلِقُ نوى التَّمْر والخوخِ والدراقِ ونحوها عندما تندثرُ في التراب، وينزلُ عليها الماءُ، فيخرُجُ من الحبوبِ النباتُ، ومن النَّوى الأشجارُ، وقد فسَّر اللهُ تعالى فَلْقَهُ للحبِّ والنَّوى بقوله: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ﴾ فمن الحبِّ والنوى الميتِ تَخْرُجُ النبْتَةُ الحيَّة والشجرةُ الحيةِ، ومن النبتة الحية، والشجرة الحية تخرجُ الحبوبُ والثمار الصلدة القاسيةُ، ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ هذا هو ربُّنا -تبارك وتعالى- الذي يستحقُّ أنْ يُعْبَد دونَ غيره، فكيف تُصْرَفونَ عن الحقِّ بعد هذا البيانِ.

وفي هذا الذي أخبرنا به سبحانَه عن نفسِهِ في هذه الآية حُجَّة على المكذبين بالبعث والنشور، فالقادرُ على أن يفعل هذا بالنبات، قادرٌ على إحياءِ الناسِ بعد موتهم.

٢- اللهُ سبحانَهُ فالقُ الإصباحِ:

عرَّفنا ربُّنا عز وجل على ثلاثةٍ من أفعالِهِ تدُلُّنا عليه سبحانه: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ﴾ [الأنعام:٩٦].

أخْبَرنا ربُّنا عز وجلَّ أنه: «يَفْلِقُ ظلامَ الليلِ عن غُرَّةِ الصباحِ، فيُضِيءُ الوجودَ، ويستنيرُ الأُفُقُ، ويَضمَحِلُّ الظلامُ ويذْهَبُ الليلُ بسوادِهِ وظلامِ رُواقِهِ، ويجيءُ النهارُ بضيائِه وإشراقه» [ابن كثير: ٣/ ٦١].

وقد بيَّنَ سيدُ قطبٍ رحمه الله تعالى العلاقةَ بين فَلْقِ الله الإصباحَ وفلقِهِ الحبِّ والنوى، فقال: «وانفلاقُ الإصباح من الظلام حركةٌ تُشْبِهُ في شَكْلها انفلاقَ الحبّةِ والنواةِ، وانبثاقُ النُّورِ في تلكَ الحركةِ، كانبثاق البُرْعُم في هذه الحركة، وبينهما من مُشابه الحركة والحيوية والبهاءِ والجمال سماتٌ مشتركةٌ، ملحوظةٌ في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك.

وبيْنَ انفلاقِ الحبِّ والنوى وانفلاقِ الإصباحِ وسكون الليل صِلَةٌ أخرى، إنَّ الإصباحَ والإمساءِ، والحركةَ والسكونَ في هذا الكون أو في هذه الأرض ذاتُ علاقةٍ مباشرة بالنباتِ والحياة» [في ظلال القرآن: ٧/ ١١٥٧] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أي: جعل اللهُ الليلَ الذي يغشى الأرضَ بظلامِهِ ليسْكُنَ فيه الناسُ سكونَ راحةٍ، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [يونس:٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ﴾ أي: يجريان بحسابٍ مُقدَّرٍ مُقنَّنٍ، لا يتغيرُ، ولا يضطربُ، بل كلٌّ منهما له منازلُ يسْلكها في الصيفِ والشتاء، فيترتبُ على ذلك اختلافُ الليل والنهار طولاً وقصراً ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس:٤٠]. والحسبان جَمْعُ حسابٍ، مثلُ رُكْبانٍ وركاب وشُهْبان وشِهاب، وقوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام:٩٦] أي: هذا الذي ذكره سبحانه من فلْقِه الإصباحَ، وجعله الليلَ سكناً، وجعله الشمسَ والقمر حسباناً هو تقديرُ الله سبحانه الذي لا يُغالَبُ ولا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ، العليمُ بكلِّ شيءٍ، فلا يخفى عنه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء.

٣- جعل الله لنا النجوم لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر:

وأعلمنا الله -تعالى- أنه جَعَلَ لنا النجومَ لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٩٧] وهذا مما امْتَنَّ اللهُ به علينا في خَلْقِهِ النجومَ لنا، فسالكوا القفارِ وراكبو البحار يهْتَدون بها في ظلمة الليل.

وخَتَمَ سبحانه الآية بقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام:٩٧] أي: قد بيَّنا لكم الآيات التي سبق ذِكْرها، لنعْقِل، ونعرفَ الحقَّ، ونتجنبَ الباطلَ.

٤- أنشأ اللهُ تعالى البَشَرَ كلّهم من نفسٍ واحدة:

امتنَّ اللهُ علينا نحنُ البشر بخلقنا من نفسٍ واحدة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام:٩٨] والنفسُ الواحدةُ التي يعود البشرُ كلُّهم إليها هي آدمُ ﷺ، فمنه خَلَقَ اللهُ زوْجَهُ حواءُ، وخَلَقَ بقيةَ البشر من ذكرٍ وأنثى، إلا عيسى ابنَ مريمَ، فإنه خُلقَ من أُنثى هي أُمُّه مريمُ من غير أبٍ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١].

وقوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام:٩٨] ذهب كثيرٌ من أئمة التفسير كابن مسعودٍ، وابن عباسٍ، وأبي عبدالرحمن السلميِّ، وقيس بن أبي حازمٍ، ومجاهدٍ، وعطاءٍ، وإبراهيمَ النخعيِّ، والضَّحاكِ، وقتادةَ، والسُّدِيِّ، وعطاءٍ الخراسانيِّ إلى أنَّ المستقرَّ: الأرحام، والمستودَعُ: أصلابُ الرجالِ [ابن كثير: ٣/ ٦٢].

وقد تقدَّم العلمُ اليوم واكتشفَ أنَّ الإنسانَ يوجدُ من الخليةِ الملقحةِ، يقول سيدُ قطبٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ : «إنَّها اللَّمْسةُ المباشرة في هذه المرة..، اللمسةُ في ذات النفس البشرية، النفسُ البشريةُ الواحدةُ. تبدأ الحياةُ فيها خطوتَها الأولى للتكاثر بالخليةِ الملقحةِ، فنفسٌ هي مستودعٌ لهذه الخلية في صلبِ الرجل، ونفسٌ هي مستقرٌّ لها في رحم الأنثى..، ثم تأخذُ الحياةُ في النمو والانتشارِ، فإذا أجناس وألوان؛ وإذا شياتٌ ولغاتٌ؛ وإذا شعوبٌ وقبائل؛ وإذا النماذج التي لا تُحْصَى، والأنماطُ التي ما تزالُ تتنوع ما دامت الحياة.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ ... فالفقهُ هنا ضروريٌّ لإدراكِ صنعِ الله في هذه النفس الواحدة، التي تنبثقُ منها النماذجُ والأنماطُ، ولإدراكِ الموافقاتِ العجيبةِ الكامنة وراءَ اتخاذ التلاقح وسيلة للإكثارِ، وتوفير الأعداد المناسبة دائماً من الذكورِ والإناثِ -في عالم

الإنسان- لتتم عمليةُ التزاوجِ التي قدَّرَ اللهُ أن تكون هي وسيلةُ الإخصاب والإكثارِ، ووسيلة تنشئة الأطفالِ في ظروفٍ تحفظ (إنسانيتهم) وتجعلهم أكفاءَ للحياةِ (الإنسانية)» [في ظلال القرآن: ٧/ ١١٥٩ بشيء من الاختصار].

٥- إنزالُ الله -تعالى- الماءَ من السماء وإنباتُ النبات به:

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن إنزالِهِ الماءَ من السماءِ، وما يفعلُهُ هذا الماءُ عندما ترتوي به الأرضُ، فلو أنك مررت بأرضٍ يابسةٍ جرْداءَ، جادها الغيثُ فرَواها، ثم مررْتَ بها مرة أخرى بعد فترة ليست بالطويلة فإنك ترى عجباً، ترى تِلْكَ الأرضَ الجَرْداء أصبحتْ مُعْشَوْشِبَةً خضراءَ، تراها تُنبتُ، وتُزْهِر، وتخرِجُ حبَّها، وثَمَرَها، ومَنْ يُحسنُ النظر إلى آثار المياه، ويُحسنُ الوصفَ، يرينا منظراً رائعاً بديعاً، ولا أحد أحسن وصفاً من وصف ربِّ العباد، ومن تأمَّلَ في وصْفِهِ لآثار ما صنعَ المليكُ، يرى صورةً مُبْهجَةٍ ذات زينةٍ ورونْقٍ، يقولُ ربُّنا الحكيمُ العليم: هو الذي أنْزَلَ من السماءِ ماءً، وكُلُّ ما عَلاكَ فهو سماءٌ، ومن ذلك الغمامُ الذي ينزلُ منه الماءُ، فأخْرَجَ الله سبحانه به نبات كل شيءٍ، أي: أخْرَجَ به جميعَ أنواع النبات، فلو أنك نظرتَ في القطعة الواحدة من الأرض التي غَذاها الغيثُ، فإنك تجد فيها ما لا يحصى من النبات على شتى أنواعِهِ وألوانِهِ، وأخرجَ سبحانه من ذلك النبات خَضِراً، عبَّر عن الخُضْرةِ التي اتَّصَفَ بها النباتُ بقوله: ﴿خَضِرًا﴾، وخضراً أرقُّ وألطفُ من كلمة: أخضر.

وأخبرنا العليمُ الخبيرُ سبحانَه أنه أخرجَ من ذلك النبات الخَضِر حَبّاً متراكباً، وهذا الحبُّ المتراكبُ تراه فيما يُنْبِتُه القمحُ والشعيرُ والذرةُ ونحوها من السنابل، ويخرجُ من النخيل من طَلْعِها قِنْوانٌ دانية، والطلعُ أول ما يرى من عِذْق النخلة، الواحدةُ طلْعَةٌ، ويُخرجُ لنا ربُّنا من طلع النخل قِنْوانٌ دانية، والقنوانُ العِذْقُ الذي يحملُ الثمر، والعِذْقُ في النخلة بمثابة القُطْفِ من العنب، وهذه القِنوانُ دانيةٌ، أي: قريبةُ المتناولِ، وعندما نقفُ ننظرُ إلى النخل وقد تدلَّتْ قطوفُه، وتهدَّلت، نراها كما صف ربُّنا: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

هذا الذي سبق ذِكْرُه مشهدٌ وصفه مليكنا سبحانه لأرض أنبتتِ النباتَ، ومشهد آخر يُريناه في قطعة أُخرى يتمثل في الجنات، وهي ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ والجناتُ البساتينُ، وهي بساتينٌ من أعنابٍ، وقد يكونُ الشجر زيتوناً أو رماناً، وما أنبته الله مِنَ النبات، وما أخْرَجَهُ من أشجارٍ قد يكونُ مشتبهاً، وقد يكون غير متشابهٍ، وقد يتشابه النباتُ، وقد تتشابه الأشجارُ، وقد يكونُ التشابهُ في الشجر، وقد يكون في الثمر، وقد يكون في الطَّعْمِ، وقد يختلفُ ذلك كله، فلا تشابُه فيه.

إن هذا الوصفَ الرائع المُبْهِجَ الممتِعَ يأْسِرُكَ، ويملكُ عليكَ نفسَكَ، ولذا دعانا ربُّنا إلى النظرِ إليه بأبصارنا، ننظر إلى ثماره من النخيل والأعنابِ والزيتونِ والرمانِ، وننظرُ إلى يَنْعِهِ، أي: إلى نُضْجِهِ، وكمالُ النظر وغايتُهُ أن يحصُلَ الاعتبارُ بما نراه ونشاهدُهُ، فإذا هو آياتٌ للمؤمنين، تدلُّهم على ربِّهم، وتهديهم إليه سبحانَهُ.

أعِدِ النظر في هذه الآيةِ التي حدَّثَتْنا عن إنزالِ الماء من السماء، وفِعْلِ المليكِ سبحانَهُ بالأرض التي ارتَوَتْ بالغيثِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام:٩٩].

٦- نَصَبَ المشركون الجنَّ شركاءَ للّه سبحانه:

عرَّفَنا اللهُ -سبحانه- فيما مضى من آياتِ هذا النصِّ بنفسه سبحانه، فحدثَّنا عن بديع صُنْعِهِ في هذا الكونِ الذي نعيشُ فيه، ومَنْ فقهَ عن ربِّه ما حدَّثنا اللهُ تعالى به عن نفسِهِ امتلأ قلبُهُ بالإيمان واليقينِ، ثم حدَّثنا ربُّنا عز وجل- عن شِرْكِ المشركينَ، وافتراءِ الظالمين، وإذا أنتَ أمْعَنْتَ النظَّرَ في افتراءِ المشركين وَجَدْتَهُ افتراءً ساقطاً كريهاً، إذ لا يجوزُ أنْ يجْعَلوا هذه الأندادَ شركاءَ لله تعالى، وهو الواحدُ فيما أخْبَرَنا أنه خلق هذا الكون، تنزَّه عما يصفه به المشركون ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام:١٠٠].

يقولُ ربُّنا الواحدُ الأحدُ سبحانه: إنَّ الكفار جَعَلُوا لله شركاءَ، وهؤلاء الشركاءُ هم من الجنِّ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ﴾ [الصافات:١٥٨] وقد كان العربُ في الجاهلية إذا نزلوا وادياً في سَفَرِهِمْ استعاذوا بزعيم ذلك الوادي من الجنِّ مِنْ سفهاءِ قومِهِ، فزادَ الجنُّ أهْلَ الجاهليةِ رَهَقاً ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن:٦].

وقد أخبرنا اللهُ -عز وجل- أنَّ كل عبادةٍ لغير الله فإنما هي بأمر الشيطانِ ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء:١١٧-١١٩]، وقال ربُّ العزة: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ

مِن دُونِي ﴾ [الكهف:٥٠] وقد أبْطَلَ ربُّ العزة دعْوى المشركين في جعل الجنِّ شركاء لرب العالمين بكلمةٍ واحدةٍ، فقد قال سبحانَه بعد حكاية قولهم: إنهم جعلوا لله شركاءَ الجن: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ والمخلوقُ لا يصلُحُ للعبادة.

وأخبرنا ربُّنا سبحانه وتعالى أن المشركين لم يكتفوا بجعل الجن شركاء له بل ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام:١٠٠] ومعنى: ﴿وَخَرَقُواْ﴾ اختَلَقوا وافْتَروا، فاليهود ادعوا أنَّ عزيراً ابنُ الله، والنصارى زعموا أنَّ المسيحَ ابنُ الله، وزعمَ العربُ أن الملائكةَ بناتُ الله.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾ أي: قالوا ما قالوا بغير حُجَّةٍ ولا دليلٍ ولا برهانٍ، وقد نزَّه الحقُّ نفسَهُ عما افتراه عليه المشركونَ بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾.

وقد ردَّ اللهُ تعالى على الذين خَرَقوا له بنينَ وبناتٍ بغير علمٍ بقوله سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾ [الأنعام:١٠١].

وقد ردَّ اللهُ تعالى على هؤلاء المفترين من أربعة أوجهٍ: الأول: أنه سبحانه هو الذي أبدع السمواتِ والأرض، أي: خلقهما على غير مثالٍ سابقٍ، فالجنُّ هم مما خلقه في السموات والأرض، والمخلوقُ لا يكون إلهاً. الثاني: أنه سبحانه ليس له صاحِبَةٌ، إذ هو واحدٌ أحَدٌ فردٌ صَمَدٌ، فكيف يكونُ له وَلَدٌ. الثالثُ: أنَّ اللهَ تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ، والجنُّ شيء، والرابع: أنَّ اللهَ بكل شيءٍ عليمٍ سبحانه، وقد حدَّثنا ربُّنا -عز وجل- أنَّه عَلِمَ أنَّ الجنَّ ليسوا شركاءَ لله تعالى.

٧- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

بعد أن بيَّنَ اللهُ لنا الآيات البينات والحجج الواضحات الدالة عليه سبحانه، قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣].

وأشار بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى ما حدَّثنا به عن نفسه من فَلْقِه الحبَّ والنوى، وإخْراجِهِ الحيَّ من الميت، والميتَ من الحيِّ، وفَلْقِهِ الإصباحِ، وجعْله الليل سكناً والشمس والقمر

حسباناً... إلى آخر ما تحدث به عن نفسِهِ سبحانه، أي: الله وحدهُ الذي فعل ذلك، وقد قرر سبحانه أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو المعبودُ الذي يستحقُّ العبادةَ وحده لا شريكَ له، وهو ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فهو وحده الخالقُ، وكلُّ شيءٍ غيره مخلوق، كالسماوات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، ومن ذلك ما عَبَدَهُ البشرُ من دون الله كالأصنامِ والأوثان والشمسِ والقمر والنجومِ والجبالِ والبحارِ، وهي كلُّها مخلوقةٌ مربوبةٌ، ولذلك يجبُ أن يُفرَدَ اللهُ وحده دون غيره بالعبادة ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾. وقد أخبرنا ربُّنا -سبحانه- ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ أي: حفيظٌ ورقيبٌ، يدبِّر كلَّ ما سواه، ويرزقُهُم ويَكْلَؤُهُم بالليلِ والنهار.

وأخبرنا ربُّنا عن نفسه سبحانَه أنه ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام:١٠٣] ذَهَبَ بعضُ المفسرين إلى أنَّ المرادَ بعدم إدراكِ الأبصارِ لله عدمُ قدرة العباد على رؤيته في الدنيا، وذهبَ المعتزلةُ إلى الاستدلالِ بالآية على عدم رؤْيةِ العباد لربِّهم لا في الدنيا ولا الآخرة، والصوابُ من القولِ أنَّ العبادَ يرونَ ربَّهم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] وقد جاءت الأحاديثُ الصحيحةُ كثيرةً طيبة مصرِّحةً برؤيةِ المؤمنين ربَّهم في الآخرة، وسنذكرها في سورة القيامة إن شاء الله تعالى. والصحيح أنَّ المرادَ بعدم إدراكِ أبصارِ العبدِ لربّهم عدمُ قدرتِهم على الإحاطة بالله سبحانه.

وعدمُ قدرة العباد على الإحاطة بما يرونه موجودٌ فيما يرونه من المخلوقات، فأبصارُنا ترى الأرض، ولا تستطيع الإحاطةَ بها، وترى السماءَ، ولا تستطيعُ الإحاطة بها، وترى البحرَ، ولا تستطيعُ الإحاطة بِهِ، وترى بعض الجبال العظيمة، ولا تستطيعُ الإحاطةَ بها، ولله المَثَلُ الأعلى، فالمؤمنون يرونه في الجنة، ولكنَّهم لا يستطيعون الإحاطةَ به.

أما الله تعالى فإنه يرى أبصارَ العبادِ، ويحيطُ بها، فهو -سبحانه خالقها، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك:١٤].

وقولُهُ تعالى في خاتمة الآية: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ أي: اللطيفُ الرفيقُ، وهو الذي يوصلُ إليك أَرَبَك في رفقٍ، والخبيرُ: العالمُ بكُنْهِ الشيء، المطلعُ على حقيقتهِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا هذه الآيات وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ وحده الذي تفردَ بفَلْقِ الحبِّ والنوى، فأخرج منهما الحياةَ المتمثلة بالنبات والأشجار، وهو الذي تفرَّدَ بفلقِ الإصباحِ، وجعلَ الليل سكناً، والشمسَ والقمر حسباناً، وجعل لنا النجومَ لنهتديَ بها في ظلمات البر والبحر، وهو الذي أنشأنا من نفسٍ واحدةٍ فمستقرٌّ ومستودَعٌ إلى آخر ما ذكر اللهُ تعالى أنه تفرَّد بخلقِهِ وإيجادِهِ.

٢- روْعةُ وصف الله تبارك وتعالى لآثارِ ما أنزله من ماء السماء، وما أخْرَجَهُ من النبات والجنات.

٣- الكفرةُ الظلمةُ الذين لا يقدرونَ اللهَ حقّ قدْرِهِ جعلوا لله شركاءَ الجنّ، وكذبوا على ربِّهم بزعمهم أنَّ له بنينَ وبناتٍ، سبحانهُ عما يصفونَ.

٤- اللهُ خالقُ السماواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينهما، وكلُّ ما ادَّعاه المشركون في الأرض أو السماءِ إلهاً فهو مخلوقٌ مربوبٌ لا يصلُحُ للألوهيةِ.

٥- نفى اللهُ تعالى الولدَ عن نفسِهِ، فاللهُ -سبحانه- لا صاحبةَ له، ولا مثيلَ له، ولا نظيرَ، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ، وهو بكل شيءٍ عليمٌ.

٦- اللهُ وحدَهُ هو المستحقُّ للعبادة دونَ سواه، فهو الخالقُ لكل شيءٍ، وقد أمَرَنا ربُّنا بإفرادِهِ بالعبادة.

٧- اللهُ وكيلٌ على كلِّ شيءٍ، أي: رقيبٌ على كل شيءٍ، وحفيظٌ على كل شيءٍ، وفي ذلك رَدٌّ على الذين يزعمون أنَّ الكونَ يعملُ من غيرِ أن يقومَ عليه أحَدٌ.

٨- ادَّعى المعتزلةُ أنَّ اللهَ لا يُرَى في الدنيا ولا في الآخرة، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ والصوابُ مِنَ القول: أنَّ المرادَ بالآية لا تحيطُ بِهِ الأبصارُ، وليس المرادُ أن المؤمنين لا يرونَهُ في الآخرة.

٩- الله تعالى لطيفٌ بعبادِهِ يوصلُ إليهم أغراضَهُمْ بلطفٍ، وهم لا يشعرونَ.

النص السابع عشر من سورة الأنعام

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾

أولاً: تقديمٌ

أَخْبَرَنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنه قد جاءَنا بصائر مِنْ عندِ الله، وأعلمنا ربُّنا أنه يُصَرِّفُ الآياتِ كي يَفْقَهَ عنه عبادُه، وأمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ باتِّباعِ ما جاءَه من عنده، وأمَرَهُ بالإعراضِ عن المشركين، وعما جاءَه من عندهم، ونَهاهُ ونهى أصحابَه عن سَبِّ آلهةِ المشركين، حتى لا يسْتَثيروا المشركين، فيسبُّوا الله عدواً بغيرِ علم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١٠٤-١١٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أنزل اللهُ سبحانه علينا بصائرَ مِنْ عندَه:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه قد جاءَنا بصائرُ من عِنْدِهِ ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام:١٠٤]. والبصائرُ جمعُ بصيرةٍ، والبصيرةُ للقلبِ كالبصر للعينِ، والبصائرُ التي جاءَنا اللهُ تعالى بها في كتابِهِ العظيم الحِججُ والبيناتُ الدالةُ على الهدى، وهذه البصائرُ تَهْدِي العبادَ إلى ربِّهم، وتقيمُهُمْ على الصراطِ المستقيم، وتُدْخِلُهم الجَنَّةَ، فمن أَخَذَ بها اهتدى، ومَنْ ضَلَّ عنها غَوى ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٠٤] وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء:١٥]. فالاهتداءُ بهذه الحججِ والبيناتِ مرهونٌ بنفس الناظرِ، ولا يتعدَّاه إلى غيره.

وقولُهُ تعالى في خاتمة الآية: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤﴾ [الأنعام:١٠٤] أيْ: لستُ حافظاً لأعمالكم، بل أنا مبلِّغٌ لكم، والله هو الذي يحْفظُ أعمالَكُم، ويُحْفيها عليكم، ويحاسبكم عليها.

وقولُ ربِّ العزَّة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥﴾ [الأنعام:١٠٥]. أي: مَثَلُ ما صرَّفْنا هذه الآيات فيما مضى من هذه السورة، نُصَرِّف الآيات في غيرها من السورِ، فالقرآنُ فيه التهديدُ والوعيدُ والوعظُ والتنبيهُ، والعَرْضُ والبيانُ والتفسيرُ، وإقامةُ البراهينِ العقلية، وإفحام الخصومِ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ [الكهف:٥٤].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ هذه اللامُ في قولِهِ: ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ لامُ العاقبةِ أو لامُ الصيرورةِ، أي: لتكونَ عاقبتُهُمْ أنْ يقولوا: ﴿دَرَسۡتَ﴾ أي: تعلَمتَ وقرأتَ، أي: هناكَ مَنْ علَّمك ودرَّسَكَ من أهلِ الكتابِ أو غيرهم، كما قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ [الفرقان:٤].

وصَدَقَ اللهُ ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ [الفرقان:٤] فنبينا محمدٌ ﷺ هو النبيُّ العربيُّ الأُميُّ، الذي لم يقرأْ من كتابٍ، ولم يَخُطَّ بالقلم، ولم يأخذ علمَهُ من أحدٍ، لا يهوديٍّ، ولا نصرانيّ، وإنْ قال سَفيهٌ من قومِهِ: إنَّه دَرَسَ على غيره، فإنَّ قوْمَه يعلمون أنَّ هذا القولَ قولٌ باطلٌ وزورٌ.

وقولُهُ سبحانه في خاتمةِ الآية: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥﴾ أي: لنبيِّنَ هذا القرآنَ، ونوضِّحَهُ لقومٍ يعلمون أنَّه الحقُّ، فيتبعون ما جاءَ به، والمرادُ بهؤلاءِ القومِ الذين آمنوا بهذا الدين، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ [فصلت:٤٤] وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

٢- أوجبَ اللهُ تعالى على المؤمنين أنْ يتَّبعُوا ما أُنزل إليهم من ربِّهم:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَه ﷺ أنْ يتَّبعَ ما أُنْزلَ إليه من ربِّه، فقد أنزلَ اللهُ إليه وحيه في كتابِهِ العظيمِ القرآنِ، وفي سُنَّتِهِ المطهَّرَةِ، فعرَّفه بنفسه وملائكتِهِ وكتبه ورسلِهِ واليومِ الآخرِ، وعرَّفه بالتكاليفِ التي كلَّفَه بها، وأمَرَه أنْ يأْخَذَ ما هَداه إليه من العلم والعمل، ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾ [الأنعام:١٠٦] وقولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي: لا أحد يستحقُّ العبادة إلا هو.

وأمرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يتَّبع ما جاءَه من ربِّه، وأمَرَهُ أن يُعْرِضَ عَنِ المشركين، وهذا الذي أمَرَ اللهُ -تعالى- بِهِ رسولَهُ ﷺ أمَرَ اللهُ به صحابَةَ رسولِهِ ﷺ وأُمَّتِهِ من بَعْدِهِ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٣٦].

وما أمَرَ اللهُ تعالى به رسولَهُ ﷺ، وصحابةَ رسولِهِ، والأمةَ الإسلامية مِنَ اتِّباعِ الوحي المنزلِ على رسولِنا ﷺ يدلُّ على خَطَأ الذين يبحثون عن الهدى عندَ الغربيين في أخْلاقِهم وعاداتِهم ودينهم، وعلينا أنْ نَذْكُرَ في هذا المقام قوْلَه عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

والأمْرُ باتباعِ الوحي المنزل من عندِ الله، يَدُلُّ على أنَّ اتباعَ ما شَرَعَهُ البشرُ شِرْكٌ، يوبِقُ صاحِبَهُ في النار، ومن ذلك سَنُّ القوانينِ الوضعيةِ، وتحكيمُها في المجتمعاتِ الإنسانيةِ.

٣- شِرْكُ المشركين بمشيئةِ ربِّ العالمين:

أخْبَرَنا ربُّنا -سبحانه- أنه لا يقع شيءٌ في هذا الكون إلا بإذْنِهِ ومشيئتِهِ، حتى شِرْكُ من أشْرَكَ به ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [الأنعام:١٠٧] فليس هناك خالِقَيْنِ أو خالِقِيْنَ، كما يدَّعي بعضُ الضالين أنَّ الله خَلَقَ الخيرَ، وأن آلهة أُخرى خَلَقَتْ الشرَ، فليسَ هناك إلا إلهُ واحدٌ سبحانه، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ، واللهُ أذنَ بوقوعِ الشِّرْكِ في عالمِ البشر لحكمة يعلمها سبحانه.

وإدراكُ هذه الحقيقة يصرفُ كثيراً من الهمِّ والغمِّ عن كثيرٍ مِنَ الدعاةِ الأخيار الذين يُؤْلمهم أنَّ لا يستجيبَ لدعوتهم بعضُ الآباء أو الأبناءِ أو الأقاربِ، فتضيقُ صدورُهُم، وتدمَعُ عيونُهُمْ، وتضطربُ نفوسُهُمْ، فيأتي هذا النصُّ وأمثالُهُ ليُعْلِمَ العبادَ أنَّ مشيئةَ الله ماضية في خَلْقِهِ، فليسَ كل من دُعي إلى الإسلامِ فإنه يُسْلم، ولو شاءَ اللهُ لآمنَ الناسُ كلُّهم جميعاً.

والمطلوبُ من الرسولِ ﷺ ومَنْ اتَّبعه أن يُبَلِّغوا دينَ الله عَزَّ وجلَّ للعالمين، ويقيموا الحجةَ على العبادِ، لم يجعلنا ربُّنا حافظين على خَلْقِهِ ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام:١٠٧] أيْ: ما جعلناكَ حافظاً يحفظ أعمالَهم وأقوالهم، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام:١٠٧] أي: وما أنت بموكَّلٍ على أرْزاقِهِمْ وشأْنهم، بل ذلك لربِّ العبادِ وَحْدَهُ سبحانَهُ.

٤- نهى ربّ العالمين عن سبِّ آلهةِ المشركين خشيةَ أنْ يسبَّ المشركون إله المسلمين:

نهى ربُّ العالمينَ -سبحانه- المؤمنين أنْ يَسُبُّوا آلهةَ المشركين خشيةَ أن يحْفِزَ هذا المشركين على سبِّ الله ربِّ العالمين ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١٠٨].

وعن ابن عباسٍ، أنه قال في هذه الآية: «قال المشركون: يا محمدُ، لَتَنْتَهِيَنَّ عن سبِّ آلهتنا، أو لَنْهُجَونَّ رَبَّك، فنهاهُمْ اللهُ أن يسُبُّوا أوْثانَهم، فيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغيرِ علمٍ» [الطبري: ٤/ ٣٣٠٣].

وروى الطبريُّ عن قتادةَ أنه قال في تفسير هذه الآية: «كان المسلمين يَسُبُّون أوثانَ المشركين، فيردُّونَ ذلك عليهم، فنهاهُم اللهُ تعالى أنْ يَسْتَسِبُّوا لربِّهم، فإنهم قومٌ جَهَلَةٌ لا علم لهم بالله» [المصدر السابق].

وقد نهى الرسولُ ﷺ الواحد منَّا أنْ يتسبَّبَ في سَبِّ والديه، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ : «إنَّ من أكْبرِ الكبائرِ أن يَلْعن الرجلُ والديه» قيلَ: يا رسولَ الله، وكيف يلعنُ الرجلُ والديه؟ قال: «يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجلِ، فيُسبُّ أباه، ويَسُبُّ أمَّه، فيسبُّ أمه» [البخاري: ٥٩٧٣. ومسلم: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ عدواً، أي: عُدْواناً وتجاوزاً عن الحقِّ وجهلاً منهم.

٥- تزيينُ الله تعالى لكلِّ أمةٍ عَمَلَهم:

علمنا ربُّنا -جلَّ وعلا- قاعدةً أجراها في عبادِهِ، وهي أنه زيَّن لكلِّ أُمَّةٍ عملهم ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨] أي: أنه زيَّنَ لكل جماعةٍ اجتمعوا على عملٍ من الأعمال عَمَلَهُمْ، سواءً أكانَ طاعةً لله أو معصيةً له، ومَنْ نَظَرَ في أحوالِ البشر عَلِم صِدْقَ ما يقولُه ربُّنا، فالغربيون اليومَ يفاخرونَ بما هم عليه من الحريةِ، ويَعُدُّونه حضارةً ومدنيةً، ويدْعُون غيرهم إلى اتباعِهِمْ، مَعَ أنَّ فيه مِنَ الفسْقِ والفجورِ، والظلمِ الشيءَ الكثير.

ثم أخبرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أعمالَ الأُممِ التي زُيِّنَتْ لأصحابِها قد تكونُ صالحةً، وقد تكونُ ظالمةً، وسيُحشَرُ العبادُ إلى الله في يوم القيامةِ، ويحاسِبُهم، ويُخْبِرُ كلَّ قومٍ يومَ القيامةِ بما كانوا يعملونه، ويجزيهم على ما عَمِلُوه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام:١٠٨].

٦- أقْسَمَ المشركونُ أعْظَمَ الأقْسامِ أنّه إن أنْزَلَ اللهُ إليهم آيةً ليؤمنن بها:

أخبرنا ربُّنا سبحانه أنَّ المشركين أقْسَموا بالله أقْساماً مغلظةً أنه إنْ أَنْزَلَ عليهم الآياتِ لَيُؤْمِنُنَّ برسولِهِ ﷺ ، ويتَّبِعونَ ما جاءِ به، فأمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يقولَ لهم: إنما مجيءُ الآياتُ من عندَ الله، إنْ شاءَ أنْ ينزلَها أنزلَها، وإنْ شاء أنْ يمنعَها مَنعَها، وقال لرسولِهِ ولأصحابِه:

وما يُدْريكُم أنّه إذا أنْزَلَ اللهُ الآيات لا يؤمنون بها ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٩].

والمرادُ بقولِهِ: ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي: أقْسَموا بالله أعْظَمَ الأقسامِ وأشدَّها، وقد أنزل اللهُ تعالى الآيات المعجزات على الأمم من قبلنا، فكفروا بها، وكذَّبوا بها، كما قالَ تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء:٥٩]. ومع ذلك كلِّه فقد أنزلَ اللهُ تعالى على رسولِهِ الآية العظيمة، وهي القرآنُ، وأرى أهلَ مكة بعض الآياتِ العظيمة، وهي انشقاقُ القمر ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر:١].

٧- تقليبُ الله قلوبَ العبادِ لعدم إيمانِهِمْ بالقرآن أوّلَ مرَّة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يُقَلِّبُ أفْئدَةَ العبادِ وأبْصارَهُمْ كما لم يؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام:١١٠]، أي: نُقلِّبُ قلوبَهم، فنُزيغها عن الإيمانِ، وأبصارهم عن رؤيةِ الحقِّ، كما لم يؤمنوا بالقرآن عندما أُنْزلَ عليهم أوَّل مرةٍ.

والتَّقْليبُ: تحويلُ الشيءِ من وجْهٍ إلى وجْهٍ، فكان الواجبُ عليهم إذا سَمِعوا الآياتِ القرآنية المنزلة على رسول الله ﷺ أوْ شاهدوا الآيات الكونية كانشقاقِ القمرِ أنْ يُسارِعُوا إلى الإيمانِ بها مِنْ غير تأخيرٍ، فلمّا كَذَّبُوا بها بعد سماعها أو مشاهدتِها، وتحقُّقِهِمْ صِدْقَها، قلَّبَ اللهُ تعالى قلُوبَهُمْ وأبْصارَهمْ، فحالَ بينهم وبين الإيمانِ لعدم إيمانِهم بها أوَّل مرةٍ، كما قال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال:٢٤]، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنَّ قلوب العباد بين إصْبَعَيْنِ مِنْ أصابع الرحمنِ يقَلِّبُها كيف يشاءُ، وكان رسولُ الله ﷺ يدعو ربَّه أنْ يُصَرِّفَ قَلْبَهُ على طاعةِ الله.

عن عبدالله بن عمرو بن العاصِ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ قلوبَ بني آدم كلَّها بين أصْبَعَيْنِ من أصابعِ الرحمن، كَقَلْبٍ واحدٍ، يُصَرِّفُهُ حيث يشاءُ» ثم قالَ رسولُ الله ﷺ: «اللهم مُصَرِّفَ القلوبِ، صَرِّفْ قلوبَنا على طاعَتِك» [مسلم: ٢٦٥٤].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام:١١٠]، أي: نَتْرُكُهُمْ في كُفْرِهِمْ. يتردَّدُون ويَلْعَبُونَ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - أَنْزَلَ اللهُ تعالى على رسولِهِ ﷺ بصائرَ، وهي الآيات المسطورَةُ في القرآنِ، والآياتُ الكونيةُ، فمن نَظَرَ فيها نَظَرَ مُعْتَبِرٍ اهتدى، وإلاَّ ضَلَّ وغَوَى.

٢ - بيَّنَ اللهُ تعالى في كتابهِ القرآنِ الحقَّ بألوانٍ متعدِّدَةٍ من البيانِ، فكانت العاقبةُ أنَّ قوماً زعموا أنَّه ﷺ دَرَسَ هذا العلمَ على غيْرِه، وآخرون عَلِمُوه واهتدَوْا به.

٣ - يجبُ على المؤمنين أنْ يقْتَصِرُوا على هَدْيِ ربِّ العالمين المنزلِ على رسولنا محمدٍ ﷺ، ولا يجوزُ الاهتداءُ بهَدْيِ المشركين الضالين.

٤ - اللهُ -تعالى- هو المعبودُ الحقُّ الذي لا يجوزُ عبادَةُ غيره.

٥ - كلُّ ما يقعُ في الكون حتى الكفر والشركِ، فهو بتقديرٍ من ربِ العبادِ، ومَنْ زَعَمَ غيرَ ذلك، فقد أقَرَّ بوجود أربابٍ غير الله تَخْلُقُ وتوجِدُ.

٦ - يجبُ على الداعيةِ أنْ يقيمَ الحجَّةَ على العبادِ بإبلاغهم الحقَّ الذي عَلِمه مِنْ دينِ الله تعالى، أما إحصاءُ أفعالِ العبادِ فهو إلى الله ربِ العالمين.

٧ - لا يجوز أن يَسُبَّ المسلمُ آلهةَ المشركين، حتى لا يتخذَ المشركون ذلك ذريعةً إلى سبِّ الله عَدْواً بغير علمٍ.

٨ - طبع اللهُ تعالى البشر مُؤْمِنَهُمْ وكافرهم على الإعجابِ بأعمالهم التي يعملونَها.

٩ - طَلَبَ المشركونَ أنْ يُنْزِلَ اللهُ عليهم آيةً تَدُلُّ على صِدْقِ رسولِهِ، وأقْسَموا أغْلَظ الأيمانِ على أنَّهم سيُؤْمنون إنْ أُنزلتْ عليهم، فأمر اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لهم: إنَّ الآياتِ عند الله تعالى، وإنَّ الآياتِ قد تَنْزِلُ ولا يؤمنون بها.

١٠ - الذينَ يُنْزِلُ اللهُ تعالى إليهم الآياتِ، ثم يعْرِفونَ صِدْقَها، ولا يؤمنونَ بها، يحولُ اللهُ بينهم وبينَ الإيمانِ كما لم يؤمنوا بها عند نزولها أول مرة.

النص القرآني الثامن عشر من سورة الأنعام
مجيءُ الرسلِ بالآياتِ المعجزاتِ لا يدخلُ الإيمانَ القلوبَ دائماً

أولاً: تقديم

أخبرنا اللهُ تعالى في آيات هذا النص أنَّ إنزالَه الآياتِ المعجزاتِ على رسوله لا يهدي إلى الإيمان دائماً، وواسى ربُّنا رسولَه ﷺ بأنه كما جَعَلَ له أعداءً جعل لكلِّ نبيٍّ بعثَه أعداءً شياطينَ الإنسِ والجنِ، وأوحى اللهُ تعالى إلى رسوله ﷺ، ناهياً إياه عن اتخاذ حَكَماً غير كتابِ الله تعالى، وبيَّن سبحانَه أنَّ الذين آتاهم الكتابَ من اليهود والنصارى يعلمون أنَّ القرآنَ منزلٌ من عند الله حقاً، وأعلمنا ربُّنا أنَ القرآنَ كُلُّه صِدْقٌ لا كذبَ فيه، وعدلٌ لا ظلمَ فيه، فعلى عبادِ الله الاحتكام إليه، والمصير إليه، بعيداً عن أهواء البشر التي تحكم أكثر أهل الأرض.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الأنعام:١١١-١١٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنزالُ الله تعالى الآيات على المشركين لا يهدي دائماً إلى الإيمان:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية التي قبلَ الآية السابقة أنَّ المشركين ﴿أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ﴾ [الأنعام:١٠٩] وأخبرنا ربُّنا في هذه الآية أنه لو أنزل عليهم الآيات العِظامِ ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاءَ اللهُ ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ

﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام:١١١].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه لو أتاهم بجميع ما اقترحوه من الآيات، ومن ذلك إنزالُ الملائكةِ عليهم، فيرونهم عياناً، ويسمعون كلامَهم، ومن ذلك إحياءُ الله -تعالى- الموتى حتى يكلموهم، وحَشْرُ الدوابِّ والنباتِ والجمادِ فكَلموهم قُبُلاً، أيْ: عياناً ومجاهرةً، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاءَ اللهُ إيمانَهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام:١١١] أي: ولكنَّ أكثر المشركين يجهلون أنَّ الإيمانَ والكفرَ ليس بأيديهم، ولكنَّه بيدِ الله عزَّ وجلّ، فلا يؤمن إلا من شاءَ اللهُ تعالى هدايتَهُ وتوفيقَهُ إلى الإيمان، ولذلك قال ربّ العزةِ في الآية السابقة: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام:١٠٩].

وقد أرسل الله تعالى صالحاً بآيةٍ عظيمةٍ مبصرةٍ هي ناقةُ الله، فما آمنَ كثيرٌ من قومِهِ، وأرسلَ موسى بالعصا التي تتحول إلى ثعبانٍ مبين، فما آمن فرعونُ وملؤُه، وأرسلَ عيسى ﷺ بآيات كثيرةٍ باهرةٍ، فكفر كثيرٌ من الذين أرسل إليهم.

٢- سُنَّةُ الله -تعالى- في خلقه أنه جعل لكلِّ نبيٍّ عدواً شياطين الإنسان والجنِّ:

قال اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ مواسياً له فيما عَرَضَ له في مواجهة أعدائِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام:١١٢].

أيْ كما جعلنا لك أعداءً يواجهونَك ويجادلونَك جعلنا لكل نبيٍّ بعثناه من قبلك عدوّاً، وقد بيّن الله تعالى أنَّ هذا العدوَّ هم شياطينُ الإنس والجنِّ يوحى بعضهم إلى بعض زخرفَ القولِ غروراً، قال البغوي: «قالَ قتادةُ ومجاهدٌ والحسنُ: إنَّ من الإنسِ شياطينَ كما أنَّ من الجنِّ شياطينَ، والشيطانُ العاتي المتمرِّد من كلِّ شيءٍ، وقال مالك بن دينار: إنَّ شياطينَ الإنسِ أشدُّ عليَّ من شياطينِ الجنِّ، وذلك أنِّي إذا تعوذتُ بالله ذهب عَنِّيَ شيطانُ الجِنِّ، وشيطانُ الإنْسِ يجيئني، فيُجرُّني إلى المعاصي عياناً» [تفسير البغوي: ٣/ ١٧٩، ١٨٠]. وروى عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحَدٍ إلاَّ وقد وُكِّلَ به قرينُهُ من الجنِّ» قالوا: وإيَّاك يا رسول الله، قال: «وإيَّاي، إلاّ أنَّ اللهَ أعانني عليه فأسْلَمَ، فلا يأمرني إلا بخير» [مسلم: ٢٨١٤].

وعن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ خَرَجَ من عندها ليلاً، قالت: فغِرْتُ عليه، قال: فجاءَ فرأى ما أصنع، فقال: ما لكَ يا عائشةُ، أغِرْتِ؟ فقلت: وما لي لا يغارُ مثلي على مِثْلِكَ؟ فقال

رسول الله ﷺ: «أَقَدْ جاءَكَ شيطانُكِ؟» قالت: يا رسول الله، أوَمَعِيَ شيطانٌ؟ قال: «نعم». قلت: ومع كلِّ إنسانٍ؟ قال: «نعم». قلت: ومعكَ يا رسولَ الله؟ قال: «نعم، ولكنَّ ربي أعانني عليه حتى أَسْلَمَ» [مسلم: ٢٨١٥].

وأَوْرَدَ ابنُ كثيرٍ الحديثَ الذي رواه عبدالرزاق أنَّ الرسولَ ﷺ قال لأبي ذرٍّ: «تعوَّذْ بالله من شياطين الإنسِ والجنِّ» فقال: أوَ إنَّ مِن الإنس لشياطين؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» وأَوْرَدَ ابن كثير أربعةَ أسانيد أخرى لهذا الحديث، كلُّ واحد منها فيه ضَعْفٌ، ثم قال: «هذه طرق لهذا الحديث، ومجموعُها يفيدُ قوتَه وصحَّتَه» [ابن كثير: ٣/ ٧٤].

وهذه الأحاديث تفيدُ بأنَّ من الجنِّ شياطين، ومن الإنس شياطين، والشيطانُ في لغة العرب: «العاتي المتمرِّدُ من كلِّ شيء» أي سواءً أكان جنياً أو إنساناً، أو حيواناً، وقد جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الكلبُ الأسودُ شيطانٌ» [مسلم: ٥١٠].

وقوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ والإيحاءُ: الإعلامُ الخفيُّ: ذَكَرَ ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ بعضَ الشياطينِ يوحي إلى بعضٍ زخرفَ القولِ غروراً، أي: قولاً مزيناً بالزخرف، سماه زخرفاً، وهو باطل، لأن صاحبه يزخرفه، ويزينه ما استطاع، ثم يلقيه إلى سمع المغرور، فيغترَّ به، وقوله: ﴿غُرُورًا﴾ أي: قولاً باطلاً.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: لو شاءَ اللهُ تعالى لَمَنَعَ الشياطينَ من تزيين الباطلِ وتزويقِهِ، والإيحاءِ به إلى غيرهم، ولكنَّ اللهَ يمتحن ما يعلم أنَّه الأبلغُ في الحكمةِ، والأجزلُ في الثوابَ، والأصلحُ للعباد.

٣- تهديدُ الذين تميلُ قلوبُهُمْ إلى ما توحي به الشياطينُ من زخرفِ القول:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ قلوبَ الذين لا يؤمنون بالآخرة، تَصْغَى إلى القولِ المزخرفِ الذي توحي به الشياطينُ، ويرْضوه، ويقترفوا ما هم مقترفون، قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام:١١٣].

ومعنى تصْغَى: تميلُ، تقول: أصْغَيْت الإناء: أَمَلْتُهُ، وأصْلُهُ الميلُ إلى الشيءِ لغَرَضٍ من الأغراضِ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤] وقوله: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ أي: تتقبلُهُ قلوبُهُمْ، فإنَّ مَنْ مالَ قلبُهُ إلى الشيءِ، فإنه يقبله، ويرضاه، وقوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: ليعملوا من الذنوب ما هم عاملون، وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ لهؤلاءِ، فإنهم محاسبون مجزِيُّونَ معاقبون.

٤- القرآن هو الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه:

يبدو أنَّ المشركينَ كانوا قد طلبوا من الرسولِ ﷺ أنْ يجعل بيْنَه وبينهم حكماً، يُحكِّمونَهُ فيما شَجَرَ بينه وبينهم، فأمره الله أن يقول لهم: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ ﴾ [الأنعام:١١٤] أمَرَهُ أنْ يقولَ لهم: أفغير الله أطلب لكم حكماً، وهو الذي كفاكم مؤونةَ المسألة في الآيات المعجزات بما أنزله إليكم من الكتاب مُفصَّلاً، أي: مُبيَّناً، وهذا يدلُّ على أنَّ كتابَ الله هو الحَكَمُ بين الناس، وفي ذلك يقول ربُّ العزة: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الشورى:١٠]، وقال: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥].

وذكر الماورديُّ أنَّ الفَرْق بين الحَكَم والحاكم: «أنّ الحَكَمَ هو الذي يكون أهلاً للحُكْمِ، فلا يَحْكُم إلا بحقٍّ، والحاكمُ قد يكونُ من غيرِ أهله، فيحكم بغير حَقٍّ، فكان الحَكَمُ أَبْلَغُ في المدح من حاكم» [تفسير الماوردي: ١/ ٥٥٦].

وكوْن القرآن نزل مُفصَّلاً يعني أنَّه مبينٌ غايةَ البيان، أي: على وجه التفصيل، وهذا يدلُّ على بطلان قولِ الذين زعموا أنَّ فيه معانٍ لا تفهمُ، ولا يعلمُ المرادُ منها، ويجيزون أنْ تعارضه عقولُ الرجال.

٥- اليهودُ والنصارى يعلمون في قرارة قلوبهم أنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ من عند الله:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ علماءَ اليهودِ والنصارى يعلمون في قرارةِ نفوسِهِمْ أنَّ القرآنَ منزلٌ من عندِ الله بالحقِّ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأنعام:١١٤].

وهذا العلم الذي امتلأتْ به قلوبُ اليهودِ والنصارى جاءَهم من البشاراتِ التي تَزْخَرُ بها التوراةُ والإنجيل، فقد تحدَّثَتْ عن رسولنا وكتابنا وقبلتنا، وتحدَّثت عن ديننا، وعن الأمَّة الإسلامية، وقوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ أي: من الشاكين.

٦- أتَمَّ اللهُ تعالى كلماتِ كتابِهِ صِدْقاً وعَدْلاً:

كلماتُ الله -تعالى- التي أنزلها في كتابه تامَّةٌ، لا يعْرُوها شيءٌ من النَّقْصِ والقصورِ بحال من الأحوال، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام:١١٥].

وقوله: ﴿صِدۡقٗا﴾ أي: في أخباره، فلا كذبَ فيه، و﴿وَعَدۡلٗا﴾ أي: في أحكامه، فلا ظُلْمَ في تلك الأحكام، وقوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ أي: لا رادَّ لقضائِه، ولا مُغَيِّرَ لحكمه، ولا مخلف لوَعْدِه.

٧- تحذيرُ الله رسولَه ﷺ من متابعةِ الغالبيةِ العظمى من الناس:

أَعْلَمَ اللهُ -تعالى- نَبِيَّهُ محمداً ﷺ أنَّه إن يطعْ أكثر من في الأرض يضلُّونَهُ عن سبيل الله، وسبيلُ الله: الإسلامُ ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ [الأنعام:١١٦] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٧١﴾ [الصافات:٧١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف:١٠٣].

واتِّباعُهُم الظنّ يكون في ظَنِّهِم أنَّ آباءَهم على حقٍّ، والمراد بـ ﴿يَخۡرُصُونَ﴾ يكذبون على الله، فنسبتهم إليه الولد، وادعاؤُهم أنَّ له شركاءَ، والخَرْصُ: الحَزْرُ والتَّخْمينُ، وقد بيَّن الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧﴾ [الأنعام:١١٧] أنَّه أعْلَمُ من كلِّ أحدٍ بالذي يضلُّ عن دينه، وأعلمُ بالمهتدين، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يتعالم على الله في ذلك، فيحدِّدَ الفجارَ والأخيارَ بقولٍ من عنده بعيداً عما بيَّنه الله وقرره.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ تعالى قادرٌ على إنزالِ الآيات المعجزاتِ كإنزالِ الملائكةِ وتكليم الموتى للناس، ولكنَّ الآيات لا تدخل الإيمان في القلوب دائماً إلا أن يشاء الله.

٢- سُنَّةُ الله التي مضت في أنبيائه أنَّه جعل لكلِّ نبيٍّ بعثه عدوّاً من شياطين الإنسِ والجنِّ.

٣- شياطينُ الإنسِ والجنِّ متعاونون فيما بينهم على الشرِّ، يوحي بعضهم إلى بعض زخرفَ القولِ غروراً.

٤- تميلُ قلوبُ الكفارِ الذين لا يؤمنون بالآخرة إلى زخرفِ القولِ الذي تفتريه شياطينُ الإنس والجنِّ، وترضاه.

٥- لا يجوز أن نحتكم إلى غير الله وغير شرعه الذي أنزله على رسوله وهو القرآن، وهو كتابٌ مُفصَّل مبينٌ، صالحٌ لأنْ نحتكمُ إليه فيما يثور بيننا من نزاع وخلاف، ومثل ذلك سنَّته الصحيحة.

٦- علماءُ أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون أنَّ القرآنَ حقٌّ منزلٌ من عند الله، فقد أخبرهم الله عنه في التوراة والإنجيل، ولا يزالُ هذان الكتابان يزخران بهذه البشارات.

٧- القرآنُ كاملٌ لا يَعْرُوْهُ نقصٌ بحال من الأحوال، أخْبارُه صِدْقٌ كُلُّها، وأحكامهُ عَدْلٌ كلُّها، وقد أعطاه اللهُ خاصيَّةً في الحفظ، فلا يستطيع أحدٌ تبديلَه ولا تغييرَهُ.

٨- لا يجوز اللجوءُ إلى رأي الغالبية من البشر، فأكثر الناس ضالُّون، تقوم أحكامهم على الظنِّ والتخمين، واللهُ وحده العالمُ بالضلال والهدى.

النص القرآني التاسع عشر من سورة الأنعام
الأكلُ مما ذكر اسمُ الله عليه وما لم يذكر اسمُ الله عليه

أولاً: تقديم

أَمَرَ اللهُ -تعالى- عبادَه أنْ يأْكلوا مما ذكر اسمُ الله عليه من الذبائح، ويبدو أنَّ بعضَ أهلَ الجاهلية كانوا لا يأكلون مما ذكرَ اسمُ الله تعالى عليه، ثم وجَّهَ اللهُ تعالى السؤالَ إلى هؤلاء الذين لا يأكلون مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه منكراً عليهم، خاصة وأنَّه فَصَّل لنا ما حَرَّم علينا، أي بينه أحسنَ البيان، ووضَّحه أعظم الإيضاح، وأمرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بترك الذنوب كلِّها الظاهرِ منها والمستور، ونهانا سبحانه أنْ نأكلَ مما لم يذكر اسمُ الله عليه، وأعلمنا أنَّ الأكلَ مما لم يذكر اسمُ الله عليه فِسْقٌ، أي خروج عن طاعة الله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام:١١٨-١٢١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إباحةُ الأكلِ من الذبائح التي ذبحت باسم الله تعالى:

أَمَرَ اللهُ عبادَهُ المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح التي ذُكِرَ اسمُ الله تعالى عليها حين ذبحها ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٨] ومفهومه أنَّه لا يباح أكلُ ما لم يذكر اسمُ الله عليه، وهذا صحيحٌ إن كان الذي لم يُذكَر اسمُ الله عليه ميتةً، أو ذُبح لما يعبدُ من دون الله، كالذي ذُبح للأصنام والأوثان والجنِّ ونحوها، فإنْ ذبحَ المسلمُ وترك التسميةَ عليها عَمْداً أوْ سهواً، ففي المسألة خلاف يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأنعام:١١٨] فيه تهييجٌ على الأكلِ مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه إذا كانوا مؤمنينِ بآياتِ الله.

٢- لومُ الذين لا يأكلون مما ذكر اسم الله عليه:

أباح اللهُ لعبادِهِ المؤمنين أن يأكلوا مما ذكر اسمُ الله عليه، ولام اللهُ في هذه الآية الذين يمتنعون عن الأكْلِ مما ذكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩]. والمعنى: أيّ شيءٍ يمنعكم من الأكل مما ذكر اسمُ الله عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)﴾ [الأنعام:١١٩] أعلمنا ربُّنا بعد أنْ أباحَ لنا ما ذُكِرَ اسمُ الله عليه، أنَّه فَصَّلَ القولَ في المحرمات التي لا يجوز لنا أكْلُها إلاّ ما اضْطُرِرْنا إليه، وقد بيَّنَ لنا هذا في غير آيةٍ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة:٣] ثم قال في خاتمة الآية: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)﴾ [المائدة:٣].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ قال الشافعي: «المضطرُّ: الرجلُ يكونُ بالموضع: لا طعامَ معه فيه، ولا شيءَ يَسُدُّ جوعَه من لبنٍ أو ما أشبهه، ويبلِّغه الجوع ما يخاف منه الموتَ أو المرضَ» [أحكام القرآن للشافعي، جمعه البيهقي: ٢/ ٩١]. وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)﴾ ومن هؤلاء الذين يمتنعون عن أكل ما ذكر اسمُ الله عليه، ويأكلون الميتة، وما ذبح باسم الأصنام والأوثان، فهؤلاء يتبعون أهواءَهم بغير علم، واللهُ يعلم بالمعتدين، وهم الذين يتجاوزون الحلالَ إلى الحرامَ.

٣- أمرنا ربُّنا أنْ نترك ظاهر الإثمِ وباطنَهُ:

أمَرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن نترك ظاهِرَ الإثمِ وباطنَهُ ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠)﴾ [الأنعام:١٢٠] وظاهِرُ الإثمِ ما يفعلُهُ الإنسانُ بأعماله الظاهرة كالزنا والسرقة وشرب الخمر ولعب الميسر وعبادة الأصنام بالجوارح، وباطنُ الإثمِ ما انعقد عليه القلبُ من الكفرِ والشركِ والغلِّ والحسد ونحو ذلك، ومنه ما يفعله من المعاصي الظاهرةِ في السرِّ والخفاء كالزنا والسرقة. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾ أي إنَّ الذين يرتكبون ما يؤدي إلى الإثم سواءً أكان ظاهراً أو خفيّاً سيجزيهم اللهُ تعالى بها فعلوه من الذنوب والمعاصي.

٤- نَهْيُ الله -تعالى- عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه:

نهانا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن الأكلِ من الذبائحِ التي لم يُذْكَرِ اسمُ الله عليها فقال: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام:١٢١]. ولا شكَّ أنه لا يجوز للمسلم أن يأكل الميتةَ، ولا ما ذبح لغير الله تعالى، فهذا مما لم يذكر اسمُ الله عليه، ومنه ما ذُبح للأصنام والجنِّ والمسيح ونحو هؤلاء.

فإنْ ذَبَحَ المسلمُ ذبيحةً ولم يذكر اسمَ الله عليها عمداً أو سهواً، فالأصحُّ أنه يجوز أكْلُها إنْ كان المسلمُ الذابحُ للذبيحةِ ناسياً التسمية، فإن تعمَّدَ تركها فلا يحِلُّ أكْلُها، وهذا هو المشهور من مذهب مالكٍ وأحمد، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابُهُ، وإسحاقُ بن راهويه، ولو قال أحدٌ بقول الشافعيِّ رحمه الله تعالى، وهو أنَّ التسمية عند الذبح مستحبةٌ، وليست شرطاً، والذبيحة التي تركت التسمية عليها سهواً أو عمداً يجوز أكلها، فإنه لا يبعد عن الصواب [راجع: ابن كثير: ٣/ ٧٨. والتفسير الكبير، لابن تيمية: ٤/ ٢٥١].

والفسقُ: الخروجُ عن طاعة الله، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ أي: إنَّ شياطينَ الجنِّ والإنسِ يُلْقُونَ في آذانِ أوليائهم من المشركين الشبهاتِ ليجادلوا بها المؤمنين، ولعلَّ من هذا دعواهم أنَّ المؤمنين مخطئون، عندما يجيزون أكلَ ما ذبحوه من الأنعام، ويحرمون أكْلَ ما قتله الله بغير سكين.

وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجل أننا إن أطعنا الكفارَ فيما ذهبوا إليه، فإننا مشركون.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من عمل وعمل:

١- شَرَعَ اللهُ تعالى لعباده أن يأكلوا من الذبائح التي ذُكِرَ اسمُ الله عليها، وقد هيَّجَنا اللهُ تعالى إلى الأكل منها بقوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾ .

٢- وَبَّخَ اللهُ -تعالى- وقَرَّعَ الذين لا يأكلون مما ذُكر اسمُ الله عليه عندما سألهم منكراً عليهم عن السبب الذي يدعوهم إلى ترك الأكل مما ذكر اسمُ الله عليه.

٣- فَصَّلَ اللهُ تعالى وبيَّنَ لنا ما حَرَّمه علينا، إلا ما اضطرنا إلى أكله، ولا يوجد في المحرمات ما ذكر اسم الله عليه.

٤- حَرَّمَ اللهُ علينا كُلَّ ما يؤدي إلى الإثم من الأعمالِ الظاهرةِ والباطنة من الكفر والذنوب والمعاصي، وكلُّ مَنْ اكتسب إثماً، فسيجزيه اللهُ بها عمله.

٥- حَرَّم علينا أكْلَ ما لم يُذْكَرِ اسمُ الله عليه، كالميتة، وما ذبح للأصنام والأوثان، وما ذبحه الكفارُ، أمَّا ذبيحة المسلم إن نسيَ ذكر اسمِ الله عليها فهي حلالٌ، والأرجحُ عدمُ جوازِ الأكلِ منها إن ترك الذابح المسلمُ الأكلَ منها عمداً.

٦- على المسلم أن يكون بصيراً في دينه، فلا يلتفت إلى الشبهات التي يلقيها الشياطينُ إلى أوليائهم ليجادلوا بها المسلمين، فمن ذلك ما قالوه للمسلمين: أرأيتم الشاةَ تذبحونها بسكين من حديد تقولون: هي حلالٌ، فإذا ذبحها اللهُ بسكين من ذهبٍ، وهي الميتةُ، تقولون: هي حرام، والحقُّ أنَّ الله نهى عنها، فهي حرام.

النص القرآني المتمم للعشرين من سورة الأنعام
المقارنة بين المؤمنين الذين أحيا اللهُ أرواحَهُم بالإيمان والكفار الذين ماتت أرواحهم بالشرك

أولاً: تقديم

كان الصراعُ محتدماً بين المؤمنين والكفار حين نزلتْ هذه الآياتُ، وكانَ القرآنُ يتنزَّلُ يُبَيِّنُ حقيقةَ الصراعِ، مغذيّاً التوجه الإيمانيَّ، مزرياً بالتوجُّه الكافر، وقد عَقَدتِ الآياتُ مقارنةً بين المؤمنين الذين أحيا اللهُ أرواحَهم بالإيمان، وأنار قلوبهم بالقرآن، وبيْنَ الذين ماتَتْ أرواحُهم، وأظلمتْ قلوبُهم، وأنحى اللهُ باللوْمِ على السادةِ الذين هم أكابرُ المجرمين الذين يمْكُرون ليفسدوا في البلاد والعباد، وهؤلاءُ هم الذين يشترطون لإيمانهم أن يُؤْتوا مثل ما أُوتي الرسلُ، أي يريدون أنْ يكونوا رُسلاً، وقد تهدَّدَهم ربُّ العزة بالذِّلةِ والصَّغارِ والعذابِ الشديد.

وقد قارنَ ربُّ العزةِ بينَ طائفتين في المجتمع في ذلك الوقت، طائفةٍ شَرَحَ صدورَهمْ بالإسلام، وطائفةٍ ضاقت صدورُهُمْ به، فأصبحت حالُهم كالذي يصَّعَّد في السماءِ.

وقد دعا اللهُ عباده إلى الصراط المستقيم الذي هو القرآن، وأخبر أنَّ أهلَ القرآنِ لهم عند ربِّهم دارُ السلام، وهي جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ، وهو وليُّهم في يوم القيامةِ، لأنهم كانوا يتولونه بعملهم في الدنيا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام:١٢٢-١٢٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الإيمانُ حياةُ الأرواحِ والقرآنُ نورُ القلوبِ:

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢] يقول: أَوَمَنْ كانتْ روحُهُ ميتةً بكفرِها بالله وشركها به، فأحيا اللهُ تعالى رُوحَهُ بالإيمانِ، فأصبحتْ روحُهُ حَيَّةً، عارفةً بالله، موحدةً له، وكان قلْبُهُ مظلماً بظلماتِ الكفرِ والشركِ والذنوبِ والمعاصي التي عَشْعَشَتْ فيه، فأنارَ اللهُ قلْبَهُ بأنوارِ القرآنِ، كمن مثله في الظلماتِ، أي: ظلماتِ الكفرِ والشرك، أيْ: تحيط به، فلا يستطيعُ الخروجَ عنها، فقد جَمَعَ اللهُ تعالى لعبده الذي ضَرَبَ له مَثَلاً بالحياة والنورِ في قلبه، كما جَمَعَ لعبده المشركِ بين الموتِ والظلمةِ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢].

وقد استفادَ الشاعرُ شيئاً مما تضمنته الآية فقال:

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ مَوْتٌ لأهلِهِ فأجْسامُهُمْ قبلَ القبورِ قبورُ

وإنَّ امرأً لم يَحْيَ بالعلمِ مَيِّتٌ فليسَ لَهُ حتى النُّشورِ نُشُورُ

وروى عبدُالله بن عمْرٍو قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ خلقَ الخَلْقَ في ظلمةٍ، ثم أَلْقى عليهم من نوره يومئذٍ، فمن أصابَهُ من نوره يومئذٍ اهتدى، ومن أخطأه ضَلَّ» [أحمد في مسنده: ٦٦٤٤. وهو حديث صحيح].

وقوله: ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أيْ: يمشي بذلك النورِ في الناس في الدنيا، فهو على نورٍ من ربِّه، والناسُ يهتدون بذلك النورِ الذي يصاحبه.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢]، أي: حُسِّنَ للكافرين كفرُهُمْ وشركُهم وأعمالُهم الضالَّة، وهذا نَراهُ اليوم في أمم الغربِ التي تدَّعي أنَّ ما هي عليه من الضلالِ في العقيدةِ والاجتماع والاقتصاد حضارةٌ ومدنيةٌ، وأكثره ضلالٌ وكفرٌ وانحراف.

٢- جعل اللهُ في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه جَعَلَ في كلِّ قريةٍ أكابرَ مجرميها ليمكروا فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا

يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٣]. أي كما جعل في أهل مكة أكابرَ مجرميها ليمكروا فيها، كذلك جعل اللهُ في كل قريةٍ أو مدينة أكابر المجرمين ليمكروا فيها، و﴿أَكَـٰبِرَ﴾ جمْعُ أكْبَر، مثل أفاضلُ جَمْعُ أفضلَ، وهم رؤساءُ القرى وعظماؤُهم، خصَّهم اللهُ بالذكر، لأنَّهم أقدرُ على الفساد، والمكر: صرفُ الغيرِ عمّا يَقْصِدُهُ بالخديعة والحيلة.

وقوله: ﴿وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ لأنَّ عاقبة مكرهم تعودُ عليهم، فقد يعاقبهم ربُّهم في الدنيا، ويحيطُ بهم عذابُهُ، كما نشاهد مَنْ تحلُّ بهم الزلازلُ والصواعقُ والأعاصيرُ في الدنيا، وفي الآخرة يحيطُ بهم العذابُ، وهم لغفلتهم عمَّا يُرادُ بهم، لا يشعرون بعذاب الله الماحقِ الذي يوشكُ أنْ ينطبقَ عليهم.

٣- تعَنتُ أكابرِ المجرمين في طلبهم أنْ يُؤْتَوْا مثل ما أوتي رُسُلَ الله:

أعلمنا ربُّنا عن تعنتِ المجرمينِ الكفرةِ الذين ﴿إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١٢٤] أي: إذا جاءَتهم آيةٌ، طلبوا أن يُنْزِلَ اللهُ عليهم مثلَ ما أوتي رسلُ الله، فهم يريدون أنْ يُعْطَوْا مثل عصا موسى التي كان يلقيها، فتتحوَّلُ إلى ثعبانٍ مبينٍ، أو يُعْطَوْا إبراءَ الأكمه والأبرص، كما أُعطي عيسى، أو يُعْطَوْا الناقةَ التي أُعْطيها هود، وقد رَدَّ اللهُ عليهم قائلاً: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام:١٢٤] يقول ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ فهو يعلم معادنَ الرجالِ، ويعلم الذين قلوبُهُمْ صالحة، ونفوسُهُمْ خيِّرة، فهو يختارُ أصْلَحَ الناسِ وأفْضَلَهمْ، ليكونوا رُسُلَه وأنبياءَه، وليس مقياسُ الصلاح للرسالةِ كثرةُ المالِ، والعزةُ والجاه، قال ابنُ مسعود: «إنَّ الله نَظَرَ في قلوبِ العبادِ، فوَجَدَ قَلْبَ محمدٍ ﷺ خيرَ قُلوبِ العبادِ، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته» [أحمدُ في المسند: ٣٦٠٠ وإسنادُه حسن].

وقد روى البخاريُّ الحديث الذي سأل فيه هِرَقْلُ ملكُ الروم أبا سفيان عن رسولنا ﷺ، وكان أبو سفيان رئيسَ قريشٍ في ذلك الزمان، واستدلَّ هرقلُ بأجوبةِ أبي سفيان الدالةِ على طهارةِ الرسولِ ﷺ وكريم صفاتِهِ على نبوتِهِ وصحةِ ما جاء به [انظر البخاري: ٧. ومسلم: ١٧٧٣].

ورسولُنا ﷺ خيارٌ من خيارٍ من خيارٍ من خيارٍ، فعن واثِلَةَ بن الأَصْقَعِ، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ اصْطَفَى كنانةً من وَلَدِ إسماعيلَ، واصطفَى قريشاً من كنانةَ، واصْطَفَى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم: ٢٢٧٦].

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ من خيرْ قرونِ بني آدم، قرناً فقرناً، حتى كنتُ من القرْنِ الذي كنتُ منه» [البخاري: ٣٥٥٧].

وحسبنا أنَّ ربَّنا قالَ لرسولِهِ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم:٤]، وتهدَّدَ اللهُ تعالى الذين أجرموا واستكبروا وتعالوا، ورفضوا الإيمانَ إلاَّ إذا أوتوا كما أوتي رسلُ الله، تهدَّدَهم بأنه سيُنْزِلُ بهم عذابَه، وسيحلُّ بهم الصغار بما كانوا يَمْكُرون، والصَّغارُ: الذلَّةُ، وهو يقابل استعلاءَهم واستكبارَهُمْ عن الحقِّ في الدنيا، وقد جاء في بعض الأحاديث أن المستكبرين يُحْشَرون أمثالَ الذَّرِّ يطؤُهم الناسُ في يوم القيامة.

٤- مَثَلُ الذي يُريدُ اللهُ هدايتَه ومثلُ الذي يريدُ إضلالَه:

حدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن الذي يريدُ اللهُ هدايتَهُ، والذي يريد إضلالَهُ، فالذي يريد هدايتَهُ يشرحُ صَدْرَهُ للإسلام، والذي يريد إضلالَهُ يجعل صدْرَهُ ضيِّقاً حَرَجاً كأنما يصعَّدُ في السماء ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام:١٢٥].

ويُفْقَهُ من هذه الآية أنَّ الذي يريدُ اللهُ هدايته يشرحُ صدرَهُ للإسلام، فتراه مقبلاً على الإسلام، مسروراً به، مُسْتَرْوِحاً إليه، يتفاعل معه، ويصوغُ حياته به، وأما الذي يريد إضلاله فيجعلُ قلبَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً، والحَرَجُ: أشدُّ الضيق، وشَبَّه الله تعالى الحالةَ النفسية التي يكونُ فيها هذا الذي يريدُ اللهُ إضلالَهُ بحالةِ الذي يصعَّدُ في السماءِ، أي: يصَّعَّدُ في أجواز الفضاءِ، فالإنسانُ هناك يضيق صدره ضيقاً شديداً، لقلَّة (الأكسجين) في طبقات الجو العليا، ولم يكن المفسرون في الماضي يعلمون كيف يكونُ حال الإنسانِ في طبقات الجوِّ العليا، ففسروا الآية تفسيراً يبعُدُ بها عن معناها المراد، قال ابن كثير: «﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ مَثَلُهُ كمثل الذي لا يستطيع أن يصْعَدَ في السماء» [ابن كثير: ٣/ ٨٩] وقال القرطبي: «والمعنى أن الكافرَ من ضيقِ صَدْرِهِ كأنَّه يريد أن يَصَّعَد في السماء، وهو لا يقدر على ذلك» [القرطبي: ٤/ ٧٥]. وقال مكيٌّ: «﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ هذا مثلٌ ضربه اللهُ لصَدْرِ الكافرِ في شدَّةِ ضيقِ صدرِهِ عن قبول الإسلام، ونفوره عنه، فهو بمنزلة من تَكَلَّف ما لا يطيقُهُ، كما أنَّ من تكلَّفَ صُعودَ السماءِ تكلَّف ما لا يطاق» [الهداية لمكي أبي طالب: ٣/ ٢١٨٠].

وهذا الذي قاله هؤلاء المفسرون بعيدٌ عن الصواب، والصوابُ أنه شَبَّه الذي يريدُ اللهُ إضلالَهُ بالذي يصَّعَّد في طبقات الجوِّ العليا، فيضيقُ صَدْرُهُ لقلةِ الهواءِ الصالحِ لتنفس الإنسان، واللهُ أعلم.

وقوله تعالى في خاتمة الآية: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥] أي: كذلك يجعل الرجس وهو النَّجَسُ أو العذابُ والارتكاس على الذين لا يؤمنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨].

٥- **صراطُ الله المستقيم:**

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام:١٢٦] وصراطُ الله: القرآنُ والإسلامُ، وقد وَصَفَ رسولُنا ﷺ القرآنَ بأنّه الصراطُ المستقيمُ، وحبلُ الله المتين، والذكرُ الحكيم، وقد أوضح اللهُ هذا الصراطَ وبيَّنه بما لا مزيدَ عليه من البيان، ولكنَّ الذي يستفيد من بيانِ الله هم القوم الذين يذَّكرون، أي: يذكَّرون الله، ويعقلون عنه وعن رسوله ولذا قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ .

٦- **مصيرُ المؤمنين دارُ السلام في جناتِ النعيم:**

أَخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المؤمنين الموحِّدين لهم دارُ السلام عند ربِّهم، وأنه هو الذي يتولاهم بما كانوا يعملونه من الصالحات ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام:١٢٧] ودارُ السلامِ الجنةُ، وسميتْ بدار السلام، لأن أهْلَها يسلمون فيها من جميع الآفاتِ والمصائبِ والبلايا والأمراض التي كانت تصيب الإنسان في دُنْياه، وأهلُ الجنة يأتيهم السلام من ربهم ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:٥٨] وتُسَلِّمُ عليهم الملائكةُ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل:٣٢]. ويأتيهم السلام من خزنةِ الجنة ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر:٧٣]. ويأتيهم أيضاً من أصحاب الأعراف: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [الأعراف:٤٦]. ويُحيِّي بعضُ أهل الجنة بعضاً بالسلام ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ﴾ [يونس:١٠].

وقوله تعالى في خاتمة الآية: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: هو سبحانه الذي يتولاهم، فيوصِلُ المنافع إليهم، ويدفع المضارَّ عنهم، بسبب ما كانوا عليه في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح.

رابعاً: ما تهدي إليه آياتُ النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- القرآنُ حياةُ الأرواحِ ونورُ القلوب، ومن لم يؤمن به يكون ميتاً يعيشُ في الظلماتِ.

٢- الكفار زُيِّنَتْ لهم أعمالُهم، ويظنون أنَّهم على حقٍّ، وهم غرقى في الباطل.

٣- السادةُ والزعماءُ في كلِّ مدينةٍ وقريةٍ يقفون في وجه الحقِّ، ويمكرون به.

٤- الكفارُ يشترطون لإيمانهم أن يُؤْتَوْا مثل ما أُوتي رسل الله، واللهُ أعلم بالصالح للرسالة، والكفارُ سيذلُّهم اللهُ ويعذِّبهم جزاءَ تكَبّرِهم.

٥- قارنَ ربُّ العزّة بينَ حالتي من يُرِدْ أنْ يهديه، ومن يُرِدْ أنْ يضلَّه، فالذي يريد له الهداية يشرَحُ صدرَهُ للإسلامِ، والذي يريدُ إضْلالَهُ يضيِّقُ صَدْرُه، فيكون حاله كالذي يَصَّعَد في طبقات الجوِّ العليا.

٦- الكفار أرجاس أنجاس، يعذبون في يوم الدين.

٧- الذين يتَّبعُ القرآنَ الكريمَ يكون سائراً على الصراط المستقيم.

٨- المؤمنونَ في يوم القيامة في دار السلام، وهي الجنة التي تسلم من جميع المصائب والآفات.

٩- اللهُ تعالى يتولى المؤمنين في يوم الدين، فيكرمهم بكلِّ خير، ويدفع عنهم كل ضَيْرٍ.

النص القرآني الحادي والعشرون من سورة الأنعام
الكفار من الجنّ والإنس في الميزان

أولاً: تقديم

أعلمنا اللهُ تعالى في هذه الآيات أنه سيحشرُ الكفارَ من الإنس والجن في يوم القيامةِ، وسيُقَرِّعُ الجنّ ويوبِّخُهُمْ على كثرة إضلالهم الإنسانَ، وأخبرَنا عما أحابَ الكفرة من الإنس في استمتاع الجن والإنس بعضهم ببعضٍ، وأعلمنا أنه سيقولُ لهم: إنَّ النارَ مِنْزِلُهُمْ في ذلك اليوم.

وأعلمنا أنَّه سيولِّي بعضَ الظالمين من الإنس والجنِّ بعضاً بسبب كفرهم، ويسألُ الكفارَ من الجنِّ والإنسِ عن قيام الحجةِ عليهم في الدنيا بإرسال الرسل، فيُقِرُّون ويعترفون، وقرَّرَ سبحانُه أنه لا ينزل العذاب الماحقَ بالعباد ما لم يُقِمْ عليهم الحجةَ، وأعلمنا أن المؤمنين في درجاتٍ متفاوتةٍ في الجنة، والكفارُ في دركات بعضُها تحتَ بعضٍ في النار.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٨-١٣٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- توبيخ الله تعالى للجنِّ على كثرة إضلالهم الإنس:

أمرَنا اللهُ -تعالى- أنْ نذكُرَ اليومَ الذي يَحْشُرُ فيه الجنَّ والإنس ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام:١٢٨]، وهذا اليوم الذي يَحْشُرُهم فيه هو يومُ القيامة، والحَشْرُ: الجمع، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشعراء:٣٦].

فاللهُ -تعالى- يَجْمَعُ الإنسَ والجنَّ يومَ القيامة، ويقول في ذلك اليوم للجنِّ موبِّخاً ومقرِّعاً لهم: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام:١٢٨]، أي: أكثرتم من إغواء الإنس وإضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس:٦٢] وقوله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ المعشر في لغة العرب: الجماعة، لأنَّ بعضهم يعاشرُ بعضاً.

٢- استمتاع الجن والإنس بعضهم ببعضٍ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أولياءَ الجِنِّ من الإنس هم الذين أجابوا على السؤال الذي وجَّهَهُ اللهُ إلى الجنِّ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام:١٢٨].

وقد نقل ابن تيمية عن البغوي أنه قال: «قال بعضهم: استمتاعُ الإنسِ بالجن ما كانوا يلقون لهم من الأراجيفِ والسِّحْرِ والكهانة، وتزيينُهُمْ لهمُ الأمورَ التي يهوونها وتسهيلُ سبيلها عليهم، واستمتاعُ الجنِّ بالإنسِ طاعةُ الإنسِ لهم فيما يزينون لهم من الضلالةِ والمعاصي».

ونقل عن ابن السائب قال: «استمتاعُ الإنسِ بالجنِّ استعاذتهم بهم، واستمتاعُ الجنِّ بالإنسِ أن قالوا: قد سُدْنا الإنسَ مع الجنِّ حتى عاذوا بنا، فيزدادون شرفاً في أنفسهم وعظماً في نفوسهم» وهذا كقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن:٦].

قال ابن تيمية: «الاستمتاعُ بالشيء هو أن يَتَمَتَّعَ به، فينالُ به ما يطْلُبُهُ ويريدُهُ ويهواه، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء، بعضِهم ببعضٍ».

كما قال: «﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء:٢٤] ومن ذلك الفواحشُ كاستمتاع الذكورِ بالذكورِ، والإناث بالإناث، ويدخل في هذا الاستمتاعُ بالاستخدام وأئمَّةِ الرياسَةِ، كما يتمتع الملوك والسادةُ بجنودهم ومماليكهم».

وفي الجملة استمتاعُ الإنسِ بالجنِّ والجنِّ بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس.

والمشركُ يعبدُ ما يهواه، واتباعُ الهوى هو استمتاعٌ من صاحبه بما يهواه، وقد وقع في الإنس والجنِّ هذا كلُّه.

وتارةً يخدُمُ هؤلاءِ لهؤلاءِ في أغراضهم، وهؤلاء لهؤلاء في أغراضِهم، فالجنُّ تأتيه بما يريد من صورة أو مالٍ أو قتلِ عدُوِّه، والإنسُ تطيعُ الجنَّ، فتارةً يسْجُدُ له، وتارةً يسجد لما يأمره بالسجود له، وتارة يمكنه من نفسه فيفعل به الفاحشة، وكذلك الجنيات منهن من يريد من الإنس الذي يخدمنه ما يريد نساء الإنس من الرجال، وهذا كثير في رجال الجنِّ ونسائهم، فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الإنسي، وقد يفعل ذلك بالذكران.

ومن استمتاع الإنسِ بالجنِّ استخدامُهُمْ في الإخبارِ بالأمور الغائبة كما يخبر الكُهَّانُ، فإنَّ في الإنس من له غَرَضٌ في هذا، لما يحصل به من الرياسة والمال وغير ذلك، فإن كان القومُ كفَّاراً -كما كانت العرب- لم تُبالِ بأنْ يقالَ: إنَّه كاهَنٌ كما كان بعض العربِ كُهَّاناً، وقَدِم النبيُّ ﷺ المدينة، وفيها كُهَّانٌ، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهان، وكان أبو أبرقَ الأسلميُّ أحدَ الكهانِ قبل أن يسلم.

وإن كان القومُ مسلمين لم يُظْهِرْ أنه كاهِنٌ، بل يجعل ذلك من بابِ الكراماتِ، وهو من جنس الكُهَّانِ، فإنَّه لا يخدمُ الإنسي بهذه الأخبارِ إلا لما يستمتع به من الإنسي بأن يطيعه الإنسي في بعض ما يريدُهُ، إمَّا في شِرْكٍ، وإما في فاحشةٍ، وإما في أكْلِ حرامٍ، وإما في قتلِ نفسٍ بغير حق، فالشياطينُ لهم غرضٌ فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان، ولهم لذةٌ في الشرِّ والفتنِ، يُحِبُّون ذلك، وإن لم يكن فيه منفعةٌ لهم وهم يقومون بأمر السارقِ أن يسرق، ويذهب إلى أهل المال، فيقولون: فلان سرق متاعكم.

ومن استمتاع الإنس بالجنِّ: استخدامُهُمْ في إحضار بعض ما يطلبونه من مالٍ وطعامٍ وثيابٍ ونفقةٍ، فقد يأتون ببعض ذلك، وقد يدلُّونه على كَنْزٍ وغيره، واستمتاع الجنِّ بالإنس استعمالُهُمْ فيما يريدُهُ الشيطانُ من كفرٍ وفسوقٍ ومعصية، ومن استمتاع الإنس بالجنِّ استخدامهم فيما يطلبه الإنسُ من شركٍ وقتلٍ وفواحشَ، فتارةً يتمثل الجنيُّ في صورة الإنسي، فإذا استغاثَ به بعضُ أتباعِهِ أتاه، فظنَّ أنَّه الشيخُ نفْسُهُ، وتارةً يكونُ التابعُ قد نادى شيخَه وهتفَ به: يا سيدي فلان، فينقل الجنيُّ ذلك الكلام إلى الشيخِ بمثل صوتِ الإنسي، حتى يظنَّ الشيخُ أنه صوتُ الإنسي بعينه، ثم إنَّ الشيخ يقول: نعم، ويشيرُ إشارةً يدفع بها ذلك المكروه، فيأتي الجنيُّ بمثل ذلك الصوت والفعل، يظنُّ ذلك الشخص أنه شيخُه نفسُه، وهو

الذي أجابه، وهو الذي فعل ذلك[1]، حتى إنَّ تابع الشيخ قد تكون يده في إناءٍ يأكل فيضعُ الجني يده في صورة يد الشيخ، ويأخذ من الطعام، فيظنُّ ذلك التابع أنه شيخُه حاضرٌ معه، والجنيُّ يمثِّل للشيخ نفسِه مثل ذلك الإناء، فيضع يده فيه، حتى يظنَّ الشيخُ أن يده في ذلك الإناء [التفسير الكبير لابن تيمية: ٤/ ٢٦٢-٢٦٦ بشيء من الاختصار].

وقولُ أولياءِ الجن: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ﴾ [الأنعام:١٢٨] أي: بقينا هكذا يستمتعُ بعضُنا ببعضٍ حتى بلغنا الأجَلَ الذي أَجَّلْتَهُ لنا، وهو الموتُ، فلكلِّ إنسانٍ حياتُه التي تنتهي في الوقت الذي حدَّده اللهُ تعالى، قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام:١٢٨] والمرادُ بالنارِ في الآية نارُ الآخرة، ومثواكم: منزلكم، والمثوى مكانُ الثَّواءِ، وهو مكان الإقامة على الدوام، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٤٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ خَتَمَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ بهاتين الصفتين، لأنَّ تخليدَ الله الكفارَ في النارِ صادرٌ عن حِكْمَتِهِ سبحانه وعلمه، و(الحكيم) هو الذي يضع الأمور في مواضعها، وينزلُها في منازِلَها، و(العليم) الذي يعلمُ ما انطوى عليه جميعُ خلقه من الأحوال المستحقة للثواب والعقاب.

٣- فناءُ النار:

قالَ اللهُ تعالى للكفارِ مِنَ الإنسِ والجنِّ ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام:١٢٨] وقد ذهب بعضُ أهلِ العلمِ احتجاجاً بالاستثناء في الآية إلى أنَّ النارَ تفْنى، ومِثْلُها قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ [هود:١٠٦-١٠٧] وعُزِيَ هذا القولُ إلى جماعة من الصحابة منهم عمرُ بن الخطابِ، وابنُ مسعود، وعبدالله بن عمرِو بن العاصِ، وقال بعضُهم: «يأْتي على النارِ زَمانٌ تَصْفِقُ أبوابُها ليسَ فيها أحَدٌ».

والصحيحُ أنَّ طبقاتِ النارِ التي هي دارُ الكفارِ خالدةٌ باقيةٌ، لا تَفْنَى ولا تَبيدُ، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة:٣٧]، وقال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر:٣٦].

---

(١) كان الجنُّ قد توصلوا إلى مثل ما توصل إليه البشر اليوم من نقل الأصوات والصور من مكان إلى مكان بواسطة الآلات العلمية، ومن ذلك ما يقع من النقل بالإذاعة (والتلفزيون).

والنار التي تَهْلِكُ وتَفْنَى هي التي يدْخُلُها بعضُ عصاةِ المؤمنين، ثم يخرجونَ منها، وقد دلَّتْ على ذلك أحاديثُ صحيحةٌ كثيرة، والله أعلم، ونسبةُ هذه الأقوال إلى من ذكر من الصحابة لا تصحُّ [راجع: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: ٢/ ٢٤٦].

٤- توليةُ الله بعضَ الظالمين بعضاً:

أعْلَمَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه يولِّي بعضَ الظالمينَ بعضاً ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام:١٢٩]، أي: كما سلَّطنا شياطينَ الجنِّ على الكفرة من الإنسِ حتى أغْوَوْهُمْ، واستكثروا منهم، فأدخلوهم النار، فكذلك نسلِّط بعضَ الظالمين على بعضٍ، فيَضُرُّونَهم، ويهلكونَهُمْ، ثم ينتقم اللهُ من الجميع، وهذا الذي بيَّنَهُ اللهُ تعالى مشاهدٌ معروفٌ في كلِّ عَصْرٍ، فترى ظالماً سُلِّطَ عليه ظالمٌ، ثم هذا الظالم المسلَّطُ على غيره سُلِّطَ عليه ظالمٌ آخر، أو سَلَّطَ اللهُ عليه ألوانَ العذابِ، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جَمْعُ ظالمٍ، والظلمُ وضعُ الشيءِ في غير موْضِعِهِ، ومنه وضعُ العبادةِ التي لا تجوز إلا لله، في الأصنام والأوثان وما يعبدُ من دون الله، ومنها الحكم بالقوانين الوضعية، وتركِ الشريعة الإلهيةِ، وهذا ظُلْمُ كُفْرٍ، وهناك ظُلْمٌ ليس بكفر كظلم الذي يشرب الخمْرَ ويزني غير مُسْتَحِلٍّ لذلك، فهذا ليس بكفر.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾، أي: بما كانوا يكسبونَه من الأعمالِ الكفرية والشركية.

٥- سؤالُ الله الجنَّ والإنسَ عن قيام الحجة عليهم بإرسالِ الرُّسُلِ:

ينادي ربُّ العزةِ يومَ القيامة الكفَرَة من الجنِّ والإنسِ فيقول: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام:١٣٠]. يخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عما سينادي به الكفارَ من الجنِّ والإنس يومَ القيامة، فيقول: يا جماعةَ الجنِّ وجماعةَ الإنس الذين كفروا في الدنيا ألم يأتكم في الدنيا رُسُلٌ منكم يقصُّونَ عليكم آياتي، أيْ: يتْلُونَ ويقرؤون عليكم آياتي التي أنزلتها عليكم، ويبينون لكم ما فيها من الإيمانِ والأحكامِ.

والاستفهامُ في الآيةِ استفهامُ تقريرٍ، واستفهامُ التقرير: الاستفهام الذي لا يريدُ المخاطِبُ به أن يُفْهِمَ الشيءَ، وإنَّما يريدُ أنْ يحملَ المخاطَبَ على أن يُقِرَّ ويقول: بَلَى، ويُقِرُّ بالحقيقة [العذب النمير: ٢/ ٢٦٥].

وقد أخذَ بعضُ أهلِ العلم من قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، أنَّ اللهَ أرسلَ إلى الجنِّ رسلاً منهم، لأنَّ الخطابَ في الآية للجنِّ والإنسِ، وهذا الفهمُ ليس بلازم، فالعربُ تطلق المجموعَ وتريدُ بَعْضَه، والصوابُ الذي عليه جمهورُ أهلِ العلمِ أنَّ جميعَ الرسلِ من الإنسِ.

ومع أنَّ أهلَ العلمِ اختلفوا في كوْنِ الله أرْسَل رسلاً من الجنِّ، فلا خلاف بين العلماءِ في كوْنِ رسولِنا محمدٍ ﷺ مرْسَلٌ إلى الإنسِ والجنِّ.

وقولُه: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أيْ: يُخوِّفونكم هذا اليوم، وفيه ما فيه من الأهوالِ. وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ من الجنِّ والإنسِ يقولون: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ أي: شهدوا أنَّ الرُّسُلَ بلَّغوهم وحذَّروهم ذلك اليوم، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجَلَّ- أنَّ الدنيا غرَّتهم بمتاعها الزائل، وزينتها الفانية، فاشتغلوا بشهواتها ولذاتها، ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام:١٣٠] وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَ- أنَّهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠)﴾ [الأنعام:١٣٠].

قد يقالُ: كيفَ صرَّح اللهُ تعالى في هذه الآية أنَّهم أقرُّوا بكفرهم بما جاءَتهم الرسلُ، بينما أخْبَرنا اللهُ عن الكفارِ أنَّه يقولون في يوم الدين: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾ [الأنعام:٢٣]، وقال فيهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر:٧٤] والجواب أنَّ يومَ القيامةِ يومٌ طويلٌ طولُه خمسون ألف سنةٍ، ففي بعض الأحيانِ ينكرون، وفي بعضها يعْتَرِفون، ففيه نكران في وقت، واعترافٌ في وقت.

٦- اللهُ تعالى لم يكن مُهْلِكَ القرى بظلمها وهي غافلة غيرمنبَّهَةٌ على ألسنةِ الرسل:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه لن يوقع العذاب الجامعَ الماحقَ بأهل الدنيا حتى ينذرَهُمْ على ألسنةِ رسلِهِ ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)﴾ [الأنعام:١٣١]. فهذه الآية تدلُّ على أنَّ اللهَ ما أنزل عذاباً ماحقاً جامعاً بأهل القرى إلا بعد إنْذارِهِمْ على أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء:١٥]، وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

وهذه الآياتُ تدلُّ على أنَّ أهْلَ الفترة معذورونَ، وذهب بعضُ أهل العلم إلى أن المشركين لا يُعْذَرونَ بكفرِهم وشِرْكِهم، فكلُّ من مات مشركاً بالله في النار، واحتجُوا بمثل قوله تعالى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

وقد سأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: أين أبي؟ قال: «في النارِ» فلما قَفَّى دَعاهُ، فقال: «إنَّ أبي وأباكَ في النارِ» [مسلم: ٢٠٣]، وفي الحديث: «استأْذَنْتُ ربي أنْ أسْتَغْفِرَ لأمِّي، فلَمْ يأْذَنْ لي» [مسلم: ٩٧٦].

ولو كان قوْلُ هؤلاءِ صحيحاً لما امتدحَ الله تعالى نفسه بأنه لا يُعَذِّبَ أحداً إلا بعد إنْذارِهِ في الدنيا ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء:١٦٥] فلو عَذَّبَ إنساناً واحداً من غير أن يُبَلِّغَهُ رسولٌ لانخرمت الحكمةُ، والصوابُ من القول: أنَّ أهلَ الفترة يمتحنون في يوم القيامةِ، بنارٍ يأمرهم بالدخول فيها، فمن دخلها دخلَ الجنة، وظَهر عِلْمُ الله فيه أنَّه كان يطيعُ الرُّسُل لو جاءَته.

٧- **لكل واحدٍ من المؤمنين والكفار منازل ومراتبُ يستحقُّونها بأعمالهم:**

الجنةُ درجاتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، والنارُ دَرَكاتٌ بعضُها تحتَ بعضٍ: وأهلُ الجنة يتفاوتون فيها، وأهل النار يتفاوتون فيها ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام:١٣٢] أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ لكلِّ واحدٍ من المؤمنين والكفارِ منازلَ ومراتبَ يستحقونها بأعمالهم، ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١]. والمنافقونَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ من النار ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]، وفي هذا ترغيبٌ للمؤمنين في أن يسعوْا إلى تحصيلِ الدرجاتِ العالياتِ، وترهيبٌ للكفارِ مِنْ أن يوقعوا أنفسهم في دَرَكاتِ النار النازلاتِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ -نَهَى اللهُ عبادَه أن يَظُنُّوا أنَّ اللهَ تأْخُذُه الغفلةُ عما يعمله الظلمةُ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم:٤٢].

٨- **ربنا هو الغنيُّ ذو الرحمة:**

خاطبَ اللهُ تعالى عبدَهُ ورسولَهُ ﷺ خطابَ تشريفٍ بقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ [الأنعام:١٣٣] والربّ في لغةِ العربِ هو السيِّدُ الذي يَسُوس الناسَ، ويُدَبِّرُ شؤونَهُمْ، و﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ الذي غَنِيَ عن خَلْقِهِ، فلا يحتاج إليهم، وهم محتاجون إليه، فهو لا يأمُرُهُمْ، ولا ينهاهُم لحاجتِهِ إليهم، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

وجاء في الحديث القدسيِّ الذي يرْويهِ أبو ذَرٍّ، عن رسولِ الله تعالى، عن ربِّ العزةِ أنَّه قالَ: «يا عِبادِيَ لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكُمْ وإنْسَكُم وجنَّكُم كانوا على أتقى قَلْبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم ما زادَ ذلك في مُلْكي شيئاً، يا عباديَ لو أنَ أوَّلكم وآخركُمْ وإنسَكُمْ وجنَّكم كانوا على أفْجَرِ قلبِ رجُلٍ واحدٍ، ما نَقَصَ ذلك من مُلْكِي شيئا» [مسلم: ٢٥٥٧].

ومع أنَّ اللهَ -تعالى- غَنِيٌّ عَنَّا وعن أعمالِنا، فلا تَنْفَعُهُ طاعَتُنا، ولا يَضرُّه مَعْصِيَتُنا، فهو ذو رحمةٍ بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، وهو قادرٌ على أنْ يُهْلِكَنا، ويذهبَ بنا، ويَسْتَخْلَفَ غيرَنا، أي يَسْتَبْدِلَنا بغيرنا كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء:١٣٣]، وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [فاطر:١٦].

وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام:١٣٣]، وهذا كما كان قبلكم ناسٌ غيركم عَمَرُوا الأرضَ أذْهَبْناهُم جميعاً، وجئنا بكم من بعدهم.

٩- إنَّ ما يَعِدُنا بِهِ ربُّنا آتٍ ولَسْنا بِمُعْجِزِين:

أخْبَرَنا ربُّنا عزَّ وجلَّ قائلاً: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام:١٣٤] فاللهُ تعالى إذا وَعَدَ عبادَه المؤمنين بخيرٍ، فإنه لا يُخْلِفُ وَعْدَه أبداً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد:٣١].

وإن أوْعَدَ الله بشَرٍّ فإنْ كانَ وعيداً للكافرين، كما أوْعَدهم بالنار وغضب الجبار، فهو وعيد لا يتخلَّفُ بحالٍ، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق:١٤]، و﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق:٢٨-٢٩]. وإن كان وعيداً لعُصاةِ المؤمنين من الذين ارتكبوا الكبائر، فهذا إلى الله تعالى إنْ شاءَ عفا عنه، وإن شاءَ أنْفَذَهُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ﴾ [النساء:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ أي: لا تستطيعون أن تسْبِقوني وتَفُوتُوني، بل أنتم في قبْضَتِي وتحتَ سُلْطانِيْ، وأنا قادرٌ على أن أُنْفِذَ فيكم ما أوعدتكم به.

١٠- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يُهَدِّدَ الكفار بقوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾:

أمَرَ اللهُ -تعالى- عبدَهُ ورسولَه محمداً ﷺ أنْ يتهدَّدَ الكفارَ من قومه، بأن يقول لهم: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، والقوم: جماعةُ الرجالِ، وأصْلُه: يا قومي حذفت ياء

المتكلم اكتفاءً بالكَسْرَةِ، ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام:١٣٥].

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: اعْمَلوا على طريقَتِكُم، فإنِّي غيرُ مُبالٍ بكم، ولا مُكْتَرِثٌ بكُفْرِكُمْ، وأنا ثابتٌ على مكانَتي وعملي، وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وقد كانت لرسولنا ﷺ عاقبةُ الدارِ في الدنيا، فقد نَصَرَهُ على أهلِ مكةَ ففتحها، وأظهر له دينه قبل وفاته، وفتَحَ اللهُ عليه جزيرةَ العربِ، واليمنِ والبحرينِ، وفتح لأُمته من بعده الأمصار بعد وفاته، ففتحت بلادُ الشامِ، والعراقُ، ومصرُ، وتركيا، والأندلسُ، وإندونيسيا، وماليزيا، وغيرُها ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور:٥٥].

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يقرِّع اللهُ تعالى الجِنَّ يوم القيامة لإضلالهم كثيراً من الإنس.

٢- يعترف الإنسُ في يومِ القيامةِ بما وقعَ بينهم وبين الجنِّ من علاقاتٍ أدَّت إلى استمتاع بعضِهِمْ ببعضٍ.

٣- الكفارُ من الجنِّ والإنسِ مأْواهم النَّارُ خالدين فيها يومَ القيامة.

٤- الكفارُ من الإنس والجنِّ يخلدون في النار أبداً، أما عُصاةُ المؤمنين فيدخلون في النارَ بمعاصيهم، ثم يخرجون منها بعد ما قدَّره اللهُ تعالى عليهم فيها.

٥- الظالمونَ يوالي بعضهُم بعضاً بسبب كُفْرِهم وضَلالهم.

٦- اعترافُ الكفرةِ من الجنِّ والإنسِ يومَ القيامةِ بأنَّ الرسلَ بَلَّغَتْهُمْ الحقَّ من ربِّهم، ويشهدُونَ على أنفسهم أنَّهم كانوا كافرين.

٧- غَرَّت الدنيا بزَهْرَتِها وزينَتِها الكفارَ، فضَلُّوا وانصرفوا عن الحقِّ.

٨- لا يُنْزِلُ اللهُ تعالى بالأمم الظالمةِ العذابَ الكُلِّيَّ الماحقَ حتى يرسلَ إليهم رُسَلَه، ويبلِّغهم الحقَّ.

٩- المؤمنون لهم في الجنةِ درجاتٌ، والكفارُ لهم في النارِ دَرَكاتٌ.

١٠ - اللهُ تعالى غَنِيٌّ عن عبادِهِ، فليسَ بحاجةٍ إليهم، ولا إلى عبادتهم.

١١ - اللهُ قادرٌ على إهلاكِ العبادِ، والإتيانِ بغيرهم، كما أنْشأنا من ذريةِ قومٍ آخرين.

١٢ - إنَّ ما أوْعَدَ اللهُ به عبادَهُ مِنَ البعثِ والنشورِ، والجنةِ والنارِ، وغير ذلك آتٍ، لا ريبَ فيه، ولن يُعْجِزَ اللهَ أبداً.

١٣ - أمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يقولَ للكفار متوعداً إيَّاهم: اعملوا على طريقتكم، وأنا ماضٍ على طريقتي، وسوفَ ترون من تكونُ له عاقبةُ الدارِ، وقد مكَّن اللهُ لرسوله ﷺ ولخلفائه من بعده في الأرض، وتحقَّقَ له ما وعده.

النص القرآني الثاني والعشرون من سورة الأنعام
فوْضى أهلِ الجاهلةِ في التحليل والتحريم

أولاً: تقديم

يُحَدِّثُنا ربُّنا في هذه الآياتِ عن الفوضى التي كان يعيش فيها أهْلُ الجاهلية في الجانبِ التشريعي، فكانوا يُحِلُّون ويُحَرِّمونَ بأهْوائِهم، وقدْ زَيَّنَ لهم زُعَماؤُهُمْ ورؤُساؤُهُمْ قَتْلَ أولادِهِمْ، وكانوا يُحِلُّونَ ما في بطون الأنعامِ من الأجِنَّة لفَريقٍ دون فريقٍ، وقَدْ ذَمَّ اللهُ -تعالى- في هذه الآيات الذين قتلوا أوْلادَهُمْ سفهاً بغيرِ علم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٣٦-١٤٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- فوضى التشريع عند العرب في الجاهلية:

غيَّرَ العربُ دينَ نبيِّ الله إسماعيلَ عليه السلام، الذي كانوا عليه قديماً، ومن جملةِ ما غَيَّروه ما جعلوه لأصْنامهم من الحَرْثِ والأنعامِ، وقد أدَّى بهم ذلك إلى فوضى هائلةٍ في مجال التشريع، وقد حدَّثنا الله تعالى عن هذه الفوضى التي غَرِقَ فيها العَرَبُ في آياتِ هذا النص، قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «إذا سَرَّكَ أنْ تعلم جَهْلَ العربِ، فاقرأْ ما فوق الثلاثين ومائةٍ في سورة

الأنعام: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام:١٤٠]» [البخاري: ٣٥٢٤].

وقولُ ابنِ عباس: «فوق الثلاثين ومائة» أي من الآية السادسة والثلاثين ومائةٍ إلى الآية المتممة للأربعين ومائةٍ.

٢- ضلال مشركي العربِ فيما جَعَلوهُ للّه وما جعلوهُ لشركائهم:

حدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن ضلال العرب فيما جَعَلوه لله وما جعلوه لشركائهم من الحرثِ والأنعام، فقال: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأنعام:١٣٦].

وقوله: ﴿ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أي: مما خَلَقَ وأنشأ وبثَّ في الأرض، و﴿ ٱلْحَرْثِ ﴾ الزَّرْعُ والأشجارُ، والأنعامُ: الجِمالُ والأبقارُ والأغْنامُ، قال البغويُّ في تفسير هذه الآية: كان المشركون يجعلونَ لله من حُروثهم وأنعامِهم وثمارِهِمْ وسائر أموالهم نصيباً، وللأوثان نصيباً، فما جعلوه لله صَرَفوهُ إلى الضيفانِ والمساكينِ، وما جَعَلوهُ للأصنام أنْفَقُوه على الأصنام وخَدَمِها، فإنْ سقط شيءٌ مما جعلوه لله تعالى في نصيب الأوثان تركوه، وقالوا: إن اللهَ غنيٌّ عن هذا، وإن سقط شيءٌ من نصيب الأصنام فيما جعلوه لله ردّوه إلى الأوثانِ، وقالوا: إنَّها محتاجةٌ، وكان إذا هَلَكَ أو انتقص شيءٌ مما جعلوه لله لم يبالوا به، وإذا هلك أو انتقص شيءٌ مما جعلوا للأصنام جبروه بما جَعَلوهُ لله، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ [تفسير البغوي: ٣/ ١٩٢].

وما فسَّر بِهِ البغويُّ به الآية استمدَّهُ من أقوالُ أئمةِ التفسير في الآية كابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم [راجع: تفسير الطبري: ٤/ ٣٣٥٠].

وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾ أي: بدعْواهُم، فإنهم يقولون بغير دليلٍ ولا برهانٍ، وأكثر ما يقالُ الزَّعْمُ في الكذب. وقوله: ﴿ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ عَنَى بالشركاء شياطينَ الجنِّ والإنسِ الذين يُزَيِّنونَ لهم الباطلَ، ومنهم السحرةُ والكهانُ وسَدَنَةُ الأصنام.

وقوله: ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾ قال السُّديُّ: «كانوا يقْسِمون من

أموالهم قِسْماً، فيجعلونه لله، ويزْرعونَ زرعاً فيجعلونه لله، ويجعلون لآلهتهم مثلَ ذلك، فما خَرَجَ للآلهةِ أنْفَقُوهُ عليها، وما خرج لله تصدَّقوا به، فإذا هَلَكَ الذي يصنعونُهُ لشركائهم وكثر الذي لله، قالوا: ليس بُدٌّ لآلهتنا من نفقةٍ، وأخَذُوا الذي لله فأنفقوه على آلهتهم، وإذا أجَدَبَ الذي لله، وكثر الذي لآلهتهم، قالوا: لو شاءَ أزْكَى الذي له، فلا يَرُدّونَ عليه شيئاً مما للآلهة» [تفسير الطبري: ٤/ ٣٣٥٢].

قال اللهُ تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ قال الطبري: «قد أساؤُوا في حكمهم إذْ أخَذُوا من نصيبي لشركائِهِمْ، ولم يُعْطوني من نصيب شركائهم» [تفسير الطبري: ٤/ ٣٣٥٣].

٣- تزيينُ سَدَنَةِ الآلهةِ التي يعبدُها المشركون لأتباعِهِمْ قَتْلَ أولادِهِمْ:

أخبرنا ربُّنا -العليمُ الخبيرُ- أنه كما زَيَّنَ الذين يُعْبَدونَ من دون الله من الكُهَّانِ والشياطين للمشركين الشركَ في المسألةِ التي بيَّنَها اللهُ -تعالى- في الآية السابقة زَيَّنَ الشركاءُ من الكُهَّانِ والشياطين لأتْباعِهِمْ قَتْلَ أولادِهُمْ، فمنهم الذي يقْتُل ابنَهُ خَشْيَةَ الفقر، ومنهم الذي يذْبَحُهُ تقرُّباً إلى الأصنام، ومنهم الذي يئِدُ البناتِ خشيةَ السَّبْيِ والعار ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٧].

وقوله تعالى: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي: ليهْلِكُوهُمْ، وقوله: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: يُشَكِّكُوهُمْ في دينهم ويخْلِطوا عليهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام:١٣٧] أخْبَرَ اللهُ -تعالى- أنَّه لو شاءَ سبحانُهُ ما فعل الشركاءُ هذا التزْيين، ثم تهدَّدَهُمْ بقوله: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي: دَعْهُمْ وما يَفْتَرونَه بقولهم: إنَّ لله شركاءَ.

٤- تصرُّفُ المشركينِ في الأنعام والحرثِ تحليلاً وتحريماً بآرائِهِمُ الباطلة:

أخبرنا اللهُ تعالى عن نوعٍ آخرَ من ضلالِ المشركين، أي: تصرُّفهم في الأنعامِ والغَرسِ والزَّرعِ، فقال: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأنعام:١٣٨].

أعْلَمنا ربُّنا أنَّ المشركينَ زَعَمُوا كاذبين مُفْتَرينَ على الله -تعالى- أنَّ بعضاً من الإبلِ والبقرِ والغنم وبعضاً من الزرع والغرس حِجْرٌ، أي: حَرامٌ، لا يأْكُلُ منها إلاَّ من شاؤوا أن يُطْعِموهُ، لأنَّهم خَصَّصُوا تلكَ الأنعامِ وذلكَ الزرع لآلهتهم التي يَعْبُدوها من دون الله،

وسُمِّي الحرامُ حِجْراً، لأنهُ حُجِرَ على الناس أن يُصيبُوهُ، أي: مُنِعوا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان:٢٢] أي: حرامٌ مُحَرَّماً.

والأنعامُ التي جعَلوها حراماً هي ما سبق بيانه في سورة المائدة عند قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة:١٠١].

وكان من هَدْيِهِمْ الضالِّ أنَّهم يُكْرِمونَ الناقة التي يجُودُ نَسْلها، والفَحْلَ الذي يَكْثُرُ نَسْلُهُ، بأمورٍ شرَّعُوها سَبَقَ ذكرها.

وأخبرنا أنَّ أهلَ الجاهلية منعوا أنْفُسَهُمْ وغيرَهُمْ من ركوبِ بعضِ الأنعام على جهةِ التحريم، وبعضُ الأنعامِ حرَّمُوا ذَبْحَها باسم الله، فلا يذكرون عليها إلا اسمَ آلهتهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ أي: كَذِباً على الله تعالى، فقد كانوا يزْعُمونَ أنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بالتشريعِ على هذا الوجه الذي اخترعوه.

٥- تحريمُهُمْ الأجِنَّةَ التي في بُطونِ الأنعامِ على النساءِ دون الرجالِ:

أعلمنا ربُّنا أنَّ المشركينَ في الجاهليةِ كانوا يُحَرِّمون الأجِنَّةَ التي في بطونِ البحيرةِ والسائبة والوصيلةِ على النساءِ دونَ الرجالِ، فإنْ ولدت نَسْلاً مَيِّتاً أجازوا للنساء أكْلَهُ مع الرجالِ ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الأنعام:١٣٩]. وقوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام:١٣٩] أي: سيكافِئُ هؤلاءِ المشركين ﴿وَصْفَهُمْ﴾ أي: كَذِبَهُمْ على الله، كما قال تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل:٦٢].

وقد عَزا القاسميُّ إلى الشِّهابِ قَوْلَهُ في هذه الآية: «هذا من بَليغ الكلام وبديعِهِ، فإنَهم يقولون: وَصَفَ كلامُهُ الكَذِبَ، إذا كَذَبَ، وعَيْنُهُ تَصِفُ السِّحْرَ، أي: ساحرةٌ، وقَدُّه يَصِفُ الرَّشاقةَ، بمعنَى رشيق مبالغةً، حتى كأنَّ من سَمِعَه أو رآه وَصَفَ له ذلك بما يشْرَحُهُ له» [القاسمي: ٤/ ٥٠٤]. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: حكيم في تدبيره خلقه، عليم بما يُصْلِحُهُمْ.

٦- ذمَّ اللهُ تعالى أهْلَ الجاهليةِ لما ارتكبوه من قَتْلِ الأولادِ وتحريمِ الأنعامِ:

قال اللهُ تعالى ذامّاً ما ارْتَكَبَهُ أهلُ الجاهليةِ من قَتْلِهِمْ أوْلادَهُم وتحريمهِمْ ما حرَّموه من الحَرْثِ والأنعامِ افتراءً على الله، أي كذباً على الله، قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ

سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

قال ابن الجوزيُّ: «قال ابنُ عباسٍ: نزلتْ في ربيعةَ ومُضَرَ، والذين كانوا يدْفِنونَ بناتِهِمْ أحياءً في الجاهلية من العَرَبِ، وقال قتادةُ: كان أهلُ الجاهليةِ يقتل أحَدُهم بنْتَهُ مخافةَ السبْيِ والفاقة، ويغْذو كَلْبَهُ، وقال الزَّجاجُ: ﴿سَفَهَۢا﴾ منصوبٌ على معنى اللام، تقديره: للسَّفهِ، وقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ كانوا يفعلون ذلك للسفه من غير أنْ يأتيهم عِلْم في ذلك، وحرَّموا ما رَزَقَهُمْ اللهُ من الأنعام والحرث، وزعموا أنَّ اللهَ أمرهم بذلك» [زاد المسير: ٣/ ١٣٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعملٍ

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- في آيات هذا النص ذِكْرٌ لبعض ما كان عليه العربُ في الجاهلية من جهل في العقيدة والتشريع.

٢- كان أهلُ الجاهلية يجعلون من ثمارِ أشجارهم ومن الأنعام شيئاً لله وشيئاً للأصنام، وكانوا إذا ذهب شيءٌ مما جعلوه لشركائهم لله ردّوه لأصنامهم، وإذا ذهب شيءٌ مما جعلوه لأصنامهم لم يردُّوه لله.

٣- من الضَّلال العظيم الذي وقع فيه أهلُ الجاهلية قتْلُ أولادِهِمْ خشيةَ الفقر، أو تقرباً للأصنام، ووأْدُ البناتِ خشيةَ العارِ والسبي.

٤- خصَّ أهلُ الجاهلية ما في بطون البحيرة والسائبة والوصيلة بالذكور منهم دون النساء، فإنْ وَلَدَتْه ميتاً اشترك الرجالُ والنساءُ في أكْله.

٥- ذمَّ اللهُ تعالى أهلَ الجاهليةِ بقتلهم أولادَهُمْ، وتحريمهم ما حرَّموه من الأنعام والحرثِ.

٦- لا يزال كثيرٌ من الكفارِ يفعلون ما كان يفعله أهلُ الجاهلية من تقديم الأنعام قرابينَ للأوثان، ويتقدَّمون بالهدايا من الورود وغيرها للأنصاب والأوثان.

٧- في بعض ديار المسلمين بقايا من الشركِ في النذْرِ للقبور والجنِّ وغيرهم.

النص القرآني الثالث والعشرون من سورة الأنعام
ذِكْرُ ما أبْدَعَهُ الله في الكون مِنْ جناتٍ وأنعامٍ ومناقشة المشركين فيما حَرَّموه من أنعام

أولاً: تقديم

بيَّنَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آيات النص السابق جهالاتِ أهل الجاهلية فيما حرَّموه على أنفسهم ونسائِهم من الحرثِ والأنعام، وبيَّنَ لنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في آيات هذا النص ما خَلَقَ لنا من الجنات والأنعام وجاءَنا بالأدلة والبراهين الدالة على ضلالِ أهلِ الجاهلية فيما حرَّموه من الأنعامِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأنعام:١٤١-١٤٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ -تعالى- الذي أبْدَعَ لنا ما في الأرض من جناتٍ:

أعلمنا ربُّنا -العليُّ العظيمُ- أنّه ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ ﴾ [الأنعام:١٤١]، أي: هو -سبحانه- الذي أنشأ لنا جناتٍ معروشاتٍ وغير معروشات، والمرادُ بالمعروشات بساتينُ الأعنابِ المرفوعةِ على الأعمدة والعروشِ، وغير المعروشات ما لم يرفع، بل هو ملقىً على الأرض.

والجناتُ: البساتينُ التي يحُفُّها الشجرُ، مأخوذةٌ من جَنَّ إذا سَتَرَ، لأنها تَسْتُرُ بأشْجارِها من يكون تحتها.

وقد تكونُ هذه الجناتِ من أشجار النخيل أو الزيتونِ أو الرمانِ، وقد يُزْرَعُ بين الأشجارِ الحبوبُ من القمحِ والشعير والذرة، وقد يُزرع فيها الرياحينُ وغيرُها، وقوله: ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي: مُخْتَلِفاً طَعْمُهُ، فقد يكونُ حُلْواً، وقد يكون حامِضاً، وقد يكون بين ذلك.

والزيتونُ أنواعٌ كثيرةٌ، تتشابَهُ فيما بينها، في منظَرِها وطَعْمِها، وقد تختلفُ فيما بينها، ومثلُ ذلك يقالُ في الرمانِ، تتشابَهُ في المنظرِ، وقد تختلفُ، وقد يكون من الرُّمانِ الحلوُ والحامضُ.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام:١٤١].

هذا الأمرُ الذي أمَرَنا به في الآيةِ، وهو الأمْرُ بالأكْلِ من ثمارِ الأشجارِ من العنب والنخل والزيتون والرمان أمْرُ إباحةٍ، وهو يأتي في مقابلِ ما حرَّمه أهْلُ الجاهلية من الحرثِ، وأمَرَنا مع الأكْل أن نؤتي حقَّه يومَ حصادِهِ، والحقُّ الذي أُمِرَ المؤمنينَ بإيتائه حقٌّ غير مقدَّرٍ يُخْرِجُهُ صاحبُهُ من ثمارِ الأعنابِ والنخيلِ والزيتون والرمانِ، وليس المرادُ به الزكاةُ، فهذه الآيةُ مكيةٌ، ولم تكن الزكاةُ قد فُرضت بعدُ، ولو كانت الآيةُ في شأنِ الزكاة لما أمر فيها بإخراجِ نصيبٍ من بساتينِ الرُّمان، فإن الرمانَ لا زكاةَ فيه، وكذا لا يَصِحُّ الاحتجاجُ بالآية على وجوب إخراج الزكاةِ من الزيتونِ، ومما يدلّ على أن الآية ليستْ في الزكاة أنَّ الزكاةَ تُؤَدَّى في يوم الحصاد.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ نَهْيٌ عن إخراجِ ربِّ المال ما يَضُرُّ به وبمن يتوَّلى الإنفاقَ عليه من الذريَّة والزوجةِ وغيرهم، وعلَّلَ النهيَ عن الإسراف بأنه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ .

٢- امتنانُ الله علينا بما خَلَقَهُ لنا من الأنعامِ وتحريمُهُ علينا أنْ نُحرِّمَ شيئاً منها على أنفسنا:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآية السابقة أنَّه أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغير معروشاتٍ، ثم عطفَ عليها الآية التالية وهي قولُه سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام:١٤٢].

أي: وهو الذي أنشأَ جناتٍ معروشاتٍ، وغير معروشات، وأنشأ حمولةً وفرْشاً من الأنعامِ،

فاللهُ -سبحانه- هو الذي رزقنا أنواعَ الحبوبِ والأشجارِ وأنواعَ الأنعام، والحمولَةُ، الإبلُ الكبارُ التي يُرْكَبُ عليها، ويُحْمَلُ عليها، والفَرْشُ الصِّغارُ من الإبلِ، والضأْنُ والمعز والبقر مما لا يُحْمَلُ عليه، سمى صَغارَ الإبل والغنمِ والبقرِ فرشاً لقربها من الأرضِ، فهي كالفَرْشِ، وقيل: الفَرْشُ ما يُفْرَشُ على الأرضِ حينَ الذَّبح، وقال ربُّ العزة في الحمولةِ من الإبلِ التي يُحْمَلُ عليها الأثقالُ: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾ [النحل:٧] وقال: ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس:٧٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أي كُلُوا مما رزقكُمُ اللهُ من الجناتِ، ومِنَ الأنْعامِ سواءً كانت حَمولةً أو فَرْشاً، ولا تُحَرِّموا على أنْفُسِكم شيئاً، ولا تجعلوا منه للأصنام شيئاً.

وقوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ نهانا عن اتباع خُطُواتِ الشيطانِ، فإننا إذا اتَّبَعْنا خطواتِهِ أَضَلَّنا وأدْخَلَنا النارَ، فهو عَدوُّنا الذي كاد أبانا آدمَ وأُمَّنا حَوَّاءَ، والخطواتُ: جمعُ خُطْوةٍ، وهي طُرُقُهُ المضلَّة، ومنها تلك التشريعاتُ التي يُحِلُّ بها ما حرَّمَ اللهُ، ويُحرِّمُ ما أحَلَّ، كما بيَّن اللهُ تعالى ذلك في آيات النصِّ السابق.

٣- بيانُ ضَلالِ أهْلِ الجاهلية فيما أحلُّوه وحرَّموه من الأنعام:

بَيَّن اللهُ تعالى لنا مدى الضلالِ الذي وَقَعَ فيه أهلُ الجاهلية فيما أَحَلُّوهُ وحرَّمُوهُ، فقال: ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٣].

قولُهُ تعالى: ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ المرادُ بالأزواجِ: الأصنافُ، وكُلُّ شيءٍ يحتاج إلى أن يجتمعَ مع واحدٍ من جنْسه تُسَمِّيهُ العربُ: زوجاً، كالخُفِّ، فإنه يحتاجُ إلى خُفٍّ آخر، فهو زوجُهُ، وكالذكر فإنه يحتاجُ إلى أنثى.

و﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ بدل من ﴿ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ أي: أنزل لكم من الأنعام حَمولَةً وفرشاً، ثم بيَّنَ الحمولةَ والفرشَ ما هي، فذكر أنها ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ .

وقوله: ﴿ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ﴾ الضأنُ الغَنَمُ الذي له صوفٌ، وقوله: ﴿ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ المَعْزُ الغَنَمُ الذي له شعْرٌ، والزوجان من الضأنِ: ذَكَر الضأنِ وأنثاه، وهما الكَبْشُ والنَّعْجَةُ، والزوجانُ من المعزِ، وهما: التَّيْسُ والمَعْزَةُ، فهذه أربعةُ أصنافٍ من الأزواج الثمانية.

وبيَّن اللهُ تعالى ضلال المشركينَ بقوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ . كان أهلُ الجاهلية يزعمون أنَّ اللهَ حرَّمَ بعضَ الذكورِ من الضأنِ والمعز، وبعضِ الإناثِ منهما، ويحرِّمون بعضَ ما اشتملتْ عليه أرحامُ الأنثيين، فقال لهمُ مقرعاً ومُبكِّتاً: أحرَّم اللهُ الذكرين من الضأنِ والمعزِ، فيكون كل ذكر حراماً، إذا كانت العِلَّةُ الذكورةُ، فإن كانت العلةُ الأنوثةُ، فتكون كلُّ أنثى حراماً، أما تحريمهم لبعض الذكور وبعض الإناث من غير ضابط فإنه ضلالٌ لا ينضبطُ مع ما يهدي إليه العقلُ الصحيحُ، وكذلك في تحليلهم وتحريمهم لما اشتملت عليه أرحامُ الأنثيين، فإن كان المحرَّمُ كلَّ ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فإنه يشمل الذكر والأنثى من الأجنة، فهذا التفريق بين كلٍّ من الذكرِ والأنثى وما اشتملت عليه أرحامُ الأنثيين لا يقومُ على قاعدةٍ مستمرةٍ وأمرٍ منضبطٍ، وهذا يدلُّ على اضطرابٍ فيما شرَّعُوه وذهبوا إليه.

وبعد هذا البيانُ لضلالهم فيما شرَّعوه قالَ لهم مُبكِّتاً ومُقرِّعاً: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ أي: أخْبِروني بيقينٍ عن الوجهِ الذي حُرِّمَ عليكم فيما تزعمونَ تحريمه. ثم سألهم في شأن الأزواج من الإبل والبقر مثل ما سألهم في شأن الضأن والمعز، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٤].

٤- **الدليلُ على كَذِبِ الكُفَّار فيما زَعَمُوا أنَّ اللهَ تعالى هو الذي حرَّمَ ما حرَّموه:**

بيَّنَ اللهُ -تعالى- ضلالَ المشركين في نسبتهم التحريم إلى ربِّ العزة -سبحانه- فقال: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ﴾ أي: هل كنتم حاضرينَ حين قال اللهُ -تعالى- لكم هذا حلالٌ وهذا حرامٌ على الوجهِ الذي تفترونَهُ وتزعمونه على الله تعالى؟

وقد كان أهْلُ الجاهلية إذا عجزوا وغُلبوا بالدليل قالوا: وَجَدْنا عليه آباءَنا، واللهُ أمرنا بها، فقال الله تعالى لهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام:١٤٤]. وفي هذا تكذيبٌ لهم فيما شرَّعُوه بعقولهم، ثم عَزَوْهُ إلى ربِّ العِزَّةِ زُوْراً وكَذِباً، ويدخلُ في هذه الآية كلُّ من قال بأمورٍ تخالف الشَّرْعَ، ودعا الناس إلى قوْلِهِ.

فإن قيلَ: كيف يقولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ مع أننا نرى في الماضي والحاضر أنَّ بعضَ الكفار، بل بعض رؤسائهم قد آمنوا، والجوابُ: أنَّ الذين لا

يهديهم اللهُ تعالى هُمُ الذين كتبَ عليهم عَدَمَ الإيمانِ، كما قال ربَّنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - أَبْدَعَ اللهُ -تعالى- لنا ما شاءَ من الجناتِ المكوَّناتِ مِنَ الأشجارِ والزروعِ المختلفة المتنوعة.

٢- أباحَ اللهُ تعالى الأكْلَ مما خَلقَهُ لنا من الثمار، وأمَرنا أن نُخْرِجَ جُزْءاً للفقراء والمساكينِ والمحتاجين نريدُ به وَجْهَ الله، ونهانا عن الإسراف فيما نُخْرِجُهُ.

٣- خَلَقَ اللهُ لنا ربُّنا -تعالى- ثمانيةَ أزواج من الأنعامِ، منها كبيرٌ الذي يصلح لأنْ يُشْربَ حَليبُهُ، ويُؤْكَل لحمُهُ، ويُرْكَبَ ظَهْرُهُ، كالإبل الكبارِ، ومنها صِغارُ الإبل والبقر والضأنُ والمَعْزُ الذي يُشربُ لَبَنُه ويؤكَلُ لحمه.

٤- أهلُ الجاهلية حرَّموا على أنفسهم من الأنعامِ ما لم يسيروا فيه على قاعدةٍ سويةٍ مُنْضَبِطةٍ، فحرَّموا وأحلُّوا بأهوائهم غيرَ متَّبعينَ ما يُلْزِمُ به العلمُ الصحيحُ.

٥- استعمل القرآنُ ما يسميه الأصوليون السبر والتقسيم لبيانِ ضلالِ الكفار.

النص القرآني الرابع والعشرون من سورة الأنعام
بيانُ ما حرَّمه على هذه الأمةِ وما حرَّمه على اليهودِ من قبلنا

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ لنا ما حرَّمه علينا في آياتِ هذا النص، وما حرَّمه على اليهودِ من قبلنا، وردَّ اللهُ على المشركين في دَعْواهُمْ أنَّ اللهَ تعالى شاءَ شِرْكهم وما حرموه على أنفسهم ورضيه، وهذا غير صحيح، فلو رضيه فإنه لا يُعَذِّبُهُمْ عليه في الدنيا ولا في الآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام:١٤٥-١٥٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- بيانُ الله -تعالى- لما حرَّمه على العباد:

أَمَرَ اللهُ تعالى عَبْدَهُ ورسولَه محمداً ﷺ أنْ يقولَ للكفار الذين حرَّموا ما سَبَقَ ذِكْرُه بأهوائِهم: ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام:١٤٥].

وهذه الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ التحريمَ لا يكون إلا بالوحي والتنزيل لقوله: ﴿فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وقوله: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾، أي: آكلٍ يأكُلُه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام:٣٨]، وكقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة:٧٩].

وقوله: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ الدمُّ المسفوحُ: الدَّمُ المصبوبُ المُراقُ، وهو ما يَخْرجُ من الأوْداجِ عند ذَبْحِ الشاةِ أو البقرةِ، فأما الدَّمُ غير المسفوحِ، وهو الذي خالطَ اللَّحْمَ، فلا بأسَ به، وهذا من رحمة الله بهذه الأمةِ، فلو حرَّم عليهم كلَّ دَمٍ لشَقَّ على الناس تَتَبُّعُه واستخراجُهُ من أعضاءِ الذبيحةِ.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ والرجْسُ: القَذِرُ النَّجِسُ، وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ الضميرُ عائدٌ على لحْمِ الخنزير، خلافاً لما ذهب إليه ابنُ حَزْمٍ في إعادةِ الضمير على المضاف إليه، وهو الخنْزيرُ، قالَ ذلك ليجْعَلَ النصَّ مُحرِّماً للحم الخنزيرِ وشحمه بلفظه، والصوابُ: أنَّ الضمير يعودُ إلى اللحم، لأنَّه المتحدثُ عنه، وأجمعَ العلماءُ على تحريمِ شحْمِ الخنزيرِ قياساً على لحمه، فإنَّ الشَّحْمَ نظيرُ اللحم.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ والمرادُ بالفسقِ هنا ما ذُبح لغير الله، وأصْلُ الإهْلالِ في لغةِ العرب: رَفْعُ الصوتِ، سُمِّيَ إهْلالاً، لأنهم كانوا إذا ذَبحوا لأصنامهم، رفعوا أصواتَهم باسمها، فصارَ الإهلالُ يُطلَقُ على كلِّ ما ذُبِح لغير الله.

وأصلُ الفِسْقِ: الخروجُ مِنَ الدِّين، ولعظم جريمةِ الذين يذبحون الأنعام باسم أصنامهم جَعْلَ إهلالَهم بذلك عَيْنَ الفِسْق.

٢- أباح اللهُ تعالى أكْلَ المحرماتِ للمضْطَرِّ:

أباحَ اللهُ تعالى للمضْطَرِّ الذي لا يَجِدُ حلالاً يأْكُلُهُ أنْ يأكل مِنَ المحرماتِ التي سَبَقَ ذِكْرُها، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ [الأنعام:١٤٥]، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ [المائدة:٣]، وقال ربّنا في موضعٍ ثالثٍ: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ [الأنعام:١١٩].

وقولُهُ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ أي: فمن أُلْجِئ إلى أنْ يأْكُلَ من هذه المحرماتِ، فإنه يباحُ له، والضروراتُ أنْ لا يَجِدَ ما يأكُلُهُ، ويخشى إن لم يأْكُلْ مِنَ المحرماتِ أن يموتَ ويَهْلِكَ.

وقولُهُ: ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ الباغي: الذي يَخْرُجُ على إمام المسلمين وسلطانِهِمْ، والعادي: الذي يَخْرُجُ على الناس، ويقطعُ الطريقَ، وينْهَبُ، ويجرحُ، ويقتلُ، فهذان لا يُباحُ لأيٍّ منهما الأكلُ من المحرمات إلا إذا تابوا.

وقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ أي: غفورٌ رحيم لمن اضطرَّ لأكْلِ المحرمات في حال كونِهِ غير باغٍ ولا عادٍ.

٣- ما حرَّمه اللهُ تعالى على اليهود:

أخبرنا ربُّنا عمَّا حرَّمه على اليهود من قبلنا، فقال: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ﴾ [الأنعام:١٤٦].

أي: حَرَّم عليهم كلَّ ذي ظُفُرٍ، وهو ما لم يكن مشْقوقَ الأصابعِ كالإبل والنَّعام والإوزِّ والبطِّ. قال ابنُ منظورٍ: «الظُّفُر: مَعروفٌ، وجَمْعُهُ أظْفارٌ، يكونُ للإنسان وغيرهُ، وقالوا: الظُّفُرُ لما لا يَصيدُ، والمِخْلَبُ لما يَصيدُ، وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ [الأنعام:١٤٦] دَخَلَ في ذي الظُّفُرِ ذواتُ المناسِم من الإبلِ والنَّعامِ، لأنها كالأظفارِ لها» [لسان العرب: ٣/ ٦٤٤].

وحَرَّم عليهم شحومَ البقرِ والغنمِ، واستثنى مما حرَّمه عليهم من شحوم البقر والغنم ما حملت ظهورهُما، وهو ما عَلق بظهرِ البقرةِ والغَنَمةِ، فإنه حلالٌ، وأحلَّ لهم ما حَمَلَتْهُ الحوايا، والحوايا جُمْعُ حاوية، مثل زوايا جمع زاوية، والحوايا ما تحوَّى في البَطْنِ، واسْتدارَ فيه، وتُسَمَّى بالمباعِرِ والمرابِضِ، وتُسَمَّى الدُّوَّارةُ والمصارينُ، فما على الحَوايا مشروعٌ حلالٌ لهم أكله، وأحلَّ لهم من شحومِ البقر والغنم ما اخْتَلَطَ بعظمٍ، ومنه شحمُ الرَّقَبَةِ، وشحمُ الإلْيةِ، فإنه مختلطٌ بعظم العُصْعُصِ، ولا يزال بقايا هذه التشريعات موجودةً في التوراة، جاء في [سفر اللاويين، الإصحاح الحادي عشر: ١-٨]:

«وكَلَّمَ الربُّ موسى وهارونَ قائِلاً لَهُما: (٢) كَلِّما بَني إسرائيلَ قائلين: هٰذِهِ هِيَ الحيوانات التي تأْكُلُونَها من جميعِ البَهائِمِ التي عَلَى الأرْضِ: (٣) كُلُّ ما شَقَّ ظِلْفاً وقَسَمَهُ ظِلْفَيْنِ، ويَجْتَرُّ مِنَ البَهائِمِ، فإيَّاهُ تَأْكُلونَ. (٤) إلاَّ هذِهِ فَلا تأْكُلوها ممَّا يَجْتَرُّ وممَّا يَشُقُّ الظِّلْفَ: الجَمَلَ، لأنَّه يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لا يَشُقُّ ظِلْفاً، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ، (٥) وَالوَبْرَ، لأنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لاَ يَشُقُّ ظِلْفاً، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ، (٦) والأرْنَبَ، لأنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لاَ يَشُقُّ ظِلْفاً، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ، (٧)

والخِنْزِيرَ، لأَنَّهُ يَشُقُّ ظِلْفاً ويَقْسِمهُ ظِلْفَيْنِ، لكِنَّهُ لاَ يَجْتَرُّ، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. (٨) مِنْ لَحْمِها لا تأْكُلُوا وجُثَثَها لاَ تَلْمِسُوا. إنَّها نَجِسَةٌ لَكُمْ».

وهذا النصُّ من التوراة يفيد ما يأتي:

أولاً: أحَلَّ اللهُ -تعالى- لبني إسرائيل في التوراة كلَ ما شَقَّ ظِلْفاً، وقسمه ظِلْفَينِ، أما ذو الظُّفُر، فهو حرام.

ثانياً: مَثَّلَ النصُّ لذي الظُّفُر الذي يَحْرُمُ عليهم بثلاثِ حيوانات، وهي: الجملُ، والوَبْرُ، والأَرْنَبُ، لأنها لا تشقُّ ظلفاً.

ثالثاً: نصَّ على حرمة الخنزير، لعلة أخرى.

وقد نصَّ [سفر اللاويين، الإصحاح السابع: ٢٣] على أنَّ «كُلَّ شَحْمِ ثَوْرٍ أو كَبْشٍ أو ماعِزٍ لا تأْكلوا» وهذا غيرُ صحيحٍ على إطلاقِه، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ ، فليس كلُّ الشحم كان محرماً عليهم، فقد أحَلَّ اللهُ منه شحْمَ الظهرِ، والشحومُ التي في الحوايا، والشحمُ الذي اختلط بعظمٍ.

وقد بينت التوراة في الإصحاح الأوَّلِ والثالثِ من سفر اللاويين الحيوانات التي يقدمونها قرابين، ويجوزُ لهم أن يأكلوا منها، وهي: البقرُ والضأنُ، ومنه الكَبْشُ والمَعْزُ الذي هو الغَنَمُ.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٦]. أي: هذا التحريمُ الذي حَرّمه عليهم من الطيباتِ كالإبلِ والنعامِ والإوزِّ والبطِّ، وبعض شحومِ البقرِ والغنمِ كان ببغيهمْ، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء:١٦٠-١٦١]، وقوله: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٢١]، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام:١٤٦] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٧]. وصيغة الجمع في قوله: ﴿وَإِنَّا﴾ للتعظيم.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام:١٤٧]. أي: وإن كَذَّبَكَ اليهودُ، بقولهم: لم يُحرِّمْ ربُّنا علينا هذه

المحرماتِ، وقد بيَّنْتُ أنَّ التوراة لا زالتْ تذكر أنَّ اللهَ حرَّمَ عليهم هذا الذي ذكره القرآن، ولذلك طالبهم ربُّنا أن يأتوا بالتوراة فيتلوها ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران:٩٣].

أمَرَ اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للمكذبين منهم: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧] ومن رحمته الواسعة بهم أنَّه لم يعاجلهم بالعقوبة، وتأنَّى بهم، وأفاضَ عليهم من نعمه، مع تكذيبهم الرُّسلَ، وما أنزلُه في الإنجيل والقرآن. وقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام:١٤٧]، وبأْسُهُ: عذابُه، أي: لا يستطيع أحد أن يردَّ ما يريد إنزاله بكم من بأسٍ وعذاب، والمجرمونَ: الذين ارتكبوا عظائم الذنوب من الشركِ والكفرِ وتكذيبِ الرسلِ وقتلِ الأنبياءِ.

٤- دعوى المشركين أنَّ اللهَ -تعالى- رَضِيَ شِرْكَهُمْ وكُفْرَهُمْ:

أعْلَمَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المشركينَ احْتَجُّوا على صِحَّةِ شِرْكِهِمْ. وكُفْرِهم وشِرْكِ آبائِهم وكُفْرِهم، وصحة تحريم ما حرَّموهُ بأنَّ اللهَ شاءَهُ وارْتَضاهُ ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨] أما أنَّ اللهَ تعالى شاءَه فهذا صحيح، فإنه لا يقعُ في هذا الكون شيء إلا ما يريدُهُ اللهُ ويشاؤُهُ، ولو وقع في كوْنِهِ ما لا يُريدُهُ ولا يشاؤُه، فإنه يكون مغلوباً مقهوراً.

ولكن لا يلزم من كوْنِهِ تعالى شاءَهُ أنَّه أحبَّه ورَضِيَهُ، فاللهُ قد يشاءُ الشيءَ، ولكنه يكْرَهُهُ، ولا يحبُّه، فقد شاءَ وجودَ إبليسَ، ولكنَّه لا يحبُّه، ويشاءُ وقوعَ الكفرِ، والشِّرْكِ، والزِّنا، وشَرْبِ الخمر، ولكنَّه لا يحبُّ ذلك، ويكْرَهُهُ، وهذه الحجَّةُ الباطلةُ احتجَّ بها الضالون الذين ضَلُّوا من السابقينَ، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٨].

وقد ردَّ اللهُ تعالى على هذه الحجةِ التي احتجَّ بها المشركونَ في القديمِ والحديثِ ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] أي: لو كانت حُجَّة المشركينَ صحيحةً لما عَذَّبَ اللهُ الذين ارتكبوا الشِّرْكَ وأوْقَعَ بهم عقابَهُ، كما فعل بقومِ نوح وقوم هودٍ وقومِ صالحٍ وقوم فرعونَ وغيرهم، ولما عَذَّبَ هؤلاء الذين ارتكبوا هذه الجرائم الموبقات في النار في يومِ القيامة. ولذا فإنَّ مشيئةَ الله كُفْرُهُمْ وشَرِكْهُمْ مشيئةٌ قَدَرِيَّةٌ، وليستْ مشيئة دينية، والمشيئةُ القدريةُ لا يلزم معها محبةُ الله لها، ورضاهُ عنها.

وقولُه جلَّ وعلا: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام:١٤٨]، أمَرَ الله تعالى رسولَه ﷺ أنْ يقولَ للمشركينَ: هل عِنْدَكُم من عِلْمٌ يدلُّ دلالةً قاطعةً على أنَّ اللهَ رضي شِرْكَكُمْ وذُنوبَكَمْ ومعاصيَكُمْ، فإن كانَ عندكم عِلْمٌ يدلُّ على ذلك فأخْرِجُوه وبيِّنُوه، والصوابُ من القولِ أنهم لا علم عندهم يدلُّ على شيءٍ من ذلك، وكلامهم مبنيٌّ على ظنونٍ وأوْهام، وتخرصاتٍ باطلةٍ، وقوله: ﴿تَخْرُصُونَ﴾ أي: تكذبون.

٥- للهِ الحُجَّة البالغةُ على خَلْقِهِ سبحانه وتعالى:

أخْبَرَنا ربُّنا الحكيمُ العليم -سبحانه- أنَّ له الحجةُ البالغةَ على خَلْقِهِ، و﴿ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ هي التي يبلُغُ بها صاحِبُها غَرَضَهُ، لإفْحامِ خَصْمِهِ، وإظْهارِ الحقّ، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام:١٤٩] وقد تحققتِ الحجةُ البالغةُ على الخَلْقِ بإرْسالِ الله الرُّسُلَ وإنزالِ الكُتُبِ، وإقامة المعجزاتِ، ولو شاءَ اللهُ تعالى لهَدى الناسَ جميعاً إلى دينه القويم، ولكنه لم يَشَأْ، كما قال ربُّ العزةِ سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة:١٣].

٦- دعوةُ المشركينَ إلى أنْ يدْعُوا شركاءَهُمْ إلى شهادةِ أنَّ اللهَ حرَّم ما حرَّموهُ:

أمَرَ اللهُ -سبحانه وتعالى- أنْ يطْلُبَ من المشركينَ أن يدْعُوا شُهَداءَهُمْ، ليشهدوا أنَّ اللهَ تعالى حرَّم ما حرَّموه، من البحيرةِ والوصيلة والحام ونحوها، وقد نهى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يَشْهَدَ معهم إنْ شَهِدُوا، ولا يُتابِعَهُمْ فيما شرَّعُوهُ بأهوائِهِم، ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام:١٥٠].

وقوله تعالى: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي: أَحْضِرُوا شُهَداءَكم وقرِّبُوهُمْ، المرادُ بهم الذين يشهدون لهم أنَّ اللهَ تعالى حَرَّم المحرماتِ التي حرَّمُوها، وقد نهى اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يَشْهَد معهم، لأنَّ شهادتهم في هذه الحال شهادةُ زورٍ، وهم يَشْهَدون متابعةً لأهْوائِهم، والرسولُ ﷺ لا يتَّبعُ أهواء البشر الذين لا يؤمنون بيوم القيامة، وهم يعْدلون آلهتهم بالله في عبادته سبحانه.

رابعا: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- التحريمُ لله تعالى وَحْدَهُ، فلا يجوزُ لرئيسٍ أو زعيم أو طائفةٍ أنْ تُحِلَّ وتحرِّمَ بعيداً عن الوحي الإلهيِّ الربانيِّ المنزل من عند الله.

٢- الذي حرَّمه ربُّ العزَّةِ في العهد المكيِّ كان محصوراً في: الميتة، والدم المسفوح، ولحمِ الخنزيرِ، وما أُهِلَّ لغيرِ الله به، وزادَ اللهُ على ذلك في المدينة تحريم الخمرِ، وزادَ الرسولُ ﷺ عليهِ الحُمُرَ الأهلية، وكلَّ ذي نابٍ من السباع، وكل ذي مخلب من الطير وغيرها.

٣- يجوز للمضطر الذي لا يَجِد غيرَ هذه المُحرَّماتِ أنْ يأْكل منها بشرط أن لا يكون باغياً ولا عادياً.

٤- أعْلَمنا ربُّنا عمَّا حرَّمَه على اليهودِ من قبلنا، فقد حرَّم عليهم كلَّ ذي ظُفُر، ومنه الجمالُ، والنعام، والبط والإوز ونحو ذلك، وحرَّم عليهم من البقرِ والغنَمِ شُحومَها إلا شحم الظَّهر والشَّحم الذي غطَّى المصارينَ، والشحم الذي خالَط العظمَ.

٥- حرَّم اللهُ على اليهودِ بعضَ الطيباتِ، ومنه ما ذَكَرهُ اللهُ في هذه الآية، وكان هذا التحريم بسبب ما ارتكبوه من ذنوب.

٦- احتجَّ المشركونَ على كُفْرِهِمْ وشركهم بأنَّ اللهَ شاءَه ورضيه، وقد كَذَبوا وضَلُّوا فيما احتجُّوا به، فاللهُ إن شاءَ كُفْرَهُمْ وضَلالَهم، فهو لا يُحِبَّه ولا يرضاه، ولذلك نهاهم عنه، وعاقبهم عليه.

٧- اللهُ تعالى له الحجَّةُ البالِغةُ على خَلْقِهِ، فمن هَداه فَقَدْ تَفَضَّلَ عليه، ومَنْ حَرَمه من الهدايةِ فقد مَنَعَهُ شيئاً هو له سبحانه.

النص القرآني الخامس والعشرون من سورة الأنعام

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

أولاً: تقديم

هذه الآيات التي اشتمل عليها هذا النصُّ الكريمُ آياتٌ عظيمةٌ، وهي مِنْ أعظم الآياتِ التي خاطبَ اللهُ بها عبادَهَ من هذه الأُمَّةِ، وقد أوْرَدَ السُّيوطيُّ الحديث الذي أخْرَجَهُ الترمذيُّ بإسنادٍ حَسَنٍ، وأخْرَجه ابنُ المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ وأبو الشيخ وابن مَرْدَوَيْهِ عن ابن مَسْعودٍ قالَ: «مَنْ سَرَه أن يَنْظُرَ إلى وَصَيَّةِ محمد التي عليها خاتماً، فلْيَقْرَأْ هؤلاءِ الآياتِ: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام:١٥١] إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣]».

وهذه الوصايا التي أوْصانا اللهُ تعالى بها عَشْرُ وصايا، وهي أعظمُ من الوصايا العشر التي أنزلها على عَبْدِهِ ورسولِهِ موسى عليه السلام، فالوصايا الثلاثةُ الأولى من وصايا موسى العشر موجودة في هذه الوصايا العشر التي في هذا النصّ، والوصايا الستة الأخرى التي أنْزَلها على موسى ابتداءً من قوله: «لا تزن» تضمنتها وصيةٌ واحدةٌ في هذه الآياتِ، هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ والوصية الخاصَّةُ بترك العمل في يوم السبتِ وصيةٌ خاصة ببني إسرائيل دون غيرهم، وعلى ذلك فنكون قد فُضِّلْنا على بني إسرائيل بوصايا غير موجودةٍ في وصاياهم العشر، وهي النَّهْيُ عن قَتْلِ الأولادِ، وعَدَمُ قربانِ مالِ اليتيم إلا بالتي هي أحْسَنَ، والوفاءُ بالكيلِ والميزانِ، والوفاءُ بالعهودِ، واتباع صراط الله المستقيم.

وقد جاءَ ذِكْرُ الوصايا العشرِ في موْضِعَيْنِ من التوراةِ، الأوَّلُ في [سفر الخروج، في الإصحاح المتمم للعشرين: ١-١٧] والثاني في [سفر التثنية، في الإصحاح الخامس].

وسأذكر هنا هذه الوصايا من سفرِ الخروجِ، فقد جاءَ فيه:

«(١) ثم تكلَّم الله بجميع هذه الكلمات قائلاً: (٢) أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية (٣) لا يكن لك آلهةٌ أخرى أمامي (٤) لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورةً ما ممَّا في السماءِ من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض. (٥) لا تسجد لهنَّ ولا تعبدهنَّ. لأني أنا الرب إلهك إلهٌ غيور أفتقد ذنوب الآباءِ في الأبناءِ في الجيل الثالث والرابع من مبغضيَّ. (٦) وأصنع إحساناً إلى أُلوفٍ من مُحِبِّيَّ وحافظي

وصاياي. (٧) لا تنطقْ باسم الرب إلهك باطلاً. لأن الرب لا يُبَرِئُ من نطق باسمِه باطلاً. (٨) اذكر يوم السبت لتقدّسهُ، (٩) ستة أيامٍ تعمل وتصنع جميع عملك. (١٠) وأما اليوم السابع ففيه سبتٌ للرب إلهك. لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك. (١١) لأن في ستة أيامٍ صنع الرب السماءَ والأرض والبحر وكلَّ ما فيها. واستراح في اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم السبت وقدَّسهُ[1]. (١٢) أكرِم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. (١٣) لا تقتل (١٤) لا تزنِ (١٥) لا تسرق (١٦) لا تشهد على قريبك شهادة زورٍ (١٧) لا تشتهِ بيت قريبك. لا تشتهِ امرأة قريبك ولا عبدهُ ولا أمتهُ ولا ثورهُ ولا حمارُه ولا شيئاً مما لقريبك».

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النعام

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النصِ مِنَ القرآن

١- أَمْرُ اللّه -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يدعُوَ الناسَ ويقُصَّ ما حرَّمَ اللّهُ عليهم:

أمر اللهُ تعالى عَبْدَهُ ورسولَه محمداً ﷺ أنْ ينادي الناسَ جميعاً، ويقول لهم: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ [الأنعام:١٥١]. و﴿تَعَالَوْا﴾ فعل ماضٍ، ومعناه، تعالَوْا إليَّ، واحْضُروا عندي. وقولُهُ: ﴿أَتْلُ﴾ أقْرأ وأَقُصُّ ما حرَّمَهُ عليكم ربُّكُمْ، ويُطلَقُ التحريمُ في الشَّرْعِ على ما حرَّمَهُ الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ فمعناه: أنَّ

(١) دعوى أن السبت سبت الله غير صحيحة، ودعواهم أنَّ الله استراح في اليوم السابع كذب على الله تعالى، فالله لم يأخذه تعب في خلقه السماء والأرض وليس بحاجة إلى الراحة، فإنَّه لا يَمَسُّه التعب.

هذا الذي أَتْلُوْهُ عليكم مُحَرَّمٌ، وقوله بعدها: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ عَدَمُ الشِّركِ ليسَ مُحَرَّماً، بل هو واجب، وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ برُّ الوالدين ليس بمُحَرَّمٍ، بل هو واجبٌ.

«وأظْهَرُ الأجوبةِ وأحْسنُها -كما يقولُ العلاَّمةُ محمدُ الأمين الشنقيطي- أنَّ معنى قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فِعْلاً وتَرْكاً، وأنَ التَّحْريمَ فِعْلاً وتَرْكاً هنا مُضَمَّنٌ معنى وَصَّاكُمْ به، فكأنه يقول: أَتْلُوا عليكم ما وصَّاكم به ربكم به تحريماً وإباحة» [العذب النمير: ٢/ ٤٦٤].

٢- أعْظَمُ المحرمات الشرك بالله تعالى:

أعْظَم المحرماتِ التي حرَّمها اللهُ -تعالى- على عبادِهِ الشِّرْكُ بالله تعالى، ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام:١٥١]. والشِّرْكُ يقابلُ التوحيدَ، والتوحيدُ أعْظَمُ ما أمَرَ اللهُ تعالى به، والشِّركُ أعظمُ ما نهى اللهُ تعالى عنه، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]. والظلم وَضْعُ الشيء في غير موْضِعهِ، ووضْعُ الأصنامِ والأوْثانِ والشَّجرِ والحجرِ والبَشَرِ في مَصافِّ الآلهةِ التي تعبد مع الله أعظم الظُّلْمِ، والنهيُ عن الشِّركِ أعْظَمُ الوصايا العَشْرِ التي أنزلها اللهُ تعالى على موسى، فقد قال له ربُّه فيما أُنزل عليه: «أنا هُوَ الرَّبُّ إلهُكَ الذي أَخْرَجَكَ مِنْ أرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ العُبُودِيَّةِ. لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أمَامِي. لا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثالاً مَنْحُوتاً صُورَةً ما مِمَّا في السَّماءِ مِنْ فَوْقُ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ أسْفَلُ وَمَا في الماءِ مِنْ تَحْتِ الأرْضِ. لا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنّ، لأنِّي أنا الرَّبُّ إلهُكَ إلهٌ غَيُورٌ.... لا تَنْطِقْ باسمِ الرَّبِّ إلهِكَ باطِلاً، لأنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ باسْمِهِ بَاطِلاً» [سفر التثنية، الإصحاح الخامس: ٧-١١، وقد وردت أيضاً كذلك في سفر الخروج].

٣- وجوب الإحسان إلى الوالدين:

هذه هي الوصيةُ الثانية التي أمَرَ الله تعالى رَسولَنا ﷺ أنْ يوصِينا بها ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١] والمعنى: أحَسِنوا إلى الوالدين، وقد جَرت عادةُ القُرْآنِ على الأمْرِ بالإحسان إلى الوالدين بعد الأمْرِ بعبادةِ الله وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، كما قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣].

وهذه هي الوصية الثانية في الوصايا العشر التي أَنزَلها اللهُ تعالى على موسى، فقد جاء فيها: «أكْرِمْ أباكَ وأُمَّكَ كما أوْصاكَ الرَّبُّ إلهُكَ، لِكَيْ تَطولُ أيَامُكَ، ولِكَيْ يكونُ لَكَ خَيْرٌ عَلَى الأرْضِ التي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إلهُكَ» [سفر التثنية، الإصحاح الخامس: ١٦].

٤- **قَتْلُ المرءِ أولادَه خوفَ الفقْرِ:**

هذه هي الوصيةُ الثالثةُ التي أمَر رسولَهُ ﷺ أنْ يُبيِّنَ لنا أنَّه حرَّمَها علينا، وهي قَتْلُ الأولادِ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ [الأنعام:١٥١].

والإمْلاقُ الذي كانوا يَقْتُلُونَ أولادَهم خشيةً منه: الفقرُ، فكان بعضُهُمْ يقْتُلُ أولادَهُ لأنَّه فقير، وبعضُهُمْ يكون غنيّاً،ويقتلُ وَلَدَهُ خشيةَ أنْ يفْتَقِرَ، وفي هؤلاءِ قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۢ ۖ ﴾ [الإسراء:٣١].

وقوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ فيه ضَمانٌ مِنْ ربِّ العبادِ لرزْقِ الآباءِ والأبناءِ، وجاء في الآية الأخرى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾ [الإسراء:٣١].

والرزقُ عند الجمهور: هو ما رُزِقَهُ الإنْسانُ، سواءً أكان حلالاً أو حراماً، فإنْ كان حراماً عاقبه ربُّه عليه.

٥- **النهيُ عن الفواحِشِ ما ظهر منها وما بطن:**

هذه هي الوصيةُ الثالثةُ التي أمَرَ اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ أن يوصينا بها، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ﴾ [الأنعام:١٥١].

والفواحِشُ جمعُ فاحِشةٍ، والفُحْشُ في لُغةِ العربِ: كلُّ شيءٍ بَلَغَ نهايتَهُ في القُبْحِ، وهو في الشَّرع: الخَصْلَةُ المتناهيةُ في القُبْحِ، وهي تَشْمَلُ السيئاتِ العظامِ المتناهيةِ في القُبْحِ وقد خَطَّأَ الشيخ محمد الأمين الشنقيطيُّ قولَ من ذَهَبَ إلى أنَّ أكثرَ إطلاقِ الفاحشةِ في القرآن على الزنا، فالفاحشة تُطْلَقُ على كلِّ خَصْلَةٍ رديئةٍ بالغةٍ في القبح [العذب النمير: ٢/ ٤٨٢].

والصوابُ أنَّ قوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ﴾ [الأنعام:١٥١] تشْمَلُ كُلَّ الذنوبِ التي يُعْلِنُ بها مُرْتكبها، كالذي يَشْرَب الخمرَ عَلَناً، والذي يَزْنِي علانيةً، والذي ينهب أموالَ الناسِ علانيةً، أو الذي يفعل ذلك كُلَّه سِرّاً، ومن الفواحش التي يسرُّ بها المرء ما يخفيه في قلبه من النفاق والعجب والكبر ونحو ذلك.

٦- **نهيُ الله تعالى عن قَتْلِ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ تعالى إلاَّ بالحقِّ:**

نهى اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ عبادَه عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَها إلاّ بالحَقِّ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ [الأنعام:١٥١] والنَّفْسُ التي حرَّمَ اللهُ تعالى قَتْلَها

هي النَّفْسُ المَعْصُومَةُ، وهي النفس المسلمة، والنَّفْسُ التي نأْخُذُ مِنْها الجزيةَ، والنَّفْسُ التي بَيْنَها وبينَ المسلمين معاهَدَةٌ، والمسلم لا يحلُّ دَمَهُ إلاَّ بإحْدى ثلاثةٍ، فعن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسولُ الله ﷺ : «لا يَحِلُّ دَمُ امرئ مسلم، يَشْهَدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وأنِّي رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفسُ بالنَّفْس، والثَّيِّبُ الزاني، والمفارقُ من الدِّينِ التاركُ للجماعةِ» [البخاري: ٦٨٧٨. ومسلم: ١٦٧٦].

وعن عبدالله بن عمرو رضي اللهُ عنهما، عن النبي ﷺ قالَ: «مَنْ قَتَلَ معاهداً لم يَرَحْ رائحةَ الجنةِ، وإنَ رِيحَها توجَدُ من مَسيرةِ أَرْبعينَ عاماً» [البخاري: ٣١٦٦].

وخَتَمَ اللهُ -تعالى- هذه الآيةَ العظيمةَ بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١] وأشارَ بقولِهِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى الأحْكامِ الخمسةِ التي تضمنتها الآية، والوصيةُ هي الأمْرُ المؤَكَّد، وقولُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ أيْ: وصَّاكُمْ به، لأجل أنْ تَعْقِلُوا هذه الوصيَّة عنه، فتمْتَثِلُوا أَمْرَهُ وتتْرُكُوا نَهْيَهُ.

٧- النهي عن قُربان مالِ اليتيم إلا بالتي هي أحْسَنُ:

هذا هو النهيُّ السادِسُ الذي أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يوصي بِهِ العبادَ، وهو عَدَمُ قُرْبان مالِ اليتيم إلا بالتي هي أَحْسَنُ حتى يبلغَ أشدَّه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وكان أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَظْلِمونَ اليتيمَ والمرأَةَ، ويقولون: الذي يستحقُّ المالَ هو من يَحْمي المرأَةَ والذِّمارَ، وكانوا يَظْلِمُونَ اليتيمَ، ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون:١-٢]. أي: يدْفعونَهُ بقوةٍ عن حقِّه ويَظْلِمونَه، ونَهَى اللهُ تعالى الأولياءَ عن قُرْبانِ مالِ اليتيم إلا بالتي هي أَحْسَنُ، ويكونُ قُربانُ مالِهِ بالتي هي أَحْسَنُ، أي: بالإنفاق عليه من ماله، واستثماره مالِهِ والاتجار له فيه.

وقولُهُ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ هو بلوغُ اليتيمِ الحُلْمَ مع إيناسِ الرُّشْد، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء:٦].

وقد أعْلَمنا ربُّنا أنَّ أكْلَ أموالَ اليتامى ظُلْماً جريمةٌ كبرى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ﴾ [النساء:١٠].

٨- **أمَرَ اللهُ تعالى بإيفاء الكَيْلِ والميزان بالقِسْط:**

أمَرَ اللهُ -تعالى- بالوفاءِ بالكَيْلِ والميزانِ بالقِسْط ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ [الأنعام:١٥٢].

أمَرَ اللهُ -تعالى- عِبادَهُ أن يوفوا الكيلَ والميزانَ بالقِسْطِ، والمِكْيالُ والميزانُ آلتان تُضْبَطُ بهما المبيعاتُ، ليأخُذَ كُلُّ واحدٍ حَقَّه من أخيه طَيِّبَةً نَفْسُهُ، وقد أكْثَرَ اللهُ تعالى في كتابِهِ مِنَ التوصيةِ بإيفاءِ الكيلِ الميزانِ، كقوله تعالى: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ [الشعراء:١٨١-١٨٢].

وقال شُعَيْبٌ لقومِهِ: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود:٨٥].

وتهدَّدَ اللهُ تعالى الذين يُخْسِرونَ الكَيْلَ والميزانَ بقولِهِ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين:١-٣].

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدلِ التامِ الكاملِ، بحيثُ لا يزيدُ، ولا يَنْقُصُ، وقولُهُ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ أي: طاقَتَها، فإذا اجتهدَ الذي يَقومُ بالكيلِ أو الوَزْن بمقدارِ طاقتِهِ، واخْتَلَّ عليه الوَزْنُ أو الكَيْلُ من حيث لا يدري فهو مَعْفُوٌّ عنه، داخلٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب:٥].

٩- **العَدْلُ في القَوْلِ والوفاءُ بعهْدِ الله تعالى:**

وصَّانا ربُّنا بالعدْلِ في كُلِّ أُمورِنا، ووصَّانا بالوفاءِ بعَهْدِ الله تعالى، فقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٢].

أوْجَب اللهُ علينا العَدْلَ في كلِّ أمورِنا، فإذا حَدَّثْنا، فيَجِبُ أن يتَّصِفَ حديثُنا بالعَدْلِ، فلا نَكْذِبُ فيه، ولا نميلُ، وإذا كان المرءُ قاضياً فلا يجوز أن يجورَ في قضائِه، وإذا كان شاهِداً، فيجب أن يشهدَ بالعَدْلِ، ولا يجوزُ أن نميلَ في الحُكْمِ أو الشهادةِ لأجْلِ قرابةٍ أو صداقةٍ، فالقاضي يُقيمُ الحكْمَ لله، والشاهِدُ يقيمُ الشهادة لله.

وأمَرَنا اللهُ تعالى بالوفاءِ بعَهْدِهِ ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ﴾ والعَهْدُ قد يكون لله، كالذي يَنْذِرُ نَذْراً ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩] وقولُهُ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾

[الإنسان:٧] وكُلُّ ما فَرَضَهُ اللهُ تعالى عَلَيْكَ فهو عَهْدَ بَيْنَك وبينَ اللهُ. وقد يكونُ العَهْدُ بَيْنَكَ وبَيْنَ عبادِ الله، وهذا عَهْدٌ مع الله أيضاً، لأنَّ اللهَ تعالى أَخَذَ على كُلِّ واحدٍ من المتعاهدين أن يفيَ لصاحِبِهِ.

وقوْلُه تعالى في خاتمة الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام:١٥٢]

أشارَ بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى ما وصَّانا به في هذه الآية من عَدَم قُرْبانِ مالِ اليتيم إلا بالتي هي أحْسَنُ حتى يَبْلُغَ أشدَّه، والوفاءُ بالكيل والميزان والعَدْلِ في القولِ والوفاءِ بعهْدِ الله، وقَوْلُهُ: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ أي: هذه الأمور التي وصَّانا بها أمَرَنا وألْزَمَنا بها أمراً وإلزاماً مؤكداً، وقوْلُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ أي: لعلكم تتَّعِظُونَ وتَذَكَّرونَ ما يَنْفَعُكُم، ويُبْعِدُكُم عن الضَّلال.

١٠- وصَّانا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالالتزام بالصراط المستقيم:

وصَّانا ربُّنا عزَّ وجلَّ بالاستِقامَةِ على الصراط المستقيم، ونهانا عن التَّفرُّقِ والاخْتِلافِ، واتباعِ السُّبلِ التي يدْعُو إليها شياطينُ الجِنِّ والإنْسِ في القديم والحديث، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام:١٥٣].

والصِّراطُ المستقيمُ يَصِحُّ تفسيرُه بالإسْلامِ والقرآنِ وسُنَّةِ الرسولِ ﷺ، فهذا اختلاف تنوع في التفسير، لا اختلاف تضاد.

والسُّبُلُ التي نهانا الله تعالى عن اتِّباعِها هي، السُّبُلُ الضَّالَّةُ المُخْتَلَقَةُ كاليهوديةِ والنصرانية والمجوسيةِ، والصابئةِ، والبوذيةِ، والهندوسيةِ، والشيوعية، وغيرها.

وقد روى ابن مسعود قال: خَطَّ رسولُ الله ﷺ خَطّاً بِيَده، ثم قال: «هذا سَبيلُ الله مستقيماً» وخطَّ عن يمينه وشِمالِهِ، ثمَّ قال: «هذِهِ السُّبُلُ، ليسَ منها سبيلٌ إلا عليهِ شيطانٌ يدْعُو إليهِ، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]» [أحمد في مسنده (٤٤٣٧) وإسنادُهُ حَسَنٌ].

واتِّباعُ السُّبُلِ الضالةِ المُنْحَرِفةِ عن الصراطِ المستقيم، يُفرِّقُ الأُمَّةَ، وإذا تفَرَّقَتْ تنازعَتْ، وتخاصَمَتْ، وضَعُفَتْ قوَّتُها، وهَزَمَها عَدُوَّها.

وعن النَّواسِ بن سَمْعانِ، عن رسولِ الله ﷺ قالَ: «ضَربَ اللهُ مثلاً صِراطاً مستقيماً، وعن جَنبَتَي الصِّراطِ سُورانِ فيهما أبوابٌ مُفَتَّحةٌ، وعلى الأبوابِ سُتورٌ مُرْخاةٌ، وعلى بابِ

الصِّراطِ داعٍ يقولُ: يا أيُّها الناس، ادخُلوا الصِّراطَ المستقيمُ جميعاً ولا تَفرَّقُوا، وداعٍ يدْعُو من فوقِ الصِّراطِ، فإذا أرادَ الإنسانُ أن يَفْتَحَ شيئاً من تِلْكَ الأبوابِ، قال: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فإنَّكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فالصِّراطُ الإسلامُ، والسُّورانِ حدودُ الله، والأبواب المفتَّحَةُ محَارِمُ الله، وذلك الدَّاعي على رأسِ الصِّراطِ كِتابُ الله، والدَّاعي من فوقِ الصِّراطِ واعِظُ الله في قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ» [أحمد في مسنده (١٧٦٣٤) وهو حديث صحيح].

وقال عزَّ جلَّ في خاتمة الآية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ أي: تتقوه بفعلِ ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه، وبمخافَتِهِ، وتعظيمِهِ، والتَّقوى سبيلُ الفلاح.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصِ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من عِلْمٍ وعمل:

١- وصَّانا اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ بعَشْرِ وصايا لها أثر عظيم في إصلاحِ الفَرْدِ المسلم، وإصلاحِ المجتمع المُسلم.

٢- أوَّل الوَصايا العشرِ وأعظَمُها توحيدُ الله وعَدَمُ الشرك بالله، وهذا هو الدِّينُ العظيمُ الذي أرْسَلَ اللهُ به جميعَ الرُّسُلِ، وأنْزَلَ بِهِ الكتب كلَّها.

٣- الوَصِيَّةُ الثانيةُ التي تَلي الأولى في أهميتها الإحسانُ إلى الوالدين وعَدمُ عُقوقِهما، وقد جَرَى القرآنُ على اتباعِ الأمْرِ بعبادةِ الله بالأمرِ بالإحْسانِ إلى الوالدين.

٤- قَتْلُ الأبناءِ خوفَ الفقرِ جريمةٌ كُبرَى، تدلُّ على خَلَلٍ في الرَّأيِ، وضلالٍ في التصورِ والاعتقادِ، واللهُ هو الرزَّاق سبحانه، يرْزَقُ الآباءَ والأبناءَ.

٥- نهانا اللهُ تعالى عن قُربانِ الفواحِشِ وهي الذُّنوبُ والمعاصي التي بَلَغَتْ الغايةَ في الفُحْشِ سواءً كانت ظاهرةً مُعْلَنَةً، أو خَفِيَّةً باطِنَةً.

٦- نهانا ربُّنا عن قَتْلِ النَّفْسِ التي حرَّم اللهُ قَتْلَها إلاَّ بالحقِّ، ومرادُ الله بـ (الحق) أي: إذا كَفَرَ المرءُ بعد إسْلامِهِ، أو إذا قتل مُسْلِماً عمداً، أو إذا زنى وهو مُحْصَنٌ.

٧- من الظُّلْمِ والضَّلالِ العُدْوانُ على مالِ اليتيمِ، ومن أعظمِ القُرُباتِ عندَ الله رعايةُ اليتيمِ والحفاظُ على مالِهِ.

٨- إيفاءُ المِكْيالِ والميزانِ بالعَدْلِ مَظْهَرٌ حضاريٌّ مُشَرِّفٌ يُحِبُّهُ اللهُ تعالى، والتَطْفيفُ في الكَيْلِ والميزانِ جريمةٌ يُعَذِّبُ اللهُ أصْحابَها في الدنيا والآخرة.

٩- يجبُ على المُسْلِمِ أن يقولَ العَدْلَ ويقْضي به ويَشْهَدَ بِهِ، فالعَدْلُ صفةٌ للأمة، وصفةٌ لرجالها ونِسائِها وحُكامِها ومحكُومِيْها.

١٠- من الوصايا العظيمة التي وصَّانا بها ربُّنا، الوفاءُ بعهودِنا معه ومع عبادِهِ.

١١- على المسلمينَ أن يلتزِموا بالإسلامِ ديناً وعقيدةً وشريعةً ومَنْهَجَ حياةٍ، فإن هُمْ اختلفوا واتَّبعوا السُّبُلَ التي اخْتَرَعها شياطينُ الجنِّ والإنسِ، تجزؤوا، وضَعُفُوا، وغَلَبَهُمْ أعداؤُهُمْ.

النص القرآني السادس والعشرون من سورة الأنعام
أَنْزَلَ اللهُ تعالى القرآنَ ليكونَ حُجَّةً على الخلقِ

أولاً: تقديم

أنزلَ اللهُ كتابين عظيمين، الأول: أنْزَلَهُ على موسى عليه السلام وهو التوراةُ، وقد جَعَلَه تامّاً، وأحْسَنَ به إلى عبْدِه موسى، وفيه تفصيل كلِّ شيءٍ، وهُدىً ورحمةً للمؤمنين.

والثاني: أعْظَمُ كتبه وأتمُّها، وهو القرآنُ الذي أنزَلَهُ على عبدِهِ ورسولِهِ محمد ﷺ، وهو حُجَّةُ الله على خَلْقِهِ، وسيُعاقَبُ الذين يكْفُرُونَ به يوم القيامةِ عذاباً شديداً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٤-١٥٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنْعامُ الله تعالى على موسى بإنزال الكتاب إليه:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ في آيات النصِّ السابق أنْ يتْلُوَ على الناسِ ما حرَّمَهُ ربُّه عليهم، فقَصَّ عليهم عَشْراً مما وصَّاهُمْ اللهُ تعالى به، ثُمَّ أخْبَرَنا بما آتاهُ اللهُ تعالى لموسى من الكتابِ تماماً على الذي أحْسَنَ، فقال: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٤].

وقوله: ﴿تَمَامًا﴾ أي: أعطى اللهُ تعالى موسى الكتابَ الذي أنْزَلَهُ إليه تامّاً كامِلاً جامعاً لجميع ما يُحْتاجُ إليه من شَريعَتِهِ، وقوْلِهِ: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي: جزاءً على إحْسانِهِ في العملِ، وقيامِهِ بأوامرنا وطاعتنا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أنْزَلَ كتابَ موسى مُفَصَّلاً، أي: مُبيَّناً، بيَّنَ فيه العقائدَ والشرائعَ والأخْلاقَ، كما جَعَلَهُ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ يهدي عبادَه بِهِ للتي هي أقْوَمُ، ويُحقِّقُ لهم بِهِ رحمته بالإيمانِ بالله وطاعته.

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي: أنْزَلَهُ اللهُ تعالى على النحو الذي ذَكَرَهُ لعلهم يؤمنون بالله تعالى، ويؤمنونَ بالبَعْثِ بعد الموتِ.

٢- ثناءُ الله -تعالى- على القرآن الذي أنْزَلَهُ على رسولِنا ﷺ:

بعد أن أثنى اللهُ تعالى على كِتابِ موسى وهو التوراةُ، أثْنى اللهُ تعالى على الكتابِ الذي أنْزَلَهُ على عَبْدِه ورسولِهِ محمدٍ ﷺ، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥].

واللهُ تعالى يَقْرِنُ كثيراً بين التوراة والقرآن، كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف:١٢].

وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ المشارُ إليه القرآنُ الكريمُ، وقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أيْ: أنزَلَهُ تعالى من عِنْدِه، وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي: كثيرُ البركاتِ والخيراتِ، ومِنْ بركاتِهِ أنَّ لقارئه بكلِ حَرْفٍ عَشْرَ حسناتٍ، ومن بركاته أنه يُعَرِّفُنا على العقائِدِ والأحكامِ والأخلاقِ، ويُعرِّفُنا بربِّنا وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليوم الآخر والجنةِ والنار، ويُعرِّفُنا بالأنبياءِ والرسلِ من قبلنا، ويهدينا إلى الجنة، ويُنْقِذُنا من النارِ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: اعملوا به، فأحِلُّوا حَلالَهُ، وحرِّمُوا حَرامَهُ، واعتقدوا عقائِدَه، واعتبروا بأمْثالِهِ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أي: اعملوا بطاعته، وذلك بفعل ما أمَرَكُمْ به، وترك ما نهاكم عنه، ليَرْحَمَكُمْ ربُّكم تبارك وتعالى.

٣- إبطالُ الشُّبَهِ التي يحتجُّ بها المشركون على ضَلالِهِمْ وكفرهم:

أَخْبَرَنا العليمُ الخبيرُ -سبحانَهُ- أنَّهُ أنزلَ هذا القرآنَ على العَرَبِ بِلُغَتِهِمْ الفُصْحَى وهي العربيةُ، لِيُبْطِلَ ما يَحْتَجُّونَ به من حُجَجٍ ومعاذِيرَ لعَدَمِ إيمانهم، قالَ تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٦-١٥٧].

والمعنى أنَ اللهَ تعالى أنزلَ على العربَ هذا الكتابَ العظيمَ بلُغَتِهِمْ، وهي العربيةُ كراهية أنْ يحتجُّوا بحُجَجٍ باطلةٍ، فيقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وكراهَةَ أنْ يقولوا: ﴿أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ أرادَ به جِنْسَ الكتابِ، والمرادُ به التوراةُ والإنجيلُ، كقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران:١١٩]، أي: بالكُتُبِ كُلِّها. وأكثرُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالطائفتين اللذينِ من قبْلِنا هُمْ: اليهود والنصارى، والكتابُ الذي أُنْزِلَ عليهما: التوراةُ والإنجيلُ.

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ (١٥٦)﴾ أي: كُنَّا عن دراسة كُتُبِ هؤلاءِ غافِلين، لأنَّ لسانَ هؤلاءِ مخالِفٌ للسانِنا، فلا نعرفُ لغتهم، ولا نَفْقَهُها، فأنْزَلَ الله تعالى القرآنَ بلُغَتِنا التي نَفْقَهُها، ونَفْهَمُها، وقوله تعالى: ﴿لَغَٰفِلِينَ (١٥٦)﴾ أصلُ الغَفْلَةِ السَّهْوُ وقلَّةُ التحفظِ، أيْ: تاركينَ لحقائقِ دينِ اليهودِ والنصارى.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ﴾ أي: إنْ ادَّعيتم هذه الدعوى، واحتججتم بهذه الحجةِ، فقد جاءَكم كتابٌ من ربِّكم بلِسانِكُم ولُغَتِكُمْ تعرفونَ معناه، والمراد بـ ﴿بَيِّنَةٌ﴾ القرآن وهو الدليل الواضِحُ الذي لا لَبْسَ فيه. وقد هدَّدَ اللهُ تعالى المشركينَ بقولِهِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾ [الأنعام:١٥٧] أخبرنا اللهُ تعالى في هذه الآية أنَّه لا أحَدَ أظْلَمُ، أيْ: أعْظَمُ الناس ظلماً الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى، وصَدَفُوا عنها، أي: أعْرَضُوا عنها، وأخبرنا -سبحانه- أنه سيجْزي الذين يَصْدِفونَ عن آياتِهِ، أي: يَصُدُّونَ الناسَ عن الإيمانِ بها سوءَ العذابِ، أيْ: العذابَ السيِّئ، وهو الشديدُ المضاعَفُ بسبب إعراضهم عن الحقِّ ومَنْعهم الناس من اتباعه.

٤- الزمانُ الذي يُقْبَلُ فيه إيمانُ العَبْدِ:

وجَّهَ اللهُ -تعالى- السؤالَ إلى الكُفَّارِ المشركينَ الذين يَصُدّونَ عن آياتِ الله قائلاً: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾ [الأنعام:١٥٨].

والسؤال في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ معناهُ النفي، أي: أنهم يُكَذِّبونَ بما ذكره اللهُ -تعالى- في الآية، ومعنى: ﴿يَنظُرُونَ﴾ ينتَظِرون،، والعَرَبُ تُطْلِقُ (نظر) بمعنى انتظر، كما قال تعالى في آخر الآية: ﴿قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: تأْتيهم الملائكةُ بالموتِ لقبضِ أرْواحِهِمْ، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ قال ابن جرير: «أو أنْ يأْتِيَهُمْ ربُّكُ يا محمدُ بينَ خَلْقِهِ في موْقِفِ القيامةِ» [٣٤٠٩/٤]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)﴾ [الفجر٢٢]، وقولُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة:٢١٠]، ويكونُ مجيءُ الله تعالى في ذلك اليوم لفصل القضاء بين العباد.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ والمرادُ ببعضِ الآياتِ المذكورُ في الآيةِ هو الآياتُ التي إذا جاءَتْ لا يُقْبَلُ معها من الكافِرِ إيمانٌ، ولا يُقْبَلُ من عاصٍ توْبَةٌ، لقوله تعالى في هذه الآية بعد ذلك: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ وهذه الآيةُ التي لا يُقْبَلُ من الكافِرِ معها إيمانٌ، ولا يقبل من عاصٍ توبةٌ هي خروجُ الشمسِ من مغربها.

وقد دلَّ على ذلكَ أحاديثُ كثيرةٌ، منها ما رواه أبو هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تقومُ الساعةُ حتى تَطْلَعَ الشَّمْسُ من مغرِبِها، فإذا رآها الناسُ آمَنَ من عَلَيْها، فذاكَ حينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾» [البخاري: ٤٦٣٥. ومسلم: ١٥٧].

وعن أبي هريرةَ ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حتى تَطلُعَ الشمسُ من مَغْرِبِها، فإذا طَلَعَتْ ورآها الناسُ آمَنوا أجمعونَ وذلكَ حينَ لا ينفَعُ نَفْساً إيمانُها» ثم قرأ الآية [البخاري: ٤٦٣٦. ومسلم: ١٥٧].

وجاء في الحديث الذي يرْويهِ أبو هريرة قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ تابَ قبلَ أنْ تَطْلَعَ الشمسُ من مغْرِبها تابَ اللهُ عليه» [مسلم: ٢٧٠٣].

وجاءَ في الحديثِ الذي يُخْبِرُ فيه الرسولُ ﷺ عن اليوم الذي لا يُؤْذَنُ فيه للشمسِ بالشروقِ من جهَةِ المشرقِ، وتأمرُ بالطلوع مِنَ المغربِ وقالَ رسولُ الله ﷺ مخاطباً أبا ذر: «أتَدْرِي متى ذاكُمْ؟ ذاكَ حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]» [مسلم: ١٥٩].

وعن صَفْوانَ بن عَسَّالٍ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَ اللهَ فَتَحَ باباً قِبَلَ المَغْرِبِ عَرْضُهُ سَبْعُونَ عاماً للتَّوْبَةِ، قال: لا يُغْلَقُ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغرِبِها» قال محقق ابنِ كثير: أخرجه الترمذيُّ، وقال: حسن صحيح، وابنُ ماجة وأحمدُ والطبريُّ].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهْدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أثْنَى اللهُ -تعالى- على الكتابِ الذي أنْزَلَهُ على نبيِّهِ موسى، فهو كتابٌ مُبَيِّنٌ فيه الحَلالُ والحرامُ والشرائعُ وهدىً ورحمةً للمؤمنين.

٢- أثنى اللهُ تعالى على الكتابِ الذي أنْزَلُه على عَبْدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ ، فذكر أنه كتابٌ مباركٌ، وأمَرَنا باتِّباعِهِ والعملِ بِهِ لعلَّه يرحمنا.

٣- أنزل اللهُ تعالى القرآنَ على العَرَبِ حتى لا يُبْقِي لهم حُجَّةً على الله تعالى، فلا يقولون لله تعالى: لم تُنْزِلْ علينا كتاباً، وإنَّما أُنْزِلَ الكتاب على اليهودِ والنصارى مِنْ قبلنا، ونحن لا نعرف ما أُنْزَلَ إليهم، لأننا نجْهَلُ لغتَهُمْ، ولكي لا يقولوا لو أُنْزِلَ علينا كتابٌ لكنَّا أهْدى مِنْهُمْ.

٤- القرآنُ حُجَّةُ الله على خَلْقِه فمَنْ بلَغهُ فلا تَبْقَى له حُجَّة ولا يُقْبَلُ منهُ اعتراض.

٥- سيُعاقِبُ اللهُ الكفارَ الذين يُكَذِّبُونَ القرآنَ، ويُعْرِضُونَ عنه بالعذاب الذي بلغ الغايةَ في السوءِ.

٦- سيقَعُ بالكفار أهوالٌ عظيمةٌ، فالملائكةُ تتنزل عليهم، فتقبض أرْواحَهُم عندما يَحُلُّ بهم الموتُ، واللهُ تعالى سيأْتي للفَصْلِ بين العباد في يوم القيامةِ، وعندما تطلع الشمسُ من مغْرِبِها لا ينفَع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل.

النص القرآني السابع والعشرون من سورة الأنعام
المنهجُ الأمْثَلُ الذي كان عليه رسولُنا ﷺ

أولاً: تقديم

أخْبَرَنا ربُّنا في هذه الآياتِ أنَّ الناسَ في عالَمِ البَشَرِ مختلفون متنازعون في أدْيانِهِمْ، فمِنْهُمُ الذي يَعْبُدُ شجراً، ومِنْهُمُ الذي يَعْبُدُ حَجَراً، ومنهم الذي يعبدُ النجومَ والشمسَ والقَمَرَ، ورَسولُنا ﷺ لا يَدْخُلُ في شيءٍ من الأدْيانِ المختلفةِ المضطربة المُتنازِعَةِ، واللهُ سيُحاسبُ هؤلاءِ جميعاً يومَ القيامة.

وبَعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تعالى لنا قاعدة الحِسابِ في يومِ الجزاء، أمَرَ رَسولَه ﷺ أن يبينَّ الدِّينَ الذي يتّبِعُهُ، ويسيرُ عليه، فهو دينٌ مستقيمٌ هداه اللهُ إليه، وهو الدينُ القيِّمُ الذي كان عليه نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام، وهو يجعلُ كُلَّ حياةِ الرسولِ لله تعالى، في الصلاةِ والذَّبح والحياة، والموت لله وَحْدَه. وهو لا يبْغي غيرَ الله ربّاً، وكُلُّ إنسان يُحاسَبُ يومَ القيامةِ على فِعْلِهِ، ولا يَحْمِلُ وِزْرَ غيرْه.

وأعْلَمنا ربُّنا أنّهُ جَعَلَنا خلائف الأرضِ، ورَفَعَ بعْضَنا فوقَ بعْضٍ درجات، ليَخْتَبِرَنا فيما أعْطانا سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنعام

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾

[الأنعام:١٥٩-١٦٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذَمَّ الله تعالى الذين افْتَرَقوا واختلفوا في دينهم:

النّاسُ في عالمِ البشر مختلفون مُتنازِعون في الأدْيان التي يتَّبِعونها، ورَسُولُنا ﷺ ليسَ في شيءٍ من هذه الأديانِ التي يموجُ بها عالمُ البشَرِ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]. والأدْيانُ التي انْقَسَمَ إليها الناسُ في عالمِ البَشَرِ كثير، كاليهودِيَّةِ، والنصرانيةِ، والمَجوسِيَّةِ، وعُبَّادِ الأصنامِ، والصابئةِ، والبوذيةِ، والشيوعية، وغيرها.

والشِّيعُ: جَمْعُ شِيْعَةٍ، والشِّيْعَةُ القَومُ يكونون على دينٍ مِنَ الأديانِ، يُعاضِدُ بعضُهُمْ بعضاً فيه.

قال ابنُ كثير: «الظاهرُ أنَّ الآية في كُلِّ من فارقَ دين الله، وكان مخالفاً له، فإنَّ اللهَ بعثَ رسولَه ﷺ بالهُدى ودينِ الحقِّ ليُظْهِرَهُ على الدينِ كلِّه، وشَرْعُهُ واحدٌ لا اختلافَ فيهِ ولا افْتِراقَ» [ابن كثير: ٣/ ١٢٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ معناه: أنتَ بريءٌ منهم، وهُمْ بُرَآءُ منكَ، لستَ على دينهم، وليْسوا على دينِكَ، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مصيرُهُمْ ومَرْجِعُهُمْ إلى ربِّهم، فيحاسَبُهم على ما عَمِلوهُ، وقدّموه، وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ أي: يُخْبِرُهُمْ اللهُ تعالى يومَ القيامة بما كانوا يفعلونَهُ، والنبأُ في اللغةِ الخبرُ العظيمُ، ومِنْ أخبارِهِمْ ما ذكره اللهُ تعالى في قوْلِه: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٤].

٢- قاعدةُ الحِسابِ والجَزاء:

ربُّنا واسعُ العطاءِ عَظيمُ المِنَّةِ، يعطي بالحسنة الواحدة عشرَ حسناتٍ، وقد يزيدُ، فيُعْطِي بالحَسَنةِ سبعَمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، أما السيئةُ فهو سبحانه عَدْل يَجْزي بالسيِّئةِ سيئةً واحدةً قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام:١٦٠].

وقد جاءَتِ الأحاديثُ موضِّحةً ذلك، ومفصِّلة القولَ فيه، فعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسيِّئاتِ، ثم بيَّنَ ذلكَ، فمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فلمْ يَعْمَلْها كَتَبها اللهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كاملةً، فإنْ هُوَ هَمَّ بها فعَمِلَها كَتَبها اللهُ له عَشْرَ حسناتٍ إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ إلى أضْعافٍ كثيرةٍ، ومن همَّ بسيئةٍ فلم يعمْلَها كَتَبَها اللهُ له عندَهُ حَسَنَةً كاملَةً، فإنْ هُوَ هَمَّ بها فعَمِلَها كتبها اللهُ له سيئةً واحدةً» [البخاري: ٦٤٩١. ومسلم: ١٣١].

وروى أبو ذرٍّ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلَهُ عَشْرُ أمثالِها وأزْيَدُ، ومَنْ جاء بالسيئةِ، فجزاءُ سيئةٍ مِثْلُها أوْ أغْفِرُ، ومنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً، تقَرَّبتُ منه ذِراعاً، ومن أتاني يَمْشي، أتَيْتُهُ هَرْوَلةً، ومن لَقِيَني بقُرابِ الأرضِ خطيئةً لا يُشْرِكُ بي شيئاً، لَقيتُه بمثْلِها مغْفِرَةً» [مسلم: ٢٦٨٧].

٣- الدينُ الذي هَدَى اللهُ إليه رسولَهُ ﷺ:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رَسولَه ﷺ أنْ يُعْلِنَ للناسِ المنهجَ الذي يتَّبِعُهُ، وهذا المنهجُ لَيْسَ مُخْتَرَعاً من عِنْدِهِ، بل هداهُ اللهُ تعالى إليهِ، ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام:١٦١]. أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يقولَ للناس: إنَّ اللهَ تعالى هَداني إلى صراطٍ مستقيمٍ، والصراطُ المستقيمُ هو الذي لا عَوَجَ فيه، وهو الذي كان عليهِ الأنبياءُ والمرسلون، وهو الذي أمَرَنا أنْ ندعوه به عندما نقرأ الفاتحة بقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة] والذين أنْعَمَ اللهُ عليهم هُمْ الذين حدَّثنا عنهم بقوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ٦٩﴾ [النساء:٦٩].

والصراطُ المستقيمُ هو القرآنُ، وهو الإسلامُ الذي جاءَ به القرآنُ.

وقوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ﴾ بيَّن اللهُ تعالى الصراطَ المستقيمَ بقوله: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ﴾ وأصحُّ ما قيل في إعراب ﴿دِينًا﴾ أنه بَدَلٌ من قوله، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأنه مجرورٌ في محلِّ نصبٍ، والأصلُ: هداني ربي صراطاً مستقيماً ديناً.

وقوله: ﴿قِيَمًا﴾ مَصْدَرُ بمعنى القيامِ نُعِتَ بهِ مبالغة، وبالَغوا فيه حتى جَعَلوه عَيْنَ القَيِّمِ، أي: المستقيم أو المقوِّم لأمور الناسي.

وقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ المِلَّةُ: الشريعةُ والطريقةُ، و﴿مِّلَّةَ﴾ بدل من الدين، إبراهيم هو عبدُالله ورسولُهُ وخَليلُه، الذي جَعَلَهُ اللهُ تعالى إماماً للناس ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ﴾ [البقرة:١٢٤] وقد أمَرَ اللهُ رسولَنا ﷺ باتباعِ إبراهيم ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾ [النحل:١٢٣]. وملَّةُ إبراهيم عليه السلام خيرُ مِلَّةٍ: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ﴾ [البقرة:١٣٠].

وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن الشِّرْكِ، مستقيماً على الإيمانِ.

وقوله تعالى عن إبراهيمَ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ يدل على غَلَطِ بعضِ كبارِ العلماء كابن جرير الطبريِّ وابن عباس عندما زعموا أنه كان مشركاً عندما رأى الكوْكَبَ فقال: هذا ربي ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ﴾ [الأنعام:٧٦]. وهذا القولُ يعارضُ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [راجع: العذب النمير: ٢/ ٦٢١].

٤- قَصْرُ الرسولِ ﷺ عبادَتَهُ وحَياتَهُ ومماتَهُ على ربِّه:

أَمَرَ الله تعالى رسولَهُ ﷺ أن يبينَ للناسِ تمامَ منْهَجِهِ وطريقه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

أَمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للكُفَّارِ المجرمينَ الذين كانوا يعْبُدونَ الأصنامَ، ويذْبَحونَ الذبائحَ لها وباسمها: إنَّ جميعَ عبادتِي لله ربِّي، ومِنْ ذلك صَلاتي، فإنَّها لله تعالى، وكذلك نُسُكِيْ فإنِّي أذبحه لله وَحْدَه، وباسم الله سبحانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر:٢].

وأَمَرَهُ تعالى أنْ يجْعَلَ حياتَهُ وقْفاً على الله تعالى، ويجعل مماتَه في سبيل الله تعالى، فلا يموتُ في سبيلِ شياطينِ الجنِّ والإنسِ، بل في سبيلِ الله تعالى.

وهذا يوجب على العباد أن يخلصوا دينهم لله تعالى، فلا يجعلوا مع الله شريكاً، ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ﴾ وبهذا أُمِرَ رسولُنا ﷺ وبهذا أمَرْنا ربُّنا، وأمرهُ اللهُ تعالى أنْ يقولَ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ فالرسولُ ﷺ سابقُ أُمَّتِهِ إلى الإسلامِ.

وكان رسولنا ﷺ يفتتح بهاتين الآيتين وآيةٍ أخرى من هذه السورة صلاةَ القيام، فعن علي بن أبي طالبٍ، عن رسول الله ﷺ ، أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام:٧٩]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]. اللهمَّ! أنتَ المَلِكُ لا إلهَ إلا أنتَ، أنتَ ربي وأنا عبْدُكَ، ظَلَمْتُ نفسي، واعترفْتُ بذنبي، فاغْفِرْ لي ذُنوبي جميعاً، إنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ، واهْدِني لأحْسَنِ

الأخلاقِ، لا يهدي لأحْسَنِها إلا أنْتَ، واصرِفْ عني سيئَها، لا يصرِفُ عني سيِّئَها إلا أنتَ، لبَّيْكَ! وسعْدَيْكَ! والخيرُ كُلُّهُ في يدَيْكَ، والشرُّ ليسَ إليكَ، أنا بِكَ وإليكَ، تباركتَ وتعاليْتَ، أستغْفِرُكَ وأتوبُ إليكَ [مسلم: ٧٧١].

٥- كلُّ إنسان يؤاخذ يوم القيامة بعمله ولا يؤاخذ بجريرة غيره:

دعا الكفارُ المشركون الرسولَ ﷺ إلى أنْ يعْبَدَ آلهتَهُمْ وأصْنامَهُمْ، فأمَرُهُ اللهُ -تعالى- أن يخاطبهم مِنْكراً عليهم، فيقول: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام:١٦٤].

وهذا السؤالُ الذي أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يوجِّهَهُ إلى الكفارِ المشركين، فيه إنكارٌ عليهم، وتوبيخٌ لهم، إذْ كيفَ يجوزُ له أن يطلب رباً غير الله، وهو ربُّ كل شيءٍ، أيْ: هو -سبحانُه- الخالِقُ البارئُ المربِّي المُدبِّرُ، له الخلقُ والأمْرُ، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ﴾ أيْ: أنَّ كلَّ نفس تُجْزَى يوم القيامة بعمَلِها، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ، ولا يحمِلُ أحَدٌ عن أحدٍ شيئاً، كما قال ربُّ العزة: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ﴾ [فاطر:١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ أي: لا تُؤخَذُ نَفْسٌ آثمة بإثمِ أخرى، وأصْلُ الوِزْرِ في اللغة: الثِّقَلُ، ثم استعمل فيما يحْمِلُهُ مِنَ الذنوب ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشرح:٢-٣].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام:١٦٤] أي: مرجعُكُمْ جميعاً إلى الله تعالى المؤمنونَ والكفارُ، وسيُخْبِرُ اللهُ تعالى كلَّ واحدٍ من الفريقين فما كانوا فيه يخْتَلِفونَ، أي: ويَحْكُم بينَهُمْ بالحقِّ، فيَحْكُمُ بينهم بالإله الذي كانوا يعْبُدُونَه، والدِّينِ الذي يدينونَ له، والرسولِ الذي يتَّبِعُونَهُ.

٦- جعل اللهُ تعالى عِبادَه خلائفَ الأرضِ ليبْتَلِيَهُمْ ويخْتَبِرَهُمْ:

أعْلَمنا ربُّنا وهو العليمُ الخبيرُ سبحانه أنه جَعَلَنا خلائفَ الأرضِ، ورفع بعْضَنا فوقَ بعضٍ بدرجاتٍ، ليبلونا فيما أتانا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الأنعام:١٦٥].

وقد تضمَّنَتْ هذه الآيةُ سنَّةً من سُنَنِ الله في خلْقِهِ، فاللهُ خَلَقَ خليفةً في الأرض هو آدمُ ﷺ، وخَلَقَ منه زوجَهُ حواءَ، وبثَّ اللهُ ذرِّيَّتَهُما في الأرض، وجَعَلَهُمْ خلائفَ في الأرض، فجَعَلَ اللهُ قومَ نوحٍ أولاً، فلما أهْلكهم أقامَ قومَ هودٍ بعدهم، كما قال نبيُّ الله هودٍ لقومِهِ وهو يعظهم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف:٦٩]، وقال صالحٌ لقومِهِ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ [الأعراف:٧٤].

ثم توالَتْ الأُمَمُ يتبعُ بعضُها بعضاً ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ﴾ [المؤمنون:٤٤] حتى كانت الأُمَّةُ الإسلاميةُ آخرَ الأُمَمِ بعثاً، ولن تكونَ أمَّةٌ بعْدَها، ولن يُرْسِلَ اللهُ رسولاً بعد رسولها.

وقد جَعَلَ اللهُ تعالى من سنَّته في خلْقِهِ في الحياة الدنيا أنه ﴿رَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ أي: فاوت بينهم في المال والجمال والقوة وجوْدَةِ النفس وجوْدَةِ العقل وغير ذلك، ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ أي: ليَخْتَبِرَكُمْ فيما أنْعَم بِهِ عليكم وامتحنكم به، فيَظْهَرُ الغنيُّ الشاكِرُ، والفقيرُ الصابرُ، والكافرُ الفاجرُ، وقد روى أبو سعيد الخُدريُّ، عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «إنَّ الدنيا حُلْوةٌ خضِرَةٌ، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُم فيها، فينظُرُ كيف تعملونَ، فاتَّقوا الدنيا، واتقوا النساءَ، فإنَّ أوّلَ فِتْنَةِ بني إسرائيلَ كانت في النساء» [مسلم: ٢٧٤٢].

وختم اللهُ تعالى هذه الآيةَ وهذه السورةَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾ [الأنعام:١٦٥]. أي: سريعُ العقابِ لمن كَفَرَ به وأشْرَكَ بِهِ، وغفورٌ رحيمٌ لمن أطاعَهُ، وأخْلَصَ الدينَ له، وفي هذا ترغيبٌ وترهيبٌ كما قال تبارك وتعالى: ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا في آيات هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- الكفارُ منقَسمونَ في أديانِهِمْ مختلفونَ فيها، ورسولُنا ﷺ والذين اتبعوهُ على دينِهِ بعيدون عن هؤلاءِ المخْتَلِفين في دينهم.

٢- يُحاسِبُ اللهُ تعالى الناسَ على اختلافِ أديانهم في يوم الدين.

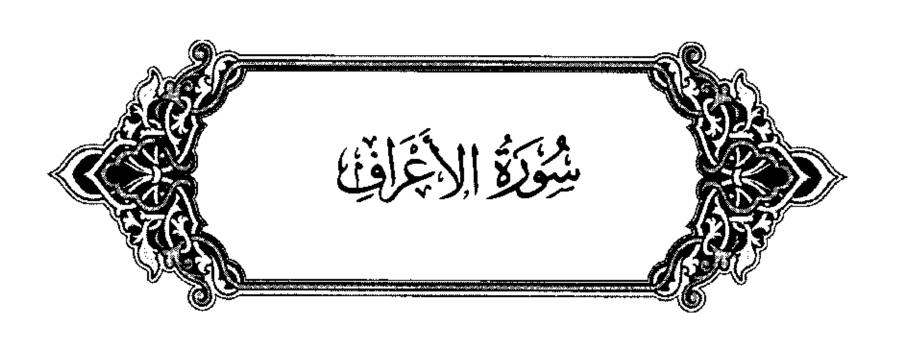
٣- قاعدةُ الجزاءِ عند الله -تعالى- في يومِ الدينِ أنَّ الحسنةَ بعشْرِ أمثالها، والسيئةَ بمثلها، وقد يضاعِفُ اللهُ تعالى الحسنات.

٤- أَمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يُعْلِنَ دينَهُ وطريقَتَهُ التي هي النموذجُ الأرْقَى والأعْلَى الذي رضيَهُ ربُّ العِزَّةِ، فهو سائرٌ على الصراطِ المستقيم، ودينُه دِينٌ قويمٌ، وهو متَّبعٌ مِلَّةَ إبراهيمَ مائلاً عن الشِّرْكِ مستقيماً على التوحيد، وعبادَتُه وذَبْحُهُ وحياتُه وموْتُه لله ربِّ العالمين، لا شريكَ له في ذلك، وهو أوَّلُ المسلمين.

٥- المعبودُ الذي لا يَعْبُدُ رَسولُنا ﷺ أحَداً غيرَهُ هو ربُّ كلِّ شيءٍ وخالِقُهُ ومالكه.

٦- القاعدة العظيمةُ عندَ ربِّ العزةِ في الجزاءِ أنْ لا تُؤْخَذُ نَفْسٌ بجَريرةِ أُخرى، ولا يُحَمَّلُ أحدٌ وِزْرَ غيرِهِ.

٧- جَعَلَ اللهُ البشرَ فَوْقَ ظَهر هذه الأرض خلائفَ، أُمَّةٌ تَذْهَبُ، وأُخرى تأتي، وهو يبْتَلي كلَّ أُمَّةٍ، ويختبِرُها بالدينِ الذي يُنْزِلُهُ إليها.



التعريف بهذه السورة

قال السيوطيّ: «أَخْرَجَ ابنُ الضريسِ والنَّحاسُ في (ناسِخِهِ) وابنُ مَرْدَوَيْهِ والبيهقيُّ في (الدلائل) من طُرُقٍ عن ابنِ عباسٍ قال: سورةُ الأعراف نَزَلَتْ بمكة».

وأَخْرَجَ ابنُ مَرْدَوَيْه عن عبدالله بن الزُّبيرِ قالَ: «أُنْزِلَ بمكَّةَ الأعرافُ» [الدر المنثور: ٣/ ٤١٢].

وقال أبو عمروٍ الدانيُّ: «وكَلِمُها ثلاثةُ آلافٍ وثلاثمائةٍ وخمسٌ وعشرونَ كَلِمةً، وحروفُها أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفاً وثلاثمائةٍ وعَشْرَة أَحْرُفٍ. وهي مائتانِ وخمس آياتٍ في البصريِّ والشاميِّ، وستٌّ في المدنيَّيْنِ والمكيّ والكوفيّ» [البيان في عَدِّ آي القرآن: ص١٥٥].

النص القرآني الأول من سورة الأعراف
لا يجوز أن يكون في صدورنا حرج من القرآن

أولاً: تقديم

خاطَبَ اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ وفي ذلك خِطابٌ لأُمَّتِهِ، مُخْبِراً إيَّاهُ أنَّهُ أنْزَلَ إليهِ القُرْآنَ الكريمَ، ونَهاهُ أنْ يكونَ في صَدْرِهِ حَرَجٌ منْهُ، وبيَّنَ الغايَةَ من إنْزالِهِ، فهو مُنْزَلٌ ليُنْذِرَ الكفارَ، ويُذَكِّرَ المؤمنينَ

وأَمَرَ اللهُ -تعالى- العِبادَ أنْ يتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهم من ربهم، ونهاهم عن مُتابِعَةِ الآلهَةِ التي تُعْبَدُ من دونِ الله تعالى، وحَذَّرَهم مصيراً كمصيرِ الأُمَمِ السابقة، التي كَفَرتْ فجاءَها عذابُ الله لَيْلاً وهُمْ بائتُونَ، أوْ في منتصفِ النهارِ وهم قائلون، فاعْتَرَفُوا بظُلْمِهِمْ، والعَذابُ يحيط بهم.

وحدَّثَنا عمَّا سَيَفْعَلُهُ في يوم الدينِ بعباده الصالحين والطالحين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [الأعراف:١-١٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الحروفُ المُقطَّعَةُ في أوائل السورِ:

ذهب بعضُ المفسرين إلى أنَّ هذه الحروف الثلاثة مأْخوذة من اسم الله: (المصور) لكنَّ هذا التفسير لم يَقُمْ عليه دليلٌ، وقد يفتحُ القولُ بهذا البابِ للباطنيةِ والزنادقةِ كي يفسِّروا القرآنَ بالتأويلاتِ الباطلة.

وقد بيَّنْتُ في تفسير أول البقرة أنَّ المرادَ بهذه الأحرف حروفُ اللغةِ العربية التي يتكون منها القرآنُ، فكأنَّه قالَ لهم: هذا القرآن الذي لا تستطيعون الإتيان بمثلِ سورة قصيرةٍ من سوره مكوَّنٌ من هذه الحروفِ وأمثالها.

ويدلُّ على صحةِ هذا القولِ الحديث الذي أخْبَرَ الرسولُ ﷺ فيه أنَّ لكلِّ من قرأ حرفاً من كتابِ الله عَشْرُ حسناتٍ، وأخْبَرَ فيه أنَّ (الٓمٓ) ليستْ حرفاً واحداً، بل ألِفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حَرْفٌ [الترمذي: ٢٩١٠].

ويدلُّ لصحةِ هذا القولِ أنَّ أكثر السورِ المفْتتحة بالحروفِ المقطعة لم يذكرْ منها سورةٌ إلا وجاء بعْدَها التنويهُ بشأن القرآنِ ولم يُسْتَثْنَ من هذا إلا سورٌ قليلةٌ، ففي البقرة قال ربُّ العزة ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾ [البقرة١-٢] وفي هذه السورة الأعراف قال: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١-٢].

٢- نَهْيُ الله -تعالى- رسولَه أنْ يكونَ في صَدْرِهِ حَرَجٌ مِنَ القرآن:

أَخْبَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنَّه أنْزَلَ إليه كتابَهُ، وهو القرآنُ العظيمُ، ونهاه أنْ يكون في صَدْرِهِ حَرَجٌ منه، وبيَّن له الغايةَ مِنْ إنزاله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف:٢].

وأصحُّ ما فُسِّرَ به الحَرَجُ المنهيُّ عنهُ في الآية: الشَّكُّ، أي: فلا يكن في صَدْرِكَ شكٌّ منه، وهذا قولُ جمهور المفسرين، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝١٤٧﴾ [البقرة:١٤٧] أي: فلا تكونَنَّ من الشاكينَ، وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤]. وسُمِّي الشكُّ حَرَجاً، لأنَّ الشاكَّ قَلِقٌ صَدْرُهُ ضَيِّقٌ غير مطمئن.

ومتى آمَنَ المرءُ بالكتابِ كلِّه ارْتَفَع عنه الحرجُ كُلُّه، فإنْ آمَنَ ببعْضِهِ، ولم يُؤْمِنُ ببعْضِهِ بقيَ الحرجُ فيما لم يؤمن به، فالذي يَزْعُمُ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ أصابهُ الحرجُ عندما يقرأ الآياتِ التي تُقَرِّرُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله.

والذي يُنْكِرُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى عالٍ على خلقه فوقَ سماواتِهِ، يقعُ الحَرَجُ في قلْبِهِ عندما يتلو الآياتِ المُثْبِتَةِ لعُلُوِّ الله تعالى.

والذي يرفضُ الإقرارَ بصفاتِ الله تعالى كالاستواء على العرشِ، والنزولِ إلى السماءِ الدنيا في آخر الليل ونحو ذلك، يضيقُ صَدْرُهُ عندما يقرأُ هذه النصوص في الكتابِ والسنّة.

والذي آمن بالكتابِ والسنّةِ على الوجْهِ الحقِّ لا يبقى لديهِ حَرجٌ من شيءٍ مِنَ القرآنِ.

ومن المعلوم أنَّ الرسولَ ﷺ لا يمكن أنْ يكونَ في صَدْرِهِ حَرَجٌ من القرآنِ بحالٍ من الأحوال، والمرادُ بالخطاب الموجَّه إليهِ هو أمتُهُ، من بابِ قولِ العربِ: إيَّاكِ أعْني واسْمَعي يا جارةُ.

٣- الغايةُ من إنْزالِ اللهِ القرآن على رسولِهِ ﷺ :

بيّنَ اللهُ -تعالى- لرسولِهِ ﷺ الغايةَ التي أُنزِلَ القرآنُ مِنْ أجْلِها، فقال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف:٢] فالقرآنُ مُنْزَلٌ من عند الله تعالى لِيُنْذِرَ الكافرين، وذِكْرى للمؤمنين.

والقومُ الذينَ أُنْزِلَ القرآنُ لإنْذارِهِمْ هُمْ جميعُ الإنْسِ والجَنِّ، لأنه مُنْزَلٌ للثقَلَيْنِ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:١].

والإنْذارُ: الإعْلامُ المُقْتَرِنُ بتهديدٍ، فكُلُّ إنذارٍ إعلامٌ، وليسَ كُلُّ إعلامٍ إنذاراً، والمعنى المرادُ أنَّ الله تعالى أنْزَلَ القرآنَ العظيمَ، ليخوِّفَ بِهِ عبادَه عقابَ ربِّهم وخالِقِهم سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ والمؤمنونَ في الشَّرْعِ: الذينَ آمنوا بقلوبِهِمْ، وأقرُّوا بالإيمان بألْسِنَتِهِمْ، وعَملوا الطاعات بجوارِحِهِمْ، فهؤلاءِ أنزلَ اللهُ القرآنَ ذكرى لهم، يذكِّرهم بربِّهم، ويُذَكِّرهُم بحقِّ غيرِهم، ويذكرهم بالمرجع والمصير.

٤- أوْجَبَ اللهُ -تعالى- علينا أنْ نتَّبِعَ ما أُنْزِلَ إلينا من ربِّنا :

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- جميعَ عبادِهِ أنْ يتّبِعُوا جميعَ ما أُنْزِلَ إليهم من ربِّهِمْ، ونهاهُمْ -سبحانه- أن يتَّبِعُوا من دونِهِ أولياء، وهُمُ الشرَكاءُ من شياطينِ الجنِّ والإنس، والآلهةُ التي يعبدونَها من دون الله ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف:٣].

وهذا الأمرُ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ للوجوبِ، أوجب علينا أنْ نتَّبعَ ما أنْزَلَهُ اللهُ إلينا في كتابه وسنّة نبيِّهِ، قالَ القرطبيُّ: «اتبعوا ملةَ الإسلام والقرآنِ، وأحلُّوا حلالَهُ، وحرِّموا حرامَهُ، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، ودلت الآية على تَرْكِ اتباعِ الآراءِ مع وجودِ النصِّ» [القرطبي: ٤/ ١٤٢].

والأَوْلياءُ في لغة العرب: جمع وَلِيٍّ، والوَلِيِّ: كُلُّ مَنْ انعقدَ بينَك وبينه سببٌ يَجْعَلُك تواليه ويُواليك، ولذلك كان اللهُ وليَّ المؤمنين، والمؤمنونُ أولياءُ الله. وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ أيْ: تتذكرون تذكراً قليلاً لا يجدي، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف:١٠٦].

٥- تهديدُ اللهُ الكفارَ المشركين بالعذاب الأليم:

أمَرَنا ربُّنا الحليمُ العليمُ سبحانه أنْ نتبعَ ما أُنزلَ إلينا من ربِّنا، ونهانا أنْ نتَّبعَ وليّاً من الأولياءِ من دونِهِ، ثمَّ أعلمنا -سبحانه- أنَّه أهْلَكَ كثيراً من القرى فيما مضى بسبب كُفْرِهِمْ وتمرّدِهم على ربِّهم -تبارك وتعالى- فقال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف:٤].

﴿وَكَم﴾ التي في مَطْلَعِ الآية خَبَرِيَّةٌ للتكثير، أي: أهْلَكْنا عدداً كبيراً مِنَ القُرى فيما مَضَى، وإذا دَمَّر اللهُ القرية دَمَّرَ أهْلَها، فقدْ دَمَّرَ اللهُ تعالى قرى قومِ نوحٍ، وقومِ هودٍ، وقومِ صالحٍ، وقومِ لوطٍ، وقومِ شعيبٍ، وغيرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق:٨-٩].

وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج:٤٥]. وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

وقولُهُ: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ الفاءُ في قولِهِ: ﴿فَجَاءَهَا﴾ حَرْفُ تعْقيبٍ، وما بَعْدَها آتٍ بعدَ ما قَبْلَها، وعلى ذلك فقد جَعَل مجيءَ البأْسِ كأنَّه واقعٌ عَقْبَ الإهْلاك، ومجيءُ البأسِ ليس واقعاً عَقْبَ الهلاكِ، بل مجيءُ البأسِ، هو عَيْنُ الهَلاكِ، وقد ذَهَبَ كثيرٌ مِنَ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ المرادَ بقوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أرَدْنا إهْلاكَها، والذي حَقَّقَه الشيخُ محمدُ الأمين الشنقيطيُّ أنَّ الفاءَ تفسيريَّةٌ، يؤتى بها بيْنَ كلِّ فِعْلَينِ معناهُما واحد، فيُرَتِّبونَ بينَهُما ما شاؤوا بالفاءِ، ومثالُ ذلك أنْ تقولَ: توضأ فغَسَلَ وجْهَهُ ويَدَيْهِ ورَجْلَيْه، فالفاءُ في (فَغَسَلَ) تفسير لتَوَضأ، وعلى ذلك فمجيءُ البأسِ في الآيةِ هو تفسير للهلاك [العذب النمير: ٣/ ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿ بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ أي: يأتيهم بأسُ الله في حالِ غَفْلَتِهم وراحَتِهِمْ، فأخْبَرَ أنَّه يأتِيهِمْ في الليلِ، وهو زَمَنُ السُّكونِ والراحةِ والنوم، كما جاءَ العذابُ قومَ لوطٍ، فقد جاءَهَمْ مع طلوعِ الفجر قبل أن يقوموا من نوْمِهِمْ، ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود:٨١] أو يأتيهم العذابُ في وقْتِ القَيْلولَةِ، والقَيْلولةُ نومُ نصف النهار، وهو وقتُ الراحة عند العرب، وقد جاء العذاب قوم شعيب في مثل هذا الوقت، قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ ﴾ [الشعراء:١٨٩]. وقد تهدَّدَ اللهُ تعالى الكافرينَ أنْ يأتيهم العذاب في وقتِ البيتوتةِ أو وقت الضحى بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨].

وقد أعْلَمَنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّه عندما أوقع بالكافرين بأْسَه، رفَعوا عقيرَتَهُمْ بالدعاء وبأسُ الله يحيطُ بهم قائلين: إنا كنَّا ظالمين ﴿ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأعراف:٥] وقوله: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ ﴾ أيْ: لم يكُنْ دعاؤُهم إلا الاعتراف بالذنبِ، والتوبةُ عند وقوعِ العذابِ لا تنفع أصحابَها.

وقوله: ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ جَمْعُ ظالم، والظالمُ: اسْمُ فاعل من الظُّلْم، والظُّلْمُ: وَضْعُ الشيءِ في غيرِ موْضِعِه، وأشَدُّ الظلمِ وأعْظَمُه الشِّرْكُ بالله تعالى، لأنَّ صاحِبَهُ وَضَعَ المخلوقَ المربوبَ في موضعِ الخالقِ عندما عَبَدَهْ مع الله ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان:١٣].

٦- سؤالُ الله تعالى الأممَ التي أرْسَلَ إليها رُسُلَهُ وسؤالُ المرسلين في يوم الدين:

أخبرنا ربُّنا العزيزُ العليم سبحانه أنه في يوم الدينِ سيَسَألُ الأمم التي أرْسَلَ إليها رُسُلَهَ عما أجابوا به رُسَلَهُ، وسيسْألُ رُسُلَهَ عن تَبْليغِهِمْ دينَه، ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأعراف:٦-٧] ومما يدلُّ على مِثْلِ ما دَلَّتْ عليهِ هذه الآية قوْلُه تعالى: ﴿۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ ﴾ [المائدة:١٠٩] وقوله: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [القصص:٦٥-٦٦].

فإنْ قيلَ: كيفَ يسألُ اللهُ تعالى المُرْسَلَ إليهم عمّا أجابوا به الرُّسُلَ، واللهُ يقول: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص:٧٨]، ويقولُ: ﴿لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرحمن:٣٩].

والجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى يسألُ الكُفَّارَ في ذلك اليومِ سؤالَ استخبارٍ واستعلام واستكشافٍ، لأَنَّهُ عالمٌ بذنوبهم قد سجَّلَها عليهم ولكنَّه يسْأَلهم سؤالَ توْبيخٍ وتقريعٍ، فيقولُ لهُم: ماذا أَجَبْتُم المرسلين، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:٧١].

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ أي: يُخْبِرُهُمْ اللهُ تعالى في يومِ الدينِ بما فَعَلُوهُ في الدنيا، فيقول: يا عَبْدِيْ فلان، أأنتَ فعلتَ في الدنيا كَذا، وفَعَلْتَ كذا، حتى يأتي على جميع عَمَله، ويقصُّ عليهم جميعَ أَعْمالِهِمْ التي عَمِلوها، فاللهُ كانَ حاضراً أعمالَهُمْ، وسَجّلَها عليهم.

وهذا يَحُثُّ المؤمِنَ على أنْ يصلحَ عَمَلَهُ في الحياةِ الدُّنْيا، حتى إذا أَسْمَعَهُ الله سِجلَّ أعمالِهِ الذي عَمِلَهُ في الدنيا، كان عَمَلُهُ كُلُّه طيباً صالحاً.

٧- وزنُ أعمالِ العبادِ في يوم الدين:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه يَزِنُ أعمالَ العبادِ في يوم الدين ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف:٨-٩].

وقد ذهب المعتزلةُ إلى أنَّ الميزانَ لا حقيقةَ له، وإنَّما المُرادُ بالوَزْنِ العدالةُ والجَزاءُ، وسَبَقَهُمْ إلى القولِ بذلك مجاهِدٌ والضحاكُ والأعمشُ، وهذا القولُ غيرُ صحيحٍ، فقد دلَّتْ نُصوصُ القرآنِ والأحاديثُ الصحيحةُ أنَّ اللهُ تعالى يَزِنُ أعمالَ العبادِ يومَ القيامةِ بميزان حقيقيٍّ اللهُ أعلمُ بمدى عِظَمِهِ، فتوضَعُ الأعمالُ السيئةُ في كِفَّةٍ والأعمال الصالحة في كفّةٍ، وقد وَصَفَ اللهُ تعالى الوَزْنَ يومَ القيامة بأنه حقٌّ ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ والمرادُ بالحقِّ العَدْلُ الثابتُ الذي لا جَوْرَ فيه، يأْخُذُ العبدُ حَقَّه من غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ، بل قد يُزادُ في الحسنات.

وهذا الوزنُ حقيقيٌّ، واللهُ قادرٌ على أنْ يَزِنَ أعمالَنا، فهو لا يُعْجِزه شيءٌ، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة:٦-١١].

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾ أي: الفائزونَ في جناتِ النعيم خالدين فيها أبداً، لا يَرْحَلونَ عنها، ولا يَظْعَنونَ.

وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: طاشَتْ ولم تَرْجَحْ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ وذلك بسَوْقِهِمْ إلى النار، وخلودهم فيها، وهؤلاءُ لم يَخْسَروا مالاً أو تجارةً، ولكنَّهم خَسِروا أنْفُسَهُمْ في النارِ، ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ أي: خَسِرُوا أنْفُسَهَمْ في الآخرة بما اقْتَرَفوهُ في الدُّنيا من كفرٍ وذنوبٍ وآثامٍ.

٨- **تمكينُ الله تعالى للناس في الأرضِ:**

امتنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- على الناسِ بأنْ مَكَّنَ لهم في الأرضِ، فعليها نَبْني مساكِننا، ونتَّخِذُ من سهولها جناتٍ وبساتينَ، ونستفيدُ من نباتِها وحيواناتها وأسْماكِها وطُيورِها، ونتَّخِذُ من ذلك كُلِّه معايشَ، أي: ما يمْكِننا من المعيشة في الحياة الدنيا، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [الأعراف:١٠].

وتمكينُ الله تعالى لنا في الأرضِ بأنْ جَعَلَ الأرْضَ صالحةً لحياتِنا، وأوْجَدَ فيها ما يقيم حياتنا، وأقْدَرَنا على السعي فيها، والاستفادةِ من خيراتِها، وقولُهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ أي: قليلاً ما تشْكُرونَهُ على ما أنعم بِهِ عليكم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- هذا القرآنُ المُعجِزُ الذي لا يستطيع أحَدٌ أنْ يأتِيَ بسورةٍ من مثْلِهِ مكوَّنةٌ كلماتُهُ من حُروفِ اللغةِ العربية.

٢- الذي يؤمنُ بالقرآنِ كُلِّه على الوجه الذي يريدُه اللهُ تعالى، لا يبْقى في صَدْرِهِ حَرَجٌ ولا رَيْبٌ، فإنْ غابَ عنه جَوانبُ من الحَقِّ الذي جاءَ القرآنُ بِهِ، بقيَ في صَدْرِهِ مِنَ الحَرَج بمقدارِ ما غابَ عنه من الحَقِّ.

٣- الغايةُ مِنْ إنزالِ القرآنِ إنْذارُ الكافرين والعصاةِ وتذكير المؤمنين.

٤- أوجبَ اللهُ تعالى على جميع عبادِهِ أنْ يقبلوا ما جاءَهم من ربِّهم في الكتاب والسنّة، وأن يعملوا به على الوجه الذي يريدُهُ اللهُ تعالى.

٥- حَذَّرنا اللهُ تعالى من اتباعِ شياطينِ الإنسِ والجنِّ الذين يضادُّون ويُعارِضُونَ ما جاءَ اللهُ بِهِ من الحقِّ.

٦- تهَدَّدَ اللهُ تعالى الكفارَ أن يفْعَلَ بهم مَثَلَ ما فَعَلَ بالقرى الكافرة مِن قَبْلِهِمْ.

٧- في يومِ القيامة يسأَلُ اللهُ الأُممَ التي أرْسَلَ إليها رُسُلَه، عما أجابوا به الرسل، ويسأل المرسلين عن تبليغهم أُمَمَهُمْ بالحقِّ الذي أرسلهم، وعمّا أجابوهم به.

٨- في يوم القيامة يَزِنُ اللهُ أعمالَ العبادِ بميزانٍ حقيقي لا ندري كيفَ هو، فمَنْ ثقلتْ موازينَهُ أفلحَ وفازَ، ومن خَفَّت موازينُهُ خَسِرَ وأُلْقِيَ في النارِ.

٩- خَلَقَ اللهُ تعالى الأرضَ مناسبةً لحياتِنا، ومَكَّنَنا مِنَ العيشِ فَوْقَها، لنعبدَهُ ونشكُرَهُ، ونثني عليه سبحانَه.

النص القرآني الثاني من سورة الأعراف
طَرْدُ الرحمنِ للشيطانِ من الجنَّةِ لعَدَمِ سُجودِهِ لآدَمَ

أولاً: تقديم

كرَّم اللهُ تعالى آدَمَ وبَنيهِ، فقد خَلَقَ الله بني آدمَ بخَلْقِ أبيهم من ترابٍ، ثم صوَّرَهُمْ بتصويرِهِ، ثُمَّ أمَرَ الملائكةَ بالسجود لأبيهم آدمَ بَعْدَ خَلْقِهِ، فَسَجَدُوا إلاَّ إبليسَ أبى أنْ يكون مع الساجدينَ، وعندما سألَه رَبُّ العِزَّةِ مُقَرِّعاً ومُبَكِّتاً إيَّاهُ لعَدم طاعته فيما أمَرَهُ، ادَّعى أنَّه أفضلُ من آدمَ، لأنه خُلِقَ من نارٍ وآدمُ خُلِقَ مِنْ طينٍ، فما ينبغي أنْ يَسْجُدَ لَهُ، طَرَدَهُ اللهُ من جَنَّتِهِ ورحمتِهِ، وأهْبَطَهُ مِنَ الجنَّة صاغراً ذَليلاً.

وطَلَبَ إبليسُ مِنْ رَبِّه أنْ يُبْقِيَهُ حيّاً إلى يوم الدينِ، فأجابَهُ ربُّهُ لحكم يعلمها، وقد نَصَبَ الشيطانُ من نَفْسِهِ عدوّاً لآدم وبنيْهِ، يُزَيِّنُ لهم الكفرَ والشركَ والمعاصي، وقد تَوَعَّدَهُ ربُّه أنْ يُدْخِلَهُ ومَنْ اتَّبَعَهُ النَّارَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف:١١-١٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- **مِنَّةُ الله تعالى على البَشَرِ بخلقهم وأبيهم آدمَ عليه السلام:**

أخْبَرَنا ربُّنا -عَزَّ وجَلَّ- عن الأصلِ الكريم الذي مِنْهُ خُلِقْنا، فقد خَلَقَنا اللهُ تعالى بخلق أبينا آدمَ عليه السلام من تُرابٍ، ثم صوَّرَنا بتصوير أبينا آدم عليه السلام، ذلك أنَّ البَشَرَ بعد آدمَ وحواء يُخْلَقون ويصورون في الأرحام على هيئةِ آدمَ وصورتِهِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ ثم أمَرَ اللهُ -تعالى- الملائكةَ أنْ يسْجُدوا لآدمَ بعد تمام خَلْقِهِ، ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾

[الأعراف:١١]، وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر:٢٩].

وما أخبرنا بِهِ خالقنا العليمُ الحكيمُ الخبيرُ عن الأصل الذي منهُ خَلَقَنا يَرُدُّ على الذين زَعَموا كاذبين أنَّ خَلْقَنا تَطوَّرَ عن فأْرٍ أو قِرْدٍ أو صرْصورٍ، وهذا كذِبٌ على الله تعالى، وفيه تقذير لأصل الإنسانِ، وتكذيبٌ للرحمنِ، اللهمَّ إنَّا نبرأ إليك من الضَّلال.

وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ الملائكةَ جميعاً سَجَدُوا لآدمَ عندما سَرَتْ فيه الروحُ ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحجر:٣٠]. وامتنعَ إبليسُ أنْ يكونَ مَعَ الساجدينَ، وإبليس لم يَكُنْ مِنَ الملائكةِ، بل كان من الجِنِّ، وكان يَعْبُدُ اللهَ مَعَهُمْ، فحَسَدَ آدم على ما فضَّله بِهِ ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأعراف:١١].

٢- الرحمن يُقَرِّعُ الشيطانَ في سؤالِهِ عن السبب في عدم طاعتِهِ لأمْرِه:

أخبرنا ربُّنا العليم الحليم أنه سأَلَ الشيطانَ عن السَّبَبِ الذي أدَّى إلى عَدَمِ السجودِ، ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٢].

وقد أخبرنا ربُّنا فيما سبقَ أنَّه أمَرَ ملائكتَهُ وإبليسَ بالسجودِ، والأمْرُ من ربِّ العزَّةِ بهذه الصيغةِ يفيدُ الوجوبَ، وعدَمُ فِعْلِ ما أمَرَ اللهُ به معصيةٌ، فقال اللهُ لإبليس: ما منعك يا إبليس ﴿أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ ومعنى الآيةِ: ما مَنَعَكَ أن تسجد إذْ أمَرْتُكَ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص:٧٥].

والعلماءُ الأعلام على أنَّ (لا) في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ زائدة، أي: ما ألجأَكَ وأحْوجَكَ إلى أنْ لا تَسْجُدَ، واللامُ تُزادُ لتأكيدِ المعنى وتقْويَتِهِ، وهذا في الفعل الذي يفيدُ معنى الجَحْدِ كثيرٌ في كتابِ الله تعالى كقوْلِهِ تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الحديد:٢٩]، أي: ليعلَمَ أهلُ الكتابِ، فقد جيء بـ (لا) لتقوية المقامِ، ومنه قوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النساء:٦٥]، وقوله: ﴿مَنَعَكَ ﴾ في الآية تُفيدُ الجُحودَ والنفي [العذب النمير: ٣/ ١١٢ باختصار].

وسؤالُ الله -تعالى- المُوَجَّهُ لإبليسَ، فيه توْبيخٌ وتقريعٌ له، لعَدم طاعَتِهِ لله. وقد أجاب إبليسُ لَعَنَهُ الله تعالى إجابةً تَدُلُّ على أنَّ رَفْضَهُ السجودَ كان بسبب تكَبُّرِهِ وتعاليهُ، فهوَ أفْضَلُ من آدَمَ، لأنَّهُ مخلوقٌ من النَّارِ وآدَمُ مخلوقٌ من الطينِ، والنارُ أفضلُ من الطينِ، وهذا الجوابُ

يَدُلُّ على أنَّ هذا المخلوقَ اللعينَ خَطَّأَ ربَّه العليمَ الحكيمَ بأمْرِهِ لَهُ بالسجودِ لآدمَ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف:١٢].

ولم يُبَيِّنِ اللهُ تعالى للشيطانِ فسادَ قولِهِ، لأنه تعالى لا يُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسألون، وإلاَّ فإنَّ ما احتجَّ به الشيطانُ قولٌ باطلٌ، فالنَّارُ التي خُلقَ منها نارٌ مُحْرِقَةٌ مُفْسِدَةٌ، لا تنبت الزَّرْع، ولا تُبْنَى عليها البيوتُ، بخلاف الترابِ.

ولَّما أجابَ الشيطانُ هذا الجوابَ الدالَّ على الكِبْرِ والاستعلاءِ، والذي يُخَطِّئُ فيه رَبَّ الأرضِ والسماءِ، طردَه اللهُ تعالى مِنْ رحمته، وأبعده من جَنَّتِهِ ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف:١٣].

وقد عاملَ ربُّ العزة الشيطانَ بنقيض قَصْدِهِ حيث كان قَصْدُهُ التعاظمُ والتكَبُّرُ، فأخرجه اللهُ تعالى من الجنةِ صاغِراً حقيراً ذليلاً، وقال له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: من الأذلاَّءِ الحقراءِ المذمومين.

٣- الشيطانُ يَطلُبُ من الرحمنِ أن يُنْظِرَهُ إلى يوم الدين:

لَّما أمَرَ اللهُ تعالى الشيطانَ بالخروجِ من الجنة، طَلَبَ من الله تعالى أن يُنْظِرَهُ إلى يومِ البعثِ ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف:١٤]، طلب من ربِّه أنْ يبقيهُ حيّاً إلى يومِ القيامةِ، فأجابَهُ اللهُ تعالى إلى ما سألَهُ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأعراف:١٥]، وقد بيَّنَ اللهُ تعالى في سورة (الحجر) الوقتَ الذي أنظره إليه قال: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر:٣٧-٣٨] وأكثر العلماء أنَّ هذا الإنظار إلى وُقوعِ النَّفْخَةِ الأولى.

٤- عَزْمُ الشيطان على إغْواء الإنسان:

بعدَ ما أجابَ الرحمنُ الشيطانَ في إبْقائِهِ حيّاً إلى أنْ يُنْفَخَ في الصورِ، أظْهَرَ ما انطوى عليه صَدْرُهُ مِنَ غلٍّ على بني آدم، وما سيفعلُهُ بهم ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

قالَ الشيطانُ لربِّ العِزَّةِ: كما أضللتني، لأَقْعُدَنَّ لعبادكِ الذين تخلقهم من ذُرِّيَةِ آدم على صراطِكَ المستقيم، يريدُ به الدينَ الذي يُنْزِلُهُ إليهم، وهو دينُ الإسلامِ، وسآتيهم لإضلالهم من أمامِهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، أي: سيأتيهم من كلِّ الجهاتِ إلا من فوقِهم، وأخبر أنه ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: مؤمنينَ موحِّدينَ.

وقد أخبرنا -تبارك وتعالى- في موضعٍ آخر أنَّ إبليسَ صَدَّقَ عليهم ظَنَّهُ ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سبأ:٢٠].

وقد بيَّنَ لنا رسولنا ﷺ كيف قَعَدَ الشيطانُ للإنسان بطريق الإسلام، فعن سَبْرَةَ بنِ أبي فاكه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ الشيطانَ قَعَدَ لابنِ آدمَ بأطْرُقِه، فقَعَدَ له بطريقِ الإسلام، فقالَ له: أتُسْلِمُ وتَذَرُ دينَكَ، ودينَ آبائِكَ، وآباءِ أبيكَ؟» قال: «فعَصَاهُ فأسْلَمَ، ثمَّ قَعَدَ لَهُ بطريقِ الهِجْرَةِ، فقال: أتُهاجِرُ وتَذَرُ أرْضَكَ وسماءَكَ؟ وإنما مَثَلُ المُهاجِرِ كمَثَلِ الفَرَسِ في الطِّوَلِ» قال: «فعَصَاهُ فهاجَرَ» قال: «ثم قَعَدَ له بطريقِ الجِهاد، فقال: هُوَ جَهْدُ النَّفْسِ والمالِ، فتُقاتِلُ فتقْتَلُ، فتُنْكَحُ المرأةُ، ويُقْسَمُ المالُ» قال: «فعَصاهُ فجاهَدَ» فقال رسولُ الله ﷺ : «فَمَنْ فَعَلَ ذلِكَ مِنْهُم، فماتَ، كانَ حَقّاً على الله أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أوْ قُتِلَ كانَ حَقّاً على الله أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وإن غَرِقَ كانَ حَقّاً على الله أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أو وَقَصَتْهُ دابَّة كانَ حَقّاً على الله أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ» [مسند أحمد: ٢٥/ ٣١٥. ورقمه: ١٥٩٥٨. وإسناده قويٌّ، وعزاه إلى أبي داود والنسائي وغيرهم].

وعلى المسلم أنْ يحْتَمِيَ بالله تعالى مِنَ الشيطانِ، كما كان يفعلُ الرسولُ ﷺ عندما يُمْسي وعندما يصبح، فعن عبدالله بن عمرَ قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الدعواتِ، حين يُصبحُ وحين يُمسي: «اللهم إنِّي أسألُكَ العافية في الدُّنيا والآخِرَة، اللهمَّ إنِّي أسألُكَ العفوَ والعافيةَ في ديني ودُنْياي وأهلي ومالي، اللهمَّ استُرْ عَوْراتي، وآمِنْ رَوْعاتي، اللهم احفَظْني من بيْنِ يَدَيَّ ومِنْ خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذُ بعظمتك أن أُغْتالَ من تحتي»، قال: يعني الخَسْفَ [مسند أحمد: ٨/ ٤٠٣. ورقمه: ٤٧٨٥. وقال محققه: إسناده صحيح، ورجاله ثقات].

٥- أمْرُ الله -تعالى- الشيطانَ بالخروجِ مِنَ الجنةِ مهاناً وتَوَعَّدَه بإدخاله وأتباعه النار:

بعد أنْ قالَ الشيطانُ ما قالَهُ لربِّ العزَّة -سبحانه- أمَرَهُ مَرَّةً أُخرى بالخروجِ من الجنَّةِ مَذْؤُوماً مَدْحوراً، أيْ: يخرجُ مِنَ الجنة مذموماً ممقوتاً معيباً، ويخْرَجَ منها مَدْحوراً، أي: مَطْروداً من رحمةِ الله، وتَوَعَّدَهُ -تبارك وتعالى- هو ومَنِ اتَّبَعهُ أنْ يملأ جهنَّمَ منهمْ جميعاً ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٨] وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص:٨٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- خَلَقَ الله تعالى بني آدَمَ أوَّلاً بخلقِ أبيهم آدمَ من ترابٍ، ثم خَلَقَهمْ في أرحامِ أمهاتهم.

٢- الناسُ جميعاً من أصلٍ كريم هو آدمُ ﷺ ، خَلَقَهُ بيدِهِ من ترابٍ، وأسْجَدَ له ملائكتَهُ عندما خلقه.

٣- كان إبليسُ يَعْبُد اللهَ مع الملائكة، فلما أمَرَ اللهُ الملائكةَ بالسجودِ لآدم، رفضَ إبليسُ السجودَ له، بدعوى أنّه مخلوقٌ من النار، والنارُ أفضل مِنَ الطينِ، فطردَهُ اللهُ مِنْ رحمته وجنتهِ صاغِراً ذليلاً.

٤- طلبَ الشيطانُ من ربِّ العزةِ أن يُبْقِيَه حيّاً إلى يومِ الدين، فأجابَ دعاءَه، فهو حَيٌّ إلى هذا اليوم.

٥- عَدَّ إبليسُ أنَّ ما وَقَعَ لَهُ كان بسبب آدم، فحَقَدَ عليه، وعَزَمَ على أنْ يُضِلَّ آدمَ وبنيهِ، ويديمَ الوسوسةَ لهم بالشرِّ، حتى يخرجَهُمْ مِنَ الإيمانِ إلى الكُفْرِ.

٦- طَرَدَ اللهُ إبْليسَ من جنتهِ ورحمتهِ، وتوعَّدَه ومنْ اتبعه بالنار.

النص القرآني الثالث من سورة الأعراف
تغريرُ الشيطان بآدمَ وزوْجِهِ فأكلا مِنَ الشجرة المحرَّمةِ فأهبطَهما اللهُ من الجنة إلى الأرض

أولاً: تقديم

أسْكَنَ اللهُ تعالى آدمَ وزوجَهُ جَنَّةَ الخُلْدِ، وأباحَ لهما الأكلَ منها، وحرَّم عليهما نوعاً واحداً من شجرِها، فزَيَّنَ الشيطانُ لهما الأكلَ مِنَ هذه الشجرةِ، فعصيا ربَّهما، فأَهْبَطَهُما اللهُ إلى الأرْضِ، وتابا فتابَ اللهُ عليهما، وغَفَرَ لهما ذَنْبَهُما، واستمرتِ المعركةُ بيننا وبينَ الشيطانِ إلى اليوم، وإلى أنْ تقومَ الساعةُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٩-٢٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أسْكَنَ اللهُ تعالى آدمَ وزوْجَه الجنَةَ وأباحَ اللهُ لهما الأكْلَ منها إلا شَجَرَةً واحدةً:

بعد أنْ طَرَدَ اللهُ -تعالى- إبليسَ من جَنَّتِهِ أمَرَ اللهُ تعالى آدمَ أنْ يَسْكُنَ هو وزوْجُهُ حواءُ الجنَّةَ، وأباحَ لهما أنْ يأكُلا من جميعِ أشجارِ الجنَّةِ إلاَّ شَجَرَةً واحدةً، ولم يَرِدْ لا في القرآنِ ولا الحديثِ تسميةَ هذه الشجرة، فلا ينبغي الخوضُ والبحثُ عن اسمها، وقالَ اللهُ لهما: إن أنتما أكَلْتُما مِنْ هذه الشجرةِ تكونا من الظالمين، أيْ: من العصاة الذين ظَلَموا أنْفُسَهُمْ بالمعاصي والذنوب ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩].

٢- **الشيطانُ يوسْوسُ لآدم وزوجِهِ مغرياً إياهما بالأكْلِ من الشجرةِ:**

عَلِمَ الشيطانُ أَنَّه لا يستطيعُ أن يضيرَ آدمَ إلاَّ إذا جَعَلَهُ يَعْصِي ربَّهُ هُوَ وزوْجُهُ، فأخَذَ يوَسْوِسُ لهما ليأكلا من الشجرةِ التي نهاهُما ربُّهما عن الأكْلِ منها، والوَسْوَسَةُ: ما يُلْقِيهُ الشيطانُ في نفْسِ الإنسانِ على وجهِ الخفْيَةِ، وأصْلُ الوَسْوَسَةِ صوتُ الحلي ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠].

كانَ الشيطانُ يَعْلَم عاقبةَ أكْلِ آدمَ وحواءَ من الشجرة، فهُما بذلك يعصيانِ ربَّهما، ويفْعَلان ما أمَرَهُما بتَرْكِهِ، وإذا أكَلا من الشجرةِ ظَهَرَتْ لهما سوءاتُهما، وكانت سوْءاتُهما مخْفِيَّةً لا تظهر لهما، فلا يَرى أحَدُهُما عَوْرَتَهُ، ولا يَرى عَوْرَةَ الآخر، ولم يخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن كيفية ذلك، فلا نبحثُ عنه، وكُلُّ الذي نَعْلَمُه أنَّهما أكلا من الشجرةِ فَبَدَتْ لهما في الحالِ عَوْرَتاهُما.

وقد جاءَهما الشيطانُ من الجهةِ التي يُحِبَّانِها، وقالَ لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ وقد كَذَبَ عليهما فيما زَيَّنَهُ لهما، ولكنَّه لو قالَ لهما: إذا أكَلْتُما من الشجرةِ أغضبتما ربَّكُما، وطُرِدْتُما من الجنَّةِ، فما كانا ليُطيعانِهِ، ولكنه جاءَهما من البابِ الذي يُحِبَّانِهِ، ويعشَقانِهِ، فإذا أصْبَحا مَلَكَيْنِ فلا يموتانِ، وكذلك إذا هما خَلَدا في الجنَّة، وكي يزيل ما حاكَ في صدورِهما مما أمَرَهُما بِهِ أقْسَمَ لهما أنَّه ناصِحٌ لهما ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف:٢١]، والمرادُ بقاسَمَهُما: حَلَفَ لَهُما، حَتَّى خَدَعَهما، وما كان آدمُ يظنُّ أنَّ أحداً يَحْلِفُ بالله كاذِباً. وقوله: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ صيغةُ مفاعلةٍ، لا يُرادُ بها في الآيةِ المشارَكَةُ مِنَ الطرفين، ولكنَّ المرادَ بها المبالغةُ في صُدورِ الإقْسامِ لهما من إبْليسَ.

٣- **أكْلُ آدم وزوجِهِ من الشجرة المحرَّمة:**

انْخَدَع آدمُ وزوجُه حواءُ بمعسول القولِ الذي ألْقاهُ إليْهما إبْليسُ، فأكَلا من الشجرةِ فبَدَتْ لهما سوءاتُهما، فعَلِما عند ذلك أنَّ الشيطانَ غَرَّرَ بهما، وأوْقَعهما بالمعصية، فقد ظَهَرَتْ لهما عورتاهُما وكانت مستورةً ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف:٢٢].

وقولُهُ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ ﴾ أي: خَدَعُهما، وأصْلُ التَّدْلِيَةِ بالغرورِ أنْ يكونَ المرءُ عَطْشاناً، فيُرْبَطَ بحَبْلٍ، ويُدَلَّى في البئْرِ، ليَرْوَى من مائِهِ، ولكنه لا يجِدُ فيهِ ماءً، فيكون مُدَلًّى بغرورٍ، فوُضِعَتْ التَّدْلِيَةُ موضِعَ الإطْماعِ فيما لا يُجْدِي نفعاً.

ويدُلُّ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أنَّهما ذاقاها ذواقاً، ولم يُبالِغا في الأكْلِ، وقوله: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي: عوْرَتاهما، وتسميةُ الفرجِ سَوْأَةً لأن كَشْفَها يسُوءُ صاحِبَها، ومسارعةُ آدمَ وحواءَ إلى الخَصْفِ مِنَ أوراقِ الجنّةِ يَدُلُّ على أنَّ العُرْيَ وكَشْفَ العَوْرَةِ ليس من الحضارة والمدنية في شيءٍ، وأنه مُسْتَقْذَرٌ مسْتَهْجَنٌ.

وقولُهُ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: جَعَلا يأْخُذانِ من أوراقِ الجنةِ، والخَصْفُ أنْ يَجْعَلا ورقةً بجانبِ الأخرى كُلُّ واحدٍ على عَوْرَتِهِ لِيَسْتُرَها، ولم يُخْبِرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الشَّجَرِ الذي أخَذَا من أوراقِهِ، لِيَسْتُرا عَوْرَتَيْهما، فلا نَبْحثُ فيه، فإنَّه أمْرٌ غَيْبِيٌّ، والغيبُ إنْ لم يُعَرِّفْنا الله به، لا نستطيعُ مَعْرِفَتَهُ.

٤- تقْريعُ الله -تعالى- لآدَمَ وحواءَ لأكْلِهما من الشَّجَرَةِ:

نادى اللهُ آدمَ وحواءَ، وقَرَّعَهُما لأكْلِهما من الشجرةِ التي نهاهما عن الأكْلِ منها ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف:٢٢]. وجَّهَ اللهُ -تعالى- الخطابَ إلى آدَمَ وزوجَه حواءَ مُقَرِّعاً لهما على عِصْيانِهما لَهُ بأكْلِهما مِنَ الشجرةِ التي حرَّمَها اللهُ عليهما، وهنا يظهرُ الفرْقُ بين معصيةِ الشيطانِ ومعصيةِ آدم، فإبليسُ تعالى وتكَبَّر، وأصَرَ على ذَنْبِهِ، بينما آدمُ اعترفَ بذنبِهِ، ونَدِمَ على ارْتكابِهِ لذَنْبِهِ، ولامَ نَفْسَهُ، وسارَعَ إلى التوبَةِ، ولم يقْنَطْ من رحمةِ الله تعالى.

لقد قالَ اللهُ -تعالى- لهما في تقريعه لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ وقد كانت الشجرةُ التي عَصَيا بالأكْلِ منها حاضرةً مشاهدةً مَرْئية، وقد أشارَ إليها بقوله: ﴿تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾. وقال لهما: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ ومِنْ عداوَتِهِ البيِّنَةِ الطريقةُ التي أضَلَّ بها آدمَ وحواءَ.

٥- توبةُ آدم وحواءَ:

سارَعَ آدمُ وحواءُ إلى التوبةِ إلى الله -تعالى- بعد معصيتهما، وقد أعْلَمَنا ربُّنا بالذي قالاه وهما يتوبان إلى الله ربِّهما ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف٢٣]، قالا يا ربَّنا، ظَلَمْنا أنْفُسَنا بأكلنا من الشجرةِ التي نهَيْتَنا عن الأكل منه، وإن لم تَغْفِرْ لنا ما وقعنا فيه من المَعْصِيَةِ وترْحَمَنا لنكونَنَّ من الخاسرينَ، وهكذا الإنسانُ ينبغي إذا عصى ربَّهُ أن يسارعَ إلى التوبةِ إلى الله بصِدْقٍ، ومن تابَ صادِقاً تابَ اللهُ عليه.

ومع توْبَةِ الله تعالى على آدمَ وزوجه، إلا أنَّه أهبطهما من الجنَة إلى الأرضِ، فهبط إلى الأرض إبليسُ وآدمُ وزوجُهُ ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأعراف:٢٤].

لقد جَعَلَ اللهُ -تعالى- الأرضَ مَقَرّاً ومنْزِلاً للإنسِ والجنِّ، هي دارهُمْ التي فيها يسْكُنونَ، وعلى ثراها يعيشونَ، وفيها يموتون ويدفنون، ومنها في يوم القيامة يخْرُجُونَ ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف:٢٥]، كما قال عز وجل: ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه:٥٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - أسْكَنَ اللهُ تعالى آدمَ وزوجَه الجنَّةَ وأباحَ لهما الأكلَ منها إلاَّ نوعاً واحداً من الشجر حرَّمَ عليهما أكْلَهُ.

٢- نَجَحَ الشيطانُ في التغريرِ بآدمَ وزَوْجِهِ، فحملهما على الأكلِ مِنَ الشجرةِ، فعصيا ربَّهما، وبَدَتْ لهم سوءاتُهما، وطَفِقا يخْصِفانِ عليهما من ورقِ الجنة ليسترا عَورتَيْهما.

٣- على بني آدمَ أنْ يَحْذَروا أنْ يفعلَ الشيطانُ بهم مَثْلَ فِعْلِهِ بأبيهمْ.

٤ - سارعَ آدمُ وزوجُهُ إلى التوبةِ، فتابَ اللهُ عليهما، وأهَبَطَهُما إلى الأرضِ، وجَعَلَها مقرّاً لهم، ولذريتهما.

٥- على بني آدمَ إنْ أخْطَؤوا أنْ يسارعوا إلى التوبةِ، فالتائبُ مِنَ الذَّنْبِ كمنْ لا ذَنْبَ لَهُ.

النص القرآني الرابع من سورة الأعراف
امتنانُ الله على عباده بما أنزله عليهم من نعمةِ اللباس

أولاً: تقديم

امتنَّ اللهُ تعالى على عِبادِهِ بما أنْزَلَهُ عليهم من نعمةِ اللِّباسِ الذي يسْتُرُ عَوْراتِهِمْ، ونعمةُ لِباسِ التقوى الذي يُقَوِّمُ نُفوسَهمْ، ويهذِّب أخلاقَهم، وقد نادى اللهُ بني آدمَ مُحَذِّراً إياهم من أنْ يَفْتِنَهُمُ الشيطانُ كما فعلَ بأبويهم، فقد أخرَجَهُما مِنْ الجنة عندما زيَّنَ لهما الأكْلَ مِنَ الشَّجَرةِ التي حرَّمَها اللهُ عليهما.

وقد ذَمَّ اللهُ تعالى الذينَ يرتكبونَ الفاحشة كالتَّعرِّي حالَ الطَّوافِ، ثم يَزْعُمونَ أنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بها، فاللهُ لا يأْمُر بالفَحْشاءِ، ولا يأْمُرُ إلا بالعَدْلِ.

ومع أمْرِ الله بالقِسْط، فإنه أمَرَ بالتَّوجُّهِ إلى القبلةِ في الصلاةِ، وأمرَنا بدُعاءِ الله وَحْدَهُ مخلصين له الدين.

وخَتَمِ اللهُ تعالى الآياتِ ببيانِ أنَّ البَشَرَ فريقان: مؤمنون مهتدون، وكفارٌ ضالون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف:٢٦-٣٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إعلامُ ربِّنا لنا بما أُنزل علينا من اللباس والريش ولباس التقوى:

أخبَرَنا اللهُ -تعالى- فيما مَضَى أنَّ الشيطانَ اللعينَ غَرَّرَ بأبينا آدمَ وأُمِّنا حواءَ، وزَيَّن لهما الأكَلَ مِنَ الشجرةِ ﴿ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف:٢٠]، ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا ﴾ [الأعراف:٢٢].

وأعْلَمَنا ربُّنا في قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:٢٦].

أعْلَمَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أنْزَلَ علينا أنواعَ اللباسِ من الصوف والقطنِ والكتان وغيرَها ليواريَ سوءاتِنا، والسَّوْءَةُ ما يَسُوءُ صاحبَهُ إذا ظَهَرَ، وأنْزَلَ علينا ريشاً، والريشُ لباسُ الزينةِ، وهو مستعارٌ من ريشِ الطائر، وقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ لباسُ التقوى: لباسُ الإسلام، فالإسلام بما فيه من إيمانٍ، وأعمالٍ صالحة، وأخلاقٍ حميدةٍ، يصْنَعُ لباساً لصاحِبِهِ، فيه الحياءُ والوَرَعُ وخشيةُ الله تعالى، قال الشاعر:

إذا المــرءُ لم يَلْــبَسْ ثياباً مِـنَ التُّقَــى   تَقَلَّــبَ عُرْيانــاً وإن كــانَ كاســيا

وخـــيرُ لبــاسِ المَــرْءِ طاعــةُ رَبِّــه   ولا خَــيْرَ فِــيمَنْ كــان لله عاصِــيا

وقد رأى رسولُ الله ﷺ في المَنامِ أُناساً يَعْرَضُونَ عليه، وعليهم قُمُصٌ، وعُرِضَ عليهِ عُمر بن الخطابِ وعليهِ قميصٌ يجُرُّه، وقدْ أوَّلَ الرسولُ ﷺ القميصَ بالدين [البخاري: ٢٣. ومسلم: ٢٣٩٠].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٦] أي: اللباس الذي أنزله الله تعالى ليواري سوءاتنا من آيات الله، فلو لم يُقدِّرِ الله وجود هذا اللباسِ لحلَّ العنتُ بالعباد.

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:٢٦] أي: يتذكرون نعمةَ الله عليهم فيما رزقهم به من اللباس.

٢- تحذيرُ الله تعالى لذريةِ آدمَ أنْ يفعل بهم كما فعل بأبويهم:

نادانا ربُّنا محذِّراً لنا أنْ يفتِننا الشيطانُ كما فَعَلَ بأبينا آدمَ وأُمنا حواءَ عندما غَرَّر بهما، وزَيَّنَ لهما الأكْلَ من الشجرةِ، فنزعَ عنهما لباسَهما، وأظهر لهما عَوْرَتَيْهِما، ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾ [الأعراف:٢٧].

وقوله: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أيْ: لا يُوقعَنكُمُ الشيطانُ في البلاءِ، فقد خَرَجَ أبوانا مِنَ الجَنّةِ بسبب فتنةِ الشيطان عندما زَيّنَ لهما الأكْلَ من الشجرةِ وقد غرَّرَ الشيطانُ بذريَّةِ آدمَ من بَعْدِه، فقد كان أهلُ الجاهليةِ يطوفون بالكعبةِ عُراةً إن لم يَجِدِ الواحدُ من يعيره ثوباً من أهلِ مكةَ، أوْ لم يجدْ ثوباً جديداً، وكانوا يزعمونَ أنَّ اللهَ تعالى هو الذي أمَرَهُمْ بالعُرْيِ في الطوافِ على النحوِ المذكورِ، وقد كَذَبُوا فيما زَعَموهُ.

وقد أصْبَحَ العُرْيُ اليومَ حضارةً ومدنيةً في عالمِ الغربِ، وأصْبَحَتْ هناك نوادي للعُراةِ، وأصْبَحَت ترى النساءَ على شواطئِ البحارِ والأنهارِ لا يكاد يَسْتُرُ أجسادَهُنَّ إلاَّ النزرُ اليسيرُ مِنَ اللباسِ، بل أصبحتْ الفاحِشَةُ تمارسُ علانيةً في بعض الأماكن، وأخَذُوا يَعُدُّون هذا حضارة ومدنيةً، وهو في ميزان الله وشَرْعِهِ تأخرٌ وتخَلُّفٌ وضَلالٌ، واتباعٌ للشيطان.

وقد أعْلَمنا ربُّنا -عَزَّ وجَلَّ- أنّ إبليسَ وقَوْمَهُ وأولادَهُ يَرَوْنَنا من حيثُ لا نراهم ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧] وقد اختصَّ الرسولُ ﷺ من بينِ الناسِ على قُدْرَتِهِ على رؤيةِ الجنِّ، وما يَدَّعيه بعضُ أهلِ العلمِ من وُرودِ نُصوصٍ تدلُّ على أنَّ بعضَ الصحابةِ رأى الجنَّ والشياطين، غير صحيحٍ، فالذي رأوْه هو ما تشكلت به الشياطينُ، لا الشياطينَ في صورِهِمْ التي خَلَقَهُم اللهُ عليها.

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف:٢٧] أي: جعل اللهُ تعالى الشياطينَ أنصاراً للكفارِ الذين لا يوَحِّدُونَ الله تعالى.

٣- الردُّ على الذين يزعمون أنَّ اللهَ يأمُرُ بالفحشاءِ سبحانه:

كان أهلُ الجاهلية إذا فعلوا فاحِشَةً، وهيَ المَعْصيَةُ التي بلغتِ الغايةَ في الفُحْشِ، كالطوافِ بالبيت وهُمْ عُراةٌ، يقولون: وَجَدْنا آباءَنا يفعلون هذه الفعلةَ على هذا النحو، واللهُ هو الذي أمرنا بها، وقَدْ أمر اللهُ رسوله ﷺ أن يَرُدَّ على هؤلاءِ الضالين ويقول لهم: إنَّ اللهَ لا يأمُرُ بالفحشاءِ، وأمَرَهُ أنْ يُقَرِّعَهُمْ ويُبَكِّتَهَمْ، ويقولَ لهم: أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف:٢٨].

وأمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يقولَ لهؤلاءِ: ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف:٢٩].

أعْلَمَنا ربُّنا في هذه الآية أنَّهُ أمرَ بالعدلِ والاستقامةِ، وأمَرَ رسولَه ﷺ وأصحابَهُ أيضاً أنْ يقيموا وجوهَهُمْ عندَ كُلِّ مسجدٍ، أيْ: يَتَّجِهُوا إلى القِبْلَةِ التي تكونُ إليها صلاةُ المؤمنين، وأمَرَهُمْ أنْ يدْعُوا اللهَ وَحْدَه، مخلصينَ له الدينَ، فلا يَدْعُونَ معه أحداً، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: كما بدأكم في الحياةِ الدُّنيا، تَرْجِعُون إليه في الحياةِ الآخرة، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:٩٤].

٤- **الناسُ فريقان: المهتدونَ والضالون:**

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الناسَ فريقان: فريقٌ هداهُم اللهُ تعالى وفريقٌ أضلَّهُم اللهُ ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف:٣٠].

والفريق الذي هداهُمُ اللهُ هم المؤمنون المتقون، والذين حَقَّت عليهم الضلالةُ، هم الذين قَدَّر اللهُ في الأزلِ كُفْرَهُمْ وضلالَهُمْ، وهؤلاءُ هم الذين اتخذوا الشياطينَ أولياءَ من دون الله، ويحْسَبون أنَّهم مهتدون، والأمْرُ ليس كذلِكَ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- جعل اللهُ تعالى لبَني آدمَ لباسَيْنِ، الأولُ: اللباسُ الذي يواري عَوْراتِهِمْ وهو من القماش، والثاني: لباسُ التقوى، وهو لباسُ الإسلامِ والإيمانِ. ومتى حَصَّل العبدُ هذين اللباسين كان في قمةِ الرقيِّ والحضارةِ.

٢- حذَّرَ اللهُ -تعالى- بني آدمَ أنْ يَفْعَلَ بهم الشيطانُ فِعْلَهُ بأبويهم، فقد أخْرَجَهُما مِنَ الجنَّةِ، عندما زيَّن لهما معصيةَ الله، فأكلا مِنَ الشجرةِ التي حَرَّم اللهُ عليهما الأكْلَ منها، فبدتْ لهما سَوْءاتُهُما.

٣- الجنُّ والشياطينُ يرونَنا من حيث لا نَراهُمْ، ولذلك لا نسْتَطيعُ الخلاصَ منهم، إلا بالالتجاءِ إلى الله والاحتماءِ به.

٤- الكفارُ يرتكبون الفواحشَ، ويدَّعون أنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بها، وهُمْ كاذبون فيما يدَّعون، فاللهُ لا يأْمُرُ بالفحشاءِ، ولا يأْمُرُ إلا بالعَدْلِ.

٥- أمَرَنا اللهُ تعالى بالتوجّه إلى القِبْلَةِ التي حَدَّدها اللهُ لنا عندما نقوم إلى الصلاة، وأمَرَنا أنْ نَدْعُوهُ مخلصين له الدينَ، أي: وَحْدَهُ.

٦- بدأ اللهُ خلقنا في الحياة الدنيا، وسيعيدنا إليه في الحياة الآخرة.

٧- الناسُ فريقانِ الأولُ: الذين هَداهُمُ اللهُ إلى الإيمان، والثاني الذين أضَلَّهم، فكَفروا.

النص القرآني الخامس من سورة الأعراف
أمر اللهُ تعالى عبادَهُ أنْ يأخُذُوا زينَتَهُمْ عندَ كلِّ مسجدٍ ونهاهم عن تحْريمِ اللباسِ والطيباتِ

أولاً: تقديم

أَمَرَ اللهُ -تعالى- عبادَهُ بأخْذِ زينَتِهِمْ عند كلِ مسجدٍ، فلا يطوفونَ، ولا يُصَلُّونَ وهُمْ عُراةٌ، وأمَرَهُمْ بالأكْلِ والشُّرْبِ من غيرِ إسْرافٍ، وقَرَّع الذينَ حَرَّمُوا زينة الله والطيباتِ من الرزقِ ووبَّخَهُمْ، وبيَّنَ أنه خَلَقَ الزينةَ واللباسَ للذين آمنوا في الحياةِ الدنيا، وإنْ شَرَكهم الكفارُ فيها، وهيَ خالصةٌ لهم في يومِ القيامة لا يَشْرَكُهُمْ فيها غَيْرُهُم، وبيَّن سبحانَهُ أربعاً مما حرَّمه اللهُ على عبادِهِ، وبيَّنَ أنَّ لكلِّ أُمةٍ أجلاً، وبيَّنَ أنَّ حجّةَ الله عَلَى عبادِهِ تقومُ بإرسالِ الرُّسُلِ، فمن استجابَ فلَهُ الجَنَّةَ، مَنْ كَفَرَ فالنَّارُ موعده.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأعراف:٣١-٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- شَرَعَ اللّهُ تعالى لنا الزينة عِنْدَ كُلِّ مسجدٍ وشرع لنا الأكلَ والشربَ من غير إسراف:

نادى اللهُ تعالى بني آدمَ وأمَرَهُمْ أن يأْخُذُوا زينتَهُمْ عنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وأمَرَهُمْ أنْ يأْكُلُوا ويَشْرَبُوا ولا يُسْرِفُوا، وبيَّنَ لهم أنَّه لا يحبُّ المسرفين ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف:٣١].

أمَرَنا ربُّنا عَزَّ وجَلَّ أنْ نأْخذ زينتنا عندَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وذلك بلُبْسِنا اللباسَ للطوافِ والصلاة، لا فرقَ في ذلك بيْنَ أنْ نكون في المسجدِ الحرام أو غيرِهِ مِنَ المساجدِ، ويُفْقَهُ من الآيةِ أنَّه لا حرجَ على المسلمِ أنْ يختار من الثيابِ أحْسَنها، ومِنْ ذلك لُبْسُ الثيابِ البيضِ، فقد أمَرَنا رسولُنا ﷺ بلُبْسِها، وأمَرَنا بتكفين موتانا فيها، فعن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَسُوا مِنْ ثِيابِكُمُ البياضَ، فإنَّها من خيرِ ثيابِكُمْ، وكَفِّنوا فيها موْتاكُمْ» [صحيح الترمذي: (٧٩٢) وصحيح أبي داود (٣٢٨٤)، (٣٤٢٦)].

وهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّه لا يصحُّ الطوافُ من العُرْيانِ، وأنَّ الصلاةَ لا تصحُّ من مَكْشوفِ العورةِ، ويدلُّ لصحةِ هذا ما رواه أبو بكر أنَّ الرسول ﷺ بَعَثَهُ في الحجَّةِ التي أمَّرَهُ عليها قبل حجَّةِ الوداعِ: «بألاَّ يَحُجَّ بَعْدَ العامِ مُشْرِكٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُرْيانٌ» [البخاري: ١٦٢٢. ومسلم: ١٣٤٧].

وقد كان غيرُ قريشٍ من العربِ في الجاهلية إنْ لم يَجِدِ الواحدُ قُرَشِيّاً يُعيرُهُ ثياباً يطوفُ بها، ولم يَجِدْ ثوباً جديداً طافَ عرياناً، الرجال يطوفون عرايا في النهارِ، والنساءُ يَطُفْنَ عرايا بالليلِ.

روى سعيدُ بن جبيرٍ عن ابن عباسٍ قال: «كانتْ المرأةُ تطوفُ بالبيتِ وهي عَرْيانةٌ، فتقولُ: مَنْ يعيرُني تَطْوافاً، تَجْعَلُهُ على فَرْجِها؛ وتقول:

اليـــــومَ يَبْـــــدُو بَعْضُـــــهُ أو كُلُّـــــهُ فـــــما بَـــــدا مِنْـــــهُ فـــــلا أُحِلُّـــــهُ

فنزلتْ هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١]» [مسلم: ٣٠٢٨].

وبعد أن أمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن نأْخُذَ زينَتَنا عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، أمَرَنا أنْ نأْكُلَ ونشربَ غيرَ مُسْرِفينَ، ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ وقد بيَّنْتُ في سورة الأنعام ما كان عليهِ أهل الجاهليةِ من تحريمِ بعض ما أحلَ اللهُ من بهيمةِ الأنعام، وتحريمِ ما أحلَّه اللهُ تعالى من خطوات الشيطانِ.

ولا يجوز أن يُحَرِّمَ الإنسانُ على نَفْسِهِ بعضَ ما أحلَّ اللهُ له، كأنْ يقولَ لزوجتِهِ: أنتِ عليَّ حرام، أو يقولُ: حَرَّمتُ الدجاجَ على نفسي، أو حرَّمت التَّمرَ على نفسي، فإنْ حرَّم زوجته على نفسِهِ بالظهارِ، وجبت عليه كفارةُ الظهارِ، وإن حرَّم زوجته أو طعاماً على نفسه، بقوله: هي حرامٌ عليهِ، وَجَبَ عيه كفارةُ يمينٍ، فقد حرَّم الرسولُ ﷺ على نَفْسِهِ ماريَّةَ أمَتَهُ، أو حَرَّمَ العسلَ، فعاتبه اللهُ على ما فَعَلَ، وشَرَعَ له كفَّارَةَ اليمينِ فيما حرَّمَهُ، وقالَ في ذلك: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:٢].

وكما نهانا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن تحريمِ ما أحَلَّ لنا من الطعامِ والشرابِ، فإنَّه نهانا عن الإسراف، فقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أي: لا تُسْرِفُوا في الأكلِ والشُّرْب، فتأكلوا وتشربُوا فوقَ الحاجةِ، وأصل الإسرافِ في لغة العَرَبِ: مجاوزةُ الحدِّ، وأعلمنا ربُّنا ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وقال ابن كثير: قال البخاري: قال ابن عباس: «كُلْ ما شِئْتَ، والْبَس ما شِئْتَ، ما أخطأتك خَصْلَتانِ: سَرَفٌ ومَخِيلَةٌ، وقال ابن جريرٍ عن ابن عباس: أحَلَّ اللهُ الأكل والشربَ ما لم يكنْ سَرَفاً أو مَخِيلَةً» [ابن كثير: ٣/ ١٥٠. وقال: إسناده صحيح].

وعن عمرو بن شُعَيْبٍ عن أبيه عن جَدِّهِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «كُلُوا واشْرَبُوا والْبَسُوا وتَصَدَّقُوا في غيرِ مَخِيلَةٍ ولا سَرَفٍ، فإنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ تُرَى نِعْمَتُهُ على عَبْدِهِ» [أحمد في المسند: ٦٧٠٨. وإسناده حسن].

٢- إنكارُ الله تعالى على مَنْ حرَّم زينةَ الله والطيباتِ مِنَ الرزقِ على نفْسِهِ:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يسْأَلَ الكفارَ منكراً عليهم، قائلاً لهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف:٣٢].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يُنْكِرَ على المشركينَ الذين يُحَرِّمون زينةَ الله التي أَخرجَ لعبادِهِ، وهي ما يُلْبَسُ ويُتَجَمَّلُ به مِنَ ثيابِ الصوفِ والقطنِ والكتَّانِ وغيرها، فكانوا يطوفون بالكعبةِ عراةً. وأنْكَرَ على الذين حرَّموا على أنفَسِهم الطيباتِ مِنَ الرِّزْقِ، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ ﴾ [الأنعام:١٥٠]. وقالَ سبحانَهُ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ [يونس:٥٩].

وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يُبَيِّنُ للناسِ أنَّ الزينةَ والطيباتِ خَلَقَها اللهُ تعالى في الأصلِ للذين آمنوا في الحياةِ الدنيا، ليستعينوا بها على طاعَةِ الله، ولم يَخْلُقْها للكفارِ ليستعينوا بها على مَعْصِيَتِهِ.

أما ما يُتَزَيَّنُ به في الجنّةِ، وما يُطْعَمُ مِنَ الطيباتِ فيها، فهو خالِصٌ للمؤمنين، ولا يَشْرَكُهم فيه أحدٌ من الكافرين، ولذلك عندما ينادي أَصْحابُ النارِ في الآخرةِ أصحابَ الجنة ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ يقول أصحابُ الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف:٥٠].

وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: مِثْلُ هذا التفصيلِ الذي بيَّناهُ لكم فيما سَبَقَ في الزينة من الثيابِ وما أحْلَلْناه مِنَ الطعام نُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلَمونَ، وخَصَّ الذين يَعْلَمونَ، لأنَّهم هُمُ الذينَ يَفْهَمونَ عن الله مرادَهُ.

٣- ما حرَّمه اللهُ تعالى على عباده:

بعدَ أنْ ذكر اللهُ أنَّ بعضَ المشركين حرَّموا ما أحلّه اللهُ مِنَ الزينةِ والطيباتِ، أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يُبيِّنَ للناس ما الذي حرَّمَهُ اللهُ، والذي حرَّمه كما بيَّنَتْهُ الآيةُ أربعةُ أمور:

الأولُ: الفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ.

والثاني: الإثْم والبَغْيُ بغير الحقِّ. والثالث: الشركُ بالله. والرابعُ: أن يقولوا على الله ما لا يعلَمونَهُ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف:٣٣].

والفواحِشُ: جمعُ فاحِشَةٍ، وهي كُلُّ ذنبٍ أو معصيةٍ بَلَغَتْ الغايةَ في القُبْحِ، وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يشمَلُ جميعَ الذنوبِ والمعاصي، فالظاهِرُ منها كالزنا والرِّبا والقَتْلِ والسُّجود للأصنام، والباطنُ، اتخاذُ الخليلات، والكِبْرُ الذي في القلبِ، وإرادةُ الخيانةِ، ونحو ذلك.

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ المعصيةُ التي تَقْتَصِرُ على صاحبها. ﴿وَٱلْبَغْيَ﴾ المعصيةُ التي يضيرُ بها المرءُ غيرَهُ، وقولُهُ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ كُلُ بَغْيٍ فهو بغيرِ حقّ.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ السلطانُ: الحُجَّةُ والبُرْهانُ، وكلُّ شِرْكٍ بالله، فليسَ عليه حُجَّةٌ ولا بُرْهانٌ؟

وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وهذا يَشْمَلُ كُلَّ ما افتراهُ وكَذَبَهُ الناسُ على ربِّ العزة.

٤- حَدَّد اللهُ -تعالى- لكلِّ أُمَّةٍ أجلاً، فلا يتقدمون عنهُ ساعةً ولا يتأخَّرون:

كانَ الكفارُ يطلبون أنْ يُنْزِلَ اللهُ بهم عذاباً يُنْهِي وجودَهُم، فأعلمنا اللهُ تعالى أنْ اللهَ قَدَّرَ لكلِّ أُمةٍ أجلاً، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف:٣٤] فإذا جاءَ الأجَلُ الذي حَدَّدَه الله تعالى أهْلَكَهُم.

فلا يتقدَّمُ مَوعدُ إهْلاكِهم ساعةً، ولا يتأخَّرُ ساعةً.

وهذا كما فَعَلَ ربُّ العزَةِ بقومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وقومِ صالحٍ وغيْرِهم من المُهْلَكين، حَلَّ بكلِّ واحدٍ منهم العذابُ عندما جاءَ أجَلُهُ.

وينبَغي أنْ يتنبهُ البشرُ إلى أنّهم لا يستطيعونَ تغْييرَ المَوْعِدِ الذي حَدَّده اللهُ تعالى، فَقَدْ خَرَجَ على مَرِّ التاريخِ الإسلاميِّ أُناسٌ كثيرون، كلُّ واحدٍ يدَّعي أنَّهُ المهديُّ الذي بَشَّرَ به الرسولُ ﷺ، والمهديُّ يَخْرجُ في المَوْعِدِ الذي حَدَّده رَبُّ العِزَّة، من غيرِ تأخيرٍ ولا تقديمٍ.

والكفارُ الذينَ كانوا يَطْلُبون أنْ يُحِلَّ اللهُ بهم سَخطَهُ، ويُنزلَ بهمْ عَذابه، لنْ يُؤَثّرَ طَلَبُهمْ هذا في تقديمِ مَوْعِدِ عذابهم، ولا تأخيره، وسيأتيهم العذابُ في الموعد الذي حَدَّده اللهُ لهم في الأزَلِ.

٥- مصيرُ الذينَ قَبِلُوا دَعْوَةَ الرُّسلِ والذينَ رَفَضوها:

نادى اللهُ -تباركَ وتعالى- بني آدمَ مخبراً إيَّاهُمْ أنَّ الذي يستجيبُ لدعوةِ الرسلِ، فلا خوفَ عليه من الآتي في القبْرِ والحَشْرِ، والذين كذبوا الرسلَ واستكبروا عن الإيمانِ مصيرُهُم النارُ.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف:٣٥-٣٦].

فإرسالُ الله -تعالى- الرُّسَلَ، وتَبْليغُهُمْ الحَقَّ الذي أوْحاهُ إليهم يُقيمُ عليهم الحُجَّة، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥].

وأعلمنا ربُّنا في هاتين الآيتين أنَّ الناسَ فريقانِ: فريقٌ قَبِلَ دعوةَ الرُّسُلِ، وعَمِلَ بما أمَرَهُ اللهُ بِهِ، وترك ما نَهاهُ اللهُ عنه، وأصلَحَ أمورَهُ، فهذا الفريق لا يَخافُ على الآتي، ولا يَحْزَن على الذاهبِ، والفريق الثاني: الذينَ كَذَّبوا الرُّسُلَ، وكَذَّبوا الآياتِ التي جاؤوا بها، واستكبروا عن الإيمانِ، فهؤلاء أصحابُ النار، هم فيها خالدونَ.

رابعاً: ما تهدينا إليه الآياتُ من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- يجبُ على العبادِ أنْ يَلْبَسوا ما يواري عوراتِهِمْ عِنْدَ الطوافِ وعِنْدَ الصلاةِ.

٢- لا يجوزُ للعبدِ أن يُحَرِّمَ على نفسِهِ ما أحلَّهُ اللهُ له، فإنْ حرَّم على نفسه طعاماً أو شراباً أو زوجةً، فعليه أن يُكَفِّرَ كفارة يمينٍ.

٣- ما أحلَّهُ اللهُ تعالى مِنَ الزينةِ والطيباتِ خلقه اللهُ للمؤمنين في الدنيا، والكفارُ تَبَعٌ لهم، أما في الآخرة فإنه خالص للمؤمنين لا يشْرَكُهُمْ فيه غَيْرُهُمْ.

٤- حَرَّمَ اللهُ تعالى أربعةَ أمورٍ: الفواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، والإثْمَ والبَغْيَ، والشركَ بالله، والقولَ على الله بغيرِ علمٍ.

٥- يُرْسِلُ اللهُ تعالى رسلَهُ إلى عبادِه، يبلغونهم آياتِهِ، فمن آمَنَ فله الجنَّة، ومن كفر فله النار خالداً فيها.

النص القرآني السادس من سورة الأعراف
مصير المؤمنين ومصيرُ الكافرينَ

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن مصيرِ الكافرينَ الذين يُكَذِّبونَ الله ويُكذِّبونَ بآياتِهِ، وأعلمنا أن الكفارَ سينالُهُمْ نصيبُهُمْ من الكتابِ، وبيَّن لنا مصيرَ هؤلاءِ عندما تنزلُ ملائكةُ الموتِ تقبضُ أرْواحَهُمْ، وكيف يشْهَدونَ على أنْفُسِهمْ بالكُفْرِ.

وأعلمنا أنَّ مصيرَ هؤلاءِ النارُ، وهم فيها متعادون متخاصمونَ، يَلْعَنُ الضعفاءُ السادة والزعماءَ، ويطلبون لهم العذابَ المضاعفَ، وهؤلاءُ الكفارُ لا تُفتَّحُ أبوابُ السماءُ لقبولِ أعمالِهِمْ، وعندما يموتون لا تُفَتَّحُ لأرواحهم، ولا يدْخُلونَ الجَنَّةَ في يوم القيامة حتى يَلِجَ الجملُ في سَمِّ الخياطِ، وبيَّنَ لنا أنَّ مصيرَهُمُ النارُ، فلهم فيها فرشٌ من النارِ، وأغْطِيةٌ من النار.

والمؤمنون الذين يعملون الصالحات في جناتِ النعيم، وقبل أن يُدْخَلَهُمُ اللهُ الجنة ينزعُ ما في صُدورِهُمْ من عداواتٍ وأحقادٍ، وينعمونَ في الجنةِ بالأنهار التي تجري من تحتهم، وبعد دخولهم الجنَّةَ يحمدون ربَّهم على هدايته لهم إلى ما يدخلهم الجنّة، وبعد دخولِهِمُ الجنةَ ينادونَ ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأعراف:٤٣].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأعراف٣٧-٤٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أشدُّ الناس ظلماً الذين افتروا الكذبَ على الله أو كذَّبوا بآياتِه:

أعلمنا اللهُ تبارك وتعالى أنه لا أحَدَ أظلمُ ممَّنْ اخْتَلَقَ الكذِبَ على الله أو كَذَّبَ بآياتِ الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٣٧]، والمرادُ بالسؤال في الآية سؤالُ إنكارٍ، والمعنى: لا أحَدَ أظلمُ ممن افترى على الله الكَذِبَ، و﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ اخْتَلَقَ، وكَذِبُ الناسِ على الله كثيرٌ، كدعواهُمْ أنَ الله اتخذَ ولداً سبحانه، وكدعواهم أنَّهُ شرَعَ لهم الشركَ، ودَعْواهُمْ أنَّ اللهَ حَرَم عليهم بعضَ ما أحَلَّه، وأحَلَّ لهم بعضَ ما حرَّمَهُ.

وقوله: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ وذلك بدَعْواهُمْ أنْ آياتِ القرآنِ كذبٌ، أو أنَّها سِحْرٌ أو شِعْرٌ أو أساطيرُ الأولين.

وقد أعلمنا ربُّنا أنَّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف:٣٧] أي: ما قُدِّر لهم من خيرٍ وشرٍّ، فكُلُّ ما قَدّرَهُ اللهُ لهم في الدنيا من الصحةِ والعافيةِ والرزقِ وطولِ العمر والمالِ والأولادِ سينالُوهُ، وسينالونَ ما كُتِبَ لهم من الشقاوة والسعادة.

والمرادُ بالرُّسُلِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٣٧] هُمُ الملائكةُ الذين يقْبِضُونَ الأرْواح، كما قالَ تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام:٦١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٧].

وقوْلَهُ: ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي: يقبِضونَ أرْواحَهُمْ.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجَلَّ- أنَّ الملائكةَ التي تأْتي لقبضِ الأرواحِ تَسْألُ هؤلاءِ وتوَبِّخُهُمْ وتقرِّعُهُمْ، وتقولُ لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٣٧] أي: أيْنَ الآلهةَ التي كنتم تعبدونُها مِنَ الأصنام والأوثانِ، فيقولونَ: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف:٣٧].

ومعنى ﴿ضَلُّواْ﴾ أي: غابوا، وقوله: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: أنَّهم يعْترفونَ في ذلك الوقتِ بكفرهِمْ وشرْكِهِمْ، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك:١١].

٢- مصيرُ الكفارِ في يوم القيامة النارُ:

بيَّنَ اللهُ تعالى فيما سَبَقَ أنَّ الذين افتروا عليه الكذبَ والذين كذَّبوا بآياته يعْتَرِفونَ عندَ الموتِ بكفرِهِمْ وشركِهِمْ، وبيَّنَ مصيرَ الكفارِ في يوم القيامة، ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يقالُ للكفارِ في يومِ القيامة: ادخلوا في جملةِ أُمَمٍ خَلَتْ من قبلكم، أي: مَضَتْ من قبلكم، والأممُ الكافرة التي خلت من قبل كثيرة.

وهذه الآية صريحةٌ في أنَّ مصيرَ الكفارِ مِنَ الجنِّ النارُ، ولا خلافَ في ذلك بينَ العلماء، ولكنَّهم اختلفوا في مصيرِ المؤمنين من الجنِّ، والصوابُ من القولِ أنَّ مصيرهُمُ الجنّةُ، ويَدُلُّ لذلك أنَّ الله تعالى خاطبَ الإنسَ والجنَّ قائلاً: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦]، ثم أتْبَعَهُ بقوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن:٤٧]، وهو خطابٌ للإنس والجنِّ.

ومما يرجِّح هذا القول قولُهُ تعالى في نساءِ أهلِ الجنة: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ [الرحمن:٧٤]، ويفهم من الآية أنَّ نساءَ الجنَّةِ صالحاتٌ لطَمْثِ (لِوَطْءِ) الجنِّ لهنَّ، كما يصلحنَ لَطْمثِ (لِوَطْء) الإنسِ لهنَّ، ولو كان مؤمنو الجِنِّ لا يدخلون الجنَّةَ فلا فائدة من الإخبار بذلك.

٣- تحوُّل محبَّةِ الكفارِ فيما بينهم يوم القيامةِ إلى عداءٍ وبغضاءٍ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المحبةَ التي كانتْ بين الكفارِ في الدنيا تتحوَّلُ إلى عداءٍ وبغضاءٍ في يوم القيامةِ، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف:٣٨-٣٩].

أخبرَنا ربُّنا أنَّه كلَّما دخلتْ أمةٌ كافرةٌ في النارِ يومَ القيامة فإنَّها تلْعَنُ أُختَها، والمرادُ بأختِها في الديانة والمِلَّة والكفرِ بالله، فالكافرة أُختٌ للكافرةِ، والمتأخرون من كُفَّارِ اليهودِ يلْحَقونَ السابقين، وكذلك المجوسُ والنصارى والبوذيونَ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت:٢٥]. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧].

وأعلمنا ربُّنا أنَّ أهلَ النارِ عندما يتداركون في النار أي: عندما يجتمعون ويتلاحقون فيها، تقولُ أُخراهم لأولاهم: ربَّنا هؤلاءِ أضَلُّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النارِ، والمراد بأُخراهم الأتباعُ والضعفاءُ، والمرادُ بأولاهم: الزعماءُ والرؤساءُ، يقول الضعفاءُ: يا ربَّنا وخالقنا هؤلاء هم الذين أضَلُّونا عن طريق الحقِّ، وجعلونا نشرك ونكفرُ بِكَ، فآتهم عذاباً مضاعفاً بأن تُعَذِّبَ الواحدَ كعذاب اثنين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

وإذا نادى الضعفاءُ بهذا النداءِ أجابهم ربُّ العزةِ قائلاً: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لكلِّ فريقٍ منكم ضِعْفٌ، فالقادةُ والزعماءُ لهم ضِعْفٌ، لأنَّهم ضَلُّوا وأَضَلُّوا، والأتباعُ لهم ضِعْفٌ لأنهم ضَلُّوا، واتَّبعوا غيرَهم من غيرِ دليلٍ، ولا برهانٍ، وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لا تعلمون أنَّ لكلِّ واحدٍ منكم ضِعْفٌ.

وقد أجابَ السادةُ والزعماءُ على ما رماهم به أتباعهم، وعلى طلبهم لهم العذابَ المضاعفَ قائلين: ليسَ لكم علينا من فَضْلٍ، بل أنتم كفَّارٌ مثلنا، فذوقوا العذابَ بسببِ كفرِكِمْ وشِرْكِكُمْ.

فالزعماءُ والضُّعَفاءُ يختصمونَ في النارِ، ويطلبُ كلُّ فريقٍ للآخر المزيدَ مِنَ العذابِ.

٤- مصيرُ الكفارِ في يوم الدين:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ الذين كذَّبوا بآيات الله، واستكبروا عن الإيمان، لا تُفَتَّحُ أبوابُ السماء لأعمالهم، لأنها غيرُ صالحةٍ، ولا لأرواحهم عندَ موتِهِمْ، لأنَّها خبيثةٌ، ولا يدخلونَ يومَ القيامة الجنَّةَ حتى يَلِجَ الجملُ في سَمِّ الخياط، وسَمُّ الخياطِ: خُرْمُ الإبرةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ٤٠]، وإنما ضرب الله المثل بالجمل لأنَّ له عند العرب شأن أعظم من بقية الدواب.

وقد وَعَظَ رسولنا ﷺ أصحابَه يوماً، وهو ينتظرُ دَفْنَ ميتٍ من أصحابه، فأخبرَ في عظتِهِ تلكَ أنَّ روحَ العبدِ المؤمنِ تفتح لها أبواب السماء، فتدخل السماواتِ ويشيِّعُهُ من كلّ

سماءٍ مُقَرَّبوها، ثم تعاد إلى الأرض، وأنَّ الكافرَ تُغْلَقُ دونَ روحه أبوابُ السماء، وقد قرأ الرسول ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠] [جَمَعَ ألفاظَهُ شيخنا محمد ناصر الدين الألباني، وعزاه إلى أحمد وأبي داودَ والنسائي وغيرهم. انظر: الجنائز: ص١٥٦]، وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ۝٤٠﴾ أي: الذين ارتكبوا عظائمَ الذنوب.

ثم أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ مصيرَ هؤلاءِ المجرمين النارَ ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝٤١﴾ [الأعراف:٤١].

أَعْلَمَنا العليمُ الحكيمُ أنَّ للكفارِ في النارِ مهادٌ، والمهادُ: الفراش، وهو من النار، ولهم مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشي، وهي لُحُفٌ من النار تغطيهم، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝٤١﴾ الذين ظلموا بَرفْعِهِمُ الأصنام والأوثانَ إلى مرتبة الألوهية بعبادتهم إيَّاها من دون الله.

٥- مَصيرُ المؤمنينَ في يوم الدينِ في جنات النعيم:

بعْدَ أنْ بيَّنَ لنا ربُّنا مصيرَ الكفارِ في يومِ الدين بيَّن لنا مصيرَ المؤمنين الذينَ يعملونَ الصالحات في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٤٢﴾ [الأعراف:٤٢].

والذين آمنوا، أي: صدَّقوا في قلوبِهم بالله رَبِّهم، وآمنوا بملائكَتِهِ وكُتُبِهِ ورسله واليوم الآخر، وعملوا الأعمالَ الصالحةَ.

ومِنَ المعلومِ أنَّ القرآنَ إذا جَمَعَ في آيةٍ بين الإيمان والأعمالِ الصالحةِ كهذه الآية، أرادَ بالإيمانِ التصديقَ على النحوِ الذي جاءَتَ بِهِ الشريعةُ، فإذا أُفْرِدَ الإيمانُ ولم تذكر مَعَهُ الأعمالُ الصالحةُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧] فيشملُ الإيمان: عقيدةَ القلبِ، أي: التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخرِ، والنطق باللسان، أي: الإقرارُ بشهادةِ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، والعملُ بالأركانِ، أي: القيامُ بالصلاةِ والزكاةِ والحجِّ والصومِ ونحوها من العباداتِ.

وقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جُمْلةٌ اعتراضيةٌ بَيْنَ المبتدأ وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وبينَ خَبَره، وهو قوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وفائدةُ الجملةِ المُعْتَرِضَةِ إخبارُ الله تعالى أنَّ الجنةَ مع عِظَمِها وما فيها من الخيرِ الذي لا شيءَ مثله، ففيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذن سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشرٍ، ومع ذلك فدخولُها والحصولُ عليها لا

يُكَلِّفُ اللهُ فيه نفساً إلا وُسْعَها، وقد أخبرنا اللهُ تعالى أنَّه في يومِ الدينِ قبل أنْ يُدْخِلَ المؤمنينَ الجنة ينزعُ من قلوبِهِمْ ما فيها من غلٍّ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:٤٣].

والنَّزْعُ: القَلْعُ والإزالَةُ. والغِلُّ: الحِقْدُ والعداوةُ الذي سَرَى إلى القلوبِ لما جرى بينهم في الدُّنْيا، ومِنْ ذلك ما وَقَعَ بين الصحابة من خلاف وقتال.

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى عن النَّعيمِ الذي حَظُوا بهِ في جناتِ النعيمِ فقال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾.

وأعلمنا ربُّنا أنَّ أهلَ الجنةِ بعد أن دَخَلُوا الجنَّةَ ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣].

أخبرنا أنَّ أهلَ الجنَّةِ بعدَ أن يَدْخلوا الجنَّةَ يحمدونَ اللهَ تعالى على أنْ هَداهُمْ للإيمانِ والعملِ الصالحِ، وما كانوا ليهتدوا بعد أنْ هَداهُمْ اللهُ تعالى ووفَّقَهُمْ لذلك، واعترفوا بأنَّ رسلَ ربِّهم جاءَتهم بالحقِّ.

وأعلمنا ربُّنا أنَّ أهْلَ الجنةِ بعدَ دخولهم الجنةَ ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف:٤٣].

أعلمنا اللهُ تعالى أنَّهُ ينادي أهلَ الجنةِ بعد دخولهم إيَّاها، واستقرارِهم فيها: أنْ تِلْكُمُ الجنَّة التي دخلتموها، واستقررتم فيها، أُورِثْتُمُوها، أي: أُعْطِيتُموها بإيمانكم وأعمالِكم الصالحةِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهْدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعملٍ:

١- الظالمونَ الكافرونَ الذين يكْذِبون على الله ويُكَذِّبونَ بآيات بالله ينالهم ما كتبَ اللهُ عليهم من الشقاءِ والبلاءِ.

٢- عندما تَتَنَزَّلُ ملائكةُ الموتِ لقبض أرواح الكفارِ تسألهم عن الآلهةِ التي كانوا يعبدونها، فيخبرون أنَّهم غابوا عنهم، ويعترفون بكُفْرِهِمْ وضَلالِهِم.

٣- مصيرُ الكفرةِ النارُ، وهم في النَّارِ أعداءٌ متخاصمون، يَلْعَنُ اللاحقُ مِنْ كلِّ أمّةٍ السابقَ، ويطلبُ الأتباعُ العذابَ المضاعفَ للقادةِ والسادةِ.

٤- الكفارُ في الدنيا لا تُفْتَحُ أبوابُ السماءِ لأعمالهم، ولا تُفْتَحُ لأرْواحِهِمْ عندما يموتون، ولا يدخلون الجنَّةَ إلا إذا دَخَلَ الجملُ في خُرْمِ الإبرةِ.

٥- شِدَّةُ عذابِ أهْلِ النارِ في النّارِ، فلهم فيها فراشٌ مِنَ النَّارِ، وأغطيةٌ مِنَ النَّارِ.

٦- المؤمنونَ الذين يعملونَ الصالحاتِ مصيرهُمْ جناتُ النعيمِ خالدينَ فيها.

٧- الجنَّةُ سِلْعَةُ الله، وهي سِلْعَةٌ عظيمةٌ غاليةٌ، ومع ذلك فإنَّ تحصيلها في قدرة الإنسان وطاقَتِهِ.

٨- قبل أن يُدْخِلَ اللهُ أهَلَ الجنَّةِ الجنةَ ينزع ما حَلَّ في صُدورِهم مِنْ أحقادٍ وعَداواتٍ كانت في الدنيا.

٩- إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ حمدوا رَبَّهم الذي هَداهم إلى الإيمانِ والعملِ الصالحِ، فأوصلهم إلى جناتِ النعيم.

١٠- يُنادَى أهلُ الجنةِ في الجنَّة، ويقال لهم: تلكَ الجنةُ أُورثتموها بما كنتم تعملون.

النصُّ القرآنيُّ السابعُ من سورة الأعراف
أصحابُ الأعراف

أولاً: تقديم

يُحدِّثُنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن نداءِ أصحابِ الجنةِ لأهل النار قائلين لهم: إننا وَجَدْنا ما وعدنا ربُّنا حقّاً، فهل وجدتمْ ما وعدكم ربُّكم حقّاً، فيقرُّونَ ويعترفون، ويُحدِثُنا أنَّ منادياً ينادي بلعنِ الظالمين الذين يَصُدُّونَ النَّاسَ عن دينِ الإسلامِ، ويريدونَ الطريقَ معوجةً منحرفةً، ثمَّ حدَّثَنا ربُّنا عن أصحابِ الأعرافِ، وهم رجالٌ استوتْ حَسَناتُهم وسيئاتُهم، فيكونون على جِسْرٍ بينَ الجنَّةِ والنارِ، حتى يأذنَ اللهُ بدخولهم الجنة.

وهؤلاءِ عندما يلْتَفِتُون إلى أهلِ الجنَّةِ يُسَلِّمونَ عليهم، وهم طامعون أنْ يدخلهم اللهُ إيَّاها، وعندما ينظرون إلى أهلِ النارِ، يدْعُونَ ربَّهم أن لا يجعلَهم معهم، ويُبَكِّتُ أهلُ الأعرافِ أهلَ النارِ الذين كانوا يَسْخَرون بالمؤمنين الضعفاء.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

[الأعراف: ٤٤-٥١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أصحابُ الجنَّةِ ينادوْنَ أهلَ النار:

أعْلَمَنا ربُّنا العليمُ الخبيرُ أنَّ أهلَ الجنَّةِ بعد دخولهم الجنَّةَ ينادونَ أصحابَ النَّارِ، ويقولون لهم: أنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا ربُّنا حَقّاً، فقد وَعَدَ اللهُ عبادَه المؤمنين في الدنيا بالخلودِ الأبديِّ السرمديِّ في جناتِ النعيم، ووَعَدَهُمْ فيها بما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشر، وفي يوم القيامةِ يُنْجِزُ اللهُ لهم ما وعدهم، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف:٤٤].

وسؤالُ أهْلِ الجنّةِ لأهْلِ النارِ سؤالُ تقريعٍ وتوْبيخٍ، يقولونُ لهم: هل وجدتم ما وَعَدَكُمْ ربُّكُمْ من العَذابِ والهوانِ والخزي في النارِ حَقّاً، قالوا: نعم، أي: وجدنا ما وعدنا حقّاً وصِدْقاً، و﴿نَعَمۡ﴾ لا تكون إلا جوابَ سؤال مُثْبَتٍ، وأمَا السؤال المنفي، فيكون جوابه (بلى)، كقوله تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: نادى مُنادٍ أهلَ الجنةِ وأهلَ النارِ ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ والتأذين في لغة العرب الإعلامُ، ومِنْهُ التأذين بالصلاةِ، أي: الإعلام بدخول الوقت.

واللعنُ في لغة العرب: الإبْعادُ والطَّردُ، وأصلُه الرجلُ يرْتَكِبُ الجرائِمَ، فيَطْرُدهُ قومُهُ حتى لا يطالبونَ بدِمِهِ، فيُسمَّى لَعيناً.

و(الظالمون): الذين يَعْبُدونَ الأصنامَ والأوْثانَ وهُمْ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف:٤٥] و﴿يَصُدُّونَ﴾ أي: يمنعونَ الناسَ عن ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: دينِ الله، وهو الإسلامُ، والسبيلُ في اللغة: الطريقُ، وأُضيفت السبيلُ إلى الله تعالى، لأنَّها السبيلُ التي أمَرَ بسلُوكِها دون غيرها ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقوله: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي: يطلبون الطريقَ مائلةً زائغةً، وذلك بقيامها على عبادةِ الأوثان، ومِنْ عِوَجِهِمْ كُفْرُهُمْ بالآخرةِ ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: جاحِدُونَ.

٢- أصحاب الأعراف:

أخبرنا ربُّنا أنَّ بينَ الجنةِ والنارِ أعرافٌ، والعُرْفُ كُلُّ شيءٍ عالٍ ومرتفع، كالسورِ، أو التلَةِ، ومنه عُرْفُ الفَرَس، وعُرْفُ الديكِ، وأخبرنا ربّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يوجَدُ على السُّورِ الذي بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ رجالٌ، وكونهم رجالٌ يَدُلُّ على أنَّهُمْ بشرٌ من بني آدمَ، قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ﴾ [الأعراف:٤٦]. والحجابُ: سورٌ حاجزٌ بينَ الجنَّة والنار.

والرجال الذين على الأعرافِ قومٌ من بني آدمَ استوتْ حَسَناتُهُمْ وسيئاتهم، قالَ ابن جرير: «أصحابُ الأعراف قومٌ من بني آدمَ استوتْ حسناتُهم وسيئاتُهم، فجُعِلوا هناك إلى أن يقضيَ اللهُ فيهم ما يشاءُ، ثم يُدْخِلُهم الجنةَ بفضلِ رحمتِهِ إيَّاهُمْ» [تفسير ابن جرير الطبري: ٥/ ٣٥١٩].

وقال ابنُ عباسٍ: «الأعرافُ بينَ الجنَّةِ والنارِ، حُبِسَ عليها قومٌ بأعْمالِهِمْ» وكان يقول أيضاً: «قومٌ استوتْ حسناتُهُمْ وسيئاتُهُمْ، فلم تزدْ حسناتُهم على سيئاتِهِمْ، ولا سيئاتُهُمْ على حَسَناتِهِمْ» [الطبري: ٥/ ٣٥٢٢].

وعن ابن مسعودٍ، قال: «سيُحاسَبُ الناسُ يومَ القيامةِ، فمن كانتْ حسناتُهُ أكثر من سيئاتِهِ بواحدةٍ دخلَ الجنّة، ومَنْ كانت سيئاتُه أكثرَ من حسناتِهِ بواحدةٍ دَخَلَ النارَ، ثمَّ قرأ قولَ الله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف:٨-٩]»، ثم قال: «فمن استوتْ حسناتُهُ وسيئاتُهُ كان من أصحابِ الأعْرافِ» [الطبري: ٥/ ٣٥٢٠].

وقال حذيفةُ: «أصحابُ الأعرافِ قومٌ تجاوزتْ بهم حسناتُهُمْ النار، وقَصُرَتْ بهم سيئاتُهم عن الجنّة، فإذا صُرِفَتْ أبصارُهُم تلقاءَ أصحابَ النار، قالوا: رَبَّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فبينما هم كذلك، اطَّلَعَ -تبارك وتعالى- فقالَ لهم: اذهبوا وادْخُلوا الجنّةَ، فإنِّي قد غفرت لكم» [الطبري: ٥/ ٣٥٢٠].

وقد أخبرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَ أصحابَ الأعرافِ، يعرفُونَ كلاًّ من أصحابِ الجنةِ وأصحابِ النارِ بسيماهُمْ، أي: بعلاماتِهم، فيعرفونَ أهلَ الجنة ببياض وجوههم، ونَضْرَة النعيم عليها، ويعرفونَ أهلَ النارِ كذلك بسيماهم، وذلك بسوادِ وجُوهِهِمْ، وزُرْقَةِ أعيُنِهْم، و«(السيما): العلامةُ الدالةُ على الشيء في كلام العرب» [الطبري: ٥/ ٣٥٢٦].

٣- موقفُ أهلِ الأعرافِ من أهل الجنةِ وأهلَ النار:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى عن أهْلِ الأعْرافِ أنَّهم يعرِفُونَ أهْلَ النارِ وأهْلَ الجنة أثناءَ وجودِهِمْ على الأعْرافِ، فقال: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف:٤٦-٤٧].

بيَّنَ اللهُ لنا أن أصحاب الأعراف يعرِفُونَ كلاً من أصحاب النار وأصحابِ الجنةِ بسيماهم، كما سبق بيانُهُ، وهذا يَدُلُّ على أنَّهم على شَرَفٍ عالٍ، فيطلعون على هؤلاءِ وهؤلاءِ، وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّهم في اطلاعهم على أهل الجنّةِ يقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سَلِمْتُم مِن جميعِ الآفاتِ، وقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: لم يدخلْ أهلُ الأعرافِ الجنةَ، وهم يطمعونَ في دخولها، والطمعُ: تَعَلُّقُ النفسِ وأملُها في الحصولِ على الشيءِ.

ثم أخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّ أصحابَ الأعرافِ إذا صُرِفَتْ أبصارُهُمْ، أي: قُلِبَتْ عيونهم تلقاءَ أصحابِ النارِ، و﴿تِلْقَاءَ﴾ أي: جهةَ أصحابِ النارِ، دَعَوا ربَّهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فإنَّهم إذا نظروا إلى أهلِ النارِ، وما هُمْ فيهِ مِنَ العذابِ والبلاءِ، قالوا: يا ربنا لا تجعلنا مَعَ القومِ الظالمين، أي: لا تجعلنا مع هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالشّرْكِ والكفرِ.

وقد أعلمنا اللهُ تعالى أنَّ أصحاب الأعراف وهم في موقعِهم على الأعراف ينادون رِجالاً يعرفونَهُمْ في النارِ بعلاماتِهِمْ، ويقولون لهم: ما أغنى عَنْكُمْ جمعكم، أي: ما كنتم تجمعونَهُ مِنَ المالِ والأولادِ والأعوانِ، وما كنتم تستكبرون، أي: ولم يغن عنكم استكبارُكُمْ، ولم يُغْنِ عنهم لأنَّهم صارُوا إلى النارِ وعَذابِها وسَمُومِها، وحَمِيها، وزَقُّومِها ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأعراف:٤٨].

ثم يوجِّه أصحابُ الأعرافِ سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ إلى الرجالِ الذين يعرفونَهُمْ بسيماهم من أهلِ النارِ، فيقولون لهم: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف:٤٩].

يقولُ أصحابُ الأعرافِ لأولئك الرؤساءِ والزعماءِ: أهؤلاء الذين أقْسَمْتُمْ في الحياة الدنيا أنَّ اللهَ لا ينالُهُمْ برحمة منه، لأنَّهم ضعفاءُ مساكين، وقوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ

وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ أي: يقال لأصحاب الأعْرافِ بعد توبيخهم لأولئك الرجال: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾، والخوف: الغمُّ مِنْ أمرٍ مستقبلٍ، والحزنِ: الخوف على أمر فائت.

٤- أهلُ النار يطلبون من أهل الجنة أن يمدوهم بالماء والطعام:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى فيما سبقَ أنَّ أهلَ الجنة ينادون أصحابَ النارِ، وأخبرنا أنْ أصحاب الأعراف ينادونَ أصحابَ النارِ، ويخاطبون أهلَ الجنَّة، وأخبرنا ربُّنا في آخر آيات هذا النصِّ أنَّ أصحابَ النار ينادون أصحابَ الجنةِ طالبينَ منهم أنْ يفيضوا عليهم مِنَ الماءِ أو مما رزقهم اللهُ، فلا يعبؤون بهم، ولا يستجيبون لهم، ويقولون لهم: إنَّ اللهَ حرَّم طعامَ أهلِ الجنةِ وشرابَها على الكافرين ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأعراف:٥٠].

وقوله: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾ أي: صُبُّوا علينا الماءَ بكثرةٍ، ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: من مآكل الجنَّةِ، مِنَ اللحوم والفاكهةِ ونحوها.

ثم أخَذَ ربُّ العزةِ يُوَبِّخُ هؤلاءِ الكافرين الذين حَرَّمَ اللهُ عليهم طعامَ الجنةِ وشرابَها، ففي الدُّنْيا اتَّخَذوا دينَهُمْ لَهْواً ولَعِباً وغرَّتهم الحياةُ الدنيا، فالدين الذي دعاهُم إليه الرسولُ ﷺ اتَّخَذُوهُ لهواً ولعِباً، فكانوا يسْخَرونَ بالقرآن، وبالنبيِّ، ويسْخَرونَ بضعفاء المؤمنين، ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ [الأعراف:٥١] أي: خَدَعَتْهم الدنيا بلذائِذِها ونَعيمها، وظَنُّوها دائمةً خالدةً، فألْهَتْهُمْ وشَغَلَتْهمْ.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأعراف:٥١]. فاللهُ في ذلك اليوم يَنْساهُمْ أي: يترُكُهم مع علمه التام بهم، والعربُ تطلقُ النسيانَ على ذهابِ الشيءِ مِنْ علمِ الإنسان بعد أن كان يعلمه، وتُطْلِقهُ على تركه عمداً مع كونه يعلمه، وهذا هو المراد بقوله: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ ﴾ ونسيانُهُمْ على هذا النَّحْوِ جزاءً وفاقاً، أيْ لأنَّهم نَسوا يومَ القيامةِ، ولم يعملوا له قَصْداً وعمداً.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: نتركهم في النار، يعذبون فيها، كما تركوا العمل ليوم القيامة وجحودهم لآياتنا.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - يكْثُرُ النداء في يوم القيامة، فأهْلُ الجنة ينادون أهلَ النارِ، وأهل النار ينادون أهلَ الجنةِ، وأهل الأعراف ينادون أهلَ الجنةِ وأهل النار.

٢ - أهلُ الجنّةِ ينادون أهلَ النار سائلين إياهم على وجهِ التقريع، قائلين لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقّاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقّاً، فيقرُّون ويعْتَرِفونَ.

٣- هناكَ جدارٌ فاصل بينَ الجنةِ والنارِ، يسمَّى الأعرافُ، وبعد دخولُ أهْلِ الجنةِ الجنةَ، وأهلِ النارِ النارَ، يبقى الذين استوتْ حسناتهم وسيئاتهم فوق الأعراف.

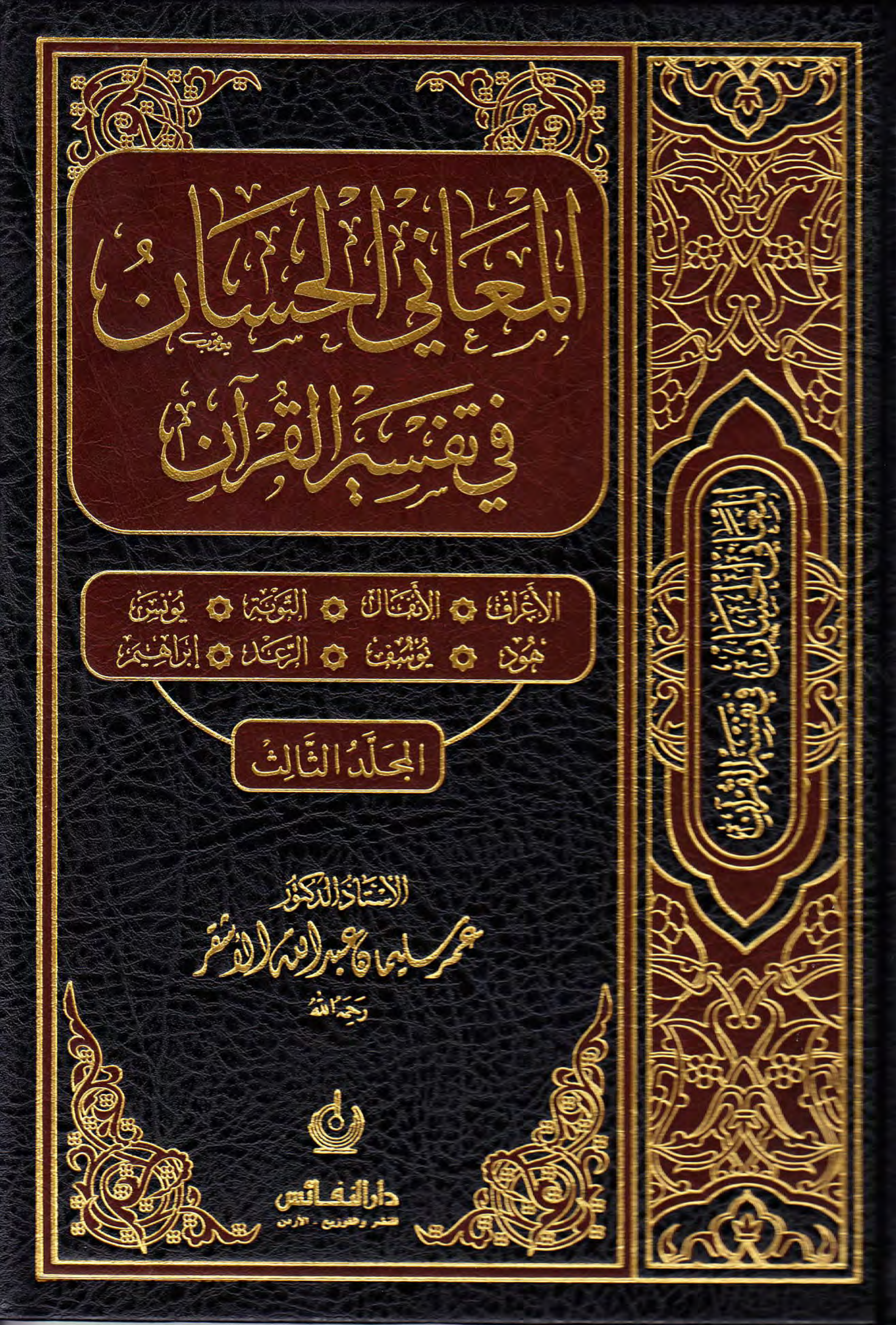
٤ - أهْلُ الأعرافِ يكونون في مكانٍ مشرفٍ على أهلِ الجنةِ وأهْلِ النار، فهم يخاطبون أهلَ الجنةِ مُسَلِّمينَ عليهم، ويخاطبونَ أهلَ النارِ مُبكِّتين لهم.

٥ - أهلُ النارِ يطلبونَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ أنْ يفيضوا عليهم مِنَ طعامِهِمْ وشَرابِهِمْ، فيجيبون أنّ الله حرَّمَهُما على الكافرين.

٦ - الذين اتخذوا القرآنَ هزواً، واتخذوا الرسولَ والمؤمنين هزواً، وغرَّتهم الحياةُ الدنيا، يتركهم اللهُ في النَّارِ، كما نسوا يومَ القيامة.

٧- كَثُرَ في أيامنا هذه استهزاءُ الغربيين برسولِنا ﷺ وقبلتِنا وعُلَمائِنا، بل بعضُ المجرمين في ديارِ المسلمين يفْعَلُونَ ذلك، وهؤلاء جميعاً ينتظرهُمْ يومٌ أسودُ.

فهرس


المعاني الحسان
في تفسير القرآن
الأعراف ✿ الأنفال ✿ التوبة ✿ يونس
هود ✿ يوسف ✿ الرعد ✿ إبراهيم
المجلد الثالث
الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله
دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن
المعاني الحسان في تفسير القرآن


المعاني الحسان
في تفسير القرآن
٣



١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٣/٦/١٨٦٣

٢٢٢,٣

الأشقر، عمر سليمان
المعاني الحسان في تفسير القرآن/ عمر سليمان الأشقر.-عمان-دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
( ) ص.
ر.إ.: ٢٠١٣/٦/١٨٦٣
الواصفات: / تفسير القرآن// سور القرآن// القرآن الكريم/

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن
هاتف: 00962 6 5693940
فاكس: 00962 6 5693941
Email: alnafaes@hotmail.com
www.al-nafaes.com

ردمك ISBN
9 789957 801496

المعاني الحسان في تفسير القرآن

الأعراف ۞ الأنفال ۞ التوبة ۞ يونس
هود ۞ يوسف ۞ الرعد ۞ إبراهيم

المجلد الثالث

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله



دار النفائس
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

النصُّ القرآنيُّ الثامن من سورة الأعراف
أهميةُ القرآنِ لدنْيانا وأُخرانا

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا عَزَّ وجَلَّ أنه جاءَنا بكتابٍ فَصَّلَ فيه القولَ على علم، وذلك ببيان موضوعاتِهِ أحْسَنَ البيان، وجَعَلَهُ هدىً ورحمةً للمؤمنين، وهذا الكتابُ العظيمُ هو القرآنُ الكريمُ، وتهدَّدَ اللهُ تعالى الكُفَّارَ باليوم الذي يأتي تأويله، أي: اليوم الذي يأتي فيه تأويل القرآن، وهو اليومُ الذي تتحقق فيه أخبارُهُ، فيقولُ الذينَ نَسُوهُ وأهملُوهُ في الدُّنْيا: قد جاءَت رسل ربنا بالحقّ، ويطلبون من يشفعُ لهم في ذلك اليوم، فلا يجدونَ، ويطلبونَ العودة إلى الدنيا ليؤمنوا فلا يُجابونَ، ويُدْخِلُهُم اللهُ النارَ فيخسرون أنْفسَهُمْ، ويَغيبُ عَنْهم ما كانوا يعبدونَ من الأنداد والأصنام، ويسوقُ اللهُ تعالى عِدَّة آياتٍ يُعَرِّفنا فيها بنفسه، ويأمُرُنا بدعائه تضرعاً وخُفْيَةً ناهياً إيانا عن الاعتداءِ في الدعاءِ، وينهانا ربُّنا عن الإفسادِ في الأرضِ، ويدعونا إلى دعائه خائفينَ طامعين، ويخبِرنا أنَّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين، ويُعْلِمُنا سبحانَهُ عن فِعْلِهِ في إرْسالِهِ الرياحَ نديَّةً طرية بينَ يديْ رَحْمَتِهِ، ثم يأْتِي السحابُ الثقالُ حاملاً المطرَ، فيسوقُهُ إلى الأرضِ العَطْشَى المُمْحِلةِ، فيُحْييها اللهُ بالنباتِ، ومِثْلُ هذا الإحياء يحيي اللهُ الموتى في يومِ القيامةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدٗى وَرَحْمَةٗ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعٗا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرَۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٢-٥٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- جاءَنا الله تعالى بالقرآن مُفَصَّلاً فيه القول هدىً ورحمة:

بعدَ أنْ بيَّنَ لنا رَبُّنا في آياتِ النصِّ السابقِ مشاهدَ مِنْ يومِ القيامةِ بيَّنَها ووضَّحها أحسنَ البيانِ، أعْلَمنا سبحانَهُ أنَّه جاءَنا بكتابٍ فَصَّلَ فيه القَوْلَ على عِلْمٍ، أي: وَضَّحَ معانيَهُ، وبيَّن آياتِهِ أحْسَنَ البيان، وهذا التوضيح والبيان ليهتدي بِهِ العبادُ، وتنالهُمْ رحمةُ الله تعالى، وهؤلاء هم المؤمنون ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف:٥٢].

وإذا أنْتَ نظرتَ في القرآنِ نَظَرَ دارسٍ متفقهٍ رأيْتَ فيه البيانَ لموضوعاتِهِ مِنَ الحلالِ والحرام، والعقائدِ والأحكام، والأخلاق والقصصِ، وذِكْرِ الحَشْرِ والجَنَّةِ والنارِ، وذِكر خلق الأرضِ والسماء، وهذا التفصيلُ والبيانُ يهدي بِهِ اللهُ تعالى قُلُوبَنا، ويحيي أرواحَنا، ويُصْلِح دنيانا، ويُقيمُ أُخرانا. ولكنَّ الذي ينتفعُ بِهِ المؤْمنون دون الكفارِ.

٢- تهديدُ الله تعالى الكفارَ باليوم الذي يتحقَّقُ فيه ما أخبر بهِ القرآنُ:

بعدَ أنَّ بيَّنَ لنا ربُّنا أنَّهُ جاءَنا بكتابٍ فصَّلَ فيه القولَ على علم لهدايتِنا إليه، ولتنالَنا رحمتُهُ، تهَدَّدَ الكفارَ باليومِ الذي يأتي فيه تأْويل القُرآنِ، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف:٥٣].

واليومُ الذي يَتحَقَّقُ فيه تأْويلُ القرآن هو اليوم الذي يَقَعُ ما أخبر اللهُ تعالى به، فقد أخبر القرآنُ بما يحلُّ بالإنسان عند الموت، وعند وقوع العذاب، وعندما يقوم الناس لربِّ العالمين، وكيف يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامة، وكيف يَدْخُلُونَ النارَ وعندما يأتي الإنسانُ ما أخْبَرَ اللهُ تعالى بِهِ مِنَ ذلك كُلِّه يكونُ اليومُ الذي يأْتي تأْويلُهُ.

وعندما يأتي تأويلُ ما أخبرَ بِهِ القرآنُ في يومِ الدينِ يقولُ الذين نَسَوْا هذا القرآنَ، ولم يؤمنوا بِهِ، ولم يعملوا به ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يؤمنون ويصدِّقونَ في ذلك الوقت، لأنَّهم يَرَوْنَ ما تحدَّث عنه القرآنُ واقعاً مشْهوداً، ويطلبونَ أحدَ أمرين حَدَّثَنا الله عنهما في قوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: هل يوجدُ لنا من يشفع لنا عند ربِّنا، والمرادُ بالشُّفعاءِ الأنصارُ الذين يحامون عنهم، ويدافعون عنهم، أَوَ هل يعيدُنا اللهُ إلى الدنيا مَرَّةً أخرى، فنؤمنَ ونعملَ غيرَ ما كنَّا نعملُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ

﴿وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨]، وقال هنا: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وخسرانُ أنفسِهِمْ يكونُ بدخولِهِمْ النارَ، والذين ضَلُّوا عنهم الآلهةُ الباطِلَةُ التي افترَوْها، واختلقوها، وعبدوها من دون الله.

٣- تعريفُ الله تعالى عبادَه بنفسهِ تبارَك وتعالى:

أعْظَمُ ما عُنِيَ القرآنُ بِهِ تعريفُ الله تبارك وتعالى عبادَه بنفسه الكريمة، ومِنْ ذلك ما عرفنا به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

وقد عرَّفَنا سبحانُه بنَفْسِهِ بذكره ثلاثاً من آياتِهِ، وهي:

أولاً: خَلْقهُ سبحانه السموات والأرض: أَخْبرَنا ربُّنا -سبحانَهُ- أَنَّهُ وحده الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينهما في ستّة أيام، وهذه الأيامُ تبدأُ مِنْ يوم الأحدِ، وتنتهي في يوم الجمعة، وهذه الأيام مِنْ أيامِ الله تعالى، ولا ندري طولَها، وقد أعْلَمنا ربُّنا تباركَ وتعالى أنَ يوماً عنده كألفِ سنةٍ من سنواتِنا، وأعلمنا ربُّنا أنَّ مقدارَ يومِ القيامةِ خمسون ألفَ سنةٍ من سنواتِ الدنيا.

وسيأتي بحوْلِ الله تعالى وقوتِهِ تفصيلُ القولِ في الأيامِ التي خَلَقَ الله فيها كلاً من السمواتِ والأرضِ في سورة فُصِّلَت، وما ذَكَرَهُ ربُّنا في هذا الموضعِ أنّه خَلَقَ السمواتِ والأرْضَ في ستةِ أيامٍ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ .

ثانياً: استواءُ ربِّنا جَلَّ جلاله على العرش: وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العرشُ في لغةِ العربِ سريرُ الملكِ، قال تعالى في كرسي ملكةِ سبأ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل:٢٣]، وقال نبيُّ الله سليمان: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النمل:٣٨]، وقال اللهُ تعالى في عرش نبيِّ الله يوسفَ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠]، والعرشُ أعظمُ مخلوقاتِ الله تعالى، وهو لله تعالى سريرُ ملكِهِ، وقد وَصَفَهُ اللهُ تعالى بأنّه عظيمٌ، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩]، ووصفه بأنه مجيدٌ في قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج:١٥].

وكان عرشُ الله في الأزلِ على الماءِ ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود:٧]، ويحملُ عرشُ ربِّنا في يوم القيامة ثمانيةٌ من الملائكة ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة:١٧]. وهؤلاءِ الملائكةُ الذين يحملونَ العرشَ في يوم القيامة يُسَبِّحونَ بحمد ربِّهم ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر:٧]. وفي يوم القيامة ترى الملائكةَ حافِّينَ من حولِ العرشِ يسبحون بحمد الله ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر:٧٥]، وقد ضلَّ قومٌ كثيرون في تعريفِ عرشِ الرحمن، والنصوصُ التي سقناها تدلُّ على أنَّ عرشَ الرحمنِ سريرٌ عظيمٌ كريمٌ مجيدٌ، استوى عليه الرحمنُ، ومعنى استوى في لغة العرب: ارتفع، واستقر، وعلا.

ويفقهُ استواءُ الله على عَرْشِهِ، وبقيةُ الصفاتِ التي وَصَفَ بها ربُّنا تعالى نفسَهُ في ضوءِ ثلاثةِ أُصول:

١- استواءُ الله تعالى على عَرشِهِ استواءٌ يَخُصُّهُ سبحانه، فلا يشْبِهُ استواءَ المخلوقين.

٢- لا يجوز أنْ ننْفي عن الله تعالى استواءَه على العرش خشيةَ أنْ يُشبَّه استواءَ الله باستواءِ خَلْقِهِ، فكما أنَّ اللهَ تعالى لَهُ ذاتٌ لا تَشْبهُ ذاتَ المخلوقينَ، كذلك له استواءٌ وسَمْعٌ وبَصَرٌ وقُدْرَةٌ لا تُشبه صفاتِ المخلوقينَ. وقد دَلَّ على هذين الأصلين العظيمين قولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

فاللهُ تعالى لا يُشْبِهُهُ شيءٌ لا في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ، ولا في أفْعالِهِ، وقد أثبتَ اللهُ تعالى لنفسه صِفَتي السمعِ والبصرِ، أي: له سمع لا يشبهه سمعٌ، وله بصرٌ لا يشبهه بصرٌ، وكذلك يقال في وجْهِهِ ويَدِهِ وقُدْرَتِهِ وغيرها مِنَ الصفاتِ، نثبتُها من غير تشبيه.

٣- عَدَمُ الطمعِ بمعرفةِ كيفية استوائِهِ فنحن لا نعرفُ كيفيةَ استوائِهِ، ولا كيفيةَ سَمْعِهِ، ولا بصرِهِ، ولا كيفية ذاتِهِ، وهذا لا ينفي وجودَ معنى الاستواءِ، فالاستواءُ معناهُ معروفٌ معلومٌ، ومعنى استوى في لغةِ العرب: علا، وارتفع، واستقرّ، أما كيفيتُهُ فلا ندري كيف هو. وقد قال علماؤُنا عن كيفيةِ الاستواءِ بأنَّه مجهولٌ، أما معناه في لغةِ العربِ فهو معلوم، والإيمان بالاستواءِ واجبٌ، لأنَّ اللهَ تعالى أخْبَرَنا به، والسؤالُ عنه بدعةٍ، أي السؤال عن الكيفية.

ونحن لا نعْلَمُ كيفيةَ الملائكةِ، ولا كيفيةَ الجنَّةِ وما فيها، والنارِ وما فيها، ولله المثلُ الأعلى، فكيف نعلم ذاتَ الله وصفاتِهِ وأفْعالَه.

ثالثاً: يُغشِي اللهُ تعالى الليلَ النهارَ يَطلُبُهُ حثيثاً: أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يَجْعَلَ الليلَ غِشاءً وساتراً للنهارِ ومغطِّياً له، وفي الآية محذوفٌ دلَّ عليه المقامُ، أي: يُغْشِي النهارُ الليلَ أيضاً، فيأتي ضوءُ النهارِ ويغْشَى ظلامَ الليلِ، فيذهِبُهُ، ويَحِلُّ محلَّه، كما قال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس:٣٧-٣٨].

وقوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يطْلُبُه طَلَباً حثيثاً مُسْرِعاً غايةَ الإسراع فلا يمهله لحظةً [العذب النمير: ٣/ ٣٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: أنَّ اللهَ خلقَ السماواتِ والأرضَ، وخلقَ الشمسَ والقمرَ والنجومَ، وجَعَلَهنَّ مسخراتٍ بأمرِهِ، في طلوعِهِنَّ وغُروبِهِن وحركاتِهِنَّ، كلُّ ذلك مقدَّرٌ وفق ما يريدُهُ الله، ويحدِّدُه.

واللهُ تعالى ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالخلقُ لَهُ كلُّهُ وحده، والأمر له كلُّه وحده.

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: تباركَ وتقدَّسَ، وأصل تبارك تفاعَلَ إذا كثرتْ بركاتُهُ وخيراتُه.

٤- الأمرُ بدعاءِ الله تضرُّعاً وخُفْيَةً:

أمرنا ربُّنا -عَزَّ وجَلَّ- أنْ ندعوه تضرُّعاً وخُفْيَةً ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف:٥٥]، ومعنى ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: متذللين بخشوعٍ واستكانةٍ، ومعنى ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي سِرّاً وهمْساً، ندْعُوهُ راجينَ رحمتَه خائفين عذابَه. والدعاءُ الذي أمَرَنا اللهُ به هو العبادةُ، وقد كان دعاءُ الصالحين خُفْيَةً، فزكريا عليه السلام ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم:٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فالله لا يحبُّ المعتدين، لا في الدعاءِ ولا في غيره، ومِنَ الاعتداءِ في الدعاءِ رفعُ الصوتِ بالدعاءِ، أو الدعاءُ بأنْ يُؤْتَى الداعي مقامَ الملائكةِ ومقامَ الرُّسُلِ والأنبياءِ، ومن ذلك ما رواه أبو داود أنَّ عبدالله بن مغفل سَمِعَ ابنه يقولُ: «اللهمَّ إني أسألُكَ القَصْرَ الأبيضَ عن يمينِ الجنةِ إذا دخلتها» فقال: أيْ بنيَّ، سَلِ اللهَ الجنَّةَ، وتعوَّذْ بِهِ من النَّارِ، فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّه سيكونُ في هذه الأمَّةِ قومٌ يَعْتَدونَ في الطَّهُورِ والدُّعاءِ» [صحيح سنن أبي داود: ٨٧].

٥- نهيُ الله تعالى عن الإفسادِ في الأرضِ بعد إصلاحها:

نهى اللهُ تعالى عبادَه عن الإفسادِ في الأرضِ، وأمَرَ بدعائِه خوفاً وطمعاً، وقال: إنَّ رحمةَ الله قريب من المحسنين، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦].

نهى اللهُ عزَّ وجَلَّ عن الإفسادِ في الأرْضِ، فمن الإفسادِ في الأرْضِ قَتْلُ الذين حَرَّمَ اللهُ قَتْلَهُمْ من بني الإنسانِ، ومن ذلكَ قتلُ الحيوانِ، وقطْعُ الأشجار، ومن ذلك استعمال الأسلحة المدَمِّرةِ التي تُهْلِكُ الحرْثَ والنسلَ، ومِنْ ذلك استعمالُ الآلاتِ التي تُفْسِدُ الجوَّ، وتجعلُهُ غير صالحٍ لحياةِ البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ ندعُوه جامعين بيْنَ الخوفِ من عقابه والطَمَعِ في ثوابِهِ.

وجمع اللهُ -تعالى- بَيْنَ الخوفِ والطَّمعِ، ليكونَ العبدُ خائفاً راجياً، كما قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧]، فإنَّ موجِبَ الخوْفِ معرفةُ سَطْوَةِ الله وشدَّةِ عقابِهِ، وموجِبَ الرجاءِ معرفةُ رحمةِ الله وعَظيم ثوابِهِ، قال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، ومَنْ عَرَفَ فَضْلَ الله رَجاهُ، ومَنْ عَرَفَ عَذابَه خافَه.

ويُسْتَحَبُّ أن يكون العبد طولَ عمره يَغْلِبُ عليه الخوفُ، ليقودَه إلى فِعْلِ الطاعاتِ وتركِ السيئاتِ، وأنْ يغلبَ عليه الرجاءُ عند حضورِ الموتِ، لقوله ﷺ: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّه» [التسهيل، لابن جزي: ٢/ ٣٥].

وقد أمَرَنا اللهُ -تعالى- في هذه الآية أنْ ندعوه خوْفاً وطَمَعاً، وأمَرَنا في آيةٍ سابقةٍ أنْ نَدْعُوه تَضَرُّعاً وخُفْيَةً، ودعاءُ الله تعالى على هذا النحو يُرْشِدُنا إلى المنهجيَّةِ التي تربطنا بالله ربِّنا عزّ وجلَّ، فمعرفةُ الله لا ينبغي أن تَبْقَى فِكْراً وعلماً فحَسْبُ، بل يجب أن تأْخُذَ مساراً عملياً بالدعوة إلى الله تَضَرُّعاً وخُفْيَةً، ودعوتُه خوفاً وطمعاً، لأن هذه الممارسة العملية على النحو الذي دعانا اللهُ إليه، توجد علاقة حقيقية مع الله تبارك وتعالى، وتجعلنا نحقق العبودية لله ربِّنا تباركَ وتعالى، ونجدُ الهناءَ والسعادةَ في اللجوءِ إلى الله ربنا سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ قال: ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يَقُلْ: قريبةٌ، لأنّه ضَمَّنَ الرَّحْمَةَ معنى الثوابِ، وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾ لأنَّ العبدَ كلَّ يوم يَقْرُبُ من الآخرةِ، ويَبْعُدُ مِنَ الدنيا، لأنَّ ما أمامَك قريبٌ، وما وراءَكَ بعيدٌ، كما قال الشاعر:

ومـــا لا بـــدَّ أن يـــأتي قريـــبٌ ولكـــنَّ الـــذي يمـــضي بعيـــد

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى:١٧].

٦- إرسالُ الله -تعالى- الرياحُ بُشْراً بَيْنَ يديْ رحمته:

ذكر اللهُ تعالى في آيةٍ سابقةٍ ثلاث آياتٍ تعرفنا به سبحانه، وأضافَ في هذه الآيةِ الكريمة آيةً رابعةً، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف:٥٧].

أعْلَمنا سبحانَهُ أنَّه هو الذي يُرْسِلُ الرياحَ بُشراً بَيْنَ يدي رحمةِ الله، فترى بعضَ الناسِ يكونون في جوٍّ صافٍ، فتَهُبُّ عليهم الرياحُ نديَّةً رطْبةً، فيقولون لك: هذه الرياحُ تُبشِّرُ برحمةِ الله، أيْ: بالمطرِ، فلا يمضي طويلُ وقْتٍ، حتى ترى السحابَ الثقالَ آتٍ من بعيد، تسوقه الرياحُ، فتهطلُ الأمطارُ، فيحيي اللهُ بذلكَ المطر بلاداً ميتةً، يحييها بالنباتِ، ومِثْل هذا الإحياءِ للأرض الميتة بالمطرِ، يحيي يومَ القيامةِ العبادَ، فإذا شاءَ اللهُ إحياءَ الخلقِ في يوم القيامة أنْزَل عليهم مطراً كمنيِّ الرجالِ، فينبتُ الناسُ مِنَ الأرض، حتى إذا تمَّ خَلْقُهُمْ نُفِخَ في الصور فعادتْ أرواحُ الناسِ إلى أجسادهم، فقاموا لربِّ العالمين.

٧- ضرب اللهُ تعالى المثلَ للقلوبِ الطيبةِ التي ينزل القرآن عليها بالأرض الطيبة التي ينزل عليها المطر:

ضرب الله تعالى المثَلَ للقلوب الطيبةِ التي ينزلُ القرآنُ عليها، فتُثْمِرُ الإيمانَ والأعمالَ الصالحةَ بالأرضِ الطيبةِ التي ينزلُ عليها المطرُ، فيَخْرُج نباتُه بإذن ربه، وضربَ مثلاً للقلوب الخبيثةِ بالأرضِ الخبيثةِ ينزلُ عليها الماءُ، فلا يخرجُ نباتُها إلا نكداً، أيْ: إلا عسيراً ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف:٥٨].

وقد ضَرَبَ رسولُنا ﷺ المثل بما بَعثَهُ به مِنَ الهدى والعلم، بالغيثِ أصابَ أرْضاً، فكانت الأرضُ على ثلاثةِ أقسام، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي موسى، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به منَ الهُدَى والعِلْمِ كمَثَلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً، فكان منها نَقِيَّةٌ قَبِلتِ الماءَ فأنبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكثيرِ، وكانت منها أجادِبُ أمسَكَتِ الماءَ فنَفَعَ اللهُ بها الناسَ، فشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأصابَتْ منها طائفةً أُخرى، إنَّما هي قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا

تُنْبِتُ كَلاً، فذلكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دينِ الله ونَفَعَه ما بَعَثَني اللهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لم يَرْفَعْ بذلكَ رأساً ولم يَقبَلْ هُدى الله الذي أُرسِلْتُ به» [البخاري: ٧٩. ومسلم: ٢٢٨٢]. .

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- القرآنُ العظيمُ منزلٌ مِنْ عندِ الله تعالى، فَصَّلَ اللهُ تعالى فيه الموضوعاتِ التي حواها، ليهديَ به العبادَ، ويدخِلَهم في رحمته تعالى.

٢- في اليوم الذي يقعُ ما أَخْبَرَ اللهُ تعالى بِهِ، وهو يومُ القيامة، يندمُ الكفارُ على عَدَمِ أَخْذِهِم بالقرآنِ، ويَتَمَنَّوْا لو يجدُون شافعاً يحامي عنهم، أو يُرَدُّونَ إلى الدُّنْيا ليُؤْمنوا، ولكنهم لا يَجِدُونَ إلاَّ النارَ والخسرانَ.

٣- عَرَّفنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بآياتٍ عظيمةٍ دالَّة عليه، لمن تَفَكَّر فيها، واهتدى إليها.

٤- لا يجوز أن يكون حَظُّنا مِنْ ربِّنا الاقتصارَ على التفكر في آياته، بل يكون مع التفكر والنظر والعلم دعاءُ الله بذلّةٍ واستكانة خفية، أي همساً من غير رفع للصوت، وأمرنا أن ندعوه خائفين من عذابه، راغبين في رحمته.

٥- نهانا الله عن الإفساد في الأرضِ، بالقتل وسفكِ الدماءِ، والكفرِ والشركِ، وإهلاك الحرثِ والنسل.

٦- من آيات الله العظيمةِ الدالةِ على ربِّ العزَّةِ، إرسالُهُ الرياحَ، بينَ يدي المطر الذي يُقِلُّهُ السحاب الممتلئ مطراً فيسوقُ السحابَ إلى البلد الميت الذي لا نباتَ فيه ولا شجرَ، فيخرج الله به الزروع والثمار.

٧- كما يحيي اللهُ الأرضَ الميتةَ بالمطر، كذلك ينزل المطر عندما يريد بعث الناس في يوم القيامة، فيَنْبُتُ الناسُ مِنَ الأرضِ، حتى إذا اكتملت أجسادُ العبادِ، نفخ في الصور، فطارت الأرواح فدخلت أجساد العباد، وعاد العباد إلى الحياة.

٨- ضرب اللهُ تعالى المثل للقلوبِ الطيبةِ بالأرض الطيبةِ التي يخرج نباتها بإذن ربِّها، وضرب مثلاً للقلوب الخبيثةِ بالأرض الخبيثةِ، التي لا يخرج نباتُها إلا نكداً.

النص القرآني التاسع من سورة الأعراف
قصة نوح عليه السلام

أولاً: تقديم

حدَّثنا اللهُ تعالى في النصِّ الثاني من هذه السورة طَرَفاً من قصةِ آدم عليه السلام، وكيف غَرَّرَ بِهِ الشيطانُ فأخرجَهُ وزوجَه مِنَ الجنَّة إلى دار الشقاءِ، لتدور رَحى معركةٍ حاميةٍ فوق ظهْرِ هذه الأرض بينَ الشيطان الذي أخرج أبانا آدم من الجنة وبين بني آدم، وسلاحُ الشيطان أنْ يكفِّر بني آدم، فيُدْخِلَهُمْ النارَ.

واستقامَ الناسُ قروناً على توحيد الله بعد آدم، ثم نجحَ الشيطانُ في إضلالهم، فأرسَلَ اللهُ إليهم رُسُلَهُ، وتابَعَهم بهداهُ، وقد قَصَّ اللهُ علينا في آيات هذا النص وما بعدها قصصَ خمسةٍ من رُسُلِهِ، وهم نوحٌ، وهودٌ، وصالحٌ، ولوطٌ، وشعيبٌ، وبعد أن عَقَّبَ على أخبارِ هؤلاءِ قصَّ علينا قصةَ موسى وأخيه هارونَ، وسنتناول قصصَ هؤلاءِ مع أممهم في هذا النصِّ والنصوصِ التاليةِ لَهُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

[الأعراف:٥٩-٦٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النصِّ من القرآن

١- نوحٌ يدْعُو قومَهُ لعبادةِ الله وَحْدَه:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أرسلَ نوحاً إلى قومِهِ، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٩] وفي الآية قَسَم محذوفٌ تقديره: والله لقد أرسلنا، فاللامُ التي في ﴿لَقَدْ﴾ موطئةٌ للقسم، و(قد) للتحقيق، تأتي بها العربُ مَعَ اللامِ الموطئةِ للقسم إذا جاءت مع الفعل الماضي كما في الآية.

ونوحٌ أوَّلُ الرسلِ الذين أرْسَلَهُمْ اللهُ تعالى، أرْسَلَهُ اللهُ تعالى إلى قومِهِ عندما عبدوا الأصْنامَ والأوثانَ مَعَ الله تعالى، فدعاهُمْ إلى عبادةِ الله وحده ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩].

أمرهم نوحٌ ﷺ بعبادةِ الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأصْلُ العبادةِ في اللغةِ الذلُّ والخضوعُ، وعبادةُ الله في الاصطلاح إفراد الله عزَّ وجَلَّ بعبادتِهِ على وَجْهِ الخُضوعِ والذلَّةِ والمحبةِ.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ أي: ما لَكُمْ معبودٌ سِواهُ تعبدونه.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ [الأعراف:٥٩]، أي: إنْ لم تؤمنوا بالله الواحدِ الأحدِ، وتَعْبُدونَهَ وَحْدَهُ، أخاف عليكم عذابَ يوم عظيمٍ، وقدْ يكونُ هذا في الدنيا، كما فَعَلَ اللهُ تعالى بهم عندما أغرقهم بالطوفان، وقد يريدُ عذابَ يومِ القيامةِ.

٢- تكذيبُ قومِ نوحٍ له:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ قومَ نوحٍ ردُّوا عليه دَعْوَتَهُ إياهم مُكَذِّبينَ له، رامينَهُ بالضلال ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠﴾ [الأعراف:٦٠] والملأ: أشرافُ قومِهِ ورؤساؤُهم وزعماؤُهم، سُمُّوا ملأً لأنَّهم يملؤُونَ النفسَ، أو لأنَّهم يملؤونَ صدورَ المجالسِ.

وقوله: ﴿لَنَرَىٰكَ﴾ أي: لنعتقد أنك في ضلالٍ، والضلالُ: الضياعُ عنِ الحقِّ، وقوله: ﴿ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠﴾ أي: ضَلالٌ واضحٌ.

فردَّ نوحٌ ﷺ على كلامِ قوْمِهِ الغليظِ القاسي بكلامٍ لطيفٍ، فيه حُسْنُ الأدبِ في الخطابِ، والإعراض عن الجفاءِ، فأجابَهُمْ منادياً إيَّاهم قائلاً لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ ونفى الضلالَ عن نفسه ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ والضلالةُ أخصُّ مِنَ الضلال، فعندما يقول لك سائلٌ: هل عندك كتابٌ، تقولُ: ما عندي كتابٌ، فتعمُّ النفيَّ، والمعنى: ليس بي ضلالةٌ واحدة.

ثم قال لهم: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١﴾ [الأعراف:٦١]. أي: أنا مرْسَلٌ من عند خالق السمواتِ والأرضِ وما بينهما ومدبِّرهما، وقد سألَ فرعونُ موسى عن ربِّ العالمين ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾ [الشعراء:٢٣-٢٤].

وقال نوحُ لقوْمِهِ: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢﴾ [الأعراف:٦٢].

أُبَلِّغكم ما أرسلني به ربِّي، وجمعَ الرسالةَ، فقال: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ أي: ما أَرْسَلَه اللهُ به إليهم من الأوامرِ والنواهي، والمواعظِ والزواجرِ، والبشائرِ والنذرِ.

وقوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي: أدعوكم إلى ما دَعاني اللهُ تعالى إليهِ، وأُحِبُّ لكم ما أُحبُّ لنفسي، ولا يكونُ المرءُ ناصحاً إلاَّ إذا كان عالماً، يقدِّمُ الخيرَ لمن وَعَظَهُ بصدقٍ بعيداً عن الغشِّ.

وقال نوحٌ لهم: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف:٦٢] وهذا كما قال إبراهيمُ عليه السلام لأبيه ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم:٤٣]. والعلمُ الذي يعلمه مِنَ الله ولا يعلمونَهُ، ما أَوْحاهُ اللهُ إليه من معرفته بالله وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ، ومعرفتِهِ بمصير الأخيارِ والفجارِ، ومعرفته بالحلالِ والحرامِ ونحو ذلك.

٣- تَعَجُّبُ قومِ نوحٍ أنْ يكون الرسولُ واحداً من البشر:

رَدَّ نوحٌ على قومِهِ في تَعَجُّبِهِمْ واستغرابِهِمْ واستبعادِهِم أنْ يكونَ الرسولُ المرسلُ من عندِ الله تعالى واحداً من البشر ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف:٦٣]. وقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الهمزةُ للاستفهام الإنكاريّ، والواوُ للعطفِ، والمعطوفُ عليه محذوفٌ، كأنَّه قال: أكذبتم وعجبتم، والاستفهام بمعنى التقرير والتوبيخ.

وقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أيْ: على لسانِ رجلٍ منكم، والمرادُ بـ ﴿ذِكْرٌ﴾ الموعظةُ والبيانُ.

وهذه الشبهةُ التي وقعتْ لقومِ نوحٍ، وقعتْ لجميع الأمم من بعدهم، فالأُمة التاليةُ لقومِ نوحٍ، وهي قوم هودٍ، وقع لها ما وقعَ لقومِ نوح، فقال لهم رسولهم: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٣].

وقد وقعَ مثلُ هذا لجميعَ الأمم ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء:٩٤].

وقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بيَّنَ اللهُ تعالى الغايةَ مِنْ إرسالِ الرسلِ، فهو يُرْسِلُهم، ليخوِّفُوا عذابَ الله وبأسَهُ ونكالَهُ، ويرسلهم ليعلمَ العبادُ كيف يتقونَ رَبَّهم ويخشونَهُ، ويرسلهم ليُعَرِّفَهُمْ بالطريقِ الذي ينالونَ بها رحمةَ رَبِّهم.

٤- إهلاكُ الله -تعالى- قوم نوح:

أَخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ قومَ نوحٍ كذَّبوا نوحاً، فأهلكهم اللهُ تعالى غرقاً بالطوفانِ، وأنجى الله تعالى نوحاً والقلَّةَ المؤمنةَ معه في الفلكِ، أي: السفينةِ، قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأعراف:٦٤].

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ نوحاً كان له آياتٌ معجزاتٌ أرسلَهُ الله بها إلى قومِهِ، ولكنْ لم يحدِّثنا عنْها، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي: عَمِيَتْ قلوبُهُمْ عن معرفةِ الله وقدرتِهِ وشدَّة بطْشِهِ، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- دعوةُ نوحٍ ﷺ -وهو أوَّل الرسل- قائمةٌ على التوحيدِ كدعوةِ آخرِ الرسلِ.

٢- كان نوحٌ ﷺ صريحاً واضحاً فيما دعا قومه إليه، ولكنه كان في غاية الأدب واللطف.

٣- شَفَعَ نوحٌ دعوتَهُ إلى الله -عزَّ وجلَّ- بتهديدِ قومِهِ بعذاب الله إنْ لم يؤمنوا.

٤- كَذَّبَ قومُ نوحٍ نوحاً فحاورهم، وبيَّنَ لهم أنَّه مرسلٌ من ربِّه، وبيَّن لهم الغاية من إرساله.

٥- تعجّب قومُ نوحٍ من إرسالِ رَجُلٍ من البشر إليهم، وهي شبهة صاحبتِ أمم الرسلَ جميعاً.

٦- كَذَّبَ قومُ نوحٍ نوحاً، فأهلكهم اللهُ بالطوفانِ غرقاً، وأنْجى نوحاً ومن آمن معه في السفينةِ.

النص القرآني العاشر من سورة الأعراف

قصةُ رسولِ الله هود عليه السلام

أولاً: تقديم

حَدَّثَنا ربُّنا -عزَّ وجَلّ- في آياتِ هذا النصِّ عن قصةِ رسولِ الله هود عليه السلام وقومِهِ، وهُمْ قبيلةٌ عربيةٌ موغِلَةٌ في القِدَمِ، كانت تُسمَّى عاداً، وهذه القبيلةُ جاءَت بعد قومِ نوحٍ عليه السلام، فقد قالَ هودٌ لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

وكانت عادٌ تَسْكُنُ جنوبَ الجزيرةِ العربية في موضعٍ يُسمَّى بالأحقاف، ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١].

وهُوَ وادٍ بين أرضِ عمانَ وأرضِ مَهرة، فعن ابنِ عباسٍ، فقالَ: الأحقافُ رَمْلٌ بينَ عمان إلى حَضْرَموتَ، وقال قتادةُ: «الأحقافُ رملٌ مشرفةٌ على البحرِ بالشَّحْرِ من أرضِ اليمنِ» [معجم البلدان: ١/ ١١٥].

وقد أوتي قومُ هودٍ قوةً في أبدانهم، فقد قال لهم نبيهم هودٌ عليه السلام ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف:٦٩]، واستكبرتْ عادٌ ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

وقد بنوا مدينةً عظيمةً سمُّوها إرمَ ذات العماد ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ [الفجر:٦-٨].

وكانت عاد تعبُدُ الأصنامَ والأوثانَ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠].

وقال قومُ هودٍ لنبيهم: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:٥٤].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ

قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف:٦٥-٧٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- هودٌ يدعو قومه إلى التوحيد:

بعد أن أغرق اللهُ -تعالى- قومَ نوحٍ بالطوفانِ، أنشأ قومَ هودٍ وهم عادٌ في جنوب الجزيرة العربية ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۗ ﴾ [الأعراف:٦٥] وهذا معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٩]. والمعنى: والله لقد أرْسَلْنا إلى عادٍ أخاهم هوداً.

وقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمۡ﴾ أي: في النسبِ، لا في الدينِ، وهو أخوهم لأنَّه واحدٌ منهُمْ، أو لأنَّه بشرٌ مِثْلُهُمْ مِنَ ولدِ آدم ﷺ.

وقد دعا هودٌ قومَهَ إلى مثل ما دعا نوحٌ قومَهُ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف:٦٥]. دَعاهم إلى إخلاصِ العبادةِ لله فاطرِ السمواتِ والأرض، وهذه دعوةُ الرسلِ جميعاً ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقد كَذَّبتْ عادٌ رسولَها هوداً، فأهْلَكَهم اللهُ تعالى بعذابٍ شديدٍ ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥] وقال تعالى مُحدِّثاً عما فعله بهم: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة:٦-٨].

ولا يوجَدُ لا في التاريخِ، ولا في التوراةِ والإنجيلِ ذِكْرٌ لقوم عادٍ، ولا يوجَدُ لهم ذِكْرٌ إلا في القرآنِ، وبقيَ الأمرُ على ذلك إلى عام (١٩٨٤م) حيثُ قامت مَرْكَبَةُ فضاءٍ مزودةٍ بجهاز (رادار) له قدرةٌ على تصويرَ ما تحتَ التربة بعشرات الأمتار، فصوَّرَ الجزيرةَ العربيةَ،

فوجَدُوا صوراً لمدينةٍ عظيمةٍ تحتَ رمالِ الربع الخالي، وتلك المدينة مدينة إرم ذات العماد، ويحتاج اكتشافها وإظهارها إلى الوجود إلى جهود كبيرة.

٢- قومُ هودٍ يكذِّبُونَهُ ويرمونه بالسفهِ:

كذبت عادٌ رسولهُمْ هوداً، ورموه بالسَّفَهِ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأعراف:٦٦]. والسفاهةُ التي رموه بها: خِفَّةُ العقلِ وطيشُ الحلم، فكلُّ خفيفٍ طائشٍ تُسَمِّيهِ العربُ سفهاً، تقول العرب: تَسَفَّهَتِ الريحُ الريشةَ، إذا استخفتها فطارتْ بها كلَّ مطارٍ، والسفهُ في الثوبِ: خِفَّةٌ في نَسْجِهِ. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: في دَعْواكَ أنَّكَ رسولٌ من ربِّ العالمين.

وقد نفى هودٌ ﷺ ما اتَّهَمُوهُ به ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ ﴾ أي: ليس بي طيش، ولا خفةٌ، ولا حمقٌ، وأنا راجحُ العَقْلِ، ثابتُ الحلم.

ثم قرَّر لهم أنَّه مرسلٌ إليهم من عندِ الله ربِّ العالمين ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف:٦٧]، أي: مرسلٌ إليكم من عندِ الله، وحقُّ الرسولِ أنْ يُعَظَّم ويُبَجَّل ويُحترم، لا أن يرمي بالسَّفاهةِ، ويُكَذَّبَ، كما فعل قومُ هودٍ معه.

وقد بيَّنَ هودٌ ﷺ لقومِهِ الموقفَ الحقَّ الذي يقفه منهم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف:٦٨] فأنا أمحَضكُمْ النصحَ، أمين لا أخْدَعُكُمْ، ولا أغُشُّكم، ولا أخونكم، وقولُه: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ جمع رسالةٍ، وهي اسمٌ لما يرسل به المُرْسَلُ، ورسالاتُ الله: هي ما بعثه به إليهم من الإيمانِ بالله وطاعتِهِ وامتثالِ أمْرِهِ واجتنابِ نَهْيِهِ.

وقد عَرَضَتْ لقومِ هودٍ الشبهةُ التي عرضتْ لقومِ نوحٍ، وبيَّنَها هودٌ كما بينها نوحٌ بالعبارةِ نفسها ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف:٦٩].

٣- الزمانُ الذي وُجِدَ فيه قومُ هودٍ:

بيَّنَ هودٌ ﷺ الزمانَ الذي وجد هو وقومه فيه، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف:٦٩] وخلفاءُ: جَمْع خليفةٍ، لأنَّه جعلهم خلفاً منهم يسكنون الأرض بعْدَهَمْ، أو جعلهم ملوكَ الأرض، وكانت عادٌ أوَّلَ الأمم بعد الطوفان، وقد بيَّنَ لهم هودٌ ما أنعم اللهُ عليهم في خلقهم ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ أي: زادكم طولاً في الخلق وعظماً في الجسم.

وقد خَلَقَ اللهُ تعالى آدمَ عليه السلام ستينَ ذراعاً في السماءِ، فلم يَزِلِ الخلقُ ينقصُ بعد ذلك كما أخبرنا رسولُنا ﷺ ، وعادٌ أمَّةٌ قريبةٌ من آدمَ، ولذلك فإنَ في أجسادهم شيءٌ من الطولِ كما تدلُّ عليه هذه الآيةُ ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ وكما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)﴾ [الحاقة:٧]. ولكن ليسَ طولُهُمْ بالطولِ الذي يحكيه كثيرٌ من المفسرينَ، حيث يدَّعونَ أنَّ قصيرهم طولُه ستون ذراعاً، وطويلُهُمْ مائةُ ذراعٍ، بل ادَّعى بعضُهُمْ أنَّ طولَ الواحد أربعة أميالٍ، وكل هذا بعيد عن الصواب، فآدم عليه السلام كان أطول منهم، وكان طوله ستون ذراعاً، وقد أمر هودٌ قومَهَ أن يذكروا ﴿ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)﴾ [الأعراف:٦٩] وآلاءُ الله نعمَةَ التي أنعم بها عليهم، ومن ذلك ما أعطاهم إيَّاه من البسطةِ في الخلق، ومِنْ ذلك ما وعظهم به في قوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)﴾ [الشعراء:١٣٢-١٣٤]. والفلاحُ: الفوز والنجاةُ في الدنيا والآخرة.

٤- عادٌ ترفضُ الاستجابةَ للتوحيدِ وتطلبُ من نَبِيِّها أنْ يأتيها بالعذاب:

رفضتْ عادٌ ما دعاهم إليه نبيُّهُمْ هود عليه السلام ، ورَفَضُوا أن يُخْلِصوا دينهم لله ربِّ العالمين ورفضوا ترْكَ الآلهة التي يعبدونها مع الله عزَّ وجلَّ، وطالبوه بأن يأْتيهم بما يَعِدُهم من العذاب إن كان من الصادقين، وكان هذا منهم إمعاناً في الكفر والتكذيب ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف:٧٠]. وواضحٌ مِنَ النصِّ أنَّ الذي أضلَّهم هو إرثُ الآباءِ والأجدادِ.

٥- هود عليه السلام يشنُّ حملةً عنيفة على قوْمِهِ:

عندما سمع هودٌ عليه السلام ما قاله قومُهُ خاطبهم خطاباً قوياً، سفههم فيه، وسَفَّه فيه آلهتهم، وتهَدَّدهم، وتوعَّدهُمْ ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١)﴾ [الأعراف:٧١].

قال لهم نبيهم هودُ عليه السلام : قد وقع عليكم من ربِّكم رِجْسٌ وغضبٌ، والرجسُ: العذابُ والسَّخَطُ، أعلمهم بأنَّ قضاء الله نافِذٌ فيهم وسيحلُّ بهم الرجزُ والعذاب، والغضب الذي سيقع بهم، وَصْفٌ وصفَ اللهُ تعالى به نفسه إذا انتهكت حرماته.

وقوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: أتخاصمونني في أسماء بلا مسمياتٍ، لا حقيقة لها، لا تنفع ولا تضرُّ، فقد سَمَّوا أصنامهم وأوثانهم آلهة، وتحت

هذه التسمية، لا توجد آلهة تملكُ خصائصَ الألوهية، وقوله: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ السلطانُ: الحجةُ والبرهانُ، بل الحججُ الواضحةُ البيِّنة التي أَنزلها اللهُ تعالى تدلُّ على أَنَّها معبوداتٌ باطلةٌ، واللهُ هو الذي يستحقُّ أن يُعبَد. وقوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ تهديدٌ ووعيدٌ لهم، يقول لهم: انتظروا ماذا يَحْدُثُ لكم، وما سينزل بكم من غضبِ الله ومِنْ عذابِهِ.

٦- **إنزالُ الله تعالى العذابَ بقومِ هودٍ وإنجاءِ الله هوداً والمؤمنين معه:**

نجّى اللهُ -تعالى- هوداً ومن معه برحمته، وأنزل بقومِهِ الكافرين عذاباً قطع دابرَهُمْ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف:٧٢].

وقوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: استأصلهم عن آخرهم، والدابر: هو الذي يتبعك عند دُبُرِك، فإذا هلك الدابرُ: لم يبقَ منهم أحدٌ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- الأُمةُ الثانيةُ بَعْدَ قوم نوحٍ وجوداً هم قومُ عادٍ، كانوا في جنوبِ الجزيرةِ العربية، وقد أرسل اللهُ تعالى إليهم رسولَه هوداً عليه السلام.

٢- هودٌ جاء قومَهُ بالدعوةِ إلى عبادةِ الله وَحْدَهُ، وتَرْكِ ما يشركون به من دون الله.

٣- كَفَرَتْ عادٌ بما أُرْسِلَ به رسولُهُمْ إليهم، ورَمَوْهُ بالسَّفَهِ.

٤- ردَّ هودٌ على قومه، وبيَّن لهم أنَّه مرسلٌ إليهم مِنْ عندِ الله، وكَشَفَ ما طَرَحُوهُ من شبهاتٍ.

٥- أعطى اللهُ تعالى عاداً قوةً في الأَجْسادِ، وكانت أَرْضُهمْ ذاتُ جناتٍ وعيونٍ.

٦- أَصَرَّتْ عادٌ على عبادةِ الآلهةِ الباطلةِ التي كان يعبدُها الآباءُ والأجدادُ، واستهانوا بعذابِ الله، فطلبوا من هودٍ أن يوقعَ بهم ما تَهَدَّدَهُمْ به.

٧- ثارَ هودٌ على قومِهِ، وسَفَّهَهُمْ وسَفَّهَ آلهتهم وبيَّن لهم أنَّ تلك الآلهةِ آلهةٌ باطلةٌ، وتهدَّدَهم بوقوعِ العذاب بهم.

٨- أنزل اللهُ العذابَ بعادٍ الكافرةِ، وأنجى هوداً ومَنْ معه مِنَ المؤمنين.

النص القرآني الحادي عشر من سورة الأعراف
قصةُ نبيِّ الله صالحٍ وقصةُ قومِهِ ثمود

أولاً: تقديم

هذه هي القصة الرابعةُ التي يَقُصُّها الله علينا في هذه السورة، فقد قَصَّ اللهُ -تعالى- علينا قصةَ آدمَ، ثم قصةَ نوحٍ، ثم قصةَ هودٍ، وهذه قصةُ صالحٍ.

وصالحٌ ﷺ نبيٌّ عربيٌّ، أَرْسَلَهُ اللهُ تعالى إلى قومِهِ ثمود، وثمودُ قبيلةٌ عربيةٌ مِنَ العربِ البائدةِ، كانوا يسكنونَ الحِجْرَ، ومنازلُهُمْ معروفةٌ مشهورة ظاهرةٌ تقعُ في وادي القرى وما حوْلَه، بين الحجازِ والشامِ، ولا تزالُ بيوتُهم التي نحتوها في الجبال قائمة إلى اليوم، والحِجْرُ: يقع في الحجاز جنوبي تيماء، وقاعدةُ تلكِ البلاد مدينةُ العُلا.

وقد مرَّ رسولُ الله ﷺ وأصحابُهُ بديارِ ثمودٍ في السنة التاسعةِ من الهجرةِ، وهو منطلقٌ إلى غزوَةِ تبوك، فعَجَنَ أصحابه مِنَ الآبار الموجودة في ذلك المكانِ، فأمرهم أنْ يطعموا عجينهم الإبلَ، وأن يقتصروا في شربِهِم وعجينِهِمْ على ماءِ البئرِ التي كانت تشربُ منها الناقةُ، ونهاهم أنْ يدخلوا مساكنَ المعذَّبين إلاَّ باكينَ أو متباكينَ، ودلَّهم على البِئْرِ التي كانت الناقةُ تشربُ منها، ودلَّهم على الطريقِ الذي كانت تردُ الناقةُ منه، والطريقِ الذي كانت تَصْدُرُ منه، روى ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: «أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا نَزَلَ الحِجْرَ في غزوةِ تبوكَ أَمَرَهم أنْ لا يشربوا من بئرِها، ولا يسْتقوا منها، فقالوا: قد عَجَنَا منها واستَقينا. فأَمَرَهم أنْ يَطْرَحوا ذلك العجينَ، ويُهَريقوا ذلك الماء» [البخاري ٣٣٧٨. ومسلم: ٢٩٨١].

وعن عبدالله بنَ عمرَ رضي الله عنهما: أنَّ الناسَ نَزَلوا مع رسولِ الله ﷺ أرضَ ثمودَ الحِجْرَ، فاستَقَوْا من بئرِها، واعتَجَنوا به، فأمَرَهم رسولُ الله ﷺ أن يُهَريقوا ما استَقَوْا من بئرِها، وأنْ يَعْلِفوا الإبلَ العَجينَ، وأمَرَهم أن يسْتقوا من البِئرِ التي كانَت تَرِدُها الناقةُ [البخاري: ٣٣٧٩. ومسلم: ٢٩٨١].

وعن سالمِ بن عبدالله، عن أبيه ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ لما مَرَّ بالحِجْرِ قال: «لا تَدْخُلوا مَساكِنَ الذينَ ظَلَموا إلاَّ أنْ تكونوا باكِينَ، أنْ يُصيبَكم ما أصابَهُم» ثم تَقَنَّعَ برِدائه وهو على الرَّحْلِ [البخاري: ٣٣٨٠. ومسلم: ٢٩٨٠].

وروى أحمد عن جابر، قال: لَمَّا مَرَّ النبيُّ ﷺ بالحِجْر، قال: «لا تسْأَلُوا الآياتِ، وقد سأَلَها قوم صالحٍ، فكانَتْ تَرِدُ من هذا الفَجِّ، وتَصْدُرُ من هذا الفَجِّ، فعَتَوْا عن أمْرِ ربِّهِم

فعَقَرُوها، وكانَتْ تَشْرَبُ ماءَهُم يوماً ويَشْرَبُونَ لَبَنَها يوماً، فعقَروها، فأخَذَتْهُمْ صيْحَةٌ أهْمَدَ اللهُ مَنْ تَحْتَ أديمِ السماءِ مِنهُم، إلاَّ رجلاً واحِداً كانَ في حرَمِ الله» قيل: مَنْ هو يا رسولَ الله؟ قال: «هو أبو رِغال، فلمَّا خَرَجَ من الحَرَمِ، أصابَهُ ما أصابَ قوْمَه» [مسند أحمد: ١٤١٦٠، وقال محققه: حديث قويٌّ].

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف:٧٣-٧٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أرسلَ اللهُ -تعالى- إلى ثمودَ رسولَهُ صالحاً عليه السلام وآتاه النَّاقَةَ آيةً:

أخْبَرَنا ربُّنا العليُّ الأعْلى أنّه أرسلَ صالحاً إلى قومِهِ، وهم ثمودُ، وأمَرَهُمْ بعبادةِ الواحدِ الأحد، فهو المعبودُ الواحدُ الذي يستحقُّ العبادةَ دون غيره، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣]، وقد طَلَبَ قوم صالحٍ منه أنْ يأْتيهم بآيةٍ تدلّ على صِدْقِهِ، فقالوا له: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء:١٥٤].

وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجَلَّ أنَّ صالحاً قالَ لقومِهِ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف:٧٣].

وقالَ لقومِهِ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والبيِّنَةُ الدليلُ الذي يُظْهِرُ الحقَّ ويوضِّحُهُ، ولا بدَّ أن تكونَ هذه البيِّنَةُ عظيمةً كبيرةً واضحةً، وقد فسَّر هذه البينةَ بقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾. وقد بيَّنَ اللهُ تعالى بعض ما تتميزُ به هذه الآيةُ فقالَ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء:١٥٦]، وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر:٢٩].

وقد بيَّنَ لنا رسولُنا ﷺ في الحديثِ الذي أوْرَدْتَهُ في مقدمةِ هذا النص أنَّها: «كانَتْ تَشْرَبُ ماءَهُم يوماً، ويشرَبُونَ لَبَنَها يوماً» [مسند أحمد: ١٤١٦٠].

وقد وصَّاهم نبيُّهُمْ صالحٌ عليه السلام بالناقةِ، فقال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف:٧٣]. وهذه الناقةُ لم تكنْ تُكَلِّفُ ثمودَ شيئاً، فقد كانت تسْرَحُ في أرضِ الله، وتأكلُ مما وجدتُه مِنْ عُشْبِ الأرضِ، وقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: لا تضربوها، ولا تَطْرُدوها، ولا تقتلوها، فإن فَعَلْتُمْ شيئاً من ذلك أخذكم عذابٌ أليم من الله تعالى.

وقد أُضيفتْ الناقةُ إلى الله تعالى ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ على وجه التفضيل والتخصيصِ، كما يقال للمسجدِ (بيتُ الله).

٢- نِعَمُ اللهِ التي أنْعَمَ بها على ثمودٍ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ صالحاً أمَرَ قَوْمَهُ أنْ يذكروا النعمَ التي أنعمَ اللهُ بها عليهم، ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

أمَرَهُمْ أنْ يذكروا أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَهُمْ مستخلفينَ في الأرضِ مِنْ بعدِ عادٍ، كما جعل عاداً مستَخلَفينَ مِنْ بعد قوم نوحٍ، وذكَّرهم صالحٌ بما امتنَّ اللهُ بِهِ عليهم من تبوِّئِهِمْ الأرض يتخذونَ من سهولها قصوراً، ويَنْحِتُونَ من الجبالِ بيوتاً، ومعنى: بَوَّأَكُمُ مِنَ الأرضِ، أي: جَعَلَها لكم مباءَةً، أي: منزلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر:٧٤] ومنه قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت:٥٨] أي: لنَجْعَلَنَّ الغرفَ مباءاتٍ ومنازلَ لهم.

وقولُهُ: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ السهولُ: جمعُ سَهْلٍ، وهو المكانُ المنخفضُ المستوي الذي لا وَعْرَ فيه، أي: تتخذونَ من أرضِها السَّهْلَةِ قصوراً. والقصورُ: البيوتُ الضَّخْمَةُ العظيمةُ المنمقة والمزينةُ، لتسكنوها في الصيف.

وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ وقال: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر:٨٢] أي: تَنْحِتونَ بيوتاً في الجبالِ لتسكنوها في الشتاءِ، ولا تزالُ بيوتُ ثمود المنحوتة في الجبال قائمةً إلى اليوم، والبيوت: جمعُ بيتٍ، والبيتُ هو ما يُسْكَنُ فيه، سُمِّيَ بيتاً، لأنَّ الساكنَ يبيتُ فيه.

ومِنْ نِعَمِ الله التي أنعم اللهُ -تعالى- على ثمودَ قومِ صالحٍ، ما ذَكَّرَ صالحٌ به قومَه في سورةِ الشعراء قائلاً: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء:١٤٦-١٤٨].

وقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نِعَمَ الله التي أنعم بها عليكم. وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ العَثْيُ: أشدُّ الفَساد

٣- **الحوارُ الذي جرى بينَ الزعماء مِنْ قومِ صالحٍ وبينَ المؤمنين الضعفاءِ:**

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ أكثرَ أتباعِ الرسلِ في أولِ الأمرِ هُمُ الضعفاءُ، كما قالَ الملأُ من قومِ نوحٍ لنوحٍ عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود:٢٧].

وقد كان كثيرٌ من أتباعِ صالحٍ الذين آمنوا به هم من هؤلاءِ، وقد ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦].

والذين استكبروا الزعماءُ والقادةُ، قالوا للمؤمنينَ المستضعفين: أتعلمون أنَّ صالحاً مرسلٌ من ربِّه؟ فقالوا: نَعَمْ، نحنُ نؤمنُ بما أُرسِلَ به، فأجابَهُمْ أولئك السادةُ والزعماءُ: إنَّا بالذي آمنتم بِهِ كافرونَ، أي: جاحدون.

٤- **طغيانُ قومِ صالحٍ وعقرهم الناقةَ:**

عَلا طغيانُ قومِ صالحٍ علواً كبيراً، فكذبوا رسولَه، وكفروا به، وبلغ بهم الطغيانُ إلى عَقْرِ ناقةِ الله التي تهدَّدَهم رسولهم بأنَّهم إذا قتلوها أَخَذَهُمْ عذابُ يومٍ أليم، وعَتَوْا عَنْ أمر

ربِّهم، وبلغ من طغيانِهِمْ واستهتارِهُمْ أن قالوا لرسولهم بعد عَقْرِهِم الناقةَ: ائتنا بما تعدُنا إنْ كنت رسولاً حقاً، قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأعراف:٧٧].

ونَسَبَ العقرَ إلى ثمودَ كُلِّها، وإن كان العاقرُ واحداً منهم، لأنَّهم كانوا جميعاً راضينَ بذلك العقرِ، كما قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الشعراء:١٥٧].

والدليلُ على أنَّ العاقِرَ كان واحداً منهم قوله تعالى: ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القمر:٢٩]، وقوله: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس:١٢-١٤].

والعَقْرُ: القتلُ والإزالةُ، تقولُ: عقرتُ النخلَ: قطعتُهُ من أصلِهِ، وعَقَرْتُ البعير: نحرته.

وقد نادتْ ثمودُ أشْقاها كما قال تعالى: ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القمر:٢٩]، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس:١١-١٤].

وعن عبدالله بن زَمْعَةَ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ ذَكَرَ الذي عَقَرَ الناقة، قال: «انْتَدَبَ لها رجلٌ ذو عِزٍّ ومَنَعَةٍ في قوْمِهِ كأبي زَمْعَةٍ» [البخاري: ٣٣٧٧. ومسلم: ٢٨٥٥. وأحمد: ١٦٢٢٢]. واللفظ عند مسلم: «ذَكَرَ الناقةَ وذَكَرَ الذي عَقَرَها، فقال: إذ انْبَعَثَ أشْقاها، انْبَعَثَ بها رجَلٌ عزيزٌ عارِمٌ مَنيعٌ في رَهْطِهِ، مثلُ أبي زَمْعَةَ».

وقد قال لهم نبيهم بعد عقرهم الناقة: ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [هود:٦٥].

وقد بلغ من طغيانهم أنَّ تسعةً منهم أرادوا بعدَ عَقْرِهِمُ الناقةَ قتل صالحٍ وأهْلِهِ في ظلمة الليل ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل:٤٨-٤٩].

٥- إهلاكُ اللهِ -تعالى- قومَ صالحٍ:

لَمَّا بَلَغَ طغيانُ قوم صالح إلى عَقْرِ النَّاقةِ، ومحاولةِ قَتْلِ صالحٍ وأهلِهِ في الليْلِ، نزلَ بهم عذابُ الله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف:٧٨]. وقال في

سورةِ القمر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر:٣١]. وقال في سورةِ هودٍ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود:٦٧].

أرسلَ اللهُ تعالى عليهم صيحةً واحدةً من السماءِ، وقد أحْدَثَتْ هذه الصيحةُ رَجْفَةً زَلزلتِ الأرضَ، ومعنى ﴿جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ ساقطينَ على وجوهِهِمْ هامدينَ لا يتحركونُ. ونَجَّى اللهُ -تعالى- صالحاً والمؤمنينَ معه ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٦٦].

ودمَّرَ اللهُ تعالى ثمودَ ودمَّر بيوتها بسبب ظلمهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل:٥١-٥٢].

وقد كانَ صالحٌ موجوداً معهم عندما نزلَ بهم العذابُ، فلما دَمَّرَهُمْ ربُّ العزةِ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف:٧٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرسلَ اللهُ تعالى صالحاً إلى قومِهِ ثمود، فدعاهم إلى عبادةِ الله وحدَهُ، وترْكِ ما يعبدونَ من دونِهِ، وجاءَهم بآيةٍ بيِّنَةٍ، وهي ناقةٌ عظيمةٌ تشربُ ماءَ البئر يوماً، ويشربونَه يوماً، وفي اليوم الذي تَشْرَبُ ماءَهم، يأخذونَ ما يريدون من لَبَنِها.

٢- أمَرَ صالحٌ قومَهُ أنْ يتركوا ناقةَ الله تأكُلُ مِنْ أرضِ الله، ونهاهم عن أن يتعرضوا لها بشيءٍ من الأذى.

٣- ذكَّرَ نبيُّ الله صالحٌ قومَهُ بما أنْعَمَ عليهم من جَعْلِهِمْ خلفاءَ مِنْ بعدِ قومِ عادٍ، وما أعطاهُمْ من مساكنِ الصيفِ والشتاءِ، وما أعطاهم من الجناتِ والعيونِ.

٤- كان الزعماءُ والرؤساءُ الكفرةُ يفخرون على ضعفاءِ المؤمنين، ويترفعون عليهم.

٥- طغَى قومُ صالحٍ فعقَروا الناقةَ، وحاولوا قتلَ صالحٍ وأهْلِهِ، وطالبوا صالحاً أنْ يأتيهم بالعذاب الذي تَوَعَّدَهُمْ بِهِ، فأنزلَ اللهُ بهم صيحةً زلزلتْ أرضهم، ودمرتْهُمْ ودمرتْ ديارَهُمْ.

٦- نَجَّى اللهُ تعالى صالحاً ومَنْ مَعَهُ، وتَوَلَّى صالحٌ ﷺ عنهم وهو يقولُ: لقد أبْلَغْتُكُمْ رسالةَ ربي، ونصحتُ لكم، ولكن لا تُحِبُّونَ الناصحين.

٧- أوردَ بعضُ المُفَسِّرينَ كالطبريِّ والبغويِّ وغيرهما في تفسيرِهِما قِصصاً وأخباراً لا ذِكْرَ لها في القرآن، وليس لها أسانيدُ صحيحةٌ، وما كانَ للمفسِّرينَ أنْ يوردُوا في تفسيرِ آياتِ الله مثلَ هذا القصصِ.

النص القرآني الثاني عشر من سورة الأعراف

قصة لوط عليه السلام

أولاً: تقديم

نبيُّ الله لوطٌ عليه السلام هو ابنُ أخي نبيِّ الله إبراهيم، آمنَ بِهِ، وهاجرَ معه إلى الأرْضِ المقدَّسَةِ، فأرْسَلَهُ اللهُ تعالى إلى قُرى سَدوم وعمورة وما حولها من القرى وكانوا قد اقْتَرَفُوا نوعاً من الفاحشة، لم يسْبِقْهُمْ إليها أحدٌ من العالمين، وهي إتيانُ الذكورِ من الرجال، فأنْكَرَ عليهم، فأبَوْا أن يجيبوا داعيَ الله تعالى، فأهلكهم الله تعالى، ودمَّرَهُمْ ودمَّر ديارَهُمْ، وأصْبَحَ فوقَ ديارِهِم بَحْرٌ أجاجٌ، هو البحرُ الميتُ الذي في أرضِ فلسطين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

[الأعراف:٨٠-٨٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - إرسالُ الله -تعالى- لوطاً إلى قوْمِهِ وإنكارِهِ عليهم فعْلَ الفاحشةِ التي يرتكبونها:

أعْلَمَنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّه أرْسلَ نبيَّهُ لوطاً عليه السلام إلى قومِهِ، فقالَ لهم منكراً عليهم فعلتهم الخبيثة، وهي اللواطُ: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

[الأعراف:٨٠-٨١].

ولوطٌ هو ابن أخي خليلِ الرحمن إبراهيمَ، آمنَ بِهِ في العراقِ، وهاجر معه إلى الأرضِ المقدسة، قال تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ ﴾ [العنكبوت:٢٦] فأرسلَهُ اللهُ -تعالى- إلى أهْلِ سَدومْ وعمورةَ التي كانت في مكان البحر الميت اليوم، وهذه القرى هي التي سمَّاهَا اللهُ تعالى بالمؤتفكاتِ، سميتْ بذلك لأنَّ جبريلَ أفكها، أي: اقتلعها مِنَ الأرضِ

ورَفَعَها إلى السَّماء، ثمَّ جعلَ عاليها سافِلَها ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود:٨٢]. وقد كانت انتشرتْ في القومِ الذين أَرسلَ إليهم لوط جريمةُ اللُّواطِ، فقال لهم منكراً عليهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ والفاحشةُ: الخُصْلَةُ المتناهيةُ في القُبْحِ والشَّنَاعةِ، وهِيَ اللواطُ، أي: أتأتونَ الخصلةَ التي استقرَّ فُحْشُها عندَ كلِّ أحدٍ، ودلَّ على عِظَمِ فُحْشِها أنّه لم يَسْبِقْ أَحَدٌ مِنَ الناسِ إلى ارتكابِ هذه الجريمة قبلهم.

ثم زاد لوطٌ قَوْمَهُ توبيخاً وتقريعاً بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: أإنكم لتأتون الرجالَ لأجلِ شهوتِكُمْ مِنْ دونِ النِّساءِ، كما قالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦]. نَبَّهَ لوطٌ عليه السلام قومَهُ عن استغنائِهم، عن هذه الفعلةِ الفاحشةِ، فليس لهم غرضٌ من وراءِ فعلتهم إلاَّ الشهوةَ، بخلافِ ما يبْتَغُونَهُ ويطلبونُهُ من وراءِ معاشرة نسائِهِمْ ففيه مصالحُ عظيمةٌ.

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ (بل) للإضرابِ، والإسرافُ مجاوزةُ الحدِّ، فقد جاوزوا الحلالَ إلى الحرامِ.

٢- جوابُ قومُ لوطٍ على ما أنْكره عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ عليه السلام :

أعْرَضَ قومُ لوطٍ عمّاً أنْكرَه عليهم نَبِيُّهُمْ من إتيانِ الرجالِ شَهْوةً من دون النساء، وكُلُّ ما قالوه في الجوابِ أنَّهمْ تنادوا إلى إخراجِ لوطٍ ومَنْ آمَنَ معهُ مِنْ أَهْلِهِ مِنْ قَرْيتهم، وعلَّلُوا فِعْلَهُمْ الذي عَزَموا على الإتيان بِهِ بأنَّ لوطاً وأهْلَهُ أُناسٌ يَتَطَهَّرون ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف:٨٢].

وقد عَلَّلُوا لإخراجهم بعِلَّةٍ غريبةٍ عجيبةٍ، وهي أنَّهُمْ قومٌ يتطهرونَ، وعُرْفُ الناس على مَرِّ العصورِ أن الأطهارَ يُحَبُّون، ويحترمون، ويتقرب منهم، أما هؤلاءِ، فيطردُونَ الأطهارَ الأخْيارَ، وإذا وَصَلَ الحالُ إلى أنْ يُطْرَدَ الأطهارُ، فيكون الطارِدُون في غايةِ النجاسةِ والقذارةِ، ويكونُ الداءِ وَصَلَ إلى درجةٍ لا يكونَ معها شِفاءٌ.

وقد وقعَ كثيرٌ مِنَ الناسِ وخاصَّةً في عالمِ الغربِ اليومَ في هذا الداءِ العضالِ، فقد ارتكبوا فواحشَ عَدُّوها تقدماً ومدنيةً، وهي فواحشُ وموبقاتٌ.

٣- إنْجاءُ اللهِ تعالى لوطاً وإهلاكُهُ القومَ المجرمينَ:

أخبرنا ربُّنا العزيزُ العليمُ أنَّه نجَّى لوطاً وأهلَهُ إلا امرأته فإنَّها كانتْ كافرةً، فأهلكها اللهُ تعالى مَعَ الهالكين، وكان أهله الذين آمنوا بِهِ ابنتاه، قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]. وقد جَعَلَ اللهُ تعالى عالِيَها سافِلَها، وأمطَرَ عليها حجارةً من سِجِّيلٍ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود:٨٢-٨٣].

وقوله: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي: انْظُرْ وتفَكَّرْ في عاقبةِ هؤلاء المجرمين، وإلى ما صاروا إليه، والمجرمونُ هم الكفارُ الذين ارتكبوا تلك الفواحشَ من قومِ لوطٍ، وها هيَ ديارُ قومِ لوط ﷺ، يشاهدُ الناسُ ما حلَّ بها في ذهابِهم وإيابِهِمْ عندما يَمُرُّون بها ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

لقد أَصْبَحَ فوقَها بَحرٌ مالحٌ شديدُ الملوحةِ، لا يعيشُ فيه شيءٌ، ويُعْرَفُ بالبحرِ الميت، وقرى قومِ لوطٍ تحته في الناحية الجنوبية منه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرْسَلَ اللهُ تعالى لوطاً إلى قومِهِ فأنكرَ عليه كُفْرَهُمْ وما يرتكبونه مِنْ فاحشةِ اللواطِ.

٢- قومُ لوطٍ أولُ مَنْ ارتكبَ فاحشةَ اللواطِ مِنَ البَشَر.

٣- فِعْلُ قومِ لوطٍ في إتيانِ الرجال شهوةً من دونِ النساءِ انحرافٌ عن الفطرةِ، وضلالٌ عن الحقِّ.

٤- لم يكن عنْدَ قومِ لوطٍ ما يجيبونَ من أنكر عليهم ضلالَهُمْ إلاَّ إخراجَهَمْ من قريتهم.

٥- أنجى اللهُ لوطاً وأهلَه المؤمنين، وعذَّب الكافرين المصرِّينَ على ارتكابِ الفاحشِةِ، وأصبحتْ قراهم مقلوبةً تحت بَحْرٍ أُجاجٍ خالٍ من الأحياءِ.

٦- ذهبَ جمهورُ أهلِ العلم إلى وجوبِ قتل الذي يرتكبُ جريمةَ اللواطِ.

النص القرآني الثالث عشر من سورة الأعراف
قصةُ نبيِّ الله شعيبٍ عليه السلام

أولاً: تقديمٌ

أرسلَ اللهُ -تعالى- عبدَهُ ورسولَهُ شعيباً عليه السلام إلى مدينة مَدْيَنَ أو قبيلةِ مَدْيَنَ، فدعاهم إلى عبادةِ الله وحْدَهُ، وترْكِ ما يعبدُ من دونِه، ومدينُ مدينةٌ قربَ مدينة معانٍ من أطراف الشام مما يلي الحجازَ، قريباً من ديارِ قومِ لوطٍ، فقد قال شعيبٌ لقومه ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود:٨٩].

ومَدْيَنُ هي التي ذَكَرَها اللهُ -تعالى- باسم (الأيكة) وحدَّثَنا أنَّ شعيباً أُرْسِلَ إليها ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧].

قال الراغبُ في مفرداتِه: «الأيْكُ الشجرُ الملتف، وأصحابُ الأيكةِ، قيل: نسبوا إلى غَيْضَةٍ كانوا يسكنونها، وقيل: هي اسم بَلَدٍ» [المفردات:٣٠].

واختلف العلماءُ في نَسَبِ قومِ شعيبٍ، فقيل: هم: من ذرية نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، وقيل أُمُّهُمْ من بناتِ لوطٍ، ولا يوجدُ دليل صحيحٌ يدل على تحديدِ هذا النسب. وذُكِر في حديثٍ رواه ابنُ حبانٍ عن أبي ذرٍّ أنَّ أربعةً مِنَ الأنبياءِ عَرَبٌ، «وهم: هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ ونبيُّكَ يا أبا ذر».

وذَهَبَ بعضُ المفسرين إلى أنَّ شعيباً كان بعدَ موسى عليه السلام، وهذا غير صحيح، ذلك أنَ الله تعالى قصَّ علينا في هذه السورة: سورة الأعراف، قصة نوحٍ، وقصةَ هودٍ، وقصة صالحٍ، وقصَّةَ شعيبٍ، ثم قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ [الأعراف:١٠٣].

ولا شكَّ أنَّ شعيباً كان بَعْدَ قومِ إبراهيمَ وقومِ لوطٍ، لقول شعيب لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود:٨٩] وهم قبل موسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف:١٠٣].

ومدينُ هي المدينةُ التي هربَ إليها نبيُّ الله موسى عليه السلام، لَمَّا خشي أنْ يقتله فرعونُ وملأه ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:٢٢-٢٣].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾

[الأعراف:٨٥-٩٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- شعيبٌ يدعو قَوْمَهُ إلى إخلاص الدين لله الواحد الأحد:

أرسلَ اللهُ -تعالى- عبدَه ورسولَه شعيباً إلى قومِهِ أهلِ مدينَ، فدعاهم إلى مثل ما دعا إليه كلٌّ من نوحٍ وهودٍ وصالحٍ أقوامَهُمْ، دعاهم إلى عبادةِ الله الواحد الأحد، وتَرْكِ ما يعبدونه من الأوثان ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف:٨٥].

وهذا هو الأصلُ العظيمُ الذي دعا كلُّ الرسلِ أقوامهم إليه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء:٢٥] وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

٢- **إعطاءُ اللهِ تعالى شعيباً آيةً بينةً تدلُّ على صِدْقِهِ:**

أَعْطَى اللهُ تعالى رسولَه شعيباً آيةً بيِّنَةً، لتكونَ حجَّة ومعجزةً له عند قومِه، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٨٥] والبيِّنَةُ في العربية: الحجَّةُ الواضحةُ، التي تُظْهِرُ الحقَّ وتبرزُهُ، والمرادُ بها في الآيةِ: المعجزةُ التي تدلُّ على أنَّ شعيباً مرسلٌ من عندِ الله.

ولم يعرفنا اللهُ -تعالى- بهذه المعجزةِ كما عرَّفنا بمُعْجِزةِ نبيِّ الله صالحٍ، ونبي الله موسى عليهما السلام.

٣- **نَهَى شعيبٌ قوْمَهُ عن التطفيف في الكيلِ والميزانِ وبَخْسِ الناسِ أشياءَهم:**

لم يَقِفْ شعيبٌ في دعوته إلى قومِهِ عِنْدَ الأمرِ بعبادةِ الله وَحْدَه، وتركِ ما يُعبد مِنْ دونه، ولكنَّه تجاوزه إلى النهي عن الذنوبِ والجرائمِ التي كانوا يعملونها، فمن ذلك تطفيفُ الكيلِ والميزانِ، وبخسُ الناسِ أشياءَهم، والإفسادُ في الأرض بعد إصلاحها ﴿فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥)﴾ [الأعراف:٨٥].

ويبدو أنَّ هذه الجرائم كانتْ جرائمَ شائعةً في قوم شعيبٍ، فأمَرَهُمْ نبيُّهُمْ بإتمام الكيلِ والميزانِ، وقالَ لهم في موضعٍ آخر: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود:٨٤-٨٥].

ونهاهُمْ أن يبخسوا الناسَ أشياءَهم ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]. والبَخْسُ: النقصُ، ويكون بتعييب السلعةِ والتزهيدِ والمخادعةِ فيها، وخيانةِ الناسِ في أموالهم وظلمِهِمْ فيها.

وهذا الذي نهى شعيبٌ قومَهُ عنه يدلُّ على أنه حرامٌ على المسلم، أي: يحرمُ عليه إنقاصُ الكيلِ والميزانِ، ويحرمُ عليه أن يبخسَ أخاه مالَه، فيحرم عليه أن يعيبَ، سلعته، ويزهدَ فيها، ويخدَعُه عنها، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾ [المطففين:١-٣].

٤- **نَهْيُ شعيبٌ عليه السلام قومَهُ عن الإفسادِ في الأرضِ بعد إصلاحها:**

نهى نبيُّ الله شعيبٌ عن الإفسادِ في الأرضِ بعد إصلاحها، فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ والذي يُفْسِدُ الأرضَ أمران:

الأول: الكفر والذنوب والمعاصي، كما قال ربُّ العِزَّة: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم:٨٨-٩٢].

والثاني: الإفسادُ في الأرض بقتلِ بني الإنسانِ، وقتلِ الحيوان، وقطعِ الأشجارِ وحرْقِها، وإفسادِ الأنهارِ والبحيراتِ والبحارِ، بإلقاءِ القاذورات والمواد السامَّةِ فيها.

وقد ازدادَ إفسادُ البشر للأرضِ في هذه الأيامِ، وبلغَ إلى درجة إفسادِ الغلافِ الجويِّ الذي يُهَدِّدُ بتدمير الأرضِ تدميراً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فلو تَرَكَ بنو الإنسانِ الأرضَ من غير تَدْميرِها لبقيتْ صالحةً، وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: الاستقامةُ على ما ذكرته لكم، ووَعَظْتُكُم بِهِ، خيرٌ لكم إنْ كنتم مؤمنين، أي: عبادةُ الله وَحْدَه، وإيفاءُ الكيلِ والميزانِ، والوفاء للناس بسِلعهم، وإصلاحِ الأرضِ خير لكم، وأفْضَلُ.

٥- نهيُ نبيِّ الله شعيبٍ عليه السلام عن صدِّ الناسِ عن سبيل الله:

نهى رسولُ الله شعيبٌ عليه السلام قوْمَهُ عن القعودِ للناس على الصراطِ، أيْ: الطريق، والمرادُ به الطريقُ المحسوسُ الذي يسيرُ فيه الناسُ، يتهددونهم ويتوعَّدونَهُمْ، بقتلِ وضربِ مَنْ آمنَ منهم بشعيب، والاستيلاءِ على ماله، ويأمرونَ المؤمنين بالكفر بشعيبٍ وتركِ متابَعتِهِ ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف:٨٦].

وقوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي: تتهدَّدون الناسَ بالأذى والقتل. والصراطُ: الطريق. ﴿وَتَصُدُّونَ﴾ أي: تمنعون الناس عن ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: الإسلام و﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: تطلبونَ الطريقَ الذي يسْلُكها الناسُ مائلةً منحرفةً، وذلك بالكفر والذنوب والمعاصي.

٦- قومُ شعيبٍ يتهددونه والمؤمنين معه بإخراجهم من قريتهم أو العودة في ملتهم:

ضاقَتْ عقولُ السادةِ والزعماءِ من قوم شعيبٍ عن فِقْه ما وَعَظَهُمْ به نبيُّهم، ولم يستطيعوا أن يردُّوا على ما بَصَّرهم بِهِ، فلجؤوا إلى التهديدِ والوعيدِ، فـ ﴿ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف:٨٨].

قالوا لَهُ ولمن آمنَ معه: أنتَ بين خيارين لا ثالثَ لهما، إما أنْ نُخْرِجَكَ أنْتَ والذين آمنوا معك مِنْ قريتنا، الثاني: أنْ تعودَ في مِلَّتِنا، أي: ترجعوا إلى ديننا، و(أو) التي في قوله:

﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ هي التي تسمى: مانعة خُلُوٍّ، أي: لا يخلو المقامُ من إحدى حالتين: إما أن يُخْرِجوه والذين آمنوا معه مِنْ قريتهم، أو يعودوا في دينهم.

والملأ: السادةُ الذين يملؤون صدورَ المجالس، وتمتلئ القلوب من هيبتهم، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ أي عن الإيمانِ بشعيبٍ وبما جاء به.

٧- ذكّر شعيبٌ قومَه بنعمةِ الله عليهم بتكثيرِهِمْ بعد أن كانوا قليلاً:

أمَرَ شُعيبٌ عليه السلام قومه أن يذكروا أنهم كانوا قلَّةً أذلةً، يخافونَ أنْ يضيقَ عليهم الناسُ، ويؤْذونهم، فأصبح عددهُمْ كثيراً، والكثرةُ مَظَنَّةُ العِزَّةِ والغَلَبَةِ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ [الأعراف:٨٦]، وقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف:٨٦]. أراد بهم المفسدين من قبْلِهِمْ، أي: انظروا إلى عاقبة قومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وقومِ صالحٍ كيف دمَّرَهُمْ الله وأهلكهم، فإنْ سرتم مسارهم، حلَّ بكم مثلَ ما حلَّ بهم. والعاقبةُ: هي ما يؤول إليه الأمرُ آخراً.

٨- دعوةُ شعيبٍ قومَه إلى الصبر حتى يحكمَ اللهُ بينَ المؤمنين به والكافرين منهم:

وقالَ شعيبٌ عليه السلام لقومِهِ في آخر ما وَعَظَهُمْ به ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧﴾ [الأعراف:٨٧].

بيَّن شعيبٌ لقومِهِ واقعَ الحالِ، فقد افْتَرَقُوا فرْقَتَيْنِ: فرقة آمنتْ بالذي جاءَ به، واتبعته، وطائفة لم يؤمنوا، وكفروا وأصَرُّوا على كفرهم، وطلب مِنَ الذين آمنوا أن يصبروا حتى يحكم اللهُ بينهم، أي: يقضي بينهم، وقد حكم اللهُ تعالى بينهم، فقد أهلك الكافرين ونجَّى المؤمنين، واللهُ -تعالى- خيرُ الحاكمين.

٩- شعيب يردُّ على قومه:

ردّ شعيبٌ على قومِهِ ردّاً واضحاً قويّاً، فقال لهم: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨﴾ [الأعراف:٨٨] أي: كارهين لما عرضتموه علينا من الخروج من القرية أو العودة إلى دينكم وملتكم.

وقال لهم: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف:٨٩].

قال شعيبٌ عليه السلام لقومه: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ لأنَّ ملتهم كلها كذبٌ وزورٌ وبهتانٌ، والعائدُ إليها عائد إلى أعظم الكذبِ والافتراءِ، والكذبُ: عَدَم مطابقةِ الكلامِ للواقعِ في نفس الأمر [أضواء البيان: ٣/ ٥٩٩].

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ هذا يدلُّ على أنَّ الذين آمنوا مع شعيبٍ كانوا كافرين، فقوله: ﴿نَجَّىٰنَا﴾ أي: أنقذنا من الكفرِ وعبادةِ الأوثان.

وقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي: ما ينبغي لنا أنْ نعودَ فيها إلاَّ أنْ يكون قد سبقَ في علمِ الله وفي مشيئته أن نعودَ فيها، فإنَّ لا يحدثُ شيءٌ إلا بمشيئةِ الله، وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي وَسِعَ علْمُهُ كلَّ شيءٍ، وهو يعلم الموجودَ، ويعلم المعدومَ لو وجد كيف يكونُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨].

وقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٩] أي: لا نتوكل إلا على الله وَحْدَهُ جلَّ وعلا، وقوله: ﴿ٱفْتَحْ﴾ أي: احكم ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ ومعلومٌ أنَّ اللهَ لا يحكمُ إلا بالحقِّ. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: خيرُ الحاكمين، وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ:٢٦].

١٠- إهلاكُ الله قومَ شعيبٍ عليه السلام:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن السادة والزعماءَ سمَّاهم اللهُ بـ ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ من كفَّارِ مدينَ قالوا لقومِهِمْ: لئن اتبعتم شعيباً إنكم لخاسرون ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف:٩٠]. وقد أقْسَمَ الملأ الذين كفروا من قومِ شعيبٍ، على صِدْقِهِمْ فيما قالوه، ودلَّ على القَسَمِ اللامُ التي وقعتْ في جواب القسم في قوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ﴾ والخسران الذي ينالهم باتباعهم شعيباً ما يفْقدُونَهُ من مالِ الناس الذي كانوا يأخذونه ظلماً.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّهُ أخذَتْهُمْ الرجفةُ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف:٩١]. والرجفةُ: الزلزلةُ القويةُ التي حركت الأرضَ من تحتهم. وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: موتى منكبِّينَ على وجوهِهِمْ. وسببُ هذه الرَّجْفَةِ صَيْحَةٌ جاءَتهم من السماء، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود:٩٤] وأعلمنا ربنا في سورة الشعراء أنهم أخذتهم الظُّلَّة ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء:١٨٩]، فعبر عن سبب هلاكهم بالرجفة تارةً، وتارةً بالصحيةِ، وتارةً بالظلَّة، وهذا كلُّهُ وقَعَ لقومِ شعيب.

وحَكَمَ اللهُ تعالى أن ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف:٩٢] وفي هذا ردٌّ على الملأ الكفارِ من قومِ شعيبٍ الذين قالوا ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ فتبين في الخاتمة أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ والذين اتبعوه كانوا هم الفائزين.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾ أيْ: كأن لم يقيموا فيها في نعمةٍ ورفاهيةٍ يوماً من الدهر.

وتولَّى شعيبٌ عن قومِهِ بعد أنْ أهلكهم اللهُ تعالى قائلاً: لقد أبلغتكم رسالاتِ ربي ونصحت لكم ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي ﴾ [الأعراف:٩٣] أي: خَرَجَ من بينِ أظهرهم، وأعرضَ عنهم لَمَّا نَزَلَ بهم العذابُ، وقال لهم: ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف:٩٣]. قال لهم: أبلغتكم رسالاتِ ربي المتضمنةِ دينه وشرعَهُ، ومحضتكم النصحَ خالصاً، فكيف آسى، أي: كيف أحزن على قوم كافرين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أرسل اللهُ تعالى إلى أهل مدينَ الذين هم أصحابُ الأيكة رسولَه شعيباً عليه السلام، فدعاهُمْ إلى عبادةِ الله وحده، وجاءَهم من عند الله بآية بيِّنة تدلُّ على صدقه.

٢- كلُّ رسولٍ كان يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، ويدعو قومه إلى التخلص من المعاصي التي يقترفونها، فلوط دعا قومَهُ إلى عبادةِ الله وتركِ اللواطِ، وشعيب دعاهم إلى توحيد الله وترك التطفيف في الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءَهم.

٣- كان شعيبٌ واضحَ الفهم قويَّ الحجةِ، قادراً على إيراد الحجَّة والبيان.

٤- نهى شعيبٌ قومَهُ عما يفعلونَهُ بالناس وبالمؤمنين، فقد كانوا يتهدَّدونَ الناسَ ويتوعدونهم إن هم آمنوا بشعيب، ويقومون بالدعاية الباطلةِ ضدّ ما جاء به.

٥- ذكَّر شعيبٌ قومَهُ بما أنْعَمَ اللهُ به عليهم، فقد كانوا قليلاً فكثَّرهم ربُّ العزة، وأمرهم أن يتفكروا في مآلِ الذين كفروا من قبلهم، قومِ نوحٍ، وقومِ هودٍ، وقومِ صالحٍ، فإنَّهم إنْ كفروا كُفْرَهم، أهلكهم اللهُ تعالى كما أهلكهم.

٦- أمر شعيبٌ قومَه أن يصبروا لحكم الله فيهم، وقد حَكَمَ الله فيهم، فأهْلَكَ الكافرينَ ونَجَّى المؤمنين.

٧- خيَّر الرؤساءُ والزعماءُ من الكفارِ شعيباً والمؤمنين معه بين أمرين: إما أنْ يخرجوه من قريتهم، أو يعود هو والمؤمنونَ في ملتهم، وقد رفض كلا الأمرين.

٨- قال شعيب لقومه: إنهم إن عادوا في ملتهم يكونون قد افتروا الكذبَ على الله تعالى، وبيَّن لهم أنَّهم لن يعودوا في ملتهم الضالة أبداً إلا أن يشاء الله.

٩-كان شعيب ومن معه متوكلين على الله معتمدين عليه، وهم يواجهون قومهم.

١٠- دعا شعيبٌ والمؤمنون معه ربَّهم أن يحكم بينهم وبين الكفار من قومهم، فأنجا اللهُ المؤمنين، وأهلكَ الكافرينَ، وهذا هو حكم أحكم الحاكمين.

١١- أعلن الملأ الكفار من قوم شعيب لقومهم أنهم إن اتبعوا شعيباً سيكونون من الخاسرين.

١٢- أهلك اللهُ تعالى كفار مدين بالرجفة، فأصبحوا جاثمين هالكين، وأصبحوا هم الخاسرين، والمؤمنون بشعيب هم الفائزين.

النص القرآني الرابع عشر من سورة الأعراف
سنّة الله تعالى التي أخذ بها الأُمَمَ التي أرسل إليها رُسُلَه

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى عن سنَّتِهِ التي أخذ بها الأُمَمَ التي أرسَلَ إليها رُسُلَه، وأخبرنا اللهُ تعالى أنَّ تلكَ الأمم لم تفقه عن الله سنته، فضلُّوا وهَلَكُوا، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يفتح على المؤمنين الصالحين بركات السماء والأرض بإيمانهم وتقواهم.

وتهدَّد المكذبين من أهل القرى أنْ ينزلَ بهم عذابَهُ في ظلمة الليل أو في وضحِ النهارِ، وبيَّن للناس أنَّه أخَذَ المكذبين بذنوبهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأعراف:٩٤-١٠٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سُنَّةُ الله تعالى في الأمم التي أرسلَ إليها رُسُلَهُ:

أخْبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن سُنَّتِهِ التي أَخَذَ بها الأُمم التي أرْسَل إليها رُسُلَه، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

[الأعراف:٩٤-٩٥].

أخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنه ما أرسل في قريةٍ من رسولٍ إلاَّ كذَّبوه، والقريةُ المدينةُ سُمِّيتْ قريةً لاجتماعِ الناسِ فيها، مِنْ قَرَيْتُ الماءَ إذا جَمَعْتَهُ، فإذا كَذَّبتِ الأُمَّةُ رسولَها ابتلاها اللهُ تعالى بالبأساءِ والضراءِ لعلهم يضَّرَعون، والبأساءُ: الفقرُ والجوعُ والجَدْبُ، والضراءُ: الأمراضُ، أي: ابتلاهم سبحانه بذلك ليضَّرَعوا، أي: ليدْعُوا اللهَ ويخْشعوا له، ويبْتَهِلُوا له، فالآلامُ والأوجاعُ والمصائبُ قد تعيدُ العبادَ إلى ربِّهم، فإذا لم يعُودُوا ولم يؤوبوا إلى الله عزَّ وجلَّ بدَّلَ اللهُ تعالى مكانَ السيئةِ الحسنةَ، أي: حوَّل اللهُ تعالى ما أصابهم من المصائبِ والأوجاعِ والأوبئة إلى الرخاءِ والنعيمِ والصحةِ والعافية والغنى. فبعضُ عباده يُصْلِحُه الخيرُ والنعيمُ.

والسيئةُ في الآيةِ: الشدَّةُ والبلاءُ، والحسنةُ: النعمةُ والرخاء.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أيْ: صحَّتْ أبدانهم، وكثرت أموالُهم، وانتشرتْ أَنْعامُهم، وعظمتْ قُوَّتُهم، وعندَ ذلك يقولون غافلين عن حكمةِ ربِّ العالمين: قَد مَسَّ آباءَنا الضراءُ والسراءُ، أي: هذا الذي أصابنا هو حالُ الدهرِ، يومٌ نُصابُ بالضراءِ والشدَّةِ والبلاءِ، ويومٌ نصابُ بالسراءِ والنعمةِ والرخاء، وقد غفل هؤلاء عن ابتلاءِ الله عبادَه بالخير والشرِّ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عما يفعلُه اللهُ -تعالى- بأهل الأرضِ إنْ هم آمنوا واتقوا، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦] وقال في موضع آخر: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] وقال في بني إسرائيل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

وقد أخبرنا تبارك وتعالى بمصير الأمم التي لم تتَّعِظْ بالشدائدِ والنعم، فقد أَخَذَهم اللهُ بغْتَةً وهم لا يشعرون ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦] أي: بكفرهم وشركهم ومعاصيهم.

٢- تهديدُ الله -تعالى- الكفارَ أنْ يُحِلَّ بهم العذابَ الذي أحلَّهُ بالأمم التي عذَّبها من قبلهم:

تهدَّدَ اللهُ -سبحانَه وتعالى- أهلَ القرى التي كذَّبتْ محمداً ﷺ أن يُنْزِلَ بهم العذابَ الذي أنزلَهُ بأهل القرى مِنْ قبلهم، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩]. أنْكَرَ اللهُ على الكفارِ مِنْ أهل القرى أنْ يأتيهم عذابُ الله الذي يسْتأْصِلُهُمْ بياتاً، أي: ليلاً، وهم مُسْتَغْرِقون في نومهم، وقد يأتيهم بأْسُهُ وانتقامُهُ في وقتِ الضحى، أي: عند ارتفاعِ النهار، وهم يلعبونَ، وكلُّ مُشْتَغِلٍ بما لا ينفعه يسمَّى لاعباً، فاللهُ قادرٌ على إهْلاكِهم في الليلِ حالَ نوْمِهِمْ، كما هو قادرٌ على إهلاكِهِمْ في وضحَ النهار حالَ لَهْوِهِمْ ولَعِبِهِمْ.

ثم كرَّرَ ربُّ العزة الإنكارَ عليهم بقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ ومكرُ الله الذي يأْخُذُهُمْ تعالى به هو استدراجُ الله لهم، بإغداقِهِ عليهم الصحة والعافية، وإنعامِهِ عليهم بنعمِهِ الكثيرةِ، حتى يغْفَلوا، ويُغْرقوا في اللهو والتَّرفِ، فعندَ ذلك يأْخُذهم ربّ العزةِ سبحانه في لهوهم وغفلتهم.

وقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أما المؤمنون الذين يعملون الطاعاتِ فإنهم دائماً مشفقونَ خائفون وجِلُون من الذنوبِ التي ارتكبوها واقترفوها، فتراهم يديمون التوبةَ والاستغفارَ، ويؤوبون إلى ربِّ العزةِ سبحانه.

٣- بيَّن اللهُ للأمم التي أرسلَ إليها رُسُلَهُ أنَّه لو يشاءُ لأصابهم بذنوبهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه بيَّنَ للذين ورِثُوا الأرضَ من بعدِ الذين هلكوا أو ماتوا أنَّه لو يشاءُ أصابَهُم بذنوبهم، وطبعَ على قلوبهم، فهم لا يسمعون ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف:١٠٠].

وتأتي ﴿يَهْدِ﴾ في كتابِ الله على أحدِ معنيين، الأولُ: بمعنى نُبيِّنُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، أي: بيَّنَّا لهم، فاختارُوا العمى على الهدى، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣]، أي: بيَّنَّا الطريقَ الذي يَسْلكه، فيكونُ شاكراً أو كفوراً، ومنه الآية التي في هذا النصِّ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾، أي: أولم يُبيِّن اللهُ للأممِ الذين أورثَهم الأرضَ بعد أنْ أهْلكَ أهْلَها الغابرينَ الذين كذَّبوا رُسُلَه، واستخلفهم في الأرضِ، وهو سبحانه قادرٌ على أنْ يصبهم ويهلكهم كما أصاب وأهلك مَنْ قبلهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [المرسلات:١٦-١٨].

ويُطلَقُ الإرثُ عند العرب: على انتقالِ الشيءِ من ميتٍ إلى حيٍّ، وقوله تعالى: ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ أي: يخْلُفُونَ أهْلَها الذينَ هلكوا، ويسكنونَ الأرضَ بعدهم، فاللهُ يهلكُ أقواماً ويبيدُهم، ويُسْكنُ الأرض من بعدهم قوماً آخرين.

وقوله: ﴿لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لو نشاءُ أهلكناهم بسببِ ذنوبهم، والذنوبُ الكفرُ والمعاصي التي ارتكبوها.

وقوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ والطَّبْعُ على القلوبِ يكون بالخَتْمِ عليها حتى لا يَصِلَ إليها شيءٌ، ولا يخرجُ منها شيءٌ، كالظرف أو القارورةِ إذا ختمتْ لم يدخلْ ولم يخرجْ منها شيءٌ.

والسماعُ في القرآنِ وفي اللغة نوعان: الأول: ما سمعه الإنسانُ، وسمعته أذناه فوعاه قلْبُه، والثاني: سماعُ القَبُولِ والاستجابةِ ومنه قولنا في الصلاةِ: «سمع اللهُ لمن حمده» أي: لمن أطاعه واستجابَ له. وقولُهُ في الآية: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ سماعُ القبولِ والاستجابة، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود:٢٠] وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ [الكهف:١٠١] وعدمُ قدرتِهمْ على السمعِ لا يأتي إلا بسببِ ذنبٍ من ذنوبهم، قالَ تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:١٥٥]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

٤- قصَّ اللهُ -تعالى- أخبارَ الأُممِ الماضية:

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ [الأعراف:١٠١] المشارُ إليه بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ ما قصَّهُ اللهُ تعالى علينا فيما سَبَق، فقد قصَّ علينا خبرَ قومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ، والمرادُ بقولِهِ: ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أي: مِنْ أخبارها، وهذا القصصُ الذي قصَّهُ اللهُ تعالى علينا من أنباءِ القرى، يُدَلُّ على كمالِ قدرةِ الله، كما يدلُّ على مدى صَبْرِ رُسلِهِ وأنبيائِه، ويدلُّ على عَدْلِ الله وإنصافِهِ وشدَّةِ بَطْشِهِ، وإهلاكِهِ الظالمين، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف:١٠١] أي: جاءَتهم بالحججِ البيناتِ التي تدلُّ على صِدْقهم في أنَّهم مبعوثون مِنْ عندِ الله.

وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف:١٠١] فما كانوا ليؤمنوا بما جاءَتهم به الرسلُ بسببِ تكذيبهم بالحقِّ أوَّلَ ما وَرَدَ عليهم، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١٠٩-١١٠].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف:١٠١] أي: مثلما طَبَعَ اللهُ تعالى على قلوبِ الأمم الذين كذَّبوا رُسُلَهُمْ يطْبَعُ اللهُ على قلوبِ الكافرين طبعاً مانعاً لهم مِنَ الإيمانِ، لتكذيبهم السابقِ ومبادرتهم إلى الكفر والعياذ بالله.

وقولُهُ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف:١٠٢] أي: وما علمنا لأكثر الأمم السابقةِ من عهدٍ، والعهدُ ما يجبُ المحافظةُ عليه والوفاء به، ومن العهود التكاليف التي كلفنا الله تعالى بها، وهذا يدلُّ أنَّ عدداً قليلاً منهم لَهُ عهد، لأنه أخبر أنَّ أكثرهم لا عهد له.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف:١٠٢] والفسق في لغةِ العربِ: الخروجُ عن الشيءِ، تقول: فَسَقَ عن الطريقِ، أي: خرجَ عنه، وفي الشرعِ: الخروجُ عن طاعةِ الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠] أي: خرجَ عن طاعةِ الله، أي: بالكفرِ أو بالذنوبِ التي ليست كفراً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النصِّ وَجدْناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- سنَّةُ الله تعالى في الأُمَمِ التي كَذَّبَتْ رسلَها أنْ يأْخُذَ أهلَها بالبأساءِ والضراءِ لعلهم ينيبون إلى الله، ويرجعون إليه، فإنْ لم يفعلوا فتحَ عليهم أبوابَ نِعَمِهِ، فإنْ لم يؤوبوا إلى الله أخَذَهُم اللهُ تعالى فجأةً بالعذابِ.

٢- الكفارُ لم يفقهوا عن الله تعالى سنَّتَهُ التي أخذ بها خَلْقَهُ، وظنّوا أنَّ إصابتَهم بالبلاءِ والرخاءِ هو حالٌ يأخذُ الناسَ مِنْ غيرِ حكمةٍ وتقديرٍ.

٣- إذا آمنَ الناسُ، والتزموا شَرْعَ الله تعالى أنْزَلَ عليهم الماءَ مِنَ السماء، وأنبتَ بركاتِ الأرضِ، فإذا كفروا وكذَّبوا أخذَهم ربُّ العِزَّةِ بذنوبهم.

٤- تهَدَّدَ اللهُ تعالى الكفرةَ المكذبين أنْ يُنْزِلَ بهم عذابَه، فقد ينزلُه بهم في ظلمةِ الليلِ وهم يَغُطُّونَ في نومهم، وقد ينزلُهُ بهم في وقتِ الضحى، وهم يلعبون، وتهدّدهم فقال موبخاً لهم: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

٥- بيَّن اللهُ تعالى لعبادِهِ الذين وَرِثُوا الأرضَ بعد الأُمَمِ التي خَلَتْ مِنْ قبلهم أنّه لو شاءَ أهلكهم بذنوبهم، وخَتَمَ على قلوبهم، فلا يسمعون.

٦- قصَّ علينا ربُّ العزةِ فيما مَضَى مِنَ السورةِ طرفاً مِنْ أخبارِ الأمم التي كذَّبَتْ رسلها، وأخبرنا أنَّ الرسلَ جاءَت أممها بالأدلة البيِّنةِ، فكفروا وكذبوا.

٧- أخبرنا ربُّنا عَزَّ وجلَّ أنَّه لم يَجِدْ لأكثرِ المرسل إليهم مِنْ عهد، بلْ أكثرُهُمْ كافرون ضالون فاسقون.

النص القرآني الخامس عشر من سورة الأعراف
طرف من قصة نبيِّ الله موسى عليه السلام

أولاً: تقديم

قصَّ اللهُ تعالى علينا طرفاً من قصةِ كليمِهِ موسى عليه السلام، وقدْ أطالَ اللهُ في عَرْض هذه القصة، فذكر منها حلقاتٍ كثيرةً، وهذه الحلقاتُ تتناول مسارين اثنين، الأولُ منهما: يتعلَّقُ بموسى وفرعون، وكيف بَلَّغَ موسى فرعونَ رسالة ربِّه، وما جرى له من وقائع حتى هلاكِ فرعونَ وجندِه.

والثاني منهما أوْرد فيه ربنا ما جرى لموسى مع قومِهِ بعد إنجائِهم مِنْ فرعونَ عبر البحر الذي شَقَّه لهم، وفي كلِّ واحدٍ مِنَ المسارين عدةُ حلقاتٍ.

وقد استغرقَ هذا القصصُ تسعةَ نصوصٍ، وقد بلغ مجموعُ آياتِ هذا القصص في النصوصِ كلِّها ثمانٍ وستين آية.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٣-١١٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إرسالُ الله تعالى موسى إلى فرعونَ وملئه:

أخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآيةِ الأولى مِنْ هذا النصِّ بقصةِ موسى عليه السلام مع فرعونَ على وجْهِ الإجمالِ، فقال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٣] أخبرنا ربُّنا -عز وجلَّ- أنه أرْسَلَ عبدَهُ ورسولَهُ موسى عليه السلام مِنْ بعد الرسلِ الذين حدَّثنا عنهم في هذه السورة، وهم نوحٌ،

وهودٌ، وصالحٌ، ولوطٌ، وشعيبٌ، أرسلَه إلى طاغيةِ مصر، وهو فرعون وملؤه، وفرعونُ اسمٌ لكلِّ حاكمٍ حكم مصر في عصر موسى، وملؤُه: أشرافُ قومِهِ مِنَ الزعماءِ والرؤساءِ، أرسلَهُ تعالى مصحوباً بالآياتِ البينات المعجزاتِ الدّالاتِ على صدقِ موسى ﷺ، ومنها العصا التي تتحوَّلُ إذا ألقاها إلى ثعبانٍ مبينٍ، واليدُ التي إذا أخرجها من جيبه صارتْ بيضاءَ للناظرين، والجرادُ والقمَّلُ والضفادعُ والدم، فظلموا بها، أي: كفروا بها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة:٢٥٤].

والظلمُ في لغةِ العربِ: وَضْعُ الشيءِ في غير موضعه، وحقُّ الآياتِ أن يؤمنوا بها، فكفروا بها، ووضعوا بذلك الشيءَ في غير مَوْضعه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: انظر إلى ما حلّ بهم مِنَ الفسادِ والدمارِ والخسارِ، فقد أغرق اللهُ فرعونَ وملأه بمرْأى من موسى وقومِهِ.

٢- موسى ﷺ يُبلِّغُ فرعونَ رسالةَ ربِّه:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ موسى جاءَ طاغيةَ مصرَ فرعونَ، وبلّغه رسالةَ ربه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف:١٠٤-١٠٥]. جاءَ موسى فرعونَ في قصْرِهِ ومقرِّ حكمه، وناداه بلقبه، وأخبره بأنه رسولٌ من ربِّ العالمين، أي: مِنَ عند الله، خالقِ الوجودِ، وقوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: جديرٌ وخليقٌ بأنْ لا أقول على الله إلا الحقَّ. وأصلُ ﴿حَقِيقٌ﴾ في لغة العرب تدلُّ على الثبوت وعدم الاضمحلال، أي: رسالتي ليس فيها شكٌّ، وأنا رسولٌ من عندِ الله حقّاً وصدقاً، و﴿ٱلْحَقَّ﴾ هو الثابتُ الذي ليس بزائل، ولا مُضْمَحِلٍّ، وعكسُهُ الباطلُ.

وأخبر موسى ﷺ فرعون أنه جاءَه وملأه بآيةٍ بيِّنَةٍ، أي: معجزةٍ مِنْ عند الله تدلُّ على صِدْقِهِ فيما جاءَه به، وطالبه أنْ يطلق معه بني إسرائيل، وكان فرعونُ وملؤه قد أذلُّوا بني إسرائيل، وألزموهم بالشاقِّ مِنَ الأعمال ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف:١٠٥].

٣- فرعون يطلبُ من موسى أنْ يريه الآياتِ، وموسى يعرضُها عليهم:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ موسى بعد أنْ أخبر فِرْعونَ وملأه أنه جاءَه بالآياتِ التي تدلُّ على صدقِهِ، طلبَ منه فِرعونُ أن يريه الآياتِ التي أُرْسِلَ بها ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ

﴿فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأعراف:١٠٦] يعني إنْ كنتَ صادقاً فيما أخبرتنا به أنك جئتَ بمعجزةٍ تدلُّ على صدقِك فهاتِ هذه الآية.

فسارعَ موسى ﷺ بإراءتِه وملئه آيتين عظيمتين ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف:١٠٧-١٠٨] ألْقى موسى ﷺ عصاه الجامدة المخلوقة من خشبٍ أصمّ، فإذا بها تتحولُ إلى ثعبانٍ مبينٍ، والثعبانُ المبين: الحيَّة الضَّخْمَةُ الذكر، وهو أعظم الحياتِ، و﴿مُّبِينٌ﴾ أي: البيِّنُ الظاهرُ الذي لا يخفى أنَّه ثعبان.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: أدخل يده في جيبه، ثم أخرجها، فإذا هي بيضاءُ تتلألأ.

٤- الملأ من قوم فرعونَ يطلبون من فرعون أنْ يأتي بالسحرةِ لمواجهةِ موسى:

لما رأى الملأُ مِنْ قومِ فرعونَ الآياتِ العظيمةَ التي جاءَهم بها موسى تباحثوا فيما بينهم، فقال فريقٌ منهم: هذا -يعنون به موسى- ساحرٌ عليم، يريدُ أن يُخْرِجَكُم من أرضكم بسحرِهِ، وهم غيرُ صادقين فيما قالوه، فموسى ﷺ يريد إخراجَ بني إسرائيلَ معه إلى الأرضِ المقدسة، وقولهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي: كيفَ يحسنُ بنا التصرفُ مع هذا الرجل الذي يطلب منا أنْ نطلقَ معه بني إسرائيل ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠].

وطلبَ فريقٌ من الملأ من فرعونَ أن يُرْجِئَ موسى وأخاه، ويرسل في المدائن حاشرين، يأتوه بكلِّ ساحرٍ عليم ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف:١١١-١١٢].

ومعنى أرْجِهْ: أي: أمْهِلْهُ وأخاه، وأنظرهما، وابعثْ إلى المدائن التي تحت حكمك يأتوكَ بكلِّ ساحرٍ عليم.

لقد ظنَّ الملأ أنَّ هذا الذي جاءَ به موسى ﷺ هو من نوع السحر الذي كان منتشراً في ديارهم، فأرادوا أن يبطلوا ما جاءَ به موسى ﷺ بمواجهة السحرةِ له، وإتيانهم بمثل ما جاءَهم به.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - أرسلَ اللهُ تعالى موسى بعد رسله: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب.

٢- أرسلَ اللهُ تعالى موسى وأخاه هارون إلى فرعونَ وملئه، طالبين منه أن يطلقَ معهم بني إسرائيل.

٣- جاء موسى فرعونَ وملأَه بالآياتِ البيناتِ الدالاتِ على صدقِهِ وصدقِ أخيه، فأراهم العصا التي تتحوَّلُ إلى ثعبانٍ عظيمٍ، واليد التي تخرجُ بيضاءَ للناظرين.

٤- كذَّبَ فرعونُ وملؤُه بالآياتِ التي جاءَ بها موسى، وطلبوا من فرعونَ أنْ يحشر من مدائنه السحرةَ الكبارَ لمواجهةِ موسى وإبطالِ ما جاءَ بِهِ.

٥- ظنَّ الملأُ من قوم فرعون أنَّ ما جاء به موسى هو من جنس السحر الذي كان منتشراً في زمانهم.

النص القرآني السادس عشر من سورة الأعراف
المواجهة بين موسى عليه السلام والسحرة

أولاً: تقديم

جمع فرعونُ السَّحَرَةَ، ووقعت المواجهةُ بينهم وبين موسى، فابتلعتْ عصاهُ حبالَهُمْ وعصيَّهم، فغُلِبُوا وآمنوا، فتهدَّدَهُمْ فرعونُ وتوعَّدَهم، فاعتصموا بإيمانهم، ولم يبالوا بما تهدَّدَهم به.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:١١٣-١٢٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى عليه السلام يغلب السحرة في الميدان:

طلبَ الملأُ من قوم فرعونَ أن يرسلَ إلى المدنِ الخاضعةِ لحكمه، فيجمع منها السحرةَ، وفعل فرعونُ ما أشاروا به ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأعراف:١١٣-١١٤].

جاءَ السحرةُ فرعونَ فرحين جَذلين مسرورين، وقد علموا مدى حاجةِ فرعونَ إليهم، فقالوا له: إنَّ لنا لأجراً -والأجرُ الهدايا والأموال والهبات- إذا نحنُ غلبنا موسى وأبطلنا ما جاءَ به من السحر؟ قال: نعم، لكم ذلك كلُّه، ولكم فوقَه القربى مِنِّي، فتصبحوا عندي أعزَّاءَ وجهاءَ.

هذا غايةُ ما يطمعُ فيه السحرةُ: المالُ والجاهُ، بخلافِ موسى فإنه صاحبُ رسالةٍ، يريدُ أنْ يَعْبُدَ العبادُ ربَّهم الواحدَ الأحدَ.

وجاء موسى والسحرةُ إلى الميدانِ، وجُمِعَ الناسُ في يوم الزينة، ووقف موسى والسحرةُ في الساحةِ، وخيَّرَ السحرةُ موسى بين أنْ يلقيَ عصاهُ أولاً أو يُلْقُوا هم عصيَّهم، ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأعراف:١١٥].

واختار موسى أن يكونَ السحرةُ هم الذين يبدَؤُون بإلقاءِ عصيِّهم ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ﴾ [الأعراف:١١٦].

فلما ألقَوْا عصيَّهم سَحَرُوا أعينَ الناس، أي: خدعوها بما جاؤوا به، فخُيِّلَ للناس أنَّ تلك الحبالَ والعصيَّ حياتٌ حقيقةٌ، واسترهبوا الناسَ، أي: أخافوهم وأفْزَعوهم، وجاؤوا بسحرٍ عظيم ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف:١١٦].

عند ذلك أوْحَى ربُّ العزة إلى موسى أنْ يلقيَ عصاه، فإذا هي تتحولُ إلى ثعبانٍ مبينٍ حقيقةً لا تخيُّلاً، وإذا هي تتقدم إلى تلكَ الحبال والعصي التي تملأ الميدان، فتأخذ بابتلاعها واحدةً بعد الأخرى حتى أتت عليها كلِّها، فلم يبقَ منها في الميدان شيءٌ، وبقيتْ فيه وحدها ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الأعراف:١١٧].

وهناك ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:١١٨-١٢٢].

لقد ظهر الحقُّ في الميدان، وكان في الميدانِ فرعونُ وملؤُه، وأهلُ المدينة جميعُهُمْ، وقد شاهدوا جميعُهُمْ أنَّ فرعونَ قد غُلِبَ، وأنَّ سحَرتَهُ قد غُلِبوا، وبطلَ كلُّ السحرِ الذي عملوه، وقضتْ عصا موسى عليه، فلم يبقَ منه شيء، وبقيت أفعى موسى وحدها في الميدان، لتشهد للملك الواحدِ الديانِ.

وهزَّت المفاجأةُ السحرةَ، فهذا الذي فعلته عصا موسى، ليس سِحْراً، ولا يمكن أنْ يوصَفَ بالسحرِ، هذه العصا آيةٌ من عندِ الله غالبةٌ قاهرةٌ، ولذلك فقد هزَّت الواقعةُ السحرةَ في أعماقهم، وزلزلتْ كيانهم، لقد غُلِبُوا، وأصبحوا صاغرين أذلاء مقهورين، وزال السّحرُ من أنفسهم، واستنارتْ قلوبُهُمْ بالإيمان، وخضعت للواحدِ الدَّيان، وخَرُّوا ساجدين لله ربِّ العالمين ربِّ موسى وهارون.

وهزَّ سجودُ السحرةِ فرعونَ، فالسحرةُ أعظمُ الناسِ علماً بما جرى، فالناسُ في الميدانِ رأوا الواقعةَ، وزادَ يقينُ الناسِ، عند رؤيتهم السحرةَ وهم أعلمُ الناسِ بالسِّحْرِ يسجدون، ويقرُّون بأنهم غُلِبوا، وصرَّحُوا بإيمانهم، فخشيَ فرعونُ أن يَفْلِتَ الأمرُ مِنْ يديه، وخشيَ أن يؤمن الناسُ، والباطلُ لا يعدم جواباً يُغشِّي به دعواه، ويلبسَ على الناسِ أمْرَهم.

لقد توجَّهَ فرعونُ إلى السحرة المؤمنين الذين سَجَدُوا لله ربِّ العالمين، وأعلنوا أمامَ الملأ إيمانَهُمْ، فتهدَّدَهُم وتوعدهم، واتهمهم بما هم منه بُرآء، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٣-١٢٤].

قال فرعونُ للسحرة ليرهِّبَهم ويرهِّب من يخشى إيمانَهُمْ مِنَ الناس: آمنتم بموسى قبل أن آذن لكم، ففرعونُ يجعلُ مِنْ نفسِهِ حاكماً لا يسمحُ لواحدٍ بالإيمانِ بالله ربِّ العالمين إلا إذا أذِنَ له هو أوَّلاً، وهذا طغيانٌ ليس فوقه طغيانٌ، فالله خلقَ العباد لعبادته وحْدَهُ لا شريكَ له، وليس مِنْ حقِّ أحدٍ أن يمنعَ أحداً من الإيمانِ به، ومن فَعَلَ ذلك فاللهُ حسيبُهُ، وسيأخذُه أخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

واتهم فرعونُ السحرةَ أنَّ إيمانهم هذا كان عن تواطؤ بينهم وبين موسى، فزعم كاذباً أنهم اتفقوا على مواجهةِ موسى، ثم أظهروا أنهم مغلوبون، وأعلنوا إيمانهم، ليقنعوا أهل المدينة بالخروجِ منها مع موسى ﷺ، وفرعونُ يعلمُ أنَّ ذلك كلَّه كذبٌ وافتراءٌ، فالسحرةُ جَمَعَهُمْ فرعونُ من مدنٍ كثيرةٍ متفرقةٍ، ولم يكن لهم صلةٌ بموسى وأخيه، ولم يلتقوا به إلا في الميدان، وعندما جاؤوا فرعونَ قالوا له: أَإنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين، فوعدهم مع الأجر بالقربى والزلفى منه.

وتهدَّدَ فرعونُ السحرةَ المؤمنين بأنْ يُقطِّع أيديَهم وأرجلَهم مِنْ خلافٍ، ثم يُصَلِّبهم على جذوعِ النخل، وتقطيع الأيدي والأرجل مِنْ خلافٍ يكون بقطعِ اليد اليمنى والرجلِ اليسرى، أو قطع اليد اليسرى والرجل اليمنى.

ولم يأبه السحرةُ الذين حَلَّ الإيمانُ في قلوبهم إلى تهديدِ فرعونَ ووعيدِهِ، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١٢٥-١٢٦].

قالوا لفرعونَ بعد أن تهدَّدَهم: إنَّا لا نعبأ بما تريد أن تأخذنا به، فنحنُ إلى ربِّنا منقلبون، أي: إنَّا راجعون إلى الله تعالى، وسيحاسبنا ويحاسبك على ما قدمنا، ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ ﴾ أي: هذا

الذي تريد فعله بنا هو بسبب إيماننا بآياتِ ربنا التي جاءَتنا، أي: وما تعيبُ علينا شيئاً ولا تكره منا شيئاً فعلناه ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، ودعَوا الله تبارك وتعالى أن يفرغ عليهم الصبر، أي: دَعَوْه أن يصبَّ عليهم الصبرَ صَبّاً، فيثبتهم على إيمانهم، وسألوه أنْ يتوفاهم مسلمين مؤمنين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- حَشَرَ فرعونُ السحرةَ لمواجهةِ موسى وإبطالِ ما جاءَ به من عندِ الله تعالى.

٢- كان السحرةُ يطلبون على ما يريدون القيامَ به الأجرَ مِنَ المالِ والجوائزِ والهدايا، ووعدهم فرعونُ بذلك، وبأن يُرَقِّيهم إليه.

٣- خيَّرَ السحرةُ موسى في الميدانِ بَيْنَ أن يُلْقُوا هم أولاً، أو يكونَ هو البادئُ بالإلقاءِ، فأمرهم أنْ يكونوا هم البادئين.

٤- جاءَ السحرةُ بسحرٍ عظيمٍ، فقد خُيِّلَ للناسِ أنَّ ما جاؤوا به مِنَ العصيِّ والحبالِ كان حياتٍ حقيقةً.

٥- أمَرَ اللهُ تعالى موسى أن يلْقي عصاهُ، فابتلعت حبال السحرةِ وعِصِيَّهم، فزالتْ مِنَ الميدانِ، وبقيت فيه وحدها.

٦- أبطَلَ اللهُ بعصا موسى سِحْرَ السحرةِ، وغُلِبَ فرعونُ وسحرتُه، وآمن السحرةُ، وخَرُّوا ساجدين لربِّ العالمين.

٧- تَهدَّدَ فرعونُ السحرة، واتهمهم بأنَّ ما فعلوه في الميدانِ كان عن تخطيطٍ وتدبيرٍ سابقٍ بينهم وبين موسى، وتهدَّدَهم بأن يقطِّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم في جُذوعِ النخل.

٨- لم يأْبه السحرةُ لما تهددَّهم فرعونُ به، فقد أعطاهم اللهُ اليقين الذي ملأ قلوبهم إيماناً، وأعلنوا أنَّهم راجعون إلى الله، ودَعَوْا رَبَّهم أن يصبِّرهم على ما تهدَّدهم فرعونُ به، ويتوفاهم مسلمين.

٩- إذا آمن الساحرُ وتابَ وأنابَ قُبِلَتْ توبتُه، كما آمن سحرةُ فرعونَ.

النص القرآني السابع عشر من سورة الأعراف
ما وقع بين موسى وقومه وبين فرعون وملئه بعد مواجهة موسى للسحرة

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النص تُحدِّثنا عما جرى بين موسى وقومِه وفرعونَ وملئه منذ أنِ انتهت المواجهةُ بين موسى والسحرةِ وإلى أن أنْجى اللهُ -عزَّ وجلَّ- بني إسرائيل، وأغرق فرعونَ وجنده في البحر.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

[الأعراف:١٢٧-١٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- الزعماءُ والرؤساءُ من قوم فرعونَ يلومونه على ترك موسى يُفْسد في الأرض:

أَخْبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الملأَ منْ قومِ فرعونَ وجَّهوا اللومَ لفرعون، وقالوا له: أتترك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، ويتركوا عبادتك وعبادة آلهتك، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ ﴾ [الأعراف:١٢٧].

وهذا الذي قاله الملأُ مِنْ قوم فرعون مِنْ أعجبِ العجبِ، فقد زعمَ الملأُ أنَّ تركَ فرعونَ لموسى وقومِهِ وعدمَ بطشِهِ بهم هو إفساد في الأرضِ، وعَدَّ من إفسادِ موسى ترك عبادته وعبادة آلهته.

والعجبُ الذي في كلامِهِمْ أنَّهم عَدُّوا تَرْكَ النبيِّ الصالحِ والمؤمنين معه عبادة فرعون وآلهته، وهم الصالحون الأتقياء هو مِنَ الفساد في الأرضِ، ومرادُ الملأ مِنْ وراءِ كلامهم هذا إغراء فرعونَ بقتلهم والبطش بهم.

وشبيه بكلام قوم فرعون ما يزعمه الكفرةُ الفجرةُ اليومَ منْ أنَّ العملَ بكتابِ الله وسنَّةِ رسولِ الله ﷺ إفسادٌ في الأرض.

وقد استجاب فرعونُ لما أغراه به الملأ من قومه، فـ ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف:١٢٧].

أيْ: سنعودُ إلى ما كنَّا نفعله ببني إسرائيل، فقد كان فرعون قبلَ مولدِ موسى وعند ولادته، يُذَبِّحُ الذكورَ مِنْ أبناءِ إسرائيل، ويستحيي النساءَ، فأخبر أنَّه سيعودُ مرةً أخرى لفعل ذلك بهم، ليُضْعِفهم، ويهينهُم، ويُذِلّهم.

٢- موقفُ موسى ﷺ مما أصابَ بِهِ فرعونُ قومَهُ:

فلما رأى موسى ﷺ ما يفعلُه فرعونُ بقومِهِ أمَرَهم بالاستعانةِ بالله والصبرِ على بلائِهِ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨].

أي: اطْلُبُوا العونَ مِنَ اللهَ على هذا الجبَّارِ الكافرِ، وترَقَّبُوا ما عِنْدَ الله مِنَ الفرجِ، وأمرهم أنْ يصبروا على البلاءِ العظيمِ الذي أنزلَه فرعونُ بهم، وأخبرهم أنَّ الأرض لله في مصرَ وغيرِها، يجعَلُها -تبارك وتعالى- في آخرِ الأمرِ لمن يشاءُ مِنْ عبادِه، والعاقبةُ للمتقين، والعاقبةُ ما يؤولُ إليه الحالُ، وهي العاقبةُ الحسنةُ، والمتقون هم الذين يخافون اللهَ، ويمتثلون أمره، ويجتنبون نهيه.

فـ ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ [الأعراف:١٢٩]. شكى لَهُ قوْمُهُ ما أصابَهُمْ قبل أنْ يكون فيهم، ومن بعد ما جاءَهم، فقد كان فرعونُ يذبِّح أبناءَهم ويستحيي نساءَهم، وعادَ إلى ذلك مرَّة أُخرى، وأخذهم فرعونُ بالأعمالِ الشاقةِ، فكانوا يُشَيِّدون البنيانَ، ويزرعون الحقول، ويرْعَوْنَ الدوابَّ، فـ ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:١٢٩].

قال لهم: عسى ربّكم -تبارك وتعالى- أنْ يدمِّر عَدُوَّكم ويهلكه، يريد فرعونَ وقومَهَ، ويستخلفكم في الأرضِ، أي: يورثكم إيَّاها، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: يبتليكم لينظر كيف تعملون، أي: هل تستقيمون على أمرِ الله أم تنحرفون.

وهذا يدلُّ على أنَّ الحياةَ الدنيا موضعُ اختبارٍ وابتلاءٍ، هل يطيع العبادُ ربَّهم أم ينحرفون؟!!

٣- **امتحانُ ربِّ العبادِ فرعونَ وقومَه بألوانِ العذابِ:**

أقْسَمَ ربُّ العزةِ أنَّه أخَذَ فرعونَ وقومَهُ بألوانِ العذاب، لعلَّهمْ يؤوبون إلى الله، ويتضرَّعون لَهُ، وينيبون إليه سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف:١٣٠].

والسِّنونَ التي أخَذَ اللهُ فرعونَ وقومَه بها: الجدبُ والقحطُ، وقلةُ الأمطارِ، والمرادُ بنقصِ الثمراتِ قلةُ الزروعِ والثمارِ، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي: يتعظون.

وأخبر اللهُ -تبارك وتعالى- أنهم ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف:١٣١].

أخبرنا ربُّنا العليُّ الأعلى سبحانه أنَّ فرعونَ وقومَه إذا جاءَتهم الحسنةُ، وهي الخصبُ وكثرةُ المطرِ وكثرةُ الأرزاقِ والعافية، ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي: أُعْطيناها لما لنا عند الله من الكرامةِ والفضلِ.

وإذا أصابَتْهم السيئةُ، وهي الجَدْبُ، وقِلَّةُ الأرزاقِ، وكثرةُ الأمراضِ تطيروا بموسى ومن معه، أي: تشاءَموا بهم، ويقولون لهم: هذه الآفاتُ والمصائبُ التي نزلت بنا بسبب شُؤْمِكُم، وقد قالَ الكفارُ لرسولِنا ﷺ مثلَ ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء:٧٨]. وقال قوم صالحٍ له وللمؤمنين معه: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل:٤٧].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ معنى طائركم: أي الطائرُ المشؤومُ الذي جاءَتكم البلايا من عند رَبِّكم بسببه هو كفركم بالله ومعصيتكم له وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ أي: لا يعلمون أنَّ طائرهم بسبب كفرهم، فيكذبون على الله، ويتقولون على موسى ومن معه أن ما أصابهم بسبب شؤمهم.

وقالَ قومُ فرعون لموسى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف:١٣٢]، أيّ شيءٍ تأتينا به كائناً ما كان من آية ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ أي: لتصرفنا بها عن ديننا ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: لا نؤمن لك بوجهٍ مِنَ الوجوه، ولا حالٍ من الأحوال.

٤- إرسال الله تعالى على فرعون وقومِهِ الطوفانَ والجرادَ والقمَّلَ والضفادعَ والدم:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّه عندما تمرَّد قومُ فرعونَ هذا التمردَ العظيمَ، وعاندوا هذا العنادَ الكبير عاقبهم ربُّ العزَّة بعقوباتٍ شديدةٍ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٣].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أرسلَ عليهم آياتٍ متتابعاتٍ، كلما وعدوا موسى بالاستجابة إلى طلبه، وتحقيق ما جاءَ به، رُفِعَ عنهم العذاب، فإذا نكصوا وعادوا إلى ما كانوا عليه أرسل اللهُ عليهم آيةً أُخرى.

أرسلَ اللهُ عليهم أولاً الطوفانَ، والطوفانُ ما تُحْدثُهُ الأمطارُ الغزيرةُ حتى أغرقتْ ديارهم وبلادهم، وعطَّلت حرْثَهم وزرعهم، فلما وعدوا موسى بتلبية طلبه رُفع عنهم، فلما نكصوا أرسلَ اللهُ عليهم الجراد، فأكل زروعَهُم وأشجارَهُمْ، وخرَّبَ بساتينهم وحدائقهم، فلما وعدوا موسى بالاستجابة له دعا لهم، فرفع عنهم، وهكذا كان الحال عندما أنزلَ اللهُ بهم القُمَّلَ والضفادعَ والدم، والقمَّلُ حشرة معروفة مؤذية، والضفادعُ حيوانٌ معروفٌ أيضاً، سلَّطَهُ اللهُ عليهم، فدخل عليهم بيوتهم، وملأ ساحاتِهم ومزارعَهُمْ، والدمُ هو الدم المعروف، كان كلما أرادوا أن يشربوا الماءَ يتحولُ إلى دمٍ أحمر قانٍ عَبيط.

وكان قوم فرعونَ إذا حلَّتْ بهم آيةٌ من آيات العذاب، واشتدَّ العذابُ عليهم يطلبون من موسى أنْ يدعو ربَّه بما عهد عنده، لئن كشف عنهم العذاب ليؤمنن له وليرسلنَّ معه بني إسرائيل، ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف:١٣٤].

فلما كان آخِرَ أمرهم النكوثُ، وعدمُ الوفاءِ بما وعدوا به، غضب موسى عليهم غضباً شديداً، ودعا عليهم دعاءً عظيماً، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨] وقد أجابَ اللهُ دعاءَه ودعاءَ أخيه ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:٨٩].

وقال ربُّ العزة في هذه السورة: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٥] والرجز هو العذاب، والأجل الذي هم بالغوْه: الموعد الذي حدَّدَه ربُّ العزة لإيقاع العذاب بهم.

٥- **إهلاكُ ربِّ العزة فرعونَ وقومه:**

أخبرنا ربُّنا العلاَّمُ الحكيم أنه انتقم من فرعونَ وقومِه، فاجتاز موسى عليه السلام ببني إسرائيلَ البحرَ، وأنجاهم أجمعين ودخلَ فرعونُ وجندُه خلفَ بني إسرائيل، فانطبق عليهم البحر، فأغرقهم أجمعين بسبب تكذيبهم بآياتِ الله عزَّ وجلَّ، وغفلتهم عما جاءَهم من عند الله ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- حرَّضَ السادةُ والزعماءُ من قوم فرعونَ فرعونَ على البطشِ بموسى وقومِهِ زاعمين أنَّ تركهم من غير عقابٍ يؤدِّي إلى إفسادِهم في الأرض، ويؤدي إلى ترك عبادته وعبادة آلهته.

٢- عادَ فرعونُ مرةً أخرى إلى قتلِ أبناءِ بني إسرائيلَ واستحياءِ نسائهم لقهرهم وإذلالهم.

٣- موسى يطلبُ من قومِهِ أنْ يستعينوا بالله، ويصبروا على ما أصابهم، ويخبرهم أن الأرض لله يورثها من يشاءُ من عباده، والعاقبةُ الحسنةُ للمتقين.

٤- اشتكى قوم موسى إليه ما أصابَهُمْ وحلَّ بهم قبل مجيئه، وبعد مجيئه، فأخبرهم أنَّ اللهَ سيهلكُ عدوَّهم، وينظرُ كيفَ يعملون.

٥- أخذ اللهُ تعالى فرعونَ وقومَهُ بالمحْلِ والجدْبِ ونقصٍ من الثمراتِ لعلهم يرجعون إلى الله تعالى.

٦- كان آل فرعونَ إذا جاءَتهم الخيراتُ ادَّعَوْا أنهم يستحقِّونَها، وإذا جاءَتهم السيئاتُ والمصائبُ نسبوا ذلك إلى موسى ومن معه من المؤمنين به، والصوابُ أنَّ ذلك كان يقع لهم بسبب كفرهم.

٧- قال فرعونُ وملؤُه لموسى: مهما جئتنا بآية لتقنعنا بمتابعتك، فلن نؤمن لك.

٨- أرسل اللهُ على فرعونَ وقومِهِ آياتٍ من العذاب، فمن ذلك: الطوفانُ والجرادُ والقمَّلُ والضفادعُ والدمُ، فاستكبروا، ولم يؤمنوا، وكانوا مجرمين.

٩- كان فرعونُ وقومهُ كلَّما أنزل اللهُ تعالى بهم آيةً من آياتِ عقابِهِ يَعِدُونَ موسى بالإيمان بالله، وإرسالِ بني إسرائيلَ معه، ولكنهم كانوا ينكثون بعد رفع العذاب عنهم.

١٠- عندما تكرَّرَ من فرعونَ وقومِهِ نكثُهم لوعودهم، واستمروا على كفرهم، أغرقهم ربُّ العزةِ وأهلكهم ودمَّرهم.

النص القرآني الثامن عشر من سورة الأعراف
إتمام الله تعالى كلمته على بني إسرائيل

أولاً: تقديم

أعلمنا ربنا -عزَّ وجلَّ- أنه أورثَ بني إسرائيلَ الأرضَ المقدسةَ التي باركَ اللهُ تعالى فيها، وأتمَّ عليهم كلمته الحسنى بصبرهم، ودمَّر قصورَ فرعونَ وقصورَ قومِهِ ومصانعهم، وأخبرنا ربُّنا أنَّ طائفةً من بني إسرائيلَ الذين كانوا مع موسى طلبوا منه أن يجعلَ لهم أصناماً آلهة، ليكون حالُهُمْ حالَ القومِ الذين مرُّوا بهم فرأوهم عاكفين على أصنامِهِمْ، فردَعَهم موسى، ووصفهم بالجهل، وأخبرهم أنَّ عبَّادَ الأصنام سيُدَمِّرهم الله ويدمِّرُ أصنامَهم، وعملُهم باطلٌ مضمحلٌ، وأنكر عليهم إنكاراً شديداً أنْ يطالبوه بأن يبحث لهم عن آلهة غيرَ الله.

وامتنَّ الله على بني إسرائيل بإنجائهم من آلِ فرعون الذين يسومونَهم سوءَ العذابِ من تقتيلِ الأبناءِ واستحياءِ النساء والتكليف بالشاقِّ من الأعمال.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف:١٣٧-١٤١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أورثَ اللهُ تعالى بني إسرائيلَ الأرضَ بعد إهلاك فرعونَ وقومِهِ:

أعْلمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه أوْرَثَ القومَ الذين كان فرعونُ يستضعِفُهُمْ بذبح أبنائِهم واستحياءِ نسائهم، وتكليفِهِمْ بالأعمالِ الشاقةِ، أورثَهم مشارقَ الأرض ومغاربها التي بارك الله تعالى فيها، وهي بيتُ المقدس وما حولها التي قال الله تعالى فيها: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ

بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧].

وقوله: ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: التي أكثرنا فيها البركاتِ مِنَ المياهِ والزروعِ والثمار والمعادن، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ والمرادُ بالكلمةِ التي صرَّحَ اللهُ بأنها تمَّتْ، أي كَمُلَتْ على بني إسرائيلَ هي المرادُ بقولهِ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص:٥-٦] وكانت الكلمةُ أولاً وعداً من الله تعالى لبني إسرائيل، فلما مضتْ عليهم وتحقَّقت تمَّتْ وكملت.

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي: بسبب صبرهم، وهذا يدلُّ على أن الصبر سببُ الفرج، وقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧] أخبرنا ربنا -عز وجل- أنه سبحانه دمَّر ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه من القصور والمصانعِ، وما كانوا يعرشون، والتدميرُ: الهلاكُ التام، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي: ما كانوا ينصبونه في جنات الأعناب، ليمتدَّ العنبُ عليه، وقيل: المرادُ بما كانوا يعرشونه سقوفاً للأبنية التي يبنونها، أي: دمَّرنا ما كانوا يبنونه.

وهذه الآية تدلُّ على أن الهلاكَ لم يقتصر على إغراقِ فرعونَ وجنده في اليمِّ، بل دمَّر الله كذلك مدنَهم وأبنيتهم ومصانعهم، فقد أرسل عليها ما أهلكها.

٢- طَلَبَ الرعيلُ الأولُ من بني إسرائيل من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه بعد أن جاوزَ ببني إسرائيلَ البحر، أي: بعد أن جعلهم يتخطَّونَ البحرَ، ويتعدَّونَه، وبعد أن أغرق فرعونَ وجنودَه في ذلك البحر، مَرُّوا في طريقهم إلى الأرض المقدسة على قومٍ مقيمين على أصنامٍ لهم يعبدونها من دون الله تعالى، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً مثل آلهةِ القوم الذين مرُّوا بهم، أي: مثل أصنامِهم ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف:١٣٨].

وعجيبٌ أن تصدُرَ هذه المقالةُ من القومِ الذين خلَّصَهُمْ موسى من ألوهية فرعونَ، الذي أغْرَقَه اللهُ أمامَهُمْ منذ وقتٍ قصيرٍ، كيف خَلَتْ قلوبُهُمْ من الإيمان الذي يعصم من الزلل، ولا شك أن الذين قالوا هذه المقالة ليسوا جميع الذين صحبوا موسى، بل بعضُهُم.

وقد أجابهم موسى جواباً قوياً جازماً، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤٠]. لقد وصف موسى عليه السلام الذين طلبوا منه أن يقيمَ لهم أصناماً آلهةً بأنَّهم قومٌ يجهلون، وجاءَ بصيغةِ المضارعِ ليدلَّ على أنَّ الجهلَ مقيمٌ معهم في الحالِ والمستقبلِ لا يفارقهم.

ثم أخبر موسى الذين طلبوا هذا الطلب من قومِهِ أنَّ عُبَّاد الأصنام متَبَّرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون، والمُتَبَّرُ: المدمَّرُ المحرَّقُ المكسَّر، والباطلُ: الزائلُ الذاهبُ المضمحلُ الذي لا بقاءَ له، ويظهرُ هذا في يوم الدين ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

قال موسى لقومِهِ في خاتمةِ جوابه: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ وفي هذا الذي قاله نبيُّ الله موسى عليه السلام إنكارٌ شديدٌ على قومِهِ، ومعنى: أبغيكم إلهاً، أي: أطلبُ لكم إلهاً تعبدونه غير الله تعالى، وهو الذي فضَّلكم على العالمين، أي: عالمي زمانهم، ومن تفضيلهم على العالمين ما خصَّهم به من الرسلِ والكتب، وإعطاؤهم الأرضَ المقدسة، وتدمير الله عدوهم وجنده.

٣- امتنانُ الله تعالى على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعونَ وتخليصِهِم منه:

امتنَّ اللهُ تعالى على بني إسرائيلَ بتخليصهم من آل فرعونَ، فقال: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف:١٤١].

قال اللهُ -تعالى- لبني إسرائيل: اذكروا نعمتي عليكم إذا أنجيتُكُم من فرعونَ وآلِهِ فقد كانوا يسومونكم، أي: يذيقونكم العذابَ السيئَ، فكانوا يقتلون أبناءَكم ويذبحونهم، ويستحيون نساءَكم، وأخبرهم أنَّ هذا الذي كان يحلُّ بهم إنما هو بلاءٌ عظيمٌ من الله تعالى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - أورثَ اللهُ -تعالى- المستضعفين في الأرض، وهم بنو إسرائيلَ، الأرضَ المقدسة في فلسطين التي باركَ اللهُ تعالى فيها، وأتمَّ كلمتَهُ ونعمتَهُ عليهم بسبب صبرهم.

٢ - أغرقَ اللهُ فرعونَ وجندَه، ودمَّر اللهُ ما كانوا يُشَيِّدونه، ويعْرِشُونه، ويصنعونه.

٣- بعد أن نجَّى اللهُ بني إسرائيلَ من الغرقِ مرُّوا في مسيرهم إلى الأرضِ المقدسة على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم، فطلب بعضُهم من موسى أن يجعل لهم أصناماً كما لهؤلاء القومِ أصنامٌ، فرماهم بالجهلِ، وأخبرهم أنَّ هؤلاء متبرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون.

٤ - امتنَّ اللهُ على بني إسرائيل، بإهلاك فرعونَ وجندِهِ، وتخليصهم مِنَ البلاءِ الذي كان يصبُّه عليهم.

النص القرآني التاسع عشر من سورة الأعراف
انطلاقُ موسى من قومِهِ إلى الطورِ لمقابلةِ ربِّه

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُنا -عزَّ وجلَّ- أنه واعد نبيَّهُ ورسولَه موسى عليه السلام أن يأتي إلى الطور لإنزال شريعةِ التوراةِ عليه، واستخْلَفَ موسى أخاه هارون على بني إسرائيل، وأوصاه بالإصلاح ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين، وعندما جاء موسى لميقات الله طلب من ربِّه أن يراه، فأخبره ربُّه أنه لا يطيق أن يراه، وبيَّن له أن الجبالَ الصمَّ الراسيات تزولُ وتتلاشى إن هو تجلى لها، وفعلاً لما تَجَلَّى ربُّه للجبل زالَ من مكانهِ، ولم يُطق موسى أن يرى الجبلَ يزولُ كذلك فخرَّ صعقاً، ثم أفاقَ مستغفراً تائباً.

وأنزلَ اللهُ تعالى التوراةَ على موسى، مكتوبةً في الألواحِ، وكتب له في الألواحِ من كل شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكل شيءٍ، وأمره وقومه أن يأخذوا بها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٤٦) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾ [الأعراف:١٤٢-١٤٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى عليه السلام ينطلقُ إلى ميقاتِ ربِّه:

واعَدَ ربُّنا -تبارك وتعالى- عبدَهُ ورسولَهُ موسى عليه السلام بإعطائه التوراةَ لتكون شريعةً تحكم بني إسرائيلَ، فلما خَرَجَ موسى ببني إسرائيل من مصرَ، وجاء بهم إلى أرض سيناء، وَكَلَ

إلى أخيه هارون أن يخلفه في قيادةِ بني إسرائيل وأمره بالإصلاح، وعدم اتباع سبيل المفسدين، وانطلق إلى ميقات ربه، ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٢].

وحدَّدَ اللهُ لموسى عليه السلام الميقات بعدَ ثلاثين ليلةً، ثم زادها ربُّ العزة عشراً، فتمَّ الميقاتُ أربعينَ ليلةً، ولم يعلم بنو إسرائيل بزيادةِ العشرِ، لأنها زيدت بعد مفارقة موسى لهم.

ويذكرُ المفسرون بأن سبب زيادةِ العشرِ أنَّ موسى صامَ هذه الثلاثين، فلما أتمها استاكَ، فغيَّر السواكُ ريحَ خلوفِ فمه، فأمره اللهُ تعالى بصومِ عشر أُخرى، ليعودَ إليه الخلوفُ الذي ذهبَ منه، واللهُ أعلم بمدى صحة ما ذكروه، فلم أجد له دليلاً صحيحاً، ونصَّ على الأربعين لئلا يتوهم متوهمٌ أنَّ الثلاثين تمّمَتْ بعشرٍ من الثلاثين.

ولما تمَّ ميقاتُ الله كلَّمُه ربُّه -تعالى- وناجاه، وأنزل عليه التوراة.

٢- موسى يطلب من ربِّه أن يُريَهُ نفسَهُ لينظرَ إليه:

أخْبَرنا ربُّنا -عز وجل- أنه لما جاءَ عبدُهُ ورسولُه موسى إلى ميقاتِ الله عز وجل وناجاه وكلَّمه وأعطاه التوراةَ بعد أنْ أتمَّ الأربعين ليلةً طلب من ربِّه أن يريه ذاتَهُ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

ولم يكن موسى يعلم أنَّه لا قدرةَ لديه على رؤيةِ الله عز وجل، ولذلك قال اللهُ تعالى له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣]، أي: أنت يا موسى أضعفُ من أنْ تَقْدِرَ على رؤيتي، لأنَّ البشر في الدنيا مخلوقون خَلْقاً ضعيفاً، وقد بيَّنَ اللهُ لموسى ما يدلُّه على ما أخبره به، فقد أخبره ربُّه أنه سيتجلَّى للجبلِ، وأمره أنْ يراقبَ الجبل، ليرى ما سيحدث له ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

لقد كان الجبلُ أقوى من موسى وأصْلَبُ، فلما تجلَّى له ربُّ العزة لم يتحمل رؤيتَهُ، وجعله دكاً، أي: فتاتاً وتطاير من مكانه ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾، أي: خرَّ مغشياً عليه، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من غشيته، وعلم موسى ما أراد اللهُ -تعالى- إعلامَه إياه أيقنَ أنه لا يستطيع رؤية ربِّه في الدنيا.

وقد احتجَّ المعتزلة بالآية على عدم قدرة العباد على رؤية ربِّهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، وكوننا لا نرى ربَّنا في الدنيا صحيح، أما في الآخرة فإننا نقْدِرُ على ذلك، لأنَّ الله

يعيدنا خلقاً غير قابلٍ للفناء، وقد صرَّح ربُّ العزةِ بذلك في قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، وقال سبحانه: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.[المطففين:١٥]، فإذا كان الكفارُ محجوبون عن رؤيةِ الله، فإنَّ المؤمنين غير محجوبين عن رؤيتِهِ في ذلك اليوم.

وقد جاء في الصحيحين والسنن والمسانيد عن أكثر من عشرين صحابيّاً أنَّ المؤمنين يَرَوْنَ ربَّهم يومَ القيامة، والأحاديثُ في ذلك متواترةٌ، وسيأتي ذكر بعضها في سورة القيامة إن شاء الله تعالى.

٣- إخبارُ ربِّ العزة عبدَهُ موسى أنه اختاره على الناسِ برسالاتِهِ وكلامِهِ:

وقد خاطبَ ربُّ العزةِ موسى عليه السلام بعد أن أفاقَ مخبراً إياه أنه اصطفاه واختاره على الناس برسالاتِهِ وبكلامِهِ الذي كلَّمه به، وأمره أن يأْخذَ بها آتاه، وهو التوراةُ، وأن يكون من الشاكرين ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٤] ويحقق العبدُ شكر ربِّه -تبارك وتعالى- إن هو صَرَفَ نعمة الله فيما يرضي اللهَ تعالى.

٤- ثناءُ ربِّ العباد على ما كتبه لموسى في الألواح من التوراة:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه كتبَ لعَبْده ورسولِهِ موسى التوراةَ في الألواح التي أنزلها عليه وبيَّن صفةَ التوراة التي أنزلها عليه، فقد كتب له فيها المواعظَ التي ترققُ القلوبَ، والأحكامَ المفصَّلةَ للحلال والحرام ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٤٥].

وقوله: ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي: من كل شيء يحتاجُ إليه في دينه من الحلال والحرام والمحاسن والقبائح.

وقد أمَرَ الله رسولَهُ موسى عليه السلام أن يأخذها بقوةٍ، أي: بجدٍّ، وأمرَهُ أن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها، ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٥]، قال ابن عباس: ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ ﴾ يريدُ: يحلُّوا حلالَها، ويحرموا حرامَها، ويتدبروا أمثالها، ويعملوا بمحكمها، ويقفوا عند متشابهها [تفسير الواحدي: ٩/ ٣٤٧]. والمراد بدار الفاسقين التي وعد اللهُ قوم موسى بإراءَتهم إياها هي جهنمُ في يوم القيامة، أو هي الديار التي سكنها الهالكون من الظالمين كقوم لوطٍ.

٥- توعُّدُ ربِّ العزة تبارك وتعالى المتكبرين في الأرض أن يصرفهم عن آياته:

توعَّدَ ربُّ العِزَّة -تبارك وتعالى- بأنْ يصرفَ عن آياتِهِ الذين يتكبرون بغير الحقِّ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف:١٤٦].

والمرادُ بالآياتِ التي توعَّدَ العبادَ أن يصرفهم عنها آياتُ القرآنِ، وعرَّف ابنُ عباسٍ المتكبرين الذين سيصرفُهم الله عن آياتِهِ بأنهم «الذين يتجبرون على عباده، ويحاربون أولياءَه، ويستحلّون محارمَهُ، حتى لا يؤمنوا بما جئت به» [تفسير الواحدي: ٩/ ٣٥٠]. وصرْفُهم عن آيات الله منعهم مِن فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمته وشريعتِهِ وأحكامِهِ، وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن هؤلاءِ المتكبرين إنْ يروا السبيل الذي يوصلهم إلى الهدى والصلاح، لا يتخذوه سبيلاً، وإنْ يروْا سبيلَ الغيِّ الذي يؤدي بهم إلى الضلال والهلاكِ يتخذوه سبيلاً، وبيَّنَ اللهُ لنا السببَ الذي أدَّى بهم إلى هذا المسارِ الخاطئ المغلوطِ، وهو تكذيبهم بآياتِ الله ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ أي: غافلين عن العمل بأحكامها، والتأدب بآدابها.

وأخبرنا ربُّنا عن ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف:١٤٧]، أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أن الذين كذبوا بآيات القرآن، وكذبوا بالبعث والنشور حبطت أعمالهم، أي: بطلتْ، وصارتْ كأن لم تكن، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ هؤلاءِ المكذبين بآيات الله لا يُجْزَون إلا وَفْقَ أعمالهم التي عملوها وأسلفوها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- واعدَ ربُّ العزةِ موسى ليأتي لميقاته، وقد جعل له أجلاً مقداره ثلاثين ليلةً، ثم أتمها بعشرِ ليالٍ، قضاها في التبتل والانقطاع إلى الله عز وجل.

٢- ضَرْبُ التأجيل وتحديد المدة للميعاد أمْرٌ معروفٌ قديم، فقد ضربَ اللهُ تعالى لموسى الأجلَ لمدة ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر.

٣- يكون التأريخ بالليالي كما يكون بالأيام، فقد واعد الله -تعالى- موسى ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر ليالٍ.

٤- كلّف موسى ﷺ أخاه هارون أن يقومَ مقامه في قيادة بني إسرائيل، وأمره بالإصلاح، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين.

٥- طلب موسى ﷺ من ربِّه أن يريَه نفسَه، فأخبره أنه لا يطيق ذلك، وعندما تجلَّى ربُّنا -عزَّ وجلَّ- للجبل جعله دكاً، وخرَّ موسى صعقاً، أما في الآخرة، فيستطيعُ العبادُ المؤمنون رؤيةَ ربِّهم، فهم مخلوقون خلقاً قابلاً لذلك.

٦- اصطفى اللهُ تعالى نبيَّه موسى على الناس برسالاتِهِ وبكلامه.

٧- أنزل اللهُ -تعالى- إلى موسى التوراةَ مكتوبةً في ألواحٍ، وفي التوراةِ المواعظُ والعقائدُ والأحكامُ والآدابُ.

٨- أوْجَبَ اللهُ على موسى وقومِهِ أن يأْخذُوا بما أنزله في كتابِهِ العظيم التوراة.

٩- هذا الكونُ يتولاَّه ربُّ العبادِ سبحانه، ولذلك وضع للمتكبرين حدّاً ينتهون إليه، فيصرفهم عن آياتِهِ، فلا يفقهون ما حوته من أحكامٍ وتعاليم.

١٠- الذين كذبوا بآياتِ القرآن، وكذبوا بالبعث والنشور، وماتوا على ذلك، يحبطُ اللهُ أعمالهم، ويجزيهم يومَ القيامةِ بما عملوا.

النص القرآني المتمم للعشرين من سورة الأعراف
عبادة قوم موسى عليه السلام العجلَ بعد أن انطلق إلى ميقات ربه

أولاً: تقديم

هذه الحلقةُ من حلقات قصةِ نبيِّ الله موسى عليه السلام تظهر سوأةً عظيمةً من سَوْءاتِ بني إسرائيل، انتكسوا فيها، وصنعوا لهم عِجْلاً جسداً له خوارٌ، وعبدوه من دون الله تعالى، وقد بيَّن اللهُ تعالى كيف يكون موقفُ القائد الفذِّ في معالجة هذا الموقف السيئ الذي سلكه قومُه، وكيف قضى على هذه الفتنةِ، وأخمدَ نارها المشتعلةَ المتأججةَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٨-١٥٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اتخاذ قوم موسى من حليِّهم عجلاً جسداً له خوار:

بعد أن انطلق موسى عليه السلام إلى ميقاتِ ربِّه، ومكثَ هناك أربعين ليلةً صنعَ بعضُ بني إسرائيل من الحليِّ الذي أخذوه من أقباطِ مصر عجلاً جسداً عبدُوه من دونِ الله تعالى ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ ﴾ [الأعراف:١٤٨].

وهذا الحليُّ الذي صُنِعَ منه العجلُ استعارَهُ الإسرائيليون من الأقباط ليتزينوا به لمناسبةٍ كعرسٍ أو عيدٍ، فلما خرج الإسرائيليون من مصرَ في تلك الليلة أخذوه معهم، فصنعَ منه

السامريُّ العجلَ، وقد أخبرنا ربُّنا في موضع آخر أنَّ هذا الحلي كان من زينةِ قومٍ آخرين وهم القبطُ، قالوا: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ [طه:٨٧].

وقد أخبرنا ربُّنا في سورة طه كيف صنع السامريُّ العجلَ، ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا﴾ [طه:٩٥-٩٦] أخذ قبضةً من الأثر الذي كان يسيرُ عليه جبريلُ، فنبذَها على ذلك الحليِّ، فأصبح عجلاً جسداً له خوارٌ.

والعجلُ ولدُ البقرةِ، والجسدُ البدنُ الذي لا لحمَ فيه ولا دمَ، فلما رأى بنو إسرائيلَ العجلَ على النحو الذي صنعه السامريُّ ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝٨٨﴾ [طه:٨٨] أي: نَسِيَ أنَّ ربَّه هنا، فذهب يطلبُه في مكانٍ بعيدٍ.

وقد قالَ ربُّ العزَّةِ مخاطباً بني إسرائيلَ مقرراً لهم أن هذا العجل باطلٌ وعبادته باطلةٌ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا﴾ [الأعراف:١٤٨] أي: قد رأوا أنَّ هذا المعبودَ الذي افتروه واختلقوه لا يكلمهم، ولا يهديهم سبيلاً، والمعبودُ الحقُّ يتكلم، وقد أخبرنا ربنا عزَّ وجلَّ عن كثرة كلامه فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧].

والمعبودُ الحقُّ هو الذي يهدي ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ [يونس:٣٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝١٤٨﴾ [الأعراف:١٤٨]، والظلمُ وضعُ الشيء في غير موضعِهِ، وهؤلاءِ وضعوا عبادةَ العجل ظلماً وجهلاً موضعَ عبادة الملك الديان سبحانه.

٢- عرَفَ أكثرُ الذينَ اتخذوا العجل إلهاً أنهم ضَلُّوا قبلَ أن يرجعَ إليهم موسى:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ عابدي العجل من بني إسرائيلَ نَدِموا على عبادتِهم العجلَ أشدّ الندم، وكلُّ من أصابَه ندمٌ شديدٌ حتى بقي حائراً من شدةِ ندمه يقالُ له: سُقِط في يدِهِ، وهؤلاءِ ضَلُّوا وندموا غايةَ الندم، وبقوا متحيرين على كفرهم بالله وعبادتِهم العجلَ المصنوعَ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝١٤٩﴾ [الأعراف:١٤٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَأَوۡاْ﴾ أي: علموا أنهم ضلوا عن طريقِ الحقِّ والصوابِ، وكان ضَلالُهُم في ذهابهم عن الإيمانِ إلى الكفرِ والشركِ، عندئذ دَعَوْا ربَّهم الحقَّ و﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف:١٤٩].

وقولُهُ: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا﴾ أي: لم يتداركنا برحمتِهِ، وقولُه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ الغفرانُ محوُ الذنوب، حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها بعد ذلك، وقوله: ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ أي: والله لنكونَنَّ مِنَ الخاسرين، والخسرانُ: نقصانُ مالِ التاجرِ مِنْ ربح أو رأسِ مال وأعظمُ الخسرانِ خسرانُ العبدِ مع ربِّه الذي يؤدي به إلى النارِ، ويحْرِمُهُ الجنَّةَ.

وهذه الآيةُ الكريمةُ تدلُّ على أنَّ الأشرارَ مِنْ بني إسرائيل الذين صنعوا العجلَ وأمروا بعبادتِهِ لم يَقِرَّ لهم قرارٌ، ولم يتابعهم كلُّ بني إسرائيلَ، والذين تابعوهم كانوا مترددين شاكِّين، وكان كثيرٌ منهم يعلمُ أنَّه قد ضلّ، ودعَوْا ربَّهم أن يرحمهم ويغفر لهم، وإلاَّ كانوا مِنَ الخاسرين، فالتربيةُ الطويلةُ التي بذلها موسى لقومه كان لها أثرُها فيهم، وثباتُ هارون ومَنْ بَقُوا معه على الحقِّ ومحاولتِهمْ تبصيرَ قومِهِمْ لها أثَر في مواجهةِ الشركِ والضلالِ.

٣- كيف عالج موسى ﷺ ضلالَ بني إسرائيلَ الكبيرَ في عبادةِ العجلِ:

مهما قيلَ في هذا الانحرافِ العظيمِ الذي اجتاحَ بني إسرائيلَ، فجعلهم يصابون بأعظمِ مصابٍ، إذ عَبَدُوا غيرَ الله بعد مُدَّةٍ وجيزةٍ من غياب موسى عنهم، ومع وجود هارون فيهم، وهو نبيٌّ رسولٌ، فإنَّ المصابَ قد حَلَّ بهم، والآفةُ اجتاحت مجتمعَهُم، ولكنَّ شملَ بني إسرائيلَ بقيَ ملتئماً، فمعَ الزلزالِ الكبيرِ الذي حلَّ بهم، بقيَ الجميعُ منتظراً عودةَ موسى ﷺ.

وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه بعد أنْ أعطى موسى الألواحَ التي كَتَبَ له فيها التوراةَ أخبره أنَّ قومَه ضَلُّوا، وعبدوا العجلَ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾ [طه:٨٥].

فامتلأ موسى غضباً على فِعْلَةِ قومِهِ، ورجعَ إلى قومِهِ غضبانَ أسفاً ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [الأعراف:١٥٠]. والأسفُ: شِدَّةُ الغضبِ، وعندما وصل إليهم، وكان يحمل معه ألواحَ التوراةِ التي أنزلها الله إليه، قالَ لقومِهِ في سوْرَةِ غضبِهِ ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف:١٥٠] أي: بئسما خلفتموني في غيبتي إذ لم تمنعوا عابدي العجل عن عبادته. وقوله: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ بانتظارهم موسى، وانتهاءِ الوعد، وإتيان موسى بكلِّ خير تصلح به دنياهم وآخرتهم، عجلوا عن ذلك كله، وعبدوا العجل، وكفروا بالله. فلما

رأى عبادتهم للعجل اشتدَّ غضبهُ، وألقى ألواحَ التوراةِ ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف:١٥٠]، ولم يُلْقِها استهانةً بها، وإنما ألقاها من شدَّة غضبه لانتهاكم حرماتِ الله، وعبادتهم العجلَ مع الله.

ثم توجَه موسى وهو غضبانُ إلى محاسبة أحبِّ الناسِ إليه، وهو أخوه هارون، وقد كان هارونُ معذوراً، فقد أمرَهم ونهاهم، ووعَظَهم وخوَّفَهم بالله، ولكنَّهم لم يطيعوه، ولم ينقادوا له، لقد أخبرنا ربنا أنَّ موسى توجه في سورةِ غضبه إلى أخيه، وأمْسَك بشعرهِ وأخَذَ يجرُّه إليه بقوةٍ وعنفٍ، والقومُ مشدوهين، فإذا كان هذا فِعْلُه بأخيه، فكيف سيكونُ موقفُه من الآخرين الذين ليسوا له بإخوة ولا أقرباء.

لقد أخبر هارونُ أخاه أنَّ قومَه استهانوا به، وكادوا يقتلونه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف:١٥٠]، وبيَّن في سورةِ طه أنَّه لم يفارقْ قومَهُ، ويرحلْ عنهم خشيةَ أن يلومه أخوه، ويقوله له: فرقت بين بني إسرائيل ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٢-٩٣].

وقد بَرَّأَ اللهُ تعالى هارونَ مِنَ الضلال الذي وقع فيه بنو إسرائيل ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه:٩٠-٩١].

ومن عجب أنَّ اليهودَ الذين حرَّفوا التوراةَ زعموا أن نبيَّ الله هارونَ هو الذي صنعَ العجلَ الذهبيّ، وأمرَ بني إسرائيل بعبادته، وقد بَرَّأَ اللهُ تعالى في كتابنا الكريمِ هارونَ مما رموه بِهِ، وافتروه عليه.

وقولُ هارون لأخيه موسى وهو آخذ برأسه يجرُّه إليه ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ معناه يا ابنَ أميّ قالها استعطافاً لأخيه عليه، وإلا فهارون أخٌ لموسى من أمه وأبيه، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ أي: قالوا له قولاً سيئاً يدلُّ على أنَّهم استضعفوه، وكادوا يقتلونه، فقد قالوا له: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه:٩١].

وقال هارونُ لموسى: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أي: لا تفعلْ بي فِعْلاً سيئاً يفرحُ أعدائي بي، فالشماتةُ: سرورُ العدوِّ بما ينزلُ بعدوِّه من سوء، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ أي: لا تجعلني مع عبدةِ العجلِ، كأني ممالئٌ لهم، وموافقهم على عبادتهم له.

ويبدو أنَّ موسى قد اقتنعَ بما اعتذرَ بِهِ أخوه هارونَ، فكفَّ عنه، وتوجَّه إلى ربِّه يدعوه لَهُ ولأخيه ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأعراف:١٥١]. دعا ربَّه -عزَّ وجلَّ- له ولأخيه أنْ يدخلهما في رحمته، أي: يجعلهما ممنْ شملتْهما رحمتُهُ الواسعةُ، واللهُ تعالى أرحمُ الراحمين، فهو سبحانه وتعالى لا أحدَ أرحمُ منه، وهو أرحمُ بعبادِهِ من الأمِّ بولدها سبحانه.

٤- **مصيرُ الذين عبدوا العجل ولم يتوبوا إلى ربّهم تبارك وتعالى:**

يبدو أنَّ بعضَ الذين عبدوا العجلَ لم يتوبوا ولم ينيبوا إلى ربِّهم، وبقُوا على كفرهم وضلالهم، ومن هؤلاء السامريُّ الذي صنعَ العجلَ، فقد قال موسى له: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه:٩٧].

ويدُلُّ على أنَّ بعض عابدي العجلِ لم يؤُوبوا إلى الله تعالى قولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٢] والغضبُ الذي سينالُ هؤلاء مِنْ ربِّهم صفةٌ وصفَ اللهُ تعالى بها نفسه، وغضَبُهُ لا يُشْبِهُ شيئاً من غضبِ المخلوقين، والذِّلَّةُ: الصغارُ والهوان.

ولا يُتَصَوَّرُ أنْ يكون الغضبُ والذِّلَّةُ هي للذين تابوا إلى الله تعالى من عبادَةِ العجلِ الذين قال الله لهم: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة:٥٤]، فالذين تابوا وقتلوا أنفسهم تابَ اللهُ تعالى عليه، ورضي عنهم، وأدخلهم جنَّتَهُ، والتائبُ مِنَ الذنبِ كمن لا ذنبَ له، ولا يستحقُّ أن يقال فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ .

ومما يدلُّ على أنَّ الذين عناهم ربُّ العزةِ بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ ﴾ هم المفترون غير التائبين الآيةُ التاليةُ وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٣]. فالذين كفروا أو أذنبوا وعَصَوْا ثم تابوا بعد ذلك وآمنوا فإنَّ ربَّك بعد توبتهم غفورٌ رحيمٌ.

٥- **بعد أن قضى موسى على الفتنة التي ثارتْ في قومِهِ سكَنَ عنه الغضبُ وأخذ الألواحَ:**

أنْهى موسى عليه السلام الفتنةَ التي أثارَها السفهاءُ في قومه، وحرَّق عِجْلَهم، ونسفَه في اليمِّ، وسكنَ عنه غضبُهُ، وخاصة بعد أن سمعَ عذرَ أخيه إليه، وعرفَ صِدْقَه، وعُذْرَه، ﴿ وَلَمَّا

سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ [الأعراف:١٥٤]. وسكوتُ الغضبِ عنه سكونُهُ وهدوؤُه، وعند ذلك أخذ الألواحَ التي كان قد ألقاها ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف:١٥٤]. وقد تحدَّثَ المفسرون عما أصابَ الألواحَ من أذى وكسْرٍ بعد إلقاء موسى لها، وأنه رُفِعَ بعضُ ما أُنزل فيها، ولم يصحَّ شيءٌ من ذلك في الكتابِ والسنَّةِ.

وقوله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى﴾ أي: في المنسوخِ فيها، أي: المكتوبُ فيها مِنَ التوراةِ من كلامِ ربِّ العالمين، و﴿هُدًى﴾ أي: فيه دلالةٌ وإرشادٌ إلى الخير، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي: للذين يخافون الله، وخصَّهم لأنهم هم المنتفعون به، وجرت العادةُ أن يُخَصَّ المنتفعون بالذكر.

وقد أخذ موسى ﷺ الألواحَ لدراستِها، وفقهِها، وليعملَ بها، لأنَّ اللهَ تعالى أنزلها إليه، ليعملَ هو وقومَهُ بها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ارتكبَ أتباعُ موسى في عهدِهِمْ الأوَّلِ جريمةً نكراءَ، عندما اتَّخَذُوا من حليِّهم عجلاً جسداً له خوارٌ، وعَبَدُوه من دونِ الله تعالى.

٢- كان العجلُ إلهاً باطلاً، كبقيةِ الآلهة التي تعبدُ مِنْ دون الله تعالى، فهي لا تكلم عابديها، ولا تهديهم سبيلاً.

٣- عَلِمَ كثيرٌ من عابدي العجلِ أنَّهم قد ضلُّوا قبل عودة موسى إليهم، ودَعُوا اللهَ أنْ يرحمهم، ويغفر لهم.

٤- كان موسى ذا قدرةٍ فائقةٍ في قيادةِ قومه، وتقْويمهم، ورَدْعِهِمْ عن الباطِلِ الذي يتلبسون به، والقضاءِ على الفتنِ التي تعصفُ بهم، ومع أنَّ هارونَ كان نبيّاً رسولاً، فلَمْ يعطَ القدراتِ التي أعطاها ربُّ العزَّة لعبدِهِ موسى.

٥- اتَّخَذَ موسى بعد عودَتِهِ إلى قومِهِ، ورؤيته لهم يعبدون العجلَ الخطواتِ التاليةِ: لومُ قومِهِ على عبادَتِهِمْ العجلَ، وإلقاؤه الألواحَ، واستعماله العنف في محاسبة أخيه.

٦- كان هارونُ معذوراً في مواجهةِ قومِهِ، وكان له نظرةٌ صحيحة في عدمِ مفارقتهم حتى يرجعَ موسى إلى دياره، وقد عَذَرَهُ ربُّ العزَّةِ في الموقفِ الذي اتخذه، وعذره أخوه لما سمعَ اعتذارَه إليه.

٧- موسى يَؤُوب إلى ربِّه، ويدعوه ليغفرَ لَهُ ولأخيه، وفي ذلك دعوةٌ للشاردين عن الله من قومه، ليتوبوا، وينيبوا.

٨- الذين لم يتوبوا من عبادةِ العجل تهدَّدهم اللهُ تعالى وتوعَّدهم، والذين عملوا السيئاتِ ثم تابوا وأنابوا، فإنَّ الله يرحمهم، ويغفر لهم.

النص القرآني الحادي والعشرون من سورة الأعراف
تبشيرُ الله تبارك وتعالى بنبينا محمدٍ ﷺ في التوراةِ والإنجيل

أولاً: تقديمٌ

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ نبيَّه موسى عليه السلام اختارَ مِنْ قومِهِ سبعين رجلاً لميقاتِ الله، فعَصَوْا وأخذتهم الرجفةُ، ودعا موسى ربَّه، فأجابَهُ ربُّ العزةِ أنَّه يصيبُ بعذابه مَنْ يشاءُ مِنْ عباده، ورحمتُهُ وسعتْ كلَّ شيءٍ، وسيكتب اللهُ رحمته للذين يَتَّبِعُونَ نبينا ورسولَنا محمداً ﷺ ، وقد وَصَفَ اللهُ رسولَنا ﷺ في الوحي الذي أوحى به لنبيه موسى، وهو مع السبعين مِنْ قومه عند ميقاتِ الله سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٥-١٥٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى يختارُ وفداً من قومِهِ عَدَدُهم سبعون رجلاً لميقاتِ الله تعالى:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ موسى عليه السلام اختارَ من قومِهِ سبعين رجلاً، وجاءَ بهم لميقاتِ الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ ﴾ [الأعراف:١٥٥]. ولا ندري لِمَ

اختارَ موسى هذا العدد من قومه، كما لا ندري شيئاً عن مكان الميقاتِ الذي ذهب بهم إليه، فلم يصحَّ فيه آيةٌ أو حديثٌ صحيحٌ.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الرجفةَ أخذتْ بني إسرائيل الذين اختارهم موسى، ولعلَّها الرجفةُ التي أخَذَتْهم عندما اشترطوا لإيمانهم أن يروْا ربَّهم جَهْرةً، أي: عياناً ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة:٥٥].

والرجفةُ: الهزَّةُ الشديدةُ، فلمّا أخذتْهُمُ الرجفةُ قال موسى متضرِّعاً لربِّه تبارك وتعالى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ [الأعراف:١٥٥] أي: لو شئتَ إهلاكَهُم أهلكْتَهُم قبل هذا الوقتِ، أي: قبل خروجهم إلى الميقات، وأهلكتني معهم، وقال مناجياً ربَّه تباركَ وتعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف:١٥٥]. والسفهاءُ: جمعُ سفيهٍ، والسفهُ: الخفةُ والطيشُ، والسفهُ أيضاً: خفةُ العقلِ، وعدمُ رجاحةِ الحكم، حتى يفعل الأشياءَ التي تضُرُّه، وهو لا يدري أنها تضرُّهُ. وهؤلاءِ السفهاءُ الذين عناهم موسى عليه السلام هم الذين فعلوا تلكَ الفعلة التي أخذتهم الرجفة بسببها.

وقولُ موسى عليه السلام ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي: أتدمرنا وتميتنا بسببِ ما فعله السفهاءُ الذين طاشتْ عقولهم، وخَفَّتْ أحلامُهم، وقال موسى لربِّه سبحانه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي: ابتلاؤك وامتحانك، كما قالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء:١٣٥].

وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ [الأعراف:١٥٥]. والوليُّ: هو الذي انعقدَ بينك وبينه سببٌ يجعلك تواليه ويواليك، فالعبادُ يوالون ربَّهم بالطاعةِ، وهو يواليهم بالثوابِ والرحمةِ والغفرانِ، وقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف:١٥٥]، أي: اغفرْ لنا بستر ذنوبنا ومحوِ سيئاتِنا، وارحمنا، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ أي: خيرُ مَنْ يغفرَ الذنوب، ويتجاوز عن الزلاَّتِ.

وقال موسى عليه السلام في دعائِه ربَّه في ذلك الموضعِ الذي دعا فيه ربَّه: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: اقْدُرْ لنا في حياتِنا الدنيا حسنةً، والمرادُ بحسنةِ الدنيا توفيقُ الله تعالى لما هو أحسنُ، والحياةُ الطيبةُ والرزقُ الحسنُ، والعافيةُ، وحسنةُ الآخرة الجنةُ، وكل ما فيها من نعيم، وأعلاه النظرُ إلى وجهِ الله الكريم في تلك الجنات.

وقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تُبْنا إليك، ورجعنا إليك، لأنَّ الحسناتِ تأتي من عندِ الله -عزَّ وجل- بسببِ الإيمانِ والعملِ الصالحِ والتوبةِ إلى ربِّ العباد. وقد أجابَ ربُّ العزَّة تبارك وتعالى موسى في دعائه وندائه ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: عذابي أهينُ به من أشاءُ إهانته، ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ أي: رحمةُ الله تعالى واسعة، لا تضيق عن شيءٍ كائناً من كان.

٢- **البشارةُ برسولنا ﷺ في الكتب السابقة:**

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّه بشَّر برسولِنا ﷺ وكتابه وأُمَّتِهِ لدى الرسلِ والأنبياءِ السابقين، ولدى الأُمم الغابرةِ، ومنه ما وقعَ في هذا الموضع، فقد أخبرَ تبارك وتعالى أنَّ رحمتَهُ وسعتْ كلَّ شيءٍ، وأنه سيكتبها للذين يتَّقُونَ ويؤتون الزكاةَ والذين يؤمنون بآياتِ الله ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف:١٥٦]، والذين يتَّقُونَ هم الذين يجعلونَ بينهم وبين عذابِ الله وقايةً، تقيهم سَخَطَهُ وانتقامَهُ، وقولُه: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يعطونَ الحقوقَ الواجبةَ في الزروع والمواشي والثمار والمعادن وغيرها، وعنى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ أي: آيات الله المنزلة على رسله وأنبيائِه.

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّه عنى بالوحيِ الذي أنْزله على موسى مخبراً إيّاه بأنَّ مرادَه بالذين ﴿يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ أُمَّةُ محمد ﷺ، لأنَّه أتْبعَ ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧].

والمرادُ بالنبي الأميِّ الذي لا يقرأُ ولا يكتبُ، فهو منسوبٌ إلى أُمِّه، لأنَّه بقيَ على الحالةِ التي وَلَدَتْهُ عليها أُمُّه، لم يتعلم بعدها قراءةً ولا كتابةً، وقد قال اللهُ تعالى لرسولنا ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، أي: يجدون صفاتِهِ ونعوتِهِ مكتوبةً عندهم في كتبهم السماويةِ كالتوارةِ والإنجيل والزبورِ، ولذلك فإن الله تعالى أخبرنا أنَّ اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة:١٤٦]،

وقد حذفَ اليهودُ والنصارى بعضَ البشاراتِ التي في كتبهم عن الرسول ﷺ وغيَّروا فيها، ومع ذلك فإنَّ التوراةَ والإنجيلَ والزبورَ لا تزال تموجُ بهذه البشارات، وقد جمعتُ منها أكثرَ من أربعينَ بشارة مما ورد في التوراةِ والإنجيلِ والزبور.

ومن هذه البشارات التي وردتْ في التوراة في سفر أشعيا: «هو ذا عَبْدِي الذي أعْضُدُهُ، مُخْتارِي الذي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي، وَضَعْتُ روحِي عليهِ، فيُخْرِجُ الحَقَّ للأُمَم، لاَ يَصيحُ، ولاَ يَرْفَعُ ولاَ يُسْمِعُ في الشارعِ صَوْتَهُ، قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لا يَقْصِفُ، وفَتيلَةً خامِدَةً لا يُطْفِئُ، إلى الأمانِ يُخْرِجُ الحَقَّ، لا يَكِلُّ ولا يَنْكَسِرُ حتى يَضَعَ الحَقَّ في الأرْضِ، وتَنْتَظِرُ الجَزائِرُ شَريعَتَهُ» [سفر أشعيا، الإصحاح الثاني والأربعون: ١-٤].

وهذا الذي يقوله أشعيا كأنَّه حديث قدسيٌّ تكلم الله به، فالله يقولُ مشيراً إلى الرسول ﷺ: «هو ذا عبدي الذي أعْضُده» أي: أُعينه وأنصره، وقد أخبر القرآنُ، عن رسولِهِ محمدٍ بأنه عبده كقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، وقال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم:١٠].

وقال في هذه البشارة متحدثاً عن محمدٍ ﷺ: «مختاري الذي سُرَّت به نفسي» فالله - تبارك وتعالى- اصطفى رسولنا ﷺ على الرسلِ والأنبياءِ، ويظهر فضله في يوم القيامةِ عندما يمتنعُ أولو العزمِ مِنَ الرسلِ عن الشفاعة، ويقومُ بها رسولُنا، وقد أخبر اللهُ أنه سُرَّتْ به نفسُهُ، ووضع عليه روحَهُ جبريلَ عليه السلام، مؤيداً وحافظاً وناصراً، وأخبر أنه يخرجُ الحقَّ للأُمم، وقد بُلِّغَتْ رسالتُهُ إلى العالمين.

ثم ذكر مِنَ صفاتِهِ ﷺ أنه «لا يصيحُ، ولا يرفعُ، ولا يُسْمِعُ في الشارع صوتَه» وذكر أنه «قصبةً مرضوضةً لا يَقْصِفُ، وفتيلةً خامدةً لا يطفئ، إلى الأمان يخرجُ الحق» وذكر قوَّته في العمل بالحق، فقال: «لا يكلُّ، ولا ينكسر، حتى يضعَ الحقَّ في الأرضِ» وذكر أن «الجزائر تنتظر شريعته».

ولعل هذا الذي ذكره أشعيا هو مقصود عبدالله بن عمرو فيما رواه عن التوراة، فقد لقيه عطاء بن يسار، فسأله عن صفة رسولِ الله ﷺ في التوراةِ، فقال: «أجَلِ، والله إنه لموصوفٌ في التوراةِ ببعضِ صفتهِ في القرآنِ: يا أيها النبيُّ إنا أرسلناكَ شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنتَ عبدي ورسولي، سمّيتُك المتوكلَ، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سخّابٍ في الأسواقِ، ولا يدفعُ بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفو ويغفرُ، ولن يقبضَهُ اللهُ حتى يقيمَ به المِلَّةَ العوجاءَ بأن يقولوا: لا إله إلا اللهُ، ويَفتحَ به أعيناً عمياً، وآذاناً صُمًّا، وقلوباً غُلْفاً».

وغُلفٌ: كلُّ شيء في غِلافٍ، سيفٌ أغلف، وقوسٌ غلفاء، ورجل أغلف إذا لم يكن مختوناً [البخاري: ٢١٢٥]. «السخَّاب: الذي يرفع صوته بالخِصام، والحرزُ: الموضعُ الحصينُ، وهو استعارةٌ، والملةُ العوجاءُ: ملةُ العرب القائمةُ على عبادةِ الأصنامِ، والقلوبُ الغلْفُ، التي لها غلاف يمنعها من الفقه».

وجاء في سفر أشعيا بشارةٌ أخرى، قال فيها: «٢ الشَّعْبُ السَّالِكُ في الظُّلْمَةِ أَبْصَرَ نُوراً عَظيماً، الجالِسُونَ في أَرْضِ ظِلالِ المَوْتِ أَشْرَقَ عَلَيْهِمْ نُورٌ» [أشعيا، الإصحاح التاسع: ٢]، وقال في: [الإصحاح نفسه: ٦-٧] «٦ لأَنَّهُ يُولَدُ لَنا وَلَدٌ، ونُعْطَى ابْناً، وتَكُونُ الرِّياسَةُ على كَتِفِهِ، ويُدْعَى اسْمُهُ عَجيباً، مُشيراً، إلهاً قَديراً، أباً أَبَدِيّاً، رَئيسَ السَّلاَمِ، ٧ لنُمُوِّ رِياسَتِهِ، وَللسَّلامِ لا نِهايَةَ على كُرْسِيِّ داوُدَ وعلى مَمْلَكَتِهِ، لِيُثَبِّتَها ويَعْضُدَها بالحَقِّ والبِرِّ، مِنَ الآنَ إلى الأَبَدِ».

والشعبُ السالكُ في الظلمةِ الأمةُ العربيةُ في جاهليتها، فقد كانتْ تعيشُ في ظلماتٍ شديدةٍ بعضُها فوقَ بعضٍ، ظلماتُ الشركِ والكفر، والنورُ الذي رأته هو نورُ الإسلامِ الذي جاءَ به محمدٌ ﷺ، وتضمنه القرآنُ الكريمُ.

لقد أشرقَ على الجالسين في أرضِ الموتِ -وهي صحراءُ الجزيرةِ العربيةِ- النورُ الإلهي الرباني، فأصبحوا علماءَ فقهاءَ صالحين.

والولدُ الذي يولد هو نبينا محمدٌ ﷺ، ومرادُهُ بالرياسةِ التي على كتفِهِ خاتمُ النبوةِ على كتفه، ففي صحيح البخاري ومسلم عن السائب بن يزيد قالَ: «ذهبتْ بي خالتي إلى النبيِّ ﷺ فقالت: يا رسولَ الله إنَّ ابن أختي وَجِعٌ، فمسحَ رَأْسي، ودعا لي بالبركةِ، ثم توضَّأ فشربتُ مِنْ وضوئه، ثم قمتُ خلفَ ظَهرِهِ، فنظرتُ إلى خاتم النبوةِ بيْنَ كتفيه، مثل زر الحَجَلَةِ» [البخاري: ١٩٠. ومسلم: ٢٣٤٥].

وأخبرتنا التوراةُ أنَّ موسى عليه السلام باركَ بني إسرائيلَ قبل موتِه، فقال: «١ جاءَ الرَّبُّ مِنْ سيناءِ، وأَشْرَقَ لَهُ مِنْ سَعير، وتَلألأَ من جِبالِ فَاران» [التثنية، الإصحاح الثالث والثلاثون:١].

وجاءَ في سِفْرِ حبقوق: «٣ اللهُ جاءَ من تِيمانَ، والقُدُّوسُ من جَبَلِ فارانَ. سِلاهْ. جَلالُهُ غَطَّى السَّماواتِ، والأَرْضُ امْتَلأَتْ من تَسْبيحِهِ» [سفر حبقوق، الإصحاح الثالث: ٣].

وسيناءُ التي جاءَ الربُّ منها هي التي خاطبَ اللهُ عليها موسى، وسعيرُ التي أشرقَ عليها قريةٌ تقعُ شمالَ مدينةِ الخليلِ، بالقرب مِنْ مدينة حَلْحُول، وبجوارها جبلُ سَعير، وفارانُ التي تلألأ مِنْ جبالها هي مكة وقد نزل على رسولنا الوحيُ في أحد جبالها وهو جبلُ حراء أعلى جبالِ مكة، وفي التوراةِ أنَّ موضعَ سكنى إسماعيل كان في برية فاران.

قال أبو محمد بن قتيبة فيما نقله عنه ابن تيمية: «مجيءُ الربِّ مِنْ طورِ سَيْناءَ، إنزاله التوراةَ على موسى مِنْ طور سيناءَ، كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا، وإشراقهُ مِنْ سَعير، إنزالهُ الإنجيلَ على المسيح، وكذلك استعلانه مِنْ جبال فاران، إنزاله القرآنَ على محمدٍ ﷺ، وجبالُ فاران هي جبال مكّةَ، وفي التوراةِ أنَّ إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فارانَ».

وإن شئتَ الاطلاعَ على المزيدِ مِنَ البشاراتِ الخاصةِ بنبينا وكتابِهِ وأُمَّته ومبعثِهِ ومهاجَرِه، والوقائعِ التي تقعُ في زمانِ أُمته، فارجعْ إلى كتابنا: «أشراطِ الساعة في الكتبِ السماوية السابقة»، ص:١٣-٧٣.

وقد وَصَفَ اللهُ تعالى رسولَنا ﷺ في الوحي الذي أوحاه إلى موسى عندما كان مع السبعين مِنْ قومه الذين صحبهم لميقاتِ ربِّه: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

والمعروفُ: كلُّ ما استحسنه الشَّرعُ وأمر به، كعبادةِ الله، وصلةِ الأرحامِ، ومكارم الأخْلاقِ، والمنكرُ: ما أنكره الشَّرْعُ، ونهى عنه، كعبادةِ الأوثان، وارتكابِ المعاصي.

والطيباتُ: هي التي أباحها اللهُ تعالى، وجعلها حِلاًّ لخلقه، فاللهُ لا يحلُّ إلا الطيب. والخبائثُ: هي التي دلَّ الشرْعُ على خُبْثِها بنهيه عنها، كالميتةِ والدمِ ولحمِ الخنزيرِ، ونحو ذلك. وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الإصْرُ الذي رفعه الله تعالى عن بني إسرائيل بهذا الدِّينِ الذي أنزلَهُ اللهُ تعالى التكاليف الشرعيةُ الثقيلةُ التي كلفهم اللهُ تعالى بها، فقد أوْجب على الذين عَبَدُوا العجلَ أن يَقْتُلُوا أنفسهم، ليقبل توبتهم، و﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ هي التكاليفُ القويَّةُ الشديدةُ أيضاً، فكان الواحدُ لا يصلي إلا باستعمال الماءِ، ولا يصلي إلا في كنيسة، وإذا مَسَّت النجاسة ثوبَهُ وجبَ أن يقرضَهُ بالمقراضِ، أما هذه الأمةُ فقد جعلت لها الأرض مسجداً وطهوراً، وأُجيزَ لها إزالةُ النجاسةِ بالماءِ، وقولُه سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧] أي: الذين صَدَّقوا برسولنا ﷺ، وعزَّروه، أي: منعوه أن ينالَهُ سوء، ونصروه على مَنْ ظلمهُ، وأرادَ الشرَّ به، واتبعوا النورَ الذي أنزل معه، وهو القرآنُ العظيمُ، وسُمِّي القرآنُ نوراً، لأنه يكشفُ ظلماتِ الباطلِ والشركِ والكفرِ، ويهدي إلى الحقِّ، وقد سمَّاه اللهُ نوراً في قوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء:١٧٤].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف:١٥٧] أي: الفائزون، وأعظمُ فوزهم دخولهم الجناتِ في يومِ الدين.

٣- أمَرَ اللهُ عبدَه ورسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يبلغَ الناسَ جميعاً أنه رسولُ اللهِ إليهم:

أمَرَ اللهُ تعالى عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ أن ينادي الناسَ جميعاً، ويُخبرهم أنَّه رسولُ الله تعالى إليهم جميعاً ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، ومناسبةُ هذه الآيةِ لما قبلها أنَّ الله أخبر بني إسرائيلَ في عهدِ موسى عليه السلام أنَّهم مأمورين في عهدِ محمدٍ ﷺ بالإيمانِ بهِ ومتابعتِهِ، وأمَرَ هنا رسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يخبرَ الناسَ بذلك، ويقولَ لهم: إنه رسولُ الله إليهم جميعاً

وكان كلُّ نبيٍّ قبلَ عَصْرِنا يبعثُ إلى قومِهِ خاصةً، وينادي قومَهَ دون غيرهم، ويقولُ لهم: يا قومي.

وكانُ رسولنا ﷺ مرسلٌ للناسِ كلِّهم مبثوثٌ في كتابنا في مواضعَ كثيرةٍ، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان:١] وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام:١٩]. وفي الحديث عن أبي الدرداءِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «يا أيُّها الناسُ، إنِّي رسولُ الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبْتَ، وقالَ أبو بكر: صدَقتَ» [البخاري: ٤٦٤٠].

وعن أبي هريرة عن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ: «والذي نفسُ محمدٍ بيَدِهِ، لا يسْمَعُ بي أحَدٌ مِنْ هذه الأُمَّةِ يهوديٌّ ولاَ نَصْرانيٌّ، ثمَّ يَموتُ، ولَمْ يُؤْمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ بِهِ إلاَّ كانَ مِنْ أصحابِ النار» [مسلم: ١٥٣].

وعن عمْرو بن شعيبٍ عن أبيهِ عن جدِّه أنَّ رسولَ الله ﷺ عامَ غزوة تبوكَ قامَ مِنَ الليلِ يصلي، فاجتمعَ وراءَه رجالٌ مِنْ أصحابه يحرسُونه، حتى إذا صلَّى وانصرفَ إليهم فقال: «لقد أُعْطِيْتُ الليْلَةَ خَمْساً، ما أُعْطِيَهُنَّ أحَدٌ قَبْلِيَ، أمَّا أنا فأُرْسِلْتُ إلى الناسِ كلِّهم عامَّةً، وكانَ مَن قبلي إنما يُرْسَلُ إلى قومِهِ» [مسند الإمام أحمد ١١/ ٦٣٩، رقم (٧٠٦٨). وأورده الهيثمي في المجمع: ١٠/ ٣٦٧، وقال: رجاله ثقات. ونقله ابن كثير في «تفسيره» [الأعراف:١٥٨] وانظر بقية الأربعة في الحديث].

وفي الصحيحين عن جابر بن عبدالله قالَ: قالَ رسول الله ﷺ : «وكان النبيُّ يبعثُ إلى قوْمِهِ خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى الناسِ عامةً» [البخاري: ٣٣٥، مسلم: ٥٢١].

وعرَّفنا ربُّنا تبارك وتعالى بنفسِهِ فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف:١٥٨]. فاللهُ الذي أنا مرسل من عنده له ملكُ السموات والأرض، وليس هناك معبودٌ يستحقُّ العبادَةَ غيره، وهو الذي يحيي ويميت، أي الذي بيده الإحياءُ والإماتةُ، وقولهُ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف:١٥٨] أمرهم أنْ يؤمنوا بالله، ويؤمنوا برسولِهِ، وهو النبيُّ الأميُّ، الذي لم يقرأ من كتابٍ، ولم يخطَّ بالقلمِ، وهو الذي وَعَدَنا بِهِ في الكتبِ المتقدِّمةِ، فإنه مكتوب ومنعوتٌ في تلك الكتب وهو يؤمنُ بالله، وجميعِ كلماتِهِ التي أنزلها اللهُ عليه، أو أنزلها في الكتب السابقة.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ أي: اسلكوا طريقه لعلكم تهتدونَ إلى دينكم الحقِّ، الذي يوصلكم إلى جنَّاتِ النعيم.

وقال ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآيةِ الأخيرة مِنْ هذا النصِّ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف:١٥٩]، قال ربُّنا: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ هم بنو إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ يعني طائفةً، فالأُمَّةُ الطائفةُ الكثيرةُ المتفقة في دينٍ أو نحوه، وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يهدون بشرْعِ الله ودينه الذي أنْزَله على رسوله، وقوله: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ أي: وبالحقِّ يعدلون، والعدلُ الطريقُ الوسطُ الذي لا إفراط فيه ولا تفريط.

وهذه الآية الكريمة دلتْ على أنَّ مِنْ قوم موسى أمةٌ طيبةٌ على الحقِّ، وهذا المعنى جاء مُصرحاً به في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٣-١١٤]، وكقوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران:١٩٩]، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ ...﴾ الآية [الإسراء:١٠٧-١٠٨]، وكقوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرعد:٣٦]، في أهل الكتاب الذين يفرحون بما أنزل إليه ﷺ ، وقد بيَّنَ القرآنُ أنَّ هذه الطائفةَ مِنْ أهلِ الكتابِ -التي كانت متمسكةً بشريعةِ

موسى وبها في التوراةِ إذا كانت على ذلك حتى آمنت بنبينا محمدٍ ﷺ- أنها تُؤتى أجرها مرتين، أجر إيمانها الأول بموسى وكتابه، وإيمانها بمحمد وكتابه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - اختار موسى من قومِهِ سبعينَ رجلاً، وانطلق بهم إلى ميقاتِ الله تعالى.

٢ - أخذتِ الرجفةُ الصفوةَ التي اختارَها من بني إسرائيلَ، لأنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه.

٣- موسى عليه السلام يدعو ربَّه، ليغفرَ لهم، ويرحَمَهُم، ويكتبَ لهم في الدنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً.

٤ - أعلَم اللهُ -تعالى- موسى بما أوحاه إليه في ذلك الميقاتِ الذي كان فيه مع السبعين الذين اختارهم مِنْ قومِهِ، أنَّ رحمته التي وسِعَتْ كلَّ شيء سيكتبها للذين يتبعون النبيَّ الخاتمَ عندما يبعثُ في آخر الزمانِ، فبنو إسرائيل كانوا مأْمورين بالإيمانِ برسولِنا ﷺ.

٥- أخبر ربُّنا أنَّ نبينا كان مكتوباً في التوراةِ والإنجيلِ، ولا تزال بعضُ البشارات المخبرةُ به موجودة فيهما إلى اليوم.

٦ - ذَكَرَ اللهُ تعالى في الوحي الذي أوحى به إلى موسى صفاتِ نبينا الذي سيبعثُ في آخرِ الزمانِ، فهو النبيُّ الأميُّ الذي لم يقْرَأْ من كتابٍ، ولم يَخُطَّ بالقلمِ، وهو الذي يأمرُ بالمعروفِ، وينهى عن المنكرِ، ويحلُّ الطيبات، ويُحرِّمُ عليهم الخبائث، ويرفعُ عن بني إسرائيلَ إصرهم، والأغلالَ التي كانت عليهم.

٧- الذين يتبعونَ النبيَّ الأميَّ، وينصرونَه، هم الفائزون.

٨- رسولُنا ﷺ مرسلٌ إلى الناسِ كافةً، وكل نبيٍّ قبله مرسلٌ إلى قومِهِ خاصَّةً.

٩- اللهُ الذي يدعو رسولُنا ﷺ إليه له ملكُ السمواتِ والأرضِ، وليس هناك معبودٌ يستحقُّ العبادةَ غيره، وهو الذي يحيي ويميت سبحانه.

١٠- بعضُ بني إسرائيل الذين هم قومُ موسى دخلوا الإسلامَ ودعوا إليه، وحكموا بِهِ

النص القرآني الثاني والعشرون من سورة الأعراف
ما فعله ربُّنا ببني إسرائيل في فترة التِّيهِ

أولاً: تقديمٌ

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّ بني إسرائيل نَمَوْا وكثُروا، وأصبحوا أسباطاً أُمماً، أي: أصبحوا بمثابةِ القبائلِ عند العرب، وكانَ اللهُ قد قَدَّرَ عليهم التيه في الصحراءِ، ففجَّرَ لهم الماءَ مِنَ الصخرِ الأصمِّ لشُرْبِهِمْ، وأنزلَ لهم المنَّ والسلوى لطعامهم، وظَلَّل عليهم الغمام ليقيهم حَرَّ الشمسِ.

وأمرَهُم ربُّهم بعد انقضاءِ فترة التيهِ بسكنى قريةٍ مِنْ القرى، والأرجحُ أنَّها القدسُ، وأمَرهم أن يأكلوا مِنْ طعامِها، أن يدخلوها ساجدينَ، داعينَ ربّ العالمين أن يَحُطَّ عنهم خطاياهم، فبدَّلَ الظالمون مِنْ بني إسرائيلَ ما أمَرهم بِهِ ربُّ العالمين، فأنزلَ اللهُ عليهم رجزاً من السماءِ بسببِ ظلمهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف:١٦٠-١٦٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- قطَّعَ اللهُ بني إسرائيلَ في الأرضِ اثني عَشَر سبطاً:

أخبرنا اللهُ أنَّه قَطَّع بني إسرائيل اثنيْ عَشَرَ سبطاً أُمماً ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾ [الأعراف:١٦٠]. ومعنى ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ صَيَّرْناهم قطعاً، فقد كانوا أبناءَ رجلٍ واحدٍ هو إسرائيل، وكانوا اثنيْ عَشَرَ رجلاً، فصارَ من نسلِ كلِّ ولد مِنْ أولادِ يعقوب سبط، والسِّبْطُ عند بني

إسرائيلَ كالقبيلة في أولاد إسماعيل، فأصبح أبناءُ إسرائيل اثني عشرَ سبطاً أو قبيلةً، وقوله: ﴿أُمَمًا﴾ بدل من قوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ أي: كل سبط منهم أُمَّة وقبيلة.

٢- استسقى موسى قومَه فضربَ بعصاه الحجرَ فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً:

أعْلمنا ربُّنا -عز وجل- أنَّه عندما ضَلَّ بنو إسرائيل في التِّيْهِ عَطِشُوا، فطلبوا منه السقيا، فأوحى اللهُ إليه أنْ يضربَ بعصاه الحجرَ، فانبثقَت منه اثنتا عشرةَ عيناً، لكلِّ سِبْطٍ منهم عينٌ يشربون منها، وقد عَلِمَ كلُّ سِبْطٍ العينَ التي يشربون منها ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ﴾ [الأعراف:١٦٠].

والوَحْيُ في اللغة: كلُّ إلقاءٍ يجمعُ بين السرعةِ والخفاءِ، والوحيُ في الشرع: ما أوْحَى اللهُ به لأنبيائِه إمَّا بكلامِهِ أو بواسطةِ مَلَكٍ مِنْ الملائكةِ، وكان الملكُ يأتي الرسولَ ﷺ على أكثر مِنْ طريقٍ.

والعصا التي ضربَ بها موسى الحجرَ هي عصاهُ التي كانت تتحول إلى ثعبانٍ مبينٍ عندما كان يلقيها، والحجرُ الذي ضرب به عصاه، قد يكونُ حجراً معروفاً ينقلونَهُ معهم في مسيرهم، وقد يكون حجراً من جنسِ الحجارةِ.

وقوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ أي: انفجرتْ منه اثنتا عشرةً عيناً، كما قالَ سبحانه: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ [البقرة:٦٠]. والعينُ معروفةٌ، وهي كلُّ ماءٍ كثيرٍ. وقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ﴾ أي: جعلَ اللهُ لكلِّ سبطٍ عَيْناً يشربونَ منها، وقد عَلِم كل سِبْطٍ العينَ المخصصةَ له.

٣- ظلَّلَ اللهُ -تعالى- على بني سرائيلَ الغمامَ وأنزل عليهم المنَّ والسلوى:

فجَّرَ اللهُ تعالى لبني إسرائيلَ الماءَ مِنَ الصخرِ الأصمِّ لشرابهم، وظَلَّلَ عليهم الغمامَ ليقيهم حَرَّ الشمس، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى لطعامِهِمْ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ﴾ [الأعراف:١٦٠] والمنُّ: شيءٌ يُشْبِه العسلَ الأبيضَ كان ينزلُ عليهم كنزولِ الندى والثلجِ بعد الفجرِ قريباً من بيوتهم ومنازلِهِمْ، والسلوى: هو طائرُ السُّمانَى، أو طائرٌ يشبهه، وهو طائرٌ لحمهُ طيبٌ ولذيذٌ، فهو طعامٌ ينالونه مِنْ غيرِ جهدٍ، وهو جيِّدٌ ومفيدٌ.

وقد أمَرَ اللهُ تعالى بني إسرائيلَ في ذلكَ الزمانِ أن يأكلوا من ذلكَ الطعامِ الطيبِ الذي رزقهم إيَّاه في صحراء التيه مدةَ أربعين عاماً ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف:١٦٠].

وقد أعلمنا ربنا أنَّ بني إسرائيلَ خالفوا أمْرَ ربِّهم، فلم يظلموه فيما خالفوا فيه، ولكنَّهم ظلموا أنفُسهم بعصيانِهِم ربَّهم.

٤- أمر اللهُ تعالى بني إسرائيلَ أنْ يسكنوا إحدى القرى، فبدَّلوا قولاً غير الذي قيل لهم:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ بني إسرائيلَ أن يسْكُنوا إحدى القرى، ويبدو أنَّ القريةَ كانت قريبةً منهم، لأنَّه قالَ فيها: ﴿هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ و﴿هَذِهِ﴾ إشارةٌ للقريب، وأمَرَهم أنْ يأكلوا مِنْ طعامِ تلك القريةِ، وأمرهم أن يدْعوا ربَّهم قائلين: حُطَّ عَنَّا خطايانا، وأمرهم أنْ يدخلوا بَابَ تلك القريةِ ساجدين، ليغفر لهم خطاياهم، وأخْبَرهم أنَّه سيزيدُ المحسنين إحساناً ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأعراف:١٦١].

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ جماعة من بني إسرائيل من الذين أمرهُمُ اللهُ تعالى بما سبق ذِكْرُه ظلموا، فقالوا غيرَ الذي أُمروا بقولِهِ، فأرسلَ اللهُ تعالى عليهم رجزاً، أي: عذاباً من السماء بسبب ظلمهم ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف:١٦٢].

وقد أخبرنا ربُّنا خبرَ هذه القرية في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة:٥٨-٥٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كان بنو إسرائيل اثني عشرَ ولداً، فأخرجَ من كلِّ ولدٍ من الأولادِ سبطٌ، والأسباطُ في بني إسرائيلَ كالقبائلِ في بني إسماعيلَ.

٢- قدَّرَ الله تعالى على بني إسرائيلَ أنْ يتيهوا في صحراءِ سيناءَ أربعين عاماً، وأخْرجَ لهم في هذه المدةِ الماءَ من الصخرِ الأصمِّ، وأنزلَ لهم المنَّ والسلوى لطعامِهِمْ، وأظَلَّهم الغمامُ ليخفف عنهم حرَّ الشمسِ، وأمرهم أنْ يأْكلوا من ذلكَ الطعامِ، ويشربوا من ذلك الشرابِ، وأخبرَ أنهم بمخالفتهم لم يظلموه، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم.

٣- أمرهم اللهُ تعالى أن يسْكُنُوا قريةً مِنَ القرى، ويأكلوا مِنْ طعامها، وأن يدخلوها ساجدين داعين ربَّهم تبارك وتعالى، فبدَّلُوا وظَلَمُوا وغيَّروا، فعذَّبَ اللهُ الظالمين بإرسالِ رجزٍ مِنَ العذابِ عليهم بسببِ ظلمهم.

النص القرآني الثالث والعشرون من سورة الأعراف
معاقبة ربِّ العزة الذين اعتدوا في السبت فمسخهم قردةً

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا في آياتِ هذا النص عن القريةِ التي كانت حاضرةَ البحرِ، فابتلاهم بجلب الحيتان والأسماك عليهم في يوم السبتِ، وفي غيرِ السبت لا يرونَ منها شيئاً، فلما طالَ الزمانُ عليهم احتالَ بعضُهُم على الصيدِ في يومِ السبتِ، فأنزل اللهُ عقابَهُ بالصائدينَ المحتالينَ، فمسخَهُمْ قردةً خاسئين، وأنجى المؤمنين الذين أنكروا عليهم وسكتَ عن الساكتينِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- احتيالُ اليهودِ الذين يسكنونَ مدينةَ أيْلَةَ على الصيدِ في يومِ السبتِ:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يسْأَلَ اليهودَ عما كانوا يخفونَه ويكتمونَه من أمْرِ أهلِ القريةِ التي كانت حاضرةَ البحرِ، وسميت بحاضرةِ البحر لأنها كانت على شاطئِه، وهي على ما يقوله أكثرُ المفسرين مدينةُ أيلةَ، وكانت واقعةً على شاطئِ البحرِ الأحمرِ، في موقعِ مدينةِ العقبةِ اليوم أو قريباً منها كما يذكره كثيرٌ من المفسرين.

وقد كانَ اليهودُ يكتمونَ خبرها، لأنها سُبَّةٌ عليهم في تاريخهم، لأنَّ اللهَ مسخَ آباءَهم فيها قروداً بسبب احتيالِهِمْ على الصيدِ في يومِ السبتِ، فأظهر الله خبرها في القرآن وكشفه، إظهاراً للحقيقة، وعظة للناس ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ [الأعراف:١٦٣].

وقد اختبرَ اللهُ تعالى أهلَ هذه القرية، بأنْ جعلَ الحيتان والأسماكَ تأتي أهلَ هذه القريةِ في يوم السبتِ شُرَّعاً، أيْ: ظاهرةً بارزةً تملأُ البحرَ والشواطئَ، فإذا انقضى يومُ السبتِ ذهبتْ

واختفتْ بقية أيامِ الأسبوع ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف:١٦٣].

وكان إتيانُ الحيتانِ وانقطاعُها على النحو الذي ذكره اللهُ تعالى اختباراً وامتحاناً مِنَ الله بسبب فِسْقِهم ومعصيتِهِمْ لربِّ العزَّة ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف:١٦٣] وقد ابتلى اللهُ تعالى هذه الأُمَّةَ بمثلِ ما ابتلى به بني إسرائيل، ابتلى هذه الأمةَ بصيد البرِّ تنالُه أَيْديهم ورماحُهم، فصبرُوا، ولم يَمُدُّوا للصيد رمحاً ولا يداً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة:٩٤].

وقد احتالَ بعضُ أهلِ هذه القريةِ على الصيدِ في يومِ السبتِ، فكانوا ينصبون الشباكَ للحيتان في يومِ الجمعةِ، فإذا عَلِقَتْ بها الأسماكُ في يوم السبتِ أخذوها في يومِ الأحدِ، ومن ذلك حَفْرُهم حفائر تتصلُ بالبحر بقنواتٍ، فإذا امتلأت الحفائر بالسمك، وضعوا في مجرى الحفائر ما يمنعُ السمكَ مِنَ الخروجِ منها.

٢- موقفُ أهلِ القرية من الذين احتالوا على الصيدِ في يوم السبت:

أنكَرَ بعضُ أهلِ القريةِ على الذين احتالوا للصيدِ في يومِ السبتِ، فأنكروا عليهم فعلتهم، وقالتْ طائفةٌ أُخرى للمنكرين: لِمَ تعظونَ هؤلاءِ القومِ السادرينَ في الغيّ، الذين سيهلكُهُمْ ربُّهم أو يعذِّبهم عذاباً شديداً ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف:١٦٤] أي: لِمَ تنهون هؤلاءِ، وقد علمتم أنهم هالكون، وأنهم مستحقُّون العقوبةَ مِنَ الله؟ قال الذين تَصَدَّوْا للإنكار: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف:١٦٤] فالله أخذ علينا العهدَ والميثاقَ بأن نأمرَ بالمعروف، وننهى عن المنكر، فنحن نريدُ أن نُعذِرَ إليه بالقيامِ بها شرعه لنا، ولعلَّ هؤلاء يتقون الله، ويخافونَه، ويرجعونَ إليه.

٣- مصيرُ أهلِ القريةِ التي كانت حاضرةَ البحر:

أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ أهلَ القريةِ انقسموا إلى ثلاثةِ أقسام: الأول: الذين أنْكَروا على الظالمين الذين احتالوا على دينِ الله وشرعِهِ، فهؤلاءِ أنجاهم اللهُ تعالى مِنْ بلائِه وعقابِهِ. والثاني: الظالمون الذين احتالوا على الصيد في اليومِ الذي حَرَّم اللهُ عليهم الصيدَ فيه، وهؤلاءِ أخذَهُمُ اللهُ تعالى بعذابٍ بسببِ فسقهم. وقد مَسَخَ اللهُ تعالى هؤلاءِ قردةً خاسئين، أما الفريقُ الثالثُ الذين سَكتوا، فسكَتَ اللهُ عنهم ونرجو أنْ يكون اللهُ قد عَفا عنهم ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا

ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف:١٦٥-١٦٦].

وقوله: ﴿نَسُواْ﴾ أي: تركوا ما وعظوا به. وقوله: ﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ أي: عن المنكر. وقوله: ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ أي: شديد عظيم، وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ أي: بسبب خروجهم عن طاعةِ الله تعالى. وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ أي: تمردوا عما نهوا عنه، والمتمردُ: الذي لا يقبلُ الموعظةَ. وقوله: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: مقموعين مطرودين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يسألَ اليهودَ عن أهل القريةِ التي كانت حاضرةَ البحر الذين اعتدوا في السبتِ، لأنَّه كانوا يكتمون خبرها، لسوءِ ما فعل أصحابها، وسوءِ ما وقعوا فيه.

٢- بيَّنَ اللهُ -تعالى- ما عَمِلَهُ أصحابُ القريةِ مِنَ الاحتيالِ على شرعِ الله تعالى، بحيث استباحوا بالحيلةِ ما حرَّمه اللهُ عليهم مِنَ الصيدِ في يومِ السبت.

٣- فَضْلُ الذين أنْكَروا على الذين احتالوا على الصيدِ في يومِ السبتِ، فصرَّحَ اللهُ بإنجائهم مِنَ العذابِ، وأهلك اللهُ المحتالين بالصيدِ، وسكتَ عن الساكتين.

٤- قدرةُ ربِّ العزةِ، فقد مسخَ الذين احتالوا على الصيدِ قردةً خاسئين، أي: مطرودين من رحمة الله تعالى.

٥- علينا أنْ نحذرَ أن نَفْعَلَ فعلاً مثل فِعْلِ هؤلاءِ المحتالين لاستحلالِ شرعِ الله تعالى، خشيةَ أن يصيبنا مثلَ ما أصابهم.

٦- اختلفَ أهلَ العلم في الذين مَسَخَهم اللهُ قردةً أو خنازيرَ أو فئران هل يتناسلون، وهل لهم خَلَفٌ في الوجودِ اليوم، فذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى جوازِ ذلك، واستدلُّوا بأحاديثَ منها ما رواه أبو هريرة قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِنْ بني إسرائيلَ، لا يُدْرَى ما فَعَلَتْ، وإنِّي لا أُراها إلا الفَأْرَ، إذا وُضِعَ لها ألبانُ الإبلِ لم تشربْ، وإذا وُضِعَ لها ألبانُ الشاءِ شربت» [البخاري: ٣٣٠٥. ومسلم: ٢٢٩٧]. وعن جابر بن عبدالله أنَّ رسولَ الله ﷺ أُتِيَ بِضَبٍّ، فأبى أن يأْكُلَ منه، وقال: «لا أدري، لعلَّه من القرون التي مسِخَتْ» [مسلم: ١٩٤٩].

والصوابُ مِنَ القولِ أنَّ الممسوخَ ليسَ له عَقبٌ، ولا يتناسَلَ، ففي الحديث عن عبدالله ابن مسعودٍ، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله القردةُ والخنازيرِ، هي مما مُسِخَ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «إنَ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يُهْلِكَ قوماً أو يُعَذِّبْ قوماً، فيَجْعَلَ لهم نسلاً، وإنَّ القردة والخنازيرَ كانوا قبل ذلك» [مسلم: ٢٦٦٣]. وما ذكره الرسولُ ﷺ قبلَ ذلك من احتمال أنْ يكونَ لها نسلٌ كان عن اجتهاد منه، وما أخبر به في الحديث الأخير كان عن وحي، والله أعلم.

النص القرآني الرابع والعشرون من سورة الأعراف
حالُ اليهودِ عبْرَ تاريخِهِمْ

أولاً: تقديم

ذكر اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ شيئاً مما حَفَلَ به تاريخُ بني إسرائيلَ، فمن ذلك العذابُ الشديدُ السيئُ الذي سلَّطه عليهم، ومن ذلك تقطيعهم في الأرض أمماً، أي: عشائر وقبائلَ، وابتلاهم اللهُ بالحسناتِ والسيئات، لعلهم يؤوبون إلى الله تعالى، وذكر اللهُ -تعالى- أنَّ الخَلَفَ السيئَ الذين ورثوا الكتاب كان كلُّ همِّهِمْ تحصيلَ الدنيا الفانيةِ، ونسوا ما ألزمهم اللهُ بِهِ من مواثيقَ وعقودٍ، ثمَّ ذكر الذين أخذوا الكتاب والتزموا به، وهؤلاء آمنوا برسولنا ﷺ، وأقاموا الصلاة، وسيكتب اللهُ لهم أجرهم وثوابهم، وفي ختامِ النصِّ أخبرنا ربُّنا برفع الجبلِ فوقهم كالغمامة عندما رفضوا الأخذ بالتوراة في عهد موسى، فأجابوا تحت الوعيد والتهديد.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف:١٦٧-١٧١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أعلمنا ربنا أنه سيبعث على اليهودِ من يسومهم سوءَ العذابِ إلى يومِ القيامةِ:

أَعْلَمَ اللهُ تعالى عبادَه أنَّه سيبعثُ على اليهودِ مَنْ يسومُهُمْ سوءَ العذابِ إلى يومِ القيامة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ﴾ [الأعراف:١٦٧].

وقوله: ﴿تَأَذَّنَ﴾ تفعَّل من الأذان بمعنى الإعلامِ، أي: أعلم اللهُ -تعالى- الخلقَ، وقولُهُ: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ليرسِلَنَّ عليهم مَنْ يذيقهم سوءَ العذابِ إلى يومِ القيامةِ، ومنْ

نَظَرَ في تاريخِ اليهودِ وَجَدَ مصداقَ ما أخبرنا بِهِ في هذه الآيةِ الكريمةِ، فتاريخُ اليهودِ كُلُّه نكباتٌ ومصائبُ تَسَلَّطَ فيها عليهم أعداؤُهم، فقهروهم وأذَلُّوهم، وأخرجُوهُمْ مِنْ ديارِهم، وسلبوهم أموالَهُمْ، بل سلبوهم أولادَهُمْ، ولم يكن ذلك اعتباطاً، بل لإفسادهم في الأرضِ التي حَلُّوا فيها، ومَنْ يَعْرفُ تاريخَهُمْ في أوروبا في الألفِ سنةِ الأخيرةِ يرى أنَّ ذلك تحقَّقَ على شكلٍ واسعٍ.

وقد أخبرنا ربُّنا -عَزَّ وجَلَ- أنَّ هذا الذي ذكرهُ هنا مِنْ بَعْثِهِ على اليهودِ مَنْ يسومهم سوءَ العذابِ إلى يومِ القيامةِ له استثناءٌ، وهذا الاستثناءُ وقع في زماننا، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران:١١٢].

وكان وقوعُ هذا الاستثناءِ بسببِ بُعْدِ المسلمين عن دينهم، وقَطْعِهِمْ ما بينهم وبين ربِّهم، فسلَّطَ اللهُ تعالى عليهم أخسَّ أعدائِهم، وهم اليهودُ، وسخَّر اللهُ تعالى لهم الدولَ العظمى كبريطانيا وأمريكا وفرنسا وألمانيا، فنصرتهم وأيدتهم، وأقامت لهم دولةً في مسرى رسولِنا ﷺ.

وهذا الاستثناءُ غير دائمٍ، فيوشكُ أن يزولَ، ويعود تسليطُ الله عليهم مَنْ يسومهم سوءَ العذابَ، وسيتحقق ذلك قريباً -إن شاءَ اللهُ تعالى- بعد أن يؤوبَ المسلمون إلى ربِّهم، ويعمِّروا ما أفسدوه بينهم وبين الله عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف:١٦٧]، أي: إنَّ عقابَ ربِّنا سبحانه سريعٌ، فهو إذا أراد الشيءِ أنْ يكونَ قال له: كُنْ فيكون، كما أرادَ سبحانه، والعقابُ: هو التنكيلُ بسببِ ما ارتكبَهُ العبدُ، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ أي: كثيرُ المغفرةِ لعبادِهِ المؤمنين التائبين.

٢- تشتيتُ الله تعالى اليهودَ في جنبات الأرض:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّه قطَّع بني إسرائيل في الأرضِ أُمماً ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف:١٦٨]، أي: مزَّقَهم اللهُ تعالى مِزَقاً، وفرَّقهم فِرَقاً، ومن ينظُرُ في المواقعِ التي كان فيها اليهودُ قبل أن يقيموا لهم دولةً فوق مَسْرَى نبينا يجدهم منتشرين مشتتين في مختلفِ البلادِ والدولِ.

٣- اليهودُ منهم الصالحون ومنهم دونَ ذلك:

أَخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف:١٦٨] والصالحونَ مِنَ اليهودِ قبلَ عيسى كثيرٌ، فكلُّ مَنْ آمن بموسى والأنبياءِ من

قبله، وآمنَ بأنبياءِ بني إسرائيل والتزم شريعةَ التوراةِ كان مِنَ الصالحين، وبعد بعثةِ عيسى ﷺ، لا يكون أحدٌ منهم صالحاً حتى يؤمن بعيسى ﷺ، قال تعالى مخبراً بإيمان مَنْ آمن مِنْ بني إسرائيل، وكُفرِ مَنْ كَفرَ بعد بعثة عيسى ﴿فَامَنَت طَّآيِفَةٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآيِفَةٌ﴾ [الصف:١٤].

فلما بُعِثَ نبيِّنا محمدٌ ﷺ، فلا يكونَ أحدٌ منهم صالحاً إلا بعدَ أنْ يُؤمِنَ به. وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِنْهم منحطُّونَ عن رتبةِ الصلاحِ، مقصِّرون عنها، لتلبُّسهم بالكفرِ والذنوبِ والمعاصي.

وقد أثْنَى اللهُ -تعالى- في غير موْضعٍ مِنْ كتابنا على المؤمنين مِنَ اليهودِ بنبيِّنا وكتابنا، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:١٩٩].

٤- ابتلاءُ الله تعالى بني إسرائيلَ بالسيئاتِ والحسناتِ لعلهم يرجعون:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ابتلى بني إسرائيلَ بالسيئاتِ والحسناتِ لعلهم يرجعون إلى الله ويؤوبون إليه سبحانه ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف:١٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ أي: اختبرناهم وامتحناهم، والحسناتُ جمع حسنةٍ، وهي ما يُنْعِمُ عليهم ربُّهم مِنْ الطيباتِ كالخصبِ والعافيةِ، والأموالِ والأمطار، والسيئاتُ: ما يبتليهم به ربُّ العباد مِنَ الجدْبِ والزلازلِ والأمراضِ جمع سيئةً، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: يرجعون إلى ما يرضي اللهَ تعالى عزَّ وجلَّ.

٥- الذين يبيعون الدين بعرضٍ زائلٍ مِنَ الدنيا:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ بني إسرائيلَ انقسموا تجاهَ الكتابِ الذي ورثوه إلى قسمين:

الأول: الذين ورثوه، ولم يعملوا به، ولم يأخذوا بأحكامه، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف:١٦٩].

وقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: فخَلَفَ مِنْ بعدِ الذين قطَّعَهُمُ اللهُ تعالى أُمماً وجعلهم مِنَ الصالحين خَلْفٌ، أي: خَلْفُ سوءٍ، مِنْ ذريتهم، ورثوا الكتاب أي: ورثوا التوراة عن آبائهم، وقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ والمراد بالعرضِ الأدنى الذي يأخذونه متاعُ الدنيا الزائلُ المضمحلُّ، أي: يستعيضونه عن كتابِ الله تعالى.

ومِنْ هؤلاءِ الذين حدَّثنا عنهم في هذه الآيةِ الذين يأْخذونَ عَرَضَ هذا الأدنى اليهودُ الذين كانوا موجودين زمنَ بعثةِ رسولِنا ﷺ، كانت عندهم التوراةُ فيها صِفاتُ نبينا ﷺ وأخبارُهُ، فكتموها وغيَّروها وبدَّلوها. ومِنْ أَخْذِهِمْ عَرَضَ هذا الأدنى ما يأْخذونه مِنَ الرشوةِ، ثم يحكمون للمبطلِ، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة:٧٩].

وفي هذه الآيةِ تحذيرٌ شديدٌ للعلماءِ والقضاةِ مِنْ هذه الأمّةِ الذين يحكمونَ بالباطلِ لقاءَ الرِّشا التي يأْخذونها مِنَ المبطلين.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٩].

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ هؤلاءِ الذين عَرَضَ لهم هذا الأدنى، يقولون بعد أنْ يأكلوا هذا العرضَ التافهَ: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، فهم يرتكبون المعاصي والذنوبَ، ويتمنون على الله أنْ يغفر لهم، وهم مُصِرُّون على الذنوب.

ومما يدلُّ على إصرارِهِمْ على الذنبِ أنَّهم لا يرتدعون عن الذنبِ الذي ارتكبوه، وإذا جاءَهم ذنبٌ مثلَ الذنب السابقِ ارتكبوه، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ ﴾ [الأعراف:١٦٩]. وهؤلاءِ مغرورون، فهم يأكلون الرِّشا، ويداومون على ذلك، ويزعمون أنَّهم سيغفرُ لهم.

وعلاجُ أمثالِ هؤلاءِ يكونُ بتذكيرهم بالله، وبما أخذه عليهم من عهودٍ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٩]. والميثاقُ: العقدُ المؤكَّدُ، وقوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أرادَ اللهُ تعالى حَمْلَ الذين خاطبهم على الإقرارِ بما أُخِذَ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ﴾ أي: درسوا ما في التوراة، ومعنى دراستهم لها تعلمهم وفهمهم لمعانيها. وقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ﴾ أي: دارُ القيامةِ خيرٌ للذين يتقون الله عز وجل، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٩]، أي: أليس عندهم عقل يَرْدَعُهُمْ عما انغمسوا فيه من السَّفَهِ، وأكْلِ الرِّشا.

٦- ثناءُ ربِّ العبادِ على الذين يتمسَّكون بالكتاب:

وحدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن القسم الثاني مِنَ اليهودِ تجاه الكتابِ الذي ورثوه، وهو التوراة، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٠]، وقوله: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ أي: يتمسكون به، ويعتصمون به، ويقيمون الصلاةَ، أي: يأْتون بها محافظين على أوقاتِها وهيئاتِها، وأركانها، وفُروضها، ومستحباتِها، وقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ أي: لا نضيع أجرهم وثوابهم، والمصلحون: الذين يُصْلِحون أعمالهم بامتثال أوامرِ الله تعالى واجتنابِ نواهيه.

وهؤلاء الذين ورثوا الكتابَ مِنَ اليهودِ هداهم تمسكهم بالتوراة إلى الإيمانِ برسولنا ﷺ والأخذِ بكتابنا، واتباعِ الإسلامِ، فالتوراة بشرت برسولنا ﷺ وأمرت بني إسرائيلَ باتباعه.

٧- رفْعُ الله -تعالى- الجبلَ فوقَ رؤوس بني إسرائيلَ كأنه غمامة:

أمرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنْ نذكرَ واقعةً جرتْ لبني إسرائيلَ مع نبيهم موسى بعد خروجهم مِنْ مصرَ، فقال: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف:١٧١]، وقد ذكر اللهُ هذه الواقعة في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة:٦٣]، وقال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ [النساء:١٥٤].

وهذه الواقعةُ وقعت لبني إسرائيل، بعد إنزالِ الله التوراةِ على بني إسرائيل، فرفضوا الأخذ بها جاءَت به من تكاليفَ، فعند ذلك رفع ربُّ العزةِ الطورَ فوقَ رؤوسهم كأنَّه ظلة، أي: كأنه غمامة، وقال لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: التزموا أحكام التوراة بقوةٍ، أي: بجدٍّ واجتهادٍ، وإلا سقط عليكم الجبلُ، فلما رأوا الجبلَ كالغمامةِ فوق رؤوسهِمْ خرُّوا ساجدين، وتعهَّدوا بالتزام العمل بالتوراة، وهذه الآية تدلُّ على أنَّ مَنْ خوطب بشرعِ الله، فيجبُ عليه أن يأخذه بقوةٍ ونشاطٍ واجتهادٍ، أي: من غيرِ تفريطٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ أي: تذكروا ما جاءكم في التوراةِ لتعملوا بها أُنزلَ عليكم مِنْ عندِ الله تعالى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه سيبعثُ على بني إسرائيلَ عندما يكثر شرُّهم وكُفْرُهُمْ وفسادُهم عبْر تاريخِهِمْ المديدِ مَنْ يذيقُهُمْ العذابَ الشديدَ إلى يومِ القيامةِ.

٢- استثنى ربُّنا مِنْ تاريخ بني إسرائيلَ فترةً زمنيةً يرفعُ اللهُ فيها العذابَ الدنيوي عنهم، وهي هذه الفترةُ الحاضرةُ التي علا فيها نَجْمُهُمْ، وأصبحَ لهم فيها كيانٌ ودولةٌ، ويوشكُ أنْ تزولَ هذه الفترةُ وتنقضي، ويُسلَّطُ عليهم العذابُ مِنْ جديدٍ.

٣- جَعَلَ اللهُ بني إسرائيلَ في الأرض أسباطاً، أي: أنشأ مِنْ كلّ ولدٍ مِنْ أولادِ يعقوبَ قبيلةً، وكان بعض مِنْ بني إسرائيلَ صالحاً وبعضٌ فاسداً، حتى إذا بعث نبينا محمدٌ ﷺ أصبحَ كلُّ مَنْ لَمْ يؤمن بهِ كافراً.

٤- حدَّثنا اللهُ تعالى عن الكفارِ الذين كفروا برسولنا ﷺ ، وما أصبحوا عليه مِن الضلالِ والباطلِ.

٥- أثنى اللهُ -تعالى- على الذين آمنوا بالله، وتمسَّكُوا بالتوراة، وأقاموا الصلاةَ، وهؤلاءِ لا يضيعُ اللهُ أجْرَهُمْ وثوابَهُمْ.

٦- ختَمَ اللهُ تعالى هذا النصَّ بواقعةٍ عظيمةٍ وقعت لبني إسرائيلَ في عهد موسى، فقد رفَضُوا الأخذَ بالتوراةِ بعد نزولها، فرفعَ اللهُ فوقَهُمْ الطورَ كالغمامةِ، فقبلوا الأخْذَ بها تحتَ الوعيدِ والتهديدِ.

النص القرآني الخامس والعشرون من سورة الأعراف

أخذ اللهُ -تعالى- ذرية آدمَ من ظهره، ثم أشهدهم على أنفسهم أنَّه ربُّهم وإلههمْ

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه أخذ مِنْ ظهر آدمَ ذريتَهُ التي ستنشأ مِنْ ظهره وظهور ذريته، وأشهدَهم على أنْفسِهم بأنه ربُّهم وإلهُهُمْ، فشهدوا، وأرسلَ إليهم رسلَهُ، يخبرون بهذا الميثاق الذي لا يذكرونه.

وضربَ لنا -تبارك وتعالى- المثَلَ بالذين آتاهم اللهُ آياتِهِ، فكذَّبوا وكَفُروا بها، فحالُهُمْ كحالِ الكلبِ الذي إنْ تحملْ عليه يلْهَثْ، أو تتركه يلهث، وهذا المثَلُ السيئُ للكفارِ المكذبين، وهو بئس المثَلُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٨].

ثانياً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أخَذَ اللهُ -تعالى- مِنْ بني آدم مِنْ ظهورهم ذريَّتَهم وأشهدَهُمْ على أنفسهم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أخَذَ من بني آدَمَ من ظهورِهم ذريَّتَهُمْ وأشهدهم على أنفسهم، وقال لهم: ألستُ بربِّكم؟ فأقرُّوا، وقالوا: بلى.

وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ تبينُ هذه الآيةِ، وتدلُّ أنَّ اللهَ أخذَ من ظهرِ آدم ومِنْ ظهور ذرياتِهِ كلَّ نسمةٍ سبق في علم الله أنها مخلوقة إلى يوم القيامة، فأخذهم بيده جلَّ وعلا، بعضُهُم إلى الجنَّة، وبعْضُهُم إلى النار، وجعلَ فيهم إدراكاً، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا: بلى، ومِنَ الأحاديث الدالةِ على ما ذكرناه ما رواه أبو عمرانَ الجَوْنيُّ، عن أنسٍ يرفَعُهُ: «إنَّ اللهَ يقولُ لأهوَنِ أهلِ النّار عذاباً: لو أنَّ لكَ ما في الأرضِ من شيءٍ كنتَ تَفْتَدي به؟ قال: نعم. قال: فقد سألتُكَ ما هو أهوَنُ من هذا وأنتَ في صُلْبِ آدمَ: أنْ لا تُشرِكَ بي، فأبيتَ إلاَّ الشِّرْكَ» [البخاري: ٣٣٣٤. ومسلم: ٢٨٠٥. وأحمد: ١٢٢٨٩] فقد ذكر الرسول ﷺ أنَّ عدم الإشراك أخذ عليهم، وهم في ظهر آدم.

وجاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «لمَّا خَلَقَ الله آدمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فسَقَطَ من ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هو خالِقُها من ذُرِّيَّتِهِ إلى يوم القيامةِ، وجَعَلَ بينَ عَيْنَيْ كلِّ إنْسان منهم وَبيصاً من نورٍ، ثم عَرَضَهُمْ على آدَمَ فقالَ: أيْ ربِّ، مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذُرِّيتُكَ، فرأى رجُلاً منهم فأعْجَبَهُ وَبيصُ ما بين عينيه، فقال: أيْ ربِّ، من هذا؟

قال: هذا رجلٌ من آخِرِ الأمم مِنْ ذُرِّيتكَ يقالُ له: داودَ، قال: رَبِّ وكم جعلتَ عُمرَهُ؟ قال: ستينَ سنةً، قال: أيْ ربِّ، زِدْهُ من عمري أربعينَ سنةً، فلما انقضى عُمرُ آدمَ جاءهُ مَلكُ الموتِ فقال: أوَلَمْ يبقَ من عمري أربعونَ سنة؟ قال: أوَلَمْ تُعْطِها لابْنِكَ داودَ؟ قال: فجَحَدَ آدمُ، فجَحَدَتْ ذرِّيَّتُهُ! ونَسِيَ آدمُ فنَسِيَتْ ذرِّيَّتُهُ ! وخَطِئَ آدَمُ، فخَطِئتْ ذرِّيَّتُهُ!» [صحيح الترمذي: ٢٤٥٩. والترمذي: (٣٠٧٦)]. فهذا الحديث صريحٌ واضحِ الدلالة على أنَّ ربَّ العزة استخرجَ من ظهر آدم ذريته، وأراهم آدم ﷺ، وجعل بين عيني كلِّ إنسان منهم وبيصاً من نور.

وعن ابنِ عباس عن النبي ﷺ قال: «إنَّ اللهَ أخَذَ الميثاقَ من ظَهْرِ آدمَ ﷺ بنُعْمانَ - يعني عرفه- فأخْرَجَ من صُلْبِهِ كلَّ ذريةٍ ذرأها، فنثَرَها بين يديه، ثم كلَّمهم قُبُلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢] ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:١٧٣]» [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٢٢٩) الراجح وقفه، أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢ ورقمه ٢٤٥١)، والنسائي في الكبرى (١١١٩١)، والطبري (١٥٣٤٩)، والحاكم (١/ ٢٧، ٢/ ٥٤٤) من حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جُبَيْرٍ عن ابن عباسٍ مرفوعاً. صحَّحه الحاكم. وذكَرَ محقِّقُ ابنِ كثير أنَّ الصوابَ في هذا الحديث الوقف، كما رواه غير واحد].

وعن هشام بنِ حكيم رضي الله عنه أنَّ رجلاً سأَلَ النبيَّ ﷺ فقال: «يا رسولَ الله، أَتُبْدَأُ الأعمالُ، أمْ قُضِيَ القضاءُ؟ قال: فقالَ رسولُ الله ﷺ : إنَّ اللهَ قَدْ أخَذَ ذُرِّيَةَ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ، ثمَّ أشْهَدَهُمْ على أنْفُسِهِمْ، ثم أفاضَ بهمْ في كَفَّيْهِ، ثم قال: «هؤلاءِ في الجنةِ، وهؤلاءِ في النارِ» فأهلُ الجنّة مُيَسَّرونَ لعملِ أهْلِ الجنةِ، وأهْلُ النارِ ميسَّرونَ لعمل أهْلِ النارِ» [قال محققُ ابن كثير: (٣/ ٢٣٣) أخرجه الطبريُّ: (١٥٣٧٧)، والبزار: (٢١٤١)، والطبراني: (٤٣٤، ٤٣٥) والآجريُّ في الشريعة: (٣٤٣) وإسناده حسن، ورجاله ثقات].

وعن مسلم بن يَسارٍ الجُهَنِّي: أن عمر بن الخطاب سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ ... الآية، فقال عمرُ بن الخطاب: سمعتُ رسولَ الله ﷺ سُئل عنها، فقال: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ عليه السلام ثم مَسَحَ ظَهْرَهُ بيَمينِهِ، فاسْتَخْرَجَ منهُ ذريةً، قالَ: خَلَقْتُ هؤلاءِ للجنةِ، وبعَمَلِ أهْلِ الجنَّةِ يعملون، ثم مَسَحَ ظَهْرَهُ، فاستخْرَجَ منه ذريةً، قال: خَلَقْتُ هؤلاءِ للنار وبعَمَلِ أهلِ النار يعملونَ» فقالَ رجلٌ: يا رسولَ الله، ففيمَ العملُ؟ قالَ رسولُ الله ﷺ : «إذا خَلَقَ اللهُ العَبْدَ للجنةِ اسْتَعْمَلَهُ بأعْمالِ أهلِ الجنَّةِ، حتى يموتَ على عَمَلٍ من أعمالِ أهلِ الجنة، فيُدْخِلَهُ به الجنة، وإذا خَلَقَ العبدَ للنارِ اسْتَعْمَلَهُ بأعمالِ أهلِ النارِ حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ النارِ، فيدخِلَه بِهِ النَّارَ» [قال محقق ابن كثير: ٣/ ٢٣١: أخرجه أبو داود: (٤٧٠٣) والترمذي (٣٠٧٥) وأحمد: (١/ ٤٤-٤٥) والطبري: (١٣٥٦٨) والحاكم: (١/ ٢٧ و٢/ ٥٤٤) وابن حبان: (٦١٦٦) كلُّهم من طريق مالكٍ به، وفيه إرسالٌ بين مسلمِ بن يسارَ وعمرَ، لكن جاء موصولاً في رواية أبي داود (٤٧٠٤)، وللحديث شواهد تقويه إن شاء الله].

وذهبَ بعضُ المفسرين كابن كثير والزمخشريِّ أنَّ أخذهم مِنْ ظهور بني آدم المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هو وجودُهم قرناً بعد قرْنٍ، وجيلاً بعد جيل، عن طريق التناسل، والمعنى: أنَ اللهَ خلق بني آدَمَ، وخلقَ مِنْ هؤلاءِ ذريةً، فينقضي هذا القرن، ويخلق من هذا القرن ذريةٌ، كما قال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام:١٣٣].

وعلى هذا القول، فالأخذ من ظهورهم: هو استخراج النطف من أصلابهم عن طريقِ التناسلِ قرناً بعد قرنٍ، وعلى هذا القولِ، فقوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الذين قالوا هذا القولَ قالوا: أَشهدهم على أنْفسهم بلسانِ الحال لا بلسان المقال [العذب النمير: ٤/ ٣٠٩].

والقولُ الأول هو الصحيحُ، وعليه أكثر المفسرين، والأحاديثُ الصحيحةُ التي أوردتُها تدلُّ عليه، واللهُ أعلم.

٢- إشهادُ اللَّه -تعالى- بني آدمَ على أنفسهم وهم في عالمِ الذرِّ:

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢] أَخَذَ ربُّ العزةِ ذريةَ آدمَ من صُلْبِهِ، وأشهدهم على أَنْفُسهم بأَنَّه ربُّهم وخالِقُهُمْ، ومعبودُهُمْ الحقُّ الذي لا معبودَ لهم سواه، فأَقَرُّوا وشهدوا بأنَّه ربُّهم ومعبودُهُمْ.

٣- إرسالُ اللَّه -تعالى- الرسلَ ليُعْلِموا العبادَ بالعهدِ الذي أُخِذَ عليهم:

لا يتذكر أحدٌ من بني آدمَ الميثاقَ الذي أخذه عليه وهو في عالمِ الذرِّ، فأَرْسَلَ اللهُ -تعالى- الرُّسُلَ لتُذَكِّرَهُمْ به، وتحدِّثهم عنه، وإخبارُ الرسلِ بذلك الميثاقِ خبرٌ صادق قَطْعِيُّ الثبوتِ. فيقومُ إخبار الرسل مقام تذكُّرِهِمْ، بل هو أقوى، ولذلكَ فإنَّ الله تعالى قال: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢] أي: أرسلنا إليكم الرسلَ ليُعْلِموكم بهذا الميثاقِ، لئلا تقولوا يوم القيامةِ، إنا كنا عن هذا الميثاق غافلين.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:١٧٣]، أي: أرسلنا الرسلَ وأنْزَلنا الكتب، لئلا تقولوا إنما أشرك آباؤنا، وكنا ذريةً من بعدهم سائرون على طريقهم، أفتهلكنا بما فعلَ المبطلون، أي: أنَّ اللهَ تعالى أرسلَ الرسلَ، فبينوا وأمروا، ونهوا، حتى لا يقال: كنا جاهلين غافلين سائرين على طريق الآباء.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف:١٧٤] أي: نفصِّلُ الآياتِ مثل هذا التفصيل الذي وضَّحناه في هذه الآيات، والتفصيلُ ضد الإجمال، وقوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: ليرجعوا إلى طريق الهدى.

٤- قصة الذي آتاه اللَّهُ تعالى آياته فانسلخ منها:

أمَرَ اللهُ تعالى رسوله ﷺ أنْ يقصَّ على قومِهِ قصةَ الذي آتاه اللهُ تعالى آياتِهِ التي أنزلها على رسولٍ مِنْ رسله، فانسلخ منها، أي: فهجرها، وتركها، ولم يعمل بها، فأتبعه الشيطانُ، أيْ: أدْرَكَهُ الشيطانُ، وتسلَّط عليه، فكان مِنَ الغاوين، أي: مِنَ الضالينَ الهالكينَ الفاسدين ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف:١٧٥].

وأخبرنا ربُّنا وهو العليُّ الأعلى أنَّه لو شاء لرفعه بالآياتِ التي آتاه إياها، أي أعلى مقامه، ورفع ذكره، ولكنه لم يتمسك بها، وهجرها، ومال إلى حطام الدنيا الفاني، وشهواتِ

الدنيا الزائلة: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الأعراف:١٧٦]، وإخلادُهُ إلى الأرضِ: ركونه إلى الدنيا، أو ركونُه إلى شهواتِها، وقد ضربَ اللهُ تعالى مثلاً لهذا النوع الضال من البشر، فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف:١٧٦].

قال ابن الجوزي في بيان معنى المثل «معناه أنَّ هذا الكافر، إن زجرتَه لم ينزجر، وإن تركتَه لم يهتد، فالحالتان عنده سواء كحالتي الكَلْبِ، فإنه إن طُرِدَ وحُمل عليه بالطرد كان لاهثاً، وإن تُرِك ورَبَض كان أيضاً لاهثاً، والتشبيهُ بالكلب اللاهثِ خاصةً؛ فالمعنى: فمثله كمثل الكلب لاهثاً؛ وإنما شبهه بالكلبِ اللاهثِ، لأنه أخسُّ الأمثال على أخس الحالات وأبشعها. وقال ابن قتيبة: كلُّ لاهثٍ إنما يلهث مِنْ إعياء أو عطشٍ، إلا الكلب، فإنه يلهث في حال راحته وحال كَلاله، فضربه الله مثلاً لمن كذَّب بآياته، فقال: إن وعظتَهُ فهو ضالٌّ، وإن لم تعظْهُ فهو ضالّ، كالكلب إن طردته وزجرته لهث، أو تركته على حاله رابضاً لهث» [زاد المسير: ٣/ ٢٩٠].

وقوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٧٦] أي: أنَّ هذا المثَل ضربَهُ ربُّ العزة للقومِ الذين كذَّبوا بآياتِ الله المنزلةِ على عبده ورسولِهِ محمدٍ ﷺ، فالكافرُ إنْ وَعَظْتَهُ فهو ضالٌّ، وإنْ تركته فهو ضالٌّ، فهو كالكلبِ إن حملتَ عليه فهو يلْهَث، وإن تركته فهو يلْهَث، أي هو لاهث دائماً وأبداً. وقوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ أي: اقصص عليهم يا نبيَّ الله ﴿ٱلْقَصَصَ﴾ أي: قصص الذين آتيناهم آياتنا، فانسلخوا منها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ أي: لأجلِ أنْ يتفكروا، فيتعظوا بمثلاتِ الله، وما أوقعه بالذين عَصَوْهُ في الزمن الماضي لينزجروا وينكَفُّوا.

وقوله تعالى: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٧]، ومعنى ساءَ: قَبُح، وساءَ: مِنْ أفعالِ الذمِّ كـ (بئس)، و(مثلاً) تمييزٌ. والمخصوصُ بالذمِّ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ساءَ مثلاً مثلُ القومِ الذين كَذَّبوا بآيات الله.

وقوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ أي: لما كذَّبوا بآياتِ الله ظلموا أنفسهم، ولم يظلموا غيرهم.

٥- الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها صنفٌ مِنَ الناسِ موجودٌ في أكثرِ العصورِ:

حمل كثيرٌ مِنَ المفسرين قولَه تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] على رجلٍ مِنْ بني إسرائيلَ أو رجلٍ مِنَ الكنعانيين الجبارين الذين أُمِرَ

الإسرائيليون بقتالهم، والرجلُ الذي مِنْ بني إسرائيل هو بلعامُ بن باعوراء، وقال آخرون هو أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان يقرأُ الكتابَ الأول، ويتعلم مِنَ الكتبِ الأُولى، وكان يعلم بأنه سيُبعثُ في الجزيرة العربيةِ نبيٌّ، وكان يرجو أن يكون هو ذلكَ النبي، فلما بُعِثَ نبينا ﷺ حَسَدَه، وكفر.

وقد ورد في صحيح مسلم عن عمرو بن الشريد، عن أبيه أن الرسول ﷺ قال له، وهو مُرْدِفَهُ خَلْفَه: «هل معكَ مِنْ شِعْرِ أُميَّةَ بنْ أبي الصَّلْتِ شيءٌ؟ قلتُ: نعم، قال: هيه، فأنشدته بيتاً، فقال: هيه، فأنشدته بيتاً، فقال: هيه، حتى أنشدته مائة بيت» [مسلم: ٢٢٥٥].

وزاد في بعض الروايات في صحيح مسلم أنه قال: «إنْ كادَ لَيُسْلِمَ» [مسلم: ٢٢٥٥].

وقال آخرون: نزلت الآياتُ في أبي عامرٍ الراهبِ ابن صَيْفِي، وهو رجلٌ من الأَنْصارِ، وكان يُكنى بأبي عامرٍ الراهب، وقد كَفَر، وحاربَ المسلمين في أُحُد.

وكلُّ هذا الذي أرادوا حمل الآية عليه، ليس هناك ما يدلُّ على صحته، والصوابُ مِنَ القولِ: أن هذه الآية في صنف من النَّاس، أُعطوا شيئاً من عِلْمِ الكتابِ الذي أنزله اللهُ تعالى على رسولٍ مِنْ الرسل، ثم إنَّهم كفروا وكَذَّبُوا، ولا يكادُ يخلو عصر مِنَ العصور من أمثالِ هؤلاءِ في القديم والحديث.

٦- المهتدي من هداه اللهُ تعالى والضالُّ من أضلَّه اللهُ:

لما ذكرَ اللهُ تعالى قصةَ الذي آتاه -تعالى- آياتِهِ فانسلخ منها، وبيَّنَ أنه لو شاء رفعه بتلك الآياتِ، وهداه إلى العمل بها، صَرَّح في الآية التالية أنه ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٨]، أي: أنَّ المهتدي هو مَنْ هداه اللهُ، والضالَّ: هو من أضلَّه اللهُ.

وهذه الآية وأمثالُها حجَّةٌ على القدريةِ الزاعمين أنَّ اللهَ لا يُضِلُّ أحداً، وقد زعموا أنَّ اللهَ تعالى لا يريدُ الإضلالَ والقبائحَ والمعاصي، فالعبدُ هو الذي يخلق فعله مِنَ الكفرِ والقتلِ والسرقةِ والزنا.

والحقُّ أنَّ الله تعالى سبق في علمه أنَّه يشاءُ أعمال بعض عبادِهِ مِنَ الكفر والضلال، كما يشاءُ بعضَ أعمالِ عباده مِنَ الإيمانِ والصلاحِ والصلاةِ والصيام، وقدَّر أنَّ بعضَ عبادِهِ يدخلون النارَ، وبعمل أهل النارِ يعملون، وبعضهم يدخلون الجنَّة، وبعمل أهل الجنةِ يعملون.

وقد جرتْ مناظرةٌ بين أبي إسحاق الإسفراييني مع القاضي عبدالجبار من المعتزلة القائلين بهذا المذهب، فقد قال عبدالجبار في مجلس ضمَّه مع أبي إسحاق: سبحان مَنْ تنزَّه عن الفحشاء، يعني أنه تنزه عن أن تكون السرقة والزنا ونحوها بمشيئته.

فقال أبو إسحاق: كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطلٌ، ثم قال أبو إسحاق: سبحانَ مَنْ لا يقعُ في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبدالجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه؟

فقال أبو إسحاق: أتراكَ تفعله جبراً عليه؟ أأنت الرب وهو العبد؟

فقال عبدالجبار: أرأيت إن دعاني للهدى، وقضى عليَّ بالردى، دعاني وسدَّ البابَ دوني، أتراه أحسنَ إليَّ أم أساء؟

قال أبو إسحاق: أرى هذا الذي مَنَعَكَهُ إنْ كان حقّاً واجباً لك عليه فقد ظلمك، وقد أساءَ، وإنْ كان ملكه المحض فإنْ أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل، فبُهتَ عبدالجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب!! ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام:١٤٩] مَنُّهُ بالتوفيق على قوم، وعدم مَنِّهُ بالتوفيق على آخرين حجته البالغة.

وذكروا أنَّ عمْرَو بن عبيد - كبير المعتزلة، المشهور بالعبادة والنسك، وهو مِنْ كبارِ أهلِ هذا المذهب الخبيث، جاءه بدوي أعرابيٌّ يقول له: إن دابَته سُرِقت، يريد أن يدعوَ اللهَ ليردَّها عليه، فأراد عمرو بن عبيد التقربَ بهذا المذهب الخبيث، فقال: اللهمَّ إنَّها سُرقت، ولم تُرد سرقتها، فارددها عليه، فقال له الأعرابي البدوي الجاهل: ناشدتكَ اللهَ يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إنْ كانت قد سُرقت، ولم يُرد سرقتها، فقد يريدُ رَدَّها، ولا تُرُد، فالذي يُفعل الشيء دونه ولا بمشيئته فأنا لست على ثقة منه أن بيده شيئاً.

فالحاصلُ أنَّهم وقعوا في شرٍّ مما فروا منه، والدليلُ القاطعُ الذي لا يترك لهم شبهة هو دليل العلم، وإيضاح ذلك أنك تقول للمعتزليِّ القدريِّ إذا ناظرته: هل أنتَ مقرٌّ بأنَّ الله (جل وعلا) يعلمُ ما يكون قبل أن يكون؟ فلا بد أن يقول: نعم؛ لأنَّ كلَّ مَنْ يقرُّ بالإسلام يقرُّ بهذا، فتقولُ له: إذنْ هذا العمل الذي زعمت أنَّ العبدَ يخلقُه بقدرتِهِ وإرادته مِنْ غير مشيئةِ الله آلله عالِم أنه يقع من هذا العبد؟ فيقول: نعم. فقل له: لو شاء العبد أن يعمل ذلك العمل ويستقلَّ به مخالفاً لما سبق به علم الله الأزلي فهل يمكنه ذلك؟ فقولك إنَّهُ مستقلٌّ به يقتضي أنَّه يمكنه أنْ يعمل عملاً مستقلاً غير ما سبق به العلم، فينقلب عِلْمُ الله جهلاً -سبحانه وتعالى

عما يقول الظالمون الفجرة علواً كبيراً- فإذن لا بد أنْ يكون العمل مطابقاً لما سبق به علم خالق السماوات والأرض في أزله.

فالحاصلُ أنَّ الله -تبارك وتعالى- خلقَ للنارِ خلقاً علم أنهم من أهلِ النار، وأنَّها أولى بهم، وخلق للجنةِ خلقاً علم في أزله بأنهم أهلٌ لها، ثم إنَّ الله -تبارك وتعالى- يُيَسِّر كُلاًّ من الفريقين لما خلقه له، فيعمل هؤلاء بعمل أهل الجنة حتى يدخلوها، وهؤلاء بعمل أهل النار حتى يدخلوها [العذب النمير: ٣/ ٣٣٤-٣٣٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- عن حقيقةٍ علمية في هذه الآيات، فقد أخبرنا سبحانه أنَّ ذريةَ بني آدمَ مأخوذةٌ من ظهورهم.

٢- أَخَذَ اللهُ تعالى ذرية آدم مِنْ ظهره، وأَخَذَ عليهم العهدَ بأن يتخذوه ربّاً وإلهاً، وأَشْهدَهم على ذلكَ، فشهدوا، وأَقَرُّوا.

٣- أرسلَ اللهُ تعالى الرسلَ، فأخبرونا بالميثاقِ الذي أخذَه اللهُ علينا، ونحن في عالم الذَّرِّ.

٤- ضرب اللهُ تعالى مثلاً للذين كذبوا بآياتِهِ، بالكلب دائمِ اللهاثِ، فالمكذِّبُ بآياتِ الله كافرٌ في كلِّ الأحوالِ كالكلب دائم اللهاث في كُلِّ الأحوال.

٥- اللهُ تعالى هو الهادي المضلُّ، يهدي مَنْ يشاءُ، ويضلُّ مَنْ يشاء، وفي هذا ردٌّ على القدريَّةِ الذين يزعمون أنَّ العبد هو المنشئُ لفعله، وليس لله قدر ماضٍ فيه.

النص القرآني السادس والعشرون من سورة الأعراف
خلق اللهُ تعالى لجهنَّمَ كثيراً مِنَ الجنِّ والإنس

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا في هذه الآياتِ الكريماتِ أنَّه خلق للنارِ أقواماً مِنَ الجنِّ والإنس، وقد عَلِمَهم اللهُ قبل أنْ يخلقهم، وهؤلاءِ الذين خلقهم للنار، لا ينتفعون بقلوبهم، ولا بعيونهم، ولا آذانهم، وحالهم كحالِ الأنعام، بل هم أضلُّ.

وأعلمنا ربُّنا بأنَّ له الأسماءَ الحسنى، وأمرنا بأنْ ندعوه بها، وذمَّ الذين يلحدون في أسمائِه، أي: ينحرفونَ بها عن المسارِ الصحيح، وتهدَّدهم بأنَّه سيجزيهم بما كانوا يعملون، وأعلمنا الحقُّ تبارك وتعالى بأنَّه ستبْقَى طائفةٌ من هذه الأُمَّة ظاهرةً على الحقِّ عاملةً به إلى يوم القيامة.

ونفى اللهُ عن رسولِهِ ﷺ الجنونَ، وأمرنا بالتفكر في حال رسولنا وصفاتِهِ وتصرفاتِهِ، لنعلمَ مدى عقله وفقهه، وأمرنا بالنظر في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ، وما خلقه من مخلوقات.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف:١٧٩-١٨٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذرَأَ اللهُ -تعالى- للنارِ كثيراً من الجنِّ والإنس:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه ذرأ للنارِ كثيراً من الجنِّ والإنس ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ﴾ [الأعراف:١٧٩]، واللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ موطئة لقسمٍ محذوف،

و(قد) حرْف تحقيق، تضمنت التوكيد، وقوله: ﴿ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا، وبينت بعضُ الأحاديث الصحيحة مدى الكثرة التي تدْخُلُ النارَ من الجنِّ والإنس، فاللهُ -تعالى- يُدْخِلُ النارَ مِنْ كلِّ ألفٍ تسعمائة وتسعةً وتسعين واحداً، وواحِدٌ يدخلُ الجنَّة.

والآيةُ تدلُّ على أنَ مصيرَ الكفار مِنَ الجنِّ النارُ، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم، والصحيحُ مِنْ أقوالِ أهْلِ العلم أنَّ مصيرَ المؤمنين من الجنِّ الجنَّة، خلافاً لمن أنْكرَ ذلك، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧]، فالمخاطب بالآية الإنس والجن.

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ اللهَ يعلم أهل الجنّة وأهل النار قبل أنْ يخلقهم، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن أولادِ المشركينَ. فقالَ: «اللهُ أعلمُ بما كانوا عامِلينَ» [مسلم: ٢٦٥٩].

وعن سعيد بن جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ. قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أولادِ المشركينَ؟ قالَ: «اللهُ إذ خَلَقَهُمْ أعلمُ بما كانوا عامِلينَ» [البخاري: ١٣٨٣. ومسلم: ٢٦٦٠].

وعن سعيدِ بن جُبَيْرٍ، عنِ ابنِ عباسٍ، عن أُبَيِّ بن كعبٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الغلامَ الذي قتَلَهُ الخَضِرُ طُبِعَ كافِراً، ولو عاشَ لأرْهَقَ أبوَيْهِ طُغْياناً وكُفْراً» [مسلم: ٢٦٦١].

وعن عائشةَ أُمِّ المؤمنينَ قالتْ: دُعِيَ رسولُ الله ﷺ إلى جَنازةِ صَبِيٍّ مِنَ الأنْصارِ. فقلتُ: يا رسولَ الله! طوبى لهذا، عصفورٌ من عصافيرِ الجنة! لَمْ يعملِ السوءَ، ولم يُدْرِكْهُ. قال: «أوَ غيرَ ذلكَ، يا عائشةُ! إنَّ اللهَ خَلَقَ للجنَّةِ أهلاً، خَلَقَهُمْ لها وهُمْ في أصْلابِ آبائِهِمْ، وخَلَقَ للنارِ أهْلاً، خَلَقَهُمْ لها وهُمْ في أصْلابِ آبائِهِمْ» [مسلم: ٢٦٦٢].

وقد أخبرنا ربّنا -عز وجل- أنَّ هؤلاءِ الذين ذرأهم لجهنَّم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩] أي: أنَّ اللهَ تعالى جعلَ لكلٍّ مِنَ الجنِّ والإنس الذين ذرأهم لجهنم قلوباً لا يفقهونَ بها الحقَّ، ولا يبصرونه، ولا يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٦]، وقال: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة:١٨]، وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:٢٣].

وقوله: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون، وقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ يدلُّ أنَّ مركزَ العقلِ هو القلبُ، لا الدماغ كما يزعم كثيرٌ مِنْ الفلاسفة. وقد حَكَمَ اللهُ تعالى على هذا الصنف مِنَ البشرِ أنَّهم كالأنعام بَلْ هم أضلَّ منها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

[الأعراف:١٧٩]. والأنعامُ هي الإبل والبقر والغنم، وحكم عليهم بأنَّهم كالأنعام، لأنها تسمع صوت الراعي، ولكنَّها لا تفقهه، فلو قال الراعي لأنعامه: اذهبي إلى مكانِ كذا، واحذري أن تذهبي إلى مكانِ كذا، فإنَّها لا تفهم ما قال لها. وقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ بل هم أضلُّ مِنَ الأنعام، لأنَّ الأنعام تسبِّحُ بحمد ربِّها، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، والكفارُ لا يسبحون بحمد الله تعالى.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ أي: أولئك الذين استولت الغفلةُ على قلوبهم، لا يفهمون شيئاً.

٢- اللهُ -تعالى- له الأسماءُ الحسنى، وقد أمرنا ربُّنا أنْ ندعوه بها:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ له الأسماءُ الحسنى ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠] والحسنى: تأنيث الأحسن، وهي صيغةُ تفضيلٍ، وأسماءُ الله تعالى أحسنُ شيءٍ، وهي أفضلُ مِنْ كلِّ شيءٍ في الحسن والجمال، وأسماءُ الله تدلُّ على صفاتِ كمالِهِ وجلالِهِ تبارك وتعالى.

وأسماءُ الله التي أنزلها ربُّنا في كتابِهِ وسنة رسوله ﷺ تسعةٌ وتسعون اسماً، فعن أبي هُرَيْرَة ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ لله تِسْعَةً وتسْعينَ اسْماً، مائةً إلاَّ واحداً، مَنْ أحْصاها دَخَلَ الجَنَّة» [البخاري: ٢٧٣٦. ومسلم: ٢٦٧٧].

وفي روايةٍ: «لله تسْعَةٌ وتُسْعون اسماً من حفظها دَخَل الجنة، وإنَّ اللهَ وتْرٌ يحبُّ الوتْرَ» [البخاري: ٦٤١٠. مسلم: ٢٦٧٧. واللفظ لمسلم].

وأسماءُ الله -تعالى- التي علَّمها بعضَ خلقِهِ، أو استأثر بها في علم الغيبِ عنده أكثر مِنْ ذلك، فعن عبدالله بن مسعودٍ ﷺ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «ما أصابَ أحَداً قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ فقال: اللهمَّ، إني عبدُك، ابنُ عبدك، ابنُ أَمَتِكَ، ناصيتي بيدِكَ، ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قضاؤُكَ، أسألُكُ بكلِّ اسمٍ هو لَكَ سمَّيتَ به نفسَكَ، أو أنْزَلْتَه في كتابِكَ، أو عَلَّمتَهُ أحداً من خَلْقكَ، أو اسْتَأثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغيبِ عندَك، أنْ تجْعَلَ القرآنَ العظيمُ ربيعَ قلبي، ونورَ صَدْرِي، وجِلاءَ حُزْنِي، وذهابَ هَمِّي -إلا أذهبَ اللهُ هَمَّهُ وحُزْنَهُ، وأبْدَلَهُ مكانه فَرَحاً. فقيل: يا رسولَ الله، أفلا نتعلَّمُها؟ فقال: بَلَى، ينبغي لمن سَمِعَها أن يتَعلَّمها» [قال محقق تفسير ابن كثير: جيد. أخرجه أحمد (١/ ٣٩١ و٤٥٢) وأبو يعلى (٥٢٩٧) والحاكم (١/ ٥٠٩) وابن حبان (٩٧٢) من طرق عن فضيل بن مرزوق به، وإسناده صحيح].

وقوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف:١٨٠] أي: فادعوه بهذه الأسماءِ، فيدعو المرءُ بالأسماء التي تناسبُ حاله، فيقولُ: يا اللهُ، يا رحمنُ، يا رحيم، يا أحدُ، يا فردُ، يا صمدُ، يا قويُّ، ولا يدعو الله بغير أسمائه، فلا يقول: يا سخيُّ، يا شيء، يا فاهم، يا جَلْدُ.

وقوله تعالى: ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٠] وقوله: ﴿وَذَرُواْ﴾ معناه: اتركوا، وصيغة الأمر هنا للتهديد، ومعنى الإلحاد في اللغة: الميلُ عن القصدِ والجورِ عنه.

والذين يلحدون في أسماءِ الله تعالى الذين يميلون فيها عن الحقِّ، فمن أسماءِ الله تعالى: الواحد، ﴿إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصافات:٤]. وقد ألحدَ المشركون في هذا الاسم، فقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص:٥].

ومن إلحادهم اشتقاقُهُمْ اسم اللاتِ لصنمٍ من أصنامهم من اسم: الله، واشتقاقهم العُزَّى من اسمِ العزيزِ، واشتقاقهم مناةَ مِنَ المنانِ.

وقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ أي: سيجزيهم ربُّ العزة تبارك وتعالى يومَ القيامةِ جزاءَ ما كانوا يعملونه في الدنيا، ويَدخُلُ في ذلك إلحادهم في أسمائه.

٣- لا تزالُ طائفةٌ من هذه الأمة ظاهرةً على الحق:

أخبرنا -تباركَ وتعالى- أنه ستبقى طائفةٌ من هذه الأمةِ تهدي بالحق، وتعدلُ به، ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [الأعراف:١٨١] وكان مِنْ قومِ موسى أمةٌ مثلَ ذلك ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٩].

وعن معاويةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لا يزالُ مِنْ أُمَّتي أُمَّةٌ قائمةٌ بأمْرِ الله، لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُمْ، ولا مَنْ خالَفَهمْ، حتى يأتِيَهُمْ أمْرُ الله، وهُمْ على ذلك» [البخاري: ٣٦٤١. ومسلم: ١٠٣٧ (١٧٤) بإثر الحديث (١٩٢٣) (١٧٣) وقد رواه صاحبا الصحيحين وغيرهم عن عدد من الصحابة غير معاوية، انظر جامع الأصول ٩/ ٢٠٣-٢٠٦].

وقولُهُ: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يهدون الناسَ بالحقِّ، وقوله: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ أي: يعملون هم في أنفسهم، والعدالةُ: التوسط بين أمرين، والتجافي عن الإفراط والتفريطِ.

٤- استدراجُ اللهُ تعالى الكافرين:

أخبرنا اللهُ تعالى أنَّه سيستدرجُ المكذبين بآياتِهِ من حيثُ لا يعلمونَ، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٢]. واستدراجُهُمْ يكونُ بإرسال النعم عليهم، فيكثرُ خَصْبُ بلادهم وأرزاقهم وعافيتهم ويكثر عَدَدُهم، فيزدادون كفراً وبطراً، فيقربون مِنَ الهلاكِ درجةً، ثم يغدق عليهم النعم مرةً أخرى، فيزدادون بطراً إلى

بطرهم وكفراً إلى كفرهم، وهكذا، حتى يأتيهم العذابُ، ويهلكهم الله تعالى، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤].

والاستدراجُ في اللغة: تقريبُ الشيءِ درجةً درجةً إلى ما يرادُ منه.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ أي: مِنَ المكان الذي لا يعلمون أنّا سنتدرجهم إليه، بل يظنون أنَّ تلك النعمَ مسابقة لهم في الخيرات، وأنّهم ينالون بعد ذلك أحسن منه.

وقوله تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٣] ومعنى ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي: أُؤخرهم وأُمهلهم زمناً غير قليلٍ ولا قصيرٍ، حتى يغتروا بالنعمِ التي يغدقها اللهُ عليهم، فيهلكهم، وهم غافلون، وفي الحديثِ عن أبي موسى ﷺ، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى ليُمْلِيْ للظالمِ حتى إذا أخذَهُ لم يُفْلِتْهُ» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢] [البخاري: ٤٦٨٦. ومسلم: ٢٥٨٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ أي: قويٌّ شديدٌ.

٥- نفْيُ الله تعالى الجنونَ عن رسولنا ﷺ :

دعا ربُّنا -تبارك وتعالى- قريشاً الذين رَمَوْا رسولنا ﷺ بالجنونِ أن يتفكروا في صاحبهم، يريدُ بِهِ محمداً ﷺ ، والتفكرُ أن يعمل الإنسانُ فكره في الأمرِ الذي يَعْرِضُ له، حتى يدركَ حقيقته.

وإذا أمعنَ المرءُ النظرَ في الرسولِ ﷺ ، فإنَّ نظره سيهديه إلى أنّه إنسان عاقلٌ حكيم، بعيدٌ عن الجنونِ والهوجِ، يدعو إلى أحسن الطرقِ وأقومها، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ [الأعراف:١٨٤].

والإنذارُ: الإعلامُ المقترنُ بتهديد، والنذيرُ: المنذر، وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ البيّنُ الواضحُ لما ينذرنا به، ويحذّرُنا منه.

وقد نفى اللهُ تعالى الجنونَ الذي رمى به العربُ والناسُ رسولَنا ﷺ كثيراً في كتابه، فقال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم:٢]، وقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾

[الطور:٢٩]، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ:٤٦].

٦- دعوةُ اللهِ العبادِ إلى التفكُّرِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ:

دعا اللهُ -تباركَ وتعالى- عبادَه إلى التفكرِ والنظرِ في ملكوتِ السمواتِ والأرض، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٨٥]. والملكوتُ: ملكُ الله العظيمِ في السماواتِ والأرضِ، فقد بنى ربُّنا فوقنا سبعَ سنواتٍ قويةً شديدةً واسعةً ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ [النبأ:١٢] وقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات:٤٧] ودعانا ربنا إلى النظر في السموات والأرضِ، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق:٦-٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ دعوةٌ مِنْ ربِّ العبادِ لِنَنْظر في كلِّ شيء خلقه ربُّ العزَّة، مِنَ الشمسِ والقمر والنجومِ والجبالِ والسهولِ والبحارِ والأنهارِ والعيونِ والمعادنِ، والدوابِّ، والطيورِ، وغير ذلك، فكل شيءٍ خلقه اللهُ تعالى فيه آيات بينات.

وفي كـــــل شيء لــــــه آيـــــة تـــــدل عـــــلى أنـــــه الواحـــــد

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٥]، في هذه الآية تهديد للكفرةِ المكذبين بآياتِ الله تعالى، تهدَّدهُمْ تبارك وتعالى باقترابِ آجالهم، خوفَ أن يفاجئهم الموتُ فيهلكوا على كفرهم، فيصيروا إلى النارِ، وقوله: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآنِ العظيم، ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ وقد سمَّى الله تعالى كتابَهُ حديثاً ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر:٢٣].

٧- الذي يضلُّهُ ربُّ العزَّةِ لا هاديَ له:

أخبرنا اللهُ تعالى في الآيةِ الأخيرةِ من هذا النص أنه: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٦]، أي: أنَّ الذي يضلُّه ربُّ العزَّةِ، فلا أحد يستطيعُ هدايتَهُ، ولذلك قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦].

وقد أجْهد رسولُنا ﷺ نفسه ليهدي عمَّهُ أبا طالب، وحرصَ نبيُّ الله نوحٌ على هداية ابنه، واجتهد نبيُّ الله إبراهيم أن يهديَ أباه، فما استطاعوا، فمن أضلَّهُ اللهُ فلا هاديَ له، ومَنْ هداه اللهُ، فلا مضلَّ له.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف:١٨٦]. ومعنى ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ أي: يتركهم، وقوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ الطغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ، يقال: طغى الشيءُ إذا جاوز حدَّه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة:١١] وطغيانُ الماءِ: مجاوزته الحدودَ التي يبلغها الماءُ عادة.

وقوله: ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ العمى يطلقُ على عمى العينِ وعمى القلبِ، أما العَمَهُ: فلا يطلق إلا على عمى القلب.

ومعنى ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ أي: يترددون حائرين، لا يعرفون حقّاً من باطلٍ، ولا حسناً من قبيحٍ، ولا ضلالاً من هدى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - خلق اللهُ تعالى للنار أهلاً مِنَ الجنِّ والإنس، فلا يستطيع أحدٌ هدايتهم.

٢- لا ينتفعُ الذينَ خلقهم اللهُ للنار بقلوبهم، ولا أعينهم، ولا أبصارهم، ومثلهم كمثل الدوابِّ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ، بل هم أضل منها.

٣- الجنُّ لهم قلوبٌ وأبصارٌ وآذانٌ.

٤ - اللهُ تعالى له أسماءٌ كثيرةٌ أنزلها في كتابه، وحَدَّث بها رسولُهُ ﷺ، وله أسماءٌ اختصَّ بها بعضَ عبادِهِ، أو استأثر بها في علم الغيب عنده، وقد أمرنا ربَّنا أنْ ندعوه بأسمائِه الحسنى.

٥- أمرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنْ نترك الذين يلحدون في أسمائه، وتهدَّدَهم تبارك وتعالى بأنَّه سيجزيهم ما كانوا يعملون.

٦- ستبقى طائفةٌ مِنْ هذه الأمةِ ثابتةٌ على الحقِّ، عاملة به إلى يوم القيامة.

٧- توعَّدَ اللهُ المكذبينَ بآياتِهِ، باستدراجهم بما يفتح اللهُ عليهم مِنَ الدنيا، حتى يأخذهم، ويهلكهم.

٨- رسولُنا ﷺ أعْقَلُ الناسِ، وأوعاهم، فقد نَشَرَ اللهُ على يديه هذا الدين، وقادَ الأمةَ الإسلامية خيرَ قيادةٍ، وجاهدَ أهلَ الكفر، كلُّ ذلك برصانةٍ وحكمةٍ وحسنِ نظرٍ، فهو أبعدُ الناس عن الجنونِ الذي رماه به قومُهُ.

٩- دعانا الله تعالى إلى التفكّر في خلقِ السماوات والأرض وجميعِ ما خلقه اللهُ من شيءٍ، ففي كل شيءٍ خلقه اللهُ تعالى آيةٌ، تدلُّ على وحدانيته سبحانه.

١٠ - اللهُ تعالى هو الهادي المضلُّ، ومَنْ يضلل اللهُ فلا هاديَ له، وفي هذه الآية ردٌّ على القدريَّةِ الذي يزعمونَ أنَّ العبدَ يخلقُ أفعاله، وأنَّ اللهَ لا يضلُّ أحَداً.

النص القرآني السابع والعشرون من سورة الأعراف

أولاً: تقديم

تناولتْ هذه الآياتُ عدة قضايا مهمة، **الأولى**: أنه لا يعلم وقتَ وقوعِ الساعةِ إلا ربُّ العزةِ. **والثانيةُ**: أنَّ رسولنا ﷺ بشرٌ رسولٌ لا يملكُ لنفسه ضَرّاً ولا نفعاً، ولا يعلمُ مِنَ الغيب إلا ما علَّمهُ اللهُ تعالى. **والثالثةُ**: أنَّ الناسَ جميعاً مرجعهم إلى أصلٍ واحدٍ، هو آدمُ ﷺ، وقد خلق مِنْ آدم زَوْجَه حواءَ ليسكن إليها. **الرابعةُ**: بعضُ الأزواجِ دَعَوَا اللهَ ربَّهما إنْ آتاهما ولداً صالحاً، فإنهما سيكونان مِنَ الشاكرينَ له، فلما رزقهما الولد أشركا بالله. **الخامسةُ**: أن الأصنامَ والأوثان لا تصلح أن تكون آلهةً تُعْبَدُ مِنْ دونِ الله، وقد بَيَّنَ عدمَ صلاحيتها للعبادة مَنْ أربعةِ أوجهٍ ذكرتُها في تفسير الآيات.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٧-١٩٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يعلمُ وقتَ وقوعِ الساعةِ إلا الله تعالى:

سأَلَ كفارُ قريشٍ رسولَنا ﷺ عن الوقتِ الذي تقعُ فيه الساعةُ، فأمرَ اللهُ تعالى رسولَهُ أن يخبر الناسَ أنَّه لا يعلم وقتَ وقوعِها إلاَّ اللهُ سبحانه: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا

عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ [الأعراف:١٨٧].

والساعةُ التي سأل كفارُ قريشٍ الرسولَ عن وقتِ وقوعها هي يومُ القيامة، والساعةُ في الأصلِ تُطْلَقُ على كلِّ وقتٍ من الزَّمَنِ، وغلب إطلاقُها على يومِ القيامةِ، وكان كفارُ قريشٍ يسألون عنها إنكاراً لها، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى:١٨]، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾ [الملك:٢٥]، وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: متى يكون وقوعها.

وقد أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقول للسائلين: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧]، أي: قُلْ لهم يا نبيَّنا: إنما علمها عند الله، و﴿إِنَّمَا﴾ أداةُ حصرٍ، أي علمها عند الله، فلا يعلمها لا ملكٌ مقربٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ، وقد قال الرسولُ ﷺ لجبريل عندما جاءَه وهو في جمعٍ من الصحابة، فسأله عن الإيمانِ والإسلامِ والإحسانِ، ثم سأله عن الساعةِ، قال في الجواب: «ما المسؤولُ عنها بأعلم من السائل» [البخاري: ٥٠، مسلم: ٩، ١٠] فالمسؤولُ وهو أفضلُ الأنبياءِ والرسل لا يعلم متى تقعُ، والسائلُ وهو جبريلُ وهو أفضلُ الملائكةِ لا يعلم أيضاً متى تكونُ، وقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يوجِدُها ويظهرُها في وقتها أحدٌ غيره وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٧]، أي: عظَمتْ على أهل السموات والأرض، لأن ما فيها مِنَ الأهوالِ لا تطيقه السمواتُ والأرضُ، ولا أحدٌ ممن فيهما، فمن ذلك -كما يقول ابن جريج- انشقاق السماءِ، وانتثارِ النجوم، وتكويرُ الشمسِّ، وتسيير الجبالِ [ابن كثير: ٣/ ٢٤٥].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧]، أي: لا تقومُ الساعةُ على الناسِ إلاَّ فجأةً، وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ الساعةَ تقومُ والناسُ في أعمالهم وأشغالهم، فتأْخذهم من غير إمهال، فعن أبي هريرةَ ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعةُ حتى تطْلُعَ الشمسُ من مغْرِبها، فإذا طَلَعَتْ فرآها الناسُ آمَنوا أجمعونَ، فذلكَ حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] ولتقومَنَّ الساعةُ وقد نَشَرَ الرَّجلانِ ثوبَهما بينَهما، فلا يتَبايَعانِه ولا يَطْوِيانِه، ولتقومَنَّ الساعةُ وقدِ انصرفَ الرَّجلُ بلبَنِ لِقْحَتِه فلا يَطْعَمُه، ولتَقومَنَّ الساعةُ وهو يَليطُ حَوْضَه فلا يَسْقي فيه، ولتقومَنَّ الساعةُ وقد رَفَعَ أُكلَتَه إلى فيه فلا يَطْعَمُها» [البخاري: ٦٥٠٦. ومسلم: ٢٩٥٤. واللفظ للبخاري].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف:١٨٧]، أي: يسألونك عن الساعةِ، كأنَّك استحْفَيْتَ عنها، أي: علمتَ وقتها، أو كأنَّك عالم بها، قد عرفتٍ بها، واستقصيتَ أخبارها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ [الأعراف:١٨٧] أمَرَ اللهُ تعالى عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يقولَ للناس السائلين عن وقتِ الساعةِ مُؤَكِّداً ما سبق أنْ أخبرهم به أنَّ علمَ وقتِ الساعةِ استأثر الله بعلمه، كما قال ربُّ العزة: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦٣].

ولذا فإنَّ الذين حَدَّدُوا وقتاً لوقوعِها من أهل العلم خالفوا الآياتِ والأحاديثَ الصحيحةَ المبيِّنَةَ أنَّ وقتَ الساعة أمره إلى الله عزَّ وجلَّ، لا يعلمه غيرُهُ.

٢- رسولنا ﷺ لا يملكُ لنفسهِ ضرّاً ولا نفعاً ولا يعلمُ الغيبَ:

أمَرَ اللهُ تعالى رَسوله ﷺ أنْ يُعْلِنَ للناسِ حقيقةَ نفسه، فهو ليس إلهاً، ولم يعط القدراتِ الخارقةِ، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، فهو لا يستطيع أن يجلبَ الخيرَ لنفسِهِ، ولا يستطيعُ أن يدفع عنها الضُّرَّ، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فالله تعالى هو النافعُ الضَّارُّ، وإذا شاءَ رَبِّي مَكَّنَنِي من جلبِ الخيرِ لنفسي، ودَفْعِ الضر عنها.

وأمَرَهُ تبارك وتعالى أن يعلن للناس جميعاً أنه لا يعلم الغيبَ، والغيبُ ما غابَ عنَّا، ولم نشاهدْهُ، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، فالرسلُ جميعاً بشرٌ، يعملون بشرعِ الله ووحيه، ولا يملكون خزائنَ الله، ولا يعلمون الغيبَ، ولا يملكونَ قدراتِ الملائكةِ، فأوَّلُ الرسلِ نوحٌ ﷺ قال لقومه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [هود:٣١]، وآخر الرسل ﷺ قال للناس جميعاً: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام:٥٠].

هؤلاءِ هم الرسلُ عليهم السلام، وهذا هو رسولنا ﷺ ، ولذا فإنَّ الذين يزعمون أنَّ أولياءَهم أُعطوا القدرةَ على التَّصَرُّفِ بالسمواتِ والأرضِ، ويعلمون علمَ ما كان، وما يكون، وما لم يكنْ لو كان كيف يكونُ، رفعوهم إلى مرتبةٍ فوقَ مرتبةِ الرسلِ والأنبياءِ.

لقد كان اليهودُ يريدونَ إلقاءَ صخرة على رأْسِ رسولِنا ﷺ وهو جالسٌ قربَ جدارِ منزلٍ من منازلهم، ولم يعلم بذلك حتى نَبَّأه الوحي، وأكلَ رسولُنا ﷺ من كَتِفِ شاةٍ سَمَّتْه

يهوديةٌ، فلم يعلم بذلك، حتى أخبره كتفُ الشاةِ بأنها مسمومةٌ، وماتَ أحدُ أصحابِه مِنْ أكله من تلك الشاةِ، وباتَ الرسولُ وأصحابه يبحثون عن عقدٍ لعائشة أضاعته، فلما بعثوا الناقةَ وجدوا العقدَ في الموضع الذي كانت باركةً فيه، وعندما سألتْ قريشٌ الرسولَ ﷺ عن صفةِ المسجد الأقصى لم يستطعْ أن يصفَه، حتى مَثَّله اللهُ له حيث يراه.

ولو كان رسولُنا ﷺ يعلم الغيبَ، لاستكثرَ مِنَ الخيرِ، أي: لاستكثر مِنَ الأعمال الطيبة الصالحة، وانتهز الفرصَ السانحةَ، ولم يمَسَّه السوءُ، والسوءُ: الأوجاعُ والأمراضُ، والمصائبُ والخسائر.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف:١٨٨] أي: أنا نذيرٌ، أي: مُعَلِّمُ مَنْ عصى الله بعقابه، وشديدِ عذابِهِ، وبشيرٌ، أي: مُعَلِّمُ مَنْ آمن بالله واتَّقاه بما يَسُرُّهُ مِنْ رحمةِ الله تعالى ورضوانِهِ وجنتِهِ.

٣- **خَلَقَ اللهُ تعالى الناسَ جميعاً من آدم، وخلق من آدمَ زوجَهُ حوَّاء:**

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه خلقنا من نفسٍ واحدةٍ وجعل من هذه النفسِ الواحدةِ زوجَها، ليسكن إليها ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف:١٨٩]. والنفسُ الواحدةُ التي خلقَ الناسَ جميعاً منها آدمُ ﷺ، والزوجُ الذي جعله اللهُ مِنْ آدمَ حواءُ، ومعنى: ﴿وَجَعَلَ﴾ خلق. وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليسكنَ الرجل إلى زوجته، ويطمئنَّ إليها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١].

وقد جعل اللهُ -تعالى- من هذين الزوجين: آدم وحواءَ الرجالَ والنساءَ جميعاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء:١].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠].

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ أي: جامعها زوجُها ﴿ حَمَلَتْ ﴾ من ذلك الجماع، و﴿حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ وصف الحمل بأنّه خفيفٌ، لأنَّ حمَلَ المرأة عندما يكونُ نطفة، فعلقة، فمضغة يكون خفيفاً، ﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ أي: فاستمرَّتْ به، وذهبت به مقبلة ومدبرةً لا يثقلها

﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾ أي: صارتْ ثقيلةً من عظمِ الجنين وكبره في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾ [الأعراف:١٨٩].

وقوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: الزوجان اللذان لهما الجنين دعوا اللهَ -تبارك وتعالى- ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾ أي: ولداً صالحاً سوِياً ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ .

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أنَّ المرادَ بالذي تَغَشَّى زوجتَه آدمُ ﷺ، والزوجةُ المغشَّاةُ حواءُ، فحملت حواءُ من آدمَ، فحملتْ به حملاً خفيفاً فمرَّتْ بهِ، أي: استمرت بِهِ خفيفاً، لا تشعر به، فلما أثقلت، أي صارت ذاتَ ثقلٍ بحملها جاءَها الشيطان، ودعاها أنْ تسميه عبدَ الحارثِ، ليعيشَ، وكان لا يعيشُ لها وَلَدٌ قبل ذلك، فسمَّتْه عبدَ الحارث، فعاشَ، والحارثُ اسمٌ من أسماءِ الشيطان، وعلى ذلك فإنَّ المرادَ بقوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ هما آدم وحواء، ولا يجوز نسبة هذه الواقعةِ العظيمة إلى أبينا آدمَ وأُمِّنا حواءَ من غيردليلٍ ولا برهانٍ وقد بيَّنَ ابن كثير رحمه الله [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٥١] أنَّ حديث سمرةَ الذي يَنْسُبُ هذا الشركَ لآدم وحواء حديث ضعيف، لا يقومُ للاحتجاج به، وقد قال ابن كثير فيه: «والغرضُ أن هذا الحديث معلولٌ مِنْ ثلاثة أوجه» وقال محقِّقُ تفسيرِ ابن كثيرٍ في هذا الحديث: «المرفوعُ ضعيفٌ منكرٌ» ثم أطال في بيان وَجه نكارتِه.

وقد ذهب بعض أئمةُ التفسيرِ إلى القولِ بمثل ما جاءَ به الحديثِ، وقد قال الشيخُ العلاَّمةُ محمدُ الأمين الشنقيطي: «والتحقيقُ أنها لم يثبتْ شيءٌ منها، والأغلبُ أنَّ من رُوِيَتْ عنه مِنَ الصحابةِ أخذوها عن بعضِ الإسرائيليين» [العذب النمير: ٤/ ٤١٩].

والذي اختاره ابنُ كثيرٍ رحمه الله تعالى هو ما ذهب إليه الحسنُ البصريُّ رحمه الله تعالى، فقد قال ابن كثير: «قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيعٍ، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ ، قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم، وحدثنا محمدُ بنُ عبدِ الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: عَنَى بها ذريةَ آدمَ، ومَنْ أشرك منهم بعده، يعني: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾. وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فَهَوَّدوا ونصَّروا، وهذه أسانيدُ صحيحة عن الحسن -رحمه الله- أنَّه فسر الآية بذلك، وهو مِنْ أحسن التفاسير وأولى ما حُمِلَتْ عليه الآية، ولو كان هذا الحديثُ عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل هو ولا غيره عنه، لا سيما مع تقواه لله ووَرَعه، فهذا يدلُّكَ على أنَّه موقوف على

الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه مِنْ بعضِ أهل الكتاب، مَنْ آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبّه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إنْ شاء الله، إلا أننا برئنا مِنْ عهدة المرفوع، والله أعلم» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٥٢].

وقد استدلَّ ابنُ كثيرٍ رحمه الله تعالى لما ذهب إليه الحسن بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف:١٩٠]، قال ابنُ كثيرٍ: «وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري -رحمه اللهُ- في هذا، والله أعلم، وأنَّه ليس المراد مِنْ هذا السياق آدمُ وحواءُ، وإنَّما المراد مِنْ ذلك المشركون مِنْ ذُرِّيته، ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾، وذكر تعالى آدمَ وحواءَ كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد مِنْ ذكرِ الشخصِ إلى الجنسِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك:٥]، ومعلومٌ أن المصابيحَ -وهي النجومُ التي زُيِّنَت بها السماءُ- ليستْ هي التي يُرْمَى بها، وإنما هذا استطرادٌ من شخصِ المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائرٌ كثيرةٌ في القرآن، والله أعلم» [ابن كثير: ٣/ ٢٥٣].

٤- عدمُ صلاحيةِ آلهةِ المشركين للعبادة:

أخْبرنا ربَّنا -تبارك وتعالى- أنَّ آلهةَ المشركين لا تصلحُ للعبادة بحالٍ مِنَ الأحوال، وقد بيَّنَ عدمَ صلاحيتها للعبادةِ من عدةِ وجوهٍ:

أ- أنَّها لا تستطيعُ أن تخلق شيئاً، وهي مخلوقةٌ مربوبةٌ: قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف:١٩١] هذا إنكار على هؤلاءِ المشركين الذي أشركوا مع الله أصنامَهُمْ وأوثانَهُمْ، والذي يستحقُّ العبادةَ دون غيره هو الله الواحدُ الأحدُ الخالقُ، الذي أخرج الناسَ مِنَ العدم إلى الوجودِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١-٢٢]. وقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد:١٦].

وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ آلهةَ المشركينَ لن تستطيع خَلْقَ أحْقَر الأشياءِ وأقلّها، وهو الذبابُ ولو اجتمعوا له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥۖ﴾ [الحج:٧٣]. وآلهةُ المشركين مع كونها لا تستطيع أن تخلق شيئاً، فإنها مخلوقةٌ مربوبةٌ، ومَنْ كان كذلك، فإنه **لا** يصحُّ أن يكون إلهاً معبوداً.

وقد بيَّنَ ربُّ العزة سبحانه أنَّ آلهة المشركين وأصنامهم ضعيفةٌ عاجزةٌ.

ب- **لا تستطيع هذه الآلهة أن تنصر عابديها، ولا تستطيع نصر أنفسها:** قال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٢] فهذه الآلهةُ لا تستطيعُ أن تنصر عابديها، ولا تستطيعُ أنْ تُؤَمِّنَ الحمايةَ لنفسها، وتدفعَ عن **نفسها** الضربَ والكسر، وقد حطَّم نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام الأصنامَ التي كان يعبدها قومُهُ ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الصافات:٩٣] ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٨].

ج- **لا تستطيع هذه الآلهة الاستجابةَ لمن دعاها إلى الهدى:** قال تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٣]، أي: أنَّ هذه الأصنامَ المعبودةَ إذا دعاها أحدٌ إلى طريقِ الهدى، فإنَّها لا تسمع دعاءَه ونداءَه، لأنها جمادٌ، ولا فرقَ عند هذه الأصنام بين مَنْ دعاها إلى الهدى، وبينَ مَنْ سكتَ، فلم يَدْعُها، أي إنْ دعوتموهم إلى الهدى فلن يهتدوا، وإن صمتمْ فلن يهتدوا، وقد قال نبيُّ الله إبراهيمَ عليه السلام لأبيه: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم:٤٢].

ولذلك فإنَّ الأنبياءَ وأتباعهم مِنَ المؤمنين ما كانت الأصنامُ تُرْهبهم ولا تخيفهم، فإبراهيمُ حطَّم تلكَ الأصنامِ وجعلها جذاذاً، وهودٌ عندما خوَّفَهُ قومُهُ آلهتَهُم، قال لهم غير خائف ولا وجل: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٤-٥٦].

د- **الأصنامُ والأوثانُ عبادٌ أمثالنا:** بيَّنَ اللهُ تعالى للمشركين أنَّ الذي يعبدونه عبادٌ أمثالنا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٤]. أخبر اللهُ تعالى المشركين أنَّ الأصنامَ التي يعبدونها مِنْ دون الله ليستْ بأفضلَ منهم، ولا أكمل، فهي في أعلى حالاتها عبادٌ أمثالُ عابديها، من حيث إنَّها مخلوقة لله ربِّ العالمين، وجعلها عباداً أمثالهم، لأنَّ الكفار يصفونها بصفاتِ العقلاءِ، فهي بزعمهم تشفعُ لهم عند ربِّهم، وتجلب لهم النفعَ وتدفعُ عنهم الضرَّ.

وقد أمرهم ربُّ العزة بدعائهم فهم لا يستجيبون لهم فقال: ﴿ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ وواقع الأمر أنَّهم يدعونهم، وينادونهم، فلا يستجيبون لهم،

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ لأنهم يدعونهم، فلا يستجيبوا لهم، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأحقاف:٥].

هـ- انحطاطُ درجةِ المعبوداتِ عن درجة العابدين: ذمَّ اللهُ تعالى آلهةَ المشركين، وبيَّن أنَّهم أفْضَلُ من الآلهة التي يعبدونها مِن دون الله، قال تعالى: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف:١٩٥].

وجَّه ربُّ العزةِ في هذه الآية السؤالَ لعابدي الأصنام، يسألهم عن الآلهةِ التي يعبدونها من دونِ الله تعالى قائلاً: ألهذه الأصنام أرجل تمشي بها كما لكم أرجل تمشون بها، وهل لها أيدٍ كما لكم أيدٍ تبطشون بها، وهل لها عيون تبصر بها كما لكم عيونٌ تبصرون بها، وهل لها آذان تسمع بها كما لكم آذان تسمعون بها، إنَّ المقارنة بين هذه الأصنام المصنوعةِ مِنْ حجرٍ أو خشبٍ أو معدنٍ تظهرُ بوضوحٍ أنها لم تخرج عما صُنِعَتْ منه، وليس لها من الأحياءِ إلا الصورة والرسم، أما الحياة التي يتميز بها العبَّادُ فهي معدومة في الأصنامِ والأوثان.

وقد كان عابدو الأصنام ولا يزالون يخوِّفونَ الرسلَ والمؤمنين بأصنامهم، ويزعمون أنها ستمرضُهم، وتُخْبِلُ عقولَهُمْ، وتجتاحُ أموالهم، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر:٣٦] وقد مضى قريباً ذكر الطريقة وكيف حطَّم إبراهيمُ بها أصنامَ قومِهِ، وكيف تبرأ هودٌ مِنَ الآلهةِ التي كان يعبدها قومُهُ، وأعلن لقومِهِ أنه لم يخف منها، ولم يخف من عابديها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعملٍ:

١- لا يعلمُ وقتَ وقوعِ الساعةِ إلا اللهُ تبارك وتعالى، وهي تأتي فجأةً، وعندما تقع تدمِّر السماواتِ والأرضَ.

٢- الكفارُ لا يؤمنون بوقوعِ الساعةِ، والمؤمنون يؤمنون بها، ويخْشونَ وقوعها.

٣- الرسولُ ﷺ بشرٌ لا يملكُ صفاتِ الألوهيةِ، وليس بمَلَكٍ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، إلا ما شاءَ اللهُ له، ولا يعلم مِنَ الغيب إلاّ ما عرَّفه اللهُ به.

٤- الناسُ جميعاً مخلوقون من نفسٍ واحدةٍ هي آدم عليه السلام، وقد خلق اللهُ من آدم زوجَهُ حواءَ، ليسكنَ إليها.

٥- بعضُ ذريةِ آدم دَعَوْا ربَّهما أنَّهما إنْ آتاهما ربُّهما ولداً صالحاً، فسيكونون من الشاكرينَ لله تعالى، فلما رزقهما الولدَ السويَّ أشركا بالله تعالى.

٦- الأصنامُ والأوثانُ التي يعبدها المشركونَ لا تصلح لأنْ تكون آلهة معبودةً من دون الله لأربعةِ أُمور بيَّنها اللهُ تعالى، وحدَّدْتُها في تفسيرِ الآياتِ.

النص القرآني الثامن والعشرون من سورة الأعراف
حالُ المؤمنين مع ربِّ العالمين وحالُ الكفارِ مع آلهتهم

أولاً: تقديم

هذا هو النصُّ الأخيرُ من سورة الأعراف، وقد تنزَّلَ هذا النصُّ ليمدَّ المؤمنين بالمُثُلِ والتصوراتِ والهدى، وليَرْسُمَ لهم معالمَ الطريقِ، وقد أمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يعلن للناسِ أنَّ وليَّه هو اللهُ، وهو يتولى الصالحين، أما الكفارُ فإنَّهم يتولون الأصنامَ ويدعونهم مِنْ دونِ الله، وهم غير قادرين على نَصْرِ أنفسِهِمْ، ولا نصر عابديهم، وإنْ تدع هؤلاء المشركين إلى الهدى لا يسمعوا، وتراهم ينظرون إليك، وهم لا يبصرون.

وبيَّنَ اللهُ تعالى للمؤمنين المنهجَ الذي يسلكونه مع أعدائِهم من الإنسِ والجنِّ، كما أمرهم بالموقف الصحيح الذي يجب أنْ يقفوه مِنَ القرآنِ الكريمِ، وأمرهم أنْ يذكروا ربَّهم في أنفسهم تضرعاً وخِيفَةٍ، وفي ذلك حياةٌ لقلوبهم وأرواحهم، كما أمرهم أنْ يذكروه بألسنتهم على نحو وسط بين الجهر والإخفاء في الصباحِ والمساءِ، ونهاهم أنْ يكونوا مِنَ الغافلين.

وبيَّن سبحانه لنا الحالَ التي عليها عباده الذين عنده، وهم ملائكته، فإنَّهم خاضعونَ متواضعون، لا يستكبرون عن عبادتِهِ، وينزهونه عن كلِّ نقص، ويسجدون له.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦-٢٠٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- اللهُ -سبحانه- وَلِيُّ رسولِه ﷺ ووَلِيُّ المؤمنين:

أمَرَ الله -تعالى- رسولَه أنْ يقولَ للمشركين: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦]، والوَلِيُّ: المَوْلَى الذي انعقد بينك وبينه سببُ ولايةٍ، يجعلك تواليه ويواليك، فرسولُنا ﷺ انعقد بينه وبين رَبِّهِ سببٌ، فهو يوالِيه بالطاعاتِ، واللهُ يوالي نبيَّه بالإعانةِ والنصرِ والثوابِ الجزيل.

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ [الأحزاب:٦]. والله تعالى وَلِيُّ المؤمنين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة:٥٥].

واللهُ تعالى نزَّلَ الكتابَ، والكتابُ القرآنُ العظيمُ، وقال بعضُ العلماء: نَزَّل جنس الكتاب، أي: نزَّل جميعَ الكتب المنزلةِ، وفيها القرآنُ الكريمُ، ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ والصالحونَ جمعُ صالحٍ، وهو ضدُّ الطالحِ، وهو الذي يطيعُ اللهَ -جلَّ وعَلا- فيما أمره بِهِ، ونهاه عنه.

٢- الذين تَدعونَ مِنْ دون الله لا يستطيعون نصركم:

أمر اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٧]، أي: أنَّ الآلهةَ التي تدعونها من دون الله تعالى لا يقدرون أنْ يدفعوا عنكم شيئاً، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾، أي: لا يستطيعون نصركم، ولا يستطيعون نصر أنفسهم، فهم عاجزون عن نصر أنفسهم كما هم عاجزون عن نصركم.

٣- أخْبَرَ اللهُ -تباركَ وتعالى- أنَّ المشركين إنْ دَعَوْا آلهتهم لا يسمعون دعاءَهم:

أخبر ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المشركين إذا دَعَوْا آلهتهم التي يعبدونها من دونِ الله عزَّ وجلَّ طالبين منها النصرَ والتأييد، فلا تستطيع تلك الآلهة أنْ تنصرهم، ولا تستطيعُ نصرَ نفسها ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف:١٩٨].

وأعلمنا ربُّنا في الآيةِ التاليةِ بما هو أسوأ مِن ذلك، فالآلهة التي يدعونها من دون الله -تبارك وتعالى- لا تسمعُ عابديها إذا دَعَوْها لتهديهم، ذلك أنها أمواتٌ ليس فيها حياةٌ، ولا تملكُ السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدة ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف:١٩٨].

ثم بيَّنَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- حالَ المشركين، فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف:١٩٨]، أي: ترى هؤلاءِ المشركين ينظرونَ إليك، وتظنُّ أنَّ عيونهم مبصرةً، وهم لا يبصرونَ، فعقولهم فارغة، وأبصارهم زائغة، ولو كان لديهم عقلٌ لما عَبَدوا الأصنامَ الجامدةَ التي لا تعقل.

٤- **كيف نتعاملُ مع العدوِّ الإنسيِّ والعدوِّ الشيطانيِّ:**

جَعَلَ اللهُ تعالى ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، وقد بيَّن لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- كيف نتعامل مع كل واحدٍ من العدوَّيْنِ الإنسيِّ والجنيّ، فقال معلماً إيَّانا الطريقة التي نتعامل بها مع العدوَّ الإنسي: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩].

أَمَرَ الله -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ بالعفو والصفح عن أعدائه، قال عبدُالله بن الزبير: «أمر اللهُ نَبيَّهُ ﷺ أنْ يأْخذَ العفو مِنْ أخلاق الناس أو كما قال» [البخاري: ٤٦٤٤] وأَمَرَهُ أن يعرضَ عن الجاهلين، وذلك بعدم الالتفات إليهم.

وقد وَرَدَ في بعض الأحاديث ما يُفسِّرُ الآيَةَ الكريمة، فقد سأل عقبة بن عامرٍ رسولَ الله ﷺ، فقال: أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: «يا عُقبةَ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وأعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وأعْرِضْ عمَّنْ ظَلَمَكَ» [قال محققُ ابنِ كثير (٣/ ٢٥٦): أخرجه أحمدُ والطبرانيُّ والبيهقيُّ في الشعب، وأحَدُ إسنادي أحمد رجاله ثقات].

وقد كانت هذه الآيةُ منهجاً للرسولِ ﷺ أخذ به نفسه، ففي فتح مكَّة قال لقريشٍ التي أخرجته، وحاربتْه: «اذهبوا فأنتم الطلقاءُ» وفي أُحد عندما أعلن لأصحابه أنَّه سيمثل بضِعْفَيِّ العددِ الذي مثَّل به المشركون مِنَ المسلمين، أرشدَه ربُّه لما هو أفضلُ فقالَ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [النحل:١٢٦-١٢٧].

وعفا الرسولُ ﷺ عن ذلك الرجل الذي أرادَ قتله بينما كان قائلاً في ظلِّ شجرة، فاستلَّ سيفَ الرسول ﷺ، وفتح الرسولُ ﷺ عينيه، فقال: مَنْ يمنعك مني، قال: اللهُ، فسقط السيف من يد الرجل.

ولو تتَبَّعَ الباحثُ منهجَ الرسولَ ﷺ الذي أخذ به نَفْسه، لوجد كثيراً مِنَ الوقائع والحوادثِ التي جرت معه.

وقد كانت هذه الآيةُ عاصمةً لصحابةِ الرسولِ ﷺ مِنَ الوقوعِ في الزلَلِ، فعن ابنَ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قَدِمَ عُيينةُ بنُ حِصْنِ بنِ حُذيفةَ، فنَزَلَ على ابنِ أخيه الحُرِّ بنِ قيسٍ، وكان من النَّفَرِ الذينَ يُدْنِيهم عمرُ، وكان القُرّاءُ أصحابَ مجالسِ عمرَ ومُشاوَرَتِهِ كُهولاً كانوا أو شُبّاناً، فقال عُيينةُ لابنِ أخيه: يا ابنَ أخي، هل لكَ وجهٌ عندَ هذا الأميرِ؟ فاستأْذِنْ لي عليه، قال: سأستأْذِنُ لكَ عليه، قال: ابنُ عبَّاسٍ: فاستأْذنَ الحرُّ لعُيينةَ، فأذِنَ له عمرُ، فلمَّا دَخَلَ عليه قال: هِيْ يا ابنَ الخطَّاب! فوالله ما تُعْطِينا الجَزْلَ، ولا تحكُم بينَنا بالعَدْل، فغَضِبَ عمرُ حتَّى هَمَّ أنْ يُوقِعَ به، فقال له الحُرُّ: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ اللهَ تعالى قال لنبيِّه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾، وإنَّ هذا مِنَ الجاهلِينَ. والله ما جاوَزَها عمرُ حينَ تَلاها عليه، وكان وَقَّافاً عندَ كتابِ الله [البخاري: ٤٦٤٢].

أما العدوُّ الشيطانيُّ، فلا يجوز مهادنتُهُ ولا ملاطفتُهُ، ولا ينفعُ معه إلاَّ أنْ نلتجئَ إلى الله تعالى لنحتمي به من شرِّه ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ أي: إذا نزغك من الشيطان نزغ بأنْ وسوسَ لك حتى زيَّنَ لك أن تعصي اللهَ، أو أغضبك حتى خرجت عن حدود الطاعة، وقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ﴾ أي: مِنَ الشيطانِ، أي: اطلب مِنَ الله أن يعيذك ويمنعك ويقيك منه، وقولُه في خاتمة الآية: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ أي: سميعٌ لدعائِك، عليم بوسوسة الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ أي: إنَّ الأتقياء الذين يخافون ربَّ العزةِ إذا مَسَّهم طائفٌ مِنَ الشيطان، والطائف الشيء الذي يطوف بهم من قبل الشيطانِ مِنْ وساوسه وإغضابه لهم، وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ أي: عقابَ الله وثوابَهُ، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ والإبصار هنا بالقلب الذي يحمل الإنسانَ على الرجوعِ إلى ما يرضي الله.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ أي: وإخوان الشياطين من الإنس، وهم أتباعُهُمْ والمستمعون لهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الإسراء:٢٧].

وقوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾ أي: تساعدهم الشياطينُ في المعاصي، وتُسَهِّلُها عليهم، وتُحسِّنها لهم، وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ قال ابن عباس: «لا الإنسُ يُقصِّرون عما يعملون مِنَ السيئاتِ، ولا الشياطين تمسك عنهم» [ابن كثير: ٣/ ٢٥٩].

٥- لم يكن من شأنِ الرسولِ ﷺ اقتراحُ الآياتِ الكونيةِ أو الشرعيةِ:

كان كفارُ قريشٍ يديمون اقتراحَ الآياتِ على الرسول ﷺ ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأعراف:٢٠٣]، أي: وإذا لم تأْتِهم بآية مما اقترحوه عليك قالوا لك: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: لولا اخترعتها واختلقتها واصطفيتها، فهم يظنون أنَّ بإمكانه أنْ يُنزِّلَ ما شاءَ مِنَ الآياتِ، ولذلك أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يقولَ للمشركين: ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ [الأعراف:٢٠٣] أي: ليس من شأني أن أقترحَ على ربِّي إنزال الآيات التي يطلبها مني أعداؤه، وإنما دَيْدَنِي وطريقتي أن أتّبع ما أوحاه إليَّ ربي، أي يؤمن به، ويعملَ به، ويتْلُوه على عباد الله ويطالبهم بالالتزام بِهِ والعمل به.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف:٢٠٣] والمشارُ إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ القرآن الكريم، والبصائر جمع بصيرة، والبصيرة: البرهانُ القاطعُ، والدليلُ الساطع الذي يُبْصَرُ في ضوئه الحقُّ واضحاً لا لبس فيه، وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ فالقرآنُ يهدي البشرية كلَّها، أيْ: يَدُلُّها على سبل الخيراتِ، ولكنَّ الذي ينتفع به هم المؤمنون دون غيرهم، ولذلك قال الله لرسوله ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] أي: لا تستطيع إدخال الإيمان في القلوب إلاَّ أنْ يشاء الله تعالى.

والقرآنُ الكريم: آيةٌ عظيمةٌ، ومعجزةٌ باهرةٌ، أعجزت الإنس والجنَّ أن يؤتوا بمثلها، فطَلَبُهمْ الآياتِ الخارقاتِ مع وجودِ هذه الآية سفهٌ في الرأي، ونقصان في العقل.

٦- الإنصات والاستماع لقراءة القرآن:

كان الكفارُ أهلُ الجاهليةِ يعلمون بمدى تأثير تلاوةِ القرآنِ على القلوبِ والنفوسِ، ولذلك كانوا يأْمرونَ أتباعهم أنْ لا يسمعوا لتلاوةِ القرآنِ، ويأْمرونَهم أنْ يلْغوا فيه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت:٢٦]، وكانوا عندما يتلو الرسولُ ﷺ عليهم القرآنَ يرفعونَ أصواتهم بالمكاءِ والتصديةِ ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥]، أي: صَفيراً وتَصْفيقاً.

وقد أمَرَ اللهُ -تعالى- المؤمنينَ عندما يُقْرَأُ عليهم القرآنَ أن يستمعوا له، وينصتوا، لعلَّ اللهُ يرحمهم ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

والاستماعُ: التدبُّرُ في الشيءِ والإصغاءُ إليه، والإنصاتُ: هو السكوت وترك الكلام.

عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ انصرفَ من صلاةٍ جَهَرَ فيها بالقراءةِ، فقالَ: هل قرأ مَعِي أحَدٌ منكُمْ آنِفاً؟ فقالَ رَجُلٌ: نَعَمْ يا رسولَ الله، قال: إنِّي أقولُ: ما لي أنازَعُ القُرآنَ قالَ: فانتهى الناسُ عَنِ القراءَةِ مَعَ رسولِ الله ﷺ فيما جَهَرَ فيهِ رَسولُ الله ﷺ مِنَ الصلواتِ بالقراءةِ حينَ سَمِعُوا ذلكَ من رسولِ الله ﷺ [رواه الترمذي: ٣١٢. وقال: وفي الباب عن ابن مسعودٍ وعمرانَ بن حُصَيْنٍ وجابرِ بنِ عبدالله. قالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حَسَنٌ. وهو في صحيح سنن الترمذي، ٢٥٧. وسنن أبي داود: ٨٢٦. وصحيح سنن أبي داود: ٨٣٦. وحكم عليه الألباني بالصحة].

٧- كيف يذْكُرُ العبدَ ربَّه تبارك وتعالى:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يذكر ربَّه في نفسه تضَرُّعاً وخيفَةً ودون الجهرِ مِنَ القولِ بالغدوِّ والآصال، ونهاه أنْ يكون من الغافلين ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٥].

والذِّكْرُ النفسانيُّ هو الذكْرُ الذي لا يعلمه منكَ إلا ربُّ العبادِ، وذلك بتذكرك في عظمةِ الله وسلطانِه وجبروتِه وصفاتِه وعقابِه وثوابِه، وقوله: ﴿تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ ﴾ أي: لأجل التضرع، وهو التذلل والتخشع والتواضع لربِّ العالمين، ﴿وَخِيفَةٗ ﴾ مِنَ الخوفِ، والمرادُ بهما الرغبةُ إلى الله، والرهبةُ منه.

وقوله: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ هذا هو الذكر اللساني، أيْ: اذكرْ ربَّك بالقولِ دونَ الجهر، فإنَّه لا ينبغي رفعُ الصوتِ بالدُّعاءِ وبالأذكارِ رفعاً يبلغ درجةَ الصراخِ، وقد أرشدنا ربُّنا تباركَ وتعالى إلى أنَّ الذكرَ اللسانيَّ، لا يكونُ بالجهرِ بالصوتِ العالي، ولا بالإسرارِ الشديدِ ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء:١١٠].

وقوله: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ الغدوُّ: أوائلُ النَّهارِ، والآصالُ آخره، وقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ نهى اللهُ رسولَه ﷺ عن الغفلةِ عن ذِكْرِ الله، والرسولُ ﷺ لا يغفلُ عن ذكر الله، ولكنَّه يحذِّر المؤمنين عن مثل ما حذَّر به رسولَهُ ﷺ .

٨- عبادةُ الملائكة عند الله تعالى:

لما أمَرَ اللهُ تعالى عبادَه بما أمَرهم بِهِ مِنَ الآدابِ الكريمةِ، أتبع ذلكَ ببيانِ الحالِ التي يكون عليها الملائكةُ الذين هم عنده في السماواتِ العُلا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَۤ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٦]. فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ هم الملائكةُ عليهم السلام، وقوله: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي: لا يتكبرون عن عبادتِهِ، بل

هم خاضعون متذلِّلون عابدون لربِّهم -جلَّ وعلا- وقوله: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: ينزهونه عن كلِّ ما لا يليق بكماله وجلاله

وقوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ أي: يعبدونه سبحانه بالسجودِ له.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- على المؤمنِ أن يتذكَّرَ دائماً أنَّ عليه أن يوالي ربَّه دائماً بالطاعة، واللهُ يواليه بالرعاية والتأييدِ والنصرِ والتكريم.

٢- الآلهةُ التي يعبدُها المشركونَ لا تصلح لأنْ تُعبَدَ وتُدْعى، ولا تستطيعُ نَصْرَ أنفسها، كما لا تستطيع نصر أتباعها.

٣- الكفارُ الذين قضى اللهُ عليهم بالكفرِ لا يسمعونَ الهدى الذي يدعوهم المؤمنونَ إليه، وهم في حالِ استماعهم للمؤمنين ينظرونَ إلى الداعي، ولا يبصرون الحقَّ.

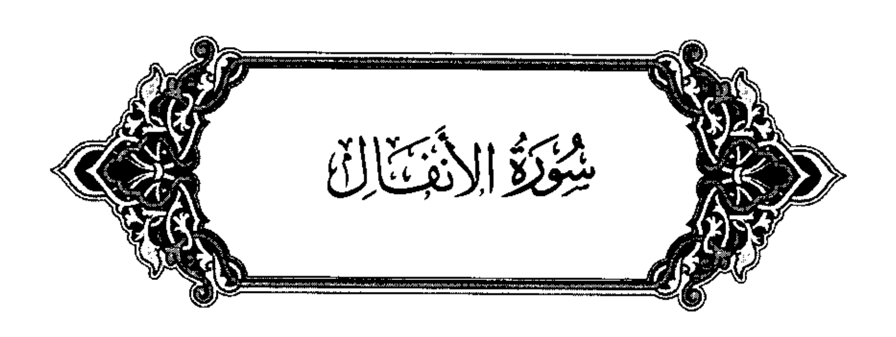
٤- بيَّنَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ والمؤمنين به المنهجَ الذي يجبُ أنْ يسلكه مع أعدائه مِن الإنس، والجنّ، فمعاملةُ الإنسِ تكونَ ممزوجة بالإحسان، أما الشياطينُ، فلا ينفعُ معهم إلاَّ الاحتماءُ بالله تعالى، والاستعاذةُ بالله من شرِّه.

٥- الرسولُ ﷺ لا يقترحُ الآياتِ على ربِّه، ولكنَّه يتبع ما أوحاه الله إليه.

٦- وجوبُ الاهتداءِ بهدْيِ القرآنِ، والإنصاتِ له، والاستماع إليه.

٧- على المؤمن أن يذكرَ اللهَ تعالى بقلبه، وبذلك تحيا نفسُه ويذكره دائماً بلسانه، من غيرِ مخافتةٍ، ولا رفعِ صوتٍ في الصباحِ والمساءِ.

٨- ملائكةُ الرحمنِ خاضعونَ لله، متبتلون له، لا يستكبرون عن عبادته، ينزهونه دائماً، ويسجدون له.



أولاً: تعريف بهذه السورة

قال أبو عمرو الداني: «سورة مدنية، ونظيرتها في المدنيين الحج، وفي الكوفي الزمر، وفي الشامي الفرقان، ولا نظير لها في المكي والبصري. وكلمها أَلْفٌ ومائتان وإحدى وثلاثون كلمة. وحروفها خمسةُ آلاف ومئتان وأربعة وتسعون حرفاً.

وهي سبعون وخمس آيات في الكوفي، وست في المدنيين والمكي والبصري وسبع في الشامي» [البيان في عَدِّ آي القرآن: ص١٥٨].

وقد نزلت هذه السورة في غزوة بدر، فعن سعيدِ بنِ جبيرٍ، قال: قلت لابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما: سورةُ الأنفال؟ قال: «نَزَلَتْ في بَدْرٍ» [البخاري: ٤٦٤٥. ومسلم: ٣٠٣١].

النص القرآني الأول من سورة الأنفال
الأنفال لله والرسولِ

أولاً: تقديم

خرجَ الرسولُ ﷺ بطائفةٍ كبيرةٍ من أصحابه يريدُ الاستيلاءَ على عيرِ قريشٍ القادمةِ مِنَ الشام بقيادةِ أبي سفيان، فنجا أبو سفيان بالقافلة، وخرجتْ قريش بجيشٍ كبيرٍ لحمايةِ العيرِ، والتقى الصحابةُ بجيشِ الكفار، فانتصروا عليهم، وحازوا غنائمَ كثيرةً، واختلف الصحابة فيمن يستحقُّ الغنائم، وسألَ الصحابةُ الرسولَ ﷺ عن الذي يستحقّ غنائمَ المعركة، فأخبرهم أنَّها لله ورسولِهِ، وحكم فيها الرسولُ ﷺ بما أراه الله تعالى، وكان حكمُ الرسولِ ﷺ في الغنائم مؤدِّياً إلى تقوى الله تعالى، مصلحاً لما ثار بين الصحابةِ، وكان رضا الصحابةِ بِهِ مؤدياً إلى طاعةِ الله ورسولِهِ ﷺ.

وبيَّنَ اللهُ تعالى الصفاتِ الكريمةِ التي تؤدِّي بالصحابةِ إلى الإيمانِ الحقِّ، وبيَّنَ اللهُ تعالى لصحابةِ رسولِهِ رضوانَ الله عليهم ما يؤدي بهم إلى الصلاحِ والخيرِ وحسن العاقبةِ.

ثانيا: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال:١-٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأنفالُ لله والرسولِ ﷺ:

الأنفالُ: الغنائمُ، قال بذلك ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ وعطاءٌ، والضحاكُ، وقتادةُ، وعطاءٌ الخراسانيُّ، ومقاتلُ بنُ حيانَ، وعبدُالرحمن بنُ زيدِ بنِ أسلمَ، وغير واحد [ابن كثير: ٣/ ٢٦٤].

وقد نزلتْ هذه الآيةُ بعد اختلافِ الصحابةِ في غنائم غزوةِ بدرٍ الكبرى، قال ابن كثير: «قال الإمام أحمد عن أبي أُمامة قال: سألتُ عُبادةَ عن الأنفال، فقال: فينا -أصحابَ بدرٍ- نزلت حين اختلفنا في النَّفَل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين، عن بَواء يقول: عن سواء» [قال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير: (٤/ ٨) رواه أحمد في المسند (٢٢٧٤٧) وهو حديث حسن لغيره].

وعن عبادة بن الصامت، قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدتُ معه بدراً، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدُوَّ، فانطلقتْ طائفةٌ في آثارهم يهزمون ويَقتُلون، وأكبَّتْ طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفةٌ برسول الله ﷺ لا يصيب العدوُّ منه غِرَّةً، حتى إذا كان الليلُ، وفاءَ الناسُ بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحدٍ فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدوّ: لستُم بأحقَّ به منا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستُم بأحقَّ مِنا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخِفْنا أن يصيب العدوُّ منه غِرّةً فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نَفَّلَ الربُعَ، فإذا أقبل راجعاً نَفَّل الثلثَ، وكان يكره الأنفالَ، ويقول: «لِيرُدَّ قويُّ المؤمنين على ضعيفهم» رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث سفيان الثوري، عن عبدالرحمن بن الحارث، به نحوه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ورواه ابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه» من حديث عبدالرحمن بن الحارث. وقال الحاكمُ: صحيحُ الإسنادِ على شرط مسلم ولم يخرجاه [قال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير: ٤/ ٨ رواه أحمد في المسند (٢٢٧٦٢)، وهو حديث حسن لغيره. ورواه الترمذي (١٥٦١)، وابن ماجه (٢٨٥٢)، وابن حبان (٤٨٥٥)، والحاكم ٢/ ١٣٥-١٣٦].

وقال ابن كثير: وروى أبو داود، والنسائي، وابنُ جرير، وابنُ مَرْدويه واللفظ له، وابن حبان، والحاكم من طرقٍ، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: لمَّا كان يومُ بدرٍ قال رسول الله ﷺ: «مَن صنعَ كذا وكذا فله كذا وكذا» فتسارع في ذلك شُبَّان الرجال، وبقي الشيوخُ تحتَ الراياتِ، فلما كانت المغانمُ جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإنَّا كنا رِدءاً لكم، لو انكشفتم لفئتم إلينا، فتنازعوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾» [وقال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير: ٤/ ٨: رواه أبو داود (٢٧٣٧) و(٢٧٣٨)، والنسائي في الكبرى (١١١٩٧)، وهو في تفسيره (٢١٧)، والطبري في التفسير ١١/ ١٢-١٣، وابن حبان (٥٠٩٣)، والحاكم ٢/ ١٣١-١٣٢ و٣٢٦-٣٢٧ وصححه في الموضعين، ووافقه الذهبي].

وعن مصعبِ بن سَعْدِ بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: أَخَذَ أبي مِنَ الخُمْسِ سَيْفاً، فأتى به النبيَّ ﷺ، فقالَ: هَبْ لِي هَذا، فأبى، فأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١] [مسلم: ١٧٤٨ (٣٣)].

وعن مصعبِ بنِ سعدٍ عن أبيه، قال: نَزَلَتْ فيَّ أَرْبَعُ آياتٍ، أَصَبْتُ سيفاً فأتى به النبيَّ ﷺ، فقالَ: يا رسولَ الله! نَفِّلْنيهِ، فقالَ: (ضَعْهُ)، ثمَّ قامَ، فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: (ضَعْهُ مِنْ حيثُ أَخَذْتَهُ). ثم قامَ فقالَ: نَفِّلْنِيهِ، يا رسولُ الله! فقالَ: (ضَعْهُ)، فقامَ، فقالَ: يا رسولَ الله! نَفِّلْنِيهِ، أَؤُجْعَلُ كَمَنْ لا غَناءَ لَهُ؟ فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: (ضَعْهُ مِنْ حيثُ أَخَذْتَهُ)، قال: فنَزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [مسلم: ١٧٤٨ (٣٤)].

وأورد مسلم في صحيحه (١٧٤٨) (٤٣) بعد الحديث رقم (٢٤١٢) (٤٢) قال سعد: «وأصابَ رسولُ الله ﷺ غنيمةً عظيمةً، فإذا فيها سَيْفٌ فأَخَذْتُهُ، فأَتَيْتُ بِهِ الرسولَ ﷺ، فقُلْتُ: نَفِّلني هذا السَّيفَ، فأنا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ حالَهُ، فقالَ: (رُدَّهُ من حيثُ أخذْتَهُ) فانطلقتُ، حتَّى إذا أَرَدْتُ أنْ أُلْقِيَهُ في القَبْضِ لامَتْني نفسي، فرجَعْتُ إليه، فقُلْت: أَعْطنيه، قال: فشَدَّ لي صَوْتَهُ: (رُدَّهُ من حيثُ أَخَذْتَهُ)، قال: فأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال:١]».

وقد كانت الغنائم محرَّمةً على جميع الأمم من قبلنا، فأحلَّها الله تعالى لنا، وهي إحدى خمس خصال خصَّ اللهُ تعالى هذه الأمة بها، ففي الحديث عن جابر بن عبدالله أن النبيَّ ﷺ قال: «أُعْطيتُ خَمْساً، لم يُعْطَهُنَّ أحَدٌ قَبْلي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مسجِداً وطَهُوراً، فأيُّما رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصلاةُ فلْيُصَلِّ، وأحلَّتْ لِيَ المَغانِمُ ولَمْ تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، وأعْطيتُ الشَّفاعَةَ، وكانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قوْمِهِ خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى الناسِ عامَّةً» [البخاري: ٣٣٥. ومسلم: ٥٢٥].

وخلاصة القولِ في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أيْ: يسأَلُكَ أصحابك عن الغنائمِ التي غنمتموها يوم بدرٍ، لمن هي؟ فقلْ: هي لله ولرسولِهِ، فالغنائمُ لله تعالى، لأنَّه هو مالكها، وهو الذي أقْدَرَ المسلمين على أخذها، وهو الذي يتصرَّفُ فيها كيفَ يشاءُ، وهي للرسولِ ﷺ لأنَّه جَعَلَ أمرها إليه، وفوَّضَها إليه، وليس لأحدٍ مِنَ الصحابةِ فيها حقٌّ أو خِصامٌ، لينقطع نزاعُهُمْ وخصامُهم، فقسَّمها رسولُ الله ﷺ بينهم على السويَّةِ، قِسْمَةَ عَدْلٍ على أحسن ما يكون.

وبجَعْلِ الله الحكمَ في الغنائم لله والرسولِ دفعٌ لحالةِ الشغبِ التي جرت بينَ الصحابةِ في غنائم بدر، ثمَّ إنَّ الله تعالى أمَرَ أن تقسم الغنائم وَفْقَ حكم بَيَّنَهُ -تبارك وتعالى- في الآية

الحادية والأربعين من هذه السورة، وهي قوله: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ...﴾ الآية، فجعل الخمسَ في هذه المصارف، والباقي يُوزَّع على المقاتلين.

وبعد أن قضى ربُّ العزَّة على حالةِ الشغبِ التي جرت بينَ الصحابةِ في الغنائمِ التي حازوها في بدرٍ، أمرهم ربُّ العزَّةِ بتقواه، وأمرهم بإصلاحِ ذاتِ بينهم، وأمرهم بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ﷺ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال:١] وتقوى الله تكونُ بامتثالِ أَمْرِهِ واجتنابِ نهيه، وأَمَرَهُمْ أنْ يصلحوا فيما بينهم، وذلك بتركِ التظالمِ والتخاصمِ والتشاجر، وأمَرهم بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ﷺ، ومن ذلك الرضا بما حَكَمَ به الرسولُ ﷺ في شأنِ الغنائمِ على النحو الذي أراده اللهُ تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ فيه حَضٌّ وتهييج على الفعل، كما تقول: إن كنت جواداً فأعطني.

٢- صفاتُ المؤمنين الكاملين:

بيّن اللهُ -تبارك وتعالى- في الآية التالية صفاتِ المؤمنين الأصفياءِ الكاملين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٢-٤].

وفي هذه الآيات تقويمٌ للمؤمنينَ الذين تنازعوا في غنائمِ بدرٍ، فرأى كلُّ فريقٍ أنه يستحقُّها دون غيره، وكان الواجبُ على الأطراف جميعها أنْ يطلبوا الحكمَ الذي يفرضه ربُّ العزَّةِ، ويَرْضَوْا به.

وقد وصف اللهُ تعالى المؤمنين الصادقين بخمْس صفات، هي:

الأولى: وَجَلُ قلوبِهِمْ عندما يذكرون الله ربّهم، ومعنى: ﴿وَجِلَتْ﴾: فَزِعَتْ، وخافتْ، وفَرِقَتْ، وخوفُ القلوبِ مِنَ الله تعالى، يمنعُ ويردَعُ عن مقارفةِ الذنبِ.

الثانيةُ: زيادةُ إيمانهم عندما تتلى عليهم آيات الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾. والقولُ بزيادةِ الإيمانِ إذا زادتِ الطاعاتُ، وبنقصانِ الإيمانِ إذا ارتكبتِ الذنوبُ والمعاصي قولُ السلَّفِ الصالحِ مِنْ هذه الأُمَّة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا

﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

الثالثةُ: توكُّل المؤمنين على ربِّهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ أي: يَثِقُونَ بالله تعالى، ويفوضون جميعَ أُمورهم إليه.

الرابعةُ: إقامةُ المؤمنين الصلاةَ، أي: يأتون بها على الوجه الأكمل، وذلك بإتيانهم بها في أوْقاتها، ومحافظتهمْ على شروطِها وواجباتها.

الخامسةُ: إنْفاقهم مما رزقهم اللهُ تعالى، ومِنْ ذلك الزكاةُ، وغيرها مِنَ النفقاتِ.

وقد أثنى ربُّ العزَّةِ تبارك وتعالى على الذين اسْتَوْفَوْا هذه الصفات وحققوها، وأخبر أنهم هم المؤمنون حقّاً ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المؤمنون إيماناً حقّاً، وهؤلاء ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: الدرجاتُ العالياتُ في جناتِ النعيمِ، وقولُهُ: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: غفرانُ الذنوب، وقوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ هو رزق الجنة مِنَ المآكل والمشارب.

٣- كما أخْرجك ربُّكَ مِنْ بيتك بالحقِّ:

قال اللهُ -تبارك وتعالى- لعبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال:٥-٦].

والكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا﴾ كاف التشبيه، شَبَّهَ اللهُ تعالى شيئاً بشيءٍ على الصحيحِ مِنَ أقوالِ أهل العلم.

والقضيةُ المشبهةُ دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وخلاصةُ القولِ في هذه القضيةِ أنَّ اللهَ هزمَ المشركين في غزْوةِ بدرٍ، وغَنِمَ الصحابةُ غنائمَ المشركين، واختلفَ الصحابةُ في هذه الغنائمِ، وكان كلُّ فريقٍ مِنَ الصحابةِ يرى أنَّه أولى بالغنيمةِ مِنْ غيره، فجعل اللهُ الحكم في هذه الغنائم ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، وهذا الحكمُ مخالفٌ لما كانَ يراه الصحابةُ، إذْ كان كلُّ فريقٍ يرى أنَّ الغنائم لَهُ دونَ غيره.

والمسألةُ المشبهةُ بها أنَّ اللهَ تعالى أخرج رسولَه ﷺ مِنْ بيته في المدينةِ إلى غزوةِ بدرٍ الكبرى، وكان رسولُنا ﷺ يَقْصِدُ الاستيلاءَ على عِيْرِ أبي سفيان، وخرجَ معه ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عَشَرَ رجلاً مِنْ أصحابِهِ، وشاءَ اللهُ تعالى أن ينجو أبو سفيان بالعير، وشاءَ أنْ يصل رسولُ أبي سفيان،

وهو ضمضمُ بنُ عمرٍو الغفاريُّ إلى مكّةَ، فيخرجُ أهلُ مكة في جيشٍ يبلغ ألفَ مقاتِلٍ، وكَرِه بعضُ الصحابةِ ملاقاةَ الجيشِ، وكان الذي يريدُه ربُّ العزّةِ مواجهةَ جَيْشِ العدوِّ، وكان الذي يريدُهُ ربُّ العزةِ أفضلُ وأحْسَنُ مما يريدُه بعضُ الصحابةِ في المسألة الأولى وفي المسألة الثانيةِ.

أخرج اللهُ تعالى رسولَهُ من بيتِهِ الذي هو واقعٌ في المدينةِ المنورة خروجاً كائناً بالحقِّ، ليواجه جيشَ الكفرِ، ويوقعَ بِهِ، كان بعضُ المؤمنين كارهين لتلك المواجهةِ ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ وقد كان بعضُ الصحابةِ كارهين لمواجهةِ جيشِ العَدُوِّ وبلغ بهم الحالُ إلى المجادلةِ في الحقِّ بعدما ظهر وتبيّنَ، كأنّما يُساقونَ إلى الموتِ وهم ينظرون. والحقُّ الذي أخرج اللهُ رسولهُ ﷺ متلبِّساً به هو نصرةُ دينِهِ، وإعزازُ كَلِمَتِهِ، وهذه الغزوةُ هي الغزوةُ الأولى الكبرى التي انتصر فيها المسلمون، وقد بلغ كراهةُ بعضِ الصحابةِ لمواجهةِ الجيشِ إلى درجة عظيمة قال الله فيها: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال:٦].

٤- وَعَدَ اللهُ رسولَهُ ﷺ وصحابَته إحدى الطائفتين:

وَعَدَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ وأصحابَهُ بعد خروجهم مِنْ المدينةِ إلى بدْرٍ الكبرى إحدى الطائفتين: العيرَ أو النفيرَ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال:٧-٨].

وَعَدَ اللهُ صحابةَ رسولِهِ ﷺ إحدى الطائفتين أنّها لهم، والطائفة الأولى: عيرُ أبي سفيان، وكان عدَدُها قرابةَ ألفِ بعيرٍ. والطائفةُ الثانية: جيشُ قريش، وكان عددُهم بين تسعمائة وألف مقاتلٍ، وكان كثيرٌ من الصحابة يَوَدُّون أنْ تكون غيرُ ذاتِ الشوكةِ تكونُ لهم، والطائفةُ التي لا شوكةَ لها هي العيرُ، فليسَ لها حدٌّ ولا منعةٌ، واللهُ يريدُ أمراً آخر، فهو يريد قَصْمَ جيشِ الكفرِ، ونصرةَ المؤمنين على الكافرين، وما يريدُهُ ربُّ العزَّة هو الأكملُ والأفضلُ والأحْسنُ عاقبةً ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة:٢١٦].

لقد أرادَ اللهُ تعالى خلافَ ما أرادَهُ كثيرٌ مِنَ المؤمنين، أرادَ أن يحقَّ الحقَّ بكلماتِهِ، فقد أظفر الصحابةَ بصناديد الكفارِ، فقُتِلَ منهم جمعٌ كبيرٌ، وأُسِرَ منهم جمعٌ كثير، وأحقَّ اللهُ -تعالى- الحقَّ بكلماته، واستأْصلَ الكفرةَ المجرمين.

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ المراد بكلماتِ الله التي يريدُ أنْ يحقَّ بها الحقَّ هي كلماتُه التي وعد فيها بالنَّصر في بَدْرٍ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان:١٦]، أراد بالبطشة الكبرى غزوةَ بدرٍ. وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة:٢١]، والعذابُ الأدنى، أي: في بدر. وقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر:٤٥]، فقد خرجَ الرسولُ ﷺ من العريش في بدرٍ، وهو في الدِّرع، خرجَ وهو يقولُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر:٤٥-٤٦] [البخاري: ٢٩١٥].

وقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال:٨]. والمراد بالحق الذي يريد الله إحقاقَه الإسلامُ الذي يريدُ اللهُ إظهارَه وإعلاءَه والمرادُ بالباطلِ الذي يريد إبطاله الكفرَ والشركَ الذي عليه الكفار، وهو دينهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النصّ من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الغنائِمُ لله -تبارك وتعالى- فهو خالقُها ومالكُها، وجعلها اللهُ تعالى لرَسوله ﷺ، يقسمها وَفْقَ ما أراه اللهُ تعالى.

٢- جعل اللهُ الغنائمَ له ولرسولِهِ ﷺ بعيداً عَنْ دعوى كلِّ فريقٍ مِنَ الصحابة هو الذي يؤدي إلى التقوى وصلاحِ ذاتِ البَيْنِ.

٣- وصفَ اللهُ تعالى المؤمنين الصادقين بخمسِ صفاتٍ، مَنْ اجتمعت فيه هذه الصفات كان مِنَ المؤمنين حقّاً.

٤- كان كثيرٌ مِنَ الصحابة يريدون الاستيلاءَ على عيْرِ قريشٍ، وكان اللهُ يريدُ قَصْمَ جيش قريشٍ، والقضاءَ على صناديْدِهِمْ، وإضعافَ دينهم، ونصرةَ الإسلامِ.

٥- أحقَّ اللهُ -تعالى- في غَزْوةِ بدرٍ الحقَّ، فنصر دينَه، وأبطلَ دينَ الكفارِ، وارتفع شأنُ المؤمنين، وضعف شأن الكفرة المجرمين.

النص القرآني الثاني من سورة الأنفال
رعايةُ الله للمؤمنين في بدرٍ

أولاً: تقديم

تُبَيِّنُ آياتُ هذا النصِّ رعايةَ الله للمؤمنين في غزوة بدرٍ فهي تظهرُ لنا رسولَنا ﷺ، وهو متوجِّه في العريشِ في بدرٍ إلى الله يدعوه ويستنْصِرُه، فينزِلُ اللهُ عليه ألفاً مِنَ الملائكة، أنزلهم بُشْرَى لَهُ وللمؤمنين، لتطمئنَّ قلوبُهم، وتهدأ نفوسهم، وإلاَّ فإنَّ اللهَ قادرٌ وحده على نصرهم مِنْ غير ملائكةٍ.

وقبل ذلك غشَّاهُمُ النعاسَ أَمَنَةً مِنْ عند الله، وأنزلَ عليهم الماءَ مِنَ السماءِ، فطهَّر أجسادهم، وأذهب عنهم وساوسَ الشيطانِ، وربطَ على قلوبهم، وثَبَّت به الأقدامَ، وأوحى الله إلى الملائكة بأن يُثَبِّتوا المؤمنين، ويرعبوا الكافرين، ويوقعوابهم.

وأمَرَ اللهُ تعالى المؤمنين في الختامِ أنْ يَثْبُتُوا في ميدانِ القتالِ، ونهاهم عن الفرارِ، ولم يُجِزْ لهم تركَ القتال إلا في حالتين: الأولى: عندما يريدونَ خديعةَ الخَصْمِ المقاتلِ، فيَفِرُّونَ بين يَدَيْهِ، ثم يكرُّون عليه، فيهلكونَهُ، ويُدَمِّرونَهُ. والثانيةُ: عندما يتركون تلك الموقعةِ إلى موقعةٍ أخرى، فيتركونَ القتالَ إلى قتالٍ آخر.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال:٩-١٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النص مِنَ القرآن

١- استغاثةُ الرسولِ ﷺ بربِّه وإمدادُ الله له بالملائكة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ رسولنا ﷺ وأصحابه استغاثوا بربِّهم -سبحانه- أي: استنصروه، فاستجابَ لهم، وأمدَّهم بألفٍ مِنَ الملائكة مُرْدِفِينَ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝﴾ [الأنفال:٩].

والاستغاثة: الاستجارة بالله مِنْ الأعداء، وطلب العون على التخلص منهم، والنصر عليهم، وقوله: ﴿مُرْدِفِينَ ۝﴾ أي: متتابعين، يتبع بعضهم بعضاً.

وقد قاتلَ الملائكةُ مع المؤمنين في بدرٍ، ففي صحيح مسلم، عن ابنِ عباسٍ قال: حدثني عمرُ بنُ الخطاب، قال: «لمَّا كانَ يومُ بدْرٍ، نَظَرَ رسولُ الله ﷺ إلى المشركينَ وهُمْ ألفٌ، وأصحابُهُ ثلاثمائةٍ وتِسْعَةَ عَشَرَ رجلاً، فاستقبَلَ نبيُّ الله ﷺ القِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يديهِ فجعَلَ يهتفُ بربِّهِ: «اللهُمَّ! أنْجِزْ لي ما وَعَدْتَني. اللهّمَّ! آتِ ما وَعَدْتَني، اللهُمَّ! إنْ تُهْلِكْ هذهِ العِصابَةَ مِنْ أَهْلِ الإسلام لا تُعْبَدُ في الأرضِ» فما زالَ يهتِفُ بربِّه، مادّاً يديهِ، مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، حتى سَقَطَ رِداؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فأتاهُ أبو بكْرٍ، فأخذَ رِداءَهُ فألْقاهُ على مَنْكِبَيْهِ ثمَّ الْتَزَمَهُ من ورائِهِ، وقال: يا نبيَّ الله! كَفاكَ مُناشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنهُ سيُنْجِزُ لَكَ ما وَعَدَكَ، فأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝﴾ [الأنفال: ٩] فأمَدَّهُ اللهُ بالملائِكَةِ.

قال أبو زُمَيْلٍ: فحدَّثَني ابنُ عبَّاسٍ قالَ: بينما رجُلٌ مِنَ المسلمينَ يومئِذٍ يشتدُّ في أثَرِ رَجُلٍ مِنَ المشركينَ أمامَهُ، إذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بالسَّوْطِ فوْقَهُ، وصوتَ الفارِسِ يقولُ: أقْدِمْ حَيْزُومُ، فنَظَرَ إلى المُشْرِكِ أمامَهُ فخَرَّ مُسْتَلْقِياً، فنَظَرَ إليهِ فإذا هوَ قد خُطِمَ أنْفُهُ، وشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فاخْضَرَّ ذلك أجْمَعُ، فجاءَ الأنْصارِيُّ فحَدَّثَ بذلكَ رسولَ الله ﷺ، فقال: «صدقْتَ، ذلك مِنْ مَدَدِ السماءِ الثالثةِ». فقَتَلُوا يومئِذٍ سبعينَ. وأسَرُوا سبعينَ» [مسلم: ١٧٦٣].

ومعنى: يهتف بربِّه: يصيح ويستغيث بالله بالدعاء، والعصابة: الجماعة، والمناشدة: السؤال، ممدكم: معينكم من الإمداد، مردفين: متتابعين، أقدِم: كلمة زجر للفرس معلومة في كلامهم، وحيزوم: اسم فرس المَلَك، أي: أقدم يا حيزوم، وقوله: «فإذا هو قد خطم أنفه» الخطم: الأثر على الأنف.

وعقد البخاري في صحيحه باباً عَنْوَنَ له بقولِهِ: «بابُ شُهودِ الملائكة بدراً» وساق فيه حديثَ معاذِ بن رِفاعةَ بنِ رافعٍ الزُّرَقِيِّ، عن أبيه -وكان أبوه من أهلِ بَدْرٍ- قال: جاءَ جِبْرِيلُ

إلى النبيِّ ﷺ فقال: «ما تَعُدّونَ أهلَ بَدْرٍ فيكم؟ قال: «مِنْ أفضلِ المسلمينَ» أو كلِمةً نحوَها، قال: وكذلكَ منْ شَهِدَ بدراً منَ الملائكةِ» [البخاري: ٣٩٩٢].

وعن معاذ بن رِفاعةَ بنِ رافعٍ، وكان رِفاعةُ من أهلِ بِدْرٍ، وكان رافعٌ من أهلِ العَقَبةِ، فكان يقولُ لابنِهِ: ما يَسُرُّني أنّي شَهِدْتُ بَدْراً بالعَقَبةِ قال: سأَلَ جبريلُ النبيَّ ﷺ بهذا [البخاري: ٣٩٩٣].

قوله: «بدراً بالعقبة» أي: بدل العقبة، يريد أن شهود العقبة عنده أفضل من شهود بدر، والذي يظهر أن رافع بن مالك لم يسمع من النبي ﷺ التصريح بتفضيل أهل بدر على غيرهم، فقال ما قال باجتهاد منه، وشبهته أن العقبة كانت منشأً نصرة الإسلام، وسببَ الهجرة التي منها الاستعداد للغزوات كلِّها، لكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله أعلم. قاله الحافظ ابن حجر [فتح الباري: ٧/ ٣١٣].

وعن عِكْرِمةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ قال يومَ بَدْرٍ: «هذا جِبْريلُ آخِذٌ برأسِ فرَسِه عليه أداةُ الحربِ» [البخاري: ٣٩٩٥].

وقد بيَّنَ لنا ربُّ العزةِ أنَّه ما جعل إمدادَه المؤمنين بالملائكة إلاَّ بشرى للمؤمنين، ولتطمئنَّ به قلوبهم، وإلاَّ فإنَّه تبارك وتعالى قادرٌ على نصرِ المؤمنين على أعدائهم من غيرِ إمدادِهِمْ بالملائكة ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأنفال: ١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ١٠] أي: النصرُ ليس بأيديكم، ولا بأيدي الملائكة، وإنَّما هو بيدِ الله وَحْدَهُ، والعزيزُ: الغالبُ، الذي لا يغلبه أحد. والحكيم: الذي يضعُ الأُمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

وقد ذكرَ اللهُ تعالى لنا في سورة آلِ عمرانَ أنّه أمدَّ المؤمنين في بدرٍ بأكثرِ مِنْ ألفِ مَلَكٍ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٥].

٣- حالُ المؤمنين ليلةَ المعركةِ في بدرٍ:

حدثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الحال التي كان عليها المؤمنون في ليلةِ معركةِ بَدْرٍ، فقد كان الصحابةُ يعلمونَ أنَّ عَدُوَّهم كثيرٌ، وعَدَدَهم قليلٌ، ولا شَكَّ أنَّ هذه القضيةَ لو استولَتْ على قلوبهم، فإنَّها تشغلُهُمْ، وتقلقهم، وتجلب لهم الهمّ، وتمنعُ عنهم النَّومَ، فيصبحون متعبين

مرهقين، ولكنَّ اللهَ تعالى أذْهَبَ عنهم وساوسَ الشيطانِ، وغشَّاهم النومَ في تلكِ الليلةِ، فاستراحت عقولهم، وسكنت أجسادُهم، وحلَّ عليهم الأمنُ والأمانُ، وأنزلَ اللهُ عليهم المطرَ مِنَ السماءِ، فاغتسلوا، وطهَّرهم اللهُ بذلك المطرِ مِنَ الجنابةِ التي أصابتْ كثيراً منهم، وأذهبَ اللهُ تعالى عنهم وساوسَ الشيطان التي ألقاها في أنفسهم، وثبَّتَ اللهُ قلوبهم، وثبتت أقدامهم، ذلك أنَّ الموقعَ الذي كانوا عليه كان رملاً مهيلاً، فلما نزل المطرُ عليه تَلَبَّدَ، وثَبَتَتْ أقدامهم ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال:١١].

٤- وَحْيُ اللّه -تعالى- إلى الملائكةِ في بدر:

أخبرنا ربَّنا تبارك وتعالى بما أوحاه، أي: ألقاه إلى الملائكةِ الذين أمدَّ بهم المؤمنين في بدرٍ، فقال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنفال:١٢-١٤].

أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أوحى إلى ملائكتهِ الذين أمدَّ بهم المؤمنينَ في بدرٍ، وهذا الوحي قد يكون وحي إلهامٍ، وقد يكون وحيَ إعلام، وقوله: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ أي: معكم بنصري وإعانتي.

وأمَرَهُمْ أن يُثَبِّتوا الذين آمنوا ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وتثبيت الملائكةِ للمؤمنين في بَدْرٍ بإلقاء الأمْنِ والطمأنينةِ في قلوبهم، وإلقاء الرُّعبِ في قلوبِ الكافرين، ويكونُ أيضاً بالقتال مع المؤمنين، وضرب رؤوسِ الكفار، وأصابعِ أيديهم، ووعدَ اللهُ تعالى الملائكة بأنْ يلقي في قلوب الكفار الرعبَ ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ والرُّعْبُ: شِدَّةُ الخوفِ الذي يلقيه في قلوبِ الكفارِ، فالقلوبُ هي الموضعُ التي يكون فيها الأمنُ والخوفُ.

وأمر اللهُ -تعالى- الملائكةَ أن يباشروا القتالَ مع المؤمنين ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ أمرهم أن يكونوا شديدين في قتالهم مع المشركين، فميدانُ القتالِ ليس ميدانَ رحمة وشفقةٍ، وإنما هو ميدانُ غلظةٍ وشدَّةِ بأس، ومشهد السيف وهو يهوي على العنق، فيقطعه، ويسقط الرأسُ بعنفٍ وشدةٍ، مشهد مرعب، ومنظرُ السيفِ وهو يخترط أصابعَ اليد، فيصبحُ المقاتل مشلولاً لا يستطيع أنْ يقاتل أو يواجه؛ منظر مخيف.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي: ذلك العذاب الذي أنْزَلَه اللهُ بالكفار بقطع رؤوسهم، وقطع أصابع أيديهم، إنَّما هو بسبب أنَّهم شاقُّوا اللهَ ورسولَه، وشاقُّوا اللهَ، أي: حاربوه وخالفوا أمْره، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي: من يشاقق الله يعاقبه أشدَّ العقابِ، وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ هذا خطابٌ للكفار، أي: ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا، واعلموا أنَّ للكافرين عذابَ النارِ في الآخرة.

٥- التولِّيْ يومَ الزحفِ مِنَ كبائر الذنوب:

حَذَّرَ اللهُ -تعالى- المؤمنين من التولي يومَ الزحفِ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال:١٥].

نادى اللهُ -تعالى- المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ ونهاهم عن توْلِيةِ أدبارِهِمْ للكفارِ إذا لقوا جيشَ الكفارِ زاحفين إليهم، وقد تهدَّدَ الذين يفرُّونَ في ميدانِ القتال بغضبِ الله كما تهدَّدَهم بإدخالِهِمْ جهنَّمَ، وبئْسَ المصير.

واستثنت الآيةُ حالتين، يجوز فيهما للمقاتل تركُ القتالِ: الأولى منهما التي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ [الأنفال:١٦]، أي: يَفِرُّ من بين يَدَي عدُوِّه مكيدةً، ليريَهُ أنَّه خافَ منه، فيتبعه، ثم يكرُّ عليه، فيقتله.

والحالةُ الثانيةُ ذكرها اللهُ تعالى في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ [الأنفال:١٦]، والمراد بالتحيز إلى فئة، أن يفرَّ إلى فئةٍ أُخرى من المسلمين، فيقصدُ إلى مقاتلين آخرين فيقاتِلُ معهم.

أما التولِّي يومَ الزحفِ لغير الأمرين السابقين، فهو إحدى السبع الموبقات [البخاري: ٢٧٦٦. ومسلم: ٨٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- ينبغي للمؤمنينَ إذا أرادوا قتالَ الكفارِ أنْ يستنصروا ربَّهم، ويطلبوا منه الغوثَ.

٢- استنصر الرسولُ ﷺ ربَّه في بدرٍ، فأمدَّه بملائكتِهِ، يقاتلون معه، ويثبتون المؤمنين.

٣- ألقى اللهُ تعالى الأمنَ على المؤمنينِ في ليلةِ معركة بدرٍ، فهدأت نفوسُهُمْ واطمأنت قلوبُهُم، وناموا ليلتهم، وجاؤوا في يوم غدٍ هادئين مستجمِّيْنَ.

٤- أنزلَ اللهُ المطرَ على المؤمنين، فطهَّروا أجسادهم، وثَبَّت الأرض تحت أقدامهم، وأذهب عنهم وساوسَ الشيطانِ.

٥- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- الملائكةَ أنْ يُثَبِّتُوا المؤمنين، ويقاتلوا معهم، ويضربوا رقاب الكفارِ وأيديهم.

٦- وَعَدَ اللهُ -تعالى- المؤمنين بأنْ يُلْقي الرعبَ الشديدَ في قلوبِ الكفارِ.

٧- استحقَّ الكفارُ ما فعله الله بهم، لأنَّهم خالفوا أمْرَ الله وأمْرَ رسوله وحاربوا اللهَ ورسولَهُ.

٨- جعل اللهُ تعالى للكفارِ عذابَ القتلِ والجرحِ في الدنيا، وعذابَ النارِ في الآخرة.

٩- لا يجوزُ للمؤمن أنْ يَفِرَّ في ميدان الحربِ والقتالِ، إلا متحرفاً لقتالٍ، أو متحيزاً إلى فئة.

النص القرآني الثالث من سورة الأنفال

مفتاح النصر يكون بتعلُّقِ القلوب بالله وعِلْمِها أنَّ الأمور بيده

أولاً: تقديم

على المؤمنين وهم يخوضون غمارَ المواجهة مع أعدائِهم الكفرةِ أنْ يعلَموا أنَّ اللهَ هو الذي يُدبِّر أُمورَهُمْ، ويعْلي منارَهُمْ، ويثبِّتُ أقدامَهُمْ، ويخذلُ عدوَّهم، وعليهم أنْ يتواضعوا لعظمتِهِ وجلالِهِ ويعلِّقوا قلوبهم به، ليديم نَصْرَهُمْ، ويخذُلَ عدوَّهُمْ، فالنَّصْرُ مِنْ عند الله، ومِنْ نَصَرَهُ الله، فلا يُخْذَلُ أبداً، وأعداؤنا الكفرة المجرمون الذين لا يستجيبون لما يريدُهُ اللهُ تعالى منهم ولا يفقهون عنه مرادَه - شَرُّ الدوابِّ، فهم لا يفهمونَ، ولا يعقلونَ، وقد دَعا اللهُ المؤمنين إلى الاستجابةِ إلى ما يدعوهم إليه، وما يدعوهم إليه رسولُهُ ﷺ، ففي ذلك عزَّتُهم وحياتُهم ورفعتُهُمْ وكرامَتُهمْ، وحَذَّر اللهُ تعالى المؤمنين مِنَ الفتنِ التي تجتاحُهُمْ بسبب تقصيرِهِم في الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، فهي إذا وقعتْ أصابتْ الصالحَ، ولم تقتصرْ على الطالِحِ.

ثانياً: آيات هذا النصِّ من سورة الأنفال

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)﴾ [الأنفال:١٧-٢٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النصِّ من القرآن

١- اللهُ -تعالى- هو الذي قتل المشركين في بدر:

كان الصحابةُ رضوانُ الله عليهم يتحدثون بعد غزوةِ بدر عمَّا فعلوه بالمشركين مِنْ قَتْلٍ وجَرْحٍ وأسْرٍ، فقوَّم اللهُ تعالى ما وَقَعَ في نفوسِ المؤمنين، وبيَّنَ لهم أنَّهم لم يقْتُلوهم بحولِهِمْ،

وقُوّتهم، وإنما اللهُ بقدرتِهِ وقهرِهِ وعزّته هو الذي قَتَلَهُمْ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال:١٧]، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]، فقد كانَ الصحابةُ قليلي العددِ، وكان سلاحُهُمْ قليلاً، فأنزلَ عليهم الملائكةَ، وثَبَّتَ قلوبهم، وألقى الرعْبَ في قلوبِ أعدائهم.

قال مجاهدٌ: «في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾، لأصحابِ محمدٍ ﷺ، حين قال هذا: قَتَلْتُ، وهذا: قَتَلْتُ» [الطبري: ١٥/ ٣٧٩٧].

وكان الرسولُ ﷺ أخذ قبضةً من ترابٍ في أوّلِ المعركةِ، فحصب بها وجوهَ المشركين، وقال: «شاهتِ الوجوهُ» فأوصل اللهُ -تعالى- ذلك الترابَ والحصَى إلى عيونِ المشركين ومناخِرِهِمْ وأفواهِهِمْ، فوَلَّوْا مدبرين، وهذا هو المرادُ من قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] [أورد ابن كثير الأحاديث الواردة في ذلك، وبيَّن محقق ابن كثير أنّه أخرجها الطبري في تفسيره، والبيهقي في الدلائل، وإسنادُ الحديثِ ضعيف لانقطاعه، لكن له شواهد مرسلة يتأيد بها، ابن كثير: ٣/ ٢٨٦)].

فالرسولُ ﷺ أخذَ القبضةَ، ورمى بها في وجوهِ القوم، ولكنَّ اللهَ تعالى هو الذي أنفذَها وأوصلها إلى وجوه القومِ، فدخلت عيونَهُم وأُنوفَهُمْ وأفواهَهُمْ، وأحدثت فيهم ذلك الأثرَ الذي هَزَمَهُمْ، وأوقعَ فيهم القتلَ والجرحَ والأَسْرَ.

وقد ذكر بعض المفسرين أنَّ سببَ نزولِ الآية وقائع وقعت في أُحُدٍ أو حُنَيْنٍ، والصواب أنَّ الآية نزلت في بدرٍ.

٢- إنعامُ الله على المؤمنين بنصْرهم في غزوةِ بدرٍ:

بيَّنَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أنْعم على المؤمنين بنعمةٍ عظيمةٍ جليلةٍ بنصرِهِمْ في بدرٍ، ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧]، وقوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ أي: يُنْعِمَ على المؤمنينِ نعمةً عظيمةً بالنصْرِ والغنيمة والأجرِ والمثوبةِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال:١٧]، أي: سميعٌ لدعائِهم، فقد دعا رسولُ الله ﷺ ربَّه في العريشِ، فاستجاب له، وأنزلَ عليه ملائكتَهُ، و﴿عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: بما في قلوبِهِمْ وعليم بأعمالِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال:١٨]، وقد أوْهَنَ اللهُ تعالى كيدَ الكافرين بإلقائه الرُّعْبَ في قلوبهم، وتفريقِ كلمتهم، وإنزالِ الملائكةِ يحاربون مع

المؤمنينَ، ويضربون أعْناقَ الكافرينَ وأطرافَ أصابِعِهِمْ، وقد قُتِلَ منهم مَنْ قُتِلَ، وأُسِرَ مَنْ أُسِر، وفرَّ مَنْ فرَّ، وأصبحتْ قريشٌ بعد المعركةِ في حالةِ ضعفٍ.

٣- تهديدُ الله مشركي قريش:

استفتح كفارُ قريشٍ قبلَ غزوةِ بدرٍ، أي: استنصروا واستقضوا الله واستحكموه أن يفصل بينهم وبين أعدائهم المؤمنين، قال تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ [الأنفال:١٩]، فقد جاءكم ما سألتم، ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال:٣٢].

وعن عبدالله بن ثعْلَبَةَ أنَّ أبا جهل قالَ حين التقى القومُ: «اللهمَّ أقْطَعُنا للرَّحمِ، وآتانا بما لا نَعْرِف فَأَحِنْهُ الغَداةَ» [قال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير، أخرجه أحمد في المسند (٢٣٦٦١) وهو حديثٌ صحيح، وعزاه للنسائي (٢٢١)، وهو في الكبرى (١١٢٠١)، والحاكم (٢/ ٣٢٨) ووافقه الذهبيُّ على تصحيحه].

وقد حَكَمَ اللهُ -تعالى- لرسولِهِ ﷺ ولأصحابِهِ، فأنزلَ عليهم نَصْرَهُ، وهزمَ الكفرةَ المشركين، وقالَ للمشركين: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عن كفركم وشرككم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرةِ. وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ أي: إنْ تعودوا إلى كفركم وضلالِكُمْ، نعد إلى مثل ما فعلناه بكم، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولَنْ يغني عنكم جمعكُمْ شيئاً مهما كَثُر، فاللهُ تعالى قاهرٌ غالبٌ، وهو مَعَ المؤمنين، ومَنْ كان الله معه، فلن يهزم.

٤- أَمَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ﷺ:

هدَّدَ اللهُ -تباركَ وتعالى- المشركينَ فيما سبق، وتوعَّدهم بالهزيمةِ والخذلانِ إنْ هم ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال:١٣]، ثم نادى ربُّ العزة المؤمنين وأمَرهم بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال:٢٠].

أمرهم بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ونهاهم عن التولِّي عنه ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ وذلك بتركِ طاعَتِهِ، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: بعد ما جاءَتكم آياتُ الله تعالى وفقهتموها.

ونهى اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ المؤمنينَ أنْ يكونوا ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال:٢١] وهؤلاءِ هم الكفارُ المشركون، أيْ: قالوا سمعنا بآذاننا، ولكنَّهم لم يفقهوا ما سمعوه، ولم يقبلوه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: الذين يَسمعون الكلامَ، ولا يفقهونه، ولا يقبلونه. وقد ذمَّ اللهُ -تعالى- هذا الصنف من الناس، وهم الكفرة المجرمون ذمّاً قبيحاً، فقال: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣].

﴿الدَّوَابِّ﴾ ما دَبَّ ومشى فوق ظهر الأرض، و﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه، و﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ أي: الذين لا يسمعون، ولا ينطقون، وُصِفُوا بذلك مع كونهم يسمعون وينطقون، لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق، وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: لا يعقلون ما فيه النفع لهم فيأتونه، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه، فهؤلاء شرُّ البريَّة، لأنَّ كلَّ دابّة مما سواهم مطيعةٌ لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا لعبادةِ الله فكفروا به، وقد قال تعالى فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقوله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي: لأفهمهم، ولكن لا خير فيهم، فلم يفهمهم، لأنَّه يعلم أنَّه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوا﴾ لأعرضوا عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم له.

٥- دعوةُ الله -تباركَ وتعالى- المؤمنينَ إلى الاستجابة إلى ما يحييهم اللهُ ورسولُهُ به:

دعا الله تعالى المؤمنينَ إلى الاستجابةِ إلى ما يحييهم اللهُ -تعالى- به ورسولُهُ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤].

نادانا ربُّنا -عز وجل- آمراً إيانا بالاستجابة له ولرسوله ﷺ إذا دعانا لما يحيينا، والذي دعانا اللهُ تعالى ورسوله ﷺ إليه، يحيي قلوبَنا، وينيرُ أرواحَنا، ويصلحُ عقولنا، ويهدينا للتي هي أقوم، ويصلحُ أعمالنا وأقوالنا، ويجعلنا خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس.

وقد أورد البخاري هذه الآية في صحيحه، ثم قال: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أجيبوا، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يُصْلحكم.

ثم أورد حديثَ أبي سعيد بنِ المعلَّى ﷺ، قال: كنت أصلي فمَرَّ بي رسولُ الله ﷺ، فدَعاني فلَمْ آتِه حتى صَلَّيت، ثم أتيتُه، فقال: «ما مَنَعَكَ أنْ تأْتِيَ؟ ألم يَقُلِ اللهُ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤]»، ثم قال: «لأُعَلِّمَنَّكَ أعظَمَ سورةٍ في القرآنِ قبلَ أنْ أخرُجَ»، فذهبَ رسولُ الله ﷺ ليَخرُجَ، فذَكَرْتُ له.

وقال معاذٌ: حدَّثنا شُعْبةُ، عن خُبَيبِ بنِ عبدالرحمنِ، سَمِعَ حَفْصاً، سَمِعَ أبا سعيدٍ رجلاً من أصحاب النبيِّ ﷺ بهذا، وقال: «هي الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، السَّبْعُ المَثاني» [البخاري: ٤٦٤٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]. أمَرَنا ربُّنا أنْ نَعْلَم أنَّ اللهَ يحولُ بين المرءِ وقلبه، فهو سبحانَهُ المالكُ لقلوبِ عبادِهِ، وهو القادرُ على أنْ يحولَ بينهم وبينها إذ شاءَ، حتى لا يقدر ذو قَلْبٍ أنْ يدركَ به شيئاً مِنْ إيمانٍ وكفرٍ، أو يَعِيَ به شيئاً، أو أنْ يفهم إلا بإذنِهِ ومشيئتِهِ، وذلك أنَّ الحَوْلَ بين الشيءِ والشيءِ إنما هو بالحَجْزِ بينهما، وإذا حجزَ جَلَّ ثناؤه بين عبدٍ وقلبِهِ في شيءٍ أنْ يدرِكَه أو يفهمه، لم يكن للعبد أنْ يدركَ ما قد مَنَعَ اللهُ قلْبَهُ إدْراكَهُ، وإذا كان ذلك معناه، دَخَلَ في ذلك قولُ مَنْ قال: يحولُ بين المؤمنِ والكُفْرِ، وبينَ الكافرِ والإيمانِ [الطبري:٥/ ٣٨١٢]. وقال ابنُ كثيرٍ: «قال ابنُ عباسٍ: يحول بينَ المؤمنِ وبينِ الكفرِ، وبينَ الكافرِ والإيمانِ» [رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً، وقال: صحيح، ولم يخرجاه. وكذا قال مجاهدٌ، وسعيدٌ، وعكرمةُ، والضحاكُ وأبو صالح، وعطيةُ، ومقاتلُ بنُ حيَّانَ والسُّدِّيُّ] [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٨٩].

وقد أوردَ ابنُ كثيرٍ الأحاديثَ الصحيحةَ التي تناسب هذه الآية، منها:

١- ما رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك ﵁ قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مُقَلِّبَ القلوب، ثَبِّتْ قلبي على دينك». قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا، فقال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يُقَلِّبها» [قال محقق ابن كثير: صحيح. أخرجه الترمذي (٢١٤١) وأحمد (٣/ ١١٢و ٢٥٧)، وأبو يعلى (٣٦٨٧) وصححه الحاكم (١/ ٥٢٦)، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن. والصواب أنه صحيح، له شواهد كثيرة].

٢- وروى الإمامُ أحمد: عن جابر يقول: حدثني بُسر بن عبدالله الحضرمي: أنه سَمِع أبا إدريس الخَوْلانيَّ يقول: سَمِعتُ النواسَ بن سمْعان الكلابيَّ ﵁ يقول: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يُزيغه أزاغه»، وكان يقول: «يا مُقلِّب القلوب، ثَبِّتْ قلوبنا على دينك»، قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه» [قال محقق ابن كثير: متن صحيح. أخرجه النسائي في الكبرى (٧٧٣٨) وابن ماجه (١٩٩) وأحمد (٤/ ١٨٢) وابن أبي عاصم في السنّة (٢١٩)، وصححه ابن حبان (٩٤٣)، وكذا الحاكم (١/ ٥٢٥)، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح].

٣- روى مسلمٌ في صحيحه عن عبدالله بن عمْرِو بن العاصِ، أنّه سمع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ قلوبَ بني آدمَ بينَ إصْبَعَيْنِ من أصابعِ الرحمنِ، كقَلْبٍ واحدٍ، يُصَرِّفُه حيث يشاءُ» ثم قالَ رسولُ الله ﷺ : «اللهُمَّ مُصَرِّفَ القلوبِ، صَرِّف قُلوبَنا على طَاعَتِكَ» [مسلم: ٢٦٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنفال:٢٤] أي: تجمعون في يوم القيامة، فيحاسبكم على ما قدمتم.

٦- تحذيرُ اللهِ تعالى المؤمنين من فتنةٍ لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصَّة:

قال ابنُ عباسٍ في تفسيرِ قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال:٢٥] «أمَرَ اللهُ المؤمنين ألاَّ يُقِرُّوا المنكرَ بين ظهرانيهم، فيَعُمَّهم الله بالعذاب» [ابن كثير: ٣/ ٢٩٢].

وقد أمَرنا اللهُ -تعالى- في الآية أن نَجْتَنِبَ فتنةً تتعدَّى الظالمَ، فتصيب الصالحَ والطالحَ ولا تختصُّ إصابَتُها بمن يباشرُ الظلمَ منَّا.

وقد جاءَتِ الأحاديثُ كثيرةً طيبةً تحذِّر من الفِتَنِ، منها ما روتْه زينبُ بنتُ جَحْشٍ رضيَ اللهُ عنها أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ عليها فَزِعاً، يقول: «لا إلَه إلاَّ اللهُ، وَيْلٌ للْعَربِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَب، فُتِحَ مِنْ رَدْمِ يأْجوجَ ومأْجُوجَ مثلُ هذه» وحَلَّقَ بإصْبَعِهِ الإبْهامِ والتي تَلِيها.

قالتْ زَيْنَب بنتُ جَحْشٍ: قلتُ: يا رسولَ الله، أنَهْلِكُ وفينا الصالحونَ؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ» [البخاري: ٣٣٤٦. ومسلم: ٢٨٨٠].

وعن عدي بن عَميرة، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يُعذِّبُ العامةَ بعملِ الخاصَّةِ، حتى يَرَوْا المُنْكرَ بين ظَهْرانيهم، وهُمْ قادِرونَ على أنْ يُنْكِرُوه فلا يُنكروه، فإذا فعلوا ذلك عذَّب اللهُ الخاصَّةَ والعامَّة» [قال الشيخ شعيب في تخريجه لابن كثير: (٤/ ٣٦) رواه أحمد في المسند (١٧٧٢٠) وهو حديث حسن لغيره].

وعن حذيفة بن اليمان، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «والذي نفْسي بيدِهِ، لتأْمُرُنَّ بالمعروفِ، ولتنهونَّ عن المُنكرِ، أو ليُوشِكَنَّ اللهُ أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُم عِقاباً من عِنْدِهِ، ثم لَتَدعُنَّه فلا يَسْتَجيبُ لكم» [قال الشيخ شعيب في تخريجه لابن كثير: (٤/ ٣٦) رواه أحمد في المسند: (٢٣٣٠١) وهو حديث حسن لغيره].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبدالله بن نُمَير، حدثنا رَزين بن حبيبٍ الجُهَني، حدثني أبو الرُّقاد قال: خرجتُ مع موْلايَ، فدُفِعْتُ إلى حُذَيفةَ وهو يقول: «إن كانَ الرجلُ ليتكلَّم بالكلمةِ على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ فيصير منافقاً، وإنِّي لأسمعها مِنْ أحدكم في المَقْعَدِ الواحدِ أربعَ مراتٍ لتأمُرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتَحاضُّنَّ على الخير، أو ليَسْحَتَنَّكم الله جميعاً بعذابٍ، أو ليُؤَمَّرنَّ عليكم شرارَكم، ثم يدعو خيارُكم فلا يُستجاب لهم» [قال الشيخ شعيب في تخريجه لابن كثير: (٤/ ٣٦) رواه أحمد في المسند: (٢٣٣١٢) وهو أثر حسن].

وعن النُّعْمانَ بنَ بشيرٍ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ القائمِ على حدودِ الله والواقعِ فيها كمَثَلِ قومٍ استَهَمُوا على سَفينةٍ، فأصابَ بعضُهم أعلاها، وبعضُهم أسفَلَها، فكانَ الذينَ في أسفَلِها إذا استَقَوْا من الماءِ مرُّوا على مَن فوقَهُم، فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نَصيبِنا خَرْقاً، ولم نُؤْذِ مَنْ فوقَنا، فإنْ يَتْرُكُوهم وما أرادوا هَلَكُوا جميعاً، وإنْ أخَذُوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً» [البخاري: ٢٤٩٣].

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظَهَرتِ المعاصي في أُمّتي، عمَّهم اللهُ بعذابٍ مِن عِنْدِهِ. فقلتُ: يا رسولَ الله، أما فيهم أناسٌ صالحون؟ قال: بلى، قالت: فكيف يَصنعُ أولئك؟ قال: يُصيبهم ما أصابَ الناس، ثم يصيرون إلى مغفرةٍ من الله ورضوان» [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٢٩٢): جيد. أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٤-٢٩٥ و٣٠٤ و٤١٨)، وقال الهيثمي في (المجمع) (٧/ ٢٦٨): رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح].

وعن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من قوم يعملون بالمعاصي، وفيهم رجال أعزّ منهم وأمنع لا يغيرون، إلا عَمَّهم الله بعقاب - أو: أصابهم العقاب» [قال محقق ابن كثير: جيد. أخرجه أبو داود (٤٣٣٩) وأحمد (٤/ ٣٦١ و٣٦٣) والطبراني (٢٣٧٩)، وإسناده حسن في الشواهد].

وعن عُبيد الله بن جَرير، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي، هم أعزُّ وأكثر ممن يعمله، ثمَّ لم يغيروه، إلا عمَّهم الله بعقاب» [قال محقق ابن كثير: جيد. أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٤ و٣٦٦) وابن ماجه (٤٠٠٩) وابن حبان (٣٠٠) والطبراني (٢٣٨٠) والبيهقي (١٠/ ٩١)، وإسناده حسن في الشواهد والمتابعات. وفي الباب أحاديث].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢٥﴾ [الأنفال:٢٥]. أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ نَعْلَم علماً لا شكَّ فيه ولا رَيْبَ أنَّ عقابَه شديدٌ في الدنيا والآخرةِ لمن عطَّلَ حدودَه، وانتهك حرماته.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- على المؤمنين أنْ يتواضعوا لجلالِ الله وعظمته، فيعلموا أنَّ اللهَ الذي نصرَهُمْ وأيَّدهم، هو الذي أوْهَنَ كيدَ عدوِّهم، وأقدرَ المؤمنين على قَتْلِ عدوِّهم، وأوقعَ الرُّعْبَ في قلوبهم.

٢- اللهُ -تعالى- هو الذي حَكَمَ للمؤمنين بالرفعة والعلوِّ والنَّصر، عندما نَصَرَهم، وهزم عدوَّهُمْ، فلو لم يكونوا أولياءَه وأحبابَه لما نصرهم في ميدانِ القتالِ، وهزم خصومَهُمْ.

٣- أمر اللهُ -تعالى- المؤمنين بطاعتِهِ وطاعة رسوله ﷺ ، فالطاعةُ لله ورسولِهِ ﷺ سببُ العزةِ والكرامةِ والرفعةِ، وعدمُ اتباعُ الرسولِ سببُ الهزيمةِ والخذلانِ.

٤- الكفارُ الذين لا يسمعون ما أَوْحاه الله لرسوله ﷺ ، ولا يتحدثون به، ولا يفقهونه، ولا يعقلونه شرُّ الدوابِّ التي تدبُّ على الأرض.

٥- لو عَلِمَ اللهُ -تعالى- في الكفارِ خيراً لفقههم دينَهُ، وهداهُمْ، ولو أسمعهم لتولَّوْا عن الحقِّ، وأعرضوا عنه.

٦- حياةُ الأُمَّةِ الإسلاميةِ، وحياةُ أفرادها وأُسرِها مرهونَةٌ بالاستجابةِ لما دعانا اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ إليه، فاللهُ تعالى ورسولُه ﷺ يدعونا لما يحيينا على مستوى الفردِ والأسرةِ والأُمّةِ، والتولِّي عن الله ورسولِهِ يضعف الفردَ والأُسرة والأُمةَ.

٧- اللهُ -تعالى- القادرُ على كلِّ شيءٍ، فهو يحولُ بين المرءِ وقلبه، فإذا لم يشأ اللهُ الهدايةَ لعبدٍ مِنْ عبادِ الله، لم يَدخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ، وإن شاءَ الهداية له لم يستطعْ أحدٌ منعه من الإيمان.

٨- الفتنُ والمصائبُ إذا وقعت عَمَّت الصالحَ والطالحَ، ولا تكونُ قصراً على الظلمةِ الفسقَةِ، ولذلك نرى الفتنَ التي تجتاح المؤمنين، فتأْخُذَ الأخيارَ والأشرارَ.

النص القرآني الرابع من سورة الأنفال
تذكيرُ الله -تعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ بنعمهِ وتوجيههم لما هو خير

أولاً: تقديم

آياتُ هذ النصِّ الكريم تحوي جملةً مِنَ النعمِ والتوجيهاتِ والتقريراتِ والوقائع، فقد ذكرهم اللهُ تعالى بنِعْمتهِ عليهم عندما كانوا قليلاً مستضعفين في الأرضِ، يخافون أن يتخطفهم الناسُ، فآواهم وأيدهم بنصره، ووسَّع عليهم في الرزق، ونهاهم عن خيانةِ الله ورسولِهِ وخيانةِ أماناتهم، وهم يعلمون، وأعلَمَهم أنَّ أموالهم وأولادَهم فتنةٌ واختبارٌ، وأنَّ اللهَ تعالى عنده الأجرُ العظيمُ في جناتِ النعيم.

وأخبرهم أنَّهم إن اتَّقَوْهُ وعملوا بطاعته جعل لهم فرقاناً يُفرِّقون به بين الخيرِ والشرِّ، والكفرِ والإيمانِ، وكفَّر عنهم ذنوبَهُمْ وسيئاتِهم، وغفر لهم، واللهُ ذو الفضلِ العظيم.

وامتنَّ الله تعالى على رسولِهِ ﷺ بإنجائه مِنَ الكفَّارِ أهلِ مكَّةَ الذين ائتمروا به بسجنه أو قتله أو إخراجه من مكة.

وحكى قولَ بعضِ الكفارِ الذين ادعوا كاذبين أنَّ لديهم القدرةَ على الإتيان بمثلِ القرآنِ، وحكى قولَ بعضِهم باستعجالِ العذابِ، وأخبرَ أنَّه لا يعذِّبُهُمْ والرسول ﷺ بَيْنَ أظهرهم، أو إذا كان فيهم المؤمنون الذين يستغفرون اللهَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٦-٣٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمر اللهُ -تعالى- المؤمنين أن يذكروا إذ كان عددُهم قليلاً فكثَّرهم:

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾ [الأنفال:٢٦].

أمَرَ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين أن يذكروا إذ كانوا قليلينَ فكثرهم، ومستضعفين فنصرهم، وخائفين فقوَّاهم ونَصَرهم، وفقراءَ عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم، وهذا كان حالَ المؤمنين حالَ مُقامِهم بمكة قليلين مستخفين مُضطهدين، يخافون أن يتخطَّفَهم الناسُ من سائر بلاد الله، من مشركٍ ومجوسيٍّ وروميٍّ، كُلُّهم أعداء لهم، لِقِلَّتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دَأْبُهم حتى أَذِنَ اللهُ لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقيَّضَ لهم أهلها، آووا ونَصَروا يوم بدر وغيره، وآسَوا بأموالهم، وبذَلوا مُهَجَهم في طاعة الله وطاعة رسوله.

قال قتادةُ بن دِعامة السَّدُوسِيُّ -رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال: «كان هذا الحيُّ من العَرَب أذلَّ الناس ذُلاًّ، وأشْقاه عيشاً، وأجوعُه بطوناً، وأعراهُ جلوداً، وأبينَهُ ضلالاً، من عاشَ منهم عاشَ شقياً، ومن مات منهم رُدِّيَ في النار، يُؤْكَلُون ولا يَأْكلون، والله ما نَعْلَم قَبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذٍ كانوا أشرَّ منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكَّن به في البلاد، ووَسَّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى اللهُ ما رأيتم، فاشكروا لله نعمَه، فإن ربكم مُنعِمٌ يحبُّ الشكر، وأهلُ الشكر في مزيد من الله» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩٤].

٢- نهي الله -تعالى- المؤمنين عن خيانة الله وخيانة رسولِهِ وخيانةِ أماناتهم:

خاطبَ اللهُ -تعالى- المؤمنين جميعاً إلى يوم القيامة ناهياً إيَّاهم عن خيانةِ الله وخيانةِ رسولِهِ ﷺ وخيانةِ أماناتهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)﴾ [الأنفال:٢٧].

وقد ذكر بعض المفسرين أنها نزلت في بعضٍ من الصحابة، ولا يوجد خبر صحيح يدلُّ على أنَّها نزلت في واقعةٍ معينةٍ [تفسير الطبري: ٥/ ٣٨١٧].

وقال ابن كثير: «والصحيحُ أنَ الآيةَ عامَّة، وإنْ صَحَّ أنها وردت على سبب خاصٍّ، فالأخذُ بعمومِ اللفظِ لا بخصوص السبب عند الجمهورِ مِنَ العلماءِ. والخيانةُ: تعمُّ الذنوب

الصغارَ والكبارَ، اللازمةَ والمتعديَةَ، وقال عليُّ بن أبي طلحة ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ الأمانةُ: الأعمالُ التي ائتمنَ اللهُ عليها العباد، يعني الفريضة». [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩٥].

والصوابُ مِنَ القول أنَّ خيانةَ الله وخيانَةَ الرسولِ ﷺ: التقصير في امتثال أوامر كلٍّ منهما، واجتناب نواهيه، ومن خيانةِ الأمانةِ: تَرْكُ التكاليفِ التي كلَّف الله بها، أو كلف بها رسولُهُ ﷺ.

٣- أموالُنا وأولادُنا فتنةٌ:

أمرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنْ نعْلَم مُسْتَيْقِنينَ أنّ أموالَنا وأولادَنا فتنةٌ، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨]. والفتنةُ: الابتلاءُ والاختبار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن:١٥]، فالمالُ والولدُ قد يُضِلُّ العبدَ عن طاعة الله -عزَّ وجلَّ- ويحرفُ مسارَهُ، حتى يصبحَ الولدُ والزوجُ عدوّاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ [التغابن:١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال:٢٨]، والأجرُ العظيمُ: الثوابُ الجزيلُ في جناتِ النعيمِ في يومِ الدينِ.

٤- أعْلَمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه إن اتقيناه يجعلْ لنا فرقاناً:

نادى اللهُ -تعالى- المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الأنفال:٢٩]، وأعلمهم أنهم إن اتَّقَوْهُ بامتثالِ أمرِهِ واجتنابِ نهيه جعل لهم فرقاناً ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، والفرقانُ ما يفرقون به بينَ الحقِّ والباطلِ والإيمانِ والكفرِ، فالمؤمن الذي اهتدى بالكتابِ والسنّة يصبحُ لديه فاصلٌ يفرِّقُ به بين الحقِّ والباطل، والإيمانِ والكفرِ، والحلالِ والحرامِ، وقد فسَّر ابنُ عباسٍ والسديُّ ومجاهدٌ وعكرمةُ والضحاكُ وقتادةُ الفرقان في الآية بالمَخْرَجِ، وفسَّره محمدُ بنُ إسحاقَ بالفصْلِ بينَ الحقِّ والباطلِ.

فالمتقي يرزقه ربُّ العبادِ الفصلَ بين الحقِّ والباطلِ، ويُكفِّر عنه سيئاتِهِ، ويغفر له ذنوبَهُ، ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال:٢٩]، وقد تفضَّل اللهُ على هذه الأمةِ بإرسالِ رسولِهِ ﷺ إليها وإنزال كتابه عليها، وأمَدَّهم بنصره وتأييده، ونعمُ الله تعالى كثيرةٌ، لا تعدُّ، ولا تحصى.

٥- مَكْرُ كُفَّارِ قريشٍ في ليلةِ الهجرةِ بالرسولِ ﷺ ليأسِرُوه أو يقتلوه أو يخرجوه:

ذكَّر اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ في هذه الآياتِ التي أُنْزِلت عليه في غزْوة بدر بما أنْعَمَ اللهُ به عليه في ليلةِ الهجرةِ عندما اجتمعَ كُفَّارُ قريشٍ، وتشاوروا فيما بينهم للكيفية التي أرادوا أن يبطشوا بها برسولِهِ ﷺ، فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠].

والمراد بالذين كفروا كُفَّار قريشٍ، ومَكْرُهُمْ به كان بتدبيرِهِمْ له ما يسوؤه، وسعيُهُمْ في فسادِ حالِهِ وإطفاءِ نوره، وكان ذلك منهم عند اجتماعهم في دارِ النَّدْوَةِ في الليلةِ التي هاجر فيها رسولُهُ ﷺ وقولُه: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: ليقيِّدوك، أو يَحْبِسُوكَ، أو يوثِقُوْكَ، وقوله: ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ ۚ﴾ فقد كان أحدُ مقترحاتِهِمْ أنْ يجمعوا له مِنْ كلِّ بيتٍ من قريشٍ رجلاً، يضربونَهُ ضربةَ رجلٍ واحدٍ، فيَضيعُ دَمُهُ بينَ القبائلِ، وقوله: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ﴾ أي: من مكة، وقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ المرادُ بمكرِهِم هنا تدبيرُهُمْ الشرَّ له في خِفْيَةَ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ ومَكْرُ الله تعالى بالمشركين كان بإخراجِ رسولِهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أظهرهم، وهم لا يشعرونَ، وأدخلَهُ الغارَ، واختفى عن المشركينَ، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:٤٠].

وقد أورد ابن كثير في قصة الهجرة ما رواه ابن حبّان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من حديث عبدالله بن عثمانَ بن خُثَيم، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: دخلت فاطمةُ على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك يا بُنَيَّةُ؟» قالت: يا أبتِ، ما لي لا أبكي؟ وهؤلاء الملأُ من قُرَيش في الحِجْرِ يتعاقدون باللات والعُزّى ومناةَ الثالثة الأخرى، لو قد رأوكَ لقاموا إليك فيقتلونَكَ، وليس منهم إلا من قد عَرَف نصيبه من دمك، فقال: «يا بُنَيَّة، ائتني بوَضُوءٍ». فتوضَّأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد، فلما رأوه قالوا: إنَّما ها هو ذا. فطأطؤوا رؤوسهم، وسقطتْ أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفَعُوا أبْصارهم. فتناول رسولُ الله ﷺ قبضةً من ترابٍ فَحَصَبَهُم بها، وقال: شَاهَتِ الوجوهُ، فما أصابَ رجلاً منهم حصاةٌ مِنْ حَصَياتِهِ إلا قُتل يوم بدر كافراً [ابن كثير: (٣/ ٢٩٩) وقال محقق ابن كثير: جيد. أخرجه أحمد ١/ ٣٠٣ و٣٦٨، والحاكم ١/ ١٦٣، وابن حبان ٦٥٠٢، والبيهقي في (الدلائل) ٦/ ٢٤٠. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال الشيخ شعيب في تخريجه لابن كثير: (٤/ ٤٢) أخرجه أحمد (٣٤٨٥) وإسناده قوي على شرط مسلم].

٦- رَدُّ الله تعالى على المشركين في دعواهم أنّهم يستطيعون الإتيانَ بمثلِ القرآن:

ردَّ اللهُ -تعالى- على بعضِ تقوُّلاتِ المشركينَ التي يريدون بها إضْلالَ عبادَ الله تعالى، فمن ذلك قولُهُ تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال:٣١].

أخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ كفارَ قريشٍ إذا تتلى عليهم آياتُ القرآنِ الكريم، قالوا: سمعنا هذا الذي تتلوه، ولو شئنا لقلنا مثله.

وهذ الذي يزعمونه مِنْ قدرتِهم على الإتيانِ بمثل القرآنِ كَذِبٌ وباطل، فقد تَحَدَّاهم ربُّ العزَّة أن يأْتوا بمثله، فعجزوا ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٤] وأخبرنا ربَّنا أن الإنسَ والجنَّ عاجزون عن الإتيانِ بمثله ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨].

وتحدَّاهم أن يأْتوا بمثل عَشْرِ سورٍ منه فلم يستطيعوا ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود:١٣] وأخيراً تحداهم أنْ يأتوا بمثل سورةٍ واحدة مهما كانت قصيرة ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

فهم كاذبون في دعواهم أنّهم يستطيعون أنْ يقولوا مثلَ هذا القرآن، سواءً أكان الذي ادَّعى هذه الدعوى واحدٌ منهم، أو ادَّعَوْها كلُّهم.

وقد كان النَّضْرُ بنُ الحارثِ هو الذي أُنزِلَ فيه قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ وقد أمَرَ الرسولُ ﷺ بضربِ عنقِهِ بعد معركة بدر [قال محقق ابن كثير (٣/ ٣٠٠): أخرجه الطبري، وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم].

وقولُهُ: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: هذا القرآن الذي جاء به محمد، إنما هو أساطيرُ الأولين، أي: حكاياتُهُمْ وأخبارُهُمْ وخرافاتُهُمْ.

٧- لا يعذّبُ اللهُ تعالى عبادَه ورسولُ الله ﷺ حيٌّ بَيْنَ أظهرهم ولا يُعَذّبُهُمْ وهم يستغفرون:

ذكر اللهُ -تعالى- في الآيةِ قبل الأخيرة من هذا النص أنَّ بعضاً من قريشٍ قالوا قبل وقعةِ بدرٍ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال:٣٢-٣٣].

وهذا القولُ مِنْ كفار قريشٍ يدلُّ على شدَّة جَهْلِهِمْ وكفرِهِمْ وعنادِهم، وكان الأحرى، والأولى بهم أنْ يقولوا: اللهم إنْ كان هذا هو الحقَّ مِنْ عندك، فاهدنا إليه، ووَفِّقْنا إليه، ولكنَّهم ظلموا أنْفُسَهمْ، واستعجلوا العذابَ، وطلبوا مِنْ ربِّ العزة أن يمطر عليهم حجارةً مِنَ السماءِ أو يأْتيهم بعذابٍ أليم كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت:٥٣].

وقد مضى قريباً عند قولِهِ تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ [الأنفال:١٩] ذِكْرُ الحديثِ الذي يذكر أنَّ الذي استفتح مِنْ كفَرَةِ قريشٍ هو أبو جهلٍ، فإنَّه قال داعياً ربَّه: «اللهمَّ أقْطَعُنا للرَّحِم، وآتانا بِما لا نَعْرِف، فأَحِنْهُ الغَداةَ».

وهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ لهذهِ الأُمَّةِ أمانين مِنْ العذابِ:

الأول: وجودُ رسولِ الله ﷺ بين أظهرهم ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾ فاللهُ -تعالى- لا ينزِّلُ بالأمَّة العذابَ، ونبيُّها فيها، وإذا أراد أن يعذِّب أمَّةً أمر نبيها أنْ يخْرُجَ منها، كما أمَرَ لوطاً أن يخرج مِنَ القرى التي يُريدُ أن يوقع بها عقابَهُ.

الثاني: أنَّ اللهَ تعالى لا يوقع العذابَ بالذين يتوبون إليه، ويستغفرونه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال:٣٣]. والصوابُ ما اختارَه ابنُ جريرٍ الطبريُّ أنَّ أهَلَ مكة فقدوا الأمانين عندما خرج الرسولُ ﷺ من بين أظهرهم وكانوا كفاراً لا يستغفرون اللهَ، فأوقع اللهُ بهم العذاب في بدر [تفسير الطبري: ٥/ ٣٨٣٦].

٨- استحقاقُ مشركي أهلِ مكة العذاب:

كان وجودُ الرسولِ ﷺ في مكَّةَ أماناً لأهلها مِنَ العذاب، فلما خرج منها مهاجراً إلى المدينةِ ذهبَ الأمان الذي كان لأهلِ مكةَ، ولذلك قال ربُّ العزة: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)﴾ [الأنفال:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: وما لأهلِ مكةَ ألاَّ يعذبهم اللهُ، وهم يصدُّون المؤمنين عن المسجدِ الحرامِ، أي: يصدُّونهم عن الصلاةِ فيه، والطواف به، وقوله:

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ أي: ليس أهلُ مكَّة أهلَهُ، وإنما أهلُهُ النبيُّ والمؤمنون معه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٧-١٨].

وقد عَذَّب اللهُ مشركي أهْلِ مكة بعد خروج الرسولِ ﷺ مِنْ مكةَ وهجرته إلى المدينة، عذَّبهم في بدر، فقُتِلَ منهم سبعون وأُسِرَ منهم سبعون، ولم يزل يقاتلُهُم المسلمونَ حتى فتحوا مكة، وأزالوا الأوثان والأصنام.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كان المسلمونَ في بداية أمرهم قليلين مستضعفين في الأرض، يخافونَ أن يجتاحَهُمْ أهلُ الكفرِ، فجعلَ المدينةَ داراً لهجرتهم، فآواهم بالأنصارِ، وقوَّاهم، ووسَّع عليهم في الرزق.

٢- نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن خيانةِ الله وخيانةِ رسولِهِ ﷺ بعصيانِ الله ورسولِهِ ﷺ ونهاهم عن ترك التكاليف التي أُمروا بها.

٣- أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن نعْلَمَ أنَّ أموالَنا وأولادَنا فتنةٌ، فقد يكونُ المالُ والولدُ سبباً في ضلالِ العَبْدِ وزيغانِهِ وضلالِهِ.

٤- المؤمنُ الذي يتقي اللهَ تعالى بفعلِ ما أُمِرَ به، وترك ما نُهِيَ عنه، يجعل له فرقاناً يفرِّقُ بِهِ بين الحقِّ والباطل والكفرِ والهدى، ويغفر لَه ذنوبَهُ ويُكَفِّر عنه سيئاتِهِ.

٥- أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ كفارَ قريشٍ مَكَرُوا بالرسولِ ﷺ ليأسروه أو يقتلوه أو يخرجوه، فأذن اللهُ تعالى له بالهجرةِ إلى المدينة، ونجَّاه منهم.

٦- زَعَمَ بعضُ كفرةِ قريشٍ أنَّ لديهم القدرةَ على أنْ يأتوا بمثلِ القرآنِ، وقد تحدَّاهُمْ اللهُ -تعالى- أنْ يأْتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ مهما كانتِ قصيرةً، فعجزوا.

٧- استعجل كفارُ قريشٍ العذابَ، وطلبوا مِنْ ربِّ العزةِ أن يُمْطِرَ عليهم حجارةً مِنَ السماءِ، أو يأْتيَهم بعذابٍ أليم.

٨- لا يأْخُذُ اللهُ تعالى الأمّةَ الإسلامية بعذاب ماحق مستأْصلٍ إذا كان الرسول ﷺ حيّاً بين أظهرهم، أو كان فيهم مسلمون ملتزمون بالإيمانِ يستغفرون اللهَ.

٩- للمؤمنينِ المنتشرينَ في بقاعِ الأرضِ فضلٌ على الناس إذ يمنع اللهُ تعالى تعذيب الناسِ بسبب إسلامهم واستغفارهم رَبَّهمْ، ولذلك فإنَّ الله عندما ينزعُ القرآنَ في آخر الزمان، ويُغطِّي الكفرُ العالمَ كلَّه، تقومُ الساعةُ على الكفارِ.

النص القرآني الخامس من سورة الأنفال

حالُ الكفار المشركين الذين كانوا يقاتلون الرسولَ ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم

أولاً: تقديم

كشف اللهُ -تعالى- لعبادهِ المؤمنين عن حالِ الكفرةِ المشركينَ الذين يقاتلونهم ويواجهونهم، فصلاتهم عند البيت مجونٌ وصفيرٌ وتصفيقٌ، وهم ينفقون المال لحربِ المؤمنين، وسيكونُ إنفاقُهُمُ المالَ حسرةً ووَبالاً عليهم، وقد رغَّبَ اللهُ الكافرين الذين يدخلون الإسلامَ بأن يغفرَ لهم ما كان منهم مِنْ كفر وفسق، أما الذين يُصِرُّون على كفرهم، فسيفعلُ اللهُ بهم مثل ما فعل بمن قبلهم، ويهلكهم كما أهلكهم، وأمر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ وصحبَهُ أنْ يستمروا في قتالِ المشركين، حتى يزول الكفرُ، ويصبح الدينُ كلُّه لله تعالى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال:٣٥-٤٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- صلاةُ مشركي أهلِ مكةَ عند الكعبةِ كانت مكاءً وتصديةً:

ذمَّ اللهُ -تعالى- مشركي أهل مكة بأنَّ صلاتَهم عند البيتِ كانت مكاءً وتَصْدِيَةً ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنفال:٣٥].

وقد نقل ابن كثير (٣/ ٣٠٥) عن عبدالله بنِ عمرَ، وابنِ عباس، ومجاهدٍ، وعكرمةَ، وسعيدِ بن جُبَير، وأبي رجاءِ العُطارديِّ، ومحمدِ بن كعبٍ القُرَظيِّ، وحُجْر بنِ عَنْبَسٍ، ونُبيطِ

ابن شُرَيطٍ، وقتادةَ، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم: أنَّ المكاء هو الصفير، وزاد مجاهد: وكانوا يَدخلون أصابعهم في أفواههم، وقال السدّيُّ: المُكاء الصَّفيرُ على نحو طَيْرٍ أبيض يقال له: المُكاء، يكون بأرضِ الحِجَازِ.

وقال ابن كثير: ﴿وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو خَلاَّد سليمانُ بن خَلاَّد، حدثنا يونُس بن محمدٍ المؤدِّب، حدثنا يعقوبُ -يعني ابن عبدالله الأشعري- حدثنا جعفر بن المغيرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾، قال: كانت قريشٌ تطوفُ بالكعبة عراة تَصْفِر وتُصَفِّق - والمكاءُ. الصفيرُ، وإنما شُبِّهوا بصفير الطير، وتصدية: التصفيق.

ونقل ابن كثير عن ابن جرير: قال: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عامر، حدثنا قرة، عن عَطِيَّةَ، عن ابن عُمَر في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾، قال: المكاءُ: الصَّفيرُ، والتصدية: التصفيق. قال قرة: وحَكَى لنا عطية فعلَ ابن عمر، فصَفَر ابنُ عُمَر، وأمال خَدَّه، وصَفَّق بيديه. وعن ابنِ عمرَ أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خُدودهم على الأرضِ ويُصَفقون ويصفِّرُونَ. وقال عكرمةُ: كانوا يطوفونَ بالبيت على الشمال، قال مجاهدٌ: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته، وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين. قولُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾، قال الضحاكُ، وابنُ جُرَيجٍ، ومحمد بن إسحاقَ: هو ما أصابهم يومَ بدرٍ مِنَ القتلِ والسبيِ، واختاره ابن جرير، ولم يحك غيره.

٢- عاقبةُ إنفاقِ مشركي أهل مكة أموالَهُمْ في حربِ المؤمنين:

بيَّن اللهُ تعالى عاقبةَ إنفاقِ مشركي أهل مكة أموالَهُمْ في حربِ الله تعالى ورسولِهِ ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧﴾ [الأنفال:٣٦-٣٧].

قال ابن كثير: قال محمدُ بن إسحاق: حدثني الزُّهري، ومحمد بن يحيى بن حبَّان، وعاصم ابن عمر بن قتادة، والحُصين بنُ عبدالرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، قالوا: لما أصيبتْ قريشٌ يوم بدر، ورجع فَلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعِيْره، مشى عبدالله بنُ أبي ربيعة، وعكرمةُ بنُ أبي جهلٍ، وصفوانُ بنُ أمية، في رجالٍ من قريشٍ أُصيبَ آباؤهم وأبناؤهم وإخوانُهُم

ببدر، فكلَّمُوا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريشٍ تجارة، فقالوا: يا معشرَ قريشٍ، إنَّ محمداً قد وَتَركم، وقَتَلَ خيارَكم، فأعينونا بهذا المالِ على حربِهِ، لعلَّنا أنْ ندركَ منه ثأراً بمن أُصيب منا، ففعلوا، قال: ففيهم كما ذكر عن ابنِ عباسٍ أنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [(ابن كثير: ٤/ ٥٠) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: أخرجه الطبري في (تفسيره) ١١/ ١٧٣، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ٥/ ١٦٨٩ من طريقين عن محمد بن إسحاق، به].

وقال ابن كثير: وهكذا رُويَ عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، والحكم بن عُتَيْبة، وقتادة، والسُّدِّي، وابن أَبْزى أنها نزلت في أبي سفيان ونفقتِهِ الأموالَ في أُحُدٍ لقتال رسول الله ﷺ [قال الضحاك: نزلت في أهل بدر].

وعلى كلِّ تقديرٍ فهي عامَّةٌ، وإن كان سبب نزولها خاصّاً، فقد أخبر تعالى أنَّ الكفارَ ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن اتِّباع طريق الحقِّ، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامةً، حيث لم تُجْدِ شيئاً، لأنَّهم أرادوا إطفاءَ نورِ الله وظهورَ كلمتهم على كلمةِ الحق، واللهُ مُتِمٌّ نورِه ولو كره الكافرون، وناصرٌ دينَه، ومعلِنٌ كلمتَه، ومظهِرٌ دينَه على كلِّ دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذابُ النارِ، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسُوؤُهُ، ومن قُتِل منهم أو مات، فإلى الخزي الأبديِّ والعذابَ السرمديِّ، ولهذا قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابنِ عباس في قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء، وقال السُّدِّي: يميز المؤمن من الكافر.

وهذا يَحتمِلُ أن يكون هذا التمييز في الآخرة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [يونس:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم:١٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس:٥٩].

ويحتملُ أن يكون هذا التمييزُ في الدنيا بما يظهر مِنْ أعمالهم للمؤمنين، وتكون اللامُ معلِّلةً لما جعل اللهُ للكفار من مالٍ ينفقونه في الصَّدِّ عن سبيل الله، أي: إنما أقْدرناهم على ذلك

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ أي: مَنْ يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنُّكول عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ﴾ الآية [آل عمران:١٦٦-١٦٧]، وقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٢] ونظيرتها في براءة أيضاً.

فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ ﴾ أي: يجمعه كله، وهو جَمْع الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السحاب: ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ [النور:٤٣] أي: متراكماً متراكباً ﴿ فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة [ابن كثير: ٣/ ٣٠٥].

٣- الإسلامُ يمحو ما قبله من الكفرِ والشِّرْكِ والذنوب:

أَمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يقولَ للكفارِ مِنَ أَهْلِ مكَّةَ أنَّهم إنْ انتهوا عن كفرهم وآمنوا يُغْفَرُ لهم جميعَ ما اقترفوه مِنَ الكفر والذنوبِ، وأنهم إنْ أصرُّوا على كفرهم، فسيأْخذهم العذابُ كما أَخذَ الأولين مِنَ الأُمم مِنْ قبلهم، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ أي: جميعَ ما مضى مِنْ كُفْرِهِم وشِرْكهم وذنوبِهِمْ، وقد جاءَ في الأحاديثِ أنَّ الإسلام يمحو ما قبله من الذنوبَ والخطايا، ففي الحديث أنَّ الرسولَ ﷺ قال لعَمْرِو بنِ العاص: «أمَا عَلِمْتَ أنَّ الإسْلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلُه، وأنَّ الهجرةَ تَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَها، وأنَّ الحجَّ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ؟» [مسلم: ١٢١].

وقوله: ﴿ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي: إنْ يعودوا إلى الكفرِ والطغيانِ، فإنَّ الله تعالى يفعل بهم كما فعل بمكذِّبي الرسل مِنْ قبلهم الذين أهلكهم ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٤].

والسنَّةُ: الطريقةُ والشريعةُ، وسنَّةُ الله مع الكفرة أنَّهم إنْ كَذَّبوا رُسُلَه وتمردُّوا عليهم أهلكهم.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى الرسولَ ﷺ وأصحابَهُ بقتالِ المشركينَ:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ وأصحابَهُ أن يستمروا في قتالِ المشركينَ حتى لا تكونَ فتنةٌ، ويكون الدِّينُ كُلُّه لله ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال:٣٩].

والفتنة هنا الشِّرْكُ، أي: قاتلوهم حتى لا يبقى شِرْكٌ على وجهِ الأرض، ويَدُلُّ على صحة هذا المعنى قوله تعالى بعده: ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ ﴾ لأنَّ الدينَ لا يكونُ كلُّهُ لله تعالى إلاَّ إذا لم يبقَ شِرْكٌ على وجهِ الأرضِ، وقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ المرادَ بالفتنةِ هنا: فتنةُ الرجلِ عن دينه، كالمستضعف الذي إذا آمَنَ حَبَسوهُ وأوثقوه أو قتلوه حتى يترك دينَهُ، يعني: قاتلوهم حتى ينتشرَ الإسلامُ، وتنكسرَ شوكةُ الكفرِ، بحيث لا يقدرون على رَدِّ إنسانٍ عن دينه، وهذا الذي ذهب إليه ابنُ عمر داخلٌ في القولِ الأوَّل، لأنَّه إذا انتفى الشركُ لا يكون هناك كافرٌ يَفْتِنُ المسلمين عن دينهم.

روى نافع عن ابن عمرَ رضي الله عنهما: أنَّ رجلاً جاءَه، فقال: يا أبا عبدالرحمنِ، ألا تَسْمَعُ ما ذَكَرَ الله في كِتابه: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ إلى آخرِ الآيةِ [الحجرات:٩]، فما يَمْنَعُكَ أنْ لا تُقاتِلَ كما ذَكَرَ الله في كِتابه؟ فقال: يا ابنَ أخي، أَغْتَرُّ بهذه الآيةِ، ولا أُقاتلُ، أحبُّ إليَّ من أنْ أَغْتَرَّ بهذه الآيةِ التي يقولُ الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ إلى آخرِها [النساء:٩٣]. قال: فإنَّ الله يقولُ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال:٣٩].

قال ابنُ عمرَ: قد فعَلْنا على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ إذْ كان الإسلامُ قليلاً، فكان الرَّجلُ يُفْتَنُ في دينِه، إمّا يَقْتُلونَه، وإمّا يوثِقونَه، حتَّى كَثُرَ الإسلامُ [البخاري: ٤٦٥٠].

وعن سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، قال: خَرَجَ علينا -أو إلينا- ابنُ عمرَ، فقال رجلٌ: كيفَ تَرَى في قِتال الفِتْنةِ؟ فقال: وهَلْ تدري ما الفِتْنةُ؟ كان محمدٌ ﷺ يُقاتلُ المشركينَ، وكان الدُّخولُ عليهم فِتْنةً، وليس كقِتالِكم على المُلْكِ [البخاري: ٤٦٥١].

وقولُهُ تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ ﴾ أي: بقتالكم إياهم عما هم فيه من الكفرِ، فكُفُّوا عنهم، وإن كنتم لا تعلمون بواطِنَهم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ فهو بصير بأعمالهم، وسيجازيهم عليها.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال:٤٠] أي: إنْ أعرضوا عن الحقِّ الذي جاءكم مِنْ عند الله، ولم يرْجِعُوا عن كفرهم

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ أي: فاعلموا أنَّ الله تعالى هو الذي يتولى أمرَكم، ويُؤَيِّدَكم ويسدِّدَكم، وينصُرَكُم ويوفقَكم، وقوله تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾. و﴿نِعۡمَ﴾ فعل ماضٍ جامد يدلُّ على المَدْحِ، واللهُ تعالى نعم المولى، فمن والاه فاز، ومن نصره غلب.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كانت صلاةُ المشركين في العهد النبويِّ عند المسجد الحرامِ مُكاءً وتصْدِيَةً، أيْ: صفيراً وتصفيقاً ورَقْصاً، ولم يكن فيها إخباتٌ وطمأْنينةٌ وسكينةٌ.

٢- الكفارُ ينفقونَ أموالهم لحربِ المسلمين والصدِّ عن دينِ الله، وستكونُ هذه الأموال عليهم يومَ القيامةِ وبالاً وحسرةً وعذاباً.

٣- يميِّزُ ربُّ العِزَّةِ المالَ الخبيثَ مِنَ المالِ الطيبِ يومَ القيامةِ، فيجعل المالَ الخبيثَ بعضَهُ على بعضٍ يومَ القيامةِ في جهنَّم.

٤- الذي يدخلُ الإسلامَ، فإنَّ الإسلامَ يهدمُ ذنوبَهُ صغيرَها وكبيرَها، وإنَّ الذي يستمرُّ على كفره، فإنَّ سنَّةَ الله فيه أن يدمِّرَهُ ويهلكه.

٥- يجبُ مقاتلةُ الكفارِ حتى يزولَ الكفرُ عن وَجْهِ الأرض، ويصبحَ الدينُ كلُّه لله تعالى.

النص القرآني السادس من سورة الأنفال
إغراءُ الله تعالى المؤمنينَ بالكافرين والكافرينَ بالمؤمنين

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ كيف تُقْسَمُ الغنائمُ التي تعودُ على المسلمينَ من وراء الحرب والقتال، وبيَّنَ تعالى أنَّه قضى أن تقعَ هذه المعركةُ، فوقعتْ كما أرادَ، وجاءَت على غير ميعادٍ، وقد قَلَّل اللهُ عَدَدَ المشركين في الرؤيا التي رآها الرسولُ ﷺ في منامِه، وقلَّل الكفارَ في أعينِ المؤمنينِ، وقلَّل المؤمنين في أعينِ الكافرين، وبذلك أغرى كلَّ فريقٍ بالآخر، وتحقَّقَ مرادُ الله بنصرِ المؤمنين، وهزيمةِ الكافرينِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٤١-٤٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- كيف تُقْسَمُ الغنائمُ:

بيَّنَ اللهُ تعالى للمسلمينَ كيف تُقْسَمُ الغنائمُ، فقال: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال: ٤١].

ومعنى ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ في هذه الآية وحيثما وردت في القرآنِ: تيَقَّنوا، وقوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ الغنائمُ: هي ما يحوزه المسلمون من أموالِ الكفار في حالِ انتصارهم عليهم، وهزيمتهم لهم،

فإذا كان المسلمون حازوا أموالَ الكفارِ وأرضَهم وسلاحهم بالحرب والقتال فهذه هي الغنيمة، وحكمُها كما بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآية، فيؤخذ منها الخمسُ، ويكون لله وللرسولِ ﷺ ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، ويعطى الأربعةُ الأخماسُ للجيشِ المقاتلِ.

فإذا حازَ المسلمون أموالَ الكفارِ مِنْ غيرِ حربٍ ولا قتالٍ، مثل أموالِ بني النضير التي قال تعالى فيها: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [الحشر:٦] فهذا هو الفيءُ يكونُ كلُّه لله وللرسولِ ولذي القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ، قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾ [الحشر:٧]. ومِنَ الفيءِ الذي يُنْفَقُ في الوجوهِ التي ذكرتْها الآيةُ الأموالُ التي نصالحُ عليها العدوَّ والجزيةُ والخراجُ ونحوُ ذلك.

وقد ذهبَ قلّةٌ من أهل العلم منهم قتادةُ إلى أنَّ آيةَ الحشرِ منسوخةٌ بآيةِ الأنفالِ، فحكمُ الفيءِ عنده حكمُ الغنيمةِ، وهذا غير صحيح، فإنّ سورة الأنفالِ نزلت في بدرٍ، وسورة الحشر نزلت في غزوةِ بني النضير، فلا يجوز أن يُنْسَخ المتقدمُ المتأخرَ مِن القرآنِ.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنَ الغنيمةَ والفيءَ يتصرفُ فيه الرسولُ ﷺ، فيُعْطِي الغانمينَ ما شاءَ، ويمنعهم ما شاءَ، واستدلُّوا بما تقدم في أول السورة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ [الأنفال:١] واستدلُّوا بعدم قسمة الرسولِ ﷺ مكة، وقد فتحها عنوةً على الصحيح، وقسَّمَ غنائمَ حنينٍ على الذين كانوا سادةَ الكفار كصفوانِ بن أمية، وعيينةَ بن حصن، والأقرعِ بن حابس، وغيرهم، والصوابُ مِنَ القولِ: أنَّ اللهَ قسَّم الغنائم في هذه الآيةِ على النحو الذي بيَّنه فيها، ويؤيد هذا -كما يقول ابن كثير- ما رواه الحافظُ أبو بكر البيهقيُّ بإسناد صحيح، عن عبدالله بن شقيق، عن رجل مِنْ بُلْقَيْنَ، قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ، وهُوَ بوادي القُرَى، وهُوَ يَعْرِضُ فَرَساً، فقلتُ: يا رسولَ الله ما تقولُ في الغَنِيمةِ؟ فقال: «لله خُمُسُها، وأربعةُ أخْماسٍ للجَيْشِ» قلتُ: فما أحَدٌ أوْلَى بِهِ مِنْ أَحَدٍ؟ قال: «لا، ولا السَّهْمُ تَسْتَخْرِجُهُ مِنْ جَنْبِكَ، ليسَ أَنْتَ أَحَقَّ بِهِ من أخيكَ الْمُسْلِمُ» [قال محقق ابن كثير (٣/ ٣١١): صحيحٌ، أخرجه البيهقيُّ في السنن: (٦/ ٣٢٤، ٣٣٦) وأبو يعلى (٧١٧٩) وقال الهيثميُّ في المجمع (١/ ٤٨-٤٩): رواه أبو يعلى بإسنادٍ صحيح].

والصحيحُ مِنَ القول: أنَّ مكَّة وخيبرَ فتحتا عنوةً، فقسَّم الرسولُ ﷺ أراضي خيبر، ولم يقْسِمْ أراضي مكةَ، وكذلك فعل عمرُ بن الخطابِ في الأراضي المفتوحةِ في زمنه فلم يقسمها،

أما الأموالُ التي غنمها المسلمونَ في حنينٍ، ولم يقسِّمْها الرسولُ ﷺ على المقاتلين، فإنَّ الرسول ﷺ طَيَّبَ قلوبَ الأنصار، وكان فيما قاله لهم: «يا معْشَرَ الأنصارِ، أترْضُونَ أنْ ذهبَ الناسُ بالشاةِ والبَعيرِ، وتَذْهَبون بالنبيِّ إلى رِحالِكُم» [البخاري: ٤٣٣٠. ومسلم: ١٠٦١].

أما طريقةُ قسمةِ الخُمُسِ، فالصحيحُ أنَّها تُقْسَمُ إلى خمسةِ أقسامٍ، للرسولِ ﷺ ، ولذي القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ، أما قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ فهو مفتاح كلام، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٢٩] وعلى ذلك فيكونُ سَهمُ الله وسهمُ الرسولِ ﷺ واحداً.

أما سَهْمُ ذوي القربى، فالصحيح أنَّه يصرفُ إلى بني هاشم وبني المطلب، لأنَّ بني المطلب وازَوْا بني هاشم في الجاهليةِ وفي أولِ الإسلام، ودخلوا معهم في الشِّعْبِ غضباً لرسولِ الله ﷺ وحمايةً له، مسلمُهُمْ طاعةً لله ولرسولِهِ، وكافرهم حميَّةً للعشيرةِ، وأنفةً وطاعةً لأبي طالب عمِّ الرسولِ ﷺ ، وقد روى البخاري في صحيحه عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ قال: مَشَيتُ أنا وعُثمانُ بنُ عفانَ إلى رسولِ الله ﷺ ، فقلنا: يا رسولَ الله، أعطيتَ بني المطَّلِبِ وتَرَكْتَنا، ونحنُ وهم منكَ بمنزِلةٍ واحدةٍ! فقال رسولُ الله ﷺ : «إنَّما بَنُو المطَّلِبِ وبَنُو هاشِمٍ شيءٌ واحدٌ» [البخاري: ٣١٤٠].

قال الليثُ: حدَّثني يونُسُ وزادَ: قال جُبَيرٌ: ولم يَقْسِمِ النبيُّ ﷺ لبني عَبْد شَمْسٍ ولا لبني نوْفَلٍ [ووصله البخاري في: ٤٢٢٩].

وقوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: اليتامى الفقراء، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ المحاويجُ، الذين لا يجدون ما يسدُّ خُلَّتَهُمْ، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافرُ الذي انقطعتْ به النفقة

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [الأنفال:٤١]، أي: التزموا بهذه القسمةِ التي بينَّاها إن كنتم آمنتم بالله، وآمنتم بما أنزلناه مِنَ الكتاب في يوم الفرقانِ يومَ التقى الجمعان، وهو يوم بدر، وقد كان الرسول ﷺ أمر وَفْدَ عبدِ القيسِ لما وفدوا عليه بأربع، وإحدى هذه الأربع: «أنْ يُؤَدُّوا إليْهِ خُمُسَ ما غَنِمُوه» [البخاري: ٥٢٣]. وسمَّى يوم بَدْرٍ فرقاناً، لأنَّ الله فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الحقِّ والباطلِ، ونصر فيه المؤمنينَ، وهَزَمَ الكافرين.

٢- موقعُ الجيشان في ميدان القتال:

أعلمنا ربُّنا عن موقع جيشِ المسلمين وجيشِ المشركين من أهلِ مكَّةَ في ميدانِ القتال، كما أعلمنا موقع قافلةِ أبي سفيان في ذلك الوقت ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال:٤٢].

أخبرنا ربُّنا أنَّ جيشَ المسلمين كان نازلاً بعدوةِ الوادي القريبة مِنَ المدينةِ المنورةِ، والعدوةُ شاطئُ الوادي وجانبه، وكان جيشُ المشركينَ في الجانب الأقصى لوادي بَدْرٍ، وكانت عيرُ أبي سفيان التي سمَّاها اللهُ في الآية بالركب أسْفل منهم، أي: كان أدنى منهم إلى جهةِ البحر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:٤٢]، أي: لو واعد بعضُكُم بعضاً في المكانِ الذي تلتقون فيه، ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: بسبب خوفِ بعضِكُمْ من بعضٍ، ولكنَّ الله جمعَ بينكم على غير ميعادٍ بحكمتِهِ ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليقضي اللهُ -تعالى- أمراً شاءَه وأراده، وهو إعزازُ دينِهِ، ونصرةُ رسولِهِ ﷺ وصحابتِهِ، وإذلالُ الشِّرْكِ وأهلِهِ، وقتْلُ وأسرُ زعمائِهِم ورؤسائهم وصناديدِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال:٤٢]، أي: أنَّ الله -تعالى- نصرَ المؤمنين مع قلتهم وقلَّةِ عتادهم، وهزم الكافرين مع كثرتهم وكثرةِ سلاحهم، ليعلم الناس أنه مُؤَيِّدٌ رسولَهُ ﷺ ومؤِّيدٌ صحابته، فيعلم المتفكر المتبصر أنَّ المؤمنين في تلكَ الغزوةِ كانوا على الحقِّ، وأنَّ الكفار كانوا على الباطلِ، فمنْ بقي مستمرّاً على كفره وضلالِهِ بعد ذلك كان ضالاً وهالكاً بعد أن ظهرتْ له البيِّنَةُ، والبيِّنةُ الدليل الحقُّ الذي لا لبس فيه، ولا شكَّ فيه، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ أي: سميع بأقوالِ خلقهِ، عليم بأفعالهم.

٣- تقليلُ الله تعالى الكفارَ في نفوسِ المؤمنين:

أرادَ اللهُ -تعالى- وقوعَ هذه المعركةِ، وإنزالَ الهزيمةِ بالكفار، ليعليَ منارَ المؤمنين، ويُذِلَّ الكافرين، فأرى اللهُ تعالى رسولَ الكفار في منامه قليلاً، وأرى اللهُ المؤمنين الكفارَ عندما التقوهم في الميدانِ قليلاً، ليغريهم بهم، ويجرِّئهم عليهم ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال:٤٣]. أرى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ المشركينَ في منامِهِ قليلاً، ولا شكَّ أنَّ الرسولَ ﷺ أخبر صحابَتَه، فاطمأنَّ واطمأنَّتْ قلوبُ أصحابِهِ، وأقبلوا على قتالِ الكفارِ مِنْ غير أنْ يقع بينهم خِصامٌ ونزاعٌ، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لو أراه إيَّاهم كثيراً، لأدَّى ذلك إلى

فشلهم وتنازعهم، ولقال بعضهم: إننا لم نخرج للحربِ والقتال، ولكنَّ الله سَلَّمَ صحابةَ رسولِهِ ﷺ مِنَ الفشلِ والتنازعِ، واللهُ تبارك وتعالى عليمٌ بذات الصدورِ، أي: بما تُجِنُّه الضمائر، وتنطوي عليه الأحْشاءُ.

وكما أرى اللهُ رسولَهُ ﷺ الكفارَ قليلاً في منامِهِ قَلَّلَ الكفارَ في أعينِ المؤمنين، فرأوهم عَدَداً قليلاً، لا يأْبَهُ به ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال:٤٤].

ولم يقتصرْ تقليلُ العدوِّ في أعينِ عدوهم على المؤمنين، بل فعل ذلك بكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقين، فقلَّلَ عدد الكافرين في أعين المؤمنين، وقلَّل عددَ المؤمنين في أعين الكافرين، قال عِكْرِمة: «حضَّضَ بعضهم على بعض» [قال ابن كثير: (٣/٣١٩) إسناده صحيح]. وقوله تعالى: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي: ليلقيَ الحربَ بينهم، للانتقام من الكفارِ، ولإتمامِ نعمته على المؤمنين، فلَّما التحم الجيشانِ وأنزلَ الله ملائكتَهُ على المؤمنين، رأى الكفارُ المؤمنينَ ضعفَ عَددهم هم ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٣].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- ما غنمه المسلمون مِنَ الكفارِ بالحربِ والقتال يُوَزَّعُ أربعةُ أخماسِه على الجيش المقاتل، للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم واحد، أما خمس الغنيمة فيقسم إلى خمسةِ أقسام، للرسولِ ﷺ ، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين وابن السبيل.

٢- أما الفيءُ، وهو الذي فاءَ إلى المسلمين من غير حرب ولا قتال، فيوزَّعُ كُلُّه إلى الرسولِ ﷺ ، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

٣- أغرى اللهُ تعالى رسولَهُ والمؤمنين بقتالِ الكفار، فقد رآهم الرسولُ ﷺ في منامه قليلاً، وقلَّلَ الكفار في أعْيُنِ المؤمنين، وأغرى الكفارَ بقتالِ المؤمنين عندما قلل المؤمنين في أعْينِ الكفارِ.

٤- أراد ربُّ العزَّةِ وقوعَ هذه الغزوة، إذ خرج المسلمون للاستيلاء على القافلةِ، فأنجى القافلةَ، وأغرى أهلَ مكَّةَ بالخروجِ لحماية القافلةِ، فالتقى الفريقان على غيرِ ميعادٍ، فنصر المؤمنين، وأذلَّ الكافرين.

النص القرآني السابع من سورة الأنفال

طريق النصر

أولاً: تقديم

نادى اللهُ تعالى المؤمنين وأرشدهم إلى الطريق الذي يحقق لهم النصرَ في ميدان القتال، وبمقدارِ ما يحقق المؤمنون هذه التوجيهات يصلون إلى النصر، وقد حدَّثنا ربُّنا في هذه الآياتِ عن تمثلِ الشيطانِ في صورةٍ أحد شيوخِ العربِ، وإجارته للمشركين، وفرارِه من الميدانِ عندما رأى تنزُّلَ الملائكةِ على المؤمنين، وردَّ اللهُ تعالى على المنافقين الذين زَعَمُوا أنَّ المؤمنين غَرَّهم دينُهُمْ عندما أقدموا على حربِ كفار قريشٍ، وبيّن ربُّ العزَّة في الردِّ عليهم أنَّ الذي يتوكل عليه، فإنَّه ينصره.

وبيّنَ لنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الملائكة حاربت مَعَ المؤمنين في بدرٍ، فكانوا يقبضون أرواحهم، ويضربونَ وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ذوقوا عذابَ الحريقِ، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ كفارَ قريشٍ في كفرِهمْ وضلالهِمْ كفرعون ومَنْ قبله مِنْ الأمم التي كذبتْ رسلها، وأنَّ تعذيبَ الله لقريشٍ في بدرٍ هو كتعذيبِ الأُمم السابقةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٥٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- سبيلُ النصرِ في ميدان القتال:

بَيَّنَ اللهُ تعالى لنا طريقَ النصرِ على أعدائِنا الكافرين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥-٤٧].

وطريقُ النَّصْر الذي يجبُ على المؤمنينَ أنْ يأْخذوا به، يتمثل فيما يأتي:

أ- توْطِينُ المسلمين أنفسَهُمْ على الثباتِ في الميدانِ، ولا يفروا، ولا يُوَلُّوا الأدبارَ. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾ .

ب- ذِكْرُ المؤمنين اللهَ ذكراً كثيراً ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ففي هذا الموقف المخوف على المؤمنين أن يكثروا مِنْ ذكر الله تعالى والالتجاءِ إليه، والاستنصارِ به، وإذا حضرت الصلاةُ وأمكنهم أن يصلوا جماعة صَلَّوْا، وإلا صلوها فرادى ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ ﴾ [النساء:١٠٢].

ج- طاعةُ الله تعالى وطاعةُ رسولِهِ ﷺ ، وعدم التنازع والاختلافِ، ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ ﴾ فمتى تنازعوا واختلفوا فإنَّهم يفشلونَ وتذهبُ ريحهم ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ كما وقعَ للمسلمين في أُحُدٍ عندما خالفَ الرماةُ أمر نبيهم، وتنازعوا، ففشلوا، وذهبت قوتُهُمْ، والفشلُ: ضدُّ النجاح، وهو يؤدِّي إلى الضعفِ والخورِ.

هـ- الصبرُ في ميدانِ القتال تحتَ ظلالِ السيوفِ ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي: معهم بنصرِهِ وتأييدِهِ ورعايتِهِ.

ز- نهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا كالكافرين المشركين الذين خرجوا من ديارهم بطراً، أي: خرجوا مِنْ ديارهم لأجلِ البطر، والبطرُ التكبُّر عن قبولِ الحقِّ مع غَمْطِ الحقوقِ، وقوله: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهذا كما قال أبو جهل عندما طُلِبَ منه الرجوعُ: «والله لا نرجع حتى نردَ ماءَ بدر، وننحرَ الجُزُرَ، ونشربَ الخمر، وتعزفَ علينا القيانُ، وتتحدَّث العربُ بمكانِنا فيها يومنا أبداً» [ابن كثير: ٣/ ٣٢١] فكانت الدائرةُ عليه وعلى قومِهِ، وتحقَّق فيهم ما أرادوه بالرسولِ ﷺ وأصحابِهِ.

وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصدُّون الناسَ عن دينِ الله تعالى، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾﴾ في هذا تهديدٌ ووعيدٌ بالمشركين، فالله محيطٌ بهم، وبأعمالهم، وأقوالهم، بل هو محيطٌ بكل شيءٍ سبحانه.

وقد اتَّبعَ الصحابةُ رضوان الله عليهم هذه الخطواتِ الخمسِ التي أرشَدَهُمُ اللهُ تعالى إليها في هذه الآيات، ففتح اللهُ بهم القلوبَ والعقولَ، وهدى بهم النفوسَ، وهَدَمُوا الدولَ التي كانت قائمةً في زمانهم، ومنها أعظم دولتين، وهما فارسُ والرومُ، وهَدَموا دولاً كثيرةً غيرهما كالترك والصقالبة والحبش والسودان وغيرها.

٢- إجارةُ الشيطان المشركين، فلما رأى الملائكةَ ولّى مدبراً:

أعلمنا ربُّنا أنَّ الشيطانَ زينَ للكافرين أعمالهم، وقالَ لهم: لا غالبَ لكم اليومَ مِنَ الناسِ وإنِّي جار لكم، فلما تراءَتِ الفئتان، ورأى الملائكةَ تتنزَّلُ لنصرِ المؤمنين ولَّى هارباً ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال:٤٨].

وهذه الآية صريحةٌ في أنَّ الشيطان تصوَّرَ للمشركين في صورة إنسانٍ، وذهب كثيرٌ من أئمة التفسير إلى أنه تصوَّرَ في صورةِ سراقةَ بن مالكِ بن جُعْشُم وزيَّن للمشركين أعمالهم مِنَ الكفرِ والشركِ والمعاصي، ومنها تصميمُ زعمائِهم على حربِ المسلمين، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الشيطانَ يحاولُ أن يَشُدَّ من أزْرِ المشركين، فقال لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أنتم في حالٍ مِنَ القوةِ والمنعةِ، لا يستطيعُ معها أَحَدٌ أن يوقِعَ بكم الهزيمة، وقال لهم: ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ فلما رأى الملائكةَ تتنزَّلُ مِنَ السماءِ، ظَهَرَ كذبُهُ، وتخلَّى عن المشركينَ، وفرَّ هارباً، وهو يقول: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ تبرأ من كفارِ قريشٍ بعد أنْ ناصرهم وزعم أنَّه جارٌ لهم، وعنى بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ من الملائكةِ التي كان يراها تتنزَّلُ مِن السماءِ، ولم يكن صادقاً في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أي: يخافُ أنْ يوقعَ به عذابَهُ وعقابَهُ على أيدي ملائكته في ذلك الموقفِ العظيم.

٣- موقفُ المنافقين من المؤمنين في بدرٍ:

بيَّنَ اللهُ تعالى موقف المنافقينَ من المؤمنين في بدرٍ، فقال: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال:٤٩].

لا ندري أينَ كان هؤلاء المنافقون الذين قالوا هذه المقالة، هل كانوا مع جند المشركينَ، أو كانوا في مكة، أو المدينة، ولكنَ ذلك لا يضيرُ، فقد قالَ هؤلاءِ المنافقون والذين في قلوبهم مَرَضُ الشبهات: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ فجعلهم يواجهون قريشاً ذاتَ الشدةِ والبأسِ، وقد ردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾﴾ أي: من يعتمدَ على الله، فإنَّ الله ناصرُهُ ومؤيدُهُ، فاللهُ عزيزٌ غالبٌ، لا يُضامُ مَنْ التجأ إليه.

٤- محاربةُ الملائكةِ مع المؤمنين في بدرٍ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الملائكةَ حاربتْ مع المؤمنين في بدرٍ، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال:٥٠-٥١] والذي يظهَرُ لي أنَّ تَوَفِّي الملائكةِ أرواحَ الكفارِ وضربهم وجوهَهُمْ وأدبارَهُمْ هو في معركةِ بدرٍ التي أنزلَ اللهُ تعالى فيها الملائكةَ لنصرةِ المؤمنين، وكانت تقول لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾، وتقول لهم: هذا العذابُ بسببِ كفركم وشرككم وما قدَّمَتهُ أيديكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ .

وقد أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الملائكةَ تفعلُ هذا الفعلَ مع كلِّ كافرٍ إذا هي قبضتْ روحه ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ [محمد:٢٧-٢٨].

٥- مثلُ كفارِ قريشٍ كآلِ فرعونَ والذين مِنْ قبلهم:

أعْلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ دأبَ كفارِ مَكَّةَ كَدَأْبِ آلِ فرعون والذين مِنْ قبلهم، قال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال:٥٢]. والدَّأْبُ: العادةُ والدينُ وتكذيب الرسل والتَّمَرُّدُ على الله تعالى، فكل مَنْ يجري على سننٍ مطردٍ وعادة تقولُ العرب: هذا دَأْبُهُ، أي: عادتُهُ وديدَنُه الذي يسير عليه دائماً، وقد فسَّر اللهُ دأب آل فرعون ومن قبلهم بقوله: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ تقولُ العربُ: «أخذَه بذنبه» إذا عاقبه عقاباً شديداً، أي: أنَّ اللهَ تعالى أهلكهم بذنوبهم وعاقبهم عقاباً شديداً بسبب ذنوبهم، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ﴾ فلا أحَدَ أقوى منه، وقد قالت عادٌ: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت:١٥] فقال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ [فصلت:١٥].

وقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٥٢﴾ أي: ليس يوجدُ عذابٌ هو في غايتِهِ شديدٌ فظيعٌ إلا عذابَ الله، ويدلُّ على شدَّةِ عذابِهِ قولُهُ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ [الفجر:٢٥-٢٦]. وقد وصف اللهُ تعالى شدَّةَ عذابِهِ بقولِهِ: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم:١٧]، وقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

٦- لا يغيِّر اللهُ تعالى النعمَ التي أنعم بها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- قائلاً: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣﴾ [الأنفال:٥٣].

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآيةِ أنه سبحانه لم يكن مغيِّراً نعمةً أنعم بها على قومٍ حتى يغيِّرَ هؤلاءِ القومُ ما بأنفسهم، فعند ذلك تتحول نعمتُه عليهم إلى نقمةٍ، ويغيِّرُ الخيرَ الذي بهم إلى شرٍّ، فإذا كفرَ العبادُ، وأفسدُوا في الأرض، وسَعَوْا في الفسادِ، أنزل الله نقمتَهُ، فتغوصُ عيونُهم، وتنقطعُ أنهارُهم، وتذهبُ زروعُهُمْ وثمارُهُمْ، وقولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣﴾ سميعٌ عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ من أقوالِ المغيِّرِيْنَ، ولا مِنْ أفعالهم.

ثم قال ربُّ العزة مؤكِّداً ما سَبَق ذكرهُ قبل آيةٍ واحدةٍ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤﴾ [الأنفال:٥٤].

والمرادُ بفرعونَ هنا فرعونُ موسى، و﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قومُ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومُ لوطٍ وأصحابُ مدينَ، وآل فرعون: أهله وجماعته، ولا يقال (آل) إلا لِمَن له شأن وخطب، وقيل لفرعون آل فرعون لعظمتِهِ ومكانتِهِ عند قوْمِهِ، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: كلُّ قومٍ كذبوا بالآياتِ التي أنزلتْ إلى رسولِهِم، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ ومِنْ ذلك أنه تعالى أهْلَكَ قومَ نوحٍ بالطوفان، وأهلكَ قوْمَ هودٍ بالريحِ بالعقيم، وأهلك قومَ صالح بالصيحةِ، وهكذا. وأغرقَ اللهُ تعالى فرعونَ وجنده، وذلك عندما جاوزَ ربُّ العزَّةِ ببني إسرائيلَ البحرَ، ودخل فرعونُ وجندُه البحرَ فانطبق عليهم ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ وقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤﴾ أي: فرعونُ ومَنْ قبله مِنَ الذين كذَّبوا الرسل، والظلم: وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعه، وأعظم الظلم عبادة غير الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان:١٣].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- بيَّن اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ للمجاهدين في سبيله التوجيهات التي تؤدِّي بهم إلى النصر، وما زالتْ هذه الآياتُ تفعلُ فعلها في المجاهدينَ على مرِّ العصورِ.

٢- تمثَّل الشيطانُ قبل نشوبِ القتالِ في صورةِ رجلٍ زَيَّنَ لكَفَرةِ قريشٍ أعمالَهُم، وأجارَهُمْ وساندهم، فلما رأى الملائكة تتنزَّلُ على المؤمنين فرَّ مرعوباً.

٣- زعم المنافقون أنَّ الصحابةَ غرَّهم دينُهُمْ عندما تجرؤُوا على حربِ قريشٍ في بدرٍ، وقد بيَّن ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- أنَّ الذي يتوكَّلُ عليه ينصرُهُ مهما كانت قوةُ أهلِ الكفرِ.

٤- حاربت الملائكةُ في بدرٍ مَعَ الصحابةِ، وكانوا يضربونَ وجوهَ الكفارِ وأدبارهم.

٥- الكفارُ مِنْ أهل مَكَّةَ مثلُهُم كمثلِ فرعونَ والأُممِ التي كَذَّبت رسلَها مِنْ قبله كفروا بآيات الله، فأخذهم اللهُ تعالى بذنوبهم.

٦- اللهُ لا يغيِّرُ النعمَ التي أحَلَّها بالعبادِ والأفرادِ حتى يُغيِّرَ المُنْعَمُ عليهم ما بأنفسهم، فينزلُ اللهُ تعالى بهم نِقَمَهُ، ويحلّ بهم عذابَهُ.

النص القرآني الثامن من سورة الأنفال
كيف نتعاملُ مع أعداءِ الله وأعدائنا من الكفار

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ تعالى للمؤمنين حالَ الكافرين الذين يحاربونهم، فهم شرُّ مَنْ دبَّ على وجهِ الأرضِ، وهم الذين لا يحترمون عقودَهُمْ مع المؤمنين ولا يتَّقونَ اللهَ، ولا يخافونه، وأمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ إن حارب هؤلاء الكفار أنْ يفعلَ بهم فعلاً فظيعاً يُؤَدِّبهم، ويُؤَدِّب مَنْ يفكر في نقضِ عهودهم مع المؤمنين.

وعلى المؤمنين إن هم خافوا أن ينقضَ الكفارُ عهودَهُمْ معهم أنْ لا يبادروا إلى حربهم، حتى يعلموهم بأنَّهم نقضُوا عهودَهُمْ معهم، فإذا أظهر الكفارُ نقضَ العهدَ، واجتاحوا ديارَ الإسلام، فلا حاجةَ بالمسلمين إلى الإعلانِ للكفار بنقض العهد. وقد بيَّنَ اللهُ تعالى للمؤمنينَ أنَّ الكفارَ ضعفاءُ، لا يستطيعون أنْ يسبقوا اللهُ، ويغلبوه.

وأمَرَ اللهُ المؤمنين أنْ يُعِدُّوا لحربِ الكفارِ أقصى ما يستطيعون إعدادَه من القوة الحربيةِ والعسكريةِ، لنرهبَ عدوَّ الله وأعداءَنا، وأمرنا اللهُ بالإنفاقِ في سبيلِ الله، لننال أجر المنفقين.

وأمرنا بقبولِ مصالحةِ الكفار إذا دعونا إلى الصلح، وعلينا أنْ نعتمد على الله ونتوكَّل عليه إذا خفنا أن ينقضوا عهودنا معهم.

وامتنَّ اللهُ تعالى على رسوله ﷺ بتوحيدِه سبحانه قلوبَ المؤمنين على الإيمان، فلو أنفق كلَّ مالٍ في الأرض ما استطاع تأليفَ قلوبهم وجمعها على كلمةٍ سواء.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال:٥٥-٦٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الكفارُ شرُّ الدوابِّ عندَ الله:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ شرَّ الدوابِّ عنده الكفارُ الذين ينقضون عهودهم التي عاهدُوا الرسولَ ﷺ عليها ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال:٥٥] أي: إنَّ شرَّ الدوابِّ التي تَدِبُّ على وَجْهِ الأرضِ هم الكفارُ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان:٤٤].

وهؤلاءِ الذين ذمَّهم اللهُ تعالى هم ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال:٥٦]، والعهدُ كلُّ شيءٍ مؤكد، لا يجوزُ نقضه، والميثاقُ: العهد المؤكَّد، وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ أي: لا يفون في كلِّ مرَّةٍ بعهدهم التي عاهدوا بها، بل ينقضونها، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: لا يتَّقون اللهَ بالوفاءِ بعقودِهِمْ، ولا يمتثلونَ ما أمَرَ اللهُ به، ولا يتركونَ ما نهى عنه. وقد أمَرَ الله تعالى رسولَهُ ﷺ إنْ ظفر بهؤلاء أنْ يفرِّقَ ويُخوِّفَ بهم من خلفهم ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال:٥٧]، أي: افعل بهم فعلاً فظيعاً منكراً شديداً عظيماً يكونُ ذلك العقابُ عظةً لمن خلفهم ومَنْ وراءَهم، فيخافوا أن ينقضوا عهودَهُمْ بعد ذلك معك.

٢- إذا خاف المسلمون من قومٍ عاهدوهم خيانةً فلهم إعلامُهُم بنقضِ عهودِهِمْ معهم:

إذا خافَ المؤمنون من قومٍ بينهم وبينهم عهدٌ خيانةً، والخيانةُ الغدرُ ونقضُ العهدِ فعلى المسلمينَ أنْ يعلنوا للكفارِ نَقْضَ عهدِهِمْ معهم ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال:٥٨].

وقوله: ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: اطرح إليهم عَهْدَهُمْ، وألقه إليهم، حتى تصبح أنْتَ وإياهم على سواءٍ، وقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: في العلم بأنك لستَ مصالحاً لهم، ولا عهد بينك وبينهم.

وهذا مِنَ التعاليم السماويةِ الراقيةِ، وهو إعلامُ الذين ظهرت منهم بوادرُ نقضِ العهدِ بإنهاءِ ذلك العقد ونقضِهِ، ولا نقاتلهم غِرَّةً.

أما إذا نقض الكفارُ عهدنا، وهجموا على ديارنا، وقتلوا رجالنا، فليس بنا حاجةٌ إلى إعلامهم بنقضِ عهودِنا معهم، لأنَّ أمرهم واضحٌ في نقض العهد، ولذلِكَ فإن الرسول ﷺ غزا قريشاً في عامِ الفتحِ عندما نقضوا صُلْحَ الحديبيةِ، وأعانتْ قريشٌ البكريين على خزاعة فقتلوهم، فغزاهم الرسولُ ﷺ من غيرِ أنْ يعلِمهم، وفتح مكة.

وقد بيَّن ربُّ العزةِ سبحانه أنَّه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: أنَّ اللهَ لا يحبُّ أن يأخُذَ المسلمون الكفارَ الذين عاهدوهم خفيةً من غيرِ إعلامهم بنقضِهِمْ عهودَهُمْ معهم.

وقد جاء في صحيح السنّة ما دلّت عليه الآية الكريمة، فعن سُلَيْم بنِ عامرٍ يقول: كان بينَ معاوية، وبينَ أهْلِ الرومِ عهدٌ، وكان يسيرُ في بلادِهِمْ، حتى إذا انقضى العهدُ أغارَ عليهم، فإذا رجل على دابةٍ -أو على فَرَسٍ- وهو يقول: الله أكبر، وفاءٌ لا غدرٌ، وإذا هو عَمْرُو بنَ عَبَسة، فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَنْ كانَ بَيْنَهُ وبينَ قوم عهدٌ فلا يَحُلَّنَّ عَهْداً، ولا يَشُدَّنَّهُ، حتى يَمْضِي أمَدُهُ، أو ينْبِذَ إليهم على سَواء». قال: فرجع معاوية بالناس [صحيح الترمذي (١٢٨٥)، وقال فيه الألباني: صحيح، وذكر أنه أورده في صحيح أبي داود (٢٤٦٤) وقال فيه ابن كثير (٣/ ٣٢٧): رواه أبو داود الطيالسي، وأخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من طرق عن شعبة، وقال الترمذي: حسن صحيح].

٣- الكفارُ تحتَ قهرِ اللهِ وقدرتِهِ:

نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يظنَّ أنَّ الكفارَ سبقوا ربَّ العزةِ وغلبوه ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال:٥٩] فالكفارُ لا يفوتون اللهَ، ولا يغلبونَهُ، بل هم تحتَ قدرتِهِ وفي قبضتِهِ فلا يعجزونَهُ، وهذا كما قالَ عزَّ وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت:٤]، وقال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ [النور:٥٧].

٤- أمَرَ اللهُ تعالى بإعدادِ القوةِ الحربيةِ:

أمَرَنا اللهُ تبارك وتعالى أن نعدَّ ما استطعنا من قوةٍ ومن رباطِ الخيلِ ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠].

وهذه الآيةُ توجب على المؤمنين أن يُعِدُّوا أقصى ما يستطيعونه مِنَ القوة الحربية، والقوةُ الحربية تتطوَّر بتقدم الزمانِ، فكانتْ في عهدِ الرسولِ ﷺ تتمثل في السيوفِ والرماحِ

والدروع والسهامِ والقسيِّ وإعدادِ الخيولِ، ونحو ذلك. وأصبحت اليوم تتمثل في الدباباتِ والطائراتِ والصواريخِ والقنابلِ الذرية والهيدروجينية وغير ذلك من الأسلحة.

وقد بيَّن اللهُ تعالى لنا الحكمةَ من وراءِ إعدادِ القوةِ الحربيةِ، فقال: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال:٦٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ﴾ أي: تُخَوِّفونَ، و﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: الكفارَ، وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ اللهُ أعلم بمرادِهِ مَنْ هذا العدوُّ الخفيُّ، فقد أخبرنا أننا لا نعلمهم، وهو يعلمهم.

ثم حثَّنا ربُّنا عزَّ وجلَّ على الإنفاقِ في الحربِ والقتالِ وإعدادِ العدَّةِ الحربيةِ، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ وقد أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- في مواضع أخرى بالأجر العظيم الذي يحوزه المنفقون أموالهم في سبيلِ الله، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

وقد جاءَت الأحاديثُ كثيرةٌ وافرةٌ تأْمر بإعداد القوةِ الحربيةِ، فمن ذلك ما رواه مسلم عن عقبةَ بنِ عامرٍ أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] ألا إنَّ القوة الرَّمْيُ، ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ» [مسلم: ١٩١٧].

ومن نظر في القوة الحربيةِ اليومَ وجدَ أنَّ الرمْيَ بالصواريخِ والمدافعِ والقنابلِ لا تزال هيَ أعْظَمُ أنواعِ القوةِ.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرةَ ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الخيلُ لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سِتْرٌ، وعلى رجلٍ وِزْرٌ، فأما الذي له أجرٌ فرجلٌ رَبَطَها في سبيلِ الله، فأطالَ بها في مَرْجٍ أو رَوْضةٍ، فما أصابَتْ في طِيَلِها ذلكَ مِنَ المَرْجِ أو الروضةِ كانت له حَسَناتٍ، ولو أنَّه انقطَعَ طِيَلُها فاستَنَّتْ شَرَفاً أو شَرَفَينِ، كانت آثارُها وأرواثُها حَسَناتٍ له، ولو أنَّها مَرَّتْ بنَهرٍ فشَرِبَتْ منه، ولم يُرِدْ أنْ يَسْقِيَ كانَ ذلك حَسَناتٍ له، فهي لذلكَ أجرٌ. ورجلٌ رَبَطَها تَغَنِّياً وتَعَفُّفاً، ثم لم يَنسَ حَقَّ الله في رِقابِها ولا ظُهُورِها، فهي لذلكَ سِترٌ. ورجلٌ رَبَطَها فَخْراً ورِياءً ونِواءً لأهلِ الإسلامِ، فهي على ذلكَ وِزْرٌ» [البخاري: ٢٣٧١. ومسلم: ٩٨٧ مطولاً].

وفي الصحيحين عن عروةَ البارقيِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «الخيلُ مَعْقودٌ في نَواصِيها الخَيْرُ إلى يومِ القيامةِ: الأجرُ والمغنمُ» [البخاري: ٢٨٥٢. ومسلم: ١٨٧٣].

وعن أنس بن مالكٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «البرَكَةُ في نواصي الخَيْلِ» [البخاري: ٢٨٥١. ومسلم: ١٨٧٤].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنِ احْتَبَسَ فَرَساً في سَبيلِ الله، إيماناً بالله، وتصديقاً بوعدِهِ، فإنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّه ورَوْثَهُ وبَوْلَه في ميزانِهِ يومَ القِيامةِ» [البخاري: ٢٨٥٣].

٥- أمْرُ الله تعالى رسولَهُ ﷺ بالجنوحِ إلى السَّلْمِ إذا طَلَبَهُ الكفارُ:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال:٦١] أي: إنْ مالَ الكفارُ إلى السَّلْمِ فاجنح له، أي: اقبل ذلك، ووافقهم عليه، والسَّلْمُ: الصلح ولا تعارُضَ ولا إشكال بينَ هذه الآية، وبين قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥].

فآيةُ الأنفالِ أمرت بقبول السَّلْمِ إذا دعا إليه الأعداءُ الكفرةُ، وآيةُ محمدٍ نهت المؤمنين أنْ يكونوا هم البادئين بالدعاءِ إلى الصلح.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: إنْ صالحتهم، فلا تخف مما يُدبِّرون لك مِنَ المكرِ والغدرِ والحيلِ في مُدَّةِ تلكِ المصالحةِ، وتوكَّل على الله، أي: فوِّض أمورَكَ إليه، فإنَّه سبحانه كافيك.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ أي: سميعٌ لما يقولونه مِنَ المنكرِ والغوائلِ التي يتربصونَكَ بها في مدَّةِ الصلحِ، فهو العليمُ بما يبطنون ويضمرون مِنَ المكرِ والخديعةِ أثناءَ مدَّةِ الصلح.

وذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ هذه الآية، وهي قوله: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا...﴾ منسوخةٌ بآيةِ السيفِ، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾ [التوبة:٥].

والصحيحُ أنَّ الآيةَ غير منسوخة، وأنَّ الصلحَ موكولٌ إلى نظرِ الإمامِ، فإن رأى فيه مصلحةً صالح، وإلاَّ قاتل.

٦- إن خافَ المسلمون خديعةَ المشركين مدَّة الصلحِ، فعليهم أنْ يتوكلوا على الله:

إذا خافَ المسلمون من خديعةِ الكفارِ لهم في مدةِ الصلح، فإنَّ اللهَ كافيهم مِنْ شَرِّهم وخداعِهم، ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣].

وعنى ربُّنا بالذين يريدون خداعَنا الكفارَ الجانحون للسَّلْمِ الطالبون له، ويكون خداعُهُمْ لنا بالغدْرِ والمكيدةِ، وإعانةِ الكفارِ على المؤمنين، وقوله: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي: فإنَّ اللهَ كافيك شرَّهُمْ وخِداعَهُم، فتوكَّل عليه، ولا تكترثْ بإرادتهم بالصلح الخداعَ، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ أيَدَك: قَوَّاك وأعزَّكَ بنصره، وقوَّاك بالمؤمنين.

وقوله: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ ﴾ أي: ألَّف بين قلوبِ المؤمنين مِنَ المهاجرين والأنصارِ، أي: جمع قلوبهم على الإيمانِ وطاعةِ الرحمن ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: مهما أنفقتَ مِن مالٍ، فلن تستطيع أنْ تجمعَ بين قلوبهم وتوحِّد بينها، كما قال عزَّ وجل: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ ﴾ [آل عمران:١٠٣]. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ والعزيز الغالبُ الذي لا يغلبُهُ أحدٌ، والحكيم: الذي يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- وَصَفَ اللهُ تعالى الكفارَ الذين يديمونَ نقضَ عهودِهم مع المؤمنين بأنهم شرُّ الدوابِّ عندَ الله تبارك وتعالى.

٢- أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ إذا ظَفِرَ بناقضي عهودِهم معه في الحربِ والقتالِ أن يفعل بهم فعلاً فظيعاً يُؤَدِّبُ كلَّ مَنْ تسوِّلُ له نفسه نقضَ العهد.

٣- إذا خافَ المسلمون مِنْ نقضِ الكفار عهودَهُمْ معهم، فعليهم إعلامُ الكفارِ بنقضِ عهودِهِمْ معهم، ولا يجوزُ لهم قتالُ أعدائِهم مِنْ غيرِ إعلامِهِمْ بنقضِ عهودِهِمْ معهم، فإذا قام الكفارُ بنقضِ العهودِ علانيةً واجتاحوا بلاد المسلمين فليسَ بالمسلمين حاجةٌ إلى الإعلانِ للكفار.

٤ - الكفارُ مهما كان بأْسُهُمْ وشدَّتُهم فهم ضعفاءُ لا يُعْجزونَ ربَّ العبادِ.

٥ - أمر الله المؤمنين في كلِّ عصرٍ أنْ يُعِدُّوا أقصى ما يستطيعون إعدادَه من القوةِ الحربيةِ وأدواتِ القتالِ إرهاباً لعدوِّ الله وعدوِّهِمْ.

٦ - فضلُ إنفاقِ المالِ على القتالِ وإعدادِ القوةِ الحربيةِ.

٧- إذا مالَ أعداؤنا إلى الصلح وطلبوه فلا حَرَجَ علينا في قبولِ الصلح والمسالمة، ولكن يُحْظَرُ علينا أنْ نبدأ عدونا بطلب الصلح.

٨- لا يمنعُنا خوفنا من نقض الكفارِ عهودهم من إجراءِ الصلح، وعلينا أنْ نثق بوعد الله تعالى وتأييدِه لنا.

٩- امتنَّ اللهُ -تعالى- على رسولِهِ ﷺ بجمعِ قلوبِ المؤمنين على الإيمان، ولو أنْفَق الرسولُ ﷺ كلَّ الأموال ليؤلف بين قلوبِ المؤمنين ما استطاعَ التأليفَ بينهم.

النص القرآني التاسع من سورة الأنفال
الرسولُ ﷺ وأصحابُه جيلٌ فريدٌ من الناس

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يرتقي وأصحابُه في مدارجِ الكمالِ الإيماني، وأعلمه أنَّه كافيه وكافي أصحابَهُ، وأمره أن يحرِّضَ المؤمنين على القتالِ، وأخبره أنَّ المؤمنين نوعٌ فاضلٌ من الرجال، فالثُّلةُ مِنَ المؤمنين تقومُ لعشرِ أمثالها من الكفار، ثم خفَّفَ اللهُ عنهم، فجعل الثلَّةَ تقومُ لمثليها.

ولامَ ربُّ العزة المؤمنين على أخذهم الفديةَ من الأسرى، وكان الأحرى بهم أنْ يقتلوهم، خاصة وأنَّ هذه المعركة هي أوَّلُ معركةٍ كبيرةٍ يخوضُها الصحابةُ، وأعلم اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّه أحَلَّ لهم الغنائم، وأحلَّ لهم ما أخذوه من فداءِ الأسرى، ووعَدَ الأسرى الذينَ أُخِذَ منهم الفداءُ أن يؤتيهم خيراً مما أُخِذَ منهم، إنْ أنابوا واستقاموا، فإنْ عادوا إلى كفرهم وشركهم، فهو قادرٌ على أنْ يمكِّن الصحابةَ منهم، فيأخذونَهُمْ مرةً أُخرى قتلاً وأسراً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٤-٧١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ -تعالى- كافي عبدَهُ ورسولَه محمداً ﷺ وكافي أتباعَهُ:

نادى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ معلماً إياه أنه حسبُهُ، وحسبُ مَنْ معه مِنَ المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٤] أي: كافيك ربُّك وكافي

أتباعَكَ مِنَ المؤمنين، فمِنْ خصائصِ ربِّ العزة أنه كافي المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ [التوبة:٥٩] وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٣]، وقال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة:١٢٩].

٢- أَمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ أنْ يحرِّضَ المؤمنين على قتالِ أعدائهم:

أمر اللهُ -تعالى- رَسوله أنْ يحرض المؤمنين على قتالِ أعدائهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ [الأنفال:٦٥]. والتحريضُ: حضُّ المؤمنين على القتال، وحثهم عليه.

٣- أوجب اللهُ تعالى على المقاتلين من المؤمنين أن يثبت العشرون لقتالِ المئتين ثم خففَ الله تعالى عنهم:

أَوْجَبَ اللهُ تعالى على المؤمنين في أول الأمْرِ أن يثبتَ العشرونَ لقتالِ المئتين وإن يكن منهم مئةٌ يغلبوا ألفاً، ثم خفَّفَ اللهُ عنهم ذلك، فأوجب أن يثبتَ المئةُ للمئتين مِنْ أعدائهم، ويقاتل الألفُ منهم الألفين مِنَ الكفار، قال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنفال:٦٥-٦٦].

وقد وصف اللهُ المقاتلين في الحالةِ الأولى والحالة الثانية بالصبر ﴿ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ ﴾، ﴿مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ ﴾، وقال في ختام الآية الثانية: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ فالمؤمنون الذين يثبتون لعدوِّهم، ويهزمونهم هم الصابرون.

وبيَّنَ اللهُ تعالى السببَ الذي أدَّى إلى غلبةِ العشرينِ الصابرينَ المئتين من المشركين بقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ومعنى: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ أي: لا يفهمون عن الله مرادَهُ، فالمؤمنون كانوا شجعاناً صابرين، يعْلَمونَ أنَّهم يقاتلون في سبيل الله تعالى، وأنَّ مصيرهم جناتٌ تجري مِنْ تحتها الأنهار، أما الكفارُ فلا يفقهون شيئاً من ذلك، ولا يوجد عندهم ما يثبتهم على القتالِ في ميدانِ القتالِ. ولما كثُر المسلمون وانتشر الإسلامُ عَلِمَ اللهُ أنَّ المسلمين فيهم ضعف، فأوجب عليهم أن يصبروا في ميدانِ القتال لمثليهم.

وأورد البخاريُّ في صحيحهِ في تفسير هذه الآية عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لما نَزَلَت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ ، فكُتِبَ عليهم أنْ لا يَفِرَّ واحدٌ من عَشَرةٍ، فقال سفيانُ غيرَ مرّةٍ: أنْ لا يَفِرَّ عشرونَ من مئتين، ثم نزلت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية [الأنفال:٦٦]، فكَتَبَ أنْ لا يَفِرَّ مئةٌ من مئتين.

وزادَ سفيانُ مرّةً: نَزَلَت: ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ قال سفيانُ: وقال ابنُ شبْرُمةَ: وأُرَى الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكَرِ مثلَ هذا [البخاري: ٤٦٥٢].

وعن عِكْرمةَ، عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قال: لَّما نَزَلَت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٥] شَقَّ ذلكَ على المسلمينَ، حينَ فُرِضَ عليهم أنْ لا يَفِرَّ واحدٌ من عَشَرةٍ، فجاءَ التخفيفُ، فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ قال: فلما خَفَّفَ الله عنهم من العِدَّةِ نَقَصَ من الصَّبْرِ بقَدْرِ ما خُفِّفَ عنهم [البخاري: ٤٦٥٣].

٤- معاتبة الله -تعالى- نبيّه وأصحابَهُ في عَدَمِ قتلهم الأسرى:

عاتب اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ وأصحابَه في عدم قتلهم الأسْرَى، فالواجبُ على الرسولِ ﷺ أنْ لا يكونَ له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض، ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال:٦٧-٦٨].

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بالقاعدةِ التي كان يجبُ عليهم اتِّباعُها في حربِهم وقتالهم، فكان الواجبُ أن لا يكون للرسولِ ﷺ أسرى حتى يثخنَ في الأرضِ، والإثخانِ في الأرضِ يكون بالمبالغةِ في قتلِ أعدائِهم، وقد استشارَ الرسولُ ﷺ أصحابَه في أسرى بدر، فأشارَ عليه بعضُهم بقتلهم، وأشار عليهم آخرون باستبقائهم، فأمر بأخذ الدية منهم، روى مسلم في صحيحه، قال: قال أبو زُمَيْلٍ، قال ابنُ عباسٍ: فلما أَسَرُوا الأُسارى [أي: في بدر] قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ وعُمَرَ: «ما تَرَوْن في هؤلاءِ الأُسارى؟» فقال أبو بكرٍ: يا نبيَّ الله! هم بنو العَمِّ والعشيرةِ، أرى أنْ تأْخُذَ منهُمْ فِدْيَةً، فتكونُ لنا قوةً على الكفارِ، فعَسَى اللهُ أنْ يهديَهُمْ للإسلامِ.

فقال رسولُ الله ﷺ : «ما ترى؟ يا ابنَ الخطابِ؟» قلتُ: لا، واللهِ! يا رسولَ الله! ما أرى الذي رأى أبو بكرٍ، ولكني أرى أنْ تُمَكِّنَّا فنضربَ أعْناقَهُمْ، فتُمكِنَ عَلِيّاً من عقيلٍ،

فيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وتُمكِّني من فُلانٍ (نسيباً لعُمَرَ) فأضربَ عُنُقَهُ فإنَّ هؤلاءِ أئمةُ الكُفْرِ وصناديدُها، فهَوَى رسولُ الله ﷺ ما قالَ أبو بكرٍ، ولم يَهْوَ ما قلتُ.

فلما كان من الغدِ جئتُ فإذا رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ قاعِدَيْنِ يبْكِيانِ، قلتُ: يا رسولَ الله! أخبرْني من أيِّ شيءٍ تبكي أنتَ وصاحِبُكَ؟ فإنْ وَجَدْتُ بكاءً بكيْتُ، وإنْ لم أجِدْ بكاءً تباكَيْتُ لبُكائِكُما، فقالَ رسولُ الله ﷺ : «أبكي للذي عَرَضَ عليَّ أصْحابُكَ من أخْذِهِمُ الفِداءَ، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهُمْ أدْنَى من هذه الشجرة» -شجرةٍ قريبةٍ من نبيّ الله ﷺ- وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال:٦٧-٦٩] فأحلَّ اللهُ الغنيمةَ لهم [مسلم: ١٧٦٣].

وقوله تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: حطامَ الدنيا الزائلِ الفاني، سماهُ عَرَضاً، لأنه عارضٌ يَعْرُوه الزوالُ ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أي: يريدُ الدارَ الآخرة، ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ أي: عليم بنياتِكُمْ وأقوالِكُمْ وأفعالِكُمْ، وهو حكيمٌ -سبحانه- في كلِّ ما شرعه.

وقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ أي: لهم بالمغفرة، والمرادُ بالكتابِ، أي: اللوحُ المحفوظُ، ففيه أنَّ المغانمَ والأسرى حلالٌ لكم ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ ﴾ من الأسرى ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ وفي الحديث الذي أوردْتُهُ قبل قليلٍ أخْبرَ الرسولُ ﷺ أنه عُرِضَ عليه عذابُهم أدنى من شجرةٍ كانت بجانبه.

وقوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال:٦٩]، أحلَّ اللهُ تعالى الغنائم للمجاهدين من هذه الأمّةِ، على النحو الذي بيَّنه فيما سَبَقَ، حيث جعل أربعةَ أخماسٍ للمجاهدين، وجعل خُمُساً لله وللرسولِ ولذي القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ، وقد كانت الغنائمُ لا تحلُّ لمَنْ سبق مِنَ الأمم الماضية، وفي الحديثِ الذي في البخاري ومسلم عن جابرِ بن عبدالله أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحدٌ قبلي» وواحدةٌ منهنَّ قال فيها «وأُحلتْ لي الغنائمُ ولم تحلّ لأحدٍ قبلي» [البخاري: ٣٣٥. ومسلم: ٥٢١].

٥- وَعَدَ اللهُ -تعالى- أسْرى بدر أن يُؤْتِهم خيراً مما أُخَذَ منهم:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقولَ لمن في أيديهم مِنْ أسرى بدرٍ: إنَّه إنْ يعلمِ اللهُ في قلوبِهِمْ خيراً يُؤْتِهم خيراً مما أُخِذَ منهم مِنَ الفديةِ، ويغفرْ لهم ذنوبَهُمْ والله غفورٌ رحيم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنفال:٧٠].

وقد عَرَضَ الأنصارُ على الرسول ﷺ أنْ يتركوا للعباسِ فداءَه، فأبى، فعن أنسٍ ؓ أنَّ رِجالاً من الأنصار استأْذنوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: ائْذنْ لنا فلْنَتْرُكْ لابنِ أُخْتِنا عباسٍ فداءَه، فقال: «لا تَدَعُون منه دِرْهماً» [البخاري: ٢٥٣٧].

فلما جاءَتْ الرسولُ ﷺ الغنائمُ بعد ذلك أعطى منها العباسَ، ففي صحيح البخاريِّ عن أنسٍ: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بمالٍ من البحرينِ فقال: «انثُروه في المسجدِ». فكان أكثرَ مالٍ أُتِيَ به رسولُ الله ﷺ، إذْ جاءَه العبَّاسُ فقال: يا رسولَ الله، أعطِني، إنّي فادَيتُ نفسي وفاديتُ عَقيلاً، قال: «خُذْ» فحَثا في ثوبِه، ثمَّ ذهبَ يُقِلُّه فلم يَستَطِعْ، فقال: اؤمُرْ بعضَهم يَرْفَعْه إليَّ، قال: «لا» قال: فارفَعْه أنتَ عليَّ، قال: «لا» فنثَرَ منه، ثمَّ ذهبَ يُقِلُّه فلم يَرْفَعْه، فقال: اؤمُرْ بعضَهم يَرْفَعْه عليَّ، قال: «لا» قال: فارفَعْه أنتَ عليَّ، قال: «لا» فنثَرَ، ثم احتَمَلَه على كاهِله، ثم انطَلَقَ، فما زالَ يُتْبِعُه بَصَرَه، حتى خَفِيَ علينا، عَجَباً من حِرْصِه، فما قامَ رسولُ الله ﷺ وثَمَّ منها دِرْهَمٌ [البخاري: ٣١٦٥، تعليقاً، ووصله البيهقي في السنن الكبرى: ٦/ ٣٥٦].

وأورد ابن كثير في تفسيره [٣/٣٣٨] قال: قالَ يونسُ بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان، عن عروة - وعن الزهري، عن جماعة -سمَّاهم- قالوا: بعثتْ قريشٌ إلى رسول الله ﷺ في فداءِ أسراهم، ففدى كلُّ قوم أسيرهم بما رَضُوا، وقال العباسُ: يا رسولَ الله، قد كنتُ مسلماً! فقال رسول الله ﷺ: الله أعلمُ بإسلامِك، فإن يكن كما تقول فإنَّ الله يجزيك، وأما ظاهرُكَ فقد كان علينا، فافتدِ نَفْسَكَ وابنَيْ أخيك: نوفلَ بنَ الحارث بن عبدالمطلب، وعَقيلَ بنَ أبي طالب بن عبدالمطلب، وحليفَكَ عتبةَ بن عمرو أخي بني الحارث ابن فهر. قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: فأينَ المالُ الذي دفنته أنت وأمُّ الفضل، فقلت لها: إنْ أُصِبْتُ في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنتُه لبَنيَّ: الفضلِ، وعبدِالله، وقُثَم؟ قال: والله يا رسولَ الله، إني لأعلم أنَّك رسولُ الله، إنَّ هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغيرُ أم الفضل، فاحْسِبْ لي يا رسول الله ما أَصبتُم مني، عشرينَ أُوقيةً من مالٍ كان معي؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيءٌ أعطانا الله تعالى منك»، ففدى نفسه وابنيْ أخويه وحليفَه، وأنزل الله عزَّ وجلَّ فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال:٧٠]، قال العباس: فأعطاني اللهُ مكان العشرينَ الأوقيةَ في الإسلام عشرين عبداً، كلُّهم في يدِهِ مالٌ يَضْرِبُ به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل [قال محقق ابن كثير: أخرجه البيهقي في (الدلائل) ٣/ ١٤٢-١٤٣ من طريق يونس بن بكير به. ويشهد له ما أخرجه الحاكم ٣/ ٣٢٤ والبيهقي في (السنن) ٦/ ٣٢٢ من حديث عائشة، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي].

وقال ابن كثير [٣/٣٣٩]: «قال علي بن أبي طلحة، عن ابنِ عباس في هذه الآية: كان العباسُ أُسر يومَ بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقيةً من ذهب، فقال العباسُ حين قرئت هذه الآية: لقد أعطانا الله عزَّ وجلَّ خَصلتين، ما أحبُّ أنَّ لي بهما الدنيا: إني أسرت يومَ بدرٍ ففديتُ نفسي بأربعينَ أوقية، فآتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه».

وقوْلُهُ تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنفال:٧١]، أي: وإن يُرِدْ هؤلاءِ الأسرى الذين أسرهم الصحابةُ في بدرٍ خيانتكَ بالكلامِ الذي قالوه خيانةَ الله ورسولِهِ فإنَّهم خانوا اللهَ قبل بدرٍ بكفرِهم وشركهم بالله تعالى، فأمكنَ منهم رسولَهُ ﷺ وصحابتَه، فقهروهُم وأسروهم، وهو سبحانَه قادرٌ أنْ يفعل بهم ذلكَ مرةً أخرى إذا عادوا إلى خيانةِ الله ورسولِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ أي: أنه سبحانه عليم بكلِّ شيءٍ، لا تخفى عليه خافيةٌ في السماءِ ولا في الأرض، وهو سبحانه وتعالى ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في أقوالِهِ وأفعالِهِ وتشريعاتِهِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- على الرسولِ ﷺ والذين معه أن يتوكلوا على الله وحدَه، فإنه كافي رسولَه وكافي من آمن معه.

٢- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يحثَّ المؤمنين على القتالِ، ويُحرِّضَهم عليه، وقد كان العلماءُ والدعاةُ والمجاهدون يفعلونَ ذلك، وخاصةً إذا حَضَرَ القتالُ.

٣- أوجَبَ اللهُ تعالى على المجاهدين أنْ يثبت العشرون لقتال المئتين، والمائةُ لألفٍ، ثم خفف الله عنهم فأوجب أن يثبت المئة للمئتين.

٤- عاتبَ اللهُ الرسولَ ﷺ وأصحابه في أخذهم الفديةَ مِنْ أسرى بدرٍ، فكان الواجبُ أنْ يقتلوا جميعاً كي تَضْعُفَ شوكةُ الكفارِ، ثم أباح الله تعالى لهم الغنائم وما أخذوه مِنْ فديةِ الأسرى.

٥- وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنين من الأسرى إنْ علمَ في قلوبهم خيراً أنْ يؤتيهم خيراً مما أُخِذَ منهم، وإنْ رجعوا إلى الكفر، فإنَّ اللهَ قادرٌ على قهرِهِمْ وإذلالهم، وإقدارِ المسلمين على قَتْلِهِم وأسرِهِمْ.

النص القرآني العاشر من سورة الأنفال
المهاجرون والأنصار بعضُهُم أولياءُ بعضٍ والكفارُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآيات العلاقةَ التي تحكم المؤمنين فيما بينهم، فالمهاجرونَ والأنصارُ وَحْدةٌ واحدةٌ بعضُهم أولياءُ بعضٍ، والذين آمنوا ولم يهاجروا لا يدْخُلونَ في ولايةِ المهاجرين والأنصار، وإنْ استنصروا المؤمنين في المدينةِ، فيجبُ عليهم نَصْرُهم إلا إذا كان بين المؤمنين وعدوِّهم عهدٌ وميثاقٌ.

وبيَّن أنَّ الكفار بعضُهُم أولياءُ بعضٍ في مواجهة المؤمنين، والذين دَخَلوا في الإيمانِ وهاجروا إلى المدينة بعد نزولِ هذه الآية إلى فتح مكة يدخلون في المهاجرين والأنصارِ، ونسخ اللهُ تعالى التوارث بالأُخُوَّةِ التي أجراها الرسولُ ﷺ بينَ المهاجرينَ والأنصارِ، وأصبحَ التوارثُ بين الأقارب على النحو الذي فصَّله اللهُ في سورةِ النساء.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المهاجرونَ والأنصارُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ:

امتدحَ اللهُ صحابةَ رسُوله وأثنى عليهم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ [الأنفال:٧٢].

وقد كان صحابةُ رسولِ الله تعالى قسمين: الأول: المهاجرون، خرجوا مِنْ ديارهم وأموالهم، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والثاني: الأنصارُ، وهم المؤمنون من أهلِ المدينةِ، آوَوْا إخوانَهُمْ المهاجرينَ في منازِلِهِمْ، وواسوهم بأموالهم، ونَصَروا اللهَ ورسولَهُ ﷺ.

وهذان الفريقانِ الصالحانِ الخيّرانِ شكّلا فريقاً واحداً، فكانوا هم المؤمنين المسلمين، وتولّى كلُّ فريقٍ منهم الآخرَ ﴿أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. وقد روى جريرُ بن عبدالله البَجَليُّ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المهاجرونَ والأنصارُ بعضُهُمْ أولياءُ لبعضٍ، والطُّلَقاءُ من قُريشٍ، والعُتَقاءُ من ثَقيفٍ بعضُهُمْ أولياء بعضٍ إلى يومِ القيامةِ» [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٣٤١) جيد أخرجه أحمد (٣/ ٣٦٣)، والطبرانيُّ (٢٢٨٤، ٢٣٠٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥): رواه أحمد والطبراني بأسانيد، وأحد أسانيد الطبرانيِّ رجاله رجال الصحيح].

وقد أثنى الله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة:١١٧]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٨-٩].

٢- الذين آمنوا ولم يهاجروا ليس للمؤمنين في المدينة من ولايتهم من شيء:

بيَّن اللهُ -تعالى- أنَّ الذين آمنوا ولم يهاجروا من قُراهم وبواديهم فليس للمؤمنين في المدينة من وَلايتهم من شيء ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)﴾ [الأنفال:٧٢].

بيَّن اللهُ تعالى أنَّ الذين آمنوا ومَكَثُوا في ديارِهم ولم يهاجروا فهؤلاءِ لا يدخلون في ولايةِ المؤمنين في المدينةِ، ولا يرثونَ إخوانَهم من الأنصارِ، وليس لهم نصيبٌ في الفيءِ والغنيمةِ، وقد كان الرسولُ ﷺ يقولُ لأمراءِ السرايا الذين يُرْسِلُهُمْ في الحربِ والقتالِ: «ثمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلامِ، فإنْ أجابُوكَ فاقْبَلْ مِنْهُمْ وكُفَّ عَنْهُمْ، ثمَّ ادْعُهُمْ إلى التَّحَوُّلِ مِنْ

دارِهم إلى دارِ المهاجرينَ، وأخْبرْهُم أَنَّهم إنْ فعلوا ذلك، فلَهُمْ ما للمهاجرينَ، وعليهمْ ما على المهاجرينَ، فإنْ أبَوْا أن يتحوَّلوا منها، فأخْبِرْهُمْ أنَّهم يكونون كأعرابِ المسلمين، يجري عليهم حُكْمُ الذي يجري على المؤمنين ولا يكونُ لهم في الغنيمةِ والفيءِ شيءٌ، إلا أن يجاهدُوا مع المسلمين» [مسلم: ١٧٣١].

وقد قَضَى ربُّ العزة أنَّه إذا استنصر هؤلاءِ الذين لم يهاجروا إخوانهم من أهلِ المدينةِ، فعليهم نصرُهُم، إلا إذا كان مقاتلوهم قوماً بينهم وبين المؤمنين ميثاقٌ، والميثاقُ العهدُ الموثَّقُ، ففي هذه الحالِ لا يجبُ عليهم نصرُهم، واللهُ بصيرٌ بجميع أعمالنا ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ .

٣- الكفارُ بعضُهم أولياء بعضٍ

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال:٧٣].

لما ذكر ربُّ العزة أنَّ المؤمنين بعضُهم أولياءُ بعضٍ، قَطَعَ الموالاةَ بين المؤمنين والكفارِ، وأعلمنا أنَّ الكفارَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، تقعُ بين المؤمنين فتنةٌ، وهو التباسُ الأمرِ واختلاطُ المؤمنِ بالكافرِ، فيقعُ بين الناسِ فسادٌ منتشر طويل عريض.

ومن ولاية المهاجرين والأنصارِ بعضُهم لبعضٍ أن لا يرثَ المسلمُ الكافرَ، ولا الكافرُ المسلمَ، فعن أُسامةَ عن النبيِّ ﷺ: «لا يتوارَثُ أهْلُ مِلَّتَيْنِ، ولا يَرِثُ مُسْلمٌ كافِراً، ولا كافِرٌ مُسْلِماً» ثم قرأ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال:٧٣] [قال محقق ابن كثير (٣/ ٣٤٢): جيدٌ، أخرجه الحاكم (٢/ ٢٤٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وهو حسن الإسناد].

وعن أسامة بنُ زيد، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لا يرثُ المسلمُ الكافرَ، ولا الكافرُ المسلمَ» [البخاري: ٦٧٦٤. ومسلم: ١٦١٤].

٤- المهاجرونَ والأنصارُ هُمُ المؤمنونَ حقّاً لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ:

ذكر اللهُ تعالى فيما سبق أنَّ المهاجرين والأنصارَ ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾ وأخبر أنَّه سيصفح عن ذنوبهم ويرزقُهُم الرزقَ الكريمَ في الآخرةِ في جناتِ النعيم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

[الأنفال:٧٤] وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠].

٥- الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا إلى فتح مكة تَبَعٌ للمهاجرين والأنصار:

بيَّنَ الله تعالى حكمَ الذين دخلوا في الإسلام وهاجروا إلى المدينة بعد نزول هذه الآية وجاهدوا مع الصحابةِ، فأولئك مع الصحابة إلى فتح مكة، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا هِجْرَةَ بعدِ الفتحِ ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا اسْتُنْفِرْتُم فانْفِرُوا» [البخاري: ٢٧٨٣. ومسلم: ١٣٥٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال:٧٥]. المرادُ بأُولي الأرحام هنا جميعُ القرابات، وهذه الآيةُ نَسَخَتِ الموارثة التي كانت تقعُ بين المهاجرينَ والأنصارِ بالأُخوَّة التي عقدها الرسول ﷺ بينهم، فبيَّنَ اللهُ -تعالى- في هذه الآيةِ أنَّ أصحابَ القراباتِ بعضُهُم أولى ببعضٍ في الميراث. وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: حكم الله تعالى، وقد بيَّن اللهُ تعالى في سورة النساء أحكام الميراثِ، وقال الرسولُ ﷺ: «إنَّ اللهَ قد أعْطَى كلَّ ذي حقٍّ حَقَّه، فلا وصيَّةَ لوارث» [حديث صحيح رواه أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (٢١٢٠)، وابن ماجه (٢٧١٣) وغيرهم].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

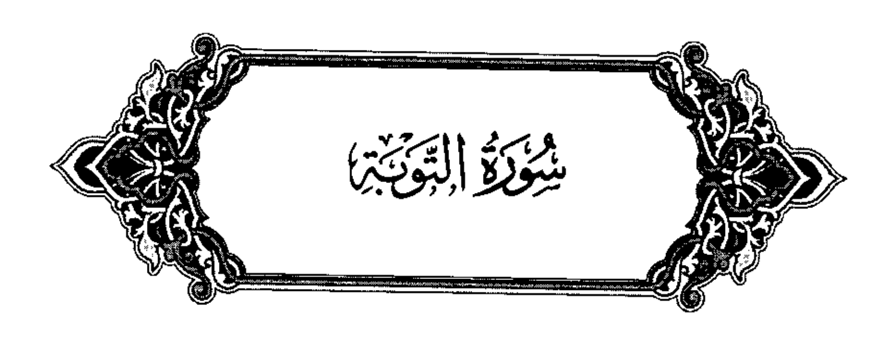
١- المهاجرون والأنصارُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ، وهم يُشَكِّلُونَ وَحْدةً واحدةً قائمةً على الإيمان.

٢- الذين آمنوا ولم يهاجروا قبلَ فتح مكةَ ليس لهم ولايةُ المؤمنين حتى يهاجروا، وإن استنصروا بالمؤمنين في المدينة فعليهم النصرُ إلا إذا كان بين المؤمنين وبين عدوِّهم ميثاقٌ.

٣- الكفارُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ في مواجهةِ المؤمنين، ولا يجوزُ للمؤمنين موالاةُ الكافرين.

٤- الذين دخلوا في الإسلامِ إلى فتح مكة هم مع المؤمنين المهاجرين المجاهدين.

٥- نسختْ الآيةُ الأخيرةُ من هذا النصِّ توارثَ المهاجرين والأنصارِ بالأُخوَّةِ التي عقدَها الرسولُ ﷺ بينهم، وأصبحَ الميراثُ قصراً على الأقارب فيما بينهم، على الطريقةِ التي بيَّنَها ربُّ العزَّة في سورةِ النساءِ.



قال أبو عمرٍو الدانيُّ: «سورة التوبة مدنية، ولا نظير لها في عددها».

أخبرنا خلف بن إبراهيم، قال: «أنبأنا أحمد بن محمد، قال: أنبأنا علي بن عبدالعزيز، قال: أنبأنا القاسم بن سلاَّم، قال: أنبأنا هُشَيْمٌ، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالتْ تَنْزِلُ، ومِنْهم ومِنْهم حتى ظنُّوا أنها لن تُبْقِي أحداً منهم إلا ذُكِرَ فيها» [البخاري: ٤٨٨٢، ومسلم: ٣٠٣١، وقد صححت لفظ الحديث على النحو الذي أورده البخاري].

أخبرنا فارس بن أحمد، قال: «أنبأنا أحمد بن محمد، قال: أنبأنا أحمد بن عثمان، قال: أنبأنا الفضل بن شاذان، أنبأنا نوح بن أنس، أنبأنا جرير، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن عبدالله بن سلمة، عن حذيفة، قال: إنكم تُسَمُّون هذه السورة سورة التوبة، وإنما سورةُ العذابِ، والله ما تركت أحداً إلاَّ نالت منه» [عزاه محقق (البيان في عدّ آي القرآن) إلى الحاكم في المستدرك، (٢/ ٣٣٠) وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: صحيح]، وأهل المدينة يسمونها التوبة، وأهل مكة الفاضحة.

وكَلِمُها ألفان وأربعمائة وسبع وتسعون كلمة، وحروفها عشرة آلاف وثماني مائة وسبعة وثمانون حرفاً، وهي مئة وتسع وعشرون آية في الكوفي، وثلاثون في عدد الباقين.

وهذه السورة آخرُ سورة نزلتْ كاملةً من القرآن الكريم، عن البراء ﷺ قال: «آخرُ سورةٍ نزلت كاملةً براءة» [البخاري: ٤٣٦٤. ومسلم: ١٦١٨].

النص القرآني الأول من سورة التوبة
براءة الله ورسوله ﷺ من المشركين

أولاً: تقديم

هذه الآيات تتحدثُ عن فترةٍ زمنيةٍ ارتفع فيها منارُ المسلمين، وذلَّ المشركون في الجزيرة العربية، وفي هذه الفترة أعْلَن اللهُ تعالى للمشركين عن براءَتِهِ منهم، وأعطاهم عدَّةَ أشهرٍ ليقوِّموا أوضاعهم، ويصْلِحُوا أُمورهم، فإنْ انقضت المدةُ التي أعطاهم اللهُ تعالى إياها، وبَقُوْا على كفرهم، فقد أذن اللهُ تعالى للمؤمنين بقتلهم وأسْرِهِم، والترصد لهم في طرقاتِهم، فإن تابوا عن كفرهم واستقاموا على الإيمان، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاةَ، فأمر الحقُّ سبحانه بعدم ملاحقتهم وإعطائِهم الأمان، وأمر الله المسلمين أن يجيروا مَنْ طلب الإجارةَ مِنَ الكفار حتى يسمع كلامَ الله تعالى، فإنْ آمن، وإلا وجب على المسلمين أن يُبْلِغُوهُ مأْمنه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًۭٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًۭا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۢ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌۭ رَّحِيمٌۭ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌۭ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌۭ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: ١-٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لم تُكْتَبُ (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول هذه السورة:

هذه السورةُ الوحيدةُ في القرآنِ الكريمِ كلِّه التي لم يُكْتَب في أوَّلها (بسم الله الرحمن الرحيم)، ولعلَّ السببَ في أنها نزلتْ مِنَ السماءِ مِنَ غير بسملة، ما قاله بعضُ العلماءِ: البسملةُ رحمةٌ وأمانٌ، وبراءَةٌ نزلتْ بالسيفِ والقتالِ ونقضِ العهودِ، فلذا لم تكتب فيها (بسم الله الرحم الرحيم) [العذب النمير: ٥/ ٢٤٢].

وقد روى الترمذيُّ الحديث (٣٠٨٦) وقال فيه: «حسن صحيح» بَيَّنَ فيه عثمانُ بنُ عفان أنَّ السببَ في عدم كتابةِ البسملةِ في أوّل سورة التوبةِ، ظنُّ بعضِ الصحابة أنَّ سورة الأنفالِ وسورة براءة سورةٌ واحدةٌ، وظنَّ آخرون أنَّهما سورتانِ، فجعلوهما متواليتين، وجعلوا بينهما سطراً من غير بسملةٍ، وهذا الحديثُ ضعيفٌ، وانظرْ تخريجه في مسند أحمد حديث رقم (٣٩٩) إسناده ضعيف ومتنه منكر، وفيه تمام تخريجه وتنقيده، وانظر ما قاله فيه محقق ابن كثير: (٣/ ٣٤٧).

٢- براءةُ الله تعالى ورسولهِ ﷺ مِنْ عهودِ المشركين:

أَوَّلُ هذه السورةِ فيها براءَةٌ مِنَ الله تعالى ومِنَ رسولِهِ ﷺ إلى الذين عاهدوهم مِنَ المشركين ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١﴾ [التوبة:١].

أيْ: هذه براءَةٌ من الله ومن رسوله إلى الذين عاهدتم مِنْ المشركين. وأعْطى اللهُ تعالى المشركين أماناً مُدَّتُه أربعةُ أشهر، ثم ينقضي الأجلُ الذي أعطاه الله إياهم، وسيحارِبُهم المؤمنون بعد ذلك ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ٢﴾ [التوبة:٢].

وقد أعطى اللهُ المشركين أربعةَ أشهرٍ، لا فرقَ في ذلك بين مَنْ لا عهد له، أو لَهُ عهد مُدَّتُه أربعةُ أشهرٍ أو أقلَّ، أو له عهد مطلق لم يقيد بزمنٍ مُعيَّنٍ، فهؤلاء جميعاً أعطاهم اللهُ تعالى مدةَ أربعةِ أشهرٍ.

أما الذي له عَهْدٌ فوق ذلك، ولم يكن نقضَ عهده، فعهدُه إلى مُدَّتِهِ كما سيأتي بيانه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ٢﴾ [التوبة:٢] أي: اعلموا أنَّ إمهالَ الله تعالى للمشركين هذه الأشهر الأربعة ليس لعجزٍ، فاللهُ على كلِّ شيء قديرٍ، وإنما ذلك ليتوبَ الله تعالى على مَنْ تابَ في هذه المدةِ التي حدَّدها ربُّ العزةِ، والله تعالى سيخزي الكافرينَ ويذلُّهم بالقتلِ والأَسْر في الدنيا، وبالعذابِ في الآخرة.

٣- أعلم اللهُ -تعالى- الناسَ يومَ الحجِّ الأكبرِ ببراءَتِهِ ورسولهِ مِنَ المشركينَ:

أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يعلن للناسِ في يومِ الحجِّ الأكبرِ مِنْ سنةِ تِسْعٍ أنَّ اللهَ بريءٌ مِنَ المشركين، ورسولُه بريء منهم كذلك، قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:٣].

وقد أرسل الرسولُ ﷺ مَعَ أبي بكر من يُؤَذِّنُونَ في الناس في يومِ الحجِّ الأكبرِ مِنْ سنةَ تسعٍ بأنَّ لاَّ يحجَّ بعد العامِ مشركٌ، ولا يطوف بالبيتِ عُرْيان.

ثم أردفَ الرسولُ ﷺ أبا بكر بعليِّ بن أبي طالبٍ ليؤذِّنَ في الحجِّ بأوَّلِ براءة.

روى أبو هريرةِ ﷺ قال: «بَعَثني أبو بكرٍ في تلكَ الحجةِ في مُؤَذِّنينَ يومَ النَّحْرِ نُؤَذِّنُ بمِنىً: ألا لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مشركٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُرْيانٌ».

قال حُمَيدُ بنُ عبدالرحمن: ثم أردفَ رسولُ الله ﷺ علياً فأمَرَه أنْ يُؤَذِّنَ بـ «براءةٌ» قال أبو هريرةَ: فأذَّنَ معَنا عليٌّ في أهل مِنىً يومَ النَّحرِ: «لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشْرِكٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُرْيانٌ» [البخاري: ٣٦٩. ومسلم: ١٣٤٧. ولم يذكر مسلم إرداف عليٍّ].

ويوم الحجِّ الأكبر هو يومُ النحرِ، ففي الحديث عن أبي هريرة قال: بَعَثَني أبو بكرٍ ﷺ فيمَن يُؤَذِّنُ يومَ النَّحْرِ بمِنىً: «لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشْرِكٌ، ولا يطَوفُ بالبيتِ عُرْيانٌ» ويومُ الحجِّ الأكبرِ يومُ النَّحْرِ، وإنما قيلَ: الأكبَرُ من أجْلِ قول الناس: الحجُّ الأصغَرُ، فنبَذَ أبو بكرٍ إلى الناس في ذلك العامِ، فلم يَحُجَّ عامَ حَجّةِ الوَداع الذي حَجَّ فيه النبيُّ ﷺ مُشْرِكٌ [البخاري: ٣١٧٧].

ويومُ الحجِّ الأكبرِ، يومُ النحرِ، والحجُّ الأصغرُ العمرةُ لنقصانِ أعمالها عن أعمال الحج.

وعن ابن عمر قال: وقفَ رسول الله ﷺ يومَ النَّحْرِ عندَ الجمراتِ في حجَّةِ الوداعِ، فقال: «هذا يومُ الحجِّ الأكْبرِ» [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٣٥٣): صحيح، وعزاه لأبي داود (١٩٤٥) والطبري (١٦٤٤٧) وابن ماجه (٣٠٥٨) وعلَّقَهُ البخاريُّ (١٧٤٢) وانظر صحيح أبي داود (١٧١٤)].

وعن مُرَّةَ الهمذانيِّ، عن رجلٍ من أصحابِ النبيِّ ﷺ قال: «قامَ فينا رسولُ الله ﷺ على ناقةٍ حمراءَ مُخَضْرَمَةٍ، فقال: أتَدْرُونَ أيُّ يومٍ يَوْمُكُمْ هذا؟» قالوا: يومُ النَّحْرِ. قال: «صَدَقْتمْ، يومُ الحجِّ الأكْبَرِ» [قال محقق ابن كثير (٣/ ٣٥٣): صحيح أخرجه الطبري ورجاله ثقات].

وجمهورُ العلماءِ على أنَّ ابتداءَ تأْجيلِ هذه الأشهر الأربعةِ من يوم النحر، وانقضاؤها في العاشر من ربيع الثاني، لأنَّ هذه الأشهر الأربعة منها عشرون من ذي الحجَّة من يوم الحجِّ الأكبر، ثم منها المحرَّمُ كاملاً، وصفر كاملاً، وربيعُ الأولِ كاملاً، وعشر من ربيعِ الثاني، فتتمُّ الأربعةُ أشهر.

وقد ورَدَ عن عليِّ بن أبي طالب أنَّه بُعِثَ بأربع: «لا يَدْخُلُ الجنّةَ إلا نفسٌ مؤمنة، ولا يطوفُ بالبيتِ عريانٌ، ومَنْ كان بينه وبينَ الرسولِ عَهْدٌ، فعهدُه إلى مُدَّتِهِ، ولا يَجْتَمِعُ المشركون والمسلمونَ بعدَ عامِهِمْ هذا» [قال ابن كثير (٣/ ٣٥٠): رواه الترمذي: ٣٠٩٢، وقال: حسن صحيح].

وقولُه تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة:٣].

يخاطبُ ربُّ العزةِ الكفار، ويقول لهم: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: عما أنتم فيه مِنَ الكفر والشركِ والضلال، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: عند ربّكم، ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن الحقِّ الذي أُنزِلَ إليكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: فإنّكم لا تستطيعون أنْ تغلبوا اللهَ -تبارك وتعالى- فاللهُ قاهرٌ غالبٌ لا يعجزه أحدٌ.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ وأصلُ البشارةِ الإخبارُ بما يسرُّ، ولذا فإنَه أمَر رسولَهُ أن يُبَشِّر الكفار بما يضرُّ، استهزاءً وسخرية بهم، والعذابُ الأليمُ الذي أمَرَ اللهُ رسولَهُ أن يبشرهُم به العذابُ الدنيويُّ الذي سيصيبُهم به، والعذابُ الأُخروي في المحشر والنار.

٤- الذين يجب إتمامُ عهدِهم من المشركين إلى تمام مُدَّتِهِمْ:

أجَّلَ الله -تعالى- المشركين الذين ليس لهم عهد، أو لهم عهدٌ دون الأربعةِ أشهر إلى أربعة أشهر، واستثنى من المشركين الذين لهم عَهْدٌ مع المسلمين زائدٌ على الأربعةِ أشهر، ووفَوْا للمسلمين بعهدِهم، فهؤلاء يجب إتمامُ عهدِهم إلى المدةِ المضروبةِ، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة:٤].

وهؤلاء قبائلُ مِنْ كنانةَ بَقُوا على عهدِهم، ولم ينْكُثوا، فأمَرَ اللهُ تعالى بأنْ يَفُوا بعهدهم حتى تنتهي مُدَّتُهُمْ، وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لم ينقصوكم مالاً ولا نفساً ولا دماً، بل ثَبَتُوا على عهدهم ولم ينقضوا عهودهم، وقوله: ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي: ولم يُعينوا عليكم أحداً كقريش الذين أعانوا بني الدِّيْل بن بكر على خزاعةَ، وقوله: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي: فأكملوا إليهم عهدَهُمْ كاملاً إلى مُدِّتِهِم التي اتفقتم أنتم وهم عليها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ الوفاءَ بالعهودِ وعدمِ النكثِ والنقضِ لها مِنَ تقوى الله تعالى، وأصْلُ التقوى في لغةِ العربِ: أن تتَّخِذَ وقايةً بينك وبينَ ما تكرهُهُ، تقول العربُ: اتقَّيتُ الرمضاءَ بنعلي، واتقيتُ السيفَ بمجني، واتقيتُ المطر بمظلتي، والتقوى في الشَّرع: أن يجعلَ العبدُ المؤمنُ وقايةً بينه وبين عذابِ الله، بامتثالِ أمْرِ الله، واجتنابِ نهيه، والوفاءِ بالعهود مِنَ امتثال أمر الله.

٥- **إذا انسلخ الأشهرُ الحرمُ فيجب على المؤمنين قتلُ المشركين:**

أَمَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بقتلِ المشركينَ إذا انقضتِ الأشهرُ الحرمُ ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة:٥]. وذهب بعضُ العلماءِ إلى أنَّ المراد بالأشهرِ الحرمِ الأشهرُ التي ذكرها الله بقوله في هذه السورة ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة:٣٦] وهذه الأشهرُ أربعةٌ، منها ثلاثة سَرْدٌ هي: ذو القعدةِ، وذو الحجةِ، وشهرُ الله المحرَّم، ومنها واحدٌ فردٌ، وهو رجبُ الذي بين جمادى وشعبان، فتكونُ المدَّةُ إلى انسلاخِ الأشهرِ الحرم خمسون يوماً، منها عشرونَ يوماً تبدأ من يوم الحج الأكبر، ثم شهر الله المحرَّمُ كاملاً.

والصواب من القولِ: أنَّ المرادَ بالأشهر الحرمِ، هي الأشهرُ الأربعةُ التي ذكرها اللهُ تعالى في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وهي التي تبدأ في العاشرِ من ذي الحجَّة عام تسع، وتنقضي بالعشر من ربيع الثاني كما سبق بيانه مِنْ ذلك العام، وسُمِّيتْ هذه الأشهرُ بالحُرُمِ، لأنَّ اللهَ -تعالى- حرَّم فيها القتالَ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ أي: اقتلوا الكفارَ المشركين في أي مكانٍ من أمكنةِ الأرضِ وجدتموهم فيه، وقد خَصَّ من عمومِ المشركينَ صبيانَ المشركينَ ونساءَهم والرهبانَ في الصوامعِ والشيوخَ الفانينَ الذين لا يستطيعون القتالَ ولا رأي لهم فيه، وخصَّ منها أهلَ الكتابِ الذين أدَّوا الجزيةَ.

وقوله تعالى: ﴿ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [التوبة:٥] أي: خذوهم قتلاً وأسراً، ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ ﴾ واقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أي: اقعدوا لهم في كلِّ مكانٍ ترصدونهم وترقبونهم فيه، حتى تأْخذوهم في غِرَّتِهم.

فإنْ تابوا مِنْ كفرهم وشركهم وآمنوا وأسلموا وأقاموا الصلاةَ بالإتيان بها على وجهها في وقتها، وأعْطوا الزكاةَ ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ أي: فاتركوهم، فلا تقعدوا في طريقهم، ولا تتعرَّضوا لهم، ودعوهم يذهبونَ حيث شاؤوا. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمةِ، ومن رحمته ومغفرته الكثيرةِ توبتُه ورحمتُه بالذين تابوا مِنَ الشِّرك، وأقاموا الصلاةَ، وآتوا الزكاة.

٦- إذا طلبَ الكافرُ الأمانَ ليصلَ إلى المؤمنين ويسمعَ كلامَ الله:

بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه إذا انقضتِ العهودُ ومضتِ الشهورُ التي حَدَّدها اللهُ تعالى لأخذ المشركين بعدها، وجاءَ بعضُ المشركين إلى المسلمين يريدُ أن يسمع كلامَ الله، والمرادُ به آياتُ القرآن، فأجره، أي: أعْطِهِ الأمانَ حتى يسمع كلامَ الله، ثم أبلغه مأْمنه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة:٦].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطيُّ رحمه الله تعالى في تفسيرِ هذه الآية الكريمة: «معنى هذه الآية الكريمة بإيضاح: أنَّ بعضَ المشركين إذا أراد أن يسمعَ ما يقوله رسولُ الله ﷺ ليفهم معنى ما ينزل عليه ويعرف الأوامر التي يأْمر بها، والنواهي التي ينهى عنها، والأشياءَ التي يدعو إليها، ليستيقنَ في قرارة نفسه أهو حقٌّ فيتبعه، أو يعلم أنَّه ليس بحق فيصدَّ عنه، وطلب أنْ يجارَ، وأن يُؤَمَّن، وألا يصلَ إليه أذى حتى يسمع القرآن، ويفهم ما أُنزل على النبيِّ؛ ليكونَ على بصيرةٍ مِنْ أمره في الأخْذِ والترك، فإنه يجب أنْ يعطى ذلك الأمانَ حتى يسمع ويُتلى عليه القرآن، ويُفَهَّم بما فيه مِنَ الزواجرِ والمواعظِ، ثم بعد ذلك إن أسلم فبها ونعمت، وإن أصرَّ على كفره وجب أن يُردَّ إلى مأمنه وهو محلُّ دارِهِ التي يأمن فيها، هذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلبك أن تجيره وتؤمنه.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ هو هذا القرآنُ العظيم، وهذه الآية الكريمة مِنْ سورةِ (براءةٌ) نصٌّ صريحٌ في أنَّ هذا الذي نقرؤه ونتلوه هو بعينه كلامُ الله، فالصوتُ صوتُ القارئِ، والكلامُ كلامُ الباريءِ؛ لأنَّ الله صرَّح بأنَّ هذا المشركَ المستجيرَ يسمع كلامَ الله يتلوه عليه نبيُّ الله ﷺ ، فهذا المحفوظ في الصدور، المقروءُ في الألسنة، المكتوبُ في المصاحفِ، هو كلامُ الله (جلَّ وعلا) بمعانيه وألفاظه. ولا شَكَّ أنَّ أصل الكلام صفة الله (جلَّ وعلا)» [العذب النمير: ٥/ ٢٨٠].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أعْلَنَ اللهُ -تعالى- براءَته وبراءَة رسولِهِ ﷺ مِنَ المشركين، وحدَّد للمشركين مدة أربعةِ أشهر يأمنون فيها، ثم أباح للمؤمنين أن يقاتلوهم ويأسروهم.

٢- تبدأ مدةُ الأشهرِ الأربعةِ من يومِ النحر، وهو اليومُ العاشر من شهر ذي الحجة في السنةِ التاسعةِ.

٣- الذين لهم مع المسلمين عَهْدٌ يزيدُ على الأربعة أشهر، ولم ينقضوا عهودَهُم مع المسلمين، فيجبُ على المسلمين أن يَفُوا لهم عهدهم إلى مدَّتهم.

٤- إذا انقضتِ الأشْهر التي منحها الله للكافرين فعلى المسلمين أن يقتلوا المشركينَ حيث وجدوهم، أو يأْسروهم، ويحاصروهم، ويقعدُوا لهم في طرقاتِهم، فإنْ تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتوْا الزكاة، فعلينا أن نتركهم وندعهم.

٥- إذا انقضتْ الأشهرُ التي منحها اللهُ للمشركين، وطلبَ بعضُ المشركين أن يصل إلى المسلمين، ليسمع كلامَ الله تعالى، فعلى المؤمنين أن يؤمنوه حتى يسمع كلامَ الله تعالى، فإنْ لم يُؤْمِنْ أوْصلوه إلى المكان الذي يأمنُ فيه على نفسه.

٦- أمر اللهُ تعالى الصحابةَ بقتالِ المشركين ووعدهم بأنْ يعذِّبهم سبحانَه بأيديهم، ووعدهم بإخزائهم وإذلالهم، ووعدهم بالنَّصرِ عليهم، وشفاءِ صدورهم، وإذهابِ غيظِ قلوبهم، وأخبرهم أنه سيتوب على من يشاء التوبة مِنَ الكافرين.

النص القرآني الثاني من سورة التوبة
الكفارُ قليلو الوفاءِ بعهودهم مع المؤمنين

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في آياتِ هذا النصِّ أنَّ الكفار قليلو الوفاءِ بعهودهم مع المسلمين، وأمرنا أنَّ نفيَ لهم بعهودهم ما وَفَوْا، وأعلمنا عن مدى الحقدِ الذي تخفيه قلوبهم، فهم إن غلبونا لا يرقبون فينا قرابةً ولا حِلْفاً، وهم يرضوننا بمعسولِ القولِ، ولكن قلوبَهم مملوءَةٌ حِقْداً وكراهيةً لنا، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفار اشتروا بآيات القرآن متاعاً قليلاً، وهو متاعُ الدنيا الفاني، وأخبرنا أنَّ الكفارَ إن تابوا عن كفرهم، وأقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ، فهم إخواننا في الدين لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، أما إذا اختاروا الاستمرارَ على الكفر، وطعنوا في ديننا فعلينا أن نقاتل أئمةَ الكفرِ ونؤدِّبهم.

وحَضَّ اللهُ تعالى الصحابةَ حضّاً شديداً على قتالِ الذين نقضوا عهودَهم مِنَ الكفار، فهم همُّوا بإخراج الرسولِ ﷺ من مكَّة، وهم الذين بَدؤُوا المؤمنينَ بالقتالِ في المدينة، ونهى اللهُ صحابةَ رسولِهِ ﷺ عن الخوفِ من المشركين، وأمرهم بخشيةِ ربِّ العالمين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

[التوبة:٧-١٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسولِهِ مع خبثِ ما يبطنونه من العداوة:

أنزل اللهُ تعالى أول هذه السورة ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١﴾ [التوبة:١] فنبذَ العهدَ إلى كلِّ المعاهدين، وأعلمهم بأنَّهم حربٌ بعد مضي أربعة أشهر، واستثنى من ذلك القومَ الذين ثبتوا على عهدهم، ولم ينقضوه، ثم قال تعالى في هذه الآية: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧﴾ [التوبة:٧].

﴿كَيۡفَ﴾ حرف يدلُّ على الاستبعادِ، أي: يُسْتَبْعَدُ جداً أن يكون للمشركين عهدٌ يُحَفَظون به، ويأمنون بِهِ على أنفسهم وأموالهم، مع خبثِ ما يبطنونه من عداوةِ المسلمين. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧﴾ والذين عاهدوا الرسولَ ﷺ في الحديبية ستة هم: قريش، ومعهم أربعُ قبائل من كنانة بن مدركة، ثم نقضَ منهم العهدَ بنو الدِّيْل بن بكر بن عبد مناة بن كنانةَ، فقد عَدَوْا على خُزاعة، ونقضَ معهم العهدَ قريشٌ حيث أعانوهم على الخزاعيين.

وهذه المعاهدةُ وقعَ عهدُها في الحديبيةِ، والحديبيةُ بعضُها في الحرم، وبعضُها في الحلّ، وهذه الآيةُ تدلُّ على أن المعاهدةَ وقعت في الجانب الذي في الحرم، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ .

وقد أمَرَ اللهُ تعالى رَسُولَهُ وأصحابَه أنْ يستقيموا للمشركين إذا استقامَ المشركون لهم، أي: يَفُوا لهم بعهدهم إلى المدة التي عاهدوهم عليها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧﴾ ويدخل في المتقين الذين لا ينقضون العهودَ، ويَفونَ بها، فالوفاءُ بالعهد وعدمُ نقضِهِ من تقوى الله تعالى.

٢- إذا ظهر الكفارُ على المؤمنين فلن يراعوا فيهم عهداً ولا قرابةً:

يقول اللهُ تعالى: كيف يكونُ للكفارِ عند الله وعند رسولِهِ عهد وهم إنْ يظهروا على المؤمنين ويغلبوهم يهينوهم، ولا يرقبون فيهم إلاًّ ولا ذمَّةً ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾ [التوبة:٨].

المعنى: كيف وإن يغلبكم الكفارُ ويقهروكم ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ لا يراعوا فيكم إلاًّ ولا ذمةً، والـ (إلّ) في لغة العرب القرابةُ والعهد، وقد اختار كبيرُ المفسرين أبو جعفر الطبري أنَّ الإلَّ شاملٌ للعهد والقرابةِ، وهذا من حمل المُشْتَرَكِ على معانيه.

ومعنى ﴿يَرْقُبُوا﴾ يحفظوا ويراعوا، ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ العهدُ، وقوله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني: يبذلون لكم الكلامَ الحلوَ باللسانِ دون ما في القلوبِ، فالقلوبُ مليئةٌ بالبغضاءِ وإضمارِ العداوةِ والشحناءِ، وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨﴾ أي: وأكثرهم خارجون عن طاعةِ الله تعالى، وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨﴾، لأنه أرادَ بالفسقِ هنا نقضُ العهد.

٣- اشتراءُ الكفارِ بآيات الله تعالى ثمناً قليلاً:

ذَمَّ اللهُ تعالى المشركين بقوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩﴾ [التوبة:٩]. والاشتراءُ في لغة العرب: استبدالُ شيء بشيء، وتُطلِقُ العربُ الثمنَ على العوضِ كائناً ما كان، وتسميه ثمناً وتطلقه على المبيعِ أيضاً، ومعنى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: استبدلوا بآياتِ الله الشرعيةِ، والمرادُ بها القرآنُ، أي: تركوها، وتعوَّضوا عنها الثمنَ القليلَ، والمرادُ بالثمنِ القليلِ الذي تعوَّضوه عنها متاعُ الحياةِ الدنيا الفاني.

وقوله: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ لأنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، ومن اشترى بآياتِ الله ثمناً قليلاً فهو صادٌّ عن سبيل الله، وسبيلُ الله تعالى طريقُهُ، وهو دين الإسلام، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩﴾ وساءَ بمعنى بِئْس، أي: بئسَ شيءٌ كانوا يعملونه.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾ [التوبة:١٠]، أي: لا يرقبون في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذِمَّةً، والإلّ والذمةُ: العهدُ والقرابةُ، أي: لا يرقبون الله، ولا يخافونَهُ في المؤمنينِ، فيتَّقُونَ الله فيهم.

وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾ المعتدي من العدوانِ، والعدوانُ مجاوزةُ الحدِّ، ومجاوزة ما أحلَّ الله إلى ما حَرَّم.

٤- إذا تابَ الكفارُ من كفرهم فهمْ إخوانُنا وإذا نقضوا عهودهم قاتلناهم وأدبناهم:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ المشركين ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾ [التوبة:١١].

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ المشركين إنْ تابوا عن كفرهم، وأقاموا الصلاةَ، وآتوا الزكاةَ فقد انتقلوا مِنَ الكفر إلى الإيمانِ، وبذلك يصبحون إخواننا في الدينِ، ولهم ما لنا، وعليهم ما علينا، وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: نفصِّل آياتِ القرآنِ، أي: نبيِّنها ونوضحها، ولا نتركها، وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ خصَّ اللهُ الذين يعلمون، لأنَّهم هم المنتفعون بها.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة:١٢]، الأيمانُ: جمع يمين، وهي العهودُ، وقيل: هي الأيمانُ التي تؤكَّد بها العهودُ، فالعربُ إذا أُخذتْ عليهم العهودُ أكَّدوها بالأيمان. والمراد أنَّ الكفارَ إذا نكثوا أيمانهم، وعابوا دينكم ﴿وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ كقولهم: إنَّ الإسلامَ ليسَ بشيءٍ، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ﴾ أي: قاتلوا رؤساءَ الكفرِ وزعماءَه الذين عابوا دينكم، ونقضوا عهودَهُمْ، فالعادةُ أن الذي يتصدَّى لنقضِ العهودِ هم الزعماءُ والرؤساءُ. قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ نفى الأيمانَ عنهم، لأنهم لا يفونَ بها، فوجودُها عندهم كعدَمها، لأنَّهم ينقضونها، فلا يجوزُ لنا أنْ نَغْتَرَّ بهذه الأيمان. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: قاتلوهم، كي يكون قتالكم رادعاً لهم، وسَبَباً لانتهائهم عن نقضِ عهودهم.

وقولُه تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة:١٣]

و﴿ أَلَا﴾ في أول الآية حَرْفُ تَحْضيضٍ، والتحضيضُ معناه الطلبُ بشدة، طلب الله تعالى من المؤمنين بقوةٍ وشدة أنْ يقاتلوا الكفارَ، وهذا القتالُ لَهُ أسبابٌ متنوعةٌ، الأولُ: أنهم نكثوا أيمانهم. والثاني: أنهم همُّوا بإخراج الرسول ﷺ . والثالث: أنهم بدؤوا بالقتال في معركةِ بدرٍ، فالرسولُ ﷺ وأصحابه خرجوا للعير، فلما نجت أصَرَّ الكفارُ على الوصول إلى بدرٍ، فتعزفُ عليهم القيانُ، ويعاقرون الخمرَ، وقال بعضهم: لا نرجعُ حتى نستأصلَ محمداً وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ﴾ أي: أتخافونهم، ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ اللهُ تعالى أحقُّ أن تخافوه وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ المراد بها تهييج المؤمنين على قتالِ الكفارِ.

وأَمَرَ اللهُ تعالى في الآيتين الأخيرتين من هذا النص بقتال الكفارِ المشركين، ووَعَدنا ربُّنا سبحانه بأنْ يعذِّبهم بأيدينا، ويخزهم بقتلنا وأسرنا لهم، كما وعَدَنا ربُّنا سبحانه أنْ ينصرنا

عليهم، ويشفيَ صدورَ المؤمنين الذين اضطهدهم الكفارُ وعذَّبوهم، ويذهبَ ما في صدورهم من الغيظ الذي حَلَّ في قلوبهم من الكافرين، ثم قال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة:١٥] وعدنا سبحانه بأن يتوبَ الله على مَنْ يشاءُ، فقد آمن كثيرٌ من المشركين بعد فتحِ مكة وحَسُنَ إسلامهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ فعلمه تبارك وتعالى واسع كثيرٌ، وهو حكيمٌ سبحانه في أقوالِهِ وأفعالِهِ وتشريعه ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة:١٤-١٥].

رابعا: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- المشركونَ لا يلتزمون بعهودِهم مع المسلمين، ويكثرون من نقضِ العهود.

٢- يجبُ على المسلمين أنْ يَفُوا للمشركين بالعهودِ التي أجْرَوْها معهم، ما التزم بذلك المشركونُ.

٣- إذا ظهر الكفارُ على المسلمين فإنَّهم لا يرقبون فيهم عهداً ولا قرابةً، يرضون المسلمين بمعسول القولِ، وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون.

٤- اشترى الكفارُ بآياتِ الله ثمناً قليلاً، وهو حُطامُ الدنيا الفاني، فصدُّوا الناسَ عن دينِ الله، فساء ما يعملون.

٥- إذا تابَ الكفارُ مِنْ كفرهم وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فيصبحون إخواناً للمسلمين، وإن نقضوا عهودهم مع المسلمين، وطعنوا في دين المسلمين، فعلى المسلمين أن يقاتلوهم ويؤدبوهم، فإنَّ التزامهم بعهودهم قليلٌ، وعلينا أنْ نؤدبهم حتى ينتهوا من كفرهم.

٦- حضَّ اللهُ تعالى على قتالِ الكفارِ الناكثين لعهودهم الذين همُّوا بإخراجِ الرسولِ من دياره، وبدؤوا المؤمنين بالحربِ والقتالِ.

٧- نهى اللهُ تعالى الصحابةَ عن خشيةِ الكفارِ، وأمرهم بخشيتِهِ، والالتزام بطاعته إذا كانوا مؤمنين به.

النص القرآني الثالث من سورة التوبة

الجهادُ في سبيلِ الله تعالى من أفضلِ الأعمال

أولاً: تقديم

بيّن اللهُ -تعالى- لنا في آياتِ هذا النصِّ أنه يختبر المؤمنين بإيجاب الجهادِ عليهم، وتكليفهم بمعاداةِ الكافرين، ليظهرَ الذين يستحِقُّونَ فضلَ الله ورحمتِهِ، وأعلمنا ربُّنا أنَّ الكفارَ لا يستحقونَ عمارةَ المسجدِ الحرامِ، فالكفرُ الذي تَلَبَّسُوا به يناقضُ تصديهم لعمارةِ المسجد الحرام، والذين يستحقونَ عمارةَ المسجد الحرام هم المؤمنون بالله واليوم الآخرِ، وهم المقيمونَ الصلاةَ والمؤتون الزكاةَ والذين لا يخشونَ أحداً إلاّ الله.

وعتب الله على المؤمنينَ الذين جعلوا سقايةَ الحاجِّ وعمارةَ المسجدِ الحرام كمن آمنَ بالله واليومِ الآخر وجاهدَ في سبيلِ الله تعالى، وجعلَ الأجْرَ العظيمَ والفضلَ الكبيرَ للمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله تعالى بأموالهم وأنفسهم، وهؤلاء هم الذين يفوزون برحمةِ الله ورضوانِهِ وجناته، لهم فيها نعيمٌ مقيم، وهم فيها خالدونَ خلوداً أبدياً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة:١٦-٢٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سنة الله تعالى أن يبتليَ عبادَهُ بالجهادِ ليظهرَ الصادق من الكاذبْ:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- عباده أن يظنوا أن الله سيدخلهم الجنةَ من غير أنْ يبتليهم ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾ [التوبة:١٦].

﴿ أَمْ ﴾ هذه هي المنقطعةُ تأتي بمعنى: بل، والهمزة، الاستفهام في الآية للتوبيخ، ومعنى الآية، أظننتم أن الله يترككم من غير أنْ يختبركم بالمشاقِّ التي يظهر بها المطيعُ من العاصي، والمحقُّ من المبطل، ومن ذلك الاختبار بالجهاد في سبيل الله الذي تُعْرَضُ فيه المُهَج والأموالُ للتلف والضياع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ ﴾ [التوبة:١٦] هذه معطوفة على قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ ، والوليجةُ: الشيءُ تُدْخِلُهُ في الشيءِ، والمراد بالوليجةِ هنا بطانةُ السوءِ، لأنهم يدخلون في المسلمين، وليسوا منهم، وهذا يؤدي إلى إفشاء أسرار المسلمين، وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾ [التوبة:١٦] الخبير أخصُّ من العالم، فالعربُ لا تكادُ تطلقُ الخبيرَ إلا على العالم بما من شأنه أن يخفى.

٢- ليس للكفارِ حقٌّ في عمارةِ مساجدِ الله شاهدين على أنفسهم بالكفر:

بيَّنَ اللهُ -تعالى- لنا أنَّه ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ ﴾ [التوبة:١٧] وسببُ نزول هذه الآية افتخارُ قريشٍ بعمارةِ المسجدِ الحرام، فكانوا يقولون: هو بيتنا، ونحن أولياؤُه، وهذا الذي يقولونه قولٌ باطل، ولا يصحُّ لهم أَنْ يقولوه ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ أي: ما يصح ولا ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك، لأنَّ بيوتَ الله تعالى أُسِّسَتْ على طاعةِ الله، والتقرب إليه بما يرضيه، والكفار مشركون، أعمالهم باطلةٌ، و﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ﴾ فأفعالهم تشهد عليهم بالكفر، فقد كانوا يسجدون للأصنام، ويدعونها، ويذبحون لها من دون الله، ويشركون في التلبيةِ في الحجِّ، ويقولون: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك».

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) ﴾ [التوبة:١٧].

قوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بطلت واضمحلت، فهي لا تنفعهم يوم القيامةِ، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣]. وقوله: ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: في يوم القيامة.

٣- الذين يعمرون مساجد الله حقاً وصدقاً:

بيّن اللهُ تعالى أن الذين يستحقون أن يعمروا مساجدَ الله تعالى حقاً وصِدْقاً هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ولم يخشوا إلا الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨]. فالذي جمع هذه الصفات والأعمال هو الحقيقُ بعمارةِ المساجد، أمّا الكفارُ الذين خلوْا مما نصَّتْ عليه الآيةُ من الصفات فليسوا من المهتدين.

٤- أعمال العباد من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لا تساوي الإيمان بالله والإيمان باليوم اخر:

روى مسلم عن النُّعمانِ بنِ بشيرٍ قال: كنت عند منبرِ رسولِ الله ﷺ، فقالَ رجلٌ: ما أُبالي أن لا أعملَ عملاً بعد الإسلام، إلاَّ أن أُسْقي الحاجَّ، وقال آخرُ: ما أُبالي أنْ لا أعملَ عملاً بعد الإسلام إلا أنْ أعْمُرَ المسجدَ الحرامَ، وقالَ آخر: الجهادُ في سبيل الله أفضلُ مما قلتم، فزَجَرَهُمْ عُمَرُ، وقال: لا ترْفَعُوا أصواتَكُمْ عندَ منبرِ رسولِ الله ﷺ، وهو يومُ الجمعة، ولكن إذا صلَّيْتُ الجمعةَ دخلْتُ فاسْتَفْتَيْتُهُ فيما اختلفتم فيه، فأنزلَ الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة:١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أيْ: لم يخفْ أحداً غير الله تعالى، فلا يخافون الأصنام والأوثانَ وما يعبد من دون الله عزَّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ...﴾ الآية، فيها دلالةٌ على أنَّ الأعمالَ الصالحةَ تتفاوتُ فيما بينها، فسقايةُ الحاجِّ وعمارةُ المساجدِ لا تساوي الإيمانَ بالله واليوم الآخر والجهادِ في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة:١٩] أي: لا يهديهم إلى الحقِّ والصواب.

٥- فضل المؤمنين الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله تعالى:

قال تعالى مبيِّناً فضل المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [التوبة:٢٠].

أخبر اللهُ تعالى أنَّ أصحابَ الفضل العظيمِ عند الله عز وجل هم المؤمنون الذين هجروا ديارهم وأموالهم وجاهدوا في سبيل الله تعالى، فهؤلاء درجتهم أعظمُ الدرجاتِ عند الله، وهم الفائزون برضوان الله تعالى وجنَّته.

وهؤلاءِ الفضلاءُ الأخيار ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة:٢١-٢٢].

بشَّرَ اللهُ تعالى المؤمنين المهاجرين المجاهدين بما يسرُّهم، ويُطمئن قلوبهم، بشَّرهم ربُّهم -تبارك وتعالى- برحمة منه وبرضوانِهِ، وبشَّرَهم بجناتٍ لهم فيها نعيم مقيم دائم، والجناتُ التي بشَّر اللهُ تعالى بها البساتينُ الغناءُ، ذاتُ الظلالِ الوارفةِ، والقصورِ العالية، والأنهار الجارية، والزوجاتِ الحسان، والأشجارِ المثمرةِ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهلها بمنَّه وكرمه سبحانه وتعالى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- يختبرُ اللهُ عبادَهُ المؤمنين بتكليفهم بالجهادِ في سبيل الله تعالى ليعلمَ أهل الجنَّة.

٢- لا يستحقُّ الكفارُ القيامَ على عمارةِ مساجدِ الله، فكفرهم يناقضُ عمارةَ المساجد.

٣- الذين يستحقُّونَ القيامَ على عمارةِ المساجدِ هم المؤمنون بالله واليومِ الآخرِ والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة، والذين يخشون اللهَ وحده.

٤- لا يستوي في حُكْمِ الله وشَرْعه سقايةُ الحاجِّ وعمارةُ المسجدِ الحرام والإيمانُ بالله واليومِ الآخر والجهادُ في سبيل الله، فالإيمانُ والجهادُ لهما الفضلُ الكبيرُ والأجرُ العظيمُ.

٥- المؤمنون المهاجرون المجاهدون في سبيلِ الله، أعظمُ درجة عند الله، وهم الفائزون، وقد بشَّرهم اللهُ برحمتهِ ورضوانهِ وجنانهِ خالدين فيها أبداً.

النص القرآني الرابع من سورة التوبة

نَهَى اللهُ تعالى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء ولو كانوا أقرب الناس إليهم

أولاً: تقديم

نهى اللهُ تعالى المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياءَ، ولو كانوا أقرب الناس إليهم، وامتنَّ اللهُ تعالى على المؤمنين بالنصر في مواقع كثيرة، ومن ذلك في غزوة حنين التي أعجبت فيها المؤمنين كثرتُهم فيها، فهزموا، ثم أنزل اللهُ تعالى نصره على المؤمنين، وتابَ اللهُ تعالى على كفار هوازنَ وثقيفٍ بعد المعركة، فآمنوا وتابوا عن كفرهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ [التوبة:٢٣-٢٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن تولّي الكفارِ ولو كانوا أولي قربى:

نهى اللهُ تعالى المؤمنين أن يتخذوا آباءَهم وإخوانهم أولياءَ إن هم استحبوا الكفر على الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ [التوبة:٢٣] وهذا خطابٌ للمؤمنين جميعاً من أوَّلِهِمْ إلى آخرهم، وهذا يدلُّ على قطع العلاقةِ بين المؤمنين والكافرين، وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ أي: إن اختاروا الكفر

وآثروه على الإيمان، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة:٢٣] ومعنى الظلم: وضعُ الشيءِ في غير موضعه، وأعظمُ الظلمِ الكفرُ والشركُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة:٢٥٤] وقال العبدُ الصالحُ لقمانُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

وقد أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقول للمؤمنين: ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤]. أمر اللهُ تعالى رسولَهُ أن يقول للمؤمنين الذين تخلَّفوا عن الجهاد: إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، والعشيرة قرابته الأدنون، ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾، أي: اكتسبتموها، ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، والتجارة: الأمتعة التي يشترونها ليربحوا فيها، والكساد: عدم نَفَاقِ هذه التجارةِ، لفواتِ وقت بيعها بالهجرةِ ومفارقةِ الأوطان.

والمراد بالمساكن التي يرضونها: المنازلُ التي تعجبهم وتميل إليها نفوسهم، ويرون الإقامةَ فيها أحبَّ إليهم مِنَ المهاجرة إلى الله ورسولِهِ.

وقوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ يقول الله عزَّ وجلَّ إذا كانت هذه الأشياءُ -أي التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية- أحبَّ إليكم مِنَ الله ورسولِهِ ومِنَ الجهاد في سبيله ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ هذا وعيدٌ شديدٌ لمن ارتكب هذه المخالفة، والتربُّصُ: الانتظارُ، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤] والمرادُ بالفاسقين الذين لا يهديهم اللهُ تعالى الذين سبق في علم الله أنهم لا يهتدون.

والآية السابقة هي كقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقد جاء في الحديث عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أكونَ أَحَبَّ إليهِ من والِدِه وولَدِه والناسِ أجمعين» [البخاري: ١٥. ومسلم: ٤٤].

وعن عبدالله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخِذٌ بيدِ عمر بن الخطاب، فقال له عمرُ: يا رسولَ الله لأنتَ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلا من نفسي، فقال النبيُّ ﷺ: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكونَ أحبَّ إليكَ من نفْسِكَ» فقال له عمرُ: فإنَّه الآنَ، والله لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النبيُّ ﷺ: «الآنَ يا عمرُ» [البخاري: ٦٦٣٢].

٢- نصر الله المؤمنين في حنين:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ [التوبة:٢٥] اللام في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ، أي: والله لقد نصركم الله في مواطنَ كثيرةٍ، كيومِ بدر، ويومِ الأحزاب، ويومِ خيبر، وفتحِ مكَّة، والمواطنُ جمع موطن، ومواطنُ الحربِ: مواقعها ومشاهدها.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة:٢٥]، وحنينٌ وادٍ من أوديةِ تهامةَ بين مكة والطائف غير بعيد عن سوق ذي المجاز، وكان عددُ الصحابةِ في هذه الغزوةِ اثنيْ عشر ألفاً، عشرةُ آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار الذين حضروا فتح مكة، وألفان من مسلمةِ الفتحِ مِنَ الطلقاء.

وقد أعجبت المؤمنين في هذه الغزوةِ كثرتُهُمْ، فقالوا: لن نغلب في هذا اليوم من قلةٍ، وإعجابُ المجاهدين بكثرتهم وقوتهم سببٌ للهزيمة وتسلط الأعداءِ، ولذلك نبَّه اللهُ تعالى على هذا الخلل بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة:٢٥].

أخبرهم اللهُ -تعالى- أنه في ذلك اليوم أعجبتهم كثرتهم، فلم تغنِ عنهم شيئاً، فلما التقى الجيشان ولَّى جيش المؤمنين مدبرين في أولِ المعركة، وهذا ابتلاءٌ وامتحانٌ للمؤمنين، ليعلموا أنَّ النصرَ بيد الله تعالى وحده، وليس بكثرةِ العددِ والعُدَدِ، وقوله: ﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي: فلِمَ تنفعكم شيئاً، وقوله: ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي: ضاقت عليكم الأرض مع سعتها ورُحْبها، والرُّحبُ الاتساع وقوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: منهزمين.

جاء في صحيح مسلم عن إياس بن سلمة بن الأكوع، قال: حدَّثني أبي، قال: «غَزَوْنا مع رسولِ الله ﷺ حُنيناً، فلما واجَهْنا العدوَّ تقدَّمْتُ، فأَعْلُو ثنيَّةً، فاستْقبلني رجلٌ من العدوِّ،

فأرْميهِ بسهمٍ، فتوارى عني، فما دَرَيْتُ ما صنع، ونظرتُ إلى القومِ فإذا هم قد طلعوا من ثنيَّةٍ أخرى، فالتقَوا هم وصحابةُ النبيِّ ﷺ ، فولَّى صحابَةُ النبي ﷺ ، وأرْجِعُ مُنْهَزِماً، وعليَّ بُرْدَتانِ، مُتَّزِراً بإحداهما، مرتدياً بالأخرى، فاستطْلَقَ إزاري، فجَمعْتُها جميعاً، ومررتُ، على رسولِ الله ﷺ ، مُنهزِماً، وهو على بَغْلَتِهِ الشَّهْباءِ، فقال رسولُ الله ﷺ «لقد رأى ابنُ الأكْوَعِ فزعاً»، فلما غَشُوا رسولَ الله ﷺ نَزَلَ عن البَغْلَةِ، ثم قَبَضَ قَبْضَةً من ترابٍ من الأرضِ، ثم استَقْبَلَ به وجوههم، فقال: «شاهَتِ الوجوهُ»، فما خَلَقَ اللهُ منهم إنساناً إلا ملأَ عينيهِ تراباً، بتلكَ القبضة، فولَّوْا مُدْبِرينَ، فهزمَهُمْ اللهُ عز وجل، وقَسَمَ رسولُ الله ﷺ غنائمَهُمْ بين المسلمينَ» [مسلم: ١٧٧٧].

٣- العباسُ بن عبدالمطلب يصف غزوة حنين وأحاديث أخرى في حنين:

أ- روى مسلم في صحيحه عن كثيرِ بنِ عباسِ بن عبدالمطلب، قال: قال عباسٌ: شَهِدْتُ مع رسولِ الله ﷺ يومَ حُنَيْنٍ، فلزِمْتُ أنا وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ بن عبدالمطلب رسولَ الله ﷺ ، فلم نُفارِقْهُ، ورسولُ الله ﷺ على بَغْلَة له بيضاءَ، أهْداها له فَرْوَةُ بنُ نُفاثةَ الجُذاميُّ، فلما التقى المسلمونَ والكفارُ، ولَّى المسلمونَ مُدْبِرينَ، فطَفِقَ رسول الله ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الكفارِ.

قال عباسٌ: وأنا آخِذٌ بلجام بَغْلَةِ رسولِ الله ﷺ ، أكُفُّها إرادةَ أنْ لا تُسْرِعَ، وأبو سفيانَ آخِذٌ بركابِ رسولِ الله ﷺ . فقالَ رسولُ الله ﷺ : «أي عبَّاسُ! نادِ أصحابَ السَّمُرَةِ». فقال عباسٌ (وكانَ رجلاً صَيِّتاً): فقلتُ بأعلى صوتي: أينَ أصحابُ السَّمُرَةِ؟ قال: فواللهِ ! لكأنَّ عَطْفَتَهُمْ، حين سَمِعُوا صوتي، عَطْفَةُ البقرِ على أولادِها، فقالوا: يا لَبَّيْكَ! يا لَبَّيْكَ! قال: فاقْتَتَلُوا والكفارَ، والدعوةُ في الأنصارِ، يقولون: يا معشرَ الأنصارِ! يا معشرَ الأنصارِ! قالَ: ثم قُصِرَتِ الدعوةُ على بني الحارثِ بنِ الخَزْرجِ، فقالوا: يا بني الحارثِ بن الخَزْرَجِ! يا بني الحارث بن الخزرجِ! فنظرَ رسولُ الله ﷺ وهو على بَغْلَتِهِ، كالمُتطاوِلِ عليها، إلى قِتالِهِمْ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : «هذا حين حَمِيَ الوَطيسُ»، قال: ثم أخذَ رسولُ الله ﷺ حَصَياتٍ فرمى بهنَّ وُجوهَ الكفارِ، ثم قال: «انْهَزَمُوا، ورَبِّ محمدٍ!»، قال: فذهبتُ أنْظُرُ فإذا القتالُ على هيئَتِهِ فيما أَرَى، قال: فواللهِ! ما هو إلا أنْ رماهُمْ بحَصَياتِهِ، فما زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَليلاً وأمْرَهُمْ مُدْبِراً [مسلم: ١٧٧٥ (٧٦)].

ب- ورواه مسلم من طريق الزهريِّ، بهذا الإسناد، نحوَهُ. غير أنَّه قال: «انْهَزَمُوا، ورَبِّ الكَعْبَةِ! انهَزَمُوا، وربِّ الكعبةِ!» وزادَ في الحديث: حتى هزَمَهُمُ اللهُ، قال: وكأني أنظُرُ إلى النبي ﷺ يَرْكُضُ خَلْفَهُمْ على بَغْلَتِهِ [مسلم: ١٧٧٥ (٧٧)].

ج- وفي صحيحي البخاري ومسلم أن رجلاً قال للبراء: يا أبا عُمارةَ! أفرَرْتُمْ يومَ حُنينٍ؟ قال: لا واللهِ! ما ولّى رسولُ الله ﷺ، ولكنَّهُ خَرَجَ شُبَّانُ أصحابِهِ وأخِفَّاؤُهُمْ حُسَّراً ليسَ عليهِم سلاحٌ، أو كثيرُ سلاحٍ، فلقوا قوماً رُماةً لا يكادُ يسقطُ لهم سَهْمٌ، جَمْعَ هوازنَ وبني نَصْرٍ، فرَشَقُوهُمْ رَشْقاً ما يكادون يُخْطِئونَ، فأقبلوا هناك إلى رسولِ الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ على بَغْلَتِهِ البيضاءِ. وأبو سفيان بنُ الحارثِ بنِ عبدالمطلبِ يقودُ به، فنزَلَ فاسْتَنْصَرَ وقال:

«أنـــــا النَّبِــــيُّ لاَ كَــــذِبْ أنَـــا ابْـــنُ عَبْـــدِ الْمُطَّلِـــبْ»

ثم صَفَّهُمْ [البخاري: ٢٩٣٠. ومسلم: ١٧٧٦ (٧٨)].

د- وعن البَراءِ، وسأَلَهُ رجلٌ من قيسٍ: أفَرَرْتُمْ عن رسولِ الله ﷺ يومَ حُنَيْنٍ؟ فقال البراءُ: ولكنْ رسولُ الله ﷺ لم يَفِرَّ، وكانَتْ هوازِنُ يومئذٍ رُماةً، وإنَّا لَمَّا حَمَلْنا عليهِمْ انكشفوا، فأكْبَبْنا على الغنائمِ، فاسْتَقْبَلُونا بالسِّهامِ، ولقد رأيْتُ رَسولَ الله ﷺ على بَغْلَتِهِ البيضاءِ، وإنَّ أبا سفيانَ بنَ الحارثِ آخِذٌ بلجامِها، وهو يقولُ:

«أنـــــا النَّبِــــيُّ لاَ كَــــذِبْ أنَـــا ابْـــنُ عَبْـــدِ الْمُطَّلِـــبْ»

[البخاري: ٢٨٦٤. ومسلم: ١٧٧٦ (٨٠)].

هـ- وعن أبي قَتادةَ، قال: خَرَجْنا مع النبيِّ ﷺ عامَ حُنَينٍ، فلما التَقَينا كانت للمسلمينَ جَوْلَةٌ، فرأيتُ رجلاً من المشركينَ قد عَلا رجلاً من المسلمينَ، فضَرَبْتُه من ورائِه على حَبْلِ عاتِقِه بالسَّيفِ، فقَطَعْتُ الدِّرْعَ، وأقبَلَ عليَّ فضَمَّني ضَمّةً، وجدتُ منها ريحَ الموتِ، ثم أدرَكَه الموتُ، فأرسَلَني، فلَحِقْتُ عمرَ بنَ الخطابِ فقلتُ: ما بالُ الناسِ؟ قال: أمرُ الله عزَّ وجلَّ، ثمَّ رَجَعُوا، وجَلَس النبيّ ﷺ، فقال: «مَنْ قَتَلَ قَتيلاً له عليه بَيِّنَةٌ، فلَه سَلَبُه» فقلتُ: مَنْ يشهَدُ لي؟ ثم جلستُ، قال: ثم قال النبيُّ ﷺ مِثلَه، فقُمْتُ فقلتُ: مَن يشهَدُ لي؟ ثم جلستُ، قال: ثم قال النبيُّ ﷺ مِثلَه، فقُمْتُ، فقال: «ما لكَ يا أبا قَتادةَ؟» فأخبرْتُه، فقال رجلٌ: صَدَقَ، وسَلَبُه عِنْدي، فأرضِهِ مني، فقال أبو بكرٍ: لا ها الله إذاً! لا يَعْمِدُ إلى أَسَدٍ من أُسْدِ الله، يُقاتِلُ عن الله ورسولِه ﷺ، فيُعْطِيَكَ سَلَبَهُ، فقال النبيُّ ﷺ: «صَدَقَ، فأعطِه» فأعطانيه، فابْتَعْتُ به مَخرَفاً في بني سَلِمةَ، فإنَّه لأوَّلُ مالٍ تَأَثَّلْتُه في الإسلامِ [البخاري: ٤٣٢١، ومسلم: ١٧٥١].

و- وعن عُروةُ بنُ الزبيرِ، أن مروانَ والمِسْوَرَ بنَ مَخرَمةَ أخبراهُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قامَ حينَ جاءَه وَفْدُ هوازِنُ مُسلمينَ، فسألوه أنْ يَرُدَّ إليهم أموالَهم وسَبْيَهُم، فقال لهم رسولُ الله

ﷺ: «مَعي مَنْ تَرَوْنَ، وأَحَبُّ الحديثِ إليَّ أصدَقُه، فاخْتاروا إحدى الطائفتينِ: إما السبْيَ، وإما المالَ، وقد كنتُ استأْنَيتُ بكُم» وكانَ أنظَرَهم رسولُ الله ﷺ بضْعَ عَشْرةَ ليلةً حينَ قَفَلَ من الطائفِ، فلما تَبيَّنَ لهم أنَّ رسولَ الله ﷺ غيرُ رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنّا نختارُ سَبْينا، فقامَ رسولُ الله ﷺ في المسلمينَ، فأثْنى على الله بما هو أهلُه، ثم قال: «أما بعْدُ، فإنَّ إخوانَكُم قد جاؤونا تائبينَ، وإني قد رأيتُ أنْ أرُدَّ إليهم سَبْيَهُم، فمن أحَبَّ منكم أنْ يُطيِّبَ ذلك فلْيَفْعَلْ، ومن أحَبَّ منكم أنْ يكونَ على حَظِّه حتى نُعْطِيَه إياه من أوَّلِ ما يُفيءُ الله علينا، فلْيَفْعَلْ» فقال الناسُ: قد طَيَّبْنا ذلكَ يا رسولَ الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنّا لا نَدْري من أذِنَ منكُم في ذلكَ ممَّن لم يأْذَنْ، فارجِعوا حتَّى يَرْفَعَ إلينا عُرَفاؤُكُم أمرَكُم» فرَجَعَ الناسُ، فكَلَّمَهم عُرَفاؤُهم، ثم رَجعوا إلى رسولِ الله ﷺ، فأخبَرُوه أنَّهم قد طَيَّبوا وأذِنُوا.

هذا الذي بَلَغَني عن سَبْيِ هَوازِنَ [البخاري: ٤٣١٨- ٤٣١٩].

ز- وعن عبدالله بن زيدِ بن عاصم، قال: لَمَّا أفاءَ الله على رسولِه ﷺ يومَ حُنَينٍ، قَسَمَ في الناس في المؤَلَّفةِ قُلُوبُهم، ولم يُعْطِ الأنصارَ شيئاً، فكأنَّهم وجدوا إذْ لم يُصِبْهم ما أصابَ الناسَ، فخَطَبَهم فقال: «يا معْشَرَ الأنصار، ألم أجِدْكُم ضُلاَّلاً فهَداكُم الله بي؟ وكنتُم مُتفَرِّقينَ فألَّفَكُم الله بي؟ وعالةً فأغْناكُم الله بي؟» كلَّما قال شيئاً قالوا: الله ورسولُه أمَنُّ، قال: «ما يَمْنَعُكُم أنْ تُجيبوا رسولَ الله» قال: كلَّما قال شيئاً قالوا: الله ورسولُه أمَنُّ، قال: «لو شِئْتُم قلتُم: جئتَنا كذا وكذا: أتَرْضَوْنَ أنْ يَذهَبَ الناس بالشاةِ والبعيرِ وتَذْهَبونَ بالنبي ﷺ إلى رِحالِكُمْ؟ لولا الهِجْرةُ لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سَلَكَ الناسُ وادِياً وشِعْباً لَسَلَكْتُ واديَ الأنصار وشِعْبَها، الأنصارُ شِعارٌ، والناسُ دِثارٌ، إنَّكُم سَتَلْقَوْنَ بَعْدي أثَرَةً، فاصْبِروا حتَّى تَلْقَوْني على الحوضِ» [البخاري: ٤٣٣٠. ومسلم: ١٠٦١].

ح- وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قال: قال ناسٌ من الأنصار حينَ أفاءَ الله على رسولِه ﷺ ما أفاءَ من أموالِ هَوازِنَ، فطَفِقَ النبيُّ ﷺ يُعْطِي رجالاً المئةَ من الإبلِ، فقالوا: يَغْفِرُ الله لرسولِ الله ﷺ، يُعْطي قُرَيشاً ويَتْرُكُنا، وسُيوفُنا تَقْطُرُ من دِمائِهم، قال أنسٌ: فحُدِّثَ رسولُ الله ﷺ بمَقالتِهم، فأرسَلَ إلى الأنصار، فجَمَعَهم في قُبَّةٍ من أدَمٍ، ولم يَدْعُ معهم غيرَهُم، فلمَّا اجْتَمَعوا قامَ النبيُّ ﷺ فقال: «ما حديثٌ بَلَغَني عنكُم؟» فقال فُقَهاءُ الأنصار: أما رُؤَساؤُنا يا رسولَ الله، فلم يقولوا شيئاً، وأما ناسٌ مِنّا حديثةٌ أسنانُهم فقالوا: يَغْفِرُ الله لرسولِ الله ﷺ، يُعْطي قُرَيشاً ويَتْرُكُنا، وسُيوفُنا تَقْطُرُ من دِمائِهم. فقال النبيُّ ﷺ: «فإنِّي أُعْطي رِجالاً

حديثي عَهْدٍ بكُفرٍ أَتألَّفُهُم، أما تَرْضَوْنَ أَنْ يَذهَبَ الناسُ بالأموال، وتَذْهَبونَ بالنبيِّ إلى رِحالكُم؟ فوالله لما تَنقَلِبونَ به خيرٌ ممَّا يَنقَلِبونَ به» قالوا: يا رسولَ الله قد رَضِينا، فقال لهمُ النبيُّ ﷺ : «سَتَجِدونَ أَثَرَةً شديدةً، فاصْبِروا حتى تَلْقَوُا الله ورسولَه، فإني على الحوضِ» [البخاري: ٤٣٣١].

ط- عن أنسِ بن مالكٍ ﷺ قال: لَمَّا كانَ يومَ حُنَينٍ، أقبَلَتْ هَوازِنُ وغَطَفانُ وغيرُهم بنَعَمِهم وذَرارِيِّهم، مع النبيِّ ﷺ عشرةُ آلافٍ ومن الطُّلَقاءِ، فأدبَروا عنه حتى بَقِيَ وحدَه، فنادى يومئذٍ نِداءَينِ لم يَخْلِطْ بينَهما، التَفَتَ عن يمينِه فقال: «يا معشرَ الأنصار»، قالوا: لَبَّيكَ يا رسولَ الله، أبشِرْ نحنُ مَعَكَ، ثم التَفَتَ عن يَساره، فقال: «يا معشرَ الأنصار»، قالوا: لَبَّيكَ يا رسولَ الله، أبشِرْ نحنُ مَعَكَ، وهو على بَغْلةٍ بيضاءَ، فنَزَلَ فقال: «أنا عبدُ الله ورسولُه» فانهَزَمَ المشركونَ، فأصاب يومئذٍ غَنائمَ كثيرةً، فقَسمَ في المهاجرينَ والطُّلَقاءِ، ولم يُعْطِ الأنصارَ شيئاً، فقالتِ الأنصارُ: إذا كانت شديدةٌ فنحنُ نُدْعَى، ويُعْطَى الغنيمةَ غيرُنا، فبَلَغَه ذلك، فجَمَعَهم في قُبَّةٍ، فقال: «يا معشرَ الأنصار، ما حديثٌ بَلَغَني عنكُم؟» فسكتوا، فقال: «يا معشرَ الأنصار ألا تَرْضَوْنَ أنْ يذهَبَ الناسُ بالدُّنْيا، وتَذْهَبونَ برسولِ الله ﷺ تَحُوزُونَه إلى بيوتِكُمْ؟» قالوا: بَلَى، فقال: النبيُّ ﷺ : «لو سَلَكَ الناسُ وادِياً، وسَلَكَتِ الأنصارُ شِعْباً، لأَخَذْتُ شِعْبَ الأنصارِ».

فقال هشامٌ: قلتُ: يا أبا حمزةَ، وأنتَ شاهدٌ ذاكَ؟ قال: وأينَ أغيبُ عنهُ؟ [البخاري: ٤٣٣٧. ومسلم: ١٠٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة:٢٦]. وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ أي: أنزل على رسوله والمؤمنين معه السكينةَ، وهي الأمنةُ من الخوف، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الجنودُ التي أنزلها اللهُ تعالى في حنين هي ملائكتهُ، ولم يكن المؤمنون يرونها، ولكنَّ الكفار رأوْها، وقوله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة:٢٦]، المرادُ بالكفار الذين عَذَّبهم في حنين قبيلةُ هوازن، وقبيلةُ ثقيف. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة:٢٧]، أي: يتوبُ على من يشاءُ أن يتوب عليه، وقد آمن كثير مِنْ هؤلاء الذين حاربوا في حنين ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي: كثير الرحمة لعباده.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- لا يجوزُ للمؤمن أنْ يوالي أعداءَ الله تعالى إنْ هم اختاروا الكُفْرَ على الإيمان، فإنْ كانوا محاربين وجب قتالهم، وإن كانوا معاهدين مسالمين، فيجوز بِرُّهم والإحسانُ إليهم، ولكن لا تجوز محبَّتُهم ومناصرتُهُمْ.

٢- نَصَرَ الله تعالى المؤمنين في مواقع كثيرة، وقد أعجبت المؤمنينَ كثرتُهم في حنين، فهزموا، ثم أنزل تعالى نَصْرَهُ على المؤمنين.

٣- أنزل اللهُ تعالى على المؤمنين ملائكةً لم يروها، وأنزلَ عليهم السكينة والطمأنينة والثبات.

٤- تاب اللهُ تعالى بعد حنينٍ على كثيرٍ مِنَ الذين قاتلوا الرسولَ ﷺ وأصحابَه في حنينٍ.

النص القرآني الخامس من سورة التوبة
المشركون نجس فيجب منعهم من الوصول إلى المسجد الحرام

أولاً: تقديم

أخبر اللهُ تعالى المؤمنين أن المشركين نجسٌ، وأمرهم بمنعهم من قربان المسجد الحرامِ ابتداءً من السنة العاشرة من الهجرة، فلما خاف بعضُ المسلمين من أن يُضَيَّقَ عليهم في رزقهم، وعدهم ربُّ العزةِ أنْ يغنيهم مِنْ فضله.

وأمَرَ ربُّ العزة سبحانه وتعالى بقتال اليهودِ والنصارى حتى يعطوا الجزيةَ، وهم أذِلاَّء صاغرون. وذمَّ اللهُ تعالى اليهودَ والنصارى بكذبهم على ربِّ العزةِ، ودعواهم كذباً وزوراً أنَّ العزيرَ ابنُ الله والمسيحَ ابنُ الله، تعالى الله عما يقولون عُلُوّاً كبيراً.

وذمَّ اللهُ تعالى اليهودَ والنصارى في غُلُوِّهِمْ في أحبارهم ورهبانهم، فقد اتخذوهم أرباباً من دونِ الله، يُحِلُّون لهم الحرامَ فيتبعونهم فيحلونه، ويحرمون عليهم الحلالَ، فيتبعونهم فيحرمونه.

وبيَّن أنَّ الكفرةَ المشركين يقومون بحملاتٍ ظالمة لإطفاء نورِ الله بأفواههم، وبيَّن اللهُ تعالى أنَّ جهودهم ضائعةٌ مهدورةٌ، فالله متمُّ نوره، ولو كره الكافرون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة:٢٨-٣٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- المشركون نجسٌ فلا يجوز لهم دخولُ المسجدِ الحرامِ بعد نزولِ هذه الآيات:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المشركين نَجَسٌ، فلا يجوز لهم دخولُ المسجدِ الحرام بعد العام الذي نزلت فيه هذه الآية، وهو سنةُ تسعٍ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة:٢٨].

وقد كانت هذه الآيةُ من الآيات التي نادى بها عليٌّ بن أبي طالبٍ ومَنْ معه مِنَ المنادين بذلك في موسم الحجِّ سنةَ تسعٍ.

ونجاسةُ الكفارِ لشركهم وكفرهم بالله، وتكذيبهم بالرسلِ والشرائع، ولتلبُّسِهم بالنجاسات، فقد كانوا يأكلون الميتةَ، ويأكلون الخنزيرَ، ويشربونَ الخمر، ولا يغتسلون مِنَ الجنابة، ونجاستهم نجاسة معنوية أيضاً، فقد كان الصحابة يخالطون المشركين واليهود والنصارى، وأكلَ الرسول ﷺ من طعام اليهود، فقد دعاه بعضُ اليهود، فأجابَ وأكلَ من طعامه، وأهدى له اليهودُ في خيبر شاةً مصليةً، وكانت مسمومةً، وأكل منها أحد أصحابه، فمات. والمرادُ بالمسجد الحرامِ الحرمُ كلُّه، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء:١]، وقد أُسْرِيَ بالرسول ﷺ من بيتِ أمِّ هانئ، لا مِنَ المسجدِ.

والصوابُ من القول: أنه لا يجوزُ دخولُ المشركين ولا اليهود ولا النصارى الحرم بعد العام التاسع.

٢- خاف المسلمون أنه إذا انقطع المشركون عن الحرم أنْ يقلَّ الرزقُ:

خاف المسلمونَ أنَّه إذا انقطع ورود المشركين الحرمَ أنْ تقلَّ الأرزاق، وتكثرَ الحاجةُ والفقرُ، فوعد اللهُ تعالى المؤمنين أن يغنيهم من فضله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة:٢٨].

قال ابنُ كثيرٍ: «قال ابنُ إسحاقَ: قال الناسُ: لتنقطعنَّ عنَّا الأسواقُ، ولتهلكنَّ التجارةُ، وليذهبنَّ ما كنَّا نصيبُ فيها مِنَ المرافق، فنزلتْ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾» [ابن كثير: ٣/ ٣٧٢] ومَنْ نظر في أحوال المسلمين بعد نزول هذه الآية، وجد ديارَ المسلمين كَثُرَ فيها الخيرُ والرزقُ والتجارةُ، بل أصبحت الدولةُ الإسلامية أغنى ديارِ العالمِ كلِّه. وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ العيلةُ: الفقرُ.

٣- وجوبُ قتالِ اليهود والنصارى حتى يُعْطُوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون:

بعد أنْ منع اللهُ تعالى المشركين مِنْ قربان المسجدِ الحرامِ بعد نزولِ الآيةِ السابقةِ، أمر بقتال أهلِ الكتاب حتى يعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة:٢٩].

أمر اللهُ تعالى المؤمنين بقتالِ الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، واليهودَ والنصارى وإن اعترفوا بالله وأقرُّوا بيومِ القيامة، إلا أنَّهم كفارٌ، لأنَّهم اتخذوا الأرباب مع الله، واليهودَ كفروا بعيسى ومحمدٍ ﷺ، والنصارى كفروا بمحمدٍ ﷺ، وقوله: ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: يوم القيامة، وقوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: لا يحرمون ما حرَّمه تعالى في كتابِهِ، بل يُحِلُّون ما حرَّم اللهُ، ويحرمون ما أحلَّ الله، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو دين الإسلامِ.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٢٩﴾﴾ وهم اليهودُ والنصارى، ولذا فإن الرسولَ ﷺ أعدَّ جيشاً ضخماً في سنةِ تسعٍ تعداده ثلاثونَ ألفاً، وسار به إلى تبوكَ لحربِ الروم، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ والجزية: ما يعطيهُ المعاهد على عهده، والجزيةُ تؤخذ مِنْ جميعِ الكفار كائناً مَنْ كان، ويدخلُ فيهم أهلُ الكتابِ والمجوسُ من غير العرب. وفي البخاري عن عبدالرحمن بن عوف «أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذها من مجوس هجر» [البخاري: ٣١٥٧] وأورد البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمالٍ وزَّعه على الصحابة [البخاري: ٣١٥٨]. وهذا مذهب الشافعيِّ وأحمد في المشهور عنه، وقال أبو حنيفة: بل تؤخذ من جميعِ الأعاجم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو مشركين، ولا تُؤْخذ مِنَ العربِ إلا من أهل الكتاب [ابن كثير: ٣/ ٣٧٣].

وقوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: وهم حقيرون ذليلون. والجزيةُ حقٌّ مالي يفرضه خليفةُ المسلمين يراعى فيه حالَ الذين يُفْرَضُ عليهم، فهو يختلفُ من مكان إلى مكان، ومن زمانٍ إلى زمان، وليس فيها حَدٌّ محدَّد شرعاً.

٤- افتراءُ اليهودِ على الله تعالى أنَّه اتخذ ولداً هو العزير وافتراءُ النصارى عليه أنَّه اتخذ عيسى ولداً:

مِنْ أقبح ما افتراه اليهودُ على الله تعالى أنَّه اتخذ العزيرَ ولداً، ومِنْ أعظم ما افتراه النصارى على الله تعالى أنَّه اتخذ عيسى ولداً ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى

ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة:٣٠].

وقد أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ﴾ أي: لا مُسْتَنَدَ لهم فيما افتروه وادَّعوه سوى افترائهم، وقوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ أي: يشابهون قولَ الأممِ الضالةِ من قبل الذين ادعوا في بعض زعمائهم أنهم أبناءُ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي: لعنهم اللهُ تعالى، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ كيف يُصْرَفُونَ عن الحقِّ.

٥- اتخاذُ اليهود والنصارى أحبارَهُمْ ورهبانهم أرباباً من دون الله:

أعلمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ اليهودَ والنصارى اتخذوا أحبارَهُمْ ورهبانَهُمْ أرباباً من دون الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة:٣١] والمرادُ باتخاذهم أرباباً من دون الله تعالى متابعتهُمْ لهم في إحلالهم لما حرَّم اللهُ تعالى، وتحريم ما أحلّه، فعن عدي بن حاتم قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وفي عُنُقي صَليبٌ من ذهب، فقال: يا عديُّ اطرَحْ عنكَ هذا الوَثَن، وسمعتُهُ يقرأُ في سورة براءةٌ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قال: أما إنهم لم يكونوا يعبُدونَهُمْ ولكنَّهم كانوا إذا أحَلُّوا لهُمْ شيئاً استحلُّوهُ وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموهُ [قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفُهُ إلا من حديث عبدالسلامِ بن حربٍ. وغُطَيْفُ بنُ أعْيَنَ ليسَ بمعروف في الحديث. وقال فيه محقق ابن كثير (٣/ ٣٧٥): حسن، وعزاه للترمذي والطبري، وقال: غطيف تابعه غير واحدٍ على عامة هذا المتن، ورمز له الألباني في صحيح الترمذي بالحسن].

والأحبارُ: العلماءُ. والرهبانُ: المتعبدون المنقطعون في الصوامع، وهو جمعُ راهبٍ، و﴿أَرْبَابًا﴾ جمع ربٍّ، لأنهم عبدوهم، والعبادةُ لا تنبغي إلا لله تعالى.

وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ﴾ [التوبة:٣١] أي: ما أُمروا إلا ليعبدوا معبوداً واحداً، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ أي: لا يستحقُّ العبادة أحدٌ غيره ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهاً له أتمَّ تنزيهٍ عما يشركونه به شركَ ربوبيةٍ وشركَ طاعةٍ وعبادةٍ. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة:٣١] وهذه الخاتمة من الآية تدلُّ دلالة صريحة على أن اليهود والنصارى مشركون.

٦- عملُ الكفارِ على إطفاءِ نور الله بأفواهِهِمْ:

أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة:٣٢]. أخبرنا سبحانه وتعالى أنَّ الكفارَ يريدون بما يورِدونه من أكاذيب، وما يفترونَهُ من أساطير أن يطفئوا نورَ الله، وهو القرآنُ، بأفواههم أي: بما يوردونه من شبهاتٍ وأكاذيب، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وقد زَعَمَ الكفارُ قديماً ولا يزالون أنَّ القرآنَ شِعْرٌ وسِحْرٌ وكهانةٌ وأساطيرُ الأولين، وزعموا أنَّه كذبٌ مفترى، ويأْبى اللهُ العظيمُ الكبيرُ الواسعُ سبحانه إلا أن يتمَّ نورَهُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ولو كرهوا إتمامه.

وقد أتمَّ الله تعالى نورَهُ، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

والقرآنُ كالشمس، ولو نفخ البشرُ على الشمس ليطفئوا نورَها، فإنَّ أفواهُهم تبلى، وتنقطع أنفاسُهُمْ، وتبقى الشمسُ مضيئةً مشرقةً، وقد تكفَّل اللهُ بحفظِ هذا القرآنِ على مرِّ الزمانِ، وها هم أعداءُ الإسلام يمضون على مرِّ الزمان، وهم يُجْهِدُون أنفسَهُمْ في إزالة هذا القرآن وقَهْرِهِ، ولكنَّهم يذهبون ويزولون والقرآنُ باقٍ أبداً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- المشركون بما تَلَبَّسوا به من كُفْرٍ وشِرْك أنجاسٌ، فلا يجوزُ أن يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد نزولِ هذه الآية، وقد بقيَ هذا معمولاً به من السنة العاشرة مِنَ الهجرة إلى اليوم.

٢- خافَ المسلمون إذا انقطع الكفارُ عن الوصولِ إلى مكة أن يُضَيَّقَ عليهم في رزقهم، فوعدهم اللهُ تعالى أن يغنيهم من فضله، وقد وسَّع اللهُ على المسلمين في مكةَ وغيرها مِنَ بلادِ الإسلامِ، فزاد الرزقُ، وكَثُرَ العطاءُ على مَرِّ التاريخ الإسلامي.

٣- يجب على المسلمين أن يقاتلوا اليهودَ والنصارى حتى يعطوا الجزيةَ عن يد وهم أذلاَّءُ.

٤- افترى اليهودُ والنصارى الكذبَ على الله تعالى، فزعم اليهودُ أنَّ عزيراً ابنُ الله، وزعم النصارى أنَ المسيحَ ابنُ الله تعالى، وكل ذلك كذبٌ على الله تعالى، فاللهُ واحد أحد فردٌ صمدٌ لم يلد ولم يولد.

٥- الكفارُ يبذلون أموالهم ويُورِدون شبههم ليبطلوا دينَ الإسلام، ويطفئوا القرآنَ، والله متمُّ نورِهِ، ولو كره الكافرون.

النص القرآني السادس من سورة التوبة
وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنين بأن يظهر لهم دينهم على الدين كله

أولاً: تقديم

بَشَّرَ اللهُ تعالى المؤمنين بأنه سيظهر دينَهُمْ على الدِّين كلِّه، وقد تحقَّقَ ذلك، ولا يزالُ يتحقق شيئاً فشيئاً، وذمَّ اللهُ علماءَ اليهودِ ورهبانَ النصارى لأكلهم أموالَ الناس بالباطلِ، وصدِّهم الناسَ عن الإيمان، وكنزِهمْ الذهبَ والفضةَ وعدم إنفاقها في سبيل الله، وحذَّرَنا ربُّنا من عدم إخراج زكاةِ أموالنا، فيكون ذلك سبباً لعذابنا بتلك الأموالِ يوم القيامة.

وأخبرنا العزيزُ العليمُ سبحانه أنَّه جعلَ عِدَّة الشهورِ عنده يوم خلق السمواتِ والأرضَ اثني عشر شهراً منها أربعة حرمٌ لا يجوز ابتداءُ القتال فيهنَّ، وذمَّ اللهُ تعالى أهل الجاهلية بتلاعبهم فيما حرَّمه الله تعالى من الأشهرِ الأربعةِ، فقد كانوا يُحرِّمون الشهرَ الحرام عاماً، ويحلونه عاماً، وقد استدارَ الزمانُ في حجّة الوداعِ كهيئته يوم خَلَقَ السمواتِ والأرضِ، فعاد الزمانُ على هيئتِهِ الصحيحةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [التوبة:٣٣-٣٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إظهارُ الله تعالى دينَ الإسلامِ على الدينَ كلّه:

وَعَدَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يظهر هذا الدين على الدينِ كلّه ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة:٣٣].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أرسل رسولَهُ محمداً ﷺ بالهدى، وهو القرآنُ ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الإسلامُ، ليظهرَهُ، أي: ليظهرَ الإسلامَ على الدين كلِّه، أي: ليرفعه ويُعْلِيَهُ على جميع الأديان.

وهذه الآية تتضمَّنُ بشرى عظيمةً صادرةً من ربِّ العزةِ تبارك وتعالى، وقد جاءَت أحاديث صحيحة كثيرة تؤكِّد الآيةَ وتوضِّحها، وقد افتتح شيخُنا الشيخ محمد ناصر الدين الألباني سلسلةَ الأحاديث الصحيحة بأربعة أحاديث من هذه الأحاديث المبشراتِ، هُنَّ:

الحديث الأول: «إنَّ اللهَ زَوَىَ (أي: جَمَعَ وضَمَّ) لِيَ الأرْضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمتَّيْ سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها» الحديث [رواه مسلم (٨/ ١٧١) وأبو داود (٤٢٥٢) والترمذي (٢/ ٢٧) وصححه وابن ماجه (رقم ٢٩٥٢) وأحمد (٥/ ٢٧٨ و٢٨٤) من حديث ثوبانَ، وأحمد أيضاً (٤/ ١٢٣) من حديث شدادِ بن أوس إن كان محفوظاً].

الحديث الثاني: «لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمْرُ ما بَلَغَ الليلُ والنهارُ، ولا يترُكُ اللهُ بيتَ مَدرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدْخَلَهُ اللهُ هذا الدينَ، بعِزِّ عزيزٍ، أوْ بِذُلِّ ذليلٍ، عِزّاً يُعِزُّ اللهُ به الإسْلامَ، وذُلاًّ يذِلُّ به الكفرَ» [رواه جماعة ذكرتهم في «تحذير الساجد» (ص١٢١). ورواه ابن حبان في صحيحه (١٦٣١، ١٦٣٢) وأبو عروبة في «المنتقى من الطبقات» (٢/ ١٠/ ١) ومما لا شكَّ فيه أن تحقيقَ هذا الانتشار يستلزم أنْ يعود المسلمونَ أقوياءَ في معنوياتهم ومادياتهم وسلاحهم، حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على قوى الكفر والطغيان].

الحديث الثالث: عن أبي قبيل قال: كنا عندَ عبدالله بن عمْرِو بنِ العاص، وسُئِلَ أيُّ المدينتين تُفْتَحُ أولاً: القُسْطنْطِينيَّةُ، أو روميَّةَ؟ فدعا عبدُالله بصندوقٍ له حَلَقٌ، قال: فأخْرَجَ منه كِتاباً، قالَ: فقالَ عبدالله: بينما نحنُ حولَ رسولِ الله ﷺ نَكْتُبُ، إذْ سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أيُّ المدينتينِ تُفْتَحُ أولاً قُسْطَنطينيةُ أو رومِيَّةُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «مدينةُ هِرقلَ تُفْتَحُ أولاً»، يعني قُسطنطينية [رواه أحمد (٢/ ١٧٦) والدارميُّ (١/ ١٢٦) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٧/ ١٥٣/ ٢)، وأبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (١١٦/ ٢)، والحاكم (٣/ ٤٢٢ و٤/ ٥٠٨) وعبدالغني المقدسي في «كتاب العلم» (٢/ ٣٠/ ١) وقال: «حديثُ حسنُ الإسنادِ» وصحَّحَهُ الحاكم ووافقه الذهبي وهو كما قالا].

و(روميَّةُ) هي روما كما في «معجم البلدان»، وهي عاصمة إيطاليا اليوم.

وقد تحقَّق الفتحُ الأولُ على يد محمدٍ الفاتح العثمانيِّ كما هو معروفٌ، وذلك بعد أكثر من ثمانمئة سنةٍ من إخبارِ النبيِّ ﷺ بالفتح، وسيتحققُ الفتحُ الثاني بإذن الله تعالى ولا بد، ولتعلمن نبأه بعد حين.

ولا شك أيضاً أنَّ تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمةِ المسلمة.

الحديث الرابع: «تكونُ النبوةُ فيكُمْ ما شاءَ اللهُ أن تكونَ، ثم يرْفَعُها اللهُ إذا شاءَ أن يرْفَعَها، ثم تكونُ خِلافة على مِنْهاجِ النبوةِ، فتكونُ ما شاءَ اللهُ أن تكونَ، ثم يَرْفَعُها إذا شاءَ أن يرْفَعَها، ثم تكونُ مُلْكاً عاضّاً فيكونُ ما شاءَ اللهُ أنْ تكونَ، ثم يرْفَعُها إذا شاءَ اللهُ أن يرْفعها، ثم تكونُ مُلْكاً جَبْرِيّاً، فتكونُ ما شاءَ اللهُ أنْ تكونُ، ثم يرْفَعُها إذا شاءَ أن يرْفَعُها، ثم تكونُ خِلافةٌ على مِنْهاجِ النُّبُوَّةِ، ثم سَكَتْ» [رواه أحمدُ (٤/ ٢٧٣) حدثنا سليمان بنُ داود الطيالسيُّ حدثنا داودُ بن إبراهيم الواسطي حدثنا حبيبُ بن سالمٍ عن النعمان بن بشير قال: كنا قعوداً في المسجد، وكان بشيرٌ رجلاً يَكَفُّ حديثَه، فجاءَ أبو ثعلبة الخشني فقال: يا بشيرُ بنَ سعدٍ أتحفظ حديث رسول الله ﷺ في الأمراء؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبتَه، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفةُ: فذكره مرفوعاً، قال حبيب: فلما قام عمر ابن عبدالعزيز، وكان يزيدُ بنُ النعمان بن بشير في صحابته، فكتبت إليه بهذا الحديث أُذكِّره إياه، فقلت له: إني أرجو أني يكون أميرُ المؤمنين -يعني عمر- بعد الملكِ العاضِّ والجبريةِ، فأدخل كتابي على عمر بن عبدالعزيز فَسُرَّ به وأعجبه. ومن طريق أحمد رواه الحافظ العراقي في «محجة القرب إلى محبة العرب» (١٧/ ٢) وقال: «هذا حديث صحيح، وإبراهيم بن داود الواسطي وثَّقَهُ أبو داود الطيالسي وابنُ حبان، وباقي رجاله محتجٌّ بهم في الصحيح» يعني صحيح مسلم].

الحديثُ الخامسُ: «لا تقوم الساعة حتى تعودَ أرضُ العربِ مروجاً وأنهاراً» [رواه مسلم (٣/ ٨٤) وأحمد (٢/ ٣٠٧ و٤١٧) والحاكمُ (٤/ ٤٧٧) من حديث أبي هريرة].

وقد بدأتْ تباشيرُ هذا الحديثِ تتحقق في بعض الجهات من جزيرة العربِ بما أفاض الله عليها من خيراتٍ وبركاتٍ وآلاتٍ ناضحاتٍ تستنبطُ الماءَ الغزير من بطن أرضِ الصحراء.

هذا ومما يجب أنْ يعلم بهذه المناسبة أنَّ قوله ﷺ : «لا يأتي عليْكُمْ زمانٌ إلاَّ والذي بَعْده شَرٌّ منه حتَّى تَلْقوا ربَّكُمْ». رواه البخاري في «الفتن» من حديث أنس مرفوعاً.

فهذا الحديث ينبغي أن يفهم على ضوء الأحاديث المتقدمةِ وغيرها مِثلَ أحاديثِ المهديِّ ونزول عيسى عليه السلام ، فإنها تدلُّ على أنَّ هذا الحديثَ ليس على عمومه، بل هو مِنَ العامِّ المخصوصِ، فلا يجوزُ إفهامُ الناس أنَّه على عمومه، فيقعُوا في اليأسِ الذي لا يصح أن يتصف به المؤمن ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧]. أسأل الله أن يجعلنا مؤمنين به حقاً.

٢- ذمَّ اللهُ تعالى كثيراً من الأحبار والرهبان بأكلهم أموالَ الناس بالباطل:

ذمَّ اللهُ تعالى كثيراً من الأحبارِ والرهبان بأكلهم أموالَ الناس بالباطل، وصدِّهم الناسَ عن دينِ الله تعالى، وكنزهِمْ الذهبَ والفضةَ وعدم إنفاقهم إياها في سبيل الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ

وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة:٣٤].

وهذه الآيةُ تُصَغِّر هؤلاءِ الأحبارَ والرهبانَ في أعين المؤمنين، فأكْثَرُ الأحبارِ والرهبانِ فاسدون، ومقاصدُهُمْ فاسدةٌ، وأعمالُهُمْ مدخولَةٌ، فهم يجترئون على أكل أموالِ الناس بالباطل، فيأخذون الرُّشا، وبلغَ الحال بالكنيسة إلى بيع الناسِ أراضي الجنَّة وبيوتها وقُصورها، وذمَّ اللهُ تعالى الأحبارَ والرهبانَ بأنهم يمنعون الناسَ عن الدخول في دين الله تعالى، ويكنزون الأموالَ التي يجمعونها من الناسِ، أي: يخفونها، ولا ينفقونَ منها في أعمالِ الخير، ولا يعطون ذوي الحاجات، وقد أمرنا ربُّنا أن نُبَشِّرَ هؤلاءِ بالعذابِ الأليم.

وقد حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن العذابِ الأليمِ الذي يصيبهم في يوم الدين، فقال: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة:٣٥].

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ أصحاب الأموال الذين لا يؤدون زكاة مالهم يعذبون بأموالهم يوم القيامة، إذ يُحْمى ذهبُهم وفضتهم في نار جهنم ثم تكوى به جباههم وجنوبُهُمْ وظهورُهُمْ ويقالُ لهم: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

والصحيحُ مِنَ القول: أنَّ المالَ الذي تُخرجُ زكاتُه لا يدخلُ في الكنز، ولا يُسمَّى كنزاً، لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣]. وقد جاءت الأحاديث مُبيِّنةً كيف يعذَّبُ كانزُ المالِ بكنزه يومَ القيامة، فعن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «ما من صاحبِ ذهبٍ ولا فضةٍ، لا يؤدِّي منها حقَّها، إلاَّ إذا كانَ يومُ القيامةِ، صُفِّحَتْ له صفائِحُ من نارٍ، فأُحْمِيَ عليها في نارِ جهنَّمَ، فيُكْوَى بها جَنْبُهُ وجَبينُهُ وظَهْرُهُ، كُلَّما بَرَدَتْ أُعيدَتْ له في يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقْضى بينَ العبادِ، فيُرى سَبيلُهُ، إما إلى الجنةِ وإما إلى النارِ».

قيلَ: يا رسولَ الله! فالإبلُ؟ قالَ: «ولا صاحبُ إبلٍ لا يؤدِّي منها حقَّها، ومن حقِّها حَلْبُها يومَ وِرْدِها، إلا إذا كانَ يومُ القيامةِ، بُطِحَ لها بِقاعٍ قَرْقَرٍ، أوْفَرَ ما كانت، لا يَفقِدُ منها فصيلاً واحداً، تطَؤُهُ بأخْفافِها وتَعَضُّهُ بأفواهِها، كلما مرَّ عليه أولاها رُدَّ عليهِ أُخْراها[1]، في

---

(١) قوله: كلما مرّ عليه أولاها رد عليه أخراها، هو تغيير وتصحيف والصواب ما ورد في الرواية (٩٨٧) (٢٧): كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها. انظر شرح صحيح مسلم للنووي ٧/ ٦٥.

يومٍ كان مِقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقْضَى بين العبادِ، فيُرَى سبيلُهُ إما إلى الجنةِ وإما إلى النارِ».

قيلَ: يا رسولَ الله! فالبقرُ والغنمُ؟ قال: «ولا صاحبُ بقرٍ ولا غَنَمٍ لا يؤدِّي منها حقَّها، إلا إذا كان يومُ القيامةِ بُطِحَ لها بقاعٍ قَرْقَرٍ، لا يفقِدُ منها شيئاً، ليس فيها عَقْصاءُ ولا جلْحاءُ ولا عَضْباءُ تَنْطِحُهُ بقُرونِها وتَطَؤُهُ بأظْلافِها، كلما مرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أُخْراها[1]، في يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقْضَى بينَ العباد، فيُرَى سبيلُهُ إما إلى الجنةِ وإما إلى النارِ».

قيلَ: يا رسولَ الله! فالخيلُ؟ قال: «الخيل ثلاثةٌ: هي لرجلٍ وِزْرٌ، وهي لرجلٍ سِتْرٌ، وهي لرجلٍ أجرٌ، فأما التي هي له وِزْرٌ، فرجلٌ رَبَطها رِياءً وفخْراً ونِواءً على أهلِ الإسلام، فهيَ له وِزْرٌ، وأما التي هي له سِتْرٌ، فرجلٌ رَبَطَها في سبيلِ الله، ثم لم يَنْسَ حقَّ الله في ظُهورِها ولا رِقابِها، فهي له سِتْرٌ، وأما التي هي له أجرٌ، فرجلٌ رَبَطَها في سبيلِ الله لأهلِ الإسلام، في مَرْجٍ وروضةٍ، فما أكلتْ من ذلك المرجِ أو الروضةِ من شيءٍ إلا كُتِبَ له، عددَ ما أكَلَت، حسناتٌ، وكُتِبَ له عددَ أرْواثِها وأبْوالِها، حسناتٌ، ولا تقْطَعُ طِوَلَها فاسْتَنَّتْ شَرَفاً أو شَرَفَيْنِ إلا كَتَبَ اللهُ له، عددَ آثارِها وأرْواثِها، حسناتٍ، ولا مرَّ بها صاحِبُها على نهْرٍ فشَرِبَتْ منه ولا يريدُ أن يَسْقِيَها، إلا كَتَبَ اللهُ له، عَدَدَ ما شَرِبَتْ، حسناتٍ».

قيل: يا رسولَ الله! فالحُمُرُ؟ قال: «ما أُنْزِلَ عليَّ في الحُمُرِ شيءٌ إلا هذه الآيةُ الفاذَّةُ الجامِعَةُ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧-٨]» [مسلم:٩٨٧].

٣- عدة الشهور في كتاب الله تعالى اثنا عشر شهراً منها أربعةٌ حرم:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بحقيقةٍ علميةٍ كونيةٍ ماضيةٍ منذ بدءِ الخليقةِ وإلى اليوم، وهي أنَّ عدة الشهورِ عند الله اثنا عشر شهراً منذ خلقَ السمواتِ والأرضِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦].

---

(١) المصدر السابق.

والمرادُ بالشهور الاثنا عشر الشهورُ القمريةُ، وهي المحرَّمُ وصفرُ وربيعُ الأول وربيع الثاني وجمادى الأول وجمادى الثاني ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة، وقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمِهِ، وقوله: ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: هذه العدَّةُ على هذا النحو كائنةٌ منذ خلْقِهِ تعالى السموات والأرضِ وقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرمِ، ورجب الذي بين شهري جمادى وشعبان، وهذه الأشهر الأربعةُ ثلاثةٌ منها متابعةٌ متواليةٌ، وهي ذو القعدة، وذو الحجة والمحرَّمُ، وشهرٌ فردٌ، وهو شهرُ رجب.

وقد ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ تحريمَ القتال في هذه الأشهر الأربعةِ منسوخ، لأن اللهُ تعالى نهانا أنْ نظلم فيها أنفسنا، وأمرنا بقتال المشركين كافة كما يقاتلوننا كافة ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة:٣٦] واحتجَّ مَنْ ذهب هذا المذهبَ بقتالِ الرسول ﷺ في شهرِ شوَّالٍ، فلما كَسَر الرسولُ ﷺ هوازن واستفاءَ أموالهم، ورجعَ فَلُّهُمْ فلجؤوا إلى الطائفِ، عمدَ إلى الطائف فحاصرها أربعين يوماً، وانصرف ولم يفْتحها، فثبتَ أنه حاصرها في الشهر الحرام، شهر ذي القعدة، ففي حديث أنس: «ثم انطلقنا إلى الطائفِ فحاصرناهم أربعين ليلةً، ثم رجعنا إلى مكة فنزلنا» [مسلم: ١٠٥٩].

والصوابُ مِنَ القولِ: أن القتالَ في الأشهرِ الحرم لم يُنْسَخْ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة:٢] وقوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة:١٨٤].

وما احتجَّ به الذين قالوا بالنسخ من أنَّ الرسولَ ﷺ قاتلَ أهل الطائف، فإن قتالهم كان من تتمة قتالِ هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنَّهم هم الذين ابتدؤوا القتالَ، وجمعوا الرجالَ، ودعوا إلى الحربِ والنزالِ، فحاربهم الرسولُ ﷺ . وهزمهم، فلما تحَصَّنُوا بالطائفِ ذهب لينزلهم من حصونهم.

ويدلُّ لصحةِ هذا القول باستمرار حُرْمة الأشهر الأربعة قولُ الرسول ﷺ في يوم النحر عام حجة الوداع قبل وفاته بثمانين يوماً: «فإنَّ دِماءَكُمْ وأمْوالَكُمْ وأعْراضَكُمْ عليكم حرام، كحُرمةِ يومِكُمْ هذا في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُم هذا» [البخاري: ١٧٣٩] فقوله: «في شهركم هذا» أي: الشهرُ الحرام، وقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا

﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة:٣٦]، أمر اللهُ تعالى صحابةَ رسولِهِ ﷺ أنْ يقاتلوا جميعَ المشركينَ كما يقاتل المشركون جميعاً المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾ [التوبة:٣٦] أي: مع المتقين العاملين بطاعته المبتعدين عن معصيته، وهو معهم بنصره وتأييده.

٤- النسيءُ زيادةٌ في الكفر:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن النَّسِيءَ زيادةٌ في الكفرِ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٧﴾ [التوبة:٣٧].

والنسيءُ الذي هو زيادة في الكفر ما كان يفعله أهْلُ الجاهلية ظلماً وعدواناً بتأخيرِهم حرمةَ الشهرِ الحرام إلى صفر وإحلالِهم القتالَ في المحرَّم، ليوافقوا عِدَّةَ ما حرَّم الله تعالى في عدّ الأشهر الحرم أربعة، ولكنَّهم في واقع الحال يُحِلُّون ما حَرَّم اللهُ، وهو القتالُ في شهرِ الله المحرَّمِ، ويحرمون القتالَ فيما لم يحرم القتال فيه، وهو صفر.

وقد كان أهلُ الجاهليةِ كُفَّاراً، فجاؤوا بالنسيءِ، فازدادوا كفراً، وقد كان أهل الجاهلية يأتون أحَدَ رجالهم، وهو جنادةُ بنُ عوف إذا صَدَرُوا من مِنَى في حَجِّهم، فيقومُ، ويقول: أنا الذي لا أُجابُ ولا أُعابُ، ولا مردَّ لما أقول هذا العام، قد أَخَّرتُ عنكم حرمةَ المحرمِ إلى صفر فقاتلوا في المحرم، ثم حرّموا مكانه صفراً، ويأتي في العام القابل ويقول مثل مقالته: أنا الذي لا أُجاب ولا أُعاب، ولا مردّ لما أقول، قد حرّمت هذا العام محرماً وأبحت صفراً، كما هي العادة، فيحلُّ لهم المحرّم عاماً ويحرّم مكانه صفراً، ويحرّم المحرم عاماً ويترك الأشهر على حالها[1]. وهذا موافق لقوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ وموافق لقوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٣٧] [العذب النمير: ٥/ ٤٩٣].

وعن أبي بكرة أن الرسولَ ﷺ قال في ذلك العام: «الزمانُ قد استدارَ كهيئَتِه يومَ خَلَقَ السموات والأرضَ، السنةُ اثنا عَشَرَ شهراً، منها أربعةٌ حُرُمٌ: ثلاثةٌ مُتوالياتٌ: ذو القَعْدِة وذو الحِجّةِ والمُحَرَّمُ، ورَجَبُ مُضَرَ، الذي بينَ جُمادى وشَعْبانَ» [البخاري: ٣١٩٧].

---

(١) وقد قدر ربُّ العزَّة -سبحانه وتعالى- أن يعودَ الزمان في العام الذي حجَّ فيه الرسول ﷺ حجَّة الوداع كهيئته يوم خلق السموات والأرض.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: يوافقوا عِدَّةَ الأشهرِ التي حرَّمها اللهُ تعالى، فيبقوا عِدَّة الأشهر الحرمِ أربعةً، ولكنَّهم ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وذلك بإحلالهم القتالَ في شهر الله المحرَّم، وتحريمهم القتالَ في صفر، وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ [التوبة:٣٧] أي: زَيَّن لهم الشيطان أعمالَهم الضالَّةَ الفاسدةَ المخالفةَ لدين الله وشرعِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٣٧﴾ [التوبة:٣٧] أي: القومَ المصرِّينَ على الكفر والضلالِ، أيْ: لا يهدي قلوبهم إلى الإيمانِ، أما الهداية إلى الحقِّ بمعنى الدلالة إلى الحق، فقد نصبها اللهُ للناس جميعاً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذ النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- في الآية الأولى من هذا النصِّ بشارةٌ عظيمةٌ للأمة الإسلامية، وهي إرسال الله رسولَه ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلِّه، وقد تحقَّقَ وعدُ الله تعالى، ولا تزال له بقية تتحق شيئاً فشيئاً على مرِّ العصور.

٢- كثيرٌ من الأحبار والرهبان فاسدونُ ضالُّون، وقد ذمَّهم ربُّ العزَّة بأكلهم أموالَ الناس بالباطلِ، ومَنْعِهم الناسَ مِنَ الدخولِ في دينِ الإسلامِ، وكنزهم الذهبَ والفضةَ، وعدم إنفاقها في سبيل الله.

٣- الذي يكون له مالٌ ولا يؤدِّي زكاة ماله، يُعذَّبُ بذلك المالِ سواءً كان ذهباً أو فضة، أو ماشيةً، أو حبوباً وثماراً.

٤- جعل اللهُ تعالى عدة شهورِ السنة عندما خلق السماوات والأرضِ اثني عشرَ شهراً، منها أربعةٌ حرمٌ، أي: لا يجوز القتال فيها.

٥- الأشهرُ الحرمُ الأربعة التي لا يجوز القتال فيها لم تنسخ على الصحيح من أقوالِ أهل العلم، وستبقى حرمتها إلى قيامِ الساعةِ.

٦- يجوزُ أن نقاتلَ المشركين في الأشهر الحرم إذا بدؤونا هم بالقتالِ.

٧- أوْجَب اللهُ على المسلمين قتالَ المشركين كافةً إذا كان في المسلمين قُدْرَةٌ على قتالِ المشركين.

٨- تلاعبَ أهلُ الجاهليةِ في حرمةِ الأشهرِ الحرمِ، فكانوا يُحِلُّون القتالَ في المُحرَّمِ الشهرِ الحرامِ، ينقلون حرمةَ القتالِ فيه إلى شهرِ صفرٍ، وفي العام التالي يلتزمون بترك القتالِ في المُحرَّمِ وإحلاله في صفر، وهذا من التلاعب في دين الله تعالى.

النص القرآني السابع من سورة التوبة
معاتبةُ ربِّ العزة المؤمنين لتثاقُلِهمْ عن الجهاد

أولاً: تقديم

لامَ اللهُ تعالى من تباطأ عن الجهاد في غزوةِ تبوك، وتهدَّد الذين تخلَّفوا عن النفير بالعذابِ الموجعِ المؤلم، وتهددَّهم بالذهابِ بهم والإتيانِ بغيرهم، وأعلمهم أنه قادرٌ على نصر رسولِهِ من غير حاجةٍ إليهم، كما نصره في الهجرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٣٨-٤١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- معاتبةُ الله تعالى صحابةَ رسولهِ ﷺ في تثاقلِ بعضِهم عن الجهادِ:

نزلت الآيةُ الأولى من هذا النص بعدما استنفرَ الرسولُ ﷺ أصحابَهُ للخروج لغزوِ الروم في غزوةِ تبوك، فتثاقلوا، فقالَ اللهُ تعالى معاتباً لهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨].

نادى اللهُ تعالى في هذه الآية المؤمنين، فقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾، أي: ما لكم إذا دعيتم إلى الجهادِ

في سبيل الله ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: تكاسلتم ومِلْتم إلى المقامِ في الدَّعةِ والخَفْضِ وطيبِ الثمارِ، والتثاقُلُ: التكاسلُ، والتباطؤُ والتقاعسُ عن الخروجِ إلى الجهاد.

وقد عاتبَ اللهُ تعالى المؤمنين ولامهم بقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)﴾ قال اللهُ تعالى لهم: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي: أرضيتم بالحياةِ الدنيا بدلَ الآخرة، والهمزةُ في قوله: ﴿أَرَضِيتُم﴾ همزةُ إنكار، لأن أَسْفَهَ الناس هو الذي يرضى بالدنيا بدلاً من الآخرة، فالحياةُ الدنيا في الآخرة متاعٌ قليلٌ، وحطامٌ فانٍ، كما قال عبدالعزيزُ بنُ مروانَ لما حضره الموتُ يخاطب الدنيا: «أفٍّ لك من دارٍ، إن كان كثيرُكِ لقليلٌ، وإنْ كان قليلُكِ لقصيرٌ، وإن كنَّا منكِ لفي غُرورٍ» [ابن كثير: ٣/ ٣٩١].

وفي الحديث عن المستورد بن شَدَّاد أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «والله ما الدُّنيا في الآخرةِ إلا مثْلُ ما يَجْعَلُ أحدُكُمْ إصْبَعَهُ هذه -وأشار يحيى بالسَّبابَةِ- في اليَمِّ، فلْيَنْظُر بِمَ يَرْجِعُ؟» [مسلم: ٢٨٥٨].

ولقلّةِ متاع الدنيا فإنَّ أهلها عندما يبعثون يومَ الدين، يقولونَ: ما لبثنا غير ساعةٍ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الروم:٥٥]، وقال: ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمًا (١٠٤)﴾ [طه:١٠٤].

٢- تهديد الله -تعالى- المؤمنين بالعذابِ الأليم إن لم ينْفِروا:

تهدَّدَ اللهُ تعالى المؤمنين بأنْ يعذِّبهم عذاباً أليماً إنْ لم ينفروا إذا دعاهم إلى النفير، وتهدَّدهم أن يأتيَ بغيرهم يجاهدونَ في سبيلِهِ، ولن يضرَّ تخلفُهم عن الجهاد ربَّ العزةِ شيئاً، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٣٩)﴾ [التوبة:٣٩].

يقولُ اللهُ تعالى لعبادِه: إن لم تنفروا وتسارعوا إلى الخروج لجهادِ أعداءِ الله وأعدائِكم فإنَّ اللهَ تعالى يعذبكم عَذاباً مؤلماً شديداً، وقد يكونُ هذ العذابُ في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وقد يكون بتسليط عدوِّهم عليهم، فإنَّ المسلمين إذا تركوا الجهادَ في سبيلِ الله تعالى سلَّط عليهم أعداءَهم فأهانوهم، ونكَّلوا بهم، وقتلوهم، وأسروهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ تهدَّد اللهُ تعالى المتثاقلينَ عن الجهاد بأنْ يَذهبَ اللهُ تعالى بهم، ويأتي بقومٍ غيرهم، هذا كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ

بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء:١٣٣] أي: يأتي بقومٍ غيركم، لا يؤثرون الحياةَ الدنيا على الآخرة، ويسارعون إلى النفيرِ عندما يُدْعون إليه. وقد وقع هذا عبر التاريخ الإسلامي كثيراً، فقد قاتل تحت رايةِ الإسلامِ غيرُ العربِ، كالأكرادِ، والمماليك، والترك، وغيرهم.

٣- الله وحده قادر على نصرة رسوله ﷺ:

أعْلَمَ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين أنَّه غيرُ محتاجٍ إليهم لنصرةِ رسوله ﷺ، فإنه وحده قادرٌ على نُصْرَتِهِ، وإن لم يكن معه أحدٌ منهم، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٤٠].

يقولُ اللهُ تعالى لعبادِه المؤمنين إلا تنصروا رسولي، فإنني ناصرهُ وكافيه ومؤيده، كما تولَّيْتُ نَصْرَهُ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: في واقعةِ الهجرة، لما همَّ المشركون بقتلِهِ أو حبسِهِ أو نفيِهِ، فخرجَ مع صاحبه أبي بكر الصديق، فلجأ إلى غارِ ثورٍ ثلاثةَ أيامٍ، وقد وقف المشركون على الغارِ، فأعماهم الله تعالى عن رؤيته وإدراكه، فعن أنس، عن أبي بكر قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في الغارِ، فرَفَعْتُ رأْسِي فإذا بأقْدام القومِ، فقُلتُ: يا نبيَّ الله، لو أنَّ بعْضَهُمْ طأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنا، قال: «اسْكُتْ يا أبا بكرٍ، اثْنانِ اللهُ ثالِثُهما» [البخاري: ٣٩٢٢. ومسلم: ٢٣٨١].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ أي: غارِ ثورٍ، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: إذ يقولُ الرسولُ ﷺ لصاحبه أبي بكر: لا تحزن، إن الله معنا، ومن كان الله معه، لم يغلبه أحَد.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي: أنزل اللهُ تعالى سكينته، وهي الطمأْنيةُ عليه، أي: على رسولِهِ، ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهؤلاءِ الجنودُ هم ملائكةُ الرحمن الذين أنزلهم لنصرِهِ وحفظه ورعايته.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠] وكلمةُ الذين كفروا الشركُ، جعلها اللهُ -تعالى- السُّفْلى، وجعلها اللهُ تعالى السفلى بهزيمةِ أصحابها وقَمْعِهِمْ وإذلالِهِمْ، وكلمةُ الله هي العليا، وهي: لا إله إلا اللهُ، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ والعزيزُ الغالبُ الذي لا يغلبه شيءٌ، والحكيمُ: الذي يضعُ الأمورَ في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

٤- **أمر الله تعالى صحابةَ رسولِهِ ﷺ أمراً جازماً بأنْ ينفروا خِفافاً وثِقالاً:**

أمَرَ اللهُ -تعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ أن ينفروا خفافاً وثقالاً ويُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٤١].

والنفيرُ: الخروجُ في الجهاد عندما يُدْعون إليه، وقولُهُ: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فسَّرَها المفسرون بألفاظٍ متقاربةٍ، فقالوا: فقراءَ وأغنياءَ، وشباباً وشيوخاً، وفرساناً ورجالاً، ومشاغيلَ وغيرَ مشاغيل، ونشاطاً وغيرَ نشاطٍ، والمرادُ بالخفافِ الذين تَخِفُّ عليهم الحركةُ، والثقالُ: الذين يصْعبُ الحركةُ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أمرَ بالجهادِ بالمالِ والنفس، وأخبرَ تعالى أنَّ الجهادَ بالنفس والمال خيرٌ لنا في الدنيا والآخرة، فثوابُ الجهاد عظيمٌ وأجرُهُ جزيلٌ ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لَوْمُ الله تعالى الذين تَخَلَّفُوا عن الجهادِ في غزوةِ تبوك.

٢- تهديدُ الله تعالى للذين تخلفوا عن غزوة تبوك بالعذاب الموجِعِ، وتوعَّدهم أن يذهبَ بهم، ويأتيَ بغيرهم، وأعلمهم أنَّه ليس بحاجةٍ إلى جُهْدِهِمْ وجهادِهِمْ.

٣- أعلم اللهُ -تعالى- المؤمنين بقُدْرَتِهِ على نصرةِ رسولِهِ وحدَهُ، كما فعل ذلك عندما أخرجَهُ الكفارُ من مكةَ عامَ الهجرةِ، ولم يكن معه إلا صاحبُه أبو بكر، فنصرَهُ وأيَّده، وأنزل عليه ملائكتهُ وأذلَّ اللهُ الكفرَ والكافرين، وأعلى كلمةَ الدين.

٤- أمر اللهُ تعالى المؤمنين في غزوةِ تبوك أن ينفروا خفافاً وثقالاً، وأمرهم بالجهاد في سبيلِ الله بأموالهم وأنفسِهِمْ، وأخبرهم أنَّ الجهادَ خيرٌ لهم في الدنيا والآخرةِ.

النص القرآني الثامن من سورة التوبة
السببُ في عدم خروج المنافقين مع الرسول ﷺ في تبوك

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن المنافقين لم يخرجوا إلى تبوك لبُعد السفر، وأخبرنا أنهم يحلفون بالله كاذبين على عدم قدرتهم على الخروج إلى الغزو، وقد عاتب الله رسوله ﷺ في إذْنه لهم بالتخلُّف، ولو لم يأذن لهم لظهر الصادقُ مِنَ الكاذبِ منهم. وقد بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المؤمنين بالله واليوم الآخر لا يستأذنون في تركِ الغزوِ والقتالِ، لحبِّهم له، وطلبهم لأجره وثوابِهِ، والذي يستأذن في ترك الغزو والجهاد هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، الذين امتلأت قلوبهم بالشك والريب، فهم في ريبهم يتردَّدون.

ودلَّل ربُّ العزة على كذبهم فيما ادَّعَوْه أنهم لم يُعِدُّوا العدةَ للحرب والقتالِ، وأعلمنا سبحانه أنه أبغضَ خروجهم إلى الغزو، لأنهم لو خرجوا في المسلمين ما زادوا المسلمين إلا فساداً، ولألقوا فيهم الفتنَ والباطلَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة:٤٢-٤٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- السببُ الذي جعل بعض من تخلَّفَ عن غزوةِ تبوك يعتذر عن اتباع الرسول ﷺ:

بيَّن اللهُ -تعالى- السببَ الذي أدَّى إلى اعتذارِ المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة:٤٢].

يقولُ ربُّ العزَّة: لو كان الذي دعوتهم إليه منفعةً دنيويةً قريبةً غير بعيدةٍ، وسفراً قاصداً، أي: سفراً متوسطاً بين القربِ والبُعد، وكلُّ سفرٍ متوسطٍ بين الإفراطِ والتفريطِ فهو قاصدٌ، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ والشقَّةُ: السفر البعيد، والمرادُ به غزوة تبوك، فإنها كانت سفرةً بعيدةً شاقةً.

﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٤٢﴾ [التوبة:٤٢]، أي: سيحلفُ المتخلفون عن غزوةِ تبوك بالله ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ أي: لو قدرنا على الخروجِ ووجدنا ما نحتاج إليه ﴿لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ وقوله: ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: بعدم خروجهم إلى الغزو وقد حلفوا بالله كاذبين، والإهلاكُ يكون بتعذيبِ الله تعالى لهم. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٤٢﴾ في حلفهم أنهم كانوا غير مستطيعين.

٢- عتابُ الله تعالى لرسولهِ ﷺ في إذنه للمنافقين بالتخلُّف عنه:

عاتب اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ ألطَفَ عتابٍ وأرقَّه، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٣]، وقد بدأ بالعفو قبل المعاتبة، وقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾ [التوبة:٤٣]، أي: ما كان لك أنْ تأْذن لهؤلاءِ بالتخلف عن الخروج معك إلى الغزو، فإنه لو لم يأذنْ لهم بالخروج معه، لتبيَّنَ له الذين صدقوا في العذر الذي أبدوه، ولعلم الكاذبين.

وقد بيَّن ربُّ العزة سبحانه وتعالى أنه ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ٤٤﴾ [التوبة:٤٤] أخبر سبحانه أنَّ المؤمنين الصادقين الذين آمنوا بالله تعالى وباليوم الآخر لا يستأذنونك في تركِ الجهاد، لأن المؤمنين الصادقين يحبون الجهاد، ويحرصون عليه، ويسارعون إلى إتيانه وحضوره، وقتالِ أعداءِ الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ٤٤﴾ والمتقون الممتثلون لأمرِ الله تعالى، العاملون بطاعته، المجْتَنِبونَ نهيَهُ، وهو عليم بهم، لا يخفى عليه أمرُهم.

وأخبرَ ربُّ العزَّة سبحانه أنَّ الذين يستأْذنونه في التخلفِ عن الجهاد هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابتْ قلوبُهُمْ فهم في ريبهم يترددون ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ [التوبة:٤٥]. أخبر

ربُّنا العليمُ الحكيمُ سبحانَه أنَّ الذين يستأذنونه في التخلف عن الجهاد هم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليومِ الآخر، وارتباتْ قلوبهم، أي: شَكَّت، فقلوبُهُم غيرُ مطمئنةٍ إلى الإيمانِ واليقينِ، بل هي دائمةُ الترددِ والشكِّ والقلقِ، ولذا ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: فهم في شكِّهم حائرون، تارة يتقدمون، وتارة يتأخرون.

٣- لو أرادوا الخروجَ لأعدُّوا له عُدَّةً:

أخبرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن المنافقين المتخلفين عن الغزو لو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدَّةً، ولكنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- كَرِهَ خروجهم مع المؤمنين فثبَّطَهم، وقال لهم: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة:٤٦]، وقوله تعالى: ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ العُدَّةُ: ما يحتاج إليه المجاهدُ من الزاد والراحلة والسلاح، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ كره خروجهم إلى الغزوِ والقتالِ، أي: أبغضه، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: أخَّرهم، ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وقال لهم: اقعدوا مع القاعدين مِنَ النساء والأطفال وأولي الضرر من الزمني والمرضي.

ثم بيَّنَ ربُّ العزة لِمَ كَرِهَ ربُّ العزة انبعاثَهُمْ، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة:٤٧]. أي: لو خرج هؤلاء المنافقون فيكم ما زادوكم إلا خبالاً، والخبالُ: الفسادُ والنميمةُ وإيقاعُ الاختلافِ والأراجيفِ.

وقوله: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: أسرعوا بالمشي بينكم بالنميمةِ وإلقاءِ المخالفاتِ والأراجيفِ والأكاذيبِ، والإيضاعُ في اللغة: سرعةُ السير، يقولون: أوضعَ البعيرُ إذا أسرع في السير، أي: لسارعوا في إلقاءِ الفسادِ بما يختلقونه من أكاذيب ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يطلبون لكم الفتنة بما يصنعونه من التحريشِ والفسادِ، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: وفيكم من يسمعُ لهم، قال الشيخ العلاّمةُ ابنُ كثير رحمه الله تعالى: «قال محمدُ بن إسحاقَ: كان -فيما بلغني- مَنْ استأذنَ من ذوي الشرف منهم: عبدالله بن أُبَيّ ابن سلول، والجدُّ بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم، فثبَّطهم اللهُ، لعلمه بهم، أن يخرجوا معه، فيفسدوا عليه جنده، وأن في جندِه قومٌ أهل محبة لهم وطاعة فيما يدْعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ

لَهُمْ ﴾. ثمَّ أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾، فأخبر بأنه يعلَمُ ما كان، وما يكون، وما لم يكن -لو كان كيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكونُ لو خرجوا، ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٦-٦٨]، والآيات في هذا كثيرةٌ» [ابن كثير: ٣/ ٣٩٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- السبب في تخلُّف المنافقين عن الخروج مع الرسول ﷺ في تبوك أنه بَعُدَتْ عليهم الشُّقةُ.

٢- كان المنافقون يحلفون كاذبين على عدم قدرتهم على الخروج في غزوة تبوك.

٣- كان الأولى بالرسولِ ﷺ أنْ لا يأْذن لهم بالتخلف عنه، حتى يظهر الصادقُ من الكاذب.

٤- المؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر لا يستأذنون الرسولَ ﷺ في التخلف عن الجهاد، والذي يفعل ذلك هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وامتلأتْ قلوبهم ريباً وشكاً.

٥- الدليلُ الذي يَدُلُّ على كذبِ المنافقين فيما ادَّعوه من عدم القدرةِ على الخروج إلى الغزو عدمُ إعدادِهم العُدَّةَ للحربِ والقتالِ.

٦- أبغضَ اللهُ -تعالى- خروجَ المنافقين في الغزو مع المؤمنين، ولو خرجوا في جيشِ المسلمين لعملُوا على إفسادِ ما بين المسلمين، ولألقوا بينهم الفتنَ.

النص القرآني التاسع من سورة التوبة
شِدَّةُ عداءِ المنافقين للمؤمنين

أولاً: تقديم

كان المنافقون ولا يزالونُ يعملون عملَهم السيِّئ في الصفِّ الإسلامي، فهم يدبِّرون ويخطِّطون لإفسادِ الصفِّ الإسلامي، ويبتعدون عن المواطنِ ذاتِ الجُهْدِ والمالِ، وقلوبهم مملوءَة كُرْهاً للمسلمين، فما أصاب المؤمنين من خيرٍ يحزنهم، وما أصابهم من مصائب يَفرحُهُمْ، والمؤمنون في مواجهةِ المنافقين لا يضرُّهم كيدُهم، فقد انحازوا إلى ربِّهم -تبارك وتعالى- فاتخذُوه وليّاً، فاعتمدُوا عليه، وتوكَّلُوا عليه، وما يرجوه المؤمنونَ بين أمرين: إما أن ينصرَهُم اللهُ أو يختارَهم شهداء، والمنافقون كذلك بين أمرين: إما أنْ يعذِّبهم اللهُ تعالى بعذابٍ من عنده أو يعذِّبَهم بأيدي المؤمنين.

وقد أعلم الله تعالى المؤمنين أنَّ نفقاتِ المنافقين غيرُ مقبولةٍ، سواءً أنفقوها طوعاً أو كرهاً لأنهم كفروا بالله وبرسوله، وعندما يأتون الصلاة لا يأتونها إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة:٤٨-٥٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إعلامُ الله تعالى رسولَهُ ﷺ بما دَبَّر له المنافقون من قبل:

كشف اللهُ -تعالى- لرسولِهِ ﷺ بما خَطَط له المنافقون قبل غزوة تبوك، فقال: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

[التوبة:٤٨]. أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين قبل نزولِ هذه الآيات طلبوا الفتنةَ للرسول ﷺ وأصحابِهِ، وذلك بردِّ الناسِ عن الدِّينِ، وإفسادِ العلاقاتِ بين المؤمنين، وتحريشِ الكفارِ على قتالِ المؤمنين.

وقد قَلَّبُوا الأمورَ للرسولِ ﷺ، وذلك بالتفكير والتخطيطِ والتدبير لإفساد أمْرِ المسلمين، وإذهابِ قوتهم، وإغراءِ الكفارِ بقتالهم، وقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التوبة:٤٨] أي بقي هذا حالُهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ ومجيئُه بنصر الله تعالى لنبيِّه، وقتل صناديدِ قريشٍ في يومِ بدرٍ، ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: غلب دينُ اللهُ تعالى، فعند ذلك دخلَ هؤلاءِ المنافقون في دين الله ظاهراً، وأضْمَروا الكفرَ ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: كارهون لانتصارِ الإسلام، وعلُوِّ شأنِ المسلمين.

٢- طلب المنافقون من الرسولِ ﷺ أنْ يأذن لهم بالتخلفِ عن الجهاد خشيةَ وقوعهم في الفتنة:

طلب المنافقون مِنَ الرسولِ ﷺ أنْ يأذن لهم بالتخلف عن غزوةِ تبوك، وأنْ لا يفتنَهم بإلزامهم بالخروجِ معه، فأخبرَ اللهُ تعالى أنَهم بطلبهم هذا سقطوا في الفتنةِ، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ﴾ [التوبة:٤٩]، أي: يقولُ بعضهم للرسولِ ﷺ: ائذنْ لي في القعودِ، ولا تكلِّفني بالخروجِ معكَ إلى تبوك، وتوقعني في الفتنة، وقد أورد ابن كثيرٍ عن محمد بن إسحاقَ، عن الزُّهري، ويزيدِ بن رُومانَ، وعبدالله بن أبي بكر، وعاصم بن عُمَر بن قتادةَ وغيرهم قالوا: قال رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم، وهو في جِهازِهِ، للجَدِّ بن قيس أخي بني سَلِمَةَ: «هل لكَ يا جَدُّ العامَ في جِلادِ بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أوَ تأذنُ لي، ولا تَفْتنِّي، فوالله لقد عَرَف قومي ما رجلٌ أشدُّ عجباً بالنساء مِنِّي، وإنِّي أخشى إن رأيتُ نساءَ بني الأصفرِ ألاَّ أصْبِرَ عنهنّ، فأعرضَ عنه رسولُ الله ﷺ وقال: «قد أَذِنْتُ لك». ففي الجَدِّ بنِ قيسٍ نزلتْ هذه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ﴾ ... الآية، أي: إن كان إنما يخشَى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنةِ بتخلُّفه عن رسولِ الله ﷺ والرغبةِ بنفسه عن نفسه، أعظم [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٣٩٦): أخرجه الطبري في تفسيره (١٦٨٠٣) وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٤/ ٥١٦ عن غير واحد من التابعين، وله شواهد مرسلة أخرى يتأيد بها].

وهكذا رُوِي عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت في الجَدّ بن قيس، وقد كان الجدُّ بن قيس هذا من أشراف بني سَلِمة [ابن كثير: ٣/ ٣٩٦].

وعن كعب بن مالك أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لهم: «من سَيِّدُكُم يا بني سَلِمَةَ؟» قالوا: الجَدُّ بن قيس، على أنا نُبَخِّلهُ. فقال رسول الله ﷺ : وأيُّ داءٍ أدْوَأُ مِنَ البخلِ؟! ولكن سَيِّدكم الفتى الأبيض الجَعْدُ، بشرُ بن البراء بن مَعْرُورٍ [قال محقق ابن كثير: الحديث ليس في الصحيح، إنما أخرجه الطبراني في الكبير [١٩/ (١٦٣) و(١٦٤)] من حديث كعب بن مالك، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣١٥): رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير شيخي الطبراني، ولم أر من ضعفهما. وله شواهد وطرق، راجع «الإصابة» (١/ ١٥٠/ ٦٥٤) فهو حسن].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾، أي: لا مَحيد لهم عنها، ولا مَحيص، ولا مَهرب [ابن كثير: ٣/ ٣٩٦].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ والفتنةُ العظيمةُ التي سقطوا فيها هي تَخَلُّفُهم عن الجهاد، واعتذارُهم الكاذبُ لرسول الله ﷺ ، وفي قوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ فيه تهديدٌ ووعيد للمنافقين.

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾ [التوبة:٤٩]، أي: تَغْشاهُمْ النارُ من جميع الجهاتِ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩].

٣- المنافقون تسوؤهم الحسنة تصيبُ المؤمنين، وتفرحُهُم السيئةُ تصيب المؤمنين:

أخبر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ وأصحابه أنَّهم إنْ أصابتهم حسنةٌ كالنصرِ والغنيمةِ، فإنَّ ذلك يسوءُ المنافقين، وإن تصبهم مصيبةٌ يفرح لذلك المنافقون، ويقولون في فرحهم قد أخذنا أمرنا من قبل، ويتولَّوْا عن الرسولِ ﷺ وصحبه، وهم فرحون بما أصاب محمداً ﷺ وأصحابه ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠)﴾ [التوبة:٥٠].

والحسنةُ: غلبةُ المؤمنين الأعداءَ وظفرُهم عليهم، والمصيبةُ: أي ما يَحلُّ بالمؤمنين من قتل وأذى، وقولُه: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: قد احْتَطْنا لأنفسنا، وخطَّطْنا ودبَّرْنا، واستأْذنا للتخلُّفِ عن الجهادِ، فسلمنا مِنَ القتلِ والجراحِ، ويتولون عن رسولِ الله وأصحابه، وهم فرحون بمصاب الرسول وأصحابه.

وقد أمر اللهُ تعالى أنْ يَرُدَّ على هؤلاءِ بقوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ [التوبة:٥١] أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يقول

لهؤلاءِ المنافقين وأضرابهم: لن يصيبنا من الأذى والقتل والجراح والمصائب إلا ما كتبه اللهُ تبارك وتعالى لنا في اللوحِ المحفوظِ. واللهُ تعالى مولانا، أي: سيدُنا وناصرُنا ومؤيِّدُنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: توكَّلوا على الله تعالى وَحْدَه، ولا تتخذوا معه وكيلاً.

وأمر اللهُ تعالى رسوله أن يقولَ للمنافقين: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة:٥٢].

أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقولَ للمنافقين: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ والتربُّصُ: الانتظارُ، أي: هل تربَّصون بنا عواقبَ الدهْرِ ونوائِبه راجين أن تدورَ علينا الدوائر فتهلكنا، فإنكم لا تنتظرون بنا إلا واحدةً من اثنتين، كلُّ واحدة هي أحسن من الأخرى، الأولى: أن نغلبَ أعداءَنا، وينصرنا اللهُ عليهم، فنظفرَ بالنصر والغنيمة، والثانية: أن نرزق الشهادةَ في ميدانِ القتالِ، ومَنْ قُتِلَ في ميدانَ القتالِ شهيداً، فإنَّه يصبحُ عند الله حيّاً يرزق من الجنة.

وأمَرَه أن يقولَ لهم: ونحن ننتظر بكم إحدى العاقبتين السوأتين: أنْ يصيبكم الله بعذابٍ من عنده، أو يسلطنا عليكم، فنقتلكم، ويكونُ مصيركم النارَ وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: وانتظروا، فإنَّا معكم منتظرون، وسنرى لمن تكون العاقبةُ والمصيرُ الحسنُ.

٤- عدمُ قبول نفقاتِ المنافقين:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يخبر المنافقين بأنَّ ما ينفقونه مِنَ المالِ في الجهادِ وغيره، لا يقبلُه اللهُ تعالى منهم ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [التوبة:٥٣].

أمرهم أن ينفقوا طائعينَ أو كارهين، فاللهُ تعالى لن يقبلَ منهم نفقاتِهِمْ، ثم بيَّن تعالى السبب في عدمِ قبولِ نفقاتهم، أنَّهم كانوا فاسقين، أي: خارجين عن طاعةِ الله تعالى.

وقد بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ التاليةِ أنَّ فسقهم فسقٌ أكبرُ، والفسقُ الأكبرُ هنا هو الكُفْرُ، فهم يدَّعونَ الإيمانَ ظاهراً، ويبطنون الكفرَ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة:٥٤].

أَخْبر تعالى في هذه الآية أنَّ المانع مِنْ قبول نفقاتهم ثلاثةُ أمور: الأول: كفرهم بالله تعالى وبرسولِهِ ﷺ، والثاني: إتيانُهم الصلاةَ وهم كسالى، والثالثُ: عدمُ إنفاقهم رغبةً فيما عند الله تعالى، وإنما ينفقون ما ينفقون وهم كارهون.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- المنافقونَ عملوا على إيقاع المؤمنين في الفتن، وخطَّطُوا ودبَّروا لتدميرهم، حتى ظهر دينُ الله تعالى، ونصر اللهُ المؤمنين، وأذلَّ المشركين والمنافقين.

٢- اعتذَرَ المنافقون للرسولِ ﷺ عن الخروج لغزوة تبوك مدعين أنَّ خروجهم للغزو يوقعهم في الفتنة، فكانت الفتنةُ في عدمِ خروجهم للغزو.

٣- المنافقون أعداءٌ للمؤمنين، إن أصاب المؤمنين خيرٌ كالنصر والغنيمة ساءَهم، وإنْ أصابتهم مصيبةٌ كالهزيمةِ والقتل أفرحتهم.

٤- القاعدةُ عند المؤمنين أنه لا يصيبهم إلا ما كتب اللهُ تعالى لهم، وأنهم لا يرجون إلا إحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادةُ، وهم يتربصون بالمنافقين واحداً من أمرين، أن يعذب اللهُ المنافقين بعذابٍ من عنده أو بأيدي المؤمنين.

٥- الله لا يتقبلُ من المنافقين نفقاتِهم، سواءٌ كان إنفاقهم طوعاً أو كرهاً.

٦- لا يقبلُ الله تعالى نفقاتِ المنافقين لأنهم كفار بالله وبرسولِهِ، ولا يأتونَ الصلاةَ إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون.

النص القرآني العاشر من سورة التوبة
نهى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ عن أنْ يُعجَبَ بمالِ المنافقين وأولادهم

أولاً: تقديم

نهى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن تعجبَه أموالُ الكفارِ وأولادهم، فهي إلى ذهاب، وسيعذِّبون بها، وهم كارهون.

وأخبرنا ربُّنا أن المنافقين كاذبون في زعمهم أنهم من المؤمنين، وأعلمنا ربُّنا أنهم لو وجدوا مكاناً ينحازونَ إليه، ويختفون فيه لسارعوا إليه، وهم يجمحون.

ومن مصائب المنافقين الكبار أنهم يعيبون الرسولَ ﷺ في توزيعه الصدقات، وكلُّ همِّهم أن يحوزوا شيئاً من المالِ لأنفسهم.

وقد بيَّنَ اللهُ تعالى مصارفَ الصدقاتِ، وذمَّ المنافقين الذين يؤْذون النبيَّ ﷺ، وأكذبهم فيما يدَّعونه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٥٥-٦١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النص من القرآن

١- نهى اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن تعجبه أموال المنافقين وأولادهم:

نهى اللهُ -تعالى- رَسولَهُ ﷺ أن تُعجبه أموالُ المنافقين وأولادُهُمْ التي آتاهم اللهُ -تعالى- إيَاها ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ [التوبة:٥٥] فإنَّ اللهَ تعالى أعطاهم إياها

استدراجاً منه، وعاقِبَتُها سيئةٌ ووخيمةٌ عليهم في الدنيا والآخرة وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة:٥٥]. أي: يريدُ اللهُ تعالى أنْ يعذِّبَ المنافقين بأموالِهِمْ وأولادِهم في الحياةِ الدنيا، وذلك بتسليط الله المصائبَ والبلايا على أموالهم وأولادِهم، فيكونُ ذلك سببَ عذابهم، وتزْهَقُ أنفسهم، أي: يموتوا، ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فيتصل عذابهم الدنيوي بالعذاب الأُخروي.

٢- المنافقون يحلفون للمؤمنين أنهم منهم وما هم منهم:

أخبر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّ المنافقينَ يحلفونَ كاذبين أنهم من المؤمنين، وهم ليسوا من المؤمنين ولكنهم يحلفون هذه الأيمان الكاذبةَ فرقاً وخوفاً من المؤمنين حتى لا يبطشوا بهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة:٥٦].

وأخبره سبحانَه وتعالى أنَّهم ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة:٥٧]. أخبرنا ربُّ العزَّة أنَّ المنافقين لو يجدون ﴿مَلْجَـًٔا﴾ أي: حِصْناً يتحصنون به، وحِرْزاً يحْتَرِزون به ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ والمغاراتُ الثقوبُ في الجبالِ، كغار حراءَ وغار ثورٍ، ونحوهما، وقوله: ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ والمدَّخلُ الأنفاق التي تكون في باطنِ الأرض.

والمرادُ أنَّهم لو وَجدوا هذه التي ذكرها اللهُ تعالى ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: لو وجدوا شيئاً من هذه لوَلَّوا إلى الالتجاءِ إليه هرباً مِنَ المسلمين، وقوله: ﴿يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: يسرعون.

٣- لَمزُ المنافقينَ الرسولَ ﷺ في توزيعِهِ الصدقات:

أَخْبَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنَّ مِنَ المنافقينَ مَنْ يعيبُ الرسولَ ﷺ في الصدقات، أي: في توزيعه لها ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة:٥٨]. فقد كان المنافقون يعيبون الرسولَ ﷺ في توزيعِهِ الصدقاتِ، ولم يكن عيبُهم للرسول ﷺ لرغبتهم في تحقيق العَدْل، وإنما كان غَرَضُهُمْ الحصولَ على بعض مال الزكاة، فتراهم إذا أُعطوا منها رَضُوا وشَكَرُوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يَسْخَطون، أي: يثورونَ ويعيبون.

وقد بيَّن اللهُ تعالى لهؤلاءِ المنافقين كيف يكونُ المنهجُ الصحيحُ في موقفهم مِنَ الصدقات ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ

وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ [التوبة:٥٩]، أي: لو أنَّ هؤلاءِ المنافقين رَضُوْا بالنصيبِ الذي قَسَمَهُ اللهُ تعالى لهم، ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: يكفينا اللهُ ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: سيعطينا اللهُ تعالى مِنْ فضله على يَد رسولِهِ ﷺ ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: إن رغبتنا إلى الله، وهو جوادٌ كريمٌ.

وقد كان الرسولُ ﷺ يأتيه المالُ المضروبُ على الكفار جِزْيَةً فيوزِّعهُ على أصحابهِ مِنَ المهاجرين والأنصارِ، ومِنْ ذلك توزيعه مال البحرين على أصحابه، ومن ذلك أن جابرَ بن عبدالله رضي الله عنهما قال: كانَ رسولُ الله ﷺ قال لي: «لو قد جاءَنا مالُ البحرينِ قد أعطَيْتُكَ هكذا وهكذا وهكذا». فلما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ وجاءَ مالُ البحرينِ، قال أبو بكرٍ ﷺ : مَنْ كانت له عندَ رسولِ الله ﷺ عِدَةٌ فلْيَأْتِني، فأتيتُه فقلتُ: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد كانَ قال لي: «لو قد جاءَنا مالُ البحرينِ لأعطَيْتُكَ هكذا وهكذا وهكذا». فقال لي: احثُه. فحَثَوْتُ حَثْيَةً، فقال لي: عُدَّها، فعَدَدْتُها، فإذا هي خمسُ مئةٍ، فأعطاني ألفاً وخمسَ مئةٍ [البخاري: ٣١٦٤].

وعن أنسٍ: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بمالٍ مِنَ البحرينِ فقال: «انثُرُوه في المسجدِ». فكان أكْثرَ مالٍ أُتِيَ به رسولُ الله ﷺ إذْ جاءَه العباسُ فقال: يا رسولَ الله، أعطِني، إني فادَيتُ نَفْسي وفادَيتُ عَقيلاً، قال: «خُذْ» فحَثا في ثوبِه، ثم ذهبَ يُقِلُّه فلم يَستَطِعْ، فقال: اؤمُرْ بعضَهم يَرْفَعْه عليَّ، قال: «لا» قال: فارفَعْه أنتَ عليَّ، قال: «لا» فنَثَرَ منه، ثم ذهب يُقِلُّهُ فلم يرفَعْه، فقال: اؤمُرْ بعضَهم يَرفَعْه عليَّ، قال: «لا» قال: فارفَعْه أنت عليَّ، قال: «لا» فنثر منه، ثم احتَمَلَه على كاهلِه، ثم انطَلَقَ، فما زالَ يُتْبِعُه بَصَرَه حتى خَفِيَ علينا عَجَباً مِنْ حِرْصِه، فما قامَ رسولُ الله ﷺ وثَمَّ منها دِرْهَمٌ [البخاري: ٣١٦٥].

وقد لمز بعض الضالين الرسولَ ﷺ في قسمة غنائم حنين، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: «بينما نحن عند رسولِ الله ، وهو يقسمُ قِسْماً، أتاه ذو الخُوَيصِرةِ -وهو رجلٌ من بني تَميم- فقال: يا رسولَ الله، اعدِلْ. فقال: «وَيْلَكَ ومَنْ يَعْدِلُ إذا لم أعدِلْ! قد خِبْتَ وخَسِرْتَ إنْ لم أكُنْ أعدِلُ».

فقال عمرُ: يا رسولَ الله، ائذَنْ لي فيه فأضرِبَ عُنُقَه. فقال: «فإنّ له أصحاباً يَحْقِرُ أحدُكم صلاتَه مع صلاتِهم، وصِيامَه مع صِيامِهم، يَقرؤونَ القرآنَ لا يُجاوِزُ تَراقِيَهُم، يَمْرُقونَ مِنَ الدينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إلى نَصْلِه فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، ثم يُنْظَرُ إلى رِصافِهِ

فما يوجَدُ فيه شيءٌ، ثم يُنْظَرُ إلى نَضِيِّه -وهو قِدْحُه- فلا يوجَدُ فيه شيءٌ، ثم يُنْظَرُ إلى قُذَذِه فلا يوجَدُ فيه شيءٌ، قد سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ، آيَتُهم رجلٌ أسوَدُ إحدى عَضُدَيه مِثْلُ ثَدْيِ المرأةِ، أو مثْلُ البَضْعةِ تَدَرْدَرُ، ويَخْرُجونَ على حينِ فُرْقةٍ من الناسِ».

قال أبو سعيد: فأشهَدُ أني سمعتُ هذا الحديثَ من رسولِ الله ﷺ، وأشهَدُ أنَّ عليَّ ابنَ أبي طالبٍ قاتَلَهم وأنا معه، فأمَرَ بذلك الرجلِ فالْتُمِسَ، فأُتِيَ به حتى نَظَرْتُ إليه على نَعْتِ النبيِّ ﷺ الذي نَعَتَه» [البخاري: ٣٦١٠. ومسلم: ١٠٦٤. نصل السهم: هو الحديدةُ الحادة التي تثبت في رأسه، والرِّصاف: هو ما يربط حول مكان تثبيت هذه الحديدة، والنَّضِيّ فسر في الحديث بأنه القدح: وهو العود الخشبي الذي يصنع منه السهم ويوضع النصل في رأسه، والقُذذُ جمع القُذَّة: وهي الريشة التي توضع في مؤخرة السهم ليكون دقيقاً في إصابة هدفه. وقوله: «البضعة»: هي القطعةُ من اللحم. وقوله: «تَدرْدَرُ» أصله: تتدردر، ومعناه: تتحرك. تذهب وتجيء].

٤- مصارف الزكاة:

لما بيَّن الله تبارك وتعالى اعتراضَ المنافقين الجهلةِ على رسولِهِ ﷺ في قسمة الصدقاتِ، بيَّنَ اللهُ تبارك وتعالى أنَّه تولَّى قسمَها بنفسِهِ، ولم يكلها إلى أحدٍ غيرِه، فقال: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة:٦٠].

والفقراءُ جمعٌ واحدُهُ فقيرٌ، والمساكين جمعٌ واحده مسكينٌ، والذي قرَّرَه أهلُ العلم أنَّ الفقيرَ والمسكينَ إذا اجتمعا في آيةٍ كانَ لكلِّ واحدٍ منهما معنى يخصُّه، وإذا ذُكِرَ كلٌّ واحدٍ منهما في آيةٍ دخل كلٌّ منهما في الآخر، وقد اجتمعَ الفقيرُ والمسكين في هذه الآية، فلكلِّ واحدٍ منهما معنى يخصُّه، وقد اختلف أهلُ العلم أيُّهما أحوجُ الفقير أو المسكين، وذهبَ إلى كلِّ واحد مِنْ القولين طائفةٌ من أهل العلم، ولعلَّ الصواب أن الفقيرَ أشدُّ حاجة لقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف:٧٩] فسمَّاهم مساكينَ مع أنَّ لهم سفينةً، واللهُ -تعالى- أعْلم. وجامعُ الفقيرِ والمسكينِ: هو الذي لا يملك أحدهما شيئاً، أو يملك مالاً لا يفي بتمامِ حاجته.

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ هُمُ الذين يعملون على جَمْع الزكاة وتوزيعها، وهم الذين كانوا يعرفون باسم الجباةُ، وسَهْمُ هؤلاءِ في الزكاة يقدَّرُ بقدرِ أُجرةِ مثلهم، وهم يستحقون مثلَ أجرتهم، لا فرقَ في ذلك بين غنيِّهم وفقيرِهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هُمُ قومٌ يغلبُ على ظَنِّنا أنَّهم قريبونَ من الإسلامِ، وأننا إذا أعطيناهم من مالِ الزكاةِ دخلوا في ديننا. وإذا أعطيناهم من الزكاة كانوا أقرب إلى

الإيمان، أو هم قوم دخلوا في الإسلام، وفي إيمانهم ضعف، فإذا بذلنا لهم مال الزكاة حببنا إليهم الإيمان، وقد أوقف عمر بن الخطاب ﷺ العمل بمصرف المؤلفة قلوبهم، لأن الإسلامَ عَزَّ في عصره، وأصبح غير محتاج إلى من يتألف الناس عليه، ولكن لا شكَّ ولا ريب أنه قد يأتي زمان بعد ذلك نحتاج أن نتألف الناس على الإسلام.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ هو اشتراءُ العبيد المسترقِّين من أموال الزكاة، ثم إعتاقُهم، ويدخلُ فيهم المكاتبون الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:٣٣].

﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ وهم الذين يغرمون المالَ لمصلحةِ المسلمين، كالذي يتحمل المالَ العظيمَ لينفقه على القبائل التي وقعت بينها الشحناءُ والبغضاءُ، فيدفعُ منه ديَّةَ القتلى، ويغرمُ ما تحمله من المال.

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهؤلاءُ هم الغزاةُ الذين خرجوا للقتالِ في سبيل الله، وليس لهم مالٌ يأتيهم من قبل الدولة، فيُنْفق على هؤلاءِ في غَزْوِهم وجهادهم، وقد ظهر اليومُ قولٌ فاسد لبعض مَنْ ينسبُ إلى العلم، فقال: يدخُل في سبيل الله كلُّ عمل خيرٍ، وقد عاد هذا القول على تحديد المصارف في ثمانية بالإبطال، إذ لو كان معنى سبيل الله كلَّ عملِ خيرٍ، فإنه لا فائدةَ من جعل المصارفِ ثمانية.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافرُ المنقطعُ بِهِ، والسبيلُ هو الطريق، وسُمِّي المسافرُ المنقطعُ به بابنِ السبيلِ لملازمته الطريقَ، ولعدم وجود مالٍ معه ينفقه ويأكل منه ويأْوي به إلى منازل المسافرين، وقد أصبح اليومَ في بعضِ الأحوالِ عند المسافرِ قدرةٌ على اجتلابِ المالِ في سفره من بلاده بسهولةٍ ويسر، من غير احتياج إلى أموالِ الزكاة.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ [التوبة:٦٠]، أي: هذا الذي فصَّله ربُّ العزة على هذا النحو هو أمرٌ واجبٌ فرضه ربُّ العزةِ، والله تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء، ﴿حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ يضعُ الأمورَ في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

وقد اختلف أهلُ العلم في المدى الذي يجبُ فيه استيعابُ الأصنافِ الثمانية المنصوص عليها في الآية، فذهب الإمام الشافعيُّ وجماعةٌ إلى وجوبِ استيعابهم كلِّهم ما وُجِدَ منهم

أحدٌ، وذهب جماعة من السَّلف والخلف منهم مالكٌ، وعمر، وحذيفة، وابنُ عباس، وهو قول عامةِ أهل العلم إلى أنَّ الأمْر متروكٌ إلى الإمامِ، ولا يجب استيعابُ كلِّ الأصنافِ.

٥- **بعضُ المنافقين يؤذون النبيَّ ويقولون هو أذن:**

حدَّثنا ربنا -عز وجل- أنَّ بعضَ المنافقين يؤذون النبي ﷺ ويقولون: هو أُذن ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٦١] أي: ومن المنافقين قوم يؤذون النبي ﷺ، ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: مَنْ قال له شيئاً صدَّقَهُ، ومن حَدَّثه فينا صدَّقه، فإذا جِئْنا وحلفنا له صدَّقنا، وقد أكْذَبَ اللهُ تعالى هؤلاءِ المنافقين الضالّين، وقالَ لهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، فرسولنا ﷺ كان أنْبهَ الناسِ، وأعلاهم فقهاً وفهماً، فإذا جاءَه من يحدِّثه استمع إليه، ولكنَّه كان عليماً بالحقِّ والباطل الذي يحدِّث به، وعندما كان المنافقون يستأذنون منه، كان يعلم الكاذبَ منهم، ولم يكن يخفى عليه منهم شيءٌ.

لقد كان يسمع لهم، ولكنه كان يفرِّقُ بين الصادقِ والكاذب، والمحقِّ والمبطلِ، وكان رسولنا ﷺ كما وصفه ربُّه ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: كان سامعَ خيرٍ، وكان يؤمنُ بالله تعالى حقاً و﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يصدِّق المؤمنين العدولَ الأتقياءَ إذا جاؤوه بمقالةٍ، أما الكفارُ والمنافقون فلا يصدِّقهم، ولا يخفى عليه أمْرُهُم.

وكان رسولُنا ﷺ رحمةً للمؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة:٦١] ورسولُنا ﷺ كما هو رحمةٌ للمؤمنين، فهو رحمة للعالمين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وقد تهدَّد الله المنافقين والكافرين الذين يُؤْذون رسولَ الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٦١].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- نَهَى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يَعْظُمَ المنافقون في نفسه بسبب ما أعطاهم اللهُ تعالى مِنَ مالٍ وولدٍ، فإنَّ عاقبة أموالهم وأولادهم تؤول إلى عذابٍ وخسران.

٢- المنافقون كاذبون، يحلفون الأيمان الكاذبةَ مدعين أنَّهم مؤمنون، والحقُّ أنهم كاذبون فيما يدَّعونه.

٣- لو وَجَدَ المنافقون مكاناً يلجؤون إليه بعيداً عن المؤمنين لأسرعوا إلى الالتجاءِ إليه.

٤- بعضُ المنافقين يعيبُ الرسولَ ﷺ في طريقةِ قسمتِهِ الصدقاتِ، وهم كاذبون فيما يزعمونه من نصحهم لَهُ، فإنَّ القضيةَ عندهم أنهم يريدون حيازةَ مالِ الزكاة، ولا يهمهم أمرٌ غير ذلك.

٥- كان الواجبُ على هؤلاءِ الذين يلمزون الرسولَ ﷺ في الصدقاتِ أن يرْضَوْا بما آتاهم الرسولُ ﷺ من المال، ويقولون: كافينا ربُّنا -تبارك وتعالى- سيُؤْتينا ربُّنا تبارك وتعالى مِنْ فضلِهِ ورسولُهُ.

٦- بيَّن اللهُ تعالى أنَّ المصارف التي تصرفُ فيها الزكاةُ الواجبة ثمانية: الفقراءُ، والمساكينُ، والعاملونَ عليها، والمؤلفة قلوبهُمْ، وفي الرقابِ، والغارمونَ، وفي سبيلِ الله، وابن السبيل.

٧- المرادُ في سبيلِ الله تعالى الجهادُ في سبيل الله، لا أعمالُ الخير كلِّها.

٨- بعضُ المنافقين يُؤْذون رسولَ الله ﷺ ، ويقولون: هو أذن يسمعُ لكلِّ مَنْ حَدَّثه، ويُصدِّقُهُ، وقد أكذبهم ربُّ العزة -تبارك وتعالى- فيما ادَّعوه وزعموه.

النص القرآني الحادي عشر من سورة التوبة
صورة المنافقين صورةٌ سيئةٌ خبيثةٌ

أولاً: تقديم

أعْلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقينَ يُكْثرون من الحلفِ للمؤمنين ليرضوهم، وكان الأحرى بهم أن يُرْضُوا اللهَ ورسولَه إنْ كانوا مؤمنين، وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذين يشاقُّون اللهَ ورسولَهُ، فلهم نارُ جهنَّم، وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المنافقين يَحْذرون أن يُنَزِّل اللهُ عليهم سورةً تكشف أسرارهم، وتفضحُ أخبارَهم، وقد وقع ما كانوا يحذرون منه بإنزال الله هذه السورةِ التي فضحتهم وهَتكت أستارهم.

وقد عابَ المنافقونَ الرسولَ ﷺ وأصحابَه، فلما وُوجِهُوا بها قالوه، زعموا معتذرين أنّهم كانوا يخوضونَ ويلعبون، فوبِّخوا توبيخاً شديداً، وقيلَ لهم: أكنتم تخوضون وتلعبون وتستهزئونَ بالله ورسولِهِ، وقد حَكَمَ اللهُ تعالى على من قام بمثلِ ما قاموا بالكفر.

وأعلمنا اللهُ ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ المنافقينَ قائمونَ على الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وهم بخلاءُ تركوا أوامر الله وشرعِهِ، فتركهم ربُّ العبادِ، وتخلّى عنهم، وأخيراً أعلمنا ربنا عزَّ وجلَّ أنّه وَعَدَ المنافقين والكفارَ نارَ جهنمَّ، وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ النارَ هي حسبُ المنافقين والكفارِ، وأعلمنا أنّه سبحانه طردهم من رحمته، ولهم عذاب مقيم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة:٦٢-٦٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المنافقون يحلفون للمؤمنين ليرضوهم واللهُ ورسولُهُ أحقُّ أن يُرضوه:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المنافقين يحلفونَ بالله كاذبين، ليُرْضُوا المؤمنين، واللهُ ورسولُه أحقُّ أنْ يرضوه إنْ كانوا مؤمنين، ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة:٦٢]. واكتفى في الآيةِ بالضمير الواحد ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ لأنَّ إرضاءَ الله إرضاءٌ لرسوله، وإرضاءُ الرسولِ ﷺ إرضاءٌ لله، ورجوع الضمير على أحد المتعاطفين اكتفاءً به أسلوب معروفٌ كثيرٌ في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة:٣٤]، وقوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة:٤٥]، وقوله: ﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ ولكنهم لم يكونوا مؤمنين.

٢- الذي يحادِدِ اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ فله نارُ جهنَّم خالداً فيها:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه من يحادِدِ اللهَ ورسولَه فله نارُ جهنَّمَ خالداً فيها، ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة:٦٣]، قوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ أي: عَلِموا، أو هو استفهام تقريرٍ، أي: أنَّ السامع إذا سمع قوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ قال: بلى نَعْلَم أنه من يحادد الله ورسولَهُ فإنَّ له نارَ جهنَّم، أي يشاقق اللهَ ويعاصيه، والمحادَّة من الحدِّ، لأن المحادَّ يكون في الحدِّ الذي ليس فيه من حاده، وتقول فلانٌ مشاقٌّ لفلان، أي: مشاقٌّ له ومعادٍ لَهُ، وقولُهُ: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أضاف النارَ إلى جهنم، لأنَّ جهنَّم طبقةٌ من طبقاتِ النار.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ أي: خلودُهُم في النارِ هو الذلُّ الأكبرُ والهوانُ الأعظم، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة:٢٠].

والخلودُ في النار خلودٌ أبدي سرمديٌّ، لا ينتهي، ولا يتوقفُ قال تعالى: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر:٣٦]، وقال: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء:٩٧].

٣- خوفُ المنافقين وخشيتُهم من إنزال الله تعالى سورة تفضحُ وتكشفُ ما في قلوبهم:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المنافقين كانوا يخشون ويخافون أن تُنزَّلَ في شأنهم سورةٌ تكشفُ ما في قلوبهم، وتفضحُ أسرارهم ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤].

بيَّن اللهُ تعالى أن المنافقين كانوا في غايةِ الخوفِ والقلقِ والحذرِ من أنْ ينزل اللهُ على نبيه قرآناً يكشف به أسرارَهُمْ، ويفضحُ ما تنطوي عليه ضمائرُهُمْ من الكفر والنفاقِ والباطل.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: إنَّ اللهَ تعالى مخرجٌ لنبيِّه ما تسرُّونَهُ وتبطنونَهُ، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ يدلُّ على أنَّ النبيّ ﷺ لم يكن يعلم بعضَ ما أنزل اللهُ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ [التوبة:١٠١]. ووعد الله تعالى رسولَهُ أن يُعرِّفه بالمنافقين ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد:٣٠].

وقد أطْلع اللهُ تعالى نبيَّهُ على المنافقين، وعرَّفه بهم، وأطلع النبيُّ صاحبَهُ حذيفةَ بن اليمانِ على أسماءِ بعضٍ منهم، وقوله تعالى: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: سينزل على رسولِهِ ما يفضحكم بِهِ، ولهذا سمَّى الصحابةُ هذه السورة الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين.

٤- اعتذارُ المنافقين عن بعض ما قالوه من الكفر بقولهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ﴾:

قال بعضُ المنافقين في تبوكَ قولاً خبيثاً، فلما سألهم الرسولُ ﷺ عما قالوه، اعتذروا عذراً أقبح مِنَ الذنب، فقالوا معتذرين: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ﴾، فأمر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يردَّ عليهم رَدّاً قويّاً عنيفاً بقوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة:٦٥] وأمره أنْ يقول لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة:٦٦].

نزلت الآيتان السابقتان في غزوةِ تبوك في قوم استهزؤوا بالرسولِ ﷺ ، واستَخفُّوا به، فسألهم الرسولُ ﷺ ، فاعتذروا اعتذاراً كاذباً، وقالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ﴾ فأمره اللهُ تعالى أنْ يقولَ لهم: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ الاستهزاءَ باللهِ وآياتِهِ ورسولِهِ كفرٌ بواحٌ لا عذر لصاحبه ألْبَتَّة.

وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة:٦٦] أي: إن نعفُ عن طائفةٍ مِنَ الذين قالوا هذه المقالة، واعتذروا بذلك العذر، نعذِّبْ طائفةً أُخرى، لأنهم كانوا مصرِّينَ على باطلهم ونفاقهم، ويدلُّ قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ على أنَّ المُصِرَّ على الكفرِ والنفاقِ من غير إقلاعٍ ولا توبةٍ مجرمٌ، والمجرمُ مرتكبُ الجريمةِ، والجريمةُ الذنب العظيم الذي يستحقُّ صاحبه النَّكالَ العظيمَ.

٥- المنافقون والمنافقات يشكّلون وحدةً فيما بينهم:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المنافقين والمنافقات يشكِّلون فيما بينهم وَحْدَةً ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة:٦٧].

والمرادُ بالمنافقين الذين يظهرون الإيمانَ مِنَ الذكور، والمنافقاتُ الإناثُ من أهل النفاق، وقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ أي: أنَّ بعضَ المنافقين من بعضٍ، وليسوا منكم كما يدَّعون، لأنَّ المنافقين والمنافقاتِ أخلاقُهم واحدةٌ، وعقائدهم واحدةٌ، وقد حَدَّد اللهُ تعالى أهمَّ ركيزتين يتصف بهما أهل النفاقِ، وهما أمرهم بالمنكر، ونهيهم عن المعروف ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهاتان الركيزتان مخالفتان لما يتصفُ به المؤمنون، فالمؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والمنكرُ ما أنكره الشرع، ولم يأْذنْ فيه، والمعروفُ: ما عَرَفَهُ الشرعُ، ودعا إليه، وأمر به.

وقوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ﴾ المرادُ بقبضهم أيديهم أنَّهم بخلاء، فهم لا يزكُّون، ولا ينفقون، وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ أي: تركوا أوامرَ الله وارتكبوا مناهيه، ﴿فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ أي: تركهم من كلِّ خير ومن كلِّ ثواب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله تعالى وإن زعموا كاذبين أنَّهم مؤمنون موحِّدون.

وتهدَّد الله تعالى المنافقين والمنافقاتِ وتوعَّدهم فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة:٦٨].

وَعَدَ اللهُ تعالى المنافقين والمنافقاتِ والكفارَ بإدخالهم في نارِ جهنَّم خالدين فيها، والأمرُ الجامعُ للمنافقينَ والكفارِ هو الكفرُ، والفارقُ بينهم أنَّ المنافقين يُسِرُّون الكفرَ، والكفارُ

يعلنونه، وقوله تعالى: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: هي كافيتهم مِنَ العقابِ، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طَرَدَهُم وأبعدهم من رحمته، واللعنةُ في الشرع: هي الطردُ والإبعادُ عن رحمة الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨)﴾ أي: عذابٌ دائم، لا يزولُ، ولا يحولُ، ولا ينقطعُ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- يحلفُ المنافقون بالله كاذبين ليُرْضُوا المؤمنين غير مبالين برضا الله ورضا رسوله ﷺ.

٢- الذين يحادُّون اللهَ ورسولَه لهم نار جهنَّم ولهم خزي عظيم.

٣- المنافقون يخافون أن ينزِّلَ اللهُ فيهم سورةً تكشف أسرارهم، وتعلن أخبارهم.

٤- يعيب المنافقون الرسولَ ﷺ وأصحابه، ويطعنون فيهم، وعندما يسألون عما يقولون يزعمون أنهم كانوا يخوضون ويلعبون، فيوبَّخون ويؤنبون، ويقال لهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥)﴾.

٥- الذي يهزأُ بالله ورسولِهِ وآياتِهِ كفارٌ خارجون عن شريعةِ الله.

٦- المنافقون والمنافقاتُ بعضهم أولياءُ بعضٍ، ووحدتهم قائمةٌ على الأمر بالمنكرِ والنهي عن المعروفِ، وهم بخلاءُ، لا يزكُّون، ولا ينفقون، نسوا أمْرَ الله، فتركهم وتخلَّى عنهم.

٧- وَعَدَ اللهُ تعالى المنافقين والكفارَ نارَ جهنَّم، لأنَّهم جميعاً كفارٌ، فالنارُ حسبهم، وقد طردهم من رحمته، وأعدَّ لهم عذاباً دائماً.

النص القرآني الثاني عشر من سورة التوبة

تهدَّد اللهُ تعالى المنافقين والكفارَ أنْ يفعل بهم فعل الأمم المكذِّبة من قبلهم

أولاً: تقديم

تهدَّدَ ربُّ العزة -سبحانه- الكفارَ والمنافقين أنْ يفعل بهم فعلَ الذين خَلَوْا من قبلهم الذين كذَّبوا رسله، مثلَ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقوم إبراهيم وأصحابِ مدين وقومِ لوط، وأثنى الله تعالى على المؤمنين والمؤمنات وأعلمنا أنَّهم وحدةٌ واحدةٌ، يأْمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ووعدهم ربُّ العزة جناتٍ تجري من تحتها الأنهار.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٦٩-٧٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تهديدُ الله تعالى الكفارَ والمنافقين بأنْ يفعل بهم فعلَ الذين كفروا:

تهدَّدَ اللهُ تعالى الكفارَ والمنافقين في العهد النبويِّ بأن يفعل بهم فعلَ من كان قبلهم، وقد كانوا أشدَّ قوةً وعتاداً وأموالاً، قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً

﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [التوبة:٦٩]، والكافُ في قولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ اسم بمعنى مثل في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، والمعنى: أنتم أيها الكفارُ والمنافقون مثلُ الذين كانوا من قبلكم، والذين من قبلهم الأمم التي كذَّبت رسلها كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وغيرهم.

وقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [التوبة:٦٩] أي: كانت تلك الأممُ التي قبلهم أقوى أجساداً، وأطولَ أعماراً، وأكثرَ أموالاً وأولاداً، ومع ذلك أهلكهم اللهُ ودمَّرهم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة:٦٩] والمعنى أنَّ الكفارَ السابقين تمتَّعوا بنصيبهم وحظِّهم الدنيويِّ الذي أعطاهم اللهُ إياه استدراجاً لهم، والخلاقُ: النصيبُ، وكذلك فعل الكفار والمنافقون في العهد النبويِّ، ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: استمتعم أيها الكفار والمنافقون بنصيبكم الدنيويِّ، مؤثرين الدنيا على الآخرة، ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: فعلتم فعل الذين من قبلكم، ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ أي: خضتم في الباطلِ والكفرِ وتكذيبِ الرسلِ مثل خوضِ الذين خاضوا من قبلكم، وأصلُ الخوض في الماءِ، ولا تطلق العربُ الخوضَ إلاَّ على الخوضِ بالباطل.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة:٦٩] وحبوطُ الأعمالِ بطلانها واضمحلالُها حتى لا يظهرَ لها أثر ينتفعون به يوم القيامة، والحَبَطُ نَبْتٌ يَنْبُتُ في الباديةِ إذا أكلته الدوابُّ، انتفخت بطونها وماتت، وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: أولئك هلكت حظوظهم عند ربِّهم، ومن خسر حظَّه عند ربِّه، فقد خسر الخسرانَ المبين.

٢- ضرب اللهُ تعالى المثلَ للمنافقينَ والكافرينَ بالأممِ المعذَّبة من قبلهم:

ضَرَبَ اللهُ تعالى المثَلَ للكافرين والمنافقينَ بالأقوامِ الذين كفروا على مدارِ التاريخ الإنسانيِّ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة:٧٠]. يقولُ اللهُ تعالى للمنافقين والكافرين واعظاً لهم: قد جاءَهم نبأُ الذين من قبلهم، وذكر منهم قومَ نوحٍ الذين كفروا وكذَّبوا فأغرقهم اللهُ تعالى بالطوفان،

وقوم عاد، وقد أرسل الله تعالى إليهم هوداً، وكانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية، فكذبوا رسولَهم فأخذتهم الريحُ العقيمُ، وثمودَ وكانوا يسكنون شمالَ الجزيرة العربية، فأرسل الله تعالى إليهم رسولَهُ صالحاً، فكذَّبوه، فأخذتهم الصيحةُ وأهلكَ الله تعالى قومَ إبراهيم، وقد أرسله اللهُ تعالى إلى أهل العراق إلى نمرود وقومه، فأهلك الله نمرودَ ودمره.

وأهلك اللهُ تعالى أصحابَ مَدْيَنَ، فقد أرسل اللهُ تعالى إليهم شعيباً فأخذتهم الرجفةُ والصيحةُ وعذابُ يوم الظلَّةِ، وأهلك اللهُ تعالى المؤتفكاتِ، وهم قومُ لوطٍ، وقد دمَّرَ اللهُ قراهم عن آخرها، لتكذيبهم نبيَّهم لوطاً عليه السلام، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ [التوبة:٧٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة:٧٠]. أي: جاءَتهم رسلُهُمْ بالحجج والدلائل القاطعاتِ ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي: بإهلاكِه إياهم، لأنه أرسل لهم الرسلَ، وأنزلَ عليهم الكتب، وآتاهم البينات والحجج الواضحاتِ، وظُلْمُهُمْ أنفسهم كان بتكذيبهم الرسلَ ومخالفتهم الحقَّ الذي أنزله الله تعالى إليهم.

٣- صفاتُ المؤمنين الموحدين:

بيَّن اللهُ تعالى فيما سبقَ صفاتِ المنافقين الخبيثةِ، ثم أتبع ذلك بذكر صفاتِ المؤمنين الطيبة المحمودةِ، فقال: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن المؤمنين والمؤمنات يشكِّلون وحدةً واحدةً، ولذلك قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾، وإذا أنت دققت النظر في حال المؤمنين وَجَدْتهم متحدين متوادِّين متحابين، فالدين يجمعهُمْ، والإيمانُ يوحِّدهم، وأعظم الركائز التي يتصفون بها أنهم يأمرونَ بالمعروف، وينهون عن المنكرِ، ويقيمونَ الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعونَ اللهَ تعالى ورسولَهُ، والمعروف ما جاء به الشرعُ مِنَ التوحيد والأعمالِ الصالحة، والمنكرُ ما ينكره الدين مِنَ الكفر والشركِ والذنوبِ والمعاصي، وخصَّ الصلاةَ والزكاةَ بالذكر، لأنهما أعظمُ عبادتين، وذكر اللهُ تعالى أنَّ المؤمنين يطيعونَ اللهَ تعالى ورسوله ﷺ، والذين يفعلون

ذلك كلّه ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ أشار اللهُ تعالى إلى المؤمنين والمؤمناتِ باسم الإشارة الموضوع للبعيد، لرفعة منزلتهم وعظيم كرامتهم، وقوله تعالى: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ﴾ أي: سيدخلُهُم في رحمته تعالى. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ والعزيز: القويُّ الذي لا يُغْلَبُ، والحكيمُ، أي: في أقواله وأفعاله.

وقد جاءَت عدة أحاديث تدلُّ على قوة العلاقة فيما بين المؤمنين، فمن ذلك ما رواه أبو موسى عن النبيِّ ﷺ قال: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ، يشُدُّ بعضُهُ بعضاً» [البخاري: ٢٤٤٦. ومسلم: ٢٥٨٥].

وعن النعمان بن بشيرٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «تَرَى المؤمنين في تراحُمِهم، وتوادِّهم، وتعاطُفِهِمْ، كمَثَلِ الجسد، إذا اشْتكى عُضْو، تداعى له سائرُ جَسَدِه بالسَّهرِ والحُمَّى» [البخاري: ٦٠١١. ومسلم: ٢٥٨٦].

٤- ما وعد به ربُّ العزة المؤمنين والمؤمنات في الآخرة:

وَعَدَ اللهُ -تعالى- المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٧٢] وقد وصف ربُّ العزة الجناتِ التي وعدها المؤمنين والمؤمنات بأربعِ صفاتٍ: الأولى: جَريانُ الأنهارِ من تحت قصورها وبساتينها. والثانية: أنهم خالدون في تلك الجناتِ، لا يرحلونَ عنها، ولا يظعنون. والثالثة: لهم فيها مساكنُ طيبةٌ، وهذه المساكنُ قصورٌ من ذهبٍ وفضةٍ، وقد تكونُ من لؤلؤ، ولذلك قال الله تعالى فيها ﴿طَيِّبَةً﴾. والرابعةُ: أنها دارُ عدنٍ، أي: دارُ الجناتِ الدائمة غير المنقطعة.

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾ أي: أن رضوان الله تعالى أعظمُ من كلِّ شيءٍ، وأنَّ رضوان الله تعالى مهما كان قليلاً، لا يساويه شيءٌ، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ والمشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكره الله تعالى من الجناتِ وما فيها من النعيم، وهذا الذي حازه المؤمنون هو الفوزُ العظيمُ.

وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ في وصف الجناتِ التي تجري من تحتها الأنهار، منها ما رواه أبو بكر بن عبدالله بن قيسٍ، عن أبيه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنةِ خيمةً من لؤلؤةٍ مُجوَّفةٍ، عَرْضُها سِتُّونَ ميلاً، في كل زاويةٍ منها أهلٌ، ما يرونَ الآخرينَ، يطوفُ عليهمُ المؤمنونَ» [البخاري: ٤٨٧٩].

«وجنَّتانِ من فضةٍ آنِيَتُهما، وما فيهما، وجنَّتان من كذا آنِيَتُهما وما فيهما، وما بينَ القومِ وبين أن ينظروا إلى ربِّهم، إلا رِداءُ الكِبْرِ على وجهه في جنةِ عدنٍ» [البخاري:٤٨٨٠].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «من آمَنَ بالله وبرسولِهِ، وأقامَ الصلاةَ، وصامَ رمضانَ، كان حقاً على الله أنْ يُدخِله الجنَّةَ، جاهَدَ في سبيلِ الله أو جَلَسَ في أرضِه التي وُلِدَ فيها» فقالوا: يا رسولَ الله، أفلا نُبشِّرُ الناسَ؟ قال: «إنَّ في الجنَّةِ مئةَ درجةٍ أعَدَّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيلِ الله، ما بينَ الدرَجَتَينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ، فإذا سألتُمُ اللهَ فاسألُوه الفِرْدَوْسَ، فإنه أوسَطُ الجنةِ، وأعلى الجنةِ -أُراه: فوقَه عَرْشُ الرحمنِ- ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنةِ» [البخاري: ٢٧٩٠].

وعن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة لشجرةً يسيرُ الراكِبُ الجَوادَ المُضَمَّرَ السريعَ مئةَ عامٍ ما يَقْطَعُها» [البخاري: ٦٥٥٣].

وعن سَهْلٍ، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أهلَ الجنةِ ليَتَراءَوْنَ الغُرَفَ في الجنةِ، كما تتراءَوْنَ الكَوْكَبَ في السماءِ» [البخاري: ٦٥٥٥].

وقال أُبَيٌّ: فحدَّثتُ النُّعْمانَ بنَ أبي عَيّاشٍ، فقال: أشهَدُ لسمعتُ أبا سعيدٍ يُحدِّثُ ويزيدُ فيه: «كما تَراءَوْنَ الكَوْكَبَ الغاربَ في الأُفُقِ الشرقِيِّ والغربيِّ» [البخاري: ٦٥٥٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- تهَدَّدَ ربُّ العزَّةِ المنافقين والكفارَ أن يفعل بهم مثلَ ما فعل بالمعذبين مِنَ الأُممِ السابقة المكذِّبةِ لرسلها، وقد كان السابقون أكثرَ قوةً وأموالاً وأولاداً.

٢- ضربَ المثلَ للأمم المعذَّبة بقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ إبراهيم وأصحابِ مدين والمؤتفكاتِ وهم قومُ لوط ﷺ .

٣- أثنى اللهُ تعالى على المؤمنين والمؤمناتِ، فهم يشكِّلون وحدةً واحدة، ويأمْرون بالمعروفِ، وينهونَ عن المنكرِ، ويقيمونَ الصلاةَ، ويؤتون الزكاةَ، ويطيعونَ الله ورسولَهُ.

٤- وَعَدَ اللهُ المؤمنِين والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، وقد وصف اللهُ تعالى هذه الجناتِ بأربعِ صفات كما سبق بيانه.

النص القرآني الثالث عشر من سورة التوبة
أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يجاهدَ الكفارَ والمنافقينَ ويَغْلُظَ عليهم

أولاً: تقديم

أمر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه الآياتِ أن يجاهدَ الكفار بالقولِ والفعلِ، وتوعَّدهم بالنار، وبئس المصير. وذمَّ اللهُ -تعالى- المنافقين بحَلفهم كاذبين متبرئين مما قالوه من الكفر، وبيَّنَ ربُّ العزة أنَّهم قالوا ما قالوه من الكفر، وذمَّهم بأعمالهم التي عملوها.

وذمَّ فريقاً آخر منهم عاهدوا الله تعالى أنه إذا أعطاهم من فضله، أي: مِنَ المالِ والغنى، فإنَّهم سينفقون ويتصدقون، فأخلفوا اللهَ ما وعدوه، وبخلوا بما أعطاهم ربُّ العزة، فأعقبهم نفاقاً إلى يوم القيامةِ.

وذمَّ الذين يعيبون المؤمنين فيما يؤْتونَهُ من المالِ القليل الذي يَجدونه، وأعلم أنهم يسخرونَ من هؤلاء، فأعلمنا اللهُ سبحانه أنَّه سَخِرَ منهم، وأنَّ لهم عذابٌ أليمٌ موجعٌ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة:٧٣-٧٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ الله تعالى رسولَهُ ﷺ بجهادِ الكفار والمنافقين:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يجاهد الكفارَ والمنافقين وأنْ يَغلِظَ عليهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [التوبة:٧٣] وجهادُ الكفار والمنافقين قد يكونُ

باللسانِ وقد يكون بالسنانِ، والغلظةُ: الشدةُ عليهم بالتعنيفِ والتوبيخ، وقد تكونُ الغلظةُ بالحربِ والقتال.

وقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ أي: الدارُ التي تؤويهم يومَ القيامة هي النار، لا دارَ لهم غيرها، وهذه الدارُ أقبحُ دارٍ، وأشدُّها هولاً، ولذلك قال فيها: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

٢- ذمُّ اللهُ تعالى المنافقين أعظم ذمٍّ:

ذمَّ اللهُ تعالى المنافقين الذين خرجوا معه في غزوةِ تبوك، فقال فيهم: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة:٧٤].

أعْلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين الذين كانوا في جيشِ المسلمين في غزوةِ تبوك كانوا يحلفون بالله ما قالوا ما قالوه من الكفر والباطل، وأخبر العليمُ الحكيم الصادقُ سبحانه أنهم ﴿قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ .

وقد جاء في كتب السنّة أحاديثُ صحيحة عن هؤلاء المنافقين الذين كانوا في جيش المسلمين في تبوك، وكيف أنهم أرادوا قَتْلَ الرسولِ ﷺ في تلك الغزوةِ، عن أبي الطُّفيل قال: لما أقبلَ رسولُ الله ﷺ من غزوة تبوكَ، أمر منادياً فنادى: «إنَّ رسولَ الله أخذَ العقبةَ فلا يأخُذْها أحَدٌ». فبينما رسولُ الله ﷺ يقودُه حذيفةُ ويسوق به عَمّارُ، إذ أقبل رَهْطٌ متلثمون على الرواحلِ، فغَشُوا عَمّاراً وهو يسوقُ برسولَ الله ﷺ وأقبلَ عمارٌ ﷺ يَضْرِبُ وجوهَ الرواحلِ، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قُدْ، قُدْ» حتى هبط رسول الله ﷺ ، فلما هبط رسول الله ﷺ نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمارُ، هل عرفتَ القومَ؟» فقال: قد عرفت عامةَ الرواحل، والقومُ متلثِّمونَ. قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «أرادوا أن يَنْفِروا برسول الله ﷺ راحلته فيطْرَحُوهُ» قال: فسأل عمارٌ رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فقال: نَشَدْتُكَ بالله كم تعلمُ كان أصحابُ العقبة؟ قال: أربعةَ عَشَرَ. فقال: إن كنتَ فيهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذرَ رسولُ الله ﷺ منهم ثلاثةً قالوا: والله ما سمعنا مناديَ رسولِ الله، وما علمنا ما أرادَ القومُ. فقال عمّارُ: أشهدُ أن الاثني عَشَرَ الباقين حربٌ لله -عزَّ وجلَّ- ولرسولِهِ

في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٤١٤) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٣-٤٥٤) من حديث أبي الطفيل الليثي، وقال الهيثمي في المجمع ٦/ ١٩٥: رجاله ثقات، وهو كما قال، لكن الوليد فيه لين، وهو من رجال مسلم].

وعن قيس بن عباد، عن عمار بن ياسر قال أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ قال: «في أصحابي اثنا عَشَرَ مُنافِقاً، فيهِمْ ثمانيةٌ لا يدخُلُونَ الجنةَ حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سُمِّ الخِياطِ، ثمانيةٌ منهم تَكْفيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ وأربعةٌ» لم أحفظ ما قالَ شُعْبَةُ فيهمْ [مسلم: ٢٧٧٩ (٩)]. وسمُّ الخياطِ: ثُقْبُ الإبرة، والدُّبَيْلَةُ: سراجٌ من نار.

وقال غُنْدَرٌ: أُراهُ قال: «في أُمَّتي اثنا عشر مُنافِقاً لا يدخلون الجنةَ، ولا يجدون ريحها، حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سِمِّ الخِياطِ، ثمانيةٌ منهم تكفيكَهُمُ الدُّبيْلَةُ، سراجٌ من النارِ يظهرُ في أكتافِهِمْ، حتى يَنْجُمَ من صُدورِهِمْ» [مسلم: ٢٧٧٩ (١٠)].

وعن أبي الطُّفَيْلِ قال: كان بين رجلٍ من أهلِ العقبةِ وبين حُذيفَةَ بعضُ ما يكونُ بين الناسِ، فقالَ: أَنْشُدُكَ باللهِ! كم كان أصحابُ العقبةِ؟ قال: فقالَ له القومُ: أَخْبِرْهُ إذ سألكَ، فقال: كنا نُخْبَرُ أنهم أربعةَ عَشَرَ، فإن كنتَ منهم فقد كان القومُ خمسةَ عشر، وأشهدُ باللهِ أنَّ اثني عَشَرَ منهم حربٌ للهِ ولرسولِهِ في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ، وعَذَرَ ثلاثةً، قالوا: ما سمعنا مناديَ رسولِ اللهِ ﷺ ولا علِمنا بما أرادَ القومُ، وقد كان في حَرَّةٍ فمشى فقال: «إنَّ الماءَ قليلٌ، فلا يسبِقُني إليه أحدٌ» فوَجَدَ قوماً قد سبقوهُ، فلعنهم يومئذ [مسلم: ٢٧٧٩ (١١)].

وقوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾ يعني المنافقينَ الذين أرادوا قتلَ الرسولِ ﷺ في أثناء عودته من غزة تبوك، وكانوا اثني عشرَ رجلاً كما سبق بيانه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ [التوبة:٧٤]. وهؤلاءِ المنافقونَ كانوا عالةً فقراءَ، فأغناهم اللهُ تعالى ورسولُهُ ﷺ من فضلِهِ، أي: وسَّعَ اللهُ عليهم في أرزاقهم، وكثَّر أموالَهم، وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾ [التوبة:٧٤]، أي: وإن يُعْرِضوا عن الإيمانِ باللهِ تعالى والتوبةِ إليه، يعذِّبهم اللهُ تعالى عذاباً موجعاً في الدنيا والآخرة، ولا يوجدُ لهم في الدنيا وليٌّ يتولاهم، ولا نصيرٌ يناصرهم ويحميهم.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ [التوبة:٧٥] أي: ومِنَ المنافقين من عاهد اللهُ تعالى لئن أعطانا من فضله، أي:

لئن أعطاهم الله تعالى المالَ مِنَ الذهب والفضةِ والأنعام لنصدَّقن من فضله، ولنكونن من الصالحين.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦﴾ [التوبة:٧٦] أي: فلما أغناهم ربُّ العزة، وأعطاهم المالَ، بخلوا بذلك المالِ، وكنزوه، ولم يتصدَّقوا، ولم يكونوا من الصالحين، وتولَّوا عن الإنفاقِ، وهم معرضون عما عاهدوا اللهَ عليه.

﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧﴾ [التوبة:٧٧]. أخبرنا ربُّ العزة -سبحانه وتعالى- أنه -تبارك وتعالى- أعقب هؤلاءِ المنافقين نفاقاً حلَّ في قلوبهم إلى يوم لقياهم إياه، وهو يوم القيامة، بسبب إخلافهم الله تعالى ما وعدوه، وبسبب كذبهم عليه، وقد تهدَّد اللهُ تعالى هؤلاءِ المنافقين بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨﴾ [التوبة:٧٨]. عَنَّفَ اللهُ تعالى المنافقين في هذه الآية، وقال فيهم: قد علموا أنَّ الله يعلم ما تخفيه صدورهم، وما يتحدثون به سرّاً فيما بينهم، وأنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- علام الغيوب، وعلاَّم صيغةُ مبالغةٍ، والغيوبُ ما غاب عن الناس، وخفي عنهم.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآياتِ نزلت في الصحابي الجليل ثعلبةَ بن حاطب الأنصاري، وذكروا أنه هو الذي طلب من الرسول ﷺ أن يدْعو له بكثرةِ المالِ، فلما كَثُر ماله بخلَ به، ونقض عهدَهُ مع ربِّه، وهذ الحديث الذي ذكروه، وساقوه سبباً لنزولِ الآياتِ حديثٌ باطلٌ غيرُ صحيح، وثعلبة بريء منه، [قال محقق ابن كثير في تخريجه (٣/ ٤١٧) ما خلاصته: إسناده واهٍ بمرَّةٍ، والمتنُ باطل، وإسناده ضعيف، وهو مسلسل بالضعفاء، وقال القرطبي في هذا الحديث (القرطبي: ٤/ ٥٣٤): ثعلبةُ أنصاريٌّ بدريٌّ، وممن شهد اللهُ له ورسوله بالإيمان، فما روي عنه غير صحيح، قال أبو عمر: ولعل قول مَنْ قال في ثعلبةَ أنه مانعُ الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح. وقد شوَّه هذا الحديثُ الضعيف سيرةَ هذا الصحابيِّ الجليل، وذكره كثيرٌ من المفسرين محتجّاً به، ولم يبيِّن ضعفَه، فراجت هذه الفرية على كثير من الناس، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله].

٣- الذين يلمزونَ المطوعين من المؤمنين في الصدقات:

حدَّثنا العليمُ الخبيرُ -سبحانُه وتعالى- أنَّ بعضَ المنافقين كانوا يلمزون المؤمنين في الصدقات ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾ [التوبة:٧٩].

أعلمنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ المنافقين لم يَنْجُ من ألسنتهم أحد أنفق أمواله في وجوهِ الخيرِ، واللَّمْزُ العيبُ باللسان، فكان المنافقون يعيبونَ الذين يتبرعون بأموالهم من المؤمنين في الصدقات، وكانوا يسخرون من المؤمنين الذين لا يجدون إلا القليلَ من مالهم، فيسخرون منهم، ويهزؤون بهم، وقد عاجلهم ربُّ العزة بقوله فيهم: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ وأخبر أنَّ ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾. وقد روى البخاريُّ رحمه الله تعالى عن أبي وائلٍ، عن أبي مسعودٍ قال: لما أُمِرْنا بالصدَقةِ كنا نتحامَلُ، فجاءَ أبو عَقيلٍ بنصفِ صاعٍ، وجاءَ إنسانٌ بأكثرَ منه.

فقال المنافقونَ: إنَّ اللهَ لغنيٌّ عن صدقةِ هذا، وما فَعَلَ هذا الآخرُ إلا رِئاءً، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ الآية [البخاري: ٤٦٦٨. ومسلم: ١٠١٨].

وعن شقيقٍ، عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ، قال: كان رسولُ الله ﷺ يأمُرُ بالصدقةِ، فيحْتالُ أحدُنا حتى يجيءَ بالمُدِّ، وإنَّ لأحدِهمُ اليومَ مئةَ ألفٍ؛ كأنَّه يُعرِّضُ بنفسه؟ [البخاري: ٤٦٦٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يجاهدَ الكفارَ بالقولِ والفعل وأمره أنْ يجاهد المنافقين بقولِهِ، وأمره -تعالى- أن يغلُظ عليهم في جهادِهِ لهم.

٢- كان المنافقون يرمون المؤمنين بالدواهي، ثم يتنصَّلون من ذلك، ويدرؤون عن أنفسهم بالأيمان الكاذبةِ.

٣- تهدَّدَ اللهُ تعالى المنافقين بأنهم إن لم يتوبوا ويرجعوا عن نفاقِهم وكفرهم أنْ يعذِّبهم اللهُ تعالى بكفرهم ونفاقهم.

٤- بعضُ المنافقين عاهدوا اللهَ تعالى، لئن آتاهم ربُّ العزة من فضله ليَبْذُلُنَّ أموالَهُم في الصدقاتِ، فأخلفوا اللهَ تعالى ما وعدوه، فأعقبهم ربُّ العزَّةِ نفاقاً إلى يوم يلقونه.

٥- شَوَّه بعضُ رواةِ الحديثِ سيرةَ الصحابي الجليل، وهو ثعلبةُ بنُ حاطبٍ، وهو أنصاري بدريٌّ، فزعموا أنَّه المعنيُّ بالآياتِ التي تذمُّ الذين عاهدوا اللهَ بالبذلِ والعطاءِ إنْ أعطاهم اللهُ تعالى الغنى والمالَ، وهذا غيرُ صحيح، فلم يَرِدْ في ذلك حديث يصحُّ الاحتجاجُ به، وثعلبةُ ﷺ بريءٌ مما رُمِيَ به.

٦- ذمَّ الله تعالى المنافقين الذين يعيبون المنفقين من أموالهم يريدون وجهَ الله تعالى، وأثنى اللهُ تعالى على المنفقينَ الذين لا يجدون إلا جهدهم، وسَخِرَ اللهُ من الساخرين، وأخبر أن لهم عذاباً أليماً.

النص القرآني الرابع عشر من سورة التوبة
لا يجوز الاستغفار للمنافقين والصلاةُ عليهم

أولاً: تقديم

نهى اللهُ -تعالى- في هذه الآيات عن الاستغفارِ للمنافقين، وذمَّهم بفرحِهِمْ لقعودِهِمْ عن الغزو مع رسول الله ﷺ ، وكراهتهم الجهادَ في سبيلِ الله بالمالِ والنفسِ، وأخبرنا أنَّ المنافقين وإنْ فرحوا في دنياهم، فإنهم سيبكون طويلاً في أُخراهم، وأمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ بمنع المنافقين الذين تخلفوا عنه في تبوك مِنَ الخروج معه مرةً أخرى، ونهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ والمؤمنينَ معه عن الإعجاب بأموالِ المنافقين، وأولادِهم، فإنها إلى زوالٍ، وعاقبةُ ما أعطاهم اللهُ تعالى العذابُ والنكال.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:٨٠-٨٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أخبر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّ استغفارَه للمنافقين وعدَمَهُ سواءٌ:

أَخْبَرَ اللهُ -تعالى- رَسولَهُ ﷺ أنَّ استغفاره للمنافقين وعدمه سواء، وأَخْبَره أنه لو استغفرَ لهم سبعينَ مرةً، فلن يغفرَ اللهُ تعالى لهم، ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة:٨٠].

والسببُ في عدم غفرانِ الله -تعالى- لهم أنَّهم ليسوا بأهلٍ للاستغفار، لأنهم كفروا بالله الواحدِ الأحد، وكفروا برسولِهِ ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠﴾ أي: لا يهدي المتمرِّدين الخارجينَ عن طاعة الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ فيها مبالغةٌ في عدم قبول الاستغفارِ لهم، والمعنى أنَّ اللهَ -تعالى- لن يغفر لهم، ولو استغفرت لهم استغفاراً كثيراً، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦﴾ [المنافقون:٦].

وهذه الآيةُ نزلت في صلاةِ الرسولِ ﷺ على عبدالله بن أُبيٍّ رئيسِ المنافقين، كما سيأتي بيانه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ [التوبة:٨٤].

٢- ذمَّ اللّهُ -تبارك وتعالى- المنافقين بفرحهم بتخلُّفهم عن الخروجِ إلى تبوك:

ذمَّ اللّهُ -تبارك وتعالى- المنافقين ووبّخهم بسبب تخلفهم عن رسولِ الله ﷺ في غزوة تبوكَ، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾ [التوبة:٨١].

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ المنافقين قال بعضهم لبعضٍ قبيل غزوةِ تبوك: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ لأنَّ غزوةَ تبوك كانت في وقت شدةِ الحر وطيبِ الظلالِ والثمارِ، فقال لهم تبارك وتعالى: إذا كنتم تجزعون من شدة الحر، فنارُ جهنَّم أشدُّ حرّاً، وهي التي ينبغي أن تجزعوا، وتفزعوا، وتخافوا منها ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾ أي: لو كانوا يفهمون.

وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ [التوبة:٨٢]، أي: ليضحكوا مدةَ أعمارِهِمْ في الدنيا، ومُدَّةَ عُمُرِ الإنسان في الدنيا قليلٌ، ﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ أي: ليبكوا في الآخرة كثيراً، فالبقاءُ في النارِ بقاءٌ أبديٌّ سرمديٌّ، لا يزولُ ولا يحولُ. وقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ أي: بقاؤُهُمْ في النار، وبكاؤُهم فيها جزاء بسببِ أعمالهم.

٣- عدم إذن الرسولِ ﷺ للمتخلفين عنه في تبوك بالخروج معه مرة أخرى:

أمَرَ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ إنْ رجع إلى المدينة، فاستأذنَه الذين تخلَّفوا عنه من المنافقون في تبوك في الخروج معه في غزوةٍ أخرى، أن يقول لهم: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ﴾ في أيِّ غزوةٍ من

الغزواتِ، ولن آذن لكم أنْ تقاتلوا معي عدوّاً إنكم رضيتم بالقعودِ ورائي في المدينة أول مرة عند الخروج إلى تبوك، فاقعدوا عني أبداً ودائماً مع الخالفين ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة:٨٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ هذا كقوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام:١٠]. هؤلاءِ رَضُوا بالقعودِ خلافَ رسولِ الله ﷺ أوَّلَ مرةٍ، فعاقبهم بمنعهم مِنَ الخروج معه بعد ذلك أبداً. والمرادُ بالخالفين في قوله تعالى: ﴿ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ النساءُ والصبيانُ والضعفاءُ والزمني.

٤- نهيُ اللهِ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يصليَ على أحدٍ من المنافقين وأنْ يقومَ على قبره:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أن يصليَ على المنافقين وأن يقومَ على قبورهم، فقال: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة:٨٤] وبيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- السببَ في هذا النهي، فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤]، فالمنافقون وإنْ أظهروا الإيمانَ إلا أنهم يُبْطِنون الكفرَ ويُسِرُّونه، وكلُّ من ماتَ على الكفر لا تجوز الصلاةُ عليه. وقوله تعالى: ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي: ماتوا وهم كافرون خارجون عن طاعةِ الله عز وجل.

وهذه الآيةُ نزلت في عبدالله بن أبيٍّ كبير المنافقين، فدُعيَ الرسولُ ﷺ للصلاةِ عليه، فصلَّى عليه، وقام على قبرِه، فنهاه اللهُ -تبارك وتعالى- عن ذلك كلِّه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: لما تُوُفِّيَ عبدالله، جاءَ ابنُه عبدالله بنُ عبدالله إلى رسولِ الله ﷺ فسأله أنْ يعْطِيَه قميصَه يُكفِّنُ فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أنْ يُصلِّيَ عليه، فقامَ رسولُ الله ﷺ ليُصَلِّيَ عليه، فقامَ عمرُ، فأخَذَ بثوبِ رسولِ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، تُصلِّي عليه! وقد نَهاكَ رَبُّكَ أنْ تُصَلِّيَ عليه؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّما خَيَّرَني اللهُ، فقال: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ [التوبة:٨٠]، وسأزيدُه على السبعينَ». قال: إنه مُنافقٌ، قال: فصَلَّى عليه رسولُ الله ﷺ فأنزَلَ اللهُ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة:٨٤] [البخاري: ٤٦٧٠. ومسلم: ٢٤٠٠].

وعن ابنِ عباسٍ، عن عمرَ بن الخطاب ﷺ، أنه قال: لما ماتَ عبدالله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولٍ، دُعِيَ له رسولُ الله ﷺ ليُصلِّيَ عليه، فلما قامَ رسولُ الله ﷺ، وثَبْتُ إليه، فقلتُ: يا رسولَ الله أتُصلِّي

على ابنِ أُبيٍّ، وقد قال يومَ كذا: كذا وكذا؟! قال: أُعَدِّدُ عليه قولَه، فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ، وقال: «أَخِّرْ عنِّي يا عمرُ»، فلما أكثرْتُ عليه قال: «إنّي خُيِّرْتُ فاخترْتُ، لو أعلَمُ أني إنْ زِدْتُ على السَّبْعينَ يُغْفَرْ له، لَزِدْتُ عليها». قال: فصلَّى عليه رسولُ الله ﷺ ثم انصَرَفَ، فلم يَمْكُثْ إلا يسيراً، حتى نَزَلَتِ الآيتان من بَراءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ قال: فعَجِبْتُ بعدُ من جُرْأتي على رسولِ الله ﷺ، واللهُ ورسولُه أعلَمُ [البخاري: ٤٦٧١].

٥- نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن أن يُعْجَبَ بأموال المنافقين وأولادهم:

الدنيا عرضٌ زائلٌ، وعاريةٌ مستردَّةٌ، وقد يعطى اللهُ من حطامها الفاني الكفارَ والمنافقين، وقد تعظم هذه الدنيا التي أُوتيها هؤلاءِ في صدورِ المؤمنين، وقد أَمَرَ اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ والذين اتبعوه بإحسانٍ أن لا يعجبهم ما أُوتيه هؤلاءِ، فعاقبةُ دنياهُمْ إلى زوالٍ وسيعذِّبُ اللهُ تعالى الكفارَ في الدنيا، ويأتيهم الموت وهم كافرون، فيعذبون بالمال في الآخرةِ كما عُذِّبوا به في دنياهم ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:٨٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن الاستغفارِ للمشركينَ، فهم كفارٌ، والكافرُ لا يجوز الاستغفارُ له.

٢- تخلَّف المنافقون عن الغزو مع رسولِ الله ﷺ في تبوك، وفرحوا بقعودِهم عن الجهادِ، وقالوا: لا تنفروا في الحرِّ، فأعلمهم الله أنَّ مصيرهم النارُ، والنارُ أشدُّ حرّاً.

٣- أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين سيفرحون ويضحكون في عمرهم الدنيوي القصير، ولكنهم سيبكون كثيراً في يومِ الحشر وفي النار.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ إذا عادَ إلى المدينةِ أن يمنع المنافقينَ الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، أن يخرجوا معه للغزو مرةً أُخرى.

٥- نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أنْ يصليَ على المنافقينَ وأنْ يقومَ على قبورهم، فهم كفَّار، والكافرُ لا تجوز الصلاةُ عليه.

٦- لا يجوزُ للمؤمنين أن يعجبوا بأموالِ الكفارِ ولا أولادِهم، فهي عَرَضٌ زائل، وعاريةٌ مسترجعة، وسيعذَّبون بها في الدُّنيا والآخرةِ.

النص القرآني الخامس عشر من سورة التوبة
الذين لم يقبل الله تعالى أعذارهم والذين قَبِلَ عُذْرَهم

أولاً: تقديم

هذه الآيات الواردة في هذا النص لا تزالُ تتحدث عن المنافقين المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله تعالى في تبوك، وقد أثنت على الرسول ﷺ والذين آمنوا معه بجهادهِم بأموالِهِمْ وأنفسهم، وبيَّنت ما أعدَّ اللهُ تعالى للمجاهدين من الجنات، وتحدَّثت عن الأعراب الذين اعتذروا بأعذارٍ مقبولةٍ، وبعضُهُمْ قعد عن الجهاد، ولم يستأذن الرسول ﷺ في القعود.

وتحدث اللهُ تعالى في هذه الآيات عن أصحاب الأعذار الذين قَبِلَ اللهُ أعذارهم، بعضُهم مرضى لا يستطيعون الخروجَ لضعفهم، وبعضُهم فقراء لا يجدون من المال ما ينفقون منه لتجهيز أنفسهم للحربِ والقتالِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة:

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [التوبة:٨٦-٩٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذمَّ اللهُ تعالى المنافقين الذين يتخلفون عن رسولِ الله ﷺ في الغزو:

ذمَّ اللهُ تعالى المنافقين الذين إذا أمرهم اللهُ تعالى بالإيمان والجهادِ في سبيلِهِ استأذن الأغنياء منهم الرسولَ ﷺ، وطلبوا منه أنْ يأذن لهم أن يكونوا مع الخالفين، ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [التوبة:٨٦].

وقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ﴾ نكرةٌ، تشمل كلَّ سورةٍ أمر فيها بالإيمان بالله، والجهادِ مع رسولِهِ ﷺ، وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي: ذو الفضلِ والسعةِ منهم، ويدخل فيهم رؤساؤُهم وكبراؤُهم، فهم لا عذر لهم في القعودِ والتخلُّفِ عن الجهادِ.

وقوله تعالى: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: ذرنا نتخلَّف مع القاعدين مِنَ النساءِ والأطفالِ والذرية والزمنى والمرضى، وذمَّهم ربُّ العزَّة سبحانه بقوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة:٨٧]، والخوالفُ جمعُ خالفةٍ، وهنَّ النساءُ اللاتي يَخْلُفْنَ الرجالُ في القعودِ في البيوت، وجوَّزَ بعضُهم أن يكون جمعَ خالفٍ.

٢- أثنى اللهُ تعالى على رسولِهِ والمؤمنين معه بجهادهم بأموالهم وأنفسهم:

أثنى اللهُ تعالى على رسولِهِ ﷺ وأصحابِهِ الذين جاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم، ووعدهم ربُّ العزةِ بالخيراتِ، والخيرات جَمْعَ خيرٍ، فيشملُ منافعَ الدنيا والدين، وقيل: المرادُ به النساءُ الحسانُ، كقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الرحمن:٧٠]. وواحدةُ الخيراتِ خيِّرة، قال ربُّ العزة سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة:٨٨]، والمفلحون: الناجون الفائزون.

و﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة:٨٩] وما أعدَّه ربُّ العزة لرسولِهِ ﷺ وللمؤمنين هو أعظمُ الفوزُ الذي يطمح الصالحون في مثله.

٣- مجيءُ الأعرابِ أصحاب الأعذارِ ليؤذن لهم:

عندما أراد الرسولُ ﷺ وأصحابُهُ الخروجَ إلى تبوك ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ [التوبة:٩٠] والمعذِّرون: الذين بالغوا في تقديم العُذْرِ، أي: المحقُّون في اعتذارهم. وقوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: قعدت طائفةٌ أُخرى عن الغزو من غير استئذانٍ ولا تقديم عُذْرٍ، وقد توعَّد ربُّ العزةِ هؤلاءِ القاعدين بقوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ أي: سيصيب الذين كفروا من الأعراب الذين لم يستأذنوا، ولم يخرجوا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ أي: مُؤْلم موجعٌ.

٤- أصحاب الأعذار الذين قَبِلَ اللهُ تعالى عذرهم:

حدَّثنا ربنا -عزَّ وجلَّ- عن أصحابِ الأعذارِ الذين قَبِلَ عُذْرَهُمْ في عدمِ خروجِهم للجهاد في غزوة تبوك، فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة:٩١-٩٢].

وأصحاب الأعذار الذين قَبِلَ اللهُ تعالى أعذارهم نوعان: الأول: الذين سماهم اللهُ تعالى الضعفاءَ والمرضى، وهم أرباب الزمانة والهرمِ والعمى والعرجِ، ونحو ذلك. والثاني: هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ وهؤلاء ليست لهم أموالٌ ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للغزو، فهؤلاءِ ليس عليهم حرج، واشترط ربُّ العزة لرفع العذرِ عنهم أن ينصحوا الله ورسوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ﴾ والنصحُ لله ورسولِهِ يكون بالإيمانِ بالله ورسولِهِ، والعملُ بالشريعةِ التي أنزلها، وترك ما يخالفها، ومن ذلك نصح عبادِهِ، وفي صحيح مسلم عن تميمِ الداريِّ، أنَّ النبي ﷺ قال: «الدينُ النصيحةُ» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابِهِ، ولرسولِهِ، ولأئمةِ المسلمينَ وعامَّتهم» [مسلم: ٥٥] وعن جرير بن عبدالله قال: «بايَعْتُ رَسولَ الله ﷺ على إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والنصحِ لكلِّ مسلمٍ» [البخاري: ٥٧. ومسلم: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ﴾ أي: ليسَ على المعذرين الناصحين لله ورسولِهِ من سبيل، أي: ليس عليهم عقابٌ، ولا مؤاخذةٌ، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ أي: كثير المغفرةِ والرحمة لهم.

ومن أصحاب الأعذار الذين قَبِلَ اللهُ تعالى عذرهم الذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة:٩٢].

هذه الآية نزلت في بعض صحابةِ رسولِ الله ﷺ ، ولم يكن عنده ما يحملهم عليه من الدوابِّ في غزوهم، وعندما أتوا الرسولَ ﷺ وطلبوا منه أن يعطيهم ما يركبون عليه، اعتذرَ لهم بأنَّه لا يجدُ ما يحملُهُم عليه، فأخبر العليمُ الخبيرُ بأنَّهم توَلَّوْا عن رسولِ الله ﷺ وأعينهم تفيضُ من الدمع حُزْناً، لعدم قدرتهم على الغزوِ بسبب قِلَّة ما يركبون عليه في غزوهم.

وهؤلاء أصحابُ الأعذارِ الذين عَذَرهم ربُّهم، لهم أجْرُ المجاهدين وثوابُهم، ففي صحيحِ البخاريِّ عن أنسٍ بنِ مالكٍ ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ رَجَعَ من غزوةِ تبوكَ، فدنا من المدينةِ، فقال: «إنَّ بالمدينة أقواماً، ما سِرْتُمْ مَسيراً، ولا قَطَعْتُمْ وادِياً إلاَّ كانوا معَكُمْ» قالوا: يا رسولَ الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينةِ، حَبَسَهُمْ العُذْرُ» [البخاري: ٤٤٢٣].

وعن جابرٍ قال: كنا مع النبي في غزاةٍ، فقال: «إن بالمدينةِ لرجالاً ما سِرْتُمْ مسيراً، ولا قَطَعْتُمْ وادياً، إلا كانوا معكم حَبَسَهُمْ المرضُ» [مسلم: ١٩١١].

٥- الذين رَضُوا أن يكونوا مع الخوالف:

وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [التوبة:٩٣] أي: ليس السبيلُ بالعقوبةِ على أهلِ العذرِ، ولكن السبيلَ على الذين يستأذنونك في التخلُّف عن الجهادِ معك، وهم قادرون على الجهاد بأموالهم وأنفسهم ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ رضوا بأن يقعدوا مع الصِّغارِ والنساءِ والزمنى ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وخَتَم اللهُ تعالى بما كَسبوا من الذنوب على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: لا يعلمون بالعاقبة السيئةِ الناتجة عن تخلفهم عن الجهاد.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذمَّ اللهُ تعالى المنافقين الذين يأمرهم رب العزة بالإيمان بالله والخروجِ إلى الجهاد، فيعْتَذِرُ أثرياؤُهم عن الخروجِ، وقد أخبر ربُّ العزة أنَّ هؤلاءِ المنافقين رضوا بالقعود مع الصغارِ والنساءِ والزمنى وطَبَعَ اللهُ على قلوبهم، فهم لا يفقهون.

٢- أثنى اللهُ تعالى على رسولِهِ والمؤمنين معه لجهادهم بأموالِهِمْ وأنفسهم، وبيَّن أنه - سبحانه- أعَدَّ لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارِ.

٣- قدَّم بعضُ الأعرابِ في غزوة تبوكَ أعذاراً مقبولةً، وتخلَّفَ بعضُهم عن الجهادِ من غيرِ عذرٍ، وتهدَّدَ ربُّ العزة هؤلاء بالعذابِ الأليم.

٤- أصحابُ الأعذارِ من صحابةِ رسولِ الله ﷺ الذين قَبِلَ اللهُ تعالى عذرهم نوعان: الأول: المرضى والزمنى والضعفاءُ. والثاني: الذين لا يجدون المالَ الذي يجهزون به أنفسَهم للغزو والقتال.

النص القرآني السادس عشر من سورة التوبة
اعتذار المنافقين للرسول ﷺ وأصحابه إذا رجعوا إليهم

أولاً: تقديم

أخبر اللهُ -تعالى- رسولَنا ﷺ وأصحابَه أنَّهم إذا رجعوا إلى المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج إلى تبوك، فسيعتذرون إليهم، وأمرهم بعدم قبول عذرِهِمْ، وأخبرهم أنهم سيحلفون لهم كاذبين أنهم لا يستطيعون الخروجَ معهم، وأمَرَهم بالإعراض عنهم، وأخبرهم ثالثاً أنهم سيحلفون لكم لترضوا عنهم، ونهاهم عن الرضا عنهم، فإنه تبارك وتعالى لن يرضى عنهم.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً من أهلِ الحواضرِ والمدنِ، وهم أجْدَرُ بأن لا يعلموا حدودَ ما أنزل اللهُ على رسولِهِ ﷺ، وقسَّمَ الأعرابَ الذين كانوا في المدينة وما حولها إلى قسمين: الأول: الذين يَعُدُّون ما ينفقونه في الجهاد وسبل الخير مغرماً، وهم يتربصون بالمؤمنين المصائب والدوائر. والثاني: الأعرابُ المؤمنون بالله ورسولِهِ، الذين يتقربون إلى الله تعالى بما ينفقونه، ويتقربون إلى الله تعالى بالدعاء والاستغفار، وهؤلاءِ الصالحون الأخيار سيدخلُهم اللهُ تعالى في رحمته، والله غفور رحيم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة: ٩٤-٩٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موقفُ المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك من الرسول ﷺ وصحبه إذا رجعوا إليهم:

بيَّنَ اللهُ تعالى للمؤمنين كيف سيكونُ موقف المنافقين المتخلفين عن الرسولِ ﷺ وصحبِهِ إذا رجعوا إليهم من غزوهم، فقال: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٤﴾ [التوبة:٩٤].

أخبر اللهُ تعالى المؤمنين أنَّ المنافقين المتخلفين عن الغزو سيعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم من غزوكم ﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ قل لهم يا محمد: لا تعتذروا لن نصدِّق أعذاركم ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ قد أعلمنا ربُّنا حقيقةَ ما أنتم عليه، وما انطوت عليه قلوبكم مِنَ التدليس والكذبِ. ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ وسيرى اللهُ تعالى أعمالكم ويراها رسولُهُ في مقبل الأيام أتتوبون إلى الله، وترجعون إليه، أو تستمرون على كفركم ونفاقكم؟ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٤﴾ أي: ثم ترجعون بعد مماتكم إلى ربِّكم الذي يعلم السر والعلانية، الذي لا يخفى عليه من أموركم شيئاً، فينبئكم بما كنتم تعملونه في الدنيا، ويجزيكم على ما عملتموه في الآخرة.

ثم أخبرنا ربُّ العزة -سبحانه وتعالى- أنَّ هؤلاءِ المنافقين المتخلفين عن الجهادِ سيحلفون بالله للمؤمنين، في دعواهم عدم استطاعتهم الخروجَ إلى الغزو ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ [التوبة:٩٥] وأمَرَ اللهُ تعالى المؤمنين بالإعراض عنهم، ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ وقال فيهم: ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٩٥﴾ [التوبة:٩٥]، والرجس الخبيث القَذِرُ، وهذا بسبب كفرهم وشركهم وما تلبسوا به من الذنوب والمعاصي والمحرماتِ، ومأْواهم النار يومَ القيامة، أي: هي المنزل الذي يأْوون إليه، ويمضون آخرتهم فيه.

وحدَّثنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ هؤلاءِ الأنجاس الخبثاء ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾ أي: يحلفون بالله تعالى كاذبين لترضوا عنهم، وقد أخبرهم اللهُ تعالى أنَّهم إنْ رضوا عنهم، وقبلوا عذرَهُمْ، فإنَّ الله تعالى لا يرضى عنهم ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾ [التوبة:٩٦]، أي: فإن رضيتم عنهم، فإنْ رضاكم عنهم غير نافعهم عند ربِّهم، فهم قوم فاسقون.

٢- الأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً:

بيّن اللهُ تعالى أنَّ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً فقال: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ ﴾ [التوبة:٩٧] أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الأعرابَ على وجهِ الجملةِ أشدُّ جحوداً لتوحيد الله تعالى، وأشدُّ نفاقاً من أهل الحَضَر في القرى والأمصارِ، وإنما وصفهم اللهُ تعالى بذلك لجفائهم وقسوةِ قلوبهم وقلةِ مخالطتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسى قلوباً، وأقلُّ علماً بحقوق الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ أي: وأخلقُ أن لا يعلموا حدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسولِهِ. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾﴾ أي: واللهُ عليم بالعباد كافِرِهِمْ ومنافِقِهِمْ ومؤمنهم، وحكيمٌ في تدبيره إياهم، وفي عقابه لهم، أو عفوه عنهم.

والأعرابُ: جمع أعرابيٍّ، والأعرابيُّ: البدويُّ الذي يسير في الصحراء وراءَ إبله، يرتاد لها الماءَ والكلأ، والعربيُّ المنسوب إلى العرب، الذي نسبه فيهم ثابتٌ، وجمعه: العرب، والأعرابيُّ إذا قيل له: يا عربيُّ فرح بذلك، والعربيُّ إذا قيل له: يا أعرابيُّ غضب له، فمن نزل البادية، أو جاورَ البادِيْنَ، وظعنَ بظعنهم فهم أعراب، ومن استوطن القرى العربية فهم عرب [البسيط للواحدي: ١١/ ١٠].

٣- موقفُ الأعراب من الإنفاقِ في سبيلِ الله تعالى:

بيّنَ اللهُ تعالى أنَّ الأعرابَ يُقْسَمون تجاه ما ينفقونه من مالٍ إلى قسمين، القسم الأول: الذين قال فيهم ربُّ العزةِ: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾﴾ [التوبة:٩٨]، أي: بعضُ الأعرابِ يعدُّ النفقةَ التي ينفقها في الجهادِ أو على الفقراءِ والمساكين مغرماً، أي: خسراناً، فهو لا يرجو من ورائِه ثواباً ولا أجراً، وهو في ذلك ﴿يَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ التربُّص: الانتظار، والدوائر: جمع دائرة، وهي الحالةُ المنقلبةُ عن النعمة إلى البليَّةِ، فهم بخلاءُ، وهم لكم أعداء ينتظرون أنْ تحلَّ بكم المصائبُ، وتدورُ عليكم الدوائر.

وقد دعا اللهُ تعالى عليهم فقال: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ أي: عليهم دائرةُ البلاءِ والعذابِ والمكروهِ، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾﴾ أي: سميعٌ بأقوالهم، عليمٌ بأفعالهم.

والقسم الثاني من الأعراب: الذين قال ربُّ العزة فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾ [التوبة:٩٩].

يقولُ ربُّ العزة تبارك وتعالى: إن بعضَ الأعراب يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويقصدُ بما ينفق في الجهادِ وفي غيره قرباتٍ عند الله تعالى، والقرباتُ: جمع قربة، وهي التي تقرِّبك إلى ربِّ العزة سبحانه، وقوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ﴾ أي: دعاءَ الرسولِ ﷺ واستغفاره، أي: يتخذها قربة، يتقرَّبُ بها إلى الله تعالى، وقد صَدَّق اللهُ تعالى هذا القسم من الأعراب، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ﴾ أي: تقربهم من ربِّهم، وتحِلُّ عليهم رحمَته تعالى ورضوانه، ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: في رضوانِهِ وجنتِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ أي: كثير المغفرةِ والرحمةِ سبحانه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- بيَّن اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ وأصحابِهِ كيف سيكونُ موقف المنافقين المتخلفين عنهم في غزوة تبوك، فأخْبَرَ أنَّهم سيعتذرون إليهم، ويحلفون لهم كاذبين ليُعْرِضوا عنهم، وليَرْضَوا عنهم.

٢- نَهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ والمؤمنين معه عن قبولِ ما يَعْتَذِرُ به المنافقون، وأمرهم بالإعراض عنهم، ونهاهم عن أن يَرْضوا عنهم، وأخبر بعدم رضاه عنهم.

٣- قرَّر ربُّ العزة -تبارك وتعالى- أنَّ الأعراب الذين يلازمون البوادي والقفارَ أشدَّ كفراً ونفاقاً من أهل المدائن والأمصار، وهم أقلَّ علماً بحدودِ ما أنزل اللهُ تعالى مِنَ أهل المدائن والأمصارِ.

٤- الأعرابُ قسمان: قسمٌ لا يرجو وَجْه ربِّه في إنفاقِهِ، والآخر مؤمنون صالحون، يتقربون إلى الله تعالى بما ينفقونه، ويتقربون إلى الله تعالى بدعاءِ الرسولِ ﷺ واستغفارِهِ.

النص القرآني السابع عشر من سورة التوبة
قسَّمَ ربُّ العزة الناس إلى ثلاثة أقسام

أولاً: تقديم

قسَّمَ اللهُ -تبارك وتعالى- الناسَ في آيات هذا النص إلى ثلاثة أقسام:

الأول: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامةِ، وهذا هو الفريقُ الفائزُ المفلحُ إلى آخر الزمان، رضي الله تعالى عنهم وقَبِلَ أعمالهم، ورضوا عن ثوابِهِ ولهم جناتٌ عظيمات تجري من تحتها الأنهار.

الثاني: المنافقون مِنَ الأعراب الذين حول المدينة، وبعضُ أهل المدينة الذين مَرَنُوا على النفاق ودَرِبُوا بِهِ، وهؤلاءِ لا يعلمهم الرسولُ ﷺ ، واللهُ تعالى عالمٌ بهم، وهؤلاءِ سيعذِّبهم ربُّهم مرتين، مرةً في الدنيا، وأخرى في القبرِ، ثم سيردُّونَ إلى الله تعالى يومَ القيامةِ، فيعذِّبهم اللهُ عذاباً عظيماً في النارِ.

الثالثُ: الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهؤلاءِ مؤمنون اعترفوا بذنوبهم، وقد وعدهم ربُّ العزة بالتوبةِ عليهم.

وقد أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يأخذ مِنَ التائبين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً صدقةً، يطهِّرُهُم، ويزكيهم بها، وأمره بالصلاةِ عليهم، أي: الدعاءِ والاستغفار لهم، فصلاتُه عليهم تجلبُ لهم السكنَ والطمأْنينة.

ووعدَهُم اللهُ تعالى بقبولِ التوبةِ عن عبادِهِ الخاطئين، وأمرهم بالعملِ في الدنيا، ووعدهم بأنْ يرى هو ورسولُه ﷺ والمؤمنون أعمالهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ

صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [التوبة:١٠٠-١٠٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذ النص من القرآن

١- ثناء الله تعالى على المهاجرينَ والأنصارِ والذين اتبعوهم بإحسان:

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسانٍ، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠] ومن المفسِّرين من ضيَّق في تحديد السابقينِ الأولينَ مِنَ المهاجرين والأنصارِ، فحدَّهم بالذين صَلَّوُا القبلتين، أو شهدوا بدراً، والصحيح أنه يدخلُ فيهم الذين شهدوا الحديبية، وبايعوا الرسول ﷺ فيها تحت الشجرةِ، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: يدخل في هذا بقية المهاجرينِ والأنصارِ، كما يدخلُ فيهم جميعُ مَنْ دخل في الإيمانِ مهتدياً بهدي السابقين الأولين مِنَ المهاجرين والأنصارِ إلى يوم القيامةِ.

وقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠] أي: رضي اللهُ عنهم، وقبل أعمالهم، ورَضُوا بالله سبحانه وتعالى ربّاً واتخذوهُ وَليّاً، ورَضُوا عن أجره وثوابِهِ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠]. أعلمنا ربَّنا أنه أعدَّ لجميع من ذكرهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وأخبر سبحانه أنَّ هذا هو الفوز العظيمُ، الذي لا فوزَ فوقَه.

٢- بعضُ الأعرابِ حولَ المدينة منافقونَ وبعضُ أهل المدينة كذلك:

أعْلم اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ أنَّ بعضَ الأعرابِ الذين يسكنون حولَ المدينة منافقون، وكذلك بعضُ أهل المدينة مَردوا على النفاقِ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة:١٠١] ومعنى مردُوا على النفاقِ أي: عَتَوْا وطَغَوا ومَرَنُوا على النفاقِ، والمرادُ أنهم أقاموا على النفاقِ، وثبتوا عليه، ولم يَنْثَنُوا عنه، وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة:١٠١] فيه بيان أنَّ رسولنا ﷺ لا يعلم جميعَ المنافقين، فهو وإن عَرَفَ

بعضَهُمْ، فإنَّه لا يعرفُ جميعهم، وأخبر سبحانَه وتعالى أنَّ علمه محيطٌ بهم، لا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم.

وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة:١٠١]. أما العذابُ العظيم فهو عذابُ النَّارِ يومَ القيامة، أما المرتان السابقتان على عذابِ النار فلم يَرِدْ نصٌّ يحدِّدُ هاتين المرَّتين، وأرجحُ الأقوالِ أنَّ العذابَ الأول: ما يأخذُ الله تعالى به المنافقين في الدنيا في أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ وأولادِهم، والثاني: ما يأخُذهم اللهُ تعالى به في القبرِ.

٣- الذين اعترفوا بذنوبهم وخَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً:

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآياتِ أنَّ بعضَ المؤمنينَ تخلَّفُوا عن رسولِ الله ﷺ في غزوةِ تبوك من غيرِ عذرٍ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة:١٠٢] وهؤلاء ليسوا منافقين، ولذلك قال فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ وصرَّحَ بأنهم ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: اعترفوا أنَّ تأخّرهم عن غزوةِ تبوك كان مِنْ غيرعذر، ولم يعتذروا للرسولِ ﷺ كاذبين كما فعل المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب، ورَجَوْا أن يتوبَ الله عليهم، وقوله تعالى: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ المرادُ بالعملِ الصالح ما تقدَّم منهم من إيمانٍ وإسلامٍ وصلاةٍ ونحو ذلك، والمرادُ بعملهم السيِّئ: تخلُّفهم عن الجهاد في غزوة تبوك.

وقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ و﴿عَسَى﴾ من الله تعالى تفيدُ تحقيقَ الوقوعِ، فاللهُ تعالى أكرم الأكرمين، وإذا أراد التوبةَ على عبدِه، فلا رادَّ لأمره سبحانه، خاصَّة إذا تابَ العبدُ، وأنابَ ورجَعَ إلى الله تعالى، وختم ربُّ العزة الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ فهو سبحانه كثيرُ المغفرةِ والرحمةِ، إذا شاءَ سبحانه غفر الذنوبَ، وستر العيوبَ، وتفضَّل على عبادِهِ.

وقد حَدَّثنا رسولُنا ﷺ عما يفعلُه اللهُ تعالى بالمؤمنين الذين خَلَطُوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وكيف ينقيِّهم يومَ القيامة، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن سَمُرَةَ بنِ جندبٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ لنا: «أتاني الليلةَ آتيانِ، فابتَعَثاني، فانتهَينا إلى مدينةٍ مَبنيَّةٍ بلَبِنِ ذهبٍ ولَبِنِ فِضّةٍ، فتَلَقّانا رجالٌ، شَطْرٌ مِن خَلْقِهم كأحسَنِ ما أنتَ راءٍ، وشَطْرٌ كأقبَحِ ما أنتَ راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فقَعوا في ذلك النَّهْرِ، فوَقَعوا فيه، ثم رَجَعوا إلينا قد ذهبَ ذلك السوءُ عنهم،

فصاروا في أحسَنِ صورةٍ، قالا لي: هذه جنةُ عَدْنٍ، وهذاكَ مَنزِلُكَ، قالا: أما القوم الذينَ كانوا شَطْرٌ منهم حَسَنٌ، وشَطْرٌ منهم قَبيحٌ، فإنَّهم خَلَطوا عَمَلاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً، تَجاوَزَ اللهُ عنهم» [البخاري: ٤٦٧٤. ومسلم: ٢٢٧٥ مختصراً].

٤- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يأخُذَ من أموال الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً صدقة:

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يأخذ من أموالِ الذين عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً صدقة يزكيهم بها، وأمره -تبارك وتعالى- أنْ يصليَ عليهم، فإنَّ صلاتَهُ سكنٌ لهم، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة:١٠٣].

أمَرَ اللهُ رسوله ﷺ أنْ يأْخذ من أموالِ هؤلاءِ الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً صدقة، يطهرهم بها من ذنوبهم، ويزكيهم بها، أي: يباركهم بها، وأمره بالصلاة عليهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادْعُ لهم، واستغفر لهم، ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: إنَّ دعاءَك واستغفارَكَ طمأْنينةٌ لهم، وسكن لهم. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: واللهُ سميعٌ لدعائِك إذا دعوتَ لهم، عليمٌ بك وبهم، لا يخفى عليه أمر من أُمورِكم.

وهذه الآية عامةٌ في كلِّ عبادِ الله تعالى، ولهذا لَمّا ظنَّ بعضُ مانعي الزكاةِ أنَّ أخذَ الزكاة خاصٌّ بالرسولِ ﷺ قاتَلَهُمْ أبو بكر الصديق، حتى أدُّوها كما كانوا يُؤَدُّونها لرسول الله ﷺ.

وقد روى مسلمٌ في صحيحه عن عبدالله بن أبي أوْفى قال: كانَ النبيُّ ﷺ إذا أتاه قومٌ بِصَدَقَتِهِمْ، قالَ: «اللهم صَلِّ على آلِ فُلانٍ» فأتاه أَبي بصَدَقَتِهِ، فقال: «اللهم صَلِّ على آلِ أبي أوْفى» [البخاري: ١٤٩٧. ومسلم: ١٠٧٨].

وقد هَيَّجَ اللهُ تعالى عبادَهُ على التوبةِ والصدقةِ بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة:١٠٤]، قرر ربُّ العزةِ عباده أنهم قد علموا أنَّه يَقْبلُ توبةَ عباده، ويأخذ صدقاتهم، فيطهِّرهم بها، ويزيلُ عنهم سيئاتهم، ويغفر ذنوبهم وخطاياهم.

روى أبو هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من تَصَدَّقَ بعَدْلِ تمرةٍ من كَسْبٍ طَيِّبٍ -ولا يَقبَلُ اللهُ إلا الطَّيِّبَ- فإنَّ اللهَ يَتقَبَّلُها بيَمينِه، ثم يُربِّيها لصاحبِه كما يُرَبّي أحدُكم فَلُوَّهُ، حتى تكونَ مِثلَ الجبلِ» [البخاري: ١٤١٠. ومسلم: ١٠١٤] والفَلُوُّ: المُهْرُ.

وعن أبي هريرةَ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: إن اللهَ يقبلُ الصَّدَقَةَ، ويأخُذُها بيمينه فيُرَبِّيها لأحَدِكُمْ كما يُرَبِّي أحَدُكُمْ مُهْرَهُ، حتى إنَّ اللُّقْمَةَ لتصيرُ مثلَ أُحُدٍ، وتصديقُ ذلك في كتابِ الله عز وجل ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ و﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [رواه الترمذي: ٦٦٢، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح].

٥- تهدَّد اللهُ تعالى الذين خَلَطُوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً بأنّه يرى هو ورسوله والمؤمنون أعمالهم:

تهدَّد ربُّ العزة الذين عملوا صالحاً وآخر سيئاً، فأمرهم بالعمل، وأعلمهم أنه سيرى عملهم ويراه رسولُه ﷺ والمؤمنون، أي: في الحياةِ الدنيا، ثم يردُّون بعد ذلك إلى عالمِ الغيبِ والشهادةِ، فينبئهم بما كانوا يعملونَهُ ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة:١٠٥] وعند ذلك يتبيَّنُ الصالحُ والفاسدُ من أعمالكم.

٦- الآخرون المرجون لأمْرِ الله تعالى:

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الآخرين المرجونَ لأمرِ الله، فقال: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [التوبة:١٠٦].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «قال ابنُ عباس، ومجاهدٍ، وعكرمة، والضحاكُ، وغير واحدٍ: هم الثلاثةُ الذين خُلِّفوا، أي: عن التوبة، وهم: مُرارةُ بنُ الربيع، وكعبُ بن مالك، وهلالُ بن أمية، قعدُوا عن غزوةِ تبوكَ في جملةِ مَنْ قعد، كَسلاً وميلاً إلى الدّعة والحفظِ وطيبِ الثِّمارِ والظلالِ، لا شَكّاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفةٌ رَبَطُوا أنفسهم بالسواري، كما فَعَل أبو لبابة وأصحابُه، وطائفةٌ لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبةُ أولئك قبلَ هؤلاء، وأرجى هؤلاء عن التوبةِ حتى نزلتْ الآية الآتية، وهي قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ [التوبة:١١٧]... الآية، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ [التوبة:١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك. وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ ﴾، أي: هم تحتَ عفوِ الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإنْ شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلبُ غضبه، وهو ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾، أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحقُّ العفو، حكيمٌ في أفعالِه وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٤٠].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أثنى ربُّ العزَّة على السابقينَ الأولينَ مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ والذين اتبعوهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

٢- أعدَّ اللهُ -تعالى- للمؤمنين جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ يوم القيامةِ.

٣- أعلمَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ والمؤمنينَ أنَّ بعضَ الأعرابِ الذين حول المدينة، وبعضَ أهلِ المدينة منافقون، وأخبر الرسول ﷺ أنَّه لا يعرفهم، وتوعَّد هؤلاء المنافقين بإيقاع عذابين بهم قبل أن يُرَدُّوا إلى عذابٍ عظيمٍ.

٤- عَرَّف اللهُ تعالى بقومٍ تَخَلَّفوا عَنْ غزوة تبوك ليسوا بمنافقين، اعترفوا بذنوبهم عملوا أعمالاً صالحةً، وعملوا بتخلفهم عن الغزو أعمالاً سيئة، وقال فيهم: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وقد تاب اللهُ تعالى عليهم بعد ذلك.

٥- أمَرَ اللهُ -تعالى- أنْ يأخذ مِنْ أموالِ العصاةِ صدقةً يُطَهِّرهم اللهُ تعالى ويزكيهم بها، وأمَرَ اللهُ تعالى بالصلاةِ عليهم، أي: بالدعاءِ والاستغفارِ لهم، فصلاتُه عليهم تجلبُ لهم الأمنَ والطمأنينةَ.

٦- اللهُ وحدَهُ هو الذي يقبل التوبةَ عن عباده، ويقبلُ منهم الصدقاتِ.

٧- أمر اللهُ تعالى الذين عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً بالعملِ، وأخبرهم أنه سيرى عملهم، وسيراه رسولُه والمؤمنون في الدنيا، وسيردُّون إلى عالمِ الغيبِ والشهادةِ يومِ القيامةِ، فينبئهم بما كانوا يعملون.

٨- أخْبرَ اللهُ المؤمنين أنَّه كان عند تنزُّل هذه الآيات آخرون مرجون لأمر الله تعالى، فاللهُ قادرٌ على عذابهم وقادرٌ على العفو عنهم سبحانه.

النص الثامن عشر من سورة التوبة

مسجد الضِّرار

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في هذه الآيات عن المسجد الضرار الذي أقامه المنافقون مِنَ أهْلِ مدينةِ قباءَ، وقد فضحَ اللهُ تعالى أخبارَهُم، وكشفَ أسرارَهمْ، ونهى رسولَه ﷺ عن القيام فيه، وحثَّه على القيامِ في مسجده الذي أقيم على التقوى، وأثنى على المؤمنين الذين يعمرون المسجدَ النبويَّ، وأعلَمَ المؤمنين بأنَّه سبحانه اشترى مِنَ المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأنَّ لهم الجنةَ، يقدِّمون أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وينالون منه جنةً عظيمة، وهذا وعد قطعه على نفسه في التوراة والإنجيل والقرآن.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١٠٧-١١١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اتخاذُ منافقي قباءَ مسجداً ضراراً:

اتخذ المنافقون من أهلِ قباءَ مسجداً ضراراً، وقد شَنَّعَ ربُّ العزةِ على هؤلاءِ، وفَضَحهم، وكشفَ أسرارهم، وأمر بهدمِ مسجدِهم، وقد جمعَ العلاّمة المفسرُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله تعالى قصتهم من غير عَزْوٍ إلى راوٍ بعينه، فقال: «سَبَبُ نزول هذه الآياتِ الكريماتِ أنه

كان بالمدينة قبل مَقْدَم رسولِ الله ﷺ إليها رجلٌ من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهبُ، وكان قد تَنَصَّر في الجاهليةِ، وقرأ عِلْمَ أهلِ الكتابِ، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرفٌ في الخزرج كبير، فلما قَدم رسولُ الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه وصارتْ للإسلام كلمةٌ عاليةٌ، وأظهرهم الله يومَ بدر، شَرِقَ اللعينُ أبو عامر بريقِهِ وبارَزَ بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارّاً إلى كفار مكة من مشركي قريش، فألَّبَهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أُحُدٍ، فكان مِنْ أمرِ المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حَفَرَ حفائرَ فيما بين الصَّفين، فوقَعَ في إحداهُنَّ رسولُ الله ﷺ وأصيبَ ذلك اليوم، فجُرِح في وجهه، وكُسِرَت رَباعِيَتُه اليمنى السفلى، وشجّ رأسه ﷺ وتقدم أبو عامر في أولِ المبارزة إلى قوم مِنَ الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نَصْرِه وموافقته، فلما عَرَفوا كلامه قالوا: لا أنْعَمَ اللهُ بكَ عيناً يا فاسقُ، يا عدوَّ الله! ونالوا منه وسَبّوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بَعْدِي شَرّ.

وكان رسولُ الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبلَ فراره، وقرأ عليه مِنَ القرآن، فأبى أنْ يسلم وتمرّد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموتَ بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوةُ. وذلك أنه لما فرغَ الناسُ من أُحُدٍ، ورأى أمْرَ الرسولِ ﷺ في ارتفاعٍ وظهورٍ، ذهب إلى هرقلَ ملكِ الروم يستنصره على النبيِّ ﷺ فوعدَه ومَنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومِهِ مِنَ الأنصار مِنْ أهل النفاق والريب يَعِدهم ويُمنِّيهم أنه سَيَقْدمُ بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويردُّه عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلاً يقدم عليهم فيه مَنْ يقدم من عنده لأداء كُتُبه، ويكونَ مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاورٍ لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسولَ الله ﷺ أنْ يأتي إليهم فيصلِّي في مسجدِهِمْ، ليحتجوا بصلاته عليه السلام فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلةِ الشاتية، فعصمه الله مِنَ الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبقَ بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضِّرار، وما اعتمده بانوه مِنَ الكفر والتفريقِ بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك

المسجد مَنْ هَدَمَه قبل مقدمه المدينة. كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابنِ عباسٍ في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ : وهم أُناس من الأنصار، ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعدُّوا بما استطعتم من قوةٍ ومِنْ سلاح، فإني ذاهب إلى قيصرَ ملكِ الروم، فآتي بجُندٍ من الروم، وأُخرِج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحبّ أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ إلى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)﴾ وكذلك رُوي عن سعيد بن جُبير، ومجاهد، وعروة ابن الزبير، وقتادة، وغير واحد من العلماء» [قال محقق ابن كثير: أخرجه الطبري (١٧٢٠١)، وفيه إرسال بين ابن أبي طلحة وابن عباس، لكن له شواهد مرسلة. تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٠)].

٢- غَرَضُ المنافقين من بناءِ مسجدِ الضرار:

ذَكَرَ ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين أرادوا مِنْ وراءَ إقامة مسجد الضرارِ أربعة أمور:

١- الضرار بين المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ [التوبة:١٠٧] أي: اتخذوه لأجلِ الضرارِ بين المؤمنين.

٢- الكفر ﴿وَكُفْرًا﴾، أي: كان اتخاذهم المسجدَ ليس إيماناً، بل كفراً بالله ورسوله.

٣- ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليُفَتِّتوا وِحْدَة المسلمين، ويوجدوا الخلافَ والنزاعَ فيما بينهم.

٤- ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة:١٠٧]، أي: ليكون منطلقاً ومكانَ إعدادٍ للذين يحاربون اللهَ ورسوله

٣- المنافقون يحلفون كاذبين أنهم يريدون ببناءِ المسجد الحسنى:

عندما تخوَّف المسلمون من بناءِ المنافقين مسجدِ الضرارِ، سارعَ المنافقون بالحلفِ كاذبين أنهم لم يريدوا إلا عملَ الخير، فقد زعموا أنَّهم بنوه ليصلُّوا فيه عندما لا يستطيعون الوصولَ إلى مسجد قباء في الشتاءِ، وليكون موضعاً يلجأ إليه الضعيفُ وذو الحاجة، وقد شهد ربُّ العزَّة بكذبهم فيما ادَّعوه وزَعَمُوه ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧)﴾ [التوبة:١٠٧].

٤- نَهْيُ الله تعالى رسولَهُ ﷺ عن القيامِ فيه:

نَهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن القيامِ في مسجدِ الضرارِ ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة:١٠٨]. وكان أهلُ مسجدِ الضرارِ طلبوا مِنَ الرسولِ ﷺ أن يفتتح مسجدَهُمْ، فيصلِّيَ فيه، فنهى اللهُ رسولَهُ ﷺ عن القيامِ فيه، أي: نهاه عن الصلاةِ فيه، ومنه قيامُ رمضان، وصلاةُ القيام.

وحثَّه ربُّه على القيامِ في المسجدِ الذي أقيم على التقوى من أوَّلِ يوم، وهو مسجدُه الذي بني في المدينةِ ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة:١٠٨]. فالمسجدُ المؤهل للقيامِ فيه المسجدُ الذي أُقيم على التقوى والصلاح ومخافةِ الله، وأثنى ربُّ العِزَّة على عُمّار هذا المسجدِ مِنَ الصحابة في ذلك الوقت، ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ وقد ورد في بعضِ النصوص والآثار وفيها ضعفٌ أنَّ محبتهم للتطهر أنَّهم كانوا يستنجون بالماءِ.

والصوابُ مِنَ القول أنَّ هذا المسجد هو المسجدُ النبوي، والنصوصُ الواردة في ذلك صحيحةٌ، فعن أُبيِّ بن كعب أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «المسجدُ الذي أُسِّسَ على التقوى مسْجِدَيْ هذا» تَفَرَّدَ به أحمد [قال الشيخُ شعيبَ الأرنؤوط في تحقيقه «مسند الإمام أحمد» (٢١١٠٧): هو حديث صحيح، تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩٤].

وعن سَهْلِ بن سَعْدٍ الساعديِّ، قال: اختلفَ رجلان على عهد رسولِ الله ﷺ في المسجد الذي أُسِّسَ على التَّقْوى، فقال أَحَدَهُما: هو مسجدُ رسولِ الله ﷺ، وقال الآخرُ: هو مسجدُ قُباء، فأتيا النبيَّ فسألاه، فقال: «هو مَسْجِدي هذا» [قال الشيخ شعيب في تحقيقه «مسند الإمام أحمد» (٢٢٨٠٥): هو حديث صحيح].

وعن أبي سَلَمَةَ بن عبدالرحمن قال: مَرَّ بِي عبدالرحمن بن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قال: قلتُ له: كيف سَمِعْتَ أباكَ يذكُرُ في المسجدِ الذي أُسِّسَ على التقوى؟ قال: قالَ أبي: دَخَلْتُ على رسولِ الله ﷺ في بيتِ بعضِ نِسائِهِ، فقلتُ: يا رسولَ الله! أيُّ المسْجِدَيْنِ الذي أُسِّسَ على التقوى؟ قال: فأخَذَ كَفّاً من حَصْباءَ فَضَرَبَ به الأرْضَ، ثم قال: «هو مَسْجِدُكُمْ هذا» (لمسجدِ المدينةِ) قال: فقلتُ: أشهدُ أنِّي سمعتُ أباكَ هكذا يذْكُرُهُ [مسلم: ١٣٩٨].

٥- لا يستوي المسجدُ الذي أُسِّس بنيانُه على تقوى الله ورضوانه ومسجدُ الضرارِ:

يقولُ ربُّ العزة تبارك وتعالى ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

[التوبة:١٠٩] سأل ربُّ العزة -سبحانه وتعالى- عبادَه المؤمنين الذين يسمعون قوله عن أيِّ المسجدين خيرٌ، المسجدُ الذي أسس بنيانه على تقوى ورضوانٍ، فكان معبداً لله حقّاً وصدقاً، يُرفع فيه الأذانُ، وتقامُ فيه الصلواتُ، ويجتمع فيه المسلمون، ويأْوي إليه المحتاجُ، أم مسجدُ الضرار الذي بناه المنافقون وأمثاله، وقد أُسِّسَ هذا المسجد على شفا جرفٍ هارٍ، والشفا هو الشفير، والجُرُفُ ما ينجرفُ بالسيولِ مِنَ الأودية، وهو جانبها الذي بالماءِ أصله، فيبقى واهياً، فالجُرُفُ ما جَرَفَه السيلُ، وقوله: فانهارَ بِهِ في نار جهنم، أي: تساقط وتداعى، والانهيارُ والانهيالُ متقاربان في اللفظِ والمعنى، وفاعلُ ﴿فَٱنْهَارَ﴾ البنيانُ و﴿بِهِۦ﴾ تعودُ إلى الباني، وجعلَ ربُّ العزة الانهيارَ في نارِ جهنَّم.

والمرادُ أنَّ المسجدَ الضرار بني على الكفرِ، والمقاصدِ الخبيثةِ السيئةِ، بخلافِ المسجدِ المبنيِّ على التقوى.

٦- لا يزالُ البناءُ الذي بناه المنافقون ريبةً في قلوبهم:

يقول ربُّ العزة -سبحانه وتعالى-: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة:١١٠]، أي: لا يزالُ البنيان الذي بنوه، وهو مسجدُ الضرار ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكّاً في قلوبهم، أي: أوْرثهم نفاقاً في قلوبهم، وسيبقى هذا الشكُّ عامراً قلوبهم، حتى تتقطعَ قلوبُهُم بالموت، فإذا ماتوا علموا أنَّهم كانوا ضالين، ولم يكونوا في بنائِه محسنين، وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاءِ لا يتوبون عن نفاقهم، ولن يعودوا إلى الإيمان. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ يريدُ عليم بخلقه، الصادقِ منهم والشاكِّ، وحكيمٌ فيما جعل للصادقين مِنَ الثواب، والكاذبين مِنَ العقاب.

٧- اشتراءُ الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنَّة:

بعد أن بيّنَ اللهُ تعالى أعمالَ المنافقين القائمة على جُرُفٍ هارٍ، بيّنَ أنه اشترى مِنَ المؤمنين أنفسهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه عاوَضَ عبادَه المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها في سبيلِ الله الجنَّة، وهذا مِنْ لطفه بهم -تبارك وتعالى- فالله تعالى هو مالكنا ومالك أموالنا،

ونحن لا نملك شيئاً من ذلك، ومع ذلك عقدَ عقداً مع عبادِهِ المؤمنين، نبيعُه النفسَ والمالَ، ونحصلُ من لدنه على جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، قال الحسن: «اسعوا إلى بَيْعَةٍ ربيحةٍ بايعَ اللهُ بها كل مؤمن، والله ما على الأرضِ مؤمنٌ إلا وقد دخل في هذه البَيْعَة» وقال جعفرٌ الصادق: «ليس لأبدانكم ثمنٌ إلا الجنَّة، فلا تبيعوها إلا بها» [تفسير الواحدي: ١١/ ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ فالثمنُ الذي نقدِّمه لربِّنا -تبارك وتعالى- أننا نُقَدِّم أنفسنا في سبيل ربِّنا -تبارك وتعالى- فنقتلُ أعداءَنا، وقد نَسْقُطُ صرعى شهداء في المعركة، وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه يعطينا بدلَ ما أعطيناه الجنات، وهذا وعدٌ قطعه ربُّ العزة على نفسه في كتبه العظيمة التي أنزلها على رسلِهِ العِظام، وهي التوراةُ التي أنزلها على موسى، والإنجيلُ الذي أنزله على عيسى، والقرآنُ الذي أنزله على محمدٍ، وروى أبو هريرة قال: عن النبي ﷺ قال: «انتَدَبَ اللهُ لمن خَرَجَ في سبيلِه: لا يُخْرِجُه إلا إيمانٌ بي، وتَصْدِيقٌ برُسُلي، أنْ أرجِعَه بما نالَ من أجرٍ أو غَنيمةٍ، أو أُدخِلَه الجَنَّةَ، ولولا أنْ أشُقَّ على أُمَّتي ما قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، ولوَدِدْتُ أنِّي أُقتَلُ في سبيلِ الله، ثم أُحْيا ثمَّ أُقتَلُ، ثمَّ أُحْيا ثمَّ أُقتَلُ» [البخاري: ٣٦. ومسلم: ١٨٧٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أَحَدَ يوفي بعهده كما يوفي ربُّ العزة، فالله لا يخلفُ الميعادَ أبداً، كما قال ربُّ العزة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢]، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ أي: أظهروا السرورَ بذلك، والبشارةُ إظهارُ الفرح بما يَسُرُّ مما بَشَّرَ الله به ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ أي: الظفر بالجنة والخلود فيها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من عملٍ وعمل:

١- ذمَّ ربُّ العزَّة -تبارك وتعالى- المنافقين في مدينة قباء الذين اتخذوا مسجداً ضراراً، وكشف أهدافهم، وفضحهم.

٢- نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- عن الصلاة في مسجدِ الضرارِ، وحثَّ الرسول ﷺ على القيام في مسجدِهِ الذي أقيم على التقوى، وأثنى على الصحابةِ الذين يقومون فيه.

٣- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ المؤمنين أن يقارنوا بين المسجد النبويِّ ومسجد الضرار، فالأوَّل بُني على تقوى مِنَ الله ورضوان، والثاني بني على الكفرِ والفساد.

٤- أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المنافقين الذين بنوا مسجداً للضرار سيبقى بنيانهم الذي بنوهُ ريبةً في قلوبهم إلى أن تقطَّع قلوبُهُم، أي: إلى أن يموتوا، فيوقنوا بسوأة ما عملوه.

٥- أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه اشترى مِنَ المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة، يقاتلون أعداءَ الله، فيقتلونهم، ويقتلون في سبيل الله، وأعلمنا أنَّ هذا وعدٌ قطعه اللهُ تعالى على نفسِهِ في التوراةِ والإنجيل والقرآنِ.

النص القرآني التاسع عشر من سورة التوبة
لا يجوزُ للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -عز وجل- عن صفاتِ المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ونهى اللهُ تعالى نبيَّه والذين آمنوا عن الاستغفار للمشركين، ومنعهم من التأسي في ذلك بنبيِّه إبراهيمَ، وبيَّن أن إبراهيم فعل ذلك عن موعدةٍ وعدها أباه، فلما تبيَّن لإبراهيم أنَّه عدو لله، وأنه ماتَ على كفره تبرأ منه، وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنه لا يحكم بضلالِ عباده حتى يُبيِّن لهم ما يتقونه، وأعلمنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّه إلهنا وربُّنا المالكُ للسماواتِ والأرضِ، الذي يحيي الخلائق ويميتهم، وليس لنا وليٌّ ولا ناصرٌ غيره.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّـٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّـٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة:١١٢-١١٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- صفاتُ المؤمنين الذين اشترى منهم اللهُ تعالى منهم أنفسَهمْ وأموالهم بأنَّ لهم الجنة:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في الآية السابقة أنه اشترى مِنَ المؤمنين أموالَهُمْ وأنفسهم بأنَّ لهم الجنةَ، ووصفَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- هؤلاءِ المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّـٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة:١١٢] و﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ أي: مِنَ الشركِ والذنوبِ والمعاصي، و﴿ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾ أي: الذين عبدوا ربَّهم وحْدَهُ، وأخلصوا

دينهم له، و﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ أي: الذين يديمون حمد الله تعالى بألسنتهم، و﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ أصلُ السياحةُ الاستمرارُ بالذهابِ في الأرض، كما يسيحُ الماءُ، وقال عامةُ المفسرين: السائحون: الصائمون، عن ابن عباس: كل ما ذكر عن السياحة فهو صيامٌ، وقال الأزهريُّ: وقيل للصائم سائحٌ، لأنَّ الذي يسيح في الأرض متعبداً لا زاد معه، فحين يجدُ الزادَ يَطْعَمُ، والصائمُ لا يَطْعَمُ أيضاً، فلشبهه به سُمِّي سائحاً [تفسير الواحدي: ١١/ ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ الذين يؤدون ما عليهم مِنَ الركوعِ والسجودِ، ولعل المرادُ بالركوع والسجودِ الذين يُؤدُّون ما افترضه اللهُ عليهم في الصلاةَ، ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: الآمرون بكلِّ معروفٍ أمرتْ به الشريعةُ الإسلامية، والناهون عن كلِّ منكر نهت عنه وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي: فرائضِهِ، وهي الواجباتُ التي ألزمهم بها، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: بَشِّرْهم بما يسُرُّهُمْ، ويفرحهم.

٢- نهيُ الله تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين عن الاستغفارِ للمشركين:

نَهَى اللهُ -تعالى- رسوله ﷺ والمؤمنين عن الاستغفارِ للمشركين فقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة:١١٣] وهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ رسولَ الله ﷺ كان هو والمؤمنون يطلبون مِنَ الله تعالى أنْ يغفرَ للمشركينَ وبخاصةٍ الأقرباءُ منهم، وقد رَوَى [البخاري: ١٣٦٠. ومسلم: ٢٤] أنَّ الرسولَ ﷺ طلب من عمِّه أبي طالب في مرض موتِهِ أنْ يقول: لا إله إلا الله، ليحاجَّ له عنده بهذه الكلمة، فلما أبى أن يقولها قال النبيُّ ﷺ: «لأستغفرنَّ لَكَ ما لَمْ أُنْهَ عنك» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ وكوْنُ هذه الآية نزلتْ في أبي طالب بعيدٌ[1]، فموت أبي طالب كان في مكَّة، وهذه الآية نزلت في آخر ما نزلَ من السور.

---

(١) استدراك: بل هو ممكن، لأن بعض السور المدنية قد يتخللها بعض الآيات المكية لا سيما وقد صح نزول الآية في قصة أبي طالب وخرجها البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٢٤) وأحمد (٢٣٦٧٤). وقد ذكر السيوطي في «الإتقان» ١/ ٥٨ أن سورة براءة مدنية، وأن هذه الآية مما استثني منها ونزل بمكة. وثمة احتمال آخر وهو أن النبي ﷺ بقي يستغفر لأبي طالب عمه حتى نزلت عليه هذه الآية في المدينة، والله أعلم. انظر: «التفسير البسيط» للواحدي ١١/ ٧٤. الناشر.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «استأذنت ربي أنْ أستَغْفِرَ لأمِّي، فلَمْ يأْذَنْ لي، واسْتأْذَنْتُهُ أنْ أزورَ قَبْرَها، فأَذِنَ لي» [البخاري: ٩٧٦].

وفي الحديث عن سليمانَ بن بريدة، عن أبيهِ أنَّ النبيَّ ﷺ لما قَدِمَ المدينة أتى رَسْمَ قبرٍ، فجَلَسَ إليه، فجعلَ يخاطبُ، ثم قام مُستَعبِراً، فقُلنا: يا رسولَ الله، إنَّا رأيْنا ما صَنَعْتَ، قال: «إني اسْتأْذَنْتُ ربي في زيارةِ قبرِ أمي، فأذِنَ لي، واسْتأْذَنْتُهُ في الاسْتِغْفارِ لها فلمْ يأذن لي» [قال محقق ابن كثيرٍ ٣/ ٤٥٠: إسنادُه صحيح، أخرجه الطبريُّ (١٧٣٤٤) وإسناده على شرط مسلم].

٣- عُذْر نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام في استغفارِهِ لأبيه:

كان نبيُّ الله إبراهيمُ عليه السلام قد وَعَدَ أباه أنْ يستغفرَ له، رجاءَ إيمانِهِ، فأرادَ الرسولُ ﷺ، وأصحابُه أن يتأسَّوا بإبراهيم في استغفارهم لآبائهم وأقربائهم، فنهاهم اللهُ تعالى عن ذلك، وأخبر أنَّ إبراهيمَ استغفرَ لأبيهِ عن موعدةٍ وعدَها إيَّاه، فلما تبيَّن له أنَّ أباه عدوٌّ لله تبرأ منه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة:١١٤].

وعلى ذلك فلا يجوزُ التأسِّي بنبي الله إبراهيمَ في الاستغفارِ للمشركين مطلقاً، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ وصفَ ربُّ العزةِ إبراهيمَ عليه السلام بوصفين هما: الأوَّاهُ والحليمُ، وقد فسَّرَ المفسرون الأوَّاهَ بألفاظٍ متقاربة فيما بينها، فقالوا: الأوَّاه: المتضرعُ بالدعاءِ، والتوَّابُ، والذي يذكر اللهَ تعالى، والمسبِّحُ، والدّعاءُ البكَّاءُ، والحليمُ: واسعُ البالِ، الذي لم يعاقب أحداً إلا لله، ولم ينتصرْ من أحدٍ إلا لله. ثم أخبر اللهُ تعالى رسولَهُ وأصحابَه وأُمّته فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة:١١٥].

أي: وما كان اللهُ تعالى ليقضيَ عليكم بالضلال على عبادِهِ بعد هدايته لهم حتى يبين لهم ما يتقونه، أي: ما يجتنبونه، فلا يحكم على المؤمنين في العهد النبوي بالضلال لاستغفارهم لأقاربهم، لأنهم لم يكونوا يعلمون أنَّ اللهَ تعالى حرَّم هذا، ونهى عنه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ أي: إنَّ الله ذو علم بما خالط أنفسكم عند نهي الله إياكم عن الاستغفار للمشركين الأقارب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة:١١٦]. أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه سبحانه مالك السمواتِ والأرضِ

وما فيهما وما بينهما، وليسَ لأحد من عباده من قِطْميرٍ، وهو الذي يملك -سبحانه- الإحياءَ والإماتةَ، وليس للعبادِ معه من وليٍّ يتولى أمورهم، ولا نصيرٍ يحامي ويدافعُ عنهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- بيَّنَ اللهُ تعالى صفاتِ المؤمنينَ الذين اشترى منهم أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ بأنَّ لهم الجنة.

٢- حكم ربُّ العزة سبحانه وقضى أنَّه لا يجوز للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى، فالكفارُ خالدون في نارِ جهنَّمَ.

٣- لا يجوزُ التأسِّي بنبيِّ الله إبراهيم في الاستغفار لأبيه، فقد استغفرَ له عن موعدةٍ وعدها إيَّاه، فلما تبيَّن أنه عدوٌّ لله تبرأ منه، وهجر الاستغفارَ له.

٤- اللهُ -تبارك وتعالى- لا يحكم بضلالِ عبادِهِ حتى يُبيِّنَ لهم ما يلزمهم فِعْلُهُ، أما قبل ذلك فلا يحكم بضلالهم.

٥- اللهُ -تبارك وتعالى- هو المالكُ للسماواتِ والأرض المحيي المميت، وليس لنا ولي ولا نصير غيره.

النص القرآني المتمم للعشرين من سورة التوبة
قصةُ الثلاثةِ المؤمنين الذين تخلّفوا عن غزوةِ تبوك

أولاً: تقديم

الآياتُ الثلاثةُ الأولى من هذا النص تتحدث عن الثلاثةِ الذين تخلَّفوا عن الرسولِ ﷺ في غزوةِ تبوك، وهم كعبُ بنُ مالك، ومُرارةُ بنُ الرَّبيعِ العَمْريُّ، وهِلالُ بنُ أُميَّة الواقِفيُّ، فأمَرَ رسولُ الله ﷺ باعتزالهم ونهى عن كلامنا، ونزلت توبتُهم بعد خمسين ليلةً، نزلت الآياتُ الثلاثةُ الأولى من هذا النص، وفي قِصَّتهم دروسٌ وعِبرٌ كثيرةٌ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

[التوبة:١١٧-١٢٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سببُ نزولِ هذه الآيات:

حدثنا عبدالله بنُ كعبِ بنِ مالكٍ، قال: سمعت كعبَ بنَ مالكٍ يُحدِّثُ حينَ تخلَّفَ عن قصةِ تبوكَ، قال كَعْبٌ: لم أتخلَّفْ عن رسولِ الله ﷺ في غزوةٍ غَزاها إلا في غزوةِ تبوكَ، غيرَ أني كنتُ تَخلَّفْتُ في غزوةِ بَدْرٍ، ولم يُعاتِبْ أحداً تخلَّفَ عنها، إنما خَرَجَ رسولُ الله ﷺ يريدُ عيرَ قُرَيشٍ، حتى جَمَعَ اللهُ بينَهم وبينَ عَدُوِّهم على غيرِ ميعادٍ.

ولقد شَهِدْتُ مع رسولِ الله ﷺ ليلةَ العقبةِ حينَ تواثَقْنا على الإسلام، وما أُحِبُّ أنَّ لي بها مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإنْ كانت بَدْرٌ أذْكَرَ في الناس منها، كانَ مِنْ خَبَرِي أنّي لم أكُنْ قطُّ أقوى ولا أيسَرَ حينَ تخلَّفْتُ عنه في تلك الغَزاةِ، والله ما اجْتَمَعَتْ عندي قبلَه راحلَتانِ قطُّ، حتى جَمَعْتُهما في تلكَ الغزوةِ، ولم يكنْ رسولُ الله ﷺ يريدُ غَزْوةً إلا ورَّى بغيرِها، حتى كانت تلكَ الغزوةُ، غَزاها رسولُ الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستَقْبَلَ سفراً بَعيداً، ومَفازاً وعَدُوّاً كثيراً، فجَلَّى للمُسلمينَ أمرَهم ليَتَأَهَّبوا أُهْبَةَ غَزْوِهم، فأخبَرَهم بوَجْهِه الذي يريدُ، والمسلمونَ مع رسولِ الله ﷺ كثيرٌ، ولا يَجمَعُهم كِتابٌ حافظٌ -يريدُ الدِّيوانَ- قال كعبٌ: فما رجلٌ يريدُ أنْ يَتغَيَّبَ إلا ظَنَّ أنْ سَيَخْفَى له، ما لم يَنْزِلْ فيه وحْيُ الله، وغَزا رسولُ الله ﷺ تلكَ الغَزْوةَ حينَ طابَتِ الثِّمارُ والظِّلالُ.

وتَجهَّزَ رسولُ الله ﷺ والمسلمونَ معه، فطَفِقْتُ أغْدُو لكي أَتَجهَّزَ معهُم، فأرجِعُ ولم أقضِ شيئاً، فأقولُ في نفسي: أنا قادِرٌ عليه، فلم يَزَلْ يَتَمادَى بي حتَّى اشتَدَّ بالناس الجِدُّ، فأصبَحَ رسولُ الله ﷺ والمسلمونَ معه، ولم أقضِ مِنْ جهازي شيئاً، فقلتُ: أتجهَّزُ بعدَه بيوم أو يومَينِ ثمَّ ألحَقُهُمْ، فغَدَوْتُ بَعْدَ أنْ فصَلوا لأتَجهَزَ، فرَجَعْتُ ولم أقضِ شيئاً، ثم غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْت ولم أقضِ شيئاً، فلم يَزَلْ بي حتى أسرَعوا وتَفارَطَ الغَزْوُ، وهَمَمْتُ أنْ أرتَحِلَ فأُدْرِكَهُم -وليَتَني فعلتُ- فلم يُقدَّرْ لي ذلكَ، فكنتُ إذا خَرَجْتُ في الناس بعدَ خُروجِ رسولِ الله ﷺ ، فطُفْتُ فيهم، أحزَنَني أني لا أرى إلا رجلاً مَغْمُوصاً عليه النِّفاقُ، أو رجلاً ممَّن عَذَرَ الله مِنَ الضُّعَفاءِ، ولم يَذْكُرْني رسولُ الله ﷺ حتى بَلَغَ تبوكَ، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوكَ: «ما فَعَلَ كَعْبٌ؟» فقال رجلٌ من بني سَلِمةَ: يا رسولَ الله، حَبَسَه بُرْداه ونَظَرُه في عِطْفَيه، فقال مُعاذُ بنُ جَبَلٍ: بئْسَ ما قلتَ، والله يا رسولَ الله ما عَلِمْنا عليه إلاَّ خيراً، فسَكَتَ رسولُ الله ﷺ.

قال كَعْبُ بنُ مالكٍ: فلما بَلَغَني أنَّه تَوَجَّهَ قافلاً حَضَرَني همِّي، وطَفِقْتُ أتَذَكَّرُ الكَذِبَ وأقولُ: بماذا أخرُجُ مِنْ سَخَطِه غداً؟ واستَعَنتُ على ذلكَ بكلِّ ذي رَأْيٍ من أهلي، فلمَّا قيلَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد أظَلَّ قادِماً، زاحَ عنِّي الباطلُ، وعَرَفْتُ أنّي لن أخرُجَ منه أبداً بشيءٍ فيه كَذِبٌ، فأجْمَعْتُ صِدْقَه، وأصبَحَ رسولُ الله ﷺ قادِماً، وكانَ إذا قَدِمَ من سفرٍ بَدَأ بالمسجِدِ فيَرْكَعُ فيه رَكْعتَينِ، ثمَّ جَلَسَ للناس، فلمَّا فَعَلَ ذلكَ جاءَه المخلَّفونَ، فطَفِقوا يَعْتَذِرونَ إليه، ويَحلِفونَ له، وكانوا بِضْعةً وثمانينَ رجلاً، فقَبِلَ منهم رسولُ الله ﷺ عَلانيَتَهُمْ، وبايَعَهم واستَغْفَرَ لهم، ووَكَلَ سَرائرَهم إلى الله، فجئتُه، فلمَّا سَلَّمْتُ عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثم قال: «تَعالَ» فجئتُ أمْشي حتَّى جلستُ بينَ يَدَيه، فقال لي: «ما خَلَّفَكَ؟ ألم تكنْ قَدِ ابتَعْتَ

ظَهْرَكَ؟» فقلتُ: بَلَى، إني والله لو جلستُ عندَ غيرِكَ مِنْ أهلِ الدُّنْيا، لَرأيتُ أنْ سأخرُجُ من سَخَطِهِ بعُذْرٍ، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلاً، ولكنّي والله لقد عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حديثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عنّي، لَيُوشِكَنَّ الله أنْ يُسْخِطَكَ عليَّ، ولَئِنْ حَدَّثْتُكَ حديثَ صِدْقٍ تَجِدُ عليَّ فيه، إنّي لأرجُو فيه عَفْوَ الله، لا والله، ما كانَ لي من عُذْرٍ، والله ما كنتُ قطُّ أقوَى ولا أيسَرَ منّي حينَ تَخَلَّفْتُ عنكَ، فقال رسولُ الله ﷺ : «أما هذا فقد صَدَقَ، فقُم حتّى يَقْضِيَ الله فيكَ»، فقُمْتُ.

وثارَ رِجالٌ مِنْ بني سَلَمَةَ، فاتَّبَعوني، فقالوا لي: والله ما عَلِمْناكَ كنتَ أذنَبتَ ذَنباً قبلَ هذا، ولقد عَجَزْتَ أنْ لا تكونَ اعتَذَرْتَ إلى رسولِ الله ﷺ بما اعتَذَرَ إليه المُتخلِّفون، قد كانَ كافيَكَ ذَنبَكَ استِغْفارُ رسولِ الله ﷺ لَكَ، فوالله ما زالوا يُؤَنِّبوني حتَّى أَرَدْتُ أنْ أرجِعَ، فأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثمَّ قلتُ لهم: هل لَقِيَ هذا مَعي أحدٌ؟ قالوا: نَعَم، رجلانِ قالا مِثلَ ما قُلْتَ، فقيلَ لهما مِثلُ ما قيلَ لَكَ، فقلتُ: مَن هما؟ قالوا: مُرارةُ بنُ الرَّبيعِ العَمْرِيُّ، وهِلالُ بنُ أُمَيَّةَ الواقِفِيُّ، فذكَروا لي رجلَينِ صالحينِ قد شَهِدا بَدْراً، فيهما أُسوةٌ، فمَضَيتُ حينَ ذَكَرُوهما لي.

ونَهَى رسولُ الله ﷺ المسلمينَ عن كَلامِنا أيُّها الثلاثةُ مِنْ بينِ مَن تَخَلَّفَ عنه، فاجْتَنَبنا الناسُ وتَغَيَّروا لنا، حتَّى تَنكَّرَتْ في نَفْسي الأرضُ، فما هِيَ التي أعرِفُ، فلَبِثْنا على ذلكَ خمسينَ ليلةً، فأمّا صاحبايَ فاستكانا وقَعَدا في بيوتِهما يَبْكِيانِ، وأما أنا فكنتُ أَشَبَّ القومِ وأجْلَدَهُم، فكنتُ أخرُجُ فأشهَدُ الصلاةَ مع المسلمينَ، وأطوفُ في الأسواقِ، ولا يُكلِّمُني أحدٌ، وآتي رسولَ الله ﷺ فأُسَلِّمُ عليه وهو في مَجلِسِه بعدَ الصلاةِ، فأقول في نَفْسي: هل حَرَّكَ شَفَتَيه بردِّ السَّلام عليَّ أم لا؟ ثم أُصَلِّي قَريباً منه، فأُسارِقُه النَّظَرَ، فإذا أقبَلْتُ على صلاتي أقبلَ إليَّ، وإذا التَفَتُّ نحوَه أعرَضَ عنّي.

حتَّى إذا طالَ عليَّ ذلكَ مِنْ جَفْوةِ الناس، مَشَيتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ جِدارَ حائطِ أبي قَتادةَ، وهو ابن عَمّي وأحَبُّ النّاس إليَّ، فسلَّمْتُ عليه، فوالله ما رَدَّ عليَّ السَّلامَ، فقلتُ: يا أبا قَتادةَ، أَنْشُدُكَ بالله، هل تَعْلَمُني أُحِبُّ الله ورسولَه؟ فسَكَتَ، فعُدْتُ له فنَشَدْتُه، فسَكَتَ، فعُدْتُ له فنَشَدْتُه، فقال: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، ففاضَتْ عَينايَ، وتَوَلَّيتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ الجدارَ.

قال: فبَيْنا أنا أَمْشي بسوقِ المدينةِ، إذا نَبَطِيٌّ مِنْ أنباطِ أهلِ الشامِ ممَّن قَدِمَ بالطَّعامِ يبيعُه بالمدينةِ، يقولُ: مَن يَدُلّ على كَعْبِ بنِ مالكٍ؟ فطَفِقَ الناسُ يُشيرونَ له، حتى إذا جاءَني دَفَعَ إليَّ كِتاباً مِنْ مَلِكِ غَسّانَ، فإذا فيه: أمّا بَعْدُ، فإنَّه قد بَلَغَني أنَّ صاحبَكَ قد جَفاكَ، ولم يَجْعَلْكَ اللهُ بدارِ هَوانٍ ولا مَضْيَعةٍ، فالحقْ بنا نُواسِكَ. فقلتُ لَمَّا قرأْتُها: وهذا أيضاً مِنَ البلاءِ، فتيَمَّمْتُ

بها التَّنُّورَ فسَجَرْتُه بها. حتَّى إذا مَضَتْ أربَعونَ ليلةً منَ الخمسينَ، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمُرُكَ أنْ تَعْتَزِلَ امرَأَتَكَ، فقلتُ: أُطَلِّقُها أم ماذا أفْعَلُ؟ قال: لا، بَلِ اعتزِلْها ولا تَقْرَبْها، وأرسَلَ إلى صاحبيَّ مِثلَ ذلكَ. فقلتُ لامرَأتي: الحقي بأهلِكِ، فتكوني عندَهم حتَّى يَقْضِيَ اللهُ في هذا الأمرِ، قال كَعْبٌ: فجاءَتِ امرأةُ هِلالِ بنِ أُمَيَّةَ رسولَ الله ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله، إنَّ هِلالَ ابنَ أُميَّةَ شيخٌ ضائعٌ، ليس لَهُ خادِمٌ، فهَلْ تكْرَه أنْ أخدُمَه؟ قال: «لا، ولكنْ لا يَقرَبُكِ» قالت: إنَّه واللهِ ما به حَرَكَةٌ إلى شيءٍ، واللهِ ما زالَ يَبْكي منذُ كانَ مِنْ أمرِه ما كانَ إلى يومِه هذا، فقال لي بعضُ أهلي: لَوِ استأْذَنْتَ رسولَ الله ﷺ في امرَأتِكَ كما أذِنَ لامرأةِ هِلالِ بنِ أُمَيَّةَ أنْ تَخْدُمَه، فقلتُ: واللهِ لا أستأْذِنُ فيها رسولَ الله ﷺ، وما يُدْرِيني ما يقولُ رسولُ الله ﷺ إذا استأْذَنْتُه فيها وأنا رجلٌ شابٌّ؟

فلَبِثْتُ بعدَ ذلكَ عَشْرَ ليالٍ، حتَّى كَمَلَتْ لنا خمسونَ ليلةً من حينَ نَهَى رسولُ الله ﷺ عن كَلامِنا، فلمَّا صَلَّيتُ صلاةَ الفجرِ صُبْحَ خمسينَ ليلةً، وأنا على ظَهْرِ بيتٍ من بيوتِنا، فبَيْنا أنا جالسٌ على الحالِ التي ذَكَرَ الله، قد ضاقَتْ عليَّ نَفْسي، وضاقَتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ، سمعتُ صوتَ صارخٍ أوْفَى على جَبَلِ سَلْعٍ بأعلَى صوتِه: يا كَعْبَ بنَ مالكٍ، أبشِرْ. قال: فخَرَرْتُ ساجِداً، وعرَفْتُ أنْ قد جاءَ فرَجٌ، وآذَنَ رسولُ الله ﷺ بتَوْبةِ الله علينا حينَ صلَّى صلاةَ الفجرِ، فذهبَ الناسُ يُبشِّرونَنا، وذهبَ قِبَلَ صاحبَيَّ مُبَشِّرونَ، ورَكَضَ إليَّ رجلٌ فرَساً، وسَعَى ساعٍ من أسلَمَ، فأوفَى على الجَبَلِ، وكانَ الصوتُ أسرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فلما جاءَني الذي سمعتُ صوتَه يُبشِّرُني نَزَعْتُ له ثوبيَّ، فكَسَوْتُه إيّاهما ببُشْراه، واللهِ ما أَمْلِكُ غيرَهما يومَئِذٍ، واستَعَرْتُ ثوبينِ فلَبِسْتُهما، وانطَلَقْتُ إلى رسولِ الله ﷺ، فيَتَلَقّاني الناسُ فوْجاً فوْجاً يُهَنّوني بالتَّوْبةِ، يقولونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبةُ الله عليكَ.

قال كعبٌ: حتى دَخَلْتُ المسجدَ، فإذا رسولُ الله ﷺ جالسٌ حوْلَه الناسُ، فقامَ إليَّ طَلْحةُ بنُ عُبَيدِ الله يُهَرْوِلُ حتى صافَحَني وهَنّاني، واللهِ ما قامَ إليَّ رجلٌ مِنَ المهاجِرينَ غيرُه، ولا أنساها لطَلْحةَ. قال كَعْبٌ: فلمّا سَلَّمْتُ على رسولِ الله ﷺ، قال رسولُ الله ﷺ وهو يَبْرُقُ وجهُه مِنَ السُّرُورِ: «أبشِرْ بخيرِ يَوْمٍ مَرَّ عليكَ منذُ ولَدَتْكَ أمُّكَ» قال: قلتُ: أمِنْ عِنْدِكَ يا رسولَ الله أم من عندِ الله؟ قال: «لا، بل من عِنْدِ الله» وكانَ رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استَنارَ وجهُه حتى كأنَّه قِطْعةُ قَمَرٍ، وكنَّا نَعْرِفُ ذلكَ منه، فلمّا جلستُ بينَ يَدَيه قلتُ: يا رسولَ الله، إنَّ من تَوْبَتي أنْ أنْخَلِعَ من مالي صَدَقةً إلى الله وإلى رسولِ الله، قال رسولُ الله ﷺ: «أمْسِكْ عليكَ بعضَ مالِكَ، فهو خيرٌ لَكَ» قلتُ: فإنّي أُمْسِكُ سَهْمي الذي بخَيْبَرَ، فقلتُ: يا رسولَ

الله، إنَّ الله إنّما نَجّاني بالصِّدْقِ، وإنَّ مِنْ تَوْبَتي أنْ لا أُحَدِّثَ إلاَّ صِدْقاً ما بَقيتُ، فوالله ما أعلَمُ أحداً من المسلمينَ أبلاه اللهُ في صِدْقِ الحديثِ منذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لرسولِ الله ﷺ أحسَنَ ممَّا أبلاني، ما تَعَمَّدْتُ منذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرسولِ الله ﷺ إلى يومي هذا كَذِباً، وإني لأرجُو أنْ يَحفَظَني اللهُ فيما بَقِيتُ.

وأنزَلَ الله على رسولِه ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٧-١١٩] فوالله ما أنعَمَ اللهُ عليَّ من نِعْمةٍ قطُّ بعدَ أنْ هَداني للإسلام، أعظَمَ في نَفْسي مِنْ صِدْقي لرسولِ الله ﷺ أنْ لا أكونَ كَذَبْتُه، فأهلِكَ كما هَلَكَ الذينَ كَذَبوا، فإنَّ الله قال للذينَ كَذَبوا حينَ أنزلَ الوَحْيَ شَرَّ ما قال لأحد، فقال تَبارَكَ وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة:٩٥-٩٦] قال كَعْبٌ: وكنَّا تَخلَّفْنا أيُّها الثلاثةُ عن أمرِ أولئكَ الذينَ قَبِلَ منهم رسولُ الله ﷺ حينَ حَلَفوا له فبايَعَهُم، واستَغْفَرَ لهم، وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمرَنا، حتَّى قَضى الله فيه، فبذلكَ قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة:١١٨] وليس الذي ذَكَرَ الله ممَّا خُلِّفْنا عن الغَزْوِ، إنَّما هو تَخْليفُه إيّانا وإرْجاؤُه أمرَنا عَمَّنْ حَلَفَ له، واعتذر إليه، فقَبِلَ منه [البخاري: ٤٤١٨. ومسلم: ٢٧٦٩].

٢- توبة الله -تعالى- على النبيِّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه ساعة العسرة:

قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧].

قال ابن كثير: «قال مجاهد، وغير واحدٍ: نزلت هذه الآيةُ في غزوةِ تبوك، وذلك أنهم خَرَجُوا إليها في شدَّةٍ من الأمر في سنة مُجْدِبَةٍ، وحَرٍّ شديدٍ، وعُسْرٍ من الزاد والماءِ. قال قتادةُ: خَرَجوا إلى الشام عامَ تبوكَ في لَهَبان الحر، على ما يعلم الله مِنَ الجَهْدِ، أصابهم فيها جَهدٌ شديدٌ، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يَشُقّانِ التمرةَ بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصُّها هذا ثم يَشْربُ عليها، ثم يمصُّها هذا ثم يَشْربُ عليها ، فتابَ الله عليهم، وأقفلهم مِنْ غزوتهم».

وقال ابنُ جرير: حدثني يونس بن عبدالأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عَمْرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عُتْبَةَ بن أبي عُتْبَةَ، عن نافعِ بنِ جُبَير بن مُطعِم، عن

عبدالله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قَيْظٍ شديدٍ، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عَطَش، حتى ظننا أنَّ رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمسُ الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطعُ، حتى إن الرجلَ لينحر بعيره فيعصر فَرْثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إنَّ الله عز وجل قد عَوّدك في الدعاء خيراً، فادع لنا، قال: «تحب ذلك؟» قال: نعم! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء، فأظَلَّت ثم سكبت، فمَلؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزتِ العسكر [قال محقق ابن كثير (٣/ ٤٥٧): إسناده حسن، ورجاله ثقات].

وقال ابن جرير في قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: مِنَ النفقة والظَّهْرِ والزاد والماءِ، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: عن الحقِّ ويشكُّ في دين رسولِ الله ﷺ ويرتابُ، بالذي نالهم مِنَ المشقة والشدَّة في سفره وغزوه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ ، يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوعِ إلى الثبات على دينه، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [ابن كثير: ٣/ ٤٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ .

٣- أمر الله تعالى المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين:

لما ذكر تعالى ما فرَّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، مِنْ هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفُسهم، وضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبتْ، أي: مع سعتها، فَسُدِّدَتْ عليهم المسالكُ والمذاهبُ، فلا يهتدون ما يصنعون، فصَبَروا لأمرِ الله، واستكانوا لأمرِ الله، وثبتوا حتى فَرَّج الله عنهم بسبب صِدْقهم رسولَ الله ﷺ في تخلُّفهم، وأنه كان عن غير عذرٍ، فعُوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ ، أي: اصدقُوا والزمُوا الصدقَ تكونوا مع أهله، وتنجوا من المهالك، ويَجْعَلْ لكم فرجاً من أموركم، ومخرجاً.

وأورد ابن كثير في تفسيره ما رواه أحمد والبخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ : «عَلَيْكُمْ بالصِّدْقِ، فإنَّ الصِّدْقَ يهدي إلى البرِّ وإنَّ البر يهدي إلى

الجَنَّةِ، وما يزالُ الرجلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حتَّى يُكتَبَ عِنْدَ الله صدِّيقاً، وإياكُمْ والكذِبَ فإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُور، وإنَّ الفجورَ يَهْدِي إلى النَّار، وما يَزالُ الرَّجُلُ يكذِبُ ويتحرَّى الكَذِبَ، حتى يُكتَبَ عند الله كذاباً» [ابن كثير: ٣/ ٤٦١].

٤- نَهْيُ الله تعالى أهلَ المدينةِ ومَنْ حولهم مِنَ الأعراب أنْ يتخلفوا عن رسولِ الله:

نهى اللهُ تعالى أهلَ المدينةِ والأعرابَ الذين حولها أن يتخلفوا عن رسولِ الله، ولا يرْغبوا بأنْفُسِهِمْ عن نفسه ﴿مَاكَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة:١٢٠] لامَ اللهُ -تبارك وتعالى- الذين تخلَّفوا عن رسولِ الله في غزوة تبوك من أهل المدينة، ومن الأعراب حولهم، وهم مزينةُ وجهينةُ وأشجعُ وأسلمُ وغفارُ، فلا يجوز لهؤلاء أنْ يَرْضَوا بالتخلُّفِ عن الغزوِ خلافَ رسولِ الله ﷺ ، ويجعلوا أنفسهم في الظلالِ والنعيمِ، والرسولُ ﷺ في التعبِ والمشقَّةِ والعناءِ.

ثم رغَّب اللهُ تعالى أهلَ المدينةِ ومَنْ حولهم مِنَ الأعراب في الجهاد، وما يحوزه المجاهدونَ مِنَ الأجْرِ العظيمِ والثوابِ الجزيلِ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٢٠﴾ [التوبة:١٢٠].

بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أنَّ ما يحصل للمؤمنين من الأجرِ والثوابِ في مقاساةِ ومعاناة ما يصيبهم من مشقات الطريق وكُلَفِ السفر، وقوله: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو شدةُ العطشِ، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو التعبُ والإعياءُ مِنَ العناءِ وشدة الحرِّ والبرد، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي: ولا مجاعةٍ، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في الجهادِ في سبيل الله، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: يغضبُ الكفار، ويثيرُ حفيظتهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي: لا يأسرون الكفارَ ولا يقتلونهم ويهزمونهم، قليلاً كان ذلك أو كثيراً إلا كان ذلك قربةً لهم عند الله وكُتب لهم بذلك ثواب عمل صالح ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾. وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ مَنْ قصد طاعةَ الله كان قيامُهُ وقعودُه ونصبُه ومشيُه وحركاتُه كلها حسناتٍ مكتوبةً له.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٢٠﴾ فالله يعلم أعمالهم، ويحصيها، ويباركها، وينمِّيها، ولا يضيعُ عمل المحسنين.

وقولُ ربِّ العزة سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة:١٢١]. أخبر ربُّ العزة سبحانه وتعالى عن مجموعةٍ مِنَ الأعمال الأخرى التي تزيدُ المجاهدين أجراً وثواباً، فمن ذلك إنفاقُهم القليلَ والكثيرَ، والصغيرَ والكبيرَ في الجهادِ، ومن ذلك مسيرُهُمْ إلى الموضعِ الذي يقصدونه قاطعين الوديانَ والفيافي والقفارَ، فيكتبُ اللهُ تعالى لهم ذلك كلَّه، ليجزيهمَ ربُّهم أحسنَ ما كانوا يعملون.

٥- لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا للحرب والقتالِ كافةً إذا بقي الرسولُ ﷺ في المدينة:

بيَّنَ اللهُ تعالى فيما مضى أنه لا يجوز لأحد من المؤمنين أنْ يتخلفَ عن الرسولِ ﷺ إذا خرجَ للحرب والقتالِ بنفسه، فإذا أرسل الرسولُ ﷺ السَّرايا، وقعد في المدينة، فلا يجوز للمؤمنينَ أنْ يخرجوا جميعاً للحربِ والقتالِ ويُخَلِّفوا رسولَ الله ﷺ وحده في المدينةِ، وبذلك نضمن أن تسير مسيرة الجهادِ، وتنطلق، وتبقى الحياة في المجتمع الإسلامي ماضية على حالها، ولا يتأثر المجتمعُ الإسلامي بالحالةِ الجهادية التي تعمل فيه، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

حكم ربُّ العزة تبارك وتعالى أنَّه لا يجوزُ لصحابةِ رسولِ الله ﷺ أنْ ينفروا إلى الغزو للجهادِ جميعُهُمْ، مخلفين رسولَ الله ﷺ خلفهم في المدينةِ، وحَضَّهم ربُّ العزة -تبارك وتعالى- على أنْ ينفر مِن كلِّ فرقة، أي: مِنْ كلِّ مدينةٍ أو قريةٍ أو قبيلةٍ أو جماعة طائفةٌ، أي: جماعةٌ، يبقون مع الرسول ﷺ في المدينة، فَيَصْحَبُونَه، ويأخذون عنه العلمَ والوحيَ والفقهَ، حتى إذا عادوا إلى قومهم بعد صحبتهم للرسول ﷺ فقَّهُوهم وعلَّموهم، وأنذروهم لعلهم يحذرون فعل ما لا يريدُه ربُّ العزة منهم.

هذا إذا كان الرسول ﷺ بقي في المدينةِ، فإذا خرج بالجيش، فلا يجوزُ لأحدٍ أنْ يتخلَّف عنه إلا بعذرٍ يرضاه، ويصبحُ الذين يصحبونه في الخروج هم الذين يفقهونَ عنه، ويأخذون عنه العلم، ليفقهوا قومهم بعد العودة إليهم، لعلهم يحذرون.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- وفَّقَ اللهُ -تعالى- أصحابَ رسولِ الله ﷺ إلى الخروج إلى غزوةِ تبوك بعد أنْ تردَّدوا وهمُّوا بالتخلف عنه، فسدَّدهم وأعانهم على الخروج.

٢- كانَ عددُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ الذين تخلفوا عنه في تبوك قليلاً جداً، فلم يتخلف عنه إلا ثلاثة فحسب، من بين ثلاثين ألف مقاتل.

٣- صدقَ الثلاثةُ الذين تخلفوا ولم يعتذروا عذرَ المنافقين، وصدقوا اللهَ تعالى، ورسولَه ﷺ حتى أنزل قبولَ توبتهم مِنْ عنده.

٤- عاقبةُ الصدق إلى خيرٍ، فالثلاثةُ الذين تخلَّفوا عن تبوك صدقوا، فكانت عاقبتهم إلى خيرٍ، والمنافقون الذين تخلفوا أحلُّوا عقابَ الله ومقته بهم.

٥- لوم الله الذينَ تخلفوا عن رسولِ الله ﷺ وأصحابِهِ في الخروج إلى تبوك مِنْ أهل المدينةِ ومَنْ حولهم مِنَ الأعرابِ، فما كان لهم أن يتخلفوا عن رسولِ الله ﷺ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه.

٦- ينال المجاهدون في سبيل الله تعالى أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً، بما ينالونه، ويقدمونه مِنَ الأعمال الصالحةِ، وما يعانونه من الجهدِ والتعبِ.

٧- إذا أرسل الرسولُ ﷺ الجيوشَ للحربِ والقتالِ وقعدَ في المدينةِ، فلا يجوز للمؤمنين أنْ يخرجوا جميعهم، بل يبقى منهم فرقة وجماعة يصحبونَ رسولَ الله ﷺ ، ويأخذون العلم والوحي عنه، وينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

النص القرآني الحادي والعشرون من سورة التوبة
جملة من أحوال المنافقين

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ والمؤمنين باتباع منهجيَّةٍ معيَّنَةٍ في قتال أعْدائِهم الكفار، وأمر بالغلظةِ في قتال أولئك الأعداءِ.

وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المؤمنين تزيدُهُمْ سورُ القرآن إيماناً إذا ما تَلَقُّوها، والكفارُ والمنافقون تزيدُهم كفراً ونفاقاً، ويموتون على كفرهم.

وأخبرنا ربُّنا أنه يُنَزِّلُ على المنافقين دائماً أنواع الفتنِ، ليختبرَهُمْ، ويبتليهم بها، ولكنهم لا يعتبرون، ولا يتوبون.

وبيَّن لنا موقفَ المنافقين إذا نزلتْ سورةٌ، ولم يَرَهُمْ أحد، فإنَّهم ينصرفون مُوَلِّين، من غير أن يستفيدوا مما أنزله اللهُ تعالى.

ووصف اللهُ رسولَهُ ﷺ بصفاتٍ رائعة، فهو سيد الخلق، وأمَرَهُ إن أعرض الناسُ عنه أن يلتجئَ إلى ربِّه تبارك وتعالى، ويحتمي به، ويتوكَّل عليه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٣-١٢٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمر اللهُ -تعالى- المؤمنين أنْ يقاتلوا الذين يلونهم مِنَ الكفار:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين أن يتَّبعوا في قتالهم لأعدائهم مِنَ الكفار معالمَ خطةٍ عسكريةٍ واحدةٍ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة:١٢٣].

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين أن يقاتلوا الأدْنى فالأدْنى من أعدائهم، ولهذا بدأ الرسولُ ﷺ بقتال المشركينَ في جزيرةِ العرب، فلما دخلتِ الجزيرة في الإسلام، وفتحَ اللهُ على المؤمنين مكة والطائفَ واليمن وهجرَ وخيبرَ وحضرموتَ وعمومَ الجزيرةِ العربيةِ، اتجَّهَ إلى حربِ الرومِ في شمالِ الجزيرة العربيةِ، فبلغ تبوكَ، ثم رَجَعَ.

وبعد وفاةِ الرسولِ ﷺ قام أبو بكر الصديقُ بحربِ المرتدِّين ومانعي الزكاةِ، ثم اجتاحتْ جيوشُ الإسلامِ فارسَ والرومَ معاً، وهزَّ عروشَ الأكاسرةِ والقياصرةِ، وأتمَّ الفتحَ من بعدهِ خليفته عمر بنُ الخطابِ، فأتمَّ اللهُ على يَدَيْهِ فتحَ فارسَ والرومَ، وفُتِحَتْ مصرُ، وكثيرٌ مِنَ البلادِ.

واستمرت حروبُ المسلمين في عهد عثمانَ إلى أنْ وقعَ الخلافُ بين الصحابةِ، واقتتلوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ﴾ أي: يجبُ أن يعاملَ المسلمون أعداءَهم في الحرب والقتال بغلظةٍ، والغلظةُ الشدَّةُ والقوةُ والعنفُ، فالحربُ ليست موضعاً للأحاسيس الناعمةِ، وإنَّما هي موضعٌ للضربِ والطعانِ وضربِ الأعناق، وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ أمَرَهُمْ اللهُ -تعالى- أن يعلموا أنَّه -سبحانه- مع المتقين، وإذا كان معهم، فإنَّه ناصِرُهم ومؤيِّدُهم، وهازمُ أعدائِهم.

٢- أثرُ القرآن في زيادة الإيمان:

أعْلَمَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المنافقين كانوا إذا ما أُنزلت سورةٌ يقولون: أيُّكم زادَتْه هذه السورةُ إيماناً ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤] وقد أجاب ربُّ العزةِ، وبيَّن أن الذين آمنوا تزيدُهم سورُ القرآن إيماناً وهم يستبشرون ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة:١٢٤].

وزيادةُ الإيمانِ ونقصانُه أصْلٌ من أُصولِ الإيمان عندَ الصحابةِ والذين اتبعوهم بإحسان، فالقرآنُ الذي ينزله اللهُ تعالى، فيعلَمُهُ المؤمنون، ويعْلَمون منه ما يعرِّفُهم بالله

وأسمائِه وصفاته، وما يتعلَّق برسله وأنبيائه، وما يحدِّثُهُمْ به عن ملائكته الأطهار، والمصطفين الأخيار، واليومِ الآخِرِ، ويعلمون العلم النافع، علمَ الشريعة، كلُّ ذلك يزيدُ الإيمانَ ويقوِّيْهِ، ويزدادُ الإيمان أيضاً بعملهم بهذا الدين وحفاظهم عليه.

وأما الكفارُ والمنافقون، فإذا أنزل القرآنُ كفروا به، ورفضوه، وكذَّبوا بما جاءَ به، فاكتسبوا ذنوباً إلى ذنوبهم، وكفراً إلى كفرهم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٥]، أي: زادتهم كفراً إلى كفرهم، وشكّاً إلى شَكِّهم، وماتوا على ما هم عليه من الكفرِ والشكِّ.

٣- فتنةُ الله -تعالى- المنافقين في كلِّ عامٍ مرَّةً أو مرتين:

خاطب ربُّ العزَّة سبحانه وتعالى المنافقين منبِّهاً إيَّاهم قائلاً لهم: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة:١٢٦]

وقوله تعالى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي: يُختَبَرون، ويمتحنونَ، أي: بأنواعِ الاختبارِ والابتلاءِ، كأن يختبرهم اللهُ تعالى بما يرسله عليهم مِنَ الأمراضِ والأوجاع، والجوعِ والقحطِ، أو بغزوِ المؤمنين وجهادِهِمْ لهم، فيصيبونهم بالجرحِ والأسْرِ والقتلِ، وغنيمةِ أموالهم، فلا يرتدعون عن كفرهم، ولا يَنْزَجِرون عمَّا هم عليه مِنَ النِّفاقِ، ولا يقدِّمون الأعمالَ الصالحةَ لأنفسهم في الآخرةِ.

وحالُهُمْ مخالفٌ لحالِ المؤمنين، فالمؤمنون إذا أصابتهم المصائِبُ، أنابوا إلى ربِّهم، وخضعوا له، ويكونُ حالهم كما وصف الله المؤمنين، أي: يتوبون ويذَّكَّرون.

ثم ذكر اللهُ -تعالى- عن المنافقين أنَّهم ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة:١٢٧].

أخبر ربُّ العزَّة سبحانه أنه إذا أُنزلتْ سورةٌ على رسولِ الله ﷺ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تَلَفَّت بعضُهم إلى بعضٍ ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ فإذا كان هناك مَنْ يراهم ثَبَتُوا واستمرُّوا على حالهم، وإذا لم يَرَهُمْ أحد انطلقوا عائدين إلى ديارهم ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ أي: مِنَ الموضع الذي كانوا فيه، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ لا يفهمون عن الله تعالى ما أنزله في كتابِهِ.

٤- ثناء الله -تبارك وتعالى- على عبدِهِ ورسولِه محمدٍ ﷺ :

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ في الآيتين الأخيرتين من هذه السورة، فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٨-١٢٩].

امتنَّ اللهُ تعالى على المؤمنين بأن أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم هو عبدُهُ ورسولُهُ محمدٌ ﷺ، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشيِّ: «إنَّ اللهَ بعث فينا رسولاً مِنَّا، نعرف نسبَهُ وصفتَهُ، ومَدْخلَهُ ومَخْرَجَهُ، وصِدْقَه وأمانَته».

فرسولنا ﷺ مِنْ جِنْسِ العربِ، مِنْ وَلَدِ نبيِّ الله إسماعيل، ولغته لغةُ العربِ، وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يَعِزُّ عليه عنتكم، والعَنَتُ: الشِّدَّةُ والمشقَّةُ، وقولُه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: حريصٌ على إيمانكم وهدايتكم ووصولِ الخيرِ الدنيويِّ والأُخرويِّ إليكم، وفي الحديثِ عن أبي ذرٍّ قال: «تَرَكَنا رسولُ الله ﷺ وما طائرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ في الهواءِ إلاَّ وهو يذْكُر منْهُ عِلْماً»، قال: وقالَ رسولُ الله ﷺ: «ما بَقِيَ شيءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الجَنَّةِ، ويُباعِدُ مِنَ النارِ إلاَّ وَقَدْ بُيِّنَ لكم» [قال محقق ابن كثير: صحيحٌ، أخرجه أحمدُ: (٥/ ١٥٣-١٦٢)، والطيالسيُّ: (٤٧٩) وابنُ حبانَ: (٦٥)، والطبراني: (١٦٤٧) وإسناد ابن حبَّان والطبرانيِّ رجاله رجالُ الصحيح غير محمد المُقْرِئ، وهو ثقةٌ].

وقوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ وَصَفَ اللهُ رسولَهُ ﷺ بوصفين عظيمين رقيقين، هما: صفةُ الرأفةِ وصفةُ الرحمة، يدلاَّن على ما اتصف به ﷺ مِنَ الرِّقَّة تجاهَ المؤمنين.

٥- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ إذا تولَّى الناس عنه أن يقول: حسبيَ الله:

أَمَرَ اللهُ تعالى الرسولَ ﷺ إذا أعرضَ الناسُ عنه، ولم يستجيبوا له، أنْ يقولَ: حسبيَ اللهُ لا إله إلا هو عليه توكلت وهو ربُّ العرش العظيم، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩].

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: إن أعرض المشركون والكفارُ والمنافقون عن الإيمانِ بك، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: كافيني ربُّ العِزَّة سبحانه ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: أنَّ اعتمادي على ربِّي وحدَهُ سبحانه ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ والعرشُ أعظم مخلوقاتِ الرحمنِ وأشرفُها وأعلاها، وهو سَقْفُ جَنَّةِ الفردوس.

وآخر آيتين مِنْ هذه السورةِ وجدهما زيدُ بن ثابتُ الأنصاريُّ عندما كَلَّفَه أبو بكر وعمرُ بكتابةِ المصحفِ مُرَتَّباً مع خزيمة الأنصاريِّ، لم يَجِدْهما مع أحدٍ غيره [البخاري: ٤٦٧٩. وانظر فتح الباري ٩/ ١٥ شرح الحديث (٤٩٨٦) وأن المراد بالنفي نفي وجودها مكتوبة، لا نفي كونها محفوظة].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- بيَّن اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ وللمؤمنين معه ومن بعْدِهِ المنهجية التي يجبُ عليهم اتباعها في قتالِ أعدائهم، وهي أنْ يقاتلَ الأقربَ فالأقربَ منهم.

٢- يجب على المؤمنين أنْ يكونوا أقوياءَ أشداءَ في قتالِ أعدائهم، يخيفونهم، ويرعبونهم، ويجعلونهم يرتجفون من مواجهتهم.

٣- الإيمانُ يزيدُ وينقصُ، يزيدُ بالطاعةِ، وينقصُ بالمعصية، ويزيدُ بقراءةِ القرآنِ والعلمِ بما فيه، وينقُصُ بهجرِ القرآنِ وإهمالِهِ.

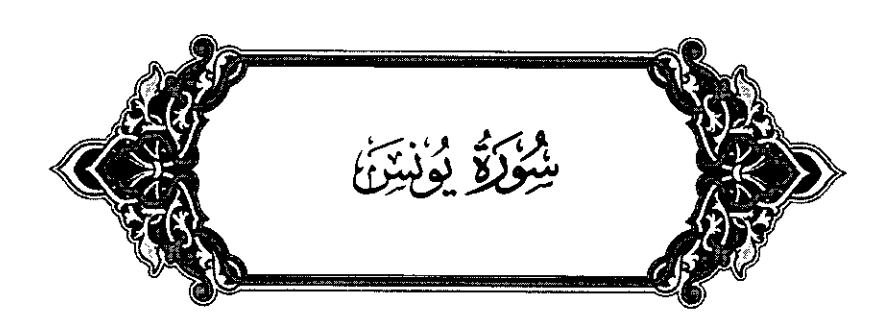
٤- الذين في قلوبهم مرضُ الكفرِ والشركِ والنفاقِ يزدادون رجساً إلى رجسهم، ويموتون على كفرهم.

٥- يفتِنُ اللهُ تعالى المنافقين ويمتحنهم بشتى أنواعِ الفتنِ في كلِّ عامٍ، ولكنهم لا يتوبون إلى الله، ولا يرجعون إليه.

٦- عندما تنزلُ سورةٌ من عند الله تعالى، يتلفتُ المنافقون، فإن لم يَرَوْا أحداً يراهم انصرفوا، واخْتَفَوا.

٧- ثناءُ الله -تعالى- على عبدِهِ ورسولِهِ ﷺ الذي أرسله إلى عباده المؤمنين، وهذا الرسولُ من أنفسهم، يشقُّ عليه ما يُعْنِتُ أصحابَه، وهو حريصٌ على إيمانِ أصحابِهِ، ومِنْ صفاتِهِ أنه رؤوفٌ رحيمٌ، وهذا يُغْريهم باتباعِهِ، والتأسي به.

٨- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ ﷺ إنْ أعرضَ عنه الناسُ، فلم يؤمنوا به أن يلجأ إلى الله، ويحتمي به، ويكتفي بِهِ عَنْ غيْرِه، ويقول: اعتمدتُ على الله، وهو ربُّ العرشِ العظيمِ.



قال أبو عمرٍو الداني: «هذه السورة مكيَّةٌ، ونظيرتُها في الشامي سورة سبحان، ولا نظيرَ لها في غيرِه، وكلمُها ألفٌ وثماني مائة، واثنتان وثلاثونَ كلمةً.

وحُروفُها سبعةُ آلافٍ وخمْسُ مائةٍ وسبعة وستونَ حَرْفاً، كحروفِ هود، وهي مائةُ وعشرُ آياتِ في الشاميِّ، وتِسْعٌ في عَدَدِ الباقين» [البيان في عَدِّ آي القرآن: ١٦٣].

النص القرآني الأول من سورة يونس
ربُّنا الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام

أولاً: تقديم

هذه الآياتُ فاتحةُ سورة يونسَ، أشادَ فيها بكتابِهِ الحكيم، وأنكرَ على الكافرينِ عجبهم من إيحائِه إلى رجلٍ ليبلِّغَ عبادَهُ عنه ما أنذرهم وبشَّرَهم به، ثم عرفنا ربُّنا بنفسِهِ سبحانه وتعالى، فهو خالقُ السمواتِ والأرضِ في ستة أيام، وهو الذي استوى على العرش سبحانه، وهو الذي يُدبِّر كوْنَهُ، ولا يشفعُ أحدٌ عنده إلاَّ من بعد إذنه، وقد أخبرنا ربُّنا -سبحانه- بما أخبرنا به، وأمرنا بعبادتِهِ وحْدَه لا شريكَ له.

وعرَّفنا ربُّنا -سبحانه- أنَّ مرجعَ جميعِ العبادِ يوم الدين إليه، فهو سبحانه وحده الذي يبدأ الخلقَ في الدنيا، ثم يعيدُه في الآخرة، ليحاسبَ العبادَ عمّا قدَّموه، وأعلَمنا سبحانه أنه هو الذي جعل الشمسَ ضياءً والقمر نوراً وقدَّر القمرَ منازلَ لنعلمَ عدد السنينَ والحسابَ، وهو الذي له اختلافُ الليلِ والنهار، وما خلقَ في السمواتِ والأرضَ من آيات لقومٍ يتقون.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

[يونس: ١-٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ثناءُ الله على كتابه الكريم:

أثنى اللهُ تعالى على كتابِهِ الكريمِ القرآنِ بقوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [يونس:١]، وقوله: ﴿الٓر﴾ من الحروف المقطعةِ التي افتتحت بها سور القرآن وقد مضى بيانُ القولِ في هذه الحروف في أوّل سورةِ البقرة. وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ اسمُ إشارةٍ للبعيدِ، أرادَ بها الإشارةُ إلى رفعةِ آياتِ القرآنِ وعلوِّها.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ والكتابُ: القرآن الكريم، والحكيمُ: المُحْكَم، الذي لا كذب فيه، ولا اختلاف في معانيه.

٢- تَعَجُّب الناس جميعاً من اختيار الله الرسلَ من البشر:

أنْكَرَ ربُّ العباد على الناس عَجَبَهُمْ من إرسالِ الله الرسلَ إليهم من البشر، ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس:٢].

اقتضتْ حكمةُ ربِّ العبادِ أنْ يكون الرسلُ الذين يرسلُهُمْ رَبُّ العزَّةِ رجالاً مِنَ الإنسِ، ليبلِّغوا عنه عبادَه مرادَه، فيخوِّفُ الكفارَ عقابَهُ، ويُبَشِّر المؤمنينَ ثوابَهُ وقولُه: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ القَدَمُ السابِقَةُ، وهي ما يُقَدِّمُونه مِنَ الأعمالِ الصالحةِ، ولم يقفْ عجبُ هؤلاءِ عند هذا التعجُّبِ، فحسبْ، بلْ امتدَّ عجبهم إلى الكفر بالله تعالى وآياتِهِ ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- خلق السماوات والأرض في ستة أيام:

عرَّفنا ربُّ العزة بنفسِهِ تبارك وتعالى فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس:٣].

أعلمنا اللهُ تعالى في هذه الآيةِ والآياتِ التاليةِ لها بنفسِهِ سبحانه، حتى لو أنَّ واحداً سألك: مَنْ ربُّك؟ صحَّ أن تجعل هذه الآيات جواباً.

وأوَّلُ أمرٍ عرَّفَنا تبارك وتعالى أنَّه فَعَلَهُ سبحانه خَلْقُه السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيام، وهذه الحقيقةُ مبثوثةٌ كثيراً في كتاب الله الكريم، فقد خَلَقَ سبْعَ أرضين، وخلق سَبَعَ سمواتٍ، وخلقها في ستة أيام، واللهُ تعالى أعلم بمدَّة كلِّ يوم من هذه الأيام، والسماواتُ والأرضُ من أعظمِ آياتِ الله، وفيهما من المخلوقات والدلائلِ والآياتِ ما يبهرُ العقولَ ويشغلُ القلوبَ.

وقولُه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العرشُ أعظمُ مخلوقاتِ الرحمن، وقد استوى الرحمنُ عليه سبحانَه، استواءً يليقُ بجلالِهِ، ليس كمثلِهِ شيءٌ، وهو السميعُ البصير، وقولُهُ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ أخبرَ ربُّ العباد سبحانه وتعالى أنَّهُ سبحانه يدبِّر الأمر في كونِهِ، فهو قائمٌ سبحانه وتعالى على كلِّ شيءٍ، لا فرق بين الصغيرِ والكبيرِ، كما قالَ سبحانَه: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٣] وقال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦]. وقال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩].

وقولُهُ: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ أي: لا يَشْفَع عنده مَلَكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ إلاَّ من بعد أن يأذن اللهُ تعالى له، كما قال ربُّ العزة سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم:٢٦]. وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وشفعاءُ المشركين آلهةُ المشركين التي كانوا يعبدوها من دون الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس:١٨].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ أشار ربُّ العزة سبحانه إلى نفسِهِ بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ وأمرنا بعبادتِهِ وحده لا شريكَ له، قائلاً: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

٤- مرجع الناس جميعاً إلى الله تعالى:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ مرجعَ الناس جميعاً إليه ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٤].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ مرْجِعَنا جميعاً إليه، وهذا وَعْدٌ حَقٌّ لا يتخلَّفُ بحالٍ مِنَ الأحوالِ، كما قال سبحانَهُ: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم:٩٣-٩٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يبدأُ خلق العباد في الحياةِ الدنيا، ثم يعيدُ خَلْقَهم في الحياةِ الآخرة.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: يثيبُ المؤمنين الذين عملوا الأعمالَ الصالحةَ بالعدلِ والجزاءِ الأوفى، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ أي: ويجزيَ الذين كفروا بالله ورسلِهِ، بإسقائِهم شراباً تناهى حَرُّه، ويذيقُهُم العذابَ الأليم في النار بسبب كفرِهم وضلالِهِمْ.

٥- اللهُ تعالى الذي جعل لنا الشمس ضياءً والقمرَ نوراً:

عرَّفنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه هو الذي جعل الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس:٥].

يخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه جعلَ الشعاعَ الصادرَ عن الشمسِ ضياءً، وشعاعَ القمر نوراً، ففاوتَ بينهما لئلا يشتبها، وجعَلَ للشمس سلطاناً بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدَّر القمرَ منازلَ ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ فأوَّل ما يبدو صغيراً، ثم يتزايدُ نورُهُ وجرمه، حتى يكتملَ، ويصبحَ بدراً، ثم يشرعُ في النقصِ حتى يرجعَ إلى حاله الأوَّلِ في تمام الشهر، وبالشمس تُعْرف الأيامُ، وبسَيرِ القمر تعرفُ الشهورُ والأعوامُ، قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس:٣٩-٤٠]. وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام:٩٦].

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ لم يخلقْ ربُّ العزَّة ذلك عبثاً، بل لحكمةٍ عظيمةٍ، وحجَّةٍ بالغةٍ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص:٢٧]. وقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس:٥] أي: نبين الحججَ والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

٦- من الآيات الدالة على الله -تعالى- اختلافُ الليلِ والنهار:

آخر ما عرضَهُ ربُّنا علينا في تعريفنا بنفسه قولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس:٦].

والمرادُ باختلافِ الليلِ والنهار، أي: تعاقُبهما إذا ذهبَ هذا جاء هذا، وهذا كقوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يس:٤٠]، وقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف:٩٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف:١٠٥]، وقوله: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١].
وقوله: ﴿يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ أي: يخافون اللهَ تعالى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أنْكَرَ اللهُ تعالى على العبادِ عَجَبَهُمْ من إنزالِ وحيِهِ على رسلِهِ وأنبيائه.

٢- اللهُ ربُّنا -تبارك وتعالى- هو الذي خلق السمواتِ والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرشِ، وهو الذي يدبِّرُ خلقه في كونِه، ولا يشفعُ أحد عنده إلا بإذنِهِ.

٣- مرجعُ العباد جميعاً إلى الله تعالى، فيحاسبهم على أعمالِهِمْ ويجازيهم عليها.

٤- اللهُ تعالى هو الذي جعل الشمسَ ضياءً والقمر نوراً، وقدَّره منازلَ لنعلم عددَ السنين والحسابَ.

٥- من الآيات العظيمة الدالة على ربِّ العباد اختلافُ الليلِ والنهارِ وما خلقَ اللهُ في السماواتِ والأرض مِن آيات.

النص القرآني الثاني من سورة يونس
مصيرُ الكافرين ومصيرُ المؤمنين في يوم الدين

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا مصيرَ الكافرينَ ومصيرَ المؤمنين يومَ الدين، وبيَّن لنا أنَّ بعضَ عبادِه يسارعونَ في الدعاءِ على أنفسهم بالشرِّ، ولكنَّه لا يستعجل بهم، وبيَّن -سبحانه- أنَّ الإنسانَ في بعضِ الأحيان يسارعُ إلى دعائِه إذا أصابته الهمومُ والأوجاعُ، وعندما يزيلها عنه، لا يذكر رَبَّهُ.

وأعلمنا ربُّنا -عَزَّ وجَلَّ- أنه أهلك أهلَ القرون الأولى لما كفروا بعد أن جاءَتهم رسلهم بالبيناتِ، أي بالآياتِ الواضحات ولم يؤمنوا فأهلكهم، وأنشأ اللهُ تعالى بعد القومِ الذين أهلكهم أمةَ محمد ﷺ ليختبرهم، وينظرَ كيف يعملون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس:٧-١٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- مصيرُ الكافرين ومصيرُ المؤمنين:

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا في الآياتِ الأربعِ الأولى من هذا النص صورةً لحال الكفارِ وصورة لحال المؤمنين في يوم الدينِ، فقال متحدِّثاً عن صورة الكافرين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا

يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس:٧-٨].

أخبرنا في هذه الآيةِ عن الكفارِ الذين لا يرجونَ لقاءَه في يوم الدينِ لكفرهم بذلك اليومِ، وركنوا إلى الحياةِ، واطمأنُّوا إليها، وهم في الوقتِ نفسه غافلون عن آياتِهِ التي في أنفسِهم أو في السمواتِ والأرض، أولئك مصيرُهم النارُ بسبب ما ارتكبوه مِنَ الشركِ والكفرِ والمعاصي.

وحدثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الصورةِ المقابلةِ عن المؤمنين الذين عملوا الصالحات، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس:٩].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يهديهم، ويوفِّقُهم ربُّهم بإيمانهم إلى الخيرِ والعمل الصالحِ في الحياة الدنيا، ويهديهم يوم القيامةِ إلى جناتِ النعيم، أعلمنا ربُّنا أنَّ هؤلاءِ المؤمنينَ الأخيارَ الذين يعملون الصالحاتِ تجري من تحت بيوتهم ومساكنهم الأنهارُ في جناتِ النعيمِ.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن طيبِ عيشهم في جناتِ النعيمِ، فقال: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس:١٠].
أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أهلَ الجنَّة يَرْفُلُون في النعيم، وهم يُكْثِرون من دعاءِ ربِّهم، ويقولون في دعائِهم: سبحانك اللهمَّ، وعندما يلقى بعضُهم بعضاً، يسلِّم بعضُهم على بعضٍ وكذلك عندما تدخل الملائكةُ عليهم تسلِّمُ عليهم، وآخر دعواهم قولُهُمْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب:٤٤]، وقوله: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]، وقوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

وجاء في الحديث: «يُلْهَمُونَ التَّسْبيحَ والتَّحميدَ كما تُلْهَمُونَ النَّفَسَ» [مسلم: ٢٨٣٥].
ويدلُّ قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ على أنَّ اللهَ تعالى هو المحمود أبداً، والمعبودُ على طولِ المدى، ولهذا حمدَ نفسه عند ابتداءِ خلقِهِ واستمراره، وعند ابتداءِ كتابه، وعند ابتداءِ تنزُّلِهِ.

٢- لا يجيبُ اللهُ تعالى دعاء الناس على أنفسهم وأموالهم كما يجيبهم في الخير:

أخبرنا ربُّنا اللطيفُ الخبيرُ -سبحانه- أنه إذا سارعَ العبادُ بالدعاءِ على أنفسهم بالشرِّ، فلا يسارعُ بإجابةِ دعائهم ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يونس:١١]. أي: ولو عجَّل اللهُ تبارك وتعالى للناس الاستجابةَ فيما يدعونه من الشرَّ على أنفسهم أو أولادهم وأموالهم كما يدعونه في الخير لقضيَ إليهم أجَلُهُم، ولكرهوا ذلك ومقتوه، ولو أجابهم ربُّهم لماتَ وهلَكَ الداعون.

وقد حذَّرنا رسولُنا ﷺ مِنَ المسارعة بالدعاءِ على أنفسنا وأهلنا، فقد نوافق ساعةَ إجابة، فعنْ جابر بن عبدالله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَدْعُوا على أنْفسِكُمْ، ولا تَدْعُوا على أولادكم، ولا تدْعوا على أموالكم، لا توافقوا مِنَ الله ساعةً فيها إجابةٌ، فيستجيبَ لكم» [قال محققُ ابن كثير (٣/ ٤٧٦): صحيحٌ، أخرجه أبو داود (١٥٣٢)، وإسناده على شرط مسلم].

٣- حالُ الكافر من ربِّه -تبارك وتعالى- عندما يصيبه الضرُّ:

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- حالَ الكافر عندما يصيبُه الضرُّ، فإنه يتضَعْضَعُ، ويلجأُ إلى الله يَدْعوه، ويستغيثُ به، قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس:١٢].

أخبرنا اللطيفُ الخبيرُ العليمُ سبحانه وتعالى أنَّ الإنسانَ الكافرَ، إذا أصابه البلاءُ والأمراضُ والآفاتُ والشدائدُ أخلص الدعاءَ لربِّ العزة على كلِّ أحوالِهِ، أي: وهو مستلقٍ على ظهرِهِ، أو وهو ماشٍ، أو وهو واقف ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ فلما كَشَفَ اللهُ تعالى ما نَزَلَ به من آفاتٍ مَرَّ كأن لم يَحِلَّ به البلاءُ يوماً، ونسيَ ما كان منه مِنَ لجوءٍ إلى الله تعالى واستغاثةٍ به.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: كما زين للكفار الدعاءُ عند البلاءِ، والإعراضُ عند الرخاءِ زُينَ للمسرفين عملُهم تزييناً مثل تزيين عمل الكفار.

٤- جعل اللهُ العباد خلائفَ في الأرض ليبتليهم:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- كيف يبتلي ربُّ العباد عبادَهُ في الحياة الدنيا، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس:١٣-١٤].

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- كيف تمضي دورةُ الحياةِ في هذه الدنيا، فاللهُ تعالى أرسَلَ إلى الأممِ السابقةِ الظالمةِ رُسُلَهُ بالآياتِ البيناتِ الدالةِ على صدقِ المرسلين، وما كان للمرسل إليهم أنْ يؤمنوا إذا لم يُرِدِ اللهُ تعالى لهم الهدايةَ والإيمانَ لمعاندتهم الحق وإيثارهم الباطل، وهكذا يجزي ربُّ العزةِ القومَ المجرمين.

ثم يقيمُ الله -تبارك وتعالى- بعد أولئك الهالكين قوماً آخرينَ في بقعةٍ من بقاعِ الأرض، لينظر هل يقيمونَ شرعَهُ ودينَه، فقد أرسل اللهُ تعالى نوحاً إلى قومه، فلما أغرقهم ربُّ العزة، أنشأَ بعدهم عاداً وأرسلَ إليها هوداً، فلما أهلك عاداً أقام ثموداً، وأرسل إليها صالحاً، وتتابعتِ الأممُ، وتتابعتْ الرسلُ، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٢-٤٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الكفارُ الذين يُكذِّبون بيومِ الدين ورضوا بالحياة الدنيا هم أصحاب النارِ.

٢- المؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ يهديهم ربُّهم بإيمانهم في الدنيا والآخرة تجري من تحتهم الأنهارُ في جناتِ النعيمِ.

٣- حال المؤمنين في جنات النعيم حالٌ طيبةٌ، يدعون فيها ربَّهم، وتحيتهم في الجنة سلام، وآخر دعواهم أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

٤- يستعجل بعض الناس في بعض الأحيانِ فيدعون على أنفسهم وأولادِهم وأموالهم بالشر كاستعجالهم بالخيرِ، ولكنَّ الله وهو الغفورُ الرحيم، يتأنَّى ويرفقُ بهم، ولا يعاجلهم بالعقوبةِ.

٥- إذا أصابَ الإنسانَ الكافرَ بلاءٌ أو مصابٌ سارع إلى دعاءِ الله تعالى في جميع أحواله، فإذا شفاه أو عافاه مضى كأنْ لم يدعُ اللهَ إلى ضَرٍّ مسَّه.

٦- أرسلَ اللهُ -تعالى- رسلَهُ إلى أهلِ القرونِ الماضيةِ، فأقام عليهم الحجة، فلم يؤمنوا فأهلكهم.

٧- ثم أقامَ ربُّ العزة من بعدهم خلائف في الأرض، ليعلم كيف يعملون.

النص القرآني الثالث من سورة يونس
الكفارُ يطلبونَ من الرسول ﷺ أنْ ياتي بقرآنٍ غير الذي جاء به

أولاً: تقديم

هذه الآيات تدورُ حولَ القرآن الكريم، فقد ردَّ اللهُ تعالى على الكفار الذين طلبوا أن يأتيهم بكتابٍ آخر غير القرآنِ أو يبدِّلَهُ، وأعلمهم الرسولُ ﷺ أنَّه لا دخلَ له في إنشاءِ القرآنِ الكريمِ، فقد لبث فيهم عمراً من قبله، ولم يكن يتلو القرآنَ، ولا يخبُرُهمْ بِهِ، وأعلمهم أنَّ أعظم الناسِ جرماً الذي اختلق على الله كذباً أو كَذَّب بآياته.

وذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- الكفرةَ والمشركينَ الذين يعبدون من دون الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم، ويزعمون كاذبين أنَّ هذه الآلهةَ شفعاؤُهم عند الله، وأعلمنا سبحانه أنَّ الكفرَ لم يكن له وجود في القِدَمِ، بل هو حادثٌ، فقد كان الناس جميعاً على التوحيدِ، ثم حَدَثَ الشركُ بعد ذلك، وأعلمنا اللهُ تعالى في الختامِ أنَّ المشركين يطلبون من رسولِهِ ﷺ أنْ ينزِّلَ عليهم آيةً من ربِّه، وأن اللهَ -تبارك وتعالى- أمَرَهُ أن يقول: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يونس:١٥-٢٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مشركو قريشٍ يطلبونَ مِنَ الرسولِ ﷺ أن يأتي بغير هذا القرآن:

كان كفارُ قريشٍ إذا تَلَى عليهم رسولُنا ﷺ آياتِ القرآنِ البيناتِ الواضحاتِ قال الكفارُ بالبعث والنشور مِنْ قومِهِ ائتِ بقرآنٍ غير هذا القرآنِ أو بدِّله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس:١٥].

وهذا الطلب من أهل الكفرِ والشركِ طلبٌ غيرُ مقبولٍ، فالقرآنُ في القِمَّة في كلِّ شيءٍ، وهو في غايةِ الفصاحةِ والإعجاز، فطلبهم قائمٌ على الهوى وقِلّةِ الفهم لهذا الكتابِ العظيمِ الذي هو النعمةُ العظمى، والمنَّةُ الكبرى.

وقد أمرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ أنْ يقولَ لهؤلاءِ الذين طلبوا هذا الطلب: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس:١٥].

أي: قُلْ لهم يا محمدُ: إنَّما أنا عبدٌ رسولٌ، وليس عندي القدرةُ على تبديلِ هذا القرآنِ العظيم من قِبَل نفسي، فأنا عبدٌ ضعيفٌ مأمورٌ، واللهُ تعالى هو صاحب الأمْرِ، والأمرُ بيدِهِ سبحانه، ما شاءَ كان، وما لم يشأْ لا يكون، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ ومقتضى عبوديتي لربي سبحانه أنْ أتبع ما يوحى إليَّ من عند ربي، بفعلِ أوامرِهِ، وترك نواهيهِ، وعِلْمِ ما علمني إيَّاه، والتخلقِ بما أمرني التخلقَ به.

وقولُه: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ فأنا عبد مأْمور أخاف اللهَ عز وجل وأخشاه، وأخاف إنْ عصيته سبحانه أن يُحِلَّ بي عذابَه وانتقامَه في يومِ الموقفِ العظيم.

وأمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لقومِهِ رادّاً عليهم مبيناً لهم: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس:١٦] أي: لو شاء ربِّي ما جئتكم بهذا القرآن من ربِّي وما قرأْته عليكم، ولا أعلمكم به، فقد لبث رسولُنا ﷺ في قومِهِ أربعين سنةً قبل أن يوحي إليه ربُّه بهذا القرآن.

٢- أظلمُ الناسِ الذين يفترون الكذبَ على الله:

أظلم الناس الذين يفترون الكذبَ على الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس:١٧].

أي: لا أحدَ أشد ظلماً وعتواً ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ والكذبُ على الله كثيرٌ متنوعٌ، فالذين يدَّعون أنَّ اللهَ أرسلهم، وهو لم يرسلهم كذبة على الله، كمسيلمة وسجاح والأسودِ العنسي، والذين يزعمون أنَّ اللهَ اتخذ ولداً كالنصارى الذين يَدَّعون أنَّ عيسى ابن الله، ومشركي العرب الذين يدعون أنَّ الملائكةَ بناتُ الله كذبوا على الله، والذين يزعمون أنه لا بعثَ ولا نشورَ كذبوا على الله فالبعثُ والنشورُ حقٌّ.

وهؤلاء الذين كذبوا على الله تعالى لا أحدَ أظلمُ منهم، فهم أشدُّ الناس ظلماً، ومثل هؤلاء في الظلم الذين يكذبون بآيات الله تعالى التي أنزلها على عبده ورسولِهِ محمدٍ ﷺ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ وهؤلاء مجرمون، والمجرمون لا يفلحون ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

وعن أنسَ بنَ مالكٍ قال: بينما نحنُ جلوسٌ مع النبيِّ ﷺ في المسجدِ دَخَلَ رجلٌ على جَمَلٍ، فأناخه في المسجدِ ثم عَقَلَه، ثم قال لهم: أيُّكم محمَّدٌ؟ والنبيُّ ﷺ مُتَكِئٌ بينَ ظَهْرانَيْهم، فقلنا: هذا الرجلُ الأبيضُ المتَكئُ، فقال له الرَّجلُ: ابنَ عبدِ المطلبِ، فقال له النبيُّ ﷺ : «قد أجَبْتُكَ»، فقال الرَّجلُ للنبيِّ ﷺ : إني سائلُكَ فمُشدِّدٌ عليكَ في المسألةِ، فلا تَجِدْ عليَّ في نَفْسِكَ، فقال: «سَلْ عمَّا بَدا لكَ» فقال: أسألُكَ بربِّكَ وربِّ مَنْ قَبلَكَ، آللهُ أرسَلَكَ إلى الناس كلِّهم؟ فقال: «اللهمَّ نعم» قال: أنشُدُكَ بالله، آللهُ أمَرَكَ أنْ نُصلِّيَ بالصلَواتِ الخمسِ في اليوم والليلةِ؟ قال: «اللهمَّ نعم» قال: أنشُدُكَ بالله، آللهُ أمَرَكَ أنْ نصومَ هذا الشهرَ من السنةِ؟ قال: «اللهمَّ نعم» قال: أنشُدُك بالله، آلله آمركَ أنْ تَأْخُذَ هذه الصَّدَقَةَ مِن أغنيائِنا فتَقْسِمَها على فُقَرائِنا؟ فقال النبيُّ ﷺ : «اللهمَّ نعم»، فقال الرجلُ: آمَنتُ بما جئتَ به، وأنا رسولُ مَن ورائي مِنْ قوْمي، وأنا ضِمامُ بنُ ثَعْلبةَ أخو بني سعدِ بنِ بكرٍ [البخاري: ٦٣].

فاكتفى هذا الرجلُ بمجرَّدِ هذا، وقد أيقن بصدقِهِ -صلواتُ الله وسلامُه عليه- بما رَأى وشاهدَ من الدلائل الدالَّة عليه، كما قال حسَّانُ بن ثابت:

لَــو لَم تَكُــنْ فِيــهِ آيــاتٌ مُبيِّنــةٌ كانَــتْ بَديهتُــهُ تَأتِيــكَ بِــالخَبَرِ

وأما مُسَيلمَةُ فمن شاهَدَه من ذوي البصائر عَلِم أمرَه لا محالةَ، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحةٍ، وأفعالِهِ غيرِ الحسنةِ بل القبيحةِ، وقرآنِهِ الذي يَخلُدُ به في النار يوم الحسرةِ والفضيحةِ، وكم من فَرقٍ بين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥]، وبين عِلاكِ مُسَيلمةَ -قبحه الله ولعنه-: يا ضِفْدَعُ بنت الضِّفدعين، نَقِّي كم تُنَقِين، لا الماء تُكَدِّرين، ولا الشارِبَ تمنعين. وقوله -قُبِّح ولُعِن-: لقد أنعَمَ الله على الحُبلَى، إذ أخرج منها نَسَمةً تسعَى، من بَيْنِ صِفاقٍ وحَشا، وقوْلِهِ -خَلَّدَه الله في نار جهنم، وقد فَعَل-: الفيلُ وما أدراك ما الفيل؟ له خُرطُومٌ طويل، وقوله -أبعده الله من رحمته-: والعاجناتِ عَجْناً، والخابزاتِ خَبزاً، واللاقماتِ لَقْماً، إهالةً وسَمْناً، إن قُرَيشاً قومٌ يعتدون، إلى غير ذلكَ من الهَذَيانات والخَرافات التي يأنفُ الصِّبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السُّخريةِ والاستهزاءِ، ولهذا أرغم الله أنفَه، وشَرِبَ يوم «حَديقة الموت» حتفَهُ، ومَزّق شملَه، ولعنه صحبُه وأهلُه، وقَدِمُوا على الصِّدِّيق تائبين، وجاؤوا في دين الله راغبين، فسألهم الصدِّيقُ خليفةُ الرسولِ ﷺ ، ورضي عنه أن يقرؤوا عليه شيئاً من قرآن مُسَيلِمَة -لعنه الله- فسألوه أن يَعفِيَهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أنْ يقرؤوا شيئاً منه، ليسمعه مَنْ لم يسمعه مِنَ الناس، فيعرفوا فضلَ ما هم عليه من الهدى والعلم، فقرؤوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغُوا قال لهم الصديق ؓ: ويحكُم! أين كان يُذهَب بعقُولكم؟ والله إن هذا لم يخرُج من إلٍّ.

وذكروا أنه وَفَد عمرو بن العاص على مُسَيلمةَ، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعدُ، فقال له مُسَيلمة: ويحكَ يا عمرو! ماذا أُنزِلَ على صاحبكم -يعني رسول الله ﷺ- في هذه المدة؟ فقال: لقد سَمعتُ أصحابَه يقرؤون سورةً عظيمةً قصيرةً، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾. ففكر مُسَيلِمَة ساعة، ثم قال: وقد أُنزِلَ عليّ مثلُه، فقال: وما هو؟ فقال: يا وَبْرُ، إنما أنت أذنان وصَدْرٌ، وسائرك حَقْرٌ نَقْرٌ، كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنكَ لَتعلم أني أعلَمُ أنك لَتكذِبُ؛ فإذا كان هذا مِنْ مشركٍ في حال شركه، لم يشتبه عليه حالُ محمدٍ ﷺ وصدقِهِ، وحالُ مُسَيلمَةَ -لعنه الله- وكِذبه، فكيف بأولي البصائر والنهي، وأصحابِ العقولِ السليمة المستقيمةِ والحِجَا! ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس:١٧] وكذلك من كَذَّبَ بالحقِّ الذي جاءت به الرسلُ وقامت عليه الحُجَج، لا أحدَ أظلم منه [ابن كثير: ٣/ ٤٨٠].

٣- **الكفارُ يعبدون من دون الله الأوثانَ وهي لا تضرّهم ولا تنفعهم:**

أعلمنا ربُّنا بأنَّ الكفارَ مِنَ العرب يعبدونَ من دونِ الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم، ويزعمون أنهم شفعاؤُهم عند الله ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس:١٨].

والذي يعبدونه مما لا يَضُرُهم ولا ينفعهم الأصنامُ والأوثانُ، ويزعمُ هؤلاءِ الضالون أنَّ هذه الآلهةَ الباطلةَ المزعومةَ تشفع لهم، وتقرِّبهم إلى الله زلفى، وقد ردَّ ربُّ العزة عليهم بقوله: ﴿ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ وهذا الجوابُ يدلُّ على سخافةِ عقولهم وبهتانِ ما ذهبوا إليه، فهذا النبأ الذي ادَّعوه وزعموه لا يعلُمه اللهُ -تبارك وتعالى-، فلو كان نبأُكم صحيحاً، لأدَّى هذا إلى أنَّ في السموات وفي الأرض ما لا يعلمه اللهُ تعالى، وهذا غير صحيح فإنَّ كلامَهم باطلٌ وكذبٌ، ثم نَزَّه ربُّ العزةِ نفسَه عما يشركون به، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

٤- **كان الناسُ قديماً على التوحيد فاختلفوا:**

أعلمنا رَبُّنا أنَّ الناسَ كانوا على التوحيد قديماً، فاختلفوا، فأرسلَ الله إليهم الرسلَ ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [يونس:١٩].

قرَّر الله تعالى حقيقة ثابتة في التاريخ، فالناس كانوا في أول الخليقة على التوحيد، كما صحَّ عن ابن عباس ﷺ، أنَّهم كانوا عشرة قرون على التوحيد، ثم وقع فيهم الشرك، فاختلفوا [«المستدرك على الصحيحين» ٢/ ٥٩٦ (٤٠٠٩) وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ أي: لولا أنَّ الله تعالى قَضَى وقَدَّر أنْ لا يعاجلَ الناسَ بالعذابِ لقضىَ بينهم فيما فيه يختلفون.

٥- **طلب المشركينَ إنزالَ الآياتِ الدالة على صدقِ الرسولِ ﷺ :**

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفرةَ المشركين مِنْ قوم الرسولِ ﷺ يسألونَ أن يُنْزلَ الله عليه آيةً ﴿ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يونس:٢٠].

فهم يطلبون آياتٍ ينزلُها اللهُ على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ كما أنزل العصا على نبيِّهِ موسى، وكما أرسل الناقةَ على نبيِّهِ صالحٍ، أو يحوِّل لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبالَ مكةَ، أو يفعل له كما قال له: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان:١٠].

وقد مضتْ سنتُه سبحانه أنَّه إذا آتى عبادَهُ آيةً عظيمةً، فلم يؤمنوا بها أهلكهم، ثم إن الله تعالى أنزل عليه أعظم آياتِهِ، وهو القرآنُ العظيم، وأنزلَ عليه كثيراً من الآياتِ، فقد شقَّ له القمر، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء:٥٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

وقد أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أن يجيبَ هؤلاءِ الذين يطلبون الآياتِ تعنتاً قائلاً: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: إنزالُ الآياتِ هو مِنْ باب الغيبِ، ونزولُ الغيب اللهُ المختصُّ به سبحانه، لا عِلم لي ولا لكم ولا لسائر المخلوقاتِ به ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: انتظروا ما سيفعله ربُّ العباد بيني وبينكم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كان الكفارُ في معركتهم مع المؤمنين يطلبونَ مِنَ الرسول ﷺ أن يأتيهم بكتابٍ آخر مع القرآن أو يبدِّلَهُ، فأعلمهم الرسول ﷺ أنَّه لا يستطيع أن يبدِّله من تلقاء نفسه، فالأمر كلُّه بيدِ الله تباركَ وتعالى.

٢- القرآنُ الكريمُ كلامُ اللهُ تعالى، ليس للرسولِ ﷺ شأْنٌ في إيجاده، أنزله اللهُ تعالى عليه، وقد مكث عمراً من قبله فيهم قبل أن ينزل عليه.

٣- أعظمُ الناس جرماً الذين اختلقوا الكذبَ على الله تعالى، أو كذَّبوا بآياتِ الله تعالى.

٤- الكفارُ والمشركون يعبدون أصناماً وأوثاناً باطلةً لا تنفعهم، ولا تضرُّهم، ويزعمون كاذبين أنَّ هذه الآلهةَ الباطلةَ شفعاؤُهم عند الله، ولو كان قولهم صحيحاً لأخبروا الله تعالى بشيءٍ لا يعلمه في سمواتِهِ وأرضه.

٥ - كان الناسُ قديماً جميعاً على التوحيدِ بعد نبيِّ الله آدم عليه السلام ، ثم اختلفوا وأشركوا، فأرسلَ اللهُ إليهم الرسلَ، وأنزلَ عليهم الكتبَ.

٦ - المشركون يطلبونَ مِنَ الرسولِ ﷺ أن يُنْزَلَ عليهِ آيات من ربِّه تدلُّ على صدقِهِ، والرسولُ ﷺ يكلُ الأمر إلى ربِّه تعالى.

النص القرآني الرابع من سورة يونس
إذا أُحيط بكفارِ أهل الجاهلية في البحرِ دَعَوْا الله مخلصين له الدين

أولاً: تقديم

عرَّفنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بحالتين تصيبان المشركين من بين أحوالٍ كثيرة.

الأولى: أنَّهم إذا أصابهم بالنعمةِ والرخاءِ بعد البأْساءِ والضراءِ، فإنَّه يسخرون، ويكذبون، بدلَ الشكرِ والثناءِ.

والثانيةُ: أنَّهم يخلصون دينهم لله الواحدِ الأحدِ إذا أُحيط بهم في البحرِ، فإذا نجَّاهم إلى البرِّ عادوا إلى شركهم.

وضربَ في الآيةِ الأخيرة من هذا النص مثلاً لبهجةِ الدنيا وزينتها وسرعةِ انقضائها بالمطرِ ينزلُ مِنَ السماءِ، فينبتُ الزرعُ، ويهيجُ الشجرُ، ويزهرُ، ويثمر، ثم ينزلُ اللهُ قضاءه بهلاك ما على الأرض، فيصبحُ حصيداً كأن لم يغن بالأمس.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢١-٢٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إذا وسَّع اللهُ تعالى في رحمتِهِ على الكافرين كذَّبوا واستهزؤوا:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه إذا أذاق الناسَ رحمةً كالمطرِ والخصبِ والغِنَى من بعد ضرَّاءَ مستهم، كالقحطِ والبؤسِ والفقرِ، إذا هم مكر في آياتِهِ، أي: استهزاءٌ وتكذيب، والمكرُ

صرف الشيء عن وجهه على طريق الحيلَةِ فيه، وهؤلاءِ يحتالونَ لدفع آياتِ الله بكلِّ ما يستطيعون إليه من شبهةٍ أو تخليطٍ في مناظرةٍ أو غير ذلك مِنَ الأمور الفاسدة ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس:٢١].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أسرع نقمةً، فقد جعلَ هؤلاءِ النقمةَ مكانَ الشكر، فقوبلوا بما هو أشدُّ، وهو مكرُ الله تعالى بهم وإهلاكُهُمْ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ المرادُ بالرسلِ الذين يكتبون ما يمكرونُه الحفظةُ مِنَ الملائكة، فأعمالُهُمْ مكشوفةٌ عندَ ربِّهم مفضوحةٌ، بل ومكتوبةٌ، لا تخفى عليه منهم خافيةٌ.

٢- إذا أُحيط بالمشركين في البحرِ أخلصوا الدينَ لله تعالى:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عما يصيبُ المشركين إذا أُحيط بهم في البحر، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢].

وهذه الآيةُ الكريمةُ تعرض منظراً معجباً مدهشاً، فلك أن تتخيل منظر المشركين في هذا الكون الواسع، وهم يتحركون فوق ظهر هذه الأرض على أرجلهم، أو فوق دوابهم وسفنهم وسياراتهم، وطائراتهم، وقد اكتظَّت الأرضُ وازدحمت بهم، ثم تأخذ الآيةُ الكريمةُ من هذا الحشدِ الهائلِ سفينةً أو عِدَّة سفنٍ تسير فوقَ ثَبَج البحرِ، تدفعُها إلى مقصدها ريحٌ هادئة طيبةٌ، وكان أهلها وادعين مسرورينَ بسيرهم، ثم تغيَّر البحرُ، وتعكَّر الجوُّ، وجاءَتهم ريحٌ شديدةٌ عاصفةٌ، وجاءَهم الموجُ كالجبالِ، وظنوا أنهم شارفوا على الهلاكِ، عند ذلك تقفزُ قلوبهم في صدورهم، ويدْعُون الله تعالى وَحْدَهُ، وينسون الآلهة التي يشركونها معه، ويقولون لربِّهم: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ .

وهذا الذي صاروا إليه من إخلاص الدين لله في هذه الحالة يدُلُّ على إفاقتهم مِنَ الغفلةِ التي يرزحونَ تحتها، ولكنَّهم عندما ينجون مما أحاطَ بهم يَعودون إلى كفرِهِمْ وشركهم وضلالِهِمْ ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [يونس:٢٣]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧].

وقد بيَّن ربُّ العزةِ -سبحانه- لهؤلاءِ أنَّهم هم الذين يضُرُّون بإشراكهمِ أنفسهم عندما ينجيهم ربُّهُمْ إلى البرِّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣] أي: إنما يذوق وبالَ هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرُّون به أحداً غيركم، فهم الذين يذوقون وبالَ أمرهم إن قطعوا الأرحام، وأفسدوا في الأرض.

وأخبرهم أنَّهم يمتَّعونَ متاعَ الحياةِ الدنيا، ثم ينقضي متاعُها ويزول، ثم يرجعون إليه سبحانه، فيخبرِهم بما عملوه مِنَ البغي والفسادِ ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس:٢٣].

٣- مثلُ الحياةِ الدنيا:

ضربَ اللهُ -تبارك وتعالى- مثلاً لبهجةِ الدنيا وحسنِها وزهرتِها، وسرعةِ انقضائها وزوالها بالماءِ الذي أنزلَهُ الله تعالى مِنَ السماءِ فاختلطَ به نباتُ الأرض ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٤].

وهذا المنظرُ الذي شبَّهُ اللهُ به الحياةَ الدنيا رآه الناسُ كثيراً في أجيالٍ متتاليةٍ، فينزلُ الماءُ مِنَ السماء، فترتوي الأرضُ، فينْبُتُ الزرعُ والنباتُ، وتُزْهِرُ الأشجارُ وتثمرُ ثماراً من أنواع شتى، مما يأكله الناسُ والدوابُّ، وتنظرُ إلى السهولِ والتلالِ والجبالِ والوديان، فتجدُ الأرض قد أخذت زخرفَها وازيَّنَتْ، ويظنُّ أهلها أنَّهم قادرون عليها، أي: قادرون على جَنْي ثمارِها، وقطْفِ أوراقها، وحصدِ نباتها، ثم يأتي عليها قَدَرُ ربِّ العباد، فيجتاحها البحرُ، أو تغرقها السيولُ وفيضاناتُ الأنهار، أو تأخذها الزلازلُ والصواعقُ، وقد يأْتيها قدرُ الله تعالى في وَضَحِ النهار أو في ظلمةِ الليل، فتصبح ذَاوِيَةً بعد خُضْرَتها، يابسةً بعد نُضْرَتها، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ كأن لم تكن عامرة بالأمس، أو حتى كأنها لم توجد قبل، والمغاني: المنازلُ التي يعمرها أهلها بالنزولِ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: مثلُ هذا البيانِ والتفصيلِ نبيِّن آياتِ القرآنِ لمن يحسنونَ التفكرَ في القرآنِ وتدبِّرِ آياتِهِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه إذا أصابَ بعضاً مِنَ الناس برحمةٍ ورخاءٍ بعد اللأْواء والضرَّاء إذا بهم يسخرونَ ويستهزئون بآياتِهِ ورسوله ﷺ.

٢ - كان المشركون في الجاهلية يُخْلصون دينهم لربِّهم إنْ أحيطَ بهم في البحْرِ، ويدعونه وَحْدَه لا شريكَ له، فإذا نجاهم إلى البرِّ عادُوا إلى شِرْكهم.

٣- ضربَ اللهُ تعالى مثلاً للحياة الدنيا في رونقها وزينتها وسرعةِ زوالها وانقضائها بالمطرِ ينزلُ مِنَ السماء، فتصبحُ به الأرضُ جناتٍ وبساتينَ وحقولاً، ثم ينزلُ قضاءُ الله تعالى بتلكِ الجنَّاتِ، فتدمر وتزول.

النص القرآني الخامس من سورة يونس
جزاءُ المحسنين وجزاءُ الذين كسبوا السيئات

أولاً: تقديمٌ

حدَّثنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- عن أهلِ الجنةِ وأهل النار، وكيف يحشرُ الجنَّ والإنس، والمشركين منهم، وكيف تتبرأ الآلهة الكاذبةُ الباطلةُ من عابديها في يومِ الدين، وكيف تنكرُ استحقاقَها لعبادتها، وأنها لم تكن تعلم بهذه العبادةِ.

وبيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه وَحْدَه أهلٌ لأن يعبدَ مِنْ دون غيره، فالآلهةُ الباطلةُ ليس لديها من الصفاتِ والخصائصِ ما يُؤَهلها للعبادة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس:٢٥-٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ يدعو إلى دارِ السلام:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس:٢٥] ودارُ السلام التي يدعو إليها ربُّ العزةِ الجنةُ، والصراطُ المستقيم الذي يهدي إليه سبحانه الإسلام.

٢- للذين آمنوا الحسنى وزيادةٌ:

أخْبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بجزاءِ المحسنينَ في يوم الدين ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٦].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذين أحسنوا في الدنيا بالإيمانِ والعملِ الصالح لهم الحسنى، وهي الجنةُ، ولهم زيادةٌ، والزيادةُ تضعيفُ ثوابِ الأعمالِ فتصبحُ الحسنةُ بعشرِ أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وأفضلُ ما يعطيهم ربُّهم النظرُ إلى وجههِ الكريم، وقد رُوِيَ تفسيرُ الزيادةِ بالنظرِ إلى وجههِ الكريمِ عن أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمانِ، وعبدالله بنِ عباسٍ، وسعيدِ بن المسيَّبِ، وعبدالرحمنِ بن أبي ليلى، وعبدالرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم [ابن كثير: ٣/ ٤٨٤].

وعن عبدالرحمن بن أبي ليلى، عن صُهَيْبٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا دَخَلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، قالَ: يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى: تريدونَ شيئاً أزيدُكُمْ؟ فيقولونَ: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا؟ ألم تُدْخِلنا الجنةَ وتُنَجِّنا من النار؟ قال: فيكْشِفُ الحِجابَ، فما أُعْطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظرِ إلى ربِّهم عزَّ وجلَ».

وزادَ في رواية: «ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]» [مسلم: ١٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: لا يغشاها قَتامٌ، ولا سوادٌ في عرصاتِ المحشرِ، كما يعتري وجوهَ الكفرةِ الفجرةِ من القترةِ والغبرةِ، وقوله: ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: ولا يغشاها هوانٌ ولا صغارٌ، أي: لا يحصل لهم إهانةٌ في الباطنِ، ولا في الظاهرِ، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وهذا تعريفٌ بأهل الجنةِ، وأنهم المؤمنون الذين يعملون الصالحات.

٣- أصحابُ النار:

بعد أنْ عرَّفنا ربُّنا بأصحاب الجنةَ عَرَّفنا بأصحاب النار، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس:٢٧].

وقال ربُّ العزةِ هنا: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ لأنَّ الكفرة المجرمين يسارعون إلى اجتلابِ ما يضرُّهم، ظانين أنَّه يفيدُهم، وينفعُهم، فالذي يعبدُ آلهةً من دون الله، والذي يزني،

ويسرقُ المال، ويحاربُ الإسلامَ يظنُّ أنَّ ذلك حضارةٌ وتقدمٌ ومنفعةٌ له، وقد استعمل القرآن الكسبَ في السيئاتِ كثيراً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام:١٢٠]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام:١٢٩]. واليوم تَغْرِقُ أممٌ كثيرةٌ في القاذورتِ التي نهى الإسلامُ عنها، وتزعُم أنَّ ما تعمله حضارةً ومدنيةً، وتعدَّه كسباً لها.

وهؤلاءِ الذين اقترفوا السيئاتِ يجزيهم ربُّهم السيئةَ بمثلها، لا يزيدهم على ذلك، ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ وقوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تعتريهم من ذنوبهم ومعاصيهم ذِلَّة يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥]. وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: لا يوجدُ من يمنعهم ويقيهم عذابَ الله تعالى. ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ يخبر تعالى أنَّ هؤلاءِ الكفارَ يبعثون في يوم الدين وجوههم مسودَّة سوادُها شديدٌ، كأنما أغشيتْ وجوهُهُم قطعاً مِن الليلِ مظلماً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ بيّنَ أن مصيرهم النارُ خالدين فيها أبداً.

٤- كيف يحشرُ اللهُ -تعالى- الناسَ يومَ القيامة:

أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنْ نذكر كيفَ يحشر اللهُ الناسَ يومَ القيامة ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس:٢٨].

أمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن نذكر يومَ يحشرُ الله تعالى الجِنَّ والإنسَ كُلَّهم وذلك يومَ القيامة، ثم يقولُ للذين أشركوا الزموا مكانكم أنتم وشركاؤُكم، وقوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرَّقنا بين المشركين وشركائهم مِنَ الأصنامِ والآلهة التي كانوا يعبدونها، وانقطعَ ما كان بينهم مِنَ التواصلِ في الحياةِ الدنيا، وذلك حين تتبرأ المعبوداتُ يومَ القيامةِ مِنْ عابديها، ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ قال ابنُ عباس: «أنكروا عبادتَهُم» وقال مجاهدٌ: «يقولُ ذلك

كلُّ شيءٍ يُعْبَدُ من دون الله تعالى، يعني أن الله تعالى يُنْطِقُ الأوثانَ فتقول: ما كنا نشعرُ بأنكم إيانا تعبدون» [تفسير الواحدي: ١١/ ١٨٣].

وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة:١٦٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف:٥-٦].

وأخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ الآلهةَ التي كانت تعبد من دونِ الله تقولُ لعابديها يومَ القيامة: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ۝٢٩﴾ [يونس:٢٩].

والآلهةُ المعبودةُ قسمان: آلهة عاقلةٌ، كالملائكةِ والرسلِ والأنبياءِ والصالحين كعيسى، وعزيرٍ، وآلهةٌ غيرُ عاقلةٍ، كالأصنامِ والأوثانِ، كاللاتِ والعزى ومناةَ الثالثةِ الأخرى، فالمعبودات العاقلة التي كانت تعبد من دون الله، تتبرأ من عابديها في الدنيا والآخرة، وقد أخبرنا ربنا في سورةِ المائدة عن براءةِ عيسى عليه السلام من عابديه في يوم الدين.

وأما الآلهةُ التي لم تكن تعقلُ كاللاتِ والعزى ومناةَ الثالثةِ الأخرى، فأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الله يخلق فيها الحياةَ يومَ القيامة، فتقول لعابديها: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ۝٢٩﴾ أي: ما كنا نشعُر بعبادتِكم ولا نعلمُ بها، وأنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري ولا نعلم، واللهُ -تبارك وتعالى- شهيدٌ على صحةِ قولنا، وفي هذا تبكيتٌ وتوبيخٌ عظيمٌ لهؤلاءِ الضالين المجرمين، من عابديهم، فهم يتبرؤون منهم أحوجَ ما يكونون إليهم، وقولُهُ تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٣٠﴾ [يونس:٣٠]. وقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في يوم القيامة، ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ﴾ تُختَبَرُ كلُّ نفسٍ وتُعْلَمُ ما عَمِلَتْ من خيرٍ أو شرٍّ، ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ﴾ أي: ورجع هؤلاءِ المشركونَ يومئذٍ إلى الله الذي هو ربُّهم الحقُّ دونَ ما كانوا يزعمون أنهم لهم أربابٌ مِنَ الآلهةِ والأندادِ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٣٠﴾ أي وبطلَ عنهم ما كانوا يتخرَصون من الفريةِ والكذب على الله بدعواهم أنها لله شركاءَ، وأنها تقربهم منه زلفى.

٥- استحقاقُ اللهِ العبادةَ وحْدَهُ دونَ غيره:

وجَّه ربُّ العزةِ سبحانه جملةً مِنَ الأسئلةِ التقريرية يدلُّ الإقرارُ بها على استحقاقِ الله تعالى وحده أن يعبدَ دون سواه، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١].

وجَّه اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآية خمسةَ أسئلةٍ، كلُّها يدلُّ على أن الله سبحانه هو المستحقُّ لما سأل عنه، فالمشركونَ وإن كانوا يشركون بتوحيدِ الألوهية، لكنَّهم يقرُّون بتوحيدِ الربوبيةِ، ولا يشركونَ به معه غيره، فهم يُقرُّون بأنَّ اللهَ وحده الذي يُنزِّلُ لهم الرزقَ مِنَ السماءِ، فهو الذي ينزل الماءَ من السماء، وينبتُ النبات مِنَ الأرض، وهم يقرُّون من غير خصامٍ أنَّه سبحانه الذي يملك السمعَ والأبصارَ، وخصَّ السمعَ والأبصارَ بالذكر لما فيهما من الصنعةِ العجيبة والقدرةِ الباهرةِ العظيمة، وهو سبحانه الذي يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميتِ، فالإنسانُ الحيُّ أُخْرِجَ مِنَ الميت، والطيرُ مِنَ البيضةِ، والنباتُ من الحبَّةِ ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: يُخْرِجُ النطفةَ مِنَ الإنسانِ الحيِّ، والبيضةَ من الطيرِ، والحبَّةَ من النبات، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: من يقدِّرُ الأمورَ ويقضيها.

ولما كانتِ إجابةُ مشركي قُريش لا تختلفُ في أنَّ اللهَ هو وحدَهُ لا شريك له قال عز وجل: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس:٣٢].

ومن نظر في إجابةِ المشركين عَلِم من هذه الإجابة أنَّه يلزمهم من الإقرار بتوحيدِ الربوبيةِ الإقرارَ بتوحيدِ الألوهية، وإلاَّ وقعوا في التناقض، يقول الله تعالى: فذلكم اللهُ الذي أقررتم باستحقاقه ما أقررتم به هو ربُّكم الحقُّ الذي يستحقُّ أن يعبدَ دون غيره، فإن عبدْتم غيره فقد ضللتم، فأنَّى، أي: فكيف تصرفون عن الحقِّ إلى الباطل!!

٦- الذين كتب اللهُ -تبارك وتعالى- عليهم الكفرَ لا يؤمنون:

أخبرنا ربُّنا العزيزُ العليمُ سبحانه أنَّ الذي سبق في علمه أنَّهم سيكونون كفاراً لا يؤمنون كفرعونَ وهامانَ وقارونَ وأبي جهل وأميةَ بن خلفٍ فهؤلاء سيبقون على كفرهم، ولا يؤمنون ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يونس:٣٣]. فكلمةُ الكفرِ التي كتبها اللهُ تعالى عليهم لازمةٌ لهم أبداً.

٧- عدمُ صلاحيةِ الآلهةِ التي يعبدُها المشركون للعبادة:

أمَرَ اللهُ -تعالى- عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ أنَّ يوجِّه للمشركين سؤالين يدلاَّن على أنَّ آلهتهم التي يعبدونها من دون الله لا تصلحُ للعبادة، قال ربُّ العزَّة سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ مِن

﴿شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس:٣٤-٣٥].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يسأل المشركين، ويقول لهم: هل يوجد أحدٌ من شركائِكم الذين تعبدونهم من دون الله من يبدأُ الخلق ثم يعيده؟ فاللهُ تعالى ابتدأ خلقَ السمواتِ والأرضِ، ثم يبدِّل الأرضَ غيرَ الأرضِ، والسموات غيرَ السمواتِ، ويميتُ الإنس والجنَّ، ثم يعيدهم مرة أخرى، ولا يستطيع أحدٌ من الآلهة الباطلةِ التي تعبدونها شيئاً من ذلك، والمشركون وإن كانوا لا يعترفون بالمعادِ، ولكنه احتجَّ عليهم به لظهورِهِ وبيانه، وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: تصرفون عن الحقِّ.

وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يسألَ هؤلاء المشركين هل يوجد من شركائهم التي يعبدونها من دونِ الله من يَهْدِي إلى الحقِّ؟ أي: هل يوجد فيهم مَنْ يرشدُ ضالاًّ أو يسددُ حائراً عن الهدى إلى الصراط المستقيم؟ فإنَّهم لا يستطيعون أن يزعموا أنَّ آلهتهم تستطيعُ ذلك، فإنْ زعموا ذلك أكذبتهم المشاهدةُ، وأبان عجزها عن ذلك الاختبارُ بالمعاينةِ، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ﴾ أي: اللهُ وحده الذي يخصُّ بالهداية إلى الحقِّ، وقوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ﴾ قال ابن جرير الطبري: «أفمن يهدي إلى الحقِّ أحقُّ أن يتبعَ، أمن لا يهتدي إلى شيءٍ إلا أن يهدى» [تفسير الطبري: ٥/ ٤٢١١].

قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ عَجَّبَ ربُّ العبادِ مِنْ حالِ هؤلاءِ باستفهامين متواليين، هما: أيُّ شيءٍ لكم؟ وكيف تحكمون باتخاذ هؤلاءِ شركاءَ لله، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ﴾ [يونس:٣٦]. بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ هؤلاء المشركين لا يتبعون في دينهم دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظنٌّ منهم، أي: هو توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس٣٦] تهديدٌ لهم، ووعيدٌ شديدٌ، لأنه تعالى أخبر أنَّه سيجزيهم على ذلك أتمَّ الجزاء.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - الذين أحسنوا بعبادةِ الله وحْدَه وعملوا الصالحات لهم الحسنى، وهي الجنةُ، ولهم زيادة في الجنة، والزيادةُ النظرُ إلى وجهِ الله الكريمِ في جناتِ النعيم، وهؤلاءِ أصحابُ الجنةِ خالدين فيها.

٢- أصحابُ السيئات يجزيهم اللهُ تعالى السيئةَ بمثلها، وترهقهم ذِلَّة، ولا ناصرَ ولا عاصمَ لهم مِنَ الله وعذابه، ويسوِّد اللهُ تعالى وجوهَهُمْ، حتى تصبحَ كقطعِ الليلِ المظلمِ وهؤلاءِ أصحابُ النار هم فيها خالدون.

٣- يحشر اللهُ تعالى الناسَ جميعاً يومَ القيامة ويحشرُهُمْ وشركاءَهم، وهي آلهتهم التي يعبدونها مِنْ دون الله، ويفْصِلُ بينهم وبين الآلهةِ التي كانوا يعبدونها، وتنكر تلك الآلهة أنَّهم كانوا يعبدونها، ويستشهدون على صدقهم بشهادة الله تعالى لهم أنَّهم كانوا غافلين عن عبادتهم، وهذا صحيحٌ، فلم تكن هذه الأوثانُ تعقلُ ما يحدثُ لها.

٤- اللهُ تعالى وَحْدَه الذي يستحقُّ أن يعبدَ دونَ غيره فهو الذي يتَّصفُ بالخصائص التي تؤهِّله لذلك.

٥- اللهُ تعالى الذي يستحقُّ أنْ يعبدَ دونَ غيره، لأنه الذي يبدأُ الخلق ثم يعيده، وهو وحْدَهُ الذي يهدي للحقِّ دون غيره.

النص القرآني السادس من سورة يونس
القرآنُ كتابٌ لا يليقُ أنْ ينسبَ إلى غير الله تعالى

أولاً: تقديم

القرآن كتابٌ عظيم لا يصحُّ، ولا يُقْبَلُ أنْ يُدَّعى أنه كذبٌ مفترى، فهو كتابٌ مصدِّقٌ للكتبِ السماويةِ المنزلةِ من عندِ الله، وأعظمُ دليل على أنه منزل من عند الله عدمُ استطاعةِ كلِّ القوى المخلوقةِ على الإتيان بمثله، والكفارُ المشركون كذَّبوا بالقرآنِ وهم جهلة به، لا يفقهونه، ولا يفهمونه، ولم يعلموا حقيقةَ ما يؤولُ إليه، والذين يكذِّبون به سيعذِّبهم اللهُ كما عذَّبَ الذين كذَّبوا من قبلهم.

والناسُ تجاه القرآنِ فريقانَ: مؤمنون وكفارٌ، وقد فقد الكفارُ قدرتهم على الاستماع إلى الرسولِ ﷺ، وقدرتَهُمْ على الاستفادةِ مِنَ النظر إليه، فحالهم حال الطُّرْشِ العُمْيِ، وقدَّرَ اللهُ تعالى أنه لا يظلم عبادَه شيئاً، ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس:٣٧-٤٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يصحُّ أنْ يكون هذا القرآنُ مكذوباً على الله تعالى:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذا القرآنَ لا يصحُّ أنْ يكون مفترى على الله مكذوباً عليه، فهذا القرآنُ بلغَ الغاية في السَّبْكِ والتكوين، وبلغ الغاية فيما حواه من العلومِ والأخبارِ

والأحكامِ، وتقاصرت علومُ البشر أن تأتي بمثله ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس:٣٧]، وقولُه: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: أنَّ هذا القرآن يُصَدِّق الكتبَ السماويةَ التي أُنزلت قبله، وهو مهيمن عليها، ومصلحٌ لما فيها من تحريفٍ.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ التفصيلُ: التبيينُ، ففيه تفصيلُ الحلالِ والحرام، وتفصيلُ الوعدِ والوعيدِ، وتفصيلُ القيمِ والأخلاقِ والخيرِ. ومعنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس:٣٧]، أي: لا شكَّ في أنَّه منزلٌ مِن عند الله ربِّ العالمين.

٢- البرهانُ الدالُّ على أنَّ القرآنَ منزل مِنْ عند الله تعالى:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ يزعمون أنَّ رسولنا ﷺ افترى هذا القرآنَ، أي: اختلقه، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [يونس:٣٨] و﴿ أَمْ ﴾ هذه هي المنقطعة التي بمعنى (بَلْ والهمزةِ)، وأمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس:٣٨]، أي: إنْ كنتُ كما تقولون قد افتريتُ هذا القرآنَ واختلقته، فأنتم عربٌ مثلي، ولساني وكلامي مثل كلامكم، فجيئوا بمثل سورةٍ من سورِ هذا القرآن ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: من استطعتم من الآلهة التي تعبدونها من دون الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي: إن كنتم صادقين في أنَّ محمداً افترى هذ القرآنَ.

وسيأتي في سورة الإسراءِ أنَّ الجنَّ والإنسَ لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ، ولو اجتمعوا لذلك ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨]. وسبقَ في سورةِ البقرةِ أنْ تحدى اللهُ المشركين أنْ يأتوا بسورةٍ واحدةٍ مهما كانت قصيرة، وأخبر أنهم عاجزون عن الإتيانِ بذلك ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

٣- الكفار كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه:

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمِهِ ولَمَّا يأْتِهم تأويلُهُ، ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس:٣٩].

أخْبرَ ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ سارعوا إلى تكذيبِ القرآنِ قبل أن يفقهوا ويفهموا معانيه وما اشتملَ عليه، وقولُهُ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ التأويل: ما يؤول إليه الأمر، فقد كذَّبوا بالبرزخِ والحشرِ والجنةِ والنارِ، وما فيه من الهدى ودينِ الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس:٣٩] أي: كذبت الأممُ السابقةُ، كما كذَّب الكفارُ هذا النبيَّ ﷺ، والمراد بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس:٣٩]، أي: انظر يا رسولَنا، ومن يسمع هذا القرآنَ كيف كان عاقبةُ الظالمين، أمثال قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودٍ وغيرهم.

٤- مواقفُ الناس تجاهَ القرآن الكريم ورسولِ الإسلام:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ بعضَ الناس يُؤْمن بهذا القرآنِ، ومنهم من يكفرُ به واللهُ تعالى أعلم بالمفسدين ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [يونس:٤٠]، وقد كان المؤمنون بهذا الكتابِ قليلاً، ثم ازدادَ عددُهم، ولا يزالون يزيدون، ولكن استمر وجود الفريقين، والمفسدونُ الذين تَلَبَّسوا بالكفر والشركِ والذنوبِ والمعاصي، وقد أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ إنْ كذبوه أن يقول: لي عملي ولكم عملكم ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس:٤١]، أي: إنْ كذبوك وردوا عليك ما جئتهم به من عند ربك، فقل لهم: لي ديني، ولي عملي القائمُ على التوحيدِ والعبودية لله الواحد الأحد، ولكم عملكم القائمُ على الشركِ والكفرِ، ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ فلا تحاسبون عليه، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ فلا أحاسب على ما تعملونه من ذنوبٍ وكفرٍ وشركٍ، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون:١-٦].

وبيَّنَ ربُّ العزَّة أنَّ فريقاً مِنَ الكفار من يستمع إلى الرسولِ ﷺ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس:٤٢].

أي: يستمعون إليك، ولا يفقهون ما تتلوه عليهم مِنَ الآياتِ، وما تعظهم به من المواعظِ، فحالهم عندما يستمعون إليك حالَ الصمِّ الذين لا يسمعون، فأنت لا تستطيع هدايتهم.

وهناك فريقٌ آخر ينظر إلى الرسولِ ﷺ ، فلا يختلفُ حالُ هؤلاءِ عن حالِ الأعمى الذي لا يبصرُ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس:٤٣]، والبصرُ له أثرٌ في نفسِ مَنْ ينظر إلى الأُسوةِ والقدوةِ، فتراه يتأثر بما ينظر إليه في صفاتِه وأخلاقه وأعمالِه، وبعضُ هؤلاء الناظرين تراهم كالعمي، لا يستفيدونَ مما ينظرونَ إليه، فكما لم يستفيدوا بأسماعهم، لم يستفيدوا من أبصارهم، ثم أخبرَ -تبارك وتعالى- أنَّه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان هَدَى به من هَدَى، وبصَّر به مِنَ العمى، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، وأضلَّ به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكمُ المتصرِّف في ملكهِ بما يشاءُ، الذي لا يسألُ عما يفعلُ وهم يسألون، لعلمِهِ وحكمتِهِ وعدلِهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس:٤٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- دعوى الكفارِ أنَّ القرآنَ مفترى مختلقٌ وهي دعوى باطلة، فالقرآنُ في صياغته وتكوينِهِ وبنائِهِ لا يصحُّ أن ينسب إلى غيرِ الله تعالى.

٢- الذين يزعمون أنَّ القرآنَ مفترى يُرَدُّ عليهم بأن يطلبَ منهم أن يأتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ، مهما كانت قصيرةً، وقد دعا اللهُ -تعالى- المشركين أن يستعينوا بكل القوى التي يعبدونها من دون الله لتحقيق مبتغاهم.

٣- الكفار كذَّبوا بالقرآنِ ولم يفقهوا ما فيه، ولم يفقهوا ما يؤولُ إليه من علوم وأخبار.

٤- تهدَّد اللهُ -تعالى- الكفارَ أن يحيطَ بهم عذابُهُ كما أحاطَ بالأمم المكذبة من قبل.

٥- انقسم الناسُ تجاه القرآنِ منذ أنزل وإلى اليومِ وإلى أنْ تقومَ الساعة إلى فريقين مؤمنين وكفار.

٦- يجبُ أن نبرأ مِنَ الكفار والمشركين، فالكفارُ عملهم قائمٌ على الشركِ والكفرِ، والمؤمنون عملُهم قائمٌ على التوحيدِ والإيمان، والكفارُ بريئون من أعمالنا، ونحن بريئون من أعمالهم.

٧- لا يستفيدُ الكفار من أسماعهم وأبصارهم تجاهَ القرآنِ الكريم وتجاه ما جاءَهم به الرسولُ ﷺ ، فحالُهم حالُ الذين فقدوا أسماعهم وأبصارَهُم.

٨- اللهُ تعالى عادلٌ سبحانه، لا يظلمُ الناسَ شيئاً، والحقيقةُ أنَّ الناس هم الذين يوقعون الظلمَ بأنفسهم.

النص القرآني السابع من سورة يونس
يبعثُ اللهُ تعالى العبادَ يوم المعادِ بحياةٍ تامةٍ كاملة

أولاً: تقديم

يبعثُ اللهُ تعالى يومَ القيامة عبادَه بحياةٍ تامّةٍ كاملة، حتى إنهم يقيمون بمقدارِ ساعةٍ مِنَ النهار يتعارف الأقاربُ فيما بينهم، وسيعيدُ اللهُ تعالى العبادَ إليه، وسيقضي بينهم بحضور رسولهم، والكفارُ المشركون يستعجلونَ بالعذابِ ويطلبون مِنَ الرسول ﷺ أنْ يحدِّد لهم موعِدَه، وليس لدى الرسولِ ﷺ قدرةٌ على ذلك، واللهُ وحدَهُ هو الذي يعلم موعِدَهُ، ثم إنَّ الاستعجال لا يفيدُهم، وإذا وقع العذابُ بهم آمنوا به.

والكفارُ نفوسُهُم مملوءة ريبةً وشكاً، ولذلك يلجؤون إلى الرسولِ ﷺ يستخبرونَه قائلين: هل البعثُ والنشورُ حقٌّ؟ فيجيبهم: إيْ وربي إنه لحقٌّ، ويصفُ اللهُ تعالى شدَّةَ عذابِ يومِ القيامةِ، وهو لشدَّته فإنَّ المعذبين على استعداد لبذلِ ما في الأرضِ لو كانوا يملكونه، ليتخلصوا من ذلك العذاب.

وقد أثنى اللهُ تعالى على نفسهِ بأنَّ له ما في السمواتِ والأرضِ، وأنَّ وَعْدَه حقٌّ، وهو المحيي المميتُ الذي يرجع إليه العباد.

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة يونس

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يونس: ٤٥-٥٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يبعثُ اللهُ تعالى الخلقَ يومَ القيامةِ فيجلسون مقدارَ ساعة من النهار يتعارفون بينهم:

أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ نَذْكُر ما يكونُ مِن العبادِ في يوم المعادِ، ومن ذلك أنهم يمكثون مقدارَ ساعةٍ من نهارٍ يتعارفون بينهم ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥]، أي: يتعارفُ الأقاربُ والأصحاب فيما بينهم، أي: يتعارف الآباء والأبناءُ، ويتعرَّف الرجلُ على أعمامِهِ وأخوالِهِ، وعماتِهِ وخالاتِهِ، ثم تتغير هذه الأحوال ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، وتعارفُ الناسِ في الموقفِ العظيم، يدلُّ على أنَّ حياتَهم في ذلك الموقفِ حياةٌ تامةٌ كاملةٌ، وليستْ تخيُّلاً وتوهُّماً كما يدَّعي بعضُ الناس.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [يونس:٤٥] وخسرانُ الذين كذَّبوا بالبعثِ والنشورِ، لأنَّ غضب الله يحيطُ بهم، ويدخلونَ نارَهُ، ولا يهديهم ربُّ العزة إلى ما ينفعهم، ولا يوصِلُهم إلى جنتهِ.

وقولُه تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ للعلماء فيها قولان: الأول: كأنْ لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً من النهارِ. والثاني: كأنْ لم يلْبثوا في قبورهم وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥]، وقوله: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٤].

٢- إذا أرى اللهُ تعالى رسولَهُ بعضَ ما وَعَد به الكفار من العذابِ أو توفَّاه قبل ذلك:

إذا أرى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ بعضَ الذي توعَّدَ به الكافرين من العذاب، أو توفَّاه اللهُ قبل أن يريه ذلك، ففي كلا الحالين سيرجعُ هؤلاءِ الكفارُ إلى ربِّ العزَّة سبحانه ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس:٤٦]. وقد أرى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ بعضَ ما وعدَ بِهِ المشركين مِنَ العذابِ في بدرٍ، وفي قريظةَ، والنضيرِ، وفي فتح مكَّة، وفي خيبرَ، ولم يره ما فعله أصحابه في حروب الرِّدة وغيرها. وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: ما فعلوه من تكذيبِ رسولِهِ وكتابه ومحاربته ومحاربة أصحابه.

٣- يحكمُ ربُّ العبادِ يومَ الدينِ في كلِّ أُمَّة بحضرةِ رسولها:

خصَّ اللهُ تعالى كلَّ أمة برسولٍ أرسله إليها، فإذا جاءَ رسولها يوم الدين قَضَى بينهم ربُّ العزة بالعدلِ، وهم لا يظلمون شيئاً: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس:٤٧]. وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر:٦٩]، فكلُّ أُمَّةٍ تُعْرَضُ على الله تعالى بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها بما فيه من خيرٍ وشرٍّ موضوعٌ شاهدٌ عليها، وحفظتها مِنَ الملائكة شهودٌ عليها، أمةً بعد أمةٍ، وهذه الأمةُ وإن كانتْ آخر الأمم، إلا أنها أوَّلُ أمَّة يفصل بينها، ففي حديث أبي هريرة وحذيفة بن اليمان «نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يومَ القيامة، المقضي لهم قبلَ الخلائق» وفي رواية: المقضي بينهم [مسلم:٨٥٦].

٤- استعجالُ المكذبين بالبعثِ بالعذاب:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المكذبين بالبعث ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس:٤٨] أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هؤلاء المشركين يسألون عن الوقتِ الذي سيقعُ فيه العذابُ الذي توعَّدهم اللهُ تعالى به، فأمره تعالى أن يقولَ لهم: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس:٤٩].

لما استعجلوا بالعذابِ أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يقولَ لهم: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا أقدر لها على ضرٍّ ولا نفع في دنيا ولا دين ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا ما شاء اللهُ أنْ أملكه، فأجلبه إليها بإذنِهِ.

فإذا كان رسولُنا ﷺ لا يقدرُ على ذلك إلا بإذنه، فإنَّه على القدرة على الوصولِ إلى علم الغيبِ ومعرفة قيامِ الساعةِ أعجز، إلا بمشيئة الله وإذنه في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس:٤٩]، أي: لكلِّ أُمَّة وقتٌ حدَّده ربُّ العزة لزوالهِم وانقضاءِ أعمارهم، فإذا جاءَ الأجلُ الذي حدَّده ربُّ العزةِ لانقضاءِ أعمارِهم زالوا وبادوا، ولا يستأخرون عن ذلك الموعدِ الذي حدَّده، ولا يستقدمون عنه.

وقد أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقولَ لقومه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يونس:٥٠].

قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني، لأن العرب تضمن أرأيت معنى أخبرني [البحر المحيط: ٦/ ٦٨].

وقوله: ﴿بَيَـٰتًا﴾ قال الزجاج: «البياتُ كلُّ ما كان بليل» [تفسير الواحدي: ١١/ ٢٢٠].

في هذه الآية يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين: أخبروني إن أتاكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً، فأي شيء تستعجلون أيها المجرمون بنزول العذاب، وكل العذاب شديد، فلم الاستعجال؟

وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يونس:٥١] قال ابنُ جرير الطبريِّ في تفسير هذه الآية: «أهنالك إذا وقع عذابُ الله بكم أيُّها المشركون ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ يقول: صَدَّقْتُمْ في حالٍ لا ينفعكم فيها التصديقُ، وقيل لكم حينئذٍ: آلآن تصدقونَ، وقد كنتم قبل الآن به تستعجلون، وأنتم بنزولِهِ مكذِّبون؟ فذوقوا الآن بما كنتم به تكذبون. ومعنى قوله: ﴿أَثُمَّ﴾ في هذا الموضعِ: أهنالك، وليستْ ثمَّ هذه هاهنا التي تأْتي بمعنى العطف» [تفسير ابن جرير الطبري: ٥/ ٤٢١٧]. وقال ابن الجوزي: أي: «هنالك تؤمنون فلا يقبلُ منكم الإيمانُ، ويقالُ لكم: الآن تؤمنون، فأضمَرَ: تؤمنون به مع ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾» [زاد المسير: ٤/ ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يونس:٥٢] أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه يقالُ للذين جاءَهم عذابُ الله -تعالى- الذين ظلموا أنفسهم بالكفرِ والشركِ على سبيلِ التوبيخِ والتقريعِ والإهانة: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: عذابَ النارِ الدائمِ الذي لا ينقطعُ، والقائلُ لهم هم الملائكةُ، وقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: لا تجزون في الآخرة إلا ما كنتم تكسبونَه في الحياةِ الدنيا مِنَ الكفرِ والشركِ والذنوبِ والمعاصي، والاستفهامُ للتقرير.

٥- مدى الشكِّ والريبِ الذي خالطَ نفوسَ المشركين:

يقول تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس:٥٣]، وهذا السؤال الذي أخبر ربُّ العزة أنَّ المشركين يوجهونه إلى الرسول ﷺ يدلُّ على النفس المشوشة المضطربة التي تموجُ في صدور المشركين، فيقولون له: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: أحقٌّ ما تخبرنا عنه من البعثِ والنشورِ والحشرِ والجنةِ والنارِ؟ وقد أمر اللهُ -تبارك وتعالى-

رسوله أن يقول لهم: ﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥٣﴾ أي: قل لهم: نعم، وربي، إنه لحقٌّ، وما أنتم معجزين ربَّكم أن يعيدكم ويبعثكم، فاللهُ تعالى لا يعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس:٨٢] وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ:٣]. وقوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن:٧].

وفي جوابِ الرسولِ ﷺ الذي أمره اللهُ أن يجيبَ به المشركينَ، وهو قوله: ﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ تأكيد من وجوه: الأول: القسمُ مع دخولِ الحرف الخاصِ بالقسمِ الواقعِ موقعَ نعم. الثاني: دخولُ إنَ المؤكدة. الثالثُ: اللامُ في ﴿لَحَقٌّ﴾. الرابع: اسميته الجملة.

وذلك يدُلُّ على أنَّه قد بلغوا في الإنكارِ والتمردِ إلى الغاية التي ليس وراءَها غاية، ثم توعَّدهم ورهَّبهم بأعظمَ ترهيب فقالَ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥٣﴾ [فتح القدير: ٢/ ٦٣٤].

٦- لو كان للكفارِ كلّ ما في الأرض لافتدوا به من عذاب يوم القيامة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفار المشركين الذين امتلأت قلوبهم بالريبِ والشكِّ في الحياة الدنيا، والذين يلجؤون إلى الرسول ﷺ يستنبئونه قائلين: أحقٌّ هو؟ تنقلبُ حالُهُمْ في الآخرةِ عندما تحيطُ بهم النار والعياذُ بالله، حتى لو أنَّ للواحدِ منهم كلَّ ما في الدنيا لافتدى به، لينجو من ذلك العذاب ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٥٤﴾ [يونس:٥٤].

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ والمشركين يخفون الندامةَ ويسرونها حين يبصرون عذاب الله يحيطُ بهم، لأنهم لا يستطيعون له دفعاً، وقد يُسِرُّون الندامة مخافةَ شماتةِ المؤمنين بهم، أو يسرها الرؤساءُ فيما بينهم عن أتباعهم خوفاً من توبيخهم لهم لكونهم هم الذين أضَلُّوهم وحالوا بينهم وبين الإسلام، ولكن مهما حاولوا ذلك فلن يستطيعوا أنْ يُسِرُّوا ذلك بعد الدخولِ في العذاب، حينئذ ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ [المؤمنون:١٠٦].

والندامةُ: الحسرةُ على ما كان يتمنى أنه لم يكن، والتأسفُ على ما وقع منه.

وقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٥٤﴾ أي: حكَم ربُّ العبادِ بين العباد بالعدل، وهم لا يُظلمون، فاللهُ تعالى لا يظلمُ الناسَ شيئاً.

٧- لله تعالى ما في السموات والأرض:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَ له ملكَ السمواتِ والأرض ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يونس:٥٥].

قرَّر ربُّ العزةِ تبارك وتعالى في الآية السابقة أنَّه تعالى يقضي بين خلقِهِ بالقسطِ وهم لا يظلمون، وقرَّرَ فيها أنَّ له كلَّ ما في السمواتِ والأرض، فالسماواتُ والأرضُ وما فيهما وما بينهما، ومما فيهما من الإنس والجن والملائكةِ والدوابِّ والطيورِ وكلِّ شيء لله، وما يَدَّعيه البشرُ من آلهةٍ كالأصنامِ والأوثانِ والمعبوداتِ فإنها كلَّها مخلوقةٌ مربوبةٌ لله وحده، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ووعدُ الله البعثُ والنشور، وكونُه حقّاً، أي: آتٍ لا شكَّ ولا ريبَ فيه، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وهم المشركون والكفار لا يعلمون أنَّه آتٍ لا شكّ فيه.

ووصفَ ربُّ العزةِ نفسَهُ بقولِهِ: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس:٥٦] فقد أحيا الملائكةَ والإنسَ والجنّ أولاً، ثم يميتهم، فلا يبقى منهم أحدٌ يوم تقوم الساعةُ، ثم يعيدهم إليه مرة أخرى يوم الدين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- يبعث ربُّ العبادِ العبادَ في يوم المعادِ أحياءً حياةً كاملة، حتى إنَّهم في أوّل بَعْثِهم يقضون مقدارَ ساعةٍ من نهارٍ يتعارف الأقارب والأصحاب بعضَهم على بعضٍ.

٢- أخْبرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه سواءٌ أرى اللهُ تعالى رسولَه ما توَعَّد به أعداءَه، أو توفَّاه فلم يُرِه ما توعَّدَهم به، فإنَّ هؤلاء الكفرةُ مرجعُهُم إلى الله تعالى يومَ القيامة.

٣- يقيم ربُّ العبادِ على كلِّ أُمّة شهيداً عليهم من أنفسهم هو رسولهم الذي أرسله إليهم، ويقضي بينهم بالقسطِ وهم لا يظلمون.

٤- الكفارُ يتساءَلون عن اليوم الذي يحلُّ اللهُ بهم عذابه، استهزاءً بذلك العذاب، ويطلبون مِنَ الرسولِ ﷺ أن يُحَدِّد لهم موعدَ ذلك اليوم، ويجيب الرسولُ ﷺ أنَّه لا يستطيعُ تحديدَ ذلك اليوم، واللهُ وحده الذي يستطيعه.

٥- إذا جاءَ عذابُ الله تعالى ليلاً أو نهاراً فماذا يفيدُ الكفارَ استعجالُهم بالعذابِ، خاصة أنه إذا وقع فإنهم سيؤمنون به، وسيقالُ لهؤلاء الذين يستعجلون به يومَ القيامةِ بعد إدخالهم النار: ذوقوا عذابَ الخلدِ جزاءً بما كنتم تكسبون.

٦- الكفرةُ والمشركون نفوسُهم مضطربةٌ كثيرةُ الشكِّ والريبِ، ولذلك يلجؤون إلى الرسولِ ﷺ يستخبرونه عن مدى صِدْق كون البعثِ آتٍ، فيقول لهم: إي وربي إنه لحقٌّ.

٧- عذابُ الله تعالى شديدٌ، ولشدَّته فإن المعذبين لو يملكون الأرض وما فيها لافتدوا به من عذاب ذلك اليوم.

٨- الكفارُ يُسرُّون الندامةَ في أول الأمر يوم القيامة، ولكنَهم عندما يقاسون حَرَّ النار وأوجاعها لا تبقى لهم قدرة على الإسرارِ.

٩- اللهُ تعالى هو مالكُ السمواتِ والأرضِ الذي يحيي ويميت وإليه يرجع العباد.

النص القرآني الثامن من سورة يونس
القرآن الكريم موعظةٌ من ربِّنا وشفاءٌ لما في الصدور

أولاً: تقديم

أعلمَ اللهُ تعالى الناسَ جميعاً أنه قد أنزل عليهم موعظةً من عنده، وشفاءً لما في صدورِ الناس، وجعله هدىً ورحمةً للمؤمنين وأمَرَ رسولَه ﷺ أن يطلبَ مِنَ الناس أن يفرحوا بفضل الله ورحمته، وهو القرآنُ، فهو خير مما يجمعونَهُ من الدنيا الفانية.

وذمَّ اللهُ تعالى الكفرةَ المشركين الذين يُحِلُّون ويحرِّمون خلاف ما أحلّ اللهُ وحرَّم، وهؤلاء الذين أحلُّوا وحرَّموا خلافَ ما شَرَعَهُ اللهُ تعالى مصيرُهُمْ يومَ القيامة مخيفٌ مرعب. وأعلَمَ اللهُ تعالى رسولَه والمؤمنين أنَّ علمه محيطٌ بهم، لا يخفى عليه خافيةٌ من شؤونهم، كما لا يخفى عليه أمْرُ ذَرَّةٍ في السماءِ ولا في الأرضِ، وقد دَوَّن ذلك كلّه في كتابٍ مبين.

وختمَ ربُّ العزَّة -تبارك وتعالى- آياتِ هذا النصِّ بالثناءِ على أولياءِ الله تعالى، وأخبر أنه لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، ثم عرَّفهم بأنهم الذين آمنوا وكانوا يتقون، وأعلمنا أنَّ لهم البشرى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٥٧-٦٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- قيمةُ القرآن وعظمتُهُ:

يقولُ ربُّ العزة -تبارك وتعالى- ممتناً على عبادِهِ بما أنزله عليهم مِنَ القرآنِ العظيم على رسولِهِ الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧].

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- الناسَ جميعاً، مخبراً إياهم أنه قد جاءَتهم موعظة من ربهم، والموعظةُ التي جاءَتنا من ربِّنا هي القرآنُ الكريم، و«الوعظ زجرٌ مقترنٌ بتخويف، قال الخليل: هو التذكيرُ بالخير فيما يَرِقُّ له القلبُ والعِظَةُ والموعظةُ الاسم» [المفردات، للراغب: ص٥٢٧].

وقوله: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: دواءٌ لأمراضِ القلوب -وأمراضُ القلوب هي الكفرُ والشركُ- وأمراضِ الشبهاتِ والشكوكِ، وأمراضِ الشهوات، والقرآنُ شفاءٌ من ذلك كلِّه، والقرآنُ ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: محصِّلٌ للهدى والرحمةِ مِنَ الله، ولا يكون ذلك إلا للمؤمنينَ به، والمصدقينِ الموقنين بما فيه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت:٤٤].

وقد أمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ نَفْرَحَ بهذا الكتابِ العظيمِ الذي جاءَنا من عندالله الذي وصفَهُ بهذه الصفاتِ العظيمةِ الكريمةِ، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨]. أمر اللهُ تعالى المؤمنين بالفرح بهذا الكتابِ العظيم، والفرحُ: لذَّةُ القلب بإدراكِ المحبوبِ ونيلِ المُشْتَهى، والمعنى: ليفرح المؤمنون بفضلِ الله ورحمته، فإنَّ ما آتاهم اللهُ فيه موعظة وشفاء لما في الصدور، وثلج اليقين بالإيمان، وسكون النفسِ إليه، خير مما يجمعُ هؤلاءِ من أعراضِ الدنيا مع فقد هذه الخلال.

٢- ضلال البشر بتحليلهم ما حَرَّمه الله تعالى وتحريمهم ما أحلّه:

بيَّن الله تبارك وتعالى ضلالَ البشرِ بتحليلهم ما حرَّمه اللهُ تعالى، وتحريمِهِمْ ما أحلَّهُ تبارك وتعالى، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس:٥٩].

وتحريم الحلال وتحليلُ الحرامِ من أعظم ما افتراه الكفارُ في مختلفِ الأمكنةِ والعصورِ، فالنصارى يستحلون الميتةَ، ويأكلونَ الخنزيرَ، وأهلُ الجاهلية يشربون الخمر، ويأكلون الميتة، ويأْكلون الخنزير، وقد تكلمنا على تحريمِ أهل الجاهلية لبعض ما حرمه اللهُ تعالى عند قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [المائدة:١٠٣]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩﴾ [الأنعام:١٣٩].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾ هذا إنكار على الكفار في تحليلهم الحرامَ، وتحريمِهم الحلالَ، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ [الأنعام:١٣٦].

وقوله: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾ قل لهم يا محمدُ: هل أَذِنَ اللهُ تعالى لكم في هذا التحليلِ والتحريم، فإنْ لم يكن اللهُ تعالى أذن لكم، فأنتم تفترونَ الكذبَ على الله، فاللهُ لم يحلَّ ما حرَّموه، ولم يحرِّمْ ما أحلُّوه. وقد تهدَّدَ ربُّ العزةِ هؤلاءِ المحرِّمين المحللين بما يفعل بهم يومَ القيامةِ فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ [يونس:٦٠].

يسأل ربُّ العزة -تبارك وتعالى- الذين يفترونَ على الله الكذب يومَ القيامةَ، وهم الذين يزعمون أنَّ اللهَ تعالى أحلَّ كذا، وهو لم يحلَّه، ويقولون: إنَّ الله حرَّم كذا، ولم يحرِّمه، فما ظنُّهم أنَّ اللهَ يصنع بهم؟ وهذا استفهام توبيخٍ وتقريعٍ، لا شكَّ أنَّه سيجزيهم بما كانوا يكذبون ويفترون على ربِّهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ [يونس:٦٠] فاللهُ -تعالى- ذو فضلٍ على الناس في الدنيا عندما لم يعاجلهم بالعقوبةِ على افترائهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ على تأخيرِ العذابِ عنهم.

٣- عِلْمُ الله -تعالى- محيطٌ بعبادِهِ:

أعْلَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ وأصحابه أنَّ عِلْمَهُ -تبارك وتعالى- محيطٌ بعباده وبأعمالهم، لا يغيبُ عنه شيءٌ من ذلك، فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ

مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس:٦١].

يخبر تعالى نبيَّه ﷺ أنَّه يعلمُ جميعَ أحوالِه وأحوالِ أُمتِه، وأحوال جميع الخلائق في كلِّ ساعةٍ وآنٍ ولحظةٍ، وأنه لا يعزبُ عن علمه وبصره مثقالُ ذرَّةٍ في السمواتِ، ولا في الأرضِ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين، وأخبرنا في موضعٍ آخرَ أنَّ عنده مفاتحُ الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلمُ كلَّ ما في البرِّ والبحر، وما تسقُط من ورقةٍ من شجرةٍ إلا يعلمها، ولا تندثر حبَّة في ظلماتِ الأرضِ، ولا تَذْوي ورقةٌ رطبةٌ إلا وذلك كلُّه في كتابٍ مبين ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩]. وقال في موضعٍ آخر: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام:٣٨].

٤- أولياءُ الله تعالى لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنونَ الذين آمنوا وكانوا يتقون:

عرَّف اللهُ -تبارك وتعالى- أولياءَه وقضى أنه لا خوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وأعلمنا أنَّ لهم البشرى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ، فقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

والوليُّ في اللغةِ: القريبُ، وقد غلا كثيرٌ مِنَ الذين ينسبون إلى الإسلام في من يدْعونَهُ وليّاً، ورفعوه إلى مرتبة الأُلوهية، فتراهم يعتقدون فيهِ العقائدَ الباطلةَ، ويدْعُونَه، ويستغيثونَ به من دونِ الله تعالى، وقد حَكَم ربُّ العِزَّةِ في هذه الآية أنَّ أولياءَ الله، وهم أنصارُه وأحبابُه ومطيعو أمْرِه بأنه لا خوفٌ عليهم في الدنيا، ولا هم يحزنون على ما يقْدُمونَ عليه في الآخرةِ، ثم عرَّف أولياءه فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ فكلُّ مؤمنٍ بالله تقيٌّ، فهو لله وليٌّ، فالمؤمنونَ مِنْ هذه الأمة من أبي بكر الصديقِ إلى آخر مؤمنٍ فيها، كُلُّهم أولياءُ لله تعالى.

وقد أخبر ربُّ العزَّة -تبارك وتعالى- أنَّ أولياءَه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

وأخبر سبحانَه وتعالى أنَّ هؤلاءِ المؤمنين الأتقياء لهم البشرى في الدنيا، والبشرى الإخبارُ بما يَسُرُّ، وهذه الأخبارُ السارَّةُ التي يُبَشِّر اللهُ بها المؤمنين يفيض بها القرآنُ الكريمُ، كما

تفيضُ بها الأحاديثُ الصحيحةُ، التي يُعَنْوَنُ لها باسم «الترغيب والترهيب»، والقرآنُ الكريم والأحاديثُ الصحيحةُ، وإن انقطع الوحيُ بها من عند الله بعد وفاةِ رسول الله ﷺ، إلا أنَّ بشرى المؤمنين لم تنقطعْ، فلا تزالُ الرؤيا الصالحةُ التي تُبَشِّرُ المؤمنين بالخيرِ من عندِ الله مصدراً ثَرِيّاً تُبَشِّر المؤمنين بالمسرَّات من عندِ الله تعالى.

وقد سأل عبادةُ بن الصامت رسولَ الله ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله، أرأيت قولَ الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤]، فقال: «لقد سألتني عن شيءٍ ما سألني عنه أحدٌ من أُمتي، أو أحدٌ قبْلَكَ»، قال: «تلكَ الرُّؤْيا الصالحةُ، يراها الرجُلُ الصالحُ أوْ تُرَى لَهُ» [قال الشيخ شعيبُ في تحقيقه لابن كثير: (٤/ ٢٥٠ رواه أحمد في المسند: (٢٢٦٨٨) وهو حديثٌ صحيح].

وعن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لم يَبْقَ من النبوةِ إلا المُبَشِّراتُ» قالوا: وما المُبَشِّراتُ؟ قال: «الرُّؤْيا الصالحةُ» [البخاري: ٦٩٩٠].

وعن أمِّ كُرْزٍ الكَعْبِيَّةِ قالت: سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ذهبتِ النبوةُ وبقيت المُبَشِّرات» [قال محقق ابن كثير (٢/ ٥٠٠): حديث صحيح، أخرجه الطبريُّ (١٧٧٤٧) بإسنادٍ حسن، وللمتن شواهدُ في الصحيح. وانظر تمام تخريجه في «مسند الإمام أحمد» ٤٥/ ١١٦، الحديث (٢٧١٤١)].

وعن ابن عباسٍ، قال: كَشَفَ رسولُ الله ﷺ السِّتارةَ، والناسُ صُفوفٌ خَلْفَ أبي بكرٍ. فقال: «أيُّها الناسُ! إنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّراتِ النُّبُوَّةِ إلا الرُّؤْيا الصالحِةُ يَراها المُسْلِمُ، أو تُرَى لَهُ» [مسلم: ٤٧٩. والستارة: السِّتْر يكون على بابَ الدار أو النافذة].

وعن إبراهيمَ بن عبدالله بن مَعْبَدِ بنِ عبَّاسٍ، عن أبيه، عن عبدالله بن عباسٍ؛ قالَ: كَشَفَ رسولُ الله ﷺ السِّتْرَ، ورَأْسُهُ مَعْصُوبٌ في مَرَضِهِ الذي ماتَ فيه، فقال: «اللهُمَّ! هل بَلَّغْتُ؟» ثلاثَ مراتٍ «إنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبشِّرات النُّبُوَّةِ إلا الرُّؤْيا، يَراها العَبْدُ الصالِحُ أوْ تُرَى له» [مسلم: ٤٧٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- القرآنُ العظيم كتابٌ عظيم هو موعظةٌ من ربِّ العالمين، وشفاءٌ لما في صدورِ الناسِ أجمعين، وهدى ورحمةٌ للمؤمنين.

٢- المؤمنون الصادقون يفرحون بما أنزل اللهُ تعالى مِنَ الدين، فهو خير مما يجمعون مِنْ حطامِ الدنيا الفانية.

٣- مِنَ الضلالِ العظيمِ الذي اقترفه البشرُ عَبْرَ تاريخهم تحريمُ ما أَحَلَّهُ اللهُ تعالى، وتحليلُ ما حَرَّمَهُ، ولا تخلو أُمَّةٌ كافرةٌ مِنْ هذه الضلالةِ.

٤- الذين افتروا على الله تعالى الكذبَ بالتحليل والتحريمِ مصيرُهم يومَ القيامةِ أليم شديدٌ.

٥- عِلْمُ الله تبارك وتعالى محيطٌ بالناس، لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرضِ ولا في السماءِ، وقد دَوَّنه ربُّ العزة عندَه في كتابٍ مبينٍ، هو اللوْحُ المحفوظُ.

٦- أولياءُ الله تعالى لا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون، وهم الذين آمنوا وكانوا يتقونَ، فكلُّ مؤمن تقيٍّ، فهو لله وَلِيٌّ.

٧- حَرَّف كثيرٌ من المسلمين المرادَ بالوليِّ، فرَفَعُوه إلى مرتبةِ النبوةِ أو مرتبةِ الأُلوهية، فنسبوا إليه عِلْمَ الغيبِ، ودَعَوْهُ واستغاثوا به من دون الله تعالى، وهذا إفك وضلالٌ، والوليُّ - كما سبق بيانه- المؤمنُ التقيُّ.

٨- انقطعت المبشراتُ الصالحةُ بموتِ الرسولِ ﷺ ، وبقيَ من المبشراتِ الرؤيا الصالحةُ يراها العبدُ الصالحُ أو تُرَى له.

النص القرآني التاسع من سورة يونس
اللهُ تعالى له ملكُ السمواتِ والأرضِ وآلهةُ المشركين آلهةٌ باطلةٌ ليس لها حقيقة

أولاً: تقديم

واسى اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ في القسمِ الأول من آيات هذا النص، فنهاهُ عن الحزنِ لما يفْتري عليه قومُهُ فاللهُ له العزَّة جميعاً، وهو قادرٌ على نَصْرِهِ وحفظِهِ، والله له ما في السمواتِ وما في الأرض، وكلُّ ما يُعْبَدُ من دونه لا حقيقةَ له، وهو قائم على الظنونِ والتخرصاتِ، وهو الذي أوجدَ سبحانه الليلَ لنسكنَ فيه، وجعلَ لنا النهارَ مبصراً، ليَبْعثنا فيه، لنعمل فيه.

وذمَّ الذين نسبوا إليه الولدَ، وأعلمنا أنَّه غنيٌّ عن الولدِ، فاللهُ تعالى له ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وليسَ عندَ الكفرةِ دليلٌ يدلُّ على صحةِ نسبةِ الولدِ إليه، وهؤلاءِ الذين يفترون الكذبَ على الله بدعوى نسبةِ الولدِ إليه مفترون، كذَبُوا على ربِّ العزةِ سبحانه، وهؤلاءِ يمتَّعون في الدنيا متاعاً قليلاً، ثم يعودون إلى الله تعالى، فيذيقهُمُ العذابَ الشديدَ بما كانوا يكفرون.

وفي القسمِ الثاني أمَر الله رسولَهُ ﷺ أنْ يقصَّ على قومِه طرفاً مِنْ خبرِ نوحٍ عليه السلام مع قومِهِ، وما كان عليه مِنَ القوةِ والإيمانِ في مواجهةِ قومِهِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ

ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس:٦٥-٧٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نَهْيُ الله تعالى الرسولَ ﷺ أن يَحْزَن لما يقولُه المشركون فيه:

نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يحزنَ لما يقولُهُ المشركون عنه: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يونس:٦٥]، أي: كل ما يقولُه المشركون لرسولِهِ ﷺ كقولهم: إنَّه ساحرٌ وكاهن ومفترٍ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ﴾ [يونس:٦٥]، أي: كلُّ أسباب العزَّةِ وأنواعِها لله وَحْدَهْ، فلَهُ القوةُ والغلبةُ والملكُ، وله جنودُ السمواتِ والأرضِ، وهو الذي يتولاكَ، فلا يغلبكَ أحدٌ، ولا يقدرُ عليك أحدٌ.

وقولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس:٦٥]، أي: السميعُ لأقوال عبادِهِ، العليمُ بأحوالهم، لا تخفى عليه خافية مِنْ أحوالهم.

٢- لله من في السمواتِ ومن في الأرض:

قال ربُّ العزة -تبارك وتعالى-: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس:٦٦] و ﴿ أَلَآ ﴾ افتتاحُ كلامٍ وتنبيه، وقرَّرَ سبحانه وتعالى أنَّ له السمواتِ والأرضَ ومَنْ فيهما، ومِنْ ذلك ما يزعمُ الكفار أنَّهم يعبدُونَهُ، من الشمسِ والقمرِ والنجومِ والأصنامِ والأوثانِ، فكلُّها مخلوقةٌ مربوبةٌ لله رب العالمين، ولذلك فإنَّ المشركينَ لا يَدْعونَ على الحقيقةِ آلهةً من دونِ الله تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ﴾ وإنَّما يتبعونَ الظنَّ، فالشمسُ ليست في الحقيقة إلهاً، واللاتُ ليست في الحقيقة إلهاً، والعزَّى ليستْ إلها، ومناةُ ليست إلها، ولكنَّها في الحقيقةِ حجارةٌ أو أشجارٌ، أو صورةٌ لمخلوقات، لا تضرُّ ولا تنفع، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: يكذبون.

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- جعلَ لنا الليلَ لنسكن فيه والنهارَ مبصراً:

أخْبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّه ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يونس:٦٧].

جعل الله الليل لعباده ليسكنوا فيه، أي: يستريحون فيه مما عانوه في النهارِ من تعبٍ ونصبٍ وإعياء، قال القرطبي: «﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ أي: مضيئاً، لتهتدوا به في حوائجكم، والمُبصِرُ الذي يُبْصِرُ، والنهارُ يُبْصَرُ فيه، وقال: مُبْصِراً تَجَوُّزاً وتوسُّعاً، وقال قُطْرُبٌ: يقالُ: أظلمَ الليلُ، أي: صارَ ذا ظلمة، وأضاءَ النهارُ وأبصرَ، أي: صار ذا ضياءٍ وبَصَرٍ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ أي: علاماتٍ ودلالاتٍ، ﴿لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: سماع اعتبارٍ» [تفسير القرطبي: ٤/ ٦٥٩].

٤- تكذيب الله -تعالى- الكفار في نسبتهم الولد إليه:

أكْذَبَ اللهُ -تعالى- المشركين في نسبَتِهِمْ الولدَ إلى ربِّ العزةِ سبحانه، فقال: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس:٦٨].

أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفرةَ المشركين زعموا كاذبين أنَّ اللهَ تعالى اتخذَ ولداً، فاليهودُ قالوا: عزيرٌ ابنُ الله، والنصارى قالوا: المسيحُ ابنُ الله، وعربُ الجاهلية، قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، وقد نَزَّه ربُّ العزَّة نفسه عن الولدِ بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ أي: هو الغنيُّ عن الولدِ، ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: كلُّ ما في السمواتِ والأرض فإنَّه مملوكٌ، وخاضعٌ له، يسبِّح له، ويدْعوه وَحْدَهُ، فأنَّى يكون له وَلَدٌ سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ أي: هل عندكم مِنْ دليلٍ وحجَّةٍ وبرهانٍ يدلُّ على أنَّ العزيرَ أو عيسى أو الملائكة أولادُ الله تعالى، إنَّ دعواهُمْ دعوى باطلةٌ، لا تقومُ على دليلٍ، ولا حجَّةٍ، ولا برهانٍ، ولذلك فإنَّ قولَهُمْ قولٌ قائمٌ على الجهل ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وهؤلاءِ الجهلةُ الضالون الذين يفترون على الله الكذبَ بنسبتهم الولدَ إلى الله تعالى لا يفلحون، ولا يفوزون ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يونس:٦٩].

وقد أعلمنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّه سيمتِّع هؤلاءِ الذين افْتَرَوْا عليه الكذبَ متاعاً قليلاً في هذه الحياة، ثم يقبضُ أرواحهم، ويصيرون إليه، ثم يذيقهم العذابَ الشديدَ بسبب كفرِهم وضلالهم ﴿ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس:٧٠].

٥- طرفٌ من قصة نوحٍ عليه السلام :

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقصَّ على قومِهِ نبأَ رسولِ الله نوحٍ عليه السلام ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ [يونس:٧١]، ونوحٌ أوَّلُ الرسلِ، وما كان ليعلمَ رسولنا ﷺ نبأَ نوحٍ لولا وَحْيُ الله إليه، فقد كان أُميّاً لم يقرأ من كتابٍ، ولم يخطّ بالقلمِ.

والجزءُ الذي أمَرَ اللهُ تعالى أن يقصَّهُ من خبر نوحٍ تضمنه قولُهُ تعالى: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس:٧١-٧٢].

وهذا الموقفُ الذي حدَّثنا اللهُ تعالى أنَّ نوحاً وَقَفَهُ من قومِهِ، يدلُّ على ثباتٍ عظيمٍ، وجرأةٍ عظيمةٍ، واعتصامٍ بالله ربِّ العالمين، فقد قالَ نوحٌ لقومِهِ، وقد كانوا أصحابَ جبروتٍ وطغيانٍ: يا قومِ إنْ كانَ كبر عليكم، أي: عَظُمَ عليكم، وثَقُلَ عليكم مقامي بين أظهركم ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بحججه وبراهينه التكوينية والتنزيلية، ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾ أي: فإني أقابل ذلك منكم بالتوكلِ على الله والاعتمادِ عليه، ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ﴾ أي: فأعِدُّوا أمْركم، واعزموا على ما تَنوون عليه من أمري، وقولُهُ: ﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ ﴾ أي: وادعوا شركاءَكم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ﴾ أي: ثم لا يكن أمركم عليكم مُلْتَبِساً مبهماً، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ أي: امضوا إليَّ، أي: أمضوا ما تحدثون أنفسَكم به فيَّ وافرغوا منه، وقولُهُ: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ أي: لا تؤخرون [تفسير ابن جرير الطبري: ٥/ ٤٢٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس:٧٢]، أي: فإنْ أعرضتم عن الإيمانِ بما جئتكم بِهِ، فما سألتكم من أجرٍ،

أيْ من مالٍ أو منفعةٍ على ما جئتكم بِهِ، وما أجري إلاَّ على ربِّ العزة سبحانَه وتعالى، وقولُه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: أمرني ربي -تبارك وتعالى- أنْ أكونَ من الخاضعين المنقادين لله ربِّ العالمين.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس:٧٣]، أي: كذَّب قومُ نوحٍ نوحاً، فأنجى اللهُ تعالى نوحاً ومَنْ آمن معه في السفينةِ، وجعل ذريةَ نوحٍ وذريةَ من معه خلائفَ تتناسلُ في الأرض، وأغرق الذين كذبوا من قومِ نوحٍ، وقد أمر اللهُ تعالى رسوله ﷺ أن ينظر في عاقبة المنذرين.

٦- **إرسالُ الله تعالى الرسلَ من بعدِ نوحٍ:**

أرسل اللهُ تعالى الرسلَ من بعد نوحٍ، قالَ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [يونس:٧٤]، أي: أنَّ الله تعالى بعثَ من بعد رسولِهِ نوحٍ عليه السلام رسلاً، كهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وغيرهم، أرسلَ كلَّ رسولٍ منهم إلى قومِه، فجاءَ كلَّ أمةٍ رسولُها بالبيناتِ، أي: بالأدلة والحججِ البينات، وأخبرتعالى أنَّ المكذبين من هذه الأمم ما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا به مِنْ قبل، لأنَّ اللهَ تعالى قَضَى وكتبَ عليهم الكفرَ، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: كما طبع اللهُ تعالى على قلوب أولئك المعتدين كذلك يطبعُ اللهُ على كلِّ قلوب المعتدين أمثالهم مِنْ غيرهم، فلا يؤمنون حتى يَرَوْا العذابَ الأليم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذ النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ لا يَحْزُنَهُ قولُ الكافرينَ الذي يفترونه ويختلقونه عليه، فاللهُ تعالى قادرٌ على أن يكْبِتَهُم ويقهرَهُمْ، وعِلْمُه وسمعه محيطٌ بهم.

٢- الله -تبارك وتعالى- لهُ السمواتُ والأرضُ وكلُّ ما فيهما، ومِنْ ذلك ما يعبدُه الكفارُ مِنَ الشمسِ والقمرِ والنجومِ والأصنامِ والأوثانِ، فجميعها مخلوقةٌ مربوبةٌ، وما يدَّعونه فيها من الألوهية إنما هو ظَنٌّ باطلٌ، وليس لها شيءٌ من حقيقة الألوهية.

٣- اللهُ تعالى وحده هو الذي جعل لعبادِه الليلَ، ليجعله سكناً لهم، وجعلَ النهارَ ليعملوا فيه، والليلُ والنهار آيتان من آياتِ الله.

٤- ذمَّ اللهُ تعالى الذين كَذَبُوا عليه، ونسبوا إليه الولدَ، واللهُ تعالى غنيٌّ عن الولدِ، فالسمواتُ والأرض وما فيها وما بينهما له، وليس عندهم دليلٌ يدلُّ على صحةِ نسبةِ الولدِ إلى ربِّ العزةِ، فهم كَذَبَةٌ مفترون.

٥- الذين كذبوا على ربِّ العزة ونسبوا إليه الولدَ، يمتَّعون في الدنيا متاعاً قليلاً، ثم يعودون إلى ربِّ العزة، فيعذِّبهم عذاباً شديداً.

٦- أمر الله تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يتلو على قومِهِ طرفاً من خبر نوحٍ ، وهذا مِنْ الأدلة الصادقةِ على صحة نبوتِهِ، فنوحٌ أوَّل الرسلِ، وقد أعلم اللهُ رسولَه بخبره، فدلَّ ذلك على صحة رسالته.

٧- مدى ما كان عليه نوحٌ مِنَ شجاعةٍ وإيمان في مواجهةِ قومِه، بحيث تحدَّاهم جميعاً متوكلاً على الله معتمداً عليه.

٨- أعلم نوحٌ قومَه أنَّهم إنْ أعرضوا عنه، فإنَّه لا يسألهم أجراً على ما جاءهم به، وكذلك كلُّ الرسلِ والصادقينِ من أتباعهم، لا يسألون على إبلاغِ الحقِّ أجراً.

٩- نجَّى اللهُ نوحاً والمؤمنين معه، وأهلك الكافرين.

١٠- أرسلَ اللهُ تعالى الرسلَ مِنْ بعد نوحٍ إلى أقوامهم بالحجج البينات، وقد أصرَّ الكثير منهم على لزوم الكفر والاستمرار عليه.

النص القرآني العاشر من سورة يونس
قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه

أولاً: تقديم

أعْلَمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذا النصِّ والنصِّ التالي له طرفاً من نبأ موسى وهارون مع فرعونَ وملئه، وكيف قابلوا دعوتهما، وزعموا أنَّ ما جاء به موسى هو السِّحر، وكيف نازل موسى السحرةَ غير هيَّاب ولا وَجِلٍ، وكيف أبطل اللهُ سِحْرَ سحرةِ فرعون، وأعلمنا ربُّنا عن قِلَّة الذين آمنوا بموسى من قوم فرعون، فقد كان فرعون جباراً طاغياً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس:٧٥-٨٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- بعث اللهُ تعالى موسى وهارون من بعد الرسلِ الذين أرسلهم من بعد نوح:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه بعثَ من بعدِ الرسلِ الذين أرسلهم من بعد نوح كهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وغيرهم بَعْثَ موسى وهارونَ إلى فرعونَ وملئه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس:٧٥]. وقد أرسلهما -تبارك وتعالى- بآياته الكونية كالعصا واليد، وآياتِه المنزلةِ، وهي التوراةُ، فاستكبروا عن الإيمان بها كلِّها، وكفروا بما جاءَهم من الآيات ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس:٧٥].

٢- زعم فرعونُ وملؤه أنَّ ما جاءَهم به موسى سحر:

لما جاءَ موسى ﷺ فرعونَ وملأه بالآياتِ العِظام التي هي حقٌّ، زعموا كاذبين أنَّ ما جاءَهم به من الحقِّ سحْرٌ ظاهرٌ بيِّنٌ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ٧٦﴾ [يونس:٧٦].

أي: فلما جاءَهم الحقُّ من عند الله تعالى، قال فرعون وملؤُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ٧٦﴾ إنَّ ما جئت به يا موسى مما تسميه حُججاً وبيناتٍ هو سِحْر، يبينُ لمن رآه وعاينه أنَّه سِحْرٌ لا حقيقة له. ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ [يونس:٧٧] قال ابن جرير: «﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ من قِيل موسى منكراً على فرعونَ وملئِه قولهم للحقِّ لما جاءَهم: سحر، فيكونُ تأويلُ الكلام حينئذٍ: قال موسى لهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ وهي الآيات التي أتاهم بها من عند الله حجّةً له على صدقِهِ سحرٌ، أسحر هذا الحقُّ الذي ترونه؟ فيكون السحرُ الأولُ محذوفاً اكتفاءً بدلالةِ قولِ موسى: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ على أنه مراد في الكلام. ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ يقولُ: ولا ينجحُ الساحرون، ولا يبقون» [تفسير الطبري ١٥/ ١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ٧٨﴾ [يونس:٧٨]. قال فرعونُ وملؤُه لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: لتَصْرفنا وتلوينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: مِنَ الدِّين، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فسَّر أئمةُ التفسير الكبرياءَ بألفاظٍ متقاربةٍ، فمن ذلك: العظمةُ، والملكُ، والسلطانُ، والطاعةُ، وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ٧٨﴾ أي: بمُقِرِّين أنكما رسولان أُرْسلتما إلينا.

٣- المواجهةُ بين موسى والسحرة:

سبقَ الكلامُ على قصة السحرة مع موسى في سورة الأعرافِ، وسيأتي الكلام عليها في سورة طه وسورة الشعراء، وقد ذكر ربُّنا طرفاً منها في هذا الموضع فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ٧٩﴾ [يونس:٧٩] ذكر ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ فرعونَ، وهو الحاكمُ في أرض مصر في ذلك الزمان أمر جنده أن يجمعوا له مِنْ مدن مصر كلَّ ساحرٍ عليمٍ بالسحر، ليبطلَ بسحرهم ما جاءَ به موسى مما أرسله الله تعالى به، ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ٨٠﴾ [يونس:٨٠]، أي: فلما جمع فرعون السحرةَ مِنَ المدائن، ونزل الفريقان إلى

الميدان، والناس قد اجتمعوا في يوم الزينة، قال لهم موسى عليه السلام مُسْتَخِفّاً بهم وبسحرهم: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: ألقوا ما جئتم به مِنْ حبالٍ وعصيٍّ، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس:٨١-٨٢]، فلما ألقوا حبالَهُمْ وعصيَّهُمْ قال موسى عليه السلام للسحرة: ما جئتم به هو سِحْرٌ باطلٌ بيِّنُ البطلان، والله تعالى سيبطلُ هذا السِّحْر، فاللهُ تعالى لا يُصْلِحُ عملَ المبطلين، ولا شكَّ أنَّ السحرةَ مِنَ المبطلينَ المفسدينَ، ويحقُّ اللهُ تعالى الحقَّ بكلماتِهِ، ولو كره المجرمونَ، ومِنَ المجرمين فرعون وملؤُه.

وقد بيَّنَ اللهُ تعالى في مواضعَ أخرى أنَّ عصا موسى عندما ألقاها في ميدانِ النزال ابتلعتْ حبالَهم وعصيَّهم، وبقيتْ في الميدانِ وحدها، فأُلْقِيَ السحرةُ ساجدين، وأعلنوا إيمانَهم بربِّ موسى وهارون، وغُلِبَ فرعون ومَلَؤُه، وانقلبوا صاغرين.

٤- قلّةُ عدد من آمن من قومِ فرعونَ بموسى عليه السلام:

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا قلةَ عدد الذين آمنوا بموسى من قومِ فرعون، فقال: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس:٨٣].

أخبرنا ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- أنّه لم يؤمن لموسى عليه السلام إلا ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ وهم الأحداثُ والشبابُ، وقد آمن هؤلاءِ القلةُ من الفتيةِ على خوفٍ من فرعون وملئِه، أن يرُدَّهم إلى الكفرِ، ففرعونُ كان طاغيةً جبَّاراً مسرفاً في التمردِ والعلوِّ، وكانت له سطوةٌ ومهابةٌ، وتخاف رعيته منه خوفاً شديداً، وقد أعلمنا ربنا بأنَّ اثنين من قومِ فرعون آمنا بموسى هما زوجتُه، والثاني مؤمنُ آل فرعون، ولم يعلمنا بالذريةِ التي آمنتْ به من قومِ فرعونَ.

٥- موسى عليه السلام يطلب من قومِهِ أنْ يتوكلوا على الله في مواجهةِ فرعونَ:

طلب موسى عليه السلام من قومِهِ في أثناء المواجهة مع فرعون أنْ يتوكلوا على ربِّ العزة، ويعتمدوا عليه، إن كانوا ممن أسلم دينه لله تبارك وتعالى، فأعلنوا توكُّلَهُمْ على الله ربِّ العالمين، ودَعَوْا اللهَ تعالى أن لا يجعلهم فتنةً للظالمين ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس:٨٤-٨٦].

وهذا الذي أرشدَ إليه نبيُّ الله موسى قومَهُ في أثناء المواجهةِ مع فرعون، هو الذي على المؤمنين أن يأخذوا أنفسهم به في مواجهة الظلمةِ والطغاةِ، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]. وقد قال اللهُ تعالى لرسوله ﷺ : ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل:٩]، وقد أحسن بنو إسرائيل الإجابةَ، ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وقالوا: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥﴾ أي: لا تُظْفِر فرعون وملأه بنا، ولا تُسَلِّطهم علينا، فإنهم إن سُلِّطوا علينا، ظَنُّوا أنهم على الحقِّ، ففتنوا بذلك، فيقولُ فرعون وملؤُه: لو كانوا على حقٍّ ما عُذِّبوا، وما سُلِّطْنا عليهم.

وقولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾ أي: خلصنا برحمتك مِنَ القوم الذين كفروا بالله ربِّ العالمين، وكفروا بالمرسلين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أعلَمنا اللهُ -تعالى- أنَّه أرسل رسولَهُ موسى وهارون عليهما السلام بعد الرسل الذين أرسلهم من قبلهم إلى فرعون وملئِه وأرسل معهما آياته الدالة على صدقهما، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين.

٢- ادَّعى فرعونُ وملؤُه أنَّ ما جاء به موسى مِنَ الآياتِ سحرٌ، فأنكر موسى عليهم دعواهم، وقرَّر موسى في حواره معهم أنَّ السحرة لا يفلحون، لأنَّ عملهم قائم على باطل.

٣- ادَّعى فرعونُ وملؤه أنَّ موسى جاءَ بما جاءَ به ليصرفهم عن دينِ آبائِهم وتراثهم، وليكون له ولقومِهِ الملكُ، وقرَّروا أنَّهم لن يصدِّقوا بما جاءَهم به.

٤- جمع فرعونُ السحرةَ الحاذقين مِنْ كلِّ أنحاءِ المدنِ المصريةِ، فقال لهم موسى في ميدانِ النزالِ مستخفّاً بهم: ألقوا ما أنتم ملقون، وقال لهم: ما جئتم به السحرَ، واللهُ سيبطله، وكذلك كان الأمرُ.

٥- مع أنَّ الآياتِ التي جاء بها موسى كثيرةٌ، وهي في غايةِ الوضوحِ والظهورِ، فلم يُؤْمن مِنْ قومِ فرعون إلا مجموعةٌ قليلةٌ مِنَ الشباب صغارِ السنِّ في حال خوفهم من فرعون وملئه، فقد كان فرعون جبَّاراً طاغياً.

٦- أَمَرَ موسى قومَه في مواجهته مع فرعون أنْ يتوكلوا على الله ربِّهم، فاستجابوا ودَعَوُا اللهَ ربَّهم أنْ لا يجعلهم فتنةً للظالمين، وأن ينجيهم برحمته مِنَ القومِ الكافرين، وكذلك يجبُ أن يكون شأنُ المؤمنين في مواجهتهم للظالمين.

النص القرآني الحادي عشر من سورة يونس
دعاءُ موسى وهارونَ على فرعونَ وإنجاءِ الله بني إسرائيلَ وإغراقِ فرعونَ وقومِهِ

أولاً: تقديم

أعلمنا اللهُ -تعالى- بالمزيدِ من أخبارِ موسى عليه السلام مع فرعون وملئه في هذه الآياتِ، فقد أذن اللهُ لبني إسرائيلَ أن يُصَلُّوا في بيوتهم، لأنَّ فرعون دمَّر كنائسهم، وضيَّق عليهم في عبادتهم، وأعلمنا ربُّنا أنَّ موسى دعا على فرعونَ وملئِه أن يطمسَ على أموالهم، ويَشْدُدَ على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يَرَوْا العذابَ الأليمَ، فاستجابَ الله دعوتَه ودعوةَ أخيهِ، وبيَّن لنا ربُّنا كيف أنْجا بني إسرائيل بأنْ شَقَّ لهم طريقاً في البحر، سَلَكوهُ، فنَجَوْا، وسلكه فرعونُ وجندُه، فانطبق عليهم، وأغرقهم، وقد آمن فرعونُ لما أدركه الغرقُ، ولكنَّ الله لم يقبل منه إيمانَه بعد حلولِ العذابِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩٠) ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾ [يونس:٨٧-٩٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ -تعالى- موسى أن يأْمُرَ قومَهُ أن يتخذوا لهم بمصرَ بيوتاً:

أوحى اللهُ -تبارك وتعالى- لرسولِهِ موسى وأخيه هارون عليهما السلام أنْ يأمرا قومهما أنْ يتبوَّءُوا لقومهما بمصر بيوتاً، وأمرهما أن يجعلا بيوتَهُمْ قبلةً ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن

تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس:٨٧]، وقوله: ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: اتخذا لقومكما في مصرَ بيوتاً، وأوحى إليهما أنْ يجعلا بيوتَهم قبلةً، أي: اجعلوها مساجدَ، وصلُّوا فيها، ذلك أن فرعون أَمَرَ بمساجد بني إسرائيلَ، فخربت كلُّها، ومنعوا مِنَ الصلاة فيها، وكانوا لا يصلُّون إلا في الكنائس، فأُمروا أن يتخذوا مساجدَ في بيوتهم، ويصلُّون فيها خوفاً من فرعون [زاد المسير: ٤/ ٥٤]، وذهبَ بعضُ المفسرين إلى أنَّ المراد بقولِهِ: ﴿قِبْلَةً﴾ أي اجعلوا بيوتكم قِبَلَ القبلةِ، أي: وجِّهوها جهةَ القبلةِ، والأولُ أصح، لأنه أضاف البيوتَ إليهم، أي: بيوتكم التي تسكنوها، وتخريبُ فرعون المساجدَ ليس ببعيدٍ عنه، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أمرهم اللهُ تعالى أن يقيموا الصلاةَ التي فرضها عليهم، بالصفاتِ التي وصفَها، وأمره أنْ يبشِّر المؤمنين بما أعدَّه لهم مِنَ الأجرِ والمثوبةِ.

٢- موسى يدعو على فرعونَ وملئه:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ موسى دعا على فرعون وملئه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

قال موسى عليه السلام داعياً ربَّه -تبارك وتعالى- على فرعونَ وملئِه، لما أَبَوْا قبولَ الحقِّ، وأصرُّوا على كفرِهِمْ وضلالِهِمْ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهذا يدلُّ على مدى الثراءِ الذي كان ينعمُ به فرعون وملؤُه، فقد كانت الأنهارُ تجري من تحتهم، وكان لهم مُلْكُ مصر، وكان عندهم مِنَ الذهبِ والفضةِ والجواهرِ واللآلئِ الشيءُ الكثيرُ، وقوله: ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ﴾ كما قال ابن جرير: لامُ كيٍّ، ومعنى الكلام: ربنا أعْطَيْتَهُمْ ما أعْطَيْتَهم مِنَ زينةِ الحياة الدنيا والأموالِ لتفتنهم فيه، ويضلُّوا عن سبيلك، عقوبةً منك [تفسير ابن جرير الطبري: ٥/ ٤٢٥٤].

وقد دعا موسى عليه السلام فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ دعا موسى ربَّه أن يطمسَ على أموالهم، والطموسُ المسخُ للشيءِ، وطَمْسُ الشيءِ إذهابُهُ عن صورتِهِ والانتفاع به على الحال الأولى التي كان عليها، فالبساتينُ تذوي وتيبسُ، والعماراتُ والبناياتُ تُدمَّرُ وتَخْرَبُ، ومواضعُ حفظِ الأموالِ يخسفُ بها، وقوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: واطبع عليها وقسِّها حتى لا

تلينَ، ولا تنشرحُ بالإيمانِ، وقد أجابَ الله -تعالى- دعوةَ موسى عليه السلام التي أمَّن عليها أخوهُ هارون، قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٩].

قال اللهُ تعالى ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ والداعي هو موسى، ولكنْ لَمَّا أَمَّنَ هارون على الدعوةِ كان مشاركاً لموسى فيه، ولهذا فإذا دعا الداعي، وأمَّن أقوامٌ على دعوتِهِ كانوا له شركاءَ فيها، وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري، ولا تسلكا سبيلَ الجهلة الذين لا يعلمون شرعَ الله ودينَهُ.

٣- إنجاءُ اللهِ -تعالى- موسى وقومَهُ وإغراقُه فرعونَ وجندَهُ:

أعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- بالعاقبةِ التي صارَ إليها موسى وقومُهُ وفرعونُ وجندُهُ، فقال: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس:٩٠].

فصَّل ربُّ العزَّةِ -سبحانه- القولَ في خروج بني إسرائيل في ظلمة الليل حتى وصلوا مع شروقِ الشمس إلى ساحلِ البحر، وأتبعهم فرعونُ وجنودُهُ، فظنَّ بنو إسرائيل أنَّ فرعونَ مدركُهُم ومحيطٌ بهم، فأمَرَ اللهُ تعالى موسى أن يضربَ البحرَ بعصاه، فضربه فانفلق، فدخله موسى ومَنْ معه، وجاوز اللهُ ببني إسرائيلَ البحرَ، فدخل فرعونُ وجندُه البحرَ وراءَهم ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ والبغيُ: طلب الاستعلاءِ بغيرِ حقٍّ، والعَدْوُ: الظُّلمُ، فانطبقَ البحرُ عليهم، وأخذهم اللهُ أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، فإذا هذا الفرعونُ الجبارُ الغاشمُ، قد تحوَّل إلى مخلوقٍ ضعيف، تطيحُ به الأمواجُ، وتغرقُهُ المياه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ لقد آمن فرعون عندما نزلَ به العذابُ، وحلَّ به الموتُ، آمن بالإله الذي كان يقرُّ به بقلبِهِ، ويأبى لسانُه أن يقرَّ به، آمن بإلهِ بني إسرائيل وقد خرجَ وراءَهم بجيشِهِ ليدمِّرَهم، ويهلكهم، وأعلن أنَّه من المسلمين.

والإيمانُ لا ينفع إذا نزلَ العذابُ، ولذلك قال اللهُ تعالى لذلك الفرعونِ الطاغيةِ الذي أحاط به العذابُ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس:٩١]. الآن يا فرعونُ تؤمن وقد نزلَ بك عذابي وغضبي، وكنتَ عاصياً مِنْ قبل، وكنتَ من المفسدين ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر:٨٥].

وعن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ لما أغرق فرعون قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠]، فقال جبريل: «يا محمدُ، فلَوْ رأَيتني، وأنا آخُذُ من حالِ البحْرِ فأدُسُّهُ في فِيْهِ مَخافةَ أن تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ» [رواه الترمذي: (٣١٠٧) وقال: هذا حديث حسن، وهو حديث صحيح بما بعده عند الترمذي، وقال الترمذي بعد الحديث (٣١٠٨) هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، والصواب أنه صحيح موقوفاً على ابن عباس. انظر مسند الإمام أحمد (٢٢٠٣)].

٤- أنجى اللهُ تعالى فرعونَ ببدنِهِ ليكونَ لمنْ خلفه آية:

أعْلَمَ ربُّ العزةِ فرعونَ وهو في سكراتِ الموتِ في الغرقِ أنه يُنْجيْهُ ببدنِهِ ليكون آيةً لمن خلْفَهُ ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩٢]. أخبر اللهُ تعالى فرعونَ أنهُ يَنَجِّيهِ بعد غرقه ليكونَ لمن خلفه آيةً، فقد كان فرعونُ قد ادَّعى الربوبية، ونَصَّب نفسه إلهاً معبوداً فقذفَ به البحرُ عند أرجلِ بني إسرائيل، ليوقنوا أنه عبد مربوبٌ مخلوقٌ ضعيفٌ، فكان آيةً لبني إسرائيل، وقد يكون الأمر أوسعُ من ذلك، حيث تتداولُ قصةُ هلاكِهِ عبر القرونِ لمن يأْتِي بعده مِنَ الأمم، وقد يرادُ بالأمر أوسع من ذلك، فقد اكتشفت جُثَّة فرعون موسى المحنطةُ، ووضعتْ في المتحف في مصر، يشاهدُها من يريد أنْ يراها، وقد كنتُ ممن شاهَدَها في المتحفِ الذي تحفظُ فيها الجثثُ المحنطةُ في القاهرةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ومن ذلك كثير مِنَ الذين يشاهدون بَدَنَ هذا الفرعون، لا يذكرون ما في عرضه هذه الأيامُ من الآياتِ البيناتِ، ويمرُّون من أمامِ جثته غافلين عما فيه من العبرِ والدلائلِ الواضحاتِ.

٥- بَوَّأَ اللهُ تعالى بني إسرائيل مُبَوَّأَ صدق:

قال ربُّ العزة سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [يونس:٩٣]. يريدُ اللهُ تعالى بقوله: ﴿بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أنزلناهم منزلَ صِدْقٍ، وهذا وقعَ لبني إسرائيل كثيراً بعد هلاكِ فرعونَ، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقال: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء:٥٧-٥٩].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ بني إسرائيلَ كانوا جميعاً يؤمنون بمحمدٍ ﷺ، ويخبرون الناسَ بصفاتِهِ، ويدَّعون أنَّهم سيؤمنون به عندما يُبْعَثُ، واستقرَّت قبائلُ منهم في الجزيرةِ العربيةِ، وفي مدينةِ يثرب بالذاتِ التي ستكون مهاجرَ ذلك النبيِّ، حتى إذا بُعِثَ رسولُنا ﷺ وعلموا أنَّه مِنَ العربِ اختلفوا، فآمن به قليلٌ منهم، وكفرَ به أكثرُهُمْ، وقد أخْبَرَ ربُّ العزةِ -سبحانه- أنَّه يقضي بينهم يومَ القيامةِ ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ .

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ فرعونَ ضَيَّقَ على بني إسرائيلَ فهدمَ كنائِسهم، وحَجَر عليهم في عبادتهم، فأذن اللهُ لهم أنْ يصلوا في بيوتهم.

٢- دعا موسى ﷺ الله أن يطمسَ على أموال بني إسرائيلَ، وأن يشدُدَ على قلوبهم حتى يروا العذابَ الأليم، فاستجابَ اللهُ دعاءَه.

٣- كان موسى يدعو، وهارونُ يؤمِّن على دعائه، فكان شريكاً له في الدعاءِ، ولذلك قال الله تعالى لهما: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وهذا يدلُّ على أن المأمومين شركاءُ في قراءَةِ الفاتحةِ للإمام، لأنهم أمَّنوا على قراءَته، ولا يحتاجون إلى قراءةِ الفاتحةِ خلفه.

٤- شقَّ اللهُ تعالى لبني إسرائيل البحرَ، فاجتازوه، ونَجَوْا، وسلكه فرعونُ بجنده، فانطبق عليهم، ولما أدْرك فرعونَ الغرقُ آمن، ولكنَّ إيمانَهُ لم يقبل، فالإيمانُ لا يقبل بعد حلولِ العذابِ.

٥- كان بنو إسرائيل قبل بعثةِ رسولنا ﷺ يبشِّرون ببعثته، ويذيعونَ صفاتِهِ التي أنزلها اللهُ تعالى في كتبهم، فلما بُعِثَ من غيرهم كفروا به، وحرَّفوا ما في كتبهم مِنْ صفاتِهِ وكتموها ظلماً وعُلُوّاً

النص القرآني الثاني عشر من سورة يونس
الإيمانُ لا يكونُ إلا بإذنِ الله ومشيئته

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَنا ﷺ أنه إذا كان شاكّاً فيما أنزل اللهُ إليه أن يسأل مُؤْمني أهلِ الكتابِ عما حَوَتْه كتبهم مِنْ صفاتِهِ، ولم يكن الرسولُ ﷺ شاكّاً، ولم يسْأل، وقد قرَّر له ربُّ العزةِ سبحانه أنَّه جاءَه الحقُّ من ربِّه، ونهاه أنْ يكون من المرتابين الشاكين.

وأعلمنا ربُّنا -سبحانه أنَّ الذين حَكَمَ بكفرهم لا يؤمنون حتى يُنْزِلَ بهم العذابَ الأليمَ، ولا ينفعهم الإيمانُ في ذلك الوقت.

وأخبرنا ربَّنا -تبارك وتعالى- أنَّه لم ينفعْ قريةً إيمانُها بعد أن كادَ أن ينزلَ بها العذابَ إلا قريةَ يونس بن متَّى، لما آمنوا رفعَ العذابَ عنهم.

وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنه لو يشاءُ لآمن كلُّ مَنْ في الأرض جميعاً، ولذلك فسنته في خلقه أنْ يكون بعضُهم مؤمناً، وآخرُ كافراً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يونس: ٩٤-١٠٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ رسوله ﷺ إذا كان في شكٍّ مما أوحاه إليه أن يسأل علماء أهل الكتاب:

أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنه إنْ كان في شكٍّ مما أوحى إليه أنْ يسأل مُؤْمني أهلِ الكتابِ من قبله الذين يقرؤُون التوراةَ والإنجيلَ ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس:٩٤] ولم يكن رسولُنا ﷺ يَشُكُّ في الذي أَنْزَلَ الله تعالى إليه، ولَمْ يسأل الذين كانوا يقرؤونَ التوراةَ والإنجيلَ من قبله، ولعل الصواب أنَّ الخطابَ في الآيةِ للرسولِ ﷺ والمرادُ غيرُه من أمته، والعربُ قد يخاطبون الرجلَ بالشيءِ، ويريدونَ غيره، على حدِّ قولهم: إيَّاكَ أعني واسمعي يا جارَة، قال ابنُ عباس في هذه الآية: «لم يُرِد النبيَّ لأنَّه لم يشكَّ في الله، ولا فيما أوحى إليه، ولكن يريد به مَنْ صَدَّقه، أمرهم أنْ يسألوا لئلا ينافقوا كما شكَّ المنافقون» [تفسير الواحدي:١١/ ٣١٥].

وقوله: ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي: المؤمنين منهم، فإنَّ الكفارَ منهم يكتمونَ الحقَّ، ويحرفونَهُ، وقد سبق بيان أنَّ أهْلَ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنصارى كانوا يذيعون ما عندهم من نعوتِ رسولِنا ﷺ ، ويزعمون أنَّهم سَيُؤْمنون بِه، ويتبعونه عندما يُبعثُ، فلما بُعِثَ مِنَ العرب كفروا به، وكتموا وحرَّفوا ما عندهم من نعتِهِ في كتبهم.

وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ لقد جاءَك الحقُّ الذي لا كذبَ فيه، ولا مراءَ، وهو مِنْ عند الله، فهو نبيٌّ مرسلٌ، والقرآنُ منزلٌ عليه من عندِ الله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ أي: فلا تكونن مِنَ الشاكين.

ونهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يكون مِنَ الذين كذَّبوا بآياتِ الله، فيكونَ مِنَ الخاسرين ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يونس:٩٥] وقرَّر سبحانه أنَّ الذين حَقَّت عليهم كلماتُ الله لا يؤمنون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [يونس:٩٦] ومعنى حَقَّتْ: وجبتْ عليهم كلمةُ العذاب، والخلودُ في النار، فهؤلاءِ لا يؤمنون، ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس:٩٧] أي: مهما جاءَتهم الآياتُ لا يؤمنون، حتى يَنْزِلَ العذابُ بهم، وعند ذلك لا ينفع نفسٌ إيمانها، وذلك كما وقعَ مع فرعون، فقد آمن عندما نزلَ به الغرقُ، فلم ينفعْه إيمانُهُ.

٢- لم توجدْ قريةٌ آمنت قبلَ حلولِ العذاب بها فنفعها إيمانها ممن سلف من القرى إلا قوم يونس:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس:٩٨].

والمعنى: فما كانت قريةٌ آمنَت عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها إلا قومَ يونس، كفروا، فأنذرهم نبيُّهُم أنَّ العذاب سينزل بهم، وخرجَ من بين أظهرهم، فعاينوا بوادرَ العذابِ، فتابوا

إلى الله تعالى توبةً صادقةً، وآمنو وجأروا إلى ربِّ العزَّة، فكشف ربُّك عنهم عذابَ الخزي في الحياة الدنيا، ومتَّعَهم إلى حين، أي: أخَّر في آجالهم.

ويونسُ عليه السلام أرسلَهُ اللهُ -تعالى- إلى أهل مدينة نينوى، وهي اليومَ مدينةُ الموصلِ التي في شمالِ العراق، وكانوا مائة ألف أو يزيدون.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية [٣/ ٥١٤]: «قال قتادةُ في تفسير هذه الآية: لم ينفَعْ قريةً كَفَرت ثم آمنَت حينَ حَضَرها العذابُ فتُرِكَت إلا قومُ يونُسَ، لما فَقَدوا نبيهم وظَنُّوا أنَّ العذابَ قد دنا منهم قذفَ الله في قلوبهم التوبةَ، ولبسوا المُسُوح، وفَرقوا بين كلِّ بَهيمةٍ وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله أربعينَ ليلة، فلما عَرَف الله منهم الصِّدق من قلوبهم، والتوبةَ والندامة على ما مضى منهم كَشَف الله عنهم العذابَ بعد أن تدلى عليهم، قال قتادة: وذُكِر أن قومَ يونُسَ كانوا بنِينَوَى أرضِ الموصِلِ، وكذا رُوِي عن ابن مسعود، ومجاهِدٍ، وسعيد ابن جُبير، وغير واحد من السَّلَفِ».

٣- لو شاءَ اللهُ تعالى لآمنَ من في الأرض جميعاً:

كان رسولُ الله ﷺ يحبُّ أنْ يؤمن الناسُ كُلُّهم، فأعلمه اللهُ تعالى عن سنتِهِ في خلقه في إيمان العباد ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس:٩٩].

قالَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ لو شاءَ ربُّك لآمن كلُّ الناسِ الذين في الأرضِ، فاللهُ قادرٌ على ذلك، ولا يُعْجِزُه ذلك، ولكنَّ اللهَ شاءَ أنْ يؤمنَ بعضُ الناسِ، ويكفرَ آخرون، وسأل رسولَه قائلاً: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: أنت لا تستطيعُ أنْ تكره الناسَ على الإيمانِ، فليس ذلك في قدرتك، وهذا لله تعالى وَحْدَهُ.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس:١٠٠] فدخول العبدِ في حوزةِ الإيمان لا يكون إلا بإذن الله تعالى، والرجسُ الذي يجعله اللهُ على الذين لا يعقلون العذابُ، وفسَّره ابنُ عباسٍ بالسَّخَطِ، لأنَّه سببُ العذابِ [تفسير الواحدي: ١١/ ٣٢٥] وفسَّره بعضهم بالنجس والقذر، ومعنى ﴿لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه وما يدعوهم إليه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كُتُب اليهودِ والنصارى وهي التوراةُ والزبورُ والإنجيلُ تحوي الكثيرَ مِنَ البشائر برسولِنا ﷺ ، ولكنهم يكتمونها ويحرِّفونَها ظلماً وعلواً، ولكنَّ المؤمنين من أهل الكتابِ يُقِرُّون ويعترفون بها.

٢- الذين كتب اللهُ عليهم الكفرَ لا يؤمنون مهما جاءَتهم الآياتُ إلا بعد أنْ ينزلَ بهم العذابُ، وعند ذلك لا ينفعُ الإيمانُ.

٣- أعْلَمَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه لم ينفعْ قريةً أو مدينةً إيمانُها بعد أنْ كاد أنْ يحلَّ بها العذاب إلا قوم يونس، فإنَّ نبيهم يونس أخبرهُمْ أنَّ العذابَ سيحلُّ بهم بعد أيام معدودةٍ، وخرج من بينهم، فأفاقوا من غفلتهم، وآمنوا، واستغاثوا بالله، وجأَروا إليه، فكشفَ العذابَ عنهم.

٤- اللهُ -تعالى- قادرٌ على أن يجعل الناس جميعاً يؤمنون، ولكنَّ اللهَ لم يشأْ ذلك، ولا يستطيع أحَدٌ غيرُ الله أن يجعل الناسَ كلَّهم مؤمنين.

النص القرآني الثالث عشر من سورة يونس
أمَرَ اللهُ تعالى الناس بالنظر في الآياتِ المبثوتة في السماواتِ والأرض

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَه أن ينظروا إلى الآياتِ المبثوثةِ في السمواتِ والأرض، وأخبر أنَّ الآياتِ والنذرَ لا تغني عن قومٍ لا يؤمنون، وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن مكذبي هذه الأمة وكفارَها لا ينتظرون إلا أنْ يَحِلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بالمكذبين من قبلهم، وأمَرَ رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للشاكين المرتابينَ: إنهم إن كانوا في شكٍّ من دينه، فإنه لا يعبدُ الآلهة التي يعبدونها من دون الله، ولكن يعبدُ اللهَ وَحْدَهُ الذي يتوفى عبادَهُ، ونهاه أنْ يعبدَ الآلهةَ الباطِلةَ التي لا تضرُّ، ولا تنفعُ. وأعلم اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّه إنْ يَمْسَسْه بضرٍّ فلا كاشفَ له إلا هو، وإن يردْهُ بخيرٍ فلا رادَّ لفضلِهِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس:١٠١-١٠٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ تعالى بالنظرِ في السمواتِ والأرضِ:

أمرنا اللهُ تعالى بالنظر في الآياتِ المبثوثةِ في السمواتِ والأرض ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [يونس:١٠١] ففي السمواتِ المجراتُ العظيمةُ الهائلةُ، وفيها الشمسُ والقمرُ، والكواكبُ

السيارةُ والثابتة، وينزِّل اللهُ تعالى الماءَ مِنَ السماءِ، فينبت به الزرعَ، ويُخرج أفانين الثمار والزروع والأزاهيرِ وصنوفَ النباتِ، وفي الأرضِ الإنسانُ والحيوانُ والسهولُ والجبالُ والأنهارُ والبحارُ والعيون، ولكنَّ هذه الآياتُ التي تدلُّ بذاتها على موجِدها ومبدعها لا تنفعُ الكفارَ، فإنهم يمرُّون عليها وهم عنها غافلون ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١].

وإذا أنت نظرتَ اليومَ في عالمِ البشرِ ترى أكثرهم لا تغني عنهم هذه الآيات شيئاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

٢- تهديدُ اللهِ المكذبين من هذه الأمةِ أنْ يحل بهم ما أحلَّهُ بالمكذبين مِنْ قبلهم:

تَوعَّدَ اللهُ تعالى أنْ يُحِلَّ بالمكذبين من هذه الأمة مثلَ ما أحلَّه بالمكذبين من قبلهم، فقال: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس:١٠٢] أي: فهلْ ينتظرُ هؤلاءِ المكذبون بك إلاَّ مثلَ أيامِ المكذبين مِنَ الأممِ الخاليةِ، قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وغيرِهم، قل يا محمدُ لهؤلاءِ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ أنْ يحلَّ بكم مثلُ العذابِ الذي حلَّ بهم ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: إني مِنَ المنتظرين هلاكَكُمْ وبَوارَكُمْ بالعقوبةِ التي تحلُّ بكم مِنَ الله. ثم أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى أنه بعد أنْ يُهلِكَ المكذبينَ ينجي رسولَه والمؤمنين ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس:١٠٣] أي: كما فعلنا بالماضين من رسلنا فأنجيناهم والمؤمنين معهم، كذلك نفعلُ بكَ يا محمدُ وبالمؤمنين فننجيك، وننجي المؤمنين بك حقّاً علينا من غيرِ شكٍّ.

٣- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ بعبادةِ اللهِ وَحْدَهُ:

أمرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ أن ينادي الناسَ جميعاً فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس:١٠٤] أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ أنْ ينادي الناسَ، ويقولُ لهم: ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ ودينُهُ هو الإسلام القائمُ على عبادةِ الملكِ الديانِ ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهي الآلهةُ التي يعبدها البشرُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ وغيرِها، ﴿وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي: الذي يميتكم، ويقبضُ أرواحكم، وهذا يتضمنُ تهديدَهُمْ، لأنَّ ميعادَ عذابهم الوفاةُ، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ يتضمن النهيَ لهم عن الشكِّ في دينهِ،لأنّه يعبدُ

الواحدَ الأحدَ الفردَ الصمد الذي يميتُ وينفعُ ويضرُّ، وعبادةُ مَنْ يفعلُ هذا حقٌّ، والذي ينبغي أنْ يُشَكَّ فيه، وينكرَ عليه، ما يعبدونه مِنَ الأصنامِ والأوثانِ والمخلوقاتِ.

وقد أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقيمَ وَجْهَهُ لله حنيفاً، ونهاه أنْ يكون مِنَ المشركين، ونهاهُ أنْ يدعوَ من دون الله تعالى ما لا ينفعُهُ ولا يضرُّه مِنَ الآلهةِ الباطلةِ، وأعلمه أنَّه إن فعل فإنَّه مِنَ الظالمين ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يونس:١٠٥-١٠٦].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقيم نفسَه على دينِ الإسلامِ حنيفاً، أي: مائلاً عن الشركِ والمبادئِ المنحرفةِ كاليهوديةِ والنصرانيةِ والبوذيةِ والشيوعية وغيرها. ونهاه أنْ يكونَ مِنَ المشركين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾، ونهاه ربُّه تبارك وتعالى أنْ يدعو شيئاً مِنَ الآلهة التي لا تنفعُه في الدنيا ولا في الآخرةِ يعني بذلك المعبوداتِ مِنْ دون الله، فإنْ فعلتَ ذلك فدَعَوْتَها مِنْ دون الله فإن هذا يجعلك مِنَ الظالمين، أي المشركين.

٤- أعْلَمَ اللهُ تعالى رسولَه أنه إنْ أصابَهُ بضرٍّ فلا كاشف له إلا هو:

أعْلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه وَحْدَه كاشفُ الضرِّ ومعطي الخير ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧].

يقولُ اللهُ -تعالى- لرسولِهِ ﷺ وإنْ يصبك الله يا محمدُ بشدةٍ وبلاءٍ فلا كاشف لَهُ غيره، أما ما يعبدُ من الآلهة غيره، فلا تضرُّ ولا تنفع ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ أي: إن يردْك برخاءٍ أو نعمةٍ وعافيةٍ وسرورٍ ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ فلا يستطيعُ أحدٌ أنْ يَرُدَّ ذلك الفضلَ الذي أصابَكَ به مِنَ الرخاءِ والنعمةِ والعافيةِ فاللهُ تعالى ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يصيبُ بالسراء والضراء من يشاءُ من عبادِه، وهو الغفورُ الرحيمُ.

٥- اللهُ تعالى أنزلَ الحقَّ لعبادِه فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلَّ فعليها:

قال ربُّ العزةِ مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس:١٠٨]، أي: نادِ يا محمدُ في الناس وقلْ لهم: ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: من عندِ الله تعالى وهو

القرآنُ الكريمُ، الذي بيّن تعالى فيه للناسِ كلَّ ما يحتاجون إليه، فمن اهتدى به فقد اهتدى لنفسه، ومن ضَلَّ فإنما ضلالُه على نفسِهِ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾ أي: وما أنا بمسلَّطٍ على تقويمكم، إنَّما أمركم إلى الله، وما أن إلا رسول أبلغكم ما أرسلتُ به إليكم.

وختمَ ربُّ العزة هذه السورةَ الكريمةَ بقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ [يونس:١٠٩] أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ في هذه الآية أنْ يتَّبعَ ما يوحيهِ وينزلُه إليه، وأمَرَه أن يصبرَ على مخالفةِ مَنْ خالفه مِنَ الناسِ حتى يحكمَ اللهُ بينه وبينهم، وهو خيرُ الفاتحينَ بعدلِهِ وحكمته سبحانه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أمَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنْ ننظُرَ إلى الآياتِ المبثوثةِ في السمواتِ والأرضِ، وأعلمنا -سبحانه- أنَّ هذه الآياتِ لا ينتفعُ بها القومُ الكافرون.

٢- أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن المكذبين من هذه الأمة ينتظرون يوماً مثل أيامِ الذين كذَّبوا من الأمم الماضية، وأمَرَهُ أنْ يقول لهم ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ [يونس:١٠٢]. وأعلمنا أنه في اليوم الذي ينزل فيه العذابَ بالكافرين، فإنه يُنجِي رسولَه ﷺ والمؤمنين معه.

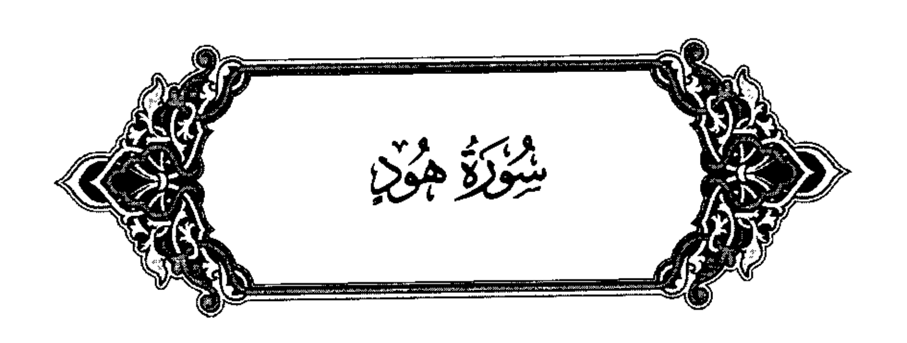
٣- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يُعْلِمَ الناسَ جميعاً إذا كانوا في ريبٍ من دينه فإنه لا يعبد الآلهة التي يعبدونها من دون الله، ولكن يعبدُ الله وَحْدَهُ الذي يتوفاهم، ويعلمهم أنه أُمِرَ أنْ يكونَ من المؤمنين.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ بالتوحيدِ، وأنْ لا يَدْعُوَ من دون الله ما لا ينفعُهُ، ولا يضرُّه، وكلُّ ما يعبدُ مِنَ دون الله، لا ينفعُ، ولا يضرُّ.

٥- اللهُ تعالى وحْدَه النافعُ الضارُّ، فإنَّه إذا مَسَّنا بضرٍّ فلا يكشفُ هذا الضرَّ أحدٌ سواه، وإنْ يُرِدْنا بخير، فلا يستطيعُ أحدٌ ردَّ خيرِهِ.

٦- الحقُّ من عند الله وحدَه، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسِهِ، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها.

٧- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يتَّبعَ ما أوحاه اللهُ تعالى إليه، وأنْ يصبرَ حتى يحكمَ اللهُ بينه وبينهم.



قال ابن الجوزي: «روى ابن أبي طَلْحة عن ابن عباسٍ أنها مكيّةٌ كلُّها، وبه قال الحسنُ، وعكرمةُ، ومجاهدُ، وجابرُ بن زيدٍ، وقتادةُ، وروي عن ابنِ عباسٍ أنه قال: هي مكية إلا آية» وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ... ﴾ [هود:١١٤] [زاد المسير: ٤/ ٧٢].

وقال أبو عمرو الداني: «مكيةٌ، وكَلِمُها ألفٌ وتسعُ مائةٍ وخمسَ عشرةَ كلمةً، وحروفها سبعةُ آلافٍ وخمسُ مائةٍ وسبعةٌ وستون حرفاً، كحروفِ يونس، وهي مائةٌ وإحدى وعشرون آيةً في المدنيِّ الأخير والمكيِّ والبصريِّ، واثنتان وعشرون في المدني الأول والشامي، وثلاثٌ وعشرون في الكوفيِّ» [البيان في عدِّ آي القرآن: ص١٦٥].

وروى الترمذيُّ عن ابن عباسٍ قال: قال أبو بكر ﷺ: يا رسولَ الله قد شبتَ، قال: «شيَّبَتْني هودٌ والواقعةُ والمُرْسلاتُ وعمَّ يتساءَلون، وإذا الشَّمْسُ كُوِّرتْ» [الترمذي: ٣٢٩٧. وأورده الألبانيُّ في صحيح الترمذي (٢٦٢٧) وقال: صحيحٌ وذكرَ أنه خرَّجه في سلسلةِ الصحيحةِ (٩٥٥)].

النص القرآني الأول من سورة هود

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النص فاتحةُ سورةِ هودٍ، التي افتتحها ربُّ العزة بالحروف المقطعةِ، وهي الحروفُ العربيةُ التي تكوَّنتْ كلماتُ القرآنِ منها، وقد أتْبَع اللهُ تعالى هذه الحروفَ بالثناءِ على القرآنِ العظيمِ، الذي أحْكَمَ اللهُ تعالى فيه آياتِهِ، ثم فصَّلها، وهو منزلٌ من عندِهِ سبحانه، وهو الحكيمُ الخبيرُ.

وقد أمرَ رسولُ الله ﷺ عبادَ الله أنْ يعبدوهُ وَحْدَهُ لا شريك له، وأخبرهم أنه لهم بشيرٌ ونذيرٌ، وأمرهم بالاستغفارِ والتوبةِ إلى الله، فإنْ فعلوا متَّعهم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمًّى، وأخبرهم أنَّ إلى الله مرجعهم، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، وأعلمنا ربُّنا أنَّ الكفارَ يَطْوون صدورَهُمْ على عداوةِ نبينا محمدٍ ﷺ ليستخفوا من الله تعالى، ولكنَّ فعلهم عَبَثٌ، لأنه سبحانه يعلم ما يُسِرُّون وما يعلنون، وأعلمنا ربُّنا أنه يرزق كلَّ الدوابِّ التي في الأرض، وهو يعلم مستقرَّها ومستودَعَها في النهارِ والليل، وأعلمنا ربُّنا أنه خلقَ السمواتِ والأرض في ستةِ أيامٍ، وقبل خلقه السمواتِ والأرضِ كان عرشه على الماءِ، وخلق اللهُ البشرَ في الأرضِ ليختبرهم بعبادَتِهِ، ليظهرَ مَنْ هو الذي أحسنُ عملاً، وعندما يخبر الرسولُ ﷺ كفارَ قريشٍ بأنهم مبعوثون من بعد الموتِ، يزعمون أنَّ هذا الذي جاءَهم بِهِ سحرٌ مبينٌ، أي: باطل من القولِ.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [هود: ١-٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ثناءُ الله تعالى على القرآن بأنه كتابٌ أُحكمتْ آياتهُ ثم فصلت من لدن حكيم خبير:

افتتح اللهُ تعالى هذه السورةَ الكريمةَ بالحروفِ المقطعة، وقد سبقَ الكلام على هذه الحروفِ في فاتحةِ سورة البقرة وفي غيرها من السورِ التي افتتحت بها، ثم أثنى اللهُ تعالى على الكتابِ الذي أنزله وهو القرآن، فقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود:١]. وقد نكَّر اللهُ لفظ الكتابِ الذي أنزله فقال: ﴿كِتَٰبٌ﴾ والتنكيرُ هنا للتعظيم، أي: هذا كتابٌ عظيم، ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: آياتُهُ محكمةٌ في لَفْظِها، أي: أُحكمت آياتُه بعجيبِ النظم، وبديع المعاني، ورَصينِ اللفظِ الذي يحسم طمعَ كلِّ مفترٍ في التشبيه بهِ، وآياتُ القرآنِ كلُّها معجزةٌ غير مقدورٍ على مثلها، لبديعِ نظمها، وقوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ أي: بدلائلِ التوحيد، والوعدِ والوعيدِ، والثوابِ والعقابِ.

وقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود:١] عيَّن مصدرَ هذا القرآنِ الكريم، فهو مِنْ عندِ الله تعالى الحكيم في أقوالِهِ وأفعالِهِ، والخبيرُ: العالمُ بعواقبِ الأمورِ سبحانه. وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ [هود:٢] قال الزجاجُ: أُحكمت ثم فُصِّلت، لئلا تعبدوا إلا الله [فتح القدير: ٢/ ٦٧١] ثم أخبرهم رسولُ الله بأنه نذيرٌ وبشيرٌ، فقال: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ٢﴾ [هود:٢] أي: ينذرُهم ويخوِّفهم من عذابِهِ لمن عصاه، ويبشِّرهم بالجنةِ والرضوانِ لمن أطاعه، وقوله: ﴿مِّنۡهُ﴾ أي: مِنَ الله.

٢- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَه أنْ يستغفروه ويتوبوا له:

أَمَرَ اللهُ تعالى عباده بالتوبة والاستغفارِ، فقال: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٍ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود:٣] أي: استغفروا ربَّكم مِنْ ذنوبكم السالفة، ثم توبوا مما توقعونه من الذنوب في مقبلِ الأيام، وقوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يبقيكم إلى أن يحين أجلكم، ولا يسْتَأْصِلُكُمْ بالعذاب، كما استأصل الذين من قبلكم، وقولُهُ: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٍ فَضۡلَهُۥۖ﴾ أي: ويُعْطِ كل ذي عملٍ صالحٍ أجرَهُ وثوابه، والفضلُ الدينُ والصلاحُ وكثرةُ الطاعةِ، وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾ [هود:٣] وفي هذا تهديدٌ شديدٌ للذين تَوَلَّوْا عن الإيمانِ، وكذَّبوا رسلَ الله، فإنَّ عذابَ الله تعالى ينالُهم في يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾ [هود:٤] أي: إلى الله تعالى معادُكم، وهو قادرٌ أن يفعل بكم ما يشاء في ذلك اليومِ.

٣- ثَنْيُ الكافرين صدورهم ليستخفوا مِنَ الله:

قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود:٥]. أصْلُ ﴿يَثْنُونَ﴾ من ثنيتُ الشيءَ إذا حنَيْتُهُ وعطفته وطويتهُ، أي: يعطفونها ويطوونها على عداوةِ محمدٍ ﷺ، وقوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ أي: ليستخفوا مِنَ الله، فلا يُطْلِعُ عليه رسولَهُ والمؤمنين، وقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يستخفونَ في وقت استغشاءِ الثيابِ، وهو التغطِّي بها، وقد كانوا يقولون: إذا أغلقنا أبوابَنا، واستغشينا ثيابَنا، وثنينا صدورَنا على عداوةِ محمدٍ، فمَنْ يعلمُ بنا؟ وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود:٥]. أخبرهم ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه لا فائدة مِنَ الاستخفاءِ، لأنَّ اللهَ سبحانَهُ عليمٌ يعلمُ ما يسرُّونَهُ وما يظهرونه، فالظاهرُ والباطنُ عنده سواءٌ، والسرُّ والجهرُ عنده سيان، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ أي: بالضمائر التي تشتمل عليها الصدورُ، وقيل: هي القلوب [فتح القدير: ٢/ ٦٧٢].

وقد ذهبَ ابنُ عباسٍ في تفسيرِ الآيةِ مذهباً بعيداً عمّا ذكره المفسرون، وقد مالَ ابن كثير [٣/ ٥٢٠] إلى ما ذهبَ إليه ابن عباس، وقد ساقَ البخاريُّ ما ذهبَ إليه ابن عباسٍ في ثلاثةِ أحاديثَ متوالياتٍ هي:

عن محمدُ بنِ عبَّادِ بنِ جعفرٍ: أنه سَمِعَ ابنَ عباسٍ يقرأُ: «ألا إنَّهم تَثْنَوْني صُدورُهُم»، قال: سألتُه عنها، فقال: أُناسٌ كانوا يَستَحْيونَ أنْ يتَخلَّوْا فيُفْضوا إلى السّماءِ، وأنْ يُجامِعوا نِساءَهم فيُفْضوا إلى السَّماءِ، فنزَلَ ذلكَ فيهم. وهذه القراءَة «تَثْنَوْني» قراءةٌ شاذةٌ، وقراءَةُ الجمهور (يَثْنُونَ).

وعن محمدِ بنِ عبَّادِ بنِ جعفرٍ: أنَّ ابنَ عبَّاسٍ قرأ: «ألاَ إنَّهم تَثْنَوْني صُدورُهُمْ» قلتُ: يا أبا العباس، ما تَثْنَوْني صُدورُهُمْ؟ قال: كان الرَّجلُ يُجامِعُ امرأتَه فيَستَحي، أو يَتَخلَّى فيَستَحي، فنزلَت: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ [هود:٥].

وقال البخاري: حدَّثنا الحُمَيديُّ، حدَّثنا سفيانُ، حدَّثنا عمرٌو، قال: قرأ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ [هود:٥] [هذه الأحاديثُ الثلاثةُ رواها البخاريُّ تحت رقم: ٤٦٨١، ٤٦٨٢، ٤٦٨٣].

وهذه النصوصُ الواردةُ عن ابن عباس تدلُّ على أنَّ هذه الآيةَ نزلت في الصحابة الذين كانوا يكْرَهون أنْ يستقبلوا بفروجهم السماءَ عند تَخَلِّيهم، وحالَ معاشَرتِهم أزواجَهُمْ، والأوَّل أصحُّ، والله أعلم.

٤- ليس في الأرض دابة إلا على الله رزقها:

أعْلمنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنه ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود:٦]. والدابة كلُّ حيوان يدبُّ على الأرض، فيدخلُ فيه الإنسانُ والحيوانُ والطيورُ، وحقيقة الرزقِ: ما يتغذَّى به الحيوانُ الحيُّ، ويكون فيه بقاءُ روحه، ونماءُ جسده.

وقد أعلمنا ربُّنا عز وجل في هذه الآية أنه متكفلٌ بأرزاقِ المخلوقات التي تدبُّ على الأرضِ، صغيرها وكبيرها، بحرِيِّها وبرِّيها، ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ﴾ أي: يعلم مَسارَها في النهارِ، ومأْواها في الليل، وقوله: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود:٦]، فاللهُ -تعالى- يعلمُ ذلك، وقد كتبه في كتابٍ مبين، أي: في اللوحِ المحفوظِ.

٥- اللهُ تعالى خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ وكان عرشُه على الماءِ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ﴾ [هود:٧].

هذا العلمُ الذي حوتْه هذه الآية من العلمِ الذي لا يعلمه البشرُ إلا من قِبَل الوَحْي الإلهيِّ الربانيِّ، وقد أعلمنا ربُّنا في هذه الآية أنه خلق السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيام، واللهُ أعلم بمقدار تلكَ الأيامِ، وأخبرنا ربنا عزَّ وجلَّ أن عرشَه كان على الماءِ، فالعرشُ الذي استوى عليه كان مخلوقاً قبل السمواتِ والأرض، وكان هذا العرشُ على الماءِ، فالماءُ كان موجوداً قبل السمواتِ والأرضِ وقد جاءتَ عِدَّةُ أحاديثَ تدلُّ على ما دلَّت عليه الآيةُ، وفيها مزيدٌ من التفصيلِ، فمن ذلك ما رواه البخاري عن عمران بن حصينٍ ﷺ، قال: قال: دَخَلْتُ على النبيِّ ﷺ وعَقَلْتُ ناقَتي بالباب، فأتاه ناسٌ من بني تَميم، فقال: «اقبَلُوا البُشْرَى يا بني تَميم». قالوا: قد بَشَّرْتَنا فأعطِنا -مرتينِ- ثم دَخَلَ عليه ناسٌ من أهلِ اليَمَنِ، فقال: «اقبَلُوا البُشْرَى يا أهلَ اليَمَنِ إذْ لم يَقبَلْها بَنُو تَميمٍ». قالوا: قد قَبِلْنا يا رسولَ الله، قالوا: جئناكَ نَسْأَلُكَ عن هذا الأمرِ، قال: «كان اللهُ ولم يَكُنْ شيءٌ غيرُه، وكان عَرْشُه على الماءِ، وكَتَبَ في الذِّكْرِ كلَّ

شيءٍ، وخَلَقَ السماواتِ والأرضَ». فنادَى مُنادٍ: ذهبَتْ ناقَتُكَ يا ابنَ الحُصَينِ. فانطلقْتُ فإذا هي يَقْطَعُ دونَها السَّرابُ، فوالله لَوَدِدْتُ أني كنتُ تَرَكْتُها [البخاري: ٣١٩١].

وعن عبدالله بن عمْرِو بنِ العاص، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السمواتِ والأرْض بخَمْسينَ ألْفَ سَنَةٍ» قال: «وعرْشُهُ على الماءِ» [مسلم: ٢٦٥٣].

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: ليختبركم أيُّكم أحسنُ عملاً ولم يقل: أيكم أكثر عملاً، ولا يكون العملُ حسناً حتى يكونَ خالصاً لله عزَّ وجلَّ على شريعةِ رسول الله ﷺ، فمتى فَقَد العملُ واحدةً من هذين الشرطين بَطُلَ وحَبِطَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [هود:٧]. قال اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ: ولئن قلت لمشركي قومك الذين يكذبون بالبعثِ والنشورِ: إنَّكم مبعوثون من بعد موتكم، ليقولَنَّ الذين كفروا: إنْ هذا إلا سحرٌ مبين، والسحرُ باطلٌ عندهم، فوَصْفُ هذا القولِ بأنه سِحْر، وصفاً له بأنه باطلٌ مِنَ القولِ.

وقد كان الكفار من قريشٍ يُقِرُّون بأنَّ اللهَ تعالى هو وَحْدَه خالقُ السمواتِ والأرضِ وهو الذي سَخَّر الشمسَ والقمرَ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦١]. وفي هذا رَدٌّ عليهم في تكذيبهم بالبعثِ والنشور، لأنَ خلق السمواتِ والأرض أعظمُ من خَلْقِ الناس ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف:٣٣].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- القرآنُ كتابٌ عظيم، أَحْكَمَ اللهُ تعالى آياتِهِ، ثم فصَّلها، وهو منزلٌ من عند الله الحكيمِ الخبيرِ.

٢- أمَرَ رسولُ الله تعالى عبادَ الله أنْ يعبدوا اللهَ وَحْدَهُ، وأعلمهم بأنه مرسلٌ إليهم لينذرَهُم عذابَ الله، ويبشِّرَهُم برحمتِهِ.

٣- أمر رسولُ الله العبادَ أنْ يستغفروا اللهَ عن ذنوبهم التي ارتكبوها، ويعزموا على التوبةِ عن الذنوبِ التي قد يقارفونها، فإن فعلوا مَتَّعهم في الدنيا متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمًّى، وإن تولَّوْا فإنَّه يخافُ عليهم أنْ يَقَعَ بهم عذابُ يومٍ كبيرٍ يومِ القيامة.

٤- كان كفارُ قريش يطْوُونَ صدورهم على الكفرِ وعداوةِ الرسولِ ﷺ، ليستخفوا مِنَ الله تعالى، ولكنَّ هذا الذي يفعلونه مِنَ الاستخفاءِ عبثٌ، لأن الله يعلمُ ما يسرُّون وما يعلنون.

٥- اللهُ تعالى تَكَفَّل بأرزاقِ المخلوقاتِ على اختلافِ أنواعها في الأرْضِ كلِّها، وهو عالمٌ بها حيث تَنتشر في النهارِ، وأين تأوي في الليلِ، وعلمه هذا مُدوَّنٌ في اللوحِ المحفوظِ.

٦- اللهُ تعالى خَلَقَ السمواتِ والأرضَ في ستة أيام، وهو أعلم بطولِ تلك الأيامِ، وقبل خَلْقِهِ السمواتِ والأرضِ كان عرشُه على الماءِ.

٧- الله خلقَ السمواتِ والأرضِ ليكونَ هذا الكونُ معبداً يعبدُ فيه اللهُ وَحْدَهُ.

٨- كفارُ قريشٍ كانوا ينكرون البعثَ والنشورَ، مع أنهم يُقِرُّون بأنَّ اللهَ وحدَه الخالقُ للسمواتِ والأرض، وخلقُ السمواتِ والأرضِ أعظمُ من خلقِ الناس.

النص القرآني الثاني من سورة هود
تسديدُ الله تعالى لرسولِهِ ﷺ، والمؤمنين في صراعِهِمْ مع المشركين

أولاً: تقديم

كان الصراعُ محتدماً بين الرسول ﷺ وبينَ الكفارِ من قومِهِ في مكَّة قبل الهجرةِ، وكان القرآنُ يَنْزِلُ مثبِّتاً الرسولَ ﷺ والمؤمنين معه، رادّاً على تقولاتِ المشركين الهوجاءِ، فردَّ عليهم استعجالهم العذابَ، وبيَّن نفسيتهم القلقةَ المريضةَ تجاهَ ما يأخذهم اللهُ تعالى به من البلاءِ بعد الرخاء، وبيَّن للرسولِ وأصحابِهِ كيف يفرح المشركون ويبطرون ولا يشكرون إذا أصابهم بالنعمةِ بعد البلاءِ، وعقَّب على ذلك بذكر حالِ المؤمنين إذا أخذهم بمثل ما أخذ به الكافرين، وواسى ربُّ العزةِ رسولَهُ ﷺ فيما يواجهه به قومُهُ، وما يقولونه له مِنَ اقتراحاتٍ متعنتين، وأمَرَه أن يبيِّن لهم حقيقةَ أمْرِهِ، فهو ليسَ إلاَّ نذيرٌ، واللهُ هو الوكيلُ على كلِّ شيء.

وتحدَّى اللهُ تعالى الكفارَ الذين يزعمون أنَّ القرآنَ مفترى مكذوبٌ أن يأتوا بمثلِ عشر سورمثلَ سورِ القرآنِ، فعجَزوا، وظهر كَذِبُهم، وظهر أنَّ القرآنَ منزلٌ مِنَ عند الله، لا يستطيعُ أحدٌ أن يأْتِيَ بمثلِهِ.

ثانياً: آيات هذا النص القرآني من سورة هود

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود:٨-١٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- استعجالُ الكفارِ عذابَ اللهِ تعالى:

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- كيف يكونُ حالُ الكفارِ إذا أخَّر اللهُ عذابَهُ عنهم فقال: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [هود:٨].

اللام في قوله: ﴿ وَلَئِنْ ﴾ موطئةٌ للقسم، يُقْسِمُ ربُّ العزة -سبحانه أنَّه إذا أخَّر عن الكفارِ عذابَهُ إلى أجلٍ وحينٍ معلوم، والأُمَّةُ: المدَّةُ مِنَ أوقاتِ الزمانِ وقوله: ﴿ مَّعْدُودَةٍ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ تلكَ المدةِ قليلة، فاللهُ تعالى قضى في سابقِ علمه لِعَذابِهِمْ وقتاً مؤقتاً وأمَّةً معدودةً.

وأخبرنا ربُّنا أنَّه إذا أخَّر عذابَه، ليقولَنَّ الكفارُ ساخرين مستهزئين: ما يحبسه؟ أي ما يحبسُ العذابَ عنَّا، قال ربُّ العزَّة مجيباً: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ألا يومَ يأتيهم العذابُ، ليس مصروفاً عنهم، ولمَّا كان هذا العذابُ الذي نَزَلَ بهم غيرَ مصروفٍ عنهم، فإنَّه محيطٌ بهم، أي: ملازمٌ لهم من كلِّ جانبٍ، وقولُهُ: ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ ﴾ أي: أحاط بهم العذابُ الذي استعجلوا بِهِ سخريةً واستهزاءً.

٢- كيف يكونُ حالُ الكافرِ عندما يصيبه اللهُ تعالى بالسراءِ والضراءِ:

بيَّن اللهُ تعالى حالَ الكافر بالرحمة ينْعِم بها عليه، ثم ينزعها منه، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ﴾ [هود:٩]. اللامُ في قوله: ﴿وَلَئِنْ﴾ موطئة للقسمِ، يُقْسِمُ ربُّ العزة -سبحانه- أنَّ الكافرَ إذا أنْزَلَ اللهُ به رحمتَهُ، فوسَّع عليه رزقَه، وكثَّر خيرَه ومالَه، ثم نزع تلك النعمةَ التي أنعم بها عليه، يئس من رحمةِ الله تعالى، فضاقتْ عليه نفسُهُ، وضاقتْ عليه الأرضُ بما رحبتْ، وقد يُؤدِّي الضيقُ الذي حلَّ به إلى أن يقتلَ نفسَهُ.

وإذا أذاقَ اللهُ تعالى الكافرَ نعماءَ بعد ضرَّاءَ فَرِحَ وبَطِرَ ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [هود:١٠]، أي: إن مَنْحناهُ الصحة وسعة الرزق بعد المرض والفقر، ليقولَنَّ: ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ ﴾ والسيئاتُ الخصالُ التي تسوءُ صاحبها، وعند ذلك يصبحَ فرحاً فخوراً، يفاخرُ المؤمنين بما وسَّع اللهُ عليه، ويصبحُ فرحاً بما في يدِهِ، بطراً فخوراً على غيره.

٣- حالُ المؤمنين إذا نزلتْ بهم الضرَّاءُ والسرَّاءُ:

استثنى اللهُ -تعالى- من السابقين الذين صبروا وعملوا الصالحات، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود:١١].

وهذا الاستثناءُ منقطعٌ، والمعنى: لكنِ الذين صبروا على ما أصابهم في الشدائدِ والمكارهِ، وعملوا الصالحاتِ في الرخاءِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ بما يصيبهم من الضراءِ، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ بما أسلفوه في زمنِ الرخاءِ، كما جاءَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:١-٣]. وجاءَ في البخاريِّ عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ما يُصيبُ المُسْلِمَ من نصبٍ ولا وَصبٍ، ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذىً ولا غَمٍّ حتى الشوكةِ يُشاكُها، إلاَّ كَفَّر اللهَ بها من خطاياه» [البخاري: ٥٦٤١. مسلم: ٢٥٧٣].

وعن صُهَيْبٍ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «عَجَباً لأمْرِ المُؤْمِن، إنَّ أمره كلَّه خير، ولَيْسَ ذلِكَ لأحدٍ إلاَّ للمُؤْمِنِ، إن أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاءُ صَبَرَ، فكانَ خيراً له» [مسلم: ٢٩٩٩].

٤- قالَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ لعلَّكَ تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليكَ لكفرِهم:

سَلَّى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ بقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود:١٢]، أي: فلعلَّكَ لعظم ما تراه مِنَ تكذيب قومِكِ وكفرهم واقتراحِهم الآياتِ التي يقترحونها عليه وِفْقَ أهوائِهم وتعنتهم تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليك مما أنزله اللهُ عليك وأمَرَكَ بتبليغه، وقوله: ﴿أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ﴾ أي: كراهةَ أن يقولوا: لولا أُنزِلَ عليه، والكنزُ المالُ المجموعُ المخزونُ، أو جاءَ معه مَلَكٌ يُصَدِّقه، ويُبيِّنُ صحةَ رسالتِهِ، وقولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ﴾ أي: إنما مهمتك مقصورةٌ على إنذارِ الناسِ عقابَ الله وعذابَهَ، وليس عليكَ حصولُ مطلوبهم وإجابةُ مقترحاتِهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ يحفظُ ما يقولونه، وهو فاعلٌ بهم ما يجبُ أنْ يُفْعَلَ.

٥- **الدليلُ على أنَّ القرآنَ حقٌّ وصِدْقٌ:**

تعنَّتَ الكفارُ في مواجهةِ الرسولِ ﷺ وزعموا أنَّ القرآنَ الذي جاء به مفترى مخلوقٌ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود:١٣].

﴿أَمْ﴾ التي في الآيةِ هي المنقطعةُ، وهي بمعنى: بَلْ والهمزة، وقد جاءَ بالاستفهام في الآيةِ لتقريع المشركين وتوبيخهم، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الضميرُ عائدٌ على الرسولِ ﷺ، ثمَّ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يجيبهم بما يُسْكتُهم، ويظهرُ كذِبَهم، وتعنتَهم وعجزَهُمْ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ أي: إن كان هذا القرآنُ كما تزعمونَ مفترى مختلَقٌ، فائْتُوا بعشرِ سورٍ مثله مفترياتٍ مختلقاتٍ، فأنتم قادرون على الإتيانِ بمثل المفترى المخلوقِ، لأنَّه صناعةٌ بشريَّةٌ، ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ أي: ائتوا بعشرِ سورٍ مماثلةٍ له في البلاغةِ وحسن النظمِ وجزالةِ اللفظ وفخامَةِ المعاني، فالمماثلة هنا في البلاغةِ البالغة حدَّ الإعجاز، وقد كانت العربُ في القِمَّةِ من الفصاحةِ والبلاغةِ، وقد كانت لهم أسواقٌ، يتفاخرون فيها فيما بينهم، ومادةُ تفاخُرِهِمْ القصيدُ والخطب.

وقوله: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: وادعوا كلَّ مَنْ تريدون مساعدتَهُ من آلهتكم وغيرها، إن كنتم صادقين في أنَّه مفترى، وقد ألقمهم هذا الطلبُ حجراً، فقد عجزوا عن الإتيانِ بمثل عشر سورٍ، وقد تحدَّاهم في مواضعَ أُخرى أن يأتوا بمثل القرآنِ كلِّه، أو بمثلِ سورةٍ واحدةٍ منه، فلم يقدروا على شيءٍ من ذلك.

وعَقَّبَ الله على ما سبق بقوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود:١٤] أي: فإن لم يفعلوا ما طلبتَهُ منهم، فاعلموا أنهم عاجزونه عن الإتيانِ بمثلِهِ، وأنَّهم كاذبون في دعواهم أنَّه مفترى مختلَقٌ، واعلموا أنَّه منزلٌ من عندِ الله بعلمٍ مِنَ الله، ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ يأتي بمثله، واعلموا أنَّ اللهَ تعالى هو المعبودُ الحقُّ الذي لا يستحقُّ العبادةَ أحَدٌ غيره ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: هل مستجيبون لله، خاضعون لأمره، داخلون في دينه الإسلامِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الكفارُ يستعجلون عذابَ الله على وجهِ السخريةِ والاستهزاءِ، وقد تهدَّدَهم ربُّ العزِّةِ -تبارك وتعالى- أنْ يأتيهم العذابُ ملازماً لهم محيطاً بهم.

٢- نفسيةُ الكافر نفسيَّة قَلِقَةٌ مضطربَةٌ، فتراه إذا أنعم اللهُ عليه بنعمةٍ ثم نزعها منه، فحلت به الشدَّةُ بعد الرخاءِ ييْأس من رحمةِ الله ويقنطُ، ولا يصبرُ على البلاءِ، وإذا أذاقه النعمةَ والرخاءَ بعد الشدَّةِ والبلاءِ، يفرحُ ويبطرُ، ويتعالى على عبادِ الله، ولا يشكرُ لله.

٣- المؤمنون الصادقون يصبرون على البلاءِ، ويشكرون ويعملون الصالحاتِ في الرخاءِ.

٤- واسى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ، وأرشده أن يصبر لما يقوله الكفارُ من التكذيب والاقتراحاتِ، وأمره أن يقول لهم: إنما أنا نذيرٌ، واللهُ على كلِّ شيءٍ وكيل.

٥- ادَّعى الكفرةُ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ مفترى، فتحدَّاهم ربُّ العزةِ إنْ كانوا صادقين أن يأْتوا بعشرِ سورٍ مثلِه مفترياتٍ، وبقيَ هذا التحدِّي قائماً إلى اليوم، يُظْهِرُ عجزَهُمْ وعجزَ الكافرين من بعدهم، وبقيَ هذا التحدي سيفاً قائماً إلى يوم الدين بيد المؤمنين.

النص القرآني الثالث من سورة هود
الفرقُ بين الكفار والمؤمنين

أولاً: تقديم

مَيَّز ربُّ العزة -تبارك وتعالى- في هذه الآياتِ بينَ الكفارِ والمؤمنين، فالكفارُ يريدون الحياةَ الدنيا وزينتَها، ويعطيهُمُ اللهُ من هذه الدنيا إن شاء، أما في الآخرة فليس لهم إلا النارُ، والمؤمنون على يقينٍ من ربِّهم، فقد أقاموا دينهم على كتابِ الله الذي جاءَ به جبريلُ من عندِ الله إلى رسول الله.

والكفارُ كَذَبوا على الله تعالى بشتَّى ألوانِ الكذبِ، وسيحاسبُهُم ربُّ العزَّةِ يوم القيامة، وعندما يُعْرَضُون على ربِّهم يقولُ الأشهادُ مِنَ الرسلِ والملائكةِ والمؤمنين: هؤلاءِ الذين كذبوا على الله، ألا لعنةُ الله على الظالمين.

وهؤلاءِ الكفرةُ يبذلون جهدَهُم ليمنعوا الناسَ عن الدخولِ في الإسلام، ويحاولون تشْويه دينَ الله، ويكفروا بالآخرةِ، وهم ليسوا بمعجزين الله في الأرض، فاللهُ قويٌّ قاهرٌ غالبٌ، وليس لهم أنصار يحمونهم مِنَ الله تعالى، وهؤلاءِ الكفارُ يَخْسَرُون أنفسَهُمْ، فكفرهم يُدخِلُهم النارَ، وهذا أعظمُ الخسرانِ، والمؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ الخاشعون لله هم أصحابُ الجنةِ خالدين فيها، وضرب اللهُ للكفارِ والمؤمنين مثلاً، فالكافر كالأعمى والأصم، والمؤمنُ كالسميع والبصير، وبين الفريقين بونٌ شاسعٌ وبُعْدٌ واسعٌ.

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة هود

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود:١٥-٢٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النصِّ من القرآن

١- الذي يريدُ بعملِهِ الدنيا يوفِّ اللهُ تعالى له عمله فيها ولا يظلمُ شيئاً:

أعلَمَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ الذين لا يريدون بعملهم إلا الدنيا وزينتها، يُوَفِّ اللهُ تعالى إليهم أعمالَهم فيها ولا يُبْخسون، أي: لا ينقصُونَ من جزائها، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥-١٦].

والآيةُ الثانية من هاتين الآيتين تدلُّ دلالةً صريحةً على أنَّ الآية في الكفار، لقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾. وقريبٌ من هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:١٨-٢٠].

وقد قال قتادةُ في قولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ : من كانت الدنيا همَّه وسَدَمَهُ وطلْبتَه ونيَّتَهُ، جازاهُ اللهُ بحسناتِهِ في الدنيا، ثم يُفْضِي إلى الآخرةِ، وليس له حسنةٌ يُعْطَى بها جزاءً، وأما المؤمنُ فيجازى بحسناتِهِ، في الدنيا، ويثابُ عليها في الآخرةِ.

٢- حالُ المؤمنين في إقامةِ دينهم على قواعدَ صحيحةٍ من كتابِ ربِّهم:

يخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن حالِ المؤمنين الذين يطلبون اللهَ والدارَ الآخرةَ الذين أقاموا منهجَهُمْ وطريقَتَهُمْ على بيِّنَةٍ من ربِّهم، فقالَ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود:١٧]. يقولُ ربُّنا -سبحانه وتعالى- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهؤلاءُ الذين على بيِّنَةٍ من ربِّهم هم الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، والبينةُ التي هم عليها الحجَّةُ والبرهانُ الذي جاءَهم من

عند الله تعالى، فأقاموا عليه أمرَهم من العقائدِ والأخلاقِ والأحكامِ، هو كتابُ الله الذي جاءَهم من عندِ الله، وهو القرآنُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: يتلوا البيِّنةَ التي هي البرهانُ الذي جاءَنا من عندِ الله شاهدٌ مِنَ الله، والشاهدُ الذي مِنَ الله تعالى هو جبريلُ ﷺ، بذلك فسَّره ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بن جبيرٍ، ومجاهدُ، وعكرمةُ وغيرهم [زاد المسير: ٤/ ٨٥]. فالشاهدُ الذي مِنَ الله تعالى هو جبريلُ ﷺ، فهو شاهدٌ لمحمد ﷺ أنَّ القرآنَ أنزلَ من عندِ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ وكتابُ موسى هو التوراةُ والمنزلةُ على بني إسرائيل، والإمامُ الذي يُؤْتم به في الدِّين ويُقْتَدَى به، والرحمةُ: النعمةُ العظيمةُ التي أنعم بها على مَنْ أنزله عليهم، والتوراةُ حَوَتْ كثيراً مِنَ المبشراتِ بَشَّرتْ ببعثةِ رسولِنا ﷺ، وجَلَّتْ التوراة صفاتِه صلواتُ الله وسلامُه عليه.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المتصفون بتلكَ الصفاتِ الفاضلةِ، وهي كونهم على بيِّنة من ربِّهم، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، وخبرُه جملة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ وأخبر تعالى أن من ﴿يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أي: ومَنْ يكفر بالنبيِّ ﷺ أو بالقرآنِ فالنارُ موعدُه، أي: هو مِنْ أهلِ النار وقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ المتحزبون على رسولِ الله ﷺ مِنْ أهلِ مكَّةَ وغيرِهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: لا تكُ في شكٍّ مِنَ القرآنِ، ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: هو الحقُّ الذي لا باطلَ فيه، وهو منزل من عندِ الله تعالى، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ بذلك مع أنَّ الإيمان به واجب.

وما دلَّت عليه هذه الآيةُ من سورة هودٍ أنَّ الصحابة فمن بعدهم ممن اتبعوهم بإحسانٍ على بيِّنةٍ من ربهم، دلت عليه آياتٌ وأحاديث صحيحةٌ كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

ومن الأحاديث ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلا يولَدُ على الفِطرةِ، فأبَواه يُهوِّدانِه، أو يُنصِّرانِه، أو يُمَجِّسانِه، كما تُنتَجُ البَهيمةُ بَهيمةً جمعاءَ، هل تُحِسّونَ فيها من جَدْعاء؟». ثم يقولُ أبو هُرَيرةَ ﷺ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [البخاري: ١٣٥٨، ١٣٥٩. ومسلم: ٢٦٥٨].

وروى مسلمٌ في صحيحه عن عِياضِ بن حِمار المُجاشِعِيِّ، أن رسولَ الله ﷺ قال ذاتَ يوم في خُطْبَتِهِ «ألا إنَّ رَبِّي أمَرَنِي أنْ أُعَلِّمَكُمْ ما جَهِلْتُم مما عَلَّمَني يومي هذا، كُلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عبداً، حَلالٌ(١). وإني خَلَقْتُ عِبادِي حُنفاءَ كُلَهُمْ(٢)، وإنَّهم أتَتْهُمُ الشياطينُ فاجْتالَتْهُمْ(٣) عن دِينِهِمْ، وحَرَّمَتْ عليهِمْ ما أحْلَلْتُ لهم. وأمَرَتْهُمْ أنْ يُشرِكُوا بي ما لم أُنْزِلْ به سُلطاناً» [مسلم: ٢٨٦٥].

٣- أعظم الناسِ ظلماً الذين كَذَّبوا على ربِّه:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أشدَّ الناس ظلماً الذين افتَرَوْا الكذبَ على الله تعالى، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود:١٨].

يقول ربُّ العزة سبحانه: لا أحَدَ أظلمَ مِنَ الذين افْتَرَوْا الكذبَ على الله تعالى، وكَذِبُ العبادِ على الله كثيرٌ متنوع، فمن ذلك قولهم في أصنامهم: هؤلاءِ شفعاؤنا عندَ الله، ومنه قولُ اليهودِ: عزيرٌ ابنُ الله، وقولُ النصارى: المسيح ابنَ الله، وقولُ العرب: الملائكةُ بناتُ الله.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: يعرضُ هؤلاء على ربِّهم يومَ القيامة، والخلق كلهم يعرضون على الله يومَ القيامةِ، وروى البخاري عن صفوان بنِ مُحرِزٍ المازِنيِّ قال: بينما أنا أمشي معَ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما آخِذٌ بيدِه، إذْ عَرَضَ رجلٌ فقال: كيفَ سمعتَ رسولَ الله ﷺ في النَّجْوَى؟ فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَ اللهَ يُدْني المؤمِنَ، فيَضَعُ عليه كَنَفَه ويَسْتُرُه، فيقولُ: أتعرِفُ ذنبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنبَ كذا؟ فيقولُ: نعم أيْ رَبِّ، حتى إذا قَرَّره بذُنُوبِه، ورأى في نَفْسِه أنه هَلَكَ، قال: سَتَرْتُها عليكَ في الدُّنْيا، وأنا أغفِرُها لكَ اليومَ، فيُعْطَى كتابَ حَسَناتِه، وأما الكفارُ والمنافقون فيقولُ الأشهادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود:١٨]» [البخاري: ٢٤٤١. ومسلم: ٢٧٦٨].

والأشهادُ هم الذين يشهدون يومَ القيامة، وهم الرسلُ والأنبياءُ، والحفظةُ من الملائكة، وصالحو المؤمنين، ويقول الأشهادُ في ذلك اليوم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ

(١) كل مال نحلته عبداً حلال: في الكلام حذف، أي: قال الله تعالى: كل مال إلخ، ومعنى نحلته أعطيته.
(٢) حنفاء كلهم: أي مسلمين، وقيل: طاهرين من المعاصي، وقيل: مستقيمين منيبين لقبول الهداية.
(٣) فاجتالتهم: اجتال الرجلُ الشيءِ ذهب به، واجتال أموالهم ساقها وذهب بها.

أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود:١٨]، أي: يقولون في حال عَرْضِ المكذبين على الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ قد تكونُ من كلامِ الأشهادِ أو من كلامِ الله تعالى، والمراد بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين، ومعنى: لعنةُ الله: إبعادُهم من رحمة الله وعفوه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود:١٩]، أي: يمنعونَ الناس عن اتباع الحقِّ وسلوكِ طريق الهدى الموصلةِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وقوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يريدون أن يجعلوا طريقَ الله معوجّاً، أي: يريدون تشويهَ دينِ الله وتحريفه، ليبعدوا الناس عنه، وقوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: هؤلاءِ الكفرةُ الذين افتروا الكذبَ على الله تعالى غير مصدقين بالبعثِ والنشور، فهم على الباطل.

وقال تعالى في هؤلاء الذين كذبوا على الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [هود:٢٠-٢٢].

وقولُهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لم يكونوا معجزين اللهَ تعالى في الحياة الدنيا، بل كانوا تحت قهْره وغلبته، وفي قبضتِهِ وسلطانه، وهو القادرُ على أخذهم وإيقاع العذابِ بهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا يوجدُ لهم مِنْ دون الله تعالى من أولياء يمنعونهم، ويحمونهم مني، فالآلهة التي يعبدونها آلهةٌ باطلةٌ، لا تملكُ من أمرها شيئاً.

وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني يومَ القيامةِ، لأنهم ضلُّوا وأضلُّوا، وقوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: كانوا في الدنيا لا ينتفعون بأسماعِهِم وأبصارِهِمْ، فهم صُمٌّ عن الحقِّ فلا يسمعون، وعميٌ عنه، فلا يبصرون، ولا يهتدون، وذلك لعنادهم وكفرهم وشدةِ عداوتهم، فصاروا لملازمتهم الإعراضَ عن الخير كمن لا يستطيعه.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ وخسرانُهم أنفسَهُمْ يكون بدخولهم النار، وهذا أعظمُ الخسرانِ، وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: ذهب عنهم ما كانوا يفترونه من الأصنام والأوثان، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨١-٨٢].

وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)﴾ [هود:٢٢] «يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسرُ الناسِ صفقةً في الدار الآخرة، لأنهم استبدلُوا الدركاتِ بالدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنانِ بحميمٍ آن، وعن شُربِ الرحيقِ المختومِ، بسموم وحميم، وظلٍّ من يحمومٍ، وعن الحور العين بطعام من غِسْلين، وعن القصورِ العالية بالهاويةِ، وعن قُرْبِ الرحمن ورؤيته بغضب الديّان وعقوبته، فلا جَرَم أنهم في الآخرة هم الأخسرون» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٢٩].

٤- **الذين آمنوا وعملوا الصالحات أصحابُ الجنة:**

بعد أنْ أطال الحقُّ -سبحانه- في الحديث عن أصحابِ النارِ أخْبرَ عن أصحابِ الجنةِ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣)﴾ [هود:٢٣].

أخبرنا ربّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذين آمنوا، أي: بالله وملائكتِهِ وكتبه ورسلِهِ واليومِ الآخر، وعملوا الصالحاتِ مِنَ الصلاةِ والزكاةِ والحجِّ والصومِ ونحو ذلك، وأخبتوا إلى ربهم، والإخباتُ الخشوعُ لله، بسكونِ الجوارح على جهة الخضوعِ لله، والتواضعِ والطمأنينةِ، أولئك الذين جمعوا هذه الصفاتِ أصحابُ الجنة، أي: جنَّةُ الخلد، هم فيها خالدون.

٥- **مثلُ الفريقين من الكفارِ والمؤمنين:**

ضربَ اللهُ -تبارك وتعالى- للكفارِ والمؤمنين مثلاً، فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [هود:٢٤]، ضرب اللهُ تعالى مثلاً جامعاً للفريقين الكفارِ والمؤمنين، والفريقُ: الطائفةُ من الناس، ضربَ مثلاً للكافرِ بأنه كالأعمى والأصمِّ، والمؤمن بأنَّه كالسميع والبصير، فالكافرُ أعمى عن الحقِّ أصمُّ عنه، وأما المؤمنُ، ففطنٌ ذكيٌّ لبيبٌ، بصيرٌ بالحقِّ، يميِّز بينه وبين الباطلِ، فيتّبعُ الخيرَ، ويتركُ الشرَّ، سميع للحجّةِ، يُفرِّقُ بينها وبين الشبهةِ، فلا يروجُ عليه باطلٌ، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾ أي: هل يستوي الأعمى والأصمُّ والبصيرُ والسميعُ، لا يستويان كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٨]، وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾ أي: أفلا تعتبرون وتفرِّقون بين هؤلاء وهؤلاء.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - الذين يريدون بأعمالهم الدنيا وزينتَها، ولا يتطلعون إلى الدارِ الآخرة، يعطيهم اللهُ تعالى من الدنيا، وليس لهم في الآخرة إلا النار.

٢ - المؤمنون يقيمون دينهم على أساس متين من كتاب الله تعالى الذي جاء به جبريل من عندِ الله إلى رسول الله ﷺ، وقد تحدث عنه كتاب موسى، ومَنْ يكفُر به فمصيره النارُ.

٣- أظلمُ الناسِ الذين يكذبون على الله تعالى، وكلُّ الكفارُ يكذبون على الله تعالى، وسيحاسبُ اللهُ هؤلاءِ، ويعرضون عليه، ويقولُ الأشهادُ من الرسل والملائكة والمؤمنين عند عَرْضِ الذين كذبوا على ربِّهم: هؤلاءِ الذين كذبوا على الله، ألا لعنةُ الله على الظالمين.

٤- الكفارُ الذين كذبوا على الله تعالى يصدُّون الناسَ عن دينِ الله تعالى ويحاولون تشويه الإسلامِ، وتحريفَ مسارَه، وهؤلاءُ ضعفاءُ، ولا يعجزون الله في الدنيا، وليس لهم أنصارٌ يحمونهم من عذابِ الله وسخطِهِ، وهم الذين خسروا أنفسهم في النارِ يومَ القيامة.

٥- الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وكانوا من الخاشعين لله هم أصحاب الجنةِ هم فيها خالدون.

٦- ضرب الله مثلاً للكافر بأنه كالأعمى لا يرى، والأصم الذي لا يسمع، ومثلاً للمؤمن بأنه كالبصير يبصر الحق فيتبعه، ويسمع داعي الله فيهتدي به، وبين الكافر المؤمن بون شاسع.

النص القرآني الرابع من سورة هود
قصة نبي الله نوح عليه السلام مع قومه

أولاً: تقديم

هذا النص والنصان التاليان له في قصة نوح عليه السلام مع قومِهِ، وقد علمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ لُبَّ دعوةِ نوحٍ هو دعوة قومه إلى عبادة الله الواحدِ الأحد، وقد حدَّثنا اللهُ تعالى في آيات هذا النص بم اعترض قومُ نوحٍ على نوحٍ، ثم عرض لنا ربُّنا كيف جلَّى نبيُّ الله نوحٍ دعوتَه لقومِهِ، وقد أوقف الزعماءُ حوارَهم مع نوحٍ، وطلبوا منه أن ينزل بهم العذابَ

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [هود:٢٥-٣٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إرسالُ نوحٍ عليه السلام إلى قومِهِ ليقيمهم على التوحيد:

كان نوحٌ عليه السلام أوّلَ رسولٍ أُرسلَ إلى أهلِ الأرضِ، وكان الشركُ قد فشا في قومِهِ، فأرسله الله تعالى لينذرَ قومه بالتوحيد ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

[هود:٢٥] وأنذرهم بقولِهِ: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود:٢٦]، وقال لهم: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود:٢٦].

وهذه الآياتُ تدلُّ على أنَّ الإنسانَ الأوَّلَ كان عاقلاً متكلماً يُحسن التعبير عن نفسِهِ، وكان الناس في المجتمع الأول يشكلون مجتمعاً كاملاً، كما هو الحالُ في المجتمعات الإنسانيةِ المعاصرةِ، وكان الناسُ يحسنون الاستدلالَ، والقبولَ والردَّ، وكان حالُهم حالَ قريشٍ مع رسولنا محمدٍ ﷺ، فما يتحدثُ به كثير من الباحثين عن الإنسانِ الأولِ الذي لا يتكلم، والنافرِ مع الوحوشِ في البراري خطأ وضلالٌ، وحسبنا أنْ نرجعَ إلى ما حدثنا به ربُّنا عن آدمَ ﷺ، وما حدَّثنا به عن ابني آدم مما سبق بيانه في مواضع كثيرة، لنجد خلافَ ما يقوله هؤلاءِ.

٢- موقف السادةِ والأتباعِ من قومِ نوحٍ مما جاءَهم به نوحٌ:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن موقفِ السادةِ والزعماءِ وهم الملأ من قوم نوح ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود:٢٧]، احتجَّ قومُ نوحٍ عليه فيما دعاهم إليه بأمرين: الأولُ: أنهم يشاركونه في البشرية، فليس له مزيَّة يستحقُّ بها النبوةَ دونهم. الثاني: أنَّ الذي اتبعه من قومه في أولِ الأمر الأراذلُ كالباعةِ والحاكةِ والضعفاءِ، ولم يتبعه السادةُ والأشرافُ، وهؤلاءِ اتبعوه سريعاً من غيرِ تروٍّ منهم ولا فكرٍ ولا نظرٍ، ولذلك زعموا أنه لا فضلَ لهم عليهم، بل يعتقدون أنهم كاذبون.

٣- ردُّ نوحٍ ﷺ على قومِهِ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بردِّ نوح على قومِهِ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود:٢٨].

لقد كان نوح ﷺ مستوعباً رسالةَ ربِّه -تبارك وتعالى- فقيهاً بها، وكان عليماً بما يقولُه قومُهُ، عليماً بما ارتكبوه من أخطاء، وما وقعوا فيه من ضلالٍ وقد أخبر قومَه أنَّه على بينةٍ من أمرِهِ، أي: على حُجَّة وبرهانٍ من ربِّه، فهو مستيقن بما جاءَه اللهُ تعالى به مِنَ النبوَّة، وهو يعلم أنَّ اللهَ تعالى آتاه رحمة من عنده، وهي النبوةُ، وقولُه: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفيتْ عليكم، فلم تهتدوا إليها ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أنجبركم على القبول بها وأنتم لها كارهون.
وقال لهم نوحٌ أيضاً: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود:٢٩].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه لا يسألهم على ما جاءَهم به مِنَ الوحي مالاً ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾ فهو لا يطلبُ منهم أجراً، وإنما يطلبُ الأجرَ مِنَ الله تعالى ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

وكان الزعماءُ والرؤساءُ قد طلبوا منه أن يطردَ الأراذلَ الذين اتبعوه أنفةً منهم أن يجالسوهم ويخالطوهم، فأبى طردَهم، وقال لقومه: ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾ [هود:٣٠]، أي: مَنْ يمنعني من عذابِ الله إنْ طردتهم، وهذا يدلُّ على أنَّ العالمَ يجب عليه مصابرةَ المتعلم، ولا يجوز له طردُه، وعدمُ تعليمه.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ نوحاً قال لقومه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ [هود:٣١].

بيَّنَ نوحٌ عليه السلام حقيقةَ أمرِهِ لقومِهِ، فهو رسولُ الله، مرسلٌ من عندِ الله، وليس عنده خزائنُ الله، حتى لا يتهموه بالكذبِ لعدم ملكه هذه الخزائن، وقال لهم: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ فهو لا يعلمُ من الغيبِ إلا ما أطلعه اللهُ تعالى عليه، وقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ أي: ولستُ بملكٍ من الملائكة، فلا أملك قدراتِ الملائكةِ وإمكاناتِهِمْ، وقال لهم: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾. قال نوحٌ لقومه: لا أقول لهؤلاءِ الذين تحتقرونهم وتعيبونهم: لن يؤتيهمُ اللهُ خيراً، فقد آتاهم الرحمنُ الإيمانَ، فلهم الأجرُ والثوابُ ولا يضرُّهم احتقارُكم لهم.

لقد كان نوحٌ عليه السلام صادقاً مع قومِهِ، لم يرفعْ أمرَهُ فوقَ قَدْرِهِ، ولم يتعالَ، ووصف نفسه بالصفاتِ الصحيحة، بعيداً عن الكبر والتعالي، وقد رأينا بعضَ الذين يتصدُّون للدعوة إلى الله تعالى، يرفعون أنفسهم، ويصفونها بما ليس فيها.

٤- جوابُ قومِ نوحٍ عليه السلام:

فلما سمع قومُهُ منه هذا البيانَ الواضحَ النيِّرَ، ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾ [هود:٣٢]، أي: خاصمتنا فأكثرتَ خصامَنا، وجئتَ بكلِّ ما يمكنك الإتيانُ به، وانتهى الأمرُ بيننا وبينك، ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذابِ الذي تخوفنا

به، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ فيما تقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود:٣٣-٣٤].

لم يسارعْ نوحٌ بإعلامهم بأنَّ العذابَ نازلٌ بهم، وأنَّه سريعاً سيقعُ بهم، بل وكَلَ نوحٌ عليه السلام الأمرَ إلى الله تعالى، وقال لهم: إنَّ تعذيبكم إلى الله ربِّكم، فإذا شاءَ إيقاعَه بكم أوقعه، وإذا شاءَ إنزالَهُ بكم فما أنتم معجزينه، فهو على ذلك قادرٌ سبحانه.

وقال لهم: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أي: هذا الذي أبينه لكم، وأبلغكم إيَّاه، لا ينفعكم، وقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إنْ كان اللهُ تعالى يريد إضلالكم، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ والربُّ السيدُ الخالقُ المدبرُ المصرِّفُ، وأنتم تحت ملكه وتصرفِهِ، يتصرفُ فيكم كما يشاءُ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يومَ القيامة، فيحاسبكم على ما قدمتموه وعملتموه.

٥- زعم كفارُ قريشٍ أنَّ ما أخبر به رسولُنا ﷺ عن نوحٍ حديثٌ مفترى:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ كفارَ قريشٍ زعموا أنَّ ما حَدَّث به رسولُنا عن نوحٍ حديثٌ مفترى مختلقٌ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود:٣٥]. والمعنى: بل أيقول هؤلاءِ الكفارُ أنَّك افتريتَ ما حَدَّثْتَ به عن نوحٍ، أي: اختلقتَهُ وافتعلتَهُ، فقلْ لهؤلاءِ: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي: عليَّ عاقبةُ إجرامي، أي: ما كسبتُهُ من السيئات، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: مِنَ الكفرِ والتكذيب، فليس عليَّ شيءٌ من إجرامكم، وإنما الضرر عائد عليكم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرسلَ اللهُ تعالى نوحاً إلى قومِهِ فأنذرهم بأنْ لا يعبدوا إلا اللهَ -تعالى- وحده.

٢- زعم السادةُ والزعماءُ من قومِ نوحٍ أنَّ نوحاً لا يستحقُّ أن يتابع، لأنه بشر مثلهم، والذين اتبعوه في أوّل الأمرِ هم أراذلهم، وزعموا أنَّه لا فضل لهم عليهم، وظنوا أنهم من الكاذبين.

٣- ردَّ عليهم نوحٌ أعظمَ ردٍّ، فأعلمهم أنَّه على بينةٍ من ربّه، وأنَّ اللهَ تعالى آتاه رحمةً من عنده، وهي النبوةُ، وأنّه لا يسألهم المالَ، فأجره على الله تعالى.

٤- لم يطع نوحٌ زعماءَ قومِهِ عندما طالبوه بأنْ يطردَ الضعفاءَ الذين آمنوا به، وأعلمهم أنَّ طرده إياهم معصيةٌ لله، يحاسبُه اللهُ عليها.

٥- بيَّن نوحٌ لقومِهِ أنَّه لا يوجدُ عنده خزائنُ الله، يعطي منها مَنْ آمن، ولا يعلمُ الغيبَ، فهو يخبر بما غاب عن العبادِ، وليس بمَلَكٍ، يستطيعُ أن يفعلَ ما لا يستطيع البشر فعلَهُ.

٦- أعلمَ نوحٌ قومَه أنَّ المؤمنين الضعفاءَ محلَّ تقديره واحترامه، لا يستطيعُ أنْ يوجه إليهم شيئاً لا يليقُ بهم، فيكونَ مِنَ الظالمين.

٧- أوقفَ زعماءُ قومِ نوحٍ الحوارَ مع نوحٍ، وطالبوه أنْ يحلَّ بهم العذابَ، فأعلمهم أن نزولَ العذابِ بهم أمْرُه إلى الله تعالى.

٨- زعم كفارُ قريشٍ أنَّ ما جاءَهم به رسولنا من نبأ نوحٍ مع قومه كَذِبٌ مفترى، فأمر اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يقول لهم: إن افتريتُه واختلقته فعليَّ إجرامي وأنا بريءٌ مما تجرمون.

النص القرآني الخامس من سورة هود
أمر اللهُ تعالى نوحاً أنْ يصنع السفينة التي ستقله والمؤمنين معه

أولاً: تقديم

هذا هو النص الثاني الذي يتحدثُ عن قصة نوحٍ، وفيها إخبارُ الله تعالى لنوحٍ أنه لن يؤمنَ من قومِهِ إلاَّ من قد آمن، وفيها أمره له بأن يصنعَ السفينة التي سيركبها والمؤمنون معه وعندها يهلك قومه بالطوفان، وفيها إعلامُ الخلقِ أنَّ قومَ نوحٍ كانوا يسخرون منه، وهو يصنعُ السفينةَ، فيخبرهم أنه والمؤمنين معه سيسخرون منهم عندما يأخذهم الطوفانُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود:٣٦-٣٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آياتِ هذا النص من القرآن

١- أوحى اللهُ تعالى إلى نوحٍ أنه لن يؤمنَ من قومِكِ إلاَّ من قد آمن:

أوحى اللهُ -تبارك وتعالى- إلى نوحٍ عليه السلام أنَّه لن يؤْمن من قومِهِ إلا من قد آمن ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود:٣٦] أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- فيما سبق أنهم أوقفوا الحوارَ معه، وطالبوه بأنْ يحلَّ بهم العذابَ، فأوحى اللهُ تعالى إليه: أنَّه لن يؤمن من قومِهِ إلا مَنْ آمن من قبل، فدعا عليهم نوح ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح:٢٦]، ونهى اللهُ تعالى نوحاً أن يبتئسَ بما كانوا يفعلونه، ومعنى ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن، ولا تغتمَّ، ولا تستكين بسبب تصرفاتهم الحمقاءِ.

٢- أمر اللهُ تعالى نوحاً أن يصنع السفينة التي ستقله ومن معه بأعينه ووحيه:

أمَرَ اللهُ تعالى نوحاً أن يصنع السفينةَ التي ستقلُّه، وتقلّ المؤمنين معه، وتقلُّ أصنافَ الأحياءِ الموجودةِ فوق ظهرِ الأرضِ ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود:٣٧]، أمَرَ اللهُ تعالى نوحاً أنْ يصنعَ تلك السفينةِ بمرأى منه، وقوله:

﴿وَوَحۡيِنَا﴾ أي: وفق التعاليم التي تأتي إليه من عندِ الله تعالى، فكانت السفينةُ تبنى وفقَ ما يأمره اللهُ تعالى به، وقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ نهاه أن يسأله في قومِهِ الذين ظلموا، أي: أشركوا وكفروا، فإنَّهم مغرقون، لا شكَّ في ذلك ولا ريبَ.

٣- قوم نوح يسخرون من نوحٍ وهو يصنعُ السفينةَ:

أخذَ نوحٌ يصنعُ السفينةَ ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾ [هود:٣٨-٣٩]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ نوحاً أخذ يصنعُ الفلكَ، وهي السفينةُ، وأخذ قومُهُ كلَّما مَرَّ عليه ملأٌ منهم، أي: فرقةٌ وطائفةٌ يسخرون مما يعمله، فقال لهم: إن تسخروا منا اليوم، فسوفَ نسخر منكم كما تسخرون منا، أي: نسخر منكم عندما يقع الطوفانُ، ويحيطُ بكم العذابُ.

وتهدَّدهم قائلاً لهم: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ وهو عذابُ الطوفانِ الذي سيغرقهم ويستأصلهم، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾ أي: دائمٌ، وهو عذابُ يومِ القيامةِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أوحى اللهُ -تعالى- إلى رسولِهِ نوح أنه لن يؤمن أحدٌ من قومك إلاَّ من سبق له الإيمانُ.

٢- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ نوحاً أن يصنعَ السفينةَ التي ستقلُّه وتقلُّ المؤمنين معه عندما يقعُ الطوفانُ.

٣- صَنَعَ نوحٌ السفينةَ بمرأى من الله تعالى، وفقَ التعاليم والبياناتِ التي كان اللهُ تعالى يوحي بها إليه.

٤- كانت سفينةُ نوح سفينةً عظيمةً، وكان يوجد في المكان الذي صنع فيه السفينةَ مِنَ الخشبِ والحديدِ ما يصلح لصناعةِ مثلِ تلكَ السفينةِ.

٥- نهى الله تعالى نوحاً أنْ يسأله النجاةَ لقومِهِ بعد أن أعلمه أنه لن يؤمن منهم أحدٌ.

٦- كان قومُ نوحٍ يسخرون منه وهم يمرُّون عليه، وهو يصنعُ السفينةَ، فيقولُ للساخرين: إنا سنسخر منكم غداً، أي: حينما يحلُّ بكم العذابُ، فنجازيكم بسخريتكم.

٧- تهدد نوحٌ عليه السلام قومَه، بقوله لهم: سوف تعلمون من يحلُّ عليه عذاب يخزيه، وهو عذابُ الغرقِ الذي سيأخذهم عندما يقع بهم الطوفان، ويحلُّ عليه عذابٌ مقيمٌ، وهو عذابُ يوم القيامةِ.

النص القرآني السادس من سورة هود
قصة الطوفان وإنجاءُ الله تعالى نوحاً ومن معه
وإهلاكُ الكفار من قومه

أولاً: تقديم

حدّثنا اللهُ تعالى في آيات هذا النص عن خبرِ الطوفان وركوبِ نوح والمؤمنين معه وزوجين من كلِّ حيوانٍ من حيوانات الأرضِ السفينة، وأخبرنا عن هلاكِ ابن نوح الكافرِ عندما تخلَّف عن أبيه، وأوى إلى قمةِ جبل، لينجو من الغرق، فلم يعصمه، وحدثنا ربُّنا عن نهايةِ الطوفانِ، وعن دعاءِ نوحٍ ربَّه في ابنه، وكيف أمرَ اللهُ تعالى نوحاً ومن معه بالهبوطِ إلى الأرضِ، وامتنانه علينا بها قصَّهُ علينا مما لا علم لنا به.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٠-٤٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذ النص من القرآن

١- بدايةُ الطوفان:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أمْرَه قد جاء، وبدأ الطوفانُ، فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا

قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود:٤٠]، والمرادُ بأمر الله تعالى الذي جاء أمْرُه بوقوعِ الطوفان، ففتح اللهُ أبوابَ السماءِ بماءٍ منهمرٍ، وفجَّرَ الأرضَ عيوناً كما قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر:١١-١٢]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ الذي يظهر لي -واللهُ تعالى أعلم- أنَّ فورانَ التنورِ علامةٌ جعلها اللهُ لنوحٍ، تدلُّ على أنها إذا وقعت، فقد بدأ الطوفان، والتنورُ هو الفرنُ الذي يُخبزُ فيه، وكان تنوراً من حجارةٍ، وعند ذلك جاءَه الوحيُ من عندِ الله تعالى قائلاً له: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أمر اللهُ تعالى نوحاً أن يحمل معه من كلِّ حيوان حيٍّ زوجين اثنين، فيحمل من الحمام زوجين، أي: ذكراً وأنثى، وكذلك من المعزِ، والبقرِ، والجمالِ، وأمرهُ أن يحمل معه في السفينةِ أهلَه، وهم زوجته وأولادُه ونساؤهم إلا من سبق عليه القولُ منهم، أي: الكفارُ منهم، ولذلك غرقَ ابنهُ الكافرُ، وزوجةُ نوحٍ كانت كافرة، فلذلك إذا كانت لا تزالُ حيَّة إلى ذلك الوقت، فإنها تكون قد غرقت، وأمره أن يحملَ معه ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ وهذا النصُّ صريحٌ في أنه آمن معه أناسٌ من قومِهِ، والذي آمن معه قليلٌ. والذي في التوراة أنه لم يؤمن معه أحدٌ غيرَ أولادِهِ وزوجاتِهم، وهذا غير صحيح.

٢- ركوب نوحٍ عليه السلام ومن معه السفينةَ:

لَّما بدأ الماءُ يتدفق من الأرضِ، والسماءُ تمطرُ بماءٍ منهمرٍ أمَرَ نوحٌ عليه السلام من آمنوا به أن يركبوا فيها قائلين باسم الله مجريها ومرساها ﴿ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود:٤١]، والقائلُ ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ هو نبيُّ الله نوحٍ عليه السلام، والركوبُ العلوُّ على ظهرِ السفينةِ والدخولُ في جوفِها، وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ أي: قائلين باسم الله مجراها ومرساها، أي: باسم الله يكونُ جَرْيُها على الماءِ، وباسم الله يكون رُسوُّها، أي: منتهى سيرها، وهذا الذي أمر به نوحٌ المؤمنين معه من التسمية عندما يركبون السفينةَ أمَرَ الله تعالى به المؤمنين في القرآنِ في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف:١٢-١٤]، وسيأتي في سورةِ الزخرف الصيغةُ التي كان الرسولُ ﷺ يدعو بها إذا ركبَ دابته.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ أي: إنَّ اللهَ تعالى غفورٌ رحيمٌ بإنجائِه نوحاً والمؤمنين معه وإنجائه بعضاً من الحيواناتِ التي ستعمِّر الأرضَ بعد الطوفان، وإن كان شديدَ العقابِ في إهلاكه الكفارَ من قومِ نوحٍ.

٣- جَرْيُ السفينةِ بركابها بموجٍ كالجبالِ ومناداةِ نوحٍ ابنه الكافرَ ليركبَ السفينة معه:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الماءَ الذي تدفقَ مِنَ الأرضِ والماء الذي نزل من السماءِ علا على وجهِ الأرضِ وعظمَ، وحملَ السفينةَ وركابَها، وبيَّن حالَ السفينةِ، فأخذت تجري في موجٍ كالجبالِ، ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢]، ولا يكونُ الموجُ كالجبالِ إلا إذا كانَ ماءُ البحرِ عالياً كثيراً، وكانت الريحُ شديدةً.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ نوحاً نادى أحدَ أولاده، وكان كافراً، وكان في معزلٍ عن السفينةِ، فناداه طالباً منه أنْ يركبَ معهم في السفينةِ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود:٤٢]، طالبه بأن يركب معهم، ولا يتخلَّفَ عنهم، فيغرقَ مع الكافرين، ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود:٤٣].

وقولُ ابن نوحٍ لأبيه ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ﴾ [هود:٤٣]، يدلُّ على أنَّه لم يكن يعلم أنَّ الماءَ سيُغرقُ كلَّ شيءٍ في الأرضِ، ويصلُ إلى قممِ الجبالِ مهما كان علوها، ولذلك قال له أبوه الذي يعلم الحقيقة: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ [هود:٤٣] أي: لا يمنع اليومَ أحدٌ مِنَ الغرقِ إلا مَنْ رحمه اللهُ تعالى، وهم ركابُ السفينةِ وحدهم دون غيرهم، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود:٤٣]، أي: وحالَ الموجُ بين نوحٍ وابنهِ، فأغرقه اللهُ تعالى فيمن غرق.

٤- انتهاءُ الطوفان ونزولُ نوحٍ ومن معه إلى الأرض:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ الأرضَ أن تبلعَ الماءَ الذي كان عليها، وأمر السماءَ أنْ تمسكَ ماءَها الذي كانت تمطرُه، وتسربَ الماءُ الذي كان على ظهرِ الأرضِ إلى جوفها وغيضَ الماءُ، أي: نقصَ من فوق الأرضِ وجفَّ ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود:٤٤].

وهذه الآية تدلنا دلالةً واضحةً بينةً على أنَّ ربَّنا هو السيدُ المطاعُ الذي يطيعه كلُّ شيءٍ، ولا يعصيه شيءٌ إذا أمره أو نهاه، فقد أمر اللهُ تعالى الأرضَ أن تبلعَ ماءَها، فبلعته، وأمرَ السماءَ أن تمسكَ قطرَها فأمسكته، وتلاشى الماءُ من فوقِ ظهرِ الأرضِ، وقُضِيَ الأمرُ، أي: في إهلاك قومِ نوحٍ، والجوديُّ الذي استوت السفينةُ عليه، أي: استقرَّتْ عليه جبلٌ في شمال العراق قرب جزيرة الموصل، وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ والقائل هو اللهُ سبحانه، والمعنى: هلاكاً للقومِ الظالمين، أي: أبعدهم اللهُ عن كلِّ خيرٍ.

٥- نوحٌ عليه السلام ينادي ربَّه في ابنه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ نوحاً عليه السلام نادى ربَّه من أجل ابنه ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود:٤٥].

توجَّه نوحٌ عليه السلام إلى ربِّه يستعلمه عن ولدِهِ الذي غرقَ مع الكافرين من قومه، فدعاه سائلاً إيَّاه أنَّ ابنه من أهلِهِ، وقد أمره أن يدخلَ أهلَه السفينةَ، وهذا وَعْدٌ من ربِّ العزةِ بأن ينجيَ أهلَه، ووعدُ الله حقٌّ، والله تعالى لا يخلفُ الميعادَ، والله تعالى أحكمُ الحاكمين.

فأعلمه ربُّه تبارك وتعالى أنَّه ليس من أهلِهِ الناجين، لأنه وعدَه بإنجاء أهلِهِ المؤمنين، أما الكافرون فلم يعد بإنجائهم، فقد قال له من قبل: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود:٤٠] والذين سبقَ عليهم القولُ هم الكافرون، وابنه من الكافرين، وقال له هنا: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود:٤٦].

أي: ليس من أهلك الذين وعدتُ بإنجائهم، وقالَ له: إنَّ دعاءَكَ إيايَ في إنجاءِ ابنك الكافر عملٌ غيرُ صالحٍ، ونهاه ربُّ العزَّة أنْ يسأله ما ليس له به علم، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: أحذِّرك أنْ تكون من الجاهلين، فلما سمع نوحٌ عليه السلام ما وجهه ربُّه إليه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قال نوحٌ مخاطباً ربَّه، معترفاً بخطئه، طالباً الرحمةَ والمغفرةَ: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وقال لربِّه تبارك وتعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

٦- أمر اللهُ تعالى نوحاً عليه السلام ومن معه بالهبوطِ من السفينةِ إلى الأرض:

بعد أنْ جفَّ وجهُ الأرض أمَرَ اللهُ تعالى نوحاً ومن معه بالهبوط من السفينةِ إلى الأرضِ، فقال: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ

يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود:٤٨]، القائلُ هو اللهُ تعالى أو الملائكةُ بأمرِهِ سبحانه، وقوله: ﴿ٱهْبِطْ﴾ أي: انزل من السفينةِ إلى الأرض، أو من الجبلِ الذي رستْ عليه السفينةُ، وهو الجوديُّ، وقوله: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي: اهبط بسلامٍ وأمنٍ، ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ أي: بنعم ثابتة، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي: يكونون على الإيمانِ والتوحيدِ والصلاحِ ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ أي: وأُممٌ أخرى سنمتعهم متاعاً حسناً في هذه الحياةِ الدنيا، ثم يمسُّهم في الدنيا وفي الآخرة عذابٌ أليم، وهذا الذي قاله اللهُ تعالى لنوحٍ شاملٌ للبشرية كلِّها إلى يومِ القيامة، قال محمد بنٍ كعب: «دخل في هذا السلام كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كلُّ كافرٍ وكافرةٍ إلى يومِ القيامةِ» [ابن كثير: ٥٣٩].

٧- **قصةُ نوحٍ التي قصّها الله على رسولِهِ ﷺ من أنباءِ الغيب:**

أخبر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّ ما قصَّه عليه من قصةِ نوحٍ من أنباءِ الغيبِ، ما كان عنده ولا عند قومِهِ منها علم ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود:٤٩]، أي: تلك القصةُ التي قصصناها عليك من خبر نوحٍ وخبر قومه، وإنجائِه ومن معه في السفينةِ، وأمثالُ هذه القصةِ مما حدّثنا الله تعالى به في هذه السورة وغيرها، ولم يكن عند رسولنا ﷺ ولا عند قومه طرف من أخبارها، وقصةُ نوحٍ في أخبارِ الأممِ اليوم قصةٌ باهتةٌ، تكادُ تكون أشبه بالأسطورةِ والخرافةِ، الحقُّ فيها قليلٌ والباطلُ فيها كثيرٌ، فأنعم اللهُ علينا بتعريفنا بهذه القصةِ على أحسنِ وجهٍ، وأقومِ تفصيل، كأنما نشاهدها ونراها رؤيا عين.

رابعاً ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - عندما جاء أمر الله عزَّ وجل بالطوفانِ أمر اللهُ تعالى نوحاً أن يحمل في السفينة من كلِّ زوجين اثنين، وأهله المؤمنين ومَنْ آمن معه، وكانَ المؤمنون معه عدداً قليلاً.

٢- أمر نوحٌ أهله والمؤمنين معه أن يركبوا السفينةَ قائلين باسم الله مجراها ومرساها، وقد علَّمنا القرآنُ وعلَّمنا رسولُنا ﷺ دعاءً ندعو به إذا ركبنا الدوابَّ والسفنُ والمراكبَ.

٣- صوَّر لنا ربُّنا تبارك وتعالى حالَ السفينةِ وهي تجري بركابها في موجٍ عظيمٍ كالجبالِ.

٤- نوحٌ ينادي ابناً له كان كافراً في معزلٍ، لينضمَّ إليهم، فيكونُ في السفينة، فيأبى ويقول: إنه سيأوي إلى قمةِ جبلٍ تمنعه من الغرق، قال نوحٌ: لا عاصم من أمر الله، وحال بينهما الموجُ، فكان من المغرقين.

٥- بعد أن تمَّ الطوفانُ، وغرق الكفارُ من قوم نوح، أمَرَ اللهُ تعالى أن تبلع الأرضُ ماءَها، وأمرَ السماءَ أن تتوقف عن الإمطارِ، وشربت الأرضُ الماءَ، وقضي الأمرُ بإهلاكِ الكفارِ من قومِ نوحٍ، واستوت السفينةُ على قمةِ جبل الجوديِّ في شمال العراقِ.

٦- نادى نوحٌ ربَّه في ابنه الهالكِ، فقد وعده اللهُ بإنجاءِ أهلِهِ، فأعلمه أنَّه وعده بإنجاءِ أهلِه المؤمنين، وهذا الولدُ كان من الكافرين.

٧- نوحٌ يتوبُ إلى الله تعالى من سؤاله في ابنه، فيتوبُ اللهُ عليه.

٨- بعد جفافِ وجهِ الأرض أمَرَ اللهُ نوحاً ومن معه أن يهبطوا إلى الأرض بسلام وبركاتٍ منه، عليه وعلى من آمن من ذريتهم، وأخبر نوحاً أنَّ هناك أُمماً من ذريتِهِ وذريةِ مَنْ معه سيكونون كفاراً، سيمتعهم في الدنيا ثم يأخذُهم عذابٌ أليم.

٩- قصةُ نوحٍ التي قصَّها على رسولِهِ ﷺ وعلى أُمته من أنباءِ الغيبِ التي لم نكن نعلمها وندري بها.

النص القرآني السابع من سورة هود
قصة رسول الله هودٍ مع قومِهِ عادٍ

أولاً: تقديمٌ

حدثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في آياتِ هذا النصِّ عن قصةِ رسولِ الله هودٍ مع قومِهِ عادٍ، فقد أرسله اللهُ تعالى داعياً قومَه إلى التوحيد، وبيَّن لهم أنَّ أجْره على الله تعالى، وأمَرهم بالتوبةِ والاستغفار، ووعدهم إنْ فعلوا ذلك أن يُكثِّر خيرَهُمْ، ويزيد قوتَهمْ، فاعترضوا وأنكروا عليه، ونَفَوْا أنْ يكون قد جاءَهم بالبيناتِ، ورفضوا أنْ يتركوا عبادةَ الآلهةِ التي يعبدونها، ورفضوا الإيمان له، وزعموا كاذبين أنْ بعضَ آلهتهم أصابته بسوءٍ، فواجههم بخطابٍ قويٍّ شديدٍ، وأنكر عليهم، ما يقولونه، وتبرأ من آلهتهم، متوكلاً على الله معتمداً عليه، مخبراً أنه قادرٌ على كلِّ شيءٍ، وأعلمهم أنَّ نواصي الدوابِ بيده، وأعلمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه نجَّى هوداً ومَنْ آمن معه، وأهلك القومَ الكافرين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود:٥٠-٦٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أرسل اللهُ تعالى هوداً إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده:

أعْلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أرسل هوداً إلى قومه ليبعدوا الله وحده ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود:٥٠] وعادٌ قبيلةٌ

عظيمةٌ كانت تسكنُ الأحقافَ في جنوبِ الجزيرةِ العربيةِ، وكانوا يعبدون الأوثانَ، وكانوا أوَّل أمة بعد قوم نوحٍ، فأرسل إليهم عبدَه ورسولَهُ هوداً، فقال لهم: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: اعبدوا اللهَ تعالى وَحْدَهُ لا شريكَ له، ليس لكم معبودٌ إلا اللهَ وَحْدَهُ، وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يعني ما أنتم إلا كاذبون في إشراككم معه الأوثانَ.

وقال لهم هودٌ أيضاً: ﴿يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود:٥١]، قال لهم: لا أسألكم على تبليغي إيَّاكم ما أنزلَ اللهُ تعالى إليَّ أجراً، أي: مالاً وثواباً، إن أجْرِيَ وثوابي إلاَّ على الذي فطرني أي: خلقني، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: أفلا تعقلون ما أرسلتُ به إليكم

وقال لهم أيضاً: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود:٥٢]، ونادى هودٌ قومَهُ، وطلب منهم أن يتوبوا، وينيبوا، ويرجعوا إلى الله تعالى، فإنْ فعلوا ذلك يرسل اللهُ عليهم الماءَ من السماءِ مدراراً، أي: كثيراً، ويزدكُمْ قوةً إلى قوتكم، أي: شدةً إلى شدَّتِكُمْ، وذلك بزيادة أموالهِمْ، وتكثير أولادِهِمْ، وإعطائهم القوةَ الحربيةَ التي توجب لهم المهابةَ والقوة، وقوله: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: لا تعرضوا عن ما أدعوكم إليه آثمين

وهذا ليس خاصّاً بهم وحدهم، بل هو الشأنُ مع الأمم كلها، كما قال نوحٌ لقومِهِ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

٢- جوابُ قومِ نوحٍ على ما دعاهم رسولهم إليه:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بم أجابَ هوداً قومُهُ، فقال: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ [هود٥٣-٥٤]. قال قومُهُ له مجيبين على دعوتِهِ لهم إلى الله تعالى: ما جئتنا يا هودُ ببينةٍ، أي: بحجَّةٍ واضحةٍ تدلُّ على صدقِ ما تدعيه، وأنك رسولٌ مرسل من ربِّ العالمين، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ ونحن لسنا على استعدادٍ لترك الآلهة التي نعبدها، لأنَّك أمرتنا بتركها، ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ ومعنى اعتراك: أي: أصابك ومسَّك بعضُ

آلهتنا بسوء أو جنون، فأفسدَ عقلك وأخبلك، وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاءِ الكفارَ الضالين يعتقدون أنَّ هذه الأصنامَ والأوثانَ لديها قوةٌ غيرُ عاديةٍ، تضربها غيرها وتنفعها، ومن ذلك إضرارُها بهودٍ، لأنه دعا إلى تركها وهجرها.

٣- ردُّ هودٍ على قومِهِ:

ردَّ هودٌ ﷺ على قومِهِ ردّاً قوياً، وقد بدا ردُّه مستمسكاً بالله معتصماً به، متوكلاً عليه، وقد بدا من ردِّه الشجاعةُ والقوةُ، فقد كان في ردِّه غير هيابٍ، ولا وَجِلٍ: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود:٥٤]. قال هودٌ لقومه إنِّي أشهدُ اللهَ، وطالبهم أن يشهدوا وإن كانوا ليسوا أهلاً للشهادة ليقيم عليهم الحُجَّة أنه بريءٌ مما يشركون، أي: مِنَ الآلهة التي يعبدونها من دونِ الله.

وقالَ هودٌ: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود:٥٥]، طالب هودٌ قومَهُ أن يكيدوه جميعاً، أي: هم وآلهتُهُمْ، وهذا الذي فعله من أعظمِ آياتِ الأنبياء أنْ يتحدّاهُمْ هم وآلهتهم مع كثرةِ عدَدِهم واجتماعِ كلمتهم على عداوتِهِ، فمن يقول هذا القولَ، فهو غيرُ خائفٍ، ولا وَجِلٍ منهم، ومعنى ﴿لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: لا تُؤَجِّلون.

وقال لهم هودٌ أيضاً: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٦] أي: إني اعتمدتُ على الله، فهو يعصمني من كيدكم، وهو ربِّي سبحانه وربُّكم، وقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾ هو مالكها، ومصرِّفُ أمورها، ومن أخذ بناصيةِ شيءٍ فقد قَهَرَه، والناصيةُ قصاصُ الشعر من مقدمِ الرأس، ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ أي: على العدلِ والحقِّ، وسينصرني عليكم، ولن يسلطكم عليَّ.

وقال هود لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود:٥٧]، قال لهم: إن تتولَّوْا عما جئتكم بهِ من الحقِّ، فقد قمتُ بما أمرني ربي به، وهو إبلاغكم الحقَّ الذي أرسلني به إليكم، وهذا ما أُطيقه، وتهدَّدَهم بأنَّ اللهَ تعالى سيهلكهم، ويأتي بآخرين من بعدهم، ولن يضيروا اللهَ تعالى شيئاً، وقال لهم في آخر ما قاله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ .

٤- إنجاءُ الله تعالى نبيَّهُ هوداً والمؤمنين معه وإهلاكُهُ الظالمين من قومِهِ:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ بأنه لما جاء أمره نجَّى هوداً والذين آمنوا معه وأهلك الكفارَ من قومِهِ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود:٥٨]، أي: لَمَّا جاءَ أمرُ الله تعالى بإهلاكِ عادٍ، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: نجيناهم مِنَ العذابِ الذي أحاط بالكافرين من قومِهِ، وقد أرسل اللهُ تعالى عليهم الريحَ سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً، وقد نجاهم ربُّ العزَّة -سبحانه- مِنَ العذابِ برحمةٍ عظيمةٍ من عنده، ونجَّاهم من عذابٍ غليظٍ، أي: شديد، واللهُ تعالى أعلم بالطريقةِ التي حفظ اللهُ تعالى بها هوداً والذين آمنوا معه.

أما الكفار من قوم عاد، فقال اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود:٥٩-٦٠].

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ﴾ الإشارةُ إلى الذين أرسل إليهم هودٌ، فكفروا به، فأنزل بهم عذابَهُ، وقوله: ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: كفروا بالآياتِ، وهي المعجزاتُ البيناتُ التي أرسل بها هوداً لتدلَّ على صدقه، ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ لم تكذب عادٌ إلا رسولاً واحداً، ولكن من كذَّب رسولاً واحداً، فقد كذَّب الرسلَ جميعاً، وهذا كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء:١٠٥]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء:١٢٣]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء:١٤١]، والآيات في ذلك كثيرة. وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ الجبارُ: المتكبرُ، والعنيدُ: الطاغي الذي لا يقبل الحقَّ، ولا يذعن له، وهو صنفٌ من البشر يبدو أنه كان كثيراً في قومِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ أي: أردفوا في الحياةِ الدنيا لعنةً، أي: تلحقهم، ولا تنصرف عنهم، واللعنةُ: الإبعادُ من رحمةِ الله ومِنْ كلِّ خير، وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ أي: هناك لعنةٌ أخرى تلبسهم يومَ القيامةِ، ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ﴾ أي: كفروا بربهم، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ دعاء عليهم أن يبعدَهُم الله من رحمتِهِ، وهو واقعٌ بهم لأنَّ مصدره ربُّ العزةِ الذي لا رادَّ لقضائه، ولا ملغي لأمره.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرسلَ اللهُ تعالى هوداً إلى قومِهِ عادٍ، فأمرهم بعبادةِ الله تعالى وأعلمهم بأنه لا يسألهم على دعوتِهِ إياهم مالاً، فأجرُهُ على الله تعالى، وأمرهم بأن يستغفروا ربَّهم، ثم يتوبوا إليه.

٢- عارضَ قومُ هودٍ هوداً، وأنكروا أنْ يكون قد جاءَهم بحجَّةٍ تدلُّ على صدقِهِ، وزعموا أنَّ بعضَ آلهتهم قد أصابَه بسوء.

٣- أغضب ما قاله قومُ هودٍ هوداً، فاشتدَّ في خطابه لهم، وأشهدَ اللهَ وأشهدهم أنه بريءٌ من آلهتهم التي يعبدونها، وطلبَ منهم أن يكيدوه جميعاً من غير إمهال، وأعلن لهم أنَّه متوكِّلٌ على الله تعالى، الذي هو آخذ بنواصي الدوابِّ كلها.

٤- أعلن هودٌ ﷺ لقومه، أنَّه بلغهم ما أرسله اللهُ تعالى به إليهم، وأنَّه قادرٌ سبحانه على أن يهلكهم، ويأتي بقومٍ غيرهم.

٥- لَمَّا جاءَ أمْرُ الله تعالى بإهلاكِ قومِ هودٍ، نجَّى اللهُ هوداً ومَنْ معه برحمةٍ منه، وأهلك الكفارَ زمن قومِ هودٍ الذين كذَّبوا بحجج الله التي جاءتهم، وعَصَوْا رسلَه، واتبعوا أمرَ الجبابرةِ من قومهم.

٦- أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنه أتبع الكفارَ من قوم هودٍ في هذه الدنيا لعنةً، وكذلك في يوم القيامةِ، فقد كان قومُ هودٍ كافرين.

النص القرآني الثامن من سورة هود
قصة رسولِ الله صالحٍ ﷺ مع قومِهِ ثمود

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آيات هذا النص بقصةِ نبيِّه صالحٍ مع قومِهِ ثمود، الذين كانوا في شمال الجزيرة العربية، بين المدينة المنورة وتبوك، فأمرهم بالتوحيد، ونهاهم عن الشركِ، فرفضوا دعوته، وكفروا به، وأخرج لهم من الصخر الأصمِّ ناقةً عشراءَ، تشرب ماءَ بئرهم يوماً، ويشربونه يوماً، فلم يصبروا عليها، وعقروها، فأهلكهم اللهُ تعالى، ونجَّى صالحاً والذين آمنوا معه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود:٦١-٦٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أرسلَ اللهُ تعالى رسولَهُ صالحاً إلى قومِهِ ثمود:

أرسل اللهُ -تعالى- إلى ثمودَ أخاهم صالحاً، وثمودُ قبيلة كانت تسكن في مدائن الحِجْر، بين تبوك والمدينة، وكان قومُ نوحٍ أولَ الأمم في الأرض، وأنشأ الله بعد هلاكهم عاداً، وجاءَت ثمودُ بعد قوم عادٍ، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ ﴾ [هود:٦١]، أي: وأرسلنا إلى قبيلةِ ثمودَ أخاهم صالحاً، أي: أخوهم في النسب.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [هود:٦١] فأمرهم بعبادةِ الله تعالى وَحْدَهُ، فهو الإلهُ الواحدُ الذي يستحقُّ العبادةَ دون غيره ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾، أي: ويدلُّ على استحقاقِهِ وَحْدَهُ العبادةَ دون غيره، أنه هو الذي أنشأكم من الأرض، أي: ابتدأ خلقكم بخلقِ أبيكم آدمَ ﷺ، ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عمّارَها وسكانها ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ [هود:٦١]، أي: سلوه المغفرةَ من ذنوبكم، ومن أعظم ذنوبهم عبادةُ الأصنام، أمرهم أن يستغفروه استغفاراً يؤدي بهم إلى التوبةِ والإنابة إلى الله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ٦١﴾ [هود:٦١]، أي: إن دعوتموه بصدْقٍ فإنه قريبٌ يجيبُ دعوةَ الداعي إذا دعاه.

٢- ردُّ قوم صالح على ما دعاهم إليه، وما أجابهم به:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ قومَ صالح ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ [هود:٦٢]، أي: كنا قبلَ أنْ تدعونا إلى ما دعوتنا إليه نرجو أنْ نسودك، ونجعلكَ فينا رئيساً مطاعاً، ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾ [هود:٦٢] ولامه قومُهُ على نهيِهِ إياهم أن يعبدوا ما كان يعبد آباؤهم، وقالوا له: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾، أي: وإننا لفي شكٍّ مما تدعوننا من عبادةِ الله وَحْدَه، وتركِ عبادةِ الأوثانِ، وقوله: ﴿مُرِيبٖ﴾ والريب قلق النفس وانتفاء الطمأنينة.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ صالحاً خاطب قومَهُ قائلاً: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ [هود:٦٣]، قال صالحٌ مخاطباً قومَهُ أرأيتم إن كنت على بينة من ربي، أي: على حجَّةٍ ظاهرةٍ وبرهان آتٍ إليَّ من ربي، ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ المرادُ بالرحمةِ هنا النبوةُ، فهي أعظمُ رحمةٍ، وقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ أي: لا أحد يمنعني من عذابِ الله إن عصيتُهُ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ أي: إنما تزيدونني بتثبيطكم إياي غير تخسير، بأنّ تجعلوني خاسراً بإبطالِ عملي، والتعرضِ لعقوبةِ ربي.

٣- أعطى اللهُ تعالى قوم صالح ناقة خرجت من الصخر الأصم لتكون آيةً تدلُّ على صدقة:

أخرج اللهُ تعالى لقوم صالحِ الناقةَ آيةً تدلُّ على صدقة وقال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾

[هود:٦٤]. وقدأخرج اللهُ لقومِ صالحٍ هذه الناقةَ من الصخر الأصمِّ من لحمٍ ودم، وكانت تشربُ ماءَ بئرهم يوماً كاملاً، ويأخذوا منها من الحليبِ ما شاؤوا وفي اليوم التالي لا تقربُ ماءَهم ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء:٢٦]، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر:٢٨]، وقد أمرهم صالحٌ أن يتركوا الناقةَ تأكلُ من أرضِ الله، وتشربُ من ذلك الماءِ، ولا يمسوها بسوء، فيأخذهم عذابُ الله تعالى.

فتمادى قومُه، وطَغَوْا، وعقروا الناقةَ، فأخذهم العذابُ بعد ثلاثةِ أيامٍ من عقرِ الناقةِ ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥].

٤- **نزولُ العذابِ بثمودَ:**

ولما جاء أمْرُ الله تعالى القاضي بإنزالِ العذاب بثمودَ نجّى اللهُ تعالى صالحاً والذين آمنوا معه برحمةٍ من عنده، ونجَّاهم من خزي ذلك اليوم، ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ﴾ [هود:٦٦] والخزيُ الذلُّ والمهانةُ، وكان عذابُهم بالصيحة، وقولُ صالحٍ في ختام الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود:٦٦]، أي: القادرُ الغالبُ الذي لا يعجزه شيءٌ، ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود:٦٧-٦٨]، أخذت ثمودَ الصيحةُ بعد مضيِّ ثلاثةِ أيام، صاح بهم مَلَكٌ، فماتوا، وجاءتهم الصيحةُ من السماء، وكان مع الصيحةِ رَجْفَةٌ أيضاً ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف:٧٨] ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: ساقطين على الأرض صَرْعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية، قد لصقوا بالترابِ كالطيرِ إذا جثمت ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ﴾ أي: كأن لم يقيموا في تلك الديار، ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ﴾ صَرَّحَ بكفرهم للدعاءِ عليهم، ثم قال: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: ألا أبعد اللهُ ثموداً لنزول العذاب بهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرسل اللهُ تعالى رسولَهُ صالحاً ليأمر قومه بعبادةِ الله وحْدَهُ وتركِ ما يعبدُ من دونه، وقد دعاهم صالحٌ إلى ما أمَرَهُ اللهُ تعالى أن يدعوهم إليه، وأعلمهم أنَّ اللهَ تعالى أنشأهم مِنَ الأرض، واستعمرهم فيها، وطلب منهم أن يستغفروا ربَّهم، ويتوبوا إليه.

٢- رفضَ قومُ صالحٍ دعوةَ نبيهم صالح، وبين لهم صالحٌ أنه واثقٌ من أنه مرسلٌ إليهم، ولديه الحججُ البينةُ التي تدلُّ على صدقِهِ فيما جاء به.

٣- أخرج اللهُ -تعالى- لقومِ صالحٍ الناقة آيةً عظيمةً من الصخرِ الأصمِّ، كانت تشربُ ماءَ بئرهم يوماً، ويشربون ماءَه يوماً، وفي يوم شربها، يأْخذون ما شاؤوا من لبنها.

٤- اعتدى قومُ صالحٍ وطغَوْا وعقروا الناقةَ، فمتَّعهم اللهُ تعالى ثلاثةَ أيام، ثم أخذتهم الصيحةُ والرجفةُ، فأهلكهم ربُّ العزة، ونجَّى صالحاً والذين آمنوا معه.

النص القرآني التاسع من سورة هود
مرورُ ملائكةِ الرحمنِ بنبي الله إبراهيم فبشروه بالولدِ في طريقهم لإهلاكِ قومِ لوطٍ

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النص أنَّ ملائكةَ الرحمنِ مَرُّوا في طريقهم إلى ديارِ قومِ لوطٍ -حيث أُرسلوا لإهلاكهم- على خليلِ الرحمنِ إبراهيم عليه السلام، فبشروه وزوجَهَ بإسحاقَ ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبُ، وأخبروه أنهم أُرسلوا لإهلاك قوم لوط.

لقد جاء رسلُ الله مِنَ الملائكة من عند الله بأمرين متناقضين، الأول: بشرى لإبراهيم وزوجِهِ بالولدِ، وولدِ الولد، وسيكون من هذه الذرية أممٌ عظيمة، فيها الرسلُ والأنبياءُ والصالحون. والثاني: تدميرُ أمّةٍ قائمةٍ كفرت وأشركت، هي قومُ لوطٍ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود:٦٩-٧٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مجيءُ الملائكةِ نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ ملائكةَ الرحمنِ جاؤوا إبراهيمَ عليه السلام، يحملون له البشرى بالولدِ من عند الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود:٦٩]، واللامُ في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ﴾ الموطئةُ للقسم، وقوله:

﴿جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: رسلنا من الملائكةِ وكانوا في صورةِ رجال، فلم يعرفْ إبراهيمُ أنهم ملائكةٌ في أوّل الأمر، فلما وصلوا إلى مسْكَنِهِ ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي: قالوا: سلاماً عليكم، وهذا يدلُّ على أنَّ تحيةَ السلامِ كانت معروفةً في تلكَ الأيام، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: ردَّ عليهم إبراهيمُ تحيتهم بمثلها، ثم سارعَ إبراهيمُ ﷺ بإحضارِ الضيافةِ، وقوله: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي: ما تأخَّر، وما أبطأ ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ أي: عجلٍ مشويٍّ، وهذا يدلُّ ما كان عليه إبراهيم من كَرَم الضيافةِ.

ولكن الضيوفَ لم يتقدموا لتناول الطعام، ولم يمدُّوا أيديهم لتناوله ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ [هود:٧٠]. أي: استنكر عَدَمَ قبولِ تناولِ طعامِهِ، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: فَزِعَ منهم في قلبه، وعادةُ الناس أنَّهم يفزعون، ويتخوفون إذا امتنع الضيوفُ من تناولِ الطعامِ الذي قدموه لضيافتهم، لأنَّ في هذا مَظِنَّةً أنهم يريدون بهم شرّاً، عند ذلك كشفوا له حقيقةَ أمرهم ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود:٧٠]، أي: عرَّفوا إبراهيمَ ﷺ أنَّهم ليسوا بشراً، بل هم رسلُ الله تعالى مِنَ الملائكةِ، أرسلهم ليهلكوا قومَ لوطٍ، فذهب عن إبراهيم الرَّوعُ عندما علم أنَّهم ملائكةٌ، فالملائكةُ لا يأْكلون الطعامَ، والملائكةُ لا يخيفون نبيَّ الله إبراهيم ﷺ، والآية تدلُّ على قدرةِ الملائكة على التشكُّل في صورةِ رجالٍ من البشرِ.

٢- الملائكة تبشِّر سارةَ بالولدِ وولدِ الولدِ:

كانت امرأةُ إبراهيم قائمةً تخدم ضيوفها، أو واقفةً بجوارهم، فلما سمعتْ ما أخبروا إبراهيم به ضحكت فلما ضحكت بشروها بأنها ستلدُ غلاماً اسمه إسحاقَ، وبشَّروها بأنَّ إسحاقَ سيأتيه ولدٌ يسميه يعقوبَ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود:٧١] وقد أخطأ من ظنَّ من المفسرين أن ضَحِكَ زوجةِ إبراهيم كان بَعْدَ البشارةِ، لأن الآية تقول: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا﴾ فالفاءُ تدلُّ على الترتيبِ والتعقيبِ، وهذا يدلُّ على خطأ من فسَّر الضحكَ بالحيضِ بدعوى أنهم بشروها بالولدِ فضحكت، أي: حاضتْ، فالضحكُ كان قبل التبشير بالولدِ.

وفي هذه الآيةِ ردٌّ على ما حَرَّفه اليهود في التوراةِ حيث زعموا أنَّ الذبيحَ من أبناء إبراهيم هو نبيُّ الله إسحاق، إذ كيف يُبَشَّر إبراهيمُ بإسحاقَ، ويُبَشَّر بأنَّ إسحاقَ سيأْتيه ولدٌ

يسميه يعقوبَ، ثم يؤمرُ إبراهيمُ بذبحِ إسحاقَ، مع الإخبار عنه، وهو لا يزالُ في عالمِ الغيب بأنه سيأتي منه ولد يسمى يعقوب.

وهذه البشرى وإنْ كانت لإبراهيم، إلاَّ أنَّ الملائكةَ خاطبت بها سارةَ زوجتَه، ليدلَّ ذلك على أن الولَدَ سيكون لإبراهيم من زوجته سارة، لا من زوجةٍ غيرها.

فلما سمعت سارةُ زوجةُ إبراهيم البشرى بالولدِ وولدِ الولدِ عجبتْ واستغربتْ و﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود:٧٢]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ زوجَ إبراهيم سارة لما سمعتْ البشرى، لم تضحكْ كما ذهبَ إليه بعضُ المفسرين، وإنما قالت متعجبةً مستغربةً: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ أي: يا هلاكي، ولم ترد بذلك الدعاءَ على نفسها، ولكنها قالت هذه الكلمةَ التي تقولها الناسُ كثيراً إذا حزبهم أمرٌ فظيعٌ مستغربٌ، وقالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ أي: أألدُ وأنا عجوزٌ، والعجوزُ الشيخةُ الكبيرةُ، والجمعُ عجائز، وقالت: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ﴾ والبعلُ: الزوجُ، والشيخُ: الرجلُ الكبيرُ، الذي لا تحبل النساءُ من مثله، وقالت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ أي: غريبٌ متعجب منه. وقد أخبرنا ربّنا تبارك وتعالى في موضعٍ آخر أنها لم تكتفِ بهذا القول، ولكنَّها مع ذلك ضربتْ وجهها بيدها ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات:٢٩].

وهذا الذي فعلته سارةُ يردُّ على من يزعم على أنَ ولادَةَ المرأةِ في مثل هذا السنِّ، لم يكن مستغرباً في تلك الأيام.

فلما سمع الملائكةُ ما قالته سارة ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود:٧٣]. قال الملائكةُ لسارة ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ﴾ وهذا السؤالُ منهم للإنكارِ، فالله قادرٌ على كلِّ شيء، وقادرٌ على أنَّ يعطي المرأةَ الولدَ، ولو أصبحت عجوزاً في سنِّ سارةَ، وقوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ﴾ هذا دعاءٌ من الملائكة لسارة وزوجها نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، قالوا: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، ورحمةُ الله واسعةٌ، وبركاته عليكم يا أهل البيت، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ والحميدُ الذي تحمد أفعالُه، وهو بمعنى المحمود، والماجدُ، وهو ذو الشرف والكرم.

٣- إبراهيم عليه السلام يجادلُ الملائكةَ في قومِ لوطٍ:

يخبر اللهُ -تبارك وتعالى- أنه ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود:٧٤]. يُخبرُ تعالى أنه لما ذهب عنه الروعُ، وهو ما أوجس من الملائكةِ خيفةً

حين لم يتناولوا طعامه، ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: بإسحاقَ ومن وراءِ إسحاقَ يعقوب ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ أي: في إنزالِ العذابِ بهم، وقد أثنى ربُّ العزة على رسولِهِ وخليله إبراهيم بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود:٧٥]، أي: كان إبراهيمُ ﷺ حليماً، أي: واسعَ الصدر ذا أناة، وكان أوّاهاً، أي: كثيرَ التأوه، وقيلَ الأوّاهُ: الرحيمُ، منيب: أي رجّاعٌ إلى ربِّ العزةِ سبحانه.

وقد قالت رسلُ الله تعالى لإبراهيم: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود:٧٦]، طلبت رسلُ الله تعالى من إبراهيمَ أن يعرضَ عمّا يجادلُهم ويخاصمهم فيه، وقالوا له: إنه جاء أمرُ ربِّكِ بإهلاكِ قوم لوطٍ وإذا جاء أمرُ الله تعالى فإنَّه لا يؤخر، وإنه واقعٌ بهم عذابٌ غيرُ مردودٍ، أي: لا يستطيعُ أنْ يوقفه أو يردَّه أحَدٌ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذ النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- جاءتْ الملائكةُ رسولَ الله تعالى إبراهيمَ في صورةِ رجالٍ، فقدَّمَ لهم الضيافةَ، فلما لم يأكلوا منها نكرهم، وأوجس منهم خيفةً، فكشفوا له حقيقةَ أمرهم وأنهم لا يأْكلون لأنهم ملائكة.

٢- حملت الملائكةُ إلى زوجةِ إبراهيم البشرى بالولدِ وولدِ الولدِ لها ولزوجها رسولِ الله إبراهيم ﷺ، فلما تعجبت من هذه البشرى التي تجعلها تلدُ في مثلِ هذه السنِّ، فأعلموها أنَّ اللهَ قادرٌ على كلِّ شيءٍ، ورحمته وسعت كلَّ شيء.

٣- الملائكةُ عندهم القدرةُ على التشكل بغير الخلقةِ التي خلقهم اللهُ عليها، كما تشكلت الملائكةُ الذين جاؤوا إبراهيمَ في صورةِ الرجالِ الذين استضافهم.

٤- الملائكةُ لا يأْكلون ولا يشربون، خلافاً لما زعمه اليهودُ في التوراة.

٥- جادلَ إبراهيمُ ﷺ رسلَ الله من الملائكة في إهلاكِ قومِ لوطٍ، فأعلموه بأنَّ ذلك أمر قد قُضِيَ، وفُرِغَ منه، ولا بدَّ أنْ يقع كما قدَّره اللهُ تعالى.

٦- أثنى ربُّ العزةِ على رسولِهِ وخليله إبراهيم بأنَّه حليمٌ أوّاه منيب.

٧- حملَ الملائكةُ في رحلةٍ واحدةٍ أمرين متناقضين، حملوا البشرى لإبراهيم بولدٍ يأتيه على كبره وكبر زوجته، وسينشأ من ذريته أُمم عظيمة، وحملوا التكليفَ بإهلاكِ قومِ لوطٍ.

النص القرآني العاشر من سورة هود
إهلاك الله تعالى قوم لوط

أولاً: تقديم

حدثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النص أنَّ الرسلَ من الملائكةِ الذين جاؤوا إبراهيمَ، وصلوا إلى لوطٍ في صورةِ شُبَّانٍ حسانٍ، واستضافوه، فساءَه مجيئُهم، وضاقَ صَدْرُه بهم، وقال: هذا يومٌ عصيبٌ، وجاءَه قومُه مسرعين يريدونَ الفجورَ بضيوفِه، فحاول أنْ يردَّهم بكلِّ ما أوتي من قوةٍ في الخطابِ، ولكنَّهم أصرُّوا على تحقيقِ مرادهم، فكشفت الملائكةُ للوط عن حقيقة أمرهم، وطالبوه أن يخرجَ من القريةِ هو وأهله، ويسري بهم في الليل، ولا يلتفتْ منهم أحَدٌ، فالتفتتِ امرأتُه، فهلكت، وأنزلَ اللهُ تعالى عذابَهُ بقوم لوط مع شروقِ الشمسِ، وجعل عاليها سافلها، وأمطرَ على القومِ المعذبين حجارة من سجيلٍ منضودٍ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾ [هود:٧٧-٨٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مجيءُ رسل الله من الملائكة لوطاً عليه السلام:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ رسلَ اللهِ مِن الملائكةِ جاؤوا لوطاً بعد خروجهم من عند نبيِّ الله إبراهيم: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾﴾ [هود:٧٧]، وكانت الملائكةُ في صورة شُبَّانٍ حسان الوجوه، فسيءَ بهم نبيُّ الله لوطٌ، أي: ساءَه

مجيئُهم، لأنه لم يكن يعلم أنّهم ملائكةٌ، وخاف عليهم قومَهُ أنْ يفعلوا بهم الفاحشةَ، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: وضاقت نفسُهُ بسببهم، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ أي: هذا يوم شديدٌ، لأنه يعلم أنّه سيحصل مواجهةٌ بينه وبين قومِهِ بسبب ضيوفِهِ.

٢- المواجهةُ بين لوطٍ وقومِهِ:

بعد أن جاءت ملائكة الرحمن إبراهيم وبشروه بما بشروه به، جاؤوا لوطاً في صورة شباب حسان الوجوه، فسيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود:٧٧].

لقد ساء مجيئُهم لوطاً، وضاق بهم، فقد خشي عليهم قومه، ووقعَ ما ظنَّ لوطٌ أنه سيقعُ ويحدثُ ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:٧٨]. يخبرنا ربُّنا –تبارك وتعالى– أنَّ قومَه جاؤوه ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: جاؤوه مسرعين مهرولين لما بلغهم خبرُ استضافةِ لوطٍ لهؤلاءِ الشبان، ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: كانوا يقترفون جريمةَ اللواطِ، فلما رأى لوطٌ ﷺ جموعَهُمْ تتدفقُ إليه، وقد أحاطوا منزله، وطرقوا عليه بابه، وطالبوه أنْ يسلِّم إليهم ضيوفَهُ، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود:٧٨] نادى لوطٌ قومَهُ، وقال لهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أرادَ ببناتِهِ نساءَ قومِهِ، لأنَّ نبيَّ كلِّ قوم بمثابة أبٍ لهم، وكذلك كان رسولنا ﷺ، وكانت نساؤه أمهات للمؤمنين، وإلا فلو كان المرادُ تزويجهم بناتِهِ من صلبه، فما تغني البنت والبنتان والثلاثةُ مع تلك الجموعِ الكثيرةِ من الرجالِ، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

وقال لهم في خطابه إيَّاهم: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:٧٨] أي: إن إتيانَ الرجالِ زوجاتهم من النساءِ هو طريقُ الطهرِ والفضيلةِ الذي شرعه اللهُ تعالى وسنَّه، وإتيانُ الرجالِ الذكورِ طريقُ الرذيلةِ والقذارةِ والفجورِ، وقال لهم لوط: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود:٧٨]، قال لهم في ختام كلامه معهم: اتقوا اللهَ ربّكَمْ بمخافتِهِ، وفعلِ ما أمَرَ وترك ما نهى، ومِنْ ذلك اجتنابُ ما كانوا يمارسونه مِنَ اللواط، وقال لهم: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: لا تفعلوا بضيفي فعلاً أخزى به، أي: أخجلُ منه، وأستحي منه، وقال لهم: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ أليس فيكم رجلٌ عاقلٌ يرشدُكُم إلى ترك هذا العملِ القبيح،

ويمنعكم منه؟ فأجابوه جواباً مغرقاً في الجهل: ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾ [هود:٧٩]، قالوا له: أنت تعلم أنَّه ليس لنا ببناتك حقٌّ وأنت تعلم ما نريده من إتيانِ الذكورِ، ومن عجبٍ أن يتكلم هؤلاء الضالون الفجرة عن الحقوقِ، في الوقتِ الذي ينتهكون فيها الحقوقَ.

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود:٨٠]، قال لوطٌ عليه السلام: لو أنَّ لي بكم قوةً، أي: جيشاً يحميه، ويدافعُ عنه، أو عشيرةً قويةً تأْتمر بأمره، وتدفعُ ظلم هؤلاءِ الظالمين، والركنُ الشديدُ هو الذي يحميه، ويدافعُ عنه، أي: لكنت واجهتكم، وأدبتكم، ودفعتكم عن نفسي وضيفي، ونحن نقولُ في هذا المقامِ كما قالَ رسولُنا ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ لوطاً، لقد كانَ يأْوِي إلى رُكْنٍ شديدٍ» [البخاري: ٣٣٨٧. ومسلم: ١٥١ عن أبي هريرة رضي الله عنه].

٣- الملائكةُ يظهرونَ أنفسهم للوطٍ ويأمرونَهُ أن يخرج بأهله من تلك القرى:

ولما بلغ الأمرُ بلوطٍ إلى تلك الحالِ الصعبة التي قالَ فيها لوطٌ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ كشفَ الملائكةُ للوطٍ عن أنفسهم وعرَّفوه أنهم ليسوا شباناً حساناً يسهل أخذُهم والفجورُ بهم، إنَّهم ملائكةُ الرحمن الذين آتاهم من القوةِ ما لا يستطيع البشرُ أن يمسُّوهم بسوءٍ ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود:٨١].

وقد يسأل الذي يتدبر القرآن عن السبب الذي أخفى الملائكةُ أنفسهم عن لوطٍ من أجله، حتى وصلَ به الحالُ إلى هذه الدرجةِ من الضيقِ، والجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى -والعلم عند الله- أراد أن تحصلَ للوطٍ قناعةٌ قويَّةٌ بأنَّ قومه يستحقون العذابَ، فإنَّ نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام لو شاهدَ هذا الذي شاهده لوطٌ لما جادل رُسُلَ الله من الملائكةِ بذلك الجدال في شأن إيقاعِ العذابِ بقومِ لوطٍ.

كشف الملائكةُ عن أنفسهم، وقالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ [هود:٨١] أي: ملائكته الذين لا يستطيع البشر أن يضروهم شيئاً، أرسلنا لإهلاكهم، وإنهم ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ [هود:٨١] أي: لن يستطيعوا الوصولَ إليكَ وإلى ضيفك بمكروه، وهذا يدلُّ على أنَّ قومه لم يستطيعوا أنْ يدخلوا عليه دارَه، وقد ضربتهم الملائكةُ بأجنحتها فطمستْ أعينهم، كما قال ربُّ العزة: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ [القمر:٣٧]، وأمروه أن يسيرَ بأهله في آخرِ الليلِ ﴿ فَأَسْرِ

بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود:٨١]، أي: لا يلتفت منكم أحدٌ وراءَه، فإنَّ من يلتفت يصِبه من العذابِ ما أصابَ قومَ لوطٍ، ولذلك قال: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود:٨١] أي: لكن امرأتك، فقدْ أخبر أنها ستلتفت، وأنه سيقعُ بها من العذاب ما وقع بقومها، فقد كان قلبها معهم، وإن كان جسدها مع لوط.

وختم الآيةَ بما قالته الملائكةُ للوط: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود:٨١] أي: إنَّ موعدَ عذابِهِمْ عندما يسفر صبح تلك الليلِ وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ هذا استفهامُ تقريري، ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ والجواب: نعم، هو قريب.

٤- **إنزال العذابِ بقومِ لوطٍ:**

ومع شروقِ الشمسِ من تلك الليلةِ التي عانى فيها لوطٌ ما عاناه نزل العذابُ بتلك الأُمّةِ الفاجرةِ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر:٧٣-٧٤]. وقال ربُّ العزةِ في هذا الموضع من هذه السورةِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود:٨٢-٨٣]. أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه لما جاء أمرُه بإيقاعِ العذابِ بتلك الأمّةِ الكافرةِ الضالةِ التي انتكستْ فطرتُها فجعل اللهُ تعالى عالي تلكَ الأرضِ سافلها، فدفنهم اللهُ تعالى في جوفِ تلك الأرضِ، هم ونساؤُهم وأولادُهم وحيوانُهم، وأمطر عليهم حجارةً من سجيلٍ، أي: حجارةً مصنوعةً من سجينٍ، أمطرها اللهُ على المعذَّبين من تلكَ الأمم، وقوله: ﴿مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ أي: أن هذه الحجارةَ من مخازنَ منضودٍ بعضُها فوق بعض، وهذه الحجارةُ مسوَّمة، أي: مصنوعةٌ صناعة دقيقةً، وعليها علاماتٌ اللهُ أعلم بها ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ وهي ليست ببعيدةٍ عن الكفرة المشركين، إنْ شاء الله تعالى أهلكهم بمثلها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- جاءَت رسلُ الله مِنَ الملائكةِ لوطاً متمثلين في صورةِ شبابٍ حسانٍ، واستضافوه، فساءَه مجيئهم، وضاق صدرُه بذلك، وقال: هذا يومٌ عصيبٌ، أي: شديدٌ.

٢- جاء قومُ لوطٍ يريدون الاعتداءَ على ضيوفِهِ، فحاول أن يثنيهم عن إهانةِ ضيوفه وإهانته بكلِّ ما أوتي من قوةٍ في الخطاب، ولكنَّهم أصروا، وشعر لوطٌ بضعفه، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾﴾.

٣- كشف رسلُ الله مِنَ الملائكةِ عن حقيقةِ أمرهم للوطٍ، وطالبوه أن يخرج من تلك القريةِ هو وأهلُه، ولا يلتفتْ منهم أحدٌ، فلم يلتفت منهم إلا زوجتُه فإنها كانت كافرةً، فأصابها ما أصابَ قومَها.

٤- أهلك اللهُ تعالى قومَ لوطٍ مع شروقِ الشمس، وجعل اللهُ عاليها سافلها، وأمطر اللهُ تعالى حجارةً من السماءِ مصنوعةً من سجيلٍ منضودٍ، مصنوعة صناعةً مُتْقَنَةً عند الله.

٥- الحجارةُ التي عُذِّب بها قومُ لوط لا يزال يوجد أمثالها، ويمكن أن تنال الظالمين في كل عصرٍ ومصر.

النص القرآني الحادي عشر من سورة هود
قصةُ نبيِّ الله شعيبٍ عليه السلام مع قومِهِ أصحابِ مدين

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النص أنه أرسل رسولَه شعيباً إلى قومِهِ آمراً إياهم بعبادةِ الله وحْدَهُ، وترك ما يعبدونه من الآلهةِ من دونِه، وقد كان منتشراً فيهم التطفيفُ في الكيلِ والميزان، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بإتمام الكيلِ والميزانِ، فرفضوا دعوته، فحاورهم طويلاً، وجاءَهم بالحججِ والبيناتِ، والدلائلِ الظاهراتِ، فلما طالَ الأمرُ بهم، وأصرُّوا على كفرهم، استأصلهم ربُّ العزة بالصيحةِ، ومعها الرجفةُ والظلَّة، فزالوا وبادوا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود:٨٤-٩٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أرسل اللهُ تعالى شعيباً عليه السلام إلى قومِهِ:

أرسلَ اللهُ تعالى شعيباً إلى قومه بعبادةِ الله وحده، ونهاهم أنْ يعبدوا غيره، ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [هود:٨٤]، وهذه القضيةُ هي القضيةُ الرئيسةُ التي يشتركُ الرسل جميعاً في الدعوةِ إليها، وهي عبادةُ الله تعالى وَحْدَهُ، وتركُ ما يُعبد من دونه، ثمَّ إنَّ كل رسول يدعو قومه إلى تَرْكِ الفسادِ الذي تلبسوا به دون غيرهم، فلوطٌ نهى قومَه عن اللواط، لأنه كان منتشراً فيهم، وشعيبٌ نهاهم عن التطفيفِ في الكيلِ والميزانِ، وهكذا على الدعاةِ اليوم في كلِّ عصر ومصر، أنْ يدعو الناسَ إلى عبادةِ الله وحده، والانتهاء عن الإشراك بالله تعالى، ثم ينفردُ كل داعيةٍ بمعالجةِ ما يثورُ في الديارِ التي يعيشُ فيها من الفسادِ، فمَنْ كان ينتشر في دياره الزنا، دعا إلى ترك الزنا، ومن انتشر في دياره السرقةُ دعا قومه إلى ترك السرقة، ومن انتشر في دياره الربا، فعليه أن يحاربَ الربا، وهكذا.

٢- نهى رسول الله شعيب قومه عن التطفيفِ في المكيالِ والميزان:

نهى رسولُ الله شعيبٌ قومَه عن التطفيف في الميزانِ، وكانوا يفعلونه، ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ [هود:٨٤]، كان قومُ شعيبٍ يطففون الكيلَ والميزانَ، وذلك بأن يأخذوا ممن يشتروا منه الكيلَ والميزانَ زائداً إذا هم اشتروا، وإذا باعوا ما يكالُ ويوزن باعوه ناقصاً، قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي: إني أرى أرزاقكم وافرةً، وتجارتكم رابحةً، وأموالكم وفيرةً، فأنتم لستم بحاجة إلى أكل أموالِ الناسِ بالباطل، وما تفعلونه من التطفيف في الميزانِ يدمِّر اللهُ تعالى به أموالكم، ويذهبُ أرزاقكم ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ أي: وإني أخاف عليكم إنْ أنتم استمررتم بالشركِ بالله والتطفيفِ في الميزانِ أن يأخذكم عذابُ يومٍ لا يشذُّ عنه أحدٌ.

وأمرهم رسولُهم أنْ يوفوا الكيلَ والميزانَ ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ [هود:٨٥]. أمرهم رسولُهم عليه السلام أنْ يوفوا الناسَ حقَّهم بيعاً وشراءً، وأن يحققوا العدلَ في ذلك كلِّه، فالعادلُ في بيعه وشرائه لا يطففُ في الميزانِ، وقوله: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي: لا تنقصوهم، ولا تظلموهم، ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ أي: لا تسيروا في الأرض مفسدين والمفسدُ هو المخرِّبُ للديارِ والزروعِ والثمارِ، والمدمِّرُ للإنسانِ والحيوانِ.

وقال شعيبٌ لهم: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود:٨٦] قال لهم: بقيةُ الله، أي: ما آتاه لكم بعد أن توفوا الناسَ حقوقهم بالمكيالِ والميزانِ، خيرٌ لكم مما تبخسونه الناسَ مِنْ أموالهم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيدِه وحلالِه وحرامِه.

٣- ردَّ قوم شعيب عليه، وما أجابهم به:

وقد أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بمَ أجابَ قومُ شعيبٍ شعيباً: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧]. وجَّه قومُ شعيبٍ إلى شعيبٍ سؤالاً منكرين عليه مستهزئين به قائلين: أصلاتُكَ تأمرك أنْ نتركَ ما يعبدُ آباؤُنا، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاءُ من الأخذِ والإعطاءِ والزيادةِ والنقصِ؟

إن قومَ شعيبٍ وغيرَهم كثيرٌ في مختلفِ العصورِ، يظنون أنَّ من حقِّهم أنْ يعبدوا ما يشاؤون، وأحقُّ شيءٍ يعبدُ ما كان يعبده الآباءُ والأجدادُ، ومن حقِّهم أنْ يتصرَّفوا في أموالهم كما يشاؤون، وكيف يشاؤونَ، والرسلُ وأتباعهم يعلِّمون الناسَ أنَّ لهم ربّاً يشرِّعُ لهم في أنفسِهِمْ وأزواجِهِمْ وأولادِهِمْ ومجتمعاتِهم وأموالِهِمْ، ويجب على الناس أن يطيعوا ربَّهم فيما شرع لهم، وسيحاسبُهم على ذلك كلِّه.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ لقد كان شعيبٌ في قومِهِ مثل رسولنا ﷺ في قومه، فقد كان عندهم أصدقَ الناسِ وأكرمَ الناسِ وأجلَّ لناس، وقد قالوا له: «ما جربنا عليك كذباً» [البخاري: ٤٩٧١، ومسلم: ٢٠٨].

فأجاب شعيبٌ قومَهَ مفقهاً ومبصراً لهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود:٨٨]. قال لهم: أخبروني إن كنتُ على بينةٍ من ربي، أي: على طريقةٍ صحيحةٍ وحجَّةٍ واضحةٍ، وهذه البينة هي ما أوحاه اللهُ تعالى إليه، وقال لهم: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: رزقني من عنده مالاً كثيراً واسعاً حلالاً، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ وما أريدُ بنهيي لكم عن التطفيفِ في الكيلِ والميزانِ وبخسِ الناسِ أشياءَهم أنْ أُخالفكم إلى ما نهيتكم عنه، فهو ملتزمٌ في نفسه بما دعاهم إليه، وقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ

﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أي: ما أريد بما أمرتكم به ونهيتكم عنه إلا إصلاحَ دينكم ودنياكم، ودفعَ الفسادِ عنكمُ في دينكم ودنياكم، وهذا شأنُ الرسلِ وأتباع الرسلِ على دينهم الحقِّ، كلُّهم يريدون الإصلاحَ، ودينهم يريدُ الإصلاحَ، ولكنَّ الإصلاحَ قائمٌ على أصولٍ وقواعدَ موضوعة من عند الله.

وقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: وما توفيقي في إصابةِ الحقِّ إلا بتوفيقٍ مِنَ الله تعالى، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: في جميعِ أموري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ أي: أرجعُ إلى الله تعالى في كل ما نابني من الأمور.

وأعلمنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ شعيباً قال لقومِهِ: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود:٨٩]، أي: لا تحمِلَنَّكم عداوتي وبغضي على الإصرارِ على ما أنتم عليه من الكفرِ والفسادِ، فيصيبكم مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ، أو قومَ هودٍ، أو قومَ صالحٍ، من النقمةِ والعذاب. وقال لهم: ها هم قومُ لوطٍ المعذبين ليسوا منكم ببعيد، أي: غير بعيدين منكم، لا في المكانِ، ولا الزمانِ.

وقال لهم شعيبٌ أيضاً: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٩٠]. قال لهم: استغفروه من سالفِ الذنوب، وتوبوا إليه مما تستقبلونه من السيئات، ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ أي: إنَّ ربي رحيمٌ بأوليائِه الذين صَدَّقوا رسلَهُ، وهو سبحانه وتعالى ودودٌ، أي: محبٌّ لعباده المؤمنين به، المخلصين في عبادته.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ قومَهُ أجابوه قائلين: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود:٩١]. قالوا له: لا نفقه يا شعيبُ، أي: لا نفهم كثيراً مما تقوله لنا، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي: ضعيفاً في قدراتِكِ وبدنك، فنحن أقوياءُ بكثرتنا وعددنا، وأنت ضعيفٌ ببدنك وجسدك، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ أي: لولا عشيرتُك لقتلناك بالرجم، وما درى هؤلاء المساكين أنَّ شعيباً أقوى منهم، فهو قويٌّ بقوةِ الله، واللهُ تعالى له جنودُ السمواتِ والأرضِ، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ أي: ليس لك عندنا تقدير، ولا معزَّة.

فأجابهم شعيبٌ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود:٩٢]، قال لهم مُبكِّتاً ومقرِّعاً: أتتركوني لأجلِ عشيرتي

وقومي، ولا تتركوني إعظاماً لجنابِ الله الذي اصطفاني وأرسلني إليكم، فاللهُ تعالى يهتمُّ إذا أساءَ الناسُ إلى رسلِهُ وأنبيائه، فللرسل والأنبياء عندِ الله مقامٌ محمودٌ ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ أي: اتخذتم اللهَ وراءَكم ظهريّاً، أي: اتخذتم شَرْعَه ودينه وراءَكم و﴿ظِهۡرِيًّاۖ﴾ أي: نبذتموه خلفَ ظهوركم فإنكم لا تطيعونُهُ، ولا تعظمونه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾﴾ أي: علمُهُ محيطٌ بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عليه خافية من أمركم.

وقال شعيبٌ لقومِهِ في آخر ما قاله مِنْ هذا الحوارِ الطويلِ الهادئ الذي استوعب الردَّ عليهم ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾﴾ [هود:٩٣]. ويبدو أنَّ نبيَّ الله بعد ذلك الحوار الطويلِ مع قومه قد يئس من إيمانهم، فقال لهم متهدداً متوعداً: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي: اعملوا على غايةِ تمكنكم ونهايةِ استطاعتكم، فأنا عامل على هذا النحو، ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ أي: سوف تعلمون من ينزلُ به عذاب من عند الله يذهبُ به، ويقضي عليه، وستعلمون من هو كاذبٌ في قولِهِ وطريقتِهِ ومذهبِهِ، ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾﴾ أي: فأنا منتظرٌ معكم، أنتظر قضاءَ الله وقدره فيَّ وفيكم.

٤- نزول العذاب بقوم شعيب:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لما جاءَ أمْرُ الله تعالى بعذابِ قومِ شعيب نجَّى شعيباً والذين آمنوا معه، وأهلك الكفارَ مِنْ قومِهِ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود:٩٤-٩٥].

أنجى اللهُ -تعالى- شعيباً والذين آمنوا معه مِنَ العذاب برحمتِهِ سبحانه، وأخذت الذين ظلموا، أي: الكفارَ الصيحةُ، واللهُ تعالى أعلم بعظمِ هذه الصيحةِ التي دمرتهم وأهلكتهم، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في سورة الأعراف أنه أخذهم بالرجفةِ، وأخبرنا في سورةِ الشعراءِ أنه أخذهم عذابُ يومِ الظلَّة، وهذا يدلُّ على أنَّ ربَّ العزةِ قد أخذهم بهذه الأنواع الثلاثةِ، فقد رجفتْ الأرضُ بهم من تحت أرجلهم، وأخذتهم الصيحةُ من السماء، فأسكتتهم وأخمدتهم، وأخبرنا اللهُ تعالى في الشعراء أنهم ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ [الشعراء:١٨٩].

وغدتْ أرضُ مدينَ بعد هلاكِ أهلها خاليةً، كأن لم يكن بها أحدٌ، وكأنْ لم تعمر ديارها ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي: لم يعيشوا فيها، وختم قصتهم بقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ أي: بُعداً لهم من رحمة الله تعالى، كما بَعِدتْ ثمودُ من رحمة الله.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرسل اللهُ -تبارك وتعالى- إلى مدينَ رسولَهُ شعيباً بالأصل العظيم الذي أرسل به جميعَ المرسلين، وهو عبادةُ الله الواحدِ الأحدِ، وتركُ ما يعبدُ من دونه.

٢- كان قومُ شعيبٍ مع شركهم بالله تعالى يطففون في المكيالِ والميزانِ، فنهاهم رسولهم شعيبٌ عن ذلك، وأمرهم بإيفاءِ المكيالِ والميزان، وقد أُمِرْنا أُمَّةَ محمدٍ ﷺ بهذا الأصل، وأنزلَ اللهُ سورةً سمَّاها اللهُ تعالى باسم المطففين.

٣- رفضَ قومُ شعيبٍ طاعتَه فيما دعاهم إليه من توحيدِ الله في عبادتِهِ، والتطفيف في الكيلِ والميزانِ.

٤- كان نبيُّ الله شعيبٌ عليه السلام فهيماً لبيباً، يحسنُ أبعاد ما يخاطبُ به قومه، ويحسنُ الردَّ عليهم بجوابٍ فيه الحججُ والبيناتُ بأسلوبٍ سهلٍ، فيه عاطفةٌ جيَّاشَةٌ، تقوم على النصحِ، وحبِّ الخيرِ لهم.

٥- قال شعيبٌ لقومه: إنّه على بينةٍ من ربِّه، فلا شكَّ عنده ولا ريبَ، وما رزقه اللهُ مِنَ المالِ فهو طيبٌ حلال، وهو يعملُ وفقَ ما أمرهم به، ولا يخالفُ فعلُه قولَه، وهو يريد إصلاحَ نفوسهم، ومجتمعهم.

٦- خَوَّف شعيبٌ قومَه أنْ يصيبَهم من العذابِ مثلُ ما أصابَ قومِ نوحٍ، أو قومِ هودٍ، أو قومِ لوطٍ.

٧- أمر هودٌ قومه أن يستغفروا اللهَ من ذنوبهم التي ارتكبوها، ويوطنوا أنفسهم على التوبةِ مما سيقع منهم من الذنوبِ.

٨- ازدادَ قومُ شعيبٍ طغياناً وكفراً، وزعموا أنهم لا يفقهون قولَهُ، ولولا عشيرتُهُ وأقاربُه لقتلوه رجماً، وصرَّحوا له أنهم لا يحترمونه، ولا يقدرونه.

٩ - لم يغضب شعيبٌ، ولم يثأر لكلامِ قومه، ولكنه فقه ما فيه وأحسنَ الجوابَ، وناقشهم في توقيرهم لرهطه، وعدم التفاتهم لمحبَّة ربهم وتوقيره، وطالبهم بأن يعملوا قدرَ ما يستطيعون على طريقتهم ومنهجهم، فعذاب الله آت، وسيتبين من سيذل ويخزى ومن هو كاذب.

١٠ - نزل العذابُ بقوم شعيبٍ، فأنجا اللهُ شعيباً ومن معه من المؤمنين، وأهلك قومَه الكافرين بالصيحةِ، ومع الصيحة الرجفة والظلة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يعيشوا في تلك الديار.

النص القرآني الثاني عشر من سورة هود
طرفٌ من قصة موسى عليه السلام مع فرعون

أولاً: تقديم

حدثنا اللهُ تعالى في آياتِ هذا النص طرفاً موجَزاً عن خبر موسى عليه السلام مع فرعونَ، وكيف اتبعه ملؤُه على ضلالِهِ وكفرِهِ، وكيف يقودُ قومَه إلى النارِ في الآخرةِ، كما قادهم إلى الكفرِ والضلال في الدنيا.

وعقَّبَ ربُّ العزة على الحديثِ الطويلِ الذي قصَّه علينا من أنباءِ القرى، وأخبرنا أنَّ بعضَ القرى التي حدَّثنا عنها لا يزال قائماً، ومنها ما قد زال واندثر.

وأعلمنا ربَّنا -تبارك وتعالى- أنه لم يظلم العباد بتعذيبهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم بكفرهم، وأعلمنا أنَّ الآلهة التي كانوا يعبدونها لم تدافعْ عنهم، ولم تَحْمِهِم، ولم تزدهم إلا خساراً. وبيَّن لنا في خاتمةِ الآياتِ حالَ الأشقياءِ وحالَ السعداءِ ومصيرَ كلٍّ منهم يومَ القيامة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود:٩٦-١٠٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أرسل اللهُ تعالى موسى إلى فرعونَ وملئه:

أخبرنا ربُّنا ومولانا العظيمُ سبحانه بأنه أرسل رسولَهُ موسى ﷺ إلى فرعونَ وملئِه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود:٩٦-٩٧]، وقد كان فرعونُ الذي أرسلَ الله تعالى إليه موسى مختلفاً بعضَ الشيء عن قومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وقوم صالح وغيرهم من الرسل والأنبياء، فقد كانت أممُ هؤلاءِ الأنبياءِ يعبدونَ الأصنامَ والأوثانَ، أما الفرعونُ الذي أرسل إليه موسى، فقد رَفَعَ نفسه إلى مرتبةِ الألوهية، وأقام نفسَه مقامَ الإله الذي يُعْبَدُ من دون الله ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النازعات:٢٣-٢٥].

وقد أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه أرسلَ موسى بالآياتِ البيناتِ والحججِ الواضحاتِ، وبعضُ هذه الآياتِ متلوَّةٌ، تتضمن وحيه وشرعَه، وهي التوراةُ، وبعضُها معجزاتٌ ظاهراتٌ كالعصا واليد وغيرها من الآيات التي بلغت تسعاً.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أرسله إلى فرعونَ وملئه، والملأُ أشرافُ قومِهِ وزعماؤُهم، ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ لقد كفر فرعونُ، وتابعه أشرافُ قومِهِ على كفره وضلاله، و﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ المنهجُ الذي اختطَّه ليعبِّدَ فيه أهلَ مصرَ لطغيانه، و﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ ليس برشيدٍ، أي: ليس فيه رشد ولا هُدى، وإنها هو كفر وشرك وضلال.

٢- قيادة فرعونَ قومَه يومَ القيامةِ إلى النار:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى وتبارك- أنَّ فرعونَ كما قادَ قومَهُ إلى الكفرِ والضلالِ في الدنيا يقودُ قومَهُ يومَ القيامةِ إلى النارِ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود:٩٨]، أخبرنا ربُّنا -القويُّ الغالب سبحانه- أنَّ فرعونَ يكون يومَ القيامةِ سابقَ قومه وعلى رأسِهم، يسير أمامَهُمْ، ويسيرون خلفه، فيوردُهم -والعياذُ بالله ربِّنا- النارَ، ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ و﴿الْوِرْدُ﴾ الماءُ الذي يردُه الناسَ والموضعُ الذي يأتونه، والوردُ الذي أورده فرعون قومه النارُ، والنارُ بئس ما يُدْخِلُهُ إنسانٌ قومَهُ.

وأخبرنا -ربُّنا ومولانا سبحانه وتعالى- أنَّ فرعونَ وقومَه أُتْبِعُوا في الحياةِ الدنيا لعنةً، ثم أُتبِعوا في الآخرة لعنةً أخرى ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

[هود:٩٩]. واللعنُ: الطردُ من رحمةِ الله، وقولُهُ: ﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾ أي: في الحياةِ الدنيا، وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: زيدوا يومَ القيامةِ لعنةً أُخرى، وقوله: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝٩٩﴾ والرِّفْد: العونُ، أي: بئس العونُ المعانُ ولا شكَّ أنَّ ما حصلوا عليه بئس ما يمكن أنْ يحصلَ امرؤٌ عليه، فقد ترافدت عليهم لعنتان: لعنةُ الدنيا، ولعنةُ الآخرة.

٣- ما قصَّهُ الله -تعالى- علينا فيه عظةٌ وموعظةٌ:

أعلمنا ربُّنا -العليم الخبيرُ- أنَّ ما قصَّه علينا من قصص الماضين هو موعظةٌ للمؤمنين ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠﴾ [هود:١٠٠] والمشارُ إليه باسم الإشارة هو القصصُ الذي قصَّهُ علينا فيما سبقَ من هذه السورة الكريمة، و﴿أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أخبارُها، وقولُه: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠﴾ أي: بعضُ تلك القرى قائمٌ، لا نزال نراه ونشاهده، وبعضُها قد زالَ وتلاشى، فقرى قومِ نوحٍ ليس لها أثر ولا معلم، وقرى هودٍ اكتشف الموضعُ التي هي فيه مطمورٌ تحت الرمالِ، وقرى قومِ صالحٍ بعضها تلاشى وذهب، والمحفورُ في الصخر لا يزال قائماً إلى اليوم، وقد لا يزالُ بعضُ قرى فرعون قائماً.

وأخبرنا ربُّنا -العظيمُ سبحانه- أنَّه ما ظلم أهل تلك القرى بتدميرهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بكفرِهِمْ ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾ [هود:١٠١].

أخبرنا ربُّنا -العزيزُ الحكيمُ سبحانه- أنَّه لم يظلم الكافرين الظالمين عندما أهلكهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم بسببِ كفرهِم وشركهم، وأخبر الحقُّ -سبحانه وتعالى- أنَّ آلهتهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها من دون الله لم تغنِ عنهم شيئاً، أي: لم تنصرهم، ولم تمنعهم من عذاب الله، وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾ أي: أنَّ تلك الآلهة زادت الأقوامَ التي عبدوها من دون الله خسراناً.

وأعلمنا ربُّنا -القويُّ الغالبُ سبحانه- أنَّ أخذَهُ وتعذيبَهُ أليمٌ شديدٌ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود:١٠٢]. أي: أنَّ عذاب الله عندما ينزل بالقرى الظالمةِ الكافرةِ، فإنه عذابٌ مؤلم موجعٌ، وهذا يظهر من عذابِ القرى المهلكة، فإن عذابه فيها عذاب مؤلم.

وقد روى أبو موسى ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظالم، حتى إذا أخذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢][البخاري: ٤٦٨٦، ومسلم: ٢٥٨٣].

٤- عذابُ الأممِ المكذبةِ آيةٌ وعظةٌ لمن خافَ عذابَ يومِ القيامةِ:

أخبرنا ربُّنا -العليُّ الأعلى سبحانه وتعالى- أنَّ في عذابِ المعذبين آيةً لمن خاف عذابَ يومِ القيامةِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود:١٠٣]. أي: إنَّ في ذلك العذابِ الشديدِ الذي أخذَ به الأممَ الماضيةَ آيةً لمن خاف عذابَ يومِ القيامةِ، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: الناسُ كلُّهم، لا يتخلّفُ منهم أحدٌ، وقولُه: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: يشهدُه الرسلُ والأنبياءُ، ويشهدُه الملائكةُ، ويشهده الحيوانُ والطيرُ والدوابُ.

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود:١٠٤]، أي: وما نؤخر إقامةَ يومِ القيامةِ إلا لمدةٍ مؤقتةٍ يعلمها ربُّ العزة سبحانه، لا يزاد فيها، ولا ينقص منها.

٥- حالُ الناسِ يومَ القيامةِ:

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن يومِ القيامةِ، وأخبرنا أنَّه يومٌ مجموعٌ له الناس، وأنَّه يومٌ مشهودٌ، وأنه لا يؤخِّرُهُ إلا لأجلٍ معدودٍ، ثم حدَّثنا بعد ذلك أنه ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [هود:١٠٥-١٠٦] يقولُ ربُّ العزَّةِ سبحانه: إنه عندما يأتي ذلك اليوم، لا يتكلم أحدٌ إلاَّ بإذنِ الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ:٣٨]. وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: الناسُ في ذلك اليومِ يقسمون إلى قسمين: ﴿شَقِىٌّ﴾ أي: شقي بدخوله النارَ بسببِ كفرِهِ وشركِهِ. ﴿وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: سعدَ بدخولِهِ الجنَّة بإيمانه وعمله الصالحات.

ثم أخبرنا ربُّنا ومولانا -تبارك وتعالى- عن حالِ الأشقياءِ والسعداءِ، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود:١٠٦-١٠٧].

أخبرنا ربُّنا -العليمُ الحكيمُ- سبحانه وتعالى أنَّ الذين شقوا، أي: كفروا فمصيرُهم النارُ، لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ، قال ابن كثير: «تَنَفُّسُهم زفيرٌ، وأخذهم النفسَ شهيقٌ» [ابن كثير: ٣/٥٥٦]. وهذا لونٌ من ألوانِ العذابِ يأخذُ أهلَ النار، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾ [هود:١٠٧]، أي: خالدين في النار ما دامت السمواتُ والأرضُ، وليس المرادُ بالسمواتِ والأرضِ هذه الموجودة في الدنيا، فقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّه في القيامةِ تتبدَّلُ الأرضُ غير الأرضِ والسمواتُ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ﴾ [إبراهيم:٤٨]. وكلُّ مخلوقٍ فله أرضٌ وسماء، ولا بدَّ، فالنارُ لها أرضٌ وسماءٌ، والجنَّةُ لها أرضٌ وسماء، فهم في النار ما دامت السمواتُ والأرض، والسمواتُ والأرضُ خالدة، وكذلك الكفار خالدون في النار، وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾ هذا الاستثناءُ لعصاةِ الموحدين الذين يدخلونَ مدةً من الزمان ثم يخرجون من النارِ بشفاعةِ الشافعين، ورحمةِ ربِّ العالمين، وليس هو استثناء من خلود الكفار من النار، وقد دلَّت على ذلك مجموعةٌ من الأحاديثِ الصحيحة المتواترة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود:١٠٧] أي: كلُّ ما يريده يفعله، فهو قادر على كلِّ شيء.

وقال ربّ العزة سبحانه فيما يعطي السعداء: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود:١٠٨] والذين سعدوا هم المؤمنون أتباعُ الرسل، فمصيرهم الجنَّةُ، خالدين فيها ما دامت السمواتُ والأرضُ إلا ما شاء الله، وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: غير مقطوع. وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنه بعد دخول أهل النارِ النارَ، ودخول أهل الجنةِ الجنةَ، يذبح الموت بين الجنة والنار، روى أبو سعيدٍ الخدريُّ ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يؤتى بالموتِ كهيئةِ كَبْشٍ أملَحَ، فيُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنةِ، فيشرَئِبُّونَ وينظرونَ، فيقولُ: هل تعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه، ثم يُنادي: يا أهلَ النارِ، فيشرَئِبُّونَ ويَنظرونَ، فيقولُ: هل تعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ: نعم هذا الموتُ، وكلُّهم قد رَآه، فيُذبَحُ، ثم يقولُ: يا أهلَ الجنةِ، خُلُودٌ فلا موتَ، ويا أهلَ النار، خُلُودٌ فلا موتَ». ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم:٣٩] [البخاري: ٤٧٣٠. ومسلم: ٢٨٤٩].

وحدثنا رسولنا ﷺ أنَّ أهلَ الجنةِ في عافية مستمرَّة، وشباب دائم، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدريِّ وأبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «ينادي مُنادٍ: إنَّ لكُمْ أنْ تَصِحُّوا فلا

تَسْقَمُوا أبداً، وإنَّ لكُمْ أنْ تَحْيَوْا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكُمْ أن تَشِبُّوا فلا تهْرمُوا أبداً، وإنَّ لكم أنْ تَنْعَمُوا فلا تَبْأسوا أبداً» فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف:٤٣] [مسلم: ٢٨٣٧].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أرسلَ رسولَه موسى إلى فرعونَ وأشراف قومِهِ، فاتبعوا ما كان عليه فرعون من الضلالِ والكفر.

٢- أعلمنا ربُّنا أنَّ المنهجَ والمسارَ الذي كان عليه فرعونُ مسارٌ ضالٌّ جائرٌ، فهو ضالٌّ والذين تابعوه، وساروا على إثْرِه ضالون.

٣- قاد فرعون قومَه في الدنيا إلى الكفرِ والطغيانِ، وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ فرعونَ كما قادَ قومَهُ إلى الضلالِ في الدنيا، فإنَّه يقودُ قومَه في الآخرةِ إلى النارِ وغضب الجبارِ، وبئسَ الموردُ الذي يقودهم فرعون إليه.

٤- أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ فرعونَ وجنده بعد أن أغرقهم اللهُ تعالى في البحر أتبعهم في هذه الحياةِ الدنيا لعنةً، وهناك لعنةٌ أخرى ستلحقهم في الآخرة.

٥- عقَّبَ اللهُ تعالى على هذا القصص الذي قصَّهُ علينا بأنه من أنباءِ الغيب، وأعلمنا أنَّ من هذه القرى الظالمة ما لا تزال آثاره قائمةً ومنها الذي زال واندثر.

٦- الكفار الذين أنزل اللهُ تعالى بهم عذابَه لم يظلمهم اللهُ تعالى، ولكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم.

٧- لم تغنِ الآلهةُ التي كان يعبدُها أصحابُها عنهم شيئاً عندما نزل بهم العذابُ، ولم تزد عبادةُ تلك الآلهةِ أهلَها إلا خساراً.

٨- أخذ اللهُ تعالى أهلَ القرى المعذَّبةِ أخذاً شديداً موجعاً.

٩- الذين يتعظون بما حلَّ بالمعذبين هم الذين يؤمنون بالآخرة، ولذلك ترى الكفارَ اليوم يمرُّون بديارِ المعذبين، ولا يتعظون.

١٠- يومُ القيامةِ يومٌ عظيمٌ، يجمع اللهُ تعالى فيه الناسُ جميعاً، وهو يومٌ مشهودٌ، يشهده الرسلُ وجميعُ الملائكة.

١١- إذا جاءَ يومُ القيامةُ، فلا يتكلم أحدٌ إلا بإذنٍ من ربِّ العزة.

١٢- الناسُ يوم القيامةِ شَقِيٌّ مصيرُه النارُ، له فيها زفيرٌ وشهيقٌ، خالدين فيها أبداً، وهناك فريقٌ آخر هم الذين سعدوا، وهؤلاء مصيرهم الجنة خالدين فيها أبداً.

النص القرآني الثالث عشر من سورة هود
توجيهات الله تعالى للرسول ﷺ والمؤمنين تسدّدهم في صراعهم مع المشركين

أولاً: تقديم

في آياتِ هذا النص توجيهاتٌ إلهيةٌ ربانية لرسولِهِ ﷺ ولأصحابه، تسدِّدُهم وترشدُهم إلى الفقهِ الأمثلِ، وتبينُ لهم المسارَ الذي ينبغي أنْ يسلكوه مع ربِّهم، وتنهاهم عنِ الركونِ إلى الكفارِ كي لا تمسَّهم النارُ، وتأمرهم بالمحافظةِ على الصلاةِ طرفي النهارِ وزلفاً من الليل، فالحسناتُ تكفِّرُ السيئاتِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود:١٠٩-١١٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهى اللهُ تبارك وتعالى رسوله ﷺ أنْ يكونَ في مِرْيَةٍ مما يعبد قومُه:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يكونَ في مِرْيَةٍ مما يعبُد قومُه، فقال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود:١٠٩] ورسولُنا ﷺ لم يكن يشكُّ، والأمرُ وإن كان موجهاً إليه، فالمرادُ غيرُهُ من أمته، على حدِّ قولِ العربِ: إياكِ أعني، واسمعي يا جارة.

والمريةُ: الشكُّ والريبُ، وقوله: ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ من الأصنامِ والأوثانِ وغيرِها، ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ فعبادتُهم كعبادة آبائهم مِن قبلِهم، أي: فهم وآباؤُهم

ضالُّون ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: سنوفيهم نصيبهم مِنَ العذابِ بسبب شركهم وكفرهم يومَ القيامةِ غير منقوصٍ، أي: ولن ينقصهم ربُّهم مما وعدهم شيئاً.

٢- مواساة اللّهُ -عزَّ وجل- رسولَه ﷺ بأنَّ موسى فُعِلَ به كما فعل برسولنا:

قال اللهُ -تبارك وتعالى- لرسولِهِ ﷺ مسلِّياً إياه في تكذيبِ مشركي قومه به: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود:١١٠]، واللامُ في ﴿وَلَقَدْ﴾ موطئةٌ للقَسَم، يقول الله تعالى لرسوله: لقد آتينا موسى الكتابَ، وهو التوراةُ، كما آتيناكَ القرآنَ، ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ﴾ أي: آمن به بعضٌ، وكفر به آخرون، كما آمن بعضُ الناسِ بالقرآن، وكفر به آخرون، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ أي: ولولا أنَّ اللهَ تبارك وتعالى قضى وحكم أنْ يوقع العذابَ في أجل مسمى محددٍ، لأوقعَ بهم العذابَ عند اختلافهم، ولذلك أخَّر اللهُ تعالى عذابَ فرعونَ وملئِه طويلاً، ولم يعاجلهم بالعقوبةِ، وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ أي: كان قومُ موسى في شكٍّ من التوراةِ مريب، أي: موقع في الريبة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ [هود:١١١]. والمعنى: وإنَّ كلَّ هؤلاءِ الذين قصصنا عليك يا محمد قصصهم في هذه السورة، لمن لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ربُّك أعمالهم بالصالحِ منها بالجزيل من الثواب، وبالطالح منها بالشديد مِنَ العقابِ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ أي: إنَّ الله -تبارك وتعالى- بما يعمل هؤلاء المشركونَ من قومك خبير، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم وأقوالهم، وسيجازيهم يومَ القيامةِ على ما قدَّموا.

٣- أمر اللّهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ والمؤمنين معه بالاستقامة:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ والذين تابوا معه وهم المؤمنون بالاستقامة ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود:١١٢]، ويحقِّق العبدُ الاستقامةَ بالأخذ بدينِ الله تعالى، بفعلِ ما أمر اللهُ به، وترْكِ ما نهى عنه، والذين تابوا معه الذين آمنوا به وصدَّقوه، ونهاه هو والذين آمنوا معه عن الطغيانِ فقال: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ﴾ أي: لا تَعْدوا أمْرَه، ولا تتجاوزوا حدوده ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾، أي: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- بما

يعملُ عبادُه بصيرٌ، فهو عالمٌ بأعمالهم، لا يخفى عليه منهم شيءٌ، فهو يراهم حيثما كانوا، مبصر لهم مطلع عليهم.

ونهى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ عن الركونِ إلى الذين ظلموا، فتمسَّ الراكنين النارُ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود:١١٣]، نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ والمؤمنين عن الركونِ إلى الكفرةِ والمشركين، والركونُ إليهم يكون بالميلِ والسكونِ إليهم وموالاتهم، فإن فعلتم، أي: ركنتم إليهم مَسَّتْكُم النارُ، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: لا تجدون أحداً يمنعكم، ويحميكم من عذابِ الله تعالى.

٤- أمَرَ اللهُ تبارك وتعالى عبادَه بإقامِ الصلاةِ، فالحسناتُ يذهبن السيئاتِ:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ والمؤمنين معه بإقامة الصلاةِ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود:١١٤]. أَمَرَ اللهُ -تعالى- المؤمنين أن يقيموا الصلاةَ طرفي النهار، وزلفاً من الليل، والطرفُ الأول صلاة الفجر، ولم يختلف المفسرون في ذلك، وأصحُّ ما قيل في الطرف الثاني أنه صلاةُ المغربِ، وهذا قولُ ابن عباسٍ واختيار ابن جرير [تفسير الطبري: ٦/ ٤٤٣٦]. وقولُهُ: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ الزلَفُ: جمعُ زلفةٍ، والزلفُ: أولُ ساعات الليل، واحدتُها زلفة [تفسير الواحدي: ١١/ ٥٨١].

٥- الحسنات يذهبن السيئات:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الحسناتِ يذهبن السيئاتِ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]. وقد نزلتْ هذه الآيةُ في رجلٍ قارفَ معصيةً، فأتى رسولَ الله ﷺ ، فأخبره، فنزلت هذه الآية.

روى البخاريُّ عن ابنِ مسعودٍ: أنَّ رجلاً أصابَ من امرأةٍ قُبْلَةً، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبرَه، فأنزَلَ الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤] فقال الرَّجلُ: يا رسولَ الله، أَلِي هذا؟ قال: «لجميعِ أُمَّتي كلِّهم» [البخاري: ٥٢٦. ومسلم: ٢٧٦٣].

وعن أبي هريرة، أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أرأيتُم لو أنَّ نَهَراً بباب أحدِكم يغتَسِلُ فيه كلَّ يوم خمساً، ما تقولُ ذلك يُبْقي من دَرَنِه؟» قالوا: لا يُبْقي من دَرَنِه شيئاً، قال: «فذلكَ مِثْلُ الصلَوَاتِ الخمسِ يَمْحُو اللهُ به الخطايا» [البخاري: ٥٢٨. ومسلم: ٦٦٧].

وعن حُمْرانَ مولى عُثمانَ أخبَرَه: أنَّه رأى عثمانَ بنَ عفانَ دعا بإناءٍ فأفرَغَ على كَفَّيه ثلاثَ مِرارٍ فغَسَلَهما، ثم أدخَلَ يَمينَه في الإناءِ فمَضْمَضَ واستَنشَقَ، ثم غَسَلَ وجهَه ثلاثاً ويَدَيه إلى المِرفَقَينِ ثلاثَ مِرارٍ، ثم مَسَح برأسِه، ثم غَسَلَ رِجليهِ ثلاثَ مِرارٍ إلى الكَعْبينِ، ثم قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من توضَّأَ نحوَ وُضوئي هذا، ثم صَلَّى رَكْعتَينِ لا يُحدِّثُ فيهما نَفْسَه، غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذَنبِه» [البخاري: ١٥٩. ومسلم: ٢٢٦].

وعن أبي هريرةَ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «الصلاةُ الخَمْسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، كفَّارَةٌ لما بينَهُنَّ. ما لم تُغْشَ الكبائرُ» [مسلم: ٢٣٣ (١٤)].

وعن أبي هريرةَ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يقولُ «الصلواتُ الخمسُ. والجمعةُ إلى الجمعةِ. ورمضانُ إلى رمضانَ. مُكَفِّراتٌ ما بينهُنَّ. إذا اجْتَنَبَ الكبائرَ» [مسلم: ٢٣٣ (١٦)].

وهذه الأحاديثُ الدالةُ على عظم ما تكفره من الذنوب، لا تقصر التكفيرَ على الصلاةِ، فالآية تنص على أن الحسناتِ يذهبن السيئاتِ، ومن الحسناتِ الصلاةُ والزكاةُ، والصومُ، والحجُّ، والذكر، وغير ذلك، ولكن تبقى الصلاةُ أعظمُ الحسناتِ التي تكفِّر السيئات.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: هذا الذي أعلمنا به ربُّ العزةِ من أنَّ الركونَ إلى الذين كفروا يوجبُ مسَّ النارِ، وأنَّ الحسناتِ يذهبن السيئاتِ، فيه ذكرى للذاكرين.

وقال اللهُ تعالى معلِّماً وموجهاً ومصبِّراً: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود:١١٥]، أي: اصبر على ما تلقاه من أذى مشركي قومِك، فإنَّ الله تعالى لا يضيعُ أجر المحسنين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يكونَ في شكٍّ من بطلانِ ما يعبده المشركون من قومِه، فهم على ضلالٍ وباطلٍ كما كان آباؤُهم من قبل.

٢- أنزلَ اللهُ تعالى التوراةَ على موسى فآمَنَ بعضُ الناسِ بها، وكفر آخرون، كما فعلَ الناسُ بالقرآنِ الذي أنزله اللهُ على رسولِهِ محمدٍ ﷺ، ولولا أنَّ اللهَ تعالى وضعَ موعداً لعذابِ قومِ موسى لقضي بينهم.

٣- أمرُ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ والمؤمنين معه بالاستقامةِ على أمرِ الله تعالى ونهاهم عن تجاوزِ أمْرِهِ، ونهاهم عن الركونِ إلى الذين ظلموا، أي: المشركين، فتمسُّهم النار.

٤- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنينَ بإقامةِ الصلاةِ طرفي النهارِ وزلفاً من الليل، وأخبر سبحانه أنَّ الحسناتِ يذهبن السيئات.

٥- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يصبرَ على أذى قومه، ويحتسبُ الأجرَ عند الله، فإنَّ الله لا يضيعُ أجرَ المحسنين.

النص القرآني الرابع عشر من سورة هود

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -عز وجل سبحانه- أنَّ الذين كانوا ينهون عن الفسادِ في الأرض في الأممِ السابقةِ فئة قليلةٌ، لقلَّةِ المؤمنين فيهم، وأنَّه سبحانه لم يكن ليهلكَ القرى بظلمٍ، وأهلُها مصلحون، وهو قادرٌ سبحانه على جعلِ الناسِ أمَّةً واحدةً على الإيمان، ولكن سنته سبحانه أنهمْ يبقوا مختلفين لما له في ذلك مِنَ الحِكمَةِ، وقضى سبحانه أنه سيملأُ النارَ مِنَ الكفارِ المشركين من الإنسِ والجنِّ.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه يثبتَ قلبَ الرسول ﷺ بما يقصُّه عليه مِنْ أخبار الرسلِ، وأنَّ له غيبَ السمواتِ والأرضِ، لا يخفى عليه من أمرهما شيء، وإليه يرجعُ الأمرُ كلُّه، وأمره بأن يعبدَه وَحْدَهُ، ويتوكَّلَ عليهم وما ربُّك بغافل عما يعملونَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود:١١٦-١٢٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عدمُ وجودِ فئةٍ كثيرةٍ تنهى عن الفسادِ في الأرضِ في الأممِ الماضية:

حدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه لم يكن في الأممِ السابقةِ التي حدَّثنا عنها كثيرٌ من الناس في كلِّ أمة ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود:١١٦]، يقولُ تعالى: فهلاّ كان من القرونِ الذين قصصتُ عليك

نبأهم في هذه السورة الذين أهلكناهم بمعصيتهم وكفرهم برسلي ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي: من أصحاب الدين، ينهون عنِ الفسادِ في الأرضِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: لم يكن من هذا الصنف إلا عدد قليلٌ نجا من الهلاك فالذي آمنَ بنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى من قومِ فرعونِ أعدادٌ قليلة، نجّاهم الله مع رسله، بل إنَّ لوطاً لم يؤمن به أحد من قومه غير ابنتيه، ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي: أنَّ الذين كفروا بالرسل من الأممِ السابقةِ، اشتغلوا بدنياهم المترفةِ، واتبعوا اللذاتِ والشهواتِ، وجروا وراء تنميةِ المالِ، والتوسعِ في الرزقِ، وآثروا ذلك على الاشتغالِ بالآخرة، ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ (١١٦)﴾ أي: آثمين، فاعلين الإجرامَ بما يرتكبونه من الذنوبِ والمعاصي.

٢- لا يهلك اللهُ تعالى القرى بظلمٍ وأهلها مصلحون:

يخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه لا يهلكُ القرى ظالماً لهم إذا كانوا صالحين ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾ [هود:١١٧]، فالقرى الصالحةُ، يرسل اللهُ السماءَ عليها مدراراً، ويمدُّها بأموالٍ وبنين، واللهُ تعالى يعذِّبُ القرى الطالحةَ، التي تمردتْ على الله ورسلِهِ، فيعذبُها جزاءً وفاقاً.

٣- لو شاءَ اللهُ تعالى لجعلَ الناسَ أمةً واحدة:

أخبرنا ربُّنا العليُّ الأعلى سبحانه أنه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

أخبرنا ربُّنا سبحانه وتعالى أنه قادرٌ على أن يجمعَ الناسَ على دينٍ واحدٍ، فيصبحوا أمةً واحدةً، ولكن قضتْ سنتُه في خلقِهِ أن يختلفوا ويتنازعوا ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ وقد اختلفَ الناسُ إلى أديانٍ شتَّى ومللٍ شتى، فاليوم هناك أصحابُ الدين الحقِّ، وهم المسلمونَ، وهناك اليهوديةُ، والنصرانيةُ، والشيوعيةُ، والملحدونَ، واليهودُ تنازعوا إلى فرقٍ، والنصارى تنازعوا إلى فرقٍ، وكذلك المسلمونَ، وفي الحديث: «إنَّ اليهودَ اختَلَفَتْ على إحْدى وسبعين فرقةً، وإنَّ النصارى افترقوا على ثِنْتَيْنِ وسبعينَ فرقةً، وستفترقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، كُلُّها في النارِ إلا واحدة» قالوا: ومن هي يا رسولَ الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» [بنحو هذا اللفظ أخرجه الترمذي: ٢٦٤١، وابن وضاح في البدع: ٢٥٠، والآجري في الشريعة: ٢٣، وابن بطة في الإبانة: ١، ٢٦٤، ٢٦٥، والحاكم في المستدرك: ١/ ٢١٨ (٤٤٤) واللالكائي في أصول الاعتقاد: ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧].

٤- سيملأُ اللهُ -تعالى- جهنَّم من كفارِ الإنسِ والجنِّ:

أخبرنا ربُّنا أنه سبق في قضائِه وقدرِه أنَّه سيملأ جهنَّم من الكفارِ من الجنِّ والإنس ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٩].

وقد وردتْ أحاديثُ توضِّحُ هذه الآيةَ وتبينها، منها ما رواه قتادةُ، عن أنسٍ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «يُلقَى في النارِ، وتقول: هل من مزيدٍ؟ حتى يَضَعَ قَدَمَه، فتقولُ: قَطْ قَطْ» [البخاري: ٤٨٤٨].

وعن أبي هريرة رَفَعَه، وأكثرُ ما كان يوقِفُه أبو سفيانَ: «يقالُ لجهنمَ: هلِ امتلأْتِ؟ وتقول: هل من مزيدٍ؟ فيضعُ الربُّ تباركَ وتعالى قَدَمَه عليها، فتقولُ: قَطْ قَطْ» [البخاري: ٤٨٤٩. ومسلم: ٢٨٤٦].

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «تحاجَّتِ الجنةُ والنارُ، فقالت النارُ: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرينَ، وقالت الجنةُ: ما لي لا يَدخُلُني إلا ضُعَفاءُ الناس وسَقَطُهُم، قال اللهُ تباركَ وتعالى للجنةِ: أنتِ رَحْمتي، أرحَمُ بكِ من أشاءُ من عِبادي، وقال للنار: إنما أنتِ عذابٌ أُعذِّبُ بكِ من أشاءُ من عِبادي، ولكلِّ واحدةٍ منهما مِلْؤُها، فأمَّا النارُ فلا تَمْتَلِئُ حتى يَضَعَ رِجلَه، فتقولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فهُنالكَ تَمْتَلِئُ، ويُزْوَى بعضُها إلى بعضٍ، ولا يظلِمُ اللهُ عز وجل من خَلْقِه أحداً، وأمَّا الجنةُ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُنشِئُ لها خَلْقاً» [البخاري: ٤٨٥٠. ومسلم: ٢٨٤٦].

٥- بيان فائدةُ القصصِ الذي قصَّهُ اللهُ تعالى على رسولِهِ:

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- فائدةَ القصصِ الذي قصَّه الله تعالى على رسولِهِ ﷺ فقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠]، قال اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ: كلاًّ نقصُّ عليك يا محمدُ من أخبارِ الرسلِ الذين كانوا من قبلك، وما جرى لهم مع أقوامهم، وكيف دَعَوْهُمْ إلى الله، وكيف تمردَ عليهم أقوامُهم، وكيف نجَّى اللهُ المؤمنين، وأهلكَ الكافرين، وجاءَكَ في هذه الحقُّ، أي: جاءَكَ في هذه السورةِ المشتملةِ على قصصِ الأنبياء الحقُّ، وجاءك موعظةٌ تعظ الجاهلين، و﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: جاءَكَ ذكرى تذكر بها المؤمنين.

وأمر اللهُ -تبارك وتعالى سبحانه- رسولَه ﷺ أنْ يقول: قل للكفارِ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود:١٢١-١٢٢] أي: قلْ يا محمدُ

للكفارِ الذين لا يؤمنون، ولا يُقِرُّون بوحدانيتي ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي: اعملوا على طريقتكم ومنهجكم ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ أي: على طريقتنا ومنهجنا، ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي: إنّا منتظرون عذاب الله ونقمته، وهذا فيه وعيد وتهديدٌ شديدٌ للكافرين.

٦- لله تعالى غيب السموات والأرض:

أخبرنا ربنا العليمُ الخبيرُ أنَّ له غيبَ السماواتِ والأرضِ ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [هود:١٢٣]، أي: هو العليمُ بكلِّ ما غاب عنا في السمواتِ والأرضِ، لا تخفى عليه سبحانه خافيةٌ، لا في أجواءِ الفضاءِ، ولا في أرضِ الله الواسعة، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣]، أي: إلى الله تعالى يرجعُ الأمرُ كلُّه، فالأمر كلّه لله في الدنيا والآخرة، وقد أمَرَ اللهُ تبارك وتعالى عبدَه ورسولَه أن يعبده وحده لا شريك له، ونهاه عن عبادةِ غيره، وأمره بالتوكّلِ عليه، أي: اعتمد في شأنك كلِّه عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود:١٢٣]، أي: لا يغيب عليه من أمركم شيءٌ، فاللهُ تعالى مطلعٌ على كلِّ شيءٍ، لا يغفل عن عملٍ تعملونه، ولا أمرٍ ترتكبونه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - كان الذين ينهون عن الفسادِ في الأمم الغابرةِ قليلٌ، لقلة المؤمنين.

٢ - اللهُ تعالى لا يهلكُ القرى ظالماً لهم، إذا كانوا مصلحين.

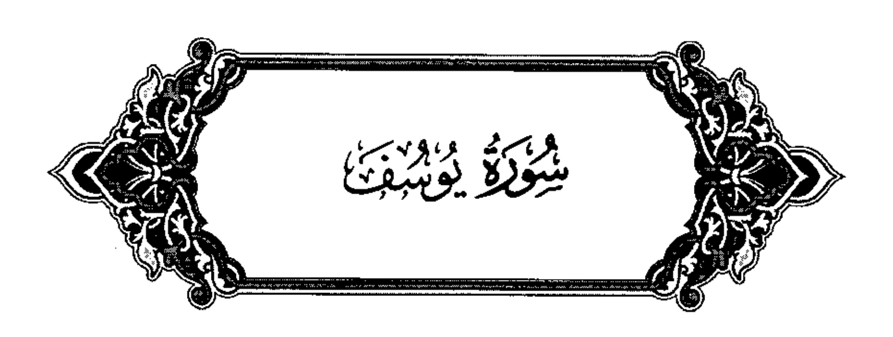
٣- اللهُ تعالى لو شاءَ لجعلَ الناسَ جميعاً على الإسلامِ، ولكنَّ سنته وحكمته اقتضت أن يكونوا مختلفين.

٤ - قضى الله تعالى في الأزلِ أنْ يملأ جهنَّم مِنَ الكفارِ من الجنِّ والإنسِ.

٥- يقصُّ اللهُ تعالى على رسولِهِ من أنباءِ رسله وأنبيائه ما يثبِّتُ به فؤاده، وهو في الوقتِ نفسِهِ مثبِّتٌ لقلوبِ المؤمنين وموعظة وذكرى للمؤمنين.

٦- أمر اللهُ تعالى أنْ يتوعَّدَ الكفارَ، ويقول لهم: اعملوا على مكانتكم إنَّا عاملون، وانتظروا إنّا منتظرون.

٧- اللهُ عالمٌ بما غاب في السمواتِ والأرضِ، وجميعُ الأمورِ ترجعُ إليه، وعلى الرسولِ ﷺ والمؤمنين معه أن يعبدُوه ويتوكلوا عليه، وهو لا يغفل عن أحدٍ من خلقه.



قال أبو عمرو الداني: «سورة يوسفُ مكيَّة ونظيرتها في المدنيين والمكِّي والشامِّي الأنبياءُ، وفي الكوفي سبحانَ، وفي البصري الكهفُ والأنبياءُ، وكلمها ألفٌ وستٌّ وسبعون كلمةً، وحروفها سبعةُ آلاف وثلاثة وأربعون، وهي مائةٌ وإحدى عشرة آيةٍ، ليس فيها اختلاف» [البيان في عدِّ آي القرآن: ص١٦٧].

النص القرآني الأول من سورة يوسف
القصة التي تسوقها هذه السورة أحسن القصص

أولاً: تقديم

أعلمنا ربَّنا تباركَ وتعالى بأنَّ ما يسوقُه في هذه السورةِ أحسنُ القصصِ، وأعلمنا أنَّ يوسفَ ﷺ وهو صغير رأى رؤيا قصَّها على أبيه، فطلب منه والده أنْ لا يقصَّها على إخوانِهِ، خشيةَ أن يحسدوه، ويكيدوا له، وأعلم يعقوبُ ابنَه يوسف أنَّ اللهَ سيعلمه في مقبلِ الأيام من تأويلِ الأحاديثِ، ويعطيْهِ النبوةَ والرسالةَ ويتمُّ نعمته عليه كما أتمها على أبويه إبراهيمَ وإسحاق.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف:١-٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ -تعالى- يقصُّ علينا أحسنَ القصصِ:

افتتح ربُّ العزةِ -سبحانه وتعالى- هذه السورةَ الكريمةَ بالحروفِ المقطَّعةِ ﴿الٓر﴾ كما افتتح السورةَ التي قبلها بالحروفِ نفسها، وقد بينتُ المعنى المختارَ للحروفِ المقطَّعةِ في أوَّلِ سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ [يوسف:١]، ﴿تِلْكَ﴾ اسمُ إشارةٍ موضوعٌ للبعيد، والمشارُ إليه ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: آياتُ القرآن، ﴿ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ الواضح البيِّن الذي يفصحُ عن الأشياء المبهمَةِ ويفسرها ويبينها، واستعمل اسمَ الإشارةِ الدالِّ على البعيد، ليدلَّ على رفعة آياتِ الكتاب وعلوِّها وارتفاعها.

وقال ربُّ العزَّة مثنياً على هذا الكتابِ العظيم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف:٢]. هذا الكتابُ أعظمُ الكتبِ النازلةِ من عند الله، نزل بأشرف لغةٍ، هي اللغةُ العربيةُ، بسفارةِ أشرف الملائكةِ، وهو جبريلُ ﷺ، في أشرفِ بقاعِ الأرضِ، وهي مكةُ، في أشرفِ شهورِ الأرضِ وهو رمضان، على أشرفِ الرسل وهو محمدٌ ﷺ، وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ أي: ما يتلوه الرسولُ عليكم، لأنه نازلٌ بلغتكم.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف:٣]. يقولُ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ نحن نقصُّ عليك أحسن القصص، فالقرآنُ فيه قصصٌ كثير، وقصةُ يوسفَ التي تضمنته هذه السورةُ، هي أحسنُ القصصِ القرآنيِّ الذي أوحاه الله إليه، وقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ أي: لم يكن الرسولُ ﷺ لديه علمٌ بقصَّةِ يوسف قبل أن يوحي اللهُ ما أوحى إليه منها.

٢- رؤيا يوسف التي رآها في صغره:

رأى يوسفُ ﷺ في صغرِهِ رؤيا قصَّها على أبيه ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف:٤]، قال يوسفُ ﷺ لأبيهِ رسولِ الله يعقوبَ ﷺ: يا أبتِ إني رأيتُ، أي: في المنامِ، أحدَ عشر كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي سجدين، وقد تحقَّقَتْ هذه الرؤيا بسجود إخوة يوسفَ الأحدَ عشرَ، وسجودِ أبيه وأمِّه عندما دخلوا عليه في قاعةِ العرشِ في مصر، فالإخوةُ الأحَدَ عشرَ هم الكواكبُ، والشمسُ والقمر هما أبوه وأُمُّه.

٣- نبيُّ الله يعقوبُ ﷺ ينصح ابنه أنْ يكتم رؤياه ولا يقصها على إخوتِهِ:

نصحَ نبيُّ الله يعقوبُ ابنَه يوسفَ ﷺ بكتمانِ رؤياه وعدم إخبار إخوته بها ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ [يوسف:٥]. وإنما نهى يعقوبُ ابنَه عن قصِّ الرؤيا على إخوتِهِ، لأنه عَلِم أنَّ الرؤيا تبشِّر يوسفَ ﷺ بمستقبلٍ زاهر، وتجعله فوقَ إخوتِهِ، وإنْ كان لا يعلم كيف سيتحققُ ذلك، وكان يعلم أنَّ أولادَه إذا علموا بالرؤيا، فإنهم سيعلمون تأويلها، فتثورُ نفوسُهم على يوسفَ، ويعملون على إيقاعِ الأذى بِهِ، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ والشيطانُ يُوغِرُ صدورَ الإخوةِ بعضِهم على بعضٍ، ليوقعَ العداءَ بينهم فهو للإنسانِ عدوٌّ مبين.

وقال يعقوبُ لابنه يوسفُ عليه السلام ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف:٦].

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يصطفيكَ ويختارُك، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: تأويلُ الرؤيا ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ وذلك باصطفاءِ الله لك رسولاً نبيّاً، ويرفعك إلى مرتبةِ الملكِ، ويتمُّ نعمته عليك ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وهم قرابته من إخوتِهِ وأولادِهم من بعدهم، ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ والمرادُ بأبويه إسحاقُ وإبراهيمُ، فالأجدادُ آباءٌ، فقد جعلهما اللهُ تعالى نبيين رسولين، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيءٍ ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعالِهِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أثْنى اللهُ تعالى على آياتِ الكتابِ، فهي في منزلةٍ عاليةٍ كريمة.

٢- أنزل اللهُ تعالى أفضلَ كتبه بأشرفِ لغةٍ، وهي اللغة العربية على أشرفِ رسله محمدٍ ﷺ.

٣- قصة نبيِّ الله يوسفَ التي حدَّثت بها هذه السورةُ أحسنُ قصصِ القرآنِ.

٤- لم يكن رسولُنا ﷺ يعلم شيئاً عن قصةِ يوسف قبل أن أَوْحَى الله بها أوحى إليه.

٥- يوسفُ يحدِّثُ أباه برؤيا رآها في منامه، فقد رأى أحدَ عَشَرَ كوكباً، ورأى الشمسَ والقمرَ ساجدين له.

٦- علم نبيُّ الله يعقوبُ أنَّ الرؤيا تبشِّر يوسفَ بمستقبلٍ زاهرٍ، وسيكون له شأنٌ عظيم، فخشي إن حدَّث يوسفُ إخوته بما رآه أنْ يحسدوه، ويكيدوا له كيداً، ولذلك نهاه أنْ يُحدِّثهم برؤياه.

٧- أعلَم نبيُّ الله يعقوبُ ابنه بما سينعم اللهُ عليه في مُقْبِلِ الزمانِ من نِعَمٍ، كما أنعم اللهُ على أبويه إبراهيم وإسحاق.

النص القرآني الثاني من سورة يوسف
إخوةُ يوسف يلقونَ أخاهم في غيابة الجبِّ

أولاً: تقديم

تآمرَ إخوةُ يوسف على قتل أخيهم أو دَفْنِه، وأخيراً اتفقوا على إلقائه في بئر كان على طريقِ القوافلِ، ليذهب به من يلتقطه إلى ديار نائية بعيدة، بحيث يَخْلُو لهم وجهُ أبيهم، فيفوزوا بمحبته ورضاه، بعد أن يزول السببُ الذي يمنعه من ذلك في نظرهم، وهو وجودُ يوسف، واحتالوا على أبيهم ليأذنَ لهم في الخروج بيوسف، وألقوه في غيابةِ الجبِّ، وأوحى اللهُ إلى يوسف وهو في البئرِ أنه سيخبرهم بفعلتهم الشنيعةِ هذه في مقبلِ الزمان، وهم لا يشعرون.

وجاءَ الإخوةُ في وقت العشاءِ، وظنوا أنَّ الليلَ سيستر كذبهم، ولم تنطلِ على أبيهم دموعُهُم الكاذبةُ، ولم ينطلِ عليه الدمُ الكاذبُ الذي جاؤوا به على قميصهِ زاعمين أنَّ الذئبَ قد أكله، وأخبرهم أنَّه سيصبر على فراقِ يوسفَ صبراً جميلاً، أي: صبراً لا جزعَ معه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف: ٧-١٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لقد كان في يوسفَ وإخوتِهِ آياتٌ للسائلين:

أقسمَ ربُّ العزة -سبحانه- أنه كان في يوسفَ عليه السلام وإخوتِهِ آياتٌ للسائلين، أي: آياتٌ قدَّرها اللهُ وقضاها ﴿ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [يوسف:٧] فقد أوقع اللهُ الحسدَ في قلوب إخوانِهِ، ليأخذوه، ويلقوه في البئر، لتأخذه القافلةُ إلى مصرَ، ليصل هناك بعد مشوارٍ طويل إلى أن يكون عزيز مصر.

والسببُ الذي أوجعَ قلوب إخوتِهِ، أنَّ أباهم كان يحبُّه أكثر مما يحبُّهم، فآذاهم ذلك، و﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف:٨]، لقد تحادثوا فيما بينهم في حبّ أبيهم ليوسفَ وأخيه، أكثر مما يحبُّهم، وهم جماعةٌ، فقد كانوا عشرةً، وحكموا على تصرف أبيهم على هذا النحو بأنَّه في ضلالٍ مبين، مع أنه كان نبياً رسولاً.

٢- تآمرَ إخوةُ يوسف فيما يفعلونه به:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن إخوةَ يوسف قال بعضُهم لبعض: ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يوسف:٩-١٠]. قال بعضُ إخوةِ يوسف وهم يتآمرون فيما بينهم عليه اقتلوا يوسف، أو ادفنوه في الأرضِ، يخلُ لكم وجهُ أبيكم، أي: يصفُ لكم وجهُ أبيكم، فتصبحوا بعد ذهابه قوماً صالحين، لأنَّ الذي كان يحول بينكم وبين أبيكم قد زالَ وذهب، وقد تبيَّنَ فيما بعدُ أنَّ هذا الذي ظنُّوه وتصوروه لم يحدث، فقد بقيَ يعقوبُ على حبِّه ليوسفَ، وما فتئَ يذكره حتى عمي.

وأعلمنا ربُّنا أنَّ واحداً منهم نهاهم عن قتل يوسف، وأمرهم أنْ يلقوه في غيابةِ الجبِّ يلتقطه بعضُ السيارةُ ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يوسف:١٠]. قال أحدُ إخوانَه لبقية إخوتِهِ: لا تقتلوا يوسفَ، وأمَرَهم بإلقائه في غيابةِ الجبِّ، والجبُّ البئر غيرُ المطويةِ، أي: التي ليست مبنية، والغيابةُ كلُّ شيءٍ غاب عنك، لقد تآمر عشرةٌ من أبناءِ الرجلِ الصالح يعقوب وهو نبيٌّ رسولٌ، على طفلٍ صغير، وألقوه بقلوب قاسيةٍ في البئر، ليتخلصوا منه، ليأخذه بعض من يَرِدُ تلك البئرِ إلى ديارٍ بعيدةٍ، ليخلو لهم وجْهُ أبيهم.

٣- تآمرَ الإخوةُ لتنفيذ مخططهم:

خطَّطَ الإخوةُ لتنفيذ مخططِهِمْ، ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:١١-١٢].

قالوا لأبيهم مخاطبينَ له قائلينَ: ﴿يَـٰٓأَبَانَا﴾ وقد نسبَ الخطابَ إليهم والمتكلمُ منهم واحدٌ، لأنَّهم كانوا حاضرين يسمعونه، وهم راضونَ عن كلامِه وطلبِهِ، ويبدو أنهم طلبوا منه مثل هذا الطلب من قبل، فرفض أن يستجيبَ لهم، قالوا له: ما الذي يجعلك لا تأْمَنَّا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ والناصحُ يرعى من اؤتمن عليه، ويكلؤُه، ويرعاه.

وطلبوا منه أنْ يرسله معهم في الغدِ يرتعُ ويلعبُ، فقد كان يوسفُ صغيراً، والصغرُ زمنُ اللهو واللعبِ، ويطيبُ للصغارِ أنْ يخرجوا مع آبائِهم وإخوانهم، فيرتعوا ويلعبوا، وقالوا لأبيهم ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: نحافظُ عليه ونحميه من كلِّ ما تخافه عليه.

فقال لهم أبوهم: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف:١٣-١٤].

فأخبر نبيُّ الله يعقوبُ ﷺ أنَّ الذي يمنعه من إرسالِهِ معهم إلى المرعى خوفُهُ أن يخرجوا به إلى المرعَى، فيغفلوا عنه، فيأكلَه الذئب، فقالوا مجيبين: لئن أكله الذئبُ، ونحن عصبةٌ، أي: جماعة، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لعاجزون هالكون.

٤- تنفيذ إخوة يوسف ما خططوا له وتآمروا عليه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ إخوةَ يوسف نفذُّوا ما خطَّطوا له وعزموا عليه ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف:١٥]. أي: فلما ذهبوا به من عند أبيه، أخذوه إلى البئرِ الذي عزموا على إلقائه فيه، وأوحى اللهُ تعالى إلى يوسفَ على صغرِه لتنبأنهم بأمرهم هذا، أي: لتخبرنَّهم بهذا الأمرِ، وهم لا يشعرون، وقد أخبر يوسفُ إخوته عندما جاؤوا ليمتاروا لأهلهم من مصر، وقال لهم: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [يوسف:٧٧].

وكما كذبَ العشرةُ من أبناءِ يعقوبَ عندما احتالوا عليه ليرسل معهم يوسفَ، جاؤوا في المساءِ يبكون، إنها دموع كاذبةٌ، يبكون على أمر مخالف لما يدَّعونه ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف:١٦]. رجعَ إخوةُ يوسفَ في ظلمةِ الليلِ يبكون، ويقولون كاذبين: إنا

ذهبنا يسابق بعضنا بعضاً، ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ [يوسف:١٧] أي: عندَ ثيابنا وأمتعتنا وطعامنا، ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وقالوا له: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي: وما أنت بمصدِّقٍ لنا، ولو كنا صادقين، أي: ولو كنا من أهلِ الثقةِ والصدقِ.

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف:١٨] لقد خلعَ الإخوةُ عن يوسف قميصه، ولطَّخوه بدماءِ حيوان ذبحوه، ولم تنطل الحيلةُ على يعقوب، فلم تخدعه دموعُهم التي تسيلُ من أعينهم، ولم يَنطل عليه الدمُ الذي لطخ به قميصُه، وعلم أنَّ هؤلاء العشرةِ تمالؤوا على طفلٍ صغيرٍ، فـ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف:١٨] قال لهم: لقد زيَّنتْ لكم أنفسكم أمراً، أي: حسنته وزينته ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ والصبرُ الجميل: الصبر الذي لا شكوى معه، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ استعانَ بالله ربِّه على ما قالوه مِنَ الكذبِ والافتراءِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- لقد جعل اللهُ -تبارك وتعالى- في قصةِ يوسفَ وإخوانِه آياتٍ للذين يسألون عن هذه القصةِ، ويريدون معرفة أبعادها.

٢- إخوةُ يوسفَ يتآمرون على قتله أو دفنه في الأرضِ، واتفقوا بعد التباحث على إلقائه في بئرٍ على طريقِ القوافلِ، ليذهبَ به من يجدُه إلى ديارٍ بعيدة نائيةٍ.

٣- خطَّط إخوةُ يوسفَ لإخراجه بإذن أبيه، ليحقِّقوا مرادَهم في إلقائه في البئرِ، وكان لهم ما أرادوا، وألقوه في البئر.

٤- أوحى اللهُ -تعالى- إلى يوسفَ وهو في البئرِ أنَّه سينبئهم فيما يأتي من الزمان بأمرهم هذا، وهم لا يشعرون.

٥- جاءَ إخوةُ يوسف العشرةُ، وقد تمالؤوا على الكذبِ في ظلمةِ الليل في وقتِ العشاءِ يبكون زاعمين أنَّ الذئبَ أكل أخاهم عندما تركوه عند متاعهم، وذهبوا يتسابقون.

٦- صرَّح نبيُّ الله يعقوبُ لأولادِه بأنَّهم كاذبون، وأخبرهم أنَّه سيصبر على فراقِ يوسفَ صبراً لا جزعَ فيه، واستعانَ بالله على كذبهم.

٧- قد تأتي المعصيةُ من الأخيارِ الصالحين، وتقعُ في البيوتِ الكريمةِ، فقد كان أولادُ يعقوب أولادَ رسولٍ نبيٍّ.

النص القرآني الثالث من سورة يوسف
باع الذي التقط يوسف يوسف في ديار مصر

أولاً: تقديم

التقط نبيَّ الله يوسفَ من البئر قافلةٌ مرّت قرب البئرِ، وأسرُّوه بضاعةً، وباعوه في أرضِ مصر، وأوصى الذي اشتراه زوجته به، وقد علَّمه اللهُ من تأويل الأحاديثِ، ولما بلَغ أشدَّه آتاه اللهُ حكماً وعلماً وكذلك يجزي اللهُ المحسنين.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف:١٩-٢٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- القافلةُ التي التقطت يوسف من البئر:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن سيَّارة، وهي القافلةُ مَرَّت على ذلك البئر، فأرسلوا إلى البئر من يستقي لهم الماءَ من البئر، فأرسلَ دَلْوه فيها، فخرج له يوسفُ متشبثاً بالدلو، فصاحَ ذلك الرجلُ الذي أرسلَ الدلوَ يا بشراي، يا فرحتي وسروري هذا غلامٌ، وأخفوه متخذيه بضاعة يتاجرون بها ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف:١٩-٢٠]، وقوله: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ أي: باعوه، و﴿ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ ﴾ أي: بثمنٍ قليلٍ، ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: لم يكن لهم رغبة في استبقائه معهم.

٢- الذي اشترى يوسف في مصر عزيزُ مصرَ:

باعَ الذين التقطوا يوسفَ يوسفَ في ديارِ مصرَ، واشتراه رجلٌ وجيه منهم هو عزيزُ مصر، وقال ذلك الرجلُ لامرأته: أكرمي مثواه، أي: أكرمي منزلَهَ، أو أكرميه، عسى أن ينفعنا

أو نتخذه ولداً ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه مكَّن ليوسفَ في أرضِ مصرَ، لأنه انضمَّ إلى بيتٍ كريم من أرْقى بيوتها، فقد كانَ وزيراً في بلاطِ ملكِ تلك البلادِ، وكان مسؤولاً عن خزائنِ أموالِ تلك الدولةِ، وقوله: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ ﴾ أي: نعلمه تعبيرَ الرؤى التي ترى في المنام وتفسيرُ يوسفَ لهذه الرؤى هي التي أوصلته إلى ما وصلَ إليه.

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ أي: ما أراده وشاءَه كان، لا رادَّ لحكمه، ولا منازعَ لأمره، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١] أي: لا يعلمونَ أنَّ اللهَ غالبٌ على أمره.

٣- لما بلغ يوسف عليه السلام سنَّ البلوغ آتاه اللهُ حكماً وعلماً:

أعلمنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ يوسفَ لما بلغ سنَّ الرشد آتاه اللهُ علماً وحكماً ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف:٢٢]. وبلوغ الأشدِّ يكون عندما يبلغ الإنسانُ سناً يكون فيه قويّاً في عقله وجسده، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وهذا التعقيبُ يدلُّ على أنَّ يوسف عليه السلام كان من المحسنين، ولا يكون المرءُ كذلك إلا إذا جمعَ الصفاتِ الحميدةَ والأخلاقَ الفاضلةَ والسيرةَ الطيبةَ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- التقطَ يوسفَ من البئرِ قافلةٌ مَرَّت قربَ البئر عندما أرسلوا من يجلبُ لهم الماءَ، التقطوه، وجعلوه بضاعةً، وباعوه في ديارِ مصرَ.

٢- اشترى يوسفَ أحدُ وزراءِ الدولةِ، وكان يُدْعى عزيزَ مصر، وأوصى هذا العزيزُ زوجته بأن تكرمه، لعله ينفعهم، أو يتخذونه ولداً، ويبدو أنهم لم يرزقوا بالولد.

٣- مكَّن اللهُ ليوسف في أرض مصرَ بانضمامه إلى بيتِ عزيزِ مصرَ، وعلَّمَ اللهُ يوسف تأويلَ الأحاديثِ، أي: علَّمه كيف يُعَبِّر الرؤى على الوجه الصحيح.

٤- بلغ نبيُّ الله يوسف عليه السلام أشدَّه في أرضِ مصرَ، وآتاه الله حكماً وعلماً وجعله من المحسنين.

النص القرآني الرابع من سورة يوسف
امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه

أولاً: تقديم

تحدثنا الآياتُ عن مراودةِ المرأةِ التي كان يوسفُ ﷺ في منزلها عن نفسِهِ، وكيف استعصمَ وامتنع عن الفاحشةِ، وكيف تعاظمت المشكلةُ عندما وجدا سيدها لدى البابِ، فاتهمت المرأةُ يوسفَ بأنه أرادَ بها السوءَ، فقال: هي راودتني عن نفسي، وحدثنا ربُّنا عن الرجلِ الحكيم الذي استدلَّ بفراسته عن الجاني منهما.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف:٢٣-٢٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مراودة المرأة التي هو في بيتها عن نفسه:

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ المرأةَ التي هو في منزلها، وهي زوجةُ العزيز راودته عن نفسِهِ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

والمراودةُ: طلبُ الفاحشةِ، أي: طلبتْ منه أن يواقعها، وأنْ يزني بها، وقد هيَّأت تلك المرأةُ للأمر عدَّته، فقد أغلقت عليه وعليها أبوابَ الدارِ، وتزينت، وطلبت منه ما تريده

بصريحِ العبارةِ، وقالت له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلمَّ وتعالَ، فسارعَ يوسف إلى الإنكارِ عليها، قائلاً لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذُ بالله وأحتمي به أن أقارف هذا السوءَ، وقال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي: إنَّ زوجها ربي أحسنَ وفادتي وأكرمني، فكيفَ أخونُه في زوجته. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فالذي يرتكبُ فاحشةَ الزنا لا يفلحُ، أي: لا يفوز عند الله تعالى.

٢- **ولقد همت به وهمَّ به لولا أن رأى برهانَ ربِّه:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ يوسفَ عليه السلام عندما دعته امرأةُ العزيز إلى الفاحشة بادرَ إلى الاستعاذةِ بالله من غيرِ تأخيرٍ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أحتمي بالله أن أُقارفَ مثلَ هذا الجرمِ.

وقال ربُّ العزة هنا: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ وزوجةُ العزيزُ جاوزت الهمَّ إلى الفعلِ، فقد أغلقتِ الأبوابَ، وتزينت، ودعته إلى نفسها، وأخبرنا ربنا أنَّ يوسفَ همَّ بها، مع أنَّه قال بمجرد ما دعتُه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ والهمُّ أولُ خطراتِ القلبِ، فهو خاطرٌ غيرُ قويٍّ، ولا ثابتٍ، ولذلك لم يكن معه فِعْلٌ، وليس في النصوص ما يشيرُ إليه، وفي النصِّ ما يدلُّ على أنَّ أمراً إلهياً جرى، أوقف كل تفكير عند يوسفَ تجاه الهمِّ بالفاحشة، وهو الذي سمته الآية ببرهانِ ربِّه، ونحن لا ندري ماهيةَ هذا البرهان، ولكنَّه برهانٌ سَدَّد الحقَّ، وأوقف الهمَّ باتجاه الباطلِ، وعَقَّب النصُّ القرآنيُّ على إخبارِ الله تعالى بأنَّه رأى برهانَ ربِّه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤].

وقد صرفَ اللهُ تعالى عنه السوءَ والفحشاءَ، وهي الزنا، فيوسفُ عليه السلام من عبادِهِ الذين أخلصوا دينهم لله بعبادته وحده لا شريك له.

٣- **محاولة يوسف الهرب من المنزلِ الذي أغلقت المرأة فيه الأبواب:**

لم يقتصرْ نبيُّ الله يوسفُ عليه السلام على عصيانِ أمْرِ المرأةِ التي دعته إلى الفاحشةِ، ولكنَّه قصدَ البابَ الذي يوصلُ إلى خارجِ المنزلِ، وسابقته هي إلى البابِ لتمنعه من الخروج من المنزل، فكان أسبقَ منها، فلم تستطعْ منعه، ولكنَّها أمسكت بقميصه من الخلفِ، وجذبته لتمنعه، فانشقَّ قميصُه في يدها، فخرج مشقوقَ القميص، ووجدا سيدَها لدى البابِ ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف:٢٥].

وقد كان وصولُ سيدِ المنزلِ عند الباب في تلك اللحظةِ محرجاً للزوجة أيّما إحراج، فبادرتْ إلى اتهامِ يوسفَ بأنّه هو الذي أرادَ بها السوءَ، وطالبت الزوجَ بأن يوقعَ العقوبة به بسجنه، أو إيقاعِ العذاب الأليم به، وزوجها أحدُ رجالِ الدولة، وهو قادرٌ على فعل ذلك.

ويوسفُ ﷺ فردٌ ليس عنده ما يدفعُ به الشرَّ عن نفسِه، ولكنّه قال الحقيقة ببساطةٍ ومن غيرِ التواءٍ، ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ [يوسف:٢٦]. أي: هي التي طلبت مني إيقاعَ الفاحشةِ بها، وهيأ اللهُ تعالى رجلاً حكيماً، استدلَّ على الفاعلِ بمكان وجودِ الشقِّ في القميص ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يوسف:٢٦-٢٧].

وهذا الحكم الذي أصدره هذا الرجلُ الذي هو من ذوي قرابتها، ولا علاقة له بيوسف، وقد حكمَ هذا الرجلُ بأنَّ القميصَ إذا كان قُدَّ من قُبُلٍ، أي من الجهة الأمامية، فهي صادقةٌ، وهو من الكاذبين، لأنه بذلك يريدُ مقارفة المعصيةَ، وهي تدفعه، وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبُرٍ، أي: من الخلف، فهي كاذبةٌ، وهو من الصادقين، فلما وجدَ قميصه قُدَّ من دُبُرٍ حكم له، ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف:٢٨]. أي: فلما رأى ذاك الشاهدُ قميصَه قُدَّ من دُبُرٍ، قال لها: إنَّ هذا الفعل ناشئٌ من كيدكنَّ، أي: من مكركن إن كيدكن كانَ عظيماً.

وقد كان هناك دلائلُ كثيرةً تدلُّ على الفاعلِ، منها مظهرُ المرأة، وحالُها التي كانت عليه، ولم يطلِّق الزوجُ زوجته، ولم يوقعْ عليها العقابَ، وكلُّ الذي فعله أن قالَ ليوسف ﷺ: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف:٢٩]، قال له: يا يوسفُ أعرِضْ عن هذا، فلا تتحدثْ به، وقال لها: استغفري لذنبِك لما ألممتِ به، إنَّك كنتِ من الخاطئين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- راودت المرأةُ التي كان يوسفُ في منزلها يوسفَ عن نفسِه، فأبى واستعصمَ، وخرج مسرعاً من المنزلِ.

٢- يوسفُ لم يقارفِ الفاحشة، ولم يفعل شيئاً باتجاهها، ولكنّه همَّ همّاً دفعَهُ برهانُ ربِّه.

٣- صرفَ الله تعالى عن يوسفَ السوءَ والفحشاءَ.

٤- عندما خرج يوسفُ مِنَ المنزل، وجد سيد المرأة لدى الباب، فاتهمت المرأةُ يوسفَ بأنه أرادَ الفاحشةَ منها، فتبرأ يوسفُ من ذلك، وصرَّحَ بالحقيقة.

٥- شهد شاهدٌ من أهلِ المرأةِ على الفاعلِ بموقعِ القدِّ من القميص.

٦- طالبوا يوسفَ بعدمِ الحديثِ في الموضوعِ، وطالبوها بالتوبةِ والاستغفارِ، ولم يعاقبوا الخاطئ منهما.

النص القرآني الخامس من سورة يوسف

نساء المدينة يلمنَ امرأة العزيز على مراودةِ فتاها عن نفسه

أولاً: تقديم

انتشر خبرُ مراودةِ امرأةِ العزيز فتاها عن نفسِهِ، وأنكر نساء المدينة عليها فعلها، فدعت النساء اللاتي لُمنها إلى منزلها، وأعدت لهنَّ مجلساً، وظهر لهُنَّ أنَّ امرأةَ العزيزِ معذورةٌ فيما فعلته، واعترفت امرأةُ العزيزِ بما فعلتَه، وأخبرتهنَّ أنها عازمةٌ على الاستمرارِ في المحاولةِ إلى أن يتحقق طلبُها، وإلا سجنتْ يوسفَ وعذَّبته.

ولجأ يوسفُ إلى ربِّه يحتمي به، ويستعيذُ به، كي يصرفَ عنه كيدهنَّ، فصرفَ عنه كيدَهن.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف: ٣٠-٣٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- بعض نساءِ المدينة يلمن امرأةَ العزيزِ في مراودة فتاها عن نفسِهِ:

انتشر خبرُ مراودةِ امرأةِ العزيزِ يوسفَ عن نفسِهِ، وتحدَّثت به نساءُ المدينة، ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف:٣٠]، تحدثتْ نساءُ المدينةِ بما كان من امرأةِ العزيز في مراودةِ فتاها عن نفسِهِ، والفتى: الحدثُ الشابُّ، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: دخل حُبُّه في شغافِ قلبها، وهو غلافُه، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي: نراها قد بعدتْ عن الصوابِ.

٢- ما جرى في المجلس الذي أعدته للنسوة اللاتي لُمنها:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف:٣١]. فلما سمعت امرأةُ العزيز ما قالته النسوةُ فيها، أرسلت إليهن تدعوهنَّ إلى منزلها، فالقائلات نساءٌ معروفات وهنَّ من الأسر ذاتِ الشأنِ في مصر، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أي: هيأت لهن مجلساً، فيه الفرشُ والمخادُّ ووضعت أمامهنَّ فاكهةً يحتاجُ تقطيعها إلى سكين، ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ أي: لتقطعَ الفاكهة التي أمامها.

﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أمرتْهُ أن يخرجَ عليهن وهنَّ في تلك الحالِ، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فلما رآه النسوةُ اللاتي لُمنَ امرأةَ العزيز على مراودة يوسف أذهَلَهُنَّ جمالُه وبهاؤُه، وغابت عنهن عقولهن، وبدلَ أن يقطعن الفاكهةَ قطَّعنَ أيديهنَّ، أي: جرحنها وحززنها وخدشنها، وليس المرادُ بالقطعِ إبانة اليدِ، وأتبعن ذلك بقولهنَّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ أي: ما هذا في حسنه وبهائه وجمالِ منظره بشراً إن هذا إلاَّ ملكٌ كريم، وهذا الموقفُ منهنَّ فيه إعذارٌ لامرأةِ العزيزِ في مراودتها فتاها عن نفسه، وعند ذلك ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف:٣٢]، هنا صرَّحت امرأة العزيز بما كان منها، وقالتْ لهن: هذا هو الفتى الذي لمتنَّني فيه، ولقد راودته عن نفسِهِ، فاستعصَم، أي: فأبى ورفَضَ، ولئن لم يفعل ما طلبتُهُ منه ليدخلنَّ السجنَ، وليكونن من الصاغرين، أي: الأذلاء.

تقولُ هذه المرأةَ المتزوجةُ من رجلٍ له مكانةٌ متقدمةٌ في الدولةِ هذه المقالةَ علانيةً أمام جمعٍ كبيرٍ من النسوةِ، ومثلُ هذه المقالةِ ستنتشر في ذلك المجتمعِ، ولن يُستطاعَ إخفاؤها، فالمرأةُ التي تقول مثلَ هذه المقالةِ امرأةٌ سفيهةٌ طائشة، لا تبالي بالأخلاقِ وتقاليدِ المجتمعِ.

٣- يوسفُ عليه السلام يخاطب ربَّه مفضلاً دخولَ السجنِ على مواقعةِ الفاحشةِ:

فلمَّا سمعَ يوسفُ مقالةَ امرأةِ العزيزِ ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٣-٣٤].

نادى يوسفُ ربَّه واستعانَ بِهِ واستغاثَ، وقالَ في دعائه: إنَّ دخولَ السجنِ أحبُّ إليه مما يَدْعوه النسوةُ إليه من مقارفةِ الفاحشةِ، وقال لربِّه: إلا تصرفْ عني كيدهن، أي: ما يتآمرن به أَمِلْ إليهن، وأكنْ من الجاهلين، لقد تبرأ يوسفُ من حولِهِ وقوتِهِ، واستعانَ بحولِ الله وقوتِهِ، فاستجابَ ربُّ العزةِ له، فصرف عنه كيدهن إنه هو السميعُ لأقوالِ العبادِ عليمٌ بأفعالهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- انتشرَ خبرُ مراودةِ امرأة العزيزِ فتاها عن نفسِهِ، فنالتها ألسنُةُ نساءٍ من ذواتِ المجتمع الراقي في المدينةِ في مراودتها يوسفَ عن نفسِهِ.

٢- امرأةُ العزيز تدعو النساءَ اللاتي لُمنها، وتدعوهنَّ إلى منزلِها، وتُعِدُّ لهنَّ مجلساً، وتعطي كلَّ واحدةٍ منهنَّ سكيناً، لتقطعَ ما قدَّمت لهنَّ من فاكهةٍ، فلما خرج يوسفُ عليهنَّ، أذهلهنَّ مرآه، وقطَّعْنَ أيديهن، وجرحنها.

٣- اعترفتْ امرأةُ العزيز بمراودةِ يوسفَ عن نفسِهِ، وبينت أنها مصممةٌ على فعل ذلك به، وإلا دخل السجنَ ونالَه العذابُ.

٤- يوسفُ يلجأ إلى الله تعالى ويحتمي بِهِ، ويطلبُ منه أن يعصمَهُ، ويصرفَ عنه كيدهن.

النص القرآني السادس من سورة يوسف
دخول يوسف السجن وتأويله رؤيا صاحبيه في السجن

أولاً: تقديم

انتشر خبرُ مراودةِ زوجةِ العزيز يوسفَ عن نفسِهِ، وقد تأذَّى زوجها وأهلها بالخبرِ الذي سرى في المدينة، فرأوا أن يسجنوا يوسفَ قطعاً للقالة، وتهدئةً للأمر، بعد أن تبين لهم أنه بريءٌ، ودخل معه السجنَ فتيان رأى كلُّ واحدٍ منهما رؤيا، فقصَّا رؤياهما عليه، وطلبا منه أن يعبِّرَ لهما رؤياهما، فوعظَهما، ودعاهما إلى عبادةِ الله وحده، ثم فسَّر لهما رؤياهما.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف:٣٥-٤٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سجنُ يوسفَ بعد أن ظهرتْ أدلَّةُ براءَتِهِ:

رأى العزيزُ ومن معه أن يسجنوا يوسفَ عليه السلام بعد أن رأوْا الآياتِ الدالةِ على براءَتِهِ ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف:٣٥]، أي: بدا لأولي الأمر،

أي: ظهرَ لهم من بعدِ ما رأوُا الآياتِ الدالةِ على براءَتِهِ، فمن ذلك قَدُّ قميصِهِ من دبرٍ، ومن ذلك اعترافُ امرأةِ العزيزِ بما كان منها، أمامَ تلكَ النسوة اللاتي دعتهن إلى منزلها، وإخبارَهنَ أنها ستمضي في المحاولةِ مع يوسفَ حتى يستجيب لها أو يسجنَ أو يعذَّب.

وهنا سجنوه ليوهموا الناسَ أنه هو الذي راودَ المرأةَ عن نفسها، سجنوه وهم يعلمون أنه بريءٌ، وأطلقوها وهم يعلمونَ أنها مذنبةٌ.

٢- يوسفُ ﷺ يُعَبِّر رؤيتين لفتيين دخلا معه السجنَ:

دخلَ معَ يوسفَ السجنَ فتيان كلٌّ منهما رأى رؤيا ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف:٣٦].

بينتْ لنا هذه الآيةُ أنَّ أحدَ الفتيين اللذين دخلا معه السجنَ رأى في المنام أنه يعصرُ خمراً، أي: يعصرُ عنباً يؤول إلى الخمر، وقال الثاني: إني أراني أحملُ فوقَ رأسي خبزاً تأكلُ الطيرُ منه، وطلبا منه أنْ يأوِّلَ لهما رؤياهما قائلين: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الذين يحسنون تعبيرَ الرؤيا، كان هذان الفتيان يعملان عندَ الملكِ، وقد سجنهما ظانّاً أنهما تمالآ على قتله، وكان يوسفُ قد برزَ في السجن بالصفات الحسنةِ الطيبةِ، وعُلم عنه أنه يُحسنُ تعبيرَ الرؤيا، فسأله هذان الفتيانِ عن تأويلِ رؤياهما.

فبدأ بوعظهما، وبيَّن لهما الدينَ والملةَ التي هو عليها، ودعاهم إلى التوحيدِ، ثم فسَّرَ لهما رؤياهما ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْأٓخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ [يوسف:٤١].

قال يوسفُ للسجينِ الأول الذي رأى نفسه يعصرُ عنباً أنه سيُبرَّأُ، ويخرجُ مِنَ السجنِ، ويعودُ إلى مكانه في خدمةِ الملكِ، فقد كان ساقيَ الملكِ، وكان يوسفُ لطيفاً في محادثةِ السجينين، فقال: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْأٓخَرُ﴾ ولمْ يقل للأوَّل: أما رأياك أنت، ولم يقل للثاني: أما أنت، وإنَّ تفسيرَ الرؤيا تدلُّ على صاحِبها.

وعبَّر رؤيا الثاني بأنه سيقتلُ بعدَ أيامٍ، ويصلبُ، وتحطُّ الطيرُ على رأسِهِ، وتأكلُ منه، وقوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ أي: هذا التأويلُ الصحيح لرؤيا كلٍّ منكما، وسيقعُ الأمرُ على ما بينته لكما.

وقال نبيُّ الله يوسفُ للسجين الذي سينجو ويعودُ إلى خدمةِ الملكِ ساقياً اذكرني عند ربِّك فأنساهُ الشيطانُ ذكرَ ربِّه ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف:٤٢]، والبِضْعُ في لغةِ العربِ ما بين الثلاثِ إلى التسعِ من السنين.

٣- **موعظة نبي الله يوسف صاحبيه اللذين دخلا معه السجنَ:**

قبل أنْ يؤوِّلَ نبيُّ الله تعالى يوسفُ لصاحبي السجنِ وعظهما ودعاهما إلى الدينِ الحقِّ الذي أرسله اللهُ تعالى به ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ﴾ [يوسف:٣٧]، أي: لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه في الرؤيا إلاَّ أخبرتكما بتأويلِهِ، أي: إلا أولت لكمُ الرؤيا التي رأيتماها بشأنِ ذلك الطعام قبل أن يحلَّ زمنُه، ذلكما مما علمني ربِّي، وهذا ما وقع ليوسفَ ﷺ في رؤيا الملكِ كما سيأتي بيانُه.

وقال لهما: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف:٣٧]، قال يوسفُ لصاحبي السجن: إني تركتُ ملَّةَ قوم لا يؤمنون بالله، أي: تركتُ دينَ قومٍ لا يؤمنون بالله وَحْدَهُ، وهم كافرون بالآخرةِ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف:٣٨]، أي: واتبعتُ دينَ آبائي، وآباؤُه جميعاً رسلٌ أنبياءٌ، وجدُّه الأعلى رسولُ الله إبراهيمُ، وجدّه الأوسطُ إسحاقُ نبيٌّ رسولٌ، وكذلك أبوه المباشِرُ نبيٌّ رسولٌ، وهم جميعاً على التوحيدِ والدينِ الحقِّ.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ﴾ فدينهم قائمٌ على توحيدِ الله بالعبادةِ، وتركِ الآلهة التي يعبدُها المشركون ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: استقامتنا على التوحيدِ ونبذ الشركِ هو من فضل الله علينا وعلى الناس، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف:٣٨]، لا يشكرونَ نعمةَ الله التي أنعمَ بها عليهم مِنَ التوحيدِ، ونبذِ الشركِ، فيقعون فيما نهاهم اللهُ عنه.

وقال يوسف ﷺ مخاطباً صاحبيه في السجن وكانا مشركين، خاطبهما موجهاً السؤال إليهما ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف:٣٩] خاطبهما خطاباً لطيفاً ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ ثم سألهما قائلاً: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾

[يوسف:٣٩] أأربابٌ متفرقون، كلُّ واحدٍ تزعمونه إلهاً وربّاً، فهم يعبدون ما لا يحصى من الأوثانِ والأصنامِ، وقد يعبدون الشمسَ والقمرَ والنجومَ والجبالَ والبحارَ والأنهارَ، أفهذه الآلهةُ المخلوقةُ المربوبة الباطلة، التي لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولا تعطي ولا تمنعُ خيرٌ أم اللهُ الواحدُ الذي لا أحدَ يستحقُّ العبادة معه، القهارُ، أي: الذي يقهر خلقَه، ويذلُّهم، ولا يعجزُه أحدٌ منهم.

وقال يوسفُ لصاحبي السجن: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف:٤٠]، أي: ما تعبدونَ من دونِ الله إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم، فقد سموها أرباباً، وسموها شركاءَ، وآلهة، وهي ليستْ أرباباً ولا شركاءَ ولا آلهةً بل هي مخلوقاتٌ مربوبةٌ مسخَّرةٌ لربِّ العزةِ سبحانه، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ ﴾ لم ينزلْ اللهُ بها حجةً ولا برهاناً يدلُّ على صحة عبادتها ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ فاللهُ هو القاضي والحكمُ العدلُ، وحكمهُ حقٌّ وعدلٌ، ولذلك ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾ أي: أمركم بعبادته وحده لا شريكَ له ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي: الدينُ الحقُّ الصحيحُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي: لا يعلمون أنَّ اللهَ هو الواحدُ الأحدُ الذي لا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ سواه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- سَجَنَ أولو الأمرِ نبيَّ الله يوسفَ عليه السلام، وقد قامتِ الأدلةُ عندهم على براءَتِهِ مما رمته زوجةُ العزيز به.

٢- دخل مع يوسفٍ فتيان رأى كلٌّ منهما رؤيا، فسألَ كلُّ واحدٍ منهما يوسفَ عن تأويلِ ما رآه، فأوَّلَ لكلِّ واحد منهما رؤياه.

٣- طلبَ يوسفُ من الذي ظَنَّ أنَّه ناجٍ من السجينين أنْ يذكره عند الملكِ، فأنساهُ الشيطانُ ذكرَهُ للملكِ.

٤- قبل أن يفسِّر يوسفُ لصاحبي السجنِ رؤياهما، عرَّفهما بما حباه الله بهِ، ودعاهما إلى التوحيدِ، ونهاهما عن الشركِ.

النص القرآني السابع من سورة يوسف
رؤيا ملكِ مصرَ وتعبيرُ يوسف لها

أولاً: تقديم

تتحدثُ هذه الآياتُ عن رؤيا عظيمةٍ رآها ملكُ مصرَ في الزمن الذي كان فيه يوسفُ في السجنِ مظلوماً بسبب جرم كان منه براء، وعَجَزَ كلُّ من حولَ الملك عن تأويلِ الرؤيا، فلما حملها الرجلُ الذي كان سجيناً مع يوسف إلى يوسف أوَّلها، فإذا بها رؤيا عظيمة لها علاقةٌ كبيرةٌ بمستقبل مصرَ ومستقبلِ الديارِ التي حولها، رآها ملكُ مصر الذي بإمكانه أن يستفيدَ منها هو وشعبُه في السنواتِ القادمة.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف:٤٣-٤٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- رؤيا ملكِ مصرَ:

حدَّثتنا هذه الآياتُ الكريمةُ من هذا النصِّ أنَّ ملكَ مصرَ رأى رؤيا فيها عُجْبٌ وطرافةٌ، فعرضها على مَنْ حوْلَه طالباً تأْويلها، فلم يقدرْ أحدٌ منهم على ذلك ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف:٤٣].

أخبر الملكُ مَنْ حولَهُ أنَّه رأى في منامِه سبعَ بقراتٍ سمينة، يأكلها سبع بقراتٍ عجافٍ، أي: هزيلة ضعيفة، ورأى في الرؤيا نفسها سبعَ سنبلاتٍ خضر، وسبعاً أُخرى يابساتٍ، وقال

لمن حوله بعد أنْ حدَّثهم عما رأى: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ طلبَ منهم أن يُعبِّروا له الرؤيا، إنْ كانوا قادرينَ على تأويلها.

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:٤٤]، وواضحٌ من الآيةِ أنَّ القومَ الذين استشارهم لم يفقهوا تعبيرَ الرؤيا، فأجابوا بما أجابوا، وقالوا للملكِ: إنَّ الذي رأيته ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾ أي: أخاليطُ أحلام، وهذه تكون من حديثِ النفس وأخاليطِ الشيطانِ، ولم يكنْ جوابُهُمْ مقنعاً، فالرؤيا يظهر من سياقها أنها حقٌّ، وليست تخاليطاً.

٢- تذكَّر صاحبُ يوسف الذي دخل السجنَ مع يوسفَ ما كان من يوسف:

كان في الذين استشارهم الملكُ ساقي الملكِ الذي دخلَ مع يوسف السجنَ قبل بضعِ سنين، فتذكر أمرَ يوسف عندما دخل معه السجنَ فعرض رؤياه ورؤيا صاحبه على يوسفَ، فأوَّل لهما رُؤْياهما، وتحققتا كما أوَّلهما، وتذكر قول يوسف لهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ﴾ [يوسف:٣٧].

تذكَّر هذا الساقي ما كان من يوسف، فأخبرَ الملك ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف:٤٥-٤٦].

تذكَّر الساقي ما وقع له مع يوسف، وكيف نجا من السجن والقتل، وادّكر، أي: تذكر ما كان من يوسفَ بعد أُمَّة، أي: بعد حينٍ من الدهر، قال للملك ولمن حوله: أنا أخبركم بتأويل الرؤيا، وحدَّثهم بما كان من أمرِهِ مع يوسفَ، وطلب منهم أن يرسلوه ليعلم منه تأْويل الرؤيا.

٢- عرض الرؤيا على يوسف وتأويل يوسف لها:

جاء الساقي إلى السجنِ وعرضَ على يوسفَ أمرَ الرؤيا، فسارعَ في تأويلها من غيرِ تأْخير ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف:٤٧-٤٩].

لقد كانتْ الرؤيا رؤيا عظيمةٌ، لها علاقة بمستقبل مصر، ومستقبل الأقطار التي حولها على مدى خمسة عشرَ عاماً قادمة، والذي رآها هو مَلِكُ مصرَ، والذي يملكُ أن يخطط في ضوءِ هذه الرؤيا للاستفادةِ من سنواتِ الخصبِ في مواجهة سنوات المحْلِ.

وعندما عَبَّر يوسف الرؤيا عبَّرها بصيغةٍ تدلُّ على الكيفية التي يستفادُ بها منها، قال للساقي الذي حمَلَ إليه الرؤيا: تزرعون سبعَ سنين دَأَباً، أي: متتابعةً، فما حصدْتُم من القمح والشعيرِ ونحوهما في سنوات الخصبِ فذروهُ في سنبلةٍ إلا قليلاً مما تأكلونه في كلِّ عامٍ، وهذه السنواتُ السبعُ الخصبةُ الطيبةُ تمثِّل البقراتِ السبعِ السمينةِ التي رآها الملك في الرؤيا، ثم يأتي بعد ذلك سبعُ سنواتٍ صعبةٍ ممحلة، لا تنبتُ فيها الأرضُ، ولا تعطي ثمراً، وهذه هي التي رمزت لها الرؤيا بالسبع بقراتٍ العجافِ، فتأكُلُ ما أنتجتهُ سنوات الخصبِ، وبعد سنواتِ المحل السبعة يكون عامُ خيرٍ فيه يغاثُ الناسُ بالمطرِ، وفيه يعصرون العنبَ والزيتونَ والتمر، وهذا يدلُّ على أنها سنةُ خيرٍ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - رأى ملكُ مصرَ رؤيا طلبَ ممن حوله تفسيرها، فعجزوا عن ذلكَ، ووصفوا الرؤيا بأنها باطلةٌ، وأنها أضغاثُ أحلام.

٢ - عُرِضَتْ الرؤيا على يوسفَ، فتبيَّنَ أنها رؤيا عظيمةٌ، لها علاقةٌ بمستقبلِ مصرَ والأقطارِ التي حولها على مدى خمسةَ عَشَرَ عاماً القادمةِ.

٣- رمزتْ الرؤيا بالسبعِ البقراتِ السمان إلى سبع سنين خصبةٍ والسبعِ البقرات العجاف إلى سبع سنواتٍ عجاف، وأكْلُ السبع البقراتِ العجافِ السبع السمان، إلى أكلِ الناسِ في السبعِ الشدادِ ما قدَّموا في السبعِ الخصبةِ من خيرٍ.

٤ - فسرَّ نبيُّ الله يوسفُ ﷺ، الرؤيا بطريقةٍ تدلُّ على الطريقةِ التي يستفادُ بها من الرؤيا.

النص القرآني الثامن من سورة يوسف
خروج يوسف من السجنِ وتنصيبُه على خزائنِ الأرضِ

أولاً: تقديم

لما فسَّر يوسفُ الرؤيا، طلب الملكُ إخراجَهُ من السجنِ، فرفَض يوسفُ الخروجَ حتى يحقق في الأمرِ الذي أدَّى به إلى دخولِ السجنِ، فحقَّقَ الملكُ في الأمرِ، وظهرتْ براءةُ يوسفَ، وأُخرِجَ يوسفُ من السجنِ، ووليَ خزائنَ الأرضِ، وأصبحَ بعد السجن يتبوأ من الأرض حيث يشاءُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

[يوسف:٥٠-٥٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- طلب الملكُ من المسؤولِ عن السجنِ أن يأتوه بيوسفَ فرفضَ يوسفُ الخروجَ حتى تظهر براءته:

فلَّما علمَ الملك بتأويل ما رآه، وعلم بما تحمله الرؤيا من خيرٍ لمصر وأهلها، والديارِ التي حولها، طلب من المسؤولِ عن يوسفَ في سجنه أن يأتوه بِهِ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف:٥٠] فلما جاءَه من يريدُ إخراجَه من السجن رفضَ الخروجَ منه قبل ظهورِ براءَتِهِ مما رُمِيَ به، وقال للرسولِ الذي جاءَ لإخراجه: ارجعْ إلى ربِّك -يريدُ به الملكَ- فاسأله عن النسوةِ التي قَطَّعن أيديهن، إنَّ ربي، أي: إلهي وخالقي عليمٌ بكيدهن، أي: بمكرهنَّ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ

إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف:٥٠]، طلبَ يوسف من الملكِ أنْ يحقق مع النسوةِ، ولم يذكر امرأةَ العزيز، وهي التي كان لها الدورُ الأعظمُ في المراودةِ، لأنَّ النسوةَ اطلعن على ما فعلته امرأةُ العزيز، فقد اعترفت لهنَّ بفعلتها، والتحقيقُ مع الجمعِ من النسوةِ أرجى لظهورِ الحقِّ من التحقيقِ مع امرأةٍ وحدَها، ولذلك لما شهدَ النسوةُ ببراءَةِ يوسف، سارعتِ امرأةُ العزيز إلى الاعترافِ بما صنعت ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ ﴾ [يوسف:٥١]، حقَّقَ الملكُ مع النسوةِ فبرأت النسوةُ بأجمعهن يوسفَ ﷺ مما رُمِيَ به، وقولهن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذَ الله، ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ ﴾ أي: ما علمنا عليه سوءاً، عند ذلك ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ اعترفت امرأةُ العزيز بذنبها، وقالتْ: الآن حصحصَ الحقُّ، أي: ظهرَ الحقُّ وبانَ، وقد أظهر اعترافُها براءَة يوسفَ، وأنَّه دخلَ السجنَ مظلوماً، وأنه لمن الصادقين في قوله: إنها راودته عن نفسه.

فلما علم يوسفُ باعترافها، وتَبْرِئَتها لَهُ، قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يوسف:٥٢]، قال يوسفُ: ذلك ليعلمَ الذي كان في بيته، وائتمنه على منزله وأهله أنه لم يخنه بالغيبِ، أي: لم يفجرْ بأهلِهِ في حال غيبتِهِ عن دارِهِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ واللهُ لا يهدي كيدَ، أي: مكرَ الذين يخونون فيما اؤتمنوا عليه.

ومع ظهور براءَة نبيِّ الله يوسفَ، فإنه لم يتعالَ، ولم يُظْهِرِ الغرورَ بنفسه ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف:٥٣]. هذا الكلامُ من نبيِّ الله يوسف ﷺ من باب الهضم للنفس، وعدم التزكية لها، فقد قالَهُ بعد أنْ ظهرت براءَتُهُ، فقد بَرَّأته النسوةُ، وبرأته امرأةُ العزيز التي كانت قد كذبت عليه، وقال فيما قاله: وما أُبرئ نفسي، فالنفسُ أمَّارة بالسوء، أي: تأمر بالسوءِ وتحثُّ عليه، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ أي: إلاَّ من رحم الله تعالى من النفوسِ، فعصمها عن الأمر بالسوء.

٢- خروجُ يوسفَ من السجنِ وتوليته خزائنَ الأرضِ:

بعد أن ظهرتْ للملكِ طهارةُ نبيِّ الله يوسفَ، وظهرَ له أنَّ هذا الرجل رجلٌ لا كالرجال، وأنَّ فيه من الخصائصِ والصفاتِ ما ليس في غيره، طلبَ من المسؤولين حولَهُ أن

يؤتى به ليستخلصه لنفسه ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ [يوسف:٥٤] فلما جاءَه، واستنطقه، رأى فيه الرجلَ الذي يعتمدُ على مثلِهِ والذي يقودُ إلى تجاوز المرحلة القادمةِ التي أخبرت الرؤيا بها، فقال الملكُ ليوسفَ: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف:٥٤]، أي: أنتَ عندنا ذو مكانةٍ، أي: ذو منزلةٍ عاليةٍ، وأمينٌ، فقد ظهرتْ براءَتك وأمانتك.

فقال يوسفُ للملكِ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف:٥٥]. طلب منه أن يوليه المنصبَ الذي يقودُ فيه الفريقَ الذي يعمل على الإعدادِ للمرحلتين القادمتين، المرحلة التي يكونُ فيها الخصبُ والنماءُ، والمرحلةُ التي يكون فيها المحلُ، ووجودُ رجلٍ يحسنُ القيامَ على ذلك كلِّه أمرٌ في غايةِ الأهمية، وعلَّل طلبه بأنه ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ أي: لديَّ من الصفاتِ ما يجعلني أقومُ على ما وُكِلَ إليَّ بِهِ، فأنا حفيظ لا يضيع من ذلك عندي شيء، وعليم بما يوكل إليّ من أعمال.

ويدلُّ على أنَّ الملك قد استجابَ لطلبه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف:٥٦-٥٧] لقد مكَّن اللهُ تعالى ليوسفَ في ديارِ مصرَ، فقد أصبحَ الرجلَ الثاني في الدولةِ، فقد ولاّه الملكُ خزائنَ الدولة المصريةِ، وأصبحَ قادراً أنْ يتبوأَ، أي: ينزل من أرضِها ومدنها حيث يريدُ، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ﴾ أي: ينعمُ اللهُ برحمته على من يشاءُ، كما وقع لنبيِّ الله يوسف ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ويوسف كان مِنَ المحسنين ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف:٥٧]، أي: ثوابُ الآخرةِ خير للمؤمنين المتقين، ويوسف كان من هؤلاء المحسنين المتقين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أمر الملكُ بإخراجِ يوسفَ من السجنِ، فأبى يوسفُ الخروجَ حتى يُحَقَّقَ في التهمةِ التي سجن بسببها، وتظهر براءَتُه منها.

٢- حقَّقَ الملكُ مع النسوة اللاتي قطَّعْنَ أيديهنَّ، وفيهن امرأةُ العزيز، فظهرت براءَةُ يوسفَ، وأنَّه سُجِنَ عدَّة سنواتٍ مظلوماً.

٣- أرادَ يوسفُ بالتحقيقِ الذي برَّأَ ساحتَهُ أنْ يعلمَ العزيزُ الذي كان يعملُ في منزلِهِ أنه لم يخنْهُ وهو غائبٌ عن منزلِهِ.

٤- لم يتعالَ يوسفُ ولم يُعَظِّم نفسَه عندما ظهرتْ براءَتُه، وقرَّر أنَّ النفس أمَّارةٌ بالسوءِ إلا من رحم اللهُ.

٥- الملكُ يأمرُ بإخراج يوسفَ من السجنِ، ويوليه منصبَ خزائنِ الأرضِ، وأصبح يوسف في الدولة مكيناً أميناً، وأصبحَ بعدَ السجنِ يتبوأ من الأرضِ حيث يشاءُ.

النص القرآني التاسع من سورة يوسف
مجيءُ إخوة يوسف في سنواتِ القحطِ والمحلِ إلى مصر يشترون ميرةً لأهلهم

أولاً: تقديم

حدَّثنا اللهُ -تعالى- في آياتِ هذا النص عن مجيء إخوةِ يوسفَ إلى أرضِ مصرَ ليشتروا الطعامَ لأهلهم، فقد أصابَ القحطُ والمحلُ ديارهم، وقلَّ الطعامُ فيها، ولما دخلوا على يوسفَ عرفهم، ولم يعرفوه، فباعهم الطعامَ وأكرمهم، واشترطَ عليهم ليبيعهم مرةً أخرى أن يأتوه بأخٍ لهم من أبيهم، فلما أخبروا أباهم بما اشترطه العزيزُ عليهم، رفض ذلك، وخشيَ عليه أن يفعلوا به فعلهم بيوسفَ، فلما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعَتَهم رُدَّت إليهم، فأطلعوا على ذلك أباهم، فأذنَ لهم باصطحابه بعد أنْ يؤتوه موثقهم من الله تعالى، ونصحهم أبوهم بالدخولِ من أبوابٍ متفرقةٍ، فعملوا بنصحه، ودخلوا إلى يوسفَ صحبةَ أخيهم، فآوى إليه أخاه، وأخبرَ يوسفُ أخاه بأمره، وطلب منه أنْ يكتم حالَه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو

عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف:٥٨-٦٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذ النص من القرآن

١- مجيءُ إخوةِ يوسفَ يمتارون لأهلهم:

اجتاحَ القحطُ الديارَ التي حولَ مصر، كما اجتاحَ مدنَ مصرَ وقراها، وعلمَ الناسُ في تلك الديارِ عن توفرِ الطعام في ديارِ مصرَ، وقصدَ إخوةُ يوسف أرضَ مصر كما قصدها غيرهم ليشتروا منها الطعامَ، ودخلوا إلى المكانِ الذي كان يوسفُ فيه، ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف:٥٨]. دخلَ على يوسفَ إخوتُهُ، وكانوا هم العشرةُ الذين ألقوه في الجُبِّ، فعرفهم، فقد فارقهم وهم كبارٌ، فلم تختلفْ عليه هيئاتهم، ولم يعرفوه، فقد كان صغيراً عندما تركوه قبل زمنٍ طويلٍ، فتغيَّر بعد كبره، وأين ذلك الصغيرُ من هذا العزيزِ المتزملِ بثيابِ الملك، الذي يأتمر بأمرِه كلّ هؤلاءِ من الخدم والحشم، ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف:٥٩-٦٠].

باعَ يوسفُ إخوته الطعامَ الذي جاؤوا في طلبه، ولما وفَّاهم كيلهم، وحملت لهم أحمالهم، ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ طلبَ منهم أنْ يأتوه بأخٍ لهم من أبيهم، ولم يذكر النصُّ السببَ الذي جعل طلبَه من إخوانه معقولاً مقبولاً، إلا أنَّ يكونوا قد حدثوه عن أبيه، وأخيه من أبيه، فطلب منهم أن يحضروا هذا الأخ ليعلَمَ صِدْقهم فيما حدَّثوا به، وقوله: ﴿أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ فيه أنه زادهم في كيلهم، واستضافهم في فترةِ وجودِهم في مصرَ، وتهدَّدَهم إنْ لم يأتوا بأخيهم فلا كيلَ لهم في المستقبلِ إذا عادوا إليه، ومنعهم من قربانِه، ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [يوسف:٦١]، فوعدوه أنْ يعودوا إليه مع أخيهم بعد أن يحاولوا الحصولَ من أبيهم على الإذنِ له باصطحابِه معهم.

وحتى يشعرَ إخوتُه بأنَّ الذي طلبه منهم قولٌ جِدٌّ طلب من فتيانه الذين يعملون عنده، ويأتمرونَ بأمرِه أن يجعلوا بضاعتهم التي جاؤوا بها ثمناً لما اشتروه في رحالهم ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

[يوسف:٦٢]. طلبَ يوسفُ من مماليكه أن يجعلوا البضاعة التي جاءَ بها إخوانُهُ ثمناً للطعام في رحالهم مع طعامهم، لتكون دليلاً لهم وشاهداً عند أبيهم أنهم صادقون فيما أخبروا به، فيشجعهم ذلك إلى العودة إليه عندما يحتاجون إلى الطعام من جديد.

٢- امتناعُ يعقوب من إرسال أخيهم من أبيهم معهم:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يوسف:٦٣] لَمَّا عادَ إخوةُ يوسفَ إلى أبيهم مزودين بالطعام الذي ذهبوا للحصولِ عليه، وأخبروا أباهم بما طُلِبَ منهم، وأنَ عزيزَ مصر الذي باعهم الطعامَ منعَ من بيعهم الطعام مرة أخرى إن لم يأتوه بأخيهم من أبيهم، فإنْ أرسله معهم كالَ الطعام الذي يشترونه، وتعهدوا له بحفظِهِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

لقد تخوَّف نبيُّ الله يعقوبُ من طلبِ أبنائه أخاهم من أبيهم، فلم يغبْ عنه طلبُهُمْ أنْ يُخْرِجَ معهم يوسفَ وهو صغيرٌ ليرتعَ ويلعبَ، ففي ذلك اليوم تعهدوا له بحفظه، ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:١٢]، فلم يَغُرُّوه بقولهم هنا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يوسف:٦٣]، ولذلكَ ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤]. قالَ لهم: إنَّه لا يأْمنهم على أخيهم إلا كما أمنهم على يوسف من قبل، والمؤمنُ لا يلدغُ من جُحْرٍ مرتين، وقد لدغ يعقوبُ من أولادِهِ مرةً، فلا ينبغي له أن يلدغ منهم مرةً أخرى، قال لهم: لا آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على يوسفَ من قبل، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

٣- أذن يعقوب بخروج ولده معهم بعد أن يؤتوه موثقاً من الله:

بعد أنْ رفضَ يعقوبُ أن يرسلَ ولدَهُ مع بقيةِ أولادِهِ، فتحوا متاعهم الذي جلبوا فيه الطعامَ، فوجدوا أنَّ بضاعتهم التي أخذوها معهم قد رُدَّت إليهم ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف:٦٥]. لقد جعلَ يوسفُ مماليكه يضعونَ البضاعةَ التي جاء بها إخوانُه ليشتروا بها الطعامَ في رحالهم، كي تكونَ حجّةً لإخوانِهِ مع أبيه كي يوافقَ على إرسالِ الأخ الذي مِنَ الأبِ إلى مصرَ، وفعلاً اتخذ الإخوةُ إعادةَ البضاعةِ حجّةً لهم مع أبيه و﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي: ما نريدُ البغيَ والفسادَ، ﴿هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ وفي هذا

دليلٌ على أنَّ عزيزَ مصر حقاً محسنٌ إلينا، وقد أكرمنا غايةَ الإكرام عندما كنا في ديارِه، واستضافنا، وهاهو قد أعاد البضاعةَ التي دفعناها ثمناً للطعامِ، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: وإذا أنتَ أذنتَ أنْ نصحب أخانا يؤذن لنا بشراءِ الطعامِ، فنميرُ أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ أي: ونحنُ نتكفل لك بحفظِ أخينا ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ ويبدو أن العزيزَ قد وعدهم بهذا المقدار من الطعام إن هم حقَّقوا رغبته.

ويبدو أن ردَّ البضاعةِ مع الطعامِ خَفَّفَتْ من غلواءِ يعقوب، فأذنَ لهم باصطحابه على أنْ يؤتوه موثقاً من الله، ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف:٦٦]، قال لهم: لن أرسلَه معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله وذلك بحلفهم الأيمانَ المغلظةَ أن يأتوه بأخيهم إلا أنْ يحيط بهم ما لا قدرةَ لهم على ردِّه فلما آتوه الموثقَ الذي طلبه منهم ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ .

٤- نبيُّ الله يعقوب ينصح أبناءَه أن يدخلوا من أبواب متفرقة:

نصح يعقوبُ أولادَه إذا وصلوا إلى المدينة أن يدخلوا من أبوابٍ متفرقة، فمسير عشرة رجالٍ متشابهين في الشكلِ والمنظر، يلفت النظر إليهم، ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف:٦٧]. وطلبَ يعقوبُ من أولادِه أن يدخلوا متفرقين من أبواب متفرقة، لأنه خشي عليهم العينَ، وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «العين حقٌّ» [البخاري: ٥٧٤٠. ومسلم: ٢١٨٧].

وخشي عليهم العينَ، لأنهم كانوا ذوي جمالٍ وهيئةٍ حسنة، ومنظر وبهاءٍ، فخشي أن يصيبهم الناسُ بعيونهم، ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: لا أدفعُ عنكم ضرراً، ولا أجلبُ لكم نفعاً بما أشرتُ عليكم به، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: الحكم له وحْدَهُ، ليس لغيره فيه نصيب، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدتُ ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف:٦٨]، أي: ولما دخل أبناءُ يعقوب متفرقين من أبواب متفرقةٍ، ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾

أي: ما كان هذا الدخولُ منهم على هذا النحوِ يغني عنهم من قضاء الله تعالى من شيء ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ إلا أنهم قضوا وطراً ليعقوب بدخولهم من أبوابٍ متفرقة ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: وإنه لصاحب علمٍ بما علَّمه الله تعالى إياه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴿٦٨﴾﴾ أي: ولكنَّ كثيراً من الناس غيرُ يعقوب لا يعلمون ما يعلَمه.

٤- **يوسف يُؤْوي إليه أخاه عندما دخل إخوانه عليه:**

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يوسف:٦٩]. لما دخلَ الإخوةُ على يوسفَ خَلا بأخيه ابنِ أمِّهِ وأبيه، وكشف له أمره، وأطلعه على سرِّه، وعرَّفه أنَّه أخوه، وطلبَ منه سترَ ذلك، وعدمَ اطلاعِ إخوتِهِ بما أخبره به، وطلبَ منه ألاَّ يحزنَ ويغتمَّ بما كانوا يؤذونه به.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- إخوةُ يوسفَ يرحلون من فلسطينَ إلى مصر ليشتروا الطعامَ لأهلهم، ويدخلون على المكانِ الذي يتولَّى فيه يوسفُ الطعامَ، فيعرفهم ولا يعرفونه.

٢- يوسف يبيعُ إخوانَه الطعامَ الذي جاؤوا يشترونه، ويشترطُ عليهم في المرةِ القادمةِ أن يصطحبوا معهم أخاهم من أبيهم، فإنْ لم يفعلوا فلن يبيعهم، فوعدوه أن يحاولوا مع أبيهم أنْ يأذنَ لهم في اصطحابِهِ.

٣- أمر نبيُّ الله يوسفُ مماليكَهُ أنْ يَرُدّوا بضاعةَ إخوانِهِ إلى رحالهم التي فيها طعامُهُم، كي يشجعهم على العودةِ إليه في مرةٍ تاليةٍ.

٤- أبناءُ يعقوبَ يخبرونَ أباهم بما نالهم من إكرام من عزيز مصرَ، ويخبرونه بما طلبه منهم من إحضارِ أخٍ لهم من أبيهم، وإلاَّ مَنَعَ بيعهم الطعامَ في المرة التالية.

٥- يعقوبُ يرفضُ عرْضَ أولادِهِ، لأنه يخشى أن يفعلوا به مثل ما فعلوه بيوسف من قبل، فقد تعهدوا له بالمحافظةِ عليه، فخانوه، وخشي أن يفعلوا به فعلهم بيوسف.

٦- فتح إخوةُ يوسفَ متاعهم الذي فيه طعامُهم الذي اشتروه، فوجدوا بضاعَتَهُمْ التي ذهبوا بها إلى مصرَ ليشتروا بها الطعامَ مردودة في ذلك المتاعِ، فأرَوْا ذلك أباهم، وكيف أنَّ الرجلَ يريدُ الإحسانَ إليهم، وأنَّهم لم يفتروا عليه.

٧- يعقوبُ يأذنُ لأبنائِه باصطحابِ أخيهم بعد أن يأخذ عليهم موْثِقاً من الله أنْ يأتوه به إلا أن يحاطَ بهم، فلا يقدرون على الرجوعِ، ولا على إرجاعه.

٨- يعقوبُ يوصي أبناءَه أن يدخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ خشيةً عليهم من العين، ففعلوا ما أمرهم به أبوهم.

٩- إخوة يوسفَ يدخلون على يوسفَ ومعهم أخوهم من أبيهم الذي جاؤوا به من فلسطين، فيخلو يوسفُ بأخيه، ويكشفُ له أمرَه، ويطلعه على سرِّهِ.

النص العاشر من سورة يوسف
يوسف يحتال على إخوته ليبقي أخاه ابن أمه وأبيه عنده

أولاً: تقديم

احتالَ نبيُّ الله يوسفُ ﷺ باستبقاءِ أخيه عنده بوضعِ الصاعِ في رحلِ أخيه، وجعلَ إخوته يحكمون في شأن السارقِ بما في شريعتهم، وبذلكَ أخَذَهُم بما حكموا به، واستبقى أخاه عنده، ولم ينكرْ إخوةُ يوسفَ أنْ يكون أخيهم سَرَقَ، بل اتهموا أخاهُ يوسفَ بأنَّه قد سَرَقَ فيما مضى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يوسف:٧٠-٧٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يوسفُ يحتال ليبقي أخاهُ عنده:

أراد نبيُّ الله يوسف ﷺ أن يبقيَ أخاه عنده، وأنْ يعاقبَ إخوانَه ببعضِ ما اقترفوه في حقِّه، فاحتالَ لذلك ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف:٧٠]. لما جهَّز يوسفُ إخوانَه بجهازِهم، أي: كالَ لهم الطعامَ، وجعلَ السقاية في رحلِ أخيه، أي: جعلَ الصاع الذي يكيلُ به الطعامَ في متاعِ أخيه، ثم حُمِّلتْ لهم الأحمالُ، وانطلقوا عائدين إلى ديارهم، عند ذلكَ ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: نادى منادٍ صائحاً قائلاً: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

عند ذلك ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [يوسف:٧١] أي: أقبلَ إخوةُ يوسفَ ومن معهم على المؤذِّنِ الذي أذَّن بما أذَن به، قائلين: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾؟ أي: ما المتاعُ الذي سُرِقَ منكم، ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يوسف:٧٢]، قالوا: نفقدُ صاعَ الملِكِ، وهو الصاعُ الذي يكالُ به الطعامُ، ولمن يأتي بهذا الصاعِ حملُ بعيرٍ من الطعامِ، وقال المنادي: وأنا به زعيم وقوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ هذا من بابِ الجعَالةِ، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ هذا من بابِ الضمانِ والكفالةِ.

عند ذلك ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يوسف:٧٣-٧٥]، أقسم إخوةُ يوسفَ بالله تعالى أنَّ العزيزَ ومن معه يعلمون أنهم ما جاؤوا ليفسدوا في الأرضِ، والسرقةُ باب من أبوابِ الفسادِ في الأرضِ، وقالوا: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾. قال مماليكُ العزيز مخاطبين إخوةَ يوسف: فما جزاءُ الذي نجدُ الصواعَ في رحلِهِ؟ فحكموا بما كانوا يحكمون به في شريعةِ أبيهم، وكانَ الموجودُ في تلكِ الشريعة أنَّ السارقَ الذي تثبت عليه السرقةُ، يدفعُ إلى المسروقِ منه فيستعبدَه.

٢- مماليك العزيز يستخرجون صواع الملك من متاع أخي يوسف:

بعد أنْ قال إخوةُ يوسفَ ما قالوه أخذَ مماليكُ العزيز في تفتيش رحالِ إخوة يوسف، وبدؤوا بتفتيش متاع الإخوة قبل متاع الأخ الذي وضع الصاعُ في رحلِهِ ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ ﴾ [يوسف:٧٦] وكانَ ما وقعَ مفاجأةً كبيرةً للإخوةِ، فلم يكن الإخوةُ يتوقعون أن تمتدَّ يدُ هذا الأخ إلى صواعِ الملكِ وتسرقه، ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف:٧٦]، وهكذا تحقَّقَ الكيدُ الذي كادَه اللهُ تعالى ليوسفَ، فلو حاكمَ يوسفُ هذه السرقةَ إلى دينِ الملكِ لحكم بحكم آخر، ولم يحكم باستعبادِه عنده، فجعل يوسفُ القضاءَ إلى إخوته في هذه القضيةِ، وكان يعلمُ يوسفُ بالحكم في مثل هذه السرقةِ في شريعةِ يعقوب، فألزمهم بما حكموا به، ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ وقد شاءَ اللهُ أخذَه بشريعةِ يعقوب التي نطقوا هم بالحكم بها.

وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ أثنى اللهُ تعالى على نبيِّه يوسف بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ أي: بالعلم، والناسُ يتفاوتون في العلم، فما من عالمٍ إلا فوقه من هو أعلمُ منه، حتى ينتهي العلم إلى الله ربِّ العالمين.

عند ذلك ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يوسف:٧٧] فلما سمع نبيُّ الله يوسفُ ﷺ ما رموه به، أسرَّ يوسفُ الأمرَ في نفسِهِ، لأنه لو جبههم وأكذبهم لانكشف أمرُه، وهو لا يريدُ أنْ يعرفوا أنَّه يوسفُ في ذلك الوقت، ولذلك قال لهم: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾. قال لهم: أنتم شرٌّ موْضِعاً ومنزلاً ممن نسبتموه إلى السرقةِ، وهو بريءٌ، فأنتم الظلمةُ الذين كذبتم على أبيكم وألقيتم الصبيَّ الصغيرَ في البئرِ، ولم ترحموا ضعفَه، ولم ترْعَوا حرمةَ أبيكم، واللهُ أعلم بما تصفون، فقد كانوا كاذبين فيما رموا به يوسفَ، وكانوا كاذبين عندما صدَّقوا أن أخا يوسف قد سرق حقّاً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل

١ - احتالَ نبيُّ الله يوسفُ ﷺ لإبقاءِ أخيهِ عندَه، ولإرباكِ إخوتِهِ، وجعلهم يألمون لما وقع بهم.

٢- أمَرَ يوسفُ فتيانَه أن يجعلوا صواعَ الملكِ في رحلِ أخيه، واستنطقَ إخوانَه ليحكموا بأنَّ السارقَ يدفعُ إلى المسروق منه، فيستعبدَه.

٣- إخوةُ يوسف لا ينفون عن أخاهم السرقةَ، ويرمون يوسفَ بما هو منه بريءٌ.

٤ - يجوز للرجل إذا ضاعَ متاعُهُ أن يجعل جعالةً لمن يأتيه بالمالِ الضائع، ويجوزُ للرجل أن يضمن ويكفل ما يُعْهَدُ به إليه.

٥ - السرقةُ من بابِ الإفسادِ في الأرضِ.

٦ - قد يقعُ الرجالُ النبهاء الأذكياءُ في أمورٍ لا ينتبهون لها، كما وقع إخوةُ يوسف في الحكم على أخيهم بالرقِّ، وهم لا يشعرون.

٧- كان لملكِ مصرَ قانوناً يأخذ به الناس، لا يتفق مع الشريعةِ التي كان عليها يعقوبُ وبنيه ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦] ولم يحكم يوسفُ بدينِ الملكِ، ولكنَّه تولَّى الوزارةَ في بلاطه.

النص الحادي عشر من سورة يوسف
ما جرى لإخوة يوسف وأبيه بعد اعتقال أخيهم

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ إخوةَ يوسف حاولوا أن يستعطفوا العزيزَ بأنْ يأخذ واحداً منهم بدلَ أخيهم الذي استرقَّه فأبى، عند ذلك عقدوا مجلساً خاصّاً بهم، وأمَرَهم كبيرُهم أنْ يرجعوا إلى أبيهم، ويخبرونَه بما جرى، وأعلمهم أنَّه سيبقى في مصرَ حتى تحلَّ القضيةُ، ولم يقبل أبوهم عذرَهُم، وحمَّلهم المسؤوليةَ عما جرى لأخيهم، وازداد الحزنُ على نبيِّ الله يعقوب، فذهب بصرهُ، وازدادَ حزنه، وامتلأ غمّاً، وداومَ على ذكر يوسف، فلامه أولادُه، فأعلمهم أنه يعلم مِنَ الله ما لا يعلمون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يوسف:٧٨-٨٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إخوة يوسف يستعطفون العزيز ليطلق أخاهم أو يأخذ أحدهم بدلاً منه:

ذهب إخوةُ يوسف إليه يستعطفونه في شأنِ أخيهم، راجينه أن يأخذَ واحداً منهم بدلاً عنه ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يوسف:٧٨-٧٩].

ذهب إخوةُ يوسف إلى العزيز، والتقوا به، وحاولوا أن يُرَقِّقوا قلبَه عليهم، وأخبروه أنَّ له أباً شيخاً كبيراً، وهو متعلقٌ به، ويحبُّه حبّاً شديداً، وطلبوا منه أنْ يأْخذ واحداً منهم بدلاً عنه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ فأنتَ أحسنت إلينا في استضافتنا، وإكرامِنا بإعطائِنا ميرتنا من غير ثمنٍ، فأبى وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ وقال: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: إن أخذنا غيرَ السارقِ نكون من الظالمين.

٢- إخوة يوسف يعقدون اجتماعاً يتداولون الأمر فيما بينهم:

خرجَ إخوةُ يوسف من عند العزيز بعد أن يئسوا أنْ يحقق طلبهم، وعقدوا اجتماعاً وحدهم يتداولون فيما أصابهم ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف:٨٠]. وقوله: ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾ أي: اجتمعوا وحدَهم في اجتماعٍ اقتصر عليهم، لا يسمعهم غيرهم، وتولَّى كبيرُهُم عَرْضَ المسألة عليهم، وقال لهم: قد علمتم أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، وقد سبق أنْ فرطتم، أي: قصَّرتم في حقِّ يوسفَ، فلم تحفظوه، وضيعتموه، فلن أبرحَ الأرضَ، أي: لن أغادرَ أرض مصر، حتى يأذنَ لي أبي بالعودةِ، أو يحكمَ اللهُ لي بخلاصِ أخي من الأسر، فأعودَ به إلى أبي، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ لأنَّ أحكام ربِّ العباد لا تجري إلا على ما يوافق الحقَّ.

٣- عودة أبناء يعقوب إلى أبيهم باستثناء كبيرهم:

أَمَر كبيرُ إخوةِ يوسف إخوانَه أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بحقيقةِ ما جرى في مصر ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يوسف:٨١]، طلبَ كبيرُ الإخوةِ من إخوانِهِ أن يرجعوا إلى أبيهم، ويخبروه بصورةِ ما جرى، وأن يقولوا له: إنَّ ابنكَ سرقَ، وما شهدنا إلاّ بما علمنا، فقد رأوْا مماليكَ يوسفَ يخرجونَ الصاعَ من متاعِ أخيهم، وشاهدَ ذلك كلُّ من كان حاضراً الواقعة.

وقد كان الأخوةُ محرجين كثيراً، لأنهم لو لم يحكموا بما تقْتَضيه شريعتُهم من استرقاقِ السارقِ ما استطاعَ العزيزُ استرقاقَ الأخِ الذي وقع منه ذلك، وقال أبناء يعقوب لأبيهم: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف:٨٢]، وليدلُّوا

على صدقهم طلبوا منه أنْ يسأل أهلَ القريةِ التي كانوا فيها، ويسأل العيرَ التي أقبلوا فيها، أي: يسأل أهلَ القريةِ التي جاؤوا معها، فالواقعةُ كانت على رؤوس الأشهاد، وعلم بها كلُّ من حضرها. ولم يرضَ والدهم بما قالوه، وبقيَ مُتَّهماً إياهم بما جرى لأخيهم ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف:٨٣]، لم يرضَ الأبُ ما قاله أبناؤُه، ومعنى: سوَّلَت: زَيَّنَتْ لكم أنفسكم أمراً، ولذلك قالوا ما قالوه عندما سُئِلُوا عن جزاءِ السارق، ولا شكَّ أن قبولَ الإخوةِ قضيةَ سرقةِ أخيهم لصواعِ الملكِ أمرٌ عجيب، فهم يعرفون أخاهم، ويعرفونَ أخلاقَه، فكيف يتصورُ أن يتحولَ الرجلُ الفاضلُ الذي تربَّى على الطهرِ والصلاحِ إلى رجلٍ سارقٍ بين عشيةٍ وضحاها، ذلك بعيد.

ولذلك كان مع يعقوب شيءٌ مِنَ الحقِّ عندما لم يرضَ مقولةَ أبنائِه، وقال يعقوبُ كما قالَ أولاً: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: صبري صبرٌ جميلٌ، والصبرُ الجميلُ الصبرُ الذي لا شكوى معه، أي: لا شكوى معه للعبادِ.

وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ كان أولاً في حزنٍ لغيبةِ يوسف، فتفاقم الأمرُ، وأصبحَ الغائبون الآن ثلاثة، يوسفُ والأخُ الشقيق ليوسف، والابنُ الأكبر من أولادِه الذي أصرَّ على البقاءِ في أرضِ مصرَ حتى تنجلي المسألةُ، فسألَ يعقوبُ ربَّه أنْ يأتيه بهم جميعاً ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ أي: العليمُ بالناسِ جميعاً الحكيمُ فيما يجريه على خَلْقه.

٤- الحالُ التي صارَ إليها نبيُّ الله يعقوب عليه السلام:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- عن الحالِ الذي صارَ إليها نبيُّ الله يعقوبُ ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف:٨٤] أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن يعقوبَ تولَّى عن بَنِيهِ، أيْ: أعْرَضَ عنهم، وقال: يا أسفى على يوسف، والأسفُ أشدُّ الحزنِ والتندم، أي: يا حزناه على يوسف، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ أي: انقلب سوادُ عينيه بياضاً من كثرة البكاءِ، وقوله: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ أي: حزين.

وقال له أبناؤه لما سمعوه يذكر يوسفَ: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يوسف:٨٥]، فلما سمعَ الأبناءُ ما قالَهُ أبوهم قالوا له مقسمين

بالله تعالى ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: والله لا تزالُ تذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: حتى تصبح حرضاً، أي: بالياً فانياً، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أو تصبحَ من الميتين، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف:٨٦]، قال يعقوبُ لأبنائِه: أنا لا أشكوا همِّي وحزني إلى أحدٍ منكم، أو إلى أحدٍ من خلقِ الله تعالى، إنما أشكوا بثِّي: أي: حزني إلى الله، وشكوى العبدِ إلى ربِّه محمودٌ، وإلى العبدِ مذمومٌ، وقال لهم: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فيعقوبُ عليه السلام كان نبياً رسولاً، يأتيه الوحيُ من الله تعالى، وهو يعلم أنَّ رؤيا يوسف ستتحقق ولا شكَّ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- حاولَ الإخوةُ استدرارَ عطف العزيزِ ليأخذَ واحداً منهم بدل الأخِ الذي استرقَّه فرفضَ.

٢- أرْبَكَ الذي جرى الإخوةَ، فأبوهم أخذَ عليهم العهدَ الموثَّق أنْ يعيدوا أخاهم إلا أن يحاط بهم، وهم الذين حكموا حكماً أدى إلى استرقاقِ أخيهم.

٣- عقد الإخوةُ مجلساً اقتصر عليهم وحْدَهم، ذكَّرَهُم فيه أخوهم الكبيرُ بالميثاقِ الذي أخذه عليهم أبوهم، وطلب منهم أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بما جرى معهم، وأخبرهم أنه سيبقى في أرضِ مصرَ حتى تنجلي القضيةُ.

٤- لم يقبل أبوهم منهم عذرَهُم، وحمَّلهم المسؤوليةَ عما جرى، وتعهد بأن يصبرَ صبراً جميلاً لا شكوى معه.

٥- ازدادَ الحزنُ على يعقوب، فذهب بصرُه، وازدادَ حزنُه، وامتلأَ غمّاً وحزناً.

٦- لامَ أبناءُ يعقوبَ أباهم على مداومَتِهِ على ذكرِ يوسف، فقال لهم: إنه يشكو همَّه إلى الله تعالى، ويعلمُ مِنَ الله ما لا يعملون، وعنده علمٌ من الله أن يوسف موجودٌ حيٌّ.

النص القرآني الثاني عشر من سورة يوسف

نبيُّ الله يوسف ﷺ يكشف لإخوته عن نفسِهِ

أولاً: تقديم

طلب نبيُّ الله يعقوبُ من أبنائِه أنْ ينطلقوا إلى أرض مصرَ، ويبحثوا عن يوسف وأخيهِ، ولا يقعدُهم اليأسُ، فاستجابَ أبناؤُه لطلبه، واجتمعوا في مصرَ، ورجعوا إلى العزيز يشكونَ إليه ما أصابهم وحاجتَهم، ويطلبونَ منه إحسانه، عند ذلك كشف يوسفُ عن نفسِهِ، ووبخ إخوانه على ما كان منهم تجاهَهُ وتجاهَ أخيه، فأقروا بما اقترفوه واعترفوا له بالفضلِ، وغفر يوسفُ لإخوتِه ما اقترفوه، وسأل اللهَ أن يغفر لهم، وطلب منهم أنْ يرسلوا لوالده من يحملُ له البشرى، ويحملُ معه قميصَه، فيلقيه على وجهِ أبيه فيعودُ بصيراً، ويأْتوه بأهلهم أجمعين.

وعندما اقتربتْ القافلةُ وجدَ يعقوبُ ريحَ يوسفَ، ولكنَّ الذين حولَه خطَّؤوه، فلمّا تبينَ لهم صوابُ ما أخبر به، طلبوا منه أن يستغفرَ لهم، فوعدهم بذلك في مقبلِ الزمان.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف:٨٧-٩٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يعقوبُ يطلبُ من أولاده أن يرجعوا إلى مصرَ ويطلبَ منهم أن يتحسسوا من يوسف وأخيه:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ نبيَّ الله يعقوبَ طلبَ من أبنائه أنْ يرجعوا إلى مصر، وأن يبحثوا عن يوسفَ وأخيه ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧]، طلب يعقوبُ من أبنائه أن يرجعوا إلى مصر، وقال لهم آمراً: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ والتحسسُ يكونُ في الخير، والتجسسُ يكون في الشرِّ، وفي أمرهم بالتحسسِ من يوسفَ وأخيهِ، طَلَبَ منهم أنْ يطلبوا بحواسهم يوسفَ وأخاه. ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: لا تَقْنَطوا من فرج الله ورحمته ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: فإنه لا يقطعُ الرجاءَ من الله إلا القومُ الكافرون.

٢- إخوةُ يوسفَ يعودون إلى مصر ويدخلون على العزيز:

أطاعَ أبناءُ يعقوبَ أباهم، ورجعوا إلى مصرَ، واجتمعوا، ودخلوا على العزيزِ واستعطفوه، وتذلَّلوا بين يديه ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف:٨٨].

أجمع إخوةُ يوسف على أن يعودوا إلى العزيز يعرضون عليه حالهم، ويذكرون له ما أصابهم، وقالوا: يا أيها العزيز مسَّنا وأهلنا الضرُّ، أي: بما أصابنا من مَحْلٍ وقحطٍ، وبسبب مصابنا في أخينا الذي اسْتَرَقَّيْتَهُ واستعبدته ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ أي: جئنا ببضاعةٍ رديئة، كالحبلِ، والغِرارةِ، ونحوهما ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمنِ القليلِ ما كنتَ تعطينا ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ أي: بقبضِ هذه البضاعةِ المزجاة، وإعطائنا الطعامَ الطيبَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ إن اللهَ يثيب المتفضلين على أهلِ الحاجةِ بأموالهم.

هنا كشفَ لهم يوسفُ عن نفسِهِ، وأعلمهم بحقيقته، وكانت مفاجأة مذهلة لهم، لم يكونوا يتوقعونها، فلم يكن يَدُرْ في خلدِهِمْ أنّ هذا العزيز الذي يمثل الرجلَ الثاني في الحكومةِ المصريةِ هو ذلك الطفل الصغير الذي ألقوه في غيابةِ الجبِّ، وقد سألهم منكراً عليهم موبخاً لهم: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يوسف:٨٩]، إنه

يسألهم عما فعلوه بيوسفَ وأخيهِ، إذن هذا الذي أمامهم يعلمُ أمْرَ يوسفَ ويعلمُ أمرَ أخيه، فمن أين له ذلك؟ عند ذلك ظهرتْ لهم الحقيقةُ، إنَّ هذا الجالس أمامهم هو يوسفُ، وهو يعرفهم، وهم لا يعرفونه.

ولذلك عندما أدركوا هذه الحقيقة ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠ ﴾ [يوسف:٩٠] قالوا له: أإنك لأنتَ يوسف؟ قال : أنا يوسف، وهذا أخي، وهذا يدلُّ على أنَّ أخاهم كان معهم في تلكَ الجلسة.

وقولُ يوسفُ لإخوته: ﴿ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أما ما فعلوه بيوسف، فقد سبقَ أنْ حدَّثنا اللهُ تعالى عنه، وأما ما فعلوه بأخيه، فقد كانوا يؤذونه إذا استطاعوا، وقالوا: إنْ يسرق فقد سرقَ أخٌ له من قبل، وعندما سألهم العزيزُ عما يفعل بالسارقِ أجابوا جواباً استرقَّ به العزيزُ ذلك الأخ.

عند ذلك ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢ ﴾ [يوسف:٩١-٩٢]. قالوا مقسمين بالله تعالى ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ ﴾ والمراد بقوله: ﴿لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: لقد اختارَكَ وفضَّلَكَ اللهُ علينا، وهذا صحيحٌ، فقد آتاه اللهُ تعالى النبوةَ، وأعطاه الخُلُقَ والمُلْكَ، وأقرُّوا بأنهم أساؤوا إليه، وأخطؤوا في حقِّه.

عند ذلك ﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢ ﴾ [يوسف:٩٢]. قال يوسفُ عليه السلام لإخوته ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ﴾ أي: تأنيبَ عليكم، ولا تعيير عليكم، ولا توبيخَ مني لكم، ثم دعا لهم ﴿ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ ﴾ وقال: ﴿ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢ ﴾ .

٣- مجيءُ نبي الله يعقوب البشارةُ بالعثورِ على يوسفَ:

طلب نبيُّ الله يوسفُ عليه السلام أن يحملوا قميصَهُ ويلقوه على وجهِ أبيه، فيرجعُ بصيراً ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٣ ﴾ [يوسف:٩٣]. لقد كانَ القميصُ الذي جاء به إخوانه وهو صغير إلى أبيه حَسْرةً وألماً ليعقوب،

وهذا قميصٌ آخر ليوسفَ يردُّ الله به على يعقوبَ بصرَهُ، وأمرهم يوسفُ أن يحملوا أهلهم من أرض فلسطين، ويأتوا بهم إلى مصرَ أجمعين.

وسار حاملُ القميص من إخوانِ يوسف من مصرَ في قافلةٍ من القوافل التي تقصد فلسطين، حاملاً البشرى للأبِ الحزين المكلومِ الذي ابيضت عيناه من الحزنِ، فلما اقتربتْ العيرُ من الديار، وجدَ يعقوبُ ريحَ يوسفَ، ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يوسف:٩٤-٩٥]. عندما اقتربتْ العيرُ من الديار، وجدَ يعقوبُ ريحَ يوسف، فقال لمن حوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ أي: لولا أن تلومونني، وتعنفوني، وتكذبوني، فقالوا له حالفين بالله: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ أي: لفي حزنِكَ القديمِ على يوسف، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى جاءَ البشيرُ بقميصِ يوسفَ فألقاه على وجهِ يعقوب فارتدَّ بصيراً ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يوسف:٩٦]. وعلمَ نبيُّ الله يعقوب ﷺ بما لا يعلمه أولادُه، لأنه نبيٌّ رسولٌ يوحَى إليه.

وعندما جاءَ البشيرُ يعقوبَ بالبشرى طلب منه أولادُه أنْ يستغفر لهم ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يوسف:٩٧-٩٨] طلبَ أبناءُ يعقوب منه أن يستغفر لهم ذنوبهم، واعترفوا بخطيئتهم، فوعدهم أنْ يستغفر لهم في مقبلِ الأيام ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ إنه واسعُ المغفرةِ، وهو الرحيمُ سبحانه، وسأستغفره لكم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- نبيُّ الله يعقوب ﷺ يطلب من أبنائه أن يرجعوا إلى مصرَ، ويبحثوا عن يوسفَ وأخيه، ويكونَ لديهم أملٌ، ولا ييأسوا من روحِ الله.

٢- إخوةُ يوسف يرجعون إلى مصرَ، ويقابلون عزيزها، ويشتكون إليه مصابهم.

٣- يوسفُ ﷺ يظهر نفسَهُ لإخوتِه، ويُظهر لهم نعمةَ الله عليه وعلى أخيه.

٤- إخوةُ يوسف يعترفون بفضلِ يوسفَ عليهم، ويعترفون بما اقترفوه في حقِّه.

٥- يوسفُ يغفرُ لإخوانِهِ ما اقترفوه في حقِّه، ويدعو اللهَ تعالى لهم أنْ يغفر لهم ذنبهم.

٦- يوسفُ يطلبُ من إخوانه أنْ يذهبوا إلى أبيهم، فيبشروه، وأمرهم أن يلقوا على وجهه ذلك القميصَ الذي في يده، فيرجعُ بصيراً، وطلبَ منهم أنْ يأتوه بأهلهم جميعاً، ليقيموا في أرضِ مصرَ.

٧- لما اقتربت العيرُ من ديارِ يعقوب، وجدَ يعقوب ريحَ يوسف، فأنكر عليه أبناؤُه، وقالوا: إن هذا يدخل في حزنِهِ.

٨- البشيرُ الذي يحمل قميصَ يوسف يصلُ إلى أبيه يعقوب، فيبشره، ويلقي القميصَ على وجهِ أبيه، فيرجعُ إليه بصرُه.

٩- يعقوبُ يقولُ لأبنائه: ألم أقلْ لكم إني أعلم مِنَ الله ما لا تعلمون.

١٠- أبناء يعقوب يطلبونَ منه أنْ يستغفرَ لهم ربَّه، فيعدهم بفعل ذلك في مقبل الأيام.

النص القرآني الثالث عشر من سورة يوسف
تحققُ رؤيا يوسف عليه السلام

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّ العزة في هذه الآياتِ الكريماتِ عن انتقالِ نبيِّ الله يعقوب وذريتِهِ من فلسطين إلى الديار المصرية، وهناك تحققت رؤيا يوسفَ عليه السلام بسجودِ أبيه وأمِّه وإخوانِهِ الأحدَ عَشَرَ له في قاعةِ العرش، وختم اللهُ قصة يوسف بإظهار يوسف وهو يدعو ربَّه، ويثني عليه، وأخبرنا ربُّنا عز وجل أنَّ ما قصَّه علينا من قصة يوسف هو من أخبارِ الغيبِ الصادق.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠) ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٤)﴾ [يوسف:٩٩-١٠٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- انتقال يعقوب وذريته من أرضِ فلسطينَ إلى الديارِ المصرية:

هناك مقطعٌ كاملٌ لم يذكره النصُّ القرآنيُّ، ولكنه مفهوم من النصِّ لا يحتاجُ إلى ذكر، فقد طلب يوسف من إخوانِهِ أنْ يأتوه بأهلهم أجمعين، فذكر النص أنَّ يعقوبَ وذريتهُ دخلوا على يوسفَ، ولم يذكر رحيلهم من أرضِ فلسطين إلى أرضِ مصرَ، ولكن ذلك مفهوم معلوم، لا يحتاج إلى ذكر.

جاء يعقوبُ هو وذريته من أرض فلسطين، واستقبلهم يوسفُ ومن معه، وأكرمَ وفادتهم، ودخل يعقوبُ وزوجه وأبناؤه قاعة العرش، ورفع يوسفُ أبويه على العرش، وجلس إخوانه في تلك القاعة، وخرُّوا له ساجدين، فقال يوسفُ لأبويه: هذا تأويلُ رؤياي

التي رأيتها في صغري، جعلها ربي حقاً ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

وصل نبيّ الله يعقوب مع ذريتِهِ إلى الديارِ المصريةِ، ولما دخلوا على يوسفَ في قاعةِ العرشِ آوى إليه أبويه، ورفع أبويه على العرش، أي: على سرير الملك، وخروا له سجداً، فكان أبوه وأُمُّه بمثابةِ الشمسِ والقمرِ اللذين رآهما في الرؤيا، وكان إخوانُه الأحدَ عشر بمثابة الأحدَ عشَرَ كوكباً، التي رآها في منامِهِ، وقال يوسفُ بعد أن تمَّ السجودُ له على هذا النحو ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ أي: تحققت رؤياي التي رأيْتُها في صغري بهذا السجود الذي وقع قبل قليلٍ ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ فلم تكن من حديثِ النفسِ، ولا من تخاليطِ الشيطانِ، وإنما كانت من الله تعالى، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ وقد مَرَّ كيف يَسَّر اللهُ خروجه من السجنِ وكيف يَسَّرَ له استلامَ الحكم ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ وجاءَ اللهُ بيعقوب وذريته من باديةِ فلسطين إلى أرضِ الخيرِ والعطاءِ، حيث وجد بنو إسرائيل في ديارِ مصر دياراً تكاثر فيها عَدَدُهُمْ، ونمتْ فيها قوتُهُمْ، وأصبحوا أمةً كبيرةً، فقد دخلوا مصر وعددهم أقلَّ من مائةٍ، وخرجوا منها وتعدادهم يزيد على مئات الألوف، وقوله ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي: من بعد أن أفسد الشيطانُ ما بيني وبين إخوتي، وحمل بعضنا على بعض ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: هو سبحانه ذو لطف، ومن لطفه إخراج الله له من السجنِ، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلوبِ إخوتِهِ ما ألقاه الشيطانُ، وهو العليمُ بمصالح خلقه، الحكيم في تدبيره.

٢- مشهدُ نبيِّ الله يوسف وهو يدعو ربَّه:

في ختامِ القصةِ يبرزُ النصُّ نبيَّ الله يوسف عليه السلام وهو متوجهاً إلى ربِّ العزة، يدعوه ويثني عليه ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١]. قال يوسف وهو يدعو ربه: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ فقد رفع اللهُ يوسف حتى أصبح الرجل الثاني في الدولة، ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: علمتني تعبيرَ الرؤيا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

أي: يا فاطر السموات والأرضِ، وفاطرهما خالقهما وبارئهما، ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: أنت ناصري ومتولي أموري في الدنيا والآخرة، ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: توفني على الإسلام، وذلك بإعانتِهِ عليه حتى يأتيه الموتُ وهو كذلك، وألحقني بصالحِ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ومَن قبلَهم من الأنبياءِ والرسلِ والذين اتبعوهم على الإيمانِ.

٣- هذا الذي أوحاه اللهُ تعالى إلى عبده ورسوله في هذه السورة من أنباء الغيب:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه وتعالى- أنَّ هذا الذي قصَّه على رسولِنا ﷺ من قصةِ يوسف هو من أخبارِ الغيب ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٢-١٠٣]. أراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما قصصناه عليك ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: من أخبار الغيب، ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: نعلمك به بواسطة وحينا ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: لم تكنْ حاضراً لدى إخوةَ يوسف عندما أجمعوا أن يلقوا يوسفَ عليه السلام في غيابة الجبِّ، وهم يمكرون، أي: يمكرون بأخيهم، ولكننا أعلمناك به وحياً مُنزَّلاً من عندنا.

وكلُّ أنباءِ الغيبِ التي أوحى الله تعالى بها إلى رسولِهِ ﷺ حالُها حالَ ما أعلم اللهُ -تعالى- به رسولَهُ ﷺ في هذا الموضع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص:٤٤]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [القصص:٤٥]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يوسف:١٠٤]، أي: أنت لا تطلبُ منهم مالاً على ما تبلغهم إيَاه من الحقِّ المنزلِ إليك من عند الله، وهذا الذي تبلغهم إياه ليس إلا ذكراً للعالمين، أي: للناسِ أجمعين، فرسولنا ﷺ مرسلٌ للناسِ كلِّهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- انتقل نبيُّ الله يعقوب هو وذريتُهُ من أرض فلسطين إلى الديارِ المصرية.

٢- دخل نبيُّ الله يعقوبُ هو وزوجه وأولادُه قاعةَ العرش، ورفع يوسفُ أبويه على سرير الملك، وسجدَ له أبوه وأمُّه وإخوانُه الأحدَ عشر، وكان ذلك تأويلُ رؤيا يوسف عليه السلام.

٣- كان الشمس والقمر في الرؤيا مثلاً للأب والأمِّ، والكواكب الأحد عشر مثلاً للإخوةِ.

٤- ختمت قصةُ يوسف عليه السلام بإبرازِ نبيِّ الله يوسف عليه السلام وهو يدعو ربَّه سبحانه، ويثني عليه، ويقول: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ .

٥- ما قصَّه ربُّ العزة سبحانه علينا من قصة يوسف هو من أخبارِ الغيب الصادقةِ التي لا نعلمها إلا من قبل الغيبِ الذي أوحى الله تعالى لنا به.

النص القرآني الرابع عشر من سورة يوسف

أولاً: تقديم

عقَّبَ ربُّ العزة بجملةٍ من التوجيهات الربانية على ما سبق ذكره من قصة يوسف وإخوانه، فمن ذلك إخبارُه أنَّ كثيراً من الناس يمرُّون على الآياتِ المبثوثةِ في السموات والأرضِ غير متعظين بها فيها، وأعلمنا أن كثيراً من الناس لا يؤمن بالله إلا وهم مشركون، وبذلك لا يدخلون في حدِّ الإيمانِ الشرعيِّ، وتهدَّد المشركين أن ينزلَ عليهم عذاباً يغشاهم من عذابِ الله أو تأتيهم الساعةُ بغتةً وهم لا يشعرون، وأمر رسولَهُ ﷺ أنْ يدعو اللهَ على بصيرةٍ، أي: على يقينٍ وعلم هو ومن اتبعه، وأعلمنا سبحانه أنَّ الرسلَ الذين أرسلهم من قبلِ رسولِنا كانوا جميعاً رجالاً من أهل القرى، ولم يكونوا من الملائكة أو الجنِّ أو النساء. وأمر عبادَه بالسير والنظرِ في مصارع الغابرين، وأعلمنا أنَّ الدارَ الآخرةَ خير للذين كانوا يتَّقون، وأخبرنا سبحانه أن الرسلَ أيسوا من قومهم أنْ يصدقوهم، وظنَّ قومُهم أنَّ الرسلَ قد كذبتهم، وأخيراً أعلمنا في الآية الأخيرة من هذه السورة أن الله تعالى جعل في القصصِ الذي قصَّه علينا عبرةً لأولي الألبابِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:١٠٥-١١١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسرِ آياتِ هذا النص من القرآن

١- ذمَّ اللهُ تعالى حالَ كثيرٍ من الناس يمرُّون على آياتِ الله وهم معرضون:

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- كثيراً من عبادِ الله يسيرون في أرض الله، ويمرُّونَ على آياتِ الله المبثوثةِ في السماواتِ كالشمسِ والقمر والنجوم أو في الأرض كالجبالِ والبحارِ والأنهارِ

والسهولِ والحقولِ وغيرها، وهم لا يفقهون ما فيها، ولا يدرون دلالتها على خالقها وبارئها ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥]، وهذه حالُ أكثر الناسِ اليوم، لا يلتفتون إلى ما تدلُّ عليه الآياتُ من وحدانية الخالقِ العظيمِ.

٢- أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا وهم مشركون:

أعلمنا ربُّنا وخالقنا جلَّ وعلا أنه ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف:١٠٦]، أي: لا يؤمنُ أكثرُ الناسِ بالله تعالى إلا وهم مشركون، فالعربُ كانوا يؤمنون أنَّ اللهَ خالقُ السمواتِ والأرضِ ومبدعهما ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]. كان العربُ يؤمنون بذلك كله، ولكنهم يشركون الأصنامَ والأوثانَ.

والنصارى يؤمنون بوجود الإلهِ الذي خلق السمواتِ والأرضَ، ويجعلون له صاحبةً وولداً، وهذا النوع من الإيمانِ لا يُدْخِلُ الناسَ في الإيمانِ الذي يقبله ربُّ العبادِ، ولا يخرج الناس من زمرةِ الكفرِ.

وهناك ألوانٌ من الشرك الأكبرِ، وألوانٌ من الشركِ الأصغرِ يقترفها العباد تُذْهِبُ الإيمانَ أو تخدشه، وقد نبَّه الرسولُ ﷺ على هذه الألوانِ من الشرك، فيما صحَّ عنه من الأحاديث، فمن ذلك:

أ- ما رواه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حَلَفَ بغيرِ الله فقد كَفَرَ أو أشْرَكَ» [رواه الترمذي: ١٥٣٥. وقال: هذا حديث حسن].

ب- ما رواه أبو داود عن عبدالله بن مسعود، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الرُّقى والتمائم والتِّوَلَةَ شِرْكٌ» [أبو داود: ٣٨٨٣. وصحيح سنن أبي داود للألباني: ٣٢٨٨. والتمائمُ: جمعُ تميمةٍ، وهي التعويذةُ، والتولة: نوع من السحر].

ج- عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من عَلَّقَ تميمة فقد أشرك» [قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: أخرجه أحمد في المسند (١٧٤٢٢) وهو حديث قويٌّ وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٢)].

د- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال اللهُ تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشركِ، من عَمِلَ عملاً أشْرك فيه معيَ غيري، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ» [مسلم: ٢٩٨٥].

هـ- عن محمودِ بن لبيد أن رسولِ الله ﷺ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُم الشركُ الأصْغر» قالوا: وما الشرْكُ الأصْغَرُ يا رسولُ الله؟ قال: «الرياء، يقول اللهُ يوم القيامةِ إذا جازَى الناسَ بأعْمالهم: اذْهَبُوا إلى الذين كنتم تُراؤُون في الدنيا، فانظروا هل تجدونَ عندَهُمْ جزاء» [قال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير (٤/ ٣٧٠) رواه أحمد (٢٣٦٣٠) وهو حديث حسن. قال الألباني في الصحيحة (٩٥١): وهذا إسناد جيد].

٣- تهديد الله للمشركين أنْ تأتيهم غاشية:

تهدَّد اللهُ تعالى المشركين، فقال: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾ [يوسف:١٠٧]. تهدَّد اللهُ تعالى المشركين أن يأتيهم عذابٌ يغشاهم من حيث لا يشعرون، والغاشيةُ العذابُ الذي يغْمُرُ الناسَ ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت:٥٥]، ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾ أي: فجأةً: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾.

٤- سنّةُ رسولِ الله وطريقته ومنهجه:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقولَ للمشركين: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف:١٠٨]، وسبيلُ الرسولِ ﷺ أنْ يدعو إلى الله على بصيرةٍ، أيْ: على حجَّةٍ واضحةٍ، وهي الدعوةُ إلى توحيدِ الله، لا شريكَ له، والذينَ اتبعوه على منهجه يدعون إلى الله تعالى على بصيرةٍ ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وقلْ: سبحانَ الله، أي: أنزهُهُ وأجلُّهُ، وأعظمه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ أي: فلا أجعل لله مثيلاً، ولا شريكاً، ولا نداً ولا صاحبةً ولا ولداً، تبارك وتعالى وتقدس.

٥- ما أرسل اللهُ تعالى قبل رسولنا ﷺ إلا رجالاً من الإنس:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى وتقدَّس- أنَّ الرسلَ الذين أرسلهم قبل رسولنا هم جميعاً رجالٌ من أهلِ القرى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف:١٠٩]. وفي هذه الآية ردٌّ على الذين يطالبون أن يكونَ الرسولُ الذي يرسله اللهُ مَلَكاً، فأخبرهم أن جميعَ الرسلِ الذين أرسلهم كانوا رجالاً من الإنس من أهل القرى، ولم يكن فيهم مَلَكٌ، ولا جنيٌّ، ولا امرأةٌ، اختارهم اللهُ تعالى رجالاً من أهل القرى، لا من أهل البادية.

وطلب اللهُ تعالى مِنَ المشركين أن يسيروا في الأرضِ، وينظروا في عاقبةِ الذين من قبلهم ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف:١٠٩] ومصارعُ الأُممِ المكذبة للرسل من قبلنا مبثوثة في الأرضِ، فعلينا أن نسير في الأرضِ، وننظر في مصارعِ الأقوامِ، وكيف عاقبهم ربُّ العزة، ودمَّر مساكنهم، وأهلكهم، والدارُ الآخرةَ خيرٌ للمتقين، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: أفلا يعقلُ هؤلاءِ المشركون بالله حقيقةَ ما يقوله اللهُ تعالى، ويخبرهم عن سوء عاقبةِ المكذبين.

٦- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾:

قال ابنُ جرير الطبريُّ رحمة الله تعالى في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف:١١٠]، قال: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهلِ القرى، فدعوا من أرسلنا إليهم، فكذَّبوهم، وردُّوا ما أتوْا به من عندِ الله، حتى إذا استيأسَ الرسلُ الذين أرسلناهم إليهم منهم أن يؤمنوا بالله، ويصدِّقُوهم فيما أتوهم به من عندِ الله، وظنَّ الذين أرسلناهم إليهم من الأمم المكذبةِ أنَّ الرسلَ الذين أرسلناهم قد كذبوهم فيما أخبروهم عن الله من وعده إياهم نصرهم عليهم جاءَهم نصرنا». وقال بالذي قاله ابنُ جرير جمعٌ كبير من أئمة التفسير أمثالِ ابن عباس، وسعيدِ بن جبير، ومجاهدِ، وابنِ زيد، وغيرِهم [تفسير ابن جرير: ٦/ ٤٦٥٨].

وقوله تعالى: ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ أي: نجَّى اللهُ تعالى من يشاءُ من عذابه، وهم المؤمنون الموحِّدون، ولا يردُّ بأسُهُ، أي: عذابه عن القومِ المجرمين، أي: الكافرين المشركين.

٧- كان في قصص المرسلين الذين أخبرنا عنهم ربُّ العالمين عبرة لأولي الألباب:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه كان في قصص الذين قصَّهم اللهُ تعالى من الرسلِ عبرةٌ لأولي الألباب ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:١١١].

لقد كان في قصص مَنْ قصّه اللهُ تعالى علينا عبرةٌ لأولي الألباب، وهم أصحابُ العقول، يتعظون بما فيها من الوقائع والأحداث، ويستمتعون بما فيها من الطرائف واللطائف، والقصةُ تسلَّلُ إلى القلوب بيسرٍ وهدوء، وهذه القصص التي قصَّها اللهُ تعالى علينا، ليست أخباراً مفتراة مكذوبة كالأساطير والخرافات التي يخترعها أصحابُ الخيال الواسع.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: لم يكن هذا الذي قصَّه اللهُ تعالى حديثاً يختلق ويتخرص، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكنه تصديق الذي بين يديه من كتب الله التي أنزلها

على أنبيائه كالتوراةِ والإنجيلِ والزبورِ، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: فصَّل ربّنا -تبارك وتعالى- في هذا الكتاب كلَّ ما يحتاجُ العبادُ إلى تفصيله من حلالٍ وحرام وطاعةٍ ومعصية، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ وهو أي: القرآن، هدى ورحمةٌ من ربِّ العباد ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ أي: الذين يؤمنون بالله وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليوم الآخر.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- في السماواتِ والأرضِ كثيرٌ من الآياتِ يمرُّ عليها الناس، وهم غافلون عما فيها من العبر.

٢- كثيرٌ من الناسِ دينهم خليطٌ من الإيمان والكفرِ.

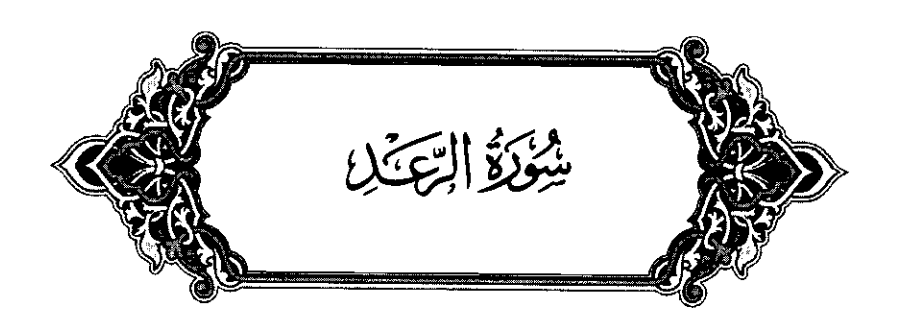
٣- اللهُ -تعالى- قادرٌ على أنْ ينزل على الكفارِ عذاباً يحيطُ بهم، أو تأتيهم الساعةُ فجأةً، وهم لا يشعرون بحضورها.

٤- سبيلُ رسول الله ﷺ وسبيلُ من اتبعه سبيلٌ نيرةٌ واضحةٌ قائمةٌ على العلمِ واليقين.

٥- يأمر اللهُ تعالى عباده بالسيرِ والنظرِ في مصارعِ الذين أهلكهم في الأرضِ بسبب كفرهم.

٦- لما أيست الرسلُ أن يستجيبَ لهم قومهم، وظنَّ قومهم أنَّ الرسلَ قد كذبوهم جاءهم النصرُ، فنجّى اللهُ من يشاء.

٧- لقد كان فيما قصَّه الله تعالى على رسولِهِ عبرةٌ لأصحابِ العقولِ.



قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «اختلفوا في نزولها على قولين:

أحدهما: أنها مكية، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد ابن جبير، وعطاء، وقتادة. وروى أبو صالح عن ابنِ عباس أنها مكية، إلا آيتين منها، قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ ...﴾ إلى آخر الآية [الرعد:٣١]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ [الرعد:٤٣].

والثاني: أنها مدنية، رواه عطاءٌ الخراسانيُّ عن ابنِ عباس، وبه قال جابر بن زيدٍ. وروي عن ابنِ عباس أنها مدنية، إلا آيتين نزلتا بمكة، وهما قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ...﴾ إلى آخرها [الرعد:٣١]. وقال بعضهم: المدني منها قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ...﴾ إلى قوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد:١٤]» [زاد المسير: ٤/ ١٦٩].

وقال أبو عمرو الداني: «كَلِمُ هذه السورة مئة وخمس وخمسون كلمة، وحروفها ثلاثة آلاف وخمس مئة وستة أحرف. وهي أربعون وثلاث آيات في الكوفي، وأربع في المدنيين والمكي، وخمس بصري، وسبع شامي» [البيان في عدِّ آي القرآن: ص١٦٩].

النص القرآني الأول من سورة الرعد
اللهُ -تعالى- رفعَ السماءَ ومدَّ الأرض

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ -تعالى- في أول في هذه السورة على كتابه، ثم عرَّفنا على نفسِهِ بعرضِ جملةٍ من أفعالِهِ، وأنكر على الكفارِ كفرهم بالبعثِ والنشور، وحكمَ عليهم أنهم في النار.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد:١-٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الثناء على الكتابِ وهو القرآنُ الذي أنزله ربُّ العباد:

افتتح ربُّ العزة -تبارك وتعالى- هذه السورة بالحروفِ المقطعةِ ﴿الٓمٓرۚ﴾، وقد سبق في فاتحةِ سورةِ البقرةِ بيانُ المعنى الصحيحِ لهذه الحروف، ثم قال ربُّ العزة سبحانه وتعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ [الرعد:١] المشارُ إليه باسم الإشارةِ الموضوعِ للبعيد ﴿تِلۡكَ﴾ هي آياتُ الكتابِ، واستعملَ اسمَ الإشارةِ الموضوعِ للبعيد ليدلَّ على رفعة القرآن وعُلُوِّه ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ والذي أنزل إلى رسولِنا ﷺ وهو القرآنُ الكريمُ هو الحقُّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾﴾ أي: ولكنَّ الغالبية العظمى من الناسِ لا يؤمنون، أي: الإيمانَ الذي حدَّده اللهُ وشاءَه.

والسماءُ الدنيا محيطة بالأرضِ من جميعِ جهاتها، وكل سماءٍ فهي محيط بالسماء التي دونها، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الرعد:٢]، أي: استوى -سبحانه- على عرشِه استواءً يليقُ بجلالِهِ وعظمته، ومعنى استوى علا واستقرَّ وارتفع، ومعنى الاستواء معلوم، ولكن كيفية الاستواء مجهولة.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الرعد:٢]، أي: ذلَّلَ سبحانه الشمسَ والقمرَ، وجعلهما يجريان إلى قيام الساعة، والشمسُ والقمرُ أظهر الكواكبِ السيارةِ، وإذا جاء يومُ القيامة، فإن الشمسَ تكوَّرُ ويذهبُ ضوؤها، والقمرَ يخسفُ ويزول، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ يدبر أمورَ الآخرة والدنيا وحده سبحانه، بغير شريكٍ، ولا ظهيرٍ، ولا معينٍ، وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرعد:٢]، أي: يبين الآياتِ الدالة على وحدانيةِ الله وقدرته، لعلكم توقنون بلقاءِ ربكم إذا فصَّل لكم الآياتِ.

وكما أعلمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ بما سبقَ بيانه في السمواتِ والأرضِ والشمسِ والقمرِ أعلمنا سبحانه بأنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ﴾ [الرعد:٣] أخبرنا سبحانه أنه مَدَّ الأرضَ، أي: جعلها متسعةً ممتدةً في الطولِ والعرضِ، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ﴾ [الرعد:٣]، أي: أرسى الأرضَ وثبتها بالجبالِ ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [الرعد:٣]، والزوجُ يطلق على الاثنينِ وعلى الواحدِ المزاوجِ للآخر، والمرادُ بالزوجِ الواحدِ، ولهذا أكد الزوجين بالاثنين لدفع توهم أنه أريدَ بالزوجِ هنا الواحد، فالثمراتُ زوجانِ منها الحلو والحامض، والأبيضُ والأسودُ، ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾ [الرعد:٣]، أي: جعل كلاًّ منهما يطلب

الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ أي: يتفكرون في آيات الله، أي: في مدِّ الأرض، وإرسائها بالجبال، وما جعله فيها من الثمارِ، وتعاقب النور والظلمة.

وأخبرنا ربُّنا العليُّ الأعلى سبحانه أنَّ ﴿ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:٤].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه جعل في الأرضَ قطعاً متجاوراتٍ، أي: أراضي يجاور بعضُها بعضاً، وفاوتَ بين هذه الأراضي، فجعل بعضَها أرضاً طيبةً تنبتُ العشب، وتحفظ الماءَ، وجعل قطعةً مجاورةً سَبْخَةً مالحةً لا تنبت، وجعل قطعةً ثالثة صخرية صلدة قاسية، وقد تتفاوت الأرضُ في ألوانها، وهي متجاورة، فتكون هذه بيضاءُ، وهذه سوداءُ، وهذه حمراءُ، وقد تكونُ الأرضُ جناتٍ متنوعة، أي: بساتين متنوعة، فتكون جناتٍ من أعنابٍ وزروعٍ، ونخيلٍ صنوان وغير صنوان، يسقى بماءٍ واحدٍ، أي: تكون الأرضُ الواحدة تنبت أشجاراً شتى، فيها الخوخ والكمثرى والتفاح والبرتقال، ويحمل بعضها أكثر من بعضٍ، ويكون بعضها حلواً، وبعضها حامضاً.

وقوله: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ والصنوانُ جمع صنو، وهنَّ النخلاتُ يجمعهنَّ أصلٌ واحد، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: نخلاً متفرقاً، كلُّ واحدةٍ على حدة، يسقيها ماءٌ واحدٌ، ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ﴾ أي: وتختلفُ طعومها فيما بينها، فهذا حلوٌ، وذاك حامضٌ، وهذا مزٌّ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ أي: إنَّ ما يحدث عنه ربُّ العزة من هذه الجناتِ والزروعِ آياتٌ لقوم يعقلون، أي: ما يُتحدَّث عنه، وما يرونه بأبصارهم.

٣- التعجب من إنكار الكفار للبعث والنشور:

قال اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ : ﴿﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد:٥].

قال اللهُ تبارك وتعالى لرسولِهِ ﷺ إن تعجب مِنْ حال هؤلاء الكفارِ فأعْجَبُ أمرهم قولُهُم: إنَّهم إذا ماتوا وصاروا تراباً أنْ يُعادوا إلى الحياةِ مرةً أخرى، ويخلقون خلقاً جديداً، مع

أنَّ الأدلَّةَ قائمةٌ على إمكان ذلك، فالذي خلقهم أوَّلَ مرةٍ قادرٌ على أن يعيدهم مرةً أخرى، بل هو أهونُ عليه، والذي خلق السمواتِ والأرض قادرٌ على إعادةِ الناسِ بعد موتهم، فخلقُ السموات والأرض أعظم مِنْ خلق الناس.

وهؤلاء الذين كفروا بالبعث والنشور كافرون بالله تعالى، لأنَّهم ينكرون قدرةَ الله على البعثِ، وهؤلاءِ يُؤْتى بهم يومَ القيامة، وقد وضعتْ الأغلالُ في أعناقهم، وهؤلاء أصحاب النار هم خالدون فيها لا يخرجون منها بحال.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- القرآنُ الكريمُ الذي أنزله ربُّ العالمين كتابٌ عظيم، وهو كتابٌ حقٍّ وصِدْق، وأكثرُ الناسِ لا يؤمنون به.

٢- اللهُ -تبارك وتعالى- وَحْدَه الذي رفع السمواتِ والأرَضَ بعَمَدٍ لا نراها، وهو الذي استوى على العرش سبحانه، وهو الذي سخَّر لنا الشمسَ والقمرَ، وهو الذي مدَّ الأرض وأرساها بالجبالِ، وأجرى فيها الأنهارَ، وجعل فيها الأشجارَ التي تنتج الثمارَ، وهو الذي أغشى الليلَ النهارَ.

٣- خلق ربُّ العزة في الأرضِ قطعاً متجاوراتٍ، تتفاوتُ فيما بينها، وجعلَ فيها جناتٍ مِنْ الأعنابِ، والزروعِ، وجعل فيها النخلَ الذي ينمو فيه عدةُ نخلاتٍ مِنْ أصلٍ واحد، وغير صنوان، أي: تنبت النخلُ آحاداً متفرقة، وترى الأشجارَ تسقى بماءٍ واحدٍ، وطعمها متفاوتٌ في الأكلِ.

٤- أعجب أمر الكفار إنكارُهم للبعثِ والنشورِ مع قيامِ الآياتِ الدالاتِ عليه، فهؤلاء كفار مصيرهم إلى النارِ، وبئس القرار.

النص القرآني الثاني من سورة الرعد

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾

أولاً: تقديم

ذمَّ اللهُ تعالى المشركينَ الذين يستعجلون بالسيئةِ قبل الحسنةِ، وذمَّهم لكونهم لا ينظرون في مصارعِ الغابرين، ولا يتَّعِظُون بها، وذمَّهم لأنهم يطلبون الآياتِ الخوارقِ، والإتيان بالآياتِ ليس من عمل الرسولِ ولا اختصاصه، ويتحدَّثُ اللهُ تعالى عن نفسهِ، فهو يعلمُ ما تحمل كلُّ أنثى في هذا الكونِ الواسعِ العريض، ويعلم كلَّ ما يجري في الأرحامِ، ويعلم السرَّ المكنونَ في الصدورِ، والحركةَ الخفيةَ في جنح الظلامِ، ويعلم كلَّ مستخفٍ وكلَّ سارب وهامس وجاهر، ويحدثنا ربنا عن الملائكةِ المعقباتِ التي تحفظ الإنسان من أمر الله، ويحدِّثنا اللهُ تعالى عن البرقِ والسحابِ والرعدِ، وهي مظاهرُ صنعها الله تعالى في هذا الكون الواسعِ العريضِ لحكمٍ يعلمها اللهُ تجري في هذا الكون الواسع الكبيرِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الرعد

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد:٦-١٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- استعجالُ الكفارِ العذابَ:

قال اللهُ تعالى لرسولِه ﷺ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد:٦] أي:

يستعجلك هؤلاءِ الكفارُ المشركونَ ﴿ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ أي: يستعجلونَكَ بالبلاءِ، والعقوبةِ قبل الرخاءِ والعافيةِ، فيقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢]، ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ والمثلاتُ العقوباتُ المُنكِّلاتُ والواحدة منها مُثْلَةٌ، والمثلاتُ: وقائعُ الله في الأممِ التي كَذَّبَت مِنْ قبلنا، فمن ذلك الطوفانُ الذي أخذَ قومَ نوحٍ، والريحُ التي أخذت قومَ هود، والمسخُ الذي أخذ الذين اعتدوا في السبتِ، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ ﴾ أي: لذو صفحٍ وعفوٍ وسِتْرٍ للناس على ظلمهم، أي: على اقترافهم الذنوب والمعاصي، وفي الآية بشارةٌ عظيمةٌ، فهو يغفر لهم مع كونهم ظالمين، أي: ظلماً دون الشركِ، فالشرك الأكبرُ لا يغفره ربُّ العزَّةِ إن مات صاحبه عليه، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ أي: لمن مات على شركه وكفره.

٢- طلبَ الكفارُ آيةً تنزلُ عليهم مِنْ عند الله غير الآياتِ التي نزلت:

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد:٧].

أخبرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ طلبوا أن يُنْزِلَ عليه ربُّه آيةً غيرَ ما أنزلَ عليه، فقد طلبوا أن يجعلَ لهم الصفا ذهباً، أو أن يزيلَ الجبالَ مِنْ حولهم، ويجعلَ مكانها مروجاً وأنهاراً، فقال اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ أي: تنذرُ الناسَ غضبَ الله وانتقامَهُ ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ أي: يهديهم، ويدخلُ الإيمانَ في قلوبهم، وهو اللهُ سبحانه وتعالى.

٣- الله يعلمُ ما تحملُ كلُّ أنثى:

أعلمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّه ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد:٨] وكم في الأرض مِنْ أُنثى مِنَ النياقِ والبقرِ والغنمِ والخيلِ والحميرِ والغزلانِ وغيرها مبثوثةً في هذه الأرضِ الواسعةِ العريضةِ بعضها يكون في ظلمةِ الليل، وبعضها في وضحِ النهار، وعلمُ الله يحيطُ بها، وبما تحمله في بطونها، وما تغيضُ الأرحامُ، أي: تنقصه فإنَّ الله يعلمه، وما يزدادُ مِنْ أرْحامها فإنَّه يعلمه، وكلُّ شيءٍ عنده بمقدارٍ.

ومن جملة أنثى الحيوانِ الذي يدخل في الآية، ويحيطُ به عِلْمُ الله أُنثى الإنسانِ. وقوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد:٩] والغيبُ ما غابَ عنا في هذا

الكونِ الواسعِ العريضِ، وهو لا يُحْصَى كثرةً، والشهادة ما نشاهدُه من البشرِ والبحارِ والأنهارِ والحيوانِ والشمس والقمر والنجوم، وهو قليلٌ بالنسبة لما غابَ عنا، ويستوي في علمِ الله تعالى علم ما غابَ عنَّا، وما نشاهدُه، فهما في علمِهِ سواء، واللهُ تعالى هو ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ اللهُ هو الكبير، فلا أحدَ أكبر منه، وهو المتعالي، أي: العالي على كلِّ شيء، فلا أعلى منه.

وأعلمنا ربُّنا سبحانه وتعالى أنَّه يستوي في علمه الجهرُ والعلانيةُ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد:١٠]، أعلمنا ربنا أنَّه يستوي في علمه الذي يسرُّ قولَه ويخفي، ومَنْ يجهرُ به ويبديه، كما يستوي عنده سبحانه المُسْتَخْفي في ظلمةِ الليلِ، والساربُ الظاهرُ في وضحِ النهارِ، كلاهما في علمه سواء.

٤- له معقباتٌ مِنْ بين يديه ومِنْ خلفه:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ لكلِّ واحدٍ منَّا ﴿مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١] والمعقباتُ ملائكةٌ وضعهم ربُّ العزة على كلِّ واحدٍ مِنَ البشر يحفظونه مِنْ أمرِ الله تعالى، فلا يصلُ إليه سوء لا يريد اللهُ أنْ يصلَ إليه، فإذا جاءَ العبدُ ما قَدَّر اللهُ أنْ يصلَ إليه خَلَّوا بينه وبين قدرِ الله، وهذه الملائكةُ غيرُ الملائكةِ الذين يحفظونَ على العبدِ أعمالَهُ صالحَها وطالحَها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] أي: لا يزيلُ اللهُ النعمَ التي أنعمَ بها على عبادِهِ في أنفسهم وفيما حولهم حتى يعملوا بمعاصيهِ، ويهجموا على ما حَرَّمه عليهم، عند ذلك يسلبهم اللهُ نِعَمَهُ، ويحلُّ بهم نِقَمَه، وتتبدَّلُ أحوالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ [الرعد:١١]، أي: إذا أراد اللهُ تبارك وتعالى أنْ يحلَّ بقومٍ نِقَمَه، فلا يستطيعُ أن يردَّ عليه أحدٌ مراده، لا مِنَ الإنسِ ولا من الجنِّ ولا الملائكةِ، وليس لمن حلَّ بهم العذابُ والٍ يتولاهم، ولا حامي يحميهم، ويمنع عنهم العذابَ.

٥- الرعد يسبح بحمدِ الله والملائكةُ يُسبحون مِنْ خيفته:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾ [الرعد:١٢] أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه هو الذي يرينا البرقَ خوفاً

وطمعاً، والبرقُ: اللمعان الذي يظهر في السحابِ، واللهُ تعالى يرينا البرقَ فنخافُه، لأنَّه قد يتحول إلى صاعقةٍ، وقد يكون نذيراً بسيل مدمرٍ، ﴿وَطَمَعًا﴾ لأنه قد يأتي بالخيرِ، فقد يأتي بالمطرِ الذي يحيي الأرضَ بعد موتها، وقد يُجْرِي الأنهارَ، ويغذو العيونَ، ويجعلها تتدفقُ.

واللهُ -تبارك وتعالى- ينشئُ السحابَ الثقالَ، ينشئُ السحاب الممتلئ بالماء إلى مختلفِ بقاعِ الأرضِ، فتحمل السحابةُ الماءَ فتسقي العبادَ والدوابَّ والأرضَ، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن الرعدَ يسبح بحمدِهِ والملائكةُ مِنْ خيفته ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٣] فهذا الصوتُ المدوِّي الذي يأتي من الرعدِ هو تسبيحٌ بحمدِ الله، وتسبح ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ وأخبرنا ربنا عزَّ وجلَّ أنه ﴿يُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ أي: أنَّ اللهَ تعالى يرسل الصواعق على مَنْ يشاء أن يصيبه بها ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ۝١٣﴾ [الرعد:١٣] والذين يجادلون في الله أهلُ الشرك، يجادلون في وحدانيتِهِ، وفي استحقاقه العبادةَ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - الكفارُ يستعجلون الرسولَ ﷺ أنْ يُنْزِلَ بهم العقابَ زاهدين بالخيرِ والعافيةِ، غير معتبرين بما حلَّ بمن قبلهم مِنَ العذابِ.

٢ - الكفارُ يطلبون أن ينزلَ اللهُ على رسولِهِ آياتٍ غيرَ التي نزلت عليه، وإنزالُ الآيات ليست للرسول ﷺ، بل هي لله الواحدِ الأحدِ.

٣ - اللهُ -تبارك وتعالى- يعلم بما تحمله كل الإناثِ في جميع بقاعِ الأرض، ويعلم ما تنقصُه الأرحامُ وما تزيدُه، وهو عالمٌ بما غاب عن الإنسانِ وما شاهده.

٤ - يستوي في علم الله تعالى الذي أسرَّ القولَ والذي جهرَ به والمتخفي في ظلماتِ الليلِ، والقائم في وضحِ النهار.

٥ - يرسل ربُّ العباد -سبحانه- على عباده مِنَ البشر ملائكةً يحفظونه مِنْ أمر الله تعالى، فلا يصلُ إليه مِنَ الأذى إلا ما أذن الله تعالى به.

٦ - لا يغيِّر اللهُ -تعالى- النعمَ التي أنعم بها على عبادِهِ، حتى يكفروا بما أنعمَ اللهُ عليهم.

٧- إذا أرادَ اللهُ -تبارك وتعالى- بقوم سوءاً لم يستطعْ أحدٌ دفعَهُ لا من الإنس ولا الجن ولا الملائكة.

٨- اللهُ -تعالى- وحده الذي يرينا البرقَ فيخيفنا ويطمعنا، وهو سبحانه الذي ينشِئُ السحابَ الثقالَ الذي يغيث البلادَ والعبادَ، والرعدُ يسبح بحمدِ الله، والملائكة يسبحون مِنْ مخافةَ الله عزَّ وجلَّ، واللهُ يرسل الصواعقَ على مَنْ يشاء أن يرسلها عليه، فيصيب بها من يشاء

النص القرآني الثالث من سورة الرعد
الله تعالى له دعوة الحقِّ وآلهة المشركين دعوتهم باطلة

أولاً: تقديم

يعلمنا ربُّنا سبحانه أنَّ له الدعوةَ الصحيحةَ، وهي دعوةُ الحقِّ دعوةُ التوحيد، ودعوةُ الكفارِ التي تتجه إلى الأصنامِ دعوةٌ باطلةٌ ضائعةٌ، وضربَ اللهُ المثلَ للكفارِ الذين يدعونَ غيره بطالبِ الماءِ الذي يُوجِّه يديهِ إلى الماءِ، فلا يبلغَ الماءُ فاه.

ويعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- أنَّ كلَّ مَن في الكونِ خاضعٌ لله ساجدٌ له طوعاً أو كرهاً، وهو سبحانه ربُّ السمواتِ والأرضِ، فالله هو الخالقُ لكلِّ شيءٍ وهو الواحدُ القهارُ. وضربَ ربُّ العباد مثلاً للحقِّ والباطلِ، فالباطلُ هو الغثاءُ الذي يحمله السيلُ عندما تهطلُ الأمطارُ في الوديانِ والشعاب، ومثله مثلُ الزبدِ الذي يظهرُ على صُهارةِ الذهبِ والفضةِ عندما نوقد عليها النار، والحقُّ هو الماءُ الهاطلُ مِنَ السماءِ الذي تسير به الوديانُ والشعابُ، وهو الذهبُ والفضة الذي يوقدون عليه النار.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الرعد

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد: ١٤-١٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الله -تبارك وتعالى- له دعوة الحقِّ:

أخبرنا -تبارك وتعالى- أنَّ ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد:١٤].

أخبرنا اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنَّ له دعوةُ الحقِّ، ودعوةُ الحقِّ دعوةُ التوحيدِ القائمةِ على: لا إله إلا الله، والذين يَدْعون مِنْ دون الله الآلهةَ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ وغيرهم لا تستجيب هذه الأصنامُ لدعوتهم، ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ إلا كالذي يقفُ في أعلى البئرِ أو النهرِ ويبسطُ كفيه إلى الماءِ، يريد أن يصعدَ الماءُ إلى فمه، وليسَ في الماءِ خاصية أن يصعد إلى أعلى، ويستجيبُ إلى ما يريده الإنسانُ، ولذلك قال: ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي: لن يصعدَ الماءُ إلى فمِهِ، وكذلكَ هذه الآلهةُ التي يدعونها مِنْ دونِ الله تعالى، لا تسمعُ دعاءَهم، ولا تجيبُ نداءَهم. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ أي: وما دعاءُ الكافرين إلا في ضياعٍ، فالآلهةُ التي يدعونها لا يسمعون، ولا يجيبون، ودعاءُ الكافرين بذلك يكون ضائعاً.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد:١٥]، أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه يسجدُ له مَنْ في السمواتِ والأرضِ طوعاً، وهؤلاءِ هم الملائكةُ ومؤمنو الإنسِ والجنِّ، ﴿وَكَرْهًا﴾ والله أعلم بطريقةِ سجودِهم كرهاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣]، أي: وله يسجدُ ظلالُ الناسِ بالغدوِّ في الصباحِ وبالآصال، والآصال جمع أصيل، أي: في آخر النهار عندِ انكسارِ الأشعةِ وامتدادِ الظلال.

٢- الله تعالى رب السموات والأرض ورب كل شيء وخالق كل شيء:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أن يسألَ المشركين، ويقولَ لهم: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد:١٦]. أمَرَ ربُّ العزَّة سبحانه رسوله ﷺ أن يسألَ المشركين،

ويقول لهم: مَنْ ربُّ السمواتِ والأرضِ، وأمَرَهُ أن لا ينتظر إجابتهم، بل يسارعُ بالإجابة ويقول: ﴿ٱللَّهُۚ﴾ ثم أمَرَهُ أن يتبعَ السؤالَ الأول بسؤال ثانٍ، ويقول: ﴿أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ يقول لهم: إذا كان اللهُ تعالى هو خالقُ السمواتِ والأرضِ، فكيف تتخذون مِنْ دون الله أولياءَ، أي: شركاءَ، وهؤلاءِ الشركاءُ لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، فالآلهة التي يعبدونها مِنْ دون الله أصنامٌ لا تنفعُ ولا تضرُّ، ثم أمر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يتبع السؤالين السابقين بثلاثةِ أسئلةٍ أخرى، ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ يعني بالأعمى المشركَ الكافرَ، وأما البصيرُ فهو المؤمن الموحِّدُ، والجوابُ: أنهما لا يستويان، وقوله: ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ الجوابُ أنهما لا يستويان، والسؤالُ الأخيرُ ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾ أي: جعلوا لله أنداداً يعبدونهم معه، وقوله: ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ والجوابُ: أنَّ هذه الآلهة الباطلةَ التي جعلوها شركاءَ لله تعالى في عبادتِهِ، لم تَشْرَكْه في الخلقِ، ولذلك قال ربُّ العزة: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ قل لهم: إنَّ اللهَ تعالى هو وَحْدَهُ خالقُ كلِّ شيء، فهو خالقُ ما في السمواتِ والأرضِ، وما بينهما، وهو خالقُ آلهتهم التي يعبدونها مِنْ دون الله، وهو الواحدُ، أي: في ربوبيته وأُلوهيته وفي أسمائِه وصفاته، وهو الذي قهر عبادَه ومخلوقاتِهِ بعزَّته وجبروته.

٣- المثلُ الذي ضربه اللهُ تعالى للحقِّ والباطل:

ضربَ اللهُ -تعالى- مثلاً للحقِّ والباطلِ والإيمان والكفر في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد:١٧]، ضربَ اللهُ -تعالى- المثلَ بالمطرِ الذي ينزلُه مِنَ السماءِ، فتسيل به الأوديةُ والشعابُ، كلٌّ يحمل مِنَ الماءِ بمقدارِهِ وسعتِهِ، فالكبيرُ يحملُ ماءً كثيراً، والصغيرُ يحمل ماءً قليلاً، واحتمل السيلُ زبداً رابياً، والزبدُ هو تلك الفقاعات وذلك الغثاء الذي يحمله الماءُ على وجهه أثناءَ تدفقه في سيره.

ومثل هذا الزبد خبث المعدن وتلكَ الفقاعات التي تَظْهَرُ على سطح صهارة الذهبِ والفضةِ طلباً لصناعةِ الحليِّ وما نتمتع به مِنْ أنواع الآنية الذهبيةِ أو الفضية، فإنَّه يظهر على سطح تلك الصهارة فقاعات شبيهة بالفقاعات التي تعلو سطح الماءِ، فالماءُ الذي يجري في

الوديانِ والشعابِ مثلُ الحقِّ، والفقاعات التي تعلو سطح الماء والتي تغيبُ وتتلاشى عندما يقف التيار مثلُ الباطل.

وما يمكث في الأرض مِنَ الذهبِ والفضةِ مثل الحقِّ، والخبث الذي يعلو صهارة المعدن الذي يوقد تحته النار مثلُ الباطلِ، وهو سريعاً ما يذهب ويجفُّ ويزولُ، ومثل هذين المثلين اللذين ضربها اللهُ تعالى ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ .

٤- الذين أطاعوا اللهَ ورسوله لهم الجنَّة:

أخبرنا اللهُ تعالى أنَّ الذين استجابوا لله لهم الجنَّةُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد:١٨].

يخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ الذينَ استجابوا له سبحانه بالإيمان واتباعِ شرعِهِ لهم الحسنى، والحسنى الجنَّةُ، والذين رفضوا الاستجابةَ له، وهم الكفار لو أنَّ للواحدِ منهم يومَ القيامة كلَّ ما في الأرضِ ومثله معه، لافتدوا به مِنْ ذلك العذابِ، ولكنَّ اللهَ تعالى لا يقبلُ منهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:١٨]، وقد جاءَ في الحديثِ الصحيحِ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قالَ رسول الله ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إلاَّ هَلَكَ» قلت: يا رسولَ الله، جعلني اللهُ فداءَكَ، أليس يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة:١٩-٢٠]، قال: «ذلك العَرْضُ يُعْرَضونَ، ومَنْ نُوقِشَ الحِسابَ هَلَكَ» [البخاري: ٤٩٣٩. ومسلم: ٢٨٧٦].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد:١٨]، أي: مَسْكَنُهم الذي يسكنونه يومَ القيامةِ جهنَّم، وبئس الفراش جهنَّم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ تعالى له الدعوةُ القائمةُ على الحقِّ والصوابِ، وهي دعوةُ التوحيد، ودعوةُ الآلهةِ التي يعبدونها مِنْ دون الله، دعوة باطلة.

٢- اللهُ تعالى المعبودُ الحقُّ الذي يسجدُ له كلُّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ طائعين أو كارهين، كما يسجد له ظلالهم في الصباحِ والمساءِ.

٣- اللهُ ربُّ السمواتِ والأرضِ، وخالقهما هو الذي يستحقُّ العبادةَ دون غيره.

٤- اللهُ تعالى أنزل الماءَ مِنَ السماءِ، فسالت المياهُ في الأوديةِ والشعابِ بقدر ما تستطيعُ تلك الأوديةُ أن تتحمله مِنَ المياه، فاحتمل السيلُ زبداً رابياً، ويظهر الزبدُ الرابي أيضاً على صهارة الذهبِ والفضةِ، فالزبدُ الرابي مثالٌ للباطل، والماءُ الجاري في الوديان، وما تبقى من الذهب والفضة التي يوقدون عليهما ويتخلصون من خبثهما مثالٌ للحقِّ.

٥- المؤمنون الموحِّدُون الذين استجابوا لربِّهم في الجنةَ، والكفارُ معذبون في النارِ، ولو أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به مِنْ عذابِ يومِ القيامةِ.

النص القرآني الرابع من سورة الرعد
صفاتُ المؤمنينَ وصفاتُ الضالين

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين يعلمون أنّما أنزلَ مِنْ عندِ الله هو الحقُّ، فيؤمنون به مبصرون، أمَّا الكفار فهم عمي عن الحق لا يبصرون، ثم يصفُ ربُّ العزةِ المؤمنين المهتدين الذين هم أولو الألباب ويفصِّل في صفاتهم، ويجعلُ لهم عقبى الدارِ، وهي الجناتُ.

أمَّا المناقضون فهم الذين ينقضون عهدهم مع الله عز وجل ويقطعونَ ما أمر اللهُ به أنْ يوصل، فهؤلاء لهم اللعنة، ولهم سوءُ الدارِ.

وأخبرنا سبحانه أنَّه يوسِّعُ على الناسِ ويضيِّقُ عليهم وفق عِلْمه وحكمته، فيعطي الدنيا فرعونَ وهامانَ وقارونَ لا لكرامتهم عليه، ويحرمُ منها الأخيارَ الصالحين، لا لهوانهم عليهم.

وبَيَّن سبحانه أنَّ الآياتِ لا تُدْخِلُ الإيمانَ في القلوبِ، واللهُ وَحْدَهُ الذي بيده الهدى، يضلُّ مَنْ يشاءُ، ويهدي مَنْ يشاءُ.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرعد:١٩-٢٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يستوي المؤمنون الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسولِ حق والكفار:

وَجَّه اللهُ تعالى الخطاب إلى رسوله ﷺ قائلاً له: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد:١٩] سأل اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن المؤمنين الذين

يعلمون أنما أُنزل إليك من ربك الحق، وهو القرآنُ كمن هو أعمى، والمرادُ بالأعمى أعمى القلبِ، وهو الكافر، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ أي: إنما يعتبرُ ويتعظُ أصحابُ العقولِ السليمةِ الصحيحةِ.

٢- **صفات أولي الألباب:**

أثنى ربُّ العزة سبحانه وتعالى على أولي الألباب، أي: أصحاب العقول الصحيحةِ فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ ثم وصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ أصحابَ العقولِ بالصفاتِ الحميدة التالية:

أ- وفاؤهم بالعهودِ التي عاهدوا بها، وأعظمها العقودُ التي بينهم وبينَ الله تعالى، ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد:٢٠].

وعدم نقضهم لشيءٍ منها

ب- وصْلُهُم ما أَمَرَ اللهُ به أنْ يوصل ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا يشمل وصلَ جميع ما أمر الله تعالى به أن يوصل من صلةِ الأرحام، والإحسانِ إلى الأقاربِ، والإحسانِ إلى الفقراءِ والمساكين والمحاويجِ ونحو ذلك.

ج- خشيتُم من ربِّهم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الرعد:٢١] أي: خوفهم منه.

د- خوفُهم من سوءِ الحسابِ ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد:٢١]، وقد مضى معنا في النص السابقِ أنَّ من نوقشَ الحسابَ عُذِّب.

هـ- صبرُهُم على ابتغاءِ وجه ربِّهم ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٢٢] أي: صبروا على القيامِ بالأعمالِ الصالحةِ ابتغاءَ وجهِ الله تعالى.

و- إقامتُهم الصلاةَ ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الرعد:٢٢]، أي: قيامُهُم بالصلاةِ التي فرضها اللهُ تعالى على عبادِهِ بأدائها في أوقاتها، والقيامِ بشروطها وأركانها، والالتزامِ بالمأثورِ عن رسولِ الله ﷺ منها.

ز- ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد:٢٢]، وهذا النوعُ من الإنفاق أوسعُ من أداءِ الصلاةِ، فيشملُ كلَّ النفقاتِ التي أمرَ الله -تعالى- بها، وهم مأجورون في إنفاقهم في السر والعلانية إذا أخلصوا دينهم لله تعالى.

ح- درؤهم بالحسنة السيئةَ ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد:٢٢]، أي: يدفعون بالحسنةِ فيحسنوا لمن أساءَ إليهم فإذا قابلهم أحدٌ بالسوءِ قابلوه بالجميلِ كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤].

...لمون أنما أُنزل إليك من ربك الحق، وهو القرآنُ كمن هو أعمى، والمرادُ بالأعمى أعمى القلبِ، وهو الكافر، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ أي: إنما يعتبرُ ويتعظُ أصحابُ العقولِ السليمةِ الصحيحةِ.

٢- صفات أولي الألباب:

أثنى ربُّ العزة سبحانه وتعالى على أولي الألباب، أي: أصحاب العقول الصحيحةِ فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ ثم وصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ أصحابَ العقولِ بالصفاتِ الحميدة التالية:

أ- وفاؤهم بالعهودِ التي عاهدوا بها، وأعظمها العقودُ التي بينهم وبينَ الله تعالى، وعدم نقضهم لشيءٍ منها ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرعد:٢٠].

ب- وصْلُهُم ما أمَرَ اللهُ به أنْ يوصل ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا يشمل وصلَ جميعِ ما أمر الله تعالى به أن يوصل من صلةِ الأرحام، والإحسانِ إلى الأقاربِ، والإحسانِ إلى الفقراءِ والمساكين والمحاويجِ ونحو ذلك.

ج- خشيتُم من ربِّهم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الرعد:٢١] أي: خوفهم منه.

د- خوفُهم من سوءِ الحسابِ ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد:٢١]، وقد مضى معنا في النص السابقِ أنَّ من نوقشَ الحسابَ عُذِّب.

هـ- صبرُهُم على ابتغاءِ وجه ربِّهم ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٢٢] أي: صبروا على القيامِ بالأعمالِ الصالحةِ ابتغاءَ وجهِ الله تعالى.

و- إقامتُهم الصلاةَ ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الرعد:٢٢]، أي: قيامُهُم بالصلاةِ التي فرضها اللهُ تعالى على عبادِهِ بأدائها في أوقاتها، والقيامِ بشروطها وأركانها، والالتزامِ بالمأثورِ عن رسولِ الله ﷺ منها.

ز- ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد:٢٢]، وهذا النوعُ من الإنفاق أوسعُ من أداءِ الصلاةِ، فيشملُ كلَّ النفقاتِ التي أمرَ الله -تعالى- بها، وهم مأجورون في إنفاقهم في السر والعلانية إذا أخلصوا دينهم لله تعالى.

ح- درؤهم بالحسنة السيئةَ ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد:٢٢]، أي: يدفعون بالحسنةِ فيحسنوا لمن أساءَ إليهم فإذا قابلهم أحدٌ بالسوءِ قابلوه بالجميلِ كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ٣٤﴾ [فصلت:٣٤].

وقد أخبر ربُّ العزة -تبارك وتعالى- أنَّ هؤلاءِ الذين وصفهم الله بما وصفهم به ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ ثم بيَّنَ اللهُ تعالى المراد بعقبى الدارِ التي وعدهم بها، فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]. فالعاقبةُ التي أثنى ربُّ العزة على من حازها جناتُ عدنٍ، وعدْنُ: جنات الإقامةِ الدائمةِ التي يخلدُ فيها أصحابُها، ويدخلها مَنْ صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتِهم، والصالحون منهم هم الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، ومن نعيمهم فيها دخولُ الملائكة عليهم مِنْ كلِّ باب، يسلِّمون عليهم، ويقولون لهم: نلتم هذا الذي أنتم فيه بسبب صبرِكم، فنعم العاقبةُ التي نلتموها، وحُزْتم عليها.

٣- مصيرُ الذين ينقضون عهدَ الله ويقطعونَ ما أمَرَ اللهُ به أنْ يوصل:

بعد أنْ وصفَ اللهُ تعالى الصالحين، وهم أولو الألبابِ، ذكر صفاتِ الطالحين الذي ينقضونَ عهودهم مع ربِّهم تبارك وتعالى بعد أنْ أعطوه مواثيقهم، وقطعوا ما أمَرَ اللهُ تعالى أن يوصلَ مِنَ الأرحامِ والأقاربِ والفقراءِ، ويفسدون في الأرضِ بارتكابهم الذنوبَ والمعاصيَ، وتخريبهم الديارَ، وقتلهم العباد، وتدميرهم الزروعَ والأشجارِ، فهؤلاء لهم اللعنة، وهي الطرد من رحمةِ الله، وإحلالُ العذابِ بهم، ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥] وهي سوءُ العاقبةِ والمآل، ومأواهم جهنَّم وبئس المصير.

٤- اللهُ يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ:

ظنَّ كثير من الكفار أنَّ توسيعَ الله تعالى عليهم في الدنيا يدلُّ على فضلهم وكرامتهم، وهذا جهلٌ وضلالٌ فـ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد:٢٦]، فاللهُ تبارك وتعالى يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ، ويوسِّعُ عليه، ويعطيهِ المالَ الكثيرَ، ويمدُّه بالأولادِ، ويقْدِرُ على مَنْ يشاءُ، أي: يضيِّق عليه، كلُّ ذلك وفق حكمةٍ يعلمها، والكفارُ فرحوا بالحياةِ الدنيا لَمَّا وسَّعَ اللهُ عليهم بالرزقِ، وبيَّن ربُّ العبادِ سبحانه أنَّ الحياةَ الدنيا في الآخرةِ متاعٌ قليلٌ، يتمتَّعُ به ثمَّ يزولُ، أمَّا الدارُ الآخرة فهي الدارُ الدائمةُ الخالدةُ.

وأخبرنا ربُّ العزة سبحانه وتعالى عما يقوله الذين كفروا فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد:٢٧] حكى اللهُ

تعالى في هذه الآية مقالةَ المشركين التي يطلبون فيها أنْ ينزل اللهُ على رسولِهِ ﷺ آيةً من عنده، فأمره أنْ يجيبهم، ويقول لهم: إنَّ الفضلَ بيدِ الله، أي: بيده تدبير الأمور، فالإيمانُ لا يتوقف على نزولِ الآياتِ، فالله وحْدَه إذا شاءَ هدى، وإذا شاءَ أضلَّ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لا يستوي المؤمنون الذين يصدِّقون بأن ما أنزل إليك من ربِّك الحقُّ، والكفارُ الذين أصابهم الكفرُ بالعمى إنما يتذكَّر أولو الألبابِ.

٢- وصف اللهُ تعالى الصالحين أصحابَ العقولِ السويَّة الصالحةِ بصفاتٍ حميدة طيبةٍ، وأعلمنا بالعاقبةِ الحميدةِ التي يحوزُونها في الآخرةِ وهي خلودُهم في الجنةِ هم والصالحون من أقاربهم

٣- الذين ينقضون عهدَ الله تبارك وتعالى، ويقطعونَ ما أمرَ اللهُ به أن يوصل، ويفسدون في الأرضِ لهم اللعنةُ، ولهم سوءُ الدارِ.

٤- اللهُ يوسِّع على من يشاءُ من عبادِهِ، وقد يُوَسِّع على الكافرِ، وقد يوسِّع على المؤمن، ويضيِّق على من يشاءُ من مؤمنٍ وكافرٍ.

٥- الكفارُ يطلبونَ من الله تعالى أن ينزِّل على رسولِهِ المزيدَ من الآياتِ، فأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الآياتِ لا تدخلُ الإيمان في القلوبِ، فاللهُ يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاءُ.

النص القرآني الخامس من سورة الرعد
ألا بذكر الله تطمئن القلوب

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ -تعالى- في هذه الآيات على المؤمنين الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكر الله، وأخبر سبحانه أنَّه بذكر الله تطمئنُ القلوبِ، وأعلمنا أنَّ الذين آمنوا لهم طوبى في جناتِ النعيم، وأعلمَ رسوله ﷺ أنَّه أرسله في أمته، وقد مضتْ أممٌ كثيرةٌ من قبله، ليتلو عليهم آياتِهِ التي أوحى بها إليه، وأخبر أنهم يكفرون بالله ربِّهم.

وأثنى على كتابه المنزلِ على رسولِهِ، وأخبر لو أنَّ قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرضُ أو كلِّم به الموتى لكانَ هذا القرآن.

وهدَّدَ ربُّ العزةِ أن يفعلَ بالكفارِ مثل الذي فعله بمن قبلهم، وأعلمنا سبحانه أنهم جعلوا لله شركاءَ، وطالبهم أنْ يسمُّوا هؤلاء الشركاء، وهي آلهة باطلة، وأعلمنا أنَّ هؤلاء لهم عذابٌ في الدنيا، وعذابهم في الآخرة أشدُّ، ولا أحدَ يستطيع أن يقيهم عذابه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الرعد

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الرعد:٢٨-٣٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المؤمنونَ المطمئنةُ قلوبُهم بذكر الله:

أثنى اللهُ تعالى على صنفٍ من المؤمنين هم الذين يذكرون اللهَ تبارك وتعالى فتطمئنُّ قلوبُهم بذكر الله، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:٢٨]، واطمئنانُ القلوبِ حالةٌ نفسيةٌ، تجعلُ القلوبَ هنيَّةً راضية، يغشاها الهدوءُ والسكونُ، بعيداً عن الهمومِ والأوجاعِ النفسية، وقد قرَّر ربنا تبارك وتعالى أنَّه ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ ، فالقلوبُ لا تطمئن بالدنيا الفانيةِ، والأموال الزائلةِ، والملكِ المنقضي، وذكرُ الله وحدَهُ هو الذي يقرُّ القلوبَ، ويحيي النفوس، وينير الصدور.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذين آمنوا وأتبعوا إيمانَهم بالعمل الصالح مِنَ الصلاة والزكاةِ والحجِّ والدعاءِ والذكر ونحوها مِنَ الأعمال الصالحةِ طوبى لهم، أي: لهم الفوزُ في جناتِ النعيم، ولهم حسنُ المرجعِ عند ربِّهم تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرعد:٢٩].

٢- أرسلَ اللهُ رسوله محمداً ﷺ ليقيم الحجة على الخَلْقِ:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أرسلَ رسولَهُ ﷺ ليقيم الحجةَ على أمتِهِ كما أقامها الرسلُ على أُممهم ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد:٣٠].

خاطبَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ معلماً إيَّاه أنَّه أرسلَهُ في أمةٍ هي العربُ، قد خلت من قبلها أممٌ كثيرةٌ ليتلو عليهم ما أنزله اللهُ عليه مِنَ القرآنِ العظيم الذي أوحى اللهُ تعالى به إليه، فتلاوةُ ما أوحاه اللهُ إليه، يصقلُ القلوبَ، وينيرُ العقولَ، ويباركُ النفوسَ، ويعرِّف بالله، ويعرفُ بملائكتِه وكتبه ورسلِهِ، واليومِ الآخر، ويعلم العلمَ، ويهْدي للتي هي أقوم.

وقد ذمَّ اللهُ تعالى قومَه الذين بادروا دعوتَه بالكفرِ بالرحمن، فبدلَ الإيمان كفروا بالرحمنِ، واشتطُّوا بالشركِ والطغيان، وقد أمر اللهُ تعالى أن يقولَ لقومه: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ربي لا معبودَ يستحقُّ العبادةَ أحدٌ غيره، فهو الواحدُ الأحد، الفردُ الصمدُ، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وهذا الإلهُ العظيمُ عليه اتكالي وَحْدَهُ، وإليه مرجعي في يومِ الدين.

٣- **عظمةُ هذا القرآن:**

بيَّن اللهُ تعالى مدى عظمةِ هذا القرآنِ الذي لا يوجدُ كتاب عند البشر أجلَّ وأعلى وأعظم منه فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد:٣١].

يقول اللهُ -تبارك وتعالى- في حقِّ هذا القرآنِ العظيمِ، لو أنَّ قرآناً سيرت به الجبالُ الراسياتُ، أو قطعت به الأرضُ الجامدةُ، أو كُلِّم به الموتى الذين لا يسمعون، لكانَ هذا القرآنُ، وقد صنعَ القرآن الكريم ما هو أعظم من ذلك، صنعَ من النفوسِ العربيةِ القاسية، والطباعِ النافرةِ، والنفوس الشاردةِ، أمَّةً عظيمةً، أصبحت خير أُمَّةٍ أخرجت للناس، أصبحت مثلاً أعلى في الصلاحِ والاستقامةِ، واللهُ تعالى له الأمرُ كلُّه، وهو الذي جاءَ بهذا الكتاب العظيم على هذا النحو الفريد.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاءُ اللهُ هدى الناسَ جميعاً، فأصبحوا أُمَّةً واحدة على الإيمانِ، وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه لا يزالُ الذين كفروا تصيبهم القوارعُ والمصائبُ النازلةُ من عند الله تعالى بسبب كفرِهمْ وشركِهم، أو تحلُّ قريباً من ديارهم، لعلَّهم يؤوبون إلى الله، ويرجعون إليه، وسيبقى هذا شأنُ الكفارِ وديدنهم حتى يأتي وعدُ الله، فيأخذهم عذابُه، واللهُ لا يخلفُ الميعاد.

٤- **استهزاءُ الأمم السابقة برسلها:**

أعلَم اللهُ تعالى رسوله ﷺ أنه قداستهزئ برسل من قبله، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد:٣٢]، وهذه الآيةُ تبين أنَّ استهزاءَ الكفارِ مِنَ الأممِ السابقةِ برسلها كان سنَّةً من السنن، لم تتخلف في رسولٍ من الرسلِ، فقد سَخِرَ قومُ نوحٍ وقومُ هودٍ وقومُ صالح وقومُ شعيبٍ وقومُ لوطٍ وإبراهيمَ وغيرهم من رسلهم، وكانت سنةُ الله في المستهزئين أنْ لا يعاجلَ الذين استهزؤوا بالعذابِ، بل يتأنَّى بهم ويملي لهم، ولكنَّهم عندما لا يرتدعون، ولا يؤوبون يأْخذهم أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، ويصبحون حكايةً تُروى، وقصةً تتداول.

٥- اللهُ قائم على نفوسِ الخلائق كلِّها:

يقول ربُّ العزة سبحانه: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرعد:٣٣].

افتتح ربُّ العزة هذه الآيةَ الكريمةَ ووجَّهها على مَنْ تَطْرُقُ سَمْعَهُ قائلاً: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ ﴾ والقائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبت هو ربُّ العزةِ سبحانه، وقيامُهُ عليها بإيجادِها، وحفظِه لها مِنَ الدمارِ والهلاكِ، وإمدادِها بالرزقِ مِنَ الطعامِ والشرابِ، وهو رقيبٌ عليها، يحفظُ أعمالها وأقوالَها، وغيرُ الله مما يعبدُه الكفارُ من الآلهة لا تملكُ من أمرها شيئاً، ولذلك أنكرَ اللهُ على الذين اتخذوا آلهةً وشركاءَ يعبدونهم من دونِهِ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ ﴾ أي: اذكروا أسماءَهم، فإنَّهم نكراتٌ مجهولةٌ ثم قال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أَئكم تعلِّمونَ اللهَ تعالى بما لا يعلمه في الأرضِ، فتعلمونَ أنَّ في الأرضِ آلهةً، واللهُ لا يعلمُ هذا الذي تعلمونه، ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ ﴾ أي: تدَّعون وجودَ هذه الآلهة بكلامٍ ليس وراءَه مدلول!! كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ ﴾ [النجم:٢٣]. ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ ﴾ بل زُيِّن للكافرينَ ما هم عليه مِنَ الضلالِ والباطلِ، وصوَّرت لهم أنفسُهم أنَّهم على الحقِّ والصواب، وصدُّوا عن اتباع الرسولِ ﷺ والأخذِ بالقرآن ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي: من تقتضي سنةُ الله ضلاله، لأنَّه سار في طريق الضلالِ فلن يهديه أحَدٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ ﴾ [المائدة:٤١].

ثم بيَّنَ ربُّ العزةِ أنَّ الكفارَ لهم عذابٌ في الدنيا وعذابُ الآخرة أشدُّ ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الرعد:٣٤].

ففي الدنيا تحلُّ بهم وبأهلهم وأولادِهم وأموالِهم القوارعُ والمصائبُ، والمصائب التي تصيبهم في الآخرة في النارِ وغضب الجبار أشدُّ وأبقى، وقد جاء في الحديث: «إنَّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» [مسلم: ١٤٩٣]. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي: ليس لهم أحدٌ يحميهم من عذابه ونكاله.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - المؤمنونَ تطمئنُ قلوبُهم وترضى بذكرِ الله تبارك وتعالى.

٢ - المؤمنونَ الذين يعملونَ الصالحاتِ هم الفائزونَ المفلحونَ.

٣- أرسلَ اللهُ -تعالى- رسولَه محمداً ﷺ في قريشٍ كما أرسل كلّ رسولٍ في قومِه، ليبلغهم الحقَّ من ربِّهم.

٤ - القرآنُ الكريمُ أعظمُ كتابٍ ولو كان هناك كتابٌ يصلحُ لأنْ تسيَّرَ به الجبالُ، أو تقطَّع به الأرضُ، أو يكلم به الموتى، لكانَ هذا القرآنُ، ولكنَّ اللهَ تعالى جعله كتابَ هدايةٍ، وأقامَ به الحجَّةَ على خلقِهِ.

٥ - الكفارُ يصيبهم اللهُ تعالى بالمصائبِ والقوارعِ حتى يحلَّ بهم العذابُ الماحقُ.

٦ - الله تعالى هو القائم على نفوسِ عبادِهِ يحفظُها ويرزقُها ويقيمُها، ويحفظ أعمالها.

٧- آلهة المشركينَ آلهةٌ باطلةٌ، ليس لها حقيقةٌ، والله يعلمُ أنها باطلةٌ، ودعوى المشركين دعوى لا تقومُ على أساسٍ.

٨- الكفارُ لهم عذابُ الدنيا والآخرةِ، وعذابُ الدنيا أهون من عذابِ الآخرةِ.

النص القرآني السادس من سورة الرعد

أولاً: تقديم

بيّنَ لنا ربُّنا في آيات هذا النص أن عقبى المؤمنينَ الجنَّة، ووصفها لنا، وأنَ عقبى الكافرينَ النار، وأخبرنا أنَّ المؤمنين من أهل الإيمانِ يفرحون بما أنزل إلى رسولِه ﷺ مِنَ الكتابِ، وأنَ بعضَ الأحزابِ ينكر بعضاً منه، وأمر اللهُ رسولَهُ ﷺ بعبادتِهِ وحدَه لا شريكَ له، وطالبه بالدعوةِ إليه، والإقرار بالبعثِ والنشورِ، وأعلمنا أنه أنزلَ القرآنَ باللسانِ العربي، وخوَّف رسولَه ﷺ من اتباع أهواءِ المشركين، وأعلَمَنا اللهُ بسنته في رسلِهِ الماضين، فقد ابتعثهم من الرجالِ من الإنسِ، وجعلهم أزواجاً وذريةً، وأعلَمنا أنَّ آياتِ الرسولِ لا تأتي إلا بإذنِ الله ومشيئته، وأعلمنا أنه يمحو ما يشاءُ ويثبتُ في صحف أعمال العبادِ التي تدوِّنها الملائكةُ، أما ما دوَّنه في اللوحِ المحفوظِ فهو ثابتٌ لا يتغير، وأعلمنا ربنا في هذه الآياتِ بآيةٍ كونية، لا يعلم حتى اليوم كيف جريانها، وهي أنَّه يأتي الأرضَ ينقصها من أطرافها، وأعلمنا أنَّ الكفارَ يُكذِّبون برسالةِ رسولِهِ، وأنه شهيدٌ على رسالتِهِ، ويشهدُ لصحةِ هذه الرسالةِ مَنْ عنده علمُ الكتاب، وهو جبريل عليه السلام .

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الرعد

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد:٣٥-٤٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عقبى المتقين وعقبى الكافرين:

حدثنا اللهُ تعالى عن عقبى المتقينَ، وهي الجنةُ،وعن عقبى الكافرين، فقال: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد:٣٥] وقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي: صفةُ الجنةِ ونعتها، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ أي: تجري الأنهار في أرجائها، وحيث شاءَ أهلها، يصرفونها حيث شاؤوا، وكيف شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد:١٥].

وأخبرنا ربنا عز وجل أنَّ مطاعم الجنَّة وفواكهها ومشاربها وظلالها لا انقطاعَ لها ولا فناءَ ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾ وقد رأى رسولُ الله ﷺ في صلاةِ خسوف الشمس الجنةَ، وقال: «إني رأيت الجنةَ، فتناولت عنقوداً ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأريتُ النارَ، فلم أرَ منظراً كاليومِ قطُّ أفظع» [البخاري: ١٠٥٢. ومسلم: ٩٠٧].

وهذه الجناتُ التي تجري الأنهارُ من تحتها، والدائمُ أُكلها وظِلُّها هي دارُ المتقين، أما الكفارُ فعاقبتهم إلى النارِ وبئسَ القرارُ، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

٢- فرحُ مؤمني أهلِ الكتابِ بالقرآنِ المنزلِ على رسولِنا ﷺ :

أخبرنا ربُّنا العليمُ الخبيرُ أن مؤمني أهلِ الكتابِ يفرحون بما أنزل الله على رسولِهِ ﷺ مِنَ القرآن ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ﴾ [الرعد:٣٦] لأنهم يجدون صفةَ هذا الكتابِ ونعتَه في كتبهم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ﴾ [البقرة:١٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٨].

وقولُه: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ﴾ [الرعد:٣٦] أي: من الذين تحزَّبوا على رسولِ الله ﷺ من اليهودِ والنصارى من ينكر بعض هذا القرآن، ومن أنكر شيئاً منه، فهو كافر به كلّه.

٣- أُمر رسولُ الله ﷺ بعبادة الله وحْدَه والدعوة إليه وحْده:

أمرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ بأنْ يعبدَ اللهَ وحْدَهُ، ونهاه عن الشركِ به، وأمرَه بالدعوةِ إليه، وأنْ يخبر الناسَ بأنَّ رجوعَ الناس إليه سبحانه ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد:٣٦]. وهذا الذي أُمر به رسولنا هو الذي أرسل به الرسلُ جميعاً.

٤- أنزلَ اللّه تعالى القرآنَ حُكْماً عربياً:

كما أنزلَ اللهُ تعالى ما أوحاه إلى كلِّ رسولٍ بلغةِ قومِه، أنزلَ إلى رسولِنا ﷺ القرآنَ بلغةِ قومِهِ، وهي العربيةُ، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ﴾ [الرعد:٣٧]، فالقرآنُ جارٍ على مذاهب العربِ في كلامِها، وقوله: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ﴾ أي: محكماً معرباً.

وقال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد:٣٧]، أي: إن اتبعتَ أهواءَ هؤلاءِ الكفار من بعدما أنزلَ اللهُ عليك مِنَ العلم الذي يمثِّل الحقّ مالكَ من وليٍّ يتولَّى أمرك، وليس لك حامٍ يحميك من عذابه، والرسولُ ﷺ لا يتبعُ أهواءَ الكفارِ، والخطابُ للرسولِ ﷺ، والمرادُ به أمتُه، فهو تحذير لكلِّ واحد من أمته أنْ يتبع أهواء الكفار.

٥- سُنَّة اللّه تعالى في رسلِهِ أن يكونوا رجالاً من الإنس ويكون لهم أزواجٌ وذريةٌ:

سنَّة الله تعالى في رسله أن يختارهم رجالاً من الإنس، ويجعلَ لهم أزواجاً وذريةً، ومحمدٌ ﷺ واحدٌ من الرسل، وهو مِنَ البشر، وقد تزوَّج وأنجبَ، ولم يجعله ملَكاً من الملائكة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةًۚ﴾ [الرعد:٣٨]، وفي هذا ردٌّ على المشركين الذين طلبوا من الله تعالى أنْ يرسلَ لهم رسولاً من الملائكةِ، الذين لا يتزوجون، ولا يأكلون، ولا يشربون.

٦- لا يستطيع أحدٌ من الرسل أن يأتي بمعجزةٍ إلا بإذن اللّه تعالى:

طَلَبَ الكفارُ من الرسولِ ﷺ أنْ يُنزلَ اللهُ تعالى آياتٍ من عنده، فأخبرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّه ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد:٣٨]، فاللهُ تعالى هو الذي يأذنُ بنزولِ الآياتِ مثلَ ناقةِ صالحٍ، وعصا موسى، وقرآنِ نبينا محمدٍ ﷺ، وإذا لم

يأذن اللهُ بإنزالِ الآيةِ، فإنها لا تنزلُ، فقد طلبَ كفارُ قريش من رسولنا ﷺ أن يسيِّرَ الجبالَ، ويحيي لهم الموتى، فلم يلتفتْ ربُّ العزة إلى طلبهم، وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لكلِّ أمرٍ قضاه الله تعالى أجلٌ محدَّدٌ معلومٌ يأتي في الوقتِ الذي حدَّده ربُّ العزة.

٧- **يمحو اللهُ تعالى ما يشاءُ ويثبتُ وعنده أُمُّ الكتاب:**

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجل أنه ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد:٣٩]، والمحوُ ذهابُ أثرِ الكتابةِ، يقال: محاه يمحوه محواً، والإثباتُ ضدُّ المَحْوِ، وأحسنُ ما قيل في المحوِ والإثباتِ، أي: ما في الصحفِ التي تكتُبُها الملائكةُ على بني آدم، فإذا أشركَ العبدُ أو عصى، ثم آمن أو تابَ وأنابَ غفرَ اللهُ ذنبه، وقد قال الرسولُ ﷺ: «وأتْبِعْ السيِّئَةَ الحسنةَ تَمْحُها» [مسند الإمام أحمد: ٢١٣٥٤] أما ما في أمِّ الكتاب وهو اللوحُ المحفوظُ مِنَ الشقاوةِ والسعادةِ، فلا يتغير، ولا يتبدَّلُ.

٨- **قد يُرِي اللهُ تعالى رسولَه ﷺ الذي وَعَدَ به الكافرين أو يتوفاه قبل أنْ يريه:**

قال تعالى رسولِهِ ﷺ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد:٤٠].

يقولُ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ: إنْ أريناك بعضَ الذي نعدُكَ في حياتِكِ مِنْ الخزي والنكالِ والعذابِ، أو توفيناك قبلَ أن نريك ذلك، فليسَ عليك إلا أن تبلِّغ، كفروا به أو آمنوا، وعلينا أنْ نجازي، والبلاغُ اسمٌ يقامُ مقامَ التبليغِ، وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

٩- **إتيانُ الله تعالى الأرض ينْقصُها من أطرافها:**

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ عن حقيقةٍ علميةٍ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد:٤١]، والذي يظهرُ لي -والله أعلم- أنَّ هذه الآية تدلُّ على حقيقةٍ علميةٍ، وهي أنَّ الأرضَ التي يعيش البشرُ فوقَ ظهرِها يأْتيها ربُّنا فينقُصها من أطرافها، والآيةُ بناءً على هذا التفسيرِ واضحةٌ مفهومة، أما كيف يجري مثلُ هذا النقصانِ، وما طريقةُ تحققِهِ فلا نعرفه، ولعلَّ البشر يدركون كيف يكونُ هذا في مقبلِ الأيامِ

١٠- **اللهُ -تبارك وتعالى- يحكمُ لا مُعقِّب لحكمه:**

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد:٤١]، أي: أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يحكمُ، فينفذُ حكمهُ، ويَقْضِي فيمضيَ قضاؤه، ﴿لَا

مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أي: ولا ناقضَ لحكمِهِ، ولا رادَّ له، والمعقِّبُ: الذي يَكِرُّ على الشيءِ ويتبعهُ، ولا يَكِرُّ أحدٌ على ما أحكمه اللهُ تعالى. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ أي: سريعٌ في مجازاةِ خلقه إذا حاسبهم، لا فرقَ بين حسابِهِ للمجازاةِ بالخيرِ والشرِّ، ولا فرقَ بين مجازاةِ المؤمنِ والكافرِ.

١١- مَكْرُ الكفارِ فيما مضى برسُلِهِمْ وأتباعهم:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [الرعد:٤٢].

أخبرنا ربَّنا -عز وجل- أنَّ الكفارَ مِنَ الأُممِ الخاليةِ قد مكروا برسلِهِمْ وبالمؤمنين من أتباعهم، كما مكر قومُ صالحٍ بصالحٍ، ومكر فرعون وقومُه بموسى والمؤمنينَ به، وكما مكرتْ قريشٌ بمحمدٍ ﷺ، وبالمؤمنين به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠]، وقالَ ربُّ العزةِ سبحانه وتعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ﴾ [النمل:٥٠-٥٢].

وقولُه تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ﴾ أي: جميعُ المكرِ لَهُ، لأنَّه خالقُه، فالمكرُ جميعاً مخلوقٌ له، بيدِهِ الخيرُ والشرُّ، وإليه النفعُ والضرُّ، ومقتضى ذلك أنَّ المكرَ لا يضرُّ إلا بإذنه وإرادتِهِ، وفي هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ فيما يفعله به قومُه، ويما يفعلونَهُ بأصحابِهِ.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ﴾ [الرعد:٤٢] يريدُ ربُّنا -عز وجل- أنَّ جميعَ الاكتسابِ التي تحصِّله النفوسُ معلومٌ له، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [الرعد:٤٢] أي: وسيعلمُ الكفارُ لمن تكونُ العاقبةُ، لهم أوْ لأتباعِ الرسلِ؟ وقد وقعَ في الدنيا أن نصرَ اللهُ تعالى عبدَهُ ورسوله ﷺ محمداً وأصحابَهُ والمؤمنين به مِنْ بعده وسيكونُ ظهورُ رسولِنا ﷺ وأصحابه وأُمته في يومِ القيامةِ أعلى وأظهر عندما يدخلهم اللهُ الجنةَ، ويدخلُ الكفارَ النارَ.

١٢- تكذيبُ الكفارِ برسالةِ محمدٍ ﷺ وقد أثبتها ربُّنا بشهادته عليها:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- بما يقوله الكفارُ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد:٤٣]. أخبرنا ربُّنا عز وجل أنَّ الكفارَ كذبوا برسالةِ محمدٍ ﷺ، وقالوا له: لستَ مرسلاً، وأمره أنْ يقولَ لهم:

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كفى بِهِ شهيداً يشهدُ برسالتي، أني مبعوثٌ من عنده، فإذا شهدَ اللهُ -سبحانه- لرسولِهِ ﷺ أظهر أمْرَه، وأعلى شأنَه، ونصرَهُ على أعدائِه، وأقامَ الدلائلَ الدالةَ على صدقِهِ، وجعل المخلوقاتِ تشهدُ له، فهو على كل شيءٍ قديرٍ، لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماءِ، ومن كذَّب الرسولَ ﷺ أو انتقصه أذلَّه اللهُ وأهانه، وأظهرَ كذبَهُ، وفضحه بين خلقه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ اسمُ جنسٍ يشملُ علماءَ أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمدٍ ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات أنبيائِهم ورسلهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء:١٩٧]، هذا ما ذهب إليه جمعٌ من المفسرين، والأولى عندي أنَّ الذي عنده علمُ الكتاب هو جبريل عليه السلام، واللهُ أعلمُ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أعلمنا ربُّنا أنَّ عاقبةَ المؤمنين في جناتِ النعيم، وعاقبة الكافرين النار، وأعلمنا أنّ الجنة فيها الأنهارُ الجاريةُ، وأنَّ طعامَ الجنةِ وشرابَها وظلالَها دائمةٌ لا تنقص.

٢- المؤمنون من أهلِ الكتابِ يفرحونَ بالكتابِ الذي أنزله إلى رسولِهِ محمدٍ ﷺ ومن أهل الكتابِ من يكفر بالقرآنِ أو ببعضٍ من القرآن.

٣- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ وأتباعه بأعظمِ أمرٍ وهو عبادتُه وحده، ونهاهم عن أعظم نهيٍ، وهو الشركُ بِهِ، وأمَره بالدعوةِ إليه، وتقريرِ البعثِ والنشور.

٤- أنزل اللهُ تعالى القرآنَ بلسانٍ عربيٍّ مبين، كما أرسل كل رسول بلغة قومه.

٥- تهديدُ الله للرسول ﷺ والمرادُ بالتهديد من فعلَ ذلك من أمته، والتهديدُ لمن اتَّبع أهواءَ المشركين وترك حكمَ ربِّ العالمين.

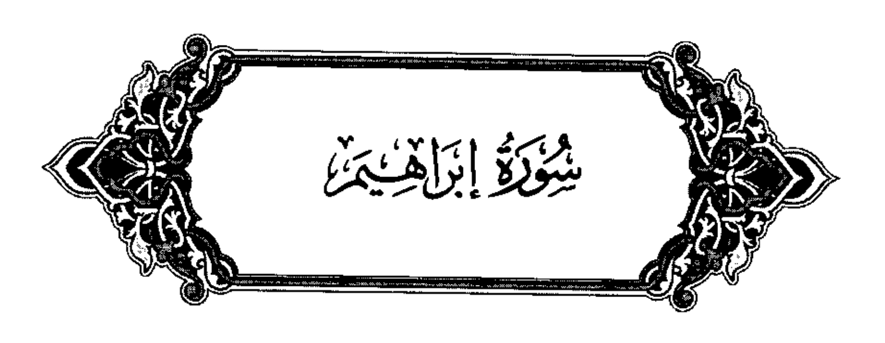
٦- سنةُ الله تعالى في رسلِهِ وأنبيائه أن يختارهم من البشرِ، ويجعل لهم أزواجاً وذرية، لا كما يطلبُ الكفارُ أن يكونوا من الملائكةِ.

٧- الآياتُ المعجزاتُ أمْرُها إلى الله تعالى، إنْ شاءَ أنزلها، ولم يجعلها إلى رسله وأنبيائه.

٨- يمحو الله تعالى ويثبتُ ما في صحفِ الملائكةِ مما كتبته من أعمالِ البشرِ، أما اللوحُ المحفوظُ، فلا يتغيرُ، ولا يتبدَّل ما جاء فيه.

٩- حَوَتْ هذه الآياتُ حقيقةً علميةً لم تكتشف بعد، وهي أنَّ اللهَ تعالى يأتي الأرضَ ينقصُها من أطرافها، والآيةُ مفهومة المعنى، ولكننا لا ندري كيف ينقص الله الأرض من أطْرافها.

١٠- الكفارُ يكذبون برسالةِ رسولِنا ﷺ، واللهُ تعالى يشهد لرسولِهِ بالرسالةِ، ويشهدُ له بذلك مَنْ عنده علم الكتاب.



هذه السورة مكية، وآياتُها إحدى وخمسون آيةً في البصريِّ، واثنتان وخمسون آيةً في الكوفيِّ، وأربعٌ وخمسونَ آيةً في المدنيين والمكي، وخمسٌ وخمسون آية في الشامي.

وكَلِمُها ثماني مائة وإحدى وثلاثونَ كلمةً، وحروفها ثلاثةُ آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفاً [البيان في عَدِّ آي القرآنِ، لأبي عمرو الداني: ١٧١].

النص القرآني الأول من سورة إبراهيم
أنزل الله تعالى قرآنه العظيم ليخرج به رسوله الناس من الظلمات إلى النور

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على كتابِهِ العظيمِ الذي أنزله على رسولِهِ ﷺ ليخرجَ به الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ، وقد عرفنا ربُّنا سبحانه بنفسِهِ، فهو اللهُ العزيزُ الحميدُ الذي له ما في السمواتِ وما في الأرض، وتهدَّدَ اللهُ تعالى الكفارَ بالدمارِ والهلاك، ووصفَ هؤلاء الكفار الضالين بثلاثِ صفاتٍ.

وبيَّن اللهُ سبحانه وتعالى أنَّ سنَّةَ الله أن يرسل كلَّ رسولٍ بلغةِ قومِهِ، ليبيِّن لهم الحقَّ الذي أُنزل إليه، وبعد البلاغِ يضلُّ الله من يشاءُ، ويهدي من يشاءُ.

وحدَّثنا اللهُ تعالى أنَّه أرسلَ موسى عليه السلام بآياتِه الدالةِ على صدقِهِ، وأمره أن يذكرهم بأيامِ الله، فوقفَ موسى خطيباً في قومه، وأخبر ربُّنا في هذه الآيات بمَ خطبهم به.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم:١-٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أنزل اللهُ تعالى كتابَه على رسولِه ﷺ ليخرجَ به الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ:

هذه هي السورة الخامسةُ التي تفتتحُ بالحروفِ المقطعة ﴿الٓر﴾ وهي حروفٌ من حروفِ العربيةِ التي تتكون منها كلمات القرآنِ، وقد سبق بيان أنَّ القرآنَ العربيّ المعجز تتكون كلماتُه من هذه الحروفِ وأمثالها، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم:١]. والكتابُ المباركُ الذي أنزله إلى رسولِه ﷺ هو القرآنُ العظيمُ الذي بعثه اللهُ تعالى به إلى جميع الناسِ، ليخرجَ الناسَ به مِنَ ظلماتِ الشركِ والجهلِ إلى نورِ الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ أي: هذا الإخراجُ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ هو بإذن الله ومشيئته وإرادتِه، فاللهُ تعالى وحْدَهُ مالكُ الهدايةِ، يخرجهم إلى صراطِ الله ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ القويِّ الغالب الذي لا يُمانعُ، ولا يُغالبُ، بل هو القاهرُ لكل ما سواه، و﴿ٱلۡحَمِيدِ ١﴾، أي: المحمودُ في جميعِ أفعالِهِ وأقوالِهِ -سبحانه- وشرعِهِ وأمرِه ونهيِهِ.

٢- التعريف بالله ربِّنا تبارك وتعالى:

أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى فيما سبقَ أنه أنزل على رسولِهِ ﷺ القرآنَ العظيم، ليخرجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النور بإذن ربِّنا، ثم وصف اللهُ تعالى نفسَهُ، وعرفنا على ربِّنا، فقال: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ ثم زادنا به تعريفاً فقال: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [إبراهيم:٢]، فاللهُ هو خالقُ السمواتِ والأرضِ، وهو مالكهما وما فيهما وما بينهما، لا يعزبُ عنه من ذلك شيء، ومن ذلك ما رفعه الضالون إلى مرتبة الأُلوهيةِ من الأصنام والأوْثان.

٣- ويلٌ للكافرين من عذابٍ شديدٍ:

تهدَّدَ ربُّ العزَّة تبارك وتعالى الكافرين، فقال: ﴿وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾ [إبراهيم:٢]، تهدَّدَ اللهُ تعالى الكافرينَ الذين كفروا بالله ورسولِهِ ﷺ بالعذابِ الشديدِ في الدنيا والآخرةِ، ثم عرَّف ربُّ العزةِ تباركَ وتعالى بالكافرين الذين يستحقون

العذابَ الشديدَ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ [إبراهيم:٣] والصفةُ الأولى التي وصفَهم تعالى بها أنَّهم يستحبون الحياةَ الدنيا على الآخرةِ، أي: يقدِّمونها، ويُؤْثرونها عليها، ولذلك تراهم يعملونَ للدنيا، وينسونَ الآخرةَ، والصفةُ الثانيةُ أنهم يصدُّون الناسَ عن دينِ الله تعالى، أي: يعملون على تنفيرِ الناس عن هذا الدينِ، وتكريههم به، ومنعهم من الدخولِ فيه، والصفةُ الثالثةُ أنَّهم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ﴾ أي: يعملونَ على أنْ يكون سبيلُ الله تعالى معوجّاً مائلاً، فتراهم يحرِّفونَ مسائلَ الأحكامِ، ويزيغون فيما قرَّرَه اللهُ تعالى مِنَ الحلالِ والحرام، ويفسدون العقائدَ والآدابَ، وقد حكمَ ربُّ العزة -تبارك وتعالى- على هؤلاءِ بأنَّهم ضالون تائهون ضائعون عن الحقِّ ضلالاً بعيداً، ومن هؤلاءِ الملحدون، وعبادُ الأصنامِ والأوثانِ، والشيوعيون وأمثالهم.

٤- أرسل الله كلَّ رسول بلسان قومه ليعرِّفهم بالحقِّ:

أعلمنا ربُّنا العليمُ الحكيمُ سبحانه أنَّه أرسل كلَّ رسولٍ بلسانِ قومِهِ، أي: بلغتهم التي يتحدَّثون بها، حتى يستطيع أنْ يعرِّفهم بالحقِّ الذي أرسلَهُ اللهُ تعالى به، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم:٤]، فإذا بَلَّغَ الرسولُ قومَهُ وما أنزلَ اللهُ إليه من الحقِّ، فعند ذلك يضلُّ اللهُ تعالى من يشاءُ إضلالَه، ويهدي من يشاءُ هدايه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالبُ الذي لا يعجزُهُ أحدٌ، و﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ في أفعالِهِ، فيضلُّ من يستحقُّ الإضلال، ويهدي من هو أهلٌ للهدايةِ.

وقد كان كلُّ رسولٍ ﷺ يُبعَثُ إلى قوْمِهِ خاصةً، فيحدِّثهم بلغتهم، وبعثَ نبينا محمداً ﷺ إلى الناسِ كافةً، فبُعث بلغةِ قومِهِ، وهي العربيةُ، وكان على قومِهِ أن يبلِّغوا الناسَ بلغاتهم، وقد ذكرنا فيما سبق الحديث الذي رواه صاحبا الصحيحين، والذي يقول فيه الرسول ﷺ : «كان النبي يبعثُ إلى قومِهِ خاصةً،وبُعثتُ إلى الناسِ عامةً» [البخاري: (٣٣٥)، مسلم: (٥٢١)].

٥- أرسل اللهُ -تبارك وتعالى- موسى ﷺ بآياتِهِ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور:

قال ربُّ العزة سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾

[إبراهيم:٥]، أقْسَمَ ربُّ العزة سبحانَه بأنه أرسلَ نبيَّه موسى عليه السلام بآياتِهِ الدالةِ على صدقِهِ، وأعظمها العصا التي تتحول إذا ألقاها إلى ثعبانٍ مبينٍ، وأمره أن يُخرج قومه مِنَ الظلماتِ إلى النورِ، أي: ظلماتِ الكفرِ والشركِ والجهلِ إلى نورِ الإسلامِ والإيمانِ الذي يوصل إلى جنة الرحمنِ، وأمره أن يذكِّرهم بأيامِ الله ومن ذلك إغراقُهُ فرعونَ وجنودَه، وهم ينظرون، ومن أيامِ الله تعالى ما فعله اللهُ بالأممِ الخاليةِ قوم نوحٍ، وقوم هودٍ، وقوم صالحٍ، وأمثالهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ أي: صبورٍ في الضراءِ والنقمِ، وشكور في السراءِ والنعم، ومِنَ الصبرِ في الضراءِ ما ابتلى اللهُ تعالى به بني إسرائيلَ من طغيانِ فرعونَ وملئه، حتى بلغ به الأمرُ أن يقتِّلَ أبناءَهم، ويستحيي نساءَهم، وقد جاء في الحديثِ الصحيح الذي سبق ذكره: «إنَّ أمْرَ المؤمن كلَّهُ خيرٌ، لا يقضي لَهُ قضاءً إلا كانَ خيراً له، إذا أصابَتْهُ ضرَّاءُ صَبَرَ فكانَ خيراً له، وإنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فكانَ خيراً له» [مسلم: ٢٩٩٩].

وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- بما قاله موسى لقومِهِ استجابةً لأمرِ الله تعالى في تذكير قومِهِ بآياتِ الله ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ [إبراهيم:٦]. وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي: اذكروا عندما قالَ موسى لقومه، ويبدو أنَّ موسى وقَفَ خطيباً في قومِهِ، وقال لهم في تلكَ الخطبةِ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ اذكروا نعمة الله تعالى التي أنْعم بها عليكم إذ أنجاكم من آلِ فرعون الذين كانوا يسومونكم أشدَّ أنواعِ العذابِ، ومِنَ العذاب الذي كانوا يسومونهم به ذبحُهُم لأبناءِ بني إسرائيلَ لإضعافِ قوتهم، وترك الإناثِ من مواليدهم، فلا يذبحونهن، ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ أي: فيما كان يفعله فرعونُ وقومه بهم بلاءٌ عظيم، أي: اختبارٌ عظيمٌ، فنجَّى اللهُ بني إسرائيل من فرعونَ وجندِهِ، وأغرق فرعونَ وجنده في البحر.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم:٧]. وقوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أي: آذنكم وأعلمكم ربُّكم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ﴾ أي: لئن شكرتُم نعمتي، لأزيدنَّكم منها ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ أي: لئن كفرتُم النِّعمَ وجحدتموها فإنَّ عذابي أليمٌ شديدٌ.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ ﴾ لقومه فيما خطبهم به: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم:٨]. يخبرنا ربَّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ موسى قالَ لقومه: إن تكفروا أنتم وجميعُ مَنْ في الأرضِ، فإنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- غنيٌّ عن شكر العبادِ، و﴿ حَمِيدٌ ۝٨﴾ أي: مستحقٌّ للحمدِ في أفعالِه، وقد جاء في الحديثِ القدسيِ الصحيح الذي رواه أبو ذر ﷺ : «يا عبادي! إنَّكُم لَنْ تَبْلُغوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، ولَنْ تَبْلُغوا نَفْعِي فتَنْفَعُوني، يا عِبادِي! لَوْ أنَّ أوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكمْ، كانوا على أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ، ما زَادَ ذلِكَ في مُلْكِي شيئاً، يا عِبادي! لو أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، كانوا على أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، ما نَقَصَ ذلِكَ من مُلْكِي شيئاً، يا عِبادِي! لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، قاموا في صَعيدٍ واحِدٍ فسَألُونِي، فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْألَتَهُ، ما نَقَصَ ذلِكَ مما عِنْدِي إلاَّ كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبادِي! إنَّما هِيَ أعْمالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاها، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فلْيَحْمَدِ الله، ومَنْ وَجَدَ غيرَ ذلكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ» [مسلم: ٢٥٧٧].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- هذا القرآنُ المعجزُ مكونةٌ حروفُ كلماتِه من حروف كلماتِ اللغة العربية.

٢- أنزلَ اللهُ هذا القرآنَ على رسولِهِ الكريم ليُخرج بِهِ الناسَ من ظلماتِ الشركِ والكفر إلى نورِ الإسلام بإذن الله العزيز الحكيم.

٣- اللهُ هو العزيزُ الحميدُ الذي له ما في السمواتِ وما في الأرضِ.

٤- الكفارُ لهم عذابٌ شديدٌ، وهؤلاءِ هم الذين يؤثرون الدنيا على الآخرةِ، ويُكَرِّهون الناس بدينِ الله، ويعملونَ على اعوجاجِ طريقِهِ وأحكامِهِ.

٥- أرسلَ اللهُ تعالى كلّ رسولٍ مِنْ رسلِهِ بلغةِ قومِه، ليبلِّغهم ما أُنزل إليهم مِنَ ربِّهم تبارك وتعالى، وبعد البلاغِ أمْرُ الهدايةِ والضلالِ إلى الله تعالى.

٦- أرسلَ اللهُ تعالى رسولَه موسى عليه السلام بآياتِهِ الدالةِ على صِدْقه، وأمَرَه أن يُخرجَ قومَه من ظلماتِ الكفرِ والشركِ إلى نورِ الإسلام، وأمَرَه أنْ يذكرهم بآياتِ الله.

٧- وقف موسى عليه السلام خطيباً، فذكرهم بآياتِ الله، وقد ذَكَرَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآياتِ ما قاله موسى لقومِه.

النص القرآني الثاني من سورة إبراهيم
مسارُ الرسل عبرَ التاريخ مسارٌ واحدٌ ومسارُ الأمم المكذبة للرسل مسار واحد

أولاً: تقديم

هذه الآياتُ تدلُّنا على أنَّ مسارَ الرسلِ عبر التاريخ الإنسانيِّ المديدِ مسارٌ واحد، فكلُّهم جاؤوا أُممهم بالبيناتِ، وبلغوهم الحقَّ، وكلُّ الأمم المكذبةِ للرسلِ عبرَ التاريخ الإنسانيِّ المديدِ مسارٌ واحدٌ، ولذلك فإنَّ الحوارَ الذي ذكرتْه الآياتُ حوارٌ واحد بين الرسلِ والأممِ، يطرح فيه مكذبو الرسل شبهاتٍ واحدةٍ، ويجيب عليها الرسلُ جواباً واحداً، وفي الختامِ تتوعدُ الأممُ المكذبةُ رسلَها بإخراجهم من ديارِهم إلا أن يعودوا إلى الكفر والشركِ، وعند ذلك يلجأُ الرسلُ إلى الله، يستنصرونَه، ويحتمون به، فيهلكُ اللهُ المكذبين.

وفي ختامِ النصِّ ضربَ الله تعالى مثلاً لأعمالِ الكفار برمادٍ اشتدَّتْ به الريحُ في يوم عاصفٍ، فلا يقدرُ الكفار على تحصيل شيءٍ من أعمالهم.

ثانياً: آيات هذا لنص من سورة إبراهيم

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٩-١٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تحذيرُ الله تعالى الكافرينَ أن يحلَّ بهم مثل ما حلَّ بالمكذبين:

وجَّه ربُّ العزةِ -سبحانه- السؤالَ إلى كفارِ قريش، ومَنْ بعدهم مِنَ الكفار، قائلاً لهم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ [إبراهيم:٩]. أجمَلَ اللهُ تعالى في هذه الآية ذكرَ القومِ المكذبين لرسلهم، وهم قومُ نوحٍ وعادٍ وثمود والذين من بعدهم من هذه الأممِ ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فهم كثيرون، لا يُحْصي عددهم إلاَّ اللهُ سبحانه وتعالى، وقد عفَت آثارُهم، وبطلت أنسابُهم، وقد أجْمل ذكر الرسل التي جاءَتهم ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي: جاءَ كلُّ رسولٍ قومَهُ بالآياتِ المعجزاتِ الدالاتِ على صدقِهِ، ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي: فَسَبُّوا الرسلَ، وكذَّبوهم، وثَقُل عليهم مكانهم، وعَضُّوا على أصابعهم من شدَّةِ الغيظِ، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: قالوا لرسلهم: إنا كفَرنا بالدين الذي أرسلتم به، ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ أي: وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه من توحيدِ الله و﴿مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ أي: يوجبُ لنا ذلك الشكُّ الريبَ والتهمةَ فيه.

٢- الحوارُ بين الرسلِ وأممهم:

أجمل اللهُ -تعالى- الحوارَ الذي جرى بين الرسلِ وأُممهم فكأنَّما كلمةُ الرسلِ على مدارِ التاريخ الإنسانيِّ كلمةٌ واحدةٌ، وكأنها كلمةُ المكذبين من الأمم كلمة واحدةٌ، ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [إبراهيم:١٠]. قال كلُّ رسولٍ لأمته: أفي الله شكٌّ؟ أي: أيوجدُ شَكٌّ في وجودِ الله سبحانه أو في ألوهيته وتفردِهِ بالعبادةِ وحْدَهُ لا شريكَ له؟ وهو ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثالٍ سابق، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي: يدعوكم إليه لتؤمنوا به وبرسلِهِ، ليغفر لكم ما اقترفتموه من شركٍ وذنوبٍ ومعاصي ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ أي: فيؤخِّر بقاءَكم في الدنيا إلى الوقتِ الذي تقبضُ فيه أرواحكم، ولا يُنزلُ بكم عذابَهُ وعقابَهُ.

وقد أعلمنا اللهُ تعالى أنَّ الأممَ المكذبةَ لرسلها كان جوابُها واحداً على مرِّ العصور والأزمانِ ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم:١٠]. أي: ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا، ولا يحقُّ لكم أنْ تطالبونا باتباعِكُمْ وطاعَتِكُمْ، ولستمْ ملائكةً، وإنما تريدونَ بها تدعوننا إليه ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: تريدون صرفنا عن عبادةِ ما كان يعبدُ آباؤُنا ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ أي: بحجةٍ وبرهانٍ في غايةِ الوضوحِ والبيانِ، أي: يريدون من رسلهم معجزاتٍ تدلُّ على صدقهم.

وقد أخبرنا ربُّنا بأنَّ جوابَ جميع الرسلِ الذين أرسلهم اللهُ تعالى كان جواباً واحداً، لم يختلفْ من رسولٍ إلى رسولٍ، ولا مِنْ عصرٍ إلى عصرٍ، ولا من مِصْرٍ إلى مِصْر ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم:١١].

يخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ كلَّ رسولٍ قال لأمته المكذبةِ به، حتى كان جوابهم جواباً واحداً قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: نحنُ نقرُّ ونعترفُ بأننا بشرٌ مثلُكُمْ، ولسنا ملائكةً، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ﴾ أي: ولكن اللهَ يتفضلُ على من يشاءُ من عباده، فيختارهم أنبياءَ ورسلاً، وينزلُ عليهم وحيَهُ، ويطالبهم بإقامةِ الحجَّةِ على مَنْ أرسلوا إليه، ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: وما كان لنا أن نأْتيكم بسلطان، أي بحجّةٍ وبرهانٍ، وهي الآيةُ المعجزةُ، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: إلا بأمرِ الله ومشيئته، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: أنَّ الرسل قالوا لأتباعهم من المؤمنين: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثم تحدَّث الرسلُ عن توكلهم على ربِّهم، وقالوا لأقوامِهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:١٢]. أي: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فنثقُ به وبكفايته ودفاعِه عنا، ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ﴾ وقد بيَّن لنا رشدَنا، وعرَّفنا بطريق التوكلِ عليه، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ﴾ أي: ولنصبرن على ما نلقى منكم من المكروهِ بسببِ ما دعوناكم إليه من الحقِّ، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: وعلى الله فليتوكلِ المتوكلون عليه.

٣- تهديد الأمم المكذبة رسلها بإخراجهم من أرضها:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ جميعَ الأممِ المكذبةِ لرسلها تهدَّدَت هؤلاءِ الرسلَ وتوعَّدتهم بإخراجهم من الديار التي كانوا يسكنونها معهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [إبراهيم:١٣].

وهذا أيضاً موقفٌ عامٌّ من كلِّ الأمم المكذبةِ للرسل، فإنَّ كلَّ أُمةٍ تهدَّدَتْ رسولها بإخراجه من الديارِ التي يسكنونها، كما قال قومُ شعيبٍ لشعيبٍ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ ﴾ [الأعراف:٨٨]. وقال قومُ لوطٍ ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل:٥٦]، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريشٍ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الإسراء:٧٦].

وعندما كانَ يبلغُ الحالُ بالأممِ المكذبةِ إلى أنْ تطردَ رسلَها من الديار التي يسكنونها، يوحي اللهُ تعالى إلى رُسُله بأنَّهُ سيهلكُ الظالمين ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ أي: سيهلكُ القومَ الذين يريدون إخراجهم من قريتهم، ويوحي إليهم أيضاً: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم:١٤]، أي: وبعدَ إهلاكِ القومِ الكافرين الظالمينَ يسكنُ الأرضَ الرسلَ وأتباعَهُمْ من المؤمنين، كما فعل اللهُ تعالى بقومِ نوحٍ، وقومِ موسى عليهما السلام، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ أي: ذلك الإنجاءُ والتكريمُ للذين يخافون الوقوفَ بين يدي الله يومَ القيامة، ولمن خاف وعيدي في يوم الدين.

٤- استنصار الرسل على أقوامهم الذين كذبوهم:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ الرسلَ عندما تهدَّدهم قومُهم بإخراجِهم مِن قراهم ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم:١٥-١٧].

يقول تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا ﴾ أي: استنصرت الرسلُ بالله ربَّها على أقوامهم، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ أي: وهلكَ كلُّ جبارٍ متكبرٍ عن الخضوعِ لله والدينونة له بالعبودية

والتوحيد، وقد بيَّنَ الله تعالى خيبةَ الجبارِ العنيدِ في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق:٢٤-٢٦].

وفي الحديثِ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تَخْرُجُ عُنُقٌ من النارِ يومَ القيامةِ، لها عيْنانِ تُبْصِرانِ، وأُذُنانِ تَسْمَعان، ولِسانٌ يَنْطِق، يقولُ: وُكِّلْت بثلاثةٍ: بكُلِّ جبَّارٍ عنيد، وبكُلِّ من دعا مع الله إلهاً آخرَ، وبالمصَوِّرين» [الترمذي: ٢٥٧٣. وقال الترمذيُّ فيه: هذا حديثٌ حسن غريب صحيح].

وقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: من أمامِ كلِّ جبارٍ جهنم يَرِدُها، ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: يسقى ذلك الجبَّارُ العنيدُ من ماءٍ صديدٍ، وهو ما يسيلُ ويتجمع من عصارةِ أهلِ النارِ المحترقةِ، وهي خليطٌ من الدم والقيحِ، وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أي: يتحسَّاه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أي: ولا يكادُ يَزْدَرِدُهُ من شدَّةِ كراهيته له، وقد حدَّثنا ربُّنا أنَّ هذا الماءَ الصديدَ يقطعُ أمعاءَهم ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد:١٥].

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنَّ الجبارَ العنيدَ في النارِ ﴿يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم:١٧] أي: يأتيه عن يمينِهِ وشمالِهِ وأمامه ومِنْ خلفه، ومن فوقِه، ومن تحته، فالنارُ تحيط به من كلِّ مكان، ولكنِ الموتُ لا ينزل به، ولا يفني حياتَهُ، ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: شديدٌ أليمٌ موجعٌ.

وقد أخبرنا الله تعالى في مواضع من كتابه عن العذاب الغليظ الذي يحيط بأهل النار، فمن ذلك قوله في شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات:٦٤-٦٨]، فأخبر أنهم تارةً يكونون في أكل زَقُّوم، وتارةً في شُرب حَميم، وتارةً يَرِدون إلى الجَحيم، عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن:٤٣-٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان:٤٣-٥٠]. وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ

مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص:٥٥-٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوُّع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكالِهِ، مما لا يُحصيه إلا الله عز وجل، جزاءً وفاقاً، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦].

٥- مثلُ أعمالِ الكفار المشركين في يومِ الدين:

ضربَ اللهُ -تعالى- مثلاً لأعمالِ الكفارِ الذين أشركوا مع الله غيره، وكذبوا رسلَهُ، وبَنَوْا أعمالهم على غير أساسٍ صحيح، فانهارتْ، وعدموها أحوجَ ما كانوا إليها، فقال سبحانه: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم:١٨]، أي: مثلُ أعمالِ الكفارِ بربِّهم كرمادٍ، والرمادُ دُقاقُ الفحمِ من حُراقةِ النارِ، ويصيرُ رماداً إذا صار هباءً أدق ما يكون، ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: عصفتْ به الريحُ في يومِ عاصفٍ، أي: في يومٍ اشتدَّ به هبوبها، ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: لا يقدرون على شيءٍ من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرمادِ في هذا اليوم، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ أي: ذلك هو الخسرانُ الكبيرُ، والمرادُ بالضلالِ: ضلالُ أعمالهم وهلاكُها وذهابُها، وإذا ذهبتْ أعمالهم ذهابَ الرمادِ في عصف الريحِ، فقد كبر خسرانُهم، ومعنى ﴿الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ الذي لا يرجى عودُه، فهو بعيدٌ مِنَ الهدى. وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣]، وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران:١١٧].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- حذَّرَ اللهُ تعالى الكفارَ مصيراً كمصيرِ مكذبي الرسلِ مِن قبل كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم.

٢- أوَّلُ الأمم قومُ نوحٍ، ثم قومُ هودٍ، ثم قوم صالحٍ، وليس قبل هذه الأمم أممٌ أُخرى، وإنما تتابعت الأمم من بعدهم.

٣- ساق اللهُ تعالى أخبارَ الأمم المذكبة للرسلِ مع رسلهم مساقاً واحداً، فإذا حالُ الأمم حالٌ واحدة، وحالُ الرسلِ حالٌ واحدةٌ، ويجري الحوارُ بين الرسلِ وأممها المكذبةِ لها في مسارٍ واحدٍ، وبذلك تكون دورةُ الرسلِ مع الأممِ المكذبةِ دورةٌ واحدةٌ مكرورةٌ.

٤- تهَدَّدَت الأمَمُ المكذبةُ للرسل بإخراجهم مِنَ ديارهم، عند ذلك يوحي إليهم ربُّهم ليهلكنَّ الظالمين، وليسكننهم الأرضَ من بعدهم.

٥- شدةُ العذابِ الذي يصيبُ الكفارَ في يومِ الدين.

٦- أعمالُ الكفارِ المشركين في يومِ الدين كرمادٍ اشتدت به الريحُ في يومٍ عاصفٍ، فلا يبقى لهم من أعمالهم في ذلك اليومِ شيءٌ ينتفعون به.

النص القرآني الثالث من سورة إبراهيم
أحوالُ الناس في يوم الدين

أولاً: تقديم

بيّن اللهُ تعالى أحوالَ الناسِ في يوم الدين، فبيّن حالَ الضعفاءِ الكفرةِ مع الزعماءِ والقادةِ والرؤساءِ، وبيّن كيف يخطبُ الشيطانُ في أتباعِهِ هازئاً بهم، ساخراً منهم، كافراً بشركهم، وأخيراً بيّنَ حالَ المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ، وأنه يدخلُهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً، يستقبلون فيها بالتحياتِ الطيباتِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة إبراهيم

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم:١٩-٢٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ تعالى خالق السمواتِ والأرض بالحقِّ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم:١٩-٢٠].

يخبرُنا الحقُّ -تبارك وتعالى- أنّه خلقَ السمواتِ والأرضَ خلقاً كائناً بالحقِّ، فقد خلقها تباركَ وتعالى ليُعْبَدَ ويطاعَ، فالسمواتُ والأرضُ وما فيهما وما بينهما كلّه يسبحُ اللهَ تعالى، ويسجد له، والسمواتُ مَسْكَنُ الملائكةِ، وكلهم خاضعٌ مطيعٌ لله سبحانه وتعالى، ومنهم القائمُ في صلاتِه فلا يقعدُ، ومنهم الراكعُ، ومنهم الساجدُ، ومنهم الذين كلفهم بما كلفهم به من شؤون السمواتِ والأرضِ.

والأرضُ خلقها اللهُ تعالى لتكون معبداً للإنسِ، وسخَّرها لهم، فأرسلَ إليهم رسلَه، وأنزل عليهم كتبه، وأمَرَهم بطاعتِهِ، والقيام بالأعمالِ الصالحاتِ، وهو قادرٌ سبحانه أنْ يذهبَ بنا ويأتي بأقوامٍ غيرنا إنْ نحن تمردنا عليه وكفرنا به، وقد وقع في التاريخ الإسلامي أن وَكَلَ أمر هذه الأمةِ إلى غيرِ العرب، فحملوا راية الإسلام، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، وفتحوا البلاد، وساروا في أقطار الأرض مشرقين ومغربين، واستبدالنا بغيرنا أمْرٌ سهلٌ على الله تعالى، فاللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٍ، وما ذلك عليه سبحانه بعزيز.

٢- موقفُ الزعماءِ من أقوامهم الضعفاء:

بيَّنَ الله تعالى لنا موقفَ الزعماءِ والرؤساءِ الكفرةِ من أتباعهم، فقالَ: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفار السادةَ الكبراءَ والأتباعَ الضعفاء برزوا ظاهرينَ مكشوفين لله ربِ العالمين، فقالَ الضعفاءُ الذين كانوا تبعاً للسادةِ الكبراءِ، يأتمرون بأمرهم، ويطيعونهم فيما يطلبونَه منهم: إنَّا كنا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنونَ عنَّا من عذابِ الله من شيءٍ، أي: هل تستطيعون أن تردُّوا عنا في هذا اليوم شيئاً من عذاب الله؟

فأجابَ الزعماءُ والرؤساءُ الذين كانوا يُغْرونَ الناسَ في الدنيا بالكفر والشرك، ويزعمون لأتباعهم أنَّهم سيتحملونَ عنهم يومَ القيامة آثامَهم، وقالوا لأتباعهم: لو هدانا اللهُ لهديناكم ولكننا كفرنا بالله وأشركنا به، ولذلك فإننا في النارِ وغضب الجبارِ، وجزَعُنا وصبرُنا سيان، ولن ينجينا من عذابِ الله أحدٌ.

إنَّ الذين ألغَوْا عقولهم، واتبعوا سادَتَهم من غيرِ دليلٍ ولا برهانٍ، أزْرَوْا بنعمة العقلِ التي أنْعَم اللهُ بها عليهم، وكانَ الواجبُ عليهم أنْ لا يرضَوْا بالمسارِ خلف أتباعهم بغير دليلٍ ولا برهان.

٣- الشيطان يخطبُ في أتباعِهِ بعد دخولِ النار:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أن الشيطانَ يخطبُ في أتباعه الذين استجابوا له في الحياةِ الدنيا، وتركوا ما جاءَتهم به الرسلُ، يخطبهم لا ليشكرَهم، ويثنيَ عليهم، بل يخطبُ فيهم ليبكِّتهم، ويملأَ نفوسَهُمْ غمّاً.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢].

قال الشيطانُ في خطبته تلكَ مبكتاً أتباعه هازئاً بهم محُقِّراً لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم:٢٢] أي: وعدكم وعدَ الحقِّ على ألسنةِ رسله، ووعدتكم فأخلفتكم، ولم أفِ لكم، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: ولم يكن معيَ من حجَّةٍ ولا دليلٍ يدلُّ على صدقي فيما دعوتكم إليه، ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ وكلُّ الذي فعلته إنما هو دعوةٌ مجردةٌ، فاستجبتم لي، وتركتم الرسلَ وما جاؤوا به من الهدى والعلم والنور، وقال لهم: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ فلا تؤنبوني، وأنّبوا أنفسَكُمْ، فأنتم الذين ظلمتم أنفسكم، ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ فلا أنا بنافِعكم اليومَ، ولا مخلصكم مما وقعتم فيه، وما أنتم بنافعيَّ ومنقذيَّ مما أنا فيه مِنَ العذابِ والنكالِ.

وبلغ الشيطانُ الغاية في تسفيهِ أتباعِهِ والذين تَوَلَّوْا أمْرَه عندما قال لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ هذا هو الشيطانُ يبرز على حقيقتِهِ في ذلك اليوم، بلا تزييف ولا تزويقٍ، بخلافِ حاله في الدنيا عندما كان يُزَيِّنُ الباطلَ والشركَ لأتباعه، ولا شكَّ أنَّ الشيطانَ صبَّ بقوله هذا العذابَ في نفوسِ أتباعه، فاشتدَّ عذابُهم، وعظمتْ حسرتُهم، وظهرَ لهم أنَّهم كانوا جهلاء مخدوعين، ليسَ عندهم ذكاءٌ، ولا عِلمٌ، ولا بصيرةٌ، والظالمون في قوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ هم الكفارُ المشركون الذين يستحقون العذابَ الأليمَ.

وفي مقابل دخولِ أهلِ النارِ النارَ يحدِّثنا ربُّنا عن إدخاله أهلِ الجنة جناتِ النعيم في يوم الدين خالدين فيها، تلقى عليهم التحايا والسلامُ من ربهم ومن ملائكته، وهذا نعيمٌ فوق ما أوتوه من نعيم ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم:٢٣].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الله تعالى قادرٌ على البعثِ والنشورِ، فإنه خالقُ السمواتِ والأرضِ، وخلقُ السمواتِ والأرض أعظم من خلقِ الناسِ.

٢- يبرزُ الناس جميعاً لله في يوم القيامة، ويتبرأُ القادةُ من الأتباعِ، ويقولون لهم: سواءٌ علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص.

٣- يخطبُ الشيطانُ في أتباعه بعد دخولهم جميعاً النارَ، فيبكِّتُهم، ويسخرُ منهم، ويُيئِسُهم من رحمة الله، ويظهر غباءَهم وقلة بصيرتهم.

٤- يدخل اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين الموحدين الذين عملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبَدَ الآبدين.

النص القرآني الرابع من سورة إبراهيم
مثل الكلمةِ الطيبة ومثلُ الكلمة الخبيثة

أولاً: تقديم

ضربَ اللهُ تعالى لعبادِهِ في آيات هذا النصِّ مثلاً للكلمة الطيبة ومثلاً آخرَ للكلمة الخبيثةِ، وأخبرنا ربُّنا أنه يثبتُ الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا، وفي القبرِ عندما تفتنهم الملائكةُ، وذمَّ الكفارَ الذين بدَّلوا نعمةَ الله كفراً، وأحلُّوا قومهم دارَ البوارِ، وهي النارُ.

وذمَّ الكفارَ الذين جعلوا لله شركاءَ عبدوهم مع الله، فأضلوا بهذه الأوثانِ العبادَ عن الدينِ الحقّ، وأمر اللهُ رسولَه والمؤمنين بإقام الصلاةِ والإنفاقِ مما رزقهم اللهُ تعالى في السرِّ والعلنِ من قبل إتيانِ اليوم الذي لا بيع فيه، ولا خلال، وهو يومُ القيامةِ، وعدَّد اللهُ تعالى على عبادِهِ كثيراً من نعمِه، ونعمُ الله كثيرة، لا يطيقُ العبادُ إحصاؤُها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة إبراهيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٢٤-٣٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ضرب اللهُ -تبارك وتعالى- مثلاً للكلمة الطيبة:

ضربَ اللهُ تعالى مثلاً للكلمة الطيبة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ

﴿ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥]، والكلمة الطيبة التي ضربَ اللهُ تعالى المثلَ لها هي كلمةُ الحقِّ وكلمةُ التوحيد، أو هي: لا إله إلا الله وهي أصلُ الإسلامِ، وهي الكلمةُ التي جاءت الرسلُ جميعاً بها، هذه الكلمةُ الطيبةُ كشجرةٍ طيبةٍ، أي طيبةٌ في جذورها وفي ساقها وأغصانها وثمارها، وهذه الشجرةُ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ فجذورها ضاربةٌ في التربةِ، ولذلك فإنها ثابتةٌ تهبُّ عليها الرياحُ الهوجُ، وتعصفُ بها الأعاصير، فتميلُ بها ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، ولكنَّها لا تقتلعها، ولا تطيحُ بها، وفروعُها مرتفعةٌ في السماءِ، فهي دوحةٌ غنَّاءٌ، ذات فروعٍ وأغصانٍ، ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: تعطي ثمارَها الطيبةَ، في كلِّ وقتٍ بإذنِ الله سبحانه، أي: هي دائمةُ الثمارِ، دائمةُ العطاءِ، ترى ثمارَها دائمةَ التفتق عن أكمامِها ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ واللهُ يضربُ الأمثالَ للناس ليثبتَ معاني الإيمانِ والإسلامِ في نفوسهم، ويذكرهم بها.

٢- وضرب اللهُ مثلاً للكلمة الخبيثة:

وضربَ اللهُ -تعالى مثلاً للكلمةِ الخبيثةِ، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ٢٦﴾ [إبراهيم:٢٦]، والكلمةُ الخبيثةُ هي كلمةُ الشركِ والكفرِ، وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي: استؤصلتْ وانتزعت من فوق الأرضِ، فجفتْ فروعُها، وتحطمتْ أغصانُها، وطوَّحت بها الريحُ، وانقطعت ثمارُها، وكذلك الكفرُ والباطلُ ليس له أصلٌ، وثمارُه الصابُ والعلقم.

٣- تثبيت الله -تعالى- الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه يُثبِّتُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم:٢٧]. والتثبيتُ في الحياةِ الدنيا يكونُ في مواجهةِ الفتنِ والأعاصيرِ التي تهبُّ على المؤمنين، يثبتهم اللهُ تعالى بما غرسَه في قلوبهم من معاني القرآنِ، ويثبتهم في الآخرةِ، أي: في القبرِ عندما تسألهم الملائكةُ، ويضلُّ اللهُ تعالى الظالمينَ، أي: الكافرينَ عن الإجابةِ الصحيحةِ عندما تسألهم الملائكةُ في القبرِ ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ .

وقد جاءَت أحاديثُ كثيرةٌ تدلُّ على سؤالِ القبرِ وفتنته، وتدلُّ على نعيمِهِ وعذابِهِ، وهذه الأحاديث كثيرٌ منها صحيحٌ، وقد بلغت مبلغَ التواتر، فمن أنكر فتنةَ القبر فقد ضلَّ

ضلالاً بعيداً، وقد دلَّت الأحاديثُ الصحيحةُ على أنَّ المرادَ بالآيةِ سؤالُ القبرِ وفتنتُه، فعن البراء بن عازبٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «المسلمُ إذا سُئِلَ في القبرِ، يشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ، وأنَّ محمداً رسولُ الله، فذلكَ قولُه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]» [البخاري: ٤٦٩٩. ومسلم: ٢٨٣١].

وقد عقد البخاريُّ في صحيحه باباً قالَ فيه: «باب ما جاء في عذاب القبر». وقد أورد في هذا الباب ثلاث آياتٍ، هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]، قال أبو عبدالله: الهونُ هو الهوانُ، والهَوْنُ: الرِّفْقُ. وقوله جلَّ ذِكرُه: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة:١٠١]. وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٥-٤٦].

وأورد في الباب من الأحاديث حديثَ البراء بن عازبٍ الذي سقناه قبل قليل.

ثم أورد في هذا الباب الأحاديث التالية:

١- عن نافعٍ عن ابن عمرَ رضي الله عنهما أخبرَه قال: اطَّلَعَ النبيُّ ﷺ على أهلِ القَليبِ فقال: «وجَدتُم ما وَعَدَ ربُّكم حقّاً؟» فقيلَ له: تَدْعُو أمواتاً؟! فقال: «ما أنتُم بأسمَعَ منهم، ولكنْ لا يجيبونَ» [البخاري: ١٣٧٠].

٢- عن عائشةَ رضي الله عنها: أنَّ يهوديةً دخلتْ عليها فذَكَرَتْ عذابَ القبرِ، فقالت لها: أعاذَكِ اللهُ من عذابِ القبرِ. فسألَتْ عائشةُ رسولَ الله ﷺ عن عذاب القبرِ فقال: «نعم، عذابُ القبرِ». قالت عائشةُ رضي الله عنها: فما رأيتُ رسولَ الله ﷺ بعدُ صَلَّى صلاةً، إلاّ تَعَوَّذَ من عذابِ القبرِ.

زاد غُندَرٌ: «عذابُ القبرِ حَقٌّ» [البخاري: ١٣٧٢. ومسلم: ٥٨٦ (١٢٦)].

٣- عن عُروةَ بن الزبير، أنه سَمِعَ أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ رضي الله عنهما تقولُ: قامَ رسولُ الله ﷺ خطيباً، فذَكَرَ فتنةَ القبرِ التي يَفتَتِنُ فيها المرءُ، فلما ذَكَرَ ذلك ضَجَّ المسلمونَ ضَجَّةً [البخاري: ١٣٧٣].

٤- عن أنسِ بن مالكٍ ﷺ ، أنه حدَّثَهُم أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قَبْرِه وتَوَلَّى عنه أصحابُه -وإنَّه لَيَسمَعُ قَرْعَ نِعالِهِم- أتاه مَلَكانِ فيُقْعِدانِه فيقولانِ: ما كنتَ

تقولُ في هذا الرَّجلِ؛ لمحمَّدٍ ﷺ ، فأمَّا المؤمنُ فيقولُ: أَشْهَدُ أنه عبدُ الله ورسولُه، فيقالُ له: انظُرْ إلى مَقْعَدِكَ من النار، قد أبدَلَكَ اللهُ به مَقْعَداً من الجنةِ، فيَراهما جميعاً». قال قتادةُ: وذُكِرَ لنا أنَّه يُفْسَحُ في قَبْرِه؛ ثم رَجَعَ إلى حديثِ أنسٍ، قال: «وأما المنافقُ والكافرُ فيُقالُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ: لا أدري، كنتُ أقولُ ما يقولُ الناسُ، فيقالُ: لا دَرَيتَ ولا تَلَيتَ، ويُضرَبُ بمَطارِقَ من حَديدٍ ضَرْبةً، فيصيحُ صيحةً يسمَعُها من يَليه غيرَ الثَّقَلَينِ» [البخاري: ١٣٧٤].

٤- عن البراءِ بن عازبٍ، عن أبي أيوبَ ﷺ قال: خَرَجَ النبيُّ ﷺ وقد وَجَبَتِ الشمسُ، فسَمِعَ صوتاً فقال: «يهودُ تُعذَّبُ في قُبورِها» [البخاري: ١٣٧٥. ومسلم: ٢٨٦٩].

٥- عن موسى بن عُقْبَةَ قال: حدَّثتْني ابنةُ خالدِ بنِ سعيدِ بن العاصِ: أنها سَمِعَتِ النبيَّ ﷺ وهو يَتَعَوَّذُ من عذابِ القبرِ [البخاري: ١٣٧٦].

٦- عن أبي هريرةَ ﷺ قال: كان رسولُ الله ﷺ يدعو: «اللهمَّ إني أعوذُ بكَ من عذابِ القبرِ، ومن عذابِ النارِ، ومن فتنةِ المَحْيا والمماتِ، ومن فتنةِ المسيحِ الدَّجَّالِ» [البخاري: ١٣٧٧. ومسلم: ٥٨٨ (١٣١)].

٧- عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: مرَّ النبيُّ ﷺ على قَبْرَينِ فقال: «إنهما ليُعذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ من كبيرٍ» ثم قال: «بَلَى؛ أما أحدُهما فكان يَسْعَى بالنميمةِ وأما أحدُهما فكان لا يستترُ من بَوْلِه»، قال: ثم أخَذَ عوداً رَطْباً فكَسَره باثْنَتَيْنِ، ثم غَرَزَ كلَّ واحدٍ منهما على قَبْرٍ، ثم قال: «لَعَلَّه يُخفَّفُ عنهما ما لم يَيبَسا» [البخاري: ١٣٧٨].

٨- عن عبدالله بن عمرَ رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أحدَكم إذا ماتَ عُرِضَ عليه مقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ، إنْ كان من أهلِ الجنةِ فمن أهلِ الجنةِ، وإنْ كان من أهلِ النارِ فمن أهلِ النار، فيقالُ: هذا مقعَدُكَ حتى يَبعَثَكَ اللهُ يومَ القيامةِ» [البخاري: ١٣٧٩].

٩- عن أبي سعيد الخُدْريِّ ﷺ يقولُ: قال رسولُ الله ﷺ «إذا وُضِعَتِ الجنازة فاحتَمَلَها الرِّجالُ على أعناقِهِمْ، فإنْ كانت صالحةً قالت: قَدِّموني قَدِّموني، وإنْ كانت غيرَ صالحةٍ قالت: يا وَيْلَها، أينَ يَذهبونَ بها؟ يَسمعُ صوتَها كلُّ شيءٍ إلا الإنسانَ، ولو سَمِعَها الإنسانُ لَصَعِقَ» [البخاري: ١٣٨٠].

١٠- عن سمرةَ بن جُنْدُبٍ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى صلاةً أقبَلَ علينا بوجْهِهِ فقال: «من رأى منكمُ الليلةَ رُؤْيا؟» قال: فإنْ رأى أحدٌ قصَّها، فيقولُ ما شاءَ الله، فسألَنا يوماً فقال:

«هل رأى أحدٌ منكم رؤيا؟» قلنا: لا، قال: «لكني رأيتُ الليلةَ رجلَينِ أتَياني، فأخَذا بيدي، فأخرَجاني إلى الأرضِ المقدسةِ، فإذا رجلٌ جالسٌ ورجلٌ قائمٌ بيدِه كَلُّوبٌ [الكلوبُ: حديدة معوجة يعلَّق عليها اللحم] من حَديدٍ». قال بعضُ أصحابنا عن موسى: «إنه يُدخِلُ ذلكَ الكَلُّوبَ في شِدْقِه حتى يَبلُغَ قَفاهُ، ثم يَفْعَلُ بشِدْقِه الآخرِ مثلَ ذلك، ويلتَئِمُ شِدْقُه هذا فيعودُ فيَصْنَعُ مثلَه، قلتُ: ما هذا؟ قالا: انطَلِقْ.

فانطلقنا، حتى أتينا على رجلٍ مُضْطَجِعٍ على قَفاه، ورجلٌ قائمٌ على رأسِه بفِهْرٍ [الفِهْرُ: الحَجَر بقدر ما يملأ الكف] أو صَخرةٍ فيَشْدَخُ به رأسَه، فإذا ضَرَبَه تَدَهْدَه [تَدَهْدَهَ: تَدَحْرَجَ] الحَجَرُ، فانطلق إليه ليأْخُذَه، فلا يرجِعُ إلى هذا حتى يلتئِمَ رأسُه، وعادَ رأسُه كما هو، فعادَ إليه فضَرَبَه، قلتُ: ما هذا؟ قالا: انطَلِق.

فانطلقنا إلى ثَقْبٍ مثلِ التَّنُّورِ، أعلاهُ ضَيِّقٌ وأسفَلُهُ واسعٌ، يَتَوقَّدُ تحتَه ناراً، فإذا اقتَرَبَ ارتفعُوا حتى كادَ أنْ يخرُجوا، فإذا خَمَدَتْ رجَعُوا فيها، وفيها رجالٌ ونِساءٌ عُراةٌ، فقلتُ: ما هذا؟ قالا: انطَلِقْ.

فانطلقنا، حتى أتينا على نَهَرٍ من دم فيه رجلٌ قائمٌ على وسطِ النهرِ رجلٌ بين يديه حِجارةٌ، فأقبلَ الرجلُ الذي في النهرِ، فإذا أرادَ أنْ يخرُجَ رَمَى الرجلُ بحجرٍ في فِيهِ فرَدَّه حيثُ كانَ، فجَعَلَ كلما جاءَ ليخرُجَ رَمَى في فِيهِ بحَجَرٍ، فيَرجِعُ كما كانَ، فقلتُ: ما هذا؟ قالا: انطلقْ.

فانطلقنا، حتى انتهينا إلى روضةٍ خضراءَ فيها شجرةٌ عظيمةٌ، وفي أصلِها شيخٌ وصِبْيانٌ، وإذ رجلٌ قريبٌ من الشجرةِ، بينَ يديه نارٌ يوقِدُها، فصَعِدا بي في الشجرةِ وأدخَلاني داراً لم أرَ قَطُّ أحسَنَ منها، فيها رجالٌ شيوخٌ وشَبابٌ ونساءٌ وصبيانٌ، ثم أخرَجاني منها فصَعِدا بي الشَّجَرة، فأدخلاني داراً هي أحسنُ وأفضلُ، فيها شيوخٌ وشَبابٌ.

قلت: طوَّفْتُماني الليلةَ، فأخبِراني عما رأيتُ، قالا: نعمْ، أما الذي رأيتَه يُشَقُّ شِدْقُه فكذابٌ يُحدِّثُ بالكَذْبَةِ فتُحمَلُ عنه حتى تَبلُغَ الآفاقَ، فيُصْنَعُ به إلى يوم القيامةِ، والذي رأيتَه يُشْدَخُ رأسُه فرجلٌ علَّمَه اللهُ القرآنَ فنامَ عنه بالليلِ، ولم يعمَلْ فيه بالنَهار، يُفْعَلُ به إلى يوم القيامةِ، والذي رأيتَه في الثَّقْبِ فهُم الزُّناةُ، والذي رأيتَه في النهرِ آكِلُو الرِّبا، والشيخُ في أصلِ الشجرةِ إبراهيمُ ﷺ، والصِّبْيانُ حولَه فأولادُ الناس، والذي يوقِدُ النارَ مالكٌ خازنُ النار، والدارُ الأولى التي دَخَلْتَ دارُ عامةِ المؤمنينَ، وأما هذه الدارُ فدار الشهداءِ، وأنا جبريلُ وهذا ميكائيلُ، فارفَعْ رأسَكَ. فرَفَعْتُ رأسي، فإذا فوْقي مِثلُ السَّحابِ، قالا: ذاكَ مَنزِلُكَ، قلتُ:

دَعاني أدخُلْ مَنزِلي، قالا: إنه بَقِيَ لكَ عُمُرٌ لم تَستكْمِلْه، فلوِ استكْمَلْتَ أتيتَ مَنزِلَكَ» [البخاري: ١٣٨٦].

١١ – عن البراء بن عازب قالَ: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبرِ ولما يُلْحَدْ، فجلس رسولُ الله ﷺ وجلسنا حولَهُ كأنَّما على رؤوسنا الطير، وفي يده عودٌ ينكُتُ به في الأرضِ، فرفَعَ رأسَهُ فقالَ: «استعيذوا بالله من عذابِ القبرِ مرتين أو ثلاثاً»، زادَ في حديث جريرٍ هاهنا وقال: «وإنه ليسمعُ خَفْقَ نِعالهم إذا وَلَّوْا مُدْبِرينَ حينَ يقالُ لهُ: يا هذا من ربُّكَ؟ وما دينُكَ؟ ومن نبيُّكَ؟ قال هَنَّادٌ: قال: ويأتيه ملكانِ فيُجلِسانه فيقولان له: من ربُّكَ؟ فيقولُ: ربيَ اللهُ فيقولان له: ما دينكَ؟ فيقولُ: دينيَ الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكُمْ؟ قال: فيقولُ: هو رسولُ الله ﷺ فيقولانِ: وما يُدريكَ؟ يقولُ: قرأتُ كتابَ الله فآمنتُ به، وصدَّقتُ، زادَ في حديثِ جرير فذلك قولُ الله عز وجل ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الآيةُ ثم اتَّفَقَا قال: فيُنادي مُناد من السماء أنْ قدْ صَدَقَ عبدي، فأفرِشُوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنةِ، وألبِسُوهُ من الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبها، قال: ويُفتَحُ له فيها مَدَّ بَصَرِهِ. قال: وإنَ الكافِرَ، فذَكَرَ موْتَهُ قال: وتُعادُ روحُهُ في جَسَده، ويأتيه مَلَكانِ فيُجْلِسانه، فيقولانَ له: من ربُّكَ؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ هاهْ لا أدري، فيقولان لهُ: ما دينُكَ؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ لا أدري، فيقولانِ: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكُمْ؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ لا أدري، فيُنادي مُنادٍ من السماء أنْ كَذَبَ فأفرِشُوهُ من النارِ، وألْبِسوهُ من النار، وافتَحُوا لَهُ باباً إلى النار، قال فيَأتيهِ من حرِّها وسَمومِها، قالَ: ويُضَيَّقُ عليه قَبْرُهُ، حتى تختلفَ فيه أضْلاعُهُ، زادَ في حديثِ جَريرٍ قال: ثُمَّ يُقيَّضُ له أعْمَى أبْكَمُ مَعهُ مِرْزَبَّةٌ من حديدٍ لو ضُرِبَ بها جَبَلٌ لصارَ تُراباً، قالَ: فيضربُهُ بها ضربةً يسمعُها ما بينَ المشرقِ والمغربِ إلا الثَّقَلَيْنِ، فيصير تُراباً، قال: ثم تُعادُ فيهِ الروحُ» [سنن أبي داود: ٤٧٥٣. ورواه أحمد في المسند: ١٨٥٣٤].

وقد أورد ابن كثير جملة من الأحاديث في هذا الموضوع غير ما سبق منها:

١٢ – قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بنُ سعيدٍ، عن ابن جريج، أخبرني أبو الزُّبير، أنه سأل جابر بن عبدالله عن فتَّاني القبر فقال: سمعتُ النبيَّ يقول: «إنَّ هذه الأمة تُبْتَلى في قبورِها، فإذا أدخِلَ المؤمنُ قبرَه، وتوَلَّى عنه أصحابُه، جاءَ مَلَكٌ شديدُ الانتهارِ، فيقولُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ المؤمنُ: أقولُ: إنه رسولُ الله ﷺ وعَبْدُه. فيقولُ له الملك: انظر إلى مقعدِكَ الذي كان لكَ في النار، قد أنجاكَ اللهُ منه، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من

النارِ مقعدكَ الذي ترى من الجنة فيراهما كِلَيهما. فيقولُ المؤمنُ: دعوني أُبَشِّرْ أهْلِي. فيقالُ له: اسْكُنْ. وأما المُنافِقُ فيَقْعُدُ إذا تولّى عنه أهلُه، فيقالُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ: لا أدري، أقولُ كما يقولُ الناسُ. فيقالُ له: لا دريتَ، هذا مقْعَدُكَ الذي كان لكَ في الجنةِ، قد أُبْدِلْتَ مكانَه مَقْعَدَكَ من النارِ». قال جابر: فسمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «يُبعَثُ كلُّ عبدٍ في القبرِ على ما ماتَ، المُؤْمِنُ على إيمانِهُ، والمنافِقُ على نِفاقِه» [قال ابن كثير (٤/ ٤٣٨) في الحديث: إسنادُه صحيحٌ على شرط مسلم، ولم يخرجاه. وقال الشيخ شعيب: رواه أحمد: (١٤٧٢٢). والحديث صحيح].

١٣- وقال الإمامُ أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عبَّاد بن راشد، عن داود بن أبي هندٍ، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: شَهِدنا مع رسولِ الله ﷺ جنازةً، فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أيها الناسُ، إنَّ هذه الأمة تُبتَلى في قُبورِها، فإذا الإنسانُ دُفِن وتَفرَّق عنه أصحابه جاءه مَلَكٌ في يَدِهِ مِطراقٌ فأقْعَدَهُ، قال: ما تقولُ في هذا الرجلِ؟ فإنْ كان مؤمناً قالَ: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبدُ الله ورسولُه. فيقولُ له: صَدَقْتَ. ثم يُفْتَحُ له بابٌ إلى النارِ، فيقولُ: هذا كانَ منزلِكُ لو كَفَرْتَ بربِّك، فأما إذ آمَنْتَ فهذا منْزِلُك. فيُفْتَحُ له بابٌ إلى الجنةِ، فيريدُ أن ينْهَضَ إليه، فيقولُ له: اسْكُنْ. ويُفْسَحُ له في قبرِه. وإنْ كان كافراً أو مُنافِقاً يقولُ له: ما تقولُ في هذا الرجل؟ فيقولُ: لا أدري، سمعتُ الناسَ يقولون شيئاً، فيقولُ: لا دَرَيتَ ولا تَلَيتَ ولا اهتديتَ، ثم يُفْتَحُ له بابٌ إلى الجنةِ، فيقولُ له: هذا منزِلُكَ لو آمَنْتَ بربِّك، فأما إذا كَفَرْتَ به فإنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- أبْدَلَكَ به هذا. فيُفْتَحُ له بابٌ إلى النارِ، ثم يَقْمَعُهُ قَمْعَةً بالمِطْراقِ فيصيحُ صَيْحَةً يسْمعُها خلقُ الله -عز وجل- كلُّهُمْ غيرُ الثَّقَلَينِ، فقالَ بعضُ القومِ: يا رسولَ الله، ما أحدٌ يقومُ عليه مَلَكٌ في يدِهِ مِطْراقٌ إلاَّ هيلَ عندَ ذلك، فقال رسولَ الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾» [قال فيه ابن كثير: (٤/ ٦٧٦) ورواه أحمد (١١٠٠٠) وقال فيه الشيخ شعيب وفي تخريج ابن كثير: حديث صحيح]. وهذا أيضاً إسنادٌ لابأس به، فإن عَبَّادَ بنَ راشدٍ التميمي روى له البخاري مقروناً ولكن ضعَّفه بعضهم.

١٤- وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسين بن محمد، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو ابن عطاء، عن سعيد بن يسارٍ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إنَّ المَيِّتَ تَحْضُرُهُ الملائكةُ، فإذا كانَ الرَّجُلُ الصالحُ قالوا: اخْرُجي أيتها النفسُ المُطْمَئنَّة كانت في الجسدِ الطيبِ، اخرُجي حَميدة، وأبشري برَوْحٍ ورَيْحانٍ وربٍّ غيرِ غضْبانَ». قال: «فلا يزالُ يقالُ لها ذلكَ حتى تخرُجَ، ثم يُعْرَج بها إلى السماءِ، فيُستَفْتَحُ لها فيقال: من هذا؟ فيقالُ: فلانٌ، فيقولون: مرحباً بالرُّوحِ الطيبةِ كانتْ في الجسدِ الطيب، ادخلي حميدةً، وأبشري بروحٍ وريْحانٍ، وربٍّ غيرِ غَضْبانَ».

قال: فلا يزالُ يقالُ لها ذلك، حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله عزَّ وجل. وإذا كان الرجلُ السوءُ قالوا: «اخرُجي أيَّتُها النفسُ الخبيثةُ كانت في الجَسَدِ الخبيثِ، اخرُجي ذَميمةً، وأبْشِري بحَميم وغسَّاق، وآخَرَ من شَكْلِهِ أزْواجٌ. فلا يزالُ يقالُ لها ذلك حتى تخرُجَ، ثم يُعرَجُ بها إلى السماءِ، فيُسْتَفْتَحُ لها فيقالُ: من هذا؟ فيقالُ: فلانٌ، فيقال: لا مرْحَباً بالنفس الخبيثةِ كانت في الجسدِ الخبيثِ، ارجِعِي ذميمةً، فإنه لا تُفتَّحُ لكِ أبوابُ السماءُ. فيُرسَلُ مِنَ السماءِ ثم يصيرُ إلى القبرِ، فيجلسُ الرجلُ الصالحُ فيقالُ له مثلَ ما قيل في الحديثِ الأولِ، ويجلسُ الرجلُ السوءُ فيقالُ له مثلَ ما قيلَ له في الحديثِ الأول» [ابن كثير: ٤/ ٤٣٩، قال الشيخ شعيب: رواه أحمد (٨٧٦٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين].

١٥- وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: إذا خرجتْ روحُ العبدِ المؤمنِ تلقَّاه مَلكانِ يصْعدان بها - قال حمادٌ: فذَكَرَ من طيبِ ريحها وذَكَرَ المِسْكَ - قال: ويقولُ أهلُ السماءِ: روحٌ طيبةٌ جاءتْ من قبلِ الأرضِ، فصلَّى الله عليكِ وعلى جَسَدٍ كنتِ تعْمُرينَه، فيُنطلَقُ به إلى ربهِ عزَّ وجلَّ فيقولُ: انْطَلِقُوا به إلى آخِرِ الأجَلِ، وإنَّ الكافرَ إذا خَرَجَتْ روحُهُ؛ قال حمَّاد: وذكَرَ من نَتْنِها وذَكَرَ مَقْتاً -ويقولُ أهلُ السماء: روحٌ خَبيثَةٌ جاءتْ من قبل الأرضِ. قال: فيقالُ: انطلقوا به إلى آخر الأجَلِ. قال أبو هريرةَ: فرَدَّ رسولُ الله ﷺ رَيْطَةً كانْ عليهِ على أنْفِه، هكذا [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٦٧٧) رواه مسلم: ٢٨٧٢].

١٦- وقال ابن حِبَّان في صحيحه: حدثنا عمر بن محمد الهَمْداني، حدثنا زيد بن أخْزَمَ، حدثنا مُعاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن قَسامة بن زهير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ المؤمنَ إذا قُبِضَ أتَتْهُ ملائكةُ الرحمةِ بحَريرةٍ بيضاءَ، فيقولون: اخرُجي إلى روحِ الله. فتخْرُجُ كأطْيَبِ ريح مِسْكٍ، حتى إنَّه ليناولُه بعضُهُمْ بعضاً يشُمُّونه، حتى يأتوا به بابَ السماءِ، فيقولونَ: ما هذهِ الريحُ الطيبةُ التي جاءتْ من قِبَلِ الأرضِ؟ ولا يأتونَ سماء إلا قالوا مثلَ ذلك، حتى يأتوا بِهِ أرواحَ المؤمنينَ، فلَهُم أشدُّ فَرَحاً به من أهلِ الغائبِ بغائِبِهِمْ، فيقولونَ: ما فَعَلَ فلانٌ؟ فيقولونَ: دَعوه حتى يَسْتَرِيحَ، فإنه كان في غَمٍّ! فيقولُ: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولونَ: ذُهِبَ به إلى أُمِّهِ الهاويةِ. وأما الكافرُ فيأتيه ملائكةُ العذابِ بمسْحٍ فيقولون: اخرُجي إلى غضبِ الله. فتخرجُ كأنتنِ ريحِ وجيْفَةٍ، فيُذْهَبُ به إلى بابِ الأرضِ» [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٦٧٨) أخرجه النسائي (٤/ ٨، ٩) والحاكم (١/ ٣٥٣) وابن حبان (٣٠١٤) وإسناده صحيح].

١٧- وقد رَوَى أيضاً من طريق همَّام بن يحيى، عن قتادةَ، عن أبي الجوزاء، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، قال: «فيُسأَلُ: ما فَعَلَ فُلانُ؟ ما فَعَلَ فلانُ؟ ما فعلَت فُلانةُ؟

قال: وأما الكافرُ إذا قُبضَتْ نفسُه وذُهب بها إلى بابِ الأرضِ تقولُ خَزَنَةُ الأرضِ: ما وَجَدْنا ريحاً أَنْتَنَ من هذه! فَيُبْلَغُ بها الأرضَ السفلى، قال قتادةُ: وحدَّثني رجل، عن سعيد ابن المسيب، عن عبدالله بن عمرو قال: أرواحُ المؤمنين تُجمع بالجابِيَتَينِ، وأرواحُ الكفار تجمع ببَرَهوتَ، سَبْخَةٍ بحضْرَموت» [قال محقق ابن كثير (٣/ ٦٧٨) أخرجه ابن حبان (٣٠١٣) ورجاله ثقات، وله شواهد].

١٨- وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي -رحمه الله-: حدثنا يحيى بن خلف، حدثنا بِشْرُ ابن المُفضَّل، عن عبدالرحمن بن إسحاقَ، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبري، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا قُبِرَ الميتُ -أو قالَ: أَحَدُكُم- أتاه مَلَكانِ أسوَدانِ أزرقانِ، يقالُ لأحدهما: المُنْكَرُ، والآخرُ: النكيرُ، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبدُ الله ورسوله أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، فيقولان: قَدْ كنا نعلَم أنك تقولُ هذا، ثم يُفسَحُ له في قبره سبعونَ ذراعاً في سبعينَ. ثم يُنَوَّرُ له فيه، ثم يقالُ له: نَمْ. فيقولُ أرجِعُ إلى أهْلي فأُخْبِرُهُمْ؟ فيقولانِ: نَمْ نَوْمَةَ العروس الذي لا يوقِظه إلا أَحَبُّ أهلِهِ إليه، حتى يَبْعَثَه الله من مَضجَعِهِ ذلك. وإن كانَ منافقاً قال: سمعتُ الناسَ يقولون، فقلتُ مِثْلَهم، لا أدري! فيقولانِ: قد كُنَّا نعلمُ أنَّكَ تقولُ ذلك، فيقالُ للأرضِ: التئِمي عليه. فتَلْتَئِمُ عليه، فتَختَلِفُ أضلاعُه، فلا يزالُ فيها مُعَذَّباً حتى يَبعَثه الله من مَضْجَعِهِ ذلك». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. [ابن كثير: (٣/ ٦٧٨) وقال محقق ابن كثير: جيد، أخرجه الترمذي: (١٠٧١) وأخرجه ابن حبان (٣١١٧) وإسناده جيد].

١٩- وقال ابنُ جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا: حدثنا يزيدُ، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «والذي نفْسِي بيدِهِ إنَّ الميِّتَ ليسمَعُ خَفْقَ نِعالِهِمْ حين يُوَلُّون عَنْه مُدبِرينَ، فإذا كان مؤمناً كانت الصلاةُ عند رأسِهِ، والزكاةُ عن يمينه، والصيامُ عن يساره، وكانَ فِعْلُ الخيراتِ مِنَ الصَّدَقةِ والصلةِ والمعروفِ والإحسانِ إلى الناس عِنْدَ رِجْلَيه، فيُؤْتى من عندِ رأْسِهِ فتقولُ الصلاة: ما قِبَلي مَدخَلٌ. فيُؤْتى من عن يَمينِهِ فتقولُ الزكاةُ: ما قِبَلي مدخل فيؤتى عن يساره فيقول الصيام ما قبلي مدخل فيؤتى عند رجليه فيقول فعل الخيرات ما قبلي مدخل فيقال اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له أخبرنا عما نسألك فيقول دعني دعني حتى أصلي، فيقال له إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك فيقول عم تسألوني؟ فيقال أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه وماذا تشهد به عليه؟ فيقول أمحمد؟ فيقال له نعم، فيقول أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له على ذلك حييت، وعلى

ذلك مت، وعليه تبعث إن شاء الله، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينوّر له فيه ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ثم تجعل نسمته في النسم الطيب وهي طير أخضر يعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدئ من التراب». وذلك قول الله عز وجل ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾. رواه ابن حبان من طريق المعتمر بن سليمان عن محمد بن عمر وذكر جواب الكافر وعذابه.

وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماء يعني بنت الصديق رضي الله عنها تحدّث عن النبي ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمناً أحف به عمله الصلاة والصيام، قال: فيأتيه المَلَكُ من نحو الصَّلاة فتردُّه، ومن نحوِ الصيام فيردُّه، قال: فيناديه: اجْلِس. فيجلسُ. فيقول له: ماذا تقولُ في هذا الرجل؟ يعني النبيَّ ﷺ . قال: مَنْ؟ قال: محمدٌ. قال: أشهدُ أنه رسولُ الله، قال: يقولُ: وما يُدريك؟ أدركته؟ قال: أشهدُ أنه رسولُ الله. قال: يقولُ: على ذلكِ عِشْتَ، وعليه مُتَّ، وعليْهِ تُبعَثُ. وإن كانَ فاجِراً أو كافِراً، جاءه المَلَكُ ليس بيْنَه وبيْنه شيءٌ يَرُدّه، فأجْلَسَهُ يقول: اجلسْ، ماذا تقولُ في هذا الرجل؟ قال: أيّ رجلٍ؟ قال: محمدٌ؟ قال: يقولُ: والله ما أدري، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئاً فقلتُه، قالَ له الملكُ: على ذلك عِشْتَ، وعليهِ مُتَّ، وعليه تُبْعَثُ، قال: وتسلَّط عليهِ دابةٌ في قَبْرِه، معها سَوْطٌ ثَمَرَتُه جَمرةٌ مثلُ غَرْبِ البعيرِ، تضربُهُ ما شاءَ الله، صَمَّاء لا تَسْمَعُ صوتَهُ فترحَمُه» [قال محقق ابن كثير (٣/ ٦٨٠): أخرجه أحمد: وذكره الهيثمي، وقال: رجاله رجال الصحيح].

٤- تعجيبُ الله تعالى رسولَه ﷺ من حالِ قومه الذين بدَّلوا نعمةَ الله كفراً:

عَجَّبَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ من حالِ قومِهِ الذين بَدَّلوا نعمةَ الله كفراً، وأحَلُّوا قومهم دارَ البوارِ ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩]. وهؤلاءِ هم كفارُ قريشٍ، وإنْ كان النصُّ متناولاً لكلِّ كافرٍ، و﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ محمداً ﷺ ، فإرسالُ الله رسولَهُ فيهم أعظمُ نعمِ الله عليهم، وتبديلهم نعمةَ الله كفراً، أي: بَدَلَ أن يؤمنوا به كفروا به، وأُنْزِلوا بكفرِهم وكفرِ قومِهِمْ دارَ البوارِ، أي: دارَ الهلاكِ، وهي النارُ، يصلونها يومَ القيامةِ، ويقاسون حَرَّها، ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ أي: بئسَ المكانُ الذي سيكونُ مقرّاً ومَسْكناً لهم.

وذمَّ اللهُ تعالى الكفارَ أيضاً، لأنهم ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٠] ذمَّ ربُّ العزةِ هؤلاءِ الكفرةَ من أهْلِ مكةَ، لأنَّهم

اتخذوا لله أنداداً، أي: أمثالاً ونظراءَ يعبدونهم معهم، وهم الأصنامُ والأوثانُ مِنَ اللاتِ والعزى ومناةَ الثالثةَ الأخرى، اتخذوها ليضلُّوا الناسَ عن سبيلِ الله، الذي هو دينُهُ تبارك وتعالى، وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لهؤلاءِ: تمتَّعوا في دنياكم هذه بطعامِكُمْ وشرابكم ونكاحِكُم وما أنعمَ اللهُ به عليكم، فإنَّ مصيركم يومَ الدين إلى النارِ، وبئسَ القرارُ.

٥- ما أمَرَ اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ أنْ يقولَه لعبادِهِ الصالحين:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للكافرينَ مِنْ قومِهِ: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم:٣١].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يأمرَ عبادَهُ الذين آمنوا أنْ يقيموا الصلاة، والمرادُ بإقام الصلاةِ: المحافظة على وقتها وحدودِها، وركوعِها وخشوعِها وسجودِها، وأمره تعالى أنْ يأمرهم بالإنفاقِ مما رزقَهم اللهُ تعالى في السرِّ والعلانيةِ، وليبادروا بإقام الصلاةِ والإنفاقِ مما رزقهم اللهُ يوماً لا بيعٌ فيه ولا خلال، وهذا اليومُ هو يومُ القيامةِ، ففي ذلك اليومِ لا مالَ فيه يباعُ ويشترى، ولا متاعَ، ولا ينفعُ أحَداً بيعٌ ولا فدية، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٤].

٦- نعمُ الله تعالى التي أنْعم بها تبارك وتعالى على عباده:

عَدَّدَ اللهُ -تبارك وتعالى- نعمَه التي أنعمَ بها على عبادِه فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤].

فمن نعمِ الله تعالى العظمى خَلْقُ السمواتِ بنجومِها وشموسِها وأقمارِها، وجَعَلَها سقفاً محفوظاً، وجعلها سبعاً طباقاً، وخلقَ الأرضَ بجبالها وسهولها، وحيوانِها ونباتِها، وأنزلَ سبحانه الماءَ من السماءِ، فأخرجَ به أزواجاً من نباتٍ شَتَّى ما بين ثمارٍ وزروعٍ، مختلفةُ الألوانِ والأشكالِ، والطعومِ والروائحِ والمنافعِ، وسخَّر لنا الفلكَ، وهي السفن، لتجريَ في البحرِ بإرادتِهِ ومشيئتِه، فتحملنا وتحملُ أثقالَنا، وسخَّر لنا الأنهارَ تشقُّ الأرضَ من قُطْرٍ إلى قطرٍ، وجعلَ ماءَها شراباً لنا، ولحيواناتِنا، ونباتاتنا، وسخر لنا ربنا سبحانه الشمسَ والقمرَ دائبين،

يسيران، ولا يقرّانِ ليلاً ولا نهاراً، وسخَّر لنا الليلَ والنهارَ، أحدهما لمنامنا وراحتنا، والآخر يبعثنا فيه، لنعملَ ونقومَ بمهامنا، وقد جَعَلَ ربُّنا سبحانه الشمسَ والقمرَ يتعاقبان، والليلَ والنهارَ يتقارضان، فتارةً يأخذُ هذا مِنْ هذا فيطولُ، ثم يأخذُ الآخرُ من هذا فيقصرُ.

وآتانا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- من كلِّ ما سألناه إيَّاه ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ لقد آتانا اللهُ تبارك وتعالى من كلِّ ما سألناه واحتجنا إليه من أنواعِ الطعامِ والشرابِ والفواكهِ واللباسِ، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أننا لا نستطيعُ إحصاءَ نعمهِ التي أنعم بها علينا ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ومع كثرةِ النعمِ التي أنعمَ الله بها على عبادِهِ، فإنَّ الإنسانَ كثيرُ الظلمِ لنفسِهِ، فبدل أن يقابلَ النعم بالشكرِ لله الواحدِ الأحدِ، إذا هو يقابلها بالكفرِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ وظلومٌ وكفَّارٌ صيغتان من صيغِ المبالغةِ أراد اللهُ تعالى بهما إظهارَ مدى ظلمِ الإنسانِ وكفره.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- ضربَ اللهُ -تبارك وتعالى- مثلاً للكلمةِ الطيبة، وهي كلمةُ التوحيدِ، بشجرةٍ طيبةٍ جَذورها ضاربةٌ في الأرضِ، وفروعها عاليةٌ في السماءِ، تعطي ثمارَها كلَّ حين بإذنِ ربها.

٢- وضربَ اللهُ تعالى مثلاً للكلمة الخبيثةِ وهي كلمة الشرك بالشجرةِ الخبيثةِ التي استؤصلت مِنَ الأرض، ويبست أغصانُها، فطوحتْ بها الرياحُ في كلِّ مكان.

٣- بيَّن لنا رسولُنا أنَّ الله تعالى يريدُ بقوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧] تثبيتَ المؤمنين في سؤالِ القبر وفتنته.

٤- الأحاديث الصحيحة الدالةُ على فتنةِ القبرِ وعذابِه ونعيمِه كثيرةٌ صحيحة، وهي بالغةٌ مبلغَ التواتُرِ المعنوي.

٥- بَدَّل الكفارُ النعمةَ العظمى التي حباهُمُ اللهُ تعالى بها، وهي بعثةُ محمدٍ ﷺ فيهم إلى نقمةٍ عندما كفروا به.

٦- عندما بَدَّل الكفارُ نعمةَ الله كفراً أَحَلُّوا قومَهم دارَ البوارِ، جهنَّم يصلونها وبئسَ القرارُ.

٧- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يأمر المؤمنين بإقامِ الصلاةِ والإنفاقِ مما رزقَهُم اللهُ تعالى، قبلَ أن يأتيَ يوم لا بيعٌ فيه ولا خِلال، وهو يومُ القيامة.

٨- نعمُ الله التي تحتاج إلى شكرٍ كثيرةٌ، منها خلقُ السمواتِ والأرضِ، وإنزالُ الله المطرَ مِنَ السماءِ وأخرجَ بهذا المطرِ الأشجارَ التي تعطي كلَّ الثمارِ، وتسْخير الله السفنَ التي تسير في البحرِ لعبادِه، وتسخيرُ الأنهارِ التي تسرحَ في الأرضِ ليشربوا منها، وتشربُ بهائمهم، وتسقي زرعهم، وتسخيرُ الله لهم الشمسَ والقمر دائبين، وسخَّر لهم الليلَ والنهار، ونعم الله تعالى كثيرة لا يستطيع العباد إحصاؤها.

النص القرآني الخامس من سورة إبراهيم
طرف من نبأ نبي الله إبراهيم عليه السلام

أولاً: تقديم

كان الصراعُ بين الرسولِ ﷺ والمؤمنين معه وبين كفارِ قريشٍ مستعراً، وكانت قريش تفخر بانتسابها إلى نبيِّ الله إبراهيمَ، وتزعم أنها على طريقِهِ، فجاءَت هذه الآيات تُظهرُ إبراهيمَ وهو يدعو ربَّه بعد أن وضعَ اللبنةَ الأولى في بناءِ مكةَ، فقد وضعَ ابنَه إسماعيل وأُمَّه هاجرَ في ذلك الوادي الخالي من السكان، وتنحَّى جانباً يدعو ربَّه ويناجيه، دعا اللهَ لذلك البلدِ أن يجعله آمناً، وكان أهلُ مكَّة ينتهكون حرمته بإيذاءِ المؤمنين، ودعا ربَّه أن يجنِّبه وذريته عبادة الأصنامِ، وكان أهلُ مكة غارقين في عبادةِ الأصنام، وقال إبراهيم في دعائه ربَّه أنَّ مَنْ تبعه على دينِهِ فهو منه، ومن عصاه فأمرُ حسابِهِ لربِّه، وكانت قريشٌ في ذلك الوقت تحاربُ رسولَهُ محمداً ﷺ، وتحاربُ المؤمنين وتؤذيهم وتشنُّ عليهم حرباً ضروساً.

لقد كَشَفَ هذا النصُّ القرآنيُّ عورةَ قريشٍ، وبيَّنَ أنها كانت مجافيةً لما كان عليه أبوها إبراهيمُ وأنها مخالفةٌ لنهجه ودينه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة إبراهيم

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٥-٤١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إبراهيمُ يدعو بالأمنِ للبلدِ الحرامِ ويدعو اللهَ أنْ يجنبه وبنيه عبادةَ الأصنامِ:

أسكن نبيُّ الله إبراهيمُ عليه السلام ابنَه إسماعيلَ وأُمّه هاجرَ عند بيته المحرم الذي سيبنيه هو وإسماعيلُ عندما يكبرُ إسماعيلُ، وكان إسماعيلُ رضيعاً عندما وضعهما هناك، ولم يكن في ذلك

المكانِ أحدٌ كما سبقَ بيانه في سورةِ البقرة، وقد تعلَّقَتْ هاجرُ بإبراهيم عندما أراد تركهما في ذلك المكانِ الخالي مِنَ الناسِ، فلما أَلَحَّتْ عليه قالتْ له: آللهُ أمركَ بذلك؟ قال: نعم، فلما ابتعد عنهما وقفَ يدعو ربَّه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦].

دعا نبيُّ الله إبراهيم ربَّه أنْ يجعلَ الحرم المكيَّ بلداً آمِناً، وقال: ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ مستعملاً اسمَ الإشارةِ الدالِ على القريب، لأنَّ الحرمَ كان بين يديه، وقد أصبحَ الحرمُ آمناً منذ ذلك الوقت الذي دعا له نبيُّ الله إبراهيمُ، فلا يجوز القتلُ والاقتتالُ فيه، ولا يجوزُ الصيدُ فيه، ولا يُؤخَذُ شجره، ودعا اللهَ تعالى أنْ يجنبه وبنيه عبادةَ الأصنامِ.

وقال إبراهيمُ ﷺ في دعائه ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أنَّ الأصنامَ قد أضللن خلقاً كثيراً مِنْ عبادِ الله، عبدوها معَ الله فأشركوا وكفروا، وأغضبوا ربَّهم عليهم، ثم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ أي: فمن تبعني فيما أخذت به نفسي مِنْ توحيدكَ، وإخلاصِ الدينِ لكَ، وعبادتِكَ وَحْدَكَ لا شريكَ لك فإنَّه مني، ومَنْ عصاني بعبادةِ الأصنامِ معك، فالأمرُ إليك، وأنت الغفورُ الرحيم، فإنْ شئتَ عَذَّبته، وإن شئتَ غفرتَ له.

٢- دعاء إبراهيمَ لولدِه ومن تناسلَ منه الذين أسكنهم في حرم الله:

دعا إبراهيمُ ﷺ لولدِه الذي أسكنه عند بيْتِهِ المحرم ومن تناسل منه، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم:٣٧].

قال إبراهيمُ في دعائه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ والذي أسكنه من ذريته في ذلك المكان ابنَهُ إسماعيلَ، وهو الابنُ الأولُ الذي وهبه اللهُ تعالى إيَّاه، وقد كان المكانُ الذي أسكنه فيه وادياً ليس فيه زَرْع، وكانت أرضه صخريةً، وليس به ماءٌ يُسقى الزرعُ منه، والوادي الذي أسكن فيه إبراهيمُ ابنه عند بيتِ الله المحرم، هو الذي سيبنيه إبراهيمُ وإسماعيلُ في مقبلِ الزمان، وقد أسكنهم في ذلك المكانِ ﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإقامةُ الصلاة من أعظم شعائر الدين الذي أوحاه الله تعالى لنبيِّه إبراهيمَ ﷺ.

وقد كان المكانُ الذي أسكن اللهُ فيه إسماعيلَ وأُمَّهُ هاجر خالياً من الناس، فدعا إبراهيمُ ربَّه -تبارك وتعالى- أن يجعل ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تميلُ وترغبُ في

مساكنتهم، ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ دعا الله تعالى أنْ يرزقهم من ثمراتِ الأرض، وقد استمرَّ رِزْقُ أهلِ الحرم من ذلك اليومِ وإلى اليوم، فالطعامُ وأنواعُ الغذاءِ والشرابِ يسيرُ إلى أهلِ مكة وافراً عظيماً، لعلهم يشكرون الله تعالى على ما رزقهم.

٣- اللهُ عالمٌ بما نخفيه وما نعلنه:

وقال إبراهيمُ عليه السلام في دعائه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم:٣٨]، قال إبراهيمُ لربِّه في دعائه: أنتَ تعلم ما نخفيه في قلوبنا، وما نظهرُه من أعمالنا، فأنتَ تعلم ظاهرنا وباطننا، ولا يخفى عليكَ أمرٌ من أمورنا، كما لا يخفى عليك أمر من أمورِ الكونِ كلِّه أرضِهِ وسمائِه سبحانك.

٤- حَمِدَ إبراهيمُ ربَّه على ما رزقه من الولدِ:

وحمدَ نبيُّ الله إبراهيمُ ربَّه في دعائِه على ما رزقه من الولدِ، فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم:٣٩].

حمِدَ نبيُّ الله إبراهيمُ ربَّه على ما رزقَه من الولدِ، فقد رزقه إسماعيلَ وإسحاقَ، وكان كبيراً في العمر، فرزقَه بإسماعيلَ وهو في السادسةِ والثمانين من العمرِ، ورزقَه بإسحاقَ وهو في التاسعةِ والتسعينَ من العمرِ، وجعلهما ذريةً صالحةً، فكان كلٌّ منهما نبياً رسولاً، ورزقَ كلاًّ منهما بذريةٍ عظيمةٍ كثيرةٍ، فمن ذريةِ إسماعيلَ العربُ، ومنهم نبيُّ الله محمدٌ ﷺ، ومن إسحاق جاءَ يعقوبُ، ويعقوبُ إسرائيل، وجاءَ منه بنو إسرائيل، وفيهم كثيرٌ من الرسلِ والأنبياءِ.

٥- إبراهيمُ يدعو اللهَ أن يجعله مقيماً للصلاةِ هو وذريتُه:

دعا نبيُّ الله إبراهيمَ عليه السلام ربَّه أن يجعلَه مقيمَ الصلاةِ هو وذريتهُ، وأنْ يتقبلَ اللهُ دعاءَه ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم:٤٠]، ودعا ربَّه أنْ يغفرَ له ولوالديه وللمؤمنين يومَ يقومُ الحسابُ ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٤١].

دعا ربَّه أن يجعله مقيماً هو وذريته للصلاةِ، والاستعانةُ بالله على عبادتِهِ أصلٌ عظيم، فإنَّه إنْ لم يكنْ من الله عونٌ للمرءِ، لم ينفعه سعيُهُ وجُهْدُهُ، ودعاءُ المرءِ للصلاحِ في ذريتِهِ أمرٌ مشروعٌ ومطلوبٌ، وكذلك دعاؤُه سبحانه أن يتقبلَ دعاءَه، ويجيب رجاءَه مشروعٌ ومطلوبٌ أيضاً.

ودعا إبراهيمُ ربَّه أنْ يغفر له ولوالديه وللمؤمنين يومَ يقومُ الحسابُ، وكان هذا قبل أن يتبيَّنَ له أنَّ والدَه عَدُوٌّ لله، عند ذلك تبرأ منه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - دعا إبراهيم ربَّه أنْ يجعل حَرَمَ الله في مكةَ وما حولها محرماً فاستجابَ اللهُ دعاءَه.

٢ - دعا إبراهيمُ ربَّهُ أنْ يجنبه وذريتَهُ عبادةَ الأصنامِ، فإنَّهن أضللن كثيراً من الناسِ.

٣ - قرَّرَ نبيُّ الله إبراهيمُ أنَّه من تبعه على دينِهِ فهو منه، ومن أشركَ بالله من ذريته فليس منه، وأمره إلى الله تعالى.

٤ - دعا إبراهيمُ ﷺ لذريتِهِ الذين أسكنهم بواد غير ذي زرع عند البيتِ المحرم الذي سيبنى في مقبل الأيام، ودعا اللهَ تعالى أنْ يجعلَ أفئدةً من الناسِ ترغب في مساكنتهم، ودعا اللهَ أن يرزقهم من الثمراتِ لعلَّهم يشكرون.

٥ - اللهُ تعالى يعلم ما نخفيه وما نعلنه، ولا يخفى على الله شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ.

٦ - حَمِدَ إبراهيمُ ربَّه في دعائِه على ما وهبه إيَّاه مِنَ الولد.

٧ - دعى إبراهيم ربَّه أنْ يجعله مقيماً للصلاةِ هو وذريتَه، وأن يتقبلَ دعاءَه، وأنْ يغفرَ له ولوالديه وللمؤمنين يومَ يقومُ الحسابُ.

النص القرآني السادس من سورة إبراهيم
لا تحسبنَّ اللهَ غافلاً عما يعمل الظالمون

أولاً: تقديم

هذا النص الأخيرُ من سورةِ إبراهيمَ نصٌّ في غايةِ القوةِ والتأثير، وهو يصفُ حالَ الظالمينَ في يوم الدين، ويبينُ كيف يطلبُ الكفارَ الرجعةَ إلى الدنيا ليؤمنوا، فلا يجابون، ويُبَكِّتُ اللهُ الكفارَ في ذلك اليومِ ويذكرهم بكفرهم بالبعث والنشور، ويعلمنا ربنا أنه في يوم الدين ستبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ، والسمواتُ غيرَ السمواتِ، وفي ذلك اليومِ يبرزُ الناسُ جميعاً لله الواحدِ القهارِ، ويكون المجرمونَ مصفدين بالأغلالِ، ويلبسون الملابسَ المغموسةَ بالقطران، وتغشى وجوهَهُمْ النارُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة إبراهيم

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢-٥٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- لا يغفلُ اللهُ -تعالى- عما يَعمَلُ الظالمون:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يظنَّ أنَّ اللهَ غافلاً عما يعمل الظالمون، فاللهُ تعالى لا يغفلُ عن فعلِ الظالمين لحظةً واحدةً، وعلمه محيطٌ بهم، وملائكتُهُ يسجِّلون عليهم أفعالَهُمْ، والظالمون: الكفار المشركون.

وقد يظنُّ بعض الناسِ أنَّ اللهَ غافل عنهم، عندما يراهم يملكونَ الأرضَ، ويتسلَّطون على عبادِ الله، ويوقدونَ نيرانَ الحروب، ويدمِّرون البلادَ والعبادَ، ولكنَّ اللهَ تعالى يُؤَخِّرُهم ليوم تشخصُ فيه الأبصار، وهو يومُ القيامة، وشخوصُ أبصارهم بقاؤها مفتوحة بحيث لا ترمشُ ولا تطرفُ، بسبب ما يحيطُ بهم من الأهوال العظيمةِ التي تأخُذُ عليهم أنفسَهَمْ، وهم مع شخوصِ أبصارِهم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين في ذلٍّ وخُشوع ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ والمقنعُ الرافعُ بَصَرَهُ إلى السماء في سيرِه، غير ملتفت إلى غيره.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ ينظرون إلى شيءٍ واحدٍ، فلا ينظرون إلى غيرهم، وقوله: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ أي: وقلوبُهُم خاويةٌ خاليةٌ ليس فيها شيءٌ لكثرةِ الوجلِ والخوفِ والفزعِ، وقال بعضهم: خرابٌ لا تعي شيئاً لشدة ما أخبر اللهُ به عنهم.

٢- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ ينذرَ الناسَ:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبدَه ورسولَهُ محمداً ﷺ أن ينذرَ الناسَ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم:٤٤-٤٥].

وإنذارُ الناسِ تخويفُهم بإخبارِهم بعذاب الله الذي سيحلُّ بهم، وعندما يأتي العذابُ، ويحلُّ بهم، ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ يطلبُ الكفرةُ المجرمون من ربِّ العزةِ -تبارك وتعالى- أنْ يؤخر عذابَهُم إلى وقتٍ قريبٍ، ليجيبوا دعوته، ويتبعوا رسلَه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون:١٠]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ﴾ [فاطر:٣٧].

وعندما يطلبُ الكفارُ يومَ الدين أنْ يؤخرهم إلى أجلٍ قريبٍ ليجيبوا دعوةَ الله ويتبعوا الرسلَ، يقولُ لهم ربُّ العزة سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ يقولُ لهم مذكِّراً إيهم بإقسامهم من قبل أي في الحياةِ الدنيا ما لهم من زوال من الدنيا إلى الآخرةِ، فهم كانوا ينكرون البعث والنشور، وسكنوا في مساكنِ الذين ظلموا أنفسهم من الأممِ المعذَّبة من قبل، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك، وضربَ اللهُ تعالى الأمثالَ، ليَظْهَرَ لهم الحقُّ، فلم يفقهوا، ولم يتعظوا.

٣- مكرُ الكفارِ بالمؤمنين:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ الكفارَ ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم:٤٦] أخبر ربُّنا عز وجل أنَّ الكفارَ على مدارِ التاريخ مكروا بالمسلمين، وخطَّطوا لتدميرهم والقضاءِ عليهم، وأخبر أنَّ مكرهم عند الله، أي معلومٌ معروفٌ لربِّ العزةِ لا يخفى عليه منه شيءٌ، وهوَّل اللهُ -تعالى- هذا المكرَ وعظَّمه، فقال: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ أي: أنَّ مَكْرَهُم بلغ أن تزول الجبالُ منه.

وقد عظُمَ مكرُ الكفارِ في هذه الأيامِ، فخطَّطُوا لتدمير العالمِ الإسلامي، وجاؤوا بالجيوشِ الجرارةِ لاحتلال بعضِ الديارِ الإسلامية، فدمَّروا جيوشَها وأسلحتها، وهدَموا اقتصادَها، وأفسدوا أجواءَها، وجرَّبوا فيها أسلحتَهُمْ المتطورَة، ولكن الله لهم بالمرصاد، فقد ذهبتْ أموالهم، وخسرتْ جيوشهم، ورجعوا إلى ديارِهِمْ بعدما أحدثوه من فسادٍ خائبين.

٤- نهى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يظنَّ أنَّه مخلفُ وعدِهِ رسلَه:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أنْ يظنَّ أنه مخلفُ وعدِه رسلَه ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم:٤٧]، أي: مخلفٌ وعدَهُ رسلَهُ في نصرتِهِمْ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة، فالله ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: قويٌّ غالبٌ قاهرٌ، وهو ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي: ممَّنْ كفرَ به وبرسله.

وقد أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- أنَّ ذلك واقعٌ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم:٤٨]. ونحن نؤمنُ بأنَّ أرضنا هذه ستُبدَّلُ غيرَ الأرضِ، وكذلك السماواتُ ستبدَّلُ غير السمواتِ، ولكننا لا ندري كيف تبدَّل، وقد جاء في

الحديثُ الصحيح الذي يرويه سهلُ بن سعد قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عَفْراءَ، كَقُرْصَةِ نقيٍّ» قال سهل أو غيره: «ليسَ فيها مَعْلَمٌ لأحَدٍ» [البخاري: ٦٥٢١. ومسلم: ٢٧٩٠].

وعن عائشة رضي اللهُ عنها، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨] فأينَ يكونُ الناسُ يومئذٍ يا رسولَ الله؟ قال: «على الصراط» [مسلم: ٢٧٩١]، وقد روى ثوْبان أنَّ حبْراً من أحبارِ اليهودِ سألَ رسولَ الله ﷺ عدَّة أسئلة منها: «أينَ يكونُ الناسُ يوم تبدّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: هم في الظُّلْمَةِ دونَ الجِسْرِ» [مسلم: ٣١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ أي: برزوا من قبورِهم لله الواحدِ القهارِ، لا يخفى منهم شيءٌ.

٥- حال الكفار في يوم الدين:

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- لنا الحالَ التي يكونُ عليها الكفارُ في يوم الدين فقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥٠].

أي: في ذلك اليومِ الذي تبدَّلُ فيه الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ غير السمواتِ ترى المجرمينَ من الكفارِ والمشركينَ مقرَّنين في الأصفادِ، أي: في القيود والأغلال، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات:٢٢]. والأزواجُ: النظراءُ والأشباهُ، و﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أي: الثيابُ التي يلبسونها مغموسة بالقطران، والقطرانُ هو الذي تطلى به الإبلُ وهو شديدُ الاشتعالِ عندما تدبُّ فيه النار، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ أي: تغطِّي النارُ وجوههم، وتحرقها.

وقد أعلمنا ربَّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- أنَّ كلَّ نفسٍ تجزى يومَ القيامةِ بما كسبته من أعمالٍ في الحياة الدنيا، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشر ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ [إبراهيم:٥١]، وسرعةُ الله تعالى في محاسبة خَلْقِهِ أنَّه يتمُّ في وقتٍ قصيرٍ، لأنه يحاسبهم في وقتٍ واحدٍ، فاللهُ قادرٌ على كلِّ شيءٍ، ولا يعجزُه شيءٌ.

٧- **هذا بلاغٌ للناس:**

قال ربُّ العزةِ في الآيةِ الأخيرةِ من هذه السورةِ المباركةِ ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢ ﴾ [إبراهيم:٥٢]، والمرادُ بقوله: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أي: هذا القرآنُ الذي حَوَتْهُ هذه السورةُ الكريمةُ بلاغٌ للناس، أي: يُبَلِّغهم اللهُ الحقَّ الذي أنزله إلى رسوله ﷺ ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ أي: ليخوَّفوا به عذابَ الله وانتقامَهُ في يومِ الدين، ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وليعلم الناسُ جميعاً أنَّ المعبودَ الذي يستحقُّ العبادةَ هو اللهُ تبارك وتعالى، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢ ﴾ وليتذكر أصحابُ العقولِ الراجحةِ ما يجب عليهم لله تبارك وتعالى، فيعطوه حقَّه وحده لا شريك له.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- اللهُ -تبارك وتعالى- عالمٌ بما يرتكبه الظالمون، وليس غافلاً عنهم وعن أعمالهم، ولكنه يؤخرهم ليومِ القيامةِ.

٢- في يومِ القيامةِ يطلب الكفارُ الرجوعَ إلى الدنيا ليسلموا ويتَّبِعوا الرسلَ، فلا تجاب دعوتهم.

٣- يُبَكِّتُ اللهُ يومَ القيامةِ الكفارَ، ويذكِّرهم بأقوالهم التي كانوا يكفرون فيها بالبعثِ والنشورِ.

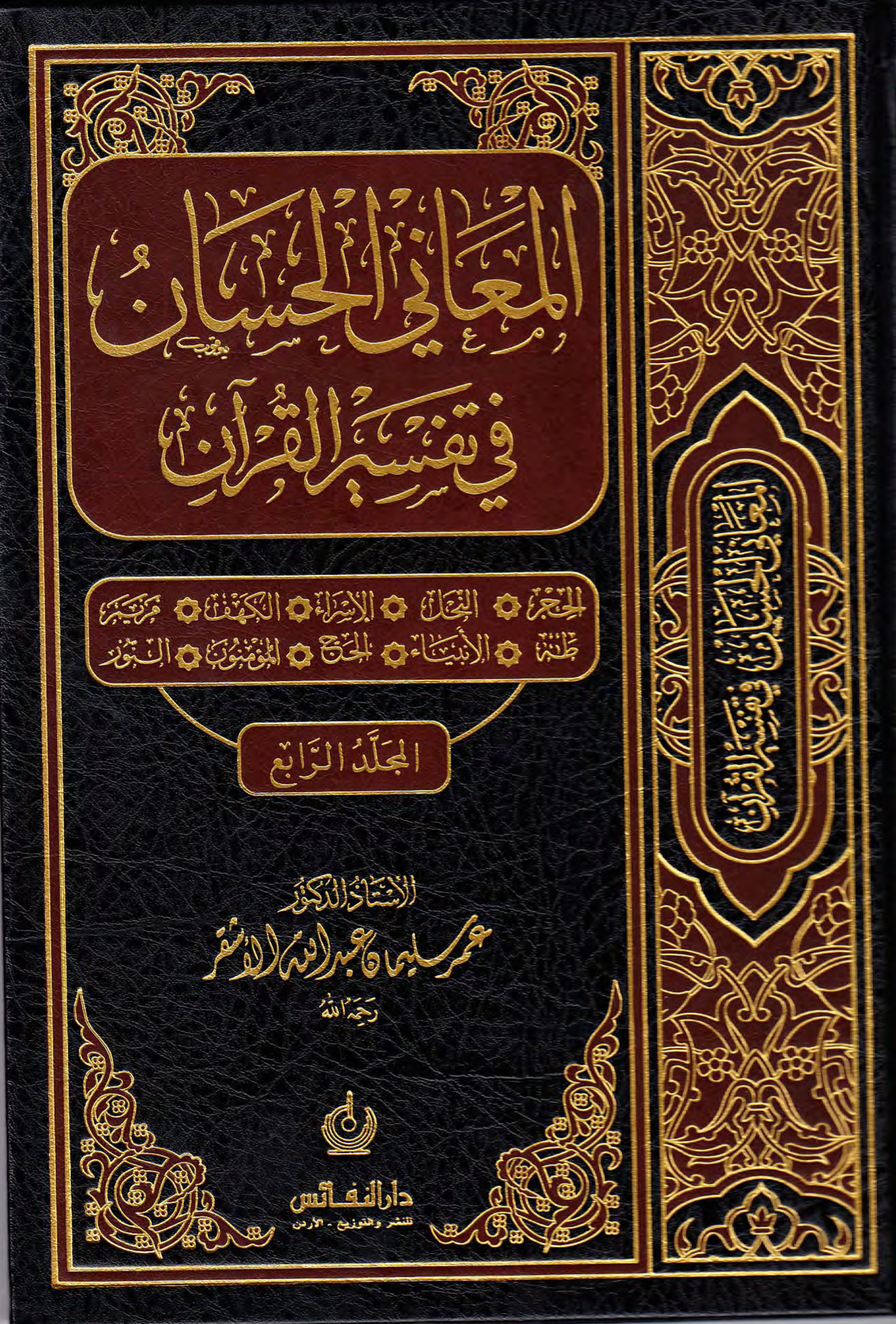
٤- تُبَدَّلُ في يومِ القيامةِ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ غيرَ السماواتِ، ويبرزُ الناسُ في ذلك اليومِ لله الواحدِ القهار.

٥- بيَّنَ اللهُ تعالى لنا حالَ الكفارِ يومَ الدين، ففي ذلك اليوم يقيدون في الأغلالِ، ويلبسون الملابسَ المغموسة بالقطرانِ، وتغشى وجوهَهُمُ النارُ.

٦- يجزي اللهُ تعالى يومَ القيامةِ كل نفسٍ بما كسبته إنْ خيراً فخير، وإن شرّاً فشرٌّ، واللهُ سريعُ الحسابِ.

٧- هذه السورةُ الكريمةُ فيها بلاغٌ للحقِّ الذي أنزله على رسولِهِ ﷺ، وفيها تخويفٌ للناس مما هم مقبلون عليه، وفيها إيجاب الله على خلقِهِ أن يعلموا أنَّ اللهَ تعالى هو المعبودُ الواحدُ الذي يستحقُّ العبادةَ، وفيها ذكرى لأولي الألباب.

فهرس


المعاني الحسان
في تفسير القرآن
الحجر ✿ النحل ✿ الإسراء ✿ الكهف ✿ مريم
طه ✿ الأنبياء ✿ الحج ✿ المؤمنون ✿ النور
المجلد الرابع
الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله
دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن


المعاني الحسان
في تفسير القرآن
٤

جنـــة السـنـــة

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٣/٦/١٨٦٣

٢٢٢,٣
الأشقر، عمر سليمان
المعاني الحسان في تفسير القرآن/ عمر سليمان الأشقر.-عمان- دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
( ) ص.
ر.إ.:١٨٦٣/٦/ ٢٠١٢
الواصفات: / تفسير القرآن// سور القرآن// القرآن الكريم/



دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن
هاتف: 5693940 6 00962
فاكس: 5693941 6 00962
Email: alnafaes@hotmail.com
www.al-nafaes.com





ISBN ردمك
9 789957 801496

المعاني الحسان في تفسير القرآن

الحجر ۞ النحل ۞ الإسراء ۞ الكهف ۞ مريم
طه ۞ الأنبياء ۞ الحج ۞ المؤمنون ۞ النور

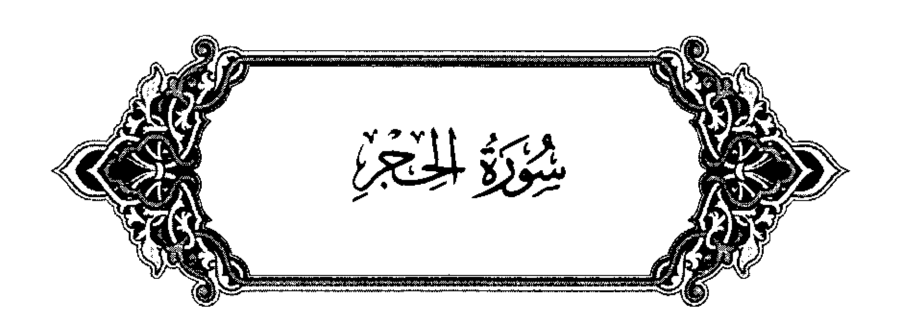
المجلد الرابع

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله



دار النفائس
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

سورة الحجر مكيةٌ، ونظيرتُها في المدني الأخير والمكي مريم والواقعة، وفي المدني الأول والشامي الواقعة فقط، ولا نظير لها في الكوفي والبصري، وكلمها ستمائةٍ وأربعة وخمسون كلمة، وحروفها ألفان وسبعمائة وأحدٌ وسبعون حرفاً، وهي تسعة وتسعون آية وليس فيها اختلاف [البيان في عد آي القرآن للداني، ص٧٣].

النص القرآني الأول من سورة الحجر
شدَّةُ كفرِ المشركينَ وعظم عنادهم في باطلهم

أولاً: تقديم

نزلت هذه السورةُ في مرحلةٍ متأخِّرةٍ من الفترةِ المكية، ونزلت تواكبُ الصراعَ بين الدعوةِ الإسلاميةِ الناشئةِ وبين أعدائِها مِنْ أهلِ مكَّةَ، وبيَّنَتْ آياتُ النصِّ الأولِ أنَّ هؤلاءِ الكفارَ يوم القيامةِ على مسارِهم في الدنيا، ويودُّون في ذلك اليوم لو كانوا مسلمين، وأخبر اللهُ رسولَهُ ﷺ أنَّه حدَّد لكلِّ أمةٍ أجلاً لهلاكها، وهي لا تتقدَّمُ عن أجلها ولا تتأخر، وحكى هذا النصُّ مدى استهزاءِ الكفارِ بالرسول ﷺ ورميهم له بالجنونِ، وردَّ على طلبهم له بإنزال الملائكةِ ليشهدوا على صدقِهِ، وأخبر أن اللهَ لا ينزلُ الملائكة إلا إذا شاءَ إنزالَ العذابِ بهم، وواسى اللهُ رسولَهُ ﷺ بأنَّ الأممَ المكذِّبةَ مِنْ قبل استهزأت برُسُلِها، وبيَّنَ شدَّةَ عنادِ الكفارِ، حتى لو أنَّه لو فتح لهم باباً مِنَ السماءِ، فعرجوا فيه، لما صَدَّقوا، ولظنُّوا أن أبصارهم عميت، أو أنَّ عقولهم ضعفت.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١-١٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ثناءُ اللهِ تعالى على كتابِهِ العظيمِ القرآن:

افتتح اللهُ -تبارك وتعالى- هذه السورةَ بالحروف المقطَّعَةِ ﴿الٓرۚ﴾ وقد سبق بيان المراد بهذه الحروف، وأنها حروفٌ عربيَّةٌ، ومنها ومن أمثالها تكوَّنَتْ كلماتُ القرآنِ الكريمِ، الذي

أعجز البشرَ أن يأْتوا بمثلِ سورةٍ منه، وهذه السورةُ هي السورةُ السادسةُ التي تفتتح بـ ﴿الٓر﴾ على التوالي.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ اسمُ إشارةٍ موضوعٌ للبعيد، استعمله القرآنُ للدلالةِ على رفعةِ كتابِ الله وعلوِّه، فكأنَّه قال: تلك آياتُ الكتابِ الرفيعةُ العاليةُ المقام، والمرادُ بـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر:١] القرآنُ، فالقرآنُ يسمَّى الكتابَ، لأنَّه يكتب، ويسمَّى القرآنَ، لأنَّه يُقْرَأ، وقوله: ﴿مُّبِينٍ ۝١﴾ لأنَّه بَيِّنُ الأحكامِ والشرائعِ والعقائدِ والأخلاقِ.

٢- تمني الكفار يوم القيامة لو كانوا مسلمين:

أخبرنا رَبُّنا تبارك وتعالى أنَّ الكفارَ يتمنوا يومَ القيامةِ لو كانوا مسلمين، ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر:٢] وهذا يقعُ يومَ القيامة، كما دلَّ عليه الحديثُ الذي رواه أبو موسى أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيامةِ، واجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ في النَّارِ، ومَعَهُمْ مَنْ شاءَ اللهُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ، قالَ الكفارُ لهم: أَلَسْتُمْ مسْلمِينَ؟ قالوا: بَلَى، قالوا: فَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِسْلامُكُم، وَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنا في النَّارِ؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فَيَغْضَب اللهُ لَهم بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، فيَأْمُرُ بكلِّ مَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ في النارِ، فَيُخْرَجُونَ مِنْها فحِينَئِذٍ ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية» [قال محقق تفسير الواحدي: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٤٠٥) بنحوه، والطبري في تفسيره (١٤/ ٢) بنحوه، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٤٢) بنحوه، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «البعث»، ص٩١، وصححه الألباني في تحقيقه لكتاب «السنة» لابن أبي عاصم].

٣- تهديد الله -تعالى- للمشركين:

قال اللهُ -تبارك وتعالى- لرسولِهِ ﷺ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر:٣] وهذا تهديدٌ للكفارِ، والمعنى: اتْرُكْهُمْ على ما هم عليه مِنَ الاشتغالِ بالأكلِ ونحوه مِنْ متاعِ الدنيا ومِنْ إلهاءِ الأملِ لهم عن اتباعِكِ، فسوفَ يعلمون عاقبةَ أمرهم وسوءَ صنيعِهِمْ.

٤- كلُّ قريةٍ أهْلَكها اللهُ تعالى، فقد جعل لهلاكها كتاباً معلوماً:

أعلمنا رَبُّنا -عَزَّ وجَلَّ- أنَّه ما أهلكَ مِنْ قَرْيَةٍ إلا جَعَلَ لهلاكِها أجَلاً معلوماً، ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ [الحجر:٤] والكتابُ: الأجلُ، والمعلومُ: غيرُ المجهولِ ولا المنسيِّ، فلا يتصورُ التخلفُ عنه بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، وقوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا

وَمَا يَسْتَـْخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الحجر:٥] أي: لا تسبقُ أُمَّةٌ أجَلَها المضروبَ لَها، المكتوبَ في اللوحِ المحفوظِ، ﴿وَمَا يَسْتَـْخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: وما يتأخَّرُون عنه ويكونُ الإهلاكُ عندما يحلُّ الأجلُ.

٥- رمي الكفار للرسول ﷺ بالجنون:

أخبرنا ربُّنا -عَزَّ وجَلَّ- أنَ كفارَ قريشٍ استهزؤُوا بالرسولِ ﷺ ورموه بالجنونِ ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الحجر:٦-٧]. أي: قال كفارُ مَكَّةَ مخاطبين رسولَ الله ﷺ ومتهكمين به حيث أثبتوا له إنزالَ الذكرِ عليه، مع إنكارِهم لذلك أشدَّ الإنكارِ، ونفيهم له أبلغ النفيِ، وقالوا له: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ أي: إنَّك بسبب هذه الدعوى التي تدعيها مِنْ كونك رسولاً لربِّ العالمين، فإنَّه لا يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة -في زعمهم- إلا مجنونٌ، وقولهم هذا لرسولهم كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٧] وطلبُ كفارِ قريشٍ مِنْ الرسولِ ﷺ أنْ يَأْتِيَهم بالملائكةِ ليشهدوا عندهم على صدقِهِ ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر:٧].

وقد ردَّ اللهُ -تبارك وتعالى- عليهم قائلاً: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجر:٨] أي: ما ننزل الملائكةَ إلا بالعذابِ، وعند ذلك لن يناظروا، ولن يمهلوا، ولذا فإنَّهم عندما يطالبون بإنزالِ الملائكةِ يُطالِبُون بنزولِ العذابِ بهم مِنْ غير تأخير، ولا انتظار إذا لم يُؤْمنوا.

٦- اللهُ تعالى هو الذي أنزلَ القرآن وهو حافظ له:

أخبرنا رَبُّنا العليمُ الخبيرُ سبحانه أنَّه هو الذي نَزَّلَ القرآنَ الكريمَ، وأنَّه حافظٌ له مِنَ التغييرِ والتبديلِ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩] وهذا مما اختصَّ اللهُ به القرآنَ مِنْ بينِ الكتب السماوية، فقد عَهِدَ اللهُ بحفظِ التوراةِ إلى رَبَّانييهم وأحبارِهِمْ، فضيَّعُوها، وحُرِّفَتْ وبُدِّلَتْ ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة:٤٤].

وها هو القرآنُ لم يَطْرَأْ عليه تغييرٌ ولا تبديلٌ منذ نزوله وإلى اليومِ، فهو محفوظٌ بحفظِ الله تعالى، وهذا مِنْ نعمِ الله الكبرى على هذه الأمَّة.

٧- استهزاءُ الأمم السابقة برسلها:

وَاسَى ربُّ العزَّة عبدَه ورسولَهُ محمداً ﷺ في استهزاءِ الكُفَّارِ به وأعلمه أنَّ مثلَ هذا الاستهزاءِ وقع مِنَ الأممِ السابقةِ لرسلِها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر:١٠-١١] أي: أرْسلنا مِنْ قبلك رسلاً في شِيَعِ الأولين، وشِيَعُ الأولين أُمَمُهُمْ وأتباعهم، قال الفراءُ: الشيعُ: الأُمَّةُ التابعةُ بعضهُم بعضاً فيما يجتمعون عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر:١١] أي: ما يأتي رسول شيعته وقومَه إلا كانوا به يستهزئون، كما يفعله الكفار برسولنا محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الحجر:١٢-١٣]، وقوله: ﴿نَسْلُكُهُ﴾ السلك: إدخالُ الشيءِ في الشيءِ، كإدخالِ الخيطِ في المخيطِ، والرمح في المطعونِ، ومعنى الآية كما أدخلنا الكفرَ والتكذيبَ والاستهزاء في قلوب فرق الأولين السابقين، كذلك نَسْلُكُه في قلوبِ المجرمين من أهل مكَّةَ، وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ﴾ أي: لا يؤمنون بالقرآنِ، ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ وقد مضت سنَّةُ الله في الأمم السابقةِ المكذِّبةِ لرسلها، فقد كفروا وكذَّبوا وأخذهم اللهُ بكفرهم وتكذيبهم، فأهْلكهم ودمَّرهم.

٨- شدة كفر المشركين وعِظَم عنادهم:

بَيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- لنا شدَّة كُفْرِ المشركين وعِظَم عنادِهِمْ، فقال: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر:١٤-١٥]. أي: لو فَتَحَ اللهُ -تبارك وتعالى- على هؤلاءِ الكفارِ المستهزئين المعاندين باباً مِنْ أبوابِ السماءِ ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: ظَلُّوا في ذلكَ البابِ يَصْعَدُونَ ليشاهدوا ما في السماءِ مِنْ عجائبِ الملكوتِ، ﴿لَقَالُوا﴾ أي: لقالَ هؤلاءِ الكفارُ المستهزئون المعاندون: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾ سُدَّتْ، أو عميت، ثم أضربوا عَنْ قولهم الأوَّلِ، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: سَحَرَنا محمدٌ، وفي هذا دليلٌ على شدَّةِ كفرِهِمْ وعنادِهم، فإنَّهم إذا رَأَوْا آيةً حقيقيةً توجبُ إيمانهم، نَسَبوا إلى أبصارهم أنَّها لا ترى على الحقيقةِ، أو أنَّ عقولَهُمْ قد سُحِرتْ، فضعفتْ عن إدراكِ الحقيقةِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل:

إذا تَدَبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتِي مِنْ علمٍ وعمل:

١- عندما يَنْجُو المؤمنون مِنَ النَّار يومَ القيامةِ يتمنَّى الكفارُ لو كانوا مسلمينَ لينجو مِنَ النَّارِ.

٢- أمر اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يترك الكفارَ لاهين في دنياهم، فسيأتي يومٌ يحاسبهم ربُّهم على ما كان منهم.

٣- لكلِّ أُمَّةٍ أجَلٌ يقعُ فيه عذابُها، فإذا جاءَ الأجلُ وقعَ العذابُ مِنْ غيرِ تقديمٍ ولا تأخيرٍ.

٤- كان الكفارُ يستهزئون بالرسولِ ﷺ ، ويرمونه بالجنون، ويطلبونَ منه أنْ يأتيَ بالملائكةِ لتشهدَ على صدقِهِ، وقد بيَّن ربُّ العزَّة أنَّ الملائكة لا تتنزلُ إلاَّ عندما يريد إيقاعَ العقوبةِ بالكافرين.

٥- اللهُ -تبارك وتعالى- أنزل القرآنَ، وتكفَّلَ بحفظه، فلا يستطيعُ أحَدٌ تغييرَهُ، ولا تبديلَهُ.

٦- واسى اللهُ تبارك وتعالى رسولَه بأنَّ المرسلين مِنْ قبله استهزأتْ بهم أُمَمُهُمْ وكَذَّبَتْهم رسلُهُمْ، كما كَذَّب به قومُهُ.

٧- عِنادُ الكفارِ شديدٌ، فإنَّ اللهَ تعالى لو فتح باباً مِنَ السماءِ فعَرَجَ فيه الكفارُ ورأَوْا عجائِبَ السماءِ، لما آمنوا، ولزعموا أنَّ أبصارَهُمْ أُصيبتْ أو أن عقولَهُمْ سُحِرَتْ، ولذا فإنَّ الذي يرونه لا حقيقةَ لَهُ.

النص القرآني الثاني من سورة الحجر
تعريف الله عبادَه بنفسه

أولاً: تقديم

ساقَ اللهُ -تبارك وتعالى- آيات هذا النص مُعَرِّفاً عبادَه بنفسِهِ، فهو الذي خلق في السماءِ بروجاً وزينها للناظرين، وحفظَها مِنْ كلِّ شيطانٍ رجيم، وهو الذي مدَّ الأرضَ، وجَعَلَ فيها الجبالَ الرواسي كي تَقِرَّ، ولا تضطربَ بأهلها، وأنبتَ فيها النباتَ، وجعل لنا فيها المعايشَ، وما من شيء إلا عند الله خزائنُهُ.

وهو سبحانه أرسل الرياحَ لواقحَ، فكان مِنْ ثمارِ ذلك إنزالُ الماءِ مِنَ السماءِ، الذي يشربُ منه العبادُ والدوابُّ، واللهُ تعالى هو المحيي والمميت، وهو الذي يرثُ الدنيا بما فيها، وعلم الله -تعالى- محيطٌ بالأولين والآخرين، لا يخفى عليه منهم شيءٌ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحجر

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر:١٦-٢٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- جعلَ اللهُ -تعالى- في السماءِ بروجاً وزينها للناظرينَ:

أعلمنا ربُّنا -عَزَّ وجل- أَنَّهُ جعلَ في السماءِ بروجاً، وزينها للناظرين ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر:١٦]. وبروجُ السماءِ هي منازلُ الشمسِ والقمر، وهي اثنا عشر برجاً، كالحملِ، الثورِ، والجوزاءِ، أو هي الكواكبُ، سميتْ بروجاً لظهورها، وقوله: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: حَسَّنَ اللهُ تعالى بهذه الكواكبِ السماءَ، والناظرون: هم الذين ينظرون إلى السماءِ بأبصارهم فيعتبرون.

وأخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه حفظَ السماءَ بهذه الكواكبِ مِنَ استراقِ الشياطين لأخبارِ السماءِ، ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر:١٧-١٨]. أي: حفظ اللهُ تعالى السماءَ بالشهبِ التي يُضْرَبُ بها كلُّ شيطانٍ يحاول استراقَ أخبارَ السماءِ، والرجيم: الشيطانُ المرجومُ بالنجوم، والرَجْمُ: الرميُ بالحجارةِ، ثمَّ قيل للعن والطرد والإبعاد رَجْمٌ، وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ استثناءً متصل، معنى الآية أنَّ اللهَ تعالى حفظَ السماءَ مِنَ الشياطين أن تسمع شيئاً مِنَ الوحْيِ إلا مَنِ استرق السمعَ، فإنه يتبعه شهاب، فيقتله أو يُخَبّله.

وقد حدَّثنا رسولنا ﷺ عن استراقِ الشياطينِ السمعَ مِنَ السماءِ، وكيف ترمى بالشهبِ؟ ففي الحديث الذي يبلغُ به أبو هريرة النبيَّ ﷺ، قال: «إذا قَضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ، ضَرَبَتِ الملائكةُ بأجْنِحَتِها خُضْعاناً لقولِه، كالسِّلْسِلةِ على صَفْوانٍ -قال عليٌّ: وقال غيرُه: صَفْوانٍ يَنفُذُهم ذلكَ- فإذا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ، قالُوا: ماذا قال رَبُّكُم؟ قالوا للذي قَالَ: الحَقَّ، وهُو العَلِيُّ الكَبيرُ. فيَسمَعُها مُستَرِقُو السَّمْعِ، ومُستَرِقو السَّمْعِ هكذا واحدٌ فوقَ آخرَ - ووَصَفَ سفيانُ بيدِه، وفَرَّجَ بينَ أصابع يدِه اليُمنَى، نَصَبَها بعضَها فوقَ بعضٍ- فربَّما أدرَكَ الشِّهابُ المُستَمِعَ قبلَ أنْ يَرْمِيَ بها إلى صاحبِه، فيُحْرِقَه، وربَّما لم يُدْرِكْه حتَّى يَرْمِيَ بها إلى الذي يَلِيه، إلى الَّذي هو أسفَلُ منه، حتَّى يُلْقُوها إلى الأرض -وربما قال سفيانُ: حتَّى تَنتَهِيَ إلى الأرضِ- فتُلْقَى على فم السَّاحرِ، فيَكذِبُ معها مئةَ كَذْبَةٍ، فيَصْدُقُ، فيقولونَ: ألم يُخبِرْنا يومَ كَذا وكَذا يكونُ كَذا وكَذا فوَجَدْناه حَقّاً؟ للكَلِمةِ التي سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ».

حدَّثنا عليُّ بنُ عبدِ الله، حدَّثنا سفيانُ، حدَّثنا عَمرٌو، عن عِكْرِمةَ، عن أبي هُرَيرةَ «إذا قَضَى اللهُ الأمرَ» وزادَ: «والكاهنِ».

وحدَّثنا سفيانُ، فقال: قال عَمرٌو: سمعتُ عِكْرِمةَ، حدَّثنا أبو هُرَيرةَ، قال: «إذا قَضَى اللهُ الأمرَ». وقال: «على فمِ السَّاحرِ» قلتُ لسفيانَ: قال: سمعتُ عِكْرِمةَ، قال: سمعتُ أبا هُريرةَ؟ قال: نعم. [البخاري: ٤٧٠١].

٢- مَدُّ الله -تبارك وتعالى- الأرضَ وجعلَ فيها الجبالَ الرواسيَ:

أعلمنا رَبُّنا -عَزَّ وجَلَّ- عن مَدِّهِ الأرض وإلقاءِ الرواسي فيها ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحجر:١٩-٢٠]. ذَكَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّهُ خَلَقَ الأرض، ومدَّها ووسَّعها وبَسَطَها، وجعل فيها الجبالَ الرواسي، ليثبِّتَ الأرضَ حتى لا تتقلب بأهلها، وقولِه: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ

مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ ﴾ أي: أنبتنا في الأرضِ من كلِّ شيء مقدَّر معلوم، ﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: وجعلنا لكم فيها ما تعيشون به من مطاعم ومشارب، ومن لستم له برازقين، والذين لستم له برازقين: الذرية والعبيدُ والإماءُ والدوابُّ والأنعامُ، وليس رزقهم عليكم، فالرازقُ الحقيقيُّ لهؤلاءِ هو اللهُ تبارك وتعالى، وإن كان العبادُ هم سببُ الرِّزْقِ.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١] تدلُّ هذه الآية على أنَّ خزائنَ كلِّ شيء عند الله، والخزائنُ جمع خزانةٍ، وهي المكان الذي تُحْفَظُ فيه نفائسُ الأموالِ، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ ﴾ أي: ما ننزله من السماء إلى الأرض إلا بقدر معلوم، أي: ننزله بمقدار ما يحتاجُهُ العبادُ، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ ﴾ [الشورى:٢٧].

٣- إرسال الله تعالى الرياحَ لواقِحَ:

أعلمنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أنَّه أرسلَ الرياحَ لواقِحَ ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر:٢٢] أي: لواقِحَ للسحابِ والشَّجَرِ، وإذا لَقَحَت الرياحُ السحابَ أمطرت بإذن الله تعالى، ولذلك قال: ﴿فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ ﴾ وعندما ينزلُ الماءُ مِنَ السماءِ، فإنه يشربُ منه العبادُ والدوابُّ ويُسْقَى به النباتُ والشجرُ، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: ليستْ خزائِنُهُ عندكم، بل خزائِنُه عندنا، ونحن الخازنون له، وما أنتم بقادرين على حفظه وادّخاره، وقد جعل اللهُ -تعالى- خزائنَ هائلة في باطنِ الأرضِ، تحفظ الماءَ الهاطلَ مِنَ السماءِ، وكلما نزل الماءُ مِنَ السماءِ، سرى في الأرضِ، وأمدَّ تلك الخزائنَ بمزيد مِنَ الماء.

٤- اللهُ -تعالى- هو الذي يحيي ويميت:

اللهُ -تبارك وتعالى- هو الذي يحيي العبادَ ويميتُهُمْ، ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر:٢٣]. أي: نحن الذين نوجدُ الحياةَ في المخلوقاتِ، ثمَّ نميتها عندما نشاءُ ونريدُ، ومِنْ ذلك أنَّه يحيي العبادَ ويبعثهم يومَ القيامةِ، واللهُ -تعالى- هو الوارثُ للأرض وما عليها، لأنَّه سبحانه هو الباقي بعد فناءِ خلقِهِ، وهو الحيّ الذي لا يموتُ، الأوَّلُ الذي لا شيءَ قبلَهُ، والآخرُ الذي لا شيءَ بعدَه.

واللهُ -تبارك وتعالى- عالمٌ بالعبادِ كلِّهم، لا فرقَ في ذلك بين المتقدِّم منهم والمتأخِّر، ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحجر:٢٤] فالعبادُ أمورهم محفوظةٌ عند

ربِّهم لا يخفى عليه منهم شيء، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر:٢٥] أي: عالمٌ بأُمورِهِمْ، وسيحشرهم يومَ القيامة، إنه حكيم عليم سبحانه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النصِّ مِنْ علمٍ وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- جعل اللهُ -تبارك وتعالى- بروجاً في السماءِ، زيَّنَ بها السماءَ وحفظَها بها مِنَ الشياطين.

٢- مدَّ اللهُ -تعالى- الأرضَ، وثَبَّتَها بالجبالِ الرواسي، وأنبت فيها نباتَ كلِّ شيء بقدرٍ معلوم.

٣- جعل اللهُ تعالى في الأرضِ معايشَ العبادِ، ورِزْقُ العباد من عنده.

٤- اللهُ تعالى هو مالكُ خزائنِ كلِّ شيءٍ، وينزِّلُ لعباده مِنْ كلِّ شيءٍ بقدرٍ معلومٍ.

٥- أرسل اللهُ تعالى الرياحَ لواقح، تلقِّحُ السحابَ، فينزل المطرُ مِنَ السحابِ، فيشربُ منه العبادُ ودوابُّهم وزروعَهم وأشجارهم.

٦- اللهُ تعالى هو الذي يحيي العبادَ ويميتُهُمْ، وهو الوارثُ للأرضِ وما عليها.

٧- اللهُ تعالى عالمٌ بالبشر جميعاً المتقدمِ منهم والمتأخِّرِ، لا يخفى عليه منهم شيءٌ، وسيجمعهم إليه يومَ القيامةِ، فيحاسبهم على ما عملوه.

النص القرآني الثالث من سورة الحجر

تكريم الله -تعالى- لآدمَ وسبب العداءِ بين آدمَ وبنيهِ وبيْنَ إبليس

أولاً: تقديم

بَيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ الأصلَ الذي خُلِقَ منه الإنسانُ والأصلَ الذي خُلِقَ مِنْهُ الجانُّ، وحدَّثنا ربُّ العزةِ سبحانه كيف أمَرَ الملائكة ومعهم إبليسَ بالسجودِ لآدمَ عند تمام خَلقه تكريماً له، وكيفَ سجدَ الملائكةُ جميعاً، ورفضَ إبليسُ السجودَ عناداً وحسداً لآدمَ، فطردَهُ اللهُ مِنْ جَنَّتِهِ ورحمتِهِ، ولعنَهُ، وقد أجابَ اللهُ تعالى طلبَ إبليسَ بإبقائِه حيًّا إلى يوم الدينِ، فأخذَ إبليسُ على نفسِهِ عهداً بَيْنَ يديْ ربِّ العزَّةِ أن يُضِلَّ بني آدم إلاَّ مَنْ أخْلَصَ دينَهُ منهم.

وقَضَى ربُّ العزَّةِ أن لا يجعل للشيطانِ سبيلاً على المخلصين دينَهُمْ لربِّهم، وأن يجعل النارَ مصيرَ الشيطانِ وأتباعِه مِنَ الغاوين، وجعل الجنَّةَ مصيرَ الأتقياءِ الصالحين، يدخلهم إيَّاها بسلامٍ آمنين، بعد أنْ يزيل ما في قلوب بعضهم على بعض مِنْ شحناءَ وبغضاءَ، فيصبحون فيها إخواناً على سررٍ متقابلين.

ثالثاً: آيات هذا النص من سورة الحجر

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٢٦-٤٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأصلُ الذي خُلِقَ منه الإنسانُ وأصلُ الجان:

بَيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- الأصلَ الذي خُلِقَ منه الإنسانُ، والأصلَ الذي خلق منه الجانُّ، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [حجر:٢٦-٢٧]. خلق اللهُ تعالى آدمَ عليه السلام مِنْ ترابٍ، ثم أَصْبَحَ الترابُ طيناً لازباً، ثم صار صَلْصالاً كالفخارِ، وقال هنا: إنَّهُ خلقَهُ مِنْ صلصالٍ مِنْ حمأ مسنون، والصلصالُ الترابُ اليابسُ الذي كالفخارِ، والحمأ هو الطينُ المُنْتِنُ، والمسنون: الأملسُ أو المصور، وخَلَقَ اللهُ -تعالى- الجانَّ مِنْ نار السَّموم، أي: مِنْ طرفِ اللَّهبِ الحارِّ، وقد سبق ذكرُ الحديثِ الذي رواهُ مُسلم، وفيه «خُلِقَتِ الملائكةُ مِنْ نُورٍ، وخُلِقَتِ الجَانُّ مِنْ مارجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» [مسلم: ٢٩٩٦].

٢- أعلَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- الملائكةَ أنَّه خالق بشراً من ترابٍ، وأمرهم بالسجودِ لَهُ عند خَلْقِهِ:

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- الملائكةَ بأنَّه يريدُ أنْ يخلق بشراً مِنْ حمأ مسنونٍ، وأمرهم بالسجودِ له عندما يتم خلقه، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر:٢٨-٢٩]. أَخْبرَ اللهُ -تعالى- الملائكةَ بأنه يريدُ أن يَخْلَقَ بشراً مصنوعاً مِنْ صلصالٍ مِنْ حمأ مسنونٍ، وأمرهم جميعاً أن يسجدوا له عندما يكتملُ خلقُهُ، وينفخُ فيه مِنْ روحِهِ، فلما تمَّ خلقُهُ، سجد له الملائكةُ، إلا إبليسَ أبى أن يسجد لَهُ، قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر:٣٠-٣١]. أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه عندما اكتمل خَلْقُ آدمَ عليه السلام، ونُفِخَ فيه مِنْ رُوحِ الله سَجَدَ له جميعُ الملائكةِ، إلا إبليسَ رفضَ أن يكون مع الساجدين، وإبليسُ ليس مِنَ الملائكة ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠]. وكان يعبدُ الله مع الملائكةِ، وقد شمله أمْرُ الله بالسجودِ لآدمَ، ولكنه أَبى واستكبرَ.

٣- السببُ الذي دعا إبليسَ إلى عدمِ السجودِ لآدمَ:

لما رفضَ إبليسُ السجودَ لآدمَ عليه السلام سأَلَهُ ربّه عن السببِ في عدمِ طاعته لأمرِ ربِّه في السجودِ لآدمَ ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر:٣٢-٣٣].

بَيَّن إبليسُ اللعينُ أنَّه رفضَ السجودَ لآدمَ لأنَّه خَلقَهُ مِنْ صلصالٍ مِنْ حمأٍ مسنون، وفي موضع آخر قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف:١٢]، وحقيقةُ الأمرِ أنَّ الشيطانَ رفضَ السجودَ لآدمَ عناداً وحَسَداً، وليس بصوابٍ أنَّ النار خيرٌ مِنَ الطين.

٤- ما الذي فعلَهُ اللهُ بإبليسَ بعد رَفْضِهِ السجودَ لآدمَ:

بعد أن رفضَ إبليسُ طاعةَ ربِّه، وأبى السجودَ لآدمَ طرده الله مِنْ جنتِهِ ورحمتِهِ، فليس لمخلوقٍ أنْ يرفضَ طاعةَ الله -عزَّ وجلَّ- ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾ [الحجر:٣٤-٣٥]. أمَرَهُ ربُّ العزَّةِ بالخروجِ مِنْ جنتِهِ، فإنَّه رَجيمٌ، أي: مَرْجُومٌ، وإنَّ لعنَةَ الله تعالى ستلاحقُهُ إلى يومِ القيامةِ.

وقد طلبَ إبليسُ مِنْ ربِّ العزَّةِ أن يبقيَهُ حيًّا إلى يومِ الدينِ، فاستجابَ اللهُ طلبَهُ، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾ [الحجر:٣٦-٣٨].

٥- هدفُ الشيطان مِنْ وراءِ إبقائِه حيّاً إلى يومِ الدين:

عندما أجابَ اللهُ -تبارك وتعالى- طلبَ الشيطانَ بإبقائِه حيًّا إلى يوم الدِّينِ كشفَ الشيطانُ عن هدفِهِ مِنْ وراء طلبِهِ، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر:٣٩-٤٠]. طلبَ إبليسُ البقاءَ حيّاً لا ليتوبَ، ويعملَ الصالحاتِ، ويكثرَ مِنَ الخيراتِ، بل ليغويَ عبادَ الله، ويزيِّنَ لبني آدمَ الشركَ والمعاصي والذنوبَ، ويغويَهُمْ، ويضلَّهم، وقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ أي: فإنَّ المخلصين مِنْ عبادِكَ ليس لي سلطانٌ عليهم، والمخلصون الذين أخلصوا دينَهُمْ لله الواحدِ الأحدِ بعبادتهِ وَحْدَهُ لا شريكَ له.

قال اللهُ -تبارك وتعالى- له: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾ [الحجر:٤١-٤٤]. قال له ربُّ العزة تبارك وتعالى: إنَّ الذي سأبينه هو الحكم الصحيح الذي لا خللَ فيه ولا اعوجاج له، إنَّ عبادي الذين أخْلَصوا دينَهم لي ليس لك عليهم سلطانٌ لتجبرهم على الكفر والشركِ، ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ استثناءٌ منقطع، فالغاوون الضالون هم أتباعُه، وهؤلاءِ يتبعونه بمجردِ دعوته لهم، من غير حُجَّةٍ ولا برهانٍ، وأخبره أنَّ مصيرَهُ ومصيرَ أتباعه النَّارُ، والنارُ لها سبعةُ أبوابٍ، يدخلُ منها أتباعُ

الشيطان، لكلِّ بابٍ جزءٌ مقسومٌ، قال ابنُ جريجٍ سبعةُ أبوابٍ: أوَّلُها جهنَّمُ، ثم لظي، ثم الحُطَمةُ، ثم سعيرُ، ثم سَقَرُ، ثم الجحيمُ، ثم الهاويةُ [ابن كثير: ٢/ ١٥] وليس هناك دليلٌ يدلُّ على أنَّ هذه الأسماءَ لهذه الأبواب، وليس من دليل يدلُّ على صحة هذا الترتيب.

٦- مصير المؤمنين يومَ الدين:

بعد أنَّ حدَّثنا عن مصيرِ إبليسَ وأتباعه حَدَّثنا عن مصيرِ المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله ربِّ العالمين ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر:٤٥-٤٨].

فالمتقون في جناتٍ وعيونٍ، والجناتُ البساتينُ، والعيونُ الينابيعُ، يقالُ لهم يوم القيامة بعد أنْ يحاسبوا: ادخلوها بسلامٍ آمنين، أي: سالمين مِنَ الآفاتِ، وآمنين مِنَ الفزعِ والخوفِ، وقبل دخولِهِمْ الجنَّةَ ينزعُ اللهُ ما في صدورِ بعضِهِمْ على بعضٍ مِنْ غِلٍّ، والغلُّ الشَّحْناءُ والتباغضُ والضغائنُ، ويجلسون في جناتِ النعيم إخواناً على سُرُرٍ متقابلين، وفي الحديث الذي يرويه أبو سعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ، عن رسولِ الله ﷺ قال: «إذا خَلَصَ المؤمنونَ مِنَ النّار حُبِسُوا بقَنطَرةٍ بينَ الجنَّةِ والنّارِ، فيَتَقاصُّونَ مَظالِمَ كانت بينَهم في الدُّنْيا، حتَّى إذا نُقُّوا وهُذِّبُوا أُذِنَ لهم بدُخُولِ الجنَّةِ، فوالذي نَفْسُ محمَّدٍ بيدِه لأحدُهم بمَسْكَنِه في الجنَّةِ أدَلُّ بمَنزِلِه كانَ في الدُّنْيا» [البخاري: ٢٤٤٠].

وقولهُ تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر:٤٨] أي: لا يمسُّهم في الجنَّةِ تعبٌ ولا إعياءٌ لعدم وجودِ ما يسببها في جناتِ النعيم، فالجنَّةُ نعيمٌ خالصٌ، ولذةٌ محضةٌ تحصلُ لهم بسهولةٍ، وتوافيهم مطالبهم فيها بلا كَسْبٍ، ولا جهدٍ، ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ لأنَّ الجنَّةَ دارَ الخلدَ، فلا يخرجون منها، ولا يتحولون عنها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعملٍ:

١- أصلُ الإنسان الذي خُلِقَ منه أبو البشر آدمُ ﷺ الصَّلْصَالُ المأخوذُ مِنْ طينٍ لازبٍ أملَسَ، والجانُّ مخلوق مِنْ نارِ السمومِ.

٢- أمَرَ اللهُ -تعالى- الملائكةَ وفيهم إبليسُ أن يسجدوا لآدمَ عندما يكتملُ خلقُهُ ويَنْفُخُ فيه مِنْ روحه، فسجدَ الملائكةُ كلُّهم جميعاً إلا إبليسَ أبى أنْ يكون مع الساجدين.

٣- رفضَ إبليسُ السجودَ لآدمَ عناداً وحسداً، فقد ظَنَّ في نفسِهِ أنَّه خيرٌ من آدمَ، لأنَّه مخلوقٌ مِنْ نارٍ، وآدمَ مخلوقٌ مِنْ طين.

٤- أخرجَ اللهُ -تعالى- إبليسَ مِنْ جنَّةِ الخلدِ، وأهبطَهُ إلى الأرضِ، ولعنه لعنةً تلاحقه وتَلْبَسُه إلى يومِ الدين.

٥- طلبَ إبليسُ مِنْ ربِّ العزَّة أن يبقيه حيًّا إلى يومِ الدين، فأجاب اللهُ طَلَبَهُ.

٦- أَخَذَ الشيطانُ على نفسِه بين يديْ ربِّ العزَّةِ أن يغويَ بني آدم ويضلَّهُمْ، ولا ينجو منه أحدٌ إلا المخلصون دينهم لربِّهم.

٧- قَضَى ربُّ العبادِ أن لا يجعلَ لإبليسَ سلطاناً على المخلصين، وجعلَ النار موعداً لإبليسَ وأتباعِهِ مِنَ الغاوين.

٨- النَّارُ لها سبعةُ أبوابٍ، كل باب يدخله جزءٌ معلومٌ مِنَ الغاوين.

٩- مصيرُ المؤمنين جناتُ النعيمِ، يدخلهم اللهُ تعالى إيَّاها في يومِ الدين.

١٠- قبل أنْ يُدْخِلَ اللهُ تعالى المؤمنين الجنَّة ينزعُ ما في صدورِ بعضِهِم على بعضٍ مِنْ تباغضَ وشحناءَ، فيدخلونها إخواناً، ويكونون أحبَّة فيها، يجلسون على سُرُرٍ متقابلين.

النص القرآني الرابع من سورة الحجر
طرف من أخبار الأنبياء: إبراهيم ولوط وشعيب

أولاً: تقديم

حدَّثنا اللهُ تعالى في آيات هذا النص عن طرف مِنْ أخبارِ أنبيائه إبراهيمَ ولوطٍ وشعيبٍ، فإبراهيمُ مَرَّ به ملائكةُ الرحمن الذين جاؤوا لتدمير قوم لوطٍ، وبشروه بابنه إسحاق، ثم انطلقوا إلى لوطٍ، فنجَّوْهُ وأهلَهُ المؤمنين، ودمَّروا قومَه وأهلكوهم، وأخبرنا رَبُّنا في هذه الآياتِ عن إهلاكِهِ أصحابَ الأيكةِ، وهم قومُ شعيبٍ، وإهلاكِهِ أصحابَ الحجرِ، وهم قومُ صالح، فقد أخَذَهُم بالصيحةِ مصبحينَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحجر

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: ٤٩-٨٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الله هو الغفور الرحيم وعذابُهُ هو العذابُ الأليم:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبدَه ورسولَهُ محمداً ﷺ أن ينبِّئ عباده أنَّه هو الغفور الرحيم، وأنَّ عذابَهُ هو العذابُ الأليمُ ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ

﴿ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، أي: أخبرهم يا محمد أني ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ أي: كثير الغفران ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: كثير الرحمة، والغفور والرحيم اسمان من أسماء الله تعالى الحسنى مبنيان على صيغة المبالغة.

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ أي: نبئهم أنَّ عذابي عذاب مؤلم وموجع، وقد جمع اللهُ فيما أمر به بين التبشير برحمته، والتخويف من عذابه، وبذلك يصبح المرء في حالة بين الرجاء واليأس، وخير الأمور الوسط.

٢- طرف من خبر نبيِّ الله وخليلِه إبراهيمَ ؈ :

ما قَصَّهُ اللهُ -تعالى- علينا مِنْ خبر نبيِّهِ إبراهيمَ ؈ قَصَّه علينا في سورةِ هودٍ مِنَ الآيةِ التاسعةِ والستينَ إلى الآيةِ الثالثةِ والسبعينَ، وقد أَمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يخبرنا هنا عن ضيفِ إبراهيمَ، وهمُ الملائكةُ الذين حَلُّوا عليه في طريقهم لإهلاكِ قومِ لوطٍ ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ [الحجر:٥١]، والضيفُ يطلقُ على الواحدِ والجمعِ، وقوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الحجر:٥٢] أي: اذكر دخولَ ضيفِ إبراهيمَ عليه، فقالوا له: سلاماً، ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: خائفونَ، وقد بيَّن لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في سورة هود أنَّ قولَ إبراهيمَ هذا إنَّما قاله لزورِهِ بعد أنْ قدَّم لهم العجلَ الحنيذَ، فلم تمتدَّ أيْديهمْ لتتناول منه ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود:٧٠].

وقد طلبتْ الملائكةُ منه أنْ لا يخافَ منهم، إنَّهم ملائكةٌ لا يأكلون، وبشروه بغلامٍ عليم، ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحجر:٥٣]. وقد ذكر في سورةِ هودٍ أنَّهم بشَّروه بإسحاقَ، ومِنْ وراء إسحاقَ يعقوبَ، وذكر هناك أنَّ زوجته عجبتْ كيفَ سترزقُ الولدَ وهي عجوزٌ وزوجها شيخٌ كبيرٌ، ولم يذكرْ في ذلك الموضع ما قاله إبراهيمُ هنا، ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الحجر:٥٤]. وفي جواب إبراهيم هذا ما يدلُّ على شدة تعجبه من تبشيره بالولد مع حالةِ الكبرِ والهرمِ التي بلغها، وقوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ استفهام تعجُّبٍ، تعجَّبَ من رزقه الولد مع كبره.

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الحجر:٥٥] أي: بَشَّرناك بالحقِّ الذي قضاه وقدَّره رب العالمين، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ، ونهوه أنْ يكونَ مِنَ الآيسين، ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥٦]، أجابهم أنه لا يقنط مِنْ رحمة ربِّه إلا

الضالون، أي: الذاهبون عن طريقِ الصوابِ، فكأنه قال: استبعدتُ الولدَ لكبرِ سنّي لا لقنوطي مِنْ رحمةِ ربِّي.

٣- إهلاكُ اللّه تعالى لقومِ لوطٍ:

سأل إبراهيمُ ﷺ ملائكةَ الرحمنِ الذين بَشَّرُوه بالولدِ عن الأمرِ الذي أرسلوا به، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحجر:٥٧] أي: ما الأمرُ الذي أُرسلتم بِهِ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحجر:٥٨-٦٠]. قالوا له: إنّهم أرسلوا إلى قومٍ مجرمين، وقد ذكرَ في مواضِعَ أُخرى شيئاً مِنْ إجرامهم، فمن ذلك شِرْكهم بالله رَبِّ العالمين، ومِنْ ذلك إتيانهم الذكرانَ مِنَ العالمين، وقد أخبروا إبراهيمَ ﷺ أنَّ قوم لوط لن يهلكوا مع الهالكين، بل سينجُّونهم أجمعين، إلا زوجة لوط فإنَّها ستكون مع الهالكينَ، لأنَّها كانت على دينِ قومها، وكانت مِنَ الكافرين.

فلما مضى ملائكةُ الرحمنِ مِنْ عندِ إبراهيمَ انطلقوا إلى نبيِّ الله لوطٍ ﷺ ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الحجر:٦١-٦٦].

أخْبَرَنا ربنا -عَزَّ وجلَّ- أنَّه لما جاء المرسلون مِنَ الملائكةِ الذين مَرُّوا بإبراهيم آلَ لوطٍ في صورةِ شبابٍ حسانِ الوجوهِ، قال لهم لوطُ: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي: أنا لا أعرفكم، بل أُنكركم، فبيَّنُوا له أنَّهم جاؤوه بما كان قومُهُ يمترونَ فيه، أي: بما كانوا يشكُّون في وقوعه، وهو عذابُهُمْ وهلاكُهُمْ ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي: أتيناك باليقينِ الذي لا مِريةَ فيه، وهو العذابُ النازلُ بهم لا محالةَ، وإنّا لصادقون فيما أخبرناك به. وأمَروه أنْ يسير بأهلِهِ بقطعٍ مِن الليلِ، أي: يسيرُ بأهله آخرَ الليلِ خارجاً مِنَ المدينةِ التي توشك أن تهلكَ وتدمَّرَ، وأمروه أن يتبع أدبارَهُمْ، أي: يمشي وراءَ أهله وقد كان هذا شرطاً في إنجائِهم، ولذلك فإنَّ امرأة لوطٍ هلكتْ عندما التفتت هلكتْ، وقوله: ﴿ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ أمرهم أن يسيروا إلى الوجهةِ التي حُدِّدتْ لهم، ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي: تقدَّمنا إلى لوطٍ وأخبرناه ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي: أنَّه سيهلكون ويُدَمَّرُونَ في وقتِ الصباحِ.

الضالون، أي: الذاهبون عن طريقِ الصوابِ، فكأنه قال: استبعدتُ الولدَ لكبرِ سنِّي لا لقنوطي مِنْ رحمةِ ربِّي.

٣- إهلاكُ اللهِ تعالى لقومِ لوطٍ:

سأل إبراهيمُ عليه السلام ملائكةَ الرحمنِ الذين بَشَّرُوه بالولدِ عن الأمرِ الذي أرسلوا به، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحجر:٥٧] أي: ما الأمرُ الذي أُرسلتم بِهِ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحجر:٥٨-٦٠]. قالوا له: إنَّهم أرسلوا إلى قومٍ مجرمين، وقد ذكرَ في مواضِعَ أُخرى شيئاً مِنْ إجرامهم، فمن ذلك شِرْكهم بالله رَبِّ العالمين، ومِنْ ذلك إتيانهم الذكرانَ مِنَ العالمين، وقد أخبروا إبراهيمَ عليه السلام أنَّ قوم لوط لن يهلكوا مع الهالكين، بل سينجُّونهم أجمعين، إلا زوجة لوط فإنَّها ستكون مع الهالكينَ، لأنَّها كانت على دينِ قومها، وكانت مِنَ الكافرين.

فلما مضى ملائكةُ الرحمنِ مِنْ عندِ إبراهيمَ انطلقوا إلى نبيِّ الله لوطٍ عليه السلام ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الحجر:٦١-٦٦].

أخْبَرَنا ربنا -عَزَّ وجلَّ- أنَّه لما جاء المرسلون مِنَ الملائكةِ الذين مَرُّوا بإبراهيم آلَ لوطٍ في صورةِ شبابٍ حسانِ الوجوهِ، قال لهم لوطُ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي: أنا لا أعرفكم، بل أُنكركم، فبيَّنُوا له أنَّهم جاؤوه بما كان قومُهُ يمترونَ فيه، أي: بما كانوا يشكُّون في وقوعه، وهو عذابُهُمْ وهلاكُهُمْ ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي: أتيناك باليقينِ الذي لا مِريةَ فيه، وهو العذابُ النازلُ بهم لا محالةَ، وإنَّا لصادقون فيما أخبرناك به. وأمَروه أنْ يسير بأهلِهِ بقطعٍ مِن الليلِ، أي: يسيرُ بأهله آخرَ الليلِ خارجاً مِنَ المدينةِ التي توشك أن تهلكَ وتدمَّرَ، وأمروه أن يتبع أدبارَهُمْ، أي: يمشي وراءَ أهله وقد كان هذا شرطاً في إنجائِهم، ولذلك فإنَّ امرأة لوطٍ عندما التفتت هلكتْ، وقوله: ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ أمرهم أن يسيروا إلى الوجهةِ التي حُدِّدتْ لهم، ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي: تقدَّمنا إلى لوطٍ وأخبرناه ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي: أنَّه سيهلكون ويُدَمَّرُونَ في وقتِ الصباحِ.

رفعَ جبريلُ بلادهم إلى عَنانِ السماءِ، ثم قلبها ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ أي: مِنْ طينٍ متحجِّر.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي: علاماتٍ للمتوسمين، وهم المتفكرون الناظرونَ في هذه الآيات، وأصْلُ التَّوَسُّمُ: التثبُّتُ والتفكرُ، وهذا يدلُّ على أنه يوجد علاماتٌ تدلُّ على وقوعِ العذابِ في ذلكَ المكانِ الذي وقع فيه، وأخبرنا ربُّنا أن قرى لوطٍ المعذبةِ ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ أي: على طريق الذاهب من المدينة إلى الشام، فقد جعل اللهُ - تعالى- في موضع تلك القرى بحيرةً منتنةً خبيثة، لا يَعيشُ فيها شيءٌ مِنَ الأحياءِ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحجر:٧٧] أي: إنَّ فيما حدَّثنا اللهُ به عما فعله بقومِ لوطٍ لآية للمؤمنين، يعتبرون بها إذا هم أحسنوا التفكر فيها.

٥- ظُلْمُ أصحابِ الأيكةِ أنْفُسَهُم وقومَهُم:

ثمَّ حَدَّثنا اللهُ تعالى عن أصحابِ الأيكةِ، فقال: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الحجر:٧٨-٧٩]، قال ابن كثير [٤/ ٢٠] مُعَرِّفاً بأصحابِ الأيكة: «أصحابُ الأيكةِ: هم قومُ شُعيبٍ، قال الضحَّاك، وقتادةُ، وغيرُهما: الأيكة الشجرُ الملتفُّ، وكان ظلمُهم بشِرْكِهم بالله وقَطعِهم الطريقَ، ونَقْصِهم المكيالَ والميزانَ، فانتقم الله منهم بالصَّيحةِ والرَّجفَةِ وعذابِ يومِ الظُّلَّةِ، وقد كانوا قريباً من قوم لوطٍ، بَعْدَهم في الزمان، ومُسامِتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ أي: طريق مبين. قال ابن عباس، ومجاهد، والضَّحاكُ: طريق ظاهر. ولهذا لما أنذر شُعيبٌ قومَه قال في نِذارَته إيّاهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود:٨٩]».

٦- تكذيبُ أصحابِ الحجرِ المرسلينَ:

أخبرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- عن أصحاب الحِجْرِ، وما فعله بهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الحجر:٨٠-٨٤].

وقد قال ابن كثير [٤/ ٢١] في تعريف أصحاب الحجر: «أصحابُ الحِجْرِ هم: ثمودُ الذين كَذَّبوا صالحاً نَبِيَّهم، ومن كَذَّب برسولٍ فقد كَذَّبَ بجميعَ المُرسَلين، ولهذا أُطلِق عَليهم تكذيبُ المُرسَلين، وذكر تعالى أنه آتاهم من الآيات ما يدلُّهم على صدق ما جاءهم به صالحٌ،

كالناقةِ التي أخرجها الله لهم بدُعاءِ صالحٍ من صخرةٍ صَمَّاءَ، فكانت تسرَحُ في بلادهم، لها شِرْبٌ ولهم شِربُ يومٍ معلوم، فلما عَتَوا وعَقَرُوها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]. وذكر تعالى أنهم ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر:٨٢] أي: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبَطَراً وعَبَثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحِجْرِ الذي مرَّ به رسولُ الله ﷺ وهو ذاهب إلى تَبوكَ فَقَنَّعَ رأسَه، وأسرعَ دابَّته».

وقد قال الرسول ﷺ لأصحابه: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم» [البخاري: ٤٣٣. ومسلم: ٢٩٨٠].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- اللهُ تعالى يُرْجَى ويُخافُ، فهو الغفورُ الرحيمُ، وعذابُهُ العذابُ الأليم.

٢- بَشَّرت ملائكةُ الرحمنِ إبراهيمَ ﷺ بالولدِ، وقد كبر عمرُهُ وشاخَ وكانت زوجته عاقراً.

٣- أخبرتِ الملائكةُ إبراهيمَ بأنَّهم أُرسلوا إلى قومِ لوطٍ ليهلكوهم إلا لوطاً وأهله، واستثنى منهم زوجتَه فإنَّه مصيبها ما أصابهم.

٤- جاء الملائكةُ لوطاً، وأمروه أن يخرج مِنَ المدينة إلى المكانِ الذي حدَّده اللهُ لهم، وأعلموه بأنَّ اللهَ سيدمِّرُ تلكَ المدينةَ مع طلوعِ الشمسِ.

٥- وقبل أنْ يُعْلِمَ الملائكةُ لوطاً بأنفسهم جاءَه قومُه يريدون الفجورَ بضيفِهِ، فحاورهم، فلم يزدادوا إلا عُتُوّاً، فكشفَ الملائكةُ عن حقيقةِ أنفسهم.

٦- أنزل اللهُ تعالى العذابَ بقومِ لوطٍ مع شروقِ الشمس، فأخذتهم الصيحةُ الشديدةُ المهلكةُ، وقلبَ ديارَهم فجعلَ عاليها سافلها، وأمطرهم بحجارةٍ مِنْ سجيلٍ.

٧- في دمارِ قومِ لوطٍ آيةٌ للمتوسمين، وديارهم تحت البحرِ الذي لا يعيش فيه شيءٌ، وهو البحرُ الميت، وعلى الطريقِ الذي كان يسلكه تجارُ قريشٍ مِنَ المدينة إلى الشام.

٨- كَذَّب أصحابُ الأيكةِ، وهم قوم شعيبٍ المرسلين، وقد انتقم اللهُ تعالى منهم، فأهلكهم.

٩- كَذَّبَ أصحاب الحِجْر، وهم ثمودُ قومُ صالح المرسلين، وقد آتاهم اللهُ تعالى الآياتِ فكذَّبوا بها، وكانوا ينحتون الجبالَ بيوتاً آمنين، فأهلكهم الله بالصيحةِ أخذتهم في وقتِ الصباح.

النص القرآني الخامس من سورة الحجر

خلق اللهُ -تبارك وتعالى- السموات والأرضَ لتكون معبداً لله

أولاً: تقديم

قرَّر ربُّ العزةِ أنَّه خلق السمواتِ والأرضَ وما بينهما لتكون معبداً لله ربِّ العالمين، وأخبر أنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأمر رسولَهُ ﷺ أنْ يصفح عن المشركين، وامتنَّ الله على رسولِهِ بأنْ آتاه سبعاً مِنَ المثاني والقرآنَ العظيمَ، ونهى رسولَهُ ﷺ مِنَ التطلع إلى ما آتاه المشركين مِنْ هذه الدنيا الفانية، وأمَرَهُ أن يخفض جناحَهُ للمؤمنين، وأخبرنا سبحانَه أنه سيسأل العبادَ في يومِ المعاد عن أعمالِهِمْ وأقوالِهِمْ، وأمَرَ الله تعالى رسوله ﷺ أنْ يعلِنَ ما أوحاه اللهُ إليه، وأعلمه أنَّه يعلَم بما يقوله المشركون، وأمره أن يكثر مِنَ التسبيحِ والسجودِ ليطْمَئِن قلبه، وأمَرَه أن يعبدَ ربَّه حتى يأتيه اليقين، وهو الموت.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحجر

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر:٨٥-٩٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ما خلق اللهُ السمواتِ والأرضَ إلا بالحقِّ:

قَرَّرَ رَبُّ العزَّةِ في الآيةِ الأولى مِنْ هذا النصّ أنَّه ما خلق السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلاَّ بالحقِّ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر٨٥]، وما قَرَّره ربُّ العزة في هذه الآية نصَّ عليه في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ [الأنعام:٧٣]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [النحل:٣]، وقال: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٤]، والآياتُ في ذلك كثيرةٌ.

والحقُّ الذي خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ مِنْ أجْله أنْ تكون السمواتُ والأرضُ معبداً تتردَّدُ أركانُهُ بالتكبيرِ والتسبيحِ، وتقامُ فيه الصلاةُ، ويُخْضَعُ فيهِ لله الواحدِ الأحدِ، فمَنِ اعتقد أنَّه لا موضعَ لعبادةِ الله، فقد اعتقد أنَّ الكونَ خُلِقَ عبثاً وباطلاً، وهذا هو معتقدُ الكفارِ وظنُّهم ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص:٢٧].

ولمَّا قرَّر ربُّ العزَّة أنَّه ما خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلاَّ بالحقِّ، أكَّدَ على أنَّ الساعةَ آتيةٌ ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ ﴾ وفي يوم الساعةِ يحاسبُ العبادَ الذين كُلِّفُوا بعبادةِ الله تعالى على مَدَى تقصيرِهِمْ، وأمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يتسم موقفُهُ تجاهَ الكفارِ في المرحلةِ المكيةِ بالصفحِ الجميلِ ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ والصفحُ الجميلُ: الصفحُ الذي ليس معه شكوى.

وقرَّر سبحانه أنَّه ﴿ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الحجر:٨٦] أي: كثيرُ الخَلْقِ، وهو العالِمُ بكلِّ شيءٍ، والخلاَّقُ العليمُ هو الذي يستحقُّ أنْ يُعبَدَ وحدَه لا شريك له.

٢- إيتاءُ الله تعالى رسولَهُ ﷺ سبعاً مِنَ المثاني والقرآنَ العظيم:

امْتَنَّ اللهُ على رسولِهِ محمدٍ ﷺ بأنَّه آتاه سبعاً مِنَ المثاني والقرآنَ العظيمَ ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧] والسبعُ المثاني التي آتاها اللهُ رسولَهُ ﷺ هي سورة الفاتحةِ التي هي أعظمُ سورِ القرآنِ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أُمُّ القُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِيْ والقرآنُ العظيمُ» [البخاري: ٤٧٠٤]. وقد سُقْتُ الأحاديثَ الدَّالَّةَ على أنَّ القرآنَ هو السبعُ المثاني في تفسيرِ سورةِ الفاتحة.

والفاتحةُ سَبْعُ آياتٍ، والبسملةُ إحدى آياتها، وهي مثاني، لأنَّها تثنَّى، أي: تتلى في كلِّ ركعةٍ مِنَ ركعاتِ الصلاةِ، وهذا يدلُّ على عِظَمِ الفاتحةِ، وعِظَمِ ما فيها مِنْ أجر.

٣- نَهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يمدَّ عينيه إلى ما متَّع به أزواجاً منهم:

نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يمدَّ عينيه إلى ما متَّع الله به بعضَ عبادِهِ مِنْ زهرةِ الدنيا، قال: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ

﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩﴾ [الحجر:٨٨-٨٩]. نهى اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يمدَّ عينيه إلى ما مَتَّعَ به الكفارَ من أموالٍ ونساءٍ وأولادٍ، فإنَّ ذلك كلَّه مِنْ زخارفِ الدنيا ومتاعها الفاني الزائل، ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ وخَفْضُ الجناح للمؤمنين كنايةٌ عن التواضعِ ولينِ الجانبِ، والمرادُ بخفض الجناحِ للمؤمنين التواضعُ لهم، والتعاملُ معهم برفق.

وقوله: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩﴾ أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للناس: إني أنا النذيرُ المبين، أي: أنا النذيرُ البَيِّنُ النِّذارَةِ، الذي يُخَوِّف الناسَ عذابَ الله وانتقامَه في الدنيا والآخرةِ.

٤- سؤالُ الله تعالى الناسَ عمَّا كانوا يعملون:

قولُهُ تباركَ وتعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ [الحجر:٩٠-٩٣]. المقتسمون: هم المتحالفون، الذين تحالفوا على مخالفةِ الأنبياء وتكذيبِهِمْ وأذاهم، كما قالَ اللهُ عن قوم صالحٍ، ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل:٣٨]، وقال: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ [الأعراف:٤٩].

وقال ابنُ عباسٍ في المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين «هُمْ أَهْلُ الكتابِ، جَزَّؤُوهُ أجزاءً، فآمنوا بِبَعْضِهِ: وكفروا بِبَعْضِهِ» [البخاري: ٤٧٠٥].

وقد يقال: إنَّ المقتسمين مِنْ قريشٍ، الذين ذهبوا في القرآن مذاهبَ شتى، كما حكى القرآنُ عنهم، فقال بعضُهم: هو حديثٌ مفترى، وقال آخرون: هو سِحْرٌ أو كهانةٌ، وقال آخرون: هو قولُ أحمقٍ مجنونٍ.

وقد أقْسَمَ ربُّ العزَّة -تبارك وتعالى- أنَّه سيسأَلُ الناس أجمعين عَمَّا كانوا يعملون، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ أي: يسألُ اللهُ تعالى العبادَ يومَ القيامةِ عن أعمالِهِمْ التي عملوها في الحياةِ الدنيا، سيسألُ العبادَ عن عبادتهم لربِّهم، وعن مدى إجابتهم للرسلِ، ويُسْأَلون عمَّا قضوا فيه أوقاتهم، ويُسْألون عن أموالهم مِن أين اكتسبوها، وفيم أنفقوها، وخلاصة القولِ أن العبدَ يسأل يومَ القيامة عن جميع سعيه.

٥- أمَر اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يَصْدَعَ بما يؤمرُ ويعرضَ عن المشركين:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ ﷺ أنْ يصدعَ بما يُؤْمَرُ ويُعْرِضَ عن المشركين ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ

﴿يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر:٩٤-٩٦]، أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه أن يَصْدَعَ بما يؤمر، أي أن يظهر ما يُؤْمَرُ به، والذي أُمر به هو دينُ الله تعالى المنزل إليه، وهو القرآنُ، وفي هذا أمْرٌ للرسولِ ﷺ أن يبلِّغ ما أُنزل إليه مِنْ ربِّه، وأمَرَه بالإعراضِ عن المشركين، أيْ: لا تلتفتْ للمشركين الذين يريدونَ صدَّك عن آياتِ الله تعالى، ولا تَخَفْهُمْ ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ وكفاه اللهُ تعالى إياهم بإهلاكِهِمْ، فقد أوْقَعَ اللهُ -تعالى- الموتَ بالذين كانوا يكثرون مِنَ الاستهزاءِ بالرسولِ ﷺ حتى ماتوا وزالوا، وهؤلاء كانوا مع استهزائِهم بالرسولِ ﷺ يشركون بالله تعالى، ويجعلون مع الله إلهاً آخرَ ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ فجمعوا بَيْنَ الاستهزاءِ برسولِ الله ﷺ والشركِ بالله، فجمعوا بين ذنبين عظيمين، ولذلك تهدَّدهم اللهُ تعالى بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

٦- **اللهُ تعالى يعلمُ أنْ صدرَ الرسولِ ﷺ يضيقُ بما يقولُهُ المشركون:**

أَعْلَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أَنَّه يُعلمُ أنَّ صدرَهُ يضيقُ بما يقولُهُ المشركون ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر:٩٧]. وكان المشركون يقولون: إنه ساحرٌ وكاهنٌ ومجنونٌ، ونحو ذلك، وقد أرشده ربُّهُ إلى ما يطمئن به قلبه، وتهدأُ به نفسُهُ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر:٩٨]، فالإكثارُ مِنْ ذِكْرِ الله تعالى، والإكثارُ مِنَ السجودِ، يجلو القلب، ويرْزق العبد السكينةَ والوقارَ، وهدوءَ الحالِ.

وأمر اللهُ تعالى رسولَهُ أنْ يعبد ربَّه حتى يأتيه اليقينُ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر:٩٩] أي: حتى يأتيك الموت.

وهذا الذي أمر اللهُ تعالى بِهِ رسولَهُ ﷺ يجبُ أن يجعله المؤمنُ شعاراً له على مدى حياته كلِّها، وهو عبادةُ الله تعالى أبداً حتى يأتيه الموت، وقد صحَّ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال في عثمان بن معظون: «أمَّا هُوَ فَقَدْ جاءَهُ اليقينُ» [البخاري: ١٢٤٣].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- أعلمنا ربُّنا أنَّه خلقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ، وأنَّ الساعةَ آتية، لا شكَّ في ذلك، وأمره بأن يصفح الصفحَ الجميلَ.

٢- الحقُّ الذي خلقَ اللهُ به السمواتِ والأرضَ أنَّه جعلهما معبداً يعبدُ فيهما.

٣- امتنَّ اللهُ تعالى على رسولِهِ بأنَّه آتاه السبعَ المثانيَ، وهي سورةُ الفاتحةِ، وهي أفضل سورةٍ نزلت في جميع الكتب السماوية، وآتاه القرآنَ العظيمَ.

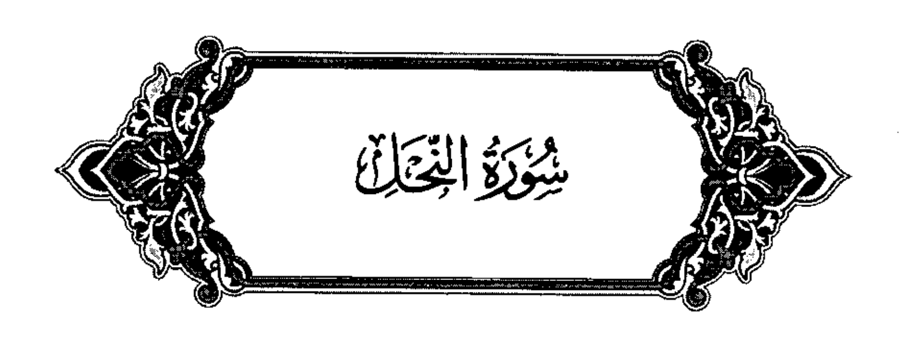
٤- نهى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يَتَطَلَّعَ إلى ما متَّعَ به بعضَ المشركين مِنْ حطامِ الدنيا الزائلةِ، وأمره أن يخفضَ جناحَهُ للمؤمنين.

٥- سيسأل اللهُ يومَ القيامةِ العباد عن كلِّ ما قدَّموه مِنْ أقوالٍ وأفعالٍ.

٦- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ أنْ يعلَن دعوته للناس، وأعلمه أنَّه كفاه المستهزئين به، وهم عتاةُ أهلِ مكة الذين عبدوا مع الله غيره.

٧- أخبر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّهُ يعلم أنَّه يضيق صدرُهُ بما يرميه به المشركون، وأمره بالتسبيحِ والسجودِ، ليطمئن قَلْبُهُ، وتهدأَ نفسُهُ.

٨- أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه أن يديمَ عبادَةَ ربِّه حتى يأتيه الموتُ، وعلى المسلمِ أنْ يرفعَ هذا الأمر ليكون شعارَه حتى يأْتيه الموت.



تقديم

روى حمادُ عن علي بن زيدٍ قال: كان يقال لسورةِ النحل: سورةُ النعم، لكثرةِ تعدادِ النعم فيها [زاد المسير: ٤/ ١٠٢]. وذكر ابنُ الجوزيِّ في [زاد المسير: ٤/ ١٠١] اختلافَ أئمة التفسير في تحديد ما نزل منها بمكة، وما نزل بالمدينة، وبعضهم ذهب إلى أن جميعَ السورةِ مكيَّة.

وقال أبو عمرو الداني: سورة النحل مكية، إلا ثلاث آيات من آخرها، فإنها نزلت بالمدينة حين قتل حمزة بن عبدالمطلب ومُثِّل به، وهن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النحل:١٢٦] إلى آخر السورة، هذا قول عطاء.

وقال قتادة: مِن أول النحل إلى ذكر الهجرة يعني ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى ٱللَّهِ﴾ [النحل:٤١] مكي، وسائرها مدنيٌّ، وكذا قال جابر بن زيد.

ولا نظير لها في عددها، وكَلِمُها ألف وثماني مئة وإحدى وأربعون كلمة، وحروفها سبعة آلاف وسبع مئة وسبعة أحرف [البيان في عَدِّ آي القرآن، ص١٧٥].

النص القرآني الأول من سورة النحل

نعم الله تعالى التي أنعم بها على عباده

أولاً: تقديم

عَدَّد اللهُ -تبارك وتعالى- علينا نِعَمَهُ التي أنْعَمَ بها علينا في الأرضِ والسماءِ، ومِنْ ذلك خلقُهُ الأرضَ والسماءَ، وخَلقَنا مِنْ نطفةٍ ضعيفةٍ، وخَلَقَ لنا الأنعامَ لتكون لنا مأْكلاً، وصوفَها ملبساً، ونركبها في حاجاتِنا، وتحملُ أثقالنا.

وخلق لنا رَبُّنا الخيلَ والبغالَ والحميرَ لنركبها، ونتجملَ بها، وأنزل لنا الماءَ مِنَ السماءِ لنشربَ منه، ونسقيَ منه دوابَّنا، ونروي زروعنا، وسخَّر لنا الليلَ والنهارَ والشمس والقمرَ والنجومَ، وبثَّ لنا في الأرضِ ما نحتاج إليه مِنَ المنافعِ والمصالحِ، وسخَّر لنا البحرَ لنأكلَ مِنْ لحمه الطريِّ، ونلبسَ مما يخرج منه مِنْ حليٍّ، ونُسَيِّر فيه سفننا لتحملنا، وتحمل تجاراتنا. وثَبَّتَ اللهُ العظيمُ الكريمُ سبحانه أرضَنا بالجبالِ الرواسي، وسيَّر لنا فيها الأنهارَ، وجعل لنا فيها الممراتِ والطرقاتِ نسير فيها مُشرِّقين ومغربين، وجعل لنا فيها العلاماتِ التي تهدينا في أسفارِنا، وهدانا بالنجوم في ظلماتِ الليلِ، وهو رَبُّنا تبارك وتعالى الذي لا يُعَدُّ ولا يحصى خَلْقُه، ولا تعدُّ نعمُهُ، وهو العالِمُ بنا لا يخفى عليه شيءٌ مما نسِرُّ به ونخفيه، ولا ما نعلنُهُ ونُبْدِيه سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ

لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النحل:١-١٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن:

١- اقترابُ زَمَنِ وقوعِ الساعةِ:

أخبرنا اللهُ تعالى في مَطْلَعِ هذه السورةِ أنَّ الساعةَ قد دنا وقوعُها، واقتربَ قيامُها، ونهاهم عن استعجال وقوعِها، فقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ [النحل:١] وعَبَّر بالماضي عن الآتي لتحقُّقِ وقوعِ العذابِ.

وقد قَرَّر ربُّ العزَّةِ قربَ وقوعِ الساعةِ في مواضعَ كثيرةٍ مِنْ كتابِهِ، فمن ذلك قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء:١] وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر:١].

وقد نزَّهَ رَبُّ العزَّةِ نفسَهُ عَنْ الشركاءِ والأنداد، فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:١].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن المشركين يستعجلون وقوعَ العذابِ، فمن ذلك قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت:٥٣-٥٤]، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى:١٨].

ثم أخبر ربُّ العزة -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل:٢] والمرادُ بالروحِ، أي: بالوحي الذي يحيي الأرواحَ، لينذرَ عبادَه، ويخوفهم، ويعلمهم أنَّه هو اللهُ الواحدُ الذي يستحقُّ العبادةَ وَحْدَهُ، ولذلك أمرهم بتقواه، أي: بمخافته، والعملِ بطاعته، واجتناب معصيتِهِ.

وقد جاءت آياتٌ كثيرة تدلُّ على أنَّ الوحيَ رُوْحٌ مِنْ أمرِ الله كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر:١٥].

٢- خَلَقَ اللهُ -تبارك وتعالى- السموات والأرضَ بالحقِّ:

أخبرنا رَبُّنا عزَّ وجلَّ أنَّه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ [النحل:٣] أي: خلقاً كائناً بالحقِّ متصفاً به، وقد سبق أنْ بينتُ فيما مضى في سورةِ الحجر أنَّ الحقَّ هو جَعْلُ السمواتِ والأرضِ معبداً تتجاوبُ أرجاؤُه بالتقديسِ والتسبيحِ والتحميدِ، ويتردَّدُ فيه الدعاءُ، وتقامُ فيه الصلاةُ، وقد نزَّه اللهُ تعالى نفسَه عمَّا يشركون، أي: ما يشركونه به من الأوثان والأصنام.

وأخبرنا سبحانَه وتعالى أنَّه ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النحل:٤] أي: خلقه، مِنْ حيوان منويٍّ ضعيفٍ، فلما نما وكَبُرَ وأصبحَ إنساناً خاصمَ ربَّهُ الذي خلقه، وكذَّبه، وحاربَ رسلَهُ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٧-٧٩].

وقد رَوى بُسْرُ بنُ جحاشٍ قال: بصقَ رسولُ الله ﷺ في كَفِّهِ، ثم قال: «يقول اللهُ تعالى: ابنَ آدمَ، أنَّى تُعْجِزُني، وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثلِ هذهِ؟ حَتَّى إذا سَوَّيْتُكَ، فَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وللأرْضِ مِنْكَ وَئيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْت، حتَّى إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ: أتَصَدَّقُ؛ وأنَّى أوانُ الصَّدَقَة» [قال محقق ابن كثير (٣١١٤): أخرجه ابن ماجه [٢٧٠٧] وأحمد [١٧٨٤٢] وصحح البوصيري إسناده في الزوائد، وانظر «الصحيحة» (١٠٩٩)].

وأعلمنا سبحانه وتعالى أنَّه خلقَ لنا الأنعامَ لمصالحَ كثيرةٍ حَدَّثنا ربنا عنها ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل:٥-٨].

والأنعامُ هي الإبلُ والبقرُ والغنمُ، وقد جعل اللهُ تعالى لنا فيها الدفءَ، فالبشرُ يصنعون مِنْ أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها ملابسَ يتجملون بها، ويصنعون ملابسَهُمْ التي

تقيهم البردَ، ويصنعون منها خيامَهُمْ التي تُؤْويهم في الحرِّ والقرِّ، وجعل لنا فيها منافعَ كثيرة، وجعل لحمها طعاماً لنا، وجعل فيها جمالاً حين تريحون حين تسرحونَ، أي: حين ترجعون بها مِنَ المرعى عشياً، ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾ أي: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى، ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾ والأثقالُ تتمثل بالأمتعةِ وأنواعِ البضائعِ والأثاثِ التي يرغبُ الناسُ بنقلها مِنْ مكانٍ إلى مكان، تحملها الإبلُ إلى بلادٍ بعيدةٍ، لم نكن بالغيها إلا بشقِّ الأنفسِ، ونسافرُ بها إلى الحجِّ والعمرةِ، أو ننتقلُ بها للتجارةِ أو الزيارةِ أو السياحةِ، وعقَّبَ ربُّنا -تبارك وتعالى- على ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ لرؤوف رحيم بكم، ومن أجل ذلك سخر لكم هذه الأنعام.

ثم أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه سخَّر لنا ﴿الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾. فالخيلُ والبغالُ والحميرُ تستعمل لأمرين: الأول: ركوب بني آدم لها. والثاني: أنَّ في اقتنائها وركوبها زينةً يستمتعُ بها أصحابُها، وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ أي: مِنْ الوسائل التي يركبها العباد، ويتخذونها زينة، وقد يسَّرَ اللهُ للبشر اختراعَ السياراتِ والطياراتِ والقطارات، وطوَّرُوا السفنَ، وسيخترع البشر أنواعاً أخرى لمزيد مِنَ الانتفاع بها.

وقد ذهب بعضُ أهلِ العلمِ إلى تحريم أكلِ لحومِ الخيلِ، لأنَّ اللهَ -تعالى- قرنها بالبغالِ والحميرِ، وحدَّد هدفين من خلقها هما ركوبها واتخاذها زينة، وهذا القولُ ليس بصواب، ويدلُّ على خطئه الأحاديثُ الصحيحةُ الواردةُ في حلِّ لحوم الخيلِ، ومِنْ ذلك الحديثُ الذي رواه جابرُ بنُ عبدالله قال: «نَهى رَسُولُ الله ﷺ يومَ خَيْبَرَ عَنْ لُحومِ الحُمُرِ الأهْلِيَّةِ، ورَخَّصَ في الخيلِ» [البخاري: ٤٢١٩. ومسلم: ١٩٤١. وانظر الأحاديث الواردة في البخاري الناهية عن أكل لحوم الحمر الأهلية من الحديث (٤١١٥) إلى الحديث رقم (٤٢٢٧)].

وقال ابن كثير: (٤/ ٣٣) روى أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: «ذَبَحْنا يَوْمَ خَيْبَرَ الخيلَ والبغالَ والحميرَ، فنهانا عن البِغالِ والحميرِ، ولَمْ يَنْهَنا عَنِ الخيلِ» [قال محققُ ابن كثير فيه: (٤/ ٣٣) أخرجه أبو داودَ (٣٧٨٩) وأحمد (٣/ ٣٥٦) والبيهقي (٩/ ٣٢٧) وصححه ابن حبان (٥٢٧٢) وكذا الحاكم (٤/ ٢٣٥) ووافقه الذهبي].

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أسماءَ بنت أبي بكر، قالت: «نحرنا فَرَساً على عَهْدِ رَسولِ الله فأكلناه» [البخاري: ٥٥١٩. ومسلم: ١٩٤٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [النحل:٩]. ذكر اللهُ تعالى الحيوانات مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ والخيل والبغالِ والحميرِ وذكر ما

فيها مِنَ المنافعِ، ثم ذكرَ الطرقَ التي يسلكها الناسُ إليه، فبيَّن أنَّ منها السبيلَ القاصدة، وهي الطريقُ الموصلةُ إليه، وهي طريقُ الحقِّ، وهي متمثلةٌ في دينِ الإسلامِ الذي سلكه أنبياؤُه ورسلُه وأتباعُهُمْ، ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ وهذا شامل للطرق الضالةِ كلها، وهي اليهوديةُ والنصرانيةُ والبوذيةُ والهندوسيةُ والمجوسيةُ والشيوعية، وغيرها مِنْ طرق الضلالِ والغوايةِ، وأعلمنا ربُّنا في خاتمةِ الآيةِ أنه لو شاءَ لهدانا أجمعين، ولكنَّه قضى بتدبيره وحكمته أنْ نكون مختلفين.

٣- إنزال الله -تبارك وتعالى- الماءَ مِنَ السماءِ لينبتَ به الزرعَ:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل:١٠-١١].

ذكر اللهُ -تعالى- نعمته على عبادِهِ في إنزالِهِ الماء مِنَ السماءِ، والمرادُ به إنزالُه مِنَ السحاب، وقد جعل مِنْ هذا الماءِ النازلِ من السماءِ شراباً يشربُ منه العبادُ ودوابُّهم ومواشيهم، ومنه تتغذى الآبارُ وتتدفقُ العيونُ، ومنه يُسْقَى الزرعُ والشجرُ الذي فيه تُسيمونَ أنْعامكم، أي: ترعونها فيه، تقول العرب: الإبلُ السائمةُ.

وبهذا الماءِ الواحدِ ينبتُ لنا ربُّنا الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ، ثم قال: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ﴾ أي: ويُخْرِجُ لكم غيرها مِنَ الثمراتِ، كالتفاحِ والبرتقالِ والخوخِ وأنواع الفواكه، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ أي: فيما حدثنا اللهُ مِنْ سقينا بالماءِ النازل مِنَ السماءِ، وما ينبتُ به مِنَ الزروعِ والثمارِ، لآياتٍ دالةٍ على الله تعالى، ولكن لقومٍ يحسنون التدبرَ والتفكرَ والاتعاظَ بهذهِ الآياتِ.

٤- سخَّرَ اللهُ -تبارك وتعالى- لعبادِهِ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمر:

أخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنه سخَّر لنا ما شاءَ من مخلوقاته ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النحل:١٢-١٣].

ذكر اللهُ -تبارك وتعالى- النعمَ التي لا تقومُ حياتُنا مِنْ غيرها، ذكر أنَّه سخَّرَ لنا الليلَ والنهارَ، يتعاقبان، ويتقارضان، والشمس والقمر يدوران، وسخر لنا النجوم وبثَّها في أرجاءِ الفضاءِ، وجعلها لنا نوراً وضياءً، وجعلها لنا علاماتٍ نهتدي بها في ظلماتِ الليل، وقد حدَّثنا في غير هذا الموضع عن مساراتِها ومنازلها.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: في ذلك آياتٌ لقومٍ يعقلون دينَ الله -تبارك وتعالى- ويفقهون حُجَجَهُ، وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أخبرنا ربُّنا عما ذرأه في أرضنا مِنَ الأمورِ العجيبةِ والأشياءِ المختلفةِ مِنَ الحيواناتِ المختلفةِ والنبات والمعادنِ والجماداتِ على اختلافِ أنواعها وأشكالها وألوانها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: آياتٌ دالةٌ على الله سبحانه لقومٍ يذكرون آلاءَه ونعمه، فيشكرونَها.

٥- اللهُ -تبارك وتعالى- الذي سخَّر البحر لعبادِه:

اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل:١٤].

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن تسخيرِهِ البحرَ لنا، والبحرُ في هذه الأرضِ أكثرُ مِنْ اليابسة، وقد سخَّر لنا هذا البحرَ الشاسعَ الواسعَ المتلاطمَ بالأمواجِ، وجعل فيه الأسماكَ والحيتان، وأحلَّها لعبادِهِ، ولحمها طريٌّ صالحٌ للأكلِ، وجعل فيه الحليّ التي نستخرجها مِنه، ونتجمل بها، كما قال ربُّ العزَّة: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن:٢٢] ومِنَ الآياتِ البحريةِ مسيرُ الفلكِ في البحر، وهي السفنُ التي تمخر بصدرها عبابَ البحر، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لتركبوا الفلكَ، وتسيروا فيها، منتقلين مِنْ قُطْرٍ إلى قطرٍ، ومِنْ بلادٍ إلى بلاد، لتطلبوا الرزقَ، ولتزوروا الأصحابَ والأقاربَ والأحبابَ، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: تشكرونه على نعمِهِ وإحسانِهِ وفضلِهِ.

٦- ألقى ربُّ العزة الجبالَ في الأرضِ ليثبتها وأجرى فيها الأنهارَ:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنّه ﴿أَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل:١٥-١٦] خلق اللهُ تعالى الأرضَ فمادتْ، فأرساها وثبَّتَها بالجبالِ، وسيَّر فيها الأنهارَ تسقي العبادَ والبلاد، وجعل فيها الطرقَ والممراتِ تخترقُ الجبالَ، ويتنقل الناسُ عبرها في أسفارِهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء:٣١].

وجعل ربُّنا في الأرض علاماتٍ يسْتَدِلُّ بها المسافرون على ما يقصدونه في أسفارهم، وقد تكون العلامةُ جبلاً شامخاً، أو رابيةً مدببة، أو صخرةً مفلطحةً، أو هوةً سحيقةً، أو غير ذلك.

وكما جعل لنا علاماتٍ نهتدي بها في جنباتِ الأرضِ، جعل لنا النجومَ لنهتديَ بها في ظلمةِ الليلِ ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ فكثيرٌ مِنَ الناسِ يستطيعون تحديدَ مشارقِ الأرضِ ومغاربِها في ظلمةِ الليل بالتعرف على مواقعِ النجومِ.

٧- **استحقاق الله تعالى العبادةَ وحْدَه:**

أعلمنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه وَحْدَهُ الخالقُ دون غيره بقولِهِ: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النحل:١٧] فاللهُ الذي خلق الخلقَ في الأرضِ وفي السماءِ هو الذي يستحقُّ أن يعبدَ وَحْدَهُ فغيره لا يَخْلق شيئاً.

وعقَّب اللهُ -تبارك وتعالى- على هذا السيلَ الذي ساقه مِنَ النعم الكثيرةِ الوافرةِ بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل:١٨] أي: أنَّ العبادَ لا يستطيعون عَدَّ نعمِ الله على عبادِهِ، وقد تكون في النعمة الواحدة نعمٌ كثيرةٌ، ولذلك لا يستطيع العبادُ الوفاءَ بنعم الله كلِّها، فمن فضلِ الله -تبارك وتعالى- علينا أنَّه يرضى عنَّا، وإن لم نستطع أن نفيه حقَّ النعم كُلِّها، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ ولذلك يغفر لنا ما وقع منا من تقصيرٍ في شكر نعمه.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾ [النحل:١٩]، أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في خاتمة هذا النصِّ أنه يعلم ما نسرُّه ونخفيه، وما نعلنه ونبديه، فعلمه بنا محيط، لا يَخفَى عليه مِنْ أعمالِنا وأقوالِنا وخطراتِ قلوبنا شيءٌ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتِي من علمٍ وعمل:

١- اقتربت الساعةُ وظهرت علاماتُها، ونهى اللهُ -تبارك وتعالى- عن الاستعجال بوقوعِها.

٢- اللهُ -تبارك وتعالى- يُنَزِّل ملائكتَهُ بالوحي مِنْ عندِهِ على مَنْ يشاءُ مِنْ رسله وأنبيائِه، لينذروا الناسَ، ويبلغوهم أنَّ الله تعالى هو المعبودُ الحقُّ الذي يستحقُّ العبادَةَ.

٣- خلق اللهُ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ، أي: ليصبحَ الكون معبداً تتجاوب أرجاؤُه بالتسبيح والتكبيرِ والتحميدِ.

٤- خلق اللهُ الإنسانَ مِنْ حيوانٍ منويٍ ضعيفٍ، ثم أصبح بعد نموه وكبره خصيماً لله ربِّ العالمين.

٥- خلق اللهُ تعالى الأنعامَ، وجعلَ فيها منافع لبني الإنسان، يلبسون مِنْ أصوافها وأوبارها، ويأكلون لحمها، وينتعلون جلودَها، ولهم فيها زينةٌ وجمالٌ، وتحمل أثقالنا إلى بلدٍ لم نكنْ بالغيه إلا بشقِّ الأنفس.

٦- خلقَ الله لنا الخيلَ والبغالَ والحميرَ لنركبَها، ولنتجملَ بها.

٧- أعلمنا ربنا عند تنزل القرآن بما سيخلقُ في مقبل الزمانِ مِنْ مراكبَ لم تكن موجودةً مِنَ السياراتِ والطائراتِ والقطاراتِ وغيرَ ذلك.

٨- مِنْ نعمِ الله علينا أنَّه أنزلَ لنا المطرَ من السماءِ لنشرب منه وتشرب منه أنعامنا، ويسقي الأشجارَ التي تأكلُ منها الدوابُ، وأنبت لنا به الزرعَ والأشجارَ المتنوعة.

٩- سخر اللهُ الليلَ والنهارَ يتقارضان، والشمس والقمر يدوران، وسخر لنا النجوم مبثوثة في جوِّ السماء.

١٠- ذرأ اللهُ -تعالى- ما في الأرضِ مختلفاً ألوانُه مِنَ الأشجارِ والزروعِ والمعادنِ.

١١- سخر اللهُ تعالى لنا البحر لنأكلَ لحماً طرياً من أسماكِهِ وحيتانِهِ، ونستخرجَ حليةً نلبسها من لؤلُئِه ومرجانه، ونسيِّر فيه سفننا، تحملنا وبضائِعنا، ولنشكر اللهَ ربنا.

١٢- ثبت اللهُ -تعالى- أرْضَنا بالجبالِ كي لا تميد، وأجرى فيها الأنهارَ، وجعل فيها المعابرَ والطرقَ.

١٣- جعل اللهُ في الأرض علاماتٍ نهتدي بها في أسفارِنا، وجعل لنا في النجومِ معالمَ تهدينا الطريقَ.

١٤- اللهُ تعالى وَحْدَهُ الذي يستحقُّ العبادَةَ، لأنه المبدعُ الخلاَّقُ.

١٥- نعم الله تعالى كثيرةٌ لا تحصى، واللهُ غفورٌ رحيمٌ بنا، يغفر لنا ما قصَّرنا في شكره.

١٦- اللهُ -تبارك وتعالى- عالمٌ بجميع أحوالنا، ما أسررناه، وما أبديناه، لا يخفى عليه شيءٌ مِنْ أمرنا سبحانه.

النص القرآني الثاني من سورة النحل

الآلهةُ التي يعبدُها المشركون عاجزةٌ لا تملك من أمرها شيئاً

أولاً: تقديم

سفَّه ربُّ العزة في هذه الآياتِ آلهةَ المشركين، وبيَّن أنَّها آلهةٌ عاجزةٌ ضعيفةٌ مخلوقةٌ مربوبةٌ، وبيَّن فيها أن قلوب المشركين منكرةٌ للتوحيد، وبيَّن أنَّه عالم بالمشركين ما يُسِرّونه وما يعلنونه، وبيَّنَ أن المشركين يزعمون أن القرآنَ أساطيرُ الأولين وبيَّن أنَّ الكفار يحملون أوزارَهم يومَ القيامة، ويحملون مثلَ أوزارِ الذين يضلونهم، وتَهدَّد اللهُ تعالى المشركين أن يفعلَ بهم مثل ما فعل بالذين مِنْ قبلهم.

وفي يوم القيامة يخزي اللهُ الكافرين بإدخالهم النارَ، ويناديهم لإظهار كذبهم فيما كانوا يعبدونه مِنْ آلهةٍ ويقول: أين شركائي من الآلهة التي عبدتموها من دوني، ويسألهم لم لا تأتيهم لتحميهم وتنصرهم، وعند ذلك يُخْزَوْنَ ويُفْضَحُونَ.

وأعلمنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الملائكةَ عندما تقبض أرواحَ المشركين الظالمين يخضعُ هؤلاءِ الظلمة، ويزعمون أنَّهم لم يكونوا يعملون السيئاتِ، فتكذبهم الملائكة، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنهم يدخلون النار خالدينَ فيها، فيدخلونها وبئس مثواً ومقراً للكافرين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

[النحل: ٢٠-٢٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأصنامُ التي يدعوها المشركون لا تخلقُ شيئاً:

أعْلمنا ربُّنا العزيزُ الكبيرُ سبحانه أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل:٢٠-٢١]، أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أصنامَ المشركينَ وأوثانَهُمْ لا تستحقُّ أن تعبدَ مِنْ دون الله تعالى، فهي عاجزةٌ عن أن تخلقَ شيئاً، وهي مخلوقةٌ مربوبةٌ، وهذه الأصنامُ مَيّتةٌ، وليس فيها حياةٌ، صنعها بنو الإنسان مِنْ حجارةٍ أو خشبٍ أو طين أو معدن، ولا تعلم شيئاً عن يومِ البعثِ والنشورِ الذي يقوم فيه العباد لربِّ العالمين.

٢- اللهُ -تبارك وتعالى- هو المعبودُ الحقُّ سبحانه:

قرَّر ربُّ العزةِ -سبحانه- أنَّ إلَهنا إلهٌ واحدٌ ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾ [النحل:٢٢] أي: معبودُكُم الذي يستحقُّ أنْ يُعبدَ دون غيره واحدٌ، هو اللهُ سبحانه، وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّ الذين يكفرونَ بيومِ القيامةِ قلوبُهم منكرةٌ لوحدانيةِ الله تعالى ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ [النحل:٢٢]، وفي هذا رَبْطٌ بين الكفرِ بالآخرةِ، وبين الكفرِ بوحدانيةِ الله عزَّ وجلَّ.

وأخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هؤلاءِ المشركين مستكبرين عن عبادةِ الله سبحانه ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل:٢٢] أي: مستعلون عن الإذعانِ للحقِّ.

وقد أخبرنا ربُّنا سبحانه وتعالى أنَّ علمَهُ محيطٌ بهؤلاءِ يعلمُ سبحانه ما يسرونَهُ ما يعلنونَهُ، وأنَّه لا يحبُّ المستكبرين، أي: عن عبادته، فالمستكبرون صِنْفٌ سيِّئ مِنَ البشر ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل:٢٣]. ومعنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا، قال الخليل: «﴿لَا جَرَمَ﴾: كلمةُ تحقيق، ولا تكون إلا جواباً، أي: حقّاً أنَّ اللهَ يعلم ما يُسِرُّون مِنْ أقوالهم وأفعالهم، وما يعلنون مِنْ ذلك» [فتح القدير: (٣/ ٢١٦)].

٣- دعوى الكفار أنَّ القرآنَ أساطيرُ الأولين:

أخبرنا ربُّنا سبحانه وتعالى أنَّه إذا قيل لهؤلاء الكفرةِ المشركين: ماذا أنزل ربُّكم؟ قالوا: أساطيرُ الأولين، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل:٢٤] وأساطيرُ الأولين، أي: أحاديث الأولين وأكاذيبُهُم وترهاتهم، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان:٥] فهم مكذبون

بالقرآنِ، مفترون على الرحمن، وهم بذلك يحملون أوزارهم، أي: ذنوبهم يومَ القيامةِ، ويحملون ذنوب الذين يضلونهم بغير علمٍ ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل:٢٥]. فإثمُ هؤلاء مضاعفٌ بسببِ ما ارتكبوه مِنَ الذنوب، وبسبب إضلالهم الآخرين، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت:١٣].

وجاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «مَنْ دَعَا إلى هُدًى، كانَ لَهُ مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، ومَنْ دَعَا إلى ضَلالَةٍ، كانَ عَلَيْهِ مِنَ الإثْمِ مِثْلُ آثامِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثامِهِمْ شَيْئاً» [مسلم: ٢٦٧٤].

٤- تهديدُ الله -تبارك وتعالى- كفارَ قريشٍ أنْ يفعلَ بهم ما فعلَ بالذين مِنْ قبلهم:

قال ربُّ العزة سبحانَهُ وتعالى مهدِّداً الكافرين ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل:٢٦]، والمرادُ بالذين مِنْ قبلهم: الأممُ السابقةُ المكذبةُ لرسُلِها، ومَكْرُهُمْ هو تخطيطُهُمْ وتدبيرُهم للإيقاعِ بالرسلِ ومَنْ آمنوا بهم، فأتى اللهُ بنيانهم الذي يسكنونه مِنَ القواعد، وقواعدُ المنزل أساساته التي يقوم عليها، فلما تزلزل بنيانهم مِنَ القواعد خرَّ عليهم سقفُ البيت، أي: سقط فوقَ رؤوسِهم، فاجتثَّهم وقتَلَهُمْ، ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ فعادةُ الناس أنَّهم يحتمونَ بمنازلهم إذا داهَمَهم العدوُّ، فإذا بهذه المنازلُ تصبح موضعاً لعذابِهِمْ، وما كانوا يظنونَ أنْ يفعل ذلك بهم.

هذا الذي ذكره ربُّ العزَّة سبحانه وتعالى هو عذابُهُ الذي حلَّ بهم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النحل:٢٧].

حدثنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- عما يصيبُ الكفار مِنَ النكال يومَ القيامة، وهو عذابٌ يخزيهم ويذلُّهم، ويقول لهم في ذلك اليوم العظيم: أين شركائي، الذين كنتم تشاقون فيهم، أي: تحاربون وتعادون فيهم، أين هم عن نصركم وإنجائكم من العذابِ الذي أحاط بكم؟

عند ذلك يقول الذين أوتوا العلم مِنَ الأنبياء والمرسلين والذين آمنوا بهم ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: الفضيحة والعذاب اليوم محيط بالكافرين.

٥- عذابُ الذين تتوفاهم الملائكةُ ظالمي أنفُسِهم:

حدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجل- عن الذين ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النحل:٢٨-٢٩].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن الذين أُرسلت إليهم الملائكةُ لقبض أرواحهم حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفرِ والشركِ، ﴿ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ ﴾ أي: فألقى هؤلاءِ الظالمون السَّلَمَ، أي: السمع والطاعة والانقيادَ للملائكةِ قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ﴾ أي: لم نكن نَفْعَلُ الأمور السيئةَ والخبيثةَ، فتقول لهم الملائكة مكذبين لهم: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي: تقول لهم: بلى، واللهُ عليم بأعمالِكم السيئة، وسيجازيكم عليها، ولا ينفعكم كذبكم شيئاً.

ثم يقال لهم: ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ويقال لهم بعد الحساب والجزاء ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ وهي سبعة أبواب بعضها فوق بعض ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي: بئس مقيل أهل النار في النار، فالنارُ منزلُ ذلٍّ وهوانٍ، والكفارُ تعذَّبُ أرواحَهُمْ في النّار في قبورِهم، وتعذَّب أجسادَهم وفيها أرواحهم بالنار يومَ القيامةِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آيات هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ علمٍ وعمل

١- الأصنامُ والأوثانُ التي يعبدُها الكفارُ لا تستطيعُ أنْ تخلقَ شيئاً، وهي مخلوقةٌ مربوبةٌ، وهي أمواتٌ ليس فيها حياةٌ، ولا تعلم متى البعث والنشور، فعبادتها ضلالٌ وباطلٌ، وهي لا تستحقُّ أن تُعبد.

٢- إلهنا وربُّنا الذي نعبُده إلهٌ واحدٌ، وهو وَحْدَهُ المستحقُّ للعبادةِ دون سواه، وقلوب الكفارِ منكرةٌ لوحدانيته، وهي مستكبرةٌ عن عبادته.

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- عالمٌ بالعبادِ كلِّهم يعلم ما يخفونه وما يعلنونه، ولا يخفى على الله تعالى منهم شيءٌ.

٤- الكفارُ يكذبون الرسولَ ﷺ، فعندما يُسأَلون عمَّا أنزله اللهُ تبارك وتعالى، يصفونه بالأساطيرِ والخرافاتِ والأباطيلِ، وهم بتكذيبهم ما جاءَهم مِنْ عند الله تبارك وتعالى يحملون أوزارهم كاملةً يومَ القيامةِ، ويحملون أوزار الذين يضلونهم.

٥- تهدَّد اللهُ -تبارك وتعالى- الكفارَ أن يفعل بهم مثل ما فعل بالمكذبين للرسلِ مِنْ قبلهم، فأتى اللهُ بيوتَهم مِنَ القواعِدِ، فخرَّ عليهم السقف من فوقهم فدمَّرهم، ولهم في الآخرةِ عذابٌ شديدٌ، وهو يفضحهم ويخزيهم فيه.

٦- يسأل اللهُ -تعالى- المشركين يومَ القيامةِ عن الذين اتخذوهم شركاءَ يعبدونهم، لم لا يأتون لنصرتهم وحمايتهم، وعند ذلك يقول أهل العلم: إنَّ الخزيَ في ذلك اليوم والسوءَ على الكافرين.

٧- المشركون الذين تتوفاهم الملائكة يخضعون ويستسلمون، ويقولون: لم نكن نعملُ السوءَ، فتكذبهم الملائكة، وتقبض أرواحهم معذبين، ويومَ القيامةِ يؤمرون بدخول النار.

النص القرآني الثالث من سورة النحل
المؤمنون يؤمنون بالقرآن ويؤمنون بجناتٍ تجري من تحتها الأنهار

أولاً: تقديم

حالُ المؤمنين غيرُ حالِ الكافرين، فالكفارُ يَعُدُّونَ القرآنَ أساطير الأولين، والمؤمنون يؤمنون به كتاباً منزلاً مِنْ عند ربِّ العالمين، والكفارُ يُعَذَّبُون عندما تقبضُ الملائكةُ أرواحَهُمْ، ويُبَشَّرون بالنار، والمؤمنون تقبض الملائكة أرواحهم برفق، وتُبَشِّرُهم بجنات النعيم.

والكفارُ مُصِرُّونَ على كفرِهِمْ حتى ينزل بهم الموت أو يحُلَّ عذابُ الله بهم، ويوم القيامة يحيق بهم ما كانوا به يستهزئون.

واحتجَّ الكفارُ بالقدرِ على شِركِهِمْ وكفرِهِمْ، واحتجاجُهم به باطلٌ، فالله تعالى وإنْ رَضِيَ كُفْرَهُمْ قدراً، ولكنّه كَرِهَهُ منهم شرعاً، وأرسلَ رسلَه، وأنزل كتبَه يأمرهم بالتوحيدِ، وينهاهم عن الكفر، ولذا أرسل في كل أمّة رسولاً، وجعل لبَّ دعوته وأساسَها قائمٌ على توحيد الله تعالى بعيداً عن الشرك.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٖ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٠-٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- قولُ المؤمنين في القرآن ومصيرُهم في جنات النعيم:

سَبق أنْ ذكر ربُّنا أنَّ المشركين عندما سئلوا عما أنزلَه اللهُ قالوا: أساطيرُ الأولين، وذكر هنا في مقابل ذلك ما قاله المؤمنون في القرآن المنزل مِنْ عند الله تعالى، ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ

مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النحل: ٣٠-٣١].

يُسْأَلُ المتقون عما أنزله على رسولِهِ ﷺ، فيقولون: أنزل خيراً، ثم بيَّن تعالى جزاءهم فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ أي: مَنْ أحْسَنَ في الدنيا عَمَلَهُ، أحسنَ اللهُ تعالى إليه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وقرَّرَ هؤلاءِ أنَّ دارَ الآخرة خير ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ فالآخرة خيرٌ مِنَ الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ [القصص: ٨٠]. وقال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]. ثم أثنى على دار المتقين التي يرزقونها في الآخرة ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ ونِعْمَ فعلُ مدح، مدح تعالى هذه الدارَ. وقد وصف هذه الدار بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النحل: ٣١].

أخبرَ سبحانه هؤلاءِ الطيبين أنَّ دارَ المتقين يومَ الدين جناتٌ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ، لهم فيها ما يشتهون ويطلبون، ومثل هذا الجزاء يجزي اللهُ تعالى المتقين.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنّ الذين تتوفاهم الملائكة، أي: تقبضُ أرواحهم حالَ كونهم طيبين، أي: طيبةٌ نفوسُهُمْ بما حلَّ فيها من إيمانٍ، تقول لهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ وتقول لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢] أي: بسبب إيمانكم وأعمالكم الصالحة.

٢- لا ينتظر الكفارُ إلا إتيانَ الملائكةِ لقبض أرواحهم:

يقولُ ربُّ العزة سبحانه وتعالى متهدِّداً الظالمين ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النحل: ٣٣-٣٤] أي: هل ينتظر هؤلاءِ الذين كذَّبوا عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ إلا الملائكة أنْ تأتي لتنزعَ أرواحَهُمْ، وتُخرجَها مِنْ أجسادِهم، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ أي: بإيقاع العذاب بهم، أوْ قيام الساعة، ثم بيَّن ربُّ العزة

تبارك وتعالى أنَّ الذين كذبوا الرسلَ مِنْ قبْلِ هؤلاءِ فعلوا مثلَ فِعْلِهِمْ، وقرَّر ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ اللهَ تعالى لم يظلِمْهم، ولكن أنفسَهُمْ كانوا يظلمونَ، فاللهُ أرسل إليهم الرسلَ، وأنزل عليهم الكتب، وبيَّن لهم لم خَلَقهم، فلما كفروا، وأصَرُّوا على كُفْرهم، أصابهم سيئاتُ ما عملوا، أي: أصابهم اللهُ تعالى جزاءَ سيئاتِ أعمالهم، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: ونزلَ وأحاط بهم ما كانوا به يستهزئون، وهو العذاب الذي تهددهم اللهُ تعالى به.

٣- دعوى المشركين أنَّ اللهَ لو شاء لم يشركوا ولم يعبدوا من دونه من شيء:

ادَّعى المشركون أنَّ اللهَ تعالى لو شاءَ ما عبدوا من دونهِ مِنْ شيءٍ هم وآباؤُهم، ولو شاء ما حَرَّموا على أنفسهم من شيء ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل:٣٥].

احتجَّ الكفارُ على صحةِ شركِهِمْ وشركِ آبائِهم وصحةِ تحريمهم ما حرَّموه على أنفسهم مِنَ الوصيلةِ والبحيرةِ والسائبةِ بوقوع ذلك منهم، فلو كان اللهُ كارهاً لما فعلوه، لأوقع بهم العقوبةَ التي تمنعهم مِنْ عبادتهم غير الله وتحريمهم ما حرموا، فقال ربُّ العزَّة تبارك وتعالى منكراً عليهم ما احتجُّوا به ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ .

لقد أرسل اللهُ الرسلَ، وأنزلَ الكتب، وأنكر اللهُ على ألسنةِ رُسُلِهِ وفيما أنزله مِنْ كتبِهِ شِرْكَهُمْ، وعبادَتَهُمْ الأصنامَ والأوثانَ، وأبان للعبادِ أنه يكره ذلك أشدَّ الكراهية، ونهى عنه أشدَّ النهيِ، وبعضُ الرسلِ ومنهم خليلُ الرحمنِ إبراهيم حطَّموا الأوثانَ وكسروها، وقد بيَّن اللهُ تعالى بعد ذلك كيف أرسلَ في كلّ أمةٍ رسولاً، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل:٣٦].

وقال ربُّ العزَّة في الردِّ على هؤلاء: لقد بعثنا في كلِّ أُمة رسولاً، يأمرهم بعبادَةِ الله وحدَه، وينهاهم عن عبادةِ الطاغوتِ، والطاغوتُ كلُّ ما عُبد من دون الله تعالى، فمن الذين أرسلَ إليهم الرسلَ مَنْ هدى اللهُ تعالى للإيمانِ واتبعَ الرسلَ، ومنهم مَنْ كفر بالله وأشركَ به، فحقت عليهم الضلالة، أي: وجبتِ وثبتت، بسبب إصراره على الكفرِ وفي الآيةِ دليلٌ بَيِّنٌ على أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ العبادَ جميعاً بتوحيدِهِ، ونهاهم عن عبادةِ غيره.

وقد أمرنا أن نسير في الأرضِ، فننظر في أكنافها كيف كان عاقبة المكذبين: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل:٣٦] ومَنْ سارَ في الأرضِ رأى

مصارعَ القومِ المكذبين، فهناك في جنوب الجزيرة العربية مصارعُ قومِ هودٍ، وفي شمالها مصارعُ قومِ صالحٍ، وفي الطريق من المدينة إلى الشام مصارعُ قومِ لوطٍ، وقريباً منهم في مَدْينَ مصارعُ قومِ شعيبٍ، وعلى المرءِ أن ينظر كيف كان عاقبةُ المكذبين. والله وإن شاءَ وقوعَ الشكِّ منهم، فإنَّه شاءَه قدراً، ولم يشأه ديناً ومحبَّة، فالله أَذِنَ بالقتلِ والسرقةِ والكذبِ وقطيعةِ الرحمِ، ولكنَّه لم يحبَّها، ولم يرضاها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١ - المؤمنون يؤمنون بكتابِ الله المنزلِ مِنْ عندِ الله تعالى، ويؤمنون بأنَّ مصيرَ المؤمنين جنَّاتٌ تجري مِنْ تحتها الأنهار.

٢ - عندما تقبض الملائكةُ أرواحَ المؤمنين تبشرهم بجناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهار.

٣- الكفارُ يُصِرُّون على كفرِهِمْ حتى تنزعَ الملائكةُ أرواحهم، أو يأتي أمرُ الله بعذابهم، مثلهم في ذلك مثل الكفارِ مِنْ قبلهم.

٤- احتجَّ الكفارُ بالقدرِ على صحة كفرِهِمْ، وليس فيه حجَّةٌ لهم، فمع أنَّ اللهَ تعالى رضي كفرهم قدراً، لكنه كرههُ ونهاهم عنه، وأرسَل رسلَهُ ليأمرهم بتوحيده، وينهاهم عن الشرك به.

٥- أرسل اللهُ تعالى في كلِّ أمَّةٍ رسولاً يأمرهم بعبادةِ الله وحده، وينهاهم عن عبادةِ الطاغوتِ، والطاغوتُ كلُّ ما عُبد مِنْ دون الله عزَّ وجلَّ.

٦- أمَرَنا اللهُ -تعالى- بالسيرِ والنظرِ في الأرضِ، لنعتبر بمصارعِ الغابرين.

النص القرآني الرابع من سورة النحل
الرد على الذين يكذبون بالبعث والنشور

أولاً: تقديم

ردَّ ربّ العزَّة على الذين يكذبون بالبعثِ والنشورِ، وبيَّن الأجرَ العظيمَ الذي يناله المهاجرون في سبيله في الدنيا والآخرة، وبيَّن سبحانه أنَّهُ يختار رسوله من رجال بني آدم، وأنَّه يرسلُ معهم الحججَ الواضحاتِ، وينزلُ معهم الكتبَ، وأنَّه أنزل على رسولِهِ ﷺ القرآنَ ليبينه رسولُهُ ﷺ للناسِ، وليتدبر الناس فيه.

وتهدَّدَ ربُّ العزَّة سبحانه الذين مكروا في الخفاء أن يخسف بهم الأرض، أو يأخذهم في تقلبهم في شتى أحوالهم، أو يأخذهم وهم متخوفين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل:٣٧-٤٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يهدي الله مَنْ يريدُ إضلاله:

يقولُ ربُّ العزة -سبحانه وتعالى- لرسولِه ﷺ: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النحل:٣٧] أي: إن تحرصْ على هدايةِ مَنْ تدعوهم، فإنَّ اللهَ لا يهدي من يضلُّه، كما قال عزَّ وجلَّ ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ [الأعراف:١٨٦]، وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦].

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ أي: ليس لهم أحدٌ ينصرهم مِنْ دون الله عزَّ وجل، فالله قاهرٌ غالبٌ، لا يعجزه شيءٌ في الأرضِ، ولا في السماءِ.

٢- **إقسامُ الكفار على أنَّ اللهَ لا يبعثُ مَنْ يموت:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفار في زمنِ نبينا محمدٍ ﷺ قد أقسموا على أنَّ الذي يموت لا يُبعثُ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٨﴾ [النحل:٣٨]. فالكفار مِنْ قريشٍ يُكذِّبون بالبعثِ والنشورِ، وليؤكدوا قولهم هذا أقسموا بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: حلفوا أغلظَ الإيمانِ على ذلك، وقد ردَّ اللهُ تعالى عليهم قولَهُمْ هذا بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: بلى: أي: سيبعثُ اللهُ كلَّ من يموتُ، وبَعْثُ الناسِ يومَ القيامة وَعْدٌ على الله، لا بدَّ منه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٨﴾ أي: لا يعلمون أنَّ بعثَ العبادِ أمرٌ يسير على الله، لا يُعْجِزُهُ مِنْ ذلك شيءٌ.

ثمَّ بيَّن ربُّ العزَّة سبحانه الغرضَ مِنْ بَعْثِ العبادِ، فقال سبحانه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾ [النحل:٣٩] أي: ليبين اللهُ تعالى لعباده ما كانوا يختلفون فيه في الحياةِ الدنيا، وأعظمُهُ اختلافُهُمْ في التوحيد، واختلافُهُمْ فيما كانوا يعبدونه من دون الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾ أي: وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فيما أقْسَمُوا عليه أنَّ اللهَ تعالى لا يبعثُ مَنْ يموت، ولذلك فإن زبانية النارِ تقولُ لهؤلاء المكذبين بالبعثِ والنشورِ، وهي تَدُعُّهُمْ إلى النارِ ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦﴾ [الطور:١٤-١٦].

ثُمَّ بيَّنَ لنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّ أمْرَ بعثِ العبادِ يومَ المعادِ سهلٌ يسير عليه سبحانه، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل:٤٠] فالله -تبارك وتعالى- إذا أرادَ أن يخلق شيئاً، فإنَّما يقول له: كن، فيكونُ كما أراده تبارك وتعالى، فالله لا يعجزُهُ شيءٌ، وليس هناك شيءٌ، يأمره اللهُ فيرفضُ الإجابةَ، ولا يطيعُ.

وقد جاء في الحديثِ القدسيّ أنَّ الذين زعموا أنَّ اللهَ تعالى لا يبعثُ من يموت، قد كذبوا على الله تبارك وتعالى، فعن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال اللهُ: كَذَّبني ابنُ آدمَ، ولم يَكُنْ له ذلكَ، وشَتَمَني، ولم يَكُنْ له ذلكَ، أمَّا تَكْذِيبُه إيَّايَ أنْ يقولَ: إنِّي لن أُعيدَه كما

بَدَأْته، وأمّا شَتْمُه إيّايَ أنْ يقولَ: اتَّخَذَ اللهُ ولداً، وأنا الصَّمَدُ الذي لم أَلِدْ ولم أُولَدْ، ولم يَكُنْ لي كُفُؤاً أحدٌ» [البخاري: ٤٩٧٥].

٣- وَعَدَ اللهُ تعالى المهاجرين في سبيله بالحسنات في الدنيا والأجر في الآخرة:

وَعَد اللهُ -تبارك وتعالى- الذين هاجروا في سبيلِهِ، وفارقُوا الأهلَ والأوطانَ يريدون الفرار ممن يقهرُهُمْ على الكفرِ، بحسنةِ الدنيا، وأجرِ الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

وقد آذَتْ قريشٌ الرسولَ ﷺ وأصحابَهُ في مكَّة أذىً كثيراً، فهاجر أصحابُهُ إلى الحبشةِ، وقد بلغَ عدَدُهُمْ ثمانين نفساً، ثم هاجر الرسولُ ﷺ وأصحابُهُ إلى المدينةِ المنورةِ، وقد وعدهم اللهُ تبارك وتعالى ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ فأقامَ لهم ربُّ العزةِ دولةً، وما زالت تلكَ المدينة تأكلُ القرى، ويفتح اللهُ عليها البلادَ والعباد، حتى فَتَحَتِ الجزيرةَ العربيةَ، ثمَّ فتح اللهُ على أصحابِهِ فارسَ والرومَ، ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: ما يعطيه اللهُ -تبارك وتعالى- المهاجرين يومَ الدين أكبر مما نالوه في الحياة الدنيا ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وعرَّف اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَه على المهاجرين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: الذين صبروا على أذى قومهم، واعتمدوا على ربِّهم فيما أصابهم ونابهم.

٤- اختار اللهُ -تبارك وتعالى- الذين أوحى إليهم رجالاً مِنْ الإنسِ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه اختارَ رسلَه مِنَ الرجال مِنْ بني آدم، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٣-٤٤].

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ سنتَهُ في عباده أنْ يختارَ الرسلَ رجالاً مِنْ بني آدم ينزلُ عليهم وَحْيَهُ، واقتضتْ ميشئته أنْ لا يرسلَ رسلَهُ مِنَ الملائكةِ، ولا الجنِّ، ولا من النساءِ، ومَنْ نظر فيما حدثنا اللهُ به عن رسلِهِ وجدهم جميعاً كذلك، أي: رجالاً مِنَ الإنسِ، وطلبَ منَّا أنْ نسألَ مَنْ أُنزِل عليه الذكرُ مِنْ قبلنا ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

وقد أرسلَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسلَهُ الذين اختارهم من الرجال مِنْ بني آدم بالبيناتِ، وهي الحجج الواضحاتُ، والزبرُ، وهي الكتبُ كالتوراةِ والزبور والإنجيلِ، وأنزلَ اللهُ إلى رسولِهِ محمدٍ الذكرَ، وهو القرآنُ الكريمُ، ليبين للناسِ ما نُزِّل إليهم من ربِّهم، وقد بَيَّنَ

الرسولُ ﷺ لأصحابِهِ وأمتِهِ ما أنزل اللهُ إليه أعظم بيان، بقوله وفعله، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: يتفكرون في خلق أنفسِهِمْ وخلق الكون من حولِهِمْ، فيهتدون إلى ربهم.

٥- تهديد الله -تبارك وتعالى- الذين مكروا السيئات أن يخسف بهم الأرض:

تهدَّدَ ربُّ العزةِ -سبحانه- الذين يدبرون المكايد أن يخسف بهم الأرض ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النحل:٤٥].

خاطب ربُّ العزَّةِ المشركينَ مِنْ أهْلِ مكةَ قائلاً: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الذين فعلوا السيئاتِ، وأصلُ المكرِ في اللغةِ: السعيُ بالفسادِ، وأعظمُهُ: سعيهم في إيذاءِ الرسولِ ﷺ وإيذاءِ أصحابه على وجه الخفية، واحتيالهم في كيدِ الإسلامِ وكيدِ أهله. وقوله: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أن تسيخ الأرض بهم مِنْ تحتهم، فتهلكهم في جوفها، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: مِنْ حيث لا يعلمون مجيئه، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك:١٦-١٧].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [النحل:٤٦] يأخُذُهم، أي: يُهْلِكَهُمْ أثناء تصرفهم في أعمالهم في الليلِ أو النهارِ، ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل:٤٧] أي: يأخذهم على تنقُّصٍ إما بقتلٍ أو موت، أي: ينقصُ مِنْ أطرافِهِم ونواحيهم الشيءَ بعد الشيءِ، حتى يهلكهم جميعاً، وقال بعضُ المفسرين: معنى التَّنقص أنْ يأخذَ الأوَّلَ فالأوَّلَ حتى لا يُبقي منهم أحداً، وتلك حالٌ يخاف منها الفناءُ، ويتخوفُ الهلاكُ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ أي: ومن رأْفته سبحانه أنه أمهل وجعل فسحة للتوبة.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- لا يستطيعُ العبادُ هدايةَ مَنْ يُريدُ اللهُ تعالى إضلاله.

٢- كان كفارُ قريشٍ ينكرون قدرةَ الله على بعثِ العباد، ويقسمون على أنَّ اللهَ تعالى لا يبعثُ مَنْ يموتُ، فأكذبهم ربُّ العزة، وأعلمنا أنَّ بعثَ العباد وَعْدٌ عليه.

٣- اللهُ -تعالى- يبعثُ العبادَ يومَ القيامةِ، ليحكمَ بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، وليعلمَ الكفارُ الذين أنكروا البعثَ والنشورَ أنهم كانوا كاذبين فيما زعموا.

٤- بَعْثُ العبادِ أمرٌ سهلٌ هَيِّنٌ على ربِّ العباد، فهو -سبحانه- إذا أرادَ خلق شيءٍ يقولُ له: كن، فيكون كما يريده ربُّ العزَّةِ سبحانه.

٥- ثناءُ ربِّ العزة -سبحانه وتعالى- على الذين هاجروا في سبيله تعالى، ووعدهم بحسنةِ الدنيا، أي: بالنصرِ والتمكينِ في الدنيا، ووعدهم بأجرِ الآخرةِ، وهو أكبرُ مِنْ حسنةِ الدنيا.

٦- أرسل اللهُ تعالى رُسُلَهُ مِنَ الرجالِ مِنْ بني آدمَ، لا مِنَ الملائكة، ولا مِنَ الجنِّ، ولا النساء.

٧- أرسل اللهُ -تبارك وتعالى- رُسُلَهُ بالحججِ الواضحاتِ، والكتبِ المنزلةِ مِنْ عندِهِ، ليبين رسلُهُ ﷺ للناسِ ما أنزله إليهم، ولعلهم يتفكرون.

٨- أنكر اللهُ تعالى على الذين عملوا على الإضرار برسولِهِ والمؤمنين، وعملوا على تدميرِ هذا الدين، وتهدَّدَهم بخسفِ الأرض بهم، أو إنزالِ العذاب وهم لا يشعرون، أو بأخذهم بشيءٍ بعد شيءٍ، حتى يبيدهم جميعاً.

النص القرآني الخامس من سورة النحل

كلُّ ما في السموات والأرضِ فهو ساجد خاضع لله تعالى

أولاً: تقديم

لفتَ ربُّنا -تبارك وتعالى- أنظارَنا إلى الكونِ الذي نعيشُ فيه، فهو خاضعٌ ساجدٌ لله ربِّه ومولاه، ونهى العبادَ أنْ يتخذوا إلهاً غيرَهُ، فهو الإلهُ الواحدُ سبحانه، وأعلمنا ربنا في هذه الآياتِ أنَّ له ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وله الدينُ وَحْدَهُ دائماً وأبداً، وقرَّرَ سبحانه أنَّ ما بنا من نعمةٍ فمِنَ الله تعالى، وإذا مَسَّنا الضرُ فإليه نجأرُ، أي: فبه نستغيث، فإذا كشفَ عنَّا الضرَّ فإذا جمعٌ مِنْ بني آدم الذين كانوا يجأرون إلى الله في الضراء يشركون بالله.

وذمَّ اللهُ سبحانه الذين يصرفون شيئاً مما رزقهم اللهُ تعالى لغيره مِنَ الأصنامِ والأوثان، وسيسألهم ربُّ العزَّة عما كانوا يتقولونه ويختلقونه، وذمَّ المشركين في كذبهم على ربِّهم وادعاءَهم أنَّ الملائكة بناتُ الله في الوقت الذي يَكْرَهون فيه أن يُنْسَبَ إليهم البناتُ، حتى إن الواحدَ منهم إذا رزقَه اللهُ تعالى بالأنثى تألَّمَ وحزنَ وأُصيبَ بالهمومِ والأوجاعِ، وإذا أمسك الأنثى أمسكها على ذلٍّ وهوانٍ، وإذا لم يمسكها وأدها ودفنها حيَّةً، وختمَ اللهُ تعالى هذ النصَّ ببيان أن مثلَ السوءِ للكفار، وأنَّ اللهَ تعالى له المثلُ الأعلى سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل:٤٨-٦٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - بيان معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾:

وجَّه اللهُ -تبارك وتعالى- أنظارَ عبادِهِ إلى النظرِ إلى ما خلقَ مِن شيءٍ تَميلُ وتنتقل ظلالُهُ عن اليمينِ والشمائلِ سجداً لله، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٨-٥٠].

قال ابنُ جرير في تفسيره: «أو لَمْ يَرَ هؤلاءِ الذين مكروا السيئاتِ إلى ما خلقَ اللهُ مِنْ جسمٍ قائمٍ شجرٍ أو جبلٍ أو غير ذلك ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ يقول: يرجعُ مِنْ موضعٍ إلى موضع، فهو في أوّلِ النهارِ على حالٍ، ثم يتقلَّصُ، ثم يعودُ إلى حالٍ أخرى في آخرِ النهارِ» [تفسير الطبري: ٦/ ٤٩٨٨].

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أراد مِنْ شيءٍ له ظلّ، مِنْ جبلٍ، أو شجرٍ، أو جسمٍ قائمٍ ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ وهو جمعُ ظلٍّ، وإنما جمع وهو مضاف إلى واحد، لأنه واحدٌ يُراد به الكثرة. قال ابن قتيبةَ: ومعنى ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾: يدورُ ويرجعُ مِنْ جانبٍ إلى جانبٍ، والفيءُ: الرجوعُ، ومنه قيل للظلِّ بالعشيِّ: فَيْءٌ، لأنه فاء عن المغرب إلى المشرق.

قال المفسرون: إذا طلعتِ الشمس وأنت متوجه إلى القبلة، كان الظلُّ قُدّامك، فإذا ارتفعتْ كان عن يمينك، فإذا كان بعد ذلك كان خلفك، وإذا دنتْ للغروب كان على يسارك، وإنما وحّد اليمين، والمراد به: الجمعُ، إيجازاً في اللفظ، كقوله تعالى: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥]، ودلَّت ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ على أنَّ المرادَ به الجميعُ، وقال الفراء: إنما وَحَّدَ اليمين، وجمع الشمائل، ولم يقل: الشمال، لأنَّ كل ذلك جائز في اللغة» [زاد المسير: ٤/ ٤٥٢].

وقوله تعالى: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: يسجدون لله ربِّ العالمين، وهم داخرون، أي: صاغرون.

ثم أخبَرَ رَبُّ العزة -سبحانه- عن سجودِ الدوابِّ والملائكةِ لله تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾. وهذا الكون كلُّ ما فيه يسجدُ لله ربِّ العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾

[الرعد:١٥]، وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحج:١٨]. ونحن نعلم أن هذه المخلوقات تسجد له حقيقة، ولكننا لا نعرف كيف تسجدُ، كما قال اللهُ تعالى في تسبيحِ الكائنات ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقد كانت الجبال والطيرُ يسبحن مع نبي الله داود عليه السلام ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [الأنبياء:٧٩]، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّ الرعدَ يسبحُ بحمده ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد:١٣].

وأخبرنا ربُّنا العليمُ الحكيمُ سبحانه أنَّ الملائكةَ تسبحُ بحمده وهم لا يستكبرون، وأنهم ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾. فالملائكةُ الكرامُ مع ما أعطاهم مِنْ قوى وقدراتٍ، لا يَمْلِكُ مثلها أحدٌ مِنْ أهل الأرض يخافون ربَّهم مِنْ فوقهم، وهم يديمون طاعةَ ربِّهم، وكل ما أمرهم به فعلوه مِنْ غيرِ تقصير.

٢- نهيُ الله عباده عن اتخاذ إلهين اثنين:

نهى اللهُ -تعالى- عِبادَهُ عن أنْ يتخذوا إلهين اثنين، وقَرَّر سبحانه وتعالى أنَّ الإله الذي يستحقُّ العبادةَ إلهٌ واحدٌ ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل:٥١].

نهى اللهُ تبارك وتعالى عن اتخاذ إلهين اثنين، ثم أَثْبَتَ أنَّ الإلهية منحصرةٌ في إله واحدٍ، وهو اللهُ سبحانه، ثم أمَرَ اللهُ سبحانه بالخوفِ منه وَحْدَه ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ أي: ولا تخافوا المعبوداتِ الباطلة التي تعبدوها.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النحل:٥٢] أي: هو مالكُهما وخالِقُهما سبحانه ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ [النحل:٥٢] أي: الدينونة لله ربِّ العالمين، وقوله: ﴿وَاصِبًا ﴾ أي: دائماً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الصافات:٩] أي: دائمٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النحل:٥٢] أغيرَ الله تتقونَ عذابَهُ وعقابَهُ؟ ثمَّ قَرَّر ربُّ العزةِ في خطابِهِ عبادَهُ أنَّ كلَّ النعم التي تحيط بنا هي مِنْ ربِّنا وَحْدَهُ سبحانَه، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]. والنعمُ قد تكون دينية، وهي معرفةُ الحقِّ والعملِ به، أو قد تكون

دنيوية نفسانية أو بدنية، أو هي خارجية، وهي تتمثل في الأولادِ والأزواجِ والزروعِ والحرثِ ومتاعِ الدنيا، ونعم الله تعالى تحتاج إلى شكرٍ.

وقوله: ﴿ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ﴾ [النحل:٥٣] أي: إذا أصابتنا المصائبُ، ونزلت بنا الدوائرُ، فإلى الله تعالى نجأر، أي: ترفعون أصواتكم مستغيثين به سبحانه متضرعين له، لأنه وحدَهُ الذي يستطيع رفعَ الضرِّ عنكم.

وأخبرنا عَنْ الكفار أنه إذا رفع الضرَّ عنهم ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ ﴾ [النحل:٥٤] أي إذا رفعَ ربُّ العزةِ الضرَّ عن عباده سبحانه، ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤ ﴾ [النحل:٥٤] أي: إذا جماعة جماعةٌ مِنَ العباد الذين أخلصوا دينهم في حالِ نزولِ الضرِّ بهم يشركون، وهذا الذي فعلَهُ هؤلاءِ أمر مستغربٌ منه، متعجبٌ منه، فهؤلاءِ بعدَ أن وَحَّدوا كفروا ﴿ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٥٥ ﴾ [النحل:٥٥]، أي: ليكفروا بما آتاهم الله تعالى مِنْ كشفِ نعمةِ الضرِّ، وقوله: ﴿ فَتَمَتَّعُواْۖ ﴾ أي: بدنياكم، فإنَّها قليلة فانية و﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٥٥ ﴾ عندما تصير إلى يومِ الدين، وينزلُ بكم العذابُ.

٣- كفارُ أهلِ مكةِ يجعلون لأصنامِهِمْ نصيباً مما رزقهم اللهُ تعالى:

أخبرنا ربُّنا العليمُ الحكيمُ أنَّ مشركي أهلِ مكَّةَ ﴿يَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ۝٥٦ ﴾ [النحل:٥٦]. أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ هؤلاءِ الكفارِ يجعلون لما لا يعلمون، أي: للأصنامِ والأوثانِ التي لا تعقلُ، ولا تعلم، ولا تضرُّ، ولا تنفعُ، يجعلون لها نصيباً مِنْ أموالِهِمْ وأنعامِهِمْ التي رزقهم اللهُ تعالى إياها، ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ۝٥٦ ﴾ أقْسَم ربُّ العزة سبحانه وتعالى بنفسِهِ الكريمة، على أنَّهم سيسألون يومَ القيامةِ عما كانوا يفترونَه، وهذا السؤالُ سؤالُ توبيخٍ وتقريعٍ، والمراد به أنْ يعترفوا على أنفسِهِمْ في ذلك اليومِ، لأنَّ سؤال التوبيخِ هو الذي لا جوابَ لصاحبه إلا ما تظهرُ فيه فضيحته. وقوله: ﴿تَفۡتَرُونَ ۝٥٦ ﴾ أي: تتقولونه على الله تبارك وتعالى.

٤- كان أهلُ الجاهلية ينسبون لله سبحانه البنات ويحبون أن يُنسَب لهم الذكور:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ قبائلَ مِنْ عربِ الجاهليةِ كانوا يجعلون البناتِ لله، ويجعلون لأنفسهم ما يشتهونه: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ۝٥٧ ﴾ [النحل:٥٧]. وهذا من إفكِهِمْ وضلالِهِم، فقد كانوا يزعمون أنَّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى الله عما يقولونَ ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ

إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات:١٥١-١٥٤].

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: يختارون لأنفسهم الذكورَ، ويأنفون مِنَ البنات، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الواحدَ مِنْ أهلِ الجاهليةِ إذا رزقَهُ اللهُ تعالى بالأنثى، وبُشِّرَ بها، امتلأَ قَلْبُهُ غيظاً، وأصابَه النكدُ والهمُّ، وتغيرتْ ملامحُ وجهِهِ، وتعكرتْ، وظهر عليه علامات الاكتئاب، وأصبح كظيماً، والكظيمُ الذي امتلأَ غيظاً وحنقاً، فلا يتكلم. وتراه ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ أي: تراه يتغيب عن قومِهِ، ويختفي منهم، من سوءِ العارِ الذي بُشِّر به، وأصبحَ الواحدُ منهم بين حالين تجاهَ هذه الوليدةِ، الأولى: أن يمسكها على هونٍ، أي: على هوانٍ، والثانية: أن يدسَّ هذه الوليدةَ في الترابِ، وهذا الذي كان يعرف عند أهل الجاهلية بالوأدِ، يقتلون الصغيرةَ بدفنها حيَّةً.

وقال ربُّ العزة سبحانه معقِّباً: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ والحكمُ الذي حكموا به، وذمهم اللهُ تعالى به هو نسبتهم البناتِ التي يكرهونها إلى ربِّ العزَّة، وكرهوا نسبة البنات إليهم.

وقرَّر ربُّ العزةِ -سبحانه وتعالى- أن ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل:٦٠] قرر -سبحانه- أن هؤلاء القومِ الذين نسبوا إلى الله -تعالى- البنات، وهم لا يؤمنون بالآخرةِ لهم مثل السوء، أي: صفةُ السوء، ومِنْ ذلك احتياجُهم للولدِ، وكراهيتهم للإناثِ خشيةَ العيلة والعار، ومن أمثلة السوءِ التي يَستحقها هؤلاءِ ما ضَرَبه الله من الأمثال للأصنام وعبدتها، والله تعالى له المثَلُ الأعلى، أي: الصفة العليا، فالله تعالى كمالٌ لا نقص فيه، فاللهُ تعالى واحدٌ أحدٌ فرد صمدٌ، لم يلدْ ولم يولدْ، ولم يكن له كفواً أحد، واللهُ واحدٌ في ذاتِهِ، واحد في صفاتِهِ، لا يشبههُ شيءٌ، ولا يماثله شيء، سبحانه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علم وعمل:

١ - أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- عما خلقه في الأرضِ قائماً له ظلٌّ، تدورُ ظلالُه من جانبٍ إلى جانب، وهذه المخلوقاتُ وظلالها تسجد لله تعالى، وهي صاغرةٌ.

٢- كلُّ ما في الأرضِ، والملائكةُ في السماءِ تسجدُ لله سجوداً حقيقيًّا لا ندري كيف هو، والملائكةُ تسجدُ لله عزَّ وجلَّ وتخشاه.

٣- الله تعالى واحدٌ أحدٌ، وليس هناك معبودٌ آخر يستحقُّ العبادةَ مع الله تعالى.

٤- اللهُ تعالى له ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وله الدين الحقُّ دائماً، وكلُّ النعمِ التي في الإنسانِ وما حوله فمصدرها ربُّ العزَّة سبحانه.

٥- كان الكفارُ إذا أصابهم الضرُّ استغاثوا بالله تعالى ليرفعه عنهم، فإذا كشفه عنهم إذا بجماعة منهم يشركون بربِّهم تبارك وتعالى، لتكون عاقبتهم الكفرُ بما آتاهم اللهُ.

٦- الكفارُ يجعلون من مالِ الله الذي رزقهم إيّاه وحدَه، نصيباً لأصنامهم، وهذا ضلالُ منهم، وسيسألهم الله عمَّا كانوا يتقولونه، ويفترونه.

٧- أخبرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- عن المشركين الضالين أنهم زعموا أنَّ الملائكةَ بنات، وكرهوا أن يأتيهم من الولد ما نسبوه إلى الله تعالى، وحدثنا رَبُّنا تبارك وتعالى عما يصيبهم مِنَ الحزنِ والاكتئاب إذا رزقوا بالإناث.

أخبرنا ربُّ العزَّةِ أنَّه لو يعجِّلُ للناس عقوبتهم بسبب ما يقع منهم مِنْ ظلم، لأهلكهم، وأهلك الدوابَّ التي فوق الأرضِ كُلِّها، وقال ابن عباس في رواية عطاء: «لَو عاجلهم بالعقوبة على كفرهم ما أمهلُهمْ طرفةَ عينٍ، ولأخلى وجهَ الأرضِ عنهم» [تفسير الواحدي: ١٣/ ٩٨].

وروي عن ابنِ مسعود قال: «كاد أنْ يَهْلِكَ الجُعْلُ في حُجْرِهِ بذنبِ ابنِ آدم، والمعنى على هذا أنَّ شُؤْمَ ذنوبِ المشركين كاد أن يصيب دوابَّ الأرض كُلَّها، حتى تهلكَ بسببِ ذلك، لولا حلمُ الله وتأخيره العقوبة» [تفسير الواحدي: ١٣/ ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: فإذا جاء الموعدُ الذي حدَّدَه اللهُ تعالى لهلاكهم، فإنهم لا يستأخرون ساعة، ولا يستقدمون ساعةً.

٢- كان كفارُ العربِ يجعلونَ للَّه تعالى ما يكرهونَهُ وهنَّ البناتُ:

كان كفارُ العربِ يجعلون لله تعالى ما يكرهونه لأنفسهم، فيجعلون له البناتِ، كما سبقَ ذكره قريباً، ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل:٦٢].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المشركين ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النحل:٦٢]. أي: تقول ألسنة المشركين الكذب على ربِّ العالمينَ، ومن كذبهم ما حَدَّثنا اللهُ تعالى به في هذه الآية، فقد زعموا كاذبين أنَّه إذا كان هناك بعثٌ ونشورٌ، فإنَّ لهم الحسنى، أي: الجنة، وقد كذبهم ربُّ العِزَّة سبحانه، وأخبر أنَّ لهم النار ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ وقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقّاً، وقوله: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: أنهم متروكون منسيون في النار.

٣- واسى اللّهُ تعالى رسولَهُ بأنه أرْسَلَ إلى مَنْ قبله فزينَ الشيطانُ لهم أعمالهم:

قال تعالى مُقْسِماً بنفسه سبحانَهُ ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل:٦٣].

وواسَى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ في تكذيبِ قومِهِ له، أنَّه أرسلَ الرسلَ إلى الأُمم الماضية، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أي: زين لهم الكفرَ والشركَ والعصيانَ، فعَصَوْا رسلَهُ وكَذَّبوهم، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ أي: فهو وليُّهُمْ في يومِ القيامةِ، ومَنْ كان الشيطانُ وَلِيَّهُ يومَ القيامةِ دخل النار.

٤- أنزل اللهُ تعالى على رسولِهِ ﷺ الكتابَ ليبين لهم الذي اختلفوا فيه:

أعْلَمَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنّه ما أنزل عليه الكتابَ، وهو القرآنُ إلا ليبين للناسِ الذي اختلفوا فيه ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل:٦٤]. أي: وما أنزلنا عليك الكتابَ يا رسولَنا إلا لتبين للناسِ الذي اختلفوا فيه، ومن ذلك اختلافهم فيما يعبدونه، واختلافهم فيما يحلُّونه ويحرمونه، ومنه اختلاف اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي: وجعلَ اللهُ تعالى هذا الكتاب هدىً ورحمةً للمؤمنين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١ - اللهُ -تبارك وتعالى- يتأنَّى بالناس، ولا يعاجلهم بالعقوبةِ، ولو آخذهم بالعقوبةِ ما ترك على ظهر الأرض مِنْ دابَّةٍ.

٢- شركُ العبادِ وكفرُهُمْ وذنوبُهُمْ ليست قصراً على أنفسهم، ولكنَّها تفسدُ الأرضَ، وتضرُّ البهائِمَ والطيرَ.

٣- مشركو العربِ كانوا يجعلون لله ما يكرهونه مِنَ البناتِ، وكانوا يزعمون كاذبين أنَّ لهم الجنَّةَ إنْ كان هناك بَعْثٌ، فأكذبهم اللهُ وقرَّر أن لهم النارَ.

٤- الذينَ كذَّبُوا الرسلَ مِنَ الأُممِ السابقةِ حالُهُمْ كحالِ مشركي العربِ، زين الشيطانُ لهم أعمالهم، فكذبوا الرسل، ولذلك فإنَّ الشيطانَ وليهم في الآخرة، ولهم عذابٌ أليم في ذلك اليوم.

٥- أنزل اللهُ القرآنَ على رسولِهِ ﷺ، ليبينَ الرسولُ ﷺ للناسِ الحقَّ فيما اختلفوا فيه.

النص القرآني السابع من سورة النحل
النعم التي أنعم بها رب العزة على عباده

أولاً: تقديم

عَدَّد اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ شيئاً مِنْ نعمه، وذِكْرُ هذه النعم يُرَقِّقُ القلوبَ، ويصفي النفوسَ، ويمضي بنا إلى ربِّنا، فمِنْ ذلك إنزالُه الماءَ مِنَ السماءِ، فيحيي به الأرضَ، وإخراجُ اللبنِ مِنْ بطون الأنعام لنشربه لبناً سائغاً للشاربين، وأخرج لنا مِنْ ثمراتِ النخيلِ والأعناب منه سَكَراً ورزقاً حسناً، وأخرج لنا من بطون النحل عسلاً صافياً، فيه شفاءٌ للناس، وهو خلقنا، ثمَّ يتوفانا، وقد نردُّ إلى أرذلِ العمرِ كي لا نعلم مِنْ بعد علمٍ شيئاً، وذكر رَبُّنا في هذه الآياتِ جملةً مِنَ النعمِ الأخرى عدَّدها وبيَّنها، سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل: ٦٥-٧٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ -تعالى- أنزل مِنَ السماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ بعد موتها:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النحل:٦٥]، أنزل اللهُ -تبارك وتعالى- مِنَ السماء، أي: من جهةِ السماءِ ماءً، أنزله ربُّ العزةِ مِنَ السحابِ، فأحيا به الأرضَ بعد موتها، فإنَّك تمرُّ بالأرض، فتراها يابسةً خاشعة، فإذا جادَها اللهُ تعالى بالغيثِ تراها وقد أينعتْ وأنبتتْ، واكتست جنباتها بالخضرةِ والزهورِ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: إنَّ في ذلك لآيةً تدلُّ على وحدانيةِ الله تعالى، وقوله: ﴿يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: كلامَ الله تعالى، ويفقهون ما يتضمنه مِنَ العبرِ، ويتفكرون في خلقِ السمواتِ والأرض.

٢- إسقاءُ اللهِ تعالى لنا مما في بطونِ الأنعامِ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين:

قالَ اللهُ تعالى محدثاً إيّانا عن إحدى نعمِهِ الكبيرة ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل:٦٦].

أعْلَمنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ لنا في الأنعام مِنَ الجِمالِ والأبقارِ والأغنامِ عِبْرَةٌ وعِظة، فقد جَعَلَها ربُّ العزَّةِ قادرةً على أنْ تخرجَ مِنْ بطونها مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودمٍ، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

والفرثُ ما يبقى في كروشِ الأنعامِ بعد الهضم، ويُحَوِّلُ ربُّ العباد مركبات من هذا الدم وذلك الفرثَ إلى هذا اللبن الأبيضِ اللذيذ الخالي مِنَ الشوائبِ الذي تستسغيه نفوسنا، وتتقبله أفواهنا، وقد اكتشفَ العلمُ اليومَ تلكَ الغددَ التي تحوِّلُ تلكَ الخلاصاتِ مِنَ الفرثِ والدمِ إلى هذا الحليبَ الطيبَ اللذيذ الذي يطلبه البشرُ في مختلفِ بقاعِ الأرضِ.

٣- ومن آيات الله تعالى ما أخرجه لنا من ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ:

ومِنْ آياتِ الله تبارك وتعالى الدالةِ على بديعِ صنعهِ، وعجيب أمره ما أخرجه لنا من ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ نتخذُ منه سَكَراً ورزقاً حسناً ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل:٦٧]. فثمارُ النخيل يصنعُ منها المسكراتِ، وكانت الخَمْر في أوَّلِ الإسلام حلالاً، ثم حُرِّمت، وقوله: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ﴾ فيها إشارة إلى أنَّ الخمرَ غيرَ داخلةٍ في الرزقِ الحسنِ، والرزقُ الحسنُ هو في تناولِ ثمارِ النخيل، وصنعِ ألوانِ الطعامِ مِنْ تلك الثمارِ، فمنْ ذلكَ صناعةُ التمرِ والزبيبِ والدبس، وأنواعِ

العصير، قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ إنَّ فيما أخرجه ربُّنا -تبارك وتعالى- من ثمراتِ النخيل والأعنابِ آياتٌ، وليس بآيةٍ واحدةٍ، تدلُّ على بديعِ صنعِ الله، والذي يفقهُ هذه الآياتِ همُ الذين يعقلون عن الله كلامَه، ويحسنون النظرَ إلى ما خلق مِنَ آياتِهِ.

٤- النعمُ التي جعلها ربُّ العزة في النحل:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

وقد فسَّر سيدُ قطب رحمه اللهُ تعالى هذه الآيات بقوله: «والنحلُ تعمل بإلهامٍ مِنَ الفطرةِ التي أودَعَها إياها الخالقُ، فهو لونٌ من الوحي تعملُ بمقتضاه، وهي تعمل بدقّةٍ عجيبةٍ يعجز عن مثلها العقلُ المفكرُ سواءً في بناءِ خلاياها، أو في تقسيمِ العملِ بينها، أو في طريقةِ إفرازها للعسل المصفى.

وهي تتخذُ بيوتها -حسبَ فطرتها- في الجبالِ والشجرِ وما يعرشون، أي: ما يرفعون من الكروم وغيرها- وقد ذلَّلَ اللهُ لها سبلَ الحياةِ بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها مِنْ توافق، والنصُّ على أنَّ العسلَ فيه شفاءٌ للناسِ قد شرحه بعض المختصين في الطبِّ، شرحاً فنيًّا. وهو ثابتٌ بمجردِ نصِّ القرآنِ عليه، وهكذا يجب أن يعتقد المسلمُ استناداً إلى الحقِّ الكليِّ الثابتِ في كتاب الله» [في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٨١].

وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ تدلُّ على أنَّ العسلَ فيه شفاءٌ للناس، فمن ذلك ما رواه أبو سعيد أنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ فقال: أخي يَشْتكي بَطْنَه، فقال: «اسقِه عَسَلاً» ثمَّ أتى الثانيةَ، فقال: «اسقِه عَسَلاً» ثمَّ أتاه فقال: فعلتُ، فقال: «صَدَقَ اللهُ، وكذَبَ بَطْنُ أخِيكَ، اسقِه عَسَلاً»، فسَقَاه فبَرَأَ [البخاري: ٥٦٨٤. ومسلم: ٢٢١٧].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كانَ رسولُ الله ﷺ يُحِبُّ الحَلْواءَ والعَسَلَ [البخاري: ٥٤٣١. ومسلم: ١٤٧٤ مطولاً].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الشِّفاءُ في ثلاثةٍ: في شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبةِ عَسَلٍ، أو كَيَّةِ نارٍ، وأنا أَنْهَى أُمتي عَنِ الكَيِّ» [البخاري: ٥٦٨١].

وعن جابرِ بن عبدالله رضي اللهُ عنهما، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنْ كانَ في أدْوِيَتِكُمْ -أوْ يَكُونُ في شَيْءٍ مِنْ أدْوِيَتِكُمْ- خيرٌ، ففي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أو شَرْبةِ عَسَلٍ، أو لَذْعَةٍ بنارٍ تُوافِقُ الدَّاءَ، وما أُحِبُّ أنْ أكْتَوِي» [البخاري: ٥٦٨٣. ومسلم: ٢٢٠٥].

٥- اللهُ -تبارك وتعالى- خلقنا ثم يتوفانا:

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل:٧٠].

أَخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- سبحانه في هذه الآية أَنَّه خَلَقَنا مِنَ العدم، ثم يتوفانا سبحانه، أي: يميتُنا، وقد يردُّ بعضنا إلى أَرْذَلِ العمر، وأرذلُ العمرِ الشيخوخةُ، وبلوغُ الإنسان حالةً لا يعلمُ فيها شيئاً، كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم:٥٤].

وكان الرسولُ ﷺ يدعو رَبَّه أنْ لا يُرَدَّ إلى أرذلِ العمرِ، فعَنْ أنسٍ بن مالك أَنَّ الرسولَ ﷺ كانَ يدعو فيقولُ: «أعوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ والكَسَلِ، وأَرْذَلِ العُمْر، وعَذابِ القَبْرِ، وفتْنَةِ المَحْيا والمَمَات» [البخاري: ٤٧٠٧. ومسلم: ٢٧٠٦].

٦- من آياتِ الله تعالى أنَّه فَضَّلَ بعْضَنا على بعضٍ في الرزق:

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [النحل:٧١].

خاطبَ اللهُ -تبارك وتعالى- المشركين به غيرَه قائلاً لهم: اللهُ فَضَّلَ بعضكم على بعضٍ في الرزق الذي رزقكم في الدنيا، فما الذين فضَّلَهم اللهُ على غيرهم ﴿ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ فهم لا يرضون بأن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتهم سواءٌ، قال قتادةُ في تفسير الآية: «وهذا مثلٌ ضربَهُ اللهُ، فهلْ أحدٌ منكم شاركَهُ مملوكهُ في زوجتِهِ، وفي فراشِهِ، فتعدلون بالله خلقَهُ وعبادَه؟ فإذا لم ترضَ لنفسِكَ هذا، فاللهُ أَحَقُّ أنْ يُنَزَّه منه مِنْ نَفْسِكَ، ولا تعدلْ بالله أحداً مِن عباده وخلقه» [تفسير الطبري: ٦/ ٥٠١٧].

وقوله: ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ أي: جحدوا نعمةَ الله عندما جعلوا لأصنامهم مِنْ الحرثِ والأنعام نصيباً.

٧- جعل اللهُ -تبارك وتعالى- لنا من أنفسنا أزواجاً وجعل لنا من أزواجنا بنين وحفدة:

خاطبَ ربُّ العزة عبادَهُ قائلاً لهم: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [النحل:٧٢].

امتنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- على عبادِهِ مِنَ البشر بأنَّهُ خَلَقَ لهم مِنْ أنفسهم أزواجاً، وقد خلقَ اللهُ -تبارك وتعالى- لآدمَ مِنْ ضلعه زوجاً له أُمَّنا حواءَ كما قال -تبارك وتعالى- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ﴾ [النساء:١].

وجعل لنا ربُّنا من الأزواج ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أي: جعل لنا منهنَّ الأولادَ وجعل لنا الحفدةَ، وهم أولادُ الأولاد، ثم قال تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ﴾ أي: مِنَ الطعامِ والشرابِ واللباسِ، ثم ذمَّ ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- المشركين لإيمانهم بالباطلِ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ، وكفرِهم بنعم الله، أي: عندما يصرفون العبادة لغير الله مِنَ الآلهةِ الباطلةِ ﴿أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

٨- ذمَّ اللهُ -تعالى- المشركين لعبادتِهِمْ غيره:

ذَمَّ ربُّ العزَّةِ المشركينَ بعبادتهم ما لا يملك لهم رِزْقاً مِنَ السمواتِ والأرضِ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النحل:٧٣].

فهذه الآلهةُ الباطلةُ لا تملكُ شيئاً مِنَ الرزق في السمواتِ والأرضِ، فلا تملك أن تنزلَ المطرَ مِنَ السماءِ، ولا تملكُ أن تخرجَ الزرعَ، ولا تُدِرَّ الضرعَ، ولا تملك دفْعَ الشرِّ عن عابديها، ولا تملك جلبَ الخيرِ لهم، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: هذه الأصنامُ لا تملك شيئاً مِنْ ذلك لأنفسِها، فهي ضعيفةٌ عاجزة لا تقدر على شيء.

ونَهى اللهُ -تعالى- المشركين عن ضربِ الأمثالِ لله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل:٧٤]. أي: فلا تجعلوا لله أنداداً ولا أشباهاً وأمثالاً له، فإنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يعلم أنَّه واحدٌ لا شريك له، وأنتم لا تعلمون ذلك.

٩- ضرب اللهُ -تبارك وتعالى- مثلين للإلهِ الحقِّ والإله الباطل:

ضَرَبَ اللهُ -تبارك وتعالى- مثلين للإلهِ الحقِّ والإلهِ الباطلِ ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [النحل:٧٥].

قال مجاهدٌ في هذه الآيةِ: «كلُّ هذا مثلُ إلهِ الحقِّ، وما يُدْعى مِنْ دونِهِ مِنَ الباطلِ، وقال السديُّ: هذا مثلٌ ضربه اللهُ للآلهةِ، يقولُ: كما لا يستوي عندكم عبدٌ مملوك لا يقدر مِنْ أمره

على شيءٍ، وعبدٌ حُرٌّ قد رُزِقَ رزقاً حسناً، فهو ينفق منه سرّاً وجهراً، لا يخاف مِنْ أحدٍ، فكذلك أنا والآلهةُ التي تَدْعُون، ليست تملك شيئاً، وأنا الذي أملكُ وأرزق مَنْ شئتُ، وهذا القولُ هو اختيارُ الفراءِ والزجاجِ، قال: بَيَّنَ اللهُ لهم أمر ضلالتِهم وبُعْدَهم عن الطريقِ في عبادتهم الأوثان، فذكر أن المالكَ المقتدرَ على الإنفاق، والعاجزَ الذي لا يقدر أن ينفق لا يستويان، فكيف يُسَوَّى بين الحجارةِ التي لا تتحركُ ولا تعقلُ، وبيَّنَ الله الذي هو على كلِّ شيءٍ قديرٍ، وهو رازق جميع خلقِهِ» [تفسير الواحدي: ١٣/ ١٤٢].

وضرب اللهُ -تبارك وتعالى- مثلاً آخر، فقال: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل:٧٦].

وذهب مجاهدٌ والسُّدِّيُّ وقتادةُ إلى أنَّ هذا المثَلَ كسابقه ضربَ الله تعالى فيه مثلاً للإله الحقِّ والأصنامِ والأوثانِ، وهذا القولُ هو اختيار الفراءِ والزجاجِ وابنِ قتيبة [تفسير الواحدي: ١٣/ ١٤٧].

والأبكمُ: الأقطعُ اللسانِ، وهو العَيِيُّ بالجواب، الذي لا يحسنُ وجهَ الكلامِ، لأنَّه لا يفهم وَجْهَ الكلام، ولا يفهم عنه. وقوله: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: لا يقدرُ على شيء مِنَ الأشياءِ المتعلقةِ بنفسه أو بغيره لعدم فهمه ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: هو ثِقَلٌ أي عِبْءٌ على مولاه وصاحبه، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي: أينما يرسله ويبعثهُ لا يأتي بخير، لقلةِ فهمه، وقصورِ إدراكه ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ أي: هل يستوي هذا الأبكمُ الذي هذه صفاته، هو والرجلُ السويُّ القادرُ على النطقِ، التامُّ العقلِ، الذي يحسنُ التدبير والعمل، ويأمر بالعدلِ والإنصاف، وهو على صراطٍ مستقيم، أي: على الدين القويم.

والجواب: أنهما لا يستويان.

١٠- الله -تبارك وتعالى- محيطٌ علمُهُ بالسمواتِ والأرض:

ثم أخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أن له: ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل:٧٧].

فاللهُ -تبارك وتعالى- العليمُ الخبيرُ مطلعٌ على كلِّ ما غاب عنكم مِنْ غيوبِ السمواتِ والأرضِ، لا يخفى عليه شيءٌ مِنْ أُمورهما، ومِنْ جملةِ هذه الغيوب التي لم يُطْلع رَبُّنا عليها

أحداً، لا مَلَكٌ مقربٌ، ولا نبيٌّ مرسل زمن وقوعِ الساعةِ، وقد أخبرنا رَبُّنا عزَّ وجلَّ عن قدرته على وقوعِ الساعة فإذا شاءَ إيقاعها، كان وقوعها في مثل لمحِ البصر، أو هو أقرب مِنْ ذلك، لأنَّه يقولَ لها: كن، فتكون كما يريده اللهُ تعالى، واللهُ تعالى على كل شيءٍ قديرٍ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- ذكر اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصَّ بعضاً مِنْ نِعَمه التي أنعم بها على عباده ليشكروه.

٢- مِنْ نِعَمِ الله على عبادِهِ إنزالُهُ الماءَ مِنَ السماءِ، فأحيا به الأرض بالنباتِ، فيشرب العبادُ وحيوانُ الأرضِ مِنَ الماءِ، ويشربُ الزرعُ والشجرُ مِنْ ذلك الماء.

٣- أخرج اللهُ -تبارك وتعالى- لعبادِهِ مما في بطون الأنعام لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

٤- جعل اللهُ لنا مِنْ ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ سكراً، وهذا قبل تحريمِ الله الخمر، وجَعَلَ لنا من تلك الثمارِ رِزْقاً حسناً.

٥- سخر اللهُ تعالى لعباده النحلَ، تأكل مِنْ جنى الزهورِ، وتخرج مِنْ بطونها العسل مختلفاً ألوانه، ليكون شفاءً للناس.

٦- اللهُ تبارك وتعالى خلقنا، ثم يميتنا، وبعضنا يردُّ إلى أرذلِ العمر، فيصيرُ إلى الهرمِ والشيخوخةِ، ولا يعلم مِنْ بعد علم شيئاً.

٧- اللهُ -تبارك وتعالى- فاوت بين عباده في الرزق، فلا يقبلُ السادةُ أنْ يشركهم عبيدُهُمْ وإماؤُهم في أزواجهم وأموالِهم، واللهُ تعالى لا يرضى أن يشرَكَه خلقُه في أُلوهيته.

٨- اللهُ ربُّنا -سبحانه وتعالى- خلقَ لنا مِنْ أنفسنا أزواجاً بخلق حواء مِنْ آدم، وجعل لنا من أزواجنا بنين وحفدة.

٩- الكفارُ جهلةٌ، فهم يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً في السمواتِ ولا في الأرض، ولا تملكُ هذه الأصنامُ شيئاً لأنفسها.

١٠- نَهَى اللهُ تعالى المشركين عن ضربِ الأمثالِ لله تبارك وتعالى، فالله يعلم أنَّه لا شريك له، والمشركون لا يعلمون.

١١- ضرب اللهُ تعالى مثلين للأوثان التي يعبدها الكفار، تظهران كماله وجلاله وقدرته وعجزَ وضعفَ تلك الآلهة.

١٢ - الله تعالى عالم بجميعِ الغيوبِ التي في السموات والأرض، وهو عالم بوقت وقوع الساعةِ، وقادرٌ على إيقاعها في مثلِ لمح البصر أو أقلَّ مِنْ ذلك.

النص القرآني الثامن من سورة النحل
مزيد من حديث الله

أولاً: تقديم

قال قتادةُ: «هذه السورةُ سورةُ النعم» [ابن كثير: ٤/ ٦٠] وهذا هو النصُّ الثالثُ في هذه السورةِ التي يحدِّث ربُّ العبادِ العبادَ فيه عن نعمِهِ عليهم، فحدَّثنا فيه كيف أخرجنا مِنْ بطونِ أمهاتنا لا نعلم شيئاً، وجعل لنا السمعَ والبصرَ والفؤادَ لنعقل ونفقه.

وأمرنا أنْ ننظر إلى الطيورِ وهي تحلِّقُ في جوِّ السماءِ، لا يقدرُ أحدٌ على إمساكها إلا الله تعالى، وجعل لنا من بيوتنا سكناً، وجعل لنا مِنْ جلود الأنعامِ بيوتاً، يسهل علينا حملها ونصبها في أسفارنا وأماكنِ إقامتنا، وامتنَّ علينا بما نصنعه مِنْ أصوافِ الخراف، وأوبارِ الإبل، وشعر الماعزِ، مِنَ الأثاثِ والمتاع.

وامتنَّ اللهُ تعالى علينا بأنَّه جعل لنا مما خلق مِنَ الشجر والبيوتِ والجبالِ ظلالاً تقينا حَرَّ الشمس، وجعل لنا من الجبال غيراناً ومساربَ نلجأُ إليها وقتَ الحاجةِ، وجعل لنا سرابيلَ تقينا الحرَّ والبردَ، وسرابيلَ أُخرى تقينا ضربات الخصمِ في ميدان الحرب والقتال.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النحل: ٧٨-٨٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ تعالى أخرجنا مِنْ بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، ثم جعل لنا السمع والأبصارَ والأفئدة:

خاطبَ اللهُ تبارك وتعالى عبادَهُ قائلاً لهم: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨]. أخرجنا رَبُّنا

-تبارك وتعالى- مِنْ بطونِ أُمهاتنا لا نعلم شيئاً، وجعل اللهُ -تبارك وتعالى- لنا السمْعَ الذي ندرك به الأصواتَ، والأبصارَ التي نرى بها المرئياتِ، وجعلَ لنا الأفئدةَ التي نُمَيِّزُ بها النافعَ والضَّارَ، وهذه القوى مِنَ السمعِ والبصرِ والأفئدةِ، تقوى عند الإنسان شيئاً شيئاً، وقد خلقَ الله تبارك وتعالى لنا هذه القوى حتى نستعين بها على عبادةِ رَبِّنا ومولانا سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ : «إنَّ اللهَ قال: مَنْ عادَى لي وليّاً فقد آذَنْتُه بالحربِ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدي يَتَقَرَّب إليَّ بالنَّوافل حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سَمْعَه الذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الذي يُبْصِرُ به، ويَدَه التي يَبْطِشُ بها، ورِجلَه التي يَمْشي بها، وإن سألَني لأُعْطِيَنَّه، ولئِنِ استعاذَني لأُعِيذَنَّه، وما تَرَدَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعله تَرَدُّدي عن نَفْسِ المؤمِنِ، يَكْره الموتَ وأنا أكرَه مَساءَتَه» [البخاري: ٦٥٠٢].

فالحديث يدلُّ على أنَّ العبد إذا أخلص دينه لله عزَّ وجلَّ، فإنَّ أفعالَهُ تصبحُ كلُّها لله تعالى، فسمعُهُ الذي يسمع به لا يكون إلا لله، وكذلك بصرُه، ويدُه، ورجلُه، لأنه لا ينبعث إلا لتحقيق أمْرِ الله تبارك وتعالى.

٢- منظرُ الطيرِ وهنَّ مسخراتٌ في جوِّ السماء:

حَثَّنا اللهُ -تعالى- على النظر إلى الطير التي سخرها سبحانه لتطيرَ في جوِّ السماء ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل:٧٩].

حثَّ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَه لينظروا إلى الطيرِ المحلِّقَةِ في أجواءِ الفضاءِ، وهو منظرٌ جميلٌ بديع، تراها تحلقُ، وهي تَصْدَحُ وتُغَرِّدُ وتغني، ترتفعُ تارةً، وتنزلُ أُخرى، وتدورُ في طيرانها، ما يمسكها إلا ربُّها تبارك وتعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: آيات دالة على قدرةِ الله وبديعِ صنعه سبحانه وتعالى لقوم يؤمنون بما يرونه من الأدلة.

٣- جعل اللهُ تعالى لنا من بيوتنا سكناً وجعل لنا من جلودِ الأنعام بيوتاً:

خاطبَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ ممتناً عليهم، قائلاً لهم: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل:٨٠].

امتنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- على عبادِهِ بأن جعلَ لهم مِنْ بيوتِهِمْ التي يبنونها مِنَ الحجر أو الطينِ أو الخشبِ أو (الاسمنتِ) أو المعادنِ سكناً، يؤون إليها، ويسكنون فيها، وجعل لهم مِنْ

جلودِ الأنعام بيوتاً، فيصنعُ العباد مِنْ جلودِ الإبلِ والبقرِ والغنمِ، الخيامَ، هذه المساكنُ يسهلُ عليهم الانتقالُ بها مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، وينصبونها في أسفارهم، كما ينصبونها في مَقَرِّ إقامتهم، ويتخذون مِن أصوافِ الخرافِ، وأوبارِ الإبلِ، وأشعارِ الغنم، أنواعَ الأثاثِ والمتاعِ، فيتخذون منها البسط، والخيمَ، والملابسَ، وغيرَها، والأثاثُ: متاع البيت.

وقوله ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴿٨٠﴾﴾ أي: إلى الوقتِ الذي تفنى فيه، أو يهلك فيها أصحابها.

٤- اللهُ تعالى جعلَ لنا مما يخلقُ ظلالاً ومِنَ الجبالِ أكناناً:

أخبرَ ربُّ العزة -تبارك وتعالى- عبادَهُ فقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل:٨١].

أخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه جعلَ لنا مما خَلَق مِنَ البيوتِ والأشجارِ ظلالاً تقينا حَرَّ الشمسِ، وجعل لنا مِنَ الجبال أكناناً. والأكنانُ: الغيرانُ والأسرابُ، وواحدُ الأكنانِ كِنٌّ، وكل شيءٍ وقى شيئاً وسَتَرَهُ فهو كِنٌّ، وجعل لنا سرابيلَ تقينا الحَرّ، ومثله البرد، وسرابيلَ تقينا بأْسَنا، والسرابيلُ التي تقينا الحرَّ والبردَ الثيابُ والقمصُ المصنوعةُ مِنَ القطن والصوفِ والكتانِ وغيرها، وجعل لنا سرابيلَ تقينا بأْسنا، وهي الدروعُ مِنَ الحديدِ المصفحِ أو الزردِ، والبأسُ الذي تقينا إيَّاه ضرباتُ السيوفِ، وطعنُ الرماحِ، والرميُ بالسهام، في ميدانِ الحربِ والقتال.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: سَخَّر لكم ذلكم لتستقيموا على أمْرِ الله، وتسلموا دينكم لربِّكم بتوحيده وإخلاصِ الدينِ له.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل:٨٢] أي: إنْ كذبوك وأعرضوا عما جئتهم به مِنْ الحقِّ، فإنَّ الواجبَ عليك أن تبلغهم ما جاءَك مِنْ عند الله من الحقِّ.

وقوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل:٨٣] وأعظمُ نعمِ الله تعالى التي أنعم بها على عبادِهِ هي إرسالُ رسولِهِ محمدٍ ﷺ إليهم، وهم يعرفون رسولَهُ، فقد عاش بينهم زمناً طويلاً، وعرفوا صِدْقَهُ وأمانته وخلقه، ولكن أكثرهم كفروا بهذه النعمة العظيمةِ وجحدوا نبوته.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١ - عدَّدَ اللهُ على عباده في هذه الآيات بعضَ نعمه عليهم.

٢- مِنْ نعمِ الله التي أنعمَ بها على عبادِهِ أنَّه أخرجنا مِن بطونِ أُمهاتنا لا نعلمُ شيئاً، وجعل لنا الحواسَّ مِنَ السمعِ والبصرِ والقلوبِ لنعقل ونفقه.

٣- مِنْ آياتِ الله التي يشاهدُها العبادُ الطيورُ التي تحلِّقُ في جوِّ السماء لا يمسكُها أحدٌ إلا الله تعالى.

٤- مِنْ نِعَم الله تبارك وتعالى علينا أنْ جعلَ لنا مِنْ بيوتنا التي نبنيها سكناً لنا ولأهلِنا وأولادِنا، وجعل لنا مِنْ جلودِ الأنعامِ بيوتاً ننصبها في أسفارنا وفي مقرِّ إقامتنا.

٥- جَعَلَ اللهُ تعالى لنا من البيوتِ والأشجارِ والجبالِ ظلالاً نستظل بها مِنْ حرِّ الشمس، وجعل لنا من الجبالِ أسْراباً ومغارات نأوي إليها، وجعل لنا من القطنِ والصوفِ والكتانِ ونحوها سرابيلَ تقينا الحرَّ والبردَ، وجعل لنا مِنَ الحديدِ الدروعَ التي تقينا ضرباتِ الخصم في القتال.

٦- الواجبُ على رسولِنا ﷺ بلاغُ الحقِّ، ولا يضرُّهُ إعراضُ المعرضين، ولا كفر الكافرين.

٧- ذمَّ اللهُ كفارَ قريشٍ بكفرهم بالرسولِ الخاتمِ ﷺ ، مع أنَّهم يعرفونه حقَّ المعرفةِ، ويعرفون صدقَهُ وخُلُقَهُ.

النص القرآني التاسع من سورة النحل
أحوالُ المشركين يومَ الدين

أولاً: تقديم

يكون المشركون يومَ الدين في أحوالٍ مختلفةٍ، فمرةً يبعثُ اللهُ عليهم شهيداً من أنفسِهِمْ يشهدُ عليهم أنَّه بلغهم الحقَّ، وأقامَ عليهم الحجَة، ولا يؤذن للكفار في يومِ الدين بالاعتذارِ، ولا تقبلُ منهم التوبةُ.

وعندما يرى المشركون الآلهة التي كانوا يعبدونها، وقد بعثها اللهُ، يقولُ الكفارُ هذه الآلهةُ التي كنَّا نعبدُ، فتكذبُ تلك الآلهةُ عابديها، وتقولُ لهم: أنتم كاذبون، ويومَ القيامةِ لا يستطيع المشركون مخالفةَ حكمِ الله، فتراهم خاضعين ذليلين، ويذهب عنهم الكذب الذي كانوا يفترونه في الدنيا، وأن آلهتهم تشفع لهم.

ويزيدُ اللهُ -تعالى- الكفارَ بسبب كفرهم وصدِّهم الناس، عند دين الله عذاباً فوقَ عذابهم بسبب فسادهم وإفسادهم.

وأعلمنا ربُّنا عزَّ وجل أنه أنزل القرآنَ مبيناً كلَّ ما يحتاجُ إليه الإنسانُ، أنزله هدى ورحمة للمؤمنين، وأعلمنا أنه يأمر بالعدلِ والإحسانِ، ويأمرُ بالإحسان إلى ذوي القربى ويأْمُرُ بصلةِ الأرحام، وينهى عن الفواحشِ مِنَ الزنا واللواط، وينهى عن كلِّ ما يخالف الشريعة، وهو المنكرُ، وينهى عن البغي، وهو الظلمُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٨٤-٩٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تذكيرُ الله العبادَ باليومِ الذي يبعث فيه من كلِّ أمةٍ شهيداً:

أمر اللهَ تبارك وتعالى عبادَهُ أن يذكروا ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [النحل:٨٤]. أعلمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّه في يوم القيامةِ يبعثُ مِنْ كلِّ أمةٍ شاهداً يشهد عليها أنَّه بلغها الحقَّ الذي أُنزلَ إليه مِنْ ربِّه، وهذا الشاهدُ هو رسولُها الذي أُرسل إليها في الحياة الدنيا، وقد قال رَبُّنا بعد عِدَّة آيات: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ [النحل:٨٩].

قوله: ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي: لا يؤْذَنُ لهؤلاء الكفار المشركين في الاعتذارِ، لأنَّ اعتذارهم كاذب، وهم يعلمون كذبَهُ وبطلانَهُ، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المرسلات:٣٥-٣٦]. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي: ولا يطلبُ منهم أن يرجعوا إلى ما يُرْضِي اللهَ، لأنَّ الآخرة ليست بدار تكليف، قال الواحدي: «قال ابن عباس في هذه الآية: يريدُ انقطعَ العذاب، وانقطعت المعذرةُ، وحلَّ بهم الخزيُ، وتلخيص معنى الآية: أنَّهم لا يُمَكَّنون مِنْ عذرٍ، فيتكلَّمون به، ولا يكلَّمون في الرجوع في العتبى» [تفسير الواحدي: ١٣/ ١٦٥].

٢- حالُ الكفارِ عندما يرونَ العذابَ وعندما يرون شركاءَهم:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [النحل:٨٥-٨٦].

يخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه إذا رأى الذين ظلموا، وهم الكفار المشركون العذاب، وهي النارُ، فلا يخففُ عنهم العذابُ، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ أي: ولا يؤخرون، ولا يمهلون، لأنَّ التوبة يومَ القيامةِ غيرُ مَرجوةٍ، وهذه الآيةُ تأكيدٌ للآية التي قبلها، فاللهُ -تبارك وتعالى- يعجِّلُ للكفارِ العقوبةَ في الآخرةِ مِنْ غيرِ قبولٍ لعذرٍ منهم أو عتابٍ معهم.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ﴾ [النحل:٨٦]، وهذه الآية تدلُّ على أنَّ الله يأتي بالأوثانِ والأصنامِ التي كان يعبدها الكفارُ مع الله تبارك وتعالى، وعندما يراها المشركونَ

حاضرةً يومَ الدين، يقولون مخاطبين ربّ العزة سبحانه: هؤلاء شركاؤُنا، أي: هؤلاءِ هم الآلهةُ التي كنَّا نعبدُها وندعوها مِنْ دونك، ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يبعثُ في تلك الأصنام الحياةَ، فتجيبُ عابديها، وتردُّ عليهم قائلةً: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النحل:٨٦] لأنَّ هؤلاءِ الشركاءَ كانوا جماداً أمواتاً لا يعرفون عبادةَ عابديهم، ولذلك يقولون لعابديهم يومَ القيامةِ أنتم كاذبون في عبادتكم إيانا، ولا علم لنا بعبادتكم، ولذلك قال عز وجل ﴿ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم:٨٢].

وأعلمنا ربُّنا -عز وجل- سبحانه وتعالى أنَّ هؤلاء الكفارَ ﴿أَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [النحل:٨٧] أي: أَلْقَوْا إلى الله يومَ القيامةِ السَّلَم، أي: ذَلُّوا وخضعوا واستسلموا لحكمِ الله، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: ذهب واضمحلَّ ما كانوا يختلقونه من الأكاذيب، وأن آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى، فلا ناصرَ ينصرهُمْ، ولا حامي يدافعُ عنهم.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨] أي: أن اللهَ تعالى يعذبُ الكفارَ على كفرهم، وعلى صدِّهم الناسَ عَنْ الدخولِ في دين الله، واللهُ تعالى قادرٌ على زيادةِ عذابِهِمْ في النارِ، بمضاعفةِ حرِّ النار، وبزيادةِ أنواعِ العذابِ.

٣- يبعث ربُّ العزةِ يومَ القيامة مِنْ كل أُمَّةٍ شهيداً، وسيَجيءُ برسولنا شهيداً على قومه:

أخبرنا ربُّ العزة - سبحانه وتعالى- أنه يومَ القيامةِ يبعث مِنْ كلِّ أُمة شهيداً، ويجيء برسولِهِ محمدٍ ﷺ شهيداً على قومه: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ ﴾ [النحل:٨٩]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١].

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه نزَّلَ عليه القرآن تبياناً لكلِّ شيءٍ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩]. أثنى اللهُ تعالى على كتابِهِ الكريم القرآنِ الذي جعلَ اللهُ فيه بياناً لكلّ شيء، فقد بيَّنَ الشريعةَ الغراءَ، والحلالَ والحرامَ، والأخلاقَ والقيمَ، وأخبارَ الماضين، وأخبارَ الآتين، وحدَّثنا عن الجنةِ والنارِ، وحدَّثنا عن

السمواتِ والأرضِ، وما فيهما وما بينهما، وجعل القرآنَ العظيمَ كتابَ هدايةٍ، يهدي به الناسَ إلى الطريقِ المستقيم، ويهدي به إلى ربِّ العالمين، وهو ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ يبشِّرُهُمْ بما لهم عند ربِّهم مِنَ الرضوانِ والجناتِ التي تجري مِنْ تحتها الأنهارُ.

٤- اللّهُ تعالى يأمرُ بالعدلِ والإحسان وإيتاءِ ذي القربى:

قال ربُّ العزَّة - سبحانه وتعالى- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠] هذه الآيةُ مِنَ الآياتِ العظيمةِ الجامعةِ في كتاب الله تعالى، فعن عبدالله بن مسعودٍ قال: «إنَّ أجمعَ آيةٍ في القرآن في سورة النحل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠]».

وعن قتادة أنه قال في هذه الآية: «ليس مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ كان أهْلُ الجاهليةِ يعملون به ويستحسنونه إلاَّ أمَرَ اللهُ به، وليس مِنْ خُلُقٍ سَيِّئٍ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى اللهُ عنه وقَدَّمَ فيه، وإنما نهى عن سفاسفِ الأخلاقِ ومذامها» [هذا الأثران رواهما ابن جرير الطبري في تفسيره: ٦/ ٥٠٤٠].

أمر اللهُ تبارك وتعالى في هذه الآيةِ العظيمةِ بالعدلِ، والعدلُ الإنصافُ في كلِّ شيءٍ، فعبادةُ الله وَحْدَهُ أعظمُ العدلِ، وعبادةُ غيره أشدُّ الظلم، والإنصافُ في القضاءِ عَدْلٌ، والجورُ فيه ظلم، والتسويةُ بين الزوجات والتسويةُ في الأولادِ في الهباتِ عَدْلٌ، وتفضيلُ بعضِهُمْ على بعضٍ ظُلْمٌ، والعدلُ يتغلغل في شتَّى مناحي الحياة.

ويقرنُ ربُّ العِزَّة بالعدلِ الإحسانَ، والإحسانُ فيه طراوةٌ ونداوةٌ ورِقَّة، والإحسانُ كالعدلِ يشمل نواحي الحياةِ كلِّها، فيشمل علاقةَ الإنسانِ بجاره وأسرته والناس جميعاً، ومِنْ الإحسانِ أن يعفوَ المرءُ عمن ظَلَمَهُ، ويلينَ مع مَنْ قاومه، ويحسنُ إلى مَنْ أوقَعَ به الأوجاعَ والأحزان.

وأمرنا اللهُ تعالى بالإحسان إلى أقاربنا وذوي أرحامِنا، بوصلِ حبالهم، والإحسانِ إلى فقيرهم، والإهداءِ إلى غنيهم، وعيادةِ مرضاهم، وإرشادِ ضالهم.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ﴾ والفحشاءُ ما تجاوز الحدَّ في السوءِ ومنه الزنا واللواطُ، والمنكرُ ما تنكره الشريعةُ، وتنهى عنه، والبغيُ الظلمُ والاستكبارُ وتجاوز الحقِّ والعدلِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- يومُ القيامةِ يقيمُ ربُّ العزَّةِ على كلِّ أُمَّةٍ شهيداً عليهم مِنْ أنفسهم، وهو رسولُهُمْ الذي أرسل لهم.

٢- لا يؤذنُ يومَ القيامةِ للمشركينَ بالاعتذارِ، ولا يطلبُ منهم أنْ يرجعوا إلى رضوان الله.

٣- يبعثُ اللهُ يومَ القيامةِ الآلهةَ الباطلةَ التي كان المشركون يعبدونَها مِنْ دونِ الله، وعندما يراها المشركون، يقولون لربِّ العزَّة هذه الآلهة التي كنَّا نعبدُهُمْ مِنْ دونِ الله، فتقولُ تلكَ الآلهةُ: إنَّكم لكاذبون.

٤- يخضعُ الكفارُ يومَ القيامةِ لحكمِ الله تعالى، وتغيبُ عنهم الآلهةُ التي كانوا يعبدُونَها.

٥- الكفارُ الذين كفروا، وعملوا جهدَهُم على منعِ الناسِ مِنَ الدخولِ في دينِ الله تعالى يزيدُهُمْ عذاباً فوق عذابِهم يومَ القيامةِ بسببِ فَسَادِهِمْ.

٦- نَزَّلَ اللهُ -تبارك وتعالى- على رسولِهِ ﷺ القرآنَ مبيناً كلَّ شيءٍ، مما يحتاجُ إليه الإنسانُ، وجعل اللهُ تعالى هذا الكتابَ هدى ورحمةً للمؤمنين.

٧- اللهُ يأْمر عبادَهُ بالعدلِ وهو الإنصافُ في كلِّ أمورهم، ويأمرهم بالإحسان قدر إمكانهم، ويأْمر بالإحسانِ إلى ذوي القربى، وينهى عن الفحشاءِ، وهي الزنا واللواط، وينهى عن المنكرِ، وهو كل ما كرهته الشريعة وأنكرته، وينهى عن البغي وهو الظلمُ، ويذكِّرُ اللهُ عباده لعلهم يذَّكَّرون.

النص القرآني العاشر من سورة النحل

أمْرُ الله -تعالى- بالوفاء بالعهود

أولاً: تقديم

هذه الآياتُ تدورُ حولَ الوفاءِ بالعهودِ، فقد أمر اللهُ بالوفاءِ بها، ونهى عَنْ نقضِ العهودِ الموثقةِ بالأيمان، وبيَّن أنَّ حالَ الذين ينقضون عهودهم كامرأة حمقاء، تحكم صوفها بالغَزْلِ، ثم تنقضه أخرى، لتعيد غزله من جديدٍ.

وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه لو شاءَ لجعلَ الناسَ أمةً واحدةً على التوحيد، ولكنَّ حكمته اقتضت أنْ يُضِلَّ مَنْ يشاء، ويهدي مَنْ يشاء.

ونهى اللهُ عبادَهُ أنْ يتخذوا أيمانهم دخلاً بينهم، أي: طريقاً للمكرِ والخديعةِ، فيعذبهم اللهُ بما ارتكبوه مِنْ آثام.

ونهى عباده أنْ يشتروا بعهدِ الله عَرَضاً مِنَ الدنيا، فكلُّ أعراضِ الدنيا مهما كان كثيراً فهو قليلٌ، والنعيمُ الباقي ما عند الله في يومِ الدين.

ووعد ربُّ العزةِ المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ بالحياة الطيبةِ في الدنيا، وفي يوم القيامةِ يدخلهم جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهار.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

[النحل: ٩١-٩٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بالوفاءِ بالعهودِ ونهى عن نقضِ الأيمان بعد توكيدِها:

أَمَرَ اللهُ تبارك وتعالى عبادَه بالوفاءِ بالعهود، فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل:٩١].

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهَ بالوفاءِ بما عاهَدُوه، والعهدُ الذي يجب الوفاءُ به هو الذي يحسن فعلُهُ، فمن عاهدَ رجلاً يجب عليه الوفاءُ بما عاهد عليه مسلماً كان أو كافراً.

ونهى ربُّ العزَّةِ -سبحانه- عن نقضِ الأيمانِ بعد توكيدِها، وتوكيدُ الأيمانِ يكون بتشديدها بالحلفِ عليها. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾ أي: وقد جعلتم اللهَ كفيلاً عليكم بالوفاءِ، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ تهديدٌ للذين ينقضون الأيمانَ، يقولُ لهم: أنا عالمٌ بما نقضتموه مِنَ العهودِ، وسأُجازيكم بفعلكم.

ونهى اللهُ تبارك وتعالى الذين ينقضونَ العهدَ أن يكونوا كتلك المرأةِ الحمقاءِ التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل:٩٢]. وهذا مثلٌ ضربَهُ اللهُ -تبارك وتعالى- لامرأةٍ حمقاءَ، تغزلُ الغَزْلَ مِنَ القطنِ أو غيره، ثمَّ بعد أن تتمَّ عملَها وتحكمُهُ تنقضُ ما غزلته لتعيدَهُ إلى القطن لتغزله من جديد، وقوله تعالى: ﴿أَنكَٰثًا﴾ أي: أنقاضاً، والأنكاثُ ما نُقِضَ مِنَ غَزْلِ الشعر أو القطن، وواحدها: نِكْثٌ، يقولُ ربُّ العباد: لا تؤكدوا على أنفسكم الأيمانَ والعهودَ، ثم تنقضوا ذلك وتحنثوا فيه، فيكون مثلكم مثل امرأة غَزَلَتْ غزلاً وأحكمته ونَسَجَتْ، ثم نقضتْ ذلك النسج، فجعلته أنقاضاً.

وينبغي أن يُنَبَّهَ إلى أنَّ مَنْ حلفَ على يمين فرأى غيرها خيراً منها أنْ يُكَفِّرَ عن يمينه، ويأتي الذي هو خير، ولا يتعارضُ هذا مع ما أَمَرَ اللهُ به مِنَ الوفاءِ بالعقود، وعدم نقضِ الأيمانِ، ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري في يمين حلفَ عليها رسولُ الله ﷺ، ثمَّ حنث فيها، فقال: «وإني واللهِ لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فأَرَى غَيْرَها خَيْراً مِنْها، إلاَّ أَتَيْتُ الذي هُوَ خيرٌ منه، وتَحَلَّلْتها» [البخاري: ٧٥٥٥. ومسلم: ١٦٤٩].

وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ [النحل:٩٢]. والدخلُ: الدغلُ والغشُّ والخيانةُ، والخديعةُ، وكلُّ شيءٍ دخله عيبٌ فهو مدخولٌ، وفيه دَخَلٌ، وقوله: ﴿أَن تَكُونَ

أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ [النحل:٩٢]. قال مجاهد: «كانوا يحالفون الحلفاءَ، فيجدون أكثرَ منهم وأعزَّ، فينقضون حلفَ هؤلاءِ، ويحالفون هؤلاءِ الذين هم أعزُّ منهم، فنُهُوا عن ذلك» [تفسير الطبري: ٦/ ٥٠٤٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل:٩٢] أي: يختبركم اللهُ بأمره إياكم بالوفاءِ بالعهودِ، ليتبين المطيعُ منكم لربِّه، والعاصي المخالفُ أمره، وليبينَ لكم يومَ القيامةِ ما كنتم فيه تختلفون، وهذا عامٌّ فيما يقع فيه الاختلافُ مِنَ الأصولِ والفروعِ، وتكون عاقبةُ البيانِ أنْ يجزيَ الذين أحسنوا بالحسنى، ويعاقب الظالمين بظلمهم.

٢- لو شاءَ اللهُ تعالى لجعل الناسَ أُمَّةً واحدة:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل:٩٣] أي: لو شاء رَبُّنا -تبارك وتعالى- لجعل الناسَ أُمَّةً واحدةً على دينٍ واحدٍ، ولكن اللهَ سبحانه قضى بحكمته أنْ يضلَّ مَنْ يشاءُ، ويهدي مَنْ يشاءُ، لحكمةٍ يعلمها سبحانه وتعالى: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: يسألُ اللهُ العبادَ يومَ القايمةِ عن كلِّ ما فعلوه في الدنيا، ثمَّ يجازيهم عليه، وهو سبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣].

٣- نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- عباده أنْ يتخذوا أيمانَهم دَخَلاً بينهم:

نهى اللهُ تعالى عبادَه أنْ يتخذوا أيمانَهُمْ دَخَلاً بَيْنَهُمْ، فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [النحل:٩٤].

يقولُ ربُّ العزَّة تبارك وتعالى: ولا تتخذوا أيمانكم بينكم مكراً وخديعة، تغرّون بها الناس ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: فتهلكوا بعد أن كنتم آمنين مِنَ الهلاكِ، وإنَّما هذا مثلٌ لكلِّ مبتلى بعد عافية، أو ساقطٍ في ورطةٍ بعد سلامةٍ، ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ والسوءُ هو عذابُ الله الذي يُعَذِّب به أهلَ معاصيه في الدنيا، ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: بما فَتَنْتُمْ مَنْ أرادَ الإيمانَ بالله ورسولِهِ عن الإيمان، ولكم عذاب عظيم، في الآخرة، وهو عذابُ النارِ [تفسير الطبري: ٦/ ٥٠٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [النحل:٩٥]. نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ أنْ يشتروا بعهدِ الله ثمناً قليلاً، والثمنُ القليلُ هو متاعُ الدنيا الزائلُ، فإنَّه مهما كان كثيراً، فإنَّه قليلٌ، لأنَّه فانٍ زائلٌ، وهذا نهي عن نقضِ العهودِ، والاستعاضةِ عنها بمتاعِ الدنيا.

وقوله: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: ما عند الله في الآخرة، أي: في جناتِ النعيم خيرٌ لكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

وقوله: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل:٩٦] يقول اللهُ -عزَّ وجلَّ- ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾، أي: يفنى وينقطع، وما عند الله في جناتِ النعيم مِنَ الكرامةِ والثوابِ ﴿بَاقٍ﴾ أي: دائمٌ لا ينقطعُ، ولا يفنى، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: الذين التزموا دينَهمْ وصبروا عليه، أقسم ربُّ العزة بأنْ يجزيهم بأحسنِ أعمالهم، ويتجاوز عن سيئها.

٤- مَنْ عمل الصالحات مِنَ الرجالِ والنساءِ وهو مؤمن فإنَّ اللهَ تعالى يُحْيِيه حياةً طيبةً:

أخبرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧].

في هذه الآية الكريمة ترغيبٌ مِنَ الله العزيزِ الحكيمِ في الإيمانِ والعملِ، فقد أخبرَ سبحانَهُ وتعالى أنّ مَنْ عَمِلَ الصالحاتِ وكانَ مؤمناً سواءً كان ذكراً أم أنثى، فإن اللهَ -تبارك وتعالى- يحييه حياةً طيبةً، والحياةُ الطيبةُ تكون بالنفسِ الراضيةِ، التي تقنع بما أعطاها الله تبارك وتعالى، وتَشْعُرُ بالسعادةِ وهي تحقق الإيمانَ والعملَ الصالح.

وفي يومِ القيامةِ يجزي اللهُ -تبارك وتعالى- هؤلاءِ المؤمنين أحسنَ أعمالهم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

روى عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسولَ الله ﷺ قالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَم، ورُزِقَ كَفافاً، وقَنَّعَهُ اللهُ بِما آتاه» [مسلم: ١٠٥٤].

وعَنْ فضالةَ بن عُبَيْدٍ أنَّه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «طُوبى لِمَنْ هُدِيَ إلى الإِسْلامِ، وكانَ عَيْشُهُ كَفافاً، وقَنَعَ» [الترمذي: ٢٣٤٩. وقال فيه: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- أمَرَ ربُّ العزةِ سبحانه عباده بالوفاءِ بعهودهم إذا عاهدوا، ونهى عن نقضِ الإيمان.

٢- مَثَلُ الذين ينقضون عهودهم كمثل التي تُحْكِم غَزْلها، ثم تنقضه، لتغزله مرةً أخرى.

٣- الذين يحلفون، ثم يُكَفِّرون عَنْ أيمانهم، لا يدخلونَ في ناقضي العهودِ.

٤- لو شاءَ اللهُ -تبارك وتعالى- لجعلَ الناسَ أُمَّةً واحدةً على الإيمان والتوحيدِ، ولكن اقتضت حكمتُهُ سبحانه -أنْ يُضِلَّ مَنْ يشاءُ، ويهدي مَنْ يشاءُ.

٥- لا يجوز للعبدِ الصالحِ أنْ يجعل أيمانه سبباً لخداع الناسِ والإيقاعِ بهم، فتزلَّ قدم بعد ثبوتها.

٦- لا يجوز للعبد أن يشتري بالعهود ثمناً قليلاً، ويدعَ ثوابَ الله تعالى، وهو الثوابُ الباقي الدائمُ.

٧- وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ أنْ يحييهم في الدنيا حياةً طيبةً، ويجزيهم في الآخرة بأحسن أعمالهم، وذلك بإدخالهم جنات تجري مِنْ تحتها الأنهارُ.

النص الحادي عشر من سورة النحل
بالاستمساك بالقرآن تنجو من الشيطان

أولاً: تقديم

علَّمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- كيف ننجو مِنَ الشيطانِ، وردّ اللهُ -تعالى- على الكفارِ الذين زعموا كاذبين أن محمداً افترى هذ القرآن، وأعلمنا أنَّ القرآنَ جاء به جبريلٌ مِنْ عندِ ربِّ العالمين، ليثبتَ قلوبَ المؤمنين، وجعله هدى وبشرى للمسلمين.

وأعلمنا رَبُّنا أنَّ الكفارَ يزعمون أنَّ رسولنا ﷺ إنَّما يعلمه بشرٌ، وقد أكذبهم اللهُ تعالى، لأنَّ الذي ينسبون إليه هذا التعليمَ رجلٌ عييٌّ، لا يحسنُ البيانَ، وهذا القرآن لسانٌ عربيّ مبين.

وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذي أُكْرِه على الكفرِ، وقلبه مطمئن بالإيمان، فلا حرجَ عليه، والذي عليه الحرجُ الذي دخلَ الكفرُ قلبَهُ، وانشرح له صدرُهُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النحل:٩٨-١٠٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الاستعاذةُ من الشيطان عند قراءة القرآن:

أدَّبَ اللهُ رسولَهُ ﷺ بالاستعاذةِ بالله مِنَ الشيطانِ الرجيم قبلَ أنْ يَقْرَأَ القرآنَ، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].

وإنَّما أمَرَ اللهُ بالاستعاذة قبل القراءةِ لكفِّ شَرِّ الشيطانِ، فهو إنْ لم يستطعْ صدَّ الإنسانِ عن القرآنِ، فإنَّه يوسوس له بما يشغل عقله وقلبه عن تدبره، وبذلك لا تعطي القراءةُ صاحبَها الثمارَ المرجُوَّةَ من الإيمانِ والتقى والصلاح.

ولما كان الشيطانُ لا يكفُّه عنّا إلاَّ مَنْ خَلقَهُ، فالسبيلُ الوحيد إلى دَفْعِ وسوسته تكون بالاحتماءِ بالله منه.

وتتحقَّقُ الاستعاذةُ المأمورُ بها كما تفيدُهُ الآيةُ الآمرة بها بقولك: أعوذُ بالله مِنَ الشيطانِ الرجيمِ.

والاستعاذةُ تحمل معنى الطلبِ مِنَ الله بأنْ يحمينا ويحفَظنا مِنَ الشيطانِ ووساوسِهِ، ومَنْ حفظهُ اللهُ فقد حُفِظَ.

والاستعاذة شاملةٌ للاستعاذة من كلِّ شيطانٍ، فكما يُطْلَقُ الشيطانُ على الشيطانِ الأكبرِ الذي هو إبليس، فإنَّه يُطْلَقُ أيضاً على كلِّ شيطانٍ مِنْ ذرِيَّتِه.

ووصفَ اللهُ الشيطانَ بالرجيم، لأنَّه طَرَدَهُ مِنْ رحمتهِ وجنَّتِهِ، ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر:٣٤] والأخيارُ في جميعِ الأمَمِ يرجمونَه بالسبِّ واللَّعْنِ، وجَعَلَ اللهُ الكواكبَ رجوماً للشياطين التي تَسْتَرِقُ السمعَ مِنْ السماءِ، ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥]. والمسلمونَ يرجمونَ الشيطانِ في مناسكِ الحجِّ في المواضِعِ التي رَجَمَهُ فيها أبوهم إبراهيم عليه السلام.

وبَعْدَ أنْ أمَرَنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- بالاستعاذةِ مِنَ الشيطانِ، أخبرنا ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل:٩٩-١٠٠]. أي: لا يستطيع أنْ يوقعهم في الذنبِ وهم كارهون، وإذا أوقعهم في الذنبِ لا يستطيع أن يجعلهم لا يتوبون، وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي: إنَّما سلطانه على الذين إذا دعاهم أجابوه، مِنْ غير نَظَرٍ، ولا تَبَصُّرٍ، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: مشركون بالله تعالى بسبب طاعة الشيطان فيما يأمر به مِنَ الباطلِ والكفر والشركِ.

٢- إذا نسخ اللهُ -تعالى- آيةً، ووضع مكانها أُخرى قالوا: إنما أنت مُفْتَرٍ:

اتَّخَذَ الكفارُ مِنَ النسخِ شبهةً يريدون بها إضلالَ عبادِ الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

[النحل:١٠١]. يقولُ ربُّ العزَّة: إذا بدَّلنا آيةً مكانَ آيةٍ قال الكفار: إنَّما أنت مفترٍ، أي: كاذبٌ مختلقُ الكذبِ على الله تعالى، وتبديلُ الآيةِ رفعُها ووضعُ أُخرى في مكانها، وهذا هو النسخ، والنسخُ حَقٌّ، فقد يُشرِع اللهُ الحكمَ لمصلحةٍ، ثمَّ يغيِّرُ ذلك الحكم لمصلحةٍ أُخرى.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾ أي: لا يعلمون شيئاً مِنَ العلم.

وقوله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾ [النحل:١٠٢]، وروحُ القدسِ جبريل ﷺ، نزلَ بالوحي الصادقِ مِنْ عندِ الله على رسولِهِ محمدٍ ﷺ، وسُمِّي جبريلُ قُدْساً لأنَّه مطهَّر مِنَ الأدناسِ، وتثبيتُ الذين آمنوا، أي: تثبيتُ قلوبهم بالوحي الذي نزلَ مِنْ عندِ الله، وجعلَ الوحيَ هدىً يهدي قلوبهم، وبشرى للمسلمين بما يكون لهم يوم الدين.

٣- دعى كفار قريش أنَّ رسولنا ﷺ إنما يعلِّمُهُ بَشَرٌ:

ادَّعى أهْلُ مكَّةَ أنَّ القرآنَ الذي أُنزلَ على رسولِنا ﷺ علَّمَهُ إياهُ بشرٌ، وليس منزلاً من عند الله العليمِ الحكيمِ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل:١٠٣]. يقولُ ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- إنَّه يعلمَ أنَّ كفارَ قريشٍ يقولونَ إنَّ الذي يعلمُ الرسولَ ﷺ القرآنَ بشرٌ، وقد رَدَّ اللهُ -تبارك وتعالى- عليهم رادّاً قولهم، ومبيناً باطلَهُمْ، فأعلمنا أنَّ لسانَ الذي يميلون إليه ويزعمون أنه يعلم النبي ﷺ لسانٌ رَدِيءٌ، فهو لا يحسنُ التعبيرَ عن نفسِهِ، وهذا القرآنُ بلغَ القمةَ في البلاغةِ والفصاحة، وقد تحدَّى اللهُ تعالى به الإنسَ والجنَّ، فلم يستطعْ أحدٌ منهم أنْ يأتيَ بمثلِ أصغرِ سورةٍ منه، والأعجميُّ هو الذي لا يفصحُ وإن كان نازلاً بالبادية.

قال ابن قتيبة: «لا يكاد الناس يفرقون بين العجمي والأعجمي، والعربي والأعرابيِّ، فالأعجمي: الذي لا يفصحُ وإن كان نازلاً بالبادية، والعجمي: منسوب إلى العجم، والأعرابيُّ، هو البدويُّ، والعربي: منسوب إلى العرب، وإن كان بدويًّا» [زاد المسير: ٤/ ٤٩٤].

٤- الكفارُ لا يهديهم اللهُ ولهم عذابٌ أليم:

أعلمنا ربُّنا العليمُ الخبيرُ سبحانه أنَّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾ [النحل:١٠٤-١٠٥].

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين لا يؤمنون بآياتِ الله، لا يؤمنون بحججِهِ التي أقامها لدلالةِ خلقِهِ على صِدْقِ رسولِهِ ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ أي: لا يوفقهم ربُّ العزة لإصابةِ الحقّ، وعندما يقدمون على ربِّ العزَّةِ يومَ القيامةِ لهم عذابٌ موجعٌ أليم.

ثم أخْبر اللهُ -سبحانه وتعالى- أنَّ الذي يفتري الكذبَ الكفارُ الذين لا يؤمنون بآياتِ الله، وليس هم الرسولُ ﷺ والمؤمنون معه وقد سبق ذكر ما قال المشركون للرسول ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل:١٠١] فاللهُ بريءٌ مِنَ الكذبِ، ورسولُه والمؤمنون معه بُرَآء مِنَ الكذب، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: أهلُ الشركِ والكفر هم الكاذبون.

ثمَّ بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- حُكْمَ مَنْ أُكره على الكفرِ، فقال: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل:١٠٦]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذي كَفَرَ بعد إيمانه بسبب تعذيبِ المشركينَ لَهُ، فإن أظهر القولَ بالكفر، ونال مِنْ رسولِ الله ﷺ ، وقلبه عامرٌ بالإيمانِ واليقينِ، فهذا مؤمنٌ لا حرجَ عليه، ولكنَّ الذي عُذِّبَ، حتى انشرح صدرُهُ للكفر، فهذا كافرٌ، وعليه غضبٌ مِنَ الله، وله عذابٌ أليم يومَ القيامةِ.

والسببُ في كفرِهم وإنزال العذابِ بهم ﴿بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل:١٠٧]، فهؤلاء اختاروا الدنيا على الآخرة، فأقْدَموا على ما أقدمُوا عليه مِنَ الرِّدَّة لأجلِ الدنيا، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: لا يهديهم، ولا يوفقهم إلى دينه ورضوانِهِ.

وهؤلاء الذين انشرحت صدورهم للكفر، وارتدوا عن دينهم، طَبَعَ اللهُ تعالى على قلوبِهِمْ وعلى سمعِهِمْ وأبصارِهِم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [النحل:١٠٨] أي: طبع اللهُ -تعالى- على قلوبِهِمْ، فلا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختمَ على سمعِهِم وأبصارِهِمْ، فلا ينتفعون بها وأولئك هم الغافلون عن الآخرة وعما يراد بهم ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [النحل:١٠٩]. يقول الله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا ولا بدَّ ولا عَجَبَ أنَّ مَنْ هذه صفته أنَّه في الآخرة هو الخاسر.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تَدَبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأْتي مِنْ عِلْمٍ وعمل:

١- أمر اللهُ تبارك وتعالى بالاستعاذةِ من الشيطانِ عند قراءةِ القرآنِ لا فرقَ في ذلك بين القراءَةِ في الصلاةِ وفي غيرها، وقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ أمْرٌ ظاهره الوجوبُ، ويؤكِّدُه مداومةُ الرسولِ ﷺ وصحابتِهِ مِنْ بعده عليه، ويزيدُه تأْكيداً أن حمايةَ الإنسانِ نفسَهُ مِنَ الشيطانِ واجبةٌ، ولا سبيلَ إلى تحصيلها إلا بالاحتماءِ بالله منه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٢- المنهجُ الذي أُثِر عن الرسولِ ﷺ هو الجهرُ بالاستعاذةِ في غيرِ الصلاةِ، والإسرارُ بها في الصلاة.

٣- موضعُ الاستعاذةِ قبلَ القراءةِ، لأنَّ القارئَ محتاجٌ إلى الحفظِ والرعايةِ اللتين ينالهما بالاستعاذةِ قبلَ القراءةِ، لا بعدها، والمراد بقوله في الآية: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ﴾ إذا أردت القراءة، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة:٦] أي: إذا أردتم القيام، وهو كقولكَ: إذا أكلتَ أو شربتَ فسمِّ، أي إذا أردتَ الأكلَ أو الشُّربَ، وقد صحَّ عن الرسولِ ﷺ أنه كان يقول قبل القراءة: «أعوذُ بالله مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم مِنْ هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ» [انظر روايات الحديث في إرواء الغليل: ٢/ ٥٣، والنشر في القراءات العشر ١/ ٢٤٣-٢٥٩].

٤- اختلفَ أهلُ العلم في صفةِ الاستعاذةِ، وهو اختلافُ استحبابٍ وأفضليَّةٍ، لا اختلافَ وجوبٍ وفرضيَّةٍ، وقد نَقَلَ النوويُّ عن الشافعيِّ رضي الله عنه، أنَّ التعوذَ يحصلُ بكلِّ ما اشتمل على الاستعاذةِ بالله مِنَ الشيطانِ، وصَرَّح أنَّ أفضلَهُ عنده «أعوذُ بالله مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ» [المجموع: ٣/ ٣٢٣].

ومِنَ الأحاديثِ الواردةِ في صفةِ استعاذةِ الرسولِ ﷺ حديثُ ابنُ مسعودٍ أنَّ الرسولَ ﷺ كان يقولُ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم، وهَمْزِهِ، ونَفْخِهِ، ونَفْثِهِ» [صحيحُ ابنِ ماجه: ٨٠٦].

وهَمْزُ الشيطانِ: الْمُوْتَةُ وهي الخَنْقُ، والنَّفْخُ: الكِبْرُ، والنَّفْثُ: الشِّعْرُ.

وثَبَتَ عنه أيضاً قولُهُ: «أعوذُ بالله السميعِ العَليمِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ مِنْ هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ» [راجع صيغ الاستعاذة في إرواء الغليل: ٢/ ٥٣، والنشر في القراءات العشر ١/ ٢٤٣-٢٥٢].

٥- الحكمةُ من وراءِ الاستعاذةِ قبلَ القراءةِ دفعُ وسوسةِ الشيطانِ، فإنَّ الشيطانَ يحولُ بين الإنسانِ وصلاتِهِ، كما صَحَّ في الحديث الذي رواه مسلم عن عثمانَ بن أبي العاصِ أنَّهُ أتى

النبيَّ ﷺ فقالَ: يا رَسُولَ الله، إنَّ الشَّيْطانَ قَدْ حالَ بَيْني وبينَ صلاتي وقراءَتي، يَلْبِسُها عَلَيَّ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : «ذاكَ شَيْطانٌ يقالُ لَهُ: خِنْزِبٌ، فإذا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بالله مِنْهُ، واتْفِلْ عَنْ يَسَارِكَ ثلاثاً» قال: فَفَعَلْتُ ذلك، فأذْهَبَهُ اللهُ عني [مسلم: ٢٢٠٣].

٦- العدوُّ الشيطانُّ لا ينفعُ معه المصانَعَةُ والمداراةُ، ولا يُؤَثِّرُ فيه إسداءُ الجميلِ، ولا الإحسانُ، لأنَّه شريرُ الطبعِ، ولن تستطيعَ الخلاصَ منه إلا بالاحتماءِ منه بالذي خلقكَ وخلقَهُ، بخلافِ العدوِّ الإنسي ففي كثيرٍ مِنَ الأحيانِ يَدفع الإحسانُ إليه الإساءةَ ويزيلَها.

وقد وَرَدَ بيانُ الكيفيةِ التي تُدْفَعُ بها عداوةُ كلٍّ مِنَ الإنسان والشيطانِ في ثلاثةِ مواضعَ مِنْ كتابِ الله، هي:

في قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨].

وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠٠].

وهذه المواضعُ الثلاثةُ تدلُّك على المنهجِ القويم الذي نسلكه تجاه العدوِّ الشيطاني والإنسيِّ.

٧- وكما تحفظُ الاستعاذةُ المؤمنَ مِنْ وسوسةِ الشيطانِ، فإنَّها تعالجُ الآثارَ السيئةَ التي يُحْدِثُها الشيطانُ في نفسِ الإنسانِ، ومن ذلك الغضبُ الذي يجعل الإنسانَ يتصرَّفُ تصرفاتٍ حمقاءَ في بعض الأحيانِ، ففي الحديثِ الذي يرويه سليمانُ بنُ صُرَدٍ، قال: اسْتَبَّ رَجُلانِ عِنْدَ النبيِّ ﷺ ، فَجَعَلَ أَحَدُهُما يَغْضَبُ ويَحْمَرُّ وَجْهُهُ، فنَظَرَ إليهِ النبيُّ ﷺ ، فقالَ: «إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قالَها لَذَهبَ ذا عَنْهُ: أَعُوذُ بالله مِنَ الشيْطانِ الرَّجيمِ».

فقام إلى الرجل رجلٌ ممن سمعَ النبيَّ ﷺ ، فقال: أتدري ما قال رسول الله ﷺ آنِفاً؟ قال: «إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قالَها لذهَبَ ذا عَنْهُ: أَعُوذُ بالله مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ» فقال الرَّجُلُ: أمجْنُوناً تَراني؟ [البخاري: ٣٢٨٢. ومسلم: ٢٦١٠ (١١٠) واللفظ لمسلم].

٨- أتمُّ استعاذةٍ مِنْ الشيطانِ هي ما وَرَدَ في سورةِ الناسِ، وفيها يأمُرُ اللهُ عبادَه قائلاً: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس:١-٦] والوسواسُ الخنَّاسُ الشيطانُ الذي يوسوسُ للعبدِ إذا غَفَلَ عنْ ذكرِ الله، فإذا ذكر الله خَنَس واختفى.

٩- والاستعاذةُ بالله ليستْ قصراً على الاستعاذةِ مِنَ الشيطانِ، ففي خاتمةِ سورةِ الناس علمنا ربنا أن نستعيذَ ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس:٦].

وعلمنا ربُّنا في سورة الفلقِ أنْ نعوذَ به مِنَ الشرورِ كلِّها، ومِنَ شرورٍ بعينها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق:١-٥]. وقد أخبرنا ربَّنا أنَّ نبيَّ الله موسى استعاذَ بالله من فرعونَ ومَنْ على شاكلتِهِ مِنَ الجبابرةِ عندما تهدَّده فرعونُ وتوعَّده، قال موسى: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٢٧﴾ [غافر:٢٧].

ومريمُ عليها السلام التجأت إلى الله مستعيذةً به عندما رأت جبريلَ متمثلاً في صورةِ رجلٍ يقتحم عليها خلوتها وهي لا تعلم من هو، فقالت: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ [مريم:١٨].

وفي الحديثِ عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ الرسولَ ﷺ كان إذا عَصَفَتِ الريحُ قال: «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَها وخَيْرَ ما فيها، وخَيْرَ ما أُرْسِلَتْ بِهِ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّها وشَرِّ ما فِيها، وشَرِّ ما أُرْسِلَتْ بِهِ» [مسلم: ٨٩٩].

وإذا رجعتَ إلى مدوَّنات الحديثِ وكُتُبِ الأذْكارِ وَجَدْتَ أحاديثَ كثيرةٍ كان الرسولُ ﷺ يستعيذُ فيها مِنْ كثيرٍ مِنَ الشرورِ.

١٠- المستعيذُ بالله يزداد إيماناً، لأنَّ الاستعاذةَ تتضمن التوكُّلَ على الله والالتجاءَ إليه، والاحتماءَ بهِ، هذا لا يتأتى على الوَجْهِ الصحيح إلاَّ لمن أيقن بقدرةِ الله التامَّة على كلِّ شيء، وأنَّه قادرٌ على حمايتِهِ، وأن الشيطانَ وأفعالَه محكومةٌ بقدرةِ الله، وأن كيدَ الشيطانِ ضعيفٌ.

١١- الشيطانُ لا يقدرُ على إضلال وإغواء العبادِ الذين أخْلَصُوا دينهم لله، وإنَّما سلطانُهُ على الذين يتابعونه ويطيعوه، وبسبب طاعته هم مشركون بالله تعالى.

١٢- إذا نَسَخَ اللهُ حكماً سبقَ أن قَرَّره، رَمَى الكفارُ الرسولَ ﷺ بالكذبِ، وقد رَدَّ اللهُ تعالى على هؤلاءِ بأنَّ هذا القرآنَ الكريمَ، جاء به جبريلٌ مِنْ عند الله تعالى، ليثبت قلوبَ المؤمنين على الإيمان، وجعله هدى، وبشرى لمن أسلموا وخضعوا لله رب العالمين.

١٣- نسبَ المشركون هذا القرآنَ إلى رَجُلٍ أعجميٍّ لسانه لا يكادُ يُبِينُ، وأكذبهم اللهُ فيما ادَّعوه، بأنَّ لسانَ هذا الذي نسبوا إليه القرآنَّ أعجمي، لا يكادُ يبينُ، وهذا القرآنُ أُنزل بلسانٍ عربيٍّ، بلغَ الغاية في الفصاحةِ والبلاغة.

١٤- الكاذبون المفترون ليسوا هم الرسول ﷺ وأصحابُه، وإنَّما هم الكفارُ الذين لا يؤمنون بالله ولا بآياته.

١٥- الذي أُكره على الكفر، وانشرح صدره له، مُسْتَحِبًّا الكفر على الإيمان فهو كافِرٌ ضالٌّ، ولكنَّ الذي أظْهَرَ الكفر بلسانه، وقلبه مطمئِنٌّ بالإيمانِ، فهو مؤمن.

النص القرآني الثاني عشر من سورة النحل
مثلُ القريةِ الآمنة المطمئنة التي كفرتْ بأنعم الله

أولاً: تقديم

بَيَّنَ اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ غفرانَه للمهاجرين المجاهدين الصابرين، وبَيَّن لنا أنَّ كلَّ فردٍ منَّا يومَ القيامةِ يُجادلُ عن نفسه، ولا يجادلُ عنه غيره، وضربَ مثلاً لأهلِ مكَّة، فقد كانوا آمنينَ مطمئنِّين، فكفروا بنعمةِ الله، فأذاقهم اللهُ لباسَ الخوفِ والجوعِ، وأباحَ اللهُ تعالى لعبادِهِ أنْ يأكلوا مِنَ الحلالِ الطيبِ، وأمرهم بشكره، وبَيَّنَ لهم ما حَرَّم عليهم ونهاهم أنْ يحلُّوا ويحرموا بأهوائِهم، وأخبرنا بما حَرَّم على اليهودِ مِنَ الطيبات بسببِ بغيهم، وأعلمنا سبحانه أنَّه يغفرُ للذين عملوا السيئاتِ إذا هم تابوا وأنابوا، وعملوا الصالحاتِ، وتركوا الموبقاتِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾ [النحل: ١١٠-١١٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الذين هاجروا مِنْ بعد ما فتنوا:

حَدَّثنا رَبُّنا تبارك وتعالى عن صنفٍ مِنَ المؤمنين كانوا بمكَّةَ، فتنهم المشركون، ثمَّ يسَّرَ اللهُ -تبارك وتعالى- لهم الهجرةَ، فجاهدوا مع المسلمين، وصبروا على دينهم، ﴿ ثُمَّ إِنَّ

رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [النحل:١١٠] أي: إنَّ الذين هاجروا من بعد ما فتنهم قومهم، وعذبوهم، ليرجعوا عن دينهم، ثم هاجروا مِنْ مكَّةَ إلى المدينةِ، وهناك قاموا مع الرسولِ ﷺ بتكاليفِ الهجرةِ والجهادِ في سبيلِ الله، وصبروا على ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ فاللهُ غفورٌ، أي: كثيرُ المغفرةِ لذنوبهم وخطاياهم، وهو رحيمٌ بهم سبحانه وتعالى.

وأمَرَنا ربَّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- أن نذكر ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [النحل:١١١]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ كلَّ نفسٍ تأتي يومَ القيامةِ تجادلُ وتحاجُّ عن نفسِها، ولا يجادلُ أحدٌ عنها، فالأبُ والأخُ والعمُّ والخالُ والصاحبُ كلُّ واحدٍ مشغولٌ بنفسه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

٢- ضربَ اللهُ تعالى مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً فكفرتْ بأنعمِ اللهِ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ضربَ ﴿مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢].

هذه القريةُ التي ضربَها مثلاً هي مكَّةُ، فإنَّها كانت آمنةً مطمئنَّةً، مَنْ دخلها كان آمناً، وكانَ الناسُ يُتخطَّفونَ مِنْ حولها، ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص:٥٧].

﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: أذاقها ربُّنا -تبارك وتعالى- لباسَ الجوعِ، فبعد أنْ كان يُجبَى إليهم ثمراتُ كلِّ شيء، ويأتيها رزقها رغداً مِنْ كلِّ مكانٍ، جاعت، واشتدَّ جوعُها، وخافتْ بسببِ كفرِها برسولِ الله ﷺ ، وكفرها بالقرآنِ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ بسبعٍ كسبع يوسف، فأصابتهم سنةٌ أذهبت كلَّ شيء.

وبدَّلَ اللهُ تعالى أَمْنَ أهلِ مكَّة خوفاً بعد أنْ قامتْ دولةُ الإسلام في المدينةِ، فقد كان الرسولُ ﷺ وأصحابه يغزونهم، ويُسَيِّرون إليهم الجيوشَ والسرايا، حتى فتحوا مكَّة في السنةِ الثامنةِ مِنَ الهجرة، وأصبحَ أهلُ المدينة في عزٍّ ورفعةٍ، وأصبحَ المؤمنون في المدينةِ أمراءَ الناسِ وحكامَهُمْ وسادَتَهُمْ، وأمِنوا بعد الخوفِ، ورُزِقوا بعد الفقرِ والعيلة.

٣- ما حرَّمه ربُّنا -تبارك وتعالى- على عبادِهِ:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ المشركين ﴿جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣﴾ [النحل:١١٣] والذين جاءَهم رسولٌ منهم هم أهلُ مكَّة، فقد كان رسولُنا ﷺ في قريشٍ ذو نسبٍ، وكانوا يُقِرُّونَ بنسبه فيهم، فكَذَّبه أهلُ مكَّة، فأخذهم العذابُ، بسبب كفرهم وظلمهم.

ثمَّ أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ أن يأكلوا مما رزقهم ربُّهم حلالاً طيباً ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل:١١٤].

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ أنْ يأْكُلوا مما رزقَهُمُ اللهُ تعالى بشرطِ أن يكون المأْكولُ حلالاً طيباً، ومن ذلك بهيمة الأنعام مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ، ومنها ما غنمه المسلمون مِنْ أعدائِهم، والحلالُ الطيبُ الذي خَلَقَهُ اللهُ تعالى مِنَ الحيوانِ والطيورِ والنباتِ كثير، وأمر الله تبارك وتعالى عبادَه أن يشكروا نعمةَ الله عزَّ وجَلَّ إن كانوا إياه يعبدون، وقوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ أمرهم تبارك وتعالى بشكره، ثم هيجهم على الشكرِ بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ أي: إن عبدتموه وَحْدَهُ، فاشكروا له.

ثم بيَّن للمؤمنين ما حرَّمه عليهم من الأطعمة، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ [النحل:١١٥]. وقد كَرَّر ربُّ العزةِ ذكر هذه المحرمات في مواضعَ مِنْ كتابه، فقد نصَّ على تحريمها في البقرة والمائدة والأنعام.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ أي: فمن اضطرَّ إلى شيء من هذه المحرمات كالذي لا يجد عاماً في سفره، فلا إثم عليه أن يأخذ منها قدر حاجته، وإن الله غفور له، رحيم به، لا يعاقبه على ذلك.

٤- نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ عن افتراءِ الكذب عليه:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النحل:١١٦-١١٧]. نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- الكفارَ المشركين أنْ يقولوا بألسنتهم الكذبَ على الله تعالى، فيحلِّلُون ما شاؤوا بأهوائهم، ويحرمون ما شاؤوا مِنْ غيرِ دليلٍ، فمن ذلك تحريمُهُمُ الوصيلةَ

والبحيرةَ والحام، ومن ذلك تحليلهم الميتةَ والدمَ، وهذا منهم افتراءٌ وكذبٌ على الله ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فالله لم يُحَرِّم ما حرموه، ولم يحلّ ما أحَلُّوهُ، فكان هذا منهم افتراءً واختلاقاً على الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ ولذلك فإنَّه سبحانه يؤاخِذُهُمْ على افترائهم الكذبَ عليه يومَ القيامةِ، ويجزيهم به، وقوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ أي: هذا المتاعُ الدنيوي الذي ينعمون به في الدنيا قليلٌ، لأنَّه مهما كثُر، فإنَّه زائلٌ عنهم، وكلُّ زائلٍ قليلٌ.

٥- ما حرَّمه اللهُ -تعالى- على الذين هادوا:

قال تعالى مبيناً ما حَرَّمه على الذين هادوا ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل:١١٨]. وهذا الذي حرَّمه اللهُ -تعالى- على الذينَ هادوا، هو ما قصَّه علينا في سورةِ الأنعامِ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام:١٤٦]. وهذا الذي حَرَّمَهُ اللهُ -تعالى- بسببِ ظلمِهِمْ لم يكن فيه ظلمٌ لهم، بل هم الذين ظَلَمُوا أنفسَهُمْ بالكفر والبغي، فحَرَّم اللهُ تعالى عليهم طيباتٍ أُحِلَّت لهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء:١٦٠].

وآخرُ آيةٍ في هذا النصّ تقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل:١١٩].

وهذا ترغيبٌ مِنْ ربِّ العزة للذين عملوا السوءَ بجهالةٍ، وكلُّ مَنْ أشْرَكَ أوْ عصى فقد عملَ السوءَ بجهالةٍ، وذنبُهُ قابلٌ للتوبةِ؛ فإذا عمل الصالحاتِ وتركَ الذنوبَ والمعاصي والموبقاتِ، فإنَّ ذنبه قابلٌ للغفران، واللهُ غفور رحيم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- أثنى ربُّ العزةِ على الذين هاجَرُوا بعد ما فتنهم قومهم، ثم جاهدوا مع رسولِ الله، وصبروا على تكاليف الهجرةِ والجهادِ، وأعلمنا ربُّنا أنَّه غفورٌ رحيمٌ بهم.

٢- كلُّ نفسٍ تأْتي يومَ القيامةِ تجادلُ عن نفسِها، ولا يدافعُ أحدٌ عنها غيرها.

٣- ضربَ مثلاً لأهلِ مكّةَ، وهي قريةٌ كانت آمنةً مطمئنةً، كفرتْ بأنعمِ الله تعالى، وأعظمها إرسالُ الله رسولَه ﷺ إليهم فكفروا بِهِ، فابتلاها اللهُ تعالى بالجوعِ والخوفِ بسبب كفرِها.

٤- أمر اللهُ تعالى عبادَهُ أن يأْكلوا مما رزقهم اللهُ إياه بشرطِ أنْ يكون حلالاً طيباً.

٥- حَرَّم اللهُ تبارك وتعالى على عبادِه الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزيرِ وما أُهِلَّ لغير الله تعالى به، أي: ما ذبحَ لغيرِ الله تعالى.

٦- الذي يضطرُّ إلى تناولِ شيءٍ مِنْ هذه المحرماتِ كالذي لا يجدُ الطعامَ لا حرجَ عليه أنْ يأخذ منها قدرَ حاجته.

٧- نهى اللهُ تعالى الكفارَ أنْ يحلُّوا ما حَرَّمه اللهُ تعالى، ويحرموا ما أحلَّه اللهُ بأهوائِهم.

٨- حَرَّم اللهُ تبارك وتعالى على الذين هادُوا طيباتٍ أُحِلَّت لهم بسبب بغيهم.

٩- الذين عملوا السوءَ مِنَ الكفرِ والشركِ والمعاصي يتوبُ اللهُ تعالى عليهم إذا تابوا ورجعوا إلى الله وأصلحوا نفوسهم وأعمالهم.

النص القرآني الثالث عشر من سورة النحل

ثناءُ الله تباركَ وتعالى على رسولِهِ إبراهيم عليه السلام

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآيات على عبدِهِ ورسولِهِ إبراهيمَ عليه السلام وأمر اللهُ تعالى رسولَه محمداً ﷺ أن يتَّبعَ مِلَّةَ إبراهيمَ عليه السلام، وأخبرنا أنَّه حَرَّم العمل في يومِ السبت على اليهود الذين اختلفوا فيه، وأمرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ بالدعوةِ إليه بالحِكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وأنْ يجادلَ مخاصميه بالتي هي أحسنُ وأمرنا بأن نعاقب مَنْ أساءَ إلينا بمقدارِ العقوبةِ التي أوقعها بنا، وبَيَّنَ أن الصبرَ عن معاقبةِ مَنْ أساءَ إلينا خَيْرٌ وأفضلُ، وأمرنا بالصبرِ، وعدمِ الحزنِ على الذين يمكرون بنا، وختم اللهُ تعالى السورةَ الكريمةَ بإخبارِنا بأنَّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النحل

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ (١٢٦) وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذ النص من القرآن

١- ثناءُ الله -تبارك وتعالى- على عبدِهِ ورسولِهِ خليلِ الرحمنِ إبراهيم:

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على عبدِهِ ورسولِهِ وخليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام، فقالَ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (١٢٢)﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

أثنى اللهُ تعالى على إبراهيمَ بأنَّه كان أمَّةً، أي: يأْمُّهُ الناسُ، ويقتدون به، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ [البقرة:١٢٤]، وكان مع إمامَتِهِ مُعَلِّماً للناسِ الخيرَ، وكان إبراهيمُ ﷺ ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ والقانتُ: الخاشعُ المطيعُ لله ربِّ العالمين، والحنيفُ: المائلُ عن الأديانِ الباطلةِ، المستقيمُ على الدِّينِ الحقِّ، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ أي: لم يكن كما تدعيه قريش، فقد ادَّعوا أنَّه كان مشركاً يعبدُ الأصنامَ، وصوَّروه في جوفِ الكعبةِ يستقسمُ بالأزلامِ.

وكان نبيُّ الله إبراهيمُ ﷺ كما حدَّثنا اللهُ تعالى عنه ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ﴾ أي: قائماً بشكرِ نِعَمِ الله تعالى التي أنعمَ بها عليه، ﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ أي: اختارَهُ واصطفاه، وهداه إلى دينِهِ الحقِّ، وهو التوحيدُ.

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ ﴾ وقد آتى اللهُ إبراهيمَ حسنةَ الدنيا، فقد وهبَ له على الكبرِ إسماعيلَ وإسحاقَ، ووهبه مِنْ وراءِ إسحاقَ يعقوبَ، وآتاه الذكرَ الحسنَ في الآخرين، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ بل هو في أعلى درجات الصالحين يومَ الدينِ، فمقامُهُ بين العبادِ الصالحين يومَ الدينِ بعد مرتبة نبينا محمدٍ ﷺ .

وقد أمَرَ اللهُ تبارك وتعالى رَسولَنا محمداً ﷺ أن يتبعَ ملَّةَ نبيِّ الله إبراهيم ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل:١٢٣]. وملَّة إبراهيمَ التي أمَرَ رسولَنا ﷺ باتباعها هي التوحيدُ، وهي خيرُ المللِ، ومَنْ رفضَ اتباعها كان سفيهاً ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة:١٣٠].

٢- جَعَلَ اللهُ -تعالى- السبتَ على الذين اختلفوا فيه:

شرعَ اللهُ تبارك وتعالى يوماً لكلِّ أُمَّةٍ أَرسلَ إليها رسولاً يجتمعون فيه على عبادةِ الله تبارك وتعالى، وأمَرَ اليهودَ أنْ يكونَ يومَهُمْ الجمعة، فاختلفوا في ذلك، ورضوا لأنْفُسِهم السبتَ، فتركهم اللهُ وما اختارُوه، اختاروه لأنَّه اليومُ الذي فرغ فيه اللهُ مِنْ خلقِ السموات والأرضِ، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النحل:١٢٤].

واختار اللهُ تعالى لهذه الأمَّةِ يومَ الجمعةِ، وهو خيرُ الأيام وأفضلُها، فعن أبي هريرة ﷺ، أنَّه سَمعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «نحنُ الآخِرون السابقونَ يومَ القِيامةِ، بَيْدَ أنَّهم أُوتُوا الكتابَ

من قَبلِنا، ثمَّ هذا يومُهم الذي فُرِضَ عليهم، فاختَلَفُوا فيه، فهَدانا اللهُ، فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ: اليهودُ غداً، والنَّصارَى بعدَ غَدٍ» [البخاري: ٨٧٦. مسلم: ٨٥٥].

وعن أبي حازم، عن أبي هريرة، وعن رِبْعِيِّ بنِ حِراشٍ، عن حذيفةَ، قالا: قال رسولُ الله ﷺ: «أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَن كان قبلنا، فكان لليهودِ يومُ السبتِ، وكان للنصارى يومُ الأحدِ، فجاءَ اللهُ بنا، فهدانا الله ليوم الجُمُعَةِ، فجعلَ الجمعةَ والسبتَ والأحدَ، وكذلك هم تَبعٌ لنا يوم القيامةِ، نحنُ الآخِرونَ مِنْ أهلِ الدُّنيا، والأوَّلُونَ يومَ القيامةِ، المَقْضِيُّ لهم قبلَ الخلائقِ». وفي رواية واصِلٍ: «المَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ» [مسلم: ٨٥٦ (٢٢)].

وعن حذيفةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «هُدِينا إلى الجمعةِ وأَضَلَّ اللهُ عنها مَنْ كان قبْلَنا» فذكر بمعنى حديث ابن فُضَيْلٍ [مسلم: ٨٥٦ (٢٣)].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾. وقد أوْردَ ابنُ كثيرٍ عند هذه الآية ما قاله زيدُ بنُ أسلمَ في هدايةِ الله تبارك وتعالى لنا فيما اختلفتْ فيه الأمم مِنْ قبلنا، قال في قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]: «فاختلفوا في يومِ الجمعةِ، فتخذ اليهودُ يومَ السبتِ، النصارى يوم الأحدِ، فهدى الله أُمَّةَ محمدٍ ﷺ ليوم الجمعةَ. واختلفوا في القِبْلَة، فاستقبلت النصارى المشرق، واليهودُ بيتَ المقدسِ، فهدى الله أُمَّةَ محمدٍ للقبلةِ. واختلفوا في الصلاةِ، فمنهم مَنْ يركعُ ولا يسجدُ، ومنهم مَنْ يسجدُ ولا يركعُ، ونمهم مَنْ يصلي وهو يتكَّلم، ومنهم مَنْ يصلي وهو يمشي، فهدى الله أُمَّةَ محمدٍ للحقِّ مِنْ ذلك. واختلفوا في الصيام، فمنهم مَنْ يصومُ بعضَ النهار، ومنهم مَنْ يصوم عن بعضِ الطعام، فهدى اللهُ أمةَ محمدٍ للحقِّ مِنْ ذلك. واختلفوا في إبراهيمَ ﷺ، فقالت اليهود: كانَ يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمةَ محمدٍ للحقِّ مِنْ ذلك. واختلفوا في عيسى ﷺ، فكذَّبتْ به اليهودُ وقالوا لأمِّه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمةَ محمدٍ ﷺ للحقِّ من ذلك» [تفسر ابن أبي حاتم ٢/ ٣٧٨ (١٩٩٤)، ابن كثير: ٤/ ٧٨].

٣- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ ﷺ أنْ يدعوَ إلى ربِّهِ بالحكمة والموعظةِ الحسنة:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ ﷺ أنْ يدعوَ إلى سبيلِ ربِّه ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل:١٢٥]. أَمَرَ اللهُ تبارك وتعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يدعو العبادَ إلى دينِ الله بالحكمةِ، أي:

بالمقالةِ المحْكَمَة الصحيحةِ، وهي الدليلُ الموضحُ للحقِّ. المزيلُ للشبهة، وقال أبو بكر ابنُ دُرَيْد: الحكمةُ: كَلّ كلمةٍ وعظتك، أو دعتك إلى مكرمَةٍ، أو نهتك عن قبيحٍ. ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ هي الترغيبُ والترهيبُ بالخطاباتِ المُقْنِعَةِ، والعبرِ النافعةِ، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالطريقة التي هي أَحْسَنُ طرقِ المجادلةِ مِنَ الرفقِ واللينِ، مِنْ غير فظاظةٍ، ولا تعنيفٍ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: إنَّ اللهَ تبارك وتعالى أعلمُ بمنْ ضلَّ عن سبيلِ الله، وهم الأشقياءُ الذين كفروا، وماتوا على كفرِهم، وهو أعلمُ سبحانه بالذين استجابوا إلى هدى الله تعالى، فآمنوا واستقاموا على ما أمَرَ اللهُ -تعالى- به.

٤- أمر اللهُ -تبارك وتعالى- بالعدلِ بالقصاصِ والمماثلةِ في استيفاءِ الحق:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٦-١٢٨].

أمرنا ربُّنا أنْ لا نطغى في القصاصِ فيما اعتديَ علينا به، فإذا عاقبنا، فعلينا أنْ نفعلَ بمن عاقبنا مثل ما فعلَ بنا مِنْ غيرِ زيادةٍ، وهذا هو العدلُ والإنصافُ، ثم أخبر ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الصبرَ مطلقاً خيرٌ وأفضلُ ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ أي: عدمُ المعاقبةِ بالمثلِ أفضلُ وأحسنُ.

ثمَّ أمَرَ رَبُّ العباد بالصبرِ عمَّن ظلمنا وأساءَ إلينا ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، وفي الآية إخبارٌ أنَّ الصبرَ لا ينال إلا بمشيئةِ الله وإعانته، وحولِهِ وقوتِهِ.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تحزن على الكفارِ الذين يعادونَك، ويكفرونَ بك، ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: لا تكن في غَمٍّ مما يمكرونَ بك، والضَّيْقُ: مصدرُ ضاقَ يضيقُ ضَيْقاً، وهو ما ضاق عنه صَدْرُكَ. والمكرُ: ما يعملونه مِنَ الإضرارِ بالرسول ﷺ على وجه الخفاء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: اللهُ -تبارك وتعالى- مع الذين اتَّقَوْا ربهم، بفعلِ الصالحاتِ، وتركِ الشركِ والمعاصي والذنوبِ، والذين هم محسنون، أي: بلغوا الغايةَ في إتقانِ ما يعلونه، ويقومون به، واللهُ تعالى معهم بنصرِهِ ورعايته وتأييدِهِ، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٧] وقال اللهُ تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١ - أثنى اللهُ تبارك وتعالى على نبيِّه إبراهيمَ ﷺ، وأمَرَ رسولَنا ﷺ باتباعِ مِلَّتِهِ القائمةِ على التوحيدِ.

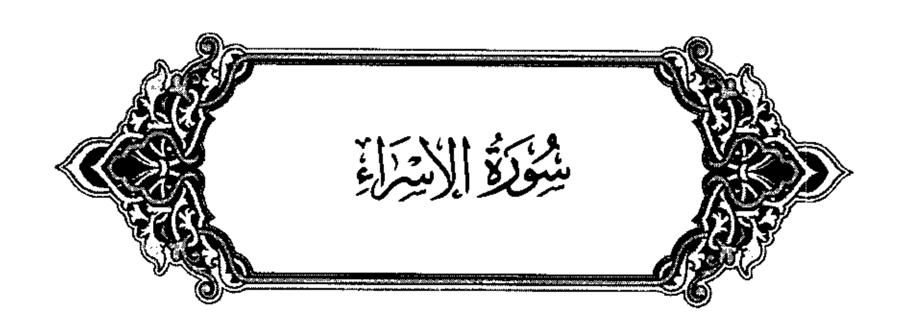
٢ - جعلَ اللهُ -تبارك وتعالى- السبتَ، بتركِ العمل فيه، على الذين اختلفوا فيه، وهم اليهودُ، وجعل اللهُ لأُمَّةِ الإسلامِ الجمعةَ عيداً أسبوعياً.

٣ - أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وهو -سبحانه- أعْلَمُ بالأشقياءِ الضالين عن دينِ الله، وهو أعلمُ بالذين هداهُمُ اللهُ إلى دينِهِ.

٤ - لا يجوزُ للمسلمِ أنْ يزيدَ في العقوبةِ عن مقدارِ ما وقعَ به، والصبرُ والصفحُ أولى وأفضلُ.

٥ - نَهَى اللهُ رسولهُ ﷺ عن الحزنِ على الكفارِ لأنهم لم يستجيبوا لدعوته، وأن لا يضيقَ صدرُه، مما يمكرون به للإضرارِ به على وجهِ الخفاءِ.

٦ - اللهُ -تبارك وتعالى- مع الأتقياءِ المحسنينَ بنصرِهِ وتأييدِه ورعايته.



تقديم

سورةُ الإسراءِ مَكِّيةٌ، وكلمها ألفٌ وخمسمائةٍ وثلاث وثلاثون كلمةً، وحروفها ستةُ آلافٍ وأربعمائة وستون حرفاً، وهي مائةٌ وإحدى عشرة آيةً في الكوفي، وعشراً في عدد الباقين [البيان في عَدِّ آي القرآن، ص١٧٧].

وعن ابن مسعودٍ قال في بني إسرائيلَ والكَهْفِ ومَرْيَمَ وطه والأنبياءِ: إنَّهنَ مِنَ العتاقِ الأُوَلِ، وهُنَّ مِنْ تِلادِيْ» [البخاري: ٤٩٩٤]. والعتاق: ما بلغَ الغايةَ في الجودةِ، وتلادِي: أي: قديم ما أخذت مِنَ القرآنِ.

وفي مسند أحمد عَنْ عائشة أنَّ الرسولَ ﷺ «كان يَقْرَأُ كلَّ لَيْلَةٍ بني إسرائيلَ والزمرَ» [قال محقق ابن كثير (٤/ ٨١): أخرجه أحمد (٦/ ٦٨، ١٢٢)، والترمذي: (٢٩٢٠، ٣٤٠٥). والحاكم وسكت عليه والذهبي، وإسناده حسن، ورجاله ثقات].

النص القرآني الأول من سورة الإسراء
إسراءُ الله -تعالى- برسولِهِ مِنَ المسجد الحرامِ إلى المسجد الأقصى

أولاً: تقديم

في آياتِ هذا النص حديثٌ عن إسراءِ الله تعالى بعبدِه محمدٍ ﷺ مِنَ المسجد الحرامِ إلى المسجد الأقصى، وقد صلى هناك بالأنبياءِ إماماً، وفي ذلك وراثةُ النبوةِ مِنْ بني إسرائيل، وأثنى اللهُ تعالى على موسى ﷺ بإيتائِه التوراة، وجعلها كتابَ هدايةٍ لبني إسرائيل، وأعلمنا ربُّنا -عز وجل- أنه حَكَمَ على بني إسرائيل في التوراةِ أو اللوحِ المحفوظِ أنَّهم سيفسدون في الأرضِ مرتين، وسيعلونَّ علوًّا كبيراً، وهاتان المرتان آتيتان، وهما واقعتان الآن، وفي هذه الآيات بشرى عظيمة للأُمَّةِ الإسلاميةِ، بأنهم سيدمرون العلوَّ اليهوديَّ وسيستعيدون الأقصى وتكون العاقبة لهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـࣳۡٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾ [الإسراء: ١-٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تسبيحُ الله تعالى نفسَهُ على إسرائِهِ برسولِهِ ليلاً مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى:

قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: ١].

سَبَّح اللهُ -تبارك وتعالى- نفسَهُ لإسرائِه بعبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذي بارك اللهُ حولَه.

و﴿سُبْحَٰنَ﴾ مصدر سبَّح يسبِّح تسبيحاً، ومعناه: تنزيهُ الله تعالى عن كلِّ ما لا يليقُ به مِنْ نقصٍ، والإسراءُ: هو سيرُ الليلِ، فقد كان إسراءُ الله برسوله مِنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلاً، ونكَّر ليلاً لبيانِ أنَّ مدَّةَ الإسراءِ كانت في بعضِ الليلِ، وقوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ هو محمدٌ ﷺ، وقال ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ ليدلَّ على أنَّه أشرفُ أسمائِه، ولو كان هناك اسمٌ أفضلَ مِنْ هذا الاسم لسمَّاه به في هذا المقامِ العظيمِ، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ والمسجدُ الحرامُ هو الذي في مكَّةَ، الذي بناه نبيُّ الله إبراهيمُ وابنُه إسماعيلُ، والمسجدُ الأقصى المسجد الذي في مدينةِ القدسِ، والذي بناه نبيُّ الله إسحاقُ أو يعقوبُ، وجَدَّد بناءَه نبيُّ الله سليمانُ عليه السلام.

وقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ كان الإسراءُ برسولنا محمدٍ ﷺ آيةً مِنْ آياتِ الله تعالى، وأراه اللهُ تعالى في هذه الآيةِ آياتٍ كثيرة، منها إطلاعه على المسجد الأقصى، ومنها العروج به إلى السماء، ومنها ما رآه في السماءِ، ومنها مقابلته الرسلَ والأنبياءَ، وغيرَ ذلك مِنَ الآياتِ.

ووصف المسجد بالأقصى، لبُعدِهِ عن مكة، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ أي: السميعُ لأقوالِ العبادِ، البصيرُ بأفعالهم.

وقد دلَّ قولُهُ تبارك وتعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ على أنَّ إسراءَ الله بالرسولِ ﷺ كان بروحِهِ وجسدِهِ، خلافاً لمن ذهب أنَّه كان بروحِهِ، فالعبدُ يطلقُ على مجموعِ الروحِ والجسدِ، ويدلُّ لصحة ذلك قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم:١٧] لأن البصرَ مِنْ آلاتِ الذاتِ لا الروح، ودلَّ على صحتِهِ أيضاً قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم:١٨].

ومن الأدلةِ القرآنيةِ الدالةِ على أنَّ الإسراءَ كان بالجسدِ والروح قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠] فإنها رؤيا عَيْنٍ يقظةً، لا رؤيا منامٍ كما صحَّ عن عباس وغيره.

ومِنَ الأدلةِ الدالةِ على أنَّه كان إسراءً بالجسد تكذيبُ قريشٍ له، فلو كان رؤيا منامٍ لما كَذَّبَه قَوْمُه، فرؤيا المنامِ لا تنكر، ومِنَ الأدلةِ الدالةِ على ذلك الأحاديثُ الواردةُ في ذلك، وهي كثيرةٌ متوترة تواتراً معنويًّا، وهي دالةٌ دلالةً صريحةً على أنَّ المعراجَ كان بروحِهِ وجسده.

٢- إيتاءُ الله -تبارك وتعالى- موسى الكتابَ:

بعد أنْ ذكر اللهُ تعالى ما امتنَّ به على رسولِهِ ﷺ بإسرائِه بِهِ مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجد الأقصى، ذكر منته على عبده ورسوله موسى ﷺ بإيتائِه الكتابَ، وهو التوراةُ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء:٢]. وقد بيَّن ربُّ العزَّةِ سبحانه، أنَّه جعل الكتابَ الذي أنزله على موسى كتابَ هدايةٍ لبني إسرائيل، وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ أي: جعله اللهُ -تعالى- هدى لبني إسرائيل لأجل ألاَّ يتخذوا مِنْ دونِهِ وكيلاً، لأنَّ اتخاذَ الوكيلِ مِنْ دونِ الله تعالى ليس مِنْ الهدى، لأنَّ التوكلَ ينبغي أن يكون على الله وحده، كما قال ربُّ العزَّة ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل:٩] وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء:٣] أي: يا ذرية مَنْ حملنا مع نوحٍ في السفينةِ، فنجَّاهم اللهُ تعالى مِنَ الغرقِ، والذين حملهم اللهُ تعالى مع نوحٍ هم مَنْ آمَنَ به من أهلِهِ وغيرهم، وما آمن به إلا قليلٌ. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ أي: كان يحمدُ نوحٌ ربَّه كثيراً، وقد وَرَدَ في الحديثِ أنَّ نوحاً ﷺ كان يحمدُ اللهَ على طعامِهِ وشَرابِهِ ولباسِهِ وشأنِه كلِّه، فلهذا سُمِّيَ عبداً شكوراً، وفي الحديث عن أنس ابن مالك ﷺ، قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيَرْضى عَنِ العبدِ أنْ يأْكُلَ الأَكْلَةَ، فيَحْمَدَهُ عَلَيْها، أوْ يَشْرَبَ الشُّرْبَةَ، فيَحْمَدُه عليها» [مسلم: ٢٧٣٤]. ونادى ربُّ العزة العبادَ وأخبرهُمْ أنَّهم ذرية مَنْ حمَلَ مع نوحٍ الذي كان عبداً شكوراً، ليتابعوه فيما أخذ به نفسَه مِنْ شكْرِ ربِّه.

٣- قضى اللهُ -تبارك وتعالى- إلى بني إسرائيل في الكتابِ لتفسدنَّ في الأرضِ مرتين:

أعلمنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب ليفسدنَّ في الأرض مرتين، ولَيَعْلُنَّ علوًّا كبيراً: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾ [الإسراء:٤].

والمرادُ بالكتابِ الذي قضى اللهُ فيه هذا القضاءَ التوراةُ، أو اللوحُ المحفوظُ، وهل هاتان المرتان اللتان أخبرنا بهما ربُّنا -تبارك وتعالى- وقعتا وانقضتا، فهما من الماضي؟ أو هما مما سَيَقَعُ في مقبلِ الزمانِ؟

لقد شغلتني هذه القضيةُ كثيراً، وفكَّرتُ فيها مرةً بعد مرَّةٍ، وقد رجعتُ فيها إلى كتبِ التفسيرِ، فوجدتُ المفسرين القدامى يقولون: إنَّ هاتين المرتين وقعتا وزالتا بينهما وجدتُ بعضَ

المفسرين المعاصرين قد ذهب إلى أن واحدةً مِنَ المرتين كانت في الماضي أو في عهدِ الرسولِ ﷺ ، والثانية هي التي تجري في أيامنا هذه، وقد حاولتُ أن أجدَ مفتاحاً يدلنا على المرادِ الصحيح المقصود مِنَ الآيات، لأنَّ الكلامَ بغيرِ عِلْمٍ ولا دليلٍ لا يوقِفُنا على الحقيقة، وبعد تأمل أظنَّني وجدت المفتاحَ الذي يجعلنا نجزم بأنّ هاتين المرتين مضتا وانقضتا، أو هما آيتانِ لم تقعا بَعْدُ.

لقد هديتُ إلى أنَّه يجبُ أنْ نفقهَ أنَّ ما تحدَّثتْ به الآياتُ عن كلِّ واحدة مِنْ هاتين الإفسادتين، ثمَّ ننظرُ بعد فقهِنا للآياتِ هل وقع هذا الذي حَدَّثَتْ به الآياتُ في التاريخِ اليهوديِّ، فإن كان قد وَقَعَ، فإنَّهما إفسادتان قد وقعتا وانقضتا، وإن لم تقعا على النحو الذي حدثت به الآيات، فإنهما آيتان، ولم يقعا بعد، وهذا ميزان صحيح يطمئنُّ إليه القلبُ، وتهدأُ له النفسُ، وقد ألفتُ كتاباً بعنوان: «وليتبروا ما عَلَوْا تتبيراً»، كتبتُه بعد أنْ هدأت النفسُ إلى هذا الميزانِ الذي هديتُ له، وقلت في ذلك الكتاب:

الإسراء برسولنا إلى الأقصى وصلاته بالأنبياء إماماً:

إنَّ إسراءَ الله تبارك وتعالى برسوله ﷺ من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصى فيه أعظمُ دليلٍ على أن الأقصى سيبقى في حيازة الأمةِ الإسلاميةِ، وقد نزعه منا الصليبيونَ، فأعادَهُ الله إلينا، إنَّ إسراءَ الله برسولِهِ إلى الأقصى وصلاتِه فيه بالأنبياءِ إماماً، وفيهم نبيُّ الله موسى، ونبيُّ الله عيسى ليدلَّ على أنَّ حفظَ هذا المسجدِ والقيام عليه أصبحَ موكولاً لأمة الرسولِ الأعظم ﷺ ، وليس الأمرُ كذلك فحسبُ بل جَعَلَهُ قبلةَ المسلمين الأولى، وما كان لقبلةِ المسلمين أنْ تهان مِنْ قِبَلِ يهودٍ، وتبقى تحت رجسهم إلى قيامِ الساعةِ، إنَّ اللهَ غضب على اليهود، وغضبه عليهم باقٍ دائم، وإنه وإن رَفَعَ الذلة عنهم فترةً من الزمانِ، فإنَّ غضبَهُ يلاحقُهُمْ على مرِّ الزمان، ووالله إنَّ ذلك لحقٌّ، لا شكَّ فيه ولا ريبَ، ولتعلمن نبأه بعد حين.

لقد أسري بالرسول ﷺ إلى الأقصى، وفتحه المسلمونَ ولم يكن مضى على وفاةِ الرسولِ ﷺ إلا بضعُ سنواتٍ، وتسلَّم مفاتِحَهُ الخليفةُ الراشدُ عمرُ بنُ الخطاب، وسنفتحه مرَّة أخرى بحول الله وقوته.

وَعْد الله لنا بأننا سنسوءُ وجوهَ يهودٍ ونتبِّرُ علوَّهُمْ تتبيراً:

لا شك أنَّ اغتصابَ اليهودِ لفلسطين وإقامةَ دولةٍ لهم فيها حَدَثٌ مِنَ الأحداثِ العظام، مِنَ البعيدِ أن لا يوجد في الكتابِ والسنَّةِ ما يدلُّ عليه، وقد تتبعتُ ما وردَ في أخبار الغيبِ في السنَّةِ النبويةِ، وما أُلِّفَ في الفتنِ الواردةِ فيها، فلم أَجِدْ حديثاً واحداً في هذا

الموضوع، ورأيت بعضَ الخطباءِ يَذْكر الأحاديثَ التي فيها نبأَ محاربة هذه الأمةِ لليهود في آخرِ الزمانِ، ويَحْمِلُها على مقاتلتنا ليهودِ عصرنا، وهذا ليس بصواب، فالأحاديثُ صريحةٌ أنَّ هذا يقع في قتالنا للسبعين ألفاً مِنَ اليهودِ الذين يكونون مع الدجالِ الأكبرِ.

والصواب من القول أن هذا الحدث الكبير الذي أصاب الأمة في أرض الإسراء موجود في القرآن يقرؤه الناس صباح مساء، وكل من تأمل فيه وجده يتحدث عن هذه الواقعة العظيمة، والذي صرف العلماء من قبلنا عن اعتبار هذا النص متحدثاً عن العلو الذي علاه اليهود في عصرنا أن العلماء من قبلنا جعلوا الإفسادتين المذكورتين في طليعة سورة الإسراء هما من الزمن الغابر المنقضي، وليس من الزمن الآتي الذي نراه ونشاهده اليوم.

وليت شعري متى علا اليهود علوًّا كبيراً، ثم بعث الله على اليهود عباداً له أولي بأس شديد فجاسوا خلال ديار اليهود، ثم ردّ الله لليهود الكرة عليهم، ثم جاءت الجيوش الغازية فدمرت ما صنعه اليهود من العلو، إن هذا الذي حدثنا عنه القرآن ليس له وجود إلا في عصرنا، وهما إفسادتان متعاقبتان متواليتان، مضى بعض منهما في السنوات الماضية، ولا يزال بعض آخر منهما لم يقع.

إن اليهود أفسدوا قديماً فسلط الله عليهم المجوس بقيادة نبوخذ نصّر، فاجتاحوا ديار اليهود ودمروها، وأسرُّوا من أسروا، وقتلوا من قتلوا، ولكن كان في اليهود في ذلك الوقت بعض الخير، وكان أحد أسراهم نبي الله دانيال، وفيهم أخيار صالحون.

ثم أين الكرّة التي كرّ بها اليهود على نبوخذ نصر ورجاله، ليس لها وجود ألبتة، وهذا الذي جرى من نبوخذ نصر أعظم ما قيل في إفساد بني إسرائيل.

والإفساد الثاني لليهود الذي يذكره علماؤنا الذي أدى إلى تدمير هيكلهم واجتياحهم، وكان في سنة سبعين للميلاد، إفساد صغير بالنسبة لما يحدث ويقع اليوم، وفي ظني - والله أعلم بالصواب - أن هذين الإفسادين الواقعين من اليهود اليوم المتحدث عنهما في النص القرآني هما الإفسادان اللذان يجريان في أيامنا هذه، واقرأ هذا النص الذي يتحدث عن هذين الإفسادين، وتأمل في مدى انطباق الواقع مع النص الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ

لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الإسراء:٤-٧].

إن هذا النص صريح واضح في أن هذين الإفسادين هما من بني إسرائيل، وأن هذين الإفسادين سيقعان مرتين متتاليتين، وهما إفسادان يصحبهما علو عظيم، وأن هذين الإفسادين واقعان لا محالة، فقد حكاهما الله بصيغة القضاء، وهو الحكم اللازم الذي لا انفكاك عن جريانه ووقوعه.

إن إخبار الله لنا بهذين الإفسادين اللذين يصاحبهما ذلك العلو الكبير بعد الإخبار بواقعة الإسراء، التي تسلَّم فيها رسولنا ﷺ الإمامة من الأنبياء قبله، وورث فيها الأقصى والأرض المباركة حوله، ينبه الله فيها المسلمين إلى الحدث الكبير الآتي في مقبل الزمان، فقد أخذ الله العهد على كل نبي أنه إذا بُعِثَ محمدٌ في عصره أن يتابعه وينصره ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ [آل عمران:٨١] إن هذا النبي هو محمد ﷺ ، وقد جمع الله له الأنبياء في إسرائه فأمَّهم هناك في الأقصى.

إن الخبر صريح واضح غاية الصراحة والوضوح ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء:٤] وهذان الإفسادان الكبيران مذكوران في الكتاب أي في اللوح المحفوظ أو التوراة، وكونهما في التوراة المنزلة على موسى أرجح لديّ، وإن كنت حاولت على أن أعثر عليهما فيها، فلم أجد لهما ذكراً، فيكونان مما أخفته يهود وحذفته من التوراة، والله أعلم بالصواب.

وقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن الله سيبعث على بني إسرائيل بعد العلو الأول عباداً له أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً.

وليس هؤلاء الذين يبعثهم الله على اليهود جيشاً كاملاً يستطيع أن يغلب اليهود ويقهرهم، وإنما هم عباد صادقون مع الله، وجوسهم خلال ديار اليهود ليس فتحاً لها، ولا طرداً لليهود منها.

يقول الراغب الأصفهاني محدداً معنى ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ [الإسراء:٥]: «أي توسطوها، وترددوا بينها، ويقارب ذلك حاس وداس» [المفردات:١٠٣].

وقال الفيروز آبادي في الجوس: «الجوس هو الدخول في وسط المكان، قال تعالى: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء:٥] أي: توسطوها، وترددوا بينها» [بصائر ذوي التمييز، ٢/ ٤١٠].

إن الجوس يعني أن العباد أولي البأس الشديد يدخلون ديار اليهود، ويتوسطون فيها، ويترددون بين مدنها وقراها، وليس معناه احتلالها وإخراج اليهود منها.

وقد وقع هذا الجوس اليوم، فجاس عباد الله أصحاب البأس الشديد خلال ديار اليهود، وآذوا اليهود أذىً شديداً، وقاموا بعمليات موجعة لليهود، وقد احتاج اليهود بعد إحداها أن يؤتى بالزعماء والرؤساء من غير اليهود كي يشدُّوا من أزر اليهود، لقد جاس عباد الله أولو البأس الشديد خلال ديار اليهود، فقتلوا من اليهود ودمروا ونسفوا وأوقعوا باليهود رعباً عظيماً، فأقام اليهود حول أنفسهم سوراً عظيماً ليحموا أنفسهم من ذلك الجوس، وهذا الجدار من الكَرَّةِ التي حكى الله أنه سيردها على العباد الأقوياء، ولكن أنى للجدار أن يقي اليهود من بأس الجائسين، لقد انطلقت الصواريخ لتقوم بمتابعة الدور الذي كانوا يقومون به خلال الجوس في الديار، ومع ردّ الكَرَّةِ لليهود يأتيهم سيل عظيم من مال الدول الصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين، كما أمدّهم الله بالبنين يفدون عليهم من شتى أنحاء العالم، وخاصة من الدول التي كانت تعرف بالاتحاد السوفيتي، وأهمها روسيا.

وقد جاء اليهود إلى فلسطين من أمريكا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا والاتحاد السوفيتي (سابقاً) واليمن والعراق ومصر وأثيوبيا، وغيرها من الدول.

واحتاج اليهود إلى قناطير مقنطرة من الذهب والفضة لتوطين المهاجرين، ولإقامة جيش قوي يدافع عن الأرض التي احتلوها، ويكون رصيداً للأراضي التي يتطلعون إلى احتلالها، ومتى وجد في تاريخ اليهود هذا الذي حدثنا الله عنه والذي نراه في أيامنا ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء:٦].

لم يكن لليهود في فتنهم السابقة هذا الذي تحدث عنه النص القرآني من الإمداد بالمال والبنين، ولم يجعلهم الله في يوم من الأيام أكثر نفيراً كما جعلهم اليوم. إن اليهود اليوم بما لديهم من سلاح وعسكر يستطيعون مواجهة كل القوى الحربية المحيطة بهم بجميع جنودها وسلاحها، وقد يتفوقون عليها.

إننا لا زلنا نعيش مع اليهود اليوم في زمن الكَرَّةِ التي أعطاهم الله إياها، ولا زلنا نعيش في الزمن الذي يمدهم الله فيه بالأموال والبنين، ولم يكن لهذين وجود في إفساد اليهود الغابر، ولا زلنا نرى اليهود أكثر نفيراً.

ولكننا ننتظر أن يأتي وعد الآخرة الذي قال الله فيه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء:٧].

ففي وعد الآخرة تأتي الجيوش الجرارة المسلحة بأعظم الأسلحة، وهي ليست كالمرة الأولى المقتصرة على الجوس خلال الديار، والمحدثة للرعب في ديار اليهود، ففي المرة الثانية التي سماها وعد الآخرة، تأتي قوة غالبة قاهرة، لا تخضع لضغوط الدول الكبرى، ولا تخضع لمجلس الأمن، إنها قوة غالبة، تسوء وجوه يهود، وعندها يرون من البأس ما لا قبل لهم به، فيوقنوا حين ذلك بأن لا طاقة لهم بها يرونه، وأن أمرهم إلى زوال، وأن قوتهم إلى اضمحلال، وعند ذلك يدخل الجيش الفاتح من المسلمين المسجد الأقصى كما دخله آباؤهم في عهد عمر ابن الخطاب، ويدمر الجيش الإسلامي العلو اليهودي تتبيراً، عند ذلك تشفى قلوب المؤمنين مما حلّ بها من أوجاع سَبَّبَها اليهودُ بما أحدثوه من اغتصاب واستبداد وقتل وتشريد، ووالله إن هذا لكائن، يؤمن به كل الذين فقهوا عن الله دينه، وعلموا أن وعد الله كان مفعولاً.

لقد دخلنا المسجد الأقصى مرتين، الأولى في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، والثانية في عهد صلاح الدين الأيوبي، وسيكون دخولنا الثالث على نحو الدخول الأول، لا كما دخلناه في عهد صلاح الدين ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٧] وهذا يعني أنه ستقوم خلافة راشدة، هي التي ستعيد الأقصى إلى حضن الأمة الإسلامية من يهود.

يا حسرة على قومي الذين حملوا النص على غير محمله، الله يحدثهم في سورة بني إسرائيل عن بني إسرائيل الجاثمين فوق ظهر أرض الإسراء، فيحملونه على بني إسرائيل الغابرين.

إن هذا النص يحكي خبر هذا الأمر الواقع المشهود، وهو يتحدث حديثاً لا لبس فيه عما وقع منه حتى اليوم، ويرسم صورة الآتي منه، وسيقع كما أخبر الله به من غير تغيير ولا تبديل.

إن ضعف الأمة الإسلامية وفرقتها لن يبقى أبد الآبدين، فإن الله يغير حال الأمة عندما تؤوب إليه، وتؤوي إليه، والتغيير الذي تخشاه اليهود آت قادم، فالإيمان الحق بدأ يسري في الأمة الإسلامية، والاتجاه إلى الإسلام الحق بعيداً عن الشرك والكفر والضلال بدأ في مختلف ديار الإسلام، بل إن الإسلام يموج اليوم في ديار الغرب، وقدرة الله على إيجاد القوة الغالبة التي تسوء وجوه اليهود، وتدخل المسجد الأقصى مرة أخرى، وتدمر العلو اليهودي، كل ذلك أمر سهل لا يستطيع أحد أن يوقفه وينهيه.

تدمير المسلمين العلو اليهودي لفتات وخلاصات:

من يقرأ النص القرآني المتحدث عن تحطيم العلو اليهودي بتدبر يلفت نظره ما يأتي:

١- نسب القرآن الإفساد إلى بني إسرائيل ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء:٤] ومن عجب أن يسمي اليهود دولتهم بإسرائيل، ولم يسموها دولة اليهود، أو دولة الموسويين، فيتطابق النص القرآني مع الاسم الذي سمى به اليهود دولتهم.

٢- ذكر رب العزة أن القوة الغالبة التي ستقهر اليهود ستدخل المسجد، وسيكون دخولهم إليه كما دخلوه أول مرة، ومعلوم أن المسلمين دخلوا المسجد مرتين، الأولى في عهد عمر بن الخطاب وعلى يده، والثانية على عهد صلاح الدين، وسيكون هذا الدخول مماثلاً للدخول الأول، ويبدو أنه سيكون هناك خلافة راشدة، تدخل المسجد كما وقع في دخول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب.

٣- يتصف العلو اليهودي بإمداد اليهود بالمال والبنين، وسيكونون أكثر نفيراً، ولم يكن لليهود مثل هذا الإمداد في ما جرى لهم من إفساد في ما مضى، وقد تحقق هذا الإمداد، وأصبح اليهود مع قلتهم أكثر نفيراً، فبقدرتهم أن يحشدوا جيشاً يزيد في تعداده على جيوش العرب مجتمعة.

وقد قال لي بعض من حدثتهم بمعاني النص القرآني المتحدث عن الإفسادتين: لقد أمدَّ الله بني إسرائيل بالمال والبنين في عهد نبي الله سليمان، وغفل محدثي أن ما كان من بني إسرائيل في عهد سليمان إصلاح وليس إفساداً.

٤- المرتان اللتان يفسد فيهما اليهود متتاليتان قريب إحداهما من الأخرى، يجوس العباد أولو البأس الشديد خلال ديار اليهود في المرة الأولى، ولكنهم لا يملكون جيشاً قوياً يدمر اليهود، أما في الثانية فالذي يسوء وجوه اليهود فهو جيش عرمرم يتبر العلو اليهودي تتبيراً.

٥- يملك الجيش الإسلامي الذي يقهر يهود قوة حربية فائقة، تتكفل بأن تسوء وجوه اليهود، وتوقع الرعب في قلوبهم، كما تتكفل بتدمير العلو اليهودي تدميراً فائقاً هائلاً.

٦- هذا الذي ذكره النص القرآني واقع لا محالة، لا ينفع فيه احتماء اليهود بمن يحتمون به من الدول، ولا ينفع فيه ما يجمعه اليهود من سلاح، وفي هذا كله لون آخر من ألوانِ سومِ اليهودِ العذابَ الذي حكم الله به على اليهود على مرّ الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكونه لوناً جديداً أن اليهود جُمِعُوا مِن شتى فجاج الأرض ليكون تدميرُهُم في اجتماعهم، بينما كان سومهم العذاب فيما مضى متفرقاً هنا وهناك من بلاد الله الواسعة [وليتبروا ما علوا تتبيراً، للمؤلف، ص١٦٢-١٦٩].

قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨] يخاطبُ اللهُ تعالى اليهودَ، ويقولُ لهم: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ ﴾ وذلك بإيمانهم بالرسولِ الخاتم، وبدينِهِ المنزلِ، وإنْ عُدْتم إلى الإفسادِ في الأرضِ عُدْنا إلى تعذيبكم، وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّهم سيعودون إلى الإفسادِ في عهد الدَّجال، فإنَّه يخرج معه مِنْ يهودِ أصبهان سبعون ألفاً، وسيجعلُ اللهُ تعالى جهنَّم للكافرين حصيراً، أي: مستقرًّا وسجناً، لا محيد لهم عنه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- نزَّه ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- نفسَهُ عن النقائصِ والعيوبِ وهو يتحدَّث عنْ إسرائِه برسولِهِ ﷺ مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجد الأقصى.

٢- أسرى اللهُ -تباركَ وتعالى- برسولِهِ ﷺ من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى، في بعضِ ليلةٍ، ثمَّ عرج به إلى السماءِ.

٣- صلى الرسولُ ﷺ بالرسلِ إماماً في المسجد الأقصى، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّه ورثَ النبوةَ والرسالةَ مِنْ بني إسرائيل.

٤- باركَ اللهُ تبارك وتعالى في المسجدِ الأقصى وما حوله مِنَ الديار، بما جعلَ في أرضه وما حولها مِنْ خيراتٍ وبركاتٍ.

٥- أرى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ في الإسراء والمعراجِ آياتٍ كثيرة.

٦- آتى اللهُ -تبارك وتعالى- موسى عليه السلام كتاباً عظيماً هو التوراة، وجعله هدىً لبني إسرائيل.

٧- قضى اللهُ تبارك وتعالى وحَكَمَ في التوراةِ أو اللوحِ المحفوظِ على بني إسرائيل أنهم سيفسدون في الأرضِ مرتين، وليَعْلُنَّ علوًّا كبيراً.

٨- هاتان المرتان حديث عن إفسادتين آتيتين، وليسا حديثاً عن إفسادٍ ماضٍ، وهاتان الإفسادتان هما الواقعتان اليوم في أرض الإسراءِ.

٩- وقعتِ الإفسادةُ الأولى من هاتين الإفسادتين، ويوشكُ أن تقع الثانية منهما قريباً [اليوم الذي أكتب فيه تفسيرَ آياتِ الإسراء هو اليوم السابع من ربيع الأول، من عام ١٤٣٣هـ الذي يوافقه التاسعُ والعشرون من شهر شباط عام ٢٠١٢م].

١٠ - حدَّثنا اللهُ عن معلمٍ واضح في الإفسادة الأولى، وهو بعثُ الله على بني إسرائيل عباداً له أُولي بأس شديدٍ، فجاسوا خلالَ ديارِ اليهودِ، ثم يجعل لليهود كَرَّة على المسلمين.

١١ - الإفسادة الثانية يَقومُ للمسلمين جيشٌ عَرَمْرَم قويٌّ، يسوءُ وجوهَ اليهودِ، ويدخلُ المسجدَ كما دخله المسلمون في عهد عمرَ بن الخطاب، وسَيُتَبِّرُ هذا الجيشُ العلوَّ اليهودي.

١٢ - في النصِّ القرآنيِّ ما يدلُّ على أنَّ اليهود سيستولون على المسجدِ، وفيه أنَّ المسلمين سيستردونه، وفيه أنَّ هذه هي المرة الثالثة التي سيدخله المسلمون فيها، الأولى في عهد عمر، والثانية في عهد صلاح الدين، والثالثة هي المرة القادمة بحول الله ومشيئته.

النص القرآني الثاني من سورة الإسراء
إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم

أولاً: تقديم

يقرِّرُ اللهُ تعالى لعبادِهِ المؤمنين أنَّ هذا القرآن يهديهم لأقوم السبل، وهو في الوقت نفسِهِ بشارةٌ للمؤمنين، ونذارةٌ للكافرين، وذمَّ اللهُ تعالى الإنسانَ العجولَ الذي يستعجل بالدعاءِ بالشرِّ، وأعلمنا ربُّنا أنَّه جعلَ الليلَ والنهار آيتين، الليلُ للراحة والاستجمام، والنهارُ للعمل والقيامِ، وبتقارض الليل والنهار نعلمُ عدد السنين والحساب.

وأعلمنا ربُّنا أنه يحصي علينا أعمالنا، وتجعلُ أعمالنا في أعناقنا، ويخرجُ اللهُ تبارك وتعالى لنا يوم القيامة كتاباً نقرؤه يحوي كلَّ ما عملناه.

وأعلمنا ربُّنا سبحانه أن من ضلَّ فعلى نفسه، ومن اهتدى فلنفسه، وأنَّ عملَ المرءِ يلزمه، ولا يؤاخذ بعمل غيره، وأنَّه لا يعذب أحداً حتى يرسل إليه رسولاً، وأنَّ اللهَ إذا شاءَ أن يهلكَ قرية أرسل لها رسولاً، فإذا كفرت أهلكها.

وأعلمنا ربنا أنَّه أهلكَ كثيراً مِنَ القرى من بَعْد هلاك قومِ نوحٍ، وأعلمنا أنَّه مَنْ أرادَ الدنيا وزينتها بعيداً عن الآخرة أعطاه اللهُ منها بمقدار ما يريدُ، ومن أراد الآخرة رزقه ثوابها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء:٩-٢١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- القرآنُ الكريم يهدي للتي أقوم:

أثنى اللهُ -تباركَ وتعالى- على كتابهِ العظيم، وهو القرآنُ، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٠﴾ [الإسراء:٩-١٠]. أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- أنَّ هذا القرآنَ العظيم الذي هو آخرُ الكتبِ السماويةِ، وأجمعها لجميعِ العلوم، ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ أي: للطريقة التي هي أصوبُ وأعلمُ وأحكمُ، وهذه الآيةُ جامعةٌ لكل ما جاءَ بهِ القرآنُ مِنْ خيرٍ، وقد هدانا اللهُ تعالى إليه صراطاً مستقيماً، فعرفنا بربِّنا وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وأمرنا بعبادتِهِ وحده لا شريكَ له، ونهانا عن الشركِ، وعرَّفنا كيف نعبده في صلاتِنا وصومِنا وزكاتنا وحَجِّنا، وبَيَّنَ لنا كيف نَدْعُوه، وبَيَّن لنا كيف نتعاملُ بأموالِنا، وكيف نستثمرها، وبين لنا الحلالَ والحرامَ، كما بيَّن القيمَ والأخلاقَ، وعرَّفنا بالمنكرِ، ونهانا عنه، وبين لنا أحكامَ الأسرةِ، وغيرَ ذلك مما يقيم حياتنا على أفضلِ الطرقِ والسبلِ.

وهذا القرآنُ العظيم ﴿يُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾ وهذا الأجرُ الذي يبشرهُم اللهُ تبارك وتعالى به يتحقق يومَ القيامةِ، وهو يتمثل بإدخالِ العبادِ المؤمنين جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهار، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٠﴾ أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ أنَّه أعدَّ للذين لا يؤمنون بالآخرةِ عذاباً أليماً، وهذا العذابُ يتمثلُ بالنارِ وأهوالها، التي يدخلُهُم اللهُ -تباركَ وتعالى- إياها يومَ الدين.

٣- دعاءُ الإنسان على نفسه بالشرِّ:

أَخْبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الإنسانَ يدعو على نفسِهِ بالشرِّ ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء:١١]. فبعضُ الناسِ يستعجل، وذلك عند الغضب، فيدعو على نفسِهِ أو وَلَدِه أو مالِهِ بالشرِّ، كأنْ يدعو بالموتِ والهلاكِ والدمارِ واللعنةِ، ولو استجابَ الله دعاءَه لهلَكَ، وفي الحديثِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لا تَدعُوا عَلَى أنْفُسِكُم، ولا تَدْعُوا عَلَى أولادِكُمْ، ولا تَدْعُوا عَلَى أمْوالِكُمْ، لا تُوافِقُوا من الله ساعةً يُسأَلُ فيها عطاءٌ،

فيسْتَجيبُ لَكُمْ» [مسلم: ٣٠٠٩]. وقال ربُّ العزة ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس:١١].

ومِنَ الاستعجالِ بالشرِّ دعاءُ الكفارِ على أنفسِهِمْ، ومن ذلك دعاؤهم على أنفسهم بقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢].

٤- جعل الله تعالى الليلَ والنهارَ آيتين:

جعلَ اللهُ -تباركَ وتعالى- ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء:١٢].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّه جعلَ الليلَ والنهار آيتين، أي: علامتين على أنَّه المعبودُ الذي يستحقُّ العبادة وحده دون سواه، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت:٣٧]، وقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يس:٣٧]، وقال: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ ومحوُ آيةِ الليلِ بجعله سبحانه الليل مظلماً، وبذلك يكون مناسباً للراحة والهدوء، وجعل آيةَ النهارِ مبصرةً، أي: جعلَ النهار مضيئاً، ليسعى الناسُ في أشغالهم وأعمالِهِمْ، وكما أنَّ الليلَ النهارَ آيتان، فإنَّهما هما أيضاً نعمتان، كما قال ربُّ العزة ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧١-٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: جعلَ اللهُ النهارَ مضيئاً لتبتغوا فيه أشغالكم، وتَقْضُوا أعمالكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾ فالعبادُ إذا مرَّ عليهم الليل والنهارُ علموا عددَ الأيامِ والشهورِ والأعوامِ، وعرفوا شهرَ الحجِّ، وشهرَ الصيامِ، كما قال

تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس:٥]، وقال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ أي: كل شيءٍ بيَّناه ووضحناه مِنَ الأحكامِ والحلالِ والحرامِ، بيَّناه بياناً هو في غاية الوضوحِ.

٥- كل إنسانٍ ألزمناه طائرَهُ في عنقه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ كلَّ إنسانٍ ألزمه طائره في عنقه لزومَ القلادة والغلِّ، لا ينفك عنه، وطائره هو عملُهُ، فعملُ كلِّ إنسانٍ لازمٌ له، كما قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء:١٢٣]، قوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الطور:١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ ذكر اللهُ تبارك وتعالى أنَّ ذلكَ العملِ الذي ألزمَ الإنسان إياهُ، يخرجه له يومَ القيامةِ مكتوباً في كتاب يلقاه منشوراً، أي: مفتوحاً يقرؤه، وبيَّنَ اللهُ في موضع آخرَ أن هذا الكتاب لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ أي: يقال للإنسان في ذلك اليوم بعد أن يُعطَى كتابه ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾، وكل إنسان في ذلك اليوم يكونُ قارئاً ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الانشقاق:٧-٩]، ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الانشقاق:١٠-١٢].

٦- من اهتدَى فإنَّما يهتدي لنفسه ومَنْ ضلَّ فإنما يضل عليها:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أن ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥].

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ مَن اهتدى بإيمانه وعمله الصالح فاهتداؤه لنفسه، أي: فائدة الاهتداء تعود إليه، ومَنْ ضَلَّ بكفره وشركه فإنما ضلاله يعود على نفسه، لأن عاقبة الضلال تعود إليه دون غيره، كما قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ [فصلت:٢٦]، وقال: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الروم:٤٤]، وقال: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس:١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ﴾ أي: لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى بل يحمل كل إنسان ذنب نفسه، والوزر: الإثم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ﴾ [فاطر:١٨]، وقال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ [الأنعام:١٦٤].

ولا تعارض هذه الآيةُ قولَه تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ ﴾ [العنكبوت:١٣] لأن الكفار حملوا آثامهم، وآثام الذين أضلوهم، فمن سَنَّ سُنَّةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سَنَّ سُنَّةً سيئةً فعليه وزرُها ووزرُ من عمل بها ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾ [النحل:٢٥].

٧- لا يعذِّبُ اللهُ أحداً حتى يقيم عليه الحجَّة:

لا يعذب الله أحداً حتى يقيم عليه الحجة، وقد دلَّ على ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥]، فاللهُ -تبارك وتعالى- أرسلَ الرسلَ، وأنزل الكتبَ حتى يقيمَ الحجَّةَ على العبادِ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ ﴾ [النساء:١٦٥]. وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه:١٣٤].

وقد دلَّ على أنَّ اللهَ تعالى لا يعذبُ أحداً إلا بعدَ الإعذارِ إليه بإرسالِ الرسلِ قولُ الملائكة للذين يدخلون النار ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الملك:٨-٩].

ويشكلُ على هذا الذي قررناه النصوصُ الواردةُ التي تدلُّ على أنْ الكفارَ يدخلون النار إذا ماتوا على كفرهم، ولو لم تبلغهم الرسالةُ كقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ

أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء:١٨]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [البقرة:١٦١].

والجمعُ بين هذه النصوصِ أنَّ أهلَ الفترةِ الذين لم تبلغْهُم الحجَّةُ يختبرون في يومِ الدين، فمن أجاب دخل الجنَّةَ، ومن كَفَر وأبى دخلَ النارَ، وقد دلَّت على ذلك أحاديث صحيحة منها ما رواه الأسْوَدُ بن سَريع ﷺ أنَّ نبي الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصَمُّ لا يسمَع شيئاً، ورجل أحمَقُ، ورجل هَرِمٌ، ورجل مات في فَتْرَةٍ. فأما الأصمُّ فيقولُ: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أسمعُ شيئاً، وأما الأحمق فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام والصبيان يَحْذِفوني بالبَعْرِ، وأما الهَرِمُ فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أعقِلُ شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ، ما أتاني لك رسولٌ، فيأخذُ مواثيقهم ليُطيعُنَّه، فيرسِلُ إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً». [قال محقق ابن كثير (٤/ ١٢٣): أخرجه أحمد ٤/ ٢٤، والبزار (٢١٧٤) والبيهقي في (الاعتقاد) ص١٣٥، وصحح إسناده الهيثمي في (المجمع) ٧/ ٢١٦].

وعن أبي رافع، عن أبي هريرة ﷺ مثل هذ الحديث غير أنه قال في آخره: «فمن دخلها كانت عليه بَرْداً وسَلاماً، ومن لم يدخلها يُسْحَبْ إليها» [قال محقق ابن كثير: (٤/ ١٢٣): أخرجه الطبراني في (الكبير) (٨٤١) ورجاله ثقات. وصحح إسناده الهيثمي في (المجمع) ٧/ ٢١٦، والبيهقي في (الاعتقاد)].
وقال ابن كثير: وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد، من حديث حَنْبَل بن إسحاق، عن علي بن عبدالله المَدينيِّ، به، وقال: هذا إسناد صحيح.

وقد أوردَ ابن كثير هذين الحديثَين الصحيحين وأورد أحاديث أخرى غيرها فيها شيءٌ من الضعف.

٨- إذا أرادَ اللّهُ تبارك وتعالى أنْ يهلكَ قريةً أمر مترفيها بطاعته ففسقوا فأهلكهم الله:

قال تعالى ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء:١٦]. أي: إذا أراد اللهُ -تبارك وتعالى- أنْ يهلك قرية أمر اللهُ تبارك أهلها بطاعته وتوحيده، وتصديقِ رسلِهِ، فأبوا الإيمان بدينه ورسوله، ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ ﴾ أي: وجب عليها الوعيدُ، فدمرها اللهُ تدميراً، وهذا ما وقع للأممِ المكذبةِ، كقوم نوحٍ، وقوم هودٍ، وقوم صالحٍ، وغيرهم، وليس صواباً ما قاله بعضهم: إنَّ اللهَ أمرهم بالفسقِ، فاللهُ لا يأمر بالذنوبِ

والمعاصي، ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ ﴾ [الأعراف:٢٨]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سبأ:٣٤-٣٥].

٩- أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه أهلكَ كثيراً من القرى من بعد نوحٍ:

قال تعالى مبيناً كثرةَ القرى التي أهلكها من بعد قوم نوح: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء:١٧]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أهْلَكَ عدداً كثيراً مِنْ بعد نوح، فـ ﴿كَمْ﴾ تفيد التكثيرَ، وفي هذا تهديدٌ لأهلِ مكَّةَ أنْ يفعل بهم كالأمم المعذَّبة مِنْ قبلهم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [محمد:١٠].

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾ يدلُّ على أنَّ اللهَ لم يهلك قبل قوم نوح أحداً، وأنَّ الناس كانوا قبل نوح على التوحيد، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ ﴾ [يونس:١٩] أي: كانوا أمَّةً واحدةً على التوحيدِ، ثم وقع بينهم الاختلاف. وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ أي: أنَّ اللهَ تعالى بصيرٌ بذنوب عباده، وهو عالمٌ بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق:١٦]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ ﴾ [البقرة:٢٣٥].

١٠- من كان يريد الحياة الدنيا عَجَّلَ اللهُ له فيها ما يشاءَ لمن يريد:

قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ مَن يريدُ الحياةَ العاجلةَ، وهي الدنيا، عَجَّلَ له فيها ما يشاءُ لمن يريد اللهُ تعالى، وإرادةُ العاجلةِ يكونُ بأن ينالَ العبدُ حظَّه منها من النساء والبنين والقناطيرِ المقنطرةِ مِنَ الذهبِ والفضةِ والخيلِ المسومةِ والأنعامِ والحرثِ، في الوقت الذي لا يلتفت فيه إلى شيءٍ مِنَ الآخرةِ، ثم يكونَ مصيرُ هذا الطالبِ للدنيا المعرضِ عن الآخرة جهنَّمَ يصلاها، أي: يقاسي حرَّها، مذموماً مدحوراً، أي: ملوماً منفيًّا مطروداً.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ أي: مَنْ أراد الجنة ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي: بالأعمالِ الصالحةِ، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فإن العبدَ لا تُقبلُ منه أعمالُه الصالحةُ ما لم يكن مؤمناً ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ فإنَّ اللهَ تعالى يشكر سَعْيَه، ويثيبه الثوابَ الجزيلَ على العملِ القليلِ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:٢٠]. أرادَ اللهُ بهؤلاءِ مَنْ أرادَ الحياةَ العاجلةَ، وبهؤلاءِ الثانية مَنْ أرادَ الآخرة، وقوله: ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ ﴾ أي: مِنَ الدنيا العاجلة، فقد أعطى منها فرعونَ وهامانَ وقارونَ وكانوا مِنْ أعظمِ الكافرين، وأعطى منها داودَ وسليمانَ وعثمانَ وعبدالرحمن بن عوفٍ، وكانوا مؤمنين، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: وما كان عطاءُ ربِّك ممنوعاً.

وقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:٢١]. أمَرَ اللهُ تبارك وتعالى رسولَهُ ﷺ أنْ ينظر كيف فضَّلَ بعضَ العبادِ في الحياةِ الدنيا على بعضٍ، فالناسُ متفاوتون في الغنى تفاوتاً عظيماً، وكذلك هم متفاوتون في المناصبِ والمراتبِ، ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ فأهلُ النارِ متفاوتون في دركاتِ النارِ تفاوتاً لا يحصيه إلا اللهُ تبارك وتعالى، وأهلُ الجنة متفاوتون في درجاتِ الجنةِ تفاوتاً عظيماً، فأهلُ الجنَّةِ يدخلونَ الجنَّة برحمةِ الله، ويقتسمونها بأعمالهم، وأعمالهم متفاوتةٌ تفاوتاً عظيماً فيما بينهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- القرآنُ الكريمُ يهدي للتي هي أقومُ الطرقِ وأفضلُها في شتى مناحي الحياة، ويبشِّرُ المؤمنين الذين يعملونَ الصالحاتِ بالأجرِ العظيمِ، ويبشرُ الكفارَ بالنار.

٢- بعضُ الناسِ يستعجلون ويَدْعونَ على أنفسهم بالشرِّ، وهذه عجلة مذمومة.

٣- الليلُ والنهارُ آيتان عظيمتان مِنْ آياتِ الله تعالى، وقد جعلَ اللهُ الليلَ مظلماً، ليكون للعبادِ وقتَ راحةٍ، وجعل النهارَ مضيئاً ليعمل فيه العباد، وينشطون، وعن طريقِ تعاقبِ الليلِ والنهارِ نعلم الأيامَ والشهورَ والسنواتِ.

٤ - تُسَجَّلُ أعمالُ العبادِ وتطوَّق في أعناقِهِمْ، وفي يومِ القيامة تُخرج في كتبٍ تحوي كل ما عملوه في الدنيا، ويقرأُ كلُّ إنسان كتابَهُ، ويقالُ له: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ١٤﴾.

٥ - الذي هداه اللهُ تعالى هدايتُهُ لنفسِهِ، والذي ضلَّ ضلالُهُ على نفسِهِ، ولا يتحملُ العبدُ وزرَ غيره، إنَّما يتحمل وزرَ نفسه.

٦ - لا يعذّبُ الله العبادَ إلاَّ إذا أقام عليهم الحجَّةَ بإرسالِ الرسلِ، والذين لم يأْتهم رسولٌ في الحياةِ الدنيا يختبرون في يومِ القيامةِ.

٧ - إذا أراد اللهُ تبارك وتعالى أن يهلكَ قريةً أرْسَل فيها رسولاً، فبلَّغها وَحْيَه وشَرْعَه، فإذا كفرتْ حَقَّتْ عليها كلمةُ الله، فدمَّرها وعذَّبها.

٨ - كان الناسُ على التوحيدِ من بعد آدم إلى نوحٍ، ثم اختلفوا منذ عهد نوحٍ، وقد أهلكَ كثيراً مِنَ القرى مِنْ بعد نوحٍ بسبب كفرهم وتكذيبهم الرسل.

٩ - مَنْ كان يريدُ الحياة الدنيا وزينتها أعطاه اللهُ منها بمقدار ما يريدُ، ومَنْ أرادَ اللهَ والدارَ الآخرة، وعملَ لها العملَ الذي يوصلُ إليها، أثابَهُ اللهُ الجنَّة.

١٠ - اللهُ يعطي مِنَ الدنيا المؤمن والكافر.

١١ - فاضَلَ اللهُ بين عبادِهِ في الحياة الدنيا، ودرجاتُ الجنَّةِ، ودركاتُ النارِ متفاوتةٌ أعظمُ تفاوتٍ.

النص القرآني الثالث من سورة الإسراء
لا تجعل مع الله إلهاً آخر

أولاً: تقديم

أعلمنا ربنا فيما مضى مِنْ آياتِ هذه السورةِ أنَّ ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ وقالَ لنا: إنَّ ﴿كُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ وجاءت آياتُ هذا النصِّ مبينةً الهدايةَ التي هدانا بها ربنا للتي هي أقومُ، وفصَّلَ لنا القولَ في كلِّ شيءٍ تفصيلاً، وساقَ لنا ربُّنا التوجهَ الحقَّ الذي يَصنع الإنسانَ الأفضلَ، والأُمَّةَ الأكملَ، فمِنَ الأمرِ بالتوحيدِ، إلى الإحسانِ بالوالدين، إلى إيتاءِ ذي القربى والمسكين وابنِ السبيلِ.

ثم نَهَتِ الآياتُ عن التبذيرِ، وبينتْ لنا كيفَ نتصرفُ مع السائلِ إنْ لم نجدْ ما نعطيه، ثم هدتنا إلى المنهجِ الوسطِ في الإنفاقِ الذي يُخَلِّصُ المنفقَ مِنْ خلقي البخلِ والتبذيرِ، وأعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى كيف يوسِّع على بعضِ خلقِهِ، ويضيِّقُ على آخرين، وينهى في إطارِ هذه التوجيهاتِ عن قتلِ الأولادِ خوفَ الفقرِ، وعن قربانِ مالِ اليتيمِ إلا بالتي أحسن، ويأمر بإيفاءِ الكيلِ والميزانِ، كما ينهى عن التطفيفِ فيهما، وينهى عن اتباعِ ما لا عِلْم لنا به، ونهانا عن الاختيالِ في الأرضِ، ونهانا ربنا في الختام عن الشركِ بهِ، فمن فعلَ فإنَّ اللهَ يلقيه في جهنَّم ملوماً مدحوراً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ

مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء:٢٢-٣٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نَهَى الله -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يجعلَ مع الله إلهاً آخر:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أن يجعلَ مَعَ الله إلهاً آخرَ فقال: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء:٢٢]. وفي نهي ربِّ العزة -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ عن الشرك نَهْيٌ لأمته، وفي هذا النهي أمرٌ مِنَ الله لعبادِهِ بتوحيدِهِ وحدَه لا شريكَ له، وقوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ أي: فتصير مذموماً، والمذمومُ مَنْ يلحقُهُ الذمُّ مِنَ الله ومن الناس، لأنَّه أشرَكَ بالله ما لا يضرُّه وما لا ينفعه، ﴿مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ والمخذولُ الذي لا عاصمَ له ولا ناصر.

٢- الوصية بالوالدين:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه قضى أن لا نعبدَ أحداً إلاَّ إياه، وأمَرَنا أنْ نحسنَ إلى الوالدينِ ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤]. ومعنى ﴿وَقَضَىٰ﴾ أمَرَ أمراً قاطعاً جازماً، وقوله: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ والإحسانُ مصدرُ أحسنَ يحسنُ إحساناً، والإحسانُ إلى الوالدينِ كلمةٌ جامعةٌ تعني إيصالَ كلِّ خيرٍ مستطاعٍ إليهما، ومَنْعَ كلِّ ما يمكن منعه مِنْ أذى عنهما.

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ خَصَّتْ هذه الآيةُ حالةَ بلوغَ الوالدين الكِبَرَ بالذكرِ، مبيناً المنهج الذي يجبُ أنْ يسلكه الولدُ تجاهَ والديه في معاشرتِهما ومخاطبتهما، ولينِ جانبه لهما، والدعاءِ لهما.

وقد أتْبع ربُّ العزَّة -سبحانه وتعالى- الأمرَ بعبادتِهِ وحدَهُ لا شريك له بالأمرِ بالإحسانِ إلى الوالدين ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾، وهذا الذي دلَّ عليه القرآن جاءَت الأحاديثُ الصحيحةُ مصرحةً به، فعن الوليد بن عَيْزارٍ، قال: سمعتُ أبا عمرٍو الشيبانيَّ يقولُ: أخبرنا صاحبُ هذه الدار -وأومأَ بيدِه إلى دار عبدالله- قال: سألتُ النبيَّ ﷺ : أيُّ العملِ أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاةُ على وَقْتِها» قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «ثمَّ برُّ الوالدَينِ» قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «الجِهادُ في سبيلِ الله»، قال: حدَّثني بهنَّ، ولو استزَدْتُه لَزادَني [البخاري: ٥٩٧٠].

وعن عُبيدِ الله بن أبي بكرٍ، قال: سمعتُ أنسَ بنَ مالكٍ ﷺ قال: ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ الكبائرَ -أو سُئِلَ عن الكبائرِ- فقال: «الشِّرْكُ بالله، وقَتْلُ النَّفْسِ، وعُقوقُ الوالدَين» فقال: «ألا أُنبِّئُكم بأكبَرِ الكبائرِ؟» قال: «قولُ الزُّورِ» أو قال: «شهادةُ الزُّورِ».

قال شُعبةُ: وأكثرُ ظني أنَّه قال: «شهادةُ الزُّورِ» [البخاري: ٥٩٧٧].

وعن أسماءَ ابنةِ أبي بكرٍ رضي الله عنهما، قالت: أَتَتْني أُمِّي راغِبةً في عَهْدِ النبيِّ ﷺ ، فسألتُ النبيَّ ﷺ : آصِلُها؟ قال: «نَعَم».

قال ابنُ عُيينةَ: فأنزَلَ الله تعالى فيها: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [الممتحنة:٨] [البخاري: ٥٩٧٨].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: جاءَ رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، مَن أحَقُّ النَّاس بحُسْنِ صَحابَتي؟ قال: «أمُّكَ» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أمُّكَ» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أمُّكَ» قال: ثمَّ مَن؟ قال: «ثمَّ أبوكَ» [البخاري: ٥٩٧١. ومسلم: ٢٥٤٨].

وعن عبدالله بن عمرٍو قال: قال رجلٌ للنبيِّ ﷺ : أُجاهدُ؟ قال: «لكَ أبوانِ؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهِدْ» [البخاري: ٥٩٧٢].

وعن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ : «إنَّ مِنْ أكبَرِ الكبائرِ أنْ يَلْعنَ الرَّجلُ والدَيهِ» قيلَ: يا رسولَ الله، وكيف يَلْعنُ الرَّجلُ والدَيه؟ قال: «يَسُبُّ الرَّجلُ أبا الرَّجل، فيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّهُ فيُسُبُّ أُمَّه» [البخاري: ٥٩٧٣. ومسلم: ٩٠].

وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قال: «بينَما ثلاثةُ نَفَرٍ يتماشَوْنَ، أخَذَهُم المطرُ، فمالُوا إلى غارٍ في الجبلِ، فانحَطَّتْ على فمِ غارِهِم صَخْرةٌ منَ الجبلِ فأطْبَقَتْ عليهم، فقال بعضُهم لبعضٍ: انظُرُوا أعمالاً عَمِلْتُموها لله صالحةً فادْعوا اللهَ بها لَعَلَّه يَفرُجُها،

فقال أحدهُم: اللهمَّ إنَّه كان لي والدانِ شيخانِ كبيرانِ، ولي صِبْيةٌ صِغارٌ كنتُ أرعَى عليهم، فإذا رُحْتُ عليهم فحَلَبْتُ بَدَأْتُ بوالدَيَ أسقِيهما قبلَ وَلَدِي، وإنَّه ناءَ بيَ الشَّجَرُ، فما أتيتُ حتَّى أمسَيتُ، فوَجَدْتُهما قد ناما، فحَلَبْتُ كما كنتُ أحلُبُ، فجئتُ بالحِلاب فقُمْتُ عندَ رُؤُوسِهما، أكرَهُ أنْ أُوقِظَهما مِنْ نَوْمِهما، وأكرَه أنْ أبدَأَ بالصِّبْيَةِ قبلَهما، والصِّبْيةُ يَتَضاغَوْنَ عندَ قَدَمَيَّ، فلم يَزَلْ ذلكَ دَأْبي ودَأْبَهم حتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فإنْ كنتَ تعلَمُ أنّي فعلتُ ذلكَ ابتِغاءَ وَجْهِكَ فافرُجْ لنا فُرْجةً نَرَى منها السَّماءَ، ففَرَجَ اللهُ لهم فُرْجةً حتَّى يَرَوْنَ منها السَّماءَ» [البخاري: ٥٩٧٤. وانظر بقيته هناك].

وعن المغيرةِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ حرَّمَ عليكم عُقوقَ الأُمَّهاتِ، ومَنْعَ وهاتِ، ووَأْدَ البناتِ، وكَرِهَ لكم قيلَ وقال، وكَثْرَةَ السُّؤال، وإضاعةَ المالِ» [البخاري: ٥٩٧٥].

وعن عبدالرحمن بنِ أبي بَكْرةَ، عن أبيه ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ : «ألا أُنَبِّئُكم بأكبَرِ الكبائرِ؟» قلنا: بَلَى يا رسولَ الله، قال: «الإشراكُ بالله، وعُقوقُ الوالدينِ» وكان مُتَّكِئاً فجَلَسَ فقال: «ألا وقولُ الزُّورِ وشهادةُ الزُّورِ، ألا وقولُ الزُّورِ وشهادةُ الزُّورِ» فما زالَ يقولُها حتَّى قلتُ: لا يَسْكُتُ [البخاري: ٥٩٧٦].

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لم يَتكَلَّمْ في المَهْدِ إلاَّ ثلاثَةٌ: عيسى ابنُ مَرْيَمَ، وصاحبُ جُرَيْجٍ، وكانَ جُرَيْجٌ رجلاً عابِداً، فاتَّخَذَ صوْمَعَةً، فكان فيها، فأتَتْهُ أُمُّهُ وهو يُصلِّي، فقالت: يا جُريجُ! فقال: يا رَبِّ! أُمِّي وصلاتي، فأقبل على صلاتِهِ، فانصرفتْ، فلما كان من الغد أتتهُ وهو يصلي، فقالت: يا جريج! فقال: يا ربِّ! أمي وصلاتي، فأقبل على صلاتِهِ، فانصرفت، فلما كان من الغد أتتهُ وهو يصلي، فقالت: يا جُريجُ! فقال: أي ربِّ! أمي وصلاتي، فأقبل على صلاتِهِ، فقالتِ: اللهم! لا تُمِتْهُ حتى ينظر إلى وجوه المومسات.

فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بحُسْنها، فقالت: إن شئتم لأَفْتِنَنَّهُ لكم، قال فتعرَّضتْ له، فلم يلْتفتْ إليها، فأتتْ راعياً كان يأوي إلى صومعته، فأمْكنتْهُ من نفسها، فوقع عليها، فحملتْ، فلما ولدتْ، قالت: هو من جريجٍ، فأتوهُ فاسْتنزَلوه، وهدموا صومعتَه، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأْنُكُمْ؟ قالوا: زنيتَ بهذه البغيِّ، فولدتْ منكَ، فقال: أين الصبيُّ؟ فجاؤوا به، فقال: دعوني حتى أُصلِّيَ، فصلى، فلما انصرفَ أتى الصبيَّ فطعن في بطنه، وقال: يا غلامُ! مَن أبوك؟ قال: فلانٌ الراعي، قال: فأقبلوا على جريجٍ يقبِّلونَهُ، ويتمسَّحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهبٍ، قال: لا، أعيدوها من طينٍ كما كانت. ففعلوا» [مسلم: ٢٥٥٠ وانظر بقيته فيه].

الوصية بالوالدين حالَ كبرهما:

الإحسانُ إلى الوالدين واجبٌ في كلِّ وقتٍ، ولكنَّهُ يتأكد حالَ كبرِهما وعجزِهما، ولذلك خصَّهُ الباري بالذكر في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣].

وقد ذكر القرطبيُّ سببين يوجبان التأكيد على الوصية بالوالدين في حالة الكبر:

الأول: أنَّ حالةَ الكبرِ هي الحالة التي يحتاجان فيها إلى بِرِّه، لتغير حالهما بالضعف والكِبَر، فألْزَمَ في هذه الحالة مراعاةَ أحوالهما أكثر مما ألزم به مِنْ قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلاً عليه، فيحتاجان أن يلي منهما ما كان يحتاج إليه في صغرِهِ أن يليا منه، فلذلك خصَّ هذه الحالةَ بالذكرِ [القرطبي:١٠/ ٢٤١].

والثاني: أنْ طولَ المكثِ يوجبُ الاستثقالَ للمرءِ عادةً، ويحصلُ المَلَلُ، ويكثُرُ الضجر، فيظهر غضبُهُ على أبويه، وتنتفخُ لهما أوداجُه، ويستطيلُ عليهما بدالَّةِ البُنُوَّةِ، وقلة الديانة، وأقلُّ المكروهِ ما يظهرُه بنَفَسِهِ المتردد مِنَ الضجر، وقد أُمِرَ أن يقابِلَهما بالقول الموصوفِ بالكرامةِ، وهو السالمُ مِنْ كلِّ عيب، فقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣].

وقد أشار الرسولُ ﷺ إلى حالةِ الكبر، وهو يُرهِّبُ مِنْ عقوق الوالدين، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحيه عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ «رَغِمَ أنفُهُ، رَغِمَ أنفُه، ثم رَغِمَ أنفُهُ. قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: من أدْرَكَ والديه عند الكبر، أحدَهُما أو كِلَيْهما، ثم لَمْ يدخلِ الجنة» [مسلم: ٢٥٥١].

صور الإحسان إلى الوالدين:

عندما نرجع إلى نصوصِ الكتابِ والسنةِ نجد أنماطاً راقيةً مِنَ صورِ الإحسان إلى الوالدينِ أمَرَتْ بها النصوص موجبةً أو محببةً تدلُّ على عظمةِ هذا الدين وسمُوِّهِ ورفعَته، وأنه تنزيلٌ مِنْ رب العالمين، ومِنْ هذه الصور:

١- معاشرتهما بالمعروف، ومخاطبتهما بالقولِ اللينِ، والتواضعُ لهما، وعدمُ إيذائهما والتكبرُ عليهما، قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

والأفُّ الذي نهتِ الآيةُ عن قولِهِ للولدين تطلقه العربُ على الشيءِ الحقيرِ التافهِ الذي لا يعبأُ به مِنْ وَسَخِ الأظافرِ أو الآذانِ، وقد تسمِّي العربُ القشَّةَ الصغيرةَ والعودَ الحقير أُفّاً.

فإذا كان قولُ أفٍّ للوالدين منهيٌّ عنه، فما بالك بسبِّهما وشتمهما والإغلاظِ لهما بالقولِ، والنيل منهما باليدِ والرجلِ؟

ومع أن النهي عن السبِّ وما فوقه مفهومٌ مِنَ قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ فإن النصَّ قد صرَّح به في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ والمرادُ بالانتهارِ تكليمُهُما بنوعٍ مِنَ الضجرِ والنزقِ ورفعِ الصوتِ في وجوههما، وقال عطاءُ: لا تنفضْ يدَكَ عليهما [زاد المسير: ٥/ ٢٥].

وإذا أنتَ تابعتَ قراءةَ النصِّ تجدْه يأمرنا بالقولِ الكريمِ حين مخاطبةِ الوالدين ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣].

ولا يكونُ القولُ كريماً إلاَّ إذا كان ليناً لطيفاً، يقالُ بنبرةٍ رقيقةٍ، ويحملُ في طياته المعانيَ الرفعيةَ الحسنةَ المهذبة.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] لتتبينَ كيفَ أرادَ الربُّ مِنَ العبدِ أنْ يلينَ جانِبُه لوالديه، وخَفْضُ الجناحِ يعني سكونَ الابنِ في حضرةِ الوالدِ، والتواضعَ له إلى درجةِ الذلّ، بحيث يتبدَى هذا في نظرتِهِ إليهما، وحركتِهِ عندهما، وفي سعيهِ لخدمتهما.

والجناحُ إنما هو للطائرِ، والطائرُ يخفضُ جناحَه في حالِ حُنُوِّهِ على فراخِهِ وضمه لبيضِهِ، وهي صورةٌ مِنْ صورِ الرحمةِ والحنو والشفقةِ.

وقد ذكر القفَّالُ أن التعبير بخفضِ الجناحِ في الآية ناشئٌ مِنَ واحدٍ من أمرين: الأول: أن الطائرَ إذا أراد ضَمَّ فراخَهُ إليه خفضَ لهما جناحه، فلهذا صارَ خفضُ الجناحِ كنايةً عن حُسْنِ التدبير، فكأنه قال للولدِ: اكفلْ والديك بأن تضمهما إلى نفسِكَ كما فعلا بكَ في حالِ صغرك.

الثاني: أن الطائرَ يخفضُ جناحيه حالَ نزوله، وينشرهما في حالِ طيرانه وصعوده، فصارَ خفضُ الجناح كناية عن التواضعِ وتركِ الارتفاعِ [نقله عن القفال الشوكاني في فتح القدير: ٣/ ٢١٨].

والنصُّ القرآنيُّ يريدُ مِنَ الابن أنْ يبلغَ تواضعُهُ لوالديه مبلغَ الذلِّ ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:٢٤]، والذلُّ ضدُّ العزّ، ولكنَّهُ الذلُّ الذي ينشأ مِنَ الرحمة، لا مِن

الضعفِ والهوانِ والقهرِ ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء:٢٤] إنَّ منشأَ هذا الذلِّ هو فرط الشفقةِ والعطفِ، ومعرفة عظم حقهما.

٢- الدعاءُ لهما في حياتِهما وبعد وفاتهما ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء:٢٤]، ودعاءُ الابنِ لوالديه مما يصلُ الميتَ بعد وفاتِهِ كما صحَّ في الحديث.

وإذا نظرتَ في كتابِ الله رأيتَ أنَّ الدعاءَ للوالدين هو منهجُ الأنبياءِ والصالحين، فنوحٌ يقولُ في دعائه: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾ [نوح:٢٨] وإبراهيم يقول: ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الشعراء:٨٦].

٣- ربُّنا أعلم بما نفوسنا:

وقولُه تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء:٢٥]. والمعنى: ربُّكُم أعلمُ بما تضمرونه من البرِّ والعقوقِ، فمن بدرتْ منه بادرةٌ فأغفِرُ له ذلكَ، وقوله: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ يريدُ بالصالحين الطائعين لله ربِّ العالمين، والأواب: التائبُ مِنَ الذنب، الراجعُ عن المعصية إلى الطاعةِ، والأوَّابُ مشتقٌّ مِنَ الأوْبِ، وهو الرجوعِ.

٤- أمَرَ اللهُ -تباركَ وتعالى- إيتاءَ ذي القربَى حقَّه والمسكينَ وابنَ السبيلِ:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ -وفي أمره له أمرٌ لأمته- أنْ يؤتي ذا القربى حقَّهُ والمسكينَ وابنَ السبيلَ، ونهاه عن التبذير ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء:٢٦-٢٧] أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بإعطاءِ القريبِ حقَّه، بعد أن أمرَ بالإحسان إلى الوالدين، كما في الحديث: «يَدُ المُعْطِي العُلْيا، أُمَّكَ وأباكَ، وأُخْتُكَ وأخاك، ثم أدْناكَ، فأدْناك» [قال فيه محقق ابن كثير (٤/ ١٣٦): صحيح أخرجه أحمد، وقال الهيثمي في المجمع: (٣/ ٩٨): ورجاله رجال الصحيح، وهو في المسند برقم: (٧١٠٥)].

وأمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بإعطاءِ المسكينِ وابنِ السبيلِ حقَّهما، ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وابنُ السبيل المسافرُ المنقطعُ به، وإنْ كان غنيًّا.

وجاء في الحديث عن أنسِ بن مالك ﷺ أنه قال: أتى رجلٌ مِنْ بني تَميمٍ إلى رسولِ الله ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله، إني ذو مالٍ كثيرٍ، وذو أهلٍ وولدٍ وحاضِرَةٍ، فأخبرني: كيف أنفِقُ،

وكيف أصنَعُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ : «تُخْرِجُ الزكاةَ مِنْ مالِكَ، فإنَّه طُهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ، وتَصِلُ أقْرِباءَكَ، وتعْرِفُ حقَّ السَّائلِ والجارِ والمِسْكِينِ». فقالَ: يا رَسولَ الله، أقْلِلْ لي؟ قال: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾، فقالَ: حسبي يا رسولَ الله، إذا أدَّيْتُ الزكاةَ إلى رَسُولِكَ فَقَدْ بَرِئتُ منها إلى الله وإلى رَسولِه؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ : «نَعَمْ إذا أدَّيْتَها إلى رَسُولي فقدْ بَرِئْتَ منها، فَلَكَ أجْرُها، وإثْمُها على مَنْ بَدَّلَها» [قال محقق ابن كثير (٤/ ١٣٨): جيد. أخرجه أحمد والطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٧) وذكره الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٦٣) وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح، وهو في المسند برقم: ١٢٣٩٤].

وقوله: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ التبذيرُ: إنفاقُ المالِ في السرفِ، وهو مذموم، لمجاوزتِهِ الحدَّ المستحسنَ شرعاً في الإنفاقِ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ دَلَّتْ هذه الآية على أنَّ مَنْ أسْرف في إنفاقِ المالِ كان مِنْ إخوانِ الشياطين، وهو بذلك مطيعٌ للشيطان، مغضبٌ للرحمن، ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: كثير الكفران، وهو مَعَ كفرِهِ لا يعملُ إلا شرّاً، ولا يوسوسُ إلاَّ بما لا خيرَ فيه، وفي هذه الآيةِ تقبيحٌ لعملِ المبذرين، فكل مبذرٌ فهو مماثل للشيطان.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإسراء:٢٨]، أي: إذا أعْرَضت عن ذوي قرباكَ أو الفقراءِ وأبناءِ السبيل، لأنَّك لا تجدُ ما تعطيهم مِنْ رزق الله تبارك وتعالى ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ أي: قُلْ لهم قولاً حسناً، كأن يقول للسائل: رزقَكَ اللهُ وباركَ الله فيكَ، أو عدهم عِدَةً حسنةً.

٥- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يكونَ إنفاقُهُ وَسَطاً:

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يكونَ إنفاقه وَسَطاً؛ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء:٢٩-٣٠].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه أنْ يسلكَ مَسْلَكاً وسطاً في الإنفاق، فنهاه عن البخلِ، ونهاه عن السَّرَفِ، فقال له: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أي: لا تكن بخيلاً، لا تعطي أحداً شيئاً.

﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ أي: لا تبذرْ في الإنفاقِ، ولا تسرفْ، ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ومعنى ملوماً أي: يلومُكَ الناسُ ويذمونك ويستغنون عنك، وقوله:

﴿مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ الحسيرُ الدابَّةُ التي قد عَجَزَتْ عنِ السيرِ، فوقفت ضعفاً وعجزاً، وهذا مثلٌ للذي قعدَ بلا شيءٍ ينفقه، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ، أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَثَلُ البَخيلِ والمُنفِقِ كمَثَلِ رجلَينِ عليهما جُبَّتانِ من حَديدٍ من ثُدِيِّهما إلى تَراقِيهما، فأمَّا المُنفِقُ فلا يُنفِقُ إلا سَبَغَتْ -أو وَفَرَتْ- على جِلْدِه حتَّى تُخفِيَ بَنانَه وتَعْفُوَ أثرَه، وأمَّا البَخيلُ فلا يريدُ أنْ يُنفِقَ شيئاً، إلا لَزِقَتْ كلُّ حَلْقةٍ مكانَها، فهو يُوسِّعُها ولا تَتَّسِعُ» [البخاري: ١٤٤٤. ومسلم: ١٠٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء:٣٠]. أخبرنا ربُّنا في هذه الآية أنّه يبسط الرزق لمن يشاء من عبادِهِ، فيغنيهم، ويقْدِرِ الرزقَ على مَنْ يشاء مِنْ عباده، فيفقِرُهُمْ، فاللهُ تعالى هو القابضُ الباسطُ، خبيرٌ بمن يستحقُّ الغنى، ومَنْ يستحقُّ الفقرَ.

٦- **نَهى اللهُ -تباركَ وتعالى- عبادَهُ أنْ يقتلوا أولادَهُمْ خشيةَ الفقرِ:**

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣١-٣٢].

نَهى اللهُ -تبارك وتعالى- عمّا كان يَفْعَلُهُ أهلُ الجاهليةِ مِنْ قتلِ المرءِ أولادَه مخافةَ الفقرِ، ووعدهم بأنْ يرزقَ أولادَهُمْ ويرزُقَهُمْ، وفي الآية الأُخرى قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأنعام:١٥١].

وقد سأل ابنُ مسعودٍ رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله أيُّ الذنبِ أعْظَمُ؟ قال: «أنْ تَجْعَلَ لله نِدّاً وهو خَلَقَكَ» قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أنْ يَطْعمَ مَعَكَ» قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «أن تُزاني حَليلةَ جارِك» [البخاري: ٤٤٧٧، ومسلم: ٨٦].

ثم نَهى ربُّ العزَّة عن الزِّنا، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢]، والفاحشةُ: الذنبُ العظيم، و﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ أي: ساء مسلكاً وطريقاً، وقد جاء في الحديث عن أبي أُمامَةَ قال: إن فتىً شابًّا أتى النبيَّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله، ائْذَنْ لي بالزنا، فأقْبَلَ القَوْمُ عَلَيْهِ فزَجَرُوه، وقالوا: مَهْ مَهْ، فقال: ادنُهْ، فدنا مِنْه قريباً، فقالَ: اجْلِس. فجَلَسَ، قالَ: أفتُحِبُّه لأُمِّكَ؟ قالَ: لا والله، جَعَلَني اللهُ فِداك، قالَ: ولا الناسُ يحِبُّونَهُ لأمَّهاتِهِمْ. قال: أفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ؟ قالَ: لا والله يا رسولَ الله، جعَلَني اللهُ فِداكَ، قال: ولا الناسُ يحبُّونَهُ لبناتِهِمْ، قالَ: أتحِبُهُ لأُخْتِكِ؟ قال: لا والله، جَعَلَني اللهُ فِداكَ. قال: ولا الناسُ يُحِبُّونَهُ

لأخواتِهِمْ، قال: أفَتُحِبُّه لعَمَّتِك؟ قال: لا والله، جَعَلني اللهُ فِداكَ. قال: ولا الناسُ يُحِبُّونَهُ لعَمَّاتِهِمْ، قال: أفتُحِبُّه لخالَتِكَ؟ قال: لا والله، جَعَلَني اللهُ فداك، قال: ولا الناسُ يُحبُّونَهُ لخالاتِهِمْ. قال: فَوَضَعَ يدَه عليهِ وقال: اللهُمَّ اغفِرْ ذَنْبَه، وطَهِّرْ قَلْبَه، وحَصِّنْ فَرْجَهُ. قال: فلمْ يكنْ بَعْدُ ذلك الفتى يَلْتَفِتُ إلى شيءٍ [قال محقق ابن كثير (٤/ ١٤١): صحيح. أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» ١/ ١٢٩: ورجال رجال الصحيح].

٧- **نهيُ الله -تبارك تعالى- عن قتل النفس إلا بالحقِّ:**

نَهى اللهُ -تبارَكَ وتعالى- عن قتل النفسِ التي حَرَّم اللهُ قتلها إلا بالحقِّ، فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الإسراء:٣٣].

ويكونُ قتلُ النفسِ قتلاً بالحقِّ في ثلاثِ حالات، ذكرها الرسولُ ﷺ، فعن مسروقٍ، عن عبدالله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امرئٍ مُسلِمٍ يَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وأنِّي رسولُ الله، إلاَّ بإحدى ثلاثٍ: النَّفْسُ بالنَّفْسِ، والثَّيِّبُ الزّاني، والمارِقُ مِنَ الدِّينِ التّارك الجماعةَ» [البخاري: ٦٨٧٨. ومسلم: ١٦٧٦].

﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا ﴾ أي: جَعَلَ له سُلْطَةً على القاتلِ، فإنه بالخيار فيه، إنْ شاءَ قتله، وإن شاءَ عفا عنه إلى الديةِ، وإنْ شاءَ عفا عنه مجاناً، والإسرافُ في القتلِ المنهي عنه في قوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ صورٌ كان يفعلها أهلُ الجاهلية، الأولى: أن يقتل بالواحد أكثر من واحدٍ، كما فعل مهلهلُ بنُ ربيعةَ عندما قتلَ بأخيه عدداً كبيراً من قبيلة القاتل. والثانية: أنْ يقتلَ بقتيله غيرَ قاتِلِه. الثالثةُ: أن يقتلَ القاتلَ، ثم يزيد على ذلك بالتمثيل به.

وقوله تعالى: ﴿مَظْلُومًا﴾ يدلُّ على أنَّ الذي يقتلُ غيرَ مظلومٍ، كالثيبِ الزاني، ومن قتلَ نفساً، والمرتَّد، فليس لوليه سلطاناً في قتلِ قاتلِهِ.

وهذه الآيةُ في القاتلِ المتعمدِ، أمَّا القتيلُ الخطأ، فله حكم آخر بيَّنَتْهُ آيةٌ أخرى. وقد ظَلَمتْ هذه الأُمَّةُ نفسها بتركِ هذا الحكمِ الذي شرعَهُ اللهُ -تبارك وتعالى- واستبدلَتْ به السجن، فكثُر القتلُ في هذه الأمةِ، وانتشرتِ الجريمةُ، ولن يصلحَ أمْرُ هذه الأمَّةِ حتى تعودَ إلى دينها الذي أمرها اللهُ به.

٨- نهيُ اللهُ -تعالى- عن قُربان مالِ اليتيم إلا بالتي هي أحْسَنُ:

نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- عن قربانِ مالِ اليتيمِ إلا بالتي أحسنُ، فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ [الإسراء:٣٥].

ويكونُ قربانُ مالِ اليتيمِ بالتي هي أحسنُ بالتصرفِ فيه بما فيه مصلحةٌ لليتيم، كأن ينفقَ منه على اليتيم، ويشتري له ما يلزمه مِنْ طعامٍ وثيابٍ، ويتاجرُ له فيه، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ فإذا بلغَ اليتيمُ أشدَّه وجبَ أن يَدْفَعَ إليه مالَهُ.

٩- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بجملة مِنَ الإرشادات والأحكام:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- في بقيةِ هذه الآياتِ بجملة من الإرشادات والأحكام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء:٣٥-٣٩].

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى أولاً بالوفاءِ بالعهدِ، ويدخلُ بالعهدِ كلَّ ما أمرَ اللهُ به، وكلَّ ما نهى عنه، فيدخل في ذلك ما بينَ العبد وربِّه، وما بين العبادِ بعضهم بعضاً، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: يسأل الله تعالى عنه صاحبه يوم القيامة.

وأمر ثانياً بالوفاءِ بالكيلِ إذا كالوا وأن يَزِنوا بالقسطاس المستقيمِ ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ أمَرَ الله تعالى بالوفاءِ بالكيل، وأمرَ بالوزنِ بالقسطاس، وهو الميزانُ، وقوله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ العدل السوي الذي لا عوجَ ولا اضطرابَ ولا انحرافَ فيه، ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: ذلك خيرٌ لكم في معاشكم ومعادكم، وأحسنُ مآلاً ومنقلباً في آخرتكم.

ونَهَى اللهُ تعالى ثالثاً أنْ يتبعَ المرءُ ما لا يعلمُه، فقال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ وفي هذا نَهْيٌ عن اتباعِ الحدسِ والظنونِ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: أنَّ اللهَ تعالى يسألُ كلَّ إنسانٍ عن سمعِهِ وبصرِهِ وفؤادِهِ يومَ القيامةِ.

ونهى اللهُ تبارك وتعالى رابعاً عن المشي في الأرضِ مرحاً ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧]. نَهى اللهُ -تبارك وتعالى- عن مَشْي الفرحِ، أي: متبختِراً مختالاً، فإنَّ العبدَ وإنِ اختالَ في مشيه فلن يخرقَ الأرضَ، أي: لَنْ يقطعَ الأرضَ بمشيه، و﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: لن تبلغ قدرتُكَ إلى أنْ تطاولَ الجبالَ. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: كلُّ ذلك الذي نهيناك عنه كانَ مكروهاً، أي: عند الله تعالى، والمكروه: الذي يبغِضُهُ الله، ولا يرضاه.

وختمَ اللهُ تباركَ وتعالى ما أمر به ونهى عنه في آياتِ هذا النصِّ بقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء:٣٩].

أي: هذا الذي أوحى به اللهُ -تبارك وتعالى- من الأمور المحكمات والأخلاقِ الجميلةِ والأحكامِ والتوجهاتِ القيمةِ، وما نهيناك عنه من الصفاتِ الرذيلةِ، هو مِنَ الحكمةِ، أي: هو مِنْ الصوابِ في القولِ والعملِ، ونهاك اللهُ تعالى أنْ تجعلَ مَعَ الله إلهاً آخر تعبده مِنَ دون الله، فتكون عاقبتك ومصيرُكُ النار، تلقى فيها ملوماً، تلومُكَ نفسُكَ، ويلومك الملائكةُ والناسُ، وقوله: ﴿مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: مبعداً من كلِّ خيرٍ، أو مطروداً مِنْ كلِّ خيرٍ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أن يعبدَ مع الله غيرَه، فيقعد ملوماً مخذولاً.

٢- قَرَن اللهُ -تبارك وتعالى- الأمْرَ بعبادَتِهِ وَحْدَه لا شريكَ له، وأمَرَ بالإحسان إلى الوالدين.

٣- خصَّ اللهُ -تعالى- مرحلةَ الكبرِ بالرعاية، فإنَّ الحيَّ مِنَ الوالدين أحدَهُما أو كليهما محتاجان إلى الرعايةِ والعنايةِ أكثر مِنْ غيرها.

٤- يجبُ أن يكونَ حالُ الولدِ مع والديه في غايةِ التكريم والتبجيل، فلا يؤذيها بأتفه الألفاظِ، ولا يُغْلِظُ لهما بالقولِ، وعليه أنْ يقولَ لهما القولَ الكريمَ، ويخفضَ لهما جناحَ الذلِّ مِنَ الرحمةِ، ويدعو لهما ربَّه أن يرحمهما كما ربياه صغيراً.

٥- أمر اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يحسنَ إلى ذوي القربى والفقراءِ والمساكينِ وابنِ السبيل.

٦- نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن التبذيرِ، وبيَّن مدى سوءِ التبذير، فالتبذير يرضي الشيطان، ويغضبُ الرحمنَ.

٧- على المسلم إذا لم يجدْ ما ينفقهُ أن يحسنَ القولَ لمنْ سأله.

٨- بيَّن اللهُ تعالى كيفَ يكونُ المرءُ في إنفاقِهِ، فلا يكون بخيلاً، ولا يكون مبذراً، وعليه أن يكون وَسَطاً في إنفاقه.

٩- اللهُ تعالى يوسِّع على بعضٍ مِنْ عبادِه في الرزقِ، ويضيِّقُ على آخرين، وهو عليمٌ خبير، يوسِّعُ ويضيق لحكمة يعلمها.

١٠- نهى اللهُ عبادَه عن قتلِ أولادِهِمْ خوفَ الفقر، وهو رازقهم، ورازق أولادِهِمْ.

١١- نهى ربُّ العزَّةِ عبادَه عن الزنا، فإنَّها فاحشة، وساءَ سبيلاً.

١٢- نَهَى اللهُ تعالى عن قتلِ النفسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحقِّ، وقد جعلَ لوليِّ القتيلِ أن يقتل قاتل وليه، ونهى الوليَّ عن الإسرافِ في القتل.

١٣- نهى اللهُ الذي يتولى مالَ اليتيم أن يقربه إلا بالتي هي أحسن.

١٤- نهى اللهُ تعالى عن التطفيف بالكيلِ والميزانِ.

١٥- نهى اللهُ تعالى أن نَتَّبعَ ما لا علم لنا به، ونهانا عن المرح في الأرض.

النص القرآني الرابع من سورة الإسراء
تبكيتُ ربِّ العزَّةِ المشركينَ

أولاً: تقديمٌ

بَكَّتَ ربُّ العزَّةِ المشركينَ في آيات هذا النص، بكذبهم في نِسبتهم الولدَ إلى أنفسهم، ونسبتهم البناتِ إلى الله، وصَرَّف ربُّ العزَّة آياتِ القرآن، ليفقهَ عنه عبادُه، وقَرَّر ربُّ العزةِ أنَّه لو كانَ معه سبحانَه آلهةٌ لتقربوا إليه وعبدُوه، ولكنَّه واحدٌ أحدٌ، الكلُّ خاضعٌ له، والسمواتُ والأرضُ وما فيهن وما بينهن تسبحُ له، ولكننا لا ندري كيف تسبِّحُ.

وأخبرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّه عندما يقرأ القرآنَ على مشركي قومِهِ يجعل اللهُ على قلوبِهِمْ ساتراً يحولُ بينهم وبين فقهِ القرآنِ، وأعلمنا ربُّنا أنَّ مشركي قريشٍ ضربوا له الأمثال، فقالوا: هو ساحرٌ أو كاهنٌ أو مجنون، فضلوا ضلالاً بعيداً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٠-٤٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنكارُ اللهِ تعالى على المشركين أنَّه أصفاهم بالبنين واتخذ الملائكةَ إناثاً:

قال اللهُ تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٠]. قالَ اللهُ تعالى للمشركين: أفخصكم رَبُّكم بالبنين، واتخذ لنفسه البناتِ، وهذا خلافُ المعقولِ، فالسادةُ لا يؤثرون عبيدَهم بأجود الأشياء، ويتخذون لأنفسهم أردأها، كما قالَ تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ وقد بيّنَ اللهُ تعالى عِظَمَ هذ القولِ في قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ [مريم:٨٨-٩١].

٢- صرَّفَ اللهُ -تبارك وتعالى- الآياتِ في هذا القرآن ليذكروا:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الإسراء:٤١-٤٢]، أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه صرَّف في آياتِ هذا القرآن ضروبَ القولِ والأمثال، ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: ليتدبروا ويتعظوا بعقولهم، ويتفكروا فيه، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾ أي: لا يزيدُهم هذا التصريفُ إلا تباعداً عن الحقِّ، وغفلةً عن النظرِ إلى الصواب، لأنَّهم اعتقدوا مخطئين أنَّ القرآنَ أساطيرُ الأولين، وسحرٌ وكذبٌ وشعرٌ.

٣- لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي العرش سبيلاً:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أن يقول للمشركين: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾ [الإسراء:٤٢-٤٣] أي: لو كان معه آلهةٌ تُعْبَدُ مِنْ دونِهِ عزَّ وجلَّ، لابتغتْ هذه الآلهةُ القُرْبَ مِنَ الله تعالى، لأنَّ هذه الآلهةَ دونَه تبارك وتعالى، والمشركونَ اعتقدوا أنَّها تقربهم إلى ذي العرش، وذو العرش هو الله عزَّ جلَّ، ولكنَّ هذه الآلهة آلهةٌ باطلةٌ، واللهُ تعالى عمَّا يفتريهِ ويختلقُه الكفار.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾ نَزَّه اللهُ نفسه عَنِ النقائصِ، ومِنْ ذلك ما ادَّعاهُ المشركون من وجودِ الآلهةِ مَعُه، فالله تبارك وتعالى هو الواحدُ الأحدُ سبحانه، تعالى عنِ الشركاء والأندادِ.

ولكمالِ عظمته، وكمالِ ألوهيته ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ [الإسراء:٤٤] أعلمنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ السمواتِ السبعَ، وما فيهنَّ، والأرضَ وما فيها تسبحُ لله تبارك وتعالى، وأنَّ كلَّ شيءٍ مِنَ الدوابِّ والطيورِ والأشجارِ والجمادِ تسبحُ لله تبارك وتعالى، وهذا تسبيحٌ حقيقيٌّ، لكننا لا نفقهُ هذا التسبيحَ، كما قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد:١]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ﴾

[النور:٤١]. كما تسبحُ جميعُ الكائناتِ لله تعالى وتسجدُ له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨].

وقد جاءت أحاديث كثيرة صحيحة دالة على مثل ما دلت عليه الآيات فمن ذلك ما رواه عبدالله قال: كنَّا نَعُدُّ الآياتِ بَرَكةً، وأنتُم تَعُدّونَها تَخْوِيفاً، كنَّا مع رسولِ الله ﷺ في سفرٍ، فقَلَّ الماءُ. فقال: «اطلُبوا فضْلةً من ماءٍ». فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليلٌ، فأدخَلَ يدَه في الإناءِ، ثمَّ قال: «حَيَّ على الطَّهُورِ المبارَكِ، والبَرَكةُ منَ الله» فلقد رأيتُ الماءَ يَنبُعُ من بينِ أصابعِ رسولِ الله ﷺ، ولقد كنَّا نَسْمَعُ تَسْبيحَ الطَّعامِ وهو يُؤكَلُ [البخاري: ٣٥٧٩].

وقال ابن كثير: «قالَ الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا وهبُ بن جرير، حدثنا أبي، سمعت الصَّقْعَبَ ابن زُهير يُحدِّث عن زيدِ بن أسلَمَ، عن عطاءِ بن يسار، عن عبدالله بن عمرٍو قال: أتى النبي ﷺ أعرابيٌّ عليه جُبَّةٌ مِنْ طيالِسَةٍ مكفوفةٍ بديباج، أو: مزْرورةٍ بديباجٍ، فقال: إن صاحبكم هذا يُريد أن يَرْفَع كلَّ راعٍ ابن راعٍ، ويضع كلَّ رأسِ ابنِ رأسٍ، فقام إليه النبي مُغضباً، فأخَذَ بمجامعِ جُبّته فاجتَذَبه، فقال: لا أرى عليكَ ثيابَ مَن لا يَعقِلُ، ثم رَجَع رسولُ الله ﷺ فجلسَ فقال: إنَّ نوحاً ﷺ لما حَضَرتَه الوفاة، دعا ابنيه فقال: إني قاصرٌ عليكما الوصية: آمرُكما باثنتين وأنْهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشركِ والكِبْرِ، وآمُركما بلا إله إلا الله، فإنَّ السمواتِ والأرضَ وما فيهما لو وُضِعت في كِفَّة الميزان، ووُضعَت «لا إله إلا الله» في الكِفَّةِ الأخرى، كانت أرجَحَ، ولو أن السمواتِ والأرضَ كانتا حَلْقَةً، فوُضِعت «لا إله إلا الله» عليهما لفَصَمَتْها أو لقَصَمَتْها. وآمركُما بسبحانَ الله وبحمدِه، فإنها صلاةُ كُلِّ شيء وبها يُرزَق كل شيء» [قال محقق ابن كثير: جيد. أخرجَه أحمد، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٦١٩-٦٢٠). وقال: ورجاله ثقات اهـ. قلت: رجالُ الإسنادِ على شرطهما سوى الصقعب، وهو ثقة، وهو في المسند تحت رقم (٧١٠١) وقال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير (٥/ ٧٢): إسناده صحيح].

وروى النسائي في سننه عن عبدالله بن عمرو، قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن قتلِ الضفدعِ، وقال: «نقيقها تسبيح» [عزاه الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير (٥/ ٧١) إلى النسائي (٧/ ٢١٠). وقال: هو حديث صحيح، وقال: انظر تخريجه في مسند أحمد، (١٥٧٥٧) وليس فيهما قوله: «نقيقها تسبيح» وورد هذا اللفظ عند البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٣١٨ الحديث (١٢٩٨٦٤) موقوفاً على عبدالله بن عمرو، وقال البيهقي: إسناده صحيح. ورواه مرفوعاً الطبراني في الأوسط ٤/ ١٠٤ الحديث (٣٧١٦) قال الألباني: ضعيف، سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤٧٨٨)].

٤- أعلمَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أنَّه إذا قرأ القرآن جعل بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء:٤٥]. يقولُ ربُّ العزةِ لرسولِهِ ﷺ: إذا قرأتَ القرآنَ على مشركي قومِكِ، جعلنا بينك وبينَ الكفارِ بيومِ القيامةِ حجاباً مستوراً، أي: حائلاً وساتراً، وهذا الحجابُ الذي جعلَهُ اللهُ على قلوبهم، وهي الأكنَّةُ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥]. وهذا الحجاب يمنع مِنْ وصولِ الحقِّ إلى قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء:٤٦]. والأكنَّةُ التي جعلها اللهُ تعالى على قلوبهم جَمْعُ كنانٍ، وهو غِشاءٌ يوضع على القلبِ اللهُ تعالى أعلم بكيفيتِهِ، وهذا الكِنانُ يمنع من فهمهم للقرآن الكريم، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ أي: إذا ذكرتَ ربَّك في أثناءِ تلاوتكَ لهذا القرآنِ موحداً إياه أدبروا ورجعوا على أعقابهم نافرين من قولك، ونفوراً جمع نافرٍ، كقعودٍ جمعُ قاعدٍ.

وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء:٤٧-٤٨].

يقولُ ربُّ العزةِ سبحانه: نحن أعْلَمُ بما يستمعون بِهِ، إذ يستمعونَ إليكَ وهم غافلون عن القرآنِ، مستخفّون به، وكذلكَ عندما يتحدَّثون سرّاً بعيداً عَنْ أعين الناس، فيقولُ بعضُهم لبعضٍ: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: إنْ تتبعون إلا رجلاً سُحِرَ عقلُه، وذهبَ لبُّه وفسَدَ.

قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ والأمثالُ التي ضربوها لرسولِنا ﷺ هي قولهم: ساحرٌ، أو كاهنٌ، أو شاعرٌ، أو مجنونٌ، وقد حكم اللهُ -تبارك وتعالى- على قولهم في ذلك كلِّه بأنَّهم قد ضَلُّوا عن طريقِ الحقِّ، فلا يستطعونَ سبيلاً، أي: لا يستطيعونَ السيرَ على الصراطِ المستقيم فيما يقولونه، ويحكمونَ بِهِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- أنكرَ اللهُ -تبارك وتعالى- على المشركينَ في اختيارِهم لأنفسهم الذكورَ مِنَ الأولادِ، وجعلوا له ما يكرهون، وهنَّ البناتِ.

٢- لو كانَ مع الله تباركَ وتعالى آلهةٌ، لخضعوا لذي العرشِ، وتقربوا إليه بالعبادةِ.

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- تُسبِّح له السمواتُ والأرضُ وما فيهما وما بينهما، ولكننا لا نفقهُ كيف تُسَبِّحُ.

٤- عندما كان يقرأ رسولُ ﷺ القرآنَ على مشركي قومِهِ، كان اللهُ يجعلُ على قلوبِهِمْ أغشيةً، فلا يفقهون ما نقرأ عقاباً لهم على كفرهم.

٥- كان المشركونَ في عهدِ رسولِنا ﷺ يضربونَ له الأمثالَ، فيضلونَ فيما يضربونه له، كقولِهِم: إنه ساحرٌ، أو شاعرٌ، أو مجنونٌ.

النص القرآني الخامس من سورة الإسراء

اللهُ -تباركَ وتعالى- قادرٌ على بعثِ الناسِ يوم القيامة

أولاً: تقديم

قرَّرَ ربُّ العبادِ في آياتِ هذا النصِّ أنْ البعثَ والنشورَ كائنٌ ولا بد، وكَذَّب سبحانه الكفارَ الذين يكذبون بيومِ الدين، وأمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يأمرَ المؤمنين أن يلتزموا قولَ الكلمةِ الطيبةِ فيما بينهم، وأخبرنا بمن يستحقُّ الهدى والجنَّة، ومَنْ يستحقُّ الضلالَ والنارَ، وأعلمنا بأنَّ علمه محيطٌ بالسمواتِ والأرضِ، وأنَّه فضَّل بعضَ النبيينِ على بعضٍ، وأعلمنا أنَّ آلهةَ المشركين عاجزةٌ، فلا تجيب عابديها إذا طلبوا منها كشفَ الضرِّ أو تحويلَه عنهم.

وأخبرنا أنَّ بعضَ الجنِّ الذين كانت بعضُ العربِ يدعونهم مِنْ دونِ الله أسْلَموا، وأخذوا يتنافسون في عبادةِ الله والتقربَ إليه، وبقيَ عابدوهم يعبدونهم مِنْ دونِ الله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٍۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء:٤٩-٥٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنكارُ مشركي قريش للبعثِ والنشورِ والردُّ عليهم:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ مشركي العربِ كانوا ينكرونَ البعثَ والنشورَ، ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء:٤٩]. وقد كانَ هؤلاءِ يؤمنون أنَّ الله

هو الخالق الرازقُ المدبرُ، ولكنهم ينكرون قدرته على بعثِ الناس بعد أنْ يموتوا ويصبحوا عظاماً ورفاتاً، والرفاتُ: لا واحدَ له، وهو الحطامُ مِنْ كلِّ شيءٍ الذي فني وبلي، وقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ أي: هَلْ نبعثُ من جديدٍ إذا صِرْنا عظاماً متكسرة.

وقد قَرَّرَ اللهُ تعالى أنَّهُ سيبعث الناسَ، ويعيدهم إلى الحياةِ مَرَّة أُخرى فقال: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء: ٥٠-٥١].

قال اللهُ تعالى: كونوا ما شئتم، فلو شئتمْ أنْ تكونوا حجارةً أو حديداً أو أي شيءٍ آخر مما يعْظُمُ في صدورِكم، كأن تكونوا نحاساً أو رصاصاً أو غيرهما مِن المعادن، فسيقولون: مَنْ يعيدنا إلى الحياةِ بعد أن نكون كذلك؟ والجوابُ قويٌّ مفحم، لا يكون معه إلاَّ أن ينغضوا إليه رؤوسهم، أي: إلاَّ أنْ يحركوا رؤوسهُمْ يرفعونها، ثمَّ يخفضونُها ساخرين متعجبين، والجوابُ المفحم أنَّ الذي يعيدكم إلى الحياةِ هو الذي فطركم أوَّل مرة، أي: الذي أحياكم في الدنيا، فالذي خلقكم أولَ مرةٍ قادرٌ على إحيائكم مرَّة أخرى، وعند ذلك يقولونَ متسائلين: متى هو؟ أي: متى سيكونُ ذلك؟ فقل لهم: عسى أن يكونَ قريباً، فالساعةُ آتيةٌ، وكلُّ آتٍ قريب.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٢]، أي: عندما يريدُ اللهُ بعثكم إلى الحياة يدعوكم، ويأمركم بالخروج، فتخرجونَ مستجيبينَ حامدينَ اللهَ تعالى، وهؤلاءِ الذين يخرجون حامدين الله هم المؤمنون، وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ أي: إن لبثتم في الحياةِ الدنيا، أو إن لبثتم في البرزخِ أو القبرِ إلا مدَّةً قليلةً.

٢ - أمَرَ اللهُ تعالى عبادَه أن يقولوا التي أحسن:

أمر الله تعالى رسولَه ﷺ أنْ يأمرَ عبادَه أنْ يقولوا التي هي أحسن ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٣]. وهذا الذي أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يأمرَ عبادَهُ القول به، يخفِّفَ مِنْ وقوعِ العداوةِ والبغضاءِ بين العبادِ، فإنَّ الشيطانَ يجدُ الطريقَ مفتوحاً لإيقاعِ الخصومةِ والنزاعِ بين العبادِ عندما يقولُ الرجل لأخيه ما لا يحسنُ قوْلُه، وكثيرٌ مما وقعَ بين العبادِ مِنَ الشرورِ الرابيةِ كان بسبب مثل هذه الكلماتِ السيئةِ التي يُشْعل بها الشيطانُ النيرانَ.

٣- الناسُ جميعاً ملكُ اللهِ وحدَه يتصرفُ فيهم تصرُّفه في مُلْكِه:

قال تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الإسراء:٥٤-٥٥]. أعلمنا ربُّنا -السميعُ العليمُ سبحانه، أنَّه أعلمُ بنا، أعلم بمَنْ يستحقُّ الهدايةَ، فيرحمُه ويدخلُه جَنَّتَهُ، ويوفقُه إلى طاعته، وهو أعلم بمن يستحقُّ الإضلالَ والكفرَ، ثم يدخله نارَه يومَ الدين، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ أي: وما جعلناك وكيلاً عليهم لتقسرهم على الإيمانِ، وتمنعهم مِنَ الضلالِ والشقاء.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه عالمٌ بكلِّ ما في السمواتِ والأرضِ لا يخفى عليه منهما شيءٌ، فهو قائمٌ عليهما، مدبرٌ لهما، ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ فالرسلُ أفضلُ مِنَ الأنبياءِ، والرسلُ والأنبياءُ متفاضلون فيما بينهم، وأفضلُ الرسلِ خمسةٌ، هم أولو العزم مِنَ الرسلِ الذين ذكرهم اللهُ تعالى في قوله: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣] وإثباتُ ما أثبتَهُ اللهُ تعالى مِنَ الفضلِ لكلِّ واحدٍ مِنْ أنبيائِه هو مِنَ العلمِ الذي علمنا اللهُ تعالى إيَّاه، وتفضيلُ الأنبياءِ فيما بينهم على جهةِ العصبيةِ مِنْ غيرِ دليلٍ خطأٌ بَيِّنٌ، وضلالٌ كبير.

وقد بَيَّنَ الله تعالى فضلَ نَبِيِّه داود بأنْ أخبرَ أنَّه آتاه كتابه الزبور ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يأمرَ المشركينَ أنْ يدعو الآلهة التي يعبدونها مِنْ دون الله ليظهرَ لهم عجزها.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الإسراء:٥٦].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يأْمرَ المشركينَ أن يدعوَ الذين زعموهم آلهةً يعبدونهم مِنْ دون الله، وهذا مِنْ بابِ الاستخفافِ بهم، ثمَّ أخبرَ أنَّ هذه الآلهةَ التي يعبدونها مِنْ دون الله ضعيفةٌ عاجزةٌ، لا تملكُ كشفَ الضرِّ عن نفسِها، ولا تملكُ كشفه عن عابديها، ولا تملكُ تحويلَ هذا الضرِّ عن عابديها إلى غيرهم، والذي يملكُ ذلك كلَّه هو اللهُ الواحدُ الأحَدُ سبحانه.

ثمَّ أخبر اللهُ سبحانه وتعالى أنَّ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء:٥٧]. وهؤلاءِ الذين

تحدثَتْ عنهم الآيةُ ناسٌ مِنَ الجنِّ كان الإنسُ يعبدونهم مِنْ دون الله عَزَّ وجَلَّ، فأسْلمَ هؤلاءِ الجنُّ، فاستقاموا على أمْرِ الله تعالى، وأخذوا يدعونَ اللهَ وحدَهُ، يتوسلون إليه بالطاعة والعبادة ويتنافسون فيما بينهم في تحصيلِ القربى إلى الله تعالى، ويرجونَ رحمةَ الله، ويخافون عذابَه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ أي: ينبغي أنْ يُحذرَ منه، ويُخافُ وقوعُه وحصولُهُ.

روى عبدالله: قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧] قال: «كان ناسٌ مِنَ الإنسِ يَعبُدونَ ناساً مِنَ الجِنِّ، فأسلَمَ الجِنُّ، وتَمَسَّكَ هؤلاءِ بِدِينِهِم» [البخاري: ٤٧١٤. ومسلم: ٣٠٣٠].

وفي رواية عنه: ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، قال: ناسٌ مِنَ الجِنّ يُعْبَدونَ، فأسلَموا [البخاري: ٤٧١٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- كان كفارُ العربِ يكذبون بالبعثِ والنشورِ، فأكذبهم ربُّ العزة، وأثبت أنَّ البعثَ والنشورَ واقعان.

٢- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يأْمُرَ عبادَهُ أن يقولوا الكلمةَ الطيبةَ، فإنَّ الشيطانَ يوقع الخلافَ والنزاعَ بينهم بالكلمةِ السيئةِ.

٣- اللهُ تعالى عالمٌ بمن يستحقُّ الهدى والجنَّة، وعالمٌ بمن يستحقُّ الضلالَ والنارَ.

٤- علمُ الله تعالى محيطٌ بكلِّ ما في السمواتِ والأرضِ، لا يخفى عليه شيء.

٥- فاضلَ اللهُ بين خلقه، وأفضلُ الخلقِ الأنبياءُ، والأنبياءُ متفاضلون فيما بينهم.

٦- آلهةُ المشركين آلهةٌ عاجزةٌ، إذا دعاها عابدوها، فإنها لا تملك دفعَ الضرِّ ولا تحويلَه عن نفسها، ولا عن عابديها.

٧- كان بعض العربِ يعبدون بعضَ الجنِّ، فآمن الجنُّ المعبودون، وأخذوا يتنافسون في التقربِ إلى الله تعالى، واستمرَّ العابدون يعبدونهم مِنْ دون الله.

النص القرآني السادس من سورة الإسراء
كلُّ قريةٍ ظلمتْ فإنَّ الله مُهلِكُها قبلَ يومِ القيامةِ أو معذِّبُها

أولاً: تقديم

تَوَعَّدَ ربُّ العزَّةِ سبحانَهُ وتعالى أن يُهلِكَ أو يعذِّبَ كلَّ قرية ظلمتْ قبل قيامِ الساعةِ، ولم ينزلِ اللهُ على رسولِهِ محمدٍ ﷺ آيةً كما أنزل على صالح وموسى إلاَّ لأنَّ الأممَ السابقةَ كذبتْ بتلك الآيات.

ووعد اللهُ رسولَهُ ﷺ بعصمتِهِ مِنَ الناسِ، فعِلْمُ الله محيطٌ بالناسِ، وقد جعلَ اللهُ رؤْيا العينِ التي رآها الرسولُ ﷺ في الإسراءِ، ورؤْياه الشجرةَ الملعونةَ فتنةً واختباراً للناس.

وأمر اللهُ -تبارك وتعالى- الملائكةَ بالسجود لآدمَ عندما يتمُّ خلقُه، فسجدوا إلا إبليسَ أبى أن يكون مع الساجدين، وكان ذلك منه كفراً وحسداً وعناداً، وأخذ على نفسه أمامَ ربِّ العزةِ أن يضلَّ ذرية بني آدم، فأعطاهُ اللهُ أن يبقيهَ حيّاً إلى يوم الدين، وأذنَ له إذْناً قدريًّا أن يضلَّ بني آدم، وأعلمَ الشيطانَ أنْ ليس لهُ سلطانٌ على عباد الله المؤمنين المُخْلَصين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٨-٦٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ما من قريةٍ إلا واللهُ مهلكها قبلَ يومِ القيامة:

أعْلمنا العليمُ الحكيمُ سبحانه وتعالى أنَّه ما مِنْ قريةٍ إلا وقضى ربُّ العزة بهلاكها قبل يومِ القيامة أو بعذابها عذاباً شديداً قبل ذلك اليوم، وكان هذا مكتوباً في اللوحِ المحفوظِ.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء:٥٨].

٢- تَركَ اللهُ -تباركَ وتعالى- الإرسالَ بالآياتِ لتكذيبِ الأولين بها:

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء:٥٩].

بَيَّنَ اللهُ -تباركَ وتعالى- أنَّهُ لم يمنعْهُ مِنَ الإرسالِ بالآياتِ كالآيات التي أرسلها في الأممِ السابقة كناقةِ صالحٍ وعصا موسى إلا أن الأولين كذبوا بهذه الآياتِ، وقد أعْطى اللهُ ثمودَ قومَ صالحٍ الناقة مُبْصِرةً، أي: بَيِّنَةً واضحةً يدركها الناسُ بأبصارهم ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ظلموا بسبب تكذيبهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ أي: وما نرسلُ بالآياتِ التي ينزلها اللهُ على رسلِهِ إلاَّ تخويفاً من نزولِ العذاب. وقد طلبتْ قريشٌ مِنَ الرسولِ ﷺ أنْ يحوِّل لهم الصفا ذهباً، أو ينحِّي عنهم جبال مكةَ، فتصبحَ أرضُهم أرضاً خِصْبةً صالحةً للزراعةِ، فأعلم اللهُ رسوله أنَّه بالخيارِ إنْ شاءَ أجابهم إلى طلبهم، فإن كفروا عذَّبهم، وإنْ شاء تَأَنَّى بهم.

فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما -قال: سألَ أهلُ مكَّة النبيّ أن يجعل لهم الصَّفا ذهباً، وأن يُنحِّي الجبالَ عنهم فيَزْدَرِعوا، فقيل له: إن شئتَ أن تَسْتَأني بهم، وإن شئتَ أن نُؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهلِكُوا كما أَهْلَكتُ مَن كان قبلهم من الأمم، قال: لا، بل أستأني بهم. فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [قال محقق ابن كثير (٤/ ١٥٦): أخرجه النسائي في «التفسير» (٣١٠)، وأحمد والطبري (٢٢٩٨)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٦٢) ووافقه الذهبي. وقال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير: (٥/ ٨١) رواه أحمد في المسند: (٢٣٣٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قالَ: قالتْ قريشٌ للنبي ﷺ: ادعُ لنا ربَّك أن يجعلَ لنا الصَّفا ذَهَباً، ونُؤمِنَ بِكَ. قال: وتفعلون؟ قالوا: نَعَم. قال: فَدَعا، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال: إنَّ ربَّك يقرأ عليك السلامَ، ويقولُ لك: إن شئتَ أصبحَ الصفا لهم ذهباً، فمن كفر

منهم بعد ذلك عَذَّبْتُه عذاباً لا أُعَذِّبه أحداً من العالمين، وإن شئتَ فتحتُ لهم باب التوبة والرحمة، فقال: بل بابَ التوبةِ والرَّحمةِ. [عزاه محقق ابن كثير (٤/ ١٥٧) إلى أحمد، وهو حديث صحيح وقال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير: (٥/ ٨١) رواه أحمد (٢١٦٦) وإسناده صحيح على شرط مسلم].

وقد خطب الرسولُ ﷺ بعد صلاتِه صلاةَ الكسوفِ أصحابَه وبيَّن لهم أنَّ اللهَ لا يرسل بالآياتِ إلا تخويفاً، فَعَنْ عروة بن الزبير عن عائشة، قالت: خَسَفَتِ الشمسُ في عَهْدِ رسولِ الله ﷺ فصلَّى رسولُ الله ﷺ بالناس، فقامَ فأطالَ القِيامَ، ثم رَكَعَ فأطالَ الرُّكُوعَ، ثمَّ قامَ فأطالَ القِيامَ، وهو دونَ القيام الأوَّلِ، ثمَّ رَكَعَ فأطالَ الرُّكُوعَ، وهو دونَ الرُّكُوعِ الأوَّلِ، ثمَّ سَجَدَ فأطالَ السُّجودَ، ثمَّ فَعَلَ في الرَّكْعةِ الثانيةِ مِثْلَ ما فَعَلَ في الأُولى، ثمَّ انصَرَفَ وقدِ انجلَتِ الشمسُ، فخَطَبَ الناسَ، فحَمِدَ اللهَ وأثنَى عليه، ثمَّ قال: «إنَّ الشمسَ والقمرَ آيَتانِ من آياتِ الله، لا يَنْخَسِفان لموتِ أحدٍ ولا لحياتِه، فإذا رأيتُم ذلكَ فادْعوا اللهَ وكَبِّرُوا وصَلُّوا وتَصَدَّقُوا» ثمَّ قال: «يا أُمَّةَ محمدٍ، والله ما من أحدٍ أغْيَرُ مِنَ الله أنْ يَزْنِيَ عَبْدُه أو تَزْنِيَ أمَتُه، يا أُمَّةَ محمدٍ، والله لو تعلَمونَ ما أعلمُ، لَضَحِكْتُم قليلاً ولَبَكَيْتُم كثيراً» [البخاري: ١٠٤٤. ومسلم: ٩٠١].

٣- أحاط علمُ الله -تبارك وتعالى- بالناس:

قال ربُّنا -تبارك وتعالى- لرسولِه ﷺ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء:٦٠]، أي: أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، فلا يخفى عليه منهم خافية، والذي أحاطَ علمُه بالناسِ، قادرٌ على منعهم مِن إيذاءِ رسولِه ﷺ وقادرٌ على عصمتِه مِنَ الناسِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء:٦٠].

المرادُ بالرؤيا المذكورةِ في الآيةِ رؤيا عَيْنٍ رآها الرسول ﷺ، وليس المرادُ بها رؤيا منامٍ، روى عكرمةُ عن ابنِ عباسٍ ﷺ قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عينٍ، أُرِيَها رسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسرِيَ به، ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ [الإسراء:٦٠]: شجرةُ الزَّقُّومِ [البخاري: ٤٧١٦].

وإنما كانت الرؤيا التي أراها اللهُ رسولَهُ ﷺ والشجرةَ الملعونةَ التي رآها تنبت في النار فتنةً للناسِ، لأنَّ هاتين الآيتين مخالفتين لما اعتادَهُ الناسُ، فإسراءُ اللهُ برسولِه ﷺ مِنَ المسجدِ الحرام ثمَّ العروجُ به ليلاً مِنَ المسجد الحرام ذهاباً وإياباً في جزء مِنْ ليلةٍ، ورؤيةُ الرسولِ ﷺ شجرةَ الزقوم تنبت في أصل الجحيم، وقد اعتادَ الناسُ أنَّ النارَ تحرق الشجرَ، وغفلَ هؤلاء

عن أنَّ هذا فعلُ الله تعالى، وليسَ فعلَ رسولِهِ ﷺ، واللهُ قادرٌ على كلِّ شيء، فالذين فتنوا وكفروا غفلوا عن أنَّ اللهَ هو الفاعلُ، واللهُ لا يعجزُه شيء في الأرض ولا في السماءِ.

وقد قال ربُّ العزةِ في شجرةِ الزقوم الملعونةِ في القرآنِ التي جعلها فتنة للناس: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات:٦٢-٦٥]. قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ أي: نخوِّفُ الكفارَ بالوعيدِ والعذابِ والنكالِ فما يزيدهم تخويفنا إلا تمادياً في ما هم فيه مِنَ الكفرِ والضلالِ.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى الملائكةَ بالسجودِ لآدمَ فسجدوا إلا بليسَ أبى أن يكون مع الساجدين:

قال ربُّ العزَّة، سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء:٦١] أمرنا ربُّنا أنْ نذكر اليومَ الذي قال فيه ربُّنا للملائكة: اسجدوا لآدم، وكان هذا السجودُ بعد أن اكتملَ خلقُ آدمَ، ونفخَ اللهُ تبارك وتعالى فيه مِنْ روحِهِ، وكان هذا السجودُ سجود تكريم، لا سجودَ عبادةٍ، فسجدَ الملائكةُ جميعاً، ورفضَ إبليسُ أن يكونَ مِنَ الساجدين، وقال لربِّ العزَّةِ مبيناً السببَ في عدم سجوده: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ وقال في موضع آخر: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص:٧٦].

وقال إبليسُ لربِّ العزَّة سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء:٦٢]. وقالَ الشيطانُ لربِّ العزَّةِ سبحانه وتعالى أيضاً بعد رفضِهِ السجودَ لآدم عليه السلام: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ بأمري وأمرِ الملائكة بالسجود لَهُ، لئن أخرتَ بقائي حيّاً إلى يوم القيامةِ لأضلنَّ ذريته إلا قليلاً، ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ واحتناكهم بالتصرفِ فيهم كما يريدُه، حيث يسوقهم كما يريدُ، ويقودُهم كما يريدُ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ هذا القليلُ الذي استثناه الشيطان هم عبادُ الله المُخْلَصين الذين استجابوا للرسلِ، واستقاموا على أمرِ الله تعالى، وعَصَوْا الشيطانَ، وأطاعُوا الرحمنَ.

قال ربُّ العزة سبحانه وتعالى في ذلك المقامِ العظيمِ للشيطانِ الذي قالَ لربِّ العزَّةَ ما قاله: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٦٣-٦٥].

قال ربُّ العزَّةِ سبحانه لإبليسَ: ﴿ٱذْهَبْ﴾ فقد أنظرتك إلى يومِ القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [ص:٨٠-٨١].

وقولُه: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: مَنْ استجابَ لكَ فيما تدعوهم إليه، ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ أي: فإنَّ جهنَّم جزاؤكم جزاءً موفوراً، أي: كاملاً.

وقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ أي: ازْعِجْ واسْتَخْفِف مِنْ استطعتَ مِنْ بني آدم بصوتِك، وصوتُه كلُّ داعية دعا إلى معصية الله ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: واحمِلْ عليهم بجنودِكِ خيَّالتهم ورجَّالتهم، فالرَّجِلُ جمع راجِلٍ، والرَّكْبُ جمعُ راكب، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم:٨٣].

ولا يبعدُ أن يكونَ لإبليس خيلٌ ورجالٌ من الجنِّ كما له مثلُ ذلك من الإنس، وهم الذين يطيعونه، وهذا ما ذهب إليه قتادةُ [ابن كثير: ٤/ ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ ومشاركةُ الشيطانِ عبادَه في الأموالِ والأولادِ، أي: شاركهم في كلِّ تصرفٍ يخالفُ وجهَ الشرع، وهو على وجهين: الأول: أنْ يأخذ المالَ مِنْ حرامٍ، والثاني: أن يضعه في حرام، كالغصبِ والسرقةِ الربا، ومن ذلك تبتيك آذانِ الأنعام، وجعلِ السائبةِ والوصيلةِ والحامي، ومشاركتهم في الأولادِ، كالولادةِ بالزنا، وتسميةِ الأولادِ باسمِ الآلهة التي يعبدونها، كعبدِاللاتِ والعزى ومناة، وقتلِ الأولادِ خشيةَ الفقر، وقتلِ البناتِ وهو الوأدُ.

وقوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: مَنِّهِم الأماني الكاذبة، وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ أي: وما يعدُهم الشيطانُ مِنَ الأماني الباطلةِ المعسولةِ إلا كذبٌ وزورٌ ولا يصيرُ إلى حقيقةٍ أبداً، وفي يوم القيامةِ يخطبُ الشيطانُ أتباعه في النارِ ويقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم:٢٢].

وقد جاءَ في الحديثِ الصحيحِ ما يُبَيِّنُ كيف أَضَلَّتِ الشياطينُ العبادَ، فعن عياض بن حمار المُجاشِعِيِّ أن رسول الله ﷺ قال ذاتَ يوم في خُطبتِه: «ألا إنَّ رَبِّي أمَرَني أنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مما عَلَّمَني، يوْمي هذا، كُلُّ مالٍ نَحلتهُ عَبْداً، حَلالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عِبادِي حُنفاءَ كُلَّهُمْ، وإنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشياطينُ فَاجْتالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ ما أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بي ما لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطاناً» [مسلم: ٢٨٦٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٦٥]، قَرَّرَ ربُّ العزة في هذه الآية أنَّ عبادَه المؤمنين الصالحين الذين أخلصوا دينهم لله ربِّ العالمين ليس للشيطان عليهم سلطانٌ، فهو حافظُهُمْ وحارسُهُمْ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: كفى بِهِ حافظاً ومؤيداً وناصراً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كلُّ القرى الظالمةِ المكذبةِ لرسلها فإنَّ الله -تباركَ وتعالى- مهلكُها أو معذبُها قبل يومَ القيامة.

٢- لم ينزل اللهُ تباركَ وتعالى المعجزات التي سألها المشركون، لأنَّ الأممَ السابقةَ كذبتْ بها، فأهلكت، وهذا ما حدث مع ثمود قوم صالح.

٣- اللهُ قادرٌ على عصمةِ رسولِهِ ﷺ، فعلمُهُ محيطٌ بالناس.

٤- رؤيا الرسولِ ﷺ في الإسراءِ والمعراجِ، رؤيا عينٍ، ورؤياه الشجرةَ الملعونةَ النابتةَ في أصلِ الجحيم، هما مِنْ بابِ الاختبارِ والامتحانِ، فبعضُ الناس كفر، وبعضُهم آمن.

٥- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- الملائكةَ أن يسجدوا لآدم إذا تمَّ خلقه ونُفِخَتْ فيه الروحُ، فسجدوا جميعاً، إلا إبليسَ فإنَّه أبى واستكبر، وقال: أأسجد لمن خلقت طيناً.

٦- أَخَذَ الشيطانُ على نفسِهِ أن يضلَّ بني آدم إن أَخَّرَه اللهُ وأبقاه حيّاً.

٧- أعطى اللهُ الشيطان سُؤْله في إبقائِه حيّاً، وأذنَ له إذناً قدريًّا أنْ يضلَّ بني آدم ويغويهم.

٨- عبادُ الله المؤمنون الذين يعملونَ الصالحات، ويُخْلِصونَ دينهم لله تعالى ليس للشيطانِ عليهم سلطانٌ.

النص القرآني السابع من سورة الإسراء
كان أهلُ الجاهلية يوحِّدون اللهَ تعالى إذا ثار البحر بهم

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ بمدى نعمته علينا حيث سخَّر لنا السفنَ لنطلب التجارةَ فوقَ ظهورها، وأعلمنا بحالِ أهلِ الجاهليةِ الذين كانوا يوحِّدون ربهم إذا ثار بهم البحرُ، وخافوا الغرقَ، فإذا نجَّاهم إلى البرِّ أشْركوا، وهو قادرٌ على إهلاكهم في البرِّ أو يعيدُهم إلى البحرِ، فيغرقهم فيه.

وكَرَّم اللهُ -تبارك وتعالى- بني آدم، وفَضَّلَهم على كثير ممن خلقه تفضيلاً، وأخبرنا ربُّنا -عَزَّ وجلَّ- أنه يُخْرِجُ لكلِّ واحدٍ من عباده كتابَ عملِه، فمن أُوتيه بيمينه سعد، والذي ضَلَّ في الحياة الدنيا وكان أعمى القلب فهو أشد عمى عن سلوك طريق الجنة في الآخرة، وأضل سبيلاً عن الهداية والرشاد.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ كفار مكَّةَ كادوا يصرفونه عن بعض ما أوحى الله إليه ليفتري على الله غيره، ولو فعل لاتخذوه حبيباً وصديقاً، ولولا تثبيت الله له على الحقِّ الذي أنزله إليه، لعذَّبَه الله عذاباً شديداً، وأعلمنا ربُّنا أنَّ أهل مكة كادوا أن يخرجوا رسولَه ﷺ من مكة، ولو فعلوا لعذبهم الله تعالى، وتلك سُنَّةٌ من سُنَنِ الله في الأمم الخالية أن يعذب اللهُ الأمةَ التي تخرج رسولها من وطنه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا

لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء:٦٦-٧٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سَخَّرَ الله تبارك وتعالى السفنَ لتجريَ في البحرِ بأمره:

قال ربُّ العزة -سبحانه وتعالى-: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ [الإسراء:٦٦] أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّه هو الذي يُزجِي لنا الفلكَ في البحرِ، أي: يسيِّرُها بالريحِ، والفلكُ: السفنُ، وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ﴾ أي: لتطلبوا الربحَ بالتجارةِ بالسيرِ في السفن من إقليمٍ إلى إقليمٍ، ومن بلادٍ إلى بلادٍ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ أي: إنَّ الله فعلَ بكم ذلك لرحمته ولطفه بكم.

ثمَّ قال ربُّ العزَّةِ سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧] حدَّثنا اللهُ تبارك وتعالى أنَّ أهلَ الجاهليةِ كانوا إذا ركبوا في السفينِ في البحر، فمسَّهم الضرُّ، أي ثارَ البحرُ بالسفين الذي يركبونَهُ، وخافوا على أنفسهم الغرق، ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ﴾ عند ذلكَ يغيب عنهم كلُّ ما كانوا يعبدونه مِنْ دونِ الله عزَّ وجلَّ، وتوجَّهوا إلى الله وحدَهُ بالدعاءِ والاستغاثة، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ﴾ أي: لما خلصهم ربُّهم تباركَ وتعالى مِنَ البحرِ، وأصبحوا في البرِّ سالمين أعْرَضوا عمَّا كانوا فيه مِنَ التوحيدِ، ورجعُوا إلى عبادةِ الأصنامِ والشركِ بالله في الدعاءِ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ أي: كثيرُ الكفرانِ لنعمةِ الله تعالى، أي: ينسى نعمةَ الله عليه ويجحدُها إلاّ مَنْ عَصَمَ اللهُ مِنْ عبادِهِ.

وقد هَدَّدَ ربُّ العزةِ سبحانَهُ هؤلاءِ بقوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء:٦٨-٦٩].

قال ربُّ العزةِ سبحانه وتعالى متهدِّداً هؤلاءِ الذين أشركوا بعدما نجَّاهم إلى البرِّ ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أي: أنَّ ربَّ العبادِ قادرٌ على أنْ يعذِّبَكُم وأنتم في البرِّ، فهو

قادرٌ على أن يخسفَ بهم جانبَ البر، والخسفُ انهيارُ الأرضِ بهم، يقالُ: بئرٌ خسيف إذ انهدمَ أصلُها، وخسفتْ عينُ الماءِ: إذا غارَ ماؤها، وخَسفت الشمسُ: إذا غابتْ عن الأرض.

وجانبَ البرِّ: ناحية الأرضِ، فالبحرُ جانبٌ، والبرُّ جانب.

وقولُه: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وهي التي ترمي بالحصى الصغارِ، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأسِ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: يعيدَكُمْ في البحرِ مرة أخرى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ والقاصِفُ الريحُ الشديدةُ التي تقصفُ الصواري، وتحطِّمُ ألواحَ السفينةِ ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: فيغرق سفينكم بسببِ كفركم، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ أي: لا تجدوا أحداً يأْخذ بثأركم بعدكم، وقال الزجاجُ: «لا تَجِدوا من يتبعنا بإنكارِ ما نزلَ بكم» [ابن كثير: ٤/ ٣٣٩].

٢- تكريمُ اللهِ -تبارك وتعالى- بني آدم وتفضيلُه لهم على كثيرٍ ممن خلقه اللهُ تفضيلاً:

قال ربُّ العزة متحدثاً عن تكريمه لبني آدم: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء:٧٠].

وتكريمُ الله -تبارك وتعالى- لبني آدمَ هو مِنْ وجوهٍ كثيرةٍ، فقد أعطاهم العقلَ والفقهَ والتمييزَ، وأقدرَهم على النطقِ بلغاتٍ مختلفة، وأعطاهُمْ السمعَ والأبصارَ والأفئدة، وجعلهم يمشونَ قائمينَ منتصبين على أرجلهم، وجعلنا نأكلُ بأيدينا، وجعلَ غيرنا مِنَ الحيوانات تمشي على أربعٍ، وأرسلَ إلينا الرسلَ، وأنزل علينا الكتبَ، وجعلنا خلفاءَ الأرضِ، وحَمَلَنا ربنا في البرِّ على الدوابِّ والسياراتِ والطائراتِ والقطارات، ورزقنا مِنَ الطيباتِ مِنْ زروعٍ وثمارٍ، ولحومٍ وألبانٍ مِنْ سائرِ أنواعِ الطعومِ والألوان، ورزقنا اللباسَ الذي نكسو به أبداننا ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ وقال: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ ولم يَقُلْ على مَنْ خلقنا، أو على كلِّ مَنْ خلقنا، فمن ذلك أنَّه فضلنا على كلِّ مَنْ في الأرضِ مِنَ الجنِّ، والحيوانِ، والطيورِ، والنباتِ، والجمادِ.

٣- أمرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنْ نذكرَ اليومَ الذي يدعو اللهُ كلَّ أُناسٍ بإمامهم:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

[الإسراء:٧١-٧٢]. أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يحاسبُ كلَّ أُناس بإمامهم، والمرادُ بإمامهم بكتابِ أعمالِهِمْ، الذي قالَ الله فيه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس:١٢].

ويدلُّ على أنَّ المرادَ بهذا الكتابِ كتابُ أعمالهم قولُه تعالى ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهذا الكتابُ هو الذي قالَ اللهُ تعالى فيه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩]. وقالَ تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية:٢٨-٢٩].

وقال ربُّ العزة في آياتِ هذا النصِّ: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ فالذي يؤْتى كتابَه بيمينه، فهو مِنَ السُّعداءِ، لأنه يُسَرُّ بما يحويه كتابُه مِنَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ، ولعظم سروره ينادي في النَّاسِ فرحاً مسروراً طالباً منهم قراءَة كتابِهِ، فقد كان موقناً باليومِ الآخرِ، وعملَ لهذا اليومِ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقة:١٩-٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ والفتيلُ: الخيطُ المستطيلُ في شِقِّ النواةِ، أو هو عبارةٌ عَنْ أقلِّ شيءٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ المرادُ بالعمى هنا عمى القلب، فمن كان في الحياة الدنيا أعمى عن الحقِّ والصوابِ، فهو في الآخرةِ أعمى عن سلوك طريق الجنة وأضل طريقاً إلى الهدى والرشاد، لأنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٥-١٢٦].

٤- تثبيتُ اللهِ رسولَهُ ﷺ على الحقِّ حتى لا يفتنه الكفارُ:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ الكفارَ كادوا يفتنونه عن الحقِّ الذي أوْحاه اللهُ تعالى إليه ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء:٧٣-٧٥].

أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنَّ كفارَ قومِهِ كادوا يفتنونه عن الذين أوحاه اللهُ تعالى إليه مِنَ الدين والشرعِ والأوامرِ والنواهي والوعدِ والوعيدِ، ﴿لِنَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ أي: لتقول علينا غيرَهُ مِنَ الوحي، ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣)﴾ أي: حبيباً وصديقاً.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ على الحقِّ الذي أنزلناه إليْكَ، وعصمناكَ عن موافقتهم، ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)﴾ أي: لقارَبْتَ أنْ تميلَ إليهم ميلاً قليلاً، والركونُ: الميل، ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: لو ملتَ إليهم شيئاً يسيراً، إذاً لأذقناكَ ضعفَ الحياةِ، وضعفَ المماتِ، أي: عذاباً مضاعفاً في الحياةِ، وعذاباً مضاعفاً في المماتِ، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾ أي: لا تجدُ أحداً ينصرُك، ولا مدافعاً يدفع عنك عذابنا.

٥- كادَ الكفارُ أن يخرجوا نبيه محمداً ﷺ من مكة:

قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)﴾ [الإسراء:٧٦-٧٧]. قالَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﴿وَإِن كَادُوا﴾ هم أهلُ مكَّة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ﴾ قال قتادةُ: «قد هَمَّ أهْلُ مكَّةَ بإخراجِ النبيِّ مِنْ مكَّة، ولو فَعَلُوا ذلك لما توطنوا، ولكنَّ اللهَ كفَّهم عن إخراجِهِ حتى أمَرَه، ولقلَّما مع ذلك لبثوا بعد خروج نبيِّ الله مِنْ مكَّة حتى بعثَ اللهُ عليهم القتلَ يومَ بدرٍ» [تفسير الطبري: ٧/ ٥٢٢٤].

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)﴾ قال قتادةُ: «أي سنةَ الأممِ والرسلِ الذين كانتْ قبلك كذلك إذ كذبوا رسلَهم وأخرجوهم، لم يُنظَروا أنَّ الله أنزل عليهم عذابه» [تفسير الطبري: ٧/ ٥٢٢٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- مِنْ فضلِ الله -تبارك وتعالى- على عبادِهِ أنَّه سَخَّر لنا السفنَ تجري في البحرِ، لنركبها في ابتغاءِ التجارة والانتقال من ديار إلى ديار.

٢- كان أهلُ الجاهليةِ إذا ركبوا في البحْر، فثارَ بهم البحرُ، وخافوا الغرق، أخلصوا دينهم لله الواحدِ الأحدِ، فإذا نجَّاهم إلى البرِّ أشركوا.

٣- تهَدَّدَ اللهُ العربَ الذين يوحِّدون إذا أصابَهم الضرُّ بالبحرِ بأنْ يخسفَ بهم جانبَ البرِّ، أو يعيدَهم إلى البحرِ مرةً أخرى، فيغرقهم.

٤- فَضَّلَ اللهُ -تبارك وتعالى- بني آدمَ على كثيرٍ ممَّن خلقه، ومِن تفضيلِهِ لهم حَمْلُهم في البرِّ والبحر، ورزقِهُم مِنَ الطيبات.

٥- يخرجُ اللهُ يومَ القيامة لكلِّ إنسانٍ كتاباً يحوي أعماله، فمن أوتي كتابه بيمينه فيسعدُ، ومن أوتي كتابه بشماله كان ضالاً في الدنيا، وحشره اللهُ تعالى أعمى، وكان أضلَّ سبيلاً.

٦- يجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يلتزمَ بما أوحاه إلى رسوله ﷺ، وليحذرَ أن يحيدَ عنه إلى أهواءِ الكفارِ والمشركين، وعليه أن يدعوَ ربَّه دائماً أن يثبته على الحقِّ.

٧- كادَ الكفارُ أهلُ مكَّةَ أنْ يخرجوا رسولَ الله ﷺ مِنَ مكةَ، ولو فعلوا لأهلكهم اللهُ تعالى، ولم يلبثوا مِنْ بعده إلا قليلاً.

النص القرآني الثامن من سورة الإسراء

وقل جاء الحق وزهق الباطل

أولاً: تقديم

أَمَرَ اللهُ -تباركَ وتعالى- رسولَهُ بإقامِ الصَّلاةِ، مِنْ زوالِ الشمسِ إلى ظلمةِ الليلِ، وهذا يشمل صلاةَ الظهر والعصر والمغربِ والعشاء، وأمر اللهُ بقرآنِ الفجر، يريد بذلك صلاةَ الفجرِ، وبيَّن اللهُ تعالى فضلَ صلاةِ الفجرِ، بقوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء:٧٨] أي: يشهدُها ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ.

وأمر اللهُ رسولَهُ أن يتهجّدَ بالقرآنِ، أي: بقراءته في صلاةِ الليلِ، ووعدَهُ على ذلك بأنْ يبعَثَهُ يومَ القيامةِ مقاماً محموداً، وأمره أن يقول في هجرتِهِ من مكة إلى المدينة: ربِّ أدْخلني مدخلَ صدقٍ، أي: بدخولِ المدينةِ، وأخرجني مخرجَ صدقٍ، أي: من مكَّة.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ القرآنَ يُذْهِبُ أمراضَ القلوب مِنَ الشكِّ والريبِ والشبهاتِ والشهواتِ، وهو رحمةٌ للمؤمنين بخلاف الكفارِ الذين يزيدُهم خساراً بسبب تكذيبهم به.

وبيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ كيف يكونُ حالَ الإنسانِ في النعمةِ والبأساءِ، وأمَرَ كلَّ واحدٍ مِنَّا أن يعملَ وفقَ طبيعتِهِ وجبلتِهِ.

وأعْلَمنا اللهُ أنَّ أرواحَنا التي تدبِّر أجسادَنا من خصائصِ علمه، فلا نستطيع أنْ ندخلها مختبراتِنا، ولا أن نبحث في كُنْهِها، وأعلمنا رَبُّنا سبحانه أنه قادرٌ على أن يذهبَ بالقرآنِ الذي أوحاه إلى عبدِهِ ورسولِهِ، ولكنه شاءَ برحمته حفظَه وعدمَ الذهابِ به، وبيَّن اللهُ أنَّ هذا القرآنَ معجزٌ لا يستطيعُ البشرُ جميعاً الإتيانَ بمثله.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ

فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء:٧٨-٨٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رَسُولَهُ ﷺ أن يقيمَ الصلواتِ الخمسِ:

قال اللهُ -تبارك وتعالى- لرسولِهِ ﷺ: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء:٧٨-٧٩].

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقيمَ الصلواتِ المفروضات في أوقاتِها ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ ودلوكُ الشمسِ، ميلُها وزوالُها في وقتِ الظهرِ، وبذلك تكون هذه الآيةُ جامعةً للصلواتِ الخمس، فقولُه: لدلوكِ الشمس، مَيْلُها وقتَ الزوال، وقوله: ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ تشمل العصرَ، كما تشمل صلاةَ المغربِ، وصلاةَ العشاء، التي تكون في غسق الليلِ، وغسقُ الليل: سوادُهُ وظلمتُهُ، وقولُه: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ أي: صلاةَ الصبحِ، وهذه الآيةُ تدلُّ على أنّ الصلاةَ لا تكون إلا بقراءَة.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ أي: تشهدُهُ ملائكة الليل وملائكةُ النهار، ففي الحديثِ عن أبي هريرة ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «تَجْتَمِعُ ملائكةُ اللَّيْلِ وملائِكَةُ النَّهارِ في صلاةِ الفَجْرِ»، ثم يقولُ أبو هريرة: فاقرؤوا إنْ شِئْتُمْ ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء:٧٨] [البخاري: ٦٤٨].

وعن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَتَعاقَبونَ فيكم ملائكةٌ باللَّيلِ وملائكةٌ بالنَّهار، ويَجتَمِعونَ في صلاةِ الفجرِ وصلاة العصر، ثمَّ يَعْرُجُ الذينَ باتُوا فيكم، فيَسْألُهم وهو أعلمُ بهم: كيف تَرَكْتُم عِبادي؟ فيقولونَ: تَرَكْناهُم وهم يُصلُّونَ، وأتيناهُم وهم يُصلُّونَ»
[البخاري: ٥٥٥. ومسلم: ٦٣٢].

٢- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يتهجدَ بالقرآن مِنْ الليلِ لعله يبعثُه مقاماً محموداً:

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ ﷺ أن يقومَ يصلي مِنَ الليلِ، وهذا هو التهجدُ، وقوله ﴿بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: بالقرآنِ، والنافلةُ: التطوعُ الذي يتبرعُ بِهِ الإنسانُ زيادةً على الفرضِ، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ قال ابنُ عباسٍ: «عَسَى مِنَ اللهِ واجبٌ، يريدُ أعطاكَ اللهُ يومَ القيامةِ مقاماً محموداً، يحمدُك فيه الأولونَ والآخرونَ، تَشْرُفُ فيه على جميع الخلائق، وتَسْألُ فتُعْطى وتَشْفَعُ فتُشَفَّع، ليس أحَدٌ إلاَّ تحتَ لوائِك» [تفسير الواحدي: ١٣/ ٤٤٤].

وقد جاءَت أحاديثُ كثيرةٌ صحيحةٌ حَدَّثنا فيها رسولُ ﷺ عن المقامِ المحمودِ الذي أعطاه اللهُ تعالى إيَّاه في يوم القيامةِ، فمنْ ذلك ما رواه ابنُ عمَر، قال: «إنّ النَّاسَ يَصيرونَ يومَ القيامةِ جُثاً، كلُّ أُمةٍ تَتْبَعُ نَبيَّها، يقولونَ: يا فلانُ اشْفَعْ، يا فلانُ اشْفَعْ، حتَّى تَنْتَهِي الشَّفَاعَةُ إلى النبيِّ، فذلِكَ يومَ يَبْعَثُهُ اللهُ المقامَ المحمودَ» [البخاري: ٤٧١٨].

وعَنْ عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ : «إنَ الشَّمْسَ تَدنو يومَ القيامةِ، حَتَّى يبلغَ العَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ، فبينا هُمْ كَذلِكَ اسْتَغاثُوا بآدمَ، ثُمَّ بموسَى، ثُمَّ بمُحمَّد».

وزادَ عبدالله بن صالح: حَدَّثني الليثُ، حَدَّثني ابنُ أبي جَعْفر: «فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الخَلْقِ، فَيَمْشِي حتَّى يأْخذَ بحَلَقَةِ البابِ، فيومئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مقاماً مَحْموداً، يَحْمَدُهُ أهْلُ الجَمْعِ كُلُّهِمْ» [البخاري: ١٤٧٥].

وعن أنسٍ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ ، قال: «يَجْتَمِعُ المؤمِنونَ يومَ القيامةِ، فيقولونَ: لَوِ استَشْفَعْنا إلى رَبِّنا، فيأْتونَ آدمَ، فيقولونَ: أنتَ أبو الناس، خَلَقَكَ اللهُ بيدِه، وأسجَدَ لكَ مَلائكتَه، وعَلَّمَكَ أسماءَ كلِّ شيءٍ، فاشفَعْ لنا عندَ رَبِّك، حتَّى يُريحَنا من مكانِنا هذا، فيقولُ: لستُ هُناكُم، -ويَذكُرُ ذَنبَه، فيَستَحي- ائتوا نُوحاً، فإنَّه أوَّلُ رسولٍ بَعَثَه اللهُ إلى أهلِ الأرضِ، فيَأْتونَه فيقولُ: لستُ هُناكُم - ويَذْكُرُ سُؤالَه ربَّه ما ليس له به عِلْمٌ، فيَستَحي- فيقولُ: ائتوا خليلَ الرَّحمنِ، فيأتونَه، فيقولُ: لستُ هُناكُ ائتوا موسى، عَبْداً كَلَّمَهُ اللهُ وأعطاهُ التَّوراةَ، فيَأْتونَه فيقولُ: لستُ هُناكُم -ويَذكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بغيرِ نَفْسٍ، فيَستَحي من رَبِّه- فيقولُ: ائتوا عيسى عبدَ الله ورسولَه، وكَلِمةَ الله ورُوحَه.

فيقولُ: لستُ هُناكُم، ائتوا محمَّداً ﷺ ، عَبْداً غَفَرَ اللهُ له ما تَقَدَّمَ من ذَنبِه وما تأَخَّرَ، فيأْتوني فأنطَلِقُ، حتَّى أستأْذِنَ على رَبِّي، فيُؤذَنَ لي، فإذا رأيتُ رَبّي وقَعْتُ ساجِداً، فيَدَعُني ما

شاءَ اللهُ، ثمَّ يُقالُ: ارفَعْ رأسَكَ، وسَلْ تُعْطَهْ، وقُلْ يُسْمَعْ، واشفَعْ تُشَفَّعْ، فأرفَعُ رأسي، فأحمَدُه بتَحمِيدٍ يُعلِّمُنيه، ثمَّ أشفَعُ فيَحُدُّ لي حَدّاً، فأُدْخِلُهم الجنَّةَ، ثمَّ أعُود إليه فإذا رأيتُ رَبي، مِثلَه، ثمَّ أشفَعُ فيَحُدُّ لي حَدّاً فأُدْخِلُهم الجنَّةَ، ثمَّ أعُودُ الرابعةَ، فأقولُ: ما بَقِيَ في النار إلاَّ مَن حَبَسَه القرآنُ، ووجَبَ عليه الخلودُ» [البخاري: ٤٤٧٦. ومسلم: ١٩٣].

وعن أبي هريرةَ ﷺ قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ في دَعْوةٍ، فرُفِعَ إليه الذِّراعُ -وكانت تُعْجِبُه- فنَهَسَ منها نَهْسةً، وقال: «أنا سيِّدُ الناسِ يومَ القيامَةِ، هل تدرونَ بِمَ؟ يَجمَعُ اللهُ الأوَّلينَ والآخرينَ في صَعيدٍ واحدٍ، فيُبْصِرُهم النَّاظِرُ، ويُسمِعُهم الدَّاعي، وتَدْنُو منهمُ الشمسُ، فيقولُ بعضُ الناسِ: ألا تَرَوْنَ إلى ما أنتُم فيه؟ إلى ما بَلَغَكُم؟ ألا تَنظُرونَ إلى مَن يَشْفَعُ لكم إلى رَبِّكُم؟ فيقولُ بعضُ الناسِ: أبوكم آدمُ، فيَأتونَه فيقولونَ: يا آدمُ، أنتَ أبو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بيدِه، ونَفَخَ فيكَ من رُوحِه، وأمَرَ الملائكةَ فسَجَدوا لَكَ، وأسكَنَكَ الجنَّةَ، ألا تَشْفَعُ لنا إلى رَبِّكَ؟ ألا تَرَى ما نحنُ فيه وما بَلَغنا؟ فيقولُ: رَبِّي غَضِبَ غَضَباً لم يَغْضَبْ قبلَه مِثلَه، ولا يَغْضَبُ بعدَه مِثلَه، ونهاني عن الشجرةِ فعَصَيتُه، نَفْسي نَفْسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهَبوا إلى نُوحٍ.

فيَأْتونَ نوحاً، فيقولونَ: يا نُوح، أنتَ أوَّلُ الرُّسُلِ إلى أهلِ الأرضِ وسَمَّاكَ اللهُ عَبْداً شَكُوراً، أما تَرَى إلى ما نحنُ فيه؟ ألا تَرَى إلى ما بَلَغنا؟ ألا تَشْفَعُ لنا إلى رَبِّكَ؟ فيقولُ: رَبِّي غَضِبَ اليومَ غَضَباً لم يَغْضَبْ قبلَه مِثلَه، ولا يَغْضَبُ بعدَه مِثلَه، نَفْسي نَفْسي، ائتوا النبيَّ ﷺ. فيَأْتوني، فأسجُدُ تحتَ العَرْشِ، فيُقالُ: يا مُحمَّدُ، ارفَعْ رأسَكَ، واشفَعْ تُشَفَعْ، وسَلْ تُعْطَهْ» [البخاري: ٣٣٤٠. ومسلم: ١٩٤].

٣- أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ ﷺ أنْ يطلب منه أنْ يدخله مدخلَ صِدْقٍ:

قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء:٨٠]. أمر الله تبارك وتعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ عند هجرتِهِ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ أي: المدينةَ، ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يعني مكّةَ، و﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يعني إدخالاً حسناً لا يَرَى فيه ما يكره، وكذلك المخرجُ.

﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ أي: حُجَّةً بيِّنَةً تنصرني بها على مَنْ خالفني وناوأني، وقد استجابَ اللهُ دعاءَه الذي أمرَهُ به، فأظهره على الدين كلِّه. وأمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ أن يقولَ: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١].

والحقُّ هو الذي جاءَ به الإسلامُ والقرآنُ، والباطلُ الذي زَهَقَ: الشركُ والكفرُ، ومعنى: زَهَقَ، أي: اضمحلَّ وهَلَكَ، فالباطلُ لا ثباتَ له مع الحقِّ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨].

وقد كانَ الرسولُ ﷺ يتلو هذه الآية عندما دخل المسجدَ الحرامَ عامَ فتح مكَّة، على الأصنام التي حولَ الكعبة، فتخرُّ ساقطةً، فعن عبدالله بن مسعودٍ ﷺ قالَ: «دَخَلَ النبيُّ مكَّةَ، وحَوْلَ الكَعْبةِ ثلاثمئةٍ وستونَ نُصُباً، فَجَعَلَ يَطْعَنُها بعُودٍ في يَدِهِ، وجَعَلَ يقولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء:٨١]» [البخاري: ٢٤٧٨. ومسلم: ١٧٨١].

وعن جابرٍ ﷺ، قال: «دَخَلْنا مَعَ النبيِّ مكَّة، وحَوْلَ البيت ثلاثمائةٍ وستونَ صَنَماً، يُعْبَدونَ مِنْ دونِ الله، فأمَرَ بها فأُكِبَّت لِوَجْهِها، وقال ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾» [عزاه ابن كثير (٤/ ١٧٦) إلى الحافظِ أبي يعلى، وحكم عليه محقِّق ابن كثير بالصحة].

٤- القرآنُ الكريمُ شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢]. أعلمنا ربُّنا –عزَّ وجلَّ– أنَّه ينزِّلُ مِنَ القرآن ما يذهب أمراضَ القلوبِ مِن الشكِّ والريبِ والنفاقِ والزيغ، ويقرُّ في القلوبِ الإيمانَ والحكمةَ، وينوِّر النفوسَ، ويرحمُ اللهُ به عبادَه المؤمنين، ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾ أي: لا يزيدُ هذا القرآنُ الظالمين، أي: المشركين إلا خساراً، وذلك لأنَّهم يكفرون به، ويكذِّبون به، ويسخرون منه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

وكما أنَّ القرآنَ شفاءٌ لأمراضِ القلوب، فهو شفاءٌ لأمراضِ الأبدانِ، وقد مضى ذكر الحديثِ الصحيحِ الذي تلا فيه ذلك الصحابيُّ سورة الفاتحةِ على ذلك اللديغ فشفاهُ اللهُ تعالى.

٥- حالُ الإنسان إذا أصابه النعمةُ والرخاءُ، وإذا أصابه الشدَّةُ والبلاءُ:

بيَّن اللهُ تعالى حالَ الإنسان إذا أصابته النعمةُ والرخاءُ، أو أصابَتهُ الشدَّةُ والبلاءُ، فقال:

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) ﴾ [الإسراء:٨٣].

يخبرُنا ربُّنا –تبارك وتعالى– عن الإنسانِ في حالتي سرائِه وضرائِه، فإذا أنعمَ اللهُ عليه بالسَّتْرِ والعافيةِ، وفتحَ له أبوابَ الرزق أعرضَ عن طاعةِ الله تعالى وعبادَتِه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ﴾ [يونس:١٢].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ أي: وإذا مَسَّته المصائبُ والحوادثُ والنوائبُ قَنَطَ مِنْ رحمةِ الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ [هود:٩].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٤] أي: كلٌّ يعملُ على طريقَتِهِ التي تُشاكِلُ أخلاقَهُ، وكلٌّ يَجْرِيْ على مَذْهبِهِ وعادته التي ألفها وجُبِلَ عليها، ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء:٨٤] أي: فربُّنا -تبارك وتعالى- أعلمُ بما جبلت عليه طبائِعكم، وما تباينت عليه طرائقكم.

٦- الروحُ مِنْ أمْرِ الله تبارك وتعالى:

سأل اليهودُ رسولَنا ﷺ عنِ الروحِ التي تُدبِّر بدنَ الإنسان، فأجاب اللهُ تبارك وتعالى بما تضمنته هذه الآيةُ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:٨٥]. أي: الرُّوحُ مِنْ جنس ما استأثر اللهُ تعالى بعلمه، فالروحُ لا نراها، ولا نشاهدُها، ولا نستطيعُ أن نمسَّها، ولا نستطيعُ إدخالَها مختبراتِنا، وهي لطيفةٌ ربانيةٌ، تسري في الجسدِ سريان الكهرباءِ، أو سريانَ الماء في الشجر، ينفخُ بها الملكُ في الجنينِ، وهو في رحمِ أُمّهِ، وقد تكونُ مطمئنةً، أو لوامةً، أو أمارةً بالسوءِ، ويكونُ الإنسانُ إنساناً إذا تلبست روحُهُ بجسدِهِ، فإذا نزعتها الملائكةُ أو قبضتها ماتَ الإنسانُ، وانتهتْ حياتُهُ.

روى علقمةُ، عن عبدالله، قال: بَيْنا أنا أمشي مع النبيِّ ﷺ في خَربِ المدينةِ وهو يَتَوكَّأُ على عَسيبٍ معه، فمَرَّ بنفَرٍ مِنَ اليهودِ، فقال بعضُهم لبعضٍ: سَلُوه عن الرُّوحِ، وقال بعضُهم: لا تَسْأَلُوه لا يَجِيءُ فيه بشيءٍ تَكْرَهونَه، فقال بعضُهم: لنَسْأَلَنَّه، فقامَ رجلٌ منهم فقال: يا أبا القاسمِ، ما الرُّوحُ؟ فسَكَتَ، فقلتُ: إنَّه يُوحَى إليه، فقُمْتُ، فلمَّا انجَلَى عنه قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتُوا[1] مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:٨٥].

قال الأعمشُ: هكذا في قراءَتِنا [البخاري: ١٢٥. ومسلم ٢٧٩٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: أنَّ علمكم بالإضافة إلى عِلْمِ الله تعالى قليلٌ، وهذا الذي تسألون عنه مِنْ أمر الروحِ مما استأثر اللهُ تعالى بعلمه، ولم يطلعكم

(١) هكذا وقعت القراءة في هذه الرواية، وقال الأعمش في آخر الحديث: هكذا في قراءتنا. قلنا: وقراءة الأعمش من القراءات الشاذة، والقراءة عند عامة القرأة: ﴿أُوتِيتُم ﴾.

عليه، وجاءَ في الحديث الذي قَصَّةُ الخضر «أنَّ الخَضْر نَظَرَ إلى عُصْفُورٍ وَقَعَ على حَرْف السفينةِ فنقر في البَحْرِ نقرةً، فقال له الخضر: ما عِلْمي وعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ الله إلاَّ مثلُ ما نَقَصَ هذا العُصْفُورُ مِنْ هذا البحرِ» [البخاري: ٤٧٢٥. ومسلم: ٢٣٨٠].

٧- لو شاءَ ربُّ العزة لذهبَ بالقرآن ومَحاهُ:

أعلمنا رَبُّنا عزَّ وجلَّ أنَّه لو شاءَ لذهبَ بالقرآنِ ومحاه ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الإسراء:٨٦]، أي: لو شاءَ ربُّنا العظيمُ الكريمُ لمحى من قلوبِ عبادِهِ ما أوحى اللهُ به إلى رسوله ﷺ ، ولمحاه مِنَ الكتبِ، فلم يُبْقَ مِنْه شيءٌ، فاللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٍ، وهذا سيقع في آخر الزمان عندما يفسدُ الناسُ، فيُسْرى على القرآنِ في ليلةٍ، فلا يبقى منه شيءٌ لا في القلوب، ولا في الكتب.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ ثم لا تَجِدُ مَنْ يتوكَّل عليه في رَدِّ شيءٍ منه بعد أن ذهبَ اللهُ به، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الإسراء:٨٧] أي: لكنَّ اللهَ لا يشاءُ ذلك، رحمةً منه تبارك وتعالى ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ وفضلُ الله كبيرٌ على رسولِهِ ﷺ ، وأعظمُهُ إيتاؤُه هذا الكتاب العظيم، وتكفله بحفظِهِ حتى لا يضيعَ منه شيءٌ.

٨- لو اجتمعَ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله:

أعلمنا رَبُّنا أن الإنسَ والجنَّ عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨]، فهذا القرآنُ معجزٌ في نَظْمِهِ، ولا يستطيع أحد أنْ يأتي بمثله، حتَّى لو أنَّ الإنسَ والجنَّ اجتمعوا كُلُّهم مِنْ أولهم إلى آخرهم، وتعاونوا فيما بينهم ليأتوا بمثل هذا القرآن أو يأتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ منه، فإنَّهم لا يستطيعون، وها هي السنواتُ قد مضت سنةٌ في إثرِ سنةٍ منذ أن نزلَ القرآنُ والكفارُ عاجزون عَنِ الإتيان بمثله أو مثلِ سورةٍ منه، وعندما حاول بعضُ العرب الأقحاحُ أنْ يفعل ذلكَ، جاء بالسفاسفِ والترهاتِ التي أضحكت بني قومه عليه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء:٨٩]. صَرَّف ربُّ العِزَّة للناسِ في هذا القرآنِ مِنْ كلِّ مثل، أي:

جاءَهم بالحجج البيناتِ، والبراهينِ القاطعاتِ، وشرحَ لهم ذلك كُلَّه وبَسَطَهُ، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩﴾ أي: أَبَوْا إلاَّ أنْ يكفروا ويجحدوا بالقرآنِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- أمر اللهُ تبارك وتعالى رسولَهُ أنْ يقيمَ الصلواتِ الخمسِ.

٢- لا بدَّ للمصلي أن يقرأ القرآنَ في قيامِهِ، ويستحبُّ أن يطيلَ المصلي قراءَتَه في صلاةِ الفجرِ.

٣- صلاة الفجر تشهدُها ملائكةُ النهارِ وملائكةُ الليلِ.

٤- فضلُ صلاةِ الليلِ كبير، فهي ترفعُ درجةَ المؤمنِ عند الله، وأَمَرَ اللهُ بها رسولَهُ، حتى يبعثَهُ ربُّه مقاماً محموداً.

٥- عندما هاجرَ رسولُنا ﷺ أَمَرَه ربّه أن يقولَ: قل ربِّ ادخلني مدخلَ صِدْقٍ، أي: في دخول المدينةِ، وأخرجني مخرج صدق، أي: في خروجي مِنْ مكَّة.

٦- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقولَ: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ وقد قالَها الرسول ﷺ عندما مَرَّ على الأصنامِ المبثوثةِ حولَ الكعبةِ في غزوةِ الفتح، فكانت تتساقط وتخرُّ على وجهها.

٧- القرآنُ شفاءٌ لأمراضِ القلوبِ، وهو رحمةٌ للمؤمنين، ولا يزيد هذا القرآنُ الكفارَ عند سماعه إلا ضلالاً لتكذيبهم به.

٨- الإنسانُ إذا أنعمَ اللهُ تعالى عليه ابتعدَ عن الله وبَطِر، وإذا أصابته شدة من فقر أو مرض قنط من رحمة الله ويئس.

٩- كل إنسان يعمل حسب طبيعته التي تشاكلُ أخلاقه.

١٠- الروحُ التي تدبِّرُ الجسد مِن خَلْقِ الله تعالى، وهي مِنْ خصائصِ علمِ الله تعالى، ولا تدخلُ في علم البشر.

١١- اللهُ تعالى الذي أنزلَ القرآنَ الكريمَ على عبدِه ورسولِهِ محمدٍ ﷺ قادرٌ على أن يَذْهَبَ بِهِ، ولكنه شاءَ أن يحفظَهُ، ولا يذهبَ به، رحمةً منه سبحانه.

١٢- القرآنُ كتابٌ عظيمٌ معجزٌ، لا يستطيع البشرُ جميعاً أن يأْتوا بمثلِهِ، ولو تظاهروا جميعاً لتحقيق ذلك.

النص القرآني التاسع من سورة الإسراء
تعنُّت كفارِ مكة في طلب الآيات

أولاً: تقديم

حَدَّثنا رَبُّنا -عزَّ جلَّ- عن مدى تعنتِ كفارِ مَكَّةَ في طلبِ الآياتِ، وأعلمنا بأنَّ الكفارَ طلبوا أنْ يكون الرسلُ مِن الملائكةِ لا من البشر، وأعلمنا رَبُّنا بأَنَّهُ يشهدُ لرسولِهِ ﷺ أنَّه على الحقِّ بنصره وتأْييده له، وأعلمنا رَبُّنا أن هدايةَ العبادِ وإضلالَهم لَهُ وَحْدَه، وبَيَّن لنا أنَّه يحشرُ الكفارَ يومَ القيامةِ على صورةٍ منكرةٍ، وأنَّ هؤلاءِ الذين يعذِّبهم إنَّما يعذبهم بسبب كفرهم بالله وكفرِهم باليوم الآخر.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الإسراء

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾

[الإسراء:٩٠-٩٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تَعَنُّتِ المشركين في طلب الآيات:

أَخْبَرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أن كفارَ قريش وصلوا في اقتراحِهم الآياتِ إلى درجةِ التَّعَنُّتِ والسفهِ، فمنْ جملةِ ما اقترحوه على رسولِهِ ﷺ أنَّهم ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء:٩٠] طلبوا منه أن يفجِّر لهم العيونَ في ديارِهم الجافَّةِ اليابسةِ، التي لا عيون فيها، ولا زروعَ.

وقالوا: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء:٩١] أي: طلبوا منه أنْ يكونَ له في تلك الديارِ اليابسةِ القاحلةِ بستانٌ مِنْ نخيلٍ وعنبٍ، وطلبوا منه أنْ يجعل الأنهار تتفجر بغزارة في تلك الجنةِ، تجري خلالَ أشجارها، فتروي نخيلها وأعنابها.

وقالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء:٩٢] طلبوا منه أنْ يعجِّل لهم العذابَ، فيسقطَ السماءَ عليهم كسفاً، وكان الرسولُ ﷺ قد تهدَّدَهم بذلك فيما سبق، والكسفُ: القطعُ، وغلا هؤلاءِ غلوًّا عظيماً، عندما طلبوا مِنْ رسولنا ﷺ أنْ يأتي بربِّه أو بملائكةِ ربِّه حتى يشاهدوا ذلك قبيلاً، أي: مقابلة وعياناً.

وقالوا: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء:٩٣].

وطلبوا منه واقترحوا عليه، أنْ يكونَ له بيتٌ مِنْ زُخرفٍ، أي: مِنْ ذَهَبٍ، أو يرقَى في السماءِ، وهم يشاهدون رُقِيَّهُ، ولا يكفيهم هذا الرقيُّ حتى ينزِّل لهم كتاباً مِنَ السماءِ يقرؤونه.

فأمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ أن يجيبَ هؤلاءِ تجاه هذه المطالب التي يتصفُ أصحابُها بالتعنتِ والحمقِ ويقول لهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء:٩٣] أمره أنْ يسبِّح ربَّه ويقدِّسه، وهذا خيرُ موقفٍ يقفه السامعُ لهذه المطالبِ الهوجاءِ المتعنةِ، وأمَره أنْ يقولَ لهم: إنَّما أنا بشرٌ رسولٌ، فليس في طاقتي وقدرتي أن آتي بمثلِ هذه المطالب، فالأمر لله وَحْدَهُ، ما شاءَ كان، وما لم يشأْ لم يكنْ.

٢- **استبعادُ الكفارِ إرسالَ الرسلِ مِنَ الإنسِ:**

بَيَّنَ ربُّ العزَّة سبحانه أنَّه ﴿مَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء:٩٤] وهذه الشبهةُ ثارتْ عند كلِّ الأممِ المكذبةِ لرسلها، فكلُّ أمةٍ استبعدتْ أن يرسل اللهُ رسلَهُ مِنَ البشرِ، وطلبوا أن يرسل إليهم رسولاً من الملائكة.

وأمر الله تعالى رسولَه أن يقولَ لهؤلاء الذين طلبوا هذا الطلبَ: ﴿لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء:٩٥] أي: لو كانَ في الأرضِ ملائكةٌ يعيشون فيها، ويتحركونَ في جنباتها، لناسبَ أنْ يُنَزِّلَ اللهُ عليهم ملكاً رسولاً، أي: ملكاً مِنْ جنسهم، وكذلك هم المناسبُ لَهم أنْ يختارَ اللهُ -تعالى- لهم بشراً رسولا، أي: مِنْ جنسهم.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء:٩٦] أي: قُلْ للكفارِ مِنْ قومِك: كفى بالله شهيداً عليكم، فهو سبحانه عالمٌ بما جئتكم بِهِ، فلو كنتُ كاذباً على الله مفترياً عليه، لانتقمَ مني أشدَّ الانتقام، وعاقبني أشدَّ العقوبةِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ أي: عليمٌ بمن يستحقُّ الإنعامَ والإحسانَ والهدايةَ، ممن يستحقُّ الشقاءَ والإضلالَ والإزاغةَ، ولذلك أَتْبَعَ ربُّ العزَّة ذلك قائلاً: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء:٩٧].

أعلمنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه مَنْ يهدِه الله فهو المهتدي، ولا مضلَّ له، والذي يضلُّه ربُّ العزَّة سبحانه، فلا يجدُ له أنصاراً يهدونه غيرَ الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف:١٧]. وأخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- كيف يَحْشُرُ الكفارَ يوم القيامة، فهو يحشرُهُمْ على صورةٍ منكرةٍ، يظهرُ فيها ضعفُهُمْ وعجزُهُمْ وإهانَتُهُمْ، فقد أخبرنا أنَّه يحشرُهم مكبين على وجوهِهِم، وهم عميٌ لا يبصرون، وبُكْمٌ لا يتكلمون، وصمٌّ لا يسمعون، ومأواهم النارُ، أي: مصيرهم إليها، كلما ضعف حَرُّها زاده الله سعيراً.

٣- إنكارُ الكفارِ البعثَ والنشورَ:

بَيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- السببَ الذي عَذَّب به المشركين العذابَ الشديدَ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ [الإسراء:٩٨].

أعْلمنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- أنَّ هذا العذاب الذي ينالُ الذين ذكرهم اللهُ في الآيةِ السابقةِ كان بسببِ كفرِهم بالله تعالى وبسببِ إنكارِهِمْ للبعثِ والنشورِ، وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ أي: أإذا متنا، وبليت أجسادُنا، وأصبحتْ عظاماً بالية، وكسراً متفتتة، فكيف نبعثُ خلقاً جديداً تدبُّ فيه الحياة !!

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تَدَبَّرْنا آياتِ هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - حَكَى اللهُ -تبارك وتعالى- أمثلةً لما طلبَ المشركون أن ينزله اللهُ على رسولِهِ ﷺ مِنَ الآياتِ.

٢- من الشبهاتِ التي صدَّت الناس عن الإيمانِ عند جميع الأممِ المكذبةِ لرسلها أنَّ اللهَ أرسلَ رسلَه مِنَ البشر، ودعواهم أنَّه لو أرسل إليهم رسلاً مِنَ الملائكةِ لآمنوا.

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- يشهدُ لرسولِهِ ﷺ بنصرِهِ وتأْييدِه لَهُ أنَّه على الحقِّ.

٤- هدايةُ العبادِ وإضلالُهم مِنْ خصوصياتِ ربِّ العباد.

٥- يحشُرُ ربُّ العبادِ الكفارَ في غايةِ الذلِّ والمهانةِ والاحتقارِ، فهو يحشرُهم على وجوهِهِم، عمياً وصمّاً وبكماً والعياذُ بالله تعالى.

٦- يعذِّب اللهُ -تبارك وتعالى- هؤلاءِ الذين تَحدَّث عنهم بسببِ كفرهم بالله وباليوم الآخر.

النص القرآني العاشر من سورة الإسراء

اللهُ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ قادرٌ على البعثِ والنشور

أولاً: تقديم

هذه الآيات هي النصُّ الأخيرُ مِنْ سورةِ الإسراءِ، بَيَّنَ اللهُ فيها أنَّ القادرَ على خلقِ السمواتِ والأرضِ، فإنه أقدر على إحياءِ العبادِ يومَ القيامةِ، وذمَّ اللهُ تعالى العبادَ الذينَ لو كانوا يملكون خزائنَ الله لَبَخِلُوا وقَتَروا، وأعلَمنا رَبُّنا -عَزَّ وجلَّ- أَنَّه أرسلَ موسى إلى فرعونَ وملئه، وأنزلَ معه تسعَ آياتٍ بيناتٍ، لتدلَّ على صدقِهِ في أَنَّه مبعوثٌ مِنْ ربِّ العالمين، وأعلمنا رَبُّنا بما قالَه فرعونُ لموسى، وبما رَدَّ موسى عليه.

وقد بَيَّنَ لنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ موسى أعَلَم فرعون بما استقرَّ في أعماقِ قلبه أنَّ الآياتِ التي جاء بها هي مِنْ عند الله، ولكنَّه كافرٌ جاحدٌ. وبيَّن اللهُ تعالى لنا أنَّ فرعونَ أراد أن يزعج بني إسرائيلَ ويكيدهم، فأغرقه وجندَه، ونَجَّى بني إسرائيل، وأورثَهم الأرضَ مِنْ بعد فرعون فكانوا خلفاءَها.

وأعلمنا رَبُّنا -عَزَّ وجلَّ- أنَّه أنزلَ القرآنَ بالحقِّ وأرسلَه مبشراً ونذيراً، وأنَّه أنزلَ القرآنَ متفرقاً، ليقرأه على النَّاسِ على ترسُّلٍ وتؤدَةٍ، وأعلمنا أنَّ علماءَ أهلِ الكتاب الذين دخلوا الإسلامَ خاضعون لله تعالى، ساجدونَ له سبحانه. وأمر اللهُ رسولَه أن يَدْعُوَ اللهَ، أو يدعُو الرحمنَ، فهما مِن أسمائِه الحسنى، وأمره أن يتخذ طريقاً وسطاً في قراءَته يكونُ بين الجهرِ والمخافتةِ.

وأمَرَه في الآيةِ الأخيرةِ مِنْ هذه السورةَ العظيمة أن يحمدَ ربَّه، لأنَّه لم يتخذْ ولداً، ولم يتخذ شريكاً يشركه في ملكه، ولم يتخذ وليّاً مِنَ الذلِّ، يستعين به لضعفه، فهو فلا يحتاجُ إلى غيرِهِ سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾

[الإسراء:٩٩-١١١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ أقدرُ على إحياءِ العبادِ بعد موتهم:

نَبَّهُ اللهُ تبارك وتعالى عباده الذين ينكرون البعثَ والنشورَ، أنَّ خلقَ السمواتِ والأرضِ فيه دليلٌ على البعثِ والنشورِ ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩٩].

قال اللهُ -تبارك وتعالى- مخاطباً هؤلاءِ الكفارَ: أولم يعلموا أنَّ اللهَ الذي خلق السمواتِ والأرض قادرٌ على أن يَخْلُقَ مثلهم بعد فنائهم؟ فخلقُ السمواتِ والأرض أعظمُ مِنْ خلقِ الناس. قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧] وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس:٨١].

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ﴿ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي: جعلَ لإقامةِ العبادِ من قبورِهم أجَلاً محدَّداً لا ريبَ فيه، وقوله تعالى: ﴿ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ أي: رَفَضَ الكفارُ بعد قيامِ الحجَّةِ عليهم إلا جحوداً وتمادياً في باطِلِهِمْ وضلالهم.

ثمَّ بَيَّنَ اللهُ -تعالى- مدى بخلَ الناسِ وتقتيرهم، فقال: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٠]. أمَرَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- نبيه أن يقولَ للناسِ: لو أنَّكم أيها الناس تملكون خزائنَ رحمةِ الله التي لا تنفدُ، لأمسكتم وبَخِلْتُم، وامتنعتم عن الإنفاقِ خوفاً من نفادها، وكان الإنسان قتوراً، أي: كان في طبعه بخيلاً منوعاً.

٢- آتى اللهُ تعالى موسى تسعَ آياتٍ:

أعلمنا رَبُّنا تباركَ وتعالى أنه آتى نبيَّه موسى تسعَ آياتٍ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء:١٠١] وهذه الآيات التسعُ هي التي أرسل بها موسى إلى فرعونَ وملئه، وهي العصا التي ألقاها موسى فأصبحتْ حيَّةً تسعى، وابتلعت حبالَ السحرة وعصيهم، والثانيةُ: يَدُه، كان يدخلها في جيبِهُ، فتخرجُ بيضاءَ مِنْ غير سوءٍ، وذكر اللهُ -تعالى- خمساً أخرى في سورة الأعراف فقال: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ [الأعراف:١٣٣]. وذكر اثنتين في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٠].

وقد طلب اللهُ -تبارك وتعالى- مِنْ رسولِهِ أن يسأل بني إسرائيل عما قالَه فرعونُ لموسى عندما بَلَّغه رسالةَ ربِّه ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء:١٠١] فأجابه موسى قائلاً: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٢].

قال موسى لفرعونَ أنتَ تعلمُ في قرارةِ نفسك أنَّه لم يُنْزِلْ هذه الآياتِ إلا ربُّ السمواتِ والأرضِ بصائر، أي: أنزلها حججاً وبراهينَ على فرعون وقومِهِ وخوارقَ ودلائل، تدلُّ على صدقِ موسى ﷺ، كما تدلُّ على وحدانيةِ الله تباركَ وتعالى: وقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ والظنُّ هنا بمعنى اليقين، والمبثورُ: الهالكُ الملعونُ.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٣] ومعنى يستفزُّهم يزعجَهُمْ ويربكَهُم، ويجعلهم في اضطرابٍ وخوفٍ دائمين، ليخرجوا من أرض مصر.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ أي: أهْلكه في البحر عندما شقَّ اللهُ البحرَ لبني إسرائيل فنجَّاهم، ودخلَهُ فرعونُ وجندُه، فغرقوا جميعاً فيه، ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٤] هذا الذي يقولُهُ اللهُ تعالى لبني إسرائيل يكون في آخر الزمان، بعد نزول عيسى وقتله الدجال وخروج يأجوج وإبادتهم، وبعد أن يدخلَ بنو إسرائيل في الإسلامَ على يد عيسى، يقولُ لهم الربُّ تبارك وتعالى: اسكنوا الأرض، أي: أرض فلسطين، وقوله: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ واللفيفُ ما اجتمع مِنَ الناس مِنْ قبائلَ

شتى، فيجمعُ الله بني إسرائيل مِنْ مختلفِ الديارِ والقبائلِ والجهاتِ [انظر في هذا الموضوع كتابنا: أشراط الساعة في الكتب السماوية: ص١٣٣-١٤٧].

٣- أنزل الله تعالى القرآنَ بالحقِّ:

أنزلَ اللهُ -تبارك وتعالى- هذا القرآنَ بالحقِّ ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء:١٠٥] والحقُّ: الأمرُ الثابتُ الذي لا يزول، وهو الدينُ الذي كان عليه رسولُنا ﷺ، وهو نقيضُ الباطلِ، ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي: نَزَلَ مَعَ الحقِّ.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾﴾ أي: لم نرسلْكَ إلا مبشراً برحمةِ الله ورضوانِهِ وجنته، ونذيراً، أي: مخوفاً مِنْ نارِهِ وعذابه.

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء:١٠٦] لم ينزلِ اللهُ -تبارك وتعالى- القرآنَ على رسولِهِ محمدٍ ﷺ مرةً واحدةً كما أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبورَ على داودَ، ولكنَّه نَزَّلهُ مفرقاً ﴿فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي: أنزْلناه مفرقاً، وقوله: ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي: على تؤدةٍ وتَرَسُّلٍ، ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾﴾ أي: نزَّلناه نجوماً، فكانت تنزل الكلمةُ والكلمتان، والآيةُ والآيتانِ، وقد تنزلُ بضعُ آياتٍ، وقد تنزلُ السورةُ كاملةً، وقد نَزَلَ القرآنُ في ثلاثٍ وعشرين سنةً.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقولَ للكفار: آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به:

قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٨]. أي: قُلْ لهؤلاءِ الكفارِ: آمنوا بهذا القرآنِ أو لا تؤمنوا بِهِ، فإيمانكم لَنْ يزيدَه رفعةً وكرامةً، وعدمُ إيمانكم به لن ينقصَهُ، ولن يضيرَهُ، فالقرآنُ كاملٌ في ذاتِهِ آمنَ بِهِ الناسُ أو كفروا.

ثم حدَّثنا عن الذين أوتوا العلمَ مِنْ قبلنا، وهداهم اللهُ للإسلام مِنَ اليهودِ والنصارى، الذين عَلِمُوا مِنْ كتبهم قبلَ أن ينزلَ هذا القرآنُ أنَّه حقٌّ وصِدْقٌ، بما أخبرهم اللهُ عنه في تلك الكتبِ، هؤلاء العلماءُ إذا يتلى عليهم هذا القرآنُ الكريمُ يخرُّونَ للأذقانِ ساجدين، والأذقانُ: جمع ذقْنٍ، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾﴾ أي: ساجدين خاضعين لله على ما أنعمَ بِهِ عليهم مِنْ نعمةِ هذا الكتابِ. ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾﴾ أي: يقولون في سجودِهِمْ: سبحانَ رَبِّنا، أي: ننزه رَبَّنا -تبارك وتعالى- عن كلّ سُوْءٍ، والمرادُ بوعدِ الله الوعدُ

الذي وَعَدَ بِهِ بإرسالِ رسولِهِ الخاتم، وإنزالِهِ القرآنَ عليه، وقد تحقق هذا الوعدُ ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾، أي: إن وعد الله تعالى من ثواب وعقاب لواقع حقًّا.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ١٠٩ ﴾ [الإسراء:١٠٩] أي: يَخِرُّون للأذقان يبكونَ لشدَّةِ تصديقهم، وتحقُّقِ إيمانِهم، وسيزيدُهم هذا الإيمانُ والسجودُ والتأثرُ الذي وقعَ في قلوبِهم خشوعاً، والخشوعُ أشدُّ الخوفِ.

٥- أمَرَ الله -تبارك وتعالى- عباده أن يدعوا اللهَ أو يدعوا الرحمن أيّاً ما يدعون فله الأسماء الحسنى:

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠﴾ [الإسراء:١١٠]. أمَرَ اللهُ رَسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يَدْعُوَ اللهَ باسمِهِ الله، أو باسمِهِ الرحمن، فهما اسمانِ مِنْ أسمائِه الحسنى، ولا حرجَ على مَنْ دعا بأيٍّ منهما ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر:٢٢].

ونَهَى الله تعالى رسولَهُ ﷺ عَنْ أنْ يخافتَ بصلاتِهِ، أو يجهرَ بها، أي بقراءتِهِ القرآنَ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠﴾، أي: طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافتة.

وعن ابن عباسٍ رضي اللهُ عنهما في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، قال: نَزَلَتْ ورسولُ الله ﷺ مُختَفٍ بمكَّةَ، كان إذا صَلَّى بأصحابه رَفَعَ صوتَه بالقرآنِ، فإذا سَمِعَ المشركونَ سَبُّوا القرآنَ، ومَنْ أنزلَه، ومَن جاءَ به، فقال اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقرءاتِكَ، فيَسمَعَ المشركونَ، فيَسُبُّوا القرآنَ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾: عن أصحابِكَ، فلا تُسْمِعُهم ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠﴾ [البخاري: ٤٧٢٢. ومسلم: ٤٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ١١١﴾ [الإسراء:١١١]. أمَرَ اللهُ -تباركَ وتعالى- رسولَهُ ﷺ أن يحمدَه سبحانَه، لأنَّه اتَّصفَ بثلاثِ صفاتٍ، الأولى: أنَّه لم يتخذْ ولداً، وحمدُه سبحنه نفسَهُ لاتصافه بهذه الصفةِ، يدلُّ على مدى الجُرْمِ الذي وقعَ فيه الذين نسبوا إليه الولدَ، فالنصارى قالوا: عيسى ابنُ الله، والعربُ قالت: الملائكةُ بناتُ الله. والثانية: أنَّه ليس له شريكٌ في الملكِ، فاللهُ -تعالى- خالقُ السمواتِ والأرض وَحْدَهُ، لم يَشْرَكْهُ في ذلك أحَد سبحانه. والثالثةُ: أنَّه ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ أي: أنَّه لا يحتاجُ إلى أحدٍ يتولاه ويعينه على أمر نفسِهِ، ولا تدبيرَ أمرِ غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ أي: عظِّمه تعظيماً، ومِنْ ذلك قولُ العبدِ: اللهُ أكبرُ، أو قوله: اللهُ أكبر كبيراً، ونحو ذلك.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- مِنَ الأدلةِ الدالةِ على قدرةِ الله على البعثِ والنشورِ أنَّه خلق السموات والأرض، وخلقهُما أعظمُ مِنْ إحياءِ العبادِ بعد موتِهم.

٢- بنو آدمَ في طبعِهم البخلُ والتقتيرُ، حتى إنَّ الواحد منهم لو كان يملكُ خزائنَ الله لبخل.

٣- أرسَلَ الله موسى ﷺ إلى فرعونَ وملئِهِ، وأنزلَ معه تسعَ آيات بينات تدلُّ على صدقه، وأنَّه رسولُ ربِّ العالمين.

٤- أعْلَمَنا اللهُ بما قاله فرعونُ لموسى، وبيَّنَ لنا مدى جرأةِ موسى على فرعونِ، وما قاله لفرعون.

٥- كان فرعونُ يعلمُ في قرارةِ نفسِهِ أنَّ اللهَ هو الذي أنزلَ الآياتِ التي جاء بها موسى، ولكنَّه كان مكابراً معانداً.

٦- أراد فرعونُ وجندُه أن يستفزَّ بني إسرائيل ويزعجهم، فأغرقَهُ ربُّ العزَّة، ونجَّى موسى ومَنْ معه.

٧- بعد أن أغرقَ اللهُ فرعون وملأَه، جعلَ بني إسرائيل خلفاءَ الأرضِ، وقد وعَدَ اللهُ بني إسرائيلَ بأنْ يجمعهم في آخرِ الزمان، بعد أن يدخلوا الإسلامَ في الديارِ المقدسةِ، وهذا معنى قوله: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء:١٠٤].

٨- أنزلَ اللهُ تعالى القرآنَ متلبِّساً بالحقِّ، وأرسلَ رسولَهُ ﷺ مبشراً ونذيراً، ونزَّلَ اللهُ القرآنَ متفرقاً على مدى ثلاثٍ وعشرينَ سنة.

٩- إيمانُ الكفارِ بالقرآنِ وكفرهم به لا يضيرُ القرآنَ.

١٠- مدى التأثُّر الذي أصابَ العلماءَ الذين آمنوا بالقرآنِ، ومدى خضوعهم وإخباتهم لله ربِّ العالمين.

١١ - من أسماءِ ربنا العظيمةِ الكريمةِ التي ندعوه بها: الله، والرحمن.

١٢ - الطريقةُ الفضلى التي نقرأُ القرآن بها التوسُّطُ بين الجهرِ والمخافتة.

١٣ - أمرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يحمدَ اللهَ تعالى لاتصافه بالوحدانية وعدمِ اتخاذِهِ الولدَ، ولأنَّه لم يتخذ أحداً شريكاً في ملكه، ولأنَّه لم يتخذ وليّاً ولا نصيراً يعينه بسبب ضعفِهِ وعجزِهِ.



تقديم: التعريف بهذه السورة

قال ابن الجوزيِّ: «روى أبو صالح عن ابنِ عباس أنَّ سورةَ الكهفِ مكيةٌ، وكذلك قال الحسنُ ومجاهدُ وقتادةُ، وهذا إجماع المفسرين مِنْ غير خلافٍ نعلَمهُ» [زاد المسير: ٥/ ١٠٢].

وقد ذكرَ ابنُ الجوزيِّ وغيره مِنَ المفسرين أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ ذهبوا إلى أنَّ بعضَ آياتها مدنية، والصوابُ مِنَ القولِ أنَّ جميعَ آياتِها مكيةٌ.

وقال أبو عمرٍو الدَّاني: «سورةُ الكهفِ مكيةٌ، وكَلِمُها ألفٌ وخمس مائة وسبع وسبعون كلمة، وحروفها ستة آلاف وثلاثمئة وستون حرفاً، وهي مائةٌ وخمسُ آياتٍ في المدنيين والمكي، وست في الشامي، وعشرٌ في الكوفي، وإحدى عشرة في البصري» [البيان في عَدِّ آي القرآن: ص١٧٩].

«والقصصُ هو العنصرُ الغالبُ على هذه السورةِ، ففي أوَّلها تجيءُ قصة أصحابِ الكهفِ، وبعدها قصةُ الجنتين، ثم إشارةٌ إلى قصةِ آدمَ وإبليس، وفي وسطها تجيءُ قصة موسى مع العبدِ الصالحِ، وفي نهايتها قصةُ ذي القرنين؛ ومعظم ما يتبقى من آياتِ السورةِ هو تعليقٌ أو تعقيبٌ على القصصِ فيها، وإلى جوارِ القصصِ بعضُ مشاهدِ القيامة وبعض مشاهدِ الحياة التي تُصَوِّرُ فكرةً أو معنى على طريقة القرآن في التعبير والتصويرِ» [في ظلال القرآن: ٤/ ٢٢٥٦].

فضل هذه السورة:

وَرَدَ في فضل هذه السورةِ عدَّةُ أحاديث صحيحة، فمن هذه الأحاديث:

١ - حديث أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من قرأ سورةَ الكهفِ في يومِ الجمعةِ، أضاء له من النُّورِ ما بينه وبين الجمعتين» قال فيه ابن كثير: «هذا حديثٌ صحيح الإسنادِ، ولم يخرجاه وهكذا رواه الحافظُ أبو بكر البيهقي في سننِهِ عن الحاكم» [ابن كثير: ٤/ ١٩٤].

٢- وقال البيهقيُّ: روى يحيى بن كثير، عن شعبة عن أبي هاشم بإسنادِهِ أنَّ النبي ﷺ قالَ: «من قرأ سورة الكهف كما أُنزلتْ، كانت له نوراً يومَ القيامةِ» قال محقِّق ابنِ كثير: «أخرجه الحاكم: ١/ ٥٦٤، والبيهقي في الشعب: ٢٤٤٦، والطبرانيُّ في الأوسط: ١٤٧٨. وقال الحاكم: صحيحُ الإسنادِ على شرط مسلم، ورواه الثوريُّ فوقفه. اهـ. ووافقه الذهبي. ورجَّح البيهقيُّ الوقفَ فيه على أبي سعيد، وانظر مجمع الزوائد: ١/ ٢٣٩».

٣- وعن أبي الدرداءِ، أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آياتٍ مِنْ أوَّلِ سورةِ الكهفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّال» [مسلم: ٨٠٩ (٢٥٧)].

وفي روايةٍ عند مسلم: «مَنْ حفَظَ عشرَ آياتٍ مِنْ آخرِ الكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجالِ» [مسلم: ٨٠٩].

٤- وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما: «قَرَأَ رَجُلٌ الكَهْفَ، وفي الدارِ دابّةٌ، فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ، فَسَلَّم، فإذا ضبابةٌ، أو سحابَةٌ، غَشِيَتْهُ، فذكرَهُ للنبي ﷺ، فقال: اقْرَأْ فلانُ، فإنَّها السَّكينةُ نزلتْ للقرآنِ، أو تَنَزَّلَتْ للقرآن» [البخاري: ٣٦١٤. ومسلم: ٧٩٥].

وقد وَرَدَ في بعضِ رواياتِ الحديث أنَّ الذي كان يقرأُ هو أُسيدُ بن حضيرٍ.

سبب نزول هذه السورة:

ذكر الطبريُّ بإسنادِه إلى ابنِ إسحاقَ أنَّ شيخاً حَدَّثَه عن عكرمةَ عنِ ابن عباسٍ أنَّ قريشاً أرسلتِ النَّضْرَ بن الحارثِ وعقبةَ بن أبي معيط إلى أحبارِ اليهود بالمدينةِ يسْألونهم عن محمدٍ، فسألُوهم، فقالوا لهما: سَلُوه عن ثلاثٍ، فإنْ أخْبَرَكُمْ بهنَّ فهو نبيٌّ مُرْسَلٌ، وإلا فهو رجلٌ مُتَقَوِّلٌ، والثلاثُ هي: فِتْيَةٌ ذهبوا في الدَّهرِ الأوَّلِ ما كان مِنْ أمرهم، فإنَّه قد كان لهم حديثٌ عَجَبٌ، ورَجُلٌ طَوَّافٌ، بلغَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، والثالثةُ: الروح، فنزلت هذه السورة في المسألتين الأولين، وبَيَّن الروحَ في موضعٍ آخر [تفسير الطبري: ٧/ ٥٢٩٠. تفسير القرطبي: ٥/ ٦٧٣].

وإسنادُ هذه القصةِ غيرُ صحيحٍ، فشيخُ ابنِ إسحاقَ فيها مجهولٌ لا تُعْرَفُ عدالته، وأصحُّ الأقوالِ أنَّ قصَّةَ أصحابِ الكهفِ كانت في النصارى كما سيأتي، وما كان كذلك، فيبعد أنْ يعنى اليهودُ بمثله.

النص القرآني الأول من سورة الكهف
ثناءُ الله تعالى على نفسِهِ لإنزالِهِ كتابَه العظيمَ على عبدِهِ ورسولِهِ محمد ﷺ

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النصِّ هي مَطْلَعُ السورةِ الكريمةِ سورةِ الكهف التي يُرَدِّدُها كثيرٌ مِنَ المسلمين في يوم الجمعةِ رجاء أنْ ينالوا نوراً يمتدُّ إلى الجمعةِ الأُخرى، وقد حَمِدَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأولى مِنْ هذه السورةِ نفسَهُ على إنزالِه الكتابَ العظيمَ، وهو القرآنُ على عبدِهِ ورسولِهِ محمد ﷺ.

وقد حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن هذا الكتابِ الكريمِ ببيان صفتِهِ، وبيانِ الغايةِ من إنزاله.

أما صفته، فهو كتابٌ حقٌّ كُلُّه، لا اعوجاجَ فيه، لا في ألفاظِهِ، ولا في معانيهِ، وليسَ فيه خَلَلٌ في أخبارِهِ ولا في أحكامِهِ، وهو قَيِّمٌ، أي مقيمٌ أمرَ الذين يأخذون به في الدنيا والآخرة، ففي الدُّنيا يُصْلِحُ قلوبَهُم، ويهدي عقولَهُمْ، ويصلحُ أقوالَهُمْ وأعمالهم، ويصلحُ أفرادَهم، وأُسرَهمْ ومجتمعاتِهم، وفي الآخرةِ يوصلهم إلى الجنَّة.

أما الغاية التي أُنزل مِنْ أجلها، فهو يُبَشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ بالأجر العظيمِ الذي هو الجنةُ في الآخرة، التي يخلدُ فيها أصحابُها، ويُنْذِر بأساً شديداً مِنْ عنده، وبخاصةٍ الذين قالوا اتَّخذ اللهُ ولداً.

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة الكهف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

[الكهف: ١-٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حَمِدَ اللهُ نفسَه على إنزالِهِ القرآنَ على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ:

ابتدأ ربُّنا -تبارك وتعالى- هذه السورةَ بحمدِ نَفْسِهِ على إنزاله الكتابَ، وهو القرآنُ الكريمُ على عبدِهِ المصطفى محمدٍ ﷺ، وإنزالُ القرآنِ على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ أجَلُّ النِّعمِ وأعظمُها، فبِهِ هَدانا اللهُ إليه صراطاً مستقيماً، وبه أحيا قلوبَنا وأنارَها، وبَصَّرنا مِنَ العمى، وأنقذَنا مِنَ الضَّلالِ، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الكهف:١].

ومن الآياتِ القرآنيةِ الدالةِ على عظمِ النعمةِ التي حَواها القرآنُ قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء:١٧٤]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل:٧٧]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة:٢].

وفي حَمْدِهِ -عَزَّ جَلَّ- نَفْسَه على إنزالِهِ القرآنَ على عبدِه المصطفى المختارِ توجيهٌ لعبادِه المؤمنينَ الأخيارِ كي يحمدُوه على هذه النعمةِ العظيمةِ.

٢- القرآن كتابٌ مستقيمٌ لا عِوَجَ فيه:

القرآنُ العظيمُ الذي أنزلَهُ رَبُّنا -تبارَكَ وتعالى- كمالٌ ليسَ فيه نقصٌ، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف:١] أي: مستقيمٌ، فلا اضطرابَ في ألفاظِهِ، ولا اختلافَ في معانيهِ، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥] فالقرآنُ إما أخبارٌ أو أحكامٌ، وأخبارُه كُلُّها صِدْقٌ، وأحكامُه كُلُّها عَدْلٌ، وقال ربُّنا في موضعٍ آخرَ نافياً العِوجَ عن كتابه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر:٢٨].

وتصفُ العربُ الشيءَ بالعِوجِ بكسر العين إذا كان لا شَخْصَ له، فتقول: لا عِوَجَ في دينه، وتقول: لا عِوَجٌ في القرآن، أما إذا كان المتحدَّثُ عَنْه له شَخْصٌ، فتقولُ: فيه عَوَجَ بفتحِ العينِ، تقول: في العَصا عَوَجٌ، وفي المِئْذَنَةِ عَوَجٌ [معاني القرآن، للزجاج، ٣/ ٢٦٧].

ولما كان القرآنُ مستقيماً لا عِوَجَ فيه فإنه لا تضارُبَ، ولا تناقُضَ في آياتِهِ، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢].

٣- القرآنُ قيمٌ بمصالحِ الخلْقِ الدينيةِ والدنيويةِ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ القرآنَ قَيِّمٌ، وذهبَ جمهورُ المفسرين إلى أنَّ المرادَ بالقيِّم: المستقيمُ، ولذا ذهب كثيرٌ مِنَ المفسرين إلى أنَّ حقَّ ﴿قَيِّمًا﴾ أن تَتَقَدَّمَ على قوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ فيكونُ المعنى مستقيماً لا عوجَ فيه [التفسير البسيط: ١٣/ ٥٢٠. زاد المسير: ٥/ ١٠٣].

ولم يرضَ ابنُ عطيةَ تفسيرَ القَيِّمِ بالمستقيم، وقال: «ويحتملُ أن يكون معنى (قَيِّم) قِيامَهُ بأمرِ الله -تباركَ وتعالى- على العالمِ، وهذا المعنى يُؤيِّدُه ما بعده مِنَ النذارة والبشارةِ اللَّذين عَمَّا العالم» [المحرر الوجيز: ٥/ ٥٦٣].

وهذا هو المعنى الصوابُ إن شاء اللهُ تعالى، فقدْ ذهبَ جمعٌ مِنْ أهلِ العلمِ أنَّ المرادَ بقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ أنَّهُ قيِّمٌ بمصالحِ الخلقِ الدينيةِ والدنيوية [أضواء البيان: ٤/ ٨. تفسير القاسمي: ٧/ ٤].

٤- الغايةُ التي أنزل اللهُ تعالى القرآنَ مِنْ أجلها:

بَيَّنَ اللهُ تعالى الغايةَ التي أنزلَ القرآنَ مِنْ أجلها بقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف:٢-٣].

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّهُ أنزلَ كتابَهُ العظيمَ ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ والإنذارُ الإعلامُ المقترنُ بتخويفٍ وتهديدٍ، والإنذارُ بالبأسِ الشديدِ يكونُ في الدنيا، ويكون في الآخرة، فمن الإنذارِ الدنيويِّ قولُه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت:١٣] ومن الإنْذارِ الأُخروي: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل:١٤]. والبأسُ الشديدُ: العذابُ الشديدُ في الدُّنيا والآخرة. وقوله: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: مِنْ عنده، كما عَذَّب قومَ نوحٍ بالطوفانِ، وقلبَ ديارَ قوم لوطٍ فجعلَ عاليَها سافلَها، وأرسلَ على عادٍ الريحَ العقيم، وهي ريحٌ، صرصرٌ عاتيةٌ، وأخذتْ ثمودَ الصاعقةُ، وأغرقَ فرعونَ وجيشَهُ في البحر. وأنزلَ اللهُ تعالى كتابَه لـ ﴿يُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ والبشارةُ الخبرُ بما يَسُرُّ، كما قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم:٩٧].

وعلى ذلك فالقرآنُ تخويفٌ وتهديدٌ للكافرين، وبشارةٌ للمؤمنين المتقين.

وقد بَيَّنَ علماؤُنا أنَّ العملَ لا يكونَ صالحاً إلا إذا استوفى ثلاثة أمور:

١ - أن يكونَ مطابقاً لما جاءَ به الرسولُ ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

٢ - أن يكونَ عاملُ العملِ الصالح مخلِصاً لله ربّه ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

٣- أنْ يَكُونَ صاحبُ ذلكِ العملِ مؤمناً، فإنْ كانَ كافراً، فلا يكون عملُهُ صالحاً ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل:٩٧].

والمراد بالأجرِ الحسن في قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ الجزاءُ الحسنُ في جناتِ النعيمِ، ولذلك قالَ سبحانه: ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ أي: خالدين في ذلك الأجرِ الذي هو الجنَّة

٥- **إنذارُ القرآن للذين قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ :**
بَيَّنَتْ آياتُ هذا النصِّ فيما سبق أنَّ القرآنَ أُنزِلَ لينذرَ بأساً شديداً مِنْ لَدُنْهُ لكلِّ مَنْ عصاه أو كفَرَ به، وخَصَّ مِنْ بين المُنْذَرين الذين قالوا اتخذَ اللهُ وَلَداً ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ [الكهف:٤].

وهذه الدعوى الكاذبةُ في نسبةِ الولدِ إلى الله قالها الناسُ في مختلفِ العصرِ والأزمانِ، وقد زَعَمَ بعضُ اليهودِ أنَّ عزيراً ابنُ الله، وزعَمَ كثيرٌ مِنَ النصارى أنَّ عيسى ابنُ الله، كما زعَمَ العربُ أنَّ الملائكةَ بناتُ الله.

وقوله عَزَّ وجلَّ: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ﴾ [الكهف:٥] أي: ليسَ لديهم ولا لدى آبائهم دليلٌ ولا بيِّنَةٌ ولا برهانٌ يَدُلُّ على صدق مقالتهم، وإنما هي مقالَةٌ اخْتَلَقُوها، وافْتَرَوْها، ولذا فإنَّ على المُسْلِمِ الذي يحاور هؤلاء المفترينَ الذين نَسَبُوا الولدَ إلى الله تعالى أنْ يطالبَهم بالدَّليلِ الذي يَدُلُّ على صحةِ قولهم، فيظهرُ عوارُهُمْ وافتراؤُهم.

وقولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف:٥] يُعْلِمُنا رَبُّنا سبحانه أنَّ الكلمةَ التي قالُوها كاذبين، وهي دَعْواهم أنَّ اللهَ -سبحانه- اتخذ وَلَداً، كلمةٌ عظيمةٌ كبيرةٌ، وبيَّنَ -سبحانه- أنَّ هؤلاءِ المفترين لا يقولون على الله تعالى إلا كذباً.

وقد بَيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- في غير موضعٍ في كتابِهِ عِظَمَ هذه الكلمةِ وكبرها فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم:٨٨-٩٢].

وقال: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء:٤٠]،

وقال: ﴿ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

[الأنعام:١٠٠]، وقال ابنُ كثيرٍ: «﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: ليسَ لها مُسْتَنَدٌ سوى قَوْلِهم، ولا دليلَ لهم عليها إلا كَذِبُهم وافتراؤُهم، ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾».

٦- معاتبةُ اللهِ رسولَه ﷺ في كَوْنِهِ أرادَ إهلاكَ نفسِهِ لحزنه على عدم إيمان قومه:

وجَّه اللهُ تعالى الخطابَ إلى رسولِهِ ﷺ قائلاً له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف:٦]، قال له مُسَلِّياً له في حزنِهِ على المشركينَ، لتَرْكهم الإيمانَ بالقرآنِ الذي جاءَهم به: لَعَلَّكَ باخعٌ نفسَكَ، أي: مُهْلِكُها مِنْ شِدَّةِ أسفِكَ، أي: حزنك على عدم إيمانهم بما جئتهم به، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي: على أثَرِ توليهم وإعراضِهم، وقريبٌ من هذه الآيةِ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقولُهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل:١٢٧]، وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة:٦٨].

٧- ابتلى اللهُ تعالى عبادَه بجَعْلِهِ ما علَى الأرضِ زينةً لها:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بأنَّه جَعَلَ ما على الأرضِ زينةً لها، ليبلونا، أي: يختبرنا أيُّنا أحسنُ عملاً ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف:٧]، ومَنْ سارَ في الأرضِ، ونظر إلى ما حوته فوقها، رأى ما فيها مِن جناتٍ، جرَت في جَنَباتِها العيونُ والأنهارُ، ونبتَتْ فيها الأشجارُ والنباتُ، وسَرَحَتْ فيها الحيواناتُ على اختلافِ أجناسها، وحَلَّقت الطيورُ في أجوائِها، ورأى فيها الجبالَ الشاهقةَ، وقد تكونُ الثلوجُ استقرت فوقَ قممها، وانسابت المياهُ إلى أوديتها وعندما يقفُ المرْءُ على شواطئِ البحارِ، ويتأمل فيها حوته مِنْ أسماكٍ وحيتان على اختلافِ أشكالِها وألوانِها، يرى في ذلك كلِّه زينةً، وأيَّ زينةٍ، وهي زينةٌ يختبر اللهُ فيها الإنسانَ ويبتليه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧].

فالذي يَنْجَحُ في الابتلاءِ والاختبارِ لا تملكُ هذه الدنيا عليه نَفْسَه ولا تَخْلُبُ لُبَّهُ، فالدنيا متاعٌ، ومتاعُها زائلٌ، وهي دارٌ فانيةٌ، ولذلك قال ربُّ العزَّة ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف:٨]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذه الزينةَ المبثوثَةَ فوقَ هذهِ الأرضِ

ستصيرُ إلى الخرابِ والزوالِ، ويهلكُ كلُّ ما فيها ويَبيدُ، وستصبح يوماً صعيداً جرزاً، والصعيدُ كما يقول الفرَّاءُ: «الترابُ، والجُرُزُ: أن تكون الأرض لا نباتَ فيها» [معاني القرآن: ٢/ ١٣٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرَّنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - حَمِدَ اللهُ تعالى نَفْسَهُ على إنزالِهِ الكتابَ على عبدِهِ ورسولِهِ ﷺ، فالكتابُ أعظمُ نِعَمِ الله التي أنزلها على عبادِهِ ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣].

٢ - حَمْدُ الله نَفْسَهُ في مقامِ إنزالِ الكتابِ، فيه توجيهٌ لعبادِهِ أنْ يَحْمَدُوه على هذه النعمةِ العظيمةِ.

٣ - إنزالُ الله كتابَهُ على رسولِهِ ﷺ مقامٌ عظيم، وفي هذا المقامِ العظيمِ أخبر سبحانه أنه أنزله على عَبْدِه.

٤ - القرآنُ ليس فيه عِوَجٌ لا في ألفاظِهِ ولا معانيه، ولا في أخبارِهِ وأحكامِهِ، فهو الكتابُ المعصومُ مِن التناقضِ والتنازعِ والاختلاف.

٥ - القرآن يقيمُ مصالحَ العبادِ الدنيويةَ والأُخْرَوِيَّةَ.

٦ - القرآن يُنْذِرُ الكافرينَ ويُخَوِّفُهُمْ، ويبشِّر المؤمنين الذين يعملونَ الصالحات.

٧ - بشرى الله المؤمنين بالأجرِ العظيمِ الذي يكونُ يومَ الدين هي الخلودُ في جناتِ النعيم.

٨ - القرآنُ يُنذِرُ الذينَ زعموا كاذبين أنَّ الله اتخذَ ولداً، وتلكَ جريمة نَكْراءُ، ليسَ لأصحابها عِلْمٌ بما يقولون، بل هُمْ على الله يكذبون.

٩ - نَهى اللهُ تعالى رسولَه أنْ يهلكَ نفسَهُ حزناً بسبب كُفْرِ قومِهِ بالقرآنِ الذي جاءَهم به.

١٠ - ما فوقَ ظهرِ الأرضِ مِنْ زينةٍ مصيرُه الزوالُ، والمؤمنُ لا تَغُرُّه الدنيا، ولا تلهيه زينَتُها الفانيةُ، فكلّ الذي فوقَ الترابِ مصيرُه الترابُ.

النص القرآني الثاني من سورة الكهف
قصة أصحاب الكهف

أولاً: تقديم

قَصَّ علينا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ قصة أصحابِ الكهفِ، وهم فِتْيَةٌ فارقوا قومَهمُ الكفارَ، وأوَوْا إلى كهفٍ في غار، فضرب اللهُ على آذانِهِمْ، فناموا مُدَّةً طويلةً مِنَ الزمان، وتؤخذ هذه القصة من آياتِ هذا النصِّ، فلم تَرِدْ في القرآنِ الكريمِ في غيرِ هذا الموضعِ، ولم يَرِدْ حديثٌ صحيح يُوَضِّحُ شيئاً مِنْ أبعادِها، وقد أوردَ كثيرٌ من المفَسِّرين أخباراً كثيرةً، وتحدَّثوا في هذهِ الأخبارِ عن زمانِهم، والمكانِ الذي عاشوا فيه، والسببِ في خروجِهم مِنْ بلدهم، وذكروا أسماءَهم، ولَوْنَ كلبهم، وبعضُهم زَعَمَ أنَّ الكلْبَ كان رَجُلاً، وتحدَّثوا عن يَقْظَتِهم، وكيف ذَهَبَ المُرْسَلُ منهم إلى المدينةِ، وكيف كُشِفَ أمْرُه [راجع في القصص التي أوردها المفسرون: الطبري: ٧/ ٥٣٠١، ٥٣١٧-٥٣٢٤. وتفسير البغوي: ٥/ ١٤٥. والهداية لمكي أبي طالب: ٦/ ٤٣٣٣، ٤٣٤٩].

وبعضُ هذه القصص يعارِضُ ما جاء بِهِ القرآنُ، وبعضُها يذكر أموراً زائدة عليه، وقد تناقضتْ هذه القصصُ المرويَّةُ، والواجبُ أن تدرسَ قصةُ أصحابُ الكهف في ضوءِ نصوصِ الآياتِ التي تَحَدَّثَتْ عنهم، من غيرِ تَزَيُّدٍ ولا نُقْصانٍ، فهذا هو مقتضى الإيمانِ بالغيب الذي تَحَدَّث اللهُ تعالى عنه، والغيبُ الذي ليس له سندٌ صحيحٌ لا يجوز الاعتمادُ عليه بحال، وسيأتي مزيد بحث لما لدى النصارى عن هذه القصة في الفقرة الرابعة من تفسير هذا النص.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ

ٱللَّهُ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف:٩-٢١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- قصةُ أصحابِ الكهفِ ليست أعجبَ آياتِ الله تعالى:

قصةُ أصحابِ الكهفِ والرقيم مِنْ آياتِ الله تبارك وتعالى، ولكنَّها ليستْ أعجبَ آياتِ الله عزَّ وجلَّ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف:٩]. يقولُ اللهُ -عزَّ وجلَّ- لرسولِهِ أظننتَ يا محمدُ أنَّ أصحابَ الكهفِ والرقيم كانوا مِنْ آياتِنا عَجباً، أي: ليسوا بأعجب آياتِنا، فإنَّ فيما خلقناه مِنَ السمواتِ والأرضِ وما فيهنَّ مِنَ العجائبِ أعجبَ منهم، فقد أعْلَمنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ خلقَ السمواتِ والأرضِ أعظمُ من خلق الناس ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، و﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ هي المُنْقَطِعَةُ المقدَّرةُ بـ: بَلْ وهمزة الاستفهام، والمعنى: بل أحسبتَ أنَّ أصحابَ الكهفِ والرقيم كانوا من آياتِنا عجباً.

والكهفُ: الغارُ الواسعُ في الجبلِ، وأصحُّ ما قيل في ﴿الرَّقِيمِ﴾ أنه لوحٌ مِنْ حجارةٍ أو غيرِها كتبتْ فيه قصَّتُهم، فالرقيمُ: فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، مِنْ رقمتُ الكتابَ إذا كتبتُهُ.

٢- إجمالُ اللهِ -تعالى- قصةَ أصحابِ الكهفِ قَبْلَ أنْ يُفَصِّلَ القولَ فيها:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن قصةِ أصحابِ الكهفِ على سبيلِ الإجمالِ والاختصارِ في ثلاثِ آياتٍ: أوّلاً، ثمَّ فَصَّلَ القول فيها في بقية آياتِ النصِّ، قال تعالى مخبراً عن قِصَّتِهم بإجمال واختصارٍ: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف:١٠-١٢].

أخبرنا ربُّنا أنَّ جمعاً مِنَ الفتيانِ صاروا إلى كهفٍ، وهو غارٌ في جبلٍ، فجعلوه مَأْواهُم، والفتيةُ: جمعٌ، واحدُه فتى، والفَتَى: الطريُّ مِنَ الشباب [المفردات، للراغب: ص٣٧٣].

وسيأتي أنَّ هؤلاءِ الفتية فَرُّوا بدينهم مِنْ قَوْمِهِمْ لئلاَّ يَفْتِنُوهم عنه، فهربوا منهم، والتجؤوا إلى غارٍ في جبلٍ، ليختفوا عن قَوْمِهِمْ، فدَخلوه، وهم يَدْعُونَ ربَّهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ أي: أعطنا رحمةً مِنْ عندكَ، والرحمةُ بابٌ واسعٌ، تشمل الهدى والرزقَ، والحِفْظَ مما هربوا منه، وقوله: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ أي: يَسِّرْ لنا من أمرِنا رَشَداً، أيْ: هدىً وصلاحاً.

وأخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ضربَ على آذانِهِمْ في الكهفِ الذي لجؤُوا إليه، فناموا فيه سنينَ عدداً ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ أي: أنَّه ألقى عليهم النَّوْمَ، فناموا سنينَ طويلةً كثيرةً معدودةً، وقد أعْلَمنا ربُّنا في آيةٍ أُخرى عدَدَ هذه السنوات، فقال: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف:٢٥].

«وخَصَّ اللهُ تعالى الآذانَ بالذكرِ، لأنَّها الجارحةُ التي منها عظم فسادِ النومِ، وقلَّما ينقطعُ نومُ نائمٍ إلاَّ مِنْ جهةِ أُذنِهِ، ولا يَسْتَحْكِمُ النومُ إلا معَ تَعَطُّلِ السَّمعِ» [تفسير ابن عطية: ٥/ ٥٧٣].

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه بعدَ تلكَ النومةِ الطويلةِ بعثَهم مِن نَوْمِهِمْ، أي: نَبَّهَهُم مِنْ ذلكَ النوم، ليعلمَ أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ وقد أعلمنا اللهُ فيما يأتي مِنَ الآيات أنَّ الحزبين كليهما كانوا مِنْ أصحابِ الكهف، حزبٌ ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ والحزب الثاني ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف:١٩].

وقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: لنعلَم أنَّ ذلك موجودٌ واقعاً، وإلا فإنَّ الله تعالى يعلم كلَّ شيءٍ قبلَ وجودِهِ، لا يخفى عليه منه شيءٌ. وقوله: ﴿أَحْصَىٰ﴾ أي: أضبطُ. والأمَدُ: هو الغايةُ، أي: غايةُ المدة التي لبثوها في الكهفِ.

٣- الله يقصُّ علينا خبر أصحاب الكهف بالحق:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه يخبِرُنا عن قصةِ أصحابِ الكهفِ بالحقِّ ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف:١٣]، أي: بالصدْقِ الذي لا باطلَ فيه، ولذلك علينا الاقتصارُ في التعرُّفِ على قِصَّتهم عَبْرَ هذه الآياتِ، وعلينا أنْ نُعْرِضَ عما جاءَنا مِنْ غيرها، فإنَّ القصصَ

غيرَها متعارضةٌ متناقضةٌ، فيها كثيرٌ مِنَ الباطلِ، وفي آيةٍ تاليةٍ نهى الله تعالى رسولَه ﷺ أن يستفتي أحداً في عددِ أصحابِ الكهف، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف:٢٢].

٤- البلدُ الذي ينتمي إليه أصحابُ الكهفِ:

ذكر بعضُ المفسرين أنَّ أهل الكهفَ كانوا في الشام، وقيل: في الأندلسِ، قرب مدينة غرناطةَ بقربِ قرية تسمَّى لُوشَة [تفسير ابن عطية: ٥/ ٥٩٥]. وهناك كهوف كثيرة يدَّعي الناسُ اليوم أنَّ أهل الكهف ناموا فيها، ومن هذه الكهوف كهف في تركيا، وآخر قرب عمَّان عاصمة الأردن.

وقد ذكر الشيخُ جمالُ الدينِ القاسمي [في تفسيره: ٧/ ٢٧] أنَّه وَجَدَ ذكراً لأصحابِ الكهف في تواريخِ المسيحيين، وذكر أنَّ لهم عيداً سنويًّا يقامُ تذكاراً لهم في اليومِ السابع والعشرين مِنْ شهر تموز، لكونهم اضطهدوا من قِبَلِ الأمراء اليونانيين، لإيمانهم بالله تعالى وحده، ودخولهم في الملةِ المسيحية، ورفضهم الوثنيةَ التي كانت عليها اليونان، وقد رأى القاسمي في كتابِ «الكنز الثمين في أخبار القدِّيسين» ترجمةً عن أحوالهم واسعة تحت عنوان «فيما يخصُّ السبعةَ القديسين الشهداء الذين من أُفْسُس» نقتطف منها ما يأتي، دحضاً لدعوى من يفتري أنَّ نبأهم لا يعرف أصلاً، كما قرأْته في بعض كتب الملحدين.

قال صاحب الترجمة: «هؤلاءِ الشهداءُ السبعةُ كانوا إخوةً بالجسد، وأسماؤهم: مكسيميانوس، ومالخوس، ومرتينيانوس، وديونيسيوس، ويوحنا، وسارابيون، ثمَّ قسطنطين، هؤلاءِ الشبان قربوا حياتهم ضحية من أجل الإيمانِ بالمسيحِ، بالقربِ مِنْ مدينة أُفْسُس، نحو سنة (٢٥٢) مسيحية في زمن الاضطهاد القاسي الذي صنعه ضد المسيحيين، الملكُ داكيوس.

وقد أجَلَّهم المسيحيون شهداء حقيقيين، فيُقَامُ لهم في الكنائِس مدائحُ تَنشرُ فيها صفاتِهِمْ الفاضلةَ يوم استشهادِهِم، في اليوم الرابع من شهر آب، المختص بتذكار الأُعجوبة التي بواسطتها قد ظهَرت أجسادهم المقدسة في المغارة القريبة من مدينة أُفْسُس.

ثم قال: وأما نوعُ استشهادِهِم فليس بمعروفٍ، لأنَّ أعمالهم الجهادية في سبيلِ الإيمانِ لم توجد مدوّنة في التواريخِ الكنائسيةِ المدققة، بل إنَّ المؤكد عنهم أنَّ استشهادهم كان زمن الملك داكيوسِ، حذاء مدينة أُفْسُس، حيث وجدت فيها بعد أجسادهم في مغارة ليست بعيدة من أهل هذه المدينة.

ثم قال: فالبعض مِنَ الكتبةِ الكنائسيين يرتؤون بأنَّه لما اختفى هؤلاء الفتية في تلك المغارة هرباً من الاضطهاد، عُرِفَ أمرُهم، فأُغْلِقَ عليهم بابُ المغارة بصخور عظيمةٍ، وهكذا ماتوا فيها، وغيرهم يروون أنَّهم قُتِلُوا من أجل الإيمانِ في مدينة أُفْسُس، وبعد موتهم نُقِلَتْ أجسادهم ودُفنت في المغارة المذكورة، وآخرون يظنون أنهم حبسوا أنفسَهم أحياءً باختبائهم في المغارةِ المذكورة، ليموتوا برضاهم، هرباً مِنْ خطر أنواعِ العذاب القاسيةِ التي كان يتكبدها المسيحونَ في ذاك الاضطهاد الوحشي.

ثم قال: فكيفما كان نوع استشهاد هؤلاء السبعة، فقد تحقَّقَ أنَّ اللهَ أراد أن يكرمهم بإظهار أجسادهم بواسطة رؤيا سماوية، وذلك في (٤ آب سنة ٤٤٧) في زمن ولاية الملكِ (ثاوضوسيوش الصغير).

ثم قال: ودَرَجَ على أفواه الشعوب؛ أنَّ هؤلاءِ الفتية، بعد أنْ أُغلق عليهم بابُ المغارة بأمر داكيوس الملك، لم يموتوا ضمنها، لا موتاً طبيعيًّا ولا قسريًّا، بل رقدوا رقادَ النومِ مُدَّةً، نحو مائتي سنة، ثم نهضوا منْ نومهم الطبيعي (سنة ٤٤٧).

ثم قال: وقد ذهبَ بعضُ المؤرخين إلى تأويل ما رُوِيَ من رقادهم الطويل، بأنَّه لما ظهرت أجسادُهُمْ سالمةً من البِلَى، بعد أن دُفنوا في ذلك الغار أحياءً أو أمواتاً، بواسطة خارقة، نُقِلَت مِن مدفنهم الذي كانوا فيه، اعتبرت تلك الأجساد كأنها صودفت مستيقظةً منْ نومٍ لذيذ كانت راقدة فيه. إلا أن الذي يبطل هذا التأويل ما نقله بعدُ عن القنداق، من أنَّهم نهضوا بعد أن رقدوا عدَّةً من السنين، وانتصروا على ضلال أولئك الوثنيين، وبظهورهم كذلك أيَّدوا حقيّة إيمانهم، ووطدوا المؤمنين في رجاء القيامة في الحياة الأبدية».

قال القاسمي معقباً على ما نقله: «هذا ما اقتطفناه من كتاب «الكنز الثمين» وبه تعلم ما لدى أهل الكتاب المسيحيين من الاختلاف فيهم، الذي أشار له القرآن الكريم، وقد جاء في «تاريخ الكنيسة»: إن أقوالَ وأعمال الشهداء في المسيحية لم ينقلْ منها إلا القليل، لأنَّ أكثرها أُحرق بالنار مدةَ العشرِ سنوات من سنة (٢٩٣ إلى ٣٠٣) ومن القرن الثامن فصاعداً، اعتنى الروم واللاتيّون بجمعِ حياةِ الشهداء الأولين، غير أنَّ الأكثر حَذاقَةً، حتى الذين في حضن الكنيسة الرومانية، يسلّمون الآن بأنَّ أكثر الأخبار أحاديثُ ملفقة، غراماً بالبلاغة، وجداول القديسين المسماة «أقوال الشهداء» ليست بأكثر ثقة التي ألفها أناس جهلاء غير قادرين، أو دخلها منذئذ أكاذيب، فهذا القسم من تاريخ الكنيسة إذ ذاك مظلم خال من النور» انتهى كلامه بالحرف.

وفيه ميل إلى النصفة من عدم الثقة بما لديهم من هذا الخلاف الذي حسم مادته، واقتلعه من جذوره، القرآنُ الكريمُ.

والناظر المتبصر فيما نقله القاسمي يمكنه تقرير ما يأتي:

١ - أنَّ هذ الذي نقله عن كتاب «الكنز الثمين» يتحدث عن أصحابِ الكهف الذين قصَّ القرآن قِصَّتَهم، ولكنَّ قصتَهم فيه قصةٌ غائمةٌ باهتة، ومن نَظَرَ إليها في ضوء ما جاء به القرآن، يرى كثيراً من الحقِّ فيها غائباً، وما فيها من الصواب قليل مخلوط بالباطل أو المجهول.

٢ - أصابتِ القصةُ في أنَّ أصحاب الكهف كانوا سبعةً، وأنَّهم كانوا قِدِّيسين، ولم تذكر شيئاً عن كلبهم الذي ذكره القرآن.

٣ - صَرَّحت قصة «الكنز الثمين» أنَّ سببَ قصتهم مجهولٌ لديهم، بينما القصةُ القرآنية حَدَّدت السبب الذي أدَّى إلى خروجهم من قومهم، فقد خرجوا فارين بدينهم، حتى لا يُكْرِهُوهُم على الكفر.

٤ - تُصَرِّحُ قصةُ الكنزِ الثمين أنَّ قومهم عرفوا مكانَ اختفائِهم، وأغلقوا عليهم الغار، وهذا غير صحيح، فقومهم كما صرَّح القرآن لم يهتدوا إلى مكانِ اختفائهم، وبَقَوْا نائمين فيه، وكَلْبُهُمْ باسط ذراعيه بالوصيد، وبابُ كهفِهم مفتوح، يصل منه ضياءُ الشمسِ، كما يصلُ إليهم الهواءُ النقيُّ.

٥ - ما ذكروه مِنْ أنَّ مكان نومهم كان في مغارة هذا صحيح، إلا أنَّه ينبغي أن تكون مغارةً كبيرةً واسعةً، فإنَّ المغارةَ الصغيرة لا تكون كهفاً.

٦ - أصابَ رواةُ قصتهم في أنَّه بَقُوا في رقدتهم مدةً طويلةً، ولكنَّهم أخطؤوا في تحديد هذه المدَّةِ، والصوابُ ما ذكره القرآن أنَّهم لبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً.

٧ - ليس عند الذين رَوَوْا قصَّتهم يقينٌ في أنَّهم قاموا من نومهم، وعندما يَنْقُلُونَ عن بعضهم أنَّهم نَهَضُوا مِنْ نومهم، يذكرون أنهم بَقُوا عِدَّةَ سنين، ومن يقرأ القصَّةَ في القرآن يجدْ أنَّ الله بَعَثَهُمْ بعدَ موتهم، وتكلموا فيما بينهم، وحَدَّثَنا اللهُ ببعض ما تكلموا به، وأنَّهم أرسلوا أحدهم ليأتيهم بالطعام إلى آخر ما ذكره القرآن فيهم، والأظهر أنَّ اللهَ قبض أرواحَهم بعد أن عَثَرَ الناسُ عليهم.

٨- ما ذكره رواة القصةِ أنَّ وجودهم كان في عهد اضطهاد النصارى، يبدو أنَّ ذلك صحيح، وهو واضح من خلال النص القرآني.

٩- ذكَرَ القرآنُ أنَّ الذين غَلَبوا على أمرهم في ذلكَ الزمانِ اتخذوا عليهم مسجداً، ولم يذكر الذين رَوَوْا القصةَ مِنَ النصارى شيئاً من ذلك.

١٠- فيما نقله القاسمي ردٌّ صريح على الذين زعموا أنَّ أهلَ الكتاب ليس عندهم عِلْمٌ عن هؤلاءِ الفتية.

١١- هذا الذي نقله يدلُّ على أنَّ هؤلاءِ الفتية كانوا مِن النصارى، لا من اليهودِ، وهذا يُؤَكِّدُ عدم صحة رواية ابن إسحاقَ التي تزعم أنَّ اليهودَ هم الذين أرشدوا العربَ إلى سؤالِ الرسولِ ﷺ عن أصحابِ الكهفِ.

١٢- المدينةُ التي كان أصحاب الكهف منها هي مدينة «أُفْسُس»، وهذه المدينة كانت عاصمة المقاطعة الرومانية آسيا على مسافة ثلاثة أميال من البحر تجاه مدينة «ساموس»، وكان فيها هيكل «أرطاميس»، وقد احتلَّ الإغريق الأيونيون مدينة أُفسس في القرنِ الحادي عشر قبل الميلاد، واحتلَّها الرومان عام (١٣٣ ق.م).

ولم يبقَ من هيكلِ أرطاميس الضَّخْمِ سوى الأساسات، وقد كانَ للنصارى رحلات تبشيرية إلى «أفسس» وأقامَ بعضُ مبشريهم بها. [راجع: قاموس الكتاب المقدس منقول منه باختصار، ص٩٢].

ومدينة «أفسس» اليوم تقع في تركيا، شمال غرب مدينة «أضنة» وشمال مدينة «مرسين»، و«مرسين» مدينة تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في الاتجاه الشمالي الشرقي لجزيرة قبرص.

١٣- ذكرت القصة المنقولةُ أنَّ المغارةَ لا تزال معروفة، ولا أدري هل لا تزال معروفة إلى عهد المؤلفِ أو إلى اليوم.

١٤- تُظهِرُ هذه القصةُ الخَلْطَ بين الصحيحِ والباطلِ الذي يجعل الاعتمادَ على ما عند أهل الكتاب خطأً وضلالاً.

٥- أصحابُ الكهفِ كانوا فتيةً شباباً في مقتبلِ العمر:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أصحابَ الكهفِ كانوا فتيةً شباباً في مقتبل العمرِ عندما فارقوا قَوْمَهُمْ، وأوَوْا إلى الكهفِ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ [الكهف:١٣]. قال العلاَّمةُ ابن كثير رحمه الله

تعالى: «﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ وهم الشبابُ، وهم أقبلُ للحقِّ، وأهدى للسبيلِ مِنَ الشيوخ الذين قَدْ عَتَوْا وعَسَوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثرُ المستجيبين لله تعالى ولرسوله شباباً، وأما المشايخُ مِنَ قريشٍ فعامَّتُهمْ بَقَوْا على دينهم، ولم يُسْلِمْ منهم إلاَّ قليل» [ابن كثير: ٤/ ١٩٩].

٦- إنعامُ الله تعالى على أصحابِ الكهف:

بيَّنَ اللهُ تعالى فَضْلَهُ ونعمتَه على أصحابِ الكهفِ، فقد أعلمنا -سبحانه- أَنَّهُ هداهم للإيمانِ، وزادَهُمْ هدايةً، وأنَّه رَبَطَ على قلوبهم عندما ﴿قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف:١٤].

وهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ مَنْ آمن بربِّه وأطاعه زادَهُ اللهُ -تعالى- إيماناً وهدى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد:١٧]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]. وقد دَلَّ قولُه تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ على ما دلتْ عليه نصوصٌ كثيرةٌ مِنْ أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ، يزيدُ بالطاعةِ، وينقصُ بالمعصية، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة:١٢٤]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، وهذا ما عليه علماءُ أهلِ السنةِ كأحمد والشافعي والبخاري وغيرهم.

وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه رَبَطَ على قلوبِ الفتيةِ عندما قاموا فقالوا رَبُّنا ربُّ السمواتِ والأرضِ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والرَّبْطُ على قلوبِهِم - كما يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «يتضمنُ الشَّدّ عليها بالصَّبْرِ والتثبيتِ، وتقويَتُها وتأْييدُها بنورِ الإيمانِ، حتى صبروا على هجرانِ دارِ قومِهم، ومفارقةِ ما كانوا فيه من خَفْضِ العيش، وفَرُّوا بدينهم إلى الكهفِ.

والربطُ على القلبِ: عكس الخِذْلانِ، فالخذلانُ: حَلُّه مِنْ رباط التوفيق، فيغفلُ عن ذكر ربِّه، ويتَّبعُ هواه، ويصيرُ أمْرُه فُرُطاً، والرَّبْطُ على القلبِ: شَدّهُ برباطِ التوفيق، فيتصل بذكر رَبِّه، ويتبع مرضاتِه، ويجتمع عليه شمله» [بدائع التفسير: ٣/ ١١٦].

وما دلتْ عليه هذه الآيةُ مِنَ أنَّ مَن كان في طاعةِ ربِّه، فإنه يُقَوِّي قَلْبَهُ، ويثبتهُ على تحمُّلِ الشَّدائِد، دلَّتْ عليه آياتٌ كثيرةٌ منها قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

[الأنفال:١١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص:١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ يحتملُ أنَّهم قاموا بَيْنَ يَدَي ملِكِهم الكافرِ، أو في مجمعٍ يجتمع فيه قومُهُم، أو فعلوا ذلك فيما بينهم، فليس عندنا ما يوضح المرادَ مِنَ الآية.

٧- أصحابُ الكهفِ كانوا على التوحيدِ الخالصِ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الفتيةَ الذين فارقوا قَوْمَهم، وأوَوْا إلى الكهفِ كانوا على التوحيدِ الخالصِ، ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الكهف:١٤-١٦].

لقد كانَ هؤلاءِ على التوحيدِ الخالصِ في عقيدتِهِمْ، وفي توجهِهِمْ في عبادتِهِمْ، فقد أخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّهم أعْلَنُوا موقفَهم قائلينَ في وسطِ قَوْمِهِمْ الكافرين: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وصرَّحُوا بأنَّهم لن يَدْعُوا مِنْ دونِهِ إلهاً، وإنما يدعونَ اللهَ وحدَهُ لا شريكَ له، فدعاءُ غيرِ الله شِرْكٌ أكبر، وقولُه: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ والشطَطُ: الجورُ والظلمُ ومجاوزةُ الحدِّ، وتقولُ العربُ: اشْتَطَّ الرجلُ في السَّوْمِ، إذا غَلا في طلبِ ثمنِ سلعتِهِ غُلوّاً كبيراً، ولا شكَّ أنَّ المشرِكَ قد اشتطَّ في رَفْعِهِ المخلوقاتِ التي يعبدُها إلى مرتبةِ الألوهيةِ، وجعلِ مرتبةِ مَنْ لا يخلُقُ كمرتبةِ الخالقِ سبحانه.

٨- تحديد القضيةِ التي فرَّقَتْ بين أهلِ الكهفِ وقومِهِمْ:

حَدَّدَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- القضيةَ التي جعلتِ الفتيةَ الذين أوَوْا إلى الكهف يعتزلونَ قومَهُمْ في قولِهِمْ: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف:١٥]، وكلامُ الفتيةِ صريحٌ في تحديدِ القضيةِ التي جعلتهم يفارقونَ قومَهُمْ ويعتزلونَهم، فقومُهم اتَّخذُوا آلهةً يعبدونَها مَعَ الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾: و﴿لَّوْلَا﴾ كلمةٌ للتحضيض، والتَّحضيضُ الطلبُ بشدَّة، طلبوا مِنْ قومِهِمْ أن يأتُوا بسلطانٍ، أي: بحُجَّةٍ بيِّنَةٍ وبرهانٍ ظاهرٍ يدلُّ على صحةِ عبادَتِهِمْ للآلهة التي عبدُوها مِنْ دونِ الله تعالى، ومِنْ أينَ يأْتي قومُهُمْ بحجَّةٍ على شِرْكِهِمْ وكُفرِهِمْ، فكُلُّ ما لَدى قومِهِمْ هو التقليدُ واتِّباعُ الآباءِ، قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا

عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الروم:٣٥]، وقالَ: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون:١١٧].

وقولُ أصحابِ الكهفِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ أي: لا أحَدَ أظلمُ مِمَّنَ جعلَ لله شريكاً يعبدُه مِنْ دونِ الله تعالى، كما قال العبدُ الصالح لقمانُ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان:١٣].

٩- اعتزالُ الفتيةِ الذين فارقوا دينَ قوْمِهِمْ إلى الكهف:

عندما أعلنَ الفتيةُ الذين فارقوا قوْمَهُمْ ما هم عليه قال بعضُهم لبعضٍ ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الكهف:١٦]، قال بعضُ الفتية: أمَا وَقَدْ اعتزلتم قومَكُمْ في عبادتِهِمْ غيرَ الله، فاعتزلوهم بأبدانِكُمْ، فاخرجوا مِنْ ديارهم، وأْووا إلى الكهفِ يَنْشُرْ لكم ربُّكم من رحمته، ويهيّئْ لكم من أمركم مِرْفقاً، والمِرْفقُ ما يُرْتَفَقُ به، وينتفعُ به، ومعنى ﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾ أي: يَبْسُطْ لكم.

وقداحتجَّ بعضُ أهلِ العلمِ بموقفِ أهلِ الكهفِ في اعتزالهم قومَهُمْ على جوازِ اعتزالِ المؤمنِ أهلَ الذنوب والمعاصي، بالخروج إلى الغيرانِ، والجبالِ، والفيافي والقفارِ، وهذا القولُ صحيحٌ إذا كان حالُ المؤمنِ كحالِ أهلِ الكهف، إن مكثَ بين ظهرانيْ قومِهِ عَذَّبوه، وفَتَنُوه عن دينِهِ، أما إذا استطاع المؤمنُ أنْ يجهرَ بدينه، ويقولَ كلمةَ الحقِّ، فلا يجوز له العزلةُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أي: صيروا إلى الكهفِ، واجعلوه مأْواكم، والذي يظهر أنَّ اللهَ -تعالى- عمَّى أخبار الفتيةِ عن قومِهِمْ، فلم يَصِلُوا إلى الكهفِ الذي أَوَوْا إليه.

١٠- حِفْظُ الله للفتية في الكهفِ الذي أَوَوْا إليه ورعايتُهُ لهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن حِفْظِهِ ورعايَتِهِ للفتية الذين ناموا في ذلك الكهفِ تلك المدةَ الطويلةَ، فقال: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف:١٧-١٨].

وأوّلُ أنواعِ الرعايةِ التي حفظ اللهُ بها الفتيةَ في منامِهم الطويلِ في الكهفِ مَوْقِعُهُمْ مِنَ الشمسِ في طلوعها وغروبها، فقد أخبرنا أنَّ الشمسَ إذا طلعتْ تَزَاوَرُ، أي: تميلُ عن كهفِهم ذاتَ اليمين، أي: جهةَ اليمينِ، أي: يمين الكهفِ، وإذا غربت تقرضُهُمْ ذاتَ الشمالِ، أي: تَقْطَعُهُمْ وتتجافى عنهم، ولا تقربُهُمْ، قال الطبريُّ: «وترى الشمسَ إذا طلعتْ تَعْدِلُ عن كهفهم، فتَطْلُعُ عليه مِنْ ذاتِ اليمين، لئلا تصيبَ الفتيةَ، لأنَّها لو طلعتْ عليهم قبالتهم لأحْرقتهم، وثيابهم، وإذا غربت تتركهم بذات الشمالِ، فلا تصيبهم» [الطبري: ٧/ ٥٣١٢].

قوله: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في ناحيةٍ متسعةٍ منه.

وقد ذهبَ ابنُ كثيرٍ وجمعٌ مِنَ المفسرين إلى أنَّ السببَ في عدمِ وصولِ أشعةِ الشمسِ إلى الفتيةِ في منامهم أنَّ بابَ الكهفِ كان إلى جهةِ الشمال، وهذا يَقْضي بأن لا يصلَ ضوءُ الشمس إلى موضع نومهم، ولو كانَ بابُ الكهفِ شرقاً أو غرباً لما دخل ضوء الشمس عليهم في الصباحِ أو المساءِ، ولو كان إلى جهةِ الجنوبِ لما دخل منه شيء لا في الصباحِ ولا في المساءِ [ابن كثير: ٤/ ٢٠١].

وقد ذهبَ بعضُ المفسرين إلى أنَّ المانعَ مِنْ وصولِ الشمسِ إلى أجسادِهِم هو مانعٌ إلهيٌّ ربَّانيٌّ، لا يعودُ إلى حواجزَ طبيعيةٍ، مستدلِّين على ذلك بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فالمانعُ ليس أمراً مألوفاً معتاداً على النحو الذي ذكره ابن كثيرٍ وغيرُه مِنْ كون البابِ إلى الشمالِ، بل منعَهُ اللهُ تعالى بأمرٍ غيرِ مألوفٍ ولا معروفٍ، وقد نقلَ الواحديُّ عن أبي إسحاقَ قولَهُ: «﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني أنَّ اللهَ -تعالى- بقُدْرَتِهِ حَبَسَ عنهم ضوءَ الشمسِ وحرَّها عند طلوعِها وغروبِها، فلا تنالهم طالعةً ولا غاربةً، لا بكونهم في مكانٍ لا تصيبه الشمسُ، ولكن بقدرةِ الله تعالى، جعل ذلك مِنْ آياتِه» [تفسير الواحدي: ١٣/ ٥٥٤. وراجع: ابن كثير: ٤/ ٢٠١. وأضواء البيان: ٤/ ٤٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف:١٧] بيَّنَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الهدى والضلالَ بيدِ الله وَحْدَه، فمنْ هداه فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ أضَلَّه فلا هاديَ له. وهذه الآية كقولِهِ: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٤]، وقولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر:٣١]، وهذا يدلُّ على بطلانِ قولِ مَنْ ذهب إلى أنَّ العبدَ مستقلٌّ بفعلِهِ.

والأمرُ الثاني الذي أخبرنا اللهُ تعالى أنّه حفظَ به أجسادَ الفتيةِ في نومِهم الطويل ذَكَرَهُ اللهُ تعالى في قولِهِ: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف:١٨]، أي: تظنُّهم إذا اطَّلَعْتَ عليهم في حالِ نومِهِمْ أيقاظاً متنبهينَ غير نائمين، والحقيقةُ أَنَّهم رُقُودٌ، أي: نائمون

والسببُ في أنَّ الرائي لَهُمْ يَظُنُّهم أيْقاظاً، لأن أبصارَهُمْ كانت مفتوحةً أثناءَ نومِهم، لأنَّ هذا هو الذي يجعلُ الرائي يظُنُّهم أيقاظاً، ويبدو أنَّ فتح عُيونِهم في أثناءِ النوم له علاقةٌ بحفظِ أبصارِهِمْ، واللهُ أعلم.

والأمرُ الثالثُ الذي له علاقة بحفظ أجسادِهم ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ [الكهف:١٨].

وتقليب المَرْءِ نَفْسَهُ أثناءَ النوم، انتقالُهُ مِنْ الجنبِ اليمينِ إلى الشمالِ، ثم تحوُّله من الشمالِ إلى اليمينِ، وهكذا، ولا شكَّ أنَّ في هذا التقلبِ حفظاً لهم، ولأجسادهم.

والأمر الرابعُ ذكرَه اللهُ تعالى في قولِهِ عزَّ وجلَّ ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ [الكهف:١٨]، ولا شكَّ أنَّ إبقاءَ الكلبِ حَيّاً نائماً على بابِ الكهف لَهُ دورٌ في حفظِهم، ممنْ يريدُ الدخولَ عليهم وإيذاءَهم، والوَصيدُ الذي افترش الكلبُ ذراعَيهِ فيه، هو بابُ الكهف أو فناؤه.

والأمرُ الخامسُ أنَّ منظرَهم حالَ نومهم كان مخيفاً، حتى لو أنَّ رجلاً مهما كانت قوتُه وعزيمتُه مثلَ رسولِنا محمد ﷺ اطَّلع عليهم حالَ نومهم لَوَلَّى منهم فراراً وامتلأ قلبُه رُعْباً ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف:١٨].

ويَزْعُمُ بعضُ المفسرين أنَّ السببَ في الخوفِ الذي يصيبُ رائيهم منهم حال نومهم طولُ شعورِهم، وطولُ أظافرِهم، وهذا غير صحيح لأمرين: الأول: أنَّ الخوفَ منهم يوجَدُ في أيِّ لحظةٍ بعد نومهم، ولو لم يَمْضِ عليه إلا وقتٌ قصير، أي قبل أن تطولَ شعورُهم وأظافرُهم. والثاني: أنّهم لو طالت شعورُهُمْ وأظفارُهم طولاً غير معهود، لما قال بَعْضُهم بعد إفاقتهم: لبثنا يوماً أو بعضَ يوم.

١١- قيامُ أصحاب الكهفِ من رَقْدَتهم:

أخبرنا ربُّنا عَزَّ وجلَّ أنَّ أصحابَ الكهفِ أفاقوا مِنْ نومِهم الطويلِ، وعَبَّر ربُّ العزةِ عن إقامته إياهُم مِنْ نومِهِمْ بقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ [الكهف:١٩] والبعثُ يُعَبِّر به القرآنُ عن القيامِ مِنَ النومِ، والقيامِ مِنَ الموت.

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه بَعَثَهُم بَعْد نومهم ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟﴾، وهذه اللامُ في ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟﴾ هي لامُ الصيْرُورةِ أو لامُ العاقبةِ، أي: لتكون عاقبةُ أمرهم أن يتساءَلوا بينهم.

وقد وجّهَ أحدُ الفتيةِ سؤالاً إلى صحبهِ في الكهف قائلاً لهم: كم لبثتم؟ أي: نائمين في كهفكم؟ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ ويبدو أنَّ النائمَ لا يدري كَمْ لبثَ في نومه، والميِّتُ لا يدري عندما يبعث كَمْ لبثَ في قبره، فقد أخبرنا ربنا عزَّ وجلَّ أنَّ أمثل الناسِ يقولُ في يوم القيامةِ أنَّه لبث ميِّتاً عشراً ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ [طه:١٠٣].

وقد انقسمَ أهلُ الكهفِ إلى فريقين، فريقٌ قال: إنَّه لَبِثَ في الكهفِ يوماً أو بعضَ يوم. والثاني رَدَّ عِلْمَ مدة مكثهم إلى ربِّهم، ويبدو أنَّ هؤلاءِ رَأَوْا بعضَ الدلائلِ التي تدلُّ على طولِ مكثهم، ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف:١٩].

١٢- كيف اكتشفَ الناسُ أمرَ أصحابِ الكهفِ:

قام أصحابُ الكهف مِنْ نومِهم الطويلِ، ولم يكنْ يدورُ في خُلْدِهم أنَّ المَلِكَ الذي كان في زمانِهِمْ ماتَ، والناسَ الذين في ذلك الزمانِ قد انقرضوا، وجاءَ بعد أولئك ملوكٌ وبَشَرٌ يَخْلُفُ بعضُهم بَعْضاً، وقد يكونُ الدِّيْنُ الذي عليه الملوكُ والناسُ قد تَغَيَّرَ وتَبَدَّلَ، ولا بدَّ أنَّ كثيراً مِنْ معالمِ تلكَ المدينةِ قد تبدَّل، نعم قد تكونُ الجبالُ والوديانُ والسهولُ لم تتغيرْ كثيراً، لكنَّ الأسواقَ والبناياتِ والطرقاتِ في المدينةِ قد تغيَّرتْ كثيراً. طلبَ بعضُ الفتيةِ مِنْ أصحابِهِ أنْ يختاروا واحداً منهم، يبعثوه بالوَرِقِ الذي معهم، وكان المالُ الذي معهم فِضَّةً، وقد تكونُ هذه الفضةُ دراهمَ مضروبةً، أو غيرَ مضروبة، وطلبوا منه أن يشتريَ لهم مِنَ المدينةِ طعاماً، وطلبوا منه أن يختارَ طعاماً زاكياً، ولا يكون الطعامُ عندَ المسلمِ زاكياً ما لم يكن حلالاً، ويستطيعُ أن يختار مِن الحلالِ أطيبَهُ، فالحلالُ يتفاوت في مدى طيبِه، وأمروه عندما يدخلُ المدينةَ، أن يَتَلَطَّفَ حتى لا يشعرَ أهلُ المدينةِ به، فيقبضوا عليه ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف:١٩].

وقد صَوَّروا لنا مَدَى العداوةِ القائمةِ في نفوسِ قومهم لهم، فهم إنْ علموا بهم وأمْسَكُوا بهم قتلوهم برجمهم بالحجارةِ، وهذا النوعُ من القتل مِنْ أشدِّ أنواعِ القتل، أو أجبروهم على العودةِ إلى دينهم، وهو الكفرُ والشرْكُ، وإذا رَجَعُوا إلى الكفر والشركِ فلن يفلحوا لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف:٢٠].

١٣- إعْثارُ اللّه تعالى الناسَ على أصحابِ الكهفِ:

اختارَ أصحابُ الكهفِ واحداً منهم ليأتيهم بالطعامِ الذي يشبع جوعَهُمْ وبالماءِ، الذي يُرَوِّي عَطَشَهُمْ، ولا بدَّ أنَّهم اختاروا واحداً مناسباً للقيامِ بهذه المهمة، ولنا أنْ نتصورَ حالَ هذا الذي كان يعيشُ في المدينةِ المنطلقِ إليها قبل ثلاثمئة عامٍ وزيادةٍ، وهو يظنُّ أنَّه كان في هذه المدينة بالأمسِ، ولذلك فإنَّه كان يظنُّ أنَّه يعرفَ هذه المدينةَ حقَّ المعرفةِ، كان يظنُّ أنَّه يَعْرِفُ معالمَها وشوارِعَها ومبانيها وأسْواقَها، ويعرفُ سُكَّانها، وبعضُ سُكانِها أهْلُهُ وأقارِبُه، وقد يكون فيهم والداه وإخوانُه وأخواتُه وجيرانُه.

ولا شكَّ أنَّه لاحَظَ قبلَ دخولِهِ المدينةَ بعضَ المعالمِ المتغيِّرة والمتبدِّلة، ولكنَّه شُدِه عندما دخلَ المدينةَ، فوجد أنَّه لا يكاد يعرفُها، ولا يَعْرِفُ أهْلَها، ولا أسواقَها وميادينها، وقد يكونُ رأى تغيّرَ لباسِ أهْلِها وعاداتِهِم وتقاليدَهم، وقد يَجِدُ أنَّ أهْلها كانوا ينظرون إليه نظرة تعجّبٍ واستغراب، لمخالَفتِهِ لَهُمْ في لِباسهم، ولأنَّه غريبٌ عنهم لا يعرفه منهم أحدٌ.

ويبدو أنَّ الرجل بعد كلِّ ما وقع في نفسه، وبعد تحيُّره وذهولِهِ، تقَدَّم إلى صاحبِ دكَّان ليشتري حاجتَهُ، ولا بدَّ أنَّ صاحبَ الدكَّان قد أنْكَرَ تلكَ الدراهِمَ التي تقدَّم بها الشاري، فإنَّها دراهِمُ غيرُ مستعملةٍ في زمانِهِمْ، ولا في مدينتهم، ويبدو أنَّ النزاعَ انتهى إلى كشفِ فتى الكهفِ، وبانَ خَبَرُ أصحابِ الكهف وانتشرَ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف:٢١].

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه كما أرْقَدَ أصحابَ الكهف وأيقظهم بهيئاتهم وأطْلَعَ عليهم أهلَ ذلك الزمان، ليعلموا أنَّ وَعْدَ الله بالبعثِ والنشورِ ووعدَه بالساعةِ كائن، لا بدَّ أنْ يكونَ كما أخبرَ اللهُ تباركَ وتعالى بِهِ.

١٤- تنازعَ الناسُ فيما يفعلونه بأصحابِ الكهفِ بعد موتهم:

يُفْقَهُ مِنَ الآياتِ أنَّ أصحابَ الكهفِ توفَّاهم اللهُ تعالى بعد عثورِ الناسِ عليهم، وقد تنازعَ النَّاسُ فيما يفعلونه بهم ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف:٢١].

والآيَةُ تدلُّ على أنَّ بعضَ الناسِ قالوا: ابنوا عليهم بنياناً رَبُّهُمْ أعلم بهم، أي: ابنوا على كهفهم الذي ناموا فيه، وماتوا فيه بنياناً، وذَرُوهم على حالِهِم قال الذين غلبوا على أمرهم: لنتخذنَّ عليهم مسجداً.

وقد كان بناءُ المسجدِ عليهم خَطَأً شنيعاً، فعن عائشة رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ قالَ في مرضه الذي ماتَ فيه: «لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنصارى اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجد» [البخاري: ١٣٣٠. ومسلم: ٥٢٩]. فهذا الحديثُ وأمثالُه يدلُّ على أنَّ بناءَ المساجدِ على القبورِ يجلبُ غَضَبَ الله على مَنْ فعل ذلكَ، لأنَّ البناءَ على القبرِ يفتح بابَ الشِّركِ والتوسلِ بصاحب القبرِ.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - قصة أصحابِ الكهفِ فيها آياتٌ بيناتٌ، ولكنَّها ليست أعجبَ آياتِ الله تعالى.

٢ - أجملَ اللهُ تعالى قصةَ أصحابِ الكهفِ أولاً، وخلاصةُ القولِ فيها أنَّهم فتيةٌ أَوَوْا إلى الكهفِ داعين اللهَ أنْ يعطيهم مِن رحمتِهِ، وأن يهيئ لهم مِنْ أمرهم مرفقاً، فأنامَهُمْ اللهُ تعالى مدةً طويلةً مِنَ الزمانِ، ثمَّ بعثهم لتكونَ عاقبتُهم أنْ يتساءَلوا بينهم عن مدى لُبْثِهِم نياماً في الكهفِ.

٣ - الثِّقلُ في الأُذنِ يسبب طولَ النوم، فالإنسانُ عندما يَسْمَعُ ما يُقال يصحو مِنْ نَوْمِهِ.

٤ - قصَّ اللهُ علينا قِصَّةَ أصحابِ الكهفِ كما وَقَعَتْ، فالله تعالى عليمٌ خبير، لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرضِ ولا في السماءِ.

٥ - أصحابُ الكهف كانوا شباباً صغاراً في مقتبل العمر عندما خرجوا مِنْ قومهم إلى الكهف.

٦ - كان أصحابُ الكهف مؤمنين صالحين، وزادَهُمْ ربُّهم هُدى إلى هُداهم.

٧ - الإيمانُ يزيدُ وينقصُ، ويتفاوتُ الناسُ فيه تفاوتاً عظيماً، وأصحابُ الكهفِ مِنَ الذين زادهم اللهُ تعالى إيماناً.

٨ - كان قومُ أصحابِ الكهفِ كفاراً مشركين، فهدى الله تعالى فتيةً منهم إليه فآمنوا، وقالوا ربُّنا ربُّ السمواتِ والأرضِ، وأعلنوا أنَّهم لا يَدْعُون أحداً إلا الله تعالى.

٩ - الكفارُ الذين يدعون غَيْرَ الله تجاوزوا الحدَّ في كفرِهِم، وهم أظلمُ الناسِ.

١٠ - صَرَّحَ الفتيةُ أصحابُ الكهفِ أنَّ قومَهُمْ كانوا مشركين اتخذوا مِنْ دونِ الله آلهةً يعبدونها مِنْ دونِ الله تعالى.

١١ - الكفارُ الذين يعبدون غيرَ الله ليس لديهم دليلٌ يدلُّ على صحةِ ما يعبدونه مِنْ الآلهة الباطلةِ.

١٢ - تنادى أصحابُ الكهفِ إلى اعتزالِ قومِهِمْ بأبدانهم، بعد أنْ اعتزلوا قومَهُمْ بأديانهم، ويصحُّ للمؤمنين أن يعتَزلوا قومَهُم إنْ كان حالهم كحالِ أصحابِ الكهفِ، وذلك عندما يَخْشون مِنْ قومهم أنْ يفتنوهم بسبب إيمانهم.

١٣ - اختارَ أهلُ الكهفِ لمأواهُمْ في عزلتهم كهفاً يعرفونَهُ، وطلبوا من رَبِّهم أنْ ينشرَ لهم مِنْ رحمته في عزلتهم، ويهيِّئ لهم مِنْ أمرهم مرفقاً.

١٤ - أنامَ اللهُ تعالى أصحابَ الكهفِ بعد نومهم في كهفهم مدة طويلة مِنَ الزمان، وقد رعاهم ربُّهم في منامهم، وحفظَ أجسادَهُمْ، فمن ذلك أنَّه منعَ ضوءَ الشمس أنْ تصل إليهم، فتحرقَ أجسادَهُم، وتبلي ثيابَهم، وجعلَ عيونهم تبقى مفتوحةً وهم نيامٌ، وكان يُقَلِّبُ أجسادَهُمْ في منامِهِمْ، حتى لا تبلى أجْسادُهم، وكان كَلْبُهُم يحفظُهُمْ بفناءِ الكهفِ، فلا يصلُ إليهم ما يؤذيهم، وكان منظرُهم في نومِهِمْ مفزعاً، يجعلُ مَنْ يقتربُ منهم يفزع، ويمتلئ خوفاً.

١٥ - أقامَ اللهُ تعالى أصحابَ الكهفِ بعد رقدتهم الطويلةِ، فعادَتْ إليهم حيويتُهم ونشاطُهم، مع أنَّهم لم يأْكلوا، ولم يشربوا، ولم يتحركوا عبر مئاتِ السنين.

١٦ - الميِّتُ لا يَدْري مدى لبثِهِ في الأرض عندما يبعثه الله تعالى، وكذلك النائمُ لا يدري مَدَى مُكْثِهِ في نومِهِ، وقد تساءَلَ أصحابُ الكهفِ عن المدةِ التي بَقُوا فيها نائمين، فذهبَ بَعْضهم إلى أنَّها يومٌ أو بعضُ يومٍ، وآخرون وكلوا علمها إلى الله، ولم يحدُّوا لها حَدّاً.

١٧ - اختار الفتيةُ واحداً منهم ليذهب إلى المدينةِ ليحضر لهم الطعامَ والشرابَ، وطلبوا منه أنْ يتخيَّرَ أطيبَ الطعام، وأمروه بالتخفي حتى لا يفتضح أمرُهمْ، ولا يظهر قوْمُهُمْ عليهم، فيرموهم بالحجارةِ، أو يعيدوهم إلى دينهم، فيخسروا الدُّنيا والآخرة.

١٨ - توكيلُ أصحابِ الكهفِ واحداً منهم لشراءِ طعامِهِمْ أصلٌ في صحة الوكالة والنيابةِ.

١٩ - يجوزُ للجماعةِ أنْ يَخْلِطُوا دراهِمَهُمْ ونقودَهُمْ كي يشتروا بها طعاماً واحداً يأْكلونه، وإنْ اختلفوا في مقدارِ ما يأْكله كلٌّ منهم.

٢٠ - مشروعية استجادةِ الطعامِ واستطباتِهِ، ففي الغذاء الأطيب فائدة للجسم.

٢١ - شَمِلَتْ بركةُ أصحاب الكهفِ كَلْبَهُمْ، فنامَ المدةَ التي ناموها، وحفظَهُ اللهُ كما حفظَ جماعتهم.

٢٢ - أعْثَرَ اللهُ تعالى النَّاسَ على أصحابِ الكهف، فرأوا بأعينهم آيةً عظيمة تَدُلُّ على أنَّ ما وَعَدَ الله تعالى بِهِ مِن البعثِ والنشورِ في يومِ القيامةِ حَقٌّ.

٢٣ - تنازعَ الناسُ فيما يفعلونه بأصحابِ الكهفِ بعد موتهم، فذهبَ قومٌ إلى أن يبنوا عليهم بنياناً، ويتركوهم بعد ذلك، وكان هذا هو الأنسبَ، ولكنَّ أصحابَ الأمر في ذلك الزمان بَنَوْا عليهم مسجداً للصلاة فيه، وكان ذلك خطأً فادحاً.

٢٤ - عندما بعث اللهُ أصحابَ الكهفِ كان أهل المدينةِ قد تغيَّروا، وآمن فريقٌ منهم، بدليلِ أنَّ الذين غلبوا على أمرهم اتخذوا عليهم مسجداً.

النص القرآني الثالث من سورة الكهف
عدد أصحاب الكهف ومدة لبثهم في كهفهم نياماً

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ تعالى لنا في آياتِ هذا النصِّ أمْرَيْن لهما علاقة بأصحاب الكهف، الأولُ: عَدَدُهم. والثاني: المدةُ التي ناموها في كهفهم.

وأمرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ في هذه الآيات أنْ نقولَ: إنْ شاءَ الله إذا عَزَمْنا على فعلِ شيءٍ في المستقبلِ.

ثانيا: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:٢٢-٢٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عَدَدُ أصحاب الكهف:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ للناسِ في عَددِ أصحابِ الكهفِ ثلاثةَ أقوالٍ، فقال: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسير هذه الآية: «أخبر جَلَّ وعَلا في هذه الآيةِ الكريمةِ عن اختلاف النَّاس في عِدَّةِ أصحابِ الكهفِ، فذَكر ثلاثةَ أقوالٍ على أنَّه لا قائل برابع، وجاء في الآية الكريمةِ بقرينة تدلُّ على أنَّ القولَ الثالث هو الصحيح، والأولان باطلان؛ لأنَّه لما ذكرَ القولينِ الأوَّلين بقوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ أتبع ذلك بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي: قولاً بلا علمٍ، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه، فإنَّهُ لا

يكاد يُصيبُ، وإن أصاب بلا قصد، كقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ [سبأ:٥٣] وقال القرطبيُّ: الرَّجْمُ: القول بالظنِّ، يقالُ لكلِّ ما يُخْرَصُ: رَجَمَ فيه، ومَرْجُومٌ ومُرْجَمٌ.

ثم حكى القولَ الثالثَ بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فأقرَّه، ولم يذكر بعده أنَّ ذلكَ رجمٌ بالغيب، فدلَّ على أنَّه الصحيح. وقولُه: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قالَ ابن عباس: «أنا من ذلك القليلِ الذي يعلمهم، كانوا سبعةً». وقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فيه تعليمٌ للناس أنْ يَرُدُّوا عِلْمَ الأشياءِ إلى خالقها جلَّ وعلا، وإنْ علموا بها. كما أعلم نبيَّهُ ﷺ بمدَّة لبثهم في قوله: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥﴾ ثم أمره مع ذلك بردِّ العلم إليه جَلَّ وعَلا في قولِهِ جَلَّ وعَلا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ الآية. وما قَدَّمْنا من أنه لا قائل برابع قاله ابنُ كثير أخذاً من ظاهر الآيةِ الكريمة»

[أضواء البيان: ٤/ ٩٩ بشيء من الاختصار].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: سَهْلاً هَيِّناً، فإنَّ الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة، وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢﴾ فإنَّهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه مِنْ تلقاءِ أنفسهم رجماً بالغيب.

٢- إرشادُ الرسولِ ﷺ إلى قول: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إذا تحدَّث عما عزَمَ على فِعْلِه غداً:

قال الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: «نَهَى اللهُ نبيَّهُ ﷺ في هذه الآيةِ الكريمةِ أنْ يقولَ: إنَّه سيفعلِ شيئاً في المستقبل إلا مُعَلِّقاً ذلك على مشيئة الله الذي لا يقعُ شيء في العالم كائناً ما كانَ إلاَّ بمشيئته جَلَّ وعَلا، فقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ﴾ أي: لا تَقُولَنَّ لأجْلِ شيءٍ تعزمُ على فِعْلِهِ في المستقبل: إنِّي فاعلٌ ذلك الشيء غداً، والمرادُ بالغد: ما يستقبلُ مِنَ الزمانِ لا خصوص الغد.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا قائلاً في ذلك: (إلا أن يشاء الله) أي: مُعلَّقاً بمشيئةِ الله، أو لا تقولَنَّه إلاَّ بإن شاءَ الله، أي إلا بمشيئة الله» [أضواء البيان: ٤/ ٩٨ بشيءٍ من الاختصار].

وقد ذكر جمعٌ مِنَ المفسرينَ أنَّ سببَ نزولِ الآية أنَ الرسولَ ﷺ قال لقريش لَمَّا طَلَبُوا منه أن يخبرَهُمْ بثلاثةِ أُمورٍ: غداً أُخبرُكُم، فعتبَ اللهُ عليه في هذه الآيةِ الكريمة، وقد بيَّنْتُ فيما مضى أنَّ هذا الحديثَ لا يجوز الاحتجاجُ به لضعفِهِ ففيه راوٍ مجهولٌ لا يُعْرَفُ.

وفي الآيةِ إرشادٌ للرسولِ ﷺ إلى الأدبِ الذي ينبغي أن يأْخذَ نفسَهُ بِهِ فيما يعزم على فِعْلِهِ في المستقبلِ، وذلك بِردِّ ذلك الأمر إلى مشيئةِ الله علاَّمِ الغيوبِ، الذي أحاط بكلِّ شيءٍ علماً.

وقوله: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف:٢٤]، المعنى: إذا نسيت أن تقولَ: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ فعندما تتذكر اذكر ربَّك، واستغْفِرْه، لأنَّ النسيانَ سببُه الشيطانُ، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ [الكهف:٦٣] وذِكْرُ الله يَطْرُدُ الشيطانَ، فإذا ذهبَ الشيطانُ ذهبَ النسيانُ.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾ أمَرَه اللهُ تعالى إذا سئل عن شيءٍ لا يعلمه أن يقولَ هذا القول.

٣- مدةُ لُبْثِ اصحاب الكهف في كهفهم:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن المدَّة التي مكثها أصحابُ الكهفِ نياماً في كهفهم فقال: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف:٢٥-٢٦].

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ أصحابَ الكهفِ مكثوا نياماً في كهفهم ثلاثمئةِ سنةٍ وتسعَ سنين قمرية، وهي ثلاثمئة سنة بالشمسية، فإنَّ مقدارَ تفاوتِ ما بين الهلاليةِ والشمسية ثلاثُ سنين في كل مائة سنة.

وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ ﴾ أي: إذا سُئلتَ عن مدةِ لبثهم في كَهْفِهِمْ ولا عِلْمَ عندك فيما سئلتَ عنه، فَرُدَّ العِلْمَ إلى الله تعالى، ولا تتقدمْ فيه بشيءٍ، فاللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ سبحانه، وأمورُ الغيبِ لا يتكلَّمُ فيها بالرأْيِ المجردِ.

«وقوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ أي: إنه لبصيرٌ بهم سميعٌ لهم، قال ابنُ جريرٍ: «وذلك في معنى المبالغةِ في المدحِ، كأنه قيل: ما أبصَرَه وأسمعَه! وتأويلُ الكلامِ: ما أبصرَ اللهَ لكلِّ موجودٍ! وأسمعَهُ لكلِّ مسموعٍ! لا يخفى عليه من ذلك شيء».

ثم رُويَ عن قتادة في قوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ فلا أحدَ أبصَرُ من الله ولا أسمع. وقال ابن زيد: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ يرى أعمالَهم، ويسمع ذلك منهم سميعاً بصيراً. وقوله:

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾ أي: أنّه تعالى هو الذي له الخلق والأمْر، الذي لا مُعقِّبَ لحكمه، وليس له وزيرٌ ولا نصيرٌ ولا شريكٌ ولا مشير، تعالى وتقدَّس» [ابن كثير: ٤/ ٢٠٧].

٤- الموقفُ السويُّ تجاه أخبارِ الغيبِ التي يُحدِّثُ عنها القرآن:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في آياتِ هذا النصِّ بالموقف السويِّ الذي يجبُ أن نقفَهُ مِنَ التفصيلاتِ التي لم يحدِّثنا اللهُ تبارك وتعالى عنها، لقد خاضَ بعضُ المفسرين في أسماءِ أصحابِ الكهفِ، وفي موقعِ كهفِهم، كما خاضَ بعضُ المفسرين في الجزءِ مِنَ البقرةِ التي أمَرَ اللهُ بني إسرائيل أن يضربوا بها القتيل الذي اختلفوا في قاتله، واختلفَ المفسرون في أنواعِ الطيورِ الأربعةِ التي ذبحها نبيُّ الله إبراهيمُ ﷺ ونحو ذلك.

والمنْهَجُ السويُّ الذي أرشدنا اللهُ تعالى إلى اتِّباعِه يتمثل فيما يأتي:

١- أنْ نَكلَ علمَ ما خفيَ علينا مما حَدَّثنا اللهُ تعالى به إلى الله تعالى، فما لَمْ يحدِّثنا اللهُ به مِنْ أمرِ الغيبِ، لا يمكنُ معرفتُهُ، والوصولُ إليه، وفي ذلكَ يقولُ ربُّ العزَّةِ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف:٢٢].

وليسَ مِنْ هذا البابِ التعرفُ إلى شيءٍ مِنْ هذا البابِ بطرقِ الاجتهادِ المعروفةِ التي دَلَّت عليه الآياتُ، كما تبينّا عَدَدَهم مِنْ خلالِ ما أرشدتْ إليه الآياتُ فيما سبقَ.

٢- عَدَمُ إضاعةِ الوقتِ في المجادلةِ والمخاصمةِ في مثلِ هذه الأمور، بل علينا أنَّ نمرَّ عليها مروراً عابراً، ولا نطيلُ الوقوفَ عندها، وفي ذلك يقول اللهُ عزَّ وجل: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف:٢٢].

٣- أنْ نوقِنَ بأنَّ ما حَدَّثنا اللهُ -تعالى- عنه من أخبار الغيب صِدْقٌ لا ريبَ فيه، لأنَّه سبحانه يخبرنا عن عِلْمٍ، فهو أَبْصَرَ كلَّ شيءٍ، وسَمِعَ كلَّ شيءٍ، وفي ذلك يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ﴾ [الكهف:٢٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- ذَكَرَ اللهُ -تعالى- أنَّ النَّاسَ اختلفوا في عدد أصحابِ الكهفِ على ثلاثةِ أقوال، وجاء بقرينةٍ تدلُّ على أنَّ القولَ الثالثَ، وهو أنَّهم سبعةٌ وثامنُهم كلبهم هو الصحيحُ.

٢- الذين يعلمون عددَ أصحابَ الكهفِ قليلٌ من الناس.

٣- لا يجوزُ للمسلمِ أن يُغْرِقَ في الجِدالِ والنِّزاعِ في عَددِ أصحاب الكهف.

٤- لا يجوزُ لنا أنْ نلجأَ إلى غيرنا لنسألَهم عن عددِ أصحاب الكهف، فالبحث في هذا الأمرِ لا يفيدُ، فالمعجزةُ في كونهم ثلاثةً أو خمسةً أو سبعةً واحدةٌ، وعِلْمُ غيرنا غير موثق في هذه المسألة.

٥- على المؤمن إذا صرَّحَ بأنَّه سيفعلُ شيئاً في المستقبل أنْ يُعَلِّقَه على مشيئة الله تعالى، ولا يجوز أن يقطع بالفعلِ، فهو لا يدْري أيستطيعُ أنْ يفعل ذلك أو لا يستطيعُ.

٦- إذا نَسِيَ المُسلمُ أنْ يقولَ: إنْ شاءَ اللهُ حينما يُصَرِّحُ بأنَّهُ سيفعل، فعليه إذا تَذَكَّر أنْ يَذْكُر الله، ويستغفره.

٧- اشتهرَ على ألسنةِ بعضِ العلماءِ أنَّ الاستثناءَ يصحُّ تأْخيره عن المستثنى منه زمناً طويلاً، وقد بَيَّنَ ابنُ القيم أنَّ ابنَ عباس لم يقلْ هذا في اليمينِ ولا في الطلاقِ، وإنَّما قاله في كلامٍ عاديٍّ، كمن يقولُ سأسافرُ غداً، أو أتزوجُ بعد شهر، فإذا لم يَقُلْ: إن شاء اللهُ، فليقلْها متى تذكرَ [بدائع التفسير: ٢/ ١١٧].

والصوابُ مِنَ القولِ أنَّ الاستثناءَ في اليمين والطلاقِ والعتاقِ ونحوها لا يَصِحُّ إلا مقترناً بالمستثنى، والاستثناءُ المتأخِّرُ لا أثرَ لَهُ، ولا تحلُّ به اليمين، ولو صَحَّ الاستثناءُ المتأخِّرُ لأمَرَ اللهُ به نبيَّه أيوبَ في حَلفِهِ أن يضرب زوجته العددَ الذي عزم عليه.

٨- أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ أهلَ الكهفِ بَقَوا نائمين في كهفِهِمْ ثلاثَ مائة سنين شمسية، وثلاثمائة وتسع سنين قمرية.

٩- على المسلم أنْ يعتقدَ جازماً أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- هو الأعْلَمُ بمدَّةِ لبثِ أصحابِ الكهفِ في كَهْفِهِمْ، فهو العالمُ بغيبِ السمواتِ والأرضِ، لا يخفى عليه فيهما خافيةٌ، وهو الأبْصرُ بكلِّ موجودٍ والأسمعُ بكلِّ مسموعٍ.

١٠- ليس للعبادِ مِنْ وليٍّ غيرَ الله يتولى أُمورَهُمْ، ويقومُ بمصالِحِهمْ، ويمكنُ حَمْلُ ذلك على أصحابِ الكهفِ، أي ليس لأصحابِ الكهفِ وليٌّ مِنْ دونِ الله تعالى.

١١- نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ وأُمَّتَه أن يشركوا في حكمِ الله تعالى أحداً، فاللهُ تعالى له الحُكْمُ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، ومَنْ أطاعَ غيرَ الله فيما أحلَّه وحَرَّمه وشَرَّعه فقد جَعَلَهُمْ أرباباً مِنْ

دونِ الله، وأما اتِّباعُ النظام الإداري الذي يوضع لتخطيطِ المدن، وتنظيمِ الوزاراتِ، فإنَّه جائزٌ ما لم يخالفْ نصّاً شرعياً.

١٢ - في أهل الكهفِ آيةٌ عظيمةٌ، فقد أبقاهم اللهُ تعالى أحياء نائمين هذه المدة الطويلة مِنَ الزمانِ مِنْ غير طعامٍ ولا شرابٍ، ومن غيرِ أن يخرجوا ما في بطونِهِمْ.

النص القرآني الرابع من سورة الكهف
أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يصبر نفْسَهُ مع المؤمنين الأخيار

أولاً: تقديم

عَقَّبَ اللهُ تعالى على ما حدَّثنا بِهِ عَنْ أصحابِ الكهفِ بهذه الآيات، التي تأمر رسولَنا ﷺ أنْ يتلو كتابَ الله ويتَّبِعَهُ فهو الكتابُ الذي لا يستطيع أحدٌ مِنَ الخلقِ تبديلَ كلماتِه، ومما يُلْزِمُهُ باتباعِ آياتِ الله أنَّه لا يجد أحداً يلجأُ إليه غير الله تعالى.

وأمَرَهُ أن يَصْبِرَ نفسَه مع المؤمنين الأخيارِ، كما فَعَلَ أصحابُ الكهفِ في تعاضدِهم وتماسُكِهِمْ، واجتماعهم على الخروج إلى الكهفِ بعيداً عن قومِهم الكفَّارِ.

وبَيَّنَ رَبُّ العزةِ أنَّ الإنسان مُخَيَّرٌ في الدِّين الذي يعتنقه، ولكنَّه سيحاسَبُ في يومِ الدِّينِ عن اعتقادِهِ وعَمَلِهِ، وبَيَّنَ اللهُ لنا مصيرَ المجرمين والمؤمنين في يومِ الدينِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف:٢٧-٣١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يتلوَ ما أوحاه إليه من كتابِ ربِّه:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يتلوَ ما أوحاه اللهُ إليه مِنَ الكتابِ، وهو القرآن ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ [الكهف:٢٧]، والتلاوةُ تكونُ بمعنى القراءَة، كقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل:٤]، وتكونُ بمعنى الاتِّباعِ، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [الأنعام:١٠٦]، وكلا الأمرين داخلانِ في الآيةِ.

٢- لا يستطيع أحدٌ غيرَ الله تعالى أنْ يبدِّل كلماتِ القرآن:

حَفِظَ اللهُ تعالى كتابَهُ مِن التغييرِ والتحريفِ والتبديلِ، قال تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف:٢٧]، ولذلك بقي القرآن محفوظاً، كما قال عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:٣٤]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صِدْقاً في الأخبارِ، وعَدْلاً في الأحكام. والذي يستطيعُ أن يبدِّل كلماتِ القرآن هو ربُّنا دونَ غيرِهِ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل:١٠١]، وقال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦]. وتبديلُ الله لكلماتِهِ كان في عهدِ الرسولِ ﷺ، وبعد وفاتِهِ يبقى القرآنُ محفوظاً معصوماً إلى أنْ يرفعه اللهُ في آخرِ الزمانِ.

٣- لا ملجأَ مِنَ الله تعالى إلا إليه:

أَعْلَمَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنَّه إذا لم يَتْلُ كتابَهُ، ويتَّبع ما جاءَ فيه فإنَّه لن يجدَ مِنْ دونِهِ مُلْتَحداً ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾ [الكهف:٢٧]، أي: لا تجدُ مكاناً تميلُ إليه، ولا ملجأً تلجأ إليه، وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾ [الجن:٢٢].

٤- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يصْبِرَ نفسَهُ مع المؤمنين:

أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يَصْبِرَ نفسَه مع أصحابِه الأخيارِ الصالحين ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف:٢٨].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يصْبِرَ نفسَهُ، أي يَقْسِرَها ويحبسَها على الذين أخْلصوا دينهم لربِّهم تبارك وتعالى، وهم الذين يَدْعون ربَّهم بالغَداةِ، وهي أولُ النهارِ، والعشيِّ وهي آخرُ النهارِ، أي: يَدْعُونَهُ، ويستغيثونَ به دائماً، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: يطلبون مرضاته.

ونهاه عن أنْ يصرفَ عيناه عَنْ ضعفاءِ المؤمنين مبتغياً زينة الحياةِ الدُّنيا التي يملكها أصحابُ الجاهِ والسلطانِ والغِنى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨].

ونهاه -تبارك وتعالى- أن يطيعَ مَنْ أغْفَلَ اللهُ قَلْبَهُ عن ذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف:٢٨]، والذي أغفلَ اللهُ قَلْبَهُ عن ذكر الله تعالى هو الذي تَرَكَهُ اللهُ غافلاً ساهياً عن ذكره، فالغفلةُ وَصْفُه، والإغفالُ فعلُ الله تعالى

فيه، وقد تَرَتَّبَ على هذا الإغفالِ اتِّباعُ هذا الإنسانِ هواه، وجعْلُ أمْرِه فُرطاً، أي: ضياعاً، فقد ضَيَّعَ عُمْرَهُ، وعَطَّلَ أيامَه.

وما في هذه الآيةِ الآمرةِ بالصَّبرِ على مجالسةِ الأخيارِ وعدمِ تجاوزهم إلى الرغبةِ في أهلِ الدنيا سَبَقَ بيانُه في سورةِ الأنعامِ عند تفسيرِ قوله عَزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢].

٥- أعطى اللهُ الإنسانَ الخيارَ في الدِّينِ الذي يريدُ اعتناقَهُ:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يَعْلَمَ ثلاثَ حقائقَ كبرى لها أثر عظيم في حياة البشرية على مدارِ التاريخ:

الأولى: أنّ الحقَّ الذي لا باطلَ فيه هو الذي جاءَهم مِن عند الله في كتابِ الله تعالى، وقد شَكَّل هذا الحقُّ ديناً كاملا، يُصْلِحُ حياةَ الإنسانِ إذا أَخَذَ بِهِ والتزَمَهُ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الكهف:٢٩].

الثانيةُ: أنَّ للإنسانِ كاملَ الحريةِ في اختيار الدِّينِ الذي يريدُ اعتناقه، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، فالإسلامُ لا يرضى أن يؤمنَ الإنسانُ أوْ يكفرَ كَرْهاً، ولا يقرُّ تَعْذيبَ الناسِّ وقتلهم كي يغيروا عقيدَتَهُمْ ودينَهُمْ، وقد بَقِيَ أهْلُ الذِّمةِ على دينهم في ديارِ الإسلامِ من غير أنْ يُكْرِهَهُمْ أحدٌ على الإسلام على مدارِ التاريخ منذ تنزلِ القرآن.

الثالثةُ: أنَّ الإنسانَ الذي يختارُ الكفرَ بإرادَتِهِ مِنْ غيرِ إكراهٍ، عليهِ أنْ يَتَحمَّلَ عاقبةَ كُفْرِهِ يومَ الدِّين، فقد أعدَّ اللهُ يومَ القيامةِ للكافرين الظالمين ناراً عظيمةً يحيطُ سرادُقها بالكافرين، والسُّرادقُ هو السورُ الذي يحيطُ بأهلِ النارِ في النَّارِ، فلا يستطيعون الخروجَ منها ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة:٨-٩].

وقد أخبرنا ربُّنا أنَّ أهلَ النَّارِ عندما يستغيثون في النَّار مِنَ العذابِ الذي يَلْفَحُ وُجوهَهَمْ وأجسادَهُم يغاثون بماءٍ كالمهل، وهو الماءُ الذي بَلَغَ حَرُّه النهايةَ، فتراه يَشْوي وُجوهَهُمْ، فيشربون مِنْ ذلكَ الماءِ الحارِّ، ويُعذَّبون به ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف:٢٩].

٦- مصير المؤمنين في يوم الدين:

بعد أن حَدَّثَنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- عن مصيرِ المجرمين في يومِ الدين، وما يحلُّ بهم مِنَ العذابِ البلاءِ في ذلك اليومِ العظيمِ، حدَّثنا عن مصيرِ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، وأنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ مَنْ أحْسَنَ العملَ منهم، وحدَّثَنا عن العاقبةِ الطيِّبَةِ التي يَحْظَوْا بها في ذلكِ اليوم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف: ٣٠-٣١].

أخْبَرَنا اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنّه لا يضيعُ أجْرَ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، وحدَّثنا عن ذلك الأجرِ العظيمِ الذي يَحِلُّون فيهِ، فهو يدخلهم جناتِ عَدْنٍ، وجناتُ عدنٍ هي الجناتُ التي يقيم أصحابُها فيها أبَدَ الآبدين في يومِ الدِّين، فلا يَرْحَلُون عنها، ولا يَظْعنون منها أبداً، لكونهم خالدين فيها، وأخْبرنا أنَّ الأنْهارَ تَجري مِنْ تحتِ قصورِهِمْ ومنازِلِهمْ في تلكَ الجنَّاتِ، وأنَّهم يُحَلَّونَ في ذلكَ المقامِ بأساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ، والأسورةُ جمعُ سوارٍ، وهو زينةٌ تُلْبَسُ في الزَّنْدِ مِنَ اليدِ، ويلبسون ثياباً خضراً من سُنْدُسٍ وإسْتَبْرَقٍ، والسُّنْدُسُ: الرقيقُ مِنَ الحريرِ، والإسْتَبْرَقِ: ما غَلُظَ منه، وأخبرنا ربُّنا أنَّهم متكئون فيها على الأرائك، وهي السُّررُ في الحِجالِ، والحِجالُ جمع حَجْلةٍ، وهو بيت يزين للعروس بجميع أنواع الزينةِ.

وقد وصفَ اللهُ تعالى النار التي هي دارُ الأشرارِ بأنَّها ﴿سَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ ووَصَفَ اللهُ الجنةَ التي هي دارُ الأخيارِ بأنَّها ﴿حَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾، والتي حسنت مرتفقاً هي جناتُ عدنٍ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١ - أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يَلْتزمَ بكتاب ربِّه الذي أُنْزِلَ إليه، وأن يعملَ به.

٢- كتابُ الله الذي هو القرآنُ محفوظٌ، لا يستطيعُ أحدٌ مِنَ البشرِ أن يعبثَ به، فيغيِّرَهُ، أو يُحَرِّفه أو يبدِّلَهُ.

٣- ليس للرسولِ ﷺ أحدٌ غير الله تعالى يحتمي بِهِ، ويلجأُ إليه.

٤- على المؤمنِ أن يصبرَ نفسَه معَ المؤمنين الذين يعبدون الله تعالى، ولا يتطلع إلى عيْشِ أصحابِ الدنيا.

٥- حذَّرَ اللهُ المؤمنَ مِنَ الذَّينَ خَلَتْ قلوبُهم من ذكر الله تعالى، واتَّبعوا أهواءَهم، وكان أمرُهُمْ فُرُطاً، أي: ضَياعاً وحَسْرَةً ونَدَماً.

٦- الإنسانُ مُخَيَّرٌ في الدنيا في الدِّينِ الذي يَتَّبعُه ويعتنقه، ولكن عليه أن يتحمَّلَ في الآخرةِ تبعةَ أعْمالِهِ.

٧- مصير الكفارِ في يومِ القيامةِ مصيرٌ رهيبٌ، فالنَّارُ تحيطُ بهم مِنْ كلِّ جانبٍ، وهم يغاثون بماءٍ تناهى حَرُّه، يشربون منه، فيشوي وجوهَهُمْ، وقد ذَمَّ اللهُ مصيرَهم بقوله: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

٨- مصيرُ المؤمنين الذين يعملون الصالحات مصيرٌ طَيِّبٌ في يومِ الدين، فهم في جناتٍ لا يرحلونَ عنها، ولا ينتقلونَ منها، تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ، يحلَّونَ فيها من أساورَ مِنْ ذهب، ويلبسون الأخضرَ مِنَ الحريرِ والديباجِ، ويتكئون على الأرائِكِ. وقد مَدَحَ اللهُ مصيرَهُمْ بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ .

النص القرآني الخامس من سورة الكهف
قصة المؤمن مع صاحبِهِ الكافِرِ صاحبِ الجنتين

أولاً: تقديم

ضربَ اللهُ -تعالى- مثلاً للمشركين مِنْ أهلِ مكَّةَ الذين كانوا يفخرون على المؤمنين الضعفاءِ بما آتاهم اللهُ مِنَ العشيرةِ والأهلِ والمالِ برجلين، جعلَ اللهُ لأحدِهما المالَ والأهلَ والولدَ، فأصابَهُ الغرورُ، وكَفَرَ بربِّه، وتعالى على صاحِبِه، فاعتصمَ صاحبُهُ المؤمن بالله، والتجأَ إليه، واحتمى بِهِ، ودعا على جَنَّتي صاحبه، فأرسل اللهُ عليها حسباناً دمَّر أشجارَها، فغارت مياهُها، وذهبتْ خيْراتُها، وأصابَ صاحِبها الحيرةُ والندمُ، وباءَ بالخسران.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف:٣٢-٤٤].

ثانياً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص مِنَ القرآن:

١- ضربُ الله -تعالى- مثلاً للمشركين مِنْ أهلِ مكةَ في موقفهم مِنْ ضعفاءِ المؤمنين:

ضَرَبَ اللهُ تعالى للمشركينَ مِنْ أهلِ مكة المتعالينَ على ضعفاءِ المؤمنين في آياتِ هذا النصِّ بكافرٍ آتاه اللهُ تعالى المالَ الكثيرَ، وكان عزيزاً منيعاً في أهلِهِ، وبصاحبِهِ المؤمنِ الفقيرِ المحتاجِ المعتزِّ بالله تعالى.

وقد بلغَ غرورُ الكفارِ وتعاليهم أنْ طلَبوا من الرسولِ ﷺ أنْ يعقدَ لهم مجلساً خاصّاً بهم، بَعيداً عن ضعفاءِ المؤمنين، لأنّهم يأنفون مِنَ الجلوسِ مع مثلِ هؤلاءِ.

ضربَ اللهُ تعالى المثَلَ للمشركين الأثرياءِ المعتزِّينَ بعشيرتهم، برجلين أحدُهُما ثريٌّ، عزيزٌ في قومه، أعطاهُ اللهُ -تعالى- جنتين عظيمتين مِنَ الأعنابِ، وحَفَّ هاتين الجنتين مِنْ خارجهما بأشجارِ النخيلِ، وجعلَ بين الجنتينِ حقولاً مِنَ الزرعِ ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف: ٣٢].

ومن تأمَّلَ وَصْفَ الله تعالى لهاتينِ الجنتين رأى منظراً في غايةِ الحسنِ والجمالِ، فهناك جَنَّتان كلاهُما مِنْ أشجارِ العنبِ، وقد زُرِعَ على حافتيهما أشجارُ النخيلِ، فهي تحيطُ بالجنتين مِنْ كلِّ جانب، وبَيْنَ الجنتين مروجٌ مزروعةٌ بالنبات، وقد فجَّر اللهُ تعالى في الجنتينِ نهراً، ينسابُ خلالهما، فيَسْقي أشجارَهُما، ويَرْوي زروعَهما.

وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَ أنَّ الجنتينِ كانتا على أحسنِ حالِهما في الوقت الذي جرى الحوار بين الرجلين ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ [الكهف: ٣٣-٣٤]. كانت الجنتانِ في ذلك الوقت قد أعْطتا أُكُلَهما، ولم تظلِما منه شيئاً، أي: لَمْ تنقصا منه شيئاً، فالنخيلُ قطوفُهُ ممتلئةٌ مكتنزةٌ متدلِّيةٌ، تراها فيعجبك مرآها، ويَسُرُّكَ جناها، وترى جنتي الأعنابِ، وقد نضجت ثمارُهما، وتدلَّت أعنابهما، وصَدَحت أطيارُهما، وتنظر إلى الزروعِ في تلك المروجِ، فترى فيها النباتَ على اختلافِ أصنافِه، وتنظر إلى مياه النهرِ الجاريةِ، وهي تَرْوِي وتسقي، فلا تملك إذا كنت مُؤْمناً إلا أن تُسَبِّح الخالقَ وتحمده.

والرجلُ الثاني الذي ضربَ الله المثل به كان مؤمناً، مُعْتَزاً بإيمانه، ولكنه فقيرٌ محتاجٌ.

٢- غرورُ صاحبِ الجنتين وتعاليه وكفره:

وقد ظَهر غرورُ صاحبِ الجنتين وتعاليه وكفْرُه بما قاله لصاحِبه: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الكهف: ٣٤].

لم يكن مُؤَدَّباً مع صاحبه، ولم يراعِ مشاعِرَه، فقال له متعالياً مستكبراً: أنا أكثرُ منك مالاً، وأعزُّ نفراً، قال قتادةُ وقد أصابَ فيما قال: «تلكَ والله أُمنيةُ الفاجرِ: كثرةُ المالِ، وعِزَّةُ النَّفر» [الطبري: ٧/ ٥٣٥٠].

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ صاحبَ الجنتين دخلَ جَنَّته، وهو ظالمٌ لنفسِهِ، وكلُّ مَنْ كَفَر بالله تعالى فهو ظالمٌ لنفسِهِ، لأنّه يورِدُها النَّارَ، فأعْلَنَ كُفْرَهُ، وقال مُسْمِعاً صاحبَهُ: ما أظنُّ

أنَّ هذه الجنَّةَ تهلكُ أو تبيدُ، بل ستبقى خالدةً أبدَ الآبدين، وقال: وما أظنُّ الساعةَ قائمةً، فليس هناك بعثٌ ولا نشورٌ، ولا جنَّةٌ ولا نارٌ، وادَّعى هذا المغرورُ المستكبرُ أنَّه إذا كان هناك بعثٌ ونشورٌ، وجَنَّةٌ ونارٌ، ورجوعٌ إلى الحياةِ، فسيجدُ في الحياةِ الأخرى ما هو أفْضَلُ مما أُعطي في دنياه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف:٣٥-٣٦].

زَعَمَ أنَّه كما أعطاهُ اللهُ -تعالى- في الدنيا، فسيعطيه في الحياة الأخرى إنْ وُجِدَتْ.

٣- رَدُّ الرجلِ المؤمنِ على صاحِبِه الكافرِ وهو يحاوِرُه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الرجلَ المؤمنَ رَدَّ على صاحبِهِ الكافرِ ردّاً قَوِيّاً، يدلُّ على مدى عُمْقِ إيمانِهِ، وقوةِ يقينه، وقد تناول في رَدِّه ثلاث قضايا، فقد أنكر على صاحبِهِ كفرَهُ، وأعْلَنَ إيمانَه معتزّاً بذلك الإيمانِ، وأرشده إلى الموقفِ الحقِّ الذي كان عليه أنْ يأخذ نفسه به، وهو يدخلُ جنَّتَهُ.

قالَ له في ردِّه عليه منكراً عليه كُفْرَهُ: أكفرتَ بالله الذي خلقَكَ في البداية بخلق أبيك آدم مِنْ ترابٍ، ثم خلقك بعد ذلك مِنْ نطفةٍ، وذلك بعد اجتماع أبويه، ثمَّ سوَّاه اللهُ رجلاً ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف:٣٧].

وأعلنَ ذلكَ الرجلُ إيمانَهُ بالله ربِّه، وأعْلَنَ توحيدَهُ، وأنَّه لا يشرِكُ بالله رَبِّه أحداً ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف:٣٨]. ووجَّهَ صاحبَه وأرشدَه إلى المَسْلَكِ الصحيحِ الذي كان عليه أنْ يَسْلُكَهُ عندما دخلَ جنتَه، فكان ينبغي أنْ يقولَ عندما دخلَ جنَّتَهُ، ويرى أشجارَها، ونباتَها، وماءَها، وطيبَ هوائها: ما شاءَ اللهُ، لا قوة إلا بالله ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩].

وقد أرشدَ هذا المؤمنُ المؤمنين مِنْ بعده كيف يواجهون أمثالَ هذا الكافرِ الضالِّ المتكبرِ

٤- اعتزازُ المؤمن بربِّه وعدمُ اغترارِهِ بدنيا غيره:

أظهر المؤمنُ اعتزازَه بإيمانِهِ، وعَدَمَ اغترارِه بدنيا صاحبِهِ، وطَمَعَهُ في أنْ يُؤْتيه ربُّه خيراً من جنَّةِ صاحبه، ودعا على جنَّةِ صاحبِهِ أن يرسلَ اللهُ عليها حُسْباناً مِنَ السماءِ، أي عذاباً مِنَ السماء، فتهلكَ أشجارُها، وتَذْهَب ثمارُها، وتصبح أرضاً جرداءَ خاليةً، أو يغور ماؤُها، ويذهب في باطنِ الأرض، فلا يستطيع إرجاعَه، ولا إعادتَه، ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا

﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف:٣٩-٤١].

٥- عاقبة الرجل الكافر:

أخبرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عمَّا حلَّ بجنةِ الرجلِ الكافرِ، وقد أجملَ اللهُ ما حلَّ بها في كلمتين، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف:٤٢] أي: أنْزَلَ اللهُ -تعالى بها عذاباً أحاطَ بثمرِها، فقضى عليه، وأذْهَبَهُ، وبيَّنَ لنا حالَ صاحبِها بعد تدميرِ الله لجنته ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف:٤٢]، لقد أصيبَ صاحبُ الجنتين في جنتيْهِ إصابةً بالغةً، فحالَ حالهُ إلى ذهولٍ، فكانَ يقلب كَفَّيْهِ على ما أنفقَ فيها، وهو ينظرُ إليها، وهي خاويةٌ على عروشها، كان ينظرُ إلى أشجارِها الذاويةِ، ونباتِها المحترقِ، وثمارِها المَعْطوبةِ، وأرضِها البَلْقعِ، ويستحضرُ في عقلِه ما كانت عليه بالأمسِ، ويقول: يا ليتني لم أشْرِكْ بربي أحداً، لقد دَمَّرَ كُفْرُهُ وشركُه وغرورُه جَنَّتَه وأحْرَقَها، وخَرَّب ديارَهُ.

وقد أعلمنا ربُّنا عَزّ وجَلَّ أنَّه لم يَقِفْ أحدٌ ليدافعَ عنه، ويحمي جنتَهُ ودِيارَه، وما كان منتصراً، هناكَ تَبَيَّنَ له أنَّ الولايةَ لله تعالى، أي: القُدْرةُ والعزَّةُ والسلطانُ لله وَحْدَه، هو خيرٌ ثواباً، وخيرٌ عقباً، أي ثوابُه خيرُ ثوابٍ، وعاقبةُ الأعمالِ التي يعملها حميدةٌ رشيدةٌ ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف:٤٣-٤٤] والفئةُ: الجماعة، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ أي: ولم يكن ممتنعاً مِنْ عذابِ الله، والولاية: الملكُ والسلطانُ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- ضَرْبُ المثلِ في كتابِ الله تعالى أُسلوبٌ في التفهيم والتعليم يُحْتَذَى ويُقْتَدى.

٢- ضَرَبَ اللهُ تعالى مثلاً للكَفَرةِ المتعالين على الضعفاءِ مِنَ المؤمنين المغترين بعشيرتهم وأموالهم، برجل أعْطاه اللهُ جنتين عظيمتين، فاستطالَ على صاحبِهِ، معتزّاً بمالِهِ وعشيرتِهِ، مظهراً كفرَه بالبعثِ والنشورِ.

٣- قد يكون الغِنى والمالُ سبباً للكفرِ والطغيانِ.

٤- يرى بعضُ الكافرين بالبعثِ والنشورِ أنَّه لو كان هناك احتمالٌ في حياةٍ أخرى بعد الموت، فسيكونُ لهم أهلٌ ومال، قياساً على ما أُوتوه في دنياهم، وهؤلاء جهلوا كيف يحوز الإنسان النعيمَ في يومِ الدينِ.

٥- على الصالحين أنْ يُذَكِّروا الكفارَ من أهلِ الدنيا بأصلهم الذي منه خُلِقُوا، وبربِّهم الواحد الذي يَسْتحقُّ العبادةَ.

٦- على المؤمنين الصالحين أنْ يُعَلِّموا الكفارَ المغترين بما أعطاهم اللهُ مِن دنيا فانيةٍ، كيف ينبغي أنْ يتصرفوا حينما يَرَوْا أموالَهم وحَرْثَهُم.

٧- ضَرَبَ الرجلُ المؤمنُ الفقيرُ المثَلَ في اعتزازِه بإيمانه تجاه ما تعالى به عليه صاحبُهُ الكافرُ من المالِ والولدِ.

٨- استجابَ اللهُ تعالى دعاءَ المؤمن، فأرسل حسباناً على جنةِ الكافرِ، فأهلك أشجارَها، وغارتْ مياهُها، وأصبحت أرضاً بَلْقَعاً.

٩- مدى حسرةِ الكافرِ وندمِه، لتسببه في إهلاك جنتيه بكفره وشركه.

النص القرآني السادس من سورة الكهف
ضرب الله مثلاً للحياة الدنيا

أولاً: تقديم

ضربَ اللهُ -تعالى- مثلاً للحياةِ الدنيا، وتحدَّث عن المالِ والبنين الذين هم زينتُها، وأخبرنا عن الباقياتِ الصالحاتِ التي ينبغي أنْ نحرص على طلبِها، وذكَّرنا بالحالِ التي تكونُ عليها الأرض في يوم القيامة وكيف يُحشرُ الناسُ فوقَها صفوفاً متتابعة يأْتون يومَ الدينِ كما خلقهم ربُّهم أوَّل مرة، ويأْتي كلُّ امرئٍ بالكتابِ الذي يحوي كلَّ أعمالِهِ صغيرِها وكبيرِها.

وذكَّرنا اللهُ -تعالى- في آخرِ آياتِ النصِّ بأمره الملائكةَ بالسجودِ لآدم، فسجدوا لَهُ تكريماً وتعظيماً إلا إبليس، فإنَّه كان مِنَ الجنِّ، ففسَقَ عنْ أمرِ الله تعالى، وقد وَبَّخَ اللهُ تعالى البشر على اتخاذِهِمْ إبليسَ وذريته أولياءَ مِنْ دونِ الله، وهم أعداؤُنا الذين يريدون إيقاعنا في النَّارِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)﴾ [الكهف:٤٥-٥٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مثل الحياة الدنيا:

يقولُ اللهُ تعالى لعبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)﴾

[الكهف:٤٥]، أمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يضربَ للناس مَثَلاً للدنيا في سرعةِ زوالِها وفنائِها وانقضائِها بالماءِ الذي ينزله ربُّ العزةِ مِنَ السماءِ، فيختلط به نباتُ الأرضِ، فتنبت وتورق وتَخْضَرُّ وتزهرُ وتثمرُ، ثم لا يمضي عليها زمانٌ طويلٌ، حتى تصْفَرَّ، ثم تَيْبَسَ، فتصبح هَشيماً متفتتاً تذرُوه الرِّياحُ، وتعصفُ به، وتقذفُ به في كلِّ مكانٍ.

وكذلك حياةُ الإنسانِ، يعطيهِ اللهُ الصحةَ والعافيةَ، ويرزقُهُ المالَ، فَيَبْني، ويُثَمِّرُ ويُعَمِّرُ، وتكونُ لَهُ الجناتُ والقصورُ، ويملكُ الأنعامَ والدوابَّ، ولا يمضي عليه زمانٌ طويلٌ حتى تنقضي أيامُه، وتذوي صحته، ثم يموتُ، فتقسم أموالُه، وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: هو القادرُ -سبحانه- على هذه الحال.

وشبيهٌ بهذه الآية قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٤].

٢- المالُ والبنون زينةُ الحياةِ الدنيا:

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦] أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ زينةَ الحياةِ الدنيا المالُ والبنونَ، وأخبرنا في سورةِ آلِ عمران أنَّه زُيِّنَ للناسِ مِنَ الدنيا سبعةُ أُمورٍ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران:١٤]، هذه هي زينةُ الدنيا، التي يتمتعُ بها الإنسانُ في دنياه، ولكنَّها زينةٌ زائلةٌ، ومُتَعٌ ذاهبةٌ، لا تبقى ولا تدومُ.

وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى أنَّ ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ والباقياتُ الصالحاتُ الأعمالُ الصالحةُ التي ترضي اللهَ -عزَّ وجلَّ- كالصلاةِ والزكاةِ والحجِّ والصومِ وذكرِ الله وقراءةِ القرآن، فهذه هي التي يرضاها ربُّنا، ويكتب أجرها وثوابها.

٣- الحالُ التي تكونُ عليها الأرضُ في يومِ القيامة:

أخبرنا ربُّنا عن الحالِ التي تكونُ عليها الأرضُ يومَ القيامةِ فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف:٤٧]. أخبرنا أنّه يُسيِّرُ الجبالَ يومَ

القيامة، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الطور:٩-١٠]، أي: تُسَيَّرُ الجبالُ، فتصبحُ الأرضُ مستويةً ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: باديةً ظاهرةً، ليس فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ، ولا مكان يواري أحداً، كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه:١٠٥-١٠٧] بعد ذلك يجمعُ اللهُ فوق ظهرِ تلك الأرضِ الأولينَ والآخرين، فلا يترك منهم أحداً ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠].

٤- كيف يُعْرَضُ الناسُ على ربِّهم يومَ القيامة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الكيفية التي يُحْشَرُ عليها الناسُ يومَ القيامةِ، فقال: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الكهف:٤٨].

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الناسَ يحشرون صُفوفاً، ويُعْرَضُونَ على ربِّهم -تبارك وتعالى- ويقالُ لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي: جئتمونا كما خلقناكم أولَ مرَّةٍ في الحياةِ الدنيا، والمرادُ أنَّهم يأتونَ حفاةً عُراةً غُرْلاً، أي: غير مختونين، ويأْتي كلُّ واحدٍ منهم يومَ القيامة فَرْداً، لا مالَ معه، ولا وَلَد ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

ويقولُ اللهُ -تعالى- لهم مبكتاً إياهم ومقرِّعاً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾، وقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ من خبرٍ إلى خبرٍ آخر.

٥- وَضْعُ الكتابِ الذي يُحْصِي أعمالَ العبادِ في يومِ المعاد:

أخبرنا ربُّ العباد أنه يوضَعُ في ذلك اليومِ العظيمِ الكتابُ الذي سُجِّلَتْ فيه أعمالُ العبادِ وأقوالُهُمْ، فترى المجرمين في ذلك اليومِ مشفقين خائفينَ مما دُوِّنَ في ذلك الكتابِ، ويقولون: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ أي: يا حسرتنا على ما فرَّطنا في أعمارِنا، ويقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ﴾ أي: لا يتركُ صغيرةً كالقُبْلَةِ، وسَرِقَةِ جَوْزَةٍ، ولا كبيرةً كالزنا، وسرقة المال العظيم إلا أحصاها، أي: بيَّنَها وحفظها، قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ أي: وَجَدُوا الأعمالَ التي عملوها في الدنيا حاضرةً مُحْصاةً عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ أي: لا ينقصُ مِنْ حسناتِ محسنٍ، ولا يزيدُ في سيئاتِ مسيءٍ، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس:٤٤] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء:٤٠].

٦- رفضُ إبليس السجودَ لأبينا آدمَ عليه السلام:

أمرنا اللهُ -تعالى- أنْ نذكرَ أمْرَهُ للملائكة أنْ يسجدوا لأبينا آدم بعد خلقه إيَّاه، فسجدوا كما أمرهم ربُّهم طاعةً لأمرِ الله تعالى، وتعظيماً لآدمَ عليه السلام ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ [الكهف:٥٠].

وقد بيَّنَ اللهُ تعالى في موضعٍ آخر أنَّه أخبر الملائكة أنه خالق إنساناً من طين يابس، وأمرهم بالسجود لَهُ بعد تمام خلقِهِ، ونَفْخِ الروحِ فيه، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر:٢٨-٢٩].

وأخبرنا -سبحانه- أنَّ الملائكةَ جميعاً سجدوا لآدمَ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر:٣٠] لم يتخلَّف منهم أحَدٌ.

وأعْلَمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ إبليسَ -وكان يعبدُ الله مع الملائكةِ- رَفَضَ أن يسجدَ لآدم، ففسقَ بعصيانِهِ ورفضِهِ السجودَ، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠].

والصوابُ من القول أنَّ إبليس لم يَكُنْ مِنَ الملائكةِ، ولكنَّه كان يعبد الله معهم، ويدلُّ لصحة ذلك أمور:

الأولُ: تصريحُ الله -تعالى- في هذ الآية أنّ إبليسَ مِنَ الجنّ، والجنُّ خلقٌ غيرُ الملائكةِ وغيرُ الإنسِ.

الثاني: أنَّ أصل الجنِّ من نارٍ أو مِنْ مارجٍ من نارٍ ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن:١٥]، وقال: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحجر:٢٧]، وصحَّ في حديثٍ في صحيحِ مسلم أنَّ الجنَّ خلقوا منْ نارٍ والملائكةُ مِنْ نورٍ [مسلم: ٢٩٩٦].

الثالثُ: أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ الملائكةَ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم:٦] أما الجنُّ فتقعُ منهم المعصيةُ، كما تقعُ منهم الطاعةُ.

٧- لومُ اللّه -تعالى- بني آدم لاتخاذهم إبليسَ وذريتَهُ أولياءَ:

أعلمنا اللهُ -تعالى- أنَّهُ أمَرَ الملائكةَ أن يسجدوا لأبينا آدمَ ﷺ، فسجدوا جميعاً إلا إبليسَ رفضَ الأمرَ الصادرَ إليه، فلم يسجدْ، وإبليسُ برفضه السجودَ لآدمَ ﷺ أصبح وذريته أعداءً لآدمَ وذُرِّيَّتِهِ، وكان مقتضى فقهنا لهذا النصّ أن نعاديه، وننأى عنه، ولا نواليهِ.

والشيءُ المتعجبُ منه المستغربُ أنَّ جمعاً كبيراً من بني آدم اتَّخذ الشيطانَ وذريَّتَهُ أولياءَ، ولذلك وجَّهَ اللهُ -تعالى- السؤالَ لبني آدم موبخاً لهم ومقرعاً إيَّاهم قائلاً: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف:٥٠]. وقبيحٌ في الشرع والعقل أنْ يتخذَ المرءُ عدوَّه وليّاً، وقوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ وبئسَ كلمةُ ذمٍّ، والمرادُ: بئس البدلُ إبليسُ وذريتُه للظالمين.

ويفقَهُ مِنْ هذه الآيةِ بدلالة واضحةٍ أنَّ الشيطانَ له ذريةٌ لقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي ﴾ فمن أنكر أن يكون للشيطانِ ذريةٌ فقد ناقض صريحَ الآية، ولم يُعرِّفْنا اللهُ تباركَ وتعالى كيفَ يتوالد الشيطانُ وذريته، فلا يجوز أن نبحث في ذلك، لأنَّه أمر غيبي مجهولٌ لنا.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ضرب اللهُ المثَلَ في سرعةِ زوالِ الدنيا وانقضائِها بالماءِ النازلِ مِنَ السماءِ، فتخضرُّ الأرضُ وتُزْهِر وتثمرُ، ثمَّ يذوي ذلك كلُّه وييبسُ ويتفتت وتذروه الرياحُ.

٢- المالُ والبنون زينةُ الحياةِ الدنيا، ثمَّ يذهبُ ذلك ويزولُ، والأعمالُ الصالحةُ هي الباقيةُ التي لا تفنى ولا تَزول.

٣- تتغيَّرُ الأرضُ يومَ القيامة، فتُسَيَّرُ جبالُها، وتصبحُ مستويةً، ليس فيها ارتفاعٌ ولا انخفاضٌ، وليس فيها جبالٌ ولا وديانٌ.

٤- يُحْشَرُ النَّاسُ كلُّهم، فلا يغيبُ منهم أحدٌ، ويُعْرَضُونَ على ربِّهم صفوفاً متتابعةً، ويأتونُ حفاةً عراةً غُرْلاً، كما خلقَهُمْ اللهُ أوَّلَ مرَّةٍ.

٥- في يومِ القيامةِ يُؤْتَى كلُّ إنسانٍ كتابَهُ، حاوياً أعْمالَهُ كُلَّها صغيرَها وكبيرَها، وكلُّ ما عَمِله الإنسانُ يكونُ حاضراً في ذلك اليومِ.

٦- أمر اللهُ -تباركَ وتعالى- الملائكةَ جميعاً أنْ يسجدُوا لآدم عندما يَتِمّ خَلْقُه، وتُنْفَخُ فيه الروحُ، فَحَسَدَهُ إبليسُ، ورفَضَ السجودَ له.

٧- إبليسُ كان مِنَ الجنِّ، وليس من الملائكةِ، وقد كَفَرَ بربِّه برفضه السجودَ لآدَمَ.

٨- من أعظم ما وقعَ فيه البشرُ اتخاذُهم إبليسَ وذريتَه أولياءَ مِنْ دونِ الله، وهم لنا أعداءٌ، يريدونَ إيقاعَنا في النار وغضب الجبار.

٩- لإبليسَ ذريةٌ، لا ندري كيف يتوالدون ويتكاثرون.

١٠- لا يستطيعُ الإنسانُ النجاةَ مِنَ الشيطانِ وذُرِّيته إلا إذا اتبعَ المنهجَ الإلهيَّ الربانيَّ الذي جاءَ به القرآنُ وسنَّة الرسول ﷺ.

النص القرآني السابع من سورة الكهف
آلهة المشركين آلهة باطلة لا تصلح للعبادة

أولاً: تقديم

حَدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن آلهةِ المشركين، وبَيَّنَ لنا أنَّها مربوبةٌ عاجزة، يدعوها عابدوها في الآخرةِ فلا تجيبُ.

وحدثنا عن الكفرة المجرمين أنَّهم يرونَ يومَ القيامةِ النارَ، فيظنون أنَّهم داخلوها، ولا يجدونَ عنها مَصْرفاً، وحدثنا عن القرآنِ وكيف ضربَ فيه الأمثالَ للناس، كما بيَّن لنا ربُّنا السببَ المانعَ للناسِ مِنَ الإيمان.

وأعلمنا أنَّه أقامَ الحجَّة على عبادِه بإرسالِ الرسلِ، وأعلمنا ربُّنا أنَّ الرسلَ جاؤوا بالحقِّ، وأنَّ الكفارَ يجادلون بالباطلِ ليردُّوا به الحقَّ.

وحدَّثنا رَبُّنا عَنْ أظلمِ الناسِ، وعَرَّفَنا بهم، وعرفنا أنَّه يتأنى بعبادِهِ، وأنَّ للمعذِّبين موعدٌ يُعذَّبون فيه، كما فعلَ بالأممِ السابقةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الكهف: ٥١-٥٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- آلهة المشركين آلهةٌ باطلةٌ، وهي مخلوقةٌ مربوبةٌ لم يُشْهِدْها اللهُ خلقَ السمواتِ والأرض ولا خلقَ أنفسها:

أرادَ ربُّ العزَّةِ -تبارك وتعالى- أنْ يُبيِّن للمشركينَ أنَّ آلهتَهُمْ التي يعبدونَها مِنْ دونِ الله تعالى لا تصلحُ للألوهية والعبادةِ مِنْ دونِ الله تعالى، فقالَ: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف:٥١].

فاللهُ تعالى يقولُ مخاطباً المشركينَ: ما أشْهدتُ آلهتكم التي تعبدونَها مِنْ دوني خلقَ السمواتِ والأرضِ، لأنَّها كانتْ معدومةً في ذلك الوقت ليسَ لها وجودٌ، وهذه المعبوداتُ نفسُها كانت معدومةً عندما خلقتها وأوجدتُها، فلم تشهدْ خَلْقَ نفسها، والمخلوقُ مِنَ العدم لا يصلحُ أنْ يكون معبوداً مِنْ دونِ الله عزَّ وجلَّ، والذي يستحقُّ العبادةَ هو الخالقُ وَحْدَهُ ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ ﴾ [النحل:١٧]، وتحدَّث اللهُ تعالى في سورةِ لقمانَ عَنْ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان:١٠] ثم عقَّب على هذا قائلاً: ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ﴾ [لقمان:١١].

فآلهةُ المشركين آلهةٌ مخلوقةٌ مصنوعةٌ، فهم لم يخلقوا السمواتِ والأرضَ، ولم يخلقوا أنفسَهُم، بل هم مخلوقون مربوبون، ولا يستحقونَ مِنَ العبادةِ شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف:٥١] أي: وما استعنتُ بهم على خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، وما كنت متخذاً منهم أعواناً والعضدُ: المعينُ، كما قال الله تعالى لموسى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص:٣٥].

٢- يُطلبُ من المشركين يومَ القيامةِ مناداةُ شركائِهِمْ فلا يستجيبون لندائِهِمْ:

يتهدَّدُ اللهُ تعالى في الدنيا قبلَ الآخرة المشركين ليتَّعِظُوا ويَنْزَجِرُوا، ويقالُ لهم: إنَّه سيطلبُ منهم في الآخرةِ أنْ ينادوا الشركاءَ الذين كانوا يعبدونَهُمْ مَعَ الله، فعند ذلك يرفعون عقيرَتَهُمْ مستغيثين بتلك الآلهةِ، فلا يجيبون دعاءَهم ولا نداءَهم، وأخبرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يجعلُ في ذلك اليوم بينَ الذين يَدْعُونَ وبين آلهتهم التي يدعونَها مَوْبقاً، أي: مَهْلكاً ﴿ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الكهف:٥٢]. وفي هذا الذي أخبرنا اللهُ تعالى به عِظَةٌ للكفارِ في الدنيا، فآلهة المشركين لا تستحقُّ أنْ تُعْبَدَ مِنْ دونِ الله، فهي مخلوقةٌ مربوبةٌ عاجزةٌ، لا تنفعُ ولا تضرُّ.

وقد أظهَرَ اللهُ -تعالى- هذا المعنى الذي ذَكَرَه في هذه الآيةِ في أكثرِ مِنْ موضعٍ مِنْ كتابِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [القصص:٦٢-٦٤].

٣- رؤيةُ المجرمينَ النارَ يومَ القيامةِ وتيقنهم أنهم داخلوها في ذلك اليوم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المجرمينَ يرونَ النَّارَ يومَ القيامةِ بأبصارِهم، ويَظُنُّونَ أنَّهم مواقعوها، أي: واقعون فيها، ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف:٥٣]، وقوله: ﴿فَظَنُّوٓا۟﴾ أي: فأيقنوا، فالظنُّ في الآيةِ بمعنى اليقينِ، لأنَّ المجرمينَ يبصرون في ذلكَ اليومِ الحقائقَ، ويشاهدون الوقائعَ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة:١٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ أي: لم يجدوا عن النارِ مكاناً ينصرفونَ إليه، ويعدلونَ إليه، ليتخذونه ملجأً ومكاناً يعتصمون بِهِ.

٤- صَرَّفَ اللهُ تعالى في هذا القرآن للناسِ مِنْ كلِّ مثلٍ:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّه صَرَّفَ للناسِ في هذا القرآنِ مِنْ كلِّ مثلٍ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾ [الكهف:٥٤]، ومعنى صَرَّفَ: أي: بيَّنَ وردَّدَ وكثَّرَ ونَوَّعَ من الأمثالِ بعباراتٍ مختلفةٍ، وقد مضى قريباً ضربُه -تعالى- المثَلَ للحياةِ الدنيا بالماءِ النازلِ مِنَ السماءِ الذي اختَلَطَ به نباتُ الأرضِ، وضربَ اللهُ المثَلَ بالبعوضةِ فما فوقها ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ﴾ [البقرة:٢٦]، وضربَ المثلَ بالذبابةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾ [الحج:٧٣]، وضربَ المثَلَ في مواضعَ أخرى بالعنكبوتِ اتخذت بيتاً، وبالكلبِ إن تحمل عليه يلهثْ أو تتركهُ يلهثْ.

وبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه صَرَّفَ الآياتِ والعبرَ بضربِهِ الأمثالَ للناس في كتابه الكريم ليذكَّروا ويعتبروا، فقابلوا ذلك بالجدالِ والخصام ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف:٥٤]، أي: أكثَرَ الأشياءِ خصومةً ومماراة لردِّ الحقِّ وإبطالِه، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [الكهف:٥٦]، وقال: ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾ [النحل:٤].

٥- الذي منعَ الكافرينَ مِنَ الإيمان:

بَيَّنَ اللهُ -تعالى- لنا السببَ الذي منعَ الكفارَ مِنَ الإيمانِ، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الكهف:٥٥]، أي: لم يمنع الكفارَ مِنَ الإيمان عندما أتتهم الرسلُ بالهدى مِنَ الله تعالى إلاَّ ما سبقَ في علم الله -عزَّ وجلَّ- أنَّهم لا يؤمنونَ حتى تأْتيهم سنَّةُ الأولينَ القاضيةُ بإنزالِ العذابِ بالكافرينَ، كما أوقَعَهُ بالكفارِ مِنْ قوم نوح، وقومِ هودٍ، وصالحٍ ولوطٍ، وشعيبٍ، وغيرهم، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال:٣٢]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

والمرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ أي: عياناً، وأصلُهُ مِنَ المقابلةِ، لأنَّ المتقابلين يعاينُ كلُّ واحدٍ منهما الآخر، كما وقعَ للمشركينَ في غزوةِ بدرٍ، فقد جاءَهم العذابُ عياناً.

٦- إرسالُ الله تعالى الرسلَ مبشرين ومنذرين:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه قبلَ إيقاعِهِ العذاب بالكفار، يرسلُ رسلَه مبشرينَ ومنذرين، أي: يُبَشِّرون أهلَ الإيمانِ بجزيلِ الثوابِ، وينذرونَ أهلَ الكفرِ بعظيم العقابِ، ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الكهف:٥٦]. وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنعام:٤٨].

ثُمَّ أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ يجادلون، أي: يخاصمونَ الرُّسُلَ وأتباعَ الرسلِ جدالاً كائناً بالباطلِ، والباطلُ ضدُّ الحقِّ، ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [الكهف:٥٦]، ويهدفُ الكفارُ مِنْ هذا الجدالِ إلى إدْحاضِ الحقِّ ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي: ليُضْعِفوا الحقَّ، ويبطلُوه، ويزيلوه، وأصلُ الإدْحاضِ: إزْلاقُ القدمِ، وإزالتها عن مَوْضِعها، وهذا الذي ذكره ربُّنا مِنْ مجادلةِ الكفارِ الرسلَ بالباطلِ ليُدْحِضُوا به الحقَّ ذَكَرَهُ تعالى في قولِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة:٣٢]، وقد

أخبرنا ربُّنا تباركَ وتعالى أنَّه سيجري الأُمورَ بخلافِ ما يريدونَ، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة:٣٣].

وقولُهُ تعالى في خاتمةِ الآيةِ: ﴿ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الكهف:٥٦]، أي: أنَّ الكفارَ الذين أُرسلَ إليهم نبينا محمدٌ ﷺ اتخذوا الآياتِ التي أنزلها إلى رسولِهِ، وما خَوَّفهم اللهُ تعالى بِهِ مِنَ العذابِ في الدنيا والآخرةِ هُزُواً، أي: سُخْرِيَةً واستخفافاً، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ [الجاثية:٩] وقال: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يس:٣٠].

٧- **تعريفُ الله -تعالى- لنا بأشدِّ الناسِ ظلماً:**

عَرَّفنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بأشدِّ الناسِ ظلماً، فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف:٥٧]. وهذه الآيةُ الكريمةُ فيها سؤالُ المرادُ بِهِ التقريرُ، والمعنى لا أحَدَ أظلَم مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ الله، والمراد بها آياتُ القرآنِ، لقولِهِ تعالى بعد في الآية: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ والذي يُفْقَه هو الآياتُ القرآنيةُ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: من الكفر والشرك والمعاصي والذنوب، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦].

ونسبَ اللهُ تعالى التقديمَ إلى اليدِ، لأنَّ اليدَ أكثرُ مزاولةً للأعمالِ مِنْ غيرها مِنَ الأعضاءِ.

ونسيانُ العبدِ ما اقترفته يداه مِنَ الذنوبِ وعدم التوبةِ منها مِنْ أعظمِ الظلمِ، وقد أعْلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالآثارِ التي يُحْدِثُها الإعراضُ عن آياتِ الله، وعدم التوبةِ مِنَ الذنوبِ التي اقترفها العبدُ، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف:٥٧].

والمرادُ بالأكنَّةِ في الآيةِ الأغطِيةُ، والوِقْرُ الذي جعله على آذانهم الثِّقَلُ الذي يمنعُها مِنَ السمعِ، كما قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة:٧].

وقد جعلَ اللهُ تعالى هذه الأغطيةَ على قلوبهم وأسماعهم وأبصارِهم، لأنَّهم رفضُوا الإيمانَ عندما جاءَهم الهدى، وارتضَوا الكفرَ، كما قالَ تعالى: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾

[النساء:١٥٥]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف:٥]، وقوله تعالى في خاتمة الآيةِ ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ أي: مهما دعوتَ هؤلاءِ الذين جعلنا على قلوبهم أكنةً وفي آذانهم وقراً فلن ينفعَ فيهم دعاؤُكَ إيَّاهم إلى الهدى، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الشعراء:٢٠٠-٢٠١]، فالذينَ كَتَبَ الله عليهم الشقاءَ كفرعون وهامان وأبي جهل لا يؤمنون.

٨- ربُّنا -تبارك وتعالى- الغفورُ ذو الرحمة:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن نَفْسِهِ أنَّه الغفورُ ذو الرحمةِ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف:٥٨]. وغفورٌ كثيرُ المغفرةِ، وذو الرحمة، أي: صاحب الرحمة، كما قال سبحانه عن نَفْسِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم:٣٢] ولكثرةِ مغفرةِ ربِّنا لعبادِه وسَعَةِ رحمتِهِ، فإنَّه يغفرُ الذنوبَ جميعاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر:٥٣]، والله تعالى يغفرُ جميعَ ذنوب العبادِ إن شاءَ إلا الشركَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨].

ومِنْ رحمةِ الله تعالى بعبادِه أنّه لا يعاجِلُهُمْ بالعقوبةِ، بل يتأنَّى بهم لعلهم يتوبون، وينيبون ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾ فاللهُ سبحانه حليمٌ يتأنَّى بعبادِهِ ويمهلهم.

ولكنَّه مع حِلْمِه سبحانه بعبادِهِ وتأنيه بهم، فليسَ غافلاً عنهم، ولا تاركاً عذابَهُم، ولذلك حَدَّد يوماً لعذابهم ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل:٦١].

وقولُه تعالى في خاتمةِ الآيةِ: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ أي: لن يجدوا ملجأً يلجؤون إليه، ويعتصمونَ بِهِ مِنَ العذابِ.

وقد حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الأقوامِ الذين مَضَوْا، فقد تأنَّى اللهُ -تبارك وتعالى- بهم، وأمهَلَهُم طويلاً، ثم أخذَهُم أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ

أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الكهف:٥٩]، فقد أهلَكَ اللهُ تعالى فيما سَبَقَ قومَ نوحٍ، وقومَ هودٍ، وقومَ صالحٍ، وقومَ شعيب، وأهلك فرعونَ وجَيْشَهُ، وجعلَ لكلِّ أمةٍ موعداً يتمُّ هلاكها فيه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصّ وجدناها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١ - اللهُ -تبارك وتعالى- وَحْدَهُ المتفرِّدُ بالخلقِ والإيجادِ، فهو المستحقُّ للعبادَة.

٢ - الآلهةُ التي يعبدُها المشركون لا تستحقُّ العبادةَ، فهي لم تخلق شيئاً، ولم تشاركْ في خلقِ الكائناتِ، ولم تَحْضُرْ بدايةَ الخلقِ، بل هي مخلوقة مربوبةٌ.

٣- ينادي المشركون يومَ القيامة آلهتَهُمْ لتنقذَهُمْ وتَنْصُرَهُمْ، فلا تجيبُ دعاءَهم.

٤ - يرى المشركونَ يومَ القيامة النَّارَ، ويوقنون أنها ستكونُ مصيرَهُمْ.

٥ - نوَّع اللهُ -تعالى- في كتابِهِ أساليبَ البيان، فمن فَقِهَ كتابَ الله جاءَه سيلٌ مِنْ أنواع الهدايةِ.

٦ - الكفارُ الذين كتبَ اللهُ عليهم الكفرَ لا يؤمنون حتى يحلَّ بهم العذابُ.

٧- اللهُ تعالى يرسلُ الرسلَ مبشرينَ ومنذرينَ، فمَن شاءَ اللهُ له الهدايةَ اهتدى، ومَنْ أعْرَضَ عن الهدى ضلَّ وغوى.

٨- الكفارُ يجادلون الرسلَ وأتباعَ الرسل بالباطلِ ليردُّوا الحقَّ، واتخذوا آياتِ الله وما أنذرَهُم اللهُ تعالى به موضعَ هزءٍ وسخريةٍ، فخسروا وخابُوا.

٩- أكثرُ النَّاس ظلماً الذي وُعِظَ بآياتِ الله تعالى، فأعْرَضَ عنها، ونسيَ التوبةَ مما ارتكبهُ مِنْ كفرٍ وذنوبٍ، فاستحقَّ العذابَ.

١٠ - جعل اللهُ تعالى على قلوبِ الكفارِ أغطيةً، وفي آذانهم ثِقَلاً، فلا يفقهون ما يُتْلَى عليهم مِنَ القرآنِ، ولا يهتدونَ بهدي الله تعالى.

١١ - اللهُ تعالى كثيرُ الغفرانِ للذنوبِ وهو واسعُ الرحمة، يغفرُ في الدنيا ذنوبَ عبادِهِ إن تابوا إليه، وفي الآخرةِ كلُّ الذنوبِ قابلةٌ للغفران إلا الشركَ.

١٢ - الذين يستحقُّون العذابَ مِنَ الكفارِ لهم أجلٌ حَدَّده ربُّ العزةِ في يومِ القيامةِ، وهذا كما فعله تعالى بالأممِ السابقةِ التي استحقت العذابَ.

النص القرآني الثامن من سورة الكهف
قصةُ موسى عليه السلام والعبد الصالح

أولاً: تقديم

حدثنا ربُّنا -عزَّ وجلّ- في آياتِ هذا النصِّ عن رحلةِ موسى عليه السلام إلى العبدِ الصالحِ خضر عليه السلام، وقد حدَّثنا ربُّنا عما وقعَ لموسى وفتاه في طريقهما إلى العبدِ الصالح، وحدثنا عما جرى لموسى والخضرِ في تطوافهما إلى أن افترقا.

وقد حدَّثنا رسولنا ﷺ عن السببِ الذي مِنْ أجلِهِ رَحَلَ موسى إلى الخضرِ، فقد رَوَى البخاري عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّه تَمارَى هو والحُرُّ بنُ قيسِ بنِ حِصْنٍ الفَزاريُّ في صاحبِ موسى، قال ابنُ عبَّاسٍ: هو خَضِرٌ، فمَرَّ بهما أُبيُّ بنُ كَعْبٍ، فدَعاه ابنُ عبَّاسٍ، فقال: إني تَمارَيتُ أنا وصاحبي هذا في صاحبِ موسى الذي سأَلَ موسى السَّبيلَ إلى لُقِيِّه، هل سمعتَ النبيَّ ﷺ يَذكُرُ شأنَه؟ قال: نعم، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «بينَما موسى في مَلأٍ من بني إسرائيلَ جاءَه رجلٌ فقال: هل تَعلَمُ أحداً أعلَمَ منكَ؟ قال موسى: لا، فأوحَى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى موسى: بَلَى، عَبْدُنا خَضِرٌ، فسأَلَ موسى السَّبيلَ إليه، فجعَلَ اللهُ له الحُوتَ آيةً، وقيلَ له: إذا فَقَدْتَ الحُوتَ فارجِعْ فإنَّكَ سَتَلْقاه، وكان يَتَّبِعُ أثرَ الحوتِ في البحرِ، فقال لموسى فتاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف:٦٣]، ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾، فوجَدَا خَضِراً، فكان مِن شأنِهما الذي قَصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابِه» [البخاري: ٧٤، ٧٨. ومسلم: ٢٣٨٠].

وروى سعيدُ بنُ جُبَير، قال: قلتُ لابنِ عبَّاسٍ: إنَّ نَوْفاً البِكاليَّ يَزعُمُ أنَّ موسى ليس بموسى بني إسرائيلَ، إنَّما هو موسى آخرُ، فقال: كَذَبَ عَدُوُّ الله، حدَّثنا أُبيُّ بنُ كَعْبٍ عن النبيِّ ﷺ: «قامَ موسى النبيُّ خَطيباً في بني إسرائيلَ، فسُئِلَ: أيُّ الناس أعلَمُ؟ فقال: أنا أَعلَمُ. فعَتَبَ اللهُ عليه إذْ لم يَرُدَّ العِلْمَ إليه، فأوحَى اللهُ إليه أنَّ عَبْداً مِن عبادي بمَجْمَعِ البحرَينِ هو أعلمُ منكَ، قال: يا رَبِّ، وكيفَ به؟ فقيلَ له: احمِلْ حُوتاً في مِكتَلٍ، فإذا فَقَدْتَه فهو ثَمَّ» [البخاري: ١٢٢. ومسلم: ٢٣٨٠].

وفي رواية عن ابنِ عباسٍ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «موسى رسول الله عليه السلام، قالَ: ذَكَّرَ الناسَ يوماً، حتَّى إذا فاضتِ العيونُ، ورقَّتِ القلوبُ ولَّى، فأدْرَكَهُ رَجُلٌ، فقالَ: أيْ رسولَ الله، هل في الأرْضِ أَحَدٌ أعلمُ منك؟ قال: لا، فعَتَبَ اللهُ عليه إذْ لَمْ يَرُدَّ العلمَ إلى الله» [البخاري: ٤٧٢٦].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

[الكهف: ٦٠-٨٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عَزْمُ موسى عليه السلام على بلوغِ مجمعِ البحرينِ ليلقى العبدَ الصالحَ:

أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن نَذْكرَ ما قالَه موسى لفتاه، أنّه سيبقى سائراً حتى يبلغَ مجمعَ البحرين أو يمضي حُقباً ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف: ٦٠].

والفتى: الشابُّ الصغير، القائمُ على العالم أو السيِّد، والمرادُ به هنا يوشعُ بنُ نون [البخاري: ١٢٢]. وقول موسى لفتاه: ﴿ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ يدلُّ على عزمه على السفرِ حتى يبلغَ العبدَ الصالحَ الذي حَدَّثه اللهُ عنه.

والمرادُ بقولِهِ: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ الحقبُ: الدَّهْرُ، أو الزمانُ الطويلُ، ولا ندري الموضعَ الذي حدَّده اللهُ تعالى لموسى الذي سمَّاه اللهُ مجمعَ البحرين، فمواضعُ التقاءِ بحرٍ بآخرَ كثيرةٌ، ولم يعلمنا ربُّنا ولا رسولُنا بالموضعِ الذي التقى فيه موسى بالخضرِ.

٢- موسى وفتاه يتجاوزان المكانَ الذي حدَّده لهما للقاءِ العبدِ الصالحِ:

أخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ موسى وفتاه عندما بلغا مجمعَ البحرينِ نسيا حوتهما هناكَ، ثم جاوزا المكانَ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ [الكهف:٦١] وسيأتي في الآية الثالثة والستين أنَّ الذي نسيَ هو فتى موسى، وإنما أسندَ النسيان إليهما، لأنَّ إطلاقَ المجموعِ مراداً بعضُهُ أسلوبٌ عربيٌّ كثيرٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العرب.

والسَّرَبُ في قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ أي: أصبحَ مسارَ الحوتِ في الماءِ مثلَ السربِ في الأرضِ، فالحوتُ الميت عندما أحياهُ اللهُ، ودخلَ في البحر كان البحرُ يتجمد حَوْلَه، فيصبحَ عليه كالكوَّةِ.

وكان اللهُ تعالى «جعل لَهُ الحوت آيةً، وقيل له: إذا فقدتَ الحوتَ فارجعْ، فإنَّك ستلقاه، وكان يتبعُ أثرَ الحوتِ في البحر» [البخاري: ٧٤]، وفي رواية: «قال ربِّ، وكيف لي به؟ فقيل له: احمِلْ حوتاً في مكتل، فإذا فقدتَهُ، فهو ثَمَّ» [البخاري: ١٢٢]، وكان موسى قال لفتاه: «لا أُكَلِّفُكَ إلاَّ أنْ تُخْبِرني بحيث يُفارِقُكَ الحوتُ، قال: ما كَلَّفْتَ كثيراً، فذلك قوله جَلَّ ذكره: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴾ يوشع بن نون» [البخاري: ٤٧٢٦].

٣- طلب موسى من فتاه أن يأتيه بالطعام فتذكر أمرَ الحوت الذي نسيه:

جاوزَ نبيُّ الله موسى ﷺ وفتاه المكانَ الذي أحيا اللهُ تعالى فيه الحوتَ، ونزلَ الحوتُ فيه مِنَ المِكْتلِ إلى البحرِ، وسارا بقيةَ يومهما وليلتهما، فلما أصبحا طلبَ موسى من فتاه أنْ يأتيهما بغدائِهما، فإنَّهما لقيا في سفرِهم الأخيرِ نصباً، أي: تعباً، فلما ذكر موسى الطعامَ لفتاه، تذكَّر الفتى ما كان نسيَه مِن أمرِ الحوتِ، وأخبر موسى بما كان، فقال موسى لفتاه: هذا هو المكانُ الذي نبغيه ونقصدُه، فرجعا يقصان أثر سيرهما حتى وَصَلا إلى الصخرةِ التي أويا إليها بالأمس، وفقدا الحوتَ عندها ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف:٦٢-٦٤].

وفي قوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ ما يدلُّ على أنَّ النسيان مِنَ الشيطانِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

وجاء في حديثِ ابنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ : «فانْطَلَقَ، وانطلَقَ بفتاه يوشع بنِ نون، وحَمَلا حوتاً في مِكْتَلٍ، حتَّى كانا عندَ الصخرةِ، وضعا رؤوسَهُما وناما، فانْسَلَّ الحوتُ مِنَ المِكْتَلِ، فاتَّخَذَ سبيلَه في البَحْرِ سَرَباً، وكان لموسى وفتاه عَجَباً، فانْطَلَقا بقيةَ لَيْلَتِهما ويَوْمِهما، فلما أَصْبَحا قالَ موسى لفتاهُ آتنا غداءَنا، لقد لَقِيْنا من سَفَرِنا هذا نصباً، ولم يَجِدْ موسى مَسّاً مِن النصبِ حتّى جاوزَ المكان الذي أُمِرَا به، فقالَ له فتاه: أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصَّخْرَةِ، فإنِّي نسيتُ الحوت، قال موسى: ذَلِكَ ما كُنَّا نَبْغِيْ، فارتدَّا على آثارِهما قَصَصاً» [البخاري: ١٢٢]. وفي بعض رواياتِ الحديثِ: «واضطربَ الحوتُ، فَخَرَجَ، فَسَقَطَ في البحرِ، فاتَّخَذَ سَبيلَهُ في البحرِ سَرَباً، فأمْسَكَ اللهُ عنِ الحوتِ جِرْيَةَ الماءِ، فصارَ مِثْلَ الطاقِ» [البخاري: ٣٤٠١].

وفي روايةٍ: «فأمْسَكَ الله عنه جِرْية البحرِ، حتَّى كأنَّ أثرَهُ في حَجَرٍ» [البخاري: ٤٧٢٦].

٤- نبيُّ الله موسى عليه السلام يلْقَى الخضر عليه السلام :

وصلَ نبي الله موسى عليه السلام إلى الصخرةِ التي نامَ هو وفتاهُ عندها بالأمسِ، في الموضع الذي أحْيا اللهُ تعالى فيه الحوتَ، فنزلَ إلى البحر متخذاً فيه سَرَباً، فوجد هناك العبد الصالحَ الذي سافرَ موسى للقياهُ، ليأخذ العلمَ منه، وقد عرَّفنا رسولُنا ﷺ أنَّ اسمَهُ الخَضِرُ [راجع: البخاري: ٧٤، ٧٨، ١٢٢، ٤٧٢٥]، وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنَّه عَبْدٌ من عبادِهِ آتاه رحمةً مِنْ عندِهِ، وعلَّمه من لَدُنْه، أي: مِنْ عنده علماً، والأرجحُ أنَّ الرحمة التي أعطاها للخضرِ، والعلمَ اللدنِّيَّ الذي أعطاه اللهُ إياهُ هما رحمةُ النبوةِ وعلمُها، ويدلُّ لصحة هذا القولِ، قولُ الخضرِ ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ [الكهف:٨٢] ويدلُّ عليهِ ما حدَّثنا به الرسولُ ﷺ أنَّ الخضرَ قال لموسى: «يا موسى إنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ علمِ الله لا تعلمه أنْتَ، وأنتَ على عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لا أعْلَمُه» [البخاري: ١٢٢]. ولو لم يكنِ الخضرُ نبيًّا، فكيف له أنْ يقتلَ الغلامَ، والقتلُ إنْ لَمْ يستوجب سبَبَه مِنْ أعظم الجرائمِ، ومِنْ إطلاقِ الرحمةِ على رحمةِ النبوةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ [القصص:٨٦].

وعندما وصل موسى وفتاه إلى المكانِ الذي أوَيا إليه بالأمسِ، وجَدا العبدَ الصالحَ هناك، وَجَداه مُسْتَلْقِياً «على طِنْفِسَةٍ خضراءَ، مُسَجًّى بثوبِهِ، قد جَعَلَ طَرفَهُ تَحْتَ رِجْلَيْه،

وطرَفَهُ تحتَ رأسِهِ، فَسَلَّم عليه موسى، فكَشَفَ عن وَجْهِهِ، وقال: هَلْ بأرْضِي مِن سَلامٍ؟ مَنْ أنْتَ؟ قال: أنا موسى، قالَ: موسى بني إسرائيلَ؟ قال: نعم» [البخاري: ٤٧٢٦].

ويَظْهَرُ مِنَ النصِّ أنَّ موسى والخضرَ كانا يتكلمان لغةً واحدةً، وكلّ واحدٍ كان يَفْهمُ مِنَ الآخرِ كلامَه.

٥- موسى يطلبُ من الخضر أن يأذنَ له باتباعه ليستفيدَ من علمِهِ:

بينتُ في الفقرةِ السابقةِ أنَّ موسى وَصَلَ إلى المكانِ الذي كان الخضرُ موجوداً فيه فسلَّم عَلَيْهِ، فاستغربَ الخضرُ أن يوجدَ في تلك الديار من يُلْقي السَّلام، وسألَ موسى عن نفْسِه، فعرَّفه بنَفْسِهِ، وعرضَ عليه أنْ يأذنَ له باتباعِهِ ليستفيدَ مِنْ علمِهِ، وحدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن الحوارِ الذي جرى بينهما فقال: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف:٦٦-٧٠].

وقد أخبرنا رَسُولُنا ﷺ أنَّ الخضرَ قالَ لموسى بعدَ أنْ سَلَّمَ عليه، وتَعَرَّف إليه: «ما شَأْنُكَ؟ قالَ جِئْتُ لتُعَلّمني مما عُلِّمْتَ رُشْداً، قال: أما يَكْفِيكَ أنَّ التوْراةَ بيدِكَ، وأنَّ الوَحْيَ يأْتيكَ، يا موسى، إنَّ لي عِلْماً لا ينبغي لَكَ أنْ تَعْلَمَهُ، وإنَّ لَكَ علماً لا ينبغي لي أنْ أعْلَمَهُ، فأخَذَ طائرٌ بمنقارِهِ مِنْ البحرِ، فقال: واللهِ ما عِلْمي وما عِلْمُكَ في جَنْبِ عِلْمِ الله، إلاَّ كَما أخَذَ هذا الطائرُ بمِنْقارِهِ مِنَ البَحْرِ» [البخاري: ٤٧٢٦].

وقد عَرَّفنا رسولُنا ﷺ عن السببِ في تسميةِ العبدِ الصالحِ بالخضرِ، فقال: «إنَّما سُمِّي الخضرُ أنَّه جَلَسَ على فَرْوَةٍ بَيْضاءَ، فإذا هي تَهْتَزُّ مِنْ خلفِه خَضْراءَ» [البخاري: ٣٤٠٢]، قال ابن حَجَرٍ: «المرادُ بالفَرْوَةِ وَجْهُ الأرْضِ» [فتح الباري: ٨/ ٥٣٠] وقال في موضعٍ آخر: «الفَرْوةُ مِنَ الأرضِ قِطْعَةٌ يابسةٌ مِنْ حشيشٍ، وقال ابن الأعرابي: الفروةُ أرضٌ بيضاءُ ليس فيها نباتٌ» [فتح الباري: ٦/ ٥٢٦]، وهذه الرواياتُ تَدُلُّ على أنَّ السَّلامَ كان تحيةً معروفةً لدى المؤمنين في ذلك الزمانِ.

٦- ما رآه موسى من عجائبِ الرجلِ الصالحِ الخضرِ:

حَدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ موسى ﷺ تبعَ الخضرَ بعد أنْ اشترطَ عليه أنْ لا يسأله عن شيءٍ حتى يُحْدِثَ له مِنْهُ ذِكْراً، وقد حَدَّثَنا رَبُّنا أنْ موسى رأى ثلاثةَ أُمورٍ مِنْ العجائب التي فَعَلَها الخضرُ.

الأول: حَدَّثنا اللهُ عنه في قوله: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧١-٧٣].

أخبرَنا رسولُنا ﷺ أنَّ موسى والخضر «انطلقا يمشيانِ على ساحِلِ البحرِ، فمرَّتْ بهما سفينةٌ كَلَّمُوهم أنْ يحملوهُمْ، فعَرفوا الخضر، فحملوهُمْ بغيرِ نَوْلٍ [أي: بغير أُجرة] فلما رَكِبا السفينة أخَذَ الخضرُ فأساً، فنَزَعَ لَوْحاً، فقالَ له موسى: ما صنعتَ؟ قومٌ حملونا بغير نَوْلٍ، عَمِدْتَ إلى سفينتِهم، فخرقْتَها لتغرقَ أهلها، لقد جئتَ شيئاً إمْراً، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ فكانت الأولى من موسى نسياناً» [البخاري: ٣٤٠١].

ومعنى ﴿إِمْرًا﴾ في قولِهِ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ أي: منكراً.

وحدثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن الثاني فقال: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف:٧٤-٧٦].

أَخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ موسى والخضر انطلقا، فلقيا غلاماً فقتلَهُ الخضرُ، ولم يبيِّنْ رَبُّنا لنا كيفَ قتله، وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ عن الكيفيةِ التي قتَلَهُ بها، ففي الحديثِ: «فلمَّا خَرَجوا من البَحْرِ مَرُّوا بغلامٍ يَلْعَبُ مع الصِّبْيانِ، فأخذَ الخضرُ برأْسِهِ فَقَلَعُه بيدِهِ هكذا، وأومأ سفيانُ بأطرافِ أصابعِه، كأنَّه يَقْطِفُ شيئاً، فقالَ لَهُ موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾» [البخاري: ٣٤٠١] وفي روايةٍ: «فأَخَذَ الخضرُ برأْسِهِ مِنْ أعْلاهُ، فاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بيَدِهِ» [البخاري: ١٢٢] وفي روايةٍ أنه: «أَخَذَ غلاماً كافراً ظَرِيفاً، فأَضْجَعَهُ ثمَّ ذَبَحَهُ بالسكين» [البخاري: ٤٧٢٦] والأصحُّ أنَّه اقتلَعه، والله أعلم.

وشرعُ موسى ﷺ لا يأْذنُ له بالسكوتِ على مِثْلِ هذا الفعلِ، فهُوَ مُحَرَّمٌ في شَرْعِهِ ودينِهِ.

وحدَّثنا -عزَّ وجلَّ- عن الأمرِ الثالثِ الذي أجراه على يدي الخضرِ مما رآه موسى، فقال: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ

﴿فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾ [الكهف:٧٧-٧٨].

جاءَ في الحديثِ قولُ الرسولِ ﷺ: «فانْطَلَقا حتَّى إذا أَتَيا أهلَ قريةٍ اسْتَطْعَما أهْلَها، فأبَوْا أنْ يضيِّفُوهُما، فوجَدا فيها جِداراً يريدُ أنْ يَنْقَضَّ، قالَ: مائلٌ، فقامَ الخضرُ، فأقامَهُ بيدِهِ، قال موسى: قومٌ أتَيْناهُم، فلم يُطْعِمُونا، ولم يُضَيِّفُونا، لَوْ شئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْه أجراً» [البخاري: ٤٧٢٥].

وهذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ الخضرَ لم يعانِ كثيراً في إقامةِ الجدار، فإنَّه مَسَحَه بيدِه فقوَّم اعْوِجاجَه، وأَصْرَحُ مِنْ هذا الحديثِ الروايةُ الأُخرى، وفيها: «فَوَجَدا فيها جِداراً يُريدُ أنْ يَنْقَضَّ» قالَ سعيدٌ بيدِهِ هكذا، ورفع يَدَيْهِ فاستقامَ، قال يَعْلَى: حسبتُ أنَّ سعيداً قال: «فَمَسَحَهُ فاستقامَ» [البخاري: ٢٢٦٧].

٧- الخضرُ يُبيِّن لموسى ما أشْكَلَ عليه:

قالَ الخضرُ لموسى عليهما السلام لَمَّا لَمْ يلتزمْ بما اشترطَهُ عليه: هذا فراقُ بيني وبينِك، ويبدو أنَّ نبيَّ الله موسى ﷺ اقتنعَ أنَّه لا يستطيعُ أن يصحبَ الخضرَ، لأنَّ الواقعتين الأوليين لا يستطيعُ السكوتَ عنهما، لأنَّ شريعتَه لا ترضى ما فَعَلَهُ الخضرُ فيهما، وقد بَيَّنَ الخضرُ لموسى وَجْهَ ما أشكَلَ عليه في تلكِ الوقائعِ.

قال الخضرُ لموسى مبيناً السببَ الذي جعله يعيبُ السفينةَ بخلعِ لوحٍ منها ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف:٧٩] لقد كانت السفينةُ لفقراءَ مساكينَ، وكانت هذه السفينةُ هي مصدرُ رزقهم، فأرادَ الخضرُ أن يعيبَ تلكَ السفينةِ بخلعِ أحدِ ألواحِها لأنَّ وراءَهم، أي: أمامهم مَلِكٌ غاشمٌ ظالمٌ يأخذ كلَّ سفينةٍ صالحةٍ لا عيبَ فيها غصباً، أي: قَهْراً وعُنْوَة.

وكلُّ من عرف السببَ وراءَ هذه الواقعةِ يعلم أنَّ الخضرَ وإنْ أضرَّ بالسفينة شيئاً ما، إلاَّ أنَّه نَفَعَ أصحابَها، فكانَ إفسادُه القليلُ لها تخليصاً لها مِنَ يد الظلمةِ الطغاةِ.

وأمَّا الغلامُ فقد كان يعلمُ ربُّ العزة أنه عندما يكبرُ سيكونُ كافراً، وقد كانَ والداه مؤمنين، فإذا كَبِرَ أرهقَهما طغياناً وكفراً، فأرادَ الخضرُ بقتله أن ينجي أبويه مِن شرِّه، وأرادَ أن يبدِّلَ اللهُ والديه ذريةً صالحةً خيراً مِنَ الغلام المقتولِ الكافرِ وأقربَ رحماً، ولا شكَّ أنَّ الأبوين يومَ الدينِ سيشكران الله رَبَّهما على تخليصهما مِنَ الكفرِ والعنتِ بسبب موتِ ابنهما قبلَ أن يكبرَ

ويرهقهما كُفْراً ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف:٨٠-٨١]، وقولُه: ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ و«الرحم، هي القرابةُ، وهي أبلغُ مِن الرحمةِ التي هي رقَّةُ القلبِ، لأنَّها تستلزمها غالباً مِنْ غيرِ عَكْسٍ» [فتح الباري: ٨/ ٥٣٩].

وأخبرَ الخضرُ موسى عليه السلام أنَّ الجدارَ الذي أقامَ ميلانَهُ، ومنعَ مِنْ خرابِهِ كان لغلامين صغيرين في المدينة التي منعتْ عنهما الضيافةَ، وكان أبوهما الصالحُ قد خبَّأَ قبلَ وفاتِهِ كنزاً تحتَ ذلكَ الجدارِ، ولو تركَهُ الخضرُ حتى سَقَطَ، فإن الكنزَ يظهرُ، ولا يستطيعُ الولدان الصغيران حفظَهُ، ودفعَ أيدي الظلمة عنه، فأرادَ اللهُ بإصلاحِ ذلك الجدارِ أن يحفظ المالَ إلى أنْ يبلغَ الوَلَدان أشدَّهما، ويستخرجا كنزَهُما، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ [الكهف:٨٢].

وعَقَّب الخضرُ على ما فَعَلَهُ وعلى تفسيرِهِ للوقائعِ التي قام بها بقولِه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف:٨٢]، أي: هذا الذي فعلتُهُ هو مِنْ رحمةِ الله تعالى بأهلِ السفينةِ، وبوالدي الغلامِ الذي قتلتُه، وولدي الرجلِ الصالح، و﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾ أي: لم أفعل ما فعلته من تلقاءِ نفسي، ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ أي: هذا تفسيرُ ما ضِقْتَ بِهِ ذرعاً، ولمْ تصبرْ حتى أخبرَكَ بِهِ، وأفسِّره لَكَ.

٨- رسولُنا ﷺ تمنَّى لو أنَّ موسى صبرَ حتَّى يرينا عجائبَ أخرى للخضرِ:

تمنى نبيُّنا ﷺ لو أنَّ موسى صبرَ على ما اشترَطَهُ عليه الخضرُ، ليرينا بَعْضاً مما يجريه على يَدَيْه، فقد قالَ ﷺ بعد أن قصَّ قِصَّتهما: «يَرْحَمُ اللهُ موسى، لو كانَ صبرَ لَقَصَّ عَلَيْنا مِنْ أمْرِهما» [البخاري: ٣٤٠]، وفي رواية: «يَرْحَمُ اللهُ موسى، لوَدِدْنا لوْ أنَّه صَبَرَ حتى يَقُصَّ عَلَيْنا مِنْ أمْرِهِما» [البخاري: ١٢٢].

٩- الخضرُ ماتَ كما ماتَ غيرُهُ:

قصةُ موسى عليه السلام لمْ تردْ في القرآنِ في غير هذ الموضعِ، ولم يردْ عنها في صحيح السنَّةِ النبويةِ غير ما شرحَ به الرسولُ ﷺ هذه الآياتِ، وقد خاضَ بعضُ العلماءِ في أمرِ هذه القصةِ خوضاً بعيداً عن الصوابِ معتمدينَ في ذلك على أقوالٍ ورؤى ومناماتٍ وأحاديثَ غيرِ صحيحةٍ، وبعضُ هؤلاءِ مِن أهلِ العلم والتحقيق، فمنهم القرطبيُّ في تفسيره، والنوويُّ في

شرحِهِ على مُسْلم، وابنُ الصلاح، وكلهم ذهبوا إلى أنَّ الخضرَ حيٌّ لم يَمُتْ، والدليلُ على عدم صحة هذا القول أُمورٌ:

١ - لم يثبت حديثٌ واحدٌ صحيحٌ مرفوعٌ إلى الرسولِ ﷺ يُصَحِّحُ هذا القولَ.

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء:٣٤] ولم يردْ ما يُخَصِّصُ هذا النصّ إلاَّ رجلان: الأول: عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام ، فقد أخبرنا ربُّنا أنَّه لم يُقْتَل ولم يُصْلَبْ، بل رفعه اللهُ إليه، فهو حيٌّ في السماء.

والثاني: المسيحُ الدجال، فقد وَرَدَ في حديثٍ رواه مسلم في صحيحه أنَّه حيٌّ، وسيبقى حيّاً إلى آخرِ الزمان، وسيقتلُه عيسى ابنُ مريم بعدَ وقوعِ فتنتِهِ.

٣- لو كان الخضرُ حيّاً بعد بعثة الرسول ﷺ لكانَ يجبُ عليه أن يأتي الرسولَ ﷺ ، ويتَّبِعَه، فقد أخذ اللهُ العهدَ على الأنبياءِ والرسلِ إذا بُعِثَ رسولُنا في عهد أيٍّ واحدٍ منهم أنْ يتركَ ما هو عليه ويتبعَه ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١]، وجاءَ في السنَّة النبوية أنَّ الرسولَ ﷺ قالَ: لو كان أخي موسى حيّاً ما وسِعَه إلاَّ اتباعي، وصحَّ أيضاً أنَّ عيسى عليه السلام عندما ينزلُ في آخرِ الزمانِ، يتبع رسولَنا ﷺ ويحكم بالقرآنِ، ويصلي صلاةَ أُمَّةِ محمدٍ ﷺ .

٤- ثبت في صحيح مسلم أنَّ الرسولَ ﷺ قالَ في معركةِ بدرٍ: «اللهمَّ إن تهلكْ هذه العصابةُ، فلن تُعْبَدَ في الأرضِ». فلو كان هناك أحدٌ غيرهم على الإسلامِ لما صحَّ أن يقولَ الرسولُ ﷺ هذا القولَ.

٥- أخبرنا الرسولُ ﷺ أنَّه لن يبقَى أحدٌ حيّاً على رأسِ مائةِ سنةٍ من الليلة التي تحدَّث فيها الرسولُ ﷺ فوقَ ظهرِ الأرضِ. والحديث في البخاري (١١٦) ومسلم (٢٥٣٧).

أمور أخرى تنسبُ إلى الخضر والخضرُ منها براءٌ:

ومِنَ المسائلِ التي خاضَ فيها بعضُ أهلِ العلمِ بغير دليلٍ صحيح يستند إليه:

١- نَسَبُ الخضرِ، فزعم بعضُهم أنه من أولادِ آدمَ لصلبِه، وزعَمَ آخرون أنَّه ابنُ قابيلَ، وزعمَ بعضُهم أنَّه الحفيدُ الرابع لنوحٍ عليه السلام ، وكلُّ هذه الأقوال لا يوجدُ دليل صحيحٌ يدلُّ على صحةِ واحدٍ منها.

٢- وزعم آخرون أنَّ الخضرَ لا يُرى بالأبصارِ، فهو كالملائكةِ والجنِّ محجوبٌ عن العيونِ، وكل هذا مِنَ الخرافاتِ والأساطيرِ التي لَمْ يصحَّ فيها شيءٌ.

٣- وذهب بعضُ الضالينَ الذين لا نصيبَ لهم مِنَ العلمِ والهدى إلى أنَّه يجوز فعلُ بعضِ المحرماتِ كارتكاب الفواحشِ وشربِ الخمرِ وضربِ الناسِ، ثمَّ يزعمون أنَّ حالهم في ذلك كحالِ الخضرِ، فهم بالزنا يردُّون المصائب التي تقع ببعضِ الناسِ، ويزعمون أنَّ الخَمرَ تتحول في بطونِهِمْ إلى مسْك، وهم في ذلكَ كلِّه يهرفون بما لا يعرفون، ويُضِلُّون عبادَ الله، ويكذبون، ومن فعلَ مثله استحقَّ مِنَ الإهانةِ بما حَكَم الشرعُ في مِثْله، فبعدَ بعثةِ محمدٍ ﷺ الناسُ جميعاً محكومونَ بأحكامِ الشرعِ، فمن تعدَّى ذلكَ استَحَقَّ العقوبةَ.

رابعا: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النصِّ نجدْها تهدينا إلى ما يأْتي من علمٍ وعمل:

١- يستحبُّ للعالمِ مهما علا كعبهُ في العلم إنْ سئل عن الأعلَم أن يقول: اللهُ أعلَم، ولذا فإنَّ اللهَ تعالى عَتَبَ على موسى عندما سُئل عن الأعْلم، فأخبر أنَّه الأعْلَمُ.

٢- استحبابُ الرحلةِ في طلب العلم كما فعل نبيُّ الله موسى عليه السلام في رحلته إلى العبدِ الصالحِ.

٣- لا يجوز أنْ يمنعَ المرءَ كبرُ سِنِّه، وسعةُ علمِهِ من الرحلةِ في العلمِ وطلبه، فنبيُّ الله موسى كان قد كبر سِنُّهُ، واتَّسع علمُه، ومع ذلك رحَلَ في طلبِ العلمِ.

٤- مشروعيةُ ركوبِ البحرِ كما فعَلَ موسى والخضر عندما رَكِبا السفينةَ.

٥- يستحبُّ أن يتزودَ المسافر لسفره، كما فعل موسى وفتاه، فقد كان معهما زادٌ يتناولان منه حاجتهما في سفرِهما.

٦- التواضعُ خُلقٌ مرضيٌّ محمودٌ، فنبي الله موسى عليه السلام ، لم تَمْنَعْهَ منزلتُهُ في العِلمِ مِن الرحلةِ إلى مَنْ عنده عِلْمٌ ليس عند موسى مِثْلُهُ.

٧- يجوز أن يصحب العالمَ بعضُ الذين يرجون الثواب بصحبته للقيام على أمره ومعونته، كما صحب يوشعُ بنُ نونٍ موسى عليهما السلام.

٨- على المسلمِ إذا عَزَمَ على فعلِ الخيرِ أن يكون له هِمَّةٌ عاليةٌ في تحقيق ما عَزَمَ عليه، كما كان مِنْ عزم موسى الجازمِ على بلوغ مجمعِ البحرين للقاءِ العبدِ الصالح.

٩- جعل اللهُ تعالى لموسى وفتاه آيةً تدلهما على الموضع الذي يجدان فيه الخضر، فقد أحيا لهما الحوت، فاضطرب وسقط في البحر، وأصبح البحرُ جامداً حوله كالسَّرب، يدلُّ مَجْراهُ فيه على مسيرهِ الذي ساره.

١٠- النسيانُ مِنَ الشيطانِ، وهو يقعُ لبعض الصالحين، كما وقع لفتى موسى، ولموسى أيضاً.

١١- ثناءُ الله على العبدِ الصالح الذي رحل إليه موسى ليأخذ عنه العلم.

١٢- إذا أرادَ طالبُ العلمِ أن يصحبَ عالماً، فعليه أن يستأْذِنَه في ذلك، كما استأذن موسى الخضرَ في أن يصحبَه ويلزمه.

١٣- كان الخضر يَعْلَمُ أنَّ موسى عليه السلام لا يطيقُ صحبته، لأنَّ موسى لا يصبرُ على تركِ الإنكار إذا رأى ما يخالف الشرع.

١٤- وَعَدَ موسى الخِضْرَ بأن يصبرَ على ما يراه منه، ولا يسْأَله عن ذلكَ، ثمَّ تبين له خطأ ظنِّه، فلم يُطِقْ صبراً على ما فعلَهُ الخضرُ.

١٥- كان عدد المؤمنين في الأرضِ التي فيها الخضرُ قليلٌ، لأنَّه قال لموسى لمَّا سلَّم عليه «أنَّى بأرْضِك السلامُ».

١٦- الأنبياءُ والرسل يَنْسَونَ، فقد نسي نبي الله موسى ما وعد به الخِضْرَ من عدم سؤاله عن شيءٍ حتى يحدث له منه ذكراً، والنسيانُ لا ينافي العصمةَ عند الأنبياء.

١٧- كان الخضر نبيًّا، لكونه لم يفعل إلاّ ما شرع اللهُ له، وأذن اللهُ له به. ولم يكن الخضر يعلم من الغيب إلا ما عرفه الله، ولذلك لم يعرف موسى عندما وصل إليه.

١٨- لا يجوز فعلُ ما يخالِفُ الشرعَ بدعوى أنَّ المخالفَ للشرع يقوم بمثل ما قام به الخِضْر، فنحن أمةَ محمد ﷺ محكومون بالشرع الذي جاءَنا، ولا تجوز لنا مخالفته.

١٩- كان الخضرُ يفعل أموراً يظنُّ الناظر فيها عَدَمَ صحة فِعْلِها، ولكن بعد علم المرء بما خفي عليه منها يعلمُ أنَّ لها وجهاً صحيحاً.

٢٠- كان في الأرضِ في عهد موسى وهارونَ أنبياءُ ورجالُ صالحون من غير بني إسرائيل، فمِنْ هؤلاء الخِضْرُ، ومنهم والدُ الغلامين الذي خبَّأ الكنزَ تحتَ الجدارِ.

٢١- كان من عادةِ الناس منذ القدم دفنُ أموالِهِمْ مِنَ الذهب والفضة إذا خافوا ضياعَ المالِ والاعتداءَ عليه، كما فعلَ الأبُ الصالحُ والدُ الغلامين.

٢٢- كان ركوبُ السفن، ونقلُ الناسِ وأمتعتهم فيها بالأجرة معروفاً مِنْ قديمِ الزمان.

٢٣- كان مجمعُ البحرين الذي قصد إليه موسى لمقابلةِ الرجلِ الصالح عامراً بالناسِ، فيه مدنٌ، وكان أهلها يتكلمون اللغةَ التي يتكلمُ بها موسى.

٢٤- على العالم أن يُفَسِّرَ لَمنْ يَتَّبِعُهُ للتعلمِ منه ما أَشْكَلَ عليه مِنَ الأمورِ، كما فعل الخِضْرُ مع موسى عليهما السلام.

٢٥- قد يبتلي اللهُ عبادَه بالشدائدِ والمصائبِ، وقد يكون وراءَها خيرٌ كثيرٌ، كما ابتلى أصحابَ السفينةِ بعيبِ سفينتهم، فأنجاها اللهُ من الغصب، وكما ابتلى والدي الولدِ الذي قتلَهُ الخضرُ، فحفظ إيمانهما، ورزقهما خيراً منه.

٢٦- قد يحفظُ اللهُ الأبناءَ بصلاحِ الآباءِ، فاللهُ حفظَ مالَ الولدين حتى بلغا أشدَّهما، واستخرجا كنزهما بصلاحِ أبيهما.

٢٧- قد يكونُ بعضُ الناسِ فيهم خُلُقٌ ذَميمٌ، كما كان أهل القرية الذين استضافهم موسى والخضر بخلاء.

٢٨- تأثَّر المسلمون مِنْ هذه الأمة بهَدْيِ موسى عليه السلام في رحلتِهِ بطلب العلم، فقد انتشر علمُ الرسولِ ﷺ في أقطارِ الدولةِ الإسلامية بانتشارِ الصحابةِ فيها، فرحل طلبةُ العلم إلى مختلف أقطار الدولة، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني روايات حديثية تدلُّ على أنَّ الرحلة في طلب الحديثِ قام بها بعضُ الصحابة [راجع فتح الباري: ١/ ٢٢٩]، ولكنَّ الرحلة في طلب الحديث توسعت بعد عهد الصحابة.

النص القرآني التاسع من سورة الكهف
قصة ذي القرنين

أولاً: تقديم

حدَّثنا اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ عن قصةِ ملكٍ مِنَ الملوك كان في الزمان القديم، طاف في الأرضِ بجيوشِهِ الجرارةِ، فنشرَ التوحيدَ، وأقامَ العدلَ، وقامَ بإصلاحاتٍ عظيمةٍ للناس في الأرضِ، وبنى السَّدّ العظيمَ على يأجوج ومأْجوج، ولم يُحدِّثنا الله عنه في غير هذا الموضع، وليس لدينا من خبرٍ صحيحٍ عنه غير ما حدَّثنا به في هذه الآياتِ، فإنَّه كان في فترة موغِلةٍ في القِدَم في التاريخ الإنسانيِّ، لم يدوِّن بنو الإنسان أحداثها ووقائعها، والذين زعموا أنَّ ذا القرنين هو الإسكندرُ المقدونيُّ الكافرُ المشركُ أو غيره مِنْ البشر أخطؤوا كثيراً، وحسبنا أنْ نتدبَّرَ آياتِ هذا النصِّ، ونستفيدَ مما حوتْهُ منَ العلم، فهي العلمُ الصحيحُ الذي عرَّفنا اللهُ فيه بذي القرنين.

وقد ذهبَ بعضُ أهلِ العلم مِن المتأخرين إلى أنَّ ذا القرنين هو «كورش» أو «قورش»، ومنْ قال بذلك العلاَّمةُ الهنديُّ «أبو الكلام آزاد» [انظر: مقالَ الدكتور عبدالمنعم النمر في مجلة العربي الكويتية، عدد: ١٨٤ سنة ١٩٧٤].

و«كورش» هذا مؤسسُ الدولةِ الفارسيةِ، في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، توفي عام (٥٢٩) قبلَ الميلادِ، وقد ساحَ في الأرضِ، وكوَّنَ دولةً عظيمةً، على مدى ٢٥ سنة، وكانتْ دولتُه تمتدُّ عند وفاته مِنْ شواطئِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ الشرقيةِ حتى حدودِ الصينِ والهندِ شرقاً، وكانت تضمُّ: آسيا الصغرى، وبلادَ الشامِ، والعراق وإيرانَ والسندَ، وبلاد ما وراء النهر «التركستان».

وهذا القولُ محتملٌ للصواب، فإنهم يقولون: إنَّ «كورش» كان مُوَحِّداً، ولكننا وإنْ كنا غير متأكدين مَنْ يكون ذا القرنين إلا أننا متأكدون أنّ رسولنا ﷺ حَدَّثنا عن ربِّنا بها لا يعرفُ عنه البشرُ إلاَّ القليل.

ولم يأتنا دليلٌ صحيحٌ يدلُّ على السببِ الذي سمي به هذا الملك بذي القرنين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ

قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف:٨٣-٩٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الله يقصُّ علينا طرفاً مِنْ أخبار ذي القرنين:

قال اللهُ تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الكهف:٨٣]، أي: يسألك يا محمدُ بعضُ الناسِ عن ذي القرنينِ ما كانَ شأْنُهُ، وما كانتْ قِصَّتُه، فقُلْ لهم: سأتلو عليكم منه ذِكْراً، يقولُ: سأقصُّ عليكم منه خبراً.

وسؤالُ الناسِ للرسول ﷺ عن ذي القرنين يدلُّ على أنَّ بعضَ الناسِ كان عندهم خبرٌ عنه، ولكنَّه لم يكن صافياً واضحاً، فجاءَنا اللهُ تعالى بالحقِّ مِنْ خبره.

٢- تمكينُ الله تعالى لذي القرنين في الأرض:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه مَكَّنَ لذي القرنين في الأرضِ وآتاهُ مِنْ كلِّ شيءٍ سبباً ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [الكهف:٨٤]، والتمكينُ له في الأرضِ يكونُ بإيتائه القوةَ والغلبةَ، وإخضاعِ الملوكِ والسلاطين له، وقُدْرَتِهِ على السَّير في الأرضِ بجيوشِهِ الجرَّارَة، وإعطائه من كلِّ شيءٍ سبباً، والمرادُ بالسببِ العلمُ الذي يستطيع أن يبلغَ به المكانَ الذي يريدُه، ويقهر مَنْ يناوِئُه ويقاتِلُهُ.

٣- بلوغُ ذي القرنين أقصى الغرب:

حَدَّثنا ربُّنا أنّ ذا القرنين استطاعَ الوصولَ إلى مغرب الشمس، ثم إلى مطلع الشمس، ثم إلى ما بين السدين، فارتحلَ، أولاً وسار إلى أقصى ما يمكنُ بلوغُه في جهةِ الغربِ، ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن

تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف:٨٥-٨٨].

والسببُ الذي اتَّبَعَهُ ذو القرنين الطريقُ المسلوكةُ التي توصله إلى المكانِ الذي يريدُهُ فأوصله إلى المكانِ الذي تغيبُ فيه الشمسُ بحسبِ ما يرى الناظرُ، فقد وَجَدها تغيبُ في عينٍ حَمِئةٍ، والعينُ الحمِئَةُ: الطِّينُ الأسودُ، ووجدَ في ذلك المكانِ الذي وصل إليه أقواماً وأُمماً.

فقال الله تعالى له: يا ذا القرنين إمَّا أنْ تُعَذِّبَ هؤلاءِ الأقوامِ، وإمَّا أنْ تتخذَ فيهم حسناً، وحدَّثنا ذو القرنين عن المنهج الذي سيأخذُ به الأمم التي سيلتقيها في ذلك المكان وفي غيره فالظلمةُ الكفرة سيأْخذُهُمْ بالعذابِ والقتلِ، ثمَّ يردُّون إلى الله، فيعذِّبهم عذاباً نكراً، أي: شديداً.

وأما الذين يؤمنونَ ويعملون الصالحاتِ فلَهُمْ منه الجزاءُ الحسنُ، وسيقولُ لهم مِنْ أمْرِه يسراً.

وهذه الآيات تدلُّ على أنَّ ذا القرنين كان مؤمناً، وجيشُه كان كذلك مؤمناً، وكان يعذِّبُ ويقتلُ الكفرة المشركين، ويكرمُ المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ولم يكنْ في شَرْعِه وضعُ الجزيةِ على الكفارِ.

واستدلَّ بعضُ أهلِ العلم بنداء الله تعالى له على أنَّه نبيٌّ، وهذا غيرُ قويٍّ، فقد يكونُ اللهُ ناداه بواسطةِ نبيٍّ مِنَ الأنبياءِ، وقد تَرَدَّدَ رسولُنا ﷺ في إثباتِ نبوتِهِ، وأخبرنا أنَّه لا يدري أنبيًّا كان أو ليس بنبيٍّ.

٤- ذو القرنين يبلغ مطلع الشمس:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ ذا القرنين بعد أن بلغَ أقصى الغرب، اتَّجه في طريقِهِ إلى الشرقِ، فوصلَ إلى أقصى الشرقِ، وبلغَ مَطْلَعَ الشمس، ووجدَ أنَّ الشمسَ هناك تطلُع على قومٍ لَمْ يجعل اللهُ لهم مِنْ دونها سِتْراً ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾ [الكهف:٨٩-٩١].

وذكرَ بعضُ المفسِّرين أنَّه بلغ أرضاً لا يستقرُّ عليها بناءٌ، وليس لأهلها بيوتٌ تُظِلُّهم، وليس لديهم أشجارٌ، ولا جبالٌ، والذي يظهرُ لي أنَّه بلغَ أرضاً تبقى فيها الشمسُ مدةً طويلةً ظاهرةً لا تغيبُ ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾، ففي بعضِ الأرض في جهة الشرق قد تبقى الشمسُ مقدارَ نصفِ السنةِ أو أكثر ظاهرةً لا تغيبُ.

وقوله عَزَّ وجلَّ ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾ أي: نحن مُطَّلعونَ على أحوالِهِ وأخبارِهِ وأحوالِ جيشه، مِنَ الجندِ والآلاتِ، وما يواجهه مِنَ الأعداءِ والمشكلاتِ، لا يخفى علينا مِنْ ذلك شيءٌ.

٥- ذو القرنين يصلُ إلى ما بين السدين:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ ذا القرنين سَلَكَ في رحلتِهِ الثالثةِ طريقاً أوْصَلَهُ إلى ما بين السَّدَّين، فوجدَ هناكَ قوماً لا يكادون يفقهونَ قَوْلاً، وحدَّثنا عمَّا جرى بينه وبينهم، فقال: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الكهف:٩٢-٩٤].

أخبرنا ربُّنا أنَّ ذا القرنين أَتْبَعَ طريقاً بعدَ بلوغِهِ مطلعَ الشمسِ أوصله إلى ما ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾، واللهُ أعلم بموضع ما بين السَّدين، فوجد هناك قوماً لا يكادون يفقهون كلامَ مَنْ يكلمهم، وكانوا مجاورين ليأْجوج ومأْجوج، فَشَكَوْا إليه ما يعانونَهُ مِنْ فسادِ يأْجوج ومأْجوج، فقد كانوا يخرجون عليهم، فينهبون أموالَهُمْ، ويدمِّرون حَرْثَهم، ويقتلون منهم، وعَرَضُوا عليه أن يجعلوا له خرْجاً ليقيم بينهم وبين يأجوج ومأجوج سَدّاً، والخَرْجُ والخراجُ شيءٌ واحدٌ، وهو شيءٌ يخرجُهُ القومُ مِنْ أموالِهِمْ بقدْرٍ يحدِّدونه، فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الكهف:٩٥] قال لهم: ما بَسَطَ لي ربِّي مِنَ القدرةِ والملكِ خيرٌ مِنْ خرجكم وأموالِكُم، ولكن أعينوني بما عِنْدكم من قوة، حتى أُقيمَ بينكم وبينهم رَدْماً، والرَّدْمُ أعظمُ مِنَ السدِّ، فالسدُّ ما يسدُّ به المكان، والردمُ وَضْعُ كُتَلٍ مِنَ الحجارةِ والترابِ في المكان المقصود، حتى يقوم حاجزٌ حصينٌ، يكون كالجبلِ العظيمِ.

٦- ذو القرنين يقيم رَدْماً عظيماً مِنَ الحديدِ والنحاس:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ ذا القرنين استجابَ إلى ما طلبه منه القومُ الذين لا يكادون يفقهون قولاً، فاستخدمَ ما لديه مِنْ علمٍ وقوةٍ في صناعةِ حاجزٍ عظيمٍ مَنَعَ يأجوجَ ومأجوجَ مِنَ الخروجِ والإفسادِ ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الكهف:٩٦-٩٧].

طلبَ ذو القرنين مِنَ القومِ الذين أرادوا منه إقامةَ السدِّ أن يأتوه بزُبَرِ الحديدِ، وزُبَرُ الحديدِ جمع زُبْرَة، وهي قطعةٌ ضخمةٌ مِنَ الحديد، فكان يضع هذه القطع بين صَدَفَيْ الجبلين،

والصَّدَفانِ هما طرفا الجبلين، الواحدُ منهما صَدَفٌ، فإذا استوى ما بينَ الصَّدَفين وامتلأَ ما بينهُما بالحديد وضع بينهما الفحم والأخشابَ، ثم أمرَهُمْ أن ينفُخُوا بآلاتٍ على الحديدِ، حتى يجعلَهُ كالنارِ، عند ذلك كان يأتي بالقطرِ الذي أذابَهُ حتى يصبحَ سائلاً كالماءِ، فيَصُبَّه فوقَ الحديدِ المحمِي، فيصبحَ قطعة واحدة يصعبُ كَسْرها أوْ اختراقُها، ولذلك قال ربُّنا -تبارك وتعالى-: ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَـرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ أي: فما استطاعَ يأجوجُ ومأجوج أنْ يظهروه بالصعودِ عليه لارتفاعه وملاسَتِهِ، وما استطاعوا أن يخترقوهُ بنقبه لثخانته وصلابته.

٧- ما قاله ذو القرنين أمامَ السدِّ بعد إتمامِهِ له:

أخبرنا ربّنا -تبارك وتعالى- أنَّ ذا القرنين وقفَ بعد إتمامِهِ بناءَ السدِّ أمامَ السدِّ فـ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف:٩٨].

أي إنَّ هذا الرَّدْمَ الذي أقمتُه رحمةٌ مِنْ ربِّي، أي: بناؤُه بهذه القوةِ والمتانةِ هو من رحمة الله تعالى، وأخبرَ أنَّ هذا السدَّ سيبقى قائماً حتى قربِ يوم القيامةِ، وعند ذلك يزيله ربُّ العباد، ويجعلُه دكَّاءَ، أي: مدكوكاً متهدماً، وسيسويه بالأرضِ، ويخرجُ عند ذلك يأْجوجُ ومأجوجُ، ويمتلئُ بهم السهلُ والجبلُ، ويصلون إلى أرضِ فلسطين كما أخبرنا رسولُ الله ﷺ، وذلك بعد نزولِ عيسى ابنِ مريمَ مِنَ السماءِ، وقضائِه على فتنةِ الدَّجال، ويقضي اللهُ تعالى على يأْجوج ومأْجوج بعد ذلك، ولا يبقى منهم أحدٌ، ويُطَهِّرُ الأرضَ منهم جميعاً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- ذو القرنين مَلِكٌ عظيمٌ صالحٌ وصلَ إلى مغاربِ الأرضِ ومشارقها، ودعا إلى التوحيدِ، وحاربَ الشركَ، وأقامَ العدلَ، وقامَ بإصلاحاتٍ عظيمة، أعظمها بناؤُه السدَّ على يأْجوج ومأْجوج.

٢- بلغ ذو القرنين في تطوافِهِ مغربَ الشمسِ، وعذَّبَ الكفارَ الذين وجدهم هناك، وأكرم الذين تَقَبلوا الإيمانَ وعملوا الصالحاتِ.

٣- وصلَ ذو القرنين في تطوافِهِ إلى مطلعِ الشمسِ، حيث تبقى الشمس هناك ظاهرة لا تغيب زماناً طويلاً، يزيد على منتصفِ العام.

٤- بنى ذو القرنين السدَّ على يأجوج ومأجوج بطلبٍ مِنْ جيرانهم، فمَنَعَ مِنْ خروجهِمْ وإفسادِهِمْ، وسيبقون محصورين وراءَه إلى أن يُهْدَمَ السدُّ ويزولَ قربَ يومِ القيامة، فيخرجون ويملؤون الأرضَ بعددِهم وفسادِهم.

٥- بَيَّنَ اللهُ تعالى لنا الطريقةَ التي بنى بها ذو القرنين السدَّ، فقد جعله مِنْ حديدٍ أحمي بالنارِ، وَصَبَّ عليه النحاسَ المذابَ؛ فأصبح قطعة واحدة.

٦- كان ذو القرنين حاكماً صالحاً عادلاً، وهو مثالٌ للمَلِكِ الذي تَنْعَمُ به البشريةُ أثناءَ حكمِه بالخيرِ والصلاحِ، ومِنْ صلاحه أنَّه لم يَفْخَرْ ولم يَبْطَرْ بعد إقامتِهِ السدَّ، ولكنه نسب الفضل إلى صاحبه، وهو اللهُ سبحانه.

٧- يعجب كثير مِنَ الناسِ بسبب عدمِ العثورِ على سدِّ يأجوج ومأجوج اليوم، فالأرضُ أصبحت كلُّها معروفةً، ظاهرةً مكشوفةً، والجوابُ: أنَّ السدَّ مبنيٌّ على شكلِ رَدْم، أو جبلٍ مِنْ الجبال أو تلَّة من التلالِ، ويأجوجُ ومأجوجُ في باطنِ الأرضِ، بدليل ما أخبرَ به الرسولُ ﷺ أنَّهم في يوم خروجهم يحفرونَ حتى يكادونَ يرون ضوءَ الشمسِ.

النص القرآني العاشر من سورة الكهف
حالُ الكفارِ والمؤمنين في يوم الدين

أولاً: تقديمٌ

حَدَّثَنا ذو القرنين في الآية الأخيرة من النص السابق أنّه بعد أنْ أَتَمَّ بناءَ السدِّ على يأجوجَ ومأجوجَ، وقفَ أمامَ السدِّ وأخبر أنه سيبقى قائماً إلى أن يقترب وقوعُ الساعةِ، وعند ذلك يجعله اللهُ دَكَّاءَ، ويخرجُ يأْجوجُ ومأْجوجُ على الناسِ، ويعيثون في الأرضِ فساداً، وعند ذلك يترك الله الناسَ يموجُ بعضُهم في بعضٍ، وبعد أنْ يهلكَ اللهُ الناسَ، ينفُخ إسرافيلُ في الصورِ، فيجمعُ اللهُ الناسَ جمعاً.

وبعد حَشْرِ الله للناس، يؤتى بجهنَّم ويعرضُها للكافرين عرضاً، بحيث يرونها، ويشاهدونها، وهؤلاءِ الذين يرون النارَ في يوم القيامةِ كانوا لا يطيقونَ الحديثَ عنها في الدنيا.

ويُحدِثنا اللهُ تعالى عن بعضِ مشاهدِ القيامةِ في ذلك اليوم، وحَدَّثنا عن مصير الكافرين، ومصيرِ المؤمنين في يومِ الدينِ، وحدَّثنا اللهُ في الختامِ عَنْ كثرةِ كلماتِهِ، التي تحتاجُ إلى مدادٍ يزيدُ عن البحرِ كلِّه لو تحوَّلَ إلى مدادٍ لتُكْتَبَ به كلماتُه سبحانه، وهذا يدلُّ على سعةِ علمِ الله تعالى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الكهف

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:٩٩-١١٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مَوْجُ الناس بعضُهم في بعضٍ قبل يوم القيامة:

أخبرنا ربُّنا أنَّه يترك الناسَ يموجُ بعضُهم في بعضٍ قبل قيامِ الساعة، ثم يُنْفَخُ في الصورِ، فيجمعُ اللهُ تعالى الناسَ جميعاً للحسابِ والجزاءِ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾ [الكهف:٩٩]، والمَوْجُ: الاضطرابُ، وماجَ الناس بعضُهم في بعضٍ، دخل بعضُهم في بعضٍ حيارى كموجِ البحر، والصورُ: بوقٌ ينفخ فيه، ففي السننِ عن عبدالله ابن عمرو قال: قال أعرابيٌّ: يا رسولَ الله، ما الصَّورُ؟ قال: «قَرْنٌ يُنْفخ فيه» [الترمذي: ٣٢٤٤. وقال فيه: حديث حسن]. وقد أخبرنا رَبُّنا أنَّ الصورَ يُنْفَخُ فيه مَرَّتان، وأخبرنا عمَّا يقعُ بعدَ كُلِّ واحدةٍ منهما، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨)﴾ [الزمر:٦٨].

وبعد أنْ يجمعَ اللهُ تعالى الأولين والآخرين بين يَدَيْهِ، يُظْهِرُ لهم النارَ ويبرزُها حتى يشاهدَها الكفارُ عياناً ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠)﴾ [الكهف:١٠٠].

وأخبرنا عَنْ الكفارِ الذين يُظْهِرُ لهم النارَ فقال: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾ [الكهف:١٠١]، أعلمنا ربُّنا أنَّ هؤلاءِ الكفارَ الذين أظهرَ لهم النَّارَ حتى يروها قبل أنْ يدخلوها، كانت أعينُهُم في غطاءٍ عن ذكرِ الله، فلا ينظرون فيها، ولا يستمعون إلى حججِ الله وبراهينه، ولا يتأملون ولا يتفكرون فيما أنزله اللهُ إليهم.

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ كيف يؤتَى بالنارِ في يوم الموقفِ العظيم، فعن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ : «يُؤْتَى بالنَّار يومئذٍ، لها سَبْعُون ألْفَ زِمامٍ، مَعَ كُلِّ زمامٍ سبعون ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونها» [مسلم: ٢٨٤٢].

أي: أنَّ عددَ الملائكةِ الذي يَجُرُّونَ النار (٢,٤٠١,٠٠٠,٠٠٠) ملياران وأربعمائة مليون وواحدٍ.

٢- إنكارُ الله تعالى على الكفارِ اتخاذَهُم عبادَه أولياءَ مِنْ دونه:

أنْكر اللهُ -تعالى- على الكفارِ اتخاذَهم عبادَهُ أولياءَ من دونِهِ، أي: معبوداتٍ يعبدونهم مِنْ دونه تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)﴾ [الكهف:١٠٢] والعبادُ الذين اتخذوهم أولياءَ: العزيرُ، والمسيحُ وأشباههم، والحسبانُ الظنُّ، والاستفهامُ في قوله: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ للتقريعِ والتوبيخِ، والأولياءُ: المعبودون.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢﴾ النُّزُلُ: المأوى والمنزلُ، أي: جعل اللهُ النارَ مأوىً ومنزلاً للكفارِ، فهي المحلُّ الذي يقيمونَ فيه.

٣- الأخسرون أعمالاً:

أَمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقولَ للناس سائلاً إيَّاهم: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، أي: قُلْ يا محمدُ للكفارِ مِنَ اليهودِ والنصارى وغيرهم، وفيهم القسيسون والرهبانُ والأحبارُ: هل أُخبركم بالأخسرين أعمالاً، الذين أشركوا بربِّهم، وابْتَدَعُوا في دِينِهِمْ، واجتهدوا في الباطلِ ظانِّين أنَّهم على الحقِّ.

وقد سأل مُصْعبُ بنُ سَعْدٍ، أباه فقال له: عن قوله تعالى: «﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣﴾ هم الحَروريَّةُ؟ قال: لا، هُمُ اليهودُ والنصارى، أما اليهودُ، فكذَّبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى كفروا بالجنةِ، وقالوا: لا طعامَ فيها، ولا شراب» [البخاري:٤٧٢٨].

وقد حكَمَ اللهُ تعالى في هؤلاء قائلاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦﴾ [الكهف:١٠٥-١٠٦].

أولئك، أيْ: الأخسرونَ أعمالاً الذين ضَلَّ سَعيُهُمْ، وهم يحسبونَ أنَّهم يحسنون صُنْعاً، وهم الذين كفروا بآياتِ ربِّهم في كتابِهِ المسطورِ، وفي كوْنِهِ المنظورِ، كما كذَّبوا بلقائِه أي: كذَّبوا بالبعثِ والنشورِ، والجنَّةِ والنَّارِ، فحبطتْ أعمالهم، أي: بطلت بكفرهم، فلا يقيمُ اللهُ لهم يومَ القيامةِ وزناً، أي: عندما يُوزَنونَ، وتوزن أعمالهم في يومِ الدِّين، أي فلا توجدُ لهم أعمالٌ صالحةٌ يستحقون بها وَزْناً، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الأعراف:٨-٩].

وروى أبو هريرة أنَّ الرسولَ ﷺ قالَ: «إنَّه لَيأْتِي الرجُلُ العظيمُ السَّمينُ يومَ القيامةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وقال: اقْرَؤُوْا إنْ شِئْتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف:١٠٥]» [البخاري: ٤٧٢٩. ومسلم: ٢٧٨٥].

٤- منزلُ المؤمنين يومَ الدين:

بعد أنْ بيَّنَ ربُّنا لنا المَنْزِلَ الذي أعدَّه للكافرين، بيَّن لنا المنزلَ الذي أعدَّه للمؤمنين الذين يعملونَ الصالحاتِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨].

فالذين آمنو وعملوا الصالحاتِ أعدَّ اللهُ لهم جناتِ الفردوسِ منزلاً ومستقراً، وأصلُ الفردوسِ البستانُ، أو هو البستانُ الجامعُ لجميعِ الأشجارِ والزروع.

وقيل: هو الجنةُ الملتفَّةُ بالأشجارِ، والأغلبُ عليه العنبُ، وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ الفردوسَ أوسطُ الجنةِ، وأعْلى الجنةِ، وفوقه عرشُ الرحمن، ومنه تفجّرُ أنهارُ الجنةِ، روى أبو هريرة ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ في الجنةِ مائةُ دَرَجةٍ، أعدَّها اللهُ للمُجاهدِينَ في سبيلِ الله، ما بَيْنَ الدَّرَجَتين كما بيْن السماءِ والأرضِ، فإذا سألتم اللهَ فسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أوْسَطُ الجَنَّةِ، وأعْلى الجنةِ -أُراهُ- فوْقُهُ عرشُ الرَّحْمَنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنْهارُ الجَنَّةِ» [البخاري: ٢٧٩٠، ٧٤٢٣].

وقد أخبرنا ربُّنا أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ خالدينَ في تلكِ الجنةِ لا يبغونَ عنها حِوَلاً، أي: لابثينَ فيها أبدَ الآبدين، لا يطلبونَ تحوّلاً ولا انتقالاً عنها.

٥- لو كان البحر حبراً للأقلام التي يكتب بها كلماتُ الله لنفدَ البحرُ قبلَ أن تنفَدَ كلماتُ الله:

أمَرَ الله -تعالى- رسولَهُ أنْ يقولَ للناسِ لوْ تحوَّلَ البحرُ إلى مِداد، أي: حبرٍ للأقلامِ التي تكتبُ بها كلماتُ الله تعالى، لنَفِدَ البحرُ قبل أن تنفدَ كلمات الله عزَّ وجلَّ، ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف:١٠٩] أي: ولو جئنا بمثل البحر بحاراً أخرى زيادة له.

وقد أنبأنا ربُّنا في موضعٍ آخر إلى ما هو أعظمُ مِنَ ذلك، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان:٢٧].

والمرادُ بكلماتِ الله التي نزل بها الشرعُ، وخلقَ بها الخلقَ، ومنها الكلماتُ التي خلقَ بها السمواتِ والأرضَ والإنسانَ والحيوانَ والنباتَ والجنَّ وغيرها.

٦- رسولُنا ﷺ بَشرٌ اختصَّه اللهُ بالوحي:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يقولَ للناس: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

فرسولُنا ﷺ وجميعُ الرسلِ والأنبياءِ هم مِنْ البشرِ، لهم آباءٌ وأمهاتٌ، باستثناءِ عيسى، فقد كان مِنْ أمٍّ بلا أبٍ، وكانوا يأكلونَ ويشربونَ كما يأكلُ البشرُ ويشربون، وكانوا يَفْرَحُونَ ويألمون، وينامونَ، ويتزوجون، ويولدُ لهم، وكلُّ الذي ميَّزَهُم عَنْ غيرهم أنَّ الوَحْي يأتيهم مِنْ عندِ الله، بأنَّ اللهَ هو إلهُنا ومعبودُنا، فمَنْ كان يبتغي ثوابَ الله وأجْرَه، فعليه أنْ يعملَ الصالحاتِ، ولا يشركَ بعبادةِ ربِّه أحداً.

وهذه الآية تأمرُ العبادَ بعبادةِ ربِّهم وَحْدَهُ لا شريكَ له، وتنهى عن الشركِ والرياءِ، وقَدْ رَوَى أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ يرويه عن ربِّه -عزَّ وجلَّ- أنَّه قالَ: «أنا خيرُ الشركاءِ فمَنْ عَمِلَ عَمَلاً فأشْرَكَ مَعِيَ فيهِ غيري، فأنا مِنْه بَرِيءٌ، وهو للذي أشْرَكَ» [مسند أحمد: ٧٩٩٩. وإسنادُه صحيح على شرط مسلم]. وعن أبي هريرة قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «قالَ اللهُ -تبارك وتعالى-: أنا أغْنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أشْرَكَ فيه معيَ غيْرِيَ، تَرَكْتُه وشِرْكَهُ» [مسلم: ٢٩٨٥].

وعن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ يُرائي يُرائي اللهُ بِهِ، ومَنْ يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللهُ به» [الترمذي: ٢٣٨١. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- إخبارُ الله -تعالى- عن حالِ الناسِ في آخرِ الزمان، فهم عددٌ كثيرٌ، يموجُ بعضُهم في بعضٍ كموجِ البحرِ.

٢- بعد أنْ يُهْلِكَ اللهُ العبادَ في آخرِ الزمانِ، ينفخُ إسرافيلُ ﷺ في الصورِ، فيقومُ الناسُ كُلُّهم أحياءً، ويحشُرُهم جميعاً بَيْنَ يَدَيْه.

٣- يأْتي ربُّ العباد بالنارِ يومَ القيامةِ، وتُعْرِضُ للكافرين ظاهرةً بارزةً، يرونها ويشاهدونها.

٤- الكفارُ الذين تُعْرض لهم النارُ هم الذين لم يكونوا قادرينَ على إبصارِ الحقِّ، ولا سماعه في الحياةِ الدنيا، فيصبحونَ في الآخرةِ قادرين على ذلك.

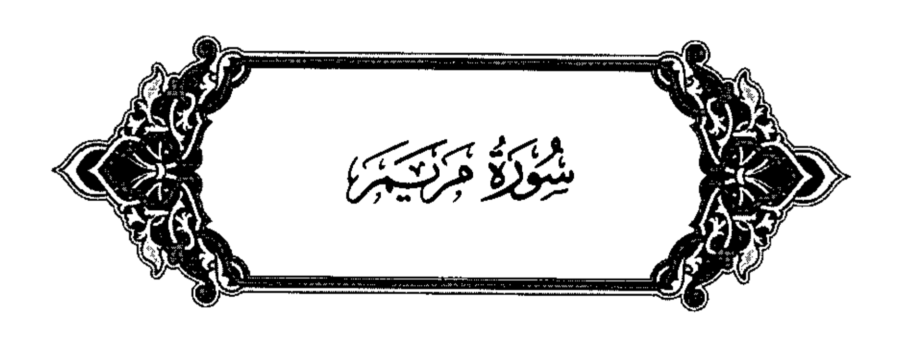
٥- ذمَّ اللهُ تعالى الكفارَ الذين اتخذوا عبادَ الله الصالحين آلهة يعبدونها مِنْ دون الله تعالى، كالذين عَبَدُوا المسيحَ وعبدُوا العزيرَ، وعبدوا الصالحين مِنَ الأمواتِ وقد تهدَّدَ اللهُ تعالى هؤلاءِ بالنار.

٦- الأخسرون أعمالاً الذين بَطَلَ ما عملوه في الدنيا هم الذين كفروا بآيات الله والبعثِ والنشورِ، فأعمالُهم في الآخرةِ باطلةٌ، ولا يقيمُ اللهُ لهم يومَ القيامةِ وزناً.

٧- المؤمنون الذين يعملونَ الصالحاتِ منزلُهم يومَ الدين جناتُ الفردوسِ، وهم في تلك الجناتِ راضون، لا يطلبون التحوُّلَ عنها.

٨- كلماتُ الله التي شَرَعَ اللهُ بها الشرائعَ، وخَلَقَ اللهُ بها الخلائقَ أعظمُ وأكثرُ مِنْ أنْ تحصى، فلو تحوَّل البحرُ إلى حبرٍ تكتبُ به كلماتُ الله، لنفد البحرُ ولم تنفدْ كلماتُ الله، ولو جاء الله بمثله مدداً.

٩- رسولُنا ﷺ بشرٌ اختصَّهُ بالوحيِ الذي أوحى إليه فيه أنّه إله واحدٌ، فمن كان يرجو لقاءَ الله تعالى، فليعملِ الأعمالَ الصالحَةَ، ولا يشركْ بعبادةِ ربِّه أحداً، أي: يكونُ مخلصاً دينه لله تعالى.



أولاً: التعريف بهذه السورة

قال الدانيُّ: «سورةُ مريمَ سورَةٌ مكيّةٌ، وكَلِمُها: تِسْعُمائةٍ واثنتان وسِتُّونَ كلمةً، وحُروفها ثلاثةُ آلافٍ وثماني مائةٍ وحَرْفانِ. وهي تُسْعُونَ وتسعُ آياتٍ في المدنيِّ الأخير والمكيِّ، وثمانٍ في عددِ الباقين» [البيان في عدِّ آي القرآن: ص١٨١].

النص القرآني الأول من سورة مريم
قصةُ نبي الله زكريا عليه السلام

أولاً: تقديمٌ

حَدَّثَنا اللهُ -تعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن طرفٍ مِنْ أخبارِ نَبيِّهِ زكريَّا عليه السلام في دعائِه رَبَّهُ، وقد كَبُرَ عُمْرُهُ وعُمْرُ زوجتِهِ، فَدعا رَبَّهُ، فَرَزَقَهُ اللهُ الوَلَدَ الصالحَ، وآتاه آيةً تدلّ على أنَّه سَيَقَعُ لَهُ ما بَشَّرَهُ اللهُ تعالى به، وعَرَّفنا رَبُّنا في آخِرِ آياتِ هذا النصِّ عما حَبا بِهِ نَبيَّهُ يحيى من كَريمِ السجايا وجميلِ الصفات.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١-١٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾:

افتتحَ اللهُ تعالى هذِهِ السورةَ بالحروفِ المقطعةِ ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ وقد سَبَقَ أنْ بيَّنا في أولِ سورةِ البقرةِ أنَّ أصحَّ الأقوالِ فيها أنَّها حُروفٌ من حروفِ اللغةِ العربيةِ التي تتكون كلماتُ القرآنِ منها.

وقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾ [مريم:٢] أي: هذا ذِكْرُ الله -تعالى- رَحْمَته التي رَحِمَ بها عَبْدَه زكريَّا، وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم:٣] أي: اذكره حينَ

نادَى رَبَّه تبارَكَ وتعالى نِداءً خفيّاً، أي: دَعاهُ سِرّاً وخُفْيَةً، ودعاءُ السرِّ أفْضَلُ مِنْ دُعاءِ العلانيةِ، وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ نَبيَّ الله زكريَّا كان قدْ كَفِلَ مريمَ عليها السلامَ بعد ولادةِ أُمِّها لها، وكانَ في وقْتِ كَفالَتِهِ لها يَجِدُ عِنْدَها رِزْقاً في غيرِ أوانِهِ، فكانَ يَجِدُ عندها فاكهةَ الصيفِ في الشتاءِ، وفاكهةَ الشتاءِ في الصيفِ، فعَجِبَ لذلك، فسَأَلَها قائلاً: مِنْ أينَ لكِ هذا؟ قالتْ: هو مِنْ عندِ الله ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران:٣٧].

عِنْدَ ذلك انْتبَهَ زكريَّا إلى أنَّ القادرَ على أن يُعْطي الرِّزْقَ في غيرِ أوانِهِ قادرٌ على أنْ يَهَبَهُ الوَلَدَ في غيرِ أوانِهِ، فدَعا ربَّه عند ذلكَ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران:٣٨].

٢- دعاءُ زكريا ربَّه أن يهبَه الوَلَدَ:

أخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ زكريا ﷺ دعا ربَّهُ دعاءً خفِيّاً، دَعاهُ أنْ يَهَبَهُ الوَلَدَ الصالح، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾ [مريم:٤-٦]، واخْتَصَرَ ربُّنا دعاءَه في آل عمران فأخْبَرَنا عز وجل أنّه ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)﴾ [آل عمران:٣٨].

وقد أحْسَنَ زكريَّا دُعاءَه ربَّهُ، فقد مَهَّدَ لطَلَبِهِ بذكر حالِهِ وحالِ زوجته، فقد قال لربِّه عزَّ وجلَّ أنَّ عَظْمَهُ أصْبَحَ واهِناً، أيْ: ضَعيفاً، وإنَّما ذَكَرَ ضَعْفَ العظمِ، لأنَّ العَظْمَ عمودُ البَدَنِ، وبه قوامُهُ، وهو أصلُ بنائِه، فإذا وَهَنَ العَظْمُ دَلَّ على ضَعْفِ البدنِ كلِّه، لأنَّه أشدُّ ما فيه وأصْلَبُهُ، فوهنه يَسْتَلْزِمُ وَهَنَ غَيْرِهِ مِنَ البدنِ [أضواء البيان: ٤/ ٢٥٨].

وقولهُ: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: انْتَشَرَ بياضُ شَعْرِ الرأْسِ في سوادِه، كما تشتعل النارُ في الحَطَبِ، وقد قال الشاعر:

أمَـــا تَـــرَى رأْسِيَ حـــاكَى لَوْنُـــهُ ... طُـــرَّةَ صُـــبْحٍ تَحْـــتَ أذْيـــالِ الـــدُّجَى

واشْـــتَعَلَ المُبْـــيَضُّ في مُسْـــوَدِّهِ ... مِثْـــلَ اشْـــتِعالِ النَّـــارِ في جَـــزْلِ الغضـــا

وقال الآخر:

أَلَمْ تَـــرَ رَأْسِيَ أمْسَـــى واضِـــحاً ... سُـــلِّطَ الشَّـــيْبُ عَلَيْـــهِ فاشْـــتَعَلْ

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ أي: لم تُعَوِّدني أنْ أشْقَى بدعائي إيَّاكَ، فقد عَوَّدْتَني أنْ تُجيبَ دُعائي كُلَّما دَعَوْتُكَ، ولا شَكَّ أنَّ إجابَةَ الدعاءِ من السَّعادةِ، وعدمَ إجابةِ الدعاءِ مِنَ الشقاءِ.

وأرادَ بالمَوالي في قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ أقارِبَهُ من بني عَمِّه وعَصبَتِهِ، والوَلِيُّ والمَوْلَى في لغةِ العربِ واحدٌ. وقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ العاقر: العقيم التي لا تلدُ، وكانت زَوْجَتُهُ كذلِكَ في زَمنِ شَبابِها، وقَدْ أعْلَمَنا اللهُ -تعالى- أنَّهُ شَفَى عُقْمَها، وأصْلَحها كي تكونَ وَلُوداً بعد أن هَرِمَتْ فقال: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء:٩٠]، قوله: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ [مريم:٥] هَبْ لي من عِنْدِكَ وليّاً، أي: وَلَداً صالحاً.

وقوله: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ ليسَ مُرادُهُ وِراثَةَ المالِ، فالأنبياءُ لا يُوَرِّثونَ المالَ، بل مِيراثُهُمْ العِلْمُ والنبوةُ، فزكريا لم يكن عنده كثيرُ مالٍ يُوْرَثُ عنه، فقد كان نجَّاراً، والنجارُ لا يُحَصِّل مِنَ المالِ الكثيرَ، وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «كانَ زَكَرِيَّا نجَّاراً» [مسلم: ٢٣٧٩].

وفي البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نُورَثُ ما تَرَكْناهُ صَدَقَةٌ» [البخاري: ٣٠٩٤. مسلم: ١٧٥٧]. ويَدُلُّ لكونِ الوراثةِ هنا وراثةُ النبوةِ والعلمِ قولُه: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ فوراثةُ مالِ يَعْقوبَ مَضَتْ وانقضت لأصحابها منذ عهود، ويعقوبُ هو إسرائيلُ بنُ إسحاقَ بن إبراهيم؟

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ أي: مَرْضِيّاً عِنْدَكَ وعند خَلْقِكَ في أخْلاقِهِ وأقْوالِهِ وأفعالِهِ ودِينِهِ.

٣- تبشير الله -تعالى- زكريا بإجابة دعائه:

أخْبَرَنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه استجابَ دُعاءَ زكريَّا وقَبِلَ رجاءَهُ، ونُودِيَ ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم:٧] وقد أخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المنادِي لزكريَّا مُبَلِّغاً إياه بالبشارةِ بعضُ الملائكة، قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران:٣٩].

وقد تَضَمَّنَتِ البِشارَةُ أنَّ اللهَ -تعالى- سَيَرْزُقُهُ وَلَداً ذَكَراً، وعَيَّنَ لَهُ الاسمَ الذي سيُسَمَّى به ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ وقد أعْلَمَهُ ربُّه تعالى في البشارةِ أنَّه لم يُسَمَّ أحدٌ قبله بمثل اسْمِهِ ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾.

٤- زكريا يسأَلُ ربَّه عن الكيفية التي سيُرْزَقُ بها الولد:

كان نبيُّ الله زكريا -عليه وعلى نبيِّنا أَشْرَفُ الصلاةِ وأزكى السلام- يعلمُ أنَّ اللهَ -تعالى- قادِرٌ علَى أن يَرْزُقَهُ الولَدَ، فاللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ولكنَّه استعلم عن الطريقةِ التي سَيَرْزُقُهُ الوَلَدَ بها، هل سيُعيدَهُ شابًّا، أو هل سيَتَزَوَّجُ أُخْرَى شابةً، أو يعيدُ زوجتَهُ شابَّةً، أو تحملُ به وهما عجوزان كبيران ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم:٨] والمرادُ بالعِتيِّ: الكِبَرُ المتناهي. فأجابَه اللهُ تعالى بقولِهِ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾﴾ [مريم:٩]، وأخبرَنا في آلِ عمرانَ أنَّه أجابَهُ بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران:٤٠]، قال لَهُ ربُّه -تباركَ وتعالى- ما بَشَّرتُك به هو سَهْلٌ يَسيرٌ عليَّ، وأنا خَلَقْتُكَ مِنْ قبلُ، وكنتَ عَدَماً، وهذا الذي ذَكَرهُ اللهُ لزكريا مِنْ خَلْقِهِ لَهُ وكان عَدَماً، أخبرنا أنَّه سُنَّتَهُ في خَلْقِ كلِّ الناسِ، فقالَ: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم:٦٧]. وقالَ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان:١].

٥- زكريا يسألُ ربَّه أن يجعلَ له آيةً:

طَلَبَ زَكَرِيَّا من ربِّه آيةً، أي: علامةً يَعْلَمُ بها وُقوعَ ما بَشَّرته به الملائكةُ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾﴾ [مريم:١٠] أي: يا رَبِّ، اجعلْ لي علامةً على وجودِ ما بَشَّرْتَني به، أي: إذا حَمَلَتْ زوجتي كانت هذِهِ العلامةُ، فقالَ اللهُ له: آيَتكَ أن يُحْبَسَ لِسانُكَ عَنِ الكلامِ ثلاثَ ليالٍ، وأنت صحيحٌ سَوِيٌّ من غيرِ مَرَضٍ ولا آفةٍ، فكان إذا شاءَ أنْ يُكَلِّمَ الناسَ لا يستطيع، وإذا شاءَ ذِكْرَ الله فَعَلَ.

وذكر الله -تبارك وتعالى- دعاءَ زكريا هذا وما أجابَه اللهُ به في آل عمران، فـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران:٤١].

وآيةُ سورةِ مريم جَعَلَت الليالي ثلاثاً، وآيةُ آل عمران جعلتهنَّ ثلاثةَ أيامٍ، وهذا يَدُلُّ على أنَّهن كنَّ ثلاثةَ أيامٍ كاملاتٍ بلياليهن.

وقد أَخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلّ- أنَّ زكريا ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾﴾ [مريم:١١]، وهَلْ كان خُروجُهُ هذا على قَوْمِهِ بعد خروجِهِ من المحرابِ حينما دعا دعاءَه بالولد أو كانَ في وَقْتٍ آخر، اللهُ أعلمُ أيّها كان.

ومعنى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: فأشارَ إليهم إشارةً سريعةً، أي: أشارَ إليهم بأن يُسَبِّحوا رَبَّهم بكرةً وعشيًّا، أي: يديموا التسبيحَ طيلةَ الوقتِ.

٦- ثناء الله -تعالى- على نبيِّه يحيى عليه السلام :

حَدَّثَنا اللهُ -تبارك وتعالى- عن عبدِهِ ونبيِّهِ يحيى عليه السلام، فَقَدْ أَمَرَهُ أنْ يأْخُذَ الكتابَ بقوةٍ ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢]. والكتابُ: التوراةُ المُنَزَلَةُ على موسى، وكانت التوراةُ شريعةَ جميعِ بني إسرائيل وأنبيائِهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة:٤٤]، ولذا فإنَّ التوراةَ لم تتغيَّرْ ولم تُحَرَّفْ ما وجد نبيٌّ مِنْ بني إسرائيل، وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجدٍّ وحِرْصٍ واجتهادٍ. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ [مريم:١٢]، والحكْمُ الفِقْهُ بالكتابِ الذي أنْزَلَهُ اللهُ تعالى، والعملُ بهِ. وقوله: ﴿صَبِيًّا ۝١٢﴾ أي: لم يَبْلغْ.

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: وآتيناه حناناً مِنْ عِنْدِنا، والحنانُ: ما جُبِلَ عليه من الرَّحْمَةِ والعطفِ والشفقةِ، وقوله: ﴿وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾ [مريم:١٣]، والزكاةُ هنا: الطهارَةُ مِنْ أدْرانِ الذنوبِ والمعاصي، وكان تقياً، أي: ممتثلاً لأمرِ الله تعالى، مجتنباً لنواهيه.

وقوله: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ [مريم:١٤]، أي: جعَلْناه كثيرَ البرِّ بوالديه، أي: مُحْسِناً لهما، لطيفاً بهما. ولم يَجْعَلْهُ جبَّاراً عَصِيّاً، أي: لم يَجْعَلْهُ مُسْتكْبِراً عن طاعة الله وطاعةِ والديه، ولكنه جَعَلَهُ مطيعاً لله مطيعاً لوالديه، والجبَّارُ: القهَّارُ للناسِ، الظالمُ لهم، وقولُهُ: ﴿عَصِيًّا ۝١٤﴾ أي: كثيرَ العصيانِ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم:١٥]، أي: يُسَلِّمُ اللهُ عليه ويُحَيِّيهِ في هذه المواطنِ الثلاثةِ.

وإذا نظرتَ في الآياتِ التي تتحدثُ عن يحيى، تجد أنَّ الله تعالى وَصَفَهُ بما يأتي:

١- كان يحيى آخذاً بالتوراةِ بقوةٍ، فقيهاً بها، عاملاً بها.

٢- آتاه اللهُ تعالى الفِقْهَ بالدين وهو لا يزال صبيّاً.

٣- طَبَعَهُ اللهُ تعالى على الحنانِ، والطهارةِ من الشركِ والذنوبِ.

٤- كان بارّا بوالديه، عَطوفاً عليهما، مُحسِناً إليهما.

٥- ليس فيه شيءٌ من صفاتِ الجَبَروتِ والعصيان.

٦- سلَّم اللهُ عليه في المواقفِ الثلاثةِ الصعبةِ، وهي يومَ ولادَتِهِ، ويومَ مَوْتِهِ، ويومَ يُبْعَثُ حياً.

ووصَفَهُ ربُّ العزةِ بأربعِ صفاتٍ أُخرياتٍ في سورةِ آل عمران في قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران:٣٩].

٧- أنَّه كان مُصَدّقاً بكلمةٍ مِنَ الله، والمرادُ بكلمةِ الله التي صَدَّقَ بها يحيى هي عيسى ابنُ مريم، لأنَّه كان بكلِمَةِ الله.

٨- أنَّه كان سَيِّداً، أي: حازَ الصفاتِ التي تُؤَهِّلُهُ لسيادةِ قَوْمِهِ، والسيدُ من يُطيعُه الناسُ، ويتَّبِعُونَهُ، لما يَرَوْنَ فيه مِن أهليةٍ للقيادةِ.

٩- أنَّه كان حَصوراً، والحَصُورُ الذي حَصَرَ نَفْسَه عن النساءِ مع القدرةِ على إتيانهنَّ، تَبَتُّلاً منه، وانْقِطاعاً لعبادةِ الله، وكان ذلك جائزاً في شَرْعِهِ، أما في شريعتنا فالسنَّةُ الزواجُ.

١٠- أنَّه كان نبيّاً مِنَ الصالحين، والصالحون الذين صَلُحَ دِينُهم، كما صَلُحتْ عقائِدُهُمْ وأعمالُهُمْ وأقوالُهُمْ وأخلاقُهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام:٨٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- هذه الآياتُ تُحَدِّثنا عن رحمةِ الله بعبدِهِ زكريا عليه السلام.

٢- بلغ زكريا وزَوْجُهُ سِنّاً كبيراً، ولم يرزقا فيه بولدٍ، فدعا زكريا ربَّه وقد بلغ مِنَ الكِبَرِ عِتِيّاً، فأجابَ اللهُ دعاءَه، ورَزَقَه بالولدِ الصالحِ.

٣- صورةُ ما ينبغي أن يكونَ عليه الدعاءُ الحَسَنُ الذي يَتَقَبَّلُ اللهُ مِثْلَه.

٤- استجابَ اللهُ دعاءَ زكريا، وبَشَّرَهُ اللهُ بولدٍ يولدُ له على كِبرِ سِنِّهِ، وكِبَرِ سِنِّ زوجته، وهي عاقرٌ أيضاً.

٥- اللهُ قادِرٌ على كلِّ شيءٍ، ومن ذلك إعطاءُ الولدِ لمن كان في مثلِ حالِ زكريا وزوجته.

٦- اختصَّ اللهُ يحيى بتسميتِهِ لَهُ قَبل أن يوجد باسمٍ لم يُسَمَّ أحدٌ به من قَبْله.

٧- جَعَلَ اللهُ لزكريا آيةً تَدُلُّ على حَمْلِ زوجته لِوَلَدِهِ، والآية أنْ لا يَقْدِرَ على الكلامِ مع الناسِ، مع قدرته على التسبيحِ وذكرِ الله.

٨- أخْبَرَنا اللهُ تعالى بالصفات الكريمةِ التي كان يَتَحلَّى بها يحيى، والتي تُكَوِّنُ شخْصِيَّتَهُ.

٩- تَسْليمُ الله على يحيى في المواطنِ الثلاثةِ التي يحتاجُ الإنسانُ فيها إلى تسليم الله تعالى.

النص القرآني الثاني من سورة مريم

قصة عيسى ابن مريم عليه السلام

أولاً: تقديم

قَصَّ اللهُ تعالى علينا في آياتِ النصِّ السابق طَرَفاً مِنْ قصةِ زكريا عليه السلام عندما كان كبيراً وزوْجَتُهُ كبيرةً عقيماً، وكيف دَعا ربَّه أنْ يرْزُقَهُ وَلَداً، وهو وزوجته على تلك الحال، فرزقه وَلَداً صالحاً، وجعله نبيّاً، ثم أتْبَعَ تلك الآيات هذا النصَّ الذي ذكر فيه قصةَ مريَمَ، وكيف آتاها نبيَّه عيسى، فحملتْ به من غيرِ أبٍ، فكانت آيةً للعالمين، ويُفْقَهُ مِنَ الآياتِ أنَّ بَيْنَ القصَّتين شَبَهٌ ومناسبةٌ، ولهذا ذكرهما في آلِ عمران، وهنا في مريم، وفي سورةِ الأنبياء، فقَرَنَ بين القصتينِ، لتقارب ما بينهما في المعنى، فزكريا دَعا ربَّه أن يرزقه الولدَ عندما دَخَلَ على مَرْيَمَ، فوجدَ عندها الرزقَ في غيرِ أوانِهِ، فأعطاه الله الولدَ وهو كبيرٌ، وزوجتُهُ كبيرةً عقيماً، ومريمُ أعطاها الولدَ من غيرِ أبٍ، وكانت زَوْجَةُ زكريا أُخْتَ مريم.

وقد أبانَ اللهُ في قصةِ مريمَ ما يبطلُ قولَ اليهودِ والنصارى في مريم، فاليهودُ لعنهم اللهُ يَدَّعُون أنَّ عيسى ابنُ زنا، والنصارى يَزْعُمونَ أنَّه اللهُ أو ابنُ الله أو ثالثُ ثلاثةٍ، والذي قَرَّرَه اللهُ تعالى، أنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه، حملتْ به مريمُ به بعد أنْ نَفَخَ فيها جِبْرِيلُ عليه السلام، وحدَّثنا رَبُّنا عن ولادتِها، وكيفَ تَصَرَّفَ ابْنُها وهو الوليدُ الصغيرُ، وكيف أطْعَمها اللهُ وأسْقاها وأقَرَّ عينها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم:١٦-٢٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ يقصُّ علينا طرفاً من قصةِ مريمَ ابنةِ عمران عليها السلام:

أَمَرَ اللهُ عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يَذْكرَ في كتابِ الله الذي أنْزَلَهُ بالحقِّ قصةَ مَرْيَمَ ابنةَ عمران، حين اعتزلتْ أهْلَها، وانفردتْ عنهم ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم:١٦]. ومعنى: انْتَبَذَتْ: تَنَحَّتْ وتباعَدَت، وأصْلُ النَّبْذِ: الطَّرْحُ والرَّمْيُ، وقوله: ﴿شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ أي: مكاناً من جانبِ الشَّرْقِ.

قال ابنُ عباس: «إني لأعْلَمُ خلقِ الله لأيِّ شيءٍ اتخذت النصارى المشرقَ قبلةً، لقوله الله: ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾، فاتخذوا ميلادَ عيسى قِبْلَةً» [الطبري: ٧/ ٥٤٦٧]. وهذا الذي ذهبَ إليه ابنُ عباسٍ إنْ كانَ صحيحاً عنه، وسمعه من رسول الله ﷺ فهو مقبولٌ، وإنْ كان اجتهاداً منه، فليس في الآية ما يدلُّ عليه.

٢- أرسل اللهُ تعالى لمريمَ روحَهُ فتَمثَّلَ لها في صورةِ إنسانٍ ليَهَبَ لها بشراً سويّاً:

عندما اعتزلتِ الصدِّيقةُ مريمُ عن أهلها مكاناً شرقياً، اتخذت حجاباً يَحْجُبُها عن الناسِ، ولم يُبيِّنْ لنا نوعَ هذا الحجابِ، هل كان جداراً أو قماشاً أو غير ذلك، فأرْسَلَ اللهُ إليها روحَهُ، وهو جبريلُ عليه السلام، فتمثَّلَ لها في صورةِ إنسانٍ، وقوله: ﴿سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ أي: مُسْتَوِيَ الخلقةِ، أي: تامَّ الخلْقِ، حَسَنُ الصورةِ، ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم:١٧]، فعندَ ذلكَ فَزِعَتْ منه، و﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم:١٨] أي: إنِّي أعوذُ بالله مِنْكَ أيها الرجلُ، تقول: أستجيرُ بالرَّحمنِ منكَ أنْ تنالَ ما حَرَّمَهُ الله عليك إنْ كنتَ تقيّاً، أي: إنْ كنت ذا تَقْوى، أي: تتقي محارمَهُ، وتجْتنبَ معاصيهُ، فكَشَفَ لها جبريلُ عن نفْسِهِ، وبيَّن لها الغايةَ التي أُرسلَ إليها بها، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم:١٩]، أي: أنا رسولٌ مِنْ عند الله عزَّ وجلَّ لأعطيكَ غلاما زكيّاً، أي: طاهراً من الذنوبِ والمعاصي، وقد بيَّن اللهُ ما فعله جبريلُ عليه السلام لتحملَ بذلك الغلامِ الزكيِّ، قال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢]، وقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١].

فقالت مريمُ عليها السلام مستغربةً متعجبةً ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ [مريم:٢٠] قالت: كيفَ سيكونُ لي غلامٌ، ولم يسبِقْ لي أن تزوجتُ، ولم يقعْ مني الزِّنا، والولد في العادةِ يكونُ في مثل هاتين الحالتين.

فقالَ لها جبريلُ: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم:٢١]، قالَ لها جبريلُ: هكذا قالَ ربُّك، إنَّه سيوجدُ منك غلامٌ، ولو لم يكن لك زوجٌ، ولم توجد منك فاحشةٌ، فإنَّه عليه هَيِّنٌ، أي: سَهْلٌ، وهو عليه قادرٌ، وسيجعله آية للناس، أي: علامةً على قدرةِ خالقهم، فإنَّه خَلَقَ آدمَ ﷺ من ترابٍ، فلا أبَ له ولا أُمّ، وخلق حواءَ من آدم، أي: خلقها من رجلٍ، وخلقَ عيسى من أُمٍّ من غيرِ أبٍ، وخَلَقَ بقيةَ البشر من ذكرٍ وأنثى.

وقولُ جبريلَ: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ أي: وكانَ خَلْقُهُ منكِ على هذا النحوِ أمْراً قضاهُ الله وقدَّره في الأزلِ، فهو كائن ولا بدَّ.

٣- حَمْلُ مريمَ بعيسى عليها وعليه السلام، ووضْعُها له:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ جبريلَ نفخَ نفخة وَصلتْ إلى فَرْجِ مريم، فحملت مريمُ بعيسى، وعندما جاءَها المخاضُ انتبذتْ به مكاناً قصِياً ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [مريم:٢٢] أي: حَمَلَتْهُ، فلما جاءَ وَقْتُ وَضْعِهِ انْتَبَذَتْ به مكاناً قصيّاً، أي: تَنَحَّتْ بِهِ، وبَعُدَتْ عن قوْمِها معتزلةً لهم، وذهبتْ به إلى مكانٍ قصيٍّ، أي: بعيدٍ.

فلما جاءَها المخاضُ وجدتْ نَفْسَها مسوقةً إلى جذع نخلةٍ قريبةٍ منها، هناك وضَعَتْ حمْلَها، وآلمها الحالُ التي وَصَلَتْ إليها، أن تضعَ حملَها في مكانٍ بعيدٍ عن أهلها، فقالت متألمةً متحسِّرةً متوجِّعةً: يا ليتني مِتُّ قبلَ أنْ أصيرَ إلى هذهِ الحالِ، وكنتُ نسياً مَنْسِيّاً، والنَّسْيُ في كلامِ العرب: الشيءُ الحقيرُ الذي لا يأْبَهُ له الناسُ، ولا يتألَّمُ الناسُ لِفَقْدِهِ، كالعصا والحَبْلِ للمسافرِ ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم:٢٣]، وقوله: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ أي: اضطرَّها وألجأها المخاضُ، وهو الطَّلْقُ، والآلامُ والأوجاعُ التي تصاحبه، وجِذْعُ النَّخْلةِ: ساقُ النخلةِ، والقولُ بأنَّ النخلةَ كانتْ يابسةً، لا يوجد دليلٌ يدلُّ عليه.

٤- ما وقع لمريم بعد أن وضعتْ حمْلَها:

بعد أنْ وضَعَتْ مريمُ حَمْلَها، وقالتْ ما قالته ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم:٢٤-٢٦].

ذهب جَمْعٌ مِنَ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ الذين ناداها من تحتها هو جبريلُ، والأصحُّ أنه عيسى عليه السلام ، فهو الذي كان تحتها، والحديثُ كان عنه، والضميرُ يرجعُ إلى أقربِ مذكورٍ، واللهُ -تعالى- قال: ﴿ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ فَحَمَلْتَهُ، فانتبذتْ به، وقال بعد ذلك: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾، ويدلُّ على أنَّه عيسى أنَّها عندما جاءَتْ به قوْمَها، وأنكروا عليها فِعْلَها أشارَتْ إليه ليُكلِّمُوه، مما يَدُلُّ على أنَّ لديها عِلْماً بأنه يتكلمُ، لأنهُ سبقَ أنْ كَلَّمَها مِنْ تحْتِها.

وقد أخبرنا وليدُها الذي ولد منذُ لحظاتٍ أنَّ اللهَ تعالى أجْرى لها مِنْ تحتها سَرِيّاً أي: نهراً صغيراً، وأمَرَها أنْ تهزَّ بيدِها الضعيفةِ جِذْعَ النَّخْلَةِ، فإنها تساقِطُ عليها رُطباً جَنِيّاً، أي: رُطباً صالِحاً للاجتناءِ، أي: لم يَجِفَّ، ولم يَيبَس، ولم يبعُدْ عن يد مجتنيه، وأمَرَها أن تأْكلَ مِنَ الرُّطَبِ الذي يَسْقُطُ عليها مِنَ النخلة، وتشْرَبَ مِنَ النهر الصغيرِ الذي أجْراهُ اللهُ لها، وتقرَّ عيناً، أي: تطيب نَفْساً، وأمرها إنْ رأَتْ أحداً يسألُها عن ولدِها أنْ تقولَ: إنِّي نذرتُ للرحمنِ صوماً، أي: صوماً عَنِ الكلامِ، ويَدُلُّ على أنَّ المرادَ بالصومِ الصومُ عن الكلامِ قولها بعد ذلك: ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ .

وقَدْ جَلَبَ خطابُ عيسى لأمِّه الطمأنينةَ والسكينةَ، فالولدُ الذي كانت تظنُّه مشكلتها، إذا به هو سبيلُ خلاصها، فقدْ أُعطيَ قدرةً على الدفاعِ عن أمِّه وحمايتها، فهو يتكلم كلامَ الرجالِ العقلاءِ الأذكياءِ، ويجيبُ عن كلِّ ما يريده السائلونَ، فيكونُ كلامُهُ دليلاً على أنَّه معجزةٌ خارقةٌ.

رابعاً: ما تهدي إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - كانت مريمُ عليها السلامُ في الجانب الشرقيِّ من الموقعِ الذي كان فيه أهْلها.

٢ - اتخذت مريمُ في المكانِ الذي كانت فيه حجاباً، فأرسل اللهُ إليها جبريلَ في صورةِ إنسانٍ مكتملِ الخَلْقِ.

٣ - لدى الملائكةِ قدرةٌ على التَّمَثُّلِ في صورةِ إنسانٍ أو غيره كما تشكَّل جبريل عليه السلام في صورةِ بشرٍ مكتملِ الخلق.

٤ - عندما رأتِ مريمُ جبريلَ في صورةِ إنسانٍ سارعت إلى الاستعاذةِ بالله منه، فعرَّفَها بنفسِهِ، وبالمهمَّة التي جاءَ بها.

٥ - قدرةُ الله تعالى على أنْ يَخْلقَ وَلَداً من أُمٍّ بلا أبٍ، وقد خَلَقَ اللهُ آدم مِنْ غيرِ أبٍ ولا أمٍّ.

٦ - عندما جاءَ مريمَ المخاضُ اعْتَزَلَتْ قومَها وذهبتْ للولادة بعيداً عنهم.

٧ - أنْطَقَ اللهُ عيسى عليه السلام عندما وُلِدَ، فنَهَى أُمَّهُ عن الحُزْنِ، وأخْبَرَها أنَّ اللهَ أجرى تحتها جَدْولاً صغيراً، وأمَرَها أن تهزَّ جذعَ النخلةِ فتشربَ من الجدولِ، وتأكلَ من التَّمْرِ الذي تُسْقِطُهُ النخلةُ، وتقرَّ عيناً.

٨ - الرِّزْقُ وإنْ كان مقسوماً محتوماً، فإنَّ العبدَ مطالبٌ أنْ يكون له سعيٌ فيه، فقد أمَرَ الله تعالى مريمَ أنْ تهزَّ جِذْعَ النَّخلةِ، حتى تساقطَ عليها رطباً جنيّاً.

٩ - الأمْرُ بتكليفِ العبدِ بطلبِ الرزقِ لا ينافي التوكَّلَ على الله تعالى، فقد كَلّفَ اللهُ تعالى مريمَ بهزِّ جذعِ النخلة، لتساقط عليها رُطباً جنياً.

١٠ - تَمَثَّلَ جبريلُ عليه السلام لمريمَ في صورةِ إنسان، وكلَّمَها وكَلَّمته، ولم يَجْعَلْ هذا مِنْها نَبِيَّةً، وقد رَأَتْ عائِشةُ جبريلَ في صورةِ دِحيَةَ الكَلْبيِّ، ورَآهُ كثيرٌ مِنَ الصحابةِ في صورةِ رَجُلٍ، ولم يَجْعَلْهُمْ ذلك أنبياءَ.

النص القرآني الثالث من سورة مريم
عيسى عليه السلام يُدافِعُ عن أُمِّه ويُعرِّفُ بنفسه

أولاً: تقديم

حَدَّثنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- في النص السابقِ عَنْ قِصَّةِ الصِّدِّيقَةِ مَرْيمَ ابنةِ عمرانَ عليها السلامُ، وانتهى الحديثُ إلى ولادَتِه وحديثُ ابنها معها، وتأتي آياتُ هذا النص لتُكْمِلَ الحديثَ عن قصةِ مريمَ عليها السلامُ، وتعرِّفنا ما جرى لها عندما جاءَتْ قوْمَها تَحْمِلُ وَليدَها، وما قالوه لها، وما قالَ لَهُمُ الطِّفلُ الرضيعُ مُدافِعاً عنْ أُمِّهِ مُعرِّفاً بنفْسِهِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا (٢٧) يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾ [مريم:٢٧-٤٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- قومُ مريمَ يُنكِرون على مريمَ ما جاءَت به:

أخبرنا ربُّنا أنَّ مريمَ جاءت قومَها تحمل مولودها، وكان اللهُ أراها ما دلَّها علَى أنَّه سَيُبَرِّئُها، ويَدْفَعُ عنها ما يمكنُ أنْ يقولَه الناسُ عنها، فلما رآها قومُها داخلةً حاملة ابنها معها ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا (٢٧) يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾ [مريم:٢٧-٢٨].

أخبرنا العليمُ الخبيرُ أنَّ قومَ مريمَ عندما جاءَتْ إليهم تحملُ ابنها شَدَهَهُمْ أمرُها، وتعجَّبوا مِنْ حالِها، فقد كانت قمةً في الصلاح والتُّقى، فكيف يتأتى منها أن تفعل الفاحشةَ،

فقالوا لها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ أي: أمراً عظيماً منكراً، وهو الزنا، وقالوا لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ أي: في التقى والصلاح، والمراد بهارونَ رجلٌ صالح من بني إسرائيل في عصرها، كان يتمثل به في الصلاح، فعن المغيرة بن شعبة، قال لَمَّا قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرؤون ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قَدِمْتُ على رسول الله ﷺ سألتُه عن ذلك، فقال: «إنَّهم كانوا يُسَمون بأنبيائِهم والصالحين قبلهم» [مسلم: ٢١٣٥]. فهذا الحديث يدلُّ على أنه ليس المرادُ بهارونَ شقيقَ موسى، وهو إما أنْ يكون شقيقَها، أو رجلاً صالحاً شبهوها به في التقى والصلاحِ.

وقالوا لها: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ أي: كان أبوكِ صالحاً وأمُّكِ صالحةً، هذا بالإضافة إلى أخيها الذي كان يتمثل به في التقى والصلاح، كأنَّهم قالوا لها: كيف يتأتى هذا منك، وأنتِ مِن بيتِ أناسٍ صالحين.

٢- عيسى يعرِّفُ بنفسهِ ويردُّ الفِرْيَةَ عن أمِّه:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ مريمَ لما قالَ لها قومُها ما قالُوه منكرين عليها، أشارَتْ إلى ابنها، أي: كأنَّها قالتْ لهم: كَلِّمُوهُ، بدليلِ أنَّ قوْمَها فهموا من إشارَتِها إليه هذا الفهم فقالوا: كيف نُكَلِّم من كان في المهدِ صبياً ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم:٢٩].

عند ذلك ذُهِلَ قوْمُها وهم يَرَوْنَ الطفلَ الرضيعَ، يتكلمُ كلام الرجلِ الكبيرِ العاقلِ، وقد جاءهم بحقائق تدلُّ على أنَّه ليسَ ابنَ سِفاحٍ، وإنما هو من الأخْيارِ الأطْهارِ الأبْرار، وقد عرَّفَ بنفسه تعريفاً في غاية الظهورِ والوضوح ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم:٣٠-٣٣] فبيَّن ما يأتي:

١ - أنَّه عبدُ الله، وهذا أولُ ما تكلم به، فهو ليس بابن زنى كما يدَّعي اليهودُ، وليس هو اللهُ، ولا ابنُ الله، ولا ثالثُ ثلاثةٍ كما يدَّعي النصارى على اختلاف فرقهم، وعندما يقول الله عز وجل لعيسى يومَ القيامةِ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦] يقول عيسى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧]، وأخبرنا ربُّنا في آل عمرانَ أنَّ عيسى قال لقومه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران:٥١]. والنصوصُ الدالةُ على أنَّ عيسى قال هذا القولَ كثيرةٌ في القرآن.

٢- وأعلمنا أنَّ عيسى الرضيعَ قالَ لقومِهِ: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠]، والكتابُ الذي آتاه اللهُ تعالى إيَّاه الإنجيل، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٦]، وقال: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد:٢٧]. وجعَلَه نبيّاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٧١]. وقد أعطاه اللهُ مع النبوةِ الرسالةَ، فقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ عيسى قالَ لقومِهِ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران:٤٩].

٣- وأعلمنا عيسى عليه السلام أنَّ اللهَ تعالى جعَلَهُ مباركاً أينما كان، أي: كثيرَ البركةِ، كثيرَ الخيرِ أينما وُجِدَ وحيثُما حَلَّ.

٤- وأخبرنا أنَّه أوْصاهُ بالصلاةِ والزكاةِ ما دامَ حيّاً، والصلاةُ والزكاةُ أصلان لا تخْلو منهما مِلَّةٌ ولا دينٌ.

٥- وأعْلَمَنا عيسى أنّه بَرٌّ بوالدتِهِ، أي: عطوف بها، محسنٌ إليها، ولم يَقُلْ بَرّاً بوالديّ، لأنَّ اللهَ خلقه من أُمٍّ بلا أبٍ.

٦- وأخْبَرَنا عيسى عليه السلام أنّه ليسَ جبَّاراً شقِيّاً، والجبارُ المتكبرُ الغليظُ الذي يَقْهَرُ الناسَ، ويَظْلِمُهُمْ، ويجلدُهُمْ، والشقيُّ الذي أشقاه عمله وأتْعَسَهُ، ويأتي في مقابلِ الجبارِ الشقيِّ الرؤوفُ الرحيمُ بالناسِ، الذي يتواضع لهم، ويعدلُ بينهم.

٧- وأعلمنا عيسى عليه السلام أنَّ اللهَ تعالى سَلَّم عليهِ عندما وُلِدَ، وسَيُسَلِّم عليه عندما يموتُ، وعندما يبعثُ حيّاً، ومَنْ سَلّمَ اللهُ عليه في هذه المواطنِ الثلاثةِ، فقد سَعِدَ، ونَجا، وفازَ.

هذا عيسى ابن مريم عليه السلام كما حَدّث به عن نفسه وهو حديثُ عَهْدٍ بالولادَةِ، لا يستطيعُ مِثْلُهُ الكلامَ، ولكنَّ اللهَ أنْطَقَهُ، وفي ذلك معجزةٌ ظاهرةٌ بيِّنَةٌ بَرَّأت أمَّهُ، ودَفَعَتِ الشرَّ عنها، وأخْرَسَتِ الألسنةَ التي كانت تريد النيلَ منها.

٣- تصديقُ الله -تعالى- لعيسى فيما وَصَفَ نفْسَه به:

بعد أنْ أعلمنا ربُّنا بما قالَهُ عيسى عليه السلام عن نفْسِه، مُعرِّفاً بها، رادّاً ما يمكنُ أنْ يُتَقَوَّلَ به عنها، قال ربُّ العزة معقباً: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم:٣٤-٣٦].

أي: هذا هو القولُ الصحيحُ في عيسى عليه السلام، فهو عبدُ الله ورسولُهُ، وهو نبيٌّ رسولٌ، مُكَلَّفٌ بالصلاةِ والزكاةِ، مأمور ببرِّ والدتِهِ، يحتاجُ إلى ربِّه في كلِّ وقتٍ وحينٍ، وقوله: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: هذا هو القولُ الحقُّ في عيسى.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: يَشُكّون ويختلفون.

وقد نَفَى اللهُ تعالى عن نفسِهِ أن يتخذَ ولداً، ولكنَّه يخلُقُ ما يشاءُ سبحانه، وإذا قضى أمْراً فإنما يقولُ له: كُنْ، فيكونُ كما يشاءُ اللهُ تعالى، وهذا ما وَقَعَ لعيسى عليه السلام.

وخَتَمَ اللهُ تعالى ما تَحَدَّثَ به عيسى عن نَفْسِهِ كما ابتدأ الحديثَ بِهِ، فقالَ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم:٣٦]، قال لهم: إنَّ اللهَ ربي وربكم فاعبدُوه، وهذا هو صُلْبُ دعوةِ الرسل وخلاصَتُها، وهذا الذي دعاهم إليه هو الصراطُ المستقيمُ.

٤- اختلافُ الأحزابِ في شأن عيسى عليه السلام ومصيرُ الكافرين منهم:

أَخْبَرَنا اللهُ -تعالى- أنَّ الأحزابَ اختلفوا في أمرِ عيسى عليه السلام، وتَهَدَّدَ الكافرين من هؤلاءِ الأحزابِ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم:٣٧]، والأحزابُ الفِرَقُ من اليهودِ والنصارى الذين اختلفوا في شأنِ عيسى، فقالتْ طائفةٌ: هو ابنُ زنى، وقال آخرون: هو الله، وقالت طائفةٌ: هو ابنُ الله، وقالتْ طائفةٌ: هو ثالثُ ثلاثةٍ، تعالى اللهُ عما يقولونه عُلُوّاً عظيماً.

«وقد كان النصارى على قَوْلٍ واحد على التوحيد في حياةِ الحواريين، ثم حَدَثَ الاختلافُ في تلاميذِهِمْ، وقد انحلَّ الاختلافُ إلى ثلاثةِ مذاهبٍ: المَلْكانِيّة (وتسمى الجاثُليقية)، واليعقوبية، والنسطورية، وانشعبت من هذه الفِرَق عدة فِرق ذكرها الشهرستاني.

ومن فِرَقِ النصارى فرقةٌ كانت في العرب تسمى الرّكوسية، وَرَدَ ذكرها في الحديثِ أن النبي ﷺ قال لعدي بن حاتم: «إنَّك رَكُوسيٌّ». قال أهل اللغة هي نصرانية مشوبة بعقائد الصابئةِ، وَحَدَثَتْ بعد ذلك فرقةُ الاعتراضية (البروتستان) أتباع (لوثير).

وأشهرُ الفِرَقِ اليوم هي المَلْكانِيّةُ (كاثوليك)، واليعقوبية (أرثوذوكس)، والاعتراضية (بروتستان). ولما كان اختلافهم قد انحصر في مرجعٍ واحدٍ يرجعُ إلى إلهية عيسى اغتراراً وسوءَ فهم في معنى لفظ (ابن) الذي وَرَدَ صفةً للمسيح في الأناجيلِ مع أنه قَدْ وُصفِ بذلك فيها أيضاً أصحابه، وقد جاءَ في التوراةِ أيضاً «أنتم أبناءُ الله». وفي إنجيل مَتّى الحواريِّ

وإنجيل يوحنا الحواريِّ كلماتٌ صريحةٌ في أنَّ المسيح ابنُ إنسانٍ وأنَّ اللهَ إلهُهُ وربُّه» [التحرير والتنوير بشيءٍ من الاختصار: ٨/ ١٠٦].

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: ويلٌ للذين كفروا، وهم الذين قالوا: إنَّ عيسى ابن زنى، أو هو اللهُ أو ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثةٍ، أي: ويلٌ لهم من شهودِ ذلكَ اليوم، أي: حُضورِه، لما سيلاقونَه مِنَ العذابِ.

وقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريم:٣٨]، أي: لا أحَدَ أسْمَعُ ولا أبْصَرُ منهم يومَ القيامة، فهم يسمعون الحقائقَ ويبصرونها في ذلك اليومِ، أما في الدنيا فهم كما قال اللهُ تعالى فيهم ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريم:٣٨]. أي: في ضلالٍ بيِّنٍ، فهم تائهون حائرونَ ضائعون. وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يُنْذِرَ الكفارَ يومَ الحَسْرَةِ، ويومُ الحسرة يومُ القيامةِ، لأنَّ الناسَ يتحسَّرون فيها، فالكافرُ يتحَسَّرُ لأنه لم يُؤْمِنْ، والمُحسِنُ: يَتَحَسَّرُ لأنه لم يَزْدَدْ إحْساناً.

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم:٣٩].

وأعْظَمُ الحسرةِ يكونُ يومَ القيامةِ، عندما يَدْخُل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهْلُ النارِ النارَ، ثم يُذْبَحُ الموتُ بين الجنَّة والنارِ، ويقال: يا أهلَ الجنَّةِ خلودٌ فلا موت، ويا أهْلَ النارِ خلودٌ فلا موت، روى أبو سعيدٍ الخدريُّ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بالموتِ كهيئةِ كبش أملح، فينادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنةِ، فيَشْرَئِبونَ، وينظرون،َ، فيقولُ: هل تعرفون هذا؟ فيقولونَ: نعم، هذا الموتُ، وكُلُّهُمْ قد رآه.

ثم يُنادَى: يا أهلَ النارِ، فيشرئِبون، وينظرونَ، فيقولُ: هَلْ تعرفون هذا؟ فيقولون: نَعَمْ، هذا الموتُ، وكُلُّهُمْ قد رآه، فيُذْبَحُ، ثم يقول: يا أهلَ الجنةِ، خُلودٌ فلا موتَ، ويا أهلَ النارِ خُلودٌ فلا موتَ، ثم قَرَأَ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم:٣٩]» [البخاري: ٤٧٣٠. ومسلم: ٢٨٤٩].

وخَتَمَ اللهُ تعالى آياتِ هذه القصةِ بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم:٤٠]. يقولُ ربُّنا تبارك وتعالى: إنَّا نحنُ نميتُ جميعَ الخلائقِ الذينَ يَسْكُنونَ الأرضَ، ثم يرجعون إليه يومَ القيامةِ، ويبقى ميراثُ الأرض لله وحدَه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- جاءَتْ مريمُ بابنها عليهما السلامُ تَحْمِلُهُ إلى أهْلِها، فواجَهَها قَوْمُها بعاصفةٍ من الاحْتِجاج، وعَيَّروها وقَرَّعوها ظانِّينَ أنها ارتكبت الفاحِشَةَ.

٢- أنْطَقَ اللهُ عيسى عليه السلام فدافعَ عن نفسِهِ وأُمِّه بلسانٍ فصيحٍ بليغٍ، وكانت تلكَ آيةً كَشَفَتْ الحقيقةَ، وبَرَّأَتْ مَريمَ.

٣- عَرَّفَ عيسى نَفْسَهُ لقوْمِهِ، فهو عَبد نبيٌّ، مأمورٌ بالصلاةِ والزكاةِ، وبذلك نَفَى عن نفْسِه الألوهيةَ والربوبيةَ، ووضعَ نفْسَهُ في الموضِعِ الذي يليق بها.

٤- اللهُ تعالى لم يتخذْ وَلَداً، وليسَ له أن يتَّخِذَ ولداً، فهو واحدٌ أحَدٌ فرْدٌ صمد.

٥- اختلفَ اليهودُ والنصارى في عيسى عليه السلام، وكُلُّ الذين زَعَموا أنَّ فيه شيئاً مِنَ الألوهيةِ أو الربوبيةِ كفروا.

٦- الكفارُ في الدنيا في ضلالٍ مبينٍ، وفي يومِ القيامةِ في بلاءٍ عظيمٍ.

٧- يكون الكفارُ في يومِ القيامةِ في حَسْرةٍ عظيمةٍ، وخاصة عندما يذبحُ الموتُ، ويقال لهم: خلودٌ فلا مَوْتَ.

٨- اللهُ وحدَهُ الوارثُ للأرضِ ومَنْ عليها بَعْدَ أن يُقْضَى على أصحابِها في يومِ الدينِ.

النص القرآني الرابع من سورة مريم
ذكر الله طرفاً من أخبار إبراهيم وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس

أولاً: تقديم

ذكر اللهُ -تعالى- لنا في آيات هذا النصِّ طرفاً من أخبار أنبيائِه ورسلِهِ الكرام: إبراهيم، وموسى وإسماعيل وإدريس، وأوْسَعهم ذكراً إبراهيم، وأقلهم ذكراً إدريس، وموسى وإسماعيل بين ذلك.

وقَدْ تَوَسَّعَتْ آياتُ هذا النصِّ في ذِكْرِ ما وَعَظَ به إبراهيمُ عليه السلام أباهُ، بذلك الأسلوبِ الراقي المهذَّبِ، وكيف كانَ رَدُّ أبيهِ عليه جافياً غليظاً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٤١-٥٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موعظةُ نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام أباهُ:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يذْكرَ في الكتابِ -وهو القرآنُ- موعظةَ نبيِّ الله إبراهيم أباهُ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١]، والصِّديقُ، الكثيرُ الصِّدْقِ في أقْوالِهِ وأفْعالِهِ، وفي ذِكْرِ إبراهيمَ في الكتابِ، وتلاوةِ خبرِهِ وقصّتِهِ دعوةٌ لقريشٍ والعَرَبِ إلى متابعتِهِ، فإنَّهم من ذريته، وكان إبراهيمُ حنيفاً مسلماً مُوَحِّداً.

وقد أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن نبيَّ الله إبراهيم دَعا أباهُ آزرَ إلى توحيدِ الله، وأنكر عليه عبادَةَ الأصنامِ، ودعاه إلى متابعتهِ فيما جاءَه مِنَ العلمِ، ونهاه عن عبادةِ الشيطانِ، كلُّ ذلك بأسلوبٍ لطيفٍ خفيفٍ نَدِيٍّ، وفي كلِّ مرَّةٍ يبدأ خطابَهُ لَهُ بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

وقد ابتدأ مَوْعِظَتَهُ لأبيهِ بإنكارِه عليه عبادَةَ ما لا يسمعُ ولا يُبْصِرُ، ولا يُغْني عنه شيئاً، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم:٤٢]. وفي هذا بيانٌ منهُ لحقيقةِ ما يَعْبُدُهُ مِنَ الأصنام، وأنَّها لا تستحقُّ أن تعبَد، لأنَّها لا تَسْمَعُ، ولا تبصرُ، ولا تستطيعُ أنْ تحميَه أو تدافعَ عنه.

وأعلمه أنَّ اللهَ أهَّلَهُ كي يتَّبِعَهُ هو وقومُهُ، فإنَّه قد أصبح نبيّاً، وجاءَه مِنَ العِلْمِ ما لَمْ يأْتِه هو وقومهُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم:٤٣]، والعِلْمُ الذي أخبر أباه أنه قد جاءَه به هو علمُ النبوةِ الذي يَهْدِي إلى الرُّشْدِ، ولذلك قال: ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ أي: إذا اتَّبعْتَني فإنَّك تُهْدى إلى الصراطِ المستقيمِ، الذي يوصِلُ إلى ربِّ العالمين وإلى جنته، وينجيك مِنَ النارِ وغضبِ الجبارِ.

وناداهُ للمرةِ الثالثةِ ناهياً إياه أنْ يعبدَ الشيطانَ، فالشيطانُ كان للرحمن عَصِيّاً ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم:٤٤].

وعبادَةُ الشيطانِ تكونُ بطاعتِهِ فيما يدعو إليه مِنَ الكفرِ والشركِ والذنوبِ والمعاصي، وهذا كقوله تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس:٦٠].

ونادى إبراهيمُ أباه للمرة الرابعة مُظْهِراً له تخوُّفَهُ عليهِ أنْ يمسَّهُ عذابٌ مِنَ الرحمن، فيكونَ للشيطانِ وليّاً ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم:٤٥]. وقد ذكرَ اللهُ تعالى لنا في أكثرِ مِنْ موْضِعٍ في كتابِهِ أنَّ الكفارَ أولياءُ الشيطانِ ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥] أي: يخوفكم أولياءه، وقال: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ﴾ [النساء:٧٦].

ولم يستجبْ والدُ إبراهيم لهذه الدعوةِ الطيبةِ الصادرةِ مِن الابنِ المُشْفِقِ على أبيه والناصحِ لَهُ، فأغلظَ له في القولِ، واشتدَّ في الرَّدِّ عليه ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم:٤٦]، لقد أنْكَرَ والدُ إبراهيم على ابنه صُدودَه عن

عبادةِ الأوثان، وهَدَّدَهُ بأنَّه إنْ لم يَنْتَهِ عمَّا يقولُهُ لهُ سَيَرْجُمُه، والرَّجْمُ في العادةِ يكونُ بالحجارةِ، ثم أمَرَهُ أن يَهْجُرَهُ دَهْراً طويلاً.

وقد ردَّ إبراهيمُ على كلام والدِه الشديدِ القاسي بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم:٤٧]، وهو ردٌّ لطيفٌ، يحملُ الرحمةَ والحنانَ والإشفاقَ، فقد قال لَهُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ أي: سَلِمْتَ مني، فإنَّهُ لا يُصيبُكَ مِنِي مكروهٌ، وهكذا يخاطبُ المؤمنونَ الجاهلين ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣].

وقالَ إبراهيمُ لأبيهِ أيضاً: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ وقد أخبرنا ربُّنا أنَّ إبراهيم وَفَى لأبيه ما وعده إياه، فقد دعا ربَّه فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء:٨٦]، وقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٤١].

وقد منعنا ربُّنا أن نتأسى بإبراهيمَ عليه السلام في الدعاءِ للمشركين، فقد بَيَّن لنا ربُّنا في سورةِ الممتحنة أنَّ لنا أُسوةً حسنةً في إبراهيمَ والذين معه في تَبَرُّئِهم من قومهم المشركين، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، واستثنى من التأسي بإبراهيمَ استغفارَهُ لأبيه ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة:٤].

وقد بيَّن لنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في سورة المائدة أنه لا يجوز للنبي والمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة:١١٣]، وبيَّنَ لنا ربُّنا أنَّ استغفارَ إبراهيمَ لأبيه كان عن موْعِدَةٍ وَعَدَها إياه، فلما تَبَيَّنَ لإبراهيمَ أنَّ أباهُ عَدُوٌّ لله تبرأ منه ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

وقولُ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ أي: إنَّ ربي كان بي عالماً لطيفاً يجيبُ دعائي إذا دعوتُه.

وذكر لنا ربُّنا أنَّ إبراهيمَ عليه السلام، قالَ لأبيهِ وقوْمِهِ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم:٤٨]. أي: أتنحى عنكم وأفارِقُكُمْ، وأعْتَزِلُ آلهتكم التي تدعونُها من دونِ الله تعالى، وأُخْلِصُ الدعاءَ لربي وحدَهُ، وقال: ﴿عَسَىٰٓ

أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ فالداعي ربَّه يَسْعَدُ بدعائِه دونَ غيره، والذين يَدْعُونَ غيره يَشْقون بدعائهم.

وأخبرنا ربُّنا عز وجل أنَّ إبراهيمَ عليه السلام وَفَّى بها وَعَدَ قوْمَهُ به، فقد فارَقَ ديارَهُمْ، وارْتَحَلَ عنهم، واعتزَلَ الآلهةَ التي كانوا يعبدونها من دونِ الله عز وجل، وهناك في أرْضِ غُرْبَتِهِ في الديار المقدسة التي ارْتَحَلَ إليها عَوَّضه اللهُ خيراً من قوْمِهِ، فوَهَبَ لَهُ إسحاقَ ويعقوبَ، وجعل اللهُ كلَّ واحدٍ منهما نبياً ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾ [مريم:٤٩].

وقال رَبُّنا تبارك وتعالى في ختامِ ما قصَّه علينا من أخبار نبيِّه إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم:٥٠].

أي: وهَبْنا لإبرهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ من رحمتنا، وقَدَّرَ لهم تباركَ وتعالى في الدنيا كثيراً مِنَ الخيرِ، وأغْناهُمْ بفضْلِهِ، ولهم في الآخرةِ أجْرٌ عظيم، وفضْلٌ كبير.

٢- طرفٌ من أخبارِ نبيِّ الله موسى عليه السلام:

بعد أن حدَّثنا اللهُ -تعالى- شيئاً من أخبارِ نبيِّ الله إبراهيم، أتْبَعَ ذلك بذكرِ طرفٍ مِنْ أخبارِ نبيِّ الله موسى عليه السلام، وموسى هو مِنْ ذريةِ يعقوب بن إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم السلام، وقد أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يذكر ما ورد في الكتابِ الذي هو القرآنُ قصة موسى، وأثْنى الله تعالى عليه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ [مريم:٥١].

وقوله: ﴿مُخْلَصًا﴾ أي: مُخْتاراً مصطفى، اختارَهُ اللهُ تعالى واصطفاهُ كما قالَ ربُّ العزةِ لموسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤]، وجعله رَبُّهُ رسولاً نبيّاً، ورتْبَةُ الرسولِ فوق رتبةِ النبي.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه نادى موسى مِنْ جانبِ الطورِ الأيمنِ وقَرَّبَهُ نجيّاً ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم:٥٢].

وكان نداءُ الله لَهُ عندما كانَ عائداً من مَدْينَ إلى مصرَ بعد أنْ قضى في مَدْيَنَ مدة عشرِ سنواتٍ، وقد حَدَّثَنا اللهُ تعالى عَنْ هذا النداءِ في أكثرِ من موضِعٍ، فمن ذلك قولُهُ تعالى في سورةِ طه: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ [طه:١١-١٢]، وقولُهُ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ قَصَدَ بالأيمن الناحية اليمنى من جبل طور سيناء.

وقوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ أي: قربناه في مناجاتنا إياه، وناجَيتُهُ: سَارَرْتُهُ، والنجيُّ: المُناجي، واللهُ أعلم كيفَ قَرَّبَهُ في مناجاتِهِ له.

وذَكَرَ الله مِنْ نعمتِهِ على عَبْدِهِ ورسولِهِ موسى ﷺ أنّه وَهَبَ لهُ أخاه هارونَ نبيّاً ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم:٥٣]، وكانت هِبَةُ النبوةِ لهارونَ بطلبٍ من موسى في دعائِهِ ربَّه، فقد قال موسى في دعائِهِ ربّه: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه:٢٩-٣٤] وطلب موسى من ربِّه أنْ يجعلَ أخاه هارونَ نبيّاً، وفيه أنَّ موسى كان أفضلَ أخٍ نفعَ أخاه في البشر كلهم.

٣- طرفٌ من أخبار إسماعيل وإدريسَ:

أَعْلَمَنا اللهُ -تعالى- في آيات هذا النص أنَّ نبيَّهُ ورسولَهُ إسماعيلَ ﷺ كان نبيّاً رسولاً، وأنَّه كان صادقَ الوعدِ، وكان يأمرُ أهْلَه بالصلاةِ والزكاةِ، وكان عند ربِّه مَرْضِياً ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم:٥٤-٥٥].

وقد أَثْنَى اللهُ تعالى على إسماعيلَ بأنَّه ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ أي: أنّه لم يَعِدْ شيئاً إلاّ وَفَى بِهِ، ومن ذلك أنَّه وَعَدَ أباهُ أنْ يَصْبِرَ حينَ ذَبْحِهِ له، ووفَى بما وَعَدَهُ به ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٣].

وأثنى عليهِ رَبُّه بأنَّه ﴿كَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم:٥٤-٥٥]، أي: مرضيّاً عنه.

وأَثْنَى اللهُ تعالى على عَبْدِهِ إدْريسَ بأنَّه كان صِدِّيقاً نبياً، وأخْبَرَ أنه رَفَعَهُ مكاناً علياً، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم:٥٦-٥٧]، وأخبارُ إدريس في الكتابِ والسنّةِ قليلةٌ، فذَكَرَهُ اللهُ تعالى في هذه الآية من سورة مريم، وذكره في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء:٨٥]، ولم أَجِدْ له في السنَّةِ النبوية ذكراً إلا في حديث أنس بن مالك، وهو الحديثُ الذي حَدَّثَنا فيه رسولُنا ﷺ عن الإسراءِ، وفيه أنَّه وَجَدَ إدريسَ في السماءِ الرابعةِ، فرَحَّبَ برسولنا ﷺ، ودعا له بخيرٍ [مسلم:١٦٢].

وفي صحيح البخاري أنّ أنسَ بنَ مالكٍ قال: «فلما مَرَّ جِبْرِيلُ بالنبيِّ إدْرِيس قال: مَرْحَباً بالنبيِّ الصالحِ، والأخِ الصالحِ، فقُلْتُ مَنْ هذا؟ قال: هذ إدريسُ» [البخاري: ٣٤٩].

وكلُّ ما عندنا عن إدريسَ أنَّه كان رسولاً نبيّاً، وأنَّه كان من الصابرين، وأنَّه رفعهُ ربُّه مكاناً علياً رَفَعَهُ بالنبوة والرسالة، ورفعه فكان مكانه في السماء الرابعة، وقد أوْرَدَ كثيرٌ مِنَ المفسرين عن إدريسَ أخباراً كثيرةً لا يصحُّ منها شيء، واللهُ أعلم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذكر اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ أربعةً مِنْ أنبيائِه، وهم إبراهيمُ، وموسى، وإسماعيلُ، وإدريسُ، وأثنى عليهم جميعاً، وذكر ما يستحقُّه كلٌّ منهم.

٢- بَيَّنَ اللهُ تعالى كيفَ تكونُ عِظَةُ القريب كالأبِ والأخِ من خلالِ ما حدَّثنا اللهُ به عن عِظَةِ إبراهيمَ لأبيه.

٣- كان إبراهيمُ صريحاً مع أبيهِ في دعوتِهِ إيَّاهُ، وبيانِ ما هو فيه مِنَ الضَّلالِ، ولكنَّه كان في غاية الأدبِ في كلماتِه وتعبيراتِهِ، ومراعاةِ كون المخاطَبِ والدَهُ.

٤- كان الأبُ جافياً في ردِّه بمقدارِ ما كان الابنُ مؤدباً في دعوته.

٥- تركَ إبراهيمُ قومَه، وهاجرَ إلى أرضٍ أخرى، فرزقَهُ الله تعالى ذريةً صالحةً مؤمنةً، عوَّضَهُ بهم عن قومِهِ الكفارِ.

٦- بَيَّنَ اللهُ -تعالى- ما خصَّ اللهُ به نبيَّه موسى ﷺ، فقد كان مُخْلَصاً، وكانَ رَسولاً نبيّاً، وناداهُ مِنْ جانبِ الطورِ الأيمنِ وقَرَّبَهُ نجيّاً، ووهب له مِن رَحْمَتِهِ أخاه هارونَ نبياً.

٧- أثنى اللهُ على عَبْدِهِ إسماعيلَ بأنّه كان صادقَ الوعدِ، وكانَ رسولاً نبيّاً، وكان يحثُّ أهْلَهُ على الصلاةِ، وكانَ مرضيّاً عندَ ربِّه.

٨- أثنى اللهُ على عَبْدِه إدريس، فقد جَعَلَهُ اللهُ صِدِيقاً نبيّاً، وأخْبَرَنا أنَّه رَفَعَهُ مكاناً علياً.

٩- يَحْسُنُ بالعبدِ المؤمنِ أنْ يتعرَّف على ما اتَّصَفَ به الأنبياءُ، ويتأسَّى بهم فيما اتصفوا به.

النص القرآني الخامس من سورة مريم
ثناءُ الله تعالى على من سَبَقَ ذِكْرهم من الأنبياء في السورة

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ تعالى على مَنْ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ مِنَ الأنبياءِ في هذه السورةِ الكريمةِ، وهؤلاء الأنبياء الكرامُ كُلُّهُمْ من ذُرِّيَةِ آدم وبَعْضُهُمْ من ذُريةِ نوحٍ، وبعضُهم ممَّنْ حملهم اللهُ مَعَ نوحٍ، وبعضُهُمْ من ذريةِ إبراهيمَ، وإسرائيلَ، وبَعْضُهُمْ مِمَّن هداه اللهُ واجْتَباهُ، وكُلُّ هؤلاء كانوا إذا تليتْ عليهم آياتُ الرحمنِ خَرُّوا سجداً وبكيّاً.

وذَمَّ اللهُ أقواماً جاؤوا بعدَ الرسلِ أضاعُوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ، واسْتثنى مِنَ المَذْمومينَ الذين تابوا وعلموا الصالحات، فهؤلاءِ يتوبُ اللهُ عليهم، ويغْفِرُ اللهُ لهم، ويدخلُهُم الجنةَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا (٦٠) جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم:٥٨-٦٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ثناءُ الله على مَنْ سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنَ النبيين:

أثْنَى اللهُ -تعالى- على من سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنَ النبيين، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾ [مريم:٥٨] والمشارُ إليه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مَنْ سَبَقَ ذِكْرُهُ من الأنبياءِ في هذه السورةِ، وهم: زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيمُ وإسحاقُ ويعقوبُ وموسى

وهارون وإسماعيلُ وإدريسُ، وجاءَ باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوعُ للبعيدِ، للدلالةِ على عُلُوِّ منزلَتِهِمْ، وعظم كرامتهم، وقوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أَنْعَمَ عليهم بالنبوةِ، وبما أوحاه إليهمْ مِنَ العلمِ، وقوله: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ فكلُّ مَنْ ذكرهم اللهُ تعالى هُمْ من ذريةِ آدم، وقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ وكلُّ الأنبياءِ العشرةِ هم من ذريةِ نوحٍ وذريةِ من حَمَلَهُمْ معه، ولم يختلفْ في أحَدٍ منهم إلا في إدريس، فذهبَ بعضهم إلى أنَّه كان قبل نوحٍ، والصوابُ أنه مِنْ ذريته.

وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وقد جاء من ذرية إبراهيم أصلان عظيمان، الأول: إسحاقُ، وجاءَ منه يعقوبُ الذي هو إسرائيلُ، وجاء منه كلُّ أنبياءِ بني إسرائيل، ومنهم موسى وهارون، وزكريا ويحيى وعيسى، والأصلُ الثاني: إسماعيلُ، وجاء منه أُمَّةٌ عظيمةٌ، ومنهم نبينا محمدٍ ﷺ.

وكلُّ الأنبياءِ المذكورين هم ممَّنْ هَداه اللهُ إلى الإسلامِ والإيمانِ، و﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ اجتباه، أي: اختارَهُ واصطفاه، وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ أنبياءَه على اختلافِ أزمنتهم وأمكنتهم كانوا إذا تليتْ عليهم آياتُ الرحمن التي أنْزَلَها على أنبيائِه في مختلف العصورِ خرُّوا سُجَّداً وبكيّاً، وسُجَّداً: جمع ساجدٍ، وبُكيّاً: جمع باكٍ، كعِتِيٍّ: جَمْعُ عاتٍ، وجِثِيٍّ: جَمْعُ جاثٍ.

وأجْمَعَ العلماءُ على مشروعيةِ السجودِ عندَ هذه الآية، اقتداءً بأنبياء الله، واتباعاً لهم.

٢- خلفَ بعد الأنبياءِ خلوفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يَخْلُفُ كلَّ نبيٍّ مِن أنبياءِ الله ومن معهم من الأخيار الذين آمنوا بهم، وسلكوا سبيلَهُم خُلوفٌ، والخلوفُ: جمعُ خَلْفٍ، والخَلْفُ هو الطالِحُ، والخَلَفْ: بالفتح الصالح، وهؤلاءِ الخُلوفُ: أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الصلاةَ مكتوبةٌ على الأنبياءِ جميعاً، وإضاعَتُهمْ لها تَرْكُها، والإهمالُ لها، وفي مقابلِ تَرْكِهِم الصلاةَ اتبعوا الشهواتِ، أي: ما تشتهي أَنْفُسُهم مما لم يشْرَعْهُ اللهُ تعالى كالزنا والفجورِ وأكلِ المحرماتِ والكفر، قال كعبُ الأحبار: «والله إني لأجدُ صِفَةَ المنافقين في كتاب الله، شرَّابين للقَهواتِ، ترَّاكين للصلواتِ، لعَّابينَ بالكَعَبات، رقَّادينَ عن العَتَماتِ، مُفْرِطين في الغدَواتِ، تاركين للجُمعات، قال ثم تلا هذه الآية: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ وقال الحسنُ البصري: عَطَّلُوا المساجدَ، ولَزِمُوا الضَّيْعاتِ» [ابن كثير: ٤/ ٢٨٥] وقد تَوَعَّدَ ربُّ العزةِ هؤلاءِ الذين أضاعوا الصلواتِ واتَّبَعوا

الشهواتِ بقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ والغيُّ: الضياعُ والخُسْرانُ والضلالُ والخيبةُ والغيُّ: كُلُّ شرٍّ لا خيرَ فيه، ولا رشادَ مَعَهُ.

٣- مغفرة الله للتائبين وإدخالُهم جناتِ النعيم:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذين تابوا وأنابوا إلى الله تعالى، وذلك بمحافظتهم على الصلاةِ، وترْكِ الشهواتِ، فهؤلاءِ يدخلون الجنةَ، ولا يظلمونَ شيئاً ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾ [مريم:٦٠]. أخبرنا ربُّنا أنَّ التائبينَ الذين رَجَعوا عن الباطلِ الذي كانوا فيه، وأكّدوا توبَتَهُمْ بأدائهم الأعمالَ الصالحةَ، وهؤلاءُ حالهم حالُ الذين أقاموا دينَهُمْ، واستمرُّوا عليه، وهؤلاءِ جميعاً يدْخلون الجنةَ، ولا يظلمونَ شيئاً، أي: لا يَنْقُصُ منْ أُجورِهِمْ شيء وإنْ كان قليلاً.

وقد عرَّفنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالجناتِ التي يستحقُّها المؤمنون التائبون، فقال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾ [مريم:٦١] أي: الجناتُ التي وَعَدَ اللهُ بها في الآيةِ السابقةِ هي جناتُ عَدْنٍ، أي: جناتُ الخلودِ الدائم المستمرِّ التي وَعَدَ اللهُ بها عبادَهُ المؤمنين الصالحين بالغيب، ووَعْدُ الله -عزَّ وجلَّ- كائن لا محالةَ، وقوله: ﴿مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ أي: آتياً، لأنَّ كلَّ ما أتاكَ فقد أَتَيْتَهُ، والوَعْدُ في الآيةِ بمعنى المَوْعُودِ، كالخَلْقِ بمعنى المَخْلُوقِ.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أهلَ الجنة لا يسمعونَ فيها لَغْواً، أي: باطلاً مِنَ القولِ، وكلُّ الذي يسمعونَهُ هو القولُ السالمُ مِنَ الآفات والأذى، الذي يؤذي الأُذُن، ويؤْذِي النَّفْسَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم:٦٢]. أي: أنَّ أهْلَ الجنة يأتيهم رِزقُهُمْ في الجنةِ في الصباحِ والعشيِّ، أي: في أوقاتٍ تتعاقبُ، يعرفون مُضِيَّها بأضواءٍ وأنوارٍ، وقد نَقَلَ ابنُ كثيرٍ عن زُهيرِ بن محمدٍ أنه قالَ في قوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾: «ليس في الجنة ليلٌ، هم في نورٍ أبداً، ولهم مقدارُ الليلِ والنهار، يعرِفونَ مقدارَ الليلِ بإرخاءِ الحُجُبِ، وإغلاقِ الأبوابِ، ويعرفون مقدارَ النهارِ برفْعِ الحُجُبِ، وفَتْحِ الأبوابِ» [ابن كثير: ٤/ ٢٨٧] ويبدو أن هذا الفِقْه أَخَذَه مِنَ نصوصٍ كثيرةٍ.

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم:٦٣] أي هذه هي الجنةُ التي نُورثها الأتقياء، أي المؤمنين الذين استجابوا لله تعالى فيما أَمَرَهُمْ بِهِ، ونهاهُمْ عنه.

٤- الملائكة لا تَتَنَزَّلُ إلا بأمْرِ الله تعالى:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يا جبريلُ ما يمْنَعُكَ أنْ تَزُورَنا أكثَرَ مما تَزورنا» فنزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم:٦٤] [البخاري: ٧٤٥٥].

وسببُ نزولِ الآيةِ يُظهِر أنَّ الملائكةَ محكُومونَ بأمْرِ الله تعالى، فلا يتحركون صُعوداً وهبوطاً إلا إذا أذِنَ اللهُ تعالى لهم، وقولُهم: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: له ما بين أيدينا من أمر الآخرة، وما خلفنا من أمرِ الدنيا، وما بين الآخرة والدنيا وهو البرزخ، أي: ذلك كلُّه له سبحانه، وقولُهم: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ أي: لا يغفلُ عن شيءٍ، ولا ينساه، بل كلُّ شيءٍ حاضرٌ، لا يغيبُ عنه شيءٌ.

وقد زادَنا الملائكةُ تعريفاً بربِّنا في قولهم: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥]، أي: أنَّ الربَّ هو ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما، أي خالقُ السمواتَ والأرضِ، وخالقُ ما بينَ السمواتِ والأرض، وقد أمروا رسولَ الله ﷺ ومَنْ آمَنَ بِهِ أنْ يُخْلِصُوا العبادةَ لله الواحدِ الأحدِ، فلا يُشرِكُوا معه أحداً، وأُمروه بالاصطبارِ لعبادَتِهِ، أي: اصبرْ نَفسَكَ لعبادةِ الله، والعملِ على طاعَتِهِ، وقولهم: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ أي: هل تعْلَمُ له شبيهاً أو مثيلاً، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص:٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ – ثناءُ الله تعالى على أنبيائِه الذين ذكرهم في سورة مريمَ، فقد اختارهم واصطفاهم، وكانت إذا تتلى عليهم آياتُ الرحمنِ خرُّوا سجَّداً وبكيًّا.

٢ – الأنبياءُ ذريةٌ بعضُها من بعضٍ، فالأنبياءُ كلُّهم من ذريةِ آدم، ومنهم من هو من ذرية إبراهيمَ ومن حفيده إسرائيل، وآخرون من ابنه إسماعيل.

٣ – مشروعية السجدةِ لمن قرأ الآيةَ الأولى من هذا النص، ليشاركَ الساجدُ أنبياءِ الله في سجودِهِمْ لله وخضوعهم له.

٤ – ذمَّ اللهُ الذين أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ من أتْباعِ الرسلِ.

٥- التائبُ مِن الذَّنْبِ كمن لا ذَنْبَ له، فالتائبون مِنَ الذين انحرفَ بهم المسارُ مِنْ أتْباعِ الرُّسُلِ مصيرُهُمْ الجنةُ، ولا ينقصُ مِنْ أُجورهم شيءٌ.

٦- الجنةُ التي يدخلها المؤمنون يومَ الدينِ، هي جناتٌ خالدةٌ، لا تفنى، ولا تزول، وأهلها خالدون فيها أبداً.

٧- وَصَفَ الله نعيمَ أهلِ الجنةِ في الجنة، فهي سلامٌ لا شقاءَ فيها، ورزقها دائمٌ لا ينقطع.

٨- وَعَدَ اللهُ عبادَه المتقين جناتِ النعيم.

٩- الملائكةُ لا ينزلونَ إلاّ بأمْرِ الله تباركَ وتعالى.

١٠- في خاتمةِ آياتِ النصِّ تعريفٌ بالله تعالى.

النص القرآني السادس من سورة مريم
حالُ الكفار في يوم الدين

أولاً: تقديم

ردَّ اللهُ -تعالى- على الكفارِ الذين يُنْكرونَ البعثَ والنشورَ، وبيَّنَ حالَهُمْ في يومِ الدينِ عندما يحْشُرُهُمْ والشياطينَ باركينَ على ركبهم حولَ النارِ، ثم يبدأُ بانتزاعِ أعْتاهم من كل طائفة، ليقذفَ بهم في النارِ، فهم يدخلون في النارِ بحسبِ شدةِ كفرِهِمْ، ففرعونُ يَقْدُمُ قومَهُ، فيوردَهُمْ النار.

وقد أخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفار يَدْخُلونَ النارَ، والمؤمنون يمرُّون على النارِ من فوق الصراطِ، وأعلمنا ربُّنا بأنَّ الكفارَ يفخرون على المؤمنين بالعَرَضِ الزائلِ والدنيا الفانيةِ، وقد ضَرَبَ لهم المَثَلَ بمن قبلهم الذين أهلكهم اللهُ، وكانوا أقوى منهم، وأعظمَ دُنْيا منهم، وأخبرنا في خاتمةِ الآياتِ أنه يَزيدُ الضالين ضلالاً، ويزيدُ المهتدين هدى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم:٦٦-٧٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إنكارُ الكفارِ للبعثِ والنشورِ وردُّ الله عليهم:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّ الإنسانَ يقولُ منكراً للبعثِ والنشورِ: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم:٦٦]، وليس كلُّ إنسان يقول هذا القول، وينكرُ البعثَ والنشورَ، فالذي

يقوله مِن الناسِ هم الكفارُ، ومن الأساليب الصحيحة في اللغة العربية إسنادُ الفعل إلى المجموع، مع أنَّ فاعلَهُ بَعْضُهُمْ، لا جميعُهمْ، وعلى ذلك فالذي يقولُ هذا القولَ هو الكافرُ مِنَ الناسِ. وقد رَدَّ اللهُ تعالى قَوْلَ الكافرِ المنكرِ للبعثِ بأمرين:

الأولُ: أنَّ اللهَ تعالى أوْجدَ الإنسانَ بعد أن كان عَدَماً، والذي استطاعَ أنْ يخلق الإنسانَ أولاً قادرٌ على إعادتِهِ ثانياً، قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم:٦٧]، وفي هذه الآيةِ سؤالٌ يُرادُ به تذكيرُ الإنسانِ المنكرِ للبعثِ بأنَّ اللهَ تعالى خَلَقَهُ، ولم يكنْ قبلَ ذلكَ شيئاً، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:٧٨-٧٩]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم:٢٧].

الثاني: أقْسَمَ رَبُّ العزَّة -تبارك وتعالى- أنَّه سَيَحْشُرُ الكفارَ الذين ينكرون البعث والنشورَ، مع شياطينهم الذين يحركونَهمْ إلى الكفرِ والضلالِ، ثم يسوقُهُمْ ليَجْثُوا حَوْلَ النارِ، أي: يبْرُكوا على رُكَبِهم حولها، منتظرين دخولها.

وقد أخْبَرنا رسُولُنا ﷺ أنَّ الذينَ ينكرونَ البعثَ والنشور يُكَذِّبونَ اللهَ تعالى فيما أخْبَرَ به، فعنْ أبي هريرة قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «كَذَّبني ابنُ آدَمَ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ ذلك، وشَتَمَني ولم يكن له ذلك، أما تكذيبُهُ إياي أنْ يقول: إنِّي لَنْ أُعيدَه كما بَدَأْتُه، وأما شَتْمُهُ إيَّايَ أن يقولَ: اتخذ اللهُ ولداً» [البخاري: ٤٩٧٥. وراجع: ٣١٩٣، ٤٩٧٤].

٢- مشهد الكفار وهم جاثون حولَ النار:

أقْسَمَ ربُّنا -تبارك وتعالى- بنفسِهِ الكريمةِ أنَّه سيحشرُ الكفارَ المنكرين للبعثِ، مع شياطينهم الذين كانوا يضلونَهُمْ في الحياةِ الدنيا، وأنَّه سيُحْضِرُهُمْ حولَ جهنَّم جثيّاً، فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم:٦٨]. وجثيّاً: جمع جاثٍ، والجاثي هو الذي بَرَكَ على ركبتيه، والعادة عند العرب أنهم إذا كانوا في ضنك وأمر شديد جثوا على ركبهم، ولا موقفَ أشدَّ من رؤية الإنسانِ للنار بأهوالِها وفظائعها.

ثم أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه سينْزَعُ من كلِّ شيعةٍ أيّهم أشَدُّ على الرحمن عِتِياً، ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم:٦٩]. أخبر سبحانه أنَّه سينزع من كل شيعةٍ أيُّهم أشدُّ على الرحمنِ عِتِيّاً، والنزعُ هو القَلْعُ بقوةٍ، والشيعة: الفِرْقَةُ التي شايعَ بعضُها بعضاً، والمراد من كلِّ فرقةٍ أو طائفةٍ وأهلِ دين باطل، وقولُهُ: ﴿أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ أي: أكثرهم فجوراً وتمرداً أو جُرْماً، وهم قادتُهُمْ وزعماؤُهُمْ والمنظِّرون للشرِّ فيهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠)﴾ [مريم:٧٠] أي: أنَّ اللهَ سبحانه أعْلَمُ بمن يستحقُّ دخولَ النار قبل غيره، ومعنى ﴿صِلِيًّا (٧٠)﴾ أي: الأولى بدخولِ النارِ، والأولى بمقاساةِ حَرِّها وشَرِّها.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ كلَّ العبادِ سيَرِدُونَ النارَ، ثم يُنْجِي اللهُ المؤمنين، ويَذَرُ الظالمينَ فيها جِثِيّاً ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾ [مريم:٧١-٧٢].

والوُرودُ إلى الشيءِ الوصولُ إليه، ومنهُ ورودُ الماءِ، وورودُ النارِ نوعان:

الأول: ورودُ الكفارِ، وهو دخولُهُمْ النارَ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦)﴾ [مريم:٨٦]، قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء:٩٨]، وقال اللهُ عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ﴾ [هود:٩٨].

والثاني: المرورُ على الصراطِ، وقد ذكر رسولُنا ﷺ هذين النوعين في حديثٍ عن أبي هريرةَ: أنَّ الناسَ قالوا: يا رسولَ الله، هل نَرَى رَبَّنا يومَ القيامةِ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «هل تُضارُّونَ في القَمَرِ ليلةَ البَدْرِ؟» قالوا: لا يا رسولَ الله، قال: «فإنَّكم تَرَوْنَه كذلكَ، يَجمَعُ اللهُ الناسَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: مَن كان يَعبُدُ شيئاً فلْيَتبَعْه، فيتبَعُ مَن كان يعبُدُ الشمسَ الشمسَ، ويتبعُ مَن كان يعبُدُ القمرَ القمرَ، ويتبعُ مَن كان يعبُدُ الطواغيتَ الطواغيتَ، وتبْقَى هذه الأُمّةُ فيها شافعُوها -أو: مُنافقوها، شَكَّ إبراهيمُ- فيأتيهمُ اللهُ، فيقولُ: أنا رَبُّكُم، فيقولونَ: هذا مكانُنا حتى يأتيَنا رَبُّنا، فإذا جاءَنا رَبُّنا عَرَفْناه، فيأتيهمُ اللهُ في صورَتِه التي يَعرِفونَ، فيقولُ: أنا رَبُّكُم، فيقولونَ: أنتَ رَبُّنا فيتْبَعونَه.

ويُضرَبُ الصِّراطُ بينَ ظَهْرَي جهنمَ، فأكونُ أنا وأُمَّتي أولَ مَن يُجيزُها، ولا يتكلَّمُ يومئذٍ إلاَّ الرُّسُلُ، ودَعْوَى الرُّسُلِ يومئذٍ: اللهمَّ سَلِّم سَلِّم، وفي جهنَّمَ كَلاليبُ مثلُ شَوْكِ السَّعْدانِ، هل رأيتُمُ السَّعْدانَ؟» قالوا: نعم يا رسولَ الله، قال: «فإنَّها مِثلُ شَوْكِ السَّعْدانِ، غيرَ أنه لا يعلَمُ ما قَدْرُ عِظَمِها إلاَّ اللهُ، تَخْطَفُ الناسَ بأعمالهم، فمنهمُ المُوبَقُ بَقِيَ بعَمَلِه -أو: الموثَقُ بعَمَلِه- ومنهمُ المُخَرْدَلُ- أو: المُجازَى، أو نحوُه» [البخاري: ٧٤٣٧، ٦٥٧٣. ومسلم: ١٨٢].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ، قال: قلنا: يا رسولَ الله، هل نَرَى رَبَّنا يومَ القيامةِ؟ قال: «هل تُضارُّونَ في رُؤْيةِ الشمسِ والقَمَرِ إذا كانت صَحْواً» قلنا: لا، قال: «فإنَّكم لا تُضارُّونَ في

رُؤْيةِ رَبِّكم يومَئذٍ، إلاَّ كما تُضارُّونَ في رُؤْيَتِها» ثم قال: «يُنادي مُنادٍ: ليَذهَبْ كلُّ قومٍ إلى ما كانوا يَعبُدونَ، فيَذهَبُ أصحابُ الصليبِ مع صَليبِهم، وأصحابُ الأوثانِ مع أوثانِهم، وأصحابُ كلِّ آلهةٍ مع آلِهَتِهم، حتى يَبْقى من كانَ يعبدُ الله مِنْ بَرٍّ أو فاجِرٍ، وغُبَّراتٌ من أهلِ الكتاب، ثم يُؤتَى بجَهنَّمَ تُعْرَضُ كأنَّها سَرابٌ، فيقالُ لليهودِ: ما كنتُم تَعبُدونَ؟

قالوا: كنا نَعبُدُ عُزَيرَ ابنَ الله، فيُقالُ: كَذَبتُم، لم يَكُنْ لله صاحبةٌ ولا ولدٌ، فما تُريدون؟ قالوا: نريدُ أنْ تَسْقِيَنا، فيُقالُ: اشرَبُوا، فيَتَساقَطونَ في جهنم، ثم يُقالُ للنصارَى: ما كنتُم تَعبُدونَ؟ فيقولونَ: كنَّا نَعبُدُ المسيحَ ابنَ الله، فيُقالُ: كَذَبتُم، لم يَكُنْ لله صاحبةٌ ولا ولَدٌ، فما تُريدونَ؟ فيقولونَ: نريدُ أنْ تَسْقِيَنا، فيُقالُ: اشرَبُوا، فيَتَساقَطونَ في جَهنَّمَ، حتى يَبْقَى مَن كان يَعبُدُ الله من بَرٍّ أو فاجِرٍ، فيقالُ لهم: ما يَحبِسُكم وقد ذهبَ الناسُ؟

فيقولونَ: فارَقْناهم ونحنُ أحوَج مِنّا إليه اليومَ، وإنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادي: لِيَلْحَقْ كلُّ قومٍ بما كانوا يَعبُدونَ، وإنَّما ننتَظِرُ رَبَّنا، قال: فيأتيهمُ الجبَّارُ فيقولُ: أنا رَبُّكُم، فيقولونَ: أنتَ رَبُّنا، فلا يُكلِّمُه إلا الأنبياءُ، فيقولُ: هل بينكم وبينَه آيةٌ تَعرِفونَه؟ فيقولونَ: الساقُ، فيَكْشِفُ عن ساقِه، فيَسجُدُ له كلُّ مُؤْمِنٍ، ويَبْقَى مَنْ كان يَسجُدُ لله رِياءً وسُمْعةً، فيَذهَبُ كَيما يَسجُدَ فيعودُ ظَهْرُه طَبَقاً واحداً، ثمَّ يُؤتَى بالجَسْرِ فيُجْعَلُ بينَ ظَهْرَي جهنَّمَ».

قلنا: يا رسولَ الله، وما الجَسْرُ؟ قال: «مَدْحَضةٌ مَزِلّةٌ، عليه خَطاطيفُ وكَلاليبُ وحَسَكةٌ مُفَلْطَحةٌ، لها شوكةٌ عُقَيفاء تكونُ بنَجْدٍ، يقالُ لها: السَّعْدانُ، المؤمنُ عليها كالطَّرْفِ، وكالبَرْقِ، وكالرِّيحِ، وكأجاويدِ الخيلِ والرِّكابِ، فناجٍ مُسَلَّمٌ وناجٍ مَخدُوشٌ، ومَكْدُوسٌ في نار جَهنَّمَ، حتَّى يَمُرَّ آخرهم يُسْحَبُ سَحْباً» [البخاري: ٧٤٣٩. ومسلم: ١٨٣].

وهذان الحديثانِ صريحانِ في دخولِ الكفارِ يومَ القيامةِ النارَ، أما المؤمنون فإنَّه ينصبُ لهم الصراطُ فوقَ النارِ، فيمرُّون عليه يَحْمِلُهُمْ إيمانُهُم وأعمالُهُمْ الصالحةُ. وقولُه تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم:٧١] أي: كان ذلك الورود قضاء كائناً لا بد من وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم:٧٢].

بعد أن ذَكَرَ رَبُّنا أنَّ وُرُودَ النارِ كان حتماً لازماً لا محيدَ عنه، ذكر في هذه الآية أنَّ الله يُنجِّي المتقين، ويذرُ الظلمينَ فيها جثيّاً، وعن عبدالله بن مسعود [موقوفاً] قال: «يَرِدُ الناسُ جَميعاً الصِّراطَ، ووُرودُهُمْ قيامُهُمْ حَوْلَ النار، ثم يَصْدُرُونَ عن الصراطِ بأعمالهم، فمنهم مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ البرقِ، ومنهم من يَمُرُّ مِثْلَ الريحِ، ومِنْهُمْ من يمرُّ مثل الطَّيْرِ، ومِنْهُمْ من يمرُّ كأجودِ

الخيلِ، ومنهم من يمرُّ كأجود الإبلِ، ومنهم من يمرُّ كعَدْوِ الرجلِ، حتى إن آخرهم مُروراً نُورُه على مَوْضعيْ إبهاميْ قَدَمَيْهِ، يمرُّ يتكفَّأُ به الصراطُ، والصراطُ دَحْضٌ مَزَلَّة، عليه حَسَكٌ كحَسَكِ القتادِ، حافَّتاهُ مَلائكةٌ، مَعَهم كلاليبٌ من نارٍ، يَخْطِفُونَ بها النَاسَ» وذكر تمام الحديث، ورواه ابن أبي حاتم، ولم يذكر ابن تيمية مدى صحته، ولم يبين محقِّقُ تفسيرِ ابن كثير مدى صحته.

وعن عبدالله: «قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: الصراط على جهنَّم مِثْلُ حَدّ السيفِ، فتمرُّ الطبقة الأولى كالبرقِ، والثانيةُ كالريح، والثالثة كأجْوَدِ الخيلِ، والرابعةُ كأجود البهائم، ثم يَمُرُّون، والملائكةُ يقولون: اللهمَّ سَلِّم، سَلِّم» [عزاه الشيخ شعيب إلى الطبري في تفسيره، والحاكم من طريق عمرو بن طلحة عن إسرائيلَ، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرطِ الشيخين، ووافقه الذهبيُّ. تفسير ابن كثير: (٥/ ٢٢٦) طبعة الرسالة].

٣- اغترارُ الكفارِ بما حازُوه مِنَ الدنيا:

كان الكفارُ يستكبرونَ، ويسْتَعْلُونَ على المؤمنين عندما يتلو عليهم المؤمنونَ آياتِ الله، ويدعونَهم إلى الله تعالى، وكانوا يفخرون عليهم بما لديهم مِنَ المالِ والمتاع ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم:٧٣].

والمقامُ الخَيِّرُ والنديُّ الحَسَنُ الذي كان الكفارُ يفخرونَ بِهِ على المؤمنين ما هم فيه من متاع الدنيا مِنَ القصورِ العالية، والمساكنِ المرهفةِ، والدواوينِ العامرةِ بالرجالِ، وما حازوه مِنَ الأثاثِ والزينةِ.

وقد رَدَّ اللهُ عليهم قائلاً: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم:٧٤] ﴿وَكَمْ﴾ هذه هي الخبريَّةُ، أي: أهلكنا قبلهم قروناً كثيرةً كانوا أحسنَ متاعاً مِن كفارِ قريش، وكان عندهم الكثيرُ مِنَ المالِ، والدَّوابِ، وكانت أشْكالُهُمْ ومَناظِرُهُم أحسن مما عليه قومك، وقد قال اللهُ فيمن أهْلَكَهُمْ مِنَ القرونِ الماضية: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان:٢٥-٢٨]، لقد هَلَكَ مَنْ كان قبلهم، وهم سيَهْلِكُونَ كما هلكوا، ويزولونَ كما زالوا.

وأمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لهؤلاءِ المغترين بأموالهم ومساكنهم ونواديهم التي يَسْتَعْلُونَ بها على المؤمنين: ﴿مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم:٧٥]، أي: قُلْ لهم: مَنْ

كان مِنّا ومنكم في الكفرِ والضلالِ، فليمهله وليدعه الرحمن فيما هو فيه حتى يموتَ على ما هو عليه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ والمرادُ به نزولُ العذابِ الذي تَوَعَّدَهُمْ اللهُ تعالى به في الدنيا، أو وقوعُ الساعةِ، فعند ذلك يعلمون مَنْ هو شَرٌّ مكاناً ومستقراً وأضعف قوة وجنداً.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم:٧٦] ذَكَرَ اللهُ -تعالى- فيما سبق أنَّ الذين في الضلالةِ يزيدُهم اللهُ ضلالاً، وبيَّنَ في هذه الآية أنَّ الذين اهتدوا يزيدهم اللهُ تعالى هُدىً وعملاً صالحاً، والباقياتُ الصالحاتُ، أي: الأعمالُ التي يبقى أجْرُها وثوابها مِنَ الصلاةِ والزكاةِ والصيامِ والحجِّ وذِكْر الله ونحو ذلك خيرٌ عند الله ثواباً، أي: جزاءً، وخيرٌ مَرَدّاً، أي: عاقبةً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كثيرٌ من بني آدمَ ينكرونَ البعثَ بعدَ الموتِ، وقد رَدَّ اللهُ عليهم بأنَّ الذي أحياهُمْ في الدّنيا قادرٌ على بعثهم في الأخرى، وأقْسَمَ سبحانَه على أنَّه سيبعثهم.

٢- ذَكَرَ اللهُ تعالى لنا مَشْهَداً مِنْ مشاهدِ القيامةِ، وهو حَشْرُهُ للكفرةِ والشياطينِ جاثمين على رُكَبِهِمْ حولَ النار، وهو يقتلعُ الأعْتَى مِنَ الكفَّارِ من كل طائفة ليُلْقَوْا في النارِ.

٣- الكفارُ يُلْقَوْنَ في النارِ، والمؤمنونَ يَمُرُّونَ على النَّارِ في مَسارِهِم إلى الجنة.

٤- اغترارُ الكفارِ بما هم فيه من دنيا عامرةٍ مرفهةٍ على المؤمنينَ الفقراءِ الضعفاءِ، كما هو حالُ دولِ الكفرِ في استعلائها اليوم على المؤمنين.

٥- ضَرَبَ الله المثَلَ بما كانتْ عليه الدولُ الغابرةُ التي أهْلَكَها اللهُ وأزالَها، وكذلك الكفارُ في عهد الرسولِ ﷺ وبَعْدَ عهده سيزولون كما زال من قبلهم.

٦- الكفار يزيدُهُم اللهُ ضلالاً، والمؤمنون يزيدُهُمْ اللهُ إيماناً وهدى.

النص القرآني السابع من سورة مريم

مصير المؤمنين والكافرين في يوم الدين

أولاً: تقديم

هذه الآياتُ الكريماتُ هي آخرُ سورةِ مريمَ، وفيها توبيخٌ لرجلٍ كافرٍ زَعَمَ كاذباً أنه إنْ كان بعثٌ ونشورٌ، فسيكونُ له في ذلك اليومِ المالُ والولدُ، وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى كَذِبَهُ وافتراءَه، وتهدَّدَهُ ربُّ العزَّة بالعذابِ الذي سيأْخُذُه به، عندما يأْتي رَبَّهُ في يومِ القيامةِ وحيداً.

وتهَدَّدَ ربُّ العزةِ الكفرةَ الذين اتخذوا آلهةً مِنْ دونِ الله ليكونوا لهم عِزّاً، وبيَّن أنّ هذه الآلهة ستكْفُرُ بعبادةِ عابديها وتُنْكِرُها يومَ الدين.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أرسلَ الشياطين على الكافرين تحركهم إلى الشرِّ تحريكاً، وأعلمنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- بأنه سيسوقُ المتقينَ في يومِ القيامةِ إلى الرحمنِ وَفْداً، ويسوقُ المجرمين إلى جهنَّم وِرْداً.

وبيَّن لنا ربُّنا عظم جريمةِ الذين نسبوا الولدَ إلى الله تعالى، وبيَّن لنا مصيرهم في يومِ الدين، وبيَّنَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعلُ لهم محبةً في قلوب العباد، وأنَّه يَسَّرَ القرآنَ بلسانِهِ، ليبشرَ به المتقين، ويُخَوِّفَ بِهِ قوماً مجرمين، ورهبنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بمصيرٍ كمصيرِ الذينَ أهلكهم مِنَ القرون الخاليةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة مريم

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم:٧٧-٩٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تكذيبُ الله تعالى من زَعَمَ مِنَ الكفار أنّ الله سيعطيه الآخرة كما آتاه الدنيا:

قال اللهُ -تبارك وتعالى- مُعَجِّباً رسولَهُ ﷺ من قولِ الكفارِ الذين زعموا أن اللهَ سيؤتيهم الآخرةَ كما آتاهم الدنيا ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم:٧٧]، وهذا الكافرُ الذي كَفَرَ بآيات الله تعالى، وقال: لأوتينَّ مالاً وولداً هو العاصُ بنُ وائلِ السهميُّ، روىَ البخاري ومسلمٌ عن خَبابٍ قالَ: كنتُ قَيْناً [أي: حداداً] في الجاهليةِ، وكانَ لي على العاصِ بنِ وائلٍ دينٌ، فأتيتُهُ أتقاضاه، قال: لا أُعطيكَ حتى تكفرَ بمحمدٍ، فقلتُ: لا أكْفرُ حتى يميتَكَ اللهُ ثم تُبْعثُ. قالَ: دَعْني حتَّى أموتَ وأبعثَ، فسأُوتَى مالاً وولداً، فأقْضيكَ، فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم٧٧-٧٨] [البخاري: ٢٠٩١، ٤٧٣٢، ٤٧٣٣، ٤٧٣٤، ٤٧٣٥. ومسلم: ٢٧٩٥].

وقولُ العاصِ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ مرادُهُ الاستهزاءُ بالدِّين وبخَبَّابِ بنِ الأرتِّ، أو أنَّه زَعَم أنه إذا كان هناك قيامةٌ، فسيُؤتى مالاً وولداً كما أوتي في الدنيا، وقد ردَّ اللهُ على هذا الكافرِ بقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم:٧٨]. يقولُ الله تعالى لهذا الكافر: هل اطَّلَعَ الغيبَ، فعلمَ أنَّ اللهَ سيرزقه المالَ والولدَ في الآخرةِ، أم عِنْدَه عَهْدٌ مِنَ الله تعالى أنْ يعطيَهُ المالَ والولدَ، فإذا لم يكن اطَّلَعَ الغيبَ، وليس عنده عهدٌ مِنَ الله تعالى بما ادَّعاه، فهو كاذبٌ فيما قالَه وزَعمه، وقولُه تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم:٧٩-٨٠].

وقولُه: ﴿كَلَّا﴾ كلمةُ رَدْعٍ وزجرٍ، أي: ليس الأمرُ كما زعموا، سنكتبُ ما قاله هذا الكافرُ مِنَ الإفكِ والباطلِ في ديوانِ أعمالِه، ونمدُّ له مِنَ العذابِ مدّاً، أي: نزيدُ في عذابه لقاءَ كذبه وافترائِه على ربِّ العزةِ، ونرثُهُ في الدنيا وما يخلفه من المالِ والولدِ بعد إهلاكه، ثم يأتينا يومَ القيامةِ وحده من غيرِ مالٍ ولا ولدٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:٩٤].

٢- اتخاذُ الكفارِ آلهةً لتكونَ لهم عِزّاً:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾ [مريم:٨١-٨٢]. أي: أنَّ الكفارَ، من مشركي العربِ اتخذوا من دونِ الله آلهةً يعبدونَها، لتكون لهم عِزّاً، ليعتزُّوا بها في الدنيا، كما قال أبو سفيان بعدَ غزوة أُحدٍ: «اعْلُ هُبَلُ» فأمرهم الرسولُ ﷺ أنْ يقولوا: «اللهُ أعْلَى وأجلّ» فقال أبو سفيان: «لنا العزَّى ولا عُزَّى لكم» فأمرَهُمْ الرسولُ ﷺ أنْ يردُّوا عليه قائلين: «اللهُ مَوْلانا ولا مَوْلى لكم».

ويزعمُ المشركون أنَّ هذه الأصنامَ ستكونُ لهم أنصاراً وشفعاءَ تنجيهم مِنْ عذابِ الله تعالى، وتقرِّبُهُمْ إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣]، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، وقد أكذَبَهُمْ الله تعالى فيما يفترونَه، فقالَ: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾ [مريم:٨٢]، قالَ لهم ربُّ العزةِ: ﴿كَلَّا ۚ﴾ أي: ليس الأمْرُ كما تقولون، بل إنَّ المعبوداتِ التي كنتم تعْبُدونها، ستكفُرُ بعبادتِكم، فعيسى ﵇ يتبرأُ مِنْ عابديه يومَ الدين، والملائكة يتبرؤون مِنْ عابديهم، والشيطانُ يقف في أتباعِهِ وعابديه متبرئاً منهم، وهذا كما قال ربُّ العزة: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص:٦٣]، وقالَ: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾ [يونس:٢٨]، ولا يَبْعُدُ أنَّ اللهَ يُقْدرُ الأصنامَ والأوثانَ على النطقِ حتى تتبرأ مِنْ عابديها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾ [مريم:٨٢] يكونون لهم أعداءً.

٣- إرسالُ الله تعالى الشياطينَ على الكافرين تؤزُّهم أزّاً:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يرسلُ الشياطينَ على الكافرين تَؤُزُّهم أزّاً ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣)﴾ [مريم:٨٣]، الإرسالُ هنا إرسالٌ قدريٌّ كونيٌّ كإرسال الريحِ، وليس بإرسالٍ ديني شرعيٍّ، ومعنى تؤزهم أزّاً، أي: تحركهم وتهيجهم إلى المعاصي تحريكاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾ [مريم:٨٤] لا تستعجلْ وقوعَ العذابِ بهؤلاءِ، فإنَّ اللهَ -تعالى- جعلَ لهم أجلاً محدوداً، فعندما ينقضي الأجلُ يأتي العذابُ، والمرادُ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾ أي: نعدُّ لهم السنواتِ والشهورَ والأيامَ، فإذا جاءَ

وقتُ هلاكهم أخذناهم وأهلكناهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥].

٤- حَشْرُ المتقينَ إلى الرحمنِ وفداً وحَشْرُ المجرمين إلى جهنَّم وِرْداً:

أعلمنا ربُّنا كيف يحشرُ المتقينَ والمجرمينَ فقالَ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم:٨٥-٨٧]. أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ المتقين في يومِ الدين يحشرون إلى جناتِ النعيم، أي: يحشرونَ على أحسنِ حالٍ، فيحشرون جماعاتٍ جماعاتٍ، على هيئة الوفود، أي: راكبينَ مُعَزَّزين مُكَرَّمين، كما قال ربُّ العزةِ فيهم: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر:٧٣].

أما الكفرةُ المجرمون فإنَّهم يساقونَ إلى النارِ سوقاً غليظاً، كما تساقُ البُهْمُ ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم:٨٦]، أي: يساقونَ إلى النارِ سوقاً غليظاً وهم عطاشٌ، كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر:٧١-٧٢].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المجرمين لا يملكون الشفاعةَ، أي: ليس لهم مَنْ يشفع لهم كما يشفعُ بعضُ المؤمنين لبعضٍ، ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [مريم:٨٧]، وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم:٨٧]، هذا استثناءٌ منقطعٌ، بمعنى لكنْ مَنِ اتَّخَذَ عندَ الله عهداً، والعهدُ الأعمالُ الصالحةُ التي تنجي صاحبها يومَ القيامةِ.

٥- عِظَمُ جريمةِ الذين زعموا أنَّ اللهَ اتخذ وَلَداً:

حَدَّثنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- في هذه السورةِ عن الذين زعموا كاذبينَ أنَّ اللهَ اتَّخذَ ولداً، ومنهم النصارى الذين زعموا أنَّ عيسى ابنُ الله، وهذا كذب على الله، فعيسى هو ابن مريم، واللهُ -تعالى- خلقَه مِنْ امرأةٍ بلا أبٍ، فهو ليس بإله، ولا يستحقُّ أن يعبدَ مع الله تعالى، وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى عَنْ عِظَمِ جُرْمِ الذين افْتَرَوْا على الله الكذبَ بدعواهم أنَّ اللهَ اتخذ ولداً، ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ [مريم:٨٨].

وقد بيَّنَ ربُّ العزةِ أنَّ هؤلاءِ قالوا قولاً إدّاً، أي: قولاً عظيماً ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم:٨٩] ولعظمِ هذا القولِ تكادُ السموات تتفطر، أي: تتصدَّعُ، والأرضُ أنْ تنشقَّ، والجبالُ أن تخرَّ هَدّاً، أي: تكادُ تنهدمُ وتتفرقُ سريعاً، كلُّ ذلك لأنهم نسبوا إلى الله -سبحانه- الولدَ، وقد قرَّرَ ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ الرحمنَ لا ينبغي أن يكون لَهُ ولدٌ، وكلّ الأحياءِ مِنَ الملائكةِ والإنسِ والجنِّ يأْتون رَبَّهم في يوم القيامةِ عبيداً، أي: أذِلاَّءَ خاضعين له، بما فيهم الذين ادَّعَوْا أنَّهم أبناءُ الله، فاللهُ تعالى أحْصَى عبادَه وعَدَّهم عَدّاً، وكلُّ واحدٍ سيأتي يومَ القيامةِ فَرْداً، أي: لا ناصرَ له، ولا محاميَ عَنْهُ ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم:٩٠-٩٥].

٦- سيجعل اللهُ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات محبَّةً في قلوبِ عبادِهِ المؤمنين:

بشَّرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنينَ الذين يعملونَ الأعمالَ الصالحةَ أنه سيجعل لهم وُدّاً، أي: محبَّةً في قلوبِ عبادِه المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

وقد بيَّنَ لنا رسولُ الله ﷺ كيف يوضعُ القبولُ لعبادِ الله الصالحين، فعن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إذا أحَبَّ اللهُ العَبْدَ نادى جبريلَ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحبَّه، فيحبُّهُ جبريلُ، فينادي جبريلُ في أهلِ السماءِ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحِبُّوهُ، فيحبُّهُ أهلُ السماءِ، ثم يوضعُ له القبولُ في الأرضِ» [البخاري: ٣٢٠٩، ومسلم: ٢٦٢٧].

ونقل قتادةُ عن هَرِم بن حَيَّان أنَّهُ كان يقولُ: «ما أقْبَلَ عَبْدٌ بقَلْبِهِ على الله إلاَّ أقْبَلَ بقلوبِ المؤمنين إليهِ، حتى يَرْزُقه مَوَدَّتَهُمْ ورَحْمَتَهُم» [ابن كثير: ٤/ ٣٠٥].

٧- تيسيرُ اللهِ القرآنَ باللسانِ العربيِّ المبين:

أعْلَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ محمداً ﷺ أنَّه يَسَّرَ لَهُ القرآنَ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، ليبشِّرَ به المتَّقين، وينذرَ به قوماً لُدّاً ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم:٩٧]، أي: أنَّ اللهَ يَسَّرَ هذا القرآنَ بلسانِ هذا النبيِّ العربيِّ الكريم، ليبشّرَ به المتقين، والمتقون الذين استجابوا لربِّهِمْ، بفعلِ ما أمَرَهم بِهِ، وتَرْكِ ما نهاهم عنه، والبشارةُ الإخبارُ بما يسرُّ، وقوله: ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾﴾ وَلُدّاً: جمعُ ألدٍّ وهو شديدُ الخصومةِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة:٢٠٤].

وقد ذكر اللهُ في أكثر مِنْ موضعٍ أنَّه تعالى يَسَّرَ القرآنَ للذكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ [القمر:٣٢]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

٨- تهديدُ اللهِ الظالمينَ أنْ يفعلَ بهم مِثْل ما فعلَ بالكافرين مِنْ قبلهم:

تَهَدَّدَ اللهُ الكفرةَ الظالمين أن يفعلَ بهم مثلَ ما فعلَ بالذين كفروا مِنْ قبلهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم:٩٨]، أي: أهلكنا مِنْ قبلهم أُمماً كثيرةً كقوم نوحٍ وقومِ عادٍ وقومِ ثمود وغيرهم مِنَ الذين كفروا بآيات الله، وكذَّبوا الرسلَ، وقوله: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ هل ترى منهم أحداً أو تشعرُ به، أو تجدُهُ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ أي: صوتاً، وأصلُ الركزِ: الصوتُ الخفيُّ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - أكْذَبَ اللهُ -تعالى- الكافرَ الذي زَعَمَ أنه إن بعث فسيُؤْتيهِ اللهُ في ذلكِ اليوم المالَ والولدَ.

٢- الكفارُ اتخذوا الآلهةَ التي يعبدونها لتكونَ لهم ناصراً ومعيناً، وبيَّن اللهُ تعالى أنَّ هذه الآلهةَ ستكفرُ بعابديها، وتكونُ وبالاً عليهم.

٣- اللهُ تعالى يرسلُ الشياطينَ على الكافرين تحركهم إلى الكفرِ والمعاصي تحريكاً.

٤- بَيَّن لنا ربُّنا عمَّا يكون يومَ القيامة مِنْ حَشْرِ الله المؤمنين إلى الجنَّةِ وفداً وسوقِ المجرمين إلى جهنَّم عطاشاً مغلوبين مقهورين.

٥- لا يملكُ أحد في يومِ القيامةِ أن يشفعَ للكفارِ أو يحامي عنهم

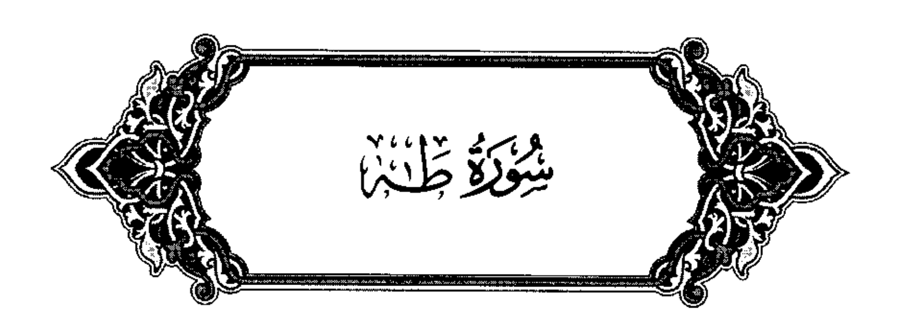
٦- عِظَمُ جريمةِ الذين نَسَبُوا الولدَ إلى الله تعالى، فهي تكادُ تدمِّر الكونَ وتُفْسِدُهُ.

٧- يَحْشُرُ اللهُ -تبارك وتعالى- العبادَ يومَ القيامةِ جميعاً، خاضعينَ أذلاَّء، لا ينقصُ منهم أحد.

٨- المؤمنونَ الصادقونَ يجعلُ اللهُ تعالى لهم محبَّةً في قلوبِ عبادِهِ المؤمنين.

٩- يَسَّرَ اللهُ -تعالى- تلاوةَ القرآنِ وفقهَهُ لعبادِهِ، وبَشَّرَ به المؤمنين وأنذرَ به الخصماءَ المجادلين.

١٠- أهلكَ اللهُ فيما سبقَ الأممَ المكذبةَ لرُسُلِها بحيثُ لم يَبْقَ منهم أحدٌ، ولا يُسْمَعُ لهم صوتٌ.



التعريف بالسورة

قال القرطبيُّ: «سورةُ طه مكيةٌ في قولِ الجميعِ» [تفسير القرطبي: ٦/١٤٩]. وقال ابنُ الجوزيِّ: «هي مكيَّة بإجماعهم» [زاد المسير: ٥/٣٩٥]. وقال أبو عمرو الدانيُّ: «كَلِمها ألفٌ وثلاثمائة وإحدى وأربعون كلمةً، وحروفُها خمسةُ آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفاً، وهي مائةٌ وثلاثون وآيتان بَصْرِيٌّ، وأربعٌ مدنيان ومكيٌّ، وخمسٌ كوفي، وأربعونَ شاميٌّ» [البيان في عدّ آي القرآن: ص١٨٣].

وهذه السورةُ تتناولُ القصصُ مساحةً واسعة منها، فعددُ آياتِها في المصاحف التي بأيدينا خمس وثلاثون ومائةُ آيةٍ، شغلت قصةُ موسى منها تسعينَ آيةً، وقصة أبينا آدمَ عليه السلام ثماني آيات.

النص القرآني الأول من سورة طه
الغايةُ من إنزالِ القرآنِ والتعريفُ بمُنْزِلِهِ تبارك وتعالى

أولاً: تقديم

عرَّفنا ربُّنا بالغايةِ التي أُنزِل القرآنُ مِنْ أجلها، وعرَّفنا بالله الذي أُنْزِلَ القرآنُ مِنْ عِنْدِه، فهو خالقُ السمواتِ والأرضِ، وهو الرحمنُ الذي استوى على العرشِ، وهو الذي لَهُ ما في السمواتِ والأرضِ، وما بينهما، وما تحت الثَّرى، وهو العالمُ بالأسرارِ، وما هو أخفى منها، وهو المعبودُ الحقُّ الذي له الأسماء الحسنى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه:١-٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المرادُ بقوله تعالى: ﴿طه﴾:

أطالَ القرطبيُّ في ذكرِ الأقوالِ التي قيلتْ في تفسير الحروفِ التي افتتحت بها هذه السورةُ [تفسير القرطبي: ٦/ ١٥١] وعدَّ منها الشوكانيُّ ثمانيةَ أقوالٍ [فتح القدير: ٣/ ٤٨٨] وأصحُّ الأقوالِ في الحروف المقطَّعةِ في أوائلِ السور أنها حروفُ هجاءٍ، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿قٓ﴾ وغيرها، وقد سبق بيانُ ذلك في تفسير الآيةِ الأولى من سورةِ البقرةِ.

وقد ذكر رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذين الحرفين اللذين افتتحت بهما هذه السورة، وهما ﴿طه﴾ افتتحت بكلِّ واحدٍ منهما سورٌ أخرى، كقوله تعالى في الشعراء: ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء:١] وقوله في مريم: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١].

وقد بيَّنْتُ فيما سَبَقَ أنَّ السورَ التي تبدأ بالحروفِ المقطَّعة غالباً يأتي بعدها حديثٌ عن القرآنِ ورفعتِهِ وعظم شأنه، كما قالَ سبحانه في هذه السورةِ ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ [طه:٢-٤].

٢- الغايةُ من وراءِ إنزالِ القرآن:

أَعْلَمَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّه لم ينزلِ القرآنَ عليه ليشْقى ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ [طه:٢] وأصلُ الشقاءِ: العناءُ والتعبُ، وإذا كان اللهُ لم ينزل عليه القرآنَ ليشقى، فإنَّه أنزله عليه ليهنأ ويسعدَ به في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى:٥].

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [طه:٣]، أي: ما أَنْزَلْناه إلا تذكرةً لمن يخشى اللهَ تعالى، والتذكرةُ: الموعظةُ التي تَلينُ لها القلوبُ، وجعلَ اللهُ القرآنَ موعظةً لمن يخشى، لأنَّهم هم الذين ينتفعون به دونَ غيرِهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [يس:١١].

٣- القرآنُ منزلٌ مِنْ عندِ مَنْ خَلَقَ الأرضَ والسمواتِ العُلَى:

هذا القرآنُ العظيمُ منزلٌ مِنْ عندِ خالقِ الأرضِ والسمواتِ العلى. والعلى: العاليةُ الرفيعةُ.

فاللهُ تعالى خالقُ هذا الكون، وهو منزلُ القرآنِ، فإذا حَدَّثنا سبحانه في كتابِهِ عن كونِهِ، فإنه يَجيءُ بالحقِّ الذي لا باطل فيه، وقد عرَّفنا تبارك وتعالى عن نفسه في هذه الآياتِ الكريمات، فقال: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه:٤-٧].

بيَّنَتْ هذه الآياتُ لنا أنَّ رَبَّنا منزلَ القرآنِ هو خالقُ الأرضِ والسمواتِ العاليات، وهو الرحمنُ الذي استوى على عرشِهِ، وهو سريرُ ملكه، والعرشُ: أعظمُ مخلوقاتِ الله تعالى، ومعنى استوى في لغةِ العربِ: عَلا، وارتفع، واستقرَّ، أما كيف استوى، فلا ندريه، ولا نعلَمُه، ولكننا نوقنُ أنَّ اللهَ تعالى استوى استواءً يليقُ بجلالِهِ وعظمتِهِ سبحانه.

وعرَّفنا رَبُّنا بنفسِهِ أيضاً فقال: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ فكلُّ ما في السمواتِ والأرضِ وما بَيْنَ السمواتِ والأرضِ وما تحت الثرى له وَحْدَه لا

يشركه فيه أحدٌ غيره، ومما في السموات والأرض العبادُ وما يعبدونه مِنَ الأوثانِ والأصنامِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ والملائكةِ، وكلُّ هؤلاءِ مربوبون مخلوقون، لا يستحقُّ أحدٌ منهم العبادة. و﴿ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ الترابُ النديُّ، واللهُ أعْلَمُ بما تحتَ الثرى مِنَ الصخورِ والمياهِ والمعادنِ وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ أخبَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّه إنْ يجهَرْ بالقولِ، فإنَّه يعلمُ السرَّ وأخْفَى، والسرُّ ما أخفاه المرءُ في ضميره، ويعلمُ ما هو أخفى مِنَ السرِّ، وهو الخاطرُ العابرُ الذي يمرُّ في القلب، ولا يستقرُّ فيه.

وفي إخبارِ الله تعالى عبادَه بعلمِه بالسرِّ وما هو أخفى منه دعوةٌ إلى العباد أنْ يدعوه ويسألوهُ خفيةً من غيرِ إعلانٍ بالدعاء.

٤- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾:

وأعْلمنا ربُّنا -سبحانَه- في تعريفِهِ لنفسِه، أنه هو المعبودُ الذي لا يستحقُّ أحدٌ العبادةَ إلا هو، وأعلمنا -سبحانه وتعالى- أنَّ لَهُ الأسماءَ الحسنى، وأسماؤه سبحانه كثيرةٌ، منها ما أخبرنا عنه في كتابِهِ القرآنِ، ومنها ما جاءت به السنّةُ المطهرةُ، ومنها ما عَلَّمَهُ بعضَ خلقِهِ، ومنها ما استأْثَرَ به في علم الغيبِ عنده، وكلُّ أسماءِ الله حسنى، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه:٨].

وأسماءُ الله بابٌ عظيمٌ يُعَرِّفنا بربِّنا الكريم، وقد أمرنا ربُّنا سبحانه أنْ ندعوه بأسمائِه الحسنى، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- هذا القرآنُ العظيمُ الذي عجزَ البشرُ أنْ يأتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ منه مهما قَلَّت حروفُ كلماتِها مكوَّنة مِنْ حروف اللغةِ العربيةِ مثل ﴿الٓمٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿كٓهيعٓصٓ﴾.

٢- هذا القرآنُ العظيمُ منزلٌ مِنْ عند ربِّ العزة، لا ليشقَى به البشرُ، بل لينعموا بِهِ، وليتعرفوا به على ربِّهم، ويعرفوا طريقهم في الدنيا، ومصيرَهم في الآخرةِ.

٣- هذا القرآنُ العظيمُ، منزلٌ مِنْ عندِ الله الذي خلقَ الكائناتِ ربِّ الأرضِ والسمواتِ.

٤- عرَّفنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في هذه الآياتِ بنفسِه، فهو -سبحانه- مُنزِلُ القرآنِ، وهو خالقُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وما تحت الثرى، وهو مالكُ السمواتِ والأرضِ، وهو -سبحانه- الرحمنُ الذي استوى على سريرِ ملكه، وهو العرشُ، استواءً يليقُ بجلالِهِ وجمالِهِ.

٥- علمُ الله تعالى واسعٌ، فهو يعلمُ الظاهرَ والباطنَ، ويعلمُ الجهرَ، ويعلم السرَّ وما هو أخفَى مِنَ السرِّ.

٦- اللهُ سبحانه هو المعبودُ الذي لا يستحقُّ أحد العبادةَ غيره سبحانَه، واللهُ -تعالى- له الأسماءُ الحسنى التي تعرفنا بِهِ، وندعوه بها.

النص القرآني الثاني من سورة طه
وحيُ الله -تعالى- إلى موسى في الوادِ المقدَّسِ طوى

أولاً: تقديم

هذا النصُّ، والنصوصُ الثلاثةُ التالية له كُلُّها تتحدثُ عن قصةِ موسى ، وهذا النصُّ يتناولُ وحيَ الله تعالى إلى موسى عندما كانَ عائداً مِنْ مدينَ إلى مصر، في ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ، أضلَّ فيها موسى الطريقَ، وقد حدَّثنا اللهُ فيها عمَّا أوحى إلى موسى، وما أعطاهُ مِن آياتٍ بيناتٍ، وحدَّثنا عن المهمةِ التي كُلِّف بها، وبيَّن لنا ربُّنا المطالبَ التي سألَها موسى ربَّهُ، وأعلمنا أنَّه استجابَ لموسى فيما طلبه منه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٩-٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تنبيهُ الله -تعالى- رسولَهُ ﷺ إلى ما سيلقيه عليه من خبَرِ موسى :

نبَّهَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ إلى ما سيلقيه عليه من خبرِ موسى بقوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾ [طه:٩]، وهذا كما إذا أردتَ أن تخبرَ رجلاً بأمرٍ غريبٍ، فتقول له: أعلمت بما كان

مِنْ شأنِ فلانٍ، ثم تبدأ تخبره، وإنما قدمتَ لخبرِكَ بالسؤالِ لتنبِّهَ الذي تُلْقِي إليهِ الخبر وتُحَفِّزه على التعرفِ إليه.

٢- **الوقتُ الذي جرَى لموسى عليه السلام ما حدَّثنا به في هذه الآياتِ:**

كان موسى قد فَرَّ من مصر بعد أن قتلَ رجلاً مِنْ أهلِها، وقَدَّرَ اللهُ له أن يصلَ إلى مدينةِ مَدْينَ، وهناك آواه بيتُ عَبْدٍ صالحٍ، زَوَّجَه ابنتَه، في مقابلِ أنْ يعملَ عنده ثماني سنواتٍ أو عشرَ سنواتٍ، فلما انقضى الأجلُ عادَ مع أهلِهِ إلى مصرَ، وفي طريقِ عودتِهِ وقعتْ له الأحداثُ التي حَدَّثَتْنا عنها هذه الآياتُ.

والدليلُ على أنَّ الوحيَ إلى موسى أوَّلَ مَرَّة كان أثناء عودةِ موسى بعد انقضاء الأجلِ مع والد زوجته قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص:٢٩].

ولذا فإنَّ التوراةَ لمْ تصبْ عندما أخْبَرَتْ أنَّ اللهَ أَوْحَى إليه وهو يعمل عند حَمِيِّهِ فقد جاءَ فيها: «وأما موسى فكانَ يَرْعَى غَنَمَ يَثْرُونَ حَمِيِّهِ كاهِنِ مِدْيانَ، فساقَ الغَنَمَ إلى وراء البرية وجاء إلى جَبَلِ الله حُوريبَ. وظهر له ملاك الرَّبِّ بلَهيبِ نارٍ من وَسَطِ عُلَّيقةٍ» [سفر الخروج، الإصحاح الثالث: ١-٢].

٣- **إضاعةُ موسى الطريقَ أثناءَ عودتِهِ في ليلةٍ مظلمة باردةٍ:**

كان موسى عليه السلام عائداً بأهله في ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ، فأضاعَ الطريقَ، فرأى على البعدِ ناراً، فقال لأهله: امكثوا، أي: أقيموا في هذا المكانِ، فأنا أرى على البعدِ ناراً، فلعلِّي أستطيعُ أنْ آتيكم منها بقَبَسٍ، والقَبَسُ: شعلةٌ من النارِ، أرادَ أنْ يأتي بها ليسْتَدْفِئَ بها أهْلُه، أو يجدُ على النار هدى، أي: يجدُ من يدلُّه على الطريقِ، ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه:١٠].

٤- **وَحْيُ الله إلى موسى عندما وصلَ إلى موضع اشتعالِ النارِ:**

وصلَ موسى عليه السلام في تِلْكَ الليلةِ إلى الموضعِ الذي كانتْ فيه النارُ مشتعلةً، فلم يجدْ عندها أحداً، ولكنَّه سمعَ من يناديه باسمِهِ، ويقولُ له: إنَّه ربُّه، ويطالبُهُ بأن يخْلَعَ نَعْلَيْهِ، فإنَّه في الوادِ المقدَّسِ طُوى، وخَلْعُ النعلين نَزْعُهما، والنعلُ ما تلبسه في قدميك، لتقيهما الأرضَ، والمقدَّس: المُطَهَّرُ، ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه:١٢].

وطلبَ اللهُ منه خَلْعَ نعليه تواضعاً واحتراماً لربِّه، وعُرْفُ الناسِ أنْ يَخْلَعُوا نعالَهم في حضرةِ الملوكِ، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ اسمَ الوادي الذي كانت تشتعل النارُ فيه ﴿طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

وقد جاءَ في موضعٍ آخر مِنَ القرآنِ تحديدٌ أكثرَ للموضعِ الذي يقفُ فيه موسى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص:٣٠]. وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه قالَ لموسى في ذلك المقامِ: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل:٨].

٥- تعريفُ الله موسى بنفسه:

قال اللهُ تعالى لموسى ﷺ إنَّه اختارَهُ واصطفاه، وأمرَه أن يستمعَ لما يوحيه إليه ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [طه:١٣].

ثم قالَ لموسى معرِّفاً له بنفسِهِ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه:١٤]، يقولُ له: إنني أنا اللهُ، لا إله إلا أنا، أي: لا يستحقُّ أحدٌ العبادةَ إلا أنا، وأمَرَه بعبادتِهِ وَحْدَه، وأمَرَه بأن يقيمَ الصلاةَ لذكره، أي: يقيمُ الصلاةَ ليذكرَ ربَّه بالصلاةِ، ويمكنُ أنْ يكونَ المعنى: أقم الصلاةَ متى ذكرتَ أنَّ عليك صلاةً لم تصلها بسبب النومِ عنها أو النسيان لها.

وقد دلَّت بعضُ الأحاديثِ على أنَّ المعنى الثاني هو المرادُ، فعنْ أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رَقَدَ أحَدُكُمْ عن الصلاةِ أوْ غَفَلَ عَنْها، فَلْيُصَلِّها إذا ذكَرَها، فإنَّ اللهَ يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه:١٤]» [مسلم: ٦٨٤].

٦- الساعةُ آتيةٌ يكادُ اللهُ أنْ يُخْفيَها:

أعلمَ اللهُ تعالى موسى ﷺ في ذلكَ المقامِ الذي أوحى إليه فيه في تلك الليلةِ المظلمةِ أنَّ الساعةَ آتيةٌ، ولكنَّه لم يُعرِّفْ أحداً من خلْقِه بالوقتِ الذي ستقع فيه، ولم يُعرِّفْ بها مَلَكاً مُقَرَّباً، ولا نبياً مرسلاً، ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:١٥]، وقد قالَ الرسولُ ﷺ لجبريلَ عندما جاءَه في صورةِ رجلٍ يسأله عن أعْظَمِ قضايا الدين، ومنها الساعةُ، قال له: «ما المسؤولُ عَنْها بأعْلَمَ مِنَ السائل» فمحمدٌ ﷺ أعظَمُ الرسلِ، وجبريلُ أعظمُ الملائكةِ، وكلاهُما لا يعرفانِ موعدَ وقوعِها.

وبَيَّنَ اللهُ لعبدِه موسى ﷺ أنَّ الساعةَ كائنةٌ، ليحاسِبَ اللهُ العبادَ، ويجزي كلَّ إنسانٍ بعمله ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه:١٥].

ونهى اللهُ تعالى عبدَه ورسولَهُ موسى ﷺ أن لا يلتفت إلى المكذبينَ بالساعة، الذين غَرَّتْهم الحياةُ الدنيا، واتبعوا أهواءَهم، فتَرْدَى، أي: فتهْلِكَ، وتَعْطَب ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه:١٦].

٧- إعطاءُ اللهِ -تعالى- موسى الآياتِ المعجزاتِ التي تدلُّ على صدقِهِ:

أعطى اللهُ -تعالى- رسولَه موسى الآياتِ المعجزاتِ التي تدلُّ على صدقه، والآيةُ الكبرى هي العصا التي تتحول إلى حيَّةٍ تسْعَى عندما كان يلقيها على الأرضِ، وقد سألَ اللهُ - تبارك وتعالى- موسى عمَّا يحملُ بيدِهِ قائلاً له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه:١٧] أي ما الذي تحملُهُ بيدكَ اليمنى؟ وهذا استفهام تقريري، فإنه سبحانه عالم بما بيمينه، وإنما أراد أن يقر موسى ويعترف بكونها عصا، فأجاب موسى ﷺ ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه:١٨] أجابَ موسى عن سؤالِ ربِّه إجابةَ العارفِ، إنَّه يعرفها، إنَّها عَصاه التي صحبته دهراً طويلاً، فهو في سَيْرِهِ يتوكأ عليها، وعندما يرْعَى الغنمَ بين الأشجارِ كان يخبطُ به أغصانَ الشَّجَرِ، فيتساقطُ أوراقُهُ، فتأكلها أغنامه، ثم أجملَ فقالَ: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾. وقد ذكر كثيرٌ مِنَ المفسرين الحوائجَ التي تؤديها العصا، وقد ذكر القرطبيُّ أنَّ أعرابيًّا سُئِلَ عن عصاه فقالَ: «أركزها لصلاتي، وأُعِدُّها لِعِداتي، وأسوقُ بها دابَّتي، وأقوى بها على سَفَري، وأعتمدُ بها في مشيتي لتتَّسع خطوتي، وأثِبُ بها النَّهر، وتؤمنني من العَثْر، وأُلْقي عليها كِسائي، فيقيني الحرَّ، ويدفئني مِنَ القَرِّ، وتدني إليَّ ما بَعُدَ مِنِّي، وهي مَحْمَلُ سُفْرتي، وعلاقةُ إداوَتي، أعتمد بها عندَ الضِّرابِ، وأقرعُ بها الأبوابَ، وأتقي بها عقورَ الكلابِ، وتنوبُ عن الرمح في الطعانِ، وعن السيفِ عند منازلةِ الأقرانِ» [القرطبي: ٦/ ١٧١].

وهذا الذي قالَهُ موسى عن العصا يُعْلَمُ منه أنَّ في العصا ما لم يَذْكُرْه، وأمَرَ اللهُ تعالى موسى أن يُلْقِي هذه العصا التي كانت قطعةَ خشبٍ يابسٍ، أُخِذَتْ من شجرةٍ في الزمنِ الماضي ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [طه:١٩]، فألقاها، فإذا هي حيَّةٌ تسعى، نَعَمْ تحوَّلَتْ إلى أفعى من لحمٍ ودمٍ، وتحركتْ بسرعةٍ، حتى بلغت درجةَ السعي، ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه:٢٠].

وقال في موضع آخر واصفاً إياها: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [القصص:٣١]، وقال في موضع ثالث: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٧]، وكلُّ الذي وَصَفَ اللهُ به العصا عندما تحولت إلى حيَّةٍ حقٌّ، ليس فيه شيءٌ مِنَ الباطلِ، فهي حيةٌ، وهي حيَّةٌ عظيمةٌ جدًّا، وهي ثعبانٌ مبينٌ، وهي مع عظمها وضخامتها كانت تهتزُّ كأنَّها جانّ والجانُّ: نوعٌ مِنَ الأفاعي سريعُ الحركةِ والاضطرابِ.

وأذهلتِ المفاجأةُ موسى، فالعصا التي كانت خشبةً بيده تحولتْ إلى ما يَراه ويشاهدُهُ، فامتلأ قلبه رعباً، وولَّى هارباً، مِنْ غير أنْ يلتفتْ وراءَه، فناداه ربُّهُ آمراً إياه بأن لا يخافَ، وأمَرَهُ بالإقبالِ على الأفعى، وأمرَهُ أن يأخذها بيده، سيرتها الأُولى، أي: يعيدُها عصاً كما كانت ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [النمل:١٠]، وقال: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص:٣١]. وقال اللهُ في هذه السورة: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه:٢٠-٢١].

والآيةُ الثانيةُ التي أراها اللهُ تعالى لموسى في ذلك الموقف العظيم هي يدُه، كان عندما يضمُّها إلى جناحِه فتخرجُ بيضاءَ مِنْ غيرِ سوءٍ، وهاتان الآيتان هما أعظمُ الآياتِ التي أُتيها نبيُّ الله موسى ﷺ، قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾ [طه:٢٢-٢٣].

أمرَه اللهُ تعالى أن يضمَّ يَدَه إلى جناحِه، فتخرجُ يدهُ بيضاءَ منيرةً مِنْ غيرِ سوءٍ، أي: مِنْ غيرِ مرضٍ ولا برصٍ، وجناحُ الإنسانِ عَضُدُه إلى أصل إبْطِه، وفي آياتٍ أُخرى أمَرَه أن يدخلَ يده في جيبه، لتصل إلى إبْطِه، قال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [النمل:١٢]، وقال: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ [القصص:٣٢].

وقد نصَّ اللهُ تعالى على أنَّ اليدَ تخرجُ بيضاءَ مِنْ غيرِ سوءٍ، وفي هذا ردٌّ على اليهودِ فيما حَرَّفُوه مِنَ التوراةِ في هذا الموضعِ، فقد جاءَ في التوراةِ «فأدْخَلَ يَدَهُ في عُبِّهِ، ثم أخْرَجَها، وإذا يده بَرْصَاءُ مثلُ الثلجِ» [سفر الخروج، الإصحاح الرابع: ٦] وهذا تحريفٌ للتوراةِ، وقد صَوَّبَهُ القرآنُ، بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي: ليسَ بها بَرَصٌ.

وقد استوعَبَ موسى عليه السلام ما وهبه ربُّه له، فلم يكن يخافُ بعد ذلك عندما يُلْقِي عصاه، فتتحولُ إلى ثعبانٍ مبينٍ، كان يعلمُ أنَّ اللهَ آتاه مِنَ الآياتِ ما يثبت به نبوتَه ورسالَتَهُ ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص:٣٢]، وأخْبَرَ اللهُ تعالى موسى أنَّ فرعونَ وملأه لن يستطيعوا أنْ يصلوا إليه وإلى أخيه هارونَ لما معهما من الآيات ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص:٣٥].

٨- كيف استقبل موسى عليه السلام ما كلَّفه اللهُ به:

بعد أنْ أعْطَى ربُّ العزةِ موسى ما أعطاه، أمره أن يذهب إلى فرعون، قال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه:٢٤]، أي: جاوزَ الحدَّ في العصيان، وقد حَدَّدَ لهما رَبُّهما -تبارك وتعالى- ما يَطْلُبانه من فرعونَ فقال: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه:٤٧].

وقد اسْتَشْعَرَ موسى ثقلَ المهمةِ التي كلَّفه بها ربُّه، ربُّ السمواتِ والأرضِ، فتوجه إليه يَدْعُوهُ ويسأله مطالبَ تعينه على تحقيق المهمةِ التي كُلِّفَ بها، ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٢٥-٣٦].

أعلمنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآياتِ أنَّ موسى عليه السلام طلبَ منهُ أربعةَ أُمور:

الأول: أن يشرحَ له صَدْرَهُ، أي: يوسِّعُه وينوره. والثاني: أن يُيَسِّرَ له أمْرَه. والثالثُ: أن يحلَّ عقدةً من لسانِه، حتى يستطيعَ أن يبلِّغَ الحقَّ الذي أرسلَ به، والعقدةُ التي في لسانِه، لم تكن بسبب أنَّ موسى أخذَ جمرةً عندما عُرِضَ عليه التمرُ والجمرُ في صغرِه، كما يقول بعضٌ مِنَ المفسرين، والسببُ في هذه العقدةِ بيَّنَها موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء:١٣]. فهذه حالةٌ نفسيةٌ كانت تصيب موسى في بعضِ الأحيانِ عندما يحاورُ غيره.

والرابعُ: أن يعينه بوزيرٍ من أهله، وذلك بأنْ يشركَ معه أخاه هارونَ ليكون نبيًّا رسولاً، ومعنى وزيراً، أي: معيناً وظهيراً، والوزيرُ هو الذي يوازِرُك، ويعينك على عَمَلِكَ، وأصلُ الوزارةِ مِنَ الوِزْرِ، وهو الحِمْلُ الذي يقوم به الوزير عن السُّلْطانِ.

طلب موسى مِن ربِّه عَزَّ وجلَّ أن يجعلَ له وزيراً مِنْ أهْلِهِ، أي: رجلاً يعتمد عليه فيما ينوبه ويواجهه، وعيَّن موسى الرجلَ الذي طلبه وزيراً، وهو هارونُ أخوه، ليشدَّ ظهره، ويَتَقَوَّى به على حملِهِ، وطلبَ منه أن يُشْرِكَهُ في أمْرِهِ، أي: في النبوةِ والرسالةِ، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه قال في موضعٍ آخر: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص:٣٤].

وأعلمنا ربُّنا أنَّ موسى طلب من ربِّه أن يعطيه أخاه هارونَ نبيًّا، كي يسبحانه كثيراً، ويذكرانه كثيراً، وعَقَّبَ على ما طلبه بقولِهِ: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: في اختيارِك لنا، وإعطائِك إيانا النبوةَ، وبعثك لَنا إلى فرعون.

وقد أجابَ اللهُ دعاءَه، وقَبِلَ رجاءَه، وأعلمه بذلكَ في الحالِ فقالَ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٦]. وقالَ في القصص: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص:٣٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- آتى اللهُ -تعالى- موسى ﷺ النبوةَ والرسالةَ عندما كان عائداً مِنْ مَدْيَنَ إلى مصرَ عند جبلِ الطورِ في الوادِ المقدَّسِ طوى.

٢- كَلَّم الله موسى مبلِّغاً إيَّاه أنَّه اصطفاه، وعرَّفه بنفسِه، وأمرَه بعبادتِهِ، وأمَرَهُ بإقام الصلاةِ لذكره.

٣- أعْلَم اللهُ تعالى موسى أنَّ الساعةَ آتيةٌ، ولكن لا أحدَ غيرَه يعرفُ زمنَ وقوعِها.

٤- أعطى اللهُ موسى آيتين عظيمتين عندما أرْسلَهُ، أعْطاهُ العَصا التي تتحول إلى ثعبانٍ مبينٍ عندما يلقيها على الأرضِ، وأعطاه يَدَه التي تصبح بيضاءَ مِنْ غير سوء عندما يُدْخِلُها في جيبِهِ، ويُخْرِجُها منه.

٥- كَلَّفَ اللهُ تعالى موسى أن يذهب إلى فرعونَ ليطالبه أنْ يُطْلِقَ معه بني إسرائيلَ، ليخرجَ بهم إلى فلسطين.

٦- طلب موسى مِنْ ربِّه أنْ يعطيَه ما يعينه على تحقيق ما كلَّفهُ بِهِ فأجاب اللهُ سؤلَه، وحَقَّقَ طلَبه.

النص القرآني الثالث من سورة طه

تذكيرُ الله تعالى موسى ﷺ بنعمه السابقة عليه وأمْرُهُ له ولأخيه بالانطلاق إلى فرعون

أولاً: تقديم

حَدَّثنا اللهُ تعالى في آيات هذا النصِّ أنَّه أعْلَمَ موسى بما أنْعَمَ به عليه، وهو صغير، وكيف نجَّاه مِنَ القتل، فقد كانَ الفرعونُ في ذلكَ الوقتِ، يُذَبِّحُ أبناءَ بني إسرائيل، ويستحيي نساءَهم، فأمَرَ أُمَّهُ أن تلقيه في التابوتِ، ثم تلقيه في اليَمِّ، فيلقيه اليمُّ في القصرِ الملكي الذي هو مَقَرُّ فرعون، وألقى اللهُ حُبَّه في قلبِ الملكة، فاتخذته ولداً، وحدَّثنا في آياتِ هذا النصِّ كيفَ أعادَه لأُمِّه كما وَعَدَها، ثمَّ أمرَ موسى بالانطلاقِ إلى فرعونَ، وإبلاغِهِ بما طلبه اللهُ مِنْهُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه:٣٧-٤٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- امتنانُ الله على موسى بإنجائه مِنَ القتلِ صغيراً:

بعد أنْ حدَّثَنا ربُّنا تبارك وتعالى بمِنَّته على عبدِه ورسوله موسى في إيحائه إليه في وادي طوى، قُرْبَ الطورِ، أعلمه أنه امتنَّ عليه بنعمةٍ أُخرى عندما كان رضيعاً، وكان فرعونُ مصر في ذلك الوقت يقتُل أطفالَ بني إسرائيل، ويستحيي البناتَ منهنَّ، فنجَّاه اللهُ مِنَ القتلِ، فأمَرَ أمَّه أنْ تلقيَهُ في التابوتِ، وهو صندوقٌ صغيرٌ، وأمَرَها أن تلقي التابوتَ في اليمِّ، وأمَرَ اليمَّ أنْ يلقيه بالساحلِ، ليأْخُذَه عدوٌّ لله وعدوٌّ لموسى، وألقى اللهُ حبَّ موسى في قلب من يراه، فرأته

ملكةُ مصرَ زوجةُ فرعونَ فأحبَّتْهُ، وصنعَ اللهُ موسى على عَيْنه، أي: تربَّى بمرأى منه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه:٣٧-٣٩]. واللهُ أعلمُ بالطريقةِ التي أوْحى بها إلى أُمِّه، فقد تكونُ رؤيا منامية، وقد تكونُ قذفاً في القلبِ، وقد تكونُ بمخاطبةِ مَلَك، وقوله: ﴿ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ أي: اقذفي موسى في داخلِ التابوتِ، وقوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ هذا أمر كونيٌّ قدريٌّ، والبحرُ لا يملك إلا أنْ يطيعَ ربَّه. والمرادُ بـ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ﴾ فرعون.

والمحبةُ التي ألقاها على موسى في قولِه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ هي محبةُ الله له، وتحبيبه إلى خلقِهِ، ومِن ذلك أنَّ ملكة مصر لَّما رأتْه أحبته ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القصص:٩].

وقد حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن هذه الواقعةِ في قوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص:٧].

وأفادتْ هذه الآيةُ أنَّ اللهَ أمَرَ أُمَّه بإرضاعِهِ قبل أن تلقيه في البحرِ، ومن عجبٍ أنَّ الناسَ يهربون بأولادهم خوفاً مِنَ البحرِ، بينما اللهُ تعالى يأمر أمَّ موسى إذا خافت عليهِ أن تلقيه في اليمِّ، وهو النهرُ، ونهاها عن الخوفِ والحزنِ، ووَعَدَها بأن يردَّه إليها، ويجعلَهُ مِنَ المرسلين.

٢- عودة موسى إلى أُمِّه:

ألقتْ أمُّ موسى عليه السلام وليدَها في النهر كما أمَرها اللهُ -تعالى- بعد أنْ وضعته في التابوتِ، فسارَ به النهرُ إلى قَصْرِ فِرْعونَ، فأخذوه إلى الملكة، فوقعَ حُبُّهُ في قَلْبِها لما رأَتْهُ، فاتخذتْه وَلَداً، ومنعتْ من قَتْلِه.

وكان تَعَلُّق أُمِّ موسى بابنها شديداً، حتى أنَّ قلبها خلا من كلِّ شيءٍ إلا مِنْ ذِكْرِهِ، ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص:١٠] ولشدة تعلُّقِها بوليدها كادت أن تكشف أمرها، فتصرِّحَ بما أخفته من شأن وليدها لكن اللهَ رَبَطَ على قلبِها، لتكون من المؤمنين.

وأخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّهُ حَرَّمَ عليْهِ المراضعَ، فلم يكن يقبلُ أن يَرْضَعَ مِنْ غير ثدي أُمِّه ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص:١٢]، وهذا تحريم كوني قَدَرِيٌّ، ومع كثرةِ بحثهم عن أمٍّ ترضعه، استطاعتْ أختُه أنْ تصل إلى الباحثين عن الأمِّ، فدَلَّتْهُمْ على أُمِّها ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾ [طه:٤٠]. فلما ذهبوا بِهِ إلى أُمِّها، وألقمته ثديَها قبلَه، ففرحوا بذلك، وتحقَّقَ وَعدُ الله لها بإرجاعِهِ إليها ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [القصص:١٣]، وقال في هذه السورة: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [طه:٤٠] أي تُقرَّ عينها، أي: تُسَرُّ برجوعِ ولدِها إليها بعد أنْ طرحته في اليم.

٣- قَتْلُ موسى نفساً، وفرُّ إلى مدينَ، فأنْجاهُ الله مِنَ الغمِّ:

أخبرَ اللهُ تعالى موسى بما كان مِنْ قتلِهِ رجلاً قبطيًّا، ففرَّ موسى هارباً إلى مدينَ، وامتنَّ اللهُ عليه بإنجائِه مِنَ الغمِّ، والغمُّ يصيب القاتل بعد وقوعِ القتلِ منه، وقد فَتَنَهُ اللهُ تعالى فتوناً، أي: ابتلاه ابتلاءً عظيماً، فقد فَرَّ وتركَ القصرَ الذي كان يعيشُ فيه غريباً ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه:٤٠].

وأخْبرَ اللهُ موسى أنَّه مَكَثَ في غربتِهِ في مدين سنين، وهي المدة التي اشترطها العبدُ الصالحُ عليه، فقد اشترطَ عليه أن يَرْعَى غَنَمَهُ ثماني سنوات، فإنْ أتمَّ عشراً فمن عِنْدِه، ثم عادَ مِنْ مدينَ إلى مصرَ، وفق تقديرٍ حَدَّدَه الله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [طه:٤٠].

وأعْلَمَ اللهُ موسى أنَّه اصطنَعَه لنفسه ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ [طه:٤١] أي: اختارَهُ نبياً رسولاً، وصنعَهُ كما يشاءُ وأرادَ.

وقد مضى ذكر الحديثِ الذي قالَ فيه آدمُ لموسى عليهما السلام: «أنْتَ الذي اصطفاكَ اللهُ برسالَتِهِ، واصْطَفاكَ لنَفْسِهِ، وأنْزَلَ عَلَيْكَ التوراةَ» [البخاري: ٤٧٣٦. ومسلم: ٢٦٥٢].

٤- أمْرُ الله -تعالى- لموسى وأخيه أن يتجها لملاقاةِ فرعونَ طاغيةِ مصر:

أمَرَ اللهُ تعالى موسى وأخاه أنْ يذهبا إلى فرعونَ متسلحين بآياتِهِ، ومنها العصا التي تتحولُ إلى ثعبانٍ مبينٍ، واليد التي تصبحُ بيضاءَ للناظرين، وأمَرَهُما أنْ يداوِما على ذِكْرِه، ولا يَضْعُفا عن ذلك ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ﴾ [طه:٤٢] وأصلُ الوَنْي في اللغةِ: الضعفُ والفتورُ والكَلالُ والإعياءُ.

وقال لهما ربُّهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٣-٤٤] اذهبا إلى فرعونَ الذي طغى واستبدَّ وعَلا، والطغيانُ مجاوزةُ الحدِّ في الكفرِ والضلالِ، ومن كفْرِهِ وطغيانِهِ ادّعاؤه الألوهيةَ ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤]، وقالَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، وأمرهما ربُّهما عزَّ وجلَّ أن يقولا له قولاً ليناً ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ أي: قولا له قولاً لطيفاً، بعيداً عمَّا يُنفِّرُ ويُغْضِبُ، وقد ضَرَبَ اللهُ تعالى لهما المثَلَ للقولِ اللينِ في قوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات:١٧-١٩]. والقولُ اللينُ في مجالِ الدَّعْوةِ إلى الله هو مِنَ الدعوةِ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل:١٢٥]. ومن القولِ اللينِ ما دَعا به إبراهيمُ ﷺ والدَهُ في سورة مريم.

وقد أظهرَ موسى وهارون لربِّهما تخوفهما من أنْ يَفْرُطَ عليهما أو أن يَطْغَى ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه:٤٥]، أي: إننا نخشى أنْ يَفْرُطَ علينا، أي: يَعْجَلَ علينا بالعقوبةِ أو أن يطغى، أي: يتجاوز حَدَّه. ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٦]، قال لهما: لا تخافا، فأنا معكما أسمعكما، وأراكما، حيث ما كنتما، ولا يَخْفَى عليَّ مِنْ أمْركما شيءٌ، ففرعونُ تحت قَهْرِ الله وسلطانِهِ.

٥- تحديد المهمة التي أُرْسِلَ موسى هارون بها إلى فرعون:

جاءَ موسى وهارون مِنْ ربِّهما برسالةٍ محَدَّدةٍ واضحةٍ بينةٍ إلى فرعونَ، وقد حَدَّد هذه المهمةَ قولُه تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه:٤٧-٤٨].

أَمَرَهُما ربُّهما أنْ يأْتيا فرعونَ، ويقولا لَهُ: إنَّا رسولانِ مِنْ عندِ الله تعالى، ومَطْلَبُنا أن تطلقَ بني إسرائيل معنا، وترفعَ عنهم العبوديةَ والذِّلَّةَ والهوانَ، وتتركَ تعذيبهم، وأخبراه أنَّهم جاءَاه بآيةٍ مِنْ عندِ الله تَدُلّ على صِدْقِهما فيما جاءَا به، وقالا له: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ أي: السلام عليك إنْ اتبعت الهدى، وقد قال رسولنا ﷺ لهرقل في الخطابِ الذي أرسله إليه: «أسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مرتين» [البخاري:٧] وقالا له: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن

كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه:٤٨] أي: أنَّ اللهَ اختص بعذابِهِ الذين كذبوا آياتِ الله، وتَوَلَّوا عن طاعته.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص نجدها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أعْلَم الله تعالى نَبيَّهُ موسى ﷺ بنعمته عَلَيْه عندما ولدَ، فقد كانَ فرعونُ يقتلُ الذكورَ مِنْ أبناءِ بني إسرائيلَ ويَسْتَحيي إناثَهم، فأوحى اللهُ إلى أُمِّه أن تَضَعَهُ في تابوتٍ، وتلقيه في النّهرِ، ليلقيه النهرُ في قَصْرِ فرعون، فيلقي حبَّه في قَلْبِ الملكةِ، فتتخذَهُ ولداً.

٢- وَعَدَ اللهُ أمَّ موسى أنْ يعيدَ إليها موسى، فتَحَقَّقَ ذلك بتحريمِهِ على موسى أنْ يَرْضعَ مِنْ غيرِ أُمِّه، وعندما بحثوا له عن مُرْضِعٍ، لم يقبل إلا ثَدْيَ أُمِّهِ، فعادَ إليها.

٣- تربى موسى في قصرِ فِرْعونَ على العزَّةِ والرفاهيةِ، فلما فرَّ إلى مدينَ عاشَ معيشةَ الفقراءِ العاملين في رَعْي الغَنَم.

٤- ذهب موسى وهارونُ إلى فرعونَ برسالةٍ واضحةِ المعالمِ، وهي إطلاقُ فرعونَ بني إسرائيلَ معهما، ورَفْعُ العذابِ عنهم.

٥- في قصةِ موسى ﷺ بيانٌ للكيفيةِ التي يُجْري فيها اللهُ تعالى قَدَره في عبادِهِ، فقد حفظه مِنَ القتلِ بإلقاءِ محبتِهِ في قلبِ الملكةِ، وأعادَه إلى أُمِّه بتحريم المراضع عليه.

٦- ادَّعى فرعونُ الأُلوهية، ولم يَدْرِ أنَّ الطفلَ الذي سيكون هلاكُهُ على يديه يتربى في قصره.

٧- عِظَمُ المهمةِ التي تَحَمَّلَها موسى وهارون حيث واجها طاغوتاً مِنْ أعظمِ طواغيتِ العالمِ.

٨- كانَ الهدفُ الذي سعى موسى وهارون إليه واضحاً ظاهراً، وكذلك الداعيةُ عليه أن يقصدَ في عمله إلى الله عملاً محدَّداً مرضياً لله تعالى.

النص القرآني الرابع من سورة طه
ما جرى بين موسى وهارون وبين فرعون

أولاً: تقديم

بَلَّغَ موسى وهارونُ فرعونَ ما أمرهما رَبُّهما بتبليغه إيَّاه، أبلغاه أنَّ اللهَ يأمره أن يطلقَ بني إسرائيلَ، ويرسلَهُم معهما، ويكفَّ عن تعذيبهم، وأخبراه أنَّ لديهما مِنَ الآياتِ ما يدلُّ على صِدْقِهما في أنَّهما مرسلانَ مِنْ الله إليه.

وقد سألهما فرعونُ سؤالين، فأجابَ موسى إجابة سديدةً واضحةً، وأفاض موسى في الإجابةِ، وأراهم موسى الآياتِ التي أيَّدَهُ اللهُ بها، فكَذَّبَ فرعونُ بها، وطَلَبَ مِنْ موسى أن يحدِّد يوماً يواجه فيه سَحَرَتَه، فحَدَّدَ لهم موسى يومَ الزينةِ، وهو يومُ عيدٍ، يكون الناسُ فارغين فيه مِنْ أعمالهم، وحَدَّد موسى مِنْ ذلك اليوم فترةَ الضحى، وهي أوضحُ ما يكون النهار بادياً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه:٤٩-٥٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- فرعونُ يسألُ موسى وهارونَ عن ربِّهما:

بَلَّغَ موسى وهارونُ فرعونَ الرسالةَ التي أرسلهما ربُّهما بها، فسألهما فرعونُ قائلاً: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه:٤٩]، وفرعونُ كان منكراً لوجودِ الخالقِ، وكان يَدَّعي أنَّه ربُّ الناسِ الأعلى، فقالَ له موسى مجيباً: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه:٥٠].

أي: أعْطَى اللهُ كلَّ شيءٍ وجودَه الذي خَلَقَه عليه، فاللهُ تعالى أعْطَى الرجلَ هذا الخلقَ الذي نشاهدُهُ، خلقَهُ منتصبَ القامةِ، وجعلَ له رأْساً، وصدراً وبطناً، وأعطاه العينين اللذين يبصرُ بهما، واليدين اللتين يبطشُ بهما، والأذنينِ اللتين يسمعُ بهما، والقلبَ الذي يضخ الدَّمَ، وأعطاه المعدةَ والأمعاء والرئتين، وغير ذلك.

وخلقَ المرأة كذلك مع بعضِ الاختلاف، لتستطيعَ أن تقوم بالدورِ المناط بها، وهكذا خلق الجِمالَ والأبقارَ والأغنامَ والأُسودَ والنمورَ والكلابَ وغيرها، كلُّ واحدٍ خلقه وأعطاهُ الخلقَ اللائق به الذي يناسبه، وأعطاه ما يحتاجُ إليه مِنَ الخصائص.

فعادَ فرعونُ ليسأل مرةً ثانية، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه:٥١]، سأَلَ فرعونُ عَنْ حالِ القرونِ التي مضت مِنَ الخلقِ، ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥٢]، أي: أنَّ اللهَ عالمٌ بتلكَ القرونِ، وأمرها مرصودٌ عند الله في كتاب أحْصى أمرَها وأخبارَها، مع أنَّ اللهَ لا يحتاجُ إلى كتابٍ، فهو لا يضلُّ، ولا ينسَى، أي: لا يشذُّ عنه شيءٌ، ولا يفوته صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا ينسى شيئاً، هو عالمٌ بكلِّ شيءٍ.

٢- موسى عليه السلام يفيضُ في التعريفِ بالله تعالى:

سأل فرعونُ موسى وهارون عن ربِّهما، فأجابَ موسى بأنَّ ربَّه الذي أعطى كلَّ شيء خلقه، ثم هدى، ثم عاد فرعون ليسأل عن القرونِ الأولى، فأجاب موسى أنّ علمها عند الله في كتابٍ لا يضلُّ ربُّه، ولا يَنْسى، ثم عادَ موسى ليفيضَ في الحديثِ عن ربِّه، وهو الموضوعُ الرئيسُ الذي يتقنه موسى، ويتقنه جميعُ الأنبياءِ والمرسلين، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٥٣-٥٥].

قال موسى مُعرِفاً بربِّه: هو الذي جعلَ لكم الأرضَ مهداً، أي: خلقها كالمهدِ، وهو الفراشُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات:٤٨]. وجَعَلَ الله في الأرض سُبُلاً، أي: طرقاً يمرُّ بها الناس في أسفارِهِمْ، ويتنقلون عَبْرَها في جنباتِ الأرضِ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء:٣١]، وربنا هو الذي أنزلَ المطرَ مِنَ السماءِ، فأخرجَ به أزواجاً من نباتِ كلِّ شيءٍ، والأزواجُ: جمعُ زوجٍ، وهي الأصنافُ المختلفةُ في الأشكالِ والمقاديرِ والمنافعِ والألوانِ والروائحِ والطعومِ.

وقد خَلَقَ اللهُ هذه الأزواجَ ليأكلَ النَّاسُ مِنْ ثمارِها وحبوبها ونباتها، وتَرْعَى منها أنعامهم، كما قال تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة:٢٧].

وأخْبَرَ موسى في عَرْضِهِ لما عَرَضَهُ أنَّ فيها آياتٍ لأصحابِ العقولِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ وأولو النهى: أصحابُ العقولِ، وفيه تعريضٌ بفرعون أنّه إنْ لم يهتدِ بها، فليس مِنْ أصحاب العقولِ.

وختم موسى كلامَهُ الموجَّه إلى فرعون بقوله: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٥٥]، فاللهُ خلقنا بخلقِ أبينا آدم مِنْ ترابِ الأرض، وإلى الأرضِ يعيدُنا بعد موتنا، ومِنْ الأرضِ يبعثنا يوم القيامة.

وقد أخبرنا عَزَّ وجلَّ أنَّ موسى وهارونَ أريَا فرعونَ الآياتِ التي أرسلهما اللهُ بها فكذَّب، ورفضَ الإيمانَ بها ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه:٥٦].

٣- موسى يُحَدِّدُ موعداً ليومِ المواجهةِ بينَهُ وبين السحرةِ:

بَلَّغَ موسى فرعونَ رسالَة ربِّه، وأجابَ موسى على الأسئلةِ التي طرحها فرعونُ، وأرى موسى فرعونَ الآياتِ التي أرسلَهُ اللهُ بها، فكذَّب فِرْعونُ وأبى الانصياعَ للحقِّ، وقال لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه:٥٧]، زَعَمَ فرعونُ أنَّ موسى ساحِرٌ، وما جاءَ به هو السِّحْرُ، وأنَّه يريد أن يخرجَ بني إسرائيلَ من أرضِ مصر بالسِّحر، كما قالَ تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء:٣٤-٣٧].

وأخبرنا ربنا أنّ فرعونَ قال لموسى سنأتيك بسحرٍ مماثلٍ لسحرِكَ، وطلب منه أن يحدِّد يوماً يكون موضعَ اتفاقٍ بين الفريقين تتمُّ فيه المواجهةُ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه:٥٨]، وقوله: ﴿سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ أي: مكاناً متوسِّطاً في المدينة، يسهلُ وصولُ الناسِ إليه لتوسُّطِهِ، وقَبِلَ موسى ما عَرَضَه عليه فرعونُ، وحَدَّد يومَ الزينة موعداً، ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه:٥٩]، ويظهر أنَّ هذا اليومَ كان معروفاً لديهم، يجتمعُ فيه الناسُ، ويلبسونَ فيه أحسنَ ما لديهم، وهذه نباهة

من موسى أن يقبلَ مِنْ فرعونَ ما عرضه عليه، هذه الفرصة تتيح له أنْ يَعْرِضَ آياتِ الله البيناتِ على جميعِ أهلِ المدينة، واختارَ هذا اليومَ الذي يكونُ الناسُ فيه متفرغين من أعمالهم، وحدَّد موسى ﷺ أحسنَ أوقاتِ ذلك اليومِ، وهو وقتُ الضحى.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كان موسى ﷺ مُسَدَّداً موفقاً في الحوارِ، فقد أجابَ على أسئلةِ فرعونَ أحسنَ جوابٍ، وكانت إجابتُهُ وافيةٌ كاملةٌ.

٢- عَرَّف موسى بِرَبِّه أحسنَ تعرفٍ، فربُّه هو الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هَداه، وربُّه الذي خلقَ الأرضَ، وجعلَ فيها الطرقَ ليتنقلَ الناسُ عبرها، وربُّهُ الذي أَنْزَلَ الماءَ مِنَ السماءِ، فأخرجَ به أزواجاً مختلفةً مِن النباتِ.

٣- تعريفُ الرُّسلِ بالله -تبارك وتعالى- أعظمُ ما يُتْقِنُه الرسلُ، وعلى الدعاة إلى الله أن يتعلَّموه ويتقنوه، ويتحدَّثوا به إلى الناس، وقد تضمَّنَ القرآنُ الكثيرَ منه، ومن ذلك ما حَدَّثنا اللهُ بِهِ في سورةِ الفاتحةِ وآيةِ الكرسيِّ وسورةِ الإخلاص.

٤- الناسُ جميعاً مخلوقونَ مِنْ ترابٍ، وإلى الترابِ يعودون، ومنه يبعثون.

٥- قَبِلَ موسى ما عرضه عليه فرعونُ، واختارَ موسى اليومَ الذي يكون فيه النزالُ، وهو يومُ عيدِهم الذي يكونُ الناسُ فيه فارغينَ مِنْ أعمالِهِمْ.

النص القرآني الخامس من سورة طه
المواجهة بين موسى وسحرة فرعون في يوم الزينة

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن المواجهة التي جَرَتْ في ميدانِ المدينةِ بين موسى ﷺ وبَيْنَ سَحَرَةِ فرعونَ يومَ الزينةِ، فقد حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الوقائع التي جرت في ذلك اليوم، والتي أدَّتْ إلى انتصارِ موسى انتصاراً عظيماً، فقد ابتلعتْ عصا موسى عندما تحولت إلى ثعبان عظيم، عِصِيَّ السحرةِ وحبالَهم، فلم يبقَ منها شيءٌ في الساحةِ، وبقيت وحدَها، فخرَّ السَّحَرَةُ ساجدين، معلنين أنَّهم آمنوا بربِّ العالمين، وقامت الحجةُ على جميعِ الحاضرين في ذلك اليومِ العظيمِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه:٦٠-٧٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى في مواجهةِ السحرةِ في يومِ الزينةِ:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ فرعونَ تولَّى عن موسى وأخَذَ يعملُ على جمعِ السحرةِ المهرةِ من أرجاءِ مملكته، فجاءَ بكلِّ ساحرٍ عليم ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه:٦٠] وهذا كما قال رَبُّنا عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس:٧٩].

ولكَ أن تتخيل على بُعد الزمان والمكان الساحةَ التي اجتمع فيها الناسُ للمواجهة بين موسى والسحرةِ، فقد أُعِدَّ لفرعون وملئه وحاشيتِهِ المقاعدُ الوثيرةُ في صدرِ الساحةِ، وجاءَ أعيانُ البلدِ وزعماؤُه، وجاءَ الناسُ مِنْ كلِّ مكان، ووقفَ السحرةُ في إحدى جنبتي الساحةِ، وهم عددٌ كبيرٌ، ومعهم العصيُّ الكثيرةُ، والحبالُ التي لا تعدُّ ولا تحصى، وموسى وأخوه وحدُهُما في طرف الساحةِ الثانية في مقابلِ السحرةِ، وأخذ موسى زمامَ المبادرةِ، فخاطبَ السحرةَ قائلاً لهم: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تختلقوا على الله تعالى كذباً، بدعواكم أنَّكم أوجدتم أشياءَ معجزة، وهي الحبالُ والعِصِيُّ التي تَدَّعُونَ أنَّها أحياءَ تسعى وتتحركُ، فإنْ فعلتم فإنَّ اللهَ تعالى يهلككم بعذابٍ من عنده، ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ أي: خَسِرَ من افترى الكذبَ على الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه:٦١].

وقد فعلت هذه النصيحةُ التي تَقَدَّمَ بها موسى إلى السحرةِ فِعْلَها في نفوسهم، فأوقعتْ الخلافَ فيما بينهم ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ [طه:٦٢]، فمنهم مَنْ قَبِلَ النصيحةَ، وقال: هذا ليس بكلام ساحرٍ، إنما هو كلام نبيٍّ، ومنهم من قال: هو كلامُ ساحرٍ، وقد أطْلَعنا ربُّنا على ما تناجَوْا به سِرّاً، إذ قالوا في نهاية ما خلصوا إليه إنما هذانِ ساحران، يريدانَ أنْ يخرجاكم من أرضكم بسحرهما، ويبطلا السِّحْرَ الذي تتعاملونَ به، وطلبَ بعضهم من بعضٍ أن يبقوا صفاً واحداً مجتمعاً، لا خلافَ بينهم، وقد أفلحَ اليومَ مَنْ استعلى، أي: من علا على صاحبه فغلبه وقهره ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه:٦٣-٦٤].

٢- ساعةُ المواجهة بين موسى والسحرة:

أجمعَ السحرةُ أمْرَهُمْ، وعَزَمُوا على منازلةِ موسى وأخيه في الميدانِ وخيَّروا موسى بَيْنَ أن يبدأ هو بالنزالِ بإلقاءِ عصاه، وإما أنْ يبدؤوا هم، فيلقون عصيَّهم وحبالَهم ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ

﴿أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه:٦٥]. فطلبَ منهم موسى أنْ يكونوا هم الملقين فعندَ ذلك: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء:٤٤]، فعندما ألْقَوْا حبالَهم وعِصِيَّهم، فاضت الساحةُ بالأفاعي التي خيِّلَ للناسِ أنَّها تسعى فلما ألقوا ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف:١١٦] وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنهم ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف:١١٦] حتى نبيَّ الله موسى عليه السلام خُيِّلَ إليه أنَّ حِبالَهُمْ وعَصِيَّهم تَسعى ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه:٦٦].

فعند ذلك أصابه ما يصيب البشرُ، ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه:٦٧]، ولم يَطُلْ هذا الذي أصابَ الناسَ وأصاب موسى إلا لحظةً يسيرة، فقد جاءَ الوحيُ السماويّ آمراً موسى أنْ لا يخاف، وأمَرَهُ أن يُلْقِيَ عَصاه التي يحملُها في يدِه اليمنى، فإذا بها تتحولُ إلى ثعبانٍ مبينٍ، وتُقْبِلُ على تلك العصيِّ والحبال، وتَلْقَفُها، أيْ: تَبْتَلِعُها واحدةٍ بعد الأخرى، ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ [طه:٦٨-٦٩]. وقالَ في موضعٍ آخر: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف:١١٧].

يا للرَّوعة، لقد قَضَتْ عَصا موسى على كلِّ ما في الميدانِ مِنَ باطلِ صنعَهُ السحرةُ، وما يصنعه الساحرُ كَيْدٌ باطلٌ، ولا يفلحُ الساحِر من أي مكان أتي ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه:٦٩].

٣- إيمانُ السحرة وخرورُهُم ساجدينَ لله ربِّ العالمين:

لقد حَقَّقَتِ المواجهةُ النصرَ العظيمَ لموسى وهارون، وتبيَّنَ أنَّ ما جاءَ به السحرةُ كان باطلاً، وأنَّ تحوُّلَ عَصا موسى الخشبية إلى ثعبانٍ كان تحوُّلاً حقيقياً، ليس سحراً، بل كان آيةً من آياتِ الله التي لا يستطيعُ البشرُ أن يأتوا بمثلِها، وأنَّ اللهَ أَبْطَلَ بها ما صنعَهُ السحرةُ مِنَ السحْر، وكان السحرةُ أعْلَمَ الناسِ بما جرى، فقد رأوْا ما فعلته عصا موسى عندما ألْقاها، وهم يعلمون يقيناً أن الساحرَ لا يمكن أنْ يصل بسِحْره إلى هذه الدرجةِ، ولذلك خَرُّوا ساجدينَ لربِّ العالمين، وهم يقولون: آمنا بربِّ هارون وموسى ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه:٧٠]، وقال سبحانَهُ في الأعراف: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف:١١٧-١٢٢].

لقد غُلِبَ فرعونُ وملؤُه وسحرتُهُ، ولكنَّ السحرةَ اتعظوا فآمنوا، وبقي فرعونُ على كفرِهِ وضلالِهِ وعنادِهِ.

ولم يَمْلِكْ فرعون أن يصنعَ لموسى وأخيه شيئاً، فقد حفظهما اللهُ تعالى بما معهما من الآياتِ، وقد وَجَّهَ فرعونُ جبروتَهُ وتهديدَهُ إلى السحرةِ الذين آمنوا، فقال لهم: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه:٧١].

قالَ لهم فرعونُ: آمنتم بموسى قبل أنْ آذن لكم بالإيمانِ بِهِ؟ لقد جعل فرعونُ مِنْ نفسِهِ حاكماً على قلوبِ العباد، فلا يجوزُ لهم أن يؤمنوا بخلاف ما قَرَّره، وهذا أعظَمُ الظلم، فاللهُ يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقد قال فرعونُ للناس الذين تحت يَدِه ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر:٢٩]، وزعَمَ فرعونُ أنَّ موسى هو كبيرُ السحرةِ الذي علمهم السِّحرَ، وكان فرعونُ والناسُ جميعاً يعلمون أنَّه كاذب فيما ادَّعاه، فليسَ لموسى صِلَةٌ بالسحرةِ قبل أنْ يلتقي بهم في الميدانِ في يومِ المواجهةِ.

وتهدَّدَ فرعونُ السحرة بإيقاعِ العذابِ الشديدِ بهم، وأخبرهم أنَّه سيقطِّعُ أيديهم وأرجلَهم مِنْ خلافٍ، وذلك بقطعِ اليد اليمنى والرجلِ اليسرى، وسيصلبهم على جذوع النخل وسيعلمون من الذي سيكون عذابُهُ أشدُّ وأبقى، يعني نفسَهُ، أو ربَّ موسى.

٤- ردُّ السحرةِ على تهديدِ فرعونَ:

سمعَ السحرةُ ما قالَه لهم فرعونُ متوعِّداً متهدِّداً، وكانَ الإيمانُ سَرَى إلى نفوسِهِمْ، وحلَّ في قلوبِهِمْ، فغيَّر أحوالَهُم، وأصبحوا مؤمنين، فـ ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه:٧٢].

قالوا له: لن نختارَ اتباعَكَ، ونتركَ اتباعَ ما جاءَنا مِنَ البيناتِ، ثم أقسموا على ما قالوه فقالوا: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ﴾ أي: والذي خلقنا، وقالوا له: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ﴾ أي: افعل ما أنت فاعل، فالذي تفعلُه لا يعدو هذه الحياةَ الدنيا ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ والدنيا دارٌ زائلةٌ فانيةٌ، لا تدومُ.

وأخبروه غير هيَّابين ولا وَجِلين أنَّهم آمنوا بالله ربِّ العالمين، ليغفرَ لهم ما ارتكبوه مِنْ ذنوبٍ وآثامٍ، وما أكرههم عليه مِنَ السِّحْرِ، واللهُ خيرٌ منك إنْ أُطيعَ، وأبْقى منك عذاباً إن عُصِيَ ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه:٧٣].

وقال السحرةُ المؤمنونَ لفرعونَ واعظين ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه:٧٤-٧٦].

قال السحرةُ لفرعونَ: إنَّ الذي يأتي يومَ القيامةِ مرتكباً جريمةَ الكفرِ والشركِ في الحياةِ الدنيا ويموت على ذلك، فإنَّ لَهُ عندَ الله جهنَّمَ لا يموتُ فيها فيستريح ولا يحيا حياة طيبة يسعد فيها، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر:٣٦]. وعن أبي سعيدٍ، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أمَّا أهلُ النارِ الذين هُمْ أهْلُها، فإنَّهم لا يموتونَ فيها ولا يَحْيَوْنَ، ولكنْ ناسٌ أصابَتْهُمْ النارُ بذنوبِهِمْ (أو قال بخطاياهم) حتَّى إذا كانوا فَحْماً، أُذِنَ بالشفاعةِ، فجيءَ بهم ضَبائِرَ ضبائر، فبثوا على أنهارِ الجنّةِ، ثم قِيلَ يا أهلَ الجنةِ، أفيضوا عَلَيْهِم، فيَنْبُتُونَ نباتَ الحِبَّةِ تكونُ في حَميلِ السَّيْلِ» [مسلم: ١٨٥].

وقال السحرةُ أيضاً لفرعونَ: ومَنْ يَلْقَ ربَّه يومَ القيامةِ مؤمناً قد عملَ الصالحاتِ فأولئك ينالونَ الدرجاتِ العلى، فالجنَّةُ فيها الدرجاتُ العاليات، والغرفُ الآمناتُ، والمساكنُ الطيباتُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:٢١].

وقد حدثنا رسولنا ﷺ عن درجاتِ الجنةِ في الحديثِ الذي يرويه عنه عبادةُ بنُ الصامتِ: «الجنَّةُ مائةُ درجةٍ، ما بينَ كلِّ درجتين كما بَيْنَ السماءِ والأرضِ، والفردوسُ أعْلاها درجةً، ومنها تخرجُ الأنهارُ الأربعةُ، والعرشُ فوقَها، فإذا سَألْتم اللهَ فاسألوه الفردوسَ» [حكم عليه محققُ ابنِ كثيرٍ بالصحةِ، وعزاه للترمذيِّ: ٢٥٣١ وهو في مسند أحمد بإسنادٍ صحيحٍ: ٢٢٦٩٥].

وعن سهلٍ قالَ: «إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتَراءَوْنَ الغرفَ في الجنةِ، كما تتراءَون الكوكبَ في السماءِ» [البخاري: ٦٥٥٥، ومسلم: ٢٨٣٠]، وعن أبي عيَّاشٍ قال: أشْهدُ لَسَمِعْتُ أبا سعيدٍ يحدِّثُ، ويزيدُ فيه: «كما تَراءَوْنَ الكوكبَ الغاربَ في الأُفقِ الشرقيِّ والغربيِّ» [البخاري: ٦٥٥٦. ومسلم: ٢٨٣١].

وقولُه تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ جَمْعُ عُلْيا وهي تأنيثُ الأعلى، أي: المنازل المرتفعة في الجنة، وقولُه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه:٧٦] أي ماكثين في الجنة أبداً، وتزكى: طَهَّرَ نَفْسَهُ من الدَّنَسِ والخبثِ والشركِ، وعَبَدَ اللهَ وحده لا شريك له.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- قدَّم موسى قبلَ أنْ تقعَ المواجهةُ مَعَ السحرةِ الموعظة لهم بأنْ لا يُقْدِموا على هذا العمل الكاذبِ المفترى.

٢- جاءَ السحرةُ بسحرٍ عظيمٍ، فقد سَحَروا أعينَ الناسِ، فظنوا أنَّ عصيَّهم وحبالَهم تسعى.

٣- سَعْيُ عصيِّ السحرةِ وحبالِهِمْ صَنْعَةٌ بشريةٌ، وما قامت به عَصا موسى معجزةٌ إلهية، وقد أبطلتِ المعجزةُ الإلهيةُ الصناعةَ البشريةَ.

٤- آمَنَ السحرةُ عندما رأوْا فعلَ المعجزةِ الإلهيةِ، وخَرُّوا ساجدين في الميدانِ غيرَ مبالينَ بغضبِ فرعونَ ومَلَئِهِ.

٥- قَدَّم السحرةُ الموعظةَ لفرعونَ وملئه، ولم يَخْشَوْا تهديدَه، وهكذا الإيمانُ إذا حلَّ في القلوبِ فَعَلَ المعجزاتِ.

٦- قاعدةُ الجزاءِ والحسابِ أنَّ الكافرَ يعذَّبُ في النارِ، والمؤمنُ يكون في الجنةِ خالداً فيها، وسيُعذَّبُ أقوامٌ مِنَ الموحدين بذنوبهم، ثم يخرجونَ منها برحمةِ ربِّهم.

٧- الجنةُ درجاتٌ، ما بينَ كلِّ درجتين كما بينَ السماءِ والأرضِ، ويقْتَسِمُ أهلُ الجنةِ الجنةَ بأعمالهم.

النص القرآني السادس من سورة طه
خروج موسى ببني إسرائيلَ من مصر وإهلاكِ الله فرعونَ وجنودَهُ

أولاً: تقديم

بعد أنْ أذاقَ اللهُ فرعونَ وقومَه العذابَ ألواناً بسبب إصرارِهم على منعِ بني إسرائيل من الخروج إلى فلسطينَ مَعَ موسى، أمَرَ اللهُ موسى بالخروجِ ليلاً مع قومِهِ متجهاً إلى البحرِ، فأتبعَه فرعونُ بجندِه، فشقَّ اللهُ لهم طريقاً في البحرِ، فنَجَوْا، ودخَله فرعونُ وقومه فغرقوا، وأضلَّ اللهُ فرعونَ وقومَه، وما هدى، وذكَّر اللهُ بني إسرائيل بنعمِهِ، وحَذَّرَهم ربُّ العزةِ مِنْ مخالفةِ أمْرِه، وفتحَ البابَ للتائبين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه:٧٧-٨٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ تعالى موسى أنْ يَخْرُجَ ببني إسرائيلَ مِنْ مِصْرَ ليلاً:

كان ربُّ العزة -تبارك وتعالى- يرسلُ على فرعونَ وملئِه العذابَ أشكالاً وألواناً، وكلَّما نَزَلَ بهم نوعٌ مِنَ العذابِ، وَعَدَ فرعونُ موسى أنْ يرسلَ مَعَهُ بني إسرائيلَ حين يرفعُ عنهم العذاب الذي حَلَّ بهم، فإذا رُفِعَ العذابُ عنهم أخلَفَ فرعونُ وَعْدَه، ونكثَ بعَهْدِهِ، فأوحى اللهُ تعالى إلى موسى أنْ يخرجَ ببني إسرائيلَ ليلاً متجهاً بهم إلى شاطئِ البحرِ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه:٧٧].

والسُّرى: سيرُ الليلِ، والمرادُ بعبادِهِ بنو إسرائيل، وأضافَهُمْ إليه على جهةِ التكريمِ والتشريفِ.

وأمرَهُ أنْ يضربَ لهم طريقاً في البحرِ يَبَساً، وقد وَقَعَ ذلكَ عندما ضَرَبَ موسى بعصاهُ البحرَ، فانشقَّ البحرُ عن اثني عشرَ طريقاً بعددِ أسباطِ بني إسرائيل، ومِنْ عجيبِ قدرةِ الله

تعالى أنَّه جعلَ هذه الطرقَ التي انكشفَ البحرُ عنها يابسةً صالحةً للسيرِ، ليس فيها وَحْلٌ ولا حِجارةٌ تعيق مسارَهُمْ.

وقال اللهُ تعالى لموسى مطمئناً قلبَهُ، مُهَدِّئاً سِرَّه: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ أي: اسْلُكْ بقومِك هذا الطريقَ الذي شقَّهُ اللهُ لكم في البَحْرِ، فتنجو بقومِكَ، غيرَ خائفٍ أنْ يُدْرِكَكَ فرعونُ وجندُه، ولا تَخْشَى أن ينطبقَ البحرُ عليكم، فيُغْرِقَكُمْ.

وقد كان إنجاءُ الله بني إسرائيل على هذا النحوِ آيةً مِنْ آياتِ الله تعالى الباهرةِ الدالةِ على قدرةِ الله وبديعِ صنعه.

وكان إنجاءُ الله -تعالى- موسى وبني إسرائيلَ مِنَ الغرقِ في يوم العاشرِ مِنْ شهر الله المحرَّمِ، فعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما، قال: لما قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدينةَ، واليهودُ تصومُ عاشوراءَ، فسَأَلَهُمْ، فقالوا: هذا اليومُ الذي ظَهَرَ فيهِ موسى على فِرْعونَ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «نحنُ أَوْلَى بموسى مِنْهُمْ، فصوموهُ» [البخاري: ٤٧٣٧. ومسلم: ١١٣٠].

٢- فرعونُ يقودُ قومَهُ إلى الغرقِ والهلاكِ:

لم ينتبِهْ فرعونُ وملؤُه إلى خروج بني إسرائيلَ من مِصْرَ إلا بعدَ خروجهم ومسيرِهم بعيداً عنهم، فلما عَلِمَ بذلك أرسلَ إلى المدائنِ التي كانتْ تحتَ يَدِه، فجمعَ جنودَهُ وجيشَهُ، وسارُوا سراعاً وراءَ بني إسرائيلَ، والجيشُ المدربُ الذي يمتطي الخيولَ أسرعُ مِنْ حَرَكَةِ الجماعةِ التي تضمُّ الرجالَ والنساءَ والأطفالَ، والتي تسيرُ على أقدامِها، ولذا أدْرَكَ فرعونُ بني إسرائيل، وقد وَصَلُوا إلى شاطئِ البحرِ في وقتِ الشروق ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦﴾ [الشعراء:٦٠-٦٦].

وقال ربُّ العزةِ في هذه السورةِ: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه:٧٨-٧٩]. لقد كان فرعون أسوأ قائد يقود قومه، لقد قالَ لقومه وهو يواجِه موسى: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ [غافر:٢٩]، فهاذا فعل بهم في الدنيا، قادَهُم إلى الغرقِ، وفي الآخرة ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود:٩٨].

قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ أي: سارَ وراءَهم بجنودِهِ. وقوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ أي: انْطَبَقَ عليهم البحرُ فأغرقهم وأهلكهم، وكانتْ العاقبةُ أنْ ﴿أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ وهكذا تكونُ عاقبةُ القومِ الذي يتبعون قادَتَهم على ضلالِهم، فإنَّهم يُضِلُّونَهُمْ، ولا يَهْدُونَهُمْ

٣- **تذكيرُ اللهِ -سبحانه- بني إسرائيلَ بنعَمِهِ التي أنعم بها عليهم:**

أخبرَنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّه نادى بني إسرائيلَ مذكِّراً إياهم بنعمِهِ التي أنْعم بها عليهم، فقالَ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه:٨٠].

وقد أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّه قَدْ امتنَّ عليهم بثلاثِ نِعَمٍ من نعمِه، الأولى: أنَّه قد أنجاهم مِنْ عدوِّهم فرعونَ، عندما ضربَ لهم طريقاً في البحرِ سَلَكُوهُ، فنَجَوْا، وسار فيه فرعونُ وجنده، فغرقوا. والثانية: عندما واعدَهم اللهُ جانبَ الطورِ الأيمن، فذهبَ بهم نبيهم إلى ذلك الموضعِ، وأوْحى الله إلى موسى ما أوْحَى. والثالثة: ما أنزلَهُ الله تعالى عليهم وهم في التيه مِنَ المنِّ، وهو طعامٌ حُلْوٌ كان ينزلُ عليهم في أفْنِيَةِ منازِلِهِمْ، وكان حلواً كالعسلِ، ويرسلُ إليهم السلوى، وهو طائرٌ طيبُ اللحمِ، يجدونه قربَ منازلِهم.

٤- **أمَرَ اللهُ -تعالى- بني إسرائيلَ أنْ يأكلوا مما رزقَهُمْ اللهُ ولا يطْغَوْا فيه:**

أمَرَ اللهُ تعالى بني إسرائيلَ أن يأْكُلوا مِنْ طيباتِ ما رَزَقَهُم، ونهاهُمْ عنِ الطغيانِ فيهِ، ومَنْ طغَى فإنَّه يَحِلُّ بِهِ غضبُ الله، ومَن حَلَّ به غضبُه، فقدْ هَوَى ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه:٨١].

والطيباتُ مِنَ الرزقِ التي أمَرَ اللهُ بني إسرائيل أنْ يأْكُلوا منها المستلذات مِنَ الحلالِ، فإنْ أرادَ بها المنَّ والسلوى فهي خيرُ الطعامُ، وإنْ أرادَ بها ما أحلَّهُ لهم بعد خروجِهِم مِنَ التيهِ، ودخولِهِم فلسطينَ فالمرادُ ما أحلَّه لهم مِنَ الطيباتِ. وقد نهاهم الله تعالى عن الطغيانِ فيه وذلك بادخارِهِمْ في أيامِ التيهِ مِنَ المنِّ والسلوى أكثرَ مِنْ قوتِ يومِهِم، وإن أريدَ به الطعام الذي أحلَّه لهم بعد ذلك، فإنَّ الطُّغْيانَ يكونُ بتجاوزِ الحلال إلى الحرام، كما يكون بالكفر والشرك والمعاصي، وأصل الطغيان تجاوزُ الحدِّ الذي حدَّهُ الله تعالى لهم.

وقد تهَدَّدَ اللهُ تعالى الطاغينَ بأنْ يُحِلَّ بهم غضبَه، ومَنْ يُحِلَّ بِهِ غضَبَه فقد هَوَى، والمرادُ بالهَوِيِّ: السقوطُ مِنْ مكانٍ عالٍ، والكفارُ يهوون في النارِ بحسبِ منازلِهم فيها.

٥- توبةُ الله على التائبين:

بعد أن تهدَّدَ ربُّ العزةِ الطغاةَ المجرمينَ، فتحَ بابَ التوبةِ واسعاً للتائبين، فقال: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه:٨٢].

وغفَّار: صيغةُ مبالغةٍ، أي: كثيرُ المغفرةِ، لمن أقلعَ عن معصيتِه، وآبَ إلى ربِّه، وقوله: ﴿وَءَامَنَ ﴾ أي: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليومِ الآخر، وقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي: مِنَ الصلاةِ والزكاةِ والصومِ والحجِّ والذكرِ وغيرها، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ أي: إلى الإسلامِ والحقِّ الذي أنزله الله تعالى.

رابعا: ما تهدي إليه الآيات من علمٍ وعمل

إذا تدَبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- شَقَّ اللهُ البحرَ لبني إسرائيلَ، فأنْجاهم مِن فرعونَ، وأغرقَ فرعونَ وجندَهُ.

٢- أضلَّ فرعونُ قومَه، فقادَهُمْ إلى الغرقِ في الدنيا، وفي الآخرةِ يقودُهم إلى النار.

٣- أنعَم اللهُ تعالى بنعمٍ كثيرةٍ على بني إسرائيل، فقد نجَّاهم من عدوِّهم وأهْلَكَه، وأنزلَ عليهم آياتِهِ، وأنزلَ عليهم المنَّ والسلوى في التيه.

٤- أمر اللهُ بني إسرائيل بأن يَأْكُلوا من الطيباتِ، ولا يتجاوَزُوها إلى الحرام.

٥- فتح اللهُ بابَ التوبةِ لمن رَجع عَنْ كفرِهِ وآمنَ بربِّه وعملَ الصالحاتِ.

النص القرآني السابع من سورة طه
عبادةُ بني إسرائيلَ العجل

أولاً: تقديم

حَدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن واقعة كُبْرى حَلّت ببني إسرائيلَ عندما صَنَعُوا عجلاً مِنَ الذهبِ اتخذوه إلهاً مِنْ دونِ الله -عزَّ وجل-، وبيَّنَ اللهُ تبارك وتعالى لنا كيفَ قَضى موسى على هذا الانحرافِ الخطيرِ، فقد قَضَى عليه في مهدِهِ، وأزالَهُ إزالةً قَضَتْ عليه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه:٨٣-٩٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى يَسْبِقُ قومَه للقاءِ ربِّه تبارك وتعالى:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ فيما سَبَقَ أَنَّهُ واعدَ بني إسرائيلَ جانبَ الطورِ الأيمنَ ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه:٨٠]، ولكنَّ موسى عليه السلام سبقَ قومَه شوقاً للقاء ربِّه بغير إذنٍ مِنْ ربِّه تبارك وتعالى، وبعد أنْ مَكَث موسى على الطور أربعين ليلةً سألَهُ ربُّه -تبارك وتعالى- قائلاً:

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ ﴾ [طه:٨٣] أي: ما الذي حَمَلَكَ على العجلةِ حتى تَرَكْتَ قوْمَكَ، وخرجتَ مِنْ بينهم، وهذا السؤالُ يدلُّ على أنَّ المطلوبَ هو أنْ يصحبَ قومَهُ إلى الطورِ، فأجابَ موسى عليه السلام قائلاً: ﴿ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه:٨٤]. قال: هم آتون من ورائي، تابعون لأثَرِي، واصلونَ بَعْدي، وأنا عَجِلْتُ إليك يا ربِّ لترضى عني بمسارعتي لامتثالِ أمرِك.

فأخبر اللهُ تعالى موسى أنَّه فتنَ قومَهُ مِنْ بعدِهِ ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾ [طه:٨٥]، وقوله: ﴿ قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ ﴾ أي: ألقيناهم في فتنةٍ ومحنةٍ بَعْدَ أن خرجتَ منهم، وأخبرَه أنَّ الرجلَ الذي أَضَلَّهم هو السامريُّ، ولا بدَّ أنَّ موسى كان يعرفُه مِنْ قبل.

فلَّما أعلمَهُ اللهُ بذلك بادرَ بالعودةِ إلى قومِهِ غضبانَ أسفاً ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ ﴾ [طه:٨٦] وأسِفاً أي: حزيناً على ضلالِ قومِهِ مِنْ بعدِهِ.

٢- موسى يواجه قومَهُ ويُوَبِّخُهُم ويؤنبهم:

وصلَ موسى عليه السلام إلى قومِهِ فوجدهم عاكفينَ على عبادةِ العجلِ، فوقفَ فيهم خطيباً وقالَ لهم: ﴿ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه:٨٦]. قال لهم مؤنباً وموبخاً: ﴿ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ ﴾ ووَعْدُ الله الذي وَعَدَهُمْ بِهِ، هو رضاهُ عنهم إن هم عبدوه وَحْدَهُ لا شريكَ له، وإدخالُهُمْ يومَ القيامةِ جنَّاتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ، وقالَ لهم في لومِهِ لهم وإنكاره عليهم: ﴿ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾ قال لهم: أفطالَ عليكمْ العهدُ، أي: أفطالَ عليكم الزمانُ فنسيتم.

وقوله: ﴿ أَمۡ أَرَدتُّمۡ ﴾ ومعنى: ﴿ أَمۡ ﴾ بَلْ، وهي للإضرابِ عن الكلامِ الأولِ، وعدولٍ إلى الثاني. والمعنى المرادُ: بَلْ أأردتم أنْ يحلَّ عليكم غضبٌ مِن الله، فكلُّ مَنْ أشركَ بالله وعبدَ غيره، فإنَّ اللهَ يغضبُ عليه، ويحلَّ به بأْسَهَ وانتقامَه، وقوله: ﴿ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾ وقد كانوا وَعدوه قبلَ أنْ ينطلقَ إلى الطورِ أنْ يقيموا على طاعةِ الله -عزَّ وجلَّ- إلى أنْ يرجعَ إليهم مِنْ سَفَره. وقد أجابُوه بجوابٍ قبيحٍ ﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ ﴾ [طه:٨٧]، قالوا له معتذرينَ: إننا لم نُخْلِفْ مَوْعِدَك بملكنا

واستطاعتنا وقدرتنا، وإنَّما فعلنا ما فَعَلْناه لأننا حملنا أوزاراً مِنْ زينة القوم، فقد استعارتْ نساءُ بني إسرائيل مِنَ المصريين حُلِيَّ نسائِهم، فلما خرجوا مِنْ مصرَ خرجوا بحليِّهم معهم، فسلبوهم أموالَهُمْ، وكانتْ هذه الأموالُ أوزاراً، أي: أثقالاً، لا تحلُّ لهم، فجمعوا هذه الحليَّ، وقذفوها في موضعٍ أُحمي بالنارِ، فذابتْ وانصهرت، وألقى السامريُّ قبضةً قبضَها من أثرِ الرسولِ كما سيأتي بيانه ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه:٨٨] لقد خرجَ مِنْ وراءِ ذلك كلِّه عجلٌ جسدٌ لا حياةَ فيه، ولكنَّه يخورُ كخوارِ البقرِ، فقالوا: هذا هو إلهكم الذي يجبُ عليكم أنْ تعبدوه، وهو إلهُ موسى، وقد نسي موسى موضعَ إلهه، فذهب يبحثُ عنه بعيداً، وهو موجودٌ في هذا المكان.

وقد بَيَّن اللهُ تعالى لهم فساد دعواهم بأنَّ هذا العجلَ هو إلههم وإلهُ موسى بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه:٨٩]، دعاهم ربُّهم إلى التفكرِ في حالِ العجلِ، فلو كانَ إلهاً لسَمِعَ كلامَهُمْ، وراجَعَهُمْ فيما يقولون، ولكه لم يفعلْ شيئاً، ولا يملكُ لهم ضرّاً ولا نفعاً.

٣- موقفُ موسى من أخيه نبيِّ الله هارونَ عليهما السلام:

كَذَبَ بنو إسرائيل على نبيِّ الله هارون عليه السلام، فزعموا كاذبينَ أنَّه هو الذي صَنَع لهم عجلاً مسبوكاً من الذهب، وأمرهم بعبادته [راجع: سفر الخروج في التوراة، الإصحاح الثاني والثلاثون].

وقد أكذبَ اللهُ اليهودَ فيما افتروه على هارون، وبيَّن لنا موقفَهُ الذي وقفه عندما عبدوا العجلَ، وعرَّفنا بما قالَهُ لَهُمْ، وكيفَ تمردُّوا عليه، وردُّوا عليه أمْرَهُ، ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه:٩٠-٩١].

لقد أنكرَ هارونُ على قومِهِ في اتخاذِهم العجلَ إلهاً، قالَ لهم: إنَّ هذا العجلَ فتنةٌ لكم وامتحانٌ واختبارٌ، وهو إلهٌ باطلٌ، وإن ربَّكم الذي يستحقُّ العبادةَ هو الرحمنُ وَحْدَهُ، وأمرهُمْ باتباعِهِ وطاعةِ أمرِهِ، فما كانَ منهم إلا أن قالوا له: لن نبرحَ عاكفينَ عليه، أي: ملازمينَ عبادَتَهُ، حتى يرجعَ إلينا موسى.

وحَدَّثنا ربنا -تبارك وتعالى- عن موقفِ موسى مِنْ أخيه هارونَ عليه السلام، فقد ثارَ عليه، وأوقع به غَضَبَه، وأمسَكَ بتلابيبه، وهو يلومُه ويعنِّفه ويؤنِّبُهُ ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟

﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٢-٩٤].

أخذ موسى بلِحْيَةِ أخيهِ وبرأسِه، وهو يصيحُ به، ويبكِّتُه ويعنِّفُه على مرأى من بني إسرائيل، يقولُ له: يا هارونُ ما الذي منعكَ إذ رأيتَ قومَكَ قد ضلوا باتخاذِهِمُ العجلَ إلهاً مِن دونِ الله ألا تكونَ تَرَكْتَ هؤلاءِ الضالين وسرت ورائي بمن معك مِنَ المؤمنين، أفعصيتَ أمري الذي أمرتُك به عندما فارقتك، وكان موسى قال لهارون عندما استخلفه على بني إسرائيل: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف:١٤٢]. فأبانَ هارونُ عن وجهةِ نظرِهِ، وما أدَّاه إليه اجتهادُه تجاهَ الواقعةِ التي وقعتْ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ .

قال هارونُ راداً على ما كان مِنْ موسى مِنْ فعلٍ وقولٍ تجاهَهُ: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ دَعا هارونُ موسى قائلاً له: يا ابنَ أمي، لأنَّه كان أخاه من أمِّه، وذهب كثيرٌ مِنَ المفسرين إلى أنَّه كان أخاه مِنْ أُمِّه وأبيه، ولكنَّه دَعاه بابن أُمِّه ليعطِّفَ قلبَه ويرققَه عليه، لأنَّ ذِكْرَ الأمِّ ها هنا أرقُّ وأبلغ في الحنوِّ والعطفِ، وطلبَ منه أن يُفْلِتَ لحيتَه ورأسَه مِنْ قبضتِهِ، وبين حجته فيما ذهبَ إليه في قوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ يقولُ له: خشيت إنْ تبعْتُك بمن بقيَ على إيمانِهِ مخلفاً ورائي الذين عَبَدُوا العجلَ أن تقولَ لي: فَرَّقْتَ بين بني إسرائيل، ولم تَرْقُبْ قولي عندما قلتَ لي: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف:١٤٢].

لقد كان جوابُ هارون الذي اعتذرَ به قويّاً متجهاً، لا يبعدُ عن الصوابِ، ولذلك فإنَّ موسى قبل مِنْه، وأعْرَضَ عنه، وأفلت مِنْ يدِهِ لحيتَه ورأسَهُ.

٤- مواجهةُ موسى للسامريِّ صانعِ العجلِ الذهبيِ:

بعد أنْ خَلَصَ موسى عليه السلام من أخيه، تَوَجَّه إلى السامريِّ، وهو الذي كانَ سَبَبَ الداءِ، وأسَّ البلاءِ، وواجَهُه قائلاً: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَسَمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ [طه:٩٥].

قال: ما شأنُك، وما أمركُ يا سامريُّ؟ فأجابَ السامريُّ ببيانِ ما كان منه، ولم يكتمْ مِنْ أمرِهِ شيئاً، ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ [طه:٩٦].

قال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: فَطِنْتُ لما لَمْ يفطنوا لَهُ، وعرفتُ ما لم يَعْرِفوا، أي: أَبْصَرَ الأثرَ الذي يحدثُه جبريلُ عندما تمسُّ رجلاهُ الترابَ، فقبضَ قبضةً من ترابِ الأرضِ الذي مَسَّه الرسولُ والقبضةُ مِلْءُ الكفِّ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه:٩٦]، وقوله: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: أَلْقى تلكَ القبضةَ التي قبضَها مِنْ أثَرِ جبريلَ، ونبذَها على الحليةِ التي أخذَها بنو إسرائيل من قومِ فرعونَ، وكانت تلكَ الحليُّ قد انصهرت في الحفرةِ المحماةِ التي أُلْقي فيها بنو إسرائيل الحليَّ، وقال السامريُّ ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾ [طه:٩٦]، أي: حَسَّنَتْهُ وزَيَّنَتْهُ، فكان مِن وراءِ ذلك تشكُّلُ العجلِ على النحو الذي تشكَّلَ به، وكان عجلاً جَسَداً له خوار.

وقد مضى معنا في سورة البقرة أنَّ الله كتب على بني إسرائيل أن يقتلَ بعضُهم بعضاً، ولكنَّ موسى لم يَقْتُلْ الذي سبَّبَ الفتنةَ، وأضلَّ بني إسرائيل، بل قال له: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ [طه:٩٧] قال له: إنَّ عقوبتك أن تقول: لا مساس طيلة الحياة التي تعيشها، أي: فلا تطيقُ أن يمسَّك الناسُ أو تمسَّهم، ودائماً يقولُ للناس كُلّما التقى بهم: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ، وهذا يدْعُوه إلى الهروبِ مِنَ الناسِ وكان يخافُ دائماً أن يَمَسّوه. وأخبرَه أنَّ له موعداً في الآخرةِ لن يخلفه، عندما يقفُ بَيْنَ يديْ الجبارِ في يومِ القيامة، فيحاسبُه على ما قدَّم.

٥- ما الذي فعله موسى بالعجل الذهبي:

بَعْدَ أنْ واجَه موسى قومَه، وبَكَّت أخاه هارون، وحاسبَ السامريَّ وناقشَهُ، طلبَ مِنَ السامريِّ أنْ ينظرَ إلى إلهِهِ الذي أقام على عبادته، وما سيفعل به ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه:٩٧].

قال له: انظرْ أيُّها السامريّ إلى هذا العجل الذهبيِّ الذي داومتَ على الاعتكافِ على عبادتِهِ، لنحرِقنَّهُ، فهو وإن كان أَصْلُه مِنْ ذهب، إلا أنه تحوَّلَ إلى مخلوقٍ قابلٍ للحرقِ، ثم لَنَذْرُوَنَّ رمادَه في البحرِ، وعبَّر عن تَذْرِيَةِ أثره بنَسْفِهِ نسفاً، وهذا يَكْفُلُ إزالته، والقضاءَ عليه.

٦- اللهُ -تباركَ وتعالى- هو المعبودُ الحقُّ الذي يستحقُّ العبادةَ دونَ سواه:

وفي ختامِ المشهدِ الذي قامَ فيه رسولُ الله موسى ﷺ بمعالجةِ انحرافِ قوْمِهِ، وَضَعَ الحقَّ في نصابِهِ فقال: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨].

و﴿ إِنَّمَآ ﴾ أداةُ حَصْرٍ، حَصَرَت المعبودَ الذي يَسْتَحِقُّ العبادةَ في الله دون سواه. وقد وسِعَ عِلْمُهُ كلَّ شيءٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- موسى عليه السلام يُخَلِّفُ قومَهُ وراءَه مِنْ غير إذنٍ من ربِّه، ويَعْجَلُ للقاء ربِّه.

٢- يخبر اللهُ موسى عليه السلام بما كان مِنْ ضلالِ قومِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وأنَّ السامريّ أضلَّهُمْ.

٣- موسى يسارعُ إلى العودةِ إلى قَوْمِهِ ممتلئاً غضباً وحزناً على ما كانَ مِنْ ضلالِ قومِهِ.

٤- كان موسى عليه السلام قياديّاً من الطرازِ الأول، فقد رجع إلى قومِهِ وعالجَ الانحرافَ الذي أصابَ قومَهُ، وقضى على المشكلةِ مِنْ جذورِها.

٥- وأوَّلُ خطوةٍ قام بها موسى هي وقوفُهُ في قومِهِ خطيباً، فوبَّخَهمْ وأنكرَ عليهم، وذكَّرهم بالله، واعتذرَ قومُهُ إليه بعذرٍ غير مقبولٍ.

٦- بَيَّنَ قومُ موسى له كيف تمت صناعَةُ العجل الذهبي الذي اتخذُوهُ مِنْ دون الله إلهاً ومعبوداً.

٧- العجلُ المصنوعُ لا يصلح أن يكونَ إلهاً، فإنَّه لا يرجعُ إليهم قولاً، ولا يملكُ لهم ضرّاً ولا نفعاً.

٨- كانت الخطوةُ الثانيةُ في علاجِ موسى للمشكلةِ هو مواجهةُ أخيهِ، وتعنيفُهُ ولومُهُ، وأخْذُه بلحيتِهِ ورأسِهِ، وبيَّن لموسى أنَّ هارونَ كان له عُذْرُهُ في صَبْرِهِ على انحرافِ قومِهِ.

٩- الخطوةُ الثالثةُ التي سلكها موسى تمثلت في مواجهة السامريِّ الذي كان السببَ في إضلالِ بني إسرائيلَ.

١٠- بيَّن اللهُ للسامريِّ العقوبةَ الدنيويةَ والأخرويةَ التي يستحقها لقاء كفرِهِ، وإضلالِهِ بني إسرائيلَ.

١١- موسى يدمِّر العجلَ الذهبيَّ، ويحرقُه، ويذرُوا رَمادَه في البحرِ، ولا شكَّ أنه كان في ذلكَ علاجاً لما شابَ النفوس، وخالجَ القلوب.

١٢- لم يستطعْ هارون أن يقوم بما قام به موسى في مواجهةِ ضلالِ بني إسرائيل، ومعالجةِ المشكلةِ، فقد قضى موسى على المشكلةِ بكلِّ أبعادِها في وقتٍ قصيرٍ.

١٣- في ختامِ هذه الآية أعلمَ موسى قومَهُ بالعقيدة التي يقوم عليها الدينُ كلُّه، وهي استحقاقُ الله للعبادة وَحْدَهُ.

النص القرآني الثامن من سورة طه
حالُ المعرضين عن القرآنِ والمؤمنين به في يوم الدين

أولاً: تقديم

تهدَّدَ ربُّ العزةِ -تباركَ وتعالى- الذين يكفرون بالقرآنِ، ويعرضونَ عنه بالإثمِ الذي يحملونه يومَ القيامةِ، ويخلدون فيه، وحدَّثَنا عن مصيرِ المجرمين في يومِ الدين، ففي ذلك اليومِ يحشُرُهُمْ ربُّهم إليه زرقَ العيون، ويظنون أنهم لم يمكثوا في دنياهم إلا يوماً أو أياماً قليلةً، وحدثنا ربنا عن نَسْفِ الجبالِ في ذلك اليوم وإبقاءِ الأرض مستويةً ملساءَ، وحدَّثنا كيف يتبعُ الناسُ في ذلك اليومِ التعليماتِ التي يلقيها إليهم إسرافيلُ، وكيف لا يقبلُ الله في ذلك اليوم إلا شفاعةَ المؤمنين في الموحدين الذين دخلوا النارَ بذنوبهم، وأخبرنا الله أنَّ علمَهُ محيطٌ بالعبادِ في دنياهم وأُخراهم، وأن وجوه العبادِ تعنوا في ذلك اليوم لربِّ العباد، وأعلمنا أنَّ الناجين في ذلك اليوم هم المؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ، فهؤلاءِ يأخذون حظَّهم مِنَ الأجرِ مِنْ غيرِ تَزَيُّدٍ ولا نقصانٍ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:٩٩-١١٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- كما قصَّ اللهُ علينا خبرَ موسى وفرعونَ فإنه يقصُّ علينا أخبارَ موسى وبني إسرائيل وما جرى لهم مع فرعونَ وقومِهِ فإنَّه يقصُ علينا أخبار الأُممِ السابقةِ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه:٩٩].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه:٩٩] والذكرُ الذي امتنَّ اللهُ على رسولِهِ ﷺ أنه آتاه إياه هو القرآنُ الكريمُ، وسُمِّيَ القرآنُ ذكراً، لأنَّ المتدبرَ فيه بصدْقٍ يؤدي به إلى التذكُّرِ والاعتبارِ.

وقد تهدَّدَ ربُّ العزةِ المعرضين عن كتابِهِ بأنَّه يحملون يومَ القيامةِ وِزْراً، ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ [طه:١٠٠] والإعراضُ عَنِ القرآنِ يكون بالكفرِ به، والتكذيبِ لَهُ، والوزرُ الذي يحمله هو الإثمُ العظيمُ، والعقوبةُ الثقيلةُ، وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه:١٠١]، أي: خالدين في ذلكَ الوزرِ يومَ القيامة، وساءَهم ذلك الوزرُ الذي يحملونه فوق ظهورِهِمْ في يومِ القيامةِ حيث أوردهم النار.

٢- **النفخُ في الصورِ وحَشْرُ المجرمين يومَ القيامةِ زُرْقاً:**

أخبرَنا رَبّنا عزَّ وجلَّ أن المَلَكَ يَنْفُخُ يومَ القيامةِ في الصورِ وهي نفخة البعث، ويُحْشَرُ الكفارُ المجرمون في ذلك اليومِ زرقاً ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه:١٠٢]. والصورُ البوقُ العظيمُ الذي ينفخ فيه إسرافيلُ يومَ القيامةِ، فيقومُ المجرمونَ من قبورِهِمْ في ذلك اليوم زرقاً، أي: لشدةِ الأهوالِ التي تصيب المجرمينَ تصبح أعينُهُمْ زرقاً، والزرقةُ الخضرةُ في العين، والعربُ تتشاءَم بزرقةِ العيْنِ.

وأخبرنا ربُّنا تباركَ وتعالى أنَّ المجرمين ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه:١٠٣-١٠٤].

أي: يتسارُّون فيما بينهم، يقولُ بعضهُم لبعضٍ: إن لبثتم في الحياة الدنيا، أو في البرزخ إلا عشرَ ليالٍ، ثم أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ أمثلَهُمْ طريقةً، وهو أعْدَلُهم طريقةً، وأوفاهم عقلاً يقول: إن لبثتم إلا يوماً واحداً، فالحياةُ الدنيا قصيرةٌ، وقصيرةٌ جدّاً، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ﴾ [الروم:٥٥]، وقوله: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٣].

٣- مصيرُ الجبالِ في يوم الدين:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن مصيرِ الجبالِ في يوم الدين، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

أخبرنا ربُّنا أنَّ صحابةَ رسولِنا ﷺ سألوه عَنْ مصيرِ الجبالِ في يومِ الدين، فأمَرَه أنْ يخبرَهُمْ أنّ اللهَ تعالى ينسِفُها نَسْفاً، أي: يقلعُها مِنْ جذورها قلعاً، ثم يجعلها كثيباً مهيلاً، ثم ينسفها مِنْ مواضِعِها، فيذرُ مواضِعَها قاعاً صفصفاً، والقاعُ المستوي مِنَ الأرضِ، فلا ترى فيها جبلاً ولا رابيةً، كما لا ترى فيه منخفضاً ولا وادياً، والصفصفُ الأرضُ الملساءُ التي لا نباتَ فيها.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ أي: لا ترى فيها منخفضاً ولا مرتفعاً.

٤- اتباعُ الناسِ الداعيَ في يومِ القيامةِ:

أخْبَرنا ربُّنا عن حالِ الناسِ يومَ القيامةِ عندما يقومون مِنْ قبورِهِم، فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٨]، أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الناسَ يتبعون الداعيَ في يوم القيامة، وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يَعْدِلون عما يَدْعوهم إليه، فلا يقدرون أن يميلوا عنه. والداعي هو إسرافيلُ الذي يَنْفُخُ في الصورِ والذي يدعو الناسَ إلى القيامِ لربِّ العالمين، فيخرجون مسارعين إلى ما دعاهم إليه، ويسيرون إلى حيث يَدْعُوهُم، ولا يملكون أن يذهبوا بعيداً عما دعاهُمْ إليه، وهناك تخشعُ الأصوات للرحمن، ومعنى: خشعتْ، أي: سكنتْ لهيبةِ ربِّ العزةِ والجلالِ، والهمسُ: الصوتُ الخفيُّ الصادرُ عن الفمِ، أو الناتجُ عن سيرِ الأقدام.

٥- لا تنفعُ الشفعةُ يومَ القيامة إلا من أذن له الرحمنُ ورضي لَهُ قولاً:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الشفاعة يومَ القيامةِ لا تُقْبَل إلا ممن أذنَ له الرحمنُ ورضيَ له قولاً ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه:١٠٩] فلا يشفعُ أحدٌ يومَ القيامةِ إلا مَنْ أذنِ اللهُ تعالى له في الشفاعة، ورضيَ قولَهُ، ولا بدَّ من رضا الله عن الشافع ورضاه عن المشفوعِ له، فلا يشفعُ عنده كافرٌ أو مشركٌ، ولا يشفع في كافرٍ أو مشركٍ، وإذا أذِنَ الله في الشفاعةِ شفعَ الأنبياءُ والمرسلون، وشفعَ الصديقون والشهداءُ والصالحون، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم:٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

والأحاديث التي تدلُّ على قبول ربِّ العالمين شفاعةَ المؤمنين فيمن دخل من إخوانهم الموحدين في النار كثيرة، منها الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري، وقد جاء فيه: «حتَّى إذا خَلَصَ المؤمنونَ مِنَ النار، فوَالذي نَفْسي بيَدِهِ! ما مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ بأشدَّ مناشَدَةً لله، في اسْتِقْصاءِ الحَقِّ، مِن المؤمنينَ لله يومَ القيامةِ لإخوانِهِم الذينَ في النارِ.

يقولونَ: رَبَّنا! كانوا يَصُومُونَ مَعَنا، ويُصَلُّونَ، ويَحُجُّونَ.

فيقالُ لَهُمْ: أخْرِجوا مَنْ عَرَفْتُم، فتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النارِ، فيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثيراً قَدْ أخَذَتِ النارُ إلى نِصْفِ ساقَيْهِ وإلى رُكْبَتَيْهِ.

ثم يقولونَ: رَبَّنا! ما بَقِيَ فيها أحَدٌ مِمَّنْ أمَرْتَنا بهِ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُم في قَلْبِهِ مِثْقالَ دِينارٍ مِنْ خَيْرٍ فأخرِجُوهُ، فيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثيراً.

ثمَّ يَقولونَ: رَبَّنا! لَمْ نَذَرْ فيها أحَداً مِمَّنْ أمَرْتَنا.

ثُمَّ يقولُ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ نِصْفِ دِينارٍ مِنْ خَيْرٍ فأخْرِجُوهُ، فيُخْرِجُونَ خَلْقاً كثيراً، ثم يقولون: رَبَّنا! لم نَذَرْ فيها مِمَّنْ أمَرْتَنا أحَداً، ثُمَّ يقولُ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ ذَرَّةٍ من خَيْرٍ فَأخْرِجُوهُ، فيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثيراً، ثُمَّ يَقُولونَ: رَبَّنا! لَمْ نَذَرْ فيها خَيْراً».

وكانَ أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ يقولُ: إنْ لَمْ تُصَدِّقُوني بهذا الحديثِ فاقْرَؤوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]. فيقولُ الله عزَّ وجلَّ: «شَفَعَت الملائكةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، ولَمْ يَبْقَ إلا أرْحَمُ الرَّاحمينَ، فيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فيُخْرِجُ مِنْها قَوْماً لَمْ يَعْمَلُوا خَيْراً قَطُّ، قَدْ عادُوا حُمَماً، فيُلْقِيهِمْ في نَهَرٍ في أفْواهِ الجَنَّةِ، يقالُ لَهُ نَهَرُ الحياةِ، فَيَخْرُجُونَ كَما تَخْرُجُ الحِبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ، ألا تَرَوْنَها تَكُونُ إلى الحَجَرِ، أوْ إلى الشَّجَرِ، ما يَكُونُ إلى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنها إلى الظِّلِّ يَكُونُ أبْيَضَ؟».

فقالوا: يا رَسُولَ الله! كأنَّكَ كُنتَ تَرْعَى بالبادِيَةِ.

قال: «فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ في رِقابِهِمُ الخَواتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أهْلُ الجَنَّةِ، هؤلاءِ عُتَقَاءُ الله الذينَ أدْخَلَهُمُ اللهُ الجَنَّةَ بغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ ولا خيرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يقولُ: ادْخُلُوا الجنةَ فما رَأَيْتُمُوهُ فهُو لكُمْ، فيقولونَ: رَبَّنا! أعْطَيْتَنا ما لَمْ تُعْطِ أحَداً مِنَ العالمينَ، فيقولُ: لَكُمْ عِنْدِي أفْضَلُ مِنْ هذا، فيقولونَ: يا رَبَّنا! أيُّ شيءٍ أفضلُ مِنْ هذا؟ فيقولُ: رِضايَ، فلا أسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أبداً» [البخاري: ٤٥٨١. ومسلم: ١٨٣ واللفظ لمسلم].

٦- الله تعالى يعلمُ ما بينَ أيدي العباد وما خلفهم ولا يحيطونَ به علماً:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ اللهَ تعالى يعلمُ ما بينَ أيدي عبادِهِ مِنَ الملائكةِ والإنسِ والجنِّ، وما أمامهم إلى قيامِ الساعة، ويعلمُ ما خلفهم أي: من أمرِ الدنيا، ولا يحيطُ علمهم بالله تعالى، فهم يعلمون عن الله ما أعْلَمَهُمُ اللهُ تعالى إيَّاهُ، ومع ذلكَ فعلمهم بالله قليلٌ، فلا يعلمون إلا ما عَلَّمهم اللهُ إيَّاه ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه:١١٠].

٧- عُنُوُّ الوجوهِ للحي القيومِ:

أخْبرنا العليمُ الحكيمُ سبحانه أنَّ الوجوهَ يومَ القيامة تعنو للحيِّ القيومِ ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ ﴾ [طه:١١١]، وعُنُوُّ الوجوهِ يوم القيامة للحيِّ القيومِ سبحانَه يعني خضوعَها لَهُ، وذلَّها واستسْلامَها للجبارِ القهّار تبارك وتعالى، والحيُّ القيومُ هو اللهُ تعالى، فحياتُهُ دائمةٌ أبديةٌ سرمديَّةٌ، ولكمالِ حياتِهِ سبحانَه لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ، وقيومٌ: قائمٌ بنفسِهِ، لا يحتاجُ إلى أحدٍ مِنْ خلقِه، وهو مُقيمٌ لغيرِه، وقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ ﴾ أي: خسر وذلَّ مَنْ جاء يومَ القيامةِ حاملاً الظلم، والمرادُ بالظلمِ هنا الشركِ، كما قال لقمان لابنه ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان:١٣].

٨- الناجون يومَ القيامةِ:

أخْبَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- بالناجينَ يومَ الدين، فقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾ ﴾ [طه:١١٢]، أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذي يعملُ الأعمالَ الصالحةَ في حالِ كونِه مؤمناً، فإنَّه لا يخافُ يوم القيامةِ ظلماً ولا هضماً، والظلمُ أن تكثر سيئاتُه وتعظم من غير سببٍ منه، والهضمُ أنْ تنقصَ حسناتُه وتبخسَ.

٩- أنزَلَ اللهُ تعالى القرآنَ عربياً وصرَّفَ فيه أنواعَ الوعيدِ:

أنزلَ اللهُ آخر كتبه وهو القرآنُ الكريمُ بلسان العربِ، وصَرَّفَ فيه أنواعَ الوعيدِ لعلَّ العباد ينزجرون عن الكفرِ والشركِ والذنوبِ والمعاصي، وليحدثَ القرآنُ في قلوب العباد تذكرة لربِّهم تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه:١١٣].

امتنَّ اللهُ تبارك وتعالى على عبادِهِ المؤمنين بإنزالِهِ عليهم القرآنَ الكريم، بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وصرَّفَ فيه أنواعَ الوعيدِ، فإذا لامسَ الوعيدُ قلوبَ العبادِ خافتْ ربَّها، واتقتْه، فاجتنبتْ المآثمَ والفواحشَ والمحارِمِ، وأوقعَ في قلوبها الذكرَ، فاعتبرتْ واتعظت.

١٠- تنزيه الله تعالى نفسه عن مماثلةِ المخلوقات:

نزَّهَ اللهُ تعالى نفسَه عن مماثلةِ المخلوقاتِ في شيءٍ مِنَ الأشياءِ في قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه:١١٤]، وقد وَصَفَ رَبُّنا عزَّ وجلَّ نَفْسَه بأنَّه الملكُ الحقُّ سبحانَه.

ونهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن العَجَلَةِ بقراءَةِ القرآنِ عندما كان يوحى به إليه قبل أنْ يتم جبريلُ قراءَته عليه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤]، وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٦-١٩].

روى البخاريُّ ومسلم في صحيحيهما أن سعيدَ بنَ جبيرٍ سُئِلَ عن قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾. قال: وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: كانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ إذا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فقيلَ لَهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾. يَخْشَى أنْ يَنْفَلِتَ مِنْهُ، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أنْ نَجْمَعَهُ في صَدْرِكَ، ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾. أنْ تَقْرأَهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾. يقولُ: أُنزِلَ عَلَيْهِ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾. أنْ نَبَيِّنَهُ على لِسانِكَ [البخاري: ٤٩٢٨. ومسلم: ٤٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤]، أمرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يطْلُبَ مِنَ ربِّه أنْ يزيدَهُ علماً، وأوّلُ ما يدخلُ في العلمِ المسؤولِ عن الزيادة فيه، العلمُ بالله تبارك وتعالى، فهو أفضلُ العلمِ وأقومُه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- حوى القرآن الكريمُ كثيراً مِنْ أخبارِ السابقين مِنَ الأممِ التي خَلَتْ مِنْ قبلُ.

٢- آتى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ القرآنَ ليكونَ ذِكْراً يحلُّ في القلوبِ، ويُذَكِّر بالله.

٣- الذين يكفرون بالقرآنِ، ويعرضون عنه، يحملونَ الأوزارَ والآثامَ يومَ القيامةِ، ويكونون خالدينَ في ذلك الوِزر في يومِ الدين.

٤- يُحْشَرُ الكفرةُ المجرمون في يومِ الدين زرقَ العيونِ لشدة ما يحلُّ بهم مِنَ العذابِ.

٥- يظنُّ الناسُ في يومِ الدين أنَّهم لم يمْكُثوا في الدنيا أو في البرزخ إلا عشرةَ أيامٍ، ومن كان عَقْلُهُ وافياً ظنَّ أنه لم يمكث إلا يوماً.

٦- الجبالُ تُدَكُّ وتُنْسَفُ في يومِ الدين، وتصبحُ الأرضُ مستويةً ملساءَ ليس فيها جبالٌ ولا تلالٌ ولا وِدْيانٌ.

٧- ينادي إسرافيلُ في الناسِ يومَ القيامةِ آمراً إياهم بالخروجِ للحسابِ والجزاءِ، فلا يملكونَ إلا أن يجيبوا الداعيَ، ويسيروا حيث أمَرَهُمْ.

٨- تخشعُ أصواتُ العبادِ في يومِ الدين، فلا تسمعُ منهم إلا الأصواتُ الخافتةُ.

٩- لا يقبلُ اللهُ شفاعةَ العبادِ يومَ القيامةِ إلا في حالِ قبولِه شفاعةَ الشافعِ، وشفاعةِ المشفوعِ فيه.

١٠- اللهُ يعلمُ بالعبادِ، ويعلمُ ما بين أيديهم وما خلفهم.

١١- لا يحيطُ علمُ العبادِ بالله.

١٢- تعنو وجوهُ العبادِ وتخضعُ لله ربِّ العالمين.

١٣- المؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ يعطونَ نصيبهم من أعمالهم، مِنْ غير تزيُّد في سيئاتِهم، ولا نَقْصٍ من حسناتِهِمْ.

١٤- أنزل اللهُ القرآنَ بلسانٍ عربيٍّ مبين، وصرَّفَ فيه أنواعَ الوعيد، ليتقيَ العبادُ ربَّهم، ويذكروه.

١٥- نهى اللهُ رسولَهُ ﷺ عن المسارعةِ بقراءةِ القرآنِ عندما كان جبريل يتلوه عليه، وعلمه أن يصبر حتى يقرأه جبريل عليه، فيكون قد حفظه.

النص القرآني التاسع من سورة طه
طرفٌ من قصة أبينا آدمَ عليه السلام

أولاً: تقديم

حَدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن طرفٍ من قصةِ أبينا آدمَ عليه السلام، وقد سَبَقَ أنْ حَدَّثنا اللهُ عن قصةِ أبينا آدمَ في مواضعَ من كتابِهِ، ومِنْ ذلك ما حَدَّثنا عنه في سورةِ البقرةِ، وفي الأعرافِ، وفي الحجرِ والكهفِ، وسيأتي مثلُ ذلك في آخر سورةِ (ص).

وقد حَدَّثنا ربُّنا في هذه الآياتِ عن تكريمِهِ لآدمَ بإسجادِ الملائكةِ لَهُ، ورَفَضَ إبليسُ السجودَ له، وحَذَّر الله آدم مِنْ إضلالِ إبليسَ لَهُ، ومع ذلك فقدْ أطاعَ هو وزوجُه الشيطانَ، فأكَلا من الشجرةِ المحرمةِ، فانكشفتْ لهما سوءاتُهما، وعصيا ربَّهما، وأُهبطا إلى دار الشقاءِ، ووَعَدَ الله آدمَ وذريته، وإبليسَ وذريته بملاحقتهما بهَدْيِهِ، فمن استجابَ اهتدى، ومَنْ كَفَر ضلَّ وغَوَى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه:١١٥-١٢٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- عَهِدَ الله -تعالى- إلى آدمَ فنسيَ ولم يَجِدْ له عَزْماً:

أَخْبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه عَهِد إلى أبينا آدَمَ، فنسيَ ولم يجدْ له عَزْماً ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه:١١٥]. واللامُ في قولِهِ: ﴿ وَلَقَدْ ﴾ هي الموطئة

للقسمِ، أقْسَم ربّ العزةِ على أنَّه عَهِد إلى آدمَ، أي: أمَرَه ووصَّاه بأنْ لا يأكلَ مِنْ شجرةٍ بعينها، فنسيَ ما عهدَ اللهُ به إليه، وأكلَ منها.

وقوله: ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ العزمُ في اللغةِ: توطينُ النفسِ على الفعلِ والتصميمِ عليه، والمضيِّ على المعتقدِ في أيِّ شيءٍ كان، وقيل: العزمُ الصبرُ، أي: لم نجدْ له صَبْراً عن الأكلِ مِنَ الشجرةِ.

وقد كان آدمُ عليه السلام عازماً على عَدَمِ الأكلِ مِنَ الشجرة عندما وصَّاهُ اللهُ بذلك، فوسوسَ إليه، وأغراه بالأكلِ منها، فغَرَّرَ بِهِ.

٢- تكريمُ اللهِ تعالى بإسجادِ الملائكةِ لَهُ ورفضُ إبليسَ السجودَ له:

عندما أتمَّ اللهُ خلقَ آدمَ عليه السلام ، أمَرَ الملائكةَ أن يسجدوا له إذا نَفَخَ فيه مِنْ روحِهِ ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٦﴾ [طه:١١٦].

وقد أطاعَ الملائكةُ ربَّهم، فسجدوا إلا إبليسَ أبى، أي: رفَضَ أن يسجدَ لآدمَ، وكان إبليسُ مِن الجنِّ، ولكنه كان يعبدُ اللهَ مع ملائكةِ السماءِ. وفتح آدمُ عينيه، فوجدَ أعظمَ تكريم، وَجدَ الملائكةَ جميعاً ساجدين له، ووَجَدَ عدوّاً واحداً منتصباً رافضاً السجودَ ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه:١١٧].

فقال اللهُ تعالى لآدمَ مُحَذِّراً له مِنَ الشيطانِ: إنَّ الذي يرفضُ السجودَ عَدُوٌّ لك، وعدوٌّ لزوجك، فاحذرا أن تطيعاه، فتكونَ العاقبةُ أنْ يخرجكما مِنَ الجنَّة، فتشقى.

ويكون الشقاءُ بمفارقَةِ الجنةِ، والخروجِ منها، فإن المرءَ إذا خرجَ مِنَ الجنّة احتاجَ إلى عناءٍ كبير للحصولِ على شرابِهِ وطعامِهِ ولباسِهِ ومسكنه، أما الجنة، فليس فيها شيء مِنَ الشقاءِ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه:١١٨-١١٩].

إنَّ أهلَ الجنَّةِ في الجنَّةِ في هناءٍ دائمٍ وسرورٍ لا ينقضي، فالجنةُ لا جوعَ ولا عُرْيَ فيها، ولا يظمأُ أهلُها، ولا يَضْحَوْن فيها أبداً، فهمْ دائماً شبعى من غير معاناةٍ في طلب الطعام، وليس بهم حاجةٌ إلى طلبِ الكساءِ، وهم يشعرون دائماً بالريِّ، ولا تصيبهم الشمسُ بأشعتها، فلا يعانون من الحرِّ.

٣- إبليسُ يوقعُ آدمَ وزوجَه في معصيةِ اللهِ:

حَذَّر اللهُ تعالى آدمَ وزوجَه أنْ يغويَهُما الشيطانُ ويوقِعَها في حبائِله، فزَيَّن لهما الأكلَ مِنَ الشجرةِ، فأطاعاه، وعَصَيا ربَّ العزةِ، ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ

شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه:١٢٠]، جاء إبليسُ آدمَ من البابِ الذي يهواه ويحبُّه، فوسوسَ إليه أنَّه إنْ أَكَل هو وزوجُهُ مِنَ الشجرةِ التي نهاهُ عن الأكلِ منها، فإنهما يصبحان خالدينَ في الجنَّةِ، ويَحْصُلانِ على مُلْكٍ لا يزول ولا يَبْلى. فأوقعَ عندهُما القناعةَ بفعلِ ما يضيرهما ويجلبُ لهما الشقاءَ، ولو قالَ لهما: إذا أَكَلْتُما من الشجرةِ غضبَ اللهُ عليكُما، وطردكما من الجنَّةِ لما أطاعاه.

٤- عاقبةُ أكْلِهما مِنَ الشجرةِ المحرَّمةِ:

بعد أنْ أطاعَ آدمُ وزوجُه إبليسَ فأكَلا مِنَ الشَّجَرَةِ المحرَّمَةِ بَدَتْ لهما سوءاتُهُما، أي: بدتْ لهما عَوْرَاتُهُما، وسُمِّيَتْ العورةُ بالسوأة، لأنَّ ظهورَها يسوءُ صاحِبها، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه:١٢١-١٢٢]، لقد انكشفتْ لآدمَ وزوجِهِ عَوْراتُهما، فأخذا يَخْصِفانِ عليهما من ورق الجنة، ليسترا ما انكشف من عوراتهما.

ولكنَّ آدمَ لم يفعلْ كما فعلَ إبليسُ عندما عَصَى، فقد أصرَّ الشيطانُ على ذنبه، ورفضَ التوبةَ، فأغضبَ اللهَ عليه، وطردَه مِنْ رحمتِهِ وجنتِهِ، أما آدمُ فاعترفَ بذنبه، وندمَ على ما كان مِنْه، وبادرَ إلى التوبةِ، فتابَ اللهُ عليه وهَداهُ.

٥- إهباطُ آدمَ وإبليسَ إلى الأرْضِ:

مع أنَّ اللهَ تعالى تابَ على آدمَ وزوجِهِ إلاَّ أنَّهُ أهبطَهُما وإبليسَ إلى الأرضِ وأخرجهما مِن الجنة ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٧].

أمَرَ اللهُ آدمَ وإبليسَ أن يهبطا مِنَ الجنةِ إلى الأرضِ، أهبطهما اللهُ متلبسين بالعداوةِ، وأصبحت الأرضُ مقرّاً لهما ولذريتهما، ووعدهما بأن يلاحقهما وذريتهما بهداه المتمثل بإرسالِ الرسلِ والأنبياء، وإنزالِ كتبهِ وَوَحْيِهِ إلى رسلِهِ وأنبيائِه، فمن اتَّبَعَ ما أنزله اللهُ مِنَ الهدى، فإنَّه لا يضلُّ في الحياةِ الدنيا، ولا يشقى في يوم القيامة.

ومن أعْرَضَ عن ذِكْرِ الله المتمثلِ بالرسلِ والكتب، فإنَّ له معيشةً ضَنْكاً، أي: ضَيِّقةً شديدةً قاسيةً، ويَحْشُرُه اللهُ تعالى يومَ القيامةِ أعمى البصر، ويخاطبُ اللهُ هذا الذي يحشرُهُ ربُّه

أعمى يومَ القيامة عن السببِ في حَشْرِه يومَ القيامة أعمى، وقد كان في الحياةِ الدنيا بصيراً، فيقال له: لقد أَتَتْكَ آياتُنا في الحياةِ الدنيا، فرفضتَ الإيمان بها، والعملَ بها، وبذلك يكون قد عَمِيَ عن تلكَ الآياتِ، والجزاءُ في يومِ القيامةِ مِنْ جنسِ العملِ، فيحشرُهُ يومَ القيامة أعمى كما عمي عن آياتِهِ في الدنيا.

ولو نَظَرَ العبدُ المؤمنُ نظرَ متبصرٍ في الذين يعرضون عن الهدَى المنزل إليهم مِنْ عند الله، فإنه يجدُ حياتهم حياةً ضَنكاً، لا فرقَ بين حياتِهِمْ في داخِلِ نفوسهم، ولا حياتِهم في أُسَرِهم ومجتمعاتِهم، فالحياةُ الضَّنْكُ تلاحقُهُمْ، ضَنْكٌ في القلوبِ، وضَنْكٌ في الأرواحِ، وضنكٌ مع الزوجِ والأسرةِ والأولادِ، وضَنْكٌ في المجتمعاتِ، لا فرق في ذلك بين اليهودِ والنصارى والمجوس والبوذيين وغيرهم، ومع كثرةِ المالِ اليوم، فإن الهزاتِ الاقتصاديةَ، تعصف بالمجتمعاتِ، وتزلزل أركانها، وتجعلُ الناسَ يعيشون في بلاءٍ دائم. وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه:١٢٧].

والمعنى: أيْ: مِثْلُ ذلكَ الجزاءِ الذي جزيناه من سَبَقَ من الأُمم الخاليةِ نجزي مَنْ أسْرَفَ ولم يؤمن بآياتِ الله، والمسرفون هم المكثرونَ من الذنوبِ والمعاصي، وأعظمُهم إسرافاً في هذا المجالِ الكفرةُ المشركونُ، ولعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقى مِنْ عذابِ الدنيا.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - عَهِدَ اللهُ إلى أبينا آدمَ عندما أسكنه الجنةَ أنْ لا يأكل من شجرةٍ مِنْ أشجارِها فأكل، ولمْ نجد له صبراً عما نهي عنه.

٢- كَرَّم اللهُ تعالى أبانا عندما نفخَ فيه الروحَ، فأسجَدَ الملائكةَ جميعاً له ووجدَ آدمُ إبليسَ واقفاً رافضاً السجودَ له.

٣- وجودُ العدوِّ ضروري لحياةِ الإنسانِ، ولذا وجدَ آدمُ إبليسَ منتصباً لعداوتِهِ مِنْ اللحظة الأولى التي دَبَّتْ فيه الحياةُ.

٤- حذَّر اللهُ آدمَ مِنْ إضلالِ عدوِّه إبليس لَهُ ولزوجِهِ، وقال لهما بصريحِ العبارة: لا يخرجنكما مِنَ الجنَّةِ، فتشقى.

٥- الجنَّةُ دارُ النعيم، ليس فيها جوعٌ ولا عُرْيٌ ولا ظمأٌ، ولا يجدُ فيها حرارة تؤذيه.

٦- زيَّن الشيطانُ لآدمَ ولزوجِهِ الأكلَ مِنَ الشجرةِ زاعماً لهما أن الأكلَ منهما يؤهلهما للخلودِ في الجنَّةِ وإلى تحصيلِ مُلْكٍ لا يحولُ ولا يزولُ، وهذا هو السبيلُ الذي يضلُّ به الشيطانُ بني الإنسانِ.

٧- أكل آدمُ وزوجُه مِنَ الشجرةِ المحرمةِ، فانكشفتْ لهما عوراتهما، وعصيا ربَّهما، وأهبطهما اللهُ إلى أرضِ التعبِ والشقاءِ.

٨- أهبطَ اللهُ آدمَ وإبليسَ متعاديين، لتكونَ الأرضُ المجالَ الذي يتمُّ فيه الصراعُ في هذه الحياة.

٩- وَعَدَ الله آدمَ وذريته وإبليسَ وذريته أن يلاحقهما بهداه، فمَنْ استجابَ فقد اهتدى، ومن رفضَ وأبى فإنَّ له معيشةً ضنكاً ونحشرُهُ يومَ القيامة أعمى.

١٠- الجزاءُ في يوم القيامةِ مِنْ جنسِ العملِ، فمن عَمِي في هذه الدنيا عن آياتِ الله، فإنَّ الله يحشره أعمى في الآخرةِ.

١١- الحياةُ الضنك في الدنيا، والشقاء في الآخرة للذين كفروا، ولم يؤمنوا بآيات الله.

النص القرآني العاشر من سورة طه
نهيُ الله -تعالى- رسولَه أنْ يمدَّ عينيه إلى ما متَّعَ به أزواجاً منهم زهرةَ الحياة الدنيا

أولاً: تقديم

كانت المعركةُ الدعوية محتدمةً في مكةَ المكرمةَ والرسولُ ﷺ يدعو قومه إلى الإيمانِ، وقد تهدَّد اللهُ المشركين أن يفعلَ بهم ما فعله بالمكذبين من قبلهم، ولولا أنه قضى عَدَمَ أخذهم بالعذابِ قبل أن يقيم عليهم الحجةَ، وينزلَ عليهم الشريعة لكانَ أهلكهم، وبيَّنَ الله لرسولِهِ ﷺ المنهجَ الذي عليه أن يأخذ نفسَهُ بِهِ في الفترةِ المكيةِ، وهي تتمثل في أربعِ خطواتٍ كما سيأتي بيانها، وقد رَدَّ اللهُ تعالى على المشركين دعواهم بإنزالِ الآياتِ الدالة على صِدْقِ الرسولِ عليهم، فقد أنزل عليهم بينةَ ما في الصحفِ الأول، ولو أنَّ اللهَ أهلك الكفار بكفرهم من قبل أن يرسل إليهم رسلَهُ لكانوا احتجوا في يومِ القيامة بأنَّ الله لم يرسلْ إليهم رسلَه، ولم ينزلْ عليهم كتبَهُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة طه

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

[طه:١٢٨-١٣٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تهديدُ الله -تعالى- الكفارَ أنْ يهلكهم كما أهلكَ المشركين مِنْ قبلهم:

قال ربُّ العزةِ -تباركَ وتعالى- مُقَرِّعاً وموبخاً المشركين أنْ يفعل بهم فِعْلَه بالقرونِ السابقةِ من المشركين من قبلهم: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه:١٢٨] الاستفهامُ للتقريعِ والتوبيخِ، وقوله: ﴿يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: نُبيِّن لهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ وقد كان كفارُ قريش يَرْحَلُون رحلتين في كلّ عامٍ، هما رحلة الشتاءِ ورحلة الصيفِ، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن، وكانوا يمرُّون في ذهابهم وإيابهم إليها على ديار قومِ عادٍ الذين بعث الله إليهم نبيه هوداً فدمَّرَهُمْ وأهلكهم لما كذبوا وكفروا.

وكانت الرحلةُ الثانيةُ إلى الشامِ وكانوا يمرون فيها على ديارِ ثمود، الذين أرسل إليهم نبيهم صالحاً وديارهم المنحوتةُ مِنَ الصخرِ لا تزال قائمة إلى اليوم في شمال الجزيرةِ العربيةِ، وكانوا في مرورِهم على تخومِ أرضِ فلسطين يَمُرُّون بديارِ المعذبين مِنْ ديار قوم لوط، وهي مقلوبةٌ تحت البحرِ الميتِ، وقد قال الله تعالى لقريش في مرورِهِمْ على قوم لوط ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: في رؤيتكم لديارِ المعذبين التي انقطعَ أهلُها وسكانُها آياتٌ لأصحابِ العقولِ الذين ينظرون ويتدبرون ويعتبرون. وأعْلمنا ربنا -عزَّ وجلَّ- أنه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه:١٢٩]، والكلمةُ التي سبقتْ مِنَ الله تعالى هي عدمُ تعذيب الله لهم ما كان الرسولُ ﷺ فيهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال:٣٣]، أو هي قضاءُ الله تعالى بأنْ لا يأخذَ اللهُ هذه الأمةَ بعذابٍ ساحقٍ ماحق، ولولا ذلك لأخذهم عذابٌ لازم لا يبقي ولا يذرُ منهم أحداً، وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾﴾ أي: عندما يأتيهم الموت، أو هو عذابهم في يومِ القيامة.

٢- **الموقفُ الذي على رسولنا ﷺ أن يَقِفَهُ مِنْ مشركي قومِهِ:**

أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يتمثَّل موقفُه مِنْ قومه عندما كان في مكةَ بالآتي:

الأول: أن يصبرَ على ما يقولُهُ قومُهُ لَهُ، ويؤذونه به ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه:١٣٠]، فلم يؤذن له في تلكِ المدةِ بحربهم وقتالهم، ثم نسخَ هذا في المدينةِ، وأمرَ بقتالهم.

الثاني: أمر اللهُ رسولَهُ ﷺ بالاشتغالِ بعبادةِ الله، وأعظمها الصلاةُ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه:١٣٠]، والمرادُ بالتسبيحِ في هذه الأوقاتِ الصلواتُ الخمسُ، وعنى بقوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ صلاةَ

الصبحِ، وبقوله: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاةَ العصرِ، وبقولِهِ: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ صلاةَ العشاءِ، وآناءُ الليل ساعاته، وقوله: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ صلاةُ الظهرِ وصلاةُ المغرب، فالظهرُ طرف من أطراف النهارِ، وغروبُ الشمس طرف آخرُ، وعند الطرف الأولِ تكون صلاةُ الظهر، وعند الطرفِ الثاني تكون صلاةُ المغربِ.

وقد دلَّ على صحة هذا التفسير حديث جرير، قال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذا القَمرَ، لا تُضَامُّونَ في رُؤْيتِهِ، فإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُرُوبِها فَافْعَلُوا» ثم قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق:٣٩] [البخاري: ٥٥٤. ومسلم: ٦٣٣].

وقد دلَّ استشهادُ رسولِنا ﷺ بآية سورةِ (ق) على أن التسبيحَ بحمدِ ربنا قبل طلوع الشمسِ وقبلَ غروبِها المرادُ بهما صلاةُ الصبحِ وصلاةُ العصرِ، وقد دَلَّ على فَضْلِ صلاتي الفجرِ والعصرِ الحديثُ الذي يرويه أبو بكر بن عمارة بن رُؤْبة عن أبيه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لَنْ يَلِجَ النارَ أَحَدٌ صَلَّى قبلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُروبِها» يعني الفَجْرَ والعَصْرَ.

فقالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ: أَنْتَ سَمِعْتَ هذا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ؟ قال: نَعَمْ. قال الرجُلُ: وأنا أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، سَمِعَتْهُ أُذُنايَ وَوَعاهُ قلبي [مسلم: ٦٣٤].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ يَدُلُّ على أنَّ إقامةَ الصلاةِ كما أمَرَ اللهُ يَسْكبُ الرضا في القلبِ، فوقوفُ العبدِ بين يدي الله في الصلاةِ، يقرأ القرآن، ويذكرُ اللهَ، ويناجي ربَّه، ويفكُّ عقدَةَ قلبِهِ، ويشرحُ صَدْرَه، ويزيلُ همومَهُ وآثامَهُ، وفوقَ ذلك الرضا لَوْن آخرُ مِنَ الرضا يكونُ في يومِ الدين، في جناتِ النعيم، عندما يحلُّ اللهُ على عبادِه رضوانَه، ففي الحديثِ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى يقولُ لأهْلِ الجَنَّةِ: يا أهلَ الجَنَّةِ؟ فيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعَدَيْكَ، فيَقُولُ: هل رَضِيتُمْ؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضى وقد أعْطَيْتَنا ما لم تُعْطِ أحداً مِنْ خَلْقِكَ، فيَقُولُ: أنا أعْطيكُمْ أفضلَ من ذلكَ، قالوا: يا ربِّ، وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلكَ؟ فيقولُ: أحِلُّ عليكُمْ رِضْواني، فلا أسْخَطُ عليكُمْ بَعْدَهُ أبداً» [البخاري: ٦٥٤٩. ومسلم: ٢٨٢٩].

الثالث: أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن لا يمدَّ عينيه متطلعاً إلى ما مَتَّعَ الله به أزواجاً مِنَ الكفارِ زهرةَ الحياةِ الدنيا ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

والمرادُ بمدِّ العين التطلعُ إلى ما حازَه أزواجٌ مِنَ أهلِ الدنيا، أي: أصنافٌ منهم، وهم الأغنياءُ من زهرةِ الدنيا، «وزهرةُ الدنيا بهجتُها ونضارتُها وحُسْنُها، وأصلُها من زهرةِ الشجرة، وهي الأنوارُ التي تروقُ عند الرؤية» وقال أبي بن كعب في هذه الآية: «فمَنْ لَمْ يَتعَزَّ بعزَّةِ الله، تقطعت نفسُهُ حسراتٍ على الدنيا، ومن يُتبع بَصَرَه ما في أيدي الناسِ يَطُلْ حُزْنُهُ، ولا يشفى غَيْظُه، ومَنْ لَمْ يَرَ لله عليه نعمةً لا في مَطْعَمِهِ ومشربِهِ نقصَ علمه، وحَضَر عذابُه» [تفسير الواحدي: ١٤/ ٥٦١].

وقد فسَّر رسولُنا ﷺ زهرةَ الحياةِ الدنيا، ببركاتِ الأرض، ففي الحديث عن أبي سعيدٍ الخدريّ أن رسولَ الله ﷺ قال: «أخْوَفُ ما أخافُ عَلَيْكُمْ ما يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنيا». قالوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيا؟ يا رسولَ الله! قال: «بَرَكاتُ الأرضِ» [أخرجه البخاري: ٦٤٢٧، ومسلم: ١٠٥٢ واللفظ لمسلم].

وفي الصحيحين عن عمرَ بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المَشْرُبَةِ التي كان قد اعتزل فيها نساءَه، حين آلى منهنَّ، فرآه متوسداً حصيراً ثم رفع بصره في بيْتِهِ، قال: فوَالله مَا رأيْتُ فِيهِ شيئاً يَرُدُّ البَصَرَ، غيرَ أهَبَةٍ ثلاثةٍ. فقلتُ: ادْعُ اللهَ فلْيُوَسِّعْ على أمَّتك، فإنَّ فارس والرومَ وُسِّعَ عليهم، وأُعْطُوا الدُّنيا، وهُمْ لا يَعْبُدونَ الله وكانَ مُتَّكِئاً.

فقال: «أوَفي شَكٍّ أنْتَ يا ابنَ الخَطَّابِ؟ أولئك قومٌ عُجِّلتْ لَهُمْ طَيِّباتُهُمْ في الحياةِ الدُّنيا».

فقلتُ: يا رسولَ الله اسْتَغْفِرْ لي [البخاري: ٢٤٦٨. ومسلم: ١٤٧٩].

وقد ذهب جمع من المفسرين إلى أن هذه الآية نزلتْ عندما نَزَلَ برسول الله ﷺ ضَيفٌ فلم يكن عنده شيءٌ، فبعث إلى يهوديّ ليسلفَه شعيراً، فأبَى اليهودي إلاَّ برهن، فبلغ الرسولُ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «والله إنِّي لأمينٌ في السماءِ أمينٌ في الأرض»، فرهَنَهُ درعَه، فنزلت الآية في ذلك وقد أبى ابنُ عطية أن تكون هذه القصة سبباً للنزول، وقال: «وهذا مُعترضٌ أن يكون سبباً؛ لأن السورة مكية، والقصةُ المذكورة مدنية في آخر عُمْر النبي ﷺ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة بهذه القصة التي ذكرت، وإنما الظاهرُ أن الآيةَ متناسقة مع ما قبلها، وذلك أن الله تعالى وبَّخهم على ترك الاعتبار بالأمم السابقة، ثم توعَّدهم بالعذاب المؤجلِ، ثم أمر نبيه ﷺ بالاحتقار لشأْنهم والصبر على أقوالهم والإعراضِ عن أموالهم، وما في أيديهم من الدنيا؛ إذ ذلك منصرم عنهم، صائر بهم إلى خِزيٍ» [تفسير ابن عطية: ٦/ ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ١٣١﴾ أي: لنختبرهم فيما آتيناهم مِنْ زهرةِ الدنيا، أيشكرون نعمةَ الله عز وجل، أم يكفرون ما آتاهم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، ولو عَقَلُوا لعلموا أنَّ رزقَ ربِّنا خيرٌ وأبقى مما بسط لهم مِنَ الدنيا.

الرابع: أمْرُه تعالى أنْ يأْمُرَ أهلَهُ بالصلاةِ ويصطبرَ عليها ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:١٣٢].

وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وقد ظنَّ بعضُ الذين أخطؤوا الفهمَ أن الآيةَ تدعوهم إلى القعودِ عنِ العملِ، وتركِ السعي في طلبِ الرزقِ، وحسبنا في الردِّ عليهم أنّ الذين نزلتْ عليهم الآياتُ لم يقعدوا في منازلهم، تاركينَ السعيَ في طلبِ الرزقِ، بل كانوا يعملون، ويُرْزَقُون.

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ المرادُ أنَّ حسنَ العاقبةِ لأهلِ التقوى.

٣- طلب الكفار للآيات المعجزات والردُّ عليهم:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ كفارَ قريشٍ ﴿قَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ [طه:١٣٣]، أي: طلبوا أنْ يُنْزِلَ اللهُ على رسولِهِ آيةً عظيمةً تدلُّ على صِدْقِهِ في دعواه أنّه رسولُ الله، وقد ردَّ الله تعالى عليهم قائلاً: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْـَٔايَـٰتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [العنكبوت:٥٠-٥١].

قد أنزلَ اللهُ تعالى القرآنَ الكريم آيةً عظيمةً، يتحدث فيها عما حوتْهُ الصحفُ الأولى، من التوراةِ والإنجيل وصحف إبراهيم والزبور، فرسولُنا ﷺ رسولٌ أميٌّ لم يكن يخطّ بالقلم، ولا يقرأ في كتابٍ، وقد حدَّثنا عما حوتْهُ الكتبُ السماويةُ السابقةُ، وصوبتْ ما أخطأت فيه، وتلكَ بينةٌ عظيمةٌ، تدلُّ على أنَّ هذا القرآنَ ينزلُ مِنْ عندِ الله، وقد قالَ الرسولُ ﷺ: «ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا قد أُعطي من الآيات ما مثلُهُ آمن عليه البشر، وإنما كانَ الذي أُوتيتُ وَحْياً أَوْحَى اللهُ إليَّ، فأرْجو أن أكونَ أكثرهم تابعاً يومَ القيامةِ» [البخاري: ٤٩٨١، ومسلم: ١٥٢ واللفظ له].

وقد أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّه لَوْ أهْلكَ هؤلاءِ الكفارَ مِنْ غيرِ أنْ يرسلَ إليهم رسولاً، ومن غير أنْ ينزلَ عليهم كتاباً، لقالوا يومَ القيامةِ: لولا أرسلتَ إلينا رسولاً في الحياةِ

الدنيا وأنزلت علينا كتاباً لكنَّا آمنا وأسلمنا ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه:١٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [طه:١٣٥].

أي: قلْ يا محمدُ لهؤلاءِ المكذبين: كلٌّ متربصٌ، أي: مُنْتَظِرٌ، فتَرَبَّصوا، أي: انتظروا، فستعلمون من أصحابُ الصراطِ السويِّ، أي: أصحابُ الصراطِ المستقيم، وستعلمون مَنْ اهتدى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

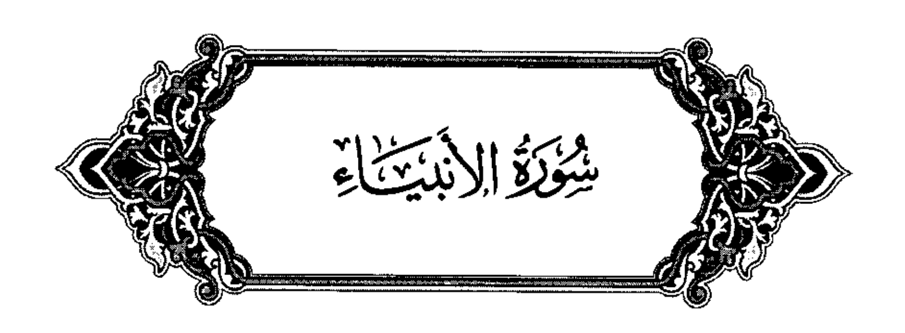
إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- دعا اللهُ تعالى الكفرةَ المشركين مِنْ قريشٍ أن يتعظوا بالمكذبين من قبلهم خشيةَ أن يُفْعل بهم مثلَ ما فُعِل بأولئك المكذبين.

٢- لولا أنَّ اللهَ قضى أن لا ينزلَ العذابَ بالمكذبينِ قبل أنْ يبلغهم شَرْعه لأخذهم العذابُ ومَحَقَهمْ.

٣- بَيَّنَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ الموقفَ الذي عليه أن يقفه عندما كان بمكة وعندما كانت تَتَنَزَّلُ عليه هذه الآياتُ، فكان عليه أن يصبرَ على قومِهِ، ويتركَ قتالهم، ويشتغل بإقامةِ الصلواتِ الخمسِ في أوقاتها، وأمره أن لا يمدَّ عينيه إلى ما مَتَّع الله أصنافاً مِنَ الأغنياء المشركين مِنْ زهرة الدنيا، وأمَرَه أخيراً أن يأْمُرَ أهلَه بالصلاة ويصطبر عليها.

٤- لو أنَّ اللهَ أهلكَ كفارَ قريش قبل أن يرسل إليهم رسولاً، وينزل عليهم كتاباً، لقالوا في يومِ القيامةِ، كيف أنزلْتَ علينا العذاب قبلَ أن تقيمَ علينا الحجة بإرسالِ الرسلِ وإنزالِ الكتب.



تقديم

قال أبو عمرو الدانيُّ: «كلمها ألفٌ ومائةٌ وثمانٌ وستونَ كلمةً، وحروفُها أربعةُ آلافٍ وثماني مائةٍ وتسعونَ حرفاً، وهي مائةٌ واثنتا عشرةَ آيةً في الكوفيِّ، وإحدى عشرةَ في عددِ الباقين» [البيان في عدد آي القرآن: ص١٨٧].

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «سورة الأنبياءِ، وسورة الذكر، وسورةُ الأنبياءِ الذين نزلَ عليهم الذِّكْر، افتتحها الله بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء:٢]، وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء:٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء:١٠]، وقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ [الأنبياء:٢٤]، وقوله: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء:٤٨]، وقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء:٥٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:١٠٥]» [التفسير الكبير:٥/ ٢١٧، مجموع الفتاوى ١٥/ ٢٦٥].

وهذه السورةُ مِنْ أولِ ما نزل في القرآن في مكَّة، ففي صحيح البخاري عن عبدالرحمنِ ابن يزيد، قال: سمعتُ ابنَ مسعودٍ يقول في بني إسرائيلَ والكهفِ ومريمَ وطه والأنبياءِ: «إنهنَّ مِن العِتَاقِ الأُوَلِ، وهُنَّ مِنْ تِلادِي» [البخاري: ٤٩٩٤]. يريد: من قديم ما كَسَبْتُ، وحَفِظْتُ مِنْ القرآنِ، وقوله: «مِنْ تِلادِيْ» التلادُ: المالُ الأصلي القديم.

النص القرآني الأول من سورة الأنبياء

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١)﴾

أولاً: تقديم

بَيَّن اللهُ -تعالى- لنا في آياتِ هذا النصِّ التي هي مطلعُ سورةِ الأنبياءِ أنَّ الحساب قد اقتربَ للناسِ، وهم غافلون عنه، وبيَّن لنا موقفَهمْ مِنَ القرآنِ الذي أُنزل إليهم مِنْ ربهم، وبيَّن تناقضهم في حكمهم على القرآن، فقالوا فيه إنَّه سِحْرٌ أو أضغاثُ أحلامٍ، أو كذبٌ وافتراءٌ أو شعرٌ، وطلبوا أن يأتيهم بالآياتِ المعجزاتِ الدالةِ على صدقِهِ، فأبانَ اللهُ لهم أنَّ إنزالَهُ الآياتِ لم يُؤَدِّ إلى إيمانِ الأممِ السابقةِ.

وبيَّن اللهُ -تعالى- الصفات التي اتصفَ بها الرسل الذين أرسلهم اللهُ تعالى. وأنَّه أنزلَ إلينا كتاباً فيه ذكرٌ، وأخبرنا عن صورةٍ من الصورِ لقوم أخذهم اللهُ بالعذاب.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾ [الأنبياء:١-١٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ :

أَخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه قد ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء:١] أي: اقتربَ للناس الوقتُ الذي فيه يحاسبون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر:١]، والاقترابُ: قِصَرُ المدَّةِ التي بينهم وبين الحسابِ، و﴿حِسَابُهُمْ﴾ محاسبةُ الله الناس على أعمالهم، وكل ما هو آتٍ قريبٌ، وما بقي مِنَ الزمان لوقوع الساعةِ قليلٌ بالنسبة لما مضى مِنَ الزمان.

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: للناس جميعاً، وإن كان المرادُ تهديدَ الكفارِ منهم، وقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ أي: في سَهْوَةٍ معرضون عن الحقِّ كافرون به. ولأنَّ أكثر النَّاسِ يعيشون في غفلةٍ، فإنَّه ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء:٢] أي: ما يأتيهم مِنْ ذكرٍ مِنْ ربهم مُحْدَثٍ، أي محدث نزوله يذكرهم اللهُ به، ويعظُهُم به إلا استمعوه وهم يلعبون، لا يعتبرون، ولا يتفكرون فيما جاءَهم مِنْ كتابه، وقوله: ﴿ٱسْتَمَعُوهُ﴾ أي: على سبيل التعنت والإنكار، لا التثبت والاعتبار.

٢- **دعوى الكفار أنَّ محمداً لا يصحُّ أنْ يكون رسولاً لأنَّه بشرٌ:**

أخبرنا رَبّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ قلوبَ الكفارِ الذين يسمعون القرآنَ وهم يلعبونَ لاهيةٌ، أي: غافلةٌ عن الحقِّ.

وأخبرنا -سبحانه- أنهم ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ [الأنبياء:٣]، وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى﴾ أي: قالوا سرّاً في منتدياتهم ومجامعهم ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وهذه شُبْهةٌ وقعتْ لجميعِ الأممِ الذين أرسل إليهم الرسلُ كُلُّ أمة تنكر على رسولها أن يكون بشراً مثلهم، وقد أتبعَ كفارَ قريشٍ قولَهم هذا بقولهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ أي: يقول بعضُهُمْ لبعضٍ أتحضرون السِّحر وتتبعونه، وأنتم تعلمون أنَّه سِحْرٌ، كأنَّهم قالوا: أتضلّون وأنتم تعلمون.

وعقَّبَ ربُّ العزةِ على قولِ الذين ظلموا السابقِ بقولِهِ سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤﴾ [الأنبياء:٤]، والذي قال هذا القول: هو رسولُنا ﷺ، قال: إنَّه يسمع كلَّ قولٍ يقالُ في السماءِ أوْ الأرضِ، سواءٌ أكان صادراً من مَلَكٍ أو إنسيٍّ أو

جِنيٍّ أو حيوانٍ أو طائرٍ، وهذا يعني أنَّه سامعٌ لما قاله المتناجون سرّاً عالمٌ به، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾ .

٣- دعوى الكفرةِ أنَّ ما جاءَ به الرسولُ ﷺ أضغاثُ أحلامٍ بل هو كذبٌ وشعرٌ:

أعلمنا اللهُ -سبحانه- فيما سبق أنَّ مشركي قريش رَمَوْا رسولنا بالسِّحر، وأخبرنا في هذه الآيةِ أنهم رموه بأقوال أُخرى، فقال: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء:٥].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ مشركي قريش أضربوا عن القولِ بأنه ساحرٌ، وقالوا: إنَّ ما جاء به محمدٌ ﷺ أضغاثُ أحلامٍ، أي: ما جاء به تخاليطُ أحلامٍ اختلطت عنده الصورُ والتصوراتُ، وأصْلُ الضِغْثِ: القبضةُ المختلطةُ مِنَ العشبِ والحشيشِ، فشُبِّهتْ تخاليطُ الحلمِ بذلك.

ثم انتقلوا عن هذا القولِ إلى الزعم بأنَّه قد افترى ما جاء به، أي: اخْتَلَقَهُ، ثم انتقلوا إلى قول رابعٍ، وهو دعواهم أنَّ ما جاء به شِعْرٌ، ولذلك طالبوه كي يُصَدِّقُوهُ أن يأتي بآيةٍ، أي: معجزةٍ، كما جاء بذلك الرسل السابقون، فقد جاء رسولُ الله صالحٌ بالناقةِ، وجاءَ رسول الله موسى بالثعبانِ المبين.

وقد ردَّ اللهُ تعالى على قولهم هذا بقوله: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنبياء:٦] أي: لم تؤمن القرى السابقةُ التي جاءَتْ رسلها بالبيناتِ، ووقع بها بأسُ الله وعذابُهُ، وقوله: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ أي: أيكون قومك نشازاً من الأمم، فيؤمنون إذا أنزل اللهُ عليهم آية، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

٤- طبيعة الرسل السابقين الذين أرسلهم ربُّ العالمين:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن طبيعةِ الرسلِ الذين أرسلهم ربُّ العالمين في الأممِ الخاليةِ، ليبين لنا أنَّ رسولنا ﷺ لا يختلفُ عن الرسلِ السابقين فيما اتَّصفُوا به، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنبياء:٧-٩].

بيّنَ اللهُ -تعالى- أنَّ الرسلَ الذين بعثهم اللهُ يتصفونَ بالصفاتِ التالية:

١- أنهم كانوا رجالاً من البشر اختصَّهم اللهُ بالوحي إليهم، فلم يكونوا ملائكةً، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف:١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:٤٣] أي: اسألوا علماءَ اليهودِ وعلماءَ النصارى، فإنهم يعلمون أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ وموسى وعيسى وغيرَهم مِنَ الرسل والأنبياءِ كانوا رجالاً مِنَ البشرِ.

وكونهم كانوا رجالاً، يدلّ على أنَّ اللهَ لم يرسل رسولاً من النساء.

٢- أنَّهم كانوا يأكلون ويشربون ويتغوطون ويتبولون، قال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ أي: لم يجعلهم اللهُ أجساداً لا يأكلونَ الطعام، قال الفراءُ: لم يقلْ أجساداً، لأنَّه اسمُ جنسٍ، وقال مجاهد: وما جعلناهم جسداً ليس فيها روح. وقال قتادة: وما جعلناهم جسداً إلا ليأكلوا الطعام [زاد المسير: ٥/ ٣٤١].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ ﴾ [الفرقان:٢٠]، وحكى ربنا قول المشركين ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان:٧].

٣- أنهم يموتون، ولا يخلدون، ولذلك قال ربُّ العزة: ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ ﴾ [الأنبياء:٣٤].

٤- أنَّ اللهَ يَصْدُقُ رسلَهُ وعدَه، فإذا كذبت الأممُ رسلَهم أهلكهم الله تعالى ﴿ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾. وعندما يُنْزِلُ اللهُ العذابَ بالمكذبين بالرسلِ يُنْجِي اللهُ الرسلَ، وينجي المؤمنين بهم، ويهلكُ الكفرةَ المسرفين في العصيان، وقد صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ رسولَهُ محمداً، ففتح اللهُ عليه في بدر، وفي مكة، وخيبر، وفتحَ الجزيرةَ العربيةَ، وفتحت أمته بلاد كسرى وقيصر والحبشةَ ومصرَ وغيرها.

٥- أنزلَ اللهُ تعالى لنا كتاباً فيه عِزُّنا وشرفُنا.

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أنزلَ إلينا كتاباً، وهو القرآنُ فيه ذكرُنا فقال: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء:١٠]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف:٤٤].

قال ابنُ عباسٍ في قوله: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ فيه شَرَفُكُمْ، وقال مجاهد: حَديثكم. وقال الحسن: فيه دينُكم [تفسير ابن كثير: ٤/٣٥٨] يعني: ما تحتاجون إليه مِنْ أمْرِ دينكم.

ومَنْ نظر في هذا القرآنِ نَظَر معتبرٍ، وجد أنَّ هذا القرآن هو الذي أخرجَ هذه الأمة مِنَ الظلماتِ إلى النورِ، وهو الذي جعلنا الله به خيرَ أمة أُخرجت للناس، وهو الذي أوجد عقيدتَها، وبنى أخلاقَها، وصنع مجتمعاتِها، وكوَّنَ الشريعةَ الخيرةَ التي تحاكمت إليها الأمة، ولولا هذا القرآن لما كان لها ذكر تشرف به، وعزٌّ تعتز به.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ أي: أفلا تعقلون هذه النعمة، وتتلقونها بالقبول.

٦- مشهدٌ مِنْ مشاهدِ المعذَّبينَ في هذه الدنيا:

أخبرنا ربُّنا بمشهد مِنْ مشاهد المعذبين في الحياةِ الدنيا لنعتبرَ بِهِ، ونتعظَ، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: أهلكنا قبلكم كثيراً مِنَ القرآن وكانت تلك القرى ظالمة.

والقصْم: الكَسْرُ والدقُّ، والمرادُ بالقرية أهلُها، وهي قرى ظالمة مشركةٌ.

وأنشأ اللهُ بعد تلك القريةِ المعذَّبةِ، قريةً أخرى، فقد أهلك اللهُ قومَ نوحٍ وأنشأ بعدهم قومَ هودٍ، وأهلك قومَ هودٍ، وأنشأ بعدهم قومَ صالحٍ، وهكذا. وأعلمنا ربنا عزَّ وجلَّ أنَّ القومَ الذين نزل بهم العذابُ عندما أحلَّ اللهُ بهم بأْسَه إذا هم يَفِرُّون مِنْ ديارِهم، ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾ [الأنبياء:١٢].

وعادةُ الناس أنَّه إذا جاءَهم مَنْ يُغيرُ عليهم، ويريدُ الإضرارَ بهم، يسارعون إلى الدخولِ إلى ديارهم، والاحتماءِ بها، والقتالِ مِنْ ورائِها، ولكنَّ هؤلاءِ لا تغني عنهم مساكنُهم شيئاً مِنْ عذابِ الله، لأنهم لو انحازوا إليها لسقطتْ فوقَ رؤوسِهِمْ، ولذا فإنَّهم يهربون منها راكضين على أرجلهم، أو على خيولهم ودوابِّهم، ولكنَّ الفرار لا يغني عنهم شيئاً.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الملائكةَ تنادي الذين نزل بهم العذاب، وتقول لهم: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣﴾ [الأنبياء:١٣]، تقول لهم مستهزئين

بهم، ساخرين من حالهم: لا تَهْرُبُوا وارجعوا إلى الديار التي كنتم تسكنونها، وهي بيوت مترفةٌ، فيها من السعةِ والأثاثِ الشيءُ الكثيرُ، ارجعو إليها لعلكم تسألون عما كنتم فيه مِنَ النعمةِ.

فيقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤﴾ [الأنبياء:١٤]، ومعنى ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ يا هَلاَكَنا، إنَّا كنَّا ظالمين، وأخبرنا ربُّنا أنهم استمرُّوا يرددون هذه المقالة حتى جعلهم اللهُ كالزرع الذي حُصِدَ، وكالنارِ التي انطفأ أوارها، وخمدتْ ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾ [الأنبياء:١٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- اقتربَ زمانُ وقوعِ الساعةِ، والناسُ غافلون عما يراد بهم معرضون عنه.

٢- ذمَّ اللهُ تعالى العبادَ الذين أَنْزَلَ إليهم أحدثَ كتبِهِ وآخرَها، فاستقبلوه لاعبين، غافلة قلوبهم عن الحقِّ.

٣- حدَّثنا اللهُ -تعالى- عن الشبهةِ التي كانوا يتناجون فيها فيما بينهم، وهي دعواهم أنَّ محمداً لا يستحقُّ أن يكون رسولاً، لأنَّه بشرٌ مثلنا، ونهى بعضُهم بعضاً عن متابعتِهِ، لأنَّه ساحر، وقبيحٌ بهم اتباعُ السِّحر.

٤- اللهُ -تعالى- عالمٌ مطَّلِعٌ على أقْوالِ المتناجين بما تناجَوْا به، فاللهُ يعلم القول في السماءِ والأرضِ، فعلمُهُ بهم محيطٌ، وسمعُهُ لا يخفى عليه شيء، مِنْ أقوالهم.

٥- اضطرابُ قولِ المشركين في رسولِنا ﷺ، فقالوا: ساحرٌ، وقالوا: إن ما جاء به هو أخلاط أحلام، وقالوا: هو حديث افتراه واختلقه، وقالوا: هو شعر.

٦- طلبُ كُفَّارِ قريشٍ أن يأتيهم الرسولُ بآية مُعْجِزَةٍ تدلُّ على صِدْقِهِ، مثل ما جاء المرسلون بالآيات، فأخبر اللهُ أن الآياتِ لم تُؤَدِّ بالسابقين إلى الإيمانِ، وسنَّةُ الله إهلاك الأممِ التي لم تؤمن بالآيات المنزلة إليها.

٧- بَيَّنَ اللهُ تعالى الصفاتِ التي يتصفُ جميعُ الرسلِ بها، وهي متحققةٌ في رسولنا ﷺ، فالرسلُ جميعاً رجال من الإنس، أوحى اللهُ إليهم، وهم جميعاً يأكلون الطعام، وكلهم ماتوا، ولم يخلدوا في هذه الحياة، وكلهم صدقهم اللهُ وَعْدَهُ، فنصرهم على عدوِّهِم، وأنجاهم والمؤمنين معهم.

٨- هذا القرآنُ الكريمُ الذي أنزله اللهُ ربُّ العالمين على رسولنا الكريم، فيه شَرَفُنا وعِزُّنا ومجدُنا، وهذه الأُمّة مِنْ غيره لا تساوي شيئاً.

٩- صَوَّرَ لنا القرآنُ الكريم بألفاظِهِ الكريمة صورة قَوْمٍ مِنَ الذين نزل بهم العذابُ، ففروا مِنْ ديارهم هاربين، وظلُّوا مرددين: يا ويلنا إنا كنَّا ظالمينَ، واستمروا في ترديدها حتى أصبحوا حصيداً خامدين.

النص القرآني الثاني من سورة الأنبياء
الله -تعالى- هو الإله الواحد المعبود

أولاً: تقديم

تدورُ آيات هذا النص على وحدانيةِ الله، وأنّه الإلهُ الواحد المعبودُ، فالله له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ، والملائكةُ عبيدُه، ووجود آلهة مع الله يُفْسِدُ السمواتِ والأرض، وكلُّ الرسل يدعون إلى عبادة الله وَحْدَه، والملائكة عباد مكرمون، خاضعون لله تعالى، ومَنْ يقلْ منهم: إنَّه إلهٌ مِنْ دونِ الله، فإنَّ الله يعذِّبُهُ في النارِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء:١٦-٢٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الغايةُ من خلق السموات والأرض:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ما خلق السمواتِ والأرضَ وما بينهما لهواً ولعباً، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنبياء:١٦]، لم يخلقهما ربُّنا عبثاً وباطلاً، ولعباً ولهواً، وإنما خلقهما ليكونَ الكونُ كلُّه معبداً لله تعالى، وليعبدَ الإنسُ والجنُّ والملائكةُ ربَّهم فيه، ودليلُ ذلك أنَّ اللهَ تعالى سيحاسب العباد في يوم المعادِ على ما قدَّموه، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص:٢٧].

٢- اللهُ -تعالى- أجَلُّ وأعلَى من أن يتخذ لهواً:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه لو أراد أن يتخذ لهواً، لاتخذه مِنْ عنده ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء:١٧] وأصلُ اللَّهْوِ: الجماع، ويطلق على الزوجة أو الولد، واللهُ تعالى أعلى وأجلُّ وأكرم من أنْ يتخذ لهواً، ولذلك قال: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: ما كنا فاعلين.

وفي هذه الآية رَدٌّ على كلِّ مَنْ ادَّعى أنَّ اللهَ اتخذ صاحبةً أو اتخذ ولداً، فيدخل فيهم اليهودُ الذين قالوا العزيزُ ابنُ الله، والنصارى الذين قالوا: المسيحُ ابنُ الله، وخزاعةُ من العربِ الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، تعالى اللهُ عَمَّا يقولون عُلُوّاً كبيراً.

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- يقذف بالحق على الباطل فيدمَغُهُ فإذا هو زاهقٌ:

قال تعالى مبيناً قدرتَهُ على إبطالِ الباطلِ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء:١٨]، والحقُّ الذي يقذفُ به على الباطلِ ما أنزله تعالى في كُتُبِهِ، وأوحى به إلى رسله، وفيه الحججُ النيراتُ والبراهينُ البيناتُ، التي تقيم الأدلةَ الدالةَ على الحقّ، وتظهر عوار ما جاء به أهلُ الباطل، وهذه الحجج والبراهين هي قذائفُ تصيب الباطل في أُمِّ رأْسِهِ، وتصل إلى الدماغ، فتذهب الباطلَ، وتزيله، وقوله: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: ولكم العذابُ مما تصفونَ به اللهَ من الباطلِ، كدعواهم أنَّ اللهَ اتخذ ولداً، وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب زائلٌ مضمحِلٌّ.

٤- اللهُ تعالى له مَنْ في السمواتِ والأرضِ وما بينهما خلقاً ومُلْكاً وتدبيراً:

اللهُ تعالى له وحدَه ملكُ السمواتِ والأرضِ وملكُ ما بينهما، فهو مالكهما وخالقهما ومدبرهما لا يَشْركه في ذلك أحد ﴿وَلَهُۥ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠].

وإذا كانت السمواتُ والأرضُ خلقَهُ وملكهُ، فكلُّ ما فيهما مخلوقٌ مربوبٌ، ومن ذلك الأصنامُ والأوثانُ والأشجارُ والأحجارُ والشمسُ والقمرُ، وكل ما عبده البشر، وأراد بالذين عنده الملائكة، فإنهم لا يستكبرون عن عبادته، ولا يستحسرون، فالملائكةُ الكرامُ لا يستكبرون عن عبادةِ الله، ولا يأنفون ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: لا يَعْيَوْنَ، ولا يتعبون.

وقوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: لا يضعفون، ولا يشغلهم عن التسبيح شيء، فالتسبيح لهم بمثابة النفس لنا.

٥- بطلان الآلهةِ التي يعبدها الكفار من دون الله:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ اتخذوا مِنْ دونِ الله آلهةً، وقد أنْكَرَ اللهُ -تعالى- عليهم ذلكَ، وبيَّن أنَّ هذه الآلهةَ باطلةٌ، لا تقدرُ على إحياءِ الموتى ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنبياء:٢١]، وقوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ﴾ أم هنا بمعنى بل، وهمزة الاستفهام، كأن في القولِ إضراباً عن الأولِ. قوله: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ أي: يُحْيُونَ الموتى، لأنَّ مِنْ صفةِ الإله الحقِّ أنَّه يحيي الموتى. وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أنَّ آلهتهم التي يعبدونها مصنوعة مِنْ جنسِ الأرضِ، فهي أصنامٌ مصنوعةٌ مِنَ الصخورِ، أو الطينِ، أو الخشبِ، أو الحديدِ، أو نحو ذلك.

٦- لو كان فيهما آلهةٌ إلاَّ اللهُ لفسدتا:

أَخْبَرَ اللهُ تعالى أنَّ استقامةَ أمْرِ السمواتِ والأرضِ يدلُّ على وحدانية الله، وأنَّه لا إله غيره، ولا معبودَ سواه ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٢-٢٣]. هذا الذي ذكره ربنا يُسمَّى دليلَ التمانع، فلو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتِ السمواتُ والأرضُ، لأنّ الآلهةَ ستختلف فيما بينها، فلو أراد أَحَدُهُمْ خَلْقَ شيءٍ، وأرادَ الآخرُ عدمَ خلقِهِ، فإنَّ تعارضهما سيمنع الخلقَ، فإنَّ قدر أحدهما على الإيجادِ، ولم يستطع الآخرُ المنعَ، كان الذي لم يستطع المنع عاجزاً لا يصلح أن يكون إلهاً.

وقد نزَّه تعالى نفسه عن الشريكِ بقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ فهو واحدٌ أَحَد فَرْدٌ صَمَدٌ، لا شريك له، وقوله: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وفي هذه الآية ردٌّ على المعتزلةِ الذين يزعمونَ أنَّ اللهَ لم يُقَدِّرْ أفعالَنا في الأزلِ، وقد قال أحدُ المعتزلةِ الذين يزعمون أن الله لم يُقَدِّرْ علينا ذنوبَنا ومعاصينا لعالمٍ مِنْ علماءِ أهل السنّةِ: «أيحبُّ ربُّنا أنْ يعصى؟» فقال له عالم السنّةِ: «أَيُعْصَى رَبُّنا قهراً؟» فقالَ المعتزلي: «أرأيتَ إنْ منعني الهدى، ومنحني الردى أَأَحْسَنَ إليَّ أم أساء؟» قال: «إنْ منعَكَ حقَّكَ فقدْ أساءَ، وإنْ مَنَعَكَ فَضْلَهُ، فهو فَضْلُهُ يؤتيه منْ يشاءُ» [تفسير القرطبي: ٦/ ٢٥٣].

٧- طلبَ اللهُ تعالى مِنَ المشركين أن يأْتوا بما يدلُّ على صحة ما ادعوه من آلهة:

قال اللهُ -تعالى- منكراً على المشركين فيما اتخذوه مِنْ آلهةٍ يعبدونها مِنْ دون الله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم

مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٤]، والمعنى: بل اتخذوا مِنْ دونِ الله آلهةً، وطالبهم أن يأتوا بدليلٍ وبرهان يدلُّ على صحةِ ما يزعمونه، وأعلم أنَّ الأدلة المنزلةَ مِنْ عندِ الله التي أنزلها في كتابه القرآن وفي جميعِ الكتبِ السماويةِ السابقة تدلُّ على وحدانية الله، وقرَّرَ سبحانه أنَّ أكثرَ الكفار لا يعلمون الحقَّ فهم معرضون عن الحقِّ.

ومما يدلُّ على كذب ما ادعاه المشركون أنَّ جيمعَ الرسل مِنْ أوَّلهم إلى آخرهم أعلنوا للناسِ جميعاً أنه لا إله إلا الله، فاعبدوه وحده، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وهذه الآية كقولِهِ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وقوله: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف:٤٥].

٨- تنزيه الله -تعالى- عن الوَلَدِ:

ادَّعَى بعضُ العربِ أنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وقد ردَّ اللهُ عليهم، وأكذبهم، فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٩].

أخبرنا ربُّنا أن بعضَ مشركي العرب قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ وهم قبيلةُ خزاعةَ قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، وقد نزَّه نفسه عما يقولونه ويفترونه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ ثمَّ أخبر أنَّ ملائكتَه عبادٌ مكرمون، لا يسبقونَهُ بالقولِ، فلا يقولون حتى يقول، وهم بأمره يعملون، وأخبر أنَّ علمه محيطٌ بهم، يعلم ما بين أيديهم، أي: ما أمامهم مِنْ أمرِ الآخرة، وما خلفهم من أمر الدنيا، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، أي إلاَّ لمن رضي عن الشفاعةِ لهم، وهم عصاةُ الموحدين، وأخبر أن الملائكة كانوا ولا يزالون مشفقين، أي: خائفين من خشيةِ الله، وقالوا: ومَنْ يقل منهم: إنه إله مِنْ دون الله، فإنَّ اللهَ يجزيه جهنَّم، كذلك يجزي الظالمين، وهذا فرضية، وإلا فإنَّه يستحيلُ أن يدَّعي واحدٌ مِنَ الملائكةِ أنَّه إلهٌ مِنْ دون الله.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- خلق اللهُ تعالى السموات والأرض لتكون معبداً يُعْبَدُ الله فيهما، ولم يخلقهما لعباً وعبثاً.

٢- اللهُ تعالى أعزُّ وأجلُّ وأكرمُ من أن يتخذ زوجةً وولداً.

٣- ينزِّلُ الله تعالى مِنَ الآياتِ ما يقذفُ بِهِ الباطلَ، فيبطله ويذهبه.

٤- اللهُ -تعالى- له جميعُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ، ومَنْ عنده وهم الملائكةُ يعبدونَهُ، ويوحدونَهُ، ولا يَفْتُرون، ولا يتعبون، وهم يسبحون الله دائماً.

٥- آلهةُ الكفارِ آلهةٌ باطلة عاجزةٌ، لا تستطيع إحياءَ الموتى.

٦- وجود آلهة في السموات والأرض غير الله يفسدهما، ويدمِّرهما.

٧- قَدَّر اللهُ تعالى في الأزلِ على عبادِهِ ما سيكون منهم في مقبلِ الأيام.

٨- طالب ربُّ العزةِ الكفرةَ أنْ يأتوا بدليلٍ يدلُّ على صحةِ المعبودات التي يعبدونها من دونِ الله، وأخبر أن جميع ما أنزله في الكتب السماوية يدلُّ على وحدانية الله.

٩- كل الرسلِ الذين أرسلهم الله يدعون إلى وحدانيةِ الله.

١٠- تكذيبُ المشركين في دعواهم أن الملائكةَ بناتُ الله، وأخبر أنهم عبادٌ مكرمون.

١١- مَنْ يدعي من الملائكة أنَّه إلهٌ مِنْ دونِ الله، فإنَّ اللهَ يعذبُهُ، ويدخله النارَ.

النص القرآني الثالث من سورة الأنبياء
الأدلة الكونية الدالة على الوحدانية

أولاً: تقديم

ساق اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآيات جملةً من المعالم الكونية التي يزخر بها الكونُ الواسعُ الشاسعُ، وبَيَّنَ دلالةَ هذه الآيات العظيمة على وحدانية الله سبحانه، وأخبر سبحانه في القسم الثاني من آيات هذا النص أنَّ البشر غير خالدين، وأنَّ الموتَ حَتْم لازم لا بدَّ منه، وأعلمنا أنَّ كفارَ قريشٍ كانوا يسخرون مِنْ رسولنا ﷺ عندما كانوا يقابلونه، ويعيبونه بأنه يعيبُ آلهتهم، وعيبُه لها حقٌّ، فإنها آلهةٌ باطلة، ولذا فإنَّهم هم المعابون لأنَّهم هم الذين يكفرون بالإلهِ الحقّ ربِّ العالمين.

وذم اللهُ الكفارَ باستعجالهم العذابَ، وقد سألوا عن وقتِ وقوعِهِ، فأخبرهم بمدى الهولِ الذي يصيبهم إذا وقع بهم، ولكن الوقتَ الذي يحلّ فيه لا يعرفونه لأنَّه يأتي فجأةً، وختم الآيات بإخبارِه رسولَه ﷺ أنَّ الأمم مِنْ قبلِه سَخِرَتْ مِنْ رسلها كما سَخِرَ قومُهُ بِهِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠-٤١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأدلة الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى:

ساقتْ هذه الآياتُ مجموعةً مِنَ الأدلةِ الدالةِ على وحدانيةِ الله تعالى:

أ- كانت السموات والأرض رَتْقاً، ففتقهما ربُّ العزة، قال تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء:٣٠].

أي: كانت السمواتُ والأرضُ متلاصقتين بعضُها مع بعضٍ، ففتقَهُما اللهُ، وفَصَلَ بين السمواتِ والأرضِ، فرفعَ السماءَ إلى مكانها، وأقر الأرض في مكانها، وفصل بينهما بالهواء، والرتقُ: الضم والالتحام، وهو مصدر يوصف به، وهو الشيء المتَّصِلُ بعضُه ببعضٍ، الذي لا صَدْع فيه، ولا خرق. والفتق: الفَصْلُ بين الشيئين.

ب- خلق اللهُ تعالى مِنَ الماءِ كلَّ شيءٍ حيٍّ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور:٤٥] فكلُّ الأحياء في الأرضِ مِنَ الإنسانِ والدوابِّ والطيورِ والنباتِ مخلوقة من ماءٍ، وهي محتاجةٌ إلى الماءِ لبقائِها ووجودِها. وقوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: ألا يصدِّقون.

ج- جعل اللهُ في الأرضِ رواسيَ كي لا تميدَ بنا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء:٣١]. والرواسي: الجبالُ الثوابتُ، و﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلا تتحركَ وتضطربَ بهم. فالجبالُ في الأرض تحفظ توازُنَها، وتجعلها هادئةً في دورانها، ولولا الجبالُ لما استقرت الأرضُ، وما صلحت الحياةُ فوقها.

د- جعل اللهُ في الجبالِ فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء:٣١]، والفجاجُ: الطرقُ الواسعةُ بين الجبال، وكلُّ مُخْتَرَقٍ بين جبلين فهو فجٌّ، وقوله: ﴿سُبُلًا﴾ جمعُ سبيلٍ، أي: طرقاً نافذة مسلوكة، وهي تفسير للفجاج.

هـ- جعل اللهُ السماءَ سقفاً محفوظاً، حفظ الله السماءَ بالنجومِ التي تُرجَم بها الشياطين ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥].

وقد تكونُ الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] إلى الغلافِ الجويِّ الذي يحيط بالأرضِ، وهو يحفظُ الأرض مِنْ الأشعة التي يموج بها الكون،

ويحفظها من الأجرامِ التي تتساقط من الفضاءِ، حتى إذا دخلت الغلافَ الجويَّ للأرض احترقت وتفتت.

وقوله: ﴿ سَقۡفًا ﴾ أي: جعل اللهُ السماءَ كالسقفِ للأرض، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ [الطور:٥]، وقوله: ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء:٣٢] آياتُ السماءِ نجومُها وشموسُها وأقمارُها وأمطارُها ورعودُها وبروقُها، ونحو ذلك.

و- خلق اللهُ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ، ففي الليلِ يكونُ السكونُ والهدوءُ، ويأخذ الناسَ النومُ، وفي النهارِ يبعثُ الناس ويقومون لأعمالهم، وخلق اللهُ للناس الشمسَ التي تضيء الأرضَ، وتمدُّ الناس بالضوءِ والحرارة، وفي الليلِ يظهر القمرُ، الذي جعله اللهُ مواقيت للناسِ والحجِّ.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ۝٣٣﴾ [الأنبياء:٣٣]، قال ابن جرير: «جائزٌ أنْ يكون ذلك الفلك كحديدةِ الرحى كما قال مجاهد، أو كطاحونة الرحى كما ذكر عن الحسن، ذلك أنَّ الفلكَ في كلامِ العرب هو كل شيء دائر، فجمعه أفلاك» [تفسير ابن جرير: ٧/ ٥٦٩١]، وقوله: ﴿يَسۡبَحُونَ ۝٣٣﴾ أي: يجرون كالسابح في الماءِ، وقد يقال للفرس الذي يمدُّ يديه في الجَري: سابحٌ.

٢- الموتُ حقٌّ واقعٌ على جميعِ البشرِ ومنهم الرسلُ:

يبدو -واللهُ أعلم- أنَّه صَدَرَ مِنْ بعضِ كفارِ قريش ما يدلُّ على أنَّهم كانوا ينتظرون موتَ الرسولِ ﷺ ، فأخبر اللهُ تعالى أنه لم يجعلِ الخلدَ لأحدٍ قبلَهُ، لا مِنَ الرسل، ولا مِن غيرهم، ثمَّ قال لرسولِهِ ﷺ : ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ [الأنبياء:٣٤]، فالموت مكتوب عليك وعليهم ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ [الأنبياء:٣٤]. والاستفهامُ في قوله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ ﴾ استفهام إنكاريٌّ، والمعنى: أنك إن متَّ فلن يخلدوا بَعْدَكَ، فأنت مَيِّتٌ وهم ميتون، وقد جاء ذكر الموتِ في كتاب ربِّنا كثيراً، كقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقوله: ﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ [النساء:٧٨]، وقوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق:١٩].

وقوله: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء:٣٥]، أي: ونختبركم بالخير والشرِّ فتنةً لكم، أي: نختبركُمْ بالشدة والرخاء، والصحةِ والسقم، والغنى والفقر، والحلالِ والحرام، والطاعةِ والمعصيةِ، والهدى والضلالِ، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: يوم القيامة، فيحاسبهم الله على ما قدَّموا.

٣- استهزاءُ الكفارِ بنبينا محمدٍ ﷺ :

أعلمنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ الذين كفروا إذا رأوْهُ اتخذوه هزواً قائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: يعيبُها، وهم بذِكْر الرحمنِ هم كافرون ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء:٣٦] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان:٤١-٤٢]. وفِعْلُ الكافرين أمْرٌ عَجَبٌ، فهم يسخرونَ مِنْ رسولهم لأنه يعيبُ آلهتَهُمْ، وهي آلهة باطلةٌ تستحقُّ أنْ تعابَ، بينما هم يكفرون بالرحمنِ وهو الحقّ الذي يستحقُّ أنْ يعظَّم ويقدَّر سبحانه.

٤- الإنسانُ مخلوقٌ مِنْ عَجَلٍ:

قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء:٣٧]، جُعِلَ الإنسانُ لفرط استعجاله كأنَّه مخلوقٌ مِنْ عَجَلٍ، وقد ذهب جمع مِنْ أئمةِ التفسير منهم عكرمةُ، وسعيدُ بن جبير، والسديُّ، ومجاهد إلى أنَّ: «المرادَ بالإنسانِ آدم، فإنَّه لما خلقه اللهُ تعالى، ونفخَ فيه الروح، صارَ الروح في رأْسِهِ، فذهبَ لينهضَ قبل أن تبلغَ الروحُ رِجْلَيْهِ، فوقعَ، فقيل: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾» وقال الزجاج: «إنَّها خوطبت العرب بها تعقلُ، والعربُ تقولُ للذي يكثرُ الشيءَ خُلِقْتَ منه، كما تقول: «أنتَ مِنْ لعبٍ، وخلقتَ مِنْ لَعِبٍ»، تريد المبالغة بوصفه باللعب» [معاني القرآن: ٣/ ٣٩٢].

وقوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي: سأريكم آياتي، أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾.

٥- سؤالُ الكفار عن اليوم الذي سيحلُّ فيه العذابُ الذي سيحلُّ بهم:

تهدَّد اللهُ تبارك وتعالى الكفارَ أن يحلَّ بهم غضبَهُ، وينزلَ بهم سخطَه، فسألوا عن الموعدِ الذي سيحلُّ اللهُ بهم فيه العذابَ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنبياء:٣٨]، فقال ربُّ العزة مجيباً: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء:٣٩-٤٠].

يقولُ ربُّ العزة: لو يعلم الكفارُ اليومَ الذي لا يستطيعون فيه أن يردُّوا النارَ التي تسلَّطُ على وجوهِهِمْ، ولا عن ظهورِهِم، كما قال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر:١٦]، وقوله: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف:٤١]، وقوله: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٠]، وفي ذلك اليومِ لا يوجد أحدٌ يحامي عنهم، ولا ينصرهم، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الرعد:٣٤].

وأخبر ربُّ العزة أنَّ العذابَ يأتي الكفارَ بغتةً، أي: فجأة ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ وقوله: ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تدهشهم، وتُحيِّرُهم، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي: ليس لهم حيلة في دَفْعِها وردِّها، ولا هم ينظرون، أي: ولا يؤخرون عن نزولِ العذابِ بهم.

وأخبر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّ الاستهزاءَ سنَّةٌ مِنْ السننِ وقعت مِنَ المكذبين بالرسل الذين أرسلوا إلى الأمم السابقة قبلك ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنبياء:٤١].

ومعنى حاقَ: أحاطَ بهم العذابُ الذي كانوا يستبعدون وقوعه ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنبياء:٤١] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الأنعام:٣٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أعلمنا ربُّنا أنَّ السمواتِ والأرض كانتا في أول أمرهما متلاصقتين متصلتين، ثمَّ فَصَلَهُما، فجعل العليا سموات، والدنيا أرضاً.

٢- كلُّ الأحياءِ مِنَ البشرِ والدوابِّ والطيورِ والنباتِ مخلوقةٌ مِنْ ماء، وهي بحاجةٍ إلى الماءِ لاستمرار حياتها ووجودها.

٣- خَلَقَ اللهُ الجبالَ لتحفظ توازن الأرض في دورانها، ولولا ذلك لاضطربتْ في سيرها، ولم تصْلُحِ الحياةُ فوقَها.

٤- جعل اللهُ بين الجبالِ طرقاً واسعةً ليسهل على النَّاس التَّنَقُّلُ فوق ظهر هذه الأرض.

٥- جعل الله السماءَ فوقنا سقفاً محفوظاً يحفظُ أرضنا أن تصابَ بالأشعةِ وبالأجرام التي تنطلق من السماء إلى الأرضِ.

٦- اللهُ تعالى خلق الليلَ ليكونَ سكناً لنا، وبعثنا في النهارِ لنعمل فيه، وخلق لنا الشمسَ لتمدنا بالنورِ والحرارةِ، وجعل لنا القمر لنعلم عدد السنين والحساب.

٧- البشرُ يخلقون ليعيشوا في هذه الدنيا مدةً مِنَ الزمانِ، ثم يموتون، ولم يجعل اللهُ الحياةَ الدائمة لأحدٍ مِنَ البشرِ مِنْ قبلنا.

٨- كلُّ نفسٍ ستذوقُ الموتَ مهما طال عمرها، ويبلونا اللهُ بالخير والشر فتنة وابتلاءً.

٩- كان كفارُ قريشٍ يهزؤون برسولِنا ﷺ ، ويقولون عندما يرونه: أهذا الذي يعيبُ آلهتكم، وينسون أنهم هم الذين يستحقون السخرية، فإنهم يكفرون بالرحمنِ، خالقِ السمواتِ والأرض.

١٠- في طبع الإنسان عجلةٌ، ومن ذلك استعجاله في طلب العذاب الذي تهدَّدَ اللهُ به الكفار، والعجلة جبلة في الإنسان، فقد خلق الإنسان من عجل.

١١- تهدَّدَ اللهُ الكفارَ بالعذابِ، فسألوا عن اليوم الذي يحلُّ فيه، فأخبرهم ربنا عمَّا سيصيبُهُمْ عندما ينزلُ بهم، وأخبرهم أنهم لن يعرفوا اليومَ الذي سيحلُّ بهم فيه العذاب، لأنَّه سيأتيهم فجأةً، وعندما يأتي لا ينظرون، أي: لا يؤخرون.

١٢- واسى اللهُ رسولَهُ ﷺ ، فإنَّ قومَهُ إذا سخروا به، فالأممُ السابقةُ المكذِّبَةُ لرسلها هذا شأنها وديدنها، كانت تسخر مِنَ الذين أرسلوا إليها.

النص القرآني الرابع من سورة الأنبياء
لا أحد يمنع الكفرة من عذاب الله

أولاً: تقديم

قَرَّع اللهُ -تعالى- الكفار ووبخهم، مبيناً أنه لا يوجد من يمنعهم عذاب الله، وأنَّ آلهتهم ضعيفة عاجزة، لا تنصر نفسها، فضلاً أن تمنع عابديها، وأعلمنا أنَّه متع كفرة قريش وآباءَهم، فلم ينزلْ بهم المصائبَ والقوارعَ مع كفرهم وضلالهم، واللهُ قادر على تدميرهم وإهلاكهم.

وأعلمنا ربنا أن رسولنا ﷺ يخوف عباد الله بالوحي الذي يوحيه إليه، وأن الكفار عندما تحلُّ بهم أقلُّ القوارع يعترفون بذنوبهم، ورهب الناس بإخبارهم بالموازين التي تنصب يوم القيامة لوزن أعمالهم، ليعلم الفائز من الخاسر، وأخبر أن تلك الموازين موازين قسط، أي: عدل، لا تظلم أحداً مثقال حبة من خردل، وختم الآيات بما آتى رسلَه موسى وهارون ومحمداً من كتبه التي هي فرقان وضياء وذكر وبركة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

[الأنبياء: ٤٢-٥٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- توبيخ الله -تعالى- الكفارَ الذين يستعجلونَ بالعذابِ وتقريعُهُمْ:

أَمَرَ الله تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يخاطِبَ الكفارَ الذين يستعجلون بالعذابِ الذين يقولون متى هذا الوعدُ إنْ كنتم صادقين، أَمَرَهُ أنْ يخاطبهم موبخاً ومقرِّعاً لهم ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم

بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٢] أي: مَنْ يَحْرُسُكُم ويحفَظُكُمْ بالليلِ والنهارِ مِنْ بأْسِ الرحمنِ وعذابِهِ، وهذا كقوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب:١٧]، وقوله تعالى: ﴿ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ أراد بذكرِ ربِّهم القرآنَ، فلا يتدبرونه، ولا يفقهونه، ولا يتعظون به.

ثم قال اللهُ تعالى لهم: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٣]، ﴿أَمۡ﴾ «هي المنقطعة بمعنى بل، والهمزة للإضرابِ والانتقالِ عن الكلامِ السابقِ المشتملِ على بيان جَهْلِهِمْ إلى توبيخِهِمْ وتقريعِهِمْ باعتمادِهِمْ على مَنْ هو عاجزٌ عَنْ نفعِ نفسِهِ والدفعِ عنها» [فتح القدير: ٣/ ٥٥٨].

وقوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ويصحبون، من الفعل أصحب كأكرمَ، أي: أجار ومنع، أي: لا يُمْنَعون ولا يجارونَ منَّا، وكانت العربُ يقولون: أنا لك جارٌ وصاحبٌ مِنْ فلانٍ، أي: مجيرٌ منه.

وقوله: ﴿مِّن دُونِنَاۚ﴾ أي: سوانا، وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٥].

٢- تمتيع الله -تعالى- الكفارَ وآباءَهم حتى طالَ عليهم العُمُر:

لما حَكَمَ اللهُ تعالى بكَوْنِ الأصنام غير نافعة، أضرب عن ذلك منتقلاً إلى بيان أن ما هم فيه من الخير والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله، والمعنى: أنّه مَتَّعَ هؤلاءِ الكفارَ وآباءَهُم من قبلهم بما رزقهم من نعيمِ الدنيا، حتى طالتْ أعمارُهُمْ في رخاءٍ ونعمةٍ، فحَمَلَهمْ ذلك على الطغيانِ واللجاجِ في الكفر ﴿ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ ﴾ [الأنبياء:٤٤]، وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣].

قال ربُّ العزةِ راداً عليهم مبيناً خطأَهُمْ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء:٤٤].

اختلفَ المفسرون في المعنى المراد مِنَ الآيةِ، واستحسنَ أكثرهم أنَّ المرادَ بالأرضِ أرضُ الكفرِ، بالظهورِ عليها مِنْ أطرافها، فنفتحها بلداً بعد بلد، وأرضاً بعد أرضٍ [فتح القدير: ٣/ ٥٦١. وابن كثير: ٤/ ٤٦٧. وأضواء البيان: ٤/ ٧٢٧].

والذي يظهر لي أنَّ اللهَ تعالى يتحدَّثُ عن آيةٍ كونية مُؤَدَّاها أنَّ الأرضَ في دورانها ينقصُها اللهُ تعالى، ولكننا لا ندري كيف يقعُ ذلك، هذا هو مقتضى عبارةِ الآية، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ هذا تقريعٌ وتوبيخٌ للكفارِ، يقول متحدِّثاً عنهم: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: المنتصرون، والجوابُ: لا، فهم المغلوبون المقهورون، والمسلمون هم الغالبون.

٣- تخويفُ الله الكفارَ بما أوحاه لرسولِهِ ﷺ:

أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للكفارِ ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء:٤٥].

أي: قُلْ لهم: إنما أُخوِّفُكُمْ بالوحيِ الذي يوحيه اللهُ -تعالى- إليَّ، وأعظمُهُ القرآنُ الكريمُ، ففيه مِنَ الزواجرِ والقوارعِ الشيءُ العظيمُ، وقد أخبر اللهُ تعالى أنَّ هؤلاء المعرضين عن الوحيِ الإلهي الرباني هم بمنزلةِ مَنْ لا يسمعُ، فقد ختمَ الله على قلوبِهِمْ، وأصمَّ أسماعهم، وجعل على أبصارِهم غشاوةً، فلا يفقهون كتابَهُ، ولا يفهمونَه عندما يُنْذَرُون ويخوَّفون بِهِ.

وقوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء:٤٦]، يقولُ ربُّ العزة -سبحانه-: ولئن مسَّ هؤلاءِ أدنى شيءٍ مِنَ العذاب ليعترفن بذنوبهم، ويصرِّحوا بذلك قائلين: إنا كنا ظالمين، والنَّفْحَةُ: الدَّفْعَةُ مِنَ الشيءِ، وقوله: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي: يا هلاكَنا، وهذا يكون مِنَ المرءِ إذا وقعَ العذابُ بِهِ أن ينادي، ويقولُ: يا ويلنا، أي: يا هلاكنا.

٤- نَصْبُ الله -تعالى- الموازينَ يومَ القيامةِ:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّه يَنْصِبُ الموازينَ العظيمةَ يومَ القيامةِ، التي توزنُ بها أعمالُ العبادِ، فمن ثقلتْ موازينُهُ فازَ وسعِدَ، ومَنْ خَفَّتْ موازينُهُ شقيَ وخابَ ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ

ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

أعْلَمَنا ربُّنا في هذه الآيةِ أنّه يَنْصِبُ الموازينَ القسطَ، أي: العادلةَ يومَ القيامةِ، فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً، أي: لا يُنْقَصُ مِنْ إحسانِ محسنٍ، ولا يزادُ في إساءَةِ مسيءٍ، وأعلمَ أنَّ أعمالَ العبادِ يؤتى بها، مهما كانت صغيرةً وحقيرةً، ولو كانت مثقالَ حبةٍ مِنْ خردلٍ.

وإذا وزنتْ أعمالُ العبادِ سَعِدَ الذين ثقلتْ موازينهم، وشقيَ الذين خفتْ موازينُهُمْ، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف:٨-٩]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة:٦-٩].

وقد ورد ذِكْرُ الميزانِ في عددٍ مِنَ الأحاديثِ، منها:

أ- حديثُ أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قالَ: «كَلِمَتانِ خفيفَتانِ على اللِّسانِ، ثقيلَتان في الميزانِ، حبيبَتان إلى الرحمن، سبحانَ الله وبحَمْدِه، سبحانَ الله العظيم» [البخاري: ٦٦٨٢. ومسلم: ٢٦٩٤].

ب- وعن عبدالله بن عمرو بنِ العاص قال: قال رسولُ الله ﷺ : «إنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أمَّتِي عَلَى رُؤوسِ الخَلائِقِ يومَ القيامةِ فيَنْشُرُ عليهِ تِسْعَةً وتِسْعينَ سِجِلاًّ، كُلُّ سِجِلٍّ مثلُ مَدِّ البَصَرِ ثم يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذا شيئاً؟ أظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافِظونَ؟ يقول: لا يا ربِّ. فيقول: أفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: بَلَى إنَّ لَكَ عِنْدَنا حَسَنَةً، وإنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فيُخْرَجُ بطاقَةٌ فيها أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله، وأشْهَدُ أنَّ محمداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، فيقولُ: احْضُرْ وزْنَكَ، فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقَةُ ما هذه السِّجلات؟ فقالَ: فإنَّكَ لا تُظْلَمُ. قال: فتُوْضَعُ السِّجلاتُ في كِفَّة، والبطاقةُ في كِفَّة، فطاشَتْ السِّجلاتُ، وثَقُلَتِ البِطاقةُ، ولا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ الله شيءٌ» [رواه الترمذيُّ، وقال: هذا حديث حسن غريب. وأورده الألباني في صحيح الترمذيِّ. حديث رقم: ٢١٢٧. وفي صحيح ابن ماجه: ٤٣٠٠].

ج- وروى الحاكم والآجريُّ في «الشريعة» موقوفاً على سلمان، عن النبي ﷺ ، قال: «يوضَعُ الميزانُ يومَ القيامةِ، فلو وُزِنَ فيه السمواتُ والأرضُ لوسعتْ، فتقولُ الملائكةُ: يا ربِّ لمن يَزِنُ هذا؟ فيقولُ الله تعالى: لِمَنْ شئتُ مِنْ خَلْقي، فتقولُ الملائكةُ: سبحانَكَ ما عَبَدْناكَ حَقَّ

عبادتِكَ، ويوضعُ الصراطُ مثلُ حدِّ الموسى، فتقولُ الملائكةُ: مَنْ تُجيزُ على هذا؟ فيقول: مَنْ شئتُ مِنْ خلقي، فيقولون: سبحانَكَ ما عَبَدْناكَ حَقَّ عبادتِكَ» [خَرَّجه الألباني في سلسلة الصحيحة: ٢/ ٦٥٦ ورقم الحديث: ٩٤١].

هـ- وروى الترمذيُّ عن عائشةَ: أنَّ رجلاً قعدَ بين يدي رسولِ الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله: إنَّ لي مملوكين: يَكْذِبونَني، ويَخونونَني، ويعْصُونَني، وأشْتُمُهُمْ وأضْرِبُهمْ، فكيفَ أنا مِنْهم؟

قالَ: «يُحْسَبُ ما خانوكَ وعَصَوْكَ وكَذَبُوكَ، وعِقابُكَ إيَّاهُمْ، فإنْ كانَ عِقابُكَ إيَّاهُم بقَدْرِ ذُنوبِهِمْ كانَ كَفافاً لا لَكَ ولا عَلَيْكَ، وإنْ كانَ عِقابُكَ إيَّاهُمْ دونَ ذُنوبهم كان فَضْلاً لَكَ، وإنْ كانَ عِقابُكَ إيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنوبهم اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الفَضْلُ».

قال: فتنحَّى الرجلُ، فجعلَ يبكي ويهْتِفُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : «أما تَقْرَأُ كِتابَ الله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء:٤٧]».

فقال الرجلُ: والله يا رسولَ الله، ما أجدُ لي ولهم شيئاً خيراً مِنْ مُفارَقَتِهِمْ، أُشهِدُكَ أنَّهم أحرارٌ كلُّهُمْ [الترمذيُّ: ٣١٦٥. وصححه الألباني في صحيح الترمذي: ٢٥٣١، وقال فيه محقق ابن كثير منكر ٤٠/ ٣٦٨ وانظر تمام تخريجه وتنقيده مسند الإمام أحمد (٢٦٤٠١)].

٥- **ثناءُ الله تعالى على ما أنزله على موسى وهارون ونبينا محمدٍ ﷺ :**

أقْسَمَ رَبُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّه آتى موسى وهارونَ الكتابَ الذي يفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ، وهو التوراةُ، فالتوراةُ تفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ،وهي ضياءٌ، وذكرٌ للمتقين ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء:٤٨]. وكل الكتب التي أنزلها اللهُ تعالى هي فرقانٌ، ومنها القرآن الذي قال اللهُ فيه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان:١].

ثم ذكر من هم المتقون فقال جل وعلا ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء:٤٩] أي: يخافونه بالغيب، أي: وإن لم يروه، وهم من أهوال يوم القيامة خائفون وجلون.

وأتبع ذكر ما أعطاه لموسى وهارون بذكر ما أعطاه لنبينا محمد ﷺ ، وهو القرآن ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء:٥٠]. وكَوْنُ القرآن مبارك، أي: كثيرُ الخيرِ

والبركةِ، وفي قوله: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ توبيخ وتقريع للذين يكفرون بالقرآن وهو في غاية الجلاء والظهور.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- قَرَّعَ ربُّ العزةِ المشركين وبَكَّتَهُمْ بسؤالهم عن الذي يستطيعُ حمايتَهُمْ مِنْ عذابِهِ، وفي ذلك دعوة للمشركين ليتفكروا ويعتبروا.

٢- آلهةُ الكفارِ مِنْ دونِ الله آلهةٌ لا تستحقُّ أنْ تعبدَ، فهي لا تستطيعُ أن تحمي عابِدِيها، ولا تحمي نفسَها ممن يريدُ تحطيمَها وإحراقَها وإيقاعَ الأذى بها.

٣- أمَدَّ ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- أهل مكةَ وآباءهم بالنعمِ حتى ظنُّوا أنَّ رغدَ العيشِ دائمٌ لهم، مع ما هم فيه مِنَ الكفرِ والضلالِ.

٤- أخبرنا اللهُ -تعالى- عن حقيقةٍ علميةٍ تجري على أرضنا التي نعيش فوقها، وهي أَنَّهُ يَنْقُصُ الأرضَ مِنْ أطرافها، ولكن لا ندري كيف يتحقق ذلك.

٥- مِنْ خصائصِ رسولنا ﷺ أنَّه يُذَكِّرُ الكفارَ بما تضمنه القرآنُ والوحيُ الإلهيُّ مِنْ قوارعَ ومصائبَ.

٦- عندما تحلُّ بالكفار أدنى قارعة، يعترفون بذنوبهم، ويقولون: يا ويلنا إنا كنا ظالمين.

٧- تُنْصَبُ الموازينُ يومَ القيامةِ التي تَزِنُ أعمالَ العبادِ، فمن ثقلتْ موازينه فقد أفلح، ومَنْ خَفَّت موازينُهُ خسرَ وخابَ، والموازينُ عادلةٌ فلا يظلم أحدٌ شيئاً، وإن قلَّ.

٨- أنزلَ اللهُ -تعالى- كُتُبَهُ على رسلِهِ، ومِنْ ذلك الكتابُ الذي أنزله على موسى وهارون، وهو التوراةُ، وكذلك الكتاب الذي أنزله على رسولنا ﷺ وهو القرآنُ، وهي كتب مباركةٌ، خيرُها عظيمٌ، ونفعُها كبيرٌ.

النص القرآني الخامس من سورة الأنبياء
آتى الله عبده ورسوله إبراهيم رُشْدَهُ وأقام الله به حجته على قومِهِ

أولاً: تقديم

عرضَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ طرفاً من خَبَرِ عَبْدِهِ ورسولِهِ نبيِّ الله إبراهيم ﷺ ، فقد آتاهُ اللهُ رشدَهُ، وخاضَ مَعَ قومه ما دلَّهُمْ بِهِ على بطلانِ آلهتهمْ، واستحقاقِ الواحد الأحد العبادةَ دون غيره، وبلغَ به الأمرُ إلى تحطيم أصنامِهِم، فأظهر عَجْزَها، وأنها لا تستطيعُ أن تدفعَ الضرَّ عن نفسها، ولا تستطيعُ الكلامَ ولا النطقَ، فلما أقامَ عليهم الحجةَ، عاندوا، واستكبروا، وألقوه في النار، فأنْجاه الله مِنَ النارِ، وهاجرَ مع لوطٍ إلى الأرضِ المباركةِ، ورزقه اللهُ الذريةَ الصالحةَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٥١-٧٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إيتاء الله -تعالى- إبراهيمَ رُشْدَهُ:

أَثْنَى اللهُ -تعالى- على عبده ورسولِهِ إبراهيم عليه السلام ، وأَخْبَرَ أنه آتاه رشدَهُ، أي: هُداهُ وصلاحَهُ مِنْ قبل، أي: من قبل موسى وهارون، أو آتاه إيَّاه في شَبابِهِ، وقد أقْسَمَ ربُّ العزةِ على ذلكَ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء:٥١] أي: وكان اللهُ -تعالى- يَعْلَمُ أنَّ إبراهيم يستحقُّ ما آتاه اللهُ إياه مِنَ الرشد والهدى.

والرشدُ الذي آتاه الله إياه، معرفتُهُ ربَّه حقَّ المَعْرِفَةِ، وتوحيدُه له، ومعرفتُهُ لضلالِ الناسِ فيما يعبدونَهُ مِنْ الأصنامِ والأوثانِ والنجومِ وغيرِها، ويظهر رشدُ إبراهيمَ عليه السلام فيما حَدَّثنا اللهُ به عنه في الآيات التاليةَ.

٢- إبراهيمُ عليه السلام ينكرُ على أبيه وقومِهِ عبادةَ الأصنام:

أمَرَنا ربنا -عزَّ وجلَّ- أن نذكر ما قاله إبراهيمُ لأبيه وقومِهِ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٢-٥٣]، سأل إبراهيمُ أباه وقومَهُ عن التماثيلِ، وهي الأصنامُ التي صنعوها، يلازمونها ويقيمون على عبادتها.

فقالوا: وجدنا آباءَنا لها عابدين، فليس لديهم حُجَّةٌ على صلاحيةِ هذه التماثيلِ للعبادةِ إلا أنَّ آباءَهم كانوا يعبدونها.

فصارحَهُم مبيناً ضلالَهم وكفرَهم، وأنهم ضالون هم وآباؤهم ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٤].

فلما سمعوه يهاجِمُ أوثانَهُمْ، وهي عندهم في المقامِ العالي، تَعَجَّبوا مما قالَهُ واستعظموه، وقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٥]، قالوا له: أأنت جاد فيما تقولُه، أمْ أنت هازلٌ لاعب، فقال مجيباً: ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٦] قال لهم: بل ربُّكُم المعبودُ الحقُّ الذي يستحقُّ العبادةَ هو ربُّ السمواتِ والأرضِ، أي: خالقهنَّ وفاطرهنَّ على غير مثالٍ سابقٍ، وأنا شاهدٌ على ذلك، أما آلهتكم فهي مخلوقةٌ مربوبةٌ لا تصلح للعبادةِ.

٣- إبراهيمُ يُحطمُ أصنامَ قومِهِ:

بعد أنَّ قرَّر إبراهيمُ عليه السلام أحقيَّةَ ربِّ العزةِ بالعبادةِ وبطلانَ الآلهةِ التي يعبدونُها مِنْ دون الله تعالى، أخبرَ قوْمَهُ بأنَّه سيكيدُ أصنامَهُمْ، ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

[الأنبياء:٥٧]، وقد أقْسَمَ لَهُمْ بقوله: ﴿ وَتَٱللَّهِ ﴾ على أنَّه سيكيدُ أصنامهم بتحطيمِهِ لها. وقوله: ﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: سيكيدها عندما يخرجونَ مِنَ المدينةِ في يوم عيدِهِمْ، وكانوا قد اعتادوا أنْ يضعوا الطعام في بيتِ آلهتهم، ثم ينصرفونَ للعبِ واللهوِ على أطرافِ المدينةِ، ثم يعودون إلى بيتِ الأصنام، لتناول الطعام، بعد أن تكونَ الآلهةُ قد باركَتْهُ كما يزعمون، وقد صَدَقَ إبراهيمُ فيما تهدَّدَهُمْ بِهِ، فقد هَجَمَ على تِلْكَ الآلهة الباطلةِ، فحطَّمها كلَّها إلا الصنمَ الأكبرَ، فإنَّه تركه قائماً، لعلَّهُمْ إليهِ يرجعون ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء:٥٨]، وقد حدَّثنا ربُّنا في سورةِ الصافاتِ عما فَعَلَهُ بأصْنامِهم فقالَ: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الصافات:٩١-٩٣].

ورجَعَ قومُهُ من لعبهم إلى بيتِ آلهتِهِمُ المُفْتراةِ، ليأكلوا الطعامَ الذي وضَعوه هناك، فوجدوا آلهتهم محطمة إلى كتل صغيرة إلا الصنم الأكبر، فسأل بعضهم بعضاً ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنبياء:٥٩].

لقد هالهم أنْ يَجْتَرِئَ أَحَدُهُمْ على أصنامِهِمْ التي هي موضعُ احترامِهِمْ وتبجيلهم فقال لهم مَنْ سمع إبراهيمَ يحلف بأنه سيكيد أصنامهم: ﴿سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء:٦٠]، وذلك أنهم قبل أن يذهبوا إلى لهوهم في عيدهم حاوَرَهُمْ إبراهيمُ، وبيَّن لهم ضلالَهُمْ فيما يعبدونه، وتهدَّدَهُمْ بكيد أصنامِهِمْ كما سبق بيانُهُ وقد كان إبراهيم في ذلك اليوم في سنِّ الفتيان، فإن قومه قالوا: ﴿سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ﴾ والفتى الطري من الشباب. عند ذلك قال رؤساؤهم: ﴿فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء:٦١]، أي: أحضروا إبراهيم على مرأى من الناس لعلهم يشهدون أنه قال ما قال، أو يشهدون أنه فعل ذلك، أو يشهدون عقابه. وأمامَ الجمع الحاشدِ الذي كان محشوداً في بيتِ الآلهةِ الأصنامِ، قالوا له مشيرين إلى الأصنامِ التي تناثرت أشلاؤها، ولعلَّ بعضَ جذاذِها تناثرَ فوقَ الطعامِ، ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء:٦٢].

لقد كان المشهدُ عجباً، لقد كانت أشلاءُ الآلهةِ المعبودةِ المُحطَّمةِ متناثرةً في المكانِ، ولو كان عند عابديها بقيةُ عقلٍ، لعلموا أن الإلَه الذي يُكسَّرُ، ويفتَّتُ، ولا يستطيعُ الدفاعَ عن نفسِهِ، لا يصلح أن يكونَ إلهاً، ولقد كان إبراهيم حكيماً عندما تركَ الصنمَ الأكبرَ قائماً لم يُكْسَرُ، وقال لقَوْمِهِ: ﴿ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

[الأنبياء:٦٣] وأذْهَلَ الجوابُ قومَ إبراهيمَ وحيَّرَهُمْ، قال لهم: إنَّ الإله الأكبرَ هو الذي حطَّم الآلهةَ الصغرى، لأنَّه أنِفَ أنْ يشركوهُ بالعبادةِ، وطلبَ منهم أن يُوَجِّهوا السؤالَ إليه، مستعلمين مِنْه عن حقيقةِ الأمرِ.

عند ذلك أفاقوا مِنْ غَفْلَتِهِمْ، ورجع إليهم صَوابُهُمْ، ولكن الرجْعةَ والإفاقَةَ كانتْ قصيرةً، فقد رجعوا إلى الكفرِ والضلالِ الذي كانوا فيه، وقالوا له: لقد علمتَ أنَّ هذه الأصنامَ عاجزةٌ عن النطق ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء:٦٤-٦٥].

عند تلك الإفاقةِ العارضةِ واجَه قومه قائلاً لهم: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧]، قال لهم: أتعبدونَ مِنْ دونِ الله آلهةً مِن حَجَرٍ، لا تنفعُ ولا تضرُّ!! أفٍّ لكم!! والأُفُّ: صوتٌ يخرج من صاحبه، يدلُّ على مدى ضَجَرِهِ وتَبَرُّمِهِ منهم، ومن آلهتهم، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: ألا تعقلونَ حقيقةَ الأمرِ، وكون هذه الأصنام لا تستحقُّ أنْ تعبد.

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ نبيَّ الله إبراهيم لم يَكْذِبْ إلا ثلاثَ كذباتٍ اثنتان منها في ذات الله، الأولى بين هذه الثلاث قولُهُ لقومِهِ عندما دَعَوْه إلى الخروجِ معهم في عيدِهم فقالَ لَهُمْ: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات:٨٩]، والثانيةُ ما ذكره الله تعالى في هذه السورة، وهي قوله لقومه: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ [الأنبياء:٦٣].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لَمْ يَكْذِبْ إبراهيمُ عليه السلام إلا ثلاثَ كَذَبات، ثِنْتَيْنِ منهنَّ في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ قولُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات:٨٩]، وقولُهُ ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ [الأنبياء:٦٣]...» [البخاري: ٣٣٥٨. ومسلم: ٢٣٧١].

٤- تحريقُ قوم إبراهيمَ لإبراهيم عليه السلام :

لقد أقام إبراهيم الحجَّةَ على قومِهِ، ولكنهم خاصموا وعاندوا، ورفضوا الاستجابةَ للحجَّةِ التي أقامها عليهم، ودعا بعضُهم بعضاً إلى إحراق إبراهيم في النارِ، وأشعلوا له ناراً عظيمة وألقوا إبراهيمَ عليه السلام فيها ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء:٦٨]. لقد بلغَ السخفُ بقوم إبراهيم منتهاه، لقد تعاونوا وتناصروا على الباطلِ، وهنا تدخلتْ المشيئةُ الإلهيةُ الربانيةُ، فقد أمر اللهُ النارَ أن تكونَ برداً سلاماً على إبراهيمَ ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٩].

لقد أمَرَ ربُّ العزةِ -وإذا أمَرَ لم يكنْ شيءٌ ليخالفَ أمْرَه- أمر النارَ أن تكونَ برداً وسلاماً على إبراهيمَ، ولو لَمْ يُقُلْ سلاماً، لأهْلَكَ بردُها إبراهيم، ولو لم يقلْ على إبراهيمَ، لذهبَ حَرُّ النارِ، ولم ينتفع الناسُ بحرِّها بعد ذلك، وكان الأمْرُ عَجباً، فقد كانتِ النارُ تشتعلُ فيما أعدُّوه مِنْ الحَطَبِ، وإبراهيم في ذلك اللهيب المشتعل يعيشُ في بردٍ وسلام.

لقد أرادَ قومُ إبراهيمَ أنْ يُذِلُّوا إبراهيمَ، ويزيلوه مِن الوجودِ، انتصاراً لآلهتِهِمْ الباطلةِ، فأذلَّهُمْ ربُّ العزة، ونصر إبراهيمَ عليه السلام ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء:٧٠].

٥- **هجرةُ إبراهيمَ إلى الأرضِ المباركة ورزقه الذرية الصالحة:**

أكْرَمَ اللهُ تعالى إبراهيمَ بإنجائِه مِنَ النارِ، ونجَّاه هو وابنَ أخيه لوطاً إلى الأرضِ التي باركَ فيها للعالمين، وهي بلادُ الشامِ التي هاجرَ إليها مع لوط، ووهب له الذريةَ الصالحةَ، فقد رزقه بابنه إسحاقَ، وجعله نبيّاً رسولاً، ورزقهُ بحفيده يعقوبَ نافلةً، وجعله نبياً رسولاً، وكانا مِنَ الصالحين ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء:٧٢]، ومعنى ﴿نَافِلَةً﴾ أي: عطيةً، وأصلُ النافلةِ في اللغةِ الزيادةُ على الأصلِ، ومنه النوافلُ في العباداتِ، لأنها زياداتٌ على الأصلِ الذي هو الفرضُ، وولدُ الولدِ زيادة على الأصلِ الذي هو وَلَدُ الصُّلْبِ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء:٧٣] أعلمنا ربُّنا -عز وجل- أنه جعلَ الرسلَ الذين ذكرهم هنا وهم إبراهيمُ ولوطٌ وإسحاقُ ويعقوبُ أئمةً، أي: رؤساءَ وقادةً في الدين، وبين لنا بعضَ ما شرَعَهُ لهم، فقد أوحى اللهُ إليهم فِعْلَ الخيراتِ، ومِنْ ذلك إقامةُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وكانوا له عابدين، أي: مطيعين بفعلِ ما أمَرَهُمْ بِهِ، وتَرْكِ ما نهاهم عنه.

٦- **الأساطيرُ التي تذكر في كتبِ التفسيرعن إبراهيم عليه السلام:**

يذكر بعضُ المفسرين عندما يسوقونَ قصةَ إبراهيمَ شيئاً من الأساطيرِالتي هي من الغيب الذي لم يدلَّ عليه دليلٌ مِنَ الكتابِ، ولا صحيح السنةِ، وقد أبانَ العلاّمةُ ابن كثير موقفنا من هذه الغيوب، فقال: «وما يُذكَرُ عن إبراهيم من الأخبار في إدخال أبيه له في السَّرَبِ وهو رضيع، وأنه خَرَج به بعد أيام، فنَظَر إلى الكواكب والمخلوقاتِ فتَبَصَّر فيها، وما قَصَّه كثيرٌ من المفسرين وغيرهم فعامَّتها أحاديثُ بني إسرائيل، فما وافق منها الحقَّ مما بأيدينا عن المعصوم قَبِلناه لموافَقَتِهِ الصحيحَ، وما خالَفَ شيئاً من ذلك رَدَدناه، وما ليس فيه موافقةٌ ولا مخالفةٌ لا نُصَدِّقه ولا نُكَذِّبه، بل نجعَلُه وقفاً، وما كان من هذا الضَّرْبِ منها فقد تَرَخَّصَ كثيرٌ من السلَفِ في روايَتِها، وكثيرٌ من ذلك مِمَّا لا فائدةَ فيه، ولا حاصلَ له مما يُنْتَفَعُ به في

الدين، ولو كانت فيه فائدةٌ تعودُ على المُكَلَّفين في دينهم لَبَيَّنته هذه الشريعةُ الكاملةُ الشاملةُ. والذي نَسْلُكه في هذا التفسير الإعراضُ عن كثير من الأحاديثِ الإسرائيلية، لما فيها من تَضْييع الزمانِ، ولما اشتَمَل عليه كثيرٌ منها من الكَذِب المروَّج عليهم، فإنهم لا تَفْرِقَةَ عندهم بين صَحيحها وسَقيمها، كما حَرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة» [تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٦٩].

رابعا: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أثنى اللهُ -تعالى- على عبدِهِ ورسولِه إبراهيم أنَّه آتاه رُشْدَهُ وكان عالماً بِهِ.

٢- إنكارُ إبراهيم عليه السلام على أبيه وقومِهِ عبادتَهُمُ الأصنامَ من دونِ الله.

٣- قرَّر إبراهيمُ عليه السلام لقَوْمِهِ أنَّ اللهَ خالقُ السمواتِ والأرضِ هو الذي يستحقُّ أنْ يعبدَ دون غيره.

٤- كان إبراهيمُ عليه السلام في غايةِ القوةِ والجرأةِ في دين الله عز وجل، فقد حَطَّم أصنامَهُمْ، وجَعَلَها جذاذاً، ليظهرَ لقومِهِ عجزَها، وأنها لا تستحقُّ أن تُعبَدَ مِنْ دون الله.

٥- آتى اللهُ تعالى إبراهيمَ عليه السلام حُجَّتَهُ على قومِهِ، فقد حَطَّمَ أصنامَهُمْ، وبيَّنَ لقومِهِ ضعفَ هذه الآلهةِ وعجزها، واضطرَّ قوْمَه إلى الإقرارِ بأنها عاجِزَةٌ عن الكلامِ.

٦- أرادَ قومُ إبراهيمَ إذلالَهُ، والقضاءَ عليه بحَرْقِهِ، فأعزَّه اللهُ تعالى، وأمَرَ النار أن تكون عليه برداً وسلاماً، وبذلك نَصَرَه وأعَزَّه، وجعل قَوْمَهُ هم الأخسرين.

٧- قلة من آمنَ بإبراهيمَ، فلم يُؤْمن لَهُ إلا نبيُّ الله لوط، وهو ابن أخي إبراهيم، ودلَّت نصوصٌ أخرى على إيمانِ زوجته سارةَ بِهِ.

٨- هاجَرَ نبيُّ الله إبراهيمُ عليه السلام ، هو وابنُ أخيه لوطٌ إلى الأرضِ التي باركَ اللهُ فيها للعالمين، وهي المسجدُ الأقصى وما حوله.

٩- أكرمَ اللهُ تبارك وتعالى نبيَّه إبراهيمَ بأن وَهَبَ لَهُ ولداً مِنْ نسله هو إسحاقُ، ووهبَ له يعقوبَ، وهو حفيدُه مِنْ ابنِهِ إسحاق.

١٠- مِنْ إكرامِ الله لرسولِهِ إبراهيمَ عليه السلام والخيرةِ مِنْ ذريته وهما إسحاق ويعقوب، ومعهما نبيُّ الله لوط، حيث جعلهم أئمة يَهْدُون بأمرِ الله، وأوحى إليهم إقامَ الصلاةِ، وإيتاءَ الزكاةِ وفعلَ الخيرات، وجعلهم عابدين له وَحْدَه.

النص القرآني السادس من سورة الأنبياء
ذكر طائفة من الأنبياء الكرام

أولاً: تقديم

هذه السورة هي سورة الأنبياء، وقد أورد اللهُ فيها أخبارَ جملةٍ مِنَ الأنبياءِ، فقد ذكر اللهُ فيها فيما سَبَقَ أنبياءَ الله موسى وهارون وإبراهيم وإسحاقَ ويعقوبَ، وذكر ربُّنا تبارك وتعالى في هذا النصِّ والنصِّ التالي جملةً من الأنبياءِ، فقد ذكر في هذا النصِّ أنبياءَه لوطاً، ونوحاً، وداودَ وسليمانَ، وأيوبَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٤-٨٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ثناءُ اللهِ تعالى على رسولِهِ لوطٍ عليه السلام:

أثنى اللهُ تعالى على عبدِهِ ورسولِهِ لوطٍ عليه السلام، فقال: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٤]. وقد سَبَقَ في هذه السورةِ أنَّ نبيَّ الله لوطاً عليه السلام كان مِنْ أهلِ العراقِ، وقد آمنَ لإبراهيم عليه السلام، وهاجرَ معه إلى الأرضِ التي باركَ اللهُ فيها، ويقال: إنه ابنُ أخي إبراهيمَ، وقد أَرْسَلَهُ اللهُ تعالى إلى القريةِ التي كانت تعمل الخبائثَ.

وقد أثنى اللهُ -تعالى- على لوطٍ بأنّه آتاه حكماً وعلماً، والحكم: النبوة، أو الفصل بين الناس، والعلم، أي: بالدين الذي أوحى الله تعالى به إليه، والخبائثُ: التي كان أهلُ القريةِ يعملونها كثيرة، وأشدُّها خبثاً إتيانُ الرجالِ، وكانوا يفعلون ذلك علانية، يبصرُ بعْضُهمْ بعضاً ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النمل:٥٤]، وكانوا أوَّلَ مَنِ ابتدع هذه الفعلةَ الخبيثةَ ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٨]، وقد دَمَّرَ اللهُ ديارَهُمْ وجعل عاليَها سافلَها، وأصبح فوقها بحرٌ غيرُ صالحٍ للحياة، لشدَّة ملوحته.

وقد ذمَّ الله قومَ لوطٍ بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٤]، وقد أدْخَلَ اللهُ نبيه لوطاً في رحمته، وأخبر أنه مِنَ الصالحين ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٥].

٢- دعاء نبيِّ الله نوحٍ ربَّه على قومِهِ بالهلاك:

أَخْبَرَنا ربُّنا عزَّ وجلَّ عن نبيِّه نوحٍ ﷺ أنه نادى ربَّه، وقد كان نوحٌ مبعوثاً قبل لوطٍ، والمعروفُ أنَّ نوحاً أوَّلُ الرسلِ ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧].

وقد أعلمنا ربُّنا في سورةِ نوحٍ بالدعاءِ الذي دعا به نوحٌ على قومِهِ، فاستجاب اللهُ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

والكربُ العظيم الذي نجَّى اللهُ نوحاً والمؤمنين معه منه، هو الغرقُ بالطوفانِ الذي أرسلَهُ اللهُ على قومِهِ، والنصرُ الذي نصرَ اللهُ به نوحاً، هو نجاته ومن آمن به من شر قومه المكذبين، لقد نجّاه الله وأغرقهم فأهلكهم ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

٣- ثناءُ ربِّ العزة على نبيِّه داودَ وابنِهِ نبيِّ اللهِ سليمان:

أثنى اللهُ -تعالى- على نبيِّه داودَ وسليمانَ في حكمهما في الحَرْثَ الذي نَفَشَتْ فيه غنمُ القوم ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

وهذا النصُّ القرآنيُّ واضحُ الدلالةِ على أنّ داودَ وسليمانَ وهما نبيان حَكَما في غنمِ قوم دخلتْ غَنَمُهُمْ في زرعِ قوم ليلاً فأفسدته، والنَّفْشُ رَعْيُ الغنم ليلاً، فقضى كلُّ واحدٍ منهما باجتهادِهِ، فلو كانَ الذي حكَما به وحياً، لما اختلف الحكمُ الذي حَكَمَ كلُّ واحد بِهِ، وأعلمنا رَبُّنا أنَّه كان شاهداً لما حَكمَ كُلُّ واحدٍ منهما بِهِ.

وأخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ سليمانَ فهم الدعوى التي كانت مطروحةً للحكم، وأثْنَى على حُكْمِهِما كِلَيْهما، وهذا موافق لما أخبر بِهِ رسولُنا ﷺ في الحديثِ الذي رواه عنه عمرو بن العاص، ففيهِ أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا حَكَمَ الحاكمُ فاجتهدَ، ثمَّ أصابَ فَلَهُ أجْرانِ، وإذا حَكَمَ فاجْتَهَدَ، ثُمَّ أخْطَأَ فَلَهُ أجْرٌ» [البخاري: ٧٣٥٢. ومسلم: ١٧١٦]. ولم تَرِدْ هذه القصة في آيةٍ أخرى، ولم ترد في حديثٍ صحيحٍ، ونصُّها كافٍ في بيانِ المقصودِ منها.

ويبدو أنَّ نبيَّ الله سليمان عليه السلام كان متميزاً في التعرُّفِ على الحكمِ الصحيحِ، فقد ذكر لنا رسولُنا ﷺ قصةً أُخرى، أصابَ فيها سليمانُ الحكمَ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمعَ رسول الله ﷺ ، يقول: «كانتِ امرأتان معهما ابناهُما، جاءَ الذِّئْبُ فذهبَ بابنِ إحداهما، فقالت صاحبَتُها: إنَّما ذهبَ بابنِكِ، وقالت الأُخرَى: إنَّما ذهبَ بابنِك، فتحاكَمَتا إلى داودَ، فقضَى به للكُبْرَى، فخَرَجَتا على سليمانَ بن داودَ فأخبرَتاه، فقال: ائتوني بالسِّكِّينِ أشُقُّه بينَهما. فقالت الصُّغْرَى: لا تَفْعَلْ يَرحَمُكَ اللهُ، هو ابنُها، فقَضَى به للصُّغْرَى» [البخاري: ٣٤٢٧. ومسلم: ١٧٢٠].

وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عما خصَّ به نبيَّهُ داودَ عليه السلام ، فقالَ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء:٧٩-٨٠].

وأوَّلُ ما خَصَّ به نبيه داودَ ما وَهَبَهُ مِنَ الصوتِ الجميلِ، فكان عندما يتلو الزبورَ الذي أنزله اللهُ عليه، فإن الجبالَ كانت تأوِّبُ معه، أي: تُردِّدُ تلاوتَهُ، وكانت الطيرُ تقفُ في الهواءِ تستمعُ لصوتِهِ، وكان نبيُّ الله داود يملك صوتاً في غايةِ الحُسْنِ والجمالِ، وقد كان أبو موسى الأشعري جميلَ الصوتِ إذا قرأ القرآنَ، وقد أخبر الرسولُ ﷺ أنّه أوتي مزماراً من مزاميرِ آل داودَ، ففي الحديث أنَّ الرسولَ ﷺ قال له عندما استمع إلى تلاوته: «لَوْ رأَيْتَني وأنا أسْتَمِعُ لقراءَتِكَ البارِحَةَ، لقد أُوْتِيْتَ مِزْماراً مِنْ مَزاميرِ آلِ داودَ» [البخاري: ٥٠٤٨. ومسلم: ٧٩٣. واللفظ لمسلم].

والأمْرُ الثاني الذي خَصَّ اللهُ به نبيَّه داودَ حكاه اللهُ في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: علَّمَهُ صنعةَ الدروعِ، وكانتِ الدروعُ قبلَ داود تصنعُ

صفائِحَ، وكان داودُ أوّلَ مَنْ سَرَدَها حِلَقاً، قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ:١٠-١١]، أي: لا توسِّع الحَلَقَةَ، فتُقْلِقَ المسمارَ، ولا تُغْلِظِ المِسْمارَ فتقدَّ الحلقة، ولهذا قال: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ يعني: تحميكم في ميدانِ الحربِ والقتالِ [تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٧٨].

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾ أي: هل أنتم شاكرونَ هذه النعمةَ التي أنْعَمَ اللهُ بها عليكم، وهو ما هَدَى اللهُ إليه نبيَّهُ داودَ من صناعةِ الدروعِ.

ثمَّ ذكر ما خصَّ اللهُ به نبيَّهُ سليمانَ فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ۝٨٢﴾ [الأنبياء:٨١-٨٢]. أخبرنا ربُّنا أنَّه سَخَّرَ لنبيِّه سليمانَ الريحَ العاصفةَ، فكانت تحملُهُ وتَحملُ جندَه وخيولَه وخيامَه، فتنقلهم إلى المكانِ الذي يريدُه من الأرضِ المباركةِ، وسخَّر له الشياطينَ يقومون بالأعمالِ المختلفةِ، ومن ذلك أنَّهم يغوصون في البحارِ، ويستخرجون كنوزَها وما فيها من حُلِيٍّ وجواهر، وقولُه: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الغوص، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧﴾ [ص:٣٧] ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ۝٨٢﴾ أي: أنَّ الله كان يحفظُ سليمانَ ومَنْ معه من أنْ تكيدَهُمْ الشياطينُ، فلم يكن أحدٌ منهم يستطيعُ أنْ يضرَّ أحداً منهم.

٤- صبر نبي الله أيوب:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ نبيَّه أيوبَ ناداه: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

وقد أوْرَدَ بعض المفسرين أخباراً كثيرة تتحدثُ عن نبي الله أيوبَ، ولم يصحَّ شيء منها إلا حديثٌ واحدٌ، ومن هؤلاءِ الذين سَوَّدوا صفحاتٍ كثيرةً في إيرادِ هذه الأخبارِ البغويُّ، فقد أورد أكثرَ من عشرِ صفحات في ذلك [تفسير البغوي: ٥/ ٣٣٧-٣٤٧].

والحديث الصحيحُ الذي أشَرْتُ إليه هو الذي رواه أنس بنُ مالكٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ نبيَّ الله أيوبَ ﷺ لبثَ بِهِ بلاؤُه ثماني عشرةَ سنةً، فَرَفَضَهُ القريبُ والبعيدُ إلاَّ رَجُلَيْنِ من إخْوانِهِ كانا يَغْدُوان إليهِ ويَروحانِ، فقالَ أحدُهُما لصاحِبه ذاتَ يومٍ: تَعْلَمْ واللهِ لقد أذْنَبَ

أَيُّوبُ ذَنْباً ما أَذْنَبَهُ أحدٌ مِنَ العالمينَ، فقالَ لَهُ صاحِبُه: وما ذاكَ؟ قال: منذ ثماني عشرةَ سنةً لم يَرْحَمْه الله، فيكشفُ ما بِهِ.

فلمَّا راحا إلى أيوبَ لم يصْبِرِ الرجُلُ حتى ذَكَرَ ذلك له، فقالَ أيوبُ: لا أدري ما تقولانِ غير أنَّ الله تعالى يَعْلم أنِّي كنتُ أمر بالرجلين يتنازعان، فيذكرانِ الله، فأَرْجِعُ إلى بيتي، فأكفِّر عنهما، كراهية أنْ يُذْكَرَ اللهُ إلا في حَقٍّ.

قال: وكانَ يخرُجُ إلى حاجتِهِ فإذا قَضَى حاجَتَهُ أَمْسَكَتْهُ امرأَتُهُ بيدِهِ حتى يبْلُغ، لَمَّا كانَ ذات يوم أَبْطأَ عليها، وأُوحِي إلى أيوبَ أنْ ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص:٤٢]، فاسْتَبْطَأَتْهُ، فتَلَقته تنظرُ، وقد أَقْبَلَ عليها وقد أَذْهَبَ الله ما به من البلاءِ، وهو أحْسن ما كانَ، فلما رَأَتْه قالتْ: أي بارَكَ الله فيكَ، هل رأيتَ نبيَّ الله هذا المُبْتَلَى، والله على ذلك ما رأيتُ أشْبه منكَ إذْ كانَ صحيحاً، فقالَ: فإنِّي أنا هُوَ.

وكان له أندران (أي: بيدران) أَنْدَرٌ للقمحِ وأَنْدَرٌ للشعيرِ، فبَعَثَ الله سَحابَتين، فلما كانت إحْداهما على أندرِ القمحِ أفْرَغَتْ فيه الذَّهَبَ حتى فاضَ، وأفْرَغَتْ الأخرى في أَنْدَرِ الشعيرِ الوَرِقَ حتى فاضَ». [أورد هذا الحديث ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٤)، وعزاه إلى أبي يعلى في مسنده (١/ ١٧٦-١٧٧) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٧٤-٣٧٥). وقال الشيخ ناصر فيه: الحديث صحيح، وقد صححه الضياء المقدسي، فأخرجه في «المختارة» (٢/ ٢٢٠-٢٢١)، ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٠٩١)].

لقد طالَ صبرُ أيوبَ حتى بلغَ ثماني عشرةَ سنة، فلما نادى ربَّه شَفاه اللهُ سريعاً، لقد نادى ربَّه قائلاً: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣] فأمره اللهُ أن يضربَ برجله الضعيفةِ الأرضَ، فانبثقَ الماءُ مِنَ الأرضِ، فأمَرَه أنْ يغتسلَ مِنْ ذلكَ الماءِ، ويشربَ منه، فأذهب اللهُ عنه كلَّ ما يجدُ مِنْ بلاءٍ وداءٍ وأوجاع، وآتاه الله ضِعْفَ ما كان عنده من أولادٍ، وآتاه من المال الكثير، كلُّ ذلك رحمةً من الله، وذكرى لمن يَحْبِسُ نفسَه على عبادةِ الله.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - أثنى اللهُ تعالى على نبيِّهِ لوطٍ ﷺ بأنَّه آتاه علماً وحكماً، ونجَّاه من القريةِ التي كانتْ تعمل الخبائث، وأدْخَلَه في رحمتِهِ، فهو من عباد الله الصالحين.

٢ - أثنى ربُّنا على نوحٍ، فقد دَعاهُ فاستجابَ لَهُ، فأغرقَ الله الظالمين، ونَجَّى نوحاً والذين آمنوا معه في السفينةِ.

٣- أثنى اللهُ على نَبِيّه داودَ وسليمانَ، فقد حَكَما في الحرثِ الذي رعتْه الدوابُّ ليلاً، فأثنى على سليمانَ، لأنه فَقِهَ المسألةَ، ولم يذمَّ داودَ، فالذي اجتهدَ وأصابَ له أجران، والذي أخطأ له أجْرُ اجتهادِهِ.

٤- كان نبيُّ الله سليمانُ فَطِناً في بابِ القضاءِ.

٥- أعطى اللهُ نبيَّه داودَ جمالَ الصوتِ، وعلَّمه صناعةَ الدروعِ على نحو فريدٍ.

٦- خصَّ اللهُ نبيَّهُ سليمانَ عليه السلام بأنْ سَخَّرَ لَهُ الريحَ تحملُه وجندَه حيث يريدُ، وسَخَّرَ له الشياطينَ، يقومون بما يَأْمرهم بِهِ، ولا يستطيعون عِصيانَهُ.

٧- أثنى اللهُ تعالى على نبيِّهِ الصابرِ أيوبَ، الذي مَكَثَ به بلاؤه ثماني عشرةَ سنةً، فلما دعاه كشفَ اللهُ ضُرَّه، وآتاه ضِعْفَ ما كان لَهُ مِنْ أهلٍ، وأعطاه مِن المالِ الكثيرِ.

النص القرآني السابع من سورة الأنبياء
ذكر الله -تعالى- طائفة أخرى من الأنبياء الكرام

أولاً: تقديم

أَوْرَدَ اللهُ -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ طائفةً أخرى من الأنبياءِ الكرامِ، وهم إسماعيلُ وإدريسُ وذو الكفل وذو النون وزكريا وعيسى، وأثنى على كلِّ واحدٍ منهم، وذكرَ بعضَ ما خصَّ به كلَّ واحدٍ منهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٥-٩١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذكرُ أنبياء الله: إسماعيل وإدريس وذي الكفل:

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على أنبيائه إسماعيلَ وإدريسَ وذي الكفل ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٥-٨٦]، وإسماعيلُ هو ابن نبيّ الله إبراهيمَ، أسْكَنه إبراهيمُ وأُمَّه في مكةَ، وبنى معه الكعبةَ، وهو أبو العربِ المُسْتَعْرِبَةِ.

وإدريسُ نبيٌّ من الأنبياءِ، وقد ذكره اللهُ تعالى في قوله: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ [مريم:٥٦-٥٧] والمكانُ العليُّ الذي رفعه اللهُ إليه أخبرنا به رسولُنا ﷺ، فقد أخْبَرَنا أنّه التقاه في السماءِ الرابعةِ عندما عُرِجَ به إلى السمواتِ العلى.

وذو الكفلِ أَحَدُ أنبياءِ الله تعالى، ذكره اللهُ في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ص:٤٨] ولم يَرِدْ ذِكْرُه في غير هاتين الآيتين، ولم يَرِدْ ذكره في حديثٍ صحيح.

وقد أَثْنَى اللهُ على أنبيائه الثلاثةِ في آيةِ هذه السورة، ووصفهم جميعاً بالصابرين، وأخبرنا ربنا أَنَّه أدخلهم في رحمتِهِ، إنَّهم مِنَ الصالحين.

وأَمَرَ الله تعالى نبيه محمداً ﷺ في آيةِ سورة (ص) أن يذكر مِنَ الأنبياءِ الثلاثةِ إسماعيلَ وذا الكفل، وذكر أنهما مع نبي الله اليسع من الأخيارِ.

٢- ذكر الله نبيَّهُ ذا النون:

ذَكَرَ اللهُ تعالى في هذه السورة نبيَّه ذا النونِ، فقالَ: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

وذو النون هو نبيُّ الله يونسُ بن مَتَّى، والنونُ السمكةُ أو الحوتُ، وسُمِّيَ بذي النونِ لابتلاعِ الحوتِ لَهُ ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات:١٤٢] أي: ابتلَعَهُ الحوتُ وهو فاعلٌ ما يلامُ عليه، وسمَّاه اللهُ -تعالى- في موضع آخر بصاحبِ الحوتِ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم:٤٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ [الأنبياء:٨٧]، قال الشنقيطيُّ ناقلاً عن أبي حيَّانَ: «في حالِ كونِهِ مغاضباً قومَهُ، وأَغْضَبُوهُ حين دعاهم إلى الله مدةً، فلم يجيبوه، فأَوْعَدَهُمْ بالعذابِ، ثم خرجَ مِنْ بينهم على عادةِ الأنبياءِ عند نزولِ العذابِ، قبل أَنْ يأْذَنَ اللهُ لَهُ بالخروجِ» [أضواء البيان: ٤/ ٨٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء:٨٧]، أي: فظنَّ أنْ لَنْ نعاقِبَهُ بالتَّضْييقِ عليه في بطنِ الحوتِ، قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾ [الطلاق:٧] أي: ضُيِّقَ عليه في رِزْقِهِ.

وقوله تعالى: ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧]، أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ ذا النونِ بعدَ أنْ ابتلعَهُ الحوتُ نادى في الظلماتِ، فقد كانَ في ظلماتٍ بعضُها فوقَ بعضٍ، فقدْ كان في ظلمة بطنِ الحوتِ، ثمَّ في ظلمةِ البحرِ، ثم في ظلمةِ الليلِ عندما يَجِنُّ عليه اللَّيْلُ، وقدْ أعلمنا ربُّنا تباركَ وتعالى بالنداءِ

الذي نادى بِهِ في بطنِ الحوتِ فقالَ: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: لا معبودَ يستحقُّ العبادةَ غيرُكَ سبحانَكَ، إنِّي كنتُ مِنَ الظالمين، فاستجابَ اللهُ دعاءَه ونجَّاهُ مِنَ الغمِّ الذي أصابَهُ بابتلاعِ الحوتِ له، وكذلك ينجي اللهُ المؤمنين إذا ما حَلَّت بِهِمْ المصائبُ والنكباتُ فدَعَوْا رَبَّهم مخلصين له الدينَ.

وقد أعْلَمنا رسولُنا ﷺ بأنَّ العبدَ المؤمنَ إذا أُصيبَ بمصابٍ فدعا بهذه الدعوةِ، فإن اللهَ يجيبُ دعوتَهُ، فعن سَعْدٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «نَعَمْ، دَعْوةُ ذي النُّونِ إذْ هُو في بَطْنِ الحوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء:٨٧] فإنَّه لم يَدْعُ بها مسلمٌ ربَّه في شيءٍ قطُّ إلاَّ استَجابَ له» [مسند أحمد، حديث رقم: ١٤٦٢. وعزاه محققو المسند إلى أبي يَعْلَى (٧٧٢) وأخرجه مختصراً الترمذيُّ (٣٥٠٥)، والنسائيُّ في «اليوم والليلة» (٦٥٦) وصحح الحاكم إسناده، ووافقه الذهبي. وارجع إلى المسند للاطلاع على بقية تخريجه].

٣- استجابةُ اللهِ تعالى دعاءَ نبيِّ اللهِ زكريا ﵇:

أخْبَرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- طرفاً من خَبَرِ نبيِّهِ زكريا ﵇، فقال: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى في سورةِ آل عمران نبيَّه زكريا بأوْسَع مما ذكَرَهُ هنا، وذَكَرَه في «مريم» وذكر في هذه الآيات أنَّ زكريا دعا ربَّه قائلاً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: لا تَتْرُكني وحيداً من غيرِ ولدٍ، ثم أثنى على ربِّه -تبارك وتعالى- بأنَّه الباقي بعدَ فناءِ خلقِهِ، وأنه أفْضَلُ مَنْ بقيَ حيّاً بعد مَيتٍ، وأنَّ كلَّ الخلقِ يموتون، ويبقى هو سبحانَهُ.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أجابَ دعاءَه، وقَبِلَ رجاءَه، ووهبَهُ وَلَدَه يحيى، وأصْلَحَ له زوجَهُ، فأصبحتْ صالحةً للإنجابِ بعد أنْ كانتْ عقيماً، وأثنى ربُّ العزةِ على زكريا وزوجِه وابنِهما يحيى بأنَّهُمْ كانوا يسارعون في فعلِ الخيراتِ، ويدعون اللهَ تعالى راغبين في رحمته، خائفين من غضبِهِ وانتقامه، وكانوا له خاشعينَ، أي: متواضعين متذلِّلينَ.

٤- ثناءُ الله -تعالى- على مريمَ وجعلُها وابْنَها آية للعالمين:

أثْنَى ربُّ العزةِ -تباركَ وتعالى- على مريمَ عليها السلامُ الصديقةِ، وأعلمنا أنَّها أحْصَنَتْ فرجَها، أي: حفظَتْهُ، فنفخَ فيها من روحِهِ، والمرادُ بروحِهِ، أي: جبريل ﵇، وقد فصَّل اللهُ تعالى القولَ في كيف حملت بعيسى ﵇ وولادتها في سورةِ (مريم).

وأخْبَرَنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّه جعَلَ مريمَ وابنَها آيةً للعالمين ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء:٩١].

قال الواحديُّ: «قال الفراءُ والزجَّاجُ والكسائيُّ: وَحَّد الآيَةَ بَعْدَ ذكرهما جميعاً لَمَّا كانَ شأْنُهما واحداً، وكانتْ الآيةُ فيهما واحدةً، وهي ولادةٌ من غير فحلٍ».

وقال الواحديُّ أيضاً: «الآيةُ فيها واحدةٌ، وهي كَوْنُ عيسى من غيرِ أبٍ وولادةُ أُمِّهِ من غيرِ ذَكَرٍ، ومعنى كَوْنِهما آية للعالمينَ ما ظهرَ فيهما مِنَ الآياتِ التي دلت على قدرة الله» [تفسير الواحدي:١٥/ ١٨٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أثنى اللهُ تعالى على أنبيائِه إسماعيلَ وإدريسَ وذي الكفلِ، وأخبر أنَّهم كانوا مِنَ الصابرين، وأدْخَلَهُمْ في رحمتِهِ، لأنهم مِنَ الصالحين.

٢- أعلمنا ربُّنا أنّ ذا النونِ خَرَجَ مِنْ قومِهِ مغاضِباً لهم، وتركهم مِنْ غيرِ أنْ يأْذَنَ اللهُ له بمفارَقَتِهِمْ، فركبَ السفينةَ، فوقعَ ما أدَّى إلى قذفِهِ في البحرِ، فابتلعه الحوتُ، فنادى ربه، واستغاث به، فنجاه من الغم، وقذفه الحوت على شاطئ البحر.

٣- فَضْلُ الدعاءِ الذي دعا به يونس وهو في جَوْفِ الحوتِ، ومَنْ دعا بمثْلِهِ مِنَ المؤمنين فإنَّه يُرْجَى أن يُنْجيهُ الله مِنَ الغَمِّ الذي أصابه.

٤- دَعا نبيُّ الله زكريا طالباً الولد من ربِّه، وكان قد بلغَ مِنَ الكبرِ عتيّاً، فاستجابَ اللهُ دعاءَه، فأصْلَح اللهُ له زوجَهُ، فأصبحت ولوداً بعد أن كانت عقيماً، وأثنى الله تعالى على هذه الأسرةِ الكريمةِ بأنَّهم كانوا يدعونه راغبين راهبين، وكانوا له خاشعين.

٥- أثنى اللهُ تعالى على مريمَ عليها السلام، وأعلمنا أنَّها حفظتْ فَرْجَها، وجَعَلها اللهُ وابنها آيةً للعالمين، فقد حَمَلَتْ مِنْ غيرِ زوجٍ، وجاء عيسى مِنْ أُمٍّ بلا أبٍ.

النص القرآني الثامن من سورة الأنبياء
الأنبياء والرسل على مدار التاريخ يمثلون أُمَّةً واحدةً دينهم واحد

أولاً: تقديم

أعْلمنا ربُّنا في هذه الآياتِ أنَّ الأنبياءَ والرسلَ ومَنْ تبعهم بإحسانٍ على مدارِ التاريخِ الإنسانيِّ يمثلون أمَّةً واحدةً، دينها واحدٌ، وحَدَّثنا في هذه الآيات عن وقائع تقعُ في مقبلِ الزمانِ، ومنها خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ، وعن مصيرِ المؤمنين والكافرينَ في يومِ الدين، وعن نهاية هذا الكونِ حيث سيطوى كطيِّ السجلِ للكتبِ، وهذا اليومُ لا يعلمُ وقتَ وقوعِهِ غيرُ ربِّ العزةِ سبحانَهُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنبياء

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

[الأنبياء:٩٢-١١٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأنبياءُ والرسل على دينٍ واحدٍ:

أخبرنا ربُّنا أنَّ جميعَ الأنبياءِ والرسل على دينٍ واحدٍ ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٣]، فدين الرسُل جميعاً الإسلامُ، وهم جميعاً على التوحيد، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩] وقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٢]، أي: أن الله هو رب الخلق جميعاً -أيها الناس- فاعبدوه وحده لا شريك له.

٢- اختلافُ الناس في دينهم:

بعد أنْ كان الناسُ على دينٍ واحدٍ تنازعوا واختلفوا، فأصْبَحَ الدينُ أدياناً، وعبدَ الناسُ آلهةً كثيرةً مِنْ دونِ الله تعالى ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٣]، أي تَفَرَّقَ الناسُ في دينهم الذي أَمَرَهم اللهُ تعالى به، فأصبحوا شيعاً وطوائف، فمنهم اليهود، ومنهم النصارى، ومنهم عبدة الأوثان، والمجوس، والبوذيون وغيرهم من الفرق المختلفة الذين اتخذوا من دون الله معبودات شتى.

وعَبَدَ الناسُ مِنْ دونِ الله الشمسَ والقمرَ والنجومَ والبحارَ والأشجارَ والبشرَ، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ أي: يرجعون إلى ربِّهم في يومِ الدين، فيحاسبهم على ما قَدَّموه.

٣- الناسُ في يوم الدين فريقان:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ الناس تقطعوا أمرهم بينهم، واختلفوا وتفرقوا في أمرِ دينهم، وأصبحوا فريقين: الأول: المؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ، فهؤلاءِ لا كفران لسعيهم، ولا جحودَ لعملهم، ولا يضيعُ جزاؤُهم، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٤]، ومعنى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ أي: تَكْتُبُ ملائكةُ الرحمنِ إيمانَه وعَمَلَه، فلا يضيعُ منه شيءٌ.

والثاني: ذكرهم اللهُ -تعالى- في قوله: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٥].

والمعنى أنَّ القرى التي أَهْلَكَها اللهُ بكفرِها وضلالِها كقومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وقومِ صالحٍ وقومِ لوطٍ وقومِ فرعون وغيرِها، لا يرجعونَ بعد هلاكهم إلى الحياةِ قبلَ يوم القيامةِ، وإنما يبعثهم يومَ القيامةِ، وهناك يكونُ حسابُهُم وجزاؤُهم.

٤- اقترابُ الساعة وخروجُ يأجوج ومأجوج:

أعلمنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- عن فتح يأجوجَ ومأجوجَ، وخروجِهِمْ على الناسِ في آخِرِ الزمانِ، وامتلاءِ الأرضِ بهم، ويأجوجُ ومأجوجُ قبيلتان من بني آدمَ، وهما القبيلتان اللتان سَبَقَ الحديثُ عنهما في آخر سورةِ الكهفِ، وقد بنى عليهما ذو القرنين السدَّ العظيم، فمنعَ مِنْ إفسادِهِما على مَنْ جاورها، وقد حَدَّثنا ربُّنا عن خروجِ يأجوجَ ومأجوج في آخرِ الزمانِ، فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٦]، ويكونُ خروجُهُمْ بَعْدَ أنْ يتحطَّم السدُّ الذي أقامَهُ ذو القرنين عليهم، وقد وقفَ ذو القرنين أمامَ السدِّ بعد بنائه لَهُ وقال مخبراً عن دمارِه في آخرِ الزمان ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف:٩٨]، وقوله: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي: جعلَ السدَّ منهدماً مستوياً بالأرض.

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ خروجَ يأجوجَ ومأجوج يكونُ بعد نزولِ رسولِ الله عيسى، وبعد قَتْلِهِ الدجالَ، فعن النوَّاسِ بن سمعانٍ قال: «ذَكَرَ رسولُ الله ﷺ الدجالَ ذاتَ غداة» ثم ذكر في الحديث نزولَ المسيحِ عيسى ابن مريم، وقتلَه الدجالَ بـ «باب لُدٍّ» ثم قال: «فبينما هو كذلك إذ أَوْحَى الله إلى عيسى: إني قَدْ أَخْرَجْتُ عباداً لي، لا يَدانِ لأَحَدٍ بقِتالِهِمْ، فحَرِّزْ عِبادي إلى الطور، ويَبْعَثُ اللهُ يأْجُوجَ ومأْجُوجَ، وهم من كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فيَمُرُّ أوائِلُهُمْ على بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّة، فيشربون ما فيها، ويَمرُّ آخِرُهُمْ فيَقُولونَ: لقد كانَ بهذه مَرَّةً ماءٌ، ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى وأَصْحابُهُ، حتى يكونَ رأْسُ الثورِ لأحَدِهِمْ خيراً من مائةِ دينارٍ لأَحَدِكُمُ اليومَ، فيَرْغَبُ نبيُّ الله عيسى وأصْحَابُهُ، فيُرْسِلُ الله عليهِمُ النَّغَفَ في رِقابِهِمْ، فيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ واحدةٍ، ثُمَّ يَهْبطُ نبيُّ الله عيسى وأَصْحابُهُ إلى الأَرْضِ، فلا يَجِدُونَ في الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إلاَّ مَلأهُ زَهَمُهُمْ، ونَتْنُهُمْ.

فَيَرْغَبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُهُ إلى الله، فيُرْسِلُ الله طيراً كأَعْناقِ البُخْتِ، فتَحْمِلُهُمْ فتَطْرَحُهُمْ حيثُ شاءَ الله، ثمَّ يُرْسِلُ الله مطراً لا يَكُنُّ مِنْهُ بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، فيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَها كَالزَّلَفَةِ، ثم يقالُ للأرضِ: أَنْبِتي ثَمَرَتَكِ، ورُدِّي بَرَكَتَكِ، فيومَئِذٍ تَأْكُلُ العِصابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ. ويَسْتَظِلُّونَ بقِحْفِها، ويُبارَكُ في الرِّسْلِ، حَتَّى إنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإبلِ لتَكْفِي الفِئَامَ

مِنَ الناسِ. واللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتكْفِي القبيلةَ مِنَ الناسِ، واللِّقْحَةَ مِنَ الغنَمِ لَتكْفِي الفَخِذَ من الناس» [مسلم:٢٩٣٧].

وقولُه: «يَرْغَبُ إلى الله»: يَدْعُوه. والنَّغَفُ: دودٌ يكونُ بأعناقِ الإبلِ والغَنَم. وفَرْسَى: قَتْلَى. وزَهمهم: دَسَمُهُمْ وقاذُورَاتهم. والبُخْتُ: نوعٌ من الجِمالِ عظيمةُ الأعناقِ. ولا تكنُّ: لا يُمنعُ منه. مَدَرٌ: الطينُ الصلبُ والحجارة، والزلفةُ: المرآةُ. والعصابةُ: الجماعَةُ. وقَحْفُ الرُّمانةِ: قِشْرُها إذا أُخِذَ مِنْهُ الحبُّ، فأصبحَ كَقَحْفِ الرأسِ. والرِّسْلُ: اللَّبَنُ. واللَّقْحَة: الصغيرةُ مِنَ النياقِ أو البقرِ أو الغنمِ. والفئامُ: الجماعةُ الكبيرةُ. والفَخِذُ: الجماعة مِنَ القبيلةِ مِنْ أب واحد.

وقد أخبر رسولُنا ﷺ في الحديث أنَّه عندما ينتهي عيسى ومَنْ معه مِنَ القضاءِ على الدجالِ، يوحي اللهُ إلى عيسى عليه السلام: «إني قد أخرجتُ عباداً لي، لا يدان لأحدٍ بقتالهم» أي: لا قدرةَ ولا طاقَةَ، «فَحَرِّزْ عبادي إلى الطورِ» والطورُ الجبلُ، يأمُرُهُ أنْ يتحصنَ هو ومَنْ معه في جبلٍ من الجبال، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٦] وقوله: ﴿يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ النَّسْلُ مقاربة الخَطْو مع الإسراعِ في المشي إلى الفساد، كمشي الذئب إذا بادرَ، والحَدَبُ: المرتفعُ مِنَ الأرضِ، ويكونون في كثرتِهِمْ كالجرادِ المنتشرِ، لا يمرُّونَ على ناحيةٍ إلا أفنوا ما فيها مِن طعامٍ، وقضوا على ما فيها من ماءٍ، ويقول آخرهم عندما يمر ببحيرةِ طبريةَ: كان هنا ماءٌ.

وجاء في رواية «ثم يسيرون [أي: يأجوج ومأجوج] حتى ينتهوا إلى جبلِ الخمر»، وهو جَبَلُ بيتِ المقدسِ فيقولونَ: قد قتلنا أهل الأرض، هلمّ فلنقتلْ مَنْ في السماءِ، فيرمونَ بنشابهم (أي سهامهم) إلى السماءِ فيَرُدُّ عليهم نشابُهُمْ مخضوبةً دماً.

ويصبحُ عيسى ومَنْ معه في وضع بالغِ الصعوبةِ، «حتى يكون رأس الثورِ لأحدهم خيراً من مائة دينارٍ لأحدكم اليوم».

فيتوجه عيسى ومَنْ معه إلى ربِّهم يدعونَهُ ويبتهلون إليه، عند ذلك يرسلُ الله عليهم دوداً ساماً قاتلاً يصيبهم في رقابهم، فيصبحونَ جميعاً قتلى لا ينجو منهم أحَدٌ.

ولكن المشكلة لم تَنْتَهِ بذلك، فعندما ينزلون مِنْ حصنهم، لا يجدون موضعَ شِبْرٍ مِنَ الأرضِ إلا ملأه زهمُهُمْ، أي: دَسَمُهُمْ وقاذوراتُهُمْ وجثثُهم ونتنُهُمْ، فيرغبُ عيسى ومَنْ معه مرةً أخرى إلى ربِّ العبادِ، فيستجيبُ لهم، فيرسلُ اللهُ طيراً، كأنها أعْناق الجمالِ المسمَّاةِ بالبخْتِ، فتحملُ الطيورُ تلكَ الجثث، وتلقي بها حيث يشاءُ الله.

ثم يرسلُ الله على الأرضِ مطراً يصيبُ الأرضَ كلها، لا يمتنع منه بيتُ مدرٍ ولا وَبَرٍ، أي: يخترقُ البيوتَ المبنيةَ مِنَ الطينِ والحجارةِ، كما يخترق البيوت المصنوعة مِنَ الوبرِ والصوفِ والقماشِ.

ويبدو أن هذا المطر يزيلُ كُلَّ الفسادِ الذي أحدَثَهُ بنو آدمَ في الأرض عَبْرَ تاريخهم، ولذلك تصبحُ الأرضُ غِبَّ نزولِ ذلك المطرِ كالزَّلَفَةِ، أي: كالمرآةِ في صفائها ونقائها.

ويقال للأرضِ بعد ذلك: «أنبتي ثمرتَك، ورُدِّي بركتك» فتعود للأرضِ خصوبتُها التي كانت لها في بدايةِ الأمرِ، وضرب لنا الرسول ﷺ بمدى الخير والبركة التي تعطيها الأرضُ، مما ليس معهوداً في الأزمنة المتعاقبة، فالعصبةُ وهي الجماعةُ تكفيها الرمانةُ الواحدةُ، وإذا رفعوها بعد أن يأكلوا حبها فوقهم استظلوا بها جميعاً فأظلتهم من الشمس، ويباركُ الله في حليبِ الأنعام ولحومها، فلبن اللقحة من الإبل وهي الناقة الصغيرة، يكفي الجماعةَ الكبيرةَ تكون مِنْ عدة قبائل، وحليبُ اللقحة مِنَ البقرِ، تكفي القبيلةَ، وحليب اللقحةِ مِنْ الغنم يكفي الفخذَ مِنَ الناس، أي: يكفي الجماعة من القبيلة [قصص الغيب، للمؤلف: ٣٤٨].

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يُفْتَحُ يأجوجُ ومأجوجُ، يخرجونَ على الناسِ كما قال الله عز وجل: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء:٩٦]، فيَغْشَوْنَ الأرضَ، وينحازُ المسلمونَ عنهم إلى مدائِنهم وحُصونِهِمْ، ويَضُمّون إليهم مواشيهم، ويشربونَ مياه الأرضِ، حتى إن بعضَهم ليمرُّ بالنهرِ فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبساً، حتى إنَّ مَنْ بَعدهم، ليمرُّ بذلك النهرِ فيقول: قد كان هاهنا ماءٌ مرةً! حتى إذا لم يَبْقَ مِنَ الناسِ إلا أحدٌ في حصنٍ أو مدينةٍ، قالَ قائلُهُمْ: هؤلاءِ أهلُ الأرض قد فرغنا منهم، وبقيَ أهل السماء! قال: ثم يَهُزُّ أحدُهم حَرْبَتَهُ، ثم يَرمي بها إلى السماءِ، فتَرْجِعُ مُخْتَضِبةً دماً للبلاء والفتنة.

فبينا هم على ذلك إذْ بَعَثَ اللهُ دوداً في أعناقهم كنَغَفِ الجرادِ الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحونَ موتى لا يُسمع لهم حسٌّ. فيَقولُ المسلمون: ألا رجلٌ يشري نفسه، فينظر ما فعل هذا العدوُّ، قال: فيَتَجَرَّدُ رجلٌ منهم لذلك مُحتسِباً لنَفْسِهِ قد أظَنَّها على أنه مقتول، فينزلُ، فيجدُهم موتى، بعضُهم على بعضٍ، فينادي: يا معشر المسلمين: ألا أبشروا، فإن الله قد كفاكم عَدُوَّكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويُسَرِّحونَ مواشيهم، فما يكون لها رَعْيٌ إلا لحومُهُمْ، فتَشْكَرُ عنه كأحسن ما تَشْكَرُ عن شيء من النبات أصابته قط» [أورده شيخنا الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الصحيحة تحت رقم (١٧٩٣) وعزاه لابن ماجه (٤٠٧٩) وابن حبان (١٩٠٩) والحاكم (٢/ ٢٤٥ و٤/ ٤٨٩-٤٩٠) وأحمد (٣/ ٧٧)، وقال الحاكم «صحيح على شرط مسلم». ووافقه الذهبي. قلت: وهو من أوهامهما أو تساهلهما؛ فإن ابن إسحاق إنما أخرج له مسلم في المتابعات ولم يحتج به، وفي حفظه ضعف، فالحديث حسن فقط].

وعن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قالَ: «إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يَحفِرون كُلَّ يوم، حتى إذا كادوا يَرَوْنَ شُعاعَ الشمسِ، قال الذي عليهم: ارجعوا فَسَنَحْفِرُه غداً، فيعيده اللهُ أشدَّ ما كان، حتى إذا بلغتْ مُدَّتُهم، وأراد الله أن يَبْعَثَهم على الناس حَفَروا، حتى إذا كادُوا يرون شُعاعَ الشمسِ، قال الذي عليهم: ارجعوا فَسَنَحْفره غداً إن شاء الله تعالى، واستثْنَوْا، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فيَنْشِفُونَ الماءَ، ويَتَحَصَّنُ الناسُ منهم في حُصونهم، فيَرمُون بسهامِهم إلى السماءِ، فتَرجِعُ عليها الدَّمُ الذي اجفَظَّ، فيقولون: قَهَرْنا أهل الأرض وعَلَوْنا أهل السماء، فيبعث اللهُ نَغَفاً في أقفائهم فيقتلون بها. قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده إن دَوابَّ الأرض لَتَسْمَن وتَشْكَرُ شَكَراً من لحومهم» وقوله: اجفظَّ: أي تراجع السهام عليهم ممتلئة دماً. وقوله: تشكر: أي تمتلئ شحماً، يقال: شكرت الناقة إذا سمنت. [أورده شيخنا الشيخ ناصر الدين الألبانيّ في سلسلة الصحيحة تحت رقم (١٧٣٥) وعزاه إلى الترمذي (٢/١٩٧) وابن ماجه (٤٠٨٠) وابن حبان (١٩٠٨) والحاكم (٤/٤٨٨) وأحمد (٢/٥١٠-٥١١ و٥١١)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه». وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبي، وهو كما قالا].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء:٩٧].

المرادُ بالوعدِ الحقِّ يومُ القيامةِ، فإنَّه إذا نَزَلَ عيسى، وخرجَ الدجالُ وقتَلَهُ عيسى، وخرجتْ يأجوجُ ومأجوجُ تكون الساعةُ قد اقتربتْ كثيراً، وفي ذلك اليوم الذي تقعُ فيه الأهوالُ تشخصُ أبصارُ الذين كفروا.

والمرادُ بشخوصِ أبْصارِهِمْ في ذلكَ اليومِ أنَّ أبصارَهُمْ لا تَطْرُفُ، وهم يشاهدون تلك الأهوالَ الكبارَ.

ومع كَوْنِ أبصارِهِمْ شاخصةً في ذلكَ اليوم، فإنَّهم يُنادُونَ قائلين: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ يقولون: قد كُنَّا في الدنيا في غَفْلَةٍ مِنْ هذا الذي نشاهدُهُ في هذا اليوم، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء:١] ثم استدركوا فقالوا: بل كنَّا ظالمين، أي: بسببِ عَدَمِ اتعاظِهِمْ، بما جاءَهم مِنَ الحقِّ.

٥- مصير الكافرين ومصير المؤمنين يومَ الدين:

أعْلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَ- عن مصير الكفَرَة المجرمين يومَ الدين، ومصيرِ المؤمنين الصالحين في ذلك اليوم، قال ربُّ العزةِ مبيناً مصيرَ الكافرينَ والآلهةِ التي يعبدونها في يومِ

القيامةِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠٠].

قال ربُّ العزةِ للكفارِ: إنَّكُمْ والآلهةَ التي تعبدونها مِنْ دونِ الله حصبُ جهنم، وحصبُها ما يرمى به فيها، كما قالَ تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤].

وقد نَبَّهَ ربُّ العزةِ على أنَّ هذه الآلهةَ التي يعبدونَها مِنَ الأصنامِ والأوثانِ لو كانتْ تستحقُّ العبادةَ لما وردتِ النارَ، أي: لما دَخَلَتْها، وأخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ الكفارَ لهم في النارِ زفير، وهم فيها لا يَسْمَعُونَ، قالَ الأصفهانيُّ مبيناً معنى الزفير: «الزفيرُ تَرَدُّدُ النفسِ حتى تنتفخَ الضلوعُ منه» [المفردات: ص٢١٣]، وعَدَمُ سماعِهِم في النارِ هو من أثَرِ إفسادِ النارِ لحاسَّةِ السمع عندهم.

وقال رَبُّنا -عز وجَلَّ- مصيرُ المؤمنين المحسنين في ذلك اليوم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٣].

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ الذين سبقت لهم منه الحُسْنَى، وهم المؤمنون المحسنونَ الصالحون مُبْعدون عن النارِ، فهم في جناتِ النعيمِ، لا يسمعون حسيسَ النار، أي: حركتها، ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: فيما أنعم اللهُ بِهِ عليهم مِنَ النعيمِ المقيمِ خالدون.

ولا يصيبهم الفزعُ الأكبرُ، أي: أهوال يوم القيامة والبعث بل عندما يقوم الناسُ مِنْ قبورِهِمْ تتلقاهم الملائكةُ وتبشرهم، وتقولُ لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: هذا يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به.

٦- فناء الخلق في نهايةِ الزمان:

حدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن نهايةِ هذا الكونِ الذي نعيشُ فيه، فالسمواتُ العظيمةُ الهائلةُ يطويها ربُّ العزةِ كطيِّ السجلِ للكتبِ ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء:١٠٤].

«قال مجاهدٌ: السجلُّ الصحيفةُ التي فيها الكتابَ، يعني المكتوبُ، وهذا اختيارُ الفراءِ وابنِ قتيبةَ، وهو الذي يعرفُهُ أهل اللغة مِنْ معنى السجلِّ، وهو قولُ الكلبيِّ في روايته عن ابنِ عباسٍ» [تفسير الواحدي: ١٥/ ٢٢١]. وقال ابنُ كثيرٍ: «﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي: على الكتابِ بمعنى المكتوبِ» [ابن كثير: ٤/ ٣٩٩].

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء:١٠٤].

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه كما بَدَأَ أوَّل خَلْقٍ يُعيدُه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خَطَبَ النبيُّ فقال: «إنكم مَحْشُورونَ إلى الله، حُفاةً عُراةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء:١٠٤]، ثم إنَّ أوَّل مَن يُكْسَى يومَ القيامةِ إبراهيمُ، ألا إنَّه يُجاءُ برجال من أُمَّتي، فيؤخَذُ بهم ذاتَ الشِّمال، فأقولُ: يا ربِّ أصحابي! فيقالُ: لا تدري ما أحدَثوا بعدَكَ، فأقولُ كما قال العبدُ الصالحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قولِه: ﴿شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة:١١٧] فيُقالُ: إنَّ هؤلاء لم يَزالوا مُرْتَدِّينَ على أعقابهم منذُ فارَقْتَهُم» [البخاري: ٤٧٤٠. ومسلم: ٢٨٦٠].

٧- بشارة زبور داود بميراثِ الأمة الإسلامية في آخر الزمان:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن بعضِ ما كتبَهُ في زبورِ داودَ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وقد ذَهَبَ أكثرُ المفسرينَ إلى أنَّ المرادَ بالزبورِ جميعُ الكتبِ السماويةِ التي أنزلها اللهُ على رسلِهِ، ومنها التوراةُ والزبورُ والإنجيلُ والقرآنُ، قال الواحدي: «الزبورُ جميعُ الكتبِ المنزلةِ مِنَ السماءِ» ثم قال: «هذا قولُ سعيد بنِ جبيرٍ ومجاهدٍ، وابنِ زيدٍ، واختيارُ أبي إسحاق» ونقله أيضاً عن ابنِ عباسٍ، وقال ابن عباسٍ في روايةِ عطاء: يريد زبورَ داودَ، وهذا قولُ عامرٍ الشعبيِّ، ثم قال الواحديُّ: «والمختارُ قولُ سعيدِ بنِ جبيرٍ، لأنه الأَجْمَعُ» [تفسير الواحدي: ١٥/ ٢٢٦].

ونقل الواحديُّ عن أئمة التفسير أنَّ الأرضَ التي يورثها اللهُ عبادَه الصالحين هي أَرْضُ الجنةِ، ونسبَ هذا القولَ لابنِ عباسٍ ومجاهدٍ والسديِّ وأبي صالحٍ، وأبي العاليةِ وسعيدِ ابن جبيرٍ، وابنِ زيدٍ. ثم قال: ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: «يعني الدنيا تصيرُ للمؤمنين مِنْ هذه الأمة، وهذا حُكْمٌ مِنَ الله بإظهارِ الدين وقهر الكافرين» [تفسير الواحدي: ١٥/ ٢٢٨].

والصوابُ مِنَ القولِ أنَّ المرادَ بالزبورِ الذي كتب اللهُ فيه مِنْ بعد الذكرِ هو الزبورُ الذي أنزله اللهُ تعالى على نبيِّهِ داود ﷺ ، والمرادُ بالأرضِ التي يورثُها ربُّ العزةِ عبادَه الصالحين أرضُ الدنيا، وهذا الذي حكاه اللهُ عما كتبه في الزبورِ هو من البشارات التي أنْزَلَها اللهُ على أنبيائه فيما سيكونُ لأمّةِ محمدٍ ﷺ .

والذي جعلني أرجِّح هذا القول أنَّ هذه البشارةَ لا تزالُ مكتوبةً في الزبورِ على النحو الذي أخبرَ اللهُ تبارك وتعالى به.

وهذه البشارةُ موجودةٌ في المزمورِ السابعِ والثلاثين، فَقَدْ جاءَ فيه: «١ لاَ تَغرْ مِنَ الأشْرَارِ، وَلاَ تَحْسُدْ عُمَّالَ الإِثم، ٢ فَإِنَّهُمْ مِثْلَ الحَشِيشِ سَريعاً يُقْطَعُونَ، ومِثْلَ العُشْبِ الأَخْضَرِ يَذْبُلُونَ، ٣ اتَّكِلْ عَلَى الرَّبِّ، وافْعَلِ الخَيْرَ، اسْكُنِ الأرْضَ، وَارْعَ الأمانَةَ، ٤ وتَلَذَّذْ بِالرَّبِّ، فَيُعْطِيَكَ سُؤْلَ قَلْبِكَ، ٥ سَلِّمْ لِلرَّبِّ طَرِيقَكَ، وَاتَّكِلْ عَلَيْهِ وَهُوَ يُجْرِي، ٦ ويُخْرِجُ مِثْلَ النُّورِ بِرَّكَ وحَقَّكَ مِثْلَ الظَّهِيرَةِ، ٧ انْتَظِرِ الرَّبَّ، وَاصْبِرْ لَهُ، وَلاَ تَغرْ مِنَ الذِي يَنْجَحُ في طَرِيقِهِ مِنَ الرَّجُلِ المُجْرِي مَكَايِدَ، ٨ كُفَّ عنِ الغَضَبِ، وَاتْرُكِ السَّخَطَ، وَلاَ تَغرْ لِفِعْلِ الشَّرِّ».

ثم قال بعد ذلك مقرِّراً ما أخبر به النصُّ القرآني: «٩ لأنَّ عَامِلي الشَّرِّ يُقْطَعُونَ، وَالذينَ يَنْتَظِرُونَ الرَّبَّ هُمْ يرِثُونَ الأَرْضَ، ١٠ بَعْدَ قَلِيلٍ لاَ يَكُونُ الشِّرِيرُ، تَطَّلِعُ في مَكَانِهِ فلا يَكُونُ، ١١ أمَّا الوُدَعاءُ فَيَرِثُونَ الأرْضَ وَيَتَلذَّذُونَ في كَثْرَةِ السَّلاَمَةِ».

ثم عاد إلى الذِّكر فقال: «١٢ الشِّرِيرُ يَتَفَكَّرُ ضِدَّ الصِّدِّيقِ، ويُحَرِّقُ عَلَيْهِ أسْنانَهُ، ١٣ الرَّبُّ يَضْحَكُ بِهِ، لأَنَّهُ رَأَى أنَّ يَوْمَهُ آتٍ، ١٤ الأشْرارُ قَدْ سَلُّوا السَّيْفَ، ومَدُّوا قَوْسَهُمْ لِرَمْيِ المسكين والفقير».

ثم قال: «٢٣ من قِبَلِ الربِّ تَتَثَبَّتُ خَطَوات الإنسانِ وفي طريقه يُسَرَّ، ٢٤ إذا سقط لا ينطرِحُ لأنَّ الربَّ مُسْنِدٌ يَدَهُ، ٢٥ أيضاً كنتُ فَتىً، وقد شِخْتُ ولم أرَ صِدِّيقاً تُخُلِّيَ عنه، ولا ذُرِّيَّةً له تلتمسُ خبزاً، ٢٦ اليومَ كلَّهُ يَتَرأَّفُ ويُقْرِضُ ونَسْلُهُ للبركةِ. ٢٧ حِدْ عن الشرِّ، وافعلْ الخيرَ، واسكنْ إلى الأبدِ، ٢٨ لأنَّ الربَّ يُحِبُّ الحَقَّ، ولا يَتَخَلَّى عن أتقيائِهِ، إلى الأبدِ يُحْفظون، أما نَسْلُ الأشرارِ فَيَنْقَطِعُ».

ثم قال مقرراً ما نصَّت عليه الآيةُ: «٢٩ الصِّدِّيقُونَ يَرِثُونَ الأَرْضَ ويَسْكُنُونَهَا إلى الأَبَدِ».

ثم عاد المزمور إلى الذكر فقال: «٣٠ فَمُ الصِّدِّيقِ يَلْهَجُ بالحِكْمَةِ، ولِسانُهُ يَنْطِقُ بِالحَقِّ، ٣١ شَرِيعَةُ إلِهِهِ في قَلْبِهِ لا تَتَقَلْقَلُ خَطَواتُهُ، ٣٣ الشِّرِّيرُ يُراقِبُ الصِّدِّيقَ مُحاوِلاً أنْ يُميتَهُ، الرَّبُّ لا يَتْرُكُهُ في يَدِهِ، وَلاَ يَحْكُمُ عَلَيْهِ عِنْدَ مُحاكَمَتِهِ».

ثم قال مقرِّراً ما نصت الآية عليه: «٣٤ انْتَظِرِ الرَّبَّ واحْفَظْ طَرِيقَهُ فَيَرْفَعَكَ لِتَرِثَ الأَرْضَ».

والدليلُ على أنَّ هذا النص يتحدثُ عن الأمةِ الإسلامية ما وَرَدَ في النص مما يصرِّح بأنَّ هذا الميراثَ الذي يَهَبُهُ اللهُ المتحدَّثَ عنهم كائنٌ إلى الأبدِ، وليس هناك أُمَّةٌ لها دينٌ وكتابٌ يبقى ملكُها إلى الأبدِ غيرَ أُمَّةِ الإسلام، ولذا جاء في الفقرة (١٨) من ذات المزمور: «الربُّ عارِفٌ أيَّامَ الكملة، وميراثُهُمْ إلى الأَبَدِ يكونُ» وجاء في الفقرة (٢٩): «الصِّدِّيقونَ يَرِثُون الأَرْضَ، ويَسْكُنُونَها إلى الأَبَدِ».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء:١٠٦]، أي: في هذا القرآن الذي أنزلَهُ ربُّ العزَّةِ على رسولِهِ ﷺ لبلاغاً أي كفايةً لقوم عابدين، وهم أمَّةُ محمدٍ ﷺ العابدونَ الله وحده، الموحِّدون له.

ثم بَيَّنَ ربُّ العزةِ مقامَ رسولِنا ﷺ وفضلَهُ، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧]. والعالمون: هم جميعُ الناس، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قيلَ: يا رسولَ الله، ادعُ على المشركينَ،قالَ: «إنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً، وإنَّما بُعِثْتُ رَحْمَةً» [مسلم:٢٥٩٩].

وعن أبي هريرة ﷺ أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمةٌ مُهداةٌ» [قال محقق ابن كثير في تخريجه: جيد، أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٠٠٥) والقضاعي (١١٦٠) وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي].

٨- كلُّ ما أوْحَى اللهُ به إلى رسولِهِ يَخْلُصُ إلى أنَّ إلهنا إلهٌ واحدٌ:

أمر اللهُ تعالى رَسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يقولَ للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء:١٠٨]، أي: كلُّ الذي أوحاه اللهُ إليه مضمونُه أنَّ إلهكم ومعبودَكم إلهٌ واحدٌ، وهو الذي لا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ سواه، وهذا هو الدينُ الذي جاءَت به الرسالاتُ السماويةُ كلُّها، فهو دينٌ واحد، وهو الإسلامُ.

وهذا القولُ الذي تضمنته الآيةُ يقضي بأنْ يتوجه الناسُ إلى هذا الإله الحقِّ، فيعبدوه دونَ غيره ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنبياء:١٠٩]، وقولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: عن الإيمان بالله، وعبادته وَحْدَهُ لا شريكَ له، فقل ﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعْلَمتكم أنِّي حربٌ لكم إعلاماً ظاهراً، فصرت أنا وأنتم على سواء في العِلْم بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنبياء:١٠٩] أي: لا أدري هل وقوعُ الساعة الذي أوْعَدَكُم الله تعالى به قريبٌ أم بعيدٌ، فرسولُنا ﷺ لا يعلمُ وقتَ الساعةِ، ولا يعلمها أحدٌ لا من البَشَرِ ولا من الجنِّ ولا من الملائكةِ، وكلُّ الذي يعلمه المؤمنون أنَّ الساعة آتية لا ريبَ فيها.

وعِلْمُ وقتِ وقوعِ الساعةِ إليه وَحْدَهُ، لا يعلمها غيره، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء:١١٠]. قال ابن كثير: «إنَّ اللهَ يعلم الغيبَ جميعَه، ويعلمُ ما يظهره العباد، وما يُسِرُّونَ، يعلمُ الظواهرَ والضمائرَ، ويعلم السرّ وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في إجهارِهم، وسيجزيهم على القليلِ والجليلِ» [ابن كثير: ٤/ ٤٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ [الأنبياء:١١١]، قوله: ﴿لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي: الإمهالُ الذي أمْهَلَكُمْ اللهُ -تعالى- إيَّاه فتنة، أي اختبارٌ، ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم، وقوله: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ أي: إلى انقضاءِ المدةِ، والمهلة التي أمهلكم اللهُ إياها.

وقال ربُّ العزة في خاتمةِ السورة الكريمة: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء:١١٢].

عَلَّم اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يقولَ: يا ربَّنا احْكُمْ بيننا وبَيْنَ قومنا بالحقِّ، وربُّنا الرحمنُ المستعانُ على ما تصفونَهُ به، وقد حَكَمَ الله بينه وبين قومِهِ بالحقِّ، فقد أعزَّه ونصره، وفتح لَهُ البلادَ، ودخلَ الناسُ في دين الله أفواجاً، وهذا كما قال نبي الله شعيبٌ مِنْ قبل: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الأنبياءُ والرسلُ يمثّلون على مدارِ التاريخِ أمةً واحدةً، دينُهُمْ واحدٌ هو الإسلامُ، ومعبودُهم واحدٌ، هو اللهُ ربُّ العالمين

٢- اختلفَ الناسُ في الدين الذي يتبعونَهُ، فأصبحوا مللاً كثيرةً، واتخذوا من دونِ الله معبوداتٍ شتى.

٣- المؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ سيحفظ اللهُ أعمالَهُمْ، ويجزيهم عليها، والذين كذَّبوا وأَهْلَكهُم اللهُ سيؤوبون إليه يومَ القيامة ويحاسبهم.

٤- عندما يقْتَرِبُ وقوعُ الساعةِ يُدَمِّرُ اللهُ سَدَّ يأجوجَ ومأجوجَ الذي بناه عليهم ذو القرنين، وتخرجُ هاتان القبيلتان، فيفسدون في الأرضِ، ويملؤون الأرضَ، ويدنسونها.

٥- يوم القيامة تشخصُ أبصارُ الذين كفروا فلا تطْرُفُ أعيُنُهمْ، ويعترفون بذنوبِهِمْ.

٦- الكفارُ وآلهتهم التي كانوا يعبدونَها في الحياةِ الدنيا، يدخلونَ النارَ، ويكونون لها حطباً وحَصَباً، ولو كانت هذه الآلهة تستحقُّ العبادةَ، لما دخلتْ النارَ، ولحمتْ أتباعَها مِنْ دخولِها.

٧- المؤمنون الذين قضى اللهُ فيهم بالسعادةِ لا يدخلونَ النَّارَ، ولا يسمعونَ حسيسها، ويخلدون في جناتِ النعيمِ متمتعين فيما اشتهت أنفسهم.

٨- المؤمنون لا يَحْزنُهم الفزعُ الأكبرُ، وتتلقاهم الملائكةُ تطمئنُ قلوبهم، وتهدِّئ مخاوفهم، وتسكب الرضا في نفوسهم.

٩- أخْبَرَنا ربُّنا عن إحدى بشاراتِ هذه الأمة التي كتبها اللهُ في الزبورِ المنزلِ على نبيِّ الله داود عليه السلام، وفيها أنَّ أمتنا الإسلامية سترثُ الأرضَ إلى يومِ القيامةِ.

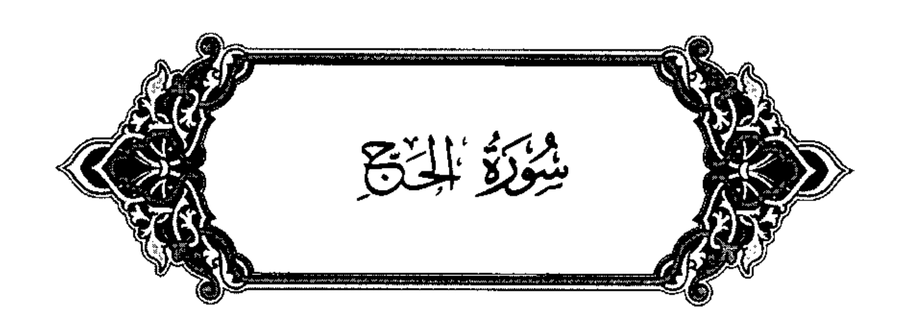
١٠- محمدٌ ﷺ هو الرحمةُ المهداةُ للعالمين.

١١- كل ما أوحاه اللهُ تعالى لعبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ يدورُ حولَ قضيةٍ واحدةٍ، عنوانُها أنَّ معبودَكم معبودٌ واحد، هو اللهُ ربُّ العالمين.

١٢- رسولُنا ﷺ لا يدري الوقتَ الذي ستقعُ الساعةُ فيه.

١٣- أمهل اللهُ العبادَ وأخَّرَ عقوبتهم ليبتليهم، ويختبرَهُم، وليمتعهم إلى الوقت الذي تنقضي فيه الدنيا.

١٤- عَلَّم اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ وهو يواجِهُ الكفارَ: ربِّ احْكُمْ بالحقِّ، أي: بيِّنْه، ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.



أولاً: تقديم

قال شيخ الإسلام ابنُ تيميةَ رحمه الله تعالى: «سورةُ الحجِّ فيها مكيٌّ ومدنيٌّ، وليليٌّ ونهاريٌّ، وسَفَريٌّ وحَضَرِيٌّ، وشتائيٌّ وصيفيٌّ، وتضمَّنَتْ منازلَ المسيرِ إلى الله، بحيث لا يكونُ مَنْزلَةٌ ولا قاطعٌ يقطع عنها، ويوجدُ فيها ذكر القلوب الأربعة: الأعمى، والمريضُ، والقاسي، والمخبتُ الحيُّ المطمئنُ إلى الله.

وفيها مِنَ التوحيدِ والحكمِ والمواعظِ على اختصارِها ما هو بَيِّنٌ لمن تَدَبَّرَهُ، وفيها ذِكْرُ الواجباتِ والمستحباتِ كلِّها توحيداً وصلاةً وزكاةً وحجّاً وصياماً، قد تضمَّنَ ذلك كلَّه قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج:٧٧] فيدخلُ في قولِهِ: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ كلُّ واجبٍ ومُسْتَحَبٍّ، فخَصَّصَ في هذه الآيةِ وعَمَّمَ، ثمَّ قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج:٧٨]، فهذه الآية وما بعدها لم تترك خيراً إلا جَمَعَتْهُ، ولا شراً إلا نَفَتْهُ» [التفسير الكبير: ٥/ ٢١٩].

وقال أبو عمرو الداني رحمه الله تعالى: «سورة الحج مكيةٌ، إلا أربعَ آياتٍ منها، نزلت بالمدينة في الذين تبارزوا يوم بدرٍ، وهم ثلاثة مؤمنون: علي، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، وهنَّ قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج:٢٤] هذا قول ابن عباس وعطاء بن يسار.

وكَلِمُها ألفٌ ومئتان وإحدى وتسعون كلمة. وحروفها خمسة آلاف ومئة وخمسة وسبعون حرفاً.

وهي سبعون وأربع آيات في الشامي، وخمس في البصري، وست في المدنيين، وسبع في المكي، وثمان في الكوفي» [البيان في عدِّ آي القرآن، ص١٨٩].

النص القرآني الأول من سورة الحج

أولاً: تقديم

وَعَظَ ربُّ العزةِ في هذه الآياتِ عبادَهُ بإخبارِهم بما سيكونُ في يومِ القيامةِ مِن الأهوالِ التي تشيبُ لها الولدانُ، وتذهلُ فيه المرضعاتُ عَنْ أولادِها، وتضعُ الحوامِلُ حَمْلَها، وأوردَ ربُّ العزةِ في هذه الآياتِ الأدلةَ الدالةَ على قدرتِهِ سبحانه على إحياءِ العبادِ بعد مماتهم في يومِ الدين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ (٧)﴾ [الحج: ١-٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تحذيرُ الناسِ جميعاً من وقوع القيامة:

حَذَّرَ اللهُ تعالى الناسَ جميعاً من وقوع القيامةِ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ [الحج: ١-٢].

«أمَرَ اللهُ -تعالى- في أوَّلِ هذه السورةِ الكريمةِ الناسَ بتقواه جلَّ وعَلاَ بامتثالِ أمْرِه، واجتنابِ نهيِه، وبيَّن لهم أنَّ زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيم، تذهلُ بسببه المراضِعُ عن أولادِها، وتضعُ بسببِه الحواملُ أحمالَهَا مِنْ شدَّةِ الهولِ والفزعِ، وأن الناسَ يُرَوْنَ فيه كأنهم سكارى مِنْ شِدَّةِ الخوفِ، وما هم بسكارى من شرْبِ الخمرِ، ولكنَّ عذابَهُ شديدٌ» [أضواء البيان: ٥/ ٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ أي: بفعل الواجباتِ، وتركِ المحرماتِ. و﴿زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ شِدَّةُ التحريكِ والإزعاجِ، و﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ لا يُوصفُ لعظمتِهِ. فهو -كما يقول ابن كثير-: «أمرٌ كبيرٌ، وخطبٌ جليلٌ، وطارقٌ مفظع، وحادثٌ هائلٌ، وكائنٌ عجيب» [ابن كثير: ٤/ ٤٠٨].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ الذهولُ: الغفلةُ عن الشيءِ بطروء ما يشغلُ عنه مِنْ هَمٍّ أو وَجَعٍ أو غيرِهِ، فالمرضعةُ تترك ولدها للكرب الذي نزل بها.

والمرضعة: هي التي تكونُ في حالِ الإرضاع ملقمة ثَدْيَها الصبيَّ، والمرضعُ التي شأْنها أن ترضعَ، سواء باشرت الإرضاع أم لم تباشره، ففرقوا بينهما بالتاء المربوطة.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تضعُ كلُّ صاحبةِ حَمْلٍ جنينها من شدة الفزعِ والهولِ، والحَمْل ما كان في رَحِمٍ من جنين.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ لذهابِ عقولهم من شدة الخوفِ كما يذهب عقلُ السكرانِ من الشراب.

وقد اختلفَ العلماءُ في هذه الزلزلةِ هل تكون بعد قيامهم مِنْ قبورهم يومَ القيامة، أو تكون في الحياةِ الدنيا قبل البعثِ والنشور.

ذهب معظمُ المفسرين إلى أنَّ هذه الزلزلةَ تكون عندما ينفخُ في الصورِ أوَّلَ مرة، وهي تكونُ في آخرِ عمر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة:١-٢]، وقال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [الحاقة:١٤-١٥]، وقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة:٤-٦].

ويرجِّح هذا القول ذكرُ ذهولِ المرضعات عمن أرضعْنَهُ، ووضعُ الحاملاتِ أحمالَهُنَّ، ويومُ القيامةِ لا ترضَعُ النساءُ فيه، ولا يلدْنَ.

وذهبَ بعضُ أهلِ العلمِ إلى أنَّ هذه الزلزلةَ زلزلةُ هولٍ وفزعٍ، تكون في عرصاتِ يومِ القيامةِ، بعد القيامِ مِنَ القبورِ، واختارَ ذلك ابنُ جريرٍ، ويدلُّ لهذا القول الأحاديثُ التالية:

عن عِمْرانَ بْن حُصَيْنٍ أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج:١] إلى قولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [الحج:٢]، قالَ: أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ هذِهِ وهو في سَفَرٍ، فقالَ: أتَدْرُونَ أيَّ يوم ذلِكَ؟ فقالوا: الله ورسولُهُ أعلَمُ، قالَ: ذلِكَ يومَ يَقولُ الله لآدَمَ: ابْعثْ بَعْثَ النَّارِ، فقالَ: يا رَبِّ وما بَعْثُ النارِ؟ قالَ: تِسْعُمائةٍ وتِسْعَةٌ وتِسْعُونَ إلى النارِ، وواحِدٌ إلى الجنَّةِ؟ قال: فأَنْشَأَ المسلمون يَبْكُونَ، قالَ رسولُ الله ﷺ: قارِبوا وسَدِّدُوا، فإنَّها لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قطّ إلاّ كانَ بَيْنَ يَدَيْهَا جاهِلِيَّةٌ، قالَ: فيُؤْخَذُ العَدَدُ مِنَ الجاهِلِيَّةِ، فإنْ تَمَّتْ وإلاَّ كَمُلَتْ مِنَ المُنافِقِينَ، ومَا مَثَلُكُمْ والأُمَمِ إلاَّ كَمَثَلِ الرَّقْمَةِ[1] في ذِراعِ الدَّابةِ أوْ كالشَّامةِ[2] في جَنْبِ البَعيرِ.

ثُمَّ قالَ: إنِّي لأَرْجُو أنْ تكونوا رُبْعَ أهْلِ الجَنَّةِ، فكَبَّروا، ثُمَّ قال: إنِّي لأَرْجُو أنْ تَكُونوا ثُلُثَ أهْلِ الجَنَّةِ فكَبَّروا، ثمَّ قالَ إنِّي لأَرْجُو أن تكونوا نِصْفَ أهْلِ الجَنَّةِ، فكَبَّروا، قالَ: لا أدْرِي؟ قالَ: الثُّلُثَيْنِ أمْ لاَ؟ [الترمذي: ٣١٦٨، وقال: هذا حديثٌ حَسَن صحيحٌ].

وعَنْ عمران بن حُصَيْنٍ قالَ: كُنَّا مَعَ النبيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فتَفَاوَتَ بَيْنَ أصْحابِهِ في السَّيرِ، فرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ صَوْتَهُ بهاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [الحج:٢] فلما سَمِعَ ذلِكَ أصْحابُهُ حَثُّوا المَطِيَّ، وعَرَفُوا أنَّهُ عِنْدَ قولٍ يَقُولُهُ، فقالَ: هَلْ تَدْرُون أيَّ يَوْمِ ذلِكَ؟ قالوا اللهُ ورَسُوله أعْلَمُ، قالَ ذاكَ يومٌ يُنادِي اللهُ فيهِ آدَمَ فيُناديهِ رَبُّهُ، فيقولُ: يا آدَمُ ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النارِ؟

فَيَقُولُ: «مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمائةٍ وتِسْعَةٌ وتِسْعُونَ في النارِ وواحِد في الجَنَّةِ، فيَئِسَ القومُ حَتَّى ما أَبَدَوْا بضاحِكَةٍ، فلما رأى رَسُولُ الله ﷺ الذي بأصْحابِهِ، قالَ: اعْمَلُوا وأبْشِروا، فوالذي نَفْسُ محمَّدٍ بيَدِهِ إنَّكُمْ لَمَعَ خَليقَتَيْنِ ما كانتا مع شيءٍ إلا كَثَّرَتاهُ، يَأْجُوجُ ومَأْجوجُ، ومَنْ ماتَ مِنْ بني آدَمَ، وبني إبليسَ، قالَ: فَسُرِّيَ عَنِ القَوْمِ بعضُ الذي يَجِدُونَ، فقالَ: اعْمَلُوا،

---

(١) الرَّقْمَة: قال النووي: قال أهل اللغة: الرقمتان في الحمار هما الأثران في باطن عضده، وقيل هي الدائرة في ذراعيه، وقيل هي الهَنَةُ الناتئة في ذراع الدابة من داخل.

(٢) الشامة: الخال والعلامة في الجسد.

وأَبْشِرُوا، فوالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ ما أَنْتُمْ في الناسِ إلا كالشَّامَةِ في جَنْبِ البَعيرِ، أو كالرَّقْمَةِ في ذِراعِ الدَّابةِ» [الترمذي: ٣١٦٩. قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ: يا آدمُ، يقول: لَبَّيكَ رَبَّنا وسَعدَيكَ، فيُنادَى بصوتٍ: إنَّ اللهَ يأمُرُكَ أنْ تُخرِجَ من ذُرِّيَّتِكَ بَعْثاً إلى النار، قال: يا رَبِّ، وما بَعْثُ النارِ؟ قال: من كلِّ ألفٍ -أُراه قال-: تسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعينَ، فحينَئِذٍ تَضعُ الحامِلُ حَمْلَها، ويَشيب الوليدُ ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾». فشَقَّ ذلكَ على الناس، حتَّى تَغيَّرَتْ وجوهُهُم، فقال النبيُّ ﷺ: «مِنْ يأْجُوجَ ومَأْجُوجَ تسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعينَ، ومنكم واحدٌ، ثمَّ أنتُم في الناسِ كالشَّعْرةِ السوداء في جَنْبِ الثَّوْرِ الأبيضِ، أو كالشَّعْرةِ البيضاءِ في جَنْبِ الثَّوْرِ الأسودِ، وإنِّي لأرجو أنْ تكونوا رُبُعَ أهلِ الجنَّةِ» فكَبَّرْنا، ثم قال: «ثُلُثَ أهلِ الجنةِ» فكبَّرْنا، ثم قال: «شَطْرَ أهلِ الجنَّةِ» فكَبَّرْنا [البخاري: ٤٧٤١].

والحديثان اللذان رواهما الترمذيُّ عن عمرانَ بن حصينٍ صريحان في أنَّ الزلزلة تكون بعدَ البعثِ والنشورِ، عندما يقولُ اللهُ لآدمَ: ابعثْ بعثَ النارِ، وحديث البخاريِّ يدلُّ على أنّ الوقت الذي تضعُ فيه الحاملُ حَمْلَها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى يوم القيامة، لا آخِرَ الدنيا.

وقد بيَّن العلاَّمة المفسِّرُ المحقق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أنَّ الزلزلةَ هي زلزالُ فزعٍ وخوفٍ، لا زلزالُ حركةِ الأرضِ، وهذا كما قال تعالى فيما وقعَ للمسلمين في الخندقِ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب:١١].

٢- مجادلةُ بعضِ الناسِ بغيرِ علمٍ واتباعُهُم كلَّ شيطانٍ مريد:

أعلمنا ربُّنا العليمُ الخبير أنَّ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج:٣-٤].

الذين يُجادلون في الله بغيرِ علمٍ، ويتَّبعونَ كلَّ شيطانٍ مريدٍ هُمُ الذين ينكرون قدرةَ الله على إحياءِ الموتى، وهم في ذلك يتبعون المردةَ مِنْ شياطينِ الجنِّ والإنسِ، وقوله: ﴿شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ المريدُ العاتي المتجردُ للشر والفساد، وشجرةٌ مرداءُ عاريةٌ عن الوَرَقِ، وصخرةٌ مرداء: أي: مَلْساء.

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ قضى ربُّ العزَّةِ أنَّ مَنْ أطاعَ إبليسَ أضَلَّهُ، ولم يَرْشُد، وصيَّره إلى عذابِ السعيرِ، والسعيرُ: النار.

٣- الأدلة الدالة على البعثِ والنشور:

أوردَ اللهُ -تبارك وتعالى- الأدلة الدالة على قدرته على البعث والنشور، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج:٥].

نادى ربُّ العزةِ الناسَ الذين يَشُكُّون بالبعثِ، ويكذبون به قائلاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: إن كنتم مرتابين في البعثِ وشاكِّينَ فيه، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: بخَلْقِ أبيكم آدَمَ، فقد خلقَهُ مِنْ ترابٍ، ثم أصبحَ الترابُ طيناً، ثُمَّ حَمَأً مسنوناً، ثمَّ صَلْصالاً كالفخارِ وقد خلقَهُ ربّ العزةِ بيدِهِ، ثمَّ نَفخَ فيه الروحَ.

وبقيةُ البشر خَلَقَهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى إلا عيسى ابن مريم، فإنَّه خُلِقَ مِنْ أُنثى مِنْ غيرِ أبٍ. وبنو آدَمَ يُخْلقُونَ في أرْحام أمهاتِهِمْ، ويكونُ أوَّلُ أمرهم نطفةً، أي: مَنِيّاً، ثم يصبحُ هذا المَنِيُّ عَلَقَةً، وهي الدمُ الجامدُ الغليظُ، ثم يصبحُ قِطْعَةَ لحم على شكلِ المُضْغةِ، وقد يكتملُ خَلْقُ هذه المُضْغَةِ، حتى يتشكَّلَ منها الطفلُ، وقد لا يتمُّ خلقها ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ وقد اكتشفَ العلم الحديث بواسطة المكبراتِ أنَّ منيَّ الرجالِ تحوي كلُّ قَذْفَةٍ منه ملايين الحيوانات المنويةِ، فإذا عاشرَ الرجلُ زوجتَهُ، انطلقتْ الحيواناتُ المنويةُ إلى حيثُ تكونُ بويضةُ المرأةِ، فإذا وَجَدَ أحدُها البويضةَ التحمَ بها، وعند ذلك تأخذُ هذه البويضةُ الملقحةُ بالانقسامِ والتكاثرِ، وتنغرسُ في جدارِ رَحِم المرأةِ، ثم تصبحُ عَلَقَةً، ثم مضغةً، وبعد ذلك تنمو إلى أنْ تصبحَ طفلاً، وقد أدخل الأطباءُ المعاصرون في رَحِم المرأةِ أثناءَ الحمل آلةً صَوَّرُوا عَبْرَها ما يجري في الرَّحِمِ للجنين مِنْ أوَّلِ الأمرِ، فكان ما يجري في الرَّحِمِ هو ما حدَّثنا عنه ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: لنُظْهِرَ لكم بهذا البيانِ ما يجري في الرَّحِمِ من طورٍ إلى طوْرٍ كمالَ قُدْرَتِنا على البعث بعدَ الموتِ، وعلى كلِّ شيء، لأنَّ مَنْ قَدِرَ على خَلقِ البشرِ مِنْ

ترابٍ أولاً، ثم من نطفةٍ ثانياً مع ما بين النطفةِ والترابِ من المنافاةِ والمغايرةِ، فهو قادرٌ بلا شكٍّ على إعادةِ ما بدأه من الخلقِ.

وبعد أنْ يكتملَ خلقُ الجنينِ في الرحمِ، يخرجُهُ الله إلى هذه الحياةِ، ثمَّ ينمو هذا الطفلُ حتى يبلُغ أشُدَّه في سِنِّ الثلاثين إلى سِنِّ الأربعين، وبعضُ الناسِ يتوفى مبكراً قبل أن يبلغ سنَّ الأشدِّ، وبعضُهم يكْبُرُ حتى يردَّ إلى أرذلِ العمرِ، و﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أخَسُّهُ وأدْوَنُهُ، وهو الهَرَمُ والخَرَفُ، حتى لا يَعْقِل.

ومِنَ الآياتِ التي أوضحَ اللهُ فيها أطوارَ خلقِ الإنسانِ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون:١٢-١٤]، وقولُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر:٦٧].

وقد ذكَرَ ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في هذه الآية دليلاً ثانياً على قدرتِهِ سبحانَهُ على البعثِ والنشورِ، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ ، وقولُهُ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: تراها هامدةً رؤيةً بصريةً، وهامدةً يابسةً، ليس فيها حياةٌ، ولا نباتٌ، وقولُهُ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فإذا أنزَلَ اللهُ عليها ماءَ المطرِ أو أجْرَى عليها الأنهارَ أوْ العيونَ ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: تحرَّكَتْ الأرضُ بالنباتِ الذي تحرَّكَ في داخِلِها، ثم خَرَجَ منها، ومعنى ﴿وَرَبَتْ﴾ زادَتْ وارتفعتْ. وقولُهُ: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ أي: مِنْ كُلِّ صنفٍ حَسَنٍ، والبَهْجَةُ: حُسْنُ الشيءِ ونضارتُهُ، والبهيجُ بمعنى المُبْهِجِ، وهو الحَسَنُ الصورةِ الذي تَتَمَتَّعُ العينُ برُؤْيَتِهِ.

وعقَّبَ اللهُ -تعالى- على ما ذَكَرهُ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج:٦-٧]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الموجودُ الثابتُ الأبديُّ السرمديُّ الذي لا يتغيَّرُ، ولا يزولُ.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: كما أحْيا الأرضَ بالنباتِ، فإنه يحيي يومَ القيامةِ العبادَ، ويخرجهم مِنْ قبورِهِمْ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا

﴿ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس:٧٨-٨٠].

وقولُهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾ ومِنْ عظيمِ قدرَتِهِ إحياءُ العبادِ في يومِ الدينِ، وقولُهُ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ الساعةُ: القيامةُ، وقد قَرَّر مجيئها من غيرِ شَكٍّ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ أي: يُحْييهمْ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الساعةُ آتيةٌ، وعندما تأتي فلِشِدَّةِ الهولِ تذهلُ المرأةُ التي أَلْقَمَتْ ثديَها وليدَها عنه، وتضعُ الحاملُ حَمْلها، وتَرَى الناسَ لشدَّةِ هولِ ذلكَ اليومِ سكارى، وإنْ لم يشربوا الخمرةَ.

٢- كثيرٌ مِنَ الناسِ يجادلون في الله زاعمين أنَّه لا يقدرُ على إحياءِ الأمواتِ، وهم في هذا يتبعونَ المردَةَ مِنَ شياطينِ الإنسِ والجنِّ، الذين يُضِلّونَ الناسَ، ويدلونَهم على الطريق الذي يوصِلُهُمْ إلى النَّار.

٣- ذكر اللهُ تعالى دليلين يَدُلانِنا على قدرتِهِ عَلَى البعثِ والنشورِ، الأولُ: أنَّ ربَّنا خلقنا أوَّلَ مرَّةٍ بخلقِ أبينا آدمَ مِنْ ترابٍ، ثم خَلَقَ أبناءَ آدَمَ مِنْ ماءٍ مهينٍ، والقادرُ على أنْ يخلقنا أوَّلَ مرة قادرٌ على أن يعيدنا إلى الحياةِ. الثاني: أنَّ اللهَ قادرٌ على إحيائِنا كما هو قادر على إحياءِ الأرضِ اليابسةِ الساكنة بالنباتِ عندما ينزلُ الماءُ عليها.

٤- إذا أَسْقَطَتِ المرأة حَمْلَها، وكان نطفةً أو علقةً، أي: قطعة جامدةً من الدَّم، فلا يصلى عليها، ولا تُغْسلُ، ولا تكفن، ولا تَرِثُ، ولا تنقضِي عدةُ المرأةِ المجهضةِ بإسقاطِ النطفةِ والعلقةِ.

أما إذا ظهر مِنَ الحملِ المجهضِ شيءٌ مِنَ التخليقِ، كاليدِ والرجلِ والرأْسِ، فهذا تنقضي بِهِ العدةُ، وتلزمُ به الغُرَّةُ في حالِ الاعتداءِ على الأمِّ، وكذلك إذا ظَهَرَ في الحملِ شيءٌ مِنَ التخطيطِ، فإنْ لم يظهرْ فيها شيءٌ مِنَ التخطيطِ، فلا تنقضي العدة بذلك الإسْقاطِ.

وإذا أسقطتِ المرأةُ جنينها مَيْتاً في صورةِ آدمي، فتنقضي به العدةُ، وتَجِبُ الغُرَّةُ، وتجبُ الصلاةُ عليه، وغَسْلُهُ، وتكفينُه، وإذا استهلَّ صارخاً أو دلَّتْ على حياتِهِ أمورٌ مستيقنة ورث أيضاً [أضواء البيان باختصار: ٥/ ٣٤].

النص القرآني الثاني من سورة الحج
المخاصمون في الله على جهلٍ وعابدُوه على حَرْفٍ

أولاً: تقديم

حدَّثنا رَبُّنا -سبحانه وتعالى- في آياتِ هذا النصِّ عن ثلاثةِ أصنافٍ مِنَ البَشَرِ:

الأول: الزعماءُ والرؤساءُ والقادةُ الذين يجادلون الناس في الله ليضلُّوهُمْ عن دينِ الله تعالى، ولم يُؤْتِ اللهُ هؤلاءِ شيئاً مِنَ العلمِ، وهؤلاء لهم خزي في الدُّنيا والآخرةِ.

والثاني: الذين يعبدُون الله إذا أصابَهُمُ الخيرُ، فإنْ أصابَهُمُ البلاءُ والشدة كفروا وارتدُّوا، وعادوا لعبادة الأوثانِ.

الثالثُ: المؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ الذين يدخلهم ربُّهم في يومِ الدين جناتِ النعيمِ.

وفي آخر آياتِ النصّ قرَّر ربُّ العزةِ أنَّ اللهَ ناصرٌ دينَهِ، ومعلٍ كلمتَه، ولا يُذْهِبُ اللهُ غيظَ قلوبِ الذين يتمنون هلاكَ الرسولِ واندثارَ دينِه إلا بقتلهم أنفسَهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

[الحج:٨-١٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مجادلةُ أئمة الضلال في الله بغير علم:

سبقَ أنْ ذكرَ اللهُ تعالى في الآياتِ الأولى مِنْ هذه السورة الأتباعَ الذين يجادلون في الله بغير علم اتباعاً لرؤسائهم وزعمائِهم مِنْ شياطين الإنسِ والجن الذين يضلُّون أتباعَهَمْ، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ ﴾ [الحج:٣].

وذكر ربُّنا في هذه الآية الرؤساءَ والزعماءَ المتبوعين أمثالَ فرعون ونمرودَ وأبي جهل، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ﴾ [الحج:٨]، فهؤلاءِ القادةُ المضلّون لغيرهم لا علم عندهم، ولا هدى يهديهم، وليس عندهم كتابٌ منيرٌ منزلٌ مِنْ ربِّ العالمين.

وقد وصف ربُّ العزَّةِ هذا الفريقَ مِنَ الزعماء والرؤساءِ بأنّه فريقٌ طاغٍ مستكبرٍ، له في الدنيا خزيٌ، وسيذيقُه ربُّ العزةِ عذابَ الحريقِ، أي: عذابَ النارِ ﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾ [الحج:٩]. وقوله: ﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ ﴾ أي: متكبرٌ مختالٌ في مشْيِهِ وحركتِهِ، تقولُ العربُ: جاءَني فلانٌ ثانيَ عطفهِ: إذا جاءَ مُتبَخْتراً مِنَ الكبرِ، وقالَ ابن عباس: مستكبراً في نفسِه، وقال مجاهدٌ وقتادةُ: لاوٍ عنقَه [تفسير ابن جرير: ٧/ ٥٨٠٢].

وقد أخبر ربُّ العزةِ عن هذا الرئيس الضالِّ المستكبرِ الجاهلِ أنَّه يجادلُ في الله بغير علمٍ، ليضلَّ الناسَ عن دينِ الله تبارك وتعالى.

وأعلمنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذا الصنف مِنَ الناسِ يذيقهم اللهُ يومَ القيامةِ عذابَ الحريقِ، ويقول لهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحج:١٠]. وأسند ما فعله هذا المختالُ المستكبرُ إلى يديه، مع أنَّ بعض ذنوبِهِ فعلها بقلبِهِ، وأخرى بفرجِهِ، لأنَّ مِنْ أساليب العربِ إسنادَ جميعِ الأعمالِ إلى اليدِ، نظراً إلى أنَّها الجارحة التي يزاولُ بها أكثرَ الأعمالِ.

٢- الذين يعبدون اللهَ على حَرْفٍ:

ذمَّ اللهُ تعالى فيما سبق المستكبرين مِنَ الزعماءِ الجهلةِ الذين يُضِلُّونَ عبادَ الله، ثمَّ ذمَّ فريقاً آخر، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج:١١].

وعبادُ الله الصالحون الذين أثنى الله عليهم في كتابه الذين آمنوا بالله تعالى عن عِلْمٍ ويقين، شاكرين في حالِ النعمةِ والرخاءِ، وصابرين في حال الشدة والبلاءِ، حتى يأتيهم الموتُ وهم كذلك، أما هذا الفريقُ الذي يعبدُ اللهَ على حرفٍ، والحرفُ كما يقول الراغب: «طرفُ الشيءِ، يقالُ: حَرْفُ السيفِ، وحَرْفُ السفينةِ، وحَرْفُ الجبل» [المفردات: ص١١٤].

وقد فسَّرَ اللهُ تعالى العبادةَ على الحَرْفِ بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج:١١]. فهذا الصنفُ مِنَ الناس إذا دخل في الإسلام، وأصابته النعمةُ والرخاءُ اطمأنَّ بِهِ، وأقامَ على دينِه، وإن أصابه البلاءُ والشدةُ والأوجاعُ والأمراضُ وذهابُ المال ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: ارتدَّ عن دينه، فهذا الصنفُ الذي ارتدَّ لما أصابَهُ خسر الدنيا إذ لم يحصِّل مِنْ نعمها شيئاً، وخسر الآخرة لأنَّه يكون في النَّار بسببِ كفرِهِ، وهذا هو الخسرانُ المبين.

وقد روى البخاريُّ عن ابنِ عباسٍ، قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ﴾ [الحج:١١]، قال: كان الرَّجلُ يقْدَمُ المدينةَ، فإنْ ولَدَتِ امرأتُه غلاماً، ونُتِجَتْ خيلُه، قال: هذا دِينٌ صالحٌ، وإنْ لم تَلِدِ امرأتُه، ولم تُنْتَجْ خيلُه، قال: هذا دِينُ سَوْءٍ [البخاري: ٤٧٤٢].

وروى ابنُ جرير بإسناده عن ابن عباس أيضاً: «وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ﴾ [الحج:١١] إلى قوله: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١] قال: الفتنةُ البلاءُ، كان أحدُهم إذا قَدِمَ المدينةَ وهي أرضٌ وبيئةٌ، فإن صحَّ بها جسمُه، ونُتِجَتْ فرسُهُ مُهْراً حسناً، وَوَلَدَتْ امرأتُه غلاماً رضي به واطمأن إليه، وقال: ما أصبتُ منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً، وإن أصابه وجعُ المدينةِ، وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقةُ، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبتَ منذ كنتَ على دينِكَ هذا إلا شرّاً! وذلك الفتنة» [تفسير ابن جرير: ٧/ ٥٨٠٢].

وقد أَخْبَرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن هذا الفريقِ الضالِّ الذي يعبدُ اللهَ على حَرْفٍ، أنّه ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج:١٢-١٣].

أي: يدعو الأصنامَ والأوثانَ، ويستغيثُ بها، ويستنصرُها، ويسألها الرزقَ، وهي لا تنفعه، ولا تضرُّه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ أي: البعيدُ عن الدينِ الحقِّ الذي جاء مِنْ عندِ الله.

وقوله: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ والأصنامُ التي يدعونها مِنْ دون الله لا نفع فيها بحال، بل هي ضارَّةٌ بمن يعبدُها، لأنَّه يدخلُ النارَ بعبادتِهِ إيَّاها، وإيرادُ صيغةِ التفضيل ﴿أَقْرَبُ﴾ مع عدمِ النفعِ بالمرَّةِ للمبالغةِ في تقبيحِ حالِ ذلك الداعي.

وقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ المَوْلَى كلُّ مَنْ انعقدَ بينك وبينه سببٌ يواليك وتواليه به، والعشيرُ هو المعاشرُ، وهو الصاحبُ والخليلُ والمرادُ بالمَوْلَى والعشيرُ المعبوداتُ التي يعبدُها هؤلاءِ الضالون.

٣- إدخالُ الله -تعالى- الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ:

بعد أنْ عَرَّفنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- بطائفةٍ مِنْ أهلِ النارِ، وهم الذين عبدوا الله على حَرْفٍ، وارتدُّوا على أدبارِهِمْ، حدَّثنا عن أهلِ الجنةِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [الحج:١٤].

وهؤلاءِ ليسوا كالذين عبدوا اللهَ على حَرْفٍ، بل آمنوا وعملوا الصالحاتِ، مستمسكين بدينهم في السراءِ والضراءِ، ومصيرُ هؤلاءِ جناتُ النعيمِ، التي تجري مِنْ تحتها الأنهارُ واللهُ -تبارك وتعالى- يفعل ما يريده.

٤- تيئيسُ ربِّ العزة الكفارَ الذين يطمعون في هزيمة الرسول ﷺ واندثارِ دينه:

كان أقوامٌ من الكفار في العهدِ النبويِّ يمنُّونَ أنْفُسَهم بأنْ يقضوا على رسولنا ﷺ وأتباعِهِ، فيذهب دينُهُمْ ويتلاشى، وقد أيْأس اللهُ تعالى هؤلاءِ، وأعلمهم أنَّه ناصرٌ رسولَهُ، ومُعْلٍ دينه ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج:١٥].

يقولُ ربُّ العزة تبارك وتعالى: الذي يظنُّ أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- لن ينصر عبدَهُ ورسولَهُ ﷺ في الدنيا والآخرةِ، فليأخذْ حَبْلاً، وليمدُدْه ويعلِّقْه في السماءِ، أي: في سقفِ منزلِهِ، فكلُّ ما علاك فهو سماءٌ، ثمَّ ليخنق نفسَهُ بذلك الحبلِ الممدود، وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: فليقْتُلْ نفسه بذلك الحبلِ، وقوله: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ هل يذهبنَّ قتلُهُ لنفسه ما وقع في نفسِهِ مِنَ الغيظِ.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [الحج:١٦] أي: كما بينتُ لكم حججي على مَنْ جحدَ قدرتي على إحياءِ مَنْ ماتَ مِنَ الخلق كذلك أنزلنا على

نبينا محمدٍ ﷺ هذا القرآن فيه آياتٌ بيناتٌ، يعني الدلالاتِ الواضحات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ أي: يهدي اللهُ تعالى من يريد هدايته.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذمَّ ربُّ العزةِ في هذه الآياتِ زعماءَ الكفارِ ورؤساءَهم الذين يجادلون في الله بغيرعلمٍ ولا هدى ولا كتابٍ منيرٍ، متكبرينَ يُضِلُّونَ الناسَ عن دينِ الله تعالى، وهؤلاءِ حازوا عذابَ الدنيا والآخرة.

٢- ذمَّ ربُّ العزةِ فريقاً آخرَ عبدوا اللهَ في حالِ إنعامِ الله عليهم بالنعمِ، فإنْ أصابتهم النقمُ ارتدُّوا وكفروا، وعادوا إلى عبادةِ الأوثانِ.

٣- اللهُ يدخلُ المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ يومَ الدينِ جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ.

٤- اللهُ ناصرٌ دينَه، ومُعْلٍ كلمتَهُ، والذين يظنُّون أنَّ دينَ محمدٍ إلى زوالٍ واندثارٍ، لا يَشْفي غَيْظَ قلوبِهم شيءٌ، ولو قتلوا أنْفُسَهم.

النص القرآني الثالث من سورة الحج
الفصل بين العباد في يوم المعاد وسجود المخلوقات لرب العالمين

أولاً: تقديم

تناولتْ آياتُ هذا النص ثلاثة أمور في غايةِ الأهمية:

الأولُ: يَفْصِلُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ بين أصحابِ الدياناتِ المختلفةِ المتنازعةِ، ويُظْهِرُ المحقَّ والمبطلَ.

الثاني: كل الكائنات في هذا الكون تسجد لله رب العالمين إلا الكفار مِنَ الإنسِ والجنِ.

الثالثُ: قسَّمَ اللهُ الإنسَ والجنَّ إلى فريقين متخاصمين، الكفارُ الذين يدخلون النَّارَ معذبين فيها، والمؤمنون الذين يدخلهم اللهُ جناتِ النعيمِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج:١٧-٢٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يفصلُ الله -تعالى- يومَ القيامةِ بين أصحابِ الأديانِ المختلفةِ:

أخبرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنّه يفصل يومَ القيامة بين أصحاب الأديانِ، فيقرُّ أهلَ الحقِّ مِنَ المؤمنين، ويدخلُهُم جناتِ النعيم، ويظهرُ كفرَ الكافرين، ويدخلُهُمْ النارَ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج:١٧].

والمرادُ بالذين آمنوا المسلمونَ مِنْ هذه الأمة، والذين هادوا الذين حَرَّفوا دينهم مِنْ أتباعِ موسى، والنصارى الذين حرَّفوا دينهم مِن أصحابِ عيسى، والصابئون: عبادُ الكواكب والنجومِ. والمجوسُ: عبادُ النيرانِ، القائلون بألوهية النورِ والظلمةِ، ومِنْ شريعتِهِمْ المفتراةِ، نكاحُ الأمهاتِ والأخواتِ، والذين أشركوا: عبادُ الأصنامِ والأوثانِ.

وقد ذَكَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أربعةً مِنَ أصحابِ هذه الأديان الستة في سورةِ البقرة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٢]، وزادَ عليهم في آيةِ الحجِّ المجوسَ والذين أشركوا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: إنَّ اللهَ شهيدٌ على أعمالِ هؤلاءِ الأصنافِ مِنَ أصحابِ الأديانِ الذين ذكرهم اللهُ في الآية، وعندما يحاسبهم ويقضي بينهم، لا يظلمُ أحداً لعلمه بكلِّ فريقٍ منهم.

٢- سجودُ السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينهما لله ربِّ العالمين:

أعلمنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه يسجدُ له مَنْ في السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينهما، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج:١٨].

وقد ذهبَ جمهورُ المفسرين إلى أنَّ المرادَ بسجود السمواتِ والأرضِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ والجبالِ والشجرِ والدوابِ يكون بالانقيادِ الكاملِ لله، لا سجوداً حقيقياً، والصوابُ مِنَ القولِ أنَّه سجودٌ حقيقيٌّ لا ندري كيفيته، ولا حقيقته، قالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل:٤٨-٤٩]. وقال: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن:٦].

وإذا أنْتَ نظرتَ في الآيات نظرَ معتبرٍ وجدْتَ المخلوقاتِ تسجدُ لربِّ الكائناتِ سجوداً حقيقياً، كما أنها تُسَبِّح لرب الكائناتِ حقيقة، ولكنْ لا نفقه تسبيحها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] وقد أخبر رسولُنا ﷺ أبا ذرٍّ أن الشمسَ تسجد تحت عرش الرحمن.

عن أبي ذرٍّ ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ لأبي ذرٍّ حينَ غَرَبَتِ الشمسُ: «تدري أينَ تَذْهَبُ؟» قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: «فإنَّها تَذْهَبُ حتَّى تَسْجُدَ تحتَ العَرْشِ، فتَستأْذِنَ فيُؤْذَنُ لها، ويُوشِكُ أنْ تَسْجُدَ فلا يُقبَلَ منها، وتَستأْذِنَ فلا يُؤْذَنَ لها، يُقالُ لها: ارجِعي من حيثُ جئتِ. فتَطلُعُ من مَغْرِبِها، فذلكَ قولُه تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يس:٣٨]» [البخاري: ٣١٩٩. ومسلم: ١٥٩].

وقوله: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: مؤمنونَ يسجدون لله، وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: كثيرٌ مِنَ الناس كفارٌ حقَّ عليهم العذابُ فهم لا يسجدون لهُ.

وقولُهُ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ يريد ربُّنا أنَّهُ مَنْ يُشْقِهِ اللهُ فما له مِنْ مُسْعِدٍ، والأمورُ بيدِهِ سبحانه، يوفق مَنْ يشاء بطاعته، ويخذلُ مَن يشاء، ويشقي مَنْ يشاءُ.

٣- الخصمان اللذان اختصموا في ربِّهِمْ:

حدثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن خصمين اختصموا في ربِّهم، وحدثنا ربُّنا عمَّا سيفعلُهُ اللهُ تعالى بكلِّ واحد مِنَ الخصمين، فقال متحدثاً عن الخَصْمِ الأولِ وهم الكفارُ: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج:١٩-٢٢].

وقد وردَ في صحيح السنّة النبوية أنَّ الخصمين اللذين اختصموا في ربِّهم هم الذين تبارزوا مِنَ المؤمنين والمشركين قبل معركةِ بدرٍ، فعنْ أبي ذرٍّ قال: «نَزَلَتْ ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج:١٩] في ستةٍ من قريشٍ: عليٍّ وحمزةَ وعُبَيْدَةَ بنِ الحارثِ، وشيبةَ بن رَبيعَةَ، وعُتبة بن رَبيعةَ، والوليدِ بن عُتْبَةَ» [البخاري: ٣٩٦٦. ومسلم: ٣٠٣٣].

وعن عليِّ بن أبي طالب، قال: «أنا أوَّلُ مَنْ يَجْثو بين يديْ الرحمنِ للخصومةِ يومَ القيامة»، قال قَيْسٌ: فيهم نزلتْ: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج:١٩]، قال: هم الذين بارَزُوا يَوْمَ بدرٍ: عليٌّ وحمزةُ وعُبَيْدَةُ، وشيبةُ بنُ رَبيعة، وعُتْبَةُ بنُ رَبيعَةَ، والوليدُ بنُ عُتْبَةَ [البخاري: ٤٧٤٤].

والآيَةُ وإن تكنْ نَزَلَتْ في المتبارزينَ في بدرٍ، إلا أنَّها عامَّةٌ في جميعِ المؤمنين وجميع الكفارِ، كما دلَّت عليه الآيات، فقد قال ربُّ العزَّةِ ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾

[الحج:١٩]، ثم قالَ غِبَّ ذلكَ: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقالَ بعدَ ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الحج:٢٣].

وقد حَدَّثنا رَبُّنا -تباركَ وتعالى- عن مصيرِ الكافرين يومَ الدين، قال: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ أي: فُصِّلَتْ لهم ثياب على قَدْرِ أجسادهم، ولكنَّها مِنَ النارِ، وأخبرنا سبحانه أنه ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ والحميمُ الماءُ الذي تناهى حرُّه، يُصَبُّ هذا الماءُ الشديدُ الحرارةِ فوقَ رؤوسِ الكفارِ في نارِ جهنَّم فـ ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ أي: لشدةِ حرارةِ الماءِ الذي يصبُّ فوقَ رؤوسهم ينصهر به ما في بطونهم، من الأمعاء والأحشاء وغيرها، وتحترقُ جلودُهم، ثمَّ يبدِّلهم الله أمعاءً وجلوداً غيرها ليذوقوا العذابَ.

وأخبرنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ لهم في النارِ ﴿مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾﴾ والمقامعُ المطارقُ والمرازبُ التي أُعِدَّتْ للتنكيلِ بأهلِ النار، وهي مصنوعةٌ مِنَ الحديد، واللهُ أعلم بعظمها، وما تُحْدِثُه بالذين يضربونَ بها مِنَ العذابِ.

وأخْبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّ أهلَ النارِ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: كلَّما حاول أهل النارِ الخروجَ مِنَ غمِّ النارِ وكَرْبِها وأهوالِها، أُعيدُوا فيها، وقيلَ لهم: ذوقوا عذابَ الحريقِ.

وقد ذكر اللهُ تعالى الخصمينِ في قولِه: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ وبيَّنَ مصيرَ الخصمِ الأولِ وهم الكفارُ وما يحلُّ بهم مِنَ العذاب في النار، ثم ذكرَ مصيرَ الخصمِ الثاني وهم المؤمنون فقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج:٢٣-٢٤] فهؤلاء المؤمنون الصالحون الأخيارُ يدخلهم ربُّهم جناتِ النعيم، تجري من تحت قصورِهم ومنازِلِهِمْ الأنهارُ ويحلَّون فيها بأساور مِن الذهب واللؤلؤ، ويلبسون فيها الملابسَ المصنوعةَ مِنَ الحرير، وهؤلاءِ يهديهم رَبُّهم إلى القولِ الطيبِ مِنْ قراءة القرآنِ وذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ، ويهديهم إلى صراط الحميد، وهو في الدنيا القرآنُ، وفي الآخرة الصراطُ، أي: هدوا إلى دين الإسلام، وهو الصراط المستقيم، الموصل إلى الجنة.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - يفْصلُ ربُّ العبادِ في يومِ المعادِ بين العبادِ مِنْ أصحابِ الدياناتِ المتنازعةِ المختلفةِ، فيحكمُ على الكفار ويُدخلُهم النارَ، ويحكمُ للمؤمنين، ويدخلُهُمُ الجنة.

٢- السمواتُ والأرضُ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبال وكثير مِنَ الناس وهم المؤمنون يسجدونَ لله ربِّ العالمين، وسجودُ كُلِّ مخلوقٍ يخصُّهُ، ولا يَبْقَى في الكونِ مَنْ يرفضُ السجودَ لله إلاَّ الكفارُ مِنَ الإنسِ والجنِّ.

٣- ينقسمُ جميعُ الإنسِ والجنِّ يوم القيامة إلى فريقين متخاصمين:

الأولُ: الكفارُ الذين سيكونُ مصيرُهُمْ النارَ، وهؤلاءِ تُفَصَّلُ لهم ثيابٌ مِنْ نارٍ، يصبُّ فوقَ رؤوسِهم الماءُ الذي تناهى حَرُّه، فتذوبُ لحرِّه أمعاؤُهم، ولهم في النارِ مطارقُ ومرازبُ اللهُ أعلم بمقدارِها وعِظَمها، وهؤلاءِ خالدون في النارِ، كلما ظَنُّوا أنَّهم قاربوا الخروجَ منها، أُعيدوا فيها.

الثاني: المؤمنون الذين عملوا الصالحاتِ، وهؤلاءِ يُدْخِلُهُمْ ربُّهم جناتِ النعيم، تجري تحت قصورِهِمْ ومنازلهم الأنهارُ، ويحلَّونَ في الجنةِ مِنَ أساورِ الذَّهبِ واللؤلؤِ، ويلبسون الثيابَ الفاخرةَ المصنوعةَ مِنَ الحريرِ.

٤- المؤمنون يهديهم ربُّهم في الدنيا إلى الطيبِ مِنَ القولِ، والطيبُ مِنَ القولِ قراءةُ القرآن، وذكرُ الله عزَّ جل، ويهديهم في الدنيا إلى الصراطِ المستقيم، وهو الاستقامةُ على دين الإسلام، وهو الصراط المستقيم الموصل إلى جنات النعيم.

النص القرآني الرابع من سورة الحج

أولاً: تقديم

ذمَّ ربُّ العزةِ في هذه الآياتِ كفارَ قريشٍ الذي صدُّوا الناسَ عن دينِ الله وبَيْتِ الله، وتهَدَّدَهم، وما كان للكفارِ أنْ يمنعوا المسلمينَ مِنَ الاعتمارِ بالبيتِ، فقد جعلَ اللهُ البيتَ الحرامَ للناسِ جميعاً، لا فرق بينَ المقيمِ فيه، والنائي عنه، وهو عند الله رفيعُ القدرِ، مَنْ أرادَهُ بسوءٍ أذاقه اللهُ عذابَهُ.

وقد بنى نبيُّ الله إبراهيمُ عليه السلام البيتَ في الموضعِ الذي عَيَّنَهُ اللهُ تعالى لَهُ، فأقامَهُ على التوحيدِ، وطَهَّرَهُ ليكونَ معبداً يطوفُ بِهِ الحَجَّاجُ والعُمَّارُ، ويصلي عِنْدَه الناسُ، وأمرَ اللهُ إبراهيمَ أن ينادي بالنَّاسِ آمراً إياهم بالحجِّ إلى بيتِه العتيق، ليشهدوا منافعَ لهم دنيويةً وأخرويةً، ويذكروا اسمَ الله تعالى على ما رزقهم مِنْ بهيمةِ الأنعام، وأمرَ بالأكلِ والإطعامِ منها، وأمرنا إذا فرغنا مِنْ حَجِّنا أن نقضي تفثنا، وأن نوفيَ نذورَنا، وأن نطوفَ بالبيتِ الطوافَ الذي هو ركنُ الحجِّ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج:٢٥-٢٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- خُسرانُ الكفارِ الذين يصدُّون عن سبيل الله والمسجدِ الحرام:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآيةِ قبل الأخيرةِ مِنَ النصِّ السابق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحج:٢٣].

وأخبرنا في الآيةِ الأولى مِن هذا النصِّ عن مصيرِ الكفارِ الذين يمنعون الناسَ عن دخولِ الإسلامِ، كما يمنعونَهُمْ عن دخولِ المسجدِ الحرامِ، وقد كانتْ قريشٌ منعتْ الرسولَ ﷺ وأصحابَهُ مِنْ دخولِ المسجدِ الحرامِ، والطوافِ بالبيتِ في السنةِ السادسةِ مِنَ الهجرة في عامِ الحديبيةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الحج:٢٥].

ولم يكن للكفار مِنْ أهل مكةَ أن يمنعوا المسلمين من العمرة، فقد جعل اللهُ المسجد الحرامَ للناس جميعاً، لا فرق بين العاكفِ فيهِ، أي: المقيمِ فيه، وبين البادي، وهو الذي يأتي الحَرَمَ مِنْ خارجه، سواءً أكان مِنْ أهلِ الباديةِ أمْ مِنَ المدنِ المبثوثةِ في أنحاءِ العالمِ، فليسَ أهْلُ مكةَ بأحقَّ بالمسجدِ الحرامِ مِنَ النازحِ عنه، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج:٢٥].

والمساواةُ بين الناسِ في المسجدِ الحرامِ، هي في قَصْدِهِ والتوجُّهِ إليه مِنْ مختلفِ أنحاءِ العالمِ، وفي الطواف بالكعبةِ، والصلاة في المسجدِ الحرامِ، لا في الإقامةِ في دور مكة، قال مكيُّ ابن أبي طالب: «المسجدُ الحرام يستوي فيه المقيمُ والطارئ، حقهم فيه واحدٌ، وهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ المسجدُ الحرام، دون بيوتِ مكة، وهو ظاهرُ اللفظِ، وقد مَلَكَ الناسُ دورَ مكة، وتبايعوا مِنْ أول الإسلام إلى الآن، وهم يتوارثونها مِنْ أول الإسلام، فظاهرُ لفظ الآية إنما يدلُّ على أنَّ العاكفَ والطارئَ حقَّهما في المسجدِ سواءٌ، لا فضلَ لأحدهما على الآخرِ، وقد قال ابن عباس: ذلك في المسجدِ الحرامِ خاصَّةً» [الهداية: ٧/ ٤٨٦٧].

٢- المعاصي تضاعفُ في مكة كما تضاعفُ الحسناتُ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذي يَهُمُّ بعملِ سيئةٍ في المسجدِ الحرامِ يذيقُهُ مِنَ العذابِ الأليم بسبب همِّه، وإن لم يفعلها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].

رَتَّب ربُّ العزة إذاقَةَ العذابِ الأليم على إرادةِ الإلحادِ ظلماً، والظلمُ الشركُ وارتكابُ المحرماتِ وتركُ الواجباتِ، ومِنْ ذلك القتلُ والزنا والاعتداءُ على الحرماتِ.

والإلحادُ: الميلُ، والعدولُ عن القصدِ. والظلمُ: الشركُ والذنوبُ والمعاصي.

٣- بَيَّنَ اللهُ -تعالى- لإبراهيمَ مكانَ البيتِ:

أَخْبَرَنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أعلم نبيَّه إبراهيمَ عليه السلام بالمكانِ الذي يبني فيه الكعبةَ، وبيَّنَ له الموضع الذي يقيمُ فيه البناءَ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج:٢٦]، فالموضعُ

الذي بُنِيَ فيه البيتُ هو الموضعُ الذي يريدُه اللهُ تعالى، لم يتزحزح قِيْد أُنملة، ولا تزالُ القواعدُ التي رَفَعَ عليها إبراهيم البيتَ موجودةً إلى الآن، وعندما هُدِمَتْ الكعبةُ في عهدِ ابنِ الزبير، كشف عنها، وظهرتْ للعيان، ولم يوجَدْ أثَرٌ للقواعدِ التي بنيَ عليها الأقصى في عهدِ سليمانَ.

٤- الغايةُ من وراءِ بناءِ البيتِ:

أخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّهُ أمر عبدَهُ ورسولَهُ نبيَّ الله إبراهيمَ عليه السلام أنْ لا يشركَ به شيئاً ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا﴾ [الحج:٢٥]، وهذا يدلُّ على عظم جريمة الكفارِ مِنْ أهل مكة، فقد انحرفَ بهم المسارُ عن ملَّةِ إبراهيمَ وطريقتِهِ، فقد أحدثوا الشركَ، ونصبوا الأوثانَ والأصنامَ حولَ الكعبةِ، وضلُّوا عن الطريقِ الذي أمَرَ الله تعالى به نبيَّهُ إبراهيمَ، الذي يفاخرون بالانتسابِ إليه.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أمَرَ عبدَه ورسولَه إبراهيم عليه السلام، فقالَ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج:٢٦]، أمره أنْ يطهر بيته مِنْ القاذوراتِ الحسيَّةِ، كالبولِ والغائطِ والدمِ ونحوها، والنجاساتِ المعنويةِ كعبادةِ الأصنامِ والأوثانِ، وأمره أن يطهِّرَه للطائفين بالبيت، والقائمين والركعِ السجودِ، وهم الذين يصلّونَ عند البيتِ الحرام، فيقفون في صلاتهم، ويركعون، ويسجدون.

٥- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه إبراهيمَ أنْ ينادي بالناسِ آمراً إياهُمْ بالحجِّ إلى المسجدِ الحرام:

أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّهَ إبراهيمَ عليه السلام أنْ يُؤذِّنَ بالناسِ بالحجِّ، أي: يرفعُ صوتَه منادياً الناسَ جميعاً ليعلمهم بوجوب الحجِّ عليهم، ووعده أنْ يجيبوا نداءَهُ ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج:٢٧]. والأذانُ: رفعُ الصوتِ لإعلامِ الناسِ بما يريدُ المنادي الإعلامَ بِهِ، ولا شكَّ أنَّ إبراهيمَ نادى في الناسِ داعياً إيَّاهم إلى أنْ يَحُجُّوا البيتَ، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الناسَ سيلبُّونَ النداءَ، وقد أخْبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ نبيَّ الله موسى حجَّ المسجدَ الحرامَ، وكذلك نبيُّ الله يونس عليه السلام حجَّ إليه أيضاً.

قوله: ﴿رِجَالًا﴾: أي: ماشين على أقدامهم، وقولُهُ: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: على كلِّ فرسٍ ضامرٍ، أو جملٍ ضامرٍ، والضامرُ المهزولُ الذي أتْعَبَهُ السفرُ.

وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ الفجُّ: الطريقُ الواسعُ، والعميقُ: البعيدُ. والذي يأتي مِنْ كلِّ فجٍّ عميقٍ، الدوابُّ التي تحمل الحجيج، كالخيلِ والجمالِ والحميرِ.

٦- المنافعُ التي في الحجِّ:

أخْبرَنا ربنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الحجيجَ عندما يقدمون إلى الحجِّ يشهدون منافعَ لهم، ويذكرون اسمَ الله في أيامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم مِنْ بهيمةِ الأنعام ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج:٢٨].

والمنافعُ التي في الحجِّ منافعُ الدنيا والآخرةِ، أما منافعُ الدنيا فتعارفُ الناسِ فيما بينهم، والاتجارُ وإقامةُ الأسواقِ في مواسمِ الحجِّ، ومنافعُ الآخرة، التقُّربُ إلى الله تعالى بالطوافِ والسعيِ والصلاةِ والوقوفِ بعرفاتٍ ومزدلفةَ ومنى وغير ذلك مِنَ القرباتِ.

والأيامُ المعلوماتُ هي عشرُ ذي الحجّةِ كما قال ابنُ عباس وأبو موسى الأشعريُّ ومجاهدٌ وعطاءٌ وسعيدُ بنُ جبيرٍ وقتادةُ، وبه قال الشافعيُّ، وهو المشهورُ عن أحمدَ بنِ حنبلَ [ابن كثير: ٤/ ٤٢٧].

وهذه الأيامُ مِنْ عشرِ ذي الحجة هي أفضلُ أيامِ العامِ، فعن ابنِ عباسٍ، عن النبي ﷺ قال: «ما العَمَلُ في أيامٍ أفْضَلَ منها في هذه» [يعني عشر ذي الحجَّة] قالوا: ولا الجهادُ؟ قالَ: «ولاَ الجهادُ، إلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ يُخاطِرُ بنفْسِهِ ومالِهِ، فلَمْ يَرْجِعْ بشيءٍ» [البخاري: ٩٦٩، وصحيح سنن أبي داود: ٢١٣٠].

وفي سنن أبي داود عن بعضِ أزواجِ النبيِّ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يصومُ تِسْعَ ذي الحجةِ [صحيح سنن أبي داود: ٢١٢٩].

وأفضلُ الأيام العشر يوم عَرَفَة، ففي صحيح مسلم عن أبي قتادةَ، سئل رسولُ الله ﷺ عن صيامِ يومِ عرفةَ، فقال: «أَحْتَسِبُ على الله أنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الماضيةَ والآتيةَ» [عزاه محقق ابن كثير إلى مسلم: ١١٦٢].

وأُمِرْنا أن نذكر اسم الله على ما رزقنا من بهيمةِ الأنعامِ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ التي ننحرها في الأضاحي والهدي.

وقد أمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ نأكل مما ننحره مِنَ الأضاحي والهدي ونطعمُ البائسَ الفقيرَ ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ۝٢٨﴾ [الحج:٢٨]. والبائسُ: الذي أصابَهُ البؤسُ وشدةُ الفقرِ، والفقير: صفة البائس.

واستدلَّ بعضُ أهل العلم بالآيةِ بقسمةِ الأضحيةِ إلى قسمين، قسم يؤكل، وقسم يعطى للفقراء والمساكين، لأنه أمَرَ بالأكل منها، وأمر بإطعام البائسِ الفقير، وذهب آخرون

إلى أنها تقسم إلى ثلاثة أقسام: قسمٌ يؤكلُ، وقسمٌ يهدى، والقسم الثالث يوزع على الفقراء والمساكين لقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج:٣٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ والتفث الذي أمَرَ الله تعالى الحجيجَ أنْ يَقْضُوهُ وَضْعُ الإحرام، وذلك بحَلْقِ الرأسِ أو تقصيرِهِ، وقصِّ الشاربِ، ونتفِ الإبطِ، وحلقِ العانةِ، ولبسِ الثيابِ، وقوله: ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ أي: يؤدُّوا لله ما نذروه مِنِ الهدْيِ والذبائحِ، والنذورِ الأُخرى التي نذروها في الحجِّ.

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ يعني الطوافَ الواجب الذي هو ركن الحجِّ، الذي يُبدَأُ بِهِ بعد رَمْيِ جمرةِ العقبةِ، فالرسولُ ﷺ رمى في اليومِ العاشرِ جمرة العقبةِ، ثم نحرَ هديه، ثم أفاضَ بالبيت.

والبيتُ العتيقُ الذي أمرنا اللهُ تعالى بالطوافِ به هو الكعبة، سميَ عتيقاً، لأنَّه أوَّلُ بيتٍ وضعَ لعبادَةِ الله في الأرضِ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران:٩٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من سورة الحج

إذا تدبرنا آيات هذا النصّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- ذمَّ اللهُ تعالى كفارَ قريشٍ الذين منعوا الناس عن دينِ الله تعالى، ومنعوا الرسولَ ﷺ وأصحابه عن العمرةِ إلى المسجدِ الحرامِ، وأخْبر أنهم خاسرون هالكون.

٢- جعل اللهُ المسجدَ الحرامَ للنَّاسِ كلِّهم، لا فرقَ بين المقيمين فيه والقادمين إليه.

٣- المسلمونُ يشتركون بالتعبد بالمسجد الحرام، أما السُّكنى في دورِ مكة، فهي مملوكة موروثة.

٤- عظمُ جريمةِ الذي يريدُ الإفسادَ في المسجدِ الحرامِ، فذنوبُه تضاعفُ فيه.

٥- البيتُ الحرامُ مقامٌ في الموضعِ الذي حدَّده ربُّ العزَّةِ، ولا يزالُ في موضعه منذ بناه نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام.

٦- أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّهُ أنْ يقيم بيتَهُ على التوحيدِ وأن يجنبَهُ الشركَ، فخالفتْ قريشٌ ما كان عليه إبراهيمُ، ولوثوه بالأوثانِ، يعبدونها مِنْ دون الله.

٧- أمَرَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ إبراهيمَ ﷺ أن يطهِّرَ بيته مِنَ الأنجاسِ الحسية والمعنويةِ ليكون مكاناً مطهراً للذين يطوفونَ بالبيتِ والمصلين فيهِ.

٨- في الحجِّ منافعُ عظيمةٌ للمسلمين بعضُها دنيوي كالتجارةِ في الحجِّ، وبعضُها أُخروي، يتمثل في الأجرِ والثوابِ الذي يُحَصِّلُونهُ مِنْ وراءِ أعمالِ الحجِّ.

٩- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- إبراهيمَ ﷺ أنْ يأْمُرَ الناسَ بالحج، ووعده بأن يجيبوا نداءَه، وأصبحَ حجُّ البيتِ واجباً مِنْ ذلك الوقتِ، وقد جاءَت في شريعتنا نصوصٌ تدلُّ على وجوبِهِ.

١٠- الحجُّ مَنْسَكٌ تُنْحر فيه الأَضاحي والهديُ، وقد شرعَ الله لنا أن نأْكلَ مما نذبحه، ونوزع بعضاً منها على الفقراءِ والمحتاجين.

١١- إذا أتمَّ الحاجُّ نُسُكَهُ، تحلَّلَ من إحرامه، ووفى بما التزم بِهِ مِنْ نذورٍ، وطافَ بالبيتِ طوافَ الإفاضة وهو طواف الزيارةِ، وهو ركن مِنْ أركانِ الحجِّ.

النص القرآني الخامس من سورة الحج

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾

أولاً: تقديم

أثنى رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- على الذين يعظمونَ حرماتِهِ، فلا ينتهكونها، وأخبرنا أنَّه أحلَّ لنا الأنعامَ إلا ما حرَّمَهُ علينا، ونهانا عن الشركِ بالله وقولِ الزورِ وشهادةِ الزورِ، وأمرنا أنْ نعبدَه مخلصين له الدِّينَ، مبتعدين عن الشركِ بِهِ، وضربَ مثلاً للمشرك، فهو كالذي سَقَطَ مِنَ السماءِ، فتَخْطَفُهُ الطيْرُ أوْ تَهْوي بِهِ الريحُ في مكانٍ سحيق، وأثنى رَبُّنا عزَّ وجلَّ على الذين يختارون الأضاحي والهديَ سِماناً كراماً، فذلك مِنْ تقوى القلوبِ وأخبرنا رَبُّنا بأنَّه يجوزُ لنا أن ننتفع بالهديِ حتى يبلغَ موضعَ نحره في الحرم.

ثانياً: آيات هذا النص

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحج:٣٠-٣٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تعظيمُ حرماتِ الله تعالى:

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا أنَّه مَنْ يُعَظِّم حرماتِهِ فهو خيرٌ لَهُ عند ربِّه، ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج:٣٠]، والمرادُ بحرماتِ الله ما حَرَّمَهُ اللهُ -تعالى- على عبادِهِ مِنَ الذنوبِ والمعاصي، وتعظيمُ العبدِ حرماتِ الله تعالى أنْ يعظمَ في نفسِهِ انتهاكَ هذه الحرمات، والخيرُ الذي للمعظِّم هذه الحرمات يكونُ بما يَحُوزُه مِنَ المكانةِ والأجرِ والمثوبةِ عند الله تبارك وتعالى.

٢- وأُحِلَّتْ لكم الأنعامُ إلا ما يتلى عليكم:

أعْلَمَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أحَلَّ لنا رَبُّنا بهيمةَ الأنعامِ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ بعيداً عما افتراه أهلُ الجاهليةِ مِنْ تحريمِ البحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ والحامي، ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ

﴿ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الحج:٣٠]، والذي يتلى علينا سبقَ الكلامُ عليه فيما مضى، ومنه قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة:٣].

٣- أمْرُ الله -تعالى- باجتنابِ الرجسِ من الأوثان واجتناب قول الزور:

أمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ نَجْتَنِبَ الرجسَ مِنَ الأوثانِ كما أمَرَنا باجتنابِ قولِ الزور، والأوثان الأصنامُ التي تعبد مِنْ دون الله تعالى، وعبادَتها في شرعِ الله ودينه قذارةٌ ونجاسةٌ، فنجاسةُ الأوثانِ وَصْفٌ شرعيٌّ، وليسَ وصفاً ذاتياً.

وقرنَ ربُّ العزَّةِ الشرك بالله تعالى بقولِ الزور، والمرادُ بقولِ الزورِ شهادةُ الزورِ، وقد حَذَّرَنا رسولُنا ﷺ مِنْ قولِ الزورِ وشهادة الزور تحذيراً عظيماً، ففي الحديثِ عن عبدالرحمن ابن أبي بكرة، عن أبيهِ ﷺ، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائرِ»، قلنا: بَلَى يا رسولَ الله، قالَ: «الإشراكُ بالله، وعُقوقُ الوالدينِ» وكانَ مُتَّكئاً، فجَلسَ، فقالَ: «ألاَ وَقَوْلُ الزُّورِ، وشهادةُ الزُّورِ، ألا وقولُ الزُّورِ، وشهادةُ الزورِ»، فما زال يقولُها، حتى قُلْتُ: لا يَسْكُتُ [البخاري: ٥٩٧٦. ومسلم: ٨٧].

٤- أمرَنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ نكونَ حنفاءَ لله غيرَ مشركين بهِ:

أمَرَنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنْ نعبدَهُ حنفاءَ لَهُ، والحنيفُ المائلُ عن الشرْكِ، المستقيمُ على عبادةِ الله وَحْدَه، ونهانا رَبُّنا أنْ نشركَ بِهِ غيرَهُ، ثم ضرب للمشركِ به مثلاً، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

قال البغويُّ: «﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سَقَطَ، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى الأرض، ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: تستلبُهُ الطيرُ، وتذهبُ به، والخطفُ والاختطاف: تناولُ الشيءِ بسرعة، ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: تميلُ، وتذهبُ به، ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: بعيدٍ، معناه: أن بُعْدَ مَنْ أشْرَكَ مِنَ الحقِّ كبُعْدِ مَنْ سقطَ مِنَ السماء، فذهبت به الطيرُ، أو هوت به الريحُ، فلا يَصِلُ إليه بحال، وقيل: شَبَّهَ حالَ المشركِ بحالِ الهاوي مِنَ السماءِ في أنَّه لا يملك لنفسه حيلةً حتى يقعَ بحيث تُسْقِطُه الريحُ، فهو هالك لا محالةَ، إما باستلابِ الطيرِ لحمَهُ، وإمَّا بسقوطِهِ إلى المكانِ السحيقِ، وقال الحسنُ: شَبَّهَ أعمالَ الكفارِ بهذه الحالِ في أنها تَذْهَبُ وتبْطُلُ فلا يقدِرون على شيءٍ منها» [تفسير البغوي: ٥/ ٣٨٤].

٥- **تعظيمُ شعائرِ الله من تقوى القلوب:**

أخْبرنا ربُّنا العزيزُ العليمُ سبحانَهُ أنَّه ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢].

وشعائرُ الله معالمُ دينِهِ، هي نوعان: معالمُ دينِهِ التي يعبدُ اللهُ عندَها، كقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٥٨]، والثاني: التي يعبدُ الله تعالى بها، ومنها البُدْنُ التي يضحى بها، وتهدى إلى البيتِ العتيقِ، ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج:٣٦].

وتعظيمُ شعائرِ الله تعالى بالسَّعْيِ بين الصفا والمروة، واختيارِ الأضاحي سليمةً وافيةً سمينةً عظيمة مِنْ تقوى القلوب، أي أن تعظيم الشعائر من أفعال أصحاب القلوب المتصفة بتقوى الله.

وقد كان رسولُنا ﷺ يعظم ما يضحي به، فيختارُهُ سليماً سميناً، فعن أنسٍ قال: «ضحَّى رَسولُ الله ﷺ بكبشينِ أمْلَحَيْنِ» [البخاري: ٥٥٥٨. ومسلم: ١٩٦٦. وصحيح سنن أبي داود: ٢٤٢٦].

وعن أبي سعيد قال: «كان رسولُ الله ﷺ ، يُضَحِّي بكبشٍ أقْرَنَ فحيلٍ، يَنْظُرُ في سوادٍ، ويأْكُلُ في سوادٍ، ويمشي في سوادٍ» [صحيح سنن أبي داود: ٢٤٢٦. ورمز له الألباني بالصحة].

والفحيلُ: المنجب في ضِرابه، وقيل: الذي يُشْبِهُ الفحولَةَ في عِظَم خَلْقِه.

وقد نهى الرسول عن التضحيةِ بالمعيبةِ، فعن عليٍّ بن أبي طالب قال: «أَمَرَنا رسول الله ﷺ أنْ نَسْتَشْرِفَ العَيْنَ والأُذُنَ، وأنْ لا نُضَحي بمُقابَلَةٍ، ولا مُدابَرَةٍ، ولا شَرْقاءَ، ولا خَرْقاءَ»، وعن عليٍّ عن النبيِّ ﷺ مثلَهُ، وزادَ: قال: «المقابلةُ: ما قُطِعَ مِنْ طَرَفِ أُذُنِها، والمدابرةُ ما قُطِعَ مِنْ جانبِ الأُذُنِ، والشَّرْقاءُ المَشْقُوقَةُ، والخَرْقاءُ المَثْقُوبَةُ» [رواه الترمذي: ١٤٩٨. وقال: هذا حديث حسن صحيح].

وعن البراءِ بنِ عازبٍ رفعَه قال: «لا يُضَحِّي بالعرجاءِ بَيِّنٌ ظَلَعُها، ولا بالعَوْراءِ بَيِّنٌ عَورُها، ولا بالمَريضةِ بَيِّنٌ مَرَضُها، ولا بالعَجْفاءِ التي لا تُنْقي» [الترمذي: ١٤٩٧. وقال: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عبيد بن فيروز عن البراء، والعملُ على هذا الحديث عند أهل العلم].

٦- **المنافعُ التي في البدن:**

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه في البدنِ التي هي من شعائرِ الله ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج:٣٣]. والمنافعُ ألبانُها وأوبارها ونسلها وركوبُ ظهرِها،

ويستمرُّ الانتفاعُ بها إلى أنْ تبلغَ محلَّها الذي تنحرُ فيه، وهو الحَرَمُ، والدليلُ على جوازِ الانتفاعِ بها حتى تبلغَ محلَّها ما رواه صاحبا الصحيحين أنَّ النبيَّ ﷺ رَأى رجلاً يسوقُ بَدنةً، فقال: «ارْكَبْها» قال: إنَّها بَدَنَةٌ: قال: «ارْكَبْها» ثلاثاً [البخاري: ١٦٩٠. ومسلم: ١٣٢٣].

وقد دلَّ حديثُ جابرٍ على جوازِ ركوبها إذا احتاجَ إلى ظهرِها، ففي صحيح مسلم عن أبي الزبير، قالَ: سمعتُ جابرَ بنَ عبدالله سئل عن ركوب الهَدْيِ؟ فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ارْكَبْها بالمعروفِ إذا أُلْجِئْتَ إليْها، حتى تَجِدَ ظَهْراً» [مسلم: ١٣٢٤].

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣﴾ أي: المَحَلُّ الذي تُنْحَر فيه عِنْدَ البيتِ العتيقِ، يريدُ أرضَ الحَرَمِ كلِّها ما عدا المسجدِ، فعنْ جابر أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «نَحَرْتُ هاهنا، ومنى كُلُّها مَنْحَرٌ، فانْحَرُوا في رِحالِكُمْ، وَوَقَفْتُ هاهنا، وعَرَفَةُ كُلُّها مَوْقفٌ، وَوَقَفْتُ هاهُنا، وجَمْعٌ كلُّها مَوْقِفٌ» [مسلم: ١٢١٨].

رابعاً: ما تهدينا إليه الآيات من علم وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- يمدحُ العبدُ الصالحُ بتعظيمِهِ حُرُماتِ الله تعالى.

٢- شَرَعَ الله للمسلمين أنْ يأْكلوا مما ذبحوه مِنْ بهيمةِ الأنعامِ مبتعدين عمَّا حَرَّمه أهْلُ الجاهلية على أنفسهم مِنَ البحيرةِ والوصيلةِ والحامي.

٣- استثنى اللهُ مما أحلَّه لنا الميتةَ والدمَ والمنخنقةَ والموقوذةَ والمترديةَ والنطيحةَ وما أكلَ السبعُ إلا ما ذكينا، وقد ذكرها ربُّنا في غير موضع مِنْ كتابه.

٤- حَذَّرنا ربُّنا أعْظَمَ تحذيرٍ مِنْ عبادةِ الأوثانِ وقولِ الزورِ وشهادةِ الزورِ.

٥- أَمَرَنا -تبارك وتعالى- أن نستقيم على التوحيدِ ونتحرفَ عن الشركِ.

٦- ضَرَبَ اللهُ -تعالى- للمُشْرِكِ مثلاً يُبيِّنُ سوءَ عاقبته.

٧- على المضحِّي أو الذي يريدُ أن يهدي هدياً أنْ يختار الذبيحةَ سمينةً ثمينةً عظيمةً، وهذا مِنْ تقوى القلوبِ.

٨- يجوز لصاحبِ الهدي الانتفاعُ بركوبِ البدنةِ وشربُ لبنِها إذا احتاجَ إلى ذلك.

النص القرآني السادس من سورة الحج
التقربُ إلى الله تعالى ببهيمة الأنعامِ تشريعٌ عامٌّ للأُمَمِ كلِّها

أولاً: تقديم

أعْلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه شَرَّعَ للأمَمِ كُلِّها مَنْسَكاً ليذكروا اسمَ الله على ما رزقهم مِنْ بهيمةِ الأنعام، ثم أمَرَ رسولَه أن يبشر المخبتين، وعَيَّنَ صفاتِهِمْ، وامتنَّ على عبادِهِ بما أنعم عليهم مِنَ البدنِ العظام، وأمرنا أنْ نذكر اسمَ الله عندما ننحرها، وهي قائمة على ثلاثةِ أرجلٍ، معقولةَ الرجلِ الرابعةِ، وأمَرَنا بعد أنْ تَسْقُطَ جنوبُها وتموتَ أن نأكل منها، ونطعمَ منها، وأخبرنا ربُّنا أنَّ الذي ينالُهُ منها التقوى، ولا ينالُهُ اللحمُ والدمُ.

ثانياً: آيات هذا النص

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج:٣٤-٣٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- التقرُّبُ إلى الله بذَبْحِ بهيمةِ الأنعامِ تشريع عام في الأمم كُلِّها:

أخْبَرَنا رَبُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه جَعَلَ لكلِّ أمةٍ مسلمةٍ عَبْرَ التاريخ الإنساني مَنْسَكاً ليذكروا اسمَ الله على ما رزقهم من بهيمةِ الأنعام ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج:٣٤].

فذَبْحُ الدوابِّ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنم باسم الله تعالى تشريعٌ شرعَهُ اللهُ لكلِّ أُمةٍ مؤمنةٍ وُجِدَتْ فيما مضى مِنَ الزمانِ.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الحج:٣٤]، أي: معبودُكُمْ معبودٌ واحدٌ، فالناسُ جميعاً دعتهم رسُلُهمْ إلى عبادةِ الله الواحدِ الأحدِ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [الحج:٣٤]، أي: أَخْلِصوا دينكم لله وحده، بعبادتِهِ وحده لا شريكَ لَهُ.

٢- ثناء الله -تعالى- على المخبتين والدعوةُ إلى الاتصافِ بصفاتهم:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يبشِّرَ المخبتين بما لَهُم عند رَبِّهِم من الأجْرِ والثوابِ، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾ [الحج:٣٤] والمخبتون الذين أمَرَ اللهُ بتبشيرهم: المتواضعونُ المطمئنون أصحابُ القلوبِ الرقيقةِ، والخَبْتُ في اللغة: المطمئنُّ مِنَ الأرضِ. وقد عَرَّفنا اللهُ تعالى بهذا الصنفِ، ووصفهم بأربعِ صفاتٍ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ [الحج:٣٥].

فالصفة الأولى التي يتحلَّى بها المخبتون أنَّهم عندما يذكرون اللهَ أو يُذْكَرُ اللهُ أمامهم تَجِلُ قلوبُهُم، أي: تخافُ مِنْ ربِّ العبادِ، وعندما تحلُّ بهم المصائبُ في أنفسِهم أو أموالهم أو أولادِهِم يصبرونَ، ويحتسبون الأجْرَ والثوابَ عند الله تعالى، وهم يقيمون الصلاةَ، أي: يأتون بها في أوقاتِها التي حدَّدَها اللهُ، والصفةُ الرابعةُ إنفاقهم مما رزقهم اللهُ تعالى في الزكاةِ وغيرِ الزكاةِ.

٣- إنعامُ الله -تعالى- على عبادِهِ بالبدن التي جعلها لهم من شعائرِ الله:

امتنَّ اللهُ -تعالى- على عبادِهِ بالبدنِ، وهي الجمالُ التي جعلها لهم مِنْ شعائرِ الله، أي: جَعَلَها مِنَ المعالِمِ العظيمةِ التي يتقربون بها إلى ربِّهم تبارك وتعالى في الأضاحي والهدي، ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٣٦].

والبدنُ: جمعُ بَدَنَةٍ، سميتْ بدنةً لعظمها وضخامَتها، يريدُ العظامَ الصحاحَ الأجسام مِنَ الإبلِ، ومِنْ شعائرِ الله مِنْ أعْلامِ دينه، سمِّيت شعائر، لأنها تُشْعَرُ، أي: تُطْعَنُ بحديدةٍ في سنامها، فيعلم أنها هدي.

وقولُهُ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ [الحج:٣٦] أمرنا ربُّنا أن نذكر اسمَ الله عليها صَوافَّ، أي: ننحرُها وهي صَوافٌّ، والصوافُّ: التي عُقِلَتْ رجلها اليسرى، وقامت على ثلاثِ قوائم، وقد وردتْ هذه الصفةُ عن ابنِ عمرِ رضي الله عنهما، وأخبر أنَّ النَّحْرَ على هذا النحو سنَّةُ نَبينا محمدٍ ﷺ ، فعن زيادِ بنِ جبيرٍ، قال: رأيتُ ابنَ عمرَ رضي اللهُ عنهما: أتى على رَجُلٍ قد أناخَ بدنتَه يَنْحَرُها، قال: ابعثها قياماً مقيَّدةً، سنَّةَ محمدٍ ﷺ [البخاري: ١٧١٣. ومسلم: ١٣٢٠].

وقد نَحَرَ رسولُ الله ﷺ بيده في حجَّة الوداعِ ثلاثاً وستين ناقةً، ثم أعْطى علياً فنحَر ما غَبَرَ، وأشْرَكَهُ في هَدْيِهِ [مسلم: ١٢١٨].

وقولُهُ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج:٣٦].

ووجوبُ جنوبِها مَوْتُها بعد نَحْرِها، ووجوبُ جنوبِها سُقوطها إلى الأرضِ بعد أنْ كانت قائمةً، وقد أمَرَنا أنْ نأكلَ منها بعد سقوطِ جنوبِها، ونُطْعِمَ القانِعَ، وهو السائلُ المحتاجُ، ونطعمَ المُعتَرَّ وهو الذي يتعرَّضُ لك مِنْ غير سؤال، وقيل: القانعُ المتعفّفُ، والمعترّ المحتاجُ الذي يسألُ. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج:٣٦]، أي: تشكرونه وتثنون عليه بما أنعم عليكم مِنَ البدنِ.

٤- اللهُ غيرُ محتاجٍ إلى لحومِ ودماءِ ما نتقرب بنحره إليه:

أخْبَرَنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّه لا ينتفعُ بلحومِ ودماءِ ما نتقربُ به إليه مِنَ الأضاحي والهدي، ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج:٣٧].

فاللهُ سبحانه غنيٌّ عن لحومِ وشحوم ما نتقربُ به إليه مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ، والذي يريده تعالى منَّا التقوى، وذلك بتوقيره تعالى وتعظيمه، والالتزام بشرعِهِ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

وقد بيَّنَ لنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنه سخَّر لنا هذه البُدْنَ بتذليلِهِ لها لنركبَها ونحلبَها وننحرَها ذاكرين اسمَ الله عليها حين ننحرها لها، وأمر اللهُ تعالى رسولَهُ أنْ يُبَشِّرَ المحسنين، الذين التزموا بشرعِ الله تعالى، المخبتين لله، الطالبين لرضاه سبحانه.

رابعاً: ما تهدي إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرنا في هذه الآيات وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- شَرَعَ اللهُ تعالى ذبحَ بهيمةِ الأنعامِ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ لكلِّ رسولٍ أرْسَلَهُ اللهُ تعالى، ولمن آمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ.

٢- اللهُ -تبارك وتعالى- هو المعبود الواحدُ، الذي لا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ غيرُهُ، ولذا يجبُ الاستسلامُ له وَحْدَهُ دون غيرِهِ.

٣- أثنى اللهُ تعالى على المخبتينَ المتواضعين رقيقي القلوبِ، الذين وصفهم اللهُ في الآية بصفاتٍ أرْبع.

٤- امتنَّ اللهُ علينا بالبدنِ التي جعلها لنا من شعائرِ الله تعالى، وأمرنا أنْ نتقربَ بها إليه، بنحرها وهي قائمةٌ معقولةٌ الرجلِ اليسرى، وأنْ نذكر اسمَ الله عليها صوافَّ.

٥- أمَرَنا رَبُّنا بالأكلِ مِنَ الأضاحي والهديِ، وأن نطعم منها المحتاجَ، أنْ نهدي منها المعارفَ والأقاربَ.

٦- ليس لله حاجةٌ إلى لحومِ الأضاحي ودمائِها، والذي يطلبه اللهُ منا التقربُ بها تعظيماً لربِّنا تبارك وتعالى

النص القرآني السابع من سورة الحج

دفاع الله -تعالى- عن الذين آمنوا

أولاً: تقديم

كان المؤمنون عندما كانت هذه الآيات تتنزَّلُ يخوضون غمارَ مواجهةٍ شديدةٍ مع كفارِ قريشٍ في مكَّةَ، وقد ظَلَمَهُم الكفارُ كثيراً، فأنزلَ اللهُ هذه الآياتِ واعداً إياهم بأن يَدْفَعَ عنهم غوائِلَ الكفارِ، فاللهُ لا يحبُّ الكفارَ الخونةَ الفسقةَ، وأعلمهم بأنَّه قد أذِنَ لهم بالقتالِ، ومواجهةِ الذين يواجهونَهُمْ، وهو قادرٌ على نصرِهِمْ، وأعلمنا أنَّ مُقاتَلَتَنا للمشركينِ هو الذي يوقف ظُلْمَهُمْ، ويكفُّ أذاهم، ويمنعُ تخريبهم لبيوتِ العبادةِ، وبيَّن اللهُ لنا الذين يستحقون نصرَهُ وتأييدَه، وهم الذين إذا نصرَهُمْ وأعَزَّهم أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاةَ وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكرِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾

[الحج:٣٨-٤١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تطمينُ ربِّ العزةِ المؤمنين بدفاعِهِ عنهم:

كان المشركون في الوقتِ الذي تنزَّلتْ فيه آياتُ هذا النصِّ عَلَوْا على المؤمنين، وشَرَّدُوهم، وأخرجوهم من ديارهم، فهاجَرَ بعضُهُمْ إلى الحبشةِ، وهاجر بعضُهم إلى المدينةِ، وكان المسلمونَ يشعرون بمدى الظلمِ الواقعِ بهم، فأنزلَ اللهُ -تعالى- هذه الآيات يطمئنُ قلوبَ المؤمنين، ويسكبُ الرضا في نفوسِهِمْ، وقالَ لهم: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ ﴾ [الحج:٣٨].

قالَ ابنُ كثيرٍ [٤/٤٤٣]: «قال العوفيُّ عن ابنِ عباسٍ: نزلتْ في محمدٍ وأصحابِهِ حين أُخرجوا من مكة، وقاله مجاهدٌ والضحاكُ وقتادةُ وغيرُ واحدٍ، وقال غيرُ واحدٍ مِنْ السلفِ كابنِ عباسٍ، ومجاهدٍ، وعروةَ بنِ الزبير، وزيدِ بنِ أَسْلَمَ، ومقاتلِ بن حيان، وقتادةَ وغيرهم: هذه أول آية نزلتْ في الجهادِ، واستدلَّ بعضُهُم على أنَّ السورةَ مدنية».

وساق ابنُ جرير بإسناده إلى ابن عباسٍ قال: «لما خَرَجَ النبيُّ ﷺ من مكَّة قال أبو بكر: أخرَجوا نَبِيَّهُمْ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لَيَهْلِكُنَّ، قال ابنُ عباسٍ: فأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج:٣٩]، قال أبو بكر ﷺ: فعرفتُ أنه سيكون قتالٌ» [قال محقق ابن كثير: حسن، أخرجه الترمذي: ٣١٧٠، والنسائي: ١١٣٤٥، والطبري: ٢٥٢٥٤، ٢٥٢٥٥ عن ابن عباس، وإسناده صحيح، رجاله رجال البخاري ومسلم].

وقولُهُ تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ﴾ أي: يدافع عن المؤمنِين غوائل المشركين، فهو المتولي المدافعةَ عنهم، قولُهُ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ وخوَّانٌ فَعَّالٌ، أي: كثيرُ الخيانةِ، وكفورٌ كثيرُ الكفرِ، فالكفَّارُ كثيرو الخيانةِ والكفر وهم يعبدون الأوثانَ، ويكذِّبون الرسولَ ﷺ، ويجحدونَ القرآنَ، ويتقربون بالذبائح للأصنامِ.

وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ﴾ أي: أَذنَ اللهُ تعالى لهم بالقتال، والذين ظلمهم هم كفارُ قريشٍ، ضربوهُم، وقتلوا منهم، وآذوهم بالسبِّ، وطردوهم مِنْ ديارهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ فاللهُ قويٌّ غالبٌ على أمْرِهِ، له جنودُ السمواتِ والأرضِ. وقد بَيَّن اللهُ تعالى شيئاً مِنَ الظلم الذي وقع بهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾ [الحج:٤٠] أخرجَهُم الكفارُ مِنَ ديارِهِمْ، فخرج طائفةٌ منهم إلى الحبشة، وذهبتْ طائفة منهم إلى المدينة، وكان إخراجُ الكفار لهم مِنْ ديارِهم بغير حقٍّ، وكلُّ جريمتهم عندهم قولُهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: إيمانُهُمْ بالله، وتوحيدهم له.

٢- الحكمةُ من وراء تشريع القتال:

بَيَّنَ اللهُ -تعالى- في الآيةِ الأولى التي أَذِنَ فيها للمؤمنين بالقتالِ الحكمةَ مِنْ وراءِ تشريع القتالِ، فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج:٤٠]. أي: لولا ما شرعَهُ اللهُ للمؤمنين مِنْ قتالِ أعدائِهم وكفِّ شَرِّهِمْ، لعلا أهلُ الشركِ، وهدموا مواضعَ العبادةِ عند جميعِ الأممِ، قال البغوي: «معنى الآية: ولولا دَفْعُ الله الناسَ بعضَهُمْ ببعضٍ لَهُدِمَ

في شريعةِ كلِّ نبيٍّ مكانَ صلاتهم، هُدِمَ في زمنِ موسى الكنائسُ، وفي زمن عيسى البِيَعُ والصوامعُ، وفي زمنِ محمدٍ ﷺ المساجدُ» [تفسير البغوي: ٥/ ٣٨٩].

والصوامعُ: المعابدُ الصغيرة التي كانت لرهبان النصارى، والبيعُ كنائسُ النصارى، والصلواتُ: هي معابدُ اليهودِ، واسمها في العبرية: صَلَوُثا، أي: بالثاءِ، فترجمت للعربية صلاةً، والجمع صلواتٌ[1]، والمساجدُ: هي معابدُ المسلمين.

فـ (اللام) في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ واقعةٌ في جوابِ قَسَمٍ محذوفٍ، أي: والله لينصرنَّ اللهُ مَنْ ينصرُهُ، أي: مَنْ ينصرُ دينه، وينصرُ رسولَه ﷺ، وينصرُ أولياءَه، واللهُ قادرٌ على تحقيق وَعْدِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ والقويُّ: القادرُ على كلِّ شيءٍ، والعزيزُ: الممتنعُ الذي لا يُرامُ، ولا يدافعُ، ولا يُمانَعُ.

٣- النوعية المؤمنة التي تستحقُّ نصرَ الله تعالى:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بالذين يستحقون نَصْرَهُ وتأييدَهُ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج: ٤١].

أخبرنا ربُّنا عن النوعيةِ التي تستحقُّ نَصْرَه على عَدُوِّه، وهي التي إذا مَكَّن اللهُ لها في الأرضِ، بأنْ نصرَها على عَدُوِّها، وفتح البلادَ والعبادَ، أقامتِ الصلاةَ وآتت الزكاةَ، وأمرت بالمعروفِ، ونهت عن المنكر، وقد وعدَ اللهُ -تعالى- هذه الأمة بالتمكين في الأرضِ، وأن يستخلفها كما استخلفَ الأممَ الصالحةَ مِنْ قبلها، وأمرها عندما تحققُ ذلك أن تقيمَ التوحيدَ، وتقيمَ الصلاةَ، وتؤتي الزكاةَ، وتطيعَ الرسولَ ﷺ، وقد مكَّن الله تعالى لهذه الأمة دينَها، ونصرَها، وأعزَّها، وفُتِحَتْ لها البلادُ، وَهَدَتْ قلوبَ العبادِ، ومَكَّن الله تعالى لدينه في الأرض، وعلتْ رايةُ التوحيد، وأُقيمت الصلاةُ، وأُديتِ الزكاةُ، وأُمِرَ بالمعروفِ، ونُهِي عن المنكرِ، ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ أي: مرجعُ الأمورِ إلى حكمِه سبحانَه وتدبيرِه دونَ غيرِه.

---

(١) يقول الدكتور ف. عبدالرحيم: إن كانت معربة فهي من السريانية بيث صلوثا، أي: بيت الصلاة، ويطلق على المعبد. انظر المعرب للجواليقي، حقق كلماته الدكتور ف. عبدالرحيم، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، دار القلم، دمشق.

رابعاً: ما تهدينا إليه هذه الآيات من علم وعمل

إذا أمعنا النظرَ في هذه الآياتِ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من عِلْمٍ وعمل:

١- وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنين بأنْ يدافعَ عنهم، ويحفظَهُمْ، ويردَّ عاديةَ المشركين عنهم.

٢- الكفارُ يستحقون الكبتَ والهزيمةَ، فهم خانوا اللهَ ورسولَهُ، وهم كفارٌ بالله ورسولِهِ وكتابِهِ ودينه.

٣- على المسلمينَ في مواجهتهم لأعدائهم أنْ يُراعوا قدراتهم وإمكاناتهم، كما فعلَ الرسولُ ﷺ وأصحابُه.

٤- ظَلَمَ الكفارُ المؤمنين في مكةَ، فلما هاجروا إلى المدينةِ أَذِنَ الله لهم بالقتال، لمواجهةِ ما حاقَ بهم مِنْ ظلمٍ.

٥- الحكمةُ مِنْ وراءِ تشريع الله القتالَ، فلولا مقاتلةُ المؤمنين للكفار، لعلا الكفارُ، وأذْهبوا دينَ المؤمنين، وهَدَموا معابدَهُمْ.

٦- وَعَدَ اللهُ المؤمنين الذين ينصرونَهُ وينصرونَ دينَهُ بأنْ ينصرهم.

٧- أعلمنا اللهُ -تعالى- أنَّ الذين يستحقون نصرَهُ وتأييدَهُ هم الذين إذا نصرهم اللهُ، ومكَّن لهم في الأرض، رفعوا راية التوحيد، وأقاموا الصلاةَ، وآتوْا الزكاة، وأمروا بالمعروفِ، ونهَوْا عن المنكر.

٨- الأمُورُ مَرْجِعُها ومآلها إلى الله وحده -تبارك وتعالى- فهو الذي يُصَرِّفُ كلَّ الأمورِ كما يشاءُ، وكما يريدُ، سبحانه.

النص القرآني الثامن من سورة الحج
موقفنا مِنَ الكفار الذين يكذبونَ رسولَنا ﷺ

أولاً: تقديم

واسى رَبُّنا رسولَهُ ﷺ في تكذيب قومِهِ لَهُ، بإخبارِهِ بأنَّ كلَّ الأممِ التي أرْسَلَ إليها رسُلَه كذبتْ رسلَهُ، وتهدَّدَ الكفارَ الذين كذَّبوا رسولَهُ أنْ يحلَّ بهم عذابَه، كما أحلَّه بالأمم السابقةِ.

وأخبرنا ربُّنا عَزَّ وجلَّ أنَّه أهلك كثيراً مِنَ القرى وأهْلَكَ أهلَها، ودمَّرَ مساكنها وعطَّل آبارَها، وخَلَتْ قصورُها مِنْ سكانها.

وأمَرَ الناسَ بالسيرِ في الأرضِ، والاعتبارِ بمصارعِ الغابرين، وحذَّر مِنَ الاستعجالِ بعذابِهِ، وأمَرَ الله تعالى رسولَهُ أن ينذرَ الناسَ، ويخبرهم بما أعدَّه للمؤمنين، وما أعدَّه للكافرين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الحج:٤٢-٥١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مواساةُ الله رسولَهُ ﷺ في تكذيبِ قومِهِ لَهُ وتهديدُ قومِهِ بالعذاب:

وجّه ربُّ العِزّة الخِطابَ إلى رَسولِهِ ﷺ مواسياً إيَّاه في أنَّه إذا كَذَّبه قومُهُ، فقد سبقَ أن كَذَّبَتْ قومُ نوحٍ وعادٌ قوم هودٍ، وثمودُ قوم صالحٍ، وقومُ إبراهيمَ، وقومُ لوطٍ، وأصحابُ مدين رسلَهم، وكذِّبَ نبيُّ الله موسى، ولم يقلْ وكذَّبَ قومُ موسى، لأنَّ قومَهُ بنو إسرائيل لم

يكذِّبوه، بل آمنوا به، والذي كَذَّبه فرعونُ وقومُهُ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ [الحج:٤٢-٤٤].

وقولُه تعالى: ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج:٤٤] والإملاءُ الإنظارُ والإمهالُ والتأخيرُ في العذابِ، ثم أخذهُمُ اللهُ، أيْ: أَوْقعَ العذابَ بهم، وكذلكَ يمكنُ أن يفعلَ بقومِهِ كفار قريش، فينظرهم ثم يعذبهم كما عَذَّب مَنْ قبلهم.

وقوله: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي: فكيفَ كان تغييري ما كان بهم مِنَ النِّعَم، وإحلالُ العذابِ بهم، وهذا أعظمُ الإنكارِ من ربِّ العبادِ، وقد سَبَقَ ذكرُ الحديثِ الذي رواه صاحبا الصحيحين، عن أبي موسى أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظالِمِ حتى إذا أخذَه لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢] [البخاري: ٤٦٨٦، ومسلم: ٢٥٨٣].

٢- تذكيرُ اللهِ العباد بالهالكين مِنَ الأمم السابقة:

ذكَّر اللهُ كُفَّارَ قريشٍ وجميعَ المكذبين بالرسلِ والأنبياءِ بمصارعِ الغابرينَ، فقال: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحج:٤٥].

وقوله: ﴿ فَكَأَيِّن ﴾ هي (أي) أُدخِلتْ عليها كافُ تشبيهٍ فصارتْ بمنزلة كَمْ الخبريةُ، يقولُ ربُّ العزة: كثيرٌ مِنَ القرى، أهلك اللهُ تعالى أهلَها بسبب ظلمهم وشركِهِمْ، فأصبحتْ خاويةً على عروشِها، والعروشُ: السقوفُ، أي: سقطت سقوفُها، ثم سَقَطت جُدْرانها فوق سقوفِها، والبئرُ المعطَّلةُ: البئرُ التي خَلَتْ مِنَ الناسِ الذين كانوا يَرِدُونها، ويشربون منها، ويسقون منها دوابَّهم.

وقال الزجَّاجُ في القصرِ المشيد: «أكثر ما جاءَ في مَشيدٍ مِنَ التفسير مُجَصَّصٌ، والشِّيْدُ: الجِصُّ، والكِلسُ، أيضاً شِيدٌ، وقيل: مشيدٌ مُحَصَّنٌ مرتفعٌ، وأصلُ الشِّيدِ: الجِصُّ والنُّورَةُ، وكلُّ ما بُني بهما أو بأحدهما فهو مشيد» [معاني القرآن: ٣/ ٤٣٢].

٣- أمرُ اللهِ -تعالى- بالسيرِ والنظرِ في الأرض للاعتبار:

أمرَ اللهُ -تعالى- عبادَهُ بالسيرِ في الأرضِ للنظرِ والاعتبارِ بمصارعِ الغابرين ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦].

أي: أفلم يَسيروا في الأرضِ، فيعقلوا بقلوبِهِمْ، ما نزل من العذابِ بمنْ كان قبلهم، وقد كانت قريش تسافر وتصلُ إلى اليمنِ والشامِ، وترى آثارَ المعذبين في أسفارِها، ومِنْ ذلك مُرورُهم بقرى قومِ لوطٍ المعذبةِ، وقالَ ربُّ العزة فيهم ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

وقال ابنُ قتيبة فيما نقله عَنْهُ الواحدي في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: «وهل شيء أبلغ في العِظَةِ والعبرةِ من هذه الآية؟ لأنَّ الله تعالى أرادَ أفلم يسيروا في الأرض، فينظروا إلى آثارِ قوم أهلكهم اللهُ بالعتوِّ، وأبادَهُمْ بالمعصيةِ، فيروا من تلكَ الآثارِ بيوتاً خاويةً قد سقطتْ على عروشِها، وبئراً لشُربِ أهلها قد عُطِّلَتْ، وقصراً بناه ملكها بالشيد قد خُلِّيَ مِنَ السَّكَنِ، وتداعى بالخرابِ، فيتعظوا بذلك، ويخافوا مِنْ عقوبةِ الله وبأْسِهِ، مثلَ الذي نزلَ بهم» [تفسير الواحدي: ١٥/ ٤٤٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ قال مجاهد: «ليس مِنْ أحَدٍ إلا له عينان في رأْسِهِ، وعينان في قلبِهِ، فأما العينانُ التي في الرأْسِ فظاهرتان، يبصرُ بهما الظاهرَ، وأما اللتان في القلبِ فباطنتان، يُبْصِرُ بهما الغيبَ».

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦]. فالعمى في نظرِ الشريعةِ عمى البصيرةِ، لا عمى البصرِ، وإذا كانت العينان اللتان في الوجه سليمتان، فإنهما لا يفيدان صاحبهما العبرةَ والعظةَ.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وما أحسن ما قاله أبو محمد عبدالله بن محمد بن سارَة الأندلُسِيُّ الشَّنْتَرينيُّ، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمئة:

يَـا مَـن يُصِـيخُ إلى دَاعِـي الشَّـقاءِ، وَقَـد ... نَـادَى بِـهِ النَّاعِيَـانِ: الشَّـيْبُ وَالْكِـبَرُ

إنْ كُنْـتَ لا تَسْـمَعِ الـذِّكْرَى، فَفِيـمَ ثَـوَى ... في رَأْسِـكَ الوَاعِيـانِ: السَّـمْعُ وَالبَصَـرُ؟

لَـيْسَ الأَصَـمُّ ولا الأعمَـى سِـوى رَجُـلٍ ... لم يَهْـدِهِ الهادِيـانِ: العَـيْنُ والأَثَـرُ

لاَ الـدَّهرُ يَبْقَـى وَلاَ الـدُّنيا، وَلاَ الفَلَـكُ ... الأعْـلَى وَلاَ النِّيراان: الشَّـمْسُ وَالقَمَـرُ

لَـيَرْحَلَنّ عَـنِ الـدُّنيَا، وإنْ كَرِهـا ... فِرَاقهـا، الثَّاوِيـانِ: البَـدْو والحَضَـرُ

وقوله: ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ توكيد، لأنَّه عَلِمَ أنَّ القلب لا يكون إلا في الصُّدور، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ [آل عمران:١٦٧]، وقال: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٩].

٤- استعجالُ الناسِ بالعذاب:

كان الكفارُ ولا يزالون يستهينونَ بعذابِ الله تباركَ وتعالى، ومِن استهانتِهِمْ بِهِ أنَّهم يطلبون أن يُنْزِلَ اللهُ بهم العذابَ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج:٤٧].

وهذه الآيةُ المخبرةُ باستعجالِ الكفارِ العذابَ هي كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص:١٦]، واللهُ تعالى لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، فإذا جاءَ الأجلُ الذي حدَّده اللهُ وَقَعَ العذاب، وإذا جاءَ وقتُ وقوعِ الساعةِ، نزل عذابها.

وهؤلاء الذينَ يستعجلون بعذابِ الله جهلةٌ، لا يدرونَ عِظَمَ العذابِ الذي يستعجلون به، وقد أخبرنا اللهُ تعالى بحقيقةٍ علميةٍ، لا يمكنُ للبشرِ أنْ يعلموها مِنْ غيرِ كتابِ الله، وهي مقرَّرَة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج:٤٧].

فهذه الآيةُ تُقرِّرُ أنَّ اليومَ الواحدَ عِنْدَ الله كألفِ سنةٍ مِنْ سَنَواتِنا في الحياةِ الدنيا، والسنةُ القمريةُ عندنا تساوي (٣٥٤٠٠٠) سنة عند الله، فالآمادُ عندَ الله طويلةٌ مديدةٌ

٥- مصير المؤمنين والكافرين في يوم الدين:

كرَّرَ ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- ما أخْبر به فيما مضى أنَّه أهْلَكَ كثيراً مِنَ القرى، فقد أمْهَلَها وأنظرَها، وهي كافرةٌ مشركةٌ، ثم أوقَعَ بها عقابَه وعذابَه، وإليهِ المرجع والمآبُ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج:٤٩].

وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقول للناسِ إنَّه نذيرٌ مبينٌ لهم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الحج:٤٩]، فالمؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ لهم مغفرةٌ مِنَ الله عَزَّ وجلَّ ورزقٌ دائمٌ كريمٌ في جناتِ النعيم، والذين سَعَوْا في الحياة الدنيا في رَدِّ آياتِ الله، وكَذَّبوا بها، أولئك أصحاب النار ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج:٥٠-٥١]، وقولُهُ: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مشاقِّينَ معاندين، مثبطين الناسَ عن الإيمانِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- تكذيبُ الرسلِ منهجٌ قديمٌ اتبعته الأُمم التي أرسلَ الله إليها رُسُلَهُ مِنْ أولها إلى آخرها.

٢- سنةُ الله تعالى في خلقه أن يمهلَ وينظرَ مكذبي الرسلِ، ثم يأخذُهُمْ ويعذِّبُهُمْ.

٣- بدَّل اللهُ تعالى النِّعم التي كان يَرْفُلُ فيها مكذبو الرسل إلى نِقَمٍ.

٤- كثيرٌ مِنَ القرى المكذِّبةِ للرُّسلِ أهلكها اللهُ تعالى، فسقطت جُدْرانها على عروشِها، وهُجِرَتْ آبارُها وتعطَّلَتْ، وخَلَتْ قصورُها من ساكنيها.

٥- دعا اللهُ الناسَ إلى السيرِ في الأرضِ والاتعاظِ بمصارعِ الغابرين في مختلفِ الديارِ.

٦- يستهينُ الكفارُ بعذابِ الله، فيستعجلونَ وقوعَهُ، غير عالمين بشدَّتِهِ وقوتِهِ.

٧- أعْلَمَ اللهُ الكفارَ بأنَّ هلاكَهُمْ آتٍ، واللهُ لا يخلف وَعْدَهُ.

٨- أعلمنا الله بحقيقةٍ علمية، لا يمكن لنا معرفتها مِنْ غيرِ الوَحْيِ، وهي أنَّ اليوم عند الله يساوي ألفَ سنةٍ مما نعدُّه في سنواتِ دنيانا.

٩- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن ينذرَ الناس جميعاً، فالمؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كريمٌ، والذين سَعَوْا لإبطالِ آياتِ الله هم أصحابُ النارِ.

النص القرآني التاسع من سورة الحج
إلقاء الشيطان في تلاوة الرسل والأنبياء

أولاً: تقديم

بَيَّن اللهُ -تعالى- لنا أثَرَ ما يلقيه الشيطانُ في أماني الرسل والأنبياءِ، وكيف أنَّ الله يخلِّص أماني الرسلِ والأنبياءِ مِنَ الأخلاط والأوشابِ التي ألقاها الشيطان، أما فتنُ الشيطانِ التي يلقيها في قلوبِ العبادِ، فإنها تَعْلَق في قلوبِ العباد المريضة قلوبُهُمْ، والقاسية قلوبُهُمْ، أما الذين تَلَقَّوا العلمَ الشرعيَّ، فهؤلاءِ يهديهم ربُّهم بإيمانهم، وينجيهم بالعلم الذي جاءَهم مِنْ ربِّهم، ويرزقُهُمْ اليقينَ الذي يصلح بِهِ نفوسَهُمْ، بينما الكفارُ تمتلئُ قلوبُهُمْ بالريبِ والشكِّ.

وأخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه يَحْكُمُ يومَ الدينَ بَيْنَ المؤمنين والكفار، فيدخلُ المؤمنين الجنَّة، ويدخل الكفار النارَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج:٥٢-٦٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لم يرسلِ اللهُ نبياً ولا رسولاً إلاَّ إذا تمنى ألقى الشيطانُ في أمنيَّتِهِ:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج:٥٢] ذكر جَمْعٌ

مِنَ المفسرين أنَّ سببَ نزولِ هذه الآيةِ أنَّ رسولَنا ﷺ قرأ سورةَ النجمِ بمكَّةَ، فلما بلغ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم:١٩-٢٠].

ألقى الشيطانُ على لسانِهِ: تلكَ الغرانيقُ العلى، وإنَّ شفاعتهن لترتجى، فلما بَلَغَ آخر السورةِ سجدَ، وسجدَ معه المشركون والمسلمون، وقال المشركونَ: ما ذكر آلهتنا قبل اليوم، وهذا الذي قالوه قولٌ باطلٌ لأمور:

١- أنَّ الشيطانَ لا يستطيعُ أنْ يفعل هذا الذي ذكروه، فهو لا يستطيع أنْ يتمثل في صورة رسولِ الله ﷺ في اليقظةِ، ولا يستطيعُ ذلك في المنام، ولا يُمَكِّنُهُ ربُّ العزةِ أنْ يُدْخِلَ في تلاوةِ الرسولِ ﷺ قولاً باطلاً، فالرسولُ ﷺ معصومٌ.

٢- لم تصحَّ أسانيدُ هذه الرِوايات، فهي رواياتٌ مكذوبةٌ، لا يجوزُ روايتُها ولا الاحتجاجُ بها، قال ابن كثيرٍ: «كلُّ هذه الروايات منقطعات» [ابن كثير: ٤/ ٤٥١]. وقال القرطبي: «الأحاديث المرويةُ في نزولِ هذه الآيةِ ليس منها شيءٌ يصحُّ» [القرطبي: ٦/ ٣٩٣] ونقل القرطبيُّ في هذا الموضعِ عن النحاسِ أنه قال: «وهذا حديثٌ منقطعٌ»، ولا سيما من حديثِ الواقديِّ ونقل عن البزار قوله: «وهذا الحديثُ لا نعلمه يروى عن رسولِ الله ﷺ بطريقٍ متصل يجوزُ ذكره» ونقل ابن عطية عن أبيه أنّه نقل عن من لقي بالمشرق من شيوخ العلماءِ والمتكلمين مَنْ قال: «هذا لا يجوزُ على النبيِّ ﷺ ، وهو المعصومُ في التبليغ» [المحرر الوجيز: ٦/ ٢٦٤].

وقد جمع شيخنا الألبانيُّ رحمه الله تعالى طرقَ هذا الخبرِ وتكلم على طرقها، وبيَّن ضعفها، وسمَّاها «نصب المجانيقِ في نسفِ قصةِ الغرانيقِ».

٣- هذه القصةُ تبطلُ الدينَ مِنْ أصْلِهِ، ففيها ثناءٌ على آلهةِ المشركين الباطلةِ، ولا يجوزُ أن يُظَنَّ أنَّ الرسول ﷺ يخفى عليه هذا الأمْرُ.

٤- جاءَ في هذه السورةِ، قولُهُ تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم:٢٣] فكيف يسبُّ الرسولُ ﷺ آلهةَالمشركين هذا السبَّ، ثمَّ يرضى المشركونَ ما زعموا أنّه قاله من ثناءٍ على آلهتهم.

٦- هذه الروايةُ الباطلةُ المكذوبةُ تتناقضُ مع نصوصٍ قرآنيةٍ كثيرةٍ أُخرى، كقولِهِ تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم:٣-٤]، وقولِهِ: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١١]، وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

﴿ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر:٩]، وقوله: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢].

والذي أُرجِّحه في معنى ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ التمني المعروفُ، وتمنِّي الرسولِ ﷺ إنما يكونُ في مجالِ الخيرِ، كأن يتمنى أنْ يؤمنَ الناسُ جميعاً، وأن تفتحَ عليه البلادُ والعباد، وقد نهاه الله تعالى أنْ يضير نفسَه على كفرِ الكافرين، وضلالِ الضالين ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف:٦].

فالرسلُ والأنبياءُ ومنهم رسولُنا ﷺ إذا تمنَّوا ألقى الشيطان في أمنيةِ الواحد، كتمنيه ظهور الإسلام على الأرض كلِّها، وغلبتِهِ المشركين كلهم في الحالِ، فينزل اللهُ مِنَ الآيات ما يخلِّص أمنيةَ الرسولِ مما شابَها، ويحكم اللهُ آياتِهِ، قال القرطبي [١٧/٣٩٨]: «قال أحمدُ بنُ محمدِ ابنِ حنبلٍ: بمصر صحيفة في التفسير، رواها عليُّ بنُ أبي طلحةَ لو رَحَلَ رجلٌ فيها إلى مصرَ قاصداً ما كان كثيراً، والمعنى عليه: أن النبيَّ ﷺ كان إذا حَدَّثَ نفسه ألقى الشيطانُ في حديثِه على جهةِ الحيلةِ فيقول: لو سألتَ الله عزَّ وجلَّ أن يُغْنِمَكَ ليتسعَ المسلمون، ويعلمُ الله عزَّ وجلَّ أن الصلاحَ في غيرِ ذلك، فيبطلُ ما يُلقي الشيطانُ كما قال ابنُ عباس رضي الله عنهما، وحكى الكسائي والفراء جميعاً ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ إذا حدّث نفسه، وهذا هو المعروف في اللغة».

٢- قلوبُ العبادِ تجاه فتنِ الشيطان:

وقوله سبحانه: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾ [الحج:٥٣]، أخبرَ اللهُ تعالى أنَّه جعل ما ألقاه اللهُ في أمنيةِ الرسول فتنةً واختباراً لعبادِهِ، فافتتن به فريقان: الأولُ: الذين في قلوبهم مرضٌ. والثاني: القاسيةُ قلوبُهُمْ. والذين في قلوبهم مرض، المرادُ به مرض الشبهات والشكوك، وهذه الشبهات تُضْعِفُ قلوبَهُم، وتجتاحُها الفتنُ.

والقلوبُ القاسيةُ: القلوبُ اليابسةُ، وهي لا تقبل الحقَّ، وتؤثِّر فيها الفتنُ، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾ أي: في ضلالٍ ومخالفةٍ وعنادٍ، فهم بعيدون عن الحقِّ والصوابِ.

وحدَّثنا ربُّنا عن صنفٍ ثالثٍ مِنَ القلوبِ، وهي القلوبُ المُخْبتَةُ، فقال: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج:٥٤]، وهذا الفريقُ، وهم الذين أُوتو العلمَ على نور مِنْ ربِّهم، وهم مستيقنون مِنَ العلم الذي جاءَهم مِنْ ربِّهم، ويعلمون أنَّ ما جاءَهم مِنْ عندِ الله حقٌّ لا باطل فيه، فآمنوا به، وأخبتت له قلوبُهم، أي: اطمأَنَّت، وخشعتْ، واهتدتْ، وهؤلاءِ هم المؤمنون الذين يهديهم ربهم إلى صراطٍ مستقيم، ففي الدنيا هم مستقيمون على الإسلامِ والقرآنِ، وفي الآخرة يمضون على الصراطِ إلى جناتِ النعيم.

٣- الكفارُ يحلُّ في قلوبِهِمْ الريبُ والشكُّ بالقرآن:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾ [الحج:٥٥]، وهذه الآية تبيِّنُ نفوسَ الكفارِ، فإنَّها لا تزالُ في مريةٍ وشكٍّ مِنْ هذا القرآنِ، لا يقرُّ لها قرارٌ، ولا يهدأ لها بالٌ، وسيبقى حالهم كذلك إلى أنْ تاتيهم الساعةُ بغتةً، أي: فجأةً، أو يأتيهم عذابُ يومٍ عقيمٍ، وهو يومُ القيامةِ، لأنه اليومُ الأخيرُ الذي لا يومَ بَعْدَهُ.

٤- حُكْمُ الله بين العبادِ في يوم الدين:

أَخْبَرَنا ربّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ الْمُلْكَ لَهُ وَحْدَهُ يومَ الدين، وسيحكمُ بين العبادِ في ذلك اليومِ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات تكونُ عاقبتهم في جناتِ النعيم، والذين كفروا بالله وكذَّبوا بآياتِهِ فأولئك لهم عذابٌ مهين في نارِ جهنم ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾ [الحج:٥٦-٥٧].

وقولُهُ: بغتةً، أي: فجأةً، قال قتادة: «﴿بَغۡتَةً﴾ بغتَ القومَ أمْرُ الله، وما أخذَ اللهُ قوماً قطُّ إلاَّ عند سَكْرَتِهِمْ وغِرَّتِهِمْ ونعمتِهِمْ، فلا تَغْتَرُّوا بالله، إنَّه لا يغترُّ بالله إلا القومُ الفاسقون» [تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٥٣].

٥- فضلُ المهاجرينَ في سبيلِ الله:

حدثنا ربُّنا عن فضلِ المهاجرين في سبيلِ الله، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩﴾ [الحج:٥٨-٥٩].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآية أنَّ الذين هاجروا مِنْ ديارِ الكفرِ إلى ديارِ الإسلامِ، ينصرون دينَ الله تعالى، ثمَّ قُتلوا في سبيلِ الله تعالى، أو ماتوا، أي: حَتْفَ أُنوفِهِمْ من

غيرِ قتالٍ، فإنَّ اللهَ يرزقُهُمْ رزقاً حسناً، أي: في الآخرةِ، واللهُ خيرُ الرازقين، وسيدْخِلُهُمْ في ذلك اليومِ مُدْخلاً يرضونه، أي: في جناتِ النعيمِ، وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٠٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ أي: عليم بمنْ هاجر وجاهد في سبيلِهِ، وحليم في صَفْحِهِ على مَنْ عَصى وأذنَب.

٦- وَعَدَ اللهُ المؤمنين أنْ ينصرهم على الذين بَغَوْا عليهم مِنَ الكفار:

أخْبَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ مَنْ جازى الظالمَ بمثل ظُلْمه ثُمَّ بُغِيَ عليه لينصرنَّهُ ربُّ العزة، فاللهُ -سبحانه- ينصرُ المظلومَ، ويديلُهُ على مَنْ ظلمه ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج:٦٠]، وختم ربُّ العزةِ الآية بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ أي: غفور عن ذنوب المؤمنين ومعاصيهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل:

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- قد يتمنى الرسولُ أو النبيُّ ما لا ينبغي له أن يتمناه، فيأتي الوحي الإلهي لينسخ ما ألقاه الشيطانُ مِنَ الأماني، ويُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ على الوجه الذي يريدُه ربُّ العزةِ.

٢- الذي يلقيه الشيطانُ يكونُ فتنةً لنوعين من البشر، الذين في قلوبهم مرضُ الشبهاتِ، والثاني القاسيةُ قلوبهم.

٣- الذين آتاهم اللهُ تعالى العلمَ الشرعيَّ النبويَّ، هؤلاءِ على يقينٍ مِنْ ربِّهم، وقلوبهم نقيَّةٌ رَضِيَّةٌ نديّة مخبتةٌ، واللهُ هاديهم إلى الصراطِ المستقيم.

٤- الكفارُ مرتابون في هذا القرآنِ، وسيبقونَ في هذا الريبِ والشكِّ حتى يَلْقَوْا ربَّهم.

٥- في يوم القيامةِ يحكمُ اللهُ بين المؤمنين والكفارِ، فيدخلُ المؤمنين الذين عملوا الصالحاتِ جناتِ النعيمِ، ويدخلُ الكفارَ الذين كذَّبوا بآياتِ الله النارَ، ليذوقوا العذابَ المهينَ.

٦- فضلُ المؤمنين الذين هاجروا مِنْ ديارِ الكفرِ إلى دارِ الإيمانِ، فهؤلاءِ إن قتلوا في سبيلِ الله أو ماتوا من غير قتلٍ يدخلهم الله جناتِ النعيم، ويرزقهم الرزقَ الحسنَ.

٧- وَعَدَ اللهُ -تعالى- المؤمنين الذين بغى عليهم الكفارُ بالنصرِ والتأييدِ.

النص القرآني العاشر من سورة الحج

اللهُ ربنا -سبحانه- يعرفنا بنفسه

أولاً: تقديم

يُعَرِّفُنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بنفسِهِ، فيدلُّنا على أفعالِهِ التي لا يطيقُ أحدٌ مِنْ خلقه أنْ يقومَ بها، فهو الذي يولجُ الليلَ في النهار، والنهارَ في الليلِ، وهو المعبودُ الحقُّ، وغيرُه مِنْ المعبوداتِ باطلٌ، والذي ينزِّلُ الماءَ مِنَ السماءِ، فتصبحُ الأرضُ مخضرَّةً، وله وَحْدَهُ جميعُ ما في السمواتِ والأرضِ، وهو الذي سخَّر لنا ما في الأرضِ، ويمسكُ السماءَ أن تقعَ على الأرضِ إلاَّ بإذنِهِ، والذي أحيانا بأن أوجدنا من العدم، ثم يميتنا، ثم يحيينا في يومِ الدين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الحج:٦١-٦٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

هذه الآيات يعرِّفنا فيها ربُّنا بنفسه الكريمة سبحانه، وقد بيَّن لنا سبحانه وتعالى أنه:

١- ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج:٦١]. فاللهُ -تبارك وتعالى- هو الذي يولجُ الليلَ في النهارِ، وهو الذي يولجُ النهارَ في الليلِ، ومعناهُ يدخلُ ما انتقصَ من ساعاتِ الليلِ في ساعاتِ النهارِ، وما انتقص مِنْ ساعاتِ النهارِ في ساعاتِ الليلِ، فما نقصَ مِنْ طولِ هذا زاد في طولِ هذا، واللهُ سبحانه هو السميعُ لأقوالِ عبادِهِ، عليمٌ بأفعالهم.

وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ [آل عمران:٢٧].

٢- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢]:

اللهُ -سبحانه- هو الحقُّ، أيْ هو المعبودُ الحقُّ، الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ، وكلُّ الآلهةِ غيرُه آلهةٌ باطلةٌ، لا تستحقُّ أنْ تعبدَ وتُدْعَى، واللهُ سبحانُه وتعالى هو العليُّ الكبيرُ، أي: هو ذو العُلُوِّ على كلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ دونه، وهو -سبحانه- الكبيرُ، العظيمُ، الذي لا أعْظَم منه.

٣- ﴿ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج:٦٣].

وعرَّفنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّه وَحْدَهُ الذي أنْزل المطرَ مِنَ السماء، وقولُهُ: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾ وجاء الفعل بصيغة المضارع ﴿فَتُصۡبِحُ﴾ أي: تصير مخضرة، ليفيد استمرارها كذلك مدة من الزمن.

وإذا أنْتَ مررتَ بأرضٍ مجدبةٍ، أنزل اللهُ تعالى عليها الغيث، ثمَّ مررتَ بها أخرى، ترى أنَّ اللهَ تعالى كَساها ثوباً أخضرَ مِنَ العشبِ، وترى أزهارَها قد تَفَتَّقَتْ، وثمارَها قد عُقِدَتْ، وأشجارَها اخضرَّت، وعناقيدَها قد تَدَلَّت، فَيَسُرَّكَ مرآها، ويطيب لك المقامُ فيها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ أي: باستخراجِهِ النباتَ مِنَ الأرضِ بالماءِ الذي ينزلُهُ مِنَ السماءِ.

وهذه الآية كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾﴾ [الحج:٥].

٤- ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج:٦٤].

أعْلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ لَهُ السمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينهما، فلَهُ في الأرضِ جبالُها وسُهولها، وأنهارها وعيونها، نباتها، ودوابها، وترابها، وصخورها، ومعادنها، وله مِنَ السماءِ نجومها، وشموسها، وأقمارها، وما لا نعلمه فيها، وهو سبحانه الغنيُّ عن عبادِهِ، فلا يحتاجُ إلى أحدٍ من خَلْقِهِ سبحانه.

٥- ﴿ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج:٦٥]:

وعَرَّفنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه هو الذي سَخَّر لنا الأنهارَ في جريانِها، والدوابَّ في خضوعِها، فترانا نركبُ الإبلَ، ونشربُ ألبانَها، ونمتطي الخيولَ، ونحوزُ الأغنامَ، وترى الصغيرَ مِنَّا يقودُ الإبلَ والبقرَ والغنمَ والخيولَ والحميرَ، ولو لم يُسَخِّرها لنا ربُّنا، لما أمْكَننا الانتفاعُ بها.

وسخَّر لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- البحرَ، نخوض غمارَه بالسفنِ التي تحملُنا وتحمل أثقالَنا إلى بلاد بعيدةٍ، وهو سبحانه وَحْدَهُ الذي يمسكُ السماء أن تقعَ على الأرضِ إلا بإذنِهِ، ولو أذنَ الله بسقوطها على الأرضِ، لهلكتِ الحياةُ فوق ظهر هذه الأرض، وختم ربُّ العزةِ الآيةَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ أي: كثيرُ الرأفةِ والرحمةِ، لما خلقَ لهم في الأرضِ والسماءِ على النحو الذي ذكره سبحانه.

وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، وقولُهُ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥] هي كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر:٤١].

٦- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج:٦٦]:

عرَّفنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّه أحيانا بأن أوجدنا من العدم، ثم يميتُنا عندما تنقضي آجالُنا في هذه الحياة الدنيا، ثم يحيينا مرةً أخرى في يومِ القيامة، هذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨]، وقولُهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية:٢٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- يَنْتَقِصُ اللهُ -تبارك وتعالى- ساعاتِ الليل فيدخلُها في النهارِ، وينقصُ ساعاتِ النهارِ، فيدخلها في الليلِ، فمرَّة يطولُ النهارُ، ومرةً يطولُ الليل.

٢- اللهُ هو المعبود الحقُّ، وغيرهُ مِنَ الآلهةِ باطلٌ، واللهُ الذي يستحقُّ أنْ يُدْعَى، ودعاءُ غيرِه شِرْكٌ.

٣- اللهُ وحدَهُ الذي ينزِّلُ الماءَ مِنَ السماءِ، فتصبحُ الأرضُ حقولاً خضراءَ، ورياضاً غنَّاء.

٤- اللهُ تعالى الغنيُّ الحميدُ، فهو المالكُ لما في السمواتِ والأرضِ، وما فيهما، وما بينهما.

٥- اللهُ تعالى الذي سَخَّر لنا ما في الأرض، وسخَّر لنا السفنَ تخوضُ بنا عبابَ البحرِ، وهو الذي يمنعُ وقوعَ السماءِ على الأرضِ إلاَّ بإذنه.

٦- اللهُ هو الذي يحيينا بأن أوجدنا من العدم، ثم يميتُنا بعد إحيائِنا، ثم يبعثُنا يوم الدينِ، فيجيزنا، ويحاسبنا.

النص القرآني الحادي عشر من سورة الحج

أولاً: تقديم

كان المشركون ينازعون المسلمين ويخاصموهم في أنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ على المؤمنين نحرَ الذبائح، فأخبر ربُّ العزةِ أنَّ نحرَ الذبائحِ شِرْعَةٌ عامة فرضَها على الأمم كلها، ونهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن مخاصمةِ المشركين في هذا الموضوعِ، وأخبرَ أنَّه سيحكم يومَ القيامةِ في القضايا التي اختلفوا فيها، ومنها هذه القضيةُ، واللهُ علْمُهُ محيطٌ بكلِّ شيءٍ، ومنه هذه المسألةُ.

وأخبر أنَّ آلهةَ المشركين آلهةٌ باطلةٌ، لا يقومُ عليها دليلٌ ولا برهانٌ، وبيَّنَ في الآية الأخيرةِ مِنْ هذا النصِّ مدى الغيظِ والغضبِ الذي يصيبُ الكفارَ عندما تتلى عليهم آياتُ القرآنِ، وسيصيبُ الكفار مثل ذلك عندما يقذف بهم في النار في يوم الدين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج:٦٧-٧٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- جعل اللهُ لكل أمة منسكاً:

أَخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه شَرَعَ لكلِّ أمَّةٍ مؤمنةٍ أرسلَ إليها رسولاً مَنْسَكاً يَذْبحون فيه الذبائحَ باسمِه، واختار ابن جرير أنَّ المرادَ بالمنسكِ إراقةُ الدماءِ أيامَ النحر بمنى، لأنَّ المناسكَ التي كان المشركون جادَلُوا فيها الرسولَ ﷺ كانت إراقةُ الدمِ في هذه الأيامِ، ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج:٦٧].

وقوله تعالى: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: هُمْ فاعلوه، أي بنحرِ الذبائحِ في الوقتِ والمكان الذي حدَّده الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي: لا يخاصمنَّك في أمْرِ نحرِ الذبائح، والمخاصمةُ والمجادلة لا تكون إلاَّ بين اثنين، فإذا نهانا اللهُ عن منازعةِ المشركينَ في أمرِ الذبائح، فهو بمنزلة لا تُجادِلُوهم.

وأمرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنْ ندعوَ الناسَ إلى عبادتِهِ وَحْدَهُ لا شريكَ له، وإلى تحكيمِ دينِهِ وشريعتِهِ، وأخبرَ الله رسولَنا ﷺ أنَّه على هدى مستقيم ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج:٦٧].

وقد أمَرَ ربُّنا رسولَنا ﷺ إنْ جادلوه في شأنِ الذبائحِ في منى أنْ يقول لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الحج:٦٨]. وهذه كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس:٤١].

٢- الله يحكم بين عبادِهِ فيما هم فيه يختلفون:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه يَحْكُمُ بيننا وبين خصومِنا يومَ القيامة فيما نختلفُ فيه ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الحج:٦٩].

فاللهُ -سبحانه- وتعالى يحكمُ يومَ القيامةِ بَيْنَ المؤمنين والكفار فيما كانوا يختلفون فيه في الدنيا، فمن ذلكَ اختلافُهم في توحيدِ الله عزَّ وجلَّ، وصِدْقِ الرسولِ ﷺ، وصحةِ هذا الدينِ، وغيرِ وذلك.

٣- الله -تعالى- يعلمُ كلَّ ما في السماءِ والأرض:

أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ عِلْمَهُ محيطٌ بالسمواتِ والأرضِ، لا يخفى عليه خافيةٌ فيهما، وهذا أمْرٌ سَهْلٌ عليه، وهو يسيرٌ عليه ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج:٧٠].

قال ابنُ جريرٍ الطبريِّ: قال ضَمُرَةُ بنُ حبيبٍ: «إنَّ اللهَ كان عرشُهُ على الماء، وخلقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ، وخلقَ القلمَ، فكتب به ما هو كائنٌ مِنْ خَلْقِهِ» [تفسير ابن جرير الطبري: ٧/ ٥٨٨٩].

٤- المشركونَ يعبدونَ من دون الله ما لم ينزلْ به حُجَّةً ولا برهاناً:

أخبر اللهُ -تباركَ وتعالى- أنَّ المشركينَ الذين يعادُونَ المؤمنين يعبدون من دونِ الله آلهة لم ينزلِ الله تعالى بها سلطاناً، أي: لم ينزلْ بها حجَّةً ولا برهاناً، وليس لهم علم بصحةِ عبادتِها، فعبادتُهم لها قائمةٌ على الكذبِ والافتراءِ، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [الحج:٧١]، وما أخبرنا اللهُ تعالى بهِ، يجعلُ قلوبنا راضيةً مطمئنةً في صراعنا مع المشركين، فنوقنُ أنَّا على الحقِّ، وهم على الباطلِ، ونعلمُ أنَّهُ لا ناصر لهم، ولا مؤيِّد لهم.

٥- موقف الكفارِ عندما تتلى عليهم آياتنا:

أخْبرنا ربُّنا تباركَ وتعالى أنَّ كفارَ قريشٍ عندما كان الصحابةُ يتلونَ عليهم آياتِ القرآنِ الواضحاتِ البيناتِ تمتلأ نفوسُهُمْ وقلوبُهُم غيظاً وغضباً، وترى آثارَ ذلك ظاهرةً على وجوهِهِمْ متمثلةً في عبوسِ تلكَ الوجوهِ، والشررِ الذي يتطايرُ من عيونهم، والسبابِ الذي تقذفُ بِهِ أفواهُهُمْ، ولشدةِ ما حلَّ بهم يكادون يَسْطُونَ بالذين يتلونَ عليهم آياتِهِ، ومعنى: ﴿يَسْطُونَ﴾ يبطشونَ، يقالُ: سطا به يسْطُوا إذا بطشَ به بضربٍ أو بشَتْمٍ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ [الحج:٧٢].

ونشاهدُ اليومَ حالَ أهلِ البدعِ المضلَّةِ كحالِ هؤلاء الذين وصفهم اللهُ تعالى في هذه الآيةِ، يقول الشوكاني رحمه الله تعالى: «وهكذا ترى أهلَ البدعِ المضلَّةِ إذا سمعَ الواحدُ مِنْهُمْ ما يتلوه العالمُ عليهم مِنْ آياتِ الكتابِ العزيزِ، أو مِنْ السنةِ الصحيحةِ مخالفاً لما اعتقده مِنْ الباطلِ والضلالةِ رأيتَ في وجهه مِنَ المنكر ما لو تمكن مِنْ أن يسطو بذلك العالِم لفعلَ به ما لا يفعلُه بالمشركين، وقد رأينا وسمعنا مِنْ أهلِ البدعِ ما لا يحيطِ بِهِ الوصفُ، واللهِ ناصرُ الحقِّ، ومظهرُ الدين، وداحضُ الباطلِ، ودامغُ البدعِ، وحافظ المتكلمين بما أخَذَه عليهم، المبينين للناسِ ما نُزِّلَ إليهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل» [فتح القدير: ٣/ ٦٣٧].

وقد أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقولَ لأولئكِ الذين امتلأت قلوبهم غيظاً بسببِ تلاوةِ آياتِ القرآنِ عليهم: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج:٧٢].

أمَرَهُ أن يقولَ لهم: أفأُخْبِرُكم بشرٍّ مما حلَّ بكم اليومَ؟ النارُ التي وَعَدَكُم اللهُ إياها، تدخلونَها، وتقاسون شرَّها وحرَّها وأهوالها في يومِ القيامةِ، وبئسَ مصيرُكم فيها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- مِنَ التشريعاتِ العامةِ التي فرضها الله على جميعِ الرسلِ وجميعِ أُممها المناسكُ التي فرضَ فيها نحرَ الذبائحِ.

٢- نهى اللهُ رسولَنا ﷺ عن منازعةِ المشركين في إنكارِهمْ فيما فرضَهُ في نحرِ الذبائحِ.

٣- اللهُ -تعالى- يحكمُ بين المؤمنين والكفار، فيقرّ الحقَّ، ويبطلُ الباطلَ.

٤- عِلْمُ الله تعالى محيطٌ بالسماءِ والأرضِ، لا يخفى عليه فيهما شيءٌ.

٥- ما يعبدُهُ الكفارُ مِنَ الأصنام والأوثانِ باطلٌ، وليس عليه دليلٌ ولا برهان.

٦- كان الكفارُ ولا يزالون يمتلِئون غيظاً، ويبدو عليهم الغضبُ والعبوسُ عندما تتلى عليهم آياتُ القرآنِ التي تدعو إلى توحيدِ الله، وعبادتِهِ دون سواه.

٧- يزدادُ الكفارُ غيظاً يومَ القيامةِ عندما يدخلهم اللهُ النارَ التي وعدهم إياها، وبئسَ المصيرُ مصيرُهُم.

النص القرآني الثاني عشر من سورة الحج
عجزُ آلهةِ المشركين وضعفُها وبطلانُ ألوهيتها

أولاً: تقديم

بَيَّن اللهُ تعالى عجزَ آلهةِ المشركين، وعدمَ صلاحيتها لأنْ تعبدَ مِنْ دونِ الله تعالى، وبيَّن أنَّ المشركين لم يعظموا اللهَ حقَّ تعظيمه عندما عَدَلُوا آلهتهم بالله في العبادةِ، وأمَرَ اللهُ تعالى عباده بتوحيدِهِ، والصلاةِ لهُ، وفعلِ الخيراتِ، والجهادِ في الله حقَّ جهادِهِ، وأخبرنا أنَّه اختارنا واصطفانا، وجعلَ لنا ملةَ إبراهيمَ ديناً، وسماناً ربُّنا المسلمين، وجعلَ رسولنا ﷺ شهيداً علينا، وجعلنا شهداءَ على الناسِ يومَ القيامةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الحج

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج:٧٣-٧٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ضربَ اللهُ -تعالى- مثلاً لعجز آلهةِ المشركين وضعفِها:

ضربَ اللهُ -تباركَ وتعالى- مثلاً للآلهةِ التي يعبدونَها مِنْ دونِ الله تعالى، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج:٧٣].

نادى اللهُ -تعالى- الناسَ جميعاً، قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وقولُهُ: ﴿ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ وإنما ضربَ اللهُ -تعالى- المثلَ، لأنَّ حُجَجَ الله على عبادِهِ تقومُ بضربِ الأمثالِ، لأنها

أقربُ إلى أفهامِهِمْ، وقوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: اسمعُوهُ، وافهموهُ، فالاستماعُ من غير فهم، لا تقومُ به حجةٌ.

وقد قَرَّرَ ربُّ العزةِ أنَّ الآلهةَ التي يعبدها الكفارُ مِنْ دونِ الله ويدعونها مِنَ دونِ الله ضعيفةٌ عاجزةٌ، فلا تستطيعُ أنْ تَخْلُقَ أقلَّ الأشياءِ وأحقرَها، فمن أضعفِ المخلوقات الذبابُ، وهي لا تستطيع خلقَ الذباب، ولو اجتمعت هذه الآلهةُ كلُّها، فلن تستطيعَ أن تفعلَ ذلكَ.

بل هي أعجزُ من ذلك، فلو أنَّ الذبابَ يسلبُ هذه الآلهة قَطْرَةَ طيبٍ أو قطرةَ ماءٍ كانت على تلك الأصنامِ، فلا تستطيع تلكَ الأصنامُ ولا عابدوها، أن يسترجعوا تلك القطرة.

وقد روى أبو هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «قالَ اللهُ تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، وليْخلُقُوا ذَرَّةً» [البخاري: ٥٩٥٣. مسلم: ٢١١١].

٢- **لم يعظمْ عبادُ الأصنامِ اللهَ حقَّ تعظيمه:**

يقولُ ربُّ العزةِ تباركَ وتعالى مبيناً مدى استخفافِ الكفار الذين يعبدون غيرَ الله مِنَ الأصنام والأوثانِ ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج:٧٤]، أي: ما عظموا اللهَ حقَّ تعظيمِهِ، وما عرفوهُ حقَّ معرفتِهِ، ولا وصفوه حقَّ صفتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ أي: قويٌّ على خَلْقِ ما يشاءُ مِنْ صغيرٍ وكبيرٍ، و﴿عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ أي: منيع في ملكه، لا يقدرُ أحدٌ أن يسلبه مِنْ ملكِهِ شيئاً.

٣- **اللهُ -تعالى- يختارُ رُسُلاً كما يشاءُ:**

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ أنَّه ﴿يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج:٧٥].

ومِنَ الملائكةِ الذين اختارَهُمْ رسلاً منه إلى رسلِهِ مِنَ البشرِ جبريلُ عليه السلام ومن الرسلِ الذين اختارهم مِنَ البشر نوحٌ، وهودٌ وصالحٌ، وإبراهيمُ، وموسى وغيرهم. وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ أي: سميعٌ لأقوالِ عبادِهِ، بصيرٌ بمن يختاره مِنْ خلقه لرسالته.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [الحج:٧٦]، وما بينَ أيديهم: ما قدَّموه، وما خَلْفَهم، أي: ما خَلَّفوه، فلا يخفى عليه من أمورِهِمْ شيءٌ، كما قال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ

ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجن:٢٦-٢٨].

٤- أمرَ اللهُ -تعالى- المؤمنينَ بالصلاةِ وفعلِ الخيرِ لعلهم يفلحونَ:

نادى اللهُ -تعالى- المؤمنين وأمَرَهم بالركوعِ والسجودِ، وعبادةِ الله، وفعلِ الخيرِ، لعلهم يفلحون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج:٧٧].

والركوعُ والسجودُ هما ركنان مِنْ أركانِ الصلاةِ، ولذلك فإنَّ الأمرَ بهما أمْرٌ بالصلاةِ، والأمرُ بعبادةِ الله، أمْرٌ بعبادتِهِ وَحْدَهُ لا شريك له، فالمشركون يعبدونَ اللهَ، ويعبدون غيره مَعَهُ، والأمرُ بفعلِ الخير، أمر بفعل الخيرِ كلِّه، مِن الزكاةِ والصيامِ والحجِّ، والوفاءِ بالنذورِ، وذكر الله، وغير ذلك.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ أي: لتفوزوا، فهذا الذي أمَرَ اللهُ تعالى بِهِ في هذه الآيةِ هو الذي يُؤَدِّي بعبادِ الله إلى جنةِ الله ورضوانِهِ.

وأمَرَنا ربُّنا أنْ نجاهد في الله حقَّ جهادِهِ ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ والجهادُ في الله حقَّ جهادِهِ يكون بالنفسِ والألسنةِ والمالِ، والجهادُ في الله حقَّ جهادِهِ يكون بأنْ يطاعَ اللهُ فلا يُعْصى، وأن يُعْبَدَ فلا يشركُ بِهِ، وأن يراقبَ فلا يُغْفَلُ عنه.

٥- اختيارُ الله واصطفاؤه لهذه الأُمَّةِ:

بعد أنْ أمَرَ اللهُ -تعالى- هذه الأمةَ بما أمَرَهم به، أخبرهم أنَّه اختارَهُمْ واصطفاهُمْ، ولم يجعلْ علينا في الدين مِنْ حرجٍ، أي: من ضيقٍ، بل وسَّع علينا في ديننا، وهذه التوسعةُ هي ملَّةُ أبينا إبراهيم عليه السلام، وأخبرنا ربُّنا أنَّه سمَّانا المسلمين في الكتبِ السابقةِ، وسمَّانا المسلمينَ أيضاً في هذا الكتابِ، لتكون العاقبةُ أنْ يشهدَ علينا رسولُنا ﷺ بأنَّه بَلَّغنا، ولنشهدَ للرسلِ الذين أعلمنا ربُّنا بأنهم بلَّغوا أُممَهم، نشهدُ لهم بأنَّهم بَلَّغُوا أُمَمُهُمْ.

وما دامَ اللهُ -تعالى- قد اختارَنا واصطفانا فعلينا أنْ نكون على المستوى الذي رفعنا اللهُ إليه بإقامتِنا للصلاةِ، وإيتائِنا للزكاةِ واعتصامِنا بالله، الذي هو مولانا، فنعمَ المولى، ونعمَ النصير ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج:٧٨].

وكونُ الله تعالى وسَّعَ علينا في ديننا وخَفَّفَ علينا فيه، ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ ﴾ منصوب بمحذوف، أي: الزموا ملةَ أبيكم إبراهيم، وملَّةُ إبراهيم شاملةٌ لكلِّ ما ذُكِرَ من قبله من الأوامر، وقد جاء هذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ﴾ [الأنعام:١٦١].

وذهب عبدُالرحمن بنُ زيد بنِ أَسْلَمَ إلى أنَّ مرجعَ الضميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ إبراهيمُ عليه السلام، والصوابُ أنَّ الذي سماكم المسلمين هو اللهُ تعالى، وهذا هو الذي ذهب إليه ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ وعطاءٌ والضحاكُ والسُّدِّيُّ وقتادةُ [ابن كثير: ٤/ ٤٦١]. ويدلُّ لصحة هذا القول يعني قولَه تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ قولُه بعد ذلك: ﴿وَفِى هَٰذَا ﴾ أي: القرآنُ، ومعلومُ أنَّ إبراهيمَ لم يسمِّهم المسلمين في القرآنِ، لأن القرآن أنزل من بعده بدهر طويل، وأن الذي سماكم مسلمين من قبل نزول القرآن، وفي هذا القرآن هو الله، ويدلّ لَهُ أيضاً أنَّ الأفعالَ في السياقِ المذكورِ راجعةٌ إلى الله، لا إلى إبراهيمَ، فقد جاءَ فيها: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾، ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، أي اللهُ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- ضربَ اللهُ -تعالى- لنا الأمثالَ في كتابِهِ، لنفقَهَ ما فيها مِنْ العِلْمِ.

٢- ضرب اللهُ -تعالى- المثَلَ لضعفِ آلهةِ المشركين وعجزها وعدم قدرتها على خلقِ أقَلِّ الأشياءِ وأحْقَرِها، فهي لا تستطيع خلقَ الذبابِ، ولا تستطيعُ أن تستردَّ مِنَ الذبابِ ما سَلَبَهُ منها.

٣- الذين يعبدون غيرَ الله تعالى لم يُقَدِّرُوهُ حَقَّ قَدْرِه، فلو عظَّموه حَقَّ تعظيمِهِ ما عبدوا معه أحداً غيره.

٤- اللهُ عالمٌ بخلقِهِ يصطفي مِنَ ملائكتِه مَنْ يصلحُ للسفارةِ إلى رُسُلِهِ، ويختار مِنَ البشر ما يصلح للسفارةِ إلى عبادِه.

٥- اللهُ تعالى عالمٌ بالعبادِ، يعلم ما بينَ أيديهم، وما خلفهم، لا يخفى عليه من أمرهم شيءٌ.

٦- أمَرَ اللهُ -تعالى- المؤمنين أن يقيموا الصلاةَ بركوعها وسجودِها، وأن يوحِّدوا ربَّهم -تبارك وتعالى- ويفعلوا أفعالَ الخيرِ، لعلهم يفوزونَ برضوانِهِ وجنتِهِ.

٧- اختلف أهلُ العلم في هل يجب السجود عند تلاوة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ [الحج:٧٧].

فروي عن عمرَ، وابنِ عمرَ، وعمَّار، وأبي الدرداءِ، وأبي موسى، وابن عباس، أنهم قالوا: في (الحج) سجدتان، وقالوا: فضّلت هذه السورة على غيرها بسجدتين، وبهذا قال الحنابلةُ، وهو مذهبُ الشافعيِّ ﷺ.

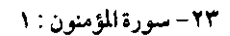
فروي عن ابنِ عباسٍ أنه قال: في (الحج) سجدةٌ، وبهذا قال الحسنُ، وسعيدُ بنِ المسيَّبِ، وسعيدُ بن جبيرٍ، وإبراهيمُ، وجابرُ بن زيدٍ، وأبو حنيفة وأصحابه، ومالكٌ؛ ويدلُّ على الأوَّلِ ما روى عقبة بن عامر، قال: قلت: يا رسول الله أفي (الحج) سجدتان؟ قال: «نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما» [وهذا الحديثُ رواه الإمامُ أحمد، وأبو داودَ، والترمذيُّ مِنْ حديث عبدالله بن لهيعة به، وقال الترمذي: ليس بقويٍّ. قال ابنُ كثير: وفي هذا نظر، فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع، وأكثر ما نقموا عليه تدليسه، ثم قال ابن كثير: وقد رواه أبو داود في (المراسيل) عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسولَ الله ﷺ قال: «فضلت سورة الحج عن سائر القرآن بسجدتين»، ثم قال أبو داود: وقد أسند هذا، يعني من غير هذا الوجه، ولا يصح. زاد المسير: ٥/ ٤٥٤].

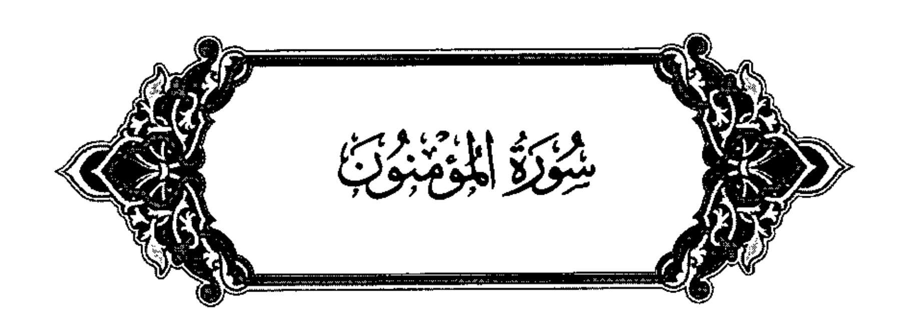
٨- اللهُ تعالى اصطفى هذه الأمةَ واختارَها، ووسَّع عليها في دينها، ولم يضيِّقْ عليها، واختارَ لنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- ملةَ إبراهيمَ ﷺ.

٩- اللهُ تعالى سمَّانا المسلمينَ في الكتب السابقةِ، ونوَّه بنا فيها، وسمانا بهذا الاسم في القرآنِ الكريم.

١٠- الرسولُ ﷺ يشهدُ على أُمَّتِهِ بأنَّه بلَّغَها هذا الدينَ وهذه الأمةُ ستكون شاهدةً لمن حَدَّثنا اللهُ عنهم مِنَ الرسلِ بأنَّ اللهَ بلَّغهم.

١١- أمَرَنا اللهُ تعالى بإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاة والاعتصامِ بالله، وهذا مقتضى اصطفاءِ الله واختيارِهِ لنا.





هذه السورة مكية كلُّها بإجماع العلماءِ، وقال الشوكانيُّ: «هي مكيةٌ بلا خِلاف». قال القرطبي: «كُلُّها مكيَّةٌ في قولِ الجميع» [فتح القدير: ٣/ ٦٤٤].

وقال أبو عمرٍو الدانيُّ: «مكيةٌ، ولا نظيرَ لها في عَدَدِها، وكلِمُها ألفٌ وثمانمائةٌ وأربعون كلمةً، وحروفُها أربعةُ آلافٍ وثمانمائةٍ وحرفان، وهي مائة وثماني عشرة آيةً في الكوفيِّ، وتسعَ عشرة آيةً في عددِ الباقين» [البيان في عدِّ آي القرآن، ص١٩١].

وعن عبدالله بن السائبِ ذكرَ أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى الصبحَ، حتَّى إذا جاءَ ذِكْرُ موسى وهارون، أو ذِكْرُ عيسى، أخَذَتْه سَعْلَةٌ فرَكَعَ [ذكره البخاري معلقاً في كتاب الأذان، ١٠٦، باب الجمع بين السورتين، قبل الحديث (٧٧٤/ م). وأخرجه مسلم موصولاً برقم (٤٥٥)].

النص القرآني الأول من سورة المؤمنون
الذين يرثون الفردوس

أولاً: تقديم

حَدَّثَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في آيات هذا النص عن الفئة الخيِّرةِ المفلحةِ التي ترثُ جناتِ الفردوسِ وهي أعلى منازل الجنة، وحدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الصفات التي تؤهلهم لهذه المرتبة العالية.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون:١-١١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- فلاحُ المؤمنين:

أعْلَنَ ربُّ العزَّة -تبارك وتعالى- في الآية الأولى من هذه السورة أنَّ الطائفةَ المفلحةَ مِنَ البشرِ جميعاً هم المؤمنون ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون:١]، وحرفُ ﴿قَدْ﴾ تأكيد لفلاح المؤمنين، أي: فازوا وسعدُوا، ونالوا الحظوةَ العليا، والمقامَ الأسمى في يوم الدينِ، وسيبينُ ربُّ العزةِ في آخرِ آياتِ هذا النصِّ أنَّ فلاحَهمْ هو في ميراثِهِمْ جنات الفردوسِ، هم فيها خالدون.

٢- خشوعُ المؤمنين في صلاتهم:

بَيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآيات الصفاتِ التي تُؤَهِّلُ المؤمنين إلى الفلاح العظيمِ، والتي تُؤَهلهم لجناتِ النعيمِ، ومِنْ ذلك خُشُوعُهُمْ في صلاتِهِمْ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:٢].

والمرء إذا خشع قلبه خشعت جوارحه ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦]، فإنَّ الذي يحلُّ الخشوع في قلبه ويتراكم فيه، لا بدَّ أن يمتدَّ هذا الخشوع إلى جوارحه، فيحلّ فيها، ويتمكّن منها.

وقد كان الرسول ﷺ يأمر بلالاً ﷺ، فيقيم الصلاة، فيصلي، فيجد في ذلك الراحة لقلبه، والهدوء. فعن سالم بنِ أبي الجَعْدِ قال: قالَ رَجُلٌ، قالَ مِسْعَرٌ: أُراهُ من خُزاعَةَ: لَيْتَني صَلَّيْتُ فاسْتَرَحْتُ، فكأَنَّهُمْ عابُوا عليه ذلِكَ، فقالَ: سَمِعْت رَسُولَ الله ﷺ يقولُ: «يا بلالُ أقمِ الصَّلاةَ، أرحِنا بها» [أبو داود: ٤٩٨٥. قال محقق ابن كثير: إسناده جيد].

وعن عبدالله بنِ مُحمد ابْنِ الحنفيَّةِ، قال: انْطَلَقْتُ أنا وأبي إلى صِهْرٍ لنا من الأنْصارِ نَعُودُهُ، فَحَضَرَتِ الصلاةَّ، فقالَ لبَعْضِ أَهْلِهِ: يا جَارِيَةُ ائْتُونِي بوضوء لَعَلِّي أُصَلِّي فَأَسْتَرِيحَ، قالَ: فأنكرنا ذلِكَ عليه، فقال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ: «قُمْ يا بِلال فَأَرِحْنا بالصَّلاةِ» [أبو داود: ٤٩٨٦. قال محقق ابن كثير إسناده حسن صحيح. وعزاه إلى صحيح أبي داود: ٤١٧١].

وأخبرنا تعالى أن من صفات المؤمنين أنهم يتركون ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، وأنهم يؤدون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون:٣-٤].

٣- حفظ المؤمنين فروجهم:

أَخْبَرَنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ مِنْ صفاتِ المؤمنين التي يدخلون بها جناتِ النعيم، وتؤهلهم للفردوسِ الأعلى حِفْظَهُمْ فروجَهُمْ إلاَّ على أزواجِهِمْ أو ما ملكتْ أيمانُهُمْ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون:٥-٧].

والفروجُ التي أُثني عليهم بحِفْظِها هي السَّوءات، ويدخل فيها القُبُلانِ، والمرادُ هنا بالآيةِ فروج الرجالِ خاصةً، لقوله بعد ذلك: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنون:٦].

لقد صانوا وحفظوا فروجهم عما لا يحل لهم من الزنا واللواطِ وكل الفواحش مما حَرَّمه اللهُ تعالى، وأباح لهم طريقين لقضاء أوْطارِهم، معاشرةَ الزوجاتِ، ومعاشرةَ ما يملكونه مِنْ إماءٍ، بشرطِ عدمِ وجودِ الحيضِ والنفاس والظهار.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧﴾ وأراد بـ ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: سوى ذلك، و﴿ٱلۡعَادُونَ ٧﴾ الجائرون الظالمون، الذي يتعدون الحلالَ إلى الحرامِ.

٤- الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون:

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على المؤمنين بأنهم ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨﴾ [المؤمنون:٨]. أثنى عليهم بأنَّهم إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدون الأمانات إلى أهلها، وإذا عاهدوا وفَوْا بعهدِهم والأماناتُ والعهود منها ما يكون بين العباد وبين ربِّهم، كالوضوء، والصوم، والزكاة، والحج، ونحو ذلك، ومنها ما يكون بين العبد وبين بني جنسه كالبيعِ والشراءِ، والإجارة، ونحو ذلك.

٥- الذين يحافظون على صلاتهم:

ابتدأ اللهُ -تعالى- هذه الصفات التي تؤهل المؤمنين لدخول الفردوس بالصلاة وختمها بالصلاة، مما يدلُّ على مدى أهميتها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩﴾ [المؤمنون:٩]، والمحافظة على الصلاة يكون بالمحافظة على أدائها في أوقاتِها وإتمامِ قراءَتِها وركوعِها وسجودِها ونحو ذلك.

وقد ذكر لنا رسولنا ﷺ أنَّ خيرَ أعمالِنا الصلاةُ، فعن ثوبان، قال: قال رسولُ الله ﷺ : «استَقِيمُوا ولن تُحْصُوا، واعلَمُوا أنَّ خيرَ أعمالِكُمُ الصَّلاةُ، ولا يُحافِظُ على الوضوءِ إلاَّ مُؤْمنٌ» [سنن ابن ماجه: ٢٧٧. وصححه محققه الشيخ شعيب الأرنؤوط وانظر تمام تخريجه فيه].

٦- أولئك هم الوارثون:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المؤمنينَ المتصفينَ بالصفاتِ التي ذكرَها فيما سبقَ هم الوارثون، الذين يرثونَ الفردوسَ هم فيها خالدون، ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون:١١]، والفردوس: وَسَط الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، ومنه تَفَجَّر أنهارُ الجنَّة، وسقفه عرشُ الرحمن.

روى أبو هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّةِ مئةَ دَرَجةٍ أعَدَّها اللهُ للمجاهدِينَ في سبيلِه، كلُّ دَرَجَتَينِ ما بينَهما كما بينَ السماءِ والأرضِ، فإذا سألتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلَى الجنَّةِ، وفَوْقَه عرْشُ الرَّحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنْهارُ الجنَّةِ» [البخاري: ٧٤٢٣].

وقد وردت بعض الأحاديث التي تبين المراد من وراثة المؤمنين للفردوس، منها ما أورده ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٦٨) عن ابن أبي حاتم قال: حدثنا أحمد بن سِنانٍ، حدثنا أبو

معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «ما مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ وَلَهُ مَنْزِلانِ: منزلٌ في الجَنَّةِ ومَنْزِلٌ في النَّار، فإنْ ماتَ ودَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أهْلُ الجَنَّةِ مَنْزِلَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ﴾».

ونقل ابن كثير عن ابن جريج عن الليث عن مجاهد ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيُبنَى بيته الذي في الجنة، ويُهدَم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيُهدَم بيته الذي في الجنة، ويُبنَى بيتُه الذي في النار. ورُوِي عن سعيد بن جُبَير نحو ذلك. فالمؤمنون يرثون منازل الكفار، لأنهم خُلِقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجَبَ عليهم من العبادة، وتَرَكَ أولئك ما أُمرُوا به مما خُلقوا له أحرزَ هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل [تفسير ابن كثير ٤/ ٤٦٨].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الفئةُ المُفْلِحَةُ مِنَ الناسِ الفائِزة هم المؤمنون المتصفونَ بالصفاتِ المذكورةِ في هذه الآيات.

٢- مِنْ أعظم صفاتِ المؤمنينَ إقامُ الصلاة، وقدْ ذكرَ اللهُ تعالى منها صفتين: الأولى: الخشوع في الصلاة، والثانية: المحافظة عليها في أوقاتها.

٣- مِنْ صفاتِ المؤمنين التي تؤهلهم للنجاةِ من النار والفوزِ بالجنَّة الإعراضُ عن الباطلِ مِنَ الأقوالِ والأفعال والمقاصد.

٤- مِنْ صفاتِ المؤمنين التي تؤَهلهم للجنةِ أداء الزكاة، وقد كانت الزكاةُ مفروضةً في مكَّة مِنْ غيرِ أنصبة.

٥- أثنى رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- على المؤمنين بأنهم يحافظون على فروجهم مما لا يحلُّ لهم، إلاَّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، فلا لوم ولا حرج في الاستمتاع بهن.

٦- استدلَّ الشافعيُّ بدلالةِ الآية على حفظِ الفروجِ إلاَّ على الأزواج أو ما ملكت الأيمان بتحريمِ الاستمناء.

٧- وجوبُ الوفاءِ بالعهودِ أو ما ملكت الأيمانُ، وهما شاملانِ لكلِّ ما وجبَ على العبدِ مِنْ حقوقٍ إلهيةٍ أو بشريَّة.

٨- المؤمنون المتصفون بهذه الصفاتِ هم الفائزونَ المصلحونَ الذين يرثون جنات الفردوس.

النص القرآني الثاني من سورة المؤمنون
نِعَم الله تعالى التي أنعم بها على عباده

أولاً: تقديم

ساقَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا في آيات هذا النصِّ جملة من النِّعَم العِظام التي أنعم بها على بني الإنسان في أنفسهم وفي الكون من حولهم، فمن خلق آدم من سلالةٍ من طين، ثم خلق ذريته من ماء مهين، ومن ذلك خلق سبع سماوات طِباقاً، وإنزاله الماء مِنَ السماءِ، فأنبت به خيراتِ الأرض، وجعل لنا مِنَ الأنعام عبرة، يسقينا من لبنها، ويطعمنا من لحومها، ويركبنا ظهورَ الإبلِ منها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[المؤمنون: ١٢-٢٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير هذا النص من القرآن

١- خلقُ الإنسان:

حدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن خلقِهِ للإنسان والأصل الذي خُلِقَ منه، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه في مواضعَ كثيرةٍ في كتابه أنه خَلَقَ آدمَ مِنْ ترابٍ، وأصبحَ هذا الترابُ طيناً لازباً، ثم حمأً مسنوناً، ونحن مخلوقون بخلق أبينا آدم عليه السلام مِنْ هذا

الطينِ، وبعد خلق أبينا آدم وأُمنا حواء خلق اللهُ تعالى ذريته مِنْ ذكر وأُنثى، خلقهم مِنْ الحيوان المنوي الذي يقذفه منيُّ الرجلِ، عندما يلقح بويضة المرأة، فتنغرسُ هذه البويضة الملقحة في قرارٍ مكين، خلقه في غاية القوةِ والثباتِ، وهو جدار الرحم، وتبدأ هذه الخلية في الانقسام والتكاثر، فتصبح على شكلِ علقةٍ، أي: على شكل ذلك الحيوان، ثم تصبح على شكل مُضْغَةٍ، أي: على شكلِ لقمة ممضوغة، ثم تتحول هذه المضغة إلى عظام، فيكسو ربُّ العزة هذه العظام باللحم، ثم ينشئه ربّ العزَّةِ خلقاً آخر، أي ينشئه ربُّ العزة بعد تلك الأطوار خلقاً آخر، أي: بعد نفخ الروح فيه يصبح إنساناً سويّاً، مخالفاً لما كان عليه من الخلق، تظهر فيه معالم الإنسانية ظاهرة واضحة في انتصابه، وشكل وجهه ورأسه ويديه ورجليه، وتصبح فيه أجهزته مِنَ القلبِ والعينين والأنف والجهازِ الهضمي والجهازِ العصبي، ويغرس فيه العقل، ويصبح قادراً على الحركة والعلم والفهم، فتبارك اللهُ أحسن الخالقين.

أثنى ربُّ العزة -تبارك وتعالى- على نفسه لأنه خَلَقَ الإنسانَ على هذا النحو المحكم البديع، فالإنسانُ مِنْ أعظم ما خلق اللهُ سبحانه.

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة ما يدلُّ كيف خلق الله آدمَ مِنَ الأرض، فعن أبي موسى الأشْعَرِيِّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ من قبضةٍ قَبَضَها من جَميعِ الأرضِ، فجاءَ بنو آدَمَ على قَدْرِ الأرضِ، فجاءَ منهمُ الأحمَرُ والأبيَضُ والأسودُ وبينَ ذلكَ، والسَّهْلُ والحَزْنُ والخَبيثُ والطَّيِّبُ». [قال الترمذي: «هذا حديث حسنٌ صحيح» سنن الترمذي (٣١٨٨) طبعة الرسالة العالمية، وعزاه محقق الترمذي الشيخ شعيب (٥/ ٢١٨) إلى أبي داود، وهو في أحمد: ١٩٥٨٢].

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنَّ ابن آدم يعاد خلقه مِنْ عَجْبِ الذنب، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما بينَ النَّفْخَتَينِ أربَعونَ» قال: أربعونَ يوماً؟ قال: أبيتُ، قال: أربعونَ سنةً؟ قال: أبيتُ، قال: «ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً، فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ، ليس مِنَ الإنسانِ شيءٌ إلاَّ يَبْلَى، إلاَّ عَظْماً واحداً، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومنه يُرَكَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامةِ» [البخاري: ٤٩٣٥ ومسلم: ٢٩٥٥].

وجاء في الأحاديث الصحيحة ما يدلُّ على شيء مِنْ خلقِ الإنسان في رحم أُمِّه، فعن زيدِ بن وَهْبٍ، عن عبدالله، قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ وهو الصادِقُ المصدوقُ: قال: «إنَّ أحدَكم يُجمَعُ في بَطْنِ أمِّه أربعينَ يوماً، ثمَّ عَلَقةً مِثلَ ذلكَ، ثمَّ يكونُ مُضْغةً مِثلَ ذلكَ، ثمَّ يَبعَثُ الله مَلَكاً فيُؤمَرُ بأربعٍ: بِرزْقِه، وأجَلِه، وشَقِيٌّ أو سعيدٌ، فوالله إنَّ أحدَكُم -أو الرَّجلَ- يَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ النار، حتَّى ما يكونُ بينَه وبينَها غيرُ باعٍ -أو: ذِراعٍ- فيَسْبِقُ عليه الكتابُ،

فيَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ فيَدخُلُها، وإنَّ الرَّجلَ ليَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ، حتَّى ما يكونُ بينه وبينَها غيرُ ذِراعٍ أو ذِراعينِ، فيَسْبِقُ عليه الكتابُ، فيَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ النار فيَدخُلُها» [البخاري: ٦٥٩٤. ومسلم: ٢٦٤٣].

وعن أنسِ بن مالكٍ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «وَكَّلَ اللهُ بالرَّحِمِ مَلَكاً فيقولُ: أي ربِّ نُطفةٌ؟ أي رَبِّ عَلَقةٌ؟ أي رَبِّ مُضْغةٌ؟ فإذا أرادَ اللهُ أن يَقْضِيَ خَلْقَها قال: أي رَبِّ ذَكَرٌ أم أُنثى؟ أشَقِيٌّ أم سعيدٌ؟ فما الرِّزْقُ؟ فما الأجَلُ؟ فيُكْتَبُ كذلكَ في بَطنِ أمِّه» [البخاري: ٦٥٩٥. ومسلم: ٢٥٤٦].

٢- موتُ الإنسان ثم بعثه من بعد موته:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه بعد أنْ نقضي أجلنا فوقَ ظهر هذه الأرضِ سنموتُ، وبعد موتنا سيبعثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- ويوقفنا بين يديه، ويحاسبنا على أعمالنا ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾ [المؤمنون:١٥-١٦].

والموت نزع أرواحنا من أجسادنا، وسيقوم بذلك ملائكة الموتِ، وبذلك تنقضي أعمارنا، فنغادر هذه الدنيا إلى قبورنا ونعود تراباً، وبعد أزمانٍ يعلمها رب العزة، سينفخ في الصور، وتعود الأجساد، وتنفخ فيها الأرواح، ونقوم لربِّ العالمين، وذلك هو البعث والنشور.

٣- خلق السموات والأرض:

بعد أنْ فصَّلَ ربُّ العزة -سبحانه- القولَ في خلق الإنسان وموته وبعثه ذكر سبحانه وتعالى أنَّه خلق فوقنا سبع سموات ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧﴾ [المؤمنون:١٧].

والطرائق: السموات، وهي سبع، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة، قال أبو عبيدة: طارقت الشيءَ جعلت بعضه فوق بعض [الشوكاني: ٢/ ٦٥٠].

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧﴾ يريد اللهُ تعالى أنَّه قائمٌ على خلقِهِ مدبرٌ لهم سبحانه، لا يغفل عن هذا الخلق لحظة.

٤- إنزالُ الله -تعالى- الماءَ مِنَ السماء فأنشأ به الجنَّات:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه امتنّ علينا بما أنزلَهُ مِنَ السماءِ مِنَ ماءٍ وما أخرج به مِنَ الأرضِ، فقالَ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨ فَأَنشَأْنَا لَكُم

بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون:١٨-٢٠].

أَخْبرنا ربُّنا أنَّه أنزلَ علينا الماءَ مِنَ السماءِ بقدر، أي: بمقدار مناسب لا يضرُّ العبادَ ولا دوابَّهُمْ ولا زروعهم، فترى قطرات المطر صغيرة بحجم مناسب، يكْثُرُ خيرها عندما يطول مطرها، ويسيل المطر على وجه الأرض وفي الشعاب والوديان، ويندفقُ في باطنِ الأرضِ، ويجد له مخازنَ ضخمةً في باطن الأرضِ، فيسكنُ فيها، ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويعمل الناس على استنباطه مِنَ الأرض، فيشربون منه، ويسقون دوابهم وزروعهم.

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه قادر على الذهاب بالماء الذي أنزله، فيعطش الناس ويموتون، وتموت دوابهم وبهائمهم وزروعهم، فكم جفَّ من الأنهار، وكم غارت من العيون، وكم زال من البحيرات ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ وهذا يوجب شكر الله والثناء عليه، وحمده والطلب منه أن يديم هذه النعمة.

وحدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عما يُحْدِثُه -سبحانه- بالماء الذي يُنْزِلُه مِنَ السماء، ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ وقد كانت جناتُ النخيل والأعناب موجودة في الحجاز وفي الواحات في جزيرة العرب، وكانت النخيل كثيرةً في المدينةِ المنورةِ، والأعناب في الطائفِ، وكانت جنات الزيتون في فلسطين، ومَنْ سار في بلاد الله الواسعة وجد جنات مختلفة من الثمار المختلفة كالتفاحِ والموزِ والبرتقالِ واللوزِ وغيرها، وتنتج هذه الجنات أنواعاً كثيرةً مِنَ الفواكهِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

وحَدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن شجرة يخرجها مِنَ الأرضِ المباركة في طور سيناء، وهي شجرة الزيتون ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾. والطور: الجبل، وطور سيناءَ اسم الجبل الذي نادى الله عنده رسوله موسى عليه السلام عندما كلَّمه أوَّلَ مرةٍ، وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذه الشجرةَ تُخْرِج الدُّهْنَ، أي حَبُّها يُخْرِجُ الدُّهنَ، وهو الزيتُ الذي يصطبغ به، أي: يُؤْتدم به، وأصلُ الصبغ ما يلون به الثياب، والاصطباغ بالزيت الغمس فيه والائتدام به.

وزيت الزيتون الذي يؤتدم به زيت مبارك، فعن عمر بن الخطاب قال: قال رسولُ الله ﷺ : «كُلُوا الزَّيْتَ وادَّهِنوا بِهِ، فإنَّه من شَجَرةٍ مُبارَكة» [الترمذيُّ: ١٨٥١. وأورده الألباني في صحيح الترمذي: ١٥٠٨. وصححه وعزاه إلى صحيح ابن ماجه ١٣١٩].

وعن أبي أُسيْدٍ قال: قال النبيُّ ﷺ : «كُلُوا من الزيت، وادَّهِنُوا به، فإنَّه مِنْ شَجَرَةٍ مبارَكَةٍ» [الترمذي: ١٥٠٩. وأورده الألباني في صحيح الترمذيِّ، وقال: صحيح بما قبله. وقال الألباني في سلسلة الصحيحة (٣٧٩) بعد أنْ ذكر الحديث ورواياته وجملة القول فيه: «الحديث بمجموع طريقي عمر وأبي أُسيد يرتقي إلى درجة الحسن لغيره على أقل الأحوال»].

٥- جَعَلَ اللهُ تعالى في الأنعامِ عبرة:

خلق اللهُ -تبارك وتعالى- الأنعامَ مِنَ الإبلِ والبقرِ الغنمِ فيها عظة وعبرة ليسقينا مِنْ ألبانِها، ونأْكلَ من لحومها، ولحوم حملانها، ونركب على ظهورها ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون:٢١-٢٢].

والأنعامُ تشملُ الإبلَ والبقرَ والغنمَ، والعبرة: العظة، وقد ذكر اللهُ تعالى ثلاث منافع: أنَّه يسقينا مما في بطونها مِنْ بين فرثٍ ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، وأننا نأكل مِنْ لحومها ولحوم أولادها، والثالث: أننا نركب ظهورها، والذي يُرْكَبُ ظهرُه الإبلُ، أما الغنمُ فلا يصلح لركوب ظهره لصغره، وأما البقر فلا يصلح للركوبِ، فعَنْ أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «بينَما رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرة لَهُ، قَدْ حَمَلَ عَلَيْها، فالْتَفَتَتْ البقرةُ إليهِ، فقالتْ: إنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذا، ولِكنِّي خُلِقْتُ للحَرْثِ» [البخاري: ٣٤٧١. ومسلم: ٢٣٨٨].

والفلك التي قَرَنَ ربُّ العزة ركوبها بالإبلِ السفن ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- اللهُ -تعالى- خلقنا بخلق أبينا آدمَ مِنْ سلالةٍ مِنْ طينٍ، ثم خَلَقَ بني آدمَ مِنْ ماءٍ مهينٍ، ثم جعلَه نطفةً، فعلقةً، فمضغةً، ثم نَفَخَ فيه الروحَ، فأصبحَ إنساناً سويّاً.

٢- خَلْقُ الإنسانِ مِنْ آياتِ الله العظام، يستحقُّ اللهُ -تبارك وتعالى- أنْ يحمدَ ويثنى عليه سبحانه، ولذا قال سبحانه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

٣- مصيرِ بني آدمَ كلِّهم إلى الموتِ، فلا يدوم منهم أحد، وبعد الموت بعث ونشور، وحساب، ثم جَنَّةٌ أو نار.

٤- خلق اللهُ تعالى فوقنا سبعَ سمواتٍ طباقاً بعضها فوق بعض.

٥- أنزل اللهُ -تبارك وتعالى- علينا مطراً مِنَ السماء، فأسكنه في مخازن عظيمةٍ في الأرضِ، فينتفع به العباد، واللهُ قادر على إزالته والذهاب به.

٦- أنْبَتَ اللهُ بالمطرِ الذي ينزلُهُ مِنَ السماءِ جناتٍ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ لنا فيها فواكهُ كثيرةٌ، نأْكلُ منها، وأخرجَ بذلكَ المطر شجرةً مِنْ طور سيناء، وهو الجبلُ الذي كلَّم الله عنده موسى، وهو المسمَّى بطور سينين، وهو في فلسطين.

٧- تخرجُ في طورِ سيناء شجرةٌ مباركة، حَبُّها مبارك، وزيتها مبارك، وقد أمرنا رسولنا ﷺ أنْ نأْكُلَهُ وندهنَ به.

٨- امتنَّ اللهُ علينا بالأنعامِ مِنَ الإبلِ والبقر والغنم، نأكل من لحومها، ونشربُ مِنْ ألبانِها، ونركب ظهورَ الإبلِ منها، ولنا فيها منافعُ كثيرة.

٩- امتنَّ اللهُ علينا بركوبِ الفلكِ، وهي السفنُ، وهذا يدلُّ على جواز ركوبِ السفن خلافاً لِمَنْ منع ذلك.

النص القرآني الثالث من سورة المؤمنون

طرف من قصة نوح عليه السلام

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا العليم الحكيم في آيات هذا النص بطرف من قصة نوح مع قومه، وكيف حمل إليهم رسالة التوحيد، وكيف كذبوه، فأنجاه اللهُ تعالى والذين آمنوا معه، والحيوانات والطيور التي عمرت الأرض بعد ذلك، ونهاه أن يخاطبه في الذين كفروا، فقد حكم بإغراقهم جميعاً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون:٢٣-٣٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أرسل اللهُ رسولَهُ نوحاً عليه السلام إلى قومِه بعبادةِ الله وحده:

أعلمنا رَبُّنا -عزَ وجلَّ- أنَّه أرسل نوحاً إلى قومه بأنْ يعبدوا الله -تبارك وتعالى- وحده، فلا معبود لهم غيره ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون:٢٣].

واللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ موطئة للقسم تدلُّ على قسم محذوف، أي: والله لقد بعثنا نوحاً...، ونوح عليه السلام أوَّلُ الرسلِ إلى أهل الأرض، وقد سبق ذكر قصته في سورة هود.

وقد دعا قومه إلى توحيدِ الله تعالى، ونهاهم عن الشرك، وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ألا تخافون الله، وتوحدونه، وتعملون بطاعته.

٢- جواب كبراء قومه له:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٤-٢٥].

قال السادة والكبراء مِنْ قوم نوح رادين عليه مكذبين له: ما نوحٌ إلا بشر مثلكم أنتم، يريد أن يترفع ويتعاظم عليكم بدعوى النبوةِ، ولو كان اللهُ تعالى يريد إرسال رسول حَقّاً، لأرسل إلينا رسولاً مِنَ الملائكة، فإننا لم نسمع في القرون الماضية والأمم الخالية أنَّ اللهَ تعالى أرسلَ إلى العباد رسولاً مِنَ البشر، واتهموه بالجنون، وهو فقدان العقل وضياعه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ وطلبوا مِنْ قومهم أن ينتظروا به إلى أن يموت، أو حتى يضيع عقله ﴿ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

٣- نوحٌ يدعو ربَّه بهلاك قومه بسبب تكذيبهم له:

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بالحوار الطويل الذي جرى بين نوح ﷺ وبين قومه، وانتهى كما أخبرنا ربنا في هذه السورة بما طلبه نوحٌ مِنْ ربِّه أن يهلك قومه بسبب تكذيبهم له ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٦]. قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٧].

أوحى اللهُ -تعالى- إلى نوح يأمره بصنع الفلك، وهي السفينة، التي سينجيه فيها ومن آمنَ به مِنْ أهله وقومه، ومن شاء اللهُ تعالى إنجاءَه مِنَ الحيوان معه في السفينة، وقد صنع نوح السفينة بمرأى مِنَ الله تعالى، وبتعاليم الوحي التي أنزلها إليه ﴿ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ وأمر اللهُ نوحاً إذا تمَّ صنعُ السفينةِ، وجاء أمْرُه الذي سيوقع العذاب بقومه، كما قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر:١١-١٢].

وقوله: ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ التنور هو الفرن الذي يخبز فيه، وفورانه علامةٌ دالةٌ لنوح على بداية الطوفان، لينهض نوح ومن معه، ويدخل المؤمنين والحيوانات السفينة.

وقوله: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ومعنى ﴿فَاسْلُكْ﴾ أي: أدخل السفينة من كلِّ صنف مِنْ أصنافِ الحيواناتِ زوجين اثنين، فيدخل فيها مِنَ الحمامِ ذكراً وأنثى، ومِنَ الغنم ذكراً وأنثى، ويدخل أهلَه والمؤمنين الذين آمنوا مِنْ قومه، وقوله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ وهم الكفار المشركون، فقد قضى ربُّ العزة بإهلاكِ جميع الكفار من قومه بلا استثناء، ونهاه عن مخاطبته ﴿فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ والذين ظلموا هم المشركون، فقد حكم بإغراقهم جميعاً.

٤- ما يقوله نوح عليه السلام عندما يركب ومن معه على الفلك وعندما يريد النزول منها:

أمَرَ اللهُ -تعالى- نوحاً والذين معه إذا استووا على الفلك، أي: علوه واستقروا عليه أنْ يحمدوا اللهَ تعالى الذي نجاهم مِنَ القوم الظالمين، أي: المشركين، ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون:٢٨].

وقد مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ودعاهم إلى الله تعالى طويلاً، ونوَّع لهم أنواع الدعوة، فأصروا على كفرهم، وأصروا واستكبروا عن الإيمان استكباراً، أما الذين آمنوا معه فلا شكَ أنهم كانوا يشعرون بالنعمة العظيمة عندما أنجاهم الله في السفينة، وأغرق الظالمين.

وكما أمر اللهُ تعالى نوحاً ومن معه بحمده لإنجائه مِنَ الظالمين أمره عند نزوله مِنَ الفلكِ أنْ يدعو الله تعالى أن ينزله موضعاً ومكاناً مباركاً، ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون:٢٩]، وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فيه ثناءٌ على الله تعالى وتمجيدٌ له.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون:٣٠] أي: فيما قصّه اللهُ علينا مِنْ قصةِ نوح عليه السلام وقصةِ السفينةِ علاماتٌ دالات على قدرةِ الله وعظمتِهِ وحسنِ تدبيره، وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مختبرين عبدنا بما أرسلنا به رسلنا.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذ النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرسل اللهُ تعالى رسولَهُ نوحاً عليه السلام إلى قومه فأمرهم بعبادةِ الله وحده، وترك ما يعبد من دونه.

٢- كذَّب نوحاً أشرافُ قومه وزعموا أنَّه أرادَ بدعوتهم إلى النبوةِ أن يتكبر عليهم، وينال العزة والرفعة، وزعموا أنَّه مجنون.

٣- دعا نوح ربَّه أن ينصره على قومه، فأوحى الله إليه أن يصنع السفينة التي ستكون فيها نجاته ونجاة مَنْ معه، ونجاة الحيوانات التي ستعمِّر الأرض بعد الطوفان.

٤- أدخل نوح معه في السفينة بأمر مِنَ الله تعالى من كلِّ صنف مِنْ أصناف الحيوان زوجين اثنين، كما أدخل معه فيها المؤمنين مِنْ أهلِه وقومه.

٥- نهى اللهُ تعالى نوحاً أن يسأله نجاة أحدٍ من المشركين، المشركون من قومه هالكون.

٦- أمر اللهُ -تعالى- نوحاً والمؤمنين معه إذا عَلَوْا السفينةَ، واستقرُّوا عليها أن يحمدوا الله ربَّهم لإنجائهم مِنَ القوم الظالمين المشركين.

٧- أمر اللهُ نوحاً إذا أراد النزولَ مِنَ السفينة هو ومن معه في الموضع الذي تستقر فيه أن يدعو ربَّه قائلاً: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

٨- كان قوم نوح وهم أول الأمم من بعد آدم يعرفون الملائكة، ويصدقون بهم.

٩- أخطأ الذين زعموا أن الطائفة الأولى مِنَ البشر كانوا لا يتكلمون، ولا يعقلون، فنوح ومن معه كانوا قوماً عقلاء، يحسنون التقدير والتدبير، ويحسنون الكلام والتصرف، ورسالة نوح حملت التوحيد كرسالة محمد ﷺ.

النص القرآني الرابع من سورة المؤمنون
طرفٌ من قصة نبيِّ الله هود عليه السلام

أولاً: تقديم

حدثنا اللهُ -تعالى- في آيات هذا النص عن قصة هود عليه السلام مع قومه، وكيف دعاهم إلى التوحيد، وأعلمنا أنهم كذَّبوه، وكذَّبوا بالبعث والنشور، وأعلمنا أنّه دعا عليهم، فأهلكهم ربُّ العزة تبارك وتعالى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون:٣١-٤١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إرسالُ الله تعالى هوداً إلى قومِهِ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنّه بعد إهلاكه لقومِ نوحٍ أنشأ قرناً آخرين، والقرنُ الأمةُ من الناسِ، يعيشون في زمنٍ واحد، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون:٣١].

وأظهرُ الأقوال أنَّ المراد بهذا القرنِ عادٌ قومُ هودٍ، فإنّهم هم الذين نشَؤُوا بعد قوم نوحٍ في جنوب الجزيرة العربية، وقد أرسل اللهُ تعالى هوداً إليهم بمثل ما أرسل به نوحاً ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المؤمنون:٣٢]، أي: أمرهم بعبادة الله وحده، وترك ما يُعبدُ من دونه، وقال لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ألا تخافون اللهَ إذا لم تقوموا بما يأمركم به، وترك ما ينهاكم عنه.

٢- تكذيبُ قومِ هود له:

أخْبَرَنا ربُّنا عزَّ وجلَّ- أنَ قومَ هودٍ كذبوه ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون:٣٣-٣٤] كفر قومُ هودٍ بهودٍ، وقال له الملأُ مِنْ قومه، وهم الزعماء والرؤساء والكبراء، وهم الذين كذبوا بالبعث والنشور، وأترفهم الله في الحياة الدنيا، أي: وسَّع عليهم في أرزاقهم وأموالهم: ما هودٌ هذا إلا بشر مماثل لكم، أي: مخلوق مثلكم له آباءٌ وأبناء، يأكل من الطعام الذي تأكلون منه، ويشرب من الماء الذي تشربون، رأوْا أنّ كونه بشراً مثلهم ينافي الرسالة، فالرسول -في زعمهم- لا يكون بشراً، ولذلك قال بعضهم لبعض: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون:٣٤].

هكذا قالوا: وهكذا حكموا، أنَّهم إذا أطاعوا هوداً على أنّه نبيٌّ مرسلٌ إنهم إذا لخاسرون، وقد أخطؤوا فيما قالوه وزعموه، فالرسل الذين جاؤوا إلى الناسِ كلُّهم مِنَ البشر.

٣- تكذيب قوم هود بالبعث والنشور:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ قومَ هودٍ كذَّبوا بالبعثِ والنشورِ والجنةِ والنار، ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون:٣٥-٣٨].

تساءَلَ قوم هود منكرين على نبيهم قائلين: أيعدكم أنكم إذا متم، وأصبحتم تراباً وعظاماً، أي: بعضكم تراب وبعضكم عظام أنّكم ستخرجون مِنْ قبوركم أحياء في يوم الدين؟ ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: ما توعدونه بعيد بعيد، فمع تصديقهم بوجود الله -تبارك وتعالى- فإنَّهم ينكرون قدرته على البعث والنشور، وإعادة الناسِ إلى الحياة بعد موتهم.

وقد نسبوا نبيهم إلى افتراءِ الكذب على الله تعالى، أي: اختلاقه عندما قَرَّر أنَّ اللهَ يبعث العباد بعد موتهم، وصرحوا أنَّهم كافرون به، وبما جاء به. وقَرَّروا أنَّه ليس لديهم حياةٌ غير هذه الحياة التي يعيشون فيها في الدنيا ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون:٣٧]. قوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: في كلِّ يومٍ يموت ناس منَّا، وتأتي الأرحام بآخرين. وحكموا على رسولِهِمْ بأنَّه افترى الكذبَ على الله تعالى، أي: اخْتَلَقَهُ، وأنَّهم غير مؤمنين له، أي: غير مصدقين له ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون:٣٨].

٤- **هود يستنصر ربَّه على قومه:**

وكما فعل نوحٌ عليه السلام عندما استنصر ربَّه على قومه بسبب تكذيبهم، فعل هود عليه السلام، وقد قال هود: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩﴾ [المؤمنون:٣٩] طلب هود منْ ربِّه أن ينصره على قومه بسبب تكذيبهم له، فأنزل اللهُ تعالى إليه قائلاً: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾ [المؤمنون:٤٠]، أي: بعد قليل من الزمنِ، يصبح هؤلاءِ نادمين على كفرهم وشركهم، لأنَّ العذابَ سيحلُّ بهم. وفعلاً حلَّ بهم العذاب، وأهلكهم اللهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾ [المؤمنون:٤١].

أرسل اللهُ تعالى عليهم الصيحة، وهي صيحة ملك قويةٍ شديدة دمرتهم وأهلكتهم بعد أن أخذتهم الريح الشديدة الباردة سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حسوماً، وقد أخذتهم الصيحة بالحقِّ، أي: بسبب كفرهم وشركهم، فجعلهم اللهُ تعالى غثاءً، والغثاء ما يحمله السيل من أوراق الأشجار والأعشاب اليابسة والأوساخ التي يحملها التيار، أي أصبحوا بعد القوةِ والعزةِ والمنعةِ قاذورات لا يعبأُ بها، ولا تُكَرَّمُ، ولا تحترم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أرسل اللهُ تعالى بعد نوحٍ هوداً إلى قومه بمثل ما جاء نوحٌ قومه، فأمرهم بتوحيد الله، ونهاهم عن الشرك به.

٢- كفر قوم هود بهود وزعموا أنَّه بشر مثلهم لا يستحق أن يكون رسولاً من عند الله، فهو بشر مثلهم، يأكل مما يأْكلون منه، ويشرب مما يشربون.

٣- كذب قوم هود بالبعث والنشور، وزعموا أنَّهم لا يخرجون مِنَ القبور.

٤- زعم قومُ هود أنَّ الحياة هكذا دواليك قوم يذهبون، وآخرون يأتون إلى الحياة، ونفوا القيامة والبعث والنشور.

٥- زعم قومُ هودٍ أنَّ هوداً افترى على الله تعالى الكذبَ عندما أعلمهم أنه نبيٌّ، وعندما أخبرهم أنَّ وراءَ هذه الحياة بعثاً ونشوراً.

٦- هود يدعو على قومه، فيهلكهم اللهُ تعالى، ويرسل عليهم مَنْ يصيح بهم، فيصبحون أثراً بعد عين.

النص القرآني الخامس من سورة المؤمنون

المكذبون للرسل

أولاً: تقديم

حدثنا اللهُ تعالى عن الأُمم المكذبة لرسله الذين ابتعثهم بين هود وموسى، وعن إهلاكه لهم وإبادته إياهم، ثم حدثنا عن إرساله موسى وأخاه هارون بآياته إلى فرعون وملئه فاستكبروا عن الإيمان فأهلكهم بالغرق، وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه آتى موسى التوراة كتاب هداية لبني إسرائيل، وجعل ابن مريم وأُمَّه آية وآواهما إلى مرتفع من الأرض ذات قرار معين.

ونادى اللهُ تعالى الرسل جميعاً آمراً إياهم بأن يأكلوا من الحلال الطيب، ويعملوا الصالحات، وهذا يدلُّ على أنَّ الرسل كانوا يشكلون أُمَّة واحدة على دين واحد، وذمَّ اللهُ الذين اختلفوا وتنازعوا في دينهم من بعد الرسل، وفي ختام آيات النصِّ أمر اللهُ تعالى رسوله ﷺ أنْ يدع الكفار مِنْ قومه في ضلالهم وحيرتهم إلى وقت هلاكهم، وسفَّههم اللهُ تعالى وأنَّبهم، لأنهم ظنوا أنَّ اللهَ يسارع لهم في الخيرات بسبب ما آتاهم مِنَ المال والولد.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٢-٥٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إرسال الله تعالى رُسُلَهُ في الأمم الناشئة بعد قوم عادٍ:

أَخْبَرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- فيما سبقَ أنَّه أرسل رسوليه نوحاً وهوداً كلاًّ في أمته، فكذبُوهما فأهلكهما، وأخبرنا في هذه الآياتِ أنَّه أرسلَ رُسلَه متتابعةً، في الأمم الناشئة بعد ذلك كقوم صالح وأصحاب مدين، وقوم لوط وغيرهم إلى ما قبل بعثة موسى وهارون ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٢-٤٤].

والقرون التي أنشأها اللهُ تعالى من بعد قومِ نوحٍ وقوم هود هي الأمم التي تبعتهم فإنه قال في الآية: ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾، وتنتهي هذه الفترة الزمنية ببعثة نبييِّ الله موسى وهارون، لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ ﴾ .

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أرسل رسله تترى في تلك الأمم، أي: يتبع بعضهم بعضاً، وأصل ﴿تَتْرَا﴾ وترى، قلبت الواو تاءً، يقال: واترتُ الخبر، أتبعت بعضه بعضاً، وبين الخبرين هنيهة، ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ﴾ فقد كان موقف الأمم واحداً، وهو التكذيب والكفر، فأتبع اللهُ تعالى إهلاك بعض تلك الأُمم لبعض، وجعل اللهُ تعالى أخبارَهُمْ أحاديثَ تُروى وتُقصُّ، والأحاديث: جمعُ أُحدوثة.

وقوله: ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ دعاء على هؤلاءِ القومِ الذين لا يصدقون الرسل ولا يطيعونهم أنْ يبعدهم اللهُ تعالى ويطردهم من رحمته وجنته.

٢- إرسالُ الله موسى وهارونَ إلى فرعونَ وملئه:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أرسَلَ بعد تلك الأُممِ التي حَدَّثنا عنها في الآيةِ السابقةِ موسى وهارون ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٨].

أرسلَ اللهُ -تعالى- نبيَّيْه موسى وهارون بآياته الدالة على صدقهما كالعصا واليد، وهما وغيرهما مِنَ الآيات السلطانُ المبينُ، الذي له الحجَّة على العقل، أرسلهما إلى فرعونَ الذي كان

يحكمُ مصرَ، وبلغ مِنْ أمرِه أنّه ادعى الألوهية، واستعبد بني إسرائيل، وأخذ يذبحُ أبناءَهم، ويستحيي نساءَهم.

فاستكبر فرعونُ وملؤُهُ عن الإيمان بهما وبالذي أرسلهما، وكانوا قوماً عالين، أي: كانوا قوماً طغاةً جبارين، وقالوا فيما بينهم بعضُهم لبعضٍ: أنؤمن لبشرينِ مثلنا مخلوقيْنِ كما خلقنا مِنْ لحمٍ ودمٍ، يريدون بهما موسى وهارون، وقومهما، وهم بنو إسرائيلَ عابدون خاضعون لأمرنا وحكمنا. وكانت العاقبة أنَّ اللهَ تعالى دمرهم وأهلكهم مِنْ جراء كفرهم وتكذيبهم.

٣- إيتاءُ الله تعالى موسى التوراةَ وجعله عيسى وأُمَّه آيةً:

أعلما ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه آتى موسى عليه السلام الكتابَ، وهو التوراةُ كتاب هداية لبني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المؤمنون:٤٩]، وجعلَ عيسى عليه السلام وأُمَّه مريمَ آيةً، وآواهما إلى ربوة ذات قرارٍ ومعين ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون:٥٠].

وعيسى وأُمُّه آيتان مِنْ آيات الله تعالى تدلاَّن على قدرةِ الله تعالى وبديعِ صنعه، فعيسى خُلِقَ مِنْ مريمَ بلا أبٍ، ومريم ولدت عيسى مِنْ غير زوجٍ، و﴿رَبْوَةٍ﴾ المكان المرتفع مِنَ الأرضِ، وهذه الربوةُ -كما فسرها ابن عباسٍ- الأرض المستوية المرتفعة المنبسطة، وهذا معنى ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾، وقوله: ﴿وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ الماء الجاري الظاهر.

وأصوبُ ما قيلِ في موضعِ هذه الربوةِ في أكناف مدينة القدس، وهي التي وَلَدَتْ مريم فيها ابنَها عيسى، وكانت فيها النخلة، وكان فيها عينُ الماء بجوار مريم، قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم:٢٣-٢٥]، هذه هي الربوة إن شاء الله، وكانت فيها النخلة، والسري وهو عينُ الماءِ الظاهرةُ الجاريةُ التي سمَّاها اللهُ تعالى في آيات هذا النصِّ: المعين.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى الرسلَ أنْ يأكلوا مِنَ الطيبات وأن يعملوا صالحاً:

أمَرَ اللهُ -تعالى- كلَّ رسولٍ في عصره أن يأكلَ مِنَ الطعامِ الطيب وأنْ يعملَ من الأعمال الصالحة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون:٥١]. والمرادُ بالطيبات هنا الحلالُ الذي تستطيبُه النفوسُ، وأمرهم مع أكلِ الطيبات أن يعملوا الأعمال الصالحة، وهذه الآية تدلُّ على مدى الارتباط بين أكل الحلالِ والأعمال

الصالحة، فالطعام الطيب يجعل الدعاءَ مقبولاً، ولا يبعد أن يكون له أثر في قبولِ العمل الصالح، ففي الحديث عن أبي هُريرةَ؛ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أيها الناسُ! إنَّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلاَ طَيِّباً، وإنَّ اللهَ أمَرَ المُؤْمنينَ بما أمرَ بِهِ المُرْسَلينَ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١﴾ [المؤمنون:٥١] وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]»، ثم ذَكَرَ الرَّجُلَ «يُطيلُ السَّفَرَ، أشْعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْه إلى السَّماءِ، يا رَبِّ! يا رَبِّ! ومَطْعَمُهُ حَرَامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرَامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ فأنَّى يسْتَجابُ لِذلِكَ؟» [مسلم:١٠١٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١﴾ أي: أنا عليم بكلِّ ما تعملونه من أعمالٍ وسأجزيكم به، وأُحاسبكم عليه، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ.

٥- أُمَّةُ الرسلِ أُمَّةٌ واحدة:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الرسلَ جميعاً يشكلون على مدارِ التاريخِ الإنساني أُمَّة واحدة، فهم وإن اختلفت شرائعهم، وجعل اللهُ تعالى لكل رسولٍ منهم شريعةً خاصّةً به، إلا أنَّ معبودهم جميعاً هو اللهُ وَحْدَهُ لا معبودَ لهم غيره، ولا ربَّ لهم سواه ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ [المؤمنون:٥٢]، فالمعبود واحدٌ هو الله، والدين واحدٌ هو الإسلام.

وقد ذمَ اللهُ -تبارك وتعالى- الملل والطوائف مِنْ أهل الأديان المختلفة كاليهودية والنصرانية والمجوسية والبوذية والوثنية والشيوعية وغيرهم الذين جاؤوا من بعد الرسل، وقطعوا أمرهم قطعاً، واتخذ كلٌّ منهم آلهةً يعبدها من دون الله تعالى، وكلٌّ فرحٌ بالدينِ الذي يتبعهُ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون:٥٣].

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ أي: تفرقوا أمرهم فرقاً وأدياناً مختلفة، ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ أي: راضون بما عندهم من الدين الذي ابتدعوه مسرورون به يرون أنهم على الحق.

٦- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يدعَ كفارَ قومه في ضلالتهم:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يدعَ كفار قومه -وهم من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبراً- في غمرتهم إلى أنْ يأتي الحين الذي حدَّدَه لهم: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾ [المؤمنون:٥٤]، ومعنى ذرهم: اتركهم، وقوله: ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: في ضلالهم وحيرتهم وعمايتهم، وقوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾ أي: إلى أن يأتي الأجل الذي حدده اللهُ تعالى لهم.

وقوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦]، وجه اللهُ تعالى السؤالَ إلى مشركي قريش منكراً عليهم، قائلاً لهم: أتظنون أنما نمدكم به من الأموال والأولاد أننا نهبكم إيَّاه لكرامتكم عندنا وفضلكم، وأننا نسارعُ لكم في الخيرات، ثم نفى ذلك ورده قائلاً ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: ليس الأمر كما يحسبون، بل هو استدراج لهم، ولكنهم لا يحسون بذلك. وقد كان هؤلاء المجرمون الكفرة يظنون هذا الظن، ويقولون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ:٣٥].

وقد نفى اللهُ تعالى هذا الظنَّ الباطلَ في مواضع كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة:٥٥]، وقال: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [سبأ:٣٧].

إنَّ المال عَرَضٌ زائلٌ، والولد عاريةٌ مرتجعةٌ، يعطيهما اللهُ تعالى الخيِّرَ والفاجرَ، ولا ترفعان أقدارَ العبادِ عند ربِّهم، ولا تنقصهما، وقد صحَّ عن عبدالله بن مسعود أنه قال: «إنَّ اللهَ قَسَم بينكم أخلاقَكُم كما قَسَم بينكم أرْزاقَكُمْ، وإنَّ الله يعطي الدُّنْيا مَنْ يحبُّ ومَنْ لا يحبُّ، ولا يُعْطي الدِّينَ إلا لمنْ أحبَّ، فمن أعطاه الله الدينَ فقد أحبَّه، والذي نفْسُ محمدٍ بيده، لا يُسلِمُ عبدٌ حتى يُسلمَ قلبُه ولسانُه، ولا يؤمنُ حتى يأمَنَ جارُه بوائقَهُ» قالوا: وما بوائقُه يا نبيَّ الله؟ قال: «غَشْمُه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفقَ منه فيبارَكَ له فيه، ولا يتصدقُ به فيُقبلَ منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زادَه إلى النار، إنَّ الله لا يمحو السيئَ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث» [صحح الشيخ شعيب الحديث في تحقيقه لابن كثير (٥/ ٥٣٢) موقوفاً عليه، وضعّفه مرفوعاً وعزاه لأحمد (٣٦٧٢)].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أنشأ اللهُ تعالى الأُممَ من بعد قومِ نوحٍ وقوم هود وأرسل في كلِّ أُمَّة رسولها، فكذبت كُلُّ أمَّةٍ رسولها، فأهلكَ الله تعالى الأمم، أمةً وراء أخرى.

٢- كلُّ أمَّةٍ حدَّد لها وقتاً يحين فيه الأجلُ الذي حدَّدَه اللهُ تعالى لها، لا تتقدم ولا تتأخر عنه.

٣- أرسلَ الله -تعالى- موسى وهارون بآياته الدالة على صدقهما إلى فرعون وملئه، فكذبوا واستكبروا عن الإيمان، ورفضوا الإيمان، لأن قوم موسى مستعبدون لفرعون وملئه.

٤ - أعطى الله تعالى التوراة لموسى، ليكون كتاب هداية لبني إسرائيل.

٥ - جعل اللهُ تعالى عيسى وأمّه عليهما السلام آية، وآواهما إلى ربوة ذات قرار ومعين.

٦- أمر اللهُ تعالى كل رسول أرسله بأنْ يأكل مِنَ الحلالِ الذي يستطيبُه ويستلذُّهُ ويعمل من الصالحات.

٧- كلُّ الرسلِ الذين أرسلهم اللهُ تعالى يشكلون على مدار التاريخ الإنساني أُمَّةً واحدة معبودهم واحد ودينهم واحد.

٨- أموال الكفار وأولادهم لا تقربهم ولا تنفعهم شيئاً عند الله تعالى.

النص القرآني السادس من سورة المؤمنون
إن الذين هم من خشية ربه مشفقون

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على عباده المؤمنين وذكر سبحانه وتعالى أربعاً من الصفات الكريمة التي يتصفون بها، وقرَّر سبحانه وتعالى أنَّه لا يكلف نفساً فوق طاقتها، وحكم على قلوب الكفار أنها في ضلال ولهم أعمال لا يموتون حتى يستوفوها.

وتهدَّد المنعمين مِنَ الكفارِ بما سيحلُّ بهم، وعندما سيحلُّ بهم العذاب سيجأرون ويستغيثون، فيقال لهم: لا تجأروا إنكم منا لا تنصرون، قد كانت آياتي في الدنيا تتلى عليكم، فكنتم ترجعون في إيمانكم إلى الوراء، وكنتم في حرم الله تسمرون ليلكم تقولون الباطل من القول.

وسألهم عن الذي يحول بينهم وبين الإيمان، وذكر أربعة أُمورٍ قد تحول بينهم وبين الإيمان، وأخبر سبحانه وتعالى أنه لو شرع لهم ما يوافق رغباتهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، وأخبرنا -سبحانه وتعالى- أنَّه لو رحم الكفار وكشف ما نزل بهم من عذابه، للجُّو في طغيانهم يعمهون.

ثانياً: آيات هذ النص من سورة المؤمنون

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا

مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٧-٧٧].

ثالثاً: تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- صفات المؤمنين:

أثنى ربُّنا -عز وجل- على المؤمنين الذين يتصفون بهذه الصفات التي وصفتهم بها هذه الآيات، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٧] أخبر أنَّهم يخافون من خشيةِ الله تعالى وسخطه وعذابه، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٨]، أي: يصدقون بآيات القرآن والآيات الكونية المبثوثة في السموات والأرض، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٩] أي: لا يعبدون مع الله غيره، بل يفردونه بالعبادة، ويوحدونه، فكلّ من أشرك مع الله غيره فقد عبد غيره وخرج من الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٠]، أي: يقومون بالأعمال الصالحة من الصلاة والزكاة والصوم وغيرها. وقلوبهم وجلة، أي: خائفة أنْ لا يقبل منهم، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسولَ الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يَسْرِقُ ويَزْني ويَشْربُ الخَمْرَ وهُوَ يخاف اللهَ عزَّ وجلَّ؟ قال: «لا يا بِنْتَ أبي بكرٍ، يا بِنْتَ الصدِّيق، ولكنَّه الذي يُصَلِّي ويَصومُ ويتصدَّقُ، وهو يخافُ الله عز وجلَّ» [قال محقق ابن كثير (٤/ ٤٨١): أخرجه الترمذي (٣١٧٥) وأحمد (٦/ ١٥٩، ٢٠٥) وفيه إرسال، وله طريق أخرى عند الترمذي صححه، وله طريق عند الطبري (٢٥٥٦١، ٢٥٥٦٣)].

وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٠] أي: عائدون إلى الله عزَّ وجلَّ وسيجزيهم بما قدموه، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون:٦١]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشارُ إليهم المتصفونَ بالصفاتِ السابقة، و﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ أي: يبادرون في فعل الخيرات وهم لها سابقون، أي: يبذلون جهدهم في سبق غيرهم في أدائها.

٢- لا يكلف اللهُ تعالى نفساً إلا وُسْعَها:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه لا يكلف نفساً إلاَّ بمقدار ما تطيق ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٢]. أي: لا نكلف نفساً إلا ما

أطاقت من العمل، ولدينا كتاب ينطق على عبادنا بما عملوه، وهو ذلك الكتاب الذي دونتْهُ عليهم ملائكةُ الرحمن، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد أخبرنا عزَّ وجلَّ أنَّ قلوبَ الكفار في غمرةٍ أي: في غفلةٍ وضلالة من هذا، والمشارُ إليه القرآن الكريم، وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المؤمنون:٦٣]، أي: لهم أعمال قدرها اللهُ عليهم من الشركِ والكفر والمعاصي لا بدَّ أنْ يعملوها، ويقوموا بها قبل موتهم.

٣- تهديدُ الله تعالى زعماءَ الكفار وكبراءَهم بالعذاب:

هَدَّد اللهُ تعالى زعماءَ الكفارِ وكبراءَهم بالعذاب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [المؤمنون:٦٤] أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّه إذا حلَّ بهم العذابُ أخذوا يجأرون أي يستغيثون ويصرخون، عند ذلك يقال لهم: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون:٦٥-٦٧].

يقال لهم في ذلك اليوم لا تجأروا ولا تصرخوا ولا تستغيثوا في هذا اليوم الذي حلَّ بكم العذاب ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: لا تستطيعون أن تغلبونا، ولا يستطيع أحدٌ أن ينجيكم منا.

وذكَّرهم اللهُ بما كان منهم في الحياة الدنيا، فقد كان رسولُ الله ﷺ يتلو عليهم آياتِ القرآنِ التي تعرفهم بربِّهم، وتؤمرُهُم بطاعته، فكانوا على أعقابهم ينكصون، مستكبرين به سامراً يهجرون، ونكوصهم على أعقابهم تأخرهم إلى الوراء في الإيمان، وزيادة كفرهم، يقال: نكص على عقبيه رجع وراءه، وتأخَّرَ ولم يتقدم، والسمّار الذين يتحدَّثون بالليل، و﴿تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ الهجر: السبُّ والإفحاش في القول، فكانوا يتحدثون عن الرسول ﷺ والقرآن والدين الإسلامي، ويذمونهم، ويذكرونهم بالشرِّ.

وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ تدلُّ على حال قريش في حرم الله تعالى، فقد كانوا مستكبرين، أي: رافعي رؤوسهم كبراً وتعالياً، زاعمين أنَّه لا ينبغي لهم أن يخضعوا لأحد غيرهم، فهم الذين يحقُّ لهم أن يتكبروا ويفخروا على كلِّ أحد لكونهم أهلَ حرمِ الله.

٤- السبب الذي صرف كفار قريش عن الإيمان:

وَجَّهَ اللهُ -تعالى- أربعة أسئلة لكفار قريش لبيان السبب الذي منعهم من الإيمان، وهذه الأسئلة قيلت لهم على وجه الإنكار، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ

ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٦٨) أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ (٧٠)﴾ [المؤمنون:٦٨-٧٠].

أنكر اللهُ تعالى عليهم أوَّلاً عدم تدبرهم للقرآن الكريم ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ ولو تدبروا فيه، وأحسنوا النظر في معانيه، لما كان منهم هذا الكفر والإعراض.

وقوله: ﴿أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٦٨)﴾، ﴿أَمۡ﴾ هذه هي المنقطعة، والمعنى: بل جاءَهم مِنَ القرآنِ والوحي ما لم يأت آباءَهم، ومجيء ما لم يأت آباءَهم نعمة عظمى كان عليهم أن يهتبلوها ويأخذوا بها، ولا يرفضونها ويردونها.

وقوله: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٦٩)﴾ أي: ألا يعرفون رسولهم، ولا يعرفون نسبه وصدقه وأمانته ورجاحة عقله؟ والجواب: أنَّهم عرفوا ذلك كلَّه، فقد قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: «يا أيها الملك، إنَّ الله بعث إلينا رسولاً مِنَّا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته» [أخرجه أحمد (١٧٤٠)، وقال الشيخ شعيب: إسناده حسن].

وقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ﴾ أي: يقولون: به جنون، وقد ردَّ عليهم قائلاً: ﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ (٧٠)﴾ قال لهم: إنَّ الذي جاءَهم به كلِّه حكمة وصلاح واستقامة، ولا يأتي به إلا العقلاء الفطناء الصلحاء الأسوياء. و﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ (٧٠)﴾ وأكثر كفار قريش يكرهون الحقَّ، ولا يريدونه.

٥- لو اتبع الحقُّ أهواءَ الذين كفروا لفسدت السموات والأرض:

أخبرنا ربُّنا الحكيمُ العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض أنَّه سبحانه لو اتبع أهواءَ كفار قريشٍ أو أهواء البشر في تدبيره وتصريفه السموات والأرض لفسدت أُمور مَنْ فيهن ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ (٧١)﴾ [المؤمنون:٧١]. والسبب في ذلك أنَّ علم البشر قليلٌ، وجهلهم عظيمٌ كبيرٌ، وهم جهلاء بتدبير الأمور، لا يعلمون المقاصد والعواقب، وتغلبهم الأهواء، وتصرفهم عن الحقِّ الفتنُ.

وقوله: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ (٧١)﴾ أي: أتيناهم بالقرآن الكريم الذي فيه ذكرهم، أي: عزُّهم ومجدهم ورفعتهم، وقد عزَّت هذه الأمة ورفع الله عزَّها عندما أخذت به، وأصبحت خير أمة أخرجت للناس، وقوله: ﴿فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ أي: معرضون عن القرآن الكريم الذي يصنع لهم عزّاً ومجداً.

٦- الرسول ﷺ لا يطلب من الناس أجراً على تبليغهم الحقَّ:

سأل اللهُ تعالى رسوله ﷺ منكراً على قومه أن يكون مطالبهم بالأجر على تبليغهم الحقَّ الذي جاءَهم به ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ والمعنى: بل أتسألهم أجراً على ما تبلغهم إيَّاه، ثم ردَّ ذلك فقال: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [المؤمنون:٧٢] أي: فرزق رَبِّك الذي يعطيك إيَّاه في الدنيا خير رزق، وكذلك ثوابه الذي يعطيك إياه في الآخرة، والله مالك السموات والأرض، ورزقُه خيرُ رزق وأوْسعه.

٧- الرسول ﷺ يدعو قومه إلى الصراط المستقيم:

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون:٧٣-٧٤]، يقول اللهُ تعالى لرسوله ﷺ: وإنَّك لتدعو قومك إلى صراط مستقيم، وهو الدينُ الحقُّ وهو الإسلام، وأخبرنا -سبحانه- أنَّ الذين يكفرون بالبعث والنشور عن الصراط -أي عن الإسلام والطريق المستقيم- لناكبون، أي: لمائلون وجائرون.

٨- لو رحم اللهُ تعالى كفار قريش ورفع عنهم العذاب للجُّوْا في طغيانهم يعمهون:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه لو رحم كفار قريش ورفع عنهم ما ابتلاهم به من العذاب للجُّوْا في طغيانهم يعمهون ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون:٧٥].

أي: لو رفعنا عنهم العذاب الذي أنزلناه بهم، وكشفنا عنهم القحطَ والجدبَ للجُّوا في طغيانهم يعمهون، أي: لتمادَوْا في ضلالهم يعمهون، أي: يترددون ويتخبطون ويتذبذبون، وأصل اللجاج التمادي في العناد، ولجَّةُ البحر: تردد أمواجه، ولُجَّةُ الليل: تردد ظلامه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون:٧٦]. جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها، والعذاب: الجوع الذي أصابهم في سني القحط، وقوله: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: فما خضعوا ولا تذللوا، بل أقاموا على ما كانوا عليه من التمرد ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: وما يستكينون لله، ولا يخشعون له، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون:٧٧]. هذا في عذاب الآخرة الذي عذابه أشدُّ العذاب، والإبلاس: التحير والإياس من كلِّ خير.

رابعاً، ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - وصف اللهُ تعالى المؤمنين المستقيمين على الإيمان الذين يستحقون رضوان الله بأربع صفات.

٢ - لا يكلّف الله تعالى العباد فوق طاقتهم وما لا في وسعهم.

٣- يخرج اللهُ تعالى في يوم القيامة لكلِّ إنسان الكتاب الذي دونته عليه الملائكة، فيحاسب وفق ما فيه.

٤ - لا يموت أحدٌ حتى يستوفيَ العمل الذي قَدَّره اللهُ له.

٥ - ينزل اللهُ تعالى بالمجرمين من عباده عذابه يوم القيامة، بسبب كفرهم واستهزائهم بدينه ورسوله ﷺ .

٦ - دعا الله تعالى الكفار إلى النظر في الأسباب التي تحول بينهم وبين الإيمان، وقد ذكر منها أربعاً.

٧- لو اتبع الحقُّ -تبارك وتعالى- أهواء الكفار في تدبير السموات والأرض ومن فيهن لفسدتا، فجهل الكفار كبير، وعلمهم بالعواقب قليل.

٨- الرسولُ ﷺ لا يسأل الناسَ أجراً في الدنيا، ويكتفي بأجر ربِّ العالمين، فهو خير الرازقين.

٩- الرسول ﷺ يدعو الناس إلى الدين القويم الذي هو الصراط المستقيم

١٠ - الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور لا يستقيمون على دين الله الواحدِ الأحد.

١١ - لو رحم الله -تعالى- الكفارَ الذين أنزل بهم عذابه، للجُّوا في طغيانهم يعمهون.

النص القرآني السابع من سورة المؤمنون
الله -تعالى- الذي أنشأ لنا السمع والأبصار والأفئدة

أولاً: تقديم

امتنَّ اللهُ علينا بجملة من النِّعم التي أنْعم بها علينا في أنفسنا وفي الكونِ من حولنا، وأعلمنا أن كفارَ قريشٍ ينكرونَ البعثَ والنشور، وسأل كفار قريش عن الخالق للكونِ الذي يعيشون فيه، فأجابوا بأنَّ الله وحده هو الخالق، وهذا يلزمهم بأن يعبدوه وحده دون غيره، ولكنَّهم يشركون معه غيره في عبادته.

وأكذبَ كفارَ قريشٍ في نسبتهم إليه الولدَ والشريكَ، وأمر الله تعالى رسوله أنْ يدعو ربَّه أنَّه إن أهلك كفارَ قومِهِ بما توعدهم به أن لا يجعله فيهم وبين له كيف يعامل أعداءَه من الإنس والجنِّ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٧٨-٩٨].

ثالثا: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نِعَم الله تعالى التي أنعم بها على عباده:

امتنَّ اللهُ -تعالى- علينا ببعض نعمهِ التي أنعم بها علينا، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٧٨-٨٠].

امتنَّ اللهُ -تبارك وتعالى- علينا بإنشائنا مِنَ العدم، فخلقنا بخلق أبينا آدم عليه السلام من تراب، ثم خلق ذريته من ماءٍ مهين، ثم ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نثرنا ونشرنا في هذه الأرض ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: ثم يجمعنا في يوم القيامة، لا ينسى ولا يغادر منا أحداً.

وهو الذي يحيينا من عدم، ثم يميتنا كلنا، فالجميع يغادر هذه الحياة، ويذهب إلى الله تعالى، والله -تعالى- الذي خلق الليل والنهار مختلفا اللون، هذا أبيضُ وهذا أسود، وهما يتعاقبان ويتقارضان، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: أنَّ الله ربُّكُم ومعبودكم الذي لا معبود لكم غيره، ولا ربَّ لكم سواه سبحانه.

٢- إنكارُ كفار مكةَ البعثَ والنشورَ:

بعد أنَّ خاطبَ ربُّ العزة كفارَ مكَّة بما خاطبهم به في الآيات السابقة، بيَّنَ أنَّهم يكذبون بالبعث والنشور، وينكرون قدرة الله على بعث الأموات، فقال: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المؤمنون:٨١-٨٣].

أخبرنا ربُّنا -سبحانه- أن كفار قريش قالوا كما قال الأولون من قوم نوحٍ وقوم هودٍ وقوم صالحٍ وغيرهم، قالوا: أإذا متنا وبليت أجسادنا، فأصبح بعضُها تراباً وبعضاً منها عظاماً أإنا لمبعثون خلقاً جديداً؟!!

لقد قيل هذا الكلام لنا ولآبائنا من قبل، وما هذا الذي وُعِدنا به إلا أساطير الأولين، وأساطير الأولين خرافاتهم وتراهاتهم وأكاذيبهم.

٣- اللهُ تعالى هو المستقلُّ بخلق الكون كلِّه، لا يشركه في ذلك أحدٌ:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ أنْ يسأل كفار قريش ثلاثة أسئلة، تتعلق بالذي خلق الكون وأوجده، فأجابوا بأنَّ اللهَ سبحانه هو الخالق له وحده، قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩].

أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يسأل كفارَ قومه لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ أي لمن الأرض ومن فيها خلقاً وملكاً بجبالها وسهولها ووديانها وبحارها وإنسها وحيوانها، وكان جوابهم أنها لله سبحانه وتعالى.

وأَمَرَه أَنْ يسألهم مَنْ ربُّ السموات السبعِ وربُّ العرش العظيمِ، والسمواتُ فوقنا، وهي كالقباب بعضها فوق بعض، وقد زينها ربنا بالنجوم والكواكب، وهي مسكن الملائكة، والعرش أعظم المخلوقات، وهو عرش الرحمن، وهو فوق السموات السبع، وكان جواب قريش: أنَّ اللهَ هو ربُّ السموات السبع ورب العرش العظيم، فأمره أَنْ يقول لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: ألا تخشونه ألا تخافونه وتؤمنون به.

وأمره أن يسألهم للمرة الثالثة عن الذي ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: كلُّ الأشياء بيده سبحانه، وهو يجير على غيره، فجميع المخلوقات خاضعٌ له، ولا يستطيع أحدٌ غيره أن يجير عليه، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: يكون جوابهم أنَّ ذلك لله وحده سبحانه، فقل لهم: كيف تصرفون عن الحقِّ إلى الباطل.

لقد كان كفار قريش يؤمنون بأنَّ الله -تعالى- هو الخالق الرازق المدبر المصرف للكون وحده بأرضِه وسمائِه، وهذا يقضي بأَنْ يفردوا الله وحده بالعبادة، ولكنَّهم يتناقضون أعظمَ التناقضِ حينما يعبدون معه غيره، فالذي يقرُّ بربوبية ربِّ العزة يلزمه أن يعبد الله وحده.

٤- تنزيه الله -تعالى- عن الولد والشريك:

أكذب الله تعالى الكفار في نسبتهم الولد والشريك إليه سبحانه وتعالى: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون:٩٠-٩٢].

أخبرنا ربنا عزَّ وجلَّ أنَّه جاء كفارَ قريشٍ بالحقّ، وأعظمُ الحقِّ الذي جاءَ به أنَّه واحد ليس له شريك، ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ ثم أكذب كفار قريش ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أكذبهم

في دعواهم أنَّ الله اتخذ ولداً وأن له شريكاً يعبد معه ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ ﴾ ودلَّلَ على عدم وجود الشريك بأنَّ هذا الكون لو كان فيه شركاء لتنازعوا واختلفوا، وتقاتلوا، وعلا بعضهم على بعض، وانفرد كلُّ واحد منهم بما أوجده من الخلق، ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ ﴾ .

ثم نزَّهَ الله تعالى نفسه عن الشريك ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ وذلك بتنزيه الله نفسه عن الولد والشريك، وأعلمنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أي: يعلم ما يشاهده العباد وما غاب عنهم، وهو يعلم علماً لا خفاء به أنَّه لا ولد له ولا شريك له في السموات ولا في الأرض.

٥- أمَرَ اللّهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يدعوه أنْ لا يجعله في القوم الظالمين:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يدعوه إذا أراد أن يهلك قومه ألا يجعله في القوم المهلكين ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون:٩٣-٩٤]. والذي يوعدونه هو العذاب الذي تهدَّدهم اللهُ تعالى به، ورسولنا ﷺ يعلم أنَّ الله لن يجعله في القوم الظالمين إذا هو أهلكهم، ولكنَّه مأمور بهذا الدعاء أن يدعو به.

ثم أخبر اللهُ -تعالى- رسوله ﷺ أنَّه قادرٌ على أن يريه إنفاذ وعيده في هؤلاء الكفار ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [المؤمنون:٩٥].

٦- كيف يعامل الرسولُ ﷺ أعداءَه مِنَ الإنس والجنّ:

أخبر اللهُ -تعالى- رسوله ﷺ كيف يعامل أعداءَه من الإنس والجنِّ في واقع الأمر، فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨].

أمَرَ الله -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يدفع بالتي هي أحسن السيئة، ودفع السيئة بالحسنة يحوِّل العدوَّ وليّاً حميماً، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤]. وهذا هو المنهج الذي يدعونا إليه القرآنُ أن نعاملَ الناسَ بالجميلِ، ولو أساؤوا إلينا، أما العدوُّ الجنيُّ الشيطانيُّ فلا ينفع معه إلاَّ الاحتماء بالله والالتجاء إليه سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

أمر الله رسوله ﷺ أن يستعيذ به من همزات الشياطين، ويعوذ بالله أن يحضروا مجالسه، فإن الشيطانَ ما حضر مجلساً إلا وسوس لأهله بالشرِّ.

وقد جاءَت أحاديثُ عن الرسولِ ﷺ يستعيذ بالله مِنَ الشيطانِ كما أمره اللهُ تعالى، فمن ذلك قولُه ﷺ : «وأعوذُ بكَ أنْ يَتَخَبَّطَنِي الشيطانُ عِنْدَ المَوْتِ» [أبو داود: ١٥٥٢. وحكم عليه محقق ابن كثير: (٤/ ٤٩١) بالصحة. وأورده الألباني في صحيح أبي داود].

وروى عبدالله بن عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ : «كانَ يُعَلِّمُهُمْ مِنَ الفَزَعِ كَلِماتٍ، أعوذُ بكلماتِ الله التَّامَّةِ، مِنْ غَضَبِهِ وشَرِّ عِبادِه، ومِنْ هَمَزاتِ الشياطينِ وأنْ يَحْضُرُون» [أبو داود: ٣٨٩٣. وعزاه محقق ابن كثير (٤/ ٤٩٢) إلى أبي داود والترمذي والنسائي في (اليوم والليلة) وقال: إن الترمذي قال فيه: حسن غريب].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - امتنَّ الله -تبارك وتعالى- على عباده بما أعطاهم من السمع والبصر والأفئدة، وأنه ذرأهم ونشرهم في الأرض وسيحشرهم إليه، وأنه هو الذي يحييهم ويميتهم، وهو الذي يتحكم بتعاقب الليل والنهار بالزيادة والنقصان.

٢- كفار قريش كانوا ينكرون البعثَ والنشور، ويكذبون بهما، ويزعمون أن ذلك من أساطير الأولين.

٣- أهل الجاهلية كانوا يقرون لله بالربوبية، وأنَّه الخالق للسموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ولكنهم كانوا يشركون بتوحيد الألوهية، ويعبدون مع الله غيره.

٤ - اللهُ تعالى واحد أحد منزه عن الولد والشريك سبحانه.

٥- لو كان لله شركاء لتنازعوا واختلفوا وتقاتلوا وذهب كل إله بخلقه وعلا بعضهم على بعض.

٦- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يدعو ربَّه أنَّه إذا أهلك قومه بما توعدهم به أنْ لا يجعله فيهم.

٧- بَيَّنَ الله تعالى لرسولِهِ ﷺ أنْ يعامِلَ العدوَّ الإنسي بالتي هي أحسن، أما العدوُّ الجني فعليه أن يحتمي مِنْ شرِّه ويستعيذ بالله تعالى.

النص القرآني الثامن من سورة المؤمنون
إذا حضر الكافرَ الموتُ تمنى الرجعة إلى الحياة الدنيا ليؤمن

أولاً: تقديم

أعلمنا ربنا عزَّ وجلَّ أنَّ الكافر إذا أشرف على الموت يسأل الله تعالى أنْ يعيده إلى الحياة الدنيا ليؤمن ويتوب ويؤوب إلى الله تعالى، وأعلمنا سبحانه أنَّه في يوم النفخ في الصور يقوم العباد لربِّ العالمين ويترك الناس أنسابهم والتفاخر بها.

وأعلمنا سبحانه أنه ينصبُ الموازين ليوم القيامةِ فمن ثقلت حسناته فهو من الفائزين، ومَنْ خَفَّت موازينه فأولئك هم الخاسرون، وأعلمنا سبحانه أنَّه يوبخ الكفار بتكذيبهم في الدنيا، فيعتذرون بأعذارٍ باطلة، فيزجرهم، وينهاهم عن تكليمه.

ويسألهم ربهم عن المدة التي مكثوها في الحياة الدنيا، فيقولون: إنها يوم أو بعض يوم، فيقول لهم: إنها مدة قصيرة، لم يهتبلوها بل ضيعوها، ظانين أنَّ الله خلق الدنيا لعباً لغير قصد، ونزَّه الله تعالى نفسه عن هذا الظن الباطل، وتهدَّد الذين يدعون معه غيره، وأمر رسوله ﷺ أن يدعوه أن يغفر له ويرحمه وهو خير الراحمين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة المؤمنون

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١١٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تمني الكافر أن يعود إلى الحياة عندما يأتيه الموت:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه عندما يحلُّ بالكافر الموتُ يسأل اللهَ الرجعة إلى الدنيا، ليتوب وينيب ويعود إلى الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

وسؤال الكفار الرجعة يكون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات الموت، والآيات المتحدثة عن ذلك كثيرة، كقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ ﴾ [المنافقون:١٠-١١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة:١٢]. وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشورى:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ ﴾، ﴿كَلَّآ ۚ ﴾ كلمة ردع وزجر، أي: طلبهم مرفوض غير مقبول، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ أي: أمامهم برزخ، والبرزخ في اللغة الفاصل بين شيئين، والمراد به الزمن الفاصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة في يوم البعث والنشور.

٢- حال الكفار في يوم الدين:

أخْبَرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه إذا نُفِخَ في الصورِ النفخةُ الثانيةُ وقامَ الناسُ لربِّ العالمين، فلا أنساب بين الناس يتعارفون، ويتفاخرون بها، ولا يسأل بعضهم بعضاً ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠١].

والصور: بوق عظيم، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، فيموت كل من في السموات والأرض، ثم ينفخ فيه مرة أُخرى، فيقوم الناس لرب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٤].

ينصبُ اللهُ - تعالى- الموازين في يوم القيامةِ ليزن أعمالَ العبادِ، فمن ثقلت موازينه في يوم القيامةِ، بأنْ رجحت حسناتُه على سيئاته فأولئك هم المفلحون، أي: الفائزون السعداء، والذي رجحت سيئاته على حسناته وخفت موازينه ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ١٠٣﴾ فهؤلاء خسروا أنفسهم، وبيّن اللهُ تعالى كيف خسروا أنفسَهُمْ، وذلك بدخولهم النارَ خالدين فيها.

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ١٠٤﴾ وبيّن اللهُ تعالى المراد بـ ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ بقوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠﴾ [إبراهيم:٥٠]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٣٩﴾ [الأنبياء:٣٩]، وقوله: ﴿كَـٰلِحُونَ ١٠٤﴾ تحرق النار وجوههم فتتقلص شفاههم، وتبرز أسنانهم، قال الزجاج: «الكالح الذي قلصت شفتاه عن أسنانه».

وعند ذلك يقول ربُّ العزة للكفرة المشركين المكذبين للرسل ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾ [المؤمنون:١٠٥] يؤنب اللهُ -تبارك وتعالى- أهل الكفر والطغيان، ويقول لهم: ألم تكن آيات القرآن تتلى عليكم في الحياة الدنيا، فكان جوابُكم الرفضَ للإيمان، والتكذيب بتلك الآيات، فكان ردُّهم قولَهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾ [المؤمنون:١٠٦].

قالوا: لقد تليت علينا آيات القرآن، وقامت علينا الحجَّةُ، ولكننا كنَّا أشقى مِنَ الانقياد لها والإيمان بها.

عند ذلك يطلبون مِنْ ربِّ العزة -تبارك وتعالى- أن يخرجهم مِنَ النار، ويعيدهم إلى الحياة ليؤمنوا ويعملوا الصالحات، ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون:١٠٧] أي: أعدنا فإن عدنا إلى الكفر والشرك فإنّا ظالمون.

عند ذلك يقول ربُّ العزةِ لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ١١١﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١١].

يقول اللهُ تعالى لهم: اخْسَؤُوا في النار، ولا تخاطبوني، وقوله: ﴿ٱخْسَـُٔواْ﴾ كلمة زجر تقال للكلب كي يتباعد، أي امكثوا في النار مهانين صاغرين أذلاء، وعندما يقول اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ لا يستطيعون الكلام بعد ذلك، ولا يستطيعون أن ينبسوا ببنت شفة.

ثمَّ ذمَّ اللهُ تعالى هؤلاءِ الكفار بسبب سخريتهم في الحياة الدنيا من عباده المؤمنين الذين يدعون اللهَ ويطلبون مغفرته ورحمته، كانوا يسخرون منهم، واشتغلوا بالسخرية بهم حتى نسوا ذكر ربهم، وكان همهم الضحك منهم والسخرية بهم، ثم أخبر ربُّ العزة أنه جزى عباده المؤمنين، الذين كان الكفار يسخرون منهم لإيمانهم، والذين صبروا على ما نابهم مِنَ الكفار أنهم هم الفائزون، أي: في جناتِ النعيم.

٣- يسأل اللهُ -تعالى- الكفار في يوم الدين عن المدَّة التي لبثوها في الأرض:

يسأل اللهُ تعالى الكفارَ يوم القيامة قائلاً لهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المؤمنون:١١٢] أي: كم لبثتم في الحياة الدنيا من السنين؟ فيجيبون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون:١١٣] ذلك أنَّ النائم والميت لا يدري كم مضى عليه من الزمان وهو نائمٌ أو ميت.

عند ذلك يقول ربُّ العزة لهم: ﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون:١١٤]، أي: ما لبثتم في الدنيا إلا وقتاً قصيراً قليلاً، وكان عليكم أن تهتبلوه في طاعة الله تبارك وتعالى، لو كان عندكم علم صحيح.

ثم قال لهم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥]، أي: أظننتم إنَّما خلقناكم عابثين لاعبين، ولم نخلقكم لغاية ومقصد صحيح، وأنكم لن تعودوا إلينا فنحاسبكم على ما قدمتم من الأعمال!!

ونقل ابن كثير (٤/ ٤٩٩) عن ابن أبي حاتم قال: حَدَّثنا علي بن الحسين، حدثنا علي ابن محمد الطنافِسِيُّ، حدثنا إسحاق بن سليمان -شيخ من أهل العراق- أنبأنا شُعَيب بن صَفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال: كان آخرُ خطبةٍ خَطَبَها عُمَر بنُ عبدالعزيز أن حَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعدُ، أيها النَّاس، فإنكم لم تُخلَقُوا عبثاً، ولن تتركُوا سُدىً، وإن لكم معاداً يَنزلُ الله فيه للحُكْم بينكم والفَصْلِ بينكم، فخاب وخَسِر مَن خَرج من رحمةِ الله، وحُرِمَ جَنَّةً عرضُها السمواتُ والأرضُ، ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حَذِر هذا اليومَ وخافه، وباعَ نافِداً بباقٍ، وقَليلاً بكثير، وخوفاً بأمانٍ، ألا ترون أنكم مِنْ أصلاب الهالكين، وسَيَكون مَنْ بعدكم الباقين، حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تُشَيِّعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل، قد قَضَى نحبه، وانقَضى أجلُه، حتى تُغيِّبُوه في صَدْعٍ من الأرض، في بطن صَدْعٍ غير مُمَهَّدٍ ولا مُوسَّد، قد فارق الأحبابَ، وباشر التُّرابَ، وواجَهَ

الحسابَ، مُرتَهَن بعَمَله، غَنيٌّ عما تَرَكَ، فقيرٌ إلى ما قَدَّم: فاتقوا الله عبادَ الله قبل انقضاءِ مواثيقه، ونُزولِ الموت بكم». ثم جعل طَرَفَ ردائِهِ على وجْهِهِ، فبَكى وأبكَى من حوله.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٦]، عَظَّمَ ربُّ العزةِ نفسَهُ وقدَّسها بقوله: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: تعالى عمَّا يصفه به المشركون، فهم يجعلون له الولد، وينسبون له الشريك، ويزعمون أنَّه لن يعيد العباد إليه، وتعالى اللهُ تعالى عن ذلك كله، فالله واحد أحد، لا شريك له، وسيعيد العباد إليه ويحاسبهم، وهو ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ والعرش سرير ملك الرحمن، وهو أعظم المخلوقات، وقد استوى ربنا عليه استواءً يليق بجلاله.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٧-١١٨]، أعلمنا ربُّنا أنَّه مَنْ يدعو مع الله إلهاً آخر غير الله تعالى فإنَّما حسابه عند الله تعالى، لأنَّه أشركَ بالله تعالى، فدعاء غير الله شرك، والمشرك الكافر لا يفلح، ولا يفوز، ولا ينجو، وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ في الآيةِ الأخيرةِ مِنْ هذه السورة الكريمة أن يدعو ربَّه طالباً منه أن يغفر له ويرحمه ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٨]، ونحن ندعو الله عز وجل بمثل ما أمر اللهُ تعالى رسولَهُ أن يدعو به، فنقول: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وَجَدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- عندما ينزل الموت بالعبد الكافر يطلب من ربِّ العباد أن يعيدَه إلى الدنيا ليؤمن ويتوب ويعود إلى الله تعالى.

٢- في يوم القيامة يترك العباد الانتساب إلى آبائِهم والتفاخر بالأنساب.

٣- تنصب الموازين في يوم القيامة لوزن حسنات الناس وسيئاتهم، فمن ثقلت موازينه فأولئك الفائزون السعداءُ، ومن خفَّت موازينه فأولئك الخاسرون الأشقياء.

٤- منظر الكفار في يوم الدين منظر قبيح، لما يصيبهم من العذاب، يكونون كالحين عابسين مهمومين.

٥- يخاطب اللهُ تعالى الكفار مؤنباً وموبخاً ومقرعاً لهم قائلاً: ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم تكذبون بها.

٦- يعتذر الكفار بأنَّ شقوتهم غلبت عليهم، فكفروا، فيزجرهم ربُّ العزة، وينهاهم عن تكليمه، ويذكرهم بما كان منهم من السخرية والاستهزاء بعباده المؤمنين، ويعلمهم أن العباد الذين سخروا منهم هم الفائزون.

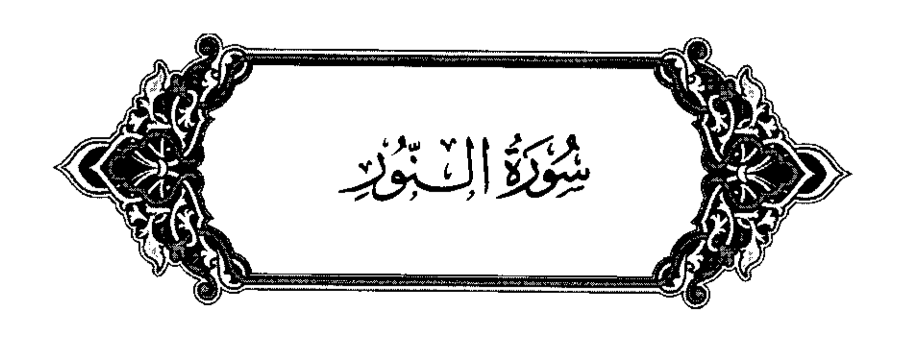
٧- يسأل اللهُ تعالى الكفار يوم القيامة عن المدة التي عاشوها في حياتهم الدنيا، فيقولون: إنها تبلغ يوماً أو بعض يوم، فيقول لهم ربُّهم: ما لبثتم إلا مدة قصيرة.

٨- يذمُّ الله تعالى الكفارَ لظنهم أنَّ اللهَ خلقهم لعباً لغير غايةٍ، ولظنهم أنهم لا يرجعون يوم الحشر للحساب والجزاء.

٩- نزه الله تعالى نفسه، فهو المتصرف في كل شيء لم يخلق شيئاً عبثاً، لا إله غيره، هو رب العرش الكريم.

١٠- تهدَّد الله تعالى المشركين الذين يعبدون معه غيره، ويدعون مع الله إلهاً آخر، فحسابهم عند الله عزَّ وجلَّ في الآخرة، ولا نجاة للكافرين يوم القيامة.

١١- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ في الآية الأخيرة من هذه السورة أن يدعوَ ربَّه أن يغفر له ويرحمه، وهو خير الراحمين.



تقديم

سورةُ النور سورة مدنية، نزلت جميعها في المدينةِ، وعدد آياتها أربع وستون آية، وذكر أبو عمرو الدانيّ: «أن عدد كلماتها ألف وثلاثمائة وستة عشرة كلمة، وحروفها خمسةُ آلاف وستمائة وثمانون حرفاً» [البيان في عدِّ آي القرآن: ص١٩٣].

النص القرآني الأول من سورة النور

حكم الزانية والزاني

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- عظم هذه السورة وكريم منزلتها، وبيَّن في آيات هذا النص حكم الزانية والزاني، وأوجب علينا إقامة الحدِّ الواجب عليهما، وحذرنا من إسقاطه والتهاون به.

وحرَّم الله على الرجل العفيف أن يتزوجَ مِنَ المرأة الزانية، ما لم تتب، وحرَّم على العفيفة أنْ تتزوج من رجلٍ زانٍ ما لم يتب.

وبيَّنَ اللهُ تعالى حكم الذي يرمي زوجته، وليس له شهودٌ إلا نفسه، فعليه ملاعنة زوجته على النحو الذي نطقت الآية به.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النور

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور: ١-١٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عظم هذه السورة وأهميتها:

قال ربُّ العزةِ مبيناً عِظَمَ شأْن هذه السورةِ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ [النور:١] أي: هذه سورة عظيمة كريمة أنزلها ربُّ العزة من عنده، ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: أوجبناها وجعلناها مقطوعاً بها، ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: أنزلنا في غضونها وتضاعيفها آيات بينات، أي: مفسراتٌ واضحات، وقد ضَمَّنَ الله هذه السورة حجج العقول التي ترشد إلى مسائل التوحيد، ودلائل الأحكام التي ترشد إلى وجه الحقّ.

والسورة المنزلة العالية، وهي في الاصطلاح: طائفة من القرآن لها مبدأ وختام، منقطعة عما قبلها وعما بعدها.

٢- حكم الزانية والزاني:

بيَّن اللهُ تعالى عقوبة الزانية والزاني التي يجب على الحاكم إيقاعها بهما ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور:٢].

وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى في سورة النساء، وهما قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء:١٥-١٦].

وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ آيةَ سورةِ النور هذه نَسَخَتْ آيتي سورة النساء، ففي الحديث عن عبادةَ بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «خُذُوا عنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبيلاً، البِكْرُ بالبِكْرِ جَلْدُ مائةٍ ونَفْيُ سَنَةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ جلْدُ مائةٍ، والرَّجْمُ» [مسلم: ١٦٩٠].

والزنا هو إدخالُ فرج في فرج مشتهى طبعاً محرم شرعاً، وهذه الآية بينت حكم الزانية والزاني إن لم يكن الواحدُ منهما متزوجاً، فحكم الزاني منهما مائة جلدة، فإن كانت الزانية أو الزاني سبق له الزواج، فيرجم الواحد منهما حتى الموت.

وقد أمر الرسولُ ﷺ برجْمِ الزناةِ الذين أُحصنوا أكثرَ من مرَّةٍ، فقد اعترفَ عندَ الرسولِ ﷺ ماعزٌ بالزنا، فأمرَ برجمِهِ، فرُجِمَ [البخاري: ٥٢٧١، ٦٨١٥، ٦٨٢٥. ومسلم: ١٦٩١، ١٦٩٢، ١٦٩٣، ١٦٩٤].

واعترفتْ عندهُ الغامديةُ، فأمر برجْمها بعدَ أنْ وضعتْ حملها، ثم أرضعته [مسلم: ١٦٩٥، ١٦٩٦] وأمَرَ بجلدِ رجلٍ كان حارساً لبستانٍ فزنى بامرأةِ صاحبِ البستانِ، وأمر أنساً أن يذهبَ إلى امرأةِ صاحب البستانِ، فإن اعترفتْ فأمره برجْمها، فاعترفتْ بزناها فرجمها [البخاري: ٢٣١٤، ٢٣١٥، ٢٦٩٦، ٢٧٢٤. ومسلم: ١٦٩٧، ١٦٩٨] وأمَرَ الرسولُ ﷺ برجْمِ الزانيين اليهوديين اللذين رفعَ اليهودُ إليه أمرهما، فأمرَ بهما فرُجما [البخاري: ١٣٢٩، ٤٥٥٦، ٦٨٤١. ومسلم: ١٦٩٩].

ولم يُذْكر في الأحاديثِ التي أمَرَ الرسولُ ﷺ أصحابَه فيها بالرجم: أنْ يَجْلِدُوا مَنْ أُمِروا برجمِهِ، فالحديثُ الذي أمرَ بالجلدِ قبل الرجم منسوخٌ على الصحيح [انظر البخاري (٦٨١٢)، ومسند الإمام أحمد (٧١٦)].

والأحاديثُ الدالة على أمرِ الرسول ﷺ بالرجم: وقيامُ الصحابةِ بالذي أمرهُم الرسولُ ﷺ به، يدلُّ على شناعةِ خطأ الذين يردُّون الرجمَ ويقصرونه على الجلد.

وقد كانت آية الرجم في كتاب الله تعالى، ثم نسخ لفظها، وبقي حكمها، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: قال عمرُ: «لقد خَشيتُ أنْ يطولَ بالناسِ زمانٌ، حتى يقولَ قائلٌ: لا نَجِدُ الرَّجْمَ في كِتاب الله، فيَضِلُّوا بتَرْكِ فريضةٍ أنزلَها اللهُ، ألا وإنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ على مَنْ زَنا وقد أحصَنَ إذا قامتِ البَيِّنةُ، أو كان الحَمْلُ، أو الاعتِرافُ -قال سفيانُ: كذا حَفِظْتُ- ألا وقد رَجَمَ رسولُ الله ﷺ ورَجَمْنا بعدَه» [البخاري: ٦٨٢٩. ومسلم: ١٦٩١].

ونهى اللهُ تعالى الحكَّامَ الذين يقيمون الحدودَ أن تأخذهم رأفةٌ في دين الله بالزانية والزاني إذا وجب الحدُّ على أحدِهما ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ والرأفة الرحمةُ، التي تمنع إقامة الحَدِّ حسب حكم الله تعالى، أو تجعل الرأفةُ الجالدَ يخفِّفُ في الضرب، حتى لا يوجع المضروب، وليس المرادُ إيقاعَ الضرب الشديد الذي يهلك المضروبَ ويتلفه، فالضربُ المشروعُ ليس بأشدِّ الضرب، ولا أخفِّه، وهو بسوطٍ وسط، ليس غليظاً قاسياً، ولا ليناً بالياً.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فيه تهييجٌ على فعلِ ما أُمروا به، أي: إن كنتم مؤمنين فافعلوا ما أمرتم به من ترك الرأفة التي تسقطون بها عقوبة الزنا أو تخففونها إلى درجة عدم الإيلام بها.

ويكون الجلدُ على الظهرِ، ويُمنَعُ جلدُ الوجه والرأس والفرج والمَقاتِلِ، وقد أمر اللهُ تعالى بأن يَشهدَ على جلدِ الزانيةِ والزاني طائفةٌ من المؤمنين، أي: يشهدُ جلدَهما جماعة من المؤمنين، فذلك أخزى لهما، وأشدُّ تنكيلاً بهما، وفي شهادة مَنْ حَضَر جلدَهُما وعظٌ وزجر لمن يهم بارتكاب هذه المعصية.

٣- تحريمُ الله -تبارك وتعالى- نكاح الزانية والزاني:

حرَّم اللهُ تعالى على العفيف أن يتزوجَ الزانية، كما حرَّم على العفيفة أنْ تتزوج الزاني، قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور:٣].

ويدلُّ على أنَّ الآية نزلت في تحريم تزوج الزاني من المرأة العفيفة، وتزوج العفيف من المرأة الزانية سبب نزولها، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنَّ رجلاً مِنَ المؤمنين استأذنَ رسولَ الله ﷺ في امرأةٍ يقالُ لها أُمُّ مهزولٍ كانت تسافحُ، وتشترط أنْ تنفق عليه، قال: فاستأذن رسولَ الله ﷺ أو ذَكَرَ له أمرَها، قال: فقرأ عليه رسولُ الله ﷺ ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [رواه أحمد في مسنده: ٦٤٨٠، قال محقق ابن كثير ٤/ ٥٠٥: صحيح أخرجه أحمد].

وروى الترمذي قال: حدَّثنا عبدُ بنُ حُمَيدٍ، قال: حدَّثنا رَوْحُ بنُ عُبادَةَ، عن عُبَيدِالله بنِ الأَخْنَسِ، قال: أخبرني عمرو بنُ شُعَيبٍ، عن أبيه عن جَدِّهِ قال: كان رجلٌ يقال له: مَرْثَدُ بنُ أبي مَرْثَدٍ، وكان رجلاً يَحْمِلُ الأَسْرَى من مكَّةَ حتى يأتِيَ بِهِمُ المدينةَ، قال: وكانتِ امرأةٌ بَغِيٌّ بمكَّة يقالُ لها: عَناقُ وكانت صَديقةً له، وأنَّهُ كان وعَدَ رجلاً من أُسارَى مكَّةَ يَحْمِلُه، قال: فجئتُ حتى انتَهَيْتُ إلى ظِلِّ حائطٍ من حَوائِطِ مكَّةَ في ليلةٍ مُقْمِرَةٍ، قال: فجاءَتْ عَناقُ، فأَبْصَرَتْ سَوادَ ظِلي بجَنْبِ الحائطِ، فلمَّا انتَهَتْ إليَّ عَرَفَتْ، فقالتْ: مَرْثَدٌ؟ فقلتُ: مَرْثَدٌ. قالت: مرحباً وأهلاً، هَلُمَّ فبِتْ عندنا الليلةَ.

قال: قلتُ: يا عناقُ حَرَّمَ اللهُ الزِّنا، قالت: يا أهلَ الخِيام، هذا الرجُلُ يَحْمِلُ أسراكُم، قال: فتَبِعَني ثمانيةٌ وسَلَكْتُ الخَنْدَمة، فانْتَهَيْتُ إلى كَهْفٍ أو غارٍ فدَخَلْتُ، فجاؤوا حتى قاموا على رأْسِي فبالوا: فظَلَّ بَوْلُهُمْ على رَأْسِي وعَمَّاهُم اللهُ عني، قال: ثم رجعوا ورجَعْتُ إلى صاحبي فحَمَلْتُه -وكان رجلاً ثقيلاً- حتَّى انْتَهَيْتُ إلى الإذْخِرِ، فَفَكَكْتُ عنهُ أَكْبُلَهُ، فجعلتُ أَحْمِلُه ويعينُني حتى قَدِمْتُ المدينةَ، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله أَنْكِحُ عَناقاً؟ مرتين، فأَمْسَكَ رسولُ الله ﷺ ، فلَمْ يَرُدَّ عليَّ شيئاً حتَّى نَزَلَتْ ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾ [النور:٣].

فقالَ رسولُ الله ﷺ : «يا مَرْثَدُ، الزاني لا يَنْكِحُ إلا زانيةً أو مشركةً، والزانيةُ لا ينكِحُها إلا زانٍ أو مُشْرِكٌ، فلا تَنْكِحْها» [رواه الترمذي: (٣٤٥١)، وقال فيه: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفُه إلا

من هذا الوجهِ. وقال فيه محقق ابن كثير (٤/ ٥٠٦): جيدٌ، أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي في الكبرى والبيهقي وأخرجه الحاكم مختصراً وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا].

وروى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «لا يَنكِحُ الزاني المجلودُ إلاَّ مثله» [أورده الألبانيُّ في صحيحِ أبي داود (١٨٠٧). وقال: صحيح وعزاه محقق ابن كثير (٤/ ٥٠٦) إلى أبي داود والترمذي والطحاوي في المشكل، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وإسناده قويٌّ ورجاله ثقات].

وقال ابن كثير (٤/ ٥٠٥): «﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ أي: تعاطيه والتزوج بالبغايا، أو تزويجُ العفائفِ بالفجّارِ»، ونقل ابن كثير (٤/ ٥٠٥) عن قتادة ومقاتل بن حيَّان «أنَّ الله حرَّم على المؤمنين نكاح البغايا» وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥]، وقوله: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤].

وقال ابن كثير (٥/ ٥٠٥): «ذهب الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ -رحمه الله- إلى أنَّه لا يصحُّ العقد مِنَ الرجلِ العفيف على المرأة البغيّ ما دامتْ كذلك حتى تستتاب، فإنْ تابتْ صحَّ العقدُ عليها، وإلاَّ فلا، وكذلك لا يصحُّ تزويجُ المرأة الحُرَّةِ العفيفةِ بالرجلِ الفاجرِ المسافح، حتَّى يتوبَ توبةً صحيحةً لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾».

٤- يجب جلد الذين يرمون المحصنات ثمانين جلدة:

يجب جلد الذين يرمون المحصنات ثمانين جلدة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [النور:٤-٥].

والمحصنات العفيفات، فإذا رمى رجلٌ أو امرأةٌ امرأةً حُرَّةً عفيفةً بالغةً، ومثله الذي يرمي الرجلَ الحرَّ العفيف البالغ، فيجب على القاذفِ إن لم يأْتِ بأربعة شهداء ثمانين جلدة ولا تُقْبَلُ شهادتُه بعد ذلك حتى يتوفاه الموت، ويصبح فاسقاً، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ إلا إذا تاب مما رمى به المحصنة، فإن شهادته تقبل، ويرفع عنه الفسق، أما الجلد فإنه لا يرفع، ويجب إقامةُ الحدِّ عليه، وهذا ما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد.

٥- حكم الذين يرمون أزواجهم:

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- حكم الذين يرمون أزواجهم بالزنا، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ

﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور:٦-١٠].

بَيَّن اللهُ تعالى في هذه الآيات حكم الذي قذف زوجته بالزنا، ولم يستطع أن يقيم عليها أربعة شهود، فقد شرع له أن يلاعنها، فلا يقامُ عليه الحدُّ، وإذا لاعنته فلا يقامُ عليها الحدُّ، ولا ينسبُ الولدُ إليه، ولا يجوز رمي الزوجة بالزنا بعد الملاعنة.

والملاعنةُ أن يشهدَ كلُّ واحدٍ مِنَ الزوجين على النحو الذي أخبرت الآية به، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: يرمونهن بالزنا، ولم يأْتوا بأربعة شهداء يدلُّ على صدقِ ما قالوه، ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾ أي: فيقيمه الحاكم أو من ينوب منابه بين يديه، فيشهد على نفسه، ويقول: إنَّه لصادقٌ فيما رماها به مِنَ الزنا، ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾﴾ أي: يقول في الشهادةِ الخامسةِ: إنَّ لعنةَ الله عليه إنْ كان كاذباً فعليه لعنة الله فيما رماها به. فيتوجه إقامةُ الحدِّ عليها، فإن شهدت، رُفِعَ الحدُّ عنها.

فإذا أرادت أن تشهد أقامها الحاكم أو من يقوم مقامه بين يديه، فشهدت على نفسها أنَّ لعنة الله عليها أربع شهادات أنَّه كاذبٌ فيما رماها به ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ وتشهد الخامسة أنَّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾.

وكانت الخامسة في حقِّ المرأةِ الغضب، لأن الغالب أنْ لا تتجشمَ فضيحة أهلها، ورميها بالزنا، والغضب أشدُّ مِنَ اللعن.

وقد كان سبب نزول هذه الآيات أنّ اثنين من الصحابة وجد كلُّ واحدٍ منهما مع زوجته رجلاً، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى حكم من رمى زوجته بالزنا، وسأسوق بعضاً مما أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما من ذلك.

قال البخاريُّ: حدَّثنا إسحاقُ، حدَّثنا محمدُ بنُ يوسفَ، حدَّثنا الأوزاعيُّ، قال: حدَّثني الزهريُّ، عن سهلِ بنِ سعدٍ: أن عُوَيْمراً أتي عاصمَ بنَ عديٍّ، وكان سيِّدَ بني عَجْلانَ، فقال: كيفَ تقولونَ في رجلٍ وجَدَ مع امرأتِه رجلاً، أيَقتُلُه فتَقتُلونَه؟ أم كيفَ يَصْنَعُ؟ سَلْ لي رسولَ الله ﷺ عن ذلكَ، فأتى عاصمٌ النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، فكَرِهَ رسولُ الله ﷺ المَسائلَ، فسألَه عُوَيمِرٌ، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ كَرِهَ المَسائلَ، وعابَها.

قال عُوَيمِرٌ: والله لا أنتهي حتَّى أسألَ رسولَ الله ﷺ عن ذلكَ، فجاءَ عُوَيمِرٌ، فقال: يا رسولَ الله، رجلٌ وجَدَ مع امرأتِه رجلاً، أيَقتُلُه فتَقتُلونَه؟ أم كيفَ يَصْنَعُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «قد أنزَلَ اللهُ القرآنَ فيكَ وفي صاحبَتِكَ». فأمَرَهما رسولُ الله ﷺ بالمُلاعَنةِ بما سَمَّى الله في كِتابه، فلاعَنَها، ثم قال: يا رسولَ الله، إن حَبَسْتُها فقد ظَلَمْتُها، فطَلَّقَها، فكانت سُنَّةً لمن كان بعدَهما في المُتلاعَنينِ.

ثم قال رسولُ الله ﷺ : «انظُرُوا، فإنْ جاءَتْ به أسحَمَ، أدعَجَ العَينَينِ، عظيمَ الأَلْيَتَينِ، خَدَلَّجَ السّاقَينِ، فلا أحسِب عُوَيمِراً إلاَّ قد صَدَقَ عليها، وإنْ جاءَتْ به أُحَيمِرَ، كأنَّه وَحَرَةٌ، فلا أحسِبُ عُوَيمِراً إلاَّ قد كَذَبَ عليها». فجاءتْ به على النَّعْتِ الذي نَعَتَ به رسولُ الله ﷺ من تَصْدِيقِ عُوَيمِرٍ، فكان بعدُ يُنْسَبُ إلى أمِّه [البخاري: ٤٧٤٥. مسلم: ١٤٩٢].

وقال البخاري: حدَّثني سليمانُ بنُ داودَ أبو الربيعِ، حدَّثنا فُلَيحٌ، عن الزُّهْريِّ، عن سَهْلِ بنِ سعدٍ: أنَّ رجلاً أتَى رسولَ الله ﷺ ، فقال: يا رسولَ الله، أرأيتَ رجلاً رأى مع امرأتِه رجلاً، أيَقتُلُه فتَقتُلونَه؟ أم كيفَ يَفْعَلُ؟ فأنزلَ اللهُ فيهما ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ التَّلاعُنِ، فقال له رسولُ الله ﷺ : «قد قُضِيَ فيكَ وفي امرأتِكَ». قال: فتَلاعَنا وأنا شاهدٌ عندَ رسول الله ﷺ ، ففارقَها، فكانت سُنَّةً أنْ يُفَرَّقَ بينَ المُتلاعنينِ، وكانت حاملاً، فأنكَرَ حَمْلَها، وكان ابنُها يُدْعَى إليها، ثمَّ جَرَتِ السُّنَّةُ في الميراثِ أنْ يَرِثَها، وتَرِثَ منه ما فرَضَ اللهُ لها [البخاري: ٤٧٤٦. مسلم: ١٤٩٢].

وقال البخاري: حدَّثني محمدُ بنُ بشَّارٍ، حدَّثنا ابنُ أبي عَدِيٍّ، عن هشامِ بنِ حسَّانَ، حدَّثنا عِكْرمةُ، عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ هِلالَ بنَ أُميَّةَ قَذَفَ امرأتَه عندَ النبيِّ ﷺ بشَريكِ بنِ سَحْماءَ، فقال النبيُّ ﷺ : «البَيِّنَةَ، أو حَدٌّ في ظَهْرِكَ». فقال: يا رسولَ الله، إذا رأى أحدُنا على امرأتِه رجلاً، يَنطَلِقُ يَلتَمِسُ البَيِّنة؟ فجعَلَ النبيُّ ﷺ يقولُ: «البَيِّنَةَ، وإلاَّ حَدٌّ في ظَهْرِكَ». فقال هِلال: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، إني لَصادِقٌ، فلَيُنْزِلَنَّ الله ما يُبَرِّئُ ظَهْري مِنَ الحَدِّ، فنَزَلَ جبريلُ وأنزَلَ عليه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ فقرأ حتى بَلَغَ: ﴿إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٩﴾ [النور:٦-٩]، فانصَرَفَ النبيُّ ﷺ ، فأرسَلَ إليها، فجاءَ هِلالٌ فشَهِدَ، والنبيُّ ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ يعلَمُ أنَّ أحدَكُما كاذِبٌ، فهل منكما تائب؟» ثم قامَتْ فشَهِدَتْ، فلمَّا كانت عندَ الخامِسةِ وقَّفُوها، وقالوا: إنَّه موجِبةٌ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: فتَلَكَّأتْ ونَكَصَتْ، حتى ظنَنَّا أنَّها تَرْجِعُ، ثم قالت: لا أفضَحُ قومي سائرَ اليوم، فمَضَتْ، فقال النبيُّ ﷺ : «أبصِرُوها، فإنْ جاءَت به أكحَلَ العينين، سابغَ

الألْيَتَين، خَدَلَّجَ الساقينِ، فهو لشَريكِ بنِ سَحْماءَ». فجاءَتْ به كذلكَ، فقال النبيُّ ﷺ: «لولا ما مَضَى من كتاب الله، لكان لي ولها شأنٌ» [البخاري: ٤٧٤٧].

وروى مسلم عن سعيد بن جبير، قال: سئِلْتُ عن المُتلاعِنَيْنِ في امْرأةِ مُصْعَبٍ، أيُفَرَّقُ بينهما؟ قالَ: فما دَرَيْتُ ما أقولُ: فمضيتُ إلى منزِل ابنِ عُمَرَ بمكةَ، فقلتُ للغلام: اسْتَأْذِنْ لي، قالَ: إنَّهُ قائلٌ، فسَمِعَ صوتي، قال: ابنُ جُبَيْرٍ؟ قلتُ: نعم، قال: ادخُلْ. فوالله! ما جاءَ بكَ، هذه الساعةَ، إلا حاجةٌ، فدخلتُ، فإذا هو مُفْتَرِشٌ بَرْذَعَةً، مُتَوَسِّدٌ وسادةً حَشْوُها ليفٌ، قلتُ: أبا عبدالرحمنِ! المُتلاعِنان، أيُفرَّقُ بينهما؟ قال: سبحانَ الله! نعم. إنَّ أولَ من سألَ عن ذلك فلان بن فلانٍ، قال: يا رسولَ الله! أرأيتَ أنْ لو وجد أحدُنا امرأته على فاحشةٍ، كيف يصنعُ؟ إنْ تكلَّمَ تكلَّمَ بأمرٍ عظيم، وإنْ سَكَتَ سكتَ على مثل ذلك.

قال: فسكت النبي ﷺ فلم يُجِبْهُ، فلما كان بعدَ ذلك أتاه، فقال: إنَّ الذي سألْتُكَ عنه قد ابْتُليتُ بِهِ، فأنْزَلَ الله عز وجل هؤلاءِ الآياتِ في سورة النورِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ [النور:٦-٩] فتَلاهُنَّ عليه ووَعظَهُ وذكَّره، وأخبره أنَّ عذابَ الدنيا أهوَنُ من عذابِ الآخرة، قال: لا، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ! ما كذبتُ عليها، ثم دعاها فوعظها، وذكَّرها وأخْبَرَها أنَّ عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، قالت: لا، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ! إنه لكاذِبٌ.

فبدأَ بالرجلِ فشَهِدَ أربعَ شهاداتٍ بالله إنَّهُ لمن الصادقين، والخامسةُ أنَّ لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم ثنَّى بالمرأةِ فشَهِدَتْ أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسةُ أنَّ غضبَ الله عليها إنْ كان من الصادقين، ثم فرَّقَ بينهما [مسلم: ١٤٩٣].

عن عَلْقَمَةَ، عن عبدالله، قالَ: إنَّا، ليلةَ الجمعةِ، في المسجدِ، إذ جاءَ رجلٌ من الأنصارِ فقال: لو أنَّ رجلاً وَجَدَ مع امرأتِهِ رجلاً فتكلَّم جَلَدْتُموه، أو قَتَلَ قَتَلْتُموهُ؛ وإنْ سَكَتَ سكتَ على غيظٍ، والله! لأسْأَلَنَّ عنه رَسول الله ﷺ، فلما كان من الغدِ أتى رسول الله ﷺ فسألَهُ، فقال: لوْ أنَّ رجلاً وجد مع امرأتِهِ رجلاً فتكلَّم جَلَدْتُموه، أو قتَلَ قَتَلْتُموه، أو سَكَتَ سكتَ على غيظٍ، فقال: «اللهمَّ! افْتَحْ» وجَعَلَ يدعو، فنزلت آيةُ اللِّعانِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ هذه الآيات، فابْتُلِيَ بِهِ ذلك الرجلُ من بين الناس، فجاء هو وامرأتُهُ إلى رسولِ الله ﷺ فتلاعنا، فشَهِدَ الرجلُ أربعَ شهاداتٍ بالله إنَّهُ لَمِنَ الصادقين، ثم لَعَنَ الخامسةَ ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾ فذَهَبَتْ لتَلْعَنَ، فقالَ لها رسولُ الله ﷺ: «مَهْ» فأَبَتْ فَلعَنَتْ، فلمَّا أدْبرا قال «لَعَلَّها أنْ تجيء بِهِ أسْوَدَ جَعْداً» فجاءتْ بِهِ أسْوَدَ جَعْداً [مسلم: ١٤٩٥].

وختم اللهُ تعالى آياتِ هذا النص بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [النور:١٠]، ليدلَّ على أنَّ هذا التشريع الذي شرَّعه سبحانه على هذا النحو فيمن قذف زوجته، وليس عندَه شاهد إلا نفسه، هو من فضل الله ورحمته وتخفيفه عن عباده.

وعن المُغيرةِ بن شُعبةَ قال: قالَ سعدُ بن عُبادة: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضَرَبْتُهُ بالسيفِ غيرُ مُصْفِحٍ عنه، فبَلَغَ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون مِنْ غَيْرَةِ سعدٍ؟ فوالله! لأنا أغْيَرُ منه، واللهُ أغْيَرُ مني، من أجلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الفواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا شَخْصَ أغْيَرُ مِنَ الله، ولا شخصَ أحَبُّ إليه العُذْرُ مِنَ الله، من أجل ذلك بعث اللهُ المرسلين مبشِّرين ومنذرين، ولا شخصَ أحبُّ إليه المِدْحَةُ من الله، من أجلِ ذلك وَعَدَ اللهُ الجنة» [مسلم: ١٤٩٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - هذه السورة سورة عظيمة ضمَّنَها ربُّ العزة جملة من الأحكام الواجبةِ المفروضة.

٢- التي يثبت زناها والذي يثبت زناه يجب أن يُجْلَدَ كلُّ واحد منهما مائةَ جلدة.

٣- الجلدُ يكون وسطاً، فلا يكون أعلى الجلد ولا أخفَّه، بسوط وسط ليس بالسوط الجديد، ولا بالسوط البالي.

٤- لا يجوز أن تمنعنا الرحمةُ بالمجلودِ من إقامةِ الحدِّ، أو تخفيفه إلى درجة لا تؤذي المقامَ عليه الحدُّ.

٥- زيادة في التنكيل بالمقذوف يجب أنْ يشهد إقامةَ الحدِّ عليه جماع من المؤمنين.

٦- لا يجوز أن يتزوج العفيفةَ المحدودُ في الزنا إلا إذا تاب، وكذلك لا تتزوج الزانية من العفيف.

٧- الذي يرمي مؤمنةً عفيفةً حرةً بالغة يجب أن يقام عليه الحدُّ ثمانين جلدة ولا تُقبلُ له شهادةٌ بعد ذلك، ويصبح فاسقاً، فإن تاب وأصلح أمرَه، فيرفع عنه الفسقُ، وتقبل شهادته.

٨- الذي يرمي زوجته بالزنا ولا يجد أربعةَ شهداء يشهدون له، فكي يرتفع عنه الجلد يجب أن يشهد على نفسه أربع شهادات أنَّه صادق فيما رماها به من الزنا، ثم يشهدُ الخامسةَ أنَّ

لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين، ويرفع عنها الجلد أن تشهد أربعَ شهاداتٍ بالله إنه لكاذب فيما رماها به، وتشهد الخامسة أنَّ غضبَ الله عليها إنْ كانَ من الصادقين.

٩- هذا التشريع الذي شرعه اللهُ تعالى على هذا النحو في الذي يرمي زوجته ولم يكن له شهداءُ إلا نفسه هو من فضل الله تعالى ورحمته سبحانه.

النص القرآني الثاني من سورة النور

واقعةُ الإفك

أولاً: تقديم

آيات هذا النص نزلت في تبرئة أم المؤمنين زوج الرسول ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن أبيها حين رماها أهل الإفك بما رموها به في إحدى غزواته.

وقد روى البخاريُّ في صحيحه ما جمعه ابن شهاب الزهري عن عائشة في هذه الواقعة مما حدث به عنها عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ ، حينَ قال لها أهلُ الإفكِ ما قالوا، فبرَّأها اللهُ مما قالوا [قال ابن شهاب الزهري]، وكلٌّ حدَّثني طائفةً منَ الحديثِ، وبعضُ حديثِهم يُصدِّقُ بعضاً، وإنْ كان بعضُهم أوعَى له من بعضٍ، الذي حدَّثني عُرْوةُ، عن عائشةَ رضي الله عنها: «أنَّ عائشةَ رضي الله عنها زوجَ النبيِّ ﷺ قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا أرادَ انْ يَخْرُجَ أقرعَ بينَ أزواجِه، فأيَّتُهنَّ خَرَجَ سَهْمُها خَرَجَ بها رسولُ الله ﷺ معه.

قالت عائشةُ: فأقرَعَ بينَنا في غزوةٍ غزاها، فخَرَجَ سَهْمي، فخَرَجْتُ مع رسولِ الله ﷺ بعدَما نَزَلَ الحجابُ، فأنا أُحمَلُ في هَوْدَجي وأُنزَلُ فيه، فسِرْنا حتى إذا فَرَغَ رسولُ الله ﷺ من غَزْوَتِهِ تلك، وقَفَلَ ودَنَوْنا من المدينةِ قافلينَ، آذَنَ ليلةً بالرحيلِ، فقُمْتُ حين آذَنوا بالرحيلِ، فمشيتُ حتى جاوَزْتُ الجيشَ، فلما قضيتُ شأني أقْبَلْتُ إلى رَحْلي، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفارِ قد انقطَعَ، فالتَمَسْتُ عِقْدي، وحَبَسَني ابتِغاؤُه، وأقبَلَ الرَّهْطُ الذينَ كانوا يَرحَلونَ لي، فاحتَمَلوا هَوْدَجي، فرَحَلُوه على بَعيري الذي كنتُ رَكِبْتُ، وهم يَحْسِبونَ أنِّي فيه، وكان النساءُ إذْ ذاكَ خِفافاً، لم يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ، إنَّما تأكُلُ العُلْقَةَ من الطَّعامِ، فلم يَستَنكِرِ القومُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حينَ رَفَعُوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السِّنّ، فبَعَثوا الجَمَلَ وساروا، فوَجَدْتُ عِقْدي بعدَما استَمَرَّ الجيشُ، فجئتُ مَنازِلَهم وليس بها داعٍ ولا مجيبٌ، فأمَمْتُ مَنزِلي الذي كنتُ به، وظننتُ أنَّهم سَيَفْقِدوني، فيَرْجِعون إليّ، فبَيْنا أنا جالسةٌ في منزلي، غَلَبَتْني عَيني فنِمْتُ.

وكان صَفْوانُ بنُ المُعَطَّل السُّلَمِيُّ ثم الذَّكْوانيُّ من وراءِ الجيشِ، فأدلَجَ فأصبَحَ عندَ مَنزِلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعَرَفني حين رآني، وكانَ يَراني قبل الحِجابِ، فاستيقظتُ باستِرْجاعه حينَ عَرَفَني، فخَمَّرْتُ وجهي بجِلْبابي، والله ما كَلَّمَني كَلِمةً، ولا سمعتُ منه كَلِمةً، غيرَ استِرْجاعه، حتى أناخَ راحِلتَه فوَطِئَ على يَديها، فرَكِبْتُها، فانطَلَقَ يقودُ

بيَ الراحلةَ، حتى أتينا الجيشَ بعدَما نَزَلوا مُوغِرينَ في نَحْرِ الظَّهيرةِ، فهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وكان الذي تَوَلَّى الإفْكَ عبدُالله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلول.

فقَدِمْنا المدينةَ، فاشتكَيتُ حينَ قَدِمْتُ شَهْراً، والناسُ يُفيضون في قولِ أصحاب الإفْكِ، لا أشعُرُ بشيءٍ من ذلكَ، وهو يَريبُني في وجَعي أنّي لا أعرِفُ من رسولِ الله ﷺ اللُّطْفَ الذي كنتُ أرَى منه حينَ أشتكي، إنَّما يَدخُلُ عليَّ رسولُ الله ﷺ ، فيُسلِّمُ ثمَّ يقولُ: «كيفَ تِيكُم؟» ثم يَنصَرِفُ، فذاكَ الذي يَريبُني، ولا أشعرُ حتى خَرَجْتُ بعدَما نَقَهْتُ، فخَرَجَتْ معي أمُّ مِسْطحٍ قِبَلَ المَناصِعِ، وهو مُتَبَرَّزُنا، وكنَّا لا نَخْرُجُ إلاَّ ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قبلَ أن نَتَّخِذَ الكُنُفَ قريباً من بيوتِنا، وأَمْرُنا أمرُ العربِ الأولِ في التَّبرُّزِ قِبَلَ الغائطِ، فكنَّا نَتأذَّى بالكُنُفِ أن نَتَّخِذَها عندَ بيوتِنا، فانطلقتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ، وهي ابنةُ أبي رُهْمِ بنِ عَبْدِ منافٍ، وأمُّها بنتُ صَخْرِ بنِ عامرٍ، خالةُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ، وابنها مِسْطَحُ بنُ أُثاثةَ، فأَقبَلْتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بيتي، قد فرَغْنا من شأنِنا، فعَثَرتْ أمُّ مِسْطَحٍ في مِرْطِها، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فقلْتُ لها: بئْسَ ما قلتِ؟ أتَسُبِّينَ رجلاً شَهِدَ بدراً، قالت: أيْ هَنْتاهْ، أوَلم تَسْمعي ما قال؟ قالت: قلتُ: وما قال؟ فأخبرَتْني بقولِ أهلِ الإفْكِ، فازْدَدْتُ مرضاً على مرضي.

فلمّا رَجَعْتُ إلى بيتي ودَخَلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ -تعني سَلَّمَ- ثمَّ قال: «كيفَ تِيكُمْ؟». فقلتُ: أتأْذَنُ لي أنْ آتيَ أبَوَيَّ؟ قالت: وأنا حينئذٍ أُريدُ أنْ أستيقِنَ الخَبَرَ من قِبَلِهما، قالت: فأذِنَ لي رسولُ الله ﷺ ، فجئتُ أبَويَّ، فقلتُ لأُمِّي: يا أُمَّتاهْ، ما يتحدثُ الناسُ؟ قالت: يا بُنيَّةُ، هوِّني عليكِ، فوالله لقَلَّما كانتِ امرأة قطُّ وضيئةٌ عندَ رجلٍ يُحِبُّها، ولها ضرائرُ، إلا كَثَّرْنَ عليها، قالت: فقلتُ: سبحانَ الله! ولقد تَحدَّثَ الناسُ بهذا!»

قالت: فبَكَيتُ تلكَ الليلةَ، حتى أصبَحْتُ لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ، ولا أكتَحِلُ بنومٍ، حتى أصبَحْتُ أبكي، فدَعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ وأُسامةَ بنَ زيدٍ رضي الله عنهما، حينَ استَلْبَثَ الوحيُ، يستأمِرُهما في فِراقِ أهلِه، قالت: فأمَّا أُسامةُ بنُ زيدٍ، فأشارَ على رسولِ الله ﷺ بالذي يَعلَمُ من بَراءةِ أهلِه، وبالذي يَعلَمُ لهم في نَفْسِه من الوُدِّ، فقال: يا رسولَ الله، أهلَكَ وما نَعْلَمُ إلا خيراً، وأما عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقال: يا رسولَ الله، لم يُضيِّقِ اللهُ عليكَ، والنِّساءُ سِواها كثيرٌ، وإنْ تسألِ الجاريةَ تَصْدُقْكَ، قالت: فدعا رسولُ الله ﷺ بَريرةَ، فقال: «أي بريرةُ، هل رأيتِ من شيءٍ يَريبُكِ؟» قالت بَريرةُ: لا والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، إنْ رأيتُ عليها أمراً أغْمِصُه عليها أكثرَ من أنها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، تنامُ عن عَجينِ أهلِها، فتأتي الدّاجِنُ فتأْكُلُه.

فقامَ رسولُ الله ﷺ، فاستَعْذَرَ يومئذٍ من عبدالله بن أُبيٍّ ابنِ سَلولٍ، قالت: فقال رسولُ الله ﷺ، وهو على المِنْبرِ: «يا معشر المسلمين، مَن يَعْذِرُني من رجلٍ قد بَلَغَني أذاه في أهلِ بيتي؟ فوالله ما عَلِمْتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذَكَروا رجلاً ما عَلِمْتُ عليه إلا خيراً، وما كان يَدخُلُ على أهلي إلاَّ معي». فقامَ سعدُ بنُ معاذٍ الأنصاريُّ، فقال: يا رسولَ الله، أنا أعذِرُكَ منه، إنْ كان من الأوسِ ضَرَبْتُ عُنُقَه، وإنْ كان من إخْوانِنا مِنَ الخَزَرَجِ أمَرْتَنا ففعَلْنا أمرَكَ.

قالت: فقامَ سعدُ بنُ عُبادةَ، وهو سيدُ الخَزرَجِ، وكان قبلَ ذلكَ رجلاً صالحاً، ولكنِ احتَمَلَتْه الحَمِيَّة، فقال لسعدٍ: كَذَبْتَ لَعَمرُ الله، لا تقتُلُه، ولا تَقْدِرُ على قَتْلِه، فقامُ أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ، وهو ابنُ عَمِّ سعدٍ، فقال لسعدِ بنِ عُبادة: كَذَبْتَ لعَمرُ الله، لَنَقتلَنَّه، فإنَّكَ مُنافقٌ تُجادِلُ عن المنافقينَ، فتثاوَرَ الحيّانِ الأوسُ والخَزرَجُ، حتى هُمُّوا أنْ يَقْتَتِلُوا، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المِنْبرِ، فلم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يُخفِّضُهم حتى سَكَتوا وسَكَتَ.

قالت: فمَكَثْتُ يومي ذلك لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ، ولا أكْتَحِلُ بنوم، قالت: فأصبحَ أبوايَ عندي، وقد بَكَيتُ ليلتينِ ويوماً، لا أكتحِلُ بنومٍ، ولا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ، يَظُنّانِ أنَّ البكاءَ فالقٌ كَبِدي، قالت: فبينما هما جالسانِ عندي وأنا أبكي، فاستأْذَنَتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذِنْتُ لها، فجَلَسَتْ تبكي معي، قالت: فبَيْنا نحنُ على ذلك، دَخَلَ علينا رسولُ الله ﷺ ، فسَلَّمَ ثم جَلَسَ، قالت: ولم يَجلِسْ عندي منذُ قيلَ ما قيلَ قبلَها، وقد لَبِثَ شهراً لا يوحَى إليه في شأني.

قالت: فتَشَهَّدَ رسولُ الله ﷺ حينَ جَلَسَ، ثم قال: «أمَّا بعدُ يا عائشةُ، فإنَّه قد بَلَغَني عنكِ كذا وكذا، فإنْ كنتِ بَريئةً فَسَيبَرِّئُكِ اللهُ، وإنْ كنتِ ألْمْتِ بذَنبٍ فاستَغفِري اللهَ وتوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترَفَ بذَنبِه ثمَّ تابَ إلى الله، تابَ اللهُ عليه». قالت: فلما قضى رسولُ الله ﷺ مَقالتَه، قَلَصَ دَمْعي حتَّى ما أُحِسُّ منه قَطْرةً، قلتُ لأبي: أجِبْ رسولَ الله ﷺ فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ . فقلتُ لأُمِّي: أجيبي رسولَ الله ﷺ . قالت: ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ .

قالت: فقلتُ -وأنا جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، لا أقرأُ كثيراً مِنَ القرآنِ-: إنِّي والله لقد عَلِمْتُ لقد سمعتُم هذا الحديثَ حتَّى استَقَرّ في أنفُسِكُم، وصَدَّقْتُم به، فلَئِنْ قلتُ لكم: إني بَريئةٌ -واللهُ يَعلَمُ أني بَريئةٌ- لا تُصَدِّقوني بذلكَ، ولَئِنِ اعترَفْتُ لكم بأمرٍ، واللهُ يَعلَمُ أني منه بَريئةٌ - لَتُصَدِقُني، والله ما أجِدُ لكم مَثَلاً إلاّ قولَ أبي يوسُفَ، قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف:١٨]، قالت: ثم تَحَوَّلْتُ فاضْطَجَعْتُ على فِراشي، قالت: وأنا حينئذٍ أعلَمُ أني بَريئةٌ، وأنَّ اللهَ مُبَرِّئي ببَراءَتي، ولكنْ والله ما كنتُ أظنُّ أنَّ اللهَ مُنزِلٌ في

شأني وحْياً يُتْلَى، ولَشأني في نَفْسي كان أحقَرَ من أنْ يتكلَّمَ اللهُ فيَّ بأمرٍ يُتْلَى، ولكنْ كنتُ أرجو أنْ يَرَى رسولُ الله ﷺ في النَّومِ رُؤْيا يُبَرِّئُني اللهُ بها.

قالت: فوالله ما رامَ رسولُ الله ﷺ ، ولا خَرَج أحدٌ من أهلِ البيتِ، حتَّى أُنزِلَ عليه، فأخَذَه ما كان يَأْخُذُه منَ البُرَحاءِ، حتى إنَّه لَيَتَحدَّرُ منه مِثْلُ الجُمانِ مِنَ العَرَقِ وهو في يومٍ شاتٍ، من ثِقَلِ القولِ الذي يُنزَلُ عليه، قالت: فلمَّا سُرِّيَ عن رسولِ الله ﷺ ، سُرِّيَ عنه وهو يَضْحَكُ، فكانت أوَّلَ كَلِمةٍ تكلَّمَ بها: «يا عائشةُ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فقد بَرَّأَكِ». فقالت أمي: قومي إليه، قالت: فقلتُ: والله، لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُ إلاَّ اللهَ عزَّ وجلَّ، وأنزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور:١١-٢٠]، العَشْرَ الآياتِ كلَّها.

فلمَّا أنزَلَ اللهُ هذا في بَراءَتي، قال أبو بكرٍ الصديقُ ﷺ ، وكان يُنْفِقُ على مِسْطَحِ بنِ أثاثةَ لقَرابَتِه منه وفَقْرِه: والله لا أُنفِقُ على مِسْطَحٍ شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشةَ ما قال، فأنزَلَ اللهُ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور:٢٢]، قال أبو بكرٍ: بَلَى والله، إني أُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لي، فرَجَعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفَقةَ التي كان يُنْفِقُ عليه، وقال: والله لا أنزِعُها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسولُ الله ﷺ يَسْأَلُ زَينَبَ ابنةَ جَحْشٍ عن أمري، فقال: «يا زَينَبُ ماذا عَلِمْتِ، أو رأيت؟» فقالت: يا رسولَ الله، أَحْمِي سَمْعي وبَصَري، ما عَلِمْتُ إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تُساميني من أزواجِ رسولِ الله ﷺ ، فعَصَمَها اللهُ بالوَرَعِ، وطَفِقَتْ أُختُها حَمْنةُ تحارِبُ لها، فهَلَكتْ فيمَن هَلَكَ من أصحاب الإفكِ [البخاري: ٤٧٥٠].

وروى البخاريُّ عن هشامِ بنِ عُرْوةَ، قال أخبرني أبي، عن عائشةَ، قالت: لَمَّا ذُكِرَ من شأني الذي ذُكِر، وما عَلِمْتُ به، قامَ رسولُ الله ﷺ فيَّ خطيباً، فتَشَهَّدَ فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه بما

هو أهلُه، ثم قال: «أمَّا بعدُ، أشيروا عليَّ في أُناسٍ أَبَنُوا أهلي، وايْمُ الله، ما علِمْتُ على أهلي من سوءٍ، وأبَنُوهم بمَن؟ والله ما عَلِمْت عليه من سوءٍ قَطُّ، ولا يَدخُلُ بيتي قَطُّ إلا وأنا حاضِرٌ، ولا غِبْتُ في سفرٍ إلا غابَ معي».

فقامَ سعدُ بنُ معاذٍ فقال: ائْذن لي يا رسولَ الله أنْ نَضْرِبَ أعناقَهُمْ، وقام رجلٌ من بني الخَزرَج -وكانت أمُّ حسَّانَ بنِ ثابتٍ من رَهْطِ ذلكَ الرَّجلِ- فقال: كَذَبْتَ، أما والله أنْ لو كانوا مِنَ الأوسِ ما أحبَبْتَ أنْ تُضْرَبَ أعناقُهُمْ، حتى كادَ أنْ يكونَ بينَ الأوسِ والخَزْرَجِ شَرٌّ في المسجدِ، وما عَلِمْتُ، فلما كان مساءُ ذلكَ اليوم، خَرَجْتُ لبعضِ حاجَتي، ومعي أمُّ مِسْطَحٍ، فعثَرَتْ، وقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فقلتُ: أي: أمِّ، تَسُبِّينَ ابنَكِ؟! وسَكَتَتْ، ثم عَثَرَتِ الثانيةَ، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فقلتُ لها: تَسُبِّينَ ابنَكِ؟ ثم عَثَرَتِ الثالثةَ، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فانتَهَرْتُها، فقالت: والله ما أسُبُّه إلاّ فيكِ، فقلتُ: في أيِّ شأني؟ قالت: فَبَقَرتْ لي الحديثَ، فقلتُ: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله، فرَجَعْتُ إلى بيتي كأنَّ الذي خَرَجْتُ له لا أجِدُ منه قليلاً ولا كثيراً.

ووُعِكْتُ، فقلتُ لرسولِ الله ﷺ: أرسِلْني إلى بيتِ أبي، فأرسَلَ معيَ الغلام، فدَخَلْتُ الدارَ، فوَجَدْتُ أُمَّ رُومانَ في السُّفْلِ، وأبا بكرٍ فوقَ البيتِ يَقرَأُ، فقالت أُمي: ما جاءَ بكِ يا بُنيَّةُ؟ فأخبَرْتُها، وذَكَرْتُ لها الحديثَ، وإذا هو لم يَبلُغْ منها مِثلَما بَلَغَ مني، فقالت: يا بُنيَّةُ، خَفِّضي عليكِ الشَّأْنَ، فإنَّه والله لَقَلَّما كانتِ امرأةٌ حَسْناءُ عندَ رجلٍ يُحِبُّها، لها ضَرائرُ، إلاَّ حَسَدْنَها، وقيلَ فيها، وإذا هو لم يَبلُغْ منها ما بَلَغَ مني، قلتُ: وقد عَلِمَ به أبي؟ قالت: نعم، قلتُ: ورسولُ الله ﷺ؟ قالت: نعم، ورسولُ الله ﷺ، واستَعْبَرْتُ وبَكَيتُ، فسَمِعَ أبو بكرٍ صوتي وهو فوقَ البيتِ يَقرَأُ، فنزَلَ، فقال لأمي: ما شأنُها؟ قالت: بَلَغَها الذي ذُكِرَ من شأنِها، ففاضَتْ عَيناهُ، قال: أقسَمْتُ عليكِ أيْ بُنيَّةُ، إلاَّ رَجَعْتِ إلى بيتِكِ، فرَجَعْتُ.

ولقد جاءَ رسول الله ﷺ بيتي، فسألَ عنِّي خادِمَتي، فقالت: لا والله، ما عَلِمْتُ عليها عيباً، إلاَّ أنَّها كانت تَرْقُدُ حتَّى تَدْخُلَ الشاةُ فتأْكُلَ خَميرَها أو عَجينَها، وانتَهَرَها بعضُ أصحابه، فقال: اصْدُقي رسولَ الله ﷺ، حتَّى أسقَطوا لها به، فقالت: سبحانَ الله! والله ما عَلِمْتُ عليها إلاّ ما يَعلَمُ الصائغُ على تِبْرِ الذَّهَبِ الأحمَرِ. وبَلَغَ الأمرُ إلى ذلكَ الرجلِ الذي قيلَ له، فقال: سبحانَ الله، والله ما كَشَفْتُ كَنَفَ أُنْثَى قَطُّ، قالت عائشة: فقُتِلَ شهيداً في سبيل الله.

قالت: وأصبَحَ أبوايَ عندي، فلم يَزالا حتَّى دَخَلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ، وقد صَلَّى العَصْرَ، ثمَّ دَخَلَ وقد اكتَنَفَني أبوايَ عن يميني وعن شِمالي، فحمِدَ اللهَ وأثنَى عليه، ثمَّ قال:

«أمَّا بعدُ يا عائشةُ، إنْ كنتِ قارَفْتِ سوءاً أو ظَلَمْتِ، فتوبي إلى الله فإنَّ اللهَ يقبَلُ التوبةَ من عِبادِه». قالت: وقد جاءَتِ امرأةٌ مِنَ الأنصار، فهي جالسةٌ بالباب، فقلت: ألا تَستَحي من هذه المرأةِ أنْ تَذكُرَ شيئاً؟ فوَعَظَ رسولُ الله ﷺ ، فالتَفَتُّ إلى أبي، فقلتُ: أَجِبْه. قال: فماذا أقولُ؟ فالتَفَتُّ إلى أُمِّي، فقلتُ: أجيبيه. فقالت: أقولُ ماذا؟

فلمَّا لم يُجيباه، تَشَهَّدْتُ فحَمِدْتُ اللهَ وأثْنَيتُ عليه بما هو أهلُه، ثم قلتُ: أما بعدُ، فوالله لَئِنْ قلتُ لكم: إني لم أفعَلْ -واللهُ عزَّ وجلَّ يَشهَدُ إني لصادِقةٌ- ما ذاكَ بنافعي عندَكُم، لقد تَكلَّمْتُم به، وأُشْرِبَتْه قلوبُكُم، وإنْ قلتُ: إني فعلتُ -واللهُ يعلَمُ أني لم أفعَلْ -لَتقولُنَّ: قد باءَتْ به على نَفْسِها، وإني والله ما أجِدُ لي ولَكم مَثَلاً -والتَمَسْتُ اسمَ يعقوبَ فلم أقدِرْ عليه - إلا أبا يوسفَ حينَ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف:١٨]، وأُنزِلَ على رسولِ الله ﷺ من ساعَتِه، فسَكَتْنا، فرُفِعَ عنه، وإني لأتَبَيَّنُ السُّرورَ في وجهِه، وهو يَمسَحُ جَبينَه، ويقولُ: «أبشِري يا عائشةُ، فقد أنزَلَ اللهُ بَراءَتَكِ» قالت: وكنتُ أشدَّ ما كنتُ غَضَباً، فقال لي أبوايَ: قومي إليه، فقلتُ: والله لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُه، ولا أحمَدُكُما، ولكنْ أحمدُ اللهَ الذي أنزَلَ بَراءَتي، لقد سمعتُموه فما أنكَرْتُموه، ولا غَيَّرْتُموه.

وكانت عائشةُ تقولُ: أما زينَبُ ابنةُ جَحْش، فعصَمها اللهُ بدينِها، فلم تَقُلْ إلا خيراً، وأما أُختُها حَمْنةُ فهَلَكَتْ فيمَن هَلَكَ، وكان الذي يَتكلَّمُ فيه مِسْطَحٌ، وحسَّانُ بن ثابتٍ والمنافقُ عبدُالله بن أُبَيٍّ، وهو الذي كان يَسْتَوشِيهِ ويَجمَعُه، وهو الذي تَوَلَّى كِبْرَه منهم، هو وحَمْنةُ، قالت: فحَلَفَ أبو بكرٍ أن لا يَنْفَعَ مِسْطَحاً بنافعةٍ أبداً، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ إلى آخرِ الآيةِ، يعني: أبا بكر ﴿وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ يعني: مِسْطَحاً، إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ حتى قال أبو بكرٍ: بَلَى والله يا رَبَّنا، إنّا لَنُحِبُّ أنْ تَغفِرَ لنا؛ وعادَ له بما كان يَصْنَعُ [البخاري: ٤٧٥٧. قال ابن كثير بعد إيراده لهذا الحديث (٤/ ٥١٨): هكذا رواه البخاري من هذا الوجه بصيغة الجزم، عن أبي أسامة حماد بن أسامة أحد الأئمة الثقات، وقد روه ابن جرير في تفسيره عن سفيان بن وكيع به مطولاً مثله أو نحوه ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشجّ عن أبي أسامة ببعضه].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النور

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٞ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٞ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٕٖ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ

ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور:١١-٢٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- حالُ الذين جاؤوا بالإفك:

أعلم اللهُ -تعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ أن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور:١١].

والإفك: أسوأ الكذب وأقبحه وأعظمه، وهو مأخوذ من أَفَكَ الشيءَ إذا قلبه عن وجهه، وعصبة منكم: جماعة منكم، وهم عبدُالله بن أُبيّ رأسُ المنافقين، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أُثاثة، وحمنة بنت جحش، ومعنى كبره: معظمه، وهو عبدالله بن أبي.

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ أي: خير لمن أصابهم، وهم عائشة رضي الله عنها، فقد أنزل اللهُ تبارك وتعالى براءَتها وحياً مِنَ السماءِ، وأصبح ذلك مِنْ فضائلها التي تفخر بها، هذا بالإضافة إلى الأجر العظيم الذي أُجرت به، ومن الخيرية ما أجر به الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق وزوجته أم عائشة.

وبيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ لكل واحد من العصبة ما اكتسبه من الإثم، فقد أمر رسولُ الله ﷺ بجلد حسّان، ومسطح، وحمنة، ويبدو أن عبدالله بن أُبي كان أذكى من أنْ يثبت القذف على نفسه، فنجا من الجلد.

وقد اعتذر حسَّان عما قاله في عائشة، ومدحها وأثنى عليها بعد ذلك، ومن ذلك قوله:

حَصَانٌ رَزان ما تُزَنُّ بِرِيْبَةٍ وتُصْبحُ غَرْثَى مِنْ لُحومِ الغَوافِلِ

وقال حسانُ أيضاً معتذراً إلى عائشة رضي الله تعالى عنها:

حَصَانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بِريبَةٍ وتُصْبِحُ غَرْثَى مِن لُحُومِ الغَوافِلِ
عَقيلةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بنِ غالِبٍ كِرامِ المَساعِي مَجْدُهُمْ غيرُ زائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ الله خِيمَها وطَهَّرَها مِنْ كُلِّ سوءٍ وبَاطِلِ
فإن كُنتُ قد قلتُ الذي قد زَعُمتُموا فَلا رَفَعَتْ سَوطِي إليَّ أنامِلي
وكيفَ وَوُدِّي ما حَييتُ ونُصْرَتي لآلِ رسول الله زيْنِ المَحافِلِ
لَهُ رَتَبٌ عالٍ على الناسِ كُلِّهِمْ تَقاصَرُ عَنْهُ سَورَةُ المُتَطاوِلِ
فإنَّ الذي قد قيل لَيْسَ بلائِطٍ ولكنّهُ قَوْلُ امْرِئٍ بِي ماحِلِ

وقد كان حسان يدخل بعد ذلك على عائشة، فتحسن استقباله، وتعتذر له بأنَّه أصابه عذابٌ عظيمٌ وهو العمى، وأنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ بشعره، روى البخاري عن مَسروقٍ، قال: دَخَلَ حسَّانُ بنُ ثابتٍ على عائشةَ، فشَبَّبَ، وقال:

حَصَانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بِرِيْبَةٍ وتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوافِلِ

قالت: لستَ كذاكَ، قلتُ: تَدَعينَ مِثلَ هذا يَدخُل عليكِ؟ وقد أنزَلَ اللهُ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النور:١١]، فقالت: وأيُّ عذابٍ أشدُّ مِنَ العَمَى؟ وقالت: وقد كان يَرُدُّ عن رسولِ الله ﷺ [البخاري: ٤٧٥٦].

٢- تأديبُ الله تعالى صحابةَ رسولِهِ أن يظنوا بأنفسهم خيراً:

حَضَّ الله تعالى صحابةَ رسولِهِ ﷺ أن يظنوا بأنفسهم خيراً إذا سمعوا عن إخوانهم أو أخواتهم مثل هذا الخبر الذي رميت به عائشة ويقولوا: هذا كذب ظاهر ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور:١٢]، وهذا ما وقع من أبي أيوب الأنصاريِّ وزوجته أمِّ أيوب، فقد كذَّبوا الخبر، وقال أبو أيوب لأمِّ أيوب: أكنت تفعلينه؟ فقالت: لا، فقال: فعائشة خير منك [عزاه الشيخ شعيب الأرنؤوط إلى الطبري (١٧/ ٢١٢) في تحقيقه لابن كثير (٦/ ٢٦) وعزاه ابن كثير لمحمد بن إسحاق].

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: قالوا بألسنتهم: هذا كذب بيِّن ظاهر لا يخفى، إذ لو وقع مِنْ عائشة ريبةٌ تُؤاخَذُ بها لما جاءَت في وضح النهار راكبةً على جملٍ، يقود بها الذي فعل الريبة، ولجاءَت على خلاف هذا الحال.

٣- **يجبُ أن يأتي الذي يقولُ مثل هذا المقال بأربعة شهداء:**

بَيَّن اللهُ -تعالى- على من يقول مثل هذا المقال الذي رميت به عائشة بأربعة شهداء يشهدون برؤيتهم هذا الفعل مِمَّن رُمِيَ به، فإن لم يأتوا بالشهداءِ فهؤلاءِ في حكم الله هم الكاذبون ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور:١٣].

وهذه الآية تقطع اللجاجة في هذه المسألة في المجتمع الإسلامي، وتنهي مقالة السوء، فإنْ جاءَ منْ يقول هذه المقالة بأربعة شهداء، أقيم الحدُّ على المقذوف، وإن لم يأتِ بأربعة شهداء، أقيم الحدُّ على القاذف.

٤- **لولا فضلُ الله على صحابة رسوله ورحمته لمسهم فيما أفاضوا فيه عذابٌ عظيم:**

خاطبَ اللهُ تعالى صحابة رسوله ﷺ مبيناً لهم أنَّه لولا فضله عليهم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسَّهم فيما أفاضوا فيه عذاب أليم ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النور:١٤].

خاطبَ اللهُ -تعالى- في هذه الآية الخائضين مِنَ المؤمنين وهم حسَّان ومسطح وحمنة، ولا يدخل فيها عبدالله بن أُبَيّ، فإنَّه كان منافقاً غير مؤمن، فمن فضل الله تعالى على هؤلاء المؤمنين الذين خاضوا في الإفك أنْ رحمهم وقَبِلَ توبتهم.

وقد لام اللهُ تعالى هؤلاء عندما كانوا يتلقونه بألسنتهم، أي: يرويه بعضهم عن بعض، من غير تمحيص ولا تدقيق ولا رويَّة، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [النور:١٥] أي: يقولون بأفواههم في عائشة قولاً لا علم لهم به، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ أي: تقولون في شأن أمِّ المؤمنين زوج الرسولِ ﷺ بنتِ أبي بكر قولاً تظنونه سهلاً هيناً، لا يُؤْبَهُ به، وهو عند الله عظيم.

روى البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكلمةِ مِنْ سَخَطِ الله لا يُلْقِيْ لَهَا بالاً يَهْوِيْ بها في جهنَّم» [البخاري: ٦٤٧٨. ومسلم: ٢٩٨٨].

٥- **الواجب على المؤمن عندما يسمع بمثل هذا الخبر:**

بَيَّنَ اللهُ -تعالى- للمؤمنين الواجبَ عليهم إذا سمعوا بمثل هذا الخبر فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور:١٦-١٨].

يقول اللهُ تعالى للمؤمنين: هلاَّ إذا سمعتم هذا القول المفترى المكذوب، قلتم: ليس لنا أنْ نتكلم بهذا القول، سبحانك يا ربنا، أي: نسبحك ونعظمك، وهي كلمة تقال عند سماعِ الأمر الذي يُدْهِشُ الإنسان، ويتعجب منه، وقوله: ﴿ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ والبهتانُ القولُ المختلقُ الذي لا يوجد فيمن رُمِيَ به، وقوله تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي: يحذركم ربكم أن ترجعوا لمثل هذا القول مرة أخرى إن كنتم مؤمنين، فإنَّه قولٌ سَيِّئٌ قبيح.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي: إن كان عندكم إيمان فلا تقولوا مثل هذا القول مرة أخرى. ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ أي: أنَّ الله عزَّ وجلَّ يظهر لكم الآيات ويوضحها لكم، حتى تكونوا على علم مما يقع فيكم، ويجري بينكم، والله عليم حكيم، أي: عليم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

٦- عظمُ جرمِ الذين يحبونَ إشاعةَ الفاحشةِ في المجمعِ الإسلامي:

ذمَّ اللهُ تعالى فريقاً من الناس في المجتمع الإسلامي لهم وجودٌ ظاهرٌ دائماً وأبداً يحبون أن تشيع فاحشة الزنا في ذلك المجتمع، وهؤلاء كثيرون اليوم، يرمون الناس بالظنِّ، ويلطِّخونَ أعراضَ الناس بالقاذورات، وقد وضع اللهُ تعالى حدّاً لهؤلاء الناس بما شرعه في هذه الآيات ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النور:١٩].

وإشاعة الفاحشة: نشرها من غير علم ولا بينة، والمراد بالفاحشة هنا الزنا وما أشبهه من اللواط، وقوله: ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: في المجتمع الإسلامي، والعذاب الأليم الدنيوي: جلد القاذف الذي ثبت أنَّه قذف من غير أن يأتي بأربعة شهداء، وعذاب الآخرة، عذاب النار ما لم يتب.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ أي: واللهُ تعالى يعلم بالعواقب الوخيمة التي تصيب المقذوف في المجتمع الإسلامي، والتي تصيب المجتمع الإسلامي، فالله تعالى عالم بكلِّ شيءٍ، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وأنتم لا تعلمون.

وجاء في خاتمة آيات هذا النص: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: لولا ما تفضل الله تعالى به عليكم ورحمكم به لأصابكم عذابٌ ألحقه بكم

بسبب ما قلتموه في أم المؤمنين عائشة، فقد تاب اللهُ تعالى على من تاب، ورفع الإثم بالعقوبة التي أنزلها بالقاذفين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- واقعةُ الإفكِ التي رميتْ فيها عائشةُ أمُّ المؤمنين بما رميت به كان فيها خير كثير، فقد نالت عائشة فيها الأجرَ العظيمَ، ونزلت براءَتُها من عند الله وحياً، ونال صفوان الذي رمي بها ورسولنا ﷺ وأبوها وأمها أجراً عظيماً، وعرفت الأُمَّة الإسلامية كيف التصرفَ في مقبل الأيام إذا وقع مثل هذا الحكم.

٢- أدَّب اللهُ تعالى المؤمنين كيف يتصرفون في حال وقوع مثل هذا البلاء، فكان الواجب على كلِّ واحدٍ منهم أن يظنَّ بنفسه أنَّه لا يمكنُ أن يصدر منه مثل هذا التصرف المشين.

٣- الذي يقذف غيره بالزنا، ثم لا يأْتي بأربعةِ شهود، فهذا كاذب، يحدُّ حدَّ القاذف.

٤- تلقي خبر القذف من غير دليل ولا برهان ولا بينة ضلال وباطل.

٥- كان يجب على كل مَنْ سمع بمثل هذا الخبر أن يقول: هذا بهتان وكذب.

٦- هدَّدَ اللهُ -تعالى- الذين يحبون الفاحشة في المجتمع الإسلامي بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

النص القرآني الثالث من سورة النور
نهي الله تعالى المؤمنين جميعاً عن اتباع خطوات الشيطان

أولاً: تقديم

ذكر اللهُ تعالى في آيات هذا النص ثلاث قضايا:

الأولى: نهى سبحانه عن اتباع خطوات الشيطان، وهي وساوسه ونزغاته وأوامره، فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر.

الثانية: نهى الله تعالى أصحابَ الفضلِ والسعةِ عن أن يمتنعوا عن الإنفاق على أقاربهم المساكين المهاجرين في سبيل الله بسبب ما أصابهم منهم من سوء.

الثالثة: بيان اللعنةِ والعقوبةِ الشديدةِ التي تصيب الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات في الدنيا والآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النور

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٢٦ ﴾ [النور: ٢١-٢٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهيُ الله تعالى المؤمنين عن اتباعِ خطوات الشيطان:

نَهى الله تعالى عباده المؤمنين جميعاً عن اتباع خطوات الشيطان فقال: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١ ﴾ [النور: ٢١].

وأصل الخطوة ما بين القدمين في المشي، وخطوات الشيطان التي نهى اللهُ تعالى عنها نزغاته ووساوسه وما يأمر به، وينهى عنه، فهو يأمر بكل شرٍّ، وينهى عن كلِّ خير، وقد بيَّن ربُّ العزة أنَّ الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ والفحشاء ما فحش وعظم من الذنوب والمعاصي، والمنكر ما أنكره الشرع وحَرَّمه، وبيَّن اللهُ تعالى لنا لولا فضله علينا ورحمته بنا ما زكى منا أحدٌ أبداً، أي لولا ما أكرمنا به مِنَ التوبة والرجوع إليه، ولولا تزكيته لنفوسنا بالإيمان والعمل الصالح، وتطهيرها من الأدناس والقاذورات والأخلاق السيئة الرديئة، لما طهرت نفوسنا، فالله تعالى هو الذي يزكي النفوس ويباركها ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، ﴿عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ أي: بهم وبأعمالهم وتصرفاتهم.

٢- نهيُ الله تعالى عباده عن الامتناعِ عن فعل الخير:

نهى الله -تعالى- أصحابَ الفضل من المؤمنين عن الحلف عن بذل الخير للأقارب والمساكين والمهاجرين في سبيل، وحبب إليهم العفو والصفح بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وأولو الفضل أصحاب الغنى والثراء، ولا يأتل، أي: لا يحلف، وهذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق، وقد كان ينفق على ابنِ بنت خالته مسطح بن أُثاثة، فلما قال في عائشةَ ما قال أقسم أن لا ينفقَ عليه، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية، فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحبُّ أن يغفر اللهُ لي، والله لا أنزعها منه أبداً، وقد كان مسطح من ذوي قرابة أبي بكر، وكان من مساكين المهاجرين في سبيل الله، وحديث أبي بكر مع مسطح رواه البخاري وأوردته قريباً في التقدمة لهذه الآيات.

٣- عظم جرم الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات:

بَيَّنَ اللهُ تعالى عظم جرم الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور:٢٣].

بَيَّن اللهُ -تعالى- أنَّ الذين يرمون النساءَ المحصنات العفيفات الغافلات عن الفسقِ والفجور المؤمنات يلعنهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، وذلك بطرد الله لهم من رحمته، وإيقاع العقوبة بهم في الدنيا بجلدهم وعدم قبول شهادتهم، ووصمهم بوصمة الفسق، وبالآخرة بعذاب النار، هذا إذا لم يتوبوا، فإنْ تابوا حقّاً تاب اللهُ عليهم.

وأخبرَ ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- أنَّه في يوم القيامة تشهد على هؤلاء القاذفين غير التائبين ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملونه ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور:٢٤-٢٥].

أخبرَ ربُّ العزة -سبحانه وتعالى- أنَّه تشهد عليهم ألسنتُهُمْ وأيديهم وأرْجُلُهُمْ بما كانوا يقترفونه من الذنوبِ والمعاصي، ومِنْ ذلك قذفُهُمْ المحصناتِ الغافلات المؤمنات، وأخبرَ ربُّ العزةِ سبحانه وتعالى أنَّه سبحانه يوفي هؤلاء الذين يرمون المحصنات دينهم، أي: يوفيهم حسابهم الحقَّ، ويعلمون أنَّ اللهَ هو الحقّ المبين.

وقد حدثنا رسولنا ﷺ عن خَتْمِ الربِّ على أفواه العباد وإنطاق جوارحهم عليهم، فعن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يلقى الربُّ العبدَ، فيقول: أي: فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وأُسوِّدْكَ، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ والإبِلَ، وأذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقولُ: بَلَى. قال فيقولُ: أفظنَنْتَ أنكَ مُلاقِيَّ؟ فيقول: لا. فيقولُ: فإني أنْساكَ كما نسيتَني. ثم يَلْقَى الثاني فيقولُ: أي فُلْ! ألمْ أُكْرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ، وأُزَوِّجْكَ، وأُسخِّرْ لكَ الخيلَ والإبلَ، وأذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقولُ: بلى. أي رَبِّ! فيقولُ: أفظننتَ أنكَ ملاقِيّ؟ فيقولُ: لا. فيقولُ: فإني أنْساكَ كما نسيتني. ثم يلقى الثالث فيقولُ له مثل ذلك. فيقولُ: يا ربِّ! آمنتُ بك وبكِتابِكَ وبرُسُلِكَ وصلَّيْتُ وصُمْتُ وتصدَّقْتُ. ويُثني بخيرٍ ما استطاعَ. فيقولُ: ههنا إذاً.

قال ثم يقال له: الآنَ نبعثُ شاهِدنا عليكَ، ويتفكَّرُ في نفسِهِ: من ذا الذي يَشْهَدُ عليَّ؟ فيُخْتَمُ على فِيهِ، ويقالُ لفخذِهِ ولحمِهِ وعظامِهِ: انْطِقي، فتنطقُ فخذُهُ ولحمُهُ وعظامُهُ بعملِهِ، وذلك ليُعذِرَ مِن نفسِهِ، وذلك المنافقُ. وذلك الذي يسخطُ الله عليه» [مسلم: ٢٩٦٨].

وعن أنسِ بنِ مالك قال: كنّا عندَ رسولِ الله ﷺ فضحكَ، فقال: «هل تدرونَ مما أضحكُ؟» قال: قلنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: «من مخاطبة العبدِ ربَّه، يقول: يا ربِّ! ألَمْ تُجِرْني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال فيقولُ: فإني لا أُجيزُ على نفسي إلا شاهداً مني، قال فيقولُ: كفى بنفْسِكَ اليومَ عليكَ شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال فيُخْتَمُ على فِيهِ، فيقالُ لأرْكانِهِ: انطِقي، قال فتنطقُ بأعماله، قال: ثم يُخَلَّى بَيْنَهُ وبين الكلام، قال فيقولُ: بُعْداً لَكُنَّ وسُحقاً، فعَنْكُنَّ كنتُ أُناضلُ [مسلم: ١٩٦٩].

وخاتمة هذا النص قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور:٢٦].

قرَّرَ ربُّ العزةِ في هذه الآيةِ أن الخبيثات مِنَ النساء للخبيثين من الرجالِ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون مِنَ الرجال للطيبات من النساء، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: بعداءُ عما يقوله أهل الإفك ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ أي: لهم مغفرة بسبب ما قيل فيهم من الكذب، ولهم رزق كريم في جنات النعيم.

وبناءً على هذه القاعدة فإنَّ الرسولَ ﷺ أطيب الناس، فلا بدَّ أن تكون عائشة طيبة، وإلا كيف تقرُّ لها نفس الرسول ﷺ وتأنس بها!! وقد ورد في الصحيح أنَّه كان يؤتى بعائشة في الرؤيا في سرقة مِنْ حريرٍ، ويقال: هذه زوجتك، فيكشف عنها، فإذا هي عائشة، ورؤيا الأنبياء وحي، فلو كانت عائشة خبيثة، فكيف يختارها اللهُ تعالى لرسوله ﷺ .

ولا تزال طائفة خبيثة ترمي عائشة إلى اليوم بالإفك، وتلاحقها بالذمِّ، وهؤلاء أخبث الناس، وأعظمهم جرماً، فقد كذبوا الله تعالى فيما أنزله في براءَتها، فلا يقف جرمهم عند حدِّ رمي عائشة بالزنا، بل تعداه إلى تكذيب الله فيما أنزله، قاتلهم اللهُ أنَّى يؤفكون.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- على العباد المؤمنين أن يحذروا مِنَ الوقوع في حبائل الشيطان ونزغاته ووساوسه، فإنَّ الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر.

٢- إذا وقعتْ إساءَة من عبد صالحٍ إليك، فعليك أن تتأنَّى به وتغفر، فإن ذلك موجب لعفو الله ومغفرته.

٣- عِظَمُ جريمةِ الذين يرمون المحصناتِ الغافلاتِ المؤمنات، فهؤلاء يلعنهم اللهُ في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب أليم، وعندما ينكرون ما صدر منهم يوم القيامة، تنطق عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما وقع منهم.

٤- الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وعلى ذلك فعائشة من الطيبات، لأنها زوجة الرسول ﷺ ، وهي مبرأة مما قاله أهل الإفك فيها.

النص القرآني الرابع من سورة النور
الاستئذان في دخول المنازل والبيوت

أولاً: تقديم

هذه الآيات توجب على المؤمنين الاستئذان قبلَ دخولِ بيوت الآخرين، وإذا وجدنا البيوت خالية، فلا يجوزُ الهجومُ على دخولها قبل إذن أصحابها، وأجازت لنا الآيات دخول البيوت غير المسكونة التي فيها متاعٌ لنا كالفنادق والمطاعم والمتاجر والأسواق المعدَّة لدخول الناس منْ غير إذن.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النور

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور:٢٧-٢٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عدمُ جوازِ دخولِ بيوت الآخرينَ إلا بعد الاستئذان مِنْ أصحابها:

نادَى اللهُ -تعالى- عبادَه المؤمنين ناهياً إياهُمْ عن دخولِ بيوتِ غيرهم حتى يستأْنسوا ويسلموا على أهلها، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النور:٢٧].

والبيوت التي لنا هي البيوت التي نتفرد بسكناها، أو نُسْكِنُ فيها أزواجَنا وأولادنا، والاستئناس يحصل بالاستئذان، وصورة الاستئذان أن يسلِّم على أهل الدار، ثم يقول: أأدخل، وكان أهل الجاهلية يدخلون على أهلِ دورِ غيرهم من غير استئذان. وقد كان الرسولُ ﷺ يأْتي بيوتَ أصحابه، فيسلم ثلاثاً، فإنْ أُذنِ له، وإلاَّ رجع.

فعن أنسٍ أن رسولَ الله ﷺ استأذن على سعدِ بن عبادةِ، فقالَ: «السلامُ عليكم ورحمةُ الله»، فقال سعدٌ: وعَلَيْكَ السلامُ ورحمةُ الله، لم يُسْمِعِ النبيَّ حتى سَلَّمَ ثلاثاً، ورَدَّ عليه سعدٌ ثلاثاً، ولم يُسْمِعْهُ، فرجَعَ النبيُّ، واتبعَهُ سَعْدٌ، فقالَ: بأَبي وأُمِّي، ما سلَّمْتَ تَسْليمةً إلا وهي

بأُذني، ولقد رَدَدَّتُ عليْكَ، ولم أُسْمِعْكَ، وأَرَدْتُ أنْ أَسْتَكْثِرَ من كَلاَمِكَ ومِنَ البركةِ، ثم أدْخَلَهُ البيتَ، فقَرَّبَ إليه زَبيباً، فأكلَ نبيُّ الله ﷺ ، فلما فَرَغَ قال: «أكَلَ طعامَكُمْ الأَبْرارُ، وصَلَّتْ عليكم الملائكةُ، وأفْطَرَ عِنْدَكُم الصائمون» [عزاه الشيخ شعيبُ الأرنؤوط في تخريجه لابن كثير: (٦/ ٣٤) لأحمد في المسند (١٢٤٠٦)، وقال إسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٥٧٥)].

وعن أبي سعيد الخدريِّ قال: كنتُ في مجلسٍ من مجالسِ الأنصارِ، إذْ جاءَ أبو موسى كأنَّه مذْعورٌ، فقال: استأْذَنتُ على عمرَ ثلاثاً، فلم يُؤذَنْ لي فرَجَعْتُ، فقال: ما مَنَعَكَ؟ قلتُ: استأْذَنتُ ثلاثاً فلم يُؤذَن لي فرَجَعْتُ، وقال رسولُ الله ﷺ : «إذا استأْذَنَ أحدُكم ثلاثاً، فلم يُؤذَنْ له فلْيَرجِعْ» فقال: والله لتُقيمَنَّ عليه ببَيِّنةٍ، أمِنكُم أحدٌ سَمِعَه مِنَ النبيِّ ﷺ ؟ فقال أُبيُّ ابنُ كَعْبٍ: والله لا يَقُومُ مَعَكَ إلاَّ أصغَرُ القومِ، فكنتُ أصغَرَ القومِ، فقُمْتُ معه فأخبَرْتُ عمرَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال ذلك [البخاري: ٦٢٤٥ ومسلم: ٢١٥٣].

وقد شَدَّدَ رسولُ الله ﷺ في النظر في بيوت الآخرين من غيرِ اسْتِئذان، فعن أبي هريرةَ قال: قالَ أبو القاسم ﷺ : «لو أنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بغيرِ إذن، فحَذَفْتَهُ بعَصاةٍ، فَفَقَأْت عَيْنَهُ، لم يَكُنْ عليكَ جُناحٌ» [البخاري: ٦٩٠٢. ومسلم: ٢١٥٨].

ومِنَ الاستئذانِ أنَّه إذا طلبَ أصحابُ الدارِ التعرُّف على الطارقِ أن يصرح باسمه، فيقولُ: أنا فلانُ بنُ فلان فعن جابرٍ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ في دينٍ كانَ على أبي، فدَقَقْتُ البابَ، فقال: «مَنْ ذا». فقلتُ: أنا، فقالَ: «أنا أنا»!! كأنَّه كرهها [البخاري: ٦٢٥٠. ومسلم: ٢١٥٥].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: الاستئذانُ خير لكم من عدمه وتركه، لأن بيوت الآخرين لها حرمتها، والدخول على بيوت الآخرين من غير إذن قد يطلع الناسَ على ما يكرهون أن يراهم الناس عليه.

٢- لا يجوز دخول بيوت الآخرين إنْ خلت من أصحابها حتى يأْذنوا:

إذا وجدنا بيوتَ الذين نستأذنُ عليهم خالية من أصحابِها، فلا يجوز أن ندخلها حتى يأْذنوا لنا بدخولها ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور:٢٨].

وقد بيَّنَ شطر الآية الثاني أنه إذا استأْذنا، فلم يُؤْذَنْ لنا، وطُلِبَ منا أنْ نَرجِعَ، فعلينا أنْ نرجع، فقد يكون أصحاب المنزل في حال يصعب عليهم أنْ يأْذنوا لغيرهم بدخول بيوتهم.

وقوله: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: هو أطيب لكم، فقد يُؤذنُ لكم بالدخولِ، فلا تجدون صدراً رحباً، ولا يستطيع مَنْ أذن لكم أنْ يكرموكم. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي: واللهُ -تعالى- عالم بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء، فراقبوه.

٣- لا جناح علينا أنْ ندخل بيوتاً غير مسكونة فيها متاعٌ لنا:

أباحَ اللهُ تعالى لنا أنْ ندخلَ بيوتاً غير مسكونةٍ فيها متاعٌ لنا، قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور:٢٩]. وقد كثرت في أيامنا البيوتُ غير المسكونة التي فيها متاع لنا، فمن ذلك المطاعم التي يقصدها الناس لتناول الطعام بأجرٍ، ومن ذلك الفنادق التي يحط فيها المسافرون رحالهم في أسفارهم، ومن ذلك الأسواق والمتاجر التي يقصدُها أصحابُ الحاجات لشراءِ حاجاتِهِمْ، ومن ذلك المنتديات الاجتماعية والرياضية المفتوحة لمن يقصدها. والمتاع: ما يتمتع به من السكنى، والطعام والشراب، ونحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ يعلم ما تظهرونه من أعمال وما تخفونه من نيات ومقاصد.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لا يجوز الهجوم على بيوت الآخرين، ودخولها من غير إذن أصحابها، ويجب الاستئذان قبل دخول منازل الآخرين.

٢- طريقةُ الاستئذان أن يسلم على أهل البيت، ويصرح باسمه عندما يطلب منه.

٣- لا يجوزُ دخولُ المنازلِ الخالية، حتى يأذن لنا أصحابُها بدخولها، وإذا طُلِبَ منا الرجوعُ، ولم يُؤذنْ لنا فعلينا أن نرجع.

٤- يجوز لنا دخول منازل غير مسكونة فيها متاعٌ لنا، كالفنادق والمتاجر والمطاعم ونحوها.

النص القرآني الخامس من سورة النور
أمَرَ اللهُ -تعالى- الرجالَ والنساء أنْ يغضَّ كلٌّ واحدٍ بصرَه عن الآخر

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ تعالى كُلاًّ من المؤمنين والمؤمناتِ أنْ يغضَّ مِنْ بصره عن الطرفِ الآخر، كما أمَرَ كلَّ فريقٍ أن يحفظوا فروجهم إلاَّ عَنْ أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم.

وأمَرَ النساءَ المؤمناتِ أنْ لا يبدين زينتهن إلاّ ما أباحَ الشارعُ النظرَ إليها.

وبَيَّن اللهُ -تعالى- للنساءِ المسلماتِ الجهاتِ التي يحلُّ لهن إظهارُ زينتهنَّ عليها، ونهاهنَّ عن أن يتعمدْن إظهار شيءٍ مِنَ الزينة على غير مَنْ يحلُّ لهنَّ إظهارُها، ونهى أولياءَ الإماء أن يكرهوا فتياتهم على البغاء إن أردن تحصناً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة النور

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

[النور: ٣٠-٣٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يجب على المؤمنين أنْ يغُضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم:

أمَرَ اللهُ تعالى المؤمنين أنْ يغضوا من أبصارهم عما حرَّم عليهم، فلا يباحُ لهم أنْ ينظروا إلا إلى ما أباحَ اللهُ لهم النظرَ إليه، فإنْ قُدِّر لهم أنْ ينظروا إلى ما لا يحلُّ لهم النظر إليه، فلا يحلُّ

لهم أن يُكرروا النظرَ، وعليهم أنْ يصرفوا أبصارهم عمّا لا يحلُّ، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور:٣٠].

ومعنى ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي: يتركوا النظر إلى ما لا يحلُّ لهم النظر إليه، وقوله: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أي: يحفظوا فروجهم عن الزنا واللواط، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: خير لهم عند الله تعالى وأعظم لأجورهم.

وقد جاءت أحاديثُ كثيرة صحيحةٌ تأمر بغضِّ البصر، فمن ذلك ما رواه جَريرُ بن عبدالله البَجَلِيُّ ﷺ، قال: «سألت رَسُولَ الله ﷺ عَنْ نَظَرِ الفجْأَة، فأمَرَني أنْ أصْرِفَ بَصَري» [مسلم: ٢١٥٩].

وقد نَهَى الرسولُ ﷺ عن الجلوسِ على الطرقاتِ، فقالوا: ما لنا بدٌّ، إنما هي مجالسُنا نتَحَدَّث فيها، فأرشَدهم الرسولُ إلى جُمْلَةٍ من الآداب يَجِبُ عليهم الالتزامُ بها، في مقدِّمتِها غضُّ البصرِ [البخاري: ٢٤٦٥. ومسلم: ٢١٢١].

وعن بريدةَ أنّ الرسولَ ﷺ قالَ لعليٍّ: «يا عَلِيُّ، لا تُتْبعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فإنَّ لَكَ الأُولَى، ولَيْسَ لَكَ الآخِرَةُ» [الترمذي: (٢٧٧٧). وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث شريك. ورواه أحمد: (٢٢٩٧٤)].

وعن بَهْزِ بن حكيم قال: حدَّثني أُبيّ عن جَدِّي قال: قلتُ: يا رسولَ الله، عَوْراتُنا، ما نأْتي منها وما نَذَرُ، قال: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إلا مِنْ زَوْجَتِكَ، وما مَلَكَتْ يمينك» [الترمذي: (٢٧٦٩). وقال: هذا حديثٌ حسن، وجدّ بَهْزٍ اسمُه معاويةُ بنُ حَيْدَةَ القُشَيري].

وقوله: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ وحَفْظُ الفروجِ يكونَ بمنعها مِنَ الزِّنا، ويمنعُها من النظرِ إلى ما لا يحلُّ، فإنَّ النظر إلى ما لا يحلُّ بريدُ الزنا، والنظر سهم من سهامِ القلبِ، وقد أثنى اللهُ -تعالى- على الذين يحفظون فروجَهُم عما لا يحلُّ لهم النظرُ إليه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون:٥-٦].

وقد تكفَّل الرسولُ ﷺ لمن حفظَ ما بينَ لَحْيَيْهِ، وما بين رِجْلَيْهِ بالجنّةِ، فعَنْ سهلِ بن سعدٍ، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يَضْمَنُ لي ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ وما بينَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنُ لهُ الجنة» [البخاري: ٦٤٧٤].

وقد حذَّر الرسولُ ﷺ مِنْ قُرْبانِ الزنا بالنظرِ أو النطقِ والتمني، فعن ابنِ عباسٍ، قال: ما رأيتُ شيئاً أشْبَهَ باللَّمَمِ مما قالَ أبو هريرةَ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ كَتَبَ على ابنِ آدمَ حَظَّهُ

من الزنى، أدْرَكَ ذلكَ لا محالةَ، فزنَى العينينِ النظرُ، وزنى اللسانِ النطقُ، والنفسُ تَمَنَّى وتشْتَهي، والفرْجُ يُصَدِّقُ ذلك أو يُكَذِّبُهُ» [مسلم: ٢٦٥٧. والبخاري: ٦٢٤٣].

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «كُتِبَ على ابنِ آدَمَ نصيبُهُ من الزنا. مُدْرِكٌ ذلك لا محالةَ. فالعينانِ زِناهُما النظرُ. والأُذُنانِ زِناهُما الاسْتِماعُ. واللسانُ زِناهُ الكلامُ. واليَدُ زناها البَطْشُ. والرِّجْل زِناها الخُطا. والقلبُ يَهْوَى ويتمنَّى. ويُصدِّقُ ذلكَ الفَرْج ويُكَذِّبُهُ» [مسلم: ٢٦٥٧. والبخاري: ٦٢٤٣].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أطيب لكم، وأطهر لنفوسكم، وهو خير لمجتمعاتكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: خبير بما تصنعونه بأبصاركم، وما تصنعونه بفروجكم، وسيحاسبكم على ما تعملونه.

٢- يجبُ على المؤمناتِ أن يَغْضُضْنَ من أبصارِهنَّ ويحفظن فروجهنَّ:

وكما أمر اللهُ -تعالى- المؤمنينَ أنْ يغضوا مِنْ أبصارِهم ويحفظوا فروجَهُمْ أمَرَ المؤمناتِ أن يَغْضُضْنَ من أبصارِهنَّ، ويحفظنَ فروجهنَّ، فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، وأمَرَهنَّ أن لا يبدينَ زينتهن إلا ما ظهر منها، فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

وقد فسَّرَ كلُّ طائفةٍ مِنَ المفسرين قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بما أجازَ ظهورَه مِنَ الزينة، فالذي حَرَّم ظهورَ الزينةِ كُلِّها، حمل الذي ﴿ظَهَرَ مِنْهَا﴾ على الجمالِ الذي في العباءَة، والذي أجازَ ظهورَ الوجهِ والكفين، على الزينة التي في الوجهِ واليدِ، وعلى الخاتمِ، والكحلِ في العين، ونحو ذلك.

وبَيَّنَ اللهُ تبارك وتعالى في بقية الآية الذين يحلُّ للمرأة أن تُظهِرَ عليهن زينتَها من المحارم، فأوَّلُ من يحلُّ للمرأة أن تطلعَ زينتَها عليه زوجُها، قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، والبعولة: الأزواج. والزوجُ يحلُّ له أنْ يظهرَ على جميع زينةِ زوجتِهِ من غير استثناء، ثم قال: ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣١] أباح اللهُ تعالى للنساء أن يُظهرن زينتهنَّ على آبائهن، ويشمل الآباءُ على الأبِ المباشر، أو الأجداد مِنْ قِبَلِ الآباء أو الأمهات.

وأباحَ لهن إظهارَ الزينة على آباءِ أزواجهن، وهذا يشمل أيضاً الآباءَ المباشرين وأجداد بعولتهن أيضاً من قِبَل الآباءِ والأمهات.

وأباحَ لهن إظهارَ الزينةِ على أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ، فلا فرقَ في ذلك بين الأبناء المباشرين، أو من هم دونهم من أبناء الأبناء وأبناء البنات وإن نزلوا. وكذلك على الإخوة، سواءٌ كانوا لأبوينِ أو لأب أو لأم، أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن، لا فرق بين أنْ يكونوا بني إخوة لأبوين أو لأب أو أم.

وقوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: نسائهنَّ المسلمات، فإنَّ غير المسلمة إذا اطلعت على زينةِ المرأةِ لم تمتنع عن وصفها لغير مَنْ يحلَّ له أن ينظر إليها، وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: يجوز أن تظهر زينتها على رقيقها مِنَ الرجال والنساء، لما رواه أنس بن مالك أنَّ النبي ﷺ أتى فاطمةَ بعبْدٍ كان قَدْ وَهبَهُ لها، قال وعَلَى فاطمةَ رضي اللهُ عنها ثوبٌ، إذا قَنَّعَتْ به رأْسَها لم يَبْلُغْ رِجْلَيْها، وإنْ غَطَّتْ بِهِ رِجْلَيْها لم يَبْلُغْ رأْسَها، فلما رأى النبي ﷺ ما تَلْقَى، قال: «إنَّه ليس عليكِ بأسٌ، إنما هو أبوكِ وغُلامُكِ» [أبو داود: ٤١٠٦. قال الشيخ شعيبٌ الأرنؤوط في تخريجه لابن كثير: (٦/ ٤٦) رواه أبو داود، وإسناده حسن من أجل سالم بن دينار، وبقية رجاله ثقات، قال الألباني: صحيح، انظر: إرواء الغليل (١٧٩٩)].

وعن أُمِّ سلمة قالت: قالَ رسولُ الله ﷺ : «إذا كان عندَ مُكاتَبِ إحْداكُنَّ ما يؤدي، فلْتَحْتَجِبْ منه» [الترمذي: (١٢٦١)، وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح].

والمكاتب الذي عاقدَ سيِّده على شراءِ نفسِهِ، بما يؤديه لسيِّدِهِ، ودلَّ الحديث على أنَّ غيرَ المكاتبِ، والمكاتبَ الذي ليس لديه ما يؤديه عن نفسه يجوز لسيِّدَتِهِ أنْ تُظْهر زينتها عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ والمراد بالتابعين الذين لا أربة لهم الأتباع المغفلون الذين لا رغبة لهم في النساء، ولا يشتهونهنَّ، وهم الذين يُسَمَّون بالبُلْه، فإنْ كان الواحد يعقل أمرَ النساء، ويتحدَّثُ به، فيجب على المرأةِ أنْ تحتجبَ منه، فعن أُمِّ سَلَمَةَ؛ أَنَّ مُخَنَّثاً كانَ عنْدَها ورسولُ الله ﷺ في البيتِ، فقالَ لأخي أُمِّ سَلَمَةَ: يا عبدالله بْنَ أبي أُمَيَّةَ! إنْ فَتَحَ اللهُ عليكُمُ الطَّائِفَ غداً، فإنِّي أَدُلُّكَ على بِنْتِ غَيلانَ، فإنَّها تُقْبِلُ بأربعٍ وتُدْبِرُ بثمانٍ، قال: فَسَمِعَهُ رسولُ الله ﷺ فقال: «لا يَدْخُلْ هؤلاءِ عَلَيْكُمْ» [مسلم: ٢١٨٠].

وعن عُروةَ، عن عائشةَ. قالت: كان يدخُلُ على أزواجِ النبي ﷺ مُخَنَّثٌ، فكانوا يَعُدُّونَهُ من غيرِ أُولِي الإرْبَةِ، قال فدَخَلَ النبيُّ ﷺ يوماً وهو عندَ بعضِ نسائِه، وهو يَنْعَتُ امرأةً، قالَ:

إذا أقْبَلَتْ أقْبَلَتْ بأربعٍ، وإذا أدْبَرَتْ أدْبَرَتْ بثمانٍ، فقال النبيُّ ﷺ: «ألا أرى هذا يَعْرِفُ ما ههُنا، لا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ» قالت: فَحَجَبُوهُ [مسلم: ٢١٨١].

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني الصغار الذين لا يعرفون أحوال النساء، ولم يلفتْ نظرَهم حسنُهنَّ وجمالُهنَّ، فإنْ كان الطفلُ مراهقاً بحيث يدري ذلك ويعرفه، فلا يدخلُ على النساء.

وقد نَهَى الرسولُ ﷺ عن دخولِ غيرِ المحارمِ على النساءِ، فسألوا عن دخولِ الحَمْوِ فشبَّه دخولَ الحَمْوِ، بدخولِ الموت، روى عقبةُ بنُ عامرٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إيَّاكُمْ والدُّخُولَ على النساءِ» فقالَ رجلٌ من الأنصارِ: أفرأيتَ الحَمْوَ؟ قال: «الحَمْوُ الموتُ» [البخاريُّ: ٥٢٣٢. ومسلم: ٢١٧٢].

٣- لا يجوزُ للمرأة أن تُظهِرَ شيئاً من زينتها أو تُسْمِعَ صوتَ حِلِيِّها:

نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- النساء عن إسماعِ الرجالِ صوتَ زينتِهِنَّ، أو تعَمُّدِ إظهارِ شيء منها، أو تعمدِ وضعِ العِطْرِ والمرورِ على مجالسِ الرجال، ليجدوا طيبَ ريحها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]. وهؤلاء هُنَّ النساء يكون الحُلِيُّ بأرجلِهِنَّ لا يسمعُ له صوتٌ، فتمرُّ بمجالس الرجال، فتضربُ بِرِجْلِها ليسمعوا صوته، ومثله أن تكون زينتها مستورة، فتحرك رِجْلَها ليرى الرجالُ الزينة المستورةَ، أو تضعُ العطرَ، ليجدَ الرجالُ ريح ذلك العطر.

وختم اللهُ تعالى الآيةَ بقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين إنْ هم قَصَّروا وفرطُوا في حقِّه تعالى أن يتداركوا ذلك بالتوبة والاستغفار، فإنَّ التائبَ مِنَ الذنبِ كمن لا ذنبَ له، والتائبُ مِنَ الذنب مفلحٌ فائزٌ.

٤- الأمر بتزويج مَنْ ليس متزوجاً من الرجال والنساء:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- بتزويج مَنْ ليس متزوجاً مِنَ الرجالِ والنساءِ، لا فرقَ في ذلك بين مَنْ سبقَ له الزواجُ، أو لم يسبقْ له زواجٌ، فقالَ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور:٣٢-٣٣].

والأيِّمُ: من لا زوج له، يقال: رجلٌ أيم، أي ليس له امرأة، وامرأة أيم: أي لا زوج لها، لا فرقَ بين مَنْ سبق له الزواج، أو لم يسبق له الزواجُ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ﴾ أي: زوجوا المؤمنين من عبيدكم وإمائكم، والمراد بالصالحين، أي: المؤمنين، والأمر بإنكاح العبيد والإماء يدلُّ على أنَّ العبد أو الأمةَ لا يزوجُ الواحد منهما إلا بإذن سيده.

وقد نادى رسولُنا ﷺ الشبابَ آمراً إيَّاهم بالزواج، فمن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنَّه له وجاء، فعن عبدالرحمن بن يزيد، قالَ: دخلتُ مع علقمةَ والأسودِ على عبدالله فقال عبدالله: كنا مع النبي ﷺ شباباً، لا نَجِدُ شيئاً، فقال لنا رسولُ الله ﷺ: «يا معشَرَ الشباب، مَنِ استطاع الباءةَ فلْيَتَزوَّجْ، فإنَّه أغَضُّ للبَصَرِ، وأحصَنُ للفَرْجِ، ومن لم يستطِعْ فعليه بالصومِ، فإنَّه له وِجاءٌ» [البخاريُّ: ٥٠٦٦. ومسلم: ١٤٠٠].

وعن مَعْقِل بنِ يسارٍ أن رسولَ الله ﷺ قال: «تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ، فإنِّي مُكاثِرٌ بكُمْ الأُمَمَ يومَ القيامةِ» [سنن أبي داود: ٢٠٥٠. وأورده الألباني في صحيح أبي داود، وقال فيه الشيخ شعيب الأرنؤوط: هو حديث قويٌّ، وانظر تمام تخريجه عند ابن حبان (٤٠٥٦)، (٤٠٥٧)]. وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢﴾ [النور:٣٢] وعدَ اللهُ تعالى الفقراءَ المحاويجَ إنْ هم تَزَوَّجوا أن يغنيهم الله مِنْ فضله ويوسعَ عليهم، قال أبو إسحاقَ: «حثَّ الله على النكاح، وأعلم أنه سببٌ لنفيِ الفقر» [تفسير الواحدي: ١٦/ ٢٢٨].

وعن أبي هريرة قال: قالَ رسولُ الله ﷺ : «ثلاثةٌ حَقٌّ عَلَى الله عَوْنُهم: المُجاهِدُ في سبيلِ الله، والمكاتَبُ الذي يُريدُ الأداءَ، والناكحُ الذي يُريدُ العَفافَ» [الترمذيُّ: ١٦٥٥. وقالَ هذا حديثٌ حَسَنٌ، أحمد: (٧٤١٦)].

وقد أباحَ اللهُ -تعالى- لمن لم يستطع أن ينكح حُرَّة أنْ ينكحَ أمَةً مؤمنةً، إذا خاف على نفسِهِ الوقوعَ في الزنا، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ﴾ [النساء:٢٥]، وقال في آخر الآية: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٞ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾ [النساء:٢٥] والصبر عن نكاح الإماء مع العفة خير وأفضل، لأن أبناءَه مِنَ الأمَةِ يصبحون عبيداً لسيدِ الأمَة، والله غفور لكم، رحيم بكم، إذا نكحتم الإماء عند عجزكم عن نكاح الحرائر.

٥- مكاتبةُ الذين يطلبونَ المكاتبةَ من العبيد:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- مَنْ كان له عبيدٌ أو إماء وطلبوا منه المكاتبة أن يكاتبهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ [النور:٣٣].

والمكاتبُ: الذي يريدُ أن يشريَ نفسَهُ مِنْ سيده على ثمن يؤديه على نجوم مقسطة، وقد أمر اللهُ تعالى السادةَ أن يكاتبوهم إنْ هم علموا فيهم خيراً، أي: إنْ كانوا يستطيعون الاعتمادَ على أنفسهم في معاشهم، وكانوا صالحين لأنْ يكونوا أفراداً في المجتمع، وقد أمَرَ اللهُ تعالى السادةَ بأنْ يعينوهم بشيءٍ مِنَ المالِ، كأن يسامحوهم بربعِ المالِ الذي يفرضونه عليهم أو ثلثه.

٦- النهيُ عن إكراه السادةِ إمائهن على الزنا:

نَهى اللهُ -تعالى- السادةَ أن يُكْرِهَ الواحدُ منهم أمتَه على ممارسة الزنا، ليحصل من وراءِ ذلك على المال الذي تحصله من وراء الزنا ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور:٣٣].

وهذه الآية تدلُّ على أن هناك مَنْ كان يكره فتياتِه على الزنا، وهن يكرهن ذلك، ولا يُرِدْن فعله، ليبتغوا عرض الحياة الدنيا، أي: ليطلبوا المال الذي يحصلنه من وراءِ الزنا، والشرط الوارد في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس المراد به الجواز إن لم تكن مستكرهة، بل واقع الحال كان كذلك أنَّهم يستكرهونها، وهي ترفض ذلك، وإلا فلو قبلت بممارسته، فلا يجوز لهم الإذن به.

وقوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ أي: غفور لهن رحيم بهنَّ لكونهن مستكرهاتٍ أما السادةُ المكرهون، فلهم العذابُ إن لم يتوبوا.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل

١- يجبُ على كلٍّ مِنَ المؤمنين والمؤمناتِ أن يغضَّ من بَصَره عما لا يحلُّ له النظر إليه.

٢- لا يحلُّ للمرأة أنْ تبديَ مِنْ زينتها إلاَّ ما أُذِنَ لها بإظهارِهِ، وهو الوجْهُ والكفانِ.

٣- الذين يجوزُ للمرأةِ إظهارُ زينتها عليهم مِنَ المحارمِ الأزواج والآباء وإن عَلَوْا وآباءُ الأزواجِ، أو الأبناءُ وإن نزلُوا أو أبناءُ الأزواجِ أو إخوانهنَّ سواءٌ كانوا لأبوينَ أو لأبٍ أو أُمٍ، وأبناءُ إخوانهنَّ على اختلافهم.

٤- أباحَ اللهُ تعالى للمرأةِ أنْ تظهرَ زينتها على المرأة المسلمةِ، أما غيرُ المسلمةِ فلا يجوزُ، لأنها قد تصفها لغيرِ من يجوز الاطلاع على زينَتها.

٥- يجوز للمرأة أن تظهرَ زينتها على إمائِها وعبيدها، وهم الذين ملكت يمينها، وكذلك التابعين الذينَ لا شهوةَ لهم تجاهَ النساءِ، وكذلك الأطفال الذي لم يبلغوا السنَّ الذي يكون لهم رغبةٌ في النساء.

٦- لا يجوزُ للنساء أنْ يتعمدن إظهارَ شيءٍ مِنْ زينتهنَّ، أو يضربن بأرجلهن ليسمع الرجالُ صوتَ زينتهنَّ.

٧- يجبُ على أولياءِ العبيدِ والإماءِ تزويج مَنْ ليسَ له زوجٌ من العبيدِ والإماء.

٨- على الذينَ لا يجدونَ المالَ الذي يسدُّ حاجتهم للزواج أن يتعففوا حتى يغنيهم اللهُ مِنْ فضله.

٩- على السادةِ الذين يطلبُ منهم عبيدُهم شراءَ أنْفُسِهم أنْ يكاتبوهم إذا كانوا يستطيعون إعالة أنفسهم.

١٠- يحرمُ على مَنْ كان لديه إماء أنْ يكرهنّ على الزنا لينال شيئاً من متاعِ الدنيا، سواء أكُنَّ راضيات أو ساخطات بذلك.

* * *

عند هذا الحد توقف المؤلف عن إكمال التفسير حيث توفاه الله

في آخر يوم جمعة في شهر رمضان ١٤٣٣ هـ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، مؤسسة النداء، أبو ظبي، الإمارات، الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، تحقيق: محمود أحمد قبسية، ومحمد أشرف سيد سليمان الأتاسي.

٢- أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، دار الكتاب العربي.

٣- أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الثانية، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٤- أحكام القرآن، للإمام محمد بن إدريس الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٥- إرواء الغليل، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٦- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الأولى، ١٤٢٦هـ.

٧- إعلام الموقعين عن رب العالمين محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن القيم، تحقيق: أحمد عبدالله أحمد، دار ابن الجوزي، الأولى، رجب ١٤٢٣هـ.

٨- الإكليل في استنباط التأويل، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٣٤٠هـ/ ١٩٨١م.

٩- الأم للشافعي.

١٠- البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، الثانية، ١٩٧٨م.

١١- بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية، يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، السعودية، الدمام، الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٢- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

١٣- البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو عثمان بن سعيد عثمان بن سعيد الداني، نسبةً إلى دانية إحدى مدن الساحل الشرقي لبلاد الأندلس، المتوفى عام ٤٤٤هـ، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٤- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للطباعة، تونس.

١٥- التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دار الفكر.

١٦- التفسير البسيط، لعلي بن أحمد بن محمد الواحدي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامي، الرياض، السعودية، الأولى، ١٤٣٠هـ.

١٧- تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٨- تفسير القرآن العظيم، المعروف بتفسير ابن كثير، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، طبع على نفقة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، الثالثة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

١٩- تفسير القرآن العظيم، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (تفسير ابن كثير)، تحقيق: محمد إبراهيم البنّا، دار القبلة، جدة، الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢٠- التفسير الكبير، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى.

٢١- التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الثانية، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

٢٢- جامع الأصول، لابن الأثير الجزري، مكتبة الحلواني وآخرون، سوريا، الأولى، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٢٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري (تفسير ابن جرير الطبري)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الثانية، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م.

٢٤- جامع الترمذي المعروف بسنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، نشرته بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن.

٢٥- الجامع الصحيح، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (صحيح البخاري)، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٢٦- الجامع الصحيح، لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (صحيح مسلم)، بيت الأفكارا لدولية، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٢٧- الجامع المختصر من السنن، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، (سنن الترمذي)، بيت الأفكار الدولية، الرياض.

٢٨- الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (تفسير القرطبي)، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٢٩- جواهر الأفكار ومعادن الأسرار، لعبدالقادر أحمد بدران، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٣٠- الدر المنثور في التفسير بالمأثور لعبدالرحمن بن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣١- دراسات فقهية في قضايا طبية معاصرة، للمؤلف وآخرين، دار النفائس، عمان، الأردن، الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٩٠٠١م.

٣٢- الرسل والرسالات للمؤلف، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الثانية عشرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٣٣- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج، جمال الدين بن عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الأولى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٣٤- زاد المعاد في هدي خير العباد، لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، دار ابن حزم، بيروت، الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٣٥- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي وآخرون.

٣٦- سنن ابن ماجه، لأبي عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه، طبعة بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن، الأولى.

٣٧- سنن أبي داود للإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن.

٣٨- شرح العقيدة الطحاوية، لمحمد بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي، خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الرابعة: ١٣٩١هـ.

٣٩- صحيح القصص النبوي للمؤلف، دار النفائس، عمان الأردن، السادسة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٤٠- صحيح سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي، الرياض، الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٤١- صحيح سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الأولى: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤٢- صحيح سنن النسائي، لمحمد ناصر الدين الألباني، نشره: مكتب التربية لعربي لدول الخليج، الرياض، الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٤٣- العجاب في بيان الأسباب، لمحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، دار ابن حزم، بيروت، الأولى: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٤٤- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الثانية، ١٤٢٦هـ.

٤٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن حجر العسقلاني، مكتبة دار السلام وآخرون، الرياض، الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٤٦- فتح الجليل للعبد الذليل، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار البشير، عمان، الأردن، الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢٢م.

٤٧- فتح الرحمن في تفسير القرآن، لمجير الدين بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي، وزارة الأوقاف، دولة قطر، الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٤٨- فتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الثانية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٤٩- في ظلال القرآن لسيد قطب دار الشروق، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣.

٥٠- قاموس الكتاب المقدس، صدر عن دار الثقافة، القاهرة، تأليف: نخبة من الأساتذة.

٥١- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٥٢- قطف الأزهار في كشف الأسرار، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٥٣- الكتاب المقدس، أي العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.
٥٤- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة للطباعة، بيروت.
٥٥- الكليات، لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
٥٦- لسان العرب، لابن منظور، ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت.
٥٧- المجتبى من سنن النسائي، المعروف بـ «سنن النسائي» لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، نشره: بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن.
٥٨- مجموعة الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة العبيكان، الرياض، الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٥٩- محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
٦٠- محاضرات إسلامية هادفة، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، عمان، الأردن، الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٦١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبدالحق عبد الحق بن عطية الأندلسي، وزارة الأوقاف، قطر، الثانية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
٦٢- مختصر العلو للعلي الغفار، للحافظ شمس الدين الذهبي، المكتب الإسلامي، بيروت، الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
٦٣- مسند الإمام أحمد.
٦٤- معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، (تفسير البغوي)، دار طيبة، الرياض، الثالثة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
٦٥- معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري، الشهير بالزجاج، عالم الكتب، بيروت، الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٦٦- معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت، الثالثة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٣م.
٦٧- معجم البلدان، لياقوت بن عبدالله الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٦٨- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبدالباقي، دار المعرفة، بيروت، الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
٦٩- المعجم الوسيط، للدكتور إبراهيم أنيس وآخرون، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.
٧٠- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد الشهير بالراغب الأصفهاني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.
٧١- مقدمة جامع التفاسير، لأبي القاسم الراغب الأصفهاني، تحقيق: الدكتور أحمد فرحات، دار الدعوة، الكويت، الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤.
٧٢- المنتقى من أحاديث الأحكام، لمجد الدين عبدالسلام بن عبدالله بن تيمية، المطبعة السلفية.

٧٣- الموطأ، للإمام مالك بن أنس، منشورات دار الآفاق، المغرب، ودار ابن حزم، بيروت، الثالثة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٧٤- النبأ العظيم، لمحمد عبدالله دراز، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٠م.

٧٥- النكت العيون في تفسير الماوردي، لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي، وزارة الأوقاف الكويتية، الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٧٦- وليتبروا ما علوا تتبيرا، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، عمان، الأردن، الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠م.

فهرس